مفتاح دار السعادة

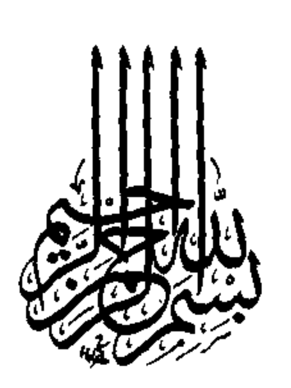
ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة

للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر
المعروف بابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١هـ)

تحقيق وتعليق
عامر بن علي ياسين

الجزء الأول

دار ابن خزيمة



قائمة تفصيلية بالمحتويات

محتويات الجزء الأول

شبهات وقضايا بين العلوم التطبيقية والأحكام الشرعية

مقدّمة المصنّف

الباب الأول
في العلم وفضله وشرفه وبيان عموم الحاجة إليه وتوقف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه

* * * * *

محتويات الجزء الثاني

الباب الثاني
في الفكر وفضله وشرفه ومتعلقه
وذكر صور مما ندب القرآن إلى التفكر فيه

الباب الثالث
في العقل ودلالته على محاسن الشريعة
وبيان حسن الأفعال أو قبحها في ذاتها

*****

محتويات الجزء الثالث

الباب الرابع
في بيان ضلال أهل التنجيم
وإبطال مزاعمهم في تأثير الكواكب في الموجودات الأرضية

الباب الخامس
في الكهانة والزجر والعدوى والطيرة

مقــدِمَة التحقــيق

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعينُهُ، ونَسْتَغْفِرُهُ. ونَعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفسِنا وسيِّئاتِ أعمالِنا. مَن يَهْدِهِ اللهُ؛ فلا مضلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ؛ فلا هاديَ لهُ. وأشْهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشْهَدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ ﷺ.

ثمَّ ٱعْلَمْ أنَّ «مفتاح دار السعادة» كتابَ فذٌّ يَعِزُّ نظيرُهُ، نَفَخَ ٱبنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فيهِ من روحِهِ وٱسْتَفْرَغَ جهدَهُ ثمَّ وَضَعَهُ بينَ يديكَ؛ فلا تُلْقِهِ في رفوفِ الهجرِ يَتَراكَمُ عليهِ غبارُ السِّنينَ! بلِ ٱسْتَأْنِسْ بهِ إذا ٱسْتَأْنَسَ أهلُ الأموالِ بأموالِهِم، وٱسْتَمِدَّ منهُ السَّكينةَ والطُّمأْنينةَ إذا ٱطْمَأَنَّ أهلُ الجاهِ إلى جاهِهِم، وٱلْتَمِسْ منهُ القوَّةَ والعزيمةَ على السَّيرِ قدمًا في طلبِ العلمِ، وٱسْألِ اللهَ أنْ يَحْبُوَكَ بالهمَّةِ والصَّبرِ على إتمامِهِ وتحصيلِ منافعِهِ.

● هٰذا؛ وقدِ ٱعْتَمَدْتُ في تحقيقِ متنِ هٰذهِ الطَّبعةِ التي بينَ يديكَ وتحريرِهِ وخدمتِهِ على أصلينِ:

* **أوَّلُهما الأصلُ الخطِّيُّ [خ].**

١) هوَ صورةٌ عن مخطوطٍ أصليٍّ محفوظٍ في المكتبةِ السُّعوديَّةِ برقم ٤٠٧/ ٨٦، ثمَّ آلَ إلى مكتبةِ الملكِ فهدٍ وأُعْطِيَ فيها الرَّقمَ نفسَهُ، مَنَحَني إيَّاها الأخُ الفاضلُ سعدٌ السعدان فضلاً وتكرُّمًا عن غيرِ معرفةٍ لهُ سابقةٍ بي ولا يدٍ لي عليهِ، فجَزاهُ اللهُ خيرَ الجزاءِ على غيرتِهِ على كتبِ هذا الإمامِ وحرصِهِ على أنْ تَخْرُجَ في أكملِ صورةٍ ممكنةٍ.

٢) عددُ صفحاتِهِ ٤٤٨ صفحةً في جزءٍ واحدٍ، وقياسُ الصَّفحةِ ٢٠,٥×١٥سم تقريبًا، وعددُ أسطرِها ٢٣ سطرًا، ومعدَّلُ الكلماتِ في السَّطرِ الواحدِ ١٣ كلمةً.

٣) الخطُّ نسخيٌّ واضحٌ غالبًا، لٰكنَّ العباراتِ لا تَخْلو مِن تصحيفٍ وتحريفٍ وسقطٍ، والمخطوطُ مقاربٌ في جودتِهِ لمخطوطاتِ الكتابِ الأُخرى كما ثَبَتَ لي عمليًّا؛

فإنّها تَفوقُهُ تارةً في السّلامةِ مِن السَّقَطِ والتَّحريفِ ويَفوقُها تارةً في ذٰلكَ.

٤) تَمَّ نسخُ هٰذا الكتابِ بخطِّ الشَّيخ عَبْدِالرَّحْمٰنِ بن مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِالرَّحْمٰنِ بنِ عَبْدِاللهِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِالوَهَّابِ سنةَ ١٣١٠هـ، جاءَ هٰذا صريحًا في الصَّفحةِ الأخيرةِ مِن المخطوطِ بخطِّ يدِهِ التي نَسَخَ بها أصلَ الكتابِ.

٥) وليسَ في حواشي المخطوطِ ملاحظاتٌ ولا إلحاقاتٌ ولا تدخُّلاتٌ إلاَّ في حالاتٍ نادرةٍ جدًّا تَلْمِسُ منها أمانةَ النَّاسخِ وعدمَ تصرُّفِهِ في الكتابِ بأدنى شيءٍ إلاَّ أشياءَ قليلةً جدًّا أشْكَلَتْ عليهِ مِن أصلِهِ فصَوَّبَها آعتمادًا على مخطوطٍ آخرَ وبَيَّنَ ما فَعَلَهُ.

٦) ولٰكنَّ هٰذا المخطوطَ غيرُ تامٍّ للأسفِ الشَّديدِ، جاءَ ذٰلكَ صريحًا في قولِ النَّاسخِ /خ٤٤٧/: «تَمَّ، يَتْلوهُ في الجزءِ الثَّاني إنْ شاءَ اللهُ تَعالى فصلٌ حاجةُ /خ٤٤٨/ النَّاسِ إلى الشَّريعةِ ضروريَّةٌ فوقَ حاجتِهِم إلى كلِّ شيءٍ...»، والقدرُ الموجودُ مِن المخطوطِ يُغَطِّي مِن أوَّلِ هٰذهِ المطبوعةِ حتَّى (٢/ ٢٧٧)، وهوَ يُعادِلُ ثلثَي الكتابِ حجمًا مِن النَّاحيةِ العمليَّةِ.

*** الأصلُ الثَّاني [ط]: طبعةٌ حديثةٌ لدارِ آبنِ عَفَّانَ في القاهرةِ، بتحقيقِ عَلِيِّ بنِ حَسَنٍ الحَلَبِيِّ الأثَرِيِّ، في ثلاثةِ مجلَّداتٍ، ٥٥٨+٥٥٩+٥٧١ص.**

هٰذهِ الطَّبعةُ هيَ خيرُ طبعاتِ «المفتاح» التي وَقَفْتُ عليها بالنَّظرِ لِما تَمَيَّزَتْ بهِ مِن: حسنِ العنايةِ بضبطِ النَّصِّ. والجهدِ المصروفِ في تخريجِ المرفوعاتِ وبيانِ حكمِها. والتَّتبُّعِ المشكورِ لكثيرٍ مِن الموقوفاتِ والمقطوعاتِ والاقتباساتِ مِن مصادرِها والتَّنبيهِ إلى بعضِ ما فيها مِن العللِ، وهوَ عملٌ يَسْتَغْرِقُ جهدًا ووقتًا. والاعتناءِ بإبرازِ الأُصولِ والقواعدِ الجليلةِ التي نَثَرَها آبنُ القَيِّمِ في الكتابِ والتَّنبيهِ إليها والتَّعقيبِ عليها بفوائدَ عديدةٍ. والفهرسةِ المفصَّلةِ لمادَّةِ الكتابِ التي تُقَرِّبُ البعيدَ وتُسَهِّلُ العسيرَ.

ومعَ ذٰلكَ؛ فلي على هٰذهِ الطَّبعةِ ملاحظاتٌ أُسَجِّلُها فيما يَلي:

١) روجِعَتْ هٰذهِ الطَّبعةُ على نسختينِ خطِّيَّتينِ إحداهُما ـ حسبَما جاءَ في مقدِّمتِها ـ نفيسةٌ، لٰكنْ لَمْ تُثْبَتْ للأسفِ الشَّديدِ فروقُ النُّسَخِ، معَ أنَّها ضروريَّةٌ جدًّا عظيمةُ الفائدةِ نظرًا للخللِ الذي آعْتَرى المتنَ في كثيرٍ مِن المواضعِ.

٢) تَفْتَقِرُ هٰذه الطَّبعةُ إلى العنايةِ الحقيقيّةِ بالعرضِ العلميِّ المنهجيِّ لمادَّةِ الكتابِ، فقد أُفْرِدَ لكلِّ فصلٍ ـ رئيس وفرعيٍّ ما جاءَ منها في مئةِ صفحةٍ وما جاءَ في فقرةٍ واحدةٍ ـ صفحةٌ منفردةٌ وعنوانٌ مستقلٌّ! وهٰذا يُشَتِّتُ القارئَ ولا يُعينُهُ على التَّتبُّعِ المنطقيِّ للفصولِ وإلحاقِ الفروعِ بالأُصولِ ولا يُفيدُهُ في الخروجِ بتصوُّرٍ عامٍّ لمحتوياتِ الكتابِ ورؤوسِ موضوعاتِهِ يَبْقى راسخًا في ذهنِهِ بعدَ ٱنقضاءِ قراءتِهِ للكتابِ.

٣) لمْ تَحْظَ فقراتُ الثُّلثينِ الأخيرينِ للكتابِ ـ ولا سيَّما الفصولِ المعقَّدةِ فيهما ـ بالعنايةِ اللائقةِ مِن حيثُ التَّقسيمُ المنطقيُّ، فرَأَيْتَ بعضَ هٰذهِ الفقراتِ تَنْتَهي قبلَ ٱنتهاءِ الموضوعِ! ورَأَيْتَ الموضوعَ أحيانًا يَنْتَهي قبلَ ٱنتهاءِ الفقرةِ! والغالبُ كثرةُ تقسيمِ الفقراتِ بغيرِ حاجةٍ.

٤) لمْ تَحْظَ قضايا الفلكِ والطِّبِّ والحيوانِ والنَّباتِ بأدنى درجاتِ العنايةِ، معَ أنَّ ٱبنَ القيِّمِ ٱحْتَفَلَ فيها ٱحتفالاً بالغًا وأَفْرَدَ لها قريبًا مِن ثلثِ الكتابِ، فكانَ حريًّا أنْ يُواطِئَ قلمُ المحقِّقِ مقاصدَ المصنِّفِ ويُوصَلَ ماضي هٰذهِ القضايا بحاضرِها.

٥) التَّصحيفُ والتَّحريفُ والسَّقطُ قليلٌ في النِّصفِ الأوَّلِ مِن الكتابِ كثيرٌ في الثَّاني، ولا سيَّما الفصولِ المعقَّدةِ التي لا يَكادُ أكثرُ القرَّاءِ يُحَصِّلُ منها كبيرَ فائدةٍ لو جاءَتْ نظيفةً فكيفَ إذا تَكاثَرَ فيها السَّقطُ والتَّحريفُ والتَّصحيفُ؟!

لٰكنْ معَ ذٰلكَ يَبْقى الفارقُ شاسعًا بينَ هٰذهِ الطَّبعةِ وبينَ طبعاتِ الكتابِ الأُخرى، ولذٰلكَ ٱتَّخَذْتُها أصلاً ثانيًا [ط] وعَوَّلْتُ على متنِها فيما أَشْكَلَ عليَّ مِن تصحيفاتِ وتحريفاتِ الأصلِ الأوَّلِ [خ].

● وأمَّا عن الطَّبعةِ التي بينَ يديكَ؛ فأرْجو أنَّني أَعْذَرْتُ نفسي عندَ ربِّي سبحانَهُ ثمَّ عندَ القارئِ الكريمِ بما بَذَلْتُهُ مِن الجهدِ والوقتِ في إنجازِها على الصُّورةِ التي تَراها.

١) فكانَتْ سلامةُ المتنِ ويسرُهُ محطَّ نظري وموضعَ ٱهتمامي، فالمتنُ غايةُ الكتابِ التي ما وراءَها غايةٌ، وهوَ المقصودُ بالأصالةِ وما سواهُ تَبَعٌ لهُ.

وفي سبيلِ ذٰلكَ ٱتَّخَذْتُ المخطوطَ أصلاً رئيسًا والمطبوعَ أصلاً مساعدًا:

فإنْ جاءَ ما في الأصلِ الرَّئيسِ [خ] صحيحًا راجحًا أو مستويًا في القوَّةِ معَ ما في

الأصلِ المساعدِ [ط]؛ أثْبَتُّ ما في [خ] في المتنِ؛ لأنَّه أوثقُ الأُصولِ وأبعدُها عنِ ٱحتمالِ الخطإِ، وأشَرْتُ إلى ما في [ط] في الحاشيةِ. وكذٰلكَ فَعَلْتُ إنْ جاءَ ما في [ط] صحيحًا راجحًا؛ لأنَّ الوجاهةَ الحقيقيَّةَ للمتنِ، فإنْ جاءَ سليمًا أغْنى القارئَ عن تتبُّعِ الحواشي ووَفَّرَ عليهِ الجهدَ والوقتَ.

وما كانَ مِن زيادةٍ مستفادةٍ مِن الأصلِ المساعدِ [ط] أوْدَعْتُها بينَ حاصرتينِ [] دونَما إشارةٍ، وما كانَ مِن زيادةٍ مستفادةٍ مِن الأصلِ الرَّئيسِ [خ] أو إضافةٍ منِّي رَأيْتُ السِّياقَ يَسْتَلْزِمُها؛ فقد أوْدَعْتُها بينَ حاصرتينِ [] معَ الإشارةِ إلى ذٰلكَ في الحاشيةِ.

وممَّا لمْ ألْتَفِتْ إليه هُنا الاختلافُ في زيادةِ «تعالى» و«ﷺ» و«رضي الله عنه» وما جاءَ مِن بابِ «نفعل تفعل يفعل» ونحوُ ذٰلكَ؛ فقد تَواتَرَتْ هٰذهِ الأنواعُ مِن الخلافِ كثيرًا فأثْبَتُّ ما رَأيْتُهُ أرجحَ وأصوبَ وأعْرَضْتُ عمَّا سوى ذٰلكَ.

وأوْدَعْتُ غالبًا مجموعةً مِن فروقِ النُّسخِ في الحاشيةِ الواحدةِ ٱختصارًا لحجمِ الحواشي ومراعاةً للسَّوادِ الأعظمِ ممَّن لا يَعْتَني بهٰذهِ الفروقِ. فإنْ كانَ في ذٰلكَ نوعُ تعسيرٍ على المتتبِّعِ للفروقِ؛ فلْيَتَحَلَّ بشيءٍ مِن الصَّبرِ، ولْيَرْجِعْ سطرًا فسطرًا بدءًا مِن موضعِ الحاشيةِ حتَّى يَقِفَ على بغيتِهِ، ولنْ يَلْبَثَ أنْ يَعْتادَ على ذٰلك إنْ شاءَ اللهُ.

ورجائي بربِّي عظيمٌ أنَّني قَدَّمْتُ للقارئِ الكريمِ متنًا سليمًا، ووَقَفْتُهُ على ما في المخطوطِ بأمانةٍ، ونَفَعْتُهُ بمطبوعةِ ٱبنِ عَفَّانَ، ولمْ أُرْهِقْهُ بسيلٍ مِن الحواشي يُثْقِلُ كاهلَهُ ويُفْسِدُ متعتَهُ بالكتابِ ويُعَسِّرُ غايتَهُ منهُ.

٢) ثمَّ عُنيتُ بعدَ هٰذا عنايةً بالغةً بعلاماتِ الوقفِ (الفواصلِ والنُّقاطِ...)، وذٰلكَ لِما أراهُ مِن أهمِّيَّةِ هٰذهِ العلاماتِ وضرورةِ تفعيلِها لإعانةِ القارئِ على فهمِ ما بينَ يديهِ. وأُنَبِّهُ القارئَ الكريمَ إلى أنَّني ٱسْتَعْمَلْتُ الفاصلةَ المنقوطةَ قبلَ جوابِ الشَّرطِ تيسيرًا لفهمِ العبارةِ؛ فلْيَكُنْ مِن ذٰلكَ على بيِّنةٍ.

٣) ثمَّ عُنيتُ عنايةً أبلغَ بضبطِ النَّصِّ بعلاماتِ التَّرقيمِ (الفتحاتِ والضَّمَّاتِ...)، ولمْ أقْتَصِرْ في ذٰلكَ على آيةٍ ولا حديثٍ ولا أثرٍ، ولٰكنَّني عَمَّمْتُهُ على جميعِ النَّصِّ. وذٰلكَ لدقَّةِ مقاصدِ الكتابِ وعسرةِ مادَّتِهِ في غيرِما موضعٍ.

٤) ثمَّ إنَّ ٱبنَ القَيِّمِ يَرْحَمُهُ اللهُ تَعالى تَعَهَّدَ في مقدِّمةِ الكتابِ أَنْ يَتَناوَلَ فيهِ أصلينِ كبيرينِ، وهُما العلمُ والإرادةُ. ولٰكنَّهُ لأمرٍ ما لمْ يُفَصِّلِ الكلامَ إلَّا في الأصلِ الأوَّلِ فقط كما سَيَأْتيكَ (١/ ٣٠)، فصارَ الكتابُ كلُّهُ أصلاً واحدًا، وجاءَتْ تفاصيلُ هٰذا الأصلِ متلاحقةً لا فرقَ فيها بينَ بابٍ وفصلٍ رئيسٍ وفرعٍ وفرعٍ فرعٍ، فكلُّها تَأْتيكَ مصدَّرةً بلفظةِ «فصل»! وربَّما ٱنْتَقَلْتَ مِن موضوعٍ إلى آخرَ دونَ فصلٍ ولا إشارةٍ! وفي كثيرٍ مِن الأحيانِ فلنْ تُدْرِكَ إلَّا بعدَ عناءٍ إذا ما كانَ ما بعدَ لفظةِ «فصل» فرعًا عمَّا قبلَهُ تابعًا لهُ أو موضوعًا جديدًا مرتبطًا بهِ أو موضوعًا آخرَ منفصلاً عنهُ.

فأمَّا المطبوعاتُ المختلفةُ؛ فلمْ تُعْنَ بسدِّ هٰذا الخللِ أدنى عنايةٍ، وقصارى ما فَعَلَهُ بعضُهُم أنْ أَفْرَدَ لكلِّ لفظةِ «فصل» صفحةً جديدةً وصَدَّرَهُ بعنوانٍ مناسبٍ أو غيرِ مناسبٍ (!) لمحتواهُ. فجاءَتْ هٰذهِ العناوينُ في كثيرٍ مِن الأحيانِ مكرِّسةً للفصلِ بينَ فروعٍ مترابطةٍ لأصلٍ واحدٍ لا يَنْبَغي الفصلُ بينَها، فزادَتِ المادَّةَ تشتيتًا وعسرةً.

وقد تَتَبَّعْتُ ـ في سبيلِ الخلاصِ مِن هٰذا ـ موضوعاتِ الكتابِ صفحةً صفحةً وسَبَرْتُ مقاصدَ ٱبنِ القَيِّمِ منها سبرًا ميدانيًّا بغضِّ النَّظرِ عن تقسيمِهِ المفترضِ للكتابِ، فتَخَلَّصَ لي أنَّ موضوعاتِ الكتابِ تَنْدَرِجُ تحتَ أُصولٍ ستَّةٍ: مدخلٌ مطوَّلٌ، فكلامٌ في العلمِ وفضلِهِ، فكلامٌ في التَّفكُّرِ وأمثلةٌ عنهُ، فكلامٌ في التَّحسينِ والتَّقبيحِ العقليَّينِ، فكلامٌ في الرَّدِّ على المنجِّمينَ، فكلامٌ في العدوى والطِّيَرَةِ وما إليها.

وبناءً على هٰذهِ النَّتيجةِ العمليَّةِ: قَسَّمْتُ الكتابَ إلى تقديمٍ وأبوابٍ خمسةٍ. ثمَّ قَسَّمْتُ كلَّ بابٍ بحسبِ موضوعاتِهِ مراعيًا فصولَ ٱبنِ القَيِّمِ قدرَ الإمكانِ، ومضيفًا إليها ما تَقْتَضيهِ الحاجةُ، وصَدَّرْتُ كلَّ فصلٍ منها بعنوانٍ مناسبٍ لمحتواهُ، ووَسَمْتُهُ بحرفٍ متميِّزٍ، وأوْدَعْتُهُ في منتصفِ الصَّفحةِ. وما كانَ دونَ ذٰلكَ مِن الفصولِ أوِ الأفكارِ الرَّئيسةِ؛ فقد جَعَلْتُهُ جانبيًّا ووَسَمْتُهُ بإشارةِ ●، وما كانَ دونَ ذٰلكَ وَسَمْتُهُ بإشارةِ ❊، وما كانَ دونَ ذٰلكَ رَقَّمْتُهُ بينَ حاصرتينِ [].

وقد كانَتْ أوَّلَ بركاتِ هٰذهِ الطَّريقةِ العلميَّةِ المنهجيَّةِ في تقسيمِ الكتابِ أنَّها بَيَّنَتْ بما لا شكَّ فيهِ أنَّ «المفتاح» كتابٌ متكاملٌ يَضُمُّ مباحثَ علميَّةً متسلسلةً وما هوَ بالفوائدِ

المرسلةِ المنثورةِ كما ظَنَّهُ حاجي خليفة وبعضُ المعاصرينَ. فللهِ الحمدُ والمنَّةُ.

٥) وكانَ لا بدَّ لي مِن إعادةِ تخريجِ الآياتِ ومراجعتِها على مواضعِها في المصحفِ؛ حرصًا على سلامةِ النَّصِّ القرآنيِّ مِن أيِّ عيبٍ أو خللٍ.

٦) قُمْتُ بدراسةٍ توثيقيَّةٍ جادَّةٍ لجميعِ النُّصوصِ الحديثيَّةِ الواردةِ في الكتابِ على ما هوَ معهودٌ: فما كانَ مِن مخرَّجاتِ الصَّحيحينِ أو أحدِهما؛ فقدِ ٱكْتَفَيْتُ فيهِ بالعزوِ، وحسبُكَ بهما. وما عَدا ذٰلكَ؛ فعُنيتُ بتخريجِهِ ممَّا تَيَسَّرَ لي مِن كتبِ السُّنَّةِ والتَّاريخِ والرِّجالِ، وذَكَرْتُ ما يَلْزَمُ مِن رجالِ سندِهِ، وبَيَّنْتُ حالَهُ، ثمَّ أوْرَدْتُ ما وَقَعَ لي مِن أقوالِ أهلِ العلمِ فيهِ، ولمْ أُخْطِئْ ختمَ التَّخريجِ بحكمِ الشَّيخِ الألْبانِيِّ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ إنْ وَقَفْتُ عليهِ؛ فإنَّ لهُ في هٰذا البابِ فتوحًا لا يُنْكِرُها إلَّا جحودٌ حسودٌ، وختمُ الحديثِ بقولِهِ أحبُّ إلى المنصفينَ مِن طلَّابِ العلمِ وأدعى لاطمئنانِهِم، ثمَّ صَدَّرْتُ هٰذا كلَّهُ بحكميَ الشَّخصيِّ على الحديثِ الذي لا يَخْرُجُ غالبًا عن أقوالِ أئمَّةِ هٰذا الفنِّ. وهٰذا منهجٌ ما زِلْتُ آخُذُ نفسي بِهِ وأدْعو طلَّابَ العلمِ إلى التزامِهِ في حديثِ النَّبيِّ ﷺ؛ فإنَّ ٱكتفاءَ بعضِ المعاصرينَ بالتَّصحيحِ والتَّضعيفِ المجرَّدَينِ عن أقوالِ أئمَّةِ الفنِّ فَتَحَ البابَ على مصراعيهِ لبعضِ الجهلةِ وأصحابِ المقاصدِ الخبيثةِ فراحوا يَخبُّونَ في نصوصِ السُّنَّةِ ويَضَعونَ. واللهُ حسيبُهُم.

٧) وأمَّا الموقوفاتُ والإسرائيليَّاتُ؛ فخَرَّجْتُ منها ما يَشْتَبِهُ بالمرفوعِ نصحًا وتنبيهًا، ولمْ أجْتَهِدْ فيما عدا ذٰلكَ ٱجتهاديَ في المرفوعِ تفاديًا للإطالةِ بغيرِ فائدةٍ.

٨) ثمَّ إنْ كانَ الكلامُ واضحًا سليمًا لا لبسَ فيهِ؛ فالسُّكوتُ مِن ذهبٍ. وإنْ لمْ يَكُنْ كذٰلكَ؛ فلا بدَّ مِن شرحِ آيةٍ أو حديثٍ أو إيضاحٍ لمبهمٍ أو كشفٍ لإشكالٍ أو تعقُّبِ قولٍ أو تحريرِ وجهِ الصَّوابِ في مسألةٍ... وهٰذا أمرٌ أغْفَلَتْهُ المطبوعاتُ الأُخرى ولمْ يَلْتَفِتْ إليهِ بعضُها إلَّا لمامًا!

٩) ولمْ أرَ مِن اللائقِ أنْ أتْرُكَ القارئَ معَ معلوماتٍ فلكيَّةٍ وطبِّيَّةٍ وطبيعيَّةٍ يَزيدُ عمرُها عن سبعِ مئةِ عامٍ: فكانَ لا بدَّ مِن بيانِ الصَّحيحِ المعتمدِ اليومَ ممَّا أوْرَدَهُ ٱبنُ القَيِّمِ مِن هٰذهِ المعلوماتِ، وربَّما ٱحْتاجَ الأمرُ إلى وصلِ الماضي بالحاضرِ وصياغةِ الفكرةِ

بصورةٍ تَتَناسَبُ معَ القارئ المعاصرِ. وكانَ لا بدَّ أيضًا مِن بيانِ المغلوطِ الباطلِ ووجهِ الصَّوابِ المعتمدِ فيهِ. وقدِ ٱسْتَغْرَقَ هٰذا الأمرُ منِّي جهدًا مضنيًا في تقليبِ أُمَّهاتِ المراجعِ الإنكليزيَّةِ المعتمدةِ في الجامعاتِ العريقةِ، وربَّما رَجَعْتُ إلى ترجماتٍ عربيَّةٍ لهٰذهِ الكتبِ، ولمْ أتَجاوَزْ ذٰلكَ إلى المؤلَّفاتِ التِّجاريَّةِ المليئةِ بالأكاذيبِ. وكثيرًا ما أذْكُرُ المصطلحَ الأجنبيَّ رحمةً بمَن لا يَفْهَمُ المصطلحَ العربيَّ ممَّن دَرَسَ في جامعاتٍ لا تُعْنى بتعريبِ العلومِ. وهٰذهِ أُمورٌ أغْفَلَتْها المطبوعاتُ الأُخرى أيَّما إغفالٍ.

١٠) ثمَّ أدْرَجْتُ جميعَ مادَّةِ الكتابِ تقريبًا في جملةٍ مِن الفهارسِ التَّفصيليَّةِ الَّتي تُيَسِّرُ الوصولَ إلى المقصودِ والعودةَ إلى الكتابِ كلَّ حينٍ.

١١) ثمَّ خَتَمْتُ عملي بفصولٍ ثلاثةٍ أوْدَعْتُ فيها زبدةَ تجربتي وخلاصةَ معرفتي بالمؤلِّفِ والكتابِ: ففصلٌ للتَّعريفِ بٱبنِ القَيِّمِ، وآخرُ لدراسةِ «مفتاح دار السَّعادة»، وثالثٌ لشبهاتٍ وقضايا بينَ العلومِ التَّطبيقيَّةِ والأحكامِ الشَّرعيَّةِ.

● ولقد أعْلَمُ أنَّني لستُ مِن أهلِ الكمالِ، وأرْجو أنْ لا أكونَ مِن مدَّعيهِ والمتشبِّعينَ بهِ، لٰكنْ حسبي أنَّني ٱجْتَهَدْتُ في سبيلِ ذٰلكَ ما ٱلَيْتُ: فإنْ قارَبْتُ؛ ففضلٌ مِن اللهِ وحدَهُ. وإنْ كانَتِ الأُخرى؛ فمَن أفْرَغَ في الكتابِ جهدًا دؤوبًا وصبرًا طويلاً وسَعى ما ٱسْتَطاعَ في تيسيرِ عسيرِهِ وتقريبِ بعيدِهِ؛ فقد بَسَطَ عذرَهُ.

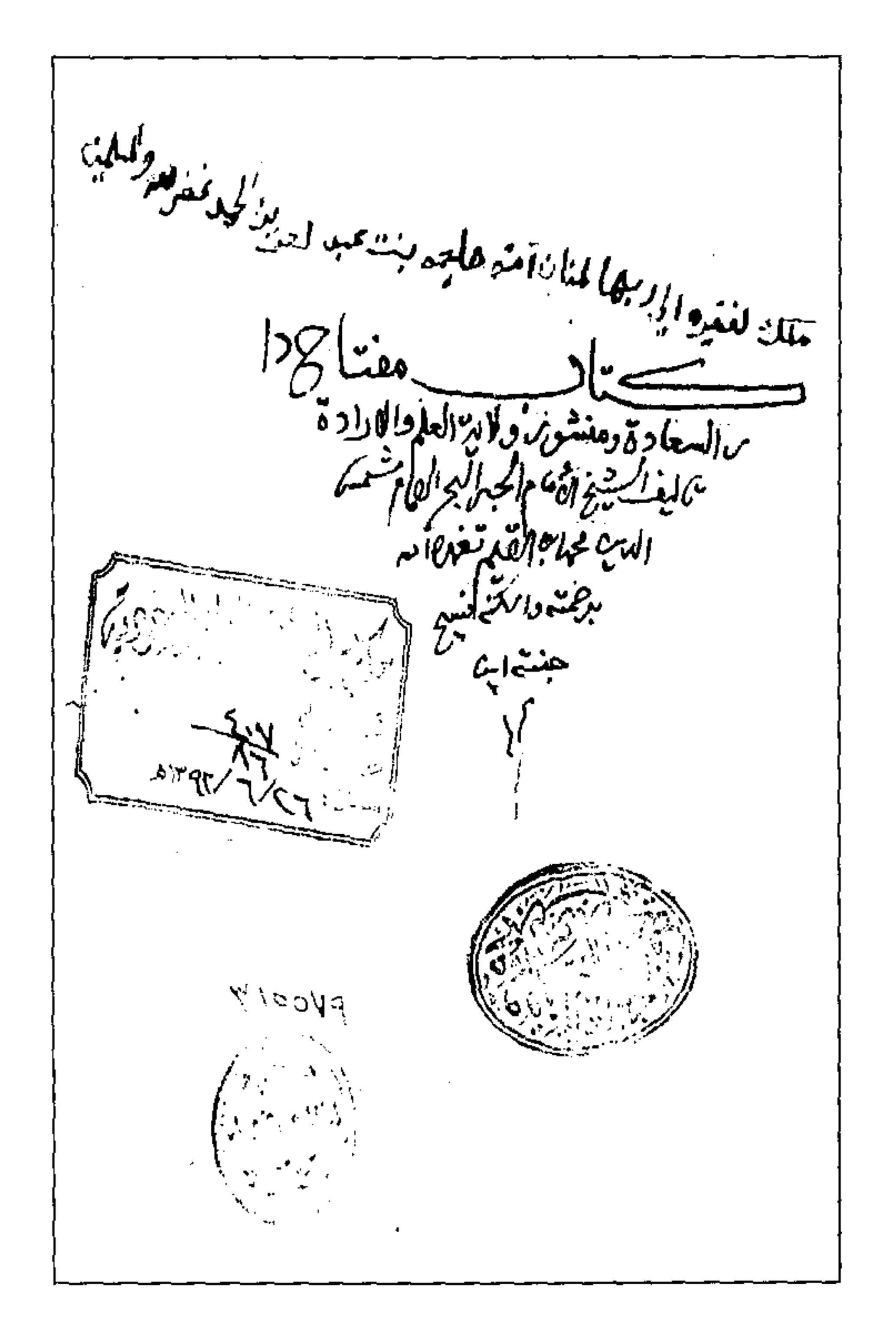
واللهَ وحدَهُ أسألُ، وبأسمائهِ وصفاتِهِ أتَوَسَّلُ، أنْ يَكْتُبَ لجهديَ الدَّؤوبِ وصبريَ الطَّويلِ ثمرةً طيِّبةً يَحِلُّ نفعُها على المؤلِّفِ والمحقِّقِ والقارئ، وأنْ يَتَقَبَّلَ منِّي ويَرْضى عنِّي ويَغْفِرَ ذنبي ويَسْتُرَ عيبي، وأنْ يُلْهِمَني الإخلاصَ في شأْني كلِّهِ ولا يَجْعَلَ لأحدٍ مِن خلقِهِ فيهِ شيئًا؛ إنَّهُ وليُّ ذٰلكَ والقادرُ عليهِ.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتِهِ تَتِمُّ الصالحاتُ، والسَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ.

عامر بن علي ياسين

الخميس ١٣ صفر ١٤٢٦هـ

* * * * *



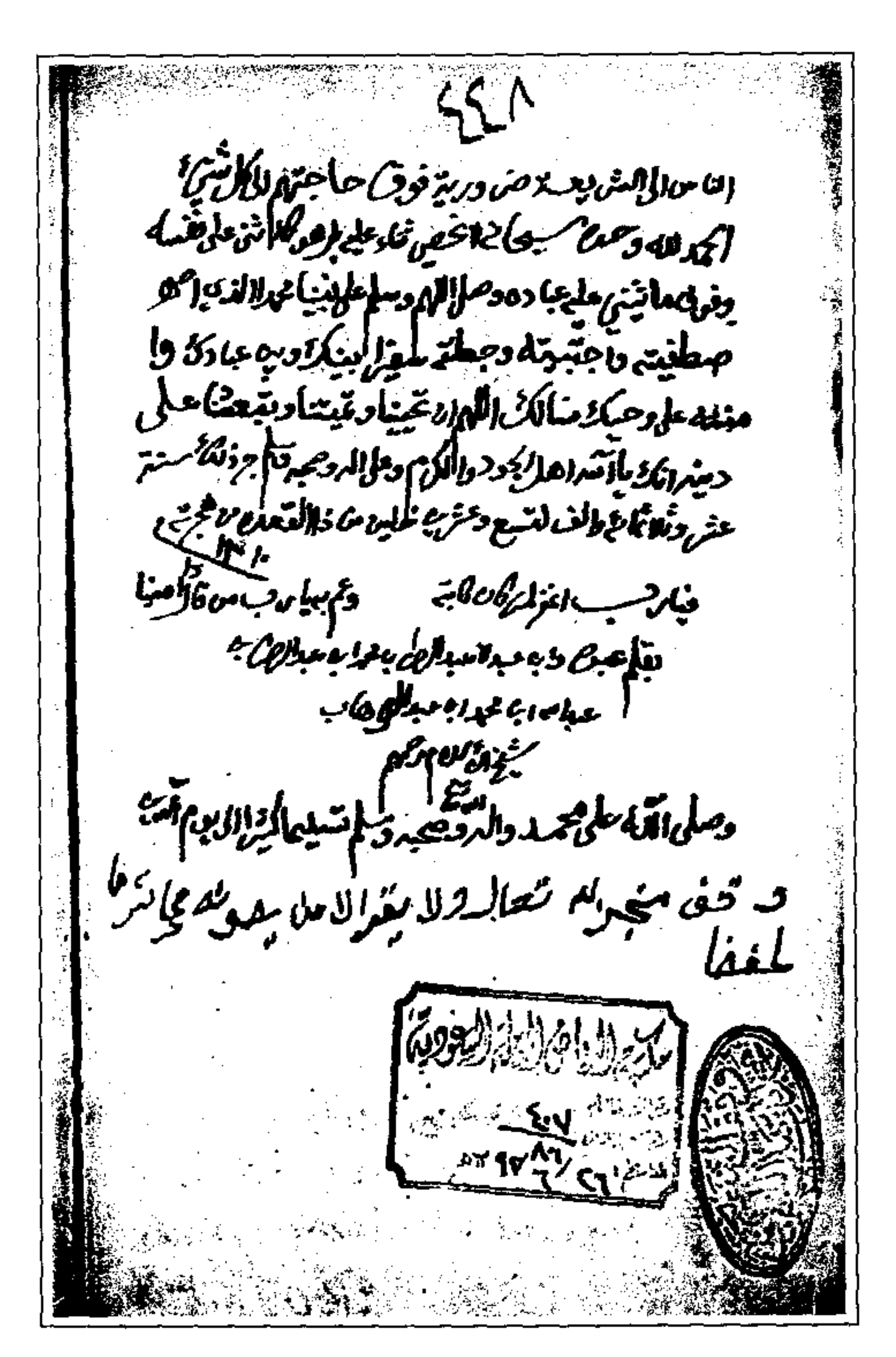
ملك لفقيرة إلى ربها المنان آمنة ... بنت عبد الغني بن الجد غفر الله لها وللمسلمين

كتاب مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة

تأليف الشيخ الإمام الحبر البحر العلام شمس الدين محمد ابن القيم تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته آمين

صفحة العنوان للأصل الخطّيّ [خ]

الصفحة الأولى للأصل الخطّي [خ]



٤٤٨

[illegible] فوق حاجتهم [illegible]

الحمد لله وحده سبحانه لا نحصي ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه

وفوق ما يثني عليه عباده وصل اللهم وسلم على نبينا محمد الذي ا

صطفيته واجتبيته وجعلته سفيرا بينك وبين عبادك وا

[illegible] على وحيك [illegible] اللهم [illegible] على

دينك [illegible] أهل الجود والكرم وعلى آله وصحبه [illegible] سنة

عشر وثلاثمائة وألف لتسع وعشرين خلين من ذي القعدة من هجرة [illegible]

١٣١٠

فيارب اغفر لمن كان كاتبه [illegible] يارب من قال آمينا

بقلم [illegible] بن عبد [illegible] بن محمد بن عبد [illegible]

[illegible] بن محمد بن عبد الوهاب

[illegible]

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم [illegible]

وقف [illegible] لله تعالى لا [illegible]

[illegible]

الصفحة الأخيرة للأصل الخطّيّ [خ]

ابن قيم الجوزية حياته وآثاره[(١)]

● **أوّلاً: اسمُهُ ونسبُهُ وشهرتُهُ:**

هوَ الإمامُ العالمُ الرَّبَّاني، وشيخُ الإسلامِ الثَّاني، ذو الذِّهنِ الوقَّادِ، والقلمِ السَّيَّالِ، والبيانِ المشرقِ، والمؤلَّفاتِ الفذَّةِ، شمسُ الدِّينِ، أبو عبدِاللهِ، محمَّدُ بنُ أبي بكرِ بنِ أيُّوبَ بنِ سعدِ بنِ حَريزٍ، الزُّرَعِيُّ، الدِّمَشْقِيُّ، المعروفُ بابنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ.

وأصلُ شهرتِهِ بابنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ أنَّ أباهُ كانَ قيِّمًا (يَعْني: ناظرًا ووصيًّا) للمدرسةِ الجَوْزِيَّةِ في دمشقَ، والمدرسةُ الجَوْزِيَّةُ هيَ أعظمُ مدارسِ الحنابلةِ في دمشقَ، وهيَ منسوبةٌ إلى واقفِها محيي الدِّينِ أبي المحاسنِ يوسفَ بنِ أبي الفرجِ عبدِالرحمٰنِ بنِ عليٍّ بنِ الجَوْزِيِّ، المتوفَّى سنةَ ٦٥٦هـ، وهوَ ابنُ الحافظِ المشهورِ بابنِ الجَوْزِيِّ.

● **ثانيًا: مولدُهُ ونشأتُهُ:**

وُلِدَ ابنُ القيِّمِ في السَّابعِ مِن صفر سنةَ ٦٩١هـ، في زُرَعَ، مِن قُرى حَوْرانَ، تَبْعُدُ قريبًا مِن خمسينَ ميلاً عنْ دمشقَ الشَّامِ، عاصمةِ العلمِ في ذاكَ العصرِ.

ثمَّ نَشَأَ رَحِمَهُ اللهُ وتَرَبَّى في بيتِ علمٍ ودينٍ وفضلٍ: فأبوهُ هوَ الشَّيخُ الصَّالحُ العالمُ المبرِّزُ في علمِ الفرائضِ المتوفَّى سنةَ ٧٢٣هـ. وأخوه زينُ الدِّينِ، أبو الفرجِ، عبدُالرَّحمٰنِ، شارَكَ أخاهُ ابنَ القَيِّمِ في أكثرِ مراحلِ حياتِهِ العلميَّةِ، وتَتَلْمَذَ لهُ الحافظُ ابنُ رجبٍ، وتُوُفِّيَ سنةَ ٧٦٩هـ. وابنُ أخيهِ هوَ أبو الفداءِ، عمادُ الدِّينِ بنُ زينِ الدِّينِ، كانَ مِن أفاضلِ أهلِ العلمِ، وقدِ اقْتَنَى أكثرَ مكتبةِ عمِّهِ، وتُوُفِّيَ سنةَ ٧٩٩هـ. وكانَ ابنُهُ شرفُ الدِّينِ عبدُاللهِ (٧٢٣-٧٥٦هـ) مفرطَ الذَّكاءِ، حَفِظَ سورةَ الأعرافِ في يومينِ، وأمَّ

---

(١) جلّ ما جاء هنا معدّل من مقدّمة المحقّق لـ«فوائد ابن القيّم» (ط. ابن خزيمة). وقبل ذٰلك، فكثير منه مستفاد من «ابن القيّم حياته وآثاره» لبكر أبو زيد، فلا أطيل بالتنبيه على هٰذا في الحواشي.

بالقرآنِ وهوَ في التَّاسعةِ مِن عمرِهِ تقريبًا. وكانَ ابنُهُ برهانُ الدِّينِ إبراهيمُ (٧١٦-٧٦٧هـ) فقيهًا نحويًّا، أخَذَ مِن والدِهِ، ودَرَّسَ بالمدرسةِ الصَّدْرِيَّةِ.

● **ثالثًا: طلبُهُ للعلمِ وتحصيلُهُ:**

تَحَوَّلَ ابنُ القَيِّمِ معَ أُسرتِهِ إلى دمشقَ منذُ نعومةِ أظفارِهِ، وكانَتْ دِمَشْقُ آنذاكَ مركزًا علميًّا مضيئًا، لا يُدانيها في ذٰلكَ مكانٌ آخرُ، فأقْبَلَ على طلبِ العلمِ وتحصيلِهِ، حتَّى لا يَكادُ يوجَدُ واحدٌ مِن علومِ الشَّريعةِ وعلومِ الآلةِ إلاَّ ولهُ فيها يدٌ ومشاركةٌ.

يَقولُ الحافظُ ابنُ رجبٍ: «تَفَقَّهَ في المذهبِ وبَرَعَ وأفْتى، ولازَمَ الشَّيخَ تَقِيَّ الدِّينِ بنَ تَيْمِيَّةَ، وتَفَنَّنَ في علومِ الإسلامِ، وكانَ عارفًا بالتَّفسيرِ لا يُجارى فيهِ، وبأُصولِ الدِّينِ وإليهِ فيها المنتهى، وبالحديثِ ومعانيهِ وفقهِهِ ودقائقِ الاستنباطِ منهُ لا يُلْحَقُ في ذٰلكَ، وبالفقهِ وأُصولِهِ، وبالعربيَّةِ لهُ فيها اليدُ الطُّولى، وبكلامِ أهلِ التَّصوُّفِ وإشاراتِهِم».

وقد أغْنَتْ وفرةُ الكبارِ الأعلامِ في دمشقَ، ورحيلُ أهلِ العلمِ إليها، في ذٰلكَ العصرِ، أغنتِ ابنَ القَيِّمِ عن كثيرٍ مِن الرِّحلةِ في طلبِ العلمِ، فلمْ تُعْرَفْ لهُ إلاَّ رحلاتٌ يسيرةٌ في ذٰلكَ إلى مصرَ والحجازِ.

وممَّا سَطَّرَهُ أهلُ العلمِ لابنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ ممَّا يَتَّصِلُ بحياتِهِ العلميَّةِ شغفُهُ العظيمُ باقتناءِ الكتبِ وولعُهُ في تحصيلِها، حتَّى قالَ تلميذُهُ الحافظُ ابنُ كَثيرٍ: «واقْتَنى مِن الكتبِ ما لا يَتَهَيَّأُ لغيرِهِ تحصيلُ عشرِ معشارِهِ مِن كتبِ السَّلفِ والخلفِ».

● **رابعًا: شيوخُهُ:**

تَتَلْمَذَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ على أبيهِ، فأخَذَ عنهُ علمَ الفرائضِ.

وأخَذَ العربيَّةَ عن أبي الفتحِ البَعْلَبَكِّيِّ، فقَرَأَ عليهِ «الملخَّص» لأبي البقاءِ، ثمَّ «الجرجانيَّة»، ثمَّ «ألفيَّة ابن مالك»، وأكثرَ «الكافية الشَّافية»، وبعضَ «التَّسهيل»، وقَرَأَ على المجدِ التُّونُسِيِّ قطعةً مِن «المقرَّب» لابن عصفورٍ. . . وغيرُ ذٰلكَ كثيرٌ.

وأخَذَ الأُصولَ والفقهَ عن: شيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ، وأخيهِ شرفِ الدِّينِ بنِ تَيْمِيَّةَ، وابنِ مُفْلِحٍ المَقْدِسِيِّ الحَنْبَلِيِّ، والمَجْدِ الحَرَّانِيِّ إسماعيلَ بنِ محمَّدٍ، وصَفِيِّ الدِّينِ الهِنْدِيِّ. فقَرَأَ «الرَّوضة» لابنِ قُدامةَ المَقْدِسِيِّ، و«الإحكام» للآمِدِيِّ، و«المحصول» للرَّازِيِّ، و«المحرَّر» للمَجْدِ بنِ تَيْمِيَّةَ. . . وكثيرًا غيرَ ذٰلكَ.

وأَخَذَ الحديثَ عنِ: الشِّهابِ النَّابُلُسِيِّ، وشرفِ الدِّينِ عيسى المُطْعِمِ، وصدرِ الدِّينِ إسماعيلَ بنِ مَكْتومٍ، والقاضي تَقِيِّ الدِّينِ سليمانَ بنِ حمزةَ، والكَحَّالِ، وابنِ الشِّيرازِيِّ، وأبي بكرِ بنِ عبدِالدَّائمِ، وفاطمةَ بنتِ جَوْهَرٍ المسنِدةِ المحدِّثةِ...

ومِن أشياخِهِ أيضًا: إمامُ المحدِّثينَ أبو الحجَّاجِ المِزِّيُّ، والقاضي بدرُ الدِّينِ بنُ جَمَاعَةَ الكِنانِيُّ، والقاضي كمالُ الدِّينِ الزَّمْلَكانِيُّ... وغيرُهُم كثيرٌ.

● خامسًا: صلتُهُ بشيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ:

تَوَثَّقَتْ صلةُ ابنُ القَيِّمِ بشيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ بدءًا مِن سنةِ ٧١٢هـ بصورةٍ بالغةٍ تَجاوَزَتْ علاقةَ التِّلميذِ بالشَّيخِ، فأثْمَرَتْ ملازمةً تامَّةً بلِ انقطاعًا مِن التِّلميذِ للأخذِ عن شيخِهِ حتَّى وفاتِهِ سنةَ ٧٢٨هـ. فرَأَيْتَهُ يَنْهَلُ مِن فيضِ علمِهِ الواسعِ، ويَتَضَلَّعُ مِن فكرِهِ السَّديدِ، حتَّى خُصَّ بهِ مِن بينِ تلامذتِهِ، وارْتَبَطَ اسمُهُ باسمِهِ، وسيرتُهُ بسيرتِهِ، وغَلَبَتْ عليهِ محبَّتُهُ والتَّأَثُّرُ بهِ وبأقوالِهِ وآرائِهِ واجتهاداتِهِ، فكانَ يَأْخُذُ بالكثيرِ الطَّيِّبِ منها، ويَنْتَصِرُ لها، ويَتَوَسَّعُ في إيرادِ الأدلَّةِ على صحَّتِها وضعفِ ما يُخالِفُها. فكانَ بحقٍّ ناشرَ علمِهِ ومهذِّبَ كتبِهِ والمترسِّمَ لخطاهُ.

وقد لَقِيَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ كثيرًا مِن الشَّدائدِ والمحنِ جرَّاءَ صلتِهِ العميقةِ بشيخِهِ. ولمَّا دَخَلَ شيخُ الإسلامِ السِّجنَ في قلعةِ دِمَشْقَ آخرَ مرَّةٍ؛ دَخَلَ معَهُ ابنُ القَيِّمِ، وحُبِسَ منفردًا عنهُ، ولمْ يُفْرَجْ عنهُ إلَّا بعدَ وفاةِ شيخِهِ رَضِيَ اللهُ عنهُما.

ولعلَّ أهمَّ ما اسْتَفادَهُ ابنُ القَيِّمِ مِن شيخِهِ ابنِ تَيْمِيَّةَ: دعوتُهُ إلى الأخذِ بكتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِهِ ﷺ، والاعتصامِ بهما، وفهمِهِما على طريقةِ السَّلفِ الصَّالحِ، وطرحِ ما يُخالِفُهُما، وتجديدِ ما دَرَسَ مِن معالمِ الدِّينِ، وتنقيتِهِ ممَّا خالَطَهُ إبَّانَ قرونِ الانحطاطِ والتَّقليدِ الأعمى مِن مناهجَ منحرفةٍ، وتحذيرُ المسلمينَ ممَّا تَسَرَّبَ إلى عقيدتِهِم وعبادتِهِم وسلوكِهِم مِن منطقِ اليونانِ ودياناتِ الهندِ.

● سادسًا: مذهبُهُ:

لمْ يَكُنِ ابنُ القَيِّمِ في يومٍ مِن الأيَّامِ مِن أُولئكَ الذينَ أشقاهُمُ التَّعصُّبُ وأصمَّهُم وأعمى أبصارَهُم عن نورِ الوحيَيْنِ الكتابِ والسُّنَّةِ، حتَّى بَلَغَ بهِمُ الهوسُ إلى المهاتراتِ

والتَّراشقِ بما يُعَدُّ سُبَّةً وعارًا في تاريخِ المسلمينَ. ولا كانَ في حظيرةِ المتهوِّرينَ الذينَ أَزْرَوا بالأئمَّةِ الأربعةِ وأصحابِهِم، كمتطرِّفي الظَّاهريَّةِ ومَن نَحا نحوَهُم، فَرَدُّوا بدعةَ التَّقليدِ ببدعةِ الإزراءِ بالسَّلفِ واقترافِ إثمِهِ وجرمِهِ. وإنَّما أخذ رَحِمَهُ اللهُ تعالى بالسَّبيلِ القاصدِ والطَّريقِ الوسطِ، وهوَ بعبارةٍ مختصرةٍ: **مناشدةُ الدَّليلِ معَ احترامِ الأئمَّةِ**. وقد ظَهَرَ الأثرُ الطَّيِّبُ لهٰذا المسلكِ المعتدلِ في تفقُّهِ هٰذا الإمامِ في المذهبِ الحَنْبَلِيِّ ودراستِهِ أُصولَهُ وتحريرِهِ فروعَهُ وتدريسِها والتَّصنيفِ فيها، معَ احترامِ سائرِ الأئمَّةِ احترامًا عظيمًا والاستئناسِ بأقوالِهِم وإيرادِها والأخذِ بالكثيرِ الطَّيِّبِ منها، فإذا ما اقْتَضى الدَّليلُ خلافَ ذٰلكَ كلِّهِ؛ فلنْ تَراهُ متردِّدًا في اتِّباعِ الحجَّةِ وإيثارِ الكتابِ والسُّنَّةِ.

قالَ يَرْحَمُهُ اللهُ في «المدارج» (٢/ ٢٠٣): «وأمَّا الرِّضى بنبيِّهِ رسولاً؛ فيَتَضَمَّنُ كمالَ الانقيادِ لهُ والتَّسليمَ المطلقَ إليهِ بحيثُ يكونُ أولى بهِ مِن نفسِهِ، فلا يَتَلَقَّى الهدى إلاَّ مِن مواقعِ كلماتِهِ، ولا يُحاكِمُ إلاَّ إليهِ، ولا يُحَكِّمُ عليهِ غيرَهُ... فإنْ عَجَزَ عنهُ؛ كانَ تحكيمُهُ غيرَهُ مِن بابِ غذاءِ المضطرِّ إذا لم يَجِدْ ما يُقيتُهُ إلاَّ مِن الميتةِ والدَّمِ، وأحسنُ أحوالِهِ أنْ يَكونَ من بابِ التُّرابِ الذي إنَّما يُتَيَمَّمُ بهِ عندَ العجزِ عنِ استعمالِ الماءِ» اهـ.

وقالَ في «أعلام الموقِّعين» (٤/ ١٧٧): «وكثيرًا ما تَرِدُ المسألةُ نَعْتَقِدُ فيها خلافَ المذهبِ، فلا يَسَعُنا أنْ نُفْتِيَ بخلافِ ما نَعْتَقِدُهُ، فنَحْكي المذهبَ الرَّاجحَ، ونُرَجِّحُهُ، ونَقولُ: هٰذا هوَ الصَّوابُ، وهوَ أولى أنْ يُؤْخَذَ بهِ. وباللهِ التَّوفيقُ».

وما كانَ لابنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ أنْ يَتْرُكَ تقليدَ المذهبِ لِيُقَلِّدَ شيخَهُ ابنَ تَيْمِيَّةَ! نعمْ؛ قدْ حَلَّتْ عليهِ بركاتُ شيخِهِ، فتابَعَهُ في كثيرٍ مِن اجتهاداتِهِ، ولٰكنَّ ذٰلكَ إنَّما كانَ بتأْثيرِ الاتِّفاقِ بينَهُما في أُصولِ الفكرِ ومنهجيَّةِ البحثِ والتَّجرُّدِ عنِ التَّعصُّبِ عندَ الاستدلالِ لمسألةٍ مِن المسائلِ، وهوَ أمرٌ طبيعيٌّ جدًّا، فالكتابُ واحدٌ، والسُّنَّةُ واحدةٌ، والمنهجُ الحرُّ المنطلقُ في رحابِ الشَّريعةِ الغرَّاءِ واحدٌ؛ فلا غَرْوَ إذنْ أنْ تَتَّفِقَ النَّتائجُ، وهٰذا معروفٌ مشهودٌ منذُ فجرِ الشَّريعةِ وحتَّى يومِنا هٰذا.

ومعَ ذٰلكَ؛ فقدْ وَقَفْتُ خلالَ مطالعاتي في كتبِ ابنِ القَيِّمِ على جملةٍ من مخالفاتِهِ لشيخِهِ وهوَ أحقُّ بهٰذا وأهلُهُ.

● سابعًا: منهجُهُ العلميُّ:

تَرَسَّمَ ابنُ القَيِّم خطا شيخِهِ في تقريرِ قاعدةٍ كلِّيَّةٍ تُعَدُّ ميزانًا صادقًا يوزَنُ بِهِ ما حَدَثَ وسَيَحْدُثُ مِن نظريَّاتٍ ومعتقداتٍ وقضايا، وقوامُ هٰذِهِ القاعدةِ: **الإقبالُ على نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ دراسةً وتحليلاً وفهمًا على طريقةِ السَّلفِ الصَّالحِ، وتحكيمُ هٰذِهِ النُّصوصِ في مختلفِ مناحي الحياةِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، وعرضُ أقوالِ الخلقِ كافَّةً عليها وليسَ العكسُ. ثمَّ الأصلُ حملُ هٰذه النُّصوصِ على ظواهرِها، ولا يَنْبَغي أَنْ تُصْرَفَ عن ذٰلكَ إلَّا لقرينةٍ تَقْتَضيهِ. ثمَّ آياتُ الكتابِ والأحاديثُ الصَّحيحةُ نصوصٌ تفيدُ العلمَ اليقينيَّ. ويُعْمَلُ بخبرِ الواحدِ الصَّحيحِ في العقيدةِ والعباداتِ وصالحِ الأعمالِ. ثمَّ العقلُ السَّليمُ لا يُعارِضُ النَّصَّ الصَّحيحَ بوجهٍ مِن الوجوهِ، ولا يَكونُ إلَّا موافقًا لهُ، فإذا ما تَعارَضَ العقلُ والنَّصُّ؛ فالآفةُ مِن العقلِ، وهو تابعٌ محكومٌ بالنَّصِّ وليسَ العكسُ.**

● ثامنًا: أخلاقُهُ وعبادتُهُ وزهدُهُ وتواضعُهُ:

النَّاظرُ في مؤلَّفاتِ ابنِ القَيِّم سَيَخْلُصُ بلا تردُّدٍ إلى أَنَّهُ عالمٌ ربَّانيٌّ فريدٌ، قلَّما يَأْتي الدَّهرُ بأمثالِهِ، ليسَ في سَعَةِ علمِهِ وتبحُّرِهِ فحسبُ، ولٰكنْ في تقواهُ، وورعِهِ، وزهدِهِ، ويقينِهِ، وتوكُّلِهِ، وإنابتِهِ، وصدقِ افتقارِهِ إلى اللهِ وانكسارِهِ بينَ يديهِ، وعظيمِ رضاهُ منهُ... وغيرِ ذٰلك ممَّا يَضَعُهُ في أعلى درجاتِ العلماءِ العاملينَ على طريقِ الأسلافِ الصالحين. وقد شَهِدَ بذٰلكَ كلُّ مَن رَآهُ وتَرْجَمَ لهُ:

يَقولُ تلميذُهُ الحافظُ ابنُ رَجَبٍ: «وكانَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالى ذا عبادةٍ، وتهجُّدٍ، وطولِ صلاةٍ إلى الغايةِ القُصوى، وتألُّهٍ، ولَهَجٍ بالذِّكرِ، وشغفٍ بالمحبَّةِ، والإنابةِ، والاستغفارِ، والافتقارِ إلى اللهِ، والانكسارِ لهُ، والانطراحِ بينَ يديهِ على عتبةِ عبوديَّتِهِ، لمْ أُشاهِدْ مثلَهُ في ذٰلكَ...».

ويَقولُ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ: «وكانَ إذا صَلَّى الصُّبحَ؛ جَلَسَ مكانَهُ يَذْكُرُ اللهَ حتَّى يَتَعالى النَّهارُ، ويَقولُ: هٰذِهِ غُدوتي؛ لو لمْ أَقْعُدْها؛ سَقَطَتْ قُوايَ. وكانَ يَقولُ: بالصَّبرِ والفقرِ تُنالُ الإمامةُ بالدِّينِ. وكانَ يَقولُ: لا بدَّ للسَّالكِ مِن همَّةٍ تُسَيِّرُهُ وتُرَقِّيه وعلمٍ يُبَصِّرُهُ ويَهْديه».

هٰذا كلُّهُ معَ ضميمةِ تواضعٍ عظيمٍ، ورؤيةٍ للتَّقصيرِ، واحتقارٍ للعملِ، وهضمٍ للنَّفسِ، واعترافٍ بالنَّقصِ... بصورةٍ يَقِلُّ نظيرُها على مرِّ الدُّهورِ وتَقَلُّبِ العصورِ.

● **تاسعًا: تلاميذُهُ:**

تَصَدَّى هٰذا الإمامُ الرَّبَّانيُّ للتَّدريسِ ونشرِ العلمِ في حياةِ شيخِهِ، فأقْبَلَ عليهِ خلقٌ لا يُحْصَوْنَ كثرةً مِن طلابِ العلمِ مِن كلِّ حدبٍ وصوبٍ، وانْتَفَعوا بعلومِهِ، وتَتَلْمَذوا لهُ... حتَّى تَخَرَّجَ على يديهِ أئمَّةٌ فضلاءُ ومحقِّقونَ علماءُ؛ منهُم: شمسُ الدِّينِ أبو عبدِاللهِ محمَّدُ بنُ عبدِالهادي بنِ قُدامةَ المَقْدِسيُّ، ت ٧٤٤هـ. وعمادُ الدِّينِ أبو الفداءِ إسماعيلُ بنُ عمرَ بنِ كثيرٍ المفسِّرُ المشهورُ، ت ٧٧٤هـ. وزينُ الدِّينِ أبو الفرجِ عبدُالرحمٰنِ بنُ أحمدَ الملقَّبُ بابنِ رَجَبٍ الحَنْبَلِيِّ، ت ٧٩٥هـ... وخلقٌ كثيرٌ، وحسبُكَ بهٰؤلاءِ علمًا وفضلاً ومكانةً وخدمةً للدِّينِ.

● **عاشرًا: ثناء العلماء عليه:**

كانَتْ أوصافُ ابنِ القَيِّمِ العظيمةُ وأخلاقُهُ الكريمةُ محلَّ اتِّفاقٍ مِن الذينَ ذَكَروهُ أو تَرْجَموا لهُ، فلا تَجِدُ في ترجمتِهِ إلاَّ عَطِرَ الثَّناءِ وعظيمَ التَّبجيلِ والتَّقديرِ:

قالَ الحافظُ الذَّهبيُّ: «عُنِيَ بالحديثِ ومتونِهِ وبعضِ رجالِهِ، وكانَ يَشْتَغِلُ في الفقهِ ويُجيدُ تقريرَهُ، وبالنَّحوِ ويَدْرِيهِ، وفي الأصلينِ، وتَصَدَّرَ للاشتغالِ ونشرِ العلمِ».

وقالَ الحافظُ ابنُ كَثيرٍ: «بَرَعَ في علومٍ متعدِّدةٍ، لا سيَّما علمِ التَّفسيرِ والحديثِ والأصلينِ، ولمَّا عادَ ابنُ تَيْمِيَّةَ مِن مصرَ سنةَ ٧١٢هـ؛ لازَمَهُ إلى أنْ ماتَ، فأخَذَ عنهُ علمًا جمًّا، معَ ما سَلَفَ لهُ مِن الاشتغالِ، فصارَ فريدًا في بابِهِ في فنونٍ كثيرةٍ، معَ كثرةِ الطَّلبِ ليلاً ونهارًا، وكثرةِ الابتهالِ، وكانَ حسنَ القراءةِ والخُلُقِ، كثيرَ التَّودُّدِ، لا يَحْسُدُ أحدًا ولا يُؤْذيهِ، ولا يَحْقِدُ على أحدٍ، ولا أعْرِفُ في هٰذا العالمِ في زمانِنا أكثرَ عبادةً منهُ».

وقالَ الحافظُ ابنُ رَجَبٍ بعد كلامٍ مطوَّلٍ في سعةِ علمِ الشيخِ وعبادتِهِ وزهدِهِ: «ولا رَأَيْتُ أوسعَ منه علمًا، ولا أعرفَ بمعاني القرآنِ والسُّنَّةِ وحقائقِ الإيمانِ، وليسَ هوَ بالمعصومِ، ولٰكنْ لمْ أرَ في معناهُ مثلَهُ».

وقالَ ابنُ ناصرِ الدِّينِ الدِّمَشْقِيُّ بعدَ ثناءٍ طويلٍ على الشَّيخِ: «قالَ أبو بكرٍ محمَّدُ

بنُ المُحبِّ فيما وُجِدَ بخطِّهِ: قُلْتُ أمامَ شيخِنا المِزِّيِّ: ابنُ القَيِّمِ في درجةِ ابنِ خُزَيْمَةَ؟ فقالَ: هوَ في هٰذا الزَّمانِ كابنِ خُزَيْمَةَ في زمانِهِ».

وقالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ العَسْقَلانِيُّ: «كانَ جريءَ الجَنانِ، واسعَ العلمِ، عارفًا بالخلافِ ومذاهبِ السَّلفِ».

وقالَ الشَّوكانيُّ: «كان متقيِّدًا بالأدلَّةِ الصَّحيحةِ، معجبًا بالعملِ بها، غيرَ معوِّلٍ على الرأْيِ، صادعًا بالحقِّ، لا يُحابي فيه أحدًا». وقالَ: «بَرَعَ في شتَّى العلومِ، وفاقَ الأقرانَ، واشْتُهِرَ في الآفاقِ، وتَبَحَّرَ في معرفةِ مذاهبِ السَّلفِ».

● **حادي عشر: مؤلَّفاتُهُ:**

ابنُ القَيِّمِ واحدٌ مِن المؤلِّفينَ المحرِّرينَ والمصنِّفينَ المكثرينَ، ذَكَرَ لهُ أهلُ العلمِ قريبًا مِن مئةِ كتابٍ، طُبِعَتْ منها جملةٌ كبيرةٌ، وما زالَ بعضُها مخطوطًا أو في حكمِ المفقوداتِ. وقد حَرَّرَ هٰذهِ المصنَّفاتِ ودَقَّقَها، فلمْ تكُنِ الكثرةُ عندَهُ على حسابِ الدِّقَّةِ كما هوَ الحالُ عندَ كثيرٍ مِن المتوسِّعينَ في التَّصنيفِ. ولستُ هُنا في معرضِ التَّطويلِ والاستقصاءِ في ذكرِ مصنَّفاتِ الشَّيخِ، وإنَّما أكْتَفي بالإشارةِ إلى أهمِّ ما طُبِعَ مِن كتبِهِ:

فلهُ في القرآنِ وعلومِهِ: «التِّبيان في أقسام القرآن»، وليسَ لهُ مصنَّفٌ مفردٌ في التَّفسيرِ، وإنْ كانَ لهُ في هٰذا العلمِ القدحُ المُعَلَّى؛ فقدْ جُمِعَ ما نَثَرَهُ في كتبِهِ مِن الكلامِ عن معاني آيِ الكتابِ الكريمِ فجاءَ في مجلَّدٍ ضخمٍ، معَ أنَّ الجامعَ لمْ يَسْتَوْعِبْ كلَّ ما كَتَبَهُ الشَّيخُ في التَّفسيرِ، بلْ فاتَهُ مِن ذٰلكَ الشَّيءُ الكثيرُ.

ولهُ في الحديثِ وعلومِهِ: «تهذيب مختصر سنن أبي داوود»، و«المنار المنيف في الصَّحيح والضَّعيف».

ولهُ في السِّيرةِ والهَدْيِ النَّبويِّ: «زاد المعاد في هَدْيِ خير العباد».

ولهُ في الفقهِ وأُصولِهِ: «أحكام أهل الذِّمَّة»، و«أحكام المولود»، و«أعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين»، و«إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان»، و«حكم تارك الصلاة»، و«الفروسيّة»، و«الطرق الحكميّة في السِّياسة الشَّرعيّة».

ولهُ في العقيدةِ: «اجتماع الجيوش الإسلاميّة على غزو المعطِّلة والجهميّة»، و«شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتَّعليل»، و«الصَّواعق المرسلة على

الجهميّة والمعطِّلة»، و«هداية الحيارى من اليهود والنَّصارى»، و«حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، و«الرُّوح»، و«الكافية الشَّافية في الانتصار للفرقة النَّاجية».

ولهُ في الأخلاقِ والرَّقائقِ: «جلاء الأفهام في الصَّلاة والسَّلام على خير الأنام»، و«الجواب الكافي لمَن سَأَلَ عنِ الدَّواء الشَّافي»، و«الرِّسالة التَّبوكيَّة»، و«روضة المحبِّين ونزهة المشتاقين»، و«عدَّة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين»، و«الوابل الصَّيِّب من الكلم الطَّيِّب»، و«مدارج السَّالكين»، و«إغاثة اللهفان من مكائد الشَّيطان».

ولهُ في فنونِ العلمِ الأُخرى: «أسماء مؤلَّفات ابن تيميَّة»، و«الفوائد»، و«بدائع الفوائد»، و«طريق الهجرتين وباب السَّعادتين»، و«مفتاح دار السَّعادة». . .

● **ثاني عشر: وفاتُهُ:**

معَ أذانِ عشاءِ ليلةِ الخميسِ الثَّالثَ عشرَ من رجبٍ سنةَ ٧٥١هـ فاضَتْ تلكَ الرُّوحُ النَّديَّةُ الطَّاهرةُ إلى رَوْحٍ ورَيْحانٍ وربٍّ عنها راضٍ إنْ شاءَ اللهُ، بعدَ حياةٍ امْتَدَّتْ ستِّينَ حولاً، كانَ معظمُها حافلاً بالجهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى، بكتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِهِ ﷺ، في مواجهةِ بحرٍ لُجِّيٍّ مِن ظلماتِ الجهلِ والعصبيَّةِ والبدعِ والضَّلالاتِ التي خَيَّمَتْ على مدى قرونٍ طويلةٍ، فجاهَدَ حتَّى أضاءَ معالمَ الشَّريعةِ الغرَّاءِ للنَّاسِ، وجَدَّدَ دارسَها، وبَدَّدَ دياجيرَ الظُّلماتِ عنها، وأحْيا ما أُميتَ مِن سننِها، ونَفَخَ الحياةَ في نيرانِ أهلِها. وما زالَتْ آثارُهُ ـ بحمدِ اللهِ ومنِّهِ وفضلِهِ ـ منارةً شامخةً وملجأً آمنًا يَرْفَأُ إليه طالبُ العلمِ المعاصرِ بأمانٍ إذا ما هَبَّتْ أعاصيرُ البدعِ والفتنِ والضَّلالاتِ التي كَثُرَتْ في أيَّامِنا هذهِ.

● **ثالثَ عشرَ: مصادرُ ترجمتِهِ:**

«ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤٧) لابن رجب، «البداية والنِّهاية» (٩/ ٤٩١) لابنِ كَثيرٍ، «الدُّرر الكامنة» (٤/ ٢١) للعَسْقَلانيِّ، «الوافي بالوفيات» (٢/ ٢٧٠) للصَّفديِّ، «شذرات الذهب» (٦/ ١٦٨) لابنِ العمادِ، «الرَّدُّ الوافر» (ص٦٨) لابنِ ناصرِ الدِّينِ، «بغية الوعاة» (١/ ٦٢) للسُّيوطيِّ، «النُّجوم الزَّاهرة» (١٠/ ٢٤٩) لابن تغري بردي، «البدر الطَّالع» (٢/ ١٤٣) للشَّوكانيِّ، «الأعلام» (٦/ ٥٦) للزِّرِكْلِي، «ابن قيِّم الجوزيَّة حياته وآثاره» لبكر عبدالله أبو زيد.

* * * * *

مفتاح دار السعادة دراسة وتقويما

● **أوّلاً: «مفتاح دار السّعادة» واحدٌ مِن مصنَّفاتِ ٱبنِ القيِّم:**

١) لو أغْمَضْتَ عينيكَ عمدًا أو سهوًا عن صفحةِ الغلافِ في «مفتاح دار السعادة»، وٱنْطَلَقْتَ مباشرةً إلى مقدِّمةِ المصنِّفِ، ورُحْتَ تُقَلِّبُ صفحاتِ الكتابِ على مهلٍ؛ فلنْ يَطولَ بكَ المقامُ قبلَ أنْ تَشْعُرَ أنَّكَ أمامَ مصنَّفٍ مِن مصنَّفاتِ ٱبنِ القَيِّمِ يَرْحَمُهُ اللهُ، ومعَ كلِّ صفحةٍ جديدةٍ سَيَتَنامى حدسُكَ الأوَّليُّ هٰذا حتَّى يُصْبِحَ علمًا يقينيًّا: إنَّه معجمُ ٱبنِ القَيِّمِ وألفاظُهُ وعباراتُهُ، إنَّها طريقتُهُ الخاصَّةُ في العرضِ والاستدلالِ وإدارةِ الحوارِ، إنَّهُ توسُّعُهُ المعهودُ وإفاضتُهُ في القضايا وٱستفراغُ وسعِهِ فيها، إنَّها دعوتُهُ المتكرِّرةُ إلى معرفةِ اللهِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ ومحبَّتِهِ وتحقيقِ عبوديَّتِهِ وحملتُهُ التي لا هوادةَ فيها على أهلِ الأهواءِ والبدعِ... ولن تَبْحَثَ عن سمةٍ مِن سماتِ أُسلوبِ ٱبنِ القَيِّمِ إلاَّ وسَتَأْتيكَ شواهدُها تترى.

٢) ويَتَكَرَّرُ في غيرِ موضعٍ مِن الكتابِ ذكرُ شيخِ الإسلامِ ٱبنِ تَيْمِيَّةَ يَرْحَمُهُ اللهُ: فتَقْرَأُ تارةً (١/ ٣٨٢): «وقالَ لي شيخُ الإسلامِ»، وتارةً (٢/ ١٤٢): «وسُئِلَ شيخُنا أبو العَبَّاسِ»، وتارةً (٢/ ١٦١): «وسَمِعْتُ شيخَنا أبا العَبَّاسِ بنَ تَيْمِيَّةَ».

٣) وأخصُّ مِن ذٰلكَ أنَّ ٱبنَ القَيِّمِ تَناوَلَ هاهُنا جملةً مِن المسائلِ أوْرَدَها بعينِها في كتبِهِ الأُخرى، فربَّما وَجَدْتَ زيادةً هُنا ونقصًا هناكَ وٱختلافًا في بعضِ الأحيانِ، ولٰكنَّكَ لن تَتَرَدَّدَ أبدًا في أنَّ هٰذهِ المفرداتِ نتاجُ فكرٍ واحدٍ وفيضُ قلمٍ واحدٍ. ٱنْظُرْ مثلاً (١/ ٤٥٠)، وقارِنْ أيضًا ما جاءَ هُنا (١/ ١٥٠) بما جاءَ في «المدارج» (٣/ ٥٥).

٤) وذَكَرَ هُنا أبياتًا مِن نظمِهِ ذَكَرَها بعينِها في مصنَّفاتٍ لهُ أُخرى. قارِنْ (١/ ٩٢ و٤٠٧) بما في «المدارج» (٢/ ٥٨٧).

فهٰذه بعضُ دلالاتِ المنهجِ التَّحليليِّ الدَّاخليِّ على صحَّةِ نسبةِ «مفتاح دار السَّعادة» لابنِ القَيِّم قَدَّسَ اللهُ روحَهُ. وهاهُنا دلالاتٌ أُخرى خارجيَّةٌ تَزيدُ ما تَقَدَّمَ قوَّةً:

٥) فمِن ذٰلكَ أنَّ صفحاتِ العنوانِ في جميعِ مخطوطاتِ الكتابِ أجْمَعَتْ على نسبتِهِ إلى ٱبنِ القَيِّم دونَ أدنى تردُّدٍ.

٦) ونَسَبَهُ إليهِ أكثرُ المؤرِّخينَ والمؤلِّفينَ في المصنَّفاتِ: كٱبنِ رجبٍ الحَنْبَلِيِّ في «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٥٠)، والعَسْقَلانِيِّ في «الدُّرر الكامنة» (٤/ ٢٢)، والسُّيوطِيِّ في «بغية الوعاة» (١/ ٦٣)، وٱبنِ العِمَادِ في «شذرات الذَّهب» (٦/ ١٧٠)، والشَّوْكانِيِّ في «البدر الطَّالع» (٢/ ١٤٤)، وحَاجِي خَليفَةَ في «كشف الظُّنون» (٢/ ١٧٦١)، والبَغْدادِيِّ في «هديَّة العارفين» (٢/ ١٥٩)، وطاش كِبْري زادَهْ في «مفتاح السَّعادة» (علم النُّجوم).

٧) وٱنْتَفَعَ بهٰذا الكتابِ جماعةٌ مِن كبارِ أهلِ العلمِ ونَقَلوا منهُ ونَسَبوهُ إلى صاحبِهِ، فمِن هٰؤلاءِ: العَسْقَلانِيُّ في «فتح الباري» (١١/ ٢٩٦)، والسُّيوطِيُّ في «شرح سنن النَّسائي» (٣/ ١٤١)، والزَّبِيدِيُّ في «شرح إحياء علوم الدِّين» (١/ ١٨٧).

ولقد عَلِمْتُ أنَّ نسبةَ «مفتاح دار السَّعادة» لابنِ القَيِّمِ لمْ تَكُنْ يومًا موضعَ خلافٍ، وإنَّما ذَكَرْتُ ما ذَكَرْتُ ٱستكمالاً لعناصرِ البحثِ ومتابعةً لأهلِ العلمِ الذين دَأبوا على التَّوثيقِ والتَّثبُّتِ في كلِّ حديثٍ أو خبرٍ أو كتابٍ؛ حفظًا لهٰذا الدِّينِ وحرصًا على التَّنقيةِ والتَّهذيبِ وٱطِّراحِ كلِّ فكرٍ مبتورٍ وعشبٍ غريبٍ.

● **ثانيًا: عنوانُ الكتابِ؛ حقيقتُهُ ومعناهُ:**

* ٱخْتَصَرَ أكثرُ مَن ذَكَرَ هٰذا الكتابَ مِن أهلِ العلمِ ٱسمَهُ فجَعَلَهُ «مفتاح دار السَّعادة» فحسبُ. وأمَّا مخطوطاتُ الكتابِ؛ فأكثرُها على تسميتِهِ بـ «مفتاح دار السَّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة». وجاءَ في بعضِها مرَّةً «مفتاح دار السَّعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة». وأحرى بهٰذا الأخيرِ أنْ يَكونَ عنوانًا معتمدًا للكتابِ:

١) لأنَّه يُطابِقُ الاسمَ الذي ذَكَرَهُ المصنِّفُ في مقدِّمةِ كتابِهِ (١/ ١٧٠) حرفيًّا.

٢) لأنَّه أولى بقاعدةِ زيادةِ الثِّقةِ ومَن حَفِظَ حجَّةٌ على مَن لمْ يَحْفَظْ.

٣) لأنَّ المشهورَ مِن صنيعِ أهلِ العلمِ قديمًا وحديثًا ٱختصارُ الأسماءِ عندَ العزوِ لا الزِّيادةُ فيها، فبانَ أنَّ المختصرَ فرعٌ عنِ التَّامِّ وليسَ العكسُ.

٤) وٱعتمادُ التَّامِّ يُغْني عن تقديرِ لفظةِ «أهل»؛ لأنَّ الولايةَ لا تكونُ لمعاني العلمِ والإرادةِ بل للذَّواتِ الحاملةِ لتلكَ المعاني.

* فإنْ سَلَّمْتَ معي بالعنوانِ المختارِ للكتابِ؛ فتعالَ أُعَرِّفْكَ على معنى هٰذا العنوانِ المختارِ ومرادِ المصنِّفِ منهُ:

١) فأمَّا دارُ السَّعادةِ؛ فالجنَّةُ بلا ريبٍ.

٢) وأمَّا مفتاحُ هٰذهِ الدَّارِ؛ فبيَّنَهُ الشَّيخُ (١/ ١٦٩) في قولِهِ: «فالإرادةُ بابُ الوصولِ إليهِ [يَعْني: الصِّراطَ المستقيمَ] والعلمُ مفتاحُ ذٰلكَ البابِ المتوقِّفِ فتحُهُ عليهِ». فالعلمُ إذًا هوَ مفتاحُ دارِ السَّعادةِ.

٣) وأمَّا منشورُ الولايةِ؛ فهوَ أمرُ الخليفةِ بتعيينِ فلانٍ مِن النَّاسِ والِيًا، وهٰذا يُقابِلُ اليومَ كتابَ التَّكليفِ السَّامي أو قرارَ التَّعيينِ... والمرادُ بهِ هُنا قضاءُ اللهِ تَعالى بأنَّ مَن تَحَلَّى بالصِّفةِ الفلانيَّةِ هوَ وليٌّ مِن أوليائِهِ.

٤) وأمَّا العلمُ؛ فالمرادُ به هُنا العلمُ باللهِ وكتابِهِ ورسولِهِ ودينِهِ، وإنْ كانَ فضلُ العلمِ عمومًا ليسَ محلَّ خلافٍ.

٥) وأمَّا الإرادةُ؛ فلا بدَّ مِن شيءٍ مِن التَّدقيقِ في مقصدِ ٱبنِ القَيِّمِ يَرْحَمُهُ اللهُ فيها: فقد رَأَيْناهُ في (١/ ١٥٨) يَقولُ: «وذٰلكَ أنَّ العبدَ لهُ قوَّتانِ: قوَّةُ الإدراكِ والنَّظرِ وما يَتْبَعُهُما مِن العلمِ والمعرفةِ والكلامِ، وقوَّةُ الإرادةِ والحبِّ وما يَتْبَعُهُما مِن النِّيَّةِ والعزمِ والعملِ». وفي(١/ ١٧٠) يَقولُ: «ولمَّا كانَ العلمُ إمامَ الإرادةِ ومقدَّمًا عليها ومفصِّلاً لها ومرشدًا لها؛ قَدَّمْنا الكلامَ عليهِ على الكلامِ على المحبَّةِ». وفي (١/ ٣١٥) يُشيرُ إلى «الغفلةِ المضادَّةِ للعلمِ والكسلِ المضادِّ للإرادةِ». وفي (١/ ٣١٧) يَقولُ: «وأمَّا الكسلُ؛ فيَتَوَلَّدُ منهُ الإضاعةُ والتَّفريطُ والحرمانُ وأشدُّ النَّدامةِ، وهوَ منافٍ للإرادةِ والعزيمةِ التي هيَ ثمرةُ العلمِ». وفي (٢/ ٤٩٨) يَقولُ: «وسَنَذْكُرُ إنْ شاءَ اللهُ عن قريبٍ معنى تعلُّقِ الإرادةِ بهِ تَعالى وكونِهِ مرادًا والعبدِ مريدًا لهُ؛ فإنَّ هٰذا ممَّا أشْكَلَ... وخَفِيَ

عليهِمُ الفرقُ بينَ الإرادةِ الغائيَّةِ والإرادةِ الفاعليَّةِ».

فهٰذهِ النُّصوصُ تُفيدُ أنَّ الإرادةَ: مرادفةٌ للمحبَّةِ والنِّيَّةِ والعزمِ والعملِ، منافيةٌ للإضاعةِ والتَّفريطِ والكسلِ، إمامُها وقائدُها العلمُ، وغايتُها الرَّبُّ سبحانَهُ وتَعالى. فالإرادةُ عندَ ٱبنِ القَيِّمِ إذًا: محبَّةٌ بعدَ علمٍ أثْمَرَتْ عزمًا هَجَمَ بالقلبِ على السَّيرِ إلى اللهِ تَعالى لا يَعْرِفُ كللاً ولا يَسْتَوْعِرُ طريقًا.

* وعلى هٰذا؛ فعنوانُ الكتابِ يَدُلُّ على أنَّ ٱبنَ القَيِّمِ سَيُعَرِّفُنا مِن خلالِهِ بأنَّ العلمَ هوَ مفتاحُ الجنَّةِ الذي لا يُدْخَلُ إليها إلاَّ بهِ وأنَّ أولياءَ اللهِ حقًّا وصدقًا هُم أهلُ العلمِ باللهِ تَعالى وحبِّهِ والعزمِ على السَّيرِ إليهِ.

● **ثالثًا: غايةُ ٱبنِ القَيِّمِ مِن تصنيفِ «مفتاح دار السَّعادة»:**

قالَ ٱبنُ القَيِّمِ (١/ ١٦٩): «ولمَّا كانَ كمالُ الإرادةِ بحسبِ كمالِ مرادِها، وشرفُ العلمِ تابعٌ لشرفِ معلومِهِ؛ كانتْ نهايةُ سعادةِ العبدِ التي لا سعادةَ لهُ بدونِها ولا حياةَ لهُ إلاَّ بها أنْ تكونَ إرادتُهُ متعلِّقةً بالمرادِ الذي لا يَبْلى ولا يَفوت، وعزماتُ همَّتِهِ مسافرةً إلى حضرةِ الحيِّ الذي لا يَموت، ولا سبيلَ لهُ إلى هٰذا المطلبِ الأسنى والحظِّ الأوفى إلاَّ بالعلمِ الموروثِ عن عبدِهِ ورسولِهِ وخليلِهِ وحبيبِهِ... فحقٌّ على مَن كانَ في سعادةِ نفسِهِ ساعيا، وكانَ قلبُهُ حيًّا عنِ اللهِ واعيا: أنْ يَجْعَلَ على هٰذينِ الأصلينِ مدارَ أقوالِهِ وأعمالِهِ، وأنْ يُصَيِّرَهُما آخيتَهُ التي إليها مفزعُهُ في حياتِهِ ومآلِه. فلا جَرَمَ كانَ وضعُ هٰذا الكتابِ مؤسَّسًا على هاتينِ القاعدتينِ ومقصودُهُ التَّعريفَ بشرفِ هٰذينِ الأصلينِ».

فهٰذا واضحٌ في أنَّهُ يَرْحَمُهُ اللهُ وَضَعَ كتابَهُ للتَّعريفِ بشرفِ العلمِ والإرادةِ وأنَّهما الأصلانِ اللذانِ يَنْبَغي للعبدِ أنْ يَجْعَلَ عليهِما مدارَ أقوالِهِ وأعمالِهِ.

● **رابعًا: معَ ٱبنِ القَيِّمِ على صفحاتِ «مفتاح دار السَّعادة»:**

ٱبْتَدَأَ ٱبنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ «مفتاح دار السَّعادة» بخطبةٍ مختصرةٍ. ثمَّ دَلَفَ منها سريعًا إلى الحِكمِ الإلٰهيَّةِ التي ٱقْتَضَتْ إهباطَ آدمَ ﷺ إلى الأرضِ فأطالَ في ذكرِها وذكرِ أسرارِها. ثمَّ ٱنْتَقَلَ إلى حقيقةِ الجنَّةِ التي أُهْبِطَ منها آدمُ ﷺ هل هيَ جنَّةُ الخلدِ التي يَدْخُلُها المتَّقونَ أو جنَّةٌ أُخرى أرضيَّةٌ أو سماويَّةٌ، وأطالَ البحثَ والتَّقصِّيَ في ذٰلكَ

إطالةً بالغةً، وذَكَرَ ٱختلافَ أهلِ العلمِ ومذاهبَ المفسِّرينَ وحججَهُم وإيراداتِهِم، وٱنْتَهى تقريبًا إلى التَّوقُّفِ في المسألةِ. ثمَّ ٱنْتَقَلَ إلى عهدِهِ سبحانَهُ وتَعالى لآدَمَ ﷺ وبنيهِ عندَ إهباطِهِ إلى الأرضِ، فعَرَضَ لهُ مِن خلالِ شرحِهِ لقولِهِ تَعالى ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ١٣٨، طه: ١٢٣]، فتَوَسَّعَ في تفاصيلِ الآيتينِ وأفاضَ في شرحِهِما بطولِهِما، وعَرَضَ في سياقِ القولِ إلى مذاهبِ أهلِ العلمِ في دخولِ مسلمي الجنِّ الجنَّةَ ونَصَرَ قولَ مَن حَكَمَ بدخولِهِمُ الجنَّةَ بالأدلَّةِ. ثمَّ دَلَفَ إلى غايتِهِ مِن تصنيفِ «مفتاح دار السَّعادة» وأنَّهُ بناهُ على أصلينِ هُما العلمُ والإرادةُ، وخَتَمَ بذٰلكَ مقدِّمةَ الكتابِ.

وٱنْتَقَلَ بعدَ المقدِّمةِ مباشرةً إلى التَّفصيلِ في العلمِ وفضلِهِ وشرفِهِ وحاجةِ الخلقِ إليهِ وتوقُّفِ كمالِ العبدِ ونجاتِهِ عليهِ، فٱفْتَتَحَهُ بقولِهِ تَعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ والمَلائِكَةُ وأُولو العِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وذَكَرَ دلالتَها مِن عشرةِ أوجهٍ على فضلِ العلمِ وأهلِهِ، ثمَّ أَتْبَعَها بأدلَّةٍ أُخرى على فضلِ العلمِ وأهلِهِ فأفاضَ حتَّى عَدَّ مئةً وٱثنينِ وخمسينَ وجهًا أَوْرَدَ فيها جملةً ضخمةً مِن الآياتِ والأحاديثِ والآثارِ والأخبارِ والحججِ العقليَّةِ في مدحِ أهلِ العلمِ وذمِّ أهلِ الجهلِ. وعَرَضَ مِن خلالِها إلى جملةٍ مِن القضايا منها: ٱستلزامُ العلمِ الهدايةَ ومذاهبُ النَّاسِ في ذٰلكَ وأثرُ الموانعِ في إضعافِ العلمِ في (وجه ٨١)، وفضلُ السَّمعِ والبصرِ وٱختلافُ النَّاسِ في الأفضلِ منهُما في (وجه ٨٣)، وشرحُ وصيَّةِ عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ لكُمَيْلِ بنِ زيادٍ وتفضيلُ العلمِ على المالِ في (وجه ١٢٩)، وفرضُ العينِ وفرضُ الكفايةِ في العلومِ في (وجه ١٣٢)، وطرقُ حديثِ «يَحْمِلُ هٰذا العلمَ مِن كلِّ خَلَفٍ عدولُهُ» في (وجه ١٣٦).

ثمَّ تَحَوَّلَ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ إلى الكلامِ في التَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ وفضلِهِما وشرفِهِما ومتعلَّقِهِما ودعوةِ القرآنِ الكريمِ إليهِما، وراحَ يُفَصِّلُ فيما دَعا اللهُ سبحانَهُ إلى التَّفكُّرِ فيهِ في كتابِهِ مِن لطائفِ الحكمةِ وبدائعِ الصَّنعةِ: فٱبْتَدَأَ بأطوارِ النَّشأةِ الأُولى، فتكوينِ العظامِ، فالرَّأْسِ والحواسِّ، فخلقِ اليدينِ، فهندسةِ العظامِ والأربطةِ، فخزائنِ الرَّأْسِ، فالقلبِ والدِّماغِ والأعضاءِ الباطنةِ، فهضمِ الطَّعامِ، فخلقِ السَّماواتِ والأرضِ والشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ، فرؤيةِ العينِ وبصيرةِ القلبِ، ثمَّ عادَ إلى خلقِ الأرضِ والسُّهولِ

والجبالِ والرِّياحِ والسَّحابِ والمطرِ وتنوُّعِ النَّباتِ وتقلُّبِ الليلِ والنَّهارِ وخلقِ البحارِ وتنوُّعِ ما فيها مِن الحيوانِ، ثمَّ أشارَ إلى أنَّ التَّفكُّرَ في عجائبِ القدرةِ مِن أجلِّ مقاصدِ القرآنِ وأنَّ نظامَ العالمِ أعظمُ دليلٍ على قدرةِ الخالقِ وحكمتِهِ، ثمَّ عادَ إلى خلقِ السَّماءِ، فتعاقبِ الفصولِ، فمنازلِ الشَّمسِ والقمرِ وحركتِهما، فمقاديرِ الليلِ والنَّهارِ، فأنوارِ القمرِ والنُّجومِ، فٱختلافِ سيرِ الكواكبِ، فالفرقِ بينَ «الآية» و «الآيات» في السِّياقِ القرآنيِّ، فالفرقِ بينَ التَّذكُّرِ والتَّفكُّرِ، فمكابرةِ مَن جَحَدَ الصَّانعَ، ثمَّ عادَ إلى خلقِ السَّماءِ، فتدرُّجِ الحرِّ والبردِ، فخلقِ النَّارِ وتخصيصِ البشرِ بها، فمنافعِ الهواءِ والرِّياحِ، فسكونِ الأرضِ وٱستقرارِها وتوسُّطِها بينَ الليونةِ واليبوسةِ، فمنافعِ الجبالِ، فتقديرِ الحكيمِ العليمِ للأُمورِ بحسبِ حاجةِ الخلقِ إليها، فنزولِ المطرِ، فحياةِ أغصانِ النَّباتِ بعدَ موتِها وجذورِهِ وأوراقِهِ وثمارِهِ وبذورِهِ، فريعِ الزُّروعِ، فموافاةِ الثِّمارِ في أنسبِ الأوقاتِ، فخلقِ النَّخلةِ والنَّباتاتِ الطِّبِّيَّةِ والبرِّيَّةِ، فإدراكِ الحيواناتِ وعقولِها، فآلاتِ البطشِ عندَها، فطبائعِ السِّباعِ وتحريمِ لحومِها، فٱختلافِ النَّاسِ في إدراكِ حكمةِ الخلقِ والأمرِ، فٱستقلالِ أولادِ البهائمِ بأنفسِها، فقوائمِ الحيوانِ وظهورِها وتوازنِ أعضائِها وكسوتِها، فتدافنِها فيما بينَها، فصلةِ المسمَّى بٱسمِهِ، ثمَّ عادَ لوجهِ الدَّابَّةِ، فذنبِها، فخرطومِ الفيلِ، فخلقِ الزَّرافةِ، ففطنةِ النَّملِ وغيرِهِ مِن الحيوانِ، فخلقةِ الطُّيورِ ورعايتِها لصغارِها وحوصلتِها وألوانِها وأعناقِها وسوقِها ورزقِها، فخلقِ الخفَّاشِ، فالنَّحلِ والعسلِ وفضلِهِ، فألبانِ الأنعامِ، فالحيواناتِ البحريَّةِ، فالجرادِ، فحكمةِ كونِ الجزاءِ مِن جنسِ العملِ، فالحملِ والولادةِ وتغذيةِ الجنينِ وإخراجِ الوليدِ لا يَعْلَمُ شيئًا، فالإذكارِ والإيناثِ، فآلاتِ الجماعِ وتقديرِ أعضاءِ البدنِ، فالرَّدِّ على مَن جَحَدَ الصَّانعَ، فنموِّ الأحياءِ، فتكريمِ ٱبنِ آدَمَ، فالحواسِّ الظَّاهرةِ والباطنةِ وما يُساعِدُها، فأعدادِ الأعضاءِ، فٱختلافِ الصُّورِ والأصواتِ، فالنُّطقِ، فتعدُّدِ منافعِ بعضِ الأعضاءِ، فالقلبِ والدِّماغِ والعينينِ، فعمومِ الحكمةِ في مختلفِ أنحاءِ البدنِ وتعدُّدِها وإلحاقِ ما جُهِلَ منها بما عُلِمَ، فالحكمةِ في بكاءِ الأطفالِ وإيلامِهِم، فالحكمةِ في البواعثِ التي رُكِزَتْ في طبائعِ البشرِ، فتوازنِ القوى المختلفةِ، فٱختلافِ أنظارِ الطَّبائعيِّ والمؤمنِ إلى

الأُمورِ، فالحفظِ والنِّسيانِ، فٱختصاصِ البشرِ بالحياءِ، فالبيانينِ اللفظيِّ والخطِّيِّ، فحِكَمِهِ تَعالى فيما أعْطى البشرَ ومَنَعَهُم مِن العلومِ، فمشاهدِ الخلقِ في مواقعةِ الذَّنبِ، فحِكَمِهِ تَعالى في تقديرِ المعاصي على عبادِهِ، فحِكَمِهِ تَعالى فيما ٱبْتَلى بِهِ عبادَهُ المخلصينَ، فحِكَمِهِ في دينِهِ القويمِ وملَّتِهِ الحنيفيَّةِ.

ثمَّ دَلَفَ يَرْحَمُهُ اللهُ مِن مباحثِ الحكمةِ إلى مباحثِ العقلِ ودلالتِهِ على محاسنِ الشَّريعةِ وحسنِ الأفعالِ وقبحِها في ذاتِها: فتناولَ دلالةَ الشَّريعةِ على حكمةِ المولى سبحانَهُ، فتفاوتَ بصائرِ الخلائقِ في ذٰلكَ، فالاستدلالَ بما ظَهَرَ مِن حكمتِهِ تَعالى على ما خَفِيَ منها، فحاجةَ الخلقِ إلى الشَّرائعِ، فإقرارَ العقولِ والفطرِ بحسنِها، فدلالاتِ النُّصوصِ على إثباتِ الحسنِ والقبحِ، فمراتبَ الأعمالِ في الحسنِ والقبحِ، فضرورةَ إثباتِ الحسنِ والقبحِ لأهلِ القياسِ، فعدمَ جوازِ أمرِهِ تَعالى بما نَهى عنهُ أوِ العكسِ، ثمَّ تَناوَلَ بالإبطالِ أدلَّةَ الرَّازِيِّ فالآمدِيِّ فالباقِلَّانِيِّ وٱبنِ الحاجبِ والجُوَيْنِيِّ فغيرِهِم في نفيِ التَّحسينِ والتَّقبيحِ، ثمَّ ذَكَرَ جملةً مِن اللوازمِ الفاسدةِ للنُّفاةِ، فأُصولَ المسألةِ، فوجهَ دفعِ التَّناقضِ فيها، ثمَّ عادَ إلى تقريرِ جملةٍ مِن شبهِ النُّفاةِ فأطالَ، ثمَّ كَرَّ عليها بالرَّدِّ فأطالَ حتَّى عَدَّ في ذٰلكَ أربعةً وستِّينَ وجهًا.

ومِن خلالِ الرَّدِّ على شبهِ النُّفاةِ دَلَفَ إلى بابٍ طويلٍ في الرَّدِّ على أهلِ التَّنجيمِ وبيانِ بطلانِ تأْثيرِ الكواكبِ في الأرضيَّاتِ: فذَكَرَ تسعةَ عشرَ وجهًا في ردِّ قولِهِم، ثمَّ نَقَلَ رسالةَ ٱبنِ عيسى في الرَّدِّ عليهِم وعَقَّبَ وفَصَّلَ، ثمَّ ذَكَرَ ردَّ أبي البَرَكاتِ البَغْدادِيِّ عليهِم، ثمَّ عادَ مِن جديدٍ إلى رسالةِ ٱبنِ عيسى، ثمَّ ذَكَرَ شبهَ الفَخْرِ الرَّازِيِّ في الانتصارِ للمنجِّمينَ، ثمَّ كَرَّ عليها فأبْطَلَها.

ثمَّ جَرى بِهِ الكلامُ إلى التَّطيُّرِ والتَّفاؤلِ ففَصَّلَ في معناهُما وأدلَّتِهِما ومواقفِ النَّاسِ منهُما والتَّوفيقِ بينَ النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ الواردةِ فيهِما، ثمَّ ٱسْتَكْمَلَ هٰذا المقامَ بالتَّفصيلِ في العدوى وأدلَّتِها والتَّوفيقِ بينَ مختلفِ النُّصوصِ فيها.

ومعَ ٱنتهاءِ كلامِهِ رَحِمَهُ اللهُ في العدوى خَتَمَ الكتابَ بخاتمةٍ مختصرةٍ بَيَّنَ فيها أُمَّهاتِ الموضوعاتِ التي أوْرَدَها في الكتابِ.

● **خامسًا: ملاحظاتٌ عامَّةٌ على «مفتاح دار السَّعادة»:**

أ ـ حولَ المنهجِ والخطَّةِ والتَّقسيم:

* **أوَّلاً:** لو تأمَّلْتَ في موضوعاتِ الكتابِ التي تَقَدَّمَ ذكرُها؛ فلنْ يَخْفى عليكَ أنَّ هاهُنا مقدِّمةً طويلةً نسبيًّا، لٰكنَّها لا تَتَّسِمُ بصفاتِ المقدِّماتِ التي تأْتي عادةً توطئةً للكتابِ يَسْتَخْلِصُ القارئُ منها تصوُّرًا أوَّليًّا لما سَيَمُرُّ بهِ على صفحاتِهِ، وإنَّما هيَ أقربُ إلى بحثٍ مستقلٍّ، بل هيَ كذٰلكَ فعلاً، فلو أنَّكَ أفْرَدْتَها عنِ الكتابِ؛ لَجاءَتْ رسالةً مستقلَّةً مستغنيةً عمَّا سواها، وكذٰلكَ لا يَتَضَرَّرُ موضوعُ الكتابِ عمليًّا بٱنتزاعِها منهُ.

* **ثانيًا:** أشارَ ٱبنُ القيِّمِ يَرْحَمُهُ اللهُ آخرَ المقدِّمةِ إلى أنَّ كمالَ الإنسانِ وفوزَهُ بالمقصدِ الأسنى لا يَكونُ إلاَّ بالعلمِ الموروثِ عنِ النَّبيِّ ﷺ والهمَّةِ التي تَحْمِلُ صاحبَها على ٱتِّباعِهِ ﷺ وتحمُّلِ مشاقِّ الطَّريقِ، ثُمَّ خَتَمَها (١/ ١٧٠) بقولِهِ: «فلا جَرَمَ كانَ وضعُ هٰذا الكتابِ مؤسَّسًا على هاتينِ القاعدتينِ، ومقصودُهُ التَّعريفَ بشرفِ هٰذينِ الأصلينِ. . . ولمَّا كانَ العلمُ إمامَ الإرادةِ ومقدَّمًا عليها ومفصِّلاً لها ومرشدًا لها؛ قَدَّمْنا الكلامَ عليهِ على الكلامِ على المحبَّةِ ثمَّ نُتْبِعُهُ إنْ شاءَ اللهُ بعدَ الفراغِ منهُ كتابًا في الكلامِ على المحبَّةِ. . .» إلخ. فهٰذهِ إشارةٌ مجملةٌ يُمْكِنُ أنْ نَسْتَشِفَّ منها خطَّةً أوَّليَّةً وتصوُّرًا مبدئيًّا لِما سَيَمُرُّ بنا على صفحاتِ هٰذا الكتابِ.

* **ثالثًا:** على أنَّ قولَهُ «ثمَّ نُتْبِعُهُ إنْ شاءَ اللهُ بعدَ الفراغِ منهُ كتابًا في الكلامِ على المحبَّةِ» لا يَخْلو مِن إشكالٍ: فهل أرادَ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ أنْ يَجْعَلَ «المفتاح» على قسمينِ يَتَناوَلُ في الأوَّلِ منهُما العلمَ ويُفْرِدُ الإرادةَ والمحبَّةَ بقسمٍ ثانٍ؟ أو أرادَ أنْ يُصَنِّفَ كتابًا مستقلاً في الكلامِ عنِ المحبَّةِ بعدَ أنْ يَنْتَهِيَ مِن تصنيفِ «المفتاح»؟

١) فأمَّا الاحتمالُ الأوَّلُ؛ فيَدْعَمُهُ:

سياقُ قولِهِ هُنا: «فلا جَرَمَ كانَ وضعُ هٰذا الكتابِ مؤسَّسًا على هاتينِ القاعدتينِ ومقصودُهُ التَّعريفَ بشرفِ هٰذينِ الأصلينِ. . . فهٰذا مضمونُ هٰذهِ التُّحفةِ».

وقولُهُ (٢/ ٦٢): «ونحنُ نَذْكُرُ هُنا فصولاً منثورةً. . . مِن أهمِّ فصولِ الكتابِ، بل هوَ لبُّ هٰذا القسمِ الأوَّلِ». فهٰذا يُفيدُ أوَّلاً أنَّ للكتابِ قسمينِ، ويُفيدُ ثانيًا أنَّنا لمْ

نَصِلْ بعدُ إلى القسمِ الثَّاني.

وقولُهُ (٢/ ٢٤٣): «وأسرارُ هٰذا الوجهِ يَضيقُ عنها القلبُ واللسانُ، وعَسى أن يَجيئَكَ في القسمِ الثَّاني مِن الكتابِ ما تَقَرُّ بِهِ عينُكَ». وهٰذا يَدْعَمُ النَّتيجتينِ المتقدِّمتينِ.

وقولُهُ (٢/ ٢٧١): «وقد ذَكَرْنا فصلاً . . . وأَرَدْنا أنْ نَخْتِمَ بِهِ القسمَ الأوَّلَ مِن الكتابِ، ثمَّ رَأَيْنا أنْ نُتْبِعَهُ فصلاً . . .». وهٰذا أقوى في دعمِ النَّتيجتينِ المتقدِّمتينِ.

وخَتَمَ كلامَهُ (٢/ ٤٩٤) في أنَّهُ لا كمالَ للعبدِ إلَّا بمحبَّةِ اللهِ ومعرفتِهِ بقولِهِ: «كما سَيَأْتي تقريرُهُ مِن أكثرِ مِن مئةِ وجهٍ إنْ شاءَ اللهُ». فهٰذا يَدُلُّ على نيَّتِهِ في الكلامِ في المحبَّةِ والإرادةِ في هٰذا الكتابِ بالذَّاتِ.

وقالَ (٢/ ٤٩٨): «وسَنَذْكُرُ إنْ شاءَ اللهُ عن قريبٍ معنى تعلُّقِ الإرادةِ بِهِ تَعالى وكونِهِ مرادًا . . .». وهٰذا يُؤكِّدُ ما تَواطَأَتْ عليهِ النُّصوصُ المتقدِّمةُ.

فهٰذه أدلَّةٌ في القوَّةِ كما تَرى تَدُلُّ على أنَّ ٱبنَ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالى أرادَ أنْ يَتَناوَلَ العلمَ والإرادةَ بالتَّفصيلِ في هٰذا الكتابِ بالذَّاتِ لا في كتابينِ منفصلينِ.

٢) ولٰكنَّ الواقعَ العمليَّ الذي هوَ سيِّدُ الأدلَّةِ يُشيرُ إلى غيرِ ذٰلكَ! فليسَ في «مفتاح دار السَّعادة» كلامٌ في الإرادةِ والمحبَّةِ إلَّا سطورًا جاءَتْ عفوَ الخاطرِ هُنا وهُناكَ، أحالَ ٱبنُ القيِّمِ فيها غالبًا إلى ما سَيَأْتي مِن التَّفصيلِ مِن وجوهٍ كثيرةٍ، لٰكنْ ليسَ لهٰذا التَّفصيلِ في الكتابِ عينٌ ولا أثرٌ كما تَقَدَّمَ لكَ آنفًا.

٣) وربَّما يَخْطُرُ ببالِكَ هُنا أنَّ القسمَ الثَّانيَ مِن «المفتاح» ضاعَ فيما ضاعَ مِن مصنَّفاتِ هٰذا الإمامِ الجليلِ. لٰكنَّ خاتمةَ الكتابِ سَدَّتِ البابَ أمامَ هٰذا الاحتمالِ؛ فقد جاءَتْ بيِّنةً في أنَّ الكتابَ تَمَّ وٱنْتَهى بتوقيعِ ٱبنِ القَيِّمِ وخاتمِهِ.

٤) وربَّما يَخْطُرُ ببالِكَ أنَّ ٱبنَ القَيِّمِ ذَهَلَ عمَّا تَعَهَّدَ بِهِ أوَّلاً. لٰكنْ مِن المستبعدِ جدًّا أنْ يَذْهَلَ مصنِّفٌ عن مسألةٍ يُفْتَرَضُ أنْ تَأْتِيَ معادلةً بحجمِها لِما صَنَّفَهُ! وإنَّما يَذْهَلُ المرءُ عن صفحةٍ عن فصلٍ عن بابٍ لا أكثرَ! ولو فَرَضْناهُ ذَهَلَ؛ أفما كانَ عنوانُ الكتابِ كافيًا للتَّذكيرِ؟!

٥) وربَّما يَخْطُرُ ببالِكَ أنَّهُ شَغَلَهُ شاغلٌ، كالإيابِ مِن سفرِهِ الذي أَلَّفَ فيهِ هٰذا

الكتابَ مثلاً، فصَرَفَهُ ذٰلكَ عن إتمامِ الكتابِ فتعَجَّلَ خاتمتَهُ وتَرَكَ القسمَ الثَّانيَ لمستقبلِ الأيَّامِ. فهٰذا أولى ممَّا تَقَدَّمَ.

٦) والذي أراهُ أنَّ ٱبنَ القَيِّمِ يَرْحَمُهُ اللهُ تَنازَعَهُ أمرانِ منذُ بدايةِ تصنيفِهِ للكتابِ: أحدُهُما: أنْ يَجْمَعَ قسميهِ في مصنَّفٍ واحدٍ. والآخرُ: أنْ يُفْرِدَ كلاًّ منهُما بمصنَّفٍ مستقلٍّ، فيَكونا كتابينِ مستقلَّينِ، كلٌّ منهُما تامٌّ في نفسِهِ، وأحدُهُما مكمِّلٌ للآخرِ في موضوعِهِ. وقد بَدا هٰذا واضحًا منذُ الإشارةِ الأُولى إلى موضوعِ الكتابِ، فرَأَيْتَهُ يَقولُ «ثمَّ نُتْبِعُهُ بعدَ الفراغِ منهُ كتابًا آخرَ في الكلامِ على المحبَّةِ» في سياقٍ يُفيدُ أنَّ الكتابينِ واحدٌ كما تَقَدَّمَ قريبًا. فكأنَّهُ خَطَرَ لهُ في وقتٍ مبكِّرٍ أنْ يَفْصِلَ الكتابينِ، ثمَّ غَلَبَتْ رغبتُهُ في جمعِهِما، فلمَّا طالَ القسمُ الأوَّلُ بما أَوْدَعَهُ فيهِ مِن الفصولِ المعترضةِ؛ عادَ إلى خاطرِهِ الأوَّلِ، وتَرَكَ القسمَ الثَّانيَ لمصنَّفٍ مستقلٍّ، ولمْ يُصَرِّحْ بذٰلكَ ٱكتفاءً بما جاءَ في المقدِّمةِ.

٧) لٰكنَّ هٰذا الفرضَ لا يَسْتَقيمُ إلاَّ بمعرفةِ الكتابِ الآخرِ المستقلِّ، والغالبُ فيما أرى أنَّه واحدٌ مِن كتابينِ:

أحدُهُما «التُّحفة المكِّيَّة»: فقد جاءَ في «بدائع الفوائد» (٣/ ٨): «وقد ذَكَرْنا مِن طرقِ الرَّدِّ على هٰؤلاءِ وهٰؤلاءِ (يَعْني: الغالينَ في المحبَّةِ والجافينَ لها) في كتابِ «التُّحفة» أكثرَ مِن مئةِ طريقٍ». فهٰذا يُوافِقُ قولَهُ في هٰذهِ المسألةِ بالذَّاتِ هُنا (٢/ ٤٩٤): «كما سَيَأْتي تقريرُهُ مِن أكثرَ مِن مئةِ وجهٍ إنْ شاءَ اللهُ».

والآخرُ «المورد الصَّافي»: فقد ذَكَرَ في «طريق الهجرتين» (ص١٠٣): «وقد ذَكَرْنا مجموعَ هٰذهِ الطُّرقِ في كتابِنا الكبيرِ في المحبَّةِ الذي سَمَّيْناهُ «المورد الصَّافي والظلّ الضَّافي في المحبَّةِ وأقسامِها وأنواعِها وأحكامِها وبيانِ تعلُّقِها بالإلٰهِ الحقِّ دونَ سواهُ»، وذَكَرْنا مِن ذٰلكَ ما يَزيدُ على مئةِ وجهٍ». فهٰذا يُوافِقُ أيضًا ما جاءَ آنفًا.

وكلا الكتابينِ مفقودٌ للأسفِ الشَّديدِ.

والمقصودُ هُنا أنَّ «مفتاح دار السَّعادة» كلَّهُ قسمٌ واحدٌ يَتَناوَلُ العلمَ فقط، وأمَّا تفاصيلُ بابِ الإرادةِ؛ فليستْ مدرجةً في مادَّةِ الكتابِ. واللهُ أعلى وأعلم.

ب ـ حولَ الأُسلوبِ والعرضِ:

* **أوّلًا**: لابنِ القَيِّمِ أُسلوبٌ موسوعيٌّ متميِّزٌ في التَّأْليفِ، إنَّهُ يَحْمِلُكَ بعيدًا عن صرامةِ العلمِ وقواعدِهِ الجافَّةِ، ويُجالِسُكَ مجالسةَ النَّاصحِ الحريصِ كلَّ الحرصِ على منفعتِكَ ولو طالَ بِهِ المجلسُ، ولا يَفْتَأُ يُحْذيكَ مِن فوائدِ العقيدةِ والأُصولِ والفقهِ واللغةِ وفرائدِها... وهٰكذا تَتَتابَعُ الاستطراداتُ وتَطولُ، ويَخْرُجُ باغي العنبِ بسلالٍ كثيرةٍ مِن العنبِ والتِّينِ والرُّمَّانِ.

ولا ريبَ أنَّ لهٰذهِ الطَّريقةِ منافعَ جمَّةً؛ فإنَّها تَقِفُكَ على قضايا جليلةٍ، ربَّما تكونُ أعظمَ قيمةً مِن الأصلِ الذي تَفَرَّعَتْ عنهُ وأكثرَ فائدةً مِن النَّاحيةِ العمليَّةِ، بل هيَ كذٰلكَ هُنا في كثيرٍ مِن الأحيانِ بتصريحِ ابنِ القَيِّمِ نفسِهِ: فرَأَيْتَهُ يَقولُ (٢/ ١٦٧): «ولعلَّ هٰذا الفصلَ الطَّرديَّ أنفعُ لمتأمِّلِهِ مِن كثيرٍ مِن الفصولِ المتقدِّمةِ». ويَقولُ (٢/ ١٧٢): «وهٰذا فصلٌ معترضٌ، وهوَ أنفعُ فصولِ الكتابِ». ويَقولُ (٢/ ٢١٨): «وحسبُكَ بهٰذا الفصلِ وعظيمِ منفعتِهِ مِن هٰذا الكتابِ». ويَقولُ (٢/ ٢٢٩): «فتَدَبَّرْ هٰذا الفصلَ؛ فإنَّهُ مِن الكنوزِ في هٰذا الكتابِ، وهوَ حقيقٌ بأنْ تُثْنى عليهِ الخناصرُ». ويَقولُ (٢/ ٤٨٠): «وهٰذا فصلٌ معترضٌ لمْ يَكُنْ مِن غرضِنا وإنْ كانَ أهمَّ ممَّا سُقْنا الكلامَ لأجلِهِ».

ولو أنَّكَ صَبَرْتَ على هٰذهِ الفصولِ وقرأْتَها قراءةً متأنِّيةً؛ فلن تَمْلِكَ إلَّا أنْ تَحْمَدَ اللهَ على أنَّ ابنَ القَيِّمِ لمْ يُؤَجِّلْ هٰذهِ الفصولَ المعترضةَ إلى مواضعِها اللائقةِ، فكمْ مِن تأْجيلٍ أوْرَثَ فَوْتًا لشغلٍ أو نسيانٍ أو موتٍ، فضاعَتْ فوائدُ تُكْتَبُ بماءِ العيونِ.

ومعَ ذٰلكَ؛ فلا بدَّ مِن الإشارةِ إلى أنَّ هٰذهِ الطَّريقةَ لا تَخْلو مِن آثارٍ جانبيَّةٍ، وذٰلكَ أنَّها: تُشَتِّتُ طالبَ العلمِ، وتُعَسِّرُ عليهِ تحصيلَ زبدةٍ صافيةٍ تَرْسَخُ في ذهنِهِ وتَرْفُدُهُ عندَ الحاجةِ، وتُوَعِّرُ السَّبيلَ على الباحثِ في موضوعٍ محدَّدٍ وربَّما صَدَّتْهُ عن غايتِهِ.

* **ثانيًا**: لو أنَّكَ قَرَأْتَ قضيَّةً ما هُنا، ثمَّ رَغِبْتَ بمعاودتِها بعدَ حينٍ؛ فلن تَنالَ ذٰلكَ إلَّا بمشقَّةٍ، وربَّما عَجَزْتَ عنها بعدَ طولِ فتشٍ في الفهارسِ. وذٰلكَ أنَّ الكتابَ يَفْتَقِرُ إلى التَّرتيبِ المنهجيِّ الذي يَجْعَلُكَ تَضَعُ يدَكَ على المقصودِ بيسرٍ وسهولةٍ.

وهٰذا أمرٌ يُمْكِنُ ملاحظتُهُ في أكثرِ فصولِ الكتابِ، ولٰكنَّهُ جاءَ أوضحَ ما يكونُ في

المقدِّمةِ: فرَأَيْتَهُ يَرْحَمُهُ اللهُ يَبْتَدِئُ (١/ ٩٤) بقولِ مَن جَعَلَ جنَّةَ آدَمَ غيرَ جنَّةِ الخلدِ وأدلَّتِهم، ثمَّ يُثَنِّي (١/ ١٠١) بقولِ مَن وَحَّدَ الجنَّتينِ وأدلَّتِهِ، ثمَّ يَعودُ (١/ ١١٣) لقولِ الأوَّلينَ وأدلَّتِهم، ثمَّ يَرْجِعُ (١/ ١٣٤) ثانيةً لقولِ الآخرينَ وأدلَّتِهم، ثمَّ يَعودُ (١/ ١٣٦) ثالثةً لقولِ الأوَّلينَ وأدلَّتِهم . . . وهٰكذا في تراوحٍ محيِّرٍ وتكرارٍ مربكٍ. ووَقَعَ شيءٌ قريبٌ مِن هٰذا في بابِ التَّفكُّرِ وفي بابِ العدوى.

وقد أشارَ ٱبنُ القيِّمِ نفسُهُ إلى هٰذهِ الظَّاهرةِ (٢/ ٦٢) فقالَ: «ونحنُ نَذْكُرُ فصولاً منثورةً مِن هٰذا البابِ مختصرةً، وإنْ تَضَمَّنَتْ بعضَ التَّكرارِ وإنْ كانَتْ غيرَ مرتَّبةٍ».

وأشارَ إليها حاجي خَليفة في «كشف الظُّنون» (٢/ ١٧٦١)، فقالَ في «مفتاح دار السَّعادة»: «هوَ كتابٌ كبيرُ الحجمِ، وليسَ بمرتَّبٍ، بل فيه فوائدُ مرسلةٌ».

* **ثالثًا**: وفي قولِ ٱبنِ القيِّمِ المتقدِّمِ: «وإنْ تَضَمَّنَتْ بعضَ التَّكرارِ»، وقولِهِ أيضًا (٢/ ١٩٢): «فلا تَسْتَطِلْ هٰذا الفصلَ وما فيهِ مِن نوعِ تكرارٍ»؛ فيهِما إشارةٌ إلى ظاهرةٍ أُخرى ملموسةٍ في هٰذا الكتابِ، وهيَ التَّكرارُ. ولا يُريدُ ٱبنُ القيِّمِ ـ فيما يَبْدو ـ بالتَّكرارِ هُنا إعادةَ العباراتِ نفسِها أو ما يُقارِبُها، فهٰذا، وإنْ كانَ واقعًا، فليسَ بالخطيرِ المؤثِّرِ. وأمَّا طرقُ المعنى الواحدِ بأكثرَ مِن عبارةٍ والعودةُ إليهِ أكثرَ مِن مرَّةٍ؛ فملحوظٌ جدًّا.

* **رابعًا**: وهاهُنا فصولٌ بالغةُ التَّعقيدِ عسرةُ المنالِ، تَقْرَأُ الفصلَ منها وربَّما الفقرةَ الواحدةَ مرارًا دونَ أنْ تُدْرِكَ المرادَ منها! ولذٰلكَ ٱسْتَعْصَتْ على محقِّقينَ مدقِّقينَ فأتَوْا فيها بعجائبَ مِن التَّصحيفِ والتَّحريفِ والسَّقطِ واللحنِ وسوءِ توزيعِ الفقراتِ وعلاماتِ الوقفِ! ولقد عانَيْتُ واللهِ الأمرَّينِ مِن هٰذهِ الفصولِ، وربَّما جَلَسْتُ السَّاعاتِ الطِّوالَ أُحاوِلُ أنْ أفُكَّ صفحةً واحدةً فقط! ٱنْظُرْ مثلاً (٢/ ٣٥٠ وما حولها).

والحقُّ أنَّ التَّعقيدَ لا يَرْجِعُ إلى ٱبنِ القيِّمِ بالذَّاتِ، فالمشهورُ عنهُ يَرْحَمُهُ اللهُ اليسرُ والسُّهولةُ، لٰكنْ ربَّما نَقَلَ عنِ الرَّازيِّ أو الآمِديِّ أو غيرِهم مِن متكلِّمةِ الأُصوليِّينَ، فجاءَ بكلامٍ أشبهَ بصفوانٍ ما عليهِ ترابٌ، ثمَّ لا مفرَّ بعدُ مِن أنْ يكونَ لردِّ كلامِهم طبيعةٌ مقاربةٌ لهُ. فهٰذا أصلُ هٰذهِ الآفةِ.

ومعَ ذٰلكَ، فقد كانَ مِن الممكنِ تفادي كثيرٍ مِن التَّعقيدِ لو أُتْبِعَتِ الحجَّةُ مباشرةً

ببيانِها وردِّها، بخلافِ الواقعِ هُنا، حيثُ تأخَّرَ البيانُ والتَّعقُّبُ قريبًا مِن مئةِ صفحةٍ أحيانًا. آنْظُرْ مثلاً (٢/ ٣٥٨).

* **خامسًا**: ومِن العدلِ أنْ أذْكُرَ هُنا أنَّ أكثرَ هٰذهِ الملاحظاتِ راجعٌ إلى أنَّ ٱبنَ القَيِّمِ يَرْحَمُهُ اللهُ ألَّفَ هٰذا الكتابَ في بعضِ أسفارِهِ كَما صَرَّحَ بذٰلكَ في قولِهِ (١/ ١٧٠): «إذْ كانَ هٰذا (يَعْني: الكتابَ) مِن بعضِ النُّزُلِ والتُّحفِ التي فَتَحَ اللهُ بها عليَّ حينَ ٱنقطاعي إليهِ عندَ بيتِهِ». والبعدُ عنِ الوطنِ والدَّارِ والكتبِ لا يُتيحُ للمصنِّفِ أنْ يُحَرِّرَ ويُراجِعَ ويُدَقِّقَ تدقيقَ المستقرِّ المطمئنِّ. واللهُ أعلمُ.

ج ـ حولَ الأحاديثِ الضَّعيفةِ في «مفتاح دار السَّعادة»:

يَميلُ كثيرٌ مِن أهلِ العلمِ إلى التَّساهلِ في شأْنِ الأحاديثِ الضَّعيفةِ في بابِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، بل لَعَلَّكَ لا تَعْدَمُ مِن المتشدِّدينَ أنفسِهِم نوعًا مِن التَّساهلِ في أسانيدِ هٰذا البابِ وإنْ لمْ يَبْلُغْ بهِمُ الحالُ إلى قبولِ الضَّعيفِ.

وهاهُنا شيءٌ مِن هٰذا، فلو قارَنْتَ «مفتاح دار السَّعادة» بـ «زاد المعاد» مثلاً؛ فلنْ تَخْفى عليكَ المفارقةُ الظَّاهرةُ بينَ درجاتِ الأحاديثِ هُنا وهُناكَ.

ويَرْجِعُ سرُّ هٰذا في تقديري إلى جملةٍ مِن الأُمورِ:

* **فأوَّلُ هٰذهِ الأُمورِ**: ما أشارَ إليهِ ٱبنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ (١/ ٢٣٩) بقولِهِ بعدَ أنْ أوْرَدَ حديثًا واهيًا: «فهٰذا الأصلُ محفوظٌ عنِ النَّبيِّ ﷺ، فالحديثُ الضَّعيفُ فيهِ بمنزلةِ الشَّواهدِ والمتابعاتِ، فلا يَضُرُّ».

وهاهُنا ملاحظاتٌ أسوقُها فيما يَلي:

١) في هٰذا الكلامِ ٱستِرواحٌ لقاعدةِ الأخذِ بالضَّعيفِ في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، وهوَ أمرٌ ٱلْتَزَمَهُ بعضُ المتقنينَ مِن أهلِ العلمِ، لٰكنَّهُم وَضَعوا لذٰلكَ ضوابطَ لا بدَّ منها لتوفيرِ الحدِّ الأدنى مِن الموثوقيَّةِ للنُّصوصِ المعتمدةِ.

قالَ السَّخاوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «سَمِعْتُ شيخَنا [يَعْني: العَسْقَلانِيَّ] مرارًا يَقولُ، وكَتَبَهُ لي بخطِّهِ: إنَّ شرائطَ العملِ بالضَّعيفِ ثلاثةٌ: الأوَّلُ متَّفقٌ عليهِ: أنْ يَكونَ الضَّعفُ غيرَ شديدٍ، فيَخْرُجُ مَنِ ٱنْفَرَدَ مِن الكذَّابينَ والمتَّهمينَ ومَن فَحُشَ غلطُهُ. الثَّاني: أنْ يَكونَ

مندرجًا تحتَ أصلٍ عامٍّ، فيَخْرُجُ ما يُخْتَرَعُ بحيثُ لا يَكونُ لهُ أصلٌ أصلاً. الثَّالثُ: أنْ لا يُعْتَقَدَ عندَ العملِ بهِ ثبوتُهُ؛ لئلاَّ يُنْسَبَ للنَّبيِّ ﷺ ما لمْ يَقُلْهُ. قالَ: والأخيرانِ عنِ ٱبنِ عَبْدِالسَّلامِ وعن صاحبِهِ ٱبنِ دَقيقِ العيدِ، والأوَّلُ نَقَلَ العَلائيُّ الاتِّفاقَ عليهِ»[١].

وقالَ ٱبنُ عَلاَّنَ: «لا يَجوزُ العملُ بخبرِ مَنِ ٱنْفَرَدَ مِن كذَّابٍ ومتَّهمٍ بكذبٍ ومَن فَحُشَ غلطُهُ، فقد نَقَلَ العَلائيُّ الاتِّفاقَ عليهِ، وفي صلاةِ النَّفلِ مِن «المجموع» ما يَقْتَضي ذٰلكَ، وبهِ صَرَّحَ السُّبْكيُّ»[٢].

٢) ومعَ هٰذهِ الشُّروطِ الدَّقيقةِ لقاعدةِ الأخذِ بالضَّعيفِ في الفضائلِ؛ فما هيَ محلَّ ٱتِّفاقِ أهلِ العلمِ، بلِ الخلافُ في شأْنِها قديمٌ حديثٌ، وقد ذَهَبَ جماعةٌ منهُمُ ٱبنُ مَعِينٍ والبُخاريُّ ومُسْلِمٌ وٱبنُ حَزْمٍ الظَّاهِرِيُّ وأبو بَكْرِ بنُ العَرَبِيِّ وٱبنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ وجَمالُ الدِّينِ القاسِمِيُّ وأحْمَد شاكِر والألْبانِيُّ وغيرُهُم إلى أنَّهُ لا يُعْمَلُ بالضَّعيفِ في حلالٍ ولا حرامٍ ولا فضائلَ ولا ترغيبٍ ولا ترهيبٍ.

قالَ ٱبنُ حَزْمٍ: «وممَّا غَلِطَ فيهِ بعضُ أصحابِ الحديثِ أنَّهُ قالَ: فلانٌ يُحْتَمَلُ في الرَّقائقِ ولا يُحْتَمَلُ في الأحكامِ. وهٰذا باطلٌ لأنَّهُ تقسيمٌ فاسدٌ لا برهانَ عليهِ بلِ البرهانُ يُبْطِلُهُ... ومِنَ المحالِ أنْ يَجوزَ قبولُ بعضِ خبرِهِ ولا يَجوزَ قبولُ سائرِهِ»[٣]. وهٰذا قولٌ جارٍ على الأُصولِ، تَشْهَدُ لهُ أدلَّةُ النَّقلِ والعقلِ، وليسَ هٰذا محلَّ التَّوسُّعِ في تفصيلِها.

٣) ولو أنَّكَ تَأمَّلْتَ حالَ الحديثِ الذي سيقَ الكلامُ لأجلِهِ وغيرِهِ ممَّا جاءَ على هٰذا النَّحوِ؛ فسوفَ تَجِدُها أقربَ إلى الضَّعفِ الشَّديدِ، ومثلُ هٰذهِ الأحاديثِ لا يَنْبَغي أنْ يُتَساهَلَ بذكرِها؛ لأنَّ شروطَ العملِ بالضَّعيفِ لا تَنْطَبِقُ عليها بٱتِّفاقِهِم.

٤) وفي قولِهِ رَحِمَهُ اللهُ «فالحديثُ الضَّعيفُ فيهِ بمنزلةِ الشَّواهدِ والمتابعاتِ» إشكالٌ مِن جهةِ أنَّ أحاديثَ أهلِ التُّهمةِ بل ومَن فوقَهُم مِن أهلِ الغلطِ الفاحشِ مطَّرحةٌ لا تَصْلُحُ في الشَّواهدِ ولا في المتابعاتِ؛ فكيفَ تُذْكَرُ أحاديثُهُم منفردةً لأنَّها بمنزلةِ

---

(١) مستفاد من مقدّمة «صحيح الجامع» (١/ ٥٢).

(٢) «الفتوحات الربّانيّة» (١/ ٨٣).

(٣) «الإحكام في أصول الأحكام» (١/ ١٣٧).

الشَّواهدِ والمتابعاتِ معَ ٱتِّفاقِهِم على أنَّها لا تَصْلُحُ في جملةِ الشَّواهدِ والمتابعاتِ؟!

٥) وفي قولِهِ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ «لا تَضُرُّ» نظرٌ؛ لأنَّ أضرارَ الضَّعيفِ كثيرةٌ:

فمنها: أنَّه يُطَوِّلُ الطَّريقَ ويُعَسِّرُ المرادَ. ولو أنَّ طالبَ العلمِ ٱكْتَفى ببضعِ حججٍ قويَّةٍ يَخْضَعُ لها الموافقُ والمخالفُ؛ لأغْنَتْهُ عنِ الاستكثارِ مِن الحججِ المتهافتةِ. ولو أنَّ باغيَ الحقِّ أجْهَدَ نفسَهُ ـ على ما يَقولُهُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ ـ في الإحاطةِ بالصَّحيحِ فهمًا وتطبيقًا؛ لما قارَبَ ولا كادَ؛ فأيُّ حاجةٍ لهُ بالضَّعيفِ؟! ولو أنَّ المرءَ ٱشْتَغَلَ بالمفضولِ عنِ الفاضلِ؛ لَعُدَّ مِن المقصِّرينَ، فكيفَ إذا ٱشْتَغَلَ بالضَّعيفِ المرجوحِ عنِ الصَّحيحِ الثَّابتِ؟!

ومنها: أنَّها تَعْلَقُ في أذهانِ طلاَّبِ العلمِ فيَتَناقَلونَها ويَسْتَشْهِدونَ بها فتَفْشُو في العامَّةِ، ومحبُّو ٱبنِ القَيِّمِ كثرٌ ـ وحُقَّ لهُم واللهِ ـ، ومنهُم مَن يَنْقُلُ كلامَهُ على سبيلِ التَّسليمِ ويَجْتَهِدُ في الانتصارِ لهُ، وربَّما تَلَقَّفَ الحديثَ دونَ أنْ يَتَنَبَّهَ إلى ما تَلاهُ مِن بيانِ سوءِ حالِهِ.

ومنها: أنَّها تَفْتَحُ بابَ الإعراضِ عنِ التَّحرِّي والتَّمييزِ بينَ الصَّحيحِ والضَّعيفِ؛ لأنَّ مَن رَأى أنَّهُ لا بأْسَ عليهِ في ذكرِ هٰذا وهٰذا؛ فما لهُ ولإرهاقِ نفسِهِ في تمييزِ هٰذا عن هٰذا؟! حسبُهُ أنْ يَذْكُرَ جملةَ ما يَحْفَظُهُ في البابِ من الصَّحيحِ والضَّعيفِ! والمصيبةُ أنَّهُ إنْ كانَ لا بدَّ مِن الاختصارِ والاقتصارِ؛ فلنْ يَخْتارَ إلاَّ الضَّعيفَ؛ فإنَّ لهُ بريقًا أخَّاذًا تَخْشَعُ لهُ قلوبُ العامَّةِ وتُصيخُ أسماعُهُم وتُسْكَبُ عبراتُهُم.

وما تَكادُ تَتَهاوَنُ في شأْنِ الضَّعيفِ حتَّى تَهُبَّ عليكَ رياحُ الواهياتِ والموضوعاتِ والإسرائيليَّاتِ! وما تَكادُ تَغُضُّ في الفضائلِ حتَّى تُطِلَّ عليكَ أبوابُ الحلالِ والحرامِ تُطالِبُ بحصَّتِها! والمصنَّفاتُ شاهدةٌ، وما أقلَّ مَن نَجا!

٦) ومِن شروطِ الأخذِ بالضَّعيفِ أنْ يُبَيَّنَ ضعفُهُ، وما هٰذا باليسيرِ، وما أكثرَ ما يَعْرِضُ لأهلِ العلمِ سهوٌ أو تأْجيلٌ أوِ ٱعتمادٌ على كلامٍ تَقَدَّمَ فيُقَصِّرونَ في الوفاءِ بهٰذا الشَّرطِ. وشواهدُ هٰذا في المصنَّفاتِ كثيرةٌ.

* **الأمرُ الثَّاني**: أنَّ ٱبنَ القَيِّمِ أوْرَدَ كثيرًا مِن الواهياتِ وهوَ يَعْلَمُ يقينًا أنَّها لا تَصِحُّ،

لٰكنَّهُ أوْرَدَها مستشهدًا بصحَّةِ معناها ومضمونِها لا بنسبتِها إلى النَّبيِّ ﷺ، فرَأيْتَهُ مثلاً يَقولُ (١/ ٢٤٢) بعدَ أنْ أوْرَدَ أحدَ الواهياتِ: «وهٰذهِ الأسانيدُ وإنْ لمْ تكُنْ بمفردِها حجَّةً، فطلبُ العلمِ مِن أفضلِ الحسناتِ، والحسناتُ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ، فجديرٌ أنْ يَكونَ طلبُ العلمِ ٱبتغاءَ وجهِ اللهِ يُكَفِّرُ ما مَضى مِن السَّيِّئاتِ، فقد دَلَّتِ النُّصوصُ على أنَّ إتباعَ السَّيِّئةِ الحسنةَ يَمْحوها، فكيفَ بما هوَ مِن أفضلِ الحسناتِ وأجلِّ الطَّاعاتِ، فالعمدةُ على ذٰلكَ لا على حديثِ أبي داوودَ [نُفَيْع الأعمى الكذَّابِ]». وقالَ مرَّة أُخرى (١/ ٣٤٠) بعدَ حديثٍ واهٍ: «وهٰذا، وإنْ كانَ لا يَثْبُتُ إسنادُهُ، فلا يَبْعُدُ معناهُ مِن الصِّحَّةِ».

وهٰذا أمرٌ لا بأْسَ فيهِ إنْ وَقَعَ مِن أمثالِ ٱبنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ؛ فإنَّ لهُ مشعرًا حسَّاسًا جدًّا للمعاني الصَّحيحةِ الشَّرعيَّةِ وهوَ مِن أقدرِ النَّاسِ على التَّفريقِ بينَها وبينَ المعاني الباطلةِ التي تَنْطَوي على مخاطرَ عقديَّةٍ أو سلوكيَّةٍ أو نحوِ ذٰلكَ.

* **الأمرُ الثَّالثُ**: أنَّهُ يَرْحَمُهُ اللهُ ٱسْتَشْهَدَ بكثيرٍ مِن الواهياتِ على أنَّها كلامٌ لأحدِ الصَّحابةِ أوِ التَّابعينَ أخْطَأَ مَن رَفَعَهُ: فرَأيْتَهُ يَقولُ (١/ ٢٠١): «وهٰذا مرويٌّ عنِ الصَّحابةِ . . . ذَكَرَهُ ٱبنُ عَبْدِالبَرِّ مرفوعًا وفي رَفْعِهِ نظرٌ». ويَقولُ (١/ ٢١٧): «ولهٰذا الحديثِ علَّةٌ، وهوَ أنَّهُ رُوِيَ مِن كلامِ أبي هُرَيْرَةَ، وهوَ أشبهُ». ويَقولُ (١/ ٣٢٩): «وفي ثبوتِهما مرفوعينِ نظرٌ، والظَّاهرُ أنَّ هٰذا وما أشْبَهَهُ مِن كلامِ الصَّحابةِ فمَن دونَهُم». ويَقولُ (١/ ٣٤١): «وقد رُفِعَ هٰذا إلى رسولِ اللهِ، ورفعُهُ إليهِ باطلٌ، وحسبُهُ أنْ يَصِلَ إلى واحدٍ مِن الصَّحابةِ أوِ التَّابعينَ» . . . وغيرُهُ كثيرٌ.

كانَ يَرْحَمُهُ اللهُ عالمًا بضعفِ المرفوعِ في هٰذهِ الآثارِ تمامَ العلمِ، وإنَّما أوْرَدَها تمسُّكًا بهديِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، ثُمَّ نَبَّهَ زيادةً في المنفعةِ إلى أنَّها رُفِعَتْ، وأنَّ المرفوعَ فيها باطلٌ، ومعلومٌ أنَّ هٰذا شيءٌ والاحتجاجُ بالضَّعيفِ والتَّساهلُ في شأْنِهِ شيءٌ آخرُ، وشتَّانَ شتَّانَ بينَ سنَّةِ الرَّاسخينَ وتقميشِ حاطبي الليلِ.

د ـ حولَ العلومِ التَّطبيقيَّةِ في «مفتاح دار السَّعادة»:

أوْرَدَ ٱبنُ القَيِّمِ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ في «مفتاح دار السَّعادة» جملةً ضخمةً مِن المعلوماتِ الطِّبِّيَّةِ والفلكيَّةِ والطَّبيعيَّةِ، وقد كانَتْ هٰذهِ المعلوماتُ محلاًّ لتعقُّباتِ

وٱستدراكاتٍ كثيرةٍ لأُمورٍ:

* **أوَّلُها وأهمُّها**: أنَّ القرنَ الأخيرَ ـ ولا أقولُ القرونَ السَّبعةَ التي تَفْصِلُ بينَنا وبينَ ٱبنِ القَيِّمِ ـ قد شَهِدَ ثورةً حقيقيَّةً في العلومِ التَّطبيقيَّةِ أَسْقَطَتْ كثيرًا مِن الأُصولِ التي سادَتْ في العصورِ السَّابقةِ، ولمْ تُبْقِ مِن بعضِ العلومِ إلَّا نتفًا وأفكارًا منثورةً هُنا وهُناك.

* **والثَّاني**: أنَّ ٱبنَ القَيِّمِ لمْ يَكُنْ مِن أهلِ الاختصاصِ والممارسةِ في العلومِ التَّطبيقيَّةِ، قد رَفَعَهُ اللهُ عن ذٰلكَ وأكْرَمَهُ بميراثِ النُّبوَّةِ وعلمِ الكتابِ. نعم؛ كانَ مِن أهلِ المشاركةِ والفهمِ والاطِّلاعِ الواسعِ في الطِّبِّ خصوصًا، ولهُ مشاركةٌ دونَ ذٰلكَ في الفلكِ والنَّباتِ والحيوانِ. وقد أَبْطَلَتِ الثَّورةُ العلميَّةُ المعاصرةُ أكثرَ نظريَّاتِ أرسطو وأبقراطَ وجالينوسَ والرَّازيِّ وٱبنِ سِينا وغيرِهم مِن أهلِ الاختصاصِ وجَعَلَتْها بابًا في تاريخِ العلمِ لا في حقائقِهِ؛ فكيفَ بمَن كانَ دونَهُم مِن أهلِ المشاركةِ والاطِّلاعِ؟!

* **والثَّالثُ**: أنَّ حقائقَ الطِّبِّ والفلكِ والنَّباتِ لمْ تَكُنْ قطُّ غايةَ ٱبنِ القَيِّمِ ومقصدَهُ، ولٰكنَّها كانَتْ وسيلةً لغايةٍ ٱسْتَفْرَغَ وسعَهُ في تقريرِها، وهيَ توحيدُ الرُّبوبيَّةِ والإلٰهيَّةِ والإيمانُ بالأسماءِ والصِّفاتِ وتقريرُ الحكمةِ في الخلقِ والأمرِ، ولذٰلكَ لمْ يُعْنَ بتحريرِها عنايتَهُ بالغاياتِ.

● **سادسًا: قيمةُ «مفتاح دار السعادة» وفضائلُهُ:**

كثيرةٌ هيَ الكتبُ التي أُلِّفَتْ في العلمِ وفضائلِهِ، وحُقَّ للعلمِ أنْ يُؤلَّفَ فيهِ. ولٰكنَّكَ لن تَقْرَأَ في العلمِ كتابًا كـ «مفتاح دار السَّعادة»!

هٰذا كتابٌ يَنْبَغي أنْ يَكونَ بحقٍّ أنيسَ طالبِ العلمِ في وحشتِهِ وعزاءَهُ في شدَّتِهِ وسميرَ فؤادِهِ في وحدتِهِ. إذا ٱسْتَحْسَرَ لرؤيةِ أهلِ الأموالِ يَتَقَلَّبونَ بأموالِهِم؛ رَجَعَ إلى «المفتاح» فوَجَدَ فيه شفاءَ حسرتِهِ، وإذا ٱسْتَأْنَسَ أهلُ الجاهِ بجاهِهِم؛ رَجَعَ إلى «المفتاح» فرَآهُ نعمَ الأنيسِ والجليسِ، وإذا ٱسْتَعْصَمَ أهلُ الرِّياسةِ برياستِهِم وقوَّتِهِم؛ رَجَعَ إلى «المفتاح» فٱسْتَمَدَّ منهُ القوَّةَ والصَّبرَ والسَّكينةَ.

كيفَ لا؛ وصوتُ ٱبنِ القَيِّمِ يُناديهِ عبرَ القرونِ: ويحكَ! ٱصْبِرْ وثابِرْ ولا تَسْتَعْجِلْ، ويحكَ! هٰذا ميراثُ الأنبياءِ وخيرةُ اللهِ لرسلِهِ؛ فلا تُفَرِّطْ فيهِ ولا تَسْتَبْدِلْهُ بكنزِ

مهما عَظُمَ، ويحكَ يا وليَّ اللهِ! لا ولايةَ لكَ إلاَّ بالعلمِ، ويحكَ يا مَنِ ٱسْتَشْهَدَهُ اللهُ! ما ٱسْتَشْهَدَكَ إلاَّ بالعلمِ، ويحكَ يا مَنِ ٱسْتَخْلَفَهُ اللهُ! ما ٱسْتَخْلَفَكَ إلاَّ بالعلمِ، ويحكَ يا مَن رَفَعَهُ اللهُ! ما رَفَعَكَ إلاَّ بالعلمِ. . .

كيف لا؛ وصوتُ ٱبنِ القَيِّمِ يَأْتيهِ عبرَ السُّطورِ: أَتَظُنُّ أنَّ صاحبَ المالِ هوَ الذي يَرْفُلُ في نعمةِ اللهِ؟! أَتَظُنُّ أنَّ صاحبَ الجاهِ هوَ المختصُّ بنعمةِ اللهِ؟! أَتَظُنُّ أنَّ صاحبَ الرِّياسةِ هوَ المتقلِّبُ في نعمةِ اللهِ؟! واللهِ؛ لأنتَ أنتَ صاحبُ النِّعمةِ الحقيقيَّةِ! لأنتَ أنتَ مَنِ ٱخْتَصَّهُ اللهُ بفضلِهِ ورحمتِهِ.

كيفَ لا؛ وصوتُ ٱبنِ القَيِّمِ يُناجيهِ مرَّةً تلوَ الأُخرى: ويحكَ! أَتَظُنُّ صاحبَ المالِ أوِ الجاهِ أوِ الرِّياسةِ أوِ العافيةِ أولى النَّاسِ بحمدِ اللهِ؟! واللهِ؛ لأنتَ أنتَ أولى النَّاسِ بحمدِ اللهِ ولو كُنْتَ تُجَرُّ على وجهِكَ مُذ وُلِدْتَ وحتَّى المماتِ؛ لأنَّ فضلَ نعمتِكَ على نعمتِهِم كفضلِ النَّجمِ على الحصى والتُّرابِ!

وما تَكادُ أبوابُ العلمِ تَنْتَهي حتَّى تَدْخُلَ معَ ٱبنِ القَيِّمِ في عالمٍ آخرَ يُبَصِّرُكَ فيهِ مواضعَ حكمةِ اللهِ في أمرِهِ وخلقِهِ؛ فكلُّ قضاءٍ وكلُّ خَلْقٍ وكلُّ شرعٍ جاءَ بقدرٍ على وَفْقِ الحكمةِ التَّامَّةِ والعلمِ التَّامِّ، لا يَخْلو شيءٌ مِن ذٰلكَ مِن حِكمٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

ومِنَ العجيبِ حقًّا أنَّكَ تَمُرُّ مرَّةً تلوَ الأُخرى على قضايا وقضايا مِن أمرِ اللهِ وشرعِهِ فلا يَسْتَوْقِفُكَ فيها كبيرُ شيءٍ، وربَّما أَعْمَلْتَ ذهنَكَ فوَجَدْتَ فيها حكمةً ولطفًا، فإذا ما أَخَذَ ٱبنُ القَيِّمِ بيدِكَ؛ أراكَ لطائفَ ودقائقَ مطربةً لَمْ تَكُنْ لِتَخْطُرَ في بالِكَ، ولا يَزالُ يُعَدِّدُ حتَّى يَتْرُكَكَ ذاهلاً تَقولُ: سبحانَ اللهِ! وابلٌ! فإنْ لمْ يَكُنْ وابلاً فطَلٌّ!

ومِنَ العجيبِ حقًّا أنَّكَ تَقْرَأُ هُنا وهُناكَ في الطِّبِّ والفلكِ والطَّبيعةِ، وتُريكَ الأفلامُ المصوَّرةُ النَّحلَ في خليَّتِهِ والنَّملَ في قريتِهِ والجراثيمَ في مستعمراتِها، ولٰكنَّكَ لا تَرى أبدًا ما تُريكَ إيَّاهُ عينا ٱبنِ القَيِّمِ، إنَّهُ لا يُريدُ أنْ يُمْتِعَكَ، إنَّهُ يُريدُ أنْ يَنْفَعَكَ، يُريدُ أنْ يَحْمِلَكَ مِنَ الطَّبيعةِ إلى مَن طَبَعَها ويُعَلِّقَ بهِ قلبَكَ ولبَّكَ.

ويَطوفُ بكَ ٱبنُ القَيِّمِ على نفاةِ التَّحسينِ والتَّقبيحِ العقليَّينِ مِنَ الكُلاَّبيَّةِ والأشاعِرَةِ، وتَأْتيكَ شبهاتُ القومِ تترى حتَّى تَسْتَسْلِمَ وتَرى أنَّكَ حوصِرْتَ مِن كلِّ وجهٍ

وتَظُنُّ الشُّبهةَ حجَّةً وتَرى الضَّعيفَ قويًّا! ويَكِرُّ الشَّيخُ عليها بعدَ غيابٍ، فتَراه كما عَهِدْتَهُ شامخًا راسخًا يُسْقِطُ الشُّبهةَ تلوَ الشُّبهةِ ويُبْطِلُ الإيرادَ تلوَ الإيرادِ وكأنَّما أَسْلَمَتْ حججُ النَّقلِ والعقلِ إليهِ رؤوسَها يُسَوِّيها كيفَ يَشاءُ، وتَقولُ في نفسِكَ: فعلاً! الأمرُ كما يَقولُ الشَّيخُ، كيفَ لَمْ أَتَبَيَّنْ هٰذا مِن قبلُ؟!

ويَحُطُّ بكَ في زوايا المنجِّمينَ والبرَّاجينَ وهذيانِهِمُ اللعينِ. وإنَّهُ لبابٌ ـ لَعَمْرُ اللهِ ـ لا يَنْبَغِي لطالبِ العلمِ المعاصرِ أنْ يَكونَ خاليَ الوفاضِ منهُ، وذٰلكَ لعمومِ بليَّةِ المسلمينَ بهِ وتكالبِ الصُّحفِ والمجلَّاتِ والفضائيَّاتِ على بثِّهِ فيهِم وزيادةِ نارِهِ أُستعارًا[1]. وتَرى مِن دقيقِ بصيرتِهِ هُنا أنَّهُ لمْ يَحْتَجَّ على القومِ بكتابٍ ولا بسنَّةٍ، فتلكَ حثالةٌ لا تُبالي بكتابٍ ولا بسنَّةٍ، ولٰكنَّهُ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ خاضَ معَهُم في علمِهِمُ المزعومِ، وراحَ يُحاجُّهُم بعلمِهِم ويُسْقِطُ إفكَهُم بأُصولِهِم ويُبْطِلُ قولَ تابعِهِم بقولِ متبوعِهِ، فرَأَيْتَهُ يَرْحَمُهُ اللهُ أعلمَ منهُم بما عندَهُم مِن فروعٍ وأُصولٍ!

ولقد واللهِ جَهَدْتُ منذُ أمدٍ طويلٍ في أنْ أَفْهَمَ حقيقةَ العدوى واللاعدوى ووجهَ الجمعِ بينَهُما وسرَّ نفيِ الطِّيَرَةِ وإثباتِ الشُّؤمِ في الدَّارِ والمرأةِ والفرسِ وحقيقةَ الصِّلةِ بينَ الاسمِ والمسمَّى وبينَ تغييرِ الاسمِ القبيحِ والتَّشاؤمِ بهِ، وقَرَأْتُ في ذٰلكَ المطوَّلاتِ والمختصراتِ وشروحَ البُخاريِّ ومُسْلِمٍ، فما رَأَيْتُ مَن قارَبَ أو كادَ، حتَّى وَقَفْتُ على فتوحِ ٱبنِ القَيِّمِ في هٰذا البابِ، فرَأَيْتُ النُّصوصَ التي ظاهرُها التَّنافرُ متكاملةً آخذًا أحدُها بيدِ أخيهِ، ورَأَيْتُ المسألةَ التي ظاهرُها مناقضةُ العلمِ الحديثِ منسجمةً معَهُ تمامَ الانسجامِ. وللهِ ما أحوجَ طالبَ العلمِ إلى فهمِ هٰذهِ القضايا التي خَبَّطَ أكثرُ النَّاسِ فيها فزادوا طينَها بِلَّةً ومنهُم مَن تَكَلَّمَ فما كَشَفَ شبهةً ولا رَفَعَ حيرةً!

ويَنْقَضي الكتابُ ولا يَنْقَضي الكلامُ في فوائدِهِ:

فهاهُنا تَتَعَلَّمُ خُلقًا نادرًا عزيزًا في أهلِ العلمِ فضلاً عن غيرِهِم، وهوَ خلقُ العدلِ والإنصافِ، تَتَعَلَّمُ مِنِ ٱبنِ القَيِّمِ إنصافَ خصمِكَ مِن نفسِكَ، وأنْ تَخْضَعَ لهُ إنْ قالَ كلمةَ

---

(١) قدّم المذيع بقوله: والآن إلى المتعة والإثارة فيما تقوله الأبراج! فٱنتفض الأستاذ البرّاج كأنّما لسعته أفعى وقال: المتعة والإثارة؟! هٰذا علم! هٰذا لا يذكر للتسلية! فتأمّل كيف تغسل أدمغة أبنائنا وناشئتنا!

الحقِّ وتَأْخُذَها منهُ دونَما غضاضةٍ، وأَنْ تَرُدَّ قولَ صديقِكَ وناصرِكَ إنْ لمْ يَكُنْ حقًّا ولو جاءَ في مصلحتِكَ. وللهِ ما أعظمَ هٰذا وما أعزَّهُ!

وهاهُنا فصولٌ منثورةٌ معترضةٌ جاءَتْ عفوَ الخاطرِ، فكانَ فيها مِن المنافعِ ما لا تَراهُ في كتابٍ. ولقد واللهِ مَرَّ بي فصلٌ ما قَرَأْتُ لهُ مثيلاً مِن قبلُ، وصِرْتُ أَسْتَشْهِدُ بِما اَسْتَفَدْتُهُ منهُ كثيرًا فأرى لسانَ حالِ السامعينَ يَقولُ: ما أَحْسَنَ هٰذا وأصوبَهُ! ولا بدَّ أَنَّهُ سَيَمُرُّ بكَ كثيرٌ نحوُهُ يَشْفي في قلبِكَ حيرةً ما كُنْتَ لِتَجِدَ شفاءَها في غيرِ هٰذا الموضعِ.

وهاهُنا قواعدُ وأُصولٌ علميَّةٌ منثورةٌ بينَ السُّطورِ، وحقُّها أَنْ تُحْفَظَ في الصُّدورِ، وأَنْ يُتَمَسَّكَ بِها في كلِّ ما يَعْرِضُ مِن الأُمورِ، فإنْ حَظيتَ بشيءٍ منها وعَقَلْتَهُ بقلبِكَ؛ فلنْ تَتَرَدَّدَ أبدًا في أَنَّ مَن قالَ «بابٌ مِن العلمِ نَقْرَؤُهُ أحبُّ إلينا مِن عبادةِ سنةٍ» إنَّما قالَهُ في مثلِ هٰذا.

وهاهُنا آياتٌ تَوَسَّعَ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ في شرحِها وبيانِ تفاصيلِها فجاءَ بلمحاتٍ مطربةٍ، وأحاديثُ نبويَّةٌ فَصَّلَ القولَ في معانيها فوَقَفَكَ على دقائقَ معجبةٍ، وشرحٌ لوصيَّةِ عَلِيِّ بنِ أَبي طالِبٍ لكُمَيْلِ بنِ زيادٍ على مدى مئةِ صفحةٍ تقريبًا، وشرحٌ لغيرِها مِن أقوالِ السَّلفِ الصَّالحِ، ومسائلُ لغويَّةٌ، وقواعدُ أُصوليَّةٌ، وأحكامٌ فقهيَّةٌ، ودقائقُ في آفاتِ القلوبِ وتهذيبِ النُّفوسِ...

وحسبُكَ مِن كتابٍ بعضُ هٰذا، وفي الجعبةِ مثلُهُ وزيادةٌ تَرَكْتُهُ لكَ تَتَذَوَّقُهُ بنفسِكَ؛ فليسَ المخبَرُ كالمعايِنِ.

● **سابعًا: تنبيهٌ وٱعتذارٌ:**

* لا يَخْفى على الموفَّقِ أَنَّا عمومًا قومٌ نُبالِغُ في المدحِ ـ وفي الذَّمِّ أيضًا ـ ونَكيلُ منهُ بالصَّاعِ والقَفِّيزِ. ولا يَخْلو كثيرٌ مِن المسلمينَ الملتزمينَ مِن مثلِ هٰذا، وربَّما كانَ بعضُهُم أكثرَ تشنُّجًا فيهِ مِن العوامِّ، كما تَرى في متعصِّبةِ الأشياخِ والأحزابِ وتراشقِهِم ومهاتراتِهِم.

ولٰكنَّ هٰذا الدَّاءَ قليلٌ بحمدِ اللهِ كمًّا وكيفًا في أهلِ الحديثِ، ولا سيَّما مَن عَقَلَ منهُم فكرَ ٱبنِ تَيْمِيَّةَ وٱبنِ القَيِّمِ ومنهجَهُما، فقلَّما تَرى فيهِم مَن سَقَطَ في تلكَ الحمأةِ

وٱنْجَرَّ مِن التَّبجيلِ إلى التَّنزيهِ ومِن التَّقديرِ إلى التَّقديسِ، بل تَراهُم غالبًا أهلَ إنصافٍ، لا يَسْتَنْكِفونَ عن حقٍّ جاءَ على غيرِ لسانِ متبوعِهِم، ولا يَضيرُهُم أنْ يُخْطِئَ شيخُهُم أو يُخَطَّأَ، ولا يَحُطُّ ذٰلكَ عندَهُم مِن قدرِهِ؛ لأنَّهُم يَعْلَمونَ أنَّهُ ليسَ مِن شرطِ العالِمِ أنْ يُصيبَ فلا يُخْطِئَ، ومَن ذا الذي لا يُخْطِئُ؟!

* لٰكنْ ربَّما يَرْجو بعضُ طلاَّبِ العلمِ أنْ يُطْنِبَ المحقِّقُ في الإشادةِ بجهودِ إمامٍ كٱبنِ القَيِّمِ مثلاً ويَغُضَّ عنِ تعقُّبِ هفواتِهِ لا على سبيلِ التَّقديسِ والتَّنزيهِ بل على أنَّ أخطاءَ هٰذا الإمامِ يسيرةٌ مغفورةٌ في جنبِ إصاباتِهِ وخدماتِهِ العظيمةِ للسُّنَّةِ. وهٰذا لَعَمْرُ اللهِ حقٌّ، ولٰكنَّ محلَّهُ قلبُ طالبِ العلمِ العاقلِ لا قلمُ المحقِّقِ. وذٰلكَ أنَّ مَن وَقَفَ نفسَهُ في مواقفِ أهلِ العلمِ؛ لَزِمَهُ ما يَلْزَمُهُم مِن ميثاقِ ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمونَهُ﴾، وحَقَّ عليهِ أنْ يَقولَ ما يَنْفَعُ النَّاسَ لا ما يُرْضيهِمْ، وما يَنْبَغي للرَّائدِ أنْ يَكْذِبَ أهلَهُ أبدًا.

هَبْ أنَّكَ جَلَسْتَ مرَّةً في مجلسٍ فيهِ برَّاجٌ أو نصيرٌ لهٰذا الهذيانِ ـ وما أكثرَ أنصارَهُ اليومَ ـ، فٱحْتَجَجْتَ عليهِ ببعضِ ما جاءَ هُنا، فتَسَلَّطَ عليكَ وأبْطَلَ حجَّتَكَ؛ فكيفَ تَراكَ تكونُ؟! ألا تَرى أنَّهُ كانَ مِن الخيرِ لي ولكَ لو نَبَّهْتُكَ إلى ضعفِ هٰذهِ الحجَّةِ وأوْصَيْتُكَ بالتَّمسُّكِ بالتي سَبَقَتْها أو تَلَتْها لقوَّتِها وعجزِ القومِ عن ردِّها؟! أتَراني لو سَكَتُّ هُنا وحابَيْتُ ناصحًا أمينًا أم غشَّاشًا مدلِّسًا آثَرَ رضاكَ على منفعتِكَ؟!

* وربَّما يَرى بعضُ إخواني مِن طلاَّبِ العلمِ أنَّ التَّعقُّبَ حقٌّ، لٰكنِ الأولى تركُهُ حتَّى لا يُفْتَحَ البابُ لضالٍّ يَتَّخِذُ ٱبنَ القَيِّمِ مجنًّا لنشرِ ضلالتِهِ أو مغرضٍ يَنْتَهِزُ الفرصةَ لتنقُّصِ شيخي الإسلامِ. لٰكنْ لو نَظَرْتَ إلى أحوالِ السَّلفِ؛ لَما رَأَيْتَهُم يَقِفونَ عندَ مثلِ هٰذا، ولو وَقَفوا عندَهُ؛ لَما تَعَقَّبَ ٱبنُ مَسْعودٍ الأشْعَرِيَّ ولا أحْمَدُ الشَّافِعِيَّ...

وكيفَ يَخْشى أهلُ السُّنَّةِ والاتِّباعِ مِن أهلِ الإفكِ والضَّلالِ وهُم يَحْمِلونَ عَصا موسى التي تَلْقَفُ ما صَنَعوا؟! كيفَ يَخْشى مَن سارَ خلفَ النَّبيِّ ﷺ وأصحابِهِ الكرامِ والشَّافِعِيِّ وأحْمَدَ والبُخارِيِّ ومسلمٍ وٱبنِ تَيْمِيَّةَ وٱبنِ القَيِّمِ... مِن تشغيباتِ الحزبيَّةِ والصُّوفيَّةِ والجهميَّةِ؟! أفإنْ أخْطَأَ ٱبنُ القَيِّمِ أيَحُطُّ ذٰلكَ مِن مقدارِهِ؟! أتُراهُم يَسْتَطيعونَ لو أجْلَبوا بخيلِهِم ورَجِلِهِم أنْ يَأْتوا بإمامٍ لهُم لهُ معشارُ هٰذهِ العقليَّةِ النَّيِّرةِ الفذَّةِ! لا

واللهِ؛ قد عَجَزَتِ النِّساءُ بعدَ ٱبنِ القَيِّمِ أنْ يَأْتِينَ بنظيرٍ لهُ في سعةِ الاطِّلاعِ وتفتُّحِ الذِّهنِ وٱستيعابِ قضايا المسلمينَ حتَّى عصرِنا الحاضرِ وإرشادِهِم إلى حلولِها.

هٰذهِ كتبُنا مرآةَ صدورِنا وألسنتُنا ترجمانَ قلوبِنا وما عندَنا كتابًا مفتوحًا؛ فتَعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بينَنا وبينَكُم، وهَلُمَّ ما عندَكُم وما عندَنا نَضَعْهُ تحتَ مجهرِ الفحصِ والتَّقويمِ، ونحنُ راضونَ بحكمِ الحقِّ فينا وفي أئمَّتِنا؛ فهلْ تَرْضَوْنَ بحكمِهِ فيكُم وفي أئمَّتِكُم! هيهاتَ يَفْعَلُ ذٰلكَ مَن أَبْطَنَها ودَسَّاها!

لا واللهِ؛ لا يَشْغَلُني ما سَيَقولُ أهلُ البهتِ في شيخَي الإسلامِ ولا ما سَيَتَدارَوْنَ وراءَهُ مِن أقوالِهِما وعباراتِهِما، قدِ ٱسْتَماتوا قديمًا وحديثًا في سبيلِ النَّيلِ منهُما وركِبوا الصَّعبَ والذَّلولَ فٱنْقَلَبوا خائبينَ، ولمَّا لمْ يَجِدوا لهُم عليهِما شبهةً ولا أثارةً مِن علمٍ؛ راحوا يَقْتَطِعونَ مِن عباراتِهِما ما يُكَفِّرونَهُما ويُضَلِّلونَهُما بهِ، فإنْ أعْياهُم ذٰلكَ قَوَّلوهُما ما صَرَّحا بنفيِهِ مرارًا ولمْ يَتَفَوَّها بهِ مرَّةً واحدةً بغيرِ دينٍ ولا حياءٍ؛ فأيُّ حيلةٍ لي ولكَ فيمَنِ ٱنْحَطَّ إلى هٰذا الحضيضِ وشَرِبَ مِن هٰذا المستنقعِ وهوَ يَدَّعي أنَّهُ مِن الدُّعاةِ؟!

لا واللهِ؛ لا يَشْغَلُني هٰؤلاءِ. لٰكنَّ الذي يَشْغَلُني حقًّا هوَ ذاكَ الشَّابُّ الغضُّ النَّاشئُ مِن أهلِ السُّنَّةِ والاتِّباعِ، الذي تَفَتَّحَتْ عليهِ أبوابُ كلِّ شيءٍ مِن المجلَّاتِ إلى الفضائيَّاتِ إلى النَّشرِ الإلكترونيِّ والإنترنت، وما أكثرَ ما فيها مِن التَّلويثِ الفكريِّ المدبَّرِ الذي يُلْقيهِ تارةً في تشنُّجاتِ الحزبيَّةِ البغيضةِ وطورًا في ضلالاتِ التَّكفيرِ وترويعِ المسلمينَ وحينًا في تيَّاراتِ العصرانيِّينَ أو سراديبِ الدَّجَّالينَ أو شكوكِ المشكِّكينَ. نعم؛ قد لا يَكونُ هٰذا خطرًا عليَّ ولا عليكَ، ولٰكنَّهُ عظيمُ الخطرِ حقًّا على ذاكَ الشَّابِّ، نوشِكُ واللهِ أنْ نَفْقِدَهُ إلى غيرِ رجعةٍ إنْ لمْ نُحَصِّنْهُ بالمنهجِ العلميِّ في البحثِ والدَّرسِ والقبولِ والرَّدِّ؛ فهٰذا وحدَهُ الكفيلُ بحمايتِهِ مِن هٰذهِ المنزلقاتِ، واللهُ خيرٌ حافظًا.

* وربَّما يَقولُ بعضُ إخواني: سَلَّمْنا أنَّ التَّعقُّبَ حقٌّ، لٰكنَّ لهُ أهلَهُ، ومَن أنتَ يا هٰذا حتَّى تَتَعَقَّبَ ٱبنَ القَيِّمِ وغيرَه مِن أهلِ العلمِ؟! أينَ الثُّريَّا مِن الثَّرى؟!

وهٰذا سؤالٌ قديمٌ ألحَّ عليَّ كثيرًا قبلَ سنينَ خلالَ عملي في تحقيقِ بعضِ الكتبِ فٱنْقَبَضَ لهُ صدري ودَخَلَ عليَّ مِن الغمِّ والهمِّ ما لا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ! ولا واللهِ؛ ما جَلا

همِّي وأذْهَبَ غمِّي إلاَّ ٱبنُ القَيِّمِ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ في علِّيِّينَ حينَما رَأيْتُهُ يَقولُ في «المدارج» (٢/ ٧٢ ط. ٱبن خزيمة) بعدَ ٱعتراضٍ لهُ طويلٍ على الهَرَوِيِّ صاحبِ «المنازل»: «وهٰذا غايةُ جهدِ المقلِّ في هٰذا الموضعِ، فمَن كانَ عندَهُ فضلُ علمٍ فلْيَجُدْ بهِ أو فلْيَعْذُرْ ولا يُبادِرْ إلى الإنكارِ، فكم بينَ الهدهدِ ونبيِّ اللهِ سُلَيْمانَ وهوَ يَقولُ لهُ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، وليسَ شيخُ الإسلامِ أعلمَ مِن نبيِّ اللهِ، ولا المعترضُ عليه بأجهلَ مِن هدهدٍ». فتَمَسَّكْتُ بهٰذا الأصلِ وبَنَيْتُ عليهِ، ولا سيَّما أنَّني لا أتَعَقَّبُ غالبًا إلاَّ مستندًا إلى أقوالِ الثِّقاتِ المَرْضِيِّينَ مِن أهلِ العلمِ، ومنهُمُ ٱبنُ القَيِّمِ نفسُهُ.

* وقالَ لي كثيرٌ مِن طلاَّبِ العلمِ: لا بأْسَ في هٰذا كلِّهِ إذا صَدَقَتِ النِّيَّةُ، شريطةَ أنْ لا يَتَطَوَّرَ التَّعَقُّبُ إلى الملاحقةِ وتتبُّعِ العثراتِ وأنْ لا يَخْرُجَ الأُسلوبُ أبدًا عن أدبِ طالبِ العلمِ الصَّغيرِ معَ إمامِهِ الجليلِ الكبيرِ.

وهٰذهِ واللهِ النَّصيحةُ حقَّ النَّصيحةِ، ولقد أخَذْتُ بها نفسي وعَمِلْتُ عليها في هٰذا الكتابِ، وإنِّي لآخذٌ بها وعاملٌ عليها ما ٱسْتَطَعْتُ إنْ قَدَّرَ اللهُ لي أنْ أخْدِمَ غيرَهُ مِن كتبِ هٰذا الإمامِ وغيرِهِ، فإنْ وُفِّقْتُ فبفضلِ ربِّي ورحمتِهِ قبلَ كلِّ شيءٍ، ثمَّ بنصائحِ المخلصينَ مِن إخواني[1]. وإنِّي لراجٍ ـ بما أبْذُلُهُ في كتبِ هٰذا الإمامِ مِن الجهدِ الدَّؤوبِ في تيسيرِ عسيرِها والنُّصحِ الخالصِ في إيضاحِ خفيِّها والصَّبرِ الطَّويلِ في إخراجِها على أحسنِ صورةٍ ـ أنْ يَكونَ لي يومَ القيامةِ يدٌ بيضاءُ عندَهُ ونصيبٌ مِن شفاعتِهِ. واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ، لا ربَّ سواهُ.

* * * * *

---

(١) ولا تتوان يرحمك الله عن التنبيه إلى ما تراه مفيدًا سواء بالمهاتفة على ٠٠٩٦٢٦٤٦١٤٠٦٨، أو بالمراسلة إلى الأردن عمّان ١١١١٨ ص.ب ١٨٢٧٤٢، أو بريد إلكتروني alhassanpup@hotmail.com، فما بلغ بي الحال إلى الغنى عن النصح والملاحظات.

شبهات وقضايا
بين العلوم التطبيقية والأحكام الشرعية

أرْسى ٱبنُ القَيِّم رحمةُ اللهِ عليهِ في هٰذا الكتابِ بقولِه أو بفعلِه أُصولاً علميَّةً وفكريَّةً جليلةً تَشْتَدُّ حاجةُ طالبِ العلمِ المعاصرِ لها، ولٰكنَّها جاءَتْ مختصرةً أحيانًا، وإشارةً في تضاعيفِ الكلامِ أحيانًا، وبلسانِ عصرِ ٱبنِ القَيِّم ومفاهيمِهِ العلميَّةِ أحيانًا، فرَأيْتُ مِن المفيدِ أنْ أجْمَعَ أطرافَها وأُضيءَ حلقاتِها وأصوغَها ميسَّرةً ٱنطلاقًا من واقعنا العلميِّ والدِّينيِّ المعاصرِ؛ فذٰلكَ أوقعُ في القلبِ وأرسخُ في الذِّهنِ وأنفعُ في تكوينِ موقفٍ واضحٍ منها.

● **أوّلاً: للاطِّلاعِ على العلومِ التَّطبيقيَّةِ فوائدُ جمَّةٌ لطالبِ العلمِ:**

لا ريبَ أنَّنا نَعيشُ اليومَ في عصرِ التَّخصُّصِ العلميِّ، وأنَّ هٰذا التَّخصُّصَ في جزئيَّاتِ العلمِ الشَّرعيِّ أو التَّطبيقيِّ خَلَّفَ أبحاثًا دقيقةً وعميقةً، لٰكنْ يَبْقى للثَّقافةِ العامَّةِ في أبوابِ العلومِ المختلفةِ وما يَجِدُّ فيها أثرٌ لا يُنْكَرُ في الحياةِ العلميَّةِ والعمليَّةِ.

ربَّما تَجِدُ مَن يَقولُ: هٰذا شططٌ لا يَنْبَغي أنْ يُلْتَفَتَ إليهِ! وكيفَ يَنْصَرِفُ طالبُ العلمِ الشَّرعيِّ عمَّا هوَ فيهِ مِن الخيرِ العظيمِ إلى ما هوَ دونَهُ في كلِّ حالٍ؟! ولا سيَّما أنَّ العلمَ الشَّرعيَّ بحرٌ لا ساحلَ لهُ، ما يَكادُ يَنْقَضي لكَ منهُ بابٌ حتَّى تَجِدَّ أبوابٌ...

وحسبُكَ في ردِّ مثلِ هٰذهِ الدَّعوى أنْ تَتَأمَّلَ في بعضِ مصنَّفاتِ ٱبنِ القَيِّم قَدَّسَ اللهُ روحَهُ: ففي «الطِّبِّ النَّبويِّ» شهادةٌ لا تُرَدُّ على عمقِ معرفتِهِ بأبوابِ الطِّبِّ وأقوالِ أهلِهِ، وفي «مفتاح دار السّعادة» شهادةٌ صادقةٌ على معرفتِهِ بالرِّياضيَّاتِ والفلكِ وعلمِ الحيوانِ والنَّباتِ، وفي الكتبِ الأُخرى أدلَّةٌ نحوُ ذٰلكَ وزيادةٌ. فهل تَرى هٰذهِ العلومَ الكونيَّةَ شَغَلَتِ الشَّيخَ عن تبحُّرِهِ في أبوابِ الشَّريعةِ وإمامتِهِ فيها؟!

لا أراني أُغالي لو قُلْتُ: لقد وَظَّفَ ٱبنُ القَيِّمِ ٱطِّلاعَهُ الواسعَ على كثيرٍ مِن العلومِ الطَّبيعيَّةِ توظيفًا عمليًّا في خدمةِ الدَّعوةِ ما سَبَقَهُ بهِ أحدٌ فيما أَعْلَمُ، فكانَتْ معرفتُهُ بهٰذهِ العلومِ عاملاً مِن عواملِ رفعتِهِ وخلودِ آثارِهِ وخضوعِ الخلقِ لحجَّتِهِ. وفي بابِ الرَّدِّ على المنجِّمينَ مِن هٰذا الكتابِ بالذَّاتِ مثالٌ عمليٌّ شاهدٌ على صدقِ هٰذهِ المقولةِ.

● **ثانيًا: العلومُ التَّطبيقيَّةُ بينَ القديمِ والحديثِ:**

كانَ الأطبَّاءُ اليونانيُّونَ يَرَوْنَ ٱنقسامَ الأطعمةِ والأدويةِ إلى أصنافٍ أربعةٍ: حارٌّ يابسٍ، وحارٌّ رطبٍ، وباردٍ يابسٍ، وباردٍ رطبٍ. ويَجْعَلونَها في ذٰلكَ على درجاتٍ، فتَراهُم يَصِفونَ مادَّةً ما مثلاً بأنَّها حارَّةٌ في الثَّالثةِ رطبةٌ في الأُولى...

وكانوا يَرَوْنَ أنَّ الطَّعامَ المتوازنَ الصِّحِّيَّ الذي لا يَضُرُّ بالجسمِ هوَ الذي يُعَدِّلُ بعضُهُ بعضًا حرارةً وبرودةً ويبسًا ورطوبةً، فإذا لم يَكُنْ كذٰلكَ؛ لم يَكُنْ طعامًا صحِّيًّا.

وكانوا يَرَوْنَ أنَّ صحَّةَ جسمِ الإنسانِ تَقومُ على التَّوازنِ بينَ أخلاطٍ أربعةٍ سَمَّوْها الأمزجةَ أوِ الطَّبائعَ، وهيَ: ١) المِرَّةُ الحمراءُ، أو الدَّمُ، ومحلُّها العروقُ. ٢) المِرَّةُ الصَّفراءُ، وهيَ العصارةُ الصَّفراويَّةُ، ومحلُّها المرارةُ Gall bladder. ٣) المِرَّةُ السَّوداءُ، وهيَ بقايا الكريَّاتِ الحمراءِ الهرمةِ، ومحلُّها الطِّحالُ Spleen. ٤) والمِرَّةُ البيضاءُ، وهيَ البلغمُ، ومحلُّها الصَّدرُ. وربَّما تَجِدُ مَن يَذْكُرُ البولَ بدلاً مِن المِرَّةِ البيضاءِ، ومحلُّهُ المثانةُ Urinary bladder.

وكانوا يَعْزونَ جميعَ الأمراضِ إلى ٱضطرابِ التَّوازنِ بينَ هٰذهِ الأخلاطِ الأربعةِ وغلبةِ بعضِها على بعضٍ: فأمراضُ الدَّمِ الامتلائيَّةُ تَرْجِعُ إلى تبيُّغِ الدَّمِ وغلبةِ المِرَّةِ الحمراءِ، وأمراضُ الكبدِ تَرْجِعُ إلى غلبةِ المِرَّةِ الصَّفراءِ... إلخ.

وكانوا يُعالِجونَ هٰذهِ الأمراضَ بالأدويةِ التي تُعَدِّلُ هٰذا التَّوازنَ بحسبِ حرارتِها ورطوبتِها، فالأمراضُ الامتلائيَّةُ تَحْتاجُ إلى أدويةٍ مجفِّفةٍ كالمسهِّلاتِ والمقيِّئاتِ والمجفِّفاتِ وأمراضُ الوهنِ والتَّعبِ تَحْتاجُ إلى مقوِّياتِ الدَّمِ ونحوِها...

ونَسَجَ أطبَّاءُ المسلمينَ عمومًا ـ وتابَعَهُمُ ٱبنُ القَيِّمِ ـ على منوالِ اليونانيِّينَ، فٱعْتَمَدوا نظريَّتَهُمُ الطِّبِّيَّةَ أصلاً في ممارستِهِم العمليَّةِ ومصنَّفاتِهِم، ولٰكنَّهُم لمْ يَقِفوا

عندَها، بل طَوَّروا وأضافوا أشياءَ كثيرةً مِن تجارِبِهِمُ الخاصَّةِ.

وممَّا لا ريبَ فيهِ أنَّ النَّظريَّةَ الطِّبِّيَّةَ اليونانيَّةَ التي وَظَّفَتِ المنطقَ الصُّوريَّ في خدمةِ الطِّبِّ قَدَّمَتْ تفسيراتٍ منطقيَّةً وتحليلاتٍ مقبولةً عقلاً لكثيرٍ مِن الأمراضِ وأسْهَمَتْ بعلاجِها علاجًا ناجحًا في أحيانٍ غيرِ قليلةٍ، ولٰكنَّ هٰذهِ التَّحليلاتِ المنطقيَّةَ والتَّفسيراتِ التي ٱسْتَساغَتْها العقولُ في يومٍ مِن الأيَّامِ لَمْ تَصْمُدْ طويلاً أمامَ معطياتِ الطِّبِّ التَّجريبيِّ المعاصرِ، بلِ ٱنْهارَتْ أُصولُها تباعًا حتَّى أصْبَحَتْ جزءًا مِن تاريخِ الطِّبِّ وحَلَّتْ محلَّها العلومُ العمليَّةُ والدِّراساتُ المخبريَّةُ والمجهريَّةُ التي وَظَّفَتِ التَّطوُّرَ المتسارعَ في مختلفِ أبوابِ الفيزياءِ والكيمياءِ والحيوانِ والنَّباتِ في خدمةِ الطِّبِّ وٱسْتَفادَتْ إلى أبعدِ الحدودِ ممَّا جدَّ فيها[1].

وقُلْ مثلَ ذٰلكَ في العلومِ التَّطبيقيَّةِ الأُخرى كالفيزياءِ والكيمياءِ والأحياءِ والفلكِ، بل كانَ الأمرُ هاهُنا أعظمَ وأكبرَ منهُ في الطِّبِّ كما هوَ معلومٌ مشهورٌ، وليسَ هٰذا محلَّ التَّفصيلِ في ذٰلكَ، وإنَّما فَصَّلْتُ في النَّظريَّةِ الطِّبِّيَّةِ اليونانيَّةِ لِتكونَ مثالاً لغيرِها ولأنَّكَ سَتَحْتاجُ إليها في تضاعيفِ هٰذا الكتابِ وغيرِهِ مِن كتبِ ٱبنِ القَيِّمِ.

● **ثالثًا: بينَ الفلسفةِ والدِّينِ:**

* ٱشْتُهِرَ المنطقُ الصُّوريُّ (منطقُ اليونانيِّينَ أوِ الفلسفةُ) في العصورِ الخاليةِ على أنَّهُ مقدِّمةٌ علميَّةٌ يَرْتاضُ فيها المبتدئُ في مختلفِ أنواعِ العلومِ على المحاكمةِ السَّليمةِ للقضايا العقليَّةِ والانتقالِ مِن بدهيَّاتِ العقلِ وقضاياهُ الأوَّليَّةِ إلى القضايا العلميَّةِ المعقَّدةِ التي لا يَتَقَبَّلُها العقلُ إلَّا بعدَ إثباتِها بالمحاكمةِ والبرهانِ.

ولمَّا كانَتْ هٰذهِ المعرفةُ ضروريَّةً لتحصيلِ العلومِ الطَّبيعيَّةِ آنئذٍ؛ كانَ لا بدَّ للمبتدئِ مِن دراسةِ شيءٍ مِن المنطقِ الصُّوريِّ يُؤَهِّلُهُ لمتابعةِ الاختصاصِ المطلوبِ كما تُؤَهِّلُ الشَّهادةُ الثَّانويَّةُ العامَّةُ اليومَ صاحبَها للالتحاقِ بالتَّعليمِ العالي، ومِن هُنا شاعَ في

---

(١) لاحظ أنّ الذي سقط هو التحليلات المنطقيّة والتفسيرات العلميّة لأحوال الجسم في الصحّة والمرض وطبائع الأدوية وآليّة تأثيرها وليس كلّ ما جاء به القدماء من تدبير المرضى والعقاقير النافعة لهم من الأعشاب وغيرها، فهاهُنا أشياء كثيرة صحيحة ينبغي أن لا يهدرها الأطبّاء المعاصرون سعيًا وراء كلّ حديث.

الأقدمينَ مِن أهلِ العلومِ الطَّبيعيَّةِ مقولةُ: الفلسفةُ أُمُّ العلومِ.

* ولَمْ يَكُنْ دورُ المنطقِ الصُّوريِّ قاصرًا على تلكَ المقدِّماتِ، بل غالبًا ما كانَ يَمْتَدُّ لِيَطولَ مختلفَ القضايا العلميَّةِ في العلومِ الكونيَّةِ، حتَّى لا تَكادُ تَقِفُ على كتابٍ قديمٍ في علمٍ مِن العلومِ؛ إلَّا وللمنطقِ الصُّوريِّ وأساليبِ أهلِهِ في معالجةِ القضايا بصماتٌ ظاهرةٌ على مادَّتِهِ. ويَرْجِعُ هٰذا عمليًّا إلى أنَّ علومَ الأقدمينَ ٱعْتَمَدَتْ على التَّأمُّلِ والملاحظةِ والحدسِ والتَّحليلِ العقليِّ للقضايا أكثرَ ممَّا ٱعْتَمَدَتْ على التَّجربةِ العلميَّةِ المضبوطةِ بالأُسسِ والقواعدِ التي يَميلُ المعاصرونَ إليها.

* وربَّما يَقولُ قائلٌ: فإذا كانَ للمنطقِ هٰذا الدَّورُ الفعَّالُ في علومِ الأقدمينَ؛ فما هٰذهِ السُّمعةُ السَّيِّئةُ التي شاعَتْ عنهُ؟! ولماذا رَأيْتَ الجبالَ الموثوقينَ مِن أهلِ العلمِ الشَّرعيِّ كشيخي الإسلامِ يَحْمِلونَ عليهِ وعلى أهلِهِ؟!

والجوابُ: قُلْ فيهِ إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للنَّاسِ وإثمُهُ أكبرُ مِن نفعِهِ. وذٰلكَ لأُمورٍ:

أوَّلُها: أنَّ مَلَكَةَ الانتقالِ مِن المقدِّماتِ إلى النَّتائجِ ومِن البَدَهيَّاتِ إلى المسائلِ المعقَّدةِ لا تَحْتاجُ إلى دراسةِ علمٍ مستقلٍّ بقدرِ ما تَحْتاجُ إلى قلبٍ واعٍ وعقلٍ سليمٍ، ولذٰلكَ تَرى كثيرًا ممَّن لمْ يَعْرِفِ المنطقَ ولا سَمِعَ بِهِ متمكِّنًا مِن هٰذهِ القضيَّةِ أضعافَ ما يَسْتَطيعُهُ أهلُ المنطقِ. نعمْ؛ ربَّما يَصْقُلُ المنطقُ هٰذهِ الملكةَ ويَزيدُها دقَّةً.

ومِن هُنا ٱسْتَغْنَتِ العلومُ التَّطبيقيَّةُ المعاصرةُ عنِ المنطقِ الصُّوريِّ ٱستغناءً تامًّا، فلا تَكادُ تَرى لهٰذا العلمِ في الدراساتِ الجامعيَّةِ الحديثةِ عينًا ولا أثرًا، وإنَّما حَلَّتْ محلَّهُ بدائلُ عمليَّةٌ مفيدةٌ: فتَرى أهلَ الرِّياضيَّاتِ يُوَطِّئونَ بتعريفاتٍ وبدهيَّاتٍ ومسلَّماتٍ يَنْتَقِلونَ منها إلى النَّظريَّاتِ والبراهينِ، فيَقولونَ مثلًا: النُّقطةُ كذا، الخطُّ كذا... وأهلَ الفيزياءِ والكيمياءِ يُوَطِّئونَ بقانونِ ٱنحفاظِ الكتلةِ وقانونِ الفعلِ وردِّ الفعلِ... وأهلَ الحيوانِ والنَّباتِ يُوَطِّئونَ بأُسسِ التَّصنيفِ... ثمَّ تَتَدَرَّجُ هٰذهِ العلومُ صعدًا مِن القضايا البسيطةِ إلى المباحثِ العاليةِ، وتَنْمو معَها مقدرةُ الدَّارسِ على التَّحليلِ والبرهانِ حتَّى تُصْبِحَ ملكةً متأصِّلةً دونَما حاجةٍ إلى درسٍ مستقلٍّ في المنطقِ والفلسفةِ.

ثانيًا: إنَّ المنطقَ الصُّوريَّ بحدِّ ذاته مادَّةٌ معقَّدةٌ صعبةُ المنالِ، يَحْتاجُ دارسُها إلى

طولِ عناءٍ حتَّى يَتَمَكَّنَ منها، وهٰذا يُضَيِّعُ عليهِ أوقاتًا ثمينةً كانَ الأولى بهِ أنْ يُنْفِقَها في تحصيلِ أبوابٍ علميَّةٍ عظيمةِ الأهمِّيَّةِ في حقلِ ٱختصاصِه.

ثالثًا: وكثيرًا ما يُسَيْطِرُ هٰذا العلمُ على صاحبِهِ ويَتَمَكَّنُ مِن لسانِهِ وجَنانِه، فترى أُسلوبَهُ في الكلامِ أوِ التَّصنيفِ عسرًا لا تكادُ تُدْرِكُ مراميَهُ إلَّا بشقِّ الأنفس.

رابعًا: وربَّما ٱسْتَوْلى المنطقُ على قلبِ دارسِهِ ومَلَكَ عليهِ لبَّهُ وصَرَفَهُ عن غايتِهِ فٱشْتَغَلَ بٱختصارِ هٰذا وشرحِ ذاكَ وتعقُّبِ الثَّالثِ!

خامسًا: ولعلَّ أخطرَ آثارِ المنطقِ التي أوْدَتْ بأهلِهِ أنَّهُ يُعَزِّزُ في صاحبِهِ ثقتَهُ بأحكامِ عقلِهِ وتحليلاتِهِ وتنظيراتِهِ حتَّى يَتَطَوَّرَ بهِ الأمرُ إلى تعظيمِها ـ إنْ لمْ أقُلْ تأليهها ـ وتحكيمِها في نصوصِ الشَّرعِ ردًّا وقبولاً! فإنِ ٱجْتَمَعَ لصاحبِهِ فوقَ هٰذا قلَّةُ الحظِّ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ ومذاهبِ السَّلفِ؛ فٱنْتَظِرْ منهُ عجائبَ وأباطيلَ تَجْعَلُ الولدانَ شيبًا، وقلَّما نَجا واحدٌ مِن أهلِ المنطقِ مِن هٰذا الدَّاءِ الدَّويِّ، فمستقلٌّ ومستكثرٌ.

سادسًا: فإنْ تَعَمَّقَ في البابِ أكثرَ وأكثرَ، ودَخَلَ في النُّبوَّاتِ والإلٰهيَّاتِ، وراحَ يُقَنِّنُ بعقلِهِ ويُقَعِّدُ ويوجِبُ على ربِّهِ ويُحَرِّمُ؛ فخُذْ ما شِئْتَ مِن محالاتٍ وضلالاتٍ وكفريَّاتٍ تَنْشَقُّ لها الأرضُ وتَتَفَطَّرُ السَّماواتُ.

فمِن أجلِ هٰذا ولهٰذا رَأَيْتَ الجبالَ مِن أهلِ العلمِ لا يَنُونَ يَقولونَ في مؤلَّفاتِهم عنِ الفلسفةِ والمنطقِ: أبْعَدَهُ اللهُ مِن علمٍ.

● **رابعًا: بينَ العلومِ التَّطبيقيَّةِ والدِّينِ:**

* لا بدَّ أنَّه مرَّ بكَ عناوينُ لمصنَّفاتٍ أو محاضراتٍ نحوُ «الطبّ محراب الإيمان» و«العلم والإيمان» و«مع الله في الفضاء» و«الإنسان؛ الكون؛ الله»... وغيرُ ذٰلكَ ممَّا يَصِفُ الصِّلةَ الوثيقةَ بينَ العلمِ والإيمانِ ويُؤَكِّدُ هٰذهِ الحقيقةَ ويُرَسِّخُها في الأذهانِ.

* لٰكنْ لو تَتَبَّعْتَ هٰذهِ الدَّعوى النَّظريَّةَ ـ دعوى كونِ العلومِ التَّطبيقيَّةِ واحدةً مِن أعظمِ الدَّواعي إلى الإيمانِ ـ؛ فلنْ تَجِدَ لها ما يَدْعَمُها إحصائيًّا، بل ربَّما بَلَغَ بكَ الحالُ إلى أنْ تَقولَ: لعلَّ العكسَ أقربُ للصَّوابِ.

وهٰذهِ ظاهرةٌ قديمةٌ حديثةٌ أشارَ ٱبنُ القَيِّمِ لها هُنا بقولِهِ (٣/ ١٧٧): «ولقد خَفِيَ ما

جاءَتْ بهِ الرُّسلُ على طائفتينِ. . . وَقَفَتْ [إحداهُما] معَ ما شاهَدَتْهُ وعَلِمَتْهُ مِن أُمورِ هٰذهِ الأسبابِ والمسبَّباتِ وأحالَتِ الأمرَ عليهِما وظَنَّتْ أَنَّهُ ليسَ وراءَهُما شيءٌ، فكَفَرَتْ بما جاءَتْ بهِ الرُّسلُ وجَحَدَتِ المبدأَ والمعادَ والتَّوحيدَ والنُّبوَّاتِ وغيرَها بما ٱنْتَهى إليهِ علومُها ووَقَفَتْ عندَهُ أقدامُها مِن العلمِ بظاهرٍ مِن المخلوقاتِ وأحوالِها».

* ولعلَّ أصابعَ الاتِّهامِ سَتَتَّجهُ قبلَ كلِّ شيءٍ إلى المنطقِ الصُّوريِّ والفلسفةِ التي كانَتْ أصلاً ومنطلقًا لكلِّ مَن شَدا شيئًا مِن العلومِ الطَّبيعيَّةِ في ذٰلكَ العصرِ، وفي هٰذا قدرٌ مِن الصَّوابِ وليسَ فيهِ الصَّوابُ كلُّهُ، وذٰلكَ أنَّ العلومَ التَّطبيقيَّةَ المعاصرةَ تَخَلَّصَتْ عمليًّا مِن أوضارِ المنطقِ ولٰكنَّها لمْ تَتَخَلَّصْ مِن هٰذهِ الظَّاهرةِ، فما زالَ للإلحادِ حضورٌ ملفتٌ للنَّظرِ في أهلِ العلومِ التَّطبيقيَّةِ في الغربِ، وما زالَتْ قلَّةُ الدِّينِ ظاهرةً ملموسةً في كثيرٍ مِن أهلِها في بلادِنا.

وقد وَضَعَ ٱبنُ القيِّمِ يَدَهُ على السَّببِ الذي يَرْجِعُ إليهِ عظمُ هٰذهِ الظَّاهرةِ، فقالَ (٣/ ١٧٨): «إنَّ أُولٰئكَ لمَّا وَقَفوا على الصَّوابِ فيما أَدَّتْهُم إليهِ أفكارُهُم مِن الرِّياضيَّاتِ وبعضِ الطَّبيعيَّاتِ؛ وَثِقوا بعقولِهِم، وفَرِحوا بما عندَهُم مِن العلومِ، وظَنُّوا أنَّ سائرَ ما قَدَّمَتْهُ أفكارُهُم مِن العلمِ باللهِ وشأْنِهِ وعظمتِهِ هوَ كما أَوْقَعَهُم عليهِ فكرُهُم وحكمُهُ حكمُ ما شَهِدَ بهِ الحسُّ مِن الطَّبيعيَّاتِ. . . ورَأَى كثيرٌ منهُم أَنَّهُم خواصُّ النَّوعِ الإنسانيِّ وأهلُ الألبابِ وأنَّ ما عداهُم همُ القشورُ. . . ذَهَبوا بأفكارِهِم وعقولِهِم، وتَجاوَزوا ما جاءَتْ بهِ الرُّسلُ، وظَنُّوا أنَّ إصابتَهُم في الجميعِ سواءٌ».

فتَخَلَّصَ مِن هٰذا أنَّ آفةَ القومِ التي أَوْرَدَتْهُمُ المهالكَ إعجابُهُم بعقولِهِم وغسالةِ أذهانِهِم وتقديمُها على ما جاءَ في كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ. وهٰذا حقٌّ مشهودٌ في أهلِ العلومِ التَّطبيقيَّةِ اليومَ.

وزِدْ على ما تَقَدَّمَ أنَّ دراسةَ بابٍ مِن العلومِ التَّطبيقيَّةِ والتَّفوُّقَ فيهِ غالبًا ما يَكونُ على حسابِ بقيَّةِ العلومِ، فترى الرَّجلَ أُستاذًا في الرِّياضيَّاتِ وهوَ مِن أجهلِ النَّاسِ في الطِّبِّ أوِ الكيمياءِ، هٰذا معَ أنَّ هٰذهِ علومٌ متقاربةُ الأُصولِ إلى حدٍّ ما، فكيفَ بما كانَ بعيدًا عنها؟! كيفَ بقضايا الشَّريعةِ والإلٰهيَّاتِ والنُّبوَّاتِ وأحوالِ النَّفسِ البشريَّةِ وما

يُصْلِحُها في معاشِها ومعادِها؟! لا ريبَ أنَّ هٰذا أبعدُ منالاً! وهٰذهِ أُمورٌ لا يَخْتَلِفُ في شأْنِها العقلاءُ ولا يَرَوْنَ بها بأْسًا، لٰكنِ المشكلُ هُنا أنَّ الطَّبيبَ يَخْضَعُ للفيزيائيِّ إذا كانَ الكلامُ في الفيزياءِ والكيميائيُّ يَخْضَعُ للفلكيِّ كذٰلكَ، فإذا ما دَخَلَ الكلامُ في الشَّرائعِ؛ تَكَلَّمَ الجميعُ، وألْقى كلٌّ بما عندَهُ مِن الرُّؤى والتَّنظيراتِ، وما أكثرَ ما تَسْمَعُ: أنا أرى كذا! دينُنا يَتَناسَبُ معَ العصرِ! العمدةُ على القلبِ! فلا هوَ حَصَّلَ العلمَ النَّافعَ، ولا خَضَعَ لقولِ أهلِهِ!

* ودلالةُ العلومِ التَّطبيقيَّةِ على وجودِ الخالقِ سبحانَهُ وعلى أنَّه مدبِّرٌ متصرِّفٌ قادرٌ عليمٌ حكيمٌ خبيرٌ أمرٌ ثابتٌ لا يُماري فيهِ إلاَّ مَن طَبَعَ اللهُ على قلبِهِ، لٰكنَّ هٰذا لا يَعْني أنَّ هٰذهِ الدِّلالةَ قاعدةٌ مطَّردةٌ لا تَنْخَرِمُ، كيفَ وقد سَمِعْتَ ورَأَيْتَ في أساطينِ العلومِ التَّطبيقيَّةِ وأساتذتِها في الشَّرقِ والغربِ قديمًا وحديثًا كثيرًا مِن الملاحدةِ اللادينيِّينَ أصلاً؟!

وقد نَبَّهَ ابنُ القَيِّمِ يَرْحَمُهُ اللهُ إلى هٰذا بقولِهِ (٢/ ٢٢٠): «فرقٌ بينَ نظرِ الطَّبيبِ والطَّبائعيِّ في هٰذهِ الأُمورِ وكونِهِ مقصورًا على النَّظرِ في حفظِ الصِّحَّةِ ودفعِ السَّقمِ، فهوَ يَنْظُرُ فيها مِن هٰذهِ الجهةِ فقط. وبينَ نظرِ المؤمنِ العارفِ فيها، فهوَ يَنْظُرُ فيها مِن جهةِ دلالتِها على خالقِها وباريها وما لهُ فيها مِن الحكمِ البالغةِ والنِّعمِ السَّابغةِ والآلاءِ التي دَعا العبادَ إلى شكرِها وذكرِها».

* وأنتَ تَعْلَمُ أنَّ الإقرارَ بوجودِ الخالقِ سبحانَهُ وعلمِهِ وحكمتِهِ لا يَفي بأركانِ الإيمانِ الذي يَدْخُلُ صاحبُهُ الجنَّةَ ويَنْجو مِن النَّارِ، فالأمرُ أبعدُ مِن ذٰلكَ بكثيرٍ، ولا بدَّ هاهُنا مِن تجريدِ التَّوحيدِ للهِ وتجريدِ الاتِّباعِ لرسولِهِ ﷺ، وهيَ أُمورٌ لا يُمْكِنُ الاستدلالُ عليها بالعلمِ الكونيِّ على سبيلِ الإجمالِ فضلاً عنِ التَّفصيلِ، كما تَرى مصداقَ ذٰلكَ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضونَ . وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكونَ﴾ [يوسف: ١٠٥-١٠٦].

* والذي أَخْلُصُ إليهِ مِن هٰذا كلِّهِ أنَّ للعلومِ التَّطبيقيَّةِ أثرًا مشكورًا في زيادةِ إيمانِ المؤمنينَ مِن أهلِها، ودلالةً لا تُدْفَعُ على وجودِ الخالقِ وعلمِهِ وقدرتِهِ وحكمتِهِ. وأمَّا أنْ يُقالَ: الطِّبُّ محرابُ الإيمانِ والعلومُ التَّطبيقيَّةُ بابُهُ ونحوُ ذٰلكَ؛ فعباراتٌ برَّاقةٌ

وفقاقيعُ لا تَلْبَثُ أنْ تَتلاشى في أرضِ الواقعِ.

إنَّ محرابَ الإيمانِ الحقيقيَّ الذي لا يَنْبَغي للمؤمنِ أنْ يَتَّخِذَ محرابًا سواه، وبابَهُ لِمَن رامَ الدُّخولَ في حِماه، هوَ الإقبالُ على قراءةِ كتابِ اللهِ وتدبُّرِ آياتِهِ الشَّرعيَّةِ والكونيَّةِ وفهمُ سنَّةِ النَّبيِّ ﷺ وتطبيقُها والنَّظرُ في أحوالِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ والسَّلفِ الصَّالحِ. وذٰلكَ فضلُ اللهِ يُؤْتيهِ مَن يَشاءُ مِن أهلِ العلومِ التَّطبيقيَّةِ وغيرِهِم.

● **خامسًا: حكمُ توظيفِ العلومِ التَّطبيقيَّةِ في الدَّعوةِ إلى اللهِ:**

* قالُ ٱبنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ (٢/ ٢٩٦): الاستدلالُ على صدقِ الرُّسلِ مِن رسالتِهِم «أولى وأعظمُ عندَ أُولي الألبابِ والحِجا مِن مجرَّدِ خوارقِ العاداتِ، وإنْ كانَ ٱنتفاعُ ضعفاءِ العقولِ بالخوارقِ في الإيمانِ أعظمَ مِن ٱنتفاعِهِم بنفسِ الدَّعوةِ وما جاءَ بِهِ مِن الإيمانِ. فطرقُ الهدايةِ متنوِّعةٌ رحمةً مِن اللهِ بعبادِهِ ولطفًا بهِم لتفاوتِ عقولِهِم وأذهانِهِم وبصائرِهِم».

وقالَ أيضًا (٢/ ١٢٧): «مِن النَّاسِ مَن يَكونُ حظُّهُ مِن مشاهدةِ حكمةِ الأمرِ [يَعْني: الشَّريعةَ] أعظمَ مِن مشاهدةِ حكمةِ الخلقِ، وهٰؤلاءِ خواصُّ العبادِ... ومنهُم مَن يَكونُ حظُّهُ مِن مشاهدةِ حكمةِ الخلقِ أوفرَ مِن حظِّهِ مِن حكمةِ الأمرِ، وهُم أكثرُ الأطبَّاءِ والطَّبائعيِّينَ... وليسَ لهُم نصيبٌ مِن حكمةِ الأمرِ إلاَّ كما للفقهاءِ مِن حكمةِ الخلقِ، بل أقلُّ مِن ذٰلكَ. ومنهُم مَن فُتِحَ عليهِ بمشاهدةِ الخلقِ والأمرِ بحسبِ ٱستعدادِهِ وقوَّتِهِ، فرَأى الحكمةَ الباهرةَ التي بَهَرَتِ العقولَ في هٰذا وهٰذا، فإذا نَظَرَ إلى خلقِهِ وما فيهِ مِن الحِكمِ ٱزْدادَ إيمانًا ومعرفةً وتصديقًا بما جاءَتْ بِهِ الرُّسلُ، وإذا نَظَرَ إلى أمرِهِ وما تَضَمَّنَهُ مِن الحِكمِ الباهرةِ ٱزْدادَ إيمانًا ويقينًا وتسليمًا. لا كمَن حُجِبَ بالصَّنعةِ عنِ الصَّانعِ وبالكواكبِ عن مكوكبِها فعَمِيَ بصرُهُ وغَلُظَ عنِ اللهِ حجابُهُ».

وإذا كانَتْ عقولُ النَّاسِ تَتفاوَتُ هٰذا التَّفاوتَ وحظوظُهُم تَنْقَسِمُ إلى هٰذهِ الأصنافِ؛ فلا ريبَ أنَّ ٱستجابتَهُم للدَّعوةِ تَنْقَسِمُ إلى الأصنافِ نفسِها.

* ومِن هُنا رَأَيْتَ الدُّعاةَ أيضًا مختلفينَ في هٰذا الشَّأْنِ:

١) فمنهُم مَن لا يُبالي بالةً بآياتِهِ تَعالى في خلقِهِ ولا بالمعجزاتِ العلميَّةِ في

الكتابِ والسُّنَّةِ، ولا يَرى الانتفاعَ بها في الدَّعوةِ إلى اللهِ تَعالى، ولا يَنْظُرُ إلى أهلِ هٰذهِ الطَّريقةِ إلَّا نظرةَ ٱنتقادٍ وإشفاقٍ.

٢) ومنهُم مَن يوغِلُ في الدَّعوةِ على هٰذهِ الطَّريقةِ ويُبالِغُ في العملِ عليها، فلا تَكادُ تَلوحُ لهُ بارقةُ فرضيَّةٍ جديدةٍ أو دراسةٍ حديثةٍ إلَّا ويُسارِعُ إلى نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ يَسْتَلُّ منها شبهةً أو أثارةً مِن شبهةٍ تُوافِقُ في ظنِّهِ الفرضيَّةَ المعاصرةَ ويَتَوَصَّلُ مِن خلالِها إلى أنَّ الإسلامَ سَبَقَ إلى هٰذهِ (الموضة) قبلَ ألفٍ وأربعِ مئةِ عامٍ!

٣) ومِن النَّاسِ مَن تَوَسَّطَ بينَ هٰؤلاءِ وهٰؤلاءِ، ورَأى أنَّ الانتفاعَ بالإعجازِ العلميِّ في القرآنِ والسُّنَّةِ وتوظيفَ النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ التي جاءَتْ موافقةً لِما ٱسْتَقَرَّ عليهِ المعاصرونَ مِن أهلِ العلمِ في الدَّعوةِ إلى اللهِ أمرٌ محمودٌ لا يَنْبَغي أنْ يُتَوَقَّفَ فيهِ.

* والتَّوسُّطُ هاهُنا هوَ أولى المواقفِ بالصَّوابِ:

١) لأنَّهُ طريقةُ القرآنِ الذي فَتَحَ البابَ واسعًا للنَّظرِ في الآياتِ الكونيَّةِ والاستدلالِ بها على وجودِهِ تَعالى وحكمتِهِ وقدرتِهِ والبعثِ والنُّشورِ. . . والاستدلالُ والاعتبارُ أمرٌ نسبيٌّ يَكونُ لكلٍّ بحسبِهِ، فمِن النَّاسِ مَن تَشْفيهِ الظَّواهرُ والعموميَّاتُ ومنهُم مَن لا يَعْتَبِرُ إلَّا بالدَّقائقِ والتَّفاصيلِ، والقرآنُ يَتَّسِعُ لكلا الطَّرفينِ، يَقْرَؤُهُ العامِّيُّ فيَجِدُ فيهِ بغيتَهُ ويَدْرُسُهُ العالمُ المتبحِّرُ فيَجِدُ فيهِ بغيتَهُ، وهٰذا طرفٌ مِن إعجازِهِ.

٢) وقد ٱمْتَحَنَ أهلُ الكتابِ نبوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ببعضِ الآياتِ العلميَّةِ فلمْ يُبْدِ ﷺ ضيقًا مِن هٰذهِ الطَّريقةِ ولا ٱمتعاضًا مِن تلكَ الأسئلةِ.

٣) ومِن البيِّنِ أنَّ ٱبنَ القَيِّمِ يَرْحَمُهُ اللهُ تَعالى مالَ إلى هٰذا المذهبِ، بدا ذٰلكَ واضحًا مِن قولِهِ في «زاد المعاد» (٤/ ٥): ونَذْكُرُ فصولاً «نافعةً في هديِهِ في الطِّبِّ الذي تَطَبَّبَ بهِ ووَصَفَهُ لغيرِهِ، ونُبَيِّنُ ما فيهِ مِن الحكمةِ التي تَعْجَزُ عقولُ أكثرِ الأطبَّاءِ عنِ الوصولِ إليها، وأنَّ نسبةَ طبِّهِم إليها كنسبةِ طبِّ العجائزِ إلى طبِّهِم».

وفي فصولِ «المفتاح» دلالاتٌ عمليَّةٌ كثيرةٌ على أنَّهُ ٱلْتَزَمَ هٰذا المذهبَ، بل جاءَ ذاكَ صريحًا في قولِهِ (٢/ ١٢٨): «وهٰذا بابٌ [يَعْني: حكمةَ اللهِ في خلقِهِ] لا يَطَّلِعُ الخلقُ منهُ على ما لهُ نسبةٌ إلى الخافي عنهُم منهُ أبدًا. . . ومعَ هٰذا؛ فليسَ ذٰلكَ بموجِبٍ

للإعراضِ عنهُ واليأْسِ منهُ، بل يَسْتَدِلُّ العاقلُ بما ظَهَرَ لهُ منهُ على ما وراءَهُ».

● **سادسًا: ضوابطُ توظيفِ الآياتِ الكونيَّةِ والمعجزاتِ العلميَّةِ في الدَّعوةِ إلى اللهِ:**

وإذا كانَ توظيفُ الآياتِ الكونيَّةِ والمعجزاتِ العلميَّةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ في الدَّعوةِ إلى اللهِ أمرًا جائزًا في الجملةِ؛ فهٰذا لا يَعْني أنَّ البابَ فيهِ مفتوحٌ على مصراعيهِ يَنْبَعِثُ فيهِ مَن شاءَ ويَتَكَلَّمُ بِما شاءَ، فهٰذا أمرٌ جدُّ خطيرٍ، وهاهُنا ضوابطُ يَنْبَغي أنْ يَتَنَبَّهَ لها طالبُ العلمِ سواءٌ أكانَ مستدلاًّ أو متلقِّيًا لاستدلالِ غيرِهِ.

* **أوَّلاً:** إنَّ تفصيلَ القولِ في الآياتِ الكونيَّةِ أوِ المعجزاتِ العلميَّةِ هوَ نوعٌ مِن تأْويلِ النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ، وهٰذا يَسْتَدْعي أنْ يَتَحَرَّى طالبُ العلمِ فيهِ تحرِّيَهُ في فهمِ نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ. وأمَّا أنْ يَنْقُلَ ٱبنُ كثيرٍ مثلاً قولاً عنِ الثَّوْريِّ فلا يُقْبَلُ منهُ ولا مِنَ الثَّوْرِيِّ إلاَّ بعدَ التَّثبُّتِ والنَّظرِ في الأسانيدِ ثمَّ تُقْبَلُ التَّأْويلاتُ العلميَّةُ واللاَّعلميَّةُ ممَّن هَبَّ ودَبَّ بغيرِ فحصٍ ولا تَحَرٍّ؛ هٰذا يَخْرُجُ علينا بدعوى الهالةِ وذاكَ بدعوى الطَّاقةِ؛ فهٰذا هوَ التَّناقضُ الذي لا يُصْبَرُ عليهِ!

ولقد واللهِ مَرَّتْ بي رسائلُ في الإعجازِ العلميِّ في القرآنِ والسُّنَّةِ فرَأَيْتُ فيها مِن الكذبِ على اللهِ تَعالى وعلى النَّبيِّ ﷺ وعلى اللغةِ والعلومِ التَّطبيقيَّةِ ما يَفوقُ الوصفَ! فيا عجبًا! ٱلحمقُ الذي ٱنْحَطَّ بالقومِ إلى هٰذهِ التَّأْويلاتِ التي عَجَزَ عنها الباطنيَّةُ؟! أم أنَّهُمْ ٱرْتَضَوْا سيرةَ الكذَّابينَ الذينَ ٱسْتَحَلُّوا وضعَ الحديثِ عليهِ ﷺ خدمةً للدِّين؟! أم أنَّهُم طالبو جاهٍ ورواجٍ يَبيعُ أحدُهُم دينَهُ بعرضٍ مِن الدُّنيا قليلٍ؟!

* **ثانيًا:** إنَّ الحقائقَ العلميَّةَ المستقرَّةَ المقبولةَ عندَ عمومِ أهلِ العلومِ التَّطبيقيَّةِ هيَ وحدَها التي تَصْلُحُ للحجَّةِ، وأمَّا الأقوالُ والمقالاتُ والأبحاثُ؛ فلا يَليقُ أنْ يُنْتَفَعَ بها هُنا؛ لأنَّها ما زالَتْ موضعَ أخذٍ وردٍّ عندَ أهلِها، فكيفَ تُحْمَلُ نصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ عليها؟! وإذا ثَبَتَ فيما بعدُ أنَّ هٰذهِ الأبحاثَ غيرُ صحيحةٍ؛ فماذا سَيَقولُ مَن نَزَّلَها على النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ لمَن أَضَلَّهُ مِن عوامِّ المسلمينَ ومثقَّفيهِم؟! هٰذا لعبٌ بنصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ لا يُقْدِمُ عليهِ إلاَّ مَن سَفِهَ نفسَهُ.

قالَ أحدُهُم: هناكَ دراسةٌ علميَّةٌ (!) حديثةٌ تُبَيِّنُ أنَّ مصافحةَ المرأةِ تُسَبِّبُ ٱنتقالَ

أشعَّةٍ ضارَّةٍ إلى يدِ الرَّجلِ أو العكسَ وقد سَبَقَ الإسلامُ إلى تحريمِ المصافحةِ قبلَ ١٤ قرنًا! آسْتَحْيَيْتُ واللهِ أنْ أقولَ: ما أسخفَ هٰذا! فقُلْتُ: فكانَ يَنْبَغي أنْ تُحَرَّمَ مصافحةُ الأُمِّ والأُختِ إذًا! فقالَ: لا؛ لأنَّ الأُمَّ والأُختَ لا تَنْقُلانِ الإشعاعَ لأنَّهُما معَهُ كالجسمِ الواحدِ. فقُلْتُ: فزوجُهُ ومحارمُهُ مِن الرَّضاعةِ. . . ولا جوابَ!

وآخرُ يقولُ: لماذا أمَرَ ﷺ بصومِ الأيَّامِ البيضِ؟! ثَبَتَ في دراسةٍ علميَّةٍ (!) حديثةٍ أنَّ للبدرِ تأثيرًا على سوائلِ الجسمِ! فقُلْتُ: قد تَأْتي الأيَّامُ بإثباتِ هٰذا أو إسقاطِهِ، ولٰكنَّهُ في كلِّ حالٍ لا يَصْلُحُ دليلاً على حكمةِ صومِ الأيَّامِ البيضِ، لا بدَّ أنْ يَثْبُتَ أيضًا أنَّ أثرَ البدرِ ضارٌّ غيرُ مفيدٍ وأنَّ الصِّيامَ يَذْهَبُ بضررِهِ!

كثيرًا ما يَصْدُرُ في المجلاَّتِ العلميَّةِ المختصَّةِ ـ لا الصُّحفِ العامَّةِ ـ في الغربِ بحثٌ عن دواءٍ فعَّالٍ في حالةٍ ما، وتَمُرُّ سنونَ، ووكالةُ الغذاءِ والدَّواءِ الأميريكيَّةِ FAD لا تُدْرِجُ هٰذا الدَّواءَ في لائحتِها ولا توصي بِهِ ونقابةُ الصَّيادلةِ الفرنسيِّينَ لا تُدْرِجُهُ في دستورِ أدويتِها تَنْتَظِرُ مزيدًا مِن الأبحاثِ والتَّجاربِ في شأْنِهِ!

فإذا كنَّا لا نَسْتَطيعُ أنْ نَصْبِرَ على التَّحرِّي صبرَ علمائِنا المحقِّقينَ رَضِيَ اللهُ عنهُم وأرضاهُم؛ فلا أقلَّ مِن أنْ نَصْبِرَ حتَّى يَسْتَقِرَّ أهلُ هٰذهِ العلومِ فيها على قولٍ! وأمَّا أنْ نَلْتَقِطَ نفاياتِ صحفِهِم وغسالاتِ أذهانِهِم ونَتَّخِذَها أُصولاً نَرْجِعُ إليها في تأْويلِ كتابِ ربِّنا وسنَّةِ نبيِّنا؛ فإنَّها واللهِ إحدى الكُبَرِ.

* **ثالثًا**: مِنَ المسلَّمِ بِهِ أنَّ المعجزاتِ العلميَّةَ لمْ تَأْتِ بعباراتٍ صريحةٍ جازمةٍ في الكتابِ والسُّنَّةِ، وإنَّما جاءَتْ على سبيلِ الإشارةِ التي لا يَكادُ يُدْرِكُها على وجهِ التَّفصيلِ إلَّا مَن أمْعَنَ النَّظرَ في النَّصِّ وأعادَ الفكرَ فيهِ مرَّةً تلوَ أُخرى، وذٰلكَ لحكمٍ بديعةٍ:

١) منها: أنَّ الغايةَ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ الهدايةُ والتَّشريعُ لا العلومُ الكونيَّةُ، ولذٰلكَ لا تُخْتَصُّ العلومُ الكونيَّةُ فيهما بالعنايةِ والتَّركيزِ، وإنَّما تُذْكَرُ على سبيلِ الوسائلِ الموصلةِ إلى تلكَ الغايةِ.

٢) ومنها: أنَّ للعلومِ لغاتٍ خاصَّةً اصطلاحيَّةً لا يَفْهَمُها على وجهِ الدِّقَّةِ إلَّا أهلُها، فلو جاءَتِ الآياتُ الكونيَّةُ صريحةً على لغاتِ أهلِ العلومِ وطرائقِهِم؛ لَما

ٱسْتَطاعَ أكثرُ المسلمينَ أنْ يَفْهَموا منها كبيرَ شيءٍ، ولَكانَ القرآنُ أقربَ إلى الإعجامِ والإبهامِ منهُ إلى التَّيسيرِ والبيانِ.

٣) وأيضًا؛ فلغةُ العلومِ تَتَغَيَّرُ مِن عصرٍ إلى عصرٍ لِتُواكِبَ تطوُّرَ العلومِ؛ فلو جاءَتِ الآياتُ العلميَّةُ بلغةِ عصرٍ ما؛ لَعَجَزَ عن فهمِها أهلُ العصورِ السَّابقةِ واللاحقةِ.

لٰكنَّ هٰذا التَّسليمَ والتَّقريرَ لا يُسَوِّغُ لنا أبدًا أنْ نَحْمِلَ عموماتِ النُّصوصِ على تأويلاتٍ خاصَّةٍ بعيدةٍ كلَّ البعدِ عن ظواهرِها أوِ العكسَ! لا بدَّ مِن تطابقٍ ملموسٍ بينَ النَّصِّ والقضيَّةِ العلميَّةِ؛ خلافًا لِما يَجْري في أكثرِ الأحوالِ مِن الافتراءِ والتَّلبيسِ.

* **رابعًا**: ومِن المهمِّ أيضًا أنْ تَتَّفِقَ سائرُ النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ الواردةِ في البابِ معَ الحقيقةِ العلميَّةِ المدَّعاةِ، وأمَّا أنْ نَنْتَقِيَ مِن النُّصوصِ ما يُوافِقُ دعوانا ونُسْقِطَ ما يُناقِضُها أو لا يُوافِقُها؛ فهٰذا مسلكٌ مخجلٌ يَأْنَفُ الدَّاعيةُ المخلصُ أنْ يُلَوِّثَ نفسَهُ في أوضارِهِ! أفلا يَخْشى مَن يَفْعَلُ هٰذا أنْ يَنالَهُ نصيبٌ مِن قولِهِ تَعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وَتَكْفُرونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إلاَّ خِزْيٌ﴾؟!

قالَ أحدُهُم: ثَبَتَ في دراساتٍ مخبريَّةٍ حديثةٍ أنَّ أثرَ ماءِ الزَّوجِ لا يُزيلُهُ نهائيًّا مِن الرَّحمِ إلاَّ ثلاثُ غسلاتٍ هيَ الحيضاتُ الثَّلاثُ المطلوبةُ في عدَّةِ المطلَّقةِ! أنا أَعْلَمُ أنَّ هٰذهِ المخابرَ المدَّعاةَ لا تَعْدو أنْ تكونَ دماغًا عفنًا لأحدِ الكذَّابينَ وأنَّ صاحبَ هٰذهِ الدَّعوى لا يَعْلَمُ شيئًا عن فسيولوجيا الحيضِ عندَ المرأةِ، ولو عَلِمَ حقيقةَ الحيضِ عندَها؛ لجاءَ بغيرِ هٰذا الإفكِ المفضوحِ، ولٰكنَّني ٱخْتَرْتُ الطَّريقةَ السَّهلةَ وقُلْتُ للنَّاقلِ: فلماذا كانَتْ عدَّةُ المتوفَّى عنها زوجُها إذنْ أربعةَ أشهرٍ وعشرًا؟! ولا جوابَ.

يا ليتَ إخواني يَعْلَمون أنَّ هٰؤلاءِ يَكْذِبون! واللهِ؛ إنَّهُم يَكْذِبون.

* **خامسًا**: فإذا كانَتِ المعطياتُ العلميَّةُ حقيقةً مستقرَّةً، وكانَ ٱنطباقُها على النَّصِّ واضحًا؛ فهٰذا لا يَعْني أنَّها جازَتِ القنطرةَ وٱكْتَسَبَتْ موثوقيَّةَ الحديثِ الصَّحيحِ. نعمْ؛ لا بأسَ أنْ تُذْكَرَ مِن بابِ ﴿وَلٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبي﴾، أو تَدْخُلَ في المعاني المحتملةِ للنَّصِّ، أو تُرَجَّحَ على أنَّها أقوى الأقوالِ فيهِ أو أقربُها للصَّوابِ.

هٰذا؛ ولْيَحْذَرْ طالبُ العلمِ كلَّ الحذرِ مِن أنْ يَنْساقَ وراءَ مجازفاتِ أصحابِ هٰذهِ

الدَّعاوى ومبالغاتِهم وإعجابِهم بأنفسِهم؛ ففيهم جرأةٌ عظيمةٌ على النُّصوصِ المرفوعةِ واستهتارٌ كبيرٌ بأقوالِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ ومذاهبِ السَّلفِ. وقد رَأيْتُ ورَأى غيري مَنِ ادَّعى منهُم أنَّ الأُمَّةَ بسلفِها وخلفِها لمْ تَفْهَمِ النَّصَّ قبلَ أنْ يَتَفَضَّلَ هوَ بعلمِهِ المعاصرِ فيُزيحَ اللثام ويَكْشِفَ الظَّلام بعدَ جهالةِ ألفٍ وأربعِ مئةِ عام! فلمَّا أتْحَفَنا بما عندَهُ؛ لم نَجِدْ إلاَّ خبالاً ومحالاً، فكانَ على قولِ الأسبقِ: تَمَخَّضَ الفيلُ فوَلَدَ فأْرًا!

* **سادسًا**: ومِن أخطرِ ما يَقَعُ فيهِ بعضُ النَّاسِ هاهُنا تعليلُ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ بما جَدَّ مِن معطياتِ العلومِ التَّطبيقيَّةِ المعاصرةِ.

فتَرى أحدَهُم مثلاً يَقولُ: لماذا حَرَّمَ اللهُ الخنزيرَ؟ لأنَّهُ يَحْتَوي على أجنَّةِ الدُّودةِ الشَّريطيَّةِ، ومَن يَأْكُلُ الخنزيرَ؛ فلا بدَّ أنْ يُصابَ بهٰذهِ الدُّودةِ! فإنْ قيلَ لهُ: فآليَّاتُ الطَّبخِ الحديثةُ بالضَّغطِ والميكروويف ونحوِهِ يُمْكِنُها أنْ تَقْتُلَ هٰذهِ الأجنَّةَ وتُزيلَ الضَّررَ والخطرَ! فإمَّا أنْ يُماحِكَ ويُنْكِرَ ذٰلكَ فيُناقِضَ نفسَهُ ويُخالِفَ مبدأهُ العلميَّ الذي ابْتَدَأَ بهِ، وإمَّا أنْ يَتَرَدَّى إلى تحليلِ لحمِ الخنزيرِ بهٰذهِ الشُّروطِ فيَقَعَ في شرِّ أعمالِهِ. . . وقُلْ مثلَ هٰذا في الاستنجاءِ والتَّيامنِ وقصِّ الأظفارِ وحلقِ العانةِ وغسلِ الجمعةِ وغيرِها مِن الواجباتِ والمحرَّماتِ.

* **سابعًا**: ثمَّ اعْلَمْ أنَّ النَّظريَّاتِ الصَّحيحةَ التي تُعَدُّ حقائقَ علميَّةً ثابتةً لا يُمْكِنُ أنْ تَأْتِيَ أبدًا على خلافِ الحقائقِ الشَّرعيَّةِ، بل لا بدَّ أنْ تكونَ متطابقةً معَها تطابقًا تامًّا.

لٰكنْ كثيرًا ما يُجازي المتوسِّعونَ في هٰذا البابِ بخلافِ مقاصدِهِم، فيَقَعونَ على مستجدَّاتٍ في العلومِ التَّطبيقيَّةِ تُخالِفُ النُّصوصَ الشَّرعيَّةَ للوهلةِ الأُولى:

١) فأمَّا المفتونونَ بعلومِ القومِ الذينَ «رَأَوْهُم قد أصابوا في بعضِها أو كثيرٍ منها؛ فقالوا: كلُّ ما قالَهُ هٰؤلاءِ فهوَ صوابٌ لِما ظَهَرَ لنا مِن صوابِهِم» (٣/ ١٧٨)، ثمَّ لمْ يُبالوا بعدَ ذٰلكَ بالاجتراءِ على نصوصِ الكتابِ ليًّا وتحريفًا وعلى صحيحِ السُّنَّةِ ردًّا وتضعيفًا! وهٰذا مشهودٌ للأسفِ الشَّديدِ.

٢) وطائفةٌ سَلَكَتْ مسلكَ الأوَّلينَ، لٰكنَّها هَيَّأَتْ لموقفِها غطاءً شرعيًّا: فقالَ بعضُهُم: أمَا قالَ النَّبيُّ ﷺ في حادثةِ تأبيرِ النَّخلِ: «أنتُم أعلمُ بأمرِ دنياكُم»؟ فهٰذا مِن

أُمورِ دنيانا، ومرجعُهُ إلى أهلِ العلومِ التَّطبيقيَّةِ لا إلى النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ! وقالَ بعضُهُم: أما قالَ تَعالى: ﴿فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾؟ فأهلُ الذِّكرِ هُنا هُم أهلُ العلومِ التَّطبيقيَّةِ لا علماءُ الشَّريعةِ! وهٰذا تهوُّرٌ عظيمٌ لا يُقْدِمُ عليهِ أهلُ الإيمانِ والتَّسليمِ؛ لأُمورٍ:

أوَّلُها: أنَّ كلامَهُ ﷺ في حادثةِ التَّأْبيرِ جاءَ ظنًّا منهُ بغيرِ وحيٍ ولا تحقيقٍ كما هوَ واضحٌ في: لفظِ طَلْحَةَ عنهُ ﷺ: «ما أَظُنُّ يُغْني ذٰلكَ شيئًا»، ولفظِ رافعٍ عنهُ ﷺ: «لعلَّكُم لو لَمْ تَفْعَلوا كانَ خيرًا»، ولذٰلكَ لمَّا تَرَكوهُ فجاءَتِ الثَّمرةُ رديئةً؛ قالَ ﷺ: «إنِّي إنَّما ظَنَنْتُ ظنًّا، فلا تُؤاخِذوني بالظَّنِّ». فهٰذهِ بعضُ الألفاظِ الصَّحيحةِ في وصفِ الحادثةِ[1]، وإنَّما تُفْهَمُ الوقائعُ بجمعِ ما جاءَ فيها مِن الألفاظِ لا بانْتزاعِ طرفٍ منها مِن سياقِهِ بغيرِ فهمٍ لتفاصيلِ الحادثةِ! فإذا تَقَرَّرَ لكَ هٰذا؛ عَلِمْتَ أنَّ إلحاقَ ما ثَبَتَ عنهُ ﷺ على وجهِ الجزمِ واليقينِ بهٰذا الذي جاءَ على سبيلِ الظَّنِّ مجازفةٌ لا يُقْدِمُ عليها مَن يَعْرِفُ فصاحةَ النَّبيِّ ﷺ ودقَّةَ ألفاظِهِ.

والثَّاني: أنَّ الأصلَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يَنْطِقُ عنِ الهوى إنْ هوَ إلَّا وحيٌ يُوحى، ولا يَنْبَغي للمؤمنِ أنْ يَتَزَحْزَحَ عن هٰذا الأصلِ إلَّا بدليلٍ صحيحٍ صريحٍ لا بدَّ مِن المصيرِ إليهِ. فإنْ قيلَ: أفليستِ الحقائقُ العلميَّةُ الثَّابتةُ دليلاً يَجِبُ المصيرُ إليهِ؟ فالجوابُ أنَّهُ ليسَ فيها بحمدِ اللهِ حقيقةٌ واحدةٌ تُناقِضُ سنَّةً ثابتةً.

٣) وطائفةٌ «رَأَتْ مقابلةَ هٰؤلاءِ [يَعْني: أهلَ العلومِ الطَّبيعيَّةِ] بردِّ كلِّ ما قالوهُ مِن حقٍّ وباطلٍ، وظَنُّوا أنَّ مِن ضرورةِ تصديقِ الرُّسلِ ردَّ ما عَلِمَهُ هٰؤلاءِ بالعقلِ الضَّروريِّ وعَلِموا مقدِّماتِهِ بالحسِّ، فنازَعوهُم فيهِ، وتَعَرَّضوا لإبطالِهِ بمقدِّماتٍ جدليَّةٍ لا تُغْني مِن الحقِّ شيئًا، وليتَهُم معَ هٰذهِ الجنايةِ العظيمةِ لَمْ يُضيفوا ذٰلكَ إلى الرُّسلِ، بل زَعَموا أنَّ الرُّسلَ جاؤوا بما يَقولونَهُ... وضررُ الدِّينِ وما جاءَتْ بهِ الرُّسلُ بهٰؤلاءِ مِن أعظمِ الضَّررِ، وهوَ كضررِهِ بأُولٰئكَ الملاحدةِ. فهُما ضررانِ على الدِّينِ: ضررُ مَن يَطْعُنُ فيهِ، وضررُ مَن يَنْصُرُهُ بغيرِ طريقِهِ» (٣/ ١٨١-١٨٢).

---

(١) رواها كلّها مسلم (٤٣ـ الفضائل، ٣٨ـ امتثال ما قاله ﷺ شرعًا، ٤/ ١٨٣٥/ ٢٣٦١-٢٣٦٣).

٤) وأهلُ الحقِّ وسطٌ بينَ هٰذهِ الطَّوائفِ، يَعْلَمونَ علمَ اليقينِ أنَّ الحقائقَ العلميَّةَ الثَّابتةَ لا تأْتي إلاَّ موافقةً لكلامِ اللهِ ورسولِهِ، ولٰكنَّهُم لا يَتَسابَقونَ إلى كلِّ جديدٍ ولا يُسارِعونَ إلى إسقاطِهِ على كلامِ ربِّهِم وسنَّةِ نبيِّهِم، فإنْ جاءَهُم ما ظاهرُهُ مخالفةُ نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ؛ كانوا أعظمَ النَّاسِ رويَّةً، وعَلِموا أنَّ العيبَ إمَّا في فهمِ الحقيقةِ المدَّعاةِ أو في فهمِ النَّصِّ الشَّرعيِّ على وجهِهِ، فتَرَوَّوا وأعادوا النَّظرَ مرَّةً بعدَ أُخرى حتَّى يَصِلوا إلى وجهِ الحقِّ الذي يُوَفِّقُ بينَ ما ظاهرُهُ الاختلافُ. فإنْ لمْ يَجِدوا للتَّوفيقِ مساغًا؛ كانوا أحرصَ النَّاسِ على كلامِ اللهِ ورسولِهِ وأكثرَهُمُ اطمئنانًا بصدقِهِ وصحَّتِهِ، لا يَرُدُّونَهُ ولا يَتَرَدَّدونَ في شأْنِهِ لقولِ مخلوقٍ كائنًا مَن كانَ، تصديقًا لقولِ ربِّهِم سبحانَهُ فيهِم: ﴿ثُمَّ لا يَجِدوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّموا تَسْليمًا﴾.

وممَّا يُذْكَرُ في هٰذا المقامِ أنَّ أحاديثَ النَّبيِّ ﷺ في الإذكارِ والإيناثِ قد أشْكَلَتْ على بعضِ أئمَّتِنا السَّابقينَ ـ كما سَيَأْتيكَ (٢/ ١٧٦-١٨٤) ـ فسَطَّروا في ذٰلكَ مآثرَ لا تَمْحوها الأيَّامُ، وثَبَتوا على التَّمسُّكِ بالنُّصوصِ الصَّحيحةِ، وقالوا: «إنْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ قد قالَ هٰذا؛ فهوَ عينُ الحقِّ»، ثمَّ جاءَ العلمُ الحديثُ بما يَكْشِفُ هٰذهِ الإشكالاتِ ويُبَيِّنُ أنَّ هٰذهِ النُّصوصَ هيَ معجزاتٌ علميَّةٌ حقيقيَّةٌ للنَّبيِّ ﷺ. فكانَ هٰذا منهُم رَضِيَ اللهُ عنهُم وأرضاهُم درسًا عمليًّا يُرْشِدُنا إلى المسلكِ القويمِ في مثلِ هٰذهِ القضايا والخطوطِ الحمراءِ التي لا يَنْبَغي لنا أنْ نَتجاوَزَها.

* **وأخيرًا**: فلا جُناحَ على مَنِ اتَّخَذَ نصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ مصدرًا للهدى ومنطلقًا للعلمِ والعملِ إنْ تَوَسَّعَ فقارَنَ ما جاءَ في بعضِ النُّصوصِ بما جَدَّ عندَ أهلِ العلومِ التَّطبيقيَّةِ فازْدادَ إيمانًا واطمئنانًا.

وأمَّا مَن رامَ أنْ يَسْتَخْرِجَ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ أُصولَ الفيزياءِ وفروعَها ومبادئَ الفلكِ ومستجدَّاتِهِ وكلِّيَّاتِ الطِّبِّ وجزئيَّاتِهِ وراحَ يَقْسِرُ نصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ قسرًا على ما جَدَّ في هٰذهِ العلومِ؛ فهٰذا ممَّن غَلا في دينِهِ غيرَ الحقِّ وأتى البيوتَ مِن ظهورِها. ولا واللهِ؛ ما أنْزَلَ اللهُ على قلبِ مُحَمَّدٍ ﷺ كتابًا في الفيزياءِ ولا في الفلكِ ولا في الطِّبِّ، ولٰكنَّهُ أنْزَلَ على قلبِهِ هدًى للنَّاسِ وبيِّناتٍ مِن الهدى والفرقانِ.

ورَضِيَ اللهُ عن تلكَ الثُّلَّةِ المباركةِ التي لمْ تُحْكِمِ الطِّبَّ ولا الفلكَ ولا سَمِعَتْ بالفيزياءِ، ولٰكنَّها فَتَحَتْ بكتابِ اللهِ وسنَّةِ نبيِّهِ ﷺ عيونًا عميًا وآذانًا صمًّا وبَدَّدَتْ ظلماتِ الكفرِ بنورِ الحقِّ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها.

● **سابعًا: كيفَ نُوَظِّفُ الآياتِ الكونيّةَ والمعجزاتِ العلميّةَ في الدَّعوةِ إلى اللهِ؟**

* يَتَوَجَّهُ بعضُ المتكلِّمينَ في المعجزاتِ العلميَّةِ بحديثِهِ للملاحدةِ حقيقةً أو مجازًا، والملاحدةُ بمعزلٍ تامٍّ عن كلامِهِ، ومَنِ ٱلْتَفَتَ إليهِ منهُم؛ فقلَّما يَكْتَرِثُ، وذٰلكَ أنَّ دلالاتِ الآياتِ العلميّةِ ليستْ حاسمةً في الغالبِ العامِّ ولٰكنَّها حمَّالةٌ لأوجهٍ كما تَقَدَّمَ. ومنهُم مَن يَتَوَجَّهُ بحديثِهِ إلى المسلمينَ، ولٰكنَّهُ يَقْتَصِرُ على دغدغةِ عواطفِهِم بأنَّ الإسلامَ حقٌّ ومحمَّدًا ﷺ حقٌّ. وفي كلا الحالينِ؛ فلنْ يَخْرُجَ المتلقِّي بأكثرَ مِن متعةٍ نظريَّةٍ لا أثرَ لها على واقعِهِ أو تحصيلٍ لحاصلٍ.

* ولٰكنَّكَ لو تَتَبَّعْتَ طريقةَ ٱبنِ القَيِّمِ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ في هٰذا البابِ؛ لَرَسَمْتَ لهُ لوحةً أُخرى فريدةً، فإرساءُ حقيقةِ وجودِ اللهِ ونبوّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ليستْ مقصودةً قصدَ الغاياتِ هُنا، ولٰكنَّها وسيلةٌ لغايةٍ جوهريَّةٍ هيَ تقريرُ حقائقِ الإيمانِ وتثبيتُها في قلبِ المسلمِ.

فهاهُنا تُسْتَثْمَرُ الآياتُ الكونيَّةُ أحسنَ ٱستثمارٍ: في معرفةِ اللهِ تَعالى والإيمانِ بصفاتِهِ ورؤيةِ دقائقِ لطفِهِ وكرمِهِ وبرِّهِ ورحمتِهِ وإحسانِهِ وغيرِ ذٰلكَ مِن صفاتِهِ العلا، ثمَّ فيما تَقْتَضيهِ هٰذهِ الرُّؤْيةُ مِن تجريدِ العبوديَّةِ للهِ وحدَهُ وتجريدِ الاتِّباعِ لنبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ. وهاهُنا تُسْتَثْمَرُ دقائقُ حكمتِهِ تَعالى في بعضِ مخلوقاتِهِ لتثبيتِ الإيمانِ بحكمتِهِ المطلقةِ في كلِّ ما خَلَقَهُ وقَدَّرَهُ وشَرَعَهُ، ثمَّ فيما يَقْتَضيهِ هٰذا الإيمانُ مِن التَّسليمِ للهِ تَعالى في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ مِن خلقِهِ وقدرِهِ والاستسلامِ والطَّاعةِ في كلِّ دقيقةٍ مِن دقائقِ شرعِهِ، سواءٌ أَعُلِمَتِ الحكمةُ في ذٰلكَ أمْ لمْ تُعْلَمْ.

وقدْ صَرَّحَ ٱبنُ القَيِّمِ يَرْحَمُهُ اللهُ بهٰذا المنهجِ الفريدِ (٢/ ٨١) عندَما قالَ: «وأحسنُ ما أُنْفِقَتْ فيهِ الأنفاسُ التَّفكُّرُ في آياتِ اللهِ وعجائبِ صنعِهِ والانتقالُ منها إلى تعلُّقِ القلبِ والهمَّةِ بهِ دونَ شيءٍ مِن مخلوقاتِهِ».

* وهٰذا هوَ المنهجُ القرآنيُّ في الاحتجاجِ بالآياتِ الكونيَّةِ بعينِه؛ فإنَّ القرآنَ لا يَحْتَجُّ بهٰذهِ الآياتِ احتجاجًا نظريًّا مجرَّدًا للتَّسليةِ والإمتاعِ، ولٰكنَّهُ يَجْعَلُها دائمًا وسيلةً بينَ يدي غايةٍ عمليَّةٍ مطلوبةٍ محلُّها قلبُ المؤمنِ أو جوارحُهُ. هٰذا ما يَحْتاجُ إليهِ المسلمون، ولمثلِهِ فلْيَدْعُ الدَّاعون.

* وقد أثْمَرَتْ طريقةُ الذينَ يُبالِغونَ في أهمِّيَّةِ الآياتِ الكونيَّةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ ويُهَمِّشونَ ما عداها ويوهِمونَ الخلقَ أنَّهُم يبلغونَ بتوحيد الرُّبوبيَّةِ سدرةَ المنتهى؛ أثْمَرَتْ طريقتُهُم نماذجَ سلبيَّةً جدًّا مِن المسلمينَ، يَرَوْنَ أنَّهُم صفوةُ الخلقِ وأولى النَّاس بالإسلامِ، ومَن عداهُم فجهلةٌ متخلِّفونَ! وما أكثرَ ما يَسْلُقونَ بألسنتِهِمُ الحدادِ أهلَ الحديثِ المتزمِّتينَ (!) الذينَ لا يُسايِرونَ العصرَ!

١) تَرى أحدَهُم يَتَحَسَّرُ على حالِ المسلمينَ ويَقولُ: وَصَلَ النَّاسُ إلى القمرِ وما زالَ هٰؤلاءِ مشغولينَ بالاستنجاءِ والاستبراءِ! وماذا تُراكَ تُجيبُ؟! أفإنْ تَناوَلْتَ فطورَكَ في القمرِ وعشاءَكَ في المرِّيخِ؛ ألستَ بحاجةٍ إلى أحكامِ الاستنجاءِ والاستبراءِ؟! أم لعلَّكَ سَتَصيرُ كائنًا فضائيًّا لا يَبولُ ولا يَتَغَوَّطُ؟!

٢) وآخرُ شبعانُ متَّكئٌ على أريكتِهِ يَقولُ: العالمُ على أبوابِ الألفيَّةِ الثَّالثةِ وهٰؤلاءِ عندَ القدمِ التي تَدْخُلُ بها المسجدَ والقدمِ التي تَدْخُلُ بها الخلاءَ! ويحكَ! هلْ بَلَغَ انشغالُ المسلمينَ بالتَّأهُّبِ علميًّا للألفيَّةِ الثَّالثةِ إلى حدِّ أنَّ معرفةَ هٰذهِ القضايا سَتُعَطِّلُهُم؟! لَيْتَكَ تَقولُ مثلَ هٰذا في الفضائيَّاتِ والمبارياتِ والمهرجاناتِ التي تُنْحَرُ أمامَها أثمنُ الأوقاتِ! قد حافَظَ أقوامٌ على هٰذا الذي تَحْقِرُهُ ثمَّ حَكَموا العالمَ، وتَرَكَهُ أغلبُ المعاصرينَ فما دَخَلوا ألفيَّتَكَ الثَّالثةَ إلَّا مِن أبوابِ الهوانِ!

٣) وثالثٌ يَتَصَدَّرُ للدَّعوةِ ثمَّ يَلْمِزُ هيئاتِ أهلِ الاتِّباعِ ويَقولُ: أنا ابنُ عزٍّ، لا يُمْكِنُ أنْ أكونَ هٰكذا! ولا واللهِ؛ لا تَجِدُ في اليهودِ والنَّصارى والبوذيِّينَ مَن يَسْخَرُ مِن ألبسةِ قساوستِهِم ورهبانِهِم بألوانِها الفاقعةِ وأشكالِها الغريبةِ!

ويَطولُ الكلامُ في هٰذا بغيرِ فائدةٍ، وليسَ هٰذا محلَّ تفصيلِهِ، وإنَّما أرَدْتُ التَّنبيهَ إلى ما يَنْبَغي أنْ يُرَكَّزَ عليهِ عندَ الكلامِ عنِ الآياتِ العلميَّةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ.

● **ثامنًا: قضايا معاصرةٌ بينَ العلومِ التَّطبيقيّةِ والنُّصوصِ الشَّرعيّةِ:**

أ ـ دورانُ الأرضِ حولَ الشَّمسِ بينَ العلمِ والإيمانِ:

* **أوّلاً:** خَلَصَ أبو الرَّيْحانِ البَيْرونِيُّ (ت ٤٤٠هـ) إلى أنَّ نظريَّةَ ثباتِ الأرضِ ونظريَّةَ دورانِها حولَ الشَّمسِ متكافئتانِ تمامًا في تفسيرِ الظَّواهرِ الفلكيَّةِ المختلفةِ إلى درجةِ أنَّ ترجيحَ إحداهُما على الأُخرى مِن الصُّعوبةِ بمكانٍ، ثمَّ جاءَ كوبرنيكوس Copernicus في القرنِ السَّادسَ عشرَ فقرَّرَ أنَّ الأرضَ هيَ التي تَدورُ حولَ الشَّمسِ وليسَ العكسُ، وتابَعَهُ غاليليو Galileo في القرنِ السَّابعَ عشرَ، ففوكو Foucault في القرنِ التَّاسعَ عشرَ، ثمَّ تَتابَعَ الفلكيُّونَ بعدَ ذٰلكَ على تقريرِ هٰذهِ القضيَّةِ وتقديمِ ما أمْكَنَهُم مِن البراهينِ عليها حتَّى أَصْبَحَتْ حقيقةً علميَّةً مستقرَّةً عندَ عمومِ الخلقِ.

* **ثانيًا:** ومعَ ذٰلكَ؛ فقد بَقِيَتْ هٰذهِ الحقيقةُ مسألةً ذهنيَّةً صرفةً بعيدةً عنِ الواقعِ العمليِّ للخلقِ جميعًا، فلا تَسْمَعُهُمْ يَقولونَ إلاَّ أشْرَقَتِ الشَّمسُ أو مالَتِ الشَّمسُ أو طَلَعَتِ النُّجومُ، ولو أنَّ أحدًا ـ ولو كانَ فوكو أو إينشتاين ـ قالَ لأهلِهِ: أيْقِظوني إذا دارَتِ الأرضُ ٣٦٠ درجةً حولَ نفسِها فرَأَيْتُمُ الشَّمسَ مِن جديدٍ؛ لَعَدُّوهُ في المخبولينَ! لا أحدَ في العالمِ كلِّهِ يَتكَلَّمُ بهٰذهِ الطَّريقةِ! وإنَّما يَتَفاهَمُ البشرُ بحسبِ الظَّواهرِ! يَقولونَ: غَطَسَتِ الشَّمسُ في البحرِ! ما أشدَّ زرقةَ مياهِ البحرِ! قَرَّبَتِ المدينةُ! وهُم يَعْلَمونَ أنَّ الشَّمسَ لمْ تَغْطُسْ في البحرِ ومياهَ البحرِ لا لونَ لها والمدينةَ ثابتةٌ في مكانِها!

حتَّى دارسو الفلكِ وأصحابُ الخرائطِ النَّجميَّةِ والرَّاصدونَ لحركاتِ الأجرامِ السَّماويَّةِ وتقاربِها وتباعدِها وكسوفِها وخسوفِها وأهلُ الأرصادِ الجوِّيَّةِ والدِّراساتِ البحريَّةِ لا يَتَفاهَمونَ فيما بينَهُم إلاَّ بحسبِ هٰذا الظَّاهرِ، ولذٰلكَ لا يَخْلو كتابٌ في علمِ الفلكِ مِن الإشارةِ إلى نوعينِ مِن الحركةِ في الأجرامِ السَّماويَّةِ: حركةِ دورانِ الأرضِ والكواكبِ السَّيَّارةِ حولَ أنفسِها وحولَ الشَّمسِ ودورانِ الشَّمسِ والنُّجومِ الأُخرى حولَ أنفسِها وحولَ غيرِها، وهيَ الحركةُ الحقيقيَّةُ. وحركةٍ ظاهريَّةٍ تُسَجِّلُ ما نَراهُ بأعينِنا مباشرةً أو بالواسطةِ مِن حركةِ الشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ والكواكبِ السَّيَّارةِ في قبَّةِ السَّماءِ ونزولِها في أبراجِها ومنازلِها المختلفةِ ودلالاتِ ذٰلكَ علميًّا وعمليًّا. وهٰذهِ الحركةُ

الظَّاهريَّةُ هيَ الحركةُ المهمَّةُ عندَهُم، وعليها بناءُ خرائطِهِم ودراساتِهِم، وذٰلكَ لأنَّها يسيرةُ الفهمِ مرئيَّةٌ بالعينِ لا تَحْتاجُ لحساباتٍ وتقديراتٍ معقَّدةٍ يَعْجَزُ أعلمُ الخلقِ عنها شأْنَ الحركةِ الحقيقيَّةِ.

* **ثالثًا**: أَحْوَجَني عملي في هٰذا الكتابِ إلى مراجعةِ شيءٍ في علمِ الفلكِ لاستكمالِ جهودِ ٱبنِ القَيِّمِ يَرْحَمُهُ اللهُ بما جَدَّ في الفلكِ الحديثِ، فٱسْتَوْقَفَتْني رسالةٌ ذَكَرَ مؤلِّفُها أنَّهُ أَوْدَعَ فيها نظرةً سلفيَّةً (!) في علمِ الفلكِ وزَعَمَ أنَّ الأرضَ هيَ مركزُ الكونِ وأنَّها ثابتةٌ لا تَدورُ حولَ نفسِها ولا حولَ الشَّمسِ، بلِ الشَّمسُ وغيرُها مِنَ الأجرامِ السَّماويَّةِ هيَ التي تَدورُ حولَ الأرضِ! ثمَّ أَتْبَعَ هٰذا بتصوُّرِهِ لموضعِ عرشِ الرَّحمٰنِ سبحانَهُ بالنِّسبةِ للكونِ! وٱسْتَنَدَ في دعواهُ هٰذهِ إلى آيةِ البقرةِ وحديثِ أبي ذَرٍّ الآتيينِ قريبًا، ثمَّ دَعا الدَّوائرَ المختصَّةَ إلى تبنِّي جهودِهِ في البحثِ عنِ الدَّليلِ العلميِّ!

لمْ يَسُؤْني واللهِ في هٰذهِ الدَّعوى شيءٌ بقدرِ ما ساءَني إقحامُ الفكرِ السَّلفيِّ في القضيَّةِ وتحميلُ أهلِهِ جريرتَها وتسليطُ أعدائِهِم عليهِم وإعطاؤُهُمُ الحجَّةَ لتنفيرِ العوامِّ وأهلِ العلومِ التَّطبيقيَّةِ منهُم؛ مصداقًا لقولِ ٱبنِ القَيِّمِ يَرْحَمُهُ اللهُ تَعالى (٣/ ١٨١): «والطَّائفةُ الثَّانيةُ رَأَتْ مقابلةَ هٰؤلاءِ [يَعْني: أهلَ العلومِ الكونيَّةِ] بردِّ كلِّ ما قالوهُ مِن حقٍّ وباطلٍ، وظَنُّوا أنَّ مِن ضرورةِ تصديقِ الرُّسلِ ردَّ ما عَلِمَهُ هٰؤلاءِ بالعقلِ الضَّروريِّ وعَلِموا مقدِّماتِهِ بالحسِّ، فنازَعوهُم فيهِ وتَعَرَّضوا لإبطالِهِ بمقدِّماتٍ جدليَّةٍ لا تُغْني مِنَ الحقِّ شيئًا، ولَيْتَهُم معَ هٰذهِ الجنايةِ العظيمةِ لمْ يُضيفوا ذٰلكَ إلى الرُّسلِ! بل زَعَموا أنَّ الرُّسلَ جاؤوا بما يقولونَهُ! فساءَ ظَنُّ أُولٰئكَ الملاحدةِ [يَعْني: مِن أهلِ العلومِ الكونيَّةِ] بالرُّسلِ، وظَنُّوا أنَّهُم هُم أعلمُ وأعرفُ منهُم... والذي سَلَّطَهُم على ذٰلكَ جحدُ هٰؤلاءِ لحقِّهِم ومكابرتُهُم إيَّاهُم على ما لا يُمْكِنُ المكابرةُ عليهِ ممَّا هوَ معلومٌ لهُم بالضَّرورةِ كمكابرتِهِم إيَّاهُم في كونِ الأفلاكِ كرويَّةَ الشَّكلِ والأرضِ كذٰلكَ... وضررُ الدِّينِ وما جاءَتْ بِهِ الرُّسلُ بهٰؤلاءِ مِن أعظمِ الضَّررِ، وهوَ كضررِهِ بأُولٰئكَ الملاحدةِ، فهُما ضررانِ على الدِّينِ، ضررُ مَن يَطْعُنُ فيهِ وضررُ مَن يَنْصُرُهُ بغيرِ طريقِهِ. وقد قيلَ: إنَّ العدوَّ العاقلَ أقلُّ ضررًا مِنَ الصَّديقِ الجاهلِ؛ فإنَّ الصَّديقَ الجاهلَ يَضُرُّكَ مِن حيثُ يُقَدِّرُ أنَّهُ

يَنْفَعُكَ. والشَّأْنُ كلُّ الشَّأْنِ أَنْ تَجْعَلَ العاقلَ صديقَكَ ولا تَجْعَلَهُ عدوَّكَ وتُغْرِيَهُ بمحاربةِ الدِّينِ وأهلِهِ»اهـ. وجاءَ نحوُهُ (٢/ ٢٥٤، ٣/ ٢٥٥). فَٱنْظُرْ إلى مدى ٱنطباقِ هٰذا الكلامِ على تلكَ الدَّعوى! فلله درُّ ٱبنِ القَيِّمِ؛ ما أحوجَنا اليومَ إلى عقليَّتِهِ النَّيِّرةِ وذهنِهِ المتفتِّحِ!

ثمَّ ٱسْتَوْقَفَني كلامٌ آخرُ يَرُدُّ صاحبُهُ فيهِ دورانَ الأرضِ حولَ الشَّمسِ ويَزْعُمُ أنَّهُ أمرٌ مغلوطٌ لمخالفتِهِ لحديثِ أبي ذَرٍّ المرفوعِ المتَّفقِ عليهِ! فتَعَجَّبْتُ واللهِ غايةَ العجبِ من هٰذا التَّسرُّعِ والمجازفةِ دونَما بحثٍ ولا تروٍّ!

* **رابعًا**: ومعَ أنَّني لمْ أرَ أحدًا ممَّن قابَلْتُهُ مِن أهلِ الظَّاهرِ وأهلِ الحديثِ يَتَطَرَّفُ هٰذا التَّطرُّفَ؛ إلَّا أنَّني أحْبَبْتُ أنْ أُبيِّنَ ما فيهِ هُنا؛ خشيةَ أنْ تُنْسَبَ هٰذهِ الآفةُ إلى أهلِ الحديثِ ظلمًا وبهتانًا أو تَفْشُوَ فيمَن لا خبرةَ لهُ مِن طلبةِ العلمِ.

* **خامسًا**: والمشكلُ حقًّا أنَّ الأخوينِ الفاضلينِ لا علمَ لهُما بالفلكِ مِن قريبٍ ولا بعيدٍ، وإنَّما ٱقْتَصَرا في الاستشهادِ لدعواهُما على حجَّتينِ لمْ أجِدْ لهُما ثالثةً:

الحجَّةُ الأُولى: قولُهُ تَعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]! فالشَّمسُ إذًا هيَ التي تأْتي مِن المشرقِ وتَسيرُ إلى المغربِ!

وجوابُ هٰذا أنَّ الآيةَ لمْ تَتَطَرَّقْ إلى كيفيَّةِ إتيانِ اللهِ تَعالى بالشَّمسِ مِن المشرقِ، وإنَّما إلى إتيانِهِ بها مِن المشرقِ فحسبُ، وإتيانُ اللهِ بالشَّمسِ مِن المشرقِ أمرٌ لا يُماري فيهِ عاقلٌ. ويا للهِ العجبُ! أفتَنْتَظِرونَ أنْ يتكلَّمَ إبراهيمُ ﷺ بكلامٍ ما تَكَلَّمَ بهِ العقلاءُ لا في عصرِنا ولا فيما مَضى؟! أفتَنْتَظِرونَ أنْ يَقولَ إبراهيمُ ﷺ للَّذي كَفَرَ: دارَتِ الأرضُ ٣٦٠ درجةً عكسَ عقاربِ السَّاعةِ فبَدَتْ لنا الشَّمسُ مرَّةً أُخرى مِن المشرقِ فأدِرْها أنتَ بٱتِّجاهِ عقاربِ السَّاعةِ وأظْهِرها مِن المغربِ؟!

فإنْ قُلْتَ: كيفَ يُمْكِنُ أنْ يَأْتِيَ القرآنُ بحسبِ الحركةِ الظَّاهريَّةِ للشَّمسِ لا بحسبِ الحقيقةِ؟! فالجوابُ أنَّ هٰذا هو اللائقُ بإعجازِ القرآنِ وتيسيرِهِ للذِّكرِ، والآياتُ التي جاءَتْ على طريقةِ النَّاسِ في تفاهمِهِم بحسبِ الظَّاهرِ لا بحسبِ الواقعةِ العلميَّةِ كثيرةٌ:

١) فمِن ذٰلكَ قولُهُ تَعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]، وأنتَ تَعْلَمُ أنَّ هٰذا بحسبِ الصُّورةِ الظَّاهريَّةِ للقمرِ، وأمَّا في الحقيقةِ العلميَّةِ؛ فالقمرُ جسمٌ معتمٌ لا

نورَ لهُ كالأرضِ تمامًا. فكما أَقْرَرْتَ بالمفارقةِ بينَ الصُّورةِ الظَّاهريَّةِ والحقيقةِ العلميَّةِ هُنا؛ فأقِرَّ بنحوِهِ في آيةِ البقرةِ.

٢) وأقربُ منهُ قولُهُ تَعالى: ﴿حَتَّى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ في عينٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦]، ومثلُهُ قولُهُ ﷺ: «هل تَدْرونَ أينَ تَغْرُبُ هٰذه، تَغْرُبُ في عينٍ حاميةٍ»[١]. قالَ ٱبنُ كَثيرٍ: «أيْ: رَأى الشَّمسَ في منظرِهِ تَغْرُبُ في البحرِ المحيطِ، وهٰذا شأْنُ كلِّ مَنِ ٱنْتَهى إلى ساحلِهِ يَراها كأنَّها تَغْرُبُ فيهِ وهيَ لا تُفارِقُ الفلكَ الرَّابعَ الذي هيَ مثبتةٌ فيهِ لا تُفارِقُهُ». وقالَ العَسْقَلانِيُّ في «الفتح» (٨/ ٥٤٢): «المرادُ بها نهايةُ مدركِ البصرِ إليها حالَ الغروبِ». فٱنْظُرْ كيفَ صَحَّحَ هٰذانِ الإمامانِ لفظَ الآيةِ بحسبِ النَّظرِ الظَّاهرِ وأنْكَرا أنْ تكونَ كذٰلكَ مِن حيثُ الحقيقةُ العلميَّةُ، وقارِنْ بينَ قولِهِما وقولِ الفاضلينِ المعاصرينِ؛ يَتَبَيَّنْ لكَ فضلُ بصيرةِ السَّلفِ ودقَّةُ ملاحظتِهِم وتمثُّلُهُم لعلومِ عصرِهِم، بخلافِ حالِنا اليومَ، معَ أنَّنا أولى بذٰلكَ بالنَّظرِ للتَّطوُّرِ الهائلِ في وسائلِ العلومِ التَّجريبيَّةِ التي صارَتْ تُريكَ أدقَّ المخلوقاتِ وأبعدَها في أوضحِ صورةٍ. والمقصودُ أنَّنا نَقولُ في آيةِ البقرةِ ما قالَهُ ٱبنُ كَثيرٍ والعَسْقَلانِيُّ في آيةِ الكهفِ؛ فهُما سواءٌ.

٣) ويُشْبِهُ هٰذا: قولُهُ ﷺ: «فُجِّرَتْ أربعةُ أنهارٍ مِن الجنَّةِ؛ الفراتُ والنِّيلُ وسيحانُ وجيحانُ»[٢]، وقولُهُ: «رُفِعَتْ لي سدرةُ المنتهى... يَخْرُجُ مِن ساقِها نهرانِ ظاهرانِ... أمَّا الظَّاهرانِ؛ فالنِّيلُ والفراتُ»[٣]. فنُؤْمِنُ بأنَّ المنابعَ الأرضيَّةَ المعروفةَ لهٰذهِ الأنهارِ هيَ منابعُ ظاهريَّةٌ وأنَّ وراءَ ذٰلكَ منابعَ سماويَّةً حقيقيَّةً رَآها النَّبيُّ ﷺ، ونُسَلِّمُ بالمفارقةِ بينَ الحقيقةِ والظَّاهرِ في آيةِ البقرةِ كما سَلَّمْنا بالمفارقةِ بينَهُما هُنا.

والحجَّةُ الثَّانيةُ: قولُهُ ﷺ: «أتَدْرونَ أينَ تَذْهَبُ هٰذهِ الشَّمسُ؟ إنَّ هٰذهِ تَجْري حتَّى تَنْتَهِيَ إلى مستقرِّها تحتَ العرشِ، فتَخِرُّ ساجدةً، فلا تَزالُ كذٰلكَ حتَّى يُقالَ لها:

---

(١) (صحيح). رواه: أحمد (٥/ ١٦٥)، وأبو داوود (٢٤ـ الحروف، ٢/ ٤٣٣/ ٤٠٠٢)؛ بسند صحيح عن أبي ذرّ. وأصله في البخاري، وهو حديث أبي ذرّ الآتي ذكره بعد سطور.

(٢) رواه: أحمد (٢/ ٢٦١)، ومسلم (٥١ـ الجنّة، ١٠ـ ما في الدنيا من أنهار الجنّة، ٤/ ٢١٨٣/ ٢٨٣٩)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. واللفظ لأحمد.

(٣) متّفق عليه. سيأتي متنه وتخريجه (١/ ١٠٩).

ٱرْتَفِعي، ٱرْجِعي مِن حيثُ جئتِ. فتَرْجِعُ، فتُصْبِحُ طالعةً مِن مطلعِها... ثمَّ تَجْري لا يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ منها شيئًا حتَّى تَنْتَهِيَ إلى مستقرِّها ذاكَ تحتَ العرشِ، فيُقالُ لها: ٱرْتَفِعي، أَصْبِحي طالعةً مِن مغربِكِ، فتُصْبِحُ طالعةً مِن مغربِها. أتَدْرونَ متى ذاكُم؟ ذاكَ حينَ لا يَنْفَعُ نفسًا إيمانُها لمْ تكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أو كَسَبَتْ في إيمانِها خيرًا»[1].

١) وهٰذا يَرِدُ فيهِ ما تَقَدَّمَ آنفًا مِن أنَّ الكلامَ جاءَ بحسبِ الحركةِ الظَّاهريَّةِ للشَّمسِ!

٢) وأُضيفُ فأقولُ: لو أنَّ القائلينَ بدورانِ الأرضِ حولَ الشَّمسِ زَعَموا أنَّ الشَّمسَ هيَ مركزُ الكونِ وأنَّها ثابتةٌ في موضعِها لا تَتَحَرَّكُ؛ لأمْكَنَ أنْ يَكونَ في هٰذا الحديثِ حجَّةٌ عليهِم، ولٰكنَّهُم لا يَقولونَ بذٰلكَ، بل يَرَوْنَ أنَّ للشَّمسِ حركاتٍ ثلاثًا: فأوَّلُها: دورانُها حولَ نفسِها كلَّ ٢٥ يومًا تقريبًا. والثَّانيةُ: دورانُها معَ مجموعتِها حولَ مركزِ مجرَّةِ دربِ اللبَّانةِ التي تَنْتَمي المجموعةُ إليها. والثَّالثةُ: سباحتُها معَ بقيَّةِ نجومِ دربِ اللبَّانةِ مبتعدةً في الفضاءِ الكونيِّ. وربَّما جاءَ فلكُ المستقبلِ بحركاتٍ أُخرى نَجْهَلُها اليومَ. أفلا يُمْكِنُ أنْ يَكونَ مقصودُ الحديثِ واحدةً مِن هٰذهِ الحركاتِ؟! بلى، بلْ هيَ أولى بهِ وأقربُ لمعناهُ العامِّ مِن دورانِ الشَّمسِ حولَ الأرضِ كما سَيَأْتي.

٣) ثمَّ إنْ سَلَّمْنا بدورانِ الشَّمسِ حولَ الأرضِ؛ فهلْ يَسْلَمُ للفاضلينِ ظاهرُ الحديثِ بغيرِ إشكالٍ؟! فأينَ تَذْهَبُ الشَّمسُ؟! هل تَخْرُجُ عن مدارِها أو تَبْقى فيهِ؟! وإنْ كانَتْ تَبْقى فيهِ؛ ففي أيِّ موضعٍ مِنهُ تَسْتَقِرُّ تحتَ العرشِ؟! ثمَّ كيفَ تَرْجِعُ مِن حيثُ جاءَتْ كلَّ يومٍ؟! ثمَّ ما هٰذا الطُّلوعُ والغروبُ ونحنُ نَعْلَمُ أنَّ الشَّمسَ لا تَغْرُبُ عن مكانٍ إلَّا وهيَ مشرقةٌ في غيرِهِ؟! ثمَّ أينَ هٰذا المشرقُ المطلَقُ والمغربُ المطلَقُ ونحنُ نَعْلَمُ أنَّهُ ما مِن مشرقٍ إلَّا وهناكَ مشرقٌ قبلَهُ ولا مغربٍ إلَّا وهناكَ مغربٌ بعدَهُ؟! هٰذهِ إشكالاتٌ أَوْرَدَ ٱبنُ كَثيرٍ في «تاريخه» (١/ ٦٥) طرفًا منها، ثمَّ خَتَمَ بقراءةِ ٱبنِ عَبَّاسٍ (والشَّمسُ تَجْري لا مستقرَّ لها) فزادَها إشكالاً جديدًا! فإنْ فَتَحَ الفاضلانِ بابَ التَّأْويلِ لكشفِ هٰذهِ الإشكالاتِ؛ فما لهُما يُحَرِّمانِهِ على غيرِهما ويُلزِمانِهم باليبسِ على الظَّاهرِ؟! وإنْ سَلَّما

---

(١) رواه: البخاري (٥٩ـ بدء الخلق، ٤ـ صفة الشمس، ٦/ ٢٩٧/ ٣١٩٩)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٧٢ـ الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، ١/ ١٣٨/ ١٥٩)؛ من حديث أبي ذرّ.

بعجزِهما عن كشفِ هٰذهِ الإشكالاتِ؛ كانا في ردِّ ما قَرَّرَهُ العلمُ وٱسْتَقَرَّ عليهِ النَّاسُ كالمستجيرِ مِن الرَّمضاءِ بالنَّارِ.

٤) وأخيرًا؛ فلا المثبتونَ لدورانِ الأرضِ حولَ الشَّمسِ ولا المنكرونَ لهُ قادرينَ على تصوُّرِ هٰذا المعنى الجليلِ فضلاً عنِ الإحاطةِ بهِ، فالعرشُ شيءٌ عظيمٌ جدًّا يَفوقُ الخيالَ، والشَّمسُ على عظمتِها ذرَّةٌ أو هباءةٌ في هٰذا العرشِ، «وما السَّماواتُ السَّبعُ في الكرسيِّ إلَّا كدراهمَ سبعةٍ أُلْقِيَتْ في ترسٍ، وما الكرسيُّ في العرشِ إلَّا كحلقةٍ مِن حديدٍ أُلْقِيَتْ بينَ ظهري فلاةٍ مِن الأرضِ»[1]! فإنْ رُمْتَ أنْ تَجْمَعَ بينَ هٰذا وبينَ حديثِ أبي ذرٍّ المتقدِّمِ ٱنْقَلَبَ إليكَ الفكرُ خاسئًا وهوَ حسيرٌ، لا لأنَّ الحديثينِ متناقضانِ! معاذَ اللهِ! ولٰكنْ لعجزِ الفكرِ البشريِّ عن تصوُّرِ هٰذهِ الغيبيَّاتِ.

مِن الحكمةِ واللهِ في هٰذا وأمثالِهِ أنْ يُؤمِنَ طالبُ العلمِ بهِ إيمانًا مجملاً على ظاهرِ معناهُ بغيرِ تفويضٍ وعلى حقيقتِهِ بغيرِ تأويلٍ، ثمَّ يُمْسِكَ عنِ الاسترسالِ فيما وَقَفَ الأئمَّةُ الفحولُ على ساحلِهِ، ويَكْبَحَ عنانَ خيالِهِ عن تصوُّرِ وتكييفِ غيبيَّاتٍ لا قِبَلَ لهُ بها، «ويَكِلَ ما أَشْكَلَ عليهِ إلى أصدقِ قائلٍ، ويَعْلَمَ أنَّ فوقَ كلِّ ذي علمٍ عليمًا» (٣/ ٣٢٥)؛ فإنَّهُ لا يَليقُ بالعاقلِ المنصفِ أنْ يَخوضَ أخذًا وردًّا فيما لا علمَ لهُ بهِ كونًا ولا شرعًا إلَّا ٱتِّباعَ الظَّنِّ الذي هوَ أكذبُ الحديثِ!

ب ـ قانون ٱنحفاظ المادَّة بين الكيميائيِّين والمتكلِّمين:

* **أوَّلاً**: سادتْ عندَ علماءِ اليونانِ القدامى منذُ عصرِ أرسطو نظريَّةٌ مشهورةٌ تُعْرَفُ بنظريَّةِ الجوهرِ الفردِ، تَقومُ على أنَّ الموادَّ الموجودةَ في الطَّبيعةِ تَنْقَسِمُ إلى نوعينِ: جواهرَ مفردةٍ وجواهرَ مؤلَّفةٍ تتكوَّنُ مِن ٱجتماعِ الجواهرِ المفردةِ، وأنَّ الحوادثَ الكونيَّةَ لا تَعْدو أنْ تكونَ ٱجتماعًا وتأليفًا لهٰذهِ الجواهرِ المفردةِ لتكوينِ المركَّباتِ أو تحلُّلاً للمركَّباتِ إلى جواهرِها المفردةِ.

* **ثانيًا**: ونظريَّةُ الجوهرِ الفردِ هٰذهِ هيَ الأصلُ القديمُ لِما يُعْرَفُ اليومَ بقانونِ

---

(١) (**صحيح**). رواه: الدارمي في «الردّ على المريسي»، وٱبن أبي شيبة في «العرش»، وٱبن جرير، وٱبن مردويه، وغيرهم. وٱنظر لطرقه «السلسلة الصحيحة» (١٠٩).

لافوازييه أو قانونِ ٱنحفاظ المادَّةِ الذي يَنُصُّ على أنَّهُ لا شيءَ يَنْشَأُ مِن العدمِ ولا شيءَ يَبِيدُ في هٰذا الكونِ وإنَّما تَتَحَوَّلُ المادَّةُ مِن شكلٍ لآخرَ. لٰكنَّ الكيميائيِّينَ المعاصرينَ أعْرَضوا عن لفظِ الجوهرِ الفردِ والمؤلَّفِ وٱسْتَبْدَلوهُ بالعنصرِ البسيطِ والمادَّةِ المركَّبةِ.

* **ثالثًا**: ومعَ تسليمِ الفيزيائيِّينَ المعاصرينَ بالعلاقةِ بينَ المادَّةِ والطَّاقةِ وبأنَّ المادَّةَ شكلٌ مِن أشكالِ الطَّاقةِ؛ ظَهَرَ قانونُ إينشتاين الذي هوَ صيغةٌ معدَّلةٌ لقانونِ لافوازييه ويَنُصُّ على أنَّ الطَّاقةَ لا تَنْشَأُ مِن عدمٍ ولا تَتَبَدَّدُ في هٰذا الكونِ وإنَّما تَتَحَوَّلُ مِن شكلٍ لآخرَ. ثمَّ معَ تطوُّرِ الفيزياءِ النَّوويَّةِ والفضائيَّةِ لوحِظَ أنَّ قانونَ إينشتاين لا يَصِحُّ في الفضاءِ الكونيِّ المفتوحِ، بل لا بدَّ لصحَّتِهِ مِن فضاءٍ معزولٍ. ثمَّ لوحِظَتْ شذوذاتٌ أُخرى لقانونِ إينشتاين في الفضاءِ المعزولِ أيضًا.

* **رابعًا**: ومعَ ذٰلكَ؛ فقد بَقِيَ قانونُ لافوازييه بصيغتِهِ القديمةِ والمعدَّلةِ أصلاً مِن الأُصولِ التي يَقومُ عليها صرحُ الكيمياءِ والفيزياءِ المعاصرتينِ ولا يُتَصَوَّرُ لهُما قيامٌ بدونِهِ. فهوَ ميزانٌ صحيحٌ ثابتٌ أرْساهُ الذي رَفَعَ السَّماءَ ووَضَعَ الميزانَ، وأخْضَعَ لهُ تبخُّرَ الماءِ وتكوُّنَ الغيومِ وإمطارَها ووقوعَ الحملِ ونموَّ الأجنَّةِ في بطونِ أمَّهاتِها والثِّمارِ على أشجارِها وتحلُّلَ الموتى وتفسُّخَ جثثِها، وما مِن شيءٍ مِن حساباتِ الفيزيائيِّينَ والكيميائيِّينَ وتقديراتِهِم إلاَّ وهوَ منضبطٌ بهٰذا الأصلِ مستندٌ إليهِ.

* **خامسًا**: وهاهُنا فئةٌ قديمةٌ حديثةٌ مِن ضعفاءِ العقولِ والإيمانِ، كلَّما ٱسْتُحْدِثَتْ نظريَّةٌ؛ طاروا بها ونَزَّلوا عليها حقائقَ الإيمانِ والقرآنِ والغيبيَّاتِ! فإنْ سَمِعوا بالاندماجِ النَّوويِّ وٱستخدامِ ماءِ البحرِ في الوقودِ الذَّرِّيِّ؛ قالوا: هكذا تَتَفَجَّرُ البحارُ يومَ القيامةِ، يُحَوِّلُها اللهُ إلى قنابلَ نوويَّةٍ! وإذا سَمِعوا بنظريَّةِ موتِ نجمٍ؛ قالوا: هٰذا ما يَحْصُلُ يومَ القيامةِ عندَما تَنْتَهي طاقةُ الشَّمسِ! وإذا سَمِعوا بنظريَّةِ تباعدِ النُّجومِ وٱنفلاتِها؛ قالوا: ها، هٰذا هوَ يومُ القيامةِ، يومَ يَضْطَرِبُ النِّظامُ الكونيُّ وتَتَصادَمُ النُّجومُ!

ومِن هُنا ٱنْقَسَمَ النَّاسُ في شأنِ هٰذا القانونِ إلى فئاتٍ ثلاثٍ:

ففئةٌ أَخَذَهُمُ العُجبُ بما عَرَفوا وظَنُّوا أنَّهُم حازوا علومَ الأوَّلينَ والآخرينَ وٱسْتَخَفَّهُمُ الشَّيطانُ وجَرَّهُم إلى تمثيلِ الخالقِ بالخلقِ وتحكيمِ القانونِ على مرسيهِ

ومقنِّنِه وإلزامِ الرَّبِّ بما يَلْزَمُ العبيدَ. وهٰؤلاءِ أفراخُ المعتزلةِ والمتكلِّمةِ. وَيْحَكُمْ! ما عندَكُم إلَّا قانونٌ لهُ صفةُ العمومِ لا صفةُ الإطلاقِ بإقرارِ كبارِكُم وعظمائِكُم!

وفئةٌ أسْقَطوا القانونَ رأْسًا وردُّوهُ في أحكامِ الأرضِ حتَّى لا يَلْزَمَهُم في أحكامِ السَّماءِ! والقانونُ ثابتٌ؛ يُدَرَّسُ في المدارسِ ويُطَبَّقُ في المصانعِ ومخابرِ التَّحليلِ، ولا بدَّ في كلِّ عمليَّةٍ كيميائيَّةٍ مِن تطابقِ الدَّاخلِ معَ الخارجِ! فكيفَ تُكابِرونَ الحسَّ وتَسْلُكونَ هٰذا المسلكَ المنفِّرَ للشَّبابِ المثقَّفِ الجامعيِّ عنِ الدِّينِ وأهلِهِ الموقعَ لطلَّابِ العلمِ في حيرةِ التَّناقضِ بينَ العلمِ والدِّينِ! فضررُ الدِّينِ وما جاءَتْ بِهِ الرُّسلُ بهٰؤلاءِ مِن أعظمِ الضَّررِ كما قالَ ابْنُ القيِّمِ آنفًا.

وفئةٌ تَوَسَّطَتْ توسُّطَ أهلِ الحقِّ دائمًا فقالَتْ: هٰذا قانونٌ أرضيٌّ ثابتٌ وسنَّةٌ مطَّردةٌ أرْساها مقنِّنُ القوانينِ ومقرُّ السُّننِ رحمةً بنا لضبطِ أُمورِنا ومصالحِنا، فهيَ لازمةٌ لنا لا لهُ ومنطبقةٌ علينا لا عليهِ، وكما أنَّهُ لا يُماثِلُ الخلقَ في ذاتِهِ وصفاتِهِ فكذٰلكَ لا يَلْزَمُهُ في أفعالِهِ ما يَلْزَمُهُم في أفعالِهِم، فمتى شاءَ خَلَقَ مِن العدمِ ما شاءَ، ومتى شاءَ أفْنى مِن الوجودِ ما شاءَ، كَثَّرَ الطَّعامَ القليلَ أضعافًا ببركةِ لمسِ نبيِّهِ ﷺ أو تفلِهِ أو دعائِهِ، وأنْبَعَ الماءَ النَّميرَ مِن بينِ أصابعِهِ، وفَجَّرَهُ مِن الحجرِ لموسى ﷺ تفجيرًا، وكذٰلكَ يُعيدُ الخلقَ ويَبْعَثُ مَن في القبورِ كما يَشاءُ هوَ لا كما نَفْتَرِضُ ونُخَمِّنُ ونَحْسُبُ ونُقَنِّنُ.

* **سادسًا**: وعليهِ؛ فنظريَّةُ الجوهرِ الفردِ وتحوُّلِ المادَّةِ مِن صورةٍ لأُخرى وقانونُ لافوازييه بصيغتِهِ القديمةِ والمعدَّلةِ ليستْ أصلاً فاسدًا، بل هيَ أصلٌ صحيحٌ ثابتٌ، وإنَّما الفسادُ في عقولِ مَن رامَ أنْ يُخْضِعَ لها أفعالَ ربِّ العالمينَ ومقنِّنِ القوانينِ.

ج ـ الفكرُ بينَ القلبِ والدِّماغِ:

* **أوَّلاً**: يَميلُ كثيرٌ مِن الأطبَّاءِ المعاصرينَ، ولا سيَّما المختصِّينَ منهُم بالأمراضِ القلبيَّةِ، إلى أنَّ القلبَ لا يَعْدو أنْ يَكونَ مضغَّةً عضليَّةً وظيفتُها إيصالُ الدَّمِ إلى مختلفِ أنحاءِ الجسدِ، وأنَّ ما أُضيفَ إلى القلبِ مِن الحبِّ والبغضِ والقسوةِ واللينِ والخبثِ والطِّيبِ والوهنِ والقوَّةِ لا يَعْدو أنْ يكونَ خيالاً عامِّيًّا أو فكرةً علميَّةً ثَبَتَ عدمُ صحَّتِها. هٰذا أمرٌ لَمَسْتُهُ أكثرَ مِن مرَّةٍ أيَّامَ دراستي في كلِّيَّةِ الطِّبِّ.

* **ثانيًا**: وأمَّا نصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ؛ فقد تَواطَأَتْ على ٱختصاصِ القلبِ دونَ الدِّماغِ أو المخِّ بالذِّكرِ، فرَأَيْتَ القلبَ فيها محلَّ: الفقهِ والعقلِ، والطُّمأنينةِ والشَّكِّ والرَّيبِ، والسَّكينةِ والوجلِ والرُّعبِ، والهدى والضَّلالِ، والإيمانِ والعمى، والصَّلاحِ والفسادِ، والتُّقى والإثمِ، والأمانةِ والخيانةِ، والرَّحمةِ والقسوةِ، والإنابةِ واللهوِ، والإخباتِ والغفلةِ، والسَّلامةِ والمرضِ والغلِّ والغلظةِ، والتَّزيينِ بالإيمانِ والمعاقبةِ بالإزاغةِ والختمِ والطَّبعِ والرَّينِ. . . والنُّصوصُ في هٰذا أكثرُ مِن أنْ يَتَّسِعَ لها هٰذا المقامُ، تَوارَدَتْ كلُّها على ٱختصاصِ القلبِ دونَ الدِّماغِ بهٰذهِ الأُمورِ وأضعافِها.

* **ثالثًا**: وكُنْتُ أيَّامَ دراستي الجامعيَّةِ أميلُ إلى مذهبِ مَن قالَ: إنَّ المقصودَ بالقلبِ في القرآنِ الكريمِ حيثُما ذُكِرَ هوَ العقلُ والدِّماغُ والتَّفكيرُ، ثمَّ تَبَيَّنَ لي أنَّ كثيرًا مِن النُّصوصِ لا يَدْعَمُ هٰذا التَّعميم:

١) فمِن ذٰلكَ مثلاً قولُهُ تَعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسيروا في الأَرْضِ فَتكونَ لَهُمْ قُلوبٌ يَعْقِلونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمى الأَبْصارُ وَلٰكِنْ تَعْمى القُلوبُ الَّتي في الصُّدورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فهٰذا صريحٌ في القلبِ المعروفِ الذي يَسْكُنُ الصَّدرَ لا الرَّأْسَ، وأنَّه محلٌّ للعقلِ والفهمِ.

٢) ومِن ذٰلكَ قولُه تَعالى في وصفِ أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَنَزَعْنا ما في صُدورِهِمْ مِن غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣، الحجر: ٤٧]، وهٰذا صريحٌ في أنَّ محلَّ الغلِّ هوَ القلبُ الذي يَسْكُنُ الصَّدرَ.

٣) ومِن ذٰلكَ قولُهُ ﷺ فيما رَواهُ مسلمٌ (٢٥٥٣) مِن حديثِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعانَ: «الإثمُ ما حاكَ في صدرِكَ وكَرِهْتَ أنْ يَطَّلِعَ عليهِ النَّاسُ». ولا ريبَ أنَّ المرادَ مِن الصَّدرِ هُنا القلبُ على الخصوصِ.

٤) ومِن ذٰلكَ قولُهُ ﷺ فيما رَواهُ مسلمٌ (٢٥٦٤) مِن حديثِ أبي هُرَيْرَةَ: «التَّقوى هاهُنا»، ويُشيرُ إلى صدرِهِ؛ ثلاثَ مرَّاتٍ. ولا يَخْفى أنَّ المقصودَ بالإشارةِ إلى الصَّدرِ هوَ القلبُ، بل قد جاءَ هٰذا صريحًا في بعضِ الأحاديثِ.

ولو تَتَبَّعْتُ ما جاءَ على هٰذا النَّحوِ من النُّصوصِ لَطالَ الكلامُ، وبعضُهُ يَكْفي في

ردُّ قولِ مَن زَعَمَ أنَّ المرادَ بالقلبِ حيثُ ذُكِرَ في القرآنِ والسُّنَّةِ هوَ المخُّ أوِ الدِّماغُ.

* **رابعًا**: وقد عالَجَ ٱبنُ القَيِّمِ يَرْحَمُهُ اللهُ تَعالى هٰذه القضيَّةَ هُنا (٢/ ٣٦)، فذَكَرَ قولَ مَن جَعَلَ القلبَ مبدأَ الحواسِّ والعقلِ وقولَ مَن جَعَلَ مبدأَها الدِّماغَ، ثمَّ قالَ: «والصَّوابُ التَّوسُّطُ بينَ الفريقينِ، وهوَ أنَّ القلبَ يَنْبَعِثُ منهُ قوَّةٌ إلى هٰذهِ الحواسِّ، وهيَ قوَّةٌ معنويَّةٌ لا تَحْتاجُ في وصولِها إليها إلى مجارٍ مخصوصةٍ وأعصابٍ تكونُ حاملةً لها؛ فإنَّ وصولَ القوى إلى هٰذهِ الحواسِّ والأعضاءِ لا يَتَوَقَّفُ إلَّا على قبولِها وٱستعدادِها وإمدادِ القلبِ لا على مجارٍ وأعصابٍ. وبهٰذا يَزولُ الالتباسُ في هٰذا المقامِ الذي طالَ فيهِ الكلامُ وكَثُرَ فيهِ النِّزاعُ والخصامُ».

وبغضِّ النَّظرِ عن مدى صحَّةِ هٰذهِ المقاربةِ؛ فقد وَضَعَ ٱبنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ يدَهُ على مفتاحِ القضيَّةِ، وهوَ إثباتُ دورِ الدِّماغِ والقلبِ معًا في العلمِ والفهمِ والفكرِ.

* **خامسًا**: والذي يَميلُ إليهِ قلبي أنَّ محلَّ العلمِ والدَّرسِ والتَّحليلِ ٱبتداءً هوَ الدِّماغُ، فإذا ما ٱستَقَرَّ العلمُ وأصبَحَ عقيدةً وإيمانًا ورَسَخَتِ الأفكارُ وصارَتْ فقهًا وفهمًا ووعيًا وعقلاً؛ فإنَّها تَحِلُّ في القلبِ وتُلازِمُهُ بطريقةٍ ما.

* **سادسًا**: فإنْ لمْ تَسْتَسِغْ هٰذا القولَ ولا الذي قبلَهُ ولمْ تَطْمَئِنَّ إليهِما؛ فٱعْلَمْ أنَّ ساحاتِ النَّفسِ البشريَّةِ واسعةٌ جدًّا وما زالَ أكثرُها مجهولاً. فتَمَسَّكْ بهٰذا الأصلِ، وٱصْبِرْ على ما ثَبَتَ لكَ يقينًا مِن كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِهِ ﷺ، ولَعَلَّ الأيَّامَ القريبةَ القادمةَ تأْتيكَ بِما يَشْفي قلبَكَ ويَزيدُهُ إيمانًا ويقينًا.

ولقد واللهِ سَمِعْتُ أحدَ الأطبَّاءِ النَّفسيِّينَ غيرِ المسلمينَ يقولُ: الدِّماغُ كومبيوتر، والكومبيوتر مهما شَحَنْتَهُ بالمعلوماتِ فإنَّهُ لا يُحِبُّ ولا يُبْغِضُ ولا يَعْرِفُ العاطفةَ، لا بدَّ أنَّ للقلبِ دورًا. فإذا قالَ هٰذا مَن لا يَرْجِعُ إلى كتابٍ ولا إلى سنَّةٍ ولا إلى دليلٍ علميٍّ؛ فأولى بنا أنْ نَصْبِرَ على ما في كتابِ ربِّنا وسنَّةِ نبيِّنا حتَّى يَتَبَيَّنَ لنا الحقُّ.

د ـ الطَّبيعةُ بينَ رؤيةِ المؤمنِ ورؤيةِ الملحدِ:

لا بدَّ أنَّكَ قَرَأْتَ مرَّةً أو سَمِعْتَ في بعضِ وسائلِ الإعلامِ عباراتٍ نحوَ قولِهِم: شَقَقْنا الطَّريقَ الفلانيَّ بينَ الجبالِ وقَهَرْنا الطَّبيعةَ، بَنَيْنا السَّدَّ وطَوَّعْنا مياهَ النَّهرِ ولَمْ تَعُدِ

الأمطارُ تَتَحَكَّمُ بمصائرِنا، بَنَيْنا الجسرَ الفلانيَّ الضَّخمَ وأخْضَعْنا الطَّبيعةَ، فَرَضَتْ علينا طبيعةُ البلادِ القاسيةُ هٰذهِ الظُّروفَ . . . ونحوَ ذٰلكَ مِن عباراتِ التَّحدِّي.

لٰكنَّكَ سَتَطَّلِعُ في هٰذا الكتابِ على نموذجٍ آخرَ مِن العباراتِ ورؤيةٍ أُخرى للعلاقةِ بينَ الإنسانِ والطَّبيعةِ:

يَقولُ ٱبنُ القَيِّمِ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ في علِّيِّينَ (٢/ ١٩٣): «الدُّنيا قريةٌ، والمؤمنُ رئيسُها، والكلُّ مشغولٌ بهِ ساعٍ في مصالحِهِ، والكلُّ قد أُقيمَ في خدمتِهِ وحوائجِهِ: فالملائكةُ الذينَ هُم حملةُ عرشِ الرَّحمٰنِ ومَن حولَهُ يَسْتَغْفِرونَ لهُ، والملائكةُ الموكَّلونَ بهِ يَحْفَظونَهُ، والموكَّلونَ بالقطرِ والنَّباتِ يَسْعَوْنَ في رزقِهِ ويَعْمَلونَ فيهِ، والأفلاكُ مسخَّرةٌ منقادةٌ دائرةٌ بما فيهِ مصالحُهُ، والشَّمسُ والقمرُ والنُّجومُ مسخَّراتٌ جارياتٌ بحسابِ أزمنتِهِ وأوقاتِهِ وإصلاحِ رواتبِ أقواتِهِ، والعالمُ الجوِّيُّ مسخَّرٌ لهُ برياحِهِ وهوائِهِ وسحابِهِ وطيرِهِ وما أُودِعَ فيهِ، والعالمُ السُّفليُّ كلُّهُ مسخَّرٌ لهُ مخلوقٌ لمصالحِهِ أرضُهُ وجبالُهُ وبحارُهُ وأنهارُهُ وأشجارُهُ وثمارُهُ ونباتُهُ وحيوانُهُ وكلُّ ما فيهِ».

ويَقولُ أيضًا (٢/ ٦٤): «تأمَّلِ العبرةَ في وضعِ هٰذا العالمِ وتأليفِ أجزائِهِ ونظمِها على أحسنِ نظامٍ. . . وجَعَلَ الإنسانَ كالملكِ المخوَّلِ في ذٰلكَ المحكَّمِ فيهِ المتصرِّفِ بفعلِهِ وأمرِهِ».

ويَقولُ أيضًا (٢/ ١١٤) بعد التَّنبيهِ إلى نعمتِهِ تَعالى في حملِ الشَّجرِ: «وكلُّ هٰذا إكرامًا لكَ وعنايةً بأمرِكَ وتخصيصًا لكَ وتفضيلاً على غيرِكَ مِن الحيواناتِ».

شتَّانَ شتَّانَ بينَ موقفِ المؤمنِ الذي تَلْمُسُ فيهِ: روحَ الرِّضى والمحبَّةِ للخالقِ سبحانَهُ، والشُّكرِ لهُ على ما سَخَّرَ لهُ مِن مواردِ الطَّبيعةِ، والتَّعاملِ معَ هٰذهِ المواردِ على أنَّها صديقٌ وفيٌّ للبشريَّةِ، والعملِ على الانتفاعِ بها بقدرِ الحاجةِ. وبينَ نظرةِ الضَّالِّ التي تَحْمِلُ: مشاعرَ السَّخطِ والتَّمرُّدِ على الخالقِ الكريمِ، والجحودِ لنعمِهِ، والإعجابِ بالنَّفسِ البشريَّةِ وإمكانيَّاتِها، والعدوانيَّةِ نحوَ الطَّبيعةِ والرَّغبةِ بٱستنزافِها. ولِلهِ الحمدُ والمنَّةُ على الإسلامِ والسُّنَّةِ.

* * * * *

[مقدمة المصنف]

[١]
[خطبة الكتاب]

بسم اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيمِ. الحمدُ للهِ الذي سَهَّلَ لعبادِهِ المتَّقينَ إلى مرضاتِهِ سبيلا، وأَوْضَحَ لهُم طريقَ الهدايةِ وجَعَلَ ٱتِّباعَ الرَّسولِ عليها دليلا، وٱتَّخَذَهُمْ عبيدًا لهُ فأَقَرُّوا لهُ بالعبوديَّةِ ولمْ يَتَّخِذوا مِن دونِهِ وكيلا، وكَتَبَ في قلوبِهِمُ الإيمانَ وأَيَّدَهُم برُوحٍ منهُ لمَّا رَضُوا باللهِ ربًّا وبالإسلامِ دينًا وبمُحَمَّدٍ رسولا.

والحمدُ للهِ الذي أقامَ في أزمنةِ الفتراتِ[١] مَن يَكونُ ببيانِ سننِ المرسلينَ كفيلا، وٱخْتَصَّ هٰذهِ الأُمَّةَ بأنَّهُ لا يَزالُ فيها طائفةٌ على الحقِّ لا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم ولا مَن خالَفَهُم حتَّى يَأْتِيَ أمرُ اللهِ ولوِ[٢] ٱجْتَمَعَ الثَّقلانِ على حربِهِم قبيلا؛ يَدْعُونَ مَن ضَلَّ إلى الهدى، ويَصْبِرونَ منهُم على الأذى، ويُبَصِّرونَ بنورِ اللهِ أهلَ العمى، ويُحْيونَ بكتابِهِ الموتى؛ فهُم أحسنُ النَّاسِ هديًا وأقومُهُم قيلا. فكم [مِن] قتيلٍ لإبليسَ قد أَحْيَوْه، ومِن ضالٍّ جاهلٍ لا يَعْلَمُ طريقَ رشدِهِ قد هَدَوْه، ومِن مبتدعٍ في دينِ اللهِ بشهبِ الحقِّ قد رَمَوْه؛ جهادًا في اللهِ وٱبتغاءَ مرضاتِه، وبيانًا لحججِهِ على العالمينَ وبيِّناتِه، وطلبًا للزُّلفى لديهِ ونيلِ رِضوانِهِ وجنَّاتِه[٣]. فحارَبوا في اللهِ مَن خَرَجَ عن دينِهِ القويمِ وصراطِهِ المستقيمِ؛ الذينَ عَقَدوا ألويةَ البدعةِ، وأَطْلَقوا أعنَّةَ الفتنةِ، وخالَفوا الكتابَ، وٱخْتَلَفوا

---

(١) أزمنة الفترات في هٰذه الأمّة هي أزمنة قلّة العلم وكثرة الجهل وفشوّ البدع والضلالات وظهور الخرافات كما ترى في أيَّامنا هٰذه.

(٢) في خ: «طرق الهداية وجعل...»، وفي ط: «... أمره ولو»، والأولى ما أثبتّه.

(٣) في خ: «مرضاته وجنّاته»، والأولى ما أثبتّه من ط.

في الكتابِ، وٱتَّفَقوا على مفارقةِ الكتابِ، ونَبَذوهُ وراءَ ظهورِهم، وٱرْتَضَوْا غيرَهُ منهُ بديلا.

أَحْمَدُهُ وهوَ المحمودُ على كلِّ ما قَدَّرَهُ وقَضاه، وأَسْتَعِينُهُ ٱستعانةَ مَن يَعْلَمُ أَنَّهُ لا رَبَّ لهُ غيرُهُ ولا إِلٰهَ لهُ سواه، وأَسْتَهْدِيهِ سبيلَ الذينَ أَنْعَمَ عليهِم[1] مِمَّن ٱخْتارَهُ لقبولِ الحقِّ وٱرْتَضاه، وأَشْكُرُهُ والشُّكرُ كفيلٌ بالمزيدِ مِن عطاياه، وأَسْتَغْفِرُهُ مِن الذُّنوبِ التي تَحولُ بينَ القلبِ وهداه، وأعوذُ /خ٣/ بهِ مِن شرِّ نفسي وسيِّئاتِ عملي ٱستعاذةَ عبدٍ فارٍّ إلى ربِّهِ مِن ذنوبِهِ[2] وخطاياه، وأَعْتَصِمُ بهِ مِن الأهواءِ المرديةِ والبدعِ المضلَّةِ فما خابَ مَن أَصْبَحَ بهِ معتصمًا وبحماهُ نزيلا.

وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ شهادةً؛ أَشْهَدُ بها معَ الشَّاهدين، وأَتَحَمَّلُها عنِ الجاحدين[3]، وأَدَّخِرُها عندَ اللهِ عدَّةً ليومِ الدِّين.

وأَشْهَدُ: أَنَّ الحلالَ ما حَلَّلَهُ والحرامَ ما حَرَّمَهُ والدِّينَ ما شَرَعَهُ، وأَنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن في القبور.

وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا: عبدُهُ المصطفى، ونبيُّهُ المرتضى، ورسولُهُ الصَّادقُ المصدوقُ الذي لا يَنْطِقُ عنِ الهوى إنْ هوَ إلَّا وحيٌ يُوحى. أَرْسَلَهُ رحمةً للعالمين، ومحجَّةً للسَّالكين، وحجَّةً على العبادِ أجمعين. أَرْسَلَهُ على حينِ فترةٍ مِن الرُّسل، فهَدى بهِ إلى أقومِ الطُّرقِ وأوضحِ السُّبل، وٱفْتَرَضَ على العبادِ طاعتَهُ وتعظيمَهُ وتوقيرَهُ وتبجيلَهُ والقيامَ بحقوقِه، وسَدَّ إليهِ جميعَ الطُّرقِ فلم يَفْتَحْ لأحدٍ إلَّا مِن طريقِه، فشَرَحَ لهُ صدرَه، ورَفَعَ لهُ ذكرَه، ووَضَعَ عنهُ وزرَه، وجَعَلَ الذِّلَّةَ والصَّغارَ على مَن خالَفَ أمرَه. هَدى بهِ مِن الضَّلالة، وعَلَّمَ بهِ مِن الجهالة، وبَصَّرَ بهِ مِن العمى، وأَرْشَدَ بهِ مِن الغيِّ، وفَتَحَ بهِ أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا.

---

(١) في ط: «عنه بديلاً...»، وفي خ: «... كلّ حال دره وقضاه... سبل الذين أنعم الله عليهم».

(٢) في خ: «وأعوذ بالله من شرّ...»، وفي ط: «... ربّه بذنوبه».

(٣) لأنّ توحيد المؤمنين ودعاءهم وٱستغفارهم وتضرّعهم يطفئ غضب الربّ ويشفع لأهل الأرض ويحول دون نزول العذاب بهم وهلاكهم أجمعين، فالمؤمن كالغنيّ الذي يتحمّل ديون الغارمين ويؤدّيها، لٰكنّ تحمّل الدّين يسقطه جملة وتحمّل الشهادة يحول دون إهلاك أهل الأرض قاطبة فحسب.

فلمْ يَزَلْ ﷺ قائمًا بأمرِ اللهِ لا يَرُدُّهُ عنهُ رادّ داعيًا إلى اللهِ لا يَصُدُّهُ عنهُ صادّ إلى أنْ: أشْرَقَتْ برسالتِهِ الأرضُ بعدَ ظلماتِها، وتَألَّفَتْ [بهِ] القلوبُ بعدَ شتاتِها، وسارَتْ دعوتُهُ مسيرَ الشَّمسِ في الأقطارِ، وبَلَغَ دينُهُ ما بَلَغَ الليلُ والنَّهار. فلمَّا أكْمَلَ اللهُ بهِ الدِّين وأتَمَّ بهِ النِّعمةَ على عبادِهِ المؤمنين؛ آسْتَأْثَرَ بهِ، ونَقَلَهُ إلى الرَّفيقِ الأعلى مِن كرامتِهِ، والمحلِّ الأرفعِ الأسنى مِن أعلى جنَّتِه[1]، ففارَقَ الأُمَّةَ وقد تَرَكَها على المحجَّةِ البيضاءِ التي لا يَزيغُ عنها إلَّا مَن كانَ مِن الهالكينَ.

فصَلَّى اللهُ /خ٤/ عليهِ [وسَلَّمَ] وعلى آلِهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهرين، صلاةً دائمةً بدوامِ السَّماواتِ والأرضين، مقيمةً عليهِم أبدًا لا تَرومُ آنتقالاً [عنهُم] ولا تحويلا.

أمَّا بعدُ:

[٢ ـ فصل]

[في الحكم التي أقتضت إهباط آدم إلى الأرض]

● فإنَّ اللهَ سبحانَهُ لمَّا أهْبَطَ آدَمَ أبا البشرِ مِن الجنَّةِ، لِما لهُ في ذٰلكَ مِن الحكمِ التي تَعْجِزُ العقولُ عن معرفتِها والألسنُ عن صفتِها. فكانَ إهباطُهُ منها عينَ كمالِه، لِيَعودَ إليها على أحسنِ أحوالِه.

* فأرادَ سبحانَهُ أنْ يُذيقَهُ وولدَهُ مِن تعبِ الدُّنيا وغمومِها وهمومِها وأوصابِها[2] ما يَعْظُمُ بِهِ عندَهُم مقدارُ دخولِهِم إليها في الدَّارِ الآخرةِ؛ فإنَّ الضِّدَّ يُظْهِرُ حسنَهُ الضِّدُّ، ولو تَرَبَّوْا في دارِ النَّعيمِ؛ لمْ يَعْرِفوا قدرَها.

* **وأيضًا**: فإنَّهُ سبحانَهُ أرادَ أمرَهُم ونهيَهُم وآبتلاءَهُم وآختبارَهُم، وليستِ الجنَّةُ دارَ تكليفٍ، فأهْبَطَهُم إلى الأرضِ، وعَرَّضَهُم بذٰلكَ لأفضلِ الثَّوابِ الذي لمْ يَكُنْ لِيُنالَ بدونِ الأمرِ والنَّهي.

* **وأيضًا**: فإنَّهُ سبحانَهُ أرادَ أنْ يَتَّخِذَ منهُم أنبياءَ ورسلاً وأولياءَ وشهداءَ يُحِبُّهُم

---

(١) في خ: «سير الشمس...»، وفي ط: «... أعلى جنّاته».

(٢) في خ: «ممّا له في ذٰلك...»، وفي ط: «... من نصب الدنيا...». والأوصاب: الأمراض.

ويُحبُّونَهُ، فخَلَّى بينَهُم وبينَ أعدائِهِ[(١)] وامْتَحَنَهُم بهِم. فلمَّا آثروهُ وبَذَلوا نفوسَهُم وأموالَهُم في مرضاتِهِ ومحابِّهِ؛ نالوا مِن محبَّتِهِ ورضوانِهِ والقربِ منهُ ما لمْ يَكُنْ لِيُنالَ بدونِ ذٰلكَ أصلاً. فدرجةُ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ والشَّهادةِ والحبِّ فيهِ والبغضِ فيهِ وموالاةِ أوليائِهِ ومعاداةِ أعدائِهِ عندَهُ مِن أفضلِ الدَّرجاتِ، ولمْ يَكُنْ [لآدَمَ أنْ][(٢)] يَنَالَ هٰذا إلاَّ على الوجهِ الذي قَدَّرَهُ وقَضاهُ مِن إهباطِهِ إلى الأرضِ وجعلِ معيشتِهِ ومعيشةِ أولادِهِ فيها.

* **وأيضًا:** فإنَّهُ سبحانَهُ لهُ الأسماءُ الحسنى فمِن أسمائِهِ: الغفورُ، الرَّحيمُ، العزيزُ، الحكيمُ، الخافضُ، الرَّافعُ، المعزُّ، المذِلُّ، المحيي، المميتُ، الوارثُ، الصَّبورُ[(٣)]... ولا بدَّ مِن ظهورِ [آثارِ] هٰذهِ الأسماءِ. فاقْتَضَتْ حكمتُهُ سبحانَهُ أنْ يُنْزِلَ آدَمَ وذرِّيَّتَهُ دارًا يُظْهِرُ عليهِم فيها أثرَ أسمائِهِ /خ٥/ الحسنى؛ يَغْفِرُ[(٤)] فيها لمَن يَشاءُ، ويَرْحَمُ مَن يَشاءُ، ويَخْفِضُ مَن يَشاءُ، ويَرْفَعُ مَن يَشاءُ، ويُعِزُّ مَن يَشاءُ، ويُذِلُّ مَن يَشاءُ، ويَنْتَقِمُ ممَّن يَشاءُ، ويُعْطِي ويَمْنَعُ[(٥)]، ويَقْبِضُ ويَبْسُطُ... إلى غيرِ ذٰلكَ مِن ظهورِ أثرِ أسمائِهِ وصفاتِهِ.

* **وأيضًا:** فإنَّهُ سبحانَهُ الملكُ الحقُّ المبينُ. والملكُ هوَ الذي: يَأْمُرُ ويَنْهى، ويُثيبُ ويُعاقِبُ، ويُهينُ ويُكْرِمُ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ... فاقْتَضى ملكُهُ سبحانَهُ أنْ يُنْزِلَ آدَمَ وذرِّيَّتَهُ دارًا تَجْري عليهِم فيها أحكامُ الملكِ، ثمَّ يَنْقُلَهُم إلى دارٍ يُتِمُّ عليهِم فيها ذٰلكَ.

* **وأيضًا:** فإنَّهُ سبحانَهُ أنْزَلَهُم إلى دارٍ يَكُونُ إيمانُهُم فيها بالغيبِ، [والإيمانُ بالغيبِ][(٦)] هوَ الإيمانُ النَّافعُ، وأمَّا الإيمانُ بالشَّهادةِ؛ فكلُّ أحدٍ يُؤْمِنُ يومَ القيامةِ؛ يومَ

---

(١) في خ: «وأهبطهم إلى... أعدائهم»، وفي ط: «... وعوّضهم بذلك أفضل الثواب...».

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) يوصف الله تعالى بأنّه يخفض ويرفع ويعزّ ويذلّ ويحيي ويميت ويصبر ولٰكنّها ليست أسماء له تعالى، فكأنّه يرحمه الله قصد بالأسماء هنا عموم باب الأسماء والصفات والأفعال. والله أعلم.

(٤) في ط: «الغفور الرحيم العفوّ الحليم... فيغفر»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٥) في خ: «ويعطي من يشاء ويمنع»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٦) في خ: «أن أنزل آدم وذرّيّته...»، وما بين الحاصرتين ساقط من ط.

لا يَنْفَعُ نفسًا إلَّا إيمانُها في الدُّنيا. فلو خُلِقوا في دارِ النَّعيمِ؛ لَمْ يَنالوا درجةَ الإيمانِ بالغيبِ، واللذَّةُ والكرامةُ الحاصلةُ بذٰلكَ لا تَحْصُلُ بدونِهِ، بل كانَ الحاصلُ لهُم في دارِ النَّعيمِ لذَّةً وكرامةً غيرَ هٰذِهِ.

* **وأيضًا**: فإنَّ اللهَ سبحانَهُ خَلَقَ آدَمَ مِن قبضةٍ قَبَضَها مِن جميعِ الأرضِ[1]، والأرضُ فيها الطَّيِّبُ والخبيثُ والسَّهلُ والحَزْنُ والكريمُ واللئيمُ. فعَلِمَ سبحانَهُ أنَّ في ظهرِهِ مَن لا يَصْلُحُ لمساكنتِهِ في دارِهِ، فأنْزَلَهُ إلى دارٍ ٱسْتَخْرَجَ فيها الطَّيِّبَ والخبيثَ مِن صُلْبِهِ، ثمَّ مَيَّزَهُم[2] سبحانَهُ بدارينِ: فجَعَلَ الطَّيِّبينَ أهلَ جوارِهِ ومساكنتِهِ في دارِهِ، وجَعَلَ الخبيثـ[ـينَ] أهلَ دارِ الشَّقاءِ دارِ الخبثاءِ. قالَ [اللهُ] تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَميعًا فَيَجْعَلَهُ في جَهَنَّمَ أُولٰئِكَ هُمُ الخاسِرونَ﴾ [الأنفال: ٣٧]. فلمَّا عَلِمَ سبحانَهُ أنَّ في ذرِّيَّتِهِ مَن ليسَ بأهلٍ لمجاورتِهِ؛ أنْزَلَهُم دارًا ٱسْتَخْرَجَ منها أُولٰئكَ وألْحَقَهُم بالدَّارِ التي هُم لها أهلٌ؛ حكمةً بالغةً ومشيئةً نافذةً، ذٰلكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ.

* **وأيضًا**: فإنَّهُ سبحانَهُ لمَّا قالَ لملائكتِهِ: ﴿إنِّي جاعِلٌ في الأَرْضِ /خ٦/ خَليفَةً﴾؛ قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، فأجابَهُم[3] بقولِهِ: ﴿إنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. ثمَّ أظْهَرَ سبحانَهُ علمَهُ لعبادِهِ ولملائكتِهِ: بِما جَعَلَهُ في الأرضِ مِن خواصِّ خلقِهِ ورسلِهِ وأنبيائِهِ وأوليائِهِ ومَن يَتَقَرَّبُ إليهِ ويَبْذُلُ نفسَهُ في محبَّتِهِ ومرضاتِهِ معَ مجاهدةِ شهوتِهِ وهواهُ، فيَتْرُكُ محبوباتِهِ تقرُّبًا إليَّ[4]، ويَتْرُكُ شهواتِهِ ٱبتغاءَ مرضاتي، ويَبْذُلُ دمَهُ ونفسَهُ في محبَّتي، وأخُصُّهُ بعلمٍ لا تَعْلَمونَهُ، يُسَبِّحُ بحمدي آناءَ الليلِ وأطرافَ النَّهارِ، ويَعْبُدُني معَ معارضاتِ الهوى والشَّهوةِ والنَّفسِ والعدوِّ إذْ تَعْبُدونَني أنتُم مِن غيرِ معارضٍ

---

(١) هٰذا لفظ حديث صحيح سيأتي نصّه وتخريجه (١/ ١٣١).

(٢) في خ: «من صلبه ثمّ ميّز لهم»! من صلبه: من ظهره. والصلب: العمود الفقري.

(٣) في ط: «نافذة وذٰلك... لمَّا قال للملائكة... أجابهم»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٤) هٰذا باب ممّا يعرف في البلاغة بالالتفات، وقد ٱلتفت هنا من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلّم.

يُعارِضُكُم ولا شهوةٍ تَعْتَريكُم ولا عدوّ أُسَلِّطُهُ عليكُم بل عبادتُكُم لي بمنزلةِ النَّفَسِ لأحدِهِم. وأيضًا؛ فإنِّي أُريدُ أنْ أُظْهِرَ ما خَفِيَ عليكُم مِن شأنِ عدوِّي ومحاربتِهِ لي وتكبُّرِهِ عن أمري وسعيِهِ في خلافِ مرضاتي. وهٰذا وهٰذا كانا[١] كامنينِ مستترينِ في أبي البشرِ وأبي الجنِّ، فأنْزَلَهُم إلى دارٍ ظَهَرَ فيها ما كانَ اللهُ سبحانَهُ منفردًا بعلمِهِ لا يَعْلَمُهُ سواهُ، فظَهَرَتْ[٢] حكمتُهُ وتَمَّ أمرُهُ وبَدا للملائكةِ مِن علمِهِ ما لَمْ يَكونوا يَعْلَمونَ.

* **وأيضًا**: فإنَّهُ سبحانَهُ لمَّا كانَ يُحِبُّ الصَّابرينَ ويُحِبُّ المحسنينَ ويُحِبُّ الذينَ يُقاتِلونَ في سبيلِهِ صفًّا ويُحِبُّ التَّوَّابينَ ويُحِبُّ المتطهِّرينَ ويُحِبُّ الشَّاكرينَ، وكانَتْ محبَّتُهُ أعلى أنواعِ الكراماتِ؛ اقْتَضَتْ حكمتُهُ أنْ أسْكَنَ آدَمَ وبنيهِ دارًا يأْتُونَ فيها بهٰذهِ الصِّفاتِ التي يَنالونَ بِها أعلى الكراماتِ مِن محبَّتِهِ، فكانَ إنزالُهُم إلى الأرضِ مِن أعظمِ النِّعمِ عليهِم، واللهُ يَخْتَصُّ برحمتِهِ مَن يَشاءُ واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ.

* **وأيضًا**: فإنَّهُ سبحانَهُ أرادَ أنْ يَتَّخِذَ مِن آدَمَ ذرِّيَّةً يُواليهِم ويَوَدُّهُم ويُحِبُّهُم ويُحِبُّونَهُ، فمحبَّتُهُ لهُم هيَ غايةُ كمالِهِم ونهايةُ شرفِهِم. ولمْ تَكُنْ لِتَتَحقَّقَ[٣] هٰذهِ المرتبةُ السَّنِيَّةُ إلَّا بموافقةِ رضاهُ واتِّباعِ أمرِهِ وتركِ إراداتِ النَّفسِ وشهواتِها /خ٧/ التي يَكْرَهُها محبوبُهُم. فأنْزَلَهُم دارًا أمَرَهُم فيها ونَهاهُم، فقاموا بأمرِهِ ونهيِهِ، فنالوا درجةَ محبَّتِهِم لهُ، فأنالَهُم درجةَ حبِّهِ إيَّاهُم. وهٰذا مِن تمامِ حكمتِهِ وكمالِ رحمتِهِ، وهوَ البَرُّ الرَّحيمُ.

* **وأيضًا**: فإنَّهُ سبحانَهُ لمَّا خَلَقَ خلقَهُ أطوارًا وأصنافًا، وسَبَقَ في حكمِهِ تفضيلُهُ آدَمَ وبنيهِ على كثيرٍ مِن مخلوقاتِهِ؛ جَعَلَ عبوديَّتَهُ أفضلَ درجاتِهِم؛ أعْني: العبوديَّةَ الاختياريَّةَ التي يأْتونَ بِها طوعًا واختيارًا لا كرهًا واضطرارًا[٤].

وقد ثَبَتَ أنَّ اللهَ سبحانَهُ أرْسَلَ جِبْرائيلَ إلى النَّبيِّ ﷺ يُخَيِّرُهُ بينَ أنْ يَكُونَ ملِكًا نبيًّا أو عبدًا نبيًّا، فنَظَرَ إلى جِبْرائيلَ كالمستشيرِ لهُ، فأشارَ إليهِ أنْ تَواضَعْ، فقالَ: «بل

---

(١) في خ: «إذ تعبدوني أنتم. . . مرضاتي وهٰذان كانا»، والصواب ما أثبتّه من ط.

(٢) في ط: فأنزلهم دارًا أظهر. . . وظهرت»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٣) في خ: «فمحبّتهم له هي غاية كمالهم وزيادة شرفهم ولم يكن تحقيق»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٤) لأنّه لا فضل في عبوديّة الإكراه والاضطرار؛ لأنّ جميع المخلوقات مؤمنهم وكافرهم حيّهم وجامدهم عباد لله بالاضطرار.

أكونُ[1] عبدًا نبيًّا»[2].

وذَكَرَهُ سبحانَهُ بٱسمِ عبوديَّتِهِ في أشرفِ مقاماتِهِ: في مقامِ الإسراءِ، ومقامِ الدَّعوةِ، ومقامِ التَّحدِّي. فقالَ في مقامِ الإسراءِ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾

---

(١) في خ: «وأسبق في حكمه بفضيلة. . .»، وفي ط: «. . . بل أن أكون»، والأولى ما أثبتّه.

(٢) (صحيح). وقد جاء من حديث جماعة من الصحابة والتابعين:

* فرواه: أحمد (٢/ ٢٣١)، والبزّار (٢٤٦٢ـ زوائد)، وأبو يعلى (٦١٠٥)، وابن حبّان (٦٣٦٥)؛ من طريق محمّد بن فضيل، عن عمارة، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة. . . رفعه. قال الهيثمي (٩/ ٢٠): «رجاله رجال الصحيح». قلت: ثقات رجال الشيخين.

* ورواه: البخاري في «التاريخ» (١/ ١٢٤)، والفسوي (١/ ٣٦١)، وابن أبي شيبة في «العرش» (٧٥)، والنسائي في «الكبرى» (٦٧٤٣/ ٢)، وابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ٣٩٤) تعليقًا، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٨٨/ ١٠٦٨٦، ١١/ ٣٠٠/ ١٢٠٦١) و«الأوسط» (٦٩٣٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢٩٣) و«أخلاقه ﷺ» (٦١١)، والبيهقي في «السنن» (٧/ ٤٩) و«الشعب» (١٥٧) و«الدلائل» (١/ ٣٣٣) و«الزهد» (٤٤٧)، والبغوي في «السنّة» (٣٦٨٤)، والمزّي في «التهذيب» (٢٥/ ٤٩٠)؛ من طرق ثلاث، عن ابن عبّاس. . . رفعه. قال الهيثمي في طريق الطبراني الأولى: «فيه بقيّة بن الوليد وهو مدلّس». وقال في الثانية: «فيه محمّد بن أبي ليلى وثّقه جماعة ولٰكنّه سيّئ الحفظ وبقيّة رجاله ثقات». وقال في طريق «الأوسط» (١٠/ ٣١٨): «فيه سعدان بن الوليد ولم أعرفه». قلت: وفي الطريق الأولى إرسال وفي الثانية تدليس فوق ما تقدّم، لٰكن الحديث حسن عن ابن عبّاس بمجموع طرقه الثلاثة.

* ورواه: البزّار (١٩٨٥ و١٩٨٦ مختصر الزوائد)، والطبراني (١٢/ ٢٦٧/ ١٣٣٠٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٥٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٤٥١)؛ من طريقين، عن ابن عمر. . . رفعه. قال الهيثمي (٩/ ٢٠) عن طريق الطبراني: «فيه يحيى بن عبدالله البابلتي، وهو ضعيف». قلت: وأيّوب بن نهيك، وهو ضعيف أيضًا. وقال عن طريق البزّار (٩/ ١٩٤): «رجاله ثقات». قلت: لٰكن فيها ٱختلاف وإشكال، على أنّ الحديث حسن أو قريب من ذٰلك بٱجتماع طريقيه.

* ورواه: أبو يعلى (٤٩٢٠)، وأبو الشيخ في «أخلاقه ﷺ» (٦١٠)، والبغوي في «السنّة» (٣٦٨٣)؛ من طريق أبي معشر، عن سعيد، عن عائشة. . . رفعته. قال الهيثمي (٩/ ٢٠): «إسناده حسن». قلت: في الشواهد لضعف يسير في أبي معشر.

* ورواه: معمر في «الجامع» (١٩٥٥٢) والبيهقي (٧/ ٤٨) عن طاووس، وابن المبارك في «الزهد» والبخاري في «التاريخ» (١/ ١٩٤) والبيهقي في «الشعب» (١٥٥) و«الدلائل» (٢/ ٣٦٩) والبغوي في «السنّة» (٣٦٨٢) عن محمد بن عمير بن عطارد، ومعمر في «الجامع» (١٩٥٥١) وابن المبارك في «الزهد» (٧٦٤) وابن سعد (١/ ١٨٣) عن الزهريّ، وهنّاد في «الزهد» (٧٩٦) عن الشعبي، وابن جرير (٢٢٦٢٩) عن قتادة، وعبدالرزّاق (٥٢٤٦) عن عمر بن عطاء بن أبي الخوار؛ كلّهم عن النبيّ ﷺ مرسلًا.

والحديث صحيح غاية من وجهه الأوّل كما ترى؛ فكيف بٱجتماع هٰذا كلّه؟! وقد قوّاه أبو حاتم وابنه وابن حبّان وابن القيّم والهيثمي والعسقلاني والألباني.

[الإسراء: ١]، ولمْ يَقُلْ: «بنبيِّهِ» ولا «رسولِه»[١]؛ إشارةً إلى أنَّهُ نالَ هٰذا المقامَ الأعظمَ بكمالِ عبوديَّتِهِ لربِّهِ. وقالَ في مقامِ الدَّعوةِ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩][٢]. وقالَ في مقامِ التَّحدِّي: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي الصَّحيحين[٣] في حديثِ الشَّفاعةِ وتراجعِ الأنبياءِ فيها وقولِ المسيحِ عليهِ السَّلامُ: «اذْهَبوا إلى مُحَمَّدٍ؛ عبدٍ غَفَرَ [اللهُ] لهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذنبِهِ وما تأخَّرَ». فدَلَّ ذٰلكَ على أنَّهُ نالَ ذاكَ المقامَ العظيمَ بكمالِ عبوديَّتِهِ للهِ وكمالِ مغفرةِ اللهِ لهُ.

وإذ كانَتِ[٤] العبوديَّةُ عندَ اللهِ بهٰذهِ المنزلةِ؛ اقْتَضَتْ حكمتُهُ أنْ أسْكَنَ آدمَ وذرِّيَّتَهُ دارًا يَنالونَ فيها هٰذهِ الدَّرجةَ بكمالِ طاعتِهِم [للهِ] وتقرُّبِهِم إليهِ بمحابِّهِ وتركِ مألوفاتِهِم مِن أجلِهِ، فكانَ ذٰلكَ مِن تمامِ نعمتِهِ عليهِم وإحسانِهِ إليهِم[٥].

* **وأيضًا**: فإنَّهُ سبحانَهُ أرادَ أنْ يُعَرِّفَ عبادَهُ الذينَ أنْعَمَ عليهِم تمامَ نعمتِهِ عليهِم و[يُعَرِّفَهُم] قدْرَها؛ لِيكونوا أعظمَ محبَّةً [لهُ] وأكثرَ شكرًا وأعظمَ التذاذًا بما أعْطاهُم مِن النَّعيمِ. فأراهُم سبحانَهُ فعلَهُ بأعدائِهِ وما أعَدَّ لهُم مِن العذابِ وأنواعِ /خ٨/ الآلامِ، وأشْهَدَهُم تخليصَهُم مِن ذٰلكَ وتخصيصَهُم بأعلى أنواعِ النَّعيمِ؛ لِيَزْدادَ سرورُهُم وتكْمُلَ غبطتُهُم ويَعْظُمَ فرحُهُم وتَتِمَّ لذَّتُهُم. وكانَ ذٰلكَ مِن إتمامِ الإنعامِ عليهِم ومحبَّتِهِم. ولمْ يَكُنْ بدٌّ في ذٰلكَ مِن إنزالِهِم إلى الأرضِ وامتحانِهِم واختبارِهِم، وتوفيقِ مَن شاءَ منهُم رحمةً منهُ وفضلًا، وخذلانِ مَن شاءَ منهُم حكمةً [منهُ] وعدلًا، وهوَ العليمُ الحكيمُ. ولا ريبَ أنَّ المؤمنَ إذا رَأى عدوَّهُ وعدوَّ محبوبِهِ الذي هوَ أحبُّ الأشياءِ إليهِ في أنواعِ

---

(١) في خ: «فذكره سبحانه...»، وفي ط: «... برسوله ولا نبيّه».

(٢) لبدًا: متكاثرين متكاثفين على حرب دعوته وإطفائها، وقال جماعة: متزاحمين لسماع القرآن والدعوة، وكلاهما حسن ممكن، والأوّل أولى بسياق الآية.

(٣) البخاري (٦٥- التفسير، ٢- البقرة، ١- وعلم آدم الأسماء، ٨/ ١٦٠/ ٤٤٧٦)، ومسلم (١- الإيمان، ٨٤- أدنى أهل الجنّة، ١/ ١٨٠/ ١٩٣)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) في خ وط: «وإذا كانت»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٥) في ط: «أنّه نال ذٰلك المقام الأعظم...»، وفي خ: «... وإحسانه إليه».

العذابِ والآلامِ، وهوَ يَتَقَلَّبُ في أنواعِ النَّعيمِ واللذَّةِ؛ آزْدادَ بذٰلكَ سرورُهُ، وعَظُمَتْ لذَّتُهُ، وكَمَلَ نعيمُهُ(١).

* وأيضًا: فإنَّهُ سبحانَهُ إنَّما خَلَقَ الخلقَ لعبادتِهِ، وهيَ الغايةُ المطلوبةُ منهُم، قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ومعلومٌ أنَّ كمالَ العبوديَّةِ المطلوبَ مِن الخلقِ لا يَحْصُلُ في دارِ النَّعيمِ والبقاءِ [و]إنَّما يَحْصُلُ(٢) في دارِ المحنةِ والابتلاءِ، وأمَّا دارُ البقاءِ؛ فدارُ لذَّةٍ ونعيمٍ لا دارُ ٱبتلاءٍ وٱمتحانٍ وتكليفٍ.

* وأيضًا: فإنَّهُ سبحانَهُ ٱقْتَضَتْ حكمتُهُ خَلْقَ آدمَ وذرِّيَّتِهِ في تركيبٍ مستلزِمٍ لداعي الشَّهوةِ والغضبِ وداعي العقلِ والعلمِ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ خَلَقَ فيهِ العقلَ والشَّهوةَ ونَصَبَهُما داعيينِ لمقتضَياتِهِما(٣)؛ لِيُتِمَّ مرادَهُ ويُظْهِرَ لعبادِهِ عزَّتَهُ في حكمتِهِ وجبروتَهُ ورحمتَهُ وبرَّهُ ولطفَهُ في سلطانِهِ وملكِهِ. فٱقْتَضَتْ حكمتُهُ ورحمتُهُ أنْ أذاقَ أباهُم وبيلَ مخالفتِهِ وعَرَّفَهُ ما يَجْنِي(٤) عواقبَ إجابةِ الشَّهوةِ والهوى؛ لِيَكونَ أعظمَ حذرًا منها وأشدَّ هربًا(٥). وهٰذا كحالِ رجلٍ سائرٍ على طريقٍ قد كَمَنَتِ الأعداءُ في جَنَباتِهِ وخلفَهُ وأمامَهُ وهوَ لا يَشْعُرُ [بها](٦)، فإذا أُصيبَ منها مرَّةً بمصيبةٍ؛ ٱسْتَعَدَّ في سيرِهِ، وأخَذَ أُهبةَ عدوِّهِ، وأعَدَّ لهُ ما يَدْفَعُهُ بهِ، ولولا أنَّهُ ذاقَ ألَمَ إغارةِ عدوِّهِ عليهِ وتبييتِهِ لهُ؛ لَما سَمَحَتْ نفسُهُ بالاستعدادِ والحذرِ وأخذِ العدَّةِ. فمِن تمامِ نعمةِ اللهِ على آدمَ وذرِّيَّتِهِ أنْ أراهُم ما فَعَلَ العدوُّ بهِم وبأبيهِم، فٱسْتَعَدُّوا /خ٩/ لهُ وأخذوا أُهبَتَهُ.

فإنْ قيلَ: كانَ مِن الممكنِ أنْ لا يُسَلِّطَ عليهِمُ العدوَّ. قيلَ: قد تَقَدَّمَ أنَّهُ سبحانَهُ خَلَقَ آدمَ وذرِّيَّتَهُ على بنيةٍ وتركيبٍ مستلزمٍ لمخالطتِهِم لعدوِّهِم وٱبتلائِهِم بهِ، ولو شاءَ؛

---

(١) في ط: «وكملت نعمته»، والأولى ما أثبتّه من خ.
(٢) في خ: «المطلوبة من الخلق لا تحصل... إنّما تحصل»! وأثبتّ ما في ط، والواو زيادة منّي.
(٣) في ط: «وذريته من تركيب...»، وفي خ وط: «... بمقتضياتهما»! وكلاهما تحريف.
(٤) في خ: «فٱقتضت حكمته وجبروته... ما يجيء».
(٥) في خ وط: «حذرًا فيها وأشدّ...»، وفي ط: «... وأشدّ هروبًا»، والأولى ما أثبتّه.
(٦) ساقطة من ط.

لَخَلَقَهُم كالملائكةِ ـ الذينَ هُم عقولٌ بلا شهواتٍ ـ فلمْ يَكُنْ لعدوِّهِم طريقٌ إليهِم، ولٰكِنْ؛ لو خُلِقوا هٰكذا؛ لَكانوا خلقًا آخرَ غيرَ بني آدَمَ؛ فإنَّ بني آدَمَ قد رُكِّبوا على العقلِ والشَّهوةِ.

* **وأيضًا**: فإنَّهُ لمَّا كانَتْ محبَّةُ اللهِ وحدَهُ هيَ غايةَ كمالِ العبدِ وسعادتِهِ التي لا كمالَ لهُ ولا سعادةَ بدونِها أصلاً، وكانَتِ المحبَّةُ الصَّادقةُ إنَّما تَتَحَقَّقُ بإيثارِ المحبوبِ على غيرِهِ مِن محبوباتِ النُّفوسِ وآحتمالِ أعظمِ المشاقِّ في طاعتِهِ ومرضاتِهِ ـ فبهٰذا تَتَحَقَّقُ المحبَّةُ ويُعْلَمُ ثبوتُها في القلبِ ـ؛ ٱقْتَضَتْ حكمتُهُ سبحانَهُ إخراجَهُم إلى هٰذهِ الدَّارِ المحفوفةِ بالشَّهواتِ ومحابِّ النُّفوسِ[1] التي بإيثارِ المحبوبِ الحقِّ عليها والإعراضِ عنها يَتَحَقَّقُ حبُّهُم لهُ وإيثارُهُم إيَّاهُ على غيرِهِ. وكذٰلكَ بتحمُّلِ المشاقِّ الشَّديدةِ وركوبِ الأخطارِ وآحتمالِ الملامةِ والصَّبرِ على دواعي الغَيِّ والضَّلالِ ومجاهدتِها يَقْوى سلطانُ المحبَّةِ وتَنْبُتُ[2] شجرتُها في القلبِ وتُطْعِمُ ثمرتُها على الجوارحِ. فإنَّ المحبَّةَ الثَّابتةَ اللازمةَ على كثر[ةِ] الموانعِ والعوارضِ والصَّوارفِ هيَ المحبَّةُ الحقيقيَّةُ النَّافعةُ، وأمَّا المحبَّةُ المشروطةُ بالعافيةِ والنَّعيمِ واللذَّةِ وحصولِ مرادِ المحبِّ مِن محبوبِهِ؛ فليستْ محبَّةً صادقةً ولا ثباتَ لها عندَ المعارضاتِ والموانعِ. فإنَّ المعلَّقَ على الشَّرطِ عدمٌ عندَ عدمِهِ، ومَن وَدَّكَ لأمرٍ؛ وَلَّى عندَ ٱنقضائِهِ، وفرقٌ بينَ مَن يَعْبُدُ اللهَ على السَّرَّاءِ والرَّخاءِ والعافيةِ[3] فقطْ وبينَ مَن يَعْبُدُهُ على السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والشِّدَّةِ والرَّخاءِ والعافيةِ والبلاءِ.

* **وأيضًا**: فإنَّهُ سبحانَهُ لهُ الحمدُ المطلقُ الكاملُ الذي لا نهايةَ بعدَهُ، فكانَ ظهورُ الأسبابِ التي يُحْمَدُ عليها مِن مقتضى كونِهِ محمودًا وهيَ مِن /خ١٠/ لوازمِ حمدِهِ تَعالى. وهيَ نوعانِ؛ فضلٌ وعدلٌ؛ إذْ هوَ سبحانَهُ المحمودُ على هٰذا وعلى هٰذا. فلا بدَّ

---

(١) في خ: «على بيّنة وتركيب... ومحابّ النفس»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٢) في خ: «ولذٰلك يتحمّل المشاقّ... وينبت»! وفي ط: «ولذٰلك يتحمّل... وبمجاهدتها... وتثبت»! وفيهما قلق وآرتباك أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٣) في خ: «السرّاء والضرّاء والعافية»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه من ط.

مِن ظهورِ أسبابِ العدلِ وٱقتضائِها لمسمَّياتِها لِيَتَرَتَّبَ عليها كمالُ الحمدِ الذي هوَ أهلُهُ، فكما أنَّهُ سبحانَهُ محمودٌ على إحسانِهِ وبرِّهِ وفضلِهِ وثوابِهِ فهوَ محمودٌ على عدلِهِ وٱنتقامِهِ وعقابِهِ؛ إذْ مصدرُ ذٰلكَ كلِّهِ عن عزَّتِهِ وحكمتِهِ.

ولهٰذا يُنَبِّهُ[١] سبحانَهُ على هٰذا كثيرًا، كما في سورةِ الشُّعراءِ، حيثُ يَذْكُرُ في آخرِ كلِّ قصَّةٍ مِن قصصِ الرُّسلِ وأُممِهِم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨-٩ و٦٧-٦٨ و١٠٣-١٠٤ و١٢١-١٢٢ و١٣٩-١٤٠ و١٥٨-١٥٩ و١٧٤-١٧٥ و١٩٠-١٩١]، فأخْبَرَ سبحانَهُ أنَّ ذٰلكَ صادرٌ عن عزَّتِهِ المتضمِّنةِ كمالَ قدرتِهِ وحكمتِهِ[٢] المتضمِّنةِ كمالَ علمِهِ ووضعَهُ الأشياءَ مواضعَها اللائقةَ بِها، فما وَضَعَ نعمتَهُ وإنجاءَهُ[٣] لرسلِهِ ولأتباعِهِم ونقمتَهُ وإهلاكَهُ لأعدائِهِم إلاَّ في محلِّها اللائقِ بِها لكمالِ عزَّتِهِ وحكمتِهِ.

ولهٰذا قالَ سبحانَهُ عقيبَ[٤] إخبارِهِ عن قضائِهِ بينَ أهلِ السَّعادةِ والشَّقاوةِ ومصيرِ كلٍّ منهُم إلى ديارِهِمُ التي لا يَليقُ بهِم غيرُها ولا تَقْتَضِي[٥] حكمتُهُ سواها: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

* **وأيضًا**: فإنَّهُ سبحانَهُ ٱقْتَضَتْ حكمتُهُ وحمدُهُ أنْ فاوَتَ بينَ عبادِهِ أعظمَ تفاوتٍ وأبينَهُ؛ لِيَشْكُرَهُ مَن ظَهَرَتْ عليهِ نعمتُهُ وفضلُهُ، ويَعْرِفَ أنَّهُ قد حُبِيَ بالإنعامِ وخُصَّ دونَ غيرِهِ بالإكرامِ. ولو تَساوَوْا جميعُهُم في النِّعمةِ والعافيةِ؛ لمْ يَعْرِفْ صاحبُ النِّعمةِ قدْرَها، ولمْ يَبْذُلْ شكرَها؛ إذْ لا يَرى أحدًا[ا] إلاَّ في مثلِ حالِهِ. ومِن أقوى أسبابِ الشُّكرِ وأعظمِها ٱستخراجًا لهُ مِن العبدِ أنْ يَرى غيرَهُ في ضدِّ حالِهِ التي[٦] هوَ عليها مِن

(١) في ط: «نبّه»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٢) كذا في خ وط! وإنّما جاءت الآيات كما ترى بالرحمة لا بالحكمة! نعم؛ يمكن أن يتوصّل إلى المقصود بضرب من التأويل، لٰكن كان يغني عن ذٰلك آيات عدّة جمعت العزّة والحكمة. والله أعلم.

(٣) في خ وط: «نعمته ونجاته»! ولا يستقيم لغة، وإنّما هو تحريف لما أثبتّه.

(٤) في خ: «في محلّها اللائقة بها. . . عقب»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٥) في ط: «لا يليق بهم ولا بغيرهم ولا تقتضي»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه من خ.

(٦) في خ: «أعظم تفاوت وأثبته. . .»! وفي ط: «. . . حاله الذي»! والصواب ما أثبتّه.

الكمالِ والفلاحِ.

وفي الأثرِ المشهورِ: «إنَّ اللهَ سبحانَهُ لمَّا أرى آدمَ ذرِّيَّتَهُ وتفاوتَ مراتبِهم؛ قالَ: يا ربِّ! هلاَّ سَوَّيْتَ بينَ عبادِكَ! قالَ: إنِّي أُحِبُّ أنْ أُشْكَرَ»[١]. فاقْتَضَتْ محبَّتُهُ سبحانَهُ لأنْ يُشْكَرَ خَلْقَ الأسبابِ التي يَكونُ شكرُ الشَّاكرينَ عندَها أعظمَ وأكملَ، وهٰذا هوَ عينُ الحكمةِ الصَّادرةِ /خ١١/ عن صفةِ الحمدِ.

* **وأيضًا**: فإنَّهُ سبحانَهُ لا شيءَ أحبُّ إليهِ مِن العبدِ مِن تذلُّلِه بينَ يديهِ وخضوعِهِ وافتقارِهِ وانكسارِهِ وتضرُّعِهِ إليهِ. ومعلومٌ أنَّ هٰذا المطلوبَ مِن العبدِ إنَّما يَتِمُّ بأسبابِهِ التي يَتَوَقَّفُ عليها، وحصولُ هٰذهِ الأسبابِ في دارِ النَّعيمِ المطلقِ والعافيةِ الكاملةِ ممتنعٌ[٢]؛ إذْ هوَ مستلزِمٌ للجمعِ بينَ الضِّدَّينِ.

* **وأيضًا**: فإنَّهُ سبحانَهُ لهُ الخلقُ والأمرُ، والأمرُ هوَ شرعُهُ وأمرُهُ ودينُهُ الذي بَعَثَ بهِ رسلَهُ وأنْزَلَ بهِ كتبَهُ. وليستِ الجنَّةُ دارَ تكليفٍ تَجْري عليهِم فيها أحكامُ التَّكاليفِ ولوازمُها، وإنَّما هيَ دارُ نعيمٍ ولذَّةٍ. فاقْتَضَتْ حكمتُهُ سبحانَهُ استخراجَ آدمَ وذرِّيَّتِهِ إلى

---

(١) (حسن). قطعة من حديث طويل صحيح في خلق آدم، والكلام هنا فيها فحسب:

فرواها: ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨٥٣٥) وابن عساكر (٧/ ٣٩٥) من وجه قويّ عن عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم، وأبو يعلى (٦٣٧٧) وابن أبي داوود في «القدر» (٨) من وجه قويّ عن هشام بن سعد؛ كلاهما عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة... رفعها. وهٰذا سند رجاله ثقات رجال الشيخين، إلاَّ عبدالرحمٰن؛ فضعيف، لٰكن تابعه هشام في الوجه الآخر، وهو صدوق له أوهام من رجال مسلم، فبان أنّ لهٰذه القطعة أصلاً حسنًا عن زيد بن أسلم.

وقد جاءت أيضًا من أوجه قويّة: موقوفة على أبيّ عند: ابن أحمد (٥/ ١٣٥)، وابن جرير (١٥٣٧٤)، وابن أبي حاتم (٨٥٣٧)، وأبي الشيخ، والحاكم (٢/ ٣٢٣) وصحّحها ووافقه الذهبي، وابن مردويه (١/ ١٤٩- بداية ونهاية)، والبيهقي في «الصفات»، وابن عبدالبرّ (١٨/ ٩١)، والضياء في «المختارة» (٣/ ٣٦٣/ ١١٥٨ و١١٥٩). وموقوفة على الحسن البصري عند: ابن أبي شيبة (٣٥٢١٧)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٦٥)، والبيهقي في «الشعب» (٤٤٤١)، وابن عساكر (٧/ ٣٩٧). وعلى الحسن وقتادة معًا عند: معمر في «الجامع» (١٩٥٧٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٤٤٢)، وابن عساكر (٧/ ٣٩٧). ومعلوم أنّ هٰذه الموقوفات لا تقال اجتهادًا: فإمّا أن يكون لها حكم الرفع أو الإرسال، فيزداد بها الحديث قوّة. وإن كان أصلها إسرائيليًّا؛ فلا ضير بعد أن ثبت أصل الحديث مرفوعًا، بل تكون من الإسرائيليات التي يشهد ديننا بصحّتها ويزداد القلب معها ثقة بصحّة هٰذا الأصل. والله أعلم.

(٢) في خ: «لأن يشكر خلف الأسباب...»، وفي ط: «... الكاملة يمتنع»، والصواب ما أثبتّه.

دارٍ تَجْري عليهِم [فيها] أحكامُ دينِهِ وأمرِهِ؛ لِيَظْهَرَ فيهِم مقتضى الأمرِ ولوازمُهُ؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ، كما أنَّ أفعالَهُ وخلقَهُ مِن لوازمِ كمالِ أسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ العلا، فكذٰلكَ أمرُهُ وشرعُهُ وما يَتَرَتَّبُ عليهِ مِن الثَّوابِ والعقابِ.

وقد أرْشَدَ سبحانَهُ إلى هٰذا المعنى في غيرِ موضعٍ مِن كتابِهِ:

فقالَ تَعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]؛ أيْ: مهملاً معطَّلاً[١] لا يُؤْمَرُ ولا يُنْهى ولا يُثابُ ولا يُعاقَبُ؟! وهٰذا يَدُلُّ على أنَّ هٰذا منافٍ لكمالِ حكمتِهِ، وأنَّ ربوبيَّتَهُ وعزَّتَهُ وحكمتَهُ تَأْبى ذٰلكَ، ولهٰذا أَخْرَجَ الكلامَ مخرجَ الإنكارِ على مَن زَعَمَ ذٰلكَ، وهوَ يَدُلُّ على أنَّ حسنَهُ مستقرٌّ في الفطرِ والعقولِ، وقبحَ تركِهِ سدًى[٢] معطَّلاً أيضًا مستقرٌّ في الفطرِ، فكيفَ يُنْسَبُ إلى الرَّبِّ ما [علمُ][٣] قبحِهِ مستقرٌّ في فطرِكُم وعقولِكُم؟!

وقالَ تَعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعونَ . فَتَعالى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَريمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]: فنَزَّهَ [نفسَهُ] سبحانَهُ عن هٰذا الحسبانِ الباطلِ المضادِّ لموجَبِ أسمائِهِ وصفاتِهِ، وأنَّهُ لا يَليقُ بجلالِهِ نسبتُهُ إليهِ[٤].

ونظائرُ هٰذا في القرآنِ كثيرةٌ.

* **وأيضًا**: فإنَّهُ سبحانَهُ يُحِبُّ مِن عبادِهِ أُمورًا، يَتَوَقَّفُ حصولُها منهُم على حصولِ الأسبابِ /خ١٢/ المقتضيةِ لها، ولا تَحْصُلُ إلاَّ في دارِ الابتلاءِ والامتحانِ. فإنَّهُ سبحانَهُ يُحِبُّ الصَّابرينَ ويُحِبُّ الشَّاكرينَ ويُحِبُّ الذينَ يُقاتِلونَ في سبيلِهِ صفًّا ويُحِبُّ التَّوَّابينَ ويُحِبُّ المتطهِّرينَ... ولا ريبَ أنَّ حصولَ هٰذهِ المحبوباتِ بدونِ أسبابِها ممتنعٌ كامتناعِ حصولِ الملزومِ بدونِ لازمِهِ.

---

(١) في ط: «أحكام التكليف ولوازمها...»، وفي خ: «... مهملاً ومعطّلاً»، والصواب ما أثبتّه.
(٢) في خ: «زعم ذٰلك وهٰذا يدلّ... وقبيح تركه سدًى»، والصواب ما أثبتّه من ط.
(٣) ساقطة من ط.
(٤) في خ: «وقوله تعالى أفحسبتم... لا يليق بحاله نسبته إليه»، وفي ط: «... نزّه نفسه...».

واللهُ سبحانَهُ أفرحُ بتوبةِ عبدِهِ حينَ يَتوبُ إليهِ مِن الفاقدِ لراحلتِه التي عليها طعامُهُ وشرابُهُ في أرضٍ دَوِّيَّةٍ مُهْلِكَةٍ[١] إذ[ا] وَجدَها، كما ثَبَتَ في «الصَّحيح»[٢] عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «لَلَّهُ أشدُّ فرحًا بتوبةِ عبدِهِ [المؤمنِ] مِن رجلٍ؛ في أرضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلَكَةٍ، معَهُ راحلتُهُ، عليها طعامُهُ وشرابُهُ، فنامَ فٱسْتَيْقَظَ وقد ذَهَبَتْ، فطَلَبَها حتَّى أدْرَكَهُ العطشُ، ثمَّ قالَ: أرْجِعُ إلى المكانِ الذي كُنْتُ فيهِ، فأنامُ حتَّى أموتَ. فوَضَعَ رأْسَهُ على ساعدِهِ لِيَموتَ، فٱسْتَيْقَظَ وعندَهُ راحلتُهُ، عليها زادُهُ وطعامُهُ وشرابُهُ. فاللهُ أشدُّ فرحًا بتوبةِ العبدِ[٣] المؤمنِ مِن هٰذا براحلتِهِ». وسَيَأْتي إنْ شاءَ اللهُ الكلامُ على هٰذا الحديثِ وذكرُ سرِّ [هٰذا] الفرحِ بتوبةِ العبدِ[٤].

والمقصودُ أنَّ هٰذا الفرحَ المذكورَ إنَّما يَكونُ بعدَ التَّوبةِ مِن الذَّنبِ[٥]، فالتَّوبةُ والذَّنبُ لازمانِ لهٰذا الفرحِ، ولا يوجَدُ الملزومُ بدونِ لازمِهِ. وإذا كانَ هٰذا الفرحُ المذكورُ إنَّما يَحْصُلُ بالتَّوبةِ المستلزمةِ للذَّنبِ؛ فحصولُهُ في دارِ النَّعيمِ التي لا ذنبَ فيها ولا مخالفةَ ممتنعٌ. ولمَّا كانَ هٰذا الفرحُ أحبَّ إلى الرَّبِّ سبحانَهُ مِن عدمِهِ؛ ٱقْتَضَتْ محبَّتُهُ لهُ خلْقَ الأسبابِ المفضيةِ إليهِ؛ لِيَتَرَتَّبَ عليها المسبَّبُ الذي هوَ محبوبٌ لهُ.

* **وأيضًا**: فإنَّ اللهَ سبحانَهُ جَعَلَ الجنَّةَ دارَ جزاءٍ وثوابٍ، وقَسَّمَ منازلَها بينَ أهلِها على قدرِ أعمالِهِم، وعلى هٰذا خَلَقَها سبحانَهُ، لِما لهُ في ذٰلكَ مِن الحكمةِ التي ٱقْتَضَتْها أسماؤُهُ وصفاتُهُ. فإنَّ الجنَّةَ درجاتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، وبينَ الدَّرجتَينِ كما بينَ السَّماءِ والأرضِ /خ١٣/، كما في «الصَّحيح»[٦] عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «إنَّ الجنَّةَ مئةُ درجةٍ،

---

(١) دوِّيَّة: قفر خالية. مَهْلَكَة ومُهْلِكَة: يخشى من الهلاك فيها.

(٢) من حديث جماعة من الصحابة مطوّلاً ومختصرًا. فرواه: البخاري (٨٠ـ الدعوات، ٤ـ التوبة، ١١/ ١٠٢/ ٦٣٠٨ و٦٣٠٩)، ومسلم (٤٩ـ التوبة، ١ـ الحضّ على التوبة، ٤/ ٢١٠٣/ ٢٧٤٤ و٢٧٤٧)؛ من حديث ابن مسعود وأنس على الترتيب. وانفرد به مسلم (الموضع السابق، ٢٦٧٥ و٢٧٤٥ و٢٧٤٦) من حديث أبي هريرة والنعمان بن بشير والبراء بن عازب على الترتيب. وهٰذا لفظ ابن مسعود عند مسلم.

(٣) في خ: «الله أفرح... ومعه راحلته... بتوبة عبده»، وما أثبتّه من ط أولى بلفظ مسلم.

(٤) لم يفصّل فيه هنا يرحمه الله، بل في «مدارج السالكين» (١/ ٢٨٣ - ط. ابن خزيمة).

(٥) في ط: «الذنوب»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٦) البخاري (٥٦ـ الجهاد، ٤ـ درجات المجاهدين، ٦/ ١١/ ٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة.

ما بينَ درجتينِ[١] كما بينَ السَّماءِ والأرضِ». وحكمةُ الرَّبِّ سبحانَهُ مقتضيةٌ لعمارةِ هٰذهِ الدَّرجاتِ كلِّها، وإنَّما تُعْمَرُ ويقَعُ التَّفاوتُ فيها بحسبِ الأعمالِ، كما قالَ غيرُ واحدٍ مِن السَّلفِ: يَنْجونَ مِن النَّارِ بعفوِ اللهِ ومغفرتِهِ، ويَدْخُلونَ الجنَّةَ بفضلِهِ ونعمتِهِ، ويَتَقاسَمونَ المنازلَ بأعمالِهِم.

وعلى هٰذا حَمَلَ غيرُ واحدٍ ما جاءَ مِن إثباتِ دخولِ[٢] الجنَّةِ بالأعمالِ: كقولِهِ تَعالى: ﴿وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتي أُورِثْتُموها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقولِهِ تَعالى: ﴿ٱدْخُلوا الجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ﴾ [النحل: ٣٢]. قالوا: وأمَّا نفيُ دخولِها بالأعمالِ، كما في قولِهِ ﷺ: «لنْ يَدْخُلَ الجنَّةَ أحدٌ بعملِهِ». قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «ولا أنا»[٣]؛ فالمرادُ [منهُ] نفيُ أصلِ الدُّخولِ.

وأحسنُ مِن هٰذا أنْ يُقالَ: الباءُ المقتضيةُ للدُّخولِ غيرُ الباءِ التي نُفِيَ معَها الدُّخولُ: فالمقتضيةُ هيَ باءُ السَّببيَّةِ الدَّالَّةُ على أنَّ الأعمالَ سببٌ للدُّخولِ مقتضيةٌ لهُ كٱقتضاءِ سائرِ الأسبابِ لمسبَّباتِها، والباءُ التي نُفِيَ بِها الدُّخولُ هيَ باءُ المعاوضةِ والمقابلةِ التي في نحوِ قولِهِمُ: ٱشْتَرَيْتُ هٰذا بهٰذا. فأخْبَرَ [النَّبيُّ] ﷺ أنَّ دخولَ الجنَّةِ ليسَ في مقابلةِ عملِ أحدٍ، وأنَّهُ لولا تغمُّدُ اللهِ سبحانَهُ لعبدِهِ برحمتِهِ؛ لَما أدْخَلَهُ الجنَّةَ. فليسَ عملُ العبدِ ـ وإنْ تَناهى[٤] ـ موجبًا بمجرَّدِهِ لدخولِ الجنَّةِ ولا عوضًا لها؛ فإنَّ أعمالَهُ، وإنْ وَقَعَتْ منهُ على الوجهِ الذي يُحِبُّهُ اللهُ ويَرْضاهُ، فهيَ لا تُقاوِمُ نعمةَ اللهِ التي أنْعَمَ بِها عليهِ في دارِ الدُّنيا ولا تُعادِلُها[٥]، بل لو حاسَبَهُ؛ لَوَقَعَتْ أعمالُهُ كلُّها في مقابلةِ اليسيرِ مِن نعمِهِ، وتَبْقى بقيَّةُ النِّعمِ مقتضيةً لشكرِها، فلو عَذَّبَهُ في هٰذهِ الحالِ[٦]؛ لَعَذَّبَهُ

---

(١) في ط: «بين كلّ درجتين»، وما أثبتّه من خ أولى بلفظ البخاري.

(٢) في ط: «بفضله ونعمته ومغفرته...»! وفي خ: «... من أسباب ثبات دخول»!

(٣) رواه: البخاري (٨١ـ الرقاق، ١٨ـ القصد والمداومة، ١١/ ٢٩٤/ ٦٤٦٣ و٦٤٦٤)، ومسلم (٥٠ـ المنافقين، ١٧ـ لن يدخل أحد الجنّة بعمله، ٤/ ٢١٦٩/ ٢٨١٦ و٢٨١٨)؛ من حديث أبي هريرة وعائشة على الترتيب. وٱنفرد به مسلم (الموضع السابق، ٢٨١٧) من حديث جابر.

(٤) تناهى: بلغ الغاية في الحسن كمًّا وكيفًا.

(٥) في خ: «لا تقاوم نعمته التي أنعم الله بها... يعادلها»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٦) في ط: «الحالة»، والأولى ما أثبتّه من خ.

وهوَ غيرُ ظالمٍ لهُ، ولو رَحِمَهُ؛ لَكانَتْ رحمتُهُ خيرًا لهُ مِن عملِهِ[١]، كما في «السُّنن» مِن حديثِ زيدِ بنِ ثابتٍ وحُذَيْفَةَ [ابنِ اليَمانِ] وغيرِهما مرفوعًا إلى النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «إنَّ اللهَ لو عَذَّبَ أهلَ سماواتِهِ وأهلَ /خ١٤/ أرضِهِ؛ لَعَذَّبَهُم وهوَ غيرُ ظالمٍ لهُم، ولو رَحِمَهُم؛ لَكانَتْ رحمتُهُ خيرًا لهُم مِن أعمالِهِم»[٢].

والمقصودُ أنَّ حكمتَهُ سبحانَهُ اقْتَضَتْ خلقَ الجنَّةِ درجاتٍ بعضُها فوقَ بعضٍ، وعمارتَها بآدَمَ وذرِّيَّتِهِ، وإنزالَهُم فيها[٣] بحسبِ أعمالِهِم. ولازمُ هٰذا إنزالُهُم إلى دارِ العملِ والمجاهدةِ.

* **وأيضًا**: فإنَّهُ سبحانَهُ خَلَقَ آدَمَ وذرِّيَّتَهُ لِيَسْتَخْلِفَهُم في الأرضِ كما أخْبَرَ سبحانَهُ في كتابِهِ: بقولِهِ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقولِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقالَ: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾

---

(١) وهٰذا حسن جدًّا. وهاهنا وجه ثالث حسن ذكره النووي في «شرح مسلم» (١٧/ ١٦١)؛ قال: «معنى الآيات أنّ دخول الجنّة بسبب الأعمال، ثمّ التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص [قلت: والاتّباع والإصابة] فيها وقبولها [قلت: ومضاعفة أجرها أضعافًا كثيرة] برحمة الله تعالى وفضله. فيصحّ أنّه لم يدخل بمجرّد العمل وهو مراد الأحاديث، ويصحّ أنّه دخل بالأعمال؛ أي: بسببها، وهي من الرحمة» اهـ. ومال إلى نحوه العسقلاني في «الفتح». وهو قريب جدًّا ممّا ذكره ابن القيّم هنا.

(٢) (**صحيح**). رواه: أحمد (٥/ ١٨٢ و١٨٥ و١٨٩)، وعبد بن حميد (٢٤٧ـ منتخب)، وابن ماجه (المقدّمة، ١٠ـ القدر، ١/ ٢٩/ ٧٧)، وأبو داوود (٣٤ـ السنّة، ١٦ـ القدر، ٢/ ٦٣٧/ ٤٦٩٩)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (٢٤٥)، وابن حبّان (٧٢٧)، والطبراني (٥/ ١٦٠/ ٤٩٤٠)، واللالكائي في «السنّة» (١٠٩٣ و١٢٣٢)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٢٠٤) و«الشعب» (١٨٢) و«الاعتقاد» (ص١٤٩)؛ من طرق، عن أبي سنان سعيد بن سنان، عن وهب بن خالد، عن ابن الديلمي، عن زيد بن ثابت... رفعه. وهٰذا سند جيّد، رجاله كلّهم ثقات؛ إلّا أبا سنان؛ فصدوق قويّ الحديث من رجال مسلم.

ورواه الآجرّي في «الشريعة» (٣٨٦) من طريق أبي صالح، ثني معاوية بن صالح، عن أبي الزاهريّة، عن كثير بن مرّة، عن ابن الديلمي... به فذكره. وهٰذا صالح في الشواهد من أجل أبي صالح كاتب الليث.

وله شاهد قويّ عند: الطبراني (١٠/ ٢٣٢/ ١٠٥٦٤، ١٧/ ٢٢٣/ ٥٥٦)، واللالكائي في «السنّة» (١٢٣٩)؛ من حديث أُبيّ وابن مسعود وعمران بن حصين.

وأمّا حديث حذيفة بن اليمان الذي أشار إليه المصنّف يرحمه الله؛ فقد جاء في سياق حديث زيد بن ثابت، لٰكنّ حذيفة ذكره موقوفًا ثمّ أحال السائل إلى زيد، فكأنّه سمعه منه. والله أعلم.

والحديث **صحيح** بطريقيه، فكيف إذا انضمّ إليهما الشاهد، وقد قوّاه ابن حبّان والهيثمي والألباني.

(٣) في خ: «وأنزلهم فيها»! والصواب ما أثبتّه من ط.

[الأعراف: ١٢٩]. فأرادَ سبحانَهُ أنْ يَنْقُلَهُ وذرِّيَّتَهُ مِن هٰذا الاستخلافِ إلى توريثِهِ جنَّةَ الخلدِ، وعَلِمَ سبحانَهُ [بِـ]ـسابقِ علمِهِ أنَّهُ لضعفِهِ وقصورِ نظرِهِ قد يَخْتارُ العاجلَ الخسيسَ على الآجلِ النَّفيسِ ـ فإنَّ النَّفْسَ مولعةٌ بحبِّ العاجلةِ وإيثارِها على الآخرةِ، وهٰذا مِن لوازمِ كونِهِ خُلِقَ مِن عجلٍ وكونِهِ خُلِقَ عجولاً ـ، فعَلِمَ سبحانَهُ ما في طبيعتِهِ مِن الضَّعفِ والخَوَرِ[١]، فاقْتَضَتْ حكمتُهُ أنْ أدْخَلَهُ الجنَّةَ؛ لِيَعْرِفَ النَّعيمَ الذي أُعِدَّ لهُ عِيانًا، فيَكونَ إليهِ أشوقَ وعليهِ أحرصَ ولهُ أشدَّ طلبًا؛ فإنَّ محبَّةَ الشَّيءِ وطلبَهُ والشَّوقَ إليهِ مِن لوازمِ تصوُّرِهِ، فمَن باشَرَ طيبَ شيءٍ ولذَّتَهُ وتَذَوَّقَ بهِ؛ لمْ يَكَدْ يَصْبِرُ عنهُ. وهٰذا لأنَّ النَّفْسَ ذوَّاقةٌ توَّاقةٌ، إذا ذاقَتْ تاقَتْ. ولهٰذا؛ إذا ذاقَ العبدُ طعمَ الإيمانِ وخالَطَتْ بشاشتُهُ[٢] قلبَهُ؛ رَسَخَ فيهِ حبُّهُ، ولمْ يُؤْثِرْ عليهِ شيئًا أبدًا.

وفي «الصَّحيح»[٣] مِن حديثِ أبي هُرَيْرَةَ [رَضِيَ اللهُ عنهُ] المرفوعِ؛ أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَسْأَلُ الملائكةَ: «فيَقولُ: ما يَسْأَلُـ[ـني] عبادي؟ فيَقولونَ: يَسْأَلونَكَ الجنَّةَ. فيَقولُ: وهلْ رَأَوْها؟ فيَقولونَ: لا يا ربِّ! فيَقولُ: كيفَ لو رَأَوْها؟ فيَقولونَ: لو رَأَوْها؛ كانوا أشدَّ طلبًا».

فاقْتَضَتْ حكمتُهُ أنْ [أ]راها أباهُم وأسْكَنَهُ إيَّاها، ثمَّ قَصَّ على بنيهِ قصَّتَهُ، فصاروا كأنَّهُم مشاهدونَ لَها حاضرونَ معَ أبيهِم، فاسْتَجابَ مَن خُلِقَ لَها وخُلِقَتْ لهُ وسارَعَ إليها ولمْ يَثْنِهِ عنها /خ١٥/ العاجلةُ، بلْ يَعُدُّ نفسَهُ كأنَّها [كانَتْ] فيها ثمَّ سَباهُ العدوُّ، فيَراها وطنَهُ الأوَّلَ وقد أُخْرِجَ منهُ، فهوَ دائمُ الحنينِ إلى وطنِهِ، لا يَقَرُّ لهُ قرارٌ[٤] حتَّى يَرى نفسَهُ فيهِ. كما قيلَ:

نَقِّلْ فُؤادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الهَوى ... مـا الحُـبُّ إلاَّ لِلْحَبيـبِ الأوَّلِ

---

(١) في خ: «النفس مولوعة... من عجل وقوله وخلق الإنسان عجولاً... الضعف والجور»!

(٢) في خ: «وتذوّق به لمّا... وخالط بشاشة»! وفي ط: «... طعم حلاوة الإيمان...».

(٣) البخاري (٨٠ـ الدعوات، ٦٦ـ فضل الذكر، ١١/٢٠٩/٦٤٠٨)، ومسلم (٤٨ـ الذكر، ٨ـ فضل مجالس الذكر، ٤/٢٠٦٩/٢٦٨٩)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في ط: «لو رأوها لكانوا... فلم يثنه... كأنّه فيها ثمّ... ولا يقرّ له قرار»، وفي خ: «... حكمته أن رآها إياهم... كأنّهم شاهدين لها... كأنّها فيها ثمّ... فرآها وطنه... لا يقرّ قراره».

كَمْ مَنْزِلٍ في الأرْضِ يَأْلَفُهُ الفَتى ... وَحَنِينُهُ أَبَدًا لأوَّلِ مَنْزِلِ

ولي مِن أبياتٍ تُلِمُّ بهٰذا المعنى:

وَحَيِّ عَلى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّها ... مَنازِلُكَ الأُولى وَفيها المُخَيَّمُ

وَلٰكِنَّنا سَبْيُ العَدُوِّ فَهَلْ تَرى ... نَعودُ إِلى أوْطانِنا وَنُسَلَّمُ

●/ * فسرُّ هٰذهِ الوجوهِ: أنَّهُ سبحانَهُ وتَعالى سَبَقَ في حكمِهِ وحكمتِهِ أنَّ الغاياتِ المطلوبةَ لا تُنالُ إلَّا بأسبابِها التي جَعَلَها اللهُ أسبابًا مفضيةً إليها، ومِن تلكَ الغاياتِ أعلى أنواعِ النَّعيمِ وأفضلُها وأجلُّها، فلا تُنالُ [إلَّا] بأسبابٍ نَصَبَها مفضيةٍ إليها. وإذا كانَتِ الغاياتُ التي هيَ دونَ ذٰلكَ لا تُنالُ إلَّا بأسبابِها معَ ضعفِها وٱنقطاعِها ـ كتحصيلِ المأكولِ والمشروبِ والملبوسِ والولدِ والمالِ والجاهِ في الدُّنيا ـ؛ فكيفَ يُتَوَهَّمُ حصولُ أعلى الغاياتِ وأشرفِ المقاماتِ بلا سببٍ يُفْضي إليهِ؟! ولمْ يَكُنْ تحصيلُ تلكَ الأسبابِ [لِيَكونَ][(١)] إلَّا في دارِ المجاهدةِ والحرثِ، فكانَ إسكانُ آدمَ وذرِّيَّتِهِ هٰذهِ الدَّارَ التي يَنالونَ فيها الأسبابَ الموصلةَ إلى أعلى المقاماتِ مِن [إ]تمامِ إنعامِهِ عليهِم.

* وسرُّها أيضًا: أنَّهُ [سبحانَهُ] جَعَلَ الرِّسالةَ والنُّبوَّةَ والخُلَّةَ والتَّكليمَ والولايةَ والعبوديَّةَ مِن أشرفِ مقاماتِ خلقِهِ ونهاياتِ كمالِهِم، فأنْزَلَهُم دارًا أخْرَجَ منهُمُ الأنبياءَ وبَعَثَ فيها الرُّسلَ وٱتَّخَذَ منهُم مَن ٱتَّخذَ[هُ][(٢)] خليلاً وكَلَّمَ موسى تكليمًا وٱتَّخَذَ منهُم أولياءَ وشهداءَ وعبيدًا [و]خاصَّةً يُحِبُّهُم ويُحِبُّونَهُ، وكانَ إنزالُهُم إلى الأرضِ مِن تمامِ الإنعامِ والإحسانِ.

* وسرُّها أيضًا: أنَّهُ أظْهَرَ لخلقِهِ مِن آثارِ أسمائِهِ [وصفاتِهِ][(٢)] وجريانِ أحكامِها عليهِم ما ٱقْتَضَتْهُ حكمتُهُ ورحمتُهُ وعلمُهُ.

* وسرُّها أيضًا: أنَّهُ /خ١٦/ تَعَرَّفَ إلى خلقِهِ بأفعالِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وما أحْدَثَهُ في أوليائِهِ وأعدائِهِ؛ مِن كرامتِهِ وإنعامِهِ على الأولياءِ، وإهانتِهِ وإشقائِهِ للأعداءِ[(٣)]، ومِن

---

(١) زيادة يقتضيها السياق، وربّما كانت «لم يكن» تحريفًا لـ«لم يمكن» فيغني ذٰلك عن الزيادة.

(٢) ساقطة من ط.

(٣) في خ: «وإهانته وٱنتقامه للأعداء»! وهو تحريف لما أثبتّه من ط.

إجابتِهِ دعواتِهِم وقضائِهِ حوائجَهُم وتفريجِ كرباتِهِم وكشفِ بلائِهِم وتصريفِهِم تحتَ أقدارِهِ كيفَ يَشاءُ وتقليبِهِم في أنواعِ الخيرِ والشَّرِّ. فكانَ في ذٰلكَ أعظمُ دليلٍ لهُم على: أنَّهُ ربُّهُم ومليكُهُم، وأنَّهُ اللهُ الذي لا إلٰهَ إلَّا هوَ، وأنَّهُ العليمُ الحكيمُ السَّميعُ البصيرُ، وأنَّهُ الإلٰهُ الحقُّ وكلُّ ما سواه باطلٌ. فتَظاهَرَتْ أدلَّةُ ربوبيَّتِهِ وتوحيدِهِ في الأرضِ وتَنَوَّعَتْ وقامَتْ مِن كلِّ جانبٍ: فعَرَفَهُ الموفَّقونَ مِن عبادِهِ وأقَرُّوا بتوحيدِهِ إيمانًا وإذعانًا، وجَحَدَهُ المخذولونَ مِن خليقتِهِ وأشْرَكوا بهِ ظلمًا وكفرانًا، فهَلَكَ مَن هَلَكَ عن بيِّنةٍ وحَيَّ مَن حَيَّ عن بيِّنةٍ، و[إنَّ] اللهَ[1] سميعٌ عليمٌ.

● ومَن تَأَمَّلَ آياتِهِ المشهودةَ والمسموعةَ في الأرضِ ورَأى آثارَها؛ عَلِمَ تمامَ حكمتِهِ في إسكانِ آدَمَ وذرِّيَّتِهِ في هٰذهِ الدَّارِ إلى أجلٍ معلومٍ. فاللهُ سبحانَهُ إنَّما خَلَقَ الجنَّةَ لآدَمَ وذرِّيَّتِهِ وجَعَلَ الملائكةَ فيها خدمًا لهُم، ولٰكنِ اقْتَضَتْ حكمتُهُ أنْ خَلَقَ لهُم دارًا يَتَزَوَّدونَ منها إلى [الدَّارِ] التي خُلِقَتْ لهُم، وأنَّهُم لا يَنالونَها[2] إلَّا بالزَّادِ: كما قالَ تَعالى في هٰذهِ الدَّارِ: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]: فهٰذا شأْنُ الانتقالِ في الدُّنيا مِن بلدٍ إلى بلدٍ، فكيفَ الانتقالُ مِن الدُّنيا إلى دارِ القرارِ؟! وقالَ تَعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]. فباعَ المغبونونَ[3] منازلَهُم منها بأبخسِ الحظِّ وأنقصِ الثَّمنِ. وباعَ الموفَّقونَ نفوسَهُم وأموالَهُم مِن اللهِ وجَعَلوها ثمنًا للجنَّةِ، فرَبِحَتْ تجارتُهُم ونالوا الفوزَ العظيمَ. قالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فهوَ سبحانَهُ ما أخْرَ[جَ] آدَمَ [منها] إلَّا وهوَ يُريدُ أنْ يُعيدَهُ إليها أكملَ إعادةٍ، كما قيلَ على لسانِ القدرِ: يا آدَمُ! لا تَجْزَعْ مِن قولي لكَ: اخْرُجْ مِنها؛ فلكَ خَلَقْتُها؛ فإنِّي /خ١٧/ أنا الغنيُّ عنها وعن كلِّ شيءٍ، وأنا الجوادُ الكريمُ، وأنا لا أتَمَتَّعُ فيها؛ فإنِّي

(١) في خ: «ظلمًا وكفرًا فيهلك... ويحيا... وإنَّ الله»، وفي ط: «... والله».
(٢) أي: دار النعيم التي خلقت لهم. ووقع في خ: «لا ينالوها»! والصواب ما أثبتّه من ط.
(٣) في خ: «فباع المغبون»! والصواب ما أثبتّه من ط.

أُطْعِمُ ولا أُطْعَمُ وأنا الغنيُّ الحميدُ. ولٰكِنِ آنْزِلْ إلى دارِ البَذْرِ، فإذا بَذَرْتَ فاْسْتَوى الزَّرعُ على سوقِهِ وصارَ حصيدًا؛ فحينئذٍ فتَعالَ فاْسْتَوْفِهِ أحوجَ ما أنتَ إليهِ، الحسنةُ بعشرِ أمثالِها[١] إلى سبعِ مئةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ؛ فإنِّي أعلمُ بمصلحتِكَ منكَ وأنا العليمُ الحكيمُ.

[٢ ـ فصل]

[هل أسكن آدم جنة الخلد أو جنة أخرى غيرها]

فإنْ قيلَ: ما ذَكَرْتُموهُ مِن هٰذهِ الوجوهِ وأمثالِها، إنَّما يَتِمُّ إذا قيلَ: إنَّ الجنَّةَ التي أُسْكِنَها آدَمُ وأُهْبِطَ منها جنَّةُ الخلدِ التي أُعِدَّتْ للمتَّقينَ [و]المؤمنينَ يومَ القيامةِ، وحينئذٍ يَظْهَرُ سرُّ إهباطِهِ [آدَمَ] وإخراجِهِ منها[٢].

● ولٰكنْ قد قالَـ[ـتْ] طائفةٌ منهُم أبو مُسْلِمٍ[٣] ومُنْذِرُ بنُ سَعيدٍ البَلُّوطِيُّ[٤] وغيرُهُما: إنَّها [إنَّما] كانَتْ جنَّةً في الأرضِ في موضعٍ عالٍ مِنها[٥]، لا أنَّها جنَّةُ المأوى التي أعَدَّها اللهُ لعبادِهِ المؤمنينَ يومَ القيامةِ.

وذَكَرَ مُنْذِرُ بنُ سَعيدٍ [البَلُّوطِيُّ][٦] هٰذا القولَ [في «تفسيرِهِ»] عن جماعةٍ، فقالَ: وأمَّا قولُهُ لآدَمَ ﴿ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]: فقالَتْ طائفةٌ: أسْكَنَ اللهُ [تَعالى] آدَمَ ﷺ جنَّةَ الخلدِ التي يَدْخُلُها المؤمنونَ يومَ القيامةِ. وقالَ آخرونَ: هيَ جنَّةٌ غيرُها جَعَلَها اللهُ لهُ وأسْكَنَهُ إيَّاها ليستْ جنَّةَ الخلدِ.

---

(١) في ط: «الحبّة بعشر أمثالها»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٢) تنبّه إلى أنّ التمام قدر زائد على الصحّة، وإلّا؛ فأكثر الوجوه المتقدّمة يصحّ توجيهه على القول بأنّ جنّة آدم غير دار الخلد.

(٣) محمّد بن بحر الأصبهانيّ، صنّف التفسير على مذهب المعتزلة وكان وجيهًا عندهم، ولي أصفهان وفارس للمقتدر، ت٣٢٢هـ. ترجمته في: «لسان الميزان» (٥/ ١٠٢)، و«الأعلام» (٦/ ٥٠).

(٤) أبو الحكم الأندلسي، قاضي الجماعة، الفقيه المحقّق، الخطيب المصقع، العالم العابد، مع ميل لمذاهب أهل الكلام، ت٣٥٥هـ. ترجمته في: «أعلام النبلاء» (١٦/ ١٧٣)، «الأعلام» (٧/ ٢٩٤).

(٥) في خ: «إنّما يتمّ إذا قلتم... عال عنها»، وفي ط: «... وغيرهما إنّها كانت جنّة...».

(٦) ساقطة من ط.

قالَ: وهٰذا القولُ[١] تَكْثُرُ الدّلائلُ الشّاهدةُ لهُ والموجبةُ للقولِ به:

* لأنَّ الجنَّةَ التي تُدْخَلُ بعدَ القيامةِ هيَ مِن حيِّزِ الآخرةِ، وفي اليومِ الآخرِ تُدْخَلُ، ولمْ يأْتِ بعدُ.

* وقد وَصَفَها اللهُ لنا في كتابِهِ [العزيزِ] بصفاتِها، ومحالٌ أنْ يَصِفَ اللهُ شيئًا بصفةٍ ثمَّ يكونُ ذٰلكَ الشَّيءُ بغيرِ[٢] تلكَ الصِّفةِ التي وَصَفَها بهِ، والقولُ بهٰذا دافعٌ لِما أَخْبَرَ اللهُ به.

قالوا: وَجَدْنا اللهَ تَبارَكَ وتَعالى وَصَفَ الجنَّةَ التي أُعِدَّتْ للمتَّقينَ بعدَ قيامِ القيامةِ بدارِ المقامةِ؛ ولمْ يُقِمْ آدَمُ فيها.

ووَصَفَها بـ[ـأنّها] جنَّةُ الخلدِ؛ ولمْ يَخْلُدْ [آدَمُ] فيها.

ووَصَفَها بأنَّها دارُ جزاءٍ، ولمْ يَقُلْ [إنَّها] دارُ ابْتلاءٍ؛ وقدِ ابْتُلِيَ آدَمُ فيها /خ١٨/ بالمعصيةِ والفتنةِ.

ووَصَفَها بأنَّها ليسَ فيها حزنٌ، وأنَّ الدّاخلينَ إليها يقولونَ: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذي أذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]؛ وقد حَزِنَ فيها آدَمُ.

ووَجَدْناهُ سَمَّاها دارَ السَّلامِ؛ ولمْ [يَسْلَمْ] فيها آدَمُ مِن الآفاتِ التي تكونُ في الدُّنيا.

وسَمَّاها دارَ القرارِ؛ ولمْ يَسْتَقِرَّ فيها آدَمُ.

وقالَ فيمَنْ يَدْخُلُها: ﴿وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجينَ﴾ [الحجر: ٤٨]؛ وقد أُخْرِجَ مِنها آدَمُ بمعصيتِهِ.

وقالَ: ﴿لا يَمَسُّهُمْ فيها نَصَبٌ﴾ [الحجر: ٤٨]؛ وقد نَدَّ آدَمُ فيها هاربًا فارًّا عندَ إصابتِهِ المعصيةَ، وطَفِقَ يَخْصِفُ ورقَ الجنَّةِ على نفسِهِ، وهٰذا النَّصبُ بعينِهِ الذي نَفاهُ اللهُ عنها.

وأَخْبَرَ أنَّهُ لا يُسْمَعُ فيها لغوٌ ولا تأثيمٌ؛ وقد أَثِمَ فيها آدَمُ، وأُسْمِعَ فيها ما هوَ أكبرُ

---

(١) في ط: «وهٰذا قولٌ»، وأثبتّ ما في خ.

(٢) في خ: «ولم تأت بعد... الشيء لغير»، وفي ط: «... في كتابه بصفاتها...».

مِن اللغوِ[١]، وهوَ أنَّهُ أُمِرَ فيها بمعصيةِ ربِّهِ.

وأخْبَرَ أنَّهُ لا يُسْمَعُ فيها لغوٌ ولا كذبٌ؛ وقد أسْمَعَهُ فيها إبليسُ الكذبَ وغَرَّهُ[٢] وقاسَمَهُ عليهِ أيضًا بعدَ أنْ أسْمَعَهُ إيّاهُ.

وقد شَرِبَ آدَمُ مِن شرابِها الذي سَمَّاهُ [اللهُ][٣] في كتابِهِ شرابًا طهورًا؛ أي: مطهِّرًا مِن جميعِ الآفاتِ المذمومةِ؛ وآدَمُ لَمْ يُطَهَّرْ مِن تلكَ الآفاتِ.

وسَمَّاها [اللهُ] تَعالى مقعدَ صدقٍ؛ وقد كَذَبَ إبليسُ فيها آدَمَ، ومقعدُ [الـ]صِّدقِ لا كذبَ فيهِ، وعِلِّيُّونَ لَمْ يَكُنْ فيهِ ٱستحالةٌ قطُّ ولا تبديلٌ ولا يَكونُ بإجماعِ المصلِّينَ، والجنَّةُ في أعلى عِلِّيِّينَ.

* واللهُ تَعالى إنَّما قالَ: ﴿إنِّي جاعِلٌ في الأرْضِ خَليفَةً﴾، ولَمْ يَقُلْ: إنِّي جاعلُهُ في[٤] جنَّةِ المأْوى. فقالَتِ الملائكةُ: ﴿أتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ﴾ [البقرة: ٣٠]. والملائكةُ أتقى للهِ مِن أنْ تَقولَ ما لا تَعْلَمُ؛ وهمُ القائلونَ: ﴿لا عِلْمَ لَنا إلاَّ ما عَلَّمْتَنا﴾ [البقرة: ٣٢]. وفي هٰذا دلالةٌ على أنَّ اللهَ قد كانَ أعْلَمَهُم أنَّ بني آدَمَ سَيُفْسِدونَ في الأرضِ، وإلاَّ؛ فكيفَ [كانوا] يَقولونَ ما لا يَعْلَمونَ؛ واللهُ تَعالى يَقولُ - وقولُهُ الحقُّ -: ﴿لا يَسْبِقونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأمْرِهِ يَعْمَلونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]؟! والملائكةُ لا تَقولُ ولا تَعْمَلُ /خ١٩/ إلاَّ بما تُؤْمَرُ بهِ لا غيرَ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَيَفْعَلونَ ما يُؤْمَرونَ﴾ [النحل: ٥٠][٥].

---

(١) في ط: «وقد ندم آدم فيها هاربًا...»! وفي خ: «... أكثر من اللغو»، والصواب ما أثبتّه.

(٢) في خ: «يسمع فيها لغوًا ولا كذبًا... الكذب وغيره»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٣) ساقطة من ط.

(٤) في ط: «وعليّون لم يكن فيها... إنّي جاعل في»، وفي خ: «... والله تعالى فإنّما قال...».

(٥) أمّا أنّهم لم يقولوا ما لا يعلمون؛ فصحيح بلا ريب. وأمّا أنّ الله أعلمهم مسبقًا بما سيكون من فساد بني آدم في الأرض؛ فليس نصّ الآية ولا ظاهرها، ومن الممكن أن تكون الملائكة قاست البشر على الجانّ بجامع تزاوجهم وتكاثرهم وخلافة بعضهم بعضًا، وكون الملائكة لا يقولون ولا يفعلون إلاّ ما يؤمرون لا يعني أنّهم لا يفكّرون ويقدّرون. وعلى التنزل والتسليم بأنّ الله أعلم الملائكة أنّ بني آدم سيفسدون في الأرض؛ فهٰذا لا يدلّ على أنّه خلقهم على الأرض ٱبتداءً؛ وإنّما يدلّ على أنّهم سيسكنون الأرض ويفسدون فيها في وقت قريب أو بعيد، وسيأتي لأهل القول الآخر مزيد من الكلام في هٰذا.

* واللهُ تَعالى أَخْبَرَنا أَنَّ إبليسَ قالَ لآدَمَ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى﴾ [طه: ١٢٠]. فإنْ كانَ اللهُ قد أَسْكَنَ آدَمَ(١) جنَّةَ الخلدِ والملكَ الذي لا يَبْلى؛ فكيفَ لمْ يَرُدَّ عليهِ نصيحتَهُ ويُكَذِّبْهُ في قولِهِ فيقولَ: وكيفَ تَدُلُّني على شيءٍ أنا فيهِ [و]قد أُعْطيتُهُ واَحْتَزْتُهُ(٢)؟! بل كيفَ لمْ يَحْثُ التُّرابَ في وجهِهِ ويَسُبَّهُ؛ لأنَّ إبليسَ ليسَ كانَ يَكونُ(٣) بهٰذا الكلامِ مُغوِيًا لهُ، إنَّما كانَ يَكونُ زاريًا عليهِ(٤)؛ لأنَّهُ إنَّما وَعَدَهُ على معصيةِ ربِّهِ بما كانَ فيهِ لا زائدًا عليهِ(٥)، ومثلُ هٰذا لا يُخاطَبُ بهِ إلَّا المجانينُ الذينَ لا يَعْقِلونَ؛ لأنَّ العوضَ الذي وَعَدَهُ بهِ بمعصيةِ ربِّهِ قد كانَ أَحْرَزَهُ، وهوَ الخلدُ والملكُ الذي لا يَبْلى؟! و[على هٰذا؛ فـ](٦) لمْ يُخْبِرِ اللهُ آدَمَ إذْ أَسْكَنَهُ(٧) الجنَّةَ أنَّهُ فيها مِن الخالدينَ، ولو كانَ فيها مِن الخالدينَ؛ لَما رَكَنَ إلى قولِ إبليسَ ولا قَبِلَ نصيحتَهُ، ولٰكنَّهُ لمَّا كانَ في غيرِ دارِ خلودٍ؛ غَرَّهُ بما أَطْمَعَهُ فيهِ مِن الخلدِ، فقَبِلَ منهُ. ولو أَخْبَرَ اللهُ آدَمَ أنَّهُ في دارِ الخلدِ، ثمَّ شَكَّ في خبرِ ربِّهِ؛ لَسَمَّاهُ كافرًا، ولَما سَمَّاهُ عاصيًا؛ لأنَّ مَن شَكَّ في خبرِ اللهِ؛ فهوَ كافرٌ، ومَن فَعَلَ غيرَ ما أَمَرَهُ اللهُ بهِ وهوَ معتقدٌ للتَّصديقِ بخبرِ ربِّهِ؛ فهوَ عاصٍ، وإنَّما سَمَّى [اللهُ] آدَمَ عاصيًا ولمْ يُسَمِّهِ كافرًا(٨).

* قالوا: فإنْ كانَ آدَمُ أُسْكِنَ جنَّةَ الخلدِ ـ وهيَ دارُ القُدُسِ التي لا يَدْخُلُها إلَّا طاهرٌ مقدَّسٌ ـ؛ فكيفَ تَوَصَّلَ إليها إبْليسُ الرَّجِسُ النَّجِسُ الملعونُ المذمومُ المدحورُ حتَّى فتَنَ فيها آدَمَ؛ وإبْليسُ فاسقٌ قد فَسَقَ عن أمرِ ربِّهِ، وليستْ جنَّةُ الخلدِ دارَ الفاسقينَ ولا يَدْخُلُها فاسقٌ [ألـ]ـبتَّةَ، إنَّما هيَ دارُ المتَّقينَ، وإبليسُ غيرُ تقيٍّ؟! فبعدَ أنْ قيلَ لهُ:

---

(١) في خ: «فإن كان إبليسكن الله آدم»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٢) في خ وط: «وأختريه»! وهو تصحيف ظاهر لما أثبتّه، ولا محلّ للاختيار هنا.

(٣) في ط: «إبليس لئن كان يكون»! وهو تحريف لما أثبتّه من خ. وهاهنا ركّة تليق بأقلام النسّاخ.

(٤) زاريًا عليه: محتقرًا له، مقلّلًا من شأنه، لا يعدّه شيئًا.

(٥) في خ: «فيه لا زاريًا عليه»! وهو تحريف لما أثبتّه من ط.

(٦) زيادة يقتضيها السياق.

(٧) في خ: «آدم أنّه إذا أسكنه»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٨) سبحان الله! أفكلّ من ترك العمل بمقتضى الخبر الإلٰهيّ شاكّ فيه؟! أما من ناس أو غافل؟! أفكلّ من شكّ في الخبر الإلٰهيّ كفر؟! فلعلّه شكّ في معناه أو حمله على غير ظاهره!

﴿ٱهْبِطْ مِنْها فَما يَكونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فيها﴾ [الأعراف: ١٣]، أَيُفْسَحُ لهُ أَنْ يَرْقى إلى جنَّةِ المأْوى فوقَ السَّماءِ السَّابعةِ بعدَ السَّخطِ والإبعادِ له[١] بالعُتُوِّ والاستكبارِ؟! هٰذا مضادٌّ لقولِه تَعالى: ﴿ٱهْبِطْ مِنْها فَما يَكونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فيها﴾[٢]. فإنْ /خ٢٠/ كانَتْ مخاطبتُهُ آدَمَ بما خاطَبَهُ بِهِ وقاسَمَهُ عليهِ ليستْ تكبُّرًا؛ فليسَ تَعْقِلُ العربُ التي [أُ]نْزِلَ القرآنُ بلسانِها ما التَّكبُّرُ!

ولَعَلَّ مَن ضَعُفَتْ رويَّتُهُ وقَصُرَ [بهِ] بحثُهُ[٣] أنْ يَقولَ: إنَّ إبليسَ لمْ يَصِلْ إليها، ولٰكنَّ وسوستَهُ وَصَلَتْ! فهٰذا قولٌ يُشْبِهُ قائلَهُ ويُشاكِلُ معتقِدَهُ! وقولُ اللهِ تَعالى حكَمٌ بينَنا وبينَهُ.

وقولُهُ تَعالى ﴿وَقاسَمَهُما﴾ [الأعراف: ٢١] يَرُدُّ ما قالَ؛ لأنَّ المقاسمةَ ليستْ وسوسةً، ولٰكنَّها مخاطبةٌ ومشافهةٌ، ولا تكونُ إلاَّ مِنِ ٱثْنينِ شاهدينِ[٤] غيرِ غائبينِ ولا أحدِهما.

وممَّا يَدُلُّ على أنَّ وسوستَهُ كانَتْ مخاطبةً قولُ اللهِ تَعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى﴾ [طه: ١٢٠]، فأَخْبَرَ أنَّهُ قالَ لهُ، ودَلَّ ذٰلكَ على أنَّهُ إنَّما وَسْوَسَ إليهِ مخاطبةً، لا أنَّهُ أَوْقَعَ ذٰلكَ في نفسِهِ[٥] بلا مقاولةٍ. فمَنِ ٱدَّعى على الظَّاهرِ تأْويلاً، ولمْ يُقِمْ عليهِ دليلاً؛ لمْ يَجِبْ قبولُ قولِه.

---

(١) في خ: «أن يفسح له أن يرقى...»، وفي ط: «... والإيعاد له».

(٢) لا؛ ليس مضادًّا له بالضرورة، بل يمكن الجمع بينهما بضرب مستساغ من التأويل على طريقة أهل العلم في أكثر القضايا: فمن ذٰلك أن يكون الله تعالى طرده ثمّ تركه ـ لحكمة أرادها ـ يعود إلى الجنّة لحظات يسيرة بحيلة من الحيل، كما أنّه سبحانه حفظ السماء من الشياطين وملأها بالحرس والشهب ومنعهم من سماع الملإ الأعلى ثمّ أذن إذنًا قدريًّا بالكلمة والكلمتين يخطفهما الجنيّ لحكمة أرادها، فهٰذا كهٰذا. ومن ذٰلك أن يكون إبليس تسلّل إلى الجنّة بعد مراجعته لربّه مباشرة فأغوى آدم، وذٰلك قبل أن يهبط إلى الأرض وتغلق دونه أبواب السماء، ولذٰلك جمعه الله مع آدم في قوله ﴿اهبطوا﴾. ومن ذٰلك أن يكون إبليس أغوى آدم بوساطة الحيّة التي نقلت لآدم وسوسته ومقاسمته دون أن يدخل الجنّة أصلاً. وسيأتي قريبًا لمن جعل جنّة آدم وجنّة الخلد واحدة تفاصيل أخرى لا تخرج عمّا ذكرته هنا.

(٣) في ط: «ليس تكبّرًا... وقصر بحثه»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٤) في خ وط: «من اثنين وشاهدين»! والصواب حذف الواو.

(٥) في خ: «مخاطبة لأنّه أوقع ذٰلك في نفسه»، وفي ط: «مخاطبًا لا أنّه أوقع ذٰلك بنفسه».

على أنَّ الوسوسةَ قد تكونُ كلامًا مسموعًا أو صوتًا:

قالَ رُؤْبَةُ: وَسْوَسَ يَدْعُو مُخْلِصًا رَبَّ الفَلَقْ.

وقالَ الأعشى:

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْواسًا إذا ٱنْصَرَفَتْ كَمـا ٱسْتَعـانَ بِريـحٍ عِشْـرِقٌ زَجِـلُ[١]

قالوا: وفي قولِ إبليسَ لهُما ﴿ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٠] دليلٌ على مشاهدتِهِ لهُما وللشَّجرةِ. ولمَّا كانَ آدَمُ خارجًا مِن الجنَّةِ وغيرَ ساكنٍ فيها؛ قالَ اللهُ: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُما الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ولمْ يَقُلْ: عن هٰذهِ الشَّجرةِ، كما قالَ لهُ إبليسُ؛ لأنَّ آدَمَ لمْ يَكُنْ حينئذٍ في الجنَّةِ ولا مشاهدًا للشَّجرةِ[٢].

معَ قولِهِ عَزَّ وجَلَّ[٣]: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]: فقد أَخْبَرَ سبحانَهُ خبرًا محكمًا غيرَ مشتبهٍ أنَّهُ لا يَصْعَدُ إليهِ إلاَّ كلمٌ طيِّبٌ وعملٌ صالحٌ، وهٰذا ممَّا قَدَّمْنا ذكرَهُ أنَّهُ لا يَلِجُ المقدَّسَ المطهَّرَ إلاَّ مقدَّسٌ مطهَّرٌ طيِّبٌ. ومعاذَ اللهِ أنْ تكونَ وسوسةُ إبليسَ مقدَّسةً أو طاهرةً أو خيرًا، بل هيَ شرٌّ كلُّها[٤] وظلمةٌ وخبثٌ ورجسٌ تَعالى اللهُ عن ذٰلكَ علوًّا كبيرًا. وكما أنَّ أعمالَ الكافرينَ لا تَلِجُ القُدُسَ /خ٢١/ الطَّاهرَ ولا تَصِلُ إليهِ لأنَّها خبيثةٌ غيرُ طيِّبةٍ، كذٰلك لا تَصِلُ ولمْ تَصِلْ وسوسةُ إبليسَ ولا وَلَجَتِ القُدُسَ، قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الفُجّارِ لَفي سِجِّينٍ﴾ [المطفِّفين: ٧].

* وقد رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّ آدَمَ نامَ في جنَّتِهِ[٥]، وجنَّةُ الخلدِ لا نومَ فيها بإجماعٍ

---

(١) في خ وط: «وعلى أنّ الوسوسة...»! وفي خ: «... يسمع للحلي... بريح عشق زحل»! والصواب ما أثبتّه من ط و«ديوان الأعشى» (ص٢١٧). والعشرق: شجيرة فيها حبّ صغير إذا جفّ فمرّت به الريح تحرّك الحبّ، فشبّه خشخشة الحلي بخشخشة الحبّ.

(٢) أمّا أنّه لم يكن حينئذٍ مشاهدًا للشجرة؛ فمحتمل، وأمّا أنّه لم يكن في الجنّة؛ ففيه نظر، بل ظاهر آيات الأعراف وتسلسلها يشير إلى أنّه كان حينئذ في الجنّة. والله أعلم.

(٣) كذا! فإمّا أنّ في الكلام سقطًا، أو أنّه عطف على ما تقدّم من قوله «وممّا يدلّ على أنّ وسوسته كانت مخاطبة قول الله تعالى... مع قوله عزّ وجلّ».

(٤) في خ: «إلاّ الكلم الطيّب وعمل... أو طاهرة أو خبرًا بل هي شرك لها»! والتصويب من ط.

(٥) (لا أصل له في المرفوع). رواه: ابن جرير في «التاريخ» (١/٦٩-٧٠) و«التفسير» (٧١٠ =

مِن المسلمينَ؛ لأنَّ النَّومَ وفاةٌ، وقد نَطَقَ بهِ القرآنُ[1]، والوفاةُ تقلُّبُ حالٍ، ودارُ السَّلامِ مسلَّمةٌ مِن تقلُّبِ الأحوالِ، والنَّائمُ ميِّتٌ أو كالميِّتِ.

* قالوا: وقد رُوِيَ عنهُ ﷺ أنَّهُ قالَ لأُمِّ حارِثَةَ لمَّا قالَتْ لهُ: يا رسولَ اللهِ! إنَّ حارِثَةَ قُتِلَ معكَ: فإنْ كانَ صارَ إلى الجنَّةِ؛ صَبَرْتُ وٱحْتَسَبْتُ، وإنْ كان صارَ إلى ما سوى ذٰلكَ؛ رَأَيْتَ ما أفْعَلُ. فقالَ [لها] رسولُ اللهِ ﷺ: «أوَجنَّةٌ واحدةٌ هيَ؟! إنَّما هيَ جنانٌ كثيرةٌ»[2]. فأخْبرَ ﷺ أنَّ للهِ جنَّاتٍ كثيرةً. فلَعَلَّ آدَمَ أسْكَنَهُ اللهُ جنَّةً مِن جنَّاتِهِ ليستْ [هيَ] جنَّةَ الخلدِ[3].

* قالوا: وقد جاءَ في بعضِ الأخبارِ أنَّ جنَّةَ آدَمَ كانَتْ بأرضِ الهِنْدِ[4]! قالوا:

= و٨٤٠٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٣٧٢)، والبيهقي في «الصفات» (٨٢٠)، وابن عساكر (٧/ ٤٠٢)؛ من طريق أسباط بن نصر، عن إسماعيل السّدّي، عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة بن شراحيل عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ. . . فذكره موقوفًا في سياق. وأسباط والسّدّي فيهما ضعف، فالسند ضعيف على وقفه.

ورواه سفيان بن عيينة (١/ ١٠٥ـ درّ) موقوفًا على مجاهد. فالظاهر أنّها من رواية ابن أبي نجيح عنه على ما سيأتي، وقد تكلّموا في سماعه منه.

ورواه إسحاق بن بشر وابن عساكر (١/ ١٠٦ـ درّ) موقوفًا على عطاء. ولم أقف عليه في مطبوع ابن عساكر، لٰكن يغلب على الظنّ أنّه رواه من طريق إسحاق بن بشر، وقد كذّبوه وتركوه.

ولم أقف عليه في المرفوع، ولو كان له أصل في المرفوع؛ لذكره ابن عساكر أو ابن كثير أو السيوطي الذين جمعوا في الباب فأوعوا. والذي زادني ثقة أنّه لا أصل له في المرفوع قول ابن القيّم في «حادي الأرواح» (ص٦٤): «موقوف من رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد». ولذٰلك صدّره هنا بصيغة التضعيف. وإن صحّ هٰذا الأثر موقوفًا؛ فليس له حكم الرفع، بل هو مستمدّ من رواية «العهد القديم» (سفر التكوين/ الأصحاح٢): «فأوقع الربّ الإلٰه سباتًا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه. . . » إلخ ما جاء في خلق حوّاء.

(١) كما في قوله تعالى: ﴿الله يتوفّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ [الزمر: ٤٢]، وقوله: ﴿وهو الذي يتوفّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ [الأنعام: ٦٠].

(٢) رواه البخاري (٥٦ـ الجهاد، ١٤ـ من أتاه سهم غرب، ٦/ ٢٥/ ٢٨٠٩) من حديث أنس.

(٣) كذا قالوا! وبقيّة الحديث تردّه؛ فإنّه ﷺ قال: «إنّها جنان كثيرة في الجنّة، وإنّ أبنك أصاب الفردوس الأعلى»، فبان أنّ هٰذه الجنان كلّها داخلة في مسمّى جنّة الخلد.

(٤) (لا يصحّ). لم أقف عليه بعد طول بحث، فحسبي فيه حكم أصحابه ومن أحتجّ به.

وأقرب ما وجدت إليه ما جاء في «العهد القديم» (سفر التكوين/ الأصحاح٢): «وغرس الربّ الإلٰه جنّة في عدن شرقًا، ووضع هناك آدم الذي جبله. وأنبت الربّ الإلٰه من الأرض كلّ شجرة شهيّة للنظر وجيّدة للأكل وشجرة الحياة في وسط الجنّة». فمفهوم هذا أنّ جنّة آدم كانت شرقيّ الأرض.

وهٰذا، وإنْ كانَ لا يُصَحِّحُهُ رواةُ الأخبارِ ونقلةُ الآثارِ، فالذي تَقْبَلُهُ الألبابُ ويَشْهَدُ لهُ ظاهرُ الكتابِ أنَّ جنَّةَ آدَمَ ليستْ جنَّةَ الخلدِ ولا دارَ البقاءِ[١]. وكيفَ يَجوزُ أنْ يَكونَ اللهُ أسْكَنَ آدَمَ جنَّةَ الخلدِ لِيَكونَ فيها مِن الخالدينَ وهوَ قائلٌ للملائكةِ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]؟! وكيفَ أخْبَرَ الملائكةَ أنَّهُ يُريدُ أنْ يَجْعَلَ في الأرضِ خليفةً، ثمَّ يُسْكِنُهُ دارَ الخلودِ؟! ودارُ الخلودِ لا يَدْخُلُها إلَّا مَن يَخْلُدُ فيها، كما سُمِّيَتْ بدارِ الخلودِ، فقد سَمَّاها اللهُ بالأسماءِ التي تَقَدَّمَ ذكرُنا لها[٢] تسميةً مطلقةً لا خصوصَ فيها، فإذا قيلَ للجنَّةِ: دارُ الخلدِ؛ لَمْ يَجُزْ أنْ يَنْقُصَ[٣] مسمَّى هٰذا الاسمِ بحالٍ.

فهٰذا بعضُ ما ٱحْتَجَّ بِهِ القائلونَ بهٰذا المذهبِ.

وعلى هٰذا؛ فإسكانُ آدَمَ وذرِّيَّتِهِ في هٰذهِ الجنَّةِ لا يُنافي كونَهُم في دارِ الابتلاءِ والامتحانِ. وحينئذٍ؛ فكانَتْ تلكَ الوجوهُ والفوائدُ التي ذَكَرْتُموها ممكنةَ الحصولِ في الجنَّةِ[٤].

● فالجوابُ أنْ يُقالَ: هٰذا فيهِ قولانِ للنَّاسِ /خ٢٢/. ونحنُ نَذْكُرُ القولينِ وٱحتجاجَ الفريقينِ، ونُبَيِّنُ ثبوتَ الوجوهِ التي ذَكَرْناها وأمثالَها على كلا القولينِ[٥]. ونَذْكُرُ أوَّلاً قولَ مَن قالَ إنَّها جنَّةُ الخلدِ التي وَعَدَها [اللهُ] المتَّقينَ، وما ٱحْتَجُّوا بِهِ، وما نَقَضوا بِهِ حججَ مَن قالَ إنَّها غيرُها. ثمَّ نُتْبِعُهـ[ـا] مقالةَ الآخرينَ، وما ٱحْتَجُّوا بِهِ، وما أجابوا بِهِ عن حججِ منازعيهِم. مِن غيرِ ٱنتصابٍ لنصرةِ أحدِ القولينِ وإبطالِ الآخرِ؛ إذْ

= لكنّ المشهور الذي جاء مرفوعًا من أوجه واهية وصحّ موقوفًا على جماعة من الصحابة والتابعين ونقل عن أهل الكتاب ـ ولم أقف عليه في «العهد القديم» ـ أنّ آدم أُهبط في الهند. ومفهومه أنّ جنّته لم تكن فيها. نعم؛ يمكن الجمع بينهما بضرب من التأويل، لكن إنّما يلجأ لهٰذا فيما صحّ لا في الواهيات والإسرائيليّات.

(١) زعموا! ولو كان كما زعموا؛ لما أحتاج إلى هٰذا التطويل والتفصيل أخذًا وردًّا!

(٢) في تضاعيف الكلام. وإلاّ؛ فلم يتقدّم لهم سرد في ذٰلك ولا تفصيل.

(٣) في ط: «أن ينقض»، والأولى ما أثبتّه من خ، وليس التخصيص بنقض ولٰكنّه نقص.

(٤) المراد بالوجوه والفوائد الحكم المتقدّمة في إهباط آدم من الجنّة.

(٥) فصّل رحمة الله عليه تفصيلاً واسعًا في حجج الفريقين وما لها وما عليها، ولٰكنّه ذهل عن إثبات الحكم المتقدّمة على كلا القولين! وقد تقدّم أنّ أكثرها يصحّ توجيهه على القول بأنّ جنّة آدم غير دار الخلد، لكنّ تمامها وكمالها إنّما يكون على قول من جعلها دار الخلد.

ليسَ غرضُنا ذٰلكَ، وإنَّما الغرضُ ذكرُ بعضِ الحِكَمِ والمصالحِ المقتضيةِ لإخراجِ آدمَ مِن الجنَّةِ وإسكانِه في الأرضِ في دارِ الامتحانِ والابتلاءِ. وكانَ الغرضُ بذٰلكَ الرَّدَّ على مَن زَعَمَ أنَّ حكمةَ اللهِ سبحانَهُ تَأْبى إدخالَ آدمَ الجنَّةَ وتعريضَهُ للذَّنبِ الذي أُخْرِجَ منها بهِ وأنَّهُ أيُّ فائدةٍ في ذٰلكَ؟! والرَّدَّ على مَن أبْطَلَ أنْ يَكونَ لهُ في ذٰلكَ حكمةٌ، وإنَّما هو صادرٌ عن محضِ المشيئةِ التي لا حكمةَ وراءَها! ولمَّا كانَ المقصودُ حاصلاً على كلِّ تقديرٍ ـ سواءٌ كانَتْ جنَّةَ الخلدِ أو غيرَها ـ؛ بَيَّنَّا الكلامَ على التَّقديرينِ، ورَأَيْنا أنَّ الرَّدَّ على هٰؤلاءِ بدَبُّوسِ السَّلَّاقِ [لا] يُحَصِّلُ غرضًا[1] ولا يُزيلُ مرضًا، فسَلَكْنا هٰذا السَّبيلَ لِيَكونَ قولُهُم مردودًا على كلِّ قولٍ مِن أقوالِ الأئمَّةِ. وباللهِ المستعانُ، وعليهِ التُّكلانُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ.

* فنَقولُ: أمَّا ما ذَكَرْتُموهُ مِن كونِ الجنَّةِ التي أُهْبِطَ [مِنْـ]ـها آدمُ ليستْ جنَّةَ الخلدِ وإنَّما هيَ جنَّةٌ غيرُها؛ فهٰذا ممَّا قدِ اخْتَلَفَ فيهِ النَّاسُ. والأشهرُ عندَ الخاصَّةِ والعامَّةِ الذي لا يَخْطُرُ بقلوبِهِم سواهُ أنَّها جنَّةُ الخلدِ التي أُعِدَّتْ للمتَّقينَ. وقد نَصَّ غيرُ واحدٍ مِن السَّلفِ على ذٰلكَ. واحْتَجَّ مَن نَصَرَ هٰذا:

* بما رواه مسلمٌ في «صحيحِهِ»[2] مِن حديثِ أبي مالِكٍ الأشْجَعِيِّ عن أبي حازمٍ عن أبي هُرَيْرَةَ وأبي مالِكٍ عن رِبْعِيِّ بنِ حِراشٍ عن حُذَيْفَةَ؛ قالا: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يَجْمَعُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ النَّاسَ، [فيَقومُ المؤمنونَ] حتَّى تُزْلَفَ لهمُ الجنَّةُ، فيَأْتونَ آدمَ عليهِ السَّلامُ، فيَقولونَ: يا أبانا! اسْتَفْتِحْ لنا الجنَّةَ. فيَقولُ: وهل أخْرَجَكُمْ مِن الجنَّةِ إلَّا خطيئةُ أبيكُم آدمَ...» وذَكَرَ الحديثَ. قالوا: فهٰذا يَدُلُّ /خ٢٣/ على أنَّ الجنَّةَ التي أُخْرِجَ منها آدمُ هيَ بعينِها التي يُطْلَبُ منهُ أنْ يَسْتَفْتِحَها لهُم.

* قالوا: ويَدُلُّ عليـ[ـهِ] أنَّ اللهَ سبحانَهُ قالَ: ﴿[قُلْنا] يا آدمُ اسْكُنْ أنْتَ وزَوْجُكَ

---

(١) في خ: «وتعرّضه للذنب... بدنوس السلاق لا يحصّل غرضنا»! وفي ط: «... بدبّوس السلاق يحصّل غرضًا»! والظاهر أنّه آلة حادّة كالسفّود تستخدم لاختبار نضج الطعام. والمراد أنّه رحمة الله عليه لن يكون عنيفًا في ردّه لقول من جعل جنّة آدم جنّة الخلد ومن نفى ذٰلك؛ لأنّ الرفق أولى بتحصيل المقصود.

(٢) (١ـ الإيمان، ٨٤ـ أدنى أهل الجنّة منزلة، ١/ ١٨٦/ ١٩٥).

الجَنَّةَ. . .﴾ إلى قولِهِ: ﴿ٱهْبِطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ في الأرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إلى حينٍ﴾ [البقرة: ٣٥-٣٦]. فهٰذا يَدُلُّ على أنَّ هبوطَهُ[ـم كانَ] مِن الجنَّةِ إلى الأرضِ مِن وجهينِ: أحدُهُما: مِن لفظِ قولِهِ ﴿ٱهْبِطوا﴾؛ فإنَّ الهبوطَ [نزولٌ] مِن علوٍّ إلى سفولٍ[١]. والثَّاني: قولُهُ ﴿وَلَكُمْ في الأرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ عَقيبَ قولِهِ ﴿ٱهْبِطوا﴾؛ فدَلَّ على أنَّهُم لَمْ يَكونوا أوَّلاً في الأرضِ.

* وأيضًا: فإنَّهُ سبحانَهُ وَصَفَ الجنَّةَ التي أُسْكِنَها آدَمُ بصفاتٍ لا تكونُ في الجنَّةِ الدُّنيويَّةِ، فقالَ تَعالى: ﴿إنَّ لَكَ ألاَّ تَجوعَ فيها ولا تَعْرى . وَأنَّكَ لا تَظْمَأُ فيها وَلا تَضْحى﴾[٢] [طه: ١١٨-١١٩]. وهٰذا لا يَكونُ في الدُّنيا أصلاً، ولو كانَ الرَّجلُ في أطيبِ منازِلِها، فلا بدَّ أنْ يَعْرِضَ لهُ الجوعُ والظَّمأُ والتَّعرِّي والضُّحِيُّ للشَّمسِ.

* وأيضًا: فإنَّها لو كانَتِ الجنَّةُ في الدُّنيا؛ لَعَلِمَ آدَمُ كذبَ إبليسَ في قولِهِ: ﴿هَلْ أدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى﴾ [طه: ١٢٠]؛ فإنَّ[٣] آدَمَ كانَ يَعْلَمُ أنَّ الدُّنيا منقضيةٌ فانيةٌ وأنَّ ملكَها يَبْلى.

* وأيضًا: فإنَّ قصَّةَ آدَمَ في البقرةِ ظاهرةٌ جدًّا في أنَّ الجنَّةَ التي أُخْرِجَ منها فوقَ السَّماءِ:

فإنَّهُ سبحانَهُ قالَ: ﴿وَإذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ ٱسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَدوا إلاَّ إبْليسَ أبى وَٱسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الكافِرينَ . وَقُلْنا يا آدَمُ ٱسْكُنْ أنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فتكونا مِنَ الظَّالِمينَ . فَأزَلَّهُما الشَّيْطانُ عَنْها فَأخْرَجَهُما مِمَّا كانا فيهِ وَقُلْنا ٱهْبِطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ في الأرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إلى حينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحيمُ﴾ [البقرة: ٣٤-٣٧]. فهٰذا إهباطُ آدَمَ وحوَّاءَ وإبليسَ مِن الجنَّةِ، ولهٰذا أتى فيهِ بضميرِ الجمعِ. وقيلَ: إنَّهُ خطابٌ لهُم وللحيَّةِ. وهٰذا يَحْتاجُ إلى نقلٍ ثابتٍ؛ إذْ لا ذكرَ للحيَّةِ في شيءٍ

---

(١) في خ: «وأبو مالك عن ربعيّ. . . إلى أسفل»، وفي ط: «. . . على أنّ هبوطه من. . .».
(٢) تضحى: تتعرّض للشمس وتتأذّى بحرّها.
(٣) في خ: «وأيضًا فإنّ»، والصواب حذف «أيضًا» كما في ط؛ لأنّ الكلام تابع لما قبله.

مِن قصَّةِ آدَمَ وإبليسَ[١]. وقيلَ: خطابٌ لآدَمَ وحَوَّاءَ /خ٢٤/، وأتى فيهِ بلفظِ الجمعِ، كقولِهِ تَعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ[٢] شاهِدينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. وقيلَ: لآدَمَ وحوَّاءَ وذرِّيَّتِهِما. وهٰذهِ الأقوالُ ضعيفةٌ؛ غيرَ الأوَّلِ؛ لأنَّها بينَ قولٍ لا دليلَ عليهِ وبينَ ما يَدُلُّ ظاهرُ الخطابِ على خلافِهِ. فثَبَتَ أنَّ إبليسَ داخلٌ في هٰذا الخطابِ، وأنَّهُ مِن المهبَطينَ مِن الجنَّةِ.

ثمَّ قالَ تَعالى: ﴿قُلْنا ٱهْبِطوا مِنْها جَميعًا فَإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. وهٰذا الإهباطُ الثَّاني لا بدَّ أنْ يكونَ غيرَ الأوَّلِ، وهوَ إهباطُـ[ـهُ] مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، وحينئذٍ فتكونُ الجنَّةُ التي أُهْبِطوا منها أوَّلاً فوقَ السَّماءِ، وهيَ جنَّةُ الخلدِ.

وقد ذَهَبَـ[ـتْ] طائفةٌ منهُمُ الزَّمَخْشَريُّ[٣] إلى أنَّ قولَهُ ﴿ٱهْبِطوا مِنْها جَميعًا﴾ خطابٌ لآدَمَ وحَوَّاءَ خاصَّةً، وعَبَّرَ عنهُما بالجمعِ لاستتباعِهِما ذرِّيَّاتِهِما. قالَ: والدَّليلُ عليهِ قولُهُ تَعالى: ﴿قالَ ٱهْبِطا مِنْها جَميعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [طه: ١٢٣]. قالَ[٤]: ويَدُلُّ على ذٰلكَ قولُهُ: ﴿فَمَنْ تَبعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ . وَالَّذينَ كَفَروا وَكَذَّبوا بِآياتِنا أُولٰئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فيها خالِدونَ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩]، وما هوَ إلَّا حكمٌ يَعُمُّ النَّاسَ كلَّهُم. ومعنى ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ما عليهِ النَّاسُ مِن التَّعادي والتَّباغضِ وتضليلِ بعضِهِم [لبعضٍ]!

وهٰذا الذي ٱخْتارَهُ أضعفُ الأقوالِ في الآيةِ:

فإنَّ العداوةَ التي ذَكَرَها اللهُ إنَّما هيَ بينَ آدَمَ وإبْليسَ وذرِّيَّاتِهِما، كما قالَ تَعالى:

---

(١) يعني في الكتاب والسنّة. وإلّا؛ فلها ذكر في «العهد القديم» (سفر التكوين/ الأصحاح٣) وفي مرويّات الصحابة والتابعين المستمدّة من أهل الكتاب، وٱستأنس ابن كثير لذٰلك بقوله ﷺ عن الحيّات: «ما سالمناهنّ مذ حاربناهنّ». ٱنظر «قصص الأنبياء» (ص٦٧ـ ط. ابن خزيمة).

(٢) يعني: لحكم داوود وسليمان عليهما الصلاة والسلام.

(٣) العلامة، كبير المعتزلة والداعية إلى مذهبهم، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمّد، صاحب «الكشّاف» و«المفصّل»، ت٥٣٨هـ. ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٥/ ١٦٨)، «أعلام النبلاء» (٢٠/ ١٥١).

(٤) في ط: «لاستتباعهما ذرّيتهما. . . وقال».

﴿إنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذوهُ عَدُوًّا﴾[1] [فاطر: ٦]. وأمّا آدَمُ وزوجُهُ؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ أخْبَرَ في كتابِهِ أنَّهُ خَلَقَها منهُ لِيَسْكُنَ إليها، وقالَ تَعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أنْفُسِكُمْ أزْواجًا لِتَسْكُنوا إلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فهوَ سبحانَهُ جَعَلَ المودَّةَ بينَ [الرَّجلِ وزوجِهِ وجَعَلَ العداوةَ بينَ] آدَمَ وإبْليسَ وذرِّيَّاتِهِما.

ويَدُلُّ عليهِ أيضًا عودُ الضَّميرِ إليهِم بلفظِ الجمعِ، وقد تَقَدَّمَ ذكرُ آدَمَ وزوجِهِ وإبْليسَ في قولِهِ: ﴿فَأزَلَّهُما الشَّيْطانُ عَنْها فَأخْرَجَهُما مِمَّا كانا فيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]، فهٰؤلاءِ ثلاثةٌ آدَمُ وزوجُهُ وإبْليسُ، فلماذا يَعودُ الضَّميرُ على بعضِ المذكورِ معَ منافرتِهِ لطريقِ الكلامِ ولا يَعودُ على جميعِ المذكورِ معَ أنَّهُ /خ٢٥/ وجهُ الكلامِ؟!

فإنْ قيلَ: فما تَصْنَعونَ بقولِهِ [في سورةِ طه١٢٣][2]: ﴿قالَ اهْبِطا مِنْها جَميعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، وهٰذا خطابٌ لآدَمَ وحَوَّاءَ، وقد أخْبَرَ بعداوةِ بعضِهِم بعضًا؟

قيلَ: إمَّا أنْ يَكونَ الضَّميرُ في قولِهِ ﴿اهْبِطا﴾ راجعًا إلى آدَمَ وزوجِهِ، أو يَكونَ راجعًا إلى آدَمَ وإبْليسَ ولمْ يَذْكُرِ الزَّوجةَ لأنَّها تَبَعٌ لهُ. وعلى الثَّاني فالعداوةُ المذكورةُ للمخاطَبينِ بالإهباطِ وهُما آدَمُ وإبْليسُ. وعلى الأوَّلِ تكونُ الآيةُ قدِ اشْتَمَلَتْ على أمرينِ: أحدُهُما: أمرُهُ لآدَمَ وزوجِهِ بالهبوطِ. والثَّاني: جعلُهُ العداوةَ بينَ آدَمَ وزوجِهِ وإبْليسَ، ولا بدَّ أنْ يَكونَ إبْليسُ داخلاً في حكمِ هٰذهِ العداوةِ قطعًا[3]، كما قالَ تَعالى: ﴿إنَّ هٰذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، وقالَ لذرِّيَّتِهِ: ﴿إنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وتأمَّلْ كيفَ اتَّفَقَتِ المواضعُ التي فيها العداوةُ على ضميرِ الجمعِ دونَ التَّثنيةِ. وأمَّا ذكرُ الإهباطِ؛ فتارةً يَأْتي بلفظِ ضميرِ الجمعِ، وتارةً بلفظِ التَّثنيةِ، وتارةً يَأْتي بلفظِ الإفرادِ لإبْليسَ وحدَهُ. كقولِهِ تَعالى [في سورةِ الأعرافِ][4]: ﴿قالَ ما مَنَعَكَ أنْ لا

---

(١) في ط: «فاتّخذوه عدوًّا ولا عدوّ»! وجاء في خ على الصواب.

(٢) ساقطة من ط.

(٣) لأنّه لا تتصوّر العداوة بين الرجل وزوجه خصوصًا وبينه و بين الخلق عمومًا إلاّ بتدخّل الشيطان وتزيينه وشدّه على أيدي المبطلين وأزّه لهم.

(٤) ساقطة من ط.

تَسْجُدَ إذْ أَمَرْتُكَ قالَ أنا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَني مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قالَ فَاْهْبِطْ مِنْها فَما يَكونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فيها﴾ [الأعراف: ١٢-١٣]، فهٰذا الإهباطُ لإبْليسَ وحدَهُ، والضَّميرُ في قولِهِ ﴿مِنْها﴾: قيلَ: إنَّهُ عائدٌ إلى الجنَّةِ، وقيلَ: عائدٌ إلى السَّماءِ. وحيثُ أتى بصيغةِ الجمعِ؛ كانَ لآدَمَ وزوجِهِ وإبْليسَ؛ إذْ مدارُ القصَّةِ عليهِم. وحيثُ أتى بلفظِ التَّثنيةِ. فإمَّا أَنْ يَكونَ لآدَمَ وزوجِهِ؛ إذْ هُما اللذانِ باشَرا الأكلَ مِن الشَّجرةِ وأقْدَما على المعصيةِ، وإمَّا أَنْ يَكونَ لآدَمَ وإبْليسَ؛ إذْ هُما أبوا الثَّقلينِ فذَكَرَ حالَهُما[١] وما آلَ إليهِ أمرُهُما لِيَكونَ عظةً وعبرةً لأولادِهِما، والقولانِ محكيَّانِ في ذٰلكَ. وحيثُ أتى بلفظِ الإفرادِ؛ فهوَ لإبْليسَ وحدَهُ.

وأيضًا: فالذي يُوَضِّحُ أنَّ الضَّميرَ في قولِهِ ﴿اْهْبِطا مِنْها جَميعًا﴾ لآدَمَ وإبْليسَ: أنَّ اللهَ سبحانَهُ لمَّا ذَكَرَ المعصيةَ؛ أفْرَدَ [بِها] آدَمَ دونَ زوجِهِ، فقالَ /خ٢٦/ : ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى . ثُمَّ اْجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى . قالَ اْهْبِطا مِنْها جَميعًا﴾ [طه: ١٢١-١٢٣]، وهٰذا يَدُلُّ على أنَّ المخاطَبَ بالإهباطِ [هوَ] آدَمُ ومَن زَيَّنَ لهُ المعصيةَ ودَخَلَتِ الزَّوجةُ تبعًا، وهٰذا لأنَّ المقصودَ إخبارُ اللهِ تَعالى لعبادِهِ المكلَّفينَ مِن الجنِّ والإنسِ بما جَرى على أبويهِما مِن شؤمِ المعصيةِ ومخالفةِ الأمرِ لئلاَّ يَقْتَدوا بهِما في ذٰلكَ، فذكرُ أبوي الثَّقلينِ أبلغُ في حصولِ هٰذا المعنى مِن ذكرِ أبوي الإنسِ فقطْ. وقد أخْبَرَ [اللهُ] سبحانَهُ عنِ الزَّوجةِ أنَّها أكَلَتْ معَ آدَمَ، وأخْبَرَ أنَّهُ أهْبَطَهُ وأخْرَجَهُ مِن الجنَّةِ بتلكَ الأكلةِ، فعُلِمَ أنَّ هٰذا اقتضاءُ حكمِ الزَّوجةِ وأنَّها صارَتْ إلى ما صارَ إليهِ آدَمُ، فكانَ تجريدُ العنايةِ إلى ذكرِ [حالِ][٢] الأبوينِ اللذينِ هُما أصلُ الذُّرِّيَّةِ أولى مِن تجريدِها إلى ذكرِ أبي الإنسِ وأُمِّهِم، واللهُ أعلمُ.

وبالجملةِ؛ فقولُهُ ﴿اْهْبِطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦] ظاهرٌ في الجميعِ[٣]، فلا يَسوغُ حملُهُ على الاثنينِ في قولِهِ: ﴿اْهْبِطا﴾.

---

(١) في خ: «حاليهما»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٢) ساقطة من ط.

(٣) في خ: «أبي الإنس وأممهم. . .»! وفي ط: «. . . في الجمع»!

* قالوا: وأمّا قولُكُم: إنَّهُ كيفَ وَسْوَسَ لهُما بعدَ إهباطِهِ مِن الجنَّةِ؛ ومحالٌ أنْ يَصْعَدَ إليها بعدَ قولِهِ تَعالى: ﴿آهْبِطْ﴾[١]؟! فجوابُهُ مِن وجوهٍ:

أحدُها: أنَّهُ أُخْرِجَ منها ومُنِعَ مِن دخولِها على وجهِ السُّكنى والكرامةِ واتِّخاذِها دارًا، فمِن أينَ لكُم أنَّهُ مُنِعَ مِن دخولِها على وجهِ الابتلاءِ والامتحانِ لآدَمَ وزوجِهِ؟ ويَكونُ هٰذا دخولاً عارضًا، كما يَدْخُلُ الشُّرَطُ دارَ مَن أُمِروا بابتلائِهِ ومحنتِهِ وإنْ لمْ يَكونوا أهلاً لسكنى تلكَ الدّارِ.

الثّاني: أنَّهُ كانَ يَدْنو مِن السَّماءِ فيُكَلِّمُهُما ولا يَدْخُلُ عليهِما دارَهُما.

الثّالثُ: أنَّهُ لعلَّهُ قامَ على البابِ فناداهُما وقاسَمَهُما ولمْ يَلِجِ الجنَّةَ.

الرّابعُ: أنَّهُ قد رُوِيَ أنَّهُ أرادَ الدُّخولَ عليهِما، فمَنَعَهُ الخَزَنَةُ، فدَخَلَ في فمِ الحيَّةِ حتَّى دَخَلَتْ بِهِ عليهِما ولا يَشْعُرُ[٢] الخَزَنَةُ بذٰلكَ[٣]!

---

(١) في ط: «وسوس له بعد إهباطه منها ومحال...»، وفي خ: «... أهبطا».

(٢) في خ: «ويكون هٰذا دخولاً على رضا... ولا تشعر»، وفي ط: «... فمنعته الحزنة...».

(٣) (لا أصل له في المرفوع). رواه: عبدالرزّاق (٨٩٢)، وابن جرير في «التاريخ» (١/ ٧١-٧٢) و«التفسير» (٧٤٢ و٧٤٣ و٧٤٤ و٧٥٠ و٧٥٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٣٩٥ و٣٩٨ و٨٢٨٩ و٨٣١٧ و٨٣٢٠)؛ من أوجه موقوفًا على ابن عبّاس وابن مسعود وجماعة من الصحابة ووهب بن منبّه ومحمّد بن قيس وغيرهم من التابعين. وبعض أسانيده قويّة وأكثرها فيه ضعف.

وأصل هٰذه المرويّات فيما يبدو لي ما جاء في «العهد القديم» (سفر التكوين/ الأصحاح٣): «وكانت الحيّة أحيل جميع حيوانات البرّيّة التي عملها الربّ الإلٰه، فقالت للمرأة: أحقًّا قال الله لا تأكلا من كلّ شجر الجنّة؟ فقالت المرأة للحيّة: من ثمر شجر الجنّة نأكل، وأمّا ثمر الشجرة التي في وسط الجنّة؛ فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمسّاه لئلاّ تموتا [كذا! وهي لفظة منكرة جدًّا هنا! والغالب فيما أرى أنّ أصلها تهلكا لٰكن عملت فيها عوامل النقل والترجمة عملها، فقاتل الله الجهل]. فقالت الحيّة للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنّه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشرّ...» إلخ قصّة الأكل.

قال الطبريّ (١/ ٢٧٦): «ذكر الأفعى في القصّة قول لا يدفعه عقل ولا خبر يلزم تصديقه من حجّة بخلافه، وهو من الأمور الممكنة... بل ذٰلك إن شاء الله كذٰلك لتتابع أقوال أهل التأويل على تصحيح ذٰلك».

ثمّ استأنس يرحمه الله (١/ ٢٧٨) بما صحّ عنه ﷺ في الحيّات: «ما سالمناهنّ منذ حاربناهنّ»؛ قال: «وأحسب أنّ الحرب التي بيننا كان أصلها ما ذكره علماؤنا الذين قدّمنا الرواية عنهم في إدخالها إبليس الجنّة بعد أن أخرجه الله منها».

وإلى نحو هٰذا مال ابن كثير في «البداية والنهاية»، وهو قول حسن يطمئنّ القلب له، لٰكنّه لا يرقى ليكون حجّة قاطعة لا بدّ من الأخذ بها. والله أعلم.

* قالوا: ومِمَّا يَدُلُّ على أنَّها جنَّةُ الخلدِ بعينِها أنَّها جاءَتْ معرَّفةً بلامِ التَّعريفِ في جميعِ المواضعِ، كقولِهِ: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ولا جنَّةَ يَعْهَدُها المخاطَبونَ ويَعْرِفونَها /خ٢٧/ إلَّا جنَّةُ الخلدِ التي وَعَدَ الرَّحمٰنُ عبادَهُ بالغيبِ، فقد صارَ هٰذا الاسمُ عَلَمًا عليها بالغلبةِ، وإنْ كانَ في أصلِ الوضعِ عبارةً عنِ البستانِ ذي الثِّمارِ والفواكهِ، وهٰذا كالمدينةِ لطَيْبَةَ والنَّجمِ للثُّرَيَّا ونظائرِها. فحيثُ[1] وَرَدَ اللفظُ معرَّفًا بالألفِ واللامِ؛ انْصَرَفَ إلى الجنَّةِ المعهودةِ [المعلومةِ] في قلوبِ المؤمنينَ، وأمَّا إنْ أُريدَ بهِ جنَّةٌ غيرُها؛ فإنَّها تجيءُ: منكَّرةً كقولِهِ: ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف: ٣٢]، أو مقيَّدةً بالإضافةِ كقولِهِ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ [الكهف: ٣٩]، أو مقيَّدةً مِن السِّياقِ بما يَدُلُّ على أنَّها جنَّةٌ في الأرضِ كقولِهِ [تعالى]: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ...﴾ الآياتِ [القلم: ١٧-٣٢]. فهٰذا السِّياقُ [والتَّقييدُ] يَدُلُّ على أنَّها بستانٌ في الأرضِ.

* قالوا: وأيضًا: فإنَّهُ قدِ اتَّفَقَ أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ على أنَّ الجنَّةَ والنَّارَ مخلوقتانِ، وقد تَواتَرَتِ الأحاديثُ عنِ النَّبيِّ ﷺ بذٰلكَ:

كما في الصَّحيحينِ[2]: عن عَبْدِاللهِ بنِ عُمَرَ [رَضِيَ اللهُ عنهُما]، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ أنَّهُ قالَ: «إنَّ أحدَكُم إذا ماتَ؛ عُرِضَ عليهِ مقعدُهُ بالغداةِ والعشيِّ: إنْ كانَ مِن أهلِ الجنَّةِ؛ فمِن أهلِ الجنَّةِ، وإنْ كانَ مِن أهلِ النَّارِ؛ فمِن أهلِ النَّارِ. يُقالُ: هٰذا مقعدُكَ حتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يومَ القيامةِ».

وفي الصَّحيحينِ[3]: مِن حديثِ أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «اخْتَصَمَتِ الجنَّةُ والنَّارُ: فقالَتِ الجنَّةُ: ما لي لا يَدْخُلُني إلَّا ضعفاءُ النَّاسِ وسَقَطُهُم؟

---

(١) في خ: «وحيث»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٢) البخاري (٢٣ـ الجنائز، ٨٩ـ الميّت يعرض عليه مقعده، ٣/٢٤٣/١٣٧٩)، ومسلم (٥١ـ الجنّة، ١٧ـ عرض مقعد الميّت، ٤/٢١٩٩/٢٨٦٦).

(٣) بل انفرد به مسلم (٥١ـ الجنّة، ١٣ـ النار يدخلها الجبّارون، ٤/٢١٨٧/٢٨٤٧) عن أبي سعيد. نعم؛ رواه: البخاري (٦٥ـ التفسير، ٥٠ـ قٓ، ٨/٥٩٥/٤٨٤٩ و٤٨٥٠)، ومسلم (الموضع السابق، ٤/٢١٨٦/٢٨٤٦)؛ لكن من حديث أبي هريرة لا من حديث أبي سعيد رضي الله عنهم جميعًا.

وقالَتِ النَّارُ: ما لي لا يَدْخُلُني إلاَّ الجَبَّارونَ والمتكبِّرونَ؟ فقالَ للجنَّةِ: أنتِ رحمتي أرْحَمُ بِكِ مَن أشاءُ. وقالَ للنَّارِ: أنتِ عذابي أُعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ. . . » [الحديثَ][١].

وفي «السُّنن»: عن أبي هُرَيْرَةَ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لمَّا خَلَقَ اللهُ الجنَّةَ والنَّارَ؛ أرْسَلَ جِبْريلَ إلى الجنَّةِ، فقالَ[٢]: اذْهَبْ فانْظُرْ إليها وإلى ما أعْدَدْتُ لأهلِها». قالَ: «فذَهَبَ فنَظَرَ إليها وإلى ما أعَدَّ اللهُ لأهلِها. . . » الحديثَ[٣].

وفي الصَّحيحينِ[٤] في حديثِ الإسراءِ: «ثمَّ رُفِعَتْ لي سِدْرَةُ المنتهى[٥]، فإذا [ورقُها مثلُ آذانِ الفيلةِ، وإذا] نَبْقُها /خ٢٨/ مثلُ قلالِ هَجَرَ، وإذا أربعةُ أنهارٍ نهرانِ ظاهرانِ ونهرانِ باطنانِ. فقُلْتُ: ما هٰذا يا جِبْريلُ؟ قالَ: أمَّا النَّهرانِ الظَّاهرانِ؛ فالنِّيلُ والفُراتُ، وأمَّا الباطنانِ؛ فنهرانِ في الجنَّةِ».

وفيهِ[٦] أيضًا: «ثمَّ أُدْخِلْتُ الجنَّةَ، فإذا جنابذُ اللؤلؤِ، وإذا ترابُها المسكُ»[٧].

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[٨]: عن أنَسٍ، [عنِ النَّبيِّ ﷺ]؛ قالَ: «بينَما[٩] أنا أسيرُ

---

(١) ساقطة من ط.

(٢) في ط: «وفقال»! وأثبتّ ما في خ.

(٣) (حسن). رواه: أحمد (٢/ ٣٣٢ و٣٥٤ و٣٧٣)، وهنّاد في «الزهد» (٢٤٤)، وأبو داوود (٣٤ـ السنّة، ٢١ـ خلق الجنّة والنار، ٢/ ٦٤٩/ ٤٧٤٤)، والترمذي (٣٩ـ الجنّة، ٢١ـ حفّت الجنّة بالمكاره، ٤/ ٦٩٣/ ٢٥٦٠)، والنسائي (٣٥ـ الإيمان، ٣ـ الحلف بعزّة الله، ٧/ ٣/ ٣٧٧٢)، وأبو يعلى (٥٩٤٠)، وابن حبّان (٧٣٩٤)، والآجرّي في «الشريعة» (٩٢٧ و٩٢٨)، والحاكم (١/ ٢٦)، والبيهقي في «الشعب» (٣٨٤) و«البعث» (١٦٦ و١٦٧)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٥/ ٩، ١٩/ ١١٣ و١١٤)، والبغوي في «شرح السنّة» (٤١١٥)؛ من طرق كثيرة، عن محمّد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة. . . رفعه.

وهٰذا سند حسن رجاله ثقات رجال الشيخين إلاّ محمّدًا هٰذا؛ فإنّه صدوق له أوهام روى له البخاري مقرونًا ومسلم متابعة. وقد قوّى حديثه هٰذا الترمذي والحاكم والمنذري والذهبي والعسقلاني والألباني.

(٤) البخاري (٥٩ـ بدء الخلق، ٦ـ ذكر الملائكة، ٦/ ٣٠٢/ ٣٢٠٧)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٧٤ـ الإسراء، ١/ ١٤٩/ ١٦٤)؛ من حديث أنس عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(٥) في خ: «شجرة المنتهى»، وهو تحريف لما أثبتّه من ط.

(٦) في حديث الإسراء لا في حديث مالك بن صعصعة. وقد رواه: البخاري (٦٠ـ الأنبياء، ٥ـ ذكر إدريس، ٦/ ٣٧٤/ ٣٣٤٢)، ومسلم (الموضع السابق، ١/ ١٤٨/ ١٦٣)؛ من حديث أبي ذر.

(٧) النبق: ثمر السدر. قلال: جرار. هجر: موضع على شاطئ الخليج. جنابذ اللؤلؤ: قباب اللؤلؤ.

(٨) (٦٥ـ التفسير، ١٠٨ـ الكوثر، ٨/ ٧٣١/ ٤٩٦٤).

(٩) في خ: «بينا»، وأثبتّ ما في ط لموافقته لفظ البخاري (٦٥٨١).

في الجنَّةِ إذا أنا بنهرٍ حافَّتاهُ قبابُ الدُّرِّ المجوَّفِ». قالَ: «قُلْتُ: ما هٰذا يا جبْريلُ؟ قالَ: [هٰذا] الكَوْثَرُ الذي أعْطاكَ ربُّكَ. فضَرَبَ المَلَكُ بيدِهِ، فإذا طينُهُ مسكٌ أذْفَرُ»[١].

وفي «صحيح مسلم»[٢] في حديثِ صلاةِ الكسوفِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ جَعَلَ يَتَقَدَّمُ ويَتَأَخَّرُ في الصَّلاةِ، ثمَّ أقْبَلَ على أصحابِهِ فقالَ: «إنَّهُ عُرِضَتْ عَلَيَّ الجنَّةُ والنَّارُ، فقُرِّبَتْ منِّي الجنَّةُ، حتَّى لو تَناوَلْتُ منها قِطْفًا[٣]؛ [لأخَذْتُهُ]، فلو أخَذْتُهُ؛ لأكَلْتُمْ منهُ ما بَقِيَتِ الدُّنيا».

وفي «صحيح مسلم»[٤] عنِ ٱبنِ مسعودٍ في قولِهِ تَعالى ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ أمْواتًا بَلْ أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]: «أرواحُهُم في جوفِ طيرٍ خضرٍ، لها قناديلُ معلَّقةٌ بالعرشِ، تَسْرَحُ مِن الجنَّةِ حيثُ شاءَتْ ثمَّ تأْوي إلى تلكَ القناديلِ. فٱطَّلَعَ عليهِم ربُّكَ ٱطِّلاعةً، فقالَ: هل تَشْتَهونَ شيئًا؟ فقالوا: أيَّ شيءٍ نَشْتَهي ونحنُ نَسْرَحُ مِن الجنَّةِ حيثُ شِئْنا؟...» الحديثَ.

وفي الصَّحيحِ[٥] مِن حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لمَّا أُصيبَ إخوانُكُم بأُحُدٍ؛ جَعَلَ اللهُ أرواحَهُم في أجوافِ طيرٍ خضرٍ؛ تَرِدُ أنهارَ الجنَّةِ، وتأْكُلُ مِن ثمارِها، وتأْوي إلى قناديلَ مِن ذهبٍ معلَّقةٍ في ظلِّ العرشِ. فلمَّا وَجَدوا طيبَ مأْكلِهِم ومشربِهِم ومَقيلِهِم؛ قالوا: مَن يُبَلِّغُ عنَّا إخوانَنا أنَّا في الجنَّةِ نُرْزَقُ؛ لئلَّا يَزْهَدوا في الجهادِ ولا يَنْكُلوا عنِ الحربِ؟ فقالَ اللهُ: أنا أُبَلِّغُهُم عنكُم. فأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ...﴾ [الآيةَ] [آل عمران: ١٦٩]»[٦].

---

(١) مسك أذفر: مسك رائحته قويّة فوّاحة.

(٢) زاد في خ هنا: «عن ابن مسعود»! فكأنّ عين الناسخ ٱنتقلت إلى الحديث التالي، وليس لابن مسعود عند مسلم حديث في الكسوف، وإنّما رواه من حديث عائشة وٱبن عبّاس وجابر وأسماء وٱبن عمرو وأبي مسعود وأبي موسى وعبدالرحمٰن بن سمرة وٱبن عمر والمغيرة، وأقربهم إلى هٰذا اللفظ حديث جابر (١٠ـ الكسوف، ٣ـ ما عرض عليه ﷺ، ٢/ ٦٢٢/ ٩٠٤).

(٣) في خ: «عرضت لي...». وفي الحاشية مقابل «قطفًا»: «خ عنقودًا»؛ أي هو كذا في نسخة.

(٤) (٣٣ـ الإمارة، ٣٣ـ أرواح الشهداء في الجنّة، ٣/ ١٥٠٢/ ١٨٨٧).

(٥) يعني: في الحديث الصحيح. وإلاّ؛ فليس الحديث في أحد الصحيحين.

(٦) (حسن صحيح). رواه: ابن إسحاق (٣/ ٩٣ـ ابن هشام)، وابن المبارك في «الجهاد» (٦٢)، =

وفي «الموطَّإ» مِن حديثِ كَعْبِ بنِ مالكٍ؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إنَّما نسمةُ المؤمنِ طيرٌ يَعْلَقُ في [شجرِ] الجنَّةِ[1] حتَّى يُرْجِعَهُ اللهُ إلى جسدِهِ يومَ يَبْعَثُهُ»[2].

= وابن أبي شيبة (١٩٣٢٥)، وأحمد (١/٢٦٦)، وهنّاد (١٥٦)، وعبد بن حميد (٦٧٩)، وأبو داوود (٩ـ الجهاد، ٢٥ـ فضل الشهادة، ٢/١٨/٢٥٢٠)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (٥٢ و١٩٣)، وأبو يعلى (٢٣٣١)، وابن جرير (٨٢٠٥)، والآجرّي في «الشريعة» (٩٣٩)، والحاكم (٢/٨٨ و٢٩٧)، والبيهقي في «السنن» (٩/١٦٣) و«الشعب» (٤٢٤٠) و«الدلائل» (٣/٣٠٤) و«الصفات» (٧٧٥)، وابن عبدالبرّ (١١/٦١) معلّقًا، والواحدي في «النزول» (ص٧١ و٧٢)، والضياء (١٠/٣٤٨/٣٧٦)؛ عن ابن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية بن عمرو، عن أبي الزبير، [عن سعيد بن جبير]، عن ابن عبّاس. . . رفعه.

وهاهنا أمران: **أوّلهما**: أنّ ابن إسحاق صرّح بالتحديث في غير موضع. **والآخر**: أنّ عبدالله بن إدريس تفرّد بإثبات ابن جبير هنا، وعبدالله ثقة فقيه أحتجّ به الستّة فزيادته مقبولة. قال شاكر: «لعلّ أبا الزبير سمعه من ابن عبّاس وأبن جبير فرواه على الوجهين وكلاهما صحيح». قلت: هٰذا وجيه لو ثبت سماعه له من ابن عبّاس في شيء من الطرق، وإذ لم يثبت؛ فالأولى أنّه سمعه من ابن جبير ثمّ دلّسه عن ابن عبّاس. وبعد؛ فالسند حسن لحال ابن إسحاق، وقد قوّاه الحاكم والضياء والمنذري والذهبي وابن كثير وشاكر والألباني.

هٰذا؛ وقد ساق: الحميدي (١٢١)، وابن أبي شيبة (١٩٤٢٩)، وابن جرير (٨٢٠٦-٨٢٢٨)، والواحدي في «النزول» (ص٧٢)، والسيوطي في «الدرّ» (٢/١٦٨)؛ جملة من المرفوعات والموقوفات التي لها حكم الإرسال التي تشدّ هٰذا الأصل وتصحّحه، وحسبك بحديث ابن مسعود المتقدّم عند مسلم شاهدًا.

(١) في ط: «طائر يعلق في الجنّة»، وأثبتّ ما في خ لموافقته لفظ «الموطّأ»، والزيادة من «الموطّأ».

(٢) (**صحيح**). رواه: الإمام مالك في «الموطّأ» (١/٢٤٠)، وابن المبارك في «الجهاد» (٢٠٢)، وعبدالرزّاق في «المصنّف» (٩٥٥٦) و«التفسير» (٤٨٤)، والحميدي (٨٧٣)، وسعيد بن منصور (٢٥٦٠)، وأحمد (٣/٤٥٥ و٤٥٦ و٤٦٠)، وعبد بن حميد (٣٧٦)، والبخاري في «التاريخ» (٥/٣٠٥ و٣٠٦)، وابن ماجه (٦ـ الجنائز، ٤ـ ما يقال عند المريض، ١/٤٦٦/١٤٤٩، ٢/١٤٢٨/٤٢٧١)، والترمذي (٢٣ـ فضل الجهاد، ١٣ـ ثواب الشهداء، ٤/١٧٦/١٦٤١)، والنسائي (٢١ـ الجنائز، ١١٧ـ أرواح المؤمنين، ٤/١٠٨/٢٠٧٢)، وابن حبّان (٤٦٥٧)، والطبراني (١٩/٦٣/١١٩-١٢٥)، والآجري في «الشريعة» (٩٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/١٥٦)، والبيهقي في «البعث» (٢٠٢ و٢٠٣ و٢٠٥)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (١١/٦٠)؛ من طرق كثيرة، عن الزهريّ، عن ابن كعب بن مالك، عن أبيه. . . رفعه.

ويمكن أن يشار هنا إلى علل أربع: **فأولاها**: أنّ الثقات الأثبات أختلفوا على الزهريّ في ابن كعب بن مالك: فأبهمه بعضهم، وصرّح آخرون بأنّه عبدالرحمٰن بن كعب، وآخرون بأنّه عبدالله بن كعب، وجماعة بأنّه عبدالرحمٰن بن عبدالله بن كعب. والثلاثة ثقات أثبات، ولا يبعد أنّ الزهريّ سمعه منهم جميعًا، لٰكن عبدالله أرسله، وعبدالرحمٰن بن عبدالله عن كعب منقطع. فإن كان لا بدّ من الترجيح؛ فالراجح عبدالرحمٰن بن كعب؛ لأنّه قول عشرة من الثقات. وخلاصة الكلام أنّ هٰذه العلّة غير قادحة. **والثانية**: أنّهم أختلفوا في الحديث وصلاً وإرسالاً، ولا يضرّ؛ لأنّ الواصلين أوثق وأكثر فالقول قولهم. **والثالثة**: أنّ الثقات الأثبات رووا هٰذا الحديث فجعلوه من مسند كعب، وخالفهم محمد بن إسحاق فجعله من مسند أمّ مبشّر الأنصاريّة، فروايته شاذّة والمحفوظ الأوّل. **والرابعة**: أنّ معمرًا وابن عيينة وافقا الجماعة فرويا الحديث بلفظ الترجمة مرّة، ورروياه مرّة =

وفي «البخاريِّ»[(١)]: أنَّ إبْراهيمَ ابنَ /خ٢٩/ رسولِ اللهِ ﷺ لمَّا تُوُفِّيَ؛ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ لهُ مرضعًا[(٢)] في الجنَّةِ».

وفي «صحيح البخاريِّ»[(٣)]: عن عِمْرانَ بنِ حُصَيْنٍ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ٱطَّلَعْتُ في الجنَّةِ فرَأَيْتُ أكثرَ أهلِها الفقراءَ، وٱطَّلَعْتُ في النَّارِ فرَأَيْتُ أكثرَ أهلِها النِّساءَ».

والآثارُ في هٰذا البابِ أكثرُ مِن أنْ تُذْكَرَ.

وأمَّا القولُ بأنَّ الجنَّةَ والنَّارَ لمْ تُخْلَقَـ[ـا] بعدُ؛ فهوَ قولُ أهلِ البدعِ مِن ضلَّالِ المعتزلةِ ومَن قالَ بقولِهِم، وهمُ الذينَ يقولونَ: إنَّ الجنَّةَ التي أُهْبِطَ منها آدَمُ [إنَّها][(٤)] كانَتْ جنَّةً بشرقيِّ الأرضِ[(٥)]. وهٰذهِ الأحاديثُ وأمثالُها تَرُدُّ قولَهُم.

* قالوا: وأمَّا ٱحتجاجُكُم بسائرِ الوجوهِ التي ذَكَرْتُموها في الجنَّةِ وأنَّها منتفيةٌ في الجنَّةِ التي أُسْكِنَها آدَمُ مِن اللغوِ والكذبِ والنَّصبِ والعريِ وغيرِ ذٰلكَ؛ فهٰذا كلُّهُ حقٌّ لا نُنْكِرُهُ نحنُ ولا أحدٌ مِن أهلِ الإسلامِ، ولٰكنْ هٰذا إنَّما هوَ إذا دَخَلَها المؤمنونَ يومَ القيامةِ، كما يَدُلُّ عليهِ سياقُ الكلامِ، وهٰذا لا يَنْفي أنْ يكونَ فيها بينَ آدَمَ وإبليسَ ما

= بلفظ «أرواح الشهداء في طير...» إلخ، فروايتهما شاذّة والمحفوظ رواية الجماعة.

ثمّ للحديث بلفظ الترجمة شواهد منها: حديث أمّ هانئ عند: أحمد (٦/ ٤٢٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٤٣٨/ ١٠٧٢، ٢٥/ ١٣٦/ ٣٣٠)؛ بسند ضعيف. وحديث ابن عمرو عند الطبراني في «الكبير» (٢/ ٣٣٢- مجمع) بسند فيه مجهول. وحديث أبي هريرة عند: عبدالرزّاق (٦٧٠٣)، وابن أبي شيبة (١٢٠٦١)، وهنّاد في «الزهد» (٣٤٥)، والطبري (٢٠٧٦١)، والطبراني في «الأوسط» (٢٦٥١)، والحاكم (١/ ٣٧٩ و٣٨٠)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص٢٢٠)؛ بسند قوّاه الحاكم والذهبي والهيثمي.

فإن لم يكن حديث كعب بن مالك صحيحًا لذاته؛ فإنّه صحيح بشواهده المذكورة. وقد صحّحه ابن حبّان، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وأقرّه المنذري وابن كثير والهيثمي والألباني.

(١) (٢٣- الجنائز، ٩١- ما قيل في أولاد المسلمين، ٣/ ٢٤٤/ ١٣٨٢) من حديث البراء.

(٢) في خ: «إنّ له موضعًا»! وهو تحريف لما أثبتّه من ط و«صحيح البخاريّ».

(٣) (٥٩- بدء الخلق، ٨- صفة الجنّة، ٦/ ٣١٨/ ٣٢٤١). ومعناه عند مسلم أيضًا (٤٨- الذكر، ٢٦- أكثر أهل الجنّة، ٤/ ٢٠٩٧/ ٢٧٣٨).

(٤) ساقطة من ط.

(٥) وهو ما جاء في «العهد القديم» (سفر التكوين/ الأصحاح ٢).

حَكاهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِن الامتحانِ والابتلاءِ، ثمَّ يَصيرُ الأمرُ عندَ دخولِ المؤمنينَ إليها إلى ما أخْبَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ [به]، فلا تنافـ[ـيَ] بينَ الأمرينِ(١).

قالوا: وأمَّا قولُكُم: إنَّ الجنَّةَ دارُ جزاءٍ وثوابٍ وليستْ دارَ تكليفٍ، وقد كَلَّفَ اللهُ سبحانَهُ آدَمَ فيها بالنَّهيِ عنِ الشَّجرةِ؛ فجوابُهُ مِن وجهينِ:

أحدُهُما: أنَّها إنَّما يَمْتَنِعُ أنْ تكونَ دارَ تكليفٍ إذا دَخَلَها المؤمنونَ يومَ القيامةِ، فحينئذٍ يَنْقَطِعُ التَّكليفُ. وأمَّا امتناعُ وقوعِ التَّكليفِ فيها في دارِ الدُّنيا؛ فلا دليلَ عليهِ.

الثَّاني: أنَّ التَّكليفَ فيها لمْ يَكُنْ بالأعمالِ التي يُكَلَّفُ بها النَّاسُ في الدُّنيا مِن الصِّيامِ والصَّلاةِ والجهادِ ونحوِها، وإنَّما كانَ حَجْرًا عليهِ في شجرةٍ مِن(٢) جملةِ أشجارِها، وهٰذا لا يَمْتَنِعُ وقوعُهُ في جنَّةِ الخلدِ، كما أنَّ كلَّ أحدٍ محجورٌ عليهِ أنْ يَقْرَبَ أهلَ غيرِهِ فيها. فإنْ أرَدْتُم بأنَّ الجنَّةَ ليسَتْ دارَ تكليفٍ امتناعَ وقوعِ مثلِ هٰذا فيها في وقتٍ مِن الأوقاتِ؛ فلا دليلَ لكُم عليهِ /خ٣٠/. وإنْ أرَدْتُمْ أنَّ غالبَ التَّكاليفِ التي تَكونُ في الدُّنيا منتفيةٌ فيها؛ فهو حقٌّ، ولٰكنْ لا يَدُلُّ على مطلوبِكُم.

* قالوا: وهٰذا كما أنَّهُ موجَبُ الأدلَّةِ؛ [فهوَ] قولُ سلفِ الأُمَّةِ، فلا يُعْرَفُ بقولِكُم قائلٌ(٣) مِن أئمَّةِ العلمِ ولا يُعَرِّجُ عليهِ ولا يُلْتَفَتُ إليهِ.

● قالَ الأوَّلونَ: الجوابُ عمَّا ذَكَرْتُم مِن وجهينِ: مجملٍ، ومفصَّلٍ.

[١] **أمَّا المجملُ**؛ فإنَّكُم لمْ تَأْتوا على قولِكُم بدليلٍ(٤) يَتَعَيَّنُ المصيرُ إليهِ؛ لا مِن قرآنٍ ولا سنَّةٍ ولا أثرٍ(٥) ثابتٍ عن أحدٍ مِن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ولا التَّابعينَ لا مسندًا ولا مقطوعًا. ونحنُ نوجِدُكُم مَن قالَ بقولِنا(٦):

---

(١) وهٰذا قويّ جدًّا، وله شواهد في الجملة، وما بعده يخرج من المشكاة نفسها.

(٢) في ط: «أحدهما أنّه...»، وفي خ: «... في الشجرة من».

(٣) في خ: «الأدلّة وقول السلف الأمّة... قائلاً»! وفي ط: «الأدلّة وقول...»!

(٤) في ط: «وقال الأوّلون...»! وفي خ: «... فإنّكم لو لم تأتوا على قلوبكم بدليل»!

(٥) في ط: «لا من قرآن ولا من سنّة ولا من أثر»! والأولى ما أثبتّه من خ.

(٦) تنبّه إلى أنّ إيراد المفسّرين لقول ما في كتبهم لا يدلّ على أخذهم به فضلاً عن حسنه أو صحّته، فأكثرهم يورد الغثّ والسمين ممّا سمعه في المسألة لا يسقط منها ضعيفًا ولا موضوعًا ولا إسرائيليًّا.

* هٰذا أحدُ أئمَّةِ الإسلامِ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ قالَ في قولِهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ لَكَ أَنْ لا تَجوعَ فيها وَلا تَعْرى﴾ [طه: ١١٨]؛ قالَ: يَعْني في الأرضِ[١].

وهٰذا عبدُاللهِ بنُ مُسْلِمِ بنِ قُتَيْبَةَ[٢] قالَ في «معارفه» بعدَ أنْ ذَكَرَ خلقَ اللهِ آدَمَ وزوجَهُ[٣]: إنَّ اللهَ سبحانَهُ أَخْرَجَهُ مِن مشرقِ جنَّةِ عدنٍ إلى الأرضِ التي منها أُخِذَ.

وهٰذا أُبَيٌّ قد حَكى الحسنُ [عن عُتَيٍّ] عنهُ[٤]: إنَّ آدَمَ لمَّا ٱحْتُضِرَ؛ ٱشْتَهى قِطْفًا مِن قِطْفِ الجنَّةِ. فٱنْطَلَقَ بنوهُ لِيَطْلُبوهُ لهُ، فلَقِيَتْهُمُ الملائكةُ، فقالوا: أينَ تُريدونَ يا بني آدَمَ؟ قالوا: إنَّ أبانا ٱشْتَهى قِطْفًا مِن قِطْفِ الجنَّةِ. فقالوا لهُمُ: ٱرْجِعوا؛ فقد كُفيتُموهُ. فٱنْتَهَوْا إليهِ، فقَبَضوا روحَهُ، وغَسَّلوهُ وحَنَّطوهُ وكَفَّنوهُ، وصَلَّى عليهِ جِبْرِيلُ وبنوهُ خلفَ الملائكةِ، ودَفَنوهُ، وقالوا: هٰذهِ سنَّتُكُم في موتاكُم[٥].

وهٰذا أبو صالحٍ[٦] قد نَقَلَ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ في قولِهِ ﴿ٱهْبِطوا مِنْها﴾؛ قالَ: هوَ [كما] يُقالُ: هَبَطَ فلانٌ أرضَ[٧] كذا وكذا.

وهٰذا وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ يَذْكُرُ: أنَّ آدَمَ خُلِقَ في الأرضِ، وفيها أُسْكِنَ[٨]، وفيها نُصِبَ

---

(١) لم أقف عليه، وما إخاله يصحّ، وإن صحّ؛ فليس نصًّا على أنّه كان يرى أنّ جنّة آدم على الأرض.

(٢) العلاّمة، الكبير، ذو الفنون، كان رأسًا في اللسان العربي والأخبار وأيّام الناس، ت٢٧٦هـ. ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١٠/ ١٧٠)، «أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٩٦).

(٣) في ط: «لآدم وزوجه»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٤) في خ: «الحسن عن عليّ عنه»! وفي ط: «الحسن عنه»! والصواب ما أثبتّه. وعتيّ هٰذا هو عتيّ بن ضمرة السعدي، وانظر: «مسند أحمد» (٥/ ١٣٦)، و«قصص الأنبياء» (ص١٢١ـ ط. ابن خزيمة).

(٥) وقد صحّ هٰذا مرفوعًا وفصّلت تخريجه في «قصص الأنبياء» (ص١٢١ـ ط دار ابن خزيمة).

ومع ذٰلك فليس فيه حجّة لمن قال بأنّ جنّة آدم ليست جنّة عدن لأمرين:

أوّلهما: أننا لو سلّمنا أنّ جنّة آدم كانت في الأرض؛ فهل كان له أن يرجع إليها ويأخذ منها متى شاء؟! هٰذا لا يقوله أحد، ومهما كان جوابهم عنه فهو جواب الآخرين عن الأخذ من جنّة عدن.

والثاني: أنّه جاء في بعض طرق هٰذا الحديث ما يدلّ على أنّ آدم ﷺ أرسل أولاده لعلّهم يرون بعض الملائكة فيطلبون منهم القطف. وعندئذٍ؛ فلا إشكال ولا دليل على أنّ جنّة آدم غير جنّة الخلد.

(٦) باذام أو باذان، مولى أمّ هانئ، مدلّس ضعيف، يروي عن ابن عبّاس ولم يسمع منه، ويتفرّد عنه بمرويّات في التفسير لا يتابعه عليها أحد من ثقات أصحاب ابن عبّاس على كثرتهم! وهٰذا منها!

(٧) في خ: «ليطلبوه له فلقيهم الملائكة. . .»! وفي ط: «. . . هبط فلان في أرض».

(٨) في ط: «وفيها سكن»، والأولى ما أثبتّه من خ.

لهُ الفِرْدَوْسُ، وأنَّهُ كانَ بعدنٍ، وأنَّ سَيْحُونَ وجَيْحُونَ والفُراتَ ٱنْقَسَمَتْ مِن النَّهرِ الذي كانَ [في] وَسَطِ الجنَّةِ وهوَ الذي [كانَ] يَسْقيها[١].

وهٰذا مُنْذِرُ بنُ سَعيدٍ البَلُّوطِيُّ[٢]: ٱخْتارَهُ في «تفسيره»، ونَصَرَهُ بما حَكَيْناهُ عنهُ، وحَكاهُ في غيرِ «التَّفسيرِ» عن أبي حَنيفَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ /خ٣١/ ومَن قالَ بقولِهِ. والذينَ رَدُّوا عليهِ مقالَتَهُ؛ لمْ يُنْكِروا نسبتَهُ إلى أبي حَنيفَةَ، وإنَّما ناقَضوهُ بكونِهِ خالَفَ أبا حَنيفةَ فيما خالَفَهُ فيهِ، فلِمَ قالَ بقولِهِ في هٰذه المسألةِ؟!

وهٰذا أبو مُسْلِمٍ الأَصْبَهانِيُّ صاحبُ «التَّفسير»[٢] وغيرِهِ أحدُ الفضلاءِ المشهورينَ قالَ بهٰذا وٱنْتَصَرَ لهُ وٱحْتَجَّ عليهِ بما هوَ معروفٌ في كتابِهِ.

وهٰذا أبو مُحَمَّدٍ عَبْدُالحَقِّ بنُ عَطِيَّةَ[٣] ذَكَرَ القولينِ في «تفسيره» في قصَّةِ آدَمَ في البقرةِ[٤].

وهٰذا أبو مُحَمَّدٍ بنُ حَزْمٍ[٥] ذَكَرَ القولينِ في كتابِ «الملل والنِّحل» لهُ، فقالَ: وكانَ المُنْذِرُ بنُ سَعيدٍ القاضي يَذْهَبُ إلى أنَّ الجنَّةَ والنَّارَ مخلوقتانِ؛ إلاَّ أنَّهُ [كانَ][٦] يَقولُ: إنَّها ليستْ هيَ التي كانَ فيها آدَمُ وٱمرأتُهُ[٧].

وممَّن حَكى القولينِ أيضًا أبو [الحسنِ عَلِيُّ بنُ][٨] عيسى الرُّمَّانِيُّ في «تفسيره»،

---

(١) وهب من منبّه إمام جليل من أئمّة التابعين، لٰكنّ روايته للمسند قليلة، وإنّما غزارة علمه في الإسرائيليّات ومن صحائف أهل الكتاب، وهٰذا القول من ذٰلك. وٱنظر: «أعلام النبلاء» (٤/ ٥٤٥).

(٢) تقدّمت ترجمته (١/ ٩٤).

(٣) الإمام، الفقيه، اللغويّ، المفسّر، صاحب «المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز». أثنى شيخ الإسلام على «تفسيره» فقال: «هو خير من تفسير الزمخشري وأصحّ نقلاً وبحثًا وأبعد من البدع وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعلّه أرجح هٰذه التفاسير». ت٥٤٢هـ. ترجمته في: «أعلام النبلاء» (١٩/ ٥٨٨)، «الأعلام» (٣/ ٢٨٢).

(٤) ورجّح أنّها جنّة الخلد ولم يحتفل كثيرًا بقول الآخرين. وٱنظر: «المحرّر الوجيز» (١/ ٢٣٦).

(٥) إمام أهل الظاهر، معروف لا ينبغي أن يطوّل في ترجمته وذكر تصانيفه.

(٦) ساقطة من ط.

(٧) ولٰكنّ ابن حزم رحمه الله تعالى ذكر هٰذا الكلام ثمّ كرّ عليه ردًّا وإبطالاً وٱنتهى إلى تصحيح أنّ جنّة آدم هي جنّة الخلد يقينًا. وٱنظر «الفصل» (٤/ ١٤٢).

(٨) زيادة لا بدّ منها. وهو العلاّمة، النحويّ، اللغويّ، المعتزليّ، صاحب المصنّفات. كان يقول: =

واْختارَ أنَّها جنَّةُ الخلدِ، ثمَّ قالَ: والمذهبُ الذي اْختَرْناهُ قولُ الحسنِ وعَمْرِو بنِ واصِلٍ وأكثرِ أصحابِنا، وهوَ قولُ أبي عَلِيٍّ وشيخِنا أبي بَكْرٍ، وعليهِ أهلُ التَّفسيرِ.

وممَّن ذَكَرَ القولينِ أبو القاسِمِ الرَّاغِبُ[1] في «تفسيره» فقالَ: واْختَلَفوا في الجنَّةِ التي أُسْكِنَها آدَمُ، فقالَ بعضُ المتكلِّمينَ[2]: كانَ بستانًا جَعَلَهُ اللهُ لهُ اْمتحانًا ولمْ تَكُنْ جنَّةَ المأْوى. ثمَّ قالَ: ومَن قالَ: لمْ تَكُنْ جنَّةَ الخلدِ؛ لأنَّهُ لا تكليفَ في الجنَّةِ، وآدَمُ كانَ مكلَّفًا. قالَ: وقد قيلَ في جوابِهِ: إنَّها لا تكونُ دارَ التَّكليفِ في الآخرةِ، ولا يَمْتَنِعُ أنْ تكونَ في وقتٍ دارَ تكليفٍ دونَ وقتٍ، كما أنَّ الإنسانَ يَكونُ في وقتٍ مكلَّفـ[ـا] دونَ وقتٍ.

وممَّنْ ذَكَرَ الخلافَ في المسألةِ أبو عَبْدِاللهِ بنُ الخطيبِ الرَّازِيُّ[3] في «تفسيره»، فذَكَرَ هٰذينِ القولينِ وقولاً ثالثـ[ـا] وهوَ التَّوقُّفُ، قا[لَ]: لإمكانِ الجميعِ وعدمِ الوصولِ إلى القطعِ، كما سَيَأْتي حكايةُ كلامِهِ.

ومِنَ المفسِّرينَ مَن لمْ يَذْكُرْ غيرَ هٰذا القولِ، وهوَ أنَّها لمْ تَكُنْ جنَّةَ الخلدِ، إنَّما كانَتْ حيثُ شاءَ اللهُ مِنَ الأرضِ. قالوا: وكانَتْ[4] تَطْلُعُ فيها الشَّمسُ والقمرُ، وكانَ إبليسُ فيها ثمَّ أُخْرِجَ. قالَ: ولو كانَتْ جنَّةَ الخلدِ؛ لَما أُخْرِجَ منها.

وممَّن ذَكَرَ القولينِ أيضًا أبو الحَسَنِ الماوَرْدِيُّ[5] /خ٣٢/ فقالَ في «تفسيره»:

= عليّ أفضل الصحابة. توفّي سنة ٣٨٤هـ. انظر للمزيد من ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١٢/ ١٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٥٣٣).

(١) الحسين بن محمّد بن المفضّل، العلّامة الماهر، المحقّق الباهر، صاحب التصانيف المشهورة، من أذكياء المتكلّمين. ترجمته في: «أعلام النبلاء» (١٨/ ١٢٠)، «الأعلام» (٢/ ٢٥٥).

(٢) في ط: «واْختلف في الجنّة...»، وفي خ: «... فقال بعضهم بعض المتكلّمين».

(٣) العلّامة الكبير، ذو الفنون، محمّد بن عمر بن الحسين التيمي البكري، الأصوليّ، المفسّر، كبير الأذكياء. مولده سنة ٥٤٤هـ، ووفاته سنة ٦٠٦هـ. بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وسحر واْنحراف عن السنّة، والله يعفو عنه فإنّه توفّي على طريقة حميدة والله يتولّى السرائر. ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٤/ ٢٤٨)، «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٥٠٠).

(٤) في ط: «وقالوا كانت»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٥) عليّ بن محمّد بن حبيب البصريّ، الشافعيّ، القاضي، صاحب التصانيف، مع ميل ظاهر لمذهب المعتزلة. ت٤٥٠هـ. ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١٢/ ١٠٢)، «أعلام النبلاء» (١٨/ ٦٤).

وٱخْتُلِفَ في الجنَّةِ التي أُسْكِنَها على قولينِ: أحدُهُما: أنَّها جنَّةُ الخلدِ. الثَّاني: أنَّها جنَّةٌ أعَدَّها اللهُ لهُما وجَعَلَها دارَ ٱبتلاءٍ، وليستْ جنَّةَ الخلدِ التي جَعَلَها اللهُ دارَ جزاءٍ. ومَن قالَ بهٰذا ٱخْتَلَفوا فيهِ على قولينِ: أحدُهُما: أنَّها في السَّماءِ؛ لأنَّهُ أهْبَطَهُما منها. وهٰذا قولُ الحَسَنِ. الثَّاني: أنَّها في الأرضِ؛ لأنَّهُ ٱمْتَحَنَهُما فيها بالنَّهيِ عنِ الشَّجرةِ التي نُهيا عنها دونَ غيرِها مِن الثِّمارِ. وهٰذا قولُ [يحيى][1] بن يَحْيَى. وكانَ ذٰلكَ بعدَ أنْ أُمِرَ إبْليسُ بالسُّجودِ لآدَمَ، واللهُ أعلمُ بصوابِ ذٰلكَ. هٰذا [كلُّهُ][1] كلامُهُ[2].

وقالَ ابن الخَطيبِ في «تفسيره»: ٱخْتَلَفوا في أنَّ الجنَّةَ المذكورةَ في هٰذهِ الآيةِ هل كانَتْ في الأرضِ أو في السَّماءِ؟ [وبتقديرِ[3] أنَّها كانَتْ في السَّماءِ]؛ فهل هيَ [الجنَّةُ التي هيَ] دارُ الثَّوابِ وجنَّةُ الخلدِ أو جنَّةٌ أُخرى؟ فقالَ أبو القاسِمِ البَلْخِيُّ[4] وأبو مُسْلِمٍ الأصْبَهانِيُّ: هٰذهِ الجنَّةُ في الأرضِ، وحَمَلا الإهباطَ على الانتقالِ مِن بقعةٍ إلى بقعةٍ كما في قولِهِ تَعالى: ﴿ٱهْبِطوا مِصْرًا﴾. القولُ الثَّاني ـ وهوَ قولُ الجُبَّائِيِّ[5] ـ: أنَّ تلكَ الأرضَ كانَتْ في السَّماءِ السَّابعةِ. قالَ: والدَّليلُ عليهِ قولُهُ ﴿ٱهْبِطوا﴾. ثمَّ إنَّ الإهباطَ الأوَّلَ كانَ مِن السَّماءِ السَّابعةِ إلى السَّماءِ الأولى، والإهباطُ [الثَّاني] كانَ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ. قالَ: والقولُ الثَّالثُ ـ وهوَ قولُ جمهورِ أصحابِنا ـ: أنَّ هٰذهِ الجنَّةَ هيَ دارُ الثَّوابِ. والدَّليلُ عليه: أنَّ الألفَ واللامَ في لفظِ ﴿الجنَّةِ﴾ لا يُفيدُ العمومَ؛ لأنَّ سكنى [آدَمَ] جميعَ الجنانِ محالٌ، فلا بدَّ مِن صرفِها إلى المعهودِ السَّابقِ، والجنَّةُ المعهودةُ المعلومةُ بينَ المسلمينَ هيَ دارُ الثَّوابِ، فوَجَبَ صرفُ اللفظِ إليها. [قالَ]: والقولُ الرَّابعُ: أنَّ الكلَّ ممكنٌ، والأدلَّةُ النَّقليَّةُ ضعيفةٌ ومتعارضةٌ، فوَجَبَ التَّوقُّفُ وتركُ

---

(١) ساقطة من المطبوع.

(٢) لكن ليس في المطبوع من «النكت والعيون» (١/ ١٠٤) إلّا السطر الأوّل منه!

(٣) في ط: «وبتقديري»! والتصويب من «مفاتيح الغيب» (٣/ ٣).

(٤) عبدالله بن أحمد بن محمود، من متكلّمي المعتزلة البغداديّين، ومن نظراء الجبائيّ، صنّف في الكلام كتبًا كثيرة، توفي نحو ٣١٩هـ. ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٩/ ٣٨٤)، «أعلام النبلاء» (١٤/ ٣١٣).

(٥) شيخ المعتزلة، صاحب التصانيف، أبو عليّ، محمّد بن عبدالوهّاب، البصريّ. كان متوسّعًا في العلم سيّال الذهن، وكان يقف في أبي بكر وعليّ أيّهما أفضل. ت ٣٠٣هـ. ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٤/ ٢٦٧)، «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ١٨٣).

القطع.

* قالوا: ونحنُ لا نُقَلِّدُ هٰؤلاءِ ولا نَعْتَمِدُ على ما حُكِيَ عنهُم، والحجَّةُ الصَّحيحةُ حَكَمٌ بينَ[1] المتنازعينَ. قالوا: وقد ذَكَرْنا مِن الأدلَّةِ على هٰذا القولِ ما فيهِ كفايةٌ.

[٢] **وأمَّا الجوابُ المفصَّلُ**؛ فنحنُ نتكلَّمُ على ما ذَكَرْتُمْ /خ٣٣/ مِن الحججِ لِيَنْكَشِفَ وجهُ الصَّوابِ. فنقولُ وباللهِ التَّوفيقُ:

أمَّا ٱستدلالُكُم بحديثِ أبي هُرَيْرَةَ وحُذَيْفَةَ[2] حينَ «يَقولُ النَّاسُ لآدَمَ: ٱسْتَفْتِحْ لنا الجنَّةَ. فيَقولُ: وهلْ أخْرَجَكُمْ منها إلاَّ خطيئةُ أبيكُم؟»؛ فهٰذا الحديثُ لا يَدُلُّ على أنَّ الجنَّةَ التي طَلَبوا منهُ أنْ يَسْتَفْتِحَها لهُم هيَ التي أُخْرِجَ منها بعينِها؛ فإنَّ الجنَّةَ ٱسمُ جنسٍ لكلِّ بستانٍ يُسَمَّى جنَّةً: كما قالَ تَعالى: ﴿إنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الجَنَّةِ إِذْ أَقْسَموا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحينَ﴾ [القلم: ١٧]، وقالَ تَعالى: ﴿وَقالوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأَرْضِ يَنْبوعًا . أَوْ تَكونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخيلٍ وَعِنَبٍ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩١]، وقالَ تَعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذينَ يُنْفِقونَ أَمْوالَهُمُ ٱبْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ وَتَثْبيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقالَ تَعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ. . .﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ [الكهف: ٣٢-٣٩]. فالجنَّةُ[3] ٱسمُ جنسٍ، فهُم لمَّا طَلَبوا مِن آدَمَ أنْ يَسْتَفْتِحَ لهُم جنَّةَ الخلدِ؛ أخْبَرَهُم بأنَّهُ لا يَحْسُنُ منهُ أنْ يُقْدِمَ على ذٰلكَ وقدْ أخْرَجَ نفسَهُ وذرِّيَّتَهُ مِن الجنَّةِ التي أَسْكَنَهُ اللهُ إيَّاها بذنبِهِ وخطيئتِهِ. هٰذا الذي دَلَّ عليهِ الحديثُ، وأمَّا كونُ الجنَّةِ التي أُخْرِجَ منها هيَ بعينِها التي طَلَبوا منهُ أنْ يَسْتَفْتِحَها لهُم؛ فلا يَدُلُّ الحديثُ عليهِ بشيءٍ مِن وجوهِ الدِّلالاتِ الثَّلاثِ[4]، ولو دَلَّ عليهِ؛ لوَجَبَ

---

(١) في خ: «والجنّة هي المعهودة المعلومة. . . أنّ كلّ ممكن. . . حكم ما بين».

(٢) رواه مسلم. وقد تقدّم نصّه وتخريجه (١/ ١٠٢).

(٣) في خ: «مثلاً الرجلين. . .»! وفي ط: «. . . فإنّ الجنّة».

(٤) الدلالات الثلاث هي: دلالة المطابقة، ودلالة التضمّن، ودلالة اللزوم. فعبارة «خالد بن الوليد» مثلاً: تدلّ على ذات الصحابيّ المشهور بالمطابقة، وتدلّ على أنّ أباه الوليد بالتضمّن، وتدلّ على أنّ الوليد بن الوليد أخوه بالاقتضاء. وانظر: «مدارج السالكين» (١/ ٩٣ـ ط. ابن خزيمة).

المصيرُ إلى مدلولِ الحديثِ وٱمْتَنَعَ القولُ بمخالفتِهِ. وهل مدارُنا إلاَّ على فهمِ مقتضى كلامِ الصَّادقِ المصدوقِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه[١]؟!

* قالوا: وأمَّا ٱستدلالُكُم بالهبوطِ وأنَّهُ نزولٌ مِن عُلُوٍّ إلى سُفْلٍ[٢]؛ فجوابُهُ مِن وجهينِ:

أحدُهُما: أنَّ الهبوطَ قدِ ٱسْتُعْمِلَ في النُّقْلةِ مِن أرضٍ إلى أرضٍ: كما يُقالُ: هَبَطَ فلانٌ بلدَ كذا وكذا، وقالَ تَعالى: ﴿ٱهْبِطوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]، وهٰذا كثيرٌ /خ٣٤/ في نظمِ العربِ ونثرِها؛ قالَ:

أنْ تَهْبِطيـــــنَ بِـــــلادَ قَـــــوْ م يَـــرْتَعـــونَ مِـــنَ الطِّـــلاحِ[٣]

وقد رَوى أبو صالحٍ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُما]؛ قالَ: هوَ كما يُقالُ: هَبَطَ فلانٌ أرضَ كذا وكذا[٤].

الثَّاني: أنَّا لا نُنازِعُكُم في أنَّ الهبوطَ حقيقةٌ ما ذَكَرْتُموهُ، ولٰكنْ مِن أينَ يَلْزَمُ أنْ تَكونَ الجنَّةُ التي مِنها الهبوطُ[٥] فوقَ السَّماواتِ؟! فإذا كانَتْ في أعلى الأرضِ؛ أما يَصِحُّ أنْ يُقالَ هَبَطَ منها، كما يَهْبِطُ الحجرُ مِن أعلى الجبلِ إلى أسفلِهِ ونحوِهِ[٦]؟!

* وأمَّا قولُهُ تَعالى: ﴿وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إلى حينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]؛ فهٰذا يدُلُّ على أنَّ الأرضَ التي أُهْبِطوا إليها [لهُم فيها مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حينٍ، ولا يَدُلُّ على أنَّهُم لمْ يَكونوا في جنَّةٍ عاليةٍ أعلى مِن الأرضِ التي أُهْبِطوا إليها] تُخالِفُ [تلكَ] الأرضَ في صفاتِها وأشجارِها ونعيمِها وطيبِها؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ فاوَتَ بينَ بقاعِ الأرضِ أعظمَ تفاوتٍ وأبينَهُ، وهٰذا مشهودٌ بالحسِّ. فمِن أينَ لكُم أنَّ تلكَ لمْ تَكُنْ جنَّةً تَمَيَّزَتْ عن سائرِ بقاعِ الأرضِ بما لا يَكونُ إلاَّ فيها، ثمَّ أُهْبِطوا منها إلى الأرضِ التي هيَ

---

(١) وهٰذه حجّة حسنة وٱحتمال ممكن وارد يسقط الاستدلال بحديث أبي هريرة وحذيفة.

(٢) في خ: «إلى أسفل»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٣) في خ: «أن تهبطين من بلاد...»! والطِّلاح: جمع طلحة، شجرة عظيمة الظلّ من شجر البادية.

(٤) تقدّم تفصيل الكلام في نكارة رواية أبي صالح عن ابن عبّاس (١/ ١١٤).

(٥) في خ: «أن يكون الجنّة التي أهبط منها الهبوط»! والتصويب من ط.

(٦) وهٰذا أيضًا ٱحتمال وارد يجعل الاحتجاج بالهبوط ظنّيًا لا يصل إلى درجة الحتم والحسم.

محلُّ التَّعبِ والنَّصبِ والابتلاءِ والامتحانِ[١]؟!

* وهٰذا بعينِهِ هوَ الجوابُ عنِ ٱستدلالِكُم بقولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨]. . . إلى آخرِ ما ذَكَرْتُموهُ. معَ أنَّ هٰذا حكمٌ معلَّقٌ بشرطٍ، والشَّرطُ لمْ يَحْصُلْ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ إنَّما قالَ ذٰلكَ عَقيبَ[٢] قولِهِ تَعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، فقولُهُ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨] هوَ صيغةُ وعدٍ مرتبطـ[ـةٌ] بما قبلَها[٣]، والمعنى: إنِ ٱجْتَنَبْتَ الشَّجرةَ التي نَهَيْتُكَ عنها ولمْ تَقْرَبْها؛ كانَ لكَ هٰذا الوعدُ، والحكمُ المعلَّقُ بشرطٍ[٤] عَدَمٌ عندَ عَدَمِ الشَّرطِ، فلمَّا أَكَلَ مِنَ الشَّجرةِ؛ زالَ ٱستحقاقُهُ لهٰذا الوعدِ.

* قالوا: وأمَّا قولُكُم: إنَّهُ لو كانَتِ الجنَّةُ في الدُّنيا؛ لَعَلِمَ آدَمُ كذبَ إبليسَ في قولِهِ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ إلى آخرِهِ [طه: ١٢٠]؛ فدعوى لا دليلَ عليها؛ لأنَّهُ لا دليلَ لكُم على أنَّ اللهَ سبحانَهُ [كانَ] قد [أ]عْلَمَ آدَمَ حينَ خَلَقَهُ أنَّ الدُّنيا منقضيةٌ فانيةٌ وأنَّ ملكَها يَبْلى ويَزولُ. [و]على تقديرِ أنْ يَكونَ آدَمُ حينئذٍ قد أُعْلِمَ ذٰلكَ[٥]؛ فقولُ إبليسَ ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ لا يَدُلُّ على أنَّهُ أرادَ بالخلدِ ما لا يَتَناهى /خ٣٥/؛ فإنَّ الخلدَ في لغةِ العربِ [هوَ] اللَّبْثُ الطَّويلُ، كقولِهِم: قيدٌ مخلَّدٌ وحبسٌ مخلَّدٌ، وقد قالَ تَعالى لِثَمودَ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [سورة الشعراء: ١٢٨-

---

(١) وهٰذا أيضًا من جنس ما قبله، وليس في الآية دليل حاسم لأحد الطرفين.

(٢) في خ: «عقب»، وما أثبتّه من ط أولى.

(٣) كذا قالوا! وفي قولهم نظر بيّن: فالآية الأولى منتزعة من سياق القصّة في البقرة، والأخرى من سياقها في طه؛ فكيف يستقيم الجزم بمجيء إحداهما عقيب الأخرى والسياقان مختلفان؟! والذي يبدو لي من تتبّع سياقات القصّة الثلاثة في البقرة والأعراف وطه أنّ الله سبحانه أسكن آدم الجنّة أوّلاً، ثمّ نبّهه إلى عداوة إبليس له وسعيه الدؤوب في إخراجه منها وإشقائه، ثمّ عرّفه قيمة الجنّة وقدر نعيمها، ثمّ حظر عليه تلك الشجرة منها. نعم؛ لا ريب أنّ بقاء آدم في الجنّة كان معلّقًا بطاعته لربّه وعدم ٱستجابته لوسوسة الشيطان عمومًا وإغرائه بالشجرة خصوصًا. والله أعلم.

(٤) في ط: «بالشرط»، وما أثبتّه من خ أولى.

(٥) في خ: «قد أعلمه ذٰلك»! والصواب ما أثبتّه من ط.

١٢٩](١)، وكذٰلكَ قولُهُ ﴿وَمُلْكٍ لا يَبْلى﴾ [طه: ١٢٠] يُرادُ بِه الملكُ الطَّويلُ الثَّابتُ.

وأيضًا؛ فلا وجهَ للاعتذارِ عن قولِ إبْليسَ معَ تحقُّقِ كذبِهِ ومقاسمتِـ[ـهِ] آدَمَ وحَوَّاءَ على الكذبِ، واللهُ سبحانَهُ قد أخْبَرَ أنَّهُ قاسَمَهُما ودَلاَّهُما بغرورٍ، وهٰذا يَدُلُّ على أنَّهُما اْغترَّا بقولِهِ، فغَرَّهُما بأنْ أطْمَعَهُما في خلدِ الأبدِ والملكِ الذي لا يَبْلى(٢).

وبالجملةِ؛ فالاستدلالُ بهٰذا على كونِ الجنَّةِ التي أُسْكِنَها آدَمُ هيَ جنَّةَ الخلدِ التي وُعِدَها المتَّقونَ غيرُ بيِّنٍ.

ثمَّ نَقولُ: لو كانَتِ الجنَّةُ هيَ جنَّةَ الخلدِ التي لا يَزولُ ملكُها؛ لَكانَتْ جميعُ أشجارِها شجرَ الخلدِ(٣) فلمْ يَكُنْ لتلكَ الشَّجرةِ اْختصاصٌ مِن بينِ سائرِ الشَّجرِ بكونِها شجرةَ الخلدِ، وكانَ آدَمُ يَسْخَرُ مِن إبليسَ إذْ قد عَلِمَ أ[نَّ الـ]جنَّةَ [دارُ] الخلدِ!

فإنْ قُلْتُمْ: لعلَّ آدَمَ لمْ يَعْلَمْ حينئذٍ ذٰلكَ، فغَرَّهُ الخبيثُ وخَدَعَهُ بأنَّ هٰذه الشَّجرةَ وحدَها هيَ شجرةُ الخلدِ! قُلْنا: فاْقْنَعوا منَّا بهٰذا الجوابِ بعينِهِ عن قولِكُم: لو كانَتِ الجنَّةُ في الدُّنيا، لَعَلِمَ آدَمُ كذبَ إبليسَ في ذٰلكَ؛ لأنَّ قولَهُ كانَ خداعًا وغرورًا محضًا على كلِّ تقديرٍ. فاْنْقَلَبَ دليلُكُم حجَّةً عليكُم، وباللهِ التَّوفيقُ.

* قالوا: وأمَّا قولُكُم: إنَّ قصَّةَ آدَمَ في البقرةِ ظاهرةٌ جدًّا في أنَّ جنَّةَ آدَمَ(٤) كانَتْ فوقَ السَّماءِ، فنحنُ نُطالِبُكُم بهٰذا الظُّهورِ، ولا سبيلَ لكُم إلى إثباتِـ[ـهِ].

* [وأمَّا] قولُكُم: إنَّهُ كَرَّرَ فيهِ ذكرَ الهبوطِ مرَّتينِ، ولا بدَّ أنْ يُفيدَ الثَّاني غيرَ ما أفادَ الأوَّلُ، فيَكونُ الهبوطُ الأوَّلُ مِن الجنَّةِ والثَّاني مِن السَّماءِ! فهٰذا فيهِ خلافٌ بينَ أهلِ التَّفسيرِ:

فقالَتْ طائفةٌ هٰذا القولَ الذي ذَكَرْتُمُوهُ.

---

(١) يعني: أتشيّدون في كلّ مرتفع وموضع ظاهر للناس صرحًا للتباهي بالغنى والمجد والحضارة ـ كما ترى اليوم ـ، وتبنون القصور الفخمة الفارهة كأنّكم خالدون في الدنيا لا تغادرونها؟!

(٢) وهٰذا أيضًا واضح، والاحتجاج بعلم آدم لا يسلم لأحد الطرفين: فربّما كان آدم لا يعلم، وربّما علم ونسي. وإذا تطرّق الاحتمال سقط الاستدلال.

(٣) لماذا؟! أفلا تتفاوت أشجار الجنّة في أحجامها وهيئاتها وثمارها وفوائدها؟!

(٤) في خ: «فإنّ قوله كان خداعًا... الجنّة آدم»! والتصويب من ط.

وقالَتْ طائفةٌ منهُمُ النَّقَّاشُ[(١)] وغيرُهُ: إنَّ الهبوطَ الثَّاني إنَّما هوَ مِن الجنَّةِ إلى السَّماءِ، والهبوطُ الأوَّلُ إلى الأرضِ، وهوَ آخرُ الهبوطينِ في الوقوعِ، وإنْ كانَ أوَّلَهُما في الذِّكرِ.

وقالَتْ طائفةٌ /خ٣٦/ : أتَى بِهِ على جهةِ التَّغليظِ والتَّأْكيدِ، كما تَقولُ للرَّجلِ: [ٱخْرُجِ] ٱخْرُجْ!

وهٰذِهِ الأقوالُ ضعيفةٌ.

فأمَّا القولُ الأوَّلُ؛ فيَظْهَرُ ضعفُهُ مِن وجوهٍ:

أحدُها: أنَّهُ مجرَّدُ دعوى لا دليلَ عليها مِن اللفظِ ولا مِن خبرٍ يَجِبُ المصيرُ إليهِ، وما كانَ هٰذا سبيلَهُ لا يُحْمَلُ القرآنُ عليهِ.

الثَّاني: أنَّ اللهَ سبحانَهُ قد أهْبَطَ إبليسَ لَمَّا ٱمْتَنَعَ مِن السُّجودِ لآدَمَ إهباطًا كونيًّا قدريًّا لا سبيلَ إلى التَّخلُّفِ عنهُ: فقالَ تَعالى: ﴿ٱهْبِطْ مِنْها فَما يَكونُ لَكَ أنْ تَتَكَبَّرَ فيها فَٱخْرُجْ إنَّكَ مِنَ الصَّاغِرينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿[فَـ]ٱخْرُجْ مِنْها فَإنَّكَ رَجيمٌ . وَإنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إلى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥]، وفي موضعٍ آخرَ: ﴿ٱخْرُجْ مِنْها مَذْؤُومًا مَدْحورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعينَ﴾ [الأعراف: ١٨]. وسواءٌ كانَ الضَّميرُ في قولِهِ [منها] راجعًا إلى السَّماءِ أو إلى الجنَّةِ؛ فهٰذا صريحٌ في إهباطِهِ وطردِهِ ولعنِهِ وإدحارِهِ ـ والمدحورُ المبعَدُ[(٢)] ـ. وعلى هٰذا؛ فلو كانَتِ الجنَّةُ فوقَ السَّماواتِ؛ لَكانَ قد صَعِدَ إليها بعدَ إهباطِ اللهِ لهُ. وهٰذا، وإنْ كانَ ممكنًا، فهوَ في غايةِ البعدِ عن حكمةِ اللهِ ولا يَقْتَضيهِ خبرُهُ، فلا يَنْبَغي أنْ يُصارَ إليهِ[(٣)].

---

(١) أبو بكر محمّد بن الحسن بن محمّد الموصليّ ثمّ البغداديّ، العلاّمة، شيخ القرّاء. كان متّهمًا في الرواية وكان في القراءات خيرًا منه في الروايات. توفي سنة٣٥١هـ. ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٢/ ٢٠١)، و«سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٥٧٣).

(٢) في خ: «وطرده ولعنته وإدحاره والمدحور المبعود»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٣) وهٰذه دعاوى مجرّدة! وللمخالف أن يقول: لا لا نسلّم أنّه لا بدّ من صعوده بعد الإهباط للوسوسة. ولو سلّمنا بهٰذا؛ فلا نسلّم أنّه بعيد عن الحكمة، بل هو في غاية الحكمة التي ٱقتضت إنزال آدم إلى دار الشقاء والابتلاء. والخبر لا يقتضيه لا، ولٰكنّه لا يردّه أيضًا، وإنّما قلنا به تأليفًا بين النصوص؛ فأيّ إشكال في هٰذا بعد أن ٱعترفتم بأنّه وارد ممكن؟! وٱنظر ما تقدّم تفصيله في هٰذا (١/ ١٠٧).

وأمّا الوجوهُ الأربعةُ التي ذَكَرْتُمُوها مِن صعودِهِ للوسوسةِ؛ فهيَ، معَ أمرِ اللهِ تَعالى [لهُ] بالهبوطِ مطلقًا وطردِهِ ولعنِهِ ودحورِهِ، لا[١] دليلَ عليها لا مِن اللفظِ ولا مِن الخبرِ الذي يَجِبُ المصيرُ إليهِ، وما هيَ إلَّا احتمالاتٌ مجرَّدةٌ وتقديراتٌ لا دليلَ عليها[٢].

الثَّالثُ: أنَّ سياقَ قصَّةِ إهباطِ اللهِ [تَعالى] لإبليسَ ظاهرةٌ في أنَّهُ إهباطٌ إلى الأرضِ مِن وجوهٍ: أحدُها: أنَّهُ سبحانَهُ نبَّهَ على حكمةِ إهباطِهِ بما قامَ بهِ مِن التَّكبُّرِ المقتضي غايةَ ذلِّهِ وطردِهِ ومعاملتِهِ بنقيضِ قصدِهِ، وهوَ إهباطُهُ مِن فوقِ السَّماواتِ إلى قرارِ الأرضِ، ولا تَقْتَضي الحكمةُ أنْ يَكونَ فوقَ السَّماواتِ معَ كِبْرِهِ ومنافاةِ حالِهِ لحالِ الملائكةِ الأكرمينَ. الثَّاني: أنَّهُ قالَ: ﴿[فـ]ٱخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إلى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥]، وكونُهُ رجيمًا ملعونًا يَنْفي /خ٣٧/ أنْ يَكونَ في السَّماءِ بينَ المقرَّبينَ المطهَّرينَ. الثَّالثُ: أنَّهُ قالَ: ﴿ٱخْرُجْ مِنْها مَذْؤُومًا مَدْحورًا﴾ [الأعراف: ١٨]، وملكوتُ السَّماواتِ[٣] لا يَعْلوهُ المذؤومُ المدحورُ أبدًا.

وأمّا القولُ الثَّاني؛ فهوَ القولُ الأوَّلُ بعينِهِ، معَ زيادةِ ما لا يَدُلُّ عليهِ السِّياقُ بحالٍ، مِن تقديمِ ما هوَ مؤخَّرٌ في الواقعِ، وتأخيرِ ما هوَ مقدَّمٌ فيهِ. فيُرَدُّ بما رُدَّ بِهِ القولُ الذي قبلَهُ.

وأمّا القولُ الثَّالثُ ـ وهوَ أنَّهُ للتَّأكيدِ ـ: فإنْ أُريدَ التَّأكيدُ اللفظيُّ المجرَّدُ؛ فهٰذا لا يَقَعُ في القرآنِ، وإنْ أُريدَ بهِ أنَّهُ مستلزمٌ للتَّغليظِ والتَّأكيدِ معَ ما يَشْتَمِلُ عليهِ مِن الفائدةِ؛ فصحيحٌ.

والصَّوابُ[٤] أنْ يُقالَ: أُعيدَ الإهباطُ مرَّةً ثانيةً؛ لأنَّهُ عَلَّقَ عليهِ حكمًا غيرَ المعلَّقِ على الإهباطِ الأوَّلِ: فإنَّهُ عَلَّقَ على الأوَّلِ عداوةَ بعضِهِم بعضًا، فقالَ: ﴿ٱهْبِطوا

---

(١) في ط: «تعالى بالهبوط. . .»، وفي خ: «. . . وطرده ولعنته ودحوره من لا»!

(٢) فأقبلوا منّا إذًا بمثل جوابكم في جنّتكم الأرضيّة التي لا يسندها دليل نقل ولا عقل!

(٣) في ط: «ولا تقتضي الحكمة أن يكون فوق السماء. . .»، وفي خ: «. . . وملكوت السماء».

(٤) في خ: «الثالث وهو أنّه يكون للتأكيد. . .»، وفي ط: «. . . فالصواب».

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف: ٢٤]، وهٰذهِ جملةٌ حاليَّةٌ، وهيَ إسميَّةٌ [مرتبطةٌ][١] بالضَّميرِ وحدَهُ عندَ الأكثرينَ، والمعنى: ٱهْبِطوا متعادينَ. وعَلَّقَ على الهبوطِ الثَّاني حكمينِ آخرينِ: أحدُهُما: هبوطُهُم[٢] جميعًا. والثَّاني: قولُهُ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. فكأنَّهُ قيلَ: ٱهْبِطوا بهٰذا الشَّرطِ، مأخوذًا عليكُم هٰذا العهدُ، وهوَ أنَّهُ مهما جاءَكُم منِّي هدًى؛ فمَنِ ٱتَّبَعَهُ منكُم؛ فلا خوفٌ عليهِ ولا حزنٌ يَلْحَقُهُ.

ففي الإهباطِ الأوَّلِ إيذانٌ بالعقوبةِ ومقابلتِهِم على الجريمةِ، وفي الإهباطِ الثَّاني رَوْحُ التَّسليةِ والاستبشارِ بحسنِ عاقبةِ هٰذا الهبوطِ لمَن تَبِعَ هدايَ ومصيرِهِ إلى الأمنِ والسُّرورِ المضادِّ للخوفِ والحزنِ. فكَسَرَهُمْ[٣] بالإهباطِ الأوَّلِ، وجَبَرَ مَنِ ٱتَّبَعَ هُداهُ بالإهباطِ الثَّاني، على عادتِهِ[٤] سبحانَهُ ولطفِهِ بعبادِهِ وأهلِ طاعتِهِ، كما كَسَرَ آدَمَ بالإخراجِ مِن الجنَّةِ، وجَبَرَهُ بالكلماتِ التي تَلَقَّا[ها] منهُ فتابَ عليهِ وهَداهُ.

ومَن تَدَبَّرَ حكمتَهُ سبحانَهُ ولطفَهُ وبرَّهُ بعبادِهِ وأحبابِهِ [وأهلِ طاعتِهِ] في كسرِهِ لهُم ثمَّ جبرِهِ بعدَ الانكسارِ، كما يَكْسِرُ العبدَ بالذَّنبِ ويُذِلُّهُ بهِ ثمَّ يَجْبُرُهُ بتوبتِهِ /خ٣٨/ عليهِ ومغفرتِهِ لهُ، وكما يَكْسِرُهُ بأنواعِ المصائبِ والمحنِ ثمَّ يَجْبُرُهُ بالعافيةِ والنِّعمةِ؛ ٱنْفَتَحَ لهُ بابٌ عظيمٌ مِن أبوابِ معرفتِهِ ومحبَّتِهِ، وعَلِمَ أنَّهُ أرحمُ بعبادِهِ مِن الوالدةِ بولدِها، وأنَّ ذٰلكَ الكسرَ هوَ نفسُ رحمتِهِ وبرِّهِ[٥] [ولطفِهِ]، وهوَ أعلمُ بمصلحةِ عبدِهِ منهُ، ولٰكنَّ العبدَ لضعفِ بصيرتِهِ ومعرفتِهِ بأسماءِ ربِّهِ وصفاتِهِ لا يَكادُ يَشْعُرُ بذٰلكَ.

ولا يُنالُ رضى المحبوبِ وقربُهُ والابتهاجُ والفرحُ بالدُّنوِّ منهُ والزُّلفى لديهِ إلَّا على جسرٍ مِن الذِّلَّـ[ـةِ] والمسكنةِ، وعلى هٰذا قامَ أمرُ المحبَّةِ، فلا سبيلَ إلى الوصولِ إلى

---

(١) زيادة يقتضيها السياق. ولا بدّ للجملة الحاليّة من رابط يربطها بصاحب الحال، والجملة الحاليّة هنا «بعضكم لبعض عدوّ»، وصاحب الحال الواو في «ٱهبطوا»، والرابط «كم» في «بعضكم».

(٢) في ط: «هبوطهما»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٣) في خ: «والاستبشار وبحسن... ومصيره إلى الأرض...»! وفي ط: «... فكسر همّه»!

(٤) ٱنظر ما سيأتي (٢/ ٤٣) في نسبة «العادة» إلى الله عزّ وجلّ.

(٥) في ط: «رحمته به وبرّه»، والأولى ما أثبتّه من خ.

المحبوبِ إلاَّ بذٰلكَ، كما قيلَ:

تَـذَلَّـلْ لِمَـنْ تَهْـوى لِتَحْظَـى بِقُـرْبِـهِ فَكَـمْ عِـزَّةٍ قَـدْ نـالَهـا العَبْـدُ بِـالـذُّلِّ
إذا كـانَ مَـنْ تَهْـوى عَـزيـزًا وَلَـمْ تَكُـنْ ذَليلاً لَهُ فَاَقْرا السَّلامَ عَلى الوَصْلِ

وقالَ آخرُ:

إخْضَـعْ وَذِلَّ لِمَـنْ تُحِـبُّ فَلَيْـسَ فـي شَـرْعِ الهَـوى أَنَـفٌ يُشـالُ وَيُعْقَـدُ[١]

وقالَ آخرُ:

وَمـا فَـرِحَـتْ بِـالـوَصْـلِ نَفْـسٌ عَـزيـزَةٌ وَمَـا العِـزُّ إلاَّ ذُلُّهـا وَٱنْكِسـارُهـا

قالوا: وإذا عُلِمَ [أنَّ] إبْليسَ أُهْبِطَ مِن دارِ العزِّ عَقِبَ آمتناعِهِ وإبائِهِ مِن السُّجودِ لآدَمَ؛ ثَبَتَ أنَّ وسوستَهُ لهُ ولزوجِهِ كانَتْ في غيرِ المحلِّ الذي أُهْبِطَ منهُ. واللهُ أعلمُ.

* قالوا: وأمَّا قولُكُم: إنَّ الجنَّةَ إنَّما جاءَتْ معرَّفةً باللامِ[٢]، وهيَ تَنْصَرِفُ إلى الجنَّةِ التي لا يَعْهَدُ بنو آدَمَ سواها؛ فلا ريبَ أنَّها جاءَتْ كذٰلكَ، ولٰكنَّ العهدَ وَقَعَ في خطابِ اللهِ [تَعالى] آدَمَ لسكناها بقولِهِ: ﴿ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، فهيَ كانَتْ معهودةً عندَ آدَمَ، ثمَّ أخْبَرَنا [اللهُ] سبحانَهُ عنها معرَّفًا لها بلامِ التَّعريفِ، فٱنْصَرَفَ العرفُ بِها إلى تلكَ الجنَّةِ المعهودةِ في الذِّهنِ، وهيَ التي أُسْكِنَها آدَمُ[٣] ثمَّ أُخْرِجَ منها[٤]. فمِن أينَ في هٰذا ما يَدُلُّ على محلِّها وموضعِها بنفيٍ [أ]و إثباتٍ؟!

---

(١) في خ: «وذلّ فمن تحبّ... ويقعد»! والتصويب من ط و«مدارج السالكين».

(٢) أي: (ال) التعريف في لغة النحو المعاصر.

(٣) في ط: «ثمّ أخبرنا سبحانه... سكنها آدم»، وفي خ: «... فٱنصرف المعرّف بها...».

(٤) (ال) العهديّة أو لام العهد هي (ال) التعريف التي تشير إلى شيء سبق أن عرفته. فلو أريتك كتابًا معروضًا للبيع أرغب بشرائه، ثمّ قلت لك بعد أيّام: ٱشتريت الكتاب؛ فستفهم من كلامي أنّني ٱشتريت الكتاب المعهود المعروف الذي أطلعتك عليه.

إذا عرفت هٰذا؛ فأصحاب هٰذه الحجّة يقرّون أنّ (ال) في قوله تعالى ﴿ٱسكن أنت وزوجك الجنّة﴾ للعهد، ولٰكنّهم يقولون: أطلع الله آدم على جنّة أرضيّة خلقها، ثمّ قال له ﴿ٱسكن أنت وزوجك الجنّة﴾، ففهم آدم أنّ المقصود الجنّة الأرضيّة المعهودة التي أراه الله إيّاها، فالخطاب لآدم والعهد عهده، وأمّا الأوّلون؛ فيرون أنّ المؤمنين جميعًا مخاطبون بالقرآن، فالعهد عهدهم، وهم لا يعرفون إلّا الجنّة التي وعد الرحمٰن عباده بالغيب. وكلا القولين له وجهه ووجاهته، ولا يسلم الاحتجاج بالآية لأحد الطرفين.

وأمَّا مجيءُ جنَّةِ الخلدِ معرَّفةً باللام؛ فلأنَّها الجنَّةُ التي أَخْبَرَتْ بِها الرُّسلُ لأُممِهم ووَعَدَها الرَّحمٰنُ عبادَهُ بالغيبِ، فحيثُ ذُكِرَتِ؛ ٱنْصَرَفَ الذِّهنُ إليها دونَ غيرِها؛ لأنَّها [قد] صارَتْ معلومةً في القلوبِ مستقرَّةً فيها، ولا يَنْصَرِفُ الذِّهنُ إلى غيرِها، ولا يَتَوَجَّهُ الخطابُ /خ٣٩/ إلى سواها.

وقد جاءَتِ الجنَّةُ في القرآنِ معرَّفةً باللامِ، والمرادُ [بِها] بستانٌ في بقعةٍ مِن الأرضِ، كقولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الجَنَّةِ إِذْ أَقْسَموا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧]، فهٰذهِ لا يَنْصَرِفُ الذِّهنُ فيها إلى[١] جنَّةِ الخلدِ ولا إلى جنَّةِ آدَمَ بحالٍ.

* قالوا: وأمَّا قولُكُم: إنَّهُ قدِ ٱتَّفَقَ أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ على أنَّ الجنَّةَ والنَّارَ مخلوقتانِ، وإنَّهُ لَمْ يُنازِعْ في ذٰلكَ إلَّا بعضُ أهلِ البدعِ والضَّلالِ، وٱستدلالُكُم على وجودِ الجنَّةِ الآنَ؛ فحقٌّ لا نُنازِعُكُم فيهِ، وعندَنا مِن الأدلَّةِ على وجودِها أضعافُ ما ذَكَرْتُم. ولٰكنْ؛ أيُّ تلازمٍ بينَ أنْ تكونَ جنَّةُ الخلدِ مخلوقةً وبينَ أنْ تكونَ هيَ جنَّةَ آدَمَ بعينِها؟! فكأنَّكُم تَزْعُمونَ أنَّ كلَّ مَن قالَ إنَّ جنَّةَ آدَمَ هيَ جنَّةٌ في الأرضِ؛ فلا بدَّ لهُ أنْ يَقولَ إنَّ الجنَّةَ والنَّارَ لَمْ يُخْلَقا بعدُ! وهٰذا غلطٌ منكُم، منشؤُهُ مِن توهُّمِكُم: أنَّ كلَّ مَن قالَ بأنَّ الجنَّةَ لَمْ تُخْلَقْ بعدُ؛ فإنَّهُ يَقولُ إنَّ جنَّةَ آدَمَ هيَ في الأرضِ، وكذٰلكَ بالعكسِ أنَّ كلَّ مَن قالَ إنَّ جنَّةَ آدَمَ في الأرضِ؛ فيَقولُ إنَّ الجنَّةَ لَمْ تُخْلَقْ. فأمَّا الأوَّلُ؛ فلا ريبَ فيهِ. وأمَّا الثَّاني؛ فوهمٌ؛ [إذْ] لا تلازمَ بينَهُما لا في[٢] المذهبِ ولا في الدَّليلِ بحالٍ. فأنتُم نَصَبْتُم دليلَكُم معَ طائفةٍ نحنُ وأنتُم متَّفقونَ على إنكارِ قولِهِم وردِّهِ وإبطالِهِ، ولٰكنْ لا يَلْزَمُ مِن هٰذا بطلانُ هٰذا القولِ الثَّالثِ، وهٰذا واضحٌ.

* قالوا: وأمَّا قولُكُم: إنَّ جميعَ ما نَفاهُ اللهُ سبحانَهُ [وتَعالى] عنِ الجنَّةِ مِن اللغوِ والكذبِ وسائرِ الآفاتِ التي وُجِدَ بعضُها مِن إبليسَ عدوِّ اللهِ؛ فهٰذا إنَّما يَكونُ بعدَ [يومِ]

(١) في ط: «والمراد بستان في بقعة... فهٰذا لا... فيها إلّا إلى»، وفي خ: «... فهٰذا لا...».
(٢) في خ: «بينهما إلّا في»! وأثبت ما في ط. و«إذ» زيادة منّي يقتضيها السياق.

القيامةِ[1] إذا دَخَلَها المؤمنونَ كما يَدُلُّ عليهِ السِّياقُ؛ فجوابُهُ مِن وجهينِ:

أحدُهُما: أنَّ ظاهرَ الخبرِ يَقْتَضي نفيَهُ مطلقًا؛ لقولِهِ تَعالى: ﴿لا لَغْوٌ فيها وَلا تَأْثيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]، ولقولِهِ تَعالى: ﴿لا تَسْمَعُ فيها لاغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١]؛ فهٰذا نفيٌ عامٌّ لا يَجوزُ تخصيصُهُ إلاَّ بمخصِّصٍ بيِّنٍ. واللهُ سبحانَهُ قد حَكَمَ بأنَّها دارُ الخلدِ حكمًا مطلقًا، فلا يَدْخُلُها إلاَّ خالدٌ فيها؛ فتخصيصُكُم هٰذهِ التَّسميةَ بما بعدَ القيامةِ خلافُ الظَّاهرِ /خ٤٠/.

الثَّاني: [أنَّ] ما ذَكَرْتُمْ إنَّما يُصارُ إليهِ إذا قامَ الدَّليلُ السَّالمُ عنِ المعارِضِ المقاومِ أنَّها جنَّةُ الخلدِ بعينِها، وحينئذٍ يَتَعَيَّنُ المصيرُ إلى ما ذَكَرْتُمْ. فأمَّا إذا لمْ يَقُمْ دليلٌ سالمٌ على ذٰلكَ، ولمْ تُجْمِعِ الأُمَّةُ عليهِ؛ فلا يَسوغُ مخالفةُ ما دَلَّتْ عليهِ النُّصوصُ البيِّنةُ بغيرِ موجِبٍ. واللهُ أعلمُ.

* قالوا: وممَّا يَدُلُّ على أنَّها ليستْ جنَّةَ الخلدِ التي وُعِدَها المتَّقونَ: أنَّ اللهَ سبحانَهُ لمَّا خَلَقَ آدَمَ؛ أَعْلَمَهُ أنَّ لعُمُرِهِ أجلاً يَنْتَهي إليهِ، وأنَّهُ لمْ يَخْلُقْهُ للبقاءِ. ويَدُلُّ على هٰذا ما رواهُ التِّرْمِذيُّ في «جامعه»؛ قالَ: حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ بَشَّارٍ؛ قالَ: حَدَّثَنا صَفْوانُ بنُ عيسى، حَدَّثَنا الحارثُ بنُ عَبْدِالرَّحْمٰنِ بنِ أبي ذُبابٍ، عن سَعيدِ بنِ أبي سَعيدٍ المَقْبُرِيِّ، عن أبي هُرَيْرَةَ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ ونَفَخَ فيهِ الرُّوحَ؛ عَطَسَ. فقالَ: الحمدُ للهِ بإذنِهِ[2]. فقالَ لهُ ربُّهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ يا آدَمُ! ٱذْهَبْ إلى أُولٰئكَ الملائكةِ ـ إلى ملإٍ منهُم جلوسٍ ـ، فقُلِ: السَّلامُ عليكُم. فقالوا: وعليكَ السَّلامُ. ثمَّ رَجَعَ إلى ربِّهِ، فقالَ: إنَّ هٰذهِ تحيَّتُكَ وتحيَّةُ بنيكَ بينَهُم. فقالَ اللهُ لهُ ويداهُ مقبوضتانِ: ٱخْتَرْ أيَّتَهما شِئْتَ! فقالَ: ٱخْتَرْتُ يمينَ ربِّي، وكلتا يدي ربِّي يمينٌ مباركةٌ. ثمَّ بَسَطَها، فإذا فيها آدَمُ وذرِّيَّتُهُ. قالَ: أيْ ربِّ! ما هٰؤلاءِ؟ قالَ: هٰؤلاءِ ذرِّيَّتُكَ. فإذا كلُّ إنسانٍ مكتوبٌ عمُرُهُ بينَ عينيهِ. فإذا رجلٌ أضوؤُهُم (أو: مِن أضوئِهِم). قالَ: يا ربِّ! مَن هٰذا؟ قالَ: هٰذا ٱبْنُكَ داوودُ، وقد كَتَبْـ[ـتُ] لهُ عُمُرَ أربعينَ

---

(١) في ط: «سبحانه عن الجنّة من اللغو والعذاب وسائر... بعد القيامة». والأولى ما أثبتّه من خ.

(٢) في خ: «بن أبي ذياب...»، وفي ط: «... الحمد لله يا ربّ».

سنةً. قالَ: يا ربِّ! زِدْهُ في[١] عُمُرِه. قالَ: ذاكَ الذي كَتَبْتُ لهُ. قالَ: أي ربِّ! فإنِّي قد جَعَلْتُ لهُ مِن عمُري ستِّينَ سنةً. قالَ: أنتَ وذاكَ. [قالَ]: ثمَّ أُسْكِنَ الجنَّةَ ما شاءَ اللهُ[٢]، ثمَّ أُهْبِطَ منها. وكانَ آدَمُ يَعُدُّ لنفسِهِ، فأتاهُ مَلَكُ الموتِ، فقالَ لهُ آدَمُ: قد عَجَّلْتَ! قد كُتِبَتْ [لي] ألفُ سنةٍ[٣]! قالَ: بلى، ولْكنَّكَ جَعَلْتَ لابنِكَ داوودَ ستِّينَ سنةً. فجَحَدَ فجَحَدَتْ ذرِّيَّتُهُ، ونَسِيَ فنَسِيَتْ ذرِّيَّتُهُ». قالَ: «فمِن يومئذٍ أُمِرَ بالكتابِ والشُّهودِ»[٤]. هٰذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ مِن هٰذا الوجهِ، ورُوِيَ مِن غيرِ وجهٍ عن أبي هُرَيْرَةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ /خ٤١/.

قالوا: فهٰذا صريحٌ في أنَّ آدَمَ لَمْ يَكُنْ مخلوقًا في دارِ الخلدِ التي لا يَموتُ مَن دَخَلَها، وإنَّما خُلِقَ في دارِ الفناءِ التي جَعَلَ اللهُ لها ولأهلِها أجلاً معلومًا وفيها أُسْكِنَ.

فإنْ قيلَ: فإذا كانَ آدَمُ قد عَلِمَ أنَّ لهُ عمُرًا يَنْتَهي إليهِ وأنَّهُ ليسَ مِن الخالدينَ؛ فكيفَ لَمْ يُكَذِّبْ إبليسَ ويَعْلَمْ بطلانَ قولِهِ حيثُ قالَ لهُ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ

---

(١) في ط: «أختر أيّتها شئت... زد في»، وفي خ: «... زدني في». والتصويب من الترمذيّ.

(٢) فأين كان قبل أن يسكن الجنّة؟! هل كان على أرض التعب والنصب خارج الجنّة يكلّم الله ثمّ يذهب إلى الملائكة ثمّ يرجع إلى ربّه، أم كان في السماء؟! فإن قلتم على الأرض؛ أتيتم بعظيمة لم تسبقوا إليها! وإن قلتم في السماء؛ أسقطتم دعواكم. وبالجملة؛ فالحديث دليل قويّ لمن وحّد الجنّتين.

(٣) في ط: «قد عجّلت أليس قد كتبت لي ألف سنة»، وأثبتّ ما في خ و«جامع الترمذي».

(٤) (**صحيح؛ إلاّ الأربعين التي كتبت لداوود فشاذّة**). رواه: ابن سعد (١/٩)، والترمذي (٤٨ـ التفسير، ٨ـ الأعراف، ٥/٢٦٧/٣٠٧٦ و٣٣٦٨)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (٢٠٥)، والنسائي في «اليوم والليلة» (٢١٨-٢٢٠)، والبزّار (١/١٤٢ـ بداية)، وأبو يعلى (٦٣٧٧ و٦٥٨٠ و٦٦٥٤)، وابن جرير في «التاريخ» (١/٦٤-٦٦ و٩٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص٦٧)، وابن أبي داوود في «القدر» (٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٨٥٣٥)، وابن حبّان (٦١٦٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٠٤٩ و١٠٥٠)، والحاكم (١/٦٤، ٢/٣٢٥ و٥٨٥، ٤/٢٦٣)، والبيهقي في «السنن» (١٠/١٤٧) و«الشعب» (٩٣٢٣) و«الصفات» (٧٠٨)، وابن عساكر (٧/٣٩٢-٣٩٥)؛ من طرق سبعة، عن أبي هريرة... رفعه مطوّلاً ومختصرًا.

وحسّن الترمذي بعض أسانيده، وصحّح الحاكم بعضها على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقوّى ابن كثير والعسقلاني بعضها، والحديث بمجموع طرقه صحيح لا ريب، وقد صحّحه الألباني.

لكن هاهنا إشكال، وهو أنّه جاء في بعض الطرق أنّ الله كتب لداوود ستّين وأتمّها آدم له بأربعين وفي بعضها العكس، وهي طرق متعادلة في القوّة تقريبًا؛ إلاّ أنّ الوجه الثاني يفتقر إلى الشواهد بخلاف الوجه الأوّل الذي أطبق عليه حديث ابن عبّاس وموقوفات أبي هريرة وابن جبير والحسن قولاً واحدًا يطمئنّ القلب معه إلى أنّ المشهور أنّ الله كتب لداوود ستّين لا أربعين وأنّ رواية الأربعين شاذّة.

وَمُلْكٍ لا يَبْلى﴾ [طه: ١٢٠]، بل جَوَّزَ ذٰلكَ وأكَلَ مِن الشَّجرةِ طمعًا في الخلدِ؟!

فالجوابُ ما تَقَدَّمَ مِن الوجهينِ: إمَّا أنْ يَكونَ المرادُ بالخلدِ المَكْثَ الطَّويلَ لا [أ]بدَ الأبدِ، أو يَكونَ عدوُّهُ إبْليسُ لمَّا قاسَمَهُ وزوجَهُ وغَرَّهُما وأطْمَعَهُما بدوامِهِما في الجنَّةِ؛ نَسِيَ ما قُدِّرَ لهُ مِن عُمُرِهِ.

* قالوا: و[القولُ] المعوَّلُ عليهِ في ذٰلكَ قولُهُ تَعالى للملائكةِ: ﴿إِنِّي جاعِلٌ في الأرْضِ خَليفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وهٰذا الخليفةُ هوَ آدَمُ بٱتِّفاقِ النَّاسِ. ولمَّا عَجِبَتِ الملائكةُ مِن ذٰلكَ وقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ عَرَّفَهُم سبحانَهُ أنَّ هٰذا الخليفةَ الذي هوَ جاعلُهُ في الأرضِ ليسَ حالُهُ كما تَوَهَّمْتُم مِن الفسادِ، بل أُعَلِّمُهُ مِن علمي ما لا تَعْلَمونَهُ. فأظْهَرَ فضلَهُ وشرفَهُ[١] بأنْ عَلَّمَهُ الأسماءَ كلَّها، ثمَّ عَرَضَهُم على الملائكةِ، فلمْ يَعْرِفوها، و﴿قالوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلَّا ما عَلَّمْتَنا إنَّكَ أَنْتَ العَليمُ الحَكيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]. وهٰذا يَدُلُّ على أنَّ هٰذا الخليفةَ الذي سَبَقَ بِهِ إخبارُ الرَّبِّ تَعالى لملائكتِهِ، وأظْهَرَ [تَعالى] فضلَهُ وشرفَهُ، وعَلَّمَهُ بما لمْ تَعْلَمْهُ الملائكةُ، هوَ خليفةٌ مجعولٌ في الأرضِ، لا فوقَ السَّماواتِ[٢].

فإنْ قيلَ: قولُهُ تَعالى ﴿إِنِّي جاعِلٌ في الأرْضِ خَليفَةً﴾ إنَّما هوَ بمعنى سَأجْعَلُهُ في الأرضِ، فهيَ مآلُهُ ومصيرُهُ، وهٰذا لا يُنافي أنْ يَكونَ في جنَّةِ الخلدِ فوقَ السَّماءِ أوَّلًا، ثمَّ يَصيرَ إلى الأرضِ للخلافةِ التي جَعَلَها اللهُ لهُ، وٱسمُ الفاعلِ هنا بمعنى الاستقبالِ، ولهٰذا ٱنْتَصَبَ عنهُ المفعولُ[٣]!

فالجوابُ: أنَّ اللهَ سبحانَهُ أعْلَمَ ملائكتَهُ بأنَّهُ يَخْلُقُهُ لخلافةِ الأرضِ لا لسكنى جنَّةِ الخلودِ، وخبرُهُ الصِّدقُ وقولُهُ الحقُّ /خ٤٢/ وقد عَلِمَتِ الملائكةُ أنَّهُ هوَ آدَمُ[٤]، فلو

---

(١) في ط: «قالوا والمعوّل عليه... فأظهر من فضله وشرفه»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٢) في ط: «وأعلمه بما لم تعلمه... السماء»، وفي خ: «وعلّمه بما لا تعلمه... السماوات».

(٣) لأنّ من شروط عمل اسم الفاعل إذا كان مجرّدًا من (ال) أن يكون بمعنى الحال أو الاستقبال.

(٤) يعني: أنّ المخلوق لخلافة الأرض هو آدم.

كانَ قد أَسْكَنَهُ دارَ الخلودِ فوقَ السَّماءِ؛ لَمْ يَظْهَرْ للملائكةِ وقوعُ المخبَرِ [به][(١)]، ولَمْ يَحْتاجوا إلى أنْ يُبَيِّنَ لهُم فضلَهُ وشرفَهُ وعلمَهُ المتضمِّنَ ردَّ قولِهِم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فإنَّهُم إنَّما سألوا هٰذا السُّؤالَ في حقِّ الخليفةِ المجعولِ في الأرضِ، فأمَّا مَن هوَ في دارِ الخلدِ فوقَ السَّماءِ؛ فلمْ تَتَوَهَّمِ الملائكةُ منهُ سفكَ الدِّماءِ والفسادَ في الأرضِ، ولا كانَ إظهارُ فضلِهِ وشرفِهِ وعلمِهِ وهوَ فوقَ السَّماءِ برادٍّ لقولِهِم[(٢)] وجوابًا لسؤالِهِم، بلِ الذي يَحْصُلُ بهِ جوابُهُم وضدُّ ما تَوَهَّموهُ إظهارُ تلكَ الفضائلِ والعلومِ منهُ وهوَ في محلِّ خلافتِهِ التي خُلِقَ لها وتَوَهَّمَتِ الملائكةُ أنَّهُ لا يَحْصُلُ منهُ هناكَ إلَّا ضدُّها مِن الفسادِ وسفكِ الدِّماءِ. وهٰذا واضحٌ لمَن تأمَّلَهُ[(٣)].

وأمَّا اسمُ الفاعلِ ـ وهوَ ﴿جَاعِلٌ﴾ ـ وأنْ كانَ بمعنى الاستقبالِ؛ فلأنَّ هٰذا إخبارٌ عمَّا سَيَفْعَلُهُ الرَّبُّ تَعالى في [الـ]مستقبلِ مِن جعلِهِ [الـ]خليفةَ في الأرضِ، وقد صَدَقَ وعدَهُ ووَقَعَ ما أَخْبَرَ بهِ. وهٰذا ظاهرٌ [في أنَّهُ مِن أوَّلِ الأمرِ جَعَلَهُ خليفةً في الأرضِ]. وأمَّا جعلُهُ في السَّماءِ أوَّلاً ثمَّ جعلُهُ [خليفةً] في الأرضِ ثانيًا؛ [فإنَّهُ][(٤)]، وإنْ كانَ ممَّا لا يُنافي الاستخلافَ المذكورَ، فهوَ ممَّا لا يَقْتَضيهِ اللفظُ بوجهٍ، بل يَقْتَضي ظاهرُهُ خلافَهُ، فلا يُصارُ إليهِ إلَّا بدليلٍ يوجِبُ المصيرَ إليهِ، وحولَهُ نُدَنْدِنُ.

* قالوا: وأيضًا؛ فمِن المعلومِ الذي لا يُخالِفُ فيه مسلمٌ أنَّ اللهَ سبحانَهُ خَلَقَ آدَمَ مِن ترابٍ، وهوَ ترابُ هٰذهِ الأرضِ بلا ريبٍ:

---

(١) ساقطة من ط.

(٢) في خ: «فضله وشرفه وعلمه ظاهر في أنّه من أوّل الأمر جعله خليفة في الأرض وهو فوق السماء يراد بقولهم»! وفي آخره تحريف، وفي أوّله زيادة محلّها في تضاعيف الفقرة التالية.

(٣) من تأمّله حقّ التأمّل؛ فسيراه واضح البطلان. هم يقولون: لو أسكن الله آدم ﷺ جنّة الخلد؛ لم يظهر تصديق قوله تعالى ﴿إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾، ولم يبن للملائكة فضل آدم وشرفه وعلمه، وإنّما يحصل هٰذا كلّه إذا كان آدم في محلّ خلافته الصحيح الذي خلق له وتوهّمت الملائكة أنّه لا يكون فيه إلّا مفسدًا سفّاكًا للدماء، وهٰذا المحلّ هو أرض التّعب والنّصب لا جنّة الخلد. **ولمخالفيهم أن يجيبوا**: إن صحّ قولكم هٰذا؛ فهو وارد عليكم في بستانكم الأرضيّ الذي وصفتموه بصفات جنّة الخلد؛ لأنّه ليس محلّ الخلافة الحقيقيّ، وبالتالي فلن يظهر فيه تصديق قول الربّ تعالى وفضل آدم وعلمه! فأيّ فرق بين هٰذا وذاك؟!

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

كما رَوى التِّرْمِذِيُّ في «جامعه» مِن حديثِ: عَوْفٍ، عن قَسَامَةَ بنِ زُهَيْرٍ، عن أبي موسى الأشْعَرِيِّ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى خَلَقَ آدَمَ مِن قبضةٍ قَبَضَها مِن جميعِ الأرضِ، فجاءَ بنو آدَمَ على قَدْرِ الأرضِ، فجاءَ منهُمُ الأحمرُ والأبيضُ والأسودُ [وبينَ ذٰلكَ]، والسَّهلُ والحَزْنُ، والخبيثُ والطَّيِّبُ»[1]. قالَ التِّرْمِذِيُّ: هٰذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وقد رَواهُ الإمامُ أحمدُ /خ٤٣/ في «مسنده» مِن طرقٍ عديدةٍ[2].

وقد أخْبَرَ سبحانَهُ أنَّهُ خَلَقَهُ مِن ترابٍ، وأخْبَرَ أنَّهُ خَلَقَهُ [مِن سلالةٍ مِن طينٍ، وأخْبَرَ أنَّهُ خَلَقَهُ] مِن صلصالٍ مِن حَمَإٍ مسنونٍ. والصَّلصالُ: قيلَ فيهِ: هوَ الطِّينُ اليابسُ الذي لهُ صلصلةٌ ما لَمْ يُطْبَخْ، فإذا طُبِخَ فهوَ فخَّارٌ. وقيلَ [فيهِ]: هوَ المتغيِّرُ الرَّائحةِ، مِن قولِهِم صَلَّ إذا أنْتَنَ. والحَمَأُ: الطِّينُ الأسودُ المتغيِّرُ. والمسنونُ: قيلَ: المصبوبُ، مِن سَنَنْتُ الماءَ إذا صَبَبْتُهُ. وقيلَ: المنتنُ، مِن قولِهِم سَنَنْتُ الحجرَ على الحجرِ إذا حَكَكْتُهُ، فإذا سالَ بينَهُما شيءٌ؛ فهو سَنِينٌ، ولا يَكونُ إلاَّ منتنًا[3]. وهٰذهِ كلُّها أطوارٌ للتُّرابِ الذي هوَ مبدؤُهُ الأوَّلُ. كما أخْبَرَ عن خلقِ الذُّرِّيَّةِ مِن نطفةٍ ثمَّ مِن علقةٍ ثمَّ مِن مضغةٍ[4]، وهٰذهِ أحوالُ النُّطفةِ التي هيَ مبدأُ الذُّرِّيَّةِ.

---

(١) (صحيح). رواه: عبدالرزّاق في «التفسير» (٤١)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٨)، وأحمد (٤/ ٤٠٠ و٤٠٦)، وعبد بن حميد (٥٤٩)، وأبو داوود (٣٤ـ السنّة، ١٦ـ القدر، ٢/ ٦٣٤/ ٤٦٩٣)، والترمذي (٤٨ـ التفسير، ٣ـ سورة البقرة، ٥/ ٢٠٤/ ٢٩٥٥)، والبزّار (٣٠٢٥ و٣٠٢٦)، والروياني (٥٤٧)، والطبري في «التفسير» (٦٤٥) و«التاريخ» (١/ ٦٢)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص٤٤)، وابن قانع في «المعجم» (٢/ ١٢٤)، وابن حبّان (٦١٦٠ و٦١٨١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٠١٧ و١٠١٨)، والحاكم (٢/ ٢٦١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٠٤، ٨/ ١٣٥)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ٣) و«الصفات» (٧١٥ و٨١٥)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (١٨/ ١٧٥)، وابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٣٧٤)، والمزّي في «التهذيب» (٢٣/ ٦٠٣)؛ من طرق، عن عوف الأعرابيّ. . . به فذكره.

وهٰذا سند صحيح، رجاله ثقات، وقد صحّحه الترمذي وابن حبّان والحاكم والمنذري والذهبي وابن كثير والعسقلاني والألباني.

(٢) في ط: «عدّة». ومراده من طرق عدّة عن عوف، وإلاّ؛ فمدار الحديث عليه كما رأيت قبل قليل.

(٣) في ط: «وقيل المنتن المسنّ من قولهم. . .»! وفي خ: «. . . إلاّ متنًا»! وكلاهما تحريف.

(٤) في خ: «من نطفة ومن علقة ومن مضغة»، والأولى ما أثبتّه من ط.

ولَمْ يُخْبِرْ سبحانَهُ أنَّهُ رَفَعَهُ مِنَ الأرضِ إلى فوقِ السَّماواتِ لا قبلَ التَّخليقِ ولا بعدَهُ، وإنَّما أَخْبَرَ عن إسجادِ الملائكةِ [لَهُ] وعن إدخالِهِ الجنَّةَ وما جَرى لهُ معَ إبْليسَ بعدَ خلقِهِ، فأَخْبَرَ سبحانَهُ بالأُمورِ الثَّلاثةِ في نسقٍ واحدٍ مرتبطًا بعضُها ببعضٍ.

قالوا: فأينَ الدَّليلُ الدَّالُّ على إصعادِ مادَّتِهِ وإصعادِهِ بعدَ خلقِهِ إلى فوقِ السَّماواتِ؟! هٰذا ممَّا لا دليلَ لكُم عليهِ أصلاً، ولا هوَ لازمٌ مِن لوازمِ ما أَخْبَرَ اللهُ بهِ.

قالوا: ومِن المعلومِ أنَّ ما فوقَ السَّماواتِ ليسَ بمكانٍ للطِّينِ الأرضيِّ المتغيِّرِ الرَّائحةِ الذي قد أنْتَنَ مِن تغيُّرِهِ، وإنَّما محلُّ[ـهُ] هٰذهِ الأرضُ التي هيَ محلُّ المتغيِّراتِ والفاسداتِ، وأمَّا ما كانَ فوقَ الأفلاكِ؛ فلا يَلْحَقُهُ تغيُّرٌ ولا نَتْنٌ ولا فسادٌ ولا ٱستحالةٌ. قالوا: وهٰذا أمرٌ لا يَرْتابُ فيهِ العقلاءُ.

* قالوا: وقد قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، فأَخْبَرَ سبحانَهُ أنَّ هٰذا العطاءَ في جنَّةِ الخلدِ غيرُ مقطوعٍ، وما أُعْطِيَهُ آدَمُ فقدِ ٱنْقَطَعَ، فلمْ تَكُنْ تلكَ جنَّةَ الخلدِ.

* قالوا: وأيضًا؛ فلا نزاعَ في أنَّ اللهَ تَعالى خَلَقَ آدَمَ في الأرضِ كما تَقَدَّمَ[١]، ولمْ يُذْكَرْ في قصَّتِهِ أنَّهُ نَقَلَهُ إلى السَّماءِ، ولو كانَ تَعالى /خ٤٤/ قد نَقَلَهُ إلى السَّماءِ؛ لَكانَ هٰذا أَوْلى بالذِّكرِ؛ لأنَّهُ مِن أعظمِ أنواعِ النِّعَمِ عليهِ[٢] وأكبرِ أسبابِ تفضيلِهِ وتشريفِهِ، وأبلغُ في بيانِ آياتِ قدرتِهِ وربوبيَّتِهِ وحكمتِهِ، وأبلغُ في بيانِ المقصودِ مِن عاقبةِ المعصيةِ، وهوَ الإهباطُ مِن السَّماءِ التي نُقِلَ إليها، كما ذَكَرَ ذٰلكَ في حقِّ إبْليسَ[٣]. فحيثُ لمْ يَجِئْ في القرآنِ ولا في السُّنَّةِ حرفٌ واحدٌ أنَّهُ نَقَلَهُ إلى السَّماءِ ورَفَعَـ[ـهُ] إليها بعدَ خلقِهِ في الأرضِ؛ عُلِمَ أنَّ الجنَّةَ التي أُدْخِلَها لمْ تَكُنْ هيَ جنَّةَ الخلدِ

(١) بلى؛ فيه نزاع كبير! وهل سيق الكلام كلّه إلاّ في هٰذا وما يتفرّع عنه؟!

(٢) في خ: «أنواع النعيم عليه»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٣) فإن كنتم تقرّون بأنّ إبليس كان في السماء؛ فلأن يكون آدم فيها أولى؛ فإنّه المكرّم الذي أمر إبليس والملائكة بالسجود له.

التي فوقَ السّماواتِ!

* قالوا: وأيضًا؛ فإنَّهُ سبحانَهُ [قد] أخْبَرَ في كتابِهِ أنَّهُ لمْ يَخْلُقْ عبادَهُ عبثًا ولا سدًى، وأنْكَرَ على مَن زَعَمَ ذٰلكَ، فدَلَّ على أنَّ هٰذا منافٍ لحكمتِهِ. ولو كانَتْ جنَّةُ آدَمَ هيَ جنَّةَ الخلدِ؛ لَكانوا قد خُلِقوا في دارٍ[1] لا يُؤْمَرونَ فيها ولا يُنْهَوْنَ، وهٰذا باطلٌ: بقولِهِ: ﴿أيَحْسَبُ الإنْسانُ أنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]؛ قالَ الشّافِعِيُّ وغيرُهُ: معطَّلًا لا يُؤْمَرُ ولا يُنْهى، وقالَ: ﴿أفَحَسِبْتُمْ أنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]. فهوَ تَعالى لمْ يَخْلُقْهُم عبثًا ولا تَرَكَهُم سدًى، وجنَّةُ الخلدِ لا تكليفَ فيها.

* قالوا: وأيضًا؛ فإنَّهُ خَلَقَها: جزاءً للعاملينَ بقولِهِ تَعالى: ﴿نِعْمَ أجْرُ العامِلينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦]، وجزاءً للمتَّقينَ بقولِهِ: ﴿وَلَنِعْمَ دارُ المُتَّقينَ﴾ [النحل: ٣٠]، ودارَ ثوابٍ[2] بقولِهِ: ﴿ثَوابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، فلمْ يَكُنْ لِيُسْكِنَها إلَّا مَنْ خَلَقَها لهُم مِنَ العاملينَ و[مِن] المتَّقينَ ومَن تَبِعَهُم مِن ذرِّيّاتِهِم وغيرِهِم مِن الحورِ والولدانِ. وبالجملةِ؛ فحكمتُهُ تَعالى اقْتَضَتْ أنَّها لا تُنالُ إلَّا بعدَ الابتلاءِ والامتحانِ والصَّبرِ والجهادِ وأنواعِ الطّاعاتِ. وإذا كانَ هٰذا مقتضى حكمتِهِ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ لا يَفْعَلُ إلَّا ما هوَ مطابقٌ لها[3].

* قالوا: فإذا جُمِعَ ما أخْبَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بهِ مِن: أنَّهُ خَلَقَهُ مِن الأرضِ، وجَعَلَهُ خليفةً في الأرضِ، وأنَّ إبْليسَ وَسْوَسَ لهُ في مكانِهِ الذي أسْكَنَهُ فيهِ بعدَ أنْ [أُ]هْبِطَ إبْليسُ مِن السَّماءِ، وأنَّهُ أخْبَرَ ملائكتَهُ أنَّهُ جاعلٌ في الأرضِ خليفةً، وأنَّ دارَ الخلدِ لا لغوٌ فيها ولا تأْثيمٌ، وأنَّ مَن دَخَلَها لا يَخْرُجُ مِنها أبدًا، وأنَّ مَن دَخَلَها يَنْعَمُ ولا يَبْأسُ، وأنَّهُ لا يَخافُ ولا يَحْزَنُ، وأنَّ اللهَ سبحانَهُ حَرَّمَها على الكافرينَ، وعدوُّ اللهِ إبْليسُ أكفرُ الكافرينَ، فمحالٌ أنْ يَدْخُلَها أصلًا لا دخولَ عبورٍ /خ٤٥/ ولا دخولَ قرارٍ، وأنَّها دارُ

---

(١) في خ: «مناف للحكمة... قد اختلفوا في دار»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٢) في ط: «ودار الثواب»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٣) فما تصنعون بما صحّحه البخاري (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦-٢٨٤٨) من أوجه أنّ الله تعالى ينشئ يوم القيامة خلقًا فيسكنهم فيما بقي من الجنّة فارغًا حتّى يملأها؟! فقد اقتضت حكمته إدخال هٰؤلاء بغير ابتلاء وامتحان وصبر وجهاد؛ فاجعلوا آدم مثلهم وألحقوه بهم من باب الأولى!

نعيم لا دارُ ٱبتلاءٍ وٱمتحانٍ. . . إلى غيرِ ذٰلكَ ممَّا ذَكَرْناهُ مِن منافاةِ أوصافِ جنَّةِ الخلدِ للجنَّةِ التي أُسْكِنَها آدمُ؛ إذا جُمِعَ ذٰلكَ بعضُهُ إلى بعضٍ، ونُظِرَ فيهِ بعينِ الإنصافِ والتَّجرُّدِ عن نصرةِ المقالاتِ؛ تَبَيَّنَ الصَّوابُ مِن ذٰلكَ. واللهُ المستعانُ.

● قالَ الآخرونَ: بلِ الجنَّةُ التي أُسْكِنَها آدَمُ عندَ سلفِ الأُمَّةِ وأئمَّتِها وأهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ هيَ جنَّةُ الخلدِ. ومَن قالَ: إنَّها كانَتْ جنَّةً في الأرضِ بأرضِ الهندِ أو بأرضِ جُدَّةَ أو غيرِ ذٰلكَ؛ فهوَ مِن المتفلسفةِ الملحدينَ[1] والمعتزلةِ، أو مِن إخوانِهِمُ المتكلِّمينَ المبتدعينَ؛ فإنَّ هٰذا يقولُهُ مَن يقولُهُ مِن المتفلسفةِ والمعتزلةِ[2]، والكتابُ يَرُدُّ هٰذا القولَ، وسلفُ الأُمَّةِ وأئمَّتُها متَّفقونَ على بطلانِ هٰذا القولِ:

* قالَ تَعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ ٱسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَدوا إلاَّ إبْليسَ أبى وَٱسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الكافِرينَ . وَقُلْنا يا آدَمُ ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكونا مِنَ الظَّالِمينَ . فَأَزَلَّهُما الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فيهِ وَقُلْنا ٱهْبِطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إلى حينٍ﴾ [البقرة: ٣٤-٣٦]. فقد أخبرَ سبحانَهُ [أنَّهُ] أمرَ[هُم] بالهبوطِ وأنَّ بعضَهُم لبعضٍ عدوٌّ، ثمَّ قالَ: ﴿وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إلى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]. وهٰذا يُبَيِّنُ[3] أنَّهُم لمْ يكونوا في الأرضِ وإنَّما أُهْبِطوا إلى الأرضِ؛ فإنَّهُم لو كانوا في الأرضِ وٱنْتَقلوا [منها] إلى أرضٍ أُخرى كما ٱنْتَقَلَ قومُ موسى مِن أرضٍ إلى أرضٍ؛ كانَ مستقرُّهُم ومتاعُهُم إلى حينٍ في الأرضِ قبلَ الهبوطِ كما هوَ بعدَهُ! وهٰذا باطلٌ.

* قالوا: وقد قالَ تَعالى في سورةِ الأعرافِ [١٣] لمَّا قالَ إبليسُ ﴿أنا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَني مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾: ﴿قالَ فَٱهْبِطْ مِنْها فَما يَكونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فيها. . .﴾

---

(١) في ط: «المتفلسفة والملحدين»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٢) في صيغة الكلام هنا نظر ظاهر؛ لأنّها غير منصفة لمن قال بأنّ جنّة آدم هي جنّة الخلد، وهم جماعة المفسّرين من أهل الحديث والأثر، فهٰؤلاء أرحب الناس صدرًا وأبعدهم عن المجازفة بكيل أبشع التهم للمخالف في دينه وعقيدته، فإن وجد فيهم من فعل ذٰلك؛ فلا ينبغي أن يؤخذ الآخرون بجريرته ويوصموا بهٰذه الصورة المتشنّجة البعيدة عن المنهج العلمي والإنصاف في المناظرة والمحاورة.

(٣) في خ: «وهٰذا بيّن»، والأولى ما أثبتّه من ط.

الآيةَ. فقولُهُ ﴿ٱهْبِطْ مِنْها فَما يَكونُ لَكَ أنْ تَتَكَبَّرَ فيها﴾ يُبَيِّنُ ٱختصاصَ الجنَّةِ التي في السَّماءِ بهٰذا الحكمِ، بخلافِ جنَّةِ الأرضِ؛ فإنَّ إبليسَ غيرُ ممنوعٍ[1] مِن التَّكبُّرِ فيها. والضَّميرُ /خ٤٦/ في قولِهِ ﴿مِنْها﴾ عائدٌ إلى معلومٍ، وإنْ كانَ غيرَ مذكورٍ في اللفظِ؛ لأنَّ العلمَ بهِ أغنى عن ذكرِهِ.

قالوا: وهٰذا بخلافِ قولِهِ: ﴿ٱهْبِطوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]؛ فإنَّهُ لمْ يَذْكُرْ هنا ما أُهْبِطوا منهُ، وإنَّما ذَكَرَ ما أُهْبِطوا إليهِ؛ بخلافِ إهباطِ إبْليسَ؛ فإنَّهُ ذَكَرَ مبدأ هبوطِهِ، وهوَ الجنَّةُ، والهبوطُ يَكونُ مِن علوٍّ إلى أسفلَ، وبنو إسرائيلَ كانوا بجبالِ الشَّراةِ المشرفةِ على المصرِ الذي[2] يَهْبِطونَ إليهِ، ومَن هَبَطَ مِن جبلٍ إلى وادٍ؛ قيلَ لهُ: ٱهْبِطْ.

قالوا: وأيضًا؛ فبنو إسرائيلَ كانوا يَسيرونَ ويَرْحلونَ، والذي يَسيرُ ويَرْحَلُ إذا جاءَ بلدةً؛ يُقالُ: نَزَلَ فيها؛ لأنَّ مِن عادتِهِ أنْ يَرْكَبَ في مسيرِهِ، فإذا وَصَلَ؛ نَزَلَ عن دوابِّهِ، فيُقالُ: نَزَلَ العدوُّ أرضَ[3] كذا، ونَزَلَ القَفَلُ[4]، ونحوُهُ. ولفظُ النُّزولِ كلفظِ الهبوطِ، فلا يُسْتَعْمَلُ «نَزَلَ» و«هَبَطَ» إلَّا إذا كانَ من علوٍّ إلى أسفلَ.

* وقالَ تَعالى عقبَ قولِهِ ﴿ٱهْبِطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إلى حِينٍ﴾؛ قالَ: ﴿فيها تَحْيَوْنَ وَفيها تَموتونَ وَمِنْها تُخْرَجونَ﴾ [الأعراف: ٢٤-٢٥]. فهٰذا دليلٌ على أنَّهُم لمْ يَكونوا قبلَ ذٰلكَ في مكانٍ فيهِ يَحْيَوْنَ وفيهِ يَموتونَ ومنهُ يُخْرَجونَ، والقرآنُ صريحٌ في أنَّهُم إنَّما صاروا إليهِ بعدَ الإهباطِ، [فلو كانوا في الأرضِ أوَّلاً؛ لَكانوا في مكانٍ فيهِ يَحْيَوْنَ وفيهِ يَموتونَ ومنهُ يُخْرَجونَ][5].

---

(١) في ط: «أن تتكبّر فيها فأخرج إنك من الصاغرين فقوله... إبليس كان غير ممنوع».

(٢) في خ: «المشرفة على مصر الذين»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٣) في خ: «يركب في سيره...»، وفي ط: «... ويقال نزل العدوّ بأرض».

(٤) القفل: العائدون من سفر ونحوه.

(٥) ساقطة من ط. وزاد في خ بعد هٰذا: «والقرآن صريح في أنّهم إنّما صاروا إليه بعد الإهباط، فلو كان في الأرض أوّلاً؛ لكانوا في مكان فيه يحيون وفيه يموتون ومنه يخرجون صريح في أنّهم صاروا إليه بعد الإهباط»، وهو تكرار لما تقدّم.

* قالوا: و[لو] لَمْ يَكُنْ في هٰذا إلاَّ قصَّةُ آدَمَ وموسى[١]؛ لَكانَتْ كافيةً؛ فإنَّ موسى [عليهِ السَّلامُ] إنَّما لامَ آدَمَ [عليهِ السَّلامُ] لِما حَصَلَ لهُ ولذرِّيَّتِهِ بالخروجِ مِن الجنَّةِ مِن النَّكدِ والمشقَّةِ، فلو كانَتْ بستانـ[ـا] في الأرضِ؛ لَكانَ غيرُهُ مِن بساتينِ الأرضِ يُعَوِّضُ عنهُ، وموسى أعظمُ قدرًا مِن أنْ يَلومَهُ على أنْ أخْرَجَ نفسَهُ وذرِّيَّتَهُ مِن بستانٍ في الأرضِ.

* قالوا: وكذٰلك قولُ آدَمَ يومَ القيامةِ /خ٤٧/ لمَّا يَرْغَبُ إليهِ النَّاسُ أنْ يَسْتَفْتِحَ لهُم بابَ الجنَّةِ، فيَقولُ: وهلْ أخْرَجَكُم مِنها إلاَّ خطيئةُ أبيكُم؛ فإنَّ ظهورَ هٰذا في كونِها جنَّةَ الخلدِ وأنَّهُ اعْتَذَرَ لهُم بأنَّهُ لا يَحْسُنُ منهُ أنْ يَسْتَفْتِحَها وقد أُخْرِجَ مِنها بخطيئتِـ[ـهِ] مِن أظْهَرِ الأدلَّةِ.

● قالَ الأوَّلونَ: أمَّا قولُكُم: إنَّ مَن قالَ: إنَّها جنَّةٌ في الأرضِ؛ فهوَ مِن المتفلسفةِ والملحدينَ والمعتزلةِ أو مِن إخوانِهِم؛ فقد أوْجَدْناكُم مَن قالَ بهٰذا وليسَ مِن أحدٍ مِن هٰؤلاءِ[٢]. ومشاركةُ أهلِ الباطلِ للمحقِّ في المسألةِ لا يَدُلُّ على بطلانِها، ولا تَكونُ إضافتُها لهُم موجبةً لبطلانِها ما لَمْ يَخْتَصُّوا بها[٣]. فإنْ أرَدْتُم أنَّهُ لَمْ يَقُلْ بذٰلك إلاَّ هٰؤلاءِ؛ فليسَ كذٰلكَ، وإنْ أرَدْتُم أنَّ هٰؤلاءِ مِن جملةِ القائلينَ بهٰذا؛ لَمْ يُفِدْكُم شيئًا.

* قالوا: وأمَّا قولُكُم: وسلفُ الأُمَّةِ وأئمَّتُها متَّفقونَ على بطلانِ هٰذا القولِ؛ فنحنُ نُطالِبُكُم بنقلٍ صحيحٍ عن واحدٍ مِن الصَّحابةِ ومَن بعدَهُم مِن أئمَّةِ السَّلفِ فضلاً عنِ اتِّفاقِهِم.

قالوا: ولا يوجَدُ عن صاحبٍ [ولا تابعٍ] ولا تابعِ تابعٍ خبرٌ يَصِحُّ[٤] موصولاً ولا شاذًّا ولا مشهورًا [أنَّ] النَّبيَّ ﷺ قالَ: إنَّ اللهَ تعالى [قد] أسْكَنَ آدَمَ جنَّةَ الخلدِ التي هيَ

---

(١) يشير إلى حديث احتجاج آدم وموسى المشهور المخرّج في الصحيحين وغيرهما.

(٢) لا يخلو أحد ممّن تقدّم ذكرهم من أصحاب هٰذه المقالة من لوثة ما من علم الكلام، وإن كانوا متفاوتين في قدر ذٰلك بين المعتزليّ المغرق في اعتزاله والمتكلّم المقتصد، وقد ترجمت لهم حيث ورد ذكرهم لتعريفك بهٰذه الحقيقة. فتنبّه.

(٣) في ط: «أهل الباطل للحقّ...»، وفي خ وط: «... يختصّ بها».

(٤) في خ: «عن صاحب ولا تابع التابع خبرًا يصحّ»! والتصويب من ط.

دارُ المتَّقينَ يومَ المعادِ.

قالوا: وهٰذا القاضي مُنْذِرُ بنُ سَعيدٍ قد حَكى [عن] غيرِ واحدٍ مِن السَّلفِ أنَّها ليستْ جنَّةَ الخلدِ، [فقالَ]: ونحنُ نوجِدُكُم أنَّ [أبا حَنيفَةَ] فقيهَ العراقِ ومَن قالَ بقولِهِ قد قالوا: إنَّ جنَّةَ آدَمَ التي خَلَقَها اللهُ ليستْ جنَّةَ الخلدِ، وليسوا عندَ أحدٍ مِن العلماءِ مِن الشَّاذِّينَ بلهَ مِن رؤساءِ المخالفينَ[١]، وهٰذهِ الدَّواوينُ مشحونةٌ مِن علومِهِم.

وقد ذَكَرْنا قولَ ابنِ عُيَيْنَةَ[٢].

وقد ذَكَرَ ابنُ مُزَيْنٍ في «تفسيره»؛ قالَ: سَأَلْتُ ابنَ نافعٍ [عنِ] الجنَّةِ: [أ]مخلوقةٌ؟ فقالَ: السُّكوتُ عن هٰذا أفضلُ[٣]. قالوا: فلو كانَ عندَ ابنِ نافعٍ أنَّ الجنَّةَ التي أُسْكِنَها آدَمُ هي جنَّةُ الخلدِ؛ لمْ يَشُكَّ أنَّها مخلوقةٌ ولمْ يَتَوَقَّفْ في ذٰلكَ[٤].

وقالَ ابنُ قُتَيْبَةَ في كتابِهِ «غريب القرآن» في قولِهِ تَعالى ﴿وَقُلْنا ٱهْبِطوا مِنْها [جَميعًا][٥]﴾ [البقرة: ٣٨]: قالَ ابنُ عَبَّاسٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُما] في روايةِ أبي صالحٍ[٦]: هوَ كما يُقالُ: هَبَطَ فلانٌ /خ٤٨/ أرضَ كذا وكذا، ولمْ يَذْكُرْ في كتابِهِ غيرَهُ[٧]، فأينَ إجماعُ سلفِ الأُمَّةِ وأئمَّتِها؟!

* قالوا: وأمَّا ٱحتجاجُكُم بقولِهِ تَعالى ﴿وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]

---

(١) في خ وط: «بل من رؤساء المخالفين»! وهٰذا تحريف أرجو أن صوابه ما أثبتّه. ومعنى الكلام: هٰؤلاء ليسوا بشاذّين عن الجماعة ومن باب أولى ليسوا من رؤساء المخالفين لهم.

(٢) وتقدّم لك ما فيه.

(٣) لم يتبيّن لي من هو ابن مزين على وجه الجزم، ولعلّه يحيى بن إبراهيم بن مزين الأندلسي صاحب «تفسير الموطإ» و«فضائل القرآن» المتوفّى سنة ٢٥٩هـ. ترجمته في «الأعلام» (٨/ ١٣٤).

فإن كان هو؛ فلا يبعد أن يكون ابن نافع هو أصبغ بن الفرج الإمام المالكيّ المشهور المترجم في «أعلام النبلاء» (١٠/ ٦٥٦)، وربّما كان بكر بن سهل الدمياطي المفسّر المترجم في «أعلام النبلاء» (١٣/ ٤٢٥)، والأوّل أرجح.

(٤) لماذا؟! ما أكثر ما سكت المتقدّمون عن قضايا يؤمنون بها إخمادًا للفتنة وقمعًا للبدع وأهلها!

(٥) ساقطة من ط.

(٦) تقدّم القول في نكارة هٰذه الرواية (١/ ١١٤).

(٧) (ص ٤٦). ولعلّه ما عنده في الآية غير هٰذه الرواية، وكتابه مختصر لا محلّ فيه لتفصيل الكلام في المعاني المختلفة للّفظة، وقد تبيّن لك ما في هٰذه الرواية.

عَقيبَ[1] قولِهِ ﴿ٱهْبِطوا﴾؛ فهٰذا لا يَدُلُّ على أَنَّهُم كانوا في جنَّةِ الخلدِ؛ فإنَّ أحدَ الأقوالِ في المسألةِ أَنَّها كانَتْ جنَّةً في السَّماءِ غيرَ جنَّةِ الخلدِ، كما حَكاهُ الماوَرْدِيُّ في «تفسيره»، وقد تَقَدَّمَ[2].

وأيضًا؛ فإنَّ قولَهُ ﴿وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [البقرة: ٣٦] يَدُلُّ على أنَّ لهُم مستقرًّا إلى حينٍ في الأرضِ المنقطعةِ عنِ الجنَّةِ ولا بدَّ؛ فإنَّ الجنَّةَ أيضًا لها أرضٌ، قالَ اللهُ تَعالى عن أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَقالوا الحَمْدُ لِلهِ الَّذي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ [فَنِعْمَ أَجْرُ العامِلينَ]﴾ [الزمر: ٧٤]، فدَلَّ على أنَّ قولَهُ ﴿وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [البقرة: ٣٦] المرادُ بِهِ الأرضُ الخاليةُ مِن تلكَ الجنَّةِ لا كلُّ ما يُسَمَّى أرضًا. وكانَ مستقرُّهُمُ الأوَّلُ في أرضِ الجنَّةِ، ثمَّ صاروا في[3] أرضِ الابتلاءِ والامتحانِ، ثمَّ يَصيرُ مستقرُّ المؤمنينَ يومَ الجزاءِ أرضَ الجنَّةِ أيضًا. فلا تَدُلُّ الآيةُ على أنَّ جنَّةَ آدَمَ هيَ جنَّةُ الخلدِ.

* قالوا: وهٰذا هوَ الجوابُ بعينِهِ عنِ ٱستدلالِكُم بقولِهِ تَعالى: ﴿قالَ فيها تَحْيَوْنَ وَفيها تَموتونَ وَمِنْها تُخْرَجونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]؛ فإنَّ المرادَ بِهِ الأرضُ التي أُهْبِطوا إليها وَجُعِلَتْ مسكنًا لهُم بدلَ الجنَّةِ. وهٰذا تفسيرُ المستقرِّ المذكورِ في البقرةِ معَ تضمُّنِهِ ذكرَ الإخراجِ منها.

* قالوا: وأمَّا قولُهُ تَعالى لإِبْليسَ: ﴿ٱهْبِطْ مِنْها فَما يَكونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فيها﴾ [الأعراف: ١٣]، وقولُكُم: إنَّ هٰذا إنَّما هوَ في الجنَّةِ التي في السَّماءِ، وإلَّا؛ فجنَّةُ الأرضِ لمْ يُمْنَعْ إبليسُ مِن التَّكبُّرِ فيها! فهوَ دليلٌ لنا في المسألةِ؛ فإنَّ جنَّةَ الخلدِ لا سبيلَ لإبليسَ إلى دخولِها والتَّكبُّرِ فيها أصلاً، وقد أَخْبَرَ تَعالى أَنَّهُ وَسْوَسَ لآدَمَ وزوجِهِ وكَذَبَهُما وغَرَّهُما وخانَهُما وتكَبَّرَ عليهِما وحَسَدَهُما وهُما حينئذٍ في الجنَّةِ، فدَلَّ على أَنَّها لمْ تَكُنْ جنَّةَ الخلدِ، ومحالٌ أَنْ يَصْعَدَ إليها بعدَ إهباطِهِ وإخراجِهِ منها.

---

(١) في خ: «عقب»، والأولى ما أثبتّه من ط.
(٢) (١١٧/١).
(٣) في خ: «المنقطعة من الجنّة... مستقرّ أنّ المراد... ثمّ صار في».

قالوا: والضَّميرُ في قولِهِ ﴿ٱهْبِطْ مِنْهَا﴾[١]: إمَّا أنْ يَكونَ عائدًا إلى السَّماءِ كما هوَ أحدُ القولينِ، وعلى هٰذا فيَكونُ سبحانَهُ قد أهْبَطَهُ /خ٤٩/ مِن السَّماءِ عَقِبَ امتناعِهِ مِن السُّجودِ، وأخْبَرَ أنَّهُ ليسَ لهُ أنْ يَتكَبَّرَ فيها، ثمَّ تكَبَّرَ وكَذَبَ وخانَ في الجنَّةِ، فدَلَّ على أنَّها ليستْ في السَّماءِ. [أ]و يَكونَ عائدًا إلى الجنَّةِ على القولِ الآخرِ، ولا يَلْزَمُ مِن هٰذا [القولِ] أنْ تَكونَ الجنَّةُ التي كادَ فيها آدَمَ وغَرَّهُ وقاسَمَهُ كاذبًا هيَ تلكَ التي أُهْبِطَ منها، بلِ القرآنُ يَدُلُّ على أنَّها غيرُها كما ذَكَرْناه[٢]. فعلى التَّقدير[ينِ] لا تَدُلُّ الآيةُ على أنَّ الجنَّةَ التي جَرى لإبليسَ معَ آدَمَ فيها ما جَرى هيَ[٣] جنَّةُ الخلدِ.

* قالوا: وأمَّا قولُكُم: إنَّ بني إسرائيلَ كانوا بجبالِ الشَّراةِ[٤] المشرفةِ على الأرضِ التي يَهْبِطونَ إليها وهُم كانوا يَسيرونَ ويَرْحَلونَ، فلذٰلكَ قيلَ لهُمُ ﴿ٱهْبِطوا﴾؛ فهٰذا حقٌّ لا نُنازِعُكُم فيهِ، وهوَ بعينِهِ جوابٌ لنا؛ فإنَّ الهبوطَ يَدُلُّ على أنَّ تلكَ الجنَّةَ كانَتْ أعلى مِن الأرضِ التي أُهْبِطوا إليها، وأمَّا كونُها جنَّةَ الخلدِ؛ فلا.

قالوا: والفرقُ بينَ قولِهِ ﴿ٱهْبِطوا مِصْرًا﴾ وقولِهِ ﴿ٱهْبِطوا مِنْهَا﴾ ـ بأنَّ الأوَّلَ [متضمِّنٌ] لنهايةِ الهبوطِ وغايتِهِ و﴿ٱهْبِطوا مِنْهَا﴾ متضمِّنٌ لمبدئِهِ وأوَّلِهِ ـ لا تأْثيرَ لهُ فيما نحنُ فيهِ؛ فإنَّ هَبَطَ مِن كذا إلى كذا[٥] يَتَضَمَّنُ معنى الانتقالِ مِن مكانٍ عالٍ إلى مكانٍ سافلٍ؛ فأيُّ تأْثيرٍ لابتداءِ الغايةِ ونهايتِها في تعيينِ محلِّ الهبوطِ بأنَّهُ جنَّةُ الخلدِ؟!

* قالوا: وأمَّا قصَّةُ موسى ولومِهِ [لـ]آدَمَ على إخراجِهِ مِن الجنَّةِ؛ فلا يَدُلُّ على أنَّها جنَّةُ الخلدِ. وقولُكُم «لا يُظَنُّ بموسى أنَّهُ يَلومُ آدَمَ على إخراجِهِ نفسَهُ وذرِّيَّتَهُ مِن بستانٍ في الأرضِ» تشنيعٌ لا يُفيدُ شيئًا! أفتَرى كانَ ذٰلكَ بستانًا مثلَ آحادِ هٰذهِ البساتينِ

---

(١) في ط: «أهبطوا منها»! والصواب ما أثبتّه من خ.

(٢) فصارت هناك جنّتان: جنّة أرضيّة كان آدم فيها، وجنّة سماويّة لإبليس. وبما أنّ إبليس كُلِّف فعصى وتكبّر ولم يخلد في الجنّة السماويّة؛ فلا يمكن أن تكون جنّة الخلد، كما قالوا في آدم ولا فرق، فصارت الجنان ثلاثًا! وربّما وجدنا رابعة مع البحث والتنقيب! فتأمّل كيف تنتهي هٰذه الأقوال بأصحابها!

(٣) في خ: «كان فيها آدم وغرّه...»، وفي ط: «... جرى لآدم مع إبليس ما جرى فيها هي».

(٤) في خ: «كانوا بجبل السراة»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٥) في ط: «بأنّ الأوّل لنهاية... ولا تأثير له...»، وفي خ: «... من كذا وإلى كذا».

المقطوعةِ الممنوعةِ التي هيَ عرضةُ الآفاتِ والتَّعبِ والنَّصبِ والظَّمإ [والضُّحيِّ] والحرثِ والسَّقيِ والتَّلقيحِ وسائرِ وجوهِ النَّصبِ الذي يَلْحَقُ هٰذهِ البساتينَ؟! لا ريبَ أنَّ موسى [عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ] أعلمُ وأجلُّ مِن أنْ يَلومَ آدَمَ على خروجِهِ وإخراجِ بنيهِ مِن بستانٍ[١] هٰذا شأنُهُ! ولٰكنْ مَن قالَ بهٰذا؟! وإنَّما كانَتْ جنَّةً لا تَلْحَقُها آفةٌ، ولا تَنْقَطعُ ثمارُها، ولا تَغورُ أنهارُها، ولا يَجوعُ ساكنُها ولا يَظْمَأُ، ولا /خ٥٠/ يَضْحى للشَّمسِ ولا يَعْرى، ولا يَمَسُّهُ فيها التَّعبُ والنَّصبُ والشَّقاءُ[٢]. ومثلُ هٰذهِ الجنَّةِ يَحْسُنُ لومُ الإنسانِ على التَّسبُّبِ في خروجِهِ منها.

* قالوا: وأمَّا ٱعتذارُ آدَمَ ﷺ يومَ القيامةِ لأهلِ الموقفِ بأنَّ خطيئتَهُ هيَ التي أخْرَجَتْهُم مِن الجنَّةِ فلا يَحْسُنُ أنْ يَسْتَفْتِحَها لهُم؛ فهٰذا لا يَسْتَلْزِمُ أنْ تكونَ هيَ بعينِها التي أُخْرِجَ منها! بل إذا كانَتْ غيرَها؛ كانَ أبلغَ في الاعتذارِ؛ فإنَّهُ إذا كانَ الخروجُ مِن غيرِ جنَّةِ الخلدِ حَصَلَ بسببِ الخطيئةِ؛ فكيفَ يَليقُ ٱستفتاحُ جنَّةِ الخلدِ والشَّفاعةُ فيها وقد خَرَجَ[٣] مِن غيرِها بخطيئةٍ؟!

● فهٰذا موقفُ نظرِ الفريقينِ ونهايةُ إقدامِ الطَّائفتينِ. فمَن كانَ عندَهُ فضلُ علمٍ في هٰذهِ المسألةِ؛ فلْيَجُدْ بهِ؛ فهٰذا وقتُ الحاجةِ إليهِ[٤]. ومَن عَلِمَ منتهى خطوتِهِ ومقدارَ

---

(١) في ط: «والظمإ والحرث... ولا ريب...»، وفي خ: «... ولا ريب... ثمن ثمرة بستان».

(٢) هل يليق هٰذا الوصف ببستان أرضيّ؟! ألا يتعب القويّ الشديد إذا جرى في أجمل بساتين الأرض على الإطلاق ساعات؟! ألا يسقط؟! ألا يجرح؟! أوليس هٰذا أعظم إشكالاً ممّا فرّوا منه؟!

(٣) في ط: «خطيئته هي التي أخرجته...»، وفي خ: «... هي التي بعينها... فيها ثمّ خرج».

(٤) ليست هٰذه المسألة من المسائل العلميّة التي لا يسع العالم فضلاً عن طالب العلم أن يجهلها، ولا من القضايا التي يرجى كبير فائدة من الإحاطة بها، بل هي أقرب إلى الترف العلميّ منها إلى الأصول والضرورات. ولذٰلك لم يجرّد ابن القيّم يرحمه الله لها بحثًا مستقلاًّ، وإنّما وردت عرضًا في السياق فتوسّع في تفصيلها على عادته. ولذٰلك أيضًا لم يجرّد السلف الصالح من الصحابة والتابعين الكلام فيها، وإن كانت سياقات كلامهم في قصّة آدم توحي بأنّهم مسلّمون بأنّ جنّته هي جنّة الخلد نفسها.

ومع ذٰلك؛ فلتتّسع لي صدور إخواني طلبة العلم إن أثقلت عليهم بصفحة فوق الخمسين التي سبقت في هٰذه المسألة أهذّب فيها ما تقدّم وأورده ملخّصًا مرتّبًا لعلّي أنتهي بهم إلى موقف أكثر وضوحًا وتحديدًا:

أوّلاً: أصل هٰذه القضيّة ما ورد في «العهد القديم» (سفر التكوين / الأصحاح ٢): «وجبل الربّ الإلٰه آدم ترابًا من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسًا حيّة. وغرس الربّ الإلٰه جنّة في عدن شرقًا، =

= ووضع هناك آدم الذي جبله . . . ليعملها ويحفظها»!

ثانيًا: وبهٰذا القول وما تفرّع عنه أستأنس جميع من ذهب إلى التفريق بين جنّة آدم وجنّة الخلد، ثمّ أحتجّوا لقولهم بأدلّة متكاثرة لم يسلّم بها خصومهم الذين أوردوا حججًا مقابلة لم يسلّموا هم بها بالمقابل.

ثالثًا: ومن أنعم النظر في أدلّة الطرفين؛ فلن يجد فيها دليلاً حاسمًا يطمئنّ القلب معه لمذهب أصحابه، فكثير منها كان موضع تجاذب الطرفين كلّ يدّعي أنّه دليل له على خصمه، وأغلبها لا يسلم من أخذ وردّ، وقد تعقّبت كثيرًا منها في الحواشي كما رأيت.

رابعًا: ومع ذٰلك؛ فقد بقي لمن وحّد الجنّتين دليل سلم إلى حدّ ما من السقوط أمام إيرادات الخصوم، وهو قولهم: «والأشهر عند الخاصّة والعامّة الذي لا يخطر بقلوبهم سواه أنّها جنّة الخلد». فهٰذا حقّ وصدق يطول عموم الخلق، ومن بينهم الصحابة والتابعين، ولذٰلك لا تجد لهم كلامًا في هٰذه المسألة مع أنّهم تكلّموا في قضايا دونها بكثير من حيث الأهمّيّة! ومهما حاولت؛ فإنّك لن تستأصل هٰذه الحقيقة المستقرّة في قلوب الناس! والقرآن إنّما أنزل ويسّر ليفهمه عموم الخلق؛ بدويّهم وحضريّهم وأمّيّهم وعالمهم، فإن كانت الحقيقة على غير ما يفهمه الغالبيّة الساحقة منهم؛ فأين التيسير؟!

خامسًا: ولو نظرنا لسياق القصّة عند من وحّد الجنّتين؛ لوجدنا أنّ الله سبحانه خلق آدم بيديه في السماء وعلّمه وكلّمه، ثمّ أرسله إلى ملإ من الملائكة جلوس، ثمّ عاد إلى ربّه فخيّره فأختار يمين ربّه فأراه ذرّيّته، ثمّ أمر الملائكة أن يسجدوا له فأبى إبليس وأستكبر فطرده من السماء، ثمّ أسكن آدم في الجنّة وحذّره من عدوّه إبليس ونهاه عن الشجرة، ثمّ وسوس إبليس لآدم وحوّاء فأكلا من الشجرة وندما فأهبطهما ربّهما من الجنّة إلى الأرض ووعدهما أن يعيدهما إليها إن أتبعا هداه.

وأمّا سياقها عند المفرّقين؛ فيقتضي أنّ الله سبحانه أسكن إبليس عنده في السماء، وخلق آدم بيديه على أرض التعب والشقاء لا في السماء، وعلّمه وكلّمه على أرض التعب والشقاء، ثمّ أرسله إلى ملإ من الملائكة جلوس على أرض التعب والشقاء، ثمّ عاد إلى ربّه وهو ما يزال على أرض التعب والشقاء فخيّره فأختار يمين ربّه فأراه ذرّيّته، ثمّ أسكنه في بستان على الأرض له صفات قريبة من جنّة الخلد، ثمّ أمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا وأستكبر إبليس ساكن السماء عن أن يهبط إلى بستان آدم ويسجد له فيه فطرده الله من السماء (أو: من جنّة في السماء)، فهبط إلى بستان آدم فوسوس له حتّى أكل مع زوجه من الشجرة وندما، فأهبط الله آدم وحوّاء وإبليس جميعًا من ذاك البستان إلى أرض التعب والشقاء التي رآها آدم وعرفها فيما مضى، ومع ذلك فلم يأخذ حذره خشية الرجوع إليها، ثمّ وعد الله آدم أن يدخله الجنّة إن أتّبع هداه، ومع ذلك فلم يَرِد أنّ آدم سأل ربّه عن الجنّة التي سيدخلها يوم القيامة هل هي البستان الذي كان فيه قبل أو غيره!

ولا أظنّك تخالفني في أنّ في هٰذا السياق من العقد والفجوات ـ ومنها تهمة آدم بأنّه نزل إلى الأرض وعرفها ولم يتّعظ ويكفّ عن المعصية ـ ما يجعل الذوق السليم ينبو عن تصوّره بله ترجيحه على سياق الأوّلين.

سادسًا: ويلزم على سياق الأوّلين أنّ إبليس تمكّن من الوسوسة بعد أن طرده الله من السماء. وأجاب أهله بأنّه توصّل لذٰلك بحيلة ما لحكمة أرادها الله. وهٰذا جواب مجمل جيّد وكاف لمن سلّم لكتاب الله ورسوله، ولسنا مكلّفين بعد ذٰلك بالخوض في التفاصيل الدقيقة التي سكت القرآن والسنّة عنها؛ كيف؟! ولماذا؟! مع أنّي أوردت فيما تقدّم تفاصيل ممكنة لذٰلك ذكرها بعض أهل العلم.

بضاعتِه؛ فلْيَكِلِ الأمرَ إلى عالِمِه، ولا يَرْضى لنفسِه بالتَّنقيصِ والإزراءِ عليه، ولْيَكُنْ مِن أهلِ التُّلولِ الذينَ هُم نظَّارةُ الحرب إذا لَمْ يَكُنْ مِن أهلِ الكرِّ والفرِّ والطَّعنِ والضَّرب، فقد تَلاقَتِ الفحولُ وتَطاعَنَتِ الأقران، وضاقَ بِهِمُ المجالُ في حلبةِ[1] هٰذا الميدان:

إذا تَـلاقـى الفُحـولُ فـي لَجَـبٍ فَكَيْفَ حالُ البَعوضِ في الوَسَطِ[2]

هٰذه معاقدُ حججِ الطَّائفتينِ محتازةٌ ببابِكَ وإليكَ تُساق، وهٰذه بضائعُ تجَّارِ العلماءِ[3] يُنادى عليها في سوقِ الكسادِ لا في سوقِ النَّفاق، فمَن لمْ يَكُنْ لديهِ [به] شيءٌ مِن أسبابِ البيانِ والتَّبصرة؛ فلا يَعْدَمْ مَن قدِ ٱسْتَفْرَغَ وسعَهُ وبَذَلَ جهدَهُ منهُ التَّصويبَ أو المعذرة، ولا يَرْضى لنفسِهِ بشرِّ الخطَّتينِ[4] وأبخسِ الحظَّينِ؛ جهلِ الحقِّ وأسبابِه، ومعاداةِ أهلِهِ وطلَّابِه.

وإذا عَظُمَ المطلوبُ وأعْوَزَكَ الرَّفيقُ النَّاصحُ العليم؛ فتَرَحَّلْ[5] بهمَّتِكَ مِن بينِ الأمواتِ وعليكَ بمعلِّمِ إبراهيم[6]؛ فقد ذَكَرْنا في هٰذهِ المسألةِ مِن النُّقولِ والأدلَّةِ والنُّكتِ البديعةِ ما لَعَلَّهُ لا يوجَدُ في شيءٍ مِن كتبِ المصنِّفين، ولا يَعْرِفُ قدرَهُ إلَّا مَن كانَ مِن الفضلاءِ المنصفين.

= ويلزم على سياق المفرّقين: أنّ إبليس كان أعلى مقامًا من آدم وأقرب إلى الله منه؛ لأنّه كان في السماء لا في الأرض. وأنّ هاهنا جنانًا ثلاثًا ورد ذكرها في آيات القرآن دون تمييز. وأنّ في الأرض بستانًا لا يجوع الإنسان فيه ولا يظمأ ولا يعرى ولا يضحى ولا يتعب ولا يشقى. وهٰذا كلّه غريب حقًّا!

سابعًا: وعلى أنّي لا أحمل على الذين فرّقوا بين الجنّتين بتهمة فلسفة ولا ٱعتزال ولا أدّعي أنّهم يقولون بعدم خلق الجنّة والنار؛ فإنّي أراهم فرّوا من إشكالات وشبهات فوقعوا في بلايا ومعضلات فكانوا حقًّا وصدقًا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ثمّ ٱعلم أنّي لم أزد فيما تقدّم على أن رتّبت وبوّبت وحلّلت وركّبت، ولم أخض فيه لفضل علم رأيته عندي، فلست والله من أهل العلم فضلاً عن أن أكون من الفحول أهل الفضول، بل غاية ما أرجوه وأسمو إليه أن يجعلني الله في زمرة الصادقين من طلّاب العلم لا في جملة البعوض؛ إنّه خير مرجوّ ومسؤول.

(١) في خ: «منتهى خطوطه... لنفسه بالنقص... في جلبة»، وما أثبتّه من ط أولى.

(٢) اللجب: الجلبة والصياح.

(٣) في خ: «الفحول في الجب... مجتازة ببابك... بحار العلماء»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٤) في ط: «جهده من التصويب والمعذرة...»! وفي خ: «... لنفسه بسوء الخطيئتين»!

(٥) في خ: «وإذا علم المطلوب...»، وفي ط: «... العليم فأرحل»، والأولى ما أثبتّه.

(٦) يعني الله سبحانه وتعالى، يشير إلى قصّة هداية إبراهيم ﷺ إلى الإسلام.

ومِن اللهِ سبحانَهُ الاستمداد، وعليهِ التَّوكُّلُ وإليهِ الاستناد؛ فإنَّهُ لا يَخيبُ مَن تَوَكَّلَ عليه، ولا يَضيعُ مَن لاذَ بِهِ /خ٥١/ وفَوَّضَ أمرَهُ إليه، وهوَ حسبُنا ونعمَ الوكيلُ.

[٤] فصل

[في عهده سبحانه لآدم عند إهباطه]

ولمَّا أهْبَطَهُ سبحانَهُ مِن الجنَّةِ وعَرَّضَهُ وذرِّيَّتَهُ لأنواعِ المحنِ والبلاءِ؛ أعْطاهُم أفضلَ ممَّا مَنَعَهُم، وهوَ عهدُهُ الذي عَهِدَ إليهِ [و]إلى بنيهِ وأخْبَرَ أنَّهُ مَن تَمَسَّكَ بِهِ منهُم صارَ إلى رضوانِهِ ودارِ كرامتِهِ.

قالَ تَعالى عقبَ إخراجِهِ منها: ﴿قُلْنا اْهْبِطوا مِنْها جَميعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُداايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وفي الآيةِ الأُخرى: ﴿قالَ اْهْبِطا مِنْها جَميعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْري فَإِنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أَعْمى . قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصيرًا . قالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسيتَها وَكَذٰلِكَ اليَوْمَ تُنْسى﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

فلمَّا كَسَرَهُ سبحانَهُ بإهباطِهِ مِن الجنَّةِ؛ جَبَرَهُ وذرِّيَّتَهُ بهٰذا العهدِ الذي عَهِدَهُ إليهِم.

● فقالَ تَعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾:

* وهٰذهِ هيَ [إنِ] الشَّرطيَّةُ المؤكَّدةُ بـ«ما» الدَّالَّةِ على استغراقِ الزَّمانِ[1]، والمعنى: أيَّ وقتٍ وأيَّ حينٍ أتاكُم منِّي هدًى.

* وجَعَلَ جوابَ هٰذا الشَّرطِ جملةً [أُخرى][2] شرطيَّةً، وهيَ قولُهُ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى﴾ [طه: ١٢٣]، كما تَقولُ: إنْ زُرْتَني، فمَن بَشَّرَني بقدومِكَ؛ فهوَ حرٌّ.

وجوابُ الشَّرطِ يَكونُ جملةً تامَّةً:

---

(١) في ط: «العهد الذي عهد إليهم...»، وفي خ: «... الدالّة على استفراغ الزمان».

(٢) ساقطة من ط.

إمَّا خبرًا محضًا، كقولِكَ: إنْ زُرْتَني أكْرَمْتُكَ.

أو خبرًا مقرونًا بالشَّرطِ، كهٰذا.

أو مؤكَّدً[ا] بالقسمِ أو بـ«إنَّ واللامِ»، كقولِهِ تَعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وإمَّا طلبًا: كقولِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «إذا سَأَلْتَ؛ فاسْأَلِ اللهَ، وإذا اسْتَعَنْتَ؛ فاسْتَعِنْ باللهِ»[1]، وقولِهِ: «... وإذا لَقِيتُموهُم؛ فاصْبِروا»[2]، وقولِهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ [حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ]﴾ [التَّوبة: ٥]. وأكثرُ ما يَأْتي هٰذا النَّوعُ معَ «إذا» التي تُفيدُ تحقيقَ وقوعِ الشَّرطِ؛ لسرٍّ، وهوَ إفادتُهُ تحقيقَ الطَّلبِ عندَ تحقُّقِ

(١) (صحيح). قطعة من حديث ابن عبّاس المشهور: «يا غلام إني أعلّمك كلمات...» إلخ. وقد جاء عنه من أوجه:

فرواه: أحمد (١/ ٢٩٣ و٣٠٣ و٣٠٧)، والفسوي (٢/ ٥٣٠)، والترمذي (٣٨ـ القيامة، ٥٩ـ باب، ٤/ ٦٦٧/ ٢٥١٦)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (٣١٦)، وأبو يعلى (٢٥٥٦)، وابن أبي داوود في «القدر» (٢٨)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٨٤/ ١٢٩٨٨ و١٢٩٨٩) و«الدعاء» (٤٢)، والآجرّي في «الشريعة» (٤٢٦)، وابن السنّي في «اليوم والليلة» (٤٢٥)، واللالكائي في «السنّة» (١٠٩٥)، والبيهقي في «الشعب» (١٩٥ و١٠٧٤ و١٠٧٥) و«الصفات» (١٢٦) و«الاعتقاد» (١٣٩)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ٢٢/ ١٢ -١٤)، والمزّي في «التهذيب» (٢٤/ ٢٠)؛ من طرق كثيرة، عن قيس بن الحجّاج، عن حنش الصنعاني، عن ابن عبّاس... رفعه. قال الترمذي: «حسن صحيح»، وقال ابن رجب في «العلوم والحكم» (ح١٩): «طريق حنش التي خرّجها الترمذي حسنة جيّدة». قلت: من أجل قيس؛ فإنّه صدوق.

قال ابن رجب: «وقد روي هٰذا الحديث عن ابن عبّاس من طرق كثيرة من رواية: ابنه عليّ، ومولاه عكرمة، وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، وعبيدالله بن عبدالله، وعمر مولى غفرة، وابن أبي مليكة، وغيرهم». قلت: قد وقفت عليها جميعًا إلاّ طريق عليّ ابنه، لٰكن ليس هٰذا محلّ التطويل في دراسة أسانيدها وبيان اختلاف ألفاظها وزياداتها وما يصحّ من هٰذه الألفاظ وما ليس كذٰلك.

قال ابن رجب: «وأصحّ الطرق كلّها طريق حنش الصنعاني التي خرّجها الترمذي كذا قاله ابن منده وغيره». قلت: بل طريق عطاء أصحّ؛ فقد جاءت عند الطبراني في «الأوسط» (٥٤١٣) مسلسلة بالثقات، ولها أوجه أخرى عند غيره. نعم؛ طريق حنش أشهر وأكثر تواترًا في كتب السنّة.

والحديث صحيح غاية بمجموع طرقه وقد صحّحه الترمذي وابن منده وابن رجب وشاكر والألباني.

(٢) قطعة من حديث عبدالله بن أبي أوفى الذي رواه: البخاري (٥٦ـ الجهاد، ٣٢ـ الصبر عند القتال، ٦/ ٤٥/ ٢٨٣٣)، ومسلم (٣٢ـ الجهاد، ٦ـ كراهة تمنّي لقاء العدوّ، ٣/ ١٣٦٢/ ١٧٤٢).

الشَّرطِ[1]؛ أيْ: فمتى تَحَقَّقَ الشَّرطُ؛ فالطَّلبُ متحقِّقٌ، فأتى بـ«إذا» الدَّالَّةِ على تحقُّقِ [الشَّرطِ، فعُلِمَ تحقُّقُ] الطَّلبِ عندَها، وقد يَأْتي معَ «إنْ» قليلاً، كقولِهِ تَعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبوكَ فَقُلْ لي عَمَلي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس: ٤١].

وإمَّا جملةً /خ٥٢/ إنشائيَّةً، كقولِهِ لعبدِهِ الكافرِ: إنْ[2] أسْلَمْتَ فأنتَ حرٌّ، ولامرأتِهِ: إنْ فَعَلْتِ كذا فأنتِ طالقٌ. فهٰذا إنشاءٌ للعتقِ والطَّلاقِ عندَ وجودِ الشَّرطِ على رأْيٍ، [أ]و إنشاءٌ لهُ حالَ التَّعليقِ ويَتَأخَّرُ نفوذُهُ إلى حينِ وجودِ الشَّرطِ على رأْيٍ آخرَ. وعلى التَّقديرينِ؛ فجوابُ الشَّرطِ جملةٌ إنشائيَّةٌ[3].

والمقصودُ أنَّ جوابَ الشَّرطِ في الآيةِ المذكورةِ جملةٌ شرطيَّةٌ، وهيَ قولُهُ [تَعالى]: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. وهٰذا الشَّرطُ يَقْتَضي ٱرتباطَ الجملةِ الأُولى بالثَّانيةِ ٱرتباطَ العلَّةِ بالمعلولِ والسَّببِ بالمسبَّبِ، فيَكونُ الشَّرطُ الذي هوَ ملزومٌ علَّةٍ مقتضيًا للجزاءِ الذي هوَ لازمٌ.

فإنْ كانَ بينَهُما تلازمٌ مِن الطَّرفينِ؛ كانَ وجودُ كلٍّ منهُما بدونِ الآخرِ ممتنعًا؛ كدخولِ الجنَّةِ بلا إسلامٍ، وٱرتفاعِ الخوفِ والحزنِ والضَّلالِ والشَّقاءِ مع متابعةِ الهوى[4]. وهٰذهِ هيَ عامَّةُ شروطِ القرآنِ والسُّنَّةِ؛ فإنَّها أسبابٌ وعللٌ، والحكمُ يَنْتَفي بٱنتفاءِ علَّتِهِ.

وإنْ كانَ التَّلازمُ بينَهُما مِن أحدِ الطَّرفينِ؛ كانَ الشَّرطُ ملزومًا خاصًّا والجزاءُ لازمًا عامًّا، فمتى تَحَقَّقَ الشَّرطُ الملزومُ الخاصُّ؛ تَحَقَّقَ الجزاءُ اللازمُ العامُّ، ولا يَلْزَمُ العكسُ. كما يُقالُ: إنْ كانَ هٰذا إنسانـ[ـا]؛ فهوَ حيوانٌ، وإنْ كانَ البيعُ صحيحًا؛ فالملكُ ثابتٌ. وهٰذا غالبُ ما يَأْتي في قياسِ

---

(١) في ط: «التي تقيّد تحقيق. . .»! وفي خ: «. . . عند تحقيق الشرط».

(٢) في خ: «وإن»، والأولى حذف الواو كما في ط.

(٣) بالمعنى المذكور لا بالمعنى الاصطلاحي للجملة الإنشائيّة؛ لأنّ جملة «أنت حرّ» و«أنت طالق» خبريّة محضة.

(٤) في خ: «والسبب بالسبب. . . علّة ومقتضيًا. . . الجنّة بالإسلام. . . متابعة الهدى»! وفي ط: «بدون دخول الآخر ممتنعًا. . .»! فلعلّها تحريف صوابه: «بدون وجود الآخر. . .».

الدّلالةِ[(١)]؛ حيثُ يَكونُ الشَّرطُ دليلاً على الجزاءِ، فيَلْزَمُ مِن وجودِهِ وجودُ الجزاءِ ـ لأنَّ الجزاءَ لازمُهُ، ووجودُ الملزومِ يَسْتَلْزِمُ وجودَ اللازمِ ـ ولا يَلْزَمُ مِن عدمِهِ عدمُ الجزاءِ.

وإنْ وَقَعَ هٰذا الشَّرطُ بينَ علَّةٍ ومعلولٍ: فإنْ كانَ الحكمُ معلَّلاً بعللٍ؛ صَحَّ ذٰلك[(٢)]. وجازَ أنْ يَكونَ الجزاءُ أعمَّ مِن الشَّرطِ، كقولِكَ: إنْ كانَ هٰذا مرتدًّا؛ فهوَ حلالُ الدَّمِ؛ فإنَّ حِلَّ الدَّمِ أعمُّ مِن حِلِّهِ بالرِّدَّةِ[(٣)]. إلاَّ أنْ يُقالَ: إنَّ حُكمَ العلَّةِ المعيَّنةِ يَنْتَفي بانتفائِها، وإنْ ثَبَتَ الحكمُ بعلَّةٍ أُخرى؛ فهوَ حكمٌ آخرُ، وأمَّا حكمُ العلَّةِ المعيَّنةِ؛ فمحالٌ أنْ يَبْقى معَ زوالِها. وحينئذٍ؛ فيَعودُ التَّلازمُ مِن الطَّرفينِ، ويَلْزَمُ مِن وجودِ كلِّ واحدٍ مِن الشَّرطِ والجزاءِ[(٤)] وجودُ الآخرِ ومِن عدمِهِ عدمُهُ.

وتمامُ تحقيقِ هٰذا [في] مسألةِ /خ٥٥/ تعليلِ الحكمِ الواحدِ بعلَّتينِ. وللنَّاسِ فيهِ نزاعٌ مشهورٌ. وفصلُ الخطابِ فيها: أنَّ الحكمَ الواحدَ: إنْ[(٥)] كانَ واحدًا[ا] بالنَّوعِ كحِلِّ الدَّمِ وثبوتِ الملكِ ونقضِ الطَّهارةِ؛ جازَ تعليلُهُ بالعللِ المختلفةِ، وإنْ كانَ واحدًا[ا] بالعينِ كحِلِّ الدَّمِ بالرِّدَّةِ وثبوتِ الملكِ بالبيعِ [أ]وِ الميراثِ ونحوِ ذٰلكَ؛ لمْ يَجُزْ تعليلُهُ بعلَّتينِ مختلفتينِ. وبهٰذا التَّفصيلِ يَزولُ الاشتباهُ في هٰذهِ المسألةِ. واللهُ أعلمُ. ومَن تَأمَّلَ أدلَّةَ الطَّائفتينِ: وَجَدَ كلَّ ما ٱحْتَجَّ بهِ مَن رأى تعليلَ الحُكمِ بعللٍ مختلفةٍ إنَّما يَدُلُّ على تعليلِ الواحدِ بالنَّوعِ بِها، وكلُّ مَن نَفى تعليلَ الحُكمِ بعلَّتينِ إنَّما يَتِمُّ دليلُهُ على نفيِ تعليلِ الواحدِ بالعينِ بهِما. فالقولانِ عندَ التَّحقيقِ يَرْجِعانِ إلى شيءٍ واحدٍ.

والمقصودُ أنَّ اللهَ سبحانَهُ جَعَلَ ٱتِّباعَ هداهُ وعهدَهُ الذي عَهِدَهُ إلى آدمَ سببًا

---

(١) قياس الدلالة: هو الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلّة وملزومها لا بالعلّة نفسها، كما في قوله تعالى: ﴿ويقول الإنسان أإذا ما متّ لسوف أخرج حيًّا . أولا يذكر الإنسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئًا﴾. فدلّ بحصول الإحياء الثاني على إمكانيّة الإحياء الأوّل بجامع الإنشاء بعد العدم فيهما. فالإنشاء بعد العدم دليل العلّة، والعلّة الموجبة للحكمين معًا هي عموم القدرة وشمولها. وانظر مزيدًا من التفصيل في هٰذا القياس في: «الإحكام» (٤/ ٧ و١٢٠) للآمديّ، «أعلام الموقّعين» (١/ ١٣٨).

(٢) يعني: صحّ أن يكون الشرط دليلاً على الجزاء يلزم من وجوده وجود الجزاء ومن عدمه عدمه.

(٣) في خ: «بين علّة ومعلولة . . . أعمّ من حلّه بالزيادة»! والتصويب من ط.

(٤) في ط: «فمحال أن ينفى مع . . .»! وفي خ: «. . . من الشروط والجزاء».

(٥) في خ: «وإن»! والصواب حذف الواو كما في ط.

ومقتضيًا لعدمِ الخوفِ والحزنِ والضَّلالِ والشَّقاءِ. وهٰذا الجزاءُ ثابتٌ بثبوتِ الشَّرطِ منتفٍ بٱنتفائِهِ كما تَقَدَّمَ بيانُهُ.

ونفيُ الخوفِ والحزنِ عن متَّبعِ الهدى نفيٌ لجميعِ أنواعِ الشُّرورِ: فإنَّ المكروهَ الذي يَنْزِلُ بالعبدِ؛ متى عَلِمَ بحصولِهِ؛ فهوَ خائفٌ منهُ أَنْ يَقَعَ بِهِ. وإذا وَقَعَ بِهِ؛ فهوَ حزينٌ على ما أصابَهُ منهُ. فهوَ دائمًا في خوفٍ وحزنٍ. فكلُّ خائفٍ حزينٌ، وكلُّ حزينٍ خائفٌ، وكلٌّ مِن الخوفِ والحزنِ يكونُ على فوتِ المحبوبِ[1] وحصولِ المكروهِ. فالأقسامُ أربعةٌ: خوفٌ مِن فوتِ المحبوبِ وحصولِ المكروهِ، [وحزنٌ على فوتِ المحبوبِ وحصولِ المكروهِ][2]. وهٰذا جُمَّاعُ الشَّرِّ كلِّهِ.

فنَفَى اللهُ سبحانَهُ ذٰلكَ عن متَّبعِ هداهُ الذي أنْزَلَهُ على ألسنةِ رسلِهِ: وأتى في نفيِ الخوفِ بالاسمِ الدَّالِّ على نفيِ الثُّبوتِ واللزومِ؛ فإنَّ أهلَ الجنَّةِ لا بدَّ لهُم مِن الخوفِ في الدُّنيا وفي البرزخِ ويومَ القيامةِ حيثُ يقولُ آدمُ وغيرُهُ مِن الأنبياءِ: نفسي نفسي[3]، فأخْبَرَ سبحانَهُ أنَّهُم، وإنْ خافوا، فلا خوفٌ عليهِم؛ أيْ: لا يَلْحَقُهُمُ الخوفُ الذي خافوا منهُ. وأتى في نفيِ الحزنِ بالفعلِ المضارعِ الدَّالِّ على نفيِ التَّجدُّدِ /خ٥٦/ والحدوثِ؛ أيْ: لا يَلْحَقُهُم حزنٌ ولا يَحْدُثُ لهُم إذا تَذَكَّروا ما سَلَفَ[4] منهُم، بل هُم في سرورٍ دائمٍ لا يَعْرِضُ لهُم حزنٌ على ما فاتَ. وأمَّا الخوفُ؛ فلمَّا كانَ تعلُّقُهُ بالمستقبلِ دونَ الماضي؛ نَفَى لحوقَهُ لهُم جملةً؛ أيِ: الذي خافوا منهُ لا يَنالُهُم ولا يُلِمُّ بهِم. واللهُ أعلمُ. فالحزينُ إنَّما يَحْزَنُ في المستقبلِ على ما مَضى، والخائفُ إنَّما يَخافُ في الحالِ ممَّا يُسْتَقْبَلُ. فقالَ: ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ[5] [وَلا هُمْ يَحْزَنونَ][6]﴾؛ أيْ: لا يَلْحَقُهُم ما خافوا منهُ، ولا يَعْرِضُ لهُم حزنٌ على ما فاتَ.

---

(١) في خ وط: «يكون على فعل المحبوب»! فالظاهر أنّه تحريف قديم صوابه ما أثبتّه.

(٢) ساقطة من خ وط والسياق يقتضيها ضرورة.

(٣) قطعة من حديث الشفاعة الطويل الذي تقدّمت الإشارة إليه (١/ ٨٢).

(٤) في خ: «إذا بذٰلك وما سلف»! وهو تحريف لما أثبتّه من ط.

(٥) في خ: «نفى خوفه لهم جملة...»، وفي ط: «... يستقبل فلا خوف عليهم».

(٦) ساقطة من خ وط والسياق يقتضيها ضرورة.

وقالَ في الآيةِ الأُخرى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُداىَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى﴾ [طه: ١٢٣]: فنَفى عن متَّبِعِ هداهُ أمرينِ؛ الضَّلالَ والشَّقاءَ.

قالَ عبدُاللهِ بنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُما: تكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ قَرَأَ القرآنَ وعَمِلَ بما فيهِ أنْ لا يَضِلَّ في الدُّنيا ولا يَشْقى في الآخرةِ، ثمَّ قرَأَ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُداىَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى﴾.

والآيةُ نَفَتْ مسمَّى الضَّلالِ والشَّقاءِ عن متَّبِعِ الهدى مطلقًا، فاْقتَضَتِ الآيةُ: أنَّهُ لا يَضِلُّ في الدُّنيا ولا يَشْقى فيها، ولا يَضِلُّ في الآخرةِ ولا يَشْقى فيها. فإنَّ المراتبَ أربعةٌ: هدًى وشقاوةٌ في الدُّنيا، وهدًى وشقاوةٌ في الآخرةِ. [لٰكنَّ ابنَ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُما ذَكَرَ في كلِّ دارٍ أظْهَرَ مرتبتَيْها: فذَكَرَ الضَّلالَ في الدُّنيا؛ إذْ هوَ أظهرُ لنا وأقربُ مِن ذكرِ الضَّلالِ في الآخرةِ]، وذَكَرَ الشَّقاءَ في الآخرةِ؛ إذْ هوَ أظهرُ عندَ النَّاسِ مِن الضَّلالِ فيها، بل كثيرٌ مِن النَّاسِ لا يَحْصُلُ في ذهنِهِ حقيقةُ الضَّلالِ في الآخرةِ. وأيضًا؛ فضلالُ الدُّنيا أصلُ ضلالِ الآخرةِ[(١)]، وشقاءُ الآخرةِ مستلزمٌ للضَّلالِ فيها. فنبَّهَ بكلِّ مرتبةٍ على الأُخرى.

فنبَّهَ بنفيِ ضلالِ الدُّنيا على نفيِ ضلالِ الآخرةِ؛ فإنَّ العبدَ يَموتُ على ما عاشَ عليهِ ويُبْعَثُ على ما ماتَ عليهِ. قالَ اللهُ تَعالى في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْري فَإِنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أَعْمى . قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصيرًا . قالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسيتَها وَكَذٰلِكَ اليَوْمَ تُنْسى﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦]، وقالَ في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَمَنْ كانَ في هٰذِهِ أَعْمى فَهُوَ في الآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]. فأخْبَرَ أنَّ مَن كانَ ضالًّا في الدُّنيا؛ فهوَ في الآخرةِ أضلُّ[(٢)].

وأمَّا نفيُ شقاءِ الدُّنيا؛ فقدْ يُقالُ: إنَّهُ لمَّا اْنتَفى عنهُ /خ٥٧/ الضَّلالُ فيها وحَصَلَ لهُ الهدى ـ والهدى فيهِ مِن بردِ اليقينِ وطُمأْنينةِ القلبِ وذوقِ طعمِ الإيمانِ ووَجْدِ

---

(١) في ط: «وأيضًا؛ فضلال الدنيا أضل ضلال في الآخرة»! وفي خ: «وأيضًا؛ فضالُّ الدُّنيا في ضلال الآخرة». ولا يستوي الكلام في السياق إلّا بما أثبتّه، وستأتي العبارة نفسها على الصواب بعد صفحتين.

(٢) في ط: «من كان في هٰذه الدار ضالًّا فهو في الآخرة أضلّ»، والأولى ما أثبتّه من خ.

حلاوتِه[١] وفرحةِ القلبِ بِهِ وسرورِهِ والتَّنعُّمِ بِهِ ومصيرِ القلبِ حيًّا بالإيمانِ مستنيرًا بِهِ قويًّا بِهِ قد نالَ بِهِ غذاءَهُ ودواءَهُ وشفاءَهُ وحياتَهُ ونورَهُ وقوَّتَهُ ولذَّتَهُ ونعيمَهُ ـ؛ [ٱنْتَفى شقاؤُهُ وحَصَلَ لهُ][٢] ما هوَ أجلُّ أنواعِ النَّعيمِ وأطيبُ الطَّيِّباتِ وأعظمُ اللذَّاتِ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانوا يَعْمَلونَ﴾ [النحل: ٩٧]. فهٰذا خبرُ أصدقِ الصَّادقينَ، ومَخْبَرُهُ عندَ أهلِهِ عينُ [اليقينِ][٣] بل حقُّ اليقينِ. فلا بدَّ لكلِّ مَن عَمِلَ صالحًا وهوَ مؤمنٌ أنْ يُحْيِيَهُ اللهُ حياةً طيِّبةً بحسبِ إيمانِهِ وعملِهِ. ولٰكنْ يَغْلَطُ الجفاةُ الأجلافُ في مسمَّى الحياةِ [الطَّيِّبةِ]؛ حيثُ يَظُنُّونَها التَّنعُّمَ في أنواعِ المآكلِ والمشاربِ والملابسِ والمناكحِ أو لذَّةَ الرِّياسةِ والمالِ وقهرِ الأعداءِ والتَّفنُّنِ في أنواعِ الشَّهواتِ[٤]. ولا ريبَ أنَّ هٰذِهِ لذَّةٌ مشتركةٌ بينَ البهائمِ، بلْ قدْ يَكونُ حظُّ كثيرٍ مِن البهائمِ منها أكثرَ مِن حظِّ الإنسانِ، فمَن لمْ يَكُنْ عندَهُ إلاَّ اللذَّةُ التي تُشارِكُهُ فيها السِّباعُ والدَّوابُّ والأنعامُ؛ فذٰلكَ ممَّن يُنادى عليهِ مِن مكانٍ بعيدٍ. ولٰكنْ؛ أينَ هٰذِهِ اللذَّةُ مِن اللذَّةِ بأمرٍ، إذا خالَطَ بشاشتُهُ القلوبَ؛ سَلا عنِ الأبناءِ والنِّساءِ والأوطانِ والأموالِ والإخوانِ والمساكنِ، ورَضِيَ بتركِها كلِّها والخروجِ منها رأْسًا، وعَرَّضَ نفسَهُ لأنواعِ المكارهِ والمشاقِّ، وهوَ متحلٍّ بهٰذا منشرحُ الصَّدرِ بِهِ، يَطيبُ لهُ قتلُ ٱبنِهِ وأبيهِ وصاحبتِهِ وأخيهِ، لا تَأْخُذُهُ[٥] في ذٰلكَ لومةُ لائمٍ. حتَّى إنَّ أحدَهُم لَيَتَلَقَّى الرُّمحَ بصدرِهِ وهوَ يَقولُ: فُزْتُ وربِّ الكعبةِ. ويَسْتَطيلُ الآخرُ حياتَهُ، حتَّى يُلْقِيَ قُوتَهُ مِن يدِهِ، ويَقولَ: إنَّها لحياةٌ طويلةٌ إنْ صَبَرْتُ حتَّى آكُلَها، ثمَّ يَتَقَدَّمُ إلى الموتِ فرحانَ مسرورًا[٦]. ويَقولُ الآخرُ معَ فقرِهِ: لو عَلِمَ /خ٥٨/ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ عليهِ؛ لَجالَدونا عليهِ بالسُّيوفِ. ويَقولُ الآخرُ:

---

(١) في ط: «فوجد حلاوته»! والصواب ما أثبتّه من خ.

(٢) ساقطة من خ وط والسياق يقتضيها ضرورة.

(٣) ساقطة من ط.

(٤) في ط: «مسمّى الحياة حيث... والتفنّن بأنواع الشهوات»، والتصويب من خ.

(٥) في خ: «السباع والذئاب والأنعام... الصدر به طيب له... وصاحبته وأخته ولا تأخذه».

(٦) في ط: «بصدره ويقول... فرحًا مسرورًا»، وفي خ: «... إنّها حياة طويلة...».

إنَّهُ لَتَمُرُّ بالقلبِ أوقاتٌ يَرْقُصُ فيها طربًا. وقالَ بعضُ العارفينَ: إنَّهُ لَتَمُرُّ بي أوقاتٌ أقولُ فيها: إنْ كانَ أهلُ الجنَّةِ في مثلِ هٰذا؛ إنَّهُم لفي نعيمٍ.

ومَن تأمَّلَ قولَهُ ﷺ، لمَّا نَهاهُم عنِ الوصالِ، فقالوا: إنَّكَ تُواصِلُ، فقالَ: «إنِّي لستُ كهيئتِكُم، إنِّي أظلُّ عندَ ربِّي يُطْعِمُني ويَسْقيني»[1]؛ عَلِمَ أنَّ هٰذا طعامُ الأرواحِ وشرابُها وما يَفيضُ عليها مِن أنواعِ البهجةِ واللذَّةِ والسُّرورِ والنَّعيمِ؛ الذي رسولُ اللهِ ﷺ في الذُّروةِ العليا منهُ، وغيرُهُ إذا تَعَلَّقَ بغبارِهِ؛ رَأى ملكَ الدُّنيا ونعيمَها بالنِّسبةِ إليهِ هباءً منثورًا بل باطلاً[2] وغرورًا.

وغَلِطَ مَن قالَ: [إنَّهُ كانَ يَأْكُلُ ويَشْرَبُ طعامًا وشرابًا يَغْتَذي بهِ بدنُهُ؛ لوجوهٍ:

أحدُها: أنَّهُ قالَ ﷺ:] «أظَلُّ عندَ ربِّي يُطْعِمُني ويَسْقيني»، ولو كانَ أكلاً وشربًا؛ لمْ يَكُنْ وصالاً ولا صومًا[3].

الثَّاني: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخْبَرَهُم أنَّهُم ليسوا كهيئتِهِ في الوصالِ؛ فإنَّهُم إذا واصَلوا تَضَرَّروا بذٰلكَ، وأمَّا هوَ ﷺ؛ فإنَّهُ إذا واصَلَ لا يَتَضَرَّرُ بالوصالِ. فلو كانَ يَأْكُلُ ويَشْرَبُ؛ لَكانَ الجوابُ: وأنا أيضًا لا أُواصِلُ، بل آكُلُ وأشْرَبُ كما تَأْكُلونَ وتَشْرَبونَ. فلمَّا قَرَّرَهُم على قولِهِم إنَّكَ تُواصِلُ ولمْ يُنْكِرْهُ عليهِم؛ دَلَّ على أنَّهُ كانَ مواصلاً، وأنَّهُ لمْ يَكُنْ يَأْكُلُ أكلاً وشربًا يُفْطِرُ الصَّائمَ.

الثَّالثُ: أنَّهُ لو كانَ أكلاً وشربًا يُفْطِرُ الصَّائمَ؛ لمْ يَصِحَّ الجوابُ بالفارقِ بينَهُم وبينَهُ؛ فإنَّهُ حينئذٍ يَكونُ ﷺ هوَ وهُم مشتركينَ في عدمِ الوصالِ، فكيفَ يَصِحُّ الجوابُ بقولِهِ: «لستُ كهيئتِكُم»؟!

وهٰذا أمرٌ يَعْلَمُهُ غالبُ النَّاسِ؛ أنَّ القلبَ، متى حَصَلَ لهُ ما يُفْرِحُهُ ويَسُرُّهُ مِن نيلِ مطلوبِهِ ووصالِ حبيبِهِ، أو ما يَغُمُّهُ ويَسوؤُهُ ويَحْزُنُهُ؛ شُغِلَ عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ. حتَّى

---

(١) رواه: البخاري (٢٠ـ الصوم، ٤٨ـ الوصال، ٤/٢٠٢/١٩٦١-١٩٦٦)، ومسلم (١٣ـ الصيام، ١١ـ النهي عن الوصال، ٢/ ٧٧٤/١١٠٢-١١٠٥)؛ من حديث عائشة وابن عمر وأبي هريرة وأنس عندهما وأبي سعيد عند البخاري. وأولاهم بهٰذا اللفظ أبو هريرة وأنس.

(٢) في ط: «النعيم ومن تأمّل قول النبيّ... وما يفيض علينا...»! وفي خ: «... بل باطل»!

(٣) في خ: «وشرابًا لم يكن وصالاً ولا مواصلاً»! وفي حاشية خ: «لعلّه صومًا».

إنَّ كثيرًا مِن العشَّاقِ تَمُرُّ بِهِ الأيَّامُ لا يَأْكُلُ شيئًا ولا تَطْلُبُ نفسُهُ أكلاً. وقد أفْصَحَ القائلُ في هٰذا المعنى /خ٥٩/ :

لَهـا أحـاديـثُ مِـنْ ذِكْـراكِ تَشْغَلُهـا ... عَـنِ الشَّـرابِ وَتُلْهيهـا عَـنِ الـزَّادِ

لَهـا بِـوَجْهِـكِ نـورٌ تَسْتَضـيءُ بِـهِ ... وَمِـنْ حَـديثِـكِ فـي أعْقـابِهـا حـادِي

إذا اشْتَكَتْ[١] مِنْ كَلالِ السَّيْرِ أوْعَدَها ... رَوْحُ القُـدومِ فتَحْيـا عِنْـدَ مِيعـادِ

والمقصودُ أنَّ الهُدى مستلزمٌ لسعادةِ الدُّنيا وطيبِ الحياةِ والنَّعيمِ العاجلِ، وهوَ أمرٌ يَشْهَدُ بهِ الحسُّ والوَجدُ. وأمَّا سعادةُ الآخرةِ؛ فغيبٌ يُعْلَمُ بالإيمانِ، فذَكَرَها ابنُ عَبَّاسٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُما] لكونِها أهمَّ، وهيَ الغايةُ المطلوبةُ. وضلالُ الدُّنيا أظهرُ، وبالنَّجاةِ منهُ يَنْجو مِن كلِّ شرٍّ، وهوَ أصلُ ضلالِ الآخرةِ وشقائِها، فلذٰلكَ ذَكَرَهُ وحدَهُ. واللهُ أعلمُ.

* **فصل**: وهٰذانِ الأصلانِ ـ أعْني: الضَّلالَ والشَّقاءَ ـ يَذْكُرُهُما سبحانَهُ كثيرًا في كلامِهِ، ويُخْبِرُ أنَّهُما حظُّ أعدائِهِ. ويَذْكُرُ ضدَّهُما ـ وهُما الهدى والفلاحُ ـ كثيرًا، ويُخْبِرُ أنَّهُما حظُّ أوليائِهِ.

أمَّا الأوَّلُ؛ فكقولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧]: فالضَّلالُ الضَّلالُ، والسُّعرُ هوَ الشَّقاءُ والعذابُ. وقالَ تَعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥][٢].

وأمَّا الثَّاني؛ فكقولِهِ تَعالى في [أوَّلِ] البقرةِ وقد ذَكَرَ المؤمنينَ وصفاتِهِم: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]. وكذٰلك في أوَّلِ لُقْمانَ [٥]. وقالَ في الأنعامِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولمَّا كانَتْ سورةُ أُمِّ القرآنِ أعظمَ سورةٍ في القرآنِ وأفرضَها قراءةً على الأُمَّةِ وأجمعَها لكلِّ ما يَحْتاجُ إليهِ العبدُ وأعمَّها نفعًا؛ ذَكَرَ فيها الأمرينِ:

---

(١) في خ: «الأيّام ولا يأكل... ويلهيها عن الزاد... إذا شكت»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٢) فالشقاء والعذاب في الخسران، والضلال في عدم الهداية.

فأمَرَنا أنْ نَقولَ: ﴿ٱهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقيمَ . صِراطَ الَّذينَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]: فذَكَرَ الهدايةَ والنِّعمةَ، وهُما الهدى والفلاحُ.

ثمَّ قالَ: ﴿غَيْرِ المَغْضوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]: فذَكَرَ المغضوبَ عليهِم ـ وهُم أهلُ الشَّقاءِ ـ والضَّالِّينَ ـ وهُم أهلُ الضَّلالِ ـ. وكلٌّ مِن الطَّائفتينِ لهُ الضَّلالُ والشَّقاءُ، لٰكنْ ذَكَرَ الوصفينِ معًا لِتكونَ الدّلالةُ على كلٍّ منهُما بصريحِ لفظِهِ.
وأيضًا؛ فإنَّهُ ذَكَرَ ما هوَ أظهرُ الوصفينِ في كلِّ طائفةٍ /خ٦٠/: فإنَّ الغضبَ على اليهودِ أظهرُ لعنادِهِمُ الحقَّ بعدَ معرفتِهِ، والضَّلالَ في النَّصارى أظهرُ لغلبةِ الجهلِ فيهِم. وقد صَحَّ عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ أنَّهُ قالَ: «اليهودُ مغضوبٌ عليهِم، والنَّصارى ضالُّونَ»[1].

* فصل: وقولُهُ تَعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾: هوَ خطابٌ لمَن أُهْبِطَ مِن الجنَّةِ بقولِهِ: ﴿ٱهْبِطا مِنْها جَميعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [طه: ١٢٣]. وكلا الخطابينِ لأبوَيِ الثَّقلينِ.

وهوَ دليلٌ على أنَّ الجنَّ مأمورونَ منهيُّونَ داخلونَ تحتَ شرائعِ الأنبياءِ ـ وهٰذا ممَّا لا خلافَ فيهِ بينَ الأُمَّةِ ـ وأنَّ نبيَّنا بُعِثَ إليهِم كما بُعِثَ إلى الإنسِ. كما لا خلافَ

---

(١) (صحيح). رواه: الطيالسي (١٠٤٠)، وأحمد (٤/٣٧٨)، والترمذي (٤٨ـ التفسير، ٢ـ الفاتحة، ٥/٢٠٢/ تحت ٢٩٥٣ و٢٩٥٤)، والطبري (١٩٤ و١٩٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٤٠ و٤١)، وابن حبّان (٦٢٤٦ و٧٢٠٦)، والطبراني (١٧/٩٨/٢٣٦ و٢٣٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٣٣٩)، والمزّي في «التهذيب» (١٤/١١١)؛ من طرق، عن سماك بن حرب، سمعت عبّاد بن حبيش (وقال الطيالسي: عمّن سمع عديًّا، وقال ابن جرير مرّة: عن مري بن قطري)، سمعت عديّ بن حاتم... رفعه. وهٰذا سند ضعيف لاختلافهم على سماك في التابعي على مجهولين ومبهم.

لٰكن رواه: الطبري (١٩٣)، والطبراني في «الأوسط» (٣٨٢٥)؛ من طريق أحمد بن الوليد الرملي، ثنا عبدالله بن جعفر الرقّي، ثنا ابن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن عدي... به. وهٰذا ضعيف أيضًا من أجل الرملي؛ فإنّه مستور، وكذٰلك الرقّي كبر وتغيّر يسيرًا.

ثمّ له شاهد صحيح عند: عبدالرزّاق في «التفسير» (١٣)، وأحمد (٥/٧٧)، وأبي يعلى (٧١٧٩)، وابن جرير (١٩٦-١٩٩)، والبيهقي في «السنن» (٦/٣٣٦) و«الشعب» (٤٣٢٩)؛ من حديث عبدالله بن شقيق، عمّن سمع النبيّ... رفعه. قال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح».

وآخر من حديث أبي ذرّ عند ابن مردويه بسند حسّنه العسقلاني في «الفتح» (٨/١٥٩).

فالمتن صحيح بلا ريب بمجموع هٰذه الأسانيد، وقد قوّاه الترمذي وابن حبّان وابن القيّم وابن كثير والهيثمي وشاكر والألباني.

بينَهُم[١] أنَّ مسيئَهُم مستحقٌّ للعقابِ. وإنَّما ٱخْتَلَفَ علماءُ الإسلامِ في المسلمِ منهُم؛ هل يَدْخُلُ الجنَّةَ؟ فالجمهورُ على أنَّ محسنَهُم في الجنَّةِ، كما أنَّ مسيئَهُم في النَّارِ. وقيلَ: بل ثوابُهُم سلامتُهُم مِن الجحيمِ، وأمَّا الجنَّةُ؛ فلا يَدْخُلُها أحدٌ مِن أولادِ إبْليسَ، وإنَّما هيَ لبني آدَمَ وصالحي ذرِّيَّتِهِ خاصَّةً. وحُكِيَ هٰذا القولُ عن أبي حَنيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالى.

وٱحْتَجَّ الأوَّلونَ بوجوهٍ:

أحدُها: هٰذهِ الآيةُ. فإنَّهُ سبحانَهُ أخْبَرَ أنَّ مَنِ ٱتَّبَعَ هداهُ؛ فلا يَخافُ ولا يَحْزَنُ ولا يَضِلُّ ولا يَشْقى، وهٰذا مستلزمٌ لكمالِ النَّعيمِ. ولا يُقالُ: إنَّ الآيةَ إنَّما تَدُلُّ على نفيِ العذابِ فقط ولا خلافَ أنَّ مؤمنيهِم لا يُعاقَبونَ! لأنَّا نَقولُ: لو لَمْ تَدُلَّ الآيةُ إلَّا على أمرٍ عدميٍّ فقط؛ لَمْ يَكُنْ مدحًا لمؤمني الإنسِ[٢]، ولَما كانَ فيها إلَّا مجرَّدُ أمرٍ عدميٍّ، وهوَ عدمُ الخوفِ والحزنِ. ومعلومٌ أنَّ سياقَ الآيةِ ومقصودَها إنَّما أُريدَ بهِ أنَّ منِ ٱتَّبَعَ هدى اللهِ الذي أنْزَلَهُ؛ حَصَلَ لهُ غايةُ النَّعيمِ وٱنْدَفَعَ عنهُ غايةُ الشَّقاءِ. وعَبَّرَ عن هٰذا المعنى المطلوبِ بنفيِ الأُمورِ المذكورةِ لاقتضاءِ الحالِ لذٰلكَ؛ فإنَّهُ لمَّا أُهْبِطَ آدَمُ مِن الجنَّةِ؛ حَصَلَ لهُ مِن الخوفِ والحزنِ والشَّقاءِ ما حَصَلَ، فأخْبَرَهُ سبحانَهُ أنَّهُ مُعطيهِ وذرِّيَّتِهِ عهدًا، مَنِ ٱتَّبَعَهُ منهُم؛ ٱنْتَفى عنهُ الخوفُ والحزنُ والضَّلالُ والشَّقاءُ. ومعلومٌ أنَّهُ لا يَنْتَفي ذٰلكَ /خ٦١/ كلُّهُ إلَّا بدخولِ دارِ النَّعيمِ، ولٰكنَّ المقامَ بذكرِ التَّصريحِ بنفيِ غايةِ المكروهاتِ أوْلى[٣].

الثَّاني: قولُهُ تَعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعونَ القُرْآنَ فَلَمَّا حَضَروهُ قالوا أَنْصِتوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرينَ . قالوا يا قَوْمَنا إنَّا سَمِعْنا كِتابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ موسى مُصَدِّقًا لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدي إلى الحَقِّ وَإلى طَريقٍ مُسْتَقيمٍ . يا قَوْمَنا

---

(١) في خ: «فهو خطاب لمن أهبط...»، وفي ط: «... لا خلاف بينها».

(٢) فيه نظر؛ لأنّ الخلاص من الخوف والحزن نعمة عظيمة يفرح بها من حصّلها فرحًا عظيمًا في الدنيا والآخرة، ولذٰلك منّ الله بها على قريش بقوله: ﴿وآمنهم من خوف﴾. نعم؛ لا ريب أنّ كمال النعمة لا يكون إلّا بطيب العيش في النعيم المقيم.

(٣) في خ: «الحال فأمّا لمّا أهبط... يعطيه وذرّيّته... لا ينبغي ذٰلك كلّه إلّا في دار... الأول»!

أجيبوا داعِيَ اللهِ وَآمِنوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أليمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١]. فأخْبَرَ سبحانَهُ عن نذيرِهم إخبارَ مقرٍّ لهُ أنَّ[١] مَن أجابَ داعيَهُ غَفَرَ لهُ وأجارَهُ مِن العذابِ، ولو كانَتِ المغفرةُ لهُم إنَّما يَنالونَ بها مجرَّدَ النَّجاةِ مِن العذابِ؛ كانَ ذٰلكَ حاصلاً بقولِهِ: ﴿وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أليمٍ﴾، بل تمامُ المغفرةِ دخولُ الجنَّةِ والنَّجاةُ مِن النَّارِ، فكلُّ مَن غُفِرَ لهُ فلا بدَّ لهُ مِن دخولِ الجنَّةِ[٢].

الثَّالثُ: قولُهُ تَعالى في الحورِ العينِ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جانٌّ﴾ [الرَّحمٰن: ٧٤]. فهٰذا يَدُلُّ على أنَّ مؤمني الجنِّ والإنسِ يَدْخُلونَ الجنَّةَ، وأنَّهُ لمْ يَسْبِقْ مِن أحدٍ منهُم طمثٌ لأحدٍ مِن الحورِ، فدَلَّ على أنَّ مؤمنيهِم يَتَأتَّى منهُم[٣] طمثُ الحورِ العينِ بعدَ الدُّخولِ كما يَتَأتَّى مِن الإنسِ، ولو كانوا مِمَّن لا يَدْخُلُ الجنَّةَ؛ لَما حَسُنَ الإخبارُ عنهُم بذٰلكَ.

الرَّابعُ: قولُهُ تَعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلوا وَلَنْ تَفْعَلوا فَاتَّقوا النَّارَ الَّتي وَقودُها النَّاسُ وَالحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرينَ . وَبَشِّرِ الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ أنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ كُلَّما رُزِقوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قالوا هٰذا الَّذي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهًا وَلَهُمْ فِيها أزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيها خالِدونَ﴾ [البقرة: ٢٤-٢٥]. والجنُّ منهُم مؤمنٌ ومنهُم كافرٌ، كما قالَ صالحوهُم: ﴿وَأنَّا مِنَّا المُسْلِمونَ وَمِنَّا القاسِطونَ﴾ [الجن: ١٤]. [فكما دَخَلَ كافرُهُم في الآيةِ الأُولى وَجَبَ أنْ يَدْخُلَ مؤمنُهُم في الآيةِ الثَّانيةِ[٤].

الخامسُ: قولُهُ عن صالحيهم:] ﴿فَمَنْ أسْلَمَ فَأُولٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾[٥] [الجن: ١٤]. والرَّشَدُ هوَ الهدى والفلاحُ، وهوَ الذي يَهْدي إليهِ القرآنُ. ومَن لمْ يَدْخُلِ الجنَّةَ؛ لمْ يَنَلْ غايةَ الرَّشَدِ، بل لمْ يَحْصُلْ لهُ مِن الرَّشَدِ إلاَّ مجرَّدُ العدمِ.

السَّادسُ: قولُهُ تَعالى: ﴿سابِقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها [كَعَرْضِ]

---

(١) في ط: «فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم إخبارًا بقوله إن»! وهٰذا تحريف بيّن لما أثبتّه من خ.
(٢) في ط: «فكلّ من غفر الله له فلا بدّ من دخوله الجنّة»، والأولى ما أثبتّه من خ.
(٣) في خ: «على أنّ مؤمنهم يأتي منهم»، والأولى ما أثبتّه من ط.
(٤) في ط: «كافرهم في الآية الثانية . . . مؤمنهم في الآية الأولى»! والصواب ما أثبتّه.
(٥) زاد في خ: «وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطبًا»! ولا محلّ لهٰذه الزيادة هنا.

السَّماءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذينَ آمَنوا باللهِ وَرُسُلِهِ ذٰلِكَ[١] فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. ومؤمنُهُم ممَّن آمَنَ باللهِ ورسلِهِ، فيَدْخُلُ في المبشَّرينَ ويَسْتَحِقُّ البشارةَ.

السَّابعُ: قولُهُ تَعالى: ﴿وَاللهُ يَدْعو إلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]. عَمَّ سبحانَهُ بالدَّعوةِ، وخَصَّ بالهدايةِ المفضيةِ /خ٦٢/ إليها، فمَن هَداهُ إليها؛ فهوَ ممَّن دَعاهُ إليها، فمَنِ اهْتَدى مِن الجنِّ؛ فهوَ مِن المَدعوِّ[ينَ] إليها.

الثَّامنُ: قولُهُ تَعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَميعًا يا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الإنْسِ رَبَّنا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنا الَّذي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدينَ فيها إلَّا ما شاءَ اللهُ إنَّ رَبَّكَ حَكيمٌ عَليمٌ . وَكَذٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمينَ بَعْضًا بِما كانوا يَكْسِبونَ . يا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتي وَيُنْذِرونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هٰذا قالوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانوا كافِرينَ . ذٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلونَ . وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلوا﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٣٢]. وهٰذا عامٌّ في الجنِّ والإنسِ. فأخْبَرَ تَعالى أنَّ لكلِّهِم درجاتٍ مِن عملِهِ، فاقْتَضى أنْ يَكونَ لمحسنِهِم درجاتٌ مِن عملِهِ كما لمحسنِ الإنسِ.

التَّاسعُ: قولُهُ تَعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ[٢] قالوا رَبُّنا اللهُ ثُمَّ اسْتَقاموا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ . أُولٰئِكَ أَصْحابُ الجَنَّةِ خالِدينَ فيها جَزاءً بِما كانوا يَعْمَلونَ﴾ [الأحقاف: ١٣-١٤].

ووجهُ التَّمسُّكِ بالآيةِ [مِن] وجوهٍ ثلاثةٍ:

---

(١) في خ: «عرضها السماوات. . .»! وفي ط: «عرضها كعرض السماوات. . . وذٰلك»!

(٢) في ط: «ويوم نحشرهم جميعًا. . . التاسع قوله تعالى: إنّ الذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنّة التي كنتم توعدون وقوله تعالى: إنّ الذين»، وكذٰلك جاءت في خ لٰكن ضبّب عليها، وهو الصواب، بدليل ما بعده.

أحدُها: عمومُ الاسمِ الموصولِ فيها.

الثَّاني: ترتيبُهُ الجزاءَ المذكورَ على العلَّةِ لِيَدُلَّ على أَنَّهُ مستحَقٌّ بها ـ وهيَ[1] قولُ ﴿رَبُّنا اللهُ﴾ معَ الاستقامةِ ـ، والحكمُ يَعُمُّ بعمومِ علَّتِه. فإذا كانَ دخولُ الجنَّةِ مرتَّبًا على الإقرارِ باللهِ وربوبيَّتِهِ معَ الاستقامةِ على أمرِهِ، فمَن أتى بذٰلكَ؛ اْستَحَقَّ الجزاءَ.

الثَّالثُ: أَنَّهُ قالَ: ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ . أُولٰئِكَ أَصْحابُ الجَنَّةِ خالِدينَ فيها جَزاءً بِما كانوا يَعْمَلونَ﴾. فدَلَّ على أَنَّ كلَّ مَن لا خوفٌ عليهِ ولا حزنٌ فهوَ مِن أهلِ الجنَّةِ. وقد تَقَدَّمَ في أَوَّلِ الآياتِ قولُهُ تَعالى ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ﴾ [البقرة: ٣٨] وأَنَّهُ متناولٌ للفريقينِ، ودَلَّتْ هٰذهِ الآيةُ على أَنَّ مَن لا خوفٌ عليهِ ولا حزنٌ فهوَ مِن[2] أهلِ الجنَّةِ.

العاشرُ: أَنَّهُ؛ إذا دَخَلَ مسيئُهُم النَّارَ بعدلِ اللهِ؛ فدخولُ محسنِهِمُ الجنَّةَ بفضلِهِ ورحمتِهِ أولى؛ فإنَّ رحمتَهُ سَبَقَتْ غضبَهُ، والفضلُ أغلبُ مِن العدلِ. ولهٰذا لا يُدْخِلُ النَّارَ إلَّا مَن عَمِلَ أعمالَ /خ٦٣/ أهلِ النَّارِ، وأمَّا الجنَّةُ؛ فيُدْخِلُها مَن لمْ يَعْمَلْ خيرًا قطُّ، بل يُنْشِئُ لها أقوامًا يُسْكِنُهُم إيَّاها مِن غيرِ عملٍ عَمِلوهُ، ويَرْفَعُ فيها درجاتِ العبدِ مِن غيرِ سعيٍ منه[3] بل بما يَصِلُ إليهِ مِن دعاءِ المؤمنينَ وصلاتِهِم وصدقتِهِم وأعمالِ البرِّ التي يُهْدونَها إليهِ[4]؛ بخلافِ أهلِ النَّارِ؛ فإنَّهُ لا يُعَذِّبُ فيها بغيرِ عملٍ أصلًا.

وقد ثَبَتَ بنصِّ القرآنِ وإجماعِ الأُمَّةِ أَنَّ مسيءَ الجنِّ في النَّارِ بعدلِ اللهِ وبما [كانوا] يَكْسِبونَ، فمحسنُهُم[5] في الجنَّةِ بفضلِ اللهِ وبما [كانوا]

---

(١) في خ وط: «المذكور على المسألة ويدلّ (في ط: ليدلّ)... وهو»! تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) في خ: «قوله تعالى من اتّبع... ولا حزن أنّه من»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٣) وهٰذه وجوه ثلاثة جديدة تضاف إلى ما تقدّم؛ لأنّه: إذا دخل الجنّة من لم يعمل خيرًا قطّ؛ فمن باب أولى أن يدخلها من عمل الخير، وإذا أُنشئ لها أقوام من غير عمل؛ فمن باب أولى أن ينالها أهل العمل، وإذا رُفع العبد فيها من غير سعي؛ فمن باب أولى أن يرفع إليها أصحاب السعي.

(٤) في خ: «الذي يهدونها إليه». وهٰذا مصير من ابن القيّم يرحمه الله إلى التسليم بوصول ثواب القربات كافّة إلى الموتى، وقد توسّع في القضيّة وأطال في الاحتجاج لها في «الروح»، فإن قُيّض لي خدمة ذٰلك الكتاب؛ فسأتوسّع في دراستها هناك متابعة لقلم المصنّف؛ فإنّه أليق بها.

(٥) في خ: «ومحسنهم»! وهو تحريف لما أثبتّه من ط.

يَعْمَلونَ[١].

لٰكنْ قيلَ: إنَّهُم يكونونَ في رَبَضِ الجنَّةِ يَراهُم أهلُ الجنَّةِ ولا يَرَوْنَهُم كما كانوا في الدُّنيا يَرَوْنَ بني آدَمَ مِن حيثُ لا يَرَوْنَهُم[٢]! ومثلُ هٰذا لا يُعْلَمُ إلَّا بتوقيفٍ تَنْقَطِعُ الحجَّةُ عندَهُ. فإنْ ثَبَتَ[ـتْ] حجَّةٌ يَجِبُ ٱتِّباعُها[٣]، وإلَّا؛ فهوَ ممَّا يُحْكى لِيُعْلَمَ، وصحَّتُهُ موقوفةٌ على الدَّليلِ. واللهُ أعلمُ.

* فصل: ومتابعةُ هدى اللهِ التي[٤] رَتَّبَ عليها هٰذهِ الأُمورَ هيَ: تصديقُ خبرِهِ مِن غيرِ ٱعتراضِ شبهةٍ تَقْدَحُ في تصديقِهِ، وٱمتثالُ أمرِهِ مِن غيرِ ٱعتراضِ شهوةٍ تَمْنَعُ ٱمتثالَهُ. وعلى هٰذينِ الأصلينِ مدارُ الإيمانِ، وهُما: تصديقُ الخبرِ، وطاعةُ الأمرِ.

ويَتْبَعُهُما أمرانِ آخرانِ، وهُما: نفيُ شبهاتِ الباطلِ الواردةِ عليهِ المانعةِ مِن كمالِ التَّصديقِ وأنْ[٥] لا يَخْمِشَ بها وجهَ تصديقِهِ، ودفعُ شهواتِ الغَيِّ الواردةِ عليهِ المانعةِ مِن كمالِ الامتثالِ.

فهُنا أربعةُ أُمورٍ: أحدُها: تصديقُ الخبرِ. الثَّاني: بذلُ الاجتهادِ في ردِّ الشُّبهاتِ التي توحيها شياطينُ الجنِّ والإنسِ في معارضتِهِ. الثَّالثُ: طاعةُ الأمرِ. الرَّابعُ: مجاهدةُ النَّفسِ في دفعِ الشَّهواتِ التي تَحولُ بينَ العبدِ وبينَ كمالِ الطَّاعةِ[٦].

---

(١) فهٰذه خلاصة ما ٱحتجّ به من جزم بدخول صالحي الجنّ الجنّة، وهو الصواب إن شاء الله. لٰكن بقي أن أذكّر بأنّ من أنكر دخولهم الجنّة إنّما نظر إلى أنّها دار نعيم لا خوف فيها ولا أذى، ورؤية الجنّ تخيف بني آدم وتؤذيهم! وفي هٰذا نظر كبير؛ فهاهنا جنان وجنّات واسعات، وأحوال أهلها وهيئاتهم تختلف عمّا كان في الدنيا، وحسبك أنّه ﷺ ٱرتعد وٱرتجف لرؤية جبريل عليه السّلام على هيئته التي خلقه الله عليها، أفيقال بعدُ إنّ جبريل لن يدخل الجنّة حتّى لا يرتعد المؤمنون لرؤيته؟!

(٢) وهٰذا يمتّ بصلة قويّة لنظر منكري دخولهم الجنّة المتقدّم آنفًا.

(٣) أي: إن ثبتت حجّة فٱتّباعها واجب، فـ«يجب» جواب الشرط ويجوز فيه الرفع والجزم. أو المعنى: إن ثبتت حجّة واجبة الاتّباع من كتاب أو سنّة فإنّي أقول بها، فجملة «يجب» وصفيّة ولا يجوز فيه إلّا الرفع وجواب الشرط محذوف دلّ عليه السياق.

(٤) في خ: «هدى الله الذي»! والصواب ما أثبتّه من ط، و«التي» صفة للمتابعة لا للهدى.

(٥) في خ: «وتبعهما أمران...». وفي خ وط: «... كمال الامتثال وأن»! وكلاهما خطأ بالنظر للتفصيل الآتي. وفي بعض المطبوعات: «... كمال التصديق وأن»، وهو صحيح.

(٦) في خ: «والرابع... كمال طاعته»، والأولى ما أثبتّه من ط.

وهٰذانِ الأمرانِ ـ أعْني: الشُّبهاتِ والشَّهواتِ ـ أصلُ فسادِ العبدِ وشقائِهِ في معاشِهِ ومعادِهِ، كما أنَّ الأصلينِ الأوَّلينِ ـ وهُما تصديقُ الخبرِ وطاعةُ الأمرِ ـ أصلُ سعادتِهِ وفلاحِهِ في معاشِهِ /خ٦٤/ ومعادِهِ. وذٰلكَ أنَّ العبدَ لهُ قوَّتانِ: قوَّةُ الإدراكِ والنَّظرِ وما يَتْبَعُهُما مِن العلمِ والمعرفةِ والكلامِ، وقوَّةُ الإرادةِ والحبِّ وما يَتْبَعُهُما مِن النِّيَّةِ والعزمِ والعملِ[1]. فالشُّبهةُ تؤثِّرُ فسادًا [في] القوَّةِ [العلميَّةِ] النَّظريَّةِ ما لمْ يُداوِها بدفعِها، والشَّهوةُ تُؤثِّرُ فسادًا [في] القوَّةِ [الإراديَّةِ] العمليَّةِ ما لمْ يُداوِها بإخراجِها.

قالَ اللهُ تَعالى في حقِّ نبيِّهِ يَذْكُرُ ما مَنَّ بهِ عليهِ مِن نزاهتِهِ وطهارتِهِ ممَّا يَلْحَقُ غيرَهُ مِن ذٰلكَ: ﴿وَالنَّجْمِ إذا هَوى . ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى﴾[2] [النجم: ١-٢]. فـ ﴿ما ضَلَّ﴾ دليلٌ على كمالِ علمِهِ ومعرفتِهِ وأنَّهُ على الحقِّ المبينِ، و﴿ما غَوى﴾ دليلٌ على كمالِ رشدِهِ وأنَّهُ أبرُّ العالَمين. فهوَ الكاملُ في علمِهِ وفي عملِهِ.

وقد وَصَفَ ﷺ بذٰلكَ خلفاءَهُ [مِن] بعدِهِ وأَمَرَ بأتِّباعِهِم على سنَّتِهِم، فقالَ: «عليكُم بسنَّتي وسنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ [المهديِّينَ] مِن بعدي»[3]. رَواهُ التِّرْمِذِيُّ وغيرُهُ.

---

(١) في ط: «والنظر وما يتبعها... والحبّ وما يتبعه من النيّة والعلم والعزم والعمل»! وفي خ: «... والحبّ وما يتبعه من النيّة والعدم والعمل»! وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

(٢) زاد في خ: «وما ينطق عن الهوى»، والأولى حذفها كما في ط.

(٣) (صحيح). قطعة من حديث العرباض بن سارية الذي رواه: أحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧)، والدارمي (١/ ٤٤)، والبخاري في «التاريخ» (٢/ ٣٦٥)، وابن ماجه (المقدّمة، ٦ـ اتّباع سنّة الراشدين، ١/ ١٥/ ٤٢-٤٤)، وأبو داوود (٣٤ـ السنّة، ٥ـ لزوم السنّة، ٢/ ٦١١/ ٤٦٠٧)، والترمذي (٤٢ـ العلم، ١٦ـ الأخذ بالسنّة، ٥/ ٤٤/ ٢٦٧٦)، والحارث (٥٥ و٥٦ـ زوائد الهيثمي)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (٢٦-٣٤ و٤٨ و٤٩ و٥٤-٥٩ و١٠٣٧-١٠٤٥)، وابن نصر في «السنّة» (٦٩-٧٢)، والطحاوي في «المشكل» (٢/ ٦٩)، وابن حبّان (٥)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٢٤٥/ ٦١٧-٦٢٤ و٦٤٢) و«الشاميّين» (٤٣٧ و٤٣٨ و٧٨٦)، والآجرّي في «الشريعة» (٧٩-٨١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٩٥-٩٧) و«المدخل» (١/ ٧٩-٨١)، واللالكائي في «السنّة» (٧٩-٨١)، وأبو نعيم في «المستخرج» (١-٥)، والداني في «السنن» (١٢٤)، والبيهقي في «السنن» (٦/ ٥٤١) و«المدخل» (٥٠ و٥١)، والخطيب في «الجمع والتفريق» (٢/ ٤٨٩)، والبغوي في «السنّة» (١٠٢)، وابن عساكر (٤٠/ ١٧٦)؛ من طرق كثيرة، عن العرباض... به مطوّلاً ومختصرًا.

وبعض طرق هٰذا الحديث حسن لذاته، وأكثرها حسن في الشواهد، وبعضها يسير الضعف، والحديث بمجموعها صحيح غاية، ولذٰلك تتابع أهل العلم على تقويته كالترمذي وابن خزيمة وابن حبّان والحاكم وأبو نعيم والبغوي والمنذري والنووي والذهبي والعسقلاني والألباني.

فالرَّاشدُ ضدُّ الغاوي، والمَهْدِيُّ ضدُّ الضَّالِّ.

وقد قالَ تَعالى: ﴿كَالَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَما اسْتَمْتَعَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذي خاضوا أُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَأُولٰئِكَ هُمُ الخاسِرونَ﴾ [التوبة: ٦٩]. فذَكَرَ تَعالى الأصلينِ، وهُما داءُ الأوَّلينَ والآخِرينَ:

أحدُهُما: الاستمتاعُ بالخَلاقِ، و[هو] النَّصيبُ مِن الدُّنيا. والاستمتاعُ بهِ متضمِّنٌ لنيلِ الشَّهواتِ المانعةِ مِن متابعةِ الأمرِ؛ بخلافِ المؤمنِ؛ فإنَّهُ وإنْ نالَ مِن الدُّنيا وشهواتِها؛ فإنَّهُ لا يَسْتَمْتِعُ بنصيبِهِ كلِّهِ ولا يُذْهِبُ طيِّباتِهِ في حياتِهِ الدُّنيا، بل يَنالُ منها [ما يَنالُ] لِيَتَقَوَّى بهِ على التَّزوُّدِ لمعادِهِ.

والثَّاني: الخوضُ بالشُّبهاتِ الباطلةِ، وهوَ قولُهُ: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذي خاضوا﴾. وهٰذا شأْنُ النُّفوسِ الباطلةِ التي لمْ تُخْلَقْ للآخرةِ، لا تَزالُ ساعيةً في نيلِ شهواتِها، فإذا نالَتْها؛ فإنَّما هيَ في خوضٍ بالباطلِ الذي لا يُجْدي عليها إلَّا الضَّررَ العاجلَ والآجلَ. ومِن تمامِ حكمةِ اللهِ تَعالى أنَّهُ يَبْتَلي هٰذهِ النُّفوسَ بالشَّقاءِ والتَّعبِ في تحصيلِ مراداتِها وشهواتِها، فلا تَتَفَرَّغُ للخوضِ بالباطلِ إلَّا قليلاً، ولو تَفَرَّغَتْ هٰذهِ النُّفوسُ الباطوليَّةُ؛ لَكانَتْ أئمَّةً تَدْعو إلى النَّارِ، وهٰذا حالُ مَن تَفَرَّغَ منها كما/ خ٦٥/ هوَ مشاهَدٌ بالعيانِ[1].

وسواءٌ كانَ المعنى: وخُضْتُم كالحزبِ الذي خاضوا أو كالفريقِ الذي خاضوا؛ فإنَّ «الذي» يَكونُ للواحدِ والجمعِ. ونظيرُهُ قولُهُ تَعالى: ﴿وَالَّذي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولٰئِكَ هُمُ المُتَّقونَ . لَهُمْ ما يَشاؤونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ جَزاءُ المُحْسِنينَ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٤]. لٰكنْ لا يَجْري على جمع تصحيح[2]، فلا يَجيءُ: المسلمونَ الذي جاؤوا. وإنَّما يَجيءُ غالبًا: في اسمِ الجمعِ[3]، كالحزبِ والفريقِ. أو حيثُ لا يُذْكَرُ الموصوفُ

---

(١) إي والله! فرحمة الله على ابن القيّم ما أدقّ ملاحظته! فقلّما تجد صاحب مال أو جاه من هٰؤلاء إلّا وهو جاهد مجاهد بخيله ورجله في حرب السنّة والإغراء بأهلها وصرف الناس عنهم. والعاقبة للمتّقين.

(٢) في خ: «جميع تصحيح»! وجمع التصحيح هو الجمع السالم بلغة النحو المعاصر.

(٣) هو اللفظ الذي يتضمّن معنى الجمع، غير أنّه لا واحد له من جنسه، وإنّما واحده من معناه، كالقوم والشعب.

وإنْ كانَ جمعًا، كقولِ الشَّاعرِ:

وإنَّ الَّـذي حَـانَـتْ بِفَلْـجٍ دِمـاؤُهُـمْ هُـمُ القَـوْمُ كُـلُّ القَـوْمِ يَـا أُمَّ خـالِـدِ[1]

أو حيثُ يُرادُ الجنسُ دونَ الواحدِ والعددِ، كقولِهِ تَعالى: ﴿وَالَّذي جاءَ بِالصِّدْقِ [وَصَدَّقَ بِهِ]﴾، ثمَّ قالَ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ المُتَّقونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، ونظيرُهُ الآيةُ التي نحنُ فيها، وهيَ قولُهُ: ﴿[وَخُضْتُمْ] كَالَّذي خاضوا﴾.

أو كانَ المعنى على القولِ الآخرِ: وخُضْتُم خوضًا كالخوضِ الذي خاضوا. فيَكونُ صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، كقولِكَ: اَضْرِبْ[2] كالذي ضَرَبَ، وأحْسِنْ كالذي أَحْسَنَ، ونظائرِهِ. وعلى هٰذا؛ فيَكونُ العائدُ منصوبًا محذوفًا[3]، وحذفُهُ في مثلِ ذٰلكَ قياسٌ مطَّردٌ.

وعلى القولينِ؛ فقد ذَمَّهُم سبحانَهُ على الخوضِ بالباطلِ واتِّباعِ الشَّهواتِ، وأَخْبَرَ أنَّ مَن كانَتْ هٰذهِ حالتَهُ؛ فقد حَبِطَ عملُهُ في الدُّنيا والآخرةِ وهوَ مِن الخاسرينَ.

ونظيرُ هٰذا قولُ أهلِ النَّارِ لأهلِ الجنَّةِ، وقد سَألوهُم: كيفَ دَخَلوها، قالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المِسْكينَ . وَكُنَّا نَخوضُ مَعَ الخائِضينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٣-٤٦]. فذَكَروا الأصلينِ: الخوضَ بالباطلِ وما يَتْبَعُهُ مِن التَّكذيبِ بيومِ الدِّينِ، وإيثارَ الشَّهواتِ وما يَسْتَلْزِمُهُ مِن تركِ الصَّلواتِ وإطعامِ ذوي الحاجاتِ[4].

فهٰذانِ الأصلانِ هُما ما هُما. واللهُ وليُّ التَّوفيقِ.

---

(١) في خ: «الذي جاءت بفلج دماؤهم»! وفي ط: «الذي حانت بثلج دماؤهم»! وكلاهما تحريف صوابه ما أثبتّه. وفلج واد في الطريق بين البصرة وجزيرة العرب. والبيت للأشهب بن رميلة يرثي فيه الذين سالت دماؤهم بفلج ويصفهم بأنّهم الرجال الكاملون ويدعو أمّ خالد للبكاء عليهم. انظر: «لسان العرب» (فلج)، «خزانة الأدب» (٦/ ٢٥).

(٢) في خ: «نحن فيها وهو قوله. . . محذوف كقوله اضرب»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٣) العائد عند النحويّين: ضمير، يعود إلى الاسم الموصول، يذكر في الجملة التي تليه وتتمّم معناه. وتقدير الكلام هنا: «وخضتم خوضًا كالخوض الذي خاضوه»، فالهاء الأخيرة هي العائد؛ لأنّها تعود على «الذي»، وهي في محلّ نصب مفعول مطلق، وقد حذفت لدلالة ما قبلها عليها.

(٤) في خ: «وأخبر أنّه من كانت. . . كيف دخولها قالوا. . . ترك الصلاة وإطعام ذي الحاجات».

* فصل: والقلبُ السَّليمُ الذي يَنْجو مِن عذابِ اللهِ [هوَ] القلبُ الذي قد سَلِمَ مِن هٰذا وهٰذا.

فهوَ القلبُ الذي قد سَلَّمَ لربِّهِ وسَلَّمَ لأمرِهِ ولمْ تبقَ فيهِ منازعةٌ لأمرِهِ ولا معارضةٌ لخبرِهِ. فهوَ سليمٌ ممَّا سوى اللهِ وأمرِهِ؛ لا يُريدُ إلَّا اللهَ، ولا يَقْبَلُ إلَّا ما أمَرَهُ بِهِ[1] /خ٦٦/؛ فاللهُ وحدَهُ غايتُهُ، وأمرُهُ وشرعُهُ وسيلتُهُ وطريقتُهُ؛ لا تَعْتَرِضُهُ شبهةٌ تَحولُ بينَهُ وبينَ تصديقِ خبرِهِ - لٰكنْ لا تَمُرُّ عليهِ إلَّا وهيَ مجتازةٌ تَعْلَمُ أنَّهُ لا قرارَ لها فيهِ - ولا شهوةٌ تَحولُ بينَهُ وبينَ متابعةِ رضاهُ.

ومتى كانَ القلبُ كذٰلكَ؛ فهوَ سليمٌ مِن الشِّركِ، وسليمٌ مِن البدعِ، وسليمٌ مِن الغيِّ، [وسليمٌ] مِن الباطلِ. وكلُّ الأقوالِ التي قيلَتْ في تفسيرِهِ فذٰلكَ يَتَضَمَّنُها.

وحقيقتُهُ أنَّهُ القلبُ الذي قد سَلَّمَ لعبوديَّةِ ربِّهِ حبًّا وخوفًا [وطمعًا] ورجاءً: ففَنِيَ بحبِّهِ عن حبِّ ما سواهُ [وبخوفِهِ عن خوفِ ما سواهُ] وبرجائِهِ عن رجاءِ ما سواهُ، وسَلَّمَ لأمرِهِ ولرسولِهِ تصديقًا وطاعةً كما تَقَدَّمَ، وٱسْتَسْلَمَ لقضائِهِ وقدرِهِ فلمْ يَتَّهِمْهُ ولمْ يُنازِعْهُ ولمْ يَتَسَخَّطْ[2] لأقدارِهِ. فأسْلَمَ لربِّهِ ٱنقيادًا وخضوعًا وذلًّا وعبوديَّةً. وسَلَّمَ جميعَ أحوالِهِ وأقوالِهِ وأعمالِهِ وأذواقِهِ ومواجيدِهِ ظاهرًا وباطنًا لمشكاةِ رسولِهِ[3]، وعَرَضَ ما جاءَ مِن سواها عليها؛ فما وافَقَها قَبِلَهُ، وما خالَفَها رَدَّهُ، و[ما] لمْ يَتَبَيَّنْ لهُ فيهِ موافقةٌ ولا مخالفةٌ أوْقَفَ أمرَهُ وأرْجَأهُ إلى أنْ يَتَبَيَّنَ لهُ. وسالَمَ أولياءَهُ وحزبَهُ المفلحينَ الذَّابِّينَ عن دينِهِ وسنَّةِ نبيِّهِ القائمينَ بهما[4]، وعادى أعداءَهُ المخالفينَ لكتابِهِ وسنَّةِ نبيِّهِ الخارجينَ عنهُما الدَّاعينَ إلى خلافِهِما[5].

* فصل: وهٰذهِ المتابعةُ هيَ التِّلاوةُ التي أثْنى اللهُ على أهلِها: في قولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ [وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ]﴾ [سورة فاطر: ٢٩]. وفي

---

(١) في خ: «ولم يبق فيه منازعة...»، وفي ط: «... ولا يفعل إلّا ما أمره الله».
(٢) في خ: «ورجاء فهو غنيّ بحبّه عن حبّ... ولم يسخط»! وهو تحريف لما أثبتّه من ط.
(٣) في خ وط: «وباطنًا من مشكاة رسوله»! وليس في اللغة سلّم من، لٰكن سلّم لـ.
(٤) في ط: «ولا مخالفة وقف... نبيّه والقائمين بها»، وفي خ: «... القائمين بها».
(٥) في خ: «المخالفين لسنّة نبيّه الخارجين عنها الداعين إلى خلافها».

قولِهِ[١]: ﴿الَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَتْلونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، والمعنى: يَتَّبعونَ كتابَ اللهِ حقَّ ٱتِّباعِهِ. وقالَ تَعالى: ﴿ٱتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتابِ [وأقِمِ الصَّلاةَ]﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وقالَ [تَعالى]: ﴿إِنَّما[٢] أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ البَلْدَةِ الَّذي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكونَ مِنَ المُسْلِمينَ . وَأَنْ أَتْلُوَ القُرْآنَ﴾ [النمل: ٩١-٩٢].

فحقيقةُ التِّلاوةِ في هٰذهِ المواضعِ هيَ التِّلاوةُ المطلقةُ التَّامَّةُ، وهيَ تلاوةُ اللفظِ والمعنى. فتلاوةُ اللفظِ جزءُ مسمَّى التِّلاوةِ المطلقةِ.

وحقيقةُ اللفظِ[٣] إنَّما هيَ الاتِّباعُ؛ يُقالُ: ٱتْلُ أثرَ فلانٍ، وتَلَوْتُ أثرَهُ، وقَفَوْتُهُ، وقَصَصْتُهُ /خ٦٧/ ؛ بمعنى: تَبِعْتُهُ خلفَهُ، ومنهُ قولُهُ تَعا[لى]: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحاها . وَالقَمَرِ إذا تَلاها﴾ [الشمس: ١-٢]؛ [أي]: تَبِعَها في الطُّلوعِ بعدَ غيبتِها، ويُقالُ: جاءَ القومُ يَتْلو بعضُهُم بعضًا؛ أي: يَتْبَعُ، ويُسَمَّى تالي الكلامِ تاليًا لأ[نَّهُ] يُتْبِعُ بعضَ الحروفِ بعضًا، لا يُخْرِجُها جملةً واحدةً، بل يُتْبِعُ بعضَها بعضًا مرتَّبةً، كلَّما ٱنْقَضى حرفٌ أو كلمةٌ؛ أَتْبَعَهُ بحرفٍ آخرَ وكلمةٍ أُخرى.

وهٰذهِ التِّلاوةُ[٤] وسيلةٌ وطريقٌ، والمقصودُ التِّلاوةُ الحقيقيَّةُ، وهيَ تلاوةُ المعنى وٱتِّباعُهُ؛ تصديقًا بخبرِهِ، وٱئتمارًا بأمرِهِ، وٱنتهاءً عن نهيِهِ، وٱئتمامًا بهِ، حيثُما قادَكَ ٱنْقَدْتَ معَهُ.

فتلاوةُ القرآنِ تَتَناوَلُ تلاوةَ لفظِهِ ومعناهُ، وتلاوةُ المعنى أشرفُ مِن مجرَّدِ تلاوةِ اللفظِ، وأهلُها همْ أهلُ القرآنِ الذينَ لهمُ الثَّناءُ في الدُّنيا والآخرةِ؛ فإنَّهُم أهلُ تلاوةٍ ومتابعةٍ حقًّا[٥].

● **فصل**: ثمَّ قالَ [اللهُ] سبحانَهُ: ﴿[وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْري] فَإِنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أَعْمى﴾ [طه: ١٢٤].

---

(١) في خ: «على أهلها بقوله . . .»، وفي ط: «. . . كتاب الله وفي قوله».
(٢) في ط: «من الكتاب وقال إنّما»، والزيادتان من خ.
(٣) يعني: حقيقة لفظ «التلاوة».
(٤) يعني التلاوة بالمعنى الحرفيّ المتقدّم في الفقرة السابقة.
(٥) في خ: «وانتهاء من نهيه . . . أهل متابعة وتلاوة حقًّا»، والأولى ما أثبتّه من ط.

* لمَّا أَخْبَرَ سبحانَهُ عنْ [حالِ] مَنِ ٱتَّبَعَ هداهُ في معاشِهِ ومعادِهِ؛ أَخْبَرَ عن حالِ مَن أَعْرَضَ عنهُ ولمْ يَتَّبِعْهُ، فقالَ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾؛ أي: عنِ الذِّكرِ الذي أُنْزِلُهُ. فالذِّكرُ هُنا مصدرٌ مضافٌ إلى الفاعلِ، كقيامي وقراءتي، لا إلى المفعولِ. وليسَ المعنى: ومَن أَعْرَضَ عن أنْ يَذْكُرَني، بل هٰذا لازمُ المعنى ومقتضاهُ مِن وجهٍ آخرَ، وسَنَذْكُرُهُ[١].

وأحسنُ مِن هٰذا الوجهِ أنْ يُقالَ: الذِّكرُ هُنا مضافٌ إضافةَ الأسماءِ لا إضافةَ المصادرِ إلى معمولاتِها، والمعنى: ومَن أَعْرَضَ عن كتابي ولمْ يَتَّبِعْهُ؛ فإنَّ القرآنَ يُسَمَّى ذكرًا: قالَ تَعالى: ﴿وَهٰذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقالَ تعالى: ﴿ذٰلِكَ نَتْلوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآياتِ وَالذِّكْرِ الحَكيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقالَ تَعالى: ﴿وَما هُوَ[٢] إلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمينَ﴾ [القلم: ٥٢]، وقالَ تَعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ كَفَروا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، وقالَ تَعالى: ﴿إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمٰنَ [بِالغَيْبِ]﴾ [يس: ١١]. وعلى هٰذا؛ فإضافتُهُ كإضافةِ الأسماءِ الجوامدِ التي لا يُقْصَدُ بها إضافةُ العاملِ إلى معمولِهِ.

ونظيرُهُ في إضافةِ ٱسمِ الفاعلِ: ﴿غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَديدِ العِقابِ﴾؛ فإنَّ هٰذهِ /خ٦٨/ الإضافاتِ لمْ يُقْصَدْ بها قصدُ الفعلِ المتجدِّدِ، وإنَّما قُصِدَ بها قصدُ الوصفِ الثَّابتِ اللازمِ، ولذٰلكَ جرَتْ[٣] أوصافًا على أعرفِ المعارفِ ـ وهوَ ٱسمُ اللهِ [تَبارَكَ و]تَعالى ـ في قولِهِ [تَعالى]: ﴿تَنْزيلُ الكِتابِ مِنَ اللهِ العَزيزِ العَليمِ . غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَديدِ العِقابِ ذي الطَّوْلِ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ المَصيرُ﴾ [غافر: ٢-٣].

* **فصل**: وقولُهُ تَعالى ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾: فسَّرَها غيرُ واحدٍ مِن السَّلفِ بعذابِ القبرِ[٤]، وجَعَلوا هٰذهِ الآيةَ أحدَ الأدلَّةِ الدَّالَّةِ على عذابِ القبرِ. ولهٰذا قالَ:

---

(١) في خ: «إلى الفاعل كيتامى وقرائي... المعنى وأقتضاه...»، وفي ط: «... آخر سنذكره».

(٢) في خ: «إضافة المصادر أي معمول بها...»، وفي ط: «... إن هو».

(٣) في خ: «الفعل المتجرّد...»! وفي ط: «... وكذلك جرت»! وكلاهما تحريف.

(٤) وصحّحه ابن حبّان (٣١١٩ و٣١٢٢) من وجهين عن أبي هريرة مرفوعًا، وأقرّه العسقلاني في «الفتح» (٨/ ٤٣٣)، وهو صحيح بمجموع وجهيه.

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أَعْمى . قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصيرًا قالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسيتَها وَكَذٰلِكَ اليَوْمَ تُنْسى﴾ [طه: ١٢٤-١٢٥]؛ أي: تُتْرَكُ في العذابِ كما تَرَكْتَ العملَ بآياتِنا. فذَكَرَ عذابَ البرزخِ، وعذابَ دارِ البوارِ.

ونظيرُهُ قولُهُ تَعالى في حقِّ آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿النَّارُ يُعْرَضونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]، فهٰذا في البرزخ. ﴿وَيَوْمَ تَقومُ السَّاعَةُ أَدْخِلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فهٰذا في القيامةِ الكبرى.

ونظيرُهُ قولُهُ تَعالى: ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمونَ في غَمَراتِ المَوْتِ وَالمَلائِكَةُ باسِطو أَيْديهِمْ أَخْرِجوا أَنْفُسَكُمُ اليَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الهُونِ [بِما كُنْتُمْ تَقولونَ عَلى اللهِ غَيْرَ الحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]. فقولُ الملائكةِ ﴿اليَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الهُونِ﴾] المرادُ بِهِ عذابُ البرزخِ، الذي أَوَّلُهُ يومُ القبضِ والموتِ.

ونظيرُهُ قولُهُ تَعالى: ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذينَ كَفَروا المَلائِكَةُ يَضْرِبونَ وُجوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ وَذوقوا عَذابَ الحَريقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]. فهٰذِهِ الإذاقةُ هيَ في البرزخِ، وأوَّلُها حينَ الوفاةِ؛ فإنَّهُ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿يَضْرِبونَ وُجوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ﴾، وهوَ مِن المقولِ المحذوفِ قولُهُ لدلالةِ الكلامِ عليهِ كنظائرِهِ[1]، وكلاهُما واقعٌ وقتَ الوفاةِ.

وفي «الصَّحيح»[2] عنِ البَراءِ بنِ عازِبٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُما] في قولِهِ [تَعالى] ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذينَ آمَنوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ في الحَياةِ الدُّنْيا وَفي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]؛ قالَ: نَزَلَتْ في عذابِ القبرِ.

والأحاديثُ في عذابِ القبرِ تَكادُ تَبْلُغُ حدَّ التَّواترِ.

* والمقصودُ أَنَّ اللهَ سبحانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ مَن أَعْرَضَ عن ذكرِهِ /خ٦٩/ ـ وهوَ الهدى الذي مَنِ اتَّبَعَهُ لا يَضِلُّ ولا يَشْقى ـ فإنَّ لهُ معيشةً ضنكًا. وتكَفَّلَ [اللهُ] لمَن حفِظَ عهدَهُ

---

(١) في خ: «من القول المحذوف قوله... لنظائره»! وفي ط: «من القول المحذوف مقوله... كنظائره»! وكلاهما تحريف، والصواب ما أثبتّه. والتقدير: يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون ذوقوا عذاب الحريق، فحذف القول وأبقى المقول.

(٢) البخاري (٢٣ـ الجنائز، ٨٦ـ عذاب القبر، ٣/ ٢٣١/ ١٣٦٩)، ومسلم (٥١ـ الجنّة، ١٧ـ عرض مقعد الميّت عليه، ٤/ ٢٢٠١/ ٢٨٧١).

أنْ يُحْيِيَهُ حياةً طيِّبةً ويَجْزِيَهُ [أجرَهُ] في الآخرةِ، فقالَ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانوا يَعْمَلونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فأخبَرَ سبحانَهُ عن فلاحِ مَن تَمَسَّكَ بعهدِهِ علمًا وعملاً في العاجلةِ بالحياةِ الطَّيِّبةِ وفي الآخرةِ بأحسنِ الجزاءِ. وهٰذا بعكسِ مَن لهُ المعيشةُ الضَّنكُ في الدُّنيا والبرزخِ ونسيانُهُ في العذابِ في الآخرةِ.

وقالَ سبحانَهُ: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطانًا فَهُوَ لَهُ قَرينٌ. [وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبيلِ وَيَحْسَبونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدونَ]﴾[1] [الزخرف: ٣٦-٣٧]. فأخْبَرَ سبحانَهُ أنَّ مَنِ ٱبْتَلاهُ بقرينِهِ مِن الشَّياطينِ وضلالِهِ بهِ إنَّما كانَ بسببِ إعراضِهِ وعَشْوِهِ عن[2] ذكرِهِ الذي أنْزَلَهُ على رسولِهِ، فكانَ عقوبةُ هٰذا الإعراضِ أنْ قَيَّضَ لهُ شيطانًا يُقارِنُهُ فيَصُدُّهُ عن سبيلِ ربِّهِ وطريقِ فلاحِهِ وهوَ يَحْسَبُ أنَّهُ مهتدٍ، حتَّى إذا وافى ربَّهُ يومَ القيامةِ معَ قرينِهِ وعايَنَ هلاكَهُ وإفلاسَهُ؛ قالَ: ﴿يا لَيْتَ بَيْني وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرينُ﴾ [الزخرف: ٣٨]. وكلُّ مَن أعْرَضَ عنِ الاهتداءِ بالوحيِ الذي هوَ ذِكْرُ اللهِ فلا بدَّ أنْ يَقولَ هٰذا يومَ القيامةِ.

فإنْ قيلَ: فهلْ لهٰذا عذرٌ في ضلالِهِ إذا كانَ يَحْسَبُ أنَّهُ على هدًى، كما قالَ تَعالى: ﴿وَيَحْسَبونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدونَ﴾ [الزخرف: ٣٦]؟

قيلَ: لا عذرَ لهٰذا وأمثالِهِ مِن الضُّلَّالِ الذينَ منشأُ ضلالِهِمُ الإعراضُ عنِ الوحيِ الذي جاءَ بهِ الرَّسولُ [ﷺ] ولو ظَنَّ أنَّهُ مهتدٍ؛ فإنَّهُ مفرِّطٌ بإعراضِهِ عنِ ٱتِّباعِ داعي الهدى، فإذا ضَلَّ؛ فإنَّما أُتِيَ مِن تفريطِهِ وإعراضِهِ. وهٰذا بخلافِ مَن كانَ على ضلالةٍ لعدمِ بلوغِ الرِّسالةِ وعجزِهِ عنِ الوصولِ إليها، فذاكَ لهُ[3] حكمٌ آخرُ. والوعيدُ في القرآنِ إنَّما يَتَناوَلُ الأوَّلَ، وأمَّا الثَّاني؛ فإنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ أحدًا إلاَّ بعدَ إقامةِ الحجَّةِ عليهِ: كما قالَ تَعالى: ﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسولاً﴾ [الإسراء: ١٥]، وقالَ تَعالى:

---

(١) يعشُ عن ذكر الرحمٰن: يتعامى ويتغافل عنه. نقيّض: نهيّئ. قرين: ملازم.

(٢) في ط: «في العذاب بالآخرة...»، وفي خ: «... إنّما كانت بسبب إعراضه وعتوه عن»!

(٣) في خ: «وأمثاله في الضلال الذين نشأ ضلالهم من الإعراض... جاء به رسوله... فذلك له».

﴿رُسُلاً مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرينَ لِئَلاَّ يَكونَ لِلنَّاسِ عَلى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] /خ٧٠/، وقالَ تَعالى في أهلِ النَّارِ: ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ وَلٰكِنْ كانوا هُمُ الظَّالِمينَ﴾ [النحل: ١١٨]، وقالَ تَعالى: ﴿أَنْ تَقولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتا عَلى ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرينَ . أَوْ تَقولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَداني لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقينَ . أَوْ تَقولَ حينَ تَرى العَذابَ لَوْ أَنَّ لي كَرَّةً فَأَكونَ مِنَ المُحْسِنينَ . بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الكافِرينَ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٩]. . . وهٰذا كثيرٌ في القرآنِ.

* **فصل**: وقولُهُ تَعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أَعْمى . قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أَعْمى [وَقَدْ كُنْتُ بَصيرًا]﴾ [طه: ١٢٤-١٢٥]؛ اخْتُلِفَ فيهِ: هل هوَ مِن عمى البصيرةِ، أو مِن عمى البصرِ؟

والذينَ قالوا: هوَ مِن عمى البصيرةِ، إنَّما حَمَلَهُم على ذٰلكَ: قولُهُ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتونَنا﴾ [مريم: ٣٨]، وقولُهُ: ﴿لَقَدْ كُنْتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هٰذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَديدٌ﴾ [ق: ٢٤]، وقولُهُ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ المَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمينَ [وَيَقولونَ حِجْرًا مَحْجورًا]﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقولُهُ: ﴿لَتَرَوُنَّ الجَحيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليَقينِ﴾ [التكاثر: ٦-٧]. . . ونظائرُ هٰذا ممَّا يُثْبِتُ لهُمُ الرُّؤيةَ في الآخرةِ: كقولِهِ [تَعالى][1]: ﴿وَتَراهُمْ يُعْرَضونَ عَلَيْها خاشِعينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقولِهِ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هٰذِهِ النَّارُ الَّتي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبونَ . أَفَسِحْرٌ هٰذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرونَ﴾ [الطور: ١٣-١٥]، وقولِهِ: ﴿وَرَأى المُجْرِمونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعوها﴾ [الكهف: ٥٣].

والذينَ رَجَّحوا أنَّهُ مِن عمى البصرِ؛ قالوا: السِّياقُ لا يَدُلُّ إلَّا عليهِ؛ لقولِهِ: ﴿قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصيرًا﴾ [طه: ١٢٥]، وهوَ لمْ يَكُنْ بصيرًا في كفرِهِ قطُّ، بل قد تَبَيَّنَ لهُ حينئذٍ أنَّهُ كانَ في الدُّنيا في عمًى عنِ الحقِّ. فكيفَ يَقولُ: ﴿وَقَدْ كُنْتُ بَصيرًا﴾؟! وكيفَ يُجابُ بقولِهِ: ﴿كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسيتَها [وَكَذٰلِكَ اليَوْمَ

---

(١) في خ: «ونظائر هٰذا ممّا يثبت بهم الرواية في الآخرة. . . كقوله»، والصواب ما أثبتّه من ط.

تُنْسى]﴾؟! بل هٰذا الجوابُ فيهِ تنبيهٌ على أنَّهُ مِن عمى البصرِ، وأنَّهُ جُوزِيَ مِن جنسِ عملِهِ؛ فإنَّهُ لمَّا أعْرَضَ عنِ الذِّكرِ الذي بَعَثَ اللهُ بِهِ رسولَهُ وعَمِيَتْ عنهُ بصيرتُهُ؛ أعمى اللهُ بصرَهُ يومَ القيامةِ وتَرَكَهُ في العذابِ كما تَرَكَ الذِّكرَ في الدُّنيا، فجازاهُ على عمى بصيرتِهِ عمى بصرِهِ في الآخرةِ وعلى تركِهِ ذكرَهُ تركَهُ في العذابِ[1].

وقالَ تَعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ /خ٧١/ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجوهِهِمْ عُمْيًا وبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقد قيلَ في هٰذهِ الآيةِ [أيضًا]: إنَّهُم عميٌ وبكمٌ وصمٌّ عنِ الهدى، كما قيلَ في قولِهِ ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمى﴾. قالوا: لأنَّهُم يَتَكَلَّمونَ يومئذٍ ويَسْمَعونَ ويُبْصِرونَ.

ومَن نَصَرَ أنَّهُ العمى والبكمُ والصَّممُ المضادُّ للبصرِ والسَّمعِ والنُّطقِ: قالَ بعضُهُم: هوَ عمًى وصممٌ وبكمٌ مقيَّدٌ لا مطلقٌ، فهم عميٌ عن رؤيةِ ما يَسُرُّهُم وسماعِهِ. وهٰذا[2] قد رُوِيَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُما]؛ قالَ: لا يَرَوْنَ شيئًا يَسُرُّهُم. وقالَ آخرونَ: هٰذا الحشرُ حينَ تَتَوَفَّاهُمُ الملائكةُ يَخْرُجونَ مِن الدُّنيا كذٰلكَ، وإذا قاموا مِن قبورِهِم إلى الموقفِ؛ قاموا كذٰلكَ، ثمَّ إنَّهُم يَسْمَعونَ ويُبْصِرونَ فيما بعدُ. وهٰذا مرويٌّ عنِ الحَسَنِ. وقالَ آخرونَ: هٰذا إنَّما يَكونُ إذا دَخَلوا النَّارَ واسْتَقَرُّوا فيها سُلِبوا الأسماعَ والأبصارَ والنُّطقَ، حينَ يَقولُ لهُمُ الرَّبُّ تَبارَكَ وتَعالى: ﴿اخْسَؤُوا فيها وَلا تُكَلِّمونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فحينئذٍ يَنْقَطِعُ الرَّجاءُ وتَبْكَمُ عقولُهُم، فيَصيرونَ بأجمعِهِم عميًا بكمًا صمًّا لا يُبْصِرونَ [ولا يَسْمَعونَ] ولا يَنْطِقونَ ولا يُسْمَعُ منهُم بعدَها إلَّا الزَّفيرُ والشَّهيقُ. وهٰذا منقولٌ عن مُقاتِلٍ.

والذينَ قالوا: المرادُ بِهِ العمى عنِ الحجَّةِ؛ فإنَّما مرادُهُم أنَّهُم لا حجَّةَ لهُم، ولَمْ يُريدوا أنَّ لهُم حجَّةً هُم عميٌ عنها، بل هُم عميٌ عنِ الهدى كما كانوا في الدُّنيا؛ فإنَّ

---

(١) وأقرب من هٰذا أن يقال: لا ريب أنّه أراد بقوله ﴿وقد كنت بصيرًا﴾ بصر العين؛ لأنّه لم يكن بصير القلب في الدنيا، فلزم أن يريد بقوله ﴿أعمى﴾ عمى العين، حتّى لا يختلّ الكلام ويصير من باب لماذا تركتني فقيرًا وقد كان لي أصحاب؟!

(٢) في خ: «إنّهم يتكلّمون يومئذ...»! وفي ط: «... نصر أنّ العمى... ولهٰذا»!

العبدَ يَموتُ على ما عاشَ عليهِ ويُبْعَثُ على ما ماتَ عليهِ.

وبهٰذا يَظْهَرُ أَنَّ الصَّوابَ هوَ القولُ الآخرُ، وأنَّهُ عمى البصرِ[1]؛ فإنَّ الكافرَ يَعْلَمُ الحقَّ يومَ القيامةِ عِيانًا ويُقِرُّ بما كانَ يَجْحَدُهُ في الدُّنيا، فليسَ هوَ أعمى عنِ الحقِّ يومئذٍ.

وفصلُ الخطابِ أنَّ الحشرَ هوَ الضَّمُّ والجمعُ:

ويُرادُ بهِ تارةً الحشرُ إلى موقفِ القيامةِ: كقولِ[2] النَّبيِّ ﷺ: «إنَّكُم محشورونَ إلى اللهِ حفاةً عراةً غُرْلاً»[3]، وكقولِهِ تَعالى: ﴿وَإذا الوُحوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، وكقولِهِ تَعالى: ﴿وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

ويُرادُ بهِ الضَّمُّ والجمعُ إلى دارِ المستقَرِّ: فحشرُ المتَّقينَ جمعُهُم وضمُّهُم /خ٧٢/ إلى الجنَّةِ، وحشرُ الكافرينَ جمعُهُم وضمُّهُم إلى النَّارِ. قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ المُتَّقينَ إلى الرَّحْمٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]. وقالَ تَعالى: ﴿ٱحْشُروا الَّذينَ ظَلَموا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانوا يَعْبُدونَ . مِنْ دونِ اللهِ فَٱهْدوهُمْ إلى صِراطِ الجَحيمِ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣]، فهٰذا الحشرُ هوَ بعدَ حشرِهِم إلى الموقفِ، وهوَ حشرُهُم وضمُّهُم إلى النَّارِ؛ لأنَّهُ قد أَخْبَرَ عنهُم أنَّهُم ﴿قالوا يا وَيْلَنا هٰذا يَوْمُ الدِّينِ . هٰذا يَوْمُ الفَصْلِ الَّذي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبونَ﴾ [الصافَّات: ٢٠-٢١]، [ثمَّ قالَ تَعالى:] ﴿ٱحْشُروا الَّذينَ ظَلَموا. . .﴾ الآيةَ، وهٰذا الحشرُ الثَّاني.

و[على] هٰذا؛ فهُم ما بينَ الحشرِ الأوَّلِ مِن القبورِ إلى الموقفِ والحشرِ الثَّاني [مِن الموقفِ إلى النَّارِ] يَسْمَعونَ[4] ويُبْصِرونَ ويُجادِلونَ ويَتَكَلَّمونَ، وعندَ الحشرِ الثَّاني يُحْشَرونَ على وجوهِهِم عميًا وبكمًا وصمًّا. فلكلِّ موقفٍ حالٌ يَليقُ بهِ ويَقْتَضيهِ عدلُ

---

(١) في خ: «ولا يسمع منها بعدها. . . ولم يريدوا أنّ حجّتهم عمي. . . وأنّه عمى عن البصر».

(٢) في خ: «عن الحقّ حينئذ. . .»، وفي ط: «. . . القيامة لقول».

(٣) رواه: البخاري (٨١ـ الرقاق، ٤٥ـ الحشر، ١١/ ٣٧٧/ ٦٥٢٤-٦٥٢٧)، ومسلم (٥١ـ الجنّة، ١٤ـ فناء الدنيا، ٤/ ٢١٩٤/ ٢٨٦٠ و٢٨٥٩)؛ من حديث ابن عبّاس وعائشة رضي الله عنهم على الترتيب.

(٤) في ط: «الذين ظلموا وأزواجهم وهٰذا. . . والحشر الثاني من الموقف إلى النار فعند الحشر الأوّل يسمعون»! وفي خ: «. . . والحشر الثاني يسمعون»، وهٰذا حسن. والأولى والأوضح إثبات بعض الزيادة التي في ط وحذف بعضها.

الرَّبِّ [تَبارَكَ و]تَعالى وحكمتُهُ. فالقرآنُ يُصَدِّقُ بعضُهُ بعضًا، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

[٥] فصل

[في غاية ابن القيم من تأليف مفتاح دار السعادة]

والمقصودُ أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتَعالى، [لمَّا] ٱقْتَضَتْ حكمتُهُ ورحمتُهُ إخراجَ آدَمَ وذرِّيَّتِهِ مِن الجنَّةِ؛ أعاضَهُم أفضلَ منها، وهوَ ما أَعْطاهُم مِن عهدِهِ؛ الذي جَعَلَهُ سببًا موصلاً لهُم إليه، وطريقًا واضحًا بيِّنَ الدّلالةِ عليه؛ مَن تَمَسَّكَ بهِ فازَ وٱهْتَدى، ومَن أَعْرَضَ عنهُ شَقِيَ وغَوى.

ولمَّا كانَ هٰذا العهدُ الكريمُ والصِّراطُ المستقيمُ والنَّبأُ العظيمُ لا يوصَلُ إليهِ أبدًا إلاَّ مِن بابِ العلمِ والإرادةِ؛ فالإرادةُ بابُ الوصولِ إليه، والعلمُ مفتاحُ ذٰلكَ البابِ المتوقِّفِ فَتحُهُ عليه. وكمالُ كلِّ إنسانٍ إنَّما يَتِمُّ بهٰذينِ النَّوعينِ: همَّةٍ تُرَقِّيه، وعلمٍ يُبَصِّرُهُ ويَهْديه. فإنَّ مراتبَ السَّعادةِ والفلاحِ إنَّما تَفوتُ العبدَ مِن هاتينِ الجهتينِ أو مِن إحداهُما: إمَّا أنْ لا يَكونَ لهُ علمٌ بها فلا يَتَحَرَّكُ في طلبِها، أو يَكونَ عالمًا بها ولا تَنْهَضُ همَّتُهُ إليها. فلا يَزالُ في حضيضِ طبعِهِ محبوسا، وقلبُهُ عن كمالِهِ الذي خُلِقَ لهُ مصدودًا منكوسا، قد سامَ[١] نفسَهُ معَ الأنعامِ راعيًا معَ الهَمَلِ، وٱسْتَطابَ لُقَيماتِ الرَّاحةِ والبطالةِ وٱسْتَلانَ فراشَ /خ٧٣/ العجزِ والكسلِ. لا كمَن رُفِعَ لهُ عَلَمٌ فشَمَّرَ إليه، وبُورِكَ لهُ في تفرُّدِهِ في طريقِ طلبِهِ فلَزِمَهُ وٱسْتَقامَ عليه، قد أَبَتْ غَلَباتُ شوقِهِ إلاَّ الهجرةَ[٢] إلى اللهِ ورسولِهِ، ومَقَتَتْ نفسُهُ الرُّفقاءَ إلاَّ ابنَ سبيلٍ يُرافِقُهُ في سبيلِه. ولمَّا كانَ كمالُ الإرادةِ بحسبِ [كمالِ] مرادِها، وشرفُ العلمِ تابعٌ لشرفِ معلومِهِ؛ كانَتْ نهايةُ سعادةِ العبدِ التي[٣] لا سعادةَ لهُ بدونِها ولا حياةَ لهُ إلاَّ بها: أنْ تَكونَ إرادتُهُ متعلِّقةً

(١) في خ: «من هٰذين الجهتين أو من أحدهما...»! وفي ط: «... قد أسام»!
(٢) في خ: «إلاّ كمن رفع... وقد أبت غلبات شوقه إلى الهجرة»! والصواب ما أثبتّه من ط.
(٣) في ط وخ: «الذي»! وقوله: «كانت نهاية...» إلخ هو جواب ما تقدّم من الشروط في قوله: =

بالمرادِ الذي لا يَبْلى ولا يَفوت، وعَزَماتُ همَّتِهِ مسافرةً إلى حضرةِ الحيِّ الذي لا يَموت.

ولا سبيلَ لهُ إلى هٰذا المطلبِ الأسنى والحظِّ الأوفى إلَّا بالعلمِ الموروثِ عن عبدِهِ ورسولِهِ وخليلِهِ وحبيبِهِ؛ الذي بَعَثَهُ لذٰلكَ داعيا، وأقامَهُ على هٰذا الطَّريقِ هاديا، وجَعَلَهُ واسطةً بينَهُ وبينَ الأنام، وداعيًا لهُم بإذنِهِ إلى دارِ السَّلام، وأبى سبحانَهُ أنْ يَفْتَحَ لأحدٍ منهُم إلَّا على يديه، أو يَقْبَلَ مِن أحدٍ منهُم سعيًا[1] إلَّا أنْ يكونَ مبتدِئًا منهُ ومنتهيًا إليه[2]، فالطُّرقُ كلُّها إلَّا طريقَهُ ﷺ مسدودة، والقلوبُ بأسرِها إلَّا قلوبَ أتباعِهِ المنقادةَ إليهِ عنِ اللهِ محبوسةٌ مصدودة.

فحقٌّ على مَن كانَ في سعادةِ نفسِهِ ساعيا، وكانَ قلبُهُ حيًّا عنِ اللهِ واعيا: أنْ يَجْعَلَ على هٰذينِ الأصلينِ مدارَ أقوالِهِ وأعمالِه، وأنْ يُصَيِّرَهُما آخِيَّتَهُ التي إليها مفزعُهُ في حياتِهِ ومآلِه.

فلا جَرَمَ كانَ وضعُ هٰذا الكتابِ مؤسَّسًا على هاتينِ[3] القاعدتين، ومقصودُهُ التَّعريفَ بشرفِ هٰذينِ الأصلين. وسَمَّيْتُهُ «مفتاح دار السَّعادة ومنشور ولاية [أهل] العلم والإرادة»[4]؛ إذْ كانَ هٰذا مِن بعضِ النُّزُلِ[5] والتُّحفِ التي فَتَحَ اللهُ بِها عليَّ حينَ انقطاعي إليهِ عندَ بيتِهِ وإلقائي نفسي ببابِهِ مسكينًا ذليلا، وتعرُّضي لنفحاتِهِ في بيتِهِ وحولَهُ بكرةً وأصيلا، فما خابَ مَن أنْزَلَ بِهِ حوائجَهُ وعَلَّقَ بِهِ آمالَهُ وأصْبَحَ ببابِهِ مقيمًا وبحماهُ نزيلا.

ولمَّا كانَ /خ٧٤/ العلمُ إمامَ الإرادةِ ومقدَّمًا عليها ومفصِّلاً لها ومرشدًا لها؛ قَدَّمْنا الكلامَ عليهِ على الكلامِ على المحبَّةِ. ثمَّ نُتْبِعُهُ ـ إنْ شاءَ اللهُ بعدَ الفراغِ منهُ ـ كتابًا

= «ولمّا كان هٰذا العهد . . . وكان كمال كل إنسان . . . وكان كمال الإرادة».

(١) في خ: «وأقامه على هٰذه الطرق . . . من أحدهم سعيًا»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٢) يريد بالوساطة بينه وبين الأنام وساطة التبليغ والتعليم والدعوة والهداية، وبالسعي المبتدئ من النبيّ ﷺ المنتهي إليه ما كان على سنّته وطريقته غير غالٍ فيها ولا جافٍ عنها.

(٣) في ط: «يصيّرها آخيّته . . .»، وفي خ: «. . . هٰذين». الآخيّة: حلقة يربط إليها الفرس.

(٤) تقدّم (١/ ٢٤) بيان معنى هٰذا الاسم وصلته بمادّة الكتاب.

(٥) النزل: العطاء والفضل والبركة.

في الكلامِ على المحبّةِ وأقسامِها وأحكامِها وفوائدِها وثمراتِها وأسبابِها وموانعِها وما يُقوِّيها وما يُضْعِفُها، والاستدلالِ بسائرِ طرقِ الأدلَّةِ مِن النَّقلِ والعقلِ[1] والفطرةِ والقياسِ والاعتبارِ والذَّوقِ والوجدِ على تعلُّقِها بالإلٰهِ الحقِّ الذي لا إلٰهَ غيرُهُ بل لا ينْبَغي أنْ تكونَ إلاَّ لهُ ومِن أجلِهِ، والرَّدِّ على مَن أنْكَرَ ذٰلكَ وتبيينِ فسادِ قولِهِ عقلاً ونقلاً وفطرةً وقياسًا وذوقًا ووجدًا.

فهٰذا مضمونُ هٰذهِ التُّحفةِ[2] وهٰذهِ عرائسُ معانيها الآنَ تُجْلى عليك، وخُودُ أبكارِها البديعةُ الجمالِ تَرْفُلُ[3] في حُلَلِها وهيَ تُزَفُّ إليك. فإمَّا شمسٌ منازلُها بسعدِ الأسعدِ، وإمَّا خَوْدٌ تُزَفُّ إلى ضريرٍ مقعدٍ. فآخْتَرْ لنفسِكَ إحدى الخطَّتين، وأنْزِلْها فيما شِئْتَ مِن المنزلتين. ولا بدَّ لكلِّ نعمةٍ [مِن] حاسد، ولكلِّ حقٍّ مِن جاحدٍ ومعاند.

هٰذا؛ وإنَّ ما أُودِعَ مِن المعاني والنَّفائسِ رهنٌ عندَ متأمِّلِهِ ومطالِعِهِ؛ لهُ غنمُه وعلى مؤلِّفِهِ غرمُه، ولهُ ثمرتُهُ ومنفعتُه ولصاحبِهِ كدرُهُ ومشقَّتُه، معَ تعرُّضِهِ لمطاعنِ الطَّاعنينَ ولاعتراضِ المنافسين. وهٰذهِ بضاعتُهُ المُزْجاةُ وعقلُهُ المكدودُ يُعْرَضُ على عقولِ[4] العالَمين، وإلقاؤُهُ نفسَهُ وعِرْضَهُ بينَ مخالبِ الحاسدين وأنيابِ البغاةِ المعتدين. فلكَ أيُّها القارئُ صفوُهُ ولمؤلِّفِهِ كدرُه، وهوَ الذي تَجَشَّمَ غراسَهُ وتعبَهُ ولكَ ثمرُه، وها هوَ قدِ آسْتُهْدِفَ لسهامِ الرَّاشقين وآسْتَعْذَرَ إلى اللهِ مِن الزَّللِ والخطإِ ثمَّ إلى عبادِهِ المؤمنين.

اللهمَّ! فعياذًا [بكَ] ممَّن قَصُرَ في العلمِ والدِّينِ باعُه، وطالَتْ في الجهلِ وأذى عبادِكَ ذراعُه. فهوَ لجهلِهِ يَرى الإحسانَ إساءةً والسُّنَّةَ بدعةً والعُرْفَ نُكرا، ولظلمِهِ /خ٧٥/ يَجْزي بالحسنةِ سيِّئةً كاملةً وبالسَّيِّئةِ الواحدةِ عشرا؛ قدِ آتَّخَذَ بَطَرَ الحقِّ وغَمْطَ النَّاسِ[5] سلَّمًا إلى ما يُحِبُّهُ مِن الباطلِ ويَرْضاه، ولا يَعْرِفُ مِن المعروفِ ولا يُنْكِرُ مِن

---

(١) في خ: «أنزل إليه حوائجه وعلّق به مآله وأصبح ببابه مقيمًا ولحماه نزيلاً . . . من العقل والنقل».
(٢) راجع ما قدّمته (١/ ٣٠) في خطّة الكتاب وتقسيمه.
(٣) تجلى: تعرض. خُود: جمع خَوْد؛ الحسناء الناعمة. ترفل: تجرّ ثوبها وتتبختر فيه.
(٤) في خ: «والنفائس وهن . . كلّه ومشقّته . . العقول»! وفي ط: « . . ولاعتراض المناقشين . . ».
(٥) العرف: المعروف. نكر: منكر. بطر الحقّ: دفعه آستكبارًا. غمط الناس: آزدراؤهم.

المنكرِ إلاَّ ما وافَقَ إرادتَهُ أو خالَفَ هواهُ[١]؛ يَسْتَطيلُ على أولياءِ الرَّسولِ وحزبِهِ بأصغريْه، ويُجالِسُ أهلَ الغَيِّ والجهالةِ ويُزاحِمُهُم بركبتَيْه؛ قدِ ٱرْتَوى مِن ماءٍ آجنٍ وتَضَلَّعَ[٢]، وٱسْتَشْرَفَ إلى مراتبِ ورثةِ الأنبياءِ وتَطَلَّع؛ يَرْكُضُ في مَيْدانِ جهلِهِ معَ الجاهلين، ويَبْرُزُ عليهِم في الجهالةِ فيَظُنُّ أنَّهُ مِن السَّابقين، وهوَ عندَ اللهِ ورسولِهِ والمؤمنينَ عن تلكَ الوراثةِ النَّبويَّةِ بمعزل، وإذا [أُ]نْزِلَ الورثةُ منازلَهُم منها فمنزلتُهُ منها أقصى وأبعدُ منزل؛

نَزَلوا بِمَكَّةَ في قَبائِلِ هاشِمٍ وَنَزَلْتَ بِالبَيْداءِ أَبْعَدَ مَنْزِلِ

وعياذًا بكَ ممَّن جَعَلَ الملامةَ بضاعتَهُ والعَذْلَ نصيحتَهُ؛ فهوَ دائمًا يُبْدي في الملامةِ ويُعيد، ويُكَرِّرُ على العَذْلِ فلا يُفيدُ ولا يَسْتَفيد.

بل عياذًا بكَ مِن عدوٍّ في صورةِ ناصح، ووليٍّ في مِسْلاخِ بعيدٍ كاشح[٣]؛ يَجْعَلُ عداوتَهُ وأذاهُ حذرًا وإشفاقًا[٤]، وتنفيرَهُ وتخذيلَهُ إسعافًا وإرفاقا.

وإذا كانَتِ العينُ لا تَكادُ إلاَّ على هٰؤلاءِ تُفْتَح، والميزانُ بهِم يَخِفُّ ولا يَرْجَح؛ فما أحرى اللبيبَ بأنْ لا يُعيرَهُم مِن قلبِهِ جزءًا منَ الالتفات، ويُسافِرَ في طريقِ مقصدِهِ بينَهُم سفرَهُ إلى الأحياءِ بينَ الأموات. وما أَحْسَنَ ما قالَ القائلُ:

وَفي الجَهْلِ قَبْلَ المَوْتِ مَوْتٌ لأهْلِهِ وَأَجْسامُهُمْ قَبْلَ القُبورِ قُبورُ
وَأَرْواحُهُمْ في وَحْشَةٍ مِنْ جُسومِهِمْ وَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشورِ نُشورُ

اللهمَّ! فلكَ الحمدُ وإليكَ المشتكى، وأنتَ المستعانُ وبكَ المستغاثُ، وعليكَ التُّكلانُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بكَ، وأنتَ حسبُنا ونعمَ الوكيل.

فَلْنَشْرَعِ الآنَ في المقصودِ بحولِ اللهِ وقوَّتِهِ /خ٧٦/ ، فنَقولُ: **الأصلُ الأوَّلُ**:

---

(١) في ط: «حالف هواه»! وهو تصحيف صوابه ما أثبتّ من خ. والمعنى: المعروف عنده ما وافق إرادته والمنكر ما خالف هواه.

(٢) آجن: متغيّر اللون والطعم. تضلّع: شرب وأكثر حتّى امتلأ.

(٣) المسلاخ في الأصل: الجلد، وهو هنا الهيئة. الكاشح: الذي يضمر العداوة.

(٤) في خ: «وشفاقًا»! والتصويب من ط.

[الباب الأول]

في العلم وفضله وشرفه وبيان عموم الحاجة إليه وتوقف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولو العِلْمِ قائِمًا بِالقِسْطِ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ العَزيزُ الحَكيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

ٱسْتَشْهَدَ سبحانَهُ بأُولي العلمِ على أجلِّ مشهودٍ عليهِ ـ وهوَ توحيدُهُ ـ فقالَ: ﴿شَهِدَ اللهُ [أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولو العِلْمِ قائِمًا بِالقِسْطِ]﴾. وهٰذا يَدُلُّ على فضلِ العلمِ وأهلِهِ مِن وجوهٍ:

● **أحدُها**: ٱستشهادُهُم دونَ غيرِهِم مِن البشرِ.

● **والثَّاني**: ٱقترانُ شهادتِهِم بشهادتِهِ.

● **والثَّالثُ**: ٱقترانُها بشهادةِ ملائكتِهِ.

● **والرَّابعُ**: أنَّ في ضمنِ هٰذا تزكيتَهُم وتعديلَهُم؛ فإنَّ اللهَ لا يَسْتَشْهِدُ مِن خَلقِهِ إلاَّ العدولَ. ومنهُ الأثرُ المعروفُ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «يَحْمِلُ هٰذا العلمَ مِن كلِّ خلفٍ عدولُهُ؛ يَنْفونَ عنهُ تحريفَ الغالين، وٱنتحالَ المبطِلين، وتأويلَ الجاهلينَ»[1].

وقالَ مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدَ بنِ يَعْقوبَ بنِ شَيْبَةَ: رَأَيْتُ رجلاً قَدَّمَ رجلاً إلى إِسْماعيلَ بنِ إِسْحاقَ القاضي، فٱدَّعى عليهِ دعوى. فسَأَلَ المدَّعى عليهِ فأنْكَرَ. فقالَ للمدَّعي: أَلَكَ بيِّنةٌ؟ قالَ: نعمْ؛ فلانٌ وفلانٌ. قالَ: أمَّا فلانٌ؛ فمِن شهودي، وأمَّا فلانٌ؛ فليسَ

---

(١) (لا بأس به). سيأتي تفصيل لابن القيم طويل في طرقه في الوجه ١٢٦.

مِن شهودي! قالَ: فيَعْرِفُهُ القاضي؟ قالَ: نعم. قالَ: بماذا؟ قالَ: أعْرِفُهُ بكَتْبِ الحديثِ. قالَ: [فـ]كيفَ تَعْرِفُهُ في كَتْبِهِ الحديثَ؟ قالَ: ما عَلِمْتُ إلاَّ خيرًا. قالَ: فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «يَحْمِلُ هٰذا العلمَ مِن كلِّ خلفٍ عدولُهُ»، فمَن عَدَّلَهُ رسولُ اللهِ ﷺ أوْلى ممَّن عَدَّلْتَهُ أنتَ. فقالَ: قُمْ فهاتِهِ[1] فقد قَبِلْتُ شهادتَهُ.

وسَيَأْتي إنْ شاءَ اللهُ الكلامُ على هٰذا الحديثِ في موضعِهِ.

● **الخامسُ**: أنَّهُ وَصَفَهُم بكونِهِم أُولي العلمِ. وهٰذا يَدُلُّ على ٱختصاصِهِم بِهِ، وأنَّهُم أهلُهُ وأصحابُهُ، ليسَ بمستعارٍ لهُم.

● **السَّادسُ**: أنَّهُ سبحانَهُ ٱسْتَشْهَدَ بنفسِهِ وهوَ أجلُّ شاهدٍ، ثمَّ بخيارِ خلقِهِ وهُمُ الملائكةُ والعلماءُ مِن عبادِهِ /خ٧٧/. ويَكْفي بهٰذا[2] فضلاً وشرفًا.

● **السَّابعُ**: أنَّهُ ٱسْتَشْهَدَ بهِم على أجلِّ مشهودٍ بِهِ وأعظمِهِ وأكبرِهِ، وهوَ شهادةُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ هوَ. والعظيمُ القَدْرِ إنَّما يَسْتَشْهِدُ على الأمرِ العظيمِ أكابرَ الخلقِ وساداتِهِم.

● **الثَّامنُ**: أنَّهُ سبحانَهُ جَعَلَ شهادتَهُم حجَّةً على المنكِرينَ، فهُم بمنزلةِ أدلَّتِهِ وآياتِهِ وبراهينِهِ الدَّالَّةِ على توحيدِهِ.

● **التَّاسعُ**: أنَّهُ سبحانَهُ أفْرَدَ الفعلَ المتضمِّنَ لهٰذهِ الشَّهادةِ الصَّادرةِ منهُ ومِن ملائكتِهِ ومنهُم ولمْ يَعْطِفْ شهادتَهُم بفعلٍ آخرَ على شهادتِهِ. وهٰذا يَدُلُّ على شدَّةِ ٱرتباطِ شهادتِهِم بشهادتِهِ، فكأنَّهُ سبحانَهُ شَهِدَ لنفسِهِ بالتَّوحيدِ على ألسنتِهِم وأنْطَقَهُم بهٰذهِ الشَّهادةِ، فكانَ هوَ الشَّاهدَ بها لنفسِهِ إقامةً وإنطاقًا وتعليمًا[3] وهمُ الشَّاهدونَ بها لهُ إقرارًا وٱعترافًا وتصديقًا وإيمانًا.

● **العاشرُ**: أنَّهُ سبحانَهُ جَعَلَهُم مؤدِّينَ لحقِّهِ عندَ عبادِهِ بهٰذهِ الشَّهادةِ[4]، فإذا

---

(١) في خ: «والثالث ٱقترانها بشهادة الملائكة. . . رسول الله ﷺ كان خيرًا ممّن عدّلته أنت فقال نعم فهاته»! والتصويب من ط و«شرف أصحاب الحديث» (٥٧).

(٢) في ط: «وهم ملائكته والعلماء من عباده ويكفيهم بهٰذا»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٣) في خ: «حجّة على المتكبّرين فهم. . . بفعل آخر غير شهادته. . . إقامة وانطلاقًا وتعليمًا»!

(٤) لأنّ حقّ الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وهٰذا معنى شهادة أن لا إلٰه إلاّ الله، التي جعل الله أهل العلم مبلّغين لها شاهدين عليها. فمعنى «مؤدّين لحقّه» هنا: مبلّغين له.

أَدَّوْها؛ فقد أَدَّوُا الحقَّ المشهودَ بهِ، فثَبَتَ الحقُّ المشهودُ بهِ، فوَجَبَ على الخلقِ الإقرارُ بهِ، وكانَ [في][1] ذٰلكَ غايةُ سعادتِهِم في معاشِهِم ومعادِهِم. وكلُّ مَن نالَهُ الهدى بشهادتِهِم، وأقَرَّ بهٰذا الحقِّ بسببِ شهادتِهِم؛ فلهُم [مِن الأجرِ] مثلُ أجرِهِ، وهٰذا فضلٌ عظيمٌ لا يَدْري قَدْرَهُ إلَّا اللهُ. وكذٰلكَ كلُّ مَن شَهِدَ بها عن شهادتِهِم؛ فلهُم مِن الأجرِ مثلُ أجرِهِ أيضًا.

فهٰذهِ عشرةُ أوجهٍ في هٰذهِ الآيةِ.

● **الوجهُ الحادي عشرَ في تفضيلِ العلمِ وأهلِه:** أنَّهُ تَعالى نَفى التَّسويةَ بينَ أهلِهِ وغيرِهِم كما نَفى التَّسويةَ بينَ أصحابِ الجنَّةِ وأصحابِ النَّارِ. فقالَ تَعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمونَ وَالَّذينَ لا يَعْلَمونَ﴾ [الزمر: ٩]، كما قالَ تَعالى: ﴿لا يَسْتَوي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]. وهٰذا يَدُلُّ على غايةِ فضلِهِم وشرفِهِم[2].

● **الوجهُ الثَّاني عشرَ:** أنَّهُ سبحانَهُ جَعَلَ /خ٧٨/ أهلَ الجهلِ بمنزلةِ العميانِ الذينَ لا يُبْصِرونَ: فقالَ تَعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى﴾ [الرعد: ١٩]، فما ثَمَّ إلَّا عالمٌ أو أعمى. وقد وَصَفَ سبحانَهُ أهلَ الجهلِ[3] بأنَّهُم صمٌّ بكمٌ عميٌ في غيرِ موضعٍ مِن كتابِهِ.

● **الوجهُ الثَّالثَ عشرَ:** أنَّهُ سبحانَهُ أَخْبَرَ عن أُولي العلمِ بأنَّهُم يَرَوْنَ ما أُنْزِلَ إليهِ مِن ربِّهِ حقًّا[4] وجَعَلَ هٰذا ثناءً عليهِم واستشهادًا بهِم، فقالَ تَعالى: ﴿وَيَرى الَّذينَ أُوتوا العِلْمَ الَّذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

● **الوجهُ الرَّابعَ عشرَ:** أنَّهُ سبحانَهُ أَمَرَ بسؤالِهِم والرُّجوعِ إلى أقوالِهِم وجَعَلَ ذٰلكَ

---

(١) ساقطة من ط.

(٢) في ط: «بين أهله وبين غيرهم...»، وفي خ: «... وأصحاب الجنّة أصحاب الجنّة هم الفائزون... وشرفهم إنّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»! ولا حاجة للزيادتين.

(٣) من الكفرة والمنافقين والمكذّبين والضلّال والمعرضين، فهٰؤلاء داخلون في مسمّى الجهل على عمومه. وأمّا جهلة أهل الإيمان المقابلون لأهل العلم منهم؛ فلم يرد فيهم هٰذا الوصف في القرآن الكريم.

(٤) في خ: «يرون أنّ ما أنزل إليه من ربّه حقًّا»! والصواب ما أثبتّه من ط.

كالشَّهادةِ منهُم، فقالَ [تَعالى]: ﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وأهلُ الذِّكرِ هُم أهلُ العلمِ بما أُنْزِلَ على الأنبياءِ.

● **الوجهُ الخامسَ عشرَ**: أنَّهُ سبحانَهُ شَهِدَ لأهلِ العلمِ شهادةً في ضمنِها الاستشهادُ بهِم على صحَّةِ ما أنْزَلَ اللهُ على رسولِهِ، فقالَ تَعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغي حَكَمًا وَهُوَ الَّذي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتابَ مُفَصَّلاً وَالَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْلَمونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ فَلا تَكونَنَّ مِنَ المُمْتَرينَ﴾ [الأنعام: ١١٤].

● **الوجهُ السَّادسَ عشرَ**: أنَّهُ سبحانَهُ سَلَّى نبيَّهُ بإيمانِ أهلِ العلمِ بهِ وأمَرَهُ أنْ لا يَعْبَأَ بالجاهلينَ شيئًا، فقالَ تَعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزيلاً . قُلْ آمِنوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنوا إِنَّ الَّذينَ أُوتوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقانِ سُجَّدًا . وَيَقولونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعولاً﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٨]. وهٰذا شرفٌ عظيمٌ لأهلِ العلمِ، وتحتَهُ أنَّ أهلَهُ العالِمينَ[1] قد عَرَفوهُ وآمَنوا بهِ وصَدَّقوا فسواءٌ آمَنَ بهِ غيرُهُم أو لا!

● **الوجهُ السَّابعَ عشرَ**: أنَّهُ سبحانَهُ مَدَحَ أهلَ العلمِ وأثْنى عليهِم وشَرَّفَهُم بأنْ جَعَلَ كتابَهُ آياتٍ بيِّناتٍ في صدورِهِم، وهٰذهِ خاصَّةٌ ومنقبةٌ لهُم دونَ غيرِهِم. فقالَ تَعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الكِتابَ فَالَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يُؤْمِنونَ بِهِ وَمِنْ هٰؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الكافِرونَ . وَما كُنْتَ تَتْلو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمينِكَ إِذًا لارْتابَ المُبْطِلونَ /خ٧٩/ . بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ في صُدورِ الَّذينَ أُوتوا العِلْمَ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظَّالِمونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧-٤٩]. وسواءٌ كانَ المعنى: أنَّ القرآنَ مستقرٌّ في صدورِ الذينَ أُوتوا العلمَ ثابتٌ فيها محفوظٌ وهوَ في نفسِهِ آياتٌ بيِّناتٌ، فيَكونُ قد أخْبَرَ عنهُ بخبرينِ: أحدُهُما: أنَّهُ آياتٌ بيِّناتٌ، الثَّاني: أنَّهُ محفوظٌ مستقرٌّ ثابتٌ في صدورِ الذينَ أُوتوا العلمَ. أو كانَ المعنى: أنَّهُ آياتٌ بيِّناتٌ في صدورِهِم؛ أي: كونُهُ

---

(١) في ط: «يخرّون إلى الأذقان...»! وفي خ وط: «... العالمون»! وحقّها النصب.

آياتٍ بيِّناتٍ معلومٌ لهُم ثابتٌ في صدورِهِم. والقولانِ متلازِمانِ ليسا بمختلفينِ. وعلى التَّقديرينِ؛ فهوَ مدحٌ لهُم وثناءٌ عليهِم في ضمنِهِ الاستشهادُ بهِم. فتأمَّلْهُ.

● **الوجهُ الثَّامنَ عشرَ:** أنَّهُ سبحانَهُ أمَرَ نبيَّهُ أنْ يَسْألَهُ مزيدَ العلمِ، فقالَ تَعالى: ﴿فتَعالى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْضى إلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْني عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. وكَفى بهٰذا شرفًا للعلمِ أنْ أمَرَ نبيَّهُ أنْ يَسْألَهُ المزيدَ منهُ.

● **الوجهُ التَّاسعَ عشرَ:** أنَّهُ سبحانَهُ أخْبَرَ عن رفعةِ درجاتِ أهلِ العلمِ والإيمانِ خاصَّةً، فقالَ تَعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إذا قيلَ لَكُمْ تَفَسَّحوا في المَجالِسِ فَافْسَحوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإذا قيلَ انْشُزوا فَانْشُزوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذينَ آمَنوا مِنْكُمْ وَالَّذينَ أُوتوا العِلْمَ دَرَجاتٍ وَاللهُ بِما تَعْمَلونَ خَبيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وقد أخْبَرَ سبحانَهُ في كتابِهِ برفعةِ الدَّرجاتِ في أربعةِ مواضعَ[1]: أحدُها: هٰذا. والثَّاني: قولُهُ: ﴿إنَّما المُؤْمِنونَ الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهُمْ وَإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إيمانًا وَعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلونَ . الَّذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقونَ . أُولٰئِكَ هُمُ المُؤْمِنونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَريمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤]. والثَّالثُ: قولُهُ تَعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ العُلا﴾ [طه: ٧٥]. والرَّابعُ: قولُهُ تَعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ المُجاهِدينَ عَلى القاعِدينَ أجْرًا عَظيمًا . دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

فهٰذهِ أربعةُ مواضعَ: في ثلاثةٍ منها الرِّفعةُ بالدَّرجاتِ لأهلِ الإيمانِ الذي هوَ العلمُ النَّافعُ والعملُ الصَّالحُ، والرَّابعُ الرِّفعةُ بالجهادِ. فعادَتْ رفعةُ الدَّرجاتِ /خ٨٠/ كلُّها إلى العلمِ والجهادِ اللذينِ بهِما قِوامُ الدِّينِ.

● **الوجهُ العشرونَ:** أنَّهُ سبحانَهُ اسْتَشْهَدَ بأهلِ العلمِ والإيمانِ يومَ القيامةِ على بطلانِ قولِ الكفَّارِ، فقالَ تَعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقومُ [السَّاعَةُ] يُقْسِمُ المُجْرِمونَ ما لَبِثوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذٰلِكَ كانوا يُؤْفَكونَ . وَقالَ الَّذينَ أُوتوا العِلْمَ وَالإيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ في كِتابِ اللهِ

---

(١) وجاءت رفعة الدرجات أيضًا في: البقرة ٢٥٣، آل عمران ١٦٣، النساء ٩٥، الأنعام ٨٣ و١٣٢ و١٦٥، التوبة ٢٠، يوسف ٧٦، الإسراء ٢١، الزخرف ٣٢، الأحقاف ١٩، الحديد ١٠. وأنظر الوجه ٢٣.

إلى يَوْمِ البَعْثِ فَهٰذا يَوْمُ البَعْثِ وَلٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمونَ﴾[١] [الروم: ٥٥-٥٦].

● **الوجهُ الحادي والعشرونَ**: أنَّهُ سبحانَهُ أَخْبَرَ أنَّهُم أهلُ خشيتِهِ، بلْ خَصَّهُمْ مِن بينِ النَّاسِ بذٰلكَ، فقالَ تَعالى: ﴿إنَّما يَخْشى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ إنَّ اللهَ عَزيزٌ غَفورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]. وهٰذا حصرٌ لخشيتِهِ[٢] في أُولي العلمِ[٣]. وقالَ تعالى: ﴿جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ خالِدينَ فيها أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُـ[ـمْ] وَرَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]. وقد أَخْبَرَ أنَّ أهلَ خشيتِهِ همُ العلماءُ، فدَلَّ على أنَّ هٰذا الجزاءَ المذكورَ للعلماءِ بمجموعِ النَّصَّينِ.

وقالَ ابنُ مَسْعودٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: كَفى بخشيةِ اللهِ علمًا، وكَفى بالاغترارِ باللهِ جهلاً.

● **الوجهُ الثَّاني والعشرونَ**: أنَّهُ سبحانَهُ أَخْبَرَ عن أمثالِهِ التي يَضْرِبُها لعبادِهِ يَدُلُّهُم على صحَّةِ ما أَخْبَرَ بهِ؛ أنَّ أهلَ العلمِ همُ المنتفعونَ بها المختصُّونَ بعلمِها، فقالَ تَعالى: ﴿وَتِلْكَ الأمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إلاَّ العالِمونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وفي القرآنِ بضعةٌ وأربعونَ مثلاً[٤].

وكانَ بعضُ السَّلفِ إذا مَرَّ بمَثَلٍ لا يَفْهَمُهُ يَبْكي ويَقولُ: لَسْتُ مِن العالِمينَ.

● **الوجهُ الثَّالثُ والعشرونَ**: أنَّهُ سبحانَهُ ذَكَرَ مناظرةَ إبْراهيمَ لأبيهِ وقومِهِ وغلبتَهُ لهُم بالحجَّةِ، وأَخْبَرَ عن تفضيلِهِ بذٰلكَ ورفعِهِ درجتَهُ بعلمِ الحجَّةِ، فقالَ تَعالى عَقيبَ مناظرتِهِ لأبيهِ [وقومِهِ] في سورةِ الأنعامِ [٨٣]: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إبْراهيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إنَّ رَبَّكَ حَكيمٌ عَليمٌ﴾. قالَ زَيْدُ بنُ أَسْلَمَ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: نَرْفَعُ درجاتٍ مَنْ نَشاءُ بعلمِ الحجَّةِ.

---

(١) ما لبثوا: في الدنيا أو في قبورهم. يؤفكون: يصرفون عن الحقّ. في كتاب الله: فيما قدّره وقضاه وكتبه في اللوح المحفوظ.

(٢) في خ: «أنّه أخبر سبحانه... وهٰذا حصر الخشية»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٣) نعم؛ قد ترى في العوامّ من هو أكثر خوفًا من الله ووقوفًا عند حدوده من كثير من أهل العلم. لكنّ خشية الله حقّ الخشية لا تكون إلاّ لأهل العلم.

(٤) انظرها وتفصيل القول فيها في «أعلام الموقّعين عن ربّ العالمين» (١/ ١٥٠) للمصنّف.

● **الوجهُ الرَّابعُ والعشرونَ**: أنَّهُ سبحانَهُ أخْبرَ أنَّهُ /خ٨١/ خَلَقَ الخلقَ ووَضَعَ بيتَهُ الحرامَ والشَّهرَ [الحرامَ] والهديَ والقلائدَ ليَعْلَمَ عبادُهُ أنَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ وعلى كلِّ شيءٍ قديرٌ[1]. وقالَ[2] تعالى: ﴿اللهُ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَموا أنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ وَأنَّ اللهَ قَدْ أحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. فدَلَّ على أنَّ علمَ العبادِ بربِّهم وصفاتِهِ وعبادتِهِ وحدَهُ هوَ الغايةُ المطلوبةُ مِن الخلقِ والأمرِ.

● **الوجهُ الخامسُ والعشرونَ**: أنَّ اللهَ سبحانَهُ أمَرَ أهلَ العلمِ بالفرحِ بما آتاهُم وأخْبرَ أنَّهُ خيرٌ ممَّا يَجْمَعُ النَّاسُ، فقالَ تَعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعونَ﴾ [يونس: ٥٨]. وفُسِّرَ فضلُ اللهِ بالإيمانِ ورحمتُهُ بالقرآنِ. والإيمانُ والقرآنُ: هُما العلمُ النَّافعُ والعملُ الصَّالحُ، و[هُما] الهدى ودينُ الحقِّ، وهُما أفضلُ علمٍ وأفضلُ عملٍ.

● **الوجهُ السَّادسُ والعشرونَ**: أنَّهُ سبحانَهُ شَهِدَ[3] لمَن آتاهُ العلمَ بأنَّهُ قد آتاهُ خيرًا كثيرًا، فقالَ تَعالى: ﴿يُؤْتي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. قالَ ابنُ قُتَيْبَةَ والجمهورُ: الحكمةُ إصابةُ الحقِّ والعملُ بهِ، وهيَ العلمُ النَّافعُ والعملُ الصَّالحُ[4].

● **الوجهُ السَّابعُ والعشرونَ**: أنَّهُ سبحانَهُ عَدَّدَ نعمَهُ وفضلَهُ على رسولِهِ وجَعَلَ مِن أجلِّها أنْ آتاهُ الكتابَ والحكمةَ وعَلَّمَهُ ما لمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، فقالَ تَعالى: ﴿وَأنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذٰلك لتعلموا أنّ الله يعلم ما في السّماوات وما في الأرض وأنّ الله بكلّ شيء عليم﴾ [المائدة: ٩٧].

(٢) في خ وط: «فقال»! ولا يستوي الكلام إلّا بالواو، فهٰذه آية أخرى. والذي يغلب على الظنّ أنّ هاهنا سقطًا طال آية المائدة المتقدّمة وكلامًا بعدها في مقدّمة آية الطلاق.

(٣) في ط: «وأخبر أنّه خبير بما يجمع النّاس. . .»! وفي خ: «. . . أنّه سبحانه يشهد».

(٤) وقيل الحكمة العلم، وقيل الفهم، وقيل إتقان الأمور، وقيل وضع الشيء في موضعه. . . والأكثرون على أنّ الحكمة أمر فوق العلم، لٰكنّه لا يحصّل إلّا بالعلم ولا يناله غير أهل العلم.

● **الوجهُ الثَّامنُ والعشرونَ**: أنَّهُ سبحانَهُ ذَكَّرَ عبادَهُ المؤمنينَ بهٰذهِ النِّعمةِ وأمَرَهُم بشكرِها وأنْ يَذْكُروهُ على إسدائِها إليهِم، فقالَ تَعالى: ﴿كَما أَرْسَلْنا فيكُمْ رَسولاً مِنكُمْ يَتْلو عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكونوا تَعْلَمونَ . فَاذْكُروني أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُروا لي وَلا تَكْفُرونِ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

● **الوجهُ التَّاسعُ والعشرونَ**: أنَّهُ سبحانَهُ لمَّا أخْبَرَ ملائكتَهُ بأنَّهُ يُريدُ أنْ يَجْعَلَ في الأرضِ خليفةً؛ قالوا [لهُ]: ﴿أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ /خ٨٢/ فيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلى المَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئوني بِأَسْماءِ هٰؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ . [قالوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاَّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ العَليمُ الحَكيمُ]﴾ [البقرة: ٣٠-٣٢]. . . إلى آخرِ قصَّةِ آدَمَ وأمرِ الملائكةِ بالسُّجودِ لهُ فإباءِ إبليسَ ولعنِهِ وإخراجِهِ مِن السَّماءِ.

وبيانُ فضلِ العلمِ مِن هٰذهِ القصَّةِ مِن وجوهٍ:

أحدُها: أنَّهُ سبحانَهُ رَدَّ على الملائكةِ، لمَّا سألوهُ[1] كيفَ يَجْعَلُ في الأرضِ مَن هُم أطوعُ لهُ منهُ، فقالَ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمونَ﴾، فأجابَ سؤالَهُم بأنَّهُ يَعْلَمُ مِن بواطنِ الأُمورِ وحقائقِها ما لا يَعْلَمونَهُ وهوَ العليمُ الحكيمُ. فظَهَرَ مِن هٰذا الخليفةِ مِن خيارِ خلقِهِ ورسلِهِ وأنبيائِهِ وصالحي عبادِهِ والشُّهداءِ والصِّدِّيقينَ والعلماءِ وطبقاتِ أهلِ [العلمِ و]الإيمانِ مَن هوَ خيرٌ مِن الملائكةِ، وظَهَرَ مِن إبْليسَ مَن هوَ شرُّ العالمينَ. فأخْرَجَ سبحانَهُ هٰذا وهٰذا، والملائكةُ لمْ يَكُنْ لها علمٌ لا بهٰذا ولا بهٰذا ولا بما في خلقِ آدَمَ وإسكانِهِ الأرضَ مِن الحكمِ الباهرةِ.

الثَّاني: أنَّهُ سبحانَهُ لمَّا أرادَ إظهارَ تفضيلِ آدَمَ وتمييزِهِ وفضلِهِ مَيَّزَهُ عليهِم بالعلمِ، فعَلَّمَهُ ﴿الأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلى المَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئوني بِأَسْماءِ هٰؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ﴾ [البقرة: ٣١]. جاءَ في التَّفسيرِ[2] أنَّهُم قالوا: لَن يَخْلُقَ ربُّنا خلقًا هوَ أكرمُ عليهِ منَّا، فظَنُّوا أنَّهُم خيرٌ وأفضلُ مِن الخليفةِ الذي يَجْعَلُهُ اللهُ في الأرضِ. فلمَّا

---

(١) في ط: «له فأبى إبليس فلعنه وأخرجه. . . لمّا سألوا»، وفي خ: «. . . وأخرجه. . .».

(٢) في خ: «وفضله وميّزه. . . في تفسير»! والصواب ما أثبتّه من ط.

امْتَحَنَهُم بعلمِ ما عَلَّمَهُ لهٰذا الخليفةِ؛ أقرُّوا بالعجزِ وجهلِ ما لمْ يُعلِّموهُ فقالوا: ﴿سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلاَّ ما عَلَّمْتَنا إنَّكَ أَنْتَ العَليمُ الحَكيمُ﴾. فحينئذٍ أظْهَرَ لهُم فضلَ آدَمَ بما خَصَّهُ بهِ مِن العلمِ فقالَ: ﴿يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ﴾. فلمَّا أنْبَأَهُم بأسمائِهِم؛ أقرُّوا لهُ بالفضلِ.

الثَّالثُ: أنَّهُ سبحانَهُ لمَّا عرَّفَهُم فضلَ آدَمَ بالعلمِ وعجزَهُم عن معرفةِ ما عُلِّمَهُ؛ قالَ لهُم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمونَ﴾ [البقرة: ٣٣]. فعرَّفَهُم سبحانَهُ [نفسَهُ][١] بالعلمِ وأنَّهُ أحاطَ علمًا بظاهرِهِم وباطنِهِم وبغيبِ السَّماواتِ والأرضِ /خ٨٣/، فتعرَّفَ إليهِم بصفةِ العلمِ، وعرَّفَهُم فضلَ نبيِّهِ وكليمِهِ بالعلمِ، وعجَّزَهُم عمَّا آتاهُ آدَمَ مِن العلمِ، وكفى بهٰذا شرفًا للعلمِ.

الرَّابعُ: أنَّهُ سبحانَهُ جعَلَ في آدَمَ مِن صفاتِ الكمالِ ما كانَ بهِ أفضلَ مِن غيرِهِ مِن المخلوقاتِ، وأرادَ سبحانَهُ أنْ يُظْهِرَ لملائكتِهِ فضلَهُ وشرفَهُ، فأظْهَرَ لهُم أحسنَ ما فيهِ، وهوَ علمُهُ. فدَلَّ على أنَّ العلمَ أشرفُ ما في الإنسانِ، وأنَّ فضلَهُ وشرفَهُ إنَّما هوَ بالعلمِ.

● ونظيرُ هٰذا ما فعَلَهُ بنبيِّهِ[٢] يوسُفَ [عليهِ السَّلامُ]، لمَّا أرادَ إظهارَ فضلِهِ وشرفِهِ على أهلِ زمانِهِ كلِّهِم؛ أظْهَرَ للملكِ وأهلِ مِصْرَ مِن علمِهِ بتأويلِ رؤياهُ ما عَجَزَ عنهُ علماءُ التَّعبيرِ[٣]، فحينئذٍ قدَّمَهُ ومكَّنَهُ وسلَّمَ إليهِ خزائنَ الأرضِ، وكانَ قبلَ ذٰلكَ قد حَبَسَهُ على ما رَآهُ مِن حسنِ وجهِهِ وجمالِ صورتِهِ، ولمَّا ظَهَرَ لهُ حسنُ صورةِ علمِهِ وجمالُ معرفتِهِ؛ أطْلَقَهُ مِن الحبسِ ومكَّنَهُ في الأرضِ، فدَلَّ على أنَّ صورةَ العلمِ عندَ بني آدَمَ أبهى وأحسنُ مِن الصُّورةِ الحسِّيَّةِ ولو كانَتْ أجملَ صورةٍ. وهٰذا وجهٌ مستقلٌّ في تفضيلِ العلمِ، مضافٌ إلى ما تقدَّمَ، **يتِمُّ بهِ ثلاثونَ وجهًا**.

● **الوجهُ الحادي والثَّلاثونَ**: أنَّهُ سبحانَهُ ذمَّ أهلَ الجهلِ في مواضعَ كثيرةٍ مِن كتابِهِ:

---

(١) في ط: «لمّا أن عرّفهم فضل...»، و«نفسه» ساقطة من ط.

(٢) في خ: «وعجّزهم عمّا آتاهم آدم... فعله نبيّه»! وفي ط: «... ونظير ذٰلك ما فعله بنبيّه».

(٣) علماء التعبير: علماء تفسير الأحلام.

فقالَ تَعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقالَ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمونَ﴾ [الأنعام: ٣٧].

وقالَ تَعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعونَ أَوْ يَعْقِلونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤]. فلمْ يَقْتَصِرْ سبحانَهُ على تشبيهِ الجهَّالِ بالأنعامِ حتَّى جَعَلَهُم أضلَّ سبيلاً منهُم.

وقالَ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذينَ لا يَعْقِلونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]: أَخْبَرَ[1] أنَّ الجهَّالَ شرُّ الدَّوابِّ عندَهُ على اختلافِ أصنافِها مِن الحميرِ والسِّباعِ والكلابِ والحشراتِ وسائرِ الدَّوابِّ، فالجهَّالُ شرٌّ منهُم. وليسَ على دينِ الرُّسلِ أضرُّ مِن الجهَّالِ، بل هُم أعداؤُهُم على الحقيقةِ.

وقالَ تَعالى لنبيِّهِ وقد أعاذَهُ: ﴿فَلا تَكونَنَّ مِنَ الجاهِلينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقالَ كليمُهُ [موسى عليهِ السَّلامُ]: ﴿أَعوذُ بِاللهِ أَنْ أَكونَ مِنَ /خ٨٤/ الجاهِلينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

وقالَ لأوَّلِ رسلِهِ [نوحٍ عليهِ السَّلامُ]: ﴿إِنّي أَعِظُكَ أَنْ تَكونَ مِنَ الجاهِلينَ﴾ [هود: ٤٦].

فهٰذِه حالُ الجاهلينَ عندَهُ، والأوَّلُ[2] حالُ أهلِ العلمِ عندَهُ.

وأَخْبَرَ سبحانَهُ عن عقوبتِهِ لأعدائِهِ أنَّهُ مَنَعَهُم علمَ كتابِهِ ومعرفتَهُ وفقهَهُ[3]، فقالَ تَعالى: ﴿وَإِذا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذينَ لا يُؤْمِنونَ بِالآخِرَةِ حِجابًا مَسْتورًا . وَجَعَلْنا عَلى قُلوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهوهُ وَفي آذانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦].

وأَمَرَ سبحانَهُ نبيَّهُ بالإعراضِ عنهُم، فقالَ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهِلينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وأَثْنى على عبادِهِ بالإعراضِ عنهُم ومتاركتِهِم، كما في قولِهِ [تَعالى]: ﴿وَإِذا

---

(١) في خ: «وهٰذا وجه آستقلّ... تشبيه الجاهل... وأخبر»، وفي ط: «... فتمّ به ثلاثون...».

(٢) المتقدّم في الوجه التاسع والعشرين.

(٣) في خ: «لأعدائه أنّهم منعهم علم كتابه ومعرفته وفهمه»، والأولى ما أثبتّه من ط.

سَمِعوا اللَغْوَ أَعْرَضوا عَنْهُ وَقالوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغي الجاهِلينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وقالَ تَعالى: ﴿وَإِذا خاطَبَهُمُ الجاهِلونَ قالوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وكلُّ هٰذا يَدُلُّ على قبحِ الجهلِ عندَهُ وبغضِهِ للجهلِ وأهلِهِ، وكذٰلكَ هوَ عندَ النَّاسِ؛ فإنَّ كلَّ أحدٍ يَتَبَرَّأُ منهُ وإنْ كانَ فيه[١].

● **الوجهُ الثَّاني والثَّلاثونَ**: أنَّ العلمَ حياةٌ ونورٌ، والجهلَ موتٌ وظلمةٌ. والشَّرُّ كلُّه سببُهُ عدمُ الحياةِ والنُّورِ، والخيرُ كلُّهُ سببُهُ النُّورُ والحياةُ. فإنَّ النُّورَ يَكْشِفُ عن حقائقِ الأشياءِ ويُبَيِّنُ مراتبَها، والحياةُ هيَ المصحِّحةُ لصفاتِ الكمالِ الموجبةُ لتسديدِ الأقوالِ والأعمالِ. وكلُّ ما تَصَرَّفَ مِن الحياةِ فهوَ خيرٌ كلُّهُ: كالحياءِ، الذي سببُهُ كمالُ حياةِ القلبِ وتصوُّرُهُ حقيقةَ القبحِ ونفرتُهُ منهُ، وضدُّهُ الوقاحةُ والفحشُ، وسببُهُ موتُ القلبِ وعدمُ نفرتِهِ مِن القبحِ. وكالحيا، الذي هوَ المطرُ[٢]، الذي بهِ حياةُ كلِّ شيءٍ.

قالَ تَعالى: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نورًا يَمْشي بِهِ في النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ لَيْسَ بخارِجٍ مِنْها﴾ [الأنعام: ١٢٢]: كانَ ميتًا بالجهلِ قلبُهُ، فأحْياهُ بالعلمِ، وجَعَلَ لهُ مِن الإيمانِ نورًا يَمْشي بِهِ في النَّاسِ.

وقالَ تَعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ وَآمِنوا بِرَسولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نورًا تَمْشونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفورٌ رَحيمٌ . لِئَلَّا يَعْلَمَ /خ٨٥/ أَهْلُ الكِتابِ أَلَّا يَقْدِرونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذو الفَضْلِ العَظيمِ﴾[٣] [الحديد: ٢٨-٢٩].

وقالَ تَعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذينَ آمَنوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ وَالَّذينَ كَفَروا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغوتُ يُخْرِجونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلى الظُّلُماتِ أُولٰئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ

---

(١) في خ: «وأمر نبيّه سبحانه بالإعراض... وأهله وهو كذٰلك هو... يتبرّأ منه وهو كان فيه»!

(٢) في ط: «والموجبة لتسديد... من القبيح وكالحياء...»! وفي خ: «... هو كالمطر».

(٣) كفلين: ضعفين، نصيبين. ويجعل لكم نورًا: في الدنيا وعلى الصراط. لئلاّ يعلم أهل الكتاب... إلخ: لكي يعلم من كفر من أهل الكتاب أنّ الفضل بيد الله وحده يؤتيه من يشاء وأنّهم لا يملكون أن يحوّلوه حسب أهوائهم وأمانيّهم.

فيها خالِدونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقالَ [اللهُ] تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْري ما الكِتابُ وَلا الإيمانُ وَلٰكِنْ جَعَلْناهُ نورًا نَهْدي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدي إِلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]: فأَخْبَرَ أَنَّهُ[1] رُوحٌ تَحْصُلُ بِهِ الحياةُ ونورٌ يَحْصُلُ بِهِ الإِضاءةُ والإِشراقُ، فجَمَعَ بينَ الأَصلينِ الحياةِ والنُّورِ.

وقالَ [تَعالى]: ﴿قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نورٌ وَكِتابٌ مُبينٌ . يَهْدي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْديهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقالَ تَعالى: ﴿فَآمِنوا بِاللهِ وَرَسولِهِ والنُّورِ الَّذي أَنْزَلْنا وَاللهُ بِما تَعْمَلونَ خَبيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

وقالَ تَعالى: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نورًا مُبينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقالَ تَعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسولاً يَتْلو عَلَيْكُمْ آياتِ اللهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

وقالَ تَعالى: ﴿اللهُ نورُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نورِهِ كَمِشْكاةٍ فيها مِصْباحٌ المِصْباحُ في زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نورٌ عَلى نورٍ يَهْدي اللهُ لِنورِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ﴾[2] [النور: ٣٥]: فضَرَبَ سبحانَهُ مثلاً لنورِهِ الذي قَذَفَهُ في قلبِ المؤمنِ، كما قالَ أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: مثلُ نورِهِ في قلبِ عبدِهِ المؤمنِ، وهوَ نورُ القرآنِ والإيمانِ الذي أَعْطاهُ إِيَّاهُ، كما قالَ في آخرِ الآيةِ: ﴿نورٌ على نورٍ﴾؛ يَعْني: نورَ الإيمانِ على نورِ القرآنِ، كما قالَ بعضُ السَّلفِ: يَكادُ المؤمنُ يَنْطِقُ بالحكمةِ وإِنْ لَمْ يَسْمَعْ فيها بالأثرِ /خ٨٦/، فإِذا سَمِعَ فيها بالأثرِ؛

---

(١) أي: القرآن الكريم.

(٢) المشكاة: خزانة الحائط في لغتنا المعاصرة. درّيّ: شديد الإضاءة.

كانَ نورًا[ا] على نورٍ.

وقد جَمَعَ اللهُ سبحانَهُ بينَ ذكرِ هٰذينِ النُّورينِ[(١)] ـ وهُما الكتابُ والإيمانُ ـ في غيرِ موضعٍ مِن كتابِهِ:

كقولِهِ: ﴿ما كُنْتَ تَدْري ما الكِتابُ وَلا الإيمانُ وَلٰكِنْ جَعَلْناهُ نورًا نَهْدي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقولِهِ [تَعالى]: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعونَ﴾ [يونس: ٥٨]: ففضلُ اللهِ الإيمانُ، ورحمتُهُ القرآنُ.

وقولِهِ تَعالى[(٢)]: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نورًا يَمْشي بِهِ في النَّاسِ [كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها]﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقد تَقَدَّمَتْ [هٰذهِ][(٣)] الآياتُ.

وقالَ في آيةِ النُّورِ: ﴿نورٌ عَلى نورٍ﴾، وهوَ نورُ القرآنِ على نورِ الإيمانِ.

وفي حديثِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعانَ [رَضِيَ اللهُ عنهُ] عنِ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ ضَرَبَ مثلاً صراطًا مستقيمًا، على كَنَفَيِ الصِّراطِ دارانِ لهُما أبوابٌ مفتَّحةٌ، على الأبوابِ ستورٌ، وداعٍ يَدْعو على [رأسِ] الصِّراطِ[(٤)]، وداعٍ يَدْعو فوقَهُ، ﴿وَاللهُ يَدْعو إلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، والأبوابُ التي على كَنَفَيِ الصِّراطِ حدودُ اللهِ، فلا يَقَعُ أحدٌ في حدودِ اللهِ حتَّى يَكْشِفَ السِّتْرَ، والذي يَدْعو مِن فوقِهِ واعظُ ربِّهِ»[(٥)]. رواهُ: التِّرمِذيُّ وهٰذا لفظُهُ، والإمامُ أحمدُ ولفظُهُ: «... فالدَّاعي

---

(١) في خ: «لم يسمع فيها أثر... هٰذين النوعين»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٢) في خ: «وقال قل بفضل... وقال تعالى»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٣) ساقطة من ط.

(٤) في ط: «وعلى كنفي الصراط سوران...»، وأثبتّ ما في خ والترمذي، والزيادة من الترمذي.

(٥) (صحيح). رواه: أحمد (٤/ ١٨٢و١٨٣)، والفسوي في «التاريخ» (٣/ ٤١٤)، والترمذي (٤٥ـ الأمثال، ١ـ مثل الله لعباده، ٥/ ١٤٤/ ٢٨٥٩)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (١٨ و١٩)، وابن نصر في «السنّة» (١٦-١٨)، والنسائي في «الكبرى» (١١٧١٤ـ تحفة)، والطبري (١٨٦ و١٨٧)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٣٣)، والطبراني في «الشاميّين» (١١٤٧)، والآجرّي في «الشريعة» (١٢ و١٤)، والرامهرمزي في «الأمثال» (ص١٠)، وأبو الشيخ في «الأمثال»، وابن بطة في «الإبانة» (١٣١)، والحاكم (١/ ٧٣)، وابن=

على رأسِ الصِّراطِ كتابُ اللهِ، والدَّاعي فوقَ[1] الصِّراطِ واعظُ اللهِ في قلبِ كلِّ مؤمنٍ». فذَكَرَ الأصلين، وهُما داعي القرآنِ وداعي الإيمانِ.

وقالَ حُذَيْفَةُ: حَدَّثَنا رسولُ اللهِ ﷺ أَنَّ «الأمانةَ نَزَلَتْ في جَذْرِ قلوبِ الرِّجالِ، ثُمَّ نَزَلَ القرآنُ، فعَلِموا مِن الإيمانِ ثمَّ عَلِموا مِن القرآنِ»[2].

وفي الصَّحيحين[3] مِن حديثِ أبي موسى [الأشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنهُ] عنِ النَّبيِّ ﷺ: «مثلُ المؤمنِ الذي يَقْرَأُ القرآنَ كمثلِ الأُتْرُجَّةِ؛ طعمُها طيِّبٌ وريحُها طيِّبٌ، ومثلُ المؤمنِ الذي لا يَقْرَأُ القرآنَ كمثلِ التَّمرةِ؛ طعمُها طيِّبٌ ولا ريحَ لها، ومثلُ المنافقِ الذي يَقْرَأُ القرآنَ كمثلِ الرَّيحانةِ[4]؛ ريحُها طيِّبٌ وطعمُها مرٌّ، ومثلُ المنافقِ الذي لا يَقْرَأُ القرآنَ كمثلِ الحنظلةِ؛ طعمُها مرٌّ ولا ريحَ لها». فجَعَلَ النَّاسَ أربعةَ أقسامٍ: [الأوَّلُ]: أهلُ الإيمانِ والقرآنِ، وهُم /خ٨٧/ خيارُ النَّاسِ. الثَّاني: أهلُ الإيمانِ الذينَ لا يَقْرَؤونَ القرآنَ، وهُم دونَهُم. فهؤلاءِ [همُ] السُّعداءُ. والأشقياءُ قسمانِ: أحدُهُما: مَن أُوتِيَ قرآنًا بلا إيمانٍ، فهوَ منافقٌ. والثَّاني: مَن لا أُوتِيَ قرآنًا ولا إيمانًا.

والمقصودُ: أنَّ القرآنَ والإيمانَ [هُما نورٌ] يَجْعَلُهُ اللهُ في قلبِ مَن يَشاءُ مِن عبادِهِ، وأنَّهُما أصلُ كلِّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرةِ، وعلمُهُما أجلُّ العلومِ وأفضلُها، بل لا علمَ في الحقيقةِ يَنْفَعُ صاحبَهُ إلَّا علمُهُما، ﴿واللهُ يَهْدِي[5] مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ

= مردويه، والبيهقي في «الشعب» (٧٢١٦)، والأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (٤٧٣)؛ من طريقين قويّتين، عن جبير بن نفير، عن النوّاس بن سمعان. . . رفعه.

قال الترمذي عن الطريق الأولى: «غريب»، وفي نسخة المنذري: «حسن غريب»، وأقرّه المنذري على تحسينه، وأولى منهما قول ابن كثير: «حسن صحيح»؛ فإنّ رجاله ثقات عن آخرهم. وقال الحاكم عن الطريق الأخرى: «على شرط مسلم، ولا أعرف له علّة»، ووافقه الذهبي والألباني.

(١) في ط: «والداعي على رأس الصراط كتاب الله الذي فوق»، وأثبتّ ما في خ و«المسند».

(٢) رواه: البخاري (٨١ـ الرقاق، ٣٥ـ رفع الأمانة، ١١/ ٣٣٣/ ٦٤٩٧)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٦٤ـ رفع الأمانة، ١/ ١٢٦/ ١٤٣). لكن لفظه عندهما: «فعلموا من القرآن وعلموا من السنّة»، ولم يذكرا الإيمان.

(٣) البخاري (٦٦ـ فضائل القرآن، ١٧ـ فضل القرآن، ٩/ ٦٥/ ٥٠٢٠)، ومسلم (٦ـ المسافرين، ٣٧ـ فضيلة حافظ القرآن، ١/ ٥٤٩/ ٧٩٧).

(٤) في ط: «كالريحانة». والريحان: نبات زينة، طيّب الريح. والأترجّ: من الحمضيّات.

(٥) في خ: «والآخرة وعليهما أصل العلوم. . . علمهما وأنّه يهدي»! والصواب ما أثبتّه من ط.

مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

● **الوجهُ الثَّالثُ والثَّلاثونَ**: أنَّ اللهَ سبحانَهُ جَعَلَ صيدَ الكلبِ الجاهلِ ميتةً[١] يَحْرُمُ أكلُها، وأباحَ صيدَ الكلبِ المعلَّمِ. وهٰذا أيضًا مِن شرفِ العلمِ؛ أنَّهُ لا يُباحُ إلَّا صيدُ الكلبِ العالمِ، وأمَّا الكلبُ الجاهلُ؛ فلا يَحِلُّ أكلُ صيدِهِ، فدَلَّ على شرفِ العلمِ وفضلِهِ. قالَ [اللهُ] تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ ماذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَما عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُروا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقوا اللهَ إنَّ اللهَ سَريعُ الحِسابِ﴾ [المائدة: ٤]. ولولا مزيَّةُ العلمِ والتَّعليمِ وشرفُهُما؛ كانَ صيدُ الكلبِ المعلَّمِ والجاهلِ سواءً.

● **الوجهُ الرَّابعُ والثَّلاثونَ**: أنَّ اللهَ سبحانَهُ أخبَرَنا عن صفيِّهِ وكليمِهِ الذي كَتَبَ لهُ التَّوراةَ بيدِهِ وكَلَّمَهُ منهُ إليهِ أنَّهُ رَحَلَ إلى رجلٍ عالمٍ يَتَعَلَّمُ منهُ ويَزْدادُ علمًا إلى علمِهِ وقالَ لفتاهُ: ﴿لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾؛ حرصًا منهُ على لقاءِ هٰذا العالمِ وعلى التَّعلُّمِ منهُ. فلمَّا لَقِيَهُ؛ سَلَكَ معَهُ مسلكَ المتعلِّمِ معَ معلِّمِهِ وقالَ لهُ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، فبَدَأَهُ بعدَ السَّلامِ بالاستئذانِ[٢] على متابعتِهِ وأنَّهُ لا يَتَّبِعُهُ إلَّا بإذنِهِ [وأمرِهِ] وقالَ: ﴿عَلى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾. فلمْ يَجِئْ ممتحِنًا ولا متعنِّتًا، وإنَّما جاءَ متعلِّمًا مستزيدًا علمًا إلى علمِهِ. وكَفى بهٰذا فضلًا وشرفًا للعلمِ؛ فإنَّ نبيَّ اللهِ وكليمَهُ سَأَلَ ورَحَلَ[٣] حتَّى لَقِيَ النَّصَبَ مِن سفرِهِ في تعلُّمِ ثلاثِ مسائلَ /خ٨٨/ مِن رجلٍ عالمٍ، ولمَّا سَمِعَ بهِ؛ لمْ يَقَرَّ لهُ قرارٌ حتَّى لَقِيَهُ وطَلَبَ منهُ متابعتَهُ وتعليمَهُ [الكهف: ٦٠-٨٢].

وفي قصَّتِهِما عبرٌ وآياتٌ وحكمٌ ليسَ هٰذا موضعَ ذكرِها.

● **الوجهُ الخامسُ والثَّلاثونَ**: قولُهُ تعالى: ﴿وَما كانَ المُؤْمِنونَ لِيَنْفِروا كافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهوا في الدِّينِ وَلِيُنْذِروا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ

---

(١) في خ: «كميتة»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٢) في ط: «علمه فقال وإذ قال موسى لفتاه...»، وفي خ: «... فبدأ بالسلام وبالاستئذان».

(٣) في خ: «فلم يجئ مستمحنًا...»! وفي ط: «... وكليمه سافر ورحل».

يَحْذَرونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]: نَدَبَ تَعالى المؤمنينَ إلى التَّفقُّهِ في الدِّينِ ـ وهوَ تعلُّمُهُ ـ وإنذارِ قومِهِم إذا رَجَعوا إليهِم ـ وهوَ التَّعليمُ ـ. وقدِ اخْتُلِفَ في الآيةِ:

فقيلَ: المعنى: أنَّ المؤمنينَ لمْ يكونوا لِيَنْفِروا كلُّهُم للتَّفقُّهِ والتَّعلُّم، بل يَنْبَغي أنْ يَنْفِرَ مِن كلِّ فرقةٍ منهُم طائفةٌ تَتَفَقَّهُ في الدِّينِ، ثمَّ تَرْجِعُ تلكَ الطَّائفةُ تُعَلِّمُ[١] القاعدينَ، فيَكونُ النَّفيرُ على هٰذا نفيرَ تعلُّمٍ، والطَّائفةُ تُقالُ للواحدِ فما زادَ. قالوا: فهوَ دليلٌ على قَبولِ خبرِ الواحدِ، وعلى هٰذا حَمَلَها الشَّافعيُّ وجماعةٌ.

وقالَتْ طائفةٌ أُخرى: المعنى: وما كانَ المؤمنونَ لِيَنْفِروا إلى الجهادِ كلُّهُم، بل يَنْبَغي أنْ تَنْفِرَ طائفةٌ للجهادِ وفرقةٌ تَقْعُدُ تَتَفَقَّهُ في الدِّينِ[٢]، فإذا جاءَتِ الطَّائفةُ التي نَفَرَتْ؛ فَقَّهَتْها القاعدةُ وعَلَّمَتْها ما أُنْزِلَ مِن الدِّينِ والحلالِ والحرامِ. وعلى هٰذا؛ فيَكونُ قولُهُ ﴿لِيَتَفَقَّهوا﴾ و﴿لِيُنْذِروا﴾ للفرقةِ التي نَفَرَتْ منها طائفةٌ[٣]. وهٰذا قولُ الأكثرينَ[٤].

وعلى هٰذا؛ فالنَّفيرُ نفيرُ جهادٍ على أصلِهِ؛ فإنَّهُ حيثُ اسْتُعْمِلَ إنَّما يُفْهَمُ منهُ الجهادُ: قالَ اللهُ تَعالى: ﴿انْفِروا خِفافًا وَثِقالاً وَجاهِدوا [بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ]﴾ [التوبة: ٤١]، وقالَ النَّبيُّ ﷺ: «لا هجرةَ بعدَ الفتحِ، ولٰكنْ جهادٌ ونيَّةٌ، وإذا اسْتُنْفِرْتُمْ فانْفِروا»[٥]. وهٰذا هوَ المعروفُ مِن هٰذهِ اللفظةِ.

وعلى القولينِ؛ فهٰذا ترغيبٌ في التَّفقُّهِ في الدِّينِ وتعلُّمِهِ وتعليمِهِ؛ فإنَّ ذٰلكَ يَعْدِلُ الجهادَ، بل ربَّما يكونُ أفضلَ منهُ، كما سيَأْتي تقريرُهُ في الوجهِ الثَّامنِ بعدَ المئةِ[٦] إنْ شاءَ اللهُ [تَعالى].

---

(١) في خ: «للتفقّه والتعليم... تفقّه في الدين تلك الطائفة ثمّ ترجع تعلم»! وفي ط: «... ينبغي أن ينفروا من... تتفقّه تلك الطائفة ثمّ ترجع تعلّم»! وفيه إشكال أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٢) في خ: «تفقه في الدين»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٣) كأنّه أراد أن يقول: للطائفة التي نفرت من الفرقة، فسبقه القلم. والله أعلم.

(٤) وعليه يكون معنى الآية: لا ينبغي أن يخرج المؤمنون جميعًا للجهاد في سبيل الله، بل يخرج منهم طائفة فقط، ويبقى من عداهم ليتفقّهوا في الدين وليعلّموا الطائفة المجاهدة إذا رجعت.

(٥) رواه: البخاري (٢٨ـ جزاء الصيد، ١٠ـ لا يحلّ القتال بمكّة، ٤/٤٦/١٨٣٤)، ومسلم (١٥ـ الحجّ، ٨٢ـ تحريم مكّة، ٢/٩٨٦/١٣٥٣)؛ من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما.

(٦) في ط: «فأنفروا هٰذا... فهو ترغيب... الثامن والمئة»، وفي خ: «... الجهاد وربما...».

● **الوجهُ السَّادسُ والثَّلاثونَ**: قولُهُ تَعالى: ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ /خ٨٩/ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

قالَ الشَّافِعِيُّ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: لو فَكَّرَ النَّاسُ كلُّهُم في هٰذِهِ السُّورةِ؛ لَكَفَتْهُم.

وبيانُ ذٰلكَ أنَّ المراتبَ أربعٌ، وبٱستكمالِها يَحْصُلُ للشَّخصِ غايةُ كمالِهِ: إحداها: معرفةُ الحقِّ. الثَّانيةُ: عملُهُ بِهِ. الثَّالثةُ: تعليمُهُ مَن لا يُحْسِنُهُ. الرَّابعةُ: صبرُهُ على تعلُّمِهِ والعملِ بِهِ وتعليمِهِ.

فذَكَرَ تَعالى المراتبَ الأربعَ[1] في هٰذِهِ السُّورةِ: فأَقْسَمَ سبحانَهُ بالعصرِ أنَّ كلَّ أحدٍ في خسرٍ. ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: وهمُ[2] الذينَ عَرَفوا الحقَّ وصَدَّقوا بِهِ، فهٰذِهِ مرتبةٌ. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: وهمُ الذينَ عَمِلوا بما عَلِموا[هُ] مِن الحقِّ، فهٰذِهِ مرتبةٌ أُخرى. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾: وَصَّى [بِهِ] بعضُهُم بعضًا تعليمًا وإرشادًا، فهٰذِهِ مرتبةٌ ثالثةٌ. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾: صَبَروا على الحقِّ ووَصَّى بعضُهُم بعضًا بالصَّبرِ عليهِ والثَّباتِ، فهٰذِهِ مرتبةٌ رابعةٌ.

وهٰذِهِ نهايةُ الكمالِ؛ فإنَّ الكمالَ أنْ يَكونَ الشَّخصُ كاملاً في نفسِهِ مكمِّلاً لغيرِهِ: وكمالُهُ بإصلاحِ قوَّتيهِ العلميَّةِ والعمليَّةِ؛ فصلاحُ القوَّةِ العلميَّةِ بالإيمانِ، وصلاحُ القوَّةِ العمليَّةِ بعملِ الصَّالحاتِ. وتكميلُهُ غيرَهُ؛ بتعليمِهِ إيَّاهُ، وصبرِهِ عليهِ، وتوصيتِهِ بالصَّبرِ على العلمِ والعملِ.

فهٰذِهِ السُّورةُ على ٱختصارِها هيَ مِن أجمعِ سورِ القرآنِ للخيرِ بحذافيرِهِ.

والحمدُ للهِ الذي جَعَلَ كتابَهُ كافيًا عن[3] كلِّ ما سواهُ، شافيًا مِن كلِّ داءٍ، هاديًا إلى كلِّ خيرٍ.

● **الوجهُ السَّابعُ والثَّلاثونَ**: أنَّهُ سبحانَهُ ذَكَرَ فضلَهُ ومنَّتَهُ على أنبيائِهِ ورسلِهِ وأوليائِهِ وعبادِهِ بما آتاهُم مِن العلمِ:

---

(١) في خ: «أنّ المراتب أربعة... أحدها معرفة... المراتب الأربعة»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٢) في ط: «... وأقسم سبحانه في هٰذه السورة بالعصر... آمنوا وعملوا الصالحات وهم»!

(٣) في ط: «وهٰذا نهاية الكمال... وتكميله غيره وتعليمه...»! وفي خ: «... كافيًا من»!

فذَكَرَ نعمتَهُ على خاتمِ أنبيائِهِ ورسلِهِ بقولِهِ: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. وقد تَقَدَّمَتْ [هٰذهِ] الآيةُ.

وقالَ في يوسُفَ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ [آتَيْناهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذٰلِكَ نَجْزي المُحْسِنينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقالَ في كليمِهِ موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ] وَٱسْتَوى آتَيْناهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذٰلِكَ نَجْزي المُحْسِنينَ﴾ [القصص: ١٤]. ولمَّا كانَ الذي آتاهُ موسى مِن ذٰلكَ أمرًا عظيمًا خَصَّهُ بِهِ على غيرِهِ لا يَثْبُتُ لهُ إلاَّ الأقوياءُ أُولو العزمِ؛ هَيَّأهُ لهُ بعدَ أنْ بَلَغَ أشدَّهُ وٱسْتَوى؛ يَعْني: تَمَّ وكَمَلَتْ قوَّتُهُ.

وقالَ في حقِّ المسيحِ: ﴿يا عيسى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ /خ٩٠/ نِعْمَتي عَلَيْكَ وَعَلى والِدَتِكَ إذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالإِنْجيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]، وقالَ في حقِّهِ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالإِنْجيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]. فجَعَلَ تعليمَهُ ممَّا بَشَّرَ بهِ أُمَّهُ وأَقَرَّ بهِ عينَها[١].

وقالَ في حقِّ داوودَ: ﴿[و]آتَيْناهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطابِ﴾ [صٓ: ٢٠].

وقالَ في حقِّ الخَضِرِ صاحبِ موسى وفتاهُ: ﴿فَوَجَدا عَبْدًا مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]. فذَكَرَ مِن نعمِهِ عليهِ تعليمَهُ وما آتاهُ مِن رحمةٍ.

وقالَ تَعالى يَذْكُرُ نعمتَهُ على داوودَ وسُلَيْمانَ: ﴿وَداوودَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ في الحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فيهِ غَنَمُ القَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدينَ . فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلاًّ آتَيْنا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩]. فذَكَرَ النَّبِيَّيْنِ الكريمينِ، وأثْنى عليهِما بالحكمِ والعلمِ، وخَصَّ بفهمِ القضيَّةِ أحدَهُما. وقد ذَكَرْتُ الحكمينِ الدَّاوودِيَّ والسُّلَيْمانِيَّ

---

(١) في ط: «ولا يثبت له إلاّ الأقوياء... وأقرّ عينها به»، والأولى ما أثبتّه من خ.

ووجهيهما ومَن صارَ مِن الأئمَّةِ إلى هٰذا [ومَن صارَ إلى هٰذا] وترجيحَ الحكم السُّلَيْمانِيِّ مِن عدَّةِ وجوهٍ وموافقتَهُ للقياسِ وقواعدِ الشَّرعِ في كتابِ «الاجتهاد والتَّقليد»[١].

وقالَ تَعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتابَ الَّذي جاءَ بِهِ موسى نورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلونَهُ قَراطيسَ تُبْدونَها وَتُخْفونَ كَثيرًا وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَموا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ قُلِ اللهُ﴾ [الأنعام: ٩١]؛ يَعْني: الذي أَنْزَلَهُ. جَعَلَ سبحانَهُ تعليمَهُم ما لمْ يَعْلَموا هُم ولا آباؤُهُم دليلاً على صحَّةِ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ؛ إذْ لا يُنالُ هٰذا العلمُ إلاَّ مِن جهةِ الرُّسلِ، فكيفَ يَقولونَ: ما أَنْزَلَ اللهُ على بشرٍ مِن شيءٍ؟! وهٰذا مِن فضلِ العلمِ وشرفِهِ أنَّهُ دليلٌ على صحَّةِ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ، واللهُ الموفِّقُ [للرَّشادِ].

وقالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلى المُؤْمِنينَ إِذْ بَعَثَ فيهِمْ رَسولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

[وقالَ تَعالى: ﴿هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسولاً مِنْهُمْ يَتْلو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ] . وَآخَرينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقوا بِهِمْ وَهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ . ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظيمِ﴾ [الجمعة: ٢-٤]؛ يَعْني: وبَعَثَ في آخرينَ منهُم لمَّا يَلْحَقوا بِهِم. وقدِ اخْتُلِفَ في هٰذا اللحاقِ المنفيِّ: فقيلَ: هوَ اللحاقُ /خ٩١/ في الزَّمانِ؛ أي: يَتَأَخَّرُ زمانُهُم عنهُم، وقيلَ: هوَ اللحاقُ في الفضلِ والسَّبقِ. وعلى التَّقديرينِ: فامْتَنَّ عليهِم [سبحانَهُ بأنْ عَلَّمَهُم] بعدَ الجهلِ وهَداهُم بعدَ الضَّلالِ. ويا لَها مِن منَّةٍ عظيمةٍ فاقَتِ[٢] المننَ، وجَلَّتْ أنْ يَقْدِرَ العبادُ لها [على] ثمنٍ!

● **الوجهُ الثَّامنُ والثَّلاثونَ**: أنَّ أوَّلَ سورةٍ أَنْزَلَها اللهُ في كتابِهِ سورةُ القلمِ[٣] فذَكَرَ فيها ما مَنَّ بِهِ على الإنسانِ مِن تعليمِهِ ما لمْ يَعْلَمْ، فذَكَرَ فيها فضلَهُ بتعليمِهِ وتفضيلَهُ

---

(١) وهو ممّا ضاع من مؤلّفات هٰذا الإمام للأسف الشديد، وأسمه يدلّ على جلالته.

(٢) في خ: «وقد أختلف في هٰذه...»! وفي ط: «... بعد الضلالة ويا لها من منّة عظيمة فاتت»!

(٣) يريد سورة العلق كما هو ظاهر فيما يلي، وإنّما أطلق عليها سورة القلم لذكره فيها.

الإنسانَ بما عَلَّمَهُ إيَّاهُ، وذٰلكَ يَدُلُّ على شرفِ التَّعليمِ والعلمِ.

فقالَ تَعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ ٱلإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ . ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلأَكْرَمُ . ٱلَّذي عَلَّمَ بِٱلقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]. فٱفْتَتَحَ السُّورةَ بالأمرِ بالقراءةِ النَّاشئةِ عنِ العلمِ. وذَكَرَ خلقَهُ خصوصًا وعمومًا، فقالَ: ﴿ٱلَّذي خَلَقَ . [خَلَقَ] ٱلإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. وخَصَّ[1] الإنسانَ مِن بينِ المخلوقاتِ لِما أَوْدَعَهُ مِن عجائبِهِ وآياتِهِ الدَّالَّةِ على ربوبيَّتِهِ وقدرتِهِ وعلمِهِ وحكمتِهِ وكمالِ رحمتِهِ وأنَّهُ لا إِلٰهَ غيرُهُ ولا ربَّ سواهُ. وذَكَرَ هُنا مبدأَ خلقِهِ مِن علقٍ لكونِ العلقةِ مبدأَ الأطوارِ التي ٱنْتَقَلَتْ إليها النُّطفةُ، فهيَ مبدأُ تعلُّقِ التَّخليقِ. ثمَّ أعادَ الأمرَ بالقراءةِ مخبرًا عن نفسِهِ بـ[ـأنَّهُ] الأكرمُ، وهو الأفعلُ مِن الكرمِ، وهوَ كثرةُ الخيرِ، ولا أحدَ أولى بذٰلكَ منهُ سبحانَهُ؛ فإنَّ الخيرَ كلَّهُ بيديهِ، والخيرُ كلُّهُ منهُ، والنِّعمُ كلُّها فهوَ وليُّها[2]، والكمالُ كلُّهُ والمجدُ كلُّهُ لهُ، فهوَ الأكرمُ حقًّا. ثمَّ ذَكَرَ تعليمَهُ عمومًا وخصوصًا، فقالَ: ﴿ٱلَّذي عَلَّمَ بِٱلقَلَمِ﴾، فهٰذا يَدْخُلُ فيهِ تعليمُ الملائكةِ والنَّاسِ. ثمَّ ذَكَرَ تعليمَ الإنسانِ خصوصًا، فقالَ: ﴿عَلَّمَ ٱلإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾.

فٱشْتَمَلَتْ هٰذهِ الكلماتُ على أنَّهُ معطي الموجوداتِ كلِّها بجميعِ أقسامِها.

فإنَّ الوجودَ لهُ مراتبُ أربعٌ: إحداها: المرتبةُ[3] الخارجيَّةُ المدلولُ عليها بقولِهِ: ﴿خَلَقَ﴾. المرتبةُ الثَّانيةُ: الذِّهنيَّةُ المدلولُ عليها بقولِهِ: ﴿عَلَّمَ ٱلإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾. المرتبةُ الثَّالثةُ والرَّابعةُ: اللفظيَّةُ والخطِّيَّةُ، فالخطِّيَّةُ /خ٩٢/ مصرَّحٌ بها في قولِهِ: ﴿عَلَّمَ بِٱلقَلَمِ﴾، واللفظيَّةُ مِن[4] لوازمِ التَّعليمِ بالقلمِ؛ فإنَّ الكتابةَ فرعُ النُّطقِ، والنُّطقُ فرعُ التَّصوُّرِ[5].

فٱشْتَمَلَتْ هٰذهِ الكلماتُ على مراتبِ الوجودِ كلِّها وأنَّهُ سبحانَهُ هوَ معطيها بخلقِهِ

---

(١) في ط: «الذي خلق الإنسان من علق أقرأ وربّك الأكرم وخصّ»!

(٢) في خ: «فهي مبدأ تعليق الحكمة...»! وفي ط: «... والنعم كلّها هو مولاها».

(٣) في خ: «له مراتب أربعة أحدها مرتبة»! وفي ط: «... إحداها مرتبتها»! والصواب ما أثبتّه.

(٤) في خ: «مصرّح فيها قوله... واللفظيّة الوجود من»! وفي ط: «... قوله الذي علم...».

(٥) يعني في الغالب العامّ. وإلّا؛ فقد يكتب الأبكم بغير نطق، وينطق الرضيع بغير تصوّر.

وتعليمِهِ: [فـ]ـهوَ الخالقُ المعلِّمُ، وكلُّ شيءٍ في الخارجِ فبخلقِهِ وُجِدَ، وكلُّ علمٍ في الذِّهنِ فبتعليمِهِ حَصَلَ، وكلُّ لفظٍ في اللسانِ [أ]و خطٍّ في البنانِ فبإقدارِهِ وخلقِهِ وتعليمِهِ. وهٰذا مِن آياتِ قدرتِهِ وبراهينِ حكمتِهِ، لا إلٰهَ إلاَّ هوَ الرَّحمٰنُ الرَّحيمُ.

والمقصودُ أنَّهُ سبحانَهُ تَعَرَّفَ إلى عبادِهِ بما عَلَّمَهُم إيَّاهُ بحكمتِهِ مِن الخطِّ واللفظِ والمعنى، فكانَ العلمُ أحدَ الأدلَّةِ الدَّالَّةِ عليهِ، بل مِن أعظمِها وأظهرِها، وكَفى بهٰذا شرفًا وفضلاً لهُ.

● **الوجهُ التَّاسعُ والثَّلاثونَ**: أنَّهُ سبحانَهُ سَمَّى الحجَّةَ العلميَّةَ سلطانًا. قالَ ابنُ عبَّاسٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُما]: كلُّ سلطانٍ في القرآنِ فهوَ حجَّةٌ.

وهٰذا كقولِهِ تَعالى: ﴿قالوا ٱتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحانَهُ هُوَ الغَنِيُّ لَهُ ما في السَّماواتِ وَما في الأَرْضِ إنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهٰذا أَتَقولونَ عَلى اللهِ ما لا تَعْلَمونَ﴾ [يونس: ٦٨]؛ يَعْني: ما عندَكُم [مِن] حجَّةٍ بما قُلْتُم، إنْ هوَ إلاَّ قولٌ على اللهِ بِلا علمٍ.

[و]قالَ تَعالى: ﴿إنْ هِيَ إلاَّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُموها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ [ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ﴾ [النجم: ٢٣]؛ يَعْني: ما أَنْزَلَ اللهُ بِها حجَّةً ولا برهانًا، بلْ هيَ مِن تلقاءِ أنفسِكُم وآبائِكُم].

وقالَ تَعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبينٌ . فَأْتوا بِكِتابِكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ﴾ [الصافات: ١٥٦-١٥٧]؛ يَعْني: حجَّةٌ واضحةٌ، فَأْتوا بِها إنْ كُنْتُمْ صادقينَ في دعواكُم.

إلاَّ موضعًا واحدًا ٱخْتُلِفَ فيهِ، وهوَ قولُهُ [تَعالى]: ﴿ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩]: فقيلَ: المرادُ بهِ القدرةُ والملكُ؛ أيْ: ذَهَبَ عنِّي مالي وملكي فلا مالَ لي ولا سلطانَ، وقيلَ: هوَ على بابِهِ؛ أيِ: ٱنْقَطَعَتْ حجَّتي وبَطَلَتْ فلا حجَّةَ لي[1].

والمقصودُ أنَّ اللهَ سبحانَهُ سَمَّى علمَ الحجَّةِ سلطانًا؛ لأنَّها توجِبُ تسلُّطَ صاحبِها وٱقتدارَهُ، فلهُ بها سلطانٌ على الجاهلينَ. بل سلطانُ العلمِ أعظمُ مِن سلطانِ اليدِ، ولهٰذا

---

(١) في خ: «وملكي فلا ملك لي ولا سلطان...»! وفي ط: «... وبطلت فلا حاجة لي»!

يَنْقادُ النَّاسُ للحجَّةِ ما لا يَنْقادونَ لليدِ؛ فإنَّ الحجَّةَ تَنْقادُ لها القلوبُ، وأمَّا اليدُ فإنَّما يَنْقادُ لها البدنُ. فالحجَّةُ[١] تَأْسِرُ القلبَ وتَقودُهُ، وتُذِلُّ المخالفَ وإنْ أَظْهَرَ العنادَ والمكابرةَ، فقلبُهُ خاضعٌ لها ذليلٌ مقهورٌ /خ٩٣/ تحتَ سلطانِها. بل سلطانُ الجاهِ إنْ لمْ يَكُنْ معَهُ علمٌ يُساسُ بهِ؛ فهوَ بمنزلةِ سلطانِ السِّباعِ والأُسودِ ونحوِها؛ قدرةٌ بلا علمٍ ولا رحمةٍ، بخلافِ سلطانِ الحجَّةِ؛ فإنَّهُ قدرةٌ بعلمٍ ورحمةٍ وحكمةٍ. ومَن لمْ يَكُنْ لهُ اقتدارٌ في علمِهِ؛ فهوَ إمَّا لضعفِ حجَّتِهِ وسلطانِهِ، وإمَّا لقهرِ سلطانِ اليدِ والسَّيفِ [لهُ]، وإلَّا؛ فالحجَّةُ ناصرةٌ نفسَها، ظاهرةٌ على الباطلِ، قاهرةٌ لهُ[٢].

● **الوجهُ الأربعونَ**: أنَّ اللهَ تَعالى وَصَفَ أهلَ النَّارِ بالجهلِ، وأَخْبَرَ أنَّهُ سَدَّ عليهِم طرقَ العلمِ.

فقالَ تَعالى حكايةً عنهُم: ﴿وَقالوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا في أَصْحابِ السَّعيرِ . فَاعْتَرَفوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحابِ السَّعيرِ﴾ [الملك: ١٠-١١]: فأَخْبَروا أنَّهُم كانوا لا يَسْمَعونَ ولا يَعْقِلونَ، والسَّمعُ والعقلُ هُما أصلُ العلمِ وبهِما يُنالُ.

وقالَ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثيرًا مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلوبٌ لا يَفْقَهونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعونَ بِها أُولَئِكَ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغافِلونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]: فأَخْبَرَ سبحانَهُ أنَّهُ[ـم] لمْ يَحْصُلْ لهُم علمٌ مِن جهةٍ مِن جهاتِ العلمِ[٣] الثَّلاثِ، وهيَ العقلُ والسَّمعُ والبصرُ، كما قالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقالَ تَعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسيروا في الأَرْضِ فَتَكونَ لَهُمْ قُلوبٌ يَعْقِلونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمى الأَبْصارُ وَلَكِنْ تَعْمى القُلوبُ الَّتي في الصُّدورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقالَ تَعالى: ﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصارًا وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانوا يَجْحَدونَ بِآياتِ اللهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانوا بِهِ

---

(١) في خ: «وأمّا اليد فلا ينقاد إلّا البدن فإنّ الحجّة»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٢) في ط: «و[إما] بقهر سلطان...»! وفي خ: «... ظاهر على الدليل قاهرة له»!

(٣) في خ: «أولئك هم الخاسرون فأخبر... من الجهات العلم»! والصواب ما أثبتّه من ط.

يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

فقد وَصَفَ أهلَ الشَّقاءِ كما تَرى بعدمِ العلمِ، وشَبَّهَهُم تارةً بالأنعامِ، وتارةً بالحمارِ الذي يَحْمِلُ أسفارًا، وتارةً جَعَلَهُم أضَلَّ مِن الأنعامِ، وتارةً جَعَلَهُم شرَّ الدَّوابِّ [عندَهُ]، وتارةً جَعَلَهُم أمواتًا غيرَ أحياءٍ، وتارةً أَخْبَرَ أَنَّهُم في ظلماتِ الجهلِ والضَّلالِ، وتارةً أَخْبَرَ أنَّ على قلوبِهِم أكنَّةً وفي آذانِهِم وقرًا وعلى أبصارِهِم غشاوةً /خ٩٤/ . . . وهٰذا كلُّهُ يَدُلُّ على قبحِ الجهلِ وذمِّهِ أهلَهُ[١] وبغضِهِ لهُم، كما أنَّهُ يُحِبُّ أهلَ العلمِ ويَمْدَحُهُم ويُثْني عليهِم كما تَقَدَّمَ. واللهُ المستعانُ.

● **الوجهُ الحادي والأربعونَ**: ما في الصَّحيحينِ[٢] مِن حديثِ مُعاويةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَن يُرِدِ اللهُ بهِ خيرًا؛ يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ». وهٰذا يَدُلُّ على أنَّ مَن لمْ يُرِدْ بهِ خيرًا؛ لمْ يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ، كما أنَّ مَن أرادَ بهِ خيرًا؛ فقَّهَهُ في الدِّينِ[٣].

وَمَن فقَّهَهُ في دينِهِ؛ فقد أرادَ بهِ خيرًا، إذا أُريدَ بالفقهِ العلمُ المستلزِمُ للعملِ. وأمَّا إنْ أُريدَ بهِ مجرَّدُ العلمِ؛ فلا يَدُلُّ على أنَّ مَن فَقُهَ في الدِّينِ فقد أرادَ بهِ خيرًا[٤]؛ فإنَّ الفقهَ حينئذٍ يكونُ شرطًا لإرادةِ الخيرِ، وعلى الأوَّلِ يكونُ موجِبًا. واللهُ أعلمُ.

● **الوجهُ الثَّاني والأربعونَ**: ما في الصَّحيحينِ[٥] أيضًا مِن حديثِ أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ مثلَ ما بَعَثَنِيَ اللهُ بهِ مِن الهدى والعلمِ كمثلِ غيثٍ أصابَ أرضًا: فكانَتْ منها طائفةٌ طيِّبةٌ قَبِلَتِ الماءَ فأنْبَتَتِ الكلأَ والعشبَ الكثيرَ. وكانَ منها أجادبُ أمْسَكَتِ الماءَ، فنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا منها وسَقَوْا

---

(١) في ط: «وشبّههم بالأنعام تارة وتارة بالحمار الذي يحمل الأسفار . . . وذمّ أهله».

(٢) البخاري (٣ـ العلم، ١٣ـ من يرد الله به خيرًا، ١/ ١٦٤/ ٧١)، ومسلم (١٢ـ الزكاة، ٣٣ـ النهي عن المسألة، ٢/ ٧١٨/ ١٠٣٧).

(٣) في ط: «على أنّ من لم يفقّهه في دينه لم يرد به خيرًا كما . . . دينه»، وأثبتّ ما في خ.

(٤) في ط: «فقد أُريد به خيرًا»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٥) البخاري (٣ـ العلم، ٢٠ـ فضل من علم وعلّم، ١/ ١٧٥/ ٧٩)، ومسلم (٤٣ـ الفضائل، ٥ـ مثل ما بعث به النبيّ ﷺ، ٤/ ١٧٨٧/ ٢٢٨٢).

وزَرَعوا. وأصابَ طائفةً منها أُخرى، إنَّما هيَ قيعانٌ، لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كلأً. فذٰلكَ مثلُ مَن فَقُهَ في دينِ اللهِ ونَفَعَهُ بما بَعَثَنِيَ اللهُ بهِ فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومثلُ مَن لمْ يَرْفَعْ بذٰلكَ رأْسًا ولمْ يَقْبَلْ هدى اللهِ الذي أُرْسِلْتُ بهِ»[١].

شَبَّهَ ﷺ العلمَ والهدى الذي جاءَ بهِ بالغيثِ؛ لِما يَحْصُلُ بكلٍّ واحدٍ منهُما مِن الحياةِ والمنافعِ والأغذيةِ والأدويةِ وسائرِ مصالحِ العبادِ؛ فإنَّها بالعلمِ والمطرِ.

وشَبَّهَ القلوبَ بالأراضي التي يَقَعُ عليها المطرُ؛ لأنَّها المحلُّ الذي يُمْسِكُ الماءَ فيُنْبِتُ سائرَ أنواعِ النَّباتِ النَّافعِ، كما أنَّ القلوبَ تَعي العلمَ فيُثْمِرُ فيها ويَزْكو وتَظْهَرُ بركتُهُ وثمرتُهُ /خ٩٥/.

ثمَّ قَسَّمَ النَّاسَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ بحسبِ قبولِهم واستعدادِهم لحفظِهِ وفهمِ معانيهِ واستنباطِ أحكامِهِ واستخراجِ حكمِهِ وفوائدِهِ:

أحدُها: أهلُ الحفظِ والفهمِ الذينَ حَفِظوهُ وعَقَلوهُ وفَهِموا معانيَهُ واسْتَنْبَطوا وجوهَ الأحكامِ والحكمِ والفوائدِ منهُ. [فهٰؤلاءِ] بمنزلةِ الأرضِ التي قَبِلَتِ الماءَ ـ وهٰذا بمنزلةِ الحفظِ ـ فأَنْبَتَتِ الكلأَ والعشبَ [الكثيرَ] ـ و[هٰذا] هوَ الفهمُ فيهِ والمعرفةُ والاستنباطُ فإنَّهُ بمنزلةِ إنباتِ الكلإِ والعشبِ بالماءِ ـ. فهٰذا مثلُ الحفَّاظِ الفقهاءِ أهلِ[٢] الرِّوايةِ والدِّرايةِ.

القسمُ الثَّاني: أهلُ الحفظِ الذينَ رُزِقوا حفظَهُ ونقلَهُ وضبطَهُ ولمْ يُرْزَقوا تفقُّهًا في معانيهِ ولا استنباطًا ولا استخراجًا لوجوهِ الحكمِ والفوائدِ منهُ. فهُم بمنزلةِ مَن يَقْرَأُ القرآنَ ويَحْفَظُهُ ويُراعي حُروفَهُ وإعرابَهُ ولمْ يُرْزَقْ فيهِ فهمًا خاصًّا عنِ اللهِ، [كما] قالَ عَلِيُّ بنُ أبي طالبٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: إلَّا فهمًا يُؤْتيهِ اللهُ عبدًا في كتابِهِ[٣]. والنَّاسُ

---

(١) أجادب: لا تنبت. قيعان: مستوية رمليّة. ونفعه بما: في ط «ونفعه ما».

(٢) في خ: «وعقلوه وفهم معناه واستنباط وجوه...»، وفي ط: «... الفقهاء وأهل».

(٣) قطعة من حديث رواه: البخاري (٣ـ العلم، ٣٩ـ كتابة العلم، ١/ ٢٠٤/ ١١١)، ومسلم (١٥ـ الحجّ، ٨٥ـ فضل المدينة، ٢/ ٩٩٤/ ١٣٧٠)؛ أنّه رضي الله عنه سئل: هل عندكم شيء من الوحي ممّا ليس في القرآن؟! فقال: لا؛ إلّا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم. فأنكر رضي الله عنه الاختصاص بعلم أو وحي دون الناس، وأثبت التفاضل في فهم العلم والاستنباط من الوحي.

متفاوتونَ في الفهمِ عنِ اللهِ ورسولِهِ أعظمَ تفاوتٍ، فربَّ شخصٍ يَفْهَمُ مِن النَّصِّ حكمًا أو حكمينِ ويَفْهَمُ منهُ الآخرُ مئةً أو مئتينِ. فهٰؤلاءِ بمنزلةِ الأرضِ التي أمْسَكَتِ الماءَ للنَّاسِ فانْتَفَعوا بهِ؛ هٰذا يَشْرَبُ منهُ، وهٰذا يَسْقي، وهٰذا يَزْرَعُ.

فهٰؤلاءِ القسمانِ همُ السُّعداءُ، والأوَّلونَ أرفعُ درجةً وأعلى قدرًا، ﴿وَذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذو الفَضْلِ العَظيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

القسمُ الثَّالثُ[١]: الذينَ لا نصيبَ لهُم منهُ؛ لا حفظًا ولا فهمًا ولا روايةً ولا درايةً، بل هُم بمنزلةِ الأرضِ التي هيَ قيعانٌ لا تُنْبِتُ ولا تُمْسِكُ الماءَ، وهٰؤلاءِ همُ الأشقياءُ.

والقسمانِ الأوَّلانِ اشْتَرَكا في العلمِ والتَّعليمِ [كلٌّ بحسبِ ما قَبِلَهُ ووَصَلَ إليهِ: فهٰذا يُعَلِّمُ ألفاظَ القرآنِ ويَحْفَظُها، وهٰذا يُعَلِّمُ معانيَهُ] وأحكامَهُ وعلومَهُ. والقسمُ الثَّالثُ لا علمَ لهُ ولا تعليمَ، فهمُ الذينَ لمْ يَرْفَعوا[٢] بهدي اللهِ رأسًا ولمْ يَقْبَلوهُ، وهٰؤلاءِ شرٌّ مِن الأنعامِ، وهُم وقودُ النَّارِ.

فقدِ اشْتَمَلَ هٰذا الحديثُ الشَّريفُ العظيمُ على: التَّنبيهِ على شرفِ العلمِ والتَّعليمِ وعظمِ موقعِهِ وشقاءِ مَن ليسَ مِن أهلِهِ، وذكرِ أقسامِ بني آدمَ بالنِّسبةِ فيهِ /خ٩٦/ إلى شقيِّهِم وسعيدِهِم، وتقسيمِ سعيدِهِم إلى سابقٍ مقرَّبٍ وصاحبِ يمينٍ مقتصدٍ.

وفيهِ دلالةٌ على أنَّ حاجةَ العبادِ إلى العلمِ كحاجتِهِم إلى المطرِ بل أعظمُ، وأنَّهُم إذا فَقَدوا العلمَ فهُم بمنزلةِ الأرضِ التي فَقَدَتِ الغيثَ. قالَ الإمامُ أحْمَدُ: النَّاسُ محتاجونَ إلى العلمِ أكثرَ مِن احتياجِهِم إلى[٣] الطَّعامِ والشَّرابِ؛ لأنَّ الطَّعامَ والشَّرابَ يُحْتاجُ إليهِ في اليومِ مرَّةً أو مرَّتينِ، والعلمُ يُحْتاجُ إليهِ بعددِ الأنفاسِ.

وقد قالَ تَعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رابِيًا وَمِمَّا يُوقِدونَ عَلَيْهِ في النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ

---

(١) في ط: «وهٰذا يسقي منه وهٰذا يزرع...»، وفي خ: «... والقسم الثالث».

(٢) في خ: «والقسمان الأوّلان هم اشتركا... الذين لا يرفعوا»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٣) في خ: «وتقسيم سعيدهم إلى صاحب سابق...»، وفي ط: «... أكثر من حاجتهم إلى».

وَالباطِلَ﴾ [الرعد: ١٧].

شَبَّهَ سبحانَهُ العلمَ الذي أنْزَلَهُ على رسولِهِ بالماءِ الذي أنْزَلَهُ مِن السَّماءِ لِما يَحْصُلُ بكلِّ واحدٍ [منهُما] مِن الحياةِ[١] ومصالحِ العبادِ في معاشِهِم ومعادِهِم. ثمَّ شَبَّهَ القلوبَ بالأوديةِ: فقلبٌ كبيرٌ يَسَعُ علمًا كثيرًا كوادٍ عظيمٍ يَسَعُ ماءً كثيرًا، وقلبٌ صغيرٌ إنَّما يَسَعُ علمًا قليلاً كوادٍ صغيرٍ إنَّما يَسَعُ ماءً قليلاً، فقالَ [اللهُ تعالى]: ﴿فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها﴾. ﴿فَٱحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رابِيًا﴾: هٰذا مثلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعالى للعلمِ حينَ تُخالِطُ القلوبَ بشاشَتُهُ؛ فإنَّهُ يَسْتَخْرِجُ منهـ[ـا] زبدَ الشُّبهاتِ الباطلةِ فيَطْفو على وجهِ القلبِ، كما يَسْتَخْرِجُ السَّيلُ مِن الوادي زبدًا يَعْلو فوقَ الماءِ. وأخْبَرَ سبحانَهُ أنَّهُ رابٍ؛ أيْ: يَطْفو ويَعْلو على الماءِ لا يَسْتَقِرُّ في أرضِ الوادي، كذٰلكَ الشُّبهاتُ الباطلةُ، إذا أخْرَجَها العلمُ؛ رَبَتْ فوقَ القلبِ وطَفَتْ، فلا تَسْتَقِرُّ فيهِ، بل تُجْفى وتُرْمى ويَسْتَقِرُّ[٢] في القلبِ ما يَنْفَعُ صاحبَهُ والنَّاسَ مِن الهدى ودينِ الحقِّ كما يَسْتَقِرُّ في الوادي الماءُ الصَّافي ويَذْهَبُ الزَّبدُ جفاءً. وما يَعْقِلُ عنِ اللهِ أمثالَهُ إلاَّ العالِمونَ.

ثمَّ ضَرَبَ سبحانَهُ لذٰلكَ مثلاً آخرَ، فقالَ: ﴿وَمِمَّا يوقِدونَ عَلَيْهِ في النَّارِ ٱبْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ [الرعد: ١٧]؛ يَعْني: أنَّ ما يُوقِدُ[٣] عليهِ بنو آدمَ مِن الذَّهبِ والفضَّةِ والنُّحاسِ /خ٩٧/ والحديدِ يَخْرُجُ منهُ خبثُهُ، وهوَ الزَّبدُ الذي تُلْقيهِ النَّارُ وتُخْرِجُهُ مِن ذٰلكَ الجوهرِ [بـ]ـسببِ مخالطتِها؛ فإنَّهُ يُقْذَفُ ويُلْقى بهِ ويَسْتَقِرُّ الجوهرُ الخالصُ وحدَهُ.

وضَرَبَ سبحانَهُ: مثلاً بالماءِ لِما فيهِ مِن الحياةِ والتَّبريدِ والمنفعةِ، ومثلاً بالنَّارِ لِما فيها مِن الإضاءةِ والإشراقِ والإحراقِ. فآياتُ القرآنِ تُحْيي القلوبَ كما تَحْيا الأرضُ بالماءِ، وتُحْرِقُ خبثَها وشبهاتِها وشهواتِها وسخائمَها كما تُحْرِقُ النَّارُ ما يُلْقى فيها،

---

(١) في خ: «من السماء بما يحصل لكل واحد من الحياة»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٢) في خ: «وأخبر سبحانه أنّه رابيًا يطفو... فيستقرّ»، وفي ط: «... فوق القلوب وطفت...».

(٣) في خ وط: «أنّ ممّا يوقد»! ولا يصحّ نحويًّا في اسم «إنّ» أن يكون جملة أو جارًّا ومجرورًا، ففي الكلام تحريف صوابه ما أثبتّه.

وتَميزُ [جيِّدَها مِن] زبدِها كما تَميزُ النَّارُ الخبثَ مِن الذَّهبِ والفضَّةِ والنُّحاسِ ونحوِهِ.

فهٰذا بعضُ ما في هٰذا المثلِ العظيمِ مِن العبرةِ والعلمِ[1]. قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إلاَّ العالِمونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

● **الوجهُ الثَّالثُ والأربعونَ**: ما في الصَّحيحينِ[2] [أيضًا] مِن حديثِ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ لعليٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ: «لأنْ يَهْدِيَ اللهُ بكَ رجلاً واحدًا خيرٌ لكَ مِن حمرِ النَّعمِ». [و]هٰذا يَدُلُّ على فضلِ العلمِ والتَّعليمِ وشرفِ منزلةِ أهلِهِ، بحيثُ إذا ٱهْتَدى رجلٌ واحدٌ بالعالمِ؛ كانَ[3] ذٰلكَ خيرً[ا] لهُ مِن حمرِ النَّعمِ، وهيَ خيارُها وأشرفُها عندَ أهلِها، فما الظَّنُّ بمَن يَهْتَدي بهِ كلَّ يومٍ طوائفُ مِن النَّاسِ؟!

● **الوجهُ الرَّابعُ والأربعونَ**: ما روى مسلمٌ في «صحيحه»[4] مِن حديثِ أبي هُرَيْرَةَ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن دعا إلى هدًى؛ كانَ لهُ مِن الأجرِ مثلُ أُجورِ مَن تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذٰلكَ مِن أُجورِهِم شيئًا. ومَن دعا إلى ضلالةٍ؛ كانَ عليهِ مِن الإثمِ مثلُ آثامِ مَن تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذٰلكَ مِن آثامِهِم شيئًا».

أخْبَرَ ﷺ أنَّ: المتسبِّبَ إلى الهدى بدعوتِهِ لهُ [مِن الأجرِ] مثلُ أجرِ مَن ٱهْتَدى بهِ، والمتسبِّبُ إلى الضَّلالةِ بدعوتِهِ عليهِ مثلُ إثمِ مَن ضَلَّ بهِ؛ لأنَّ هٰذا بَذَلَ قدرتَهُ في هدايةِ النَّاسِ، وهٰذا بَذَلَ قدرتَهُ في ضلالتِهِم[5]، فنَزَّلَ كلَّ واحدٍ منهُما بمنزلةِ الفاعلِ التَّامِّ.

وهٰذهِ /خ٩٨/ قاعدةُ الشَّريعةِ كما هوَ مذكورٌ في غيرِ هٰذا الموضعِ: قالَ تَعالى: ﴿لِيَحْمِلوا أوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ القِيامَةِ وَمِنْ أوْزارِ الَّذينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ألا ساءَ ما يَزِرونَ﴾ [النحل: ٢٥]. وقالَ [تَعالى]: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أثْقالِهِمْ﴾[6]

---

(١) في ط: «والنحاس ونحوه منه... من العبر والعلم».

(٢) البخاري (٥٦ـ الجهاد، ١٠٢ـ دعاؤه ﷺ الناس إلى الإسلام، ٦/ ١١١/ ٢٩٤٢)، ومسلم (٤٤ـ الفضائل، ٤ـ فضائل عليّ، ٤/ ١٨٧٢/ ٢٤٠٦).

(٣) في ط: «لأن يهدي بك الله...»، وفي خ: «... واحد بالغًا بالعلم كان»!

(٤) (٤٧ـ العلم، ٦ـ من سنّ سنّة حسنة، ٤/ ٢٠٦٠/ ٢٦٧٤).

(٥) في ط: «أن المتسبب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر... في ضلالهم»! والصواب ما أثبتّه من خ.

(٦) زاد في خ: «وليسألنّ يوم القيامة عمّا»! ولا لزوم لها.

[العنكبوت: ١٣].

وهٰذا يَدُلُّ على أنَّ مَن دَعا الأُمَّةَ إلى غيرِ سنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ فهوَ عدوُّهُ حقًّا؛ لأنَّهُ قَطَعَ وصولَ أجرِ مَنِ ٱهْتَدى بسنَّتِهِ إليهِ، وهٰذا مِن أعظمِ معاداتِهِ، نَعوذُ باللهِ مِن الخذلانِ.

● **الوجهُ الخامسُ والأربعونَ**: ما خَرَّجا[هُ] في الصَّحيحينِ[1] مِن حديثِ ابنِ مَسْعودٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا حَسَدَ إلاَّ في ٱثْنتينِ: رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحقِّ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ الحكمةَ فهوَ يَقْضي بها ويُعَلِّمُها». فأخْبَرَ ﷺ أنَّهُ لا يَنْبَغي لأحدٍ أنْ يَحْسُدَ أحدًا ـ يَعْني: حسدَ غبطةٍ وتمنِّي مثلِ حالِهِ مِن غيرِ أنْ يَتَمَنَّى زوالَ نعمةِ اللهِ عنهُ ـ إلاَّ في واحدةٍ مِن هاتينِ الخصلتينِ، وهما[2] الإحسانُ إلى النَّاسِ بعلمِهِ أو بمالِهِ. وما عدا هٰذينِ فلا يَنْبَغي غبطتُهُ ولا تمنِّي مثلِ حالِهِ لقلَّةِ منفعةِ النَّاسِ بهِ.

● **الوجهُ السَّادسُ والأربعونَ**: قالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِالأعْلى، حَدَّثَنا سَلَمَةُ بنُ رَجاءٍ، حَدَّثَنا الوَليدُ بنُ جَميلٍ، حَدَّثَنا القاسِمُ، عن أبي أُمَامَةَ [الباهِلِيِّ]؛ قالَ: ذُكِرَ لرسولِ اللهِ ﷺ رجلانِ أحدُهُما عابدٌ والآخرُ عالمٌ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي على أدناكُم». ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ وملائكتَهُ وأهلَ السَّماواتِ والأرضينَ حتَّى النَّملةَ في جحرِها وحتَّى الحوتَ[3] لَيُصَلُّونَ على معلِّمي النَّاسِ الخيرَ»[4]. قالَ التِّرْمِذِيُّ: هٰذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، سَمِعْتُ أبا عَمَّارٍ

---

(١) البخاري (٣ـ العلم، ١٥ـ الاغتباط في العلم، ١/ ١٦٥/ ٧٣)، ومسلم (٦ـ المسافرين، ٤٧ـ فضل من يقوم بالقرآن، ١/ ٥٥٩/ ٨١٦). هلكته: إنفاقه.

(٢) في ط: «غبطة ويتمنّى. . .»! وفي ط وخ: «. . . الخصلتين وهي»! والصواب ما أثبتّه.

(٣) في ط: «والأرض حتّى. . . الحوت في بحره». وفي خ: «والأضن حتّى. . .»!

(٤) (حسن). مداره على الوليد بن جميل الفلسطيني وٱختلف عليه فيه على ثلاثة أوجه:

روى **الأوّل**: الترمذي (٤٢ـ العلم، ١٩ـ فضل الفقه على العبادة، ٥/ ٥٠/ ٢٦٨٥)، والطبراني (٨/ ٢٣٣/ ٧٩١١ و٧٩١٢)، وابن شاهين في «السنّة» (٥٢)، وتمّام في «الفوائد» (٦٩)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٤٥)، وابن عساكر في «التاريخ» (٦٣/ ١١٦)؛ من طرق أربع، عن سلمة بن رجاء، عنه، عن القاسم أبي عبدالرحمٰن، عن أبي أمامة. . . رفعه.

وروى **الثاني** ابن عساكر في «التاريخ» (٦٣/ ١١٦) من طريق بكر بن خلف، عن سلمة، عنه، عن=

الحُسَيْنَ بنَ حُرَيْثٍ الخُزاعِيَّ؛ قالَ: سَمِعْتُ الفُضَيْلَ بنَ عِياضٍ يقولُ: عالمٌ عاملٌ معلِّمٌ[١] يُدْعى كبيرًا في ملكوتِ السَّماواتِ.

وهٰذا مرويٌّ عنِ الصَّحابةِ: قالَ /خ٩٩/ ابنُ عبَّاسٍ: علماءُ هٰذهِ الأُمَّةِ رجلانِ: فرجلٌ أعْطاهُ اللهُ علمًا، فبَذَلَهُ للنَّاسِ، ولمْ يأْخُذْ عليهِ صَفَدًا، ولمْ يَشْتَرِ بهِ ثمنًا، أُولٰئكَ يُصَلِّي عليهِم طيرُ السَّماءِ وحيتانُ البحرِ ودوابُّ الأرضِ والكرامُ الكاتبونَ. ورجلٌ آتاهُ اللهُ علمًا، فضَنَّ بهِ عن عبادِهِ، وأخَذَ بهِ صَفَدًا[٢]، وٱشْتَرَى بهِ ثمنًا، فذٰلكَ يأْتي يومَ القيامةِ ملجمًا بلجامٍ مِن نارٍ[٣]. ذَكَرَهُ [ابنُ] عَبْدِالبَرِّ مرفوعًا، وفي رفعِهِ نظرٌ.

وقولُهُ: «إنَّ اللهَ وملائكتَهُ وأهلَ السَّماواتِ والأرضِ يُصَلُّونَ على معلِّمِ النَّاسِ الخيرَ»: لَمَّا كانَ تعليمُهُ للنَّاسِ الخيرَ سببًا لنجاتِهِم وسعادتِهِم وزكاةِ نفوسِهِم؛ جازاهُ اللهُ مِن جنسِ عملِهِ بأنْ جَعَلَ عليهِ مِن صلاتِهِ وصلاةِ ملائكتِهِ وأهلِ الأرضِ ما يكونُ

= مكحول، عن أبي أمامة. . . رفعه.

وروى الثالث الدارمي (١/ ٨٨) من طريق يزيد بن هارون، عنه، عن مكحول، عن النبيّ ﷺ مرسلاً.

فٱضطرب سلمة بن رجاء ـ صدوق يغرب ـ على وجهين، وخالفه يزيد بن هارون ـ ثقة متقن عابد ـ، فالقول قوله، والحديث مرسل حسن.

وله شاهد ضعيف من حديث أبي الدرداء يأتي قريبًا. وآخر واه من حديث ابن عبّاس عند ابن شاهين في «السنّة» (٥٣). وثالث ضعيف موقوف على ابن عبّاس عند ابن عبدالبر في «العلم» (١/ ٤٥) لٰكن له حكم الرفع. ورابع منقطع موقوف على ابن مسعود عند الفسوي (٣/ ٣٩٩) لٰكن له حكم الرفع. وخامس من مرسل الحسن عند الدارمي (١/ ٩٧) بسند فيه ٱنقطاع. فٱجتماع هٰذه الشواهد يكسب هٰذا الأصل قوّة إن شاء الله. وقد حسّنه الترمذي وأقرّه المنذري وابن القيّم، وصحّحه الألباني، وحسبه أن يكون حسنًا.

(١) في مطبوعة «السنن»: «هٰذا حديث غريب. . .»! وفي خ: «. . . عامل يعلّم»!

(٢) في خ: «صفرًا»! والتصويب من ط. والصفد: العطاء.

(٣) (ضعيف). وقد جاء مرفوعًا عن ابن عبّاس من وجهين:

فرواه ابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٤٥) من طريق خالد بن عبدالأعلى، عن الضحّاك بن مزاحم، عن ابن عبّاس. . . رفعه. في الطريق إلى خالد ٱنقطاع، وخالد مجهول، والضحّاك عن ابن عبّاس منقطع.

ورواه الطبراني في «الأوسط» (٧١٨٣) من طريق عبدالله بن خراش، ثنا العوّام بن حوشب، عن شهر بن حوشب، عن ابن عبّاس. . . رفعه. قال الطبراني: «لم يروه عن العوّام إلّا عبدالله بن خراش». وقال المنذري والهيثمي (١/ ١٢٩): «ابن خراش ضعّفه البخاري وأبو زرعة وأبو حاتم وابن عديّ ووثّقه ابن حبّان». قلت: هو منكر الحديث جدًّا في حدّ الترك وكذّب. وشهر ضعيف أيضًا. والسند ساقط.

والحديث ضعيف بمجموع طريقيه، وقد أعلّه المنذري وأبن القيّم والهيثمي، وضعّفه العراقي.

سببًا لنجاتِهِ وسعادتِهِ وفلاحِهِ. وأيضًا؛ فإنَّ معلِّمَ النَّاسِ الخيرَ لمَّا كانَ مظهرًا لدينِ الرَّبِّ وأحكامِهِ ومعرِّفًا لهُم بأسمائِهِ وصفاتِهِ؛ جَعَلَ اللهُ مِن صلاتِهِ وصلاةِ أهلِ سماواتِهِ [وأرضِهِ] عليهِ ما[1] يكونُ تنويهًا بِهِ وتشريفًا لهُ وإظهارًا للثَّناءِ عليهِ بينَ أهلِ السَّماءِ والأرضِ.

● **الوجهُ السَّابعُ والأربعونَ**: ما رواهُ أبو داوودَ والتِّرْمِذِيُّ مِن حديثِ أبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَن سَلَكَ طريقًا يَبْتَغي فيهِ علمًا؛ سَلَكَ اللهُ [لهُ] بهِ طريقًا إلى الجنَّةِ. وإنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أجنحتَها رضًى لطالبِ العلمِ. وإنَّ العالمَ لَيَسْتَغْفِرُ لهُ مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ حتَّى الحيتانُ في الماءِ. وفضلُ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ [ليلةَ البدرِ] على[2] سائرِ الكواكبِ. إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، إنَّ الأنبياءَ لمْ يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا إنَّما وَرَّثوا العلمَ، فمَن أَخَذَهُ؛ أَخَذَ بحظٍّ وافرٍ»[3].

---

(١) في خ: «تعليمه للنّاس من الخير سببًا... عليه بما»! وفي ط: «... سماواته عليه بما»!

(٢) في ط: «سلك الله به... القمر على»، وفي خ: «... ليستغفر له كلّ من...».

(٣) (حسن). وقد آختلف في إسناد هٰذا الحديث آختلافًا كبيرًا أجمله في وجهين:

الوجه الأوّل: رواه: أحمد (٥/ ١٩٦)، والدارمي (١/ ٩٨)، وابن ماجه (المقدّمة، ١٧ـ فضل العلماء، ١/ ٨١/ ٢٢٣)، وأبو داوود (١٩ـ العلم، ١ـ الحثّ على طلب العلم، ٢/ ٣٤١/ ٣٦٤١)، والفسوي (٣/ ٤٠١ و٤٠٢)، والترمذي (٤٢ـ العلم، ١٩ـ فضل الفقه على العبادة، ٥/ ٤٨/ ٢٦٨٢)، وابن قانع في «المعجم» (٢/ ٣٨٧)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٢/ ١١)، وابن حبّان (٨٨)، والسهمي في «التاريخ» (٢٠٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٩٦ و١٦٩٧) و«المدخل» (٣٤٧)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٤٠-٤٤)، والخطيب في «التاريخ» (١/ ٣٩٨) و«الرحلة» (٤-٦)، والبغوي في «السنّة» (١٢٩)؛ كلّهم من طريق كثير بن قيس (أو: جميل بن قيس، أو: قيس بن كثير)، عن أبي الدرداء... رفعه. وهٰذا ضعيف له علل ثلاث: **أولاها**: أنّهم آختلفوا شديدًا في الطرق إلى كثير. **والثانية**: أنّ كثيرًا هٰذا ضعيف لا يكاد يُعرف. **والثالثة**: أنّهم آختلفوا عليه فيه فجعل بعضهم بينه وبين أبي الدرداء يزيد بن سمرة ـ وحاله كحال كثير أو دونه ـ، وقلب آخرون فجعلوا كثيرًا شيخ يزيد. ولذٰلك قال الدارقطني: «لا يصحّ»، وضعّفه البغوي، وفصّل ابن عبدالبرّ والمنذري في بعض أوجه الاختلاف فيه، ومال الذهبي إلى آضطرابه.

الوجه الثاني: رواه: أبو داوود (الموضع السابق، ٣٦٤٢)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٩٩)، وابن عبدالبرّ في «الجامع» (١/ ٤٤) معلّقًا، والرافعي في «التدوين» (١/ ٢٦٢، ٣/ ٤٦١)، وابن عساكر (٣٨/ ٣١٨ و٣١٩)؛ من طريق الوليد بن مسلم، (عن شيخ له: سمّاه أبو داوود شبيب بن شيبة، وسمّاه البيهقي وابن عبدالبرّ والرافعي خالد بن يزيد بن أبي مالك، وسمّاه ابن عساكر خالد بن يزيد بن صالح بن صبيح، ورجّح =

وقد رواهُ: الوَليدُ بنُ مُسْلِمٍ، عن خالِدِ بنِ يَزيدَ، عَن عُثْمانَ بنِ أَيْمَنَ، عن أبي الدَّرْداءِ؛ قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «مَن غدا لعلم يَتَعَلَّمُهُ؛ فَتَحَ اللهُ لهُ بهِ طريقًا إلى الجنَّةِ، وفَرَشَتْ لهُ الملائكةُ أكنافَها /خ١٠٠/ وصَلَّتْ عليهِ ملائكةُ السَّماءِ وحيتانُ البحرِ. وللعالمِ مِن الفضلِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ. والعلماءُ ورثةُ الأنبياءِ، إنَّ الأنبياءَ لمْ يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا إنَّما وَرَّثوا العلمَ، فمَن أخَذَ بالعلمِ؛ أخَذَ بحظٍّ وافرٍ. وموتُ العالمِ مصيبةٌ لا تُجْبَرُ وثُلمةٌ لا تُسَدُّ ونجمٌ طُمِسَ، وموتُ قبيلةٍ أيسرُ مِن موتِ عالمٍ»[(١)].

وهٰذا حديثٌ حسنٌ[(٢)].

والطَّريقُ التي يَسْلُكُها إلى الجنَّةِ جزاءٌ على سلوكِهِ في الدُّنيا طريقَ العلمِ الموصلةَ إلى رضى ربِّهِ.

= العسقلاني في «التهذيب» ٤/ ٢٧٠ أنّه شعيب بن رزيق)، (عن شيخ له: سمّاه أبو داوود عثمان بن أبي سودة، وسمّاه الباقون عثمان بن أيمن، وما إخاله إلاّ تصحيفًا، أو أنّه رجل واحد له كنيتان)، عن أبي الدرداء... رفعه بنحوه. وهٰذا ضعيف أيضًا له علّتان: **الأولى**: ضعف شيخ الوليد إن كان شبيبًا أو ابن أبي مالك. **والثانية**: جهالة شيخ شيخه إن كان عثمان بن أيمن.

وعلى هٰذا؛ فكلا الوجهين ضعيف مضطرب، لٰكن اجتماعهما يفيد أنّ للحديث أصلاً صالحًا عن أبي الدرداء. فإذا ضممنا لذٰلك مرفوع أبي أمامة ومرسل الحسن وموقوف ابن عبّاس المتقدّمة آنفًا؛ ترجّحت تقوية الحديث، وإلى ذٰلك مال حمزة الكناني وابن القيّم والعسقلاني في «الفتح» (١/ ١٦٠) والألباني.

(١) **(ضعيف بهٰذا التمام)**. رواه بهٰذا اللفظ: الطبراني في «الكبير» (١/ ٢٠٦ـ مجمع)، البيهقي في «الشعب» (١٦٩٩)، والرافعي في «التدوين» (٣/ ٤٦١)، وابن عساكر في «التاريخ» (٣٨/ ٣١٨-٣١٩)؛ من طريق الوليد بن مسلم، ثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن عثمان بن أيمن، عن أبي الدرداء... رفعه. وخالد ضعيف وعثمان مجهول، فالسند ضعيف.

نعم؛ له طريق أخرى تقدّمت قبل قليل، لٰكن ليس فيها قوله: «وموت العالم...» إلخ.

نعم؛ جاء قوله «موت العالم ثغرة لا تسدّ» دون بقيّة الزيادة: من حديث جابر عند أبي بكر بن لال، ذكره العجلوني في «الكشف»، ولم أقف على إسناده. ومن حديث ابن عمر في «مسند الفردوس» (٦٢٢٧) بسند واهٍ. وموقوفًا على عليّ عند الخطيب في «الجامع» (٣٤٧)، وعلى ابن مسعود في «الشعب» (١٧١٩)، وعلى الحسن عند أحمد في «الزهد» (١٤٨٠) والدارمي (١/ ٩٤)؛ بأسانيد ضعيفة.

وبالجملة؛ فالشواهد على ضعفها قاصرة عن تقوية هٰذا السياق بطوله.

(٢) يعني: حديث أبي الدرداء المتقدّم بمجموع طرقه، وإلاّ؛ فهٰذا اللفظ بالذات ليس بصحيح ولا حسن كما تبيّن لك من الحاشية السابقة.

ووضعُ الملائكةِ أجنحتَها لهُ تواضعًا وتوقيرًا وإكرامًا لِما يَحْمِلُهُ[١] مِن ميراثِ النُّبوَّةِ ويَطْلُبُهُ، وهوَ يَدُلُّ على المحبَّةِ والتَّعظيمِ، فمِن محبَّةِ الملائكةِ لهُ وتعظيمِهِ تَضَعُ أجنحتَها لهُ؛ لأنَّهُ طالبٌ لِما بِهِ حياةُ العالَمِ ونجاتُهُ، ففيهِ شبهٌ مِن الملائكةِ، وبينَهُ وبينَهُم تناسبٌ؛ فإنَّ الملائكةَ أنصحُ خلقِ اللهِ وأنفعُهُم لبني آدَمَ، وعلى أيديهِم حَصَلَ لهُم كلُّ سعادةٍ وعلمٍ وهدًى، ومِن نفعِهِم لبني آدَمَ ونصحِهِم أنَّهُم: يَسْتَغْفِرونَ لمسيئِهِم، ويُثْنونَ على مؤمنيهِم، ويُعينونَهُم على أعدائِهِم مِن الشَّياطينِ، ويَحْرِصونَ على مصالحِ العبدِ أضعافَ حرصِهِ على مصلحةِ نفسِهِ، بل يُريدونَ لهُ مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ ما لا يُريدُهُ العبدُ ولا يَخْطُرُ لهُ ببالٍ[٢]. كما قالَ بعضُ التَّابعينَ: وَجَدْنا الملائكةَ أنصحَ خلقِ اللهِ لعبادِهِ، ووَجَدْنا الشَّياطينَ أغشَّ الخلقِ للعبادِ. وقالَ تَعالى: ﴿الَّذينَ يَحْمِلونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرونَ لِلَّذينَ آمَنوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذينَ تابوا وَاتَّبَعوا سَبيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الجَحيمِ . رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزيزُ الحَكيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذٰلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظيمُ﴾ [غافر: ٧-٩]. فأيُّ نصحٍ للعبادِ مثلُ هٰذا النُّصحِ إلاَّ نُصحَ الأنبياءِ؟ فإذا طَلَبَ العبدُ العلمَ[٣] /خ١٠١/؛ فقد سَعى في أعظمِ ما يَنْصَحُ بِهِ عبادَ اللهِ، فلذٰلكَ تُحِبُّهُ الملائكةُ وتُعَظِّمُهُ حتَّى تَضَعَ أجنحتَها لهُ رضًى ومحبَّةً وتعظيمًا.

قالَ أبو حاتِمٍ الرَّازِيُّ: سَمِعْتُ ابنَ أبي أُوَيْسٍ يَقولُ: [سَمِعْتُ مالِكَ بنَ أَنَسٍ يَقولُ:] معنى قولِ رسولِ اللهِ ﷺ «تَضَعُ أجنحتَها»؛ يَعْني: تَبْسُطُها بالدُّعاءِ لطالبِ العلمِ بدلاً مِن الأيدي[٤].

وقالَ أَحْمَدُ بنُ مَرْوانَ المالِكِيُّ في كتابِ «المجالسةِ» لهُ: حَدَّثَنا زَكَرِيَّا بنُ

---

(١) يعني: وضع الملائكة أجنحتها له تواضعًا وتوقيرًا وإكرامًا إنّما يكون لأجل ما يحمله... إلخ. فالجار والمجرور متعلّقان بالخبر المحذوف الذي تقديره كائن.

(٢) في خ: «ونجاته فله شبه... من الشيطان... يخطر بباله»، وفي ط: «... يريد العبد...».

(٣) في خ: «هٰذا النصح إلاّ الأنبياء فإذا طلب العلم العبد»، وفي ط: «هٰذا إلاّ نصح الأنبياء...».

(٤) المعنى الأوّل ـ أعني التواضع والتوقير ـ أوثق صلة بالأصول اللغويّة للكلمة. والله أعلم.

عَبْدالرَّحْمٰنِ البَصْرِيُّ[١]؛ قالَ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بنَ شُعَيْبٍ يَقولُ: كُنَّا عندَ بعضِ المحدِّثينَ بالبصرةِ، فحَدَّثَنا بحديثِ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ الملائكةَ [لَـ]ـتَضَعُ أجنحتَها لطالبِ العلمِ...»، وفي المجلسِ معَنا رجلٌ مِن المعتزلةِ، فجَعَلَ يَسْتَهْزِئُ بالحديثِ، فقالَ: واللهِ؛ لأَطْرُقَنَّ غدًا نعلي بمساميرَ فأطَأُ بها أجنحةَ الملائكةِ! ففَعَلَ، ومَشى في النَّعلينِ، فجَفَّتْ رجلاهُ جميعًا ووَقَعَتْ في رجليهِ الأَكِلَةُ[٢].

وقالَ الطَّبَرانِيُّ: سَمِعْتُ أبا يَحْيى زَكَرِيَّا بنَ يَحْيى السَّاجِيَّ؛ قالَ: كُنَّا نَمْشي في بعضِ أزقَّةِ البصرةِ إلى بابِ بعضِ المحدِّثينَ، فأَسْرَعْنا المشيَ، وكانَ معَنا رجلٌ ماجنٌ متَّهمٌ في دينِهِ، فقالَ: اْرْفَعوا أرجلَكُم عن أجنحةِ الملائكةِ لا تَكْسِروها؛ كالمستهزِئ! فما زالَ مِن موضعِهِ حتَّى جَفَّتْ رجلاهُ وسَقَطَ.

وفي «السُّنن» و«المسانيد» مِن حديثِ صَفْوانَ بنِ عَسَّالٍ؛ قالَ: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ! إنِّي جِئْتُ أَطْلُبُ العلمَ. قالَ: «مرحبًا بطالبِ العلمِ. إنَّ طالبَ العلمِ لَتَحُفُّ بهِ الملائكةُ وتُظِلُّهُ بأجنحتِها فيَرْكَبُ بعضُهُم بعضًا حتَّى تَبْلُغَ السَّماءَ الدُّنيا مِن حبِّهِم لِما يَطْلُبُ...»، وذَكَرَ حديثَ المسحِ على الخفَّينِ[٣]. قالَ أبو عَبْدِاللهِ الحاكِمُ:

---

(١) في خ: «وقال أبو حاتم... المصريّ»! وأثبتّ ما في ط و«المجالسة» (٢١٥٤).

(٢) الأكلة: داء يتموّت بسببه العضو شيئًا فشيئًا وهو المعروف اليوم بالغرغرينا Gangrene.

(٣) (صحيح). قطعة من حديث طويل رواه: الطيالسي (١١٦٥-١١٦٨)، والشافعي في «الأمّ» (١/ ٣٤)، وعبدالرزّاق (٧٩٢ و٧٩٣ و٧٩٥)، والحميدي (٨٨١)، وابن أبي شيبة (١٨٦٧)، وأحمد (٤/ ٢٣٩-٢٤١)، والدارمي (١/ ١٠١)، وابن ماجه (المقدّمة، ١٧ـ فضل العلماء، ١/ ٨٢/ ٢٢٦ و٤٧٨ و٤٠٧٠)، والفسوي (٣/ ٤٠٠)، والترمذي (٤٣ـ الدعوات، ٩٩ـ فضل التوبة، ٥/ ٥٤٥/ ٩٦ و٢٣٨٧ و٣٥٣٥ و٣٥٣٦)، والنسائي (١ـ الطهارة، ٩٨ـ التوقيت في المسح، ١/ ٨٣/ ١٢٦ و١٢٧ و١٥٨ و١٥٩)، وابن خزيمة (١٧ و١٩٣ و١٩٦)، ويحيى بن صاعد في «زوائد الزهد» (١٠٩٦)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٢/ ١٢)، وابن حبّان في «الصحيح» (٨٥ و١١٠٠ و١٣١٩ و١٣٢١ و١٣٢٥)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٥٦/ ٧٣٥١-٧٣٨٨) و«الصغير» (٢٥١)، والدارقطني (١/ ١٩٦ و١٩٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣٠٧ و٣٠٨)، وابن حزم في «المحلّى» (٢/ ٨٣)، والبيهقي (١/ ١١٤ و١١٥ و١١٨ و٢٧٦ و٢٨١ و٢٨٢)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٣٨-٤٠)، والخطيب في «التاريخ» (٩/ ٢٢٢، ١٢/ ٧٨)، والبغوي في «شرح السنّة» (١٦١)، والضياء في «المختارة» (٢١-٣٠)؛ من طرق، عن عاصم بن بهدلة، عن زرّ بن حبيش، عن صفوان بن عسّال... رفعه مطوّلاً ومختصرًا.

وهٰذا سند فيه كلام من وجهين: أحدهما: أنّهم اختلفوا في القطعة موضع الشاهد رفعًا ووقفًا، ولا =

وإسنادُهُ[١] صحيحٌ. وقالَ ابنُ عَبْدِالبَرِّ: هوَ حديثٌ صحيحٌ حسنٌ ثابتٌ محفوظٌ مرفوعٌ، ومثلُهُ لا يُقالُ بالرَّأْيِ.

ففي هٰذا الحديثِ حَفُّ الملائكةِ لهُ بأجنحتِها إلى السَّماءِ، وفي الأوَّلِ وضعُها أجنحتَها لهُ. فالوضعُ تواضعٌ وتوقيرٌ وتبجيلٌ، والحفُّ بالأجنحةِ حفظٌ وحمايةٌ وصيانةٌ. فتَضَمَّنَ الحديثانِ تعظيمَ الملائكةِ لهُ وحبَّها إيَّاهُ وحياطتَهُ وحفظَهُ. فلو لمْ يَكُنْ لطالبِ العلمِ /خ١٠٢/ إلاَّ هٰذا [الحظُّ] الجزيلُ؛ لَكَفى بهِ شرفًا وفضلاً.

وقولُهُ ﷺ: «وإنَّ العالمَ لَيَسْتَغْفِرُ لهُ مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ حتَّى الحيتانُ في الماءِ». فإنَّهُ لمَّا كانَ العالمُ سببًا في حصولِ العلمِ الذي بهِ نجاةُ النُّفوسِ مِن أنواعِ الهَلَكاتِ[٢]، وكانَ سعيُهُ مقصورًا على هٰذا، وكانَتْ نجاةُ العبادِ على يديهِ؛ جوزِيَ مِن جنسِ عملِهِ، وجُعِلَ مَن في السَّماواتِ والأرضِ ساعيًا في نجاتِهِ مِن أسبابِ الهَلَكاتِ باستغفارِهِم لهُ.

= يضرّ؛ لأمرين: أوّلهما: أنّ الرفع زيادة جماعة من الثقات يتعيّن المصير إليها بل قال الحاكم والذهبي: «الذين أسندوه أحفظ». والآخر: أنّ للموقوف هنا حكم الرفع لأنّه لا يقال بالرأي كما قال ابن عبدالبرّ. والوجه الآخر: قول البوصيري: «رجال إسناده ثقات؛ إلاّ أنّ عاصم بن بهدلة اختلط بأخرة». قلت: قال العسقلاني في «التلخيص» (١/ ١٦٦): «ذكر ابن منده وأبو القاسم أنّه رواه عن عاصم أكثر من أربعين نفسًا»، ومن المستبعد جدًّا أن يكونوا جميعًا سمعوه بأخرة!

وقد توبع عاصم على هٰذه القطعة فرواها: الطبراني (٨/ ٥٥/ ٧٣٤٩ و٧٣٥٠)، والحاكم (١/ ١٠٠ و١٠١)؛ من ثلاث طرق، عن زرّ، عن صفوان... به موقوفًا. وطريق الحاكم الأولى قويّة صحّحها هو والذهبي، والطريقان الأخريان ضعيفتان، والسند صحيح بمجموع طرقه الثلاثة.

وتوبع متابعة أخرى فرواه: ابن أبي حاتم في «الجرح» (٢/ ١٣)، والطبراني (٨/ ٥٤/ ٧٣٤٧)، وابن عدي (٦/ ٢٣٣٢)، والحاكم (١/ ١٠٠ و١٠١)، والضياء (٣٤ و٣٥)؛ من طريق حسنة، عن المنهال بن عمرو، عن زرّ بن حبيش، [عن ابن مسعود]، عن صفوان... رفعه. قال الهيثمي (١/ ١٣٦): «رجاله رجال الصحيح». قلت: ظاهر المتن أنّ ابن مسعود حضر المجلس الذي سأل فيه صفوان، فيكون زرّ سمعه منهما، ولا يكون ذكره في هٰذا السند مستنكرًا.

والحديث صحيح بطرقه، وقد تتابع على تقويته جمهور أهل العلم كالبخاري والترمذي والخطابي وابن حزم والحاكم وابن عبدالبرّ والبغوي والمنذري والذهبي وابن القيّم والعسقلاني وشاكر والألباني.

(١) في خ: «فما زال في موضعه... والمسانيد عن صفوان... إسناده»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٢) في ط: «قوله ﷺ إنّ... أنواع المهلكات»، وفي خ: «... سببًا لحصول...».

وإذا كانتِ الملائكةُ تَسْتَغْفِرُ للمؤمنينَ؛ فكيفَ لا تَسْتَغْفِرُ لخاصَّتِهِم وخلاصتِهِم؟!

وقد قيلَ: إنَّ مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ المستغفرينَ للعالِمِ عامٌّ الحيواناتِ[1]؛ ناطقِها وبهيمِها، طيرِها وغيرِه. ويُؤَكِّدُ هٰذا قولُهُ: «حتَّى الحيتانُ في الماءِ، [و]حتَّى النَّملةُ في جحرِها».

فقيلَ: سببُ هٰذا الاستغفارِ: أنَّ العالِمَ يُعَلِّمُ الخلقَ مراعاةَ هٰذهِ الحيواناتِ، ويُعَرِّفُهُم ما يَحِلُّ منها وما يَحْرُمُ، [ويُعَرِّفُهُم] كيفيَّةَ تناولِها وٱستخدامِها وركوبِها والانتفاعِ بها، وكيفيَّةَ ذبحِها على أحسنِ الوجوهِ وأرفقِها بالحيوانِ. والعالِمُ أشفقُ النَّاسِ على الحيوانِ، وأقومُهُم ببيانِ ما خُلِقَ لهُ. وبالجملةِ؛ فالرَّحمةُ والإحسانُ اللتانِ خُلِقَ بهما ولهُما الحيوانُ وكُتِبَ لهُما حظُّهُما منهُ إنَّما تُعْرَفانِ[2] بالعلمِ، فالعالِمُ معرِّفٌ لذٰلكَ، فٱسْتَحَقَّ أنْ تَسْتَغْفِرَ لهُ البهائمُ. واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ «وفضلُ العالِمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ على سائرِ الكواكبِ» تشبيهٌ مطابقٌ لحالِ القمرِ والكواكبِ: فإنَّ القمرَ يُضيءُ الآفاقَ، ويَمْتَدُّ نورُهُ في أقطارِ العالَمِ، وهٰذهِ حالُ العالِمِ. وأمَّا الكوكبُ؛ فنورُهُ لا يُجاوِزُ نفسَهُ أو ما قَرُبَ منهُ، وهٰذهِ حالُ العابدِ الذي يُضيءُ نورُ عبادتِهِ عليهِ دونَ غيرِهِ، وإنْ جاوَزَ نورُ عبادتِهِ [إلى][3] غيرِهِ؛ فإنَّما يُجاوِزُهُ غيرَ بعيدٍ، كما يُجاوِزُ ضوءُ الكوكبِ[4] لهُ مجاوزةً يسيرةً.

ومِن هٰذا الأثرُ المرويُّ: «إذا كانَ يومُ القيامةِ؛ يقولُ اللهُ للعابدِ: ٱدْخُلِ الجنَّةَ؛ فإنَّما كانَتْ منفعتُكَ لنفسِكَ، ويُقالُ للعالِمِ: ٱشْفَعْ تُشَفَّعْ؛ فإنَّما كانَتْ منفعتُكَ للنَّاسِ»[5].

---

(١) في خ: «يستغفرون للمؤمنين فكيف لا يستغفرون...»، في ط: «... عام في الحيوانات».

(٢) في خ وط: «التي خلق بهما... إنما يعرف»! وفي هٰذا التردّد بين المفرد والمثنّى إشكال!

(٣) زيادة مني يقتضيها السياق.

(٤) في ط: «ويمتدّ نوره إلى العالم...»، وفي خ: «... وأما الكواكب... ضوء الكواكب».

(٥) (ضعيف جدًّا). وقد جاء عن جماعة من الصحابة من أوجه:

* فرواه: المرهبي في «العلم» (١/ ١٠٧ـ إتحاف السادة)، وأبو الشيخ في «الثواب»؛ من طريق محمّد بن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عبّاس... رفعه. وابن السائب متّهم ساقط.

وله وجه آخر عند الخطيب في «الفقيه والمتفقّه» (١/ ٢٠) من طريق محمّد بن مروان، عن ابن جريج، =

وروى ابنُ جُرَيْجٍ، عن عطاءٍ، عنِ ابنِ عَبَّاسٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُما]: إذا كانَ /خ١٠٣/ يومُ القيامةِ؛ يُؤْتى بالعابدِ والفقيهِ: فيُقالُ للعابدِ: ٱدْخُلِ الجنَّةَ، ويُقالُ للفقيهِ: ٱشْفَعْ تُشَفَّعْ(١).

وفي التَّشبيهِ المذكورِ لطيفةٌ أُخرى وهيَ: أنَّ الجهلَ كالليلِ في ظلمتِهِ وحِنْدِسِهِ، والعلماءُ والعبَّادُ بمنزلةِ القمرِ والكواكبِ الطَّالعةِ في تلكَ الظُّلمةِ، وفضلُ نورِ العالمِ فيها على نورِ العابدِ كفضلِ نورِ القمرِ على الكواكبِ(٢).

وأيضًا؛ فالدِّينُ قِوامُهُ وزينتُهُ وأَمَنَتُهُ بعلمائِهِ وعبَّادِهِ، فإذا ذَهَبَ علماؤُهُ وعبَّادُهُ؛ ذَهَبَ الدِّينُ، كما أنَّ السَّماءَ أَمَنَتُها وزينتُها بقمرِها وكواكبِها، فإذا خُسِفَ قمرُها وٱنْتَثَرَتْ كواكبُها؛ أتاها ما تُوعَدُ، وفضلُ علماءِ الدِّينِ على العبَّادِ كفضلِ ما بينَ القمرِ والكواكبِ.

فإنْ قيلَ: فكيفَ وَقَعَ تشبيهُ العالمِ بالقمرِ دونَ الشَّمسِ وهيَ أعظمُ نورًا؟!

قيلَ: فيهِ فائدتانِ: إحداهُما: أنَّ نورَ القمرِ لمَّا كانَ مستفادًا مِن غيرِهِ؛ كانَ تشبيهُ

= عن عطاء، عن ابن عبّاس... موقوفًا. وله حكم الرفع، ولٰكنّ محمّد بن مروان هٰذا هو السدّي المتّهم الساقط، فعاد حديثه كلا شيء.

* ورواه: ابن عدي (٦/ ٢٤٣٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٧١٧)؛ من طريق مقاتل بن سليمان، ثنا أبو الزبير وشرحبيل بن سعد، عن جابر... رفعه بنحوه. ومقاتل متّهم ساقط.

وله وجه آخر عند: ابن عدي (٢/ ٨١٩)، وابن السنّي في «رياض المتعلّمين» (١/ ١٠٧ـ إتحاف السادة)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٢٧)، والديلمي في «المسند» (٨٧٧٣)؛ من طريق حبيب بن أبي حبيب، عن شبل بن عبّاد، عن محمّد بن المنكدر، عن جابر... رفعه. وحبيب متّهم ساقط.

* ورواه: الخطيب في «الفقيه والمتفقّه» (١/ ٢٠) من طريق محمّد بن مقاتل الرازي، عن جعفر بن هارون الواسطي، عن سمعان بن المهدي، عن أنس... رفعه. وهٰذا سند مشهور لنسخة موضوعة.

* ورواه الأصبهاني في «الترغيب» (٢١٣٠) من طريق خازم بن خزيمة، عن عثمان بن عمرو القرشي، عن مكحول، عن أبي أمامة... رفعه. وهٰذا واهٍ بمرّة: خازم مجهول مضعّف، وعثمان مضعّف، وروايته عن مكحول منقطعة، ومكحول عن أبي أمامة منقطع أيضًا.

فهٰذه أسانيد كما ترى سقوطًا ووهاءً، فلا جرم أنّه لا يفيد ٱجتماعها الحديث قوّة، ولذٰلك ضعّفه البيهقي والمنذري والعراقي والزبيدي والمناوي وٱستنكره ابن عدي والذهبي والعسقلاني.

(١) (ضعيف جدًّا). فيه محمّد بن مروان السدّي المتّهم كما تقدّم في الحاشية السابقة.

(٢) في خ وط: «وهو أنّ الجهل...»! وفي خ: «... الكوكب». والحندس: الظلمة.

العالمِ الذي نورُهُ مستفادٌ مِن شمسِ الرِّسالةِ بالقمرِ أولى مِن تشبيهِهِ بالشَّمسِ. الثَّانيةُ: أنَّ الشَّمسَ لا يَخْتَلِفُ حالُها في نورِها ولا يَلْحَقُها مَحاقٌ[١] ولا تفاوتٌ في الإضاءةِ، وأمَّا القمرُ؛ فإنَّهُ يَقِلُّ نورُهُ ويَكْثُرُ ويَمْتَلِئُ ويَنْقُصُ، كما أنَّ العلماءَ في العلمِ على مراتبِهِم مِن كثرتِهِ وقلَّتِهِ، فيُفَضَّلُ كلٌّ منهُم في علمِهِ بحسبِ كثرتِهِ وقلَّتِهِ وظهورِهِ وخفائِهِ كما يَكونُ القمرُ كذٰلكَ، فعالمٌ كالبدرِ ليلةَ تمامِهِ، وآخرُ دونَهُ بليلةٍ ثانيةٍ وثالثةٍ وما بعدَها إلى آخرِ مراتبِهِ، وهُم درجاتٌ عندَ اللهِ.

فإنْ قيلَ: تشبيهُ العلماءِ بالنُّجومِ [أمرٌ معلومٌ]؛ لقولِهِ[٢] ﷺ: «أصحابي كالنُّجومِ...»[٣]، ولهٰذا هيَ في تعبيرِ الرُّؤيا عبارةٌ عنِ العلماءِ، فكيفَ وَقَعَ تشبيهُهُم

---

(١) المحاق؛ مثلّثة الميم: أنمحاء القمر من السماء في اليوم الأخير من الشهر قبل ولادته من جديد.

(٢) في خ: «كالبدر ليلة تمّه وآخر...»، وفي ط: «... معلوم كقوله».

(٣) (موضوع). وتتمّته «بأيهم آقتديتم أهتديتم». وقد جاء من حديث جماعة من الصحابة:

* فرواه: الذهبي في «الميزان» (١/ ٨٢) من طريق أحمد بن إسحاق بن إبراهيم بن نبيط بن شريط، عن أبيه، عن جده... رفعه بلفظ: «أهل بيتي كالنجوم...» إلخ. وأحمد بن إسحاق هٰذا كذّاب روى عن أبيه عن جدّه نسخة فيها بلايا هٰذا منها، ذكر ذٰلك الذهبي وأقرّه العسقلاني.

* ورواه: القضاعي في «مسند الشهاب» (١٣٤٦)، والذهبي في «ميزان الاعتدال» (١/ ٤١٣) معلّقًا؛ من طريق جعفر بن عبدالواحد الهاشمي، عن وهب بن جرير، عن أبيه، [عن الأعمش]، عن أبي صالح، عن أبي هريرة... رفعه. وجعفر هٰذا كذّاب يضع الحديث، وهٰذا من بلاياه كما قال الذهبي.

* ورواه: ابن بطّة في «الإبانة» (٧٠٠)، والسجزي في «الإبانة» (٣٤٠٠ـ فردوس)، وابن حزم في «الإحكام» (٢/ ٢٥٢)، والبيهقي في «المدخل» (١٥١)، والخطيب في «الكفاية» (ص٤٨)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (٢/ ١١٠) تعليقًا، وابن عساكر (١٩/ ٣٨٣)، وابن الجوزي في «العلل» (٤٥٧)، والرافعي في «التدوين» (٢/ ٤٨٤)، والضياء في «المنتقى» (٦٠ـ ضعيفة)؛ من طريق نعيم بن حمّاد، ثنا عبدالرحيم بن زيد العمّي، عن أبيه، عن سعيد بن المسيّب، عن عمر... رفعه. وهٰذا ساقط: نعيم صاحب مناكير، وعبدالرحيم متروك كذّبه ابن معين، وأبوه ضعيف. ولذٰلك قال ابن حزم: «ساقط»، وقال ابن عبدالبرّ: «لا يصحّ... منكر»، وقال ابن الجوزي: «لا يصحّ»، وقال الذهبي: «باطل».

* ورواه: عبد بن حميد (٧٨١)، وابن عدي (٢/ ٧٨٥)، وابن بطّة (٧٠١)، وابن حزم في «الإحكام» (٢/ ٢٥٢)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (٢/ ١١١) تعليقًا؛ من طريق حمزة بن أبي حمزة الجوزي، عن نافع، عن ابن عمر... رفعه. وحمزة هٰذا متروك متّهم، ولذٰلك عدّه ابن حزم وابن عبدالبرّ والذهبي من موضوعاته.

* ورواه ابن بطّة (٧٠٢) من طريق حمزة الجزري، عن عمرو بن دينار، عن ابن عبّاس... رفعه. وحمزة متروك متّهم، وقد رواه فيما تقدّم عن ابن عمر!

وله وجه آخر عنه رواه: أبو العبّاس الأصم في «حديثه» (٥٩ـ ضعيفة)، والبيهقي في «المدخل» =

هُنا بالقمرِ؟

قيلَ: أمَّا تشبيهُ العلماءِ بالنُّجومِ: فلأنَّ النُّجومَ يُهْتَدى بها في ظلماتِ البرِّ والبحرِ، وكذٰلك العلماءُ. والنُّجومُ زينةٌ للسَّماءِ، وكذٰلكَ العلماءُ زينةٌ للأرضِ. وهيَ رجومٌ للشَّياطينِ حائلةٌ بينَهُم وبينَ استراقِ السَّمعِ لئلاَّ يَلْبِسوا بما يَسْتَرِقُونَهُ

= (١٥٢)، والخطيب في «الكفاية» (ص٤٨)، والديلمي (٦٤٩٧)، وابن عساكر (٢٢/ ٣٥٩)؛ من طريق بكر بن سهل الدمياطي، ثنا عمرو بن هاشم البيروتي، ثنا سليمان بن أبي كريمة، عن جويبر، عن الضحّاك، عن ابن عبّاس. . . رفعه. وهٰذا ساقط مسلسل بالعلل: الدمياطي والبيروتي فيهما ضعف، وابن أبي كريمة ضعيف منكر الحديث، وجويبر ضعيف جدًّا شبه المتروك، والضحّاك عن ابن عبّاس منقطع.

* ورواه البيهقي في «المدخل» (١٥٣) من طريق الحسن بن محمّد التاجر، ثنا أبو زرعة إبراهيم بن موسى، ثنا يزيد بن هارون، عن جويبر، عن جوّاب بن عبيدالله، عن النبيّ ﷺ. . . به. وهٰذا ساقط على إعضاله: التاجر وأبو زرعة لم أعرفهما، وجويبر ضعيف جدًّا شبه المتروك وقد رواه فيما تقدّم عن ابن عبّاس. وقال البيهقي: «متنه مشهور وأسانيده ضعيفة لم يثبت في هٰذا إسناد». قلت: شهرته على ألسنة الناس لا تفيده قوّة، وما أكثر الموضوعات المشهورة على ألسنتهم!

* ورواه العسقلاني في «لسان الميزان» (٢/ ٣٨٠): رأيت بخطّ الحسين بن محمّد بن خسرو البلخي، عن علي بن محمّد بن عبيدالله الواسطي، ثنا أبو بكر محمّد بن عمر (بياض) بجامع واسط، ثنا الدقيقي، عن يزيد بن هارون، عن حميد، عن أنس. . . رفعه. قال العسقلاني: «والنسخة كلّها مكذوبة على الدقيقي فمن فوقه ما حدّثوا منها بشيء».

* ورواه: ابن حزم في «الإحكام» (٢/ ٢٥١)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (٢/ ١١١)؛ من طريق عبدالله بن روح، ثنا سلام بن سليم، ثنا الحارث بن غصين، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر. . . رفعه. وهٰذا واهٍ له علّتان: **أولاهما**: سلام بن سليم (أو ابن سليمان) هو ابن سوار أبو العبّاس المدائني المنكر الحديث، وليس بالطويل المتّهم كما ذكر ابن حزم والألباني؛ فإنّ ابن روح لا يمكن أن يروي عن المتّهم لأنّه ولد بعد وفاته بعشر سنين! **والثانية**: جهالة الحارث. ولذٰلك قال ابن عبدالبرّ: «إسناد لا تقوم به حجّة».

وله وجه آخر عن جابر عند: الدارقطني في «غرائب مالك» (٢/ ١٧٣ـ لسان)، والخطيب في «الرواة عن مالك» (٢/ ١٧٣ـ لسان)؛ من طريق الحسن بن مهدي بن عبدة المروزي، عن محمّد بن أحمد السكوني، عن بكر بن عيسى المروزي، عن جميل بن يزيد، عن مالك، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جابر. . . رفعه. قال الدارقطني وأقرّه العسقلاني: «لا يثبت عن مالك، ورواته مجهولون». قلت: الحسن ومحمّد وبكر وجميل مجاهيل لا يعرفون إلاّ بهٰذا الخبر!

فعلّة الطريقين واحدة، وهي مجاهيل وأصحاب مناكير تفرّدوا عن إمام جبل مشهور بمتن منكر لا يعرف من حديثه ولا تابعهم عليه كبار أصحابه ولا صغارهم، فبان أنّه ممّا صنعته أيديهم عمدًا أو سهوًا.

وبعد؛ فهٰذه أسانيد كما ترى كثرة، ليس فيها سند واحد ضعيف دع الحسن والصحيح، وهٰذه علامة الموضوعات التي يختلقها الكذّابون والمتّهمون ثمّ يتداولونها فيما بينهم؛ فلا جرم أن عدّه البزّار والدارقطني والبيهقي وابن حزم وابن عبدالبرّ وابن الجوزي والذهبي وابن كثير والعسقلاني والألباني في الموضوعات.

الوحيَ[(١)] الواردَ /خ١٠٤/ إلى الرُّسلِ مِن اللهِ على أيدي ملائكتِهِ، وكذٰلكَ العلماءُ رجومٌ لشياطينِ الإنسِ والجنِّ الذينَ يوحي بعضُهُم إلى بعضٍ زخرفَ القولِ غرورًا، فالعلماءُ رجومٌ لهٰذا الصِّنفِ مِن الشَّياطينِ، ولولاهُم لَطُمِسَتْ معالمُ الدِّينِ بتلبيسِ المضلِّينَ، ولٰكنَّ اللهَ سبحانَهُ أقامَهُم حرسًا وحَفَظَةً لدينِهِ ورجومًا لأعدائِهِ وأعداءِ رسلِهِ[(٢)]. فهٰذا وجهُ تشبيهِهِم بالنُّجومِ[(٣)].

وأمَّا تشبيهُهُم بالقمرِ؛ فذٰلكَ إنَّما كانَ في مقامِ تفضيلِهِم على أهلِ العبادةِ المجرَّدةِ وموازنةِ ما بينَهُما مِن الفضلِ، والمعنى أنَّهُم يَفْضُلونَ العبَّادَ الذينَ لَيْسوا بعلماءَ كما يَفْضُلُ القمرُ سائرَ الكواكبِ. فكلا التَّشبيهينِ[(٤)] لائقٌ بموضعِهِ، والحمدُ للهِ.

وقولُهُ: «إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ»: هٰذا مِن أعظمِ المناقبِ لأهلِ العلمِ؛ فإنَّ الأنبياءَ خيرُ خلقِ اللهِ، فورثتُهُم خيرُ الخلقِ بعدَهُم. ولمَّا كانَ كلُّ موروثٍ يَنْتَقِلُ ميراثُهُ إلى ورثتِهِ إذْ هُمُ الذينَ يَقومونَ مقامَهُ مِن بعدِهِ، ولمْ يَكُنْ بعدَ الرُّسلِ مَن يَقومُ مقامَهُم في تبليغِ ما أُرْسِلوا بِهِ إلَّا العلماءَ؛ كانوا أحقَّ النَّاسِ بميراثِهِم.

وفي هٰذا تنبيهٌ على أنَّهُم أقربُ النَّاسِ إليهِم؛ فإنَّ الميراثَ إنَّما يَكونُ لأقربِ النَّاسِ إلى الموروثِ، وهٰذا كما أنَّهُ ثابتٌ في ميراثِ الدِّينارِ والدِّرهمِ، فكذٰلكَ هوَ في ميراثِ النُّبوَّةِ، واللهُ يَخْتَصُّ برحمتِهِ مَن يَشاءُ.

وفيهِ أيضًا إرشادٌ وأمرٌ للأُمَّةِ بطاعتِهِم وٱحترامِهِم وتعزيرِهِم وتوقيرِهِم وإجلالِهِم؛ فإنَّهُم ورثةُ مَن هٰذهِ بعضُ حقوقِهِم على الأُمَّةِ وخلفاؤُهُم فيهِم.

وفيهِ تنبيهٌ على أنَّ محبَّتَهُم مِن الدِّينِ وبغضَهُم منافٍ للدِّينِ كما هوَ ثابتٌ لموروثِهِم، وكذٰلكَ معاداتُهُم ومحاربتُهُم معاداةٌ ومحاربةٌ للهِ كما هوَ في موروثِهِم. قالَ عَلِيٌّ [بنُ أبي طالبٍ][(٥)] رَضِيَ اللهُ عنهُ: محبَّةُ العلماءِ دينٌ يُدانُ اللهُ بِهِ. وقالَ [النَّبيُّ]

---

(١) في ط: «بالنجوم فإنّ النجوم... يسترقونه من الوحي»، وفي خ: «... ٱستراق النعم لتلاّ...».

(٢) في ط: «أقامهم حرّاسًا وحفظة...»، وفي خ: «... وأعداء رسوله».

(٣) وهذا وإن لم يصحّ رفعه؛ فإنّه كثير في كلام الناس ولذلك حسن من المصنّف تأويله وبيان وجهه.

(٤) في ط: «فكلّ من التشبيهين»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٥) ساقطة من ط.

ﷺ فيما يَرْويـ[ـهِ] عن ربِّهِ عَزَّ وجَلَّ: «مَن عادى لي وليًّا؛ فقد بارَزَني بالمحاربةِ»[1]، وورثةُ الأنبياءِ /خ١٠٥/ ساداتُ أولياءِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

وفيهِ تنبيهٌ للعلماءِ على سلوكِ هَدْيِ الأنبياءِ وطريقتِهِم في التَّبليغِ مِن الصَّبرِ والاحتمالِ ومقابلةِ إساءةِ النَّاسِ إليهِم بالإحسانِ والرِّفقِ بهِم واستجلابِهِم إلى اللهِ بأحسنِ الطُّرقِ وبذلِ ما يُمكِنُ مِن النَّصيحةِ لهُم؛ فإنَّهُ بذٰلكَ يَحْصُلُ لهُم نصيبُهُم مِن هٰذا الميراثِ العظيمِ قدرُهُ الجليلِ خطرُهُ.

وفيهِ أيضًا تنبيهٌ لأهلِ العلمِ على تربيةِ الأُمَّةِ كما يُرَبِّي الوالدُ ولدَهُ، فيُرَبُّونَهُم بالتَّدريجِ والتَّرقِّي مِن صغارِ العلمِ إلى كبارِهِ[2] وتحميلِهِم منهُ ما يُطيقونَ [كما] يَفْعَلُ الأبُ بولدِهِ الطِّفلِ في إيصالِـ[ـهِ] الغذاءَ إليهِ؛ فإنَّ أرواحَ البشرِ بالنِّسبةِ إلى الأنبياءِ والرُّسلِ كالأطفالِ بالنِّسبةِ إلى آبائِهِم بل دونَ هٰذهِ النِّسبةِ بكثيرٍ، ولهٰذا؛ كلُّ روحٍ لمْ يُرَبِّها الرُّسلُ لمْ تُفْلِحْ ولمْ تَصْلُحْ [لصالحةٍ]، كما قيلَ:

وَمَنْ لا يُرَبِّيهِ الرَّسولُ وَيَسْقِهِ ... لِبانًا لَهُ قَدْ دَرَّ مِنْ ثَدْيِ قُدْسِهِ
فَذاكَ لَقيطٌ ما لَهُ نِسْبَةُ الوَلا ... وَلا يَتَعَدَّى طَوْرَ أَبْناءِ جِنْسِهِ

وقولُهُ: «إنَّ الأنبياءَ لمْ يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا إنَّما وَرَّثوا العلمَ». هٰذا مِن كمالِ الأنبياءِ وعظمِ نصحِهِم للأُممِ وتمامِ نعمةِ اللهِ عليهِم وعلى أُممِهِم؛ أنْ أزاحَ جميعَ العللِ، وحَسَمَ جميعَ الموادِّ التي تُوهِمُ بعضَ النُّفوسِ أنَّ الأنبياءَ مِن جنسِ الملوكِ الذينَ يُريدونَ الدُّنيا وملكَها، فحماهُمُ [اللهُ] سبحانَهُ وتَعالى مِن ذٰلكَ أتمَّ الحمايةِ.

ثمَّ [لمَّا] كانَ الغالبُ على النَّاسِ أنَّ أحدَهُم يُريدُ الدُّنيا لولدِهِ مِن بعدِهِ ويَسْعى ويَتْعَبُ ويَحْرِمُ نفسَهُ لولدِهِ؛ سَدَّ هٰذهِ الذَّريعةَ عن أنبيائِهِ ورسلِهِ وقَطَعَ هٰذا الوَهْمَ الذي عَساهُ أنْ يُخالِطَ كثيرًا مِن النُّفوسِ التي تَقولُ: فلَعَلَّهُ إنْ لمْ يَطْلُبِ الدُّنيا [لنفسِهِ]؛ فهوَ يُحَصِّلُها لولدِهِ، فقالَ ﷺ: «نحنُ معاشرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ، ما تَرَكْنا فهوَ

---

(١) قطعة من حديث رواه البخاري (٨١ـ الرقاق، ٣٨ـ التواضع، ١١/ ٣٤٠/ ٦٥٠٢) عن أبي هريرة.

(٢) صغار العلم: قضاياه الكليّة اليسيرة البيّنة التي لا يستغني عنها العبد ولا يعجز عن فهمها ولو صغر سنّه أو قلّ علمه كأركان الإيمان والإسلام والصلاة والصيام... وكباره ما كان بخلاف ذٰلك من المسائل.

صدقةٌ»[١]. فلمْ تُوَرِّثِ الأنبياءُ دينارًا ولا درهمًا وإنَّما وَرَّثوا العلمَ.

وأمَّا قولُهُ تَعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوودَ﴾؛ فهوَ ميراثُ العلمِ والنُّبوَّةِ لا غيرَ، وهٰذا باتِّفاقِ أهلِ العلمِ /خ١٠٦/ مِن المفسِّرينَ وغيرِهِم: وهٰذا لأنَّ داوودَ عليهِ السَّلامُ كانَ لهُ أولادٌ كثيرٌ سوى سُلَيْمانَ، فلوْ كانَ الموروثُ هوَ المالَ؛ لَمْ يَكُنْ سُلَيْمانُ مختصًّا بهِ. وأيضًا؛ فإنَّ كلامَ اللهِ يُصانُ عنِ الإخبارِ بمثلِ هٰذا؛ فإنَّهُ بمنزلةِ أنْ يُقالَ: ماتَ فلانٌ ووَرِثَهُ ابنُهُ! ومِن المعلومِ أنَّ كلَّ أحدٍ يَرِثُهُ ابنُهُ، وليسَ في الإخبارِ بمثلِ هٰذا فائدةٌ! وأيضًا؛ فإنَّ ما قبلَ الآيةِ وما بعدَها يُبيِّنُ أنَّ المرادَ بهٰذهِ الوراثةِ وراثةُ العلمِ والنُّبوَّةِ لا وراثةُ المالِ[٢]؛ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوودَ وَسُلَيْمانَ عِلْمًا وَقالا الحَمْدُ لِلهِ الَّذي فَضَّلَنا عَلى كَثيرٍ مِنْ عِبادِهِ المُؤْمِنينَ. وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوودَ﴾ [النمل: ١٥-١٦]، وإنَّما سيقَ هٰذا لبيانِ فضلِ سُلَيْمانَ وما خَصَّهُ اللهُ بهِ مِن كرامتِهِ وميراثِهِ ما كانَ لأبيهِ مِن أعلى المواهبِ، وهوَ العلمُ والنُّبوَّةُ، ﴿إِنَّ هٰذا لَهُوَ الفَضْلُ المُبينُ﴾ [النمل: ١٦].

وكذٰلكَ قولُ زَكَرِيَّا عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿إِنّي خِفْتُ المَوالِيَ مِنْ وَرائي وَكانَتِ امْرَأَتي عاقِرًا فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُني وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥-٦]. فهٰذا ميراثُ العلمِ والنُّبوَّةِ والدَّعوةِ إلى اللهِ، وإلاَّ؛ فلا يُظَنُّ بنبيٍّ كريمٍ أنَّهُ يَخافُ عصبتَهُ أنْ يَرِثوهُ مالَهُ فيَسْأَلُ اللهَ العظيمَ ولدًا يَمْنَعُهُم ميراثَهُ ويكونُ أحقَّ بهِ منهُم! وقد نَزَّهَ اللهُ أنبياءَهُ ورسلَهُ عن هٰذا وأمثالِهِ!

فبعدًا لمَن حَرَّفَ كتابَ اللهِ، ورَدَّ على رسولِهِ كلامَهُ، ونَسَبَ الأنبياءَ إلى ما هُم أبرياءُ منزَّهونَ عنهُ. والحمدُ للهِ على توفيقِهِ وهدايتِهِ.

---

(١) رواه: البخاري (٨٥ـ الفرائض، ٣ـ لا نورث ما تركنا صدقة، ١٢/ ٥/ ٦٧٢٥-٦٧٣٠)، ومسلم (٣٢ـ الجهاد، ١٦ـ لا نورث ما تركنا صدقة، ٣/ ١٣٧٩/ ١٧٥٨-١٧٦١)؛ من حديث أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عوف والزبير وسعد والعبّاس وعائشة وأبي هريرة؛ كلهم بلفظ: «لا نورث، ما تركنا صدقة».

قال العسقلاني (١٢/ ٨): «وأمّا ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»؛ فقد أنكره جماعة من الأئمّة، وهو كذٰلك بالنسبة لخصوص لفظ «نحن»، لٰكن أخرجه النسائي من طريق ابن عيينة عن أبي الزناد بلفظ «إنّا معاشر الأنبياء لا نورث...» الحديث». ثمّ تابع مبيّنًا أن ذكر «معاشر الأنبياء» قد صحّ في الحديث من غير وجه وأنّ النكارة مختصّة بلفظة «نحن». والله أعلم.

(٢) في خ: «لم يكن سليمان يختصّ به... لا وراثه مال»، والأولى ما أثبتّه من ط.

ويُذْكَرُ عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ؛ أنَّهُ مَرَّ بالسُّوقِ، فوَجَدَهُم في تجاراتِهِم وبيوعاتِهِم، فقالَ: أنتُم هاهُنا فيما أنتُم فيهِ وميراثُ رسولِ اللهِ ﷺ يُقْسَمُ في مسجدِهِ؟! فقاموا سراعًا إلى المسجدِ، فلمْ يَجِدوا فيهِ إلَّا القرآنَ والذِّكرَ ومجالسَ العلمِ! فقالوا: أينَ ما قُلْتَ يا أبا هُرَيْرَةَ؟ فقالَ: هٰذا ميراثُ مُحَمَّدٍ ﷺ يُقْسَمُ بينَ ورثتِهِ وليسَ بمواريثِكُم ودنياكُم. أو كما قالَ.

وقولُهُ: «فمَن أخَذَهُ أخَذَ بحظٍّ وافرٍ». أعظمُ[1] الحظوظِ وأجداها /خ١٠٧/ ما نَفَعَ العبدَ ودامَ نفعُهُ لهُ، وليسَ هٰذا إلَّا حظَّهُ مِن العلمِ والدِّينِ. فهوَ الحظُّ الدَّائمُ النَّافعُ الذي إذا ٱنْقَطَعَتِ الحظوظُ لأربابِها فهوَ موصولٌ لهُ أبدَ الآبدينَ، وذٰلكَ لأنَّهُ موصولٌ بالحيِّ الذي لا يَموت، فلذٰلكَ لا يَنْقَطِعُ ولا يَفوت، وسائرُ الحظوظِ تَعْدَمُ وتَتَلاشى [بتلاشي] متعلَّقاتِها، كما قالَ تَعالى: ﴿وَقَدِمْنا إلى ما عَمِلوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]؛ فإنَّ الغايةَ لمَّا كانَتْ منقطعةً زائلةً؛ تَبِعَتْها أعمالُهُم، فٱنْقَطَعَتْ عنهُم أحوجَ ما يَكونُ العاملُ إلى عملِهِ! وهٰذهِ هيَ المصيبةُ التي لا تُجْبَرُ، عياذًا باللهِ وٱستعانةً بِهِ وٱفتقارًا وتوكُّلًا عليهِ ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بِهِ[2].

وقولُهُ: «موتُ العالمِ مصيبةٌ لا تُجْبَرُ وثُلْمةٌ لا تُسَدُّ ونجمٌ طُمِسَ، وموتُ قبيلةٍ أيسرُ مِن موتِ عالمٍ». لمَّا كانَ صلاحُ الوجودِ بالعلماءِ، ولولاهُم كانَ النَّاسُ كالبهائمِ بل أسوأَ حالًا؛ كانَ موتُ العالمِ مصيبةً لا يَجْبُرُها إلَّا خَلَفُ غيرِهِ [لهُ].

وأيضًا؛ فإنَّ العلماءَ [همُ] الذينَ يَسوسونَ العبادَ والبلادَ والممالكَ[3]، فموتُهُم فسادٌ لنظامِ العالمِ، ولهٰذا لا يَزالُ اللهُ يَغْرِسُ في هٰذا الدِّينِ منهُم خالفًا عن سالفٍ يَحْفَظُ بهِم دينَهُ وكتابَهُ وعبادَهُ[4].

---

(١) في خ: «فيسأل الله تعالى ولدًا... تجاراتهم وبياعتهم فقال... وأعظم»، وأثبتٌ ما في ط.

(٢) في خ: «تبعتها أعمالهم فتقطعت...»، وفي ط: «... ولا قوّة إلّا بالله».

(٣) سياسة دينيّة شرعيّة؛ لأنّ الناس يصدرون عن فتاواهم وأحكامهم ويتعلّقون بها، فلو سألت آكل الربا مثلًا: كيف تفعل هٰذا؟! لم يقل: أباحه الحاكم الفلانيّ، وفتح البنوك الرئيس الفلانيّ! وإنّما يقول: بفتوى العالم الفلانيّ! فأنظر إلى عظيم مسؤوليّة العالم وخطير أثره.

(٤) سيأتي هٰذا مرفوعًا (١/ ٣٩١).

وتَأَمَّلْ؛ إذا كانَ في الوجودِ رجلٌ قد فاقَ العالَمَ في الغنى والكرمِ، وحاجتُهُم إلى ما عندَهُ شديدةٌ، وهوَ محسنٌ إليهِم بكلِّ ممكنٍ، ثمَّ ماتَ وانْقَطَعَتْ عنهُم تلكَ المادَّةُ! فموتُ العالمِ أعظمُ مصيبةً مِن موتِ هٰذا بكثيرٍ، ومثلُ هٰذا يَموتُ بموتِهِ أُممٌ وخلائقُ.

كما قيلَ:

تَعَلَّمْ مـا الـرَّزِيَّـةُ فَقْـدُ مـالٍ وَلا شـاةٌ تَمـوتُ وَلا بَعيـرُ
وَلٰكِـنَّ الـرَّزِيَّـةَ فَقْـدُ حَبْـرٍ[1] يَمـوتُ بِمَـوْتِـهِ بَشَـرٌ كَثيـرُ

وقالَ آخرُ:

فَمـا كـانَ قَيْـسٌ هُلْكُـهُ هُلْكُ واحِـدٍ وَلٰكِنَّـهُ بُنْيـانُ قَـوْمٍ تَهَـدَّمـا

● **الوجه الثَّامنُ والأربعونَ**: ما رَوى التِّرْمِذِيُّ مِن حديثِ: الوَليدِ بنِ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنا رَوْحُ بنُ جَناحٍ، عن مُجاهِدٍ، عنِ ابنِ عَبَّاسٍ /خ١٠٨/ [رَضِيَ اللهُ عنهُما]؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فقيهٌ [واحدٌ] أشدُّ على الشَّيطانِ مِن ألفِ عابدٍ»[2]. قالَ التِّرْمِذِيُّ:

---

(١) في ط: «من موت مثل هٰذا... فقد حرّ»، وفي خ: «... ومثل موت هٰذا يموت...».

(٢) (موضوع). وقد وقفت عليه من حديث أربعة من الصحابة:

* فرواه: البخاري في «التاريخ» (٣/٣٠٨)، والفاكهي في «مكّة» (١/١٨٣)، وابن ماجه (المقدّمة، ١٧- فضل العلماء، ١/٨١/ ٢٢٢)، والترمذي (٤٢- العلم، ١٩- فضل الفقه، ٥/٤٨/٢٦٨١)، وابن المنذر في «الأوسط» (١/١٣٥)، وابن حبّان في «المجروحين» (١/٣٠٠)، والطبراني في «الكبير» (١١/٦٥/ ١١٩٩) و«الشاميّين» (١١٠٩)، وابن عديّ (٣/١٠٠٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٧١٥)، والخطيب في «الفقيه والمتفقّه» (١/٢٤)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/٣١)، وابن الجوزي في «الواهيات» (١٩٢)، والمزّي في «التهذيب» (٩/٢٣٧)؛ من طريق الوليد بن مسلم... به.

وهٰذا ضعيف له علل ثلاث: أولاها: ضعف روح. والثانية: أنّه اضطرب هو أو من دونه فيه فرواه مرّة عن الزهري عن ابن المسيّب عن أبي هريرة رفعه. كما في الحاشية التالية. الثالثة: أنّه رواه: أبو الشيخ في «الطبقات» (١/٤٥٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/٥٧)، وابن الجوزي في «الواهيات» (١٩٣)؛ من طرق ثلاث، عن ابن عبّاس... موقوفًا. فقد جمع روح هنا الضعف والاضطراب والمخالفة، ولذٰلك ضعّف حديثه الترمذي، واستنكره الساجي وابن حبّان وابن عديّ والذهبي والعسقلاني وقال الألباني: «موضوع».

* وعلّقه الرافعي في «التدوين» (٢/٤٧) من طريق محمّد بن إسماعيل بن موسى بن جعفر بن محمّد، ثني عمّ أبي إسحاق بن موسى، عن أبيه، عن جدّه، عن محمّد بن عليّ، عن عليّ بن الحسين، عن الحسين بن عليّ، عن عليّ، عن النبيّ ﷺ؛ قال: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من ألف عابد». ومحمّد بن إسماعيل وعمّ أبيه لم أجد من ترجمهما، وما أظنّ هٰذا السند إلّا من صنعهما، ثمّ هو معلّق.

* وله شاهدان ساقطان: أحدهما عن أبي هريرة يأتي بعده، والآخر عن أنس يأتي في وجه ٩٤.

غريبٌ لا نَعْرِفُهُ إلاَّ مِن هٰذا الوجهِ مِن حديثِ الوَليدِ بنِ مُسْلِمٍ.

قُلْتُ: قد رَواهُ: أبو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بنُ الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ اليَقْطِينيُّ، حَدَّثَنا عُمَرُ بنُ سَعيدِ بنِ سِنانٍ، حَدَّثَنا هِشامُ بنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنا الوَليدُ بنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنا رَوْحُ بنُ جَناحٍ، عنِ الزُّهْرِيِّ، عن سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ[١].

قالَ الخَطيبُ: والأوَّلُ هوَ المحفوظُ عن رَوْحٍ عن مجاهِدٍ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ، وما أرى الوهْمَ وَقَعَ في هٰذا الحديثِ إلاَّ مِن أبي جَعْفَرٍ؛ لأنَّ عُمَرَ بنَ سِنانٍ عندَهُ: عن هِشامِ بنِ عَمَّارٍ عنِ الوَليدِ عن رَوْحٍ عنِ الزُّهْرِيِّ عن سَعيدٍ حديثُ «في السَّماءِ بيتٌ يُقالُ لهُ البيتُ المعمورُ حيالَ الكعبةِ»[٢]، وحديثُ ابنِ عَبَّاسٍ؛ كانا في كتابِ ابنِ سِنانٍ عن هِشامٍ

---

(١) (ضعيف جدًّا). وقد جاء عن أبي هريرة من أوجه:

روى أوّلها: الدارقطني في «العلل» (١٦٧٦)، والخطيب في «الفقيه والمتفقّه» (١/ ٢٤)؛ من الطريق المتقدّمة. وقد علمت ما فيها من الحاشية السابقة ومن كلام الخطيب البغدادي المذكور في المتن.

وروى الثاني: الطبراني في «الأوسط» (٦١٦٢)، والآجرّي في «أخلاق العلماء»، والدارقطني (٣/ ٧٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٩٢)، والقضاعي (٢٠٦ و٢١٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٧١٢ و١٧١٣)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٣١)، والخطيب في «التاريخ» (٢/ ٢٠٤، ٥/ ٤٣٦) و«الجامع» (١٣٢٨) و«الفقيه والمتفقّه» (١/ ٢١)، والسمعاني في «الأدب» (ص٦٠)، والرافعي في «التدوين» (٣/ ٤٧٢، ٤/ ٧٨ و١٤٥)؛ من طريقين، عن صفوان بن سليم، عن سليمان (وجاءت مرّة: عطاء) بن يسار، عن أبي هريرة. . . رفعه. فأمّا الطريق الأولى؛ فقال الطبراني وأبو نعيم: «تفرّد به يزيد بن عياض»، وقال الهيثمي (١/ ١٢٦) والآبادي: «وهو كذّاب»، وضعّفها البيهقي والعراقي. وأمّا الطريق الثانية؛ فقال ابن الجوزي: فيها «خلف بن يحيى قال أبو حاتم لا يشتغل بحديثه، وأمّا إبراهيم بن محمّد فمتروك». قلت: كلاهما متّهم، فسقط الحديث من هٰذا الوجه.

وروى الثالث: ابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٦٩)، والبيهقي في «الشعب» (١٧١٦)، وابن الجوزي في «الواهيات» (١٩٥)؛ من طريق أبي الربيع السمّان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة. . . رفعه. وأبو الربيع أشعث بن سعيد السمّان متروك.

وروى الرابع الخطيب في «الفقيه» (١/ ٢١) من طريق أحمد بن الحسن بن إسماعيل بن صبيح، وجدت في كتاب جدّي، ثنا محمّد بن أبي عثمان الأزدي، ثنا الحسن، عن أبي هريرة. . . رفعه. وأحمد ليس بالقوي، والأزدي مجهول، والحسن عن أبي هريرة منقطع.

فالحديث ساقط من طرقه الأربعة، لا يرفع به رأس، ولا يصلح لصالحة. وقد ضعّفه أبو نعيم والبيهقي وابن الجوزي والهيثمي والعراقي والآبادي، وقال الألباني: «موضوع».

(٢) (موضوع). رواه: العقيلي (٢/ ٦٠)، وابن أبي حاتم (٤/ ٢١٥ـ تفسير ابن كثير)، وابن عديّ (٣/ ١٠٠٤)، وابن رشيق في «المنتقى من الأمالي» (٤٧٧ـ صحيحة)، والدارقطني في «العلل» (١٦٧٦)=

يَتْلو أحدُهُما الآخرَ، فكَتَبَ أبو جَعْفَرٍ إسنادَ حديثِ أبي هُرَيْرَةَ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]، ثمَّ عارَضَهُ سهوٌ[١] أو زاغَ نظرُهُ، فنَزَلَ إلى متنِ حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ، فرَكَّبَ متنَ هٰذا على إسنادِ هٰذا، وكلٌّ واحدٍ منهُما[٢] ثقةٌ مأمونٌ بريءٌ من تعمُّدِ الغلطِ.

وقد رواهُ أبو أحْمَدَ بنُ عَدِيٍّ: عن مُحَمَّدِ بنِ سَعيدِ بنِ مِهْرانَ، حَدَّثَنا شَيْبانُ، حَدَّثَنا أبو الرَّبيعِ السَّمَّانُ، عن أبي الزِّنادِ، عنِ الأعرجِ، عن أبي هُرَيْرَةَ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لكلِّ شيءٍ دعامةٌ ودعامةُ الإسلامِ الفقهُ في الدِّينِ، والفقيهُ أشدُّ على الشَّيطانِ مِن ألفِ عابدٍ»[٣].

ولهٰذا الحديثِ علَّةٌ، وهوَ أنَّهُ رُوِيَ مِن كلامِ أبي هُرَيْرَةَ، وهوَ أشبهُ[٤].

رواهُ: هانئُ بنُ يَحْيى، حَدَّثَنا يَزيدُ بنُ عِياضٍ، حَدَّثَنا صَفْوانُ بنُ سُلَيْمٍ، عن سُلَيْمانَ بنِ يَسارٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ مِن فقهٍ في الدِّينِ»[٥]. قالَ: وقالَ أبو هُرَيْرَةَ: لأنْ أَفْقَهَ ساعةً أحبُّ إليَّ مِن

= معلّقًا، وابن مردويه (٦/ ٢٠٩)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٤٧)؛ من طريق الوليد بن مسلم، ثنا روح بن جناح، عن الزهري، عن سعيد بن المسيّب، عن أبي هريرة... رفعه في سياق.

قال ابن عديّ: «لا يعرف هٰذا الحديث إلّا بروح بن جناح عن الزهري». قلت: روح منكر الحديث، وقد أنكر حديثه هٰذا جماعة الحفّاظ وعدّه أكثرهم في الموضوع أو فيما لا أصل له، كالعقيلي وابن عدي وأبو أحمد الحاكم والجوزجاني والدارقطني وابن الجوزي والذهبي وابن كثير والعسقلاني والألباني.

* تنبيه: وجود البيت المعمور في السماء حيال الكعبة قد صحّ من غير هٰذا الوجه، لكن الكلام هنا في حديث روح بن جناح بما فيه من السياقات المنكرة.

(١) في خ: «الحسن بن عليّ القطينيّ... عارضه لسهو»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٢) يعني: عمر بن سعيد بن سنان وهشام بن عمّار، والأوّل مترجم في «تاريخ ابن عساكر» (٤٥/ ٥٩) والآخر من رجال «التهذيب»، وكلاهما صدوق.

(٣) (ضعيف جدًّا). تقدّم تفصيل القول فيه آنفًا، وللقطعة الأولى حكم الثانية وطرقها.

(٤) على طريقة أهل العلم في التساهل في الموقوفات وعدم التشديد في شأنها كالمرفوعات، وإلّا؛ فإسناد الموقوف ساقط أيضًا.

(٥) (ضعيف جدًّا). تقدّم تفصيل القول فيه آنفًا، ولهٰذه القطعة حكم القطعتين المتقدّمتين وطرقهما.

* ولها شاهد رواه ابن عديّ (٢/ ٤٤٨) من طريق بشر بن عبيد الدارسي، عن إسماعيل بن فرقد، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه، عن النبيّ ﷺ؛ قال: «ما عبد الله بشيء أفضل من العقل في الدين». وبشر واه منكر الحديث، وإسماعيل مجهول. ولذٰلك قال الذهبي والعسقلاني: «غير صحيح».

* وآخر رواه السهمي في «التاريخ» (ص٣٧٠) من طريق أحمد بن سليمان الخفتاني، ثني محمّد بن=

أنْ أُحْيِيَ ليلةً أُصَلِّيها حتَّى أُصْبِحَ، والفقيهُ أشدُّ على الشَّيطانِ مِن ألفِ عابدٍ، ولكلِّ شيءٍ دعامةٌ ودعامةُ الدِّينِ الفقهُ /خ١٠٩/.

وقد رُوِيَ بإسنادٍ فيهِ مَن لا يُحْتَجُّ بِهِ مِن حديثِ: عاصمِ بنِ أبي النُّجودِ، عن زِرِّ بنِ حُبَيْشٍ، عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، يَرْفَعُهُ: «إنَّ الفقيهَ أشدُّ على الشَّيطانِ مِن ألفِ ورعٍ[1] وألفِ مجتهدٍ وألفِ متعبِّدٍ»[2].

وقالَ المُزَنِيُّ: [رُوِيَ] عنِ ابنِ عَبَّاسٍ؛ أنَّهُ قالَ: إنَّ الشَّياطينَ قالوا لإبْليسَ: يا سيِّدَنا! ما لنا نَراكَ تَفْرَحُ بموتِ العالمِ ما لا تَفْرَحُ بموتِ العابدِ، والعالمُ [لا] نُصيبُ منهُ والعابدُ نُصيبُ منهُ؟ قالَ: انْطَلِقوا. فانْطَلَقوا إلى عابدٍ، فأتَوْهُ في عبادتِهِ، فقالوا: إنَّا نُريدُ أنْ نَسْألَكَ. فانْصَرَفَ. فقالَ إبْليسُ: هلْ يَقْدِرُ رَبُّكَ أنْ يَجْعَلَ الدُّنيا في جوفِ بيضةٍ؟ فقالَ: لا أدْري. فقالَ: أتَرَوْنَهُ؟! كَفَرَ في ساعةٍ! ثمَّ جاؤوا إلى عالمٍ في حلقتِهِ يُضاحِكُ أصحابَهُ ويُحَدِّثُهُم، فقالوا: إنَّا نُريدُ أنْ نَسْألَكَ. فقالَ: سَلْ[3]. فقالَ: هلْ يَقْدِرُ ربُّكَ أنْ يَجْعَلَ الدُّنيا في جوفِ بيضةٍ؟ قالَ: نعمْ. قالوا: كيفَ؟ قالَ: يقولُ كُنْ فيَكونُ. فقالَ: أتَرَوْنَ؟! ذٰلك لا يَعْدو نفسَهُ، وهٰذا يُفْسِدُ عليَّ عالَمًا كثيرًا!

وقد رُوِيَتْ هٰذهِ الحكايةُ على وجهٍ آخَرَ، وأنَّهُم سَألوا العابدَ فقالوا: هل يَقْدِرُ ربُّكَ أنْ يَخْلُقَ مثلَ نفسِهِ؟ فقالَ: لا أدري. فقالَ: أتَرَوْنَهُ؟! لمْ تَنْفَعْهُ عبادتُهُ معَ جهلِهِ! وسَألوا العالمَ عن ذٰلكَ؟ فقالَ: هٰذهِ المسألةُ محالٌ؛ لأنَّهُ لو كانَ مثلَهُ؛ [لمْ يَكُنْ] مخلوقًا، فكونُهُ مخلوقًا وهوَ مثلُ نفسِهِ مستحيلٌ، فإذا كانَ مخلوقًا؛ لمْ يَكُنْ مثلَهُ، بل

= جعفر بالمدينة، عن أبيه جعفر، عن أبيه، عن جابر... رفعها. والخفتاني كذّاب.

* وثالث ساقط من حديث ابن عمر يأتي تفصيله في الوجه ٩٦.

* ورابع ساقط من حديث مكحول مرسلاً وموقوفًا يأتي تفصيله في الوجه ٩٦.

* وخامس ساقط بلفظ «أفضل العبادة الفقه» يأتي تفصيله في الوجه ٩٥.

(١) في ط: «أحبّ إليّ من إحياء ليلة أصليها...»، وفي خ: «... ألف عابد ورع».

(٢) (ضعيف جدًّا). رواه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٢٦) من طريق قويّة، عن سلم (وتحرّفت في المطبوع إلى مسلم) بن المغيرة الأزدي، [ثنا] أبو بكر بن عيّاش، عن عاصم... به فذكره. وهٰذا سند ضعيف: سلم ضعيف منكر الحديث، وأبو بكر تغيّر حفظه، وعاصم لا يسلم من كلام.

(٣) في خ: «اسأل»، والأولى ما أثبتّه من ط و«الفقيه والمتفقه».

كانَ عبدًا مِن عبيدِهِ وخلقًا مِن خلقِهِ. فقالَ: أتَرَوْنَ؟! هٰذا يَهْدِمُ في ساعةٍ ما أبْنِيهِ في سنينَ[١]! أو كما قالَ[٢].

ورُوِيَ عن عَبْدِاللهِ بنِ عُمَرَ: فضلُ العالمِ على العابدِ سبعينَ درجةً، بينَ [كلِّ] درجتينِ حُضْرُ الفرسِ سبعينَ عامًا[٣]، وذٰلكَ أنَّ الشَّيطانَ يَضَعُ البدعةَ فيُبْصِرُها العالمُ فيَنْهى عنها والعابدُ مقبلٌ على عبادةِ ربِّهِ لا يَتَوَجَّهُ لها ولا يَعْرِفُها!

وهٰذا معناهُ صحيحٌ: فإنَّ العالمَ يُفْسِدُ على الشَّيطانِ ما يَسْعى فيهِ ويَهْدِمُ ما يَبْنيهِ، فكلَّما أرادَ إحياءَ بدعةٍ وإماتةَ سنَّةٍ؛ حالَ العالمُ بينَهُ وبينَ ذٰلكَ، فلا شيءَ أشدُّ /خ١١٠/ عليهِ مِن بقاءِ العالمِ بينَ ظهرانَيِ الأُمَّةِ، ولا شيءَ أحبُّ إليهِ مِن زوالِهِ مِن بينِ أظهرِهِم، لِيَتَمَكَّنَ مِن إفسادِ الدِّينِ وإغواءِ الأُمَّةِ. وأمَّا العابدُ؛ فغايتُهُ أنْ يُجاهِدَهُ[٤] لِيَسْلَمَ منهُ في خاصَّةِ نفسِهِ، وهَيْهاتَ لهُ ذٰلكَ!

● **الوجهُ التَّاسعُ والأربعونَ:** ما روى التِّرْمِذِيُّ مِن حديثِ أبي هُرَيْرَةَ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]؛ قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «الدُّنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها؛ إلَّا ذكرَ اللهِ وما والاهُ وعالمٌ ومتعلِّمٌ»[٥]. قالَ التِّرْمِذِيُّ: هٰذا حديثٌ حسنٌ.

---

(١) في ط: «لأنه لو كان مثله مخلوقًا...»! وفي خ: «... ساعة ما بنيته في ستين سنة».

(٢) وما أراها إلّا مختلقة، بوجهيها، قاتل الله من وضعها على ابن عبّاس، فالمتن منكر جدًّا، وما كان الصحابة يخوضون في مثل هٰذا من الممكنات والمستحيلات ونحوه من عبارات المتأخّرين ممّن خالط أهل الكلام وسمع مسائلهم. والله أعلى وأعلم.

(٣) حضر الفرس: عدوه السريع. وسيأتي هٰذا مرفوعًا في الوجه (١١٩).

(٤) في ط: «فغايته أن يجاهد»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٥) (حسن). رواه عبدالرحمٰن بن ثابت بن ثوبان واُختلف عليه فيه على أوجه:

روى **أوّلها**: البزّار (١٧٣٦)، والطبراني في «الأوسط» (٤٠٨٤) و«الشاميّين» (١٦٣)؛ من طريق المغيرة بن مطرّف، عنه، عن عبدة بن أبي لبابة، عن أبي وائل، عن ابن مسعود... رفعه.

وروى **الثاني**: ابن أبي شيبة (٣٥٣٢١)، والدارمي (١/ ٩٤)؛ من طريق يحيى بن يمان، عنه، عن أبيه، عن عبدالله بن ضمرة، عن كعب الأحبار... موقوفًا.

وروى **الثالث**: ابن ماجه (٣٧ـ الزهد، ٣ـ مثل الدنيا، ٢/ ١٣٧٧/ ٤١١٢)، والترمذي (٣٧ـ الزهد، ١٤ـ باب، ٤/ ٥٦١/ ٢٣٢٢)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١٢٦)، والعقيلي (٢/ ٣٢٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٠٨)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٣٣)، والبغوي في «السنّة» (٤٠٢٨)، والمزّي في «التهذيب» (٢٠/ ١٠٢)؛ من طرق، عنه، عن عطاء بن قرّة، عن عبدالله بن ضمرة، عن أبي هريرة... رفعه.

ولمَّا كانَتِ الدُّنيا حقيرةً عندَ اللهِ لا تُساوي لديهِ جناحَ بعوضةٍ؛ كانَتْ وما فيها في غايةِ البعدِ منهُ، وهٰذا هوَ حقيقةُ اللعنةِ. وهوَ سبحانَهُ إنَّما خَلَقَها مزرعةً للآخرةِ ومعبرًا إليها يَتَزَوَّدُ منها عبادُهُ إليهِ، فلمْ يَكُنْ يُقَرِّبُ منها إلاَّ ما كانَ متضمِّنًا لإقامةِ ذكرِه ومفضيًا إلى محابِّهِ، وهوَ العلمُ الذي بهِ يُعْرَفُ اللهُ ويُعْبَدُ ويُذْكَرُ ويُثْنى عليهِ ويُمَجَّدُ. ولهٰذا خَلَقَها وخَلَقَ أهلَها: كما قالَ تَعالى: ﴿وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقالَ: ﴿اللهُ [الَّذي] خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَموا أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. فتَضَمَّنَتْ هاتانِ الآيتانِ أنَّهُ سبحانَهُ إنَّما خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ وما بينَهُما لِيُعْرَفَ بأسمائِهِ وصفاتِهِ ولِيُعْبَدَ. فهٰذا المطلوبُ وما كانَ طريقًا إليهِ مِن العلمِ والتَّعليمِ فهوَ[1] المستثنى مِن اللعنةِ، واللعنةُ واقعةٌ على ما عداهُ؛ إذ هوَ بعيدٌ عنِ اللهِ وعن محابِّهِ وعن دينِهِ، وهٰذا هوَ متعلَّقُ [العقابِ] في الآخرةِ؛ فإنَّهُ كما كانَ متعلَّقَ اللعنةِ التي تَتَضَمَّنُ الذَّمَّ والبغضَ فهوَ متعلَّقُ العقابِ. واللهُ سبحانَهُ إنَّما يُحِبُّ مِن عبادِهِ ذكرَهُ وعبادتَهُ ومعرفتَهُ ومحبَّتَهُ ولوازمَ ذٰلكَ وما أفْضى إليهِ، وما عداهُ فهوَ مبغوضٌ لهُ مذمومٌ عندَهُ.

= والأوّل والثاني ضعيفان لضعف المغيرة ويحيى، فالراجح الثالث لكثرة طرقه وقوّتها، ورجاله بين ثقة وصدوق، وفيه خلاف لا يضر، فالسند حسن أو قريب منه. وقد توبع عبدالرحمٰن عند ابن الجوزي في «العلل» (١٣٣٠) لٰكن في الطريق إليه كذّاب.

وله شاهد عند: ابن المبارك في «الزهد» (٥٤٣)، وابن أبي شيبة (٣٤٥٨١)، والفسوي (٣/ ٣٩٨)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١٢٣)، وابن أبي الدنيا، وابن الأعرابي في «الزهد» (٦٨)، والطبراني في «الشاميّين» (٦١٢)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٥١٣ و١٠٦٦١) و«المدخل» (٣٨٣)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٣٣)؛ من حديث أبي الدرداء (وقال ابن عبدالبرّ: أبي سعيد). لٰكن الراجح وقفه.

وآخر عند: أحمد في «الزهد» (١٥٣)، وابن الأعرابي في «الزهد» (٦٥)، وأبي نعيم في «الحلية» (٣/ ١٥٧، ٧/ ٩٠)، والخليلي في «الإرشاد» (١٩٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٥١٢ و١٠٥١٣)، والرافعي في «التدوين» (٣/ ١٤١)؛ من حديث محمّد بن المنكدر، مرسلاً وموصولاً عن جابر.

وثالث من حديث أمّ هانئ في «الميزان» (٤/ ١٢) و«اللسان» (٥/ ٣٨٨) بسند فيه كذّاب.

والحديث حسن بشاهديه على الأقلّ، وقد قوّاه الترمذي والمنذري والنووي وابن القيّم والألباني.

(١) في ط: «عليه وبه يمجّد... الله خلق سبع... لهو»، وفي خ: «... سبحانه لمّا خلق...».

● **الوجهُ الخمسونَ**: ما رَواهُ التِّرْمِذِيُّ مِن حديثِ: أبي جَعْفَرٍ الرَّازِيِّ، عنِ الرَّبيعِ بنِ أَنَسٍ، [عن أنسٍ]؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ /خ١١١/ : «مَن خَرَجَ في طلبِ العلمِ؛ فهوَ في سبيلِ اللهِ حتَّى يَرْجِعَ»[1]. قالَ التِّرْمِذِيُّ: هٰذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ رواهُ بعضُهُم فلمْ يَرْفَعْهُ.

وإنَّما جُعِلَ طلبُ العلمِ مِن سبيلِ اللهِ؛ لأنَّ بهِ قِوامَ الإسلامِ كما أنَّ قِوامَهُ بالجهادِ. فقِوامُ الدِّينِ بالعلمِ والجهادِ.

ولهٰذا كانَ الجهادُ نوعينِ: جهادٌ باليدِ والسِّنانِ، وهٰذا المشارِكُ فيهِ كثيرٌ. والثَّاني: الجهادُ بالحجَّةِ والبيانِ، وهٰذا جهادُ الخاصَّةِ مِن أتباعِ الرُّسلِ، وهوَ جهادُ الأئمَّةِ، وهوَ أفضلُ الجهادينِ لعظمِ منفعتِهِ وشدَّةِ مؤنتِهِ وكثرةِ أعدائِهِ.

قالَ تَعالى في سورةِ الفرقانِ [٥١-٥٢] وهيَ مكِّيَّةٌ: ﴿وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا في كُلِّ قَرْيَةٍ نَذيرًا . فَلا تُطِعِ الكافِرينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهادًا كَبيرًا﴾. فهٰذا جهادٌ لهُم بالقرآنِ[2]، وهوَ

---

(١) (حسن). رواه: الترمذي (٤٢ـ العلم، ٢ـ فضل طلب العلم، ٥/٢٩/٢٦٤٧)، والعقيلي (١٧/٢)، والطبراني في «الصغير» (٣٨٠)، والآجرّي في «العلماء»، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٩٠)، والبيهقي في «المدخل» (٣٧١)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٦٦)، والضياء في «المختارة» (٢١١٩ - ٢١٢١)، والمزّي في «التهذيب» (٨/ ٢١٢)؛ من طرق، عن خالد بن يزيد العتكي، عن أبي جعفر الرازي... به فذكره مرفوعًا. وهٰذا سند فيه ضعف له علّتان: **أولاهما**: أنّ في خالد وأبي جعفر والربيع كلامًا، ورواية أبي جعفر عن الربيع مضطربة جدًّا. **والثانية**: قول الترمذي: «ورواه بعضهم فلم يرفعه».

* **وله شاهد** بلفظه عند الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٦٦/ ٧٣٨٨) من حديث صفوان بن عسّال بسند جوّده العقيلي وهو كما قال.

* **وآخر** من حديث سهل بن سعد عند الطبراني في «الكبير» (٦/ ١٧٤/ ٥٩١١) بنحوه بسند حسن.

* **وثالث** من حديث أبي هريرة عند: ابن أبي شيبة (٧٥١٧)، وأحمد (٢/ ٣٥٠ و٤١٨ و٥٢٧)، وابن ماجه (٢٢٧)، وابن حبّان (٨٧)، والحاكم (١/ ٩١)؛ بنحوه بسند فيه ضعف.

* **ورابع** من حديث أبي الردين عند الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٣٧/ ٨٤٤) بنحوه بسند واه.

وقد حسّن هٰذا الحديث لذاته الترمذي والضياء والمنذري، وأولى من ذٰلك قول الذهبي في «الميزان» (١/ ٦٤٨): «إسناده مقارب»؛ يعني: للحسن، ثمّ هو حسن على الأقلّ بشواهده المذكورة، ولا سيّما الشاهد الأوّل فإنّه قويّ وباللفظ نفسه، وأمّا الألباني فأودعه في «الضعيفة»، وما كان ليتردّد يرحمه الله في تحسينه على الأقلّ لو وقف على شاهده. والله أعلم.

(٢) لا بالسنان؛ لأنّ السورة مكّيّة، ولم ينزل الأمر بالقتال إلاّ في المدينة.

أكبرُ الجهادينِ.

وهوَ جهادُ المنافقينَ أيضًا؛ فإنَّ المنافقينَ لمْ يكونوا يُقاتِلونَ المسلمينَ، بل كانوا معَهُم في الظَّاهرِ، وربَّما كانوا يُقاتِلونَ عدوَّهُم معَهُم، ومعَ هٰذا فقد قالَ تَعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، ومعلومٌ أنَّ جهادَ المنافقينَ بالحجَّةِ والقرآنِ.

والمقصودُ أنَّ سبيلَ اللهِ هيَ الجهادُ وطلبُ العلمِ ودعوةُ الخلقِ بهِ إلى اللهِ، ولهٰذا قالَ معاذٌ رَضِيَ اللهُ عنهُ: عليكُم بطلبِ العلمِ؛ فإنَّ تعلُّمَهُ للهِ خشيةٌ، ومدارستَهُ عبادةٌ، ومذاكرتَهُ تسبيحٌ، والبحثَ عنهُ جهادٌ[١].

ولهٰذا قَرَنَ سبحانَهُ بينَ الكتابِ المنزَّلِ والحديدِ النَّاصرِ، كما قالَ تَعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]: فذَكَرَ الكتابَ والحديدَ، إذْ بِهِما قِوامُ[٢] الدِّينِ، كما قيلَ:

فَما هُوَ إلَّا الوَحْيُ أوْ حَدُّ مُرْهَفٍ ... تُميلُ ظُباهُ أخْدَعَيْ كُلِّ مائِلِ[٣]
فَهٰذا شِفاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ عاقِلٍ ... وَهٰذا دَواءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ جاهِلِ

ولمَّا كانَ كلٌّ مِن الجهادِ بالحجَّةِ والسَّيفِ يُسَمَّى سبيلَ اللهِ؛ فَسَّرَ الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهُم قولَهُ ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] بالأُمراءِ والعلماءِ؛ فإنَّهُم /خ١١٢/ المجاهدونَ في سبيلِ اللهِ؛ هٰؤلاءِ بأيديهِم، وهٰؤلاءِ بألسنتِهِم.

فطلبُ العلمِ وتعليمُهُ مِن أعظمِ [الجهادِ في] سبيلِ اللهِ[٤] عَزَّ وجَلَّ.

قالَ كَعْبُ [الأحْبارِ]: طالبُ العلمِ كالغادي الرَّائحِ في سبيلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

---

(١) سيأتي تفصيل القول فيه موقوفًا ومرفوعًا في الوجه العاشر بعد المئة.
(٢) في خ: «فإنّ تعلّمه لله حسنة... ولهٰذا يقرن سبحانه... بهما قيام»، والصواب ما أثبتّه من ط.
(٣) في خ: «وما هو إلا...». المرهف: السيف. الظبا: حدّ السيف. الأخدع: عرق العنق.
(٤) في ط: «الجهاد بالسيف والحجّة... من أعظم سبيل الله».

وجاءَ عن بعضِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهُم: إذا جاءَ الموتُ طالبَ العلمِ وهوَ على هٰذهِ الحالِ؛ ماتَ وهوَ شهيدٌ[١].

وقالَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ: مَن طَلَبَ العلمَ؛ فقدْ بايَعَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ.

وقالَ أبو الدَّرْداءِ: مَن رَأى الغدوَّ والرَّواحَ إلى العلمِ ليسَ بجهادٍ؛ فقد نَقَصَ عقلَهُ ورأْيَهُ.

● **الوجهُ الحادي والخمسونَ**: ما رَواهُ التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنا مَحْمودُ بنُ غَيْلانَ، حَدَّثَنا أبو أُسامَةَ، عنِ الأعْمَشِ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن سَلَكَ طريقًا يَلْتَمِسُ فيهِ علمًا؛ سَهَّلَ اللهُ لهُ طريقًا إلى الجنَّةِ»[٢]. قالَ التِّرْمِذِيُّ: هٰذا حديثٌ حسنٌ. قالَ بعضُهُم: ولمْ يَقُلْ في هٰذا الحديثِ صحيحٌ لأنَّهُ يُقالُ: دَلَّسَ الأعْمَشُ في هٰذا الحديثِ؛ لأنَّهُ رواهُ بعضُهُم فقالَ: حُدِّثْتُ عن أبي صالحٍ[٣]. والحديثُ رواهُ مسلمٌ في «صحيحه» مِن أوجهٍ عنِ الأعْمَشِ عن أبي صالحٍ.

---

(١) سيأتي (١/ ٣٣٠) تفصيل القول فيه موقوفًا ومرفوعًا.

(٢) رواه مسلم (٤٨ـ الذكر، ١١ـ فضل الاجتماع على التلاوة، ٤/ ٢٠٧٤/ ٢٦٩٩). والأصل أن تجعل رواية مسلم عمدة ثمّ تعضد برواية الترمذي وليس العكس، بل لو اكتُفي برواية مسلم وحدها لكان فيها غناء، ولا سيّما أنّ مسلمًا رواه عن الأعمش من أوجه صرّح في أحدها بالتحديث.

(٣) يشير إلى ما رواه: أبو داوود، والترمذيّ، والنسائي في «الكبرى»؛ من أوجه، عن أسباط بن محمّد، عن الأعمش، حدّثت عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ... فذكره مطوّلاً ومختصرًا. كذا في «تحفة الأشراف» (١٢٨٨٩).

وعليه؛ فقد اُختلف على الأعمش في هٰذا الحديث على ثلاثة أوجه:

روى **الأوّل** مسلم من طريق أبي أسامة حمّاد بن أسامة، ثنا الأعمش، ثنا أبو صالح... به فذكره. وهٰذا صحيح بيّن الصحّة.

وروى **الثاني** مسلم وجماعة من طرق، عن الأعمش، عن أبي صالح... به فذكره. وهٰذا أرجح الوجوه؛ لاتّفاق جماعة من الثقات عليه، ولا سيّما أنّ فيهم أبا معاوية محمّد بن خازم الراوي المعياريّ لحديث الأعمش. ثمّ هو صحيح اُحتجّ بمثله الشيخان وحمله جماعة أهل العلم على الاتّصال لطول ملابسة الأعمش لأبي صالح وكثرة روايته عنه.

والثالث: رواية أسباط المتقدّمة. فهٰذه معلولة ظاهرها الانقطاع.

وبما أنّ الأوجه الثلاثة من رواية الثقات عن الأعمش؛ فالأصل أن يوفّق بينها ولا يردّ شيء منها فيقال: إمّا أنّ الأعمش سمع الحديث من أبي صالح أوّلاً بواسطة ثمّ سمعه منه مباشرة، أو أنّه سمعه أوّلاً من أبي صالح ثمّ ثبّته به راوٍ آخر عن أبي صالح. وبهٰذا يسقط الإشكال ويصحّ الحديث.

قالَ الحاكمُ: في «المستدرك»: هوَ صحيحٌ على شرطِ البُخاريِّ [ومسلمٍ]، رَواهُ عنِ الأعْمَشِ جماعةٌ، منهُم زائِدَةُ وأبو مُعاوِيَةَ وابنُ نُمَيْرٍ. وقد تَقَدَّمَ حديثُ أبي الدَّرْداءِ في ذٰلكَ[١]. فالحديثُ محفوظٌ ولهُ أصلٌ.

وقد تَظاهَرَ الشَّرْعُ والقدرُ على أنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العملِ: فكما سَلَكَ طريقًا يَطْلُبُ فيهِ حياةَ قلبِهِ ونجاتَهُ مِن الهلاكِ، سَلَكَ اللهُ بهِ طريقًا يُحَصِّلُ لهُ ذٰلكَ.

وقد رُوِيَ مِن حديثِ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها؛ رَواهُ ابنُ عَدِيٍّ مِن حديثِ: مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِالمَلِكِ الأنْصارِيِّ، عنِ الزُّهْرِيِّ، عن عُرْوَةَ، عنها، مرفوعًا. ولفظُهُ: «أَوْحى اللهُ إليَّ: إنَّهُ مَن[٢] سَلَكَ مسلكًا يَطْلُبُ العلمَ؛ سَهَّلْتُ لهُ [بهِ] طريقًا إلى الجنَّةِ»[٣].

● **الوجهُ الثَّاني والخمسون**: أنَّ النَّبيَّ ﷺ دَعا لِمَن سَمِعَ كلامَهُ ووَعاهُ وبَلَّغَهُ بالنُّضرةِ، وهيَ البهجةُ ونضارةُ[٤] الوجهِ وتحسينُهُ.

ففي التِّرْمِذِيِّ وغيرِهِ مِن حديثِ: ابنِ مَسْعودٍ، عنِ /خ١١٣/ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «نَضَّرَ اللهُ آمرأً سَمِعَ مقالتي فوَعاها وحَفِظَها وبَلَّغَها، فربَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هوَ أفقهُ منهُ. ثلاثٌ لا يُغِلُّ[٥] عليهِنَّ قلبُ مسلمٍ: إخلاصُ العملِ للهِ، ومناصحةُ أئمَّةِ

= وأمّا اكتفاء الترمذيّ بتحسينه؛ فالظاهر أنّه جرى فيه على طرائق المدقّقين الذين يدّخرون الصحّة للأسانيد النظيفة التي لا غبار عليها ولا خلاف فيها؛ خلافًا لطريقته المعتادة في التساهل في التحسين والتصحيح في معظم نصوص كتابه. والله أعلى وأعلم.

(١) في الوجه السابع والأربعين.

(٢) في خ: «رواه ابن عربي وحديث محمّد... أنّ من». والتصويب من «الكامل».

(٣) (منكر). رواه: ابن حبّان في «المجروحين» (٢/ ٢٦٩)، وابن عدي (٦/ ٢١٧٠)؛ من طريق محمد بن عبدالملك الأنصاريّ، (قال ابن حبّان: عن هشام بن عروة، وقال ابن عدي: ثنا الزهري)، عن عروة... به رفعه. والأنصاري متّهم متروك.

ورواه الطبراني في «الأوسط» (٥١٦٣) من طريق هاشم بن عيسى البزّي، ثنا أبي، عن يحيى بن سعيد، عن عروة، عن عائشة... به. قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٣٨): «فيه هاشم بن عيسى، وهو مجهول وحديثه منكر». قلت: وأبوه مثله.

ومعلوم أنّ مثل هٰذه الأسانيد لا يصلح فيها شواهد ولا متابعات، فالضعف لازم لها، وهٰذا المتن منكر عن عائشة وإن صحّ نحوه من أوجه أخرى، وقد ضعّفه ابن حبّان وابن عديّ والهيثمي والمناوي.

(٤) في خ: «وبلّغه النضرة وهي البهجة ونظارة»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٥) لا يَغِلّ؛ بالفتح: لا يحمل الحقد. لا يُغِلّ؛ بالضمّ: لا يغشّ ولا يخون. وكلاهما صحيح هنا.

المسلمينَ، ولزومُ جماعتِهِم؛ فإنَّ دعوتَهُم تُحيطُ مِن ورائِهِم»(١).

ورَوى هٰذا الأصلَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: ابنُ مَسْعودٍ، ومُعاذُ بنُ جَبَلٍ، وأبو الدَّرْداءِ، وجُبَيْرُ بنُ مُطْعِمٍ، وأنَسُ بنُ مالِكٍ، وزَيْدُ بنُ ثابِتٍ، والنُّعْمانُ بنُ بَشيرٍ(٢).

---

(١) (صحيح). رواه: الشافعي في «الرسالة» (ص٤٠١/١١٠٢)، والحميدي (٨٨)، وأحمد (٤٣٧/١)، ومسلم في «التمييز» (١)، وابن ماجه (المقدّمة، ١٨ـ من بلّغ علمًا، ١/ ٨٥/ ٢٣٢)، والترمذي (٤٢ـ العلم، ١٧ـ الحثّ على التبليغ، ٥/ ٣٤/ ٢٦٥٧ و٢٦٥٨)، والبزّار (٢٠١٤ و٢٠١٨ و٢٠١٩)، وأبو يعلى (٥١٢٦ و٥٢٩٦)، وابن أبي حاتم في «الجرح» (٢/ ٩ و١٠)، والشاشي (٢٧٥-٢٧٨)، وابن حبّان (٦٦ و٦٨ و٦٩)، والطبراني في «الأوسط» (١٣٢٦ و١٦٣٢ و٧٦٨٦)، والرامهرمزي في «المحدّث» (٦-٨)، وابن عديّ (٦/ ٢٤٥٣ و٢٤٥٤)، والحاكم في «المعرفة» (ص٣٢٢)، وابن جميع في «المعجم» (٢٨ و٢٨٦)، والسهمي في «التاريخ» (ص١٩٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٣١) و«المستخرج» (٩)، والقضاعي (١٤١٩ و١٤٢٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٣٨) و«الدلائل» (١/ ٢٣، ٦/ ٥٤٠)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٤٧) و«التمهيد» (٢١/ ٢٧٨)، والخطيب البغدادي في «الكفاية» (ص٢٩ و٩٣ و١٧٢ و١٧٣) و«الجمع والتفريق» (٢/ ٢٩٦)، والبغوي في «السنة» (١١٢)، والرافعي في «التدوين» (١/ ٢٢١)؛ من طرق كثيرة، عن سماك بن حرب أو عن عبدالملك بن عمير أو عنهما معًا، عن عبدالرحمٰن بن عبدالله بن مسعود، عن أبيه... رفعه مختصرًا ومطوّلاً. صحّحه الترمذي وابن حبّان والبغوي والمنذري وشاكر والألباني، وهو كما قالوا.

وله طرق أخرى عن ابن مسعود عند: أبي يعلى في «المعجم» (٢١٩)، والطبراني في «الأوسط» (٥١٧٥)، وأبي نعيم في «أصبهان» (٢/ ٩٠)، وابن عبدالبرّ (١/ ٤٧ و٤٨)، والخطيب في «الشرف» (٢٦).

(٢) وهٰذا تخريج مختصر لهٰذه الأصول:

* **أمّا حديث ابن مسعود**؛ فقد تقدّم تخريجه وبيان صحّته.

* **وأمّا حديث معاذ** فرواه: الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٨٢/ ١٥٥) و«الأوسط» (٦٧٧٧ و٧٩٤٩) و«الشاميّين» (٢٢١٠)، وابن عدي (٥/ ١٧٧٠)، وأبو نعيم في «المستخرج» (١٣) و«الحلية» (٩/ ٣٠٨)، والقضاعي (١٤٢٢)؛ من طريق عمرو بن واقد، ثنا يونس بن ميسرة بن حلبس، عن أبي إدريس، عن معاذ... رفعه مطوّلاً ومختصرًا. قال الطبراني: «تفرّد به عمرو بن واقد». وقال الهيثمي (١/ ١٤٣): «رمي بالكذب، وهو منكر الحديث». فالسند ساقط والمتن منكر عن معاذ وإن صحّ عن غيره.

* **وأمّا حديث أبي الدرداء** فرواه: الدارمي (١/ ٧٥)، والطبراني (١/ ١٤٢ـ مجمع)؛ من طريق عبدالرحمٰن بن زبيد اليامي، عن أبي العجلان، عن أبي الدرداء... رفعه. قال الهيثمي: «مداره على عبدالرحمٰن بن زبيد وهو منكر الحديث». قلت: ترجمته في «اللسان» ترجّح أنّه صالح في الشواهد على الأقلّ، وأبو العجلان مقبول، فالسند ليّن، لٰكنّ الشواهد كثيرة وقويّة كفيلة بتصحيحه.

* **وأمّا حديث جبير بن مطعم** فرواه: أحمد (٤/ ٨٠ و٨٢)، والدارمي (١/ ٧٤)، والفاكهي (٢٦٠٤)، وابن ماجه (الموضع السابق، ٢٣١ و٢٣٢ و٣٠٥٦)، والبزّار (٣٤١٤-٣٤١٧)، وأبو يعلى (٧٤١٣ و٧٤١٤)، والطحاوي في «المشكل» (٢/ ٢٣٢)، وابن أبي حاتم في «الجرح» (٢/ ١٠)، وابن حبّان في «المجروحين» (١/ ٤)، والطبراني (٢/ ١٢٦/ ١٥٤١-١٥٤٤)، وأبو الشيخ في «الطبقات» (٣/ ٦١)، والحاكم (١/ ٨٦ =

= و٨٧)، وأبو نعيم في «المستخرج» (٩)، والقضاعي (١٤٢١)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٤٩) و«التمهيد» (٢١/ ٢٧٦)، والخطيب في «الشرف» (٢٥)؛ من طرق عدّة، عن الزهريّ وغيره، عن محمّد بن جبير بن مطعم، عن أبيه. . . رفعه مطوّلاً ومختصرًا. قال الهيثمي: «له طريق عن صالح بن كيسان عن الزهري رجالها موثّقون»، وصحّح هٰذه الطريق الحاكم والذهبي على شرطهما، وحسّنها المنذري. وله طرق أخرى حسنة عن الزهريّ، والحديث صحيح بمجموع طرقه، وقد صحّحه السندي والألباني.

* **وأمّا حديث أنس** فرواه: أحمد (٣/ ٢٢٥)، وابن ماجه (الموضع السابق، ٢٣٦)، وابن أبي حاتم في «الجرح» (٢/ ١١)، والآجرّي في «الشريعة» (١)، وابن عديّ (٤/ ١٥٨٤)، والحاكم في «المدخل» (ص٨٥)، وأبو نعيم في «المستخرج» (١١)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٥٠)، والضياء في «المختارة»؛ من ثلاث طرق، عن أنس. . . رفعه مطوّلاً ومختصرًا. قال الهيثمي: «فيه عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف». قلت: والطريقان الأخريان ليّنتان، لٰكن الحديث حسن بمجموع طرقه الثلاث صحيح بشواهده.

* **وأمّا حديث زيد بن ثابت** فرواه: أحمد (٥/ ١٨٣) وفي «الزهد» (١٨٠)، والدارمي (١/ ٧٥)، وأبو داوود (١٩ـ العلم، ١٠ـ فضل نشر العلم، ٢/ ٣٤٦/ ٣٦٦٠)، والترمذي (٤٢ـ العلم، ١٧ـ الحثّ على التبليغ، ٥/ ٣٣/ ٢٦٥٦)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (٩٤)، وابن أبي حاتم في «الجرح» (٢/ ١٠)، وابن حبّان (٦٨٠)، والطبراني (٥/ ١٤٣/ ٤٨٩٠)، والرامهرمزي في «المحدّث» (٣ و٤)، والحاكم في «المدخل» (ص٨٤)، وأبو نعيم في «المستخرج» (١٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٣٦ و١٧٣٧) و«الاعتقاد» (ص٢٤٥)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٤٦) و«التمهيد» (٢١/ ٢٧٥)، والخطيب في «الشرف» (٢٤)، والمزّي في «التهذيب» (١٦/ ٤٩٤)؛ من طريق شعبة، عن عمر بن سليمان، عن عبدالرحمٰن بن أبان بن عثمان، عن أبيه، عن زيد. . . رفعه. وسنده صحيح، قوّاه الترمذي والمنذري والألباني.

وله طرق أخرى عند: ابن ماجه (الموضع السابق، ٢٣٠)، وأبي داوود (الموضع السابق، ٣٦٦٠)، وابن حبّان في «الثقات» (٥/ ٣٧٤)، والطبراني في «الكبير» (٥/ ١٥٤/ ٤٩٢٤ و٤٩٢٥) و«الأوسط» (٧٢٦٧)، وأبي نعيم في «المستخرج» (١٢)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٤٧)، والمزّي في «التهذيب» (١٤/ ١٢٧).

* **وأمّا حديث النعمان بن بشير** فرواه: ابن قانع في «المعجم» (١/ ٩٧)، وابن حبّان في «المجروحين» (٢/ ٢٨٧)، والطبراني (٢/ ٤١/ ١٥٢٤)، وابن عدي (٦/ ٢٣٥٧)، والحاكم (١/ ٨٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ١٩٢)، وابن عساكر (١٠/ ٢٨٣)؛ من طريق سماك بن حرب والشعبيّ ومجاهد، عن النعمان. . . رفعه. فأمّا طريق سماك؛ فقويّة صحّحها الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وحسب حديث سماك أن يكون حسنًا. وأمّا طريق الشعبيّ؛ فقال الهيثمي (١/ ١٤٣): «فيه محمّد بن كثير الكوفي ضعّفه البخاري وغيره ومشّاه ابن معين»، قلت: بل هو واهٍ شبه المتروك وقد اضطرب فجعله مرّة من مسند بشير أبي النعمان! وأمّا طريق مجاهد؛ فعلّقها الحاكم تعليقًا، ولم أقف على من وصلها. وبالجملة؛ فإن لم يكن حديث النعمان صحيحًا بمجموع طرقه؛ فلا ريب أنّه صحيح بالشواهد.

* وفي الباب عن: ابن عمر عند: الطبراني في «الشاميّين» (٥٠٨)، والخطيب في «التاريخ» (٨/ ٣٣٢)، والرافعي في «التدوين» (١/ ٢٣٣)، وابن حجر في «اللسان» (٥/ ١٠٩). وأبي هريرة عند الخطيب في «التاريخ» (٤/ ٣٣٧). وأبي سعيد عند: البزّار (٧٨ـ م الزوائد)، والرامهرمزي في «المحدّث» (٥)، وأبي

قالَ التِّرْمِذِيُّ: حديثُ ابنِ مَسْعودٍ حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[١]، وحديثُ زَيْدِ بنِ ثابتٍ [حديثٌ] حسنٌ.

وأخْرَجَ الحاكمُ في صحيحه[٢] حديثَ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ والنُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ، وقالَ في حديثِ جُبَيْرٍ: على شرطِ البُخاريِّ ومسلمٍ[٣].

ولو لَمْ يَكُنْ في فضلِ العلمِ إلاَّ هٰذا [وحدَهُ]؛ لَكَفى بِهِ شرفًا.

فإنَّ النَّبيَّ ﷺ دَعا لمَن سَمعَ كلامَهُ ووَعاهُ وحَفِظَهُ وبَلَّغَهُ، وهٰذهِ هيَ مراتبُ العلمِ:

أوَّلُها [وثانيها]: سماعُهُ [وعقلُهُ]. فإذا سَمِعَهُ؛ وعاهُ بقلبِهِ؛ أي: عَقَلَهُ وٱسْتَقَرَّ في قلبِهِ كما يَسْتَقِرُّ الشَّيءُ الذي يوعى في وعائِهِ [و]لا يَخْرُجُ منهُ، [و]كذٰلكَ عقلُهُ هوَ بمنزلةِ عقلِ البعيرِ والدَّابَّةِ ونحوِهِما حتَّى لا تَشْرُدَ وتَذْهَبَ. ولهٰذا كانَ الوعيُ والعقلُ قدرًا زائدًا على مجرَّدِ إدراكِ المعلومِ.

المرتبةُ الثَّالثةُ: تعاهدُهُ وحفظُهُ حتَّى لا يَنْساهُ فيَذْهَبَ.

المرتبةُ الرَّابعةُ: تبليغُهُ وبثُّهُ في الأُمَّةِ لِيَحْصُلَ بِهِ ثمرتُهُ ومقصودُهُ، فهوَ بمنزلةِ[٤] الكنزِ المدفونِ في الأرضِ الذي لا يُنْفَقُ منهُ وهوَ معرَّضٌ لذهابِهِ؛ فإنَّ العلمَ ما لَمْ يُنْفَقْ منهُ ويُعَلَّمْ؛ فإنَّهُ يُوشِكُ أنْ يَذْهَبَ، فإذا أُنْفِقَ منهُ؛ نَما وزَكا على الإنفاقِ.

فمَن قامَ بهٰذهِ المراتبِ الأربعِ؛ دَخَلَ تحتَ هٰذهِ الدَّعوةِ النَّبويَّةِ المتضمِّنةِ لجمالِ الظَّاهرِ والباطنِ؛ فإنَّ النَّضرةَ هيَ البهجةُ والحسنُ الذي يُكْساهُ الوجهُ مِن آثارِ الإيمانِ

= الشيخ في «الطبقات» (٣/ ٦٠١). وقتادة الليثي عند الطبراني في «الكبير» (١٧/ ٤٩/ ١٠٦) و«الأوسط» (٧٠٠٠). وأبي قرصافة جندرة بن خيثمة عند الطبراني في «الأوسط» (٣٠٩٦) و«الصغير» (٣٠١).

(١) في ط: «حديث حسن»، وفي خ: «حديث صحيح»، وأثبتُّ ما في «جامع الترمذيّ».

(٢) يعني: في صحيح ما أخرجه في «المستدرك». وأمّا تسمية «المستدرك» جملة بـ«الصحيح»؛ ففيها ما فيها، وقد قال المصنّف يرحمه الله في «الفروسيّة» (ص٢٤٥): «ولا يعبأ الحفّاظ أطبّاء علل الحديث بتصحيح الحاكم شيئًا ولا يرفعون به رأسًا ألبتّة، بل لا يعدّل تصحيحه ولا يدلّ على حسن الحديث، بل يصحّح أشياء موضوعة بلا شكّ عند أهل العلم بالحديث...».

(٣) وقال في حديث النعمان: «على شرط مسلم». ووافقه الذهبيّ فيهما.

(٤) في خ: «تبليغه وبثّه في الأمّة فهو بمنزلة»، وفي ط: «تبليغه وبثّه في الأمّة ليحصل به ثمرته ومقصوده وهو بثّه في الأمّة فهو بمنزلة».

وٱبتهاجِ الباطنِ وفرحِ القلبِ وسرورِهِ وٱلتذاذِهِ بهِ، فتُظْهِرُ هٰذهِ البهجةُ والسُّرورُ والفرحةُ نضارةً على الوجهِ.

ولهٰذا يَجْمَعُ سبحانَهُ[1] بينَ السُّرورِ والنَّضرةِ، كما في قولِهِ تَعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ اليَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]، فالنَّضرةُ /خ١١٤/ في وجوهِهِم، والسُّرورُ في قلوبِهِم. فالنَّعيمُ وطيبُ القلبِ يُظْهِرُ نضارةً في الوجهِ، كما قالَ تَعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

والمقصودُ أنَّ هٰذهِ النَّضرةَ في وجهِ مَن سَمعَ سنَّةَ رسولِ اللهِ ﷺ ووَعاها وحَفِظَها وبلَّغَها هيَ أثرُ تلكَ الحلاوةِ والبهجةِ والسُّرورِ الذي في قلبِهِ وباطنِهِ.

وقولُهُ ﷺ «ربَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هوَ أفقهُ [منهُ]»: تنبيهٌ على فائدةِ التَّبليغ، وأنَّ المبلَّغَ قد يَكونُ أفهمَ مِن المبلِّغِ، فيَحْصُلُ لهُ في تلكَ المقالةِ ما لمْ يَحْصُلْ للمبلِّغ. أو يَكونُ المعنى: أنَّ المبلَّغَ قد يَكونُ أفقهَ مِن المبلِّغِ، فإذا سَمعَ تلكَ المقالةَ؛ حَمَلَها على أحسنِ وجوهِها وٱسْتَنْبَطَ فقهَها وعَلِمَ المرادَ منها.

[و]قولُهُ ﷺ: «ثلاثٌ لا يُغِلُّ عليهِنَّ قلبُ مسلمٍ...» إلى آخرِهِ؛ أي: لا يَحْمِلُ الغلَّ و[لا] يَبْقى فيهِ معَ هٰذهِ الثَّلاثةِ؛ فإنَّها تَنْفي الغلَّ والغشَّ وفسادَ القلبِ وسخائمَهُ.

فالمخلصُ للهِ؛ إخلاصُهُ يَمْنَعُ غِلَّ قلبِهِ ويُخْرِجُهُ ويُزيلُهُ جملةً؛ لأنَّهُ قدِ ٱنْصَرَفَ[ـتْ] دواعي قلبِهِ وإرادتِهِ إلى مرضاةِ ربِّهِ فلمْ يَبْقَ فيهِ موضعٌ للغلِّ والغشِّ. كما قالَ تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلَصينَ﴾ [يوسف: ٢٤]: فلمَّا أخْلَصَ لربِّهِ؛ صَرَفَ عنهُ دواعيَ السُّوءِ والفحشاءِ، [فٱنْصَرَفَ عنهُ السُّوءُ والفحشاءُ]. ولهٰذا؛ لمَّا عَلِمَ إبْليسُ أنَّهُ لا سبيلَ لهُ على أهلِ الإخلاصِ؛ ٱسْتَثْناهُم مِن شرْطتِهِ التي ٱشْتَرَطَها للغوايةِ والهلاكِ[2]، فقالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعينَ . إلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصينَ﴾ [صَ: ٨٢-٨٣]، قالَ [اللهُ] تعالى: ﴿إِنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الغاوينَ﴾ [الحجر: ٤٢]. فالإخلاصُ هوَ سبيلُ

---

(١) في خ: «الأربعة دخل...»، وفي ط: «... الباطن به وفرح... يجمع له سبحانه».
(٢) في خ: «ثلاث لا يغلّهنّ قلب...»، وفي ط: «... والفحشاء ولهٰذا... والإهلاك».

الخلاصِ، والإسلامُ مركبُ السَّلامةِ، والإيمانُ خاتَمُ الأمانِ.

وقولُهُ: «ومناصحةُ أئمَّةِ المسلمينَ». هٰذا أيضًا منافٍ للغلِّ والغشِّ؛ فإنَّ النَّصيحةَ لا تُجامعُ الغلَّ؛ إذْ هيَ ضدُّهُ، فمَن نَصَحَ للأئمَّةِ[1] والأُمَّةِ؛ فقد بَرِئَ مِن الغلِّ.

وقولُهُ: «ولزومِ جماعتِهِم». هٰذا أيضًا ممَّا يُطَهِّرُ القلبَ مِن الغلِّ والغشِّ؛ فإنَّ صاحبَهُ ـ للزومِـ[ـهِ] جماعةَ المسلمينَ ـ يُحِبُّ لهُم ما يُحِبُّ لنفسِهِ، ويَكْرَهُ لهُم ما يَكْرَهُ لها، ويَسوؤُهُ /خ١١٥/ ما يَسوؤُهُم، ويَسُرُّهُ ما يَسُرُّهُم. وهٰذا بخلافِ مَنِ انْحازَ عنهُم واشْتَغَلَ بالطَّعنِ عليهِم والعيبِ والذَّمِّ [لهُم]، كفعلِ الرَّافضةِ والخوارجِ والمعتزلةِ وغيرِهِم؛ فإنَّ قلوبَهُم ممتلئةٌ غلًّا وغشًّا. ولهٰذا تَجِدُ الرَّافضةَ أبعدَ النَّاسِ عنِ الإخلاصِ، وأغشَّهُم للأئمَّةِ والأُمَّةِ، وأشدَّهُم بعدًا عن جماعةِ[2] المسلمينَ. فهٰؤلاءِ أشدُّ النَّاسِ غلًّا وغشًّا بشهادةِ الرَّسولِ والأُمَّةِ عليهِم وشهادتِهِم على أنفسِهِم بذٰلكَ؛ فإنَّهُم لا يكونونَ قطُّ إلَّا أعوانًا وظهرًا على أهلِ الإسلامِ، فأيُّ عدوٍّ قامَ للمسلمينَ؛ كانوا أعوانَ ذٰلكَ العدوِّ وبطانتَهُ. وهٰذا أمرٌ قد شاهَدَتْهُ الأُمَّةُ منهُم، ومَن لمْ يُشاهِدْهُ؛ فقد سَمِعَ منهُ ما يُصِمُّ الآذانَ ويُشْجي القلوبَ.

وقولُهُ: «فإنَّ دعوتَهُم تُحيطُ مِن ورائِهِم». هٰذا مِن أحسنِ الكلامِ وأوجزِهِ وأفخمِهِ معنًى: شَبَّهَ دعوةَ المسلمينَ بالسُّورِ والسِّياجِ المحيطِ بهِم المانعِ مِن دخولِ عدوِّهِم عليهِم، فتلكَ الدَّعوةُ التي هيَ دعوةُ الإسلامِ وهُم داخلوها، لمَّا كانَتْ سورًا وسياجًا عليهِم؛ أخْبَرَ أنَّ مَن لَزِمَ جماعةَ المسلمينَ؛ أحاطَتْ بهِ تلكَ الدَّعوةُ التي هيَ دعوةُ الإسلامِ كما أحاطَتْ بهِم. فالدَّعوةُ تَجْمَعُ شملَ الأُمَّةِ وتَلُمُّ شَعَثَها وتُحيطُ بها، فمَن دَخَلَ في جماعتِها؛ أحاطَتْ بهِ وشَمِلَتْهُ.

● **الوجهُ الثَّالثُ والخمسون**: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أَمَرَ بتبليغِ العلمِ عنهُ. ففي «الصَّحيح» مِن[3] حديثِ عَبْدِاللهِ بنِ عَمْرٍو؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «بَلِّغوا عنِّي ولو آيةً، وحَدِّثوا

---

(١) في خ: «وهٰذا أيضًا...»، وفي ط: «... نصح الأئمّة».

(٢) في ط: «والذمّ كفعل... من الإخلاص...»، وفي خ: «... من الإخلاص... من جماعة».

(٣) في خ: «أحاطت بهم تلك...»، وفي ط: «... الصحيحين من»، والأولى ما أثبتّه. والحديث تفرّد به البخاري (٦٠ـ الأنبياء، ٥٠ـ بني إسرائيل، ٦/ ٤٩٦/ ٣٤٦١).

عن بني إسرائيلَ ولا حَرَجَ، ومَن كَذَبَ عليَّ متعمِّدًا؛ فلْيَتَبَوَّأْ مقعدَهُ مِن النَّارِ». وقالَ: «[لـ]ـيُبَلِّغِ الشَّاهدُ منكُمُ الغائبَ»؛ رَوى ذٰلكَ أبو بَكْرَةَ ووابِصَةُ بنُ مَعْبَدٍ وعَمَّارُ بنُ ياسِرٍ وعَبْدُاللهِ بنُ عُمَرَ وعَبْدُاللهِ بنُ عَبَّاسٍ وأسْماءُ بنتُ يَزيدَ بنِ السَّكَنِ وحُجَيْرٌ وأبو قُرَيْعٍ[١] وسَرَّاءُ بنتُ نَبْهانَ ومُعاوِيَةُ بنُ حَيْدَةَ القُشَيْرِيُّ وعمُّ أبي حَرَّةَ وغيرُهُم[٢].

---

(١) في خ: «أبو قرنع»! وهو تحريف لما أثبتّه من ط.

(٢) وهٰذا تخريج مختصر لهٰذه الأصول:

* **فأمّا حديث أبي بكرة؛** فرواه: البخاري (٣ـ العلم، ٩ـ ربّ مبلّغ أوعى من سامع، ١/١٥٧/٦٧)، ومسلم (٢٨ـ القسامة، ٩ـ تغليظ تحريم الدماء، ٣/١٣٠٥/١٦٧٩).

* **وأمّا حديث وابصة؛** فوقفت له على وجوه ثلاثة: **روى أوّلها** الطبراني (٢٢/١٤٧/٤٠١) من طريق طلحة بن زيد، عن راشد بن أبي راشد، عن وابصة... رفعه. قال الهيثمي (١/١٤٤): «طلحة بن زيد اتّهم بوضع الحديث». **وروى الثاني**: ابن أبي عاصم في «الآحاد» (١٠٥٢)، والبزّار (٨٥ـ مختصر الزوائد)، وأبو يعلى (١٥٨٩)، والطبراني في «الأوسط» (٤١٦٨)، وابن عساكر (٢٠/٨٣)؛ من طريقين ضعيفتين، عن جعفر بن برقان، عن شدّاد مولى عياض، عن وابصة... رفعه. قال الهيثمي: «رجاله موثّقون»، وأقرّه العسقلاني، قلت: شدّاد لا يعرف. **وروى الثالث**: أبو يعلى (١٥٩٠)، وابن عساكر (٢٠/٨٣ و٨٤)؛ من ثلاث طرق إحداها قويّة، عن جعفر بن برقان، ثني سالم بن وابصة، عن أبيه... رفعه. وهٰذا سند حسن. **وختامًا؛** فإمّا أنّ لجعفر في هٰذا الحديث شيخين، وهو الظاهر الراجح، فيتقوّى وجهه الثالث بالثاني ويصحّ. وإمّا أنّ الرواة اختلفوا عليه، فيسقط الثاني ويسلم الثالث لقوّة موارده، ويكون الحديث صحيحًا لشواهده.

* **وأمّا حديث عمّار؛** فرواه: أبو يعلى في «المسند» (١٦٢٢) و«المعجم» (٢٤٣)، والطبراني في «الأوسط» (٥٨١٨)، وابن عدي (٥/١٧٧١)؛ من طريق عبدالرحمٰن بن عمرو بن جبلة، ثنا عمرو بن النعمان، عن كثير أبي الفضل، عن مطرّف بن عبدالله، سمعت عمارًا... رفعه. قال الطبراني: «تفرّد به عبدالرحمٰن». وقال الهيثمي (٧/٢٩٨): «وهو متروك». قلت: وكذّاب ساقط الحديث.

* **وأمّا حديث ابن عمر؛** فوقفت له على وجوه ثلاثة: **روى أوّلها**: أحمد (٢/١٠٤)، والطرسوسي في «مسند ابن عمر» (٣٠)، وابن ماجه (المقدّمة، ١٨ـ من بلّغ علمًا، ١/٨٦/٢٣٥)، وأبو داوود (٢ـ الصلاة، ٢٩٩ـ من رخّص فيهما، ١/٤٠٩/١٢٧٨)، والترمذي (٢ـ الصلاة، ٣١٠ـ لا صلاة بعد طلوع الفجر، ٢/٢٧٨/٤١٩) مختصرًا، وابن نصر في «القيام» (ص٢٤٨)، وأبو يعلى (٥٦٠٨)، والدارقطني (١/٤١٩)، والبيهقي (٢/٤٦٥)، والبغوي في «السنّة» (٨٨٦)؛ من طريق قدامة بن موسى، عن محمّد بن الحصين (أو: أيّوب بن الحصين، أو: رجل من بني حنظلة)، عن أبي علقمة مولى ابن عبّاس، عن يسار مولى ابن عمر، عن ابن عمر... رفعه في سياق ركعتي الفجر. قال الترمذي: «غريب لا نعرفه إلّا من حديث قدامة». قلت: قدامة ثقة، والعلّة من شيخه المجهول، وعلى كلّ فقد تعقّب الزيلعي والعسقلاني والعظيم آبادي الترمذي فذكروا للحديث طرقًا تقوّيه، لٰكن ليس فيها للتبليغ ذكر. نعم؛ رواه البخاري في «التاريخ» (١/٢٥١)، من طريق محمّد بن النيل، [عن أبي بكر بن يزيد بن سرجس]، عن ابن عمر... رفعه في السياق نفسه. وابن النيل مقبول، وشيخه مجهول. فالسند ضعيف، لٰكنّه صالح لتقوية ما قبله. **وروى الوجه الثاني**: عبد بن حميد =

= (٨٥٨)، والبزّار (٧٨٨ـ مختصر الزوائد)، والروياني (١٤١٦)؛ من طريق موسى بن عبيدة، ثنا عبدالله بن دينار وصدقة بن يسار، عن ابن عمر... رفعه في سياق حجّة الوداع. قال الهيثمي: «فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف». قلت: لكنّه يتقوّى بالشواهد المتقدّمة والآتية. وروى **الوجه الثالث** الطبري (١٢٨٥٥) من طريق قويّة، عن سفيان بن عقال، عن ابن عمر... رفعه. وسفيان مجهول. **وختامًا**؛ فحديث ابن عمر حسن على الأقلّ بطرقه صحيح بشواهده المتقدّمة والآتية.

* **وأمّا حديث ابن عبّاس**؛ فعند البخاري (٢٥ـ الحجّ، ١٣٢ـ الخطبة أيّام منى، ٣/ ٥٧٣/ ١٧٣٩).

* **وأمّا حديث أسماء بنت يزيد**؛ فرواه: أحمد (٦/ ٤٥٦)، والحارث (٧٨٣ـ زوائد)، والطبراني (٢٤/ ١٧٧/ ٤٤٦) دون هٰذه العبارة؛ من طريق عبدالحميد بن بهرام، ثنا شهر، ثني أسماء... مرفوعًا في قصّة الدجّال. قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٤٨): «فيه شهر بن حوشب، وفيه ضعف، وقد وثّق». قلت: حديثه صالح في الشواهد، ولحديثه هٰذا شواهد في الجملة، لٰكن فيه زيادات ومخالفات لا تحتمل من مثله.

* **وأمّا حديث حجير**؛ فرواه: ابن منده (١/ ٣١٦ـ إصابة)، والحاكم (٣/ ٤٧٠)، والطبراني (٤/ ٣٤/ ٣٥٧٢)، وابن الأثير في «الغابة» (١/ ٤٣٩) معلّقًا؛ من طريق مخشيّ بن حجير، عن أبيه... رفعه في سياق خطبة الحجّ. قال الهيثمي (٣/ ٢٧٣): «مخشيّ لم أجد من ترجمه». وقال العسقلاني: «إسناده صالح». قلت: في الشواهد لجهالة مخشيّ، وشواهده قويّة، فهو صحيح بها.

* **وأمّا حديث أبي قريع**؛ فعند: ابن منده (٤/ ١٦٠ـ إصابة، ٥/ ٧١ـ غابة)؛ من طريق طالب بن قريع، عن أبيه، عن جدّه؛ قال: كنت تحت ناقة رسول الله ﷺ في حجّته... وهٰذا واهٍ؛ طالب وأبوه مجهولان، والصحبة لا تثبت بمثل هٰذه الأسانيد.

* **وأمّا حديث السرّاء بنت نبهان**؛ فرواه: البخاري في «التاريخ» (٣/ ٢٨٧) و«أفعال العباد» (ص٩٠)، وأبو داوود (٥ـ المناسك، ٧٠ـ أيّ يوم يخطب، ١/ ٦٠١/ ١٩٥٣) مختصرًا، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٣٣٠٥)، وابن خزيمة (٢٩٧٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٣٠٧/ ٧٧٧) و«الأوسط» (٢٤٥١)، وابن حزم في «حجّة الوداع» (١٩٤)، والبيهقي (٥/ ١٥١)، والمزّي في «التهذيب» (٩/ ١٢٢)؛ من طريق أبي عاصم الضحّاك بن مخلد، ثنا ربيعة بن عبدالرحمٰن بن حصن الغنويّ، ثني جدّتي السرّاء... رفعته في سياق حجّة الوداع. سكت عنه المنذري، وقال الهيثمي (٣/ ٢٧٦): «رجاله ثقات». قلت: ربيعة مجهول، والسند ضعيف، وقد ضعّفه الألباني، لٰكن له شواهد عدّة تقوّيه، فهو حسن بها على الأقلّ.

* **وأمّا حديث معاوية بن حيدة**؛ فرواه: معمر في «الجامع» (٢٠١١٥)، وابن المبارك (٩٨٧)، وأحمد (٥/ ٤)، والبخاري في «الأفعال» (ص٩١)، وابن ماجه (الموضع السابق، ١/ ٨٦/ ٢٣٤)، وابن نصر في «الصلاة» (٤٠١)، والروياني (٩١٧)، والطبري في «التفسير» (٣٠٤٩١)، والحاكم (٤/ ٦٠٠)، والطبراني (١٩/ ٤٠٧/ ٩٦٩)، والبيهقي في «الشعب» (٩٣٧٦)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢٠/ ١٠٢)؛ من طريق بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جدّه... رفعه. وسنده حسن ثمّ هو صحيح بشواهده.

* **وأمّا حديث عمّ أبي حرّة**؛ فرواه: أحمد (٥/ ٧٢)، والدارمي (٢/ ٢٤٦)، وأبو داوود (٦ـ النكاح، ٤٢ـ ضرب النساء، ١/ ٦٥١/ ٢١٤٥)، وأبو يعلى في «المسند» (١٥٦٩ و١٥٧٠)، والطبراني (٤/ ٥٣/ ٣٦٠٩)، والدارقطني (٣/ ٢٦)، والبيهقي (٦/ ١٠٠)؛ من طريق عليّ بن زيد، عن أبي حرّة الرقاشيّ، عن

/خ١١٦/ فأمَرَ ﷺ بالتَّبليغِ عنهُ؛ لِما في ذٰلكَ مِن حصولِ الهدى بالتَّبليغِ.

ولهُ ﷺ أجرُ مَن بَلَّغَ عنهُ وأجرُ مَن قَبِلَ ذٰلكَ البلاغَ، وكلَّما كَثُرَ التَّبليغُ عنهُ؛ تَضاعَفَ لهُ الثَّوابُ، فلهُ مِن الأجرِ بعددِ كلِّ مبلِّغٍ وكلِّ مهتدٍ بذٰلكَ البلاغِ سوى ما لهُ مِن أجرِ عملِهِ المختصِّ بهِ، فكلُّ مَن هُدِيَ واهْتَدى بتبليغِهِ فلهُ أجرُهُ؛ لأنَّهُ هوَ الدَّاعي إليهِ.

ولو لمْ يَكُنْ في تبليغِ العلمِ عنهُ إلاَّ حصولُ ما يُحِبُّهُ ﷺ؛ لَكَفى بهِ فضلاً. وعلامةُ المحبِّ الصَّادقِ أنْ يَسْعى في حصولِ محبوبِ محبوبِهِ ويَبْذُلَ جهدَهُ وطاقتَهُ فيها. ومعلومٌ أنَّهُ لا شيءَ أحبُّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ مِن إيصالِهِ الهدى إلى جميعِ الأُمَّةِ، فالمبلِّغُ عنهُ ساعٍ في حصولِ محابِّهِ، فهوَ أقربُ النَّاسِ منهُ وأحبُّهُم إليهِ، وهوَ نائبُهُ وخليفتُهُ في أُمَّتِهِ، وكَفى بهٰذا فضلاً وشرفًا للعلمِ وأهلِهِ.

● **الوجهُ الرَّابعُ والخمسونَ:** أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَدَّمَ بالفضائلِ العلميَّةِ في أعلى الولاياتِ الدِّينيَّةِ وأشرفِها وقَدَّمَ بالعلمِ الأفضلَ[1] على غيرِهِ.

فرَوى مسلمٌ في «صحيحه»[2] [مِن] حديثِ: أبي مَسْعودٍ البَدْريِّ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «يَؤُمُّ القومَ أقرؤُهُم لكتابِ اللهِ، فإنْ كانوا في القراءةِ سواءً؛ فأعلمُهُم بالسُّنَّةِ، فإنْ كانوا في السُّنَّةِ سواءً؛ فأقدمُهُم سِلْمًا أو سنًّا...» وذَكَرَ الحديثَ.

فقَدَّمَ في الإمامةِ فضيلةَ العلمِ[3] على تقدُّمِ الإسلامِ والهجرةِ. ولمَّا كانَ العلمُ

= عمّه... رفعه في سياق طوّله أحمد واختصره الباقون. قال المنذري: «عليّ بن زيد لا يحتجّ به». وقال الهيثمي (٣/ ٢٦٩): «أبو حرّة وثّقه أبو داوود وضعّفه ابن معين، وفيه عليّ بن زيد وفيه كلام». قلت: أبو حرّة وعلي صالحان في الشواهد، ولحديثهما شواهد تحسّنه على الأقلّ. وإلى ذٰلك مال الألباني.

* وفي الباب عن: جابر عند: أحمد (٥/ ٤١١)، والحارث في «مسنده» (٥١ـ زوائد)، وأبي نعيم في «الحلية» (٣/ ١٠٠). والحارث بن برصاء عند: عبدالرزّاق (٥٢٤١)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٩٠٨)، والحاكم (٤/ ٣٢٨). والحارث بن عمرو عند: ابن أبي عاصم في «الآحاد» (١٢٥٧)، وابن أبي حاتم في «الجرح» (٢/ ٧)، والطبراني (٣/ ٢٦١/ ٣٣٥١)، والمزّي في «التهذيب» (٥/ ٢٦٣). والعدّاء بن خالد عند البخاري في «الأفعال» (ص٩٠). وبعض الصحابة عند: ابن أبي شيبة (٣٢١٧٨)، وأحمد (٥/ ٣٦٦)، وأبي يعلى (٦٨٣٢)، والرافعي في «التدوين» (١/ ٣١٧)، وابن الأثير في «الغابة» (٣/ ١١٣)، وغيرهم.

(١) في ط: «بتبليغه فله الأجر...»، وفي خ: «... بفضائل العلميّة في إعلان... بالأفضل».

(٢) (٥ـ المساجد، ٥٣ـ من أحقّ بالإمامة، ٤/ ٤٦٥/ ٦٧٣).

(٣) في ط: «فأقدمهم إسلامًا... تفضيله العلم». وفي خ: «... ابن مسعود... بفضيلة العلم».

بالقرآنِ أفضلَ مِن العلمِ بالسُّنَّةِ [لـ]ـشرفِ معلومِهِ على معلومِ السُّنَّةِ؛ قُدِّمَ العلمُ بِهِ، ثمَّ قُدِّمَ العلمُ بالسُّنَّةِ على تقدُّمِ الهجرةِ، وفيهِ مِن زيادةِ العملِ ما هوَ متميِّزٌ بِهِ، لٰكنْ إنَّما راعى التَّقديمَ بالعلمِ ثمَّ بالعملِ، وراعى التَّقديمَ بالعلمِ بالأفضلِ على غيرِهِ. وهٰذا يَدُلُّ على شرفِ العلمِ وفضلِهِ وأنَّ أهلَهُ هُم أهلُ التَّقدُّمِ إلى المراتبِ الدِّينيَّةِ.

● **الوجهُ الخامسُ والخمسونَ**: ما ثَبَتَ في «صحيح البخاري»[١] مِن حديثِ عُثْمانَ بنِ عَفَّانَ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ أنَّهُ قالَ: «خيرُكُم مَن تَعَلَّمَ القرآنَ وعَلَّمَهُ».

/خ١١٧/ وتعلُّمُ القرآنِ وتعليمُهُ يَتَناوَلُ: تعلُّمَ حروفِهِ وتعليمَها، وتعلُّمَ معانيهِ وتعليمَها، [و]هوَ أشرفُ قسمَيْ تعلُّمِهِ وتعليمِهِ[٢]؛ فإنَّ المعنى هوَ المقصودُ واللفظُ وسيلةٌ إليهِ، فتعلُّمُ المعنى وتعليمُهُ تعلُّمُ الغايةِ وتعليمُها، وتعلُّمُ اللفظِ المجرَّدِ وتعليمُهُ تعلُّمُ الوسائلِ وتعليمُها، وبينَهُما كما بينَ الغاياتِ والوسائلِ.

● **الوجهُ السَّادسُ والخمسونَ**: ما رَواهُ التِّرْمِذِيُّ وغيرُهُ في نسخةِ: عَمْرِو بنِ الحارثِ، عن دَرَّاجٍ، عن أبي الهَيْثَمِ، عن أبي سَعيدٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «لنْ يَشْبَعَ المؤمنُ مِن خيرٍ يَسْمَعُهُ حتَّى يكونَ منتهاهُ الجنَّةَ»[٣]. قالَ التِّرْمِذِيُّ: هٰذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وهٰذهِ نسخةٌ معروفةٌ رَواها النَّاسُ وساقَ أحمدُ في «المسند» أكثرَها [أ]و كثيرًا منها[٤]. ولهٰذا الحديثِ شواهدُ[٥].

---

(١) (٦٦ـ فضائل القرآن، ٢١ـ خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه، ٩/ ٧٤/ ٥٠٢٧).

(٢) في خ: «قسمي علمه وتعليمه»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٣) (ضعيف). رواه: الترمذي (٤٢ـ العلم، ١٩ـ فضل الفقه على العبادة، ٥/ ٥٠/ ٢٦٨٦)، وابن حبّان (٩٠٣)، وابن عديّ (٣/ ٩٨١)، والحاكم (٤/ ١٢٩)، وأبو نعيم في «أصبهان» (١/ ٢٣٦)، والقضاعي في «مسنده» (٨٩٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٣١) و«الآداب» (٩٥٧)؛ من طريق درّاج... به فذكره مرفوعًا. قال الترمذي: «حسن غريب»، وصحّحه الحاكم والذهبي. قلت: حديث درّاج لا يستحقّ التحسين، بل فيه لين على العموم، وحديثه عن أبي الهيثم على الخصوص ضعيف، وهٰذا منه، وقد ضعّفه الألباني.

(٤) لم يشترط الإمام أحمد الصحّة فيما أخرجه في «مسنده»، بل ساق فيه كثيرًا ممّا ضعّفه في «العلل» أو غيرها على سبيل الاعتبار. وعليه؛ فإيراده كثيرًا من نسخة درّاج عن أبي الهيثم في «مسنده» لا يفيد أكثر من أنّها غير موضوعة وصاحبها ليس بالمتروك. وقد ثبت عنه تجريح درّاج من غير وجه: فقال مرّة: «حديثه منكر»، وقال: «الشأن [في النكارة] من درّاج»، وقال: «أحاديث درّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد فيها ضعف».

(٥) لعلّه يريد قواعد الشرع وعموميّاته؛ فإنّها تدعم هٰذا المعنى، لٰكن من المعلوم أنّها لا تنهض لتقوية=

فجَعَلَ [النَّبيُّ] ﷺ النَّهمةَ في العلمِ وعدمَ الشِّبعِ منهُ مِن لوازمِ الإيمانِ وأوصافِ المؤمنينَ، وأخْبَرَ أنَّ هٰذا لا يَزالُ دأْبَ المؤمنِ حتَّى دخولِه الجنَّةَ.

ولهٰذا كانَ أئمَّةُ الإسلامِ، إذا قيلَ لأحدِهِم: إلى متى تَطْلُبُ العلمَ؟ فيقولُ: إلى المماتِ.

قالَ نُعَيْمُ بنُ حَمَّادٍ: سَمِعْتُ عَبْدَاللهِ بنَ المُبارَكِ [رَضِيَ اللهُ عنهُ] يقولُ، وقد عابَهُ قومٌ في كثرةِ طلبِهِ للحديثِ فقالوا لهُ: إلى متى تَسْمَعُ؟ قالَ: إلى المماتِ.

وقالَ الحَسَنُ بنُ مَنْصورٍ الجَصَّاصُ[١]: قُلْتُ لأحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: إلى متى يَكْتُبُ الرَّجلُ الحديثَ؟ قالَ: إلى الموتِ.

وقالَ عَبْدُاللهِ بنُ مُحَمَّدٍ البَغَوِيُّ: سَمِعْتُ أحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُ] يقولُ: إنَّما أطْلُبُ العلمَ إلى أنْ أدْخُلَ القبرَ.

وقالَ مُحَمَّدُ بنُ إسْماعيلَ الصَّائغُ: كُنْتُ أصوغُ معَ أبي ببغدادَ، فمَرَّ بنا أحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ وهوَ يَعْدو ونَعْلاهُ في يديهِ. فأخَذَ أبي بمجامعِ ثوبِهِ، فقالَ: [يا أبا عَبْدِاللهِ]! ألا تَسْتَحي؟! إلى متى تَعْدو معَ هٰؤلاءِ؟ قالَ: إلى الموتِ.

وقالَ عَبْدُاللهِ بنُ بِشْرٍ الطَّالْقانِيُّ: أرْجو أنْ يأْتِيَني أمرُ ربِّي والمحبرةُ في يدي، ولَمْ يُفارِقْني /خ١١٨/ القلمُ والمحبرةُ.

وقالَ حُمَيْدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ يَزيدَ البَصْرِيُّ: جاءَ ابنُ بِسْطامٍ الحافظُ يَسْألُني عنِ الحديثِ. فقُلْتُ لهُ: ما أشدَّ حرصَكَ على الحديثِ! فقالَ: أوَما أُحِبُّ أنْ أكونَ في قطارِ آلِ[٢] رسولِ اللهِ ﷺ؟!

وقيلَ لبعضِ العلماءِ: إلى متى يَحْسُنُ بالمرءِ أنْ يَتَعَلَّمَ؟! قالَ: ما حَسُنَتْ بهِ الحياةُ.

= الحديث. وأمّا الشواهد بالمعنى الاصطلاحيّ؛ فلم أقف على شيء منها بعد طول بحث. والله أعلم.

(١) في خ: «وقد عابه قومه... وقال حسين بن منصور الخصّاص»! والتصويب من ط و«طبقات الحنابلة» (١/ ١٤٠).

(٢) في خ: «يأتيني أمر الله والمحبرة بين يدي ولم يفارقني العلم والمحبرة... قطار إلى»!

وسُئِلَ الحَسَنُ عنِ الرَّجلِ لهُ ثمانونَ سنةً: أيَحْسُنُ أنْ يَطْلُبَ العلمَ؟ قالَ: إنْ كانَ يَحْسُنُ به أنْ يَعيشَ.

● **الوجهُ السَّابعُ والخمسونَ**: ما رَواهُ التِّرْمِذِيُّ أيضًا مِن حديثِ إبْراهيمَ بنِ الفَضْلِ، عنِ المَقْبُرِيِّ، عن أبي هُرَيْرَةَ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «الكلمةُ الحكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ، فحيثُ وَجَدَها؛ فهوَ أحقُّ بها»(١). قالَ التِّرْمِذِيُّ: هٰذا حديثٌ غريبٌ، لا نَعْرِفُهُ إلاَّ مِن هٰذا الوجهِ، وإبْراهيمُ بنُ الفَضْلِ المَدِينِيُّ المَخْزومِيُّ يُضَعَّفُ في الحديثِ مِن قِبَلِ حفظِهِ.

وهٰذا أيضًا شاهدٌ لِما تَقَدَّمَ(٢)، ولهُ شواهدُ(٣).

---

(١) (ضعيف جدًّا). رواه: ابن ماجه (٣٧ـ الزهد، ١٥ـ الحكمة، ٢/١٣٩٥/٤١٦٩)، والترمذي (٤٢ـ العلم، ١٩ـ فضل الفقه على العبادة، ٥/٥١/٢٦٨٧)، والعقيلي (١/٦١)، وابن حبّان في «المجروحين» (١/١٠٥)، وابن عديّ (١/٢٣٢)، والقضاعي (٥٢)، والبيهقي في «المدخل» (٤١٢)، وابن الجوزي في «الواهيات» (١١٤)؛ من طرق، عن إبراهيم بن الفضل المدني... به. قال الترمذي: «غريب، لا نعرفه إلاّ من هٰذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المخزومي يضعّف في الحديث من قبل حفظه». قلت: أجمعوا على تركه، وقد ضعّف حديثه الترمذي والبيهقي وابن الجوزي، وقال الألباني: «ضعيف جدًّا».

وله شاهد عند: أبي نعيم (٤/١٥٧ـ اللسان)، والديلمي في «المسند» (٣٨٧٨)، وابن عساكر، والرافعي في «التدوين» (٤/٩٥)؛ من طريقين، عن عليّ... موقوفًا ومرفوعًا بنحوه. وفي كلّ طريق كذّاب.

وآخر عند القضاعي (١٤٦) عن زيد بن أسلم مرسلاً بسند ساقط مسلسل بالضعفاء والمجاهيل.

وثالث عند الروياني (٣٣ م) عن ابن بريدة مرسلاً بسند فيه متروك وضعيف ومجهول.

ورابع من حديث أنس لم أقف على متنه ولا سنده، وإنّما عزاه العجلوني في «الكشف» (١١٥٩) للعسكري، ومعلوم أنّ غالب ما ينفرد به العسكري من باب الضعيف أو دونه.

ورواه: ابن أبي شيبة (٣٥٦٧٠) والبيهقي في «المدخل» (٨٤٤) من وجه صالح عن سعيد بن أبي بردة، وابن أبي شيبة (٣٥٧٠٣) من وجه حسن عن عبدالله بن عبيد بن عمير؛ كلاهما قال: كان يقال... فذكره. فالظاهر أنّ هٰذا أصل الحديث، وأنّه حكمة قالها أحد الصحابة أو التابعين، فركّب لها بعض المتروكين والمتّهمين إسنادًا ورفعوها إلى النبيّ ﷺ.

(٢) يريد حديث أبي سعيد المتقدّم في الوجه السادس والخمسين. وفي هٰذه الشهادة نظر لأمرين: أحدهما: أنّ سند حديث أبي هريرة هٰذا واه بمرّة لا يصلح لصالحة. والآخر: أنّ بين المتنين تفاوت ظاهر يقصر معه أحدهما عن الشهادة للآخر.

(٣) وهاهنا أيضًا نظر من وجهين: أحدهما: أنّ أصل الحديث لا تنفعه الشهادة لشدّة ضعفه. والثاني: أنّ الشواهد كالمشهود له في الضعف بل دونه بدرجات. وقد تبيّن لك ذٰلك فيما تقدّم.

والحكمةُ هيَ العلمُ، فإذا فَقَدَهُ المؤمنُ؛ فهوَ بمنزلةِ مَن فَقَدَ ضالَّةً نفيسةً مِن نفائسِهِ، فإذا وَجَدَها؛ قَرَّ قلبُهُ وفَرِحَتْ نفسُهُ بوجدانِها، كذٰلكَ المؤمنُ إذا وَجَدَ ضالَّةَ قلبِهِ وروحِهِ التي هوَ دائمًا في طلبِهـ[ـا] ونشدانِها والتَّفتيشِ عليها. وهٰذا مِن أحسنِ الأمثلةِ؛ فإنَّ قلبَ المؤمنِ يَطْلُبُ العلمَ حيثُ وَجَدَهُ أعظمَ مِن طلبِ صاحبِ الضَّالَّةِ لها.

● **الوجهُ الثَّامنُ والخمسونَ**: قالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنا أبو كُرَيْبٍ، [حَدَّ]ثَنا خَلَفُ بنُ أيُّوبَ، عن عَوْفٍ، عنِ ابنِ سِيرينَ، عن أبي هُرَيْرَةَ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]، عنِ النَّبيِّ ﷺ: «خصلتانِ لا يَجْتَمِعانِ في منافقٍ: حسنُ سَمْتٍ وفقهٌ في الدِّينِ»[1]. قالَ التِّرْمِذِيُّ: هٰذا حديثٌ غريبٌ، ولا يُعْرَفُ هٰذا الحديثُ مِن حديثِ عَوْفٍ إلاَّ مِن حديثِ هٰذا الشَّيخِ خَلَفِ بنِ أيُّوبَ العامِرِيِّ، ولَمْ أرَ أحدًا] يَرْوي عنهُ غيرَ أبي كُرَيْبٍ مُحَمَّدِ بنِ العلاءِ[2]، ولا أدري كيفَ هوَ؟

وهٰذهِ شهادةٌ بأنَّ مَنِ اجْتَمَعَ فيهِ حسنُ السَّمتِ والفقهُ في الدِّينِ فهوَ مؤمنٌ.

/خ١١٩/ وأحرى بهٰذا[3] الحديثِ أنْ يكونَ حقًّا، وإنْ كانَ إسنادُهُ فيهِ جهالةٌ؛ فإنَّ حسنَ السَّمتِ والفقهَ في الدِّينِ مِن أخصِّ علاماتِ الإيمانِ، ولنْ يَجْمَعَهُما اللهُ في

---

(١) (حسن). رواه: الترمذي (٤٢ـ العلم، ١٩ـ فضل الفقه على العبادة، ٥/ ٤٩/ ٢٦٨٤)، والعقيلي (٢/ ٢٤)، والطبراني في «الأوسط» (٨٠٠٦)، والبيهقي في «المدخل» (٣٥٧)، والمزّي في «التهذيب» (٨/ ٢٧٥)؛ من طريق خلف بن أيّوب العامري، عن عوف، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة... رفعه. قال الترمذي والطبراني والبيهقي: «تفرّد به خلف بن أيّوب». وزاد الترمذي: «غريب». وقال العقيلي: «ليس له أصل من حديث عوف». قلت: خلف ليّن، وحديثه لا يعدو أن يكون صالحًا في الشواهد.

وله شاهد رواه: ابن المبارك في «الزهد» (٤٥٩)، والقضاعي في «الشهاب» (٣١٨)؛ من طريق معمر، عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبدالله بن سلام، [عن عبدالله بن سلام]... رفعه. وهٰذا ضعيف له علّتان: **أولاهما**: أنّهم اختلفوا في إثبات عبدالله بن سلام فيه، وقد جاء من طريقين تقوّي إحداهما الأخرى، فإثباته صالح إن شاء الله. **والثانية**: أنّ محمّدًا لم يسمع عبدالله بن سلام، ففي السند انقطاع أو إعضال.

وشاهد آخر ذكره الذهبي في «الميزان» (٤/ ٤٦١) عن عبدالرحمٰن بن الحسن، عن يوسف بن إبراهيم، عن أنس... رفعه. ويوسف هٰذا هو الجوهريّ واهٍ منكر الحديث.

والحديث حسن بهٰذه الشواهد، وقد قوّاه عبدالحقّ وابن القيّم والألباني.

(٢) يعني: هٰذا الحديث، وإلاّ؛ فقد روى عنه جماعة.

(٣) في خ: «خلف من أيّوب العامريّ... وأحقّ بهٰذا»! والتصويب من ط.

منافقٍ؛ فإنَّ النِّفاقَ يُنافيهما ويُنافيانِه.

● **الوجهُ التَّاسعُ والخمسونَ**: قالَ التِّرْمِذيُّ: حَدَّثَنا مُسْلِمُ بنُ حاتِمٍ الأنْصاريُّ أبو حاتِمٍ البَصْريُّ، حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللهِ الأنْصاريُّ، عن أبيهِ، عن عَلِيِّ بنِ زَيْدٍ، عن سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ؛ قالَ: قالَ أَنَسُ بنُ مالِكٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يا بنيَّ! إنْ قَدَرْتَ أنْ تُصْبِحَ وتُمْسِيَ وليسَ في[1] قلبِكَ غشٌّ لأحدٍ فأفْعَلْ». ثمَّ قالَ: «يا بنيَّ! وذٰلكَ مِن سنَّتي، ومَن أحْيا سُنَّتي فقد أحَبَّني، ومَن أحَبَّني كانَ معي في الجنَّةِ»[2].

[و]في الحديثِ قصَّةٌ طويلةٌ.

قالَ التِّرْمِذِيُّ: هٰذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ مِن هٰذا الوجهِ، [و]مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللهِ الأنْصاريُّ صدوقٌ[3]، وأبوهُ ثقةٌ، وعَلِيُّ بنُ زَيْدٍ صدوقٌ[4] إلاَّ أنَّهُ ربَّما يَرْفَعُ الشَّيْءَ الذي يوقِفُهُ غيرُهُ، سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ بَشَّارٍ يَقولُ: قالَ أبو الوَليدِ: [قالَ] شُعْبَةُ: حَدَّثَنا عَلِيُّ بنُ زَيْدٍ وكانَ رفَّاعًا.

قالَ التِّرْمِذِيُّ: ولا يُعْرَفُ [لِـ]سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ عن أنسٍ روايةٌ إلاَّ هٰذا الحديثُ بطولِهِ، وقد رَوى عَبَّادٌ المِنْقَرِيُّ[5] هٰذا الحديثَ [عن عَلِيِّ بنِ زَيْدٍ عن أنسٍ ولَمْ يَذْكُرْ فيهِ

---

(١) في ط: «الأنصاريّ حدّثنا أبو حاتم البصريّ...»! وفي خ: «... وتمسي وما في».

(٢) (ضعيف). رواه: الترمذي (٤٢ـ العلم، ١٦ـ الأخذ بالسنّة، ٥/٤٦/٢٦٧٨)، وأبو يعلى (٣٦٢٤)، والطبراني في «الأوسط» (٥٩٨٨) و«الصغير» (٨٥٧)؛ من طريقين، عن عليّ بن زيد، [عن سعيد بن المسيّب]، عن أنس... رفعه. وفيه علل: **أولاها**: أنّ الطريقين إلى عليّ ضعيفتان ولو اجتمعتا. **والثانية**: أنّ عليّ بن زيد ضعيف. **والثالثة**: أنّه لا يعرف لسعيد سماع من أنس؛ قاله البخاري والترمذي.

ورواه: ابن حبّان في «المجروحين» (٢/ ٢٢٣)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٥٧٩)؛ من طريق كثير بن هاشم الأيلي، عن أنس... رفعه مختصرًا. والطريق إلى كثير ضعيفة، وكثير متّهم.

والضعف لازم لهٰذا الحديث، لضعف طريقه الأولى وشدّة ضعف الثانية، وإلى ضعفه مال البخاري وابن حبّان وابن الجوزي والمنذري والهيثمي والألباني.

(٣) في مطبوعة الترمذيّ: «محمّد بن عبدالله الأنصاري ثقة»!

(٤) هٰذا مذهب الترمذيّ يرحمه الله فيه. ومال جماعة إلى ضعفه مطلقًا، وهو ما انتهى إليه العسقلاني في «التقريب». وتوسّط الأكثرون فقبلوه في المتابعات والشواهد، وهو مذهب مسلم والذهبي، وهو أعدل المذاهب إن شاء الله، فالرجل غير مدفوع عن صدق، ولٰكنّه كثير الوهم والخطإ حتّى فشت في حديثه المنكرات، فمثله يقبل في المتابعات، فإن انفرد فليّن.

(٥) في خ: «الشيء الذي يوقعه غيره... عبّاد المقبريّ».

عن سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ[(١)]، وذاكَرْتُ بِهِ مُحَمَّدَ بنَ إسْماعيلَ فلَمْ يَعْرِفْهُ، ولَمْ يَعْرِفْ لِسَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ عن أنَسٍ هٰذا الحديثَ] ولا غيرَهُ. وماتَ أنسٌ سنةَ ثلاثٍ وتسعينَ، وسَعيدُ بنُ المُسَيَّبِ سنةَ خمسٍ وتسعينَ بعدَهُ بسنتَينِ.

قُلْتُ: ولهٰذا الحديثِ شواهدُ:

منها ما رواهُ: الدَّارِمِيُّ عَبْدُاللهِ، [حَدَّ]ثَنا مُحَمَّدُ بنُ عُيَيْنَةَ، عن مَرْوانَ بنِ مُعاوِيَةَ الفَزارِيِّ، عن كَثيرِ بنِ عَبْدِاللهِ، عن أبيهِ، عن جدِّهِ؛ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ لِبِلالِ بنِ الحارِثِ[(٢)]: «ٱعْلَمْ». قالَ: ما أعْلَمُ يا رسولَ اللهِ؟ [قالَ: «ٱعْلَمْ يا بِلالُ!». قالَ: ما أعْلَمُ يا رسولَ اللهِ؟] قالَ: «إنَّهُ مَن أحْيا سنَّةً مِن سنَّتي قد أُميتَتْ بعدي؛ كانَ لهُ مِن الأجرِ مثلُ مَن عَمِلَ بِها مِن غيرِ أنْ يَنْقُصَ مِن أُجورِهِم شيءٌ، ومَنِ ٱبْتَدَعَ بدعةَ ضلالةٍ لا يَرْضاها اللهُ ورسولُهُ؛ كانَ عليهِ مِن الإثمِ مثلُ آثامِ مَن عَمِلَ بها لا يَنْقُصُ ذٰلكَ مِن أوزارِ النَّاسِ شيئًا»[(٣)].

رَواهُ التِّرْمِذِيُّ عنهُ وقالَ: حديثٌ /خ١٢٠/ حسنٌ. قالَ: ومُحَمَّدُ بنُ عُيَيْنَةَ مِصِّيصِيٌّ شامِيٌّ. وكَثيرُ بنُ عَبْدِاللهِ هوَ ابنُ عَمْرِو بنِ عَوْفٍ المُزَنِيُّ.

وفي حديثِهِ ثلاثةُ أقوالٍ لأهلِ الحديثِ: منهُم مَن يُصَحِّحُهُ، ومنهُم مَن يُحَسِّنُهُ، وهُما للتِّرْمِذِيِّ، ومنهُم مَن يُضَعِّفُهُ ولا يَراهُ حجَّةً كالإمامِ أحْمَدَ وغيرِهِ[(٤)].

---

(١) رواه من طريقه أبو يعلى (٣٦٢٤)، لكن ذكر فيه سعيدًا!

(٢) في خ: «لبلال بن الحرّاث»! والتصويب من ط و«جامع الترمذي».

(٣) **(ضعيف جدًّا)**. رواه: ابن وهب في «المسند»، وعبد بن حميد (٢٨٩)، وابن ماجه (المقدّمة، ١٥ـ من أحيا سنّة، ١/٧٦/٢٠٩)، والترمذي (٤٢ـ العلم، ١٦ـ الأخذ بالسنّة، ١/٤٥/٢٦٧٧)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (٤٢)، وابن وضّاح في «البدع»، والبزّار (٣٣٨٥ و٣٣٨٦)، والطبراني (١٧/١٦/١٠)، وابن عديّ (٦/٢٠٨١)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص٢٣١)، وابن عبدالبرّ (٢٤/٣٢٨ و٣٢٩)، والخطيب في «الكفاية» (ص٣٤٣)، والبغوي في «السنّة» (١١٠)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٢٠٦)؛ من طرق، عن كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جدّه؛ أنّ النبيّ ﷺ قال لبلال بن الحارث... فذكره. وهٰذا سند ساقط من أجل كثير هٰذا؛ فإنّه متروك مكذّب كما سيأتيك، وقد ضعّفه الألباني.

وعليه؛ فهٰذا الحديث لا يصلح شاهدًا لحديث أنس المتقدّم لأمرين: **أوّلهما**: ضعفه الشديد الذي يحطّه عن درجة الاعتبار. **والثاني**: الاختلاف الظاهر بين الشاهد والمشهود له.

(٤) ولا يدورنّ في خلدك أنّ الرجل متأرجح على كفتي التعديل والتجريح، أو أنّه في أدنى أحواله=

ولٰكنَّ هٰذا الأصلَ ثابتٌ مِن وجوهٍ: كحديثِ: «مَن دَعا إلى هدًى؛ كانَ لهُ مِن الأجرِ مثلُ أُجورِ مَنِ اتَّبَعَهُ»[١]، وهوَ صحيحٌ مِن وجوهٍ. وحديثِ: «مَن دَلَّ على خيرٍ؛ فلهُ مثلُ أجرِ فاعلِه»[٢]، وهوَ حديثٌ حسنٌ رَواهُ التِّرمذيُّ وغيرُهُ[٣].

فهٰذا الأصلُ محفوظٌ عنِ النَّبيِّ ﷺ، فالحديثُ الضَّعيفُ فيهِ بمنزلةِ الشَّواهدِ والمتابعاتِ، فلا يَضُرُّ ذكرُهُ[٤].

● **الوجهُ السِّتُّونَ**: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أوصى بطلبةِ العلمِ خيرًا وما ذاكَ إلَّا لفضلِ مطلوبِهِم وشرفِهِ:

قالَ التِّرمذيُّ: حَدَّثَنا سُفيانُ بنُ وَكيعٍ، [حَدَّ]ثَنا أبو داوودَ الحُفَرِيُّ، عن سُفيانَ، عن أبي هارونَ[٥]؛ قالَ: كنَّا نَأْتي أبا سَعيدٍ فيَقولُ: مرحبًا بوصيَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، إنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «إنَّ النَّاسَ لكُم تَبَعٌ، وإنَّ رجالًا يَأْتونَكُم مِن أقطارِ الأرضِ يَتَفَقَّهونَ في الدِّينِ، فإذا أَتَوْكُم؛ فاسْتَوْصوا بهِم خيرًا»[٦].

= صالح للاعتبار، فحاله دون ذٰلك بكثير: فقد قال فيه الشافعي وأبو داوود: ركن من أركان الكذب. وقال ابن حبان: روى عن أبيه عن جدّه نسخة موضوعة. وضرب أحمد على حديثه في «المسند» ولم يحدّث عنه شيئًا ونهى عن التحديث عنه. وتركه النسائي والدارقطني وغيرهم. وقال ابن معين: ليس بشيء. وقال ابن عديّ: عامّة ما يرويه لا يتابع عليه. وقال ابن حزم: ساقط متّفق على اطّراحه. وقال الذهبي: وأمّا الترمذي فروى حديثه «الصلح جائز بين المسلمين» وصحّحه، فلهٰذا لا يعتمد العلماء على تصحيح الترمذيّ. ولخّص حاله العسقلاني فقال: ضعيف منهم من نسبه إلى الكذب! وانظر للاستزادة: «تهذيب الكمال» (٢٤/ ١٣٦)، و«ميزان الاعتدال» (٣/ ٤٠٧).

(١) رواه مسلم (٤٧ـ العلم، ٦ـ من سنّ سنّة حسنة أو سيئة، ٤/ ٢٠٦٠/ ٢٦٧٤) عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم (٣٣ـ الإمارة، ٣٨ـ فضل إعانة الغازي، ٣/ ١٥٠٦/ ١٨٩٣) عن أبي مسعود البدري.

(٣) أورده الترمذي بسندين رجال أحدهما ثقات رجال مسلم ورجال الآخر ثقات رجال الستّة، ورواه مسلم في «صحيحه»، فحقّه التصحيح لا التحسين.

(٤) راجع تفصيل القول في هٰذه القاعدة فيما تقدّم (١/ ٣٥) كان الله لك.

(٥) في خ: «أبو داوود الجفري عن سفيان عن أبي هريرة»! والتصويب من ط و«جامع الترمذي».

(٦) (ضعيف). رواه: معمر في «الجامع» (٢٠٤٦٦)، والطيالسي (٢١٩١)، وابن ماجه (المقدّمة، ٢٢ـ الوصاة بطلبة العلم، ١/ ٩٠/ ٢٤٧ و٢٤٩)، والترمذي (٤٢ـ العلم، ٤ـ الاستيصاء بمن يطلب العلم، ٥/ ٣٠/ ٢٦٥٠ و٢٦٥١)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٢/ ١٢)، والطبراني في «الشاميّين» (٤٠٥)، والرامهرمزي في «المحدّث الفاصل» (٢٢)، وأبو الشيخ في «الطبقات» (٣/ ٢٨٢)، وابن جميع في «المعجم» (ص٣٥٨)، وتمّام في «الفوائد» (٩٠ ـ ٩٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥٢)، والبيهقي في «الشعب» =

حَدَّثَنا قُتَيْبَةُ، [حَدَّ]ثَنا رَوْحُ بنُ قَيْسٍ، عن أبي هارونَ العَبْدِيِّ، عن أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «يَأْتيكُم رجالٌ مِن قِبَلِ المشرقِ يَتَعَلَّمونَ، فإذا جاؤوكُمْ؛ فاسْتَوْصوا بهِم خيرًا»[(١)]. فكانَ أبو سَعيدٍ، إذا رَآنا؛ قالَ: مرحبًا بوصيَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

قالَ التِّرْمِذِيُّ: هٰذا حديثٌ لا نَعْرِفُهُ إلَّا مِن حديثِ أبي هارونَ العَبْدِيِّ عن أبي سَعيدٍ. قالَ أبو بَكْرٍ العَطَّارُ: قالَ عَلِيُّ بنُ المَدِينِيِّ: قالَ يَحْيى بنُ سَعيدٍ، كانَ شُعْبَةُ يُضَعِّفُ أبا هارونَ العَبْدِيَّ. قالَ يَحْيى: وما زالَ ابنُ عَوْنٍ[(٢)] يَرْوي عن أبي هارونَ حتَّى ماتَ[(٣)]. وأبو هارونَ اسْمُهُ عُمارَةُ بنُ جُوَيْنٍ.

● **الوجهُ الحادي والسِّتُّونَ**: ما رَواهُ التِّرْمِذِيُّ مِن حديثِ: أبي داوودَ، عن عَبْدِاللهِ

= (١٧٤١) و«المدخل» (٦٢٢)، والخطيب في «التاريخ» (١٤/ ٣٨٦) و«الجمع والتفريق» (٢/ ٣٩٢) و«الجامع» (٨٠٧) و«الشرف» (٣٣ ـ ٣٥)، والبغوي في «شرح السنّة» (١٣٤)، وابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٨٨)، والرافعي في «التدوين» (٣/ ٧١)؛ من طرق كثيرة، عن أبي هارون، عن أبي سعيد... رفعه. وهٰذا ساقط من أجل أبي هارون هٰذا؛ فمتّهم متروك.

ورواه: ابن وهب في «المسند» (٢٨٠ـ صحيحة)، والخطيب في «الجامع» (٣٥٧)، والمقدسي في «العلم» (٢٨٠ـ صحيحة)؛ من طريق عبدالله بن زحر، عن ليث بن أبي سليم، عن شهر، عن أبي سعيد... رفعه بنحوه. وهٰذا ضعيف لضعف يسير في ابن زحر وليث وشهر، لٰكنّه خير من السند السابق.

وله شاهد من حديث أبي هريرة عند ابن ماجه (٢٤٨) بسند فيه كذّاب.

وآخر من حديث جابر عند الرامهرمزي (٢٤) بسند فيه رجل مبهم وآخر متروك.

نعم؛ رواه: ابن أبي حاتم في «الجرح» (٢/ ١٢)، والرامهرمزي في «المحدّث» (٢٠ و٢١)، وأبو الشيخ في «الطبقات» (٤/ ١٧٠)، والحاكم (١/ ٨٨)، وتمّام في «الفوائد» (٩٣)، والبيهقي في «المدخل» (٦٢١)؛ من طريقين، عن الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد؛ أنّه كان يقول لطلبة العلم: مرحبًا بوصيّة رسول الله ﷺ، كان رسول الله ﷺ يوصينا بكم. قال الحاكم: «صحيح ثابت على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي. ولهٰذا اللفظ طريق أخرى عند الرامهرمزي يزداد بها قوّة.

وبالجملة؛ فالضعف لازم لهٰذا المتن لضعف إحدى طريقيه وشدّة ضعف طريقه الأخرى وشواهده وقصور الصحيح منها عن الشهادة له. وقد أعلّه الترمذي والبغوي والألباني.

(١) (ضعيف). هو أحد ألفاظ الحديث المتقدّم، وله حكمه.

(٢) في خ: «شعبة يضعّفه...»! وفي ط: «... ابن عوف»!

(٣) رواية ابن عون ـ ومثله الثوري ـ عن أبي هارون لا تفيده توثيقًا بعد ثبوت جرحه. فقد يروي الثقة الإمام عن كذّاب ظنّ به خيرًا أو خفي عليه حاله، ومنهم من ينتخب من حديث المتروكين ما يعرفه، ومنهم من يروي عنهم عند الجمع فإذا جاء وقت النقد والتحرير شطبه، ومنهم من يروي عنهم لبيان كذبهم... وغير ذٰلك كثير. وهٰذا حمّاد بن زيد يروي عن أبي هارون ثمّ يقول: كان كذّابًا!

بنِ سَخْبَرَةَ، [عن سَخْبَرَةَ]، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «مَن طَلَبَ العلمَ كانَ كفَّارةً لِما مَضى»[١].

هٰذا الأصلُ لمْ أجِدْ فيهِ إلاَّ هٰذا الحديثَ، وليسَ بشيءٍ؛ فإنَّ أبا داوودَ ـ وهوَ[٢] نُفَيْعٌ الأعمى ـ غيرُ ثقةٍ. ولٰكنْ قد تَقَدَّمَ أنَّ العالمَ يَسْتَغْفِرُ لهُ مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ. وقد رُوِيَتْ آثارٌ عديدةٌ عن جماعةٍ مِن الصَّحابةِ في هٰذا المعنى:

منها: ما رَواهُ: الثَّوْرِيُّ، عن عَبْدِالكَريمِ، عن مُجاهِدٍ، عنِ ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ مَلَكًا مُوَكَّلاً بطالبِ العلمِ حتَّى يَرُدَّهُ مِن حيثُ أبْداهُ مغفورًا لهُ[٣].

ومنها: ما رَواهُ: فِطْرُ بنُ خَليفَةَ، عن أبي الطُّفَيْلِ، عن عَلِيٍّ: ما انْتَعَلَ عبدٌ قطُّ ولا تَخَفَّفَ ولا لَبِسَ ثوبًا لِيَغْدُوَ في طلبِ العلمِ؛ إلاَّ غُفِرَتْ ذنوبُهُ حيثُ يَخْطو عندَ بابِ بيتِهِ[٤]. وقد رَواهُ ابنُ عَدِيٍّ مرفوعًا، وقالَ: ليسَ يَرْويهِ عن فِطْرٍ غيرُ إسْماعيلَ بنِ يَحْيى التَّيْمِيِّ.

---

(١) (موضوع). رواه: الدارمي (١/ ١٣٩)، والترمذي (٤٢ـ العلم، ٢ـ فضل طلب العلم، ٥/ ٢٩/ ٢٦٤٨)، وابن قانع في «المعجم» (١/ ٣٢١)، والطبراني (٧/ ١٣٨/ ٦٦١٥ و٦٦١٦)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ٢٧٨)، والمزّي في «تهذيب الكمال» (١٠/ ٢١١)؛ من طريق نفيع أبي داوود، [عن عبدالله بن سخبرة]، عن سخبرة. . . رفعه.

وهٰذا ساقط له علل: **أوّلها**: قول الترمذي: «أبو داوود يضعّف». وأحسن منه قول الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٨): «وهو كذّاب». **والثانية**: قول الهيثمي أيضًا: «لا نعرف لعبدالله بن سخبرة كبير شيء ولا لأبيه». قلت: عبدالله بن سخبرة مجهول، وأبوه لا تصحّ صحبته. وقد ضعّف الحديث الترمذي ووهّاه العسقلاني وأسقطه ابن القيّم والهيثمي والألباني.

(٢) في خ: «عبدالله بن سنجرة عن النبيّ. . .»، وفي ط: «. . . أبا داوود هو».

(٣) **(ضعيف جدًّا)**. لم أقف عليه، لٰكن في سنده المذكور هنا عبدالكريم بن أبي المخارق ضعيف جدًّا في حدّ الترك، ولو صحّ سنده؛ لكان له حكم الرفع؛ لأنّه لا ينبغي أن يقال رأيًا.

(٤) (موضوع). رواه: ابن حبّان في «المجروحين» (١/ ١٢٦) تعليقًا، والطبراني في «الأوسط» (٥٧١٨)، وابن عدي (١/ ٣٠٢)، وتمّام في «الفوائد» (٦٦)، وأبو نعيم (٢٨٨٤٥ـ كنز)، وابن عساكر (٢/ ق٧٤٣)؛ من طريق إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التيميّ، ثنا فطر بن خليفة، عن أبي الطفيل، عن عليّ. . . رفعه. قال ابن عديّ: «باطل، ليس يرويه عن فطر غير إسماعيل». وسكت عنه المنذري! وقال الهيثمي (١/ ١٣٨): «فيه إسماعيل بن يحيى التيميّ، وهو كذّاب».

وأمّا الرواية الموقوفة؛ فالظاهر أنّها التي سيذكرها المصنّف يرحمه الله بعد قليل من طريق المحاربيّ ولم أقف عليها عند غيره، على أنّها ضعيفة؛ فالمحاربيّ هٰذا وإن كان صالحًا في نفسه؛ إلاّ أنّه يدلّس ويروي عن الضعفاء والمجهولين أحاديث منكرة، فلا يبعد أن يكون تلقّاه من الكذّاب المتقدّم ودلّسه عنه.

قُلْتُ: وقد رَواهُ: إسْماعيلُ بنُ يَحْيى هٰذا، عنِ الثَّوْرِيِّ، [حَدَّ]ثَنا مُحَمَّدُ بنُ أَيُّوبَ الجُوزْجانِيُّ، عن مُجالِدٍ، عنِ الشَّعْبِيِّ، عنِ الأسْوَدِ، عن عائِشَةَ؛ مرفوعًا: «مَنِ انْتَعَلَ لِيَتَعَلَّمَ خيرًا؛ غُفِرَ لهُ قبلَ أنْ يَخْطُوَ»[1].

وقد رَواهُ: عَبْدُالرَّحْمٰنِ بنُ مُحَمَّدٍ المُحارِبِيُّ، عن فِطْرٍ[2]، عن أبي الطُّفَيْلِ، عن عَلِيٍّ.

وهٰذهِ الأسانيدُ، وإنْ لمْ تكُنْ بمفردِها[3] حجَّةً، فطَلَبُ العلمِ مِن أفضلِ الحسناتِ، والحسناتُ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ، فجديرٌ أنْ يَكونَ طلبُ العلمِ ابْتغاءَ وجهِ اللهِ يُكَفِّرُ ما مَضى مِن السَّيِّئاتِ؛ فقد دَلَّتِ النُّصوصُ أنَّ إتباعَ السَّيِّئةِ الحسنةَ يَمْحوها، فكيفَ بما هوَ مِن أفضلِ الحسناتِ وأجلِّ الطَّاعاتِ؟! فالعمدةُ على ذٰلكَ لا على حديثِ أبي داوود[4]. واللهُ أعلمُ.

وقد رُوِيَ عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنهُ: إنَّ الرَّجلَ لَيَخْرُجُ مِن منزلِهِ وعليهِ مِن الذُّنوبِ مثلُ جبلِ تِهامَةَ، فإذا سَمِعَ العلمَ؛ خافَ ورَجَعَ وتابَ، فانْصَرَفَ إلى منزلِهِ وليسَ عليهِ ذنبٌ. فلا تُفارِقوا مجالسَ العلماءِ /خ١٢٢/!

● **الوجهُ الثَّاني والسِّتُّونَ**: ما رَواهُ ابنُ ماجَه في «سننه» مِن حديثِ عَبْدِاللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ [رَضِيَ اللهُ عنهُما]؛ قالَ: خَرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ، فإذا في المسجدِ مجلسانِ: مجلسٌ يَتَفَقَّهونَ، ومجلسٌ يَدْعونَ اللهَ تَعالى ويَسْألونَهُ. فقالَ: «كلا

---

(١) (موضوع). رواه: ابن شاهين في «الترغيب» (٢١٩)، والسهلكي في «حديثه» (١/ ٢٨٩- مفتاح دار السعادة ط. ابن عفان)، والشيرازي في «الألقاب» (١/ ٢٨٩- مفتاح دار السعادة)، وابن القيّم تعليقًا؛ من طريق إسماعيل بن يحيى التيمي، عن الثوريّ، [ثنا محمّد بن أيّوب الجوزجانيّ]، عن مجالد، عن الشعبيّ، عن الأسود، عن عائشة... مرفوعًا.

وهٰذا ساقط: إسماعيل كذّاب يضع، ومحمّد بن أيّوب الجوزجانيّ ما عرفته، ومجالد ضعيف. والحديث أودعه الألباني في «الضعيفة».

(٢) في خ: «ما رواه قطر... يرويه عن قطر... المحاريّ عن قطر»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٣) ولا بمجموعها؛ لسقوطها وشدّة ضعفها.

(٤) يعني: إنّما يستند في إثبات هٰذا الوجه وهٰذه الدعوى على الأصول الشرعيّة المذكورة لا على حديث أبي داوود نقيع الأعمى الكذّاب؛ فإنّه ساقط لا يشدّه أصل ولا فرع.

المجلسينِ إلى خيرٍ: أمَّا هٰؤلاءِ؛ فيَدْعونَ اللهَ، وأمَّا هٰؤلاءِ؛ فيَتَعَلَّمونَ ويُفَقِّهونَ الجاهلَ. هٰؤلاءِ أفضلُ، بالتَّعليمِ أُرسِلْتُ». ثمَّ قعَدَ معَهُم[1].

● **الوجهُ الثَّالثُ والسِّتُّونَ**: أنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالى يُباهي ملائكتَهُ بالقومِ الذينَ يَتَذاكَرونَ العلمَ ويَذْكُرونَ اللهَ ويَحْمَدونَهُ على ما مَنَّ عليهِم بهِ منهُ.

قالَ التِّرْمِذِيُّ[2]: حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ بَشَّارٍ، [حَدَّ]ثَنا مَرْحومُ بنُ عَبْدِالعَزيزِ العَطَّارُ، [حَدَّ]ثَنا أبو نَعامَةَ، عن أبي عُثْمانَ، عن أبي سَعيدٍ؛ قالَ: خَرَجَ مُعاوِيَةُ إلى المسجدِ، فقالَ: ما يُجْلِسُكُم؟ قالوا: جَلَسْنا نَذْكُرُ اللهَ عَزَّ وجَلَّ. قالَ: آللهِ ما أَجْلَسَكُمْ إلاَّ ذٰلكَ؟ قالوا: آللهِ ما أجْلَسَنا إلاَّ ذٰلكَ. قالَ: أمَا إنِّي لمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تهمةً لكُم، وما كانَ أحدٌ بمنزلتي مِن رسولِ اللهِ ﷺ أقلَّ حديثًا عنهُ منِّي. إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ على حَلْقَةٍ مِن أصحابِهِ؛ قالَ: «ما يُجْلِسُكُم؟». قالوا: جَلَسْنا نَذْكُرُ اللهَ ونَحْمَدُهُ لِما هَدانا للإسلامِ ومَنَّ علينا بكَ. قالَ: «آللهِ ما أَجْلَسَكُم إلاَّ ذٰلكَ؟». قالوا: آللهِ ما أجْلَسَنا إلاَّ ذٰلكَ. قالَ: «أمَا إنِّي لمْ أَسْتَحْلِفْكُم تهمةً لكُم، إنَّهُ أتاني جِبْريلُ فأَخْبَرَني أنَّ اللهَ تَعالى يُباهي بكُمُ الملائكةَ». قالَ التِّرْمِذِيُّ: هٰذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نَعْرِفُهُ إلاَّ مِن هٰذا الوجهِ، وأبو نَعامَةَ السَّعْدِيُّ آسمُهُ عَمْرُو بنُ عيسى[3]، وأبو عُثْمانَ النَّهْدِيُّ آسمُهُ عَبْدُالرَّحْمٰنِ بنُ مُلٍّ.

---

(١) (ضعيف). رواه: ابن المبارك (١٣٨٨)، والطيالسي (٢٢٥١)، والدارمي (١/ ٩٩)، وابن ماجه (المقدّمة، ١٧ـ فضل العلماء، ١/ ٨٣/ ٢٢٩)، والحارث في «المسند» (٤٠ـ زوائد الهيثمي)، والبزّار (٢٤٥٨)، والطبراني (١/ ١١٢ـ إتحاف السادة)، وابن السنّي في «الرياض» (١/ ١١٢ـ إتحاف السادة)، وابن شاهين في «السنّة» (٤٩)، والبيهقي في «المدخل» (٤٦٢ و٤٦٣)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٦٠)، والخطيب في «الفقيه والمتفقّه» (١/ ١٠ و١١)؛ من طرق، عن عبدالرحمٰن بن زياد بن أنعم، عن عبدالرحمٰن بن رافع (وفي ابن ماجه: عبدالله بن يزيد)، عن ابن عمرو. . . رفعه.

قال البوصيري: «إسناده ضعيف، داوود وبكر وعبدالرحمٰن كلّهم ضعفاء». قلت: داوود متروك وبكر ضعيف، ولٰكنّهما توبعا، فالعلّة من عبدالرحمٰن بن زياد بن أنعم؛ فإنّه منكر الحديث، ومن ابن رافع؛ فإنّه ضعيف، ولا يفرح بمتابعة ابن يزيد له عند ابن ماجه؛ فإنّها من منكرات داوود التي لم يتابعه عليها أحد. والحديث ضعّفه البوصيري والعراقي والألباني.

(٢) (٤٩ـ الدعوات، ٧ـ القوم يجلسون فيذكرون، ٥/ ٤٦٠/ ٣٣٧٩). ورواه أيضًا مسلم (٤٨ـ الذكر، ١١ـ فضل الاجتماع على القرآن، ٤/ ٢٠٧٥/ ٢٧٠١) فأغنانا عن التطويل في دراسة أسانيده.

(٣) تعقّبه المزّي في «تحفة الأشراف» (١١٤١٦) بقوله: «كذا قال، وهو وهم، إنّما هو عبد ربّه كما=

فهٰؤلاءِ كانوا قد جَلَسوا؛ يَحْمَدونَ اللهَ بذكرِ أوصافِهِ وآلائِهِ، ويُثْنونَ عليهِ بذٰلكَ، ويَذْكُرونَ حسنَ الإسلامِ، ويَعْتَرِفونَ للهِ بالفضلِ العظيمِ إذْ هَداهُمْ لهُ ومَنَّ عليهِم برسولِهِ. وهٰذا أشرفُ علمٍ على الإطلاقِ، ولا يُعْنى بهِ إلَّا الرَّاسخونَ في العلمِ؛ فإنَّهُ يَتَضَمَّنُ معرفةَ اللهِ /خ١٢٣/ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ودينِهِ ورسولِهِ ومحبَّةَ ذٰلكَ وتعظيمَهُ والفرحَ بهِ، وأحرى بأصحابِ هٰذا العلمِ أنْ يُباهِيَ[١] اللهُ بهِمُ الملائكةَ.

وقد بَشَّرَ النَّبيُّ ﷺ الرَّجلَ الذي كانَ يُحِبُّ سورةَ الإخلاصِ وقالَ أُحِبُّها لأنَّها صفةُ الرَّحْمٰنِ عَزَّ وجَلَّ، فقالَ: «حبُّكَ إيَّاها أدْخَلَكَ الجنَّةَ»[٢]، وفي لفظٍ آخرَ[٣]: «أخْبِروهُ أنَّ اللهَ يُحِبُّهُ»[٤]. فدَلَّ على أنَّ مَن أحَبَّ صفاتِ اللهِ؛ أحَبَّهُ اللهُ وأدْخَلَهُ الجنَّةَ.

والجَهْمِيَّةُ أشدُّ النَّاسِ نفرةً وتنفيرًا عن صفاتِهِ ونعوتِ كمالِهِ، يُعاقِبونَ ويَذُمُّونَ مَن يَذْكُرُها ويَقْرَؤُها ويَجْمَعُها ويَعْتَني بها، ولهٰذا لهُمُ المقتُ والذَّمُّ عندَ الأُمَّةِ وعلى لسانِ كلِّ [عالمٍ مِن] علماءِ الإسلامِ، واللهُ تَعالى أشدُّ بغضًا ومقتًا لهُم؛ جزاءً وفاقًا.

● **الوجهُ الرَّابعُ والسِّتُّونَ**: أنَّ أفضلَ منازلِ الخلقِ عندَ اللهِ منزلةُ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ،

= تقدّم، وأمّا عمرو بن عيسى؛ فهو أبو نعامة العدويّ، شيخ آخر». وتعقّب العسقلاني في «تهذيب التهذيب» (١٢/ ٢٨٢) المزّي فقال: «جزم بذٰلك، مع أنّه حكي عن ابن حبّان ما يقتضي أنّه اختلف فيه».

(١) في خ: «عبدالرحمٰن بن مكّيّ... وأخبر بأصحاب هٰذا العلم أنّه يباهي»! والتصويب من ط.

(٢) (صحيح). علّقه البخاري في «صحيحه» (١٠ـ الأذان، ١٠٦ـ الجمع بين السورتين، ٢/ ٢٥٥/ ٧٧٤م). ووصله: أحمد (٣/ ١٤٠ و١٤١ و١٥٠)، وعبد بن حميد في «المسند» (١٣٠٦ و١٣٧٤ـ منتخب)، والدارمي (٢/ ٤٦٠)، والترمذي (٤٦ـ فضائل القرآن، ١١ـ الإخلاص، ٥/ ١٧٠/ ٢٩٠١)، وأبو يعلى (٣٣٣٥ و٣٣٣٦)، وابن خزيمة (٥٣٧)، وابن الأعرابي (١١٤٣)، وابن حبّان (٧٩٢ و٧٩٤)، والطبراني في «الأوسط» (٩٠٢)، وابن السنّي في «اليوم والليلة» (٦٩٠)، والحاكم (١/ ٢٤٠)، والبيهقي في «السنن» (٢/ ٦٠ و٦١) و«الشعب» (٢٥٤٠ و٢٥٤١)، والخطيب في «التاريخ» (٥/ ٢٦٣)، والبغوي في «السنّة» (١٢١٠) و«التفسير» (٥/ ٦٥٢)، والرافعي في «التدوين» (٣/ ١٨٨)، والضياء في «المختارة» (١٧٤٩-١٧٥١)، والعسقلاني في «تغليق التعليق» (٢/ ٣١٤ و٣١٥)؛ من طرق ثلاث، عن ثابت، عن أنس... رفعه.

وإحدى هٰذه الطرق الثلاث حسنة لذاتها، والأخريان صالحتان، والحديث بمجموع طرقه صحيح، وقد صحّحه الترمذي وابن خزيمة وابن حبّان والدارقطني والحاكم والضياء والعسقلاني والألباني.

(٣) هو حديث آخر في قصّة أخرى كما رجّحه العسقلاني في «الفتح» (٢/ ٢٥٨).

(٤) رواه: البخاري (٩٧ـ التوحيد، ١ـ دعاء النبيّ ﷺ أمّته إلى التوحيد، ١٣/ ٣٤٧/ ٧٣٧٥)، ومسلم (٦ـ المسافرين، ٤٥ـ فضل قل هو الله أحد، ١/ ٥٥٧/ ٨١٣)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

فاللهُ يَصْطَفِي مِن الملائكةِ رسلاً ومِن النَّاسِ. وكيفَ لا يَكونُ أفضلَ الخلقِ عندَ اللهِ مَن: جَعَلَهُم وسائطَ بينَهُ وبينَ عبادِهِ في تبليغِ رسالاتِهِ وتعريفِ أسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ[١] وأحكامِهِ ومراضيهِ ومساخطِهِ وثوابِهِ وعقابِهِ، وخَصَّهُم بوحيِهِ، وٱخْتَصَّهُم بتفضيلِهِ، وٱرْتَضاهُم لرسالتِهِ إلى عبادِهِ، وجَعَلَهُم أزكى العالَمينَ نفوسًا وأشرفَهُم أخلاقًا وأكملَهُم علومًا وأعمالاً وأحسنَهُم خلقةً وأعظمَهُم محبَّةً وقبولاً في قلوبِ النَّاسِ، وبَرَّأهُم مِن كلِّ وصمٍ و[كلِّ] عيبٍ[٢] وكلِّ خُلُقٍ دنيءٍ؟!

وجَعَلَ أشرفَ مراتبِ النَّاسِ بعدَهُم مرتبةَ خلافتِهِم ونيابتِهِم في أُممِهِم؛ فإنَّهُم يَخْلُفونَهُم على منهاجِهِم وطريقتِهِم؛ مِن نصيحتِهِمُ الأُمَّةَ، وإرشادِهِمُ الضَّالَّ، وتعليمِهِمُ الجاهلَ، ونصرِهِمُ المظلومَ، وأخذِهِم على يدِ الظَّالمِ، وأمرِهِم بالمعروفِ وفعلِهِ، ونهيِهِم عنِ المنكرِ وتركِهِ، والدَّعوةِ إلى اللهِ بالحكمةِ للمستجيبينَ والموعظةِ الحسنةِ للمعرضينَ [و]الغافلينَ والجدالِ بالتي[٣] هيَ أحسنُ للمعاندينَ المعارضينَ /خ١٢٤/. فهٰذهِ حالُ أتباعِ المرسلينَ وورثةِ النَّبيِّينَ.

قالَ [اللهُ] تعالى: ﴿قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]. وسواءٌ كانَ المعنى: أنا ومَنِ ٱتَّبَعَني على بصيرةٍ وأنا أدْعو إلى اللهِ، أوِ المعنى: أدْعو إلى اللهِ [أنا ومَنِ ٱتَّبَعَني] على بصيرةٍ؛ فالقولانِ متلازمانِ؛ فإنَّهُ لا يَكونُ مِن أتباعِهِ حقًّا إلاَّ مَن دَعا [إلى اللهِ] على بصيرةٍ[٤] كما كانَ متبوعُهُ يَفْعَلُ.

فهٰؤلاءِ خلفاءُ الرُّسلِ [حقًّا] وورثتُهُم دونَ النَّاسِ، وهُم أُولو العلمِ الذينَ قاموا بما جاءَ بهِ علمًا وعملاً وهدايةً وإرشادًا وصبرًا وجهادًا، وهٰؤلاءِ هُمُ الصِّدِّيقونَ وهُم أفضلُ أتباعِ الأنبياءِ ورأْسُهُم إمامُهُمُ الصِّدِّيقُ الأكبرُ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ.

قالَ [اللهُ] تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ [عَلَيْهِمْ]

---

(١) في ط: «والذمّ عند الأئمّة وعلى... أسمائه وأفعاله وصفاته». والأولى ما أثبتّه من خ.

(٢) في خ: «في القلوب الناس...»، وفي ط: «... وصم وعيب».

(٣) في ط: «وطريقهم من نصيحتهم للأمّة...»، وفي خ: «... الغافلين والجواب بالتي».

(٤) في خ: «وأنا أدعو إلى الله على بصيرة أو المعنى أدعو إلى الله على بصيرة والقولان...»، وفي ط: «... أو المعنى أدعو إلى الله على بصيرة فالقولان... من دعا على بصيرة»، والأولى ما أثبتّه.

مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفيقًا . ذٰلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَليمًا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠]. فذَكَرَ مراتبَ السُّعداءِ وهيَ أربعةٌ، وبَدَأَ بأعلاهُم مرتبةً ثمَّ الذينَ يَلونَهُم إلى آخرِ المراتبِ، وهٰؤلاءِ الأربعةُ هُم أهلُ الجنَّةِ الذينَ هُم أهلُها جَعَلَنا اللهُ منهُم بمنِّهِ وكرمِهِ.

● **الوجهُ الخامسُ والسِّتُّونَ**: أنَّ الإنسانَ إنَّما يُمَيَّزُ على غيرِهِ مِن الحيواناتِ بفضيلةِ العلمِ والبيانِ، وإلاَّ؛ فغيرُهُ مِن الدَّوابِّ والسِّباعِ أكثرُ أكلاً منهُ وأقوى بطشًا وأكثرُ جماعًا وأولادًا وأطولُ أعمارًا[1]، وإنَّما مُيِّزَ على الدَّوابِّ والحيواناتِ بعلمِهِ وبيانِهِ، فإذا عَدِمَ العلمَ؛ بَقِيَ معَهُ القدرُ المشتركُ بينَهُ وبينَ سائرِ الدَّوابِّ، وهيَ الحيوانيَّةُ المحضةُ، فلا يَبْقى فيهِ فضلٌ عليهِم، بل قد يَبْقى شرًّا منهُم:

كما قالَ تَعالى في هٰذا الصِّنفِ مِن النَّاسِ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذينَ لا[2] يَعْقِلونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]: فهٰؤلاءِ همُ الجهَّالُ، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]؛ أي: ليسَ عندَهُم محلٌّ قابلٌ للخيرِ، ولو كانَ محلُّهُم قابلاً للخيرِ؛ لأَسْمَعَهُم؛ أي: لأفْهَمَهُم، فالسَّمعُ هاهُنا سمعُ فهمٍ، وإلاَّ؛ فسمعُ الأصواتِ حاصلٌ لهُم، وبهِ قامَتْ حجَّةُ اللهِ عليهِم، قالَ [اللهُ] تَعالى /خ١٢٥/: ﴿وَلا تكونوا كَالَّذينَ قالوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

وقالَ تَعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذينَ كَفَروا كَمَثَلِ الَّذي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعاءً وَنِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. وسواءٌ كانَ المعنى: ومثلُ داعي الذينَ كَفَروا كمثلِ الذي يَنْعِقُ بما لا يَسْمَعُ مِن الدَّوابِّ إلاَّ أصواتًا مجرَّدةً، أو كانَ المعنى: ومثلُ الذينَ كَفَروا حينَ يُنادَوْنَ كمثلِ دوابِّ الذي يَنْعِقُ بها فلا تَسْمَعُ إلاَّ أصواتَ الدُّعاءِ والنِّداءِ، فالقولانِ متلازمانِ، بل هُما واحدٌ، وإنْ كانَ التَّقديرُ الثَّاني أقربَ إلى اللفظِ

---

(١) في خ: «وأطول عمرًا». يريد أنّ: بعض السباع أكثر أكلاً من الإنسان، وبعضها أقوى بطشًا، وبعضها أكثر جماعًا وأولادًا، وبعضها أطول أعمارًا. ومن المستقرّ في علم الحيوان المقارن المعاصر أنّ الإنسان من أكثر الحيوانات جماعًا ولا أقول أكثرها. وكذلك الحال بالنسبة للطعام، فأكثر الحيوانات لا تأكل فوق حاجتها بخلاف الإنسان، ولا يعرف في الحيوان من يأكل للتسلية والتفكّه وتمضية الوقت.

(٢) في خ: «فلا يبقى فيه فضلاً . . . الذي لا»! والصواب ما أثبتّه من ط.

وأبلغَ في المعنى، فعلى التَّقديرينِ لَمْ يَحْصُلْ لهُم مِن الدَّعوةِ إلَّا الصَّوتُ الحاصلُ للأنعامِ.

فهٰؤلاءِ لَمْ يَحْصُلْ لهُم حقيقةُ الإنسانيَّةِ التي يُمَيَّزُ بها صاحبُها عن سائرِ الحيوانِ.

والسَّمعُ: يُرادُ بِهِ إدراكُ الصَّوتِ، ويُرادُ بِهِ فهمُ المعنى، ويُرادُ بِهِ القبولُ والإجابةُ.

والثَّلاثةُ في القرآنِ:

فمِن الأوَّلِ: قولُهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتي تُجادِلُكَ في زَوْجِها وَتَشْتكي إلى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إنَّ اللهَ سَميعٌ بَصيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وهٰذا أصرحُ ما يكونُ في إثباتِ صفةِ السَّمعِ [للهِ][١]؛ ذَكَرَ الماضيَ والمضارعَ وٱسمَ الفاعلِ[٢]؛ سَمِعَ و يَسْمَعُ وهوَ سميعٌ ولهُ السَّمعُ، كما قالَتْ عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عنها: الحمدُ للهِ الذي وَسِعَ سمعُهُ الأصواتَ، لقد جاءَتِ المجادِلةُ تَشْكو إلى رسولِ اللهِ ﷺ وأنا في جانبِ البيتِ[٣]، وإنَّهُ لَيَخْفى عليَّ بعضُ كلامِها، فأنْزَلَ اللهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتي تُجادِلُكَ في زَوْجِها [وَتَشْتكي إلى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما][١]﴾ [المجادلة: ١][٤].

والثَّاني: سمعُ الفهمِ، كقولِهِ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾؛ أي:

---

(١) ساقطة من ط.

(٢) لأنّ (سميع) صيغة مبالغة من ٱسم الفاعل (سامع).

(٣) في خ: «وأنا في جانب البيت وإنّه في جانب البيت»، وهٰذا سهو صوابه ما أثبتّه من ط.

(٤) (**صحيح**). علّقه البخاري (٩٧ـ التوحيد، ٩ـ وكان الله سميعًا بصيرًا، ١٣/ ٣٧٢). ووصله: إسحاق في «المسند» (١/ ١٠٤/ ٨)، وأحمد (٦/ ٤٦)، وعبد بن حميد (١٥١٤)، وابن ماجه (المقدّمة، ١٣ـ ما أنكرت الجهميّة، ١/ ٦٧/ ١٨٨ و٢٠٦٣)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (٦٢٥)، والنسائي (٢٧ـ الطلاق، ٣٣ـ الظهار، ٦/ ١٦٨/ ٣٤٦٠)، وأبو يعلى (٤٧٨٠)، وابن جرير (٣٣٧٢٥-٣٣٧٢٨)، وابن أبي حاتم (المجادلة ١ـ ابن كثير)، والآجرّي في «الشريعة» (٧٦٢ و٧٦٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٩١)، والحاكم (٢/ ٤٨١)، واللالكائي في «الاعتقاد» (٦٨٩)، والبيهقي (٧/ ٣٨٢) وفي «الصفات» (٣٨٥) و«الاعتقاد» (ص٨٥)، والواحدي في «النزول» (ص٢٢٧)، وابن بشكوال في «الغوامض» (١/ ٢٦٠)، والعسقلاني في «التغليق» (٥/ ٣٣٨)؛ من طرق، عن الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عروة، عن عائشة... به.

وهٰذا سند صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، إلّا تميمًا فمن رجال مسلم وحده، ولذٰلك صحّحه الحاكم والذهبي والعسقلاني والألباني.

لأفْهَمَهُم. ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]؛ لِما في قلوبِهِم مِنَ الكبرِ والإعراضِ عن قبولِ الحقِّ، ففيهم آفتانِ: إحداهُما: أنَّهُم لا يَفْهَمونَ الحقَّ لجهلِهِم. ولو فَهِموهُ؛ لَتَوَلَّوْا عنهُ [وهُم معرضونَ عنهُ] لكبرِهِم[1]. وهٰذا غايةُ النَّقصِ والعيبِ.

والثَّالثُ: سمعُ القبولِ والإجابةِ، كقولِهِ تَعالى: ﴿لَوْ خَرَجوا فيكُمْ ما زادوكُمْ /خ١٢٦/ إلَّا خَبالاً وَلأَوْضَعوا خِلالَكُمْ يَبْغونَكُمُ الفِتْنَةَ وَفيكُمْ سَمَّاعونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]؛ أي: قابلونَ مستجيبونَ. ومنهُ قولُهُ [تَعالى]: ﴿سَمَّاعونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]؛ أي: قابلونَ لهُ مستجيبونَ لأهلِهِ. ومنهُ قولُ المصلِّي: سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَهُ؛ أي: أجابَ اللهُ حمدَ مَن حَمِدَهُ ودعاءَ مَن دَعاهُ. وقولُ النَّبيِّ ﷺ: «إذا قالَ الإمامُ: سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَهُ؛ فقولوا: ربَّنا! ولكَ الحمدُ؛ يَسْمَعِ اللهُ لَكُم»[2]؛ أي: يُجيبُكُم.

والمقصودُ أنَّ الإنسانَ إذا لَمْ يَكُنْ لهُ علمٌ بما يُصْلِحُهُ في معاشِهِ ومعادِهِ؛ كانَ الحيوانُ البهيمُ خيرًا منهُ؛ لسلامتِهِ في المعادِ ممَّا يُهْلِكُهُ دونَ الإنسانِ الجاهلِ.

● **الوجهُ السَّادسُ والسِّتُّونَ**: أنَّ العلمَ حاكمٌ على [كلِّ] ما سواهُ ولا يَحْكُمُ عليهِ شيءٌ. فكلُّ شيءٍ ٱخْتُلِفَ في وجودِهِ وعدمِهِ وصحَّتِهِ وفسادِهِ ومنفعتِهِ ومضرَّتِهِ ورجحانِهِ ونقصانِهِ وكمالِهِ ونقصِهِ ومدحِهِ وذمِّهِ ومرتبتِهِ في الخيرِ وجودتِهِ ورداءتِهِ وقربِهِ وبعدِهِ وإفضائِهِ إلى مطلوبٍ كذا [وعدمِ إفضائِهِ وحصولِ المقصودِ بهِ] وعدمِ حصولِهِ... إلى سائرِ جهاتِ المعلوماتِ[3]، فالعلمُ حاكمٌ على ذٰلكَ كلِّهِ، فإذا حَكَمَ العلمُ؛ ٱنْقَطَعَ النِّزاعُ ووَجَبَ الاتِّباعُ. وهوَ الحاكمُ على الممالكِ والسِّياساتِ والأموالِ والأقلامِ: فملكٌ لا يَتَأَيَّدُ بعلمٍ لا يَقومُ، وسيفٌ بلا علمٍ مخراقُ لاعبٍ، وقلمٌ بلا علمٍ حركةُ عابثٍ. والعلمُ مسلَّطٌ حاكمٌ على ذٰلكَ كلِّهِ ولا يَحْكُمُ شيءٌ مِن ذٰلكَ على العلمِ.

وقدِ ٱخْتُلِفَ في تفضيلِ مدادِ العلماءِ على دمِ الشُّهداءِ وعكسِهِ، وذُكِرَ لكلِّ قولٍ

---

(١) يعني: والثانية: أنّهم لو فهموه لتولّوا عنه لكبرهم. وبئست الآفتان الجهل والكبر.

(٢) رواه مسلم (٤ـ الصلاة، ١٦ـ التشهّد في الصلاة، ١/ ٣٠١/ ٤٠٢) عن أبي موسى الأشعريّ.

(٣) في خ: «الخير وجوده ورداثه وقربه وبعده وقضائه إلى... سائر جهاته المعلومات».

وجوهٌ مِن التَّراجيحِ والأدلَّةِ.

ونفسُ هٰذا النِّزاعِ دليلٌ على تفضيلِ العلمِ ومرتبتِهِ؛ فإنَّ الحاكمَ في هٰذهِ المسألةِ هوَ العلمُ، فبهِ[١] وإليهِ وعندَهُ يَقَعُ التَّحاكمُ والتَّخاصمُ، والمفضَّلُ منهُما مَن حَكَمَ لهُ بالفضلِ.

فإن قيلَ: فكيفَ يُقْبَلُ حكمُهُ لنفسِهِ[٢]؟ قيلَ: وهٰذا أيضًا دليلٌ على تفضيلِهِ وعلوِّ مرتبتِهِ وشرفِهِ؛ فإنَّ الحاكمَ إنَّما لمْ يَسُغْ أنْ يَحْكُمَ لنفسِهِ لأجلِ مظِنَّةِ التُّهمةِ، والعلمُ /خ١٢٧/ لا تَلْحَقُهُ تهمةٌ في حكمِهِ لنفسِهِ؛ فإنَّهُ إذا حَكَمَ؛ حَكَمَ بما تَشْهَدُ العقولُ والفطرُ بصحَّتِهِ وتَتَلَقَّاهُ بالقبولِ، ويَسْتَحيلُ حكمُهُ لتهمةٍ؛ فإنَّهُ إذا حَكَمَ بها؛ ٱنْعَزَلَ عن مرتبتِهِ وٱنْحَطَّ عن درجتِهِ. فهوَ الشَّاهدُ المزكَّى المعدَّل، والحاكمُ الذي لا يَجورُ ولا يُعْزَل.

فإن قيلَ: فماذا حَكَمَ في هٰذهِ المسألةِ التي ذَكَرْتُموها؟ قيلَ: هٰذهِ المسألةُ كَثُرَ فيها الجدال وٱتَّسَعَ المجال[٣]، وأدْلى كلٌّ منهُما بحجَّتِهِ وٱسْتَعْلى بمرتبتِهِ. والذي يَفْصِلُ النِّزاعَ ويُعيدُ المسألةَ إلى مواقعِ الإجماعِ: [الكلامُ] في أنواعِ مراتبِ الكمالِ، وذكرُ الأفضلِ منها، والنَّظرُ في أيِّ هٰذينِ الأمرينِ أولى بهِ وأقربُ إليهِ. فهٰذهِ الأُصولُ الثَّلاثةُ تُبَيِّنُ الصَّواب ويَقَعُ بها فصلُ الخطاب.

فأمَّا مراتبُ الكمالِ؛ فأربعٌ: النُّبوَّةُ، والصِّدِّيقيَّةُ، والشَّهادةُ، والولايةُ.

وقد ذَكَرَها اللهُ سبحانَهُ في قولِهِ [تَعالى]: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ [عَلَيْهِمْ] مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفيقًا . ذٰلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفى بِاللهِ عَليمًا﴾ [النساء: ٦٩].

---

(١) في خ: «ولا يحكم بشيء من... دم الشهيد... العلم فيه»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٢) الأقرب أنّ التحاكم في هٰذه القضيّة إنّما وقع بين يدي العقل لا بين يدي العلم، وإنّما كان العلم صاحب الأدلّة وباسط البيّنات. نعم؛ عقل الجاهل لا يكون حكمًا ولا يرقى لذٰلك، فبان أنّ العقل لا يكون حكمًا إلّا بالعلم، وصحّت القضيّة.

(٣) في خ: «تشهد به العقول... وٱتّسع المجادل»، وفي ط: «... العقول والنظر بصحّته... فماذا حكمه...».

وذَكَرَ تَعالى هٰؤلاءِ الأربعَ في سورةِ الحديد: فذَكَرَ تَعالى الإيمانَ بهِ وبرسولِهِ، ثمَّ نَدَبَ المؤمنينَ إلى أنْ تَخْشَعَ قلوبُهُم لكتابِهِ ووحيِهِ، ثمَّ ذَكَرَ مراتبَ الخلائقِ شقيِّهِم وسعيدِهِم، فقالَ: ﴿إنَّ المُصَّدِّقينَ وَالمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَريمٌ . وَالَّذينَ آمَنوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقونَ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنورُهُمْ وَالَّذينَ كَفَروا وَكَذَّبوا بِآياتِنا أُولٰئِكَ أَصْحابُ الجَحيمِ﴾ [الحديد: ١٨-١٩]، وذَكَرَ المنافقينَ قبلَ ذٰلكَ. فٱسْتَوْعَبَتْ هٰذهِ الآيةُ أقسامَ العبادِ شقيِّهِم وسعيدِهِم.

والمقصودُ أنَّهُ ذَكَرَ فيها المراتبَ الأربعةَ: الرِّسالةَ، والصِّدِّيقيَّةَ، والشَّهادةَ، والولايةَ.

فأعلى هٰذهِ المراتبِ النُّبوَّةُ والرِّسالةُ.

ويَليها الصِّدِّيقيَّةُ، فالصِّدِّيقونَ هُم أئمَّةُ أتباعِ /خ١٢٨/ الرُّسلِ، ودرجتُهُم أعلى الدَّرجاتِ بعدَ النُّبوَّةِ.

فإنْ جَرى قلمُ العالِمِ بالصِّدِّيقيَّةِ وسالَ مدادُهُ بها؛ كانَ أفضلَ مِن دمِ الشَّهيدِ الذي لمْ يَلْحَقْهُ في رتبةِ الصِّدِّيقيَّةِ، وإنْ سالَ دمُ الشَّهيدِ بالصِّدِّيقيَّةِ وقَطَرَ عليها؛ [كانَ أفضلَ مِن مدادِ العالِمِ الذي قَصَّرَ عنها]، فأفضلُهُما صدِّيقُهُما، فإنِ ٱسْتَوَيا[1] في الصِّدِّيقيَّةِ ٱسْتَوَيا في المرتبةِ، واللهُ أعلمُ[2].

والصِّدِّيقيَّةُ هيَ كمالُ الإيمانِ بما جاءَ بهِ الرَّسولُ علمًا وتصديقًا وقيامًا بهِ، فهيَ راجعةٌ إلى نفسِ العلمِ، فكلُّ مَن كانَ أعلمَ بما جاءَ بهِ الرَّسولُ وأكملَ تصديقًا لهُ كانَ أتمَّ صدِّيقيَّةً. فالصِّدِّيقيَّةُ شجرةٌ: أصولُها العلمُ، وفروعُها التَّصديقُ، وثمرتُها العملُ.

فهٰذهِ كلماتٌ جامعةٌ في مسألةِ العالِمِ والشَّهيدِ وأيُّهما أفضلُ.

● **الوجهُ السَّابعُ والسِّتُّونَ**: أنَّ النُّصوصَ النَّبويَّةَ قد تَواتَرَتْ بأنَّ أفضلَ الأعمالِ

---

(١) في خ: «وأفضلهما صديقهما فإذا ٱستويا»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٢) فعاد الأمر إلى إسقاط المفاضلة بين مداد العالم ودم الشهيد ونقضها من الأساس، وأنّ المفاضلة إنّما ترجع إلى ما في قلب كلّ منهما من الإيمان وما في عمل كلّ منهما من الخير والبركة والإخلاص.

إيمانٌ باللهِ[١]. فهوَ رأْسُ الأمرِ، والأعمالُ بعدَهُ على مراتبِها ومنازلِها. والإيمانُ لهُ ركنانِ: أحدُهُما: معرفةُ ما جاءَ بهِ الرّسولُ والعلمُ بهِ، والثّاني: تصديقُهُ بالقولِ والعملِ. والتّصديقُ بدونِ العلمِ والمعرفةِ محالٌ؛ فإنّهُ فرعُ العلمِ بالشّيءِ المصدّقِ بهِ[٢]. فإذًا؛ العلمُ مِن الإيمانِ بمنزلةِ الرُّوحِ مِن الجسدِ، ولا تَقومُ شجرةُ الإيمانِ إلَّا على ساقِ العلمِ والمعرفةِ. فالعلمُ إذًا أجلُّ المطالبِ وأسنى المواهبِ.

● **الوجهُ الثّامنُ والسّتُّونَ**: [أنَّ] صفاتِ الكمالِ كلَّها تَرْجِعُ إلى العلمِ والقدرةِ والإرادةِ. والإرادةُ فرعُ العلمِ؛ فإنَّها تَسْتَلْزِمُ الشُّعورَ بالمرادِ، فهيَ مفتقرةٌ إلى العلمِ في ذاتِها وحقيقتِها. والقدرةُ لا تُؤثِّرُ إلَّا بواسطةِ الإرادةِ. والعلمُ لا يَفْتَقِرُ في تعلُّقِهِ بالمعلومِ إلى واحدةٍ منهُما، وأمَّا القدرةُ والإرادةُ فكلٌّ منهُما يَفْتَقِرُ في تعلُّقِهِ بالمرادِ والمقدورِ إلى العلمِ. وذٰلكَ يَدُلُّ على فضلِهِ وشرفِ منزلتِهِ /خ١٢٩/.

● **الوجهُ التّاسعُ والسّتُّونَ**: أنَّ العلمَ أعمُّ[٣] الصِّفاتِ تعلُّقًا بمتعلَّقِهِ وأوسعُها؛ فإنَّهُ يَتَعَلَّقُ بالواجبِ والممكنِ والمستحيلِ والجائزِ والموجودِ والمعدومِ... فذاتُ الرَّبِّ سبحانَهُ وصفاتُهُ وأسماؤُهُ معلومةٌ لهُ، ويَعْلَمُ العبادُ مِن ذٰلكَ ما عَلَّمَهُمُ العليمُ الخبيرُ. وأمَّا القدرةُ والإرادةُ؛ فكلٌّ منهُما خاصُّ التَّعلُّقِ: أمَّا القدرةُ؛ فإنَّما تَتَعَلَّقُ بالممكنِ خاصَّةً لا بالمستحيلِ ولا بالواجبِ، فهيَ أخصُّ مِن العلمِ مِن هٰذا الوجهِ، وأعمُّ مِن الإرادةِ؛ فإنَّ الإرادةَ لا تَتَعَلَّقُ إلَّا ببعضِ الممكناتِ، وهوَ ما أُريدَ وجودُهُ. فالعلمُ أوسعُ وأعمُّ وأشملُ في ذاتِهِ ومتعلَّقِهِ.

● **الوجهُ السّبعونَ**: أنَّ اللهَ سبحانَهُ أَخْبَرَ عن أهلِ العلمِ بأنَّهُ جَعَلَهُم أئمَّةً يَهْدونَ بأمرِهِ ويَأْتَمُّ بهِم مَن بعدَهُم:

فقالَ تَعالى: ﴿وَجَعَلْنا [مِنـ]ـهُمْ أئِمَّةً يَهْدونَ بِأمْرِنا لَمَّا صَبَروا وَكانوا بِآياتِنا يُوقِنونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

---

(١) كما سيأتي من قريب.

(٢) في خ: «ما جاء به الرسول والعمل به... والمصدّق به»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٣) في خ: «في تعلّقه بالمطلق إلى... أنّه أعمّ»، وفي ط: «... على فضيلته وشرف...».

وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿[و]الَّذينَ يقولونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيّاتِنا قُرَّةَ أعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقينَ إمامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]؛ أي: أئمَّةً يَقْتَدي بنا مَن بعدَنا.

فأخْبَرَ سبحانَهُ أنْ بالصَّبرِ واليقين تُنالُ الإمامةُ في الدِّين، وهيَ أرفعُ مراتبِ الصِّدِّيقين. واليقينُ هوَ كمالُ العلمِ وغايتُهُ. فبتكميلِ مرتبةِ العلمِ تَحْصُلُ إمامةُ الدِّينِ، وهيَ ولايةٌ آلتُها العلمُ، يَخْتَصُّ اللهُ بِها مَن يَشاءُ مِن عبادِهِ.

● **الوجهُ الحادي والسَّبعونَ**: أنَّ حاجةَ العبادِ إلى العلمِ ضروريَّةٌ فوقَ حاجةِ الجسمِ إلى الغذاءِ؛ لأنَّ الجسمَ يَحْتاجُ إلى الغذاءِ في اليومِ مرَّةً أو مرَّتينِ، وحاجةُ الإنسانِ إلى العلمِ بعددِ الأنفاسِ؛ لأنَّ كلَّ نفسٍ مِن أنفاسِهِ فهوَ محتاجٌ فيهِ إلى أنْ يَكونَ مصاحبًا لإيمانٍ أو حكمةٍ، فإنْ فارَقَهُ الإيمانُ أوِ الحكمةُ[١] في نفسٍ مِن أنفاسِهِ؛ فقد عَطِبَ وقَرُبَ هلاكُهُ، وليسَ إلى حصولِ ذٰلكَ سبيلٌ إلَّا بالعلمِ، فالحاجةُ إليهِ فوقَ الحاجةِ إلى الطَّعامِ والشَّرابِ /خ١٣٠/ .

وقد ذَكَرَ الإمامُ أحْمَدُ هٰذا المعنى بعينِهِ، فقالَ: النَّاسُ أحوجُ إلى العلمِ منهُم إلى الطَّعامِ والشَّرابِ؛ لأنَّ الطَّعامَ والشَّرابَ يُحْتاجُ إليهِ في اليومِ مرَّةً أو مرَّتينِ، والعلمُ يُحْتاجُ إليهِ في كلِّ وقتٍ.

● **الوجهُ الثَّاني والسَّبعونَ**: أنَّ صاحبَ العلمِ أقلُّ تعبًا وعملاً وأكثرُ أجرًا.

واعْتَبِرْ هٰذا بالشَّاهدِ؛ فإنَّ الصُّنَّاعَ والأُجراءَ يُعانونَ الأعمالَ الشَّاقَّةَ بأنفسِهِم، والأُستاذُ المعلِّمُ يَجْلِسُ ويَأْمُرُهُم ويَنْهاهُم ويُريهِم كيفيَّةَ العملِ، ويَأْخُذُ أضعافَ ما يَأْخُذونَهُ.

وقد أشارَ النَّبيُّ ﷺ إلى هٰذا المعنى حيثُ قالَ: «أفضلُ الأعمالِ: إيمانٌ باللهِ، ثمَّ الجهادُ [في سبيلِهِ]»[٢]. فالجهادُ فيه بذلُ النَّفسِ وغايةُ المشقَّةِ، والإيمانُ علمُ القلبِ

---

(١) في خ: «أن يكون مصاحبًا للإيمان وحكمه فإن فارقه الإيمان وحكمه»! والصواب ما أثبتّه من ط.

(٢) سقطت «في سبيله» من ط و«سبيله» من خ وأضفتها من مصادر التخريج.

والحديث رواه: البخاري (٢ـ الإيمان، ١٨ـ الإيمان هو العمل، ١/ ٧٧/ ٢٦، ٤٩ـ العتق، ٢ـ أيّ الرقاب أفضل، ٥/ ١٤٨/ ٢٥١٨)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٣٦ـ الإيمان بالله أفضل الأعمال، ١/ ٨٨/ ٨٣ و٨٤)؛ من حديث أبي هريرة وأبي ذرّ على الترتيب.

وعملُهُ وتصديقُهُ، وهوَ أفضلُ الأعمالِ، معَ أنَّ مشقَّةَ الجهادِ فوقَ مشقَّتِهِ بأضعافٍ مضاعفةٍ. وهٰذا لأنَّ العلمَ يُعَرِّفُ مقاديرَ الأعمالِ ومراتبَها؛ فاضلَها مِن مفضولِها وراجحَها مِن مرجوحِها، فصاحبُهُ لا يَخْتارُ لنفسِهِ إلاَّ أفضلَ الأعمالِ. والعاملُ بلا علمٍ يَظُنُّ أنَّ الفضيلةَ في كثرةِ المشقَّةِ، فهوَ يَتَحَمَّلُ المشاقَّ، وإنْ كانَ ما يُعانيهِ مفضولاً، وربَّ عملٍ فاضلٍ [و]المفضولُ أكثرُ مشقَّةً منهُ.

واْعْتَبِرْ هٰذا بحالِ الصِّدِّيقِ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]؛ فإنَّهُ أفضلُ الأُمَّةِ، ومعلومٌ أنَّ فيهِم مَن هوَ أكثرُ عملاً وحجًّا وصومًا وصلاةً وقراءةً منهُ، قالَ أبو بَكْرِ بنُ عَيَّاشٍ: ما سَبَقَهُم أبو بَكْرٍ بكثرةِ صومٍ ولا صلاةٍ، ولٰكنْ بشيءٍ وَقَرَ في قلبِهِ.

وهٰذا موضعُ المثلِ المشهورِ:

مَـــنْ لـــي بِمِثْـــلِ سَيْـــرِكَ المُـــدَلَّـــلِ   تَمْشـــي رُوَيْـــدًا[1] وَتَجـــي فـــي الأوَّلِ

● **الوجهُ الثَّالثُ والسَّبعونَ:** أنَّ العلمَ إمامُ العملِ وقائدٌ لهُ، والعملُ تابعٌ لهُ ومؤتَمٌّ بهِ. فكلُّ عملٍ لا يَكونُ خلفَ العلمِ مقتديًا بهِ فهوَ غيرُ نافعٍ لصاحبِهِ بل مضرَّةٌ عليهِ، كما قالَ بعضُ السَّلفِ /خ١٣١/ : مَن عَبَدَ اللهَ بغيرِ علمٍ؛ كانَ ما يُفْسِدُ أكثرَ ممَّا يُصْلِحُ. والأعمالُ إنَّما تَتَفاوَتُ في القبولِ والرَّدِّ بحسبِ موافقتِها للعلمِ ومخالفتِها لهُ، فالعملُ الموافقُ للعلمِ هوَ المقبولُ[2] والمخالفُ [لهُ] هوَ المردودُ، فالعلمُ هوَ الميزانُ وهوَ المحكُّ.

قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿الَّذي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزيزُ الغَفورُ﴾ [الملك: ٢]: قالَ الفُضَيْلُ بنُ عِياضٍ: هوَ أَخْلَصُ العملِ وأصوبُهُ. قالوا: يا أبا عَلِيٍّ! ما أخلصُهُ وأصوبُهُ؟ قالَ: إنَّ العملَ إذا كانَ خالصًا ولمْ يَكُنْ صوابًا؛ لم يُقْبَلْ، وإذا كانَ صوابًا ولمْ يَكُنْ خالصًا؛ لم يُقْبَلْ، حتَّى يَكونَ خالصًا صوابًا. فالخالصُ أنْ يَكونَ للهِ، والصَّوابُ أنْ يَكونَ على السُّنَّةِ.

---

(١) في خ: «ومع أنّ مشقّة... يختار لنفسه من أفضل... تمشي الهويدا»، وفي ط: «... ما سبقكم أبو بكر...».

(٢) في خ: «فالعلم الموافق للعمل هو المقبول»! والصواب ما أثبتّه من ط.

وقد قالَ تَعالى: ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]: فهٰذا هوَ العلمُ المقبولُ الذي لا يَقْبَلُ اللهُ مِن الأعمالِ سواهُ، وهوَ أنْ يَكونَ: موافقًا لسنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، مرادًا[ا] بهِ وجهُ اللهِ.

ولا يَتَمَكَّنُ العاملُ مِن الإتيانِ بعملٍ يَجْمَعُ هٰذينِ الوصفينِ إلاَّ بالعلمِ؛ فإنَّهُ إنْ لمْ يَعْلَمْ ما جاءَ بهِ الرَّسولُ؛ لمْ يُمْكِنْهُ قصدُهُ، وإنْ لمْ يَعْرِفْ معبودَهُ؛ لمْ يُمْكِنْهُ إرادتُهُ وحدَهُ. فلولا العلمُ؛ لَما كانَ عملُهُ مقبولاً. فالعلمُ: هوَ الدَّليلُ على الإخلاصِ، وهوَ الدَّليلُ على المتابعةِ(١).

وقد قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]. وأحسنُ ما قيلَ في تفسيرِ الآيةِ أنَّهُ: إنَّما يَتَقَبَّلُ [اللهُ] عملَ مَنِ اتَّقاهُ في ذٰلكَ العملِ، وتقواهُ فيهِ أنْ يَكونَ لوجهِهِ على موافقةِ أمرِهِ. وهٰذا إنَّما يَحْصُلُ بالعلمِ.

وإذا كانَ هٰذا منزلةَ العلمِ وموقعَهُ؛ عُلِمَ أنَّهُ أشرفُ شيءٍ وأجلُّهُ وأفضلُهُ. واللهُ أعلمُ.

● **الوجهُ الرَّابعُ والسَّبعونَ**: أنَّ العاملَ بلا علمٍ كالسَّائرِ [على الطَّريقِ] بلا دليلٍ(٢). ومعلومٌ أنَّ عَطَبَ مثلِ هٰذا أقربُ مِن سلامتِهِ، وإنْ قُدِّرَ سلامتُهُ اتِّفاقًا نادرًا؛ فهوَ غيرُ محمودٍ، بل مذمومٌ عندَ العقلاءِ.

وكانَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ يقولُ: مَن فارَقَ الدَّليلَ؛ ضَلَّ [عنِ] السَّبيلِ، ولا دليلَ إلاَّ بما جاءَ بهِ الرَّسولُ.

قالَ الحَسَنُ: العاملُ /خ١٣٢/ على غيرِ علمٍ كالسَّالكِ على غيرِ طريقٍ، والعاملُ على غيرِ علمٍ [ما] يُفْسِدُ أكثرُ ممَّا يُصْلِحُ. فاطْلُبوا العلمَ طلبًا لا تَضُرُّوا بالعبادةِ، واطْلُبوا العبادةَ طلبًا لا تَضُرُّوا بالعلمِ؛ فإنَّ قومًا طَلَبوا العبادةَ وتَرَكوا العلمَ حتَّى خَرَجوا بأسيافِهِم على أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ولو طَلَبوا العلمَ؛ لمْ يَدُلَّهُم على ما فَعَلوا.

والفرقُ بينَ هٰذا الوجهِ وبينَ ما قبلَهُ: أنَّ العلمَ مرتبتُهُ في [الوجهِ الأوَّلِ مرتبةُ

---

(١) يعني أنّ العلم الصحيح هو الذي يهدي صاحبه إلى إخلاص العمل لله واتّباع سنّة رسول الله.

(٢) في ط: «إنّما يتقبّل عمل... هٰذا منزل العلم... كالسائر بلا دليل»، والأولى ما أثبتّه من خ.

المطاعِ المتبوعِ المقتدى بهِ المتَّبَعِ لحكمِهِ المطاعِ أمرُهُ، ومرتبتُهُ في] هٰذا الوجهِ مرتبةُ الدَّليلِ[1] المرشدِ إلى المطلوبِ الموصلِ إلى الغايةِ.

● **الوجهُ الخامسُ والسَّبعونَ**: أنَّ النَّبيَّ ﷺ ثَبَتَ في «الصَّحيح»[2] عنهُ أنَّهُ كانَ يَقولُ: «اللهمَّ! ربَّ جَبْرائيلَ وميكائيلَ وإسْرافيلَ! فاطرَ السَّماواتِ والأرضِ! عالمَ الغيبِ والشَّهادةِ! أنتَ تَحْكُمُ بينَ عبادِكَ فيما كانوا فيهِ يَخْتَلِفونَ، اهْدِني لِما اخْتُلِفَ فيهِ مِن الحقِّ بإذنِكَ؛ إنَّكَ تَهْدي مَن تَشاءُ إلى صراطٍ مستقيم». وفي بعضِ «السُّنن» أنَّهُ كانَ يُكَبِّرُ تكبيرةَ الإحرامِ في صلاةِ الليلِ ثمَّ يَدْعو بهٰذا الدُّعاءِ[3].

والهدايةُ هيَ العلمُ بالحقِّ معَ قصدِهِ وإيثارِهِ على غيرِهِ، فالمهتدي هوَ العالمُ بالحقِّ المريدُ لهُ.

وهيَ أعظمُ نعمةٍ للهِ على العبدِ.

ولهٰذا أمَرَنا سبحانَهُ أنْ نَسْألَهُ هدايةَ الصِّراطِ المستقيمِ كلَّ يومٍ وليلةٍ في صلواتِنا الخمسِ: فإنَّ العبدَ محتاجٌ إلى معرفةِ الحقِّ الذي يُرْضي اللهَ في كلِّ حركةٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ، فإذا عَرَفَها؛ فهوَ محتاجٌ إلى مَن يُلْهِمُهُ قصدَ الحقِّ فيَجْعَلُ إرادتَهُ في قلبِهِ، ثمَّ إلى مَن يُقَدِّرُهُ على فعلِهِ. ومعلومٌ أنَّ ما يَجْهَلُهُ العبدُ أضعافُ أضعافِ ما يَعْلَمُهُ، وأنَّ كلَّ ما يَعْلَمُ[4] أنَّهُ حقٌّ لا تُطاوِعُهُ نفسُهُ على إرادتِهِ، ولو أرادَتْهُ؛ لعَجَزَ عن كثيرٍ منهُ. فهوَ مضطرٌّ كلَّ وقتٍ إلى هدايةٍ تَتَعَلَّقُ بالماضي وبالحالِ وبالمستقبلِ: أمَّا الماضي؛ فهوَ

---

(١) في ط: «ضلّ السبيل... علم يفسد أكثر...»، وفي خ: «... وإنّ قومًا... مرتبة والدليل»!

(٢) مسلم (٦ـ المسافرين، ٢٦ـ الدعاء في صلاة الليل، ١/ ٥٣٤/ ٧٧٠) من طريق عكرمة بن عمّار، ثنا يحيى بن أبي كثير، ثني أبو سلمة بن عبدالرحمٰن بن عوف؛ قال: سألت عائشة أمّ المؤمنين: بأيّ شيء كان نبيّ الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ فالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته... فذكرته.

(٣) **(صحيح)**. رواه: أبو داوود (٢ـ الصلاة، ١٢١ـ ما يستفتح به الصلاة، ١/ ٢٦٣/ ٧٦٨)، وأبو نعيم في «المستخرج» (١٧٦٠)؛ من طريقين قويتين، عن عكرمة بن عمّار... به فذكره وزاد: كان يكبّر ويفتتح صلاته... إلخ. وهٰذه طريق مسلم المتقدّمة نفسها، فالزيادة صحيحة ثابتة.

* تنبيه: أتبع ابن القيّم زيادة أبي داوود بلفظ مسلم لبيان أنّ هٰذا الدعاء من أدعية الاستفتاح لا من أدعية الاستيقاظ لصلاة الليل. وهٰذا يدلّ على أنّه من الأدعية الجليلة وأنّ النبيّ ﷺ كان يكرّره.

(٤) في ط: «فالمهتدي هو العامل... كلّ ما يعلمه»، وفي خ: «... نعمة الله...».

محتاجٌ إلى محاسبةِ نفسِهِ عليهِ؛ وهل وَقَعَ على السَّدادِ فيَشْكُرَ اللهَ عليهِ ويَسْتَديمَهُ، أم خَرَجَ فيهِ عنِ الحقِّ فيَتوبَ إلى اللهِ [تَعالى] منهُ ويَسْتَغْفِرَهُ ويَعْزِمَ على أنْ لا يَعودَ؟ وأمَّا الهدايةُ في الحالِ؛ فهيَ مطلوبةٌ منهُ؛ فإنَّهُ /خ١٣٣/ ابنُ وقتِهِ، فيَحْتاجُ أنْ يَعْلَمَ حكمَ ما هوَ متلبِّسٌ بهِ[١] مِن الأفعالِ هل هوَ صوابٌ أمْ خطأٌ؟ وأمَّا المستقبلُ؛ فحاجتُهُ فيهِ إلى الهدايةِ أظهرُ؛ لِيَكونَ سيرُهُ على الطَّريقِ.

وإذا كانَ هٰذا شأنَ الهدايةِ؛ عُلِمَ أنَّ العبدَ أشدُّ شيءٍ ٱضطرارًا إليها، وأنَّ ما يُورِدُهُ بعضُ النَّاسِ مِن السُّؤالِ الفاسدِ، وهوَ أنَّا إذا كُنَّا مهتدينَ؛ فأيُّ حاجةٍ بنا أنْ نَسْأَلَ اللهَ أنْ يَهْدِيَنا؟! وهل هٰذا إلَّا تحصيلُ الحاصلِ؟! [هٰذا] أفسدُ سؤالٍ وأبعدُهُ عنِ الصَّوابِ، وهوَ دليلٌ على أنَّ صاحبَهُ لمْ يُحَصِّلْ معنى الهدايةِ ولا أحاطَ علمًا بحقيقتِها ومسمَّاها! فلذٰلكَ تكَلَّفَ مَن تَكَلَّفَ الجوابَ عنهُ بأنَّ المعنى: ثَبِّتْنا على الهدايةِ وأدِمْها لنا!

ومَن أحاطَ علمًا بحقيقةِ الهدايةِ وحاجةِ العبدِ إليها؛ عَلِمَ أنَّ الذي لمْ يَحْصُلْ لهُ منها أضعافُ ما حَصَلَ لهُ[٢]، وأنَّـ[ـهُ] كلَّ وقتٍ محتاجٌ إلى هدايةٍ متجدِّدةٍ، لا سيَّما واللهُ تَعالى خالقُ أفعالِ القلوبِ والجوارحِ، فهوَ كلَّ وقتٍ محتاجٌ [إلى] أنْ يَخْلُقَ اللهُ لهُ هدايةً خاصَّةً، ثمَّ إنْ لمْ يَصْرِفْ عنهُ الموانعَ والصَّوارفَ التي تَمْنَعُ موجَبَ الهدايةِ وتَصْرِفُها؛ لمْ يَنْتَفِعْ بالهدايةِ ولمْ يَتِمَّ مقصودُها لهُ؛ فإنَّ الحكمَ لا يَكْفي فيهِ وجودُ مقتضيهِ، بل لا بدَّ معَ ذٰلكَ مِن عدمِ مانعِهِ[٣] ومنافيهِ. ومعلومٌ أنَّ وساوسَ العبدِ وخواطرَهُ وشهواتِ الغَيِّ في قلبِهِ كلٌّ منها مانعٌ من وصولِ أثرِ الهدايةِ إليهِ، فإنْ لمْ يَصْرِفْها اللهُ عنهُ؛ لمْ يَهْتَدِ هدًى تامًّا. فحاجتُهُ إلى هدايةِ اللهِ لهُ مقرونةٌ بأنفاسِهِ، وهيَ أعظمُ حاجةٍ للعبدِ.

وذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ في [هٰذا] الدُّعاءِ العظيمِ القدرِ مِن أوصافِ اللهِ وربوبيَّتِهِ ما يُناسِبُ المطلوبَ:

---

(١) في ط: «ولولا إرادته لعجز... وبالحال والمستقبل...»! وفي خ: «... ملتبس به».
(٢) في ط: «الحاصل أفسد سؤال...»، وفي خ: «... إليها أعلم أن... ما يحصل له».
(٣) في ط: «محتاج أن يخلق...»، وفي خ: «... من عدوّ مانعه».

فإنَّ «فاطرَ السَّماواتِ والأرضِ» توسُّلٌ إلى اللهِ بهٰذا الوصفِ في الهدايةِ للفطرةِ التي ٱبْتَدَأ الخلقَ عليها، فذَكَرَ كونَهُ فاطرَ السَّماواتِ والأرضِ.

والمطلوبُ تعليمُ الحقِّ[1] والتَّوفيقُ لهُ، فذَكَرَ علمَهُ سبحانَهُ بالغيبِ والشَّهادةِ. وإنَّ مَن هوَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ جديرٌ أنْ يَطْلُبَ منهُ عبدُهُ أنْ يُعَلِّمَهُ /خ١٣٤/ ويُرْشِدَهُ ويَهْدِيَهُ، وهوَ بمنزلةِ: التَّوسُّلِ إلى الغنيِّ بغناهُ وبسعةِ كرمِهِ أنْ يُعْطِيَ عبدَهُ شيئًا مِن مالِهِ، والتَّوسُّلِ إلى الغفورِ بسعةِ مغفرتِهِ أنْ يَغْفِرَ لعبدِهِ، وبعفوِهِ أنْ يَعْفُوَ عنهُ، وبرحمتِهِ أنْ يَرْحَمَهُ... ونظائرِ ذٰلكَ.

وذَكَرَ ربوبيَّتَهُ تَعالى لجَبْرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، وهٰذا ـ واللهُ أعلمُ ـ لأنَّ المطلوبَ هدًى يَحْيا بِهِ القلبُ[2]، وهٰؤلاءِ الثَّلاثةُ الأملاكُ قد جَعَلَ اللهُ [تَعالى] على أيديهِم أسبابَ حياةِ العبادِ: أمَّا جَبْرائيلُ؛ فهوَ صاحبُ الوحيِ الذي يوحيهِ اللهُ إلى الأنبياءِ، وهوَ سببُ حياةِ الدُّنيا والآخرةِ. وأمَّا ميكائيلُ؛ فهوَ الموكَّلُ بالقَطْرِ الذي بِهِ سببُ حياةِ كلِّ شيءٍ. وإمَّا إسرافيلُ؛ فهوَ الذي يَنْفُخُ في الصُّورِ فيُحْيي اللهُ الموتى بنفختِهِ فإذا هُم قيامٌ لربِّ العالمينَ.

والهدايةُ لها أربعُ مراتبَ، وهيَ مذكورةٌ في القرآنِ:

المرتبةُ الأولى: الهدايةُ العامَّةُ، وهي هدايةُ كلِّ مخلوقٍ مِن الحيوانِ والآدميِّ لمصالحِهِ التي بها قيامُ أمرِهِ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الأعْلى . الَّذي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذي قَدَّرَ فَهَدى﴾ [الأعلى: ١-٣]: فذَكَرَ أُمورًا[ا] أربعةً؛ الخلقَ والتَّسويةَ والتَّقديرَ والهدايةَ، فسَوَّى ما خَلَقَهُ وأَتْقَنَهُ وأَحْكَمَهُ[3]، ثمَّ قَدَّرَ لهُ أسبابَ مصالحِهِ في معاشِهِ وتقلُّباتِهِ وتصرُّفاتِهِ وهَداهُ إليها. والهدايةُ تعليمٌ، فذَكَرَ أنَّهُ الذي خَلَقَ وعَلَّمَ.

كما ذَكَرَ نظيرَ ذٰلكَ في أوَّلِ سورةٍ أنْزَلَها على رسولِهِ، و[قد] تَقَدَّمَ

---

(١) في ط: «في الدعاء العظيم... فإنّ فطر...»! وفي خ: «... فإنّ فطر... تعليمه الحقّ».

(٢) في ط: «وسعة كرمه...»، وفي خ: «... يحيي به القلوب».

(٣) في ط: «لمصالحه التي بها قام أمره...»، وفي خ: «... وأتقنه وحكّمه».

ذٰلكَ(١).

وقالَ [اللهُ] تَعالى حكايةً عن عدوِّهِ فِرْعَوْنَ أنَّهُ قالَ لموسى: ﴿فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى . قالَ رَبُّنا الَّذي أعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ [طه: ٤٩-٥٠].

وهٰذهِ المرتبةُ أسبقُ مراتبِ الهدايةِ وأعمُّها.

المرتبةُ الثَّانيةُ: هدايةُ البيانِ والدّلالةِ التي أقامَ بها حجّتَهُ على عبادِهِ. وهٰذهِ لا تَسْتَلْزِمُ الاهتداءَ [التَّامَّ].

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمى عَلى الهُدى﴾ [فصلت: ١٧]؛ يَعْني: بيَّنَّا لهُم ودَلَلْناهُم /خ١٣٥/ وعرَّفْناهُم فآثَروا الضَّلالةَ والعمى.

وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَعادًا وَثَمودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبيلِ وَكانوا مُسْتَبْصِرينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وهٰذهِ المرتبةُ أخصُّ مِن الأولى وأعمُّ مِن **الثَّالثةِ** ـ وهيَ هدى التَّوفيقِ والإلهامِ ـ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَاللهُ يَدْعو إلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]: فعَمَّ بالدَّعوةِ خلقَهُ، وخَصَّ بالهدايةِ مَن شاءَ منهُم.

وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿إنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلٰكِنَّ اللهَ يَهْدي مَنْ يَشاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، معَ قولِهِ: ﴿وَإنَّكَ لَتَهْدي إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]: فأثْبَتَ هدايةَ الدَّعوةِ والبيانِ، ونَفى هدايةَ التَّوفيقِ والإلهامِ.

وقالَ النَّبيُّ ﷺ في تشهُّدِ الحاجةِ: «مَن يَهْدِ اللهُ؛ فلا مضلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ؛ فلا هاديَ لهُ»(٢).

وقالَ تَعالى: ﴿إنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإنَّ اللهَ لا يَهْدي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]؛ أي: [مَن] يُضِلُّهُ اللهُ لا يَهْتَدي أبدًا(٣).

---

(١) فانظره فيما تقدّم (١/ ١٩٢).

(٢) رواه مسلم (٧ـ الجمعة، ١٣ـ تخفيف الصلاة والخطبة، ٢/ ٥٩٣/ ٨٦٧ و٨٦٨) من حديث جابر بن عبدالله وابن عبّاس رضي الله عنهم على الترتيب.

(٣) في ط: «من شاء منهم قال الله...»، وفي خ: «... لا يهدى أبدًا».

وهٰذهِ الهدايةُ الثَّالثةُ هيَ الهدايةُ الموجِبةُ [و]المستلزِمةُ للاهتداءِ. و[أمَّا] الثَّانيةُ؛ فشرطٌ لا موجِبٌ، فلا يَسْتَحيلُ تخلُّفُ الهدى عنها، بخلافِ الثَّالثةِ؛ فإنَّ تخلُّفَ الهدى عنها مستحيلٌ.

المرتبةُ الرَّابعةُ: الهدايةُ في الآخرةِ إلى طريقِ الجنَّةِ والنَّارِ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ٱحْشُروا الَّذينَ ظَلَموا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانوا يَعْبُدونَ . مِنْ دونِ اللهِ فَٱهْدوهُمْ إلى صِراطِ الجَحيمِ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

وأمَّا قولُ أهلِ الجنَّةِ: ﴿الحَمْدُ لِلهِ الَّذي هَدانا لِهٰذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانا اللهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]؛ فيَحْتَمِلُ أنْ يكونوا أرادوا الهدايةَ إلى طريقِ الجنَّةِ وأنْ يكونوا أرادوا الهدايةَ في الدُّنيا التي أوْصَلَتْهُمْ إلى دارِ النَّعيمِ، ولو قيلَ: إنَّ كلا الأمرينِ مرادٌ لهُم، وإنَّهُم حَمَدوا اللهَ على هدايتِهِ لهُم في الدُّنيا وهدايتِهِم إلى طريقِ الجنَّةِ؛ كانَ أحسنَ وأبلغَ.

وقد ضَرَبَ اللهُ سبحانَهُ لمَن [لمْ] يَحْصُلْ لهُ العلمُ بالحقِّ وٱتِّباعُهُ مثلاً مطابقًا لحالِهِ، فقالَ تَعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعو مِنْ دونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانا اللهُ كَالَّذي ٱسْتَهْوَتْهُ الشَّياطينُ /خ١٣٦/ في الأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلى الهُدى ٱئْتِنا قُلْ إِنَّ هُدى اللهِ هُوَ الهُدى وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالَمينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

● **الوجهُ السَّادسُ والسَّبعونَ**: أنَّ فضيلةَ الشَّيءِ وشرفَهُ يَظْهَرُ: تارةً مِن عمومِ منفعتِهِ، وتارةً مِن شدَّةِ الحاجةِ إليهِ وعدمِ الاستغناءِ عنهُ، وتارةً مِن ظهورِ النَّقصِ والشَّرِّ بفقدِهِ، وتارةً مِن حصولِ اللذَّةِ والسُّرورِ والبهجةِ بوجودِهِ لكونِهِ محبوبًا ملائمًا فإدراكُهُ يُعْقِبُ غايةَ اللذَّةِ، وتارةً مِن كمالِ الثَّمرةِ المترتِّبةِ عليهِ وشرفِ علَّتِهِ الغائيَّةِ[1] وإفضائِهِ إلى أجلِّ المطالبِ... وهٰذهِ الوجوهُ ونحوُها تَنْشَأُ وتَظْهَرُ مِن متعلَّقِهِ. فإذا كانَ في نفسِهِ كمالاً وشرفًا بقطعِ النَّظرِ عن متعلَّقاتِهِ؛ جمعَ جهاتِ الشَّرفِ والفضلِ في نفسِهِ ومتعلَّقاتِهِ.

---

(١) العلّة الغائية: الغاية التي خلق لأجلها الشيء، أو فعل لأجلها الفعل، أو ترك لأجلها الأمر...

ومعلومٌ أنَّ هٰذه الجهاتِ بأسرِها حاصلةٌ للعلمِ:

فإنَّهُ أعمُّ شيءٍ نفعًا وأكثرُهُ وأدومُهُ.

والحاجةُ إليهِ فوقَ الحاجةِ إلى الغذاءِ، بل فوقَ الحاجةِ إلى النَّفَسِ؛ إذْ غايةُ ما يُتَصَوَّرُ مِن فقدِهما فقدُ حياةِ الجسمِ، وأمَّا فقدُ العلمِ؛ ففيهِ فقدُ حياةِ القلبِ والرُّوحِ، فلا غَناءَ للعبدِ عنهُ طرفةَ عينٍ. ولهٰذا؛ إذا فُقِدَ مِن الشَّخصِ؛ كانَ شرًّا مِن الحميرِ، بل كانَ شرَّ الدَّوابِّ[1] عندَ اللهِ، ولا شيءَ أنْقَصُ منهُ حينئذٍ.

وأمَّا حصولُ اللذَّةِ والبهجةِ بوجودِهِ؛ فلأنَّهُ كمالٌ في نفسِهِ، وهوَ ملائمٌ غايةَ الملاءمةِ للنُّفوسِ؛ فإنَّ الجهلَ مرضٌ ونقصٌ، وهوَ في غايةِ الإيذاءِ والإيلامِ للنَّفسِ، و[مَن] لمْ يَشْعُرْ بهٰذهِ الملاءمةِ والمنافرةِ؛ فهوَ لفقدِ حسِّهِ وموتِ نفسِهِ، وما لجُرحٍ بمَيِّتٍ إيلامٌ. فحصولُهُ للنَّفسِ إدراكٌ منها لغايةِ محبوبِها [واتِّصالٌ بهِ]، و[في] ذٰلكَ غايةُ لذَّتِها وفرحِها[2]. وهٰذا بحسبِ المعلومِ في نفسِهِ ومحبَّةِ النَّفسِ لهُ ولذَّتِها بقربِهِ، والعلومُ والمعلوماتُ متفاوتةٌ في ذٰلكَ أعظمَ التَّفاوتِ وأبينَهُ، فليسَ علمُ النُّفوسِ بفاطرِها وبارِيها ومبدعِها ومحبَّتُهُ /خ١٣٧/ والتَّقرُّبُ إليهِ كعلمِها بالطَّبيعةِ وأحوالِها وعوارضِها وصحَّتِها وفسادِها وحركاتِها.

وهٰذا يَتبَيَّنُ [بالوجهِ التَّالي]:

● **الوجهُ السَّابعُ والسَّبعونَ**: وهوَ أنَّ شرفَ العلمِ تابعٌ: لشرفِ معلومِهِ، ولوثوقِ النَّفسِ بأدلَّةِ وجودِهِ وبراهينِهِ، ولشدَّةِ الحاجةِ إلى معرفتِهِ وعظمِ النَّفعِ بها.

ولا ريبَ أنَّ أجلَّ معلومٍ وأعظمَهُ وأكبرَهُ فهوَ اللهُ، الذي لا إلٰهَ إلاَّ هوَ، ربُّ العالَمينَ، وقيُّومُ السَّماواتِ والأرَضينَ، الملكُ الحقُّ المبينُ، الموصوفُ بالكمالِ كلِّهِ، المنزَّهُ عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ وعن كلِّ تمثيلٍ وتشبيهٍ في كمالِهِ. ولا ريبَ أنَّ العلمَ بهِ وبأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ أجلُّ العلومِ وأفضلُها، ونسبتُهُ إلى سائرِ العلومِ كنسبةِ معلومِهِ

---

(١) في خ: «في نفسه ومتعلّقه ومعلوم...»، وفي ط: «... إلى التنفّس إذ... شرًّا من الدوابّ».

(٢) في خ: «الفقد جسمه... وذٰلك في غاية لذتها وفرحها»! وفي ط: «... وذٰلك غاية لذتها وفرحتها»! وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

إلى سائرِ المعلوماتِ.

وكما أنَّ العلمَ بِهِ أجلُّ العلومِ وأشرفُها فهوَ أصلُها كلِّها. فكما أنَّ كلَّ موجودٍ فهوَ مستندٌ في وجودِهِ إلى [الملكِ] الحقِّ المبينِ ومفتقرٌ إليهِ في تحقُّقِ ذاتِهِ وإنِّيَّتِهِ؛ فكلُّ[1] علمٍ فهوَ تابعٌ للعلمِ بِهِ مفتقرٌ في [تحقيقِ] ذاتِهِ إليهِ. فالعلمُ بِهِ أصلُ كلِّ علمٍ، كما أنَّهُ سبحانَهُ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ وموجدُهُ. ولا ريبَ أنَّ كمالَ العلمِ بالسَّببِ التَّامِّ وكونِهِ سببًا يَسْتَلْزِمُ العلمَ بمسبَّبِهِ كما أنَّ العلمَ بالعلَّةِ التَّامَّةِ ومعرفةَ كونِها علَّةً يَسْتَلْزِمُ العلمَ بمعلولِها، وكلُّ موجودٍ سوى اللهِ فهوَ مستندٌ في وجودِهِ إليهِ ٱستنادَ المصنوعِ إلى صانعِهِ والمفعولِ إلى فاعلِهِ، فالعلمُ بذاتِهِ سبحانَهُ وصفاتِهِ وأفعالِهِ يَسْتَلْزِمُ العلمَ بما سواهُ. فهوَ في ذاتِهِ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ، والعلمُ بِهِ أصلُ[2] كلِّ علمٍ ومنشؤُهُ. فمَن عَرَفَ اللهَ [عزَّ وجَلَّ]؛ عَرَفَ ما سواهُ، ومَن جَهِلَ ربَّهُ؛ فهوَ لِما سواهُ أجهلُ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ وَلا تكونوا كَالَّذينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]. فتأمَّلْ هٰذهِ [الآيةَ]؛ تَجِدْ تحتَها معنًى شريفًا عظيمًا، [وهوَ] أنَّ مَن نَسِيَ ربَّهُ؛ أنْساهُ ذاتَهُ ونفسَهُ، فلمْ يَعْرِفْ حقيقتَهُ ولا مصالحَهُ، بل نَسِيَ ما بِهِ صلاحُهُ وفلاحُهُ في معاشِهِ ومعادِهِ /خ١٣٨/ ، فصارَ معطَّلاً مهملاً بمنزلةِ الأنعامِ السَّائمةِ، بل ربَّما كانَتِ الأنعامُ أخبرَ بمصالحِها منهُ لبقائِها على هُداها التَّامِّ الذي أعْطاها إيَّاهُ خالقُها، وأمَّا هٰذا؛ فخَرَجَ عن فطرتِهِ التي خُلِقَ عليها، فنَسِيَ ربَّهُ، فأنْساهُ نفسَهُ وصفاتِها وما تَكْمُلُ بِهِ وتَزْكو بِهِ وتَسْعَدُ بِهِ في معاشِها ومعادِها.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَٱتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. فغَفِلَ عن ذكرِ ربِّهِ، فٱنْفَرَطَ عليهِ أمرُهُ وقلبُهُ، فلا ٱلتفاتَ لهُ إلى مصالحِهِ وكمالِهِ وما تَزْكو بِهِ نفسُهُ وقلبُهُ، بل هوَ مشتَّتُ القلبِ[3] مضيَّعُهُ منفرطُ الأمرِ

(١) في خ وط: «أصلها كلّها كما... وأينيّته كلّ»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه. والإنّيّة: الوجود.

(٢) في خ: «فكما أنّه سبحانه... العلم بالمعلوم وكلّ موجود... وأفعاله لم يستلزم... والعلم به أجلّ»! وفي ط: «... العلم بمعلوله وكلّ...»!

(٣) في خ: «وتستعدّ به في معاشها... مسيّب القلب»! والصواب ما أثبتّه من ط.

حيرانُ لا يَهْتَدي سبيلاً.

والمقصودُ أنَّ العلمَ باللهِ أصلُ كلِّ علمٍ، وهوَ أصلُ علمِ العبدِ بسعادتِهِ وكمالِهِ ومصالحِ دنياهُ وآخرتِهِ، والجهلُ بِهِ مستلزمٌ للجهلِ بنفسِهِ ومصالحِها وكمالِها وما تَزْكو بِهِ وتُفْلِحُ بِهِ. فالعلمُ بِهِ سعادةُ العبدِ، والجهلُ بِهِ أصلُ شقاوتِهِ[1].

[و]يَزيدُهُ إيضاحًا:

● **الوجهُ الثَّامنُ والسَّبعونَ**: أنَّهُ لا شيءَ أطيبُ للعبدِ ولا ألذُّ ولا أهنأُ ولا أنعمُ لقلبِهِ وعيشِهِ مِن محبَّةِ فاطرِهِ وبارِيهِ ودوامِ ذكرِهِ والسَّعيِ في مرضاتِهِ.

وهٰذا هو الكمالُ الذي لا كمالَ للعبدِ بدونِهِ، ولهُ خُلِقَ الخلقُ، ولأجلِهِ نَزَلَ الوحيُ وأُرْسِلَتِ الرُّسلُ وقامَتِ السَّماواتُ والأرضُ ووُجِدَتِ الجنَّةُ والنَّارُ، ولأجلِهِ شُرِعَتِ الشَّرائعُ ووُضِعَ البيتُ الحرامُ ووَجَبَ حجُّهُ على النَّاسِ إقامةً لذكرِهِ الذي هوَ مِن توابعِ محبَّتِهِ والرِّضى بِهِ وعنهُ، ولأجلِ هٰذا أُمِرَ بالجهادِ وضُرِبَـ[ـتْ] أعناقُ مَن أباهُ وآثَرَ غيرَهُ عليهِ وجُعِلَ لهُ في الآخرةِ دارُ الهوانِ خالدًا مخلَّدًا. وعلى هٰذا الأمرِ العظيمِ أُسِّسَتِ

---

(١) هاهنا ملاحظات أوجزها فيما يلي:

أوّلاً: اشتهر في العصور المتقدّمة أنّ الفلسفة أمّ العلوم، وذٰلك لأنّ دارسي العلوم كانوا يبتدئون بدراستها كما تقدّم تقريره (١/ ٤٩).

ثانيًا: والقول بأنّ «العلم بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه» وأنّه «أصل كلّ علم» وأنّ «كلّ علم فهو تابع للعلم به مفتقر في تحقيق ذاته إليه» إنّما قيل في مقابل القول الأوّل بالنّظر للسمعة السيّئة للفلسفة وضررها الخطير في أبواب الإلٰهيّات والنبوّات والأديان، فهو أقرب إلى ردّ الفعل منه إلى القول المبنيّ على المنهج العلميّ في البحث والنظر.

ثالثًا: ومن هنا كانت هٰذه المقولة موضع نظر كبير قديمًا وحديثًا: فأنت تعلم أنّ أغلب من نبغ قديمًا من الأطبّاء والفيزيائيّين والرياضيّين والطبائعيّين كانوا من أجهل الناس بأسماء الله وصفاته وأكثرهم ضلالاً فيها وتعطيلاً لها، وسيأتيك كلام كثير عن بعضهم على صفحات هٰذا الكتاب. وهٰذا أظهر وأظهر في حياتنا المعاصرة، فرؤوس هٰذه العلوم اليوم وأصولها بأيدي الكفرة والملحدين، والمسلمون عالة عليهم بكلّ ما في الكلمة من معنى؛ فكيف يقال بعد: العلم بالله وأسمائه وصفاته أصل الرياضيات والفيزياء والكيمياء وهو مستلزم للعلم بها؟!

رابعًا: وعليه؛ فالذي ينبغي أن نفهمه من العبارات المتقدّمة ونحملها عليه: أنّ العلم بذاته تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله هو أصل كلّ سعادة وفلاح للعبد في معاشه ومعاده، فلا تستقيم له علومه الدنيويّة والأخرويّة ولا ينتفع بها تمام الانتفاع إلاّ به. والله أعلم.

الملَّةُ ونُصِبَتِ القبلةُ، وهوَ قطبُ رحا الخلقِ والأمرِ الذي مدارُهُما عليهِ.

ولا سبيلَ إلى الدُّخولِ إلى ذٰلكَ إلَّا مِن بابِ العلمِ؛ فإنَّ محبَّةَ الشَّيءِ فرعٌ /خ١٣٩/ عنِ الشُّعورِ بهِ، وأعرفُ الخلقِ باللهِ أشدُّهُم حبًّا لهُ، فكلُّ مَن عَرَفَ اللهَ؛ أحبَّهُ، ومَن عَرَفَ الدُّنيا [وأهلَها]؛ زَهِدَ فيهِم. فالعلمُ يَفْتَحُ [هٰذا] البابَ[1] العظيمَ الذي هوَ سرُّ الخلقِ والأمرِ كما سَيَأْتي بيانُهُ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى.

● **الوجهُ التَّاسعُ والسَّبعونَ**: أنَّ اللذَّةَ بالمحبوبِ تَضْعُفُ وتَقْوى بحسبِ قوَّةِ الحبِّ وضعفِهِ، فكلَّما كانَ الحبُّ أقوى؛ كانَتِ اللذَّةُ أعظمَ. ولهٰذا تَعْظُمُ لذَّةُ الظَّمآنِ بشربِ الماءِ البارِدِ بحسبِ شدَّةِ طلبِهِ للماءِ، وكذٰلكَ الجائعُ، وكذٰلكَ مَن أحَبَّ شيئًا؛ كانَتْ لذَّتُهُ على قدرِ حبِّهِ إيَّاهُ. والحبُّ تابعٌ للعلمِ بالمحبوبِ ومعرفةِ جمالِهِ الظَّاهرِ والباطنِ؛ فلذَّةُ النَّظرِ إلى اللهِ بعدَ لقائِهِ بحسبِ قوَّةِ حبِّهِ وإرادتِهِ، وذٰلكَ بحسبِ العلمِ بهِ وبصفاتِ كمالِهِ. فإذًا؛ العلمُ هوَ أقربُ الطُّرقِ[2] إلى أعظمِ اللذَّاتِ. وسَيَأْتي تقريرُ هٰذا فيما بعدُ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى.

● **الوجهُ الثَّمانونَ**: أنَّ كلَّ ما سوى اللهِ مفتقرٌ إلى العلمِ لا قِوامَ لهُ بدونِهِ. فإنَّ الوجودَ وجودانِ؛ وجودُ الخلقِ ووجودُ الأمرِ، والخلقُ والأمرُ مصدرُهُما علمُ الرَّبِّ وحكمتُهُ، فكلُّ ما ضَمَّهُ الوجودُ مِن خلقِهِ وأمرِهِ صادرٌ عن علمِهِ وحكمتِهِ، فما قامَتِ السَّماواتُ والأرضُ وما بينَهُما إلَّا بالعلمِ، [ولا بُعِثَتِ الرُّسلُ وأُنْزِلَتِ الكتبُ إلَّا بالعلمِ]، ولا عُبِدَ اللهُ ووُحِّدَ وحُمِدَ وأُثْنِيَ عليهِ ومُجِّدَ إلَّا بالعلمِ، ولا عُرِفَ الحلالُ مِن الحرامِ إلَّا بالعلمِ، ولا عُرِفَ فضلُ الإسلامِ على غيرِهِ إلَّا بالعلمِ.

وٱخْتُلِفَ هُنا في مسألةٍ، وهيَ: أنَّ العلمَ صفةٌ فعليَّةٌ [أ]وِ ٱنفعاليَّةٌ؟

فقالَتْ طائفةٌ: هو صفةٌ فعليَّةٌ؛ لأنَّهُ شرطٌ أو جزءُ سببٍ في وجودِ المفعولِ؛ فإنَّ الفعلَ الاختياريَّ يَسْتَدْعي حياةَ الفاعلِ وعلمَهُ وقدرتَهُ وإرادتَهُ، ولا يُتَصَوَّرُ وجودُهُ بدونِ هٰذهِ الصِّفاتِ.

---

(١) في ط: «وعلى هٰذا الأثر العظيم... الدنيا زهد فيهم فالعلم يفتح الباب»! والتصويب من خ.

(٢) في خ: «به وصفات كماله فإذًا العلم هو أقرب الطريق»، والأولى ما أثبتّه من ط.

وقالَتْ طائفةٌ: هوَ /خ١٤٠/ انفعاليٌّ؛ فإنَّهُ تابعٌ للمعلومِ، متعلِّقٌ بهِ على ما هوَ [عليهِ]؛ فإنَّ[١] العالِمَ يُدْرِكُ المعلومَ على ما هوَ بهِ، فإدراكُهُ تابعٌ لهُ، فكيفَ يكونُ متقدِّمًا عليه؟!

والصَّوابُ أنَّ العلمَ قسمانِ: علمٌ فعليٌّ: وهوَ علمُ الفاعلِ المختارِ بما يُريدُ أنْ يَفْعَلَهُ؛ فإنَّهُ موقوفٌ على إرادتِهِ الموقوفةِ على تصوُّرِهِ المرادَ وعلمِهِ بهِ، فهٰذا علمٌ قبلَ الفعلِ متقدِّمٌ عليهِ مؤثِّرٌ فيهِ. وعلمٌ انفعاليٌّ: وهوَ العلمُ التَّابعُ للمعلومِ الذي لا تأْثيرَ لهُ فيهِ، كعلمِنا بوجودِ الأنبياءِ والأُممِ والملوكِ وسائرِ الموجوداتِ؛ فإنَّ هٰذا العلمَ لا يُؤَثِّرُ في المعلومِ ولا هوَ شرطٌ فيهِ.

فكلٌّ مِن الطَّائفتينِ نَظَرَتْ جزئيًّا وحَكَمَتْ كليًّا، وهٰذا موضعٌ يَغْلَطُ فيهِ كثيرٌ مِن النَّاسِ.

وكلا القسمينِ مِن العلمِ صفةُ كمالٍ وعدمُهُ مِن أعظمِ النَّقصِ.

يُوَضِّحُهُ:

● **الوجهُ الحادي والثَّمانونَ:** أنَّ فضيلةَ الشَّيءِ تُعْرَفُ بضدِّهِ؛

فَالضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ ... وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأشْيَاءُ

ولا ريبَ أنَّ الجهلَ أصلُ كلِّ فسادٍ، وكلُّ ضررٍ يَلْحَقُ العبدَ في دنياهُ وأُخراهُ فهوَ نتيجةُ الجهلِ، وإلاَّ؛ فمعَ العلمِ التَّامِّ بأنَّ هٰذا الطَّعامَ مثلاً مسمومٌ مَن أكَلَهُ قطَّعَ أمعاءَهُ في وقتٍ معيَّنٍ لا يُقْدِمُ على أكلِهِ، وإنْ قُدِّرَ أنَّهُ أقْدَمَ عليهِ لغلبةِ جوعٍ [أ]وِ استعجالِ وفاةٍ؛ فهوَ لعلمِهِ بموافقةِ أكلِهِ لمقصودِهِ الذي هو أحبُّ إليهِ مِن العذابِ بالجوعِ أو بغيرِهِ.

وهنا اخْتُلِفَ في مسألةٍ عظيمةٍ، وهيَ أنَّ العلمَ؛ هل يَسْتَلْزِمُ الاهتداءَ، ولا يَتَخَلَّفُ عنهُ الهدى إلاَّ لعدمِ العلمِ أو نقصِهِ، وإلاَّ فمعَ المعرفةِ الجازمةِ لا يُتَصَوَّرُ[٢] الضَّلالُ؟ أو أنَّهُ لا يَسْتَلْزِمُ الهدى، فقد يكونُ الرَّجلُ عالمًا وهوَ ضالٌّ على عمدٍ؟

هٰذا ممَّا اخْتَلَفَ فيهِ /خ١٤١/ المتكلِّمونَ وأربابُ السُّلوكِ وغيرُهُم!

---

(١) في ط: «وحده وحمد... ما هو فإنّ»، وفي خ: «... الحلال والحرام... جزاء سبب...».

(٢) في خ: «استعجال وقاءة فهو لعلم بموافقة أكله المقصودة... ألا يتصوّر»! والتصويب من ط.

* فقالَتْ فرقةٌ: مَن عَرَفَ الحقَّ معرفةً لا يَشُكُّ فيها؛ ٱسْتَحالَ أنْ لا يَهْتَدِيَ، وحيثُ ضَلَّ؛ فلنقصانِ علمِهِ.

وٱحْتَجُّوا مِن النُّصوصِ:

بقولِهِ تَعالى: ﴿لٰكِنِ الرَّاسِخونَ في العِلْمِ مِنْهُمْ وَالمُؤْمِنونَ يُؤْمِنونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢]: فشَهِدَ [اللهُ] تَعالى لكلِّ راسخٍ في العلمِ بالإيمانِ.

وبقولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وبقولِهِ تَعالى: ﴿وَيَرَى الَّذينَ أُوتوا العِلْمَ الَّذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ [هُوَ] الحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

وبقولِهِ [تَعالى]: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وأُولو العِلْمِ قائِمًا بِالقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وبقولِهِ [تَعالى]: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى﴾ [الرعد: ١٩]: قَسَمَ النَّاسَ قسمينِ: أحدُهُما: العلماءُ بأنَّ ما أُنْزِلَ إليهِ مِن ربِّهِ هوَ الحقُّ، الثَّاني: العُمْيُ. فدَلَّ على أنَّهُ لا واسطةَ بينَهُما.

وبقولِهِ تَعالى في وصفِ الكفَّارِ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وبقولِهِ: ﴿وَطَبَعَ اللهُ عَلى قُلوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمونَ﴾ [التوبة: ٩٣]، وبقولِهِ [تَعالى]: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلى قُلوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]. وهٰذِهِ مداركُ العلمِ الثَّلاثُ قد سُدَّتْ[1] عليهِم.

وكذٰلكَ قولُهُ تَعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ وأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْديهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]: وقولُهُ تَعالى ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ﴾: قالَ سَعيدُ بنُ جُبَيْرٍ: على علمِهِ تَعالى فيهِ، [و][2] قالَ الزَّجَّاجُ: أيْ: على ما سَبَقَ في علمِهِ تَعالى أنَّهُ ضالٌّ قبلَ أنْ

(١) في خ: «بما أنزل إليك من ربك وما... بقوله يطبع على...»، وفي ط: «... فسدت».
(٢) زيادة لا بدّ منها.

يَخْلُقَهُ. ﴿وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ﴾؛ [أي]: طَبَعَ عليهِ فلمْ يَسْمَعِ الهدى. ﴿وَعَلى قَلْبِهِ﴾: فلمْ يَعْقِلِ الهدى. ﴿وَعَلى بَصَرِهِ غِشاوَةٌ﴾: فهوَ لا يُبْصِرُ أسبابَ الهدى.

وهٰذا في القرآنِ كثيرٌ ممَّا يُبَيِّنُ فيهِ منافاةَ الضَّلالِ للعلمِ.

ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجوا مِنْ عِنْدِكَ قالوا لِلَّذينَ أُوتوا العِلْمَ ماذا قالَ آنِفًا أُولئِكَ الَّذينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلوبِهِمْ وَاتَّبَعوا أَهْواءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]: فلو كانوا عَلِموا ما قالَ الرَّسولُ [ﷺ]؛ لمْ يَسْأَلوا أهلَ العلمِ /خ١٤٢/ ماذا قالَ، ولَما كانَ مطبوعًا على قلوبِهِم!

وقالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿وَالَّذينَ كَذَّبوا بِآياتِنا صُمٌّ [و]بُكْمٌ في الظُّلُماتِ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وقالَ تَعالى: ﴿قُلْ آمِنوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنوا إِنَّ الَّذينَ أُوتوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقانِ سُجَّدًا. وَيَقولونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعولاً﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨]: فهٰذهِ شهادةٌ مِن اللهِ [تَعالى] لأُولي العلمِ بالإيمانِ بهِ وبكلامِهِ.

وقالَ اللهُ تَعالى عن أهلِ النَّارِ: ﴿وَقالوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا في أَصْحابِ السَّعيرِ﴾ [الملك: ١٠]: فدَلَّ على أنَّ أهلَ الضَّلالِ لا سمعَ لهُم[1] ولا عقلَ.

وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاَّ العالِمونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]: أَخْبَرَ تعالى أنَّهُ لا يَعْقِلُ أمثالَهُ إلاَّ العالِمونَ، والكفَّارُ لا يَدْخُلونَ في مسمَّى العالِمينَ، فهُم لا يَعْقِلونَها.

وقالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذينَ ظَلَموا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدي مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾ [الروم: ٢٩].

وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَقالَ الَّذينَ لا يَعْلَمونَ لَوْلا يُكَلِّمُنا اللهُ أَوْ تَأْتينا آيَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨].

وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوي الَّذينَ يَعْلَمونَ وَالَّذينَ لا يَعْلَمونَ﴾ [الزمر:

---

(١) في خ: «فدلّ على أنّ أصحاب الضلال لا يسمع لهم»! والصواب ما أثبتّه من ط.

٩]: ولو كانَ الضَّلالُ يُجامِعُ العلمَ؛ لَكانَ الذينَ لا يَعْلَمونَ أحسنَ حالاً مِن بعضِ الذينَ يَعْلَمونَ، والنَّصُّ بخلافِه.

والقرآنُ مملوءٌ بسلبِ العلمِ والمعرفةِ عنِ الكفَّارِ: فتارةً يَصِفُهُم بأنَّهُم لا يَعْلَمونَ، وتارةً بأنَّهُم لا يَعْقِلونَ، وتارةً بأنَّهُم لا يَشْعُرونَ، وتارةً بأنَّهُم لا يَفْقَهونَ، وتارةً بأنَّهُم لا يَسْمَعونَ ـ والمرادُ بالسَّمعِ المنفيِّ سمعُ الفهمِ وهوَ سمعُ القلبِ لا [إ]دراكُ الصَّوتِ ـ، وتارةً بأنَّهُم لا يُبْصِرونَ... فدَلَّ ذٰلكَ كلُّهُ على أنَّ الكفرَ مستلزمٌ للجهلِ منافٍ للعلمِ لا يُجامِعُهُ.

ولهٰذا يَصِفُ اللهُ سبحانَهُ الكفَّارَ بأنَّهُم جاهلونَ: كقولِهِ تَعالى: ﴿وَعِبادُ الرَّحْمٰنِ الَّذينَ يَمْشونَ عَلى الأرْضِ هَوْنًا وَإذا خاطَبَهُمُ الجاهِلونَ قالوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقولِهِ [تَعالى]: ﴿وَإذا سَمِعوا اللَّغْوَ أعْرَضوا عَنْهُ وَقالوا لَنا أعْمالُنا وَلَكُمْ أعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغي الجاهِلينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وقولِهِ [تَعالى]: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأعْرِضْ عَنِ الجاهِلينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩][(١)].

وقالَ النَّبيُّ ﷺ لمَّا بَلَغَ قومُهُ مِن أذاهُ ذٰلكَ /خ١٤٣/ المبلغَ: «اللهمَّ! اغْفِرْ لقومي فإنَّهُم لا يَعْلَمونَ»[(٢)].

---

(١) لا ريب أنّ الكفّار داخلون في مسمّى الجهل في الآيات الثلاث، ولٰكنّه لا يقتصر عليهم، بل يدخل في مسمّاه أيضًا أهل الجهل من المسلمين. ولذٰلك لمّا غضب عمر من عيينة بن حصن الفزاري وهمّ به؛ قال له الحرّ بن قيس: يا أمير المؤمنين! قد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾، وهٰذا من الجاهلين. قال ابن عبّاس: والله ما جاوزها عمر، وكان وقّافًا عند كتاب الله. رواه البخاري (٧٢٨٦). فهٰؤلاء ثلاثة من الصحابة ـ إن صحّت صحبة الحرّ ـ رأوا الجهل في الآية يعمّ المسلم والكافر؛ لأنّ عيينة كان مسلمًا. والآيات الأخرى مثلها أيضًا. وعليه؛ فلا تسلم هٰذه الآيات حجّة لأصحاب هٰذا القول.

(٢) (صحيح). رواه: الفسوي (١/ ٣٣٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٢٠٩٦)، وابن حبّان (٩٧٣)، والطبراني (٦/ ١٢٠/ ٥٦٩٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٤٤٨)؛ من طريق محمد بن فليح، عن موسى بن عقبة، عن الزهريّ، عن سهل بن سعد... رفعه. قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٢٠): «رجاله رجال الصحيح». قلت: في ابن فليح كلام لا ينزل بحديثه عن رتبة الحسن، فالسند كذٰلك.

لٰكنّه توبع؛ فقد أشار العسقلاني في «الفتح» (٧/ ٣٧٢) أنّ لمحمّد بن عائذ صاحب «المغازي» من طريق الأوزاعي، بلغنا أنّه ﷺ... فذكره.

ورواه الطبراني (٦/ ١٦٢/ ٥٨٦٢) من طريق داوود بن عمرو الضبّي، ثنا زهرة بن عمرو بن معبد، عن=

وفي الصحيحين[١] عنهُ: «مَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خيرًا؛ يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ»: فدَلَّ على أنَّ الفقهَ مستلزمٌ لإرادةِ اللهِ الخيرَ في العبدِ. ولا يُقالُ: الحديثُ دَلَّ على أنَّ مَن أرادَ اللهُ به خيرًا فَقَّهَهُ في الدِّينِ، ولا يَدُلُّ على أنَّ كلَّ مَن فَقَّهَهُ في الدِّينِ فقد أرادَ بِهِ خيرًا، وبينَهُما فرقٌ، ودليلُكُم إنَّما يَتِمُّ بالتَّقديرِ الثَّاني، والحديثُ لا يَقْتَضيهِ! لأنَّا نَقولُ: النَّبيُّ ﷺ جعَلَ الفقهَ في الدِّينِ دليلاً وعلامةً على إرادةِ اللهِ بصاحبِهِ خيرًا[٢]، والدَّليلُ يَسْتَلْزِمُ المدلولَ ولا يَتَخَلَّفُ عنهُ؛ فإنَّ المدلولَ لازمُهُ، ووجودُ الملزومِ بدونِ لازمِهِ محالٌ.

وفي التِّرْمِذِيِّ وغيرِهِ عنهُ ﷺ: «خصلتانِ لا يَجْتَمِعانِ في منافقٍ؛ حسنُ سَمْتٍ وفقهٌ في الدِّينِ»[٣]: فجَعَلَ الفقهَ في الدِّينِ منافيًا للنِّفاقِ[٤].

بل لمْ يَكُنِ السَّلفُ يُطْلِقونَ اسْمَ الفقهِ إلاَّ على العلمِ الذي يَصْحَبُهُ العملُ:

كما سُئِلَ سَعْدُ بنُ إبْراهيمَ عن أفقهِ أهلِ المدينةِ؛ قالَ: أتْقاهُم.

وسَأَلَ فَرْقَدٌ [السَّبْخِيُّ] الحَسَنَ البَصْرِيَّ عن شيءٍ. فأجابَهُ. فقالَ: إنَّ الفقهاءَ يُخالِفونَكَ. فقالَ الحَسَنُ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ فُرَيْقِدُ! وهل رَأَيْتَ بعينيكَ فقيهًا؟! إنَّما الفقيهُ: الزَّاهدُ في الدُّنيا، الرَّاغبُ في الآخرةِ، البصيرُ بدينِهِ[٥]، المداومُ على عبادةِ ربِّهِ، الذي لا يَهْمِزُ مَن فوقَهُ، ولا يَسْخَرُ ممَّن دونَهُ، ولا يَبْتَغي على علمٍ عَلَّمَهُ اللهُ [تعالى] أجرًا.

= أبي حازم، عن سهل... رفعه مقيّدًا بيوم أحد. وهٰؤلاء ثقات رجال الشيخين، لٰكن بين وفاتي داوود وزهرة ٩٣ سنة، فاحتمال الانقطاع قويّ جدًّا.

وله شاهد ضعيف من حديث ابن عبّاس عند الضياء في «المختارة» (١٠/ ١٤/ ٢).

وآخر لا بأس بسنده من مرسل عبدالله بن عبيد بن عمير عند البيهقي في «الشعب» (١٤٤٧).

والحديث صحيح بمجموع طرقه بله شواهده، وقد مال إلى تقويته ابن حبّان والهيثمي والعسقلاني.

(١) البخاري (٣ـ العلم، ١٣ـ من يرد الله به خيرًا، ١/ ١٦٤/ ٧١)، ومسلم (١٢ـ الزكاة، ٣٣ـ النهي عن المسألة، ١/ ٧١٨/ ١٠٣٧)؛ من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٢) كيف؟! هل سيق الكلام إلاّ لإثبات هٰذا؟! والشرط لا يقتضي هٰذه النتيجة لغة، فلو قلت: من يتّق الله يرزقه من حيث لا يحتسب؛ فهٰذا لا يدلّ على أنّ كلّ من جاءه رزق من حيث لا يحتسب فهو متّق لله.

(٣) (حسن). تقدّم تفصيل القول فيه (١/ ٢٣٦).

(٤) لا! وإنّما جعل اجتماع حسن السمت مع الفقه في الدين منافيًا للنفاق! فتأمّل.

(٥) في خ: «سمت ولا فقه... سئل سعيد بن إبراهيم... رأيت بعينك فقهاء... البصير في دينه». والأولى ما أثبتّه من ط و«سنن الدارمي» (١/ ٨٩).

وقالَ بعضُ السَّلفِ: إنَّ الفقيهَ: مَن لمْ يُقْنِطِ النَّاسَ مِن رحمةِ اللهِ، ولمْ يُؤْمِنْهُم [مِن] مكرِ اللهِ، ولمْ يَدَعِ القرآنَ رغبةً عنهُ إلى ما سواهُ.

وقالَ ابنُ مَسْعودٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: كَفى بخشيةِ اللهِ علمًا، وبالاغترارِ باللهِ جهلاً.

قالوا: فهٰذا القرآنُ والسُّنَّةُ وإطلاقُ السَّلفِ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ يَدُلُّ على: أنَّ العلمَ والمعرفةَ مستلزمٌ للهدايةِ، وأنَّ عدمَ الهدايةِ دليلٌ على الجهلِ وعدمِ العلمِ.

قالوا: ويَدُلُّ عليهِ أنَّ الإنسانَ ما دامَ عقلُهُ معَهُ لا يُؤْثِرُ هلاكَ نفسِهِ على نجاتِها وعذابَها /خ١٤٤/ العظيمَ الدَّائمَ على نعيمِها المقيمِ، والحسُّ شاهدٌ بذٰلكَ. ولهٰذا وَصَفَ [اللهُ] سبحانَهُ أهلَ معصيتِهِ بالجهلِ في قولِهِ [تَعالى]: ﴿إِنَّما التَّوْبَةُ عَلى اللهِ لِلَّذينَ يَعْمَلونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتوبونَ مِنْ قَريبٍ فَأُولٰئِكَ يَتوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ [وَكانَ اللهُ عَليمًا حَكيمًا]﴾ [النساء: ١٧]: قالَ سُفْيانُ الثَّوْرِيُّ: كلُّ مَن عَمِلَ ذنبًا مِن خلقِ اللهِ فهوَ جاهلٌ [سواءٌ] كانَ جاهلاً أو عالمًا: إنْ كانَ عالمًا؛ فمَن أجهلُ منهُ؟! وإنْ كانَ لا يَعْلَمُ؛ فمثلُ ذٰلكَ! وقولُهُ: ﴿ثُمَّ يَتوبونَ مِنْ قَريبٍ﴾[1]؛ قالَ: قبلَ الموتِ. وقالَ ابنُ عَبَّاسٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُما]: ذنبُ المؤمنِ جهلٌ منهُ. [و]قالَ قَتادَةُ: أجْمَعَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّ كلَّ شيءٍ عُصِيَ اللهُ [بهِ] فهوَ جهالةٌ. وقالَ السُّدِّيُّ: كلُّ مَن عَصى اللهَ فهوَ جاهلٌ.

قالوا: ويَدُلُّ على صحَّةِ هٰذا أنْ مَعَ كمالِ العلمِ لا تَصْدُرُ المعصيةُ مِن العبدِ؛ فإنَّهُ لو رَأى صبيًّا يَتَطَلَّعُ عليهِ مِن كوَّةٍ؛ لمْ تَتَحَرَّكْ جوارحُهُ لمواقعةِ الفاحشةِ[2]، فكيفَ يَقَعُ منهُ حالَ كمالِ علمِهِ[3] بنظرِ اللهِ إليهِ ورؤيتِهِ لهُ وعقابِهِ على الذَّنبِ وتحريمِهِ لهُ وسوءِ عاقبتِهِ؟! فلا بدَّ مِن غفلةِ القلبِ عن هٰذا العلمِ وغيبتِهِ عنهُ، فحينئذٍ يَكونُ وقوعُهُ في المعصيةِ صادرًا عن جهلٍ وغفلةٍ ونسيانٍ مضادٍّ للعلمِ. والذَّنبُ محفوفٌ بجهلينِ: جهلٍ

---

(١) زاد في ط هنا: ﴿فأولٰئك يتوب الله عليهم وكان الله عليمًا حكيمًا﴾، وحذفها أولى كما في خ.

(٢) لو رأى أصحاب هٰذه الحجّة ما يفعله ساقطو السينما من الرذائل؛ لما أوردوها أصلاً.

(٣) في ط: «حال كمال العلم»، وفي خ: «حال كماله علمه»، والأولى ما أثبتّه.

بحقيقةِ الأسبابِ الصَّارفةِ عنهُ، وجهلٍ بحقيقةِ المفسدةِ المترتِّبةِ عليهِ، وكلٌّ واحدٍ مِن الجهلينِ تحتَهُ جهالاتٌ كثيرةٌ.

فما عُصِيَ اللهُ إلاَّ بالجهلِ، وما أُطيعَ إلاَّ بالعلمِ.

فهٰذا [بعضُ] ما ٱحْتَجَّتْ بهِ هٰذهِ الطَّائفةُ.

* **وقالتِ الطَّائفةُ الأُخرى**: العلمُ لا يَسْتَلْزِمُ الهدايةَ، وكثيرًا ما يكونُ الضَّلالُ عن عمدٍ[1] وعلمٍ لا يَشُكُّ صاحبُهُ فيهِ، بل يُؤْثِرُ الضَّلالَ والكفرَ وهوَ عالمٌ بقبحِهِ ومفسدتِهِ.

قالوا: وهٰذا شيخُ الضَّلالِ وداعي الكفرِ وإمامُ الفجرةِ إبليسُ عدوُّ اللهِ، قد عَلِمَ أمرَ اللهِ لهُ بالسُّجودِ لآدَمَ ولمْ يَشُكَّ فيهِ، فخالَفَهُ وعانَدَ الأمرَ وباءَ بلعنةِ اللهِ وعذابِهِ الدَّائمِ /خ١٤٥/ معَ علمِهِ بذٰلكَ ومعرفتِهِ بهِ، وأقْسَمَ لهُ بعزَّتِهِ أنَّهُ يُغْوي خلقَهُ أجمعينَ إلاَّ عبادَهُ منهُمُ المخلَصينَ، فكانَ غيرَ شاكٍّ في اللهِ وفي وحدانيَّتِهِ وفي البعثِ الآخرِ وفي الجنَّةِ والنَّارِ، ومعَ ذٰلكَ ٱختارَ الخلودَ في النَّارِ وٱحْتمالَ لعنةِ اللهِ وغضبِهِ وطردِهِ مِن سمائِهِ وجنَّتِهِ عن علمٍ بذٰلكَ ومعرفةٍ لمْ تَحْصُلْ لكثيرٍ مِن النَّاسِ، ولهٰذا قالَ: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْني إلى يَوْمِ يُبْعَثونَ﴾ [الحجر: ٣٦، صٓ: ٧٩]، وهٰذا ٱعترافٌ منهُ بالبعثِ وإقرارٌ بهِ، وقد عَلِمَ قَسَمَ ربِّهِ لَيَمْلأَنَّ جهنَّمَ منهُ ومِن أتباعِهِ، فكانَ كفرُهُ [كفرَ] عنادٍ محضٍ لا كفرَ جهلٍ.

وقالَ اللهُ تَعالى إخبارًا عن قومِ ثَمودَ: ﴿وَأَمَّا ثَمودُ فَهَدَيْناهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا العَمى عَلى الهُدى﴾ [فصِّلت: ١٧]؛ يَعْني: بيَّنَّا لهُم وعَرَّفْناهُم، فعَرَفوا الحقَّ وتيَقَّنوهُ وآثَروا العمى عليهِ، فكانَ كفرُ هٰؤلاءِ [كفرَ عنادٍ وجحودٍ عن علمٍ وشهودٍ لا][2] عن جهلٍ.

وقالَ [اللهُ] تَعالى حاكيًا عن موسى أنَّهُ قالَ لِفِرْعَوْنَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هٰؤُلاءِ إلاَّ رَبُّ السَّماواتِ وَالأَرْضِ بَصائِرَ وَإنِّي لأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]؛ أي: هالكًا؛ على قراءةِ مَن فَتَحَ التَّاءَ[3]، وهيَ قراءةُ الجمهورِ، وضَمَّها الكِسائيُّ وحدَهُ،

---

(١) في ط: «فهٰذا ما ٱحتجّت...»، وفي خ: «... قالت طائفة أخرى... على عمد».

(٢) ساقطة من خ وط ولا يستقيم الكلام إلا بإضافتها.

(٣) في خ: «وطرده عن سمائه... هالك عن قراءة فتح التاء»! والصواب ما أثبتّه من ط. وليس مراده=

وقراءةُ الجمهورِ أحسنُ وأوضحُ وأفخمُ معنًى، وبها تَقومُ الدّلالةُ ويَتِمُّ الإلزامُ ويَتَحَقَّقُ كفرُ فرعونَ وعنادُهُ، ويَشْهَدُ لها قولُهُ تَعالى إخبارًا [عنهُ و]عن قومِه: ﴿فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالوا هٰذا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَجَحَدوا بِها وَٱسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا [فَٱنْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُفْسِدينَ﴾ [النمل: ١٣-١٤]: فأخْبَرَ سبحانَهُ أنَّ تكذيبَهُم وكفرَهُم كانَ عن يقينٍ ـ وهوَ أقوى العلمِ ـ ظلمًا وعلوًّا] لا جهلاً.

وقالَ [اللهُ] تَعالى لرسولِهِ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذي يَقولونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبونَكَ وَلٰكِنَّ الظَّالِمينَ بِآياتِ اللهِ يَجْحَدونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]؛ يَعْني: أنَّهُم قد عَرَفوا صدقَكَ وأنَّكَ غيرُ كاذبٍ فيما تَقولُ، ولٰكنْ عانَدوا وجَحَدوا بالمعرفةِ. قالَهُ ابنُ عَبَّاسٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُما] والمفسِّرونَ. قالَ قَتادَةُ: يَعْلَمونَ أنَّكَ رَسولُ [اللهِ] ولٰكنْ يَجْحَدونَ، قالَ تَعالى: ﴿وَجَحَدوا[1] بِها وَٱسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقالَ تَعالى: ﴿[يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَكْفُرونَ بِآياتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدونَ] . يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَلْبِسونَ الحَقَّ بِالباطِلِ /خ١٤٦/ وَتَكْتُمونَ الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمونَ﴾ [آل عمران: ٧٠- ٧١]؛ يَعْني: تَكْفُرونَ بالقرآنِ وبمَن جاءَ بِهِ وأنْتُم تَشْهَدونَ بصحَّتِهِ وبأنَّهُ الحقُّ، فكفرُكُم [كفرُ] عنادٍ وجحودٍ عن علمٍ وشهودٍ لا عن جهلٍ وخفاءٍ.

وقالَ تَعالى عنِ السَّحرةِ مِن اليهودِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِموا لَمَنِ ٱشْتَراهُ ما لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: عَلِموا أنَّ مَن أَخَذَ السِّحْرَ وقَبِلَهُ لا نصيبَ لهُ في الآخرةِ، ومعَ هٰذا العلمِ والمعرفةِ فهُم يَشْتَرونَهُ ويَقْبَلونَهُ ويَتَعَلَّمونَهُ.

وقالَ تَعالى: ﴿الَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفونَهُ كَما يَعْرِفونَ أَبْناءَهُمْ﴾: ذَكَرَ هٰذهِ المعرفةَ عن أهلِ الكتابِ: في القبلةِ، كما في سورةِ البقرةِ [١٤٦]. وفي التَّوحيدِ، كقولِهِ في الأنعامِ [١٩-٢٠]: ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلٰهٌ واحِدٌ وَإِنَّني بَريءٌ مِمَّا تُشْرِكونَ . الَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفونَهُ كَما يَعْرِفونَ

= أنّ المعنى هالك على قراءة من فتح التاء، بل مراده أنّ الاستدلال بهٰذه الآية إنّما يصحّ على قراءة من فتح التاء من «علمت». وانظر «جامع البيان» (١٥٨/٨).

(١) في ط: «ويشهد له قوله...»، وفي خ: «... يجحدون كقوله عزّ وجلّ وجحدوا».

أَبْناءَهُمْ﴾ . وفي الكتابِ أَنَّهُ منزَّلٌ [مِن عندِ اللهِ، كقولِهِ تعالى : ﴿وَالَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْلَمونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ] مِن رَبِّكَ بِالحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقالَ تَعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدي اللهُ قَوْمًا كَفَروا بَعْدَ إيمانِهِمْ وَشَهِدوا أَنَّ الرَّسولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ البَيِّناتُ وَاللهُ لا يَهْدي القَوْمَ الظَّالِمينَ﴾ [آل عمران: ٨٦]: قالَ ابنُ عَبَّاسٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُما: هُم] قُرَيْظَةُ والنَّضيرُ ومَن دانَ بدينِهِم، كَفَروا بالنَّبِيِّ ﷺ بعدَ أَنْ كانوا قبلَ مبعثِهِ مؤمنينَ بهِ وشَهِدوا لهُ بالنُّبوَّةِ، وإنَّما كَفَروا بغيًا وحسدًا. قالَ الزَّجَّاجُ: أَعْلَمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَنَّهُ لا جهةَ لهدايتِهِم؛ لأَنَّهُم قدِ آسْتَحَقُّوا أَنْ يَضِلُّوا بكفرِهِم؛ لأَنَّهُم كَفَروا بعدَ البيِّناتِ. ومعنى «كيفَ يَهْديهِم»؛ أي: أَنَّهُ لا يَهْديهِم؛ لأَنَّ القومَ عَرَفوا الحقَّ وشَهِدوا بهِ وتَيَقَّنوهُ وكَفَروا عمدًا، فمِن أينَ تَأْتيهِمُ الهدايةُ؟! فإنَّ الذي تُرْتَجى هدايتُهُ مَن كانَ ضالاًّ ولا يَدْري أَنَّهُ ضالٌّ بل يَظُنُّ أَنَّهُ على هدًى، فـ[ـهٰذا](1) إذا عَرَفَ الهدى؛ آهْتَدى، وأَمَّا مَن عَرَفَ الحقَّ وتَيَقَّنَهُ وشَهِدَ بهِ قلبُهُ ثُمَّ آخْتارَ الكفرَ والضَّلالَ عليهِ؛ فكيفَ يَهْدي اللهُ مثلَ هٰذا؟!

وقالَ تَعالى عنِ اليهودِ: ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفوا كَفَروا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلى الكافِرينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ثُمَّ قالَ: ﴿بِئْسَما آشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُروا بِما أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ /خ١٤٧/ مِنْ عِبادِهِ﴾ [البقرة: ٩٠]: قالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُما: لَمْ يَكُنْ كفرُهُم شكًّا ولا آشتباهًا، ولٰكنْ بغيًا منهُم حيثُ صارَتِ النُّبوَّةُ في ولدِ إسماعيلَ.

ثُمَّ قالَ بعدَ ذٰلكَ: ﴿وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَريقٌ مِنَ الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ كِتابَ اللهِ وَراءَ ظُهورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمونَ﴾ [البقرة: ١٠١]: فلمَّا شَبَّهَهُم في فعلِهِم هٰذا بمَن لا يَعْلَمُ؛ دَلَّ على أَنَّهُم نَبَذوهُ عن علمٍ كفعلِ مَن لا يَعْلَمُ، تَقولُ إذا خاطَبْتَ مَن عَصاكَ عمدً[ا]: كأَنَّكَ لمْ تَعْلَمْ ما فَعَلْتَ! أو: كأَنَّكَ لمْ

(١) ساقطة من ط.

تَعْلَمْ بنهيي إيَّاكَ!

ومنهُ ـ على أحدِ القولينِ ـ قولُهُ تَعالى: ﴿فإنْ تَوَلَّوْا فإنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ المُبينُ . يَعْرِفونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرونَها وَأَكْثَرُهُمُ الكافِرونَ﴾ [النحل: ٨٢-٨٣]: قالَ السُّدِّيُّ: يَعْني: محمَّدًا ﷺ. وٱختارَهُ الزَّجَّاجُ، فقالَ: يَعْرِفونَ أنَّ أمرَ مُحَمَّدٍ ﷺ حقٌّ ثمَّ يُنْكِرونَ ذٰلكَ. وأوَّلُ الآيةِ يَشْهَدُ لهٰذا القولِ.

وقالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذي آتَيْناهُ آياتِنا فَٱنْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الغاوينَ . وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إلى الأرْضِ وَٱتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]: قالوا: فهل بعدَ هٰذهِ الآيةِ بيانٌ؟! فإنَّ هٰذا آتاهُ اللهُ آياتِهِ فٱنْسَلَخَ منها وآثَرَ الضَّلالَ والغَيَّ، وقصَّتُهُ معروفةٌ، حتَّى قيلَ: إنَّهُ كانَ أُوتِيَ الاسمَ الأعظمَ، ومعَ هٰذا [فـ]ـلمْ يَنْفَعْهُ علمُهُ وكانَ مِن الغاوينَ[1]. فلوِ ٱسْتَلْزَمَ العلمُ والمعرفةُ الهدايةَ؛ لاسْتَلْزَمَهُ في حقِّ هٰذا!!

وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَعادًا وَثَمودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبيلِ وَكانوا مُسْتَبْصِرينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وهٰذا يَدُلُّ على أنَّ قولَهُم ﴿يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنينَ﴾ [هود: ٥٣]: إمَّا بهتٌ منهُم وجحودٌ، وإمَّا نفيٌ لآياتِ الاقتراحِ والعَنَتِ[2]، ولا يَجِبُ

---

(١) يشير إلى قصّة بلعام بن باعوراء، وهي قصّة عالم ضلّ بعد هدًى، تفاصيلها في «العهد القديم» (سفر العدد / أصحاح ٢٢ـ ٢٦). وقد ذهب جماعة من المفسّرين إلى أنّه المقصود بآيات الأعراف المتقدّمة، فأوردوها في تفسير هٰذه الآيات، وما من خبر مرفوع صحيح يتعيّن المصير إليه في هٰذا، والأصل ألّا تصدّق الإسرائيليّات ولا تكذّب، وإنّما تورد للاعتضاد لا للاعتماد. ولذٰلك قال شيخ المفسّرين ابن جرير (٦/ ١٢٢): «والصواب من القول أن يقال: إنّ الله تعالى ذكره أمر نبيّه ﷺ أن يتلو على قومه خبر رجل كان آتاه حججه وأدلّته . . . فالصواب أن يقال فيه ما قال الله ونقرّ بظاهر التنزيل على ما جاء به الوحي من الله»؛ يعني: ونقتصر عليه دونما خوض في تفاصيل لا طائل تحتها ولا مستند لها.

(٢) آيات الاقتراح هي العجائب التي يطلبها الكفّار من أنبيائهم حتّى يؤمنوا كما جاء في قوله تعالى: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتّى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا . أو تكون لك جنّة من نخيل وعنب فتفجّر الأنهار خلالها تفجيرًا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفًا أو تأتي بالله والملائكة قبيلًا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيّك حتّى تنزّل علينا كتابًا نقرؤه﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

الإتيانُ بها.

وقد وَصَفَ سبحانَهُ ثَمودَ بأنَّها كَفَرَتْ عن علمٍ وبصيرةٍ بالحقِّ، ولهٰذا /خ١٤٨/ قالَ: ﴿وَآتَيْنا ثَمودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَموا بِها﴾ [الإسراء: ٥٩]؛ يَعْني: بيِّنةً مضيئةً. وهٰذا كقولِهِ تَعالى: ﴿وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]؛ أي: مضيئةً.

وحقيقةُ اللفظِ أنَّها تَجْعَلُ مَن رَآها مبصرًا، فهيَ توجِبُ لهُ البصرَ فتُبَصِّرُهُ؛ أي: تَجْعَلُهُ ذا بصرٍ، فهيَ موضحةٌ مبيِّنةٌ، يُقالُ: بَصُرَ به، إذا رَآهُ؛ كقولِهِ تَعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ [القصص: ١١]، وقولِهِ: ﴿بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُروا بِهِ﴾ [طه: ٩٦].

وأمَّا أَبْصَرَهُ؛ فلهُ معنيانِ: أحدُهُما: جَعَلَهُ باصرًا بالشَّيءِ؛ أي: ذا بصرٍ بهِ، كآيةِ النَّهارِ وآيةِ ثَمودَ. والثَّاني: بمعنى رَآهُ، كقولِكَ: أَبْصَرْتُ زيدًا، وفي حديثِ أبي شُرَيْحٍ العَدَوِيِّ: أُحَدِّثُكَ قولاً قامَ بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ يومَ الفتحِ فسَمِعَتْهُ أُذُنايَ ووَعاهُ قلبي وأبْصَرَتْهُ عيناي حينَ تكَلَّمَ بهِ[١]. ومنهُ قولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حينٍ . وأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرونَ﴾ [الصافات: ١٧٤-١٧٥]؛ قيلَ: المعنى: أَبْصِرْهُم وما يُقْضى عليهِم مِن الأسرِ والقتلِ والعذابِ في الآخرةِ، فسوفَ يُبْصِرونَكَ وما يُقْضى لكَ مِن النَّصرِ والتَّأييدِ وحسنِ العاقبةِ. والمرادُ تقريبُ المبصَرِ مِن المخاطَبِ حتَّى كأنَّهُ نُصْبُ عينيهِ ورَأْيُ ناظرَيهِ.

والمقصودُ أنَّ الآيةَ أَوْجَبَتْ لهُمُ البصيرةَ فآثَروا الضَّلالَ والكفرَ عن علمٍ ويقينٍ. ولهٰذا ـ واللهُ أعلمُ ـ ذَكَرَ قصَّتَهُم مِن بينِ قصصِ سائرِ الأُممِ في سورةِ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحاها﴾؛ لأنَّهُ ذَكَرَ[٢] فيها انْقسامَ النُّفوسِ إلى الزَّكيَّةِ الرَّاشدةِ المهتديةِ وإلى الفاجرةِ الضَّالَّةِ الغاويةِ وذَكَرَ فيها الأصلينِ القدرَ والشَّرعَ: فقالَ: ﴿فَأَلْهَمَها فُجورَها وَتَقْواها﴾، فهٰذا قدرُهُ [وقضاؤُهُ]. ثمَّ قالَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها . وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾، فهٰذا أمرُهُ ودينُهُ. وثمودُ هَداهُم، فاسْتَحَبُّوا العمى على الهدى، فذَكَرَ قصَّتَهُم لِيُبَيِّنَ سوءَ عاقبةِ

---

(١) رواه: البخاري (٣ـ العلم، ٢٧ـ ليبلّغ الشاهد الغائب، ١/١٩٧/١٠٤)، ومسلم (١٥ـ الحجّ، ٨٢ـ تحريم مكّة، ٢/٩٨٧/١٣٥٤).

(٢) في ط: «أحدّثك قولاً قال به...»، وفي خ: «... أوجبت له البصيرة... الآية ذكر».

مَن آثَرَ الفجورَ على التَّقوى والتَّدسيةَ على التَّزكيةِ. واللهُ أعلمُ بما أرادَ.

قالوا: ويَكْفي في هٰذا إخبارُهُ تَعالى عنِ الكفَّارِ أَنَّهُم يَقولونَ بعدَما عايَنوا العذابَ /خ١٤٩/ ووَرَدوا القيامةَ ورَأَوْا ما أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسلُ: ﴿يا لَيْتَنا(١) نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكونَ مِنَ المُؤْمِنينَ . بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعادوا لِما نُهوا عَنْهُ [وَإِنَّهُمْ لَكاذِبونَ]﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨]، فأيُّ علمٍ أبينُ مِن علمِ مَن وَرَدَ القيامةَ ورَأى ما فيها وذاقَ عذابَ الآخرةِ؟! ثمَّ لو رُدَّ إلى الدُّنيا؛ لاخْتارَ الضَّلالَ على الهدى ولمْ يَنْفَعْهُ ما قد عايَنَهُ ورَآهُ!

وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ المَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانوا لِيُؤْمِنوا إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ [وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلونَ]﴾ [الأنعام: ١١١]. فهل بعدَ نزولِ الملائكةِ عِيانًا وتكليمِ الموتى لهُم وشهادتِهِم للرَّسولِ بالصِّدقِ وحشرِ كلِّ شيءٍ في الدُّنيا عليهِم مِن بيانٍ وإيضاحٍ للحقِّ وهدًى؟ ومعَ هٰذا؛ فلا يُؤْمِنو[نَ] ولا يَنْقادو[نَ] للحقِّ ولا يُصَدِّقونَ الرَّسولَ.

ومَن نَظَرَ في سيرةِ رسولِ اللهِ ﷺ معَ قومِهِ ومعَ اليهودِ؛ عَلِمَ أَنَّهُم كانوا جازمينَ بصدقِهِ ﷺ، لا يَشُكُّونَ أَنَّهُ صادقٌ في قولِهِ إِنَّهُ رسولُ اللهِ، ولٰكِنِ ٱخْتاروا الضَّلالَ والكفرَ على الإيمانِ.

قالَ المِسْوَرُ بنُ مَخْرَمَةَ [رَضِيَ اللهُ عنهُ] لأبي جَهْلٍ - وكانَ خالَهُ -: أيْ خالُ! هل كُنْتُمْ تَتَّهِمونَ مُحَمَّدًا بالكذبِ قبلَ أنْ يَقولَ مقالتَهُ التي قالَها؟ قالَ [أبو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ تَعالى]: يا ابنَ أخي! واللهِ؛ لقد كانَ مُحَمَّدٌ فينا وهوَ شابٌّ يُدْعى الأمينَ، ما جَرَّبْنا عليهِ كذبًا قطُّ، فلمَّا وَخَطَهُ الشَّيبُ؛ لمْ يَكُنْ لِيَكْذِبَ على اللهِ. قالَ: يا خالُ! فلِمَ لا تَتَّبِعونَهُ؟! قالَ: يا ابنَ أخي! تَنازَعْنا نحنُ وبنو هاشمٍ [الشَّرفَ]؛ فأَطْعَموا وأَطْعَمْنا(٢)، وسَقَوْا وسَقَيْنا، وأَجاروا وأَجَرْنا، فلمَّا تَجاثَيْنا على الرُّكَبِ وكنَّا كفرسَيْ رِهانٍ؛ قالوا: منَّا نبيٌّ! فمتى نُدْرِكُ هٰذِهِ؟!

---

(١) في خ: «وورود القيامة ورأوا ما أخبرت به الرسل بالبينات من قولهم ياليتنا»، والتصويب من ط.

(٢) في خ: «بصدقه ﷺ ولا يشكون... كان محمدًا فينا... فأطعموا وطعمنا». والتصويب من ط.

وهٰذا أُمَيَّةُ بنُ أبي الصَّلْتِ كانَ يَنْتَظِرُهُ يومًا بيومٍ، وعلمُهُ عندَهُ قبلَ مبعثِهِ، وقصَّتُهُ معَ أبي سُفْيانَ لمَّا سافَرا معًا معروفةٌ[١] وإخبارُهُ برسولِ اللهِ ﷺ، ثمَّ لمَّا تَيَقَّنَهُ وعَرَفَ صدقَهُ؛ قالَ: لا أُومنُ بنبيٍّ مِن غيرِ ثقيفَ أبدًا!

وهٰذا هِرَقْلُ تَيَقَّنَ أنَّهُ رسولُ [اللهِ ﷺ] ولمْ يَشُكَّ فيهِ، وآثَرَ /خ١٥٠/ الضَّلالَ والكفرَ ٱستبقاءً لملكِهِ.

ولمَّا سَأَلَهُ اليهودُ عنِ التِّسعِ آياتِ البيِّناتِ فأَخْبَرَهُم بها؛ قَبَّلوا يدَهُ وقالوا: نَشْهَدُ أنَّكَ نبيٌّ. قالَ: «فما يَمْنَعُكُم أنْ تَتَّبِعوني؟». قالوا: إنَّ داوودَ [عليهِ السَّلامُ] دَعا أنْ لا يَزالَ في ذرِّيَّتِهِ نبيٌّ، وإنَّا نَخْشى إنِ ٱتَّبَعْناكَ أنْ تَقْتُلَنا اليهودُ[٢] [٣].

---

(١) هي قصّة طويلة جدًّا، ملخّصها أنّ أميّة كان يرجو أنّه النبيّ المنتظر، فأخبره عالم من النصارى أنّ النبيّ المنتظر من أهل مكّة، فأحزنه ذٰلك وآلمه، ثمّ سأل أبا سفيان عن أشراف مكّة فلم يجد فيهم من تنطبق عليه صفات النبيّ المنتظر، فلمّا ظهر النبيّ ﷺ؛ أخبره أبو سفيان به، فعرفه بصفاته وشهد أنّه حقّ وأبى أن يؤمن به وقال: ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبدًا! وهٰذه القصّة وإن جاءت بأسانيد ساقطة لا يرفع بها رأس، لٰكن أهل السير والتاريخ ٱتّفقوا على أنّ ابن أبي الصلت كان حنيفيًّا ينتظر النبي ﷺ ويعرفه، فلمّا جاءه ما عرف كفر به كبرًا وحميّة، فلعنة الله على الكافرين. وٱنظر للتفصيل: «المعجم الكبير» (٨/ ٥/ ٧٢٦٢)، و«تاريخ ابن عساكر» (٩/ ٢٥٥)، و«البداية والنهاية» (٢/ ١٦٧)، و«الإصابة» (١/ ١٢٩).

(٢) في خ: «فأخبرهم عنها. . . يمنعكم أن تتّبعوه. . .»، وفي ط: «. . . تقتلنا يهود».

(٣) (منكر). رواه: الطيالسي (١١٦٤)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٣٢)، وأحمد (٤/ ٢٣٩ و٢٤٠)، وابن ماجه (٣٣ـ الأدب، ١٦ـ الرجل يقبّل اليد، ٢/ ١٢٢١/ ٣٧٠٥)، والترمذي (٤٣ـ الاستئذان، ٣٣ـ قبلة اليد والرجل، ٥/ ٧٧/ ٢٧٣٣ و٣١٤٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٢٤٦٥ و٢٤٦٦)، والنسائي (٣٧ـ التحريم، ١٨ـ السحر، ٧/ ١١٢/ ٤٠٨٩)، وابن جرير (٢٢٧٤٧-٢٢٧٥٠)، والطحاوي (٣/ ٢١٥)، والعقيلي (٢/ ٢٦١)، وابن قانع في «المعجم» (٤٥٠)، والطبراني (٨/ ٦٩/ ٧٣٩٦)، والحاكم (١/ ٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٩٧)، والبيهقي (٨/ ١٦٦) وفي «الدلائل» (٦/ ٢٦٨)، والخطيب في «الجمع والتفريق» (١/ ٣٣٢)، والبغوي في «التفسير» (٣/ ٥٣٣)، والضياء في «المختارة» (٨/ ٢٧/ ١٧-١٩)؛ من طريق شعبة، أخبرنا عمرو بن مرّة، سمعت عبدالله بن سلمة، عن صفوان بن عسّال. . . رفعه مطوّلاً ومختصرًا.

قال ابن كثير: «مشكل، وعبدالله بن سلمة في حفظه شيء، وقد تكلّموا فيه، ولعلّه ٱشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات فإنّها وصايا في التوراة لا تعلّق لها بقيام الحجّة على فرعون. . .»، ثمّ أورد بعض الحجج وقال: «فهٰذا كلّه ممّا يدلّ على أنّ المراد بالتسع الآيات إنّما هي ما تقدّم ذكره من العصا واليد والسنين. . . وما جاء هٰذا إلاّ من قبل عبدالله بن سلمة فإن له بعض ما ينكر». قلت: عبدالله بن سلمة: راو قليل الحديث، لم يرو عنه إلاّ عمرو بن مرّة وقال: يعرف وينكر كان قد كبر، وقد أتى بغرائب لم يتابع عليها منها هٰذا الحديث، فهو إلى الضعف والجهالة أقرب، وقصاراه أن يكون مقبولاً في المتابعات فإن ٱنفرد فليّن. =

فهٰؤلاءِ [قد] تَحَقَّقوا نبوَّتَهُ وشَهِدوا لهُ بها، ومعَ هٰذا فآثَروا الكفرَ والضَّلالَ!

ولمْ يَصيروا مسلمينَ بهٰذهِ الشَّهادةِ: فقيلَ: لا يَصيرُ الكافرُ مسلمًا بمجرَّدِ شهادةِ أنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ [ﷺ] حتَّى يَشْهَدَ للهِ بالوحدانيَّةِ. وقيلَ: يَصيرُ بذٰلكَ مسلمًا. وقيلَ: إنْ كانَ كفرُهُ بتكذيبِ الرَّسولِ كاليهودِ؛ صارَ مسلمًا بذٰلكَ، وإنْ كانَ كفرُهُ بالشِّركِ معَ ذٰلكَ؛ لمْ يَصِرْ مسلمًا إلَّا بالشَّهادتينِ كالنَّصارى والمشركينَ. وهٰذهِ الأقوالُ الثَّلاثةُ في مذهبِ [الإمامِ] أحْمَدَ وغيرِهِ.

وعلى هٰذا؛ فإنَّما لمْ يُحْكَمْ لهٰؤلاءِ اليهودِ الذينَ شَهِدوا لهُ بالرِّسالةِ بحكمِ الإسلامِ؛ لأنَّ مجرَّدَ الإقرارِ والإخبارِ بصحَّةِ رسالتِهِ لا يُوجِبُ الإسلامَ؛ إلَّا أنْ يَلْتَزِمَ طاعتَهُ ومتابعتَهُ، وإلَّا؛ فلو قالَ: أنا أعلمُ أنَّهُ نبيٌّ، ولٰكنْ لا أتَّبِعُهُ ولا أدينُ بدينِهِ؛ كانَ مِن أكفرِ الكفَّارِ، كحالِ هٰؤلاءِ المذكورينَ وغيرِهِم. وهٰذا متَّفقٌ عليهِ بينَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ وأئمَّةِ السُّنَّةِ: أنَّ الإيمانَ لا يَكْفي فيهِ قولُ اللسانِ بمجرَّدِهِ، ولا معرفةُ القلبِ معَ ذٰلكَ، بل لا بدَّ فيهِ مِن عملِ القلبِ، وهوَ حبُّهُ للهِ ورسولِهِ وٱنقيادُهُ لدينِهِ والتزامُهُ طاعتَهُ ومتابعتُهُ رسولَهُ[1].

وهٰذا خلافُ مَن زَعَمَ أنَّ الإيمانَ هوَ مجرَّدُ معرفةِ القلبِ وإقرارِهِ[2]! وفيما تَقَدَّمَ كفايةٌ في إبطالِ هٰذهِ المقالةِ. ومَن قالَ: إنَّ الإيمانَ هوَ مجرَّدُ ٱعتقادِ صدقِ الرَّسولِ فيما جاءَ بهِ وإنْ لمْ يَلْتَزِمْ متابعتَهُ وعاداهُ وأبْغَضَهُ وقاتَلَهُ؛ لَزِمَهُ أنْ يَكونَ هٰؤلاءِ كلُّهُم مؤمنينَ! وهٰذا إلزامٌ لا محيدَ عنهُ. ولهٰذا ٱضْطَرَبَ هٰؤلاءِ في الجوابِ عن ذٰلكَ لمَّا وَرَدَ عليهِم، وأجابوا بما يَسْتَحي العاقلُ مِن قولِهِ: كقولِ بعضِهِم: إنَّ إبْليسَ كانَ مستهزئًا، ولمْ يَكُنْ يُقِرُّ بوجودِ اللهِ ولا بأنَّ /خ١٥١/ اللهَ ربُّهُ وخالقُهُ، ولمْ يَكُنْ يَعْرِفُ ذٰلكَ! وكذٰلكَ

= ومن هنا تعلم أنّ في تصحيح الترمذي والحاكم والضياء والذهبي والعسقلاني لهٰذا الحديث نظرًا، وأنّ الراجح الذي تشهد له قواعد المصطلح مذهب من ٱستشكل الحديث وضعّفه كالبخاري والعقيلي وأبي أحمد الحاكم وابن كثير والألباني.

(١) رحم الله ابن القيّم وقدّس روحه، عمل القلب هٰذا لفتة موفّقة، فٱحفظها؛ فإنّ لها أثرًا عظيمًا في رفع كثير من إشكالات قضايا الإيمان والتوفيق بين نصوصه التي ظاهرها التعارض والاختلاف.

(٢) في ط: «إلاّ بشهادة بالتوحيد كالنصارى... ومتابعة رسوله...»، وفي خ: «... وقراره».

فِرْعَوْنُ وقومُهُ لمْ يَكونوا يَعْرِفونَ صحَّةَ نبوَّةِ موسى ولا يَعْتَقِدونَ وجودَ الصَّانعِ! وهٰذهِ فضائحُ نَعوذُ باللهِ مِن الوقوعِ في أمثالِها! ونصرةُ المقالاتِ وتقليدُ أربابِها يَحْمِلُ على أكثرَ مِن هٰذا، نَعوذُ[1] باللهِ مِن الخذلانِ.

قالوا[2]: وقد بَيَّنَ القرآنُ أنَّ الكفرَ أقسامٌ:

أحدُها: كفرٌ صادرٌ عن جهلٍ وضلالٍ وتقليدِ الأسلافِ. وهو كفرُ أكثرِ الأتباعِ والعوامِّ.

الثَّاني: كفرُ جحودٍ وعنادٍ وقصدِ مخالفةِ الحقِّ، ككفرِ مَن تَقَدَّمَ ذكرُهُ. وغالبُ ما يَقَعُ هٰذا النَّوعُ: فيمَن لهُ رياسةٌ علميَّةٌ في قومِهِ مِن الكفَّارِ، أو رياسةٌ سلطانيَّةٌ، أو مَن لهُ مآكلُ وأموالٌ في قومِهِ. فيَخافُ هٰذا على رياستِهِ وهٰذا على مالِهِ ومأْكلِهِ، فيُؤْثِرُ الكفرَ على الإيمانِ عمدًا.

الثَّالثُ: كفرُ إعراضٍ محضٍ؛ لا يَنْظُرُ فيما جاءَ بِهِ الرَّسولُ، ولا يُحِبُّهُ ولا يُبْغِضُهُ، ولا يُواليهِ ولا يُعاديهِ، بل هوَ معرضٌ عن متابعتِهِ ومعاداتِهِ.

وهٰذانِ القسمانِ أكثرُ المتكلِّمينَ يُنْكِرونَهُما، ولا يُثْبِتونَ مِن الكفرِ إلاَّ الأوَّلَ، ويَجْعَلونَ الثَّانيَ والثَّالثَ كفرًا لدلالتِهِ على الأوَّلِ لا لأنَّهُ في ذاتِهِ كفرٌ، فليسَ عندَهُم الكفرُ إلاَّ مجرَّدَ الجهلِ.

ومَن تأمَّلَ القرآنَ والسُّنَّةَ وسيرَ الأنبياءِ في أُممِهِم ودعوتَهُم لهُم وما جَرى لهُم معَهُم؛ جَزَمَ بخطإِ أهلِ الكلامِ فيما قالوهُ، وعَلِمَ أنَّ عامَّةَ كفرِ الأُممِ عن تيقُّنٍ وعلمٍ ومعرفةٍ بصدقِ أنبيائِهِم وصحَّةِ دعواهُم وما جاؤوا بِهِ.

وهٰذا القرآنُ مملوءٌ مِن الإخبارِ عنِ المشركينَ عبَّادِ الأصنامِ؛ أنَّهُم كانوا يُقِرُّونَ باللهِ، وأنَّهُ هوَ وحدَهُ ربُّهُم وخالقُهُم، وأنَّ الأرضَ وما فيها لهُ وحدَهُ، وأنَّهُ ربُّ السَّماواتِ السَّبعِ وربُّ العرشِ العظيمِ، وأنَّهُ بيدِهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ وهوَ يُجيرُ ولا يُجارُ عليهِ، وأنَّهُ هوَ الذي سَخَّرَ الشَّمسَ والقمرَ وأَنْزَلَ المطرَ وأَخْرَجَ النَّباتَ... والقرآنُ منادٍ

---

(١) في ط: «وأجابوهم بما يستحي... هٰذا ونعوذ»، وفي خ: «... هٰذه ونعوذ».
(٢) يعني: أهل السنّة لا أنصار المقالات.

عليهِم بذٰلكَ، محتجٌّ بما أَقَرُّوا بهِ مِن ذٰلكَ على صحَّةِ ما دَعَتْهُم إليهِ رسلُهُم. فكيفَ /خ ١٥٢/ يُقالُ: إنَّ القومَ [لَمْ] يكونوا مقرِّينَ قطُّ بأنَّ لهُم ربًّا وخالقًا؟! هٰذا بهتانٌ عظيمٌ!

فالكفرُ أمرٌ وراءَ [مجرَّدِ] الجهلِ(١)، بلِ الكفرُ الأغلظُ هوَ ما أنْكَرَهُ هٰؤلاءِ وزَعَموا أنَّهُ ليسَ بكفرٍ.

قالوا: والقلبُ عليهِ واجبانِ لا يَصيرُ مؤمنًا إلاَّ بهِما جميعًا: واجبُ المعرفةِ والعلمِ، وواجبُ الحبِّ والانقيادِ والاستسلامِ. فكما لا يَكونُ مؤمنًا إذا لَمْ يَأْتِ بواجبِ العلمِ والاعتقادِ، لا يَكونُ مؤمنًا إذا لَمْ يَأْتِ بواجبِ الحبِّ والانقيادِ والاستسلامِ. بل إذا تَرَكَ هٰذا الواجبَ معَ علمِهِ ومعرفتِهِ بهِ؛ كانَ أعظمَ كفرًا وأبعدَ عنِ الإيمانِ مِن الكافرِ جهلاً؛ فإنَّ الجاهلَ إذا عَرَفَ وعَلِمَ؛ فهوَ قريبٌ إلى الانقيادِ والاتِّباعِ، وأمَّا المعاندُ؛ فلا دواءَ فيهِ. قالَ اللهُ تَعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدي اللهُ قَوْمًا كَفَروا بَعْدَ إيمانِهِمْ وَشَهِدوا أَنَّ الرَّسولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ البَيِّناتُ وَاللهُ لا يَهْدي القَوْمَ الظَّالِمينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

قالوا: فحبُّ اللهِ ورسولِهِ، بل كونُ اللهِ ورسولِهِ أحبَّ إلى العبدِ مِن سواهُما؛ لا يَكونُ العبدُ مسلمًا إلاَّ بهِ. ولا ريبَ أنَّ الحبَّ أمرٌ وراءَ العلمِ، فما كلُّ مَن عَرَفَ الرَّسولَ أَحَبَّهُ، كما تَقَدَّمَ.

قالوا: وهٰذا الحاسدُ يَحْمِلُهُ بغضُ المحسودِ على معاداتِهِ والسَّعيِ في أذاهُ بكلِّ ممكنٍ معَ علمِهِ بفضلِهِ وعلمِهِ وأنَّهُ لا شيءَ فيهِ يُوجِبُ عداوتَهُ إلاَّ محاسنُهُ وفضائلُهُ، ولهٰذا قيلَ للحاسدِ: عدوُّ النِّعمِ(٢) والمكارمِ. فالحاسدُ لَمْ يَحْمِلْهُ على معاداةِ المحسودِ جهلُهُ بفضلِهِ وكمالِهِ، وإنَّما حَمَلَهُ على ذٰلكَ فسادُ قصدِهِ وإرادتِهِ. كما هيَ حالُ الرُّسلِ وورثتِهِم معَ الرُّؤساءِ الذينَ سَلَبَهُمُ الرُّسلُ ووارِثوهُم رئاستَهُمُ الباطلةَ، فعادَوْهُم وصَدُّوا النُّفوسَ عن متابعتِهِم ظنًّا أنَّ الرِّياسةَ تَبْقى لهُم ويَنْفَرِدونَ بها. وسنَّةُ اللهِ في هٰؤلاءِ أنْ يَسْلُبَهُم رياسةَ الدُّنيا والآخرةِ ويُصَغِّرَهُم في عيونِ الخلقِ مقابلةً لهُم بنقيضِ قصدِهِم، ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

---

(١) في خ: «القرآن مملوءًا... وهٰذا بهتان...»، وفي ط: «... رسله فكيف... وراء الجهل».

(٢) في خ: «من الكفر جهلاً... ممَّا سواهما...»، وفي ط: «... الحاسد عدوّ للنعم».

فهٰذا موردُ ٱحتجاجِ الفريقينِ وموقفُ أقدامِ الطَّائفتينِ؛ فٱجْلِسْ أيُّها المنصفُ منهُما مجلسَ /خ١٥٣/ الحكومة، وتَوَخَّ بعلمِكَ وعدلِكَ فصلَ هٰذهِ الخصومة؛ فقد أدْلى كلٌّ منهُما بحججٍ لا تُعارَضُ ولا تُمانَع، وجاءَ ببيِّناتٍ لا تُرَدُّ ولا تُدافَع. فهل عندَكَ شيءٌ غيرُ هٰذا يَحْصُلُ بهِ فصلُ الخطاب ويَنْكَشِفُ بهِ لطالبِ الحقِّ [وجهُ] الصَّواب، فيُرْضي الطَّائفتين ويَزولُ بهِ الاختلافُ مِن البين، وإلَّا؛ فخَلِّ المطيَّ وحاديَها، وأعْطِ القوسَ باريَها:

دَعِ الهَوى لأُناسٍ يُعْرَفونَ بِهِ ... قَدْ كابَدوا الحُبَّ حَتَّى لانَ أصْعَبُهُ

ومَن عَرَفَ قدرَهُ، وعَرَفَ لذي الفضلِ فضلَهُ؛ فقد قَرَعَ بابَ التَّوفيقِ، واللهُ الفتَّاحُ العليمُ.

* **فنَقولُ وباللهِ التَّوفيقُ**: كلا الطَّائفتينِ ما خَرَجَتْ عن موجَبِ العلمِ ولا عَدَلَتْ عن سَنَنِ الحقِّ[1]، وإنَّما الاختلافُ والتَّباينُ بينَهُما مِن عدمِ التَّواردِ على محلٍّ واحدٍ ومِن إطلاقِ ألفاظٍ مجملةٍ بتفصيلِ معانيها[2] يَزولُ الاختلافُ ويَظْهَرُ أنَّ كلَّ طائفةٍ موافقةٌ للأُخرى على نفسِ قولِها.

وبيانُ هٰذا أنَّ المقتضيَ قسمانِ: مقتضٍ لا يَتَخَلَّفُ عنهُ موجَبُهُ ومقتضاهُ بل[3] يَسْتَلْزِمُـ[ـهُ ٱستلزامَ] العلَّةِ التَّامَّةِ لمعلولِها، ومقتضٍ غيرُ تامٍّ بل قد يَتَخَلَّفُ عنهُ مقتضاهُ؛ لقصورِهِ في نفسِهِ عنِ التَّمامِ [أ]و لفواتِ شرطِ ٱقتضائِهِ [أ]و قيامِ مانعٍ مَنَعَ تأثيرَهُ.

فإنْ أُريدَ بكونِ العلمِ مقتضيًا للاهتداءِ الاقتضاءُ التَّامُّ الذي لا يَتَخَلَّفُ عنهُ أثرُهُ بل يَلْزَمُهُ الاهتداءُ بالفعلِ؛ فالصَّوابُ قولُ الطَّائفةِ الثَّانيةِ وأنَّهُ لا يَلْزَمُ مِن العلمِ حصولُ الاهتداءِ المطلوبِ. وإنْ أُريدَ بكونِهِ موجبًا أنَّهُ صالحٌ للاهتداءِ مقتضٍ لهُ وقد يَتَخَلَّفُ عنهُ مقتضاهُ لقصورٍ[4] أو فواتِ شرطٍ أو قيامِ مانعٍ؛ فالصَّوابُ قولُ الطَّائفةِ الأُولى.

---

(١) سَنَن الحقّ؛ بفتح السين: طريقه وجهته.
(٢) في خ: «فخلّي مطيّ... ودع الهوى... فقد عرف باب التوفيق... بتفصيل معناها».
(٣) في خ: «مقتض لا يختلف...»! وفي ط: «... ومقتضاه لقصوره في نفسه بل»!
(٤) في ط: «للاهتداء والاقتضاء التام الذي... لقصوره»! والتصويب من خ.

وتفصيلُ هٰذهِ الجملةِ أنَّ العلمَ بكونِ الشَّيءِ سببًا لمصلحةِ العبدِ ولذَّتِه وسرورِه قد يَتَخَلَّفُ عنهُ عملُهُ بمقتضاهُ لأسبابٍ عديدةٍ:

السَّببُ الأوَّلُ: ضعفُ معرفتِه بذٰلكَ.

السَّببُ الثَّاني: /خ١٥٤/ عدمُ الأهليَّةِ. وقد تكونُ معرفتُهُ بهِ تامَّةً، لٰكنْ يَكونُ [أثرُها] مشروطًا بزكاءِ المحلِّ وقبولِهِ للتَّزكيةِ، فإذا كانَ المحلُّ غيرَ زكيٍّ ولا قابلٍ للتَّزكيةِ؛ كانَ كالأرضِ الصَّلدةِ التي [لا] يُخالِطُها الماءُ؛ فإنَّهُ يَمْتَنِعُ النَّباتُ فيها لعدمِ أهليَّتِها وقبولِها.

فإذا كانَ القلبُ قاسيًا حجريًّا لا يَقْبَلُ تزكيةً ولا تُؤَثِّرُ فيهِ النَّصائحُ؛ لمْ يَنْتَفِعْ بكلِّ علمٍ عَلِمَهُ[1]، كما لا تُنْبِتُ الأرضُ الصَّلبةُ ولو أصابَها كلُّ مطرٍ وبُذِرَ فيها كلُّ بذرٍ، كما قالَ تَعالى في هٰذا الصِّنفِ مِن النَّاسِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنونَ . وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا العَذابَ الأليمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]، وقالَ تَعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ المَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانوا لِيُؤْمِنوا إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقالَ تَعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا ماذا في السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَما تُغْني الآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنونَ﴾ [يونس: ١٠١]... وهٰذا في القرآنِ كثيرٌ. فإذا كانَ القلبُ قاسيًا غليظًا جافيًا؛ لا يَعْمَلُ فيهِ العلمُ شيئًا.

وكذٰلكَ إذا كانَ مريضًا مهينًا مائيًّا لا صلابةَ فيهِ ولا قوَّةَ ولا عزيمةَ؛ لمْ يُؤَثِّرْ فيهِ العلمُ.

السَّببُ الثَّالثُ: قيامُ مانعٍ. وهوَ إمَّا حسدٌ أو كِبْرٌ.

وذٰلكَ مانعُ إبليسَ مِن الانقيادِ للأمرِ. وهوَ داءُ الأوَّلينَ والآخرينَ إلاَّ مَن عَصَمَ اللهُ[2]: وبهِ تَخَلَّفَ الإيمانُ عنِ اليهودِ الذينَ شاهَدوا رسولَ اللهِ ﷺ وعَرَفوا صحَّةَ نبوَّتِهِ ومَن جَرى مجراهُم، وهوَ الذي مَنَعَ عبدَاللهِ بنَ أُبَيٍّ مِن الإيمانِ، وبهِ تَخَلَّفَ الإيمانُ عن أبي جهلٍ وسائرِ المشركينَ؛ فإنَّهُم لمْ يكونوا يَرْتابونَ في صدقِهِ وأنَّ الحقَّ معَهُ [و]لٰكنْ

---

(١) في خ وط: «لٰكن يكون مشروطًا بزكاة...»، وفي ط: «... النبات منها لعدم... يعلمه».

(٢) في خ: «إمّا حسدًا أو كبرًا وذٰلك... عصمه الله»، والأولى ما أثبتّه من ط.

حَمَلَهُمُ الكِبْرُ والحسدُ على الكفرِ، وبهِ تَخَلَّفَ الإيمانُ عن أُمَيَّةَ وأضرابِهِ ممَّن كانَ عندَهُ علمٌ بنبوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ[١].

السَّببُ الرَّابعُ: مانعُ الرِّياسةِ والملكِ. وإنْ لَمْ يَقُمْ بصاحبِهِ حسدٌ ولا تكبُّرٌ عنِ الانقيادِ للحقِّ، لٰكنْ لا يُمْكِنُ أنْ يَجْتَمِعَ لهُ الانقيادُ وملكُهُ ورياستُهُ، فيَضِنُّ بملكِهِ ورياستِهِ، كحالِ هِرَقْلَ وأضرابِهِ مِن ملوكِ الكفَّارِ الذينَ عَلِموا /خ١٥٥/ نبوَّتَهُ وصدقَهُ وأقَرُّوا بها باطنًا وأَحَبُّوا الدُّخولَ في دينِهِ لٰكنَّـ[ـهُم] خافوا على ملكِهِم!

وهٰذا داءُ أربابِ الملكِ والولايةِ والرِّياسةِ، وقلَّ مَن نَجا منهُ إلاَّ مَن عَصَمَ اللهُ.

وهوَ داءُ فِرْعَوْنَ وقومِهِ، ولهٰذا قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]؛ أَنِفوا أنْ يُؤْمِنوا ويَتَّبِعوا موسى وهارونَ ويَنْقادوا لهُما وبنو إسرائيلَ عبيدٌ لهُم! ولهٰذا قيلَ: إنَّ فِرْعَوْنَ لمَّا أرادَ متابعةَ موسى وتصديقَهُ؛ شاوَرَ هامانَ وزيرَهُ، فقالَ: بينا[٢] أنتَ إلٰهٌ تُعْبَدُ تَصيرُ عبدًا تَعْبُدُ غيرَكَ! فأبى العبوديَّةَ وٱخْتارَ الرِّياسةَ والإلٰهيَّةَ المحالَ!

السَّببُ الخامسُ: مانعُ الشَّهوةِ والمالِ. وهوَ الذي مَنَعَ كثيرًا مِن أهلِ الكتابِ مِن الإيمانِ خوفًا مِن بطلانِ مآكلِهِم وأموالِهِمُ التي تَصيرُ إليهِم مِن قومِهِم.

وقد كانَتْ [كفَّارُ] قريشٍ يَصُدُّونَ الرَّجلَ عنِ الإيمانِ بحسبِ شهوتِهِ، فيَدْخُلونَ عليهِ منها، فكانوا يَقولونَ لمَن يُحِبُّ الزِّنى والفواحشَ: إنَّ مُحَمَّدًا يُحَرِّمُ الزِّنى ويُحَرِّمُ الخمرَ، وبهِ صَدُّوا الأعشى الشَّاعرَ عنِ الإسلامِ[٣].

---

(١) وقد تقدّم لك شيء من هٰذا قبل قليل.

(٢) في ط: «لٰكن لا يمكنه أن يجتمع... بينما»، وفي خ: «... علموا بنبوّته...».

(٣) الأعشى الكبير، أعشى قيس، ميمون بن قيس، أبو بصير، صنّاجة العرب، من أكثر شعراء الطبقة الأولى في الجاهليّة شعرًا، عُمِّر طويلاً، وأدرك الإسلام ولم يسلم، توفي سنة ٧هـ. والذي تواطأ عليه أهل السير وتاريخ الأدب أنّه قصد المدينة ليسلم ونظم في مدح النبيّ ﷺ، فٱحتال له مشركو مكّة ونفّروه بأسوإ ما قدروا عن الإسلام وأعطوه عطاء، فٱنصرف ليتروّى في أمره ويعود إلى النبيّ ﷺ عامه المقبل، فمات في طريق عودته. وليس للقصّة إسناد ضعيف بله الحسن والصحيح، وإنّما معضلات وبلاغات، وفيها خلافات لا يعسر التوفيق بينها. فالله أعلم. وانظر للاستزادة: «طبقات الشعراء» لابن قتيبة (ص٢١٢)، «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢١)، «البداية والنهاية» (٢/ ٤٦٠)، «خزانة الأدب» (١/ ١٧٦)، «الأعلام» للزركلي (٧/ ٣٤١).

وقد فاوَضْتُ غيرَ واحدٍ مِن أهلِ الكتابِ في الإسلامِ وصحَّتِهِ، فكانَ آخرَ ما كَلَّمَني بِهِ أحدُهُم: أنا لا أَتْرُكُ الخمرَ وأَشْرَبُها آمنًا، فإذا أَسْلَمْتُ؛ حِلْتُمْ بيني وبينَها وجَلَدْتُموني على شربِها!

وقالَ آخرُ منهُم بعدَ أنْ عَرَفَ ما قُلْتُ لهُ: لي أقاربُ أربابُ أموالٍ، وإنِّي، إنْ أسْلَمْتُ، لمْ يَصِلْ إليَّ منها شيءٌ، وأنا أُؤَمِّلُ [أنْ] أرِثَهُم! أو كما قالَ.

ولا ريبَ أنَّ هٰذا القدرَ في نفوسِ خلقٍ كثيرٍ مِن الكفَّارِ، فتَتَّفِقُ قوَّةُ داعي الشَّهوةِ والمالِ وضعفُ داعي الإيمانِ، فيُجيبُ داعيَ الشَّهوةِ والمالِ ويقولُ: لا أرْغَبُ بنفسي عن آبائي وسلفي!

السَّببُ السَّادسُ: محبَّةُ الأهلِ والأقاربِ والعشيرةِ. يَرى أنَّهُ إذا ٱتَّبَعَ الحقَّ وخالَفَهُم؛ أبْعَدوهُ وطَرَدوهُ عنهُم وأخْرَجوهُ مِن بينِ أظهرِهِم. وهٰذا سببُ بقاءِ خلقٍ كثيرٍ على الكفرِ بينَ قومِهِم /خ١٥٦/ وأهاليهِم وعشائرِهِم.

السَّببُ السَّابعُ: محبَّةُ الدَّارِ والوطنِ. وإنْ لمْ يَكُنْ لهُ بها عشيرةٌ ولا أقاربُ، لٰكنْ يَرَى أنَّ في متابعةِ الرَّسولِ خروجَهُ عن دارِهِ ووطنِهِ إلى دارِ الغربةِ والنَّوى، فيَضِنُّ بوطنِهِ ودارِهِ.

السَّببُ الثَّامنُ: تخيُّلُهُ أنَّ في الإسلامِ ومتابعةِ الرَّسولِ [ﷺ] إزراءً وطعنًا منهُ على آبائِهِ وأجدادِهِ وذمًّا لهُم.

وهٰذا هو الذي مَنَعَ أبا طالبٍ وأمثالَهُ عنِ الإسلامِ؛ ٱسْتَعْظَموا آباءَهُم وأجدادَهُم أنْ يَشْهَدوا عليهِم بالكفرِ والضَّلالِ وأنْ يَخْتاروا خلافَ ما ٱخْتارَ أُولٰئِكَ لأنفسِهِم، ورَأَوْا أنَّهُم إنْ أسْلَموا سَفَّهوا أحلامَ أُولٰئكَ وضَلَّلوا عقولَهُم ورَمَوْهُم بأقبحِ القبائحِ وهوَ الشِّركُ والكفرُ(١).

ولهٰذا قالَ أعداءُ اللهِ لأبي طالبٍ عندَ الموتِ: أتَرْغَبُ عن ملَّةِ عَبْدِالمُطَّلِبِ؟ [فكانَ آخرَ ما كَلَّمَهُم بهِ: هوَ على ملَّةِ عَبْدِالمُطَّلِبِ]! فلمْ يَدْعُهُ أعداءُ اللهِ إلاَّ مِن هٰذا

---

(١) في ط: «السبب الثامن من تخيّل أنّ... وهو الكفر والشرك»، والأولى ما أثبتّه من خ.

البابِ؛ لعلمِهم بتعظيمِهِ أباهُ عَبْدَالمُطَّلِبِ وأنَّهُ إنَّما حازَ الشَّرفَ والفخرَ بهِ، فكيفَ يَأْتي أمرًا يَلْزَمُ منهُ غايةُ تنقيصِهِ وذمِّهِ؟! ولهٰذا قالَ: لولا أنْ تكونَ مسبَّةً على بني عَبْدِالمُطَّلِبِ؛ لأقْرَرْتُ بها عينَكَ! أو كما قالَ[١].

وهٰذا شعرُهُ يُصَرِّحُ فيهِ بأنَّهُ قد عَلِمَ وتَحقَّقَ نبوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وصدقَهُ: كقولِهِ:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينا

لَوْلا المَلامَةُ أَوْ حِذارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَني سَمْحًا بِذاكَ مُبِينا

وفي قصيدتِهِ اللاميَّةِ:

فَوَاللهِ لَوْلا أَنْ تَكُونَ مَسَبَّةً ... تُجَرُّ عَلى أَشْياخِنا في المَحافِلِ

لَكُنَّا ٱتَّبَعْناهُ عَلى كُلِّ حالَةٍ ... مِنَ الدَّهْرِ جِدًّا غَيْرَ قَوْلِ الهازِلِ

لَقَدْ عَلِموا أَنَّ ٱبْنَنا لا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنا وَلا يُعْنى بِقَوْلِ الأَباطِلِ[٢]

والمسبَّةُ التي زَعَمَ أنَّها تُجَرُّ على أشياخِهِ شهادتُهُ عليهِم بالكفرِ والضَّلالِ وتسفيهِ الأحلامِ وتضليلِ العقولِ، فهٰذا هوَ الذي مَنَعَهُ /خ١٥٧/ مِن الإسلامِ بعدَ تيقُّنِهِ.

السَّببُ التَّاسعُ: متابعةُ مَن يُعاديهِ مِن النَّاسِ للرَّسولِ وسبقُهُ إلى الدُّخولِ في دينِهِ وتخصُّصُهُ [بهِ][٣] وقربُهُ منهُ.

وهٰذا القدرُ منعَ خلقًا كثيرًا مِن ٱتِّباعِ الهدى؛ يَكونُ للرَّجلِ عدوٌّ [يُبْغِضُهُ ويُبْغِضُ] مكانَهُ ولا يُحِبُّ أرضًا يَمْشي عليها ويَقْصِدُ مخالفتَهُ ومناقضتَهُ، فيَراهُ قدِ ٱتَّبَعَ الحقَّ، فيَحْمِلُهُ قصدُ مناقضتِهِ ومعاداتِـ[ـهِ] على معاداةِ الحقِّ وأهلِهِ وإنْ كانَ لا عداوةَ بينَهُ وبينَهُم!

[و]هٰذا كما جَرى لليهودِ معَ الأنصارِ؛ فإنَّهُم كانوا أعداءَهُم وكانوا يَتَوَعَّدونَهُم[٤] بخروجِ النَّبيِّ ﷺ وأنَّهُم يَتَّبِعونَهُ ويُقاتِلونَهُم معَهُ، فلمَّا بَدَرَهُم إليهِ الأنصارُ وأسْلَموا؛

---

(١) ٱنظر لهٰذا: «صحيح البخاري» (٣٣ـ الجنائز، ٨٠ـ إذا قال المشرك عند الموت لا إلٰه إلّا الله، ٣/ ٢٢٢/ ١٣٦٠)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٩ـ الدليل على صحّة إسلام من حضره الموت، ١/ ٥٤/ ٢٤ و٢٥).

(٢) قال ابن هشام (١/ ٢٢٤) بعد ذكرها بطولها: «وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها». قلت: هي أقرب إلى شعر المولّدين منها إلى شعر ذاك العصر، وفيها ما يستنكر على كلّ حال، والله أعلم.

(٣) في ط: «حاز الفخر والشرف به... وتخصيصه»، والأولى ما أثبتّه من خ، والزيادة منّي.

(٤) في ط: «عدوّ ويبغض مكانه... وبينهم هٰذا كما جرى... يتواعدونهم»، وأثبتّ ما في خ.

حَمَلَهُم معاداتُهُم على البقاءِ على كفرِهم ويهوديَّتِهم.

السَّببُ العاشرُ: مانعُ الإلفِ والعادةِ والمنشإِ. فإنَّ العادةَ قد تَقْوى حتَّى تَغْلِبَ حكمَ الطَّبيعةِ، ولهٰذا قيلَ: هيَ طبيعةٌ ثانيةٌ. فيُرَبَّى الرَّجلُ على المقالةِ ويُنَشَّأُ عليها صغيرًا، فيَتَرَبَّى قلبُهُ ونفسُهُ عليها كما يَتَرَبَّى لحمُهُ وعظمُهُ على الغذاءِ المعتادِ ولا يَعْقِلُ نفسَهُ إلَّا عليها، ثمَّ يَأْتيهِ العلمُ وهلةً واحدةً يُريدُ إزالتَها وإخراجَها مِن قلبِهِ وأنْ يَسْكُنَ موضعَها، فيَعْسُرُ عليهِ الانتقال ويَصْعُبُ عليهِ الزَّوال.

وهٰذا السَّببُ، وإنْ كانَ أضعفَ الأسبابِ منعًا، فهوَ أغلبُها على الأُممِ. وأربابُ المقالاتِ والنِّحلِ، ليسَ معَ أكثرِهم ـ بل جميعِهم إلَّا ما عسى أنْ يَشُذَّ ـ إلَّا عادةٌ ومربًى تَرَبَّى عليها طفلًا لا يَعْرِفُ غيرَها ولا يُحِسُّ به[١]. فدينُ العوائدِ هوَ الغالبُ على أكثرِ النَّاسِ، فالانتقالُ عنهُ كالانتقالِ عنِ الطَّبيعةِ إلى طبيعةٍ ثانيةٍ[٢].

فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ على أنبيائِهِ ورسلِهِ، خصوصًا على خاتمِهِم وأفضلِهِم مُحَمَّدٍ ﷺ، كيفَ غَيَّروا عوائدَ الأُممِ الباطلةَ ونَقَلوهُم إلى الإيمانِ حتَّى ٱسْتَحْدَثوا بهِ طبيعةً ثانيةً خَرَجوا بها عن عادتِهِم وطبيعتِهِم الفاسدةِ! ولا يَعْلَمُ مشقَّةَ هٰذا على النُّفوسِ إلَّا مَن زاوَلَ نقلَ رجلٍ واحدٍ /خ١٥٨/ عن دينِهِ ومقالتِهِ إلى الحقِّ. فجَزى اللهُ المرسلينَ أفضلَ ما جَزى بهِ[٣] أحدًا مِن العالَمينَ.

إذا عُرِفَ أنَّ المقتضيَ نوعانِ: فالهدى المقتضي وحدَهُ لا يُوجِبُ الاهتداءَ، والهدى التَّامُّ يوجِبُ الاهتداءَ. فالأوَّلُ: هدى البيانِ والدّلالةِ [والتَّعليم، ولهٰذا يُقالُ: هُدِيَ فما ٱهْتَدى]. والثَّاني: هدى البيانِ والدّلالةِ معَ إعطاءِ التَّوفيقِ[٤] وخلقِ الإرادةِ، فهٰذا الهدى الذي يَسْتَلْزِمُ الاهتداءَ ولا يَتَخَلَّفُ عنهُ موجَبُهُ، فمتى وُجِدَ السَّببُ وٱنْتَفَتِ

---

(١) في ط: «الأسباب معنًى فهو... ولا يحسن به»! والصواب ما أثبتّه من خ.

(٢) ولذٰلك يعاني الدعاة إلى عقيدة السلف وعبادتهم وسلوكهم معاناة عظيمة في صرف الناس عن تعطيل الأشاعرة وتقليد المذهبية وضلالات الصوفيّة، ولا يكادون يظفرون إلّا بالقليل ممّن يستمع إليهم ثمّ يستجيب لدعوتهم، وأكثر الناس يهزّون رؤوسهم ٱستسلامًا للحجّة ثمّ يعودون بعدُ إلى ما كانوا عليه.

(٣) في خ: «عن عاداتهم وطبيعتهم... من زوال نقل... ما جازى به»، والصواب ما أثبتّه من ط.

(٤) في خ: «والثاني هداية الإلهام مع إعطاء التوفيق»، وما أثبتّه من ط أوضح.

الموانعُ؛ لَزِمَ وجودُ حكمِهِ.

وهاهُنا دقيقةٌ بها يَنْفَصِلُ النِّزاعُ، وهيَ أنَّهُ: هل يَنْعَطِفُ مِن قيامِ المانعِ وعدمِ الشَّرطِ على المقتضي أمرٌ يُضْعِفُهُ في نفسِهِ ويَسْلُبُهُ اقتضاءَهُ وقوَّتَهُ، أوِ اقتضاؤُهُ بحالِهِ[1] وإنَّما غَلَبَ المانعُ فكانَ التَّأثيرُ لهُ؟

ومثالُ ذٰلكَ في مسألتِنا أنَّهُ بوجودِ هٰذهِ الموانعِ المذكورةِ أو بعضِها: هلْ يَضْعُفُ العلمُ أو يَعْدَمُ حتَّى لا يَصيرَ مؤثِّرًا ألبتَّةَ، أو العلمُ بحالِهِ ولٰكنَّ المانعَ بقوَّتِهِ غَلَبَ فكانَ الحكمُ لهُ؟

هٰذا سرُّ المسألةِ وفقهُها. فأمَّا الأوَّلُ؛ فلا شأنَ فيهِ[2]، ولٰكنَّ الشَّأنَ في القسمِ الثَّاني، [وهوَ] بقاءُ العلمِ بحالِهِ. والتَّحقيقُ أنَّ الموانعَ تَحْجُبُهُ وتُعْميهِ، وربَّما قَلَبَتْ حقيقتَهُ مِن القلبِ. والقرآنُ قد دَلَّ على هٰذا:

قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿وَإِذْ قالَ موسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذونَني وَقَدْ تَعْلَمونَ أَنّي رَسولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلوبَهُم وَاللهُ لا يَهْدي القَوْمَ الفاسِقينَ﴾ [الصف: ٥]. فعاقَبَهُم سبحانَهُ بإزاغةِ قلوبِهِم عنِ الحقِّ لمَّا زاغوا عنهُ ابتداءً.

ونظيرُهُ قولُهُ تَعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. ولهٰذا قيلَ: مَن عُرِضَ عليهِ حقٌّ فردَّهُ ولمْ يَقْبَلْهُ؛ عوقِبَ بفسادِ قلبِهِ وعقلِهِ ورأيِهِ. ومِن هُنا قيلَ: لا رأْيَ لصاحبِ هوًى؛ فإنَّ هواهُ يَحْمِلُهُ على ردِّ الحقِّ فيُفْسِدُ اللهُ عليهِ رأْيَهُ وعقلَهُ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَبِما نَقْضِهِمْ ميثاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآياتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِياءَ /خ ١٥٩/ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلوبُنا غُلْفٌ [بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها

---

(١) في خ: «وقوّته وقضاؤه بحاله»! وفي ط: «وقوّته أو اقتضاءه بحاله»! وكلاهما غلط!

ومعنى الكلام: أنّه إذا كان لدينا فعلٌ يقتضي أثرًا، ثمّ حصل مانع منع الفعل من أثره؛ فهل سلب المانعُ الفعلَ قدرتَه على التأثير فأصبح عاطلًا؟ أو أنّ الفعل ما زال محتفظًا بقدرته على التأثير، ولٰكنّ قوّة تأثير المانع غلبت تأثيره، فكانت المحصّلة النهائيّة للمانع؟

(٢) في خ: «فلا يشكّ»! وفي ط: «فلا شكّ فيه»! وكلاهما تحريف لما أثبتّه! وإذا كان الأوّل صوابًا لا شكّ فيه؛ فأيّ حاجة للبحث والتطويل في قضيّة قد بان فيها الصواب بما لا شكّ فيه؟!

بِكُفْرِهِمْ][1]﴾ [النساء: ١٥٥]. أخْبَرَ سبحانَهُ أنَّ كفرَهُم بالحقِّ بعدَ أنْ عَلِموهُ كانَ سببًا لطبعِ اللهِ على قلوبِهِم حتَّى[2] صارَتْ غلفًا، والغلفُ جمعُ أغلفَ، وهوَ القلبُ [الذي] قد غَشِيَهُ غلافٌ كالسَّيفِ الذي في غلافِهِ، وكلُّ شيءٍ في غلافٍ فهوَ أغلفُ، وجمعُهُ غلفٌ، يُقالُ: سيفٌ أغلفُ وقوسٌ غلفاءُ، ورجلٌ أغلفُ وأقلفُ إذا لمْ يُخْتَنْ. والمعنى: قلوبُنا عليها غشاوةٌ وغطاءٌ، فلا نَفْقَهُ ما تَقولُ[3] [يا] مُحَمَّدُ ﷺ.

ولَمْ يَصْنَعْ شيئًا مَن قالَ: إنَّ المعنى أنَّها غلفٌ للعلمِ والحكمةِ؛ أي: أوعيةٌ لها، فلا نَحْتاجُ إلى قولِكَ ولا نَقْبَلُهُ؛ استغناءً بما عندَهُم! لوجوهٍ:

أحدُها: أنَّ غلفًا جمعُ أغلفَ، كقُلْفٍ وأقلفَ وحُمْرٍ وأحمرَ وجُرْدٍ وأجردَ وغُلْبٍ وأغلبَ... ونظائرِهِ، والأغلفُ مِن القلوبِ هوَ الدَّاخلُ في الغلافِ. هٰذا هوَ المعروفُ مِن اللغةِ.

الثَّاني: أنَّهُ ليسَ مِن الاستعمالِ السَّائغِ المشهورِ أنْ يُقالَ: قلبُ فلانٍ[4] غلافٌ لكذا! وهٰذا لا يَكادُ يُوجَدُ في شيءٍ مِن نثرِ كلامِهِم ولا نظمِهِ، ولا نظيرَ لهُ في القرآنِ فيُحْمَلُ عليهِ، ولا هوَ مِن التَّشبيهِ البديعِ المستحسنِ، فلا يَجوزُ حملُ الآيةِ عليهِ.

الثَّالثُ: أنَّ نظيرَ قولِ هٰؤلاءِ قولُ الآخرينَ مِن الكفَّارِ: ﴿قُلوبُنا في أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعونا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]، والأكنَّةُ هُنا هيَ الغلفُ التي قلوبُ هٰؤلاءِ فيها، والأكنَّةُ كالأوعيةِ والأغطيةِ التي تُغَطِّي المتاعَ، ومنهُ الكنانةُ لغلافِ السِّهامِ.

الرَّابعُ: أنَّ سياقَ الآيةِ لا يَحْسُنُ معَ المعنى الذي ذَكَروهُ ولا يَحْسُنُ مقابلتُهُ[5] بقولِهِ: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ﴾، وإنَّما يَحْسُنُ معَ هٰذا المعنى أنْ يُسْلَبَ عنهُمُ

---

(١) ساقطة من ط، ولا بدّ منها لسلامة السياق.

(٢) في خ: «لصاحب الهوى...»، وفي ط: «... على قلوبهم بل طبع الله عليها بكفرهم حتّى»!

(٣) في ط: «شيء في غلافه... إذا لم يختتن... فلا تفقه ما تقول»! وفي خ: «... يقول».

(٤) في ط: «أحدها أنّ غلف...»! وفي خ: «... يقال قال فلان»!

(٥) أي مقابلة قولهم: قلوبنا أوعية للحكمة! فأمّا أنّ سياق الآية لا يحسن مع هٰذا المعنى؛ فنعم، وأمّا أنّ مقابلة هٰذا المعنى بالطبع لا تحسن؛ ففيها نظر، وتحسينها سائغ. نعم؛ مقابلة المعنى الذي انتصر له ابن القيّم رحمة الله عليه بالطبع أولى وأحسن. والله أعلم.

العلمُ والحكمةُ التي ٱدَّعَوْها كما قيلَ لهُم لمَّا ٱدَّعَوْا ذٰلكَ: ﴿وَما أُوتيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]. وأمّا هُنا؛ فلمَّا ٱدَّعَوْا أنَّ قلوبَهُم في أغطيةٍ وأغشيةٍ لا تَفْقَهُ قولَهُ؛ قوبِلوا بأنْ عَرَّفَهُم أنَّ كفرَهُم ونقضَهُم ميثاقَهُم وقتلَهُمُ الأنبياءَ كانَ سببًا لأنْ طُبِعَ على قلوبِهِم، ولا رَيْبَ /خ١٦٠/ أنَّ القلبَ إذا طُبِعَ عليهِ؛ أظْلَمَتْ صورةُ العلمِ فيهِ وٱنْطَمَسَتْ، وربَّما ذَهَبَ أثرُها، حتَّى يَصيرَ السَّببُ الذي يَهْتَدي بهِ المهتدونَ سببًا لضلالِ هٰذا:

كما قالَ تَعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثيرًا وَيَهْدي بِهِ كَثيرًا وَما يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الفاسِقينَ . الَّذينَ يَنْقُضونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ميثاقِهِ وَيَقْطَعونَ ما أمَرَ اللهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدونَ في الأرْضِ أُولٰئِكَ هُمُ الخاسِرونَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧]، فأخْبَرَ تَعالى أنَّ القرآنَ سببٌ لضلالِ هٰذا الصِّنفِ مِن النَّاسِ، وهوَ هُداهُ الذي هَدى بهِ رسولَهُ وعبادَهُ المؤمنينَ.

ولهٰذا أخْبَرَ سبحانَهُ أنَّهُ إنَّما يَهْدي بهِ مَنِ ٱتَّبَعَ رضوانَ اللهِ، قالَ تَعالى: ﴿وَإذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقولُ أيُّكُمْ زادَتْهُ هٰذِهِ إيمانًا فَأمَّا الَّذينَ آمَنوا فَزادَتْهُمْ إيمانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرونَ . وَأمَّا الَّذينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ وَماتوا وَهُمْ كافِرونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

ولا شيءَ أعظمُ فسادًا لمحلِّ العلمِ مِن صيرورتِهِ بحيثُ يَضِلُّ بما يُهْتَدى بهِ، فنسبتُهُ إلى الهدى والعلمِ نسبةُ الفمِ الذي [قدِ] ٱسْتَحْكَمَتْ فيهِ المرارةُ إلى الماءِ العذبِ، كما قيلَ:

وَمَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ الماءَ الزُّلالا

وإذا فَسَدَ القلبُ؛ فَسَدَ إدراكُهُ، وإذا فَسَدَ الفمُ، فَسَدَ إدراكُهُ، وكذٰلكَ إذا فَسَدَتِ العينُ.

وأهلُ المعرفةِ مِن الصَّيارفةِ يَقولونَ: إنَّ مَن خانَ في نقدِهِ نَسِيَ النَّقدَ وسُلِبَهُ فٱشْتَبَهَ عليهِ الخالصُ بالزَّغلِ.

ومِن كلامِ بعضِ السَّلفِ: العلمُ يَهْتِفُ بالعملِ[1]؛ فإنْ أجابَهُ حَلَّ، وإلاَّ ٱرْتَحَلَ.

---

(١) في خ: «يجد مرارة الماء الزلالا فإذا. . .»، وفي ط: «. . . يهتف العلم بالعمل».

وقالَ بعضُ السَّلفِ: كنَّا نَسْتَعِينُ على حفظِ العلمِ بالعملِ بهِ.

فتركُ العملِ [بالعلم] مِن أقوى الأسبابِ في ذهابِهِ ونسيانِهِ.

وأيضًا؛ فإنَّ العلمَ يُرادُ للعملِ؛ فإنَّهُ بمنزلةِ الدَّليلِ للسَّائرِ، فإذا لَمْ يَسِرْ خلفَ الدَّليلِ؛ لَمْ يَنْتَفِعْ بدلالتِهِ، فنُزِّلَ منزلةَ مَن [لَمْ] يَعْلَمْ شيئًا؛ لأنَّ مَن عَلِمَ ولَمْ يَعْمَلْ بمنزلةِ الجاهلِ الذي لا يَعْلَمُ، كما أنَّ مَن مَلَكَ ذهبًا وفضَّةً وجاعَ وعَرِيَ ولَمْ يَشْتَرِ منها ما يأْكُلُ ويَلْبَسُ /خ١٦١/ فهوَ بمنزلةِ الفقيرِ العادمِ، كما قيلَ:

وَمَنْ تَرَكَ الإنْفاقَ عِنْدَ احْتِياجِهِ ... مَخافَةَ فَقْرٍ فَالَّذي فَعَلَ الفَقْرُ

والعربُ تُسَمِّي الفحشَ والبذاءَ جهلاً: [إمَّا] لكونِهِ ثمرةَ الجهلِ فسُمِّيَ باسمِ[1] سببِهِ وموجِبِهِ، وإمَّا لأنَّ الجهلَ يُقالُ في جانبِ العلمِ والعملِ.

قالَ الشَّاعرُ:

ألا [لا] يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجاهِلِينا

ومِن هٰذا قولُ موسى لقومِهِ، وقد قالوا: أَتَتَّخِذُنا هُزُوًا؟ قالَ: ﴿أعوذُ باللهِ أنْ أكونَ مِنَ الجاهِلينَ﴾ [البقرة: ٦٧]. فجَعَلَ الاستهزاءَ بالمؤمنينَ جهلاً.

ومنهُ قولُهُ تَعالى حكايةً عن يوسُفَ أنَّهُ قالَ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الجاهِلينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

ومِن هٰذا قولُهُ تَعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهِلينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]: ليسَ المرادُ بهِ إعراضَهُ [عمَّن لا علمَ عندَهُ فلا يُعَلِّمُهُ ولا يُرْشِدُهُ، وإنَّما المرادُ إعراضُهُ] عن جهلِ مَن جَهِلَ عليهِ منهُم فلا يُقابِلُهُ ولا يُعاتِبُهُ. قالَ مُقاتِلٌ وعُرْوَةُ والضَّحَّاكُ وغيرُهُم: صُنْ نفسَكَ عن مقابلتِهِم على سفهِهِم[2].

وهٰذا كثيرٌ في كلامِهِم.

ومنهُ الحديثُ: «إذا كانَ يومُ صومِ أحدِكُم؛ فلا يَصْخَبْ ولا يَجْهَلْ»[3].

---

(١) في خ: «العلم يراد به العمل. . .»، وفي ط: «. . . جهلاً لكونه ثمرة الجهل فيسمّى باسم».

(٢) في خ: «فلا يقابله ولا يعاينه. . . عن مقالتهم على سفههم»! والصواب ما أثبتّه في ط.

(٣) رواه: البخاري (٣٠ـ الصوم، ٢ـ فضل الصوم، ٤/١٠٢/١٨٩٤)، ومسلم (١٣ـ الصيام، ٢٩ـ حفظ اللسان للصائم، ٢/٨٠٦/١١٥١)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن هٰذا تسميةُ المعصيةِ جهلاً. قالَ قَتادَةُ: أجْمَعَ أصحابُ مُحَمَّدٍ [ﷺ] أنَّ كلَّ مَن عَصى اللهَ فهوَ جاهلٌ. وليسَ المرادُ أنَّهُ جاهلٌ بالتَّحريمِ؛ إذْ لوْ كانَ جاهلاً [بهِ]؛ لمْ يَكُنْ عاصيًا، ولمْ يَتَرَتَّبِ الحدُّ في الدُّنيا والعقوبةُ في الآخرةِ على الجاهلِ بالتَّحريمِ. بل نفسُ الذَّنبِ يُسَمَّى جهلاً، وإنْ عَلِمَ مرتكبُهُ بتحريمِهِ: إمَّا لأنَّهُ لا يَصْدُرُ إلاَّ عن ضعفِ[1] العلمِ [ونقصانِهِ]، وذٰلكَ جهلٌ، فسمِّيَ بأسمِ سببِهِ. وإمَّا تنزيلاً لفاعلِهِ منزلةَ الجاهلِ بهِ.

الثَّاني[2]: أنَّهُم لمَّا رَدُّوا الحقَّ ورَغِبوا عنهُ؛ عوقِبوا بالطَّبعِ والرَّينِ وسلبِ العقلِ والفهمِ، كما قالَ تَعالى عنِ المنافقينَ: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنوا ثُمَّ كَفَروا فَطُبِعَ عَلى قُلوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهونَ﴾ [المنافقون: ٣].

الثَّالثُ: أنَّ العلمَ الذي يُنْتَفَعُ بهِ ويَسْتَلْزِمُ النَّجاةَ والفلاحَ لمْ يَكُنْ حاصلاً لهُم، فسُلِبَ عنهُم حقيقتُهُ، والشَّيءُ قد يَنْتَفي لنفيِ ثمرتِهِ والمرادِ منهُ. قالَ [اللهُ] تَعالى في ساكنِ النَّارِ: ﴿فَإِنَّ لَهُ /خ١٦٢/ جَهَنَّمَ لا يَموتُ فيها ولا يَحْيا﴾ [طه: ٧٤]: نَفى [عنهُ] الحياةَ لانتفاءِ فائدتِها والمرادِ منها. ويَقولونَ: لا مالَ إلاَّ ما أُنْفِقَ، ولا علمَ إلاَّ ما نَفَعَ.

ولهٰذا نَفى سبحانَهُ عنِ الكفَّارِ الأسماعَ والأبصارَ والعقولَ لمَّا لمْ يَنْتَفِعوا بها: قالَ [اللهُ] تَعالى[3]: ﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصارًا وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانوا يَجْحَدونَ بِآياتِ اللهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وقالَ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثيرًا مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلوبٌ لا يَفْقَهونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعونَ بِها﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فلمَّا لمْ يَحْصُلْ لهُمُ

---

(١) في ط: «جاهلاً لم يكن عاصيًا... جاهل بالتحريم...»، وفي خ: «... إلاَّ من ضعف».

(٢) كذا! ولم يذكر أوّلاً لهٰذا الثاني والثالث الذي يليه: فإمّا أنّه ذهول منه يرحمه الله! أو أنّ هاهنا سقطًا قديمًا تتابعت عليه النسخ! أو أنّه ذكر الأوّل في تضاعيف الكلام المتقدّم، وأصلح المواضع له بداية شرحه لآية النساء [١٥٥]، فأبتدأ ببيان معنى الآية عمومًا، ثمّ بيّن معنى الغلف، ثمّ ردّ قول من زعم أنّ الغلف الأوعية من وجوه، ثمّ أستطرد في الكلام عن فساد القلب وإدراكه، ثمّ عن أثر ترك العمل بالعلم في ذهابه، ثمّ عن تسمية المعاصي جهلاً، ثمّ عاد لمعنى الآية عمومًا من جديد! وهٰذا ممكن، وابن القيّم رحمة الله عليه كثير الاستطراد في مصنّفاته، بل له أستطرادات أضعاف أضعاف هٰذا، يعلم ذٰلك من أدمن قراءة مصنّفاته وخبر طريقته في العرض. والله أعلى وأعلم.

(٣) في ط: «نفى الحياة لانتفاء... وقال تعالى»، وفي خ: «... ما أنفق منه...».

الهدى المطلوبُ بهٰذهِ الحواسِّ؛ كانوا بمنزلةِ فاقديها؛ قالَ تَعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

فالقلبُ يوصَفُ بالبصرِ والعمى والسَّمعِ والصَّممِ والنُّطقِ والبَكَمِ، بل هٰذهِ لهُ أصلاً وللعينِ والأُذنِ واللسانِ تبعًا، فإذا عَدِمَها القلبُ؛ فصاحبُهُ أعمى مفتوحُ العينِ أصمُّ ولا آفةَ بأُذنِهِ أبكمُ وإنْ كانَ فصيحَ اللسانِ؛ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَإِنَّها لا تَعْمى الأَبْصارُ وَلٰكِنْ تَعْمى القُلوبُ الَّتي في الصُّدورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فلا تنافيَ بينَ قيامِ الحجَّةِ بالعلمِ وبينَ سلبِهِ ونفيِهِ بالطَّبعِ والختمِ والقفلِ على قلوبِ مَن لا يَعْمَلُ[1] بموجَبِ الحجَّةِ ويَنْقادُ لها. قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَإِذا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذينَ لا يُؤْمِنونَ بِالآخِرَةِ حِجابًا مَسْتورًا . وَجَعَلْنا عَلى قُلوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهوهُ وَفي آذانِهِمْ وَقْرًا وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ في القُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفورًا﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦]: فأخْبَرَ سبحانَهُ بأنَّهُ مَنَعَهُم فقهَ كلامِهِ، وهوَ الإدراكُ الذي يَنْتَفِعُ بهِ مَن فَقِهَهُ، ولمْ يَكُنْ ذٰلكَ مانعًا لهُم مِن الإدراكِ الذي تَقومُ بهِ الحجَّةُ عليهِم؛ فإنَّهُم لو لَمْ يَفْهَموهُ جملةً؛ ما وَلَّوْا على أدبارِهِم نفورًا عندَ ذكرِ توحيدِ اللهِ، فلمَّا وَلَّوْا عندَ ذكرِ التَّوحيدِ؛ دَلَّ على أنَّهُم كانوا يَفْهَمونَ الخطابَ، وأنَّ الذي غَشِيَ قلوبَهُم كالذي غَشِيَ آذانَهُم، ومعلومٌ أنَّهُم لمْ يَعْدَموا السَّمعَ جملةً ويَصيروا كالأصمِّ.

ولذٰلكَ يَنْفي سبحانَهُ عنهُمُ السَّمعَ تارةً ويُثْبِتُهُ أُخرى: قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] /خ١٦٣/، ومعلومٌ أنَّهُم قد سَمِعوا القرآنَ وأَمرَ الرَّسولُ بإسماعِهِم إيَّاهُ. وقالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿وَقالوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا في أَصْحابِ السَّعيرِ﴾ [الملك: ١٠]. فهٰذا السَّمعُ المنفيُّ عنهُم سمعُ الفهمِ والفقهِ، والمعنى: ولو عَلِمَ اللهُ فيهِم خيرًا؛ لأَسْمَعَهُم سمعًا يَنْتَفِعونَ بهِ، وهوَ فقهُ المعنى وعقلُهُ، وإلَّا؛ فقد سَمِعوهُ سمعًا تَقومُ بِهِ عليهِمُ الحجَّةُ، ولٰكنْ لمَّا سَمِعوهُ معَ شدَّةِ بغضِهِ وكراهتِهِ ونفرتِهِم عنهُ؛ لَمْ يَفْهَموهُ ولمْ يَعْقِلوهُ.

---

(١) في خ: «ونفيه والطبع... لم يعمل»، وفي ط: «... فإذا فقدها القلب فصاحبه...».

والرَّجلُ إذا ٱشْتَدَّتْ كراهتُهُ للكلامِ ونفرتُهُ عنهُ لَمْ يَفْهَمْ ما يُرادُ بِه، فيُنَزَّلُ منزلةَ مَن لَمْ يَسْمَعْهُ. قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ما كانوا يَسْتَطيعونَ السَّمْعَ وَما كانوا يُبْصِرونَ﴾ [هود: ٢٠]: نَفى عنهُمُ ٱستطاعةَ السَّمعِ معَ صحَّةِ حواسِّهِم وسلامتِها، وإنَّما لفرطِ بغضِهِم ونفرتِهِم عنهُ وعن كلامِهِ صاروا بمنزلةِ مَن لا يَسْتَطيعُ أنْ يَسْمَعَهُ ولا يَراهُ. وهٰذا ٱستعمالٌ معروفٌ للخاصَّةِ والعامَّةِ؛ يَقولونَ: لا أُطيقُ أنْظُرُ إلى فلانٍ ولا أَسْتَطيعُ أسْمَعُ[١] كلامَهُ؛ مِن بغضِهِ ونفرتِهِ عنهُ.

وبعضُ الجَبْرِيَّةِ يَحْتَجُّ بهٰذِه الآيةِ وشبهِها على مذهبِهِم! ولا دلالةَ فيها؛ إذْ ليسَ المرادُ سلبَهُمُ السَّمعَ والبصرَ الذي تَقومُ بِه الحجَّةُ قطعًا، وإنَّما المرادُ سلبُ السَّمعِ الذي يَتَرَتَّبُ عليهِ فائدتُهُ وثمرتُهُ. والقدرُ حقٌّ، ولٰكنَّ الواجبَ تنزيلُ القرآنِ منازلَهُ ووضعُ الآياتِ مواضعَها وٱتِّباعُ الحقِّ حيثُ كانَ[٢].

ومثلُ هٰذا، إذا لَمْ يَحْصُلْ لهُ فهمُ الخطابِ، لا يُعْذَرُ بذٰلكَ؛ فإنَّ الآفةَ منهُ، وهوَ بمنزلةِ مَن سَدَّ أُذنيهِ عنِ الخطابِ فلمْ يَسْمَعْهُ، فلا يَكونُ ذٰلكَ عذرًا لهُ.

ومِن هٰذا قولُهُم: ﴿قُلوبُنا في أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعونا إِلَيْهِ وَفي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ﴾ [فصلت: ٥]؛ يَعْنونَ: أنَّهُم في تركِ القبولِ منهُ ومحبَّةِ الاستماعِ لِما جاءَ بِهِ وإيثارِ الإعراضِ عنهُ وشدَّةِ النِّفارِ عنهُ بمنزلةِ مَن لا يَعْقِلُهُ ولا يَسْمَعُهُ ولا يُبْصِرُ المخاطبُ لهُم بِهِ! فهٰذا هوَ الذي يَقولونَ لأجلِهِ في النَّارِ: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَو نَعْقِلُ ما كُنَّا في أَصْحابِ السَّعيرِ﴾، [ولهٰذا] /خ١٦٤/ جَعَلَ[٣] ذٰلكَ مقدورًا لهُم وذنبًا ٱكْتَسَبوهُ فقالَ تَعالى: ﴿فَٱعْتَرَفوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحابِ السَّعيرِ﴾ [الملك: ١٠-١١].

واللهُ تَعالى: تارةً يَنْفي عن هٰؤلاءِ العقلَ والسَّمعَ والبصرَ؛ فإنَّها مداركُ العلمِ وأسبابُ حصولِهِ، وتارةً يَنْفي عنهُمُ السَّمعَ والعقلَ، وتارةً يَنْفي عنهُمُ السَّمعَ والبصرَ،

---

(١) في خ: «وكذٰلك ينفي سبحانه... فينزله منزلة من...»، وفي ط: «... أن أسمع».

(٢) في خ: «الآيات على مواضعها...». والمراد أنّ الإيمان بالقدر حقّ وواجب، وأنّنا نؤمن به وبأنّه ما ٱهتدى مهتد ولا ضلّ ضالّ إلاّ بقدر وبأنّه رفعت الأقلام وجفّت الصحف بما هو كائن. ومع هٰذا؛ فلا مذهبنا في القدر كمذهب الجبريّة، ولا الآيات المتقدّمة تصلح متمسّكًا لهم.

(٣) في خ: «ومحبّة الأسماع لما...»! وفي ط: «... السعير جعل»!

وتارةً يَنْفي عنهُمُ العقلَ والبصرَ، وتارةً يَنْفي عنهُمُ السَّمعَ[١] وحدَهُ. فنفيُ الثَّلاثةِ نفيٌ لمدارِكِ العلمِ بطريقِ المطابقةِ، ونفيُ بعضِها نفيٌ لهُ بالمطابقةِ وللآخرِ باللزوم[٢]. فإنَّ القلبَ إذا فَسَدَ؛ فَسَدَ السَّمعُ والبصرُ، بل أصلُ فسادِهما مِن فسادِهِ. وإذا فَسَدَ السَّمعُ والبصرُ؛ فَسَدَ القلبُ، فإذا أعْرَضَ عن سمعِ الحقِّ وأبْغَضَ قائلَهُ بحيثُ لا يُحِبُّ رؤيتَهُ؛ آمْتَنَعَ وصولُ الهدى إلى القلبِ ففَسَدَ. وإذا فَسَدَ السَّمعُ والعقلُ؛ تَبِعَهُما فسادُ البصرِ. فكلُّ مَدْرَكٍ مِن هٰذهِ يَصِحُّ بصحَّةِ الآخرِ ويَفْسُدُ بفسادِهِ، فلهٰذا يَجيءُ في القرآنِ نفيُ ذٰلك صريحًا ولزومًا.

وبهٰذا التَّفصيلِ يُعْلَمُ آتِّفاقُ الأدلَّةِ مِن الجانبين[٣].

وفي آستدلالِ الطَّائفةِ الثَّانيةِ[٤] بقولِهِ ﴿الَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفونَهُ كَما يَعْرِفونَ أَبْناءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦، الأنعام: ٢٠] ونظائرِها نظرٌ؛ فإنَّ اللهَ تَعالى حيثُ قالَ ﴿[الَّذينَ] آتَيْناهُمُ الكِتابَ﴾ لم يَكونوا إلَّا ممدوحينَ مؤمنينَ، وإذا أرادَ ذَمَّهُم والإخبارَ عنهُم بالعنادِ وإيثارِ الضَّلالِ؛ أتى بلفظِ ﴿الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ[٥]:

فالأوَّلُ: كقولِهِ تَعالى: ﴿الَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنونَ . وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمينَ . أُولٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ

---

(١) في خ: «والله تعالى تارة ينفي عن هٰؤلاء العقل وتارة السمع والبصر فإنها مدارك العلم وأسباب حصوله وتارة ينفي عنهم العقل والبصر وتارة ينفي العقل وحده وتارة السمع».

(٢) فنفي السمع مثلاً هو نفي للسمع بالمطابقة ويلزم منه نفي العقل والبصر. وقد تقدّم توضيح دلالة المطابقة واللزوم (١/ ١١٨).

(٣) يريد: جانب قيام الحجّة على الضالّين بالعلم والعقل، وجانب الطبع والختم على قلوبهم.

(٤) لم يرد فيما تقدّم ذكر صريح لطائفة أولى ولا لثانية! فإمّا أنّه ذهل يرحمه الله! وإمّا أنّ في الكلام سقطًا، وهو آحتمال يقوّيه ما تقدّم قبل صفحات! وإمّا أنّ ابن القيّم آعتمد في إثبات الطائفتين على فحوى الكلام المتقدّم، فتكون الطائفة الأولى من رأى أنّ العلم فقد أثره مع وجود الموانع، والثانية من رأى أنّ العلم قد بقي على حاله ولٰكن غلب المانع لقوّته، ويكون وجه آحتجاجهم بهٰذه الآية أنّ الله أثبت لأهل الكتاب معرفة صحيحة وعلمًا يقينيًّا مع أنّ الموانع كانت غالبة قويّة حتّى بقوا على كفرهم. والكلام المتقدّم يفسح المجال لاحتمالات أخرى في المقصود بالطائفتين، لٰكن هٰذا أقواها فيما أرى. والله أعلم.

(٥) كذا قال هنا! لٰكنّه سيعود بعد قليل إلى أنّ صيغة ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾ تستعمل في الممدوحين والمذمومين، وهو الحقّ الذي تشهد له آيات عدّة. والله أعلم.

مَرَّتَيْنِ بما صَبَرُوا...﴾ الآيات [القصص: ٥٢-٥٤]. وكقولِه تَعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتابَ مُفَصَّلاً وَالَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْلَمونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ فَلا تَكونَنَّ مِنَ المُمْتَرينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]. فهٰذا في سياقِ مدحِهِم والاستشهادِ بهِم، ليسَ في سياقِ ذمِّهِم والإخبارِ بعنادِهِم وجحودِهِم، كما ٱسْتَشْهَدَ بهِم[١] في قولِهِ [تَعالى]: ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ شَهيدًا بَيْني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ﴾ [الرعد: ٤٣] /خ١٦٥/، وفي قولِهِ [تَعالى]: ﴿فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿الَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولٰئِكَ يُؤْمِنونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الخاسِرونَ﴾ [البقرة: ١٢١]. وٱخْتُلِفَ في الضَّميرِ في ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾: فقيلَ: هوَ ضميرُ الكتابِ الذي أُوتوهُ، قالَ ابنُ مَسْعودٍ: يُحِلُّونَ حلالَهُ ويُحَرِّمونَ حرامَهُ ويَقْرَؤونَهُ كما أُنْزِلَ ولا يُحَرِّفونَهُ عن مواضعِهِ، قالوا: ونَزَلَتْ في مؤمني أهلِ الكتابِ. وقيلَ: هٰذا وصفٌ للمسلمينَ، والضَّميرُ في ﴿يَتْلُونَهُ﴾ للكتابِ الذي هوَ القرآنُ! وهٰذا بعيدٌ؛ إذْ عُرْفُ القرآنِ يَأْباهُ[٢].

ولا يَرِدُ على ما ذَكَرْنا[هُ] قولُهُ تَعالى: ﴿الَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفونَهُ كَما يَعْرِفونَ أَبْناءَهُمْ وَإِنَّ فَريقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، بل هٰذا حجَّةٌ لنا أيضًا؛ لِما ذَكَرْنا؛ فإنَّهُ أَخْبَرَ في الأوَّلِ عن معرفتِهِم برسولِهِ ﷺ ودينِهِ وقبلتِهِ كما يَعْرِفونَ أبناءَهُمُ ٱستشهادًا بهِم على مَن كَفَرَ وثناءً[٣] عليهِم، ولهٰذا ذَكَرَ المفسِّرونَ أنَّهُم عَبْدُاللهِ بنُ سَلامٍ وأصحابُهُ[٤]، وخَصَّ في آخرِ الآيةِ بالذَّمِّ طائفةً منهُم، فدَلَّ [على] أنَّ الأوَّلينَ غيرُ مذمومينَ، وكونُهُم دَخَلوا في جملةِ الأوَّلينَ بلفظِ المضمرِ لا يُوجِبُ أنْ يُقالَ

---

(١) في ط: «مبنيًا للمجهول فالأوّل... كما ٱستشهدهم»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٢) لأنّه لم يرد في القرآن أبدًا وصف المؤمنين المسلمين أتباع محمّد ﷺ بأنّهم الذين أوتوا الكتاب!

(٣) في ط: «ما ذكرنا قوله...»، وفي خ: «... معرفتهم برسول الله ﷺ... على كفرهم وثناء».

(٤) رواه الثعلبي من طريق ساقطة عن ابن عباس، وابن جرير عن ابن جريج قال: زعموا أنّ... فذكره. ٱنظر «الدرّ المنثور» (١/ ٢٧١). ومال أكثر المفسّرين إلى أنّ الآية على عمومها، وهٰذا أولى بالصواب، والآية أوسع من أن تقصر على ابن سلام وأصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم.

«آتَيْناهُمُ الكِتابَ» عندَ الإطلاقِ؛ فإنَّهُم دَخلوا في هٰذا اللفظِ ضمنًا وتبعًا، فلا يَلْزَمُ تناولُهُ لهُم قصدًا واختيارًا.

وقالَ [تَعالى] في سورةِ الأنعامِ [١٩-٢٠]: ﴿قُلْ أإنَّكُمْ لَتَشْهَدونَ أنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إنَّما هُوَ إلٰهٌ واحِدٌ وَإنَّني بَريءٌ مِمَّا تُشْرِكونَ . الَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفونَهُ كَما يَعْرِفونَ أبْناءَهُمْ﴾: قيلَ: الرَّسولَ وصدقَهُ. وقيلَ: المذكورَ، [و][1] هوَ التَّوحيدُ. والقولانِ متلازمانِ؛ إذْ ذٰلكَ في معرِضِ الاستشهادِ والاحتجاجِ على المشركينَ لا في معرِضِ ذمِّ الذينَ آتاهُمُ الكتابَ؛ فإنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ والحجاجُ كانَ فيها معَ أهلِ الشِّركِ، والسِّياقُ يَدُلُّ على الاحتجاجِ لا ذمِّ المذكورينَ مِن أهلِ الكتابِ.

وأمَّا الثَّاني: فكقولِهِ /خ١٦٦/ : ﴿وَإنَّ الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ لَيَعْلَمونَ أنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَما اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلونَ . وَلَئِنْ أتَيْتَ الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٤-١٤٥]: فهٰذا شهادتُهُ سبحانَهُ للذينَ أُوتوا الكتابَ، والأوَّلُ شهادتُهُ للذينَ آتاهُمُ الكتابَ بأنَّهُم مؤمنونَ. [و][2] قالَ تَعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ آمِنوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقًا لِما مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أنْ نَطْمِسَ وُجوهًا فَنَرُدَّها عَلى أدْبارِها﴾ [النساء: ٤٧]. وقالَ تَعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذينَ أُوتوا الكِتابَ وَالأُمِّيِّينَ أأسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وهٰذا خطابٌ لمَن لمْ يُسْلِمْ منهُم، وإلاَّ؛ فلمْ يُؤْمَرْ ﷺ أنْ يَقولَ هٰذا لمَن أسْلَمَ منهُم وصَدَّقَ بهِ.

ولهٰذا لا يَذْكُرُ سبحانَهُ الذينَ أُوتوا نصيبًا مِن الكتابِ إلاَّ بالذَّمِّ أيضًا كقولِهِ: ﴿ألَمْ تَرَ إلى الَّذينَ أُوتوا نَصيبًا مِنَ الكِتابِ يَشْتَرونَ الضَّلالَةَ وَيُريدونَ أنْ تَضِلُّوا السَّبيلَ﴾ [النساء: ٤٤]. وقالَ تَعالى: ﴿ألَمْ تَرَ إلى الَّذينَ أُوتوا نَصيبًا مِنَ الكِتابِ يُؤْمِنونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغوتِ﴾ الآيَةَ [النساء: ٥١]. وقالَ [تَعالى]: ﴿ألَمْ تَرَ إلى الَّذينَ أُوتوا نَصيبًا مِنَ الكِتابِ يُدْعَوْنَ إلى كِتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَريقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

---

(١) ساقطة من ط.
(٢) ساقطة من ط.

فالأقسامُ أربعةٌ:

الذينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ: وهٰذا لا يَذْكُرُهُ سبحانَهُ إلَّا في معرِضِ المدحِ.

[والذينَ أُوتوا نصيبًا مِن الكتابِ: لا يَكونُ قطُّ إلَّا في معرِضِ الذَّمِّ].

والذينَ أُوتوا الكتابَ: أعمُّ منهُ؛ فإنَّهُ قد يَتَناوَلُهُما، ولٰكنْ لا يُفْرَدُ بِهِ الممدوحونَ قطُّ.

ويا أهلَ الكتابِ: يَعُمُّ الجنسَ كلَّهُ ويَتَنَاوَلُ الممدوحَ منهُ والمذمومَ: كقولِهِ: ﴿مِنْ أَهْلِ الكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدونَ . يُؤْمِنونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ﴾ [الآيةَ][(١)] [آل عمران: ١١٣-١١٤]. وقالَ في الذَّمِّ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذينَ كَفَروا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ وَالمُشْرِكينَ مُنْفَكِّينَ﴾ [البينة: ١].

وهٰذا الفصلُ يُنْتَفَعُ بِهِ جدًّا في أكبرِ مسائلِ أُصولِ الإسلامِ، وهيَ مسألةُ الإيمانِ وٱختلافِ أهلِ القبلةِ فيهِ، [وقد][(٢)] ذَكَرْنا فيهِ نُكَتًا حسانًا يَتَّضِحُ بها الحقُّ في المسألةِ. واللهُ أعلمُ /خ١٦٧/ .

● **الوجهُ الثَّاني والثَّمانونَ:** أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتَعالى فاوَتَ بينَ النَّوعِ الإنسانيِّ أعظمَ تفاوتٍ يَكونُ بينَ المخلوقينَ، فلا يُعْرَفُ ٱثنانِ مِن نوعٍ واحدٍ بينَهُما مِن التَّفاوتِ ما بينَ [خيرِ] البشرِ وشرِّهم.

واللهُ سبحانَهُ خَلَقَ الملائكةَ عقولاً بلا شهوةٍ، وخَلَقَ الحيواناتِ ذواتِ شهواتٍ بلا عقولٍ، وخَلَقَ الإنسانَ مركَّبًا مِن عقلٍ وشهوةٍ، فمَن غَلَبَ عقلُهُ شهوتَهُ؛ كانَ خيرًا مِن الملائكةِ، ومَن غَلَبَتْ شهوتُهُ عقلَهُ؛ كانَ شرًّا مِن الحيواناتِ.

وفاوَتَ سبحانَهُ بينَهُم في العلمِ: فجَعَلَ عالِمَهُم معلِّمَ الملائكةِ، كما قالَ تَعالى: ﴿يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، وتلكَ مرتبةٌ لا مرتبةَ فوقَها. وجَعَلَ جاهلَهُم بحيثُ لا يَرْضى الشَّيطانُ بِهِ ولا يَصْلُحُ لهُ، كما قالَ الشَّيطانُ لجاهلِهِمُ الذي أطاعَهُ في الكفرِ: ﴿إِنِّي بَريءٌ مِنْكَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقالَ لجهلتِهِمُ الذينَ عَصَوْا رسولَهُ: ﴿إِنِّي

---

(١) ساقطة من ط.

(٢) ساقطة من ط.

بَرِيءٌ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]. فلله! ما أشدَّ هٰذا التَّفاوتَ بينَ شخصينِ! أحدُهُما تَسْجُدُ لهُ الملائكةُ ويُعَلِّمُها ممَّا عَلَّمَهُ اللهُ[١]، والآخرُ لا يَرْضى الشَّيطانُ بهِ وليًّا!

وهٰذا التَّفاوتُ العظيمُ إنَّما حَصَلَ بالعلمِ وثمرتِهِ.

ولو لمْ يَكُنْ في العلمِ إلاَّ القربُ مِن ربِّ العالَمينَ والالتحاقُ بعالَمِ الملائكةِ وصحبةُ الملإ الأعلى؛ لَكَفى بهِ فضلاً وشرفًا، فكيفَ وعزُّ الدُّنيا والآخرةِ منوطٌ بهِ ومشروطٌ بحصولِهِ؟!

● **الوجهُ الثَّالثُ والثَّمانونَ**: أنَّ أشرفَ ما في الإنسانِ محلُّ العلمِ منهُ، وهوَ قلبُهُ وسمعُهُ وبصرُهُ.

ولمَّا كانَ القلبُ هوَ محلَّ العلمِ، والسَّمعُ رسولَهُ[٢] الذي يَأْتيهِ بهِ، والعينُ طليعتَهُ؛ كانَ ملكًا على سائرِ الأعضاءِ؛ يَأْمُرُها فتأْتَمِرُ لأمرِهِ ويَصْرِفُها فتَنْقادُ لهُ طائعةً؛ بما خُصَّ بهِ مِن العلمِ دونَها، فلذٰلكَ كانَ ملِكَها والمطاعَ فيها. وهٰكذا العالِمُ في النَّاسِ كالقلبِ في الأعضاءِ[٣].

ولمَّا كانَ صلاحُ الأعضاءِ بصلاحِ ملِكِها ومطاعِها وفسادُها بفسادِهِ؛ كانَتْ /خ١٦٨/ هٰذهِ حالَ النَّاسِ معَ علمائِهِم وملوكِهِم، كما قالَ بعضُ السَّلفِ: صنفانِ، إذا صَلَحا صَلَحَ [سائرُ] النَّاسِ وإذا فَسَدا فَسَدَ [سائرُ] النَّاسِ، العلماءُ والأمراءُ[٤].

قالَ عَبْدُاللهِ بنُ المُبارَكِ:

وَهَلْ أفْسَدَ الدِّينَ إلاَّ المُلُو كُ وَأحْبارُ سَوْءٍ وَرُهْبانُها

ولمَّا كانَ للسَّمعِ والبصرِ مِن الإدراكِ ما ليسَ لغيرِهِما مِن الأعضاءِ؛ كانا في أشرفِ جزءٍ مِن الإنسانِ وهوَ وجهُهُ، وكانا مِن أفضلِ ما في الإنسانِ مِن الأجزاءِ والأعضاءِ والمنافعِ.

---

(١) في ط: «عقولاً بلا شهوات... الله علّمه»، وفي خ: «... وقال لجلّتهم الذين عصوا...».
(٢) في ط: «أنّ شرف ما في الإنسان... العلم والسمع ورسوله»! والصواب ما أثبتّه من خ.
(٣) راجع ما قدّمته في القلب والدماغ في (١/ ٧١) كان الله لك.
(٤) قد أحسن قدّس الله روحه إذ عزاه إلى بعض السلف؛ فإنّ المرفوع فيه ساقط.

واختَلَفَ النَّاسُ في الأفضلِ منهُما:

* فقالَتْ طائفةٌ منهُم أبو المَعالي[1] وغيرُهُ: السَّمعُ أفضلُ.

قالوا: لأنَّهُ تُنالُ بهِ سعادةُ[2] الدُّنيا والآخرةِ؛ فإنَّها إنَّما تَحْصُلُ بمتابعةِ الرُّسلِ وقبولِ رسالاتِهِم، وبالسَّمعِ عُرِفَ ذٰلكَ؛ فإنَّ مَن لا سمعَ لهُ لا يَعْلَمُ ما جاؤوا بهِ.

وأيضًا؛ فإنَّ السَّمعَ يُدْرَكُ بهِ أجلُّ شيءٍ وأفضلُهُ، وهوَ كلامُ اللهِ [تَعالى] الذي فضلُهُ على الكلامِ كفضلِ اللهِ على خلقِهِ.

وأيضًا؛ فإنَّ العلومَ إنَّما تُنالُ بالتَّفاهمِ والتَّخاطبِ، ولا يَحْصُلُ ذٰلكَ إلَّا بالسَّمعِ.

وأيضًا؛ فإنَّ مَدْرَكَهُ أعمُّ مِن مَدْرَكِ البصرِ؛ [فإنَّهُ يُدْرِكُ الكلِّيَّاتِ والجزئيَّاتِ والشَّاهدَ والغائبَ والموجودَ والمعدومَ، والبصرُ] لا يُدْرِكُ إلَّا بعضَ المشاهداتِ، والسَّمعُ يَسْمَعُ كلَّ علمٍ، فأينَ أحدُهُما مِن الآخرِ؟!

ولو فَرَضْنا شخصينِ: أحدُهُما يَسْمَعُ كلامَ الرَّسولِ ولا يَرى شخصَهُ، والآخرُ بصيرٌ يَراهُ ولا يَسْمَعُ كلامَهُ لصممِهِ؛ هل كانا سواءً؟!

وأيضًا؛ ففاقدُ البصرِ إنَّما يَفْقِدُ إدراكَ بعضِ الأُمورِ الجزئيَّةِ المشاهدةِ ويُمْكِنُهُ معرفتُها بالصِّفةِ ولو تقريبًا، وأمَّا فاقدُ السَّمعِ؛ فالذي فاتَهُ مِن العلمِ لا يُمْكِنُ حصولُهُ بحاسَّةِ البصرِ ولا قريبًا.

وأيضًا؛ فإنَّ ذمَّ اللهِ [تَعالى] للكفَّارِ بعدمِ السَّمعِ في القرآنِ أكثرُ مِن ذمِّهِ لهُم بعدمِ البصرِ، بلْ إنَّما يَذُمُّهُم بعدمِ البصرِ تبعًا لعدمِ العقلِ والسَّمعِ.

وأيضًا؛ فإنَّ الذي يُورِدُهُ السَّمعُ على القلبِ مِن العلومِ لا يَلْحَقُهُ فيهِ كلالٌ ولا سآمةٌ ولا تعبٌ معَ كثرتِهِ وعظمِهِ، والذي يُورِدُهُ البصرُ عليهِ يَلْحَقُهُ فيهِ الكَلالُ والضَّعفُ والنَّقصُ وربَّما خَشِيَ صاحبُهُ على ذهابِهِ معَ قلَّتِهِ /خ١٦٩/ ونزارتِهِ بالنِّسبةِ إلى السَّمعِ.

---

(١) الجويني، عبدالملك بن عبدالله بن يوسف، إمام الحرمين، شيخ الشافعيّة، توفي سنة ٤٧٨هـ. له ترجمة مفيدة في: «ذيل تاريخ بغداد» (١٦/ ٨٥)، «أعلام النبلاء» (١٨/ ٤٦٨).

(٢) في خ: «كان في أشرف جزء في...»، وفي خ وط: «... لأنّ به تنال به سعادة»! وكلاهما خطأ، ولا يكون اسم إنّ وأخواتها جملة، والصواب ما أثبتّه.

* وقالَتْ طائفةٌ منهُمُ ابنُ قُتَيْبَةَ: بلِ البصرُ أفضلُ.

فإنَّ أعلى النَّعيمِ وأفضلَهُ وأعظمَهُ لذَّةً هوَ النَّظرُ إلى اللهِ في الدَّارِ الآخرةِ، وهٰذا إنَّما يُنالُ بالبصرِ. وهٰذهِ وحدَها كافيةٌ في تفضيلِهِ.

قالوا: وهوَ مقدِّمةُ القلبِ وطليعتُهُ ورائدُهُ، فمنزلتُهُ [منهُ] أقربُ مِن منزلةِ السَّمعِ، ولهٰذا كثيرًا ما يُقْرَنُ بينَهُما في الذِّكرِ: كقولِهِ [تعالى]: ﴿فَٱعْتَبِروا[1] يا أُولي الأبْصارِ﴾، فالاعتبارُ بالقلبِ والبصرُ بالعينِ. وقالَ تَعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ولم يَقُلْ وأسماعَهُم. وقالَ تَعالى: ﴿فَإِنَّها لا تَعْمى الأبْصارُ وَلٰكِنْ تَعْمى القُلوبُ الَّتي في الصُّدورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وقالَ: ﴿يَخافونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فيهِ القُلوبُ وَالأبْصارُ﴾ [النور: ٣٧]. وقالَ [تَعالى]: ﴿قُلوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ . أبْصارُها خاشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨-٩]. وقالَ تَعالى: ﴿يَعْلَمُ خائِنَةَ الأعْيُنِ وَما تُخْفي الصُّدورُ﴾ [غافر: ١٩]. وقالَ في حقِّ رسولِهِ: ﴿ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رَأى﴾ [النجم: ١١]، ثمَّ قالَ: ﴿ما زاغَ البَصَرُ وَما طَغى﴾ [النجم: ١٧]، وهٰذا يَدُلُّ على شدَّةِ الوصلةِ والارتباطِ بينَ القلبِ والبصرِ. ولهٰذا يَقْرَأُ الإنسانُ ما في قلبِ الآخرِ مِن عينِهِ، وهٰذا كثيرٌ في كلامِ النَّاسِ نظمِهِ ونثرِهِ، وهوَ أكثرُ مِن أنْ نَذْكُرَهُ هُنا. ولمَّا كانَ القلبُ أشرفَ الأعضاءِ؛ كانَ أشدَّها ارتباطًا بهِ [و]أشرفَ مِن غيرِهِ.

قالوا: ولهٰذا يَأْتَمِنُهُ القلبُ [على] ما لا يَأْتَمِنُ السَّمعَ عليهِ، بل إذا ٱرْتابَ مِن جهةِ السَّمعِ؛ عَرَضَ ما يَأْتيهِ بهِ على البصرِ لِيُزَكِّيَهُ أو يَرُدَّهُ[2]! فالبصرُ حاكمٌ عليهِ مُؤْتَمَنٌ عليهِ.

قالوا: ومِن هٰذا: الحديثُ [الذي] رواهُ [الإمامُ] أحْمَدُ في «مسنده» مرفوعًا: «ليسَ المُخْبَرُ كالمُعايِنِ»[3].

---

(١) في خ: «والآخر بصيرًا يراه... كانوا سواء...»، وفي ط: «... ولا تعب من كثرته... فمنزلته أقرب... بقوله فاعتبروا».

(٢) في خ وط: «يأتمنه القلب ما لا... أم يردّه»! وهٰذا محلّ «أو»، وٱستعمال «أم» هنا ليس بالفصيح، فلعلّها محرّفة عنها، أو أنّ أصل الكلام «أيزكّيه أم يردّه».

(٣) (صحيح). رواه: أحمد (١/ ٢١٥ و٢٧١)، والبزّار (٢٠٠ـ زوائد)، وابن أبي حاتم (٨٩٩٨)، وابن حبّان (٦٢١٣ و٦٢١٤)، والطبراني (١٢/ ٤٢/ ١٢٤٥١) وفي «الأوسط» (٢٥ و٦٩٨٢)، وابن عدي=

قالوا: ولهٰذا أخْبَرَ اللهُ سبحانَهُ موسى أنَّ قومَهُ ٱفْتَتَنوا مِن بعدِهِ وعَبَدوا العجلَ، فلمْ يَلْحَقْهُ في ذٰلكَ ما لَحِقَهُ عندَ رؤيةِ ذٰلكَ ومعاينتِهِ مِن إلقاءِ الألواحِ وكسرِها؛ لفوتِ المعاينةِ على الخبرِ[١].

قالوا: وهٰذا إبراهيمُ خليلُ اللهِ يَسْأَلُ ربَّهُ [أنْ] يُرِيَهُ كيفَ يُحْيي الموتى، وقد عَلِمَ ذٰلكَ بخبرِ اللهِ لهُ، ولٰكنْ طَلَبَ أفضلَ المنازلِ /خ١٧٠/ ، وهيَ طمأْنينةُ القلبِ.

قالوا: ولليقينِ ثلاثُ مراتبَ: أوَّلُها: السَّمعُ. وثانيها: العينُ، وهيَ المسمَّاةُ بعينِ اليقينِ[٢]، وهيَ أفضلُ مِن المرتبةِ الأُولى وأكملُ[٣].

قالوا: وأيضًا؛ فالبصرُ يؤدِّي إلى القلبِ ويُؤدِّي عنهُ؛ فإنَّ العينَ مرآةُ القلبِ، يَظْهَرُ فيها ما يُجِنُّهُ مِن المحبَّةِ والبغضِ والموالاةِ والمعاداةِ والسُّرورِ والحزنِ وغيرِها[٤]. وأمَّا الأذنُ؛ فلا تُؤدِّي عنِ القلبِ شيئًا ٱلبتَّةَ، وإنَّما مرتبتُها الإيصالُ إليهِ حَسْبُ. فالعينُ

= (٧/٢٥٩٦)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٥)، والحاكم (٢/٣٢١ و٣٨٠)، والقضاعي (١١٨٢-١١٨٤)، والبيهقي في «الزهد» (٩٨١)، والخطيب (٦/٥٦)، وابن عساكر (٦١/١٥٩)؛ من طرق ثلاثة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس. . . رفعه. بلفظ «ليس الخبر كالمعاينة» وبلفظ «ليس المخبر كالمعاين».

وإحدى هٰذه الطرق صحيحة؛ قال الحاكم: «على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي والسخاوي، وقال الهيثمي (١/١٥٨): «رجاله رجال الصحيح، وصحّحه ابن حبّان». والطريقان الأخريان فيهما ضعف يسير لا ينزل بهما عن درجة الاعتبار. والحديث صحيح بمجموع طرقه، وقد صحّحه الألباني.

(١) وقد جاء نحوه مختصرًا من كلام النبيّ ﷺ، وهو قطعة من الحديث السابق نفسه، وسنده صحيح. ومعنى «فوت المعاينة على الخبر»: التفاوت ما بين المعاينة والخبر. ووقع في خ: «قوّة المعاينة على الخبر»، وما أثبتّه من ط أولى.

(٢) في ٱحتجاج هٰذه الطائفة هنا نظر من وجهين: **أوّلهما**: أنّ المرتبة الأولى لليقين هي علم اليقين لا السمع، وليسا بالمتلازمين؛ ألا ترى أنّك قد تحصّل مرتبة علم اليقين من قراءة نصّ ما دون أن تسمع منه حرفًا، وقد تسمع كلامًا طويلاً من صادق مصدّق عدل ضابط والشكّ يعصف بقلبك أنّه وهم أو أخطأ أو نسي؟ والثاني: أنّ المعاينة لا تعادل عين اليقين؛ ألا ترى أنّه لو قيل لك: إنّ في هٰذه الغرفة المقفلة ببغاء ينشد مقطوعة للمتنبّي، فصدّقت؛ حصّلت علم اليقين، فلو سمعته من خارج دون أن تراه؛ بلغت رتبة عين اليقين، بخلاف لو دخلت ورأيته دون أن تسمعه؟

(٣) فاته يرحمه الله أن يذكر المرتبة الثالثة، وهي حقّ اليقين: فإمّا أنّه ذهل، أو أنّ في الكلام سقطًا، أو ٱستغنى عنها ٱختصارًا بطمأنينة القلب المتقدّمة آنفًا؛ لأنّها لا تنفكّ عنها، وإن كانت لا تطابقها أو ترادفها.

(٤) في ط: «والثاني العين. . .»، وفي خ: «. . . يحبّه من البغض والمحبّة. . . والسرور وغيرهما». والصواب ما أثبتّه. ومعنى يجنّه: يستره.

أشدُّ تعلُّقًا به.

* والصَّوابُ أنَّ كلاًّ منهُما لهُ خاصِّيَّةٌ فُضِّلَ بها [على] الآخرِ: فالمدرَكُ بالسَّمعِ أعمُّ وأشملُ، والمدرَكُ بالبصرِ أتمُّ وأكملُ. فالسَّمعُ لهُ العمومُ والشُّمولُ، والبصرُ لهُ الظُّهورُ والتَّمامُ وكمالُ الإدراكِ.

وأمَّا نعيمُ أهلِ الجنَّةِ؛ فشيئانِ: أحدُهُما: النَّظرُ إلى اللهِ. والثَّاني: سماعُ خطابِهِ وكلامِهِ، كما رَواهُ عَبْدُاللهِ بنُ أحْمَدَ في «السنَّة» وغيرُهُ: «كأنَّ النَّاسَ يومَ القيامةِ لمْ يَسْمَعوا القرآنَ إذا سَمِعوهُ مِن الرَّحمٰنِ عَزَّ وجَلَّ»[1]. ومعلومٌ أنَّ سلامَهُ عليهِم وخطابَهُ لهُم ومحاضرتَهُ إيَّاهُم كما في التِّرْمِذِيِّ وغيرِهِ لا يُشْبِهُها شيءٌ قطُّ ولا يَكونُ أطيبَ عندَهُم منها[2]. ولهٰذا يَذْكُرُ سبحانَهُ في وعيدِهِ أعداءَهُ أنَّهُ لا يُكَلِّمُهُم، كما يَذْكُرُ احتجابَهُ عنهُم وأنَّهُم لا يَرَوْنَهُ. فكلامُهُ ورؤيتُهُ [أعلى]

---

(١) (ضعيف موقوفًا ومرفوعًا). رواه عبدالله بن أحمد في «السنّة» (١٢٣) من طريق قويّة، عن موسى بن عبيدة، عن محمّد بن كعب القرظي. . . فذكره موقوفًا. وموسى بن عبيدة ضعيف.

ورواه الرافعي في «التدوين» (٢/ ٤٠٣) من طريق إسماعيل بن رافع، عن محمّد بن كعب، عن أبي هريرة. . . رفعه. والطريق إلى إسماعيل ضعيفة، وإسماعيل ضعيف أيضًا.

فالأثر واهٍ على وجهيه لا يصحّ موقوفًا ولا مرفوعًا.

(٢) (ضعيف). قطعة من حديث طويل رواه: ابن ماجه (٣٧ـ الزهد، ٣٩ـ صفة الجنّة، ٢/ ١٤٥٠/ ٤٣٣٦)، والترمذي (٢٨ـ الجنّة، ١٥ـ سوق الجنّة، ٤/ ٦٨٥/ ٢٥٤٩)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (٥٨٥ و٥٨٧)، والعقيلي (٣/ ٣٤١)، وابن حبّان (٧٤٣٨)، وتمّام في «الفوائد» (١٧٨٧)، والمزّي في «التهذيب» (١٦/ ٤٢٤)؛ من طرق، عن هشام بن عمّار، عن عبدالحميد بن حبيب بن أبي العشرين، عن الأوزاعي، عن حسّان بن عطيّة، عن سعيد بن المسيّب، عن أبي هريرة. . . رفعه.

وهٰذا سند ضعيف فيه علل: أولاها: أنّ هشامًا كبر فصار يتلقّن. والثانية: أنّ عبدالحميد يخطئ ولم يكن صاحب حديث، نعم؛ تابعه سويد بن عبدالعزيز عند ابن أبي عاصم (٥٨٦) والآجرّي في «الشريعة» (٦١٢)، ولٰكن سويدًا واهٍ بمرّة لا يفرح بمتابعته. والثالثة: أنّه خولف؛ قال الدارقطني في «العلل» (١٣٤٨): «رواه أحمد بن بكر البالسي عن محمّد بن مصعب عن الأوزاعي عن الزهري عن ابن المسيّب عن أبي هريرة، ووهم في قوله عن الزهري. ورواه هقل بن زياد عن الأوزاعي قال نبئت عن سعيد بن المسيّب. وخالفه أبو المغيرة فرواه عن الأوزاعي قال نبّئت أنّ أبا هريرة لقي سعيد بن المسيّب. وقول أبي المغيرة أشبهها بالصواب». فأمّا البالسي وابن مصعب؛ فضعيفان، وأمّا هقل وأبو المغيرة؛ فثقتان محتجّ بهما في الصحيح، فروايتهما أرجح من رواية ابن أبي العشرين والبالسي، وقد روياه بلاغًا منقطعًا كما ترى. ولذٰلك ضعّف هٰذا الحديث الترمذي والعقيلي والدارقطني والمنذري والألباني.

نعيمِ[١] أهلِ الجنَّةِ. واللهُ أعلمُ.

● **الوجهُ الرَّابعُ والثَّمانونَ**: أنَّ اللهَ سبحانَهُ في القرآنِ يُعَدِّدُ على عبادِهِ مِن نعمِهِ عليهِم أنْ أعْطاهُم آلاتِ العلمِ: فيَذْكُرُ الفؤادَ والسَّمعَ والأبصارَ، ومرَّةً يَذْكُرُ اللسانَ الذي يُتَرْجِمُ عنِ القلبِ[٢].

فقالَ تَعالى في سورةِ النِّعمِ، وهي سورةُ النَّحلِ، التي ذَكَرَ فيها أُصولَ النِّعمِ وفروعَها ومتمِّماتِها ومكمِّلاتِها، فعَدَّدَ نعمَهُ فيها على عبادِهِ وتَعَرَّفَ بها إليهِم واْقتضاهُم شكرَها، [وأخْبَرَ أنَّهُ يُتِمُّها عليهِم لِيَعْرِفوها ويَذْكُروها ويَشْكُروها]، فأوَّلُها في أُصولِ النِّعمِ وآخرُها في مكمِّلاتِها، فقالَ[٣] تَعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمونَ شَيئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ﴾ [النحل: ٧٨]: فذَكَرَ سبحانَهُ /خ١٧١/ نعمتَهُ عليهِم بأنْ أخْرَجَهُم لا علمَ لهُم، ثمَّ أعطاهُمُ الأسماعَ والأبصارَ والأفئدةَ التي نالوا بها مِن العلمِ ما نالوهُ، وأنَّهُ فَعَلَ بهِم ذٰلكَ لِيَشْكُروهُ.

وقالَ تَعالى: ﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصارًا وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقالَ تَعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسانًا وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨-١٠]: فذَكَرَ هُنا العينَينِ اللتينِ يُبْصِرُ بهِما فيَعْلَمُ المشاهَداتِ. وذَكَرَ هدايةَ النَّجدينِ، وهُما [طريقا] الخيرِ والشَّرِّ، وفي ذٰلكَ حديثٌ مرفوعٌ مرسلٌ[٤]، وهوَ قولُ

---

(١) في ط: «أنَّ كلاًّ منهما به خاصيَّة... في وعيد أعدائه... عنهم ولا يرونه فكلامه ورؤيته نعيم».

(٢) في خ: «الفؤاد والأسماع والأبصار...»، وفي ط: «... يترجم به عن القلب».

(٣) في خ: «سورة النعيم...»، وفي ط: «... وفروعها ومتمّاتها... وقال».

(٤) (صحيح). وقد جاء عن النبيِّ ﷺ من أوجه:

* فرواه: عبدالرزّاق في «التفسير» (٣٦٢٢)، وابن جرير (٣٧٢٩٩-٣٧٣٠٢ و٣٧٣٠٤)؛ من طرق خمس، عن الحسن، عن النبيِّ ﷺ... مرسلاً. وبعض هٰذه الطرق صحيح لذاته، فكيف بأجتماعها.

* ورواه ابن جرير (٣٧٣٠٣) من طريق قويّة، عن قتادة، عن النبيِّ ﷺ... مرسلاً.

* ورواه: ابن أبي حاتم (البلد ١٠ ـ ابن كثير والدرّ)، وابن عديّ (٣/ ١١٩٣)؛ من طريق قويّة، عن سنان بن سعد، عن أنس... رفعه بنحوه. وسنان صدوق له أفراد، فحديثه حسن أو قريب منه.

* ورواه ابن مردويه (البلد ١٠ ـ الدرّ) من حديث أبي هريرة مرفوعًا بنحوه، ولم أقف على سنده.

أكثرِ المفسِّرينَ، وتَدُلُّ عليهِ الآيةُ الأُخرى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. والهدايةُ تكونُ بالقلبِ والسَّمعِ، فقد دَخَلَ السَّمعُ في ذٰلكَ لزومًا. وذَكَرَ اللسانَ والشَّفتينِ اللتينِ هُما آلةُ التَّعليمِ.

[فذَكَرَ آلاتِ العلمِ والتَّعليمِ]، وجَعَلَها مِن آياتِهِ الدَّالَّةِ عليهِ وعلى قدرتِهِ ووحدانيَّتِهِ ونعمِهِ التي تَعَرَّفَ بها إلى عبادِهِ.

ولمَّا كانَتْ هٰذهِ الأعضاءُ الثَّلاثةُ هيَ أشرفَ الأعضاءِ وملوكَها والمتصرِّفةَ [فيها] والحاكمةَ عليها؛ خَصَّها سبحانَهُ [وتَعالى] بالذِّكرِ في السُّؤالِ عنها، فقالَ: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. فسعادةُ الإنسانِ بصحَّةِ هٰذهِ الأعضاءِ الثَّلاثةِ، وشقاوتُهُ بفسادِها. قالَ ابنُ عبَّاسٍ: يَسْأَلُ اللهُ العبادَ فيما ٱسْتَعْمَلوا هٰذهِ الثَّلاثةَ؛ السَّمعَ والبصرَ والفؤادَ.

فاللهُ تَعالى أَعْطى العبدَ: السَّمعَ لِيَسْمَعَ بِهِ أوامرَ ربِّهِ ونواهيَهُ وعهودَهُ، والقلبَ لِيَعْقِلَها ويَفْقَهَها، والبصرَ لِيَرى آياتِهِ فَيَسْتَدِلَّ بها على وحدانيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ. فالمقصودُ بإعطائِهِ هٰذهِ الآلاتِ العلمُ[1] وثمرتُهُ ومقتضاهُ.

● **الوجهُ الخامسُ والثَّمانونَ**: أنَّ أنواعَ السَّعاداتِ التي تُؤْثِرُها النُّفوسُ ثلاثةٌ:

* **سعادةٌ خارجيَّةٌ** عن ذاتِ الإنسانِ، بل هيَ مستعارةٌ لهُ مِن غيرِهِ، تَزولُ بٱستردادِ

= * ورواه: عبدالرزّاق (٣٦٢٤)، وابن جرير (٣٧٢٨٧ و٣٧٢٨٨ و٣٧٢٩٠ و٣٧٢٩١)، والطبراني (٩/ ٢٢٥/ ٩٠٩٧)، والحاكم (٢/ ٥٢٤)؛ من طرق، [عن عاصم]، عن زرّ، عن ابن مسعود... موقوفًا. قال الهيثمي (٧/ ١٤١): «فيه عاصم بن أبي النجود، وهو ثقة، وفيه ضعف، وبقيّة رجاله رجال الصحيح». قلت: عاصم لا ينحطّ عن رتبة الحسن، ولذٰلك صحّحه الحاكم والذهبي وحسّنه العسقلاني.

* ورواه: الطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٦١/ ٨٠٢٠) و«الأوسط» (٢٥٦٢)، والقضاعي في «الشهاب» (١٢٦٣)، والرافعي في «التدوين» (٢/ ٤٨٨)؛ من طريق فضال بن جبير، عن أبي أمامة... رفعه بنحوه. قال الهيثمي (١٠/ ٢٥٩): «فضال ضعيف». قلت: جدًّا شبه المتروك.

وٱجتماع الأوجه الثلاثة الأولى للحديث يرجّح أنّ له أصلاً قويًّا مرفوعًا، وأنّ موقوف ابن مسعود لم يأت من جهة الرأي، وعليه؛ فإنّه يزيد المرفوع قوّة. وحديث أبي هريرة كذٰلك إن لم يزد المرفوع قوّة فلن يضرّه. وأمّا حديث أبي أمامة فواهٍ شبه لا شيء.

(١) في ط: «والله تعالى أعطى...»، وفي خ: «... هٰذه آلات العلم».

العاريَّةِ، وهيَ سعادةُ المالِ والجاهِ وتوابعِهما، فبينا المرءُ بها سعيدٌ ملحوظٌ بالعنايةِ مرموقٌ بالأبصارِ؛ إذْ أَصْبَحَ في اليومِ الواحدِ أذلَّ مِن وتدٍ بقاعٍ يُشَجُّ[١] رأْسُهُ بالفِهْرَواجي[٢]. فالسَّعادةُ والفرحُ بهٰذهِ كفرحِ الأقرعِ بجُمَّةِ ابنِ عمِّهِ[٣]، والجمالُ بها كجمالِ المرءِ بثيابِهِ وبزينتِهِ فإذا جاوَزَ بصرُكَ كسوتَهُ فليسَ وراءَ عبَّادانَ قريةٌ[٤].

ويُحْكى عن بعضِ العلماءِ أَنَّهُ رَكِبَ معَ تجَّارٍ في مركبٍ، فٱنْكَسَرَتْ بهمُ السَّفينةُ، فأصْبَحوا بعدَ عزِّ الغنى في ذلِّ الفقرِ، ووَصَلَ العالمُ إلى البلدِ، فأُكْرِمَ وقُصِدَ بأنواعِ التُّحفِ والكراماتِ، فلمَّا أرادوا الرُّجوعَ إلى بلادِهِم؛ قالوا [لهُ][٥]: هلْ لكَ إلى قومِكَ كتابٌ أو حاجةٌ؟ فقالَ: نعمْ؛ تَقولونَ لهُم: إذا ٱتَّخَذْتُم مالاً؛ فٱتَّخِذوا مالاً لا يَغْرَقُ إذا ٱنْكَسَرَتِ السَّفينةُ، [فٱتَّخِذوا العلمَ تجارةً].

وٱجْتَمَعَ رجلٌ ذو هيئةٍ حسنةٍ ولباسٍ جميلٍ ورُوَاءٍ برجلٍ عالمٍ، فجَسَّ المَخاضَةَ، فلمْ يَرَ شيئًا، فقالوا: كيفَ رَأَيْتَهُ؟ فقالَ: رأيتُ دارًا حسنةً مزخرفةً ولٰكنْ ليسَ بها ساكنٌ[٦]!

* **السَّعادةُ الثَّانيةُ**: سعادةٌ في جسمِهِ وبدنِهِ كصحَّتِهِ وٱعتدالِ مزاجِهِ وتناسبِ أعضائِهِ وحسنِ تركيبِهِ وصفاءِ لونِهِ وقوَّةِ [تركيبِ][٥] أعضائِهِ. فهٰذهِ ألصقُ بهِ مِن الأُولى، ولٰكنْ هيَ في الحقيقةِ خارجةٌ عن ذاتِهِ وحقيقتِهِ؛ فإنَّ الإنسانَ إنسانٌ بروحِهِ وقلبِهِ لا بجسمِهِ وبدنِهِ، كما قيلَ:

يا خادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَشْقى بِخِدْمَتِهِ ... فَأَنْتَ بِالرُّوحِ لا بِالجِسْمِ إنْسانُ

---

(١) في خ: «المال والجاه وتوابعها... يشجّج»! وفي خ وط: «... سعيدًا ملحوظًا بالعناية مرموقًا بالأبصار...»! والأصل هنا الرفع، ولا وجه للنصب إلّا بمتمحّل الأعذار.

(٢) الفهرواجي: منحوتة من كلمتين: الفهر وهو الحجر، والواجيْ وهو الذي يَدُقّ. فالفهرواجي: المدقّة الحجريّة التي كانت تستعمل لهرس الثوم واللحم ونحوه.

(٣) الجمّة: الشعر الحسن، وهٰذا من الأمثال المشهورة.

(٤) عبّادان: ميناء معروف بإيران، وقد ساق المصنّف كلامه هنا مساق الأمثال، والمراد أنّه ليس تحت هٰذه الثياب الجميلة جمال جسمانيّ ولا روحانيّ.

(٥) ساقطة من ط.

(٦) الرواء: حسن المنظر. جسّ المخاضة: ٱختبره وٱمتحنه. ليس بها ساكن: لا علم له ولا فهم.

فنسبةُ هٰذهِ إلى روحِهِ وقلبِهِ كنسبةِ ثيابِهِ ولباسِهِ إلى بدنِهِ؛ فإنَّ البدنَ أيضًا عاريَّةٌ للرُّوحِ وآلةٌ لها ومركبٌ مِن مراكبِها، فسعادتُها بصحَّتِهِ وجمالِهِ وحسنِهِ سعادةٌ خارجةٌ عن ذاتِها وحقيقتِها(١).

* السَّعادةُ الثَّالثةُ: هيَ السَّعادةُ الحقيقيَّةُ، وهيَ سعادةٌ نفسانيَّةٌ روحيَّةٌ قلبيَّةٌ، وهيَ سعادةُ العلمِ النَّافعِ وثمرتُهُ؛ فإنَّها هيَ الباقيةُ على تقلُّبِ الأحوالِ، والمصاحبةُ للعبدِ في جميعِ أسفارِهِ وفي دورِهِ الثَّلاثةِ ـ أعْني: دارَ الدُّنيا ودارَ البرزخِ ودارَ القرارِ ـ، وبها يَتَرَقَّى في معارجِ الفضلِ ودرجاتِ الكمالِ. أمَّا الأُولى؛ فإنَّما تَصْحَبُهُ في البقعةِ التي فيها مالُهُ وجاهُهُ، والثَّانيةُ؛ فعرضةٌ للزَّوالِ والتَّبدُّلِ /خ١٧٣/ بنكسِ الخَلْقِ والرَّدِّ إلى الضَّعفِ. فلا سعادةَ في الحقيقةِ إلاَّ هٰذهِ(٢) الثَّالثةُ، التي كلَّما طالَ عليها الأمدُ؛ ٱزْدادَتْ قوَّةً وعلوًّا، وإذا عَدِمَ المالُ والجاهُ؛ فهيَ مالُ العبدِ وجاهُهُ، وتَظْهَرُ قوَّتُها وأثرُها بعدَ مفارقةِ [الرُّوحِ] البدنَ إذا ٱنْقَطَعَتِ السَّعادتانِ الأُوليانِ.

وهٰذهِ السَّعادةُ لا يَعْرِفُ قدرَها ويَبْعَثُ على طلبِها إلاَّ العلمُ بها، فعادَتِ السَّعادةُ كلُّها إلى العلمِ وما يَقْتَضيهِ. واللهُ يُوَفِّقُ مَن يَشاءُ؛ لا مانعَ لِما أعْطى ولا معطيَ لِما مَنَعَ.

وإنَّما رَغَّبَ أكثرَ الخلقِ عنِ ٱكتسابِ هٰذهِ السَّعادةِ وتحصيلِها: وعورةُ(٣) طَريقِها، ومرارةُ مباديها، وتعبُ تحصيلِها، وأنَّها لا تُنالُ إلاَّ على جسرٍ مِن التَّعبِ، وأنَّها لا

---

(١) فيه نظر من وجهين:

أحدهما: أنّ الفصل بين الروح والجسد على هٰذه الصورة لا يعدو أن يكون تجريدًا عقليًّا لا تسنده المعطيات العلميّة الحديثة ولا رصيد له في الواقع العملي! ألا ترى أنّ أهل السنّة ٱستدلّوا بقوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ [الإسراء: ١] على أنّ الإسراء كان بالروح والجسد معًا؛ لأنّ العبد هو مجموع الروح والجسد؟ فالإنسان لا يكون إنسانًا إلاّ بمجموعهما، فإن تفرّقا؛ لم يسمّ أيّ منهما إنسانًا.

والثاني: أنّ معلّم الناس الخير والحريص على مصالحهم ﷺ عظّم من شأن هٰذه النعمة تعظيمًا بالغًا، فقال: «سلوا الله العفو والعافية؛ فإنّ أحدًا لم يعط بعد اليقين خيرًا من العافية».

وأخيرًا؛ فكأنّي بٱبن القيّم يريد أنّ سعادة الروح بالعافية موهبة إلٰهيّة صرفة لا حيلة للإنسان فيها كسبًا ولا صرفًا، بخلاف السعادة بالعلم النافع والعمل الصالح التي يملك العبد أن يحفظها وينمّيها.

(٢) في ط: «أمّا الأولى فإنّها... إلاّ في هٰذه»، وفي خ: «وأمّا الأولى... والثانية معرّضة...».

(٣) في خ وط: «السعادتان الأولتان...»! ولا وجه له لغة! وفي ط: «... لوعورة».

تُحَصَّلُ إلاَّ بالجدِّ المحضِ؛ بخلافِ الأُوليين[١]؛ فإنَّهما حظٌّ قد يَحوزُهُ غيرُ طالبِهِ وبختٌ قد يُحْرِزُهُ غيرُ جالبِهِ مِن ميراثٍ أو هبةٍ أو غيرِ ذٰلكَ، وأمَّا سعادةُ العلمِ؛ فلا يورِثُكَ إيَّاها إلاَّ بذلُ الوسعِ وصدقُ الطَّلبِ وصحَّةُ النِّيَّةِ.

وقد أحْسَنَ القائلُ [في ذٰلكَ]:

فَقُلْ لِمُرَجِّي مَعالي الأُمورِ ... بِغَيْرِ ٱجْتِهادٍ رَجَوْتَ المُحالا

وقالَ آخرُ:

لَوْلا المَشَقَّةُ سادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الجودُ يُفْقِرُ وَالإقْدامُ قَتَّالُ

ومَن طَمَحَتْ همَّتُهُ إلى الأُمورِ العليَّةِ؛ فواجبٌ[٢] عليهِ أنْ يَسُدَّ على محبَّتِهِ الطُّرقَ الدَّنيَّةَ.

وهٰذهِ السَّعادةُ[٣]، وإنْ كانَتْ في ٱبتدائِها لا تَنْفَكُّ عن ضربٍ مِن المشقَّةِ والكرهِ والتَّأذِّي؛ فإنَّها متى أُكْرِهَتِ النَّفسُ عليها وسيقَتْ طائعةً [و]كارهةً إليها وصَبَرَتْ على لأْوائِها وشدَّتِها؛ أفْضَتْ منها إلى رياضٍ مونقةٍ ومقاعدِ صدقٍ ومقامٍ كريمٍ يَجِدُ كلَّ لذَّةٍ دونَها كلذَّةِ لعبِ الصَّبيِّ بالعصفورِ بالنِّسبةِ إلى لذَّةِ الملوكِ[٤]، فحينئذٍ حالُ صاحبِها كما قيلَ:

وَكُنْتُ أرَى أنْ قَدْ تَناهى بِيَ الهَوى ... إلى غايةٍ ما بَعْدَها لِيَ مَذْهَبُ /خ١٧٤/

فَلَمَّا تَلاقَيْنا وَعايَنْتُ حُسْنَها ... تَيَقَّنْتُ أنِّي إنَّما كُنْتُ ٱلْعَبُ

فالمكارمُ منوطةٌ بالمكارِهِ، والسَّعادةُ لا يُعْبَرُ إليها إلاَّ على جسرِ المشقَّةِ ولا تُقْطَعُ مسافتُها إلاَّ في سفينةِ الجدِّ والاجتهادِ، قالَ مسلمٌ في «صحيحه»[٥]: قالَ يَحْيى بنُ أبي

---

(١) في ط: «من التعب فإنّها...»! وفي خ وط: «... الأولتين»!

(٢) في ط: «وبخت قد يحوزه... وقال الآخر لولا... العالية فأوجب».

(٣) في خ: «يشدّ على محبّة الطرق الدينيّة...»، وفي ط: «... وهي السعادة».

(٤) لأنّ لذّات شرفاء الملوك تكون بتحصيل العظائم كحماية حدود بلادهم وحفظ الأمن والازدهار الاقتصادي... بخلاف الأطفال الذين يلتذّون بأتفه الأشياء. ومع ذٰلك؛ ففي هٰذه المقارنة ما فيها؛ فللذّات الأطفال لذّات خالصة لا يشوبها كدر بخلاف لذّات الملوك التي لا تكاد تسلم ساعة من المنغّصات.

(٥) (٥ـ المساجد، ٣١ـ أوقات الصلوات، ١/ ٤٢٨/ ٦١٢).

كثيرٍ: لا يُنالُ العلمُ براحةِ الجسمِ، وقد قيلَ: مَن طَلَبَ الرَّاحةَ؛ تَرَكَ الرَّاحةَ.

فَيا وَصْلَ الحَبيبِ أما إلَيْهِ   بِغَيْرِ مَشَقَّةٍ أبَدًا طَريقُ

ولولا جهلُ الأكثرينَ بحلاوةِ هٰذهِ اللذَّةِ وعظمِ قدرِها؛ لَتَجالَدوا عليها بالسُّيوفِ، ولٰكنْ حُفَّتْ بحجابٍ مِن المكارهِ، وحُجِبوا عنها بحجابٍ مِن الجهلِ؛ لِيَخْتَصَّ اللهُ بها مَن يَشاءُ مِن عبادِهِ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ.

● **الوجهُ السَّادسُ والثَّمانونَ:** أنَّ اللهَ سبحانَهُ خَلَقَ الموجوداتِ، وجَعَلَ لكلِّ شيءٍ منها كمالاً يَخْتَصُّ بِهِ هوَ غايةُ شرفِهِ. فإذا عَدِمَ كمالَهُ؛ ٱنْتَقَلَ إلى الرُّتبةِ التي دونَهُ وٱسْتُعْمِلَ فيها، فكانَ ٱستعمالُهُ فيها كمالَ أمثالِهِ. فإذا عَدِمَ تلكَ أيضًا؛ ٱنْتَقَلَ إلى ما دونَها، ولا يُعَطَّلُ... وهٰكذا أبدًا. حتَّى إذا عَدِمَ كلَّ فضيلةٍ؛ صارَ كالشَّوكِ وكالحطبِ الذي لا يَصْلُحُ إلاَّ للوقودِ.

فالفرسُ إذا كانَتْ فيهِ فروسيَّتُهُ التَّامَّةُ؛ أُعِدَّ لمراكبِ الملوكِ وأُكْرِمَ إكرامَ مثلِهِ، فإذا نَزَلَ عنها قليلاً؛ أُعِدَّ لِمَن دونَ الملكِ، فإنِ ٱزْدادَ تقصيرُهُ فيها؛ أُعِدَّ لآحادِ الأجنادِ، فإنْ تَقاصَرَ عنها جملةً؛ ٱسْتُعْمِلَ ٱستعمالَ الحمارِ إمَّا حولَ المدارِ وإمَّا لنقلِ الزِّبلِ ونحوِهِ، فإنْ عَدِمَ ذٰلكَ؛ ٱسْتُعْمِلَ ٱسْتِعْمالَ الأغنامِ للذبحِ والإعدامِ [جملةً].

كما[١] يُقالُ في المثلِ: إنَّ فرسينِ ٱلْتَقَيا؛ أحدُهُما تحتَ ملكٍ والآخرُ يَحْمِلُ الرَّوايا. فقالَ فرسُ الملكِ: أمَا أنتَ صاحبي، وكُنْتُ أنا وأنتَ في مكانٍ واحدٍ؟ فما الذي نَزَلَ بكَ إلى هٰذهِ المرتبةِ؟! فقالَ: ما ذاكَ إلاَّ أنَّكَ هَمْلَجْتَ قليلاً وتكَسَّعْتُ أنا[٢]!!

وهٰكذا السَّيفُ؛ إذا نَبا عمَّا هُيِّئَ لهُ ولمْ يَصْلُحْ لهُ؛ ضُرِبَ منهُ فأْسٌ أو منشارٌ أو نحوُهُ.

وكذٰلكَ الدُّورُ العظامُ الحسانُ؛ إذا خَرِبَتْ وتَهَدَّمَتِ؛ ٱتُّخِذَتْ /خ١٧٥/ حظائرَ للغنمِ أو للإبلِ وغيرِها[٣].

---

(١) في ط: «... نقل إلى ما دونها ولا تعطّل... والإعدام كما».

(٢) الروايا: آنية الماء. هملج: مشى حسنًا سريعًا. تكسّعت: مشيت بطيئًا فضربت بالعصا.

(٣) في ط: «وتسكّعت أنا... وهٰكذا الدور العظام الحسان إذا خبت... أو الإبل وغيرهما»!

وهٰكذا الآدميُّ؛ إذا كانَ صالحًا لاصطفاءِ اللهِ لهُ برسالتِهِ ونبوَّتِه؛ ٱتَّخذَهُ رسولاً ونبيًّا كما قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فإذا كانَ جوهرُهُ قاصرًا عن هٰذهِ الدَّرجةِ صالحًا لخلافةِ النُّبوَّةِ وميراثِها؛ رَشَّحَهُ لذٰلكَ وبلَّغَهُ إيَّاهُ، فإذا كانَ قاصرًا عن ذٰلكَ قابلاً لدرجةِ الولايةِ؛ رُشِّحَ لها، وإنْ كانَ ممَّن يَصْلُحُ للعملِ والعبادةِ دونَ المعرفةِ والعلمِ؛ جُعِلَ مِن أهلِهِ، حتَّى يَنْتَهِيَ إلى درجةِ عمومِ المؤمنينَ، فإنْ نَقَصَ عن هٰذهِ الدَّرجةِ ولمْ تَكُنْ نفسُهُ قابلةً لشيءٍ مِن الخيرِ أصلاً؛ ٱسْتُعْمِلَ حطبًا [و]وقودًا للنَّارِ.

وفي أثرٍ إسرائيليٍّ: أنَّ موسى سَألَ ربَّهُ عن شأْنِ مَن يُعَذِّبُهُم مِن خلقِهِ. فقالَ: يا موسى! ٱزْرَعْ زرعًا. فزرَعَهُ. فأوْحى اللهُ إليهِ أنِ ٱحْصُدْهُ. ثمَّ أوْحى [اللهُ] إليهِ أنِ ٱنْسِفْهُ وذَرِّهِ. ففَعَلَ، وخَلَصَ الحبُّ وحدَهُ [والتِّبْنُ] والعيدانُ[١] والعصفُ وحدَهُ. فأوْحى اللهُ إليهِ: إنِّي لا أجْعَلُ في النَّارِ مِن العبادِ إلاَّ مَن لا خيرَ فيهِ بمنزلةِ العيدانِ والشَّوكِ التي لا تَصْلُحُ إلاَّ للنَّارِ.

وهٰكذا الإنسانُ؛ يَتَرَقَّى في درجاتِ الكمالِ درجةً بعدَ درجةٍ حتَّى يَبْلُغَ نهايةَ ما يَنالُهُ أمثالُهُ منها. فكم بينَ حالِهِ في أوَّلِ كونِهِ نطفةً وبينَ حالِهِ والرَّبُّ يُسَلِّمُ عليهِ في دارِهِ ويَنْظُرُ إلى وجهِهِ بكرةً وعشيًّا!

والنَّبيُّ ﷺ، في أوَّلِ أمرِهِ لمَّا جاءَهُ الملكُ فقالَ [لهُ]: ٱقْرَأْ، قالَ: «ما أنا بقارئٍ»[٢]، وفي آخرِ أمرِهِ يقولُ[٣] اللهُ لهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]، ويقولُ لهُ خاصَّةً: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ويُحْكى أنَّ جماعةً مِن النَّصارى تَحَدَّثوا بينَهُم: فقالَ قائلٌ منهُم: ما أقلَّ عقولَ

---

(١) في خ: «شأن من بعدهم من...»! وفي ط: «... ٱنسفه وٱذره... وحده والعيدان».

(٢) رواه: البخاري (١ـ بدء الوحي، ٣ـ باب، ١/٢٣/٣)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٧٣ـ بدء الوحي، ١/١٣٩/١٦٠)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) في خ: «بين حاله بين أوّل...»، وفي ط: «... فقال ما أنا بقارئ وفي آخره أمَرَهُ بقول»!

المسلمينَ! يَزْعُمونَ أنَّ نبيَّهُم كانَ راعيَ الغنمِ! فكيفَ يَصْلُحُ راعي الغنمِ للنُّبوَّةِ؟! فقالَ لهُ آخرُ مِن بينِهِم: أمَّا هُم؛ فواللهِ أعقلُ منَّا؛ فإنَّ اللهَ بحكمتِهِ يَسْتَرْعي النَّبيَّ الحيوانَ البهيمَ، فإذا أَحْسَنَ رعايتَهُ والقيامَ عليهِ؛ نَقَلَهُ منهُ إلى رعايةِ الحيوانِ النَّاطقِ؛ /خ١٧٦/ حكمةً مِن اللهِ وتدريجًا لعبدِهِ، ولْكِنْ نحنُ جِئْنا إلى مولودٍ خَرَجَ مِن امرأةٍ يأْكُلُ ويَشْرَبُ ويَبولُ ويَبْكي، فقُلْنا: هٰذا إلْهُنا الذي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ[1]! فأمْسَكَ القومُ عنهُ.

فكيفَ يَحْسُنُ بذي همَّةٍ قد أزاحَ اللهُ عنهُ عِلَلَهُ وعَرَّفَهُ السَّعادةَ والشَّقاوةَ: أنْ يَرْضى بأنْ يكونَ حيوانًا وقد أمْكَنَهُ أنْ يَصيرَ إنسانًا، وبأنْ يكونَ إنسانًا وقد أمْكَنَهُ أنْ يَصيرَ ملَكًا في مقعدِ صدقٍ عندَ مليكٍ مقتدرٍ، فتَقومُ الملائكةُ بخدمتِهِ وتَدْخُلُ عليهِ[2] مِن كلِّ بابٍ؛ ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]؟!

وهٰذا الكمالُ إنَّما يُنالُ بالعلمِ ورعايتِهِ والقيامِ بموجَبِهِ، فعادَ الأمرُ إلى العلمِ وثمرتِهِ. واللهُ الموفِّقُ.

وأعظمُ النَّقصِ وأشدُّ الحسرةِ نقصُ القادرِ على التَّمامِ وحسرتُهُ على تفويتِهِ. كما قالَ بعضُ السَّلفِ: إذا كَثُرَتْ طرقُ الخيرِ؛ كانَ الخارجُ منها أشدَّ حسرةً. وصَدَقَ القائلُ:

وَلَمْ أرَ في عُيوبِ النَّاسِ عَيْبًا ... كَنَقْصِ القادِرينَ عَلى التَّمامِ

فثَبَتَ أنَّهُ لا شيءَ أقبحُ بالإنسانِ مِن أنْ يكونَ غافلاً عنِ الفضائلِ الدِّينيَّةِ والعلومِ النَّافعةِ والأعمالِ الصَّالحةِ، فمَن كانَ كذٰلكَ؛ فهوَ مِن الهمجِ الرَّعاعِ الذينَ يُكَدِّرونَ الماءَ ويُغْلونَ الأسعارَ؛ إنْ عاشَ عاشَ غيرَ حميد، وإنْ ماتَ ماتَ غيرَ فقيد؛ ففقدُهُم راحةٌ للبلادِ والعبادِ، ولا تَبْكي عليهِمُ السَّماء، ولا تَسْتَوْحِشُ لهُمُ الغبراء.

● **الوجهُ السَّابعُ والثَّمانونَ**: أنَّ القلبَ يَعْتَرِضُهُ مرضانِ يَتَوارَدانِ عليهِ، إذا

---

(١) كذا! ولعلّه قول بعض طوائفهم! لْكن المعروف من دينهم اليوم أنّ خالق الكون هو الله تعالى وحده (الأب بعبارتهم)، وهم إنّما يشركون المسيح وأمّه عليهما السلام في الألوهيّة لا في الربوبيّة! فالحمد لله الذي هدانا من الضلال وبصّرنا من العمى.

(٢) في ط: «الملائكة في خدمته وتدخل عليهم»! وفي خ: «الملائكة بخدمته وتدخل عليهم»!

ٱسْتَحْكَمَا فيهِ؛ كانَ هلاكُهُ وموتُهُ، وهُما مرضُ الشَّهواتِ ومرضُ الشُّبهاتِ، وهٰذانِ أصلُ داءِ الخلقِ إلاَّ مَن عافاهُ اللهُ.

وقد ذَكَرَ اللهُ تَعالى هٰذينِ المرضينِ في كتابِهِ:

أمَّا مرضُ الشُّبهاتِ ـ وهوَ أصعبُهُما وأقتلُهُما للقلبِ ـ: ففي قولِهِ [تَعالى] في حقِّ المنافقينَ: ﴿في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقولِهِ: ﴿وَلِيَقولَ الَّذينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ وَالكافِرونَ ماذا أَرادَ اللهُ بِهٰذا مَثَلاً﴾ /خ١٧٧/ [المدثر: ٣١]، وقالَ تَعالى: ﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ وَالقاسِيَةِ قُلوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣]. فهٰذِهِ ثلاثةُ مواضعَ المرادُ بمرضِ القلبِ فيها مرضُ الجهلِ والشُّبهةِ.

وأمَّا مرضُ الشَّهوةِ؛ ففي قولِهِ: ﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ أي: لا تَلِنَّ في الكلامِ فيَطْمَعَ الذي في قلبِهِ فجورٌ أو زنًى[(١)]. قالوا: والمرأةُ يَنْبَغي لها إذا خاطَبَتِ الأجانبَ أنْ تُغَلِّظَ كلامَها وتُقَوِّيَهُ ولا تُلَيِّنَهُ وتُكَسِّرَهُ؛ فإنَّ ذٰلكَ أبعدُ مِن الرِّيبةِ والطَّمعِ فيها[(٢)].

وللقلبِ أمراضٌ أُخرُ مِن الرِّياءِ والكِبْرِ والعجبِ والحسدِ والفخرِ والخُيَلاءِ وحبِّ الرِّياسةِ والعلوِّ في الأرضِ... وهٰذِهِ الأمراضُ مركَّبةٌ مِن مرضِ الشُّبهةِ والشَّهوةِ؛ فإنَّهُ لا بدَّ فيها مِن[(٣)] تخيُّلٍ فاسدٍ وإرادةٍ باطلةٍ، كالعجبِ والفخرِ والخيلاءِ والكِبْرِ، المركَّبِ مِن تخيُّلِ عظمتِهِ وفضلِهِ وإرادةِ تعظيمِ الخلقِ لهُ ومَحْمَدَتِهِم.

فلا يَخْرُجُ مرضُهُ عن شهوةٍ أو شبهةٍ أو مركَّبٍ منهُما[(٤)].

وهٰذِهِ الأمراضُ كلُّها متولِّدةٌ عن الجهلِ، ودواؤُها العلمُ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ في

---

(١) في خ: «أصعبها وأقتلها... فهٰذه ثلاث... لا تلنّ بالكلام...»، وفي ط: «... وزناء»!

(٢) المراد بتغليظ الكلام وتقويته هنا: أن تخرجه على الوجه المعتاد في كلامها مع أخيها ومحارمها، لا أن تتكلّم متشبّهة بالشباب كما تفعل بعض الوقحات، ولا أن تتكلّم بغلظة وجفاء يؤذيان المخاطِب الذي يسألها حاجة مشروعة. هٰذا ما يقتضيه ظاهر الآية بغير إفراط ولا تفريط.

(٣) في خ وط: «وهٰذا المرض مركّب من... لا بدَّ فيه من».

(٤) في ط: «تعظيم الخلق له ومدحتهم... أو مركّب منها».

حديثِ [صاحبِ] الشَّجَّةِ الذي أفْتَوْهُ بالغسلِ فماتَ: «قتَلوهُ قتَلَهُمُ اللهُ، ألا سَألوا إذْ لمْ يَعْلَموا، إنَّما شفاءُ العِيِّ السُّؤالُ»[1]، فجَعَلَ العِيَّ - وهوَ عِيُّ القلبِ عنِ العلمِ واللسانِ عنِ النُّطقِ بهِ - مرضًا، وشفاؤُهُ سؤالُ العلماءِ.

فأمراضُ القلوبِ أصعبُ مِن أمراضِ الأبدانِ: لأنَّ غايةَ مرضِ البدنِ أنْ يُفْضِيَ

---

(١) (صحيح). وقد جاء عن النبيّ ﷺ من أوجه:

* فرواه: عبدالرزّاق (٨٦٧)، وأحمد (١/ ٣٣٠)، والدارمي (١/ ١٩٢)، والبخاري في «التاريخ» (٨/ ٢٨٨)، وابن ماجه (١ـ الطهارة، ٩٣ـ المجروح تصيبه الجنابة، ١/ ١٨٩/ ٥٧٢)، وأبو داوود (١ـ الطهارة، ١٢٧ـ المجروح يتيمّم، ١/ ١٤٦/ ٣٣٧)، وأبو يعلى (٢٤٢٠)، وابن أبي حاتم في «العلل» (٧٧)، والطبراني (١١/ ١٥٥/ ١١٤٧٢)، والدارقطني (١/ ١٩٠-١٩٢)، والحاكم (١/ ١٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣١٧)، والبيهقي (١/ ٢٢٧)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ١٠٥ و١٠٦)؛ من طرق، عن الأوزاعي، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عبّاس. . . رفعه. وهٰذا سند رجاله ثقات، لٰكنّ له علّة؛ فقد ٱختلفوا فيه على الأوزاعي: فقال بعضهم: حدّثنا عطاء، وقال بعضهم: قال عطاء، وبعضهم: عن عطاء، وبعضهم: سمعته من عطاء أو أُخبرته عن عطاء، وبعضهم: بلغني أنّ عطاء قال، وبعضهم: عن رجل عن عطاء، وبعضهم: عن إسماعيل بن مسلم (واه منكر الحديث) عن عطاء! نعم؛ يمكن التوفيق بين هٰذه الأوجه بضرب من التأويل، لٰكن يبقى في القلب شيء من ٱتّصال هٰذا السند.

* وله طريق أخرى فرواه: ابن الجارود (١٢٨)، وابن خزيمة (٢٧٣)، وابن حبّان (١٣١٤)، والحاكم (١/ ١٦٥)، والبيهقي (١/ ٢٢٦)؛ عن الوليد بن عبيدالله بن أبي رباح، عن عطاء، عن ابن عبّاس. . . رفعه دون قوله «فإنّما شفاء. . .». وسنده صالح في الشواهد على الأقلّ لكلام في الوليد.

* ورواه: أبو داوود (الموضع السابق، ٣٣٦)، والدارقطني (١/ ١٨٩)، والقضاعي (١١٦٣)، والبيهقي (١/ ٢٢٨)، والبغوي في «السنّة» (٣١٣)، وابن الجوزي في «مسائل الخلاف» (٢٨٧)؛ من طريق الزبير بن خريق، عن عطاء، عن جابر. . . رفعه بطوله. والزبير ليّن الحديث، وقد خالف فجعله من مسند جابر، وهٰذا حدّ النكارة، لٰكنّ روايته تزيدنا ثقة بأنّ للحديث أصلاً قويًّا عن عطاء.

* وللقطعة الأخيرة شاهد من حديث علي عند القضاعي (١١٦٢) بسند ضعيف.

* ورواه: عبدالرزّاق (٨٧٣)، والبخاري في «التاريخ الصغير» (١٨٢٨)؛ من طريق النعمان بن راشد، عن زيد بن أبي أنيسة. . . بطوله مرسلاً. والنعمان لا بأس به في الشواهد.

* ورواه ابن أبي شيبة (١٠٧٧) من طريق إسحاق بن أبي فروة، عن عطاء. . . مرسلاً. وإسحاق بن أبي فروة متروك.

* ورواه عبدالرزّاق (٨٦٦) من طريق ابن سمعان، عن عبدالله بن عبدالرحمٰن، عن رجل، عن ابن عبّاس. . . رفعه. وابن سمعان هو عبدالله بن زياد بن سليمان، متروك متّهم.

* وللقطعة الأولى شاهد من حديث أبي سعيد عند ابن عدي (٥/ ١٧٨٠) بسند فيه كذّاب.

وحديث ابن عبّاس حسن بطريقيه صحيح بحديثي جابر وعليّ ومرسل زيد، وأمّا الطرق الثلاثة الأخيرة؛ فلا تصلح لصالحة. وقد قوّى الحديث ابن خزيمة وابن حبّان والحاكم والذهبي وشاكر والألباني.

بصاحبِهِ إلى الموتِ، وأمَّا مرضُ القلبِ؛ فيُفْضي بصاحبِهِ إلى الشَّقاءِ الأبديِّ. ولا شفاءَ لهٰذا المرضِ إلاَّ بالعلمِ.

ولهٰذا سَمَّى اللهُ [تَعالى] كتابَهُ شفاءً لأمراضِ الصُّدورِ، قالَ [اللهُ] تَعالى[1]: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما في الصُّدورِ وهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ولهٰذا السَّببِ نسبةُ العلماءِ إلى القلوبِ كنسبةِ الأطبَّاءِ إلى الأبدانِ، وما يُقالُ للعلماءِ أطبَّاءُ القلوبِ فهوَ لقدرٍ ما جامعٍ بينَهُما، وإلاَّ؛ فالأمرُ أعظمُ مِن ذٰلكَ: فإنَّ كثيرًا مِن الأُممِ يَسْتَغْنونَ عنِ الأطبَّاءِ، ولا يوجَدُ الأطبَّاءُ إلاَّ في اليسيرِ مِن البلادِ /خ١٧٨/، وقد يَعيشُ الرَّجلُ عمرَهُ أو برهةً [منهُ] لا يَحْتاجُ إلى طبيبٍ. وأمَّا العلماءُ باللهِ وأمرِهِ؛ فهُم حياةُ الوجودِ وروحُهُ، ولا يُسْتَغْنى عنهُم طرفةَ عينٍ[2].

فحاجةُ القلبِ إلى العلمِ ليسَتْ كالحاجةِ إلى التَّنفُّسِ في الهواءِ بل أعظمُ[3]. وبالجملةِ؛ فالعلمُ للقلبِ مثلُ الماءِ للسَّمكِ، إذا فَقَدَهُ؛ ماتَ. فنسبةُ العلمِ إلى القلبِ

---

(١) في خ: «ألا سألوا إذا لم يعلموا...»، وفي ط: «... الصدور وقال تعالى».

(٢) وهٰذا كلام صحيح جدًّا، لٰكن أحبّ أن أضيف إليه الملاحظات التالية:

أوّلًا: لا ريب أنّ علوم الكتاب والسنّة ثمّ ما تعلّق بها هي أنبل العلوم على الإطلاق، لا يجادل في ذٰلك إلاّ مضلّل جاهل أو مغرض خبيث.

ثانيًا: ومكانة هٰذه العلوم العليّة لا يرفعها الحطّ من شأن العلوم الأخرى ولا يضعها إنزال تلك العلوم في محالّها اللائقة بها دنيويًّا وأخرويًّا.

ثالثًا: وللطبّ قدر عظيم أدركه علماء المسلمين منذ فجر التاريخ الإسلاميّ: فقال الشافعيّ: لا أعلم علمًا بعد الحلال والحرام أنبل من الطبّ؛ إلاّ أنّ أهل الكتاب قد غلبونا عليه. وقال حرملة: كان الشافعيّ يتلهّف على ما ضيّع المسلمون من الطبّ ويقول: ضيّعوا ثلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصارى. وأنت ترى اليوم أنّ تأخّر الأمّة الإسلاميّة في هٰذا العلم ليس جزءًا من استعمارها الاقتصاديّ الذي يستنزف مواردها فحسب، بل هو فوق ذٰلك جزء من قبضة عدوّها التي أحكمت حول عنقها حتّى لا تنطق ولا تتنفّس إلاّ بعد المشورة والرضى. وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

رابعًا: ومعلوم أنّ ابن القيّم قدّس الله روحه معدود في أهل الطبّ المعظّمين لشأنه، وإنّما أراد هنا أن يقول: إنّ قيمة الطبّ، وإن كانت عظيمة جليلة، فإنّها لا تقارن أبدًا بقيمة علوم الكتاب والسنّة.

(٣) لو قال: حاجة القلب للعلم كحاجته للنفس؛ لكان أولى بقوله بعد: «مثل الماء للسمك»، وذٰلك أنّ حاجة السمك للماء ليست فوق حاجة البشر للهواء!

كنسبةِ ضوءِ العينِ إليها وكنسبةِ سمعِ الأُذنِ [إليها وكنسبةِ] كلامِ[١] اللسانِ إليهِ، فإذا عَدِمَهُ؛ كانَ كالعينِ العمياءِ والأُذنِ الصَّمَّاءِ واللسانِ الأخرسِ.

ولهٰذا يَصِفُ سبحانَهُ أهلَ الجهلِ بالعمى والصَّممِ والبكمِ، وذٰلكَ صفةُ قلوبِهِم [حيثُ] فَقَدَتِ العلمَ النَّافعَ فبقِيَتْ على عماها وصممِها وبكمِها: قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿وَمَنْ كانَ في هٰذِهِ أَعْمى فَهُوَ في الآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبيلاً﴾ [الإسراء: ٧٢]، والمرادُ عمى القلبِ في الدُّنيا. وقالَ تَعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ عَلى وُجوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا [مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ]﴾ [الإسراء: ٩٧]؛ لأنَّهُم هٰكذا كانوا في الدُّنيا، والعبدُ يُبْعَثُ على ما ماتَ عليهِ.

واَخْتُلِفَ في هٰذا العمى في الآخرةِ:

فقيلَ: هوَ عمى البصيرةِ؛ بدليلِ إخبارِهِ تَعالى عن رؤيةِ الكفَّارِ ما في القيامةِ ورؤيةِ الملائكةِ ورؤيةِ النَّارِ.

وقيلَ: هو عمى البصرِ؛ ورُجِّحَ هٰذا بأنَّ الإطلاقَ يَنْصَرِفُ إليهِ، وبقولِهِ: ﴿قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصيرًا﴾ [طه: ١٢٥]، وهٰذا عمى العينِ؛ فإنَّ الكافرَ لَمْ يَكُنْ بصيرًا بحجَّتِهِ. وأجابَ هٰؤلاءِ عن رؤيةِ الكفَّارِ في القيامةِ بأنَّ اللهَ يُخْرِجُهُم مِن قُبورِهِم إلى موقفِ القيامةِ بصراءَ ويُحْشَرونَ مِن الموقفِ إلى النَّارِ عميًا. قالَهُ الفرَّاءُ وغيرُهُ[٢].

● **الوجهُ الثَّامنُ والثَّمانونَ**: أنَّ اللهَ سبحانَهُ بحكمتِهِ سَلَّطَ على العبدِ عدوًّا؛ عالمًا بطرقِ هلاكِهِ وأسبابِ الشَّرِّ الذي يُلْقيهِ فيهِ، متفنِّنًا فيها، خبيرًا بها، حريصًا عليها، لا يَفْتُرُ عنهُ يقظةً ولا منامًا، ولا بدَّ لهُ مِن واحدةٍ مِن ستٍّ يَنالُها منهُ:

إحداها ـ وهيَ غايةُ مرادِهِ منهُ ـ: أنْ يَحولَ بينَهُ وبينَ العلمِ والإيمانِ فيُلْقِيَهُ في الكفرِ. فإذا ظَفِرَ بذٰلكَ؛ فَرَغَ منهُ واَسْتَراحَ /خ١٧٩/.

فإنْ فاتَتْهُ هٰذهِ وهُدِيَ إلى الإسلامِ؛ حَرِصَ[٣] على تلوِ الكفرِ، وهيَ البدعةُ، وهيَ

---

(١) في خ: «كالحاجة إلى النفس. . . الأذن وكنسبة كلام»! وفي ط: «. . . الأذن كلام»! والزيادة منّي.
(٢) وقد تقدّم (١/١٦٦) تفصيل القول فيه.
(٣) في خ: «قبورهم إلى الموقف بصراء. . . أحدها وهي غاية. . . للإسلام أحرص»!

أحبُّ إليهِ مِن المعصيةِ؛ فإنَّ المعصيةَ يُتابُ منها، والبدعةُ لا يُتابُ منها؛ لأنَّ صاحبَها يَرى أنَّهُ على هدًى.

وفي بعضِ الآثارِ: يَقولُ إبليسُ: أهْلَكْتُ بني آدمَ بالذُّنوبِ، وأهْلَكوني بلا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وبالاستغفارِ، فلمَّا رَأيْتُ ذٰلكَ؛ بَثَثْتُ فيهِمُ الأهواءَ؛ فهُم يُذْنِبونَ ولا يَتوبونَ؛ لأنَّهُم يَحْسَبونَ أنَّهُم يُحْسِنونَ صنعًا[1].

فإذا ظَفِرَ منهُ بهٰذهِ؛ صَيَّرَهُ مِن دعاتِهِ وأُمرائِهِ.

[فإنْ أعْجَزَتْهُ؛ ألْقاهُ في الثالثةِ، وهيَ الكبائرُ.

فإنْ أعْجَزَتْهُ؛ ألْقاهُ في اللممِ، وهيَ الرَّابعةُ، وهيَ الصَّغائرُ].

فإنْ أعْجَزَتْهُ؛ شَغَلَهُ بالعملِ المفضولِ عمَّا هوَ أفضلُ منهُ ليَرْبَحَ عليهِ الفضلَ الذي[2] بينَهُما، وهيَ الخامسةُ.

فإنْ أعْجَزَهُ ذٰلكَ؛ صارَ إلى السَّادسةِ، وهيَ تسليطُ حزبِهِ عليهِ يُؤْذونَهُ ويَشْتِمونَهُ ويَبْهَتونَهُ ويَرْمونَهُ بالعظائمِ؛ لِيَحْزُنَهُ ويَشْغَلَ قلبَهُ عنِ العلمِ والإرادةِ وسائرِ أعمالِهِ.

فكيفَ يُمْكِنُ أنْ يَتَحَرَّزَ منهُ مَن لا علمَ لهُ بهٰذهِ الأُمورِ ولا بعدوِّهِ ولا بما يُحَصِّنُهُ منهُ؟! فإنَّهُ لا يَنْجو مِن عدوِّهِ إلاَّ مَن عَرَفَ طرقَهُ[3] التي يَأْتيهِ منها، وجيشَهُ الذي يَسْتَعينُ بهِ عليهِ، وعَرَفَ مداخلَهُ ومخارجَهُ، وكيفيَّةَ محاربتِهِ، وبأيِّ شيءٍ يُحاربُهُ، وبماذا يُداوي جراحاتِهِ، وبأيِّ شيءٍ يَسْتَمِدُّ القوَّةَ لقتالِهِ ودفعِهِ... وهٰذا كلُّهُ لا يَحْصُلُ إلاَّ بالعلمِ.

---

(١) (موضوع). قطعة من حديث رواه: ابن أبي عاصم في «السنّة» (٧)، وأبو يعلى في «المسند» (١٣٦)، والطبراني في «الكبير»(١٠/ ٢١٠ـ مجمع)، ومن طريقه الحسن بن أحمد العطّار الهمذاني في «فتياه» (١١)، والرافعي في «التدوين» (٣/ ٣٩)؛ من طريق عثمان بن مطر، عن عبدالغفور بن عبدالعزيز بن سعيد، عن أبي نصيرة، عن أبي رجاء مولى أبي بكر، عن أبي بكر... رفعه.

قال الهيثمي (١٠/ ٢١٠): «فيه عثمان بن مطر وهو ضعيف». وقال ابن كثير: «عثمان وشيخه ضعيفان». قلت: عثمان ضعيف جدًّا في حدّ الترك بل اتّهمه ابن حبّان، وعبدالغفور متّهم، وأبو رجاء مجهول، والحديث موضوع كما قال الألباني، وقد أحسن ابن القيّم يرحمه الله إذ اقتصر على تصديره بقوله «وفي بعض الآثار» ولم يجزم برفعه.

(٢) في ط: «وأهلكوني بالاستغفار وبلا إلٰه إلاّ الله... من رعاته وأمرائه... ليرتج عليه الذي»!

(٣) في ط: «أن يحترز منه... عرف طريقه»، وفي خ: «... ولا بما لا يحصّنه منه...».

فالجاهلُ في غفلةٍ وعمًى عن هٰذا الأمرِ العظيمِ والخطبِ الجسيمِ. ولهٰذا جاءَ ذكرُ هٰذا العدوِّ[١] وشأنِهِ وجنودِهِ ومكايدِهِ في القرآنِ كثيرًا جدًّا؛ لحاجةِ النُّفوسِ إلى معرفةِ عدوِّها وطرقِ محاربتِهِ ومجاهدتِهِ. فلولا [أنَّ] العلمَ يَكْشِفُ عن هٰذا؛ لَما نَجا مَن نَجا منهُ. فالعلمُ وثمرتُهُ هوَ الذي تَحْصُلُ بِهِ النَّجاةُ [منهُ].

● **الوجهُ التَّاسعُ والثَّمانونَ**: أنَّ أعظمَ الأسبابِ التي يُحْرَمُ بها العبدُ خيرَ الدُّنيا والآخرةِ ولذَّةَ النَّعيمِ في الدَّارينِ ويَدْخُلُ عليهِ عدوُّهُ منها هيَ الغفلةُ المضادَّةُ للعلمِ والكسلُ المضادُّ للإرادةِ والعزيمةِ. هٰذانِ أصلُ بلاءِ[٢] العبدِ وحرمانِهِ منازلَ السُّعداءِ /خ١٨٠/، وهما مِن عدمِ العلمِ.

أمَّا الغفلةُ؛ فمضادَّةٌ للعلمِ منافيةٌ لهُ. وقد ذَمَّ [اللهُ] سبحانَهُ أهلَها ونَهى عنِ الكونِ منهُم وعن طاعتِهِم والقبولِ منهُم: قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿وَلا تَكُنْ مِنَ الغافِلينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقالَ [تَعالى]: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقالَ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثيرًا مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلوبٌ لا يَفْقَهونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعونَ بِها أُولٰئِكَ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ الغافِلونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقالَ النَّبيُّ ﷺ في وصيَّتِهِ لنساءِ المؤمنينَ: «[و]لا تَغْفَلْنَ فتَنْسَيْنَ الرَّحمةَ»[٣]. وسُئِلَ بعضُ العلماءِ عن عشقِ الصُّورِ، فقالَ: قلوبٌ

---

(١) في ط: «يداوي جراحته...»، وفي خ: «... هٰذا العدد»!

(٢) في ط: «النجاة الوجه التاسع... المضادّة للعمل...»! وفي خ: «... أصل كلّ بلاء».

(٣) (**لا بأس به**). رواه: ابن سعد (٨/ ٤٠٢)، وابن معين في «التاريخ» (٢٠٦)، وابن أبي شيبة (٧٦٥٥ و٢٩٤٠٥ و٣٥٠٢٨)، وإسحاق في «المسند» (١/ ١٩٨/ ٢)، وأحمد (٦/ ٣٧٠)، وعبد بن حميد في «المسند» (١٥٧٠ ـ منتخب)، والبخاري في «التاريخ» (٨/ ٢٣٢) تعليقًا، وأبو داوود (٢ ـ الصلاة، ٣٥٩ ـ التسبيح بالحصى، ١/ ٤٧١/ ١٥٠٠)، والترمذي (٤٩ ـ الدعوات، ١٢١ ـ فضل التسبيح والتهليل، ٥/ ٥٧١/ ٣٥٨٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٣٢٨٥)، وابن حبّان (٨٤٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٥/ ٧٣/ ١٨٠) و«الأوسط» (٥٠١٢) و«الدعاء» (١٧٧١ و١٧٧٢)، والحاكم (١/ ٥٤٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٦٨)، والخطيب في «التاريخ» (٤/ ٣٨٤، ١٠/ ١٤٣)، والمزّي في «التهذيب» (٣٠/ ١٤١)؛ من طريق هانئ بن عثمان، عن حميضة بنت ياسر، عن جدتها يسيرة... رفعته.

وهٰذا سند ضعيف، آفته حميضة هٰذه؛ لم يرو عنها إلّا ابنها، ولم يوثّقها إلّا ابن حبّان، وعدّها الذهبي في المجهولات، وقبلها العسقلاني في المتابعات، فمثلها لا بدّ له من متابع.

غَفَلَتْ عن ذكرِ اللهِ، فٱبْتَلاها [اللهُ] بعبوديَّةِ غيرِه.

فالقلبُ الغافلُ مأوى الشَّيطانِ؛ فإنَّهُ وسواسٌ خنَّاسٌ، قدِ ٱلْتَقَمَ القلبَ الغافلَ يَقْرَأُ عليهِ أنواعَ الوساوسِ والخيالاتِ الباطلةِ، فإذا تَذَكَّرَ وذَكَرَ اللهَ؛ ٱنْجَمَعَ وٱنْضَمَّ وخَنَسَ وتَضاءَلَ لذكرِ اللهِ، فهوَ دائمًا بينَ الوسوسةِ والخَنْسِ.

وقالَ عُرْوَةُ بنُ رُوَيْمٍ: إنَّ المسيحَ ﷺ سَأَلَ ربَّهُ أنْ يُرِيَهُ موضعَ الشَّيطانِ مِن ابنِ آدمَ[(١)]، فجُلِّيَ لهُ، فإذا رأسُهُ رأسُ الحيَّةِ، واضعٌ رأسَهُ على ثمرةِ القلبِ، فإذا ذَكَرَ العبدُ ربَّهُ؛ خَنَسَ، وإذا لمْ يَذْكُرْ؛ وَضَعَ رَأْسَهُ على ثمرةِ قلبِهِ فمَنَّاهُ وحَدَّثَهُ.

وقد رُوِيَ في هٰذا المعنى حديثٌ مرفوعٌ[(٢)].

= نعم؛ للحديث شواهد تقوّيه كما بيّنته في «الأذكار» (٢٧ـ ط. ابن خزيمة)، لٰكنّها قاصرة عن هٰذه القطعة، فالأصل أن تبقى على ضعفها.

نعم؛ يمكن أن يقال: قد جبرت الشواهد أكثر الحديث، فلتلحق هٰذه القطعة بجملة الحديث، ولا سيّما أنّ اللفظ محتمل والموضوع في الفضائل.

وقد مال إلى ضعف الحديث الترمذي والمنذري، وقوّاه ابن حبّان والحاكم والنووي والذهبي والعسقلاني والألباني. والله أعلى وأعلم.

(١) في ط: «وقد ٱلتقم قلب... من ابن آدم [ذٰلك]»! وفي خ: «... مع الشيطان من بني آدم».

(٢) (ضعيف). رواه: أبو يعلى (٤٣٠١)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٠٤٤)، وابن شاهين في «الترغيب»، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٦٨)، والبيهقي في «الشعب» (٥٤٠)؛ من طرق، عن عديّ بن أبي عمارة، ثنا زياد النميري، عن أنس؛ أنّه ﷺ قال: «إنّ الشيطان لواضع خطمه في قلب ابن آدم: فإذا ذكر الله خنس، وإن نسي الله ٱلتقم قلبه». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٥٢): «فيه عديّ بن أبي عمارة، وهو ضعيف». قلت: والنميري مثله أو أضعف منه.

وقد جاء نحوه عند: عبدالرزّاق في «التفسير» (٣٧٥٤)، وابن أبي شيبة (٣٤٧٦٣)، وابن جرير (٣٨٣٨٩ و٣٨٣٩٠)، والحاكم (٢/ ٥٤١)، والبيهقي في «الشعب» (٦٧٦)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ١٧٥/ ١٧٢، ١٠/ ٣٦٧/ ٣٩٣)، والعسقلاني في «التغليق»؛ من أوجه قويّة موقوفًا على ابن عبّاس. وعند ابن جرير (٣٨٣٩١ و٣٨٣٩٢) من وجهين موقوفًا على مجاهد. وعند: عبدالرزّاق (٣٧٥٢ و٣٧٥٥)، وابن جرير (٣٨٣٩٣)؛ من وجهين موقوفًا على قتادة. وعند أبي نعيم في «الحلية» (٥/ ٢١٣) موقوفًا على خالد بن معدان. وعند أبي نعيم أيضًا (٦/ ١٢٣) موقوفًا على عروة بن رويم باللفظ الذي ذكره المصنّف قبل قليل.

ولا يصلح شيء من هٰذه الموقوفات لتقوية المسند المتقدّم؛ لأنّ الظاهر الراجح أنّها من مرويّاتهم عن أهل الكتاب، فليس لها حكم الرفع أو الإرسال، بل لا يبعد أن يكون هٰؤلاء الضعفاء تلقّوها من الوجه نفسه وأخطؤوا في رفعها. ولذٰلك ضعّفه ابن كثير والهيثمي والعسقلاني والألباني.

فهوَ دائمًا يَتَرَقَّبُ غفلةَ العبدِ، فيَبْذُرُ في قلبِهِ بذرَ الأماني والشَّهواتِ والخيالاتِ الباطلةِ، فيُثْمِرُ كلَّ حنظلٍ وكلَّ شوكٍ وكلَّ بلاءٍ، ولا يَزالُ يُمِدُّهُ ويَسْقيهِ حتَّى[١] يُغَطِّيَ القلبَ ويُعْمِيَهُ.

وأمَّا الكسلُ؛ فيَتَوَلَّدُ عنهُ الإضاعةُ والتَّفريطُ والحرمانُ وأشدُّ النَّدامةِ، وهوَ منافٍ للإرادةِ والعزيمةِ التي هيَ ثمرةُ العلمِ؛ فإنَّ مَن عَلِمَ أنَّ كمالَهُ ونعيمَهُ في شيءٍ طَلَبَهُ بجهدِهِ وعَزَمَ عليهِ بقلبِهِ كلِّهِ؛ فإنَّ كلَّ أحدٍ يَسْعى في تكميلِ نفسِهِ ولذَّتِهِ، ولٰكنَّ أكثرَهُم أخْطَأَ الطَّريقَ لعدمِ علمِهِ بما يَنْبَغي أنْ يَطْلُبَهُ.

فالإرادةُ مسبوقةٌ بالعلمِ والتَّصوُّرِ، فتخلُّفُها في الغالبِ إنَّما يَكونُ لتخلُّفِ العلمِ /خ١٨١/ والإدراكِ، وإلاَّ؛ فمعَ العلمِ التَّامِّ بأنَّ سعادةَ العبدِ في [هٰذا] المطلبِ ونجاتَهُ وفوزَهُ؛ كيفَ يَلْحَقُهُ كسلٌ في النُّهوضِ إليهِ[٢]؟!

ولهٰذا ٱسْتَعاذَ النَّبيُّ ﷺ مِن الكسلِ. ففي «الصَّحيح»[٣] عنهُ؛ أنَّهُ كانَ يَقولُ: «اللهمَّ! إنِّي أعوذُ بكَ مِن الهمِّ والحَزَنِ، والعَجْزِ والكسلِ، والجبنِ والبخلِ، وضَلَعِ الدَّينِ وغلبةِ الرِّجالِ». فٱسْتَعاذَ مِن ثمانيةِ أشياءَ، كلُّ شيئَينِ منها قرينانِ:

فالهمُّ والحَزَنُ قرينانِ. والفرقُ بينَهُما: أنَّ المكروهَ الواردَ على القلبِ إمَّا أنْ يَكونَ على ما مَضى [أ]و لِما يُسْتَقْبَلُ، فالأوَّلُ هوَ الحَزَنُ والثَّاني الهمُّ. وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: الحَزَنُ على المكروهِ الذي فاتَ ولا يُتَوَقَّعُ دفعُهُ، والهمُّ على المكروهِ المنتظَرِ الذي يُتَوَقَّعُ دفعُهُ وتَأَمُّلُهُ.

والعجزُ والكسلُ قرينانِ؛ فإنَّ تخلُّفَ مصلحةِ العبدِ وكمالِهِ ولذَّتِهِ وسرورِهِ عنهُ: إمَّا أنْ يَكونَ مصدرُهُ عدمَ القدرةِ، فهوَ العجزُ. أو يَكونَ قادرًا عليهِ، لٰكنْ تَخَلَّفَ لعدمِ إرادتِهِ، فهوَ الكسلُ، وصاحبُهُ يُلامُ عليهِ ما لا يُلامُ على العجزِ. وقد يَكونُ العجزُ ثمرةَ

---

(١) في خ: «فهو دائم... كلّ حنظلة...»، وفي ط: «... غفلة العبيد... يمدّه بسقيه حتّى».

(٢) يلحقه الكسل إذا أصيب بواحد من الأسباب العشرة، التي تحول دون الاستجابة لداعي العلم وتبطل تأثيره، والتي تقدّم تفصيل القول فيها في الوجه الحادي والثمانين!

(٣) البخاري (٧٠ـ الأطعمة، ٢٨ـ الحيس، ٩/ ٥٤٢٥/٢٨)، ومسلم (٤٨ـ الذكر، ١٥ـ التعوذ من العجز والكسل، ٤/ ٢٠٧٩/ ٢٧٠٦)؛ من حديث أنس رضي الله عنه. واللفظ للبخاريّ.

الكسلِ فيُلامُ عليهِ أيضًا، فكثيرًا ما يَكْسَلُ المرءُ عنِ الشَّيءِ الذي هوَ قادرٌ عليهِ وتَضْعُفُ عنهُ إرادتُهُ فيُفْضِي بهِ إلى العجزِ عنهُ. وهٰذا هوَ العجزُ الذي يَلومُ اللهُ عليهِ في قولِ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ يَلومُ على العجزِ»[١]، وإلَّا؛ فالعجزُ الذي لمْ تُخْلَقْ لهُ قدرةٌ على دفعِهِ [و]لا يَدْخُلُ معجوزُهُ تحتَ القدرةِ [لا يُلامُ عليهِ].

قالَ بعضُ الحكماءِ في وصيَّتِهِ: إيَّاكَ والكسلَ والضَّجرَ؛ فإنَّ الكسِلَ لا يَنْهَضُ لمكرمةٍ، والضَّجرُ إذا نَهَضَ إليها[٢] لا يَصْبِرُ عليها. والضَّجرُ متولِّدٌ عنِ الكسلِ والعجزِ، فلمْ يُفْرِدْهُ في الحديثِ بلفظٍ.

ثمَّ ذَكَرَ الجبنَ والبخلَ؛ فإنَّ الإحسانَ المتوقَّعَ مِن العبدِ إمَّا بمالِهِ وإمَّا ببدنِهِ: فالبخيلُ مانعٌ [لنفعِ] مالِهِ، والجبانُ مانعٌ لنفعِ بدنِهِ.

والمشهورُ عندَ النَّاسِ: أنَّ البخلَ يَسْتَلْزِمُ الجبنَ مِن غيرِ عكسٍ؛ لأنَّ مَن بَخِلَ بمالِهِ فهوَ بنفسِهِ أبخلُ، والشَّجاعةُ تَسْتَلْزِمُ الكرمَ مِن غيرِ عكسٍ؛ لأنَّ مَن جادَ بنفسِهِ فهوَ بمالِهِ أسمحُ وأجودُ.

وهٰذا الذي /خ١٨٢/ قالوهُ ليسَ بلازمٍ وإنْ كانَ أكثريًّا؛ فإنَّ الشَّجاعةَ والكرمَ وأضدادَهُما أخلاقٌ وغرائزُ قد تَجْتَمِعُ[٣] في الرَّجلِ وقد يُعْطى بعضَها دونَ بعضٍ. وقد شاهَدَ النَّاسُ مِن أهلِ الإقدامِ والشَّجاعةِ والبأسِ مَن هوَ أبخلُ النَّاسِ، وهٰذا كثيرًا ما

---

(١) (ضعيف). رواه: أحمد (٦/ ٢٤)، وأبو داوود (١٨- الأقضية، ٢٨- الرجل يحلف على حقّه، ٢/ ٣٣٧/ ٣٦٢٧)، والنسائي في «اليوم والليلة» (٦٣١)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٥٤/ ٩٧ و١٣٩) و«الشاميين» (١١٨٢)، وابن السنّي في «اليوم والليلة» (٣٤٩)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ١٨١) و«الشعب» (١٢١٣)، والخطيب في «الجمع والتفريق» (٢/ ٢٢٣)، والمزّي في «التهذيب» (١٢/ ٣٣٨)؛ من طريق قويّة، عن سيف، عن عوف بن مالك... به. وهٰذا سند ضعيف من أجل سيف؛ فإنّه مجهول.

ورواه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٩٥/ ٧٤٧٥) و«الشاميين» (٤٢٢) من طريق محمّد بن المغيرة، ثنا النعمان بن عبدالسلام، ثنا أبو سعيد، عن سفيان الثوري، عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن أبي أمامة... رفعه. قال الهيثمي (٨/ ٩٤): «فيه محمّد بن المغيرة الشهرزوري وهو ضعيف». قلت: بل متّهم ساقط، وأبو سعيد هو عبدالرحمٰن بن مهدي البصري ثقة ثبت.

والحديث ضعيف لضعف طريقه الأولى وشدّة ضعف الثانية، وقد أعلّه المنذري وضعّفه الألباني.

(٢) في خ: «لم تخلف له قدرة... وقال بعض... والكسل والعجز فإنّ... تهض لها».

(٣) في ط: «أنّ البخل مستلزم... ليس بلازم أكثره فإنّ... وأضدادها أخلاق وغرائز قد تجمع»!

يوجَدُ في أُمَّةِ التُّركِ، يَكونُ أشجعَ مِن ليثٍ وأبخلَ مِن كلبٍ[1]! فالرَّجلُ [قد] يَسْمَحُ بنفسِهِ ويَضِنُّ بمالِهِ، ولهٰذا يُقاتِلُ عليه حتَّى يُقْتَلَ، فيَبْذُلُ نفسَهُ[2] دونَهُ. فمِن النَّاسِ مَن يَسْمَحُ بنفسِهِ ومالِهِ، ومنهُم مَن يَبْخَلُ بنفسِهِ [ومالِهِ]، ومنهُم[3] مَن يَسْمَحُ بمالِهِ ويَبْخَلُ بنفسِهِ، وعكسُهُ. والأقسامُ الأربعةُ موجودةٌ في النَّاسِ.

ثمَّ ذَكَرَ ضَلَعَ الدَّينِ وغلبةَ الرِّجالِ؛ فإنَّ القهرَ الذي يَنالُ العبدَ نوعانِ: أحدُهُما: قهرٌ بحقٍّ، وهوَ ضَلَعُ الدَّينِ. والثَّاني: قهرٌ بباطلٍ، وهو غلبةُ الرِّجالِ.

فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ على مَن أُوتِيَ جوامعَ الكلمِ واقْتُبِسَتْ كنوزُ العلمِ والحكمةِ مِن ألفاظِهِ.

والمقصودُ أنَّ الغفلةَ والكسلَ اللذينِ هُما أصلُ الحرمانِ سببُهُما عدمُ العلمِ. فعادَ النَّقصُ كلُّهُ إلى عدمِ العلمِ والعزيمةِ، [والكمالُ كلُّهُ إلى العلمِ والعزيمةِ].

والنَّاسُ في هٰذا على أربعةِ أضربٍ:

* **الضَّربُ الأوَّلُ:** مَن رُزِقَ علمًا وأُعينَ معَ ذٰلكَ بقوَّةِ العزيمةِ على العملِ بهِ. وهٰذا الضَّربُ [هُم] خلاصةُ الخلقِ. وهمُ الموصوفونَ في القرآنِ: بقولِهِ [تَعالى]: ﴿الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ﴾ [العصر: ٣]، وقولِهِ: ﴿أُولي الأيْدي وَالأبْصارِ﴾ [ص: ٤٥]، وبقولِهِ [تَعالى]: ﴿أوَمَنْ كانَ مَيْتًا[4] فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُورًا يَمْشي بِهِ في النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾ [الأنعام: ١٢٢]: فبالحياةِ تُنالُ العزيمةُ، وبالنُّورِ يُنالُ العلمُ. وأئمَّةُ هٰذا الضَّربِ هُم أُولو العزمِ مِن الرُّسلِ.

* **والضَّربُ الثَّاني:** مَن حُرِمَ هٰذا وهٰذا. وهُمُ الموصوفونَ بقولِهِ [تَعالى]: ﴿إنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذينَ لا يَعْقِلونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، وبقولِهِ: ﴿أمْ تَحْسَبُ أنَّ أكْثَرَهُمْ يَسْمَعونَ [أوْ يَعْقِلونَ] إنْ هُمْ إلاَّ كَالأنْعامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبيلاً﴾

---

(١) وما زال هٰذا قائمًا إلى يومنا هٰذا: فالترك والتركمان والجراكسة والشيشان أهل بأس عند القتال يحسب لهم ألف حساب، ويبخَّلون عند المعاشرة.

(٢) في خ: «وقد شاهدنا الناس. . .»! وفي خ وط: «. . . فيبدأ نفسه»! وكلاهما تحريف.

(٣) في خ: «ومن الناس من سمح بنفسه. . .»، وفي ط: «. . . بنفسه ومنهم».

(٤) في ط: «وأعين على ذٰلك. . . أفمن كان ميتًا»!

[الفرقان: ٤٤]، وبقولِه: ﴿إنَّكَ[١] لا تُسْمِعُ المَوْتى وَلا تُسْمِعُ /خ١٨٣/ الصُّمَّ الدُّعاءَ﴾ [النمل: ٨٠]، وقولِه: ﴿وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ في القُبورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

وهٰذا الضَّربُ شرُّ البريَّةِ؛ يُضَيِّقونَ الدِّيار، ويُغْلونَ الأسعار، وعندَ أنفسِهِم أَنَّهُم يَعْلَمون ولٰكنْ ظاهرًا مِن الحياةِ الدُّنيا وهُم عنِ الآخرةِ هُم غافلون، ويَتَعَلَّمونَ ولٰكنْ ما يَضُرُّهُم ولا يَنْفَعُهُم، ويَنْطِقونَ ولٰكنْ عنِ الهوى يَنْطِقون، ويَتَكَلَّمونَ ولٰكنْ بالجهلِ يَتَكَلَّمون، ويُؤْمِنونَ ولٰكنْ بالجبتِ والطَّاغوتِ [يُؤْمِنون]، ويَعْبُدونَ[٢] ولٰكنْ يَعْبُدونَ مِن دونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُم ولا يَنْفَعُهُم، ويُجادِلونَ ولٰكنْ بالباطلِ لِيُدْحِضوا بِهِ الحقَّ، [ويَتَفَكَّرونَ] ويُبَيِّتونَ ولٰكنْ ما لا يَرْضى مِن القولِ يُبَيِّتون[٣]، ويَدْعونَ ولٰكنْ معَ اللهِ إلٰهًا آخَرَ يَدْعون، ويَذْكُرونَ ولٰكنْ إذا ذُكِّروا لا يَذْكُرون، ويُصَلُّونَ ولٰكنَّهُم مِن المصلِّينَ الذينَ هُم عن صلاتِهِم ساهون الذينَ هُم يُراؤونَ ويَمْنَعونَ الماعون، ويَحْكُمونَ ولٰكنْ حكمَ الجاهليَّةِ يَبْغون، ويَكْتُبونَ ولٰكنْ يَكْتُبونَ الكتابَ بأيديهِم ثمَّ يَقولونَ هٰذا مِن عندِ اللهِ لِيَشْتَروا بِهِ ثمنًا قليلاً فويلٌ لهُم ممَّا كَتَبَتْ أيديهِم وويلٌ لهُم ممَّا يَكْسِبون، ويَقولونَ إنَّما نحنُ مصلحونَ ألا إنَّهُم همُ المفسدونَ [ولٰكنْ لا يَشْعُرون]، وإذا قيلَ لهُم آمِنوا كما آمَنَ النَّاسُ قالوا أَنُؤْمِنُ كما آمَنَ السُّفهاءُ ألا إنَّهُم همُ السُّفهاءُ ولٰكنْ لا يَعْلَمون[٤].

فهٰذا الضَّربُ ناسٌ بالصُّورةِ وشياطينُ بالحقيقةِ، وجلُّهُم ـ إذا فَكَّرْتَ فيهِم ـ حميرٌ أو كلابٌ أو ذئابٌ!

وصَدَقَ البُحْتُرِيُّ في قولِه:

لَمْ يَبْقَ مِنْ جُلِّ هٰذا النَّاسِ[٥] باقِيَةٌ ... يَنالُها الوَهْمُ إلاَّ هٰذِهِ الصُّوَرُ[٦]

وقالَ آخرُ:

---

(١) في خ: «فبالحياة نال العزيمة وبالفوز نال العلم...»! وفي ط: «... وبقوله فإنّك».

(٢) في ط: «هم غافلون ويعلمون ولٰكن... بالجهل ويتكلّمون... والطاغوت ويعبدون»!

(٣) في ط: «الحقّ ويبيّتون»! وفي خ: «... لا يرضى به من القول يبيّتون».

(٤) في ط: «هم المفسدون وإذا قيل... ولٰكن لا يشعرون».

(٥) في ط: «فهم حمير...»! وفي خ: «فيهم حميرًا وكلابًا وذئابًا... من جاهل الناس»!

(٦) يقول: لم يبق عند أكثر هٰؤلاء الناس شيء من حقيقة الإنسانيّة إلاّ الصورة.

لا تَخْـدَعَنْـكَ اللحـى وَلا الصُّـوَرْ ... تِسْعَـةُ أعْشـارِ مَـنْ تَـرى بَقَـرْ
فـي شَجَـرِ السَّـرْحِ[١] مِنْهُـمْ مَثَـلٌ ... لَهـا رُواءٌ وَمـا لَهـا ثَمَـرْ[٢]

وأحْسَنُ مِن هٰذا كلِّهِ قولُهُ تَعالى: ﴿وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُم وَإِنْ يَقولوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤].

عالمُهُم كما قيلَ فيهِ /خ١٨٤/ :

زَوامِـلُ لِـلأسْفـارِ لا عِلْـمَ عِنْـدَهُـمْ ... بِجَيِّـدِهـا إلاَّ كَعِلْـمِ الأبـاعِـرِ
لَعَمْـرُكَ مـا يَـدْري البَعيـرُ إذا غَـدا ... بِـأَوْسـاقِـهِ أَوْ راحَ مـا فـي الغَـرائِـرِ[٣]

وأحْسَنُ مِن هٰذا وأبلغُ وأوجزُ [وأوضحُ] قولُهُ تَعالى: ﴿كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفارًا بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذينَ كَذَّبوا بِآياتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمينَ﴾ [الجمعة: ٥].

* **الضَّربُ الثَّالثُ**: مَن فُتِحَ لهُ بابُ العلمِ وأُغْلِقَ عنهُ بابُ العزمِ والعملِ. فهٰذا في رتبةِ الجاهلِ أو شرٌّ منهُ.

وفي الحديثِ المرفوعِ: «أشدُّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامةِ عالمٌ لمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بعلمِهِ»[٤].

---

(١) في خ: «وقال الآخر... ترى كلهم بقر...»، وفي ط: «... باللحى والصور... السرو».

(٢) السرح: شجر عظيم كثير الظلّ لكنّه لا يصلح للمرعى. والرواء: حسن المنظر.

(٣) في خ: «لعمري ما يدري...»! زوامل: جمع زاملة، وهي الجمل الذي يحمل المتاع، وهو رديء عادة، وإنّما يُختار الجمل الجيّد للركوب. الأسفار: الكتب. الأوساق هنا: الحمولة. الغرائر: أوعية جلديّة تملأ بالتبن ونحوه وتحمل على ظهر الجمل لطعامه في الطريق.

(٤) (ضعيف جدًّا). رواه: الطبراني في «الأوسط» (٥٠٨)، وابن عديّ في «الكامل» (٣/ ٩١١، ٥/ ١٨٠٧)، والآجرّي في «أخلاق العلماء»، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٢٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٧٨)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ١٩٦)، والخطيب في «الكفاية» (ص٦)، وابن عساكر في «ذم من لا يعمل بعلمه»؛ من طرق، عن عثمان بن مقسم البرّي، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة... رفعه. وهٰذا سند ساقط من أجل البرّي؛ فمتروك منكر الحديث.

وله شاهد جاء في سياق حديث لابن عبّاس عند أبي القاسم الهمداني في «الفوائد» (١٦١٧ـ ضعيفة)، لٰكنّه ضعيف جدًّا لا يفرح به.

ورواه: ابن المبارك في «الزهد» (٤٠)، والدارمي في «السنن» (١/ ٨٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٢٣)؛ من وجهين ضعيفين، عن يونس بن سيف، ثنا أبو كبشة السلولي، سمعت أبا الدرداء... فذكره موقوفًا بنحوه. وهٰذا لا بأس به بمجموع طريقيه.

ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٨٨) من حديث سفيان بن عيينة؛ قال: كان يقال... فذكره.

ثَبَّتَهُ أبو نُعَيْم وغيرُه[1].

فهٰذا جهلُهُ كانَ خيرًا لهُ وأخفَّ لعذابِهِ مِن علمِهِ، فما زادَهُ العلمُ إلاَّ وبالاً وعذابًا[2].

وهٰذا لا مطمعَ في صلاحِهِ؛ فإنَّ التَّائهَ عنِ الطريقِ يُرْجى لهُ العودُ إليها إذا أَبْصَرَها[3]، فإذا عَرَفَها وحادَ عنها عمدًا؛ فمتى تُرْجى هدايتُهُ؟! قالَ [اللهُ] تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدي اللهُ قَوْمًا كَفَروا بَعْدَ إيمانِهِمْ وَشَهِدوا أَنَّ الرَّسولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ البَيِّناتُ وَاللهُ لا يَهْدي القَوْمَ الظَّالِمينَ﴾ [آل عمران: ٨٦][4].

* **الضَّربُ الرَّابعُ**: مَن رُزِقَ حظًّا مِن العزيمةِ والإرادةِ ولٰكنْ قَلَّ نَصيبُهُ مِن العلمِ والمعرفةِ. فهٰذا إذا وُفِّقَ لهُ الاقتداءُ بداعٍ مِن دعاةِ اللهِ ورسولِهِ؛ كانَ مِن الذينَ قالَ اللهُ فيهِم: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفيقًا . ذٰلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفى بِاللهِ عَليمًا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠]، رَزَقَنا اللهُ مِن فضلِهِ، ولا حَرَمَنا بسوءِ أعمالِنا؛ إنَّهُ غفورٌ رحيمٌ[5].

● **الوجهُ التِّسعونَ**: أنَّ كلَّ صفةٍ مَدَحَ اللهُ بها العبدَ في القرآنِ فهيَ ثمرةُ العلمِ ونتيجتُهُ [وكلّ ذمٍّ ذَمَّهُ فهوَ ثمرةُ الجهلِ ونتيجتُهُ].

= فبان أنّ أصل الحديث من أقوال الصحابة والتابعين، ثمّ جاء هٰذا المتروك فانفرد برفعه، ولذٰلك استنكره ابن عديّ وابن عبدالبرّ والمنذري والذهبي والعراقي والهيثمي والعسقلاني والزبيدي والألباني.

(١) لعلّه في «رياض المتعلّمين» أو كتبه الأخرى غير المطبوعة. فإن كان عنده سند ثابت خفي على الأعلام الذين ضعّفوه ـ وما إخاله ـ؛ فالقول قوله، وإلاّ؛ فتثبيته لا يقوم لحجج المضعّفين القويّة.

(٢) فكيف إذا استعمل علمه في حرب أهل الحقّ والتشنيع عليهم والتماس الأعذار والمخارج للمتنفّذين وأصحاب الأموال؟!

(٣) في ط: «وأبلغ وأوجز قوله...»، وفي خ: «... الجاهل وأشرّ منه... إذا أصبرها»!

(٤) وليس هاهنا عذر لمن ترك العلم خشية التقصير فيما يستوجبه من العمل، بل جريمة هٰذا أيضًا مضاعفة، وما هو خيرًا من العالم الذي لا يعمل بعلمه؛ لأنّ من ضيّع العلم كان لما سواه أضيع. نعم؛ من كان جهله لعذر فهو خير من العالم الذي لا يعمل بعلمه.

(٥) وإن تولاّه أهل البدع والضلالات ـ وهٰذا والله كثير غالب ـ أفسدوا عليه دينه ودنياه.

فمَدَحَهُ بالإيمانِ وهوَ رأْسُ العلمِ ولبُّهُ، ومَدَحَهُ بالعملِ الصَّالحِ الذي هوَ ثمرةُ العلمِ النَّافعِ، ومَدَحَهُ بالشُّكرِ والصَّبرِ والمسارعةِ في الخيراتِ، والحبِّ لهُ والخوفِ منهُ والرَّجاءِ والإنابةِ، والحلمِ /خ١٨٥/ والوقارِ واللبِّ والعقلِ، والعفَّةِ والكرمِ والإيثارِ على النَّفسِ، والنَّصيحةِ لعبادِهِ والرَّحمةِ بهِم والرَّأْفةِ وخفضِ الجناحِ والعفوِ عن مسيئِهِم والصَّفحِ عن جانيهِم وبذلِ الإحسانِ لكافَّتِهِم ودفعِ السَّيِّئةِ بالحسنةِ والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكرِ، والصَّبرِ في مواطنِ الصَّبرِ والرِّضى بالقضاءِ واللينِ للأولياءِ والشِّدَّةِ على الأعداءِ، والصِّدقِ في الوعدِ والوفاءِ بالعهدِ والإعراضِ عنِ الجاهلينَ والقبولِ مِن النَّاصحينَ، واليقينِ والتَّوكُّلِ والطُّمأْنينةِ والسَّكينةِ، والتَّواصلِ والتَّعاطفِ والعدلِ في الأقوالِ والأفعالِ والأخلاقِ، والقوَّةِ في أمرِهِ والبصيرةِ في دينِهِ والقيامِ بأداءِ حقِّهِ واستخراجِهِ مِن المانعينَ لهُ والدَّعوةِ إليهِ وإلى مرضاتِهِ وجنَّتِهِ، والتَّحذيرِ عن سبلِ أهلِ الضَّلالِ وتبيينِ طرقِ الغَيِّ وحالِ سالكيها، والتَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصَّبرِ والحضِّ على طعامِ المسكينِ، وبرِّ الوالدينِ وصلةِ الأرحامِ وبذلِ السَّلامِ لكافَّةِ المؤمنينَ. . . إلى سائرِ الأخلاقِ المحمودةِ والأفعالِ المَرْضِيَّةِ التي أَقْسَمَ [اللهُ] سبحانَهُ على عظمِها، فقالَ [تَعالى]: ﴿نٓ . وَالقَلَمِ وَما يَسْطُرونَ . ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيمٍ﴾ [القلم: ١-٥]. قالَتْ عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عنها، وقد سُئِلَتْ عن خُلُقِ رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَتْ: كانَ خُلُقُهُ القرآنَ، فَاكْتَفَى السَّائلُ بذٰلكَ، وقالَ: فهَمَمْتُ[1] أنْ أقومَ ولا أسْأَلَ عن شيءٍ بعدَها[2]. فهٰذهِ الأخلاقُ ونحوُها هيَ ثمرةُ شجرةِ العلمِ.

[و]أمَّا شجرةُ الجهلِ؛ فتُثْمِرُ كلَّ ثمرةٍ قبيحةٍ مِن الكفرِ والفسادِ والشِّركِ والظُّلمِ والبغيِ والعدوانِ والجزعِ والهلعِ والكنودِ والعجلةِ والطَّيشِ والحدَّةِ والفحشِ والبذاءِ والشُّحِّ والبخلِ، ولهٰذا قيلَ في [حدِّ] البخلِ: جهلٌ مقرونٌ بسوءِ الظَّنِّ.

ومِن ثمرتـ[ـهِ]: الغشُّ للخلقِ والكِبْرُ عليهِم والفخرُ والخُيَلاءُ، والعجبُ والرِّياءُ

---

(١) في خ: «والتحذير عن سبيل . . . بذلك السائل وقال فهمت»، وفي ط: «. . . وقال فهمت».

(٢) رواه مسلم (٦ـ المسافرين، ١٨ـ جامع صلاة الليل، ١/ ٥١٢/ ٧٤٦).

والسُّمعةُ والنِّفاقُ، والكذبُ /خ١٨٦/ وإخلافُ الوعدِ، والغلظةُ على النَّاسِ والانتقامُ ومقابلةُ الحسنةِ بالسَّيِّئةِ، والأمرُ بالمنكرِ والنَّهيُ عنِ المعروفِ وتركُ القبولِ مِن النَّاصحينَ، وحبُّ غيرِ اللهِ ورجاؤُهُ والتَّوكُّلُ عليهِ وإيثارُ رضاهُ على رضى اللهِ وتقديمُ أمرِهِ على أمرِ اللهِ، والتَّماوتُ عندَ حقِّ اللهِ والوثوبُ عندَ حقِّ نفسِهِ والغضبُ لها والانتصارُ لها، فإذا انْتُهِكَتْ حقوقُ نفسِهِ؛ لمْ يَقُمْ لغضبِهِ شيءٌ حتَّى يَنْتَقِمَ بأكثرَ مِن حقِّهِ، وإذا انْتُهِكَتْ محارمُ اللهِ؛ لمْ يَنْبِضْ لهُ عرقٌ غضبـ[ـا] للهِ، فلا قوَّةَ في أمرِهِ ولا بصيرةَ في دينِهِ.

ومِن ثمرتِها: الدَّعوةُ إلى سبيلِ الشَّيطانِ وإلى سلوكِ طريقِ الغَيِّ[1]، واتِّباعُ الهوى وإيثارُ الشَّهواتِ على الطَّاعاتِ، وقيلَ وقالَ وكثرةُ السُّؤالِ وإضاعةُ المالِ، ووأْدُ البناتِ وعقوقُ الأُمَّهاتِ، وقطيعةُ الأرحامِ وإساءةُ الجوارِ وركوبُ مراكبِ الخزيِ والعارِ.

وبالجملةِ؛ فالخيرُ بمجموعِهِ ثمرٌ يُجْتَنى مِن شجرةِ العلمِ، والشَّرُّ بمجموعِهِ شوكٌ يُجْتَنى[2] مِن شجرةِ الجهلِ. فلو ظَهَرَتْ صورةُ العلمِ للأبصارِ؛ لزادَ حسنُها على صورةِ الشَّمسِ والقمرِ، ولو ظَهَرَتْ صورةُ الجهلِ للأبصارِ؛ لكانَ منظرُها أقبحَ منظرٍ.

بل كلُّ خيرٍ في العالَمِ فهوَ مِن آثارِ العلمِ الذي جاءَتْ بهِ الرُّسلُ ومسبَّبٌ عنهُ وكذٰلكَ كلُّ خيرٍ يكونُ إلى قيامِ السَّاعةِ وبعدَها في القيامةِ، وكلُّ فسادٍ وشرٍّ حَصَلَ في العالَمِ ويَحْصُلُ إلى قيامِ السَّاعةِ وبعدَها في القيامةِ فسببُهُ مخالفةُ ما جاءَتْ بهِ الرُّسلُ في العلمِ والعملِ.

ولو لمْ يَكُنْ للعلمِ أبٌ ومربٍّ وسائسٌ ووزيرٌ إلَّا العقلَ، الذي بهِ عمارةُ الدَّارينِ، وهوَ الذي أرْشَدَ إلى طاعةِ الرُّسلِ، وسَلَّمَ القلبَ والجوارحَ ونفسَهُ إليهِم وانْقادَ لحكمِهِم، وعَزَلَ نفسَهُ وسَلَّمَ الأمرَ إلى أهلِهِ[3]؛ لَكَفى بهِ شرفًا وفضلًا.

---

(١) في ط: «أمّا شجرة الجهل... حقّ الله والوثوق بما عند...»! وفي خ: «... طريق البغي».

(٢) في خ: «ووأد البنات... بمجموعه ثمار يجتبى... شوك يجتبى».

(٣) فتمسّك بهٰذا؛ فإنّه من أعظم الأدلّة على رجاحة العقل وسلامته. وأمّا من جعل عقله ندًّا لله ورسوله، وراح يخبّ ويضع في دين الله لا يعوّل على متابعة ولا تضيره مخالفة؛ فمخدوع زيّن له الشيطان سوء عمله فرآه صالحًا. نسأل الله العافية.

وقد مَدَحَ اللهُ سبحانَهُ العقلَ وأهلَهُ في كتابِهِ في مواضعَ كثيرةٍ منهُ، وذَمَّ مَن لا عقلَ لهُ وأخْبَرَ أنَّهُم /خ١٨٧/ أهلُ النَّارِ الذينَ لا سمعَ لهُم ولا عقلَ. فهوَ آلةُ كلِّ علمٍ، وميزانُهُ الذي يُعْرَفُ بِهِ صحيحُهُ مِن سقيمِهِ وراجحُهُ مِن مرجوحِهِ، والمرآةُ التي يُعْرَفُ بِها الحسنُ مِن القبيحِ.

وقد قيلَ: العقلُ ملِكٌ، [و]البدنُ روحُهُ، وحواسُّهُ [وأفعالُهُ] وحركاتُهُ[1] كلُّها رعيَّةٌ لهُ، فإذا ضَعُفَ عنِ القيامِ عليها وتعهُّدِها؛ وَصَلَ الخللُ إليها كلِّها.

ولهٰذا قيلَ: مَن لمْ يَكُنْ عقلُهُ أغلبَ خصالِ الخيرِ عليهِ؛ كانَ حتفُهُ في أغلبِ خصالِ الشَّرِّ عليهِ.

ورُوِيَ أنَّهُ لمَّا هَبَطَ آدمُ مِن الجنَّةِ؛ أتاهُ جِبْريلُ فقالَ: إنَّ اللهَ أحْضَرَكَ العقلَ والدِّينَ والحياءَ لِتَخْتارَ واحدًا منها. فقالَ: أخَذْتُ العقلَ. فقالَ الدِّينُ والحياءُ: أُمِرْنا أنْ لا نُفارِقَ العقلَ حيثُ كانَ. فانْحازا إليهِ[2].

والعقلُ عقلانِ: عقلُ غريزةٍ، وهوَ أبو العلمِ ومربِّيهِ ومثمِرُهُ. وعقلٌ مكتسَبٌ مستفادٌ، وهوَ ولدُ العلمِ وثمرتُهُ ونتيجتُهُ. فإذا اجْتَمَعا في العبدِ؛ فذٰلكَ فضلُ اللهِ يؤْتيهِ مَن يَشاءُ، واسْتَقامَ لهُ أمرُهُ، وأقْبَلَتْ عليهِ جيوشُ السَّعادةِ مِن كلِّ جانبٍ. وإذا فَقَدَهُما؛ فالحيوانُ البهيمُ أحسنُ حالاً منهُ. وإذا انْفَرَدا؛ نَقَصَ الرَّجلُ بنقصانِ أحدِهِما.

ومِن النَّاسِ مَن يُرَجِّحُ صاحبَ العقلِ الغَريزيِّ. ومنهُم مَن يُرَجِّحُ صاحبَ العقلِ المكتسَبِ. والتَّحقيقُ: أنَّ صاحبَ العقلِ الغريزيِّ الذي لا علمَ ولا تجربةَ عندَهُ آفتُهُ التي يُؤْتى منها الإحجامُ وتركُ انْتهازِ الفرصةِ؛ لأنَّ عقلَهُ يَعْقِلُهُ عنِ انْتهازِ الفرصِ؛ لعدمِ علمِهِ بها. وصاحبُ العقلِ المكتسبِ المستفادِ يُؤْتى مِن الإقدامِ؛ فإنَّ علمَهُ بالفرصِ وطرقِها يُلْقيهِ على المبادرةِ إليها، وعقلُهُ الغريزيُّ لا يُطيقُ ردَّهُ عنها[3]. فهوَ غالبًا يُؤْتى مِن

---

(١) في ط: «ولو لم يكن للعمل أب... وأنقاد لحكمه... وحواسّه وحركاته»!

(٢) (لا أصل له في المرفوع). رواه ابن عساكر (٧/٤٤٣) من طريق أحمد بن عبدالأعلى عن شيخ له... فذكره. ورواه (٧/٤٤٤) من طريق شراحيل أبي عثمان عن حمّاد رجل من أهل مكّة... فذكره. فالظاهر أنّ المبهم في الطريق الأولى هو حمّاد المجهول في الثانية، والأثر على وهائه من الإسرائيليّات.

(٣) في خ: «أبو العلم وثمرته...»، وفي ط: «أب العلم... انتهاز الفرصة... عنه».

إقدامِهِ، والأوّلُ مِن إحجامِهِ.

فإذا رُزِقَ العقلُ الغريزيُّ عقلاً إيمانيًّا مستفادًا مِن مشكاةِ النُّبوَّةِ لا عقلاً معيشيًّا نفاقيًّا يَظُنُّ أربابُهُ أنّهم على شيءٍ ألا إنّهم همُ الكاذبونَ[1]؛ فإنّهم /خ١٨٨/ يَرَوْنَ العقلَ أنْ يُرْضُوا النّاسَ على طبقاتِهِم ويُسالِموهُم ويَسْتَجْلِبوا مودَّتَهُم ومحبَّتَهُم! وهٰذا، معَ أنّهُ لا سبيلَ إليهِ، فهوَ إيثارٌ للرّاحةِ والدَّعةِ على مؤنةِ[2] الأذى في اللهِ والموالاةِ فيهِ والمعاداةِ فيهِ! وهوَ، وإنْ كانَ أسلمَ في العاجلةِ، فهوَ الهلكةُ في الآجلةِ؛ فإنّهُ ما ذاقَ طعمَ الإيمانِ مَن لمْ يُوالِ في اللهِ ويُعادِ فيهِ. فالعقلُ كلُّ العقلِ ما أوْصَلَ إلى رضى اللهِ ورسولِهِ، واللهُ الموفِّقُ المعينُ.

وفي حديثٍ مرفوعٍ ذَكَرَهُ ابنُ عَبْدِالبَرِّ وغيرُهُ: «أوْحى اللهُ إلى نبيٍّ مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ: قُلْ لفلانٍ العابدِ: أمّا زهدُكَ في الدُّنيا؛ فقد تَعَجَّلْتَ بهِ الرّاحةَ[3]، وأمّا انقطاعُكَ إليَّ؛ فقد اكْتَسَبْتَ بهِ العزَّ، فما عَمِلْتَ فيما لي عليكَ؟ قالَ: وما لكَ عليَّ؟ قالَ: هل واليتَ فيَّ وليًّا أو عادَيْتَ فيَّ عدوًّا؟»[4].

وذُكِرَ أيضًا أنّهُ أوحى اللهُ إلى جبريلَ: أنِ اخْسِفْ بقريةِ كذا وكذا. قالَ: يا ربِّ!

---

(١) كذا ذكر الشرط ولم يذكر له جوابًا! لٰكن من خلال ما تقدّم أتصوّر أنّ جواب الشرط: استقام للعبد أمره، وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب. أو نحو هٰذا.

(٢) في خ: «ويسالمونهم ويستجلبون...»! وفي خ وط: «... والدعة ومؤنة»! والصواب ما أثبتّه.

(٣) في خ: «أسلم على جلّه (وفي حاشية خ: لعلّه في العاجلة)... به للراحة»! وفي ط: «... فهو الهلك...».

(٤) (موضوع). رواه: أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٣١٦)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (١٧/٤٣٢-٤٣٤)، والخطيب في «التاريخ» (٣/٢٠٢)؛ من طريق محمّد بن محمّد بن أبي الورد، ثنا سعيد بن منصور، ثنا خلف بن خليفة، ثنا حميد الأعرج، عن عبدالله بن الحارث، عن ابن مسعود... رفعه.

قال الأزديّ: «لم يسنده إلّا ابن أبي الورد، والناس يوقفونه على ابن مسعود». وقال الإسفرايينيّ: «غريب، ورجاله ثقات، تفرّد به ابن أبي الورد». قلت: فتحصّل من هٰذا علل ثلاث: **أولاها**: تفرّد ابن أبي الورد، وهو صوفيّ مستور لم أقف فيه على توثيق. **والثانية**: أنّ حميدًا الأعرج هٰذا متروك. **والثالثة**: الوقف. وهاهنا علّة رابعة: وهي الانقطاع بين ابن الحارث وابن مسعود.

فالحديث إسرائيليّ، تلقّاه هٰذا المتروك فأسنده، وتلقّفه الصوفيّة ثمّ تناقلوه فيما يتناقلونه من المرويّات التي لا خطام لها ولا زمام، وقد أعلّه الأزدي والإسفرايني وابن عبدالبرّ كما ترى.

إنَّ فيهِم فلانًا العابدَ! قالَ: بهِ فأبْدَأْ، إنَّهُ لمْ يَتَمَعَّرْ وجهُهُ فيَّ [يومًا] قطُّ[١].

● **الوجهُ الحادي والتِّسعونَ**: حديثُ ابنِ عُمَرَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «إذا مَرَرْتُمْ برياضِ الجنَّةِ؛ فارْتَعوا». قالوا: يا رسولَ اللهِ! وما رياضُ الجنَّةِ؟ قالَ: «حِلَقُ الذِّكرِ؛ فإنَّ للهِ سيَّاراتٍ مِن الملائكةِ يَطْلُبونَ حِلَقَ الذِّكرِ، فإذا أتَوْا عليهِم؛ حَفُّوا بهِم»[٢]. قالَ عطاءٌ:

---

(١) (منكر). رواه: الطبراني في «الأوسط» (٧٦٥٧)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٩٥)؛ من طريق قويّة، عن عبيد بن إسحاق العطّار، ثنا عمّار بن سيف، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر... رفعه. قال الطبراني: «تفرّد به عبيد بن إسحاق». وقال الهيثمي (٧/ ٢٧٣): «عبيد بن إسحاق العطار عن عمّار بن سيف، وكلاهما ضعيف». قلت: ومنكر الحديث.

ورواه البيهقي في «الشعب» (٧٥٩٤) من وجه خير من هٰذا عن مالك بن دينار من قوله. قال البيهقي: «هٰذا هو المحفوظ من قول مالك بن دينار، وقد روي من وجه آخر ضعيف مرفوعًا»، قلت: يعني أنّ رفعه منكر، وأقرّه العراقي، وصدّره ابن القيّم بصيغة التضعيف.

(٢) (**موضوع على ابن عمر، صحيح من حديث غيره**). رواه: أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٥٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقّه» (١/ ١٢)؛ من طريقين إحداهما قويّة، عن محمّد بن عبد بن عامر السمرقندي (وسمّاه أبو نعيم: محمد بن عبدالله بن عامر)، عن قتيبة بن سعيد، ثنا مالك بن أنس، عن نافع، (زاد أبو نعيم: عن سالم)، عن ابن عمر... رفعه. قال أبو نعيم: «غريب من حديث مالك، لم نكتبه إلّا من حديث محمّد بن عبدالله بن عامر». قال الألباني في «الصحيحة» (٢٥٦٢): «ولم أعرفه، ويحتمل أنّ (عامر) محرّف من (نمير)، فإن كان كذٰلك؛ فهو ثقة. ثمّ رأيت ما يرجّح أنّه هو، فقد ذكره المزّي في الرواة عن قتيبة». قلت: ذكر المزّي له في الرواة عن قتيبة دليل ظنّي وليس بالحاسم، ولو وقف الشيخ رحمة الله عليه على سند الخطيب في «الفقيه والمتفقّه»؛ لعلم أنّه ليس بتحريف، ولٰكنّه محمّد بن عبد بن عامر السمرقنديّ الكذّاب الوضّاع. وعليه؛ فالسند ساقط.

ورواه الدارقطني في «غرائب مالك» (٥/ ٨٤ـ لسان الميزان) من طريق محمّد بن إسحاق الصيرفي أبي ذرّ، عن عليّ بن معبد بن نوح، عن عليّ بن معبد بن شدّاد، عن مالك... به فذكره. قال الدارقطني: «باطل موضوع، وأبو ذرّ هٰذا كان ضعيفًا».

لٰكن روى هٰذا المتن: أحمد (٣/ ١٥٠)، والترمذي (٣٥١٠)، والبزّار (٣٠٦٣ـ زوائد)، وأبو يعلى (٣٤٣٢)، وابن حبّان في «المجروحين» (٢/ ٢٥٢)، والطبراني في «الدعاء» (١٨٩٠)، وابن عديّ (٦/ ٢١٤٧)، وأبو نعيم (٦/ ٢٦٨)، والبيهقي في «الشعب» (٥٢٩)، والخطيب في «الفقيه» (١/ ١٢)، والأصبهاني في «الترغيب» (١٣٤٧)؛ من طريقين تقوّي إحداهما الأخرى، عن أنس... رفعه. وهو حسن بمجموع طريقيه. ورواه: عبد بن حميد (١١٠٧)، وابن أبي الدنيا، والبزّار (٣٠٦٤ـ زوائد)، وأبو يعلى (١٨٦٥ و١٨٦٦ و٢١٣٨)، وابن حبّان في «المجروحين» (٢/ ٨١)، والطبراني في «الأوسط» (٢٥٢٢) و«الدعاء» (١٨٩١)، والحاكم (١/ ٤٩٤)، والبيهقي في «الشعب» (٥٢٨)، والأصبهاني (١٢٥٤)؛ من حديث جابر بسند فيه ضعف. ورواه: الترمذي (٣٥٠٩)، وابن شاهين؛ من حديث أبي هريرة بنحوه بسند ضعيف. ورواه الطبراني (١١/ ٧٨/ ١١١٥٨) من حديث ابن عبّاس بنحوه بسند ضعيف. ورواه الخطيب في «الفقيه والمتفقّه»=

مجالسُ الذِّكرِ مجالسُ الحلالِ والحرامِ؛ كيفَ تَشْتَري وتَبيعُ وتَصومُ وتُصَلِّي وتَتَصَدَّقُ وتَنْكِحُ وتُطَلِّقُ وتَحُجُّ. ذَكَرَهُ الخطيبُ في كتابِ «الفقيه والمتفقِّه». وقد تقدَّمَ بيانُهُ[(١)].

● **الوجهُ الثَّاني والتِّسعونَ**: ما رواهُ الخَطيبُ أيضًا عنِ ابنِ عُمَرَ يَرْفَعُهُ: «مجلسُ فقهٍ خيرٌ مِن عبادةِ ستِّينَ سنةً»[(٢)]. وفي رفعِهِ نظرٌ.

● **الوجهُ الثَّالثُ والتِّسعونَ**: ما رواهُ أيضًا مِن حديثِ عَبْدِالرَّحْمٰنِ بنِ عَوْفٍ يَرْفَعُهُ: «يسيرُ الفقهِ خيرٌ مِن كثيرِ العبادةِ»[(٣)]. ولا يَثْبُتُ رفعُهُ.

= (١/ ١٣) من حديث ابن عمرو وابن مسعود بنحوه بسندين واهيين.

وجملة القول أنّ هٰذا المتن صحيح بمجموع أوجهه المتقدّمة لٰكن من غير حديث ابن عمر، وأمّا حديث ابن عمر؛ فساقط بوجهيه لا تصحّ نسبته إليه. والله أعلم.

(١) أشار إلى طرف من هذا (١/ ٢٤٤).

(٢) (موضوع). رواه: ابن عبدالبر في «العلم»، والخطيب في «الفقيه والمتفقّه» (١/ ٤)؛ من طريق عبدالله بن أذينة، عن عبدالوهّاب بن مجاهد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر... رفعه. وسنده ساقط، عبدالله وعبدالوهّاب متروكان متّهمان.

ورواه: أبو الشيخ في «العظمة» (٤٤)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٤٤)؛ من طريق عثمان بن عبدالله القرشي، ثنا إسحاق بن نجيح الملطي، ثنا عطاء الخراساني، عن أبي هريرة... رفعه بنحوه. والقرشي والملطي كذّابان ساقطان، والخراساني عن أبي هريرة منقطع.

وأشار العجلوني في «كشف الخفاء» (١٠٠٤) أنّه ورد نحوه من كلام سريّ السقطي وابن عبّاس وأبي الدرداء، فلعلّ هٰذا أصل الحديث، ثمّ ركّب له الكذّابون والمتّهمون إسنادًا رفعوه إلى النبيّ ﷺ. وقد أعلّه ابن الجوزي وابن القيّم وابن عراق.

(٣) (**موضوع من هٰذا الوجه ضعيف من غيره**). رواه: الطبراني (١/ ٩٧/ ٢٨٦)، والخطيب في «الفقيه والمتفقّه» (١/ ١٤ و١٥)، وابن الشجري في «الأمالي»؛ من طريق خارجة بن مصعب، عن عبدالله بن عطاء بن يسار، عن محمّد بن زيد (وقال مرّة: عن إسحاق بن عبدالرحمٰن)، عن أبي سلمة بن عبدالرحمٰن، عن أبيه... رفعه. قال الهيثمي (١/ ١٢٥): «فيه خارجة بن مصعب، وهو ضعيف جدًّا». قلت: هو متروك في نفسه، ومدلّس عن الكذّابين والوضّاعين. ومحمّد بن زيد متروك. وعبدالله بن عطاء وإسحاق بن عبدالرحمٰن لم أعرفهما. فالسند ساقط لا يصلح لصالحة

ورواه: البخاري في «التاريخ» (١/ ٣٨١)، والطبراني في «الأوسط» (٨٦٩٣)، وابن جميع في «المعجم» (١/ ٣٦٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١٧٣)، والخطيب في «الجمع والتفريق» (١/ ٤٣٤) و«الفقيه» (١/ ١٥)؛ من طريق إسحاق بن أسيد، عن ابن رجاء بن حيوة، [عن أبيه، عن ابن عمرو]... رفعه. قال أبو نعيم: «غريب من حديث رجاء، تفرّد به إسحاق بن أسيد، ولم يروه عنه إلاّ ابنه». قلت: ابن رجاء إن كان عاصمًا فله أوهام وإن كان غيره فما عرفته، وإسحاق ضعيف، وقد رواه مرّة عن ابن رجاء مرسلاً.

● **الوجهُ الرَّابعُ والتِّسعونَ**: ما رَواهُ أيضًا مِن حديثِ أنَسٍ يَرْفَعُهُ: «فقيهٌ أفضلُ عندَ اللهِ مِن ألفِ عابدٍ»(١).

وهوَ في التِّرْمِذِيِّ مِن حديثِ: رَوْحِ بنِ جَناحٍ، عن مُجاهِدٍ، عنِ ابنِ عَبَّاسٍ، مرفوعًا(٢).

وفي ثبوتِهِما [مرفوعينِ] نظرٌ. والظَّاهرُ أنَّ هٰذا [وما أشْبَهَهُ] مِن كلامِ الصَّحابةِ(٣) فمَن دونَهُم.

● **الوجهُ الخامسُ والتِّسعونَ**: ما رَواهُ أيضًا عنِ ابنِ عُمَرَ يَرْفَعُهُ: «أفضلُ العبادةِ الفقهُ»(٤).

● **الوجهُ السَّادسُ والتِّسعونَ**: ما رَواهُ أيضًا مِن حديثِ: نافعٍ، عنِ ابنِ عُمَرَ،

---

(١) (موضوع). رواه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٧) من طريق محمّد بن مقاتل الرازي، عن أبي العبّاس جعفر بن هارون الواسطي، عن سمعان بن المهدي، عن أنس... رفعه. وهٰذا سند نسخة موضوعة؛ قال الذهبي في ترجمة سمعان من «الميزان»: «حيوان لا يعرف، ألصقت به نسخة موضوعة رأيتها، قبّح الله من وضعها»، وأقرّه العسقلاني. قلت: أولاهم بهٰذه الجناية هو محمّد بن مقاتل الرازيّ؛ فقد قال البخاري: «لأن أخرّ من السماء أحبّ إليّ من أن أحدّث عن محمّد بن مقاتل الرازيّ»، ولا يبعد أن يكون الواسطي وابن المهديّ شيخين خياليّين اخترعهما هٰذا الهالك.

(٢) (موضوع). تقدّم تفصيل القول فيه في الوجه الثامن والأربعين.

(٣) في خ: «يسير الفقه خير من كثير من العبادات...»، وفي ط: «... هٰذا من كلام الصحابة».

(٤) (ضعيف). رواه: الطبراني في «الأوسط» (٩٢٦٠) و«الصغير» (١١١٦)، والخطيب في «الفقيه والمتفقّه» (١/ ٢١)؛ من طريقين إحداهما لا بأس بها، عن محمّد بن عبدالرحمٰن بن أبي ليلى، عن الشعبيّ، عن ابن عمر... رفعه. قال الطبراني: «لم يروه عن الشعبيّ إلّا ابن أبي ليلى». وبه أعلّه المنذري والهيثمي، زاد الهيثمي (١/ ١٢٥): «ضعّفوه لسوء حفظه». وضعّفه العراقي.

ورواه الخطيب في «الفقيه والمتفقّه» (١/ ٢١) من طريق الحسين بن منصور الرمّاني، ثنا عبدالوهّاب بن نجدة الحوطي، ثنا بقيّة، عن إسماعيل الكندي، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عمر... رفعه. وهٰذا واه: الرمّاني مجهول، وبقيّة عنعن على تدليسه، والكندي فيه ضعف وجهالة، وليث مخلّط. نعم؛ قد توبع الكندي عند القضاعي (١٢٩٠) لٰكن من المعلّى بن هلال الكذّاب، فلا يفرح به.

وله شاهد عند: ابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٢٥)، والخطيب في «الفقيه» (١/ ٢٢)؛ من حديث أنس بسند ضعفه العراقي فيه عبدالرحمٰن بن يحيى العذري واهٍ منكر الحديث. وآخر عند الخطيب أيضًا (١/ ٢١) من حديث علي بسند مسلسل بالمجاهيل وأصحاب المناكير. وثالث منكر بلفظ قريب يأتي بعده.

وجملة القول أنّ طرق هٰذا الحديث وشواهده ساقطة لا تقوم بالطريق الأولى وتزحزحها عن ضعفها.

يَرْفَعُهُ: «ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ مِن فقهٍ في دينٍ»[(١)].

● الوجهُ السَّابعُ والتِّسعونَ: ما رَواهُ عن عَلِيٍّ؛ أَنَّهُ قالَ: العالمُ أعظمُ أجرًا مِن الصَّائمِ القائمِ الغازي في سبيلِ اللهِ.

● الوجهُ الثَّامنُ والتِّسعونَ: ما رَواهُ: المُخَلِّصُ، عن [ابنِ] صاعِدٍ، حَدَّثَنا القاسِمُ بنُ الفَضْلِ بنِ بَزِيعٍ، [حَدَّ]ثَنا حَجَّاجُ بنُ نُصَيْرٍ[(٢)]، [حَدَّ]ثَنا هِلالُ بنُ عَبْدِالرَّحْمٰنِ الحَنَفِيُّ، عن عَطاءِ بنِ أبي مَيْمونَةَ، [عن أبي سَلَمَةَ][(٣)]، عن أبي هُرَيْرَةَ وأبي ذَرٍّ؛ أَنَّهُما قالا: بابٌ مِن العلمِ نَتَعَلَّمُهُ أحبُّ إلينا مِن ألفِ ركعةٍ تطوُّعًا، وبابٌ مِن العلمِ نُعَلِّمُهُ ـ عُمِلَ بهِ أو لمْ يُعْمَلْ [به] ـ أحبُّ إلينا مِن مئةِ ركعةٍ تطوُّعًا. وقالا: سَمِعْنا رسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «إذا جاءَ الموتُ طالبَ العلمِ وهوَ على هٰذهِ الحالِ؛ ماتَ شهيدًا»[(٤)].

---

(١) (منكر). رواه: أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٧٩)، والبيهقي في «الشعب» (١٧١١)، والخطيب في «الفقيه والمتفقّه» (١/ ٢١)؛ من طريق محمّد بن صالح الأشجّ، ثنا عيسى بن زياد الدورقي، عن مسلمة بن قعنب، عن نافع، عن ابن عمر . . . رفعه. قال البيهقي: «تفرّد عيسى بن زياد بهٰذا الإسناد، وروي من وجه آخر ضعيف». قلت: عيسى بن زياد هٰذا الغالب أنّه مجهول غير المترجم عند ابن أبي حاتم، فإن كان هو؛ فصدوق. لٰكن الأشجّ الراوي عنه ليّن.

وقد توبع عيسى بن زياد فرواه الخطيب في «الفقيه» (١/ ٢١) من طريق يوسف بن خالد، عن مسلمة بن قعنب . . . به. ويوسف كذّاب ساقط لا تسوى متابعته شيئًا.

ورواه ابن النجار في «الذيل» (٦/ ٢٨ ـ لسان) من طريق مسعر بن نصر العكبري، ثنا أبو النضر عبدان بن عمر، ثنا الجعفري، ثنا أبو خليفة، ثنا القعنبي، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر . . . رفعه. ومسعر هٰذا مجهول لا يعرف؛ قال العسقلاني: «أتى بخبر منكر مركّب على إسناد صحيح».

وله شاهد من حديث أبي هريرة تقدّم أنّه ضعيف جدًّا في الوجه الثامن والأربعين. وآخر عند الخطيب في «الفقيه» (١/ ٢٢) بسند ساقط عن مكحول مرسلًا وموقوفًا.

وخلاصة الكلام أنّ الحديث ضعيف بمفردات طرقه وشواهده ومجموعها، وقد ٱستنكره البيهقي والعسقلاني والعجلوني؛ قال البيهقي: «والمحفوظ هٰذا اللفظ من قول الزهريّ».

(٢) في ط: «عن صاعد . . .»! وفي خ: « . . . حجّاج بن مصير»!

(٣) ساقطة من خ وط، ٱستفدتها من مصادر التخريج.

(٤) (ضعيف جدًّا). رواه: الفسوي (٣/ ٣٩٧)، وابن أبي داوود (١/ ٣٣١ ـ مفتاح دار السعادة)، والعقيلي (٤/ ٣٥٠) تعليقًا، والمخلّص (١/ ٣٣٠ ـ مفتاح دار السعادة)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٣٠)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ٢٤٧) و«الفقيه والمتفقّه» (١/ ١٦)؛ من طرق، عن الحجّاج بن نصير، عن هلال بن عبدالرحمٰن، عن عطاء بن أبي ميمونة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة وأبي ذرّ . . . رفعه. وهٰذا واهٍ=

[و]رواهُ: ابنُ أبي داوودَ، عن شاذانَ، عن حَجَّاجٍ. . . [به].

قُلْتُ: شاهدُهُ[1] ما مَرَّ مِن حديثِ التِّرْمِذِيِّ عن أَنَسٍ يَرْفَعُهُ: «مَنْ خَرَجَ في طلبِ العلمِ؛ فهوَ في سبيلِ اللهِ حتَّى يَرْجِعَ»[2].

● **الوجهُ التَّاسعُ والتِّسعونَ**: ما رَواهُ الخطيبُ أيضًا عن أبي هُرَيْرَةَ؛ قالَ: لأَنْ أَعْلَمَ بابًا مِن العلمِ في أمرٍ أو نهيٍ أحبُّ إليَّ مِن سبعينَ غزوةً في سبيلِ اللهِ.

وهٰذا، إنْ صَحَّ[3]، فمعناهُ: أحبُّ إليَّ مِن سبعينَ غزوةً بلا علمٍ؛ لأنَّ العملَ بلا علمٍ فسادُهُ أكثرُ مِن صلاحِهِ. أو يُريدُ علمًا يَتَعَلَّمُهُ ويُعَلِّمُهُ فيَكونُ لهُ أجرُ مَن عَمِلَ بهِ إلى يومِ القيامةِ، وهٰذا لا يَحْصُلُ في الغزوِ المجرَّدِ.

● **الوجهُ المئةُ** /خ١٩٠/: ما رَواهُ الخَطيبُ أيضًا عن أبي الدَّرْداءِ؛ أنَّهُ قالَ: مذاكرةُ العلمِ ساعةً خيرٌ مِن قيامِ ليلةٍ.

● [**الوجهُ الحادي والمئةُ**: ما رَواهُ عنِ الحَسَنِ؛ قالَ: لأنْ أتَعَلَّمَ بابًا مِن العلمِ فأُعَلِّمَهُ مسلمًا أحبُّ إليَّ مِن أنْ يَكونَ ليَ الدُّنيا كلُّها فأُنْفِقَها في سبيلِ اللهِ].

= فيه علل: أولاها: ضعف الحجّاج وقبوله التلقين، نعم؛ توبع عند البزّار (٧٦- مختصر زوائد)، لكن من وجه فيه محمّد بن أشرس منكر الحديث جدًّا في حدّ الترك. والثانية: أنّ هلالاً متروك. والثالثة: أنّ البخاري علّقه في «التاريخ» (٨/ ٢١٢) من طريق هيثم بن شهاب عن عطاء. . . به موقوفًا. والهيثم مجهول، ولٰكنّه أولى وأرجح من هلال بلا ريب.

وعلّقه العسقلاني في «لسان الميزان» (٢/ ١٨٦) من طريق حاتم بن عثمان المعافري، عن مالك، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة. . . رفعه. قال العسقلاني: «من الأباطيل»؛ يعني: التي زعم حاتم أنّ مالكًا حدّث بها.

فهاهنا وجه منكر راجح الوقف، وآخر باطل، والحديث ساقط بمجموعهما، وقد أعلّه البزّار والهيثمي والعسقلاني والألباني.

(١) هو أسقط من أن تنفع فيه الشواهد؛ فقد جاء من وجهين لا يصلحان لصالحة كما تقدّم لك، هٰذا أولاً. ثمّ بين المتنين خلاف ظاهر يحول دون شهادة أحدهما للآخر.

(٢) (حسن). تقدّم تفصيل القول فيه في الوجه الخمسين.

(٣) هو غير صحيح بالنظر إلى سند الخطيب في «الفقيه والمتفقّه» (١/ ١٦)، وكذٰلك أغلب الآثار الآتية بعده. ولم أعن ببيان حالها لأمور: أوّلها: الرغبة في اختصار الحواشي. والثاني: احتمال أن يكون لها أسانيد أخرى عند غير الخطيب. والثالث: أنّها لو صحّت لا تعدو أن تكون رأيًا رآه صاحبها، فمن شاء أخذ ومن شاء ترك، بخلاف النصوص المرفوعة التي هي حجج شرعيّة يتعيّن المصير إليها والوقوف عندها.

● **الوجهُ الثَّاني والمئةُ**: قالَ مَكْحولٌ: ما عُبِدَ اللهُ بأفضلَ مِن الفقهِ.

● **الوجهُ الثَّالثُ والمئةُ**: قالَ سَعيدُ بنُ المُسَيَّبِ: لَيْسَتْ[١] عبادةُ اللهِ بالصَّومِ والصَّلاةِ، ولٰكنْ بالفقهِ في دينِه.

وهٰذا الكلامُ يُرادُ بِهِ أمرانِ:

أحدُهُما: أنَّها لَيْسَتْ بالصَّومِ والصَّلاةِ الخاليينِ عنِ العلمِ، ولٰكنْ بالفقهِ [في الدِّينِ] الذي يُعْلَمُ بِهِ كيفَ الصَّومُ والصَّلاةُ.

والثَّاني: أنَّها لَيْسَتِ الصَّومَ والصَّلاةَ فقطْ، بلِ الفقهُ في دينِهِ مِن أعظمِ عبادتِهِ[٢].

● **الوجهُ الرَّابعُ والمئةُ**: قالَ إسْحاقُ بنُ عبدِاللهِ بنِ أبي فَرْوَةَ: أقربُ النَّاسِ مِن درجةِ النُّبوَّةِ العلماءُ وأهلُ الجهادِ: العلماءُ دَلُّوا النَّاسَ على ما جاءَتْ بِهِ الرُّسلُ، [وأهلُ الجهادِ جاهَدوا على ما جاءَ بِهِ الرُّسلُ][٣].

وقد تَقَدَّمَ الكلامُ في تفضيلِ العالِمِ على الشَّهيدِ وعكسِهِ.

● **الوجهُ الخامسُ والمئةُ**: قالَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ: أرفعُ النَّاسِ عندَ اللهِ منزلةً مَن كانَ بينَ اللهِ وبينَ عبادِهِ، وهمُ الرُّسلُ والعلماءُ.

● **الوجهُ السَّادسُ والمئةُ**: قالَ مُحَمَّدُ بنُ شِهابٍ الزُّهْرِيُّ: ما عُبِدَ اللهُ بمثلِ الفقهِ.

وهٰذا الكلامُ ونحوُهُ يُرادُ بِهِ أنَّهُ: ما يُعْبَدُ اللهُ بمثلِ أنْ يُتَعَبَّدَ بالفقهِ في الدِّينِ، فيَكونَ نفسُ التَّفقُّهِ عبادةً. كما قالَ مُعاذُ بنُ جَبَلٍ: عليكُم بالعلمِ؛ فإنَّ طلَبَهُ للهِ عبادةٌ. وسَيَأْتي إنْ شاءَ اللهُ ذكرُ كلامِهِ بتمامِهِ[٤].

وقد يُرادُ بِهِ أنَّهُ ما عُبِدَ اللهُ بعبادةٍ أفضلَ مِن عبادةٍ يَصْحَبُها الفقهُ في الدِّينِ؛ لعلمِ الفقيهِ في دينِهِ بمراتبِ العباداتِ ومفسداتِها وواجباتِها وسننِها وما يُكَمِّلُها وما يَنْقُصُها.

وكلا المعنيينِ صحيحٌ.

---

(١) في خ: «إن صحّ معناه... يتعلّمه أو يعلّمه... ليس»، والتصويب من ط و«الفقيه» (١/ ١٦).

(٢) في ط: «ولٰكن بالفقه الذي يعلم به... أعظم عباداته»، والتصويب من خ.

(٣) هٰذا كلام حسن، ولٰكنّ ابن أبي فروة قائله ليس بالحسن، بل هو متروك بيّن الضعف روى أحاديث لا خطم لها ولا أزمّة. ووقع في خ وط: «والعلماء دلّوا...» إلخ.

(٤) فأنظره فيما يأتي (١/ ٣٣٨).

● **الوجهُ السَّابعُ والمئةُ**: قالَ سَهْلُ [بنُ عَبْدِاللهِ] التُّسْتَرِيُّ: مَن أرادَ النَّظرَ إلى مجالسِ الأنبياءِ؛ فلْيَنْظُرْ إلى مجالسِ العلماءِ. وهٰذا لأنَّ العلماءَ خلفاءُ الرُّسلِ في أُممِهِم، ووارثوهُم في علمِهِم، فمجالسُهُم مجالسُ خلافةِ النُّبوَّةِ.

● **الوجهُ الثَّامنُ والمئةُ**: أنَّ كثيرًا مِن الأئمَّةِ صَرَّحوا بأنَّ أفضلَ الأعمالِ / خ١٩١/ بعدَ الفرائضِ طلبُ العلمِ:

فقالَ الشَّافِعِيُّ: ليسَ شيءٌ بعدَ الفرائضِ أفضلَ مِن طلبِ العلمِ. وهٰذا الذي ذَكَرَهُ أصحابُهُ عنهُ أنَّهُ مذهبُهُ.

وكذٰلكَ قالَ سُفْيانُ الثَّوْرِيُّ.

وحَكاهُ الحَنَفِيَّةُ [عن أبي حَنِيفَةَ].

وأمَّا الإمامُ أحمدُ؛ فحُكِيَ عنهُ ثلاثُ رواياتٍ:

إحداهنَّ: أنَّهُ العلمُ. فإنَّهُ قيلَ لهُ: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليكَ؛ أجْلِسُ بالليلِ أنْسَخُ أو أُصَلِّي تطوُّعًا؟ قالَ: نسخُكَ تَعْلَمُ بهِ أمرَ دينِكَ[1] فهوَ أحبُّ إليَّ. وذَكَرَ الخَلَّالُ [عنهُ] في كتابِ «العلم» نصوصًا كثيرةً في تفضيلِ العلمِ. ومِن كلامِهِ فيهِ: النَّاسُ إلى العلمِ أحوجُ منهُم إلى الطَّعامِ والشَّرابِ. وقد تَقَدَّمَ[2].

والرِّوايةُ الثَّانيةُ: أنَّ أفضلَ الأعمالِ بعدَ الفرائضِ صلاةُ التَّطوُّعِ. واَحْتَجَّ لهٰذهِ الرِّوايةِ: بقولِهِ ﷺ: «واَعْلَموا أنَّ خيرَ أعمالِكُمُ الصَّلاةُ»[3]. وبقولِهِ في حديثِ أبي ذرٍّ،

---

(١) في ط: «أمور دينك»، والتصويب من خ و«الفقيه والمتفقه» (١/ ١٧).

(٢) (١/ ١٩٧).

(٣) (صحيح). ذكره مالك في «الموطإ» (١/ ٤٣) بلاغًا. ووصله: عبدالله بن المبارك في «الزهد» (١٠٤٠)، والطيالسي (٩٩٦)، وابن أبي شيبة (٣٥)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٢٧٦ و٢٨٢) و«الزهد» (١١٩٥)، والعدني في «الإيمان» (٢٢ و٢٣)، والدارمي (١/ ١٦٨)، وابن ماجه (١ـ الطهارة، ٤ـ المحافظة على الوضوء، ١/ ١٠١/ ٢٧٧)، وابن نصر في «الصلاة» (١٦٨ و١٧٠ و١٧١)، والروياني (٦١٤-٦١٦)، والطبراني في «الأوسط» (٧٠١٥) و«الصغير» (٨ و١٠١٣) و«الشاميين» (١٣٣٥)، والحاكم (١/ ١٣٠)، والبيهقي في «السنن» (١/ ٨٢ و٤٥٧) و«الشعب» (٢٧١٣ و٢٨٠٢)، وابن عبدالبرّ (٢٤/ ٣١٨)، والخطيب في «التاريخ» (١/ ٢٩٣)، والبغوي في «السنّة» (١٥٥)، والأصبهاني في «الترغيب» (٤٢ و٤١١ و١٨٧٠)؛ من طرق، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان... رفعه. وصحّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، وليس كذٰلك، بل=

وقد سَأَلَهُ عنِ الصَّلاةِ، فقالَ: «خيرٌ موضوعٌ»[(١)]. وبأنَّهُ أوصى مَن سَأَلَهُ مرافقتَهُ في الجنَّةِ

= فيه أنقطاع بين سالم وثوبان بيّنته رواية ابن نصر (١٧١) ونبّه إليه البغوي والبوصيري.

لكنّ له طريقًا أخرى: علّقها الطيالسي (٩٩٦). ووصلها: أحمد (٥/ ٢٨٢)، والدارمي (١/ ١٦٨)، وابن حبّان (١٠٣٧)، والطبراني (٢/ ١٠١/ ١٤٤٤)، والبيهقي في «الشعب» (٢٧١٥)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢٤/ ٣١٩)؛ من طرق، عن الوليد بن مسلم، ثنا ابن ثوبان، ثني حسان بن عطيّة، ثه أبو كبشة السلولي، سمع ثوبان... رفعه في سياق. وهٰذا سند حسن: عبدالرحمٰن بن ثابت بن ثوبان فيه كلام يسير. والوليد مدلّس مشهور، لكنّه صرّح بالتحديث في جميع طبقات السند أوّلاً، وتابعه عليّ بن الجعد عند الطبراني في «الشاميّين» (٢١٧) ثانيًا. والبقيّة ثقات رجال البخاري.

ورواه: أحمد (٥/ ٢٨٠)، والطبراني في «مسند الشاميّين» (١٠٧٨)؛ من طريقين قويّتين، عن حريز بن عثمان، عن عبدالرحمٰن بن ميسرة الحمصي، عن ثوبان... رفعه. وعبدالرحمن بن ميسرة مقبول، وبقيّة السند ثقات، فالسند حسن في الشواهد.

والحديث صحيح بمجموع هٰذه الطرق، فكيف وله شواهد عن جماعة من الصحابة، وقد صحّحه العقيلي وابن حبّان والحاكم وابن عبدالبرّ والذهبي والمنذري والألباني.

(١) (حسن). قطعة من حديث طويل لأبي ذرّ، وقد جاءت عنه من أوجه:

روى الأوّل: ابن حبّان (٣٦١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٦)؛ من طريق إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى الغسّاني، ثنا أبي، ثنا جدّي، عن أبي إدريس، عن أبي ذرّ... رفعه. وهٰذا ساقط من أجل إبراهيم؛ فمتروك كذّبوه. لكن قال أبو نعيم: «ورواه المختار بن غسّان عن إسماعيل بن سلمة عن أبي إدريس»، فهٰذه متابعة العهدة فيها على الطريق إلى المختار والمختار مستور وإسماعيل لم أعرفه وفي القلب أنّ بينه وبين أبي إدريس أنقطاعًا، فعادت كلا شيء.

وروى الثاني: الحاكم (٢/ ٥٩٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٦٨)؛ من طريق يحيى بن سعيد السعدي، ثنا ابن جريج، [عن عطاء]، عن عبيد بن عمير الليثيّ، عن أبي ذرّ... رفعه. قال الذهبي في «التلخيص»: «السعديّ ليس بثقة». قلت: هو في حدّ الترك.

وروى الثالث: الطيالسي (٤٧٨)، وأحمد (٥/ ١٧٨ و١٧٩)، وهنّاد في «الزهد» (١٠٨١)، والبزّار (٤٠٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٩٦٨ـ تحفة)، والبيهقي في «الشعب» (٣٥٧٦)؛ من طرق، عن المسعوديّ، عن أبي عمرو الشامي، عن عبيد بن الخشخاش، عن أبي ذر... رفعها في سياق. قال البزّار: «ابن الخشخاش لا نعلم روى عن أبي ذرٍّ إلاّ هٰذا الحديث»، قلت: هو ليّن. وقال الهيثمي (١/ ١٦٥): «فيه المسعودي، وهو ثقة، ولٰكنّه أختلط». قلت: والشاميّ ضعيف. والسند واهٍ.

وروى الرابع: البخاري في «التاريخ» (١/ ٢٩) تعليقًا، وابن أبي حاتم في «الجرح» (٧/ ١٩٦) تعليقًا، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٨) تعليقًا، وابن عساكر (٧/ ٤٤٤ و٤٤٥)؛ من طريقين، عن عبدالله بن صالح، نا معاوية بن صالح، عن أبي عبدالملك محمّد بن أيّوب، عن عبدالرحمٰن بن عائذ الأزديّ، عن أبي ذرّ... رفعه مختصرًا دون هٰذا اللفظ لٰكن أشار أبو نعيم إلى أنّه جاء من هٰذا الوجه بطوله. وهٰذا ضعيف: عبدالله ومحمّد صالحان في الشواهد، وفي القلب من رواية ابن عائذ عن أبي ذرّ.

وروى الخامس الحارث بن أبي أسامة (٥٣ـ زوائد الهيثمي) من طريق قويّة، عن رجل من أهل دمشق، =

بكثرةِ السُّجودِ[١]، وهوَ الصَّلاةُ. وكذٰلكَ قولُهُ في الحديثِ الآخرِ: «عليكَ بكثرةِ السُّجودِ؛ فإنَّكَ لا تَسْجُدُ للهِ سجدةً؛ إلَّا رَفَعَكَ اللهُ بها درجةً، وحَطَّ عنكَ بها خطيئةً»[٢]. وبالأحاديثِ الدَّالَّةِ على تفضيلِ الصَّلاةِ.

والرِّوايةُ الثَّالثةُ: أنَّهُ الجهادُ. فإنَّهُ [ﷺ] قالَ: «لا أعْدِلُ بالجهادِ شيئًا، ومَن ذا يُطيقُهُ؟»[٣].

ولا ريبَ أنَّ أكثرَ الأحاديثِ في الصَّلاةِ والجهادِ.

وأمَّا مالكٌ؛ فقالَ ابنُ القاسمِ: سَمِعْتُ مالِكًا يَقولُ: إنَّ أقوامًا ٱبْتَغَوُا العبادةَ وأضاعوا العلمَ فخَرَجوا على أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بأسيافِهم، ولوِ ٱبْتَغَوُا العلمَ؛ لَحَجَزَهُم عن ذٰلكَ[٤].

قالَ مالكٌ: وكَتَبَ أبو موسى الأشْعَرِيُّ إلى عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ أنَّهُ قد قَرَأَ القرآنَ عندَنا عددُ كذا وكذا. فكَتَبَ إليهِ عُمَرُ: أنِ ٱفْرِضْ لهُم مِن بيتِ المالِ. فلمَّا كانَ العامُ

= عن عوف بن مالك، عن أبي ذرّ... رفعه، وهٰذا ضعيف من أجل الرجل المبهم، وعوف صحابيّ.

وروى السادس الطبراني في «الأوسط» (٤٧١٨): ثنا عبدالرحمٰن بن معاوية العتبي، ثنا عمرو بن خالد الحرّاني، ثنا ابن لهيعة، عن خالد بن يزيد، عن صفوان بن سليم، عن أبي صالح السمّان، عن أبي ذرّ... رفعه. وهٰذا ضعيف: العتبيّ لم أعرفه، وابن لهيعة مخلّط، ورواية أبي صالح عن أبي ذرّ فيها كلام.

وله شاهد من حديث أبي هريرة عند الطبراني في «الأوسط» (٢٤٥) بسند فيه متّهم. وآخر من حديث أبي أمامة عند: أحمد (٥/ ٢٦٥)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢١٧/ ٧٨٧١)؛ بسند فيه ضعيف ومتروك.

وخلاصة الكلام أنّ الوجهين الأوّلين لحديث أبي ذر ساقطان دون حدّ الاعتبار، وكذٰلك الشاهدان، وأمّا الأوجه الأربعة التالية؛ فليست كذٰلك، فٱجتماعها يزحزح الحديث عن الضعف ويرجّح أنّ له أصلاً عن أبي ذرّ. وقد قوّاه ابن حبّان والعسقلاني والألباني.

(١) رواه مسلم (٤ـ الصلاة، ٤٣ـ فضل السجود، ١/ ٣٥٣/ ٤٨٩) عن ربيعة بن كعب الأسلمي.

(٢) رواه مسلم (الموضع السابق، ٤٨٨) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٣) (لم أقف عليه بهٰذا اللفظ). لٰكن روى: البخاري (٥٦ـ الجهاد، ١ـ فضل الجهاد والسير، ٦/ ٤/ ٢٧٨٥)، ومسلم (٣٣ـ الإمارة، ٢٩ـ فضل الشهادة، ٣/ ١٤٩٨/ ١٨٧٨)؛ عن أبي هريرة؛ قال: قيل للنبيّ ﷺ: ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: «لا تستطيعونه. مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتّى يرجع». فكأنّ ابن القيّم يرحمه الله أراد هٰذا وذكره بالمعنى؛ لأنّ ظاهره أنّه «لا يعدل الجهاد شيء من الأعمال» كما ذكر العسقلاني.

(٤) ولو قلّبت الفكر والنظر في أحوال المسلمين اليوم وجماعاتهم ـ من المكفّرة المارقة إلى الصوفيّة المخرّفة إلى السياسيّة المنظّرة إلى العصرانيّة الماسخة ـ؛ لرأيت الداء نفسه؛ أضاعوا العلم وٱشتغلوا بغيره.

الثَّاني؛ كَتَبَ إليهِ أنَّهُ قد قَرَأَ القرآنَ عندَنا عددٌ كثيرٌ لأكثرَ مِن ذٰلكَ. فكَتَبَ إليهِ [عُمَرُ]: أنِ ٱمْحُهُم مِن الدِّيوانِ، فإنِّي أخافُ أنْ يُسْرِعَ النَّاسُ /خ١٩٢/ في القرآنِ [يَمْنَعُهُم] أنْ[1] يَتَفَقَّهوا في الدِّينِ فيَتَأَوَّلوهُ على غيرِ تأْويلِهِ.

وقالَ ابنُ وَهْبٍ: كُنْتُ بينَ يدي مالِكِ بنِ أنَسٍ، فوَضَعْتُ ٱلواحي وقُمْتُ إلى الصَّلاةِ، فقالَ: [ما] الذي قُمْتَ إليهِ بأفضلَ مِن الذي تَرَكْتَهُ.

قالَ شيخُنا[2]: وهٰذهِ الأُمورُ الثَّلاثةُ التي فَضَّلَ كلُّ واحدٍ مِن الأئمَّةِ بعضَها ـ وهيَ الصَّلاةُ والعلمُ والجهادُ ـ هيَ التي قالَ فيها عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنهُ: لولا ثلاثٌ في الدُّنيا؛ لَما أَحْبَبْتُ البقاءَ فيها: لولا أنْ أَحْمِلَ (أو: أُجَهِّزَ) جيشًا في سبيلِ اللهِ، ولولا مكابدةُ هٰذا الليلِ، ولولا مجالسةُ أقوامٍ يَنْتَقونَ أطايبَ الكلامِ كما يُنْتَقى أطايبُ الثَّمرِ؛ لَما أَحْبَبْتُ البقاءَ. فالأوَّلُ الجهادُ، والثَّاني قيامُ الليلِ، والثَّالثُ مذاكرةُ العلمِ. فٱجْتَمَعَتْ في الصَّحابةِ لكمالِهِم[3]، وتَفَرَّقَتْ فيمَن بعدَهُم.

● **الوجهُ التَّاسعُ والمئةُ**: ما ذَكَرَهُ أبو نُعَيْمٍ وغيرُهُ عن بعضِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ: «فضلُ العلمِ خيرٌ مِن فضلِ العملِ[4] وخيرُ دينِكُمُ الورعُ»[5].

---

(١) في ط: «أن أفرض عليهم... كان في العام... القرآن أن»، وفي خ: «... عددًا كثيرًا...».

(٢) يعني: شيخ الإسلام ابن تيميّة قدّس الله روحه في علّيين.

(٣) في خ: «أقوام يتفقّهون أطايب...»، وفي ط: «... بكمالهم».

(٤) في ط: «من نفل العمل»، وفي خ: «من العمل»، وفي «الحلية» (٢/ ٢١٢): «من فضل العبادة».

(٥) (**صحيح مرفوعًا**). هٰذا حديث يرويه الأعمش وفيه خلاف أجمله في الأوجه التالية:

روى **أوّلها** ابن الجوزي في «الواهيات» (٧٨) من طريق أبي مطيع، عنه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة... رفعه بنحوه. وأبو مطيع هو الحكم بن عبدالله البلخي متّهم متروك.

وروى **الثاني**: البزّار (٧١ـ مختصر الزوائد)، والطبراني في «الأوسط» (٣٩٧٢)، وابن عديّ في «الكامل» (٤/ ١٥١٤)، والحاكم (١/ ٩٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢١١)، والبيهقي في «المدخل» (٤٥٥)، والقاضي في «علل الترمذي» (ص٣٤١/رقم٦٣٣)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٧٦)؛ من طريق عبدالله بن عبدالقدّوس، عنه، عن مطرّف، عن حذيفة... رفعه. وعبدالله بن عبدالقدّوس صاحب مناكير لا يعدو أن يكون صالحًا في الشواهد، وبه أعلّه الهيثمي (١/ ١٢٥).

وروى **الثالث**: أبو خيثمة في «العلم» (١٣)، وابن سعد (٧/ ٧٢)، وأحمد في «الزهد» (١٣٣٨)، والفسوي في «المعرفة» (٣/ ٣٩٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢١١ و٢١٢)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٠٦) و«المدخل» (٤٥٧)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٢٨)؛ من طرق، عن الأعمش وقتادة وغيرهما، عن =

وقد رُوِيَ هٰذا مرفوعًا مِن حديثِ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها[١]. وفي رفعِهِ نظرٌ[٢].

وهٰذا الكلامُ هوَ فصلُ الخطابِ في هٰذهِ المسألةِ؛ فإنَّهُ: إذا كانَ كلٌّ [مِن] العلمِ

= مطرّف. . . فذكره من قوله. وهٰذا قويّ بالمتابعات؛ لأنّه منقطع بين الأعمش ومطرّف؛ فقد بيّنت بعض الروايات أنّه بلاغ، وقد قوّاه البزّار والدارقطني والبيهقي.

وروى الرابع: الشاشي (٧٥)، والإسماعيلي في «المعجم» (١/ ٣٥٥)، وأبو الشيخ في «الطبقات» (٣/ ٢٧٦)، والدارقطني في «العلل» (٥٩١)، والحاكم (١/ ٩٢)، والبيهقي في «المدخل» (٤٥٤) و«الزهد» (٨١٧)، والضياء في «المختارة» (٣/ ٢٦٤/ ١٠٦٨)؛ من طريق حمزة بن حبيب الزيّات، عنه، [عن رجل]، عن مصعب بن سعد، عن سعد. . . رفعه. وحمزة هو القارئ المشهور صدوق، والرجل المبهم صرّح الحاكم والبيهقي أنّه الحكم بن عتيبة الثقة الثبت، فالسند حسن، وقد صحّحه الحاكم والذهبي والألباني.

فالأوّل ساقط. والثاني مرجوح. والثالث أقواها؛ لقوّة الطريق إلى الأعمش، ولأنّه توبع عليه. والرابع دون الثالث قوّة، ولٰكنّه ليس بالمرجوح؛ لأنّه لا يبعد أن يكون للأعمش ـ على سعة روايته ـ إسنادان في حديث واحد، ولأنّ الأصل التوفيق بين المرويّات بعد صحّتها لا ضرب بعضها ببعض.

* ثمّ له شاهد من حديث عائشة يأتي بعده.

* وآخر يرويه: الطبراني (١١/ ٣٢/ ١٠٩٦٩)، وابن عدي (٣/ ١٢٩٣)، وأبو الشيخ في «الثواب»، والقضاعي (٤٠ و١٢٩٢)، وابن عبدالبرّ في «الجامع» (١/ ٢٧)، والخطيب في «التاريخ» (٤/ ٤٣٦)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٧٧)؛ من طرق، عن سوّار بن مصعب، عن ليث، عن طاووس، عن ابن عبّاس. . . رفعه. قال الهيثمي (١/ ١٢٥): «فيه سوّار بن مصعب، ضعيف جدًّا». قلت: متروك ساقط الحديث.

* وثالث يرويه: وكيع في «الزهد» (٢٢٢)، وابن أبي شيبة (٢٦١٠٦ و٣٤٣٩٤)، وابن أبي الدنيا في «الورع»، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٢٦)؛ من طريق سفيان، عن عمرو بن قيس، عن النبيّ ﷺ. . . به. وإسناده قويّ، ولٰكنّه معضل.

* ورابع رواه هنّاد في «الزهد» (٩٤٧) من طريق قويّة، عن الحسن وابن سيرين، عن النبيّ ﷺ. . . به. وهٰذا مرسل جيّد.

* وخامس يرويه ابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٢٧) من طريق صهيب بن محمّد بن عبّاد، ثنا بشر بن إبراهيم، ثنا خليفة بن سليمان، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة. . . رفعه. وهٰذا ساقط: بشر كذّاب يضع، وصهيب إن كان ابن أخي عبّاد فهالك وإلّا فما عرفته، وخليفة ما عرفته.

* وللقطعة الأخيرة منه شاهد من حديث ابن عمر أوّله: «أفضل العبادة الفقه» تقدّم في الوجه الخامس والتسعين بيان ضعفه وأنّه لا ينزل عن درجة الاعتبار.

وهٰذه الأسانيد في الضعف كما ترى، ولٰكن اجتماع مرفوعي سعد وابن عمر مع مراسيل الحسن وابن سيرين وعمرو بن قيس يرجّح أنّ للحديث أصلاً عنه ﷺ، وقد قوّاه الحاكم والذهبي والألباني.

(١) (ضعيف جدًّا). رواه: ابن عديّ (٦/ ٢١٧٠)، والبيهقي في «الشعب» (٥٧٥١)؛ من طريق محمّد بن عبدالملك الأنصاري، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة. . . رفعته. والأنصاريّ متّهم، وحديثه ساقط لا يصلح لصالحة ولا ينفع فيه متابعة ولا شاهد.

(٢) يعني من حديث عائشة رضي الله عنها، وقد صحّ مرفوعًا من حديث غيرها كما تقدّم.

والعملِ فرضًا؛ فلا بدَّ منهُما، كالصَّومِ والصَّلاةِ. وإذا كانا فضلينِ ـ وهُما النَّفلانِ المتطوَّعُ بهما[(١)] ؛ ففضلُ العلمِ ونفلُهُ خيرٌ مِن فضلِ العبادةِ ونفلِها؛ لأنَّ العلمَ يَعُمُّ نفعُهُ صاحبَهُ والنَّاسَ معَهُ والعبادةُ يَخْتَصُّ نفعُها بصاحبِها، ولأنَّ العلمَ تَبْقى فائدتُهُ وثمرتُهُ بعدَ موتِهِ والعبادةُ تَنْقَطِعُ عنهُ، ولِما مَرَّ مِن الوجوهِ السَّابقةِ.

● **الوجهُ العاشرُ بعدَ المئةِ**: ما رَواهُ الخطيبُ وأبو نُعَيْمٍ وغيرُهُما عن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: تَعَلَّموا العلمَ؛ فإنَّ تعلُّمَهُ للهِ خشيةٌ، وطلبَهُ عبادةٌ، ومدارستَهُ تسبيحٌ، والبحثَ عنهُ جهادٌ، وتعليمَهُ لمَن لا يُحْسِنُهُ صدقةٌ، وبذلَهُ لأهلِهِ قربةٌ. بهِ يُعْرَفُ اللهُ /خ١٩٣/ ويُعْبَدُ، و[بهِ] يُوَحَّدُ، وبهُ يُعْرَفُ الحلالُ مِن الحرامِ وتُوصَلُ الأرحامُ. وهوَ الأنيسُ في الوحدة، والصَّاحبُ[(٢)] في الخلوة، والدَّليلُ على السَّرَّاء، والمعينُ على الضَّرَّاء، والوزيرُ عندَ الأخلاَّء، والقريبُ عندَ الغرباء، ومنارُ سبيلِ الجنَّةِ. يَرْفَعُ اللهُ بهِ أقوامًا فيَجْعَلُهُم في الخيرِ قادةً وسادةً يُقْتَدى بهِم، أدلَّةً في الخيرِ تُقْتَصُّ آثارُهُم وتُرْمَقُ أفعالُهُم، وتَرْغَبُ الملائكةُ في خُلَّتِهِم وبأجنحتِها تَمْسَحُهُم، يَسْتَغْفِرُ لهُم كلُّ رطبٍ ويابسٍ حتَّى حيتانُ البحرِ وهوامُّهُ وسباعُ البرِّ وأنعامُهُ والسَّماءُ ونجومُها. والعلمُ حياةُ القلوبِ مِن العمى، ونورُ الأبصارِ مِن الظُّلَمِ، وقوَّةٌ للأبدانِ مِن الضَّعفِ. يَبْلُغُ بهِ العبدُ منازلَ الأبرارِ والدَّرجاتِ العلى. التَّفكُّرُ فيهِ يُعْدَلُ بالصِّيامِ، ومدارستُهُ بالقيامِ. وهوَ إمامٌ للعملِ، والعملُ تابعُهُ. يُلْهَمُهُ السُّعداءُ، ويُحْرَمُهُ الأشقياءُ[(٣)]. هٰذا الأثرُ معروفٌ عن

---

(١) في ط: «فإذا كانا فضلين. . .»، وفي خ: «. . . فضليين وهما النفلان المطوّع بهما».

(٢) في خ: «فإنّ تعلّمه لله حسنة. . . جهاد وتعلّمه. . . والمصاحب».

(٣) (موضوع موقوفًا ومرفوعًا). رواه: أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٣٨)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ١٦٥)؛ من طريقين واهيتين، عن هاشم بن مخلّد، سمعت أبا عصمة نوح بن أبي مريم، [عن رجل سمّاه]، عن رجاء بن حيوة، عن معاذ. . . موقوفًا. وهٰذا ساقط: الطريقان إلى هاشم واهيتان ولو أجتمعتا، ونوح متّهم متروك، وجاء برجل مبهم لا يُدرى من هو، ورجاء لم يلحق معاذًا.

ورواه: أبو نعيم في «المعجم» (كما في المتن)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٦٥)؛ من طريق موسى بن محمّد بن عطاء القرشي، ثنا عبدالرحيم بن زيد العمّي، عن أبيه، عن الحسن، عن معاذ. . . رفعه. قال ابن عبدالبرّ: «حسن جدًّا، ولٰكن ليس له إسناد قويّ». وقال المنذري في «الترغيب»: «كذا قال رحمه الله، ورفعه غريب جدًّا». وقال العراقي في «تخريج الإحياء»: «أراد به الحسن المعنوي لا الحسن المصطلح عليه بين أهل=

مُعاذٍ. ورَواهُ أبو نُعَيْم في «المعجم» مِن حديثِ معاذٍ مرفوعًا إلى النَّبيِّ ﷺ، ولا يَثْبُتُ، وحسبُهُ أن يَصِلَ إلى مُعاذٍ[١].

● **الوجهُ الحادي عشرَ بعدَ المئةِ:** ما رَواهُ يونُسُ بنُ عَبْدِالأعْلى، عنِ ابنِ أبي فُدَيْكٍ، حَدَّثَني عَمْرُو بنُ كَثيرٍ، عن أبي العَلاءِ، عنِ الحَسَنِ، عن رسولِ اللهِ ﷺ؛ قالَ: «مَن جاءَهُ الموتُ وهوَ يَطْلُبُ العلمَ لِيُحْيِيَ بهِ الإسلامَ؛ فبَيْنَهُ وبينَ الأنبياءِ في الجنَّةِ درجةُ النُّبوَّةِ»[٢].

وقد رُوِيَ مِن حديثِ: عَلِيِّ بنِ زَيْدِ بنِ جُدْعانَ، عن سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، عنِ ابنِ عَبّاسٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ[٣].

= الحديث؛ فإنّ موسى بن محمّد البلقاوي كذّبه أبو زرعة وأبو حاتم». ونحوه قال السيوطي في «تدريب الراوي». قلت: وعبدالرحيم متروك كذّبوه، وأبوه ضعيف، والحسن لم يلحق معاذًا.

(١) أنّى له ذلك وقد رأيت سقوط سنده موقوفًا ومرفوعًا؟! ثمّ في المتن صنعة ظاهرة وسجع متكلّف وتراكيب ضعيفة مشابهة لتراكيب المتأخّرين بعيدة عن أساليب الصحابة وكلامهم الفصل الجزل.

(٢) (**ضعيف جدًّا**). رواه: الدارمي (١/ ١٠٠)، وابن السنّي في «رياض المتعلّمين» (١/ ١٠٠ـ شرح الإحياء للزبيدي)، وأبو نعيم في «فضل العالم العفيف» و«رياض المتعلّمين» (١/ ١٠٠ـ زبيدي)، والهروي في «ذمّ الكلام» (١/ ١٠٠ـ زبيدي)، وسليم الرازي في «الترغيب» (١/ ١٠٠ـ زبيدي)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٥٥)، وابن عساكر (١/ ١٠٠ـ زبيدي)، وابن النجّار في «التاريخ» (١/ ١٠٠ـ زبيدي)؛ من طريق عمرو بن كثير، [عن أبي العلاء]، عن الحسن... مرسلاً.

وهٰذا واهٍ فيه علل: **أولاها**: أنّ مدار طرقه التي وقفت عليها على عمرو بن كثير (أو: ابن أبي كثير)، قال العراقي: «لا أدري من هو». **والثانية**: أنّه اضطرب في أبي العلاء إثباتًا وإسقاطًا. **والثالثة**: أنّه أبهم أبا العلاء، وهم في هٰذه الطبقة كثر، منهم الثقة والضعيف والساقط، وهٰذا لا يدرى من هو. **والرابعة**: أنّه اضطرب مرّة أخرى في الحسن؛ أهو الحسن البصري أم الحسن بن علي أم الحسين بن علي؟ **والخامسة**: أنّه اضطرب مرّة ثالثة في وصل الحديث وإرساله: فأرسله مرّة، وقال مرّة: عن الحسن عن أنس، ومرّة: عن الحسن عن ابن عبّاس. ولذٰلك ضعّفه ابن عبدالبرّ والعراقي والزبيدي وأعلّوه بالاضطراب الشديد.

(٣) (**ضعيف**). رواه: الأزدي في «الضعفاء» (٣/ ٥٠٣ـ ميزان)، والطبراني في «الأوسط» (٩٤٥٠)، وأبو نعيم في «فضل العالم» (١/ ١٠٠ـ زبيدي)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٥٥)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ٧٨) و«الفقيه والمتفقّه» (٢/ ٨٥)، وابن النجّار في «التاريخ» (١/ ١٠٠ـ زبيدي)؛ من طرق، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيّب.

وهٰذا واهٍ فيه علل: **أولاها**: ضعف علي بن زيد. **والثانية**: أنّهم اختلفوا فيه على أوجه: فرواه محمّد بن الجعد عن عليّ بن زيد وعن الزهريّ عن سعيد عن ابن عبّاس رفعه، ومحمّد متروك. ورواه عبدالله بن زياد البحراني عنه عن سعيد عن أبي الدرداء رفعه، والبحراني مجهول ضعيف. وروي عنه عن سعيد عن أبي ذر=

وهٰذا، وإنْ كانَ لا يَثْبُتُ إسنادُهُ، فلا يَبْعُدُ معناهُ مِن الصِّحَّةِ. فإنَّ أفضلَ الدَّرجاتِ النُّبوَّةُ، وبعدَها الصِّدِّيقيَّةُ، وبعدَها الشَّهادةُ، وبعدَها الصَّلاحُ. وهٰذهِ الدَّرجاتُ الأربعُ ذَكَرَها[1] اللهُ تَعالى [في كتابِهِ] في قولِهِ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ /خ١٩٤/ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. فمَن طَلَبَ العلمَ لِيُحْيِيَ بِهِ الإسلامَ؛ فهوَ مِن الصِّدِّيقينَ، ودرجتُهُ بعدَ درجةِ النُّبوَّةِ.

● **الوجهُ الثَّاني عشرَ بعدَ المئةِ**: قالَ الحَسَنُ في قولِهِ تَعالى [البقرة: ٢٠١]: ﴿رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً﴾: هيَ العلمُ والعبادةُ، ﴿وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾: هيَ الجنَّةُ. وهٰذا مِن أحسنِ التَّفسيرِ؛ فإنَّ أجلَّ حسناتِ الدُّنيا العلمُ النَّافعُ والعملُ الصَّالحُ.

● **الوجهُ الثَّالثَ عشرَ بعدَ المئةِ**: قالَ ابنُ مَسْعودٍ: عليكُم بالعلمِ قبلَ أنْ يُرْفَعَ، ورفعُهُ هلاكُ العلماءِ. فوالذي نفسي بيدِهِ؛ لَيَوَدَّنَّ رجالٌ قُتِلوا في سبيلِ اللهِ شهداءَ أنْ يَبْعَثَهُمُ اللهُ علماءَ لِما يَرَوْنَ مِن كرامتِهِم، وإنَّ أحدًا[2] لمْ يُولَدْ عالمًا، وإنَّما العلمُ بالتَّعلُّمِ.

● **الوجهُ الرَّابعَ عشرَ بعدَ المئةِ**: قالَ ابنُ عَبَّاسٍ وأبو هُرَيْرَةَ وبعدَهُما أحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ: تذاكرُ العلمِ بعضَ ليلةٍ أحبُّ إلينا مِن إحيائِها.

● **الوجهُ الخامسَ عشرَ بعدَ المئةِ**: قالَ عمرُ رَضِيَ اللهُ عنهُ: أيُّها النَّاسُ! عليكُم بالعلمِ؛ فإنَّ للهِ سبحانَهُ رداءً يُحِبُّهُ، فمَن طَلَبَ بابًا مِن العلمِ؛ رَدَّاهُ اللهُ بردائِهِ، فإنْ أذْنَبَ ذنبًا؛ اَسْتَعْتَبَهُ؛ لئلَّا يَسْلُبَهُ رداءَهُ ذٰلكَ حتَّى يَموتَ [بهِ].

قُلْتُ: ومعنى اَستعتابِ اللهِ عبدَهُ: أنَّهُ يَطْلُبُ منهُ أنْ يُعْتِبَهُ؛ أي: يُزيلَ عتبَهُ عليهِ بالتَّوبةِ والاستغفارِ والإنابةِ، فإذا أنابَ إليهِ[3]؛ رَفَعَ عنهُ عتبَهُ، فيَكونُ قد أعْتَبَ ربَّهُ؛

= رفعه. وعنه عن سعيد عن أبي هريرة رفعه. وعنه عن سعيد مرسلًا! ولذٰلك ضعّفه الأزدي والمنذري وآبن القيّم والهيثمي والعراقي، وقال ابن عبدالبرّ والزبيدي: «مضطرب الإسناد جدًّا».

(١) في خ: «عن أبي العلاء وعن العلاء عن الحسن... الأربع التي ذكرها».

(٢) في خ: «... في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة هي العلم... وإنّ أحدهم».

(٣) في ط: «عبده أن يطلب منه...»، وفي خ: «... أن يعينه أن يزيل... فإذا تاب إليه».

أي: [أزالَ عتبَهُ عليه، والرَّبُّ تَعالى قدِ اَسْتَعْتَبَهُ؛ أي:] طَلَبَ منهُ أنْ يُعْتِبَهُ.

ومِن هٰذا قولُ ابنِ مَسْعودٍ وقد وَقَعَتْ زلزلةٌ بالكوفةِ: إنَّ ربَّكم يَسْتَعْتِبُكُم فأعْتِبوهُ.

وهٰذا هوَ الاستعتابُ الذي نَفاهُ سبحانَهُ في الآخرةِ في قولِهِ: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبونَ﴾ [الجاثية: ٣٥]؛ أي: لا نَطْلُبُ منهُم إزالةَ عتبِنا عليهِم؛ فإنَّ إزالتَهُ إنَّما تكونُ بالتَّوبةِ، وهيَ لا تَنْفَعُ /خ١٩٥/ في الآخرةِ.

وهٰذا غيرُ اَستعتابِ العبدِ ربَّهُ، كما في قولِهِ تَعالى: ﴿فَإِنْ يَصْبِروا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبوا فَما هُمْ مِنَ المُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤]، فهٰذا معناهُ: إنْ يَطْلُبوا إزالةَ عتبِنا عليهِم والعفوَ؛ فما هُم مِن المُعْتَبِينَ؛ أي: ما هُم ممَّنْ يُزالُ العتبُ عليهِ. وهٰذا الاستعتابُ يَنْفَعُ في الدُّنيا دونَ الآخرةِ.

● **الوجهُ السَّادسَ عشرَ بعدَ المئةِ**: قالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنهُ: موتُ ألفِ عابدٍ أهونُ مِن موتِ عالمٍ بصيرٍ بحلالِ [اللهِ] وحرامِهِ.

ووجهُ قولِ عُمَرَ: أنَّ هٰذا العالمَ يَهْدِمُ على إبليسَ كلَّ ما يَبْنيهِ بعلمِهِ وإرشادِهِ، وأمَّا العابدُ؛ فنفعُهُ مقصورٌ على نفسِهِ.

● **الوجهُ السَّابعَ عشرَ بعدَ المئةِ**: قولُ بعضِ السَّلفِ: إذا أتى عليَّ يومٌ لا أزْدادُ فيهِ علمًا يُقَرِّبُني إلى اللهِ تَعالى؛ فلا بُورِكَ لي في طلوعِ شمسِ ذٰلكَ اليومِ.

وقد رُفِعَ هٰذا إلى رسولِ اللهِ[1]، ورفعُهُ إليهِ باطلٌ، وحسبُهُ أنْ يَصِلَ إلى واحدٍ مِن

---

(١) (موضوع). رواه: إسحاق في «المسند» (١١٢٨)، وابن حبّان في «المجروحين» (١/ ٣٣٥)، والطبراني في «الأوسط» (٦٦٣٢)، وابن عديّ في «الكامل» (٢/ ٥١١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٨٨)، وابن حبيش المقرئ في «جزئه» (١/ ٢٠٩ـ لآلئ)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٧٢ و٧٣)، والخطيب في «التاريخ» (٦/ ١٠٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٣٣)؛ من طريقين أو ثلاثة، عن الزهريّ، عن سعيد بن المسيّب، عن عائشة. . . رفعته.

فأمّا الطريق الأولى؛ ففيها سليمان بن بشّار كذّاب يضع. وفي الثانية الحكم بن عبدالله الأيلي كذّاب أيضًا. وفي الثالثة الحكم بن عبدالله أبو سلمة الحمصي، فإن كان هو والأيلي واحدًا؛ فقد عرفت حاله، وإن كانا اثنين؛ فهٰذا كذّاب يضع أيضًا. واجتماع الكذّابين على رواية حديث لا يزيده إلّا ضعفًا ووهاء. ولذٰلك استنكره أبو نعيم والذهبي والهيثمي والعراقي والعسقلاني والعجلوني، وعدّه الصوري وابن الجوزي وابن القيّم والسيوطي والمناوي والألباني في الموضوعات.

الصَّحابةِ أوِ التَّابعينَ[(١)].

وفي مثلِهِ قالَ القائلُ:

إذا مَرَّ بي يَوْمٌ وَلَمْ أَسْتَفِدْ هُدًى وَلَمْ أَكْتَسِبْ عِلْمًا فَما ذاكَ مِنْ عُمُري

● **الوجهُ الثَّامنَ عشرَ بعدَ المئةِ**: قالَ بعضُ السَّلفِ: الإيمانُ عُريانٌ، ولباسُهُ التَّقوى، وزينتُهُ الحياءُ، وثمرتُهُ العلمُ. وقد رُفِعَ هٰذا أيضًا[(٢)]، ورفعُهُ باطلٌ.

● **الوجهُ التَّاسعَ عشرَ بعدَ المئةِ**: أنَّهُ في بعضِ الآثارِ: بينَ العالمِ والعابدِ مئةُ درجةٍ، بينَ كلِّ درجتينِ حُضْرُ الجوادِ المُضَمَّرِ سبعينَ سنةً[(٣)]. وقد رُفِعَ هٰذا أيضًا[(٤)]،

---

(١) في خ: «وقد وقع هٰذا إلى رسول الله... الصحابة والتابعين»، وأثبت ما في ط.

(٢) (موضوع). قال الزبيدي في «شرح الإحياء» (١/ ٧٣): «أخرجه الحاكم في «تاريخ نيسابور» عن أبي الدرداء بسند ضعيف. قاله العراقي». قلت: لم أقف على إسناده، لٰكن غالبًا ما يكتفي العراقي في «تخريج الإحياء» في الواهيات والموضوعات بقوله: «ضعيف»، لأنّها تنطوي تحته أصطلاحًا.

قال الزبيدي: «وقد أسنده حمزة الخراسانيّ عن الثوري فرفعه إلى عبدالله عن النبيّ ﷺ». قلت: هو عند الشجري في «الأمالي» وفي إسناده محمّد بن عبيدالله العرزمي متروك.

ورواه ابن عساكر من حديث عليّ رضي الله عنه مرفوعًا.

ورواه: ابن أبي شيبة (٣٥٢٢٥)، والخرائطي في «المكارم» (٢٩١)، واللالكائي في «الاعتقاد» (١٥٧١)، وابن عساكر (٦٣/ ٣٨٩)؛ من طريق قويّة، عن وهب بن منبّه... فذكره موقوفًا.

فأصل الحديث الوقف، ثمّ تلقّفه الكذّابون والمتروكون فركّبوا له أسانيد ورفعوه. وقد قال ابن القيّم: «باطل»، وعدّه الصغاني والعجلوني في الموضوعات.

(٣) حضر الجواد: عَدْوُهُ. المضمَّر: الذي تمّ تضميره. والتضمير: نظام غذائي تدريبي يتّبع مع الجواد لزيادة سرعته وقدرته على تحمّل الجري.

(٤) (ضعيف جدًّا). وقد جاء بلفظه وبنحوه من حديث جماعة من الصحابة:

* فرواه: ابن حبّان في «المجروحين» (٢/ ٢٣)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٤٥٣)، وابن شاهين في «الترغيب»، وأبو نعيم في «أصبهان» (٢/ ١٥٠)، والديلمي في «المسند» (٤٣٤٥)، والذهبي في «الميزان» (٢/ ٥٠٠)، والعسقلاني في «اللسان» (٣/ ٣٨٤) تعليقًا؛ من طريق عبدالله بن محرّر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة... رفعه بلفظه وبنحوه. وعبدالله هٰذا متروك ساقط، ولذٰلك عدّه ابن حبّان وابن عديّ والذهبي والعسقلاني في منكراته.

* ورواه: أبو يعلى، وابن عديّ (٦/ ٢٢٢٧)؛ من طريق عمرو بن حصين الكلابي، ثنا ابن علاثة، ثنا خصيف، عن مجاهد، عن أبي هريرة... رفعه بنحوه. قال ابن عديّ: «الظاهر أنّه من وضع عمرو بن حصين». قلت: هو متّهم متروك، وابن علاثة وخصيف ليّنان، والسند ساقط.

وقال ابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٣٢): «ومن حديث ابن عون عن ابن سيرين عن أبي هريرة (فذكره=

وفي رفعِهِ نظرٌ.

● **الوجهُ العشرونَ بعدَ المئةِ**: ما رَواهُ حَرْبٌ في «مسائله» مرفوعًا إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «يَجْمَعُ اللهُ تَعالى العلماءَ يومَ القيامةِ، ثُمَّ يَقولُ: يا معشرَ العلماءِ! إنِّي لم أضَعْ علمي فيكُم إلَّا لعلمي بكُم، ولمْ أضَعْ علمي فيكُم لأُعَذِّبَكُم، اذْهَبوا؛ فقد غَفَرْتُ لكُم»[1].

= مرفوعًا بلفظ الترجمة)». قال: «ومن دون ابن عون لا يحتجّ بهم».

* ورواه: أبو يعلى (٨٥٦)، وابن عديّ (٣/ ٩٣٠)، والعسقلاني في «اللسان» (٣/ ٣٨٤) تعليقًا؛ من طريق الخليل بن مرّة، عن مبشّر، عن الزهري، عن أبي سلمة بن عبدالرحمٰن بن عوف، عن أبيه... رفعه بنحوه. وأعلّه الهيثمي (١/ ١٢٧) والألباني بضعف الخليل، قلت: الأولى إعلاله بمبشّر؛ فإنّه متّهم.

* ورواه الأصبهاني في «الترغيب» (٢١١٦) من طريق خارجة بن مصعب، عن زيد بن أسلم، عن عبدالرحمٰن، عن ابن عمر... رفعه مختصرًا. وخارجة متروك مكذّب مدلّس عن الكذّابين.

* ورواه: ابن عبدالبرّ (١/ ٢٦)، والذهبي في «الميزان» (٤/ ٣٨٦) تعليقًا، والعسقلاني في «اللسان» (٦/ ٣٢٢) تعليقًا؛ من طريق يحيى بن صالح الأيلي، عن إسماعيل بن أميّة، عن عبيد بن عمير، عن ابن عبّاس... رفعه مختصرًا. والأيلي متروك منكر الحديث.

فالحديث مشهور، عفّ عنه الثقات والصدوقون، وتداوله الكذّابون والمتّهمون، فلا جرم أن عدّه أئمّة الحديث كابن حبّان وابن عديّ والمنذري والذهبي والعراقي والهيثمي والعسقلاني والألباني في الواهيات.

(١) (ضعيف جدًّا). وقد جاء من حديث جماعة من الصحابة وغيرهم:

* فرواه: الفسوي (٣/ ٤٠٢)، والروياني (٥٤٢)، وحرب في «المسائل» (أعلاه)، والطبراني في «الكبير» (١/ ١٣١ ـ مجمع) و«الأوسط» (٤٢٧٦) و«الصغير» (٥٩٢)، وابن عدي (٤/ ١٤٣٠)، والآجرّي في «الأربعين»، والبيهقي في «المدخل إلى السنن» (٥٦٧)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٥٧)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٦٣)؛ من طريقين، عن سعيد بن أبي هند، عن أبي موسى الأشعريّ... رفعه. وفي الطريق الأولى طلحة بن زيد متروك متّهم وموسى بن عبيدة الربذي ضعيف جدًّا، وفي الطريق الثانية ابن معمر وروح بن أسلم وأسامة بن زيد ضعاف. ولذٰلك ضعّف الحديث جدًّا ابن كثير والهيثمي والعراقي، وعدّه ابن عدي وابن الجوزي والألباني في الموضوعات.

* ورواه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٨٤/ ١٣٨١) من طريق العلاء بن مسلمة ثنا إبراهيم الطالقاني، وأبو الحسن الحربي (٨٦٧ـ ضعيفة) من طريق العلاء بن مسلمة ثنا إسماعيل بن المفضّل، والبيهقي في «المدخل إلى السنن» (٥٧٠) ثنا أبو سعيد بن أبي بكر بن أبي عثمان ثنا أحمد بن محمّد بن الأزهر ثنا إبراهيم بن حصين بن بشر عن أبي إسحاق الطالقاني؛ كلاهما عن عبدالله بن المبارك، ثنا سفيان بن سعيد، عن سماك بن حرب، عن ثعلبة... رفعه. قال المنذري: «رجاله ثقات»! وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٣١): «رجاله موثّقون»! قلت: في سند الطبراني العلاء بن مسلمة متّهم والطالقاني مجهول، وفي سند الحربي العلاء المتّهم وابن المفضّل مجهول، وفي سند البيهقي ابن الأزهر متروك منكر الحديث وابن أبي عثمان وإبراهيم مجهولان.=

وهٰذا، وإنْ كانَ غريبًا، فلهُ شواهدُ حسانٌ[١].

● **الوجهُ الحادي والعشرونَ بعدَ المئةِ:** /خ١٩٦/ قولُ ابنِ المُبارَكِ، وقد سُئِلَ: مَنِ النَّاسُ؟ قالَ: العلماءُ. قيلَ: فمَنِ الملوكُ؟ قالَ: الزُّهَّادُ. قيلَ: فمَنِ السِّفْلَةُ؟ قالَ: الذي يَأْكُلُ بدينِه[٢]!

= ومعلوم أنّ اجتماع المتروكين والمتّهمين والكذّابين على رواية لا يزيدها إلاّ ضعفًا، ولذٰلك عدّه الألباني وغيره في الموضوعات.

* ورواه: ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٨١٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٦٣)، وابن عساكر؛ من طريق عثمان بن عبدالرحمٰن القرشي، عن مكحول، عن أبي أمامة أو واثلة... مرفوعًا. وهٰذا ساقط من أجل القرشيّ؛ فإنّه متّهم.

* ورواه العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٣٧١) من طريق عديّ بن أرطاة بن الأشعث، عن أبيه، عن مجالد، عن الشعبيّ، عن ابن عبّاس... مختصرًا مرفوعًا. وهٰذا واهٍ: عديّ لا يعرف وأتى بخبر منكر، عن أبيه الذي لا يعرف، عن مجالد الضعيف. وقال العقيلي: «حديثه غير محفوظ».

* ورواه الطبسي (١/ ٢٢٢ ـ لآلئ) من طريق عبدالقدوس، ثنا إسماعيل بن عيّاش، عن أبي الزبير، عن جابر... رفعه. وعبد القدوس هو ابن حبيب الكلاعي كذّاب يضع.

* ورواه ابن صصرى في «الأمالي» (١/ ٢٢١ ـ لآلئ) من طريق محمّد بن يونس بن موسى القرشي، ثنا حفص بن عمر بن دينار الأيلي، ثني سعيد بن راشد السمّاك، ثني عطاء، عن ابن عمر... رفعه. وهٰذا ساقط: القرشي وضّاع، وحفص كذّاب، والسمّاك متروك.

* ورواه: الطبسي في «الترغيب» (١/ ٢٢١ ـ لآلئ) من طريق نصر بن أحمد البورجاني، ثنا عبدالسلام بن صالح، ثنا ابن عيينة، عن ابن جريج، عن عطاء، عن أبي هريرة... رفعه. وفيه علل: أولاها: عنعنة ابن جريج. والثانية: ضعف ابن صالح. والثالثة: جهالة البورجاني. والرابعة: أنّه خولف، فرواه ابن النجّار (١/ ٢٢١ ـ لآلئ) من طريق يعقوب بن يوسف المطوّعي ثنا أبو الصلت الهروي ثنا عباد بن العوّام عن عبدالغفّار المدني عن ابن المسيّب عن أبي هريرة... رفعه. ويعقوب ثقة، وأبو الصلت هو عبدالسلام بن صالح نفسه، وعبدالغفّار مجهول منكر الحديث.

* ورواه: السهمي في «جرجان» (١/ ٢٠١)، والبيهقي في «المدخل» (٥٦٨)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٥٧)، وابن عساكر (١/ ٢٢٢ ـ لآلئ)؛ من أوجه واهية موقوفًا على الحسن وأبي عمرو الصنعاني وعبدالله بن داوود.

وجملة القول أنّ مفردات طرق الحديث جميعًا واهية جدًّا دون حدّ الاعتبار، فلا يفيدها اجتماعها قوّة، فلا جرم أن عدّه ابن الجوزي في الموضوعات، وتعقّبه السيوطي في «اللآلئ» فما صنع شيئًا، وقال الألباني عن أكثر مفرداته: «موضوع».

(١) تقدّم تفصيل القول فيها في الحاشية السابقة، وقد رأيت أنّ أكثرها موضوع وما لم يكن منها كذٰلك فهو ضعيف جدًّا دون حدّ الاعتبار.

(٢) الذي يأكل بدينه: الذي يفتي الناس بما يرضيهم، أو يسكت عمّا لا يرضيهم؛ ليفوز بولائهم=

● **الوجهُ الثَّاني والعشرونَ بعدَ المئةِ**: أنَّ مَن أدْرَكَ العلمَ؛ لمْ يَضُرَّهُ ما فاتَهُ بعدَ إدراكِهِ؛ إذْ هوَ أفضلُ الحظوظِ والعطايا، ومَن فاتَهُ العلمُ؛ لمْ يَنْفَعْهُ ما حَصَلَ لهُ مِن الحظوظِ، بل يَكونُ وبالاً [عليهِ] وسببًا لهلاكِهِ.

وفي هٰذا قالَ بعضُ السَّلفِ: أيَّ شيءٍ أدْرَكَ مَن فاتَهُ العلمُ؟ وأيُّ شيءٍ فاتَهُ مَن أدْرَكَ العلمَ؟!

● **الوجهُ الثَّالثُ والعشرونَ بعدَ المئةِ**: قالَ بعضُ العارفينَ: أليسَ المريضُ إذا مُنِعَ الطَّعامَ والشَّرابَ والدَّواءَ يَموتُ؟ قالوا: بلى. قالَ: فكذٰلكَ القلبُ إذا مُنِعَ عنهُ العلمُ والحكمةُ ثلاثةَ أيَّامٍ يَموتُ!

وصَدَقَ؛ فإنَّ العلمَ طعامُ القلبِ وشرابُهُ ودواؤُهُ، وحياتُهُ موقوفةٌ على ذٰلكَ، فإذا فَقَدَ [القلبُ] العلمَ؛ فهوَ مَيْتٌ، ولٰكنْ لا يَشْعُرُ بموتِهِ. كما أنَّ السَّكرانَ الذي قد زالَ عقلُهُ والخائفَ الذي قدِ انْتَهى خوفُهُ إلى غايتِهِ والمحبَّ والمفكِّرَ قد يَبْطُلُ إحساسُهُم بألمِ الجراحاتِ في تلكَ الحالِ، فإذا صَحَوْا وعادوا إلى حالِ الاعتدالِ؛ أدْرَكوا آلامَها. [و]هٰكذا العبدُ، إذا حَطَّ الموتُ عنهُ[1] أحمالَ الدُّنيا وشواغلَها؛ أَحَسَّ بهلاكِهِ وخسرانِهِ.

فَحَتَّامَ لا تَصْحو وَقَدْ قَرُبَ المَدى ... وَحَتَّامَ لا يَنْجابُ عَنْ قَلْبِكَ السُّكْرُ
بَلى سَوْفَ[2] تَصْحو حينَ يَنْكَشِفُ الغِطا ... وَتَذْكُرُ قَوْلي حينَ لا يَنْفَعُ الذِّكْرُ

فإذا انْكَشَفَ الغطاء، وبَرَحَ الخفاء، وبُلِيَتِ السَّرائر، وبَدَتِ الضَّمائر، وبُعْثِرَ ما في القبور، وحُصِّلَ ما في الصُّدور؛ فحينئذٍ يَكونُ الجهلُ ظلمةً على الجاهلين، والعلمُ حسرةً على البطَّالين[3].

= وطاعتهم ودعمهم المادّي والمعنوي. وأمّا الخطباء وأئمّة المساجد وأساتذة الدين وأشباههم؛ فلا بأس عليهم فيما يأخذونه من المرتّبات والمكافآت، ولو سدّ هٰذا الباب؛ لاضطربت أمور المساجد والمدارس ودخل على المسلمين شرّ كبير.

(١) في ط: «قد بطل إحساسهم... عنه الموت»، وفي خ وط: «... آلامها هٰكذا...».

(٢) في خ: «فحتّى متى لا تصحو... وحتّى متى لا...»! وفي ط: «... بل سوف»!

(٣) في ط: «فإذا كشف الغطاء...»، وفي خ: «... على الباطلين».

● **الوجهُ الرَّابعُ والعشرونَ بعدَ المئةِ**: قالَ أبو الدَّرداءِ: مَن رَأى أنَّ الغدوَّ إلى العلمِ ليسَ بجهادٍ؛ فقد نَقَصَ في رأْيِهِ وعقلِهِ.

وشاهدُ /خ١٩٧/ هٰذا قولُ معاذٍ، وقد تَقَدَّمَ.

● **الوجهُ الخامسُ والعشرونَ بعدَ المئةِ**: قولُ أبي الدَّرْداءِ أيضًا: لأنْ أتَعَلَّمَ مسألةً [مِن العلمِ] أحبُّ إليَّ مِن قيامِ ليلةٍ.

● **الوجهُ السَّادسُ والعشرونَ بعدَ المئةِ**: قولُهُ أيضًا: العالمُ والمتعلِّمُ شريكانِ في الأجرِ، وسائرُ النَّاسِ همجٌ لا خيرَ فيهِم.

● **الوجهُ السَّابعُ والعشرونَ بعدَ المئةِ**: ما رَواهُ أبو حاتِمِ بنُ حِبَّانَ في «صحيحه» مِن حديثِ أبي هُرَيْرَةَ؛ أنَّهُ سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَن دَخَلَ مسجدَنا هٰذا لِيَتَعَلَّمَ خيرًا أو لِيُعَلِّمَهُ؛ كانَ كالمجاهدِ في سبيلِ اللهِ، ومَن دَخَلَهُ لغيرِ ذٰلكَ؛ كانَ كالنَّاظرِ إلى ما ليسَ لهُ»[1].

● **الوجهُ الثَّامنُ والعشرونَ بعدَ المئةِ**: ما رَواهُ أيضًا في «صحيحه»[2] مِن حديثِ الثَّلاثةِ الذينَ انْتَهَوْا إلى النَّبيِّ ﷺ وهوَ جالسٌ في حلْقةٍ: فأعْرَضَ أحدُهُم، واسْتَحى الآخرُ فجَلَسَ خلفَهُم، وجَلَسَ الثَّالثُ في فُرجةٍ في الحلْقةِ. فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «أمَّا أحدُهُم؛ فأوى إلى اللهِ، فآواهُ اللهُ. وأمَّا الآخرُ؛ فاسْتَحْيا، فاسْتَحْيا اللهُ منهُ. وأمَّا

---

(١) (حسن صحيح). رواه: ابن أبي شيبة (٧٥١٦ و٣٢٥١١)، وأحمد (٢/ ٣٥٠ و٤١٨ و٥٢٦)، وابن ماجه (المقدّمة، ١٧ـ فضل العلماء، ١/ ٨٢/ ٢٢٧)، وأبو يعلى (٦٤٧٢)، وابن حبّان (٨٧)، وابن عديّ (٢/ ٦٩١)، والحاكم (١/ ٩١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٦)، والبيهقي في «المدخل» (٣٦٧ و٣٦٨)؛ من طرق، عن حميد الخرّاط، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة... رفعه.

قال الحاكم: «على شرط الشيخين فقد احتجّا بجميع رواته ولا أعلم له علّة»، ووافقه الذهبي. وقال البوصيري: «على شرط مسلم»، وهو أولى؛ لأنّ البخاري لم يخرّج لحميد شيئًا، وهو صدوق يهم.

وله شاهد رواه: الطبراني (٦/ ١٧٥/ ٥٩١١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٥٤)؛ من حديث سهل بن سعد بسند لا بأس به قوّاه الهيثمي وحسّنه السيوطي.

فالحديث بشاهده فوق الحسن، وقد قوّاه الحاكم والمنذري والذهبي والهيثمي والبوصيري والألباني.

(٢) (٨٦) من حديث أبي واقد الليثي. وهو أيضًا عند: البخاري (٣ـ العلم، ٨ـ من قعد حيث ينتهي به مجلس، ١/ ١٥٦/ ٦٦)، ومسلم (٣٩ـ السلام، ١٠ـ من أتى مجلسًا فوجد فرجة، ٤/ ١٧١٣/ ٢١٧٦)؛ من حديث الصحابيّ نفسه. فأغنانا هٰذا عن التطويل في تخريجه ودراسة أسانيده.

الآخرُ؛ فأعْرَضَ، فأعْرَضَ اللهُ عنهُ».

فلو لمْ يَكُنْ لطالبِ العلمِ إلاَّ أنَّ اللهَ يُؤْويهِ إليهِ ولا يُعْرِضُ عنهُ؛ لَكَفى بهِ فضلاً.

● **الوجهُ التَّاسعُ والعشرونَ بعدَ المئة**: ما رَواهُ كُمَيْلُ بنُ زِيادٍ النَّخَعِيُّ؛ قالَ: أخَذَ عَلِيُّ بنُ أبي طالِبٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُ] بيدي، فأخْرَجَني ناحيةَ الجبَّانةِ. فلمَّا أصْحَرَ؛ جَعَلَ يَتَنَفَّسُ، ثمَّ قالَ: يا كُمَيْلُ بنَ زِيادٍ! القلوبُ أوعيةٌ، فخيرُها أوعاها [للخير]. ٱحْفَظْ عنِّي ما أقولُ: النَّاسُ ثلاثةٌ: فعالمٌ ربَّانيٌّ. ومتعلِّمٌ على سبيلِ نجاةٍ. وهَمَجٌ رَعاعٌ، أتباعُ كلِّ ناعقٍ، يَميلونَ معَ كلِّ ريحٍ، لمْ يَسْتَضيئوا بنورِ العلمِ، ولمْ يَلْجَؤوا إلى ركنٍ وثيقٍ. العلمُ خيرٌ مِن المالِ: العلمُ يَحْرُسُكَ وأنتَ تَحْرُسُ المالَ، العلمُ يَزْكو على الإنفاقِ (وفي روايةٍ: على العملِ) والمالُ تَنْقُصُهُ النَّفقةُ، العلمُ حاكمٌ والمالُ محكومٌ عليهِ، ومحبَّةُ العلمِ دينٌ يُدانُ بها، العلمُ يُكْسِبُ العالِمَ /خ١٩٨/ الطَّاعةَ في حياتِهِ وجميلَ الأُحدوثةِ بعدَ موتِهِ[1] وصنيعةُ المالِ تَزولُ بزوالِهِ، ماتَ خُزَّانُ الأموالِ وهمْ أحياءٌ والعلماءُ باقونَ ما بَقِيَ الدَّهرُ؛ أعيانُهُم مفقودةٌ وأمثالُهُم في القلوبِ موجودةٌ. هاه! [هاه]! إنَّ هاهُنا علمـ[ـا] ـ وأشارَ بيدِهِ إلى صدرِهِ ـ لو أصَبْتُ لهُ حملةً: بلى أصبتُهُ لَقِنًا غيرَ مأمونٍ عليهِ، يَسْتَعْمِلُ آلةَ الدِّينِ للدُّنيا، يَسْتَظْهِرُ بحججِ اللهِ على كتابِهِ وبنعمِهِ على عبادِهِ. أو منقادًا لأهلِ الحقِّ، لا بصيرةَ لهُ في أحْنائِهِ، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ في قلبِهِ بأوَّلِ عارضٍ مِن شبهةٍ، لا ذا ولا ذاكَ. أو منهومًا باللذَّاتِ سَلِسَ القيادِ[2] للشَّهواتِ، أو مغرًى بجمعِ الأموالِ والادِّخارِ، [و]ليسا مِن دعاةِ الدِّينِ، أقربُ شبهًا بهمُ الأنعامُ السَّائمةُ. كذٰلكَ[3] يَموتُ العلمُ بموتِ حامليهِ. اللهمَّ! بلى؛ لا تَخْلو الأرضُ مِن قائمٍ [للهِ] بحجَّتِهِ؛ لكيلا تَبْطُلَ حججُ اللهِ وبيِّناتُهُ، أُولٰئكَ الأقلُّونَ عددًا، الأعظمونَ عندَ اللهِ قدرًا، بهِم يَدْفَعُ اللهُ عن حججِهِ حتَّى يُؤَدُّوها إلى نظرائِهِم ويَزْرَعوها في قلوبِ أشباهِهِم، هَجَمَ بِهِمُ العلمُ على حقيقةِ الأمرِ فٱسْتَلانوا ما ٱسْتَوْعَرَ منهُ المترفونَ وأنِسوا

---

(١) في خ: «سبيل النجاة... خير لك من المال والعلم...»، وفي ط: «... بعد وفاته».

(٢) في ط: «بل أصبته... منهومًا للذات...»، وفي خ: «... في إحيائه... الانقياد».

(٣) في ط: «ليس من دعاة الدين أقرب شيء شبهًا... لذلك»، وفي خ: «... ليسا من رعاة...».

بما[١] ٱسْتَوْحَشَ منهُ الجاهلونَ، صَحِبوا الدُّنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقةٌ بالملإ الأعلى، أُولٰئكَ خلفاءُ اللهِ في أرضِهِ ودعاتُهُ إلى دينِهِ. هاه! هاه! شوقًا إلى رؤيتِهِم. وأَسْتَغْفِرُ اللهَ لي ولكَ. إذا شِئْتَ فقُمْ. ذَكَرَهُ أبو نُعَيْمٍ في «الحلية» وغيرُهُ.

قالَ أبو بكرٍ الخَطِيبُ: هٰذا حديثٌ حسنٌ مِن أحسنِ الأحاديثِ معنًى وأشرفِها لفظًا. وتقسيمُ أميرِ المؤمنينَ النَّاسَ في أوَّلِهِ تقسيمٌ في غايةِ الصِّحَّةِ ونهايةِ السَّدادِ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يَخْلو مِن أحدِ الأقسامِ التي ذَكَرَها معَ كمالِ العقلِ وإزاحةِ العللِ: إمَّا أَنْ يكونَ عالمًا، أو متعلِّمًا، أو مغفلاً للعلمِ وطلبِهِ ليسَ بعالمٍ ولا طالبٍ لهُ.

فالعالِمُ الرَّبَّانيُّ هوَ الذي لا زيادةَ على فضلِهِ [لفاضلٍ] ولا منزلةَ فوقَ منزلتِهِ لمجتهدٍ.

وقد دَخَلَ في الوصفِ لهُ بأنَّهُ ربَّانيٌّ وصفُهُ /خ١٩٩/ بالصِّفاتِ التي يَقْتَضيها العلمُ لأهلِهِ ويَمْنَعُ وصفَهُ بما خالَفَها.

ومعنى الرَّبَّانيِّ في اللغةِ: الرَّفيعُ الدَّرجةِ في العلمِ العالي المنزلةِ فيهِ. وعلى ذٰلكَ حَمَلوا قولَهُ تَعالى ﴿لَوْلَا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبارُ﴾ [المائدة: ٤٣] وقولَهُ ﴿كُونوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٧٩]: [قالَ ابنُ عبَّاسٍ]: حكماءَ فقهاءَ. وقالَ أبو رَزِينٍ: فقهاءَ علماءَ. وقالَ أبو عُمَرَ[٢] الزَّاهدُ: سَأَلْتُ ثَعْلَبًا عن هٰذا الحرفِ (وهوَ الرَّبَّانيُّ)، فقالَ: سَأَلْتُ ابنَ الأعْرابِيِّ، فقالَ: إذا كانَ الرَّجلُ عالمًا عاملاً معلِّمًا؛ قيلَ لهُ هٰذا ربَّانيٌّ، فإنْ حُرِمَ عن خصلةٍ منها؛ لمْ يُقَلْ لهُ ربَّانيٌّ. [و]قالَ ابنُ الأنْبارِيِّ عنِ النَّحْوِيِّينَ: إنَّ الرَّبَّانيِّينَ منسوبونَ إلى الرَّبِّ، وإنَّ الألفَ والنُّونَ زِيدَتا للمبالغةِ [في] النَّسبِ، كما تَقولُ: لِحْيانيٌّ [وجُمَّانيٌّ] إذا كانَ عظيمَ اللحيةِ [والجمَّةِ].

وأمَّا المتعلِّمُ على سبيلِ النَّجاةِ؛ فهوَ الطَّالبُ بتعلُّمِهِ والقاصدُ بهِ: نجاتَهُ مِن التَّفريطِ في تضييعِ الفروضِ الواجبةِ عليهِ، والرَّغبةَ بنفسِهِ عن إهمالِها وٱطِّراحِها، والأنفةَ مِن مجالسةِ البهائمِ.

---

(١) في ط: «لن تخلو... عند الله قيلاً بهم...»، وفي خ: «... ويزرعونها... وأنسوا ممّا».
(٢) في ط: «أمير المؤمنين للناس...»، وفي خ: «... وصفه بمخالفتها... وقال أبو نعيم».

قالَ[(١)]: وقد نَفى بعضُ المتقدِّمينَ عنِ النَّاسِ مَن لمْ يَكُنْ مِن أهلِ العلمِ.

وأمَّا القسمُ الثَّالثُ؛ فهمُ المهملونَ لأنفسِهم، الرَّاضونَ بالمنزلةِ الدَّنيَّةِ والحالِ الخسيسةِ، التي [هيَ] في الحضيضِ الأوهدِ والهبوطِ الأسفلِ، التي لا منزلةَ بعدَها في الجهلِ ولا دونَها في السُّقوطِ[(٢)].

وما أحْسَنَ ما شَبَّهَهُم بالهمجِ الرَّعاعِ! وبهِ يُشَبَّهُ دناةُ النَّاسِ وأراذلُهُم، والرَّعاعُ: المتبدِّدُ المتفرِّقُ. والنَّاعقُ: الصَّائحُ، وهوَ في هٰذا الموضعِ الرَّاعي، يُقالُ: نَعَقَ الرَّاعي بالغنمِ يَنْعِقُ إذا صاحَ بها، ومنهُ قولُهُ تَعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذينَ كَفَروا كَمَثَلِ الَّذي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إلاَّ دُعاءً وَنِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

ونحنُ نُشيرُ إلى بعضِ ما في هٰذا الحديثِ مِن الفوائدِ:

*** فقولُهُ رَضِيَ اللهُ عنهُ: «القلوبُ أوعيةٌ»:**

يُشَبَّهُ القلبَ بالوعاءِ والإناءِ والوادي؛ لأنَّهُ وعاءٌ للخيرِ والشَّرِّ. وفي بعضِ الآثارِ: إنَّ للهِ في أرضِهِ آنيةً، وهيَ القلوبُ، فخيرُها /خ٢٠٠/ أرقُّها وأصلبُها وأصفاها[(٣)]. فهيَ أواني مملوءةٌ مِن الخيرِ، و[أواني مملوءةٌ مِن] الشَّرِّ. كما قالَ بعضُ السَّلفِ: قلوبُ الأبرارِ تَغْلي بالبرِّ، وقلوبُ الفجَّارِ تَغْلي بالفجورِ. وفي مثلِ هٰذا قيلَ [في] المثلِ: وكلُّ إناءٍ بما فيهِ يَنْضَحُ.

وقالَ تَعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها﴾ [الرعد: ١٧]: شَبَّهَ العلمَ بالماءِ النَّازلِ مِن السَّماءِ، والقلوبَ في سعتِها وضيقِها بالأوديةِ، فقلبٌ كبيرٌ [واسعٌ] يَسَعُ علمًا كثيرًا كوادٍ كبيرٍ وسيعٍ[(٤)] يَسَعُ ماءً كثيرًا، وقلبٌ صغيرٌ ضيِّقٌ يَسَعُ علمًا

---

(١) في ط: «قال ابن الأنباري... ثمّ قال»، وفي خ: «فإنّ الألف والنون... سبيل نجاة... والرغبة بنفسها...». والقائل هو الخطيب البغداديّ في «الفقيه والمتفقّه» (١/ ٥١-٥٢).

(٢) في خ: «المتقدّمين من الناس... الأوهل والهبوط... الجهل ولا بعدها في الهبوط».

(٣) (لا أصل له في المرفوع). وإنّما علقه المزّي في «تهذيب الكمال» (٣٤/ ١٥١) في ترجمة أبي عنبة الخولاني؛ قال: قال أبو مطيع الأطرابلسي، عن محمّد بن زياد، عن أبي عنبة... فذكره موقوفًا لكن بلفظ: «... فأحبّها إليه أرحمها وألينها».

(٤) في خ: «القلوب أوعية القلب يشبه بالوعاء...»، وفي ط: «... كبير واسع».

قليلاً كوادٍ صغيرٍ ضيِّقٍ يَسَعُ ماءً قليلاً.

ولهٰذا قالَ [النَّبيُّ] ﷺ: «لا تُسَمُّوا العنبَ الكرمَ؛ فإنَّ الكرمَ قلبُ المؤمنِ»[١]؛ فإنَّهُم كانوا يُسَمُّونَ شجرَ العنبِ الكرمَ لكثرةِ منافعِهِ وخيرِهِ، والكرمُ كثرةُ الخيرِ والمنافعِ، فأخْبَرَهُم أنَّ قلبَ المؤمنِ أولى بهٰذهِ التَّسميةِ لكثرةِ ما فيهِ مِن الخيرِ والبرِّ والمنافعِ.

* **وقولُهُ: «فخيرُها أوعاها»:**

يُرادُ بهِ: أسرعُها وعيًا، وأكثرُها [وعيًا]، وأثبتُها وعيًا، ويُرادُ بهِ أيضًا أحسنُها وعيًا. فيكونُ حُسْنُ الوعيِ ـ الذي هوَ إيعاءٌ لِما يُقالُ لهُ في قلبِهِ ـ هوَ[٢] سرعتَهُ وكثرتَهُ وثباتَهُ.

والوعاءُ مِن مادَّةِ الوعيِ؛ فإنَّهُ آلةُ ما يُوعى فيهِ، كالغطاءِ والفراشِ والبساطِ ونحوِها.

ويوصَفُ بذٰلكَ القلبُ والأُذنُ، كقولِهِ تَعالى: ﴿إنَّا لَمَّا طَغَى الماءُ حَمَلْناكُمْ في الجارِيَةِ . لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١-١٢]، قالَ قَتادَةُ: أُذنٌ سَمِعَتْ وعَقَلَتْ عنِ اللهِ ما سَمِعَتْ، وقالَ الفَرَّاءُ: لِتَحْفَظَها كلُّ أُذنٍ فتكونَ عظةً لمَن يَأْتي بعدُ.

فالوعيُ توصَفُ بِهِ الأُذنُ كما يوصَفُ بِهِ القلبُ، يُقالُ: قلبٌ واعٍ وأُذنٌ واعيةٌ؛ لِما بينَ القلبِ والأُذنِ مِن الارتباطِ، فالعلمُ يَدْخُلُ مِن الأُذنِ إلى القلبِ، فهيَ بابُهُ ورسولُهُ الموصِلُ إليهِ، كما[٣] أنَّ اللسانَ رسولُهُ المؤدِّي عنهُ. ومَن عَرَفَ ارتباطَ الجوارحِ بالقلبِ؛ عَلِمَ أنَّ الأُذنَ أحقُّها بأن تُوصَفَ بالوعيِ، وأنَّها إذا وَعَتْ وَعى القلبُ.

وفي حديثِ جابرٍ في المثلِ الذي ضَرَبَتْهُ الملائكةُ للنَّبيِّ ﷺ ولأُمَّتِهِ، وقولِ المَلَكِ

---

(١) رواه: البخاري (٧٨ـ الأدب، ١٠١ـ لا تسبّوا الدهر، ١٠/ ٥٦٤/ ٦١٨٢ و٦١٨٣)، ومسلم (٤٠ـ الألفاظ، ١ـ النهي عن سبّ الدهر، ٤/ ١٧٦٣/ ٢٢٤٧)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في ط: «وأكثرها وأثبتها وعيًا. . . الذي هو أيضًا لما يقال له في قلبه وهو»!

(٣) في خ: «والوعاء هو مادّة الوعي. . . والرسول الموصل إليه العلم كما».

لهُ: «اسْمَعْ سَمِعَتْ أُذُنُكَ، واعْقِلْ /خ١ ٢٠١/ عَقَلَ قلبُكَ[١]»[٢].

فلمَّا كانَ القلبُ وعاءً، والأُذنُ مدخلُ ذٰلكَ الوعاءِ وبابُهُ؛ كانَ حصولُ العلمِ موقوفًا على حسنِ الاستماعِ.

والعقلُ: هوَ[٣] ضبطُ ما وَصَلَ إلى القلبِ وإمساكُهُ حتَّى لا يَتَفَلَّتَ منهُ. ومنهُ: عقلُ البعيرِ والدَّابَّةِ، والعِقالُ لِما يُعْقَلُ به. وعقلُ الإنسانِ يُسَمَّى عقلاً؛ لأنَّهُ يَعْقِلُهُ عنِ اتِّباعِ الغيِّ والهلاكِ، ولهٰذا يُسَمَّى[٤] حِجْرًا؛ لأنَّهُ يَمْنَعُ صاحبَهُ كما يَمْنَعُ الحِجْرُ ما حَواهُ.

فعقلُ الشَّيءِ أخصُّ مِن علمِهِ ومعرفتِهِ؛ لأنَّ صاحبَهُ يَعْقِلُ ما عَلِمَهُ فلا يَدَعُهُ يَذْهَبُ

---

(١) في ط: «أحقّها أن توصف...»، وفي خ: «... سمعت أذنك وعى قلبك».

(٢) (حسن). رواه: ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٨٢)، والترمذي (٤٥ـ الأمثال، ١ـ مثل الله لعباده، ٥/ ١٤٥/ ٢٨٦٠)، والطبري (١٧٦٢٤)، والحاكم (٢/ ٣٣٨ و٣٩٣)، وابن مردويه (٣/ ٥٤٦ـ درّ)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٣٧٠)، والعسقلاني في «تغليق التعليق» (٥/ ٣٢٠)؛ من طرق ثلاث، عن الليث بن سعد، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، [قال مرّة: عن محمّد بن عليّ بن الحسين، ومرّة: عن عطاء، وأسقطه مرّة]، عن جابر... رفعه في سياق طويل.

قال الحاكم: «صحيح»، ووافقه الذهبي. قلت: هو كذٰلك لولا ٱختلافهم على الليث فيه، فرواه ثبتان عنه فقالا: عن سعيد عن جابر، ورواه عبدالله بن صالح كاتبه فزاد بين سعيد وجابر مرّة محمّد بن عليّ ومرّة عطاء، وعبدالله بن صالح لا يعدو أن يكون صالحًا في الشواهد، وقد خالف الثبتين، فزيادته بين الشذوذ والنكارة، ولذٰلك قال الترمذي: «مرسل، سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابرًا».

لٰكن روى هٰذه القطعة: الدارمي (١/ ٧)، والطبري (١٧٦٢١)، والطبراني (٥/ ٦٥/ ٤٥٩٧)، وأبو نعيم في «صفة الجنّة» (١)؛ من طريقين، عن أيّوب، عن أبي قلابة. ولٰكنّهم ٱختلفوا أيضًا: فقال معمر عند الطبري: عن أيّوب عن أبي قلابة عن النبيّ ﷺ مرسلاً. وقال عبّاد بن منصور عند البقيّة: عن أيوب عن أبي قلابة عن عطيّة عن ربيعة الجرشيّ عن النبيّ ﷺ موصولاً مسندًا. وعبّاد ليّن، وقد خالف معمرًا الثبت، فوصله متراوح بين الشذوذ والنكارة، والراجح هاهنا الإرسال.

فهاهنا طريق منقطعة وأخرى مرسلة، وٱجتماعهما يرجّح أنّ للحديث أصلاً عن النبيّ ﷺ، ولا سيّما أنّ أصل الحديث دون هٰذه القطعة عند البخاري (٩٦ـ الاعتصام، ٢ـ الاقتداء بالسنن، ١٣/ ٢٤٩/ ٧٢٨١)، وقد قوّاها الحاكم والذهبي والهيثمي والعسقلاني، وٱكتفى الألباني في «ضعيف الترمذي» بقوله: «ضعيف الإسناد» على طريقته فيما لم يتفرّغ لدراسته من الأحاديث، ولعلّه لو تفرّغ لدراسته كان له موقف آخر. والله أعلم.

(٣) في خ: «الاستماع وعقل القلب والعقل هو»، وفي ط: «الاستماع وعقل القلب هو».

(٤) في خ: «القلب وأمثاله حتّى لا يتفلّت... الإنسان سمّي عقلاً... ولهٰذا سمّي».

كما تُعْقَلُ الدَّابَّةُ التي يُخافُ شرودُها. وللإدراكِ مراتبُ بعضُها أقوى مِن بعضٍ: فأوَّلُها الشُّعورُ، ثمَّ الفهمُ، ثمَّ المعرفةُ، ثمَّ العلمُ، ثمَّ العقلُ. ومرادُنا هُنا بالعقلِ المصدرُ لا القوَّةُ الغريزيَّةُ التي رَكَّبَها اللهُ في الإنسانِ.

فخيرُ القلوبِ: ما كانَ واعيًا للخيرِ ضابطًا لهُ، وليسَ كالقلبِ القاسي الذي لا يَقْبَلُهُ فهٰذا قلبٌ حجريٌّ، ولا كالمائعِ الأخرقِ الذي يَقْبَلُ ولٰكنْ لا يَحْفَظُ ولا يَضْبِطُ. فتفهيمُ الأوَّلِ كالرَّسمِ في الحجرِ، وتفهيمُ الثَّاني كالرَّسمِ على الماءِ. بل خيرُ القلوبِ ما كانَ ليِّنًا صلبًا: يَقْبَلُ بلينِهِ ما يَنْطَبِعُ فيهِ، ويَحْفَظُ صورتَهُ بصلابتِهِ، فهٰذا تفهيمُهُ كالرَّسمِ في الشَّمعِ[1] وشبهِهِ.

* **وقولُهُ: «النَّاسُ ثلاثةٌ؛ فعالمٌ ربَّانيٌّ، ومتعلِّمٌ على سبيلِ النَّجاةِ، وهمجٌ رعاعٌ»:**

هٰذا تقسيمٌ خاصٌّ للنَّاسِ، وهو الواقعُ. فإنَّ العبدَ إمَّا أن يَكونَ قد حَصَّلَ [كما]لَهُ مِن العلمِ والعملِ أو لا، فالأوَّلُ العالمُ الرَّبَّانيُّ. والثَّاني إمَّا أنْ تكونَ نفسُهُ متحرِّكةً في طلبِ ذٰلكَ الكمالِ ساعيةً في إدراكِهِ أو لا، والثَّاني[2] هوَ المتعلِّمُ على سبيلِ النَّجاةِ، والثَّالثُ هوَ الهمجُ الرَّعاعُ. فالأوَّلُ هوَ الواصلُ، والثَّاني هوَ الطَّالبُ، والثَّالثُ هوَ المحرومُ.

والعالمُ الرَّبَّانيُّ:

قالَ ابنُ عبَّاسٍ [رَضِيَ اللهُ عنهُما]: هوَ المعلِّمُ. أخَذَهُ مِن التَّربيةِ؛ أيْ: يُرَبِّي النَّاسَ بالعلمِ؛ يُرَبِّيهِم بهِ[3] كما يُرَبِّي الطِّفلَ أبوهُ.

وقالَ سَعيدُ بنُ جُبَيْرٍ: هوَ الفقيهُ العليمُ الحكيمُ.

قالَ سِيْبَوَيْهِ: زادوا ألفًا ونونًا في /خ٢٠٢/ الرَّبَّانيِّ إذا أرادوا تخصيصًا بعلمِ الرَّبِّ [تَبارَكَ و]تَعالى، كما قالوا: شَعْرانِيٌّ ولِحْيانِيٌّ. [و]معنى قولِ سِيْبَوَيْهِ رَحِمَهُ اللهُ: أنَّ هٰذا العالِمَ لمَّا نُسِبَ إلى علمِ الرَّبِّ تَعالى الذي بَعَثَ بهِ رسولَهُ وتَخَصَّصَ بهِ؛ نُسِبَ إليهِ

---

(١) في خ: «ففهم الأوّل... وفهم الثاني... يقبل لينه... مفهمه كالرسم في شمع»!
(٢) الذي تتحرّك نفسه في طلب الكمال، فهو الثاني من حيث التقسيم الكلّي الأوّل من هٰذا الفرع.
(٣) في خ: «هٰذا تقسيم الناس...»، وفي ط: «... بالعلم ويربّيهم به».

دونَ [سائرِ] مَن عَلِمَ علمًا [ما]. قالَ الواحِديُّ: فالرَّبَّانيُّ ـ على قولِهِ ـ منسوبٌ إلى الرَّبِّ، على معنى التَّخصيصِ بعلمِ الرَّبِّ؛ أي: بعلمِ الشَّريعةِ وصفاتِ الرَّبِّ تبارَكَ وتَعالى.

[و]قالَ[1] المُبَرِّدُ: الرَّبَّانيُّ الذي يَرُبُّ العلمَ ويَرُبُّ النَّاسَ بهِ؛ أي: يُعَلِّمُهُم ويُصْلِحُهُم. وعلى قولِهِ، فالرَّبَّانيُّ مِن رَبَّ يَرُبُّ رَبًّا؛ أيْ: تربيةً، فهوَ منسوبٌ إلى التَّربيةِ، يُرَبِّي علمَهُ لِيَكْمُلَ ويَتِمَّ بقيامِهِ [عليهِ] وتعاهدِهِ إيَّاهُ كما يُرَبِّي صاحبُ المالِ مالَهُ، ويُرَبِّي النَّاسَ بهِ كما يُرَبِّي الأطفالَ أولياؤُهُم.

وليسَ هٰذا مِن قولِهِ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، فالرِّبِّيُّونَ هُنا الجماعاتُ بإجماعِ المفسِّرينَ، قيلَ: إنَّهُ مِن الرِّبَّةِ ـ بكسرِ الرَّاءِ ـ وهيَ الجماعةُ، قالَ الجَوْهَرِيُّ: الرِّبِّيُّ واحدُ الرِّبِّيِّينَ، وهمُ الأُلوفُ مِن النَّاسِ، قالَ تَعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ [فَما وَهَنُوا لِما أصابَهُم]﴾.

ولا يوصَفُ العالِمُ بكونِهِ ربَّانيًّا حتَّى يكونَ عاملاً بعلمِهِ[2] معلِّمًا لهُ. فهٰذا قسمٌ.

والقسمُ الثَّاني: متعلِّمٌ على سبيلِ نجاةٍ؛ أي: قاصدًا[3] بعلمِهِ النَّجاةَ، وهوَ: المخلصُ في تعلُّمِهِ، المتعلِّمُ ما يَنْفَعُهُ، العاملُ بما عَلِمَهُ. فلا يكونُ المتعلِّمُ على سبيلِ نجاةٍ إلَّا بهٰذهِ الأُمورِ الثَّلاثةِ: فإنَّهُ إنْ تَعَلَّمَ ما يَضُرُّهُ ولا يَنْفَعُهُ؛ لمْ يَكُنْ على سبيلِ نجاةٍ، وإنْ تَعَلَّمَ ما يَنْتَفِعُ بهِ لا للنَّجاةِ[4]؛ فكذٰلكَ، وإنْ تعلَّمَهُ ولمْ يَعْمَلْ بهِ؛ لمْ تَحْصُلْ لهُ النَّجاةُ. ولهٰذا وَصَفَهُ بكونِهِ على السَّبيلِ؛ أيْ: على الطَّريقِ التي تُنْجيهِ. وليسَ حرفُ «على» وما عَمِلَ فيهِ متعلِّقًا بـ«متعلِّم» إلَّا على وجهِ التَّضمينِ؛ أي: مفتِّشٌ متطلِّعٌ على سبيلِ نجاتِهِ [لِيَسْلُكَهُ، فتعلُّمُهُ تفتيشٌ على سبيلِ النَّجاةِ][5].

---

(١) في ط: «ولحيانيّ معنى... علمًا قال... أي يعلّم الشريعة... وتعالى قال».

(٢) في خ: «المال ماله ويربّ الناس... واحد الربيّون... عالمًا بعلمه»! والتصويب من ط.

(٣) كذا في خ وط بالنصب، وله وجه ضعيف، والرفع أصحّ.

(٤) في خ: «على سبيل النجاة... العالم بما علمه... لا لنجاة»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٥) فيه نظر؛ لأنّه لا يقال مفتّش على سبيل نجاة بل مفتّش عن سبيل نجاة، وكذٰلك لا يقال متطلّع على سبيل نجاة بل متطلّع إلى سبيل نجاة! وأقرب منه أن يكون التضمين لمعنى متعلّم سائر على سبيل نجاة.

فهٰذا في الدَّرجةِ الثَّانيةِ. وليسَ مَن تَعَلَّمَهُ لِيُمارِيَ به السُّفهاءَ أو يُجارِيَ بِهِ العلماءَ أو يَصْرِفَ [بِهِ] وجوهَ النَّاسِ إليهِ؛ فإنَّ هٰذا مِن أهلِ النَّارِ، كما جاءَ في الحديثِ[1]،

---

(١) (حسن). ولفظه: «لا تعلّموا العلم لتباهوا به العلماء ولا تماروا به السفهاء ولا تخيّروا به المجالس، فمن فعل ذٰلك فالنار النار».

* رواه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٩٦) من طريق محمّد بن القاسم الأسدي، عن سفيان، عن محمّد بن عمارة المدني، عن عبدالرحمٰن بن عبدالله، عن رجل. . . رفعه. قال أبو نعيم: «غريب من حديث الثوري، لم نكتبه إلاّ من هٰذا الوجه». قلت: الأسديّ كذّبوه. والمدني يخطئ. وعبدالرحمٰن الغالب أنّه ابن معمر الأنصاري، وروايته عن التابعين، فالحديث مرسل على سقوط سنده.

* ورواه: ابن ماجه (المقدّمة، ٢٣ـ الانتفاع بالعلم، ١/ ٩٦/ ٢٥٩)، والخطيب في «الجامع» (٢٢)؛ من طريق بشير بن ميمون، سمعت أشعث بن سوار، عن ابن سيرين، عن حذيفة. . . رفعه. قال البوصيري: «إسناده ضعيف». قلت: بشير متّهم متروك، وأشعث ضعيف، والسند ساقط.

* ورواه ابن ماجه (الموضع السابق، ٢٦٠) من طريق عبدالله بن سعيد المقبري، عن جدّه، عن أبي هريرة. . . رفعه. قال البوصيري: «إسناده ضعيف». قلت: ساقط من أجل المقبري؛ فإنّه متروك.

* ورواه: العقيلي (٢/ ١٣٠)، وبحشل في «واسط» (١/ ١٢٩)، والضياء في «المختارة» (٧/ ٧٢/ ٢٤٨٠ و٢٤٨١)؛ من طريق سليمان بن زياد بن عبدالرحمٰن الثقفي، ثنا شيبان النحوي، عن قتادة، عن أنس. . . رفعه. قال يحيى بن معين: «باطل». وقال الدارقطني: «لم يروه غير سليمان بن زياد الثقفي الواسطي». وقال العقيلي: «لا يدرى من ذا، وأتى بحديث باطل». وأقرّه الذهبي والعسقلاني.

* ورواه: الترمذي (٤٢ـ العلم، ٦ـ من يطلب بعلمه الدنيا، ٥/ ٣٢/ ٢٦٥٤)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٤١)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ١٠٤)، وابن حبّان في «المجروحين» (١/ ١٣٣)، والطبراني (١٩/ ١٠٠/ ١٩٩)، وابن عديّ في «الكامل» (١/ ١٠٤)، والآجرّي في «أخلاق العلماء»، والحاكم (١/ ٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٧٢)، والخطيب في «الجامع» (٢٤)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٨٦)؛ من طرق، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة، ثنا ابن كعب بن مالك، عن أبيه. . . رفعه. قال الترمذي: «غريب، لا نعرفه إلاّ من هٰذا الوجه، وإسحاق ليس بذاك القويّ تكلّم فيه من قبل حفظه». قلت: هو أقرب إلى الضعف الشديد وإن لم يكن بالمتّهم، فالسند واه.

* ورواه: ابن ماجه (المقدّمة، ٢٣ـ الانتفاع بالعلم، ١/ ٩٣/ ٢٥٤)، وابن حبّان (٧٧)، والحاكم (١/ ٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٧١) و«المدخل» (٤٨٠)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٢٢٩)، والخطيب في «الجامع» (٢٣)؛ من طريق قويّة، عن يحيى بن أيّوب، ثنا ابن جريج، عن أبي الزبير، عن جابر. . . رفعه. قال البوصيري: «رجال إسناده ثقات». قلت: له علل: **أولاها**: عنعنة ابن جريج على تدليسه. **والثانية**: عنعنة أبي الزبير على تدليسه، وهٰذه أخطر من الأولى. **والثالثة**: أنّه رواه: الحاكم (١/ ٨٦)، والبيهقي في «المدخل» (٤٧٩)؛ من طريق صحيحة، عن ابن وهب، سمعت ابن جريج، يحدّث عن النبيّ ﷺ. . . فذكره مرسلاً. قال الحاكم: «أنا على الأصل الذي أصّلته من قبول الزيادة من الثقة في الأسانيد والمتون». قلت: لٰكن ابن أيّوب يخطئ بخلاف ابن وهب الثقة الثبت، فقبول الزيادة منه إطلاقًا فيه نظر.

* ورواه الدارمي في «السنن» (١/ ١٠٤) من طريق لا بأس بها في الشواهد، عن مكحول الشامي، عن=

ثَبَّتَهُ[1] أبو نُعَيْمٍ وأبو عَمْرٍو /خ٢٠٣/ ابنُ الصَّلاحِ وغيرُهُما.

قالَ ابنُ الصَّلاحِ: وَثَبَّتَ أبو نُعَيْمٍ أيضًا قولَهُ ﷺ: «مَن تَعَلَّمَ علمًا ممَّا يُبْتَغى بهِ وجهُ اللهِ لا يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصيبَ عَرَضًا[2] مِن الدُّنيا؛ لَمْ يَجِدْ رائحةَ الجنَّةِ»[3]. قالَ: وثَبَّتَ أيضًا قولَهُ ﷺ: «أشدُّ النَّاسِ عذابًا يومَ القِيامةِ عالمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بعلمِهِ»[4]. فهٰؤلاءِ ليسَ فيهِم مَن هُو على سبيلِ النَّجاةِ، بل على سبيلِ الهلكةِ. نعوذُ باللهِ مِن الخذلانِ.

القسمُ الثَّالثُ: المحرومُ المعرِضُ، فلا عالمٌ ولا متعلِّمٌ، بل همجٌ رعاعٌ.

والهَمَجُ مِن النَّاسِ حُمَقاؤُهُم وجهلتُهُم، وأصلُهُ مِن الهَمَجِ، جمعُ هَمَجَةٍ، وهوَ ذبابٌ صغيرٌ كالبعوضِ [يَسْقُطُ] على وجوهِ الغنمِ والدَّوابِّ وأعينِها، فشُبِّهَ هَمَجُ النَّاسِ

= النبيّ صلّى الله عليه وسلّم... مرسلاً.

* ولمعناه شاهد قويّ من حديث أبي هريرة يأتي بعده بلفظه وتخريجه.

وخلاصة ما تقدّم أنّ الأوجه الأربعة الأولى للحديث ساقطة لا تصلح لصالحة، والأوجه الثلاثة التي تليها ضعيفة، ولٰكنّها صالحة للاعتبار، فأجتماعها يكسب هٰذا الأصل قوّة، ولا سيّما أنّ حديث أبي هريرة التالي يشهد لمعناه ويقوّيه، وقد قوّى هٰذا الحديث ابن حبّان والحاكم وأبو نعيم وابن الصلاح والضياء المقدسيّ والذهبي وابن القيّم والبوصيري والألباني.

(١) في ط: «متطلّع على سبيل نجاته فهٰذا... ممّن تعلّمه... يصرف وجوه... الحديث وثبّته».

(٢) في خ: «لا يتعلّمه آمرؤ ليصيب غرضًا»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه من ط ومصادر التخريج.

(٣) (حسن). رواه: ابن أبي شيبة (٢٦١١٨)، وأحمد (٢/٣٣٨)، وابن ماجه (المقدّمة، ٢٣ـ الانتفاع بالعلم، ١/٩٢/٢٥٢)، وأبو داوود (١٩ـ العلم، ١٢ـ طلب العلم لغير الله، ٢/٣٤٦/٣٦٦٤)، وأبو يعلى (٦٣٧٣)، والعقيلي (٣/٤٦٧)، وابن أبي حاتم في «العلل» (٢٨١٩)، وابن حبّان (٧٨)، والآجرّي في «العلماء»، والحاكم (١/٨٥)، والسهمي في «التاريخ» (١/١٦٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٧٠) و«المدخل» (٤٧٧)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/٢٣٢ و٢٣٣)، والخطيب في «التاريخ» (٥/٣٤٦، ٨/٧٨) و«الجامع» (١٠٢)؛ من طريق فليح بن سليمان، عن أبي طوالة عبدالله بن عبدالرحمٰن بن معمر، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة... رفعه. وهٰذا سند فيه ضعف من أجل فليح؛ فإنّه كثير الخطإ.

لٰكنّه توبع، فرواه ابن عبدالبرّ «العلم» (١/٢٣٣) من طريق قويّة، عن ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن أبي سليمان الخزاعي، عن أبي طوالة... بإسناده مثله. وحديث ابن وهب عن ابن لهيعة جيّد، لٰكنّي لم أقف لأبي سليمان الخزاعي هٰذا على ترجمة ولا عرفته!

لٰكنّ الحديث حسن بمجموع طريقيه، والحديث المتقدّم قبله يشهد لمعناه ويزيده قوّة، وقد قوّاه ابن حبّان والحاكم وأبو نعيم والمنذري والنووي والذهبي وابن القيّم والألباني.

(٤) (ضعيف جدًّا). تقدّم تفصيل القول فيه والكلام على تثبيت أبي نعيم له في الوجه ٨٩.

بهِ. والهَمَجُ أيضًا مصدرٌ، قالَ الرَّاجزُ:

قَدْ هَلَكَتْ جارَتُنا مِنَ الهَمَجْ وَإنْ تَجُعْ تأكُلْ عَتودًا أو بَذَجْ[1]

والهَمَجُ هُنا مصدرٌ، ومعناهُ: سوءُ التَّدبيرِ في أمرِ المعيشةِ. وقولُهُـ[ـم]: هَمَجٌ هامجٌ، مثلُ ليلٍ لايلٍ.

والرَّعاعُ مِن النَّاسِ: الحمقى الذينَ لا يُعْتَدُّ بهِم.

* **وقولُهُ: «أتباعُ كلِّ ناعقٍ»:**

أي: مَن صاحَ بهِم ودَعاهُم؛ تَبِعوهُ، سواءٌ [دَعاهُم] إلى هدًى أو إلى ضلالٍ؛ فإنَّهُم لا علمَ لهُم بالذي يُدْعَوْنَ إليهِ أحقٌّ هوَ أمْ باطلٌ، فهُم مستجيبونَ لدعوتِهِ. وهٰؤلاءِ مِن أضرِّ الخلقِ على الأديانِ؛ فإنَّهُمُ الأكثرونَ عددًا، الأقلُّونَ عندَ اللهِ قدرًا، وهُم حطبُ كلِّ فتنةٍ، بهِم تُوقَدُ ويَشِبُّ ضرامُها؛ فإنَّها يَعْتَزِلُها أُولو الدِّينِ ويَتَوَلَّاها الهمجُ الرَّعاعُ.

وسَمَّى داعيَهُم ناعقًا تشبيهًا لهُم بالأنعامِ التي يَنْعِقُ بها الرَّاعي فتَذْهَبُ معَهُ أينَ ذَهَبَ، قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذينَ كَفَروا كَمَثَلِ الَّذي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إلَّا دُعاءً وَنِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وهٰذا الذي وَصَفَهُم بهِ أميرُ المؤمنينَ هوَ مِن عدمِ علمِهِم وظلمةِ قلوبِهِم، فليسَ لهُم نورٌ ولا بصيرةٌ يُفَرِّقونَ بها بينَ الحقِّ [و]الباطلِ، بلِ الكلُّ عندَهُم سواءٌ.

* **وقولُهُ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: «يَميلونَ معَ كلِّ ريحٍ (وفي لفظٍ[2]: معَ كلِّ صائحٍ)»:**

شَبَّهَ عقولَهُمُ /خ٢٠٤/ الضَّعيفةَ بالغصنِ الضَّعيفِ، وشَبَّهَ الأهويةَ والآراءَ بالرِّياحِ، والغصنُ يَميلُ معَ الرِّيحِ حيثُ مالَتْ، وعقولُ هٰؤلاءِ تَميلُ معَ كلِّ هوًى وكلِّ داعٍ، ولو كانَتْ عقولًا كاملةً؛ كانَتْ كالشَّجرةِ الكبيرةِ التي لا تَتَلاعَبُ بها الرِّياحُ.

وهٰذا بخلافِ المثلِ الذي ضَرَبَهُ النَّبيُّ ﷺ: [للمؤمنينَ] بالخامةِ مِن الزَّرعِ تُفيئُهُ

---

(١) هٰذا البيت من قول أبي محرز المحاربي، ومعناه: قد هلكت جارتنا من سوء تدبيرها لأمور معاشها؛ فإنّها شرهة، تأكل العتود (وهو جدي المعز) أو البذج (وهو حمل الضأن) في وقعة واحدة، ثمّ لا تبقي لغدها شيئًا. ووقع في خ: «من الهمج وأرتجع عمّا كل عتودًا أو بذج»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه من ط مستأنسًا بما في «لسان العرب» (٢/ ٣٩٢).

(٢) في ط: «إلى الهدى أو إلى ضلال... الحقّ الباطل... وفي رواية»! والصواب ما أثبتّه من خ.

الرِّيحُ مرَّةً وتُقيمُهُ أُخرى، والمنافقُ كشجرةِ الأرْزِ التي لا تُقْطَعُ حتَّى تَسْتَحْصِدَ[١]. فإنَّ هٰذا المثلَ ضُرِبَ للمؤمنِ وما يَلْقاهُ مِن عواصفِ البلاءِ والأوجاعِ والأوجالِ وغيرِها[٢]، فلا يَزالُ بينَ عافيةٍ وبلاءٍ ومحنةٍ ومنحةٍ وصحَّةٍ وسقمٍ وأمنٍ وخوفٍ وغيرِ ذٰلكَ، فيَقَعُ مرَّةً ويقومُ أُخرى ويَميلُ تارةً ويَعْتَدِلُ أُخرى، فيُكَفَّرُ عنهُ بالبلاءِ ويُمَحَّصُ بهِ ويُخَلَّصُ مِن كدرِهِ. والكافرُ كلُّهُ خبثٌ ولا يَصْلُحُ إلاَّ للوقودِ، فليسَ في إصابتِهِ في الدُّنيا بأنواعِ البلاءِ مِن الحكمةِ والرَّحمةِ ما في إصابةِ المؤمنِ.

فهٰذهِ حالُ المؤمنِ في البلاءِ[٣]. وأمَّا معَ الأهواءِ ودعاةِ الفتنِ والضَّلالِ والبدعِ؛ فكما قيلَ:

تَزولُ الجِبالُ الرَّاسِياتُ وَقَلْبُهُ ... عَلى العَهْدِ لا يَلْوي وَلا يَتَغَيَّرُ

* **وقولُهُ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: «لَمْ يَسْتَضيئوا بنورِ العلمِ ولَمْ يَلْجَؤوا إلى ركنٍ وثيقٍ»:**

بيَّنَ السَّببَ الذي جَعَلَهُم بتلكَ المثابةِ، وهوَ أنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ لهُم مِن العلمِ نورٌ يُفَرِّقونَ بهِ بينَ الحقِّ والباطلِ. كما قالَ تَعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ وآمِنوا برَسولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نورًا تَمْشونَ بِهِ [وَيَغْفِرْ لَكُمْ]﴾ [الحديد: ٢٨]، وقالَ تَعالى: ﴿أوَمَنْ كانَ مَيْتًا فَأحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نورًا يَمْشي بِهِ في النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقولُهُ [تَعالى]: ﴿يَهْدي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ [بِإذْنِهِ]﴾ [المائدة: ١٦]، وقولُهُ: ﴿وَلٰكِنْ جَعَلْناهُ نورًا نَهْدي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا﴾ [الشورى: ٥٢]. فإذا عَدِمَ القلبُ هٰذا النُّورَ؛ صارَ بمنزلةِ الحيرانِ الذي لا يَدْري أينَ يَذْهَبُ؛ فهوَ لحيرتِهِ وجهلِهِ بطريقِ مقصودِهِ يَؤُمُّ كلَّ صوتٍ يَسْمَعُهُ[٤].

---

(١) رواه: البخاري (٧٥ـ المرضى، ١ـ كفّارة المرض، ١٠/١٠٣/٥٦٤٤)، ومسلم (٥٠ـ المنافقين، ١٤ـ مثل المؤمن، ٤/٢١٦٣/٢٨٠٩)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ولذٰلك بوّب له البخاري بباب كفّارة المرض كما رأيت. وفي خ: «ضرب للمؤمنين...».

(٣) في خ: «فيكفي عنه بالبلاء... كلّه خبيث...»، وفي ط: «... الابتلاء».

(٤) لا بدّ من الوقوف مع هٰذا الكلام طويلاً وفهمه واستيعابه ثمّ إسقاطه على واقعنا المعاصر؛ فهاهنا أصل الداء وأعراضه ومظاهره ودواؤه.

ولمْ يَسْكُنْ قلوبَهُم مِن العلمِ ما تَمْتَنِعُ بهِ مِن دعاةِ الباطلِ؛ فإنَّ الحقَّ /خ٢٠٥/ متى آسْتَقَرَّ في القلبِ؛ قَوِيَ بهِ وآمْتَنَعَ ممَّا يَضُرُّهُ ويُهْلِكُهُ، ولهٰذا سَمَّى اللهُ[1] الحجَّةَ العلميَّةَ سلطانًا، وقد تَقَدَّمَ ذٰلكَ.

فالعبدُ يُؤْتى: مِن ظلمةِ بصيرتِهِ، ومِن ضعفِ قلبِهِ. فإذا آسْتَقَرَّ فيهِ العلمُ النَّافعُ؛ آسْتَنارَتْ بصيرتُهُ، وقَوِيَ قلبُهُ. وهٰذانِ الأصلانِ هُما قطبا السَّعادةِ؛ أعْني: العلمَ والقوَّةَ.

وقد وَصَفَ بهما سبحانَهُ المعلِّمَ الأوَّلَ جبْريلَ صَلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ: [فقالَ]: ﴿إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحى . عَلَّمَهُ شَديدُ القُوى﴾ [النجم: ٤-٥]، وقالَ [تَعالى في سورةِ التكوير: ١٩-٢٠]: ﴿إنَّهُ لَقَوْلُ رَسولٍ كَريمٍ . ذي قُوَّةٍ عِنْدَ ذي العَرْشِ مَكينٍ﴾. فوَصَفَهُ بالعلمِ والقوَّةِ.

وفيهِ معنًى أحسنُ مِن هٰذا، وهوَ الأشبهُ بمرادِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ، وهوَ أنَّ هٰؤلاءِ: ليسوا مِن أهلِ البصائرِ الذينَ آسْتَضاؤوا بنورِ العلمِ، ولا لَجَؤوا إلى عالمٍ مستبصرٍ فقَلَّدوهُ، فلا مستبصرينَ ولا متَّبعينَ لمستبصرٍ؛ فإنَّ الرَّجلَ: إمَّا أنْ يَكونَ بَصيرًا، أو أعمى ممسكًا ببصيرٍ يَقودُهُ، أو أعمى يَسيرُ بلا قائدٍ!

*** قولُهُ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: «العلمُ خيرٌ مِن المالِ، العلمُ يَحْرُسُكَ وأنتَ تَحْرُسُ المالَ»:**

يَعْني: أنَّ العلمَ يَحْفَظُ صاحبَهُ ويَحْميهِ مِن مواردِ الهَلَكَةِ ومواقعِ العطبِ. فإنَّ الإنسانَ لا يُلْقي نفسَهُ في هَلَكَةٍ إذا كانَ عقلُهُ معَهُ، ولا يُعَرِّضُها لتلفٍ[2] إلاَّ إذا كانَ جاهلاً بذٰلكَ لا علمَ لهُ بهِ. فهوَ كمَن يَأْكُلُ طعامًا مسمومًا: فالعالِمُ بالسُّمِّ وضررِهِ يَحْرُسُهُ علمُهُ ويَمْتَنِعُ بهِ مِن أكلِهِ، والجاهلُ بهِ يَقْتُلُهُ جهلُهُ. فهٰذا مثلُ حراسةِ العلمِ للعالمِ.

وكذا الطَّبيبُ الحاذقُ يَمْتَنِعُ بعلمِهِ عن كثيرٍ ممَّا يَجْلُبُ لهُ الأمراضَ والأسقامَ.

---

(١) في خ: «ما يمنع به من إعادة الباطل... يسمّي الله»! والتصويب من ط.

(٢) في ط: «متمسّكا ببصير... وقوله رضي...»، وفي خ: «ممسكًا لبصير... يعرّضها لتلافٍ».

وكذا العالِمُ [بمخاوفِ طريقِ سلوكِهِ ومعاطِبِها يَأْخُذُ حذرَهُ منها فيَحْرُسُهُ علمُهُ مِن الهلاكِ.

وهٰكذا العالِمُ] باللهِ وبأمرِهِ وبعدوِّهِ ومكائدِهِ ومداخلِهِ على العبدِ يَحْرُسُهُ علمُهُ مِن وساوسِ الشَّيطانِ وخطراتِهِ وإلقاءِ الشَّكِّ[1] والرَّيبِ والكفرِ في قلبِهِ، فهوَ بعلمِهِ يَمْتَنِعُ مِن قبولِ ذٰلكَ، فعلمُهُ يَحْرُسُهُ مِن الشَّيطانِ، فكلَّما جاءَهُ لِيأْخُذَهُ؛ صاحَ بِهِ حرسُ العلمِ والإيمانِ، فيَرْجِعُ خاسئًا خائبًا. وأعظمُ ما يَحْرُسُهُ مِن هٰذا العدوِّ المبينِ العلمُ والإيمانُ. فهٰذا السَّببُ الذي مِن العبدِ، واللهُ مِن وراءِ /خ٢٠٦/ حفظِهِ وحراستِهِ وكَلاءَتِهِ، فمتى وَكَلَهُ إلى نفسِهِ طرفةَ عينٍ؛ تَخَطَّفَهُ عدوُّهُ. قالَ بعضُ العارفينَ: أَجْمَعَ العارفونَ على أنَّ التَّوفيقَ أنْ لا يَكِلَكَ اللهُ إلى نفسِكَ، وأَجْمَعوا على أنَّ الخذلانَ أنْ يُخَلِّيَ بينَكَ وبينَ نفسِكَ.

* **قولُهُ: «العلمُ يَزْكو على الإنفاقِ، والمالُ تَنْقُصُهُ النَّفقةُ»:**

العالِمُ كلَّما بَذَلَ علمَهُ للنَّاسِ وأَنْفَقَ منهُ؛ تَفَجَّرَتْ ينابيعُهُ وٱزْدادَ كثرةً وقوَّةً وظهورًا. فيَكْتَسِبُ بتعليمِهِ حفظَ ما عَلِمَهُ، ويَحْصُلُ لهُ [بهِ] علمُ ما لمْ يَكُنْ عندَهُ، وربَّما تكونُ المسألةُ في نفسِهِ غيرَ مكشوفةٍ ولا خارجةٍ مِن حيِّزِ الإشكالِ، فإذا تَكَلَّمَ بها وعَلَّمَها؛ ٱتَّضَحَتْ لهُ وأضاءَتْ[2] وٱنْفَتَحَ لهُ منها علومٌ أُخرُ.

وأيضًا؛ فإنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العملِ، فكما عَلَّمَ الخلقَ مِن جهالتِهِم، جَزاهُ اللهُ بأنْ عَلَّمَهُ مِن جهالتِهِ، كما في «صحيح مسلم»[3] مِن حديثِ: عِياضِ بنِ حِمارٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ أنَّهُ قالَ في حديثٍ طويلٍ: «وإنَّ اللهَ قالَ لي: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليكَ»، وهٰذا يَتَناوَلُ نفقةَ العلمِ: إمَّا بلفظِهِ، وإمَّا بتنبيهِهِ وإشارتِهِ وفحواهُ.

ولزكاءِ العلمِ ونموِّهِ[4] طريقانِ: أحدُهُما: تعليمُهُ. والثَّاني: العملُ بهِ؛ فإنَّ

---

(١) في خ: «يمتنع بعلمه من أكره ما يجلب. . . من وسواس. . . وإلقاء الشكوك».

(٢) في ط: «نفسك وقوله. . . فأزداد كثرة. . .»، وفي خ: «. . . فيكسب تعليمه. . . أوضات».

(٣) (٥١ـ الجنّة، ١٦ـ الصفات التي يعرف بها، ٤/ ٢١٩٧/ ٢٨٦٥).

(٤) في خ وط: «ونحوه»! وهو تحريف لا معنى له، والسياق يدلّ على صواب ما أثبتّه.

العملَ بهِ أيضًا يُنمِّيهِ ويُكثِّرُهُ ويَفْتَحُ لصاحبِهِ أبوابَهُ وخباياهُ. وهٰذا لأنَّ تعليمَهُ والعملَ بهِ هوَ التِّجارةُ فيهِ، فكما يَنْمو المالُ بالتجارةِ فيهِ كذٰلكَ العلمُ.

وقولُهُ «والمالُ تَنْقُصُهُ النَّفقةُ» لا يُنافي قولَ النَّبيِّ ﷺ «ما نَقَصَتْ صدقةٌ مِن مالٍ»[١]: فإنَّ المالَ إذا تَصَدَّقْتَ منهُ وأنْفَقْتَ؛ ذَهَبَ ذٰلكَ القدرُ وخَلَفَهُ غيرُهُ، وأمَّا العلمُ؛ فكالقبسِ مِن النَّارِ، لوِ اقْتَبَسَ منها أهلُ الأرضِ؛ لمْ يَذْهَبْ منها شيءٌ، بل يَزيدُ العلمُ بالاقتباسِ منهُ، فهوَ كالعينِ التي كلَّما أُخِذَ منها قَوِيَ ينبوعُها وجاشَ مَعينُها.

وفضلُ العلمِ على المالِ يُعْلَمُ مِن وجوهٍ:

أحدُها: أنَّ العلمَ ميراثُ الأنبياءِ، والمالُ ميراثُ الملوكِ والأغنياءِ.

الثَّاني: أنَّ العلمَ يَحْرُسُ صاحِبَهُ، وصاحبُ المالِ يَحْرُسُ مالَهُ.

الثَّالثُ: أنَّ المالَ تُذْهِبُهُ النَّفقاتُ، والعلمُ يَزْكو على النَّفقةِ.

الرَّابعُ: أنَّ صاحبَ المالِ إذا ماتَ فارَقَهُ مالُهُ، والعلمُ يَدْخُلُ معَهُ قبرَهُ.

الخامسُ: أنَّ العلمَ /خ٢٠٧/ حاكمٌ على المالِ، والمالُ لا يَحْكُمُ على العلمِ.

السَّادسُ: أنَّ المالَ يَحْصُلُ للمؤمنِ والكافرِ والبرِّ والفاجرِ، والعلمُ النَّافعُ لا يَحْصُلُ إلاَّ للمؤمنِ.

السَّابعُ: أنَّ العالِمَ[٢] يَحْتاجُ إليهِ الملوكُ فمَن دونَهُم، وصاحبُ المالِ إنَّما يَحْتاجُ إليهِ أهلُ العدمِ والفاقةِ.

الثَّامنُ: أنَّ النَّفسَ تَشْرُفُ وتَزْكو بجمعِ العلمِ وتحصيلِهِ، وذٰلكَ مِن كمالِها وشرفِها، والمالُ لا يُزَكِّيها ولا يُكَمِّلُها ولا يَزيدُها صفةَ كمالٍ، بلِ النَّفسُ تَنْقُصُ وتَشِحُّ وتَبْخَلُ بجمعِهِ والحرصِ عليهِ. فحرصُها على العلمِ عينُ كمالِها، وحرصُها على المالِ عينُ نقصِها.

التَّاسعُ: أنَّ المالَ يَدْعوها إلى الطُّغيانِ والفخرِ والخيلاءِ، والعلمُ يَدْعوها إلى

---

(١) رواه مسلم (٤٥ـ البرّ، ١٩ـ استحباب العفو، ٤/ ٢٠٠١/ ٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ووقع في خ: «ما نقص مال من صدقة»، وأثبتّ ما في ط و«الصحيح».

(٢) في ط: «والثالث...»، وفي خ: «... إلاّ للمؤمنين السابع أنّ العلم».

التَّواضعِ والقيامِ بالعبوديَّةِ. فالمالُ يَدْعوها إلى صفاتِ الملوكِ، والعلمُ يَدْعوها إلى صفاتِ العبيدِ.

العاشرُ: أنَّ العلمَ حاجبٌ[1] موصِلٌ [لها] إلى سعادتِها التي خُلِقَتْ لها، والمالُ حجابٌ بينَها وبينَها.

الحادي عشرَ: أنَّ غنى العلمِ أجلُّ مِن غنى المالِ: فإنَّ غنى المالِ غنًى بأمرٍ خارجيٍّ عن حقيقةِ الإنسانِ، لو ذَهَبَ في ليلةٍ؛ أصْبَحَ [فقيرًا] معدَمًا. وغنى العلمِ لا يُخْشى عليهِ الفقرُ، بل هوَ في زيادةٍ أبدًا، فهو الغنى العالي حقيقةً، كما قيلَ:

غَنِيتُ بِلا مالٍ عَنِ النّاسِ كُلِّهِمْ وَإنَّ الغِنى العالي عَنِ الشَّيْءِ لا بِهِ

الثَّاني عشرَ: أنَّ المالَ يَسْتَعْبِدُ محبَّهُ وصاحبَهُ فيَجْعَلُهُ عبدًا لهُ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «تَعِسَ عبد الدِّينارِ [تَعِسَ عبدُ] الدِّرهمِ[2]...» الحديثَ[3]. والعلمُ يَسْتَعْبِدُهُ لربِّهِ وخالقِهِ، فهوَ لا يَدْعوهُ إلاَّ إلى عبوديَّةِ اللهِ وحدَهُ.

الثَّالثَ عشرَ: أنَّ حبَّ العلمِ وطلبَهُ أصلُ كلِّ طاعةٍ، وحبّ الدُّنيا والمالِ وطلبَهُ أصلُ كلِّ سيِّئةٍ.

الرَّابعَ عشرَ: [أنَّ] قيمةَ الغنيِّ مالُهُ، وقيمةُ العالِمِ علمُهُ. فهٰذا متقوَّمٌ بمالِهِ، فإذا عَدِمَ مالَهُ؛ عَدِمَتْ قيمتُهُ، فبَقِيَ بلا قيمةٍ. والعالِمُ لا تَزولُ قيمتُهُ، بل هيَ في تضاعفٍ وزيادةٍ دائمًا.

الخامسَ عشرَ: أنَّ جوهرَ المالِ مِن جنسِ جوهرِ البدنِ، وجوهرُ العلمِ مِن جنسِ [جوهرِ] /خ٢٠٨/ الرُّوحِ. كما قالَ يونُسُ بنُ حَبيبٍ: علمُكَ مِن روحِكَ، ومالُكَ مِن بدنِكَ، والفرقُ بينَ الأمرينِ كالفرقِ بينَ الرُّوحِ والبدنِ.

السَّادسَ عشرَ: أنَّ العالِمَ لو عُرِضَ عليهِ بحظِّهِ مِن العلمِ الدُّنيا بما فيها؛ لَمْ يَرْضَها

---

(١) في ط: «العلم جاذب»! وهو تحريف! ومعنى ما أثبتّ من خ أنّ العلم يساعد النفس في الوصول إلى سعادتها كما يساعد الحاجبُ الملكَ في الوصول إلى غاياته.

(٢) في خ: «حجاب عنها وبينها... فقيرًا معدومًا...»، وفي ط: «... عبد الدينار والدرهم».

(٣) رواه البخاري (٥٦ـ الجهاد، ٧٠ـ الحراسة في الغزو، ٧/ ٨١/ ٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة.

عوضًا مِن علمِهِ. والغنيُّ العاقلُ إذا رَأى شرفَ العالمِ[(١)] وفضلَهُ وٱبتهاجَهُ بالعلمِ وكمالَهُ بهِ؛ يَوَدُّ لو أنَّ لهُ علمَهُ بغناهُ أجمعَ.

السَّابعَ عشرَ: أنَّهُ ما[(٢)] أطاعَ اللهَ أحدٌ قطُّ إلاَّ بالعلمِ، وعامَّةُ مَن يَعْصيهِ إنَّما يَعْصيهِ بالمالِ.

الثَّامنَ عشرَ: أنَّ العالمَ يَدْعو النَّاسَ إلى اللهِ بعلمِهِ وحالِهِ، وجامعُ المالِ يَدْعوهُم إلى الدُّنيا بحالِهِ ومالِهِ.

التَّاسعَ عشرَ: أنَّ غنى المالِ قد يكونُ سببَ هلاكِ صاحبِهِ كثيرًا؛ فإنَّهُ معشوقُ النُّفوسِ، فإذا رَأتْ مَن يَسْتَأْثِرُ بمعشوقِها عليها؛ سَعَتْ في هلاكِهِ، كما هوَ الواقعُ. وأمَّا غنى العلمِ؛ فسببُ حياةِ الرَّجلِ وحياةِ غيرِهِ بهِ، والنَّاسُ إذا رَأوْا مَن يَسْتَأْثِرُ عليهِم بهِ ويَطْلُبُهُ؛ أَحَبُّوهُ وخَدَموهُ وأكْرَموهُ[(٣)].

العشرونَ: أنَّ اللذَّةَ الحاصلةَ مِن غنى المالِ إمَّا لذَّةٌ وهميَّةٌ وإمَّا لذَّةٌ بهيميَّةٌ؛ فإنَّ صاحبَهُ [إنِ] ٱلْتَذَّ بنفسِ جمعِهِ وتحصيلِهِ؛ فتلكَ لذَّةٌ وهميَّةٌ خياليَّةٌ، وإنِ ٱلْتَذَّ بإنفاقِهِ في شهواتِهِ؛ فهيَ لذَّةٌ بهيميَّةٌ[(٤)]. وأمَّا لذَّةُ العلمِ؛ فلذَّةٌ عقليَّةٌ [روحانيَّةٌ]، [وهيَ] تُشْبِهُ لذَّةَ الملائكةِ [وبهجتَها]. وفرقٌ [ما] بينَ اللذَّتينِ.

الحادي والعشرونَ: أنَّ عقلاءَ الأُممِ مطبقونَ على ذمِّ الشَّرِهِ في جمعِ المالِ الحريصِ عليهِ وتنقُّصِهِ والإزراءِ بهِ، ومطبقونَ على تعظيمِ الشَّرِهِ في جمعِ[(٥)] العلمِ وتحصيلِهِ ومدحِهِ ومحبَّتِهِ ورؤيتِهِ بعينِ الكمالِ.

الثَّاني والعشرونَ: أنَّهُم مطبقونَ على تعظيمِ الزَّاهدِ في المالِ المعرضِ عن جمعِهِ

---

(١) في ط: «جنس الروح... شرف العلم»، وفي خ: «... بحفظه من العلم الدنيا وما فيها...».

(٢) في خ: «يودّ أن لو علمه...»، وفي ط: «... أنّ ما».

(٣) ومنهم من يحمله سوء الطويّة وضعف الهمّة على حسده والكيد له عند ذوي السلطان وتأليب العامّة عليه بالافتراء والتلبيس والتدليس! وهٰذا مشهور يعرفه من نظر في سير العلماء العاملين في الماضي والحاضر، وقد نال شيخي الإسلام منه قسط عظيم.

(٤) فإن قلت: بلى؛ هاهنا لذّة ثالثة تحصل لدى إنفاق المال في مصالح العبد الدينيّة والدنيويّة! فالجواب أنّ الإنفاق على هٰذه الصورة لا يكون إلاّ لأهل العلم، فعاد أصل الفضل في هٰذه اللذّة إلى العلم.

(٥) في خ: «ذمّ الشره على جمع المال والحريص... الشره على جمع».

الذي لا يَلْتَفِتُ إليهِ [ولا يَجْعَلُ قلبَهُ عبدًا لهُ، ومطبقونَ على ذمِّ الزَّاهدِ في العلمِ الذي لا يَلْتَفِتُ إليهِ] ولا يَحْرِصُ عليهِ.

الثَّالثُ والعشرونَ: أنَّ المالَ [إنَّما] يُمْدَحُ صاحبُهُ بتخلِّيهِ عنهُ وإخراجِهِ، والعلمُ إنَّما يُمْدَحُ بتحلِّيهِ وٱتِّصافِهِ به[١].

الرَّابعُ والعشرونَ: أنَّ غنى المالِ مقرونٌ بالخوفِ والحزنِ: فهوَ حزينٌ /خ٢٠٩/ قبلَ حصولِهِ، خائفٌ بعدَ حصولِهِ، وكلَّما كانَ أكثرَ؛ كانَ الخوفُ أقوى. وغنى العلمِ مقرونٌ بالأمنِ والفرحِ والسُّرورِ.

الخامسُ والعشرونَ: أنَّ الغنيَّ بمالِهِ لا بدَّ أنْ يُفارِقَهُ غناهُ فيَتَعَذَّبَ ويَتَألَّمَ بمفارقتِهِ[٢]، والغنيُّ بالعلمِ لا يَزولُ ولا يَتَعَذَّبُ صاحبُهُ ولا يَتَألَّمُ. فلذَّةُ الغنى بالمالِ لذَّةٌ زائلةٌ منقطعةٌ يَعْقُبُها الألمُ، ولذَّةُ الغنى بالعلمِ لذَّةٌ باقيةٌ مستمرَّةٌ لا يَلْحَقُها ألمٌ.

السَّادسُ والعشرونَ: أنَّ ٱستلذاذَ النَّفسِ وكمالَها بالغنى ٱستلذاذٌ بعاريَّةٍ مؤدَّاةٍ، فتجمُّلُها بالمالِ تجمُّلٌ بثوبٍ مستعارٍ لا بدَّ أنْ يَرْجِعَ إلى مالكِهِ يومًا [ما]. وأمَّا تجمُّلُها بالعلمِ وكمالُها بهِ؛ فتجمُّلٌ بصفةٍ ثابتةٍ لها راسخةٍ فيها لا تُفارِقُها.

السَّابعُ والعشرونَ: أنَّ الغنى بالمالِ هوَ عينُ فقرِ النَّفسِ، والغنى بالعلمِ هوَ [عينُ غنى النَّفسِ، فهوَ] غناها الحقيقيُّ. فغناها بعلمِها هوَ الغنى، وغناها بمالِها هوَ الفقرُ.

الثَّامنُ والعشرونَ: أنَّ مَن قُدِّمَ وأُكْرِمَ لمالِهِ؛ إذا زالَ مالُهُ زالَ تقديمُهُ[٣] وإكرامُهُ، ومَن قُدِّمَ [وأُكْرِمَ] لعلمِهِ؛ [فإنَّهُ] لا يَزْدادُ إلَّا تقديمًا وإكرامًا.

التَّاسعُ والعشرونَ: أنَّ تقديمَ الرَّجلِ لمالِهِ هوَ عينُ ذمِّهِ؛ فإنَّهُ نداءٌ عليهِ بنقصِهِ وأنَّهُ لولا مالُهُ لَكانَ مستحِقًّا للتَّأخيرِ والإهانةِ[٤]، وأمَّا تقديمُهُ وإكرامُهُ لعلمِهِ؛ فإنَّهُ عينُ

---

(١) في ط: «أنّ المال يمدح. . . بتحلّيه به واتّصافه به»، وفي خ: «. . . بتحلّيه وبٱتّصافه به».

(٢) لأنّه لا بدّ له من أحد أمرين: إمّا أن يصاب بكلّ ماله أو ببعضه لآفة من الآفات فيتحسّر ويتألّم على ما فاته. وإمّا أن يفارق هو عزّ المال وجاهه إلى ضيق القبر وظلمته فيحزن على حرمانه ممّا جمع وتمتّع غيره به، فإن كان لم يبال في جمعه حلالاً ولا حرامًا؛ تضاعفت حسرته وأسفه ودعا ثبورًا كثيرًا.

(٣) في ط: «وكمالها بالغنى ٱستكمال بعاريّة. . .»، وفي خ: «. . . إذا زال المال ذهب تقديمه».

(٤) في خ: «ذمّه فإنّه قد أعلنه بنقصه. . .»! وفي ط: «. . . للتأخّر والإهانة».

كمالِهِ؛ إذْ هوَ تقديمٌ لهُ بنفسِهِ وبصفتِهِ القائمةِ بِهِ لا بأمرٍ خارجٍ عن ذاتِهِ.

الثَّلاثونَ: أنَّ طالبَ الكمالِ بغنى المالِ كالجامعِ بينَ الضِّدَّينِ، فهوَ طالبٌ ما لا سبيلَ [لهُ] إليهِ.

وبيانُ ذٰلكَ: أنَّ القدرةَ صفةُ كمالٍ، وصفةُ الكمالِ محبوبةٌ بالذَّاتِ. والاستغناءُ عنِ الغيرِ أيضًا صفةُ كمالٍ محبوبةٌ بالذَّاتِ. فإذا مالَ الرَّجلُ بطبعِهِ إلى السَّخاءِ والجودِ وفعلِ المَكْرُماتِ؛ فهٰذا كمالٌ مطلوبٌ للعقلاءِ محبوبٌ للنُّفوسِ. وإذا ٱلْتَفَتَ إلى أنَّ ذٰلكَ يَقْتَضي خروجَ المالِ مِن يدِهِ، وذٰلكَ يوجِبُ[١] نقصَهُ وٱحتياجَهُ إلى غيرِهِ وزوالَ قدرتِهِ؛ نَفَرَتْ نفسُهُ عنِ السَّخاءِ والكرمِ والجودِ وٱصطناعِ المعروفِ، وظَنَّ أنَّ كمالَهُ /خ٢١٠/ في إمساكِ المالِ.

وهٰذهِ البليَّةُ أمرٌ ثابتٌ لعامَّةِ الخلقِ لا يَنْفَكُّونَ عنها: فلأجلِ ميلِ الطَّبعِ إلى حصولِ المدحِ والثَّناءِ والتَّعظيمِ يُحِبُّ الجودَ والسَّخاءَ والمكارمَ، ولأجلِ فوتِ القدرةِ الحاصلةِ بسببِ إخراجِهِ والحاجةِ المنافيةِ لكمالِ الغنى يُحِبُّ إبقاءَ مالِهِ ويَكْرَهُ السَّخاءَ والكرمَ والجودَ.

فيَبْقى قلبُهُ واقفًا بينَ هٰذينِ الدَّاعيينِ يَتَجاذَبانِهِ ويَعْتَوِرانِ[٢] عليهِ، فيَبْقى القلبُ في مقامِ المعارضةِ بينَهُما: فمِنَ النَّاسِ مَن يَتَرَجَّحُ عندَهُ جانبُ البذلِ والجودِ والكرمِ فيُؤْثِرُهُ على الجانبِ الآخرِ، ومنهُم مَن يَتَرَجَّحُ عندَهُ جانبُ الإمساكِ وبقاءِ القدرةِ والغنى فيُؤْثِرُهُ. فهٰذانِ نظرانِ للعقلاءِ. ومنهُم مَن يَبْلُغُ بِهِ الجهلُ والحماقةُ إلى حيثُ يُريدُ الجمعَ بينَ الوجهينِ فيَعِدُ النَّاسَ بالجودِ والسَّخاءِ والمكارمِ طمعًا منهُ في فوزِهِ بالمدحِ والثَّناءِ على ذٰلكَ، وعندَ حضورِ الوقتِ لا يَفي بما قالَ فيَسْتَحِقُّ الذَّمَّ! ويَبْذُلُ بلسانِهِ ويُمْسِكُ بقلبِهِ ويدِهِ فيَقَعُ في أنواعِ [مِن] القبائحِ[٣] والفضائحِ!

وإذا تأمَّلْتَ أحوالَ أهلِ الدُّنيا مِنَ الأغنياءِ؛ رَأَيْتَهُم تحتَ أسرِ هٰذهِ

---

(١) في ط: «الوجه الثلاثون... السخاوة...»، وفي خ: «الثلاثون أنّ طلب... وذٰلك الموجب».

(٢) في خ: «يتفكّرون فلأجل... وبقي قلبه... ويعتورانه»، وفي ط: «... يحبّ الجود...».

(٣) في خ: «لا يفي بما قال فيشحّ ويبذل لسانه...»، وفي ط: «... أنواع القبائح».

البليّةِ[١]، وهُم غالبًا يَبْكونَ ويَشْكونَ.

وأمَّا غنيُّ العلمِ؛ فلا يَعْرِضُ لهُ شيءٌ مِن ذٰلكَ، بل كلَّما بَذَلَهُ؛ ٱزْدادَ ببذلِهِ فرحًا وسرورًا وٱبتهاجًا.

[والعالِمُ]، وإنْ فاتَتْهُ لذَّةُ أهلِ الغنى وتمتُّعُهُم بأموالِهِم، فهُم أيضًا قد فاتَتْهُم لذَّةُ أهلِ العلمِ وتمتُّعُهُم بعلومِهِم وٱبتهاجُهُم بها. فمعَ صاحبِ العلمِ مِن أسبابِ اللذَّةِ ما هوَ أعظمُ وأقوى وأدومُ مِن لذَّةِ الغنيِّ، وتعبُهُ في تحصيلِهِ وجمعِهِ وضبطِهِ أقلُّ مِن تعبِ جامعِ المالِ بجمعِهِ[٢] وألمُهُ دونَ ألمِهِ، كما قالَ تَعالى للمؤمنينَ تسليةً لهُم بما يَنالُهُم مِن الألمِ والتَّعبِ في طاعتِهِ ومرضاتِهِ: ﴿وَلا تَهِنوا في ٱبْتِغاءِ القَوْمِ إنْ تَكونوا تَأْلَمونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمونَ كَما تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ ما لا يَرْجُونَ وَكانَ اللهُ عَليمًا حَكيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

الحادي والثَّلاثونَ: أنَّ اللذَّةَ الحاصلةَ مِن المالِ والغنى إنَّما هيَ حالَ تجدُّدِهِ فقطْ، وأمَّا حالَ دوامِهِ؛ فإمَّا أنْ تَذْهَبَ تلكَ اللذَّةُ وإمَّا أنْ تَنْقُصَ. ويَدُلُّ عليهِ أنَّ الطَّبعَ يَبْقى طالبًا لغنًى آخرَ حريصًا عليهِ /خ٢١١/، فهوَ يُحاوِلُ تحصيلَ الزِّيادةِ دائمًا، [فهوَ] في فقرٍ مستمرٍّ غيرِ مُنْتَقَصٍ ولو مَلَكَ خزائنَ الأرضِ، ففقرُهُ وطلبُهُ وحرصُهُ باقٍ على حالِهِ؛ فإنَّهُ أحدُ المنهومينِ اللذينِ لا يَشْبَعانِ[٣]، فهوَ لا يُفارِقُهُ ألمُ الحرصِ والطَّلبِ.

وهٰذا بخلافِ غنيِّ العلمِ[٤] والإيمانِ؛ فإنَّ لذَّتَهُ في حالِ بقائِهِ مثلُها في حالِ تجدُّدِهِ بل أزيدُ. وصاحبُها، وإنْ كانَ لا يَزالُ طالبًا للمزيدِ حريصًا عليهِ، فطلبُهُ وحرصُهُ مستصحِبٌ للذَّةِ الحاصلِ ولذَّةِ المرجوِّ المطلوبِ ولذَّةِ الطَّلبِ وٱبتهاجِهِ وفرحِهِ بهِ.

الثَّاني والثَّلاثونَ: أنَّ غنى المالِ يَسْتَدْعي الإنعامَ على النَّاسِ والإحسانَ إليهِم، فصاحبُهُ إمَّا أنْ يَسُدَّ على نفسِهِ هٰذا البابَ وإمَّا أنْ يَفْتَحَهُ عليهِ:

---

(١) وما أهونها أمام بليّة أكل أموال الخلق بالباطل وأكل حقوقهم بعضها أو كلّها!

(٢) في ط: «جامع المال فجمعه»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّ من خ.

(٣) يشير إلى ما ثبت من قوله ﷺ: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب مال».

(٤) في ط: «دائمًا في فقر... منتقض... باق عليه...»، وفي خ: «... بخلاف طلب العلم».

فإنْ سَدَّهُ على نفسِهِ؛ ٱشْتَهَرَ عندَ النَّاسِ بالبعدِ مِن الخيرِ والنَّفعِ فأبْغَضوهُ وذَمُّوهُ وٱحْتَقَروهُ، وكلُّ مَن كانَ بغيضًا عندَ النَّاسِ حقيرًا لديهِم؛ كانَ وصولُ الآفاتِ والمضرَّاتِ إليهِ أسرعَ مِن النَّارِ في الحطبِ اليابسِ ومِن السَّيلِ في منحدَرِهِ، وإذا عَرَفَ مِن الخلقِ أنَّهُم يَمْقُتونَهُ ويُبْغِضونَهُ ولا يُقيمونَ لهُ وزنًا؛ تَألَّمَ قلبُهُ غايةَ التَّألُّمِ وأُحْضِرَ الهمومَ والغمومَ والأحزانَ.

وإنْ فَتَحَ بابَ الإحسانِ والعطاءِ[1]؛ فإنَّهُ لا يُمْكِنُهُ إيصالُ الخيرِ والإحسانِ إلى كلِّ أحدٍ، فلا بدَّ مِن إيصالِهِ إلى البعضِ وإمساكِهِ عنِ البعضِ، وهٰذا يَفْتَحُ عليهِ بابَ العداوةِ والمذمَّةِ مِن المحرومِ والمرحومِ: أمَّا المحرومُ؛ فيَقولُ: كيفَ جادَ على غيري [وبَخِلَ عليَّ]؟! وأمَّا المرحومُ؛ فإنَّهُ يَلْتَذُّ ويَفْرَحُ بما حَصَلَ لهُ مِن الخيرِ والنَّفعِ، فيَبْقى طامعًا مستشرفًا لنظيرِهِ على الدَّوامِ، وهٰذا قد يَتَعَذَّرُ غالبًا، فيُفْضي ذٰلكَ إلى العداوةِ الشَّديدةِ والمذمَّةِ، ولهٰذا قيلَ: ٱتَّقِ شرَّ مَن أحْسَنْتَ إليهِ.

وهٰذهِ الآفاتُ لا تَعْرِضُ في غنى العلمِ؛ فإنَّ صاحبَهُ يُمْكِنُهُ بذلُهُ للعالَمِ كلِّهِم وإشراكُهُم فيهِ، والقدرُ المبذولُ منهُ باقٍ لآخذِهِ لا يَزولُ بل يَتَّجِرُ بهِ، فهوَ كالغنيِّ إذا أعطى الفقيرَ رأسَ مالٍ[2] يَتَّجِرُ بهِ حتَّى يَصيرَ غنيًّا مثلَهُ.

الثَّالثُ والثَّلاثونَ: أنَّ جمعَ المالِ مقرونٌ بثلاثةِ أنواعٍ مِن الآفاتِ والمحنِ؛ نوعٌ قبلَهُ ونوعٌ عندَ حصولِهِ ونوعٌ بعدَ مفارقتِهِ:

فأمَّا النَّوعُ الأوَّلُ؛ فهوَ المشاقُّ والأنكادُ والآلامُ التي لا يَحْصُلُ إلَّا بها.

وأمَّا النَّوعُ /خ٢١٢/ الثَّاني؛ فمشقَّةُ حفظِهِ وحراستِهِ وتعلُّقِ القلبِ بهِ، فلا يُصْبِحُ إلَّا مهمومًا ولا يُمْسي إلَّا مغمومًا. فهوَ بمنزلةِ عاشقٍ مفرطِ المحبَّةِ قد ظَفِرَ بمعشوقِهِ، والعيونُ مِن كلِّ جانبٍ تَرْمُقُهُ والألسنةُ والقلوبُ تَرْشُقُهُ. فأيُّ عيشٍ وأيُّ لذَّةٍ لمَن هٰذهِ حالُهُ، وقد عَلِمَ أنَّ أعداءَهُ وحسَّادَهُ لا يَفْتُرونَ عن سعيِهِم في التَّفريقِ بينَهُ وبينَ معشوقِهِ، وإنْ لمْ يَظْفَروا [هُم] بهِ، ولٰكنَّ مقصودَهُم أنْ يُزيلوا ٱختصاصَهُ بهِ دونَهُم، فإنْ فازوا

---

(١) في خ: «للذّة الحال ولذّة المرجوّ. . . يسدّ عن نفسه. . . فإن فتح باب الإحسان والعطايا».

(٢) في خ: «مستشرفًا لنظره. . . للعالم كلّهم وأشباههم فيه. . .»، وفي ط: «. . . رأس ماله».

بهِ[1]، وإلاَّ؛ ٱسْتَوَوْا في الحرمانِ فزالَ الاختصاصُ المؤلمُ للنُّفوسِ[2]؟!

ولو قَدَروا[3] على مثلِ ذٰلكَ معَ العالِمِ؛ لَفَعَلوهُ، ولٰكنَّهُم لمَّا عَلِموا أنَّهُ لا سبيلَ إلى [سلبِهِ] علمَهُ؛ عَمَدوا إلى جحدِهِ وإنكارِهِ لِيُزيلوا مِن[4] القلوبِ محبَّتَهُ وتقديمَهُ والثَّناءَ عليهِ. فإنْ بَهَرَ علمُهُ وٱمْتَنَعَ عن مكابرةِ الجحودِ والإنكارِ؛ رَمَوْهُ بالعظائمِ ونَسَبوهُ إلى كلِّ قبيحٍ لِيُزيلوا مِن القلوبِ محبَّتَهُ ويُسْكِنوا موضعَها النَّفرةَ عنهُ وبغضَهُ. وهٰذا شغلُ السَّحرةِ بعينِهِ، فهٰؤلاءِ سحرةٌ بألسنتِهِم. فإنْ عَجَزوا [لهُ] عن شيءٍ مِن القبائحِ الظَّاهرةِ [بعينِهِ]؛ رَمَوْهُ بالتَّدليسِ والتَّلبيسِ والزَّوْكَرَةِ[5] والرِّياءِ وحبِّ التَّرفُّعِ وطلبِ الجاهِ!

وهٰذا القدرُ مِن معاداةِ أهلِ الجهلِ والظُّلمِ للعلماءِ مثلُ الحرِّ والبردِ لا بدَّ منهُ، فلا يَنْبَغي لمَن لهُ [مُسْكَةُ] عقلٍ أنْ يَتَأذَّى بهِ؛ إذْ لا سبيلَ لهُ إلى دفعِهِ بحالٍ، فَلْيُوَطِّنْ نفسَهُ عليهِ كما يُوَطِّنُها على بردِ الشِّتاءِ وحرِّ الصَّيفِ.

النَّوعُ الثَّالثُ مِن آفاتِ الغنى: ما يَحْصُلُ للعبدِ بعدَ مفارقتِهِ[6] مِن: تَعَلُّقِ قلبِهِ بهِ، وكونِهِ قد حِيلَ بينَهُ وبينَهُ، [و]المطالبةِ[7] بحقوقِهِ، والمحاسبةِ على مقبوضِهِ ومصروفِهِ؛ مِن أينَ ٱكْتَسَبَهُ وفي ماذا أنْفَقَهُ[8]؟

وغنى العلمِ والإيمانِ، معَ سلامتِهِ مِن هٰذهِ الآفاتِ، فهوَ كفيلٌ بـ[كلِّ] لذَّةٍ وفرحةٍ وسرورٍ، ولٰكنْ لا يُنالُ إلاَّ على جسرٍ مِن التَّعبِ والصَّبرِ والمشقَّةِ.

---

(١) يعني: فبها ونعمت، أو: فهو المطلوب.

(٢) هٰذا شأن الحاسد: إن ٱستطاع أن يحوّل النعمة عن صاحبها إليه؛ فبها ونعمت، وإلاّ؛ ٱكتفى بزوال النعمة عن صاحبها، ولو لم يصبه من ذٰلك أدنى مصلحة.

(٣) يعني الحسّاد.

(٤) في ط: «الوجه الثالث والثلاثون... والألسن والقلوب... لا سبيل إلى علمه... عن».

(٥) في خ: «سحرة بأعينهم... والروكوة»! وفي ط: «... بالتلبيس والتدليس والزوكرة». والزوكرة: التلبيس بإظهار العبادة والنسك وإبطان الفسق والفساد.

(٦) سواء أكانت مفارقة دنيويّة بهبة أو خسارة أو غيرها من الآفات، أم كانت مفارقة أخرويّة بالموت.

(٧) في ط: «مَن تعلّقَ قلبُه به وكونُه قد جعل بينه وبين المطالبة»! والتصويب من خ.

(٨) يشير إلى ما ثبت عن النبيّ ﷺ من قوله: «لا تزول قدما عبد حتّى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن علمه ما فعل فيه، وعن ماله من أين ٱكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه».

الرَّابعُ والثَّلاثونَ: أنَّ لذَّةَ الغنيِّ بالمالِ مقرونةٌ بخلطةِ النَّاسِ، ولو لمْ يكُنْ إلاَّ خدمَهُ وأزواجَهُ وسراريَهُ وأتباعَهُ؛ إذْ لوِ ٱنْفَرَدَ /خ٢١٣/ الغنيُّ بمالِهِ وحدَهُ مِن غيرِ أنْ يَتَعَلَّقَ بخادمٍ أو زوجةٍ أو أحدٍ مِنَ النَّاسِ؛ لمْ يَكْمَلِ ٱنتفاعُهُ بمالِهِ ولا ٱلتذاذُهُ بهِ.

وإذا كانَ كمالُ لذَّتِهِ بغناهُ موقوفًا على ٱتِّصالِهِ بالغيرِ؛ فذٰلكَ [الاتِّصالُ] منشأُ الآفاتِ والآلامِ وأنواعِ النَّكدِ. ولو لمْ يَكُنْ إلاَّ ٱختلافُ [أخلاقِ] النَّاسِ وطبائعِهِم وإراداتِهِم ـ فقبيحُ هٰذا حسنُ ذاكَ ومصلحةُ ذاكَ مفسدةُ هٰذا ومنفعةُ هٰذا مضرَّةُ الآخرِ[1] وبالعكسِ ـ؛ فهوَ مبتلًى بهِم. فلا بدَّ مِن وقوعِ النَّفرةِ والتَّباغضِ والتَّعادي بينَهُم وبينَهُ؛ فإنَّ إرضاءَهُم كلِّهم محالٌ وهوَ جمعٌ بينَ الضِّدَّينِ، وإرضاءُ بعضِهِم وإسخاطُ غيرِهِ سببُ الشَّرِّ والمعاداةِ. وكلَّما طالَتِ المخالطةُ؛ ٱزْدادَتْ أسبابُ الشَّرِّ والعداوةِ وقَوِيَتْ. وبهٰذا السَّببِ كانَ الشَّرُّ الحاصلُ مِن الأقاربِ والعشراءِ أضعافَ الشَّرِّ الحاصلِ مِن الأجانبِ والبعداءِ.

وهٰذهِ المخالطةُ إنَّما حَصَلَتْ مِن جانبِ الغنى بالمالِ، أمَّا إذا لمْ يَكُنْ فيهِ فضيلةٌ لهُم[2]؛ فإنَّهُم يَتَجَنَّبونَ مخالطتَهُ ومعاشرتَهُ، فيَسْتَرِيحُ مِن أذى الخلطةِ والعشرةِ.

وهٰذهِ الآفاتُ معدومةٌ في الغنى بالعلمِ.

الخامسُ والثَّلاثونَ: أنَّ المالَ لا يُرادُ لذاتِهِ وعينِهِ؛ فإنَّهُ لا يَحْصُلُ بذاتِهِ شيءٌ مِن المنافعِ أصلاً؛ فإنَّهُ لا يُشْبِعُ ولا يَرْوي ولا يُدْفِئُ [ولا يَمْنَعُ]، وإنَّما يُرادُ لهٰذهِ الأشياءِ؛ فإنَّهُ لمَّا كانَ طريقًا إليها؛ أُريدَ إرادةَ الوسائلِ.

ومعلومٌ أنَّ الغاياتِ أشرفُ مِن الوسائلِ. فهٰذهِ الغاياتُ إذًا أشرفُ منهُ، وهيَ معَ شرفِها بالنِّسبةِ إليهِ ناقصةٌ دنيئةٌ. وقد ذَهَبَ كثيرٌ مِن العقلاءِ إلى أنَّها لا حقيقةَ لها، وإنَّما هيَ دفعُ آلامٍ فقط[3]: فإنَّ لبسَ الثِّيابِ مثلاً إنَّما فائدتُهُ دفعُ التَّألُّمِ بالحرِّ والبردِ والرِّيحِ

---

(١) في خ: «موقفة على أتّصاله بالغير... وطبائعهم وإرادتهم... مفسدة الآخر».

(٢) كذا في خ وط! وربّما كانت «فضيلة لهم» محرّفة عن «فضل عليهم»؟! وفي التركيب مع ذٰلك ضعف، والظاهر أنّ أقلام النسّاخ عملت فيه عملها. والله أعلم.

(٣) وفي مذهبهم هٰذا نظر! وقد جعل الله سبحانه وتعالى الطعام والشراب واللباس والنكاح بابًا عظيمًا من أبواب نعيم الجنّة، وأكثر من ذكره في القرآن الكريم بصورة يصعب معها التقليل من قدره، وليس في=

وليسَ فيها لذَّةٌ زائدةٌ على ذٰلكَ. وكذٰلكَ الأكلُ إنَّما فائدتُهُ دفعُ ألمِ الجوعِ، ولهٰذا لو لمْ يَجِدْ ألمَ الجوعِ؛ لمْ يَسْتَطِبِ الأكلَ[1]. وكذٰلكَ الشُّربُ معَ العطشِ والرَّاحةُ معَ التَّعبِ.

ومعلومٌ أنَّ في مزاولةِ ذٰلكَ وتحصيلِهِ ألمًا وضررًا، ولٰكنَّ ضررَهُ وألمَهُ أقلُّ مِن ضررِ /خ٢١٤/ ما يَدْفَعُ بهِ ألمَهُ، فيَحْتَمِلُ الإنسانُ أخفَّ الضَّررينِ دفعًا لأعظمِهما[2]. وحُكِيَ عن بعضِ العقلاءِ أنَّهُ قيلَ لهُ وقد تَناوَلَ قدحًا كريهًا جدًّا مِن الدَّواءِ: كيفَ حالُكَ معَهُ؟ فقالَ:

أصْبَحْتُ في دارِ بَلِيَّاتِ ... أدْفَعُ آفاتٍ بآفاتِ

وفي الحقيقةِ؛ فلذَّاتُ الدُّنيا مِن المأْكلِ والمشربِ والملبسِ والمسكنِ والمنكحِ مِن هٰذا الجنسِ، واللذَّةُ التي يُباشِرُها الحسُّ ويَتَحَرَّكُ لها الحيُّ ـ وهيَ الغايةُ المطلوبةُ لَهُ مِن لذَّةِ المأْكلِ والمشربِ والمنكحِ ـ شهوةُ البطنِ والفرجِ، ليسَ لهُما ثالثٌ ألبتَّةَ؛ إلاَّ ما كانَ وسيلةً إليهِما وطريقًا إلى تحصيلِهِما. وهٰذهِ اللذَّةُ منغَّصةٌ مِن وجوهٍ عديدةٍ:

منها: أنَّ تصوُّرَ زوالِها وانقضائِها وفنائِها يُوجِبُ تَنغيصَها[3].

ومنها: أنَّها ممزوجةٌ بالآفاتِ، ومعجونةٌ بالآلامِ، مختلطةٌ بالمخاوفِ، وفي الغالبِ لا تَفي آلامُها بطيبِها، كما قيلَ:

قايَنْتُ بَيْنَ جَمالِها وَفِعالِها ... فَإذا المَلاحَةُ بالقَباحَةِ لا تَفي

ومنها: أنَّ الأراذلَ مِن النَّاسِ وسقطَهُم يُشارِكونَ فيها كبراءَهُم وعقلاءَهُم، بل يَزيدونَ عليهِم فيها أعظمَ زيادةٍ وأفحشَها، فنسبتُهُم فيها إلى الأفاضلِ كنسبةِ الحيواناتِ البهيميَّةِ إليهِم. فمشاركةُ الأراذلِ وأهلِ الخسَّةِ والدَّناءةِ فيها وزيادتُهُم على العقلاءِ فيها

= الجنّة ظمأ ولا جوع ولا حرّ ولا برد ولا آفة تُدفع بهٰذه النعم، فبان أنّها مطلوبة لذاتها أو لما فيها من المتعة. وأنت ترى أنّ أكثر الناس اليوم لا يلبسون لحرّ ولا برد ولا يأكلون لجوع ولا يشربون لظمإ، ولٰكن لما يرجونه من متعة الطعام والشراب واللباس.

(١) في خ: «لمّا كان طريقها أريد... هي دفع الألم فقط... لم يستطب بالأكل».

(٢) في خ: «ألمًا وضررًا ومن ضرره وألمه... به وألمه فيحتمل... لأعظمها».

(٣) في ط: «من المآكل والمشارب والملبس... لذّة المنكح والمأكل شهوة... يوجب تنغّصها»، وفي خ: «... منها أن يتصوّر... فوجب تنغيصها».

ممَّا يُوجِبُ النَّفرةَ والإعراضَ عنها، وكثيرٌ مِن النَّاسِ حَصَلَ لهُ الزُّهدُ في المحبوبِ والمعشوقِ منها بهٰذهِ الطَّريقِ، وهٰذا كثيرٌ في أشعارِ النَّاسِ ونثرِهِم:

كما قيلَ[(١)]:

سَأَتْرُكُ حُبَّهَا مِنْ غَيْرِ بُغْضٍ وَلٰكِنْ كَثْرَةُ الشُّرَكَاءِ فيهِ

إذا وَقَعَ الذُّبابُ على طَعامٍ رَفَعْتُ يَدي وَنَفْسي تَشْتَهيهِ

وَتَجْتَنِبُ الأسودُ وُرودَ ماءٍ إذا كانَ الكِلابُ يَلَغْنَ فيهِ

وقيلَ لزاهدٍ: ما الذي زَهَّدَكَ في الدُّنيا؟ فقالَ: خسَّةُ شركائِها، وقلَّةُ وفائِها، وكثرةُ جفائِها.

وقيلَ لآخرَ في ذٰلكَ. فقالَ: ما مَدَدْتُ يدي إلى شيءٍ /خ٢١٥/ منها؛ إلاَّ وَجَدْتُ غيري قد سَبَقَني إليهِ، فأَتْرُكُهُ لهُ.

ومنها: أنَّ الالتذاذَ بموقعِها إنَّما هوَ بقدرِ شدَّةِ الحاجةِ إليها والتَّألُّمِ بمطالبةِ النَّفسِ لتناولِها، وكلَّما كانَتْ شهوةُ الظَّفرِ بالشَّيءِ أقوى؛ كانتِ اللذَّةُ الحاصلةُ بوجودِهِ أكملَ، فما لمْ تَحْصُلْ تلكَ الشَّهوةُ؛ لمْ تَحْصُلْ [تلكَ] اللذَّةُ. فمقدارُ اللذَّةِ الحاصلةِ في الحالِ مساوٍ لمقدارِ الحاجةِ والألمِ والمضرَّةِ في الماضي، وحينئذٍ[(٢)]؛ تَتَقابَلُ اللذَّةُ الحاصلةُ والألمُ المتقدِّمُ فيَتَساقَطانِ، فتَصيرُ اللذَّةُ كأنَّها لمْ تُوجَدْ[(٣)]، ويَصيرُ بمنزلةِ مَن شَقَّ بطنَ رجلٍ ثمَّ خاطَهُ وداواهُ بالمراهمِ[(٤)] أو بمنزلةِ مَن ضَرَبَهُ عشرةَ أسواطٍ وأعطاهُ عشرةَ دراهمَ. ولا تَخْرُجُ لذَّاتُ الدُّنيا غالبًا عن ذٰلكَ. ومثلُ هٰذا لا يُعَدُّ لذَّةً ولا سعادةً [ولا كمالاً]، بل هوَ بمنزلةِ قضاءِ الحاجةِ مِن البولِ والغائطِ؛ فإنَّ الإنسانَ يَتَضَرَّرُ بثقلِهِ، فإذا

---

(١) في خ: «قاسيت بين. . . ومنها أنّ الأرذال. . . الأفاضل بنسبة. . . كما قيل في المعنى».

(٢) في خ: «ما مدّت يدي. . . إلاّ وجدته غيري. . . أكمل فلمّا لم تحصل. . . فحينئذ».

(٣) فيه نظر؛ لأنّ المقدّمات السابقة تفيد أنّ علاقة اللذّة بالشهوة تشبه علاقة الربح برأس المال، فكلّما ازدادت الشهوة ازدادت اللذّة كما أنّه كلّما ازداد رأس المال ازداد الربح. ولٰكنّ رأس المال لا يساوي الربح بالضرورة وكذٰلك الشهوة والحاجة والألم لا تساوي اللذّة بالضرورة، فالعلاقة علاقة تناسب لا علاقة تساوٍ، وربّما كانت اللذّة أضعاف الحاجة والألم والمضرّة، وربّما كان العكس. والله أعلى وأعلم.

(٤) هٰذا يفيد أنّ الأطبّاء المسلمين عرفوا في ذٰلك العصر شقّ البطن وخياطة الجروح ومعالجتها. نعم؛ ما هو بالحاسم الذي لا يقبل الجدل، ولٰكنّه قويّ يصلح مبدأً لتتبّع هٰذه القضيّة.

قَضى حاجتَهُ؛ ٱسْتَراحَ منهُ، فأمَّا أنْ يُعَدَّ ذٰلكَ سعادةً وبهجةً ولذَّةً مطلوبةً فلا[1]!

ومنها: أنَّ هاتينِ اللذَّتينِ اللتينِ هُما آثرُ اللذَّاتِ عندَ النَّاسِ لا سبيلَ إلى نيلِهِما إلَّا بما يَقْتَرِنُ بهِما قبلَهُما وبعدَهُما مِن مباشرةِ القاذوراتِ والتَّألُّمِ الحاصلِ عقيبَهُما:

مثالُ لذَّةِ الأكلِ: فإنَّ العاقلَ لو نَظَرَ إلى طعامِهِ حالَ مخالطتِهِ ريقَهُ وعجنِهِ بهِ؛ لَنَفَرَتْ نفسُهُ منهُ، ولو[2] سَقَطَتْ تلكَ اللقمةُ مِن فيهِ؛ لَنَفَرَ طبعُهُ مِن إعادتِها إليهِ. ثمَّ إنَّ لذَّتَهُ بهِ إنَّما تَحْصُلُ في مجرى نحوِ الأربعِ الأصابعِ، فإذا فُصِلَ عن ذٰلكَ المجرى؛ زالَ تلذُّذُهُ بهِ. فإذا ٱسْتَقَرَّ في معدتِهِ وخالَطَهُ الشَّرابُ وما في المعدةِ مِن الأجزاءِ الفضليَّةِ؛ فإنَّهُ حينئذٍ يَصيرُ في غايةِ الخسَّةِ. فإذا زادَ[3] على مقدارِ الحاجةِ؛ أوْرَثَ الأدواءَ المختلفةَ على تنوُّعِها. ولولا أنَّ بقاءَهُ موقوفٌ على تناولِ الغذاءِ؛ لَكانَ تركُهُ ـ والحالةُ هٰذهِ ـ أليقَ بهِ، كما قالَ بعضُهُم:

لَـوْلا قَضـاءٌ جَـرى نَـزَّهْـتُ أُنْمُلَتـي ... عَـنْ أنْ تُلِـمَّ بِمَـأْكـولٍ وَمَشْـروبِ

وأمَّا لذَّةُ الوقاعِ؛ فقدرُها أبينُ مِن أنْ تُذْكَرَ آفاتُهُ: ويَدُلُّ عليهِ أنَّ أعضاءَ / خ٢١٦/ هٰذهِ اللذَّةِ هيَ عورةُ الإنسانِ التي يُسْتَحْيَا مِن رؤيتِها وذكرِها، وسترُها أمرٌ فَطَرَ اللهُ عليهِ عبادَهُ، ولا تَتِمُّ لذَّةُ المواقعةِ إلَّا بالاطِّلاعِ عليها وإبرازِها والتَّلطُّخِ بالرُّطوباتِ المستقذرةِ المتولِّدةِ منها. ثمَّ إنَّ تمامَها إنَّما يَحْصُلُ بٱنفصالِ النُّطفةِ، وهيَ اللذَّةُ المقصودةُ مِن الوقاعِ، وزمنُها يُشْبِهُ الآنَ الذي لا يَنْقَسِمُ، فصعوبةُ تلكَ المزاولةِ والمحاولةِ والمطاولةِ والمراوضةِ والتَّعبِ لأجلِ لذَّةٍ لحظةٍ كمَرِّ الطَّرفِ. فأيُّ مقايسةٍ[4] بينَ هٰذهِ اللذَّةِ وبينَ التَّعبِ في طريقِ تحصيلِها؟!

---

(١) فيه نظر؛ لأنّ قضاء الحاجة أمر بغيض مكروه لا يقوم إليه المرء ـ ولو كانت فيه راحته ـ إلّا مضطرًّا، بخلاف المأكل والمشرب والمنكح؛ فإنّه محبوب مطلوب سواء أكان مريحًا أم لم يكن، ولذٰلك ترى أكثر الناس يبالغون فيه حتّى يلحقهم أذًى! وقد قال المصنّف في «زاد المعاد» (٤/ ٢٤٩): «الثالث من مقاصد الجماع: قضاء الوطر ونيل اللذّة والتمتّع بالنعمة، وهٰذه وحدها هي الفائدة التي في الجنّة».

(٢) في ط: «الناس ولا سبيل...»، وفي خ: «... لنفرت عنه نفسه ولو».

(٣) في خ: «النفر بطبعه من إعادتها...»، وفي ط: «... الخسّة فإذًا فإن زاد».

(٤) في ط: «تناول الغذاء لكان...»، وفي خ: «... المستقذرة المتولّد فيها... فأين مقاسة».

وهٰذا يَدُلُّ على أنَّ هٰذهِ اللذَّةَ ليسَتْ مِن جنسِ الخيراتِ والسَّعاداتِ والكمالِ الذي خُلِقَ لهُ العبدُ ولا كمالَ لهُ بدونِهِ[١]، بل ثَمَّ أمرٌ وراءَ ذٰلكَ كلِّه قد هُيِّئَ لهُ العبدُ ولا يَفْطَنُ لهُ، [فهوَ] لغفلتِهِ[٢] عنهُ وإعراضِهِ عنِ التَّفتيشِ عليهِ حتَّى يَظْفَرَ بمعرفتِهِ وعنِ التَّفتيشِ على طريقِهِ حتَّى يَصِلَ إليهِ يَسومُ نفسَهُ معَ الأنعامِ السَّائمةِ:

قَدْ هَيَّؤوكَ لأمرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ ... فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أنْ تَرعى مَعَ الهَمَلِ

وموقعُ هٰذهِ اللذَّاتِ[٣] مِن النَّفسِ كموقعِ لذَّةِ البرازِ مِن رجلٍ ٱحْتَبَسَ في موضعٍ لا يُمْكِنُهُ القيامُ إلى الخلاءِ وصارَ مضطرًّا إليهِ؛ فإنَّهُ يَجِدُ مشقَّةً شديدةً وبلاءً عظيمًا، فإذا تَمَكَّنَ مِن الذَّهابِ إلى الخلاءِ وقَدَرَ على دفعِ ذٰلكَ الخبثِ المؤذي؛ وَجَدَ لذَّةً عظيمةً عندَ دفعِهِ وإرسالِهِ، ولا لذَّةَ هناكَ إلَّا [لذَّةُ] راحتِهِ مِن حملِ ما يُؤْذيهِ حملُهُ[٤].

فعُلِمَ أنَّ هٰذهِ اللذَّاتِ: إمَّا أنْ تكونَ[٥] دفعَ آلامٍ. وإمَّا أنْ تكونَ لذَّاتٍ ضعيفةً خسيسةً مقترنةً بآفاتٍ تَرْبو مضرَّتُها عليها[٦]. وهٰذا كما يَعْقُبُ لذَّةَ الوقاعِ؛ مِن ضعفِ القلبِ، وخفقانِ الفؤادِ، وضعفِ القوى البدنيَّةِ والقلبيَّةِ، وضعفِ الأرواحِ، وٱستيلاءِ العفونةِ[٧] على كلِّ البدنِ، وإسراعِ الضَّعفِ والخَوَرِ إليهِ، وٱستيلاءِ الأخلاطِ عليهِ

---

(١) فيه نظر لا يخفى، وقد قال المصنّف في «زاد المعاد» (٤/ ٢٤٩): «وأمّا الجماع والباه؛ فكان هديه ﷺ فيه أكمل هدي؛ يحفظ به الصحّة، وتتمّ به اللذّة وسرور النفس... وقال ابن عبّاس: خير هٰذه الأمّة أكثرها نساء».

(٢) في ط: «العبد وهو لا يفطن له لغفلته».

(٣) في خ: «التفتيش في طريقته حتّى...»، وفي ط: «... هٰذه اللذّة».

(٤) المشكل في هٰذه المقارنة أنّنا نريد أن نعطي لذّة العلم والإيمان درجة ١٠٠٪ ونعطي بقيّة اللذّات مجتمعة درجة ٠٪! لٰكن مهما حاولنا وطاولنا؛ فلن نستطيع! هٰذا شيء يردّه العقل والفطرة والشرع: أمّا العقل؛ فقد شهد أنّ الله خلق الإنسان جسدًا وروحًا، وللجسد لذّته وللروح لذّتها، ومن العدل أن يعطى كلّ منهما حقّه. وأمّا الفطرة البشريّة؛ فستبقى تجذبك إلى الجماع وتنفّرك من البراز ولو قرأت ألف مجلّد في التسوية بينهما. وأمّا الشرع؛ فحسبك منه سيرة الأنبياء والصحابة، حسبك حبّه ﷺ للنساء، حسبك تسميته للطعام والشراب نعيمًا، حسبك أنّه جزء لا يتجزّأ من نعيم أهل الجنّة بلّغنا الله إيّاها بمنّه وكرمه.

(٥) في ط: «الخبيث المؤذي... هناك إلّا راحته...»، وفي خ: «... اللذّات إنّما تكون».

(٦) في خ وط: «بآفات ترى مضرّتها عليه (وفي خ: عليها)»! تحريف أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٧) في ط: «والقلبيّة ويعقب ضعف الأرواح...»، وفي خ: «... وٱستيلاء العقوبة».

لضعفِ القوّةِ عن دفعِها وقهرِها[١].

وممَّا يَدُلُّ على أنَّ هٰذهِ اللذَّاتِ ليسَتْ خيراتٍ وسعاداتٍ وكمالاتٍ أنَّ[٢] العقلاءَ مِن جميعِ /خ٢١٧/ الأُممِ مطبقونَ على ذمِّ مَن كانَتْ [هيَ] نهمتَهُ وشغلَهُ ومصرفَ همَّتِهِ وإرادتِهِ والإزراءِ بِهِ وتحقيرِ شأْنِهِ وإلحاقِهِ بالبهائمِ ولا يُقيمونَ لهُ وزنًا، ولو كانَتْ خيراتٍ وكمالاتٍ؛ لَكانَ مَن صَرَفَ إليها همَّتَهُ أكملَ النَّاسِ[٣].

وممَّا يَدُلُّ على ذٰلكَ أنَّ القلبَ الذي قد وَجَّهَ قصدَهُ وإرادتَهُ إلى هٰذهِ اللذَّاتِ لا يَزالُ مستغرقًا في الهمومِ والغمومِ والأحزانِ، وما يَنالُهُ مِن اللذَّةِ[٤] في جنبِ هٰذهِ الآلامِ كقطرةٍ في بحرٍ، كما قيلَ: سُرورُهُ وزنُ حبَّةٍ وحُزنُهُ قِنطارُ.

فإنَّ القلبَ يَجْري مجرى مرآةٍ منصوبةٍ على جدارٍ، وذٰلكَ الجدارُ ممرٌّ لأنواعِ المشتهَياتِ والملذوذاتِ والمكروهاتِ[٥]، فكلَّما مَرَّ بِهِ شيءٌ مِن ذٰلكَ؛ ظَهَرَ فيهِ أثرُهُ: فإنْ كانَ محبوبًا مشتهًى[٦]؛ مالَ طبعُهُ إليهِ، فإنْ لمْ يَقْدِرْ على تحصيلِهِ؛ تألَّمَ وتَعذَّبَ بفقدِهِ، وإنْ قَدَرَ على تحصيلِهِ؛ تألَّمَ في طريقِ الحصولِ بالتَّعبِ والمشقَّةِ ومنازعةِ الغيرِ لهُ، وتألَّمَ حالَ حصولِهِ خوفًا مِن فراقِهِ، وبعدَ فراقِهِ حزنًا على ذهابِهِ. وإنْ كانَ مكروهًا لهُ ولمْ يَقْدِرْ على دفعِهِ؛ تألَّمَ بوجودِهِ، وإنْ قَدَرَ على دفعِهِ؛ [اْشْتَغَلَ بدفعِهِ] ففاتَتْهُ مصلحةٌ راجحةُ الحصولِ فتألَّمَ[٧] لفواتِها.

---

(١) فيه نظر، وقد قال المصنّف يرحمه الله في «زاد المعاد» (٤/ ٢٤٩): «وفضلاء الأطبّاء يرون أنّ الجماع من أحد أسباب حفظ الصحّة... فإنّه إذا دام احتقانه (أي: المنيّ)؛ أحدث أمراضًا رديئة... وقد يبرئ اْستعماله (أي: الجماع) من هٰذه الأمراض». وهٰذا كلام صحيح يقرّه الطبّ المعاصر.

(٢) في خ: «وسعادات وكما أنّ»! وفي ط: «وسعادات وكمالاً أنّ»! تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) فيه نظر؛ لأنّ هٰذه اللذّات تكون خيرات إذا كانت في حدّ التوسّط والاعتدال بين طرفي الإفراط والتفريط، فإن مال الإنسان بها إلى أحد الجانبين؛ كانت نقصًا. وهٰذا شأن أكثر الأمور، حتّى العلم، فإن أفرط الإنسان في شأنه حتّى قصّر في حقوق الوالدين والزوجة والأولاد أو أهملهم؛ كان عيبًا ومذمّة. والله أعلم.

(٤) في ط: «خيرات وكمالاً... يناله من اللذات»، وفي خ: «... صرف إليها همّه...».

(٥) تمامًا كشاشة السينما والتيليفزيون، والمثال ينطبق عليهما اْنطباقًا دقيقًا.

(٦) في خ: «وإنّ القلب... والملذوذات والمكرومات والمكروهات وكلّما...»، وفي ط: «... محبوبًا مشتهيًا».

(٧) في ط: «ويتألّم حال... دفعه ففاتته... فيتألّم»، وفي خ: «... وبعد فراقه خوفًا...».

فعُلِمَ أنَّ هٰذا القلبَ أبدًا مستغرقٌ في بحارِ الهمومِ والغمومِ والأحزانِ، وأنَّ نفسَهُ تَضْحَكُ عليهِ وتُرَضِّيهِ بوزنِ ذرَّةٍ مِن لذَّتِهِ فيَغيبُ بها عن شهودِهِ القناطيرَ مِن ألمِهِ وعذابِهِ. فإذا حِيلَ بينَهُ وبينَ تلكَ اللذَّةِ ولمْ يَبْقَ لهُ إليها سبيلٌ؛ تَجَرَّدَ ذٰلكَ الألمُ وأحاطَ بهِ واسْتَوْلى عليهِ مِن كلِّ جهاتِهِ. فقلْ ما شِئْتَ في حالِ عبدٍ قد غُيِّبَ عنهُ سعدُهُ وحظوظُهُ وأفراحُهُ وأُحْضِرَ شِقوتَهُ وهمومَهُ وغمومَهُ وأحزانَهُ. وبينَ العبدِ وبينَ هٰذهِ الحالِ أنْ يَنْكَشِفَ الغطاءُ ويُرْفَعَ السِّترُ ويَنْجَلِيَ الغبارُ ويُحَصَّلَ ما في الصُّدورِ.

فإذا كانَتْ هٰذهِ غايةَ اللذَّاتِ الحيوانيَّةِ التي هيَ غايةُ جمعِ الأموالِ وطلبِها؛ فما الظَّنُّ بقدرِ الوسيلةِ؟!

وأمَّا غنى العلمِ والإيمانِ؛ فدائمُ اللذَّةِ متَّصلُ الفرحةِ مقتضٍ لأنواعِ المسرَّةِ والبهجةِ /خ٢١٨/، لا يَزولُ فيُحْزِنَ ولا يُفارِقُ فيُؤْلِمَ، بل أصحابُهُ كما قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فيهم: ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ﴾ [يونس: ٦٢].

السَّادسُ والثَّلاثونَ: أنَّ غنيَّ المالِ يُبْغِضُ الموتَ ولقاءَ اللهِ؛ فإنَّهُ لحبِّهِ مالَهُ[١] يَكْرَهُ مفارقتَهُ ويُحِبُّ بقاءَهُ لِيَتَمَتَّعَ بهِ كما يَشْهَدُ بهِ الواقعُ. وأمَّا العلمُ؛ فإنَّهُ يُحَبِّبُ للعبدِ لقاءَ ربِّهِ ويُزَهِّدُهُ في هٰذهِ الحياةِ النَّكِدةِ الفانيةِ.

السَّابعُ والثَّلاثونَ: أنَّ الأغنياءَ يَموتُ ذكرُهُم بموتِهِم، والعلماءُ يَموتونَ ويَبْقى ذكرُهُم، كما قالَ أميرُ المؤمنينَ في هٰذا الحديثِ: «ماتَ خزَّانُ الأموالِ وهُم أحياءٌ، والعلماءُ باقونَ ما بَقِيَ الدَّهرُ». فخزَّانُ الأموالِ أحياءٌ كأمواتٍ[٢]، والعلماءُ بعدَ موتِهِم أمواتٌ كأحياءٍ.

الثَّامنُ والثَّلاثونَ: أنَّ نسبةَ العلمِ إلى الرُّوحِ كنسبةِ الرُّوحِ إلى البدنِ: فالرُّوحُ ميِّتةٌ حياتُها العلمُ، كما أنَّ الجسدَ ميِّتٌ حياتُهُ الرُّوحُ. فالغنى بالمالِ غايتُهُ أنْ يَزيدَ في حياةِ البدنِ، وأمَّا العلمُ؛ فهوَ حياةُ الرُّوحِ والقلبِ كما[٣] تَقَدَّمَ تقريرُهُ.

---

(١) في ط: «ذرّة من لذّة من لذّته...»، وفي خ: «... يبغض المآل ولقاء... لحبّه لماله».
(٢) في ط: «شهد به الواقع أمّا...»، وفي خ: «... يموتون ويحيا ذكرهم... كالأموات».
(٣) في ط: «حياتها بالعلم... حياته بالروح... حياة القلوب والأرواح كما».

التَّاسعُ والثَّلاثونَ: أنَّ القلبَ ملكُ البدنِ، والعلمُ زينتُهُ وعدَّتُهُ ومالُهُ وبهِ قِوامُ ملكِهِ، [والملكُ] لا بدَّ لهُ مِن عَددٍ وعُددٍ ومالٍ وزينةٍ، فالعلمُ هوَ مركبُهُ وعدَّتُهُ ومالُهُ وجمالُهُ[(١)]. وأمَّا المالُ؛ فغايتُهُ أنْ يكونَ زينةً وجمالاً للبدنِ إذا أنْفَقَهُ في ذٰلكَ، فإذا خَزَنَهُ ولمْ يُنفِقْهُ؛ لمْ يكُنْ زينةً ولا جمالاً بل نقصانًا ووبالاً. ومِن المعلومِ أنَّ زينةَ الملكِ وما بهِ قِوامُ ملكِهِ أجلُّ وأفضلُ مِن زينةِ رعيَّتِهِ وجمالِهِم، فقِوامُ القلبِ بالعلمِ كما أنَّ قوامَ الجسمِ بالغذاءِ.

الأربعونَ: أنَّ القدرَ المقصودَ مِن المالِ هوَ ما يَكْفي العبدَ ويُقيمُهُ ويَدْفَعُ ضرورتَهُ حتَّى يَتَمَكَّنَ مِن قضاءِ جهازِهِ ومِن التَّزوُّدِ لسفرِهِ إلى ربِّهِ عَزَّ وجَلَّ، فإذا ٱزْدادَ على ذٰلكَ؛ شَغَلَهُ وقَطَعَهُ[(٢)] عنِ السَّفرِ [إلى ربِّهِ] وعن قضاءِ جهازِهِ وتعبئةِ زادِهِ فكانَ ضررُهُ عليهِ أكثرَ مِن مصلحتِهِ، وكلَّما ٱزْدادَ غناهُ بهِ؛ ٱزْدادَ تثبُّطًا وتخلُّفًا عنِ التَّجهُّزِ لما أمامَهُ.

وأمَّا العلمُ النَّافعُ؛ فكلَّما ٱزْدادَ /خ٢١٩/ منهُ؛ ٱزْدادَ في تعبئةِ الزَّادِ وقضاءِ الجهازِ وإعدادِ عدَّةِ المسيرِ، واللهُ الموفِّقُ وبهِ الاستعانةُ ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ.

فعدَّةُ هٰذا السَّفرِ هوَ العلمُ والعملُ، وعدَّةُ الإقامةِ جمعُ الأموالِ والادِّخارُ، ومَن أرادَ شيئًا؛ هَيَّأَ لهُ عدَّتَهُ، قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿وَلَوْ أرادوا الخُروجَ لأعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلٰكِنْ كَرِهَ اللهُ ٱنْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقيلَ ٱقْعُدوا مَعَ القاعِدينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

* **قولُهُ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: «محبَّةُ العالمِ (أوِ: العلمِ) دينٌ يُدانُ بها»:**

لأنَّ العلمَ ميراثُ الأنبياءِ والعلماءُ ورَّاثُهُم: فمحبَّةُ العلمِ وأهلِهِ محبَّةٌ لميراثِ الأنبياءِ وورثتِهِم، وبغضُ العلمِ وأهلِهِ بغضٌ لميراثِ الأنبياءِ وورثتِهِم. فمحبَّةُ العلمِ مِن علاماتِ السَّعادةِ، وبغضُ العلمِ مِن علاماتِ الشَّقاوةِ. [و]هٰذا كلُّهُ إنَّما هوَ في علمِ الرُّسلِ الذي جاؤوا بهِ ووَرَّثوهُ للأُمَّةِ، لا في كلِّ ما يُسَمَّى علمًا.

وأيضًا؛ فإنَّ محبَّةَ العلمِ تَحْمِلُ على تعلُّمِهِ وٱتِّباعِهِ، وذٰلكَ هوَ الدِّينُ. وبغضُهُ يَنْهى عن تعلُّمِهِ وٱتِّباعِهِ، وذٰلكَ هوَ الشَّقاءُ والضَّلالُ.

---

(١) في ط: «من عدد وعدّة... وعدّته وجماله»، وفي خ: «... وعدّته وماله».

(٢) في ط: «الوجه الأربعون... زاد على ذٰلك...»، وفي خ: «... ذٰلك وشغله قطعه».

وأيضًا؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ عليمٌ يُحِبُّ كلَّ عليمٍ، وإنَّما يَضَعُ علمَهُ عندَ مَن يُحِبُّهُ، فمَن أَحَبَّ العلمَ وأهلَهُ؛ فقد أَحَبَّ ما أَحَبَّ اللهُ، وذٰلكَ ممَّا يُدانُ بهِ.

* **قولُهُ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: «العلمُ يُكْسِبُ العالمَ الطَّاعةَ في حياتِهِ وجميلَ الأُحدوثةِ بعدَ مماتِه»:**

يُكْسِبُهُ ذٰلك؛ أي: يَجْعَلُهُ كسبًا لهُ ويُوَرِّثُهُ إيَّاهُ، يُقالُ[١]: كَسَبَهُ ذٰلكَ عزًّا وطاعةً وأكْسَبَهُ؛ لغتانِ.

ومنهُ حديثُ خَديجَةَ رَضِيَ اللهُ عنها: «إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحمَ، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتُكْسِبُ المعدومَ»؛ رُوِيَ بفتحِ التَّاءِ وضمِّها[٢]. ومعناهُ: تُكْسِبُ المالَ والغنى. هٰذا هو الصَّوابُ. وقالَتْ طائفةٌ: مَن رَواهُ بضمِّها؛ فذٰلكَ مِن أكْسَبْتَهُ[٣] مالاً وعزًّا، ومَن رَواهُ بفتحِها؛ فمعناهُ تَكْسِبُ أنتَ المالَ المعدومَ بمعرفتِكَ وحذقِكَ بالتِّجارةِ. ومعاذَ اللهِ مِن هٰذا الفهمِ، وخَديجَةُ [رَضِيَ اللهُ عنها] أجلُّ قدرًا مِن تكلُّمِها بهٰذا في هٰذا المقامِ العظيمِ؛ أنْ تَقولَ لرسولِ اللهِ ﷺ: أَبْشِرْ؛ فواللهِ لا يُخْزيكَ اللهُ؛ إنَّكَ تَكْسِبُ الدِّرهمَ /خ٢٢٠/ والدِّينارَ وتُحْسِنُ التِّجارةَ! ومثلُ هٰذهِ التَّحريفاتِ[٤] إنَّما تُذْكَرُ لئلاَّ يُغْتَرَّ بها في تفسيرِ كلامِ اللهِ ورسولِهِ.

والمقصودُ أنَّ قولَهُ: «العلمُ يُكْسِبُ العالمَ الطَّاعةَ في حياتِهِ»؛ أي: يَجْعَلُهُ مطاعًا؛ لأنَّ الحاجةَ إلى العلمِ عامَّةٌ لكلِّ أحدٍ [مِن] الملوكِ فمَن دونَهُم. فكلُّ أحدٍ محتاجٌ إلى طاعةِ العالمِ؛ فإنَّهُ يَأْمُرُ بطاعةِ اللهِ ورسولِهِ، فيَجِبُ على الخلقِ طاعتُهُ.

قالَ تَعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا أطيعوا اللهَ وَأطيعوا الرَّسولَ وَأُولي الأمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]: وفُسِّرَ ﴿أُولي الأمْرِ﴾ بالعلماءِ: قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: هُمُ الفقهاءُ والعلماءُ أهلُ الدِّينِ الذينَ يُعَلِّمونَ النَّاسَ دينَهُم أَوْجَبَ اللهُ [تَعالى] طاعتَهُم، وهٰذا قولُ الحَسَنِ

---

(١) في ط: «حياته وجميل الذكر بعد مماته...»، وفي خ وط: «... ويقال».

(٢) رواه: البخاري (١- بدء الوحي، ٣- باب، ١/ ٢٢/ ٣)، ومسلم (١- الإيمان، ٧٣- بدء الوحي، ١/ ١٣٩/ ١٦٠)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) في خ: «وروي بفتح... فكذٰلك من أكسبته»، وفي ط: «... من أكسبه».

(٤) بالمهملة في خ وط، وهي حسنة، وربّما كانت «التخريفات» بالخاء المعجمة.

ومُجاهِدٍ والضَّحَّاكِ وإحدى الرِّوايتينِ [عنِ الإمامِ أحْمَدَ. وفُسِّروا بالأمراءِ: وهوَ قولُ ابنِ زَيْدٍ وإحدى الرِّوايتينِ] عنِ ابنِ عَبَّاسٍ وأحْمَدَ. والآيةُ تَتناوَلُهُما جميعًا: فطاعةُ ولاةِ الأمرِ واجبةٌ إذا أمَروا بطاعةِ اللهِ ورسولِهِ، وطاعةُ العلماءِ كذٰلكَ.

فالعالِمُ بما جاءَ بِهِ الرَّسولُ العاملُ بِهِ أطوعُ في أهلِ الأرضِ مِن كلِّ أحدٍ.

فإذا ماتَ؛ أحْيا اللهُ ذكرَهُ، ونَشَرَ لهُ في العالَمينَ حُسْنَ الثَّناءِ. فالعالِمُ بعدَ وفاتِهِ مَيْتٌ وهوَ حيٌّ بينَ النَّاسِ، والجاهلُ في حياتِهِ حيٌّ وهوَ مَيْتٌ بينَ النَّاسِ:

كما قيلَ:

وَفي الجَهْلِ قَبْلَ المَوْتِ مَوْتٌ لأهْلِهِ ... وَأجْسامُهُمْ قَبْلَ القُبورِ قُبورُ

وَأرْواحُهُمْ في وَحْشَةٍ مِن جُسومِهِمْ ... وَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشورِ نُشورُ

وقالَ آخرُ:

قَدْ ماتَ قَوْمٌ وَما ماتَتْ مَكارِمُهُمْ ... وَعاشَ قَوْمٌ وَهُمْ في النَّاسِ أمْواتُ

وقالَ آخرُ:

وما دامَ ذِكْرُ المَرْءِ بِالفَضْلِ باقِيا[1] ... فَذٰلِكَ حَيٌّ وَهْوَ في التُّرْبِ هالِكُ

وَمَن تأمَّلَ أحوالَ أئمَّةِ الإسلامِ، كأئمَّةِ الحديثِ والفقهِ، كيفَ هُم تحتَ التُّرابِ، وهُم في العالَمينَ كأنَّهُم أحياءٌ بينَهُم، لمْ يَفْقِدوا منهُم إلاَّ صورَهُم، وإلاَّ؛ فذكرُهُم وحديثُهُم والثَّناءُ عليهِم غيرُ منقطعٍ. وهٰذهِ [هيَ] الحياةُ حقًّا، حتَّى عُدَّ ذٰلكَ حياةً ثانيةً، كما قالَ المُتَنَبِّي:

ذِكْرُ الفَتى عَيْشُهُ الثَّاني وَحاجَتُهُ ... ما قاتَهُ وفُضولُ[2] العَيْشِ أشْغالُ

* **قولُهُ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: «وصنيعةُ المالِ تَزولُ بزوالِهِ»:**

يَعْني: أنَّ كلَّ صنيعةٍ صُنِعَتْ للرَّجلِ مِن أجلِ /خ٢٢١/ مالِهِ مِن إكرامٍ ومحبَّةٍ

---

(١) في ط: «في العالمين أحسن الثناء... وما دام ذكر العبد بالفضل باقيًا».

(٢) في خ: «ما فاته عن فضول»! وفي ط وبعض روايات «ديوان المتنبّي»: «ما فاته وفضول»! وكلّه تصحيف لا معنى له، أشار إلى ذٰلك العكبري في «شرح ديوان المتنبّي»، وبيّن أنّ الصواب فيه «وحاجته ما قاته» بالقاف لا بالفاء، وأنّ معنى البيت أنّ حاجة الإنسان تقتصر على ما يقوته من الطعام وما زاد عن ذٰلك فمن فضول العيش والانشغال بالحياة الدنيا.

وخدمةٍ وقضاءِ حوائجَ وتقديمٍ وٱحترامٍ وتوليةٍ وغيرِ ذٰلكَ؛ فإنَّها إنَّما هيَ مراعاةٌ لمالِهِ، فإذا زالَ مالُهُ وفارَقَهُ؛ زالَتْ تلكَ الصَّنائعُ كلُّها، حتَّى إنَّهُ ربَّما لا يُسَلِّمُ عليهِ مَن كانَ يَدْأَبُ في خدمتِهِ ويَسْعى في مصالحِهِ.

وقد أكْثَرَ النَّاسُ مِن هٰذا المعنى في أشعارِهِم وكلامِهِم:

وفي مثلِ قولِهِم «مَن وَدَّكَ لأمرٍ مَلَّكَ عندَ ٱنقضائِهِ» قالَ بعضُ العربِ:

وَكانوا[1] بَنو عَمِّي يَقولونَ مَرْحَبا فَلَمَّا رَأَوْني مُعْسِرًا ماتَ مَرْحَبُ

ومِن هٰذا ما قيلَ: إذا أكْرَمَكَ النَّاسُ لمالٍ أو سلطانٍ؛ فلا يُعْجِبَنَّكَ ذٰلكَ؛ فإنَّ زوالَ الكرامةِ بزوالِهِما، ولٰكنْ لِيُعْجِبْكَ إنْ أكْرَموكَ لعلمٍ أو دينٍ.

وهٰذا أمرٌ لا يُنْكَرُ في النَّاسِ، حتَّى إنَّهُم لَيُكْرِمونَ الرَّجلَ لثيابِهِ، فإذا نَزَعَها؛ لمْ يَرَ منهُم تلكَ الكرامةَ وهوَ [هوَ]!

قالَ[2] مالكٌ: [بَلَغَني] أنَّ أبا هُرَيْرَةَ دُعِيَ إلى وليمةٍ فأتى فحُجِبَ، [فرَجَعَ] فلبسَ غيرَ تلكَ الثِّيابِ فأُدْخِلَ، فلمَّا وُضِعَ الطَّعامُ؛ أدْخَلَ كمَّهُ في الطَّعامِ! فعوتِبَ في ذٰلكَ! فقالَ: إنَّ هٰذهِ الثِّيابَ هيَ التي أُدْخِلَتْ فهيَ تَأْكُلُ. حَكاهُ ابنُ مُزَيْنٍ الطُّلَيْطُلِيُّ في «كتابه».

وهٰذا بخلافِ صنيعةِ العلمِ؛ فإنَّها لا تَزولُ أبدًا، بل كلُّ ما لها في زيادةٍ، ما لمْ يُسْلَبْ ذٰلكَ العالِمُ علمَهُ.

وصنيعةُ العلمِ والدِّينِ أعظمُ مِن صنيعةِ المالِ؛ لأنَّها تكونُ بالقلبِ واللسانِ والجوارحِ، فهيَ صادرةٌ عن حبٍّ وإكرامٍ لأجلِ ما أوْدَعَهُ اللهُ تَعالى إيَّاهُ مِن علمِهِ وفَضَّلَهُ بِهِ على غيرِهِ.

وأيضًا؛ فصنيعةُ العلمِ تابعةٌ لنفسِ العالِمِ وذاتِهِ، وصنيعةُ المالِ تابعةٌ لمالِهِ المنفصلِ عنهُ.

وأيضًا؛ فصنيعةُ المالِ صنيعةُ معاوضةٍ، وصنيعةُ العلمِ والدِّينِ صنيعةُ حبٍّ

---

(١) في خ: «معنى أنّ كلّ صنيعة... لأمر ولّى عند... وكان»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٢) في خ: «ولٰكن ليعجبْك... كما قال»، والتصويب من ط.

وتقرُّبٍ وديانةٍ.

وأيضًا؛ فصنيعةُ المالِ تكونُ معَ البرِّ والفاجرِ والمؤمنِ والكافرِ، وأمَّا صنيعةُ العلمِ والدِّينِ فلا تكونُ إلاَّ معَ أهلِ ذٰلكَ.

وقد يُرادُ مِن هٰذا أيضًا معنًى آخرُ، وهو أنَّ مَنِ ٱصْطَنَعْتَ إليهِ صنيعةً بمالكَ، إذا زالَ ذٰلكَ المالُ وفارَقَهُ؛ عَدِمَتْ صنيعتُكَ /خ٢٢٢/ عندَهُ، وأمَّا مَنِ ٱصْطَنَعْتَ إليهِ صنيعةَ علمٍ وهدًى؛ فإنَّ تلكَ الصَّنيعةَ لا تُفارِقُهُ أبدًا بل تُرى في كلِّ وقتٍ كأنَّكَ أَسْدَيْتَها إليهِ حينئذٍ.

* **قولُهُ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: «ماتَ خزَّانُ الأموالِ وهُم أحياءٌ»**: قد تَقَدَّمَ بيانُهُ.

* **وكذٰلكَ قولُهُ: «والعلماءُ باقونَ ما بَقِيَ الدَّهرُ»**.

* **وقولُهُ: «أعيانُهُم مفقودةٌ، وأمثالُهُم في القلوبِ موجودةٌ»**:

المرادُ بـ«أمثالِهِم» صورُهُمُ العلميَّةُ ووجودُهُمُ المثاليُّ[1]؛ أي: وإنْ فُقِدَتْ ذواتُهُم؛ فصورُهُم وأمثالُهُم في القلوبِ لا تُفارِقُها. وهٰذا هوَ الوجودُ الذِّهنيُّ العلميُّ. لأنَّ محبَّةَ النَّاسِ لهُم وٱقتداءَهُم بهِم وٱنتفاعَهُم بعلومِهِم يوجِبُ أنْ لا يَزالوا نُصْبَ عيونِهِم وقِبْلَةَ قلوبِهِم، فهُم موجودونَ معَهُم وحاضرونَ عندَهُم وإنْ غابَتْ عنهُم أعيانُهُم، كما قيلَ:

وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّي أَحِنُّ إِلَيْهِمُ ... وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيتُ وَهُمْ مَعِي
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوادِها ... وَيَشْتاقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِي

وقالَ آخرُ:

وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ يَشْكُوَ البُعْدَ عاشِقٌ ... وَهَلْ غابَ عَنْ قَلْبِ المُحِبِّ حَبِيبُ
خَيالُكَ فِي عَيْنِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي ... وَمَثْواكَ فِي قَلْبِي فَأَيْنَ تَغِيبُ

* **قولُهُ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: «آهٍ، إنَّ هاهُنا علمًا، وأشارَ إلى صدرِهِ»**:

يَدُلُّ على جوازِ إخبارِ الرَّجلِ بما عندَهُ مِن العلمِ والخيرِ لِيُقْتَبَسَ منهُ ولِيُنْتَفَعَ بهِ.

---

(١) في ط: «ٱصطنعت عنده صنيعة بمالك...»، وفي خ: «... خزّان المال... الماليّ».

ومنهُ قولُ يوسُفَ [الصِّدِّيقِ] عليهِ [الصَّلاةُ و]السَّلامُ: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

فمَن أخْبَرَ عن نفسِهِ بمثلِ ذٰلكَ لِيُكَثِّرَ بِهِ ما يُحِبُّهُ اللهُ ورسولُهُ مِن الخيرِ؛ فهوَ محمودٌ، و[هٰذا غيرُ] مَن أخْبَرَ بذٰلكَ لِيَتَكَبَّرَ بِهِ عندَ النَّاسِ ويَتَعَظَّمَ. وهٰذا يُجازيهِ اللهُ بمقتِ النَّاسِ لهُ وصِغَرِهِ في أعينِهِم، والأوَّلُ يُكَبِّرُهُ في قلوبِهِم وعيونِهِم، وإنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ. وكذٰلكَ إذا أثْنى الرَّجلُ على نفسِهِ لِيَخْلُصَ بذٰلكَ مِن مَظْلَمَةٍ وشرٍّ، أو لِيَسْتَوْفِيَ بذٰلكَ حقًّا لهُ يَحْتاجُ فيهِ إلى التَّعريفِ بحالِهِ، أو لِيَقْطَعَ عنهُ أطماعَ السَّفِلَةِ فيهِ، أو عندَ خطبتِهِ إلى مَن لا يَعْرِفُ حالَهُ. والأحسنُ /خ٢٢٣/ في هٰذا أنْ يُوَكِّلَ مَن يُعَرِّفُ بِهِ وبحالِهِ، فإنَّ لسانَ ثناءِ المرءِ على نفسِهِ قصيرٌ، وهوَ في الغالبِ مذمومٌ؛ لِما يَقْتَرِنُ بِهِ مِن الفخرِ والتَّعاظُمِ.

ثمَّ ذَكَرَ أصنافَ حملةِ العلمِ الذينَ لا يَصْلُحونَ لحملِهِ، وهُم أربعةٌ:

* **أحدُهُم: مَن ليسَ بمأمونٍ[(١)] عليهِ**، وهوَ الذي أُوتِيَ ذكاءً [وحفظًا ولٰكنْ معَ ذٰلكَ لمْ يُؤْتَ زكاءً]، فهوَ يَتَّخِذُ العلمَ الذي هوَ آلةُ الدِّينِ آلةَ الدُّنيا يَسْتَجْلِبُها بِهِ ويَتَوَسَّلُ بالعلمِ إليها، ويَجْعَلُ البضاعةَ التي هيَ مُتَّجَرُ الآخرةِ مُتَّجَرَ الدُّنيا. وهٰذا غيرُ أمينٍ على ما حَمَلَهُ مِن العلمِ، ولا يَجْعَلُهُ اللهُ إمامًا فيهِ قطُّ؛ فإنَّ الأمينَ هوَ الذي لا غرضَ لهُ ولا إرادةَ لنفسِهِ إلَّا ٱتِّباعُ الحقِّ وموافقتُهُ، فلا يَدْعو إلى إقامةِ رياستِهِ[(٢)] ولا دنياهُ. وهٰذا الذي قدِ ٱتَّخَذَ بضاعةَ الآخرةِ ومُتَّجَرَها مُتَّجَرًا للدُّنيا قد خانَ اللهَ وخانَ عبادَهُ [وخانَ دينَهُ]، فلهٰذا قالَ: «غيرَ مأمونٍ عليهِ».

وقولُهُ: «يَسْتَظْهِرُ بحججِ اللهِ على كتابِهِ، وبنعمِهِ على عبادِهِ»:

هٰذهِ صفةُ هٰذا الخائنِ[(٣)]: إذا أنْعَمَ [اللهُ] عليهِ؛ ٱسْتَظْهَرَ بتلكَ النِّعمةِ على النَّاسِ، وإذا تَعَلَّمَ علمًا؛ ٱسْتَظْهَرَ بِهِ على كتابِ اللهِ.

---

(١) في ط: «أخبر بذٰلك ليتكثّر... وصغره في عيونهم...»، وفي خ: «... ليس هو بمأمون».
(٢) في خ: «آلة الدنيا يستحلّها به... فلا بدّ إلى إقامة رياسته»، وفي ط: «... قيام رياسته».
(٣) في ط: «هٰذه صفحة هٰذا الخائن»، وفي خ: «هٰذا صفة هٰذا الخائن».

ومعنى آستظهارِهِ بالعلمِ على كتابِ اللهِ تحكيمُهُ عليهِ وتقديمُهُ وإقامتُهُ دونَهُ. [و]هٰذِهِ حالُ كثيرٍ ممَّن يَحْصُلُ لهُ علمٌ؛ فإنَّهُ يَسْتَغْني بِهِ ويَسْتَظْهِرُ بِهِ وبحكمِهِ ويَجْعَلُ كتابَ اللهِ تبعًا لهُ. يُقالُ: آسْتَظْهَرَ فلانٌ على كذا بكذا؛ أي: ظَهَرَ عليهِ [بهِ] وتَقَدَّمَ فجَعَلَهُ وراءَ ظهرِهِ. وليسَتْ هٰذِهِ حالَ العلماءِ؛ فإنَّ العالِمَ حقًّا يَسْتَظْهِرُ بكتابِ اللهِ على كلِّ ما سواهُ، فيُقَدِّمُهُ ويُحَكِّمُهُ ويَجْعَلُهُ إمامَهُ ويَجْعَلُهُ عيارًا على غيرِهِ [و]مهيمنًا[1] عليهِ كما جَعَلَهُ اللهُ [تعالى] كذٰلكَ. فالمستظهرُ بهِ موفَّقٌ سعيدٌ، والمستظهرُ عليهِ مخذولٌ شقيٌّ.

فمَنِ آسْتَظْهَرَ على الشَّيءِ؛ فقد جَعَلَهُ خلفَ ظهرِهِ مقدِّمًا عليهِ ما آسْتَظْهَرَ بهِ، وهٰذا حالُ مَنِ آشْتَغَلَ بغيرِ كتابِ اللهِ عنهُ وآكْتَفى بغيرِهِ [منهُ] وقَدَّمَ غيرَهُ وأخَّرَهُ.

*** الصِّنفُ الثَّاني مِن حملةِ العلمِ: المنقادُ [لهُ] الذي لمْ يَثْلَجْ لهُ صدرُهُ** /خ٢٢٤/ **ولمْ يَطْمَئِنَّ بهِ قلبُهُ**، بل هوَ ضعيفُ البصيرةِ فيهِ، لٰكنَّهُ منقادٌ لأهلِهِ. وهٰذِهِ حالُ أتباعِ الحقِّ مِن مقلِّديهم. وهٰؤلاءِ، وإنْ كانوا على سبيلِ نجاةٍ، فلَيْسوا مِن دعاةِ الدِّينِ، وإنَّما هُم مِن مكثِّري سوادِ الجيشِ لا مِن أُمرائِهِ وفرسانِهِ.

والمنقادُ: منفعلٌ مِن قادَهُ يَقودُهُ، وهوَ مطاوعُ الثُّلاثيِّ، وأصلُهُ مُنْقَيِدٌ[2] كمكتسِبٍ، ثمَّ أُعِلَّتِ الياءُ ألفًا لحركتِها بعدَ فتحةٍ فصارَ منقادٌ[3]، تَقولُ: قُدْتُهُ فآنْقادَ؛ أي: لمْ يَمْتَنِعْ.

والأحناءُ: جمعُ حِنْوٍ بوزنِ علمٍ، وهيَ الجوانبُ والنَّواحي، والعربُ تَقولُ: آزْجُرْ أحناءَ طيرِكَ؛ أي: آمْسِكْ نواحيَ خفَّتِكَ وطيشِكَ يمينًا وشمالاً وأمامًا وخلفًا. قالَ لَبيدٌ:

فَقُلْتُ آزْدَجِرْ أَحْنَاءَ طَيْرِكَ وَآعْلَمَنْ ... بِأَنَّكَ إنْ قَدَّمْتَ رِجْلَكَ عاثِرُ

---

(١) في خ: «آستظهر فلان على كذا وكذا. . .»، وفي ط: «. . . غيره مهيمنًا».

(٢) في خ: «سواد الجنس. . . مفتعل منقاد يقوده. . . وأصله مقيّد»! وفي ط: «. . . مطاوع الثاني. . .»! والمطاوع: فعل يصاغ من الثلاثيّ على وزن آنفعل مثل: كسرته فآنكسر، وقسمته فآنقسم.

(٣) كذا بالرفع، وهو جائز على الحكاية، والنصب أقوى وأيسر. وفي ط: «بعد الفتحة. . .».

والطَّيرُ هنا الخفَّةُ والطَّيشُ.

وقولُهُ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: «يَنْقَدِحُ الشَّكُّ في قلبِهِ بأوَّلِ عارضٍ مِن شبهةٍ»:

هٰذا لضعفِ علمِهِ وقلَّةِ بصيرتِهِ، إذا وَرَدَتْ على قلبِهِ أدنى شبهةٍ؛ قَدَحَتْ فيهِ الشَّكَّ [والرَّيبَ]. بخلافِ الرَّاسخِ في العلمِ، لو وَرَدَتْ عليهِ مِن الشُّبَهِ[1] بعددِ أمواجِ البحرِ؛ ما أزالَتْ يقينَهُ ولا قَدَحَتْ فيهِ شكًّا؛ لأنَّهُ قد رَسَخَ في العلمِ، فلا تَسْتَقِرُّ بهِ الشُّبهاتُ، بل إذا وَرَدَتْ عليهِ؛ رَدَّها حرسُ العلمِ وجيشُهُ مغلولةً مغلوبةً.

والشُّبهةُ واردٌ يَرِدُ على القلبِ يَحولُ بينَهُ وبينَ ٱنكشافِ الحقِّ لهُ. فمتى باشَرَ القلبَ حقيقةُ العلمِ؛ لمْ تُؤَثِّرْ تلكَ الشُّبهةُ فيهِ، بل يَقْوى علمُهُ ويقينُهُ بردِّها ومعرفةِ بطلانِها. ومتى لمْ يُباشِرْ حقيقةُ العلمِ بالحقِّ قلبَهُ؛ قَدَحَتْ فيهِ الشَّكَّ بأوَّلِ وهلةٍ، فإنْ تَدارَكَها[2]، وإلاَّ؛ تَتابَعَتْ على قلبِهِ أمثالُها حتَّى يَصيرَ شاكًّا مرتابًا.

والقلبُ يَتوارَدُهُ جيشانِ مِن الباطلِ: جيشُ شهواتِ الغيِّ، وجيشُ شبهاتِ الباطلِ. فأيُّما [قلبٍ] صَغا إليها ورَكَنَ إليها؛ تَشَرَّبَها وٱمْتَلأَ بها فنَضَحَ[3] لسانُهُ وجوارحُهُ بموجَبِها. فإنْ أُشْرِبَ شبهاتِ الباطلِ؛ تَفَجَّرَتْ /خ٢٢٥/ على لسانِهِ الشُّكوكُ والشُّبهاتُ والإيراداتُ، فيَظُنُّ الجاهلُ أنَّ ذٰلكَ لسعةِ علمِهِ، وإنَّما ذٰلكَ مِن عدمِ علمِهِ ويقينِهِ.

وقالَ لي شيخُ الإسلامِ رَضِيَ اللهُ عنهُ وقد جَعَلْتُ أُوردُ عليهِ إيرادًا بعدَ إيرادٍ: لا تَجْعَلْ قلبَكَ للإيراداتِ والشُّبهاتِ مثلَ السِّفِنْجَةِ فيَتَشَرَّبَها فلا يَنْضَحَ إلاَّ بها، ولٰكنِ ٱجْعَلْهُ كالزُّجاجةِ المُصْمَتَةِ؛ تَمُرُّ الشُّبهاتُ بظاهرِها ولا تَسْتَقِرُّ فيها، فيَراها بصفائِهِ ويَدْفَعُها بصلابتِهِ. وإلاَّ، فإذا أَشْرَبْتَ قلبَكَ كلَّ شبهةٍ تَمُرُّ عليكَ؛ صارَ مقرًّا للشُّبهاتِ. أو كما قالَ. فما أَعْلَمُ أنِّي ٱنْتَفَعْتُ بوصيَّةٍ في دفعِ الشُّبهاتِ كٱنتفاعي بذٰلكَ[4].

---

(١) في خ: «والعرب تقول أرجو... نواحي خيثك وطيبك... وٱعلمن أنّك... الشبهة»!

(٢) يعني: فإن تداركها بطل أثرها. وحذف جواب الشرط لدلالة الكلام عليه كثير عند العرب. ويكون التدارك بسؤال أهل العلم.

(٣) في ط: «فلا تستقرّه الشبهات... فينضح»، وفي خ: «... إليها شربها وٱمتلأ...».

(٤) هٰذا كلام جليل ينبغي أن يشدّ طالب العلم عليه يدًا ولا يمرّ عليه كأنّه لا يعنيه.

وإنَّما سُمِّيَتِ الشُّبهةُ شبهةً لاشتباهِ الحقِّ بالباطلِ فيها؛ فإنَّها تُلْبَسُ ثوبَ الحقِّ على جسمِ الباطلِ. وأكثرُ النَّاسِ أصحابُ حُسْنٍ(١) ظاهرٍ(٢)، فيَنْظُرُ النَّاظرُ فيما أُلْبِسَتْهُ مِن اللباسِ فيَعْتَقِدُ صحَّتَها. وأمَّا صاحبُ العلمِ واليقينِ؛ فإنَّهُ لا يَغْتَرُّ بذٰلكَ، بل يُجاوِزُ نظرُهُ إلى باطِنِها وما تحتَ لباسِها فيَنْكَشِفُ لهُ حقيقتُها.

ومثالُ هٰذا الدِّرهمُ الزَّائفُ؛ فإنَّهُ يَغْتَرُّ بهِ الجاهلُ بالنَّقدِ نظرًا إلى ما عليهِ مِن لباسِ الفضَّةِ(٣)، والنَّاقدُ البصيرُ يُجاوِزُ نظرُهُ إلى ما وراءَ ذٰلكَ فيَطَّلِعُ على زيفِهِ. فاللفظُ الحسنُ الفصيحُ هوَ للشُّبهةِ بمنزلةِ اللباسِ مِن الفضَّةِ على الدِّرهمِ الزَّائفِ والمعنى كالنُّحاسِ الذي تحتَهُ. وكم قد قَتَلَ هٰذا الاغترارُ مِن خلقٍ لا يُحْصيهِم إلَّا اللهُ!

وإذا تأمَّلَ العاقلُ الفَطِنُ هٰذا القدرَ وتَدَبَّرَهُ؛ رأى أكثرَ النَّاسِ يَقْبَلُ المذهبَ والمقالةَ بلفظٍ ويَرُدُّها بعينِها بلفظٍ آخرَ. وقد رَأَيْتُ أنا مِن هٰذا في كتبِ النَّاسِ ما شاءَ اللهُ!

وكم [قد] رُدَّ مِنَ الحقِّ بتشنيعِهِ بلباسٍ مِن اللفظِ قبيحٍ!

وفي مثلِ هٰذا قالَ أئمَّةُ السُّنَّةِ ـ منهُمُ الإمامُ أحْمَدُ وغيرُهُ ـ: لا نُزيلُ عنِ اللهِ [تَعالى] صفةً مِن صفاتِهِ لأجلِ شناعةٍ شُنِّعَتْ.

فهٰؤلاءِ الجهميَّةُ يُسَمُّونَ إثباتَ صفاتِ الكمالِ للهِ مِن حياتِهِ وعلمِهِ وكلامِهِ /خ٢٢٦/ وسمعِهِ وبصرِهِ وسائرِ ما وَصَفَ بِهِ نفسَهُ تشبيهًا وتجسيمًا ومَن أثْبَتَ ذٰلكَ مشبِّهًا! فلا يَنْفِرُ مِن هٰذا المعنى الحقِّ لأجلِ هٰذهِ التَّسميةِ الباطلةِ إلَّا العقولُ الصَّغيرةُ القاصرةُ خفافيشُ البصائرِ!

وكلُّ أهلِ نِحْلَةٍ ومقالةٍ يَكْسونَ نِحْلَتَهُم ومقالتَهُم أحسنَ ما يَقْدِرونَ [عليهِ] مِن الألفاظِ ومقالةَ مخالفيهِم أقبحَ ما يَقْدِرونَ عليهِ مِن الألفاظِ(٤). ومَن رَزَقَهُ اللهُ بصيرةً فهوَ

---

(١) في خ: «إيرادات بعد إيرادات... فيشربها... بحسن»، وفي ط: «... تمرّ عليها...».

(٢) أصحاب حسن ظاهر: تَخْدَعُهم المظاهر الخارجيّة والأشكال البرّاقة ولا يرون ما وراءها من سوء المخبر وفساد الباطن.

(٣) في خ: «فيكشف له حقيقتها... اللباس الفضّة».

(٤) إلاّ أهل الحديث والسنّة؛ فإنّهم يذكرون ما لهم وما عليهم لكمال إنصافهم وعدلهم.

يَكْشِفُ بها حقيقةَ ما تحتَ تلكَ الألفاظِ مِن الحقِّ والباطلِ ولا يَغْتَرُّ باللفظِ، كما قيلَ في هٰذا المعنى:

تَقُولُ هٰذا جَنى النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإِنْ تَشَأْ قُلْتَ ذا[١] قَيْءُ الزَّنابيرِ
مَدْحًا وذَمًّا وَما جاوَزْتَ وَصْفَهُما ... وَالحَقُّ قَدْ يَعْتَريهِ سوءُ تَعْبيرِ

فإذا أَرَدْتَ الاطِّلاعَ على كنهِ المعنى هل هوَ حقٌّ أو باطلٌ؛ فجَرِّدْهُ مِن لباسِ العبارةِ، وجَرِّدْ قلبَكَ مِن النَّفرةِ والميلِ، ثمَّ أعطِ النَّظرَ حقَّهُ، ناظرًا بعينِ الإنصافِ[٢]، ولا تَكُنْ ممَّنْ يَنْظُرُ في مقالةِ أصحابِهِ ومَن يُحَسِّنُ ظنَّهُ [به] نظرًا تامًّا بكلِّ قلبِهِ، ثمَّ يَنْظُرُ في مقالةِ خصومِهِ ومَن يُسيءُ ظنَّهُ بهِ كنظرِ الشَّزْرِ والملاحظةِ، فالنَّاظرُ بعينِ العداوةِ يَرى المحاسنَ مساوئَ، والنَّاظرُ بعينِ المحبَّةِ عكسُهُ، وما سَلِمَ مِن هٰذا إلَّا مَن أرادَ اللهُ كرامتَهُ وٱرْتَضاهُ لقبولِ الحقِّ.

وقد قيلَ:

وَعَيْنُ[٣] الرِّضى عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَليلةٌ ... كَما أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدي المَساوِيا

وقالَ آخرُ:

نَظَروا بِعَيْنِ عَداوةٍ [و]لَوَ ٱنَّها ... عَيْنُ الرِّضى لاسْتَحْسَنوا ما ٱسْتَقْبَحوا

فإذا كانَ هٰذا [في] نظرِ العينِ الذي يُدْرِكُ المحسوساتِ ولا يَتَمَكَّنُ مِن المكابرةِ فيها؛ فما الظَّنُّ بنظرِ القلبِ الذي يُدْرِكُ المعانيَ التي هيَ عرضةُ المكابرةِ؟!

واللهُ المستعانُ على معرفةِ الحقِّ وقبولِهِ وردِّ الباطلِ وعدمِ الاغترارِ بهِ.

وقولُهُ «بأوَّلِ عارضٍ مِن شبهةٍ»: هٰذا دليلٌ على ضعفِ عقلِهِ ومعرفتِهِ؛ إذْ تُؤَثِّرُ فيهِ البَدَواتُ وتَسْتَفِزُّهُ أوائلُ الأُمورِ، بخلافِ الثَّابتِ /خ٢٢٧/ التَّامِّ العقلِ؛ فإنَّهُ لا تَسْتَفِزُّهُ البَدَواتُ ولا تُزْعِجُهُ وتُقْلِقُهُ.

---

(١) في ط: «وكم ردّ من الحقّ...»، وفي خ: «... أهل خلّه ومقالة يكسون خلّتهم... هٰذا».
(٢) وهٰذه فائدة عظيمة حريّ بطالب العلم أن يتنفع بها في كلّ ما يرد عليه من الأقوال والمذاهب، وهي قريبة جدًّا ممّا يعرف اليوم بالمنهج التحليلي في دراسة النصوص.
(٣) في خ: «قلبك عن النفرة والميل وأعط... والملاحظة فالنظر بعين... فعين».

فإنَّ للباطلِ دهشةً وروعةً في أوَّلِهِ، فإذا ثَبَتَ لهُ القلبُ؛ رُدَّ على عقبِهِ، واللهُ يُحِبُّ مِن عبدِهِ الحِلْمَ والأناةَ[1]، فلا يَعْجَلُ، بل يَثْبُتُ حتَّى يَعْلَمَ ويَسْتَيْقِنَ ما وَرَدَ عليهِ، ولا يَعْجَلُ بأمرٍ مِن قبلِ ٱستحكامِهِ، فالعجلةُ والطَّيشُ مِن الشَّيطانِ. فمَن ثَبَتَ عندَ صدمةِ البَدَواتِ؛ ٱسْتَقْبَلَ أمرَهُ بعلمٍ وحزمٍ، ومَن لمْ يَثْبُتْ لها؛ ٱسْتَقْبَلَهُ بعجلةٍ وطيشٍ، وعاقبتُهُ النَّدامةُ، وعاقبةُ الأوَّلِ حمدُ أمرِهِ.

ولٰكنَّ للأوَّلِ آفةً، متى قُرِنَت بالحزمِ والعزمِ؛ نَجا منها، وهيَ الفَوْتُ؛ فإنَّهُ لا يُخافُ مِنَ التَّثَبُّتِ إلاَّ الفوتُ، فإذا ٱقْتَرَنَ بِهِ العزمُ والحزمُ؛ تَمَّ أمرُهُ.

ولهٰذا في الدُّعاءِ الذي رَواهُ الإمامُ أحْمَدُ والنَّسائِيُّ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «اللهمَّ! إنِّي أسْألُكَ الثَّباتَ في الأمرِ والعزيمةَ على الرُّشدِ»[2]. وهاتانِ الكلمتانِ هُما جُمَّاعُ الفلاحِ،

---

(١) في ط: «عداوة لو أنّها... البداءات... التامّ العاقل... البداءات... فإنّ الباطل له دهشة... العلم والأناة»، وفي خ: «... الذي هو يدرك... التامّ العاقل... بالقلب ردّ على عقبه...».

(٢) (صحيح). رواه: أحمد (٤/ ١٢٥)، والترمذي (٤٩ـ الدعوات، ٢٣ـ باب، ٥/ ٤٧٦/ ٣٤٠٧)، والنسائي (١٣ـ السهو، ٦١ـ نوع آخر من الدعاء، ٣/ ٥٤/ ١٣٠٣)، وابن حبّان (١٩٧٤)، والطبراني (٧/ ٢٩٣/ ٧١٧٥-٧١٨٠)، والحاكم في «المعرفة» (ص٢٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٦٧)؛ من طرق، عن الجريري، عن يزيد بن عبدالله بن الشخّير، [عن رجل]، عن شدّاد بن أوس... رفعه. وهٰذا ضعيف من أجل الرجل المبهم، وقد ٱختلفوا فيه على أوجه لا تضرّ السند ولا تنفعه فأغنانا عن التفصيل فيها. وقال الترمذي: «إنّما نعرفه من هٰذا الوجه». قلت: بلى؛ قد جاء من أوجه أخر عدّة:

فرواه: ابن أبي شيبة (٢٩٣٤٩)، وأحمد (٤/ ١٢٣)، والخرائطي في «الشكر» (ص٣٤)، وابن حبّان (٩٣٥)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٢٨٧/ ٧١٥٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٦، ٦/ ٧٧)؛ من طرق، عن الأوزاعي، عن حسّان بن عطيّة، عن شدّاد بن أوس... رفعه. وهٰذا منقطع، حسّان لم يدرك شدّادًا. وقد صرّح سويد بن عبدالعزيز في روايته عن الأوزاعي أنّ بينهما مسلم بن مشكم، وهو ثقة، ولٰكنّ سويدًا ضعيف جدًّا في حدّ الترك لا يلتفت لزيادته. فبقي السند منقطعًا، ومن المحتمل أن يكون حسّان تلقّاه عن الرجل المبهم في الطريق الأولى فتكون الطريقان واحدة.

ورواه الحاكم (١/ ٥٠٨) من طريق محمّد بن سنان القزّاز، ثنا عمر بن يونس اليمامي، ثنا عكرمة بن عمّار، سمعت شدّادًا أبا عمّار، عن شدّاد بن أوس... رفعه. قال الحاكم والذهبي: «على شرط مسلم». قلت: لٰكنّ القزّاز ضعيف.

ورواه: الطبراني (٧/ ٢٧٩/ ٧١٣٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٦)؛ من طريقين، عن سليمان بن عبدالرحمٰن، ثنا إسماعيل بن عيّاش، ثنا محمّد بن يزيد الرحبي، عن أبي الأشعث شراحيل بن آدة، عن شدّاد... رفعه. وهٰذا سند لا بأس به: سليمان لا بأس به إن روى عن ثقة، وإسماعيل لا بأس به إن روى عن=

وما أُتِيَ العبدُ إلَّا مِن تضييعِهما أو تضييعِ أحدِهما. فما أُتِيَ [أحدٌ] إلَّا مِن بابِ العجلةِ والطَّيشِ واستفزازِ البَدَواتِ لهُ، أو مِن بابِ التَّهاونِ والتَّماوتِ وتضييعِ الفرصةِ بعدَ مُواتاتِها. فإذا حَصَلَ [لهُ] الثَّباتُ أوَّلاً والعزيمةُ[1] ثانيًا؛ أفْلَحَ كلَّ الفلاحِ. واللهُ وليُّ التَّوفيقِ.

* **الصِّنفُ الثَّالثُ: رجلٌ نهمتُهُ في نيلِ لذَّتِهِ**، فهوَ منقادٌ لداعي الشَّهوةِ أينَ كانَ. [و]لا يُنالُ درجةُ وراثةِ النُّبوَّةِ معَ ذٰلكَ، ولا يُنالُ العلمُ إلَّا بهجرِ اللذَّاتِ وتطليقِ الرَّاحةِ. قالَ مُسْلِمٌ في «صحيحه»: قالَ يَحْيى بنُ أبي كَثِيرٍ: لا يُنالُ العلمُ براحةِ الجسمِ. وقالَ إبْراهيمُ الحَرْبِيُّ: أجْمَعَ عقلاءُ كلِّ أُمَّةٍ أنَّ النَّعيمَ لا يُدْرَكُ بالنَّعيمِ، ومَن آثَرَ الرَّاحةَ فاتَتْهُ الرَّاحةُ.

فما لصاحبِ اللذَّاتِ وما لدرجةِ وراثةِ[2] الأنبياءِ؟!

فَدَعْ عَنْكَ الكِتابَةَ لَسْتَ مِنْها ... وَلَوْ سَوَّدْتَ وَجْهَكَ بِالمِدادِ

فإنَّ العلمَ صناعةُ القلبِ وشغلُهُ، فما لمْ يَتَفَرَّغْ لصناعتِهِ وشغلِهِ؛ لمْ يَنَلْها[3].

ولهُ[4] وجهةٌ واحدةٌ، فإذا وُجِّهَتْ وجهتُهُ إلى اللذَّاتِ والشَّهواتِ؛ انْصَرَفَتْ /خ٢٢٨/ عنِ العلمِ.

وما لمْ تَغْلِبْ لذَّةُ إدراكِهِ للعلمِ وشهوتُهُ على لذَّةِ جسمِهِ وشهوةِ نفسِهِ؛ لمْ يَنَلْ درجةَ العلمِ أبدًا، فإذا صارَتْ شهوتُهُ في العلمِ ولذَّتُهُ في إدراكِهِ؛ رُجِيَ لهُ أنْ يَكونَ مِن

= أهل بلده وهٰذا كذٰلك، والرحبي صدوق، وشراحيل ثقة.

وللحديث طرق أخرى عند أبي نعيم (١/ ٢٦٥ و٢٦٧) وابن عساكر (٢٢/ ٤١٢)، وشاهد من حديث البراء بن عازب في «الأوسط» (٧٤٠٤) و«الكبير» (٢/ ٢٥/ ١١٧٢)، ولٰكنّها واهية لا تفيد الحديث كبير شيء فلا أطوّل عليك بتفصيلها، وحسبك ما تقدّم لتقوية الحديث، ولا سيّما الوجه الأخير؛ فإنّه حسن لذاته أو يكاد، والحديث صحيح بمجموع طرقه، وقد قوّاه ابن حبّان والحاكم والذهبي والعسقلاني، وأمّا الألباني؛ فأعلّه بالجهالة وأودعه في «ضعيف الترمذي»، ولو تفرّغ لجمع طرقه؛ لكان له غالبًا موقف آخر. والله أعلم.

(١) في خ: «وهي الفوات...»، وفي ط: «... من التثبيت... البداوات... والعزم».

(٢) في خ: «ورثة النبوّة... براحة الجسد... ورثة»، وفي ط: «... لا يدرك بالنعم...».

(٣) يعني درجة العلم كما سيأتي قريبًا.

(٤) يعني للقلب.

جملةِ أهلِهِ.

ولذَّةُ العلمِ لذَّةٌ عقليَّةٌ روحانيَّةٌ مِن جنسِ لذَّةِ الملائكةِ، ولذَّةُ شهواتِ الأكلِ والشَّرابِ والنِّكاحِ لذَّةٌ حيوانيَّةٌ يُشارِكُ الإنسانَ فيها الحيوانُ، ولذَّةُ الشَّرِّ والظُّلمِ والفسادِ والعلوِّ في الأرضِ [لذَّةٌ] شيطانيَّةٌ يُشارِكُ صاحبَها فيها إبليسُ وجنودُهُ.

وسائرُ اللذَّاتِ تَبْطُلُ بمفارقةِ الرُّوحِ البدنَ؛ إلاَّ لذَّةَ العلمِ والإيمانِ؛ فإنَّها تَكْمُلُ بعدَ المفارقةِ؛ لأنَّ البدنَ وشواغلَهُ كانَ يَنْقُصُها ويُقَلِّلُها ويَحْجبُها، فإذا ٱنْطَوَتِ الرُّوحُ عنِ البدنِ؛ ٱلْتَذَّتْ لذَّةً كاملةً بما حَصَّلَتْهُ مِن العلمِ النَّافعِ والعملِ الصَّالحِ. فمَن طَلَبَ اللذَّةَ العظمى وآثَرَ النَّعيمَ المقيمَ؛ فهوَ في العلمِ [النَّافعِ] والإيمانِ اللذَينِ بهِما كمالُ سعادةِ الإنسانِ.

وأيضًا؛ فإنَّ تلكَ اللذَّاتِ سريعةُ [الزَّوالِ]، وإذا ٱنْقَضَتْ؛ أعْقَبَتْ همًّا وغمًّا وألمًا يَحْتاجُ صاحبُها [أنْ] يُداوِيَهُ بمثلِها دفعًا لألمِهِ، وربَّما كانَ معاودتُهُ لها مؤلمًا لهُ كريهًا إليهِ لٰكنْ يَحْمِلُهُ عليهِ مداواةُ ذٰلكَ[1] الغمِّ والهمِّ. فأينَ هٰذا مِن لذَّةِ العلمِ ولذَّةِ الإيمانِ باللهِ ومحبَّتِهِ والإقبالِ عليهِ والتَّنعُّمِ بذكرِهِ؟! فهٰذهِ هيَ اللذَّةُ الحقيقيَّةُ.

* **الصِّنفُ الرَّابعُ: مَن حرصُهُ وهمَّتُهُ في جمعِ الأموالِ وتثميرِها وٱدِّخارِها،** فقد صارَتْ لذَّتُهُ في ذٰلكَ، وفَنِيَ بِهِ عمَّا سواهُ، فلا يَرى شيئًا أطيبَ لهُ ممَّا هوَ فيهِ، فأينَ هٰذا ودرجةُ العلمِ؟!

فهٰؤلاءِ الأصنافُ الأربعةُ ليسوا مِن دعاةِ الدِّينِ ولا مِن أئمَّةِ العلمِ ولا مِن طلبتِهِ الصَّادقينَ في طلبِهِ[2].

ومَن تَعَلَّقَ منهُم بشيءٍ منهُ؛ فهوَ مِن المتسلِّقينَ عليهِ، المتشبِّهينَ بحملتِهِ وأهلِهِ، المدَّعينَ لوصالِهِ، [المبتوتينَ مِن حبالِهِ][3].

---

(١) في ط: «الأرض شيطانية... العلم والإيمان اللذين...»، وفي خ: «... مداومة ذٰلك».

(٢) فقف يا طالب العلم وقفة صدق مع نفسك التي بين جنبيك، وقايس بينها وبين هٰذه الأصناف الأربعة، وٱنظر أولاها بها، فإن وجدت خيرًا؛ فٱحمد الله سبحانه، وإن وجدت غير ذٰلك؛ فتولَّ علاجه ما ٱستطعت قبل فوات الأوان، ولا تجعل من نفسك هُزَأة للشيطان.

(٣) اللهم! فلا تجعلني منهم. اللهم! فلا تجعلني منهم.

وفتنةُ هٰؤلاءِ فتنةٌ[١] لكلِّ مفتونٍ؛ فإنَّ النَّاسَ يَتَشَبَّهونَ بهِم لِما يَظُنُّونَ عندَهُم مِن العلمِ /خ٢٢٩/ ، ويقولونَ: لَسْنا خيرًا منهُم ولا نَرْغَبُ بأنفسِنا عنهُم! فهُم حجَّةٌ لكلِّ مفتونٍ. ولهٰذا قالَ فيهِم بعضُ الصَّحابةِ [الكرامِ]: آحْذَروا فتنةَ العالِمِ الفاجرِ والعابدِ الجاهلِ؛ فإنَّ فتنتَهُما فتنةٌ لكلِّ مفتونٍ.

وقولُهُ: «أقربُ شَبَهًا بهِمُ الأنعامُ السَّائمةُ»:

هٰذا التَّشبيهُ مأْخوذٌ مِن قولِهِ تَعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤]، فما آقْتَصَرَ سبحانَهُ على تشبيهِهِم بالأنعامِ حتَّى جَعَلَهُم أضلَّ سبيلاً منهُم. والسَّائمةُ الرَّاعيةُ. وشَبَّهَ أميرُ المؤمنينَ هٰؤلاءِ بها؛ لأنَّ همَّتَهُم في رعيِ الدُّنيا وحطامِها.

واللهُ تَعالى يُشَبِّهُ أهلَ الجهلِ والغيِّ: تارةً بالأنعامِ. وتارةً بالحُمُرِ، وهٰذا تشبيهٌ لمَن تَعَلَّمَ علمًا ولمْ يَعْقِلْهُ ولمْ يَعْمَلْ بهِ، فهوَ كالحمارِ الذي يَحْمِلُ أسفارًا. وتارةً بالكلبِ، وهٰذا لمَنِ آنْسَلَخَ مِن العلمِ وأخْلَدَ إلى الشَّهواتِ والهوى.

*** وقولُهُ: «كذٰلكَ يَموتُ العلمُ بموتِ حامليهِ»[٢]:**

هٰذا مِن قولِ النَّبيِّ ﷺ في حديثِ عَبْدِاللهِ بنِ عَمْرٍو وعائشةَ [رَضِيَ اللهُ عنهُم] وغيرِهِما: «إنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العلمَ آنتزاعًا يَنْتَزِعُهُ مِن صدورِ العلماءِ، ولٰكنْ يَقْبِضُ العلمَ بقبضِ العلماءِ، فإذا لمْ يَبْقَ عالمٌ؛ آتَّخَذَ النَّاسُ رؤساءَ جهَّالاً، فسُئِلوا، فأفْتَوْا بغيرِ علمٍ، فضَلُّوا وأضَلُّوا». رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه»[٣]. فذهابُ العلمِ إنَّما هوَ بذهابِ

---

(١) في خ: «وغني به عمّا سواه... فمن أين هٰذا ودرجة العلم... لوصاله فهٰؤلاء فتنة».

(٢) في ط: «السائمة وهٰذا... أنسلخ عن... حامله»، وفي خ: «... هٰؤلاء بهم لأنّ...».

(٣) (٣ـ العلم، ٣٤ـ كيف يقبض العلم، ١/١٩٤/١٠٠)، ومسلم (٤٧ـ العلم، ٥ـ رفع العلم وقبضه، ٤/٢٠٥٨/٢٦٧٣)؛ من حديث عبدالله بن عمرو.

وقد جاء في بعض طرق الحديث عند البخاري ومسلم: أنّ عائشة أرسلت عروة بن الزبير إلى ابن عمرو يسائله في الحديث، فحدّثه بهٰذا عن النبيّ ﷺ، فأعظمته وأنكرته، ثمّ أرسلته يسأله عنه في العام التالي، فحدّث به كما حدّث أوّل مرّة، فقالت: والله؛ لقد حفظ ابن عمرو (وفي رواية مسلم: ما أحسبه إلاّ قد صدق، أراه لم يزد فيه شيئًا ولم ينقص). فبان أنّها لم تسمع هٰذا من النبيّ ﷺ ورضي الله عنهم جميعًا.

نعم؛ رواه: البزّار (١٤٢ـ مختصر الزوائد) من طريق عبدالله بن صالح عن الليث، وأبو عوانة =

العلماءِ.

قالَ ابنُ مَسْعودٍ يومَ ماتَ عُمَرُ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: إنِّي لأحْسِبُ تسعةَ أعشارِ العلمِ [اليومَ] قد ذَهَبَتْ[١].

وقد تَقَدَّمَ قولُ عُمَرَ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: موتُ ألفِ عابدٍ أهونُ مِن موتِ عالمٍ بصيرٍ بحلالِ اللهِ وحرامِهِ.

* **وقولُهُ: «اللهمَّ! بلى؛ لن تَخْلُوَ الأرضُ مِن مجتهدٍ قائمٍ بحجج اللهِ»:**

ويَدُلُّ عليهِ الحديثُ الصَّحيحُ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «لا تزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي على الحقِّ، لا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم ولا مَن خالَفَهُم، حتَّى يَأْتِيَ أمرُ اللهِ وهُم على ذٰلكَ»[٢].

ويَدُلُّ عليهِ أيضًا ما رَواهُ التِّرْمِذِيُّ: عن قُتَيْبَةَ، حَدَّثَنا حَمَّادُ بنُ يَحْيى الأبَحُّ، عَن ثابتٍ /خ٢٣٠/ ، عن أنسٍ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مثلُ أُمَّتي مثلُ المطرِ لا يُدْرى أوَّلُهُ خيرٌ أمْ آخرُهُ»[٣]. قالَ: هٰذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، ويُرْوى عن عبدِالرَّحْمٰنِ بنِ

= (١٣/ ٢٨٥ـ فتح) من طريق شبيب بن سعيد؛ كلاهما عن يونس، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة. . . رفعته. قال البزّار: «تفرّد به يونس، ورواه معمر عن الزهريّ [عن عروة] عن ابن عمرو». وقال الهيثمي (١/ ٢٠٥): «فيه عبدالله بن صالح ضعيف». وقال العسقلاني: «وشبيب في حفظه شيء». وعليه؛ ففي الطريقين عن يونس ضعف، وفي رواية يونس عن الزهريّ وهم، وقد خالف معمرًا وغيره من الثقات في السند، وخالف مقتضى المتن المتقدّم في الصحيحين؛ فلا جرم أن عدّ العسقلاني روايته شاذّة والمحفوظ رواية الزهري وغيره للحديث من مسند ابن عمرو.

وقد جاء هٰذا أيضًا من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وأبي الدرداء وحذيفة وابن مسعود وأبي أمامة، وقد أغنتنا رواية الصحيحين عن التفصيل فيها، وإنّما ذكرتها متابعة للمصنّف رحمة الله عليه، فمن شاء التفصيل في مخارجها وألفاظها فعليه بالعسقلاني في «الفتح» (١٣/ ٢٨٥ـ٢٨٦).

(١) في ط: «ينتزعه من صدور الرجال. . . قد ذهب».

(٢) رواه: البخاري (٩٦ـ الاعتصام، ١٠ـ لا تزال طائفة ظاهرين، ١٣/ ٢٩٣/ ٧٣١١ و٧٣١٢) من حديث المغيرة ومعاوية، ورواه مسلم (٣٣ـ الإمارة، ٥٣ـ لا تزال طائفة، ٣/ ١٥٢٣/ ١٠٣٧ و١٩٢٠-١٩٢٥) من حديث ثوبان والمغيرة وجابر بن سمرة وجابر بن عبدالله ومعاوية وعقبة بن عامر وسعد. وأولاها بهٰذا اللفظ حديث معاوية رضي الله عنهم أجمعين.

(٣) (حسن صحيح). وقد جاء عن جماعة من الصحابة والتابعين:

* فرواه: الطيالسي (٢٠٢٣)، وأحمد في «المسند» (٣/ ١٣٠ و١٤٣) و«العلل» (٥٤٠٠ و٥٤٠١)، والترمذي (٤٥ـ كتاب الأمثال، ٦ـ باب، ٥/ ١٥٢/ ٢٨٦٩)، والعقيلي (١/ ٣٠٩)، وابن عدي (٢/ ٦٦٣)، والرامهرمزي في «المحدّث» (١/ ٣٤٦)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٣٣٠)، والقضاعي (١٣٥٢)، والبيهقي=

مَهْدِيٍّ أَنَّهُ كانَ يُثَبِّتُ حَمَّادَ بنَ يَحْيى الأَبَحَّ وكانَ يَقولُ: هوَ مِن شيوخِنا، وفي البابِ عن عمَّارٍ وعبدِاللهِ بنِ عَمْرٍو. فلو لمْ يَكُنْ في أواخرِ الأُمَّةِ قائمٌ بحججِ اللهِ مجتهدٌ؛ لمْ يَكونوا موصوفينَ بهٰذهِ الخيريَّةِ.

وأيضًا؛ فإنَّ هٰذهِ الأُمَّةَ أكملُ الأُممِ وخيرُ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ، ونبيُّها خاتمُ النَّبيِّينَ

= في «الزهد» (٤٠٠)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢٠/ ٢٥٣)، والرافعي في «التدوين» (١/ ٢٤٣ و٤٤٧)؛ من طرق، عن حمّاد بن يحيى الأبحّ، ثنا ثابت، عن أنس... رفعه. وهٰذا سند يمكن أن يعلّ من وجهين: **أحدهما**: قول الإمام أحمد: «خطأ، إنّما يروى هٰذا من حديث الحسن». **والآخر**: أنّ الأبحّ مقارب الحديث، لا يعدو أن يكون صالحًا في الشواهد.

لٰكنّه توبع فرواه: أبو يعلى (٣٤٧٥ و٣٧١٧)، والرامهرمزي في «الأمثال» (٦٨ و٦٩)؛ من طرق ثلاث يشدّ بعضها بعضًا، عن ثابت، عن أنس... رفعه. وهٰذه الطرق الثلاث وإن كانت مفرداتها لا تخلو من ضعف؛ فإنّ مجموعها لا ينحطّ عن أن يكون صالحًا في الشواهد.

وتوبع ثابت فرواه: ابن حبّان في «المجروحين» (٣/ ٩٠)، والطبراني في «الأوسط» (٤٠٧٠)، وابن عدي (٣/ ٩١٨، ٤/ ١٦٣٨)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٣٣١)، والدارقطني في «غرائب مالك» (٢٠/ ٢٥٤ ـ تمهيد)، والخليلي في «الإرشاد» (١٨٦)، والقضاعي (١٣٥١)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢٠/ ٢٥٤)، والخطيب في «التاريخ» (١١/ ١١٤)، وابن عساكر في «التاريخ» (٢٢٨٦ ـ صحيحة)، والضياء في «المنتقى» (٢٢٨٦ ـ صحيحة)؛ من طرق ثلاث واهية، عن أنس... رفعه.

* **وله شاهد عند**: الطيالسي (٦٤٧)، وأحمد (٤/ ٣١٩)، والبزّار (١٤١٢)، وابن حبّان (٧٢٢٦)، والبيهقي في «الزهد» (٣٩٩)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢٠/ ٢٥٣)؛ من طرق ثلاث، عن عمّار... رفعه. وإحدى طرقه حسنة في الشواهد، والحديث حسن بمجموع طرقه، وقد قوّاه البزّار والهيثمي.

* **وشاهد آخر**: رواه: البزّار (٢٠٧٥ ـ مختصر الزوائد)، والطبراني في «الأوسط» (٣٦٧٣)؛ من طريقين تقوّي إحداهما الأخرى، عن عمران... رفعه. وقوّاه البزّار والهيثمي والعجلوني.

* **وشاهد ثالث** رواه: الطبراني في «الكبير» (١٣٥٢ ـ حاشية الشهاب)، وابن عبدالبرّ (٢٠/ ٢٥٣)؛ من طريق ضعيفة عن ابن عمرو... رفعه.

* **وشاهد رابع**: رواه: الرامهرمزي في «الأمثال» (٧٠) من حديث عثمان بسند ضعيف.

* **وخامس**: رواه: ابن الأعرابي في «المعجم» (١١٢٢)، والسهمي في «التاريخ» (١/ ٤٣٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٣١)، والقضاعي (١٣٤٩ و١٣٥٠)؛ من وجه واه عن ابن عمر... رفعه.

* **وسادس** رواه: أحمد في «المسند» (٣/ ١٤٣) و«العلل» (٥٤٠٢)، وابن عدي (٧/ ٢٦٢٣)، والذهبي في «الميزان» (٤/ ٤٦٨) معلّقًا؛ من أوجه بعضها قويّ، عن الحسن، عن النبيّ ﷺ... مرسلاً.

* **وسابع** من حديث عليّ لم أقف عليه.

وجملة القول أنّ الأبحّ لم يخطئ في إسناد الحديث إلى أنس، وحديث أنس حسن على الأقلّ بمجموع طرقه، صحيح بشواهده، وقد قوّاه الترمذي وابن عبدالبرّ وابن القيّم والعسقلاني والشوكاني والألباني.

لا نبيَّ بعدَهُ. فجَعَلَ اللهُ العلماءَ فيها كلَّما هَلَكَ عالمٌ خَلَفَهُ عالمٌ؛ لئلاَّ تُطْمَسَ معالمُ الدِّينِ وتَخْفى أعلامُهُ. وكانَ بنو[1] إسرائيلَ كلَّما هَلَكَ [فيهم] نبيٌّ خَلَفَهُ نبيٌّ، فكانَتْ تَسوسُهُمُ الأنبياءُ، والعلماءُ لهٰذهِ الأُمَّةِ كالأنبياءِ في بني إسرائيلَ.

وأيضًا؛ ففي الحديثِ الآخرِ: «يَحْمِلُ هٰذا العلمَ مِن كلِّ خَلَفٍ عدولُهُ؛ يَنْفونَ عنهُ تحريفَ الغالينَ وانتحالَ المبطلينَ وتأويلَ الجاهلينَ»[2]. وهٰذا يَدُلُّ على أنَّهُ لا يَزالُ محمولاً في القرونِ قرنًا بعدَ قرنٍ.

وفي «صحيح أبي حاتمٍ» مِن حديثِ الخَوْلانِيِّ؛ [قالَ:] قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يَزالُ اللهُ يَغْرِسُ في هٰذا الدِّينِ غرسًا يَسْتَعْمِلُهُم في طاعتِهِ»[3]. وغرسُ اللهِ هُم أهلُ العلمِ والعملِ، فلو خَلَتِ الأرضُ مِن عالمٍ؛ خَلَتْ مِن غرسِ اللهِ. ولهٰذا القولِ حججٌ كثيرةٌ لها موضعٌ آخرُ.

وزادَ الكذَّابونَ في حديثِ عَلِيٍّ: «... إمَّا ظاهرًا مشهورًا وإمَّا خفيًّا مستورًا»! وظَنُّوا أنَّ ذٰلكَ دليلٌ لهُم على القولِ بالمُنْتَظَرِ[4]!

ولٰكنَّ هٰذهِ الزِّيادةَ مِن وضعِ بعضِ كذَّابيهِم، والحديثُ مشهورٌ عن عَلِيٍّ، لَمْ يَنْقُلْ

---

(١) في خ: «الأشجّ عن ثابت... يحيى بن الأشجّ وكان يقول... وكانوا بنو».

(٢) (لا بأس به). سيأتي تفصيل القول فيه في الوجه السادس والثلاثين والمئة.

(٣) (حسن). رواه: أحمد (٤/ ٢٠٠)، والبخاري في «الكنى» (ص٦١)، وابن ماجه (المقدّمة، ١- اتّباع السنّة، ١/ ٥/ ٨)، والفسوي (٢/ ٤٤٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٢٤٩٧)، والدولابي في «الكنى» (٢٧٧ و٢٧٨)، وابن حبّان في «الصحيح» (٣٢٦) و«الثقات» (٤/ ٧٧)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٥٨٣)، وابن شاهين في «السنّة» (٤٢ و٤٣)، وابن منده في «الصحابة» (٢٤٤٢- صحيحة)، وابن عساكر (٦٧/ ١٢٠)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٥/ ٥٦)، والمزّي في «التهذيب» (٤/ ٢١٢، ٣٤/ ١٥٢)؛ من طرق، عن الجرّاح بن مليح، ثنا بكر بن زرعة، سمعت أبا عنبة الخولاني... رفعه.

وهٰذا سند يمكن أن يعلّ من وجهين: أحدهما: بكر بن زرعة، وقد وثّقه ابن حبّان وروى عنه جماعة، فحديثه لا بأس به. **والثاني**: أنّ ابن شاهين زاد بين بكر وأبي عنبة مريح بن مسروق، ولا يضرّ؛ لأنّ جميع الطرق صرّحت بالسماع، فإمّا أنّ الزيادة خطأ مرجوح، أو يجمع بينهما بأنّ بكرًا سمعه من أبي عنبة مباشرة وبواسطة. وبالجملة؛ فالعلّتان غير قادحتين، والحديث حسن، وقد قوّاه ابن حبّان والبوصيري والألباني.

(٤) الكذّابون هنا هم الرافضة، والمنتظر هو إمامهم المهدي، الذي زعموا أنّه اختفى قبل ألف ومئة عام تقريبًا في سرداب في سامرّاء، ومعه المصحف الصحيح مصحف فاطمة الذي لا تبديل فيه ولا تحريف، وما زال ينتظر حتّى يؤذن له بالخروج لإصلاح حال المسلمين بعد الفساد! ومن يضلل الله فما له من هاد.

أحدٌ عنهُ هٰذهِ المقالةَ إلاَّ كذَّابٌ.

وحججُ اللهِ لا تَقومُ بخفيٍّ مستورٍ لا يَقَعُ العالَمُ لهُ على خبرٍ ولا يَنْتَفِعونَ بهِ في شيءٍ أصلاً؛ فلا جاهلٌ يَتَعَلَّمُ منهُ، ولا ضالٌّ يَهْتَدي بهِ، ولا خائفٌ يَأْمَنُ بهِ، ولا ذليلٌ يَتَعَزَّزُ[1] بهِ. . . فأيُّ حجَّةٍ للهِ قامَتْ بمَن لا يُرى لهُ شخصٌ ولا تُسْمَعُ منهُ كلمةٌ ولا يُعْلَمُ لهُ مكانٌ؟!

ولا سيَّما على أُصولِ /خ٢٣١/ القائلينَ بهِ؛ فإنَّ الذي دَعاهُم إلى ذٰلكَ أنَّهُم قالوا: لا بدَّ منهُ في اللطفِ بالمكلَّفينَ وانْقطاعِ حجَّتِهِم عنِ اللهِ! فيا لَلهِ العجبُ! أيُّ لطفٍ حَصَلَ بهٰذا المعدومِ [لا] المعصومِ؟! وأيُّ حجَّةٍ أثْبَتُّمْ للخلقِ على ربِّهِم بأصلِكُمُ الباطلِ؟! فإنَّ هٰذا المعدومَ إذا لمْ يَكُنْ لهُم سبيلٌ قطُّ إلى لقائِهِ والاهتداءِ[2] بهِ؛ فهلْ في تكليفِ ما لا يُطاقُ أبلغُ مِن هٰذا؟! وهل في العذرِ والحجَّةِ أبلغُ مِن هٰذا[3]؟!

فالذي فَرَرْتُم منهُ وَقَعْتُم في شرٍّ منهُ وكُنْتُم في ذٰلكَ كما قيلَ:

المُسْتَجيرُ بِعَمْرٍو عِنْدَ كُرْبَتِهِ ... كَالمُسْتَجيرِ مِنَ الرَّمْضاءِ بِالنَّارِ

ولٰكنْ أبى اللهُ إلاَّ أنْ يَفْضَحَ مَن تَنَقَّصَ بالصَّحابةِ الأخيارِ وبِسادةِ هٰذهِ الأُمَّةِ و[أنْ يُرِيَ] النَّاسَ عورتَهُ ويُغْرِيَهُ بكشفِها. ونَعوذُ باللهِ مِن الخذلانِ.

ولقد أَحْسَنَ القائلُ:

ما آنَ للسِّرْدابِ أنْ يَلِدَ الَّذي ... حَمَّلْتُموهُ بِزَعْمِكُمْ ما آنا
فَعَلى عُقولِكُمُ العَفاءُ فَإِنَّكُمْ ... ثَلَّثْتُمُ العَنْقاءَ وَالغِيلانا[4]

ولقد بَطَلَتْ حججٌ ٱسْتُودِعَها مثلُ هٰذا الغائبِ وضاعَتْ أعظمَ ضياعٍ!

---

(١) في ط: «المشهور. . . الزيادة إلاّ كذّاب. . .»، وفي خ: «. . . يقل أحد. . . دليل يتعذّر».

(٢) في خ: «ذٰلك وأنّهم قالوا لا بدّ. . . والاقتداء»، وفي ط: «. . . المعدوم المعصوم. . .».

(٣) يعني: عذر العباد والحجّة على الله تعالى.

(٤) يعني: أما آن لهٰذا المهديّ المزعوم أن يخرج من السرداب؟! أما كفاه الاختفاء زيادة على عشرة قرون؟! على عقولكم العفاء: ذهبت عقولكم ولم يبق منها بقيّة ولا أثر. العنقاء: طائر أسطوري ضخم. الغيلان: جمع غول، مشهور. ثلّثتم العنقاء والغيلانا: لأنّ العرب تقول: المستحيلات هي الغول والعنقاء، فأضفتم أنتم لها مستحيلاً ثالثًا هو مهديكم القائم في السرداب.

فأنتُم أبْطَلْتُم حججَ اللهِ مِن حيثُ زَعَمْتُم حفظَها!

وهٰذا تصريحٌ مِن أميرِ المؤمنينَ رَضِيَ اللهُ عنهُ بأنَّ حاملَ حججِ اللهِ لا بدَّ أنْ يَكونَ في الأرضِ بحيثُ يُؤَدِّيها عنِ اللهِ ويُبَلِّغُها إلى عبادِهِ، مثلُهُ رَضِيَ اللهُ عنهُ ومثلُ إخوانِهِ مِن الخلفاءِ الرَّاشدينَ ومَن ٱتَّبَعَهُم إلى يومِ القيامةِ.

* وقولُهُ: «لكيلا تَبْطُلَ حججُ اللهِ وبيِّناتُهُ»:

أي: لكيلا تَذْهَبَ مِن بينِ أيدي النَّاسِ وتَبْطُلَ مِن صدورِهِم، وإلاَّ؛ فالبطلانُ محالٌ عليها؛ لأنَّها ملزومُ ما يَسْتَحيلُ عليهِ البطلانُ.

فإنْ قيلَ: فما الفرقُ بينَ الحججِ والبيِّناتِ؟

قيلَ: الفرقُ بينَهُما أنَّ الحججَ هيَ الأدلَّةُ العلميَّةُ التي يَعْقِلُها القلبُ وتُسْمَعُ بالأُذنِ: قالَ [اللهُ] تَعالى في مناظرةِ إبْراهيمَ لقومِهِ وتبيينِهِ[1] بطلانَ ما هُم عليهِ بالدَّليلِ العلميِّ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إبْراهيمَ على قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَن نَشاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]؛ قالَ ابنُ زَيْدٍ: بعلمِ الحجَّةِ. وقالَ تَعالى: ﴿فَإِنْ حاجُّوكَ /خ٢٣٢/ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠]. وقالَ تَعالى: ﴿وَالَّذينَ يُحاجُّونَ في اللهِ مِنْ بَعْدِ ما ٱسْتُجيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦].

والحجَّةُ هيَ ٱسمٌ لِما يُحْتَجُّ بهِ مِن حقٍّ وباطلٍ: قالَ تَعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلاَّ الَّذينَ ظَلَموا مِنْهُمْ﴾؛ فإنَّهُم يَحْتَجُّونَ عليكُم بحجَّةٍ باطلةٍ، ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْني﴾ [البقرة: ١٥٠]. وقالَ تَعالى: ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُم إلاَّ أنْ قالوا ٱئْتوا بِآبائِنا إنْ كُنْتُم صادِقينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]. والحجَّةُ المضافةُ إلى اللهِ هيَ الحقُّ.

وقد تكونُ الحجَّةُ بمعنى المخاصمةِ، ومنهُ قولُهُ تَعالى: ﴿فَلِذٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥]؛ أي: قد

---

(١) في خ: «بين يدي الناس... الحجج على الأدلّة العلميّة...»، وفي ط: «... وتبيين».

وَضَحَ الحقُّ وٱسْتَبانَ وظَهَرَ، فلا خصومةَ بينَنا بعدَ ظهورِهِ ولا مجادلةَ؛ فإنَّ الجدالَ شريعةٌ موضوعةٌ للتَّعاونِ على إظهارِ الحقِّ، [فإذا ظَهَرَ الحقُّ] ولمْ يَبْقَ بهِ خفاءٌ؛ فلا فائدةَ في الخصومةِ والجدالِ على بصيرةٍ؛ فمخاصمةُ المتكبِّرِ[١] ومجادلتُهُ [عناءٌ] لا غناءَ فيهِ. هٰذا معنى هٰذهِ الآيةِ.

وقد يَقَعُ في وهمِ كثيرٍ مِن الجهَّالِ: أنَّ الشَّريعةَ لا ٱحتجاجَ فيها، وأنَّ المرسَلَ بها صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ لمْ يَكُنْ يَحْتَجُّ على خصومِهِ ولا يُجادِلُهُم! ويَظُنُّ جهَّالُ المنطقيِّينَ وفروخُ اليونانيِّينَ: أنَّ الشَّريعةَ خطابٌ للجمهورِ لا ٱحتجاجَ فيها، وأنَّ الأنبياءَ دَعَوُا الجمهورَ بطريقِ الخطابةِ، [والحججُ] للخواصِّ[٢]، وهُم أهلُ البرهانِ؛ يَعْنونَ نفوسَهُم ومَن سَلَكَ طريقتَهُم!

و[كلُّ] هٰذا مِن جهلِهِم بالشَّريعةِ والقرآنِ؛ فإنَّ القرآنَ مملوءٌ مِن الحججِ والأدلَّةِ والبراهينِ في مسائلِ التَّوحيدِ وإثباتِ الصَّانعِ والمعادِ وإرسالِ الرُّسلِ وحدوثِ العالَمِ. . . فلا يَذْكُرُ المتكلِّمونَ وغيرُهُم دليلاً صحيحًا على ذٰلكَ؛ إلَّا وهوَ في القرآنِ بأحسنِ عبارةٍ وأوضحِ بيانٍ وأتمِّ معنًى وأبعدِ[هِ] عنِ الإيراداتِ والأسئلةِ. وقدِ ٱعْتَرَفَ بهٰذا حذَّاقُ المتكلِّمينَ مِن المتقدِّمينَ والمتأخِّرينَ:

قالَ أبو حامدٍ في أوَّلِ /خ٢٣٣/ «الإحياء»: فإنْ قُلْتَ: فلِمَ [لمْ] تُورِدْ في أقسامِ العلمِ الكلامَ والفلسفةَ وتُبَيِّنْ أنَّهُما مذمومانِ أو ممدوحانِ؟ فٱعْلَمْ أنَّ حاصلَ ما يَشْتَمِلُ عليهِ الكلامُ مِن الأدلَّةِ التي يُنْتَفَعُ بها؛ فالقرآنُ والأخبارُ[٣] مشتملةٌ عليهِ. وما خَرَجَ عنهُما؛ فهوَ: إمَّا مجادلةٌ مذمومةٌ وهيَ مِن البدعِ كما سَيَأْتي بيانُهُ، وإمَّا مشاغبةٌ بالتَّعلُّقِ بمناقضاتِ الفرقِ وتطويلٌ بنقلِ المقالاتِ التي أكثرُها ترَّهاتٌ وهَذَياناتٌ تَزْدَريها الطِّباعُ وتَمَجُّها الأسماعُ، وبعضُها خوضٌ فيما لا يَتَعَلَّقُ بالدِّينِ. ولمْ يَكُنْ شيءٌ منهُ مألوفًا في

---

(١) في خ: «مخاصمة المنكرة»! وفي ط: «مخاصمة المنكر»! وكلاهما تحريف صوابه ما أثبتّه. ومخاصمة المنكر ومجادلته بالتي هي أحسن مطلوبة لا بأس فيها، وإنّما يُكفّ عن مخاصمة المتكبّر الذي لا يلتفت لحجج الخصم ولا يبالي بها.

(٢) في ط: «وفروخ اليونان. . .»، وفي ط: «. . . بطريق المخاطبة للخواصّ»!

(٣) يعني: السنن.

العصرِ الأوّلِ، [وكانَ الخوضُ فيهِ بالكلِّيَّةِ مِن البدعِ]، ولٰكنْ تَغَيَّرَ الآنَ حكمُهُ؛ إذ حَدَثَتِ البدعُ الصَّارفةُ عن مقتضى القرآنِ والسُّنَّةِ، [ونَبَتَتْ جماعةٌ] لَفَّقَتْ لها شبهًا ورَتَّبَتْ[١] لها كلامًا مؤلَّفًا، فصارَ ذٰلكَ المحظورُ بحكمِ الضَّرورةِ مأذونًا فيهِ[٢].

وقالَ الرَّازيُّ في كتابِهِ «أقسام اللذَّات»: لقد تأمَّلْتُ الكتبَ الكلاميَّةَ والمناهجَ الفلسفيَّةَ، فما رَأَيْتُها تَرْوي غليلاً ولا تَشْفي عليلاً، ورَأَيْتُ أقربَ الطُّرقِ طريقةَ القرآنِ. أقْرَأُ في الإثباتِ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وأقْرَأُ في النَّفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. ومَن جَرَّبَ مثلَ تجربتي؛ عَرَفَ مثلَ معرفتي.

وهٰذا الذي أشارَ إليهِ بحسبِ ما فَتَحَ [اللهُ] لهُ مِن دلالةِ القرآنِ بطريقِ الخبرِ، وإلاَّ؛ فدلالتُهُ البرهانيَّةُ العقليَّةُ التي يُشيرُ إليها ويُرْشِدُ إليها فتكونُ دليلاً سمعيًّا عقليًّا أمرٌ تَمَيَّزَ بهِ القرآنُ وصارَ العالِمُ بهِ مِن الرَّاسخينَ في العلمِ. وهوَ العلمُ الذي يَطْمَئِنُّ إليهِ القلبُ، وتَسْكُنُ عندَ[هُ] النَّفسُ، ويَزْكو بهِ العقلُ، وتَسْتَنيرُ بهِ البصيرةُ، وتَقْوى بهِ الحجَّةُ، ولا سبيلَ لأحدٍ مِن العالَمينَ إلى قطعِ مَن حاجَّ بهِ بل مَن خاصَمَ بهِ فَلَجَتْ حُجَّتُهُ وكَسَرَ شبهَ خصمِهِ، وبهِ فُتِحَتِ القلوبُ واسْتُجيبَ للهِ ولرسولِهِ[٣]. ولٰكنَّ أهلَ هٰذا العلمِ لا تكادُ الأعصارُ تَسْمَحُ منهُم إلاَّ بالواحدِ بعدَ الواحدِ. فدلالةُ القرآنِ /خ٢٣٤/ سمعيَّةٌ عقليَّةٌ قطعيَّةٌ [يقينيَّةٌ] لا تَعْتَرِضُها الشُّبهاتُ ولا تَتَداوَلُها الاحتمالاتُ ولا يَنْصَرِفُ القلبُ عنها بعدَ فهمِها أبدًا.

---

(١) في خ: «أم ممدوحان... بها من القرآن... مساعية بالتعلّق... وتبغضها خوض... إذ حديث البدع... شبهًا وزيّنت»! والتصويب من ط و«الإحياء» (١/ ٢٢)، والزيادتان مستفادتان من «الإحياء».

(٢) فلمّا آستمات أهل البدع في تزيين بدعهم وتلفيق الأدلّة لها ودعوة الخلق للدخول فيها؛ تعيّن على علماء أهل السنّة أن يفضحوا زيف هٰذه البدع ويبيّنوا ضلال أصحابها، فأذن لهم أن يستعينوا على هٰذا بما يلزمهم من علم الفلسفة والكلام. هٰذا مراد الغزالي يرحمه الله، وفيه نظر لا يخفى، وأوّل كلامه يبطل آخره! فقد قرّر أوّلاً أنّ الكتاب والسنّة يشتملان على ما ينفع من أدلّة أهل الكلام، وهٰذا يعني أنّهما يغنيان صاحبهما والمتضلّع فيهما عن هٰذا العلم بأصوله وفروعه. وقد تواتر في الأخبار والتراجم أنّه ما دخل أحد في طرف من هٰذا العلم إلاّ لحقته لوثة منه وأورثته نقصًا.

(٣) في ط: «قطع ما حاجّ... وكسر شبهة... لله ورسوله».

وقالَ بعضُ المتكلِّمينَ: أفْنَيْتُ عمري في الكلامِ أطلبُ الدَّليلَ، وإذا أنا لا أزْدادُ إلاَّ بعدًا عنِ الدَّليلِ، فرَجَعْتُ إلى القرآنِ أتَدَبَّرُهُ وأتَفَكَّرُ فيهِ، فإذا أنا بالدَّليلِ حقًّا معي وأنا لا أشْعُرُ بهِ، فقُلْتُ: واللهِ؛ ما مثلي إلاَّ كما قالَ القائلُ:

وَمِنَ العَجائِبِ وَالعَجائِبُ جَمَّةٌ قُرْبُ الحَبيبِ وَما إلَيْهِ وُصولُ
كَالعِيسِ في البَيْداءِ يَقْتُلُها الظَّما وَالماءُ فَوْقَ ظُهورِها مَحْمولُ

قالَ: فلمَّا رَجَعْتُ إلى القرآنِ؛ إذا هوَ الحكمُ [و]الدَّليلُ. ورَأيْتُ فيهِ مِن أدلَّةِ اللهِ وحججِهِ وبراهينِهِ وبيِّناتِهِ ما لو جُمِعَ كلُّ حقٍّ قالَهُ المتكلِّمونَ في كتبِهِم؛ لكانَتْ سورةٌ مِن سورِ القرآنِ وافيةً بمضمونِهِ معَ حسنِ البيانِ وفصاحةِ اللفظِ وتطبيقِ المَفْصِلِ وحسنِ الاحترازِ(١) والتَّنبيهِ على مواقعِ الشُّبهِ والإرشادِ إلى جوابِها، وإذا هوَ كما قيلَ [بل فوقَ ما قيلَ]:

كَفى وَشَفى ما في الفُؤادِ فَلَمْ يَدَعْ لِذي أرَبٍ في القَوْلِ جِدًّا وَلا هَزْلا

وجَعَلَتْ جيوشُ الكلامِ [بعدَ ذٰلكَ] تَفِدُ إليَّ كما كانَتْ وتَتَزاحَمُ(٢) في صدري، ولا يَأْذَنُ لها القلبُ بالدُّخولِ فيهِ ولا تَلْقى منهُ إقبالاً ولا قبولاً، فتَرْجِعُ على أدبارِها.

والمقصودُ أنَّ القرآنَ مملوءٌ بالاحتجاجِ وفيهِ جميعُ أنواعِ الأدلَّةِ والأقيسةِ الصَّحيحةِ. وأمَرَ اللهُ تَعالى رسولَهُ [ﷺ] فيهِ بإقامةِ الحجَّةِ والمجادلةِ: فقالَ تَعالى: ﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقالَ: ﴿وَلا تُجادِلوا أَهْلَ الكِتابِ إلاَّ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وهٰذهِ مناظراتُ القرآنِ معَ الكفَّارِ موجودةٌ فيهِ، وهٰذهِ مناظراتُ رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ لخصومِهِم وإقامةُ الحججِ عليهِم، لا يُنْكِرُ ذٰلكَ إلاَّ جاهلٌ مفرطٌ في الجهلِ.

والمقصودُ الفرقُ بينَ الحججِ والبيِّناتِ، فنقولُ:

---

(١) تطبيق المفصل: الدقّة وإصابة الموضع المطلوب. حسن الاحتراز: الإتيان بالكلام بيّنًا بحيث لا يفهم على غير وجهه ولا يدخل فيه ما ليس منه ولا يخرج منه ما هو منه، وربّما كانت تصحيفًا صوابه «حسن الاحتزاز»؛ فإنّهم يقولون لمن جاء بالكلام في موضعه المناسب: أصاب المَحَزّ وطبّق المفصل.

(٢) في خ: «حقّ وقاله المتكلّمون... تغدوا إليّ كما كانت وتزاحم»، والأولى ما أثبتّه من ط.

الحججُ: الأدلَّةُ العلميَّةُ.

والبيِّناتُ: جمعُ بيِّنةٍ، وهيَ صفةٌ في الأصلِ، يُقالُ: آيةٌ بيِّنةٌ وحجَّةٌ بيِّنةٌ. والبيِّنةُ /خ٢٣٥/: اسمٌ لكلِّ ما بيَّنَ الحقَّ مِن علامةٍ منصوبةٍ أو أمارةٍ أو دليلٍ علميٍّ. قالَ [اللهُ] تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ وَالمِيزانَ﴾ [الحديد: ٢٥]: فالبيِّناتُ الآياتُ التي أقامَها اللهُ دلالةً على صدقِهِم مِن المعجزاتِ، والكتابُ هوَ الدَّعوةُ.

وقالَ تَعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذي بِبَكَّةَ مُبارَكًا وَهُدًى لِلْعالَمينَ . فيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إبراهيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧]: ومقامُ إبراهيمَ آيةٌ جزئيَّةٌ مرئيَّةٌ بالأبصارِ، وهوَ مِن آياتِ اللهِ الموجودةِ في العالمِ[1].

ومنهُ قولُ موسى لِفِرْعَوْنَ وقومِهِ: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَني إسْرائيلَ . قالَ إنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقينَ . فَأَلْقى عَصاهُ [فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبينٌ]﴾ [الأعراف: ١٠٥-١٠٧]، وكانَ إلقاءُ العصا وانقلابُها حيَّةً هوَ البيِّنةَ.

وقالَ قومُ هودٍ: ﴿يا هودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]؛ يريدونَ آيةَ الاقتراحِ[2]، وإلَّا؛ فهوَ قد جاءَهُم بما يَعْرِفونَ [بهِ] أنَّهُ رسولُ اللهِ إليهِم، فطلبُ الآيةِ بعدَ ذلكَ تعنُّتٌ واقتراحٌ لا يكونُ لهُم عذرٌ في عدمِ الإجابةِ إليهِ!

وهٰذهِ هيَ الآياتُ التي قالَ اللهُ تَعالى فيها: ﴿وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِها الأَوَّلونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]. فعدمُ إجابتِهِ سبحانَهُ إليها إذْ طَلَبَها الكفَّارُ رحمةٌ منهُ وإحسانٌ؛ فإنَّهُ جَرَتْ سنَّتُهُ التي لا تبديلَ لها أنَّهُم إذا طَلَبوا الآيةَ واقْتَرَحوها وأُجيبوا ولمْ يُؤْمِنوا؛ عوجِلوا بعذابِ الاستئصالِ. فلمَّا عَلِمَ سبحانَهُ أنَّ هٰؤلاءِ لا يُؤْمِنونَ ولو جاءَتْهُم كلُّ آيةٍ؛ لمْ يُجِبْهُمْ إلى ما طَلَبوا ولمْ يَعُمَّهُم بعذابٍ؛ [لِما سَبَقَ في قضائِهِ أنَّهُ سَيَخْرُجُ] مِن بنيهِم وأصلابِهِم مِن عبادِهِ المؤمنينَ وأنَّ أكثرَهُم سَيُؤْمِنُ[3] بعدَ ذلكَ بغيرِ

---

(١) في خ: «وإقامة الحجّة عليهم ولا ينكر... مرئيّة بالأحكام وهم... العالمين».

(٢) تقدّم تفصيل هذا (١/٢٧٣).

(٣) في خ: «وهي هٰذه الآيات... واقترحوها أو أجيبوا...»! وفي خ وط: «ولم يعمّهم بعذاب لمّا=

الآيةِ التي اقْتَرَحوها، فكانَ عدمُ إنزالِ الآياتِ المطلوبةِ مِن تمامِ حكمةِ الرَّبِّ ورحمتِه وإحسانِه.

بخلافِ الحججِ؛ فإنَّها لمْ تَزَلْ متتابعةً يَتْلو بعضُها بعضًا، وهيَ كلَّ يوم في مزيدٍ، وتُوُفِّيَ رسولُ اللهِ /خ٢٣٦/ ﷺ [وهيَ] أكثرُ ما كانَتْ، وهيَ باقيةٌ إلى يومِ القيامةِ.

* **وقولُهُ: «أُولٰئِكَ الأقلُّونَ عددًا الأعظمونَ عندَ اللهِ قدرًا»:**

يَعْني: هٰذا الصِّنفُ مِن النَّاسِ أقلُّ الخلقِ عددًا. وهٰذا سببُ غربتِهم؛ فإنَّهُم قليلونَ في النَّاسِ، والنَّاسُ على خلافِ طريقتِهِم، فلهُم نبأٌ وللنَّاسِ نبأٌ. قالَ النَّبيُّ ﷺ: «بَدَأَ الإسلامُ غريبًا، وسَيَعودُ غريبًا كما بَدَأَ، فطوبى للغرباءِ»(١). فالمؤمنونَ قليلٌ في النَّاسِ، والعلماءُ قليلٌ في المؤمنينَ، وهٰؤلاءِ قليلٌ في العلماءِ.

وإيَّاكَ أنْ تَغْتَرَّ بما يَغْتَرُّ بِهِ الجاهلونَ؛ فإنَّهُم يقولونَ: لو كانَ هٰؤلاءِ على حقٍّ؛ لمْ يَكونوا أقلَّ النَّاسِ عددًا والنَّاسُ على خلافِهِم! فاْعْلَمْ أنَّ هٰؤلاءِ همُ النَّاسُ، ومَن خالَفَهُم؛ فمُتَشَبِّهونَ بالنَّاسِ [و]ليسوا بناسٍ، فما النَّاسُ إلاَّ أهلُ الحقِّ وإنْ كانوا أقلَّهُم عددًا.

قالَ ابنُ مسعودٍ: لا يَكُنْ أحدُكُم إمَّعةً ـ يَعْني: يقولُ أنا معَ النَّاسِ ـ، لِيُوَطِّنْ أحدُكُم نفسَهُ على أنْ يُؤْمِنَ [باللهِ] ولو كَفَرَ النَّاسُ.

وقد ذَمَّ سبحانَهُ الأكثرينَ في غيرِ موضعٍ: كقولِهِ: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. وقالَ: ﴿وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقالَ [اللهُ تَعالى]: ﴿وَقَليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. وقالَ: ﴿وَإِنَّ كَثيرًا مِنَ الخُلَطاءِ لَيَبْغي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ وَقَليلٌ ما هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

= أخرج من بنيهم... وإنّ أكثرهم آمن»! وفيه تحريف وسقط أورثا هٰذا الغموض والاستغلاق، وما بين الحاصرتين زيادة منّي أرجو أنّها سترفع الإشكال وتوضّح المراد.

(١) رواه مسلم (١ـ الإيمان، ١٥ـ بدأ الإسلام غريبًا، ١/ ١٣٠/ ١٤٥ و١٤٦) من حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم جميعًا.

وقالَ بعضُ العارفينَ: ٱنفرادُكَ في طريقِ طلبِكَ دليلٌ على صدقِ الطَّلبِ.

مُـتْ بِـداءِ الهَـوى وَإلاَّ فَخـاطِـرْ وَٱطْـرُقِ الحَـيَّ[1] وَالعُيـونُ نَـواظِـرْ
لا تَخَـفْ وَحْشَـةَ الطَّـريـقِ إذا سِـرْ تَ وَكُـنْ فـي خِفـارَةِ الحَـقِّ سـائِـرْ

* **وقولُهُ: «بهِم يَدْفَعُ اللهُ عن حججِهِ [حتَّى يُؤَدُّوها إلى نظرائِهِم ويَزْرَعوها في قلوبِ أشباهِهِم»:**

وهٰذا لأنَّ اللهَ سبحانَهُ ضَمِنَ حفظَ حججِهِ] وبيِّناتِهِ، وأخبَرَ رسولُهُ ﷺ أنَّهُ لا تَزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتِهِ على الحقِّ لا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم ولا مَن خالَفَهُم إلى قيامِ السَّاعةِ[2]. فلا يَزالُ غرسُ اللهِ الذينَ غَرَسَهُم في دينِهِ يَغْرِسونَ العلمَ في قلوبِ مَن أهَّلَهُمُ اللهُ لذٰلكَ وٱرْتَضاهُم، فيَكونونَ ورثةً لهُم كما كانوا /خ٢٣٧/ هُم ورثةً لمَن قبلَهُم، فلا تَنْقَطِعُ حججُ اللهِ والقائمُ بها[3] مِن الأرضِ. وفي الأثرِ المشهورِ: «لا يَزالُ اللهُ يَغْرِسُ في هٰذا الدِّينِ غرسًا يَسْتَعْمِلُهُم بطاعتِهِ»[4]. وكانَ مِن دعاءِ بعضِ مَن تَقَدَّمَ: اللهمَّ! ٱجْعَلْني مِن غرسِكَ الذينَ تَسْتَعْمِلُهُم بطاعتِكَ.

ولهٰذا؛ ما أقامَ اللهُ لهٰذا الدِّينِ مَن يَحْفَظُهُ ثمَّ قَبَضَهُ إليهِ؛ إلاَّ وقد زَرَعَ ما عُلِّمَهُ مِن العلمِ والحكمةِ: إمَّا في قلوبِ أمثالِهِ، وإمَّا في كتبٍ يَنْتَفِعُ بها النَّاسُ [مِن] بعدِهِ.

وبهٰذا وغيرِهِ فُضِّلَ العلماءُ [على] العبَّادِ؛ فإنَّ العالمَ إذا زَرَعَ علمَهُ عندَ غيرِهِ ثمَّ ماتَ؛ جَرى عليهِ أجرُهُ وبَقِيَ لهُ ذكرُهُ، وهوَ عمرٌ ثانٍ وحياةٌ أُخرى، وذٰلكَ أحقُّ ما تَنافَسَ[5] فيهِ المتنافسونَ ورَغِبَ فيهِ الرَّاغبونَ.

* **وقولُهُ: «هَجَمَ بهِمُ العلمُ على حقيقةِ الأمرِ، فٱسْتَلانوا ما ٱسْتَوْعَرَهُ المترفونَ وأنِسوا بما ٱسْتَوْحَشَ منهُ الجاهلونَ»:**

الهجومُ على الرَّجلِ: الدُّخولُ عليهِ بلا ٱستئذانٍ.

---

(١) في خ: «بما ٱغترّ به الجاهلون... فمشبّهون بالناس... صدق القلب... والحرق الحيّ»!
(٢) متّفق عليه. تقدّم تخريجه (١/ ٣٨٩).
(٣) في خ وط: «فيكونوا ورثة لهم...»! وفي خ: «... ولا تنقطع... والقيام بها».
(٤) (حسن). تقدّم تفصيل القول فيه (١/ ٣٩١).
(٥) في ط: «الناس بعده... العلماء العبّاد...»، وفي خ: «... أحقّ الناس ما يتنافس».

ولمَّا كانَتْ طريقُ الآخرةِ وعرةً على أكثرِ الخلقِ لمخالفتِها لشهواتِهم ومباينتِها لإراداتِهم ومألوفاتِهم؛ قَلَّ سالكوها، وزَهَّدَهُم فيها قلَّةُ علمِهِم ـ أو عدمُهُ ـ بحقيقةِ الأمرِ وعاقبةِ العبادِ ومصيرِهِم وما هُيِّئُوا لهُ وهُيِّئَ لهُم. فقَلَّ علمُهُم بذلكَ، وٱسْتَلانوا مركبَ الشَّهوةِ والهوى على مركبِ الإخلاصِ والتَّقوى، وتَوَعَّرَتْ عليهِمُ الطَّريقُ، وبَعُدَتْ [عليهِمُ] الشُّقَّةُ، وصَعُبَ عليهِم مرتقى عقابِها وهبوطُ أوديتِها وسلوكُ شعابِها؛ فأَخْلَدوا إلى الدَّعةِ والرَّاحةِ، وآثَروا العاجلَ على الآجلِ، وقالوا: عيشُنا اليومَ نقدٌ وموعودُنا نسيئةٌ! فنَظَروا إلى عاجلِ الدُّنيا وأغْمَضوا العيونَ عن آجلِها، ووَقَفوا معَ ظاهرِ منها[1] ولمْ يَتَأمَّلوا باطنَها، وذاقوا حلاوةَ مباديها وغابَ عنهُم مرارةُ عواقبِها، ودَرَّ لهُم ثديُها فطابَ لهُمُ الارتضاع وٱشْتَغَلوا بهِ عنِ الفكرِ في الفطامِ ومرارةِ الانقطاع، وقالَ مغترُّهُم باللهِ [وجاحدُهُم لعظمتِهِ] وربوبيَّتِهِ متمثِّلاً في ذٰلكَ: خُذْ /خ٢٣٨/ ما تَراهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ!

وأمَّا القائمونَ للهِ بحجَّتِهِ خلفاءُ نبيِّهِ في أُمَّتِهِ؛ فإنَّهُم لكمالِ علمِهِم وقوَّتِهِ نَفَذَ بهِم إلى حقيقةِ الأمرِ وهَجَمَ بهِم عليهِ، فعايَنوا ببصائرِهِم ما عَشِيَتْ عنهُ بصائرُ الجاهلين، فٱطْمَأَنَّتْ قلوبُهُم بهِ وعَمِلوا على الوصولِ إليهِ لِما باشَرَها مِن رَوْحِ اليقين. رُفِعَ لهُم عَلَمُ السَّعادةِ فشَمَّروا إليه، وأسْمَعَهُم منادي الإيمانِ النِّداءَ فٱسْتَبَقوا إليه، وٱسْتَيْقَنَتْ أنفسُهُم ما وَعَدَهُم بهِ ربُّهُم فزَهِدوا فيما سواهُ ورَغِبوا فيما لديه. عَلِموا أنَّ الدُّنيا دارُ ممرٍّ [لا دارُ مقرٍّ]، ومنزلُ[2] عبورٍ لا مقعدُ حبورٍ، وأنَّها خيالُ طيفٍ أو سحابةُ صيفٍ، وأنَّ مَن فيها كراكبٍ قالَ تحتَ ظلِّ شجرةٍ ثمَّ راحَ [عنها] وتَرَكَها[3]. وتيَقَّنوا أنَّها:

أَحْلامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زائِلٍ ... إنَّ اللَّبيبَ بِمِثْلِها لا يُخْدَعُ

وأنَّ واصفَها صَدَقَ في وصفِها إذْ يَقولُ:

أرى أشْقياءَ النَّاسِ لا يَسْأمونَها ... عَلى أنَّهُم فيها عُراةٌ وَجُوَّعُ

---

(١) في ط: «وأنسوا ممّا... ظاهرها»، وفي خ: «... الطرق وبعدت... نقد وموعدنا...».
(٢) في خ: «ثديها فطلب لهم... الدار دار...»، وفي ط: «... ورفع لهم... ممرّ ومنزل».
(٣) قال: استراح وقت القيلولة. وقد صحّ هٰذا المعنى مرفوعًا إلى النبيّ ﷺ.

أراهـا وَإنْ كـانَـتْ تُحَـبُّ فـإنَّهـا   سَحـابَـةُ صَيْـفٍ عَـنْ قَليـلٍ تَقَشَّـعُ

فتَرَحَّلَتْ عن قلوبِهِم مدبرةً كما تَرَحَّلَتْ عن أهلِها مولِّيَةً، وأقْبَلَتِ الآخرةُ إلى قلوبِهِم مسرعةً كما أسْرَعَتْ إلى الخلقِ مقبلةً. فٱمْتَطَوْا ظهورَ العزائم، وهَجَروا لذَّةَ المنامِ، وما ليلُ المحبِّ بنائمٍ. عَلِموا طولَ الطَّريقِ وقلَّةَ المقامِ في منزِلِ التَّزوُّدِ فسارَعوا في الجَهازِ، وجَدَّ بهمُ السَّيرُ إلى منازِلِ الأحبابِ فقَطَعوا المراحلَ وطَوَوُا المفاوزَ.

وهٰذا كلُّهُ مِن ثمراتِ اليقينِ؛ فإنَّ القلبَ إذا ٱسْتَيْقَنَ ما أمامَهُ مِن[1] كرامةِ اللهِ وما أعَدَّهُ لأوليائِهِ [بحيثُ كأنَّهُ يَنْظُرُ إليهِ] مِن وراءِ حجابِ الدُّنيا ويَعْلَمُ أنَّهُ إذا زالَ الحجابُ رَأى ذٰلكَ عيانًا؛ زالَتْ عنهُ الوحشةُ التي يَجِدُها المتخلِّفونَ، ولانَ لهُ[2] ما ٱسْتَوْعَرَهُ المترفونَ.

وهٰذهِ المرتبةُ هيَ أوَّلُ مراتبِ اليقينِ، وهيَ علمُهُ وتيقُّنُهُ، وهيَ ٱنكشافُ المعلومِ للقلبِ بحيثُ يُشاهِدُهُ ولا يَشُكُّ فيهِ كٱنكشافِ المرئيِّ للبصرِ. ثمَّ تَليها المرتبةُ الثَّانيةُ، وهيَ مرتبةُ عينِ اليقينِ، ونسبتُها /خ٢٣٩/ إلى العينِ كنسبةِ الأُولى إلى القلبِ. ثمَّ تَليها المرتبةُ الثَّالثةُ، وهيَ حقُّ اليقينِ، وهيَ مباشرةُ المعلومِ وإدراكُهُ الإدراكَ التَّامَّ. فالأُولى كعلمِكَ بأنَّ في هٰذا الوادي ماءً، والثَّانيةُ كرؤيتِهِ، والثَّالثةُ كالشُّربِ منهُ.

ومِن هٰذا ما يُرْوى في حديثِ حارِثَةَ، وقولِ النَّبيِّ ﷺ: «كيفَ أصْبَحْتَ يا حارِثَةُ؟». قالَ: أصْبَحْتُ مؤمنًا حقًّا. قالَ: «إنَّ لكلِّ حقٍّ حقيقةً[3]، فما حقيقةُ إيمانِكَ؟». قالَ: عَزَفَتْ نفسي عنِ الدُّنيا وشهواتِها، فأسْهَرْتُ ليلي وأظْمَأْتُ نهاري، وكأنِّي أنْظُرُ إلى عرشِ ربِّي بارزًا، وكأنِّي أنْظُرُ إلى أهلِ الجنَّةِ يَتَزاوَرونَ فيها، وإلى أهلِ النَّارِ يَتَعاوَوْنَ فيها». فقالَ: «عبدٌ نوَّرَ اللهُ قلبَهُ»[4].

---

(١) في خ: «منزل النزول فسارعوا. . .»، وفي ط: «. . . ٱستيقن ما أصابه من».

(٢) في ط: «أعدّ لأوليائه. . .»، وفي خ: «. . . ولان لهم».

(٣) في ط: «كنسبة الأوّل. . . لكلّ قول حقيقة»، وفي خ: «. . . التامّ بأولى. . .».

(٤) (ضعيف). وقد وقفت له على أحد عشر وجهًا:

* روى أوّلها: ٱبن المبارك (٣١٤)، وعبدالرزّاق في «المصنف» (٢٠١١٤) و«التفسير» (٢٩٤٢)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٥٩٢)؛ عن صالح بن مسمار وجعفر بن برقان، كلاهما عن النبيّ ﷺ. . . به في=

= قصّة. قال البيهقي: «منقطع»، وقال العسقلاني: «معضل». قلت: صالح وجعفر صدوقان.

* وروى الثاني ابن أبي شيبة في «المصنّف» (٣٠٤١٦) و«الإيمان» (١١٥) من طريق زبيد، عن النبيّ ﷺ... به في القصّة نفسها. وهٰذا أيضًا معضل.

* وروى الثالث ابن أبي شيبة في «المصنّف» (٣٠٤١٤) و«الإيمان» (١١٤) من طريق أبي معشر، عن محمّد بن صالح الأنصاري، عن النبيّ ﷺ... به في القصّة نفسها. وهٰذا ضعيف على إعضاله: أبو معشر فيه ضعف، والأنصاريّ هو التمّار يخطئ، وقد خالفا فجعلا القصّة لعوف بن مالك بدل الحارث.

* وروى الرابع خشيش بن أصرم في «الاستقامة» (١/ ٢٩٠ـ إصابة): ثنا عبدالعزيز بن أبان، ثنا مالك بن مغول، عن فضيل بن غزوان، عن النبيّ ﷺ مختصرًا. وهٰذا ساقط على إعضاله، ابن أبان متروك.

* وروى الخامس عبدالرزّاق في «التفسير» (٢٩٤٠) من طريق زيد السلميّ، عن النبيّ ﷺ... به مع القصّة. وهٰذا مرسل ضعيف لجهالة زيد (أو: يزيد، كما في الإصابة).

* وعلّق السادس العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٩١) عن حمّاد بن سلمة، عن برد أبي العلاء، عن مكحول، عن النبيّ ﷺ... به مع القصّة. ولم أقف على من وصله، فالعهدة فيه على الطريق إلى حمّاد، فإن كانت نظيفة؛ فمرسل أو معضل قويّ.

* وروى السابع ابن منده (١/ ٢٨٩ـ إصابة) من طريق سليمان بن سعيد، عن الربيع بن لوط، عن الحارث بن مالك... به مع القصّة. وهٰذا ضعيف على انقطاعه: سليمان لم أجد له ترجمة إلّا أن يكون ابن سعد فمجهول، والربيع لم يلحق الحارث لأنّه توفّي في عصر النبيّ ﷺ.

* وروى الثامن: عبد بن حميد (٤٤٥ـ منتخب)، والطبراني (٣/ ٢٦٦/ ٣٣٦٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٩١)؛ من طريق زيد بن الحباب، ثنا ابن لهيعة، ثنا خالد بن يزيد السكسكي، عن سعيد بن أبي هلال، عن محمّد بن أبي الجهم، عن الحارث... به مع القصّة. قال الهيثمي (١/ ٦٢): «فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه». قلت: ابن لهيعة مخلّط. وابن أبي الجهم من الذين مات النبيّ ﷺ وهم دون التمييز وقتل يوم الحرّة، وهٰذا يعني أنّ رواية سعيد عنه منقطعة؛ فإنّه ولد بعد الحرّة بسنين، ويعني أيضًا أنّه لم يلحق الحارث بن مالك فروايته عنه مرسلة.

* وروى التاسع البيهقي في «الزهد» (٩٧١) من طريق أبي حامد أحمد بن علي بن الحسن المقرئ من كتاب عتيق، ثنا أبو فروة يزيد بن محمّد بن يزيد بن سنان، ثنا زيد بن أبي أنيسة، عن عبدالكريم، عن الحارث بن مالك... به مع القصّة. وهٰذا ساقط: فيه انقطاع بين أبي حامد وأبي فروة. وآخر بين أبي فروة وابن أبي أنيسة فبين وفاتيهما ١٣٥ سنة. وأبو فروة لم أجد فيه جرحًا ولا تعديلاً. وعبدالكريم هو ابن الحارث: فإن كان ابن الصحابي؛ فرواية زيد عنه منقطعة، فبين ولادتيهما ما يزيد على ٩٠ سنة. وإن كان ابن الحارث بن يزيد الحضرمي؛ فروايته عن الحارث مرسلة.

* وروى العاشر: البزّار (٢٣ـ مختصر الزوائد)، وابن نصر في «الصلاة» (٣٦٢)، والعقيلي (٤/ ٤٥٥)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٥٩٠)؛ من طريق يوسف بن عطيّة الصفّار، عن ثابت، عن أنس... به مع القصّة. قال ابن رجب (ح٢/ ص٥١): «مشهور روي من وجوه موصولة وروي مرسلاً، والمرسل أصحّ». وقال الهيثمي (١/ ٦٢): «فيه يوسف بن عطيّة لا يحتجّ به». قلت: هو متروك، وقد ذكر الذهبي الحديث في

فهٰذا هوَ هجومُ العلمِ بصاحبِهِ على حقيقةِ الأمرِ. ومَن وَصَلَ إلى هٰذا؛ ٱسْتَلانَ ما يَسْتَوْعِرُهُ المترفونَ، وأنِسَ بما يَسْتَوْحِشُ منهُ الجاهلونَ. ومَن لمْ يَثْبُتْ قدمُ إيمانِهِ على هٰذهِ الدَّرجةِ؛ فهوَ إيمانٌ ضعيفٌ.

وعلامةُ هٰذا: ٱنشراحُ الصَّدرِ لمنازلِ الإيمانِ وٱنفساحُهُ، وطمأْنينةُ القلبِ لأمرِ اللهِ، والإنابةُ إلى ذكرِ اللهِ، ومحبَّتُهُ، والفرحُ بلقائِهِ، والتَّجافي عن دارِ الغرورِ، كما في الأثرِ المشهورِ: «إذا دَخَلَ النُّورُ القلبَ؛ ٱنْفَسَحَ وٱنْشَرَحَ». قيلَ: وما علامةُ ذٰلكَ؟ قالَ: «التَّجافي عن دارِ الغرورِ، والإنابةُ إلى دارِ الخلودِ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزولِهِ»[1].

= منكراته. لٰكنّ له متابعتين: **فأولاهما**: ما رواه العبّاس الخلّال، عن جرير بن عتبة، عن عتبة بن عبدالرحمٰن الحرستاني، عن أنس. . . به. ذكرها الذهبي في «الميزان» (٣/ ٢٩). ولٰكنّها ساقطة لا يعتد بها؛ جرير وأبوه مجهولان متّهمان. **والأخرى**: علّقها العقيلي (٢/ ٢٩١). ووصلها أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٤٢) عن إسحاق بن عبدالله بن كيسان المروزي، عن أبيه، عن ثابت. . . به فذكره. والطريق إلى إسحاق ضعيفة، وإسحاق واهٍ منكر الحديث، وقد خالف فجعل القصّة لمعاذ لا للحارث. ومال الذهبي في «الميزان» إلى نكارة حديث أنس بمجموع طرقه ومفرداتها.

* وروى **الحادي عشر** ابن حبّان في «المجروحين» (١/ ١٥٠) من طريق أحمد بن الحسن بن أبان المصري، عن أبي عاصم، عن سفيان وشعبة، عن سلمة، عن كهيل، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة. . . به. والمصري كذّاب دجّال يسرق ويضع، وهٰذا من بلاياه فيما ذكر الذهبي والعسقلاني. لٰكن هاهُنا متابعة ذكرها ابن الأثير في «أسد الغابة» (١/ ٤١٤)، فقال: «وروي عن محمّد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة نحوه». لٰكن لم أقف على من وصلها، ولا ذكر هو متنها لتعلم قيمة هٰذا الشاهد، وإنّما ٱكتفى بتصديرها بما يدلّ على ضعفها.

وبالجملة؛ فمجموع الأوجه الأربعة الأولى لا يعدو أن يكون معضلاً رجاله ثقات، ومجموع الخمسة التي تلتها لا يكاد يبلغ مرسلاً رجاله ثقات، وحديث أنس بمتابعاته ضعيف جدًّا، وحديث أبي هريرة دونه. ومعلوم أنّ مثل هٰذه الأسانيد لا تكتسب بٱجتماعها قوّة.

ومع أنّ أكثر أهل العلم ـ كالبزّار والعقيلي والبيهقي والذهبي والهيثمي والعسقلاني والألباني ـ قد ضعّفوا مفردات هٰذا الحديث، فقد رأيتني مضطرًّا للتوسّع في دراسته لأمور: **فأوّلها**: كثرة ٱستشهاد الخطباء والوعّاظ به. **والثاني**: كثرة مخارجه بما يوهم أنّ له أصلاً. **والثالث**: أنّ العسقلاني ـ على تضعيفه لكثير من مفرداته ـ قد سكت عن الفصل في شأنه. **والرابع**: أنّ الألباني ضعّف بعض مفرداته ثمّ ختم بقوله: «وله طرق أخرى مرسلة وبعضها موصول لا مجال الآن لتحقيق الكلام فيها»، وليته يرحمه الله أمتعنا بذلك ولم يؤجّل.

(١) (ضعيف). وقد جاء عن جماعة من الصحابة وغيرهم:

* فرواه: ابن المبارك في «الزهد» (٣١٥)، ووكيع في «الزهد» (١٥ و١٦)، وعبدالرزّاق في «التفسير» (٨٥٢)، وسعيد في «السنن» (٩١٨)، وابن أبي شيبة (٣٤٣٠٣ و٣٤٣٠٤)، وابن جرير (١٣٨٥٦-١٣٨٥٨ =

وهٰذهِ هيَ الحالُ التي كانَتْ تَحْصُلُ للصَّحابةِ [رَضِيَ اللهُ عنهُم] عندَ النَّبيِّ ﷺ إذا ذَكَّرَهُمُ الجنَّةَ والنَّارَ، كما في التِّرْمِذِيِّ وغيرِهِ مِن حديثِ: الجُرَيْرِيِّ، عن أبي عُثْمانَ النَّهْدِيِّ، عن حَنْظَلَةَ الأُسَيْدِيِّ[1] ـ وكانَ مِن كتَّابِ النَّبيِّ ﷺ ـ؛ أنَّهُ مَرَّ بأبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ وهوَ يَبْكي[2]. فقالَ: ما لَكَ يا حَنْظَلَةُ؟ فقالَ: نافَقَ حَنْظَلَةُ يا أبا بَكْرٍ! نَكونُ عندَ رسولِ اللهِ[3] ﷺ يُذَكِّرُنا بالجنَّةِ والنَّارِ كأنَّا رَأْيَ عينٍ[4]، فإذا رَجَعْنا إلى الأزواجِ والضَّيعةِ؛ نَسِينا كثيرًا. [قالَ: فواللهِ؛ إنَّا لكذٰلكَ، انْطَلِقْ بنا إلى رسولِ اللهِ ﷺ. فانْطَلَقْنا، فلمَّا رَآهُ رسولُ اللهِ ﷺ؛ قالَ: «ما لَكَ يا حَنْظَلَةُ؟». قالَ: نافَقَ حَنْظَلَةُ يا رسولَ اللهِ! نكونُ عندَكَ تُذَكِّرُنا بالنَّارِ والجنَّةِ كأنَّا رَأْيَ عينٍ، فإذا رَجَعْنا؛ عافَسْنا الأزواجَ والضَّيعةَ ونَسِينا كثيرًا. قالَ:] فقالَ رسولُ اللهِ /خ٢٤٠/ ﷺ: «لو تَدومونَ

= و١٣٨٦٠)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧٨٧٢ و٧٨٧٣)، وأبو الشيخ في «الطبقات» (١/ ٤٥٢)، والبيهقي في «الصفات» (٣٢٥ و٣٢٦)؛ من طريقين قويّتين، عن عبدالله بن المسوّر بن عون بن جعفر بن أبي طالب أبي جعفر المدائني. . . موقوفًا ومرسلًا. وعبدالله هٰذا كذّاب يضع.

* ورواه ابن أبي حاتم (٧٨٧٤) من طريق حفص بن عمر العدني، ثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عبّاس. . . موقوفًا. وهٰذا ساقط من أجل العدنيّ؛ فإنّه ضعيف جدًّا شبه المتروك.

* ورواه: ابن جرير (١٣٨٥٩) من طريق أبي عبيدة بن عبدالله بن مسعود، وابن جرير (١٣٨٦١) من طريق عبدالرحمٰن المسعودي، والحاكم (٤/ ٣١١) والبيهقي في «الزهد» (٩٧٤) من طريق عبدالرحمٰن بن عبدالله بن مسعود، والبغوي في «التفسير» (٥/ ١١) من طريق عبدالله بن الحارث؛ أربعتهم عن ابن مسعود. . . رفعه. والطريق الأولى منقطعة بين أبي عبيدة وابن مسعود وفيها راو منكر الحديث، ورواية المسعودي عن ابن مسعود معضلة وفيها مع ذٰلك ليّن ومخلّط وضعيف، وطريق عبدالرحمٰن بن عبدالله ساقطة فيها متروك ومخلّط، وطريق ابن الحارث ساقطة بضعفاء أربعة مع انقطاع بين ابن الحارث وابن مسعود! فأنى لمثل هٰذه الطرق أن تتقوّى باجتماعها؟!

* ورواه عبد بن حميد (٣/ ٨٣ـ درّ) عن الفضيل عن النبيّ ﷺ. وهٰذا معضل إن صحّ إلى الفضيل.

قال ابن كثير: «فهٰذه طرق لهٰذا الحديث مرسلة ومتّصلة يشدّ بعضها بعضًا»، وتابعه الشوكاني وصدّيق خان والآلوسي، وردّه الألباني لسقوط طرقه وشدّة ضعفها، وقد رأيت مصداق ذٰلك فيما تقدّم، فالأولى بأصول المصطلح وقواعده أنّ اجتماع هٰذه الطرق وأمثالها لا يزحزح الحديث عن الضعف.

(١) في خ وط: «الأسدي»، والتصويب من مسلم والترمذي وغيرهما.

(٢) يعني: مرّ حنظلة وهو يبكي بأبي بكر.

(٣) في خ: «فقال ما يبكيك يا حنظلة. . . نكون عندك يا رسول الله»!

(٤) في ط: «كأنّها رأي عين»، وفي خ: «كأنّا نراهما رأي عين».

على الحالِ التي تَقومونَ بها [مِن] عندي؛ لَصافَحَتْكُمُ الملائكةُ في مجالِسِكُم وفي طرقِكُم وعلى فرشِكُم، ولٰكنْ يا حَنْظَلَةُ! ساعةً وساعةً»[1]. قالَ التِّرْمِذِيُّ: هٰذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وفي التِّرْمِذِيِّ أيضًا نحوُهُ مِن حديثِ أبي هُرَيْرَةَ[2].

والمقصودُ أنَّ الذي يَهْجُمُ بالقلبِ على حقيقةِ الإيمانِ ويُلَيِّنُ لهُ ما يَسْتَوْعِرُهُ غيرُهُ ويُؤْنِسُهُ بما يَسْتَوْحِشُ منهُ سواهُ العلمُ التَّامُّ والحبُّ الخالصُ، والحبُّ تبعٌ للعلمِ يَقْوى بقوَّتِهِ ويَضْعُفُ بضعفِهِ، والمحبُّ لا يَسْتَوْعِرُ طريقًا توصِلُهُ إلى محبوبِهِ ولا يَسْتَوْحِشُ فيها.

❁ **وقولُهُ: «صَحِبوا الدُّنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقةٌ بالملإ الأعلى (وفي روايةٍ: بالمحلِّ الأعلى)»:**

الرُّوحُ في [هٰذا] الجسدِ في دارِ غربةٍ، ولها وطنٌ غيرُهُ، فلا تَسْتَقِرُّ إلَّا في وطنِها.

---

(١) رواه الترمذي (٣٨ـ القيامة، ٥٩ـ باب، ٤/ ٦٦٦/ ٢٥١٤). وهو عند مسلم أيضًا (٤٩ـ التوبة، ٣ـ فضل دوام الذكر، ٤/ ٢١٠٦/ ٢٧٥٠) من الطريق نفسها.

(٢) (صحيح). رواه: ابن المبارك في «الزهد» (١٠٧٥)، والطيالسي (٢٥٨٣ و٢٥٨٤)، والحميدي (١١٥٠)، وإسحاق في «المسند» (١/ ٣١٨/ ٣٠١)، وأحمد (٢/ ٣٠٤/ ٣٠٥)، وعبد بن حميد (١٤٢٠ـ منتخب)، والحارث بن أبي أسامة (١٠٧١ زوائد الهيثمي)، وابن حبّان (٧٣٨٧)، والطبراني في «الأوسط» (٧١٠٧)، وأبو نعيم في «صفة الجنّة» (١٠٠ و١٣٦)، والبيهقي في «البعث» (٢٥٨)؛ من طرق، عن أبي مجاهد سعد الطائي، [عن أبي المدلّة]، عن أبي هريرة. . . رفعه. وهٰذا سند ضعيف من أجل أبي المدلّة؛ فإنّه مجهول، وقصاراه أن يكون صالحًا في المتابعات كما ذهب إليه العسقلاني.

ورواه: الضبّي في «الدعاء» (١٢٨)، والترمذي (٣٩ـ الجنّة، ٢ـ صفة الجنّة ونعيمها، ٤/ ٦٧٢/ ٢٥٢٦)؛ من طريق حمزة الزيّات، عن زياد الطائي، عن أبي هريرة. . . رفعه. قال الترمذي: «ليس إسناده بذاك القويّ، وليس هو عندي بمتّصل». قلت: إن كان زياد هو سعدًا الطائي المتقدّم في الطريق السابقة؛ فصدوق، وإن كان غيره؛ فمجهول، وفي كلّ حال فروايته عن أبي هريرة مرسلة، والغالب أنّه أخذه عن أبي المدلّة نفسه وأنّ هٰذه الطريق آيلة إلى الأولى.

وله شاهد عند: أحمد (٣/ ١٧٥)، والبخاري في «التاريخ» (٣/ ٣٧)، والبزّار (٤٣٣٤ـ كشف)، وأبي يعلى (٣٠٣٥ و٣٣٠٤)، وابن حبّان (٣٤٤)، والطبراني في «الأوسط» (٢٧١٧)، وابن عدي (٦/ ٢٣٢٣)، والبغوي في «شرح السنّة» (٩٠)، والضياء في «المختارة» (١٦١٥ و١٧٦٢ و٢٤٦٩)؛ من وجهين أحدهما قويّ، عن أنس. . . رفعه. وقوّاه الهيثمي.

وآخر من حديث حنظلة الأسيديّ عند مسلم تقدّم قبله.

وحديث أبي هريرة ضعيف بطريقيه صحيح بشاهديه، وقد صحّحه الألباني.

وهيَ جوهرٌ علويٌّ مخلوقٌ مِن مادَّةٍ علويَّةٍ، وقدِ ٱضْطُرَّتْ إلى مساكنةِ هٰذا البدنِ الكثيفِ، فهيَ دائمًا تَطْلُبُ وطنَها في المحلِّ[١] الأعلى وتَحِنُّ إليهِ حنينَ الطَّيرِ إلى أوكارِها. وكلُّ روحٍ؛ ففيها ذٰلكَ، ولٰكنْ لفرطِ ٱشتغالِها بالبدنِ وبالمحسوساتِ المأْلوفةِ أَخْلَدَتْ إلى الأرضِ ونَسِيَتْ مَعْلَمَها ووطنَها الذي لا راحةَ لها في غيرِهِ؛ فإنَّهُ لا راحةَ للمؤمنِ دونَ لقاءِ ربِّهِ، والدُّنيا سجنُهُ حقًّا.

فلهٰذا تَجِدُ المؤمنَ بدنُهُ في الدُّنيا وروحُهُ في المحلِّ الأعلى. وفي الحديثِ المرفوعِ: «إذا نامَ العبدُ وهوَ ساجدٌ؛ باهى اللهُ بهِ الملائكةَ، فيَقولُ: ٱنْظُروا إلى عبدي بدنُهُ في الأرضِ وروحُهُ عندي»[٢]. رواهُ تَمَّامٌ وغيرُهُ. وهٰذا معنى قولِ بعضِ السَّلَفِ: القلوبُ جوَّالةٌ: فقلبٌ يَجولُ حولَ الحشِّ[٣]، وقلبٌ يَطوفُ معَ الملائكةِ حولَ العرشِ.

---

(١) في ط: «بدار غربة...»، وفي خ: «... وهو جوهري علوي... بالمحلّ».

(٢) (ضعيف). وقد جاء من حديث أنس وأبي هريرة:

* فرواه: تمّام في «الفوائد» (٣٤٣)، والبيهقي في «الخلافيّات» (١/ ١٢٩ـ التلخيص الحبير)، وابن عساكر؛ من طريق داوود بن الزبرقان، عن سليمان التيمي، عن أنس... رفعه. قال العسقلاني: «فيه داوود بن الزبرقان وهو ضعيف». قلت: بل متروك مكذَّب.

قال العسقلاني: «وروي من وجه آخر عن أبان [يعني: ابن أبي عيّاش] عن أنس، وأبان متروك».

* ورواه: ابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ» (١٩٩)، وابن سمعون في «الأمالي» (٩٥٣ـ ضعيفة)؛ من طريق حجّاج بن نصير، ثنا المبارك بن فضالة، عن الحسن، عن أبي هريرة... رفعه. وفيه علل: **أولاها**: عنعنة الحسن على تدليسه. **والثانية**: عنعنة المبارك على تدليسه وضعف فيه. **الثالثة**: ضعف حجّاج بن نصير وقبوله للتلقين. **الرابعة**: أنّ حجّاجًا خولف فرواه: ابن المبارك في «الزهد» (١٢١٣)، وابن نصر في «الصلاة» (٢٩٨)؛ من طريق ابن المبارك، عن المبارك، عن الحسن، أنبئت أنّ ربنا... فذكره. وهٰذا سند قويّ، ولٰكنّه شبه المرسل في أحسن أحواله، وهو المعروف عن الحسن، والوصل منكر.

وقال الدارقطني في «العلل» (١٥٥٢): «يرويه عبّاد بن راشد عن الحسن عن أبي هريرة... رفعه». وفيه أيضًا علل: **أولاها**: عنعنة الحسن. **الثانية**: أنّه معلّق العهدة فيه على الطريق إلى عبّاد. **الثالثة**: أنّ لعبّاد أوهامًا وقد خولف فرواه: ابن أبي شيبة (٣٥٥٨٨)، وأحمد في «الزهد» (١٦١٣)، وابن نصر في «الصلاة» (٢٩٩)، والدارقطني في «العلل» (١٥٥٢)؛ من طريق سلام بن مسكين وحزم بن أبي حزم، عن الحسن، بلغنا أنّه ﷺ قال... فذكره. وسلام وحزم ثقتان، فالمحفوظ قولهما، ورواية عبّاد بين الشذوذ والنكارة.

فحديث أنس ساقط بوجهيه، وحديث أبي هريرة بين الشذوذ والنكارة، فٱجتماعهما لا يزحزح هٰذا المتن عن الضعف، ولذٰلك أعلّه الدارقطني وابن حزم والعسقلاني والشوكاني والصنعاني والألباني.

(٣) في خ: «بدنه في الدنيا وروحه عندي...»، وفي ط: «... فقلب حول الحشر».

فأعظمُ عذابِ الرُّوحِ ٱنغماسُها وتدسيسُها في أعماقِ البدنِ وٱشتغالُها بملاذِّهِ وٱنقطاعُها عن ملاحظةِ ما خُلِقَتْ لهُ وهُيِّئَتْ لهُ وعن وطنِها ومحلِّ أُنسِها ومنزلِ كرامتِها... ولٰكنَّ سكرَ الشَّهواتِ يَحْجُبُها عن مطالعةِ هٰذا /خ٢٤١/ الألمِ والعذابِ، فإذا صَحَتْ مِن سكرِها وأفاقَتْ مِن غمرتِها؛ أَقْبَلَتْ عليها جيوشُ الحسراتِ مِن كلِّ جانبٍ، فحينئذٍ تَتَقَطَّعُ حسراتٍ على ما فاتَها مِن كرامةِ اللهِ وقربِهِ والأُنسِ بهِ والوصولِ إلى وطنِها الذي لا راحةَ لها إلاَّ فيهِ، كما قيلَ:

صَحِبْتُكَ إذْ عَيْني عَلَيْها غِشاوَةٌ ... فَلَمَّا ٱنْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسي أَلُومُها

ولو تَنَقَّلَتِ الرُّوحُ[1] في المواطنِ كلِّها والمنازلِ؛ لَمْ تَسْتَقِرَّ ولَمْ تَطْمَئِنَّ إلاَّ في وطنِها ومحلِّها الذي خُلِقَتْ لهُ، كما قيلَ:

نَقِّلْ فُؤادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الهَوى ... ما الحُبُّ إلاَّ للحَبيبِ الأوَّلِ

كَمْ مَنْزِلٍ في الأرْضِ يَأْلَفُهُ الفَتى ... وَحَنينُهُ أَبَدًا لأوَّلِ مَنْزِلِ

وإذا كانَتِ الرُّوحُ تَحِنُّ أبدًا إلى وطنِها مِن الأرضِ معَ قيامِ غيرِهِ مقامَهُ في السُّكنى، وكثيرًا ما يَكونُ غيرُ وطنِها أطيبَ وأحسنَ منهُ وهيَ دائمًا تَحِنُّ إليهِ معَ أنَّهُ لا ضررَ عليها ولا عذابَ في مفارقتِهِ إلى مثلِهِ؛ فكيفَ بحنينِها إلى الوطنِ الذي في فراقِها لهُ عذابُها وألمُها[2] وحسرتُها التي لا تَنْقَضي؟!

فالعبدُ المؤمنُ في هٰذهِ الدَّارِ سُبِيَ مِن الجنَّةِ إلى دارِ التَّعبِ والعناءِ، ثمَّ ضُرِبَ عليهِ الرِّقُّ فيها، فكيفَ يُلامُ على حنينِهِ إلى دارِهِ التي سُبِيَ منها وفُرِّقَ بينَهُ وبينَ مَن يُحِبُّ وجُمِعَ بينَهُ وبينَ عدوِّهِ؟! فروحُهُ دائمًا معلَّقةٌ بذٰلكَ الوطنِ، وبدنُهُ في الدُّنيا.

ولي مِن أبياتٍ [في ذٰلكَ]:

فَحَيَّ عَلى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإنَّها ... مَنازِلُكَ الأُولى وَفيها المُخَيَّمُ

وَلٰكِنَّنا سَبْيُ العَدُوِّ فَهَلْ تَرى ... نَعودُ إلى أوْطانِنا وَنُسَلَّمُ

وكلَّما أرادَ العدوُّ منهُ نسيانَ وطنِهِ وضَرْبَ الذِّكرِ عنهُ صفحًا وإيلافَهُ وطنًا غيرَهُ؛

---

(١) في خ: «من غمومها أقبلت عليه جيوش الخيرات... ولولا تقلت الأرواح»! والتصويب من ط.

(٢) في ط: «أحسن وأطيب... عذابها وآلامها»، وفي خ: «... وهي إنّما تحنّ إليه...».

أَبَتْ ذٰلكَ روحُهُ وقلبُهُ، كما قيلَ:

يُــرادُ مِــنَ القلــبِ نِسْيــانُكُــمْ وَتَــأْبــى الطِّبــاعُ عَلــى النَّــاقِــلِ

ولهٰذا كانَ المؤمنُ غريبًا في هٰذهِ الدَّارِ، أينَ حَلَّ منها فهوَ في دارِ غربةٍ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «كُنْ في الدُّنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ»[1] /خ٢٤٢/. ولٰكنَّها غربةٌ تَنْقَضي ويَصيرُ إلى وطنِهِ ومنزلِهِ، وأمَّا الغربةُ التي لا يُرْجى ٱنقطاعُها؛ فهيَ غربتُهُ في دارِ الهوانِ، ومفارقتُهُ وطنَهُ الذي كانَ قد هُيِّئَ لهُ وأُعِدَّ لهُ وأُمِرَ بالتَّجهُّزِ إليهِ والقدومِ عليهِ، فأبى إلَّا ٱغترابَهُ[2] عنهُ ومفارقتَهُ لهُ، فتلكَ غربةٌ لا يُرْجى إيابُها ولا يُجْبَرُ مصابُها!

ولا تُبادِرْ إلى إنكارِ كونِ البدنِ في الدُّنيا والرُّوحِ في الملإِ الأعلى؛ فللبدنِ شأْنٌ وللرُّوحِ شأْنٌ، والنَّبيُّ ﷺ كانَ بينَ أظهرِ أصحابِهِ وهوَ عندَ ربِّهِ يُطْعِمُهُ ويَسْقيهِ[3]، فبدنُهُ بينَهُم وروحُهُ وقلبُهُ عندَ ربِّهِ.

وقالَ أبو الدَّرْداءِ: إذا نامَ العبدُ؛ عُرِجَ بروحِهِ إلى تحتِ العرشِ، فإنْ كانَ طاهرًا؛ أُذِنَ لها بالسُّجودِ، وإنْ لمْ يَكُنْ طاهرًا؛ لمْ يُؤْذَنْ لها بالسُّجودِ[4].

فهٰذهِ ـ واللهُ أعلمُ ـ هيَ العلَّةُ التي أُمِرَ الجنبُ لأجلِها أنْ يَتَوَضَّأَ إذا أرادَ النَّومَ[5].

وهٰذا الصُّعودُ[6] إنَّما كانَ لتجرُّدِ الرُّوحِ عنِ البدنِ بالنَّومِ، فإذا تَجَرَّدَتْ بسببٍ آخرَ؛ حَصَلَ لها مِن التَّرقِّي والصُّعودِ بحسبِ ذٰلكَ التَّجرُّدِ. وقد يَقْوى الحبُّ بالمحبِّ

---

(١) رواه البخاري (٨١ـ الرقاق، ٣ـ كن في الدنيا كأنك غريب، ١١/ ٢٣٣/ ٦٤١٦) عن ابن عمر.

(٢) في خ: «ولهٰذا لمّا كان... فأبى الاغترار به»، وفي ط: «... فهي غربة في دار الهوان ومفارقة وطنه...».

(٣) كما تقدّم (١/ ١٥٠) في الحديث المتّفق عليه.

(٤) (ضعيف). رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٢٤٥): أنا ابن لهيعة، ثنا عثمان بن نعيم الرعيني، عن أبي عثمان الأصبحي، عن أبي الدرداء... فذكره موقوفًا.

وهٰذا واهٍ: ابن لهيعة معروف الحال، وقد أتى بالرعيني مجهول لا يعرف، عن الأصبحي مستور أيضًا. وإنّما خرّجته؛ لأنّه لو صحّ؛ لاحتمل أن يكون له حكم الرفع؛ لأنّه لا يقال عادة من قبل الرأي.

(٥) يعني: من غير أن يغتسل غسل الجنابة. وانظر لهٰذا: البخاري (٥ـ الغسل، ٢٧ـ الجنب يتوضّأ ثمّ ينام، ١/ ٣٩٣)، ومسلم (٣ـ الحيض، ٦ـ جواز نوم الجنب، ١/ ٢٤٨).

(٦) في ط: «فللروح شأن وللبدن...»، وفي خ: «... فبدنه فيهم وروحه... وهٰذا هو الصعود».

حتَّى لا يُشاهَدَ منهُ بينَ النَّاسِ إلاَّ جسمُهُ، وروحُهُ في موضعٍ آخرَ عندَ محبوبِهِ. وفي هٰذا مِن أشعارِ النَّاسِ وحكاياتِهِم ما هوَ معروفٌ.

* وقولُهُ: «**أُولٰئكَ خلفاءُ اللهِ في أرضِهِ ودعاتُهُ إلى دينِهِ**»:

[١] هٰذا حجَّةُ أحدِ القولينِ في أنَّهُ يَجوزُ أنْ يُقالَ: [فلانٌ] خليفةُ اللهِ في أرضِهِ.

وٱحْتَجَّ أصحابُهُ أيضًا بقولِهِ تَعالى للملائكةِ: ﴿إِنِّي جاعِلٌ في الأَرْضِ خَليفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وٱحْتَجُّوا بقولِهِ تَعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وهٰذا خطابٌ للنَّوعِ الإنسانيِّ(١).

وبقولِهِ [تَعالى]: ﴿أَمَّنْ يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

وبقولِ موسى لقومِهِ: ﴿عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ في الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وبقولِ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ ممكِّنٌ لكُم في الأرضِ ومستخلفُكُم فيها فناظرٌ كيفَ تَعْمَلونَ، فٱتَّقوا الدُّنيا وٱتَّقوا النِّساءَ»(٢).

وٱحْتَجُّوا بقولِ الرَّاعي يُخاطِبُ أبا بَكْرٍ [الصِّدِّيقَ] رَضِيَ اللهُ عنهُ:

أَخَليفَةَ الرَّحْمٰنِ إنَّا مَعْشَرٌ حُنَفاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وَأَصيلاً
عَرَبٌ نَرى للهِ في أَمْوالِنا حَقَّ الزَّكاةِ مُنَزَّلاً تَنْزيلا

[٢] ومَنَعَتْ طائفةٌ هٰذا الإطلاقَ، وقالَتْ: لا يُقالُ لأحدٍ: [إنَّهُ] خليفةُ اللهِ؛ فإنَّ الخليفةَ إنَّما يَكونُ عمَّن يَغيبُ ويَخْلُفُهُ غيرُهُ، واللهُ [تَعالى] شاهدٌ غيرُ غائبٍ، قريبٌ غيرُ بعيدٍ، راءٍ وسامعٌ، فمحالٌ أنْ يَخْلُفَهُ غيرُهُ، بل هوَ سبحانَهُ [وتَعالى] الذي يَخْلُفُ عبدَهُ

---

(١) في ط: «في الأرض ودعاته... لنوع الإنسان»، والتصويب من خ.

(٢) روى مسلم (٤٨ـ الذكر، ٢٦ـ أكثر أهل الجنّة، ٤/٢٠٩٨/٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد؛ أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتّقوا الدنيا واتّقوا النساء؛ فإنّ أوّل فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

المؤمنَ فيَكونُ خليفتَهُ:

كما قالَ النَّبيُّ ﷺ في حديثِ الدَّجَّالِ: «إنْ يَخْرُجْ وأنا فيكُم؛ فأنا حجيجُهُ دونَكُم، وإنْ يَخرُجْ ولستُ فيكُم؛ فٱمرؤٌ حجيجُ نفسِهِ، واللهُ خليفتي على كلِّ مؤمنٍ»، والحديثُ في «الصَّحيح»[1].

وفي «صحيح مسلم»[2] أيضًا مِن حديثِ عَبْدِاللهِ بنِ عُمَرَ؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَقولُ إذا سافَرَ: «اللهمَّ! أنتَ الصَّاحبُ في السَّفرِ والخليفةُ في الأهلِ. . .» الحديثَ.

وفي «الصَّحيح»[3] أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «اللهمَّ! ٱغْفِرْ لأبي سَلَمَةَ، وٱرْفَعْ درجتَهُ في المَهْدِيِّينَ، وٱخْلُفْهُ في أهلِهِ»[4].

فاللهُ تَعالى هوَ خليفةُ العبدِ؛ لأنَّ العبدَ يَموتُ فيَحْتاجُ إلى مَن يَخْلُفُهُ في أهلِهِ.

قالوا: ولهٰذا أنْكَرَ الصِّدِّيقُ [رَضِيَ اللهُ عنهُ] على مَن قالَ لهُ: يا خليفةَ اللهِ! قالَ: لَسْتُ بخليفةِ اللهِ، ولٰكنْ خليفةُ رسولِ اللهِ، وحسبي ذٰلكَ.

قالوا: وأمَّا قولُهُ تَعالى: ﴿إِنِّي جاعِلٌ في الأرْضِ خَليفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فلا خلافَ أنَّ المرادَ بهِ آدمُ وذرِّيَّتُهُ. وجمهورُ أهلِ التَّفسيرِ مِن السَّلفِ والخلفِ على أنَّهُ جَعَلَهُ خليفةً عمَّن كانَ قبلَهُ في الأرضِ: قيلَ: عنِ الجنِّ الذينَ كانوا سكَّانَها. وقيلَ: عنِ الملائكةِ الذينَ سَكَنوها بعدَ الجنِّ. وقصَّتُهُم مذكورةٌ في التَّفاسيرِ.

وأمَّا قولُهُ تَعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]؛ فليسَ المرادُ بهِ خلائفَ عنِ اللهِ، وإنَّما المرادُ بهِ أنَّهُ جَعَلَكُمْ يَخْلُفُ بعضُكُم بعضًا، فكلَّما هَلَكَ قرنٌ؛ خَلَفَهُ قرنٌ إلى آخرِ الدَّهرِ. ثمَّ قيلَ: إنَّ هٰذا خطابٌ لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ [ﷺ] خاصَّةً؛ أي: جَعَلَكُمْ خلائفَ مِن الأُممِ الماضيةِ فهَلَكوا ووَرِثْتُم[5] أنْتُمُ الأرضَ مِن بعدِهِم. ولا ريبَ أنَّ هٰذا /خ٢٤٤/ الخطابَ للأُمَّةِ، والمرادُ نوعُ الإنسانِ الذي جَعَلَ

---

(١) مسلم (٥٢ـ الفتن، ٢٠ـ ذكر الدجّال، ٤/ ٢٢٥٠/ ٢٩٣٧) من حديث النوّاس بن سمعان.

(٢) (١٥ـ الحجّ، ٧٥ـ ما يقول إذا ركب، ٢/ ٩٧٨/ ١٣٤٢).

(٣) في ط: «خليفة الرحمٰن إنّا معشر. . .»، وفي خ: «. . . فكلّ أمرئ حجيج. . . وفي الحديث».

(٤) رواه مسلم (١١ـ الجنائز، ٤ـ إغماض الميّت، ٢/ ٦٣٤/ ٩٢٠) من حديث أمّ سلمة.

(٥) في خ: «خليفة ممّن كان قبله. . . فهلكوا وأورثتم».

اللهُ أباهُم خليفةً عمَّن قبلَهُ وجَعَلَ ذرِّيَّتَهُ يَخْلُفُ بعضُهُم بعضًا إلى يومِ القيامةِ[١]. ولهٰذا جَعَلَ [اللهُ] هٰذا آيةً مِن آياتِهِ، كقولِهِ تَعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

وأمَّا قولُ موسى لقومِهِ: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩]؛ فليسَ ذٰلكَ ٱستخلافًا عنهُ، وإنَّما هوَ ٱستخلافٌ عن فِرْعَوْنَ وقومِهِ [لمَّا] أهْلَكَهُمُ [اللهُ] وجَعَلَ قومَ موسى خلفاءَ مِن بعدِهِم.

[وكذا قولُ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ مستخلفُكُم في الأرضِ»[٢]؛ أي: مِن الأُممِ التي تَهْلِكُ وتكونونَ أنتُم خلفاءَ مِن بعدِهِم].

قالوا: وأمَّا قولُ الرَّاعي؛ فقولُ شاعرٍ قالَ قصيدةً في غيبةِ الصِّدِّيقِ لا يُدْرى أبَلَغَتْ أبا بَكْرٍ أم لا، ولو بَلَغَتْهُ؛ فلا يُعْلَمُ[٣] أنَّهُ أقَرَّهُ على هٰذهِ اللفظةِ [أم لا].

[٣] قُلْتُ: إنْ أُريدَ بالإضافةِ إلى اللهِ أنَّهُ خليفةٌ عنهُ؛ فالصَّوابُ قولُ الطَّائفةِ المانعةِ منها. وإنْ أُريدَ بالإضافةِ أنَّ اللهَ ٱسْتَخْلَفَهُ عن غيرِهِ ممَّن كانَ قبلَهُ؛ فهٰذا لا يَمْتَنِعُ فيهِ الإضافةُ، وحقيقتُها خليفةُ اللهِ الذي جَعَلَهُ [اللهُ] خلفًا عن غيرِهِ. وبهٰذا[٤] يُخَرَّجُ الجوابُ عن [قولِ] أميرِ المؤمنينَ: أُولٰئِكَ خلفاءُ اللهِ في أرضِهِ.

فإنْ قيلَ: هٰذا لا مدحَ فيهِ؛ لأنَّ هٰذا الاستخلافَ عامٌّ في الأُمَّةِ، وخلافةُ اللهِ التي ذَكَرَها أميرُ المؤمنينَ خاصَّةٌ بخواصِّ الخلقِ!

فالجوابُ: أنَّ الاختصاصَ [المذكورَ أفادَ ٱختصاصَ] الإضافةِ[٥]، فالإضافةُ هُنا للتَّشريفِ والتَّخصيصِ. كما يُضافُ إليهِ عبادُهُ: كقولِهِ [تَعالى]: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ

---

(١) في ط: «بعضهم بعضًا إلى قيام الساعة».

(٢) رواه مسلم كما تقدّم قبل قليل.

(٣) في ط: «وقومه أهلكهم وجعل. . .»، وفي خ: «. . . وأمّا قول الشاعر فقد قال. . . فلم يعلم».

(٤) يعني: بهٰذا الوجه الأخير.

(٥) فٱستخلاف الله سبحانه نوعان: ٱستخلاف عامّ، وهو جعل الله هٰذه الأمّة خلفًا لمن مضى من الأمم، فهم خلفاء الله تعالى عمومًا بهٰذا الاعتبار. وٱستخلاف خاصّ، وهو جعل الله أهل العلم من هٰذه الأمّة خلفًا لمن مضى من الأنبياء والعلماء والمحدَّثين، فهم خلفاء الله تعالى خصوصًا بهٰذا الاعتبار. وسياق الكلام هو الذي يبيّن الاستخلاف المقصود.

عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿وَعِبادُ الرَّحْمٰنِ الَّذينَ يَمْشونَ عَلى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ونظائرِها. ومعلومٌ أنَّ كلَّ الخلقِ عبادٌ للهِ. فخلفاءُ الأرضِ كالعبادِ في قولِهِ [تَعالى]: ﴿وَاللهُ بَصيرٌ بِالعِبادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، ﴿وَما اللهُ يُريدُ ظُلْمًا لِلعِبادِ﴾ [غافر: ٣١]. وخلفاءُ اللهِ كعبادِ اللهِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ونظائرِهِ.

وحقيقةُ اللفظِ أنَّ الخليفةَ هوَ الذي يَخْلُفُ الذّاهبَ؛ أي: يَجيءُ بعدَهُ، يُقالُ: خَلَفَ فلانٌ فلانًا[1].

وأصلُهُ خليفٌ بغيرِ هاءٍ؛ لأنَّها فعيلٌ بمعنى فاعلٍ كالعليمِ والقديرِ، فدَخَلَتِ التّاءُ للمبالغةِ في الوصفِ كراويةٍ وعلّامةٍ. ولهٰذا جُمعَ /خ٢٤٥/ جمعَ فعيلٍ فقيلَ: خلفاءُ، كشريفٍ وشرفاءَ [وكريمٍ] وكرماءَ. ومَن راعى لفظَهُ بعدَ دخولِ التّاءِ عليهِ؛ جَمَعَهُ على فعائلَ فقالَ: خلائفَ، كعقيلةٍ وعقائلَ وظريفةٍ وظرائفَ. وكلاهُما وَرَدَ بهِ القرآنُ. هٰذا قولُ جماعةٍ مِن النُّحاةِ.

والصَّوابُ أنَّ التّاءَ إنَّما دَخَلَت فيها للعدلِ عنِ الوصفِ إلى الاسمِ؛ فإنَّ الكلمةَ صفةٌ في الأصلِ، ثمَّ أُجْرِيَتْ مجرى الأسماءِ، فأُلْحِقَتِ التّاءُ لذٰلكَ، كما قالوا نطيحةٌ بالتّاءِ، فإذا أجْرَوْها صفةً؛ قالوا: شاةٌ نطيحٌ، كما يقولونَ: كفٌّ[2] خضيبٌ، وإلّا؛ فلا معنى للمبالغةِ في خليفة [حتّى] تَلْحَقَها تاءُ المبالغةِ. واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: «ودعاتُهُ إلى دينِهِ»: الدُّعاةُ جمعُ داعٍ، كقاضٍ وقضاةٍ ورامٍ ورماةٍ، وإضافتُهُم إلى اللهِ للاختصاصِ؛ أي: الدُّعاةُ المخصوصونَ بهِ الذينَ يَدْعونَ إلى دينِهِ وعبادتِهِ ومعرفتِهِ ومحبَّتِهِ، وهٰؤلاءِ هم خواصُّ خلقِ اللهِ وأفضلُهُم عندَ اللهِ منزلةً وأعلاهُم قدرًا.

يَدُلُّ على ذٰلكَ [الوجهُ التّالي]:

● **الوجهُ الثَّلاثونَ بعدَ المئةِ**: وهوَ قولُهُ تَعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلى

---

(١) في ط: «عباد له فخلفاء الأرض... وحقيقة اللفظة...»، وفي خ: «... خلف فلانًا فلانٌ».
(٢) في خ: «فألحقت التاء كذٰلك... بطيخة بالتاء... قالوا بطيخ كما يقال كفّ»!

اللهِ وَعَمِلَ صالِحًا وَقالَ إنَّني مِنَ المُسْلِمينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. قالَ الحَسَنُ: هوَ المؤمنُ؛ أجابَ اللهَ في دعوتِهِ، ودَعا النَّاسَ إلى ما أجابَ اللهَ فيهِ مِن دعوتِهِ، وعَمِلَ صالحًا في إجابتِهِ. فهٰذا حبيبُ اللهِ، هٰذا وليُّ اللهِ. فمقامُ الدَّعوةِ إلى اللهِ أفضلُ مقاماتِ العبدِ.

قالَ تَعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعوهُ كادوا يَكونونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[الجن: ١٩].

وقالَ تَعالى: ﴿ٱدْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]: جَعَلَ سبحانَهُ مراتبَ الدَّعوةِ بحسبِ مراتبِ الخلقِ: فالمستجيبُ القابلُ الذَّكيُّ الذي لا يُعانِدُ الحقَّ ولا يَأْباهُ يُدْعى بطريقِ الحكمةِ. والقابلُ الذي عندَهُ نوعُ غفلةٍ وتأخُّرٍ يُدْعى بالموعظةِ الحسنةِ، وهيَ الأمرُ والنَّهيُ المقرونُ بالرَّغبةِ والرَّهبةِ. والمعاندُ الجاحدُ يُجادَلُ بالتي هيَ أحسنُ.

هٰذا /خ٢٤٦/ هوَ الصَّحيحُ في معنى [هٰذهِ] الآيةِ لا ما يَزْعُمُ أسيرُ منطقِ اليونانِ: أنَّ الحكمةَ قياسُ البرهانِ، [وهوَ دعوةُ الخواصِّ. والموعظةُ الحسنةُ قياسُ الخطابةِ]، وهوَ دعوةُ العوامِّ. والمجادلةُ بالتي هيَ أحسنُ القياسُ الجدليُّ، وهوَ ردُّ شغبِ المشاغبِ بقياسٍ جدليٍّ مسلَّمِ المقدِّماتِ! وهٰذا باطلٌ، وهوَ مبنيٌّ على أُصولِ الفلسفةِ، وهوَ منافٍ لأُصولِ المسلمينَ وقواعدِ الدِّينِ مِن وجوهٍ كثيرةٍ ليسَ هٰذا موضعَ ذكرِها[1].

وقالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿قُلْ هٰذِهِ سَبيلي أَدْعو إلى اللهِ عَلى بَصيرَةٍ أَنا وَمَنِ ٱتَّبَعَني﴾ [يوسف: ١٠٨]:

[قالَ الفرَّاءُ وجماعةٌ: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَني﴾ معطوفٌ على الضَّميرِ في ﴿أَدْعو﴾؛ يَعْني: وَمَنِ ٱتَّبَعَني] يَدْعو إلى اللهِ كما أدْعو. وهٰذا قولُ الكَلْبِيِّ؛ قالَ: حقٌّ على كلٍّ مِن ٱتَّبَعَهُ أنْ يَدْعُوَ إلى ما دَعا إليهِ ويُذَكِّرَ بالقرآنِ والموعظةِ [الحسنةِ][2]. ويقْوى هٰذا القولُ مِن وجوهٍ كثيرةٍ.

---

(١) مع أنّه مشابه للكلام الذي قبله لا فرق بينهما إلّا في صياغة العبارة! فليته قدّس الله روحه ٱستطرد هنا كعادته وبيّن وفصّل؛ فإنّ طالب العلم لا يخلو من حاجة لمثل هٰذا التفصيل. راجع ما سيأتي (١/ ٤٢٤).

(٢) في خ: «مسلّم المتقدّمات... إلى ما دعاه محمد إليه...»، و«الحسنة» ساقطة من ط.

قالَ ابنُ الأنْبارِيِّ: ويَجوزُ أنْ يَتِمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿إلى اللهِ﴾، ثمَّ يَبْتَدِئُ بقولِهِ: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أنا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾. فيَكونُ الكلامُ على قولِهِ جملتينِ؛ أخْبَرَ في أُولاهُما أنَّهُ يَدْعو إلى اللهِ، وفي الثَّانيةِ بأنَّهُ وأتباعَهُ على بصيرةٍ.

والقولانِ متلازمانِ؛ فلا يَكونُ الرَّجلُ مِن أتباعِهِ حقًّا حتَّى يَدْعُوَ إلى ما دَعا إليه. وقولُ الفرَّاءِ أحسنُ وأقربُ إلى الفصاحةِ والبلاغةِ.

وإذا كانَتِ الدَّعوةُ إلى اللهِ أشرفَ مقاماتِ العبدِ وأجلَّها وأفضلَها؛ فهيَ لا تَحْصُلُ إلاَّ بالعلمِ الذي يَدْعو بهِ وإليهِ، بل لا بدَّ في كمالِ الدَّعوةِ مِن البلوغِ في العلمِ إلى [أقصى](١) حدٍّ يَصِلُ إليهِ السَّعيُ.

ويَكْفي هٰذا في شرفِ العلمِ أنَّ صاحبَهُ يَحوزُ بهِ هٰذا المقامَ، واللهُ يُؤْتي فضلَهُ مَن يَشاءُ.

● **الوجهُ الحادي والثَّلاثونَ بعدَ المئةِ**: أنَّهُ لو لمْ يَكُنْ مِن فوائدِ العلمِ إلاَّ أنَّهُ يُثْمِرُ اليقينَ الذي هوَ أعظمُ حياةِ القلبِ وبهِ طمأْنينتُهُ وقوَّتُهُ ونشاطُهُ وسائرُ لوازمِ الحياةِ(٢).

ولهٰذا مَدَحَ اللهُ سبحانَهُ أهلَهُ في كتابِهِ وأثْنى عليهِـ[ـم]: بقولِهِ: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنونَ﴾ [البقرة: ٤]، وقولِهِ تَعالى: كذٰلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يُوقِنونَ(٣)، وقولِهِ في حقِّ خليلِهِ إبْراهيمَ: ﴿وَكَذٰلِكَ نُرِي إبْراهيمَ مَلَكوتَ السَّماواتِ وَالأرْضِ وَلِيَكونَ مِنَ المُوقِنينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وذَمَّ مَن لا يقينَ /خ٢٤٧/ عندَهُ، فقالَ: ﴿إنَّ النَّاسَ كانوا بِآياتِنا لا يُوقِنونَ﴾ [النمل: ٨٢].

وفي الحديثِ المرفوعِ مِن حديثِ: سُفْيانَ الثَّوْرِيِّ، عن سُلَيْمانَ التَّيْمِيِّ، عن خَيْثَمَةَ، عن عَبْدِاللهِ بنِ مَسْعودٍ، يَرْفَعُهُ: «لا تُرْضِيَنَّ أحدًا بسخطِ اللهِ، ولا تَحْمَدَنَّ أحدًا

---

(١) ساقطة من خ وط، ولا بدّ منها ليستقيم الكلام. والأصل أن يدعو كلّ مسلم إلى الله بقدر ما عنده من العلم، قليلاً كان أم كثيرًا، وأمّا كمال الدعوة؛ فلا بدّ فيه من أستكمال العدّة العلميّة قدر الإمكان.

(٢) يعني: لكفى هٰذا شرفًا للعلم وأهله، وحذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه كثير عند العرب.

(٣) كذا في خ وط! وما من آية بهٰذا اللفظ.

على فضلِهِ، ولا تَذُمَّنَّ أحدًا على ما لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ؛ فإنَّ رزقَ اللهِ لا يَسوقُهُ [إليكَ] حرصُ حريصٍ، ولا يَرُدُّهُ [عنكَ] كراهيةُ كارهٍ. وإنَّ اللهَ بعدلِهِ وقسطِهِ جَعَلَ الرَّوحَ والرَّاحةَ والفرحَ في الرِّضى واليقينِ[١]، وجَعَلَ الهمَّ والحزنَ في الشَّكِّ والسَّخطِ»[٢].

فإذا باشَرَ القلبَ اليقينُ؛ ٱمْتَلأَ نورًا، وٱنْتَفى عنهُ كلُّ ريبٍ وشكٍّ، وعوفِيَ مِن أمراضِهِ القاتلةِ، وٱمْتَلأَ شكرًا للهِ وذكرًا لهُ ومحبَّةً وخوفًا، فحَيَّ عن بيِّنةٍ.

واليقينُ والمحبَّةُ هُما ركنا الإيمانِ، وعليهِما يَنْبَني، وبهِما قِوامُهُ. وهُما يَمُدَّانِ سائرَ الأعمالِ القلبيَّةِ والبدنيَّةِ، وعنهُما تَصْدُرُ، وبضعفِهِما يَكونُ ضعفُ الأعمالِ، وبقوَّتِهِما قوَّتُها. وجميعُ منازلِ السَّائرينَ ومقاماتِ العارفينَ إنَّما تَصِحُّ بهِما[٣]، وهُما يُثْمِرانِ كلَّ عملٍ صالحٍ وعلمٍ نافعٍ وهدًى مستقيمٍ.

قالَ شيخُ العارفينَ الجُنَيْدُ: [اليقينُ] هوَ ٱستقرارُ العلمِ الذي لا يَتَقَلَّبُ ولا يَتَحَوَّلُ

---

(١) في خ: «وقد مدح الله... لا يجلبه حرص... والفرح والرضى في اليقين».

(٢) (ضعيف جدًّا). مدار طرقه على الثوري وٱختلف عليه فيها على ثلاثة أوجه:

روى **الأوّل**: الطبراني (١٠/ ٢١٦/ ١٠٥١٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٢١، ٧/ ١٣٠)؛ من طريق خالد بن يزيد العمري، عنه، عن الأعمش، عن خيثمة، عن ابن مسعود... رفعه. قال أبو نعيم: «تفرّد به العمري». وقال الهيثمي: «العمري ٱتّهم بالوضع». قلت: تهمته ثابتة، ثمّ هو لم يتفرّد به، بل تابعه خالد بن نجيح عن سفيان... به عند القضاعي (٩٤٧ و١١١٦). قال القضاعي: «كذا في الأصل خالد بن نجيح، وإنّما يروى عن خالد بن يزيد». قلت: كلاهما كذّاب ساقط، فلا تطوّل ولا يطوّل عليك.

وروى **الثاني** البيهقي في «الشعب» (٢٠٨) عن محمّد بن صالح بن هانئ، ثنا جعفر بن شعيب الشاشي، ثنا أبو حمة، ثنا أبو قرّة، عن سفيان، عن منصور، عن خيثمة، عن ابن مسعود... رفعه. وهٰذا ضعيف: ابن هانئ لم أقف له على ذكر، والشاشي ذكره الخطيب برواية جماعة ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً.

وروى **الثالث**: هنّاد في «الزهد» (٥٣٥)، وابن أبي الدنيا في «الرضى» (٩٣)، والبيهقي في «الشعب» (٢٠٩)؛ من طرق قويّة، عن سفيان (قال البيهقي: الثوري، وقال الآخران: ابن عيينة)، عن أبي هارون المدني موسى بن أبي عيسى، عن ابن مسعود... وقفه. وهٰذا أرجحها، ولٰكنّ أبا هارون لم يلحق ابن مسعود. لٰكن أورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٤١٥) من وجه آخر عنه.

وخلاصة الكلام أنّ الرفع في هٰذا الحديث من منكرات الضعفاء والمتروكين، وقد ضعّفه أبو نعيم والمنذري والهيثمي، وهو دون ذٰلك.

* **تنبيه**: ذكر ابن القيّم هنا في السند «سليمان التيميّ»، وما أظنّه إلاّ وهمًا، ٱشتبه فيه سليمان الأعمش بسليمان التيمي، فإن كان محفوظًا؛ فهي آفة جديدة تضاف إلى ما تقدّم. والله أعلم.

(٣) في خ: «وعليهما بني... وبقوتهما قوّتهما...»، وفي ط: «... إنّما تفتح بهما».

ولا يَتَغَيَّرُ في القلبِ.

وقالَ سَهْلٌ: حرامٌ على قلبٍ أنْ يَشَمَّ رائحةَ اليقينِ وفيهِ سكونٌ إلى غيرِ اللهِ.

وقيلَ: مِن علاماتِهِ: الالتفاتُ إلى اللهِ في كلِّ نازلةٍ، والرُّجوعُ إليهِ في كلِّ أمرٍ، والاستعانةُ بهِ في كلِّ حالٍ، وإرادةُ وجهِهِ بكلِّ حركةٍ وسكونٍ.

وقالَ السَّريُّ: اليقينُ سكونُكَ عندَ جَوَلانِ المواردِ في صدرِكَ لثقتِكَ أنَّ[1] حركتَكَ فيها لا تَنْفَعُكَ ولا تَرُدُّ عنكَ مقضيًّا. قُلْتُ: هٰذا إذا لمْ تكُنِ الحركةُ مأمورًا بها، فـ[ـأمَّا] إذا كانَتْ مأمورًا بها؛ فاليقينُ في بذلِ الجهدِ فيها واستفراغِ الوسعِ.

وقيلَ: إذا اسْتَكْمَلَ العبدُ حقيقةَ اليقينِ؛ صارَ البلاءُ عندَهُ نعمةً والمحنةُ منحةً.

فالعلمُ أوَّلُ درجاتِ اليقينِ. ولهٰذا قيلَ: العلمُ يَسْتَعْمِلُكَ واليقينُ يَحْمِلُكَ. فاليقينُ أفضلُ مواهبِ الرَّبِّ لعبدِهِ، ولا تَثْبُتُ قدمُ الرِّضى إلَّا على /خ٢٤٨/ درجةِ اليقينِ.

قالَ [اللهُ] تعالى: ﴿ما أصابَ مِنْ مُصيبةٍ إلَّا بإذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ باللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]: قالَ ابنُ مَسْعودٍ: هوَ العبدُ تُصيبُهُ المصيبةُ فيَعْلَمُ أنَّها مِن عندِ اللهِ فيَرْضى ويُسَلِّمُ. فهٰذا لمْ تَحْصُلْ[2] لهُ هدايةُ القلبِ والرِّضى والتَّسليمُ إلَّا بيقينِهِ.

قالَ في «الصِّحاح»: اليقينُ العلمُ وزوالُ الشَّكِّ، يُقالُ منهُ: يَقِنْتُ الأمرَ بالكسرِ يقينًا واسْتَيْقَنْتُ وأيْقَنْتُ وتَيَقَّنْتُ كلُّهُ بمعنًى واحدٍ، وأنا على يقينٍ منهُ. وإنَّما صارَتِ الياءُ واوًا في موقِنٍ للضَّمَّةِ قبلَها، وإذا صَغَّرْتَهُ؛ رَدَدْتَهُ إلى الأصلِ [فقُلْتَ]: مُيَيْقِنٌ، وربَّما عَبَّروا عنِ الظَّنِّ باليقينِ وعنِ اليقينِ بالظَّنِّ[3].

قالَ:

تَحَسَّبَ هَوَّاسٌ وَأيْقَنَ أنَّني ... بِها مُفْتَدٍ مِنْ واحِدٍ لا أُغامِرُهْ

يَقولُ: تَشَمَّمَ الأسدُ ناقتي يَظُنُّ[4] أنَّني أفْتَدي بها منهُ وأسْتَنْجي نفسي فأتْرُكُها لهُ

---

(١) في خ: «حرام على كل قلب...»، وفي ط: «... اليقين السكون... لثقتك أنّ».
(٢) في خ: «إلّا عن درجة اليقين...»! وفي خ وط: «... ويسلّم ولهٰذا لم تحصل»!
(٣) في ط: «وإذا صغّرت رددته...»، وفي خ: «... باليقين وباليقين عن الظنّ».
(٤) في ط: «تشمّر الأسد ناقتي يظنّ»، وفي خ: «تشمّم الأسد ناقتي فظنّ».

ولا أَقْتَحِمُ المهالكَ بمقاتلتِهِ[1].

قلتُ: هٰذا موضعٌ ٱخْتَلَفَ فيهِ أهلُ اللغةِ والتَّفسيرِ؛ هل يُسْتَعْمَلُ اليقينُ في موضعِ الظَّنِّ والظَّنُّ في موضعِ اليقينِ؟

فرَأى ذٰلكَ طائفةٌ منهُمُ الجَوْهَرِيُّ وغيرُهُ.

وٱحْتَجُّوا سوى ما ذُكِرَ: بقولِهِ تَعالى: ﴿الَّذينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعونَ﴾ [البقرة: ٤٦]، ولو شَكُّوا في ذٰلكَ؛ لَمْ يَكونوا مؤمنينَ، فضلاً عن أنْ يُمْدَحوا بهٰذا المدحِ. وبقولِهِ تَعالى: ﴿[قالَ] الَّذينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَليلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وبقولِهِ تَعالى: ﴿وَرَأى المُجْرِمونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعوها﴾ [الكهف: ٥٣]. وبقولِ الشَّاعرِ:

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُقاتِلٍ سَراتُهُمُ في الفارِسِيِّ المُسَرَّدِ[2]

أي: ٱسْتَيْقِنوا بهٰذا العددِ.

وأبى ذٰلكَ طائفةٌ وقالوا: لا يَكونُ اليقينُ إلَّا للعلمِ. وأمَّا الظَّنُّ؛ فمنهُم مَن وافَقَ على أنَّهُ يَكونُ [بمعنى العلمِ، ومنهُم مَن قالَ: لا يَكونُ] الظَّنُّ في موضعِ اليقينِ.

وأجابوا عمَّا ٱحْتَجَّ بهِ مَن جَوَّزَ ذٰلكَ بأنْ قالوا: هٰذهِ المواضعُ التي زَعَمْتُم أنَّ الظَّنَّ وَقَعَ فيها موقعَ اليقينِ كلُّها على بابِها؛ فإنَّا لَمْ نَجِدْ ذٰلكَ إلَّا في علمٍ بمغيَّبٍ، ولَمْ نَجِدْهُم يَقولونَ لمَن رَأى الشَّيءَ أَظُنُّهُ ولمَن ذاقَهُ أَظُنُّهُ، وإنَّما يُقالُ لغائبٍ قد عُرِفَ /خ٢٤٩/ بالسَّمعِ والعقلِ، فإذا صارَ إلى المشاهدةِ؛ ٱمْتَنَعَ إطلاقُ الظَّنِّ عليهِ.

قالوا: وبينَ العيانِ والخبرِ مرتبةٌ متوسِّطةٌ؛ بٱعتبارِها أُوقِعَ على العلمِ بالغائبِ الظَّنُّ؛ لفقدِ الحالِ التي تَحْصُلُ لمدرِكِهِ بالمشاهدةِ. وعلى هٰذا خَرَجَتْ[3] سائرُ الأدلَّةِ التي ذَكَرْتُموها.

ولا يَرِدُ على هٰذا قولُهُ: ﴿وَرَأى المُجْرِمونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعوها﴾ [الكهف:

---

(١) في ط: «وأستحيي نفسي...»، وفي خ: «وأستبحي نفسي... لمقاتلته».

(٢) سراتهم: أهل الشرف والسيادة منهم. في الفارسيّ المسرّد: في الدروع الفارسيّة.

(٣) في ط: «وٱحتجّوا بسوى... وافق على أنّه يكون الظنّ... بالسمع والعلم... أخرجت».

٥٣]؛ لأنَّ الظَّنَّ إنَّما وَقَعَ على مواقعتِها، وهيَ غيبٌ حالَ الرُّؤيةِ[(١)]، فإذا واقعوها؛ لمْ يَكُنْ ذلكَ ظنًّا بل حقٌّ يقينٍ.

قالوا: وأمَّا قولُ الشَّاعرِ: وأيْقَنَ أنَّني بِها مفتدٍ؛ فعلى بابِهِ؛ لأنَّهُ ظَنَّ أنَّ الأسدَ لتيقُّنِه شجاعتَهُ وجراءتَهُ موقنٌ بأنَّ الرَّجلَ يَدَعُ ناقتَهُ لهُ يَفْتَدي[(٢)] بها مِن نفسِه.

قالوا: وعلى هٰذا يَخْرُجُ معنى الحديثِ: «نحنُ أحقُّ بالشَّكِّ مِن إبْراهيمَ»[(٣)]. وفيهِ أجوبةٌ، لٰكنْ بينَ العيانِ والخبرِ رتبةٌ طَلَبَ إبْراهيمُ زوالَها بقولِهِ: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فعَبَّرَ عن تلكَ الرُّتبةِ بالشَّكِّ. واللهُ أعلمُ.

● **الوجهُ الثَّاني والثَّلاثونَ بعدَ المئةِ**: ما رَواهُ أبو يَعْلى المَوْصِلِيُّ في «مسنده» مِن حديثِ أنَسِ بنِ مالِكٍ يَرْفَعُهُ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ»[(٤)].

---

(١) لأنّهم لمّا رأوا النار تيقّنوا من وجودها، وأمّا وقوعهم فيها؛ فما زال ظنًّا عندهم بغير يقين.

(٢) في خ: «فعلى بابه بأنّه ظنّ...»، وفي ط: «... يدع له ناقته يفتدي».

(٣) رواه: البخاري (٦٠ـ الأنبياء، ١١ـ ونبّئهم عن ضيف إبراهيم، ٦/ ٤١٠/ ٣٣٧٢)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٦٩ـ زيادة طمأنينة القلب، ١/ ١٣٣/ ١٥١)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) (صحيح). وقد جاء عن أنس من أوجه:

[١] فرواه: الخطيب في «بغداد» (٧/ ٣٨٦)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٦٩)؛ من طريق ضعيفة، عن ميسرة بن عبدالله، عن موسى بن جابان، عن أنس... رفعه. وميسرة هٰذا هو ابن عبد ربّه نفسه كذّاب يضع، وموسى بن جابان متروك.

[٢] ورواه: أبو يعلى (٤٠٣٥)، والطبراني في «الأوسط» (٢٤٨٣ و٨٨٢٨)، وابن عدي (٣/ ١٠٤٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٢٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٦٤)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ٩)، والخطيب في «بغداد» (٤/ ١٥٦) و«الجمع والتفريق» (٢/ ٤١٠)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٦٧ و٧١)؛ من طرق، عن زياد بن ميمون أبي عمار، عن أنس... رفعه. وهٰذا ساقط، زياد كذّاب يضع.

[٣] ورواه: ابن عدي (١/ ٢٠٥)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٧٠)؛ من طريق أحمد بن هارون أبي جعفر البلدي، ثنا عبدالله بن يزيد الأعمى، ثنا محمّد بن سليمان بن أبي داوود، ثنا معان بن رفاعة، ثنا عبدالوهّاب بن بخت، عن أنس... رفعه. وهٰذا ساقط: البلدي كذّاب، ومعان ليّن.

[٤] ورواه: الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٤٤)، والسلفي في «مجالس خمسة» (٨٦ـ مشكلة الفقر)؛ من طرق ثلاثة، عن حميد، عن أنس... رفعه. وفي الطريق الأولى معلّى بن هلال متّفق على تكذيبه، وفي الثانية محمّد بن الحسين بن إبراهيم الخفّاف يركب الأسانيد ويختلقها، وفي الثالثة الحسين بن داوود البلخي صاحب نسخة موضوعة. فطريق حميد عن أنس ساقطة من أوجهها الثلاثة.

[٥] ورواه الخطيب في «التاريخ» (١١/ ٤٢٤) من طريق أبي الحسن عليّ بن خفيف بن عبدالله =

= الدقّاق، ثنا محمّد بن أحمد بن يزيد الكديمي، ثنا عبيدالله بن موسى، عن الأعمش، عن أنس. . . رفعه. قال الخطيب: «ابن خفيف سيّئ الحال في الرواية»، وقال العسقلاني: «الكديمي متّهم»، فالسند ساقط.

[٦] ورواه بحشل في «التاريخ» (١/ ٦٥ و٧٠) من طريق أبي الصباح المؤذّن، [عن أمّ كثير بنت فرقد]، عن أنس. . . رفعه. وأبو الصباح الظاهر أنّه عبدالغفور الواسطي متّهم، وأمّ كثير لم أقف لها على ذكر.

[٧] ورواه: ابن عدي (٢/ ٨٤١)، ولاحق بن محمّد في «شيوخه» (٨٦- مشكلة الفقر)، وابن عبدالبرّ (١/ ٩)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٧٢)؛ من طريق إسماعيل بن عيّاش، عن أبي سهل حسام بن مصكّ، عن مسلم الملائيّ، عن أنس. . . رفعه. وهٰذا ساقط: إسماعيل بن عيّاش ضعيف في غير الشاميّين وهٰذا منه، وحسام ومسلم الملائيّ في حدّ الترك.

[٨] ورواه: ابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٥٢٥)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٦٢)؛ من طريق عبدالله بن خراش، عن العوّام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي، عن أنس. . . رفعه. وهٰذا ساقط: ابن خراش في حدّ الترك، والتيمي عنعن على إرساله وتدليسه.

[٩] ورواه الرافعي في «التدوين» (٢/ ٤٠) من طريق أبي المقدام هشام بن زياد، عن الحسن، عن أنس. . . رفعه. وهشام متروك، والحسن عنعن.

[١٠] ورواه: البخاري في «التاريخ» (٤/ ٣٥٧)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٣٠)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٤٣٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٦٣) و«المدخل إلى السنن» (٣٢٤)، وابن عبدالبرّ (١/ ٩)، والخطيب في «التاريخ» (٩/ ٣٦٤) و«الرحلة» (١-٣)، والرافعي في «التدوين» (١/ ٤٩٢)؛ من طريق أبي عاتكة طريف بن سليمان، عن أنس. . . رفعه. بزيادة: «أطلبوا العلم ولو في الصين». وهٰذا ساقط من أجل أبي عاتكة؛ فإنّه واه شبه المتروك.

[١١] ورواه: العقيلي (٤/ ٢٤٩)، والقضاعي (١٧٥)، وابن الجوزي (٦٠)؛ من طريق حجّاج بن نصير، ثنا المثنّى بن دينار، عن أنس. . . رفعه. وهٰذا واهٍ: الحجّاج ضعيف يقبل التلقين، والمثنّى مجهول.

[١٢] ورواه: ابن ماجه (المقدّمة، ١٧- باب فضل العلماء، ١/ ٨١/ ٢٢٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والطبراني في «الأوسط» (٩)، وابن عدي (٢/ ٧٩٠، ٦/ ٢٠٩١)، والسهمي في «التاريخ» (٥٥٥)، وابن الجوزي (٦٤)، والرافعي في «التدوين» (٢/ ٣٩٦)، والمزّي في «التهذيب» (٢٤/ ١٢٦)؛ من طريق حفص بن سليمان، ثنا كثير بن شنظير، عن محمّد بن سيرين، عن أنس. . . رفعه. وهٰذا واه من أجل حفص، وما هو بالكذّاب، ولٰكنّه دخل فيما لا علم له فيه من الحديث ففحش خطؤه حتّى ٱتّفقوا على تركه وٱطّراح حديثه.

[١٣] ورواه: الخطيب في «التاريخ» (٤/ ٢٠٧، ٩/ ١١١)، وابن الجوزي (٦٨)، والرافعي في «التدوين» (١/ ٢٩٠)؛ من طريق أحمد بن الصلت بن المغلّس الحمّاني، عن بشر بن الوليد، عن أبي يوسف، عن أبي حنيفة، عن أنس. . . رفعه. والحمّاني هالك. لٰكن تابعه إبراهيم بن محمّد عن بشر به عند النعّال في «مشيخته» (٢٨٣٧- حاشية مسند أبي يعلى)، ولم أعرف إبراهيم ولا وقفت على الطريق إليه. وتوبع أبو يوسف، فرواه الرافعي (١/ ٤٣٨) من طريق ساقطة مسلسلة بالضعفاء والمجاهيل عن محمّد بن الحسن عن أبي حنيفة به. والخلاصة أنّ الطرق إلى أبي حنيفة واهية، ولا يصحّ لأبي حنيفة سماع من أنس، فالسند واهٍ.

[١٤] ورواه ابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ١٠): ثنا أبو عبدالله عبيد بن محمّد، ثنا أبو عبدالله محمّد بن=

= عبدالله القاضي بالقلزم، أنا محمّد بن أيوب بن يحيى، أنا عمران بن هارون، أنا بقيّة، أنا جرير بن حازم، عن الزبير بن خرّيت، عن أنس. . . رفعه. وهٰذا واهٍ: ابن هارون فيه ضعف، ومن دونه لم أعرفهم.

[١٥] ورواه ابن عساكر (٥٢/٣٤١) من طريق محمّد بن حسين بن أبي الدرداء، سمعت إبراهيم بن عبدالحميد الجرشي، سمعت زياد بن أبي زياد، سمعت أنسًا. . . رفعه. وهٰذا واهٍ: زياد هو الجصّاص ضعيف، والجرشي وابن أبي الدرداء مجهولان.

[١٦] ورواه البزّار (١/٣٦ـ ميزان) من طريق قويّة، عن إبراهيم بن سلام، عن حمّاد بن أبي سليمان، عن إبراهيم النخعي، عن أنس. . . رفعه. وهٰذا ضعيف: إبراهيم عن أنس منقطع. وإبراهيم بن سلام مجهول لا يعرف إلّا بهٰذا الحديث. نعم؛ توبع، فرواه: ابن أبي حاتم في «الجرح» (٤/٢٦٢)، وتمّام في «الفوائد» (٧٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٦٦)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/٩)، والخطيب في «الجمع والتفريق» (٢/٣٦)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٦١)؛ من طرق ثلاثة، عن إبراهيم. . . به. لٰكن في الأولى أبو سعيد الوحاظي كذّاب، وفي الثانية سلام أو أبو سلام متروك، وفي الثالثة عبدالعزيز بن عمران متروك. فلا تفيد الطريق المتقدّمة كبير شيء.

[١٧] ورواه الطبراني في «الأوسط» (٨٦٠٦) من طريق لا بأس بها، عن رشدين بن سعد، عن معاوية بن صالح، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة، عن أنس. . . رفعه. وهٰذا سند ضعيف لضعف رشدين. نعم رواه: ابن عدي (٣/ ١١٤٠)، وتمّام (٧٢)، وابن عبدالبرّ في «العلم» (١/ ١٠)، والخطيب في «الجمع والتفريق» (٢/٢٤٧ و٢٤٨)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٧٣)؛ من طريقين أخريين، عن إسحاق. . . به. لٰكن في الأولى سليمان بن سلمة الخبائري متروك، وفي الثانية أبو سعيد الوحاظي كذّاب، فلا تفيدان هٰذه الطريق قوّة بل هي باقية على ضعفها.

[١٨] ورواه الطبراني في «الأوسط» (٢٠٢٩) و«الصغير» (٢٢): ثنا أحمد بن بشر بن حبيب البيروتي، ثنا محمّد بن مصفّى، ثنا العبّاس بن إسماعيل الهاشمي، ثنا الحكم بن عطيّة، عن عاصم الأحول، عن أنس. . . رفعه. وهٰذا ضعيف: البيروتي لم أقف فيه على جرح ولا تعديل وقصاراه أن يكون مستورًا، والهاشمي صالح في الشواهد، وابن مصفّى وابن عطيّة لهما أوهام.

[١٩] ورواه: ابن أبي داوود (٦٦٠ـ مقاصد حسنة)، وابن عدي (٣/ ١١٤٠)، وابن عبدالبرّ (١/٨)، والسلفي في «الطيوريّات» (٨٦ـ مشكلة الفقر)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٦٥)؛ من طرق، عن جعفر بن مسافر، عن سليمان بن قرم، عن ثابت، عن أنس. . . رفعه. وجعفر ربّما أخطأ، وسليمان سيّئ الحفظ، فالسند صالح في الشواهد. وهاهنا متابعات رواها: البزّار (٩٤) تعليقًا، وابن عدي (٢/٧٧٩)، والحاكم (١/٢٤٨ـ ميزان)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٦٥)، وابن عبدالبرّ (١/٨)، والدمشقي في «الفوائد» (٨٦ـ مشكلة الفقر)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٦٦)؛ من طرق أربعة، عن ثابت. . . به. لٰكن إحداها معلّقة، والثانية فيها واهٍ، والثالثة فيها متّهم، والرابعة فيها واهيان، فلا تفيد الطريق المتقدّمة كبير شيء.

[٢٠] ورواه: ابن شاهين في «الأفراد»، ومن طريقه ابن عساكر (٥٥/ ١٩٤)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٦٣)، والسخاوي في «ثاني السمعونيّات» (٦٦٠ـ مقاصد)؛ من طريق محمّد بن محمّد بن أبي حذيفة القاسم، ثنا أحمد بن محمّد بن أبي المخاجر، ثنا موسى بن داوود (وهو الضبّي)، ثنا حمّاد بن سلمة،

وهٰذا، وإنْ كانَ في سندِهِ حَفْصُ بنُ سُلَيْمانَ وقد ضُعِّفَ[1]، فمعناهُ صحيحٌ: فإنَّ الإيمانَ فرضٌ على كلِّ مسلمٍ، وهوَ ماهيَّةٌ مركَّبةٌ مِن علمٍ وعملٍ، فلا يُتَصَوَّرُ وجودُ الإيمانِ إلَّا بالعلمِ [والعملِ]. ثمَّ شرائعُ الإسلامِ واجبةٌ على كلِّ مسلمٍ، ولا يُمْكِنُ أداؤُها إلَّا بعدَ معرفتِها والعلمِ بها، واللهُ تَعالى أَخْرَجَ عبادَهُ مِن بطونِ أُمَّهاتِهِم لا يَعْلَمونَ شيئًا. فطلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ. وهل يُمْكِنُ عبادةُ اللهِ التي هيَ حقُّهُ على العبادِ كلِّهِم إلَّا بالعلمِ؟! وهل يُنالُ العلمُ إلَّا بطلبِهِ؟!

ثمَّ إنَّ العلمَ المفروضَ تعلُّمُهُ ضربانِ:

= عن قتادة، عن أنس بن مالك... رفعه. وهذا سند رجاله بين ثقة وصدوق؛ إلاّ ابن أبي حذيفة، فمستور ترجمه ابن عساكر والذهبي في «أعلام النبلاء» برواية جماعة من الثقات عنه ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلاً. لٰكن هاهنا متابعة رواها أبو يعلى (٢٩٠٣) من طريق قويّة، عن رجل من أهل الشام، عن حمّاد... به. وبهٰذه المتابعة تكون هٰذه الطريق حسنة أو مقاربة.

[٢١] ورواه: الطبراني في «الأوسط» (٨٣٧٦)، والإسماعيلي في «المعجم» (٣٨٧)؛ من طريق أبي عمران موسى بن سهل بن عبدالحميد الجوني، ثنا أبو تقيّ هشام بن عبدالملك، ثنا المعافى بن عمران، ثنا إسماعيل بن عيّاش، عن يونس بن يزيد، عن الزهريّ، عن أنس... رفعه. وهٰذا سند حسن: رجاله بين ثقة وصدوق. وإسماعيل حسن في الشاميّين وهٰذا منه. ويونس لا يتحطّ في الزهريّ عن الحسن، وقد توبع فرواه: ابن عبدالبرّ (١/ ١٠)، والخطيب في «التاريخ» (١٠/ ٣٧٥)، والذهبي في «النبلاء» (١٦/ ٥٣١)؛ من طريقين أخريين، عن الزهريّ... به. لٰكنّ الطريقين واهيتان لا تزيدان الأولى قوّة.

فهٰذه إحدى وعشرون طريقًا للحديث عن أنس: الإحدى عشرة الأولى ساقطة لا تصلح لصالحة، والثانية عشرة إلى الخامسة عشرة واهية بغير تهمة يُنتفع بها بالجملة، والسادسة عشرة إلى الثامنة عشرة ضعفها ينجبر بالمتابعات، والتاسعة عشرة لا بأس بها بالمتابعات، والأخيرتان حسنتان أو مقاربتان. فأجتماع الطرق العشر الأخيرة يشدّ الحديث ويرجّح مذهب من قوّاه من أهل العلم كابن القطّان والمزّي والذهبي والعراقي والسخاوي والسيوطي والعجلوني والمناوي والألباني.

قال السخاوي في «المقاصد» (٦٦٠): «وفي الباب عن أبيّ وجابر وحذيفة والحسين بن علي وسلمان وسمرة وابن عبّاس وابن عمر وابن مسعود وعليّ ومعاوية بن حيدة ونبيط بن شريط وأبي سعيد وأبي هريرة وأمّ المؤمنين عائشة وعائشة ابنة قدامة وأمّ هانئ وآخرين، وبسط الكلام في تخريجها العراقي في تخريجه الكبير للإحياء» اهـ. قلت: وتتبّع هٰذه الأسانيد يطول جدًّا بما لا يتّسع المقام له هنا، وإنّما توسّعت فيما تقدّم بما يكفي لإقناع الجادّ المدقّق من طلبة العلم بصحّة الحديث، فإن قدّر لي عودة له في كتب أخرى؛ توسّعت في مسانيد الصحابة الآخرين، والله الموفّق لا ربّ سواه.

(١) في خ: «في مسنده حفص بن سليمان...». وحفص ليس بالمضعّف، ولٰكنّه واه جدًّا متروك الحديث. وفي كلّ حال؛ فليس مدار الحديث عليه كما تبيّن لك من التخريج المتقدّم.

* **ضربٌ منهُ فرضُ عينٍ لا يَسَعُ مسلمًا جهلُهُ**[١]، وهوَ أنواعٌ:

النَّوعُ الأوَّلُ: علمُ أُصولِ الإيمانِ الخمسةِ؛ الإيمانُ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ. فإنَّ مَن لمْ يُؤْمِنْ /خ٢٥٠/ بهٰذهِ الخمسِ؛ لمْ يَدْخُلْ في بابِ الإيمانِ، ولا يَسْتَحِقُّ ٱسمَ المؤمنِ. قالَ اللهُ تعالى: [﴿وَلٰكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقالَ]: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]. ولمَّا سَأَلَ جِبْرِيلُ رسولَ اللهِ ﷺ عنِ الإيمانِ؛ قالَ: «أنْ تُؤْمِنَ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ». قالَ: صَدَقْتَ[٢]. فالإيمانُ بهٰذهِ الأُصولِ فرعُ معرفتِها والعلمِ بها.

النَّوعُ الثَّاني: علمُ شرائعِ الإسلامِ. واللازمُ منها علمُ ما يَخُصُّ العبدَ مِن فعلِها، كعلمِ الوضوءِ والصَّلاةِ والصِّيامِ والحجِّ والزَّكاةِ وتوابعِها وشروطِها ومبطلاتِها[٣].

النَّوعُ الثَّالثُ: علمُ المحرَّماتِ الخمسِ [التي] ٱتَّفَقَتْ عليها الرُّسلُ والشَّرائعُ والكتبُ الإلٰهيَّةُ. وهيَ المذكورةُ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطانًا وَأَنْ تَقولوا عَلى اللهِ ما لا تَعْلَمونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. فهٰذهِ محرَّماتٌ على كلِّ أحدٍ في كلِّ حالٍ على لسانِ كلِّ رسولٍ لا تُباحُ قطُّ[٤]، ولهٰذا أتى فيها بـ«إنَّما» المفيدةِ للحصرِ مطلقًا. وغيرُها محرَّمٌ في وقتٍ مباحٌ في غيرِهِ، كالميتةِ والدَّمِ ولحمِ الخنزيرِ ونحوِهِ، فهٰذهِ ليسَتْ محرَّمةً على الإطلاقِ والدَّوامِ، فلمْ تَدْخُلْ تحتَ التَّحريمِ المحصورِ المطلقِ.

النَّوعُ الرَّابعُ: علمُ أحكامِ المعاشرةِ والمعاملةِ التي [تَحْصُلُ] بينَهُ وبينَ النَّاسِ خصوصًا وعمومًا. والواجبُ في هٰذا النَّوعِ يَخْتَلِفُ بٱختلافِ [أحوالِ] النَّاسِ ومنازلِهِم،

---

(١) في ط: «كلّ واحد وهو ماهيّة. . .». وفي خ وط: «. . . لا يسع مسلم جهله».

(٢) رواه: البخاري (٢ـ الإيمان، ٣٧ـ سؤال جبريل، ١/ ١١٤/ ٥٠) من حديث أبي هريرة، ومسلم (١ـ الإيمان، ١ـ الإيمان والإسلام والإحسان، ١/ ٣٦/ ٨-١٠) من حديث عمر وأبي هريرة.

(٣) تنبّه إلى أنّه يرحمه الله قال «ما يخصّ العبد من فعلها»، وهٰذا يفيد أنّه إذا لم يجب عليه زكاة أو حجّ مثلاً؛ لم يفرض عليه علمهما.

(٤) في خ: «الإسلام اللازم منها على ما. . . لا تباح فقط»، وفي ط: «. . . الخمس ٱتفقت. . .».

فليسَ الواجبُ على الإمامِ معَ رعيَّتِهِ كالواجبِ على الرَّجلِ معَ أهلِهِ وجيرتِهِ، وليسَ الواجبُ على مَن نَصَبَ نفسَهُ لأنواعِ التِّجاراتِ مِن تعلُّمِ أحكامِ البياعاتِ كالواجبِ على مَن لا يَبيعُ ولا يَشْتَري إلَّا ما تَدْعو الحاجةُ إليهِ.

وتفصيلُ هٰذهِ الجملةِ[١] لا يَنْضَبِطُ [بحدٍّ]؛ لاختلافِ النَّاسِ في أسبابِ العلمِ الواجبِ[٢].

وذٰلكَ يَرْجِعُ إلى ثلاثةِ أُصولٍ؛ اعتقادٍ وفعلٍ وتركٍ: فالواجبُ في الاعتقادِ مطابقتُهُ للحقِّ /خ٢٥١/ في نفسِهِ. والواجبُ في العملِ معرفةُ موافقةِ حركاتِ العبدِ الظَّاهرةِ والباطنةِ الاختياريَّةِ للشَّرعِ أمرًا أو إباحةً[٣]. والواجبُ في التَّركِ معرفةُ موافقةِ الكفِّ والسُّكونِ لمرضاةِ اللهِ وأنَّ المطلوبَ منهُ: إبقاءُ هٰذا الفعلِ على عدمِهِ المستصحَبِ فلا يَتَحَرَّكُ في طلبِهِ، أو كفُّ النَّفسِ عن فعلِهِ؛ على الطَّريقتينِ[٤].

وقد دَخَلَ في هٰذهِ الجملةِ علمُ حركاتِ القلوبِ والأبدانِ.

* **وأمَّا فرضُ الكفايةِ**؛ فلا أَعْلَمُ فيهِ ضابطًا صحيحًا؛ فإنَّ كلَّ أحدٍ يُدْخِلُ في ذٰلكَ ما يَظُنُّهُ فرضًا: فيُدْخِلُ بعضُ النَّاسِ في ذٰلكَ علمَ الطِّبِّ وعلمَ الحسابِ وعلمَ الهندسةِ والمساحةِ، وبعضُهُم يَزيدُ على ذٰلكَ علمَ أُصولِ الصِّناعاتِ كالفلاحةِ والحياكةِ والحدادةِ والخياطةِ ونحوِها[٥]، وبعضُهُم يَزيدُ على[٦] ذٰلكَ علمَ المنطقِ، وربَّما جَعَلَهُ فرضَ عينٍ

---

(١) يعني: ما يفرض علمه فرض عين عمومًا، لا النوع الرابع منه فقط.

(٢) يعني: لاختلاف أهل العلم في الأمور التي تجعل علمًا ما مفروضًا فرض عين على فئة محدّدة أو على عموم الأمّة. وربما كان المراد: لاختلاف الأمور التي تعرض للناس في حياتهم اليوميّة فتجعل علمًا ما مفروضًا عليهم فرض عين. وكلاهما صحيح.

(٣) في ط: «لا ينضبط لاختلاف... وإباحة»، وفي خ: «... أسباب العلم الواجب عليه...».

(٤) لأنّ أهل الأصول مختلفون فيما يجب على العبد عند المناهي: فمنهم من يرى أنّ الواجب عدم التحرّك في طلبها وعليه يقع الأجر، ومنهم من يرى أنّ الواجب كفّ النفس عنها وعليه يقع الأجر، فإن لم تنازعه نفسه في طلبها ويكفّها عنها؛ فلا أجر له.

(٥) وهٰذا كلام شائع بين الناس؛ تقرؤه في أكثر الأبحاث التي تتناول حضّ الإسلام على العلم وتسمعه في أكثر الندوات الإذاعيّة والتيليفزيونيّة التي تعقد لهٰذا الغرض، وكثيرًا ما تنتهي هٰذه الأبحاث والندوات السطحيّة إلى تضخيم هٰذه العلوم وتقديمها على علوم الكتاب والسنّة. وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

(٦) في خ: «والمساحات... يزيد في... يزيد في»، وفي ط: «... علم أصول الصناعة...».

وبَناهُ على [عدمِ] صحَّةِ إيمانِ المقلِّدِ. . . وكلُّ هٰذا هَوَسٌ وخَبْطٌ! فلا فرضَ إلاَّ ما فَرَضَ اللهُ ورسولُهُ.

فيا سبحانَ اللهِ! هل فَرَضَ اللهُ على كلِّ مسلمٍ أنْ يَكونَ طبيبًا حجَّامًا حاسبًا مهندسًا حائكًا فلاَّحًا نجَّارًا خيَّاطًا[(١)]؟! فإنَّ فرضَ الكفايةِ كفرضِ العينِ في تعلُّقِهِ بعمومِ المكلَّفينِ، وإنَّما يُخالِفُهُ في سقوطِهِ بفعلِ البعضِ.

ثمَّ على قولِ هٰذا القائلِ يَكونُ اللهُ قد فَرَضَ على كلِّ أحدٍ جملةَ هٰذهِ الصَّنائعِ والعلومِ؛ فإنَّهُ ليسَ واحدٌ منها فرضًا على معيَّنٍ والآخرُ على معيَّنٍ آخرَ، بل عمومُ فرضيَّتِها مشتركةٌ بينَ العمومِ، فيَجِبُ على كلِّ أحدٍ أنْ يَكونَ حاسبًا حائكًا[(٢)] خيَّاطًا نجَّارًا فلاَّحًا طبيبًا مهندسًا! فإنْ قالَ: المجموعُ فرضٌ على المجموعِ؛ لمْ يَكُنْ قولُكَ «إنَّ كلَّ واحدٍ منها فرضُ كفايةٍ» صحيحًا؛ لأنَّ فرضَ الكفايةِ يَجِبُ على العمومِ.

وأمَّا المنطقُ؛ فلو كانَ علمًا صحيحًا؛ كانَ غايتَهُ أنْ يَكونَ كالمساحةِ والهندسةِ ونحوِها. فكيفَ وباطلُهُ أضعافُ حقِّهِ، وفسادُهُ وتناقضُ أُصولِهِ وٱختلافُ مبانيهِ يوجِبُ مراعاتُها للذِّهنِ أنْ يَزيغَ فكرُهُ[(٣)]؟!

ولا يُؤْمِنُ /خ٢٥٢/ بهٰذا إلاَّ مَن قد عَرَفَهُ وعَرَفَ فسادَهُ وتناقضَهُ ومناقضةَ كثيرٍ[(٤)] [منهُ] للعقلِ الصَّريحِ[(٥)].

وأخْبَرَ بعضُ مَن كانَ قد قَرَأهُ وعُنِيَ بهِ أنَّهُ لمْ يَزَلْ متعجِّبًا مِن فسادِ أُصولِهِ وقواعدِهِ ومباينتِها لصريحِ المعقولِ وتضمُّنِها لدعاوٍ محضةٍ غيرِ مدلولٍ عليهـ[ـا]، وتفريقِهِ بينَ متساويينِ وجمعِهِ بينَ مختلفينِ؛ فيَحْكُمُ على الشَّيءِ بحكمٍ وعلى نظيرِهِ بضدِّ ذٰلكَ الحكمِ، أو يَحْكُمُ على الشَّيءِ بحكمٍ ثمَّ يَحْكُمُ على مضادِّهِ أو مناقضِهِ بهِ!

---

(١) في خ وط: «مهندسًا أو حائكًا أو فلاحًا أو نجارًا أو خياطًا»! وسياق الكلام يقتضي حذف «أو» ضرورة، والغالب أنَّها من زيادات الناسخين.

(٢) في خ وط: «حاسبًا أو حائكًا»! وسياق الكلام يقتضي حذف «أو» ضرورة.

(٣) في ط: «يوجب مراعاتها الذهن أن يزيغ في فكره»! والتصويب من خ.

(٤) في خ: «إلاَّ من قدّره وعرف فساده ومناقضته كثير»! والتصويب من ط.

(٥) راجع ما قدّمته في الفلسفة والدين (١/ ٤٩).

[قالَ: إلى أنْ سَأَلْتُ بعضَ رؤسائِهِ وشيوخِ أهلِهِ عن شيءٍ مِن ذٰلكَ، ففكَّرَ فيهِ ثمَّ قالَ:] هٰذا علمٌ قد صَقَلَتْهُ الأذهانُ ومَرَّتْ عليهِ مِن عهدِ القرونِ الأوائلِ ـ أو كما قالَ ـ فيَنْبَغي أنْ نَتَسَلَّمَهُ مِن أهلِهِ! وكانَ هٰذا [مِن] أفضلِ مَن رَأَيْتُ في المنطقِ.

قالَ: إلى أنْ وَقَفْتُ على ردِّ متكلِّمي الإسلام عليهِ وتبيينِ فسادِهِ وتناقضِهِ: فوَقَفْتُ على مصنَّفٍ لأبي سَعيدٍ[1] السِّيرافِيِّ النَّحْوِيِّ في ذٰلكَ، وعلى ردِّ كثيرٍ مِن أهلِ الكلام والعربيَّةِ عليهِم كالقاضي أبي بَكْرٍ بنِ الطَّيِّبِ[2] والقاضي عَبْدِالجَبَّارِ[3] والجُبَّائيِّ وأبنِهِ[4] وأبي المَعالي[5] وأبي القاسِمِ الأنْصاريِّ[6] وخلقٍ لا يُحْصَوْنَ كثرةً، ورَأَيْتُ [في][7] أستشكالاتِ فضلائِهِم ورؤسائِهِم لمواضعِ الإشكالِ ومخالفتِها [لصريح المعقولِ][7] ما كانَ يَنْقَدِحُ لي كثيرٌ منهُ. ورَأَيْتُ آخرَ مَن تَجَرَّدَ للرَّدِّ [عليهِم] شيخَ الإسلامِ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ؛ فإنَّهُ أتى في كتابيهِ الكبيرِ والصَّغيرِ[8] بالعجبِ العجابِ، وكَشَفَ أسرارَهُم وهَتَكَ أستارَهُم، فقُلْتُ في ذٰلكَ[9]:

وا عَجَبًا لِمَنْطِقِ اليونانِ ... كَمْ فيهِ مِنْ إفْكٍ ومِنْ بُهْتانِ

مُخَبِّطٌ لِجَيِّدِ الأذهانِ ... وَمُفْسِدٌ لِفِطْرَةِ الإنْسانِ

---

(١) في خ: «بحكم ويحكم على مضادّه... قال لي أن وقفت... لأبي يوسف سعيد»!

والسيرافي هو: العلامة، إمام النحو، الحسن بن عبدالله بن المرزبان، صاحب التصانيف. توفّي سنة ٣٦٨هـ. ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٧/ ٣٤١)، «أعلام النبلاء» (١٦/ ٢٤٧).

(٢) الإمام، العلّامة، أوحد المتكلّمين، محمّد بن الطيّب بن محمّد، ابن الباقلّاني، من نظراء الأشعري وأتباعه. ت٤٠٣هـ. ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٥/ ٣٧٩)، «أعلام النبلاء» (١٧/ ١٩٠).

(٣) ابن أحمد بن عبدالجبّار، أبو الحسن الهمذاني، العلّامة، المتكلّم، شيخ المعتزلة. ت٤١٥هـ. ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١١/ ١١٣)، و«أعلام النبلاء» (١٧/ ٢٤٤).

(٤) أمّا الجبّائيّ؛ فتقدّمت ترجمته (١/ ١١٧). وأمّا أبنه؛ فأبو هاشم، عبدالسلام بن عليّ بن محمّد المعتزليّ، أحد الأذكياء، توفّي سنة ٣٢١هـ. ترجمته في «أعلام النبلاء» (١٥/ ٦٣).

(٥) الجوينيّ، الإمام المشهور، تقدّمت ترجمته (١/ ٢٩٨).

(٦) سلمان بن ناصر بن عمران، النيسابوري، الصوفي، الشافعي، إمام المتكلّمين، تلميذ إمام الحرمين. ت٥١١هـ. ترجمته في: «تاريخ ابن عساكر» (٢١/ ٤٧٦)، و«أعلام النبلاء» (١٩/ ٤١٢).

(٧) زيادة يقتضيها السياق.

(٨) هما: «الردّ على المنطقيّين» و«نقض المنطق».

(٩) في خ: «في كتابه الكبير... فقلت في تلك».

[وَمُبْكِـمٌ لِلْقَلْـبِ واللِسـانِ](١) مُضْطَـرِبُ الأُصـولِ والمَبـانـي
عَلـى شَفـا هـارٍ بَنـاهُ البـانـي أَحْـوَجُ مـا كـانَ إِلَيْـهِ العـانـي
يَخـونُـهُ فـي السِّـرِّ والإِعْـلانِ يَمْشـي بِـهِ اللِسـانُ فـي المَيْـدانِ
مَشْـيَ مُقَيَّـدٍ عَلـى صَفْـوانِ مُتَّصِـلِ العِثـارِ وَالتَّـوانـي
كَـأَنَّـهُ السَّـرابُ بِـالقيعـانِ بَـدا لِعَيْـنِ الظَّـامِـئِ الحَـرَّانِ
فَـأَمَّـهُ بِـالظَّـنِّ وَالحُسْبـانِ يَـرْجـو شِفـاءَ غُلَّـةِ الظَّمْـآنِ
فَلَـمْ يَجِـدْ ثَـمَّ سِـوى(٢) الحِـرْمـانِ فَعـادَ بِـالخَيْبَـةِ وَالخُسْـرانِ
يَقْـرَعُ سِـنَّ نـادِمٍ حَيْـرانِ قَـدْ ضـاعَ مِنْـهُ العُمْـرُ فـي الأَمـانـي
وعـايَـنَ الخِفَّـةَ فـي الميـزانِ

وما كانَ مِن هوسِ النُّفوسِ بهٰذهِ المنزلةِ؛ فهوَ بأنْ يَكونَ جهلاً أولى منهُ أنْ يَكونَ علمًا تعلُّمُهُ فرضُ كفايةٍ أو فرضُ عينٍ!

وهٰذا الشَّافِعِيُّ وأَحْمَدُ وسائرُ أئمَّةِ الإِسلامِ وتصانيفُهُم و[سائرُ] أئمَّةِ العربيَّةِ [وتصانيفُهُم] وأئمَّةُ التَّفسيرِ وتصانيفُهُم لمَن نَظَرَ فيها؛ هل راعَوْا فيها حدودَ المنطقِ وأوضاعَهُ؟! وهل صَحَّ لهُم علمُهُم بدونِهِ أمْ لا؟! بل هُم كانوا أجلَّ قدرًا وأعظمَ عقولاً مِن أنْ يَشْغَلوا أفكارَهُم(٣) بهذيانِ المنطقيِّينَ.

وما دَخَلَ المنطقُ على علمٍ إلاَّ أَفْسَدَهُ وغَيَّرَ أوضاعَهُ وشَوَّشَ قواعدَهُ(٤).

ومِن النَّاسِ مَن يَقولُ: إنَّ علومَ العربيَّةِ مِن التَّصريفِ والنَّحوِ واللغةِ والمعاني والبيانِ ونحوِها تعلُّمُها فرضُ كفايةٍ لتوقُّفِ فهمِ كلامِ اللهِ ورسولِهِ عليها.

ومِن النَّاسِ مَن يَقولُ: [تعلُّمُ] أُصولِ الفقهِ فرضُ كفايةٍ؛ لأنَّهُ العلمُ الذي يُعْرَفُ بِهِ الدَّليلُ ومرتبتُهُ وكيفيَّةُ الاستدلالِ. . .

---

(١) ساقطة من ط.

(٢) في خ: «العشار والتواني. . . لعين الظمآن الحيران. . . يجد منهم سوى».

(٣) في ط: «أولى منه بأن. . . وتصانيفهم وأئمة العربيّة. . .»، وفي خ: «. . . يشتغلوا أفكارهم».

(٤) راجع ما قدّمت في هٰذا (١/ ٤٩).

وهٰذهِ الأقوالُ، وإنْ كانَتْ أقربَ إلى الصَّوابِ مِن القولِ الأوَّلِ، فليسَ وجوبُها عامًّا على كلِّ أحدٍ ولا في كلِّ وقتٍ، وإنَّما تَجِبُ وجوبَ الوسائلِ في بعضِ الأزمانِ وعلى بعضِ الأشخاصِ، بخلافِ الفرضِ الذي يَعُمُّ وجوبُهُ كلَّ أحدٍ، وهوَ علمُ الإيمانِ وشرائعِ الإسلامِ، فهٰذا هوَ الواجبُ، وأمَّا ما عَداهُ؛ فإنْ تَوَقَّفَتْ معرفتُهُ عليهِ؛ فهوَ مِن بابِ ما لا يَتِمُّ الواجبُ إلاَّ بهِ، ويَكونُ الواجبُ منهُ القدرَ الموصلَ إليهِ دونَ المسائلِ التي هيَ فضلةٌ لا تَفْتَقِرُ معرفةُ الخطابِ وفهمُهُ إليها[١]. فلا يُطْلَقُ القولُ بأنَّ علمَ العربيَّةِ واجبٌ على الإطلاقِ؛ إذِ الكثيرُ منهُ ومِن مسائلِهِ وبحوثِهِ لا يَتَوَقَّفُ فهمُ كلامِ اللهِ ورسولِهِ عليها /خ٢٥٤/ . وكذٰلكَ أُصولُ الفقهِ؛ القدرُ الذي يَتَوَقَّفُ فهمُ الخطابِ عليهِ منهُ تَجِبُ معرفتُهُ دونَ المسائلِ المقدَّرةِ[٢] والأبحاثِ التي هيَ فضلةٌ. فكيفَ يُقالُ: إنَّ تعلُّمَها واجبٌ؟!

وبالجملةِ؛ فالمطلوبُ الواجبُ مِن العبدِ مِن العلومِ والأعمالِ، إذا تَوَقَّفَ على شيءٍ منها[٣]؛ كانَ ذٰلكَ الشَّيءُ واجبًا وجوبَ الوسائلِ. ومعلومٌ أنَّ ذٰلكَ التَّوقُّفَ يَخْتَلِفُ بٱختلافِ الأشخاصِ والأزمانِ والألسنةِ والأذهانِ، فليسَ لذٰلكَ حدٌّ مقدَّرٌ. واللهُ أعلمُ.

● **الوجهُ الثَّالثُ والثَّلاثونَ بعدَ المئةِ:** ما رَواهُ ابنُ حِبَّانَ في «صحيحه» مِن حديثِ أبي هُرَيْرَةَ يَرْفَعُهُ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «سَألَ موسى ربَّهُ عن ستِّ خصالٍ كانَ يَظُنُّ أنَّها [لهُ] خالصةٌ، والسَّابعةُ لمْ يَكُنْ موسى يُحِبُّها. قالَ: يا ربِّ! أيُّ عبادِكَ أتقى؟ قالَ: الذي يَذْكُرُ ولا يَنْسى. قالَ: فأيُّ عبادِكَ أهدى؟ قالَ: الذي يَتَّبِعُ الهدى. قالَ: فأيُّ عبادِكَ أحكمُ؟ قالَ: الذي يَحْكُمُ للنَّاسِ ما يَحْكُمُ لنفسِهِ. قالَ: أيُّ عبادِكَ أعلمُ؟ قالَ: عالمٌ لا يَشْبَعُ مِن العلمِ، يَجْمَعُ علمَ النَّاسِ إلى علمِهِ. قالَ: فأيُّ عبادِكَ أعزُّ؟ قالَ: الذي إذا قَدِرَ غَفَرَ. قالَ: فأيُّ عبادِكَ أغنى؟ قالَ: الذي يَرْضى بما أُوتِيَ. قالَ: فأيُّ عبادِكَ

---

(١) وهٰذه ملاحظة مهمّة جدًّا لا بدّ لطالب العلم من الوقوف عندها طويلاً والعودة إليها مرارًا؛ فإنّ التوسّع في هٰذه الفضلات فخّ يشغل كثيرًا من طلاّب العلم عن أبواب مهمّة لا غنى للسائر إلى الله عنها.

(٢) في خ: «وأمّا ما عدا ذٰلك... قدر الموصل... وفهمه عليها...»، وفي ط: «... المقرّرة». والمسائل المقدّرة هي ما يفترضه الأصوليّون من القضايا الذهنيّة التي لا رصيد لها في الواقع.

(٣) يعني: من علوم العربيّة والأصول، ووقع في ط: «ما إذا توقّف على شيء منها»!

أفقرُ؟ قالَ: صاحبُ منقوصٍ[١]...»[٢].

فأَخْبَرَ في هٰذا الحديثِ أنَّ أعلمَ عبادِهِ الذي لا يَشْبَعُ مِن العلمِ، فهوَ يَجْمَعُ علمَ النَّاسِ إلى علمِهِ، فهمَّتُهُ في العلمِ وحرصُهُ عليهِ. ولا ريبَ أنَّ كونَ العبدِ أعلمَ[٣] عبادِ اللهِ مِن [أعظمِ] أوصافِ كمالِهِ.

وهٰذا هوَ الذي حَمَلَ موسى على الرِّحلةِ إلى عالمِ الأرضِ لِيُعَلِّمَهُ ممَّا عَلَّمَهُ اللهُ[٤]. هٰذا؛ وهوَ كليمُ الرَّحمٰنِ، وأكرمُ الخلقِ على اللهِ في زمانِهِ، وأعلمُ الخلقِ. فحَمَلَهُ حرصُهُ ونهمتُهُ في العلمِ على الرِّحلةِ إلى العالِمِ الذي وُصِفَ لهُ. فلولا أنَّ العلمَ أشرفُ ما بُذِلَتْ فيهِ المهجُ وأُنْفِقَتْ فيهِ الأنفاسُ؛ لاشْتَغَلَ موسى عنِ الرِّحلةِ إلى الخَضِرِ بما هوَ بصددِهِ مِن أمرِ الأُمَّةِ، وعن مقاساةِ النَّصبِ والتَّعبِ في رحلتِهِ، وتلطُّفِهِ[٥] للخَضِرِ في قولِهِ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى /خ٢٥٥/ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، فلمْ يَرَ ٱتِّباعَهُ حتَّى ٱسْتَأْذَنَهُ في ذٰلكَ وأَخْبَرَهُ أنَّهُ جاءَ متعلِّمًا مستفيدًا. فهٰذا النَّبيُّ الكريمُ كانَ عالمًا بقدرِ العلمِ وأهلِهِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ.

---

(١) صاحب منقوص: لديه رزق، لٰكنّه يراه دائمًا ناقصًا قليلاً.

(٢) (ضعيف). رواه: ابن حبّان (٦٢١٧)، والخرائطي، وابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ١٣٤-١٣٦)؛ من طريق عمرو بن الحارث تارة وابن لهيعة تارة، كلاهما عن درّاج أبي السمح، عن ابن حجيرة (وقال مرة: عليّ بن الحسين)، عن أبي هريرة... رفعه. وهٰذا ضعيف من أجل درّاج؛ فإنّه ليّن صاحب مناكير وقد تفرّد بهٰذا المتن عن شيخين دون سائر أصحابهما!

ورواه: ابن المبارك في «الزهد» (٢٢٣ و٥٣٣)، وأحمد في «الزهد» (٣٨٤)، وهنّاد في «الزهد» (٤٩٧ و٤٩٨ و١٣٢٠)، والدارمي (١/ ١٠٢)، والطبري في «التفسير» (٢٣٢٠٤) و«التاريخ» (١/ ٢٢٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٩٣، ٤/ ٤٥، ٥/ ٣٧٧)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨١ و٦٨٢ و١٠٣٤٨)، والخطيب في «الرحلة في طلب الحديث» (٣٠)، وابن عساكر في «التاريخ» (٦١/ ١٣٨ و١٣٩ و١٤٢ و١٤٣)؛ عن ابن عبّاس وعروة ومجاهد وعطاء وكعب الأحبار ووهب بن منبّه ومحمّد بن كعب القرظي... موقوفًا؛ لم يذكر أحد منهم النبيّ ﷺ. وأسانيدهم كثيرة، وبعضها قويّ.

فالظاهر أنّ هٰذا من الإسرائيليّات التي تناقلها أهل العلم على سبيل المواعظ والزهديّات، وٱشتبه أمرها على درّاج فألحقها بالمرفوع، وله أشياء منكرات كهٰذا. والله أعلم.

(٣) في خ: «على علمه قال فأيّ...»، وفي ط: «... لنهمته في العلم... العبد أعظم».

(٤) يشير إلى رحلته المشهورة إلى الخضر عليهما السلام، التي جاءت تفاصيلها في سورة الكهف.

(٥) في خ: «كليم الله... إلى الرحلة على العالم الذي... الخضر إلى ما هو... رحلته وتلفّظه».

● **الوجهُ الرَّابعُ والثَّلاثونَ بعدَ المئةِ**: أنَّ اللهَ سبحانَهُ [وتَعالى] خَلَقَ الخلقَ لعبادتِهِ الجامعةِ لمحبَّتِهِ وإيثارِ مرضاتِهِ المستلزمةِ لمعرفتِهِ، ونَصَبَ للعبادِ علمًا لا كمالَ لهُم إلاَّ بهِ، وهوَ أنْ تكونَ حركاتُهُم كلُّها واقعةً على وَفْقِ مرضاتِهِ ومحبَّتِهِ، ولذٰلكَ أرْسَلَ رسلَهُ وأنْزَلَ كتبَهُ وشَرَعَ شرائعَهُ. فكمالُ العبدِ الذي لا كمالَ لهُ إلاَّ بهِ أنْ تكونَ حركاتُهُ موافقةً لِما يُحِبُّهُ اللهُ منهُ ويَرْضاهُ لهُ.

ولهٰذا جَعَلَ ٱتِّباعَ رسولِهِ دليلاً على محبَّتِهِ، قالَ تَعالى: ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَٱتَّبِعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنوبَكُمْ وَاللهُ غَفورٌ رَحيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

فالمحبُّ الصَّادقُ يَرى خيانةً منهُ لمحبوبِهِ أنْ يَتَحَرَّكَ بحركةٍ ٱختياريَّةٍ في غيرِ مرضاتِهِ، وإذا فَعَلَ فعلاً ممَّا أُبيحَ لهُ بموجَبِ طبيعتِهِ وشهوتِهِ؛ تابَ منهُ كما يَتوبُ مِن الذَّنبِ، ولا يَزالُ هٰذا الأمرُ يَقْوى عندَهُ حتَّى تَنْقَلِبَ مباحاتُهُ كلُّها طاعاتٍ فيَحْتَسِبُ نومتَهُ(١) وفطرَهُ وراحتَهُ كما يَحْتَسِبُ قومتَهُ وصومَهُ وٱجتهادَهُ، وهوَ دائمًا بينَ سرَّاءَ يَشْكُرُ اللهَ عليها وضرَّاءَ يَصْبِرُ عليها، فهوَ سائرٌ إلى اللهِ دائمًا في نومِهِ ويقظتِهِ.

قالَ بعضُ العلماءِ: الأكياسُ عاداتُهُم عباداتٌ، والحمقى عباداتُهُم عاداتٌ.

وقالَ بعضُ السَّلفِ: حَبَّذا نومُ الأكياسِ وفطرُهُم، يَغْلِبونَ بهِ سهرَ الحمقى وصومَهُم.

فالمحبُّ الصَّادقُ؛ إنْ نَطَقَ نَطَقَ للهِ وباللهِ، وإنْ سَكَتَ سَكَتَ للهِ [وباللهِ]، وإنْ تَحَرَّكَ فبأمرِ اللهِ، وإنْ سَكَنَ فسكونُهُ ٱستعانةٌ على مرضاةِ اللهِ. فهوَ للهِ وباللهِ ومعَ اللهِ.

ومعلومٌ أنَّ صاحبَ هٰذا المقامِ أحوجُ خلقِ اللهِ إلى العلمِ؛ فإنَّهُ لا تَتَمَيَّزُ لهُ الحركةُ المحبوبةُ للهِ مِن غيرِها ولا السُّكونُ المحبوبُ لهُ مِن غيرِهِ [إلاَّ بالعلمِ]، فليسَتْ حاجتُهُ إلى العلمِ كحاجةِ مَن طَلَبَ العلمَ لذاتِهِ ولأنَّهُ في نفسِهِ صفةُ كمالٍ، بل حاجتُهُ إليهِ كحاجتِهِ / خ٢٥٦/ إلى ما بِهِ قِوامُ نفسِهِ وذاتِهِ.

ولهٰذا ٱشْتَدَّتْ وصاةُ شيوخِ العارفينَ لمريديهِم بالعلمِ وطلبِهِ، وأنَّهُ مَن لمْ يَطْلُبِ

---

(١) في خ: «وكذٰلك أرسل رسله...»، وفي ط: «... مباحاته عنده كلها طاعات فيحتسب نومه».

العلمَ لَمْ يُفْلِحْ، حتَّى كانوا يَعُدُّونَ مَن لا علمَ لهُ مِن السَّفِلَةِ:

قالَ ذو النُّونِ، وقد سُئِلَ عنِ[1] السَّفِلَةِ، فقالَ: مَن لا يَعْرِفُ الطَّريقَ إلى اللهِ [تَعالى] ولا يَتَعَرَّفُهُ.

وقالَ أبو يَزيدَ: لو نَظَرْتُمْ إلى الرَّجلِ وقد أُعْطِيَ مِن الكراماتِ حتَّى يَتَرَبَّعَ في الهواءِ؛ فلا تَغْتَرُّوا بِهِ حتَّى تَنْظُروا كيفَ تَجِدونَهُ عندَ الأمرِ والنَّهيِ وحفظِ الحدودِ ومعرفةِ الشَّريعةِ.

وقالَ أبو حَمْزَةَ البَزَّازُ: مَن عَلِمَ طريقَ الحقِّ؛ سَهُلَ عليهِ سلوكُهُ، ولا دليلَ على الطَّريقِ إلَّا متابعةُ الرَّسولِ في أقوالِهِ وأفعالِهِ وأحوالِهِ.

وقالَ مُحَمَّدُ بنُ الفَضْلِ الصُّوفِيُّ الزَّاهدُ: ذهابُ الإسلامِ على يدي أربعةِ أصنافٍ مِن النَّاسِ: صنفٌ لا يَعْمَلونَ بما يَعْلَمونَ، وصنفٌ يَعْمَلونَ بما لا يَعْلَمونَ، وصنفٌ لا يَتَعَلَّمونَ ولا يَعْمَلونَ، وصنفٌ يَمْنَعونَ النَّاسَ مِن العلمِ[2].

قُلْتُ: الصِّنفُ الأوَّلُ مَن لهُ علمٌ بلا عملٍ، فهوَ أضرُّ شيءٍ على العامَّةِ؛ فإنَّهُ حجَّةٌ لهُم في كلِّ نقيصةٍ ومبخسةٍ.

والصِّنفُ الثَّاني: العابدُ الجاهلُ؛ فإنَّ النَّاسَ يُحَسِّنونَ الظَّنَّ بِهِ لعبادتِهِ وصلاحِهِ فيَقْتَدونَ بِهِ على جهلِهِ.

وهٰذانِ الصِّنفانِ [هما] اللذانِ ذَكَرَهُما بعضُ السَّلفِ في قولِهِ: ٱحْذَروا فتنةَ العالمِ الفاجرِ والعابدِ الجاهلِ، فإنَّ فتنتَهُما فتنةٌ لكلِّ مفتونٍ. فإنَّ النَّاسَ إنَّما يَقْتَدونَ بعلمائِهِم وعبَّادِهِم، فإذا كانَ العلماءُ فجرةً والعبَّادُ جهلةً؛ عَمَّتِ المصيبةُ بِهِم وعَظُمَتِ الفتنةُ على

---

(١) في ط: «وفطرهم يغبنون... لله وإن تحرّك... من»، وفي خ: «... والمحبّ...».

(٢) في ط: «وصنف لا يعملون ولا يعلمون... من التعلّم»، وأثبتّ ما في خ مستأنسًا بـ«الحلية» و«النبلاء». هٰذا، وممّا ينبغي أن يتنبّه له طالب العلم أنّ وصيّة شيوخ العارفين لتلامذتهم بالعلم هي وصيّة مخصوصة بعلومهم وأحوالهم وكراماتهم وسيرة أشياخهم ووصاياهم وآداب المريدين معهم، وليست لدى القوم أدنى حركة لشيء من علوم الكتاب والسنّة! وهٰذه تراجم ذي النون وأبي يزيد وأبي حمزة وابن الفضل مبثوثة في الكتب، ليس لهم فيها أدنى مشاركة بشيء من العلوم النافعة، وأمّا سيرتهم العمليّة؛ فهم أبعد الناس فيها عن الالتزام بكتاب أو سنّة، وأحوال الجهلة وعوامّ المسلمين على ما فيها من البدع والضلالات أقرب من أحوالهم إلى الحقّ وأطيب. والله المستعان.

الخاصَّةِ والعامَّةِ.

والصِّنفُ الثَّالثُ: الذينَ لا علمَ لهُم ولا عملَ، وإنَّما هُم كالأنعامِ السَّائمةِ.

والصِّنفُ الرَّابعُ: نوَّابُ إبليسَ في الأرضِ، وهمُ الذينَ يُثَبِّطونَ النَّاسَ عن طلبِ العلمِ والتَّفقُّهِ في الدِّينِ، [فهٰؤلاءِ أضرُّ عليهِم مِن شياطينِ الجنِّ؛ فإنَّهُم يَحولونَ بينَ القلوبِ وبينَ هُدى اللهِ وطريقِهِ].

فهٰؤلاءِ الأربعةُ الأصنافُ همُ الذينَ ذَكَرَهُم هٰذا العارفُ رحمةُ اللهِ [عليهِ].

وهٰؤلاءِ كلُّهُم على شفا جرفٍ هارٍ وعلى سبيلِ هلكةٍ[١]، وما يَلْقى العالِمُ الدَّاعي إلى اللهِ ورسولِهِ ما يَلْقاهُ مِن الأذى والمحاربةِ إلَّا على أيديهِم، واللهُ يَسْتَعْمِلُ مَن يَشاءُ في سخطِهِ كما يَسْتَعْمِلُ /خ٢٥٧/ مَن يُحِبُّ في مرضاتِهِ؛ إنَّهُ بعبادِهِ خبيرٌ بصيرٌ.

ولا يَنْكَشِفُ سرُّ هٰذهِ الطَّوائفِ وطريقتُهُم إلَّا بالعلمِ. فعادَ الخيرُ بحذافيرِهِ إلى العلمِ وموجَبِهِ، والشَّرُّ بحذافيرِهِ إلى الجهلِ وموجَبِهِ.

● **الوجهُ الخامسُ والثَّلاثونَ بعدَ المئةِ**: أنَّ اللهَ سبحانَهُ جَعَلَ العلماءَ وكلاءَ وأُمناءَ على دينِهِ ووحيِهِ، وٱرْتَضاهُم لحفظِهِ والقيامِ بِهِ والذَّبِّ عنهُ، وناهيكَ بها منزلةً شريفةً ومنقبةً عظيمةً.

قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿ذٰلِكَ هُدى اللهِ يَهْدي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَلَوْ أَشْرَكوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانوا يَعْمَلونَ . أُولٰئِكَ الَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هٰؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْمًا لَيْسوا بِها بِكافِرينَ﴾ [الأنعام: ٨٨-٨٩]. وقد قيلَ: إنَّ هٰؤلاءِ القومَ [همُ الأنبياءُ]، وقيلَ: أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ، وقيلَ: كلُّ مؤمنٍ. هٰذهِ أُمَّهاتُ الأقوالِ. [وهاهُنا][٢] بعدُ أقوالٌ متفرِّعةٌ عن هٰذهِ: كقولِ مَن قالَ: همُ الأنصارُ، أوِ المهاجرونَ والأنصارُ، أو قومٌ مِن أبناءِ فارسٍ، وقالَ آخرونَ همُ الملائكةُ...

قالَ ابنُ جَريرٍ: وأولى هٰذهِ الأقوالِ بالصَّوابِ أنَّهُمُ الأنبياءُ الثَّمانيةَ عشرَ الذينَ سَمَّاهُمُ [اللهُ] في الآياتِ قبلَ هٰذهِ الآيةِ.

---

(١) في خ وط: «عمّت المصيبة بهما...»! وفي ط: «... الأربعة أصناف... سبيل الهلكة».

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

قالَ: وذٰلكَ أنَّ الخبرَ في الآياتِ قبلَها عنهُم مَضى، وفي التي بعدَها عنهُم ذُكِرَ، فما بينَها بأنْ يَكونَ خبرًا عنهُم أولى وأحقُّ مِن أنْ يَكونَ خبرًا عن غيرِهِم. فالتَّأْويلُ: فإنْ كَفَرَ قومُكَ مِن قريشٍ يا مُحَمَّدُ بآياتِنا وَكَذَّبوا بها وجَحَدوا حقيقتَها؛ فقدِ ٱسْتَحْفَظْناها وٱسْتَرْعَيْنا القيامَ بها رسلَنا وأنبياءَنا مِن قبلِكَ الذينَ لا يَجْحَدونَ حقيقتَها ولا يُكَذِّبونَ بِها ولٰكنَّهُم يُصَدِّقونَ بِها ويُؤْمنونَ بصحَّتِها.

قُلْتُ: السُّورةُ مكِّيَّةٌ. والإشارةُ بقولِهِ «هٰؤلاءِ» إلى مَن كَفَرَ بهِ مِن قومِهِ أصلاً ومَن عَداهُم تَبَعًا، فيَدْخُلُ فيها [كلُّ] مَن كَفَرَ بما جاءَ بهِ مِن هٰذهِ الأُمَّةِ. والقومُ الموكَّلونَ بِها هُمُ الأنبياءُ أصلاً والمؤمنونَ بهِم تَبَعًا، فيَدْخُلُ [فيها كلُّ] مَن قامَ[1] بحفظِها والذَّبِّ عنها والدَّعوةِ إليها، ولا ريبَ أنَّ هٰذا للأنبياءِ أصلاً وللمؤمنينَ بهِم تَبَعًا، وأحقُّ مَن دَخَلَ فيهِم مِن أتباعِ /خ٢٥٨/ الرَّسولِ خلفاؤُهُ في أُمَّتِهِ وورثتُهُ، فهُمُ الموكَّلونَ بها. وهٰذا يَنْتَظِمُ الأقوالَ التي قيلَتْ في الآيةِ.

وأمَّا قولُ مَن قالَ: إنَّهُمُ الملائكةُ؛ فضعيفٌ جدًّا:

لا يَدُلُّ عليهِ السِّياقُ.

وتأباهُ لفظةُ «قومًا»؛ إذِ الغالبُ في القرآنِ بلِ المطَّردُ تخصيصُ القومِ ببني آدمَ دونَ الملائكةِ. وأمَّا قولُ إبْراهيمَ لهُم ﴿قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]؛ فإنَّما قالَهُ لمَّا ظَنَّهُم مِن الإنسِ.

وأيضًا؛ فلا تَقْتَضيهِ فخامةُ المعنى ومقصودُهُ. ولهٰذا؛ لو ظَهَرَ ذٰلكَ[2]، وقيلَ: فإنْ يَكْفُرْ بِها كفَّارُ قومِكَ فقد وَكَّلْنا بها الملائكةَ فإنَّهُم لا يَكْفُرونَ بها؛ لَمْ نَجِدْ منهُ مِن التَّسليةِ وتحقيرِ شأْنِ الكفرةِ بها وبيانِ عدمِ تأهُّلِهِم لها والإنعامِ عليهِم [بها] وإيثارِ غيرِهِم مِن أهلِ الإيمانِ الذينَ سَبَقَتْ لهُمُ الحسنى عليهِم لكونِهِم أحقَّ بها وأهلَها واللهُ أعلمُ حيثُ يَضَعُ هُداهُ ويَخْتَصُّ بِهِ مَن يَشاءُ.

---

(١) في ط: «سمّاهم في الآيات... فيدخل من قام»، وفي خ وط: «... ذكر فيما يليها بأن يكون خبرًا عنهم أولى وأحقّ بأن يكون... فإن يكفر قومك...»، والتصويب من «تفسير ابن جرير».

(٢) كذا في خ وط! وله وجه، والغالب أنّه تحريف صوابه «لو قدّر ذٰلك».

وأيضًا؛ فإنَّ تحتَ هٰذهِ الآيةِ إشارةً وبشارةً بحفظِها وأنَّهُ لا ضيعةَ عليها، وأنَّ هٰؤلاءِ، وإنْ ضَيَّعوها ولمْ يَقْبَلوها، فإنَّ لها قومًا غيرَهُم يَقْبَلونَها ويَحْفَظونَها ويَرْعَوْنَها ويَذُبُّونَ عنها، فكفرُ هٰؤلاءِ بها لا يُضَيِّعُها ولا يُذْهِبُها ولا يَضُرُّها شيئًا؛ فإنَّ لها أهلاً ومستحقًّا سواهُم.

فتَأمَّلْ شرفَ هٰذا المعنى وجلالتَهُ وما تَضَمَّنَهُ مِن تحريضِ عبادِهِ المؤمنينَ على المبادرةِ إليها والمسارعةِ إلى قبولِها، وما تحتَهُ مِن تنبيهِهِم على محبَّتِهِ لهُم وإيثارِهِ إيَّاهُم بهٰذهِ النِّعمةِ على أعدائِهِ الكافرينَ، وما تحتَهُ مِن احتقارِهِم وازدرائِهِم وعدمِ المبالاةِ والاحتفالِ بهِم وأنَّكُم وإنْ لمْ تُؤْمِنوا بها فعبادي المؤمنونَ بِها الموكَّلونَ بِها سواكُم كثيرٌ، كما قالَ تَعالى: ﴿قُلْ آمِنوا بِهِ أوْ لا تُؤْمِنوا إنَّ الَّذينَ أُوتوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقانِ سُجَّدًا وَيَقولونَ سُبْحانَ رَبِّنا إنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعولاً . [وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقانِ يَبْكونَ وَيَزيدُهُمْ خُشوعًا]﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨].

وإذا كانَ للملكِ عبيدٌ قد عَصَوْهُ وخالَفوا أمرَهُ ولَمْ يَلْتَفِتوا إلى عهدِهِ، ولهُ عبيدٌ آخرونَ سامعونَ لهُ مطيعونَ /خ٢٥٩/ قابلونَ مستجيبونَ لأمرِهِ، فنَظَرَ إليهِم وقالَ: إنْ يَكْفُرْ هٰؤلاءِ نعمتي ويَعْصُوا أمري ويُضَيِّعوا عهدي؛ فإنَّ لي عبيدًا سواهُم، و[هُم] أنتم؛ تُطيعونَ أمري، وتَحْفَظونَ عهدي، وتُؤدُّونَ حقِّي؛ فإنَّ عبيدَهُ المطيعينَ يَجِدونَ في أنفسِهِم مِن الفرحِ والسُّرورِ والنَّشاطِ وقوَّةِ العزيمةِ ما يَكونُ موجبًا لهُمُ المزيدَ مِن القيامِ بحقِّ العبوديَّةِ والمزيدَ مِن كرامةِ[1] سيِّدِهِم ومالِكِهِم. وهٰذا أمرٌ يَشْهَدُ بهِ الحسُّ والعِيانُ.

وأمَّا توكيلُهُم بها؛ فهوَ يَتَضَمَّنُ توفيقَهُم للإيمانِ بها والقيامِ بحقوقِها ومراعاتِها والذَّبِّ عنها والنَّصيحةِ لها، كما يُوَكِّلُ الرَّجلُ غيرَهُ بالشَّيءِ لِيَقومَ بهِ ويَتَعَهَّدَهُ ويُحافِظَ عليهِ. و«بها» الأُولى متعلِّقةٌ بـ«وَكَّلْنا»، و«بها» الثَّانيةُ متعلِّقةٌ بـ«كافرين». والباءُ [في] «بكافرين» لتأكيدِ النَّفْي.

فإنْ قُلْتَ: فهل يَصِحُّ أنْ يُقالَ لأحدِ هٰؤلاءِ الموكَّلينَ إنَّهُ وكيلُ اللهِ بهٰذا المعنى

---

(١) في خ: «شيئًا وإنّ لها... قابلون مجيبون... عبيده المطيعون... والمريد منهم كرامة».

كما يُقالُ وليُّ اللهِ؟

قُلْتُ: لا يَلْزَمُ مِن إطلاقِ فعلِ التَّوكيلِ[(١)] المقيَّدِ بأمرٍ ما أنْ يُصاغَ منهُ ٱسمُ فاعلٍ مطلقٍ، كما أنَّهُ لا يَلْزَمُ مِن إطلاقِ فعلِ الاستخلافِ المقيَّدِ أنْ يُقالَ: خليفةُ اللهِ. كقولِه: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقولِه: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنوا مِنْكُمْ وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ كَما ٱسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النُّور: ٥٥]، فلا يُوجِبُ هٰذا الاستخلافُ أنْ يُقالَ لكلٍّ منهُم إنَّهُ خليفةُ اللهِ؛ لأنَّهُ ٱستخلافٌ مقيَّدٌ. ولمَّا قيلَ للصِّدِّيقِ: يا خليفةَ اللهِ! قالَ: لستُ بخليفةِ اللهِ، ولٰكنْ خليفةُ رسولِ اللهِ، وحسبي ذٰلكَ. ولٰكنْ يَسوغُ أنْ يُقالَ: هوَ وكيلٌ بذٰلكَ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَكَّلْنا بِها قَوْمًا﴾ [الأنعام: ٨٩][(٢)].

والمقصودُ أنَّ هٰذا التَّوكيلَ خاصٌّ بمَن قامَ بِها علمًا وعملًا وجهادًا لأعدائِها وذبًّا عنها ونفيًا لتحريفِ الغالينَ وٱنتحالِ المبطلينَ وتأْويلِ الجاهلينَ.

وأيضًا؛ فهوَ توكيلُ رحمةٍ وٱختصاصٍ وإحسانٍ وتوفيقٍ، لا توكيلُ حاجةٍ كما يُوَكِّلُ الرَّجلُ مَن يَتَصَرَّفُ عنهُ في غيبتِهِ لحاجتِهِ[(٣)] [إليهِ]. ولهٰذا قالَ بعضُ السَّلفِ: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْمًا﴾ [الأنعام: ٨٩]؛ يقولُ: رَزَقْناها قومًا. فلهٰذا لا يُقالُ لمَن رُزِقَها ورُحِمَ /خ٢٦٠/ بها: إنَّهُ وكيلُ اللهِ.

وهٰذا بخلافِ ٱشتقاقِ وليِّ اللهِ مِن الموالاةِ؛ فإنَّها المحبَّةُ والقربُ، فكما يُقالُ عبدُ اللهِ وحبيبُهُ يُقالُ وليُّهُ. واللهُ تَعالى يُوالي عبدَهُ إحسانًا إليهِ وجبرًا لهُ ورحمةً، بخلافِ المخلوقِ؛ فإنَّهُ يُوالي المخلوقَ لتعزُّزِهِ بِهِ وتكثُّرِهِ بموالاتِهِ لذلِّ العبدِ وحاجتِهِ، وأمَّا العزيزُ الغنيُّ [سبحانَهُ]؛ فلا يُوالي أحدًا مِن ذلٍّ ولا حاجةٍ. قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿وَقُلِ الحَمْدُ لِلهِ الَّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في المُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، فلمْ يَنْفِ الوليَّ نفيًا عامًّا مطلقًا، بل نَفى أنْ

---

(١) في خ: «وأمَّا موكليهم بها... فعل التأكيد المقيّد»، وفي ط: «... فعل التوكّل المقيّد».

(٢) وقد تقدّم (١/٤٠٩) بسط هٰذا وإيراد أدلّة المجوّزين والمانعين.

(٣) في ط: «لقوله ويستخلفكم... ولٰكنّي خليفة... لحاجة»، وفي خ: «... وحسبي بذٰلك...».

يَكونَ لهُ وليٌّ مِن الذُّلِّ. وأثْبَتَ في موضعٍ آخرَ أنَّ لهُ أولياءَ: بقولِهِ: ﴿ألا إنَّ أوْلِياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وقولِهِ: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذينَ آمَنوا [يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ]﴾ [البقرة: ٢٥٧]. فهٰذِهِ موالاةُ رحمةٍ وإحسانٍ وجبرٍ، والموالاةُ المنفيَّةُ موالاةُ حاجةٍ وذلٍّ.

يُوَضِّحُ[1] هٰذا [الوجهُ التّالي]:

● **الوجهُ السَّادسُ والثَّلاثونَ بعدَ المئةِ**: وهوَ ما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ مِن وجوهٍ متعدِّدةٍ؛ أنَّهُ قالَ: «يَحْمِلُ هٰذا العلمَ مِن كلِّ خلفٍ عدولُهُ؛ يَنْفونَ عنهُ تحريفَ الغالينَ وٱنتحالَ المبطلينَ وتأْويلَ الجاهلينَ»[2].

* فهٰذا الحملُ المشارُ إليهِ في هٰذا الحديثِ هوَ التَّوكيلُ المذكورُ[3] في الآيةِ، فأخْبَرَ ﷺ أنَّ [هٰذا] العلمَ الذي جاءَ بهِ يَحْمِلُهُ عدولُ أُمَّتِهِ مِن [كلِّ] خلفٍ حتَّى لا يَضيعَ ويَذْهَبَ.

وهٰذا يَتَضَمَّنُ تعديلَهُ ﷺ لحملةِ العلمِ الذي بُعِثَ بهِ، وهوَ المشارُ إليهِ في قولِهِ: «هٰذا العلمَ»، فكلُّ مَن حَمَلَ العلمَ المشارَ إليهِ؛ فلا بدَّ أنْ يَكونَ عدلاً.

ولهٰذا ٱشْتَهَرَ عندَ الأُمَّةِ عدالةُ نقلتِهِ وحملتِهِ ٱشتهارًا لا يَقْبَلُ شكًّا ولا ٱمتراءً. ولا ريبَ أنَّ مَن عَدَّلَهُ رسولُ اللهِ ﷺ لا يُسْمَعُ فيهِ تجريحٌ، فالأئمَّةُ الذينَ ٱشْتَهَروا عندَ الأُمَّةِ بنقلِ العلمِ النَّبويِّ وميراثِهِ كلُّهُم عدولٌ بتعديلِ رسولِ اللهِ ﷺ، ولهٰذا لا يُقْبَلُ قدحُ بعضِهِم في بعضٍ.

---

(١) في خ: «وحبيبه ويقال وليّه... وحاجته إليه وأمّا... يوالي المخلوق من ذلّ... ويوضّح».

(٢) (لا بأس به). سيأتيك له فيما يلي تسع طرق: أربع ساقطة لا يؤبه لها، وخمس واهية بغير متّهم ولا متروك، فٱعتضاد هٰذه الأخيرة يشدّ الحديث إن شاء الله، وإلى ذٰلك مال أحمد وابن عديّ وابن عبدالبرّ والخطيب وابن القيّم والألباني، وفي الباب عن جابر بن سمرة بسند ضعيف لا يثبت فيما أشار إليه العراقي، ولم أقف عليه، فإن كان ضعفه يسيرًا؛ فإنّه يزيد هٰذا الأصل قوّة إن شاء الله تعالى. وفي كلّ حال؛ فلا تثريب على من ضعّف هٰذا الحديث؛ لأنّ الناظر في أسانيده لا يكاد يرسو في شأنه على قرار. ولقد توقّفت هنا طويلاً، ثمّ ٱنفصلت إلى قول من قوّى الحديث لمّا رأيت فيهم الإمام أحمد؛ فإنّه قدّس الله روحه عظيم الاعتدال والإنصاف كثير الإصابة، فحريّ بمن أعياه الترجيح بالأدلّة العلميّة أن يهتدي بهديه ويقتدي برأيه. والله أعلم.

(٣) في خ: «فهٰذا الجهل المشار...»، وفي خ وط: «... التوكّل المذكور».

وهٰذا بخلافِ مَنِ اشْتَهَرَ عندَ الأُمَّةِ جرحُهُ والقدحُ فيهِ /خ٢٦١/ كأئمَّةِ البدعِ ومَن جَرى مجراهُم مِن المتَّهمينَ في الدِّينِ؛ فإنَّهُم ليسوا عندَ الأُمَّةِ مِن حملةِ العلمِ.

فما حَمَلَ علمَ رسولِ اللهِ ﷺ إلاَّ عدلٌ. ولٰكنْ [قد] يُغْلَطُ في مسمَّى العدالةِ، فيُظَنُّ أنَّ المرادَ بالعدلِ مَن لا ذنبَ لهُ، وليسَ كذٰلكَ، بل هوَ عدلٌ مؤتمنٌ على الدِّينِ، وإنْ كانَ لهُ[1] ما يَتوبُ إلى اللهِ منهُ؛ فإنَّ هٰذا لا يُنافي العدالةَ كما لا يُنافي الإيمانَ والولايةَ.

* فصلٌ: وهٰذا الحديثُ لهُ طرقٌ عديدةٌ:

[١] منها: ما رواهُ ابنُ عَدِيٍّ: عن موسى بنِ إسْماعيلَ بنِ موسى بنِ جَعْفَرٍ، عن أبيهِ، عن جدِّهِ جَعْفَرِ بنِ مُحَمَّدٍ، عن أبيهِ، عن عَلِيٍّ، عنِ النَّبيِّ ﷺ[2].

[٢] ومنها: ما رواهُ: العَوَّامُ بنُ حَوْشَبٍ، [عن شَهْرِ بنِ حَوْشَبٍ]، عن مُعاذٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ[3]. ذَكَرَهُ الخطيبُ وغيرُهُ.

[٣] ومنها: ما رواهُ ابنُ عَدِيٍّ مِن حديثِ: اللَّيْثِ بنِ سَعْدٍ، عن يَزيدَ بنِ أبي حَبيبٍ، عن سالِمٍ، عنِ ابنِ عُمَرَ [رَضِيَ اللهُ عنهُما]، عنِ النَّبيِّ ﷺ[4].

[٤] ومنها: ما رواهُ مُحَمَّدُ بنُ جَريرٍ الطَّبَرِيُّ مِن حديثِ: ابنِ أبي كَريمَةَ، عن مُعانِ بنِ رِفاعَةَ السَّلامِيِّ، عن أبي عُثْمانَ النَّهْدِيِّ، عن أُسامَةَ بنِ زَيْدٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ[5].

[٥] ومنها: ما رَواهُ حَمَّادُ بنُ زَيْدٍ، عن بَقِيَّةَ بنِ الوَليدِ، عن مُعانِ بنِ رِفاعَةَ، عن إبْراهيمَ بنِ عَبْدِالرَّحْمٰنِ العُذْرِيِّ[6]؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ[5].

---

(١) في ط: «لا بدّ وأن... جرح فالأئمّة... كان منه»، وفي خ: «... الذي لا ذنب...».

(٢) (طريق ساقطة). رواها ابن عدي (١/ ١٥٢): ثنا محمّد بن محمّد بن الأشعث الكوفي، ثنا موسى بن إسماعيل... به فذكره. ومحمّد كذّاب يضع.

(٣) (واهية جدًّا). رواها الخطيب في «الشرف» (١٤) من طريق زيد بن الحريش، ثنا عبدالله بن خراش، عن العوّام... به فذكره. وهٰذا ساقط: ابن الحريش (أو: الحرشي) لا يعدو أن يكون صالحًا في المتابعات، وابن خراش منكر الحديث جدًّا في حدّ الترك، وشهر صالح في المتابعات لٰكنّه لم يلحق معاذًا.

(٤) (طريق ساقطة). رواها ابن عديّ (١/ ١٥٢، ٣/ ٩٠٢) من طريق خالد بن عمرو القرشي، ثنا الليث... به فذكره. وخالد كذّاب يضع.

(٥) يأتي تفصيل القول في طريق معان بن رفاعة في الصفحة التالية.

(٦) في خ: «العدوي»! وكذٰلك تحرّف فيها «معان» إلى «معاذ» في جميع المواضع السابقة واللاحقة!

[قالَ الدَّارَقُطْنِيُّ: حَدَّثَنا أَحْمَدُ بنُ الحَسَنِ، حَدَّثَنا هاشِمُ بنُ القاسِمِ، حَدَّثَنا مُثَنَّى بنُ بَكْرٍ ومُبَشِّرٌ وغيرُهُما مِن أهلِ العلمِ، كلُّهُم يَقولونَ: حَدَّثَنا مُعانُ بنُ رِفاعَةَ، عن إِبْراهيمَ بنِ عَبْدِالرَّحْمٰنِ، عنِ النَّبيِّ ﷺ. يَعْني: أنَّ المحفوظَ مِن هٰذا الطَّريقِ مرسلٌ؛ لأنَّ إبراهيمَ هٰذا لا صحبةَ لهُ.

وقالَ الخَلَّالُ في كتابِ «العلل»: قَرَأْتُ على زُهَيْرِ بنِ صالحِ بنِ أَحْمَدَ، حَدَّثَنا مهنَّى؛ قالَ: سَأَلْتُ أَحْمَدَ عن حَديثِ: مُعانِ بنِ رِفاعَةَ، عن إِبْراهيمَ بنِ عَبْدِالرَّحْمٰنِ العُذْرِيِّ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ]: «يَحْمِلُ هٰذا العلمَ مِن كلِّ خلفٍ عدولُهُ؛ يَنْفونَ عنهُ تحريفَ الغالينَ وٱنتحالَ المبطلينَ وتأْويلَ الجاهلينَ»، فقُلْتُ لأَحْمَدَ: كأنَّهُ [كلامٌ] موضوعٌ! قالَ: لا؛ هوَ صحيحٌ. فقُلْتُ: ممَّن سَمِعْتَهُ أنتَ؟ قالَ: مِن غيرِ واحدٍ. [قُلْتُ: مَن هُم]؟ قالَ: حَدَّثَني بِهِ مسكينٌ؛ إلَّا أنَّهُ يَقولُ: عن مُعانٍ، عنِ القاسِمِ بنِ عَبْدِالرَّحْمٰنِ[1]. قالَ أَحْمَدُ: ومُعانُ بنُ رِفاعَةَ لا بأْسَ بِهِ[2].

---

(١) (طريق ضعيفة). ٱشتهر هٰذا الحديث من طريق معان بن رفاعة، فأغلب الذين رووه إنّما رووه من طريقه، ولٰكنّهم ٱختلفوا عليه (أو ٱضطرب هو) فيه على أوجه:

روى أوّلها: الطبري (١/ ٤٣٦ـ مفتاح دار السعادة)، والخطيب في «الشرف» (٥٣)، وابن عساكر (٧/ ٣٩)؛ من طريق محمّد بن سليمان بن أبي كريمة، عنه، عن أبي عثمان النهدي، عن أسامة. . . رفعه. وهٰذا أضعف الأوجه؛ لضعف ابن أبي كريمة وضعف الطريق إليه.

وروى الثاني: الخلّال في «العلل» (١/ ٤٣٧ـ مفتاح دار السعادة)، والخطيب في «الشرف» (٥٦)، وابن عساكر (٧/ ٣٩، ٥٩/ ١٠)؛ أنّ أحمد بن حنبل، سمعه من مسكين، عنه، عن القاسم، عن أبي أمامة. . . رفعه. وهٰذا فيه ضعف أيضًا من أجل مسكين؛ فإنّه يخطئ.

وروى الثالث: وكيع في «الغرر» (١/ ١١٧ـ إصابة)، والعقيلي (٤/ ٢٥٦)، وابن أبي حاتم في «الجرح» (٢/ ١٧)، وابن حبّان في «الثقات» (٤/ ١٠)، وابن عديّ (١/ ١٢٧ و١٥٣)، والدارقطني (١/ ٤٣٧ـ مفتاح)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٩)، والخطيب في «الشرف» (٥٥)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (١/ ٥٨)، وابن عساكر (٧/ ٣٧-٣٨)؛ من طرق، عن معان، عن إبراهيم بن عبدالرحمٰن العذريّ، عن النبيّ ﷺ. . . به. وهٰذا أقوى الأوجه لأمرين: أوّلهما: صحّة طرقه وكثرتها. والثاني: أنّ معانًا توبع عليه فيما رواه: ابن عديّ (١/ ١٥٣)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٩)، وابن عساكر (٧/ ٣٨-٣٩)؛ من طرق، عن الوليد بن مسلم، ثنا إبراهيم العذري، ثنا الثقة من أشياخنا، عن النبيّ ﷺ. . . به. ولذٰلك رجّحه الدراقطني وابن القيّم. وعلى كلّ؛ فهٰذا الوجه ضعيف، فإبراهيم لا يعدو أن يكون صالحًا في المتابعات، وحديثه مرسل، وربّما كان معضلًا.

(٢) ٱختلفوا فيه: فضعّفه قوم وقوّاه آخرون، وما هو بمدفوع عن صدق، لٰكنّه ليس بالذي يطمئنّ القلب لتحسين حديثه، والإنصاف في حقّه أن يكون صالحًا في الشواهد، وإلى ذٰلك مال الذهبي والعسقلاني.

[٦] ومنها: ما رَواهُ: أبو صالحٍ، [حَدَّ]ثَنا اللَّيْثُ بنُ سَعْدٍ، عن يَحْيى بنِ سَعيدٍ، عن سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، عن عَبْدِاللهِ بنِ مَسْعودٍ؛ قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «يَرِثُ هٰذا العلمَ مِن كلِّ خَلَفٍ عدولُهُ»[١].

[٧] ومنها: ما رَواهُ أبو أَحْمَدَ بنُ عَدِيٍّ مِن حديثِ: رُزَيْقٍ[٢] بنِ عَبْدِاللهِ /خ٢٦٢/ الأَلْهانِيِّ، عنِ القاسمِ بنِ عَبْدِالرَّحْمٰنِ، عن أبي أُمامَةَ الباهِلِيِّ؛ [قالَ]: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ[٣]. رَواهُ عنهُ بَقِيَّةُ.

[٨] ومنها: ما رَواهُ ابنُ عَدِيٍّ أيضًا مِن طريقِ: مَرْوانَ الفَزارِيِّ، عن يَزيدَ بنِ كَيْسانَ، عن أبي حازِمٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ[٤].

[٩] ومنها: ما رَواهُ تَمّامٌ في «فوائِدِهِ» مِن حديثِ: اللَّيْثِ، عن يَزيدَ بنِ أبي حَبيبٍ، عن أبي قَبيلٍ[٥]، عن عبدِاللهِ بنِ عَمْرٍو وأبي هُرَيْرَةَ[٦]. رَواهُ عنهُ خالِدُ بنُ عَمْرٍو.

[١٠] ومنها: ما رَواهُ القاضي إسماعيلُ مِن حديثِ: عليِّ بنِ مُسْلِمٍ البَلَوِيِّ، عن أبي صالحٍ الأَشْعَرِيِّ، عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبِيِّ ﷺ[٧].

---

(١) (طريق واهية). رواها الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٥٤) من طريق قويّة، عن أحمد بن يحيى بن زكير، ثنا محمّد بن ميمون بن كامل الحمراوي، ثنا أبو صالح... به فذكره. وهٰذا سند واهٍ: ابن زكير وابن ميمون ضعيفان، وأبو صالح صالح في المتابعات.

(٢) في ط: «كأنّه موضوع... أنت فقال...»، وفي خ: «... يحيى بن سعد... زريق».

(٣) (طريق ضعيفة). رواها: العقيلي في «الضعفاء» (١/٩)، وابن عديّ في «الكامل» (١/١٥٣)؛ من طريق محمّد بن عبدالعزيز الرملي، [ثنا بقيّة]، عن رزيق... به فذكره. وهٰذه أقوى طرق الحديث على ضعفها: الرملي ورزيق والقاسم لهم أوهام وتفرّدات، وبقيّة عنعن على تدليسه.

(٤) (طريق واهية). رواها ابن عديّ في «الكامل» (١/١٥٢): ثنا عليّ بن محمّد بن حاتم، ثنا محمّد بن هشام بن عبدالكريم، ثنا داوود بن سليمان الغساني، ثنا مروان الفزاري... به فذكره. وهٰذا سند واهٍ فيه علل: ابن حاتم ترجمه الخطيب ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً، وابن عبدالكريم والغساني لم أقف لهما على ذكر، وأبو حازم عن أبي هريرة منقطع.

(٥) في خ وط: «بن أبي حبيب عن أبي الخير عن أبي قبيل (خ: قتيل)»! والتصويب من المصادر.

(٦) (طريق ساقطة). رواها: البزّار (٨٦ـ مختصر الزوائد)، والعقيلي (١/٩)، وتمّام (١/٤٣٨ـ مفتاح دار السعادة ولم أعثر عليه بهٰذا السند في مطبوعة الفوائد)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (١/٥٩)؛ من طريق خالد بن عمرو القرشي، عن الليث... به فذكره. وخالد بن عمرو كذّاب يضع.

(٧) (طريق ساقطة). رواها: القاضي إسماعيل (١/٤٣٨ـ مفتاح السعادة)، والطبراني في «الشاميّين»=

● **الوجهُ السَّابعُ والثَّلاثونَ بعدَ المئةِ:** أنَّ بقاءَ الدِّينِ والدُّنيا في بقاءِ العلمِ، وبذهابِ العلمِ تَذْهَبُ الدُّنيا والدِّينُ، فقوامُ الدِّينِ والدُّنيا إنَّما هوَ بالعلمِ.

قالَ الأوزاعِيُّ: قالَ ابنُ شِهابٍ الزُّهْرِيُّ: الاعتصامُ بالسُّنَّةِ نجاةٌ، والعلمُ يُقْبَضُ قبضًا سريعًا، فبعيشِ العلمِ[1] ثباتُ الدِّينِ والدُّنيا، وذهابُ العلمِ ذهابُ ذٰلكَ كلِّهِ.

وقالَ ابنُ وَهْبٍ: أخْبَرَني يَزيدُ، عنِ ابنِ شِهابٍ؛ قالَ: بَلَغَنا عن رجالٍ مِن أهلِ العلمِ أنَّهُم كانوا يَقولونَ: الاعتصامُ بالسُّنَّةِ نجاةٌ، والعلمُ يُقْبَضُ [قبضًا] سريعًا، فبعيشِ العلمِ ثباتُ الدِّينِ والدُّنيا، وذهابُ العلمِ [ذهابُ] ذٰلكَ كلِّهِ.

● **الوجهُ الثَّامنُ والثَّلاثونَ بعدَ المئةِ:** أنَّ العلمَ يَرْفَعُ صاحبَهُ في الدُّنيا والآخرةِ ما لا يَرْفَعُهُ الملكُ ولا المالُ ولا غيرُهُما، فالعلمُ يَزيدُ الشَّريفَ شرفًا ويَرْفَعُ العبدَ المملوكَ حتَّى يُجْلِسَهُ مجالسَ الملوكِ.

كما ثَبَتَ في «الصَّحيحِ»[2] مِن حديثِ: الزُّهْرِيِّ، عن أبي الطُّفَيْلِ؛ أنَّ نافعَ بنَ عَبْدِالحارثِ لَقِيَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ بِعُسْفانَ، وكانَ عُمَرُ اسْتَعْمَلَهُ على أهلِ مَكَّةَ. فقالَ لهُ عُمَرُ: مَنِ اسْتَخْلَفْتَ على أهلِ الوادي؟ [فـ]ـقالَ: اسْتَخْلَفْتُ عليهِمُ ابنَ أبْزى. فقالَ: [و]مَنِ ابنُ أبْزى؟ فقالَ: رجلٌ مِن موالينا. فقالَ عُمَرُ: اسْتَخْلَفْتَ عليهِم مولًى؟ فقالَ: إنَّهُ قارئٌ /خ٢٦٣/ لكتابِ اللهِ عالمٌ بالفرائضِ. فقالَ عُمَرُ: أما إنَّ نبيَّكُم ﷺ قد قالَ: «إنَّ اللهَ يَرْفَعُ بهٰذا الكتابِ أقوامًا ويَضَعُ بِهِ آخرينَ».

قالَ أبو العالِيَةِ: كُنْتُ آتي ابنَ عَبَّاسٍ وهوَ على سريرِهِ وحولَهُ قريشٌ، فيَأْخُذُ بيدي

= (٥٩٩)، وابن عديّ (١/ ١٥٣)، والخطيب في «الجامع» (١٣٤) و«الشرف» (٥٢)؛ من طريق مسلمة بن عليّ، ثنا عبدالرحمٰن بن يزيد السلمي (وقال الطبراني: بن يزيد بن جابر)، عن عليّ بن مسلم البكري (كذا! وجاء في المتن: البلوي! ولم يتبيّن لي الصحيح منهما)، عن أبي صالح الأشعريّ، عن أبي هريرة. . . رفعه. وهٰذا ساقط: مسلمة متروك، وعبدالرحمٰن إن كان السلمي فضعيف منكر الحديث وإن كان ابن جابر فثقة، وعلي بن مسلم لم أقف له على ترجمة، ولم يذكروا للأشعريّ رواية عن أبي هريرة والغالب أنّها منقطعة.

(١) في ط هنا وفي الموضع التالي: «فنعش العلم»! وكذا في «الزهد» لابن المبارك (٨١٧)! وكلاهما تحريف صوابه ما أثبتّه من خ. ونعش العلم: موته ورفعه! وهٰذا يؤدّي عكس المعنى المطلوب تمامًا.

(٢) مسلم (٦ـ المسافرين، ٤٧ـ فضل من يقوم بالقرآن، ١/ ٥٥٩/ ٨١٧).

فيُجْلِسُني معَهُ على السَّريرِ. فتَغامَزَ بي[١] قريشٌ. ففَطِنَ لهُمُ ابنُ عَبَّاسٍ، فقالَ: كذا هٰذا العلمُ؛ يَزيدُ الشَّريفَ شرفًا، ويُجْلِسُ المملوكَ على الأسرَّةِ.

وقالَ إبْراهيمُ الحَرْبِيُّ: كانَ عَطاءُ بنُ أبي رَباحٍ عبدًا أسودَ لامرأةٍ مِن أهلِ مكَّةَ، وكانَ أنفُهُ كأنَّهُ باقلاَّةٌ[٢]. قالَ: وجاءَ سُلَيْمانُ بنُ عَبْدِالمَلِكِ أميرُ المؤمنينَ إلى عطاءٍ هوَ وابْناهُ، فجَلَسوا إليهِ وهوَ يُصَلِّي، فلمَّا صَلَّى؛ ٱنْفَتَلَ إليهم[٣]، فما زالوا يَسْألونَهُ عن مناسِكِ الحجِّ وقد حَوَّلَ قفاهُ إليهِم. ثمَّ قالَ سُلَيْمانُ لابنيهِ: قوما. فقاما. فقالَ: يا بَنِيَّ! لا تَنِيا في طلبِ العلمِ؛ فإنِّي لا أنْسى ذلَّنا بينَ يدي هٰذا العبدِ الأسودِ[٤].

قالَ الحَرْبِيُّ: وكانَ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِالرَّحْمٰنِ الأوْقَصُ؛ عنقُهُ داخلٌ في بدنِهِ، وكانَ مَنْكِباهُ خارجينِ كأنَّهُما زُجَّانِ[٥]. فقالَتْ لهُ أُمُّهُ: يا بنيَّ! لا تكونُ في [مجلسِ] قومٍ؛ إلاَّ كُنْتَ المضحوكَ منهُ المسخورَ منهُ، فعليكَ بطلبِ العلمِ؛ فإنَّهُ يَرْفَعُكَ. فوَلِيَ قضاءَ مكَّةَ عشرينَ سنةً. قالَ: وكانَ الخصمُ إذا جَلَسَ إليهِ بينَ يديهِ يَرْعُدُ حتَّى يَقومَ. قالَ: ومَرَّتْ بهِ ٱمرأةٌ يومًا وهوَ يَقولُ: اللهمَّ! أعْتِقْ رقبتي مِن النَّارِ. فقالَتْ لهُ: يا ابنَ أخي! وأيُّ رقبةٍ لكَ؟!

وقالَ يَحْيى بنُ أكْثَمَ: قالَ الرَّشيدُ: ما أنبلُ المراتبِ؟ قُلْتُ: ما أنتَ فيهِ يا أميرَ المؤمنينَ! قالَ: فتَعْرِفُ أجلَّ منِّي؟ قُلْتُ: لا. قالَ: لٰكنِّي أعْرِفُهُ؛ رجلٌ في حَلْقَةٍ يَقولُ [حَدَّ]ثَنا فلانٌ عن فلانٍ عن رسولِ اللهِ ﷺ. قالَ: قُلْتُ: يا أميرَ المؤمنينَ! أهٰذا خيرٌ منكَ؛ وأنتَ ابنُ عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ ووليُّ عهدِ المسلمينَ؟ قالَ: نعم ويلكَ، هٰذا خيرٌ منِّي؛ لأنَّ ٱسمَهُ مقترنٌ بٱسمِ رسولِ اللهِ [ﷺ] لا يَموتُ أبدًا، ونحنُ نَموتُ ونَفْنى، والعلماءُ باقونَ [ما بَقِيَ] الدَّهرُ[٦].

---

(١) في ط: «عبدالحارث أتى عمر...»، وفي خ: «... فتغامزني».
(٢) باقلاّة (وفي ط: باقلاّء): حبّة فول؛ يعني: كان أنفه عريضًا أفطس شأن الزنوج.
(٣) يعني: مال عن القبلة بعض الشيء إلى جهتهم، ولٰكنّه لم يستقبلهم بوجهه.
(٤) هٰذه منقبة عظيمة لسليمان بن عبدالملك، فقاتل الله الرافضة، قد كان في بني أميّة خير كثير.
(٥) أي: كان في كتفيه بروز غير طبيعي. والزجّ: الحديدة أسفل الرمح. وفي خ: «كأنّهما زوجان»!
(٦) في ط: «المسخور به فعليك... ووليّ عهد المؤمنين... باقون الدهر».

وقالَ خَيْثَمَةُ بنُ /خ٢٦٤/ سُلَيْمانُ: سَمِعْتُ ابنَ أبي الخَناجِرِ يقولُ: كُنَّا في مجلسِ يَزيدَ بنِ هارونَ، والنَّاسُ قدِ اجْتَمَعوا [إليه]، فمَرَّ أميرُ المؤمنينَ، فوَقَفَ علينا في المجلسِ، وفي المجلسِ أُلوفٌ، فالْتَفَتَ إلى أصحابِهِ فقالَ: هٰذا الملكُ.

وفي «تاريخ بغداد» للخَطيبِ: حَدَّثَني أبو النَّجيبِ عَبْدُالغَفَّارِ بنُ عَبْدِالواحِدِ؛ قالَ: سَمِعْتُ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ المُقْرِي يَقولُ: سَمِعْتُ أبا الحُسَيْنِ بنَ فارِسٍ يَقولُ: سَمِعْتُ الأُستاذَ ابنَ العَميدِ يَقولُ: ما [كُنْتُ] أَظُنُّ أنَّ في الدُّنيا حلاوةً ألذَّ مِن الرِّياسةِ والوزارةِ التي أنا فيها حتَّى شَهِدْتُ مذاكرةَ سُلَيْمانَ بنِ أَحْمَدَ بنِ أيُّوبَ[1] الطَّبَرانِيِّ وأبي بَكْرٍ الجِعابِيِّ بحضرتي، فكانَ الطَّبَرانِيُّ يَغْلِبُ [الجِعابِيَّ] بكثرةِ حفظِهِ، وكانَ الجِعابِيُّ يَغْلِبُ الطَّبَرانِيَّ بفطنتِهِ وذكاءِ أهلِ بَغدادَ، حتَّى ارْتَفَعَتْ أصواتُهُما، ولا يَكادُ أحدُهُما يَغْلِبُ صاحبَهُ. فقالَ الجِعابِيُّ: عندي حديثٌ ليسَ في الدُّنيا إلاَّ عندي. فقالَ: هاتِهِ. فقالَ[2]: [حدَّ]ثَنا أبو خَليفَةَ، حَدَّثَنا سُلَيْمانُ بنُ أيُّوبَ... وحَدَّثَ بالحديثِ. فقالَ الطَّبَرانِيُّ: أنا سُلَيْمانُ بنُ أيُّوبَ[3]، ومنِّي سَمِعَ أبو خَليفَةَ، فاسْمَعْ منِّي حتَّى يَعْلُوَ إسنادُكَ؛ فإنَّكَ تَرْوي عن أبي خَليفَةَ عنِّي. فخَجِلَ الجِعابِيُّ وغَلَبَهُ الطَّبَرانِيُّ. قالَ ابنُ العَميدِ: فوَدِدْتُ في مكاني أنَّ الوزارةَ والرِّياسةَ [ليتَها] لمْ تكُنْ لي وكُنْتُ الطَّبَرانِيَّ وفَرِحْتُ مثلَ [الفرحِ الذي فَرِحَ بِهِ الطَّبَرانِيُّ] لأجلِ[4] الحديثِ. أو كما قالَ.

وقالَ المُزَنِيُّ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقولُ: مَن تَعَلَّمَ القرآنَ عَظُمَتْ قيمتُهُ، ومَن نَظَرَ في الفقهِ نَبُلَ مقدارُهُ، ومَن تَعَلَّمَ اللغةَ رَقَّ طبعُهُ، ومَن تَعَلَّمَ الحسابَ جَزُلَ رأْيُهُ[5]، ومَن كَتَبَ الحديثَ قَوِيَتْ حجَّتُهُ، ومَن لمْ يَصُنْ نفسَهُ لمْ يَنْفَعْهُ علمُهُ. وقد رُوِيَ هٰذا الكلامُ

---

(١) في ط: «وقال هٰذا الملك... سليمان بن أيوب بن أحمد»! وفي خ: «... أبا الحسن بن فارس بن سليمان... سليمان أبو أيوب بن أحمد»! وكلتاهما خطأ صوابه ما أثبتّه، وأحمد أبو الطبراني وأيّوب جدّه وليس العكس، وكنية الطبراني أبو القاسم لا أبو أيّوب!

(٢) في خ: «الجعاني... وذكائه أهل... قال هاته قال»، وفي ط: «... يغلب بكثرة...».

(٣) أمّا هٰذا؛ فصحيح، ومن المشهور جدًّا أن ينسب الرجل إلى جدّه في الأسانيد، وكأنّه لذٰلك لم يتنبّه الجعابيّ إلى أنّه مناظره وظنّه غيره حتّى نبّهه الطبرانيّ إلى ذٰلك.

(٤) في خ: «ومتى سمعه أبو خليفة... فقال ابن العميد... وفرحت مثله لأجل».

(٥) جزل رأيه: صار جيّدًا سديدًا.

عنِ الشَّافِعِيِّ مِن وجوهٍ متعدِّدةٍ.

وقالَ سُفْيانُ الثَّوْرِيُّ: مَن أرادَ الدُّنيا والآخرةَ؛ فعليهِ بطلبِ العلمِ.

وقالَ عَبْدُاللهِ بنُ داوودَ: سَمِعْتُ سُفْيانَ الثَّوْرِيَّ يَقولُ: إنَّ هٰذا الحديثَ عزٌّ: فمَن أرادَ بهِ الدُّنيا وَجَدَها، ومَن أرادَ [بهِ] الآخرةَ وَجَدَها.

وقالَ النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ: مَن أرادَ /خ٢٦٥/ أنْ يَشْرُفَ في الدُّنيا والآخرةِ؛ فلْيَتَعَلَّمِ العلمَ، وكَفى بالمرءِ سعادةً أنْ يُوثَقَ بهِ في دينِ اللهِ ويكونَ بينَ اللهِ وبينَ عبادِهِ.

وقالَ حَمْزَةُ بنُ سَعيدٍ المِصْرِيُّ: لمَّا حَدَّثَ أبو مُسْلِمٍ اللَّخْمِيُّ أوَّلَ يومٍ حَدَّثَ؛ قالَ لابنِهِ: كم فَضَلَ عندَنا مِن أثمانِ غَلَّاتِنا؟ قالَ: ثلاثُ مئةِ دينارٍ. قالَ: فَرِّقْها على أصحابِ الحديثِ والفقراءِ شكرًا؛ إنَّ أباكَ [اليومَ] شَهِدَ على رسولِ اللهِ ﷺ فقُبِلَتْ شهادتُهُ.

وفي كتابِ «الجليس والأنيس» لأبي الفَرَجِ المُعافى بنِ زَكَرِيَّا الجَرِيرِيِّ: [حَدَّ]ثَنا مُحَمَّدُ بنُ الحُسَيْنِ بنِ دُرَيْدٍ، [حَدَّ]ثَنا أبو حاتِمٍ، عنِ العُتْبِيِّ[1]، عن أبيهِ؛ قالَ: ٱبْتَنى مُعاوِيَةُ بالأبطحِ مجلسًا، فجَلَسَ عليهِ ومعَهُ ٱبنةُ قَرَظَةَ، فإذا هوَ[2] بجماعةٍ على رحالٍ لهُم، وإذا شابٌّ منهُم قد رَفَعَ عقيرتَهُ يَتَغَنَّى:

مَن يُساجِلْني يُساجِلْ ماجِدًا … يَمْلأِ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ[3]

قالَ: مَن هٰذا؟ قالَ: عَبْدُاللهِ بنُ جَعْفَرٍ. قالَ: خَلُّوا لهُ الطَّريقَ. ثمَّ إذا هوَ بجماعةٍ فيهِم غلامٌ يَتَغَنَّى:

بَيْنَما يَذْكُرْنَني أبْصَرْنَني … عِنْدَ قِيدِ المِيلِ يَسْعى بي الأغَرّ[4]

---

(١) في خ: «أبو مسلم المكّي... والفقر شكرًا... الحسن بن دريد... عن العجميّ»!

(٢) في خ: «أبنه قرطبة فإذا هم»! وفي ط: «ٱبنه قرظةُ فإذا هو»! وكلاهما تحريف، وليس لمعاوية ولد ٱسمه قرظة، وإنّما هي زوجته ٱبنة قرظة، وٱسمها فاختة. والخبر في «الجليس والأنيس» (٣/ ١٨١).

(٣) في خ: «من يشاجلني يشاجل... الدلو الوالي عقد الكربي»! وأثبتّ ما في ط. ووقع في «الجليس والأنيس»: «من يساجلني يساجل ماجدًا أخضر الجلدة في بيت العرب».

رفع عقيرته: رفع صوته. يساجلني: يفاخرني ويباريني. ماجدًا: سيّدًا شريفًا. يملأ الدلو إلى عقد الكرب: يملؤها إلى الحافة، كناية عن أنّه لا مزيد على فضله وكرمه وشرفه وسؤدده.

(٤) عند قيد الميل: في بطن الوادي بين الصفا والمروة. الأغرّ: الجمل الأبيض.

قُلْنَ تَعْرِفْنَ الفَتى قُلْنَ نَعَمْ قَدْ عَرَفْناهُ وَهَلْ يَخْفى القَمَرْ

قالَ: مَن هٰذا؟ قالوا: عُمَرُ بنُ أبي رَبيعَةَ. قالَ: خَلُّوا لهُ الطَّريقَ فلْيَذْهَبْ. قالَ: ثمَّ إذا هوَ بجماعةٍ، وإذا فيهِم رجلٌ يُسْأَلُ فيُقالُ لهُ: رَمَيْتُ قبلَ أنْ أحْلِقَ وحَلَقْتُ قبلَ أنْ أرْمِيَ... في أشياءَ أشْكَلَتْ عليهِم[1] مِن مناسِكِ الحجِّ. فقالَ: مَن هٰذا؟ قالوا: عَبْدُاللهِ بنُ عُمَرَ. فٱلْتَفَتَ إلى ٱبنةِ قَرَظَةَ[2] وقالَ: هٰذا وأبيكِ الشَّرفُ[3]، هٰذا واللهِ شرفُ الدُّنيا والآخرةِ.

وقالَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ: أرفعُ النَّاسِ [منزلةً عندَ اللهِ مَن كانَ بينَ اللهِ وبينَ عبادِهِ، وهُمُ الأنبياءُ والعلماءُ.

وقالَ سَهْلٌ التُّسْتَرِيُّ: مَن أرادَ] أنْ يَنْظُرَ إلى مجالسِ الأنبياءِ؛ فلْيَنْظُرْ إلى مجالسِ العلماءِ: يَجيءُ الرَّجلُ فيَقولُ: يا فلانُ! أيْشٍ تَقولُ في رجلٍ حَلَفَ على ٱمرأتِهِ بكذا وكذا؟ فيَقولُ: طَلُقَتِ ٱمرأتُهُ. ويَجيءُ آخرُ فيَقولُ: حَلَفْتُ بكذا وكذا. فيَقولُ: ليسَ يَحْنَثُ بهٰذا القولِ... وليسَ هٰذا إلاَّ لنبيٍّ أو عالمٍ، فٱعْرِفوا لهُم ذٰلكَ.

● **الوجهُ التَّاسعُ والثَّلاثونَ [بعدَ المئةِ]**: أنَّ النُّفوسَ الجاهلةَ /خ٢٦٦/ التي لا علمَ عندَها قد أُلْبِسَتْ ثوبَ الذُّلِّ، والإزراءُ عليها والتَّنقُّصُ بها أسرعُ منهُ إلى غيرِها. وهٰذا أمرٌ معلومٌ عندَ الخاصِّ والعامِّ.

قالَ الأعْمَشُ: إنِّي لأرى الشَّيخَ لا يَرْوي شيئًا مِن الحديثِ أشْتَهي[4] أنْ ألْطُمَهُ.

وقالَ أبو مُعاوِيَةَ: سَمِعْتُ الأعْمَشَ يقولُ: مَن لمْ يَطْلُبِ الحديثَ أشْتَهي أنْ أصْفَعَهُ بنعلي[5].

---

(١) في خ: «يسعى في الأغرّ فلن يعرفني الفتى... يسأل فقال رميت... أشياء ٱشتبهت عليهم».

(٢) في خ: «إلى ٱبنه قرطبة»! وفي ط: «إلى أبنه قرظة»! وكلاهما تحريف كما تقدّم آنفًا.

(٣) في خ: «هٰذا والله الشرف»، وما أظنّها إلاّ تعديلاً بقلم الناسخ. وعلى كلّ؛ فقد سُمع هٰذا من بعض الصحابة والتابعين، وما هو من الحلف بغير الله، بل هو فضلة يراد بها تحسين الكلام تجري على الألسنة ولا يقصد معناها، تمامًا كقولهم ويحك وويلك ولا أبا لك...

(٤) في خ: «النفوس الجاهليّة... عليها والنقص بها...»، وفي ط: «... فأشتهي».

(٥) فكيف بمن عادى الحديث وأهله وجعل شتمهم وتنقّصهم طعامه وشرابه وفاكهة مجالسه؟!

وقالَ عَثَّامُ بنُ عَلِيٍّ: سَمِعْتُ الأعْمَشَ يَقولُ: إذا رَأَيْتَ الشَّيخَ لمْ يَقرَإِ القرآنَ ولمْ يَكْتُبِ الحديثَ؛ [فأَصْفَعْ لهُ]؛ فإنَّهُ مِن شيوخِ القَمْراءِ. قالَ أبو صالحٍ: قُلْتُ لأبي جَعْفَرٍ: ما شيوخُ القَمْراءِ؟ قالَ: شيوخٌ دُهْرِيُّونَ يَجْتَمِعونَ في ليالي القمرِ يَتَذاكَرونَ أيَّامَ النَّاسِ ولا يُحْسِنُ أحدُهُم أنْ يَتَوَضَّأَ للصَّلاةِ[1].

[وكانَ سُفْيانُ الثَّوْرِيُّ إذا رَأى الشَّيخَ لمْ يَكْتُبِ الحديثَ؛ قالَ: لا جَزاكَ اللهُ خيرًا عنِ الإسلامِ]!

وقالَ المُزَنِيُّ: كانَ الشَّافِعِيُّ إذا رَأى شيخًا؛ سَأَلَهُ عنِ الحديثِ والفقهِ، فإنْ كانَ عندَهُ شيءٌ، وإلَّا؛ قالَ لهُ: لا جزاكَ اللهُ خيرًا عن نفسِكَ ولا عنِ الإسلامِ، قد ضَيَّعْتَ نفسَكَ وضَيَّعْتَ الإسلامَ.

وكانَ بعضُ خلفاءِ بني العبَّاسِ يَلْعَبُ بالشُّطْرَنْجِ، فَٱسْتَأْذَنَ عليهِ عمُّهُ، فأذِنَ لهُ وغَطَّى الرُّقعةَ. فلمَّا جَلَسَ؛ قالَ [لهُ]: يا عمِّ! هلْ قَرَأْتَ القرآنَ؟ قالَ: لا. قالَ: فهل كَتَبْتَ شيئًا مِن السُّنَّةِ؟ قالَ: لا. [قالَ]: فهلْ نَظَرْتَ في الفقهِ وٱختلافِ النَّاسِ؟ قالَ: لا. قالَ: فهل نَظَرْتَ في العربيَّةِ وأيَّامِ النَّاسِ؟ قالَ: لا. فقالَ الخليفةُ: ٱكْشِفِ الرُّقعةَ. ثمَّ أتمَّ اللعبَ، وزالَ ٱحتشامُهُ وحياؤُهُ منهُ. فقالَ لهُ ملاعبُهُ: يا أميرَ المؤمنينَ! تَكْشِفُها ومعَنا مَن نَحْتَشِمُ منهُ؟ قالَ: ٱسْكُتْ! فما معَنا أحدٌ.

وهٰذا لأنَّ الإنسانَ إنَّما يَتَمَيَّزُ عن سائرِ الحيوانِ بما خُصَّ بهِ مِن العلمِ والعقلِ والفهمِ، فإذا عَدِمَ ذٰلكَ؛ لمْ يَبْقَ فيهِ إلَّا القدرُ المشتركُ بينَهُ وبينَ سائرِ الحيواناتِ، وهوَ الحيوانيَّةُ البهيميَّةُ، ومثلُ هٰذا لا يَسْتَحي منهُ النَّاسُ ولا يَمْتَنِعونَ بحضرتِهِ[2] وشهودِهِ ممَّا يُسْتَحْيا منهُ مِن أُولي الفضلِ والعلمِ.

● **الوجهُ الأربعونَ بعدَ المئةِ**: أنَّ كلَّ صاحبِ بضاعةٍ سوى العلمِ [إذا عَلِمَ أنَّ غيرَ

---

(١) ومن أفراخهم اليوم من يتكلّم الساعات الطوال في السياسة والتنظير لمستقبل الأمّة ومخطّطات أعدائها ولا يحسن يصلّي! ومنهم من يتكلّم الساعات الطوال في تطابق الآيات القرآنيّة مع الاكتشافات العلميّة المعاصرة في الطبّ والفلك أو في عجائب قدرة الله وصنعته في خلقه ثمّ لا يقوم يصلّي!

(٢) في خ: «وبين سائر الحيوانيّة وهو...»، وفي ط: «... ولا يمنعون بحضرته».

بضاعتِهِ خيرٌ منها زَهَدَ في بضاعتِهِ ورَغِبَ في الأُخرى ووَدَّ أنَّها لهُ عوضَ بضاعتِهِ إلاَّ صاحبَ بضاعةِ العلمِ]؛ فإنَّهُ ليسَ يُحِبُّ أنَّ لهُ بحظِّهِ منها حظًّا[1] أصلاً.

قالَ أبو جَعْفَرٍ الطَّحاوِيُّ: كُنْتُ عندَ أَحْمَدَ /خ٢٦٧/ بنِ أبي عِمْرانَ، فمَرَّ بنا رجلٌ مِن بني الدُّنيا، فنَظَرْتُ إليهِ وشُغِلْتُ بهِ عمَّا كُنْتُ فيهِ مِن المذاكرةِ. فقالَ لي: كأنِّي بكَ [قد] فَكَّرْتَ فيما أُعْطِيَ هٰذا الرَّجلُ مِن الدُّنيا. قُلْتُ لهُ: نعم. قالَ: هَل أدُلُّكَ على خَلَّةٍ؟ هل لكَ أنْ يُحَوِّلَ اللهُ إليكَ ما عندَهُ مِن المالِ ويُحَوِّلَ إليهِ ما عندَكَ مِن العلمِ فتَعيشَ أنتَ غنيًّا جاهلاً ويَعيشَ هوَ عالمًا فقيرًا؟ فقُلْتُ: ما أَخْتارُ أنْ يُحَوِّلَ اللهُ ما عندي مِن العلمِ إلى ما عندَهُ.

فالعلمُ غنًى بلا مالٍ وعزٌّ بلا عشيرةٍ وسلطانٌ بلا رجالٍ. وفي ذٰلكَ قيلَ:

العِلْمُ كَنْزٌ وَذُخْرٌ لا نَفادَ لَهُ ... نِعْمَ القَرينُ إذا ما صاحِبٌ صَحِبا
قَدْ يَجْمَعُ المَرْءُ مالاً ثُمَّ يُحْرَمُهُ ... عَمَّا قَليلٍ فَيَلْقى الذُّلَّ والحَرَبا
وَجامِعُ العِلْمِ مَغْبوطٌ بِهِ أبدًا ... وَلا يُحاذِرُ مِنْهُ الفَوْتَ والسَّلَبا
يا جامِعَ العِلْمِ نِعْمَ الذُّخْرِ تَجْمَعُهُ ... لا تَعْدِلَنَّ بِهِ دُرًّا وَلا ذَهَبا

● **الوجهُ الحادي والأربعونَ بعدَ المئةِ**: أنَّ اللهَ سبحانَهُ أخبَرَ أنَّهُ يَجْزي المحسنينَ أجرَهُم بأحسنِ ما كانوا يَعْمَلونَ، وأخْبَرَ سبحانَهُ أنَّهُ يَجْزي على الإحسانِ بالعلمِ، وهٰذا يَدُلُّ على أنَّهُ أحسنُ الجزاءِ.

أمَّا المقامُ الأوَّلُ؛ ففي قولِهِ تَعالى: ﴿وَالَّذي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولٰئِكَ هُمُ المُتَّقونَ . لَهُمْ ما يَشاؤونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ جَزاءُ المُحْسِنينَ . لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أسْوَأَ الَّذي عَمِلوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذي كانوا يَعْمَلونَ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥]: وهٰذا يَتَناوَلُ الجزاءينِ الدُّنيويَّ والأُخرويَّ.

وأمَّا المقامُ الثَّاني؛ ففي قولِهِ تَعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذٰلِكَ نَجْزي المُحْسِنينَ﴾ [يوسف: ٢٢]: قالَ الحَسَنُ: مَن أحْسَنَ عبادةَ اللهِ في شبيبتِهِ؛ لَقَّاهُ

---

(١) في خ: «بحظّه منها خطرًا»! وفي ط: «بحظّه منها حظّ»! وكلاهما غلط.

اللهُ الحكمةَ [عندَ كِبَرِ سنِّه]، وذٰلكَ قولُهُ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومِن هٰذا قولُ[1] بعضِ العلماءِ: تَقولُ الحكمةُ: مَنِ ٱلْتَمَسَني فلمْ يَجِدْني؛ فلْيَعْمَلْ بأحسنِ ما يَعْلَمُ ولْيَتْرُكْ أقبحَ ما يَعْلَمُ، فإذا فَعَلَ [ذٰلكَ]؛ فأنا معَهُ وإنْ لمْ يَعْرِفْني.

● **الوجهُ الثَّاني والأربعونَ بعدَ المئةِ:** أنَّ اللهَ سبحانَهُ جَعَلَ العلمَ للقلوبِ /خ٢٦٨/ كالمطرِ للأرضِ، فكما أنَّهُ لا حياةَ للأرضِ إلَّا بالمطرِ فكذٰلكَ لا حياةَ للقلبِ إلَّا بالعلمِ.

وفي «الموطَّإ»: قالَ لُقْمانُ لابنِهِ: يا بنيَّ! جالِسِ العلماءَ وزاحِمْهُم بركبتيكَ؛ فإنَّ اللهَ تَعالى يُحْيي القلوبَ الميتةَ بنورِ الحكمةِ كما يُحْيي الأرضَ بوابلِ المطرِ.

[بل حاجةُ القلوبِ للعلمِ فوقَ حاجةِ الأرضِ للمطرِ؛ فإنَّ] الأرضَ[2] إنَّما تَحْتاجُ إلى المطرِ في بعضِ الأوقاتِ، فإذا تَتابَعَ عليها؛ ٱحْتاجَتْ إلى ٱنقطاعِهِ. وأمَّا العلمُ؛ فيَحْتاجُ إليهِ القلبُ بعددِ الأنفاسِ، ولا يَزيدُهُ كثرتُهُ إلَّا صلاحًا ونفعًا.

● **الوجهُ الثَّالثُ والأربعونَ بعدَ المئةِ:** أنَّ كثيرًا مِن الأخلاقِ التي لا تُحْمَدُ في الشَّخصِ بل يُذَمُّ عليها تُحْمَدُ في طلبِ العلمِ: كالمَلَقِ، وتركِ الاستحياءِ، والذُّلِّ، والتَّردُّدِ إلى أبوابِ العلماءِ... ونحوِها.

* قالَ ابنُ قُتَيْبَةَ: جاءَ في الحديثِ: «ليسَ الملقُ مِن أخلاقِ المؤمنينَ إلَّا في طلبِ العلمِ»[3]. وهٰذا أُثِرَ عن بعضِ السَّلفِ.

---

(١) في ط: «أنّه من أحسن الجزاء...»، وفي خ: «... في شيبته لقّاه... ومن هٰذا قال».

(٢) في خ: «بوابل المطر ولهٰذا الأرض»، وفي ط: «بوابل المطر فإنّ الأرض»، وما بين الحاصرتين إضافة منّي لا يستقيم الكلام إلّا بها أو بنحوها.

(٣) (موضوع). رواه: ابن عدي (٢/ ٧١٢)، والقضاعي (١١٨٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨٦٣)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢١٩)، والسلفي في «المنتخب من أصول السراج» (٣٨١- ضعيفة)، والرافعي في «التدوين» (١/ ١٧٧)، والذهبي في «الميزان» (١/ ٤٨٨) تعليقًا؛ من طرق، عن الحسن بن دينار (أو: ابن واصل)، عن الخصيب (وتحرّف في التدوين إلى: الحسن) بن جحدر، [عن النعمان بن نعيم (وفي الشعب: النعمان بن سالم)]، [عن عبدالرحمٰن بن غنم]، عن معاذ... رفعه. وهٰذا ساقط: الحسن بن دينار (أو: ابن واصل) متّهم متروك، والخصيب كذّاب، والنعمان ما عرفته.

وقالَ ابنُ عَبَّاس: ذَلَلْتُ طالبًا فعَزَزْتُ مطلوبًا.

وقالَ: وَجَدْتُ عامَّةَ علم رسولِ اللهِ ﷺ عندَ هٰذا الحيِّ مِن الأنصارِ. إنْ كُنْتُ لأَقِيلُ عندَ بابِ أحدِهِم، ولو شِئْتُ أُذِنَ لي، ولٰكنْ أَبْتَغي بذٰلكَ طِيبَ نفسِهِ.

وقالَ أبو إسحاقَ: قالَ عليٌّ: كلماتٌ، لو رَحَلْتُمُ المَطِيَّ فيهنَّ؛ لأَنْضَيْتُموهُنَّ قبلَ أنْ تُدْرِكوا مثلَهُنَّ: لا يَرْجُوَنَّ عبدٌ إلاَّ ربَّهُ، ولا يَخافَنَّ إلاَّ ذنبَهُ، ولا يَسْتَحي مَن لا يَعْلَمُ أنْ يَتَعَلَّمَ، ولا يَسْتَحي إذا سُئِلَ عمَّا لا يَعْلَمُ أنْ يقولَ: لا أَعْلَمُ[1]، واعْلَموا أنَّ منزلةَ الصَّبرِ مِن الإيمانِ كمنزلةِ الرَّأْسِ مِن الجسدِ، فإذا ذَهَبَ الرَّأْسُ ذَهَبَ الجسدُ، وإذا ذَهَبَ الصَّبرُ ذَهَبَ الإيمانُ.

ومِن كلامِ بعضِ العلماءِ: لا يَنالُ العلمَ مُستحيٍ ولا مستكبرٌ؛ هٰذا يَمْنَعُهُ حياؤُهُ مِن التَّعلُّمِ، وهٰذا يَمْنَعُهُ كبرُهُ.

وإنَّما حُمِدَتْ هٰذهِ الأخلاقُ في طلبِ العلمِ لأنَّها طريقٌ إلى تحصيلِهِ، فكانَتْ مِن

= ورواه: ابن عبدالبرّ في «العلم»، والخطيب في «الجامع» (١٤٣٣)؛ من طريق جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن علي، عن آبائه، عن عليّ... رفعه. وهٰذا واهٍ لأمرين: **أوّلهما**: أنَّ في الطريق إلى جعفر مجاهيل عدّة. **والثاني**: أنّ آباء جعفر وإن كانوا ثقات؛ فإنّ إجمالهم بهٰذه الصورة مشكل؛ فقد يكون الخبر بلاغًا، وقد يكون في السند انقطاع، وقد يتوسّط الأقارب والأصدقاء والموالي بين الولد وأبيه، فمثل هٰذا أحسن أحواله أن يعدّ في المعضلات.

ورواه: ابن حبّان في «المجروحين» (٢/ ٢٨٠)، وابن عديّ (٦/ ٢٢٢٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤٨٦٤ و٦٦٥٦)، والخطيب في «التاريخ» (١٣/ ٢٧٥) و«الجامع» (١٤٣٣)، والديلمي (٧٩٢٢)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢١٩)؛ من طريق عمرو بن الحصين الكلابي، ثنا محمّد بن علاثة، عن الأوزاعي، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة... به مرفوعًا وزاد فيه الحسد. وهٰذا ساقط: ابن الحصين متّهم متروك، وابن علاثة ضعيف أيضًا.

ورواه ابن عديّ (٥/ ١٦٧٠)، وابن الجوزي (١/ ٢١٩)؛ من طريق فهر بن بشر، ثنا عمر بن موسى، عن القاسم، عن أبي أمامة... رفعه بزيادة الحسد. وفهر لا يعرف، وعمر بن موسى كذّاب يضع.

ورواه الديلمي في «الفردوس» (١/ ١٩٨ـ اللآلئ)، من طريق أبي الصباح، عن عبدالعزيز بن سعيد، عن أبيه... رفعه بلفظ: «لا خير في التملّق والتواضع إلاّ ما كان في الله أو في طلب العلم». وهٰذا ساقط من أجل أبي الصباح عبدالغفور بن عبدالعزيز الواسطي؛ فإنّه متروك منكر الحديث.

والحديث ساقط كيف قلّبته، فلا جرم أن عدّه أكثر أهل العلم في الموضوعات أو الأباطيل أو المنكرات كابن حبّان وابن عديّ والبيهقي وابن الجوزي والذهبي والعسقلاني والسيوطي والألباني.

(١) في خ: «لأضلّ بباب أحدهم... يقول الله أعلم»، وفي ط: «... لأفنيتموهنّ قبل...».

كمالِ الرَّجلِ ومفضيةً إلى كمالِهِ.

ومِن كلامِ الحَسَنِ: مَنِ ٱسْتَتَرَ عن طلبِ العلمِ بالحياءِ؛ لَبِسَ للجهلِ[1] سربالَهُ، فقطِّعوا سرابيلَ الحياءِ؛ فإنَّهُ مَن رَقَّ وجهُهُ رَقَّ /خ٢٦٩/ علمُهُ.

وقالَ الخَليلُ: منزلةُ الجهلِ بينَ الحياءِ والأنفةِ.

ومِن كلامِ [أميرِ المؤمنينَ] عَلِيٍّ[2] رَضِيَ اللهُ [تَعالى] عنهُ: قُرِنَتِ الهيبةُ بالخيبةِ والحياءُ بالحرمانِ.

وقالَ إبْراهيمُ لمَنْصورٍ: سَلْ مسألةَ الحمقى، وٱحْفَظْ حفظَ الأكياسِ.

وكذٰلكَ سؤالُ النَّاسِ هوَ عيبٌ ونقصٌ في الرَّجلِ وذلَّةٌ تُنافي المروءةَ؛ إلَّا في العلمِ؛ فإنَّهُ عينُ كمالِهِ ومروءتِهِ وعزِّهِ.

كما قالَ بعضُ أهلِ العلمِ: خيرُ خصالِ الرَّجلِ السُّؤالُ عنِ العلمِ.

وقيلَ: إذا جَلَسْتَ إلى عالمٍ؛ فسَلْ تفقُّهًا لا تعنُّتًا.

وقالَ رُؤْبَةُ بنُ العَجَّاجِ: أَتَيْتُ النَّسَّابةَ البَكْرِيَّ. فقالَ: مَن أنتَ؟ قُلْتُ: أنا ابنُ العَجَّاجِ. قالَ: قَصَّرْتَ وعَرَّفْتَ، لَعَلَّكَ كقومٍ إنْ سَكَتُّ لمْ يَسْألوني وإنْ تكلَّمْتُ لمْ يَعُوا عنِّي! قُلْتُ: أرجو أنْ لا أكونَ كذٰلكَ. قالَ: ما أعداءُ المروءةِ؟ قُلْتُ: تُخْبِرُني[3]. قالَ: بنو عمِّ السُّوءِ؛ إنْ رَأَوْا حسنًا سَتَروهُ، وإنْ رَأَوْا سيِّئًا أذاعوهُ. ثمَّ قالَ: إنَّ للعلمِ آفةً ونكدًا وهُجنةً؛ فآفتُهُ نسيانُهُ، ونكدُهُ الكذبُ فيهِ، وهُجنتُهُ نشرُهُ عندَ غيرِ أهلِهِ.

وأنْشَدَ ابنُ الأعْرابِيِّ:

مـا أقْـرَبَ الأشْيـاءَ حيـنَ يَسـوقُهـا ... قَـدَرٌ وَأبْعَـدَهـا إذا لَـمْ تُقْـدَرِ
فَسَـلِ الفَقيـهَ تكُـنْ فَقيهًـا مِثْلَـهُ ... مَـنْ يَسْـعَ فـي عِلْـمٍ بِـذُلٍّ يُمْهَـرِ
فَتَـدَبَّـرِ العِلْـمَ الَّـذي تُعْنـى بِـهِ[4] ... لا خَيْـرَ فـي عِلْـمٍ بِغَيْـرِ تَـدَبُّـرِ

---

(١) في خ: «بمنزلة الرأس... الطلب بالحياء لبس الجهل»، وفي ط: «... ولا متكبّر...».
(٢) في ط: «فأقطعوا سرابيل... ومن كلام عليّ».
(٣) في خ: «قال نصرت وعرفت لعلك لقوم... لم تعلموا عنّي قلت... تخبروني».
(٤) في ط: «الذي تفتي به»! والتصويب من خ. والتدبّر مطلوب في كلّ الأحوال لا عند الفتوى فقط.

وَلَقَدْ يُجَدُّ المَرْءُ وَهْوَ مُقَصِّرٌ ... وَيَخِيبُ جَدُّ المَرْءِ غَيْرَ مُقَصِّرِ[(١)]

ذَهَبَ الرِّجالُ المُقْتَدى بِفِعالِهِمْ ... وَالمُنْكِرونَ لِكُلِّ أمْرٍ مُنْكَرِ

وَبَقِيتُ في خَلَفٍ يُزَيِّنُ بَعْضُهُمْ ... بَعْضًا لِيَدْفَعَ مُعْوِرٌ عَنْ مُعْوِرِ[(٢)]

* وللعلمِ ستُّ مراتبَ: أوَّلُها: حسنُ السُّؤالِ. الثَّانيةُ: حسنُ الإنصاتِ والاستماعِ. الثَّالثةُ: حسنُ الفهمِ. الرَّابعةُ: الحفظُ. الخامسةُ: التَّعليمُ. السَّادسةُ: وهيَ ثمرتُهُ، وهيَ العملُ بِهِ ومراعاةُ حدودِهِ.

فمِن النَّاسِ مَن يُحْرَمُهُ لعدمِ حسنِ سؤالِهِ: إمَّا لأنَّهُ لا يَسْألُ بحالٍ. أو يَسْألُ عن شيءٍ وغيرُهُ أهمُّ منهُ، كمَن يَسْألُ عن فضولٍ لا يَضُرُّ جهلُهُ بها ويَدَعُ ما لا غنى لهُ /خ٢٧٠/ عن معرفتِهِ، وهٰذهِ حالُ كثيرٍ مِن الجهَّالِ المتعالِمينَ[(٣)].

ومِن النَّاسِ مَن يُحْرَمُهُ لسوءِ إنصاتِهِ، فيَكونُ الكلامُ والمماراةُ آثَرَ عندَهُ وأحبَّ إليهِ مِن الإنصاتِ. وهٰذهِ آفةٌ كامنةٌ في أكثرِ النُّفوسِ الطَّالبةِ للعلمِ، وهيَ تَمْنَعُهُم علمًا كثيرًا ولو كانَ حسنَ الفهمِ.

ذَكَرَ ابنُ عَبْدِالبَرِّ عن بعضِ السَّلفِ أنَّهُ قالَ: مَن كانَ حسنَ الفهمِ رديءَ الاستماعِ؛ لمْ يَقُمْ خيرُهُ بشرِّهِ.

وذَكَرَ عَبْدُاللهِ بنُ أَحْمَدَ في كتابِ «العلل» لهُ؛ قالَ: كانَ عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ يُحِبُّ مماراةَ ابنِ عَبَّاسٍ فكانَ يَخْزِنُ[(٤)] علمَهُ عنهُ، وكانَ عُبَيْدُاللهِ بنُ عَبْدِاللهِ [بنِ عُتْبَةَ] يَلْطُفُ

---

(١) يُجَدّ: يكون محظوظًا. يعني: قد يكدح الرجل ويسعى ويكون حظّه قليلاً، وآخر مقصّر في السعي والعمل محظوظ!

وهٰذا إنّما يكون في المال، وأمّا في العلم؛ فقد تقدّم أنّ «من يَسْعَ في علم بذلّ يمهر»؛ يعني: من سلك طريق العلم وسعى لها سعيها؛ فلا بدّ أن يؤجر ويعطى على قدر جدّه وتحصيله.

(٢) يعني: بقيت في أناس يمدح كلّ منهم الآخر مهما كثرت عيوبه اتّقاء لشرّه ودفعًا لمذمّته وليقابله الممدوح بمدح مثله. وهٰذه والله أحوالنا، وما أكثر ما نفعل هٰذا ونحوه والله يغفر لنا ويتوب علينا.

(٣) في ط: «سؤاله إمّا أنّه... عن فضوله التي لا... المتعلّمين»، وفي خ: «... أهمّ إليه منه كما يسأل...». ثمّ اعلم أنّ هٰذه الآفة لا تقتصر على الجهلة المتعالمين، بل يقع في شباكها كثير من طلبة العلم، ورسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه تزيد هٰذه الظاهرة سوءًا في كثير من الأحيان.

(٤) في خ: «آثر عنده من جنس الاستماع وهٰذه آفة كائنة... وكان يخزن».

لهُ في السُّؤالِ فيَغُزُّهُ بالعلمِ غزًّا(١).

وقالَ ابنُ جُرَيْجٍ: لمْ أَسْتَخْرِجِ العلمَ الذي ٱسْتَخْرَجْتُ مِن عطاءٍ إلاَّ برِفقي بهِ.

وقالَ بعضُ السَّلفِ: إذا جالَسْتَ العالمَ؛ فكُنْ على أنْ تَسْمَعَ أحرصَ منكَ على أنْ تَقولَ.

* وقد قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿إنَّ في ذٰلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أوْ أَلْقى السَّمْعَ وَهُوَ شَهيدٌ﴾ [قٓ: ٣٧].

فتَأَمَّلْ ما تحتَ هٰذهِ الألفاظِ مِن كنوزِ العلمِ، وكيفَ تَفْتَحُ مراعاتُها للعبدِ أبوابَ العلمِ والهدى، وكيفَ يَسْتَغْلِقُ بابُ العلمِ عنهُ مِن إهمالِها وعدمِ مراعاتِها:

فإنَّهُ سبحانَهُ ذَكَرَ أنَّ آياتِهِ [المتلوَّةَ] المسموعةَ والمرئيَّةَ المشهودةَ إنَّما تكونُ تذكرةً لمَن كانَ لهُ قلبٌ. فإنَّ مَن عَدِمَ القلبَ الواعيَ عنِ اللهِ؛ لمْ يَنْتَفِعْ بكلِّ آيةٍ تَمُرُّ عليهِ، ولو مَرَّتْ بهِ كلُّ آيةٍ، ومرورُ الآياتِ عليهِ كطلوعِ الشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ ومرورِها على مَن لا بَصَرَ لهُ. فإذا كانَ لهُ قلبٌ؛ كانَ بمنزلةِ البصيرِ(٢) إذا مَرَّتْ بهِ المرئيَّاتُ؛ فإنَّهُ يَراها.

ولٰكنَّ صاحبَ القلبِ لا يَنْتَفِعُ بقلبِهِ إلاَّ بأمرينِ: أحدُهُما: أنْ يُحْضِرَهُ ويُشْهِدَهُ لِما يُلْقى إليهِ، فإذا كانَ غائبًا عنهُ مسافرًا في الأماني والشَّهواتِ والخيالاتِ؛ لا يَنْتَفِعُ بهِ. فإذا أَحْضَرَهُ وأَشْهَدَهُ؛ لمْ يَنْتَفِعْ إلاَّ بأنْ يُلْقِيَ سمعَهُ ويُصْغِيَ(٣) بكلِّيَّتِهِ إلى ما يُوعَظُ بهِ ويُرْشَدُ إليهِ.

وهاهُنا ثلاثةُ أُمورٍ: أحدُها: سلامةُ القلبِ وصحَّتُهُ وقبولُهُ، الثَّاني: إحضارُهُ وجمعُهُ ومنعُهُ مِن الشُّرودِ والتَّفرُّقِ، الثَّالثُ /خ٢٧١/: إلقاءُ السَّمعِ وإصغاؤُهُ والإقبالُ على الذِّكرِ. فذَكَرَ اللهُ [تَعالى] الأُمورَ الثَّلاثةَ(٤) في هٰذهِ الآيةِ(٥).

---

(١) في خ: «فيغرّه بالعلم غرًّا»! وفي ط: «فيعزّه بالعلم عزًّا»! وكلاهما تصحيف لا معنى له صوابه ما أثبتّه. ومعنى يغزّه بالعلم غزًّا: يختصّه به من بين أصحابه.

(٢) في ط: «وكيف يغلق باب... ذكر عن آياته...»، وفي خ: «... باب العلم عنه... البصر».

(٣) وهٰذا ثاني الأمرين.

(٤) في خ: «يوعظ به إليه ويرشده وهاهنا... الأمور في هٰذه الثلاثة»!

(٥) فإن قلت: إذا كان التأثير يتمّ بمجموع هٰذا؛ فما وجه دخول «أو» في الآية والموضع موضع =

قالَ ابنُ عَطِيَّةَ: القلبُ هُنا عبارةٌ عنِ العقلِ إذْ هوَ محلُّهُ، والمعنى: لمَن كانَ لهُ قلبٌ واعٍ يَنْتَفِعُ بِهِ. قالَ: وقالَ الشِّبْلِيُّ: قلبٌ حاضرٌ معَ اللهِ لا يَغْفُلُ عنهُ طرفةَ عينٍ.

وقولُهُ: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٧]؛ معناهُ: صَرَفَ سمعَهُ إلى هٰذهِ الأنباءِ الواعظةِ وأثْبَتَهُ في سمعِهِ، فذٰلكَ إلقاءٌ لهُ عليها. ومنهُ قولُهُ [تَعالى]: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]؛ أي: أثْبَتُّها عليكَ.

وقولُهُ: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: قالَ بعضُ المتأوِّلينَ: معناهُ: وهوَ شاهدٌ مقبلٌ على الأمرِ غيرُ معرضٍ عنهُ ولا مفكِّرٍ في غيرِ ما يَسْمَعُ. قالَ: وقالَ قَتادَةُ: هيَ إشارةٌ إلى أهلِ الكتابِ. فكأنَّهُ قالَ: إنَّ هٰذهِ العبرَ لتذكرةٌ لمَن لهُ فهمٌ فتَدَبَّرَ الأمرَ، أو لمَن سَمِعَها مِن أهلِ الكتابِ فشَهِدَ بصحَّتِها لعلمِهِ بها مِن كتابِهِ التَّوراةِ وسائرِ كتبِ بني إسرائيلَ. قالَ: فشهيدٌ على التَّأويلِ الأوَّلِ مِن المشاهدةِ [وعلى التَّأويلِ الثَّاني مِن الشَّهادةِ].

وقالَ الزَّجَّاجُ: معنى ﴿مَنْ كانَ [لَهُ] قَلْبٌ﴾: مَن صَرَفَ قلبَهُ إلى التَّفهُّمِ، ألا تَرى أنَّ قولَهُ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أنَّهُم لمْ يَسْتَمِعوا ٱستماعَ مستفهمٍ مسترشدٍ فجُعِلوا بمنزلةِ مَن لمْ يَسْمَعْ، كما قالَ الشَّاعرُ: أَصَمُّ عَمَّا[1] ساءَهُ سميعُ؟ ومعنى ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾: ٱسْتَمَعَ ولمْ يَشْغَلْ قلبَهُ بغيرِ ما يُسْتَمَعُ، والعربُ تَقولُ: ألقِ إليَّ سمعَكَ؛ أي: ٱسْتَمِعْ منِّي. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ أي: قلبُهُ فيما يَسْمَعُ. قالَ: وجاءَ في التَّفسيرِ أنَّهُ يَعْني بِهِ أهلَ الكتابِ الذينَ عندَهُم صفةُ النَّبيِّ ﷺ، [فالمعنى: أو ألقى السَّمعَ وهوَ شهيدٌ أنَّ صفةَ النَّبيِّ ﷺ] في كتابِهِ.

= الواو؟ فالجواب أنّ الآية تشير أيضًا لفئتين من الناس: الألمعيّ الذي يقتنص الفكرة بأدنى إشارة، ومن هو دونه درجة ممّن يحتاج إلى مزيد من الحضور والانتباه.

فهاهنا قولان: أحدهما: أنّ الآية تتناول الأحوال المختلفة لشخص واحد. والآخر: أنّها تتناول نوعين من الناس. وقد تردّد ابن القيّم يرحمه الله بين القولين، فمال هنا إلى القول الأوّل، وسينتهي بعد صفحتين إلى القول الثاني، وكلاهما حسن، والآية تحتملهما معًا، ولا ينقض واحد منهما الآخر. فإن كان لا بدّ من الترجيح؛ فالثاني أرجح؛ لأنّه أولى بظاهر الآية. والله أعلم. وقد فصّل ابن القيّم في هذا في غيرما كتاب، وأنظر إن شئت مزيدًا فيه: «الفوائد» (ص٤١ـ ط. ابن خزيمة)، «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣ـ ط. ابن خزيمة)، «أجتماع الجيوش الإسلاميّة» (ص ٧)، «الوابل الصيّب» (ص٦٥).

(١) في خ: «بصحّتها لعلمها... قال فشهد على... لم يسمعوا آستماع متفهّم... أصمّ أعمى».

وهٰذا هوَ الذي حَكاهُ ابنُ عَطِيَّةَ عن قَتادَةَ وذَكَرَ أنَّ شهيدًا[1] فيهِ بمعنى شاهدٍ؛ أي: مخبرًا.

وقالَ صاحبُ «الكشّافِ»: لمَن كانَ لهُ قلبٌ: واعٍ؛ لأنَّ مَن لا يَعي قلبُهُ فكأنَّهُ لا قلبَ لهُ. وإلقاءُ السَّمعِ: الإصغاءُ. وهوَ شهيدٌ؛ أي: حاضرٌ بفطنتِهِ؛ لأنَّ مَن لا يَحْضُرُ ذهنُهُ فكأنَّهُ غائبٌ، أو هوَ مؤمنٌ شاهدٌ على صحَّتِهِ وأنَّهُ وحيٌ مِن اللهِ، وهوَ بعضُ الشُّهداءِ في قولِهِ [تَعالى]: ﴿لِتكونوا شُهَداءَ عَلى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وعن قَتادَةَ: وهوَ شاهدٌ على صدقِهِ مِن أهلِ الكتابِ لوجودِ نعتِهِ عندَهُ.

فلمْ يُخْتَلَفْ /خ٢٧٢/ في أنَّ المرادَ بالقلبِ القلبُ الواعي.

وأنَّ المرادَ بإلقاءِ السَّمعِ إصغاؤُهُ وإقبالُهُ على الذِّكرِ وتفريغُ سمعِهِ لهُ.

واَخْتُلِفَ في الشَّهيدِ على أربعةِ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّهُ مِن المشاهدةِ، وهيَ الحضورُ، وهٰذا أصحُّ الأقوالِ، ولا يَليقُ بالآيةِ غيرُهُ.

[و]الثَّاني: أنَّهُ شهيدٌ مِن الشَّهادةِ. وفيهِ[2] [على هٰذا] ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: أنَّهُ شاهدٌ على صحَّتِهِ بما معَهُ مِن الإيمانِ. الثَّاني: أنَّهُ شاهدٌ مِن الشُّهداءِ على النَّاسِ يومَ القيامةِ. الثَّالثُ: أنَّهُ شهادةٌ مِن اللهِ عندَهُ[3] على صحَّةِ نبوَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ بما عَلِمَهُ مِن الكتبِ المنزَّلةِ[4].

والصَّوابُ القولُ الأوَّلُ؛ فإنَّ قولَهُ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ، والواوُ فيها واوُ الحالِ؛ أي: ألْقى السَّمعَ في هٰذهِ الحالِ. وهٰذا يَقْتَضي أنْ يَكونَ حالَ إلقائِهِ السَّمعَ شهيدًا، وهٰذا مِن المشاهدةِ والحضورِ.

ولو كانَ المرادُ بهِ الشَّهادةَ في الآخرةِ أو [في] الدُّنيا؛ لَما كانَ لتقييدِها بإلقاءِ

---

(١) في ط: «شاهد سميع...»، وفي خ: «سميع ومعنى آخر ألقى... أنه شهيدًا».

(٢) في ط: «شهيد من المشاهدة وفيه»! وفي خ: «شهيد من المشاهدة فالمعنى أو ألقى السمع وهو شهيد بصفة النبيّ ﷺ وفيه»! وكلاهما تحريف صوابه ما أثبتّه، والزيادة لا لزوم لها لأنّها ستأتي في الثالث.

(٣) كذا في خ وط! ولعلّ صوابه: أنّه عنده من الله شهادة، أو: أنّه من عنده من الله شهادة.

(٤) إلى هنا تكون الأقوال الأربعة تمّت، فالأوّل له فرع، والثاني ثلاثة، والمجموع أربعة.

السَّمعِ معنًى؛ إذ يَصيرُ الكلامُ: إنَّ في ذٰلكَ لآيةً لمَن كانَ لهُ قلبٌ أو أَلْقى السَّمعَ حالَ كونِهِ شاهدًا بما معَهُ في التَّوراةِ أو حالَ كونِهِ شاهدًا[1] يومَ القيامةِ! ولا ريبَ أنَّ هٰذا ليسَ هوَ المرادَ بالآيةِ.

وأيضًا؛ فالآيةُ عامَّةٌ في كلِّ مَن لهُ قلبٌ وألْقى السَّمعَ؛ فكيفَ يُدَّعى تخصيصُها بمؤمني أهلِ الكتابِ الذينَ عندَهُم شهادةٌ مِن كتبِهِم على صفةِ النَّبيِّ ﷺ؟!

وأيضًا؛ فالسُّورةُ مكِّيَّةٌ، والخطابُ فيها لا يَجوزُ أنْ يَخْتَصَّ بأهلِ الكتابِ، ولا سِيَّما مثلِ هٰذا الخطابِ الذي عَلَّقَ فيهِ حصولَ مضمونِ الآيةِ ومقصودِها بالقلبِ الواعي وإلقاءِ السَّمعِ؛ فكيفَ يُقالُ: هيَ في أهلِ الكتابِ؟! فإنْ قيلَ: المختصُّ بهِم قولُهُ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾! فهٰذا أفسدُ وأفسدُ؛ لأنَّ قولَهُ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ يَرْجِعُ الضَّميرُ فيهِ إلى جملةِ مَن تَقَدَّمَ - وهوَ مَن لهُ قلبٌ أو ألْقى السَّمعَ -؛ فكيفَ يُدَّعى عودُهُ إلى شيءٍ غايتُهُ /خ٢٧٣/ أنْ يَكونَ بعضَ المذكورِ أوَّلاً ولا دلالةَ في اللفظِ عليهِ؟!

[وأيضًا؛ فإنَّ المشهودَ بهِ محذوفٌ، ولا دلالةَ في اللفظِ عليهِ]. فلو كانَ المرادُ: وهوَ شاهدٌ بكذا؛ لذَكَرَ[2] المشهودَ بهِ؛ إذ ليسَ في اللفظِ ما يَدُلُّ عليهِ[3]. وهٰذا بخلافِ ما إذا جُعِلَ مِن الشُّهودِ - وهوَ الحضورُ -؛ فإنَّهُ لا يَقْتَضي مفعولاً مشهودًا بهِ فيَتِمُّ الكلامُ بذكرِهِ وحدَهُ.

وأيضًا؛ فإنَّ الآيةَ تَضَمَّنَتْ تقسيمًا وترديدًا بينَ قسمينِ: أحدُهُما: مَن كانَ لهُ قلبٌ. والثَّاني: مَن ألْقى السَّمعَ وحَضَرَ بقلبِهِ ولمْ يَغِبْ، فهوَ حاضرُ القلبِ شاهدُهُ لا غائبُهُ.

وهٰذا - واللهُ أعلمُ - سرُّ الإتيانِ بـ«أو» دونَ الواوِ؛ لأنَّ المنتفعَ بالآياتِ مِن النَّاسِ نوعانِ:

---

(١) في خ: «السمع شهيد وهٰذا هو من المشاهدة... كونه شهيدًا»، وفي ط: «... أو الدنيا...».

(٢) في ط: «المراد به وهو شاهد بكذا لذكره»! وفي خ: «المراد وهو شاهد بكذا الذكر»! وكلاهما تحريف مفسد للمعنى صوابه ما أثبتّه.

(٣) لأنّه لا يصحّ في كلام العرب حذف بعض الكلام إلّا إذا كان في المذكور دلالة عليه. فلو كان زيد وعمرو نائمين، فقلت: زيدٌ نائمٌ وعمرٌو؛ صحّ. فإن كان زيدٌ نائمًا وعمرٌو مستيقظًا، فقلت: زيد نائمٌ وعمرٌو؛ لم يصحّ؛ لأنّه ليس في المذكور ما يدلّ على ٱستيقاظ عمرو. وكذٰلك الحال في هٰذه الآية.

أحدُهُما: ذو القلبِ الواعي الزّكيِّ الذي يَكْتَفي في هدايتِهِ بأدنى تنبيهٍ ولا يَحْتاجُ [إلى] أنْ يَسْتَجْلِبَ قلبَهُ ويُحْضِرَهُ ويَجْمَعَهُ مِن مواضعِ شتاتِهِ، بل قلبُهُ واعٍ زكيٌّ قابلٌ للهدى غيرُ معرضٍ عنهُ. فهٰذا لا يَحْتاجُ إلاَّ إلى وصولِ الهدى إليهِ فقط؛ لكمالِ ٱستعدادِهِ وصحَّةِ فطرتِهِ، فإذا جاءَ الهدى؛ [سارَعَ قلبُهُ إلى قبولِهِ كأنَّهُ كانَ مكتوبًا فيهِ. فهوَ قد أدْرَكَهُ مجملاً، ثمَّ جاءَ الهدى] بتفصيلِ ما شَهِدَ قلبُهُ بصحَّتِهِ مجملاً. وهٰذهِ حالُ أكملِ الخلقِ ٱستجابةً لدعوةِ الرُّسلِ، كما هيَ حالُ الصِّدِّيقِ [الأكبرِ] رَضِيَ اللهُ عنهُ.

[و]**النَّوعُ الثَّاني**: مَن ليسَ لهُ هٰذا الاستعدادُ والقبولُ، فإذا وَرَدَ عليهِ الهدى؛ أصْغى إليهِ سمعَهُ[١] وأحْضَرَ قلبَهُ وجَمَعَ فكرتَهُ عليهِ وعَلِمَ صحَّتَهُ وحسنَهُ بنظرِهِ وٱستدلالِهِ. وهٰذهِ طريقةُ أكثرِ المستجيبينَ، ولهُم نُوِّعَ ضربُ الأمثالِ وإقامةُ الحججِ وذكرُ المعارضاتِ والأجوبةِ عنها.

والأوَّلونَ همُ الذينَ يُدْعَوْنَ بالحكمةِ، وهٰؤلاءِ يُدْعَوْنَ بالموعظةِ الحسنةِ. فهٰؤلاءِ نوعا المستجيبينَ.

وأمَّا المعارضونَ الدَّافعونَ للحقِّ فنوعانِ: نوعٌ يُدْعَوْنَ بالمجادلةِ بالتي هيَ أحسنُ. فإنِ ٱسْتَجابوا، وإلاَّ؛ فالمجالدةُ. فهٰؤلاءِ لا بدَّ لهُم مِن جدالٍ[٢] أو جِلادٍ[٣].

ومَن تأمَّلَ دعوةَ القرآنِ وَجَدَها شاملةً لهٰؤلاءِ الأقسامِ، متناولةً لها كلِّها:

[كما] قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] /خ٢٧٤/. فهٰؤلاءِ المدعوُّونَ بالكلامِ.

وأمَّا أهلُ الجِلادِ؛ فهُمُ الذينَ أمَرَ اللهُ بقتالِهِم حتَّى لا تكونَ فتنةٌ ويَكونَ الدِّينُ كلُّهُ للهِ.

وأمَّا مَن فَسَّرَ الآيةَ: بأنَّ المرادَ بمَن كانَ لهُ قلبٌ: هوَ المستغني بفطرتِهِ عن علمِ

---

(١) في ط: «بهدايته بأدنى تنبيه ولا يحتاج أن... بسمعه»، وفي خ: «... وهٰذا حال أكمل...».

(٢) في ط: «المعارضون المدّعون للحق...»! وفي خ: «... فالمجادلة فهٰؤلاء لا بدّ لهم من الجدال»! وكلاهما تحريف صوابه ما أثبتّه. والمجالدة: القتال.

(٣) فنوعا المعارضين: النوع الذي يقبل الجدال ويستجيب بالتي هي أحسن، والنوع الذي لا ينفع معه الجدال لسبب ما.

المنطقِ، وهوَ المؤيَّدُ بقوَّةٍ[١] قدسيَّةٍ يُنالُ بها الحدُّ الأوسطُ بسرعةٍ[٢]، فهوَ لكمالِ فطرتهِ مستغنٍ عن مراعاةِ أوضاعِ المنطقِ. والمرادُ بمَن ألْقى السَّمعَ وهوَ شهيدٌ: مَن لَيسَتْ لهُ هٰذهِ القوَّةُ؛ فهوَ محتاجٌ إلى تعلُّمِ المنطقِ لتوجبَ لهُ مراعاتُهُ وإصغاؤُهُ إليهِ أنْ لا يَزيغَ في فكرِهِ! وفَسَّرَ قولَهُ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أنَّها القياسُ البرهانيُّ، و﴿ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ القياسُ الخطابيُّ، ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ القياسُ الجدليُّ! فهٰذا ليسَ مِن تفاسيرِ الصَّحابةِ ولا التَّابعينَ ولا أحدٍ مِن أئمَّةِ التَّفسيرِ بل ولا مِن تفاسيرِ المسلمينَ، وهوَ تحريفٌ لكلامِ اللهِ تَعالى وحملٌ لهُ على اصطلاحِ المنطقيَّةِ المبخوسةِ الحظِّ مِن العقلِ والإيمانِ! وهٰذا مِن جنسِ تفاسيرِ القرامطةِ [والباطنيَّةِ] وغلاةِ الإسماعيليَّةِ لِما يُفَسِّرونَهُ مِن القرآنِ ويُنْزِلونَهُ على مذاهبِهِمُ الباطلةِ، [وكذٰلكَ تفسيرِ الجهميَّةِ والمعتزلةِ والرَّافضةِ للآياتِ التي يُنْزِلونَها على أقوالِهِمُ الباطلةِ]. والقرآنُ بريءٌ مِن ذٰلكَ كلِّهِ منزَّهٌ عن هٰذهِ الأباطيلِ والهذياناتِ[٣].

وقد ذَكَرْنا بطلانَ ما فَسَّرَ بهِ المنطقيُّونَ هٰذهِ الآيةَ التي نحنُ فيها والآيةَ الأُخرى في مواضعَ أُخرَ[٤] مِن وجوهٍ متعدِّدةٍ، وبيَّنَّا بطلانَهُ عقلاً وشرعًا ولغةً وعرفًا، وأنَّهُ يَتَعالى كلامُ اللهِ عن حملِهِ على ذٰلكَ[٥]. وباللهِ التَّوفيقُ.

* والمقصودُ بيانُ حرمانِ العلمِ مِن هٰذهِ الوجوهِ السِّتَّةِ:

أحدُها: تركُ السُّؤالِ.

الثَّاني: [سوءُ] الإنصاتِ وعدمُ إلقاءِ السَّمعِ.

---

(١) في خ: «فهم الذين آمنوا لله بقتالهم. . . وهو المريد بقوّة»! والتصويب من ط.

(٢) فهٰذا العالم المزعوم يسمع المقدّمات فينتقل منها مباشرة إلى النتائج ولا يحتاج إلى توسّط المحاكمة العقليّة المنطقيّة بين المقدّمات والنتائج والانتقال من المقدّمة إلى الحدّ الأوسط ثمّ إلى النتيجة.

(٣) القدر المذكور هنا من تفسير أهل المنطق للآية قريب جدًّا من تفسير ابن القيّم لها بعيد عن مذاهب الجهميّة والرافضة والباطنية في تحريف الآيات وحملها على أوجه عجيبة مغرقة في الضلال، لٰكن يبدو أنّ للقوم منهجًا يشبه منهج أولٰئك في تحريف الآيات وتحويرها وأنّ وراء الأكمة ما وراءها ممّا رآه ابن القيّم أو عرفه ولم نعرفه نحن، ولذٰلك سدّ قدّس الله روحه عنّا باب هٰذه الضلالة وأتى على بنيانها من القواعد.

(٤) في ط: «وهٰذه من جنس تفاسير. . . مذاهبهم الباطلة والقرآن. . . موضع آخر».

(٥) لم أقف عليه، فلعلّه فيما ضاع من آثاره يرحمه الله.

الثَّالثُ: سوءُ الفهمِ.

الرَّابعُ: عدمُ الحفظِ.

الخامسُ: عدمُ نشرِهِ وتعليمِهِ؛ فإنَّ مَن خَزَنَ علمَهُ ولمْ يُعَلِّمْهُ ولمْ يَنْشُرْهُ؛ ٱبْتَلاهُ اللهُ بنسيانِهِ وذهابِهِ منهُ جزاءً مِن جنسِ عملِهِ. وهٰذا أمرٌ يَشْهَدُ بِه الحسُّ والوجودُ.

/خ٢٧٥/ **السَّادسُ**: عدمُ العملِ بِهِ؛ فإنَّ العملَ بِهِ يُوجِبُ تذكُّرَهُ وتدبُّرَهُ ومراعاتَهُ والنَّظرَ فيهِ، فإذا أهْمَلَ العملَ بِهِ؛ نَسِيَهُ.

قالَ بعضُ السَّلفِ: كنَّا نَسْتَعينُ على حفظِ العلمِ بالعملِ بِهِ.

وقالَ بعضُ السَّلفِ أيضًا: العلمُ يَهْتِفُ بالعملِ، فإنْ أجابَهُ [حَلَّ] وإلاَّ ٱرْتَحَلَ.

فالعملُ بِهِ مِن أعظمِ أسبابِ حفظِهِ وثباتِهِ، وتركُ العملِ بِهِ إضاعةٌ لهُ. فما ٱسْتُدِرَّ العلمُ و[لا] ٱسْتُجْلِبَ بمثلِ العملِ [بِهِ].

قالَ(١) [اللهُ] تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا ٱتَّقوا اللهَ وَآمِنوا بِرَسولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نورًا تَمْشونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

وأمَّا قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ فليسَ مِن هٰذا البابِ، بل هُما جملتانِ مستقلَّتانِ: طلبيَّةٌ، وهيَ الأمرُ بالتَّقوى. وخبريَّةٌ، وهيَ قولُهُ [تَعالى]: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾؛ أي: [واللهُ يُعَلِّمُكُمْ] ما تَتَّقونَ، وليستْ جوابًا للأمرِ [بالتَّقوى]، ولو أُريدَ بها الجزاءُ؛ لأُتِيَ بها مجزومةً مجرَّدةً عنِ الواوِ، فكانَ يُقالُ(٢): [فٱتَّقوا] اللهُ يُعَلِّمْكُم، أو: إنْ تَتَّقوهُ يُعَلِّمْكُم، كما قالَ: ﴿إِنْ تَتَّقوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. فتَدَبَّرْهُ.

● **الوجهُ الرَّابعُ والأربعونَ بعدَ المئةِ**: أنَّ اللهَ سبحانَهُ نَفى التَّسويةَ بينَ [العالِمِ وغيرِهِ [الزمر: ٩] كما نَفى التَّسويةَ: بينَ] الخبيثِ والطَّيِّبِ [المائدة: ١٠٠]، وبينَ الأعمى والبصيرِ [فاطر: ١٩]، وبينَ النُّورِ والظُّلمةِ [فاطر: ٢٠]، وبينَ الظِّلِّ والحرورِ [فاطر: ٢١]، وبينَ أصحابِ الجنَّةِ وأصحابِ النَّارِ [الحشر: ٢٠]، وبينَ الأبكمِ العاجزِ

---

(١) في خ: «حفظ طلب العلم... وثباته وتضييع العمل...»، وفي ط: «... العمل قال».

(٢) في خ: «وهو الأمر... وهو قوله...»! وفي ط: «... أي ما تتّقون... فكان يقول».

الذي لا يَقْدِرُ على شيءٍ ومَن يَأْمُرُ بالعدلِ وهوَ على صراطٍ مستقيمٍ [النحل: ٧٦]، وبينَ المؤمنِ والكافرِ[1][السجدة: ٢٨]، وبينَ الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ والمفسدينَ في الأرضِ [صَ: ٢٨]، وبينَ المتَّقينَ والفجَّارِ [صَ: ٢٨]. فهٰذِهِ عشرةُ مواضعَ في القرآنِ نَفى فيها التَّسويةَ بينَ هٰؤلاءِ الأصنافِ. وهٰذا يَدُلُّ على أنَّ منزلةَ العالِمِ مِن الجاهلِ كمنزلةِ النُّورِ مِن الظُّلمةِ والظِّلِّ مِن الحَر[ورِ] والطَّيِّبِ مِن الخبيثِ... ومنزلةُ كلٍّ واحدٍ مِن هٰذهِ الأصنافِ معَ مقابِلِهِ. وهٰذا كافٍ في شرفِ العلمِ وأهلِهِ.

بل إذا تأمَّلْتَ هٰذهِ الأصنافَ كلَّها؛ وَجَدْتَ نفيَ التَّسويةِ بينَها راجعًا إلى العلمِ وموجَبِهِ، فبِهِ وَقَعَ التَّفضيلُ وٱنْتَفَتِ[2] المساواةُ.

● **الوجهُ الخامسُ والأربعونَ بعدَ المئةِ:** أنَّ سُلَيْمانَ [عليهِ الصَّلاةُ /خ٢٧٦/ والسَّلامُ] لمَّا تَوَعَّدَ الهدهدَ بأنْ يُعَذِّبَهُ عذابًا شديدًا أو يَذْبَحَهُ إنَّما نَجا منهُ بالعلمِ.

وأَقْدَمَ عليهِ في خطابِهِ لهُ بقولِهِ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢]، وهٰذا الخطابُ إنَّما جَرَّأَهُ عليهِ العلمُ، وإلاَّ؛ فالهدهدُ معَ ضعفِهِ لا يَتَمَكَّنُ في خطابِهِ لسُلَيْمانَ معَ قوَّتِهِ بمثلِ هٰذا الخطابِ لولا سلطانُ العلمِ.

ومِن هٰذا الحكايةُ المشهورةُ؛ أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ سُئِلَ عن مسألةٍ؟ فقالَ: لا أَعْلَمُها. فقالَ أحدُ تلاميذِهِ[3]: أنا أَعْلَمُ هٰذهِ المسألةَ. فغَضِبَ الأستاذُ وهَمَّ بهِ. فقالَ لهُ: أيُّها الأُستاذُ! لستَ أعلمَ مِن سُلَيْمانَ بنِ داوودَ ولو بَلَغْتَ في العلمِ ما بَلَغْتَ، ولستُ أنا أجهلَ مِن الهدهدِ، وقد قالَ [لسُلَيْمانَ]: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾. فلمْ يَعْتَبْ عليهِ ولمْ يُعَنِّفْهُ.

● **الوجهُ السَّادسُ والأربعونَ بعدَ المئةِ:** أنَّ مَن نالَ شيئًا مِن شرفِ الدُّنيا والآخرةِ؛ فإنَّما نالَهُ بالعلمِ.

وتأمَّلْ ما حَصَلَ لآدَمَ مِن تميُّزِهِ على الملائكةِ وٱعترافِهِم لهُ بتعليمِ اللهِ لهُ الأسماءَ

---

(١) في خ: «وإن تتقوه... وبين من يأمر...»، وفي ط: «... وبين المؤمنين والكفّار».

(٢) في خ وط: «فيه...»، وفي خ: «فيه وقع التفضيل وأنبعث».

(٣) في خ: «أو يذبحنّه... بقول أحطت... لولا لمسك سلطان...»! وفي ط: «... تلامذته».

كلِّها، ثمَّ ما حَصَلَ لهُ مِن تدارُكِ المصيبةِ والتَّعويضِ عن سكنى الجنَّةِ بما هوَ خيرٌ لهُ منها بعلمِ الكلماتِ التي[(١)] تَلَقَّاها مِن ربِّهِ.

وما حَصَلَ ليوسُفَ مِن التَّمكينِ في الأرضِ والعزَّةِ والعظمةِ بعلمِهِ بعبارةِ تلكَ الرُّؤيا[(٢)]، ثمَّ علمِهِ بوجهِ ٱستخراجِ أخيهِ مِن إخوتِهِ بما يُقِرُّونَ بهِ ويَحْكُمونَ هُم بهِ، حتَّى آلَ الأمرُ إلى ما آلَ إليهِ مِن العزِّ والعاقبةِ الحميدةِ وكمالِ الحالِ التي تَوَصَّلَ إليها بالعلمِ، كما أشارَ إليهِ سبحانَهُ في قولِهِ: ﴿كَذٰلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أخاهُ في دينِ المَلِكِ إلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَن نَشاءُ [وَفَوْقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عَليمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]؛ جاءَ في تفسيرِها: نَرْفَعُ درجاتٍ مَن نَشاءُ] بالعلمِ كما رَفَعْنا درجةَ يوسفَ على إخوتِهِ بالعلمِ.

وقالَ في إبراهيمَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

فهٰذا رَفعَهُ[(٣)] بعلمِ الحجَّةِ، والأوَّلُ [رَفعَهُ] بعلمِ السِّياسةِ.

وكذٰلكَ ما حَصَلَ للخَضِرِ بسببِ علمِهِ مِن تلمذةِ كليمِ الرَّحْمٰنِ لهُ وتلطُّفِهِ معَهُ في السُّؤالِ حتَّى قالَ: ﴿هَلْ أتَّبِعُكَ عَلى أنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] /خ٢٧٧/.

وكذٰلكَ ما حَصَلَ لسُلَيْمانَ مِن علمِ منطقِ الطَّيرِ حتَّى وَصَلَ إلى ملكِ سَبَإٍ وقَهَرَ ملكتَهُم وٱحْتَوى على سريرِ ملكِها ودخولِها تحتَ طاعتِهِ، ولذٰلكَ قالَ: ﴿يا أيُّها النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إنَّ هٰذا لَهُوَ الفَضْلُ المُبينُ﴾ [النمل: ١٦].

وكذٰلكَ ما حَصَلَ لداوودَ مِن علمِ نَسْجِ الدُّروعِ مِن الوقايةِ مِن سلاحِ[(٤)] الأعداءِ، وعَدَّى سبحانَهُ[(٥)] هٰذهِ النِّعمةَ بهٰذا العلمِ على عبادِهِ فقالَ: ﴿وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبوسٍ لَكُمْ

---

(١) في خ: «والآخرة إنّما... الجنّة ما هو... الذي»، وفي ط: «... لآدم من تمييزه...».

(٢) عبارة الرؤيا: تفسيرها. والمراد عبارة رؤيا الملك للبقرات والسنبلات.

(٣) في ط: «بوجوه ٱستخراج... فهٰذه رفعة»، وفي خ: «... أشار إليها سبحانه...».

(٤) في خ: «ودخولهم تحت طاعته وكذٰلك... الدرع من الوقاية من السلاح»! والتصويب من ط.

(٥) في خ وط: «وعدّد سبحانه»! وكلاهما تحريف صوابه ما أثبتّه. والمراد أنّ الله سبحانه وتعالى قال «لتحصنكم» ولم يقل «لتحصنه»، فجعل نعمة هٰذا العلم عامّة متعدّية إلى جميع البشر.

لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وكذٰلكَ ما حَصَلَ للمسيح [عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ] مِن علمِ الكتابِ والحكمةِ والتَّوراةِ والإنجيلِ ممَّا[1] رَفَعَهُ اللهُ بهِ [إليهِ] وفضَّلَهُ وكَرَّمَهُ.

وكذٰلكَ ما حَصَلَ لسيِّدِ ولدِ آدمَ [ﷺ] مِن العلمِ الذي ذَكَّرَهُ اللهُ بهِ نعمَهُ عليهِ، فقالَ: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

● **الوجهُ السَّابعُ والأربعونَ بعدَ المئةِ**: أنَّ اللهَ سبحانَهُ أثْنى على إبْراهيمَ خليلِهِ بقولِهِ [تَعالى]: ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتًا للهِ حَنيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكينَ . شاكِرًا لأنْعُمِهِ اجْتَباهُ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١]. فهٰذهِ أربعةُ أنواعٍ مِن الثَّناءِ:

افْتَتَحَها بأنَّهُ أُمَّةٌ. والأُمَّةُ هوَ القدوةُ الذي يُؤْتَمُّ بهِ. قالَ ابنُ مَسْعودٍ: والأُمَّةُ المعلِّمُ للخيرِ. وهيَ فُعْلَةٌ مِن الائتمامِ كقدوةٍ، وهوَ الذي يُقْتَدى بهِ.

والفرقُ بينَ الأُمَّةِ والإمامِ مِن وجهينِ:

أحدُهُما: أنَّ الإمامَ كلُّ ما يُؤْتَمُّ بهِ، سواءٌ كانَ بقصدِهِ وشعورِهِ أوْ لا. ومنهُ سُمِّيَ الطَّريقُ إمامًا، كقولِهِ تَعالى: ﴿وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩]؛ أي: بطريقٍ واضحٍ لا يَخْفى على السَّالكِ. ولا يُسَمَّى الطَّريقُ أُمَّةً.

الثَّاني: أنَّ الأُمَّةَ فيهِ زيادةُ معنًى، وهوَ الذي جَمَعَ صفاتِ الكمالِ مِن العلمِ والعملِ بحيثُ بَقِيَ فيها فردًا[2] وحدَهُ، فهوَ الجامعُ لخصالٍ تَفَرَّقَتْ في غيرِهِ، فكأنَّهُ بايَنَ غيرَهُ باجتماعِها فيهِ وتفرُّقِها أو عدمِها في غيرِهِ. ولفظُ [الأُمَّةِ يُشْعِرُ بهٰذا المعنى؛ لِما فيهِ مِن الميمِ المضعَّفةِ الدَّالَّةِ على الضَّمِّ بمخرجِها وتكريرِها، وكذٰلكَ] ضمُّ أوَّلِهِ؛ فإنَّ الضَّمَّةَ مِن الواوِ ومخرجُها يَنْضَمُّ عندَ النُّطقِ بها، وأتى بالتَّاءِ الدَّالَّةِ على الوحدةِ كالغرفةِ /خ٢٧٨/ واللقمةِ. ومنهُ الحديثُ: «إنَّ زَيْدَ بنَ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ يُبْعَثُ يومَ القيامةِ أُمَّةً

(١) في خ وط: «ما»! والصواب ما أثبته.
(٢) في ط: «ولم يكن من...»! وفي خ: «... وشعوره أم... واضح ولا يخفى... مفردًا».

وحدَهُ»[١]. فالضَّمُّ والاجتماعُ لازمٌ لمعنى الأُمَّةِ، ومنهُ سُمِّيَتِ الأُمَّةُ التي هيَ آحادُ الأُممِ؛ لأنَّهمُ النَّاسُ المجتمعونَ على دينٍ واحدٍ أو في عصرٍ واحدٍ.

الثَّاني: قولُهُ [تَعالى]: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾. قالَ ابنُ مَسْعودٍ: القانتُ المطيعُ. والقنوتُ يُفَسَّرُ بأشياءَ كلُّها تَرْجِعُ إلى دوامِ الطَّاعةِ.

الثَّالثُ: قولُهُ: ﴿حَنِيفًا﴾. والحنيفُ المقبلُ على اللهِ [تَعالى]. ويَلْزَمُ هٰذا المعنى ميلُهُ عمَّا سواهُ، فالميلُ لازمُ معنى الحَنَفِ لا أنَّهُ موضوعُهُ لغةً.

الرَّابعُ: قولُهُ ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾. والشُّكرُ للنِّعمِ مبنيٌّ على ثلاثةِ أركانٍ: الإقرارُ بالنِّعمةِ، وإضافتُها إلى المنعِمِ بها، وصرفُها في مرضاتِهِ والعملُ فيها بما يُحِبُّ. فلا يكونُ العبدُ شاكرًا إلَّا بهٰذهِ الأشياءِ الثَّلاثةِ.

والمقصودُ أنَّهُ مَدَحَ خليلَهُ بأربعِ صفاتٍ كلُّها تَرْجِعُ إلى العلمِ والعملِ بموجَبِهِ

---

(١) (صحيح). وقد جاء عن جماعة من الصحابة:

* فرواه: ابن سعد (٣/ ٢٠٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٧٧٠)، وأبو يعلى (٢٠٤٧)؛ من طريق مجالد، عن الشعبيّ، [عن جابر]... رفعه. قال الهيثمي (٩/ ٤١٩): «فيه مجالد، وهٰذا ممّا يمدح من حديث مجالد، وبقيّة رجاله رجال الصحيح». قلت: مجالد ليّن، وقد اضطرب فيه وصلاً وإرسالاً، فالسند ضعيف.

* ورواه: النسائي في «السنن الكبرى» (٨١٨٨)، وأبو يعلى (٧٢١٢)، والطبراني (٥/ ٨٦/ ٤٦٦٣ و٤٦٦٤)، والحاكم (٣/ ٢١٦)، والمزّي في «التهذيب» (١٠/ ٣٨)؛ من طريق قويّة، عن محمّد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة بن عبدالرحمٰن ويحيى بن عبدالرحمٰن بن حاطب، عن أسامة بن زيد... رفعه. قال الهيثمي (٩/ ٤٢١): «رجال الصحيح، غير محمّد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث».

* ورواه: الطيالسي (٢٣٤)، وأحمد (١/ ١٨٩)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٧٧٤ و٧٧٥)، والبزّار (١٢٦٨)، وأبو يعلى (٩٧٣)، والشاشي (٢٢٧)، والطبراني (١/ ١٥١/ ٣٥٠)، والحاكم (٣/ ٤٣٩ و٤٤٠)، وأبو نعيم في «المعرفة» (٥٦٨)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٣)، والضياء في «المختارة» (٣/ ٣٠٧/ ١١١٠-١١١٢)؛ من طرق ثلاثة، عن سعيد بن زيد... رفعه. قال الهيثمي (٩/ ٤٢٠) في طريق أبي يعلى: «إسناده حسن». قلت: والطريقان الأخريان ضعيفتان، والحديث صحيح بمجموع طرقه الثلاثة.

* ورواه: ابن أبي عاصم في «الآحاد» (٧٧١)، والنسائي في «الكبرى» (٨١٨٧)، والمحاملي في «الأمالي» (١٢)؛ من طريقين قويّتين، عن أبي أسامة حمّاد بن أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، [عن أسماء]... مرفوعًا. وهٰؤلاء ثقات رجال الشيخين، لٰكن اختلفوا في إحدى الطريقين وصلاً وإرسالاً، ولا ضير، فالحكم للوصل؛ لأنّه زيادة ثقة تابعته عليها الطريق الثانية بلا خلاف.

وجملة القول أنّ للحديث مخارج عدّة قويّة، وبعضها صحيح لذاته، فالحديث بمجموعها صحيح بلا ريب، وقد قوّاه المقدسي والهيثمي والعسقلاني وشاكر والألباني.

وتعليمِهِ ونشرِهِ، فعادَ الكمالُ كلُّهُ إلى العلمِ والعملِ بموجَبِهِ ودعوةِ الخلقِ إليهِ.

● **الوجهُ الثَّامنُ والأربعونَ بعدَ المئةِ**: قولُهُ سبحانَهُ عنِ المسيحِ إنَّهُ قالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الكِتابَ وَجَعَلَني نَبِيًّا . وَجَعَلَني مُبارَكًا أَيْنَما كُنْتُ﴾ [مريم: ٣٠-٣١]: قالَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ: ﴿جَعَلَني مُبارَكًا أَيْنَما كُنْتُ﴾؛ قالَ: معلِّمًا للخيرِ. وهٰذا يَدُلُّ على أنَّ تعليمَهُ[1] الرَّجلَ الخيرَ هوَ البركةُ التي جعَلَها اللهُ فيهِ؛ فإنَّ البركةَ حصولُ الخيرِ ونماؤُهُ ودوامُهُ، وهٰذا في الحقيقةِ ليسَ إلاَّ في العلمِ الموروثِ عنِ الأنبياءِ وتعليمِهِ. ولهٰذا سَمَّى سبحانَهُ كتابَهُ مباركًا: قالَ تَعالى: ﴿وَهٰذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقالَ: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ﴾ [صٓ: ٢٩]. ووَصَفَ رسولَهُ بأنَّهُ مباركٌ، كما في قولِ المسيحِ: ﴿وَجَعَلَني مُبارَكًا أَيْنَما كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١]. فبركةُ كتابِهِ ورسولِهِ هيَ سببُ ما يَحْصُلُ بهِما مِنَ العلمِ والهُدى والدَّعوةِ إلى اللهِ.

● **الوجهُ التَّاسعُ والأربعونَ بعدَ المئةِ**: ما في «الصَّحيحِ»: عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ، عنِ [النَّبيِّ] ﷺ[2]، أنَّهُ قالَ: «إذا ماتَ ٱبنُ آدَمَ؛ ٱنْقَطَعَ عملُهُ إلاَّ مِن ثلاثٍ /خ٢٧٩/: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنْتَفَعُ بهِ، أو ولدٍ صالحٍ يَدْعو لهُ». رواهُ مسلمٌ في «صحيحِهِ»[3].

وهٰذا مِن أعظمِ الأدلَّةِ على شرفِ العلمِ وفضلِهِ وعظمِ ثمرتِهِ؛ فإنَّ ثوابَهُ يَصِلُ إلى الرَّجلِ بعدَ موتِهِ ما دامَ يُنْتَفَعُ بهِ وكأنَّهُ حيٌّ لَمْ يَنْقَطِعْ عملُهُ، معَ ما لهُ مِن حياةِ الذِّكرِ والثَّناءِ. فجريانُ أجرِهِ عليهِ إذا ٱنْقَطَعَ عنِ النَّاسِ ثوابُ أعمالِهِم حياةٌ ثانيةٌ.

وخَصَّ النَّبيُّ ﷺ هٰذهِ الأشياءَ الثَّلاثةَ بوصولِ الثَّوابِ منها إلى الميِّتِ لأنَّهُ سببٌ في حصولِها[4]، والعبدُ إذا باشَرَ السَّببَ الذي يَتَعَلَّقُ بهِ الأمرُ والنَّهيُ؛ يَتَرَتَّبُ عليهِ مُسَبَّبُهُ وإنْ كانَ خارجًا عن سعيِهِ وكسبِهِ، فلمَّا كانَ هوَ السَّببَ في حصولِ [هٰذا] الولدِ الصَّالحِ

---

(١) في ط: «الحنيف لا أنّه. . . تعليم»، وفي خ: «الحنف لأنّه. . . الأصناف الثلاثة. . .».
(٢) في خ: «سبحانه سمّى كتابه مبارك. . .»، وفي ط: «. . . مباركًا كما قال. . . عن ﷺ».
(٣) (٢٥ـ الوصيّة، ٣ـ ما يلحق الإنسان، ٣/ ١٢٥٥/ ١٦٣١)، وفي ط: «الصحيح».
(٤) في خ: «يصل إليه بعد موته. . .»، وفي ط: «. . . فكأنّه حيّ. . . سبب لحصولها».

والصَّدقةِ الجاريةِ والعلمِ النَّافعِ؛ جَرى عليهِ ثوابُهُ وأجرُهُ لتسبُّبِهِ فيهِ. فالعبدُ إنَّما يُثابُ على ما باشَرَهُ أو [على] ما[1] تَوَلَّدَ منهُ.

وقد ذَكَرَ تَعالى هٰذينِ الأصلينِ في كتابِهِ في سورةِ براءةَ: فقالَ [١٢٠]: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ في سَبيلِ اللهِ وَلا يَطَؤونَ مَوْطِئًا يَغيظُ الكُفَّارَ وَلا يَنالونَ مِن عَدُوٍّ نَيْلاً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالحٌ إنَّ اللهَ لا يُضيعُ أَجْرَ المُحْسِنينَ﴾: فهٰذِهِ الأُمورُ كلُّها متولِّداتٌ عن أفعالِهِم غيرُ مقدورةٍ لهُم، وإنَّما المقدورُ لهُم أسبابُها التي باشَروها. ثمَّ قالَ [١٢١]: ﴿وَلا يُنْفِقونَ نَفَقَةً صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً وَلا يَقْطَعونَ وادِيًا إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما كانوا يَعْمَلونَ﴾: فالنَّفقةُ وقطعُ الوادي أفعالٌ مقدورةٌ لهُم.

وقالَ في القسمِ الأوَّلِ: ﴿كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالحٌ﴾: لأنَّ المتولِّدَ حاصلٌ عن شيئينِ؛ أفعالِهِم وغيرِها، فليسَتْ أفعالُهُم سببًا مستقلاًّ في حصولِ المتولِّدِ، بل هيَ جزءٌ مِن أجزاءِ السَّببِ، فيُكْتَبُ لهُم [مِن ذٰلكَ] ما كانَ مقابلاً لأفعالِهِم. وأيضًا؛ فإنَّ الظَّمأَ والنَّصبَ وغيظَ العدوِّ ليسَ مِن أفعالِهِم، فلا يُكْتَبُ لهُم نفسُهُ، ولٰكنْ لمَّا تَوَلَّدَ عن أفعالِهِم؛ كُتِبَ لهُم بهِ عملٌ صالحٌ.

وأمَّا القسمُ الآخرُ ـ وهوَ الأفعالُ المقدورةُ نفسُها كالإنفاقِ وقطعِ الوادي ـ؛ فهوَ عملٌ صالحٌ، فيُكْتَبُ لهُم نفسُهُ؛ إذْ هوَ مقدورٌ لهُم حاصلٌ بإرادتِهِم وقدرتِهِم.

فعادَ الثَّوابُ /خ٢٨٠/ إلى الأسبابِ المقدورةِ والمتولِّدِ عنها. وباللهِ التَّوفيقُ.

● **الوجهُ الخمسونَ بعدَ المئةِ**: ما ذَكَرَهُ ابنُ عَبْدِالبَرِّ عن عَبْدِاللهِ بنِ داوودَ؛ قالَ: إذا كانَ يومُ القيامةِ؛ عَزَلَ اللهُ سبحانَهُ [وتَعالى] العلماءَ عنِ الحسابِ، فيَقولُ: ادْخُلوا الجنَّةَ على ما [كانَ] فيكُم، إنِّي لمْ أَجْعَلْ علمي فيكُم إلاَّ لخيرٍ أَرَدْتُهُ بكُم.

قالَ ابنُ عَبْدِالبَرِّ: وزادَ غيرُهُ في هٰذا الخبرِ: إنَّ اللهَ يَحْبِسُ العلماءَ يومَ [القيامةِ] في زمرةٍ واحدةٍ حتَّى يَقْضِيَ بينَ النَّاسِ ويُدْخِلَ أهلَ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلَ النَّارِ النَّارَ، ثمَّ

---

(١) في خ: «يترتَّب عليه سببه... والعمل النافع... على مباشرة أو ما».

يَدْعو العلماءَ فيَقولُ: يا معشرَ العلماءِ! إنِّي لمْ أضَعْ حكمتي فيكُم وأنا أُريدُ [أنْ] أُعَذِّبَكُم، قد عَلِمْتُ أنَّكُم تَخْلِطونَ مِن المعاصي ما يَخْلِطُ غيرُكُم فسَتَرْتُها عليكُم وغَفَرْتُها لكُم، وإنَّما كُنْتُ أُعْبَدُ بفتياكُم وتعليمِكُم [عبادي]، اُدْخُلوا الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ. ثمَّ قالَ: لا مُعطيَ لِما مَنَعَ اللهُ ولا مانعَ لِما أعْطى [اللهُ].

[قالَ: ورُوِيَ نحوُ هٰذا المعنى بإسنادٍ متَّصلٍ مرفوعٍ[1]].

وقد رَوَى حَرْبٌ الكِرْمانيُّ في «مسائِلِه» نحوَهُ مرفوعًا[2].

وقالَ إبْراهيمُ: بَلَغَني أنَّهُ إذا كانَ يومُ القيامةِ؛ تُوضَعُ حسناتُ الرَّجلِ في كِفَّةٍ وسيِّئاتُهُ في الكِفَّةِ الأُخرى، فتَشيلُ حسناتُهُ. فإذا يَئِسَ وظَنَّ أنَّها النَّارُ؛ جاءَ شيءٌ مثلُ السَّحابِ حتَّى يَقَعَ معَ حسناتِهِ، فتَشيلُ سيِّئاتُهُ. قالَ[3]: فيُقالُ لهُ: أتَعْرِفُ هٰذا مِن عملِكَ؟ فيَقولُ: لا. فيُقالُ: هٰذا ما عَلَّمْتَ النَّاسَ مِن الخيرِ فعُمِلَ بهِ مِن بعدِكَ.

فإنْ قيلَ: فقواعدُ الشَّرعِ تَقْتَضي أنْ يُسامَحَ الجاهلُ بـ[ـما] لا يُسامَحُ بهِ العالمُ وأنَّهُ يُغْفَرُ لهُ ما لا يُغْفَرُ للعالمِ؛ فإنَّ حجَّةَ اللهِ عليهِ أقومُ منها على الجاهلِ، وعلمُهُ بقبحِ المعصيةِ وبغضِ اللهِ لها [وعقوبتِهِ عليها أعظمُ مِن علمِ الجاهلِ، ونعمةُ اللهِ عليهِ بما أوْدَعَهُ مِن العلمِ أعظمُ مِن نعمتِهِ على الجاهلِ]. وقد دَلَّتِ الشَّريعةُ وحكمُ اللهِ على أنَّ: مَن حُبِيَ بالإنعامِ وخُصَّ بالفضلِ والإكرامِ، ثمَّ أسامَ نفسَهُ معَ هملِ الشَّهواتِ، فأرْتَعَها في مراتعِ الهلكاتِ، وتَجَرَّأَ على انتهاكِ المحرَّماتِ[4]، واسْتَخَفَّ بالتَّبعاتِ والسَّيِّئاتِ؛ أنَّهُ يُقابَلُ مِن الانتقامِ والعَتْبِ بما لا يُقابَلُ بهِ مَن ليسَ [هوَ] في مرتبتِهِ.

وعلى هٰذا جاءَ قولُهُ تَعالى: ﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَها العَذابُ ضِعْفَيْنِ /خ٢٨١/ وَكانَ ذٰلِكَ عَلى اللهِ يَسيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠]. ولهٰذا كانَ حدُّ الحرِّ ضعفي حدِّ العبدِ في الزِّنى والقذفِ وشربِ الخمرِ؛ لكمالِ النِّعمةِ على

---

(١) (ضعيف جدًّا). تقدّم تفصيل القول في طرقه (١/ ٣٤٣).

(٢) (ضعيف جدًّا). تقدّم تفصيل القول في طرقه (١/ ٣٤٣).

(٣) في خ: «وسيّئاته في كفّة فتسيل سيّئاته فإذا يئس... حسناته فتسيل حسناته قال»! والتصويب من ط و«جامع بيان العلم» (١/ ٥٥).

(٤) في خ: «به العالم والله يغفر...»، وفي ط: «... مع ميل الشهوات... الحرمات».

الحرّ.

وممَّا يَدُلُّ على هٰذا الحديثُ المشهورُ الذي ثَبَّتَهُ أبو نُعَيْم وغيرُهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ أنَّهُ قالَ: «أشدُّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامةِ عالمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بعلمِهِ»(١).

وقالَ بعضُ السَّلفِ: يُغْفَرُ للجاهلِ سبعونَ ذنبًا قبلَ أنْ يُغْفَرَ للعالِمِ ذنبٌ [واحدٌ].

وقالَ بعضُهُم أيضًا: إنَّ اللهَ [تعالى] يُعافي الجهَّالَ ما لا يُعافي العلماءَ.

فالجوابُ: أنَّ هٰذا الذي ذَكَرْتُموهُ حقٌّ لا ريبَ فيهِ، ولٰكنَّ مِن قواعدِ الشَّرعِ والحكمةِ أيضًا أنَّ مَن كَثُرَتْ حسناتُهُ وعَظُمَتْ وكانَ لهُ في الإسلامِ تأثيرٌ ظاهرٌ(٢)؛ فإنَّهُ يُحْتَمَلُ لهُ ما لا يُحْتَمَلُ لغيرِهِ ويُعْفى عنهُ ما لا يُعْفى عن غيرِهِ؛ فإنَّ المعصيةَ خَبَثٌ، والماءُ إذا بَلَغَ قُلَّتينِ؛ لَمْ يَحْمِلِ الخَبَثَ، بخلافِ الماءِ القليلِ؛ فإنَّهُ يَحْمِلُ أدنى خَبَثٍ يَقَعُ فيهِ.

ومِن هٰذا قولُ النَّبيِّ ﷺ لعُمَرَ: «وما يُدْريكَ! لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ على أهلِ بدرٍ فقالَ: اعْمَلوا ما شِئْتُمْ؛ فقد غَفَرْتُ لكُم»(٣).

وهٰذا هوَ المانعُ لهُ ﷺ مِن قتلِ مَن جَسَّ عليهِ وعلى المسلمينَ وارْتَكَبَ مثلَ ذٰلكَ الذَّنبِ العظيمِ، فأخْبَرَ ﷺ أنَّهُ شَهِدَ بدرًا، فدَلَّ على أنَّ مقتضى عقوبتِهِ قائمٌ، لٰكنْ مَنَعَ مِن ترتُّبِ أثرِهِ عليهِ ما لَهُ مِن المشهدِ العظيمِ، فوَقَعَتْ تلكَ السَّقطةُ العظيمةُ مغتفرةً في جنبِ ما لَهُ مِن الحسناتِ(٤).

ولمَّا حَضَّ النَّبيُّ ﷺ على الصَّدقةِ، فأخْرَجَ عُثْمانُ رَضِيَ اللهُ عنهُ تلكَ الصَّدقةَ العظيمةَ؛ قالَ: «ما ضَرَّ عُثْمانَ ما عَمِلَ بعدَها»(٥).

---

(١) (ضعيف جدًّا). تقدّم تفصيل القول في طرقه (١/ ٣٢١).

(٢) في خ: «ما لا يعافي العالم... الشرع أيضًا والحكمة... تاثرًا ظاهرًا».

(٣) رواه: البخاري (٥٦ـ الجهاد، ١٤١ـ الجاسوس، ٦/ ١٤٣/ ٣٠٠٧)، ومسلم (٤٤ـ الصحابة، ٣٦ـ أهل بدر، ٤/ ١٩٤١/ ٢٤٩٤)؛ من حديث عليّ رضي الله عنه.

(٤) في خ: «من الصدقات»! والكلام المتقدّم كله في حديث عليّ في قصّة حاطب بن أبي بلتعة.

(٥) (صحيح). وقد جاء عن جماعة من الصحابة:

* فرواه ابن أبي عاصم في «الآحاد» (٦٦٦) و«السنّة» (١٣٠١) من طريق عبدالملك بن هارون بن عنترة، عن أبيه، عن جدّه، عن عثمان... رفعه. وهٰذا ساقط، عبدالملك هٰذا صاحب موضوعات.

وقالَ لطَلْحَةَ لمَّا تَطَأْطَأَ للنَّبيِّ ﷺ حتَّى صَعِدَ على ظهرِهِ إلى الصَّخرةِ: «أوْجَبَ طَلْحَةُ»(١).

= * ورواه الطبراني في «الأوسط» (٢٠٣٤) من طريق زيد بن الحريش، ثنا عمرو بن صالح، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس. . . رفعه. قال الهيثمي (٨٨/٩): «فيه عمرو بن صالح الرامهرمزي، وهو ضعيف». قلت: واه منكر الحديث، وزيد مقبول. فالسند واه.

* ورواه: ابن أبي شيبة (٣٦٩٩٨)، والخلّال في «السنّة» (٤١٧)؛ من طريقين، عن الحسن، أنّ عثمان. . . فذكره. وهٰذا ضعيف لإرساله.

* ورواه: الطيالسي (١١٨٩)، وابن سعد (٣٩/٧)، وأحمد (٧٥/٤)، وعبد بن حميد (٣١١)، والبخاري في «التاريخ» (٢٤٦/٥)، والفسوي (٢٨٩/١)، والترمذي (٥٠ـ المناقب، ١٩ـ مناقب عثمان، ٥/ ٦٢٦/ ٣٧٠٠)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٤١٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (١٤١٩ و١٤٢٠) و«السنّة» (١٢٨٠)، والروياني (١٥٤١)، والدولابي (١٢٠٨)، وابن قانع (٢/ ١٤٤)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٩١١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥٨/١)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢١٤)، والخطيب في «الجمع والتفريق» (٢/ ٤٣٦)، والبغوي في «السنّة» (٣٩٠٤)، وابن الأثير في «الغابة» (٣/ ١١٢)، والمزّي في «التهذيب» (١٧/ ٨٠)؛ من طريق السكن بن المغيرة، ثنا الوليد بن أبي هشام زياد، عن فرقد أبي طلحة، عن عبدالرحمٰن بن خبّاب. . . رفعه. قال الترمذي والطبراني والبغوي: «لا نعرفه إلّا من حديث السكن بن المغيرة». قلت: هو صدوق حسن الحديث، ولٰكنّ فرقدًا مجهول، وهو علّة هٰذا السند.

* ورواه أحمد في «الفضائل» (٨٥٤) من طريق قويّة عن سليمان بن حيّان، عن عبدالله بن دينار، سمعت ابن عمر. . . رفعه. وفيه ضعف من أجل سليمان؛ فإنّه يخطئ. نعم؛ هاهنا طريق أخرى عند أبي نعيم في «الحلية» (٥٩/١)، لٰكن فيها حبيب بن أبي حبيب كاتب مالك كذّاب لا يعبأ به ولا بمرويّاته.

* ورواه: أحمد في «المسند» (٥/ ٦٣) و«الفضائل» (٨٤٦ و٨٤٧)، والفسوي (١/ ٢٨٣)، والترمذي (الموضع السابق، ٣٧٠١)، وابن أبي الدنيا في «المكارم» (٤١٧)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (١٢٧٩)، وابن أحمد في «زوائد المسند» (٥/ ٦٣)، والخلّال في «السنّة» (٤٠٢ و٤٠٣)، والطبراني في «الأوسط» (٩٢٢٢) و«الشاميّين» (١٢٧٤)، والحاكم (٣/ ١٠٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥٩/١)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢١٥)، والمزّي في «التهذيب» (١٥/ ٤٤٠)؛ من طريق قويّة، عن كثير مولى عبدالرحمٰن بن سمرة، عن عبدالرحمٰن بن سمرة. . . رفعه. قال الترمذي: «حسن غريب». وقال الطبراني: «لا يروى عن عبدالرحمٰن بن سمرة إلّا بهٰذا الإسناد». قلت: رجاله صدوقون، وكثير، وإن أكتفى العسقلاني بقوله فيه «مقبول»، فحقّه أن يضمّ إلى الصدوقين كما تفيده ترجمته في «التهذيب».

فهٰذه ستّة أوجه لهٰذا الحديث: الأوّلان ساقطان لا يبالى بهما بالة، والثالث والرابع ينجبر ضعفهما بأجتماعهما، والخامس حسن في الشواهد، والأخير حسن لذاته. فالحديث صحيح بمجموعها، وقد قوّاه الترمذي والحاكم والذهبي والعسقلاني والألباني.

(١) (صحيح). وقد جاء عن جماعة من الصحابة وغيرهم:

* فرواه: الحاكم (٣/ ٣٧٦)، والمزّي في «تهذيب الكمال» (١٣/ ٤١٧)؛ من طريق إسحاق بن يحيى بن طلحة، عن عيسى بن طلحة، عن عائشة، عن أبي بكر. . . رفعه. قال الحاكم: «على شرط مسلم». وردّه=

وهٰذا موسى كليمُ الرَّحْمٰنِ عَزَّ وجَلَّ: أَلْقى الألواحَ التي فيها كلامُ اللهِ الذي كَتَبَهُ لهُ؛ أَلْقاها على الأرضِ حتَّى تكَسَّرَتْ[1]، ولَطَمَ عينَ ملَكِ الموتِ ففَقَأَها[2]، وعاتَبَ ربَّهُ ليلةَ الإسراءِ في النَّبيِّ وقالَ: شابٌّ بُعِثَ بعدي يَدْخُلُ الجنَّةَ مِن أُمَّتِهِ أكثرُ /خ٢٨٢/ ممَّا يَدْخُلُها مِن أُمَّتي[3]، وأخَذَ بلحيةِ هارونَ وجَرَّهُ إليهِ وهوَ نبيُّ اللهِ [الأعراف: ١٥٠، طه: ٩٤]. وكلُّ ذٰلكَ لمْ يَنْقُصْ مِن قدرِهِ شيئًا عندَ ربِّهِ، وربُّهُ تَعالى يُكْرِمُهُ ويُحِبُّهُ؛ فإنَّ الأمرَ الذي قامَ بهِ موسى والعدوَّ الذي بَرَزَ لهُ والصَّبرَ الذي صَبَرَهُ والأذى الذي أُوذِيَهُ في

= الذهبيّ بقوله: «لا والله، وإسحاق قال أحمد متروك». قلت: تركوه بغير تهمة لقلّة فهمه وسوء حفظه، فالسند وإن كان واهيًا فليس بالساقط الذي لا ينتفع به أبدًا.

* ورواه أحمد في «الفضائل» (١٢٨٨) من طريق لا بأس بها، عن أبي بكر عبدالله بن حفص، عن النبيّ ﷺ... به. وأبو بكر ثقة، لٰكنّ روايته عن النبيّ ﷺ مرسلة أو معضلة.

* ورواه الدورقي في «مسند سعد» (٩٠) من طريق قويّة، عن صالح بن كيسان، عن بعض آل سعد، كان سعد يقول... فذكره مرفوعًا. وهٰذا ضعيف للراوي المبهم.

* ورواه: ابن إسحاق (٣/ ٦٩ـ ابن هشام)، وابن المبارك في «الجهاد» (٩٣)، وابن سعد (٣/ ١١٦)، وابن أبي شيبة (٣٢١٥١)، وأحمد في «المسند» (١/ ١٦٥) و«الفضائل» (١٢٩٠)، والترمذي في «الجامع» (٢٤ـ الجهاد، ١٧ـ الدرع، ٤/ ٢٠١/ ١٦٩٢ و٣٧٣٨) و«الشمائل» (١٠٥)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (١٣٩٧ و١٣٩٨)، والبزّار (٩٧٢)، وأبو يعلى (٦٧٠)، والطبري في «التاريخ» (٢/ ٦٩)، والشاشي (٣١)، وابن حبّان (٦٩٧٩)، والحاكم (٣/ ٢٥ و٣٧٣ و٣٧٤)، والبيهقي (٦/ ٣٧٠، ٩/ ٤٦)، والبغوي في «السنّة» (٣٩١٥)، والضياء في «المختارة» (٣/ ٥٧/ ٨٦١-٨٦٣)؛ كلّهم من طريق ابن إسحاق، ثنا يحيى بن عبّاد بن عبدالله بن الزبير، عن أبيه، عن عبدالله بن الزبير، عن الزبير... رفعه. وهٰذا سند رجاله ثقات رجال الستّة؛ إلّا ابن إسحاق، فصدوق حسن الحديث وقد صرّح بالتحديث فأمنّا تدليسه.

وخلاصة الكلام أنّ الحديث حسن من الوجه الأخير، صحيح بمجموع أوجهه الأربعة، وقد قوّاه الترمذي وابن حبّان والحاكم والبغوي والضياء والذهبي والعسقلاني وشاكر والألباني.

(١) قال الحافظ ابن كثير في «قصص الأنبياء» (٥٦٣ـ ط. ابن خزيمة): «ولمّا رجع موسى ﷺ إلى قومه، ورأى ما هم عليه من عبادة العجل، ومعه الألواح المتضمّنة التوراة؛ ألقاها، فيقال: إنّه كسرها ـ وهٰكذا هو عند أهل الكتاب [سفر الخروج/ أصحاح ٣٢] ـ وإنّ الله أبدله غيرها، وليس في اللفظ القرآني [الأعراف/ ١٥٤] ما يدلّ على ذٰلك» اهـ. والله أعلم.

(٢) رواه: البخاري (٢٣ـ الجنائز، ٦٨ـ من أحبّ الدفن في الأرض المقدّسة، ٣/ ٢٠٦/ ١٣٣٩)، ومسلم (٤٣ـ الفضائل، ٤٢ـ فضائل موسى، ٤/ ١٨٤٢/ ٢٣٧٢)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه: البخاري (٥٩ـ بدء الخلق، ٦ـ الملائكة، ٦/ ٣٠٢/ ٣٢٠٧)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٧٤ـ الإسراء، ١/ ١٤٩/ ١٦٤)؛ من حديث أنس عن مالك بن صعصعة.

اللهِ أمرٌ لا تُؤَثِّرُ [فيهِ] أمثالُ هٰذهِ الأُمورِ ولا تُغَيِّرُ في[1] وجهِهِ ولا تَخْفِضُ منزلتَهُ.

وهٰذا أمرٌ معلومٌ عندَ النَّاسِ مستقرٌّ في فطرِهِم؛ أنَّ مَن لهُ أُلوفٌ مِن الحسناتِ؛ فإنَّهُ يُسامَحُ بالسَّيِّئةِ والسَّيِّئتينِ ونحوِها، حتَّى إنَّهُ لَيَخْتَلِجُ داعي عقوبتِهِ على إساءتِهِ وداعي شكرِهِ على إحسانِهِ فيَغْلِبُ داعي الشُّكرِ لداعي العقوبةِ. كما قيلَ:

وَإذا الحَبيبُ أتى بِذَنْبٍ واحِدٍ ... جاءَتْ مَحاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفيعِ

وقالَ آخرُ:

فإنْ يَكُنِ الفِعْلُ الَّذي ساءَ واحِدًا ... فأفْعالُهُ اللاتي سَرَرْنَ كَثيرُ

واللهُ سبحانَهُ يُوازِنُ يومَ القيامةِ بينَ حسناتِ العبدِ وسيِّئاتِهِ، فأيُّهُما غَلَبَ؛ كانَ التَّأْثيرُ لهُ، فيَفْعَلُ معَ أهلِ الحسناتِ الكثيرةِ الذينَ آثَروا محابَّهُ ومراضيَهُ وغَلَبَتْهُم دواعي طبعِهِم أحيانًا مِن العفوِ والمسامحةِ ما لا يَفْعَلُهُ معَ غيرِهِم.

وأيضًا؛ فإنَّ العالِمَ إذا زَلَّ؛ فإنَّهُ يُحْسِنُ إسراعَ الفيئةِ وتداركَ[2] الفارطِ ومداواةَ الجرحِ، فهو كالطَّبيبِ الحاذقِ البصيرِ بالمرضِ وأسبابِهِ وعلاجِهِ؛ فإنَّ زوالَهُ على يدِهِ أسرعُ مِن زوالِهِ على يدِ الجاهلِ.

وأيضًا؛ فإنَّ معَهُ مِن معرفتِهِ بأمرِ اللهِ وتصديقِهِ بوعدِهِ ووعيدِهِ وخشيتِهِ منهُ وإزرائِهِ على نفسِهِ بٱرتكابِهِ وإيمانِهِ بأنَّ اللهَ حَرَّمَهُ وأنَّ لهُ ربًّا يَغْفِرُ الذَّنبَ ويأْخُذُ بهِ . . . إلى غيرِ ذٰلكَ مِن الأُمورِ المحبوبةِ للرَّبِّ [تَبارَكَ وتَعالى] ما يَغْمُرُ الذَّنبَ ويُضْعِفُ ٱقتضاءَهُ ويُزيلُ أثرَهُ، بخلافِ الجاهلِ بذٰلكَ أو أكثرِهِ؛ فإنَّهُ ليسَ معَهُ إلَّا ظلمةُ الخطيئةِ وقبحُها وآثارُها المرديةُ، فلا يَسْتَوي[3] هٰذا وهٰذا.

وهٰذا فصلُ الخطابِ في هٰذا الموضعِ، وبهِ يَتَبَيَّنُ أنَّ الأمرينِ حقٌّ، وأنَّهُ لا منافاةَ بينَهُما، وأنَّ كلَّ واحدٍ /خ٢٨٣/ مِن العالِمِ والجاهلِ إنَّما زادَ قبحُ الذَّنبِ منهُ على الآخرِ بسببِ جهلِهِ وتجرُّدِ خطيئتِهِ عمَّا يُقاوِمُها ويُضْعِفُ تأْثيرَها ويُزيلُ أثرَها.

---

(١) في خ: «أكثر ممّن يدخلها. . . ولا تعتريه في»، وفي ط: «. . . وكلّ هٰذا لم ينقص. . .».

(٢) في خ: «اللاتي سرّت. . . يحسن أمر الرغبة وتدارك»، وفي ط: «. . . فيفعل بأهل. . .».

(٣) في خ: «من معرفته بالله. . . المحبوبة إلى الربّ. . . الجاهل ذٰلك أو أكثره. . . فلا سواء».

فعادَ القبحُ في الموضعينِ إلى الجهلِ وما يَسْتَلْزِمُهُ، وقلَّتُهُ وضعفُهُ إلى العلمِ وما يَسْتَلْزِمُهُ. وهٰذا دليلٌ ظاهرٌ على شرفِ العلمِ وفضلِهِ، وباللهِ التَّوفيقُ.

● **الوجهُ الحادي والخمسونَ بعدَ المئةِ:** أنَّ العالِمَ المشتغلَ بالعلمِ والتَّعليمِ لا يَزالُ في عبادةٍ، فنفسُ تعلُّمِهِ وتعليمِهِ عبادةٌ.

قالَ ابنُ مَسْعودٍ: لا يَزالُ الفقيهُ يُصَلِّي. قالوا: وكيفَ يُصَلِّي؟ قالَ: ذِكْرُ اللهِ على قلبِهِ ولسانِهِ. ذَكَرَهُ ابنُ عَبْدِالبَرِّ.

وفي حديثِ مُعاذٍ مرفوعًا [وموقوفًا]: «تَعَلَّموا العلمَ؛ فإنَّ تعلُّمَهُ للهِ خشيةٌ[١]، وطلبَهُ عبادةٌ، ومذاكرتَهُ تسبيحٌ...»[٢]. وقد تَقَدَّمَ، والصَّوابُ أنَّهُ موقوفٌ.

وذَكَرَ ابنُ عَبْدِالبَرِّ عن مُعاذِ [بنِ جَبَلٍ][٣] [مرفوعًا]: «لأنْ تَغْدُوَ فتَتَعَلَّمَ بابًا مِن أبوابِ العلمِ خيرٌ لكَ مِن أنْ تُصَلِّيَ مئةَ ركعةٍ»[٤]. وهٰذا لا يَثْبُتُ رفعُهُ[٥].

وقالَ [ابنُ] وَهْبٍ: كُنْتُ عندَ مالكِ بنِ أنسٍ، فحانَتْ صلاةُ الظُّهرِ أوِ العصرِ وأنا أقْرَأُ [عليهِ] وأنْظُرُ في العلمِ بينَ يديهِ، فجَمَعْتُ كتبي وقُمْتُ لأركعَ[٦]. فقالَ لي مالكٌ: ما هٰذا؟! فقُلْتُ: أقومُ إلى الصَّلاةِ. فقالَ: إنَّ هٰذا لعجبٌ! ما الذي قُمْتَ إليهِ بأفضلَ مِن الذي كُنْتَ فيهِ إذا صَحَّتْ فيهِ النِّيَّةُ.

---

(١) في خ: «تأثيرها ويزيل شرّ أثرها... وقلبه وضعفه إلى العلم... فإنّ تعليمه لله خشية».

(٢) (موضوع موقوفًا ومرفوعًا). تقدّم تفصيل القول فيه (١/ ٣٣٨).

(٣) كذا في ط! والزيادة من خ! فإمّا أنّه وهم يرحمه الله، أو أنّ عين الناسخ أنتقلت إلى السطر المتقدّم قبله. وهو عند ابن عبدالبرّ (١/ ٣٠) من حديث أبي ذرّ رضي الله عنه.

(٤) (ضعيف). رواه: ابن ماجه (المقدّمة، ١٦ـ فضل من تعلّم القرآن، ١/ ٧٩/ ٢١٩)، وابن شاهين في «السنّة» (٥٥)، وابن عبدالبرّ في «جامع العلم» (١/ ٣٠)، والديلمي (٨٣٦٢)، والرافعي في «التدوين» (٣/ ٤٣٤)؛ من طرق ثلاثة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن سعيد بن المسيّب، عن أبي ذرّ... رفعه.

وهٰذا ضعيف له علّتان: **أولاهما**: أنّ الطرق الثلاثة واهية. **والثانية**: ضعف ابن جدعان. ولذٰلك ضعّفه البوصيري وابن القيّم والألباني.

(٥) وليس له أيضًا سند موقوف قويّ، وإنّما قال ابن القيّم هٰذا يرحمه الله؛ لأنّ عليّ بن زيد ليس بالمتّهم ولا المتروك إنّما عيب بسوء حفظه واضطراب روايته ورفعه للموقوفات، فلا يبعد أن يكون هٰذا المتن من قول أبي ذرّ أو ابن المسيّب ثمّ وهم ابن جدعان فألحقه بالمرفوع.

(٦) يعني: ركعتي السنّة.

وقالَ الرَّبيعُ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يقولُ: طلبُ العملِ أفضلُ مِن الصَّلاةِ النَّافلةِ.

وقالَ سُفْيانُ الثَّوْرِيُّ: ما مِن عملٍ أفضلَ مِن طلبِ العلمِ إذا صَحَّتْ فيهِ النِّيَّةُ.

وقالَ رجلٌ للمُعافى بنِ عِمْرانَ: أيُّما أحبُّ إليكَ؛ أقومُ أُصَلِّي الليلَ كلَّهُ أو أكْتُبُ الحديثَ؟ فقالَ: حديثٌ تَكْتُبُهُ أحبُّ إليَّ مِن قيامِكَ مِن أوَّلِ الليلِ إلى آخرِهِ[1].

وقالَ أيضًا: كتابةُ حديثٍ واحدٍ أحبُّ إليَّ مِن قيامِ ليلةٍ.

وقالَ ابنُ عَبَّاسٍ: تذاكرُ العلمِ بعضَ ليلةٍ أحبُّ إليَّ مِن إحيائِها.

[وفي «مسائلِ إسْحاقَ بنِ مَنْصورٍ»: قُلْتُ لأحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ: قولُهُ: تذاكرُ العلمِ بعضَ ليلةٍ أحبُّ إليَّ مِن إحيائِها]؛ أيَّ علمٍ أرادَ؟ قالَ: هوَ العلمُ الذي يَنْتَفِعُ بهِ النَّاسُ في أمرِ دينِهِم. قُلْتُ: في الوضوءِ والصَّلاةِ [والصَّومِ] والحجِّ والطَّلاقِ ونحوِ هٰذا؟ قالَ: نعم.

قالَ إسْحاقُ: وقالَ لي إسْحاقُ بنُ راهَوَيْهِ: هوَ كما قالَ أحْمَدُ/خ٢٨٤/ .

وقالَ أبو هُرَيْرَةَ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: لأنْ أجْلِسَ ساعةً فأفْقَهَ في ديني أحبُّ إليَّ مِن إحياءِ ليلةٍ إلى الصَّباحِ.

وذَكَرَ ابنُ عَبْدِالبَرِّ مِن حديثِ أبي هُرَيْرَةَ [يَرْفَعُهُ]: «لكلِّ شيءٍ عمادٌ، وعمادُ هٰذا الدِّينِ الفقهُ، وما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ مِن فقهٍ[2] في الدِّينِ، [ولَفَقيهٌ واحدٌ أفضلُ مِن ألفِ عابدٍ][3]»[4]. [وقد تَقَدَّمَ.

وقالَ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ الباقِرُ: عالمٌ يُنْتَفَعُ بعلمِهِ أفضلُ مِن ألفِ عابدٍ].

وقالَ أيضًا: روايةُ الحديثِ وبثُّهُ في النَّاسِ أفضلُ مِن عبادةِ ألفِ عابدٍ.

ولمَّا كانَ طلبُ العلمِ والبحثُ عنهُ وكتابتُهُ والتَّفتيشُ عليهِ مِن عملِ القلبِ والجوارحِ؛ كانَ مِن أفضلِ الأعمالِ، ومنزلتُهُ مِن عملِ الجوارحِ كمنزلةِ أعمالِ القلبِ

---

(١) في خ: «فجمعت كتابي وقمت... من أوّله إلى آخره»، وفي ط: «... قمت إليه أفضل...».

(٢) في خ: «من الفقه»، والتصويب من ط ومصادر التخريج.

(٣) ما بين الحاصرتين من متن الحديث ساقط من ط.

(٤) (ضعيف جدًّا). تقدّم تفصيل القول في طرقه (١/ ٢١٥ و٢١٧).

مِن الإخلاصِ والتَّوكُّلِ والمحبَّةِ والإنابةِ والخشيةِ والرِّضى ونحوِها مِن الأعمالِ الظَّاهرةِ.

فإنْ قيلَ: [فالعلمُ] إنَّما هوَ وسيلةٌ إلى العملِ ومرادٌ لهُ والعملُ هوَ الغايةُ، ومعلومٌ أنَّ الغايةَ أشرفُ مِن الوسيلةِ، فكيفَ تُفَضَّلُ الوسائلُ على غاياتِها؟!

قيلَ: كلٌّ [مِن] العلمِ والعملِ يَنْقَسِمُ قسمينِ: منهُ ما يكونُ وسيلةً، ومنهُ ما يكونُ غايةً. فليسَ العلمُ كلُّهُ وسيلةً مرادةً لغيرِها! فإنَّ العلمَ باللهِ وبأسمائِهِ وصفاتِهِ هوَ أشرفُ العلومِ على الإطلاقِ، وهوَ مطلوبٌ لنفسِهِ مرادٌ لذاتِهِ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿اللهُ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَموا أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]: فقد أخْبَرَ سبحانَهُ أنَّهُ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ ونَزَّلَ الأمرَ بينَهُنَّ لِيُعْلِمَ عبادَهُ أنَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ وعلى كلِّ شيءٍ قديرٌ، فهٰذا العلمُ هوَ غايةُ الخلقِ المطلوبةُ [بِهِ].

وقالَ تَعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ﴾ [محمد: ١٩]: فالعلمُ بوحدانيَّتِهِ تَعالى وأنَّهُ لا إلٰهَ إلَّا هوَ مطلوبٌ لذاتِهِ، وإنْ كانَ لا يُكْتَفى بِهِ وحدَهُ، بل لا بدَّ معَهُ مِن عبادتِهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ.

فهما[1] أمرانِ مطلوبانِ لأنفسِهِما: أنْ يُعْرَفَ الرَّبُّ تَعالى بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وأحكامِهِ، وأنْ يُعْبَدَ بموجَبِها ومقتضاها. فكما أنَّ عبادتَهُ مطلوبةٌ مرادةٌ لذاتِها، فكذٰلكَ العلمُ بِهِ ومعرفتُهُ.

وأيضًا: فإنَّ العلمَ مِن أفضلِ أنواعِ العباداتِ كما /خ٢٨٥/ تَقَدَّمَ تقريرُهُ، فهوَ متضمِّنٌ للغايةِ والوسيلةِ.

وقولُكُم «إنَّ العملَ غايةٌ»: إمَّا أنْ تُريدوا بِهِ العملَ الذي يَدْخُلُ فيهِ عملُ القلبِ والجوارحِ أو العملَ المختصَّ بالجوارحِ فقط: فإنْ أُريدَ الأوَّلُ؛ فهوَ حقٌّ، وهوَ يَدُلُّ على أنَّ العلمَ غايةٌ مطلوبةٌ؛ لأنَّهُ مِن أعمالِ القلبِ كما تَقَدَّمَ[2]. وإنْ أُريدَ بِهِ الثَّاني

(١) في خ: «العمل ومراده العمل هو الغاية... مطلوب من نفسه مراد لذاته... له فيهما».
(٢) لا يعدّ العلم على الإطلاق والتجريد عملاً من أعمال القلب: فقد تقدّم لك (١/ ٢٧٠) صور =

ـ وهوَ عملُ الجوارحِ فقط ـ فليسَ بصحيحٍ؛ فإنَّ أعمالَ القلوبِ مقصودةٌ ومرادةٌ لذاتِها.

بل في الحقيقةِ أعمالُ الجوارحِ وسيلةٌ مرادةٌ لغيرِها؛ فإنَّ الثَّوابَ والعقابَ والمدحَ والذَّمَّ وتوابعَها هوَ للقلبِ أصلاً وللجوارحِ تبعًا، وكذٰلكَ الأعمالُ المقصودُ بها أوَّلاً صلاحُ القلبِ وٱستقامتُهُ وعبوديَّتُهُ لربِّهِ ومليكِهِ، وجُعِلَت أعمالُ الجوارحِ تابعةً لهٰذا المقصودِ مرادةً [لهُ]. وإنْ كانَ كثيرٌ منها مرادًا لأجلِ المصلحةِ المترتِّبةِ عليهِ؛ فمِن أجلِّها صلاحُ القلبِ وزكاؤُهُ وطهارتُهُ وٱستقامتُهُ.

فعُلِمَ أنَّ[1] الأعمالَ منها غايةٌ ومنها وسيلةٌ، وأنَّ العلمَ كذٰلكَ.

وأيضًا: فالعلمُ الذي هوَ وسيلةٌ إلى العملِ فقط، إذا تَجَرَّدَ عنِ العملِ؛ لمْ يَنْتَفِعْ بهِ صاحبُهُ، فالعملُ أشرفُ منهُ. وأمَّا العلمُ المقصودُ الذي تَنْشَأُ ثمرتُهُ المطلوبةُ منهُ مِن

= شتّى عن جماعات من الكفّار والملحدين كفرعون وبعض أهل الكتاب وكفّار قريش ممّن علموا الحقّ ثمّ جحدوه! وممّن ٱشتهر بهٰذا حديثًا رائد الفضاء السوفييتي ـ أيّام الاتّحاد الشيوعيّ البائد ـ الذي خضع وٱستكان عندما بهرته عظمة الفضاء الكونيّ فقال: آمنت بالله، فلمّا عاد إلى الأرض أنكر ما كان! ورأيت بأمّ عيني مِن دكاترة الجامعة مَن يدرّس عقيدة ابن تيميّة ومذهبه في الإلٰهيّات والأسماء والصفات أحسن تدريس وأيسره، ولٰكنّ الأمر عنده لا يعدو أن يكون بابًا في مقرّر الفلسفة، ثمّ هو لا يصلّي ولا يلتفت إلى قبلة، ولعلّه لم يفعل ذٰلك في حياته، ثمّ هو بعد ذٰلك يفتخر بحاله وبأنّه باحث متجرّد يتناول موقف ابن تيميّة بإنصاف تامّ بغير تأثّر به ولا عداء له! ولا يخفى على القارئ الكريم أنّ أمثال هٰذا متوافرون في جامعات المسلمين، ولا سيّما البلدان التي نهجت علمانيًّا أو شيوعيًّا أو بعثيًّا! وما لنا نبعد؟! هٰؤلاء المستشرقون قد حصل لكثير منهم من العلم بأركان الإسلام والإيمان والأسماء والصفات ما لم يحصل للسواد الأعظم من المسلمين، ولٰكنّهم ثبتوا على كفرهم لأنّه لم يحصل لقلوبهم عمل بشيء من هٰذا العلم، فبان أنّ هاهنا فرقًا بين العلم المجرّد وبين عمل القلب وأنّ الأوّل لا يستلزم الآخر بالضرورة.

وقد ٱنتهى ابن القيّم يرحمه الله إلى تقرير هٰذه الحقيقة (١/ ٢٨٠) فذكر أنّ ٱقتضاء العلم للهداية (وهي عمل القلب) ٱقتضاء غير تامّ، وأنّ العلم بالشيء لا يقتضي ٱنتفاع صاحبه به بالضرورة بل قد يتخلّف ٱنتفاعه بمقتضاه لأسباب عشرة فصّلها هناك أحسن تفصيل. وذكر نحو هٰذا فيما يأتي من ردّه على الفلاسفة.

فإذا تقرّر لك هٰذا؛ علمت أنّ العلم المجرّد عن عمل قلبيّ ـ كالثقة أو اليقين ـ أو جارحيّ ـ كالبيع والشراء ـ أو مشترك ـ كالتوكّل والصلاة ـ لا يكون غاية مطلوبة لذاتها شرعًا، ولا يكون صاحبه خيرًا من العوامّ والعبّاد أبدًا، بل صاحب العمل المجرّد أشرف وأقرب إلى الله منه.

نعم؛ كلام ابن القيّم صحيح سليم، لٰكن في حدود الصورة التي ستأتيك قريبًا في آخر هٰذا الوجه، فهٰذا ما قصده الشيخ قدّس الله روحه ولهٰذا ساق هٰذه المقدّمات.

(١) في خ: «المقصودة بها أوّلاً... إصلاح القلب... تعلم أنّ».

نفسِهِ؛ فهٰذا لا يُقالُ: إنَّ العملَ المجرَّدَ أشرفُ منهُ! فكيفَ يَكونُ مجرَّدُ العبادةِ البدنيَّةِ أفضلَ مِن العلمِ باللهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأحكامِهِ في خلقِهِ وأمرِهِ ومِن العلمِ بأعمالِ القلوبِ وآفاتِ النُّفوسِ والطُّرقِ التي تُفْسِدُ الأعمالَ وتَمْنَعُ وصولَها مِن القلبِ إلى اللهِ والمسافاتِ التي بينَ الأعمالِ والقلبِ وبينَ القلبِ والرَّبِّ تَعالى وبما تُقْطَعُ تلكَ المسافاتُ. . . إلى غيرِ ذٰلكَ مِن علمِ الإيمانِ وما يُقَوِّيهِ وما يُضْعِفُهُ؟! فكيفَ يُقالُ: إنَّ مجرَّدَ التَّعبُّدِ الظَّاهرِ بالجوارحِ [أفضلُ] مِن هٰذا العلمِ؟!

بل مَن قامَ بالأمرينِ؛ فهوَ أكملُ، وإذا كانَ في أحدِهِما فضلٌ؛ ففضلُ هٰذا العلمِ خيرٌ مِن فضلِ العبادةِ، فإذا كانَ في العبدِ فضلةٌ عنِ /خ٢٨٦/ الواجبِ؛ كانَ صرفُها إلى العلمِ الموروثِ عنِ الأنبياءِ أفضلَ مِن صرفِها إلى مجرَّدِ العبادةِ. فهٰذا فصلُ الخطابِ في هٰذهِ المسألةِ[1]. واللهُ أعلمُ.

● **الوجهُ الثَّاني والخمسونَ بعدَ المئةِ**: ما رَواهُ الإمامُ أحْمَدُ والتِّرْمِذيُّ مِن حديثِ أبي كَبْشَةَ الأنْماريِّ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّما الدُّنيا لأربعةِ نفرٍ: عبدٍ رَزَقَهُ اللهُ مالاً وعلمًا فهوَ يَتَّقي في مالِهِ ربَّهُ ويَصِلُ [فيه] رحمَهُ ويَعْلَمُ للهِ فيهِ حقًّا، فهٰذا بأحسنِ المنازلِ عندَ اللهِ. ورجلٍ آتاهُ اللهُ علمًا ولمْ يُؤْتِهِ مالاً، فهوَ يَقولُ: لو أنَّ لي مالاً لَعَمِلْتُ بعملِ فلانٍ، فهو بنيَّتِهِ وهُما في الأجرِ سواءٌ. ورجلٍ آتاهُ اللهُ مالاً ولمْ يُؤْتِهِ علمًا، فهوَ يَخْبِطُ في مالِهِ ولا يَتَّقي فيهِ ربَّهُ ولا يَصِلُ فيهِ رحمَهُ ولا يَعْلَمُ للهِ فيهِ حقًّا، فهٰذا بأسوإِ المنازلِ عندَ اللهِ. ورجلٍ لمْ يُؤْتِهِ اللهُ مالاً ولا علمًا، فهوَ يَقولُ[2]: لو أنَّ لي مالاً لَعَمِلْتُ بعملِ فلانٍ، فهوَ بنيَّتِهِ وهُما في الوزرِ سواءٌ»[3]. حديثٌ صحيحٌ، صَحَّحَهُ

---

(١) فهٰذا أحسن الكلام في هٰذا الباب وأدقّه وأولاه بالصواب.

(٢) في خ: «أما الدنيا لأربعة. . . ولا يصل به. . . علمًا فيقول». والتصويب من ط والترمذي.

(٣) (صحيح). رواه: أحمد (٤/ ٢٣١)، والترمذي (٣٧ـ الزهد، ١٧ـ مثل الحياة الدنيا، ٤/ ٥٦٢/ ٢٣٢٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٤٥/ ٨٦٨)، والبغوي في «السنّة» (٤٠٩٧)، والمزّي في «التهذيب» (١٤/ ١٩٣)؛ من طريق قويّة، عن يونس بن خبّاب، عن سعيد أبي البختري، عن أبي كبشة. . . رفعه. وهٰذا ضعيف لأجل يونس؛ فإنّه ضعيف الحديث خبيث النحلة.

ورواه الطبراني (٢٢/ ٣٤٦/ ٨٧٠) من طريق قويّة، عن أبي كنانة، عن أبي كبشة. . . رفعه. وأبو كنانة: إن كان القرشي الراوي عن أبي موسى؛ فمجهول، وإن لم يكنه؛ فما عرفته.

التِّرْمذِيُّ والحاكمُ(١) وغيرُهُما.

فقَسَّمَ النَّبيُّ ﷺ أهلَ الدُّنيا أربعةَ أقسامٍ:

خيرُهُم مَن أُوتِيَ علمًا ومالاً فهوَ يُحْسِنُ إلى النَّاسِ وإلى نفسِهِ بعلمِهِ(٢) ومالِهِ.

ويَليهِ في المرتبةِ مَن أُوتِيَ علمًا ولمْ يُؤْتَ مالاً، وإنْ كانَ أجرُهُما سواءً؛ فذٰلكَ إنَّما كانَ بالنِّيَّةِ، وإلاَّ؛ فالمنفقُ المتصدِّقُ فوقَهُ بدرجةِ الإنفاقِ والصَّدقةِ، والعالمُ الذي لا مالَ لهُ إنَّما ساواهُ في الأجرِ بالنِّيَّةِ الجازمةِ المقترنِ بها مقدورُها وهوَ القولُ المجرَّدُ(٣).

الثَّالثُ: مَن أُوتِيَ مالاً ولمْ يُؤْتَ علمًا. فهٰذا أسوأُ النَّاسِ منزلةً عندَ اللهِ؛ لأنَّ مالَهُ

= ورواه: وكيع في «الزهد» (٢٤٠)، وأحمد (٤/ ٢٣٠-٢٣١)، وهنّاد في «الزهد» (٥٩٨)، وابن ماجه (٣٧ـ الزهد، ٢٦ـ النيّة، ٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٨)، والحسين المروزي في «زوائد الزهد» (٩٩٩)، والفريابي في «فضائل القرآن» (١٠٥-١٠٦)، وأبو عوانة في «الصحيح» (١٢١٤٦ـ نكت ظراف)، والطحاوي في «المشكل» (٢٦٣٥)، وابن الأعرابي في «المعجم» (٦٦٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٤٣/ ٨٦٠-٨٦٥ و٨٦٧ و٨٦٩) و«الأوسط» (٤٣٦٤)، والبيهقي (٤/ ١٨٩)، والخطيب في «التاريخ» (٦/ ٨٠)؛ من طرق، عن سالم بن أبي الجعد، [عن ابن أبي كبشة]، عن أبيه... رفعه. وهاهنا علّة، وهي أنّهم ٱختلفوا: فرواه الجماعة عن سالم عن أبي كبشة، وقال منصور بن المعتمر مرة: عن سالم حُدِّثت عن أبي كبشة، وقال مرة: عن سالم عن ابن أبي كبشة عن أبي كبشة. وهٰذه الأخيرة أولى الأوجه بالصواب؛ لأنها زيادة ثقة أوّلاً، ولأنّ سالمًا كثير الإرسال والتدليس ولم يثبت له سماع من أبي كبشة فلا يؤمن أن تكون رواية الجماعة مدلّسة. وابن أبي كبشة: إن كان محمّدًا؛ فلا بأس بحديثه، وإن كان عبدالله ففيه جهالة.

ورواه الطبراني (٢٢/ ٣٤٤/ ٨٦٦) من طريق قويّة، عن قتادة، عن سالم، عن معدان بن أبي طلحة، عن ثوبان أو أبي كبشة... رفعه. وهٰذا سند قويّ، لولا أنّ الجماعة رووه عن سالم على الوجه المتقدّم قبله.

ورواه ابن قانع في «المعجم» (٢/ ٢٢٢/ ٧٢٩) من طريق قويّة، عن منصور بن المعتمر، عن مجاهد، عن أبي كبشة... رفعه. وهٰذا قويّ جدًّا، لولا أنّ المشهور عن منصور عن سالم على الوجه المتقدّم قبل قليل.

وبعد؛ فهٰذه طرق خمس، لا يخلو شيء منها من أخذ وردّ، لٰكنّها جميعًا في حدّ الاعتبار، بل بعضها حسن أو مقارب، فلا جرم أن يتقوّى الحديث ويصحّ بٱجتماعها، وإلى ذٰلك ذهب الترمذي وأبو عوانة والحاكم والبغوي والمنذري والنووي وابن القيّم والعراقي والألباني.

(١) لم أقف على الحديث في مطبوعة «المستدرك»، فالظاهر أنّه صحّحه في غيره. والله أعلم.

(٢) في خ: «خيرهم كمن... نفسه وبعلمه»، وفي ط: «... فهو محسن إلى...».

(٣) وهٰذا أيضًا قول فصل في هٰذه القضيّة: فللمنفق المتصدّق أجران؛ أجر النيّة وأجر الإنفاق، ولصاحب العلم أجر النيّة فقط، فهما سواء في أجر النيّة، ويبقى أجر الإنفاق خاصًّا بالمنفق. وقس على هٰذا كثيرًا من القضايا المشابهة.

طريقٌ إلى هلاكِهِ، فلو عَدِمَهُ؛ لكانَ خيرًا لهُ؛ فإنَّهُ أُعْطِيَ ما يَتَزَوَّدُ بهِ إلى الجنَّةِ فجَعَلَهُ زادًا [لهُ] إلى النَّارِ(١).

الرَّابعُ: مَن لمْ يُؤْتَ مالاً ولا علمًا ومن نيَّتِهِ أنَّهُ لو كانَ لهُ مالٌ لَعَمِلَ فيهِ بمعصيةِ اللهِ. [فهٰذا] يَلي الغنيَّ الجاهلَ في المرتبةِ ويُساويهِ في الوزرِ بنيَّتِهِ الجازمةِ المقترنِ بها مقدورُها، وهوَ القولُ الذي لمْ يَقْدِرْ على غيرِهِ(٢).

فقسَّمَ السُّعداءَ قسمينِ وجَعَلَ العلمَ /خ٢٨٧/ والعملَ بموجَبِهِ سببَ سعادتِهِما، وقَسَّمَ الأشقياءَ قسمينِ وجَعَلَ الجهلَ وما يَتَرتَّبُ عليهِ سببَ شقاوتِهِما. فعادَتِ السَّعادةُ بجملتِها إلى العلمِ وموجَبِهِ، والشَّقاوةُ بجملتِها(٣) إلى الجهلِ وثمرتِهِ.

● **الوجهُ الثَّالثُ والخمسونَ بعدَ المئةِ:**

ما ثَبَتَ عن بعضِ السَّلفِ أنَّهُ قالَ: تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِن عبادةِ ستِّينَ سنةً.

وسَأَلَ رجلٌ أُمَّ الدَّرْداءِ [عن أبي الدَّرْداءِ بعدَ موتِهِ] عن عبادتِهِ. فقالَتْ: كانَ نهارُهُ أجمعُ في باديةِ التَّفكُّرِ.

وقالَ الحَسَنُ: تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِن قيامِ ليلةٍ.

وقالَ الفُضَيْلُ: التَّفكُّرُ مرآةٌ تُريكَ حسناتِكَ وسيِّئاتِكَ.

وقيلَ لإبْراهيمَ: إنَّكَ تُطيلُ الفكرةَ! فقالَ: الفكرةُ مخُّ العقلِ.

وكانَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ(٤) كثيرًا ما يَتَمَثَّلُ:

إذا المَرْءُ كانَتْ لَهُ فِكْرَةٌ ... فَفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَةٌ

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ تَعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذينَ يَتَكَبَّرونَ في الأرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]؛ قالَ: أمْنَعُهُمُ التَّفكُّرَ فيها.

وقالَ بعضُ العارفينَ: لو طالَعَتْ قلوبُ المتَّقينَ بفكرِها إلى ما قُدِّرَ في حجبِ

---

(١) في خ: «أعطي به ما يتزوّد...»، وفي ط: «... زادًا إلى النار».

(٢) «يلي الغنيّ الجاهل في المرتبة»؛ يعني: هو أحطّ مرتبة؛ لأنّه لا أستمتع بمال ولا بأجر. «ويساويه في الوزر بنيّته»؛ يعني: هما سواء في وزر النيّة، ويبقى وزر الإنفاق في المعاصي خاصًّا بصاحبه.

(٣) في خ: «الجاهل في الرتبة... وهو القول الأوّل الذي... والشقاوة وجملتها».

(٤) في ط: «كان نهاره أجمعه في تأدية التفكّر... سفيان الثوريّ»! وليس كذٰلك، بل هو ابن عيينة.

الغيبِ مِن خيرِ الآخرةِ؛ لَمْ يَصْفُ لهُم في الدُّنيا عيشٌ ولمْ تَقَرَّ لهُم فيها عينٌ.

وقالَ الحَسَنُ: طولُ الوحدةِ أتمُّ للفكرةِ، وطولُ الفكرةِ دليلٌ على طريقِ الجنَّةِ.

وقالَ وَهْبٌ: ما طالَتْ فكرةُ أحدٍ قطُّ إلاَّ عَلِمَ، وما عَلِمَ آمرؤٌ قطُّ إلاَّ عَمِلَ.

وقالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِالعَزيزِ: الفكرةُ في نعمِ اللهِ مِن أفضلِ العبادةِ.

وقالَ عَبْدُاللهِ بنُ المُبارَكِ لبعضِ أصحابِهِ وقد رَآهُ مفكِّرًا: أينَ بَلَغْتَ؟ قالَ: الصِّراطَ.

وقالَ بِشْرٌ: لو فَكَّرَ النَّاسُ في عظمةِ اللهِ؛ ما عَصَوْهُ.

وقالَ ابنُ عَبَّاسٍ: ركعتانِ مقتصدتانِ في تفكُّرٍ خيرٌ مِن قيامِ ليلةٍ بلا قلبٍ.

وقالَ أبو سُلَيْمانَ: الفكرُ في الدُّنيا حجابٌ عنِ الآخرةِ وعقوبةٌ لأهلِ الولايةِ، والفكرُ في الآخرةِ يُورِثُ الحكمةَ ويُحْيي القلوبَ.

وقالَ ابنُ عَبَّاسٍ: التَّفكُّرُ[1] في الخيرِ يَدْعو إلى العملِ بهِ.

وقالَ الحَسَنُ: إنَّ أهلَ العلمِ لَمْ يَزالوا يَعودونَ بالذِّكرِ على الفكرِ والفكرِ على الذِّكرِ ويُناطِقونَ القلوبَ حتَّى نَطَقَتْ بالحكمةِ /خ٢٨٨/.

ومِن كلامِ الشَّافِعِيِّ: آسْتَعينوا على الكلامِ بالصَّمتِ وعلى الاستنباطِ بالفكرةِ.

* * * * *

---

(١) في خ: «من أعظم العبادة... ويحيى القلب... الفكر».



مفتاح دار السعادة

ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة

٢

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار ابن خزيمة
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض
الملز - شارع الاحساء - غرب حديقة الحيوان
هاتف : ٤٧٢٠٧٨٨ - ٤٧٦٩٩٣٢ - فاكس : ٤٧٦٠٧٩٥

مفتاح دار السعادة

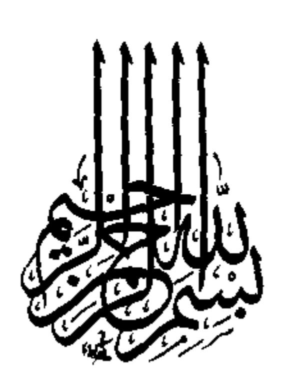
ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة

للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر
المعروف بابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١هـ)

تحقيق وتعليق
عامر بن علي ياسين

الجزء الثاني

دار ابن خزيمة



[الباب الثاني]
[في الفكر وفضله وشرفه ومتعلقه]
[وذكر صور مما ندب القرآن إلى التفكر فيه]

[١ ـ فصل]
[لماذا كان تفكر ساعة خيرا من عبادة ستين سنة]

وهٰذا لأنَّ الفكرةَ عملُ القلبِ والعبادةُ عملُ الجوارحِ، والقلبُ أشرفُ مِن الجوارحِ، فكانَ عملُهُ أشرفَ مِن عملِ الجوارحِ.

وأيضًا؛ فالتَّفكُّرُ يُوقِعُ صاحبَهُ مِن الإيمانِ على ما لا يُوقِعُهُ العملُ المجرَّدُ؛ فإنَّ التَّفكُّرَ يُوجِبُ لهُ مِن: ٱنكشافِ حقائقِ الأُمورِ وظهورِها لهُ، وتميُّزِ مراتبِها في[1] الخيرِ والشَّرِّ، ومعرفةِ مفضولِها مِن فاضلِها وأقبحِها مِن قبيحِها، ومعرفةِ أسبابِها الموصلةِ إليها وما يُقاوِمُ تلكَ الأسبابَ ويَدْفَعُ موجَبَها، والتَّمييزِ بينَ ما يَنْبَغي السَّعيُ في تحصيلِهِ و[بينَ] ما يَنْبَغي السَّعيُ في دفعِ أسبابِهِ، والفرقِ بينَ الوهمِ والخيالِ المانعِ لأكثرِ النُّفوسِ مِن ٱنتهازِ الفرصِ بعدَ إمكانِها وبينَ السَّببِ المانعِ حقيقةً فيَشْتَغِلُ بِهِ دونَ الأوَّلِ؛ فما قَطَعَ العبدَ عن كمالِهِ وفلاحِهِ وسعادتِهِ العاجلةِ والآجلةِ قاطعٌ أعظمُ مِن الوهمِ الغالبِ على النَّفسِ والخيالِ الذي هوَ مركبُها بل بحرُها الذي لا تَنْفَكُّ سابحةً فيهِ وإنَّما يُقْطَعُ هٰذا العارضُ بفكرةٍ صحيحةٍ وعزمٍ صادقٍ يُمَيِّزُ بهِ بينَ الوهمِ والحقيقةِ.

وكذٰلكَ إذا فَكَّرَ في عواقِبِ الأُمورِ وتَجاوَزَ فكرُهُ [مباديَها؛ وَضَعَها مواضعَها وعَلِمَ مراتبَها:

---

(١) في خ: «لأنّ... الفكر عمل القلب... ما لا يوقع العمل... ويميّزها في».

فإذا وَرَدَ عليهِ واردُ الذَّنبِ والشَّهوةِ؛ تجاوَزَ فكرُهُ] لذَّتَهُ [وشهوتَهُ][1] وفرحَ النَّفسِ بهِ إلى سوءِ عاقبتِهِ وما يَتَرَتَّبُ عليهِ مِن الألمِ والحزنِ الذي لا يُقاوِمُ تلكَ اللذَّةَ والفرحةَ، ومَن فَكَّرَ في ذٰلكَ؛ فإنَّهُ لا يَكادُ يُقْدِمُ عليهِ.

وكذٰلكَ إذا وَرَدَ على قلبِهِ واردُ الرَّاحةِ والدَّعةِ والكسلِ والتَّقاعدِ عن مشقَّةِ الطَّاعاتِ وتعبِها؛ عَبَرَ بفكرِهِ[2] إلى ما يَتَرَتَّبُ عليها مِن اللذَّاتِ والخيراتِ والأفراحِ التي تَنْغَمِرُ تلكَ الآلامُ [التي] في مباديها بالنِّسبةِ إلى كمالِ عواقبِها، [و]كلَّما غاصَ فكرُهُ في ذٰلكَ؛ اشْتَدَّ طلبُهُ لها وسَهُلَ عليهِ معاناتُها واسْتَقْبَلَها بنشاطٍ وقوَّةٍ وعزيمةٍ.

وكذٰلكَ إذا فَكَّرَ في منتهى ما يَسْتَعْبِدُهُ مِن المالِ والجاهِ والصُّورِ ونَظَرَ إلى غايةِ ذٰلكَ بعينِ فكرِهِ؛ اسْتَحى مِن عقلِهِ ونفسِهِ أنْ يَكونَ عبدًا لذٰلكَ /خ٢٨٩/ ، كما قيلَ:

لَوْ فَكَّرَ العاشِقُ في مُنْتَهى ... حُسْنِ الَّذي يَسْبيهِ لَمْ يَسْبِهِ

وكذٰلكَ إذا فَكَّرَ[3] في آخرِ الأطعمةِ المفتخرةِ التي تَفانَتْ عليها نفوسُ أشباهِ الأنعامِ وما يَصيرُ أمرُها إليهِ عندَ خروجِها؛ ارْتَفَعَتْ همَّتُهُ عن صرفِها إلى الاعتناءِ بها وجعلِها معبودَ قلبِهِ الذي إليهِ يَتَوَجَّهُ ولهُ يَرْضى ويَغْضَبُ ويَسْعى ويَكْدَحُ ويُوالي ويُعادي! كما جاءَ في «المسند» عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ أنَّهُ قالَ: «إنَّ اللهَ جَعَلَ طعامَ ابنِ آدَمَ مثلَ الدُّنيا وإنْ قَزَّحَهُ ومَلَّحَهُ فإنَّهُ يَعْلَمُ إلى ما يَصيرُ [إليهِ][4]»[5]. أو كما قالَ ﷺ. فإذا وَقَعَ

---

(١) في خ: «يميِّز فيه بين الوهم...»، وفي ط: «... فتجاوز فكره لذَّته وشهوة»!

(٢) في خ: «حتَّى يعبر فكره»! وفي ط: «حتَّى عبر بفكره»! ولا معنى له! ولا بدّ من حذف «حتّى».

(٣) في ط: «والأفراح التي تغمر...»، وفي خ: «... وينظر إلى غاية... إذا تفكّر».

(٤) في خ: «الدنيا إن قرجه وملّحه يعلم إلى ماذا يصير إليه».

(٥) (صحيح). رواه: ابن المبارك في «الزهد» (٤٩٣ و٤٩٥ و٥٤٦)، والطيالسي (٥٤٨)، وابن أبي شيبة (٣٤٨٢٠)، وابن أبي الدنيا في «التواضع» (٢١١) و«الجوع»، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٢٠٥)، وعبدالله بن أحمد في «زوائد المسند» (٥/١٣٦)، والشاشي (١٥٠١ و١٥٠٢)، وابن حبّان (٧٠٢)، والطبراني (١/١٩٨/ ٥٣١)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٢٦٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥٤) و«معرفة الصحابة» (٧٥٧)، والبيهقي في «الشعب» (٥٦٥١ و٥٦٥٢ و١٠٤٧٣) و«الزهد» (٤١٤)، والضياء في «المختارة» (١٢٤٥ و١٢٤٦)، والذهبي في «أعلام النبلاء» (١٥/ ٤٣٩) و«تذكرة الحفّاظ » (٣/ ٨٧٦)؛ من طرق، عن الحسن البصريّ، [عن عتيّ بن ضمرة]، عن أبيّ... به.

وهٰذا سند يمكن أن يعلّ من أوجه: **أوّلها والثاني**: اختلافهم في رفع الحديث ووقفه وفي إثبات عتيّ=

فكرُهُ على عاقبةِ ذٰلكَ وآخرِ أمرِهِ وكانَتْ نفسُهُ حرَّةً أبيَّةً؛ رَبَأَ بها أنْ يَجْعَلَها عبدًا لِما آخرُهُ أنتنُ شيءٍ [وأخبثُهُ] وأفحشُهُ!

[٢] فصل

[في ثمرة التفكر في العاجلة والآجلة]

إذا عُرِفَ هٰذا؛ فالفكرُ هوَ إحضارُ معرفتينِ في القلبِ يُسْتَثْمَرُ منهُما معرفةٌ ثالثةٌ.

ومثالُ ذٰلكَ: إذا أَحْضَرَ في قلبِهِ العاجلةَ وعيشَها ونعيمَها [وما يَقْتَرِنُ بهِ مِن الآفاتِ وانقطاعَهُ وزوالَهُ، ثمَّ أَحْضَرَ في قلبِهِ الآخرةَ ونعيمَها] ولذَّتَها ودوامَهُ وفضلَهُ على نعيمِ الدُّنيا، وجَزَمَ بهٰذينِ العلمينِ؛ أثْمَرَ لهُ ذٰلكَ علمًا ثالثًا، وهوَ أنَّ الآخرةَ ونعيمَها الفاضلَ الدَّائمَ أولى عندَ كلِّ عاقلٍ بإيثارِهِ مِن العاجلةِ المنقطعةِ المنغَّصةِ.

ثمَّ لهُ في معرفةِ الآخرةِ حالتانِ:

إحداهُما: أنْ يكونَ قد سَمِعَ ذٰلكَ مِن غيرِهِ مِن غيرِ أنْ يُباشِرَ قلبَهُ بردُ اليقينِ بهِ ولمْ يُفْضِ قلبُهُ إلى مكافحةِ حقيقةِ الآخرةِ. وهٰذا حالُ أكثرِ النَّاسِ. فيَتَجاذَبُهُ داعيانِ: أحدُهُما داعي العاجلةِ وإيثارِها، وهوَ أقوى الدَّاعيينِ عندَهُ؛ لأنَّهُ مشاهَدٌ لهُ محسوسٌ. وداعي الآخرةِ، وهوَ أضعفُ الدَّاعيينِ عندَهُ؛ لأنَّهُ داعٍ عن سماعٍ، لمْ يُباشِرْ قلبَهُ اليقينُ بهِ ولا كافَحَهُ حقيقتُهُ العلميَّةُ[1]. فإذا تَرَكَ العاجلةَ للآجلةِ تُريهِ[2] نفسُهُ بأنَّهُ قد تَرَكَ معلومًا لمظنونٍ أو متحقَّقًا لموهومٍ، فلسانُ الحالِ يُنادي عليهِ: لا أدَعُ ذرَّةً منقودةً لدرَّةٍ

= وإسقاطه. والرفع وإثبات عتيّ زيادة ثقة ثبت إمام ينبغي المصير إليها. والثالث: عنعنة الحسن على تدليسه، ولٰكنّها عنعنة عن تابعيّ، فهي محمولة. وعليه؛ فليس شيء من هٰذه العلل قادحًا، والسند صحيح.

وله شاهد عند: أحمد (٣/ ٤٥٢)، والطبراني (٨/ ٢٩٩/ ٨١٣٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٤٧٢)؛ بسند ضعيف عن الضحّاك بن سفيان. وآخر عند: ابن المبارك في «الزهد» (٤٩١ و٤٩٢)، والطبراني (٦/ ٢٤٨/ ٦١١٩)؛ بسند صالح عن سلمان. وثالث مرسل عند البيهقي في «الشعب» (١٠٤٦٩).

فمن لم يطمئنّ قلبه لتصحيح الحديث لذاته؛ فليصحّحه لشواهده، وقد قوّاه ابن حبّان والضياء والمنذري والهيثمي والألباني.

(١) في خ: «ولا كافحه علم حقيقته العلميّة»! والغالب أنّه تحريف في خ وط صوابه «العمليّة».

(٢) في خ: «العاجلة المنقضية ثمّ له في معرفة...»، وفي ط: «... للآخرة تريه».

موعودةٍ!

وهٰذهِ الآفةُ [هيَ] التي مَنَعَتِ النُّفوسَ مِن الاستعدادِ للآخرةِ وأنْ تَسْعى لها سعيَها، وهيَ مِن ضعفِ العلمِ بها /خ٢٩٠/ وتيقُّنِها، وإلاَّ؛ فمعَ الجزمِ التَّامِّ الذي لا يَخْتَلِجُ القلبُ فيهِ بشكٍّ[١] لا يَقَعُ التَّهاونُ بها وعدمُ الرَّغبةِ فيها.

ولهٰذا؛ لو قُدِّمَ لرجلٍ طعامٌ في غايةِ الطِّيبِ واللذَّةِ وهوَ شديدُ الحاجةِ إليهِ ثمَّ قيلَ لهُ: إنَّهُ مسمومٌ؛ فإنَّهُ لا يُقْدِمُ عليهِ لعلمِهِ بأنَّ سوءَ ما تَجْني عاقبةُ تناولِهِ تَرْبو في المضرَّةِ على لذَّةِ أكلِهِ. فما بالُ الإيمانِ بالآخرةِ لا يَكونُ في قلبِهِ بهٰذهِ المنزلةِ؟! ما ذاكَ إلاَّ لضعفِ شجرةِ العلمِ والإيمانِ بها في القلبِ وعدمِ استقرارِها فيهِ.

وكذٰلكَ؛ إذا[٢] كانَ سائرًا في طريقٍ، فقيلَ لهُ: إنَّ بها قطَّاعًا ولصوصًا يَقْتُلونَ مَن وَجَدوهُ ويَأْخُذونَ متاعَهُ؛ فإنَّهُ لا يَسْلُكُها إلاَّ على أحدِ وجهينِ: إمَّا أنْ لا يُصَدِّقَ المخبِرَ، وإمَّا أنْ يَثِقَ مِن نفسِهِ بغلبتِهِم وقهرِهِم والانتصارِ عليهِم، وإلاَّ؛ فمعَ تصديقِهِ للمخبِرِ تصديقًا لا يَتَمارى فيهِ وعلمِهِ مِن نفسِهِ بعجزِهِ وضعفِهِ عن مقاومتِهِم؛ فإنَّهُ لا يَسْلُكُها.

ولو حَصَلَ لهُ هٰذانِ العلمانِ فيما يَرْتَكِبُهُ مِن إيثارِ الدُّنيا وشهواتِها؛ لَمْ يُقْدِمْ على ذٰلكَ.

فعُلِمَ أنَّ إيثارَهُ للدُّنيا وتركَ استعدادِهِ للآخرةِ لا يَكونُ قطُّ معَ كمالِ تصديقِهِ وإيمانِهِ أبدًا.

الحالة الثَّانية: أنْ يَتيقَّنَ ويَجْزِمَ جزمًا لا شكَّ فيهِ بأنَّ لهُ دارًا غيرَ هٰذهِ الدَّارِ ومعادًا لهُ خُلِقَ، وأنَّ هٰذهِ الدَّارَ طريقٌ إلى ذٰلكَ المعادِ ومنزلٌ مِن منازلِ السَّائرينَ إليهِ. ويَعْلَمُ معَ ذٰلكَ أنَّها باقيةٌ، ونعيمُها وعذابُها لا يَزولُ، ولا نسبةَ لهٰذا النَّعيمِ والعذابِ العاجلِ إليهِ إلاَّ كما يُدْخِلُ الرَّجلُ إصبعَهُ في اليمِّ ثمَّ يَنْزِعُها فالذي يَعْلَقُ بها منهُ هوَ كالدُّنيا بالنِّسبةِ إلى الآخرةِ.

---

(١) في خ: «وهي من أضعف العلم...»، وفي ط: «... لا يخالج القلب فيه شك».
(٢) في خ: «الإيمان في الآخرة... ولذلك إذا».

فيُثْمِرُ لهُ هٰذا العلمُ إيثارَ الآخرةِ وطلبَها والاستعدادَ التَّامَّ لها وأنْ يَسْعى لها سعيَها[(١)].

[٢ ـ فصل]

[في الألفاظ التي تستعمل بمعنى التفكر ومعانيها]

● وهٰذا يُسَمَّى تفكُّرًا وتذكُّرًا ونظرًا وتأمُّلاً وٱعتبارًا وتدبُّرًا وٱستبصارًا.

وهٰذهِ معانٍ متقاربةٌ تَجْتَمِعُ في شيءٍ وتَفْتَرِقُ في آخرَ:

* فيُسَمَّى تفكُّرًا؛ لأنَّهُ ٱستعمالُ الفكرةِ في ذٰلكَ وإحضارُها عندَهُ[(٢)].

* ويُسَمَّى تذكُّرًا؛ لأنَّهُ إحضارٌ للعلمِ الذي يَجِبُ مراعاتُهُ بعدَ ذهولِهِ وغيبتِهِ عنهُ. ومنهُ قولُهُ تَعالى /خ٢٩١/: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّروا فَإِذا هُمْ مُبْصِرونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

* ويُسَمَّى نظرًا؛ لأنَّهُ ٱلتفاتٌ بالقلبِ إلى المنظورِ فيهِ.

* ويُسَمَّى تأمُّلاً؛ لأنَّهُ مراجعةٌ للنَّظرِ كرَّةً بعدَ كرَّةٍ حتَّى يَتَجَلَّى لهُ ويَنْكَشِفَ لقلبِهِ.

* ويُسَمَّى ٱعتبارًا، وهوَ ٱفتعالٌ مِن العبورِ؛ لأنَّهُ يَعْبُرُ منهُ إلى غيرِهِ، فيَعْبُرُ مِن ذٰلكَ الذي قد فَكَّرَ فيهِ إلى معرفةٍ ثالثةٍ وهيَ المقصودُ مِن الاعتبارِ.

ولهٰذا يُسَمَّى عبرةً، وهيَ على بناءِ الحالاتِ[(٣)]، كالجِلْسَةِ والرِّكبةِ والقِتْلَةِ؛ إيذانًا بأنَّ هٰذا العلمَ والمعرفةَ قد صارَ حالاً لصاحبِهِ يَعْبُرُ منهُ إلى المقصودِ بهِ. قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولي الأَلْبابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وقالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿إِنَّ في ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى﴾ [النازعات: ٢٦]، وقالَ: ﴿إِنَّ في ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولي الأَبْصارِ﴾ [النور: ٤٤].

* ويُسَمَّى تدبُّرًا؛ لأنَّهُ نظرٌ في أدبارِ الأُمورِ، وهيَ أواخرُها وعواقبُها، ومنهُ تدبُّرُ

---

(١) في خ: «تصديقه للخبر تصديقًا... يرتكبه من آثار... يعلق بها منها منه... لها سعيًا».

(٢) في خ وط: وإحضاره عنده»! والصواب ما أثبتّه. وإحضار العلم هو التذكّر لا التفكّر، والكلام في ٱستحضار الفكرة وٱستعمالها.

(٣) يعني: على وزن مصدر الهيئة بلغة النحو المعاصر.

القول. قالَ(١) تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وتدبُّرُ الكلامِ أنْ يَنْظُرَ في أوَّلِهِ وآخرِهِ، ثمَّ يُعيدَ نظرَهُ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، ولهٰذا جاءَ على بناءِ التَّفعُّلِ؛ كالتَّجرُّعِ والتَّفهُّمِ والتَّبيُّنِ(٢).

* ويُسَمَّى ٱستبصارًا، وهوَ ٱستفعالٌ مِن التَّبصُّرِ، وهوَ تبيُّنِ الأمرِ وٱنكشافُهُ(٣) وتجلِّيهِ للبصيرةِ.

● وكلٌّ مِن التَّذكُّرِ والتَّفكُّرِ لهُ فائدةٌ غيرُ فائدةِ الآخرِ: فالتَّذكُّرُ يُفيدُ تكرارَ القلبِ على ما عَلِمَهُ وعَرَفَهُ لِيَرْسَخَ فيهِ ويَثْبُتَ ولا يَنْمَحِيَ فيَذْهَبَ أثرُهُ مِن القلبِ جملةً، والتَّفكُّرُ [يُفيدُ] تكثيرَ العلمِ وٱستجلابَ ما ليسَ حاصلاً عندَ القلبِ. فالتَّفكُّرُ يُحَصِّلُهُ، والتَّذكُّرُ يَحْفَظُهُ.

ولهٰذا قالَ(٤) الحَسَنُ: ما زالَ أهلُ العلمِ يَعودونَ بالتَّذكُّرِ على التَّفكُّرِ وبالتَّفكُّرِ على التَّذكُّرِ ويُناطِقونَ القلوبَ حتَّى نَطَقَتْ بالحكمةِ.

فالتَّفكُّرُ والتَّذكُّرُ بذارُ العلمِ. وسقيُهُ مطارحتُهُ. ومذاكرتُهُ تلقيحُهُ، [كما] قالَ بعضُ السَّلفِ: ملاقاةُ الرِّجالِ تلقيحٌ لألبابِها، فالمذاكرةُ بهِ لِقاحُ العقلِ.

[٤ ـ فصل]

[التفكر مبدأ كل خير وأصل كل معصية]

فالخيرُ والسَّعادةُ في خزانةٍ مفتاحُها [التَّفكُّرُ. فإنَّهُ لا بدَّ مِن تفكُّرٍ، وعلمٍ يكونُ نتيجةً للتَّفكُّرِ]، وحالٍ يَحْدُثُ /خ٢٩٢/ للقلبِ مِن ذٰلكَ العلمِ. فإنَّ كلَّ مَن عَلِمَ شيئًا مِن المحبوبِ أو المكروهِ لا بدَّ أنْ يَبْقى [لقلبِهِ] حالةٌ ويَنْصَبِغَ بصبغةٍ مِن علمِهِ، وتلكَ

---

(١) في ط: «والركبة والقبلة... تدبّر القول وقال»، وفي خ: «... إيذانًا فإنّ...».

(٢) في خ: «يدبّروا القول أم حال أفلا يتدبّرون... وتدبّر كلام الله أن... والنعيم والتبيين».

(٣) في ط: «وسمّي ٱستبصارًا... تبيينه وٱنكشافه»! وفي خ: «... تبيين الأمر وٱنكشافه»! وكلاهما تحريف صوابه ما أثبتّه؛ لأنّ التبيّن هو الاستبصار والتبيين هو التبصير.

(٤) في خ: «ولهٰذا يفيد قال»! وهٰذه الكلمة التي سقطت من السطر السابق أضافها الناسخ هنا!

الحالُ تُوجِبُ لهُ إرادةً، وتلكَ الإرادةُ تُوجِبُ وقوعَ العملِ.

فهاهُنا خمسةُ أُمورٍ: الفكرُ، وثمرتُهُ العلمُ، وثمرتُهُما الحالةُ التي تَحْدُثُ للقلبِ، وثمرةُ ذٰلكَ الإرادةُ، وثمرتُها العملُ.

فالفكرُ إذًا هوَ المبدأُ والمفتاحُ للخيراتِ كلِّها.

وهٰذا يَكْشِفُ لكَ عن فضلِ التَّفكُّرِ وشرفِهِ وأنَّهُ مِن أفضلِ الأعمالِ للقلبِ وأنفعِها لهُ، حتَّى قيلَ: تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِن عبادةِ سنةٍ.

فالفكرُ هوَ الذي يَنْقُلُ مِن موتِ الغفلةِ إلى حياةِ اليقظةِ، ومِن المكارِهِ إلى المحابِّ، ومِن الرَّغبةِ والحرصِ إلى الزُّهدِ والقناعةِ، ومِن سجنِ الدُّنيا إلى فضاءِ الآخرةِ، ومِن ضيقِ الجهلِ إلى سعةِ العلمِ ورحبِهِ، ومِن مرضِ الشَّهوةِ والإخلادِ إلى هٰذهِ الدَّارِ إلى شفاءِ الإنابةِ إلى اللهِ [تَعالى] والتَّجافي عن دارِ الغرورِ، ومِن مصيبةِ العمى والصَّممِ والبَكَمِ إلى نعمةِ البصرِ والسَّمعِ والفهمِ عنِ اللهِ [تَعالى] والعقلِ عنهُ، ومِن أمراضِ الشُّبُهاتِ إلى بردِ اليقينِ وثلجِ الصُّدورِ... وبالجملةِ؛ فأصلُ كلِّ طاعةٍ إنَّما هيَ الفكرُ.

وكذٰلكَ أصلُ كلِّ معصيةٍ إنَّما يَحْدُثُ مِن جانبِ الفكرةِ: فإنَّ الشَّيطانَ يُصادِفُ أرضَ القلبِ خاليةً فارغةً، فيَبْذُرُ فيها حَبَّ الأفكارِ الرَّديَّةِ، فيَتَوَلَّدُ [منهُ الإراداتُ والعزومُ، فيَتَوَلَّدُ] منها العملُ. فإذا صادَفَ أرضَ القلبِ مشغولةً ببذرِ الأفكارِ النَّافعةِ فيما خُلِقَ لهُ وفيما أُمِرَ بهِ وفيما هُيِّئَ لهُ وأُعِدَّ لهُ مِن النَّعيمِ المقيمِ أو العذابِ الأليمِ؛ لمْ يَجِدْ لبذرِهِ موضعًا. وهٰذا كما قيلَ:

أتاني هَواها قَبْلَ أنْ أعْرِفَ الهَوى ... فَصادَفَ قَلْبًا فارِغًا فتَمَكَّنا

[٥ ـ فصل]

[في متعلقات التفكر ومحاله ومجاريه]

● فإنْ قيلَ: قد ذَكَرْتُمُ الفكرَ ومنفعتَهُ وعظمَ تأثيرِهِ في الخيرِ والشَّرِّ، فما متعلَّقُهُ الذي يَنْبَغي أنْ يوقَعَ عليهِ ويَجْرِيَ فيهِ؟ فإنَّهُ لا يَتِمُّ المقصودُ منهُ إلاَّ بذكرِ متعلَّقِهِ الذي يَقَعُ

الفكرُ فيهِ، وإلاَّ؛ ففكرٌ في غيرِ[1] متفكَّرٍ فيه محالٌ!

قيلَ: مجرى الفكرِ ومتعلَّقُهُ أربعةُ /خ٢٩٣/ أُمورٍ: أحدُها: غايةٌ محبوبةٌ مرادةُ الحصولِ، الثَّاني: طريقٌ موصلةٌ إلى تلكَ الغايةِ، الثَّالثُ: مضرَّةٌ مطلوبةُ الإعدامِ مكروهةُ الحصولِ، الرَّابعُ: الطَّريقُ المفضي إليها الموقعُ عليها. فلا تَتَجاوَزُ أفكارُ العقلاءِ هٰذهِ الأُمورَ الأربعةَ.

وأيُّ فكرٍ تَخَطَّاها؛ فهوَ مِن الأفكارِ الرَّديَّةِ والخيالاتِ والأماني الباطلةِ: كما يُمَثِّلُ الفقيرُ المعدمُ نفسَهُ مِن أغنى البشرِ وهوَ يَأْخُذُ ويُعْطي ويُنْعِمُ ويَحْرُمُ، وكما يُمَثِّلُ العاجزُ نفسَهُ مِن أقوى الملوكِ وهوَ يَتَصَرَّفُ في البلادِ والرَّعيَّةِ... ونظائرِ ذٰلكَ مِن أفكارِ القلوبِ الباطوليَّةِ التي [هيَ] مِن جنسِ أفكارِ السَّكرانِ والمحشوشِ والضَّعيفِ العقلِ.

فالأفكارُ الرَّديَّةُ هيَ قوتُ[2] الأنفسِ الخسيسةِ التي [هيَ] في غايةِ الدَّناءةِ؛ فإنَّها قد قَنَعَتْ بالخيالِ ورَضِيَتْ بالمحالِ، ثمَّ لا تَزالُ هٰذهِ الأفكارُ تَقْوى بها وتَتَزايَدُ حتَّى تُوجِبَ لها آثارًا رديَّةً ووساوسَ وأمراضًا بطيئةَ الزَّوالِ.

● وإذا كانَ الفكرُ النَّافعُ لا يَخْرُجُ عنِ الأقسامِ الأربعةِ التي ذَكَرْناها؛ فلهُ أيضًا محلاَّنِ ومنزلانِ: أحدُهُما: هٰذهِ الدَّارُ، والآخرُ: دارُ القرارِ.

فأبناءُ الدُّنيا الذينَ ليسَ لهُم في الآخرةِ مِن خَلاقٍ عَمَروا بيوتَ أفكارِهِم بتلكَ الأقسامِ الأربعةِ في هٰذهِ الدَّارِ فأثْمَرَتْ لهُم أفكارُهُم فيها ما أثْمَرَتْ، ولٰكنْ إذا حَقَّتِ الحقائقُ وبَطَلَتِ الدُّنيا وقامَتِ الآخرةُ؛ تَبَيَّنَ الرَّابحُ مِن المغبون وخَسِرَ هنالكَ المبطلون. وأبناءُ الآخرةِ الذينَ خُلِقوا لها عَمَروا بيوتَ أفكارِهِم على تلكَ الأقسامِ الأربعةِ فيها. ونحنُ نُفَصِّلُ ذٰلكَ بعونِ اللهِ وفضلِهِ فنَقولُ:

● كلُّ طالبٍ لشيءٍ فهوَ محبٌّ لهُ مؤثرٌ لقربِهِ ساعٍ في طريقِ تحصيلِهِ متوصِّلٌ إليهِ بجهدِهِ، وهٰذا يُوجِبُ لهُ تعلُّقَ أفكارِهِ بجمالِ محبوبِهِ وكمالِهِ وصفاتِهِ التي يُحَبُّ لأجلِها

---

(١) في خ: «والصمم والعلم إلى نعمة... فيما خلقت له وفيما أمرت به... ففكر من غير».

(٢) في ط: «الناطولية التي من جنس...»! وفي خ: «الباطولية التي من جنس... هو قوت»!

وتعلُّقَها بما يَنالُهُ بهِ مِن الخيرِ والفرحِ والسُّرورِ[١]، ففكرُهُ في حالِ محبوبِهِ دائرٌ بينَ الجمالِ والإجمالِ والحسنِ والإحسانِ. فكلَّما قَوِيَتْ /خ٢٩٤/ محبَّتُهُ [لهُ]؛ ازْدادَ هٰذا الفكرُ وقَوِيَ وتَضاعَفَ، حتَّى يَسْتَغْرِقَ أجزاءَ القلبِ فلا يَبْقى فيهِ فضلٌ لغيرِهِ، بل يَصيرُ بينَ النَّاسِ بقالبِهِ وقلبُهُ كلُّهُ في حضرةِ محبوبِهِ.

فإنْ كانَ هٰذا المحبوبُ هوَ المحبوبَ الحقَّ الذي لا تَنْبَغي المحبَّةُ إلَّا لهُ ولا يُحَبُّ غيرُهُ إلَّا تبعًا لمحبَّتِهِ؛ فهوَ أسعدُ المحبِّينَ بهِ، وقد وَضَعَ الحبَّ موضعَهُ، وتَهَيَّأَتْ نفسُهُ لكمالِها الذي خُلِقَتْ لهُ الذي لا كمالَ لها بدونِهِ بوجهٍ.

وإنْ كانَتْ تلكَ المحبَّةُ لغيرِهِ مِن المحبوباتِ الباطلةِ المتلاشيةِ التي تَفْنى وتَبْقى حزازاتُ النُّفوسِ بها[٢] على حالِها؛ فقد وَضَعَ المحبَّةَ في غيرِ موضعِها، وظَلَمَ نفسَهُ أعظمَ ظلمٍ وأقبحَهُ، وتَهَيَّأَتْ بذٰلكَ نفسُهُ لغايةِ شقائِها وألمِها.

وإذا عُرِفَ هٰذا؛ عُرِفَ أنَّ تعلُّقَ المحبَّةِ بغيرِ الإلٰهِ الحقِّ هوَ عينُ شقاءِ العبدِ وخسرانِهِ، فأفكارُهُ المتعلِّقةُ بها كلُّها باطلةٌ، وهيَ مضرَّةٌ عليهِ في حياتِهِ وبعدَ موتِهِ.

والمحبُّ الذي قد مَلَكَ المحبوبُ أفكارَ قلبِهِ لا يَخْرُجُ فكرُهُ عن تعلُّقِهِ بمحبوبِهِ أو بنفسِهِ:

ثمَّ فكرُهُ في محبوبِهِ لا يَخْرُجُ عن حالتينِ: إحداهُما: فكرتُهُ في جمالِهِ وأوصافِهِ، [و]الثَّانيةُ: فكرتُهُ في أفعالِهِ وإحسانِهِ وبرِّهِ ولطفِهِ الدَّالَّةِ على كمالِ صفاتِهِ.

وإنْ تَعَلَّقَ فكرُهُ بنفسِهِ؛ لمْ يَخْرُجْ أيضًا عن حالتينِ: إمَّا أنْ يُفَكِّرَ في أوصافِهِ المسخوطةِ التي يُبْغِضُها محبوبُهُ ويَمْقُتُهُ عليها ويُسْقِطُهُ مِن عينِهِ فهوَ دائمًا يَتَوَقَّعُ بفكرِهِ عليها لِيَتَجَنَّبَها[٣] ويَبْعُدَ منها، والثَّانيةُ: أنْ يُفَكِّرَ في الصِّفاتِ والأخلاقِ والأفعالِ التي تُقَرِّبُهُ منهُ وتُحَبِّبُهُ إليهِ حتَّى يَتَّصِفَ بها.

فالفكرتانِ الأُوليانِ تُوجِبانِ لهُ[٤] زيادةَ محبَّتِهِ وقوَّتَها وتضاعفَها، والفكرتانِ

---

(١) في خ: «من أخلاق وعمروا بيوت. . . الله وقوته فنقول. . . والفرحة والسرور».
(٢) في خ: «دائر من الجمال والإجمال. . .»، وفي ط: «. . . حزازات القلوب بها».
(٣) في خ: «أحدهما. . . إمّا أن يتفكّر. . . ويسقط من عينه. . .»، وفي ط: «. . . ليجتنبها».
(٤) في خ: «فإنّ الفكرتان الأوليان توجب له»! وفي ط: «فالفكرتان الأولتان توجب له»!

الأُخريانِ تُوجِبانِ[1] محبَّةَ محبوبِهِ لهُ وإقبالَهُ عليهِ وقربَهُ منهُ وعطفَهُ عليهِ وإيثارَهُ على غيرِهِ.

فالمحبَّةُ التَّامَّةُ مستلزمةٌ لهٰذهِ الأفكارِ الأربعةِ: فالفكرةُ الأُولى والثَّانيةُ تَتَعَلَّقُ بعلمِ التَّوحيدِ وصفاتِ الإلٰهِ المعبودِ سبحانَهُ [وأفعالِهِ]، والثَّالثةُ /خ٢٩٥/ والرَّابعةُ تَتَعَلَّقُ بالطَّريقِ الموصلةِ إليهِ وقواطعِها وآفاتِها وما يَمْنَعُ مِنَ المسيرِ فيها إليهِ.

فتفكُّرُهُ في صفاتِ نفسِهِ يُمَيِّزُ لهُ المحبوبَ لربِّهِ منها[2] مِنَ المكروهِ لهُ. وهٰذهِ الفكرةُ تُوجِبُ ثلاثةَ أُمورٍ: أحدُها: أنَّ هٰذا الوصفَ هل هوَ مكروهٌ مبغوضٌ للهِ أم لا؟ والثَّاني: إذا كانَ مكروهًا؛ فهل هوَ متَّصفٌ بهِ أم لا؟ والثَّالثُ: إذا كانَ متَّصفًا بهِ؛ فما طريقُ دفعِهِ[3] والعافيةِ منهُ؟ وإنْ لمْ يَكُنْ متَّصفًا بهِ؛ فما طريقُ حفظِ الصِّحَّةِ وبقائِهِ على العافيةِ والاحترازِ منهُ؟ وكذٰلكَ الفكرةُ في الصِّفةِ المحبوبةِ تَسْتَدْعي ثلاثةَ أُمورٍ: هل هيَ محبوبةٌ للهِ مرضيَّةٌ [لهُ] أم لا؟ الثَّاني: هلِ العبدُ متَّصفٌ بها أم لا؟ الثَّالثُ: أنَّهُ إذا كانَ متَّصفًا بها؛ فما طريقُ حفظِها ودوامِها؟ وإنْ لمْ يَكُنْ متَّصفًا بها؛ فما طريقُ اجتلابِها والتَّخلُّقِ بها؟

ثمَّ فكرتُهُ في الأفعالِ على هٰذينِ الوجهينِ أيضًا سواءٌ.

ومجاري هٰذهِ الأفكارِ ومواقعُها كثيرةٌ جدًّا لا تكادُ تَنْضَبِطُ، وإنَّما يَحْصُرُها ستَّةُ أجناسٍ: الطَّاعاتُ الظَّاهرةُ والباطنةُ[4]، والمعاصي الظَّاهرةُ والباطنةُ، والصِّفاتُ والأخلاقُ الحميدةُ، [والأخلاقُ] والصِّفاتُ الذَّميمةُ. فهٰذهِ مجاري الفكرةِ في صفاتِ نفسِهِ وأفعالِها.

وأمَّا الفكرةُ في صفاتِ المعبودِ وأفعالِهِ [وأحكامِهِ]؛ فتوجِبُ لهُ: التَّمييزَ بينَ الإيمانِ والكفرِ والتَّوحيدِ والشِّركِ والإقرارِ والتَّعطيلِ، وتنزيهَ الرَّبِّ عمَّا لا يَليقُ بهِ،

---

(١) في خ: «والفكرتان الأخريان توجب»! وفي ط: «والفكرتان الآخرتان توجب»!
(٢) في ط: «يمنع من السير فيها...»، وفي خ: «... صفات نفسه بمنزلة المحبوب لديه منها».
(٣) في ط: «فهل العبد متّصف به أم لا... طريق رفعه»، والأولى ما أثبتّه من خ.
(٤) عدّ الطاعات الظاهرة جنسًا والباطنة جنسًا آخر، وكذٰلك المعاصي.

ووصفَهُ بما هوَ أهلُهُ مِن الجلالِ والإكرامِ.

ومجاري هٰذهِ الفكرةِ: تدبُّرُ كلامِهِ وما تَعَرَّفَ بهِ سبحانَهُ إلى عبادِهِ على ألسنةِ رسلِهِ مِن أسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وما نَزَّهَ نفسَهُ عنهُ ممَّا لا يَنْبَغي لهُ [ولا يَليقُ بهِ] سبحانَهُ، وتدبُّرُ [أيَّامِهِ و]أفعالِهِ [وآياتِهِ] في أوليائِهِ(١) وأعدائِهِ التي قَصَّها على عبادِهِ وأشْهَدَهُم إيَّاها لِيَسْتَدِلُّوا بها على أنَّهُ إلٰهُهُم الحقُّ المبينُ الذي لا تَنْبَغي العبادةُ إلاَّ لهُ ويَسْتَدِلُّوا بها على أنَّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ وأنَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ وأنَّهُ شديدُ العقابِ وأنَّهُ الغفورُ الرَّحيمُ وأنَّهُ العزيزُ الحكيمُ وأنَّهُ الفعَّالُ لِما يُريدُ وأنَّهُ الذي وَسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً /خ٢٩٦/ وعلمًا وأنَّ أفعالَهُ كلَّها دائرةٌ بينَ الحكمةِ والرَّحمةِ والعدلِ والمصلحةِ لا يَخْرُجُ شيءٌ منها عن ذٰلكَ. وهٰذهِ الثمرةُ لا سبيلَ إلى تحصيلِها إلاَّ بتدبُّرِ كلامِهِ والنَّظرِ في آثارِ أفعالِهِ.

[٦ ـ فصل]

[في دعوة القرآن الكريم إلى التفكر والتدبر]

● وإلى هٰذينِ الأصلينِ نَدَبَ عبادَهُ في القرآنِ:

فقالَ في الأصلِ الأوَّلِ: ﴿أفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿أفَلَمْ يَدَّبَّروا القَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ﴿كِتابٌ أنْزَلْناهُ إلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّروا آياتِهِ﴾ [صٓ: ٢٩]، ﴿إنَّا أنْزَلْناهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلونَ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمونَ﴾ [فصلت: ٣].

وقالَ في الأصلِ الثَّاني: ﴿قُلِ انْظُروا ماذا في السَّماواتِ وَالأرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ وَالأرْضِ [وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الألْبابِ . الَّذينَ يَذْكُرونَ اللهَ قِيامًا وَقُعودًا وَعَلى جُنوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرونَ في خَلْقِ السَّماواتِ وَالأرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، وقالَ: ﴿إنَّ في السَّماواتِ وَالأرْضِ] لآياتٍ

(١) في ط: «نحصرها بستة أشياء... وأفعاله فتوجب... وأفعاله في أوليائه»، وفي خ: «... نفسه عنه عمّا لا...».

لِلْمُؤْمِنينَ . وَفي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنونَ . وَٱخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْريفِ(١) الرِّياحِ [آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ]﴾ [الجاثية: ٣-٥]، ﴿أَوَلَمْ يَسيروا في الأَرْضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذينَ [كانوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، ﴿قُلْ سيروا في الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذينَ] مِنْ قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢]، ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرونَ . وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجًا لِتَسْكُنوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ في ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقومَ السَّماءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٠-٢٥].

● ونَوَّعَ سبحانَهُ الآياتِ في هٰذهِ السُّورةِ(٢):

فجَعَلَ خلقَ السَّماواتِ والأرضِ وٱختلافَ لغاتِ الأُممِ وألوانِهم آياتٍ للعالمينَ كلِّهم(٣)؛ لاشتراكِهم في العلمِ بذٰلكَ وظهورِهِ ووضوحِ دلالتِهِ.

وجَعَلَ خلقَ الأزواجِ التي يَسْكُنُ إليها الرِّجالُ و[إلقاءَ] المودَّةِ والرَّحمةِ بينَهُم آياتٍ لقومٍ يَتَفَكَّرونَ؛ فإنَّ سكونَ الرَّجلِ إلى ٱمرأتِهِ وما يَكونُ بينَهُما مِن المودَّةِ والتَّعاطفِ والتَّراحمِ أمرٌ باطنٌ مشهودٌ بعينِ الفكرةِ والبصيرةِ، فمتى نَظَرَ(٤) بهٰذهِ العينِ إلى الحكمةِ [والرَّحمةِ] والقدرةِ التي صَدَرَ عنها ذٰلكَ؛ دَلَّهُ فكرُهُ على أنَّهُ الإلٰهُ الحقُّ المبينُ الذي أَقَرَّتِ الفطرُ بربوبيَّتِهِ وإلٰهيَّتِهِ وحكمتِهِ ورحمتِهِ.

وجَعَلَ المنامَ بالليلِ والنَّهارَ /خ٢٩٧/ للتَّصرُّفِ في المعاشِ وٱبتغاءِ فضلِهِ آياتٍ لقومٍ يَسْمَعونَ، وهوَ سمعُ الفهمِ وتدبُّرِ هٰذهِ الآياتِ وٱرتباطِها بما جُعِلَتْ آيةً لهُ ممَّا

---

(١) في خ: «بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف»! فأدخل آية البقرة في آية الجاثية.

(٢) في ط: «هٰذه السور»! والكلام في سورة الروم وحدها، فبعد أن ذكر ابن القيّم جملة من الآيات في الأصل الثاني أراد أن يفصّل في آيات سورة الروم على الخصوص لكثرة ما فيها من العبر.

(٣) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وٱختلاف ألسنتكم وألوانكم إنّ في ذٰلك لآيات للعالِمين﴾ [الروم: ٢٢]. وقوله «للعالمين كلّهم» صحيح على مذهب من قرأ الآية بفتح اللام، وهم جمهور القرّاء. وخالف: حفص وعلقمة عن عاصم، ويونس عن أبي عمرو، وحمّاد بن شعيب عن أبي بكر؛ فقرؤوها جميعًا بكسر اللام.

(٤) في ط: «تسكن إليهنّ الرجال. . .»، وفي خ: «. . . فمتى نظر بعين التفكّر والبصيرة نظر».

أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسلُ مِن حياةِ العبادِ بعدَ موتِهم وقيامِهم مِن قبورِهِم كما أَحْياهُمْ سبحانَهُ بعدَ موتِهم وأقامَهُم للتَّصرُّفِ في معاشِهِم. فهٰذِهِ الآيةُ إنَّما يَنْتَفِعُ بها مَن سَمِعَ ما جاءَتْ بِهِ الرُّسلُ وأَصْغى إليهِ واْسْتَدَلَّ بهٰذِهِ الآيةِ عليهِ.

وجَعَلَ إراءَهُمُ البرقَ وإنزالَ الماءِ مِن السَّماءِ وإحياءَ الأرضِ بهِ آياتٍ لقومٍ يَعْقِلونَ؛ فإنَّ هٰذِهِ أُمورٌ مرئيَّةٌ بالأبصارِ مشاهدةٌ بالحسِّ، فإذا نَظَرَ فيها ببصرِ قلبِهِ ـ وهوَ عقلُهُ ـ؛ اْسْتَدَلَّ بها على وجودِ الرَّبِّ تَعالى وقدرتِهِ وعلمِهِ ورحمتِهِ وحكمتِهِ وإمكانِ ما أَخْبَرَ بهِ مِن إحياءِ الخلائقِ[1] بعدَ موتِهِم كما أَحْيا هٰذِهِ الأرضَ بعدَ موتِها، وهٰذِهِ أُمورٌ لا تُدْرَكُ إلَّا ببصرِ القلبِ ـ وهوَ العقلُ ـ. فإنَّ الحسَّ دَلَّ على الآيةِ والعقلَ دَلَّ على ما جُعِلَتْ آيةً لهُ، فذَكَرَ سبحانَهُ الآيةَ المشهودةَ بالبصرِ والمدلولَ عليهِ المشهودَ بالعقلِ، فقالَ: ﴿وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ويُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيي بهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إنَّ في ذٰلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ﴾ [الروم: ٢٤].

فتَبارَكَ الذي جَعَلَ كلامَهُ حياةً للقلوبِ وشفاءً لِما في الصُّدورِ.

● وبالجملةِ؛ فلا شيءَ أنفعُ للقلبِ مِن قراءةِ القرآنِ بالتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ؛ فإنَّهُ جامعٌ لجميعِ منازلِ السَّائرينَ وأحوالِ العاملينَ ومقاماتِ العارفينَ، وهوَ الذي يُورِثُ المحبَّةَ والشَّوقَ والخوفَ والرَّجاءَ والإنابةَ والتَّوكُّلَ والرِّضى والتَّفويضَ والشُّكرَ والصَّبرَ وسائرَ الأحوالِ التي بِها حياةُ القلبِ وكمالُهُ، وكذٰلكَ يَزْجُرُ عن جميعِ الصِّفاتِ والأفعالِ المذمومةِ التي بِها فسادُ القلبِ وهلاكُهُ. فلو عَلِمَ النَّاسُ ما في قراءةِ القرآنِ بالتَّدبُّرِ؛ لاشْتَغَلوا بِها عن كلِّ ما سِواها.

فإذا قَرَأَهُ بتفكُّرٍ، متى مَرَّ[2] بآيةٍ هوَ محتاجٌ إليها في شفاءِ قلبِهِ؛ كَرَّرَها، ولو مئةَ مرَّةٍ، و[لو] ليلةً. فقراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ [وتفهُّمٍ] خيرٌ مِن قراءةِ ختمةٍ بغيرِ تدبُّرٍ /خ٢٩٨/ وتفهُّمٍ وأنفعُ للقلبِ وأدعى إلى حصولِ الإيمانِ وذوقِ حلاوةِ القرآنِ. وهٰذِهِ كانَتْ عادةَ السَّلفِ؛ [يُرَدِّدُ أحدُهُمُ الآيةَ إلى الصَّباحِ]. [وقد ثَبَتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قامَ بآيةٍ] يُرَدِّدُها

---

(١) في ط: «وجعل إرادتهم البرق وإنزال... من حياة الخلائق»! وهٰذا عجيب!!

(٢) في خ: «بتفكر حتّى إذا مرّ»! وفي ط: «بتفكّر حتى مرّ»! وكلاهما تحريف لا معنى له.

حتَّى الصَّباحِ، وهيَ قولُهُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][(١)].

فقراءةُ القرآنِ بالتَّفكُّرِ هيَ أصلُ صلاحِ القلبِ.

ولهٰذا قالَ ابنُ مَسْعودٍ: لا تَهُذُّوا القرآنَ كهذِّ الشِّعرِ، ولا تَنْثُروهُ نثرَ الدَّقَلِ[(٢)]، وقِفوا عندَ عجائبِهِ، وحَرِّكوا بهِ القلوبَ.

[وقالَ ابنُ مَسْعودٍ أيضًا: اقْرَؤُوا القرآنَ وحَرِّكوا بهِ القلوبَ][(٣)]، لا يَكُنْ همُّ أحدِكُم آخرَ السُّورةِ.

وروى أيُّوبُ عن أبي جَمْرَةَ؛ قالَ: قُلْتُ لابنِ عَبَّاسٍ: إنِّي سَريعُ القراءةِ، إنِّي أقْرَأُ القرآنَ في ثلاثٍ! قالَ: لأنْ أقْرَأَ سورةً مِن القرآنِ في ليلةٍ فأتَدَبَّرَها وأُرَتِّلَها أحبُّ إليَّ مِن أنْ أقْرَأَ القرآنَ كما تَقْرَؤُهُ.

● والتَّفكُّرُ في القرآنِ نوعانِ: تفكُّرٌ فيهِ لِيَقَعَ على مرادِ الرَّبِّ تَعالى منهُ، وتفكُّرٌ في

---

(١) (حسن). رواه: ابن أبي شيبة (٨٣٦٨ و٣١٧٥٨)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن»، وأحمد (٥/ ١٤٩ و١٥٦ و١٧٠)، وابن ماجه (٥ـ الإقامة، ١٧٩ـ قراءة الليل، ١/ ٤٢٩/ ١٣٥٠)، والبزّار (٤٠٦٢)، وابن نصر في «قيام الليل» (ص١٤٨)، والنسائي (١١ـ الافتتاح، ٧٩ـ ترديد الآية، ٢/ ١٧٧/ ١٠٠٩)، والطحاوي في «معاني الآثار» (١/ ٣٤٧)، والحاكم (١/ ٢٤١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٣) و«شعب الإيمان» (٧٧٥ و٢٠٣٧ و٢٠٣٨)، والخطيب في «الجمع والتفريق» (١/ ٤٥٤ و٤٥٦)، والبغوي في «شرح السنّة» (٩١٥)، والمزّي في «تهذيب الكمال» (٢٣/ ٥٤٨)؛ من طرق، عن فليت العامري قدامة بن عبدالله، ثني جسرة بنت دجاجة، سمعت أبا ذرّ... فذكره. وهٰذا سند فيه ضعف من أجل جسرة؛ فشبه المجهولة، لا تعدو أن تكون صالحة في الشواهد.

وهاهنا شاهد من حديث أبي سعيد عند: أحمد (٣/ ٦٢)، والبيهقي في «الشعب» (٢٠٣٩)؛ بسند قوي، لٰكنّه مختصر لم يرد فيه ذكر الآية التي قام بها ﷺ.

وآخر من حديث عائشة عند: الترمذي (٤٤٨)، والبغوي (٩١٤)؛ بسند قويّ، لٰكنّه مختصر أيضًا.

وثالث من حديث عبدالله بن عمرو عند ابن أبي حاتم في «التفسير» (٧٠٥٨)؛ أنّ النبيّ ﷺ تلا قول عيسى ﴿إن تعذّبهم فإنّهم عبادك...﴾، فرفع يديه وقال: «اللهمّ أمّتي أمّتي»، وبكى. فأرسل الله تعالى جبريل إلى النبيّ ﷺ، فسأله عن بكائه، ثمّ عاد إلى ربّه فأخبره، فقال تعالى: اذهب إلى محمّد فقل إنّا سنرضيك في أمّتك فلا نسؤوك. وسنده قويّ، وأرجو أنّه صالح ليستأنس به في أنّ هٰذه الآية هي التي قام بها ﷺ.

فالحديث حسن جملة بشواهده، وقد قوّاه الحاكم والذهبي والهيثمي والبوصيري وشاكر والألباني.

(٢) في خ: «القرآن هذًّا كهذّ الشعر ولا تنثروه نثرًا كنثر الدقل»، وفي ط: «القرآن هذّ الشعر...».

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من ط، وفي خ: «وحوّلوا به القلوب»!

معاني ما دَعا عبادَهُ إلى التَّفكُّرِ فيهِ. فالأوَّلُ: تفكُّرٌ في الدَّليلِ القرآنيِّ، والثَّاني: تفكُّرٌ في الدَّليلِ العيانيِّ. الأوَّلُ: تفكُّرٌ في آياتِهِ المسموعةِ، والثَّاني: تفكُّرٌ في آياتِهِ المشهودةِ.

ولهٰذا أنْزَلَ اللهُ القرآنَ؛ لِيُتَدَبَّرَ ويُتَفَكَّرَ فيهِ[1] ويُعْمَلَ بهِ، لا لمجرَّدِ تلاوتِهِ معَ الإعراضِ عنهُ.

قالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: أُنْزِلَ القرآنُ لِيُعْمَلَ بهِ فاتَّخَذوا تلاوتَهُ عملاً!

[٧] فصل

[في بدائع صنعته تعالى في أطوار النشأة الأولى]

وإذا تَأَمَّلْتَ ما دَعا اللهُ سبحانَهُ في كتابِهِ عبادَهُ إلى الفكرِ فيهِ؛ أَوْقَفَكَ على[2] العلمِ بهِ سبحانَهُ [وتَعالى] وبوحدانيَّتِهِ وصفاتِ كمالِهِ ونعوتِ جلالِهِ مِن عمومِ قدرتِهِ وعلمِهِ وكمالِ حكمتِهِ ورحمتِهِ وإحسانِهِ وبرِّهِ ولطفِهِ وعدلِهِ ورضاهُ وغضبِهِ وثوابِهِ وعقابِهِ. فبهٰذا تَعَرَّفَ إلى عبادِهِ ونَدَبَهُم إلى التَّفكُّرِ في آياتِهِ.

ونَذْكُرُ لذٰلكَ أمثلةً ممَّا ذَكَرَها اللهُ سبحانَهُ [في كتابِهِ لِيُسْتَدَلَّ بِها على غيرِها:

فمِن ذٰلكَ خلقُ الإنسانِ:

وقد] نَدَبَ [سبحانَهُ] إلى التَّفكُّرِ فيهِ والنَّظرِ في غيرِ موضعٍ مِن كتابِهِ:

كقولِهِ تَعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥].

وقولِهِ تَعالى: ﴿وَفي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

وقالَ [تَعالى]: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فَإنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ [مِنْ] مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ /خ٢٩٩/ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ في الأرْحامِ ما نَشاءُ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥][3].

---

(١) في ط: «أن أقرأ القرآن كما تقرأ. . .»، وفي خ: «. . . ليتدبّر وليتفكّر فيه».

(٢) في ط: «أوقعك على».

(٣) من تراب: في الأصل، إشارة إلى آدم ﷺ. علقة: جسم صغير متعدّد الخلايا يعلق في الرحم. =

وقالَ تَعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى . ثُمَّ كانَ عَلَقَةً [فَخَلَقَ] فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثى . أَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ المَوْتى﴾ [القيامة: ٣٦ـ ٤٠].

وقالَ تَعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهينٍ . فَجَعَلْناهُ في قَرارٍ مَكينٍ . إلى قَدَرٍ مَعْلومٍ . فَقَدَرْنا فَنِعْمَ القادِرونَ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].

وقالَ [تَعالى]: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ﴾ [يس: ٧٧][(١)].

وقالَ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طينٍ . ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكينٍ . ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا المُضْغَةَ عِظامًا فَكَسَوْنا العِظامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤][(٢)].

وهٰذا كثيرٌ في القرآنِ؛ يَدْعو العبدَ إلى النَّظرِ والتفكُّرِ في مبدإِ خلقِهِ ووسطِهِ وآخرِهِ؛ إذْ خلقُهُ ونفسُهُ مِن أعظمِ الدَّلائلِ على خالقِهِ وفاطرِهِ، وأقربُ شيءٍ إلى الإنسانِ نفسُهُ، وفيهِ مِن العجائبِ الدَّالَّةِ على عظمةِ اللهِ ما تَنْقَضي الأعمارُ في الوقوفِ على بعضِهِ، وهوَ غافلٌ [عنهُ] معرضٌ عنِ التَّفكُّرِ فيهِ، ولو فَكَّرَ في نفسِهِ؛ لَزَجَرَهُ ما يَعْلَمُ مِن عجائبِ خلقِها عن كفرِهِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿قُتِلَ الإنْسانُ ما أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبيلَ يَسَّرَهُ . ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إذا شاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

فلَمْ يُكَرِّرْ سبحانَهُ على أسماعِنا و[على] عقولِنا ذكرَ هٰذا لِنَسْمَعَ لفظَ النُّطفةِ[(٣)]

= مضغة غير مخلّقة: جسم بحجم اللقمة الكبيرة غير ظاهر الأعضاء والتقسيمات. مضغة مخلّقة: جسم بحجم قبضة اليد ظاهر الأعضاء والتقسيمات. أرذل العمر: الهرم. لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا: هٰذا يجمع ما يحدث مع التقدّم في العمر من كثرة النسيان فتغيّر العقل فالخرف.

(١) خصيم مبين: يجادل عن حقوقه ويخاصم عليها ويأتي على ذٰلك بالحجج والبيّنات، وهٰذا كناية عن أكتمال قوّته ووفور عقله بعد ضعفه.

(٢) سلالة من طين: صفوة منتخبة من الطين. في قرار مكين: في صلب الرجل أوّلاً ثمّ في رحم المرأة. وسوف يأتي في الصفحة التالية كلام مفيد لابن القيّم في حقيقة هٰذا القرار المكين.

(٣) في ط: «والفكر في مبدإ خلقه. . . معرض عن التفكير. . . وعقولنا ذكر هٰذا لنسمع ذكر النطفة».

والعلقةِ والمضغةِ والتُّرابِ، ولا لِنَتَكَلَّمَ بها فقط، ولا لمجرَّدِ تعريفِنا بذٰلكَ، بل لأمرٍ وراءَ ذٰلكَ كلِّهِ هوَ[1] المقصودُ بالخطابِ وإليهِ جَرى ذكرُ الحديثِ:

فٱنْظُرِ الآنَ إلى النُّطفةِ بعينِ البصيرةِ، وهيَ قطرةٌ مِن ماءٍ مهينٍ ضعيفٍ مستقذرٍ، لو مَرَّ بها ساعةٌ مِنَ النَّهارِ[2]؛ فَسَدَتْ وأنْتَنَتْ: كيفَ ٱسْتَخْرَجَها ربُّ الأربابِ العليمُ القديرُ مِن بينِ الصُّلبِ والتَّرائبِ[3] منقادةً لقدرتِهِ /خ٣٠٠/ مطيعةً لمشيئتِهِ مذلَّلةَ القيادِ على ضيقِ طرقِها وٱختلافِ مجاريها إلى أنْ ساقَها إلى مستقرِّها ومجمعِها! وكيفَ جَمَعَ سبحانَهُ بينَ الذَّكرِ والأُنثى وألقى المحبَّةَ بينَهُما، وكيفَ قادَهُما بسلسلةِ [الشَّهوةِ و]المحبَّةِ إلى الاجتماعِ الذي هوَ سببُ تخليقِ الولدِ وتكوينِهِ، وكيفَ قَدَّرَ ٱجتماعَ ذينكَ الماءينِ معَ بعدِ كلٍّ منهُما عن صاحبِهِ وساقَهُما مِن أعماقِ العروقِ والأعضاءِ وجَمَعَهُما في موضعٍ واحدٍ جُعِلَ لهُما قرارًا مكينًا لا يَنالُهُ هواءٌ يُفْسِدُهُ ولا بردٌ يُجَمِّدُهُ ولا عارضٌ يَصِلُ إليهِ ولا آفةٌ تَتَسَلَّطُ عليهِ! ثمَّ قَلَبَ تلكَ النُّطفةَ البيضاءَ المشرقةَ علقةً حمراءَ تَضْرِبُ إلى السَّوادِ! ثمَّ جَعَلَها مضغةً لحمٍ مخالفةً للعلقةِ في لونِها وحقيقتِها وشكلِها! ثمَّ جَعَلَها عظامًا مجرَّدةً لا كسوةَ[4] عليها[5] مباينةً للمضغةِ في شكلِها وهيئتِها وقدرِها وملمسِها

---

(١) في خ: «الأمر وراء ذٰلك كله وهو...».

(٢) في ط: «جرى ذٰلك الحديث... مرت بها ساعة من الزمان».

(٣) الصلب: عظام العمود الفقري. الترائب: عظام الصدر.

(٤) في خ: «ضيق طريقها وٱختلاف... بسلسلة المحبّة والاجتماع... إلى سواد... ولا كسرة».

(٥) فيه نظر، لٰكن لا بدّ للوقوف عليه من مقاربة علميّة، أسوقها على النحو التالي:

أوّلاً: يبدأ الجنين بٱجتماع النطفة والبويضة لتكوين البيضة الملقّحة.

ثانيًا: تبدأ البيضة الملقّحة بٱنقسامات سريعة متعدّدة ومتتالية لتتحوّل خلال ثلاثة أيّام أو أربعة إلى جسم يشبه التوتة ويسمّى الجسم التوتي.

ثالثًا: عندما يجد الجسم التوتي موضعًا مناسبًا في جدار الرحم يستقرّ ويعشّش هناك، ويسمّى حينئذٍ العلقة؛ لأنّه تعلّق وتثبّت بجدار الرحم.

رابعًا: تتخصّص كلّ مجموعة خلويّة من خلايا الجسم التوتي بوظيفة معيّنة، وتبدأ بالتكاثر والتطوّر نحو تحقيق هٰذه الوظيفة؛ فبعض هٰذه الخلايا يكون طليعة للجهاز العصبي ويتطوّر ويتنامى تدريجيًّا لتشكيل الدماغ والجملة العصبيّة، وبعضها يكون طليعة للقلب، وبعضها للعظام، وبعضها للعضلات، وبعضها للجلد والغدد وأجهزة الجسم المختلفة.

خامسًا: وهٰكذا تبدأ أجهزة الجسم الداخليّة بالتشكّل والنموّ الذي يترافق مع زيادة حجم العلقة =

ولونها!

وٱنْظُرْ كيفَ قَسَّمَ تلكَ الأجزاءَ المتساويةَ المتشابهةَ(١) إلى الأعصابِ والعظامِ

= وتحوّلها إلى جسم غير واضح المعالم، وهو المضغة غير المخلّقة.

سادسًا: ومع تطوّر الأجهزة الداخليّة ونموّها وظهور معالمها يتطوّر الشكل الخارجيّ ويتّضح معالم الرأس والجذع والأطراف ويدخل الجنين في مرحلة المضغة المخلّقة.

سابعًا: ويستمرّ هٰذا النموّ والتطوّر في الهيئة والحجم حتّى يكتمل الجنين تمامًا قبيل ولادته.

ثامنًا: وأقرب مثال مشهود لنموّ الجنين البشري وتطوّره هو جنين الضفدع (السرغوف، أو الشرغوف، أو أبو ذنيبة)، الذي يعرفه أكثر الناس ويرون كيف ينمو تدريجيًّا في الشكل والحجم ويتحوّل من هيئة قريبة من السمكة إلى هيئة الضفدع.

تاسعًا: وعليه؛ فليس هاهنا مرحلة يكون الجنين فيها هيكلاً عظميًّا مجرّدًا لا كسوة عليه، ثمّ يُحشى هٰذا الهيكل العظمي بالدماغ والنخاع الشوكي ويكسى بالعضلات والجلد! هٰذا تصوّر لا يقرّه العلم، بل لا تقرّه الجدّات العارفات اللاتي رأين كثيرًا من الأسقاط ولم يرين سقطًا على شكل هيكل عظميّ! وإنّما يقاس تكوّن الجنين بتكوّن حمل الشجر، فأنت لا ترى البذرة الداخليّة في حبّة المشمش تنمو أوّلاً ثمّ تحاط بالغلاف الخشبي ثمّ تحاط بلبّ الثمرة ثمّ تحاط بالقشرة، ولٰكنّك ترى جميع هٰذه الأعضاء تتكوّن وتنمو معًا، فهٰذا كذاك ولا فرق. وهٰذا أمر سيشير إليه ٱبن القيّم نفسه فيما يأتي قريبًا.

عاشرًا: فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا﴾، والفاء تقتضي التعقيب، والتعقيب يقتضي أن تسبق العظام اللحم! فالجواب أنّ قول الله مهيمن على كلّ قول، لٰكن المشكلة في فهمنا لهٰذا القول، إذ إنّ للتعقيب مفهومين: أمثّل للأوّل بجماعة ٱتّفقوا على زراعة أرض، فبدأ أحدهم بحراثتها، فلمّا ٱنتهى باشر الثاني ببذارها، فلمّا ٱنتهى باشر الثالث بسقيها... إلخ. فعلم الجنين المعاصر Embryology ينكر هٰذا النوع من التعاقب في تكون الجنين وتطوّره. وأمّا المفهوم الثاني للتعاقب؛ فأن يبدأ أحدهم بحرث الأرض، فلا يكاد يحرث سطرًا أو بعض سطر حتّى يبدأ الثاني ببذاره ولا يكاد يبذر سطرًا أو بعض سطر حتّى يلحقه الثالث بالسقي... وهٰكذا يتمّ الجميع أعمالهم في وقت واحد تقريبًا. فالتعقيب بهٰذا المفهوم صحيح وثابت تتعاضد فيه الآيات المتلوّة مع المعطيات العلميّة، فخلق العظام سابق لخلق العضلات بمعنى أنّ الطليعة العظميّة سابقة للطليعة العضليّة لا بمعنى أنّ هناك هيكلاً عظميًّا مجرّدًا ثمّ يُكسى فيما بعد.

حادي عشر: وأنت لو نظرت إلى هٰذه الفاءات المتعاقبة في قوله تعالى: ﴿فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا﴾؛ لشعرت بهٰذا التسارع والتوافق والترافق بين هٰذه المراحل، ممّا يرجّح أنّ المقصود فيها بالتعقيب هو المفهوم الثاني لا الأوّل. بخلاف قوله تعالى في حمار العزير: ﴿وٱنظر إلى العظام كيف ننشزها ثمّ نكسوها لحمًا﴾ [البقرة:٢٥٩]، الذي يناسب التعقيب بالمفهوم الأوّل، وذٰلك لأنّه سبحانه أتمّ نشز العظام أوّلاً ثمّ كساها باللحم زيادة في البيان والبرهان. فتأمّل ثمّ تأمّل؛ تعرف صواب ما ذكرت، والله الموفّق، لا ربّ سواه.

(١) هاهنا مجموعة من الخلايا المتشابهة، نشأت من أصل واحد هو البيضة الملقّحة؛ فلماذا يتخصّص بعضها في تكوين الدماغ وبعضها في تكوين القلب وبعضها في تكوين الجلد... إلخ؟! ما السرّ الذي يجعل كلّ واحدة منها تتّجه إلى غاية تختلف عن غاية الأخرى؟! لا ريب أنّ للباحثين أجوبة علميّة على هٰذا=

والعروقِ والأوتارِ واليابسِ واللّيِّنِ وبيْنَ ذٰلكَ! ثمَّ كيفَ رَبَطَ بعضَها ببعضٍ أقوى رباطٍ وأشدَّهُ وأبعدَهُ عنِ الانحلالِ! وكيفَ كَساها لحمًا رَكَّبَهُ عليها وجَعَلَهُ وعاءً لها وغشاءً وحافظًا وجَعَلَها حاملةً لهُ مقيمةً لهُ، فاللحمُ قائمٌ بها وهيَ محفوظةٌ بهِ! وكيفَ صَوَّرَها فأحْسَنَ صُوَرَها وشَقَّ لها السَّمعَ والبصرَ والفمَ والأنفَ وسائرَ المنافذِ ومَدَّ اليدينِ والرِّجلينِ وبَسَطَهُما وقَسَّمَ رؤوسَهُما بالأصابعِ وَقَسَّمَ الأصابعَ بالأناملِ! ورَكَّبَ الأعضاءَ الباطنةَ مِن القلبِ والمعدةِ والكبدِ والطُّحالِ والرِّئةِ والرَّحمِ والمثانةِ والأمعاءِ كلٌّ واحدٍ منها لهُ قدرٌ يَخُصُّهُ ومنفعةٌ تَخُصُّهُ!

[٨ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في تكوين العظام]

ثمَّ ٱنْظُرِ الحكمةَ البالغةَ في تركيبِ العظامِ قِوامًا للبدنِ وعمادًا لهُ! وكيفَ قَدَّرَها ربُّها وخالقُها بمقاديرَ(١) مختلفةٍ وأشكالٍ مختلفةٍ؛ فمنها الصَّغيرُ والكبيرُ والطَّويلُ والقصيرُ والمنحني والمستديرُ والدَّقيقُ والعريضُ والمُصْمَتُ والمجوَّفُ! وكيفَ رَكَّبَ بعضَها في بعضٍ؛ فمنها ما تركيبُهُ تركيبُ الذَّكرِ في الأُنثى، ومنها ما تركيبُهُ تركيبُ ٱتِّصالٍ فقط! وكيفَ ٱخْتَلَفَتْ أشكالُها /خ٣٠١/ بٱختلافِ منافعِها: كالأضراسِ؛ فإنَّها لمَّا كانَتْ آلةً للطَّحنِ؛ جُعِلَتْ عريضةً، ولمَّا كانَتِ الأسنانُ آلةً للقطعِ [فقطْ]؛ جُعِلَتْ مستدقَّةً محدَّدةً! ولمَّا كانَ الإنسانُ محتاجًا(٢) إلى الحركةِ بجملةِ بدنِهِ وببعضِ أعضائِهِ للتَّردُّدِ [في حاجتِهِ]؛ لمْ يَجْعَلْ عظامَهُ عظمًا واحدًا بل عظامًا متعدِّدةً، وجَعَلَ بينَها مفاصلَ حتَّى تَتَيَسَّرَ بها [الحركةُ]، وكانَ قدرُ كلِّ واحدٍ منها وشكلُهُ على حسبِ الحركةِ المطلوبةِ منهُ! وكيفَ شدَّ أزرَ تلكَ المفاصلِ والأعضاءِ ورَبَطَ بعضَها ببعضٍ بأوتارٍ

= التساؤل! لكن كلّما نقضت عقدة بدت عقد! ومع كلّ جواب هناك تساؤل جديد! إنّها يد الله! ﴿من نطفة خلقه فقدّره . ثمّ السبيل يسّره﴾.

(١) في خ: «وأبعده من الانحلال. . .»، وفي ط: «بالأصابع ثمّ قسّمها بالأنامل. . . بتقادير».

(٢) في ط: «للقطع جعلت. . . شدّ أسر. . .»، وفي خ: «. . . كانت الأسنان محتاجًا».

ورباطاتٍ أنبَتَها مِن العظمِ وأَلْصَقَ أحدَ طرفي العظمِ بالطَّرفِ الآخرِ كالرِّباطِ لهُ! ثمَّ جَعَلَ في أحدِ طرفي العظمِ زوائدَ خارجةً عنهُ وفي الآخرِ نُقَرًا غائصةً فيهِ موافقةً لشكلِ تلكَ الزَّوائدِ لِتَدْخُلَ فيها وتَنْطَبِقَ عليها، فإذا أرادَ العبدُ أنْ يُحَرِّكَ جزءًا مِن بدنِهِ؛ لمْ يَمْتَنِعْ عليهِ، ولولا المفاصلُ؛ لَتَعَذَّرَ ذٰلكَ عليهِ[1]!

[٩ ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في تكوين الرأس والحواس]

● وتَأَمَّلْ كيفيَّةَ خلقِ الرَّأْسِ وكثرةَ ما فيهِ مِن العظامِ حتَّى قيلَ إنَّها خمسةٌ وخمسونَ عظمًا[2] مختلفةُ الأشكالِ والمقاديرِ والمنافعِ! وكيفَ رَكَّبَهُ سبحانَهُ [وتَعالى] على البدنِ وجَعَلَهُ عاليًا عليهِ علوَّ الرَّاكبِ على مركوبِهِ!

● ولمَّا كانَ عاليًا على البدنِ؛ جَعَلَ فيهِ الحواسَّ الخمسَ وآلاتِ الإدراكِ كلَّها مِن السَّمعِ والبصرِ والشَّمِّ والذَّوقِ واللمسِ[3].

● وجَعَلَ حاسَّةَ البصرِ في مقدَّمِهِ لِيَكونَ كالطَّليعةِ والحرسِ والكاشفِ للبدنِ.

ورَكَّبَ كلَّ عينٍ مِن سبعِ طبقاتٍ، لكلِّ طبقةٍ وصفٌ مخصوصٌ ومقدارٌ مخصوصٌ ومنفعةٌ مخصوصةٌ، لو فُقِدَتْ طبقةٌ مِن تلكَ الطَّبقاتِ السَّبعِ[4] أو زالَتْ عن هيئتِها وموضعِها؛ لَتَعَطَّلَتِ العينُ عنِ الإبصارِ[5]. ثمَّ أَرْكَزَ سبحانَهُ داخلَ تلكَ الطَّبقاتِ السَّبعِ

---

(١) في خ: «أنبتها من أحد طرفي العظم وألصق العظم بالطرف الآخر... لتعذّر عليه تلك ذٰلك»!

(٢) المعتمد عند الأطبّاء المعاصرين أنّ عدد عظام الجمجمة كاملة هو ثمانية وعشرون عظمًا، وهٰذا العدد يشمل عظام القحف وعظام الوجه وعظيمات الأذنين.

(٣) لأنّ حاسّة اللمس، وإن كانت موزّعة على مختلف أنحاء الجلد ومركّزة بالدرجة الأولى في الكفّين والأنامل، فإنّ مراكز حسّ اللمس العالية التي تقوم بوظائف الفهم والتحليل موجودة في قشر الدماغ، فعاد الرأس محلاً لجميع الحواسّ. والله أعلم.

(٤) في خ: «وتأمّل خلق الرأس وكيفيّة ما فيه... البصر في مقدّمته... تلك السبع الطباق».

(٥) المعتمد عند الأطبّاء المعاصرين أنّ طبقات العين ثلاث: **الأولى**: الطبقة الخارجية أو الصلبة Sclera، والقرنيّة Cornea هي الجزء الأمامي الشفّاف منها. **الطبقة الثانية**: الطبقة الوسطى أو المشيميّة Choroid، والقزحيّة Iris هي الجزء الأمامي منها. **الطبقة الثالثة**: الطبقة الداخلية أو الشبكيّة Retina.

خلقًا عجيبًا، وهوَ إنسانُ العينِ، بقدرِ العدسةِ، يُبْصَرُ بهِ[١] ما بينَ المشرقِ والمغربِ والأرضِ والسَّماءِ، وجَعَلَهُ مِن العينِ بمنزلةِ القلبِ مِن الأعضاءِ، فهو ملكُها وتلكَ الطَّبقاتُ والأجفانُ والأهدابُ خدمٌ لهُ /خ٣٠٢/ وحجَّابٌ وحرَّاسٌ[٢]. فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ.

فٱنْظُرْ كيفَ حَسَّنَ شكلَ العينينِ وهيئتَهُما ومقدارَهُما، ثمَّ جَمَّلَهُما بالأجفانِ غطاءً لهُما وسترًا وحفظًا وزينةً؛ فهُما يَتَلَقَّيانِ عنِ العينِ الأذى والقذى والغبارَ ويُكِنَّانِها[٣] مِن البارِدِ المؤذي والحارِّ المؤذي، ثمَّ غَرَسَ في أطرافِ تلكَ الأجفانِ الأهدابَ جمالاً وزينةً ولمنافعَ أُخرَ وراءَ الجمالِ والزِّينةِ[٤]، ثمَّ أَوْدَعَهُما ذٰلكَ النُّورَ الباصرَ والضَّوءَ الباهرَ الذي يَخْرِقُ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ ثمَّ يَخْرِقُ السَّماءَ مجاوزًا لرؤيةِ ما فوقَها مِن الكواكبِ. وقد أَوْدَعَ سبحانَهُ هٰذا السِّرَّ العجيبَ في هٰذا المقدارِ الصَّغيرِ بحيثُ تَنْطَبِعُ فيهِ صورةُ السَّماواتِ معَ ٱتِّساعِ أكنافِها وتباعدِ أقطارِها!

● وشَقَّ لهُ السَّمعَ وخَلَقَ الأُذُنَ[٥] أحسنَ خلقةٍ وأبلغَها في حصولِ المقصودِ منها. فجَعَلَها مجوَّفةً كالصَّدفةِ؛ لِتَجْمَعَ الصَّوتَ فتُؤدِّيَهُ إلى الصِّماخِ، ولِيُحِسَّ بدبيبِ الحيوانِ[٦] فيها فيُبادِرَ إلى إخراجِهِ. وجَعَلَ فيها غضونًا وتجاويفَ وٱعوجاجاتٍ؛ تُمْسِكُ الهواءَ والصَّوتَ الدَّاخلَ فتكْسِرُ حدَّتَهُ ثمَّ تُؤدِّيهِ إلى الصِّماخِ، ومِن حكمةِ ذٰلكَ

= ومع ذٰلك؛ فتخطئة القدماء في عدّهم طبقات العين سبعًا فيها إجحاف كبير، وذٰلك أنّهم عدّوا الجوف العظمي الذي يحيط بالعين طبقة، والنسيج الشحمي حول العين طبقة، والسوائل المائية والزجاجيّة والعدسة داخل العين طبقات ثلاث. . . فأصبحت الطبقات سبعًا بهٰذا الاعتبار وربّما زادت عن ذٰلك بٱعتبارات أخرى.

(١) في خ: «التطلّعت العين عن الإبصار. . . بقدر العدسة ينظر به»!

(٢) يظنّ أكثر الناس أنّ إنسان العين أو البؤبؤ Pupil هو محلّ حاسّة البصر، وهٰذا خطأ شائع، فإنسان العين هو فتحة دائريّة في الطبقة القزحيّة، تتوسّع وتتضيّق للتحكّم بمقدار الأشعّة التي تمرّ إلى الطبقة الشبكيّة الحسّاسة للضوء والتي هي موضع حاسّة البصر. فإنسان العين لا يعدو أن يكون حاجبًا يسمح بمرور الضوء اللازم للرؤية ويمنع من مرور الأشعّة الضارّة بالشبكيّة، التي هي الجزء الحسّاس المبصر من العين.

(٣) في خ وط: «ويكنّانهما»! والكلام عن عين واحدة وجفنين فقط!

(٤) من أهمّها حجب الغبار والأذى عن العين، وتبديد الأشعّة الضارّة الداخلة إليها.

(٥) في خ: «فهما يلتقيان عن العين. . . غرس في الحداق تلك الأجفان. . . وخلق له الأذان».

(٦) يريد الحشرات والطفيليّات التي تدخل إلى الأذن أحيانًا كالذباب والبعوض.

أيضًا أنْ يُطَوِّلَ بِهِ الطَّرِيقُ على الحيوانِ، فلا يَصِلُ إلى الصِّماخِ حتَّى يَسْتَيْقِظَ أو يَنْتَبِهَ لإمساكِهِ، وفيهِ أيضًا حكمٌ غيرُ ذٰلكَ(١).

● ثمَّ ٱقْتَضَتْ حكمةُ الرَّبِّ الخالقِ سبحانَهُ أنْ جَعَلَ ماءَ الأُذُنِ مرًّا في غايةِ المرارةِ فلا يُجاوِزُهُ الحيوانُ ولا يَقْطَعُهُ داخلاً إلى باطنِ الأُذُنِ، بل إذا وَصَلَ إليهِ؛ أَعْمَلَ الحيلةَ في رجوعِهِ(٢). وجَعَلَ ماءَ العينِ مالحًا؛ لِيَحْفَظَها؛ فإنَّها شحمةٌ قابلةٌ للفسادِ، فكانَتْ ملوحةُ مائِها صيانةً لها وحفظًا(٣). وجَعَلَ ماءَ الفمِ عذبًا حلوًا؛ لِيُدْرِكَ بهِ طعومَ الأشياءِ على ما هيَ عليهِ؛ إذْ لو كانَ على غيرِ هٰذهِ الصفةِ؛ لأحالَها إلى طبيعتِهِ(٤)، كما أنَّ مَن عَرَضَ لفمِهِ المرارةُ ٱسْتَمَرَّ [طعمَ] الأشياءِ التي ليستْ بمرَّةٍ(٥)، كما قيلَ:

وَمَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ الماءَ الزُّلالا

● ونَصَبَ سبحانَهُ قصبةَ الأنفِ في [وسطِ] الوجهِ فأَحْسَنَ شكلَهُ /خ٣٠٣/ وهيئتَهُ [ووضعَهُ]. وفَتَحَ فيهِ المَنْخِرَيْنِ، وحَجَزَ بينَهُما بحاجزٍ، وأَوْدَعَ فيهِما حاسَّةَ الشَّمِّ التي تُدْرَكُ بها أنواعُ الرَّوائحِ الطَّيِّبةِ والخبيثةِ والنَّافعةِ والضَّارَّةِ، ولِيُسْتَنْشَقَ بهِ الهواءُ فيوصِلَهُ إلى القلبِ فيَتَرَوَّحَ بهِ ويَتَغَذَّى [بهِ](٦). ثمَّ لمْ يَجْعَلْ في داخلِهِ مِن الاعوجاجاتِ

---

(١) من المعتمد عند الأطبّاء المعاصرين أنّ لصيوان الأذن وظائف أجملها فيما يلي: أوّلاً: تحديد مصدر الصوت المسموع وذٰلك بفضل الانحناءات والتعرّجات الموجودة فيه. ثانيًا: تجميع الأصوات وتعزيزها لا كسر حدّتها وشدّتها، فالأذن بحاجة إلى تقوية الأصوات لا إلى تبديدها. ثالثًا: وأمّا الأصوات الشديدة المؤذية للعصب السمعي؛ فمهمّة تخفيف أذيّتها تقع على عاتق الأذن الوسطى لا الصيوان. رابعًا: وفي كلّ حال؛ فلصيوان الأذن عند الإنسان دور ضعيف بالمقارنة مع دوره عند الحيوانات المختلفة.

(٢) ماء الأذن Cerumen مفرز طبيعي لخلايا غدّيّة خاصّة موجودة في مجرى السمع الظاهر وظيفته تليين الجلد وٱلتقاط الأجسام الغريبة الداخلة إلى الأذن سواء أكانت حشرة أم جرثومًا أم غبارًا أم غير ذٰلك.

(٣) فوائد الدمع للعين كثيرة أذكر منها: أوّلاً: حفظ شفافية القرنيّة وجعلها رائقة كالبلّور. ثانيًا: ترطيب سطح العين. ثالثًا: إزالة الأتربة والغبار والأجسام الغريبة. رابعًا: قتل الجراثيم بما تحويه من الأملاح والإنزيمات الحالّة. خامسًا: تسهيل حركة الأجفان على سطح العين. وأخيرًا؛ فالأطبّاء المعاصرون لا يقرّون بأنّ العين شحمة قابلة للفساد، ولهم كلّ الحقّ في ذٰلك، ولٰكنّهم لا يتردّدون أبدًا في الإقرار بالدور العظيم للدمع في حفظ العين وصيانتها.

(٤) وذٰلك لأنّ اللسان لا يشعر بالطعوم إلاّ إذا ٱنحلّت باللعاب.

(٥) في خ: «الطريق عن الحيوان... ماء العينين ملحًا... ليدرك به طعم الأشياء... ليست مرّة».

(٦) وهاتان هما وظيفتا الأنف: الوظيفة الشمّيّة، والوظيفة التنفّسيّة. لٰكنّ الهواء المستنشق لا يذهب=

والغضونِ ما جَعَلَ في الأُذنِ؛ لئلاَّ يُمْسِكَ الرَّائحةَ فيُضْعِفَها ويَقْطَعَ مجراها[(١)]. وجَعَلَهُ سبحانَهُ مصبًّا تَنْحَدِرُ[(٢)] إليهِ فضلاتُ الدِّماغِ فتَجْتَمِعُ [فيهِ] ثمَّ تَخْرُجُ منهُ. وٱقْتَضَتْ حكمتُهُ أنْ جَعَلَ أعلاهُ أدقَّ مِن أسفلِهِ: لأنَّ أسفلَهُ إذا كانَ واسعًا؛ ٱجْتَمَعَتْ فيهِ تلكَ الفضلاتُ فخَرَجَتْ بسهولةٍ، ولأنَّهُ يأْخُذُ مِن الهواءِ ملأَهُ ثمَّ يَتَصاعَدُ في مجراهُ قليلاً قليلاً حتَّى يَصِلَ إلى القلبِ وصولاً لا يَضُرُّهُ ولا يُزْعِجُهُ. ثمَّ فَصَلَ بينَ المَنْخِرَيْنِ بحاجزٍ بينَهُما حكمةً منهُ ورحمةً: فإنَّهُ لمَّا كانَ قصبةً ومجرًى سائرًا لِما يَنْحَدِرُ فيهِ مِن فضلاتِ الرَّأْسِ ومجرى النَّفَسِ[(٣)] الصَّاعدِ منهُ؛ جَعَلَ في وسطِهِ حاجزًا؛ لئلاَّ يَنْسَدَّ[(٤)] بما يَجْري فيهِ فيَمْنَعَ نَشْقَهُ للنَّفَسِ، بل إمَّا أنْ يَعْتَمِدَ الفضلاتِ نازلةً مِن أحدِ المنفذينِ في الغالبِ فيَبْقى الآخرُ للنَّفسِ، وإمَّا أنْ يَجْرِيَ فيهما فيَنْقَسِمَ فلا يَنْسَدَّ الأنفُ جملةً بل يَبْقَى فيهِ مدخلٌ للنَّفَسِ. وأيضًا؛ فإنَّهُ لمَّا كانَ عضوًا واحدًا وحاسَّةً واحدةً، ولمْ يَكُنْ عضوينِ وحاسَّتينِ كالأُذُنينِ والعينينِ اللتينِ ٱقْتَضَتِ الحكمةُ تعدُّدَهُما؛ فإنَّهُ ربَّما أُصيبتْ إحداهُما أو عَرَضَتْ[(٥)] لها آفةٌ تَمْنَعُها مِن كمالِها فتكونُ الأُخرى سالمةً فلا تَتَعَطَّلُ منفعةُ هٰذا الجنسِ جملةً، وكانَ وجودُ أنفينِ في الوجهِ شِيًا ظاهرًا[(٦)]، فنَصَبَ [فيهِ] أنفًا واحدًا وجَعَلَ فيهِ منفذينِ حَجَزَ بينَهُما بحاجزٍ يَجْري مجرى تعدُّدِ العينينِ والأُذنينِ في المنفعةِ وهوَ واحدٌ[(٧)]. فتَبارَكَ اللهُ ربُّ العالَمينَ وأحسنُ الخالقينَ.

= إلى القلب ولا يروّحه ولا يغذّيه، بل إلى الرئة كما هو معلوم! وسيأتي قريبًا مزيد من التفصيل في هٰذا.

(١) إن كان الكلام عن الهيئة الخارجيّة؛ فنعم. وأمّا في الداخل؛ فالتجاويف والاعوجاجات والانحناءات داخل الأنف أكثر من مثيلاتها في الأذن بكثير.

(٢) في ط: «في الوجه فأحسن... وليتنشّق...»، وفي خ: «... يمسك الراحة... يتحدّر».

(٣) في خ: «ومجرًى سائرًا لما ينحدر منه من فضلات الرأس المجرى للنفس»!

(٤) في خ وط: «لئلاّ يفسد»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٥) في خ: «فبقي الآخر... التي ٱقتضت الحكمة... إحداهما وعرضت»!

(٦) في خ وط: «شيئًا ظاهرًا»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه. والشية: العيب، التشويه.

(٧) هاهنا ملاحظات وفوائد لا بدّ من ذكرها:

فأوّلها: أنّ الوظيفة الأساسيّة للأنف هي تنقية الهواء وتكييفه حرارة ورطوبة قبل وصوله إلى المجاري التنفّسيّة لا إلى القلب كما ظنّ الأطبّاء القدماء.

ثانيًا: تتمّ تنقية الهواء في الأنف بوساطة الأشعار والأهداب والمفرزات المخاطيّة التي تمنع دخول=

● وشَقَّ سبحانَهُ للعبدِ الفمَ في أحسنِ موضعٍ وأليقِهِ بهِ، وأوْدَعَ فيهِ مِن المنافعِ وآلاتِ الذَّوقِ والكلامِ وآلاتِ القطعِ والطَّحنِ ما يَبْهَرُ العقولَ[1] عجائبُهُ:

فأوْدَعَهُ /خ٣٠٤/ اللسانَ الذي هوَ أحدُ آياتِهِ الدَّالَّةِ عليهِ، وجَعَلَهُ ترجمانًا لملكِ الأعضاءِ مُبينًا [مؤدِّيًا] عنهُ كما جَعَلَ الأُذنَ رسولاً مؤدِّيًا مبلِّغًا [إليهِ]، فهيَ رسولُهُ وبريدُهُ الذي يُؤدِّي إليهِ الأخبارَ واللسانُ رسولُهُ وبريدُهُ الذي يُؤدِّي عنهُ ما يُريدُ. وٱقْتَضَتْ حكمتُهُ سبحانَهُ أنْ جَعَلَ هٰذا الرَّسولَ مَصونًا محفوظًا مستورًا غيرَ بارزٍ مكشوفٍ كالأُذنِ والعينِ والأنفِ: لأنَّ تلكَ الأعضاءَ لمَّا كانَتْ تُؤدِّي مِن الخارجِ إليهِ؛ جُعِلَتْ بارزةً ظاهرةً، ولمَّا كانَ اللسانُ مؤدِّيًا منهُ إلى الخارجِ؛ جُعِلَ مستورًا مصونًا؛ لعدمِ الفائدةِ في إبرازِهِ[2]؛ لأنَّهُ [لا] يَأْخُذُ مِن الخارجِ إلى القلبِ. وأيضًا؛ فإنَّهُ لمَّا كانَ

= الأتربة والغبار والجراثيم حيث تلتصق فيها وتتحلّل بفعل الخمائر الحالّة الموجودة في المخاط.

ثالثًا: تتمّ تدفئة الهواء وتبريده بتوسّع أو تضيّق الأوعية الدمويّة الغزيرة الموجودة في جدران الأنف، فلو كانت حرارة الهواء +٤٥ أو-١٠؛ فإنّه لا يصل إلى البلعوم إلاّ بحرارة ٣٦-٣٧.

رابعًا: ترطّب السوائل المخاطيّة والمصليّة الكثيرة التي يفرزها الأنف الهواء، وتقدّر بـ ١٨٠٠مل في اليوم، يمتصّ الهواء منها ١٠٠٠مل تقريبًا، ويُبتلع أغلب الباقي بعد ٱلتصاق الأتربة والجراثيم فيه ليصل إلى المعدة. وبغضّ النظر عن رطوبة الهواء الخارجيّ؛ فإنّ الهواء الواصل إلى البلعوم تكون رطوبته ٧٥-٨٠٪.

خامسًا: وعليه؛ فوصف المفرزات الأنفيّة بالفضلات وصف بعيد عن الواقع، ولولا هٰذه المفرزات؛ لتعطّلت عمليّة التنفّس وٱضطربت أحوال الرئتين والطرق التنفّسيّة ٱضطرابًا عظيمًا.

سادسًا: إنّ فكرة ٱنحدار فضلات الدماغ إلى الأنف وخروجها منه هي صدًى للنظريّة الطبيّة اليونانيّة التي سادت ردحًا طويلاً من الزمن وٱعتنى بها العلماء المسلمون قديمًا، وقد سقطت هٰذه النظريّة وأكثر متعلّقاتها ومنها هٰذه الفكرة مع تطوّر الطبّ التجريبي المعاصر كما تقدّم لك (١/ ٤٨). والثابت اليوم أنّه ما من صلة بين الدماغ وجوف الأنف، وأنّ أيّ سيلان للسائل الدماغي الشوكي إلى جوف الأنف هو ظاهرة مرضيّة خطيرة تشير إلى وجود كسر أو نخر في قاع الجمجمة. وإنّما يتمّ نقل فضلات الدماغ عن طريق الدم إلى الكلية فالبول شأنه شأن سائر أعضاء الجسم.

سابعًا: إنّ الوظيفة الرئيسيّة للحاجز بين المنخرين هي تضييق مجرى الهواء وزيادة سطح التماس بين الهواء وبين جدران الأنف من أجل كمال عمليّة التنقية والتكييف والترطيب.

ثامنًا: إنّ أسفل الأنف أوسع من أعلاه من حيث الهيئة الخارجيّة فقط، وعلم التشريح يفيد أنّ الفتحة العلويّة للأنف أعظم بكثير من فتحتي المنخرين.

(١) في خ: «منفذين بحجز بينهما... ما يبهم العقول».

(٢) في ط: «جعل له سترًا مصونًا لعدم الفائدة في إبرازه»، وفي خ: «... الفائدة في إخراجه».

أشرفَ الأعضاءِ بعدَ القلبِ ومنزلتُهُ منهُ منزلةُ ترجمانِهِ ووزيرِهِ؛ ضُرِبَ عليهِ سرادقُ يَسْتُرُهُ ويَصونُهُ وجُعِلَ في ذٰلكَ السُّرادقِ كالقلبِ في الصَّدرِ. وأيضًا؛ فإنَّهُ مِن ألطفِ الأعضاءِ وألينِها وأشدِّها رطوبةً، وهوَ لا يَتَصَرَّفُ إلَّا بواسطةِ الرُّطوبةِ المحيطةِ بهِ، فلو كانَ بارزًا؛ صارَ عرضةً للحرارةِ واليبوسةِ والنَّشافِ المانعِ لهُ مِن التَّصرُّفِ. ولغيرِ ذٰلكَ مِن الحكمِ والفوائدِ.

ثمَّ زَيَّنَ سبحانَهُ الفمَ بما فيهِ مِن الأسنانِ؛ التي هيَ جمالٌ لهُ وزينةٌ، وبها قِوامُ [العبدِ] وغذاؤُهُ. وجَعَلَ بعضَها أرحاءَ للطَّحنِ، وبعضَها آلةً للقطعِ فأحْكَمَ أُصولَها وحَدَّدَ رؤوسَها. وبيَّضَ لونَها، ورَتَّبَ صفوفَها متساويةَ الرُّؤوسِ متناسقةَ التَّرتيبِ، كأنَّها الدُّرُّ النَّظيمُ بياضًا وصفاءً وحسنًا.

وأحاطَ سبحانَهُ على ذٰلكَ [كلِّهِ] حائطينِ أَوْدَعَهُما مِن المنافعِ والحكمِ ما أَوْدَعَهُما، وهُما الشَّفتانِ، فحَسَّنَ لونَهُما وشكلَهُما ووضعَهُما وهيئتَهُما[١]، وجَعَلَهُما غطاءً للفمِ وطبقًا لهُ، وجَعَلَهُما إتمامًا لمخارجِ حروفِ الكلامِ ونهايةً لهُ كما جَعَلَ أقصى الحلقِ بدايةً لهُ واللسانَ وما جاوَرَهُ وسطًا، ولهٰذا كانَ أكثرُ العملِ فيها لهُ؛ إذْ هوَ الواسطةُ. واقْتَضَتْ حكمتُهُ [سبحانَهُ] أنْ جَعَلَ الشَّفتينِ لحمًا صرفًا لا عظمَ فيهِ ولا عصبَ؛ لِيَتَمَكَّنَ بهِما مِن مصِّ الشَّرابِ ويَسْهُلَ عليهِ فتحُهُما وطبقُهُما.

وخَصَّ الفكَّ الأسفلَ بالتَّحريكِ: لأنَّ تحريكَ /خ٣٠٥/ الأخفِّ أحسنُ، ولأنَّهُ لا يَشْتَمِلُ[٢] على الأعضاءِ الشَّريفةِ فلمْ يُخاطَرْ بها في الحركةِ.

● وخَلَقَ سبحانَهُ الحناجرَ مختلفةَ الأشكالِ في الضِّيقِ والسَّعةِ والخشونةِ والملاسةِ والصَّلابةِ واللينِ والطولِ والقصرِ، فاخْتَلَفَتْ بذٰلكَ الأصواتُ أعظمَ اخْتلافٍ، ولا يَكادُ يَشْتَبِهُ صوتانِ إلَّا نادرًا. ولهٰذا؛ كانَ الصَّحيحُ قبولُ شهادةِ الأعمى؛ لتمييزِهِ بينَ الأشخاصِ بأصواتِهِم كما يُمَيِّزُ البصيرُ بينَهُم بصورِهِم، والاشتباهُ العارضُ بينَ الأصواتِ

---

(١) في خ: «رحًى للطحن... متساوية الرأس...»، وفي ط: «... الدرّ المنظوم... ذٰلك حائطين وأودعهما... وهيأهما». والأرحاء: جمع رحًى، وهي الآلة المشهورة التي تطحن بها الحبوب.

(٢) في خ: «وخصّ الصك... أحسن ولا يشتمل»، وفي ط: «... أحسن ولأنّه يشتمل»!

كالاشتباهِ العارضِ[١] بينَ الصُّورِ[٢].

● وزَيَّنَ سبحانَهُ الرَّأْسَ بالشَّعرِ وجَعَلَهُ لباسًا لهُ لاحتياجِهِ إليهِ.

وزَيَّنَ الوجهَ بما أَنْبَتَ فيهِ مِن الشُّعورِ المختلفةِ الأشكالِ والمقاديرِ: فزَيَّنَهُ بالحاجبينِ، وجَعَلَهُما وقايةً لِما يَنْحَدِرُ مِن بشرةِ الرَّأْسِ إلى العينينِ، وقَوَّسَهُما، وأَحْسَنَ خَطَّهُما[٣]. وزَيَّنَ أجفانَ العينينِ بالأهدابِ. وزَيَّنَ الوجهَ أيضًا باللحيةِ وجَعَلَها كمالاً ووقارًا ومهابةً للرَّجلِ. وزَيَّنَ الشَّفتينِ بما أَنْبَتَ فوقَهُما مِن الشَّاربِ وتحتَهُما مِن العَنْفَقَةِ.

[١٠ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في خلق اليدين]

وكذٰلكَ خلقُهُ سبحانَهُ لليدينِ اللتينِ هُما آلةُ العبدِ وسلاحُهُ ورأْسُ مالِهِ ومعاشُهُ: فطَوَّلَهُما بحيثُ يَصِلانِ إلى ما شاءَ مِن بدنِهِ، وعَرَّضَ الكفَّ لِيَتَمَكَّنَ بهِ مِن القبضِ والبسطِ، وقَسَّمَ فيهِ الأصابعَ الخمسَ، وقَسَّمَ كلَّ إصبعٍ بثلاثِ أناملَ والإبهامَ بٱثنتينِ، ووَضَعَ الأصابعَ الأربعةَ في جانبٍ [والإبهامَ في جانبٍ]؛ لِتَدورَ الإبهامُ على الجميعِ، فجاءَتْ على أحسنِ وضعٍ صَلَحَتْ [بهِ] للقبضِ والبسطِ ومباشرةِ الأعمالِ، ولوِ ٱجْتَمَعَ الأوَّلونَ والآخرونَ على أنْ يَسْتَنْبِطوا بدقيقِ أفكارِهِم وضعًا آخرَ للأصابعِ سوى ما وُضِعَتْ عليهِ؛ لمْ يَجِدوا إليهِ سبيلاً. فتبارَكَ مَن لو شاءَ لَسَوَّاها وجَعَلَها طبقًا واحدًا كالصَّفيحةِ فلمْ يَتَمَكَّنِ العبدُ بذٰلكَ مِن مصالحِهِ وأنواعِ تصرُّفاتِهِ ودقيقِ الصَّنائعِ والخطِّ وغيرِ ذٰلكَ. فإنْ بَسَطَ أصابعَهُ؛ كانَتْ طبقًا يَضَعُ عليهِ ما يُريدُ، وإنْ ضَمَّها وقَبَضَها؛

---

(١) في خ: «والطول والعرض والقصر...»، وفي ط: «... كالاشتباه المعارض»!

(٢) يعني: فكما تقبل شهادة البصير مع ٱشتباه بعض الصور ببعض فكذٰلك تقبل شهادة الأعمى مع ٱشتباه بعض الأصوات ببعض، وذٰلك أنّ النادر لا حكم له.

(٣) إي والله أحسن خطهما! فماذا يقول المرء لمن ٱنتكست فطرته من النساء والرجال، فراح يثخّن ويرقّع ويطوّل ويقصّر ويخفض ويرفع ويرى جميل البارحة اليوم قبيحًا وقبيح البارحة اليوم جميلاً؟! ماذا يقول؟! ولو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. والله المستعان.

كانَتْ دبُّوسًا وآلةً للضَّربِ، وإنْ جَعَلَها بينَ الضَّمِّ والبسطِ؛ كانَتْ مغرفةً لهُ يَتَناوَلُ بها ويُمْسِكُ فيها ما يَتَناوَلُهُ. وركَّبَ الأظفارَ على رؤوسِها: زينةً لها، وعمادًا، ووقايةً، وليُلْتَقَطَ[١] بها /خ٣٠٦/ الأشياءُ الدَّقيقةُ التي لا يَنالُها جسمُ الأصابعِ، وجَعَلَها سلاحًا لغيرِهِ مِن الحيوانِ والطَّيرِ وآلةً لمعاشِهِ، وليَحُكَّ الإنسانُ بها بدنَهُ عندَ الحاجةِ. فالظُّفْرُ الذي هوَ أقلُّ الأعضاءِ وأحقرُها، لو عَدِمَهُ الإنسانُ، ثمَّ ظَهَرَتْ بِهِ حكَّةٌ؛ لاشْتَدَّتْ حاجتُهُ إليهِ ولمْ يَقُمْ مقامَهُ شيءٌ في حكِّ بدنِهِ. ثمَّ هَدى اليدَ[٢] إلى موضعِ الحكِّ حتَّى تَمْتَدَّ إليهِ ولو في النَّومِ والغفلةِ مِن غيرِ حاجةٍ إلى طلبٍ، ولو ٱسْتَعانَ بغيرِهِ؛ لمْ يَعْثُرْ على موضعِ الحكِّ إلَّا بعدَ تعبٍ ومشقَّةٍ.

[١١ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في هندسة العظام والأربطة]

ثمَّ ٱنْظُرْ إلى الحكمةِ البالغةِ في جعلِ عظامِ أسفلِ البدنِ غليظةً قويَّةً؛ لأنَّها أساسٌ لهُ، وعظامِ أعاليهِ دونَها في الثَّخانةِ والصَّلابةِ؛ لأنَّها محمولةٌ[٣].

ثمَّ ٱنْظُرْ كيفَ جَعَلَ الرَّقبةَ مركبًا للرَّأسِ، وركَّبَها مِن سبعِ خرزاتٍ مجوَّفاتٍ مستديراتٍ، ثمَّ طَبَّقَ بعضَها على بعضٍ، وركَّبَ كلَّ خرزةٍ على صاحبتِها تركيبًا محكمًا متقنًا حتَّى صارَتْ كأنَّها خرزةٌ واحدةٌ.

ثمَّ ركَّبَ الرَّقبةَ على الظَّهرِ والصَّدرِ.

ثمَّ ركَّبَ الظَّهرَ مِن أعلاهُ إلى منتهى عظمِ العجزِ مِن أربعٍ وعشرينَ خرزةً[٤] مركَّبةً

---

(١) في ط: «مال معاشه...»، وفي خ: «... الجميع فكانت على... وٱعتمادًا ووقاية ويلتقط».

(٢) في خ: «التي يتناولها جسم الأصابع... مقامه في شيء... ثمّ يهدي اليد».

(٣) وهٰذا يظهر أبلغ ظهور وأوضحه في فقرات العمود الفقري، التي تتدرّج ثخانة وصلابة من الأعلى إلى الأسفل. وكذٰلك هو ظاهر في المفارقة بين ثخانة عظام الطرفين العلوي والسفلي.

(٤) يتكوّن العمود الفقري من: ٧ فقرات رقبيّة، و١٢ فقرة ظهريّة، و٥ فقرات قطنيّة، وعظم العجز، وعظم العصعص. ثمّ عظم العجز هو ٥ فقرات ملتحمة، وكذٰلك العصعص ٤-٥ فقرات ملتحمة. فمنهم من يعدّ كلاًّ من العجز والعصعص عظمًا واحدًا، ومنهم من يعدّه خمسًا على الأصل، ومنهم من يعدّ العجز خمسًا والعصعص واحدًا... وهٰذا سرّ ٱختلافهم في عدد الفقرات.

بعضُها في بعضٍ هيَ مجمعُ أضلاعِهِ والتي تُمْسِكُها أنْ تَنْحَلَّ وتَنْفَصِلَ.

ثمَّ وَصَلَ تلكَ العظامَ بعضَها ببعضٍ: فوَصَلَ عظامَ الظَّهرِ بعظامِ الصَّدرِ، وعظامَ الكتفينِ بعظامِ العضدينِ، والعضدينِ بالذِّراعينِ، والذِّراعينِ بالكفِّ والأصابعِ.

وٱنْظُرْ كيفَ كَسا العظامَ العريضةَ كعظامِ الظَّهرِ والرَّأْسِ كسوةً مِن اللحمِ تُناسِبُها، والعظامَ الدَّقيقةَ كسوةً تُناسِبُها كالأصابعِ، والمتوسِّطةَ كذٰلكَ كعظامِ الذِّراعينِ والعضدينِ.

فهوَ مركَّبٌ على ثلاثِ مئةٍ وستِّينَ عظمًا، منها مئتانِ وثمانيةٌ وأربعونَ مفاصلَ، وباقيها صغارٌ حُشِيَتْ خلالَ المفاصلِ، فلو زادَتْ عظمًا واحدًا؛ لَكانَ مضرَّةً على الإنسانِ يَحْتاجُ إلى قلعِهِ، ولو نَقَصَتْ عظمًا واحدًا؛ كانَ نقصانًا يَحْتاجُ إلى جبرِهِ[1].

فالطَّبيبُ يَنْظُرُ في هٰذهِ العظامِ وكيفيَّةِ تركيبِها لِيَعْرِفَ وجهَ العلاجِ في جبرِها، والعارفُ يَنْظُرُ فيها لِيَسْتَدِلَّ بها على عظمةِ باريها وخالقِها /خ٣٠٧/ وحكمتِهِ وعلمِهِ ولطفِهِ، وكم بينَ النَّظَرينِ!

ثمَّ إنَّهُ سبحانَهُ رَبَطَ تلكَ الأعضاءَ والأجزاءَ بالرِّباطاتِ، فشَدَّ بها أزرَها وجَعَلَها كالأوتادِ[2] تُمْسِكُها وتَحْفَظُها، حتَّى بَلَغَ عددُها إلى خمسِ مئةٍ وتسعةٍ وعشرينَ رباطًا، وهيَ مختلفةٌ في الغلظِ والدِّقَّةِ والطُّولِ[3] والقصرِ والاستقامةِ والانحناءِ بحسبِ ٱختلافِ مواضعِها ومحالِّها. فجَعَلَ منها أربعةً وعشرينَ [رباطًا] آلةً لتحريكِ العينِ وفتحِها وضمِّها وإبصارِها، لو نَقَصَتْ منها رباطًا [واحدًا]؛ ٱخْتَلَّ[4] أمرُ العينِ. وهٰكذا لكلِّ عضوٍ مِن الأعضاءِ رباطاتٌ هنَّ لهُ كالآلاتِ التي بها يَتَحَرَّكُ ويَتَصَرَّفُ ويَفْعَلُ كلَّ

---

(١) يبلغ مجموع عظام الهيكل العظمي مع الجمجمة في جسم الإنسان ٢٠٦ عظام أو ٢١٤ عظمًا إذا ٱحتسبنا فقرات العجز والعصعص كما تقدّم في الحاشية السابقة. والغالب أنّ هٰذا الفارق الضخم بين تعداد الأوّلين وتعداد المعاصرين إنّما وقع لأنّ الأوّلين عدّوا بعض العظام المفردة ٱثنين وثلاثًا وأدخلوا في العظام ما ليس منها من الغضاريف والأقراص الليفية ونحوها. والله أعلم.

(٢) في خ وط: «فشدّ بها أسرها وجعلها كالأوتار»! فهاهنا تحريفان صوابهما ما أثبتّ إن شاء الله.

(٣) في خ: «وتسعة في عشرين... والرقّة والطول».

(٤) في خ: «أربعة وعشرين للتحريك وفتحها... منهنّ رباطًا ٱختلّ».

ذٰلكَ[١]. صنعُ الرَّبِّ الحكيمِ وتقديرُ العزيزِ العليمِ في قطرةٍ مِن ماءٍ مهينٍ، فويلٌ للمكذِّبينَ وبعدًا[٢] للجاحدينَ.

[١٢ـ فصل]

[في بدائع صنعته تعالى في خزائن الرأس]

ومِن عجائبِ خلقِهِ أنَّهُ جَعَلَ في الرَّأْسِ ثلاثَ خزائنَ نافذًا بعضُها إلى بعضٍ؛ خزانةً في مقدَّمِهِ وخزانةً في وسطِهِ وخزانةً في آخرِهِ، وأوْدَعَ تلكَ الخزائنَ مِن أسرارِهِ ما أوْدَعَها مِن الذِّكرِ والفكرِ والتَّعقُّلِ[٣].

[١٣ـ فصل]

[في بدائع صنعته تعالى في القلب والدماغ والأعضاء الباطنة]

ومِن عجائبِ خَلْقِهِ ما فيهِ مِن الأُمورِ الباطنةِ التي لا تُشاهَدُ كالقلبِ والكبدِ والطِّحالِ والرِّئةِ والأمعاءِ والمثانةِ وسائرِ ما في بطنِهِ مِن الآلاتِ العجيبةِ والقوى المتعدِّدةِ المختلفةِ المنافعِ.

---

(١) يبدو أنّ لفظة «الرباطات» هنا تضمّ العضلات والأوتار والأربطة المفصليّة والمحافظ الليفيّة وربّما بعض الأعصاب، وتعداد مثل هٰذه الأشياء في جسم الإنسان فيه صعوبة بالغة، وغالبًا ما لا يكون دقيقًا، وليس من ورائه طائل، ولذٰلك لم يُعن به أساتذة التشريح المعاصرون. وأمّا تعداد الماضين؛ فبعيد جدًّا عن الدقّة، وذٰلك لأنّه وصفيّ يعتمد على الهيئة الخارجيّة فقط دون أصول وضوابط علميّة دقيقة تحدّد ما يدخل في الرباطات وما لا يدخل فيها وما يعدّ واحدًا وما يعدّ اثنين أو ثلاثًا أو أربعًا.

وعلى سبيل المثال؛ فالمعتمد عند الأطبّاء المعاصرين أنّ عدد العضلات المحرّكة لكرة العين ستّة، وهناك عضلة سابعة دائريّة محرّكة للجفنين، وقد عدّها الأقدمون أربعًا وعشرين كما ترى! فانظر إلى هٰذا التفاوت بين التشريح المنهجي العملي المعاصر والتشريح الشكلي الوصفي القديم.

(٢) كذا بالنصب، وله وجه، والرفع أولى بالسياق.

(٣) كان المتقدّمون من الأطبّاء يرون أنّ الدماغ ينقسم إلى ثلاثة أقسام يحجز بينها أغشية: أحدها في مقدّم الرأس، وهو موضع التخيّل. والثاني في وسط الرأس، وهو موضع العقل والفكر والتمييز. والثالث في مؤخّر الرأس، وهو موضع الحفظ والذكر والقول. والأمر اليوم أعقد من ذٰلك بكثير، والأطبّاء المعاصرون لا يقرّون بهٰذه الخزائن المنفصلة ولا يرون هٰذا التقسيم صائبًا.

● فأمَّا القلبُ؛ فهوَ الملكُ المستغلُّ لجميعِ آلاتِ البدنِ المستخدِمُ[١] لها، فهوَ محفوفٌ بها محشودٌ مخدومٌ مستقرٌّ في الوسطِ. وهوَ أشرفُ أعضاءِ البدنِ، وبهِ قوامُ الحياةِ، وهوَ منبعُ الرُّوحِ الحيوانيِّ والحرارةِ الغريزيَّةِ[٢]، وهوَ معدنُ العقلِ [والعلمِ] والحلمِ والشَّجاعةِ والكرمِ والصَّبرِ والاحتمالِ والحبِّ والإرادةِ والرِّضى والغضبِ وسائرِ صفاتِ الكمالِ[٣]. فجميعُ الأعضاءِ الظَّاهرةِ والباطنةِ وقواها إنَّما هيَ جندٌ مِن أجنادِ القلبِ.

فإنَّ العينَ طليعتُهُ ورائدُهُ الذي يَكْشِفُ لهُ المرئيَّاتِ، فإنْ رَأتْ شيئًا؛ أدَّتْهُ إليهِ، ولشدَّةِ الارتباطِ الذي بينَها وبينَهُ، إذا ٱسْتَقَرَّ فيهِ شيءٌ؛ ظَهَرَ فيها[٤]، فهي مرآتُهُ المترجمةُ للنَّاظرِ ما فيهِ /خ٣٠٨/.

كما أنَّ اللسانَ ترجمانُهُ المؤدِّي للسَّمعِ ما فيهِ.

ولهٰذا كثيرًا ما يَقْرِنُ سبحانَهُ في كتابِهِ بينَ هٰذهِ الثَّلاثةِ: كقولِهِ: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصارًا وَأَفْئِدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقولِهِ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨]، وقد تَقَدَّمَ ذٰلكَ[٥]. وكذٰلكَ يَقْرِنُ بينَ القلبِ والبصرِ: كقولِهِ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقولِهِ في حقِّ رسولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رَأى﴾، ثمَّ قالَ: ﴿ما زاغَ البَصَرُ وَما طَغى﴾ [النجم: ١١، ١٧].

وكذٰلكَ الأُذنُ هيَ رسولُهُ المؤدِّي إليهِ.

وكذٰلكَ اللسانُ ترجمانُهُ.

وبالجملةِ؛ فجميعُ الأعضاءِ خدمُهُ وجنودُهُ.

وقالَ النَّبيُّ ﷺ: «ألا إنَّ في الجسدِ مضغةً: إذا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذا

---

(١) في خ: «المشتغل بجميع...»، وفي ط: «المشتغل... والمستخدم»، والصواب ما أثبتّه.
(٢) يعني: الدم، كانوا يسمّونه الحارّ الغريزيّ.
(٣) تقدّم تفصيل القول في هٰذا (١/ ٧١) فراجعه كان الله لك.
(٤) في خ: «الروح الروحاني والحرارة... يكشف له الرايات... الارتباط التي... ظهر منها».
(٥) (١/ ١٩٤ و٢٩٠-٢٩٣).

فَسَدَتْ؛ فَسَدَ الجسدُ كلُّهُ[١]، ألا وهيَ القلبُ»[٢].

وقالَ أبو هُرَيْرَةَ: القلبُ ملكٌ والأعضاءُ جنودُهُ: فإنْ طابَ الملكُ؛ طابَتْ جنودُهُ، وإنْ خَبُثَ الملكُ؛ خَبُثَتْ جنودُهُ.

وجُعِلَتِ الرِّئةُ [لهُ] كالمروحةِ تُرَوِّحُ عليهِ دائمًا؛ لأنَّهُ أشدُّ الأعضاءِ حرارةً، بل هوَ منبعُ الحرارةِ.

● وأمَّا الدِّماغُ، وهوَ المخُّ؛ فإنَّهُ جُعِلَ باردًا، واْختُلِفَ في حكمةِ ذٰلكَ:

فقالَتْ طائفةٌ: إنَّما كانَ الدِّماغُ باردًا لتبريدِ الحرارةِ التي في القلبِ لِيَرُدَّها عنِ الإفراطِ إلى الاعتدالِ.

ورَدَّتْ طائفةٌ هٰذا وقالَتْ: لو كانَ كذٰلكَ؛ لمْ يَكُنِ الدِّماغُ بعيدًا عنِ القلبِ، بل كانَ يَنْبَغي أنْ يُحيطَ بهِ كالرِّئةِ أو يكونَ قريبًا منهُ في الصَّدرِ لِيَكْسِرَ حرارتَهُ.

قالَتِ الفرقةُ الأُولى: بعدُ الدِّماغِ مِنَ القلبِ لا يَمْنَعُ ما ذَكَرْناهُ مِنَ الحكمةِ؛ لأنَّهُ لو قَرُبَ منهُ لَغَلَبَتْهُ حرارةُ[٣] القلبِ بقوَّتِها، فجُعِلَ البعدُ بينَهُما [بحيثُ] لا يَتَفاسَدانِ وتَعْتَدِلُ كيفيَّةُ كلِّ واحدٍ منهُما بكيفيَّةِ الآخرِ، وهٰذا بخلافِ الرِّئةِ؛ فإنَّها آلةٌ للتَّرويحِ على القلبِ لمْ تُجْعَلْ لتعديلِ حرارتِهِ.

وتَوَسَّطَتْ فرقةٌ أُخرى وقالَتْ: بلِ المخُّ حارٌّ لٰكنَّهُ فاترُ الحرارةِ وفيهِ تبريدٌ بالخاصيَّةِ؛ فإنَّهُ مبدأٌ للذِّهنِ، ولهٰذا كانَ الذِّهنُ يَحْتاجُ إلى موضعٍ /خ٣٠٩/ ساكنٍ قارٍّ صافٍ عنِ الأقذارِ والكدرِ خالٍ مِنَ الجلبةِ والدَّخلِ، ولذٰلكَ يكونُ جودةُ الفكرِ والتَّذكُّرِ واْستخراجُ الصَّوابِ عندَ سكونِ البدنِ وفتورِ حركاتِهِ وقلَّةِ شواغلِهِ ومزعجاتِهِ، ولذٰلكَ لمْ يَصْلُحْ لها القلبُ وكانَ الدِّماغُ معتدلاً في ذٰلكَ صالحًا لهُ، ولذٰلكَ تَجودُ هٰذهِ الأفعالُ في الليلِ وفي المواضعِ الخاليةِ وتَفْسُدُ عندَ اْلتهابِ نارِ الغضبِ والشَّهوةِ وعندَ الهمِّ

---

(١) في ط: «وبالجملة فسائر... صلح لها سائر الجسد... فسد لها سائر الجسد».

(٢) رواه: البخاري (٢ـ الإيمان، ٣٩ـ فضل من اْستبرأ لدينه، ١/١٢٦/٥٢)، ومسلم (٢٢ـ المساقاة، ١٩ـ لعن آكل الربا، ٣/١٢١٩/١٥٩٩)؛ من حديث النعمان بن بشير.

(٣) في خ: «إنَّما كانت الدماغ... ليردها عن الإفراط... ليكثر حرارته... لغلبته الحرارة».

الشَّديدِ ومعَ التَّعبِ والحركاتِ القويَّةِ البدنيَّةِ والنَّفسانيَّةِ[١].

● وهٰذا بحثٌ متَّصلٌ بقاعدةٍ أُخرى، وهيَ أنَّ الحواسَّ والعقلَ [هل] مبدؤُها القلبُ [أ]وِ الدِّماغُ:

* فقالَتْ طائفةٌ: مبدؤُها كلِّها القلبُ، وهيَ مرتبطةٌ بهِ[٢]، وبينَهُ وبينَ الحواسِّ منافذُ وطرقٌ.

قالوا: وكلُّ واحدٍ مِن هٰذهِ الأعضاءِ التي هيَ آلاتُ الحواسِّ لهُ اتِّصالٌ بالقلبِ بأعصابٍ وغيرِ ذٰلكَ، وهٰذهِ الأعصابُ تَخْرُجُ مِن القلبِ إلى أنْ تَأْتِيَ إلى كلِّ واحدٍ مِن هٰذهِ الأجسامِ التي فيها [هٰذهِ] الحواسُّ، [ومنشأُ هٰذهِ الأعضاءِ مِن القلبِ، وهوَ مركَّبٌ مِن أشياءَ تُشاكِلُ جميعَ هٰذهِ الأجسامِ التي فيها هٰذهِ الحواسُّ][٣]!

قالوا: فالعينُ إذا أبْصَرَتْ شيئًا؛ أدَّتْهُ بالآلةِ التي فيها إلى القلبِ؛ لأنَّ هٰذهِ الآلةَ متَّصلةٌ منها إلى القلبِ، والسَّمعُ إذا أحَسَّ صوتًا؛ أدَّاهُ إلى القلبِ... وكذٰلكَ كلُّ حاسَّةٍ.

ثُمَّ أوْرَدوا على أنفسِهِم سؤالاً فقالوا: إنْ قيلَ: كيفَ يَجوزُ أنْ يَكونَ عضوٌ

---

(١) كلّ ما تقدّم صدًى للنظريّة الطبيّة اليونانيّة لم يبق له في الطبّ المعاصر عين ولا أثر، وقد تقدّم تفصيل هٰذا في المقدّمة (١/ ٤٨)، لٰكن أحبّ هنا أن أذكّر بأمور:

أوّلها: أنّ الرئة هي محلّ التبادل الغازي الذي يتخلّص فيه الدم من ثاني أوكسيد الكربون ويتشبّع بالأوكسجين، ولا دور لها إطلاقًا في الترويح على القلب وتبريده.

والثاني: أنّ القلب هو المضخّة التي توزّع الدم على مختلف أنحاء الجسم، وليس هو أكثر أجزاء الجسم حرارة ولا هو مصدر حرارته.

والثالث: ليس الدماغ بالعضو البارد ولا الفاتر، ومن تأمّل في عدد الإشارات الكهربيّة التي يتلقّاها المخّ والإشارات التي يرسلها والتفاعلات الكيماويّة التي تجري فيه والمهمّات التي يقوم بها من الحسّ والحركة والتفكير وتنظيم عمل جميع أعضاء الجسم بما فيها القلب والكبد وجميع الغدد والحفاظ على توازن سوائل الجسم المختلفة وتنظيم حرارته والسيطرة على وسائل الدفاع عنه؛ من تأمّل هٰذا كلّه؛ بلغ الأمر به حدّ الذهول الحقيقي، ولو كان في الجسم عضو حارّ وعضو بارد حقًّا؛ لكان الدماغ في درجة الغليان.

والرابع: أن تكييف الجسم *physiological thermoregulation* والحفاظ على ثبات حرارته في الحرّ والبرد ومختلف الظروف هي عمليّة معقّدة تشترك فيها المراكز الدماغيّة العليا والأوعية الدمويّة والعضلات والغدد العرقيّة، وليست هٰذه العمليّة من وظائف الرئة على الإطلاق.

(٢) في خ: «التعديل الحرارة... ساكن قال... وفتور حركته... مرتبطة إليه».

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من ط.

يَعْقِلونَ بِها﴾ [الحج: ٤٦]. وقالَ: ﴿إنَّ في ذٰلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]. ولمْ يُرِدْ بالقلبِ هنا مضغةَ اللحمِ المشتركةَ بينَ الحيواناتِ، بل المرادُ ما فيهِ مِن العقلِ واللبِّ.

* ونازَعَهُم في ذٰلكَ طائفةٌ أُخرى وقالوا: مبدأُ هٰذهِ الحواسِّ إنَّما هوَ الدِّماغُ، وأنْكَروا أنْ يَكونَ بينَ القلبِ والعينِ والأُذنِ والأنفِ أعصابٌ أو عروقٌ، وقالوا: هٰذا كذبٌ على الخلقةِ.

* والصَّوابُ التَّوسُّطُ بينَ الفريقينِ، وهوَ أنَّ القلبَ يَنْبَعِثُ منهُ قوَّةٌ إلى هٰذهِ الحواسِّ، وهيَ قوَّةٌ معنويَّةٌ لا تَحْتاجُ في وصولِها إليها إلى مجارٍ مخصوصةٍ وأعصابٍ تَكونُ حاملةً لها؛ فإنَّ وصولَ القوى إلى هٰذهِ الحواسِّ والأعضاءِ لا يَتَوَقَّفُ إلَّا على قبولِها وٱستعدادِها وإمدادِ القلبِ لا على مجارٍ وأعصابٍ. وبهٰذا يَزولُ الالتباسُ في هٰذا المقامِ الذي طالَ فيهِ الكلامُ وكَثُرَ فيهِ النِّزاعُ والخصامُ. واللهُ أعلمُ، وبهِ التَّوفيقُ للصَّوابِ[1].

والمقصودُ التَّنبيهُ على أقلِّ القليلِ مِن وجوهِ الحِكَمِ التي في خلقِ الإنسانِ، والأمرُ أضعافُ [أضعافِ] ما يَخْطُرُ بالبالِ أو يَجْري في المقالِ، وإنَّما فائدةُ ذكرِ هٰذهِ الشَّذْرَةِ التي هيَ كلا شيءٍ بالنِّسبةِ إلى ما وراءَها التَّنبيهُ[2].

[١٤ ـ فصل]

[في بدائع صنعته تعالى في هضم الطعام]

وإذا نَظَرَ [العبدُ] إلى غذائِهِ فقط في مدخلِهِ ومستقرِّهِ ومخرجِهِ؛ رَأى فيه العبرَ والعجائبَ: كيفَ جُعِلَتْ [لهُ] آلةٌ يَتَناوَلُهُ بها. ثمَّ [بابٌ] يَدْخُلُ منهُ. ثمَّ آلةٌ تُقَطِّعُهُ صغارًا. ثمَّ طاحونٌ يَطْحَنُهُ. ثمَّ أُعينَ بما[3] يَعْجِنُهُ. ثمَّ جُعِلَ لهُ مجرًى /خ٣١١/

---

(١) وٱنظر أيضًا (١/ ٧١)؛ ففيه مزيد من التفصيل والإيضاح في هٰذه القضيّة الشائكة.

(٢) فكيف لو اطلع الشيخ رحمة الله عليه على ما جد في هذا الباب في الطب المعاصر؟

(٣) في ط: «وجوه الحكمة... الأمر أضعاف ما... فيه المقال... أعين بماء».

واحدٌ(١) على ضروبٍ [مِن] الأمزاجِ(٢)، يَمُدُّ عدَّةَ حواسَّ مختلفةٍ، وأجسامُ هٰذهِ الحواسِّ مختلفةٌ، وقوَّةُ كلِّ حاسَّةٍ مخالفةٌ لقوَّةِ الحاسَّةِ الأُخرى(٣)؟

وأجابوا عن ذٰلكَ: بأنَّ جميعَ العروقِ(٤) الَّتي في البدنِ كلِّها متَّصلةٌ بالقلبِ إمَّا بأنفسِها وإمَّا بواسطةٍ، فما مِن عرقٍ ولا عضوٍ إلَّا ولهُ اتِّصالٌ بالقلبِ اتِّصالاً قريبًا أو بعيدًا. قالوا: ويَنْبَعِثُ منهُ في تلكَ العروقِ والمجاري إلى كلِّ عضوٍ ما يُناسِبُهُ ويُشاكِلُهُ: فيَنْبَعِثُ منهُ إلى العينينِ ما يكونُ منهُ حاسَّةُ البصرِ، وإلى الأذنينِ ما يُدْرَكُ بهِ المسموعاتُ، وإلى اللحمِ ما يَكونُ منهُ حسُّ اللمسِ(٥) /خ٣١٠/، وإلى الأنفِ ما يَكونُ بهِ حسُّ الشَّمِّ، وإلى اللسانِ ما يَكونُ بهِ حسُّ الذَّوقِ، وإلى كلِّ [ذي] قوَّةٍ ما يَمُدُّ قوَّتَهُ ويَحْفَظُها. فهوَ المُمِدُّ لهٰذهِ الأعضاءِ والحواسِّ والقوى. ولهٰذا كانَ الرأْيُ(٦) الصَّحيحُ أنَّهُ أوَّلُ الأعضاءِ تكوينًا(٧).

قالوا: ولا ريبَ أنَّ مبدأَ القوَّةِ العاقلةِ منهُ، وإنْ كانَ قد خالَفَ في ذٰلكَ آخرونَ وقالوا: بلِ العقلُ في الرَّأْسِ، فالصَّوابُ أنَّ مبدأهُ ومنشأهُ مِن القلبِ وفروعَهُ وثمرتَهُ في الرَّأْسِ. والقرآنُ قد دَلَّ على هٰذا: بقولِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ

---

(١) في خ: «عضوًا واحدًا»، وله وجه حسن، وتأويل الكلام: كيف يجوز أن يكون القلب عضوًا واحدًا على ضروب من الأمزاج؟ وما أثبتّه من ط أولى.

(٢) في خ وط: «الامتزاج»! وهو تحريف لا معنى له، صوابه ما أثبتّه إن شاء الله. والأمزاج جمع مِزج، والمِزْج والمِزاج أحد أخلاط الجسم الأربعة في النظريّة الطبيّة اليونانيّة كما تقدّم (١/ ٤٨).

(٣) هٰذا أمر لا إشكال فيه، والطبّ الحديث يشهد بذٰلك، ومعلوم أنّ للدماغ سيطرة على جميع أعضاء البدن كلّ بحسبه. بل الأمر فوق ذٰلك بكثير، فالغدّة النخاميّة Pituitary gland التي لا يتجاوز حجمها حجم حبّة الحمّص تسيطر على جميع غدد الجسم بل وعلى نموّه ونموّ عظامه وعضلاته... فلا إشكال هاهنا إذًا، وإنّما الإشكال في ثبوت صلة القلب المباشرة بأعضاء الحواسّ، فهٰذا الذي ينكره الأطبّاء المحدثون ولا يرون له وجهًا. وانظر ما تقدّم (١/ ٧١) في هٰذه القضيّة.

(٤) يعنون: الأوعية الدمويّة؛ الشرايين والأوردة والشعريّات. وهٰذا القدر صحيح لا غبار عليه.

(٥) في خ: «العين ما يكون منه إلى حسن البصر... حسن اللمس». تحريفات بالجملة.

(٦) في خ: «منه حسن الشيم... منه حسن الذوق... كان الرأس»! تحريفات بالجملة.

(٧) يرى الأطبّاء المعاصرون أنّ طليعة الدماغ تسبق في الظهور الجنيني طليعة القلب أو ترافقها على الأقلّ، لٰكنّ نموّ القلب وتطوّره أسرع، ومع حلول اليوم الثاني والعشرين من تكوّن الجنين يبدأ القلب بالنبضان ليكون جهاز الدوران أوّل أجهزة الجنين تكوّنًا وأسبقها عملاً.

مصرفًا يَنْصَبُّ إليهِ ويَجْتَمِعُ فيهِ ولا يَنْبَعِثُ إلى الأعضاءِ /خ٣١٢/ الشَّريفةِ إلَّا أكملُهُ: فوَضَعَ المرارةَ مصبًّا للمِرَّةِ الصَّفراءِ، ووَضَعَ الطِّحالَ مقرًّا للمِرَّةِ السَّوداءِ، والكبدُ يَمْتَصُّ أشرفَ ما في ذٰلكَ ـ وهوَ الدَّمُ ـ ثمَّ يَبْعَثُهُ إلى جميعِ البدنِ مِن عِرْقٍ واحدٍ يَنْقَسِمُ على مجارٍ كثيرةٍ يُوصِلُ إلى كلٍّ واحدٍ مِن الشُّعورِ والأعصابِ والعظامِ والعروقِ ما يَكونُ بهِ قِوامُهُ(١).

---

(١) هاهنا كلام كثير؛ بعضه غير مقبول علميًّا، وبعضه حسن ولٰكنّه يحتاج إلى مقاربة علميّة وصياغة على طريقة المعاصرين ومصطلحاتهم، فأقول:

أوّلاً: يرى الأطبّاء المعاصرون أنّ عمليّة الهضم تتمّ حسب المراحل التالية:

١ـ يبدأ هضم الطعام في الفم، ويكون ميكانيكيًّا بالدرجة الأولى يعتمد على التفتيت والطحن، مترافقًا مع هضم كيماويّ يسير بوساطة خمائر اللعاب.

٢ـ وعند البلع يمنع لسان المزمار **Epiglottis** الطعام من المرور إلى القصبة الهوائيّة فيندفع الطعام عبر البلعوم **Pharynx** نحو المري **Esophagus**.

٣ـ يتحرّك المري حركة دوديّة Peristalsis تدفع الطعام بإصرار نحو المعدة ولو كان رأس الآكل إلى الأسفل ورجليه إلى الأعلى.

٤ـ فإذا وصل الطعام إلى المعدة؛ احتبس هناك، وانصبّت عليه من جدران المعدة سوائل ملحيّة وحمض الهيدروكلوريك وخمائر هاضمة أخرى، وظيفتها هضم الطعام المحتبس في المعدة جزئيًّا وتحويله إلى سائل يسمّى الكيموس **Chyme**.

٥ـ وخلافًا للاعتقاد الشائع؛ فإنّ المعدة لا تمتصّ شيئًا من الموادّ المهضومة ـ إلّا أشياء نادرة كالكحول وبعض الأدوية ـ وإنّما تدفع بالكيموس على شكل دفقات إلى الأمعاء الدقيقة **Small intestine**.

٦ـ وفي الأمعاء الدقيقة تحصل المراحل النهائيّة لعمليّة الهضم بوساطة الخمائر الكثيرة والغزيرة التي تنصبّ على الأمعاء الدقيقة من الكبد **Liver** والبنكرياس **Pancreas**.

٧ـ تمتصّ جدر الأمعاء الدقيقة معظم الموادّ الغذائيّة المهضومة وتتحرّك حركة دوديّة تدفع ما تبقّى من الموادّ المهضومة إلى الأمعاء الغليظة **Colons**.

٨ـ وفي الأمعاء الغليظة يُمتصّ الماء والأملاح المعدنيّة والفيتامينات، ويندفع ما تبقّى من الفضلات عبر المستقيم **Rectum** فالقناة الشرجيّة **Anal canal** إلى الخارج.

٩ـ وأمّا الموادّ المهضومة التي تمّ امتصاصها في المعدة والأمعاء؛ فإنّها تنتقل عبر الأوعية الدمويّة واللمفاويّة لتصبّ في الكبد.

١٠ـ وفي الكبد تُكيَّف المواد الممتصّة كيماويًّا بحسب مصلحة الجسم، ثمّ تحوّل إلى الدوران الوريدي فالقلب ومن القلب توزع على مختلف أنحاء البدن.

ثانيًا: وعليه نستطيع أن نفهم سرّ كون الفتحة العلويّة للمعدة أصغر وأضيق من السفليّة وليس العكس: وذٰلك لأنّ كميّة الخارج من المعدة أكبر ممّا دخل إليها، نظرًا لأنّ المعدة قد صبّت فوقه أكثر من ليتر من=

وطريقٌ إلى جانبِ [مجرى] النَّفسِ؛ يَنْزِلُ هٰذا ويَصْعَدُ هٰذا فلا يَلْتَقِيانِ معَ غايةِ القربِ. ثمَّ جَعَلَ لهُ حوايا وطرقًا توصلُهُ إلى المعدةِ؛ فهيَ خزانتُهُ وموضعُ ٱجتماعِهِ. ولها بابانِ[١]؛ بابٌ أعلى يَدْخُلُ منهُ الطَّعامُ وبابٌ أسفلُ يَخْرُجُ منهُ ثُفْلُهُ، والبابُ الأعلى أوسعُ مِن الأسفلِ إذِ الأعلى مدخلٌ للحاصلِ والأسفلُ مصرفٌ للضَّارِّ منهُ[٢]، والأسفلُ منطبقٌ دائمًا لِيَسْتَقِرَّ الطَّعامُ في موضعِهِ، فإذا ٱنْتَهى الهضمُ؛ فإنَّ ذٰلكَ البابَ يَنْفَتِحُ إلى ٱنقضاءِ الدَّفعِ، ويُسَمَّى البَوَّابَ لذٰلكَ، والأعلى يُسَمَّى فَمَ المعدةِ. [والطَّعامُ] يَنْزِلُ إلى المعدةِ منكبسًا، فإذا ٱسْتَقَرَّ فيها؛ ٱنْماعَ وذابَ. ويُحيطُ بالمعدةِ مِن داخلِها وخارجِها حرارةٌ ناريَّةٌ، بل ربَّما تَزيدُ على حرارةِ النَّارِ، يَنْضُجُ[٣] بها الطَّعامُ فيها كما يَنْضجُ الطَّعامُ في القدرِ بالنَّارِ المحيطةِ بهِ، ولذٰلكَ تُذيبُ ما هوَ مستحجرٌ كالحصى وغيرِهِ حتَّى تَتْرُكَهُ مائعًا، فإذا أذابَتْهُ؛ عَلا صفوُهُ إلى فوقٍ ورَسا كدرُهُ إلى أسفلَ. ومِن المعدةِ عروقٌ متَّصلةٌ بسائرِ البدنِ يَنْبَعِثُ فيها معلومُ كلِّ عضوٍ وقِوامُهُ بحسبِ ٱستعدادِهِ وقبولِهِ: فيَنْبَعِثُ أشرفُ ما في ذٰلكَ وألطفُهُ وأخفُّهُ إلى الأرواحِ[٤] فيَنْبَعِثُ إلى البصرِ بصرًا وإلى السَّمعِ سمعًا وإلى الشَّمِّ شمًّا وإلى كلِّ حاسَّةٍ بحسبِها فهٰذا ألطفُ ما يَتَوَلَّدُ عنِ الغذاءِ، ثمَّ يَنْبَعِثُ منهُ إلى الدِّماغِ ما يُناسِبُهُ في اللطافةِ والاعتدالِ، ثمَّ يَنْبَعِثُ مِن الباقي إلى الأعضاءِ في تلكَ المجاري بحسبِها، ويَنْبَعِثُ منهُ إلى العظامِ والشُّعورِ والأظفارِ[٥] ما يُغَذِّيها ويَحْفَظُها، فيَكونُ الغذاءُ داخلًا [إلى] المعدةِ مِن طرقٍ ومجارٍ [وخارجًا منها إلى الأعضاءِ مِن طرقٍ ومجارٍ]، هٰذا واردٌ إليها وهٰذا صادرٌ عنها؛ حكمةٌ بالغةٌ ونعمةٌ سابغةٌ. ولمَّا كانَ الغذاءُ إذا ٱسْتَحالَ في المعدةِ ٱسْتَحالَ دمًا ومِرَّةً سوداءَ ومِرَّةً صفراءَ وبلغمًا[٦]؛ ٱقْتَضَتْ حكمتُهُ سبحانَهُ [وتعالى] أنْ جَعَلَ لكلِّ واحدٍ مِن هٰذهِ الأخلاطِ

---

(١) في ط: «إلى جانب النفس...»، وفي خ: «... ولهٰذا بابان».
(٢) الثفل: ما يرسب أسفل الإناء، وهو الذي سمّاه بعد بالضارّ! والحاصل: مجموع الطعام المأكول.
(٣) في ط: «ٱنقضائه من الدفع... وينضج»، وفي خ: «المعدة ملتمسًا فإذا...».
(٤) الأرواح: الحواسّ.
(٥) في ط: «فيبعث... والأظافر»، وفي خ: «... تلك وألطفه وأحبّه... من اللطافة...».
(٦) تقدّم تفصيل هٰذا عند الكلام عن النظريّة الطبيّة اليونانيّة (١/ ٤٨)، فراجعه إن شئت.

وكواكبِها ومقاديرِها وأشكالِها وتفاوتِ مشارقِها ومغاربِها؟!

فلا ذرَّةَ فيها تَنْفَكُّ عن حكمةٍ، بل هيَ أحكمُ خلقًا وأتقنُ صنعًا وأجمعُ للعجائبِ مِن بدنِ الإنسانِ، بل لا نسبةَ لجميعِ ما في الأرضِ إلى عجائبِ السَّماواتِ: قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّماءُ بَناها . رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨]. وقالَ تَعالى: ﴿إِنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَٱخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالفُلْكِ الَّتي تَجْري في البَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قولِهِ /خ٣١٣/: ﴿لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]: فبَدَأَ بذكرِ خلقِ السَّماواتِ. وقالَ [تَعالى]: ﴿إِنَّ في خَلْقِ [السَّماواتِ] وَالأَرْضِ وَٱخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولي الأَلْبابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]... وهٰذا كثيرٌ في القرآنِ. فالأرضُ والبحارُ والهواءُ وكلُّ ما تحتَ السَّماواتِ بالإضافةِ إلى السَّماواتِ كقطرةٍ في بحرٍ.

ولهٰذا قلَّ أنْ تَجيءَ سورةٌ في القرآنِ[1] إلَّا وفيها ذكرُها: إمَّا إخبارًا عن عظمتِها وسعتِها، وإمَّا إقسامًا بها، وإمَّا دعاءً إلى النَّظرِ فيها، وإمَّا إرشادًا لعبادِهِ أنْ يَسْتَدِلُّوا بها على عظمةِ بانيها ورافعِها، وإمَّا ٱستدلالاً منهُ سبحانَهُ بخلقِها على ما أَخْبَرَ بِهِ مِن المعادِ والقيامةِ، وإمَّا ٱستدلالاً منهُ بربوبيَّتِهِ لها على وحدانيَّتِهِ وأنَّهُ اللهُ الذي لا إلٰهَ إلَّا هوَ، وإمَّا ٱستدلالاً منهُ بحسنِها وٱستوائِها وٱلتئامِ أجزائِها وعدمِ الفطورِ فيها على تمامِ حكمتِهِ وقدرتِهِ، وكذٰلكَ ما فيها مِن الكواكبِ والشَّمسِ والقمرِ والعجائبِ التي تَتَقاصَرُ عقولُ البشرِ عن قليلِها.

فكمْ مِن قسمٍ في القرآنِ بها: كقولِهِ ﴿وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]. ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ البُروجِ﴾ [البروج: ١][2]. ﴿وَالسَّماءِ وَما بَناها﴾ [الشمس: ٥]. ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطارق: ١١]. ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحاها﴾ [الشمس: ١]. ﴿وَالنَّجمِ إذا هَوى﴾ [النجم: ١]. ﴿وَالنَّجمِ الثَّاقِبِ﴾ [الطارق: ٣][3]. ﴿فلا أُقْسِمُ

---

(١) في خ: «تجيء في سورة من القرآن».

(٢) في خ: «والطارق وما أدراك ما الطارق والسماء ذات البروج واليوم الموعود». وحذفها أولى.

(٣) كذا في خ وط! وليست الواو من لفظ الآية، وإنّما كان القسم بالطارق، والنجم الثاقب تفسيره.

ثمَّ إذا نَظَرْتَ إلى ما فيهِ مِن القوى الباطنةِ والظَّاهرةِ المختلفةِ في أنفسِها ومنافعِها؛ رَأَيْتَ العجبَ العجابَ، كقوَّةِ سمعِهِ وبصرِهِ وشمِّهِ وذوقِهِ ولمسِهِ وحبِّهِ وبغضِهِ ورضاهُ وغضبِهِ وغيرِ ذٰلكَ مِن القوى المتعلِّقةِ بالإدراكِ والإرادةِ، وكذٰلكَ القوى المتصرِّفةِ في غذائِهِ كالقوَّةِ المنضجةِ لهُ وكالقوَّةِ الماسكةِ لهُ والدَّافعةِ لهُ إلى الأعضاءِ والقوَّةِ الهاضمةِ [لهُ][1] بعدَ أخذِ الأعضاءِ حاجتَها منهُ... إلى غيرِ ذٰلكَ مِن عجائبِ خلقتِهِ الظَّاهرةِ والباطنةِ.

[١٥] فصل

[لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس]

فأرْجِعِ الآنَ إلى النُّطفةِ، وتأمَّلْ حالَها أوَّلاً، وما صارَتْ إليهِ ثانيًا، وأنَّهُ لوِ اجْتَمَعَ الإنسُ والجنُّ على أنْ يَخْلُقوا لها سمعًا [أ]و بصرًا أو عقلاً أو قدرةً أو علمًا أو روحًا بل عظمًا واحدًا مِن أصغرِ عظامِها بل عرقًا مِن أدقِّ عروقِها بل شعرةً واحدةً؛ لَعَجَزوا عن ذٰلكَ، بل ذٰلكَ كلُّهُ آثارُ صنعِ اللهِ الذي أتْقَنَ كلَّ شيءٍ في قطرةٍ [مِن] ماءٍ مهينٍ!

فمَن هٰذا صنعُهُ في قطرةِ ماءٍ؛ فكيفَ صنعُهُ في ملكوتِ السَّماواتِ [والأرضِ]، وعلوِّها وسعتِها واستدارتِها وعظمِ خلقِها وحسنِ بنائِها وعجائبِ شمسِها وقمرِها

= مفرزاتها، وأيضًا لأنّه ينبغي أن تنطبق الفتحة العلويّة تمامًا لتمنع عودة الموادّ المهضومة جزئيًّا في المعدة إلى المري من جديد؛ لأنّها ستسبّب عندئذ حسًّا بالحرقة كما يحصل عند بعض الناس.

ثالثًا: وعليه أيضًا؛ فليس هاهنا عروق تصل المعدة بسائر البدن يبعث فيها معلوم كلّ عضو من الغذاء، ولا غذاء لطيف خفيف يرسل منها إلى هٰذا العضو وآخر ثقيل يرسل إلى ذاك وثفل وكدر يبقى في الأسفل. وإنّما يمتصّ الطعام المهضوم في الأمعاء ثمّ يمرّ إلى الكبد ثمّ إلى القلب حيث يضخّ إلى جميع أنحاء البدن.

رابعًا: وأمّا فكرة الحرارة الناريّة في المعدة؛ فصحيحة، وهي السوائل الحامضيّة والخمائر الهاضمة التي تصبّها المعدة على الأغذية فتفتّتها وتذيبها أضعاف ما تفعل النار في القدور.

خامسًا: وأمّا استحالة الطعام في المعدة إلى مرّة صفراء وسوداء... إلخ؛ فصدًى للنظريّة الطبيّة اليونانيّة، وقد تقدّم لك (٤٨/١) ما فيها، وتبيّن لك ممّا مرّ هنا أنّه ليس هناك مرّة صفراء تخرج من المعدة وتصبّ في المرارة، بل الحاصل هو العكس، فالعصارة الصفراء الموجودة في المرارة Gall bladder هي التي تصبّ في الأمعاء الدقيقة لإتمام هضم الدهون.

(١) القوّة الهاضمة هنا: القوّة التي تجمع الفضلات المتبقّية وتلصقها ببعضها وتحوّلها إلى براز.

وقد أثْنى سبحانَهُ في كتابِهِ على المتفكِّرينَ في خلقِ السَّماواتِ والأرضِ وذمَّ المعرضينَ عن ذٰلكَ، فقالَ: ﴿وَجَعَلْنا السَّماءَ سَقْفًا مَحْفوظًا وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وتأمَّلْ خلقَ هٰذا السَّقفِ الأعظمِ معَ صلابتِهِ وشدَّتِهِ ووثاقتِهِ مِن دخانٍ وهوَ بخارُ الماءِ: قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدادًا﴾ [النبأ: ١٢]، وقالَ [تَعالى]: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّماءُ بَناها(1) . رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّاها﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨]، وقالَ: ﴿وَجَعَلْنا السَّماءَ سَقْفًا مَحْفوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]. فٱنْظُرْ إلى هٰذا البناءِ الشَّديدِ العظيمِ الواسعِ الذي رَفَعَ سمكَهُ أعظمَ ٱرتفاعٍ وزَيَّنَهُ بأحسنِ زينةٍ وأوْدَعَهُ العجائبَ والآياتِ وكيفَ ٱبْتَدَأَ خلقَهُ مِن بخارٍ ٱرْتَفَعَ مِن الماءِ وهوَ الدُّخانُ(2).

فَسُبْحانَ مَنْ لا يَقْدِرُ الخَلْقُ قَدْرَهُ وَمَنْ هُوَ فَوْقَ العَرْشِ [فَرْدٌ] مُوَحَّدُ

لقد تَعَرَّفَ إلى خلقِهِ بأنواعِ التَّعرُّفاتِ، ونَصَبَ لهُمُ الدّلالاتِ، وأوْضَحَ لهُمُ الآياتِ البيِّناتِ؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَميعٌ عَليمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

[١٦ـ فصل]

[في بدائع صنعته تعالى في خلق الشمس والقمر والنجوم]

فٱرْجِعِ البصرَ إلى السَّماءِ وٱنْظُرْ فيها وفي كواكبِها ودورانِها وطلوعِها وغروبِها

---

(1) في خ: «وأيضًا فإنّهما لم تجر. . . فإنّه سبحانه إنّما يقسم. . . ءأمنتم من في السماء بناها»!

(2) يشير قدّس الله روحه إلى قوله تعالى: ﴿ثمّ ٱستوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ٱئتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين﴾ [فصلت: ١١]: فهٰذا يفيد قطعًا أنّ السماء كانت دخانًا في مرحلة من المراحل. لٰكن؛ هل هي أوّل المراحل أو سبقتها مرحلة قبلها؟ وهل الدخان بخار الماء بالتحديد أو دخان آخر؟ الله أعلم! وإنّما أثرت هٰذين التساؤلين بالنظر للفرضيّات التي بناها الفلكيّون القدامى والمعاصرون حول أصل الكون Cosmological models والتي تنكر دور بخار الماء هاهنا! ومع أنّني لا أبالي قليلاً ولا كثيرًا بهٰذه الفرضيّات؛ لأنّها لا تعدو أن تكون حدوسًا فلسفيّة متضاربة بعيدة عن موضوعيّة العلم ودقّته؛ إلّا أنّ الأسلم أن يقف المرء مع ظاهر النصّ ولا يحمّله أدنى زيادة من التفسيرات المحتملة للخطإ والصواب؛ لأنّه قد يثبت في يوم من الأيّام عدم صحّة هٰذه الزيادة، فيكذّب الناس بالنصّ القرآني ويقع المحظور.

بِالْخُنَّسِ . [الْجَوارِ الْكُنَّسِ](١)﴾ [التكوير: ١٥-١٦]: وهيَ الكواكبُ التي تكونُ خنَّسًا عندَ طلوعِها، جواريَ(٢) في مجراها ومسيرِها، كنَّسًا عندَ غروبِها، فأقْسَمَ بها في أحوالِها الثَّلاثةِ. ولمْ يُقْسِمْ في كتابِهِ بشيءٍ مِن مخلوقاتِهِ أكثرَ مِن السَّماءِ والنُّجومِ والشَّمسِ والقمرِ.

وهوَ سبحانَهُ يُقْسِمُ بما يُقْسِمُ بهِ مِن مخلوقاتِهِ لتضمُّنِهِ الآياتِ والعجائبَ الدَّالَّةَ عليهِ، وكلَّما كانَ أعظمَ آيةً وأبلغَ في الدّلالةِ؛ كانَ إقسامُهُ بهِ أكثرَ مِن غيرِهِ. ولهٰذا يُعَظِّمُ سبحانَهُ هٰذا القسمَ كقولِهِ: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمونَ عَظيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦]: وأظهرُ القولينِ أنَّهُ قسمٌ بمواقعِ هٰذهِ النُّجومِ التي في السَّماءِ؛ فإنَّ اسمَ النُّجومِ عندَ الإطلاقِ إنَّما يَنْصَرِفُ إليها(٣). وأيضًا؛ فإنَّهُ لمْ تَجْرِ عادتُهُ(٤) سبحانَهُ بٱستعمالِ النُّجومِ في آياتِ القرآنِ ولا في موضعٍ واحدٍ مِن كتابِهِ حتَّى تُحْمَلَ /خ٣١٤/ عليهِ هٰذهِ الآيةُ، وجَرَتْ عادتُهُ [سبحانَهُ] بٱستعمالِ النُّجومِ [في] الكواكبِ في جميعِ القرآنِ. وأيضًا؛ فإنَّ نظيرَ الإقسامِ بمواقعِها هُنا إقسامُهُ بهُوِيِّ النَّجمِ في قولِهِ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذا هَوى﴾ [النجم: ١]. وأيضًا؛ فإنَّ هٰذا قولُ جمهورِ أهلِ التَّفسيرِ. وأيضًا؛ فإنَّهُ سبحانَهُ يُقْسِمُ بالقرآنِ نفسِهِ لا بوصولِهِ إلى عبادِهِ، هٰذهِ طريقةُ القرآنِ: قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذي الذِّكْرِ﴾ [صَ: ١]، ﴿يَسَ . وَالْقُرْآنِ الحَكيمِ﴾ [يَسَ: ١-٢]، ﴿قَ وَالْقُرْآنِ المَجيدِ﴾ [قَ: ١]. ﴿حمَ . وَالكِتابِ المُبينِ﴾ [الزخرف: ١-٢]، ونظائرَهُ. والمقصودُ أنَّهُ سبحانَهُ إنَّما يُقْسِمُ مِن مخلوقاتِهِ بما هوَ مِن آياتِهِ الدَّالَّةِ على ربوبيَّتِهِ ووحدانيَّتِهِ.

---

(١) ساقطة من خ وط، والسياق يستلزمها.

(٢) في خ وط: «جوارٍ»! ولا يصحّ! والاسم المنقوص الممنوع من الصرف تثبت ياؤه في حالة النصب ـ كما هو الحال هنا ـ وتظهر عليها الفتحة.

(٣) وهٰذه حجّة قويّة جدًّا بل أصل عظيم ينبغي أن يتمسّك به طالب العلم أبدًا في مواطن النزاع ولا يتزحزح عنه إلّا لدليل صحيح صريح.

(٤) في القلب شيء من ٱستعمال لفظ «العادة» في حقّ الله سبحانه وتعالى لأمور: **أوّلها**: أنّه لم يرد فيها كتاب ولا سنّة، والأصل الاقتصار في أوصافه تعالى على ما ورد فيهما. **والثاني**: أنّه يستعمل كثيرًا في موضع الذمّ وفي الصفات التي تجعل صاحبها أسيرًا لها. **والثالث**: أنّه يغني عنه لفظ «سنّة الله» الذي ورد في القرآن الكريم، فيؤدّي المعنى نفسه وزيادة دون إشكالات أو محاذير. والله أعلى وأعلم.

وأنتَ تَرى الكوكبَ كأنَّهُ [واقفٌ] لا يَسيرُ، وهوَ مِن أوَّلِ جزءٍ مِن طلوعِهِ إلى تمامِ طلوعِهِ يَكونُ فلكُهُ قد طَلَعَ بقدرِ مسافةِ الأرضِ مئةَ مرَّةٍ أو أكثرَ، وذٰلكَ بقدرِ لحظةٍ واحدةٍ؛ لأنَّ الكوكبَ إذا كانَ بقدرِ الأرضِ مئةَ مرَّةٍ مثلاً، ثمَّ سارَ في لحظةٍ مِن موضعٍ إلى موضعٍ؛ فقد قَطَعَ بقدرِ مسافةِ [الأرضِ] مئةَ مرَّةٍ وزيادةً في لحظةٍ من اللحظاتِ... وهٰكذا يَسيرُ على الدَّوامِ والعبدُ غافلٌ عنهُ وعن آياتِهِ.

وقالَ بعضُهُم: إذا تَلَفَّظْتَ بقولِكَ «لا» «نعم»؛ فبينَ اللفظتينِ تكونُ الشَّمسُ قد قَطَعَتْ مِن الفلكِ مسيرةَ خمسِ مئةِ عامٍ[1].

ثمَّ إنَّهُ سبحانَهُ أمْسَكَ السَّماواتِ معَ عظمِها وعظمِ ما فيها وثَبَّتَها مِن غيرِ عِلاقةٍ مِن فوقِها ولا عمدٍ مِن تحتِها: ﴿اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى في الأرْضِ رَواسِيَ أنْ تَميدَ بِكُمْ وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريمٍ . هٰذا خَلْقُ اللهِ فَأروني ماذا خَلَقَ الَّذينَ مِنْ دونِهِ بَلِ الظّالِمونَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ [لقمان: ١٠-١١].

[١٧] فصل

[بين رؤية العين وبصيرة القلب]

والنَّظرُ في هٰذهِ الآياتِ وأمثالِها نوعانِ:

نظرٌ إليها بالبصرِ الظَّاهرِ: فيَرى مثلاً زرقةَ السَّماءِ ونجومَها وعلوَّها وسعتَها. وهٰذا نظرٌ يُشارِكُ الإنسانَ فيهِ غيرُهُ مِن الحيواناتِ، وليسَ هوَ المقصودَ بالأمرِ.

= حبّان (٧٤٠٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢٧٤ و٥٩٥)، وأبو نعيم في «الجنّة» (٣٥٧)، والبيهقي في «البعث» (٣٤٢)، والبغوي في «التفسير» (٤/٢٨٣)؛ من حديث درّاج أبي السمح وآضطرب فجعله مرّة من حديث ابن عمرو ومرّة من حديث أبي سعيد، ودرّاج ضعيف.

وبالجملة؛ فأصل الحديث معضل، وشواهده واهية، وفي ألفاظها جميعًا ـ اللهمّ إلاّ حديث أبي سعيد ـ نكارة يجزم الواقف عليها أنّها أخبار إسرائيليّة أخطأ الضعفاء والمجاهيل برفعها، ولذٰلك آستنكر هٰذه المفردات أغلب أهل العلم، وحريّ بمثلها أن لا يستفيد بآجتماعه قوّة ولا صحّة، والله أعلى وأعلم.

(١) المقصود أنّ النجوم ـ بما فيها الشمس ـ والكواكب تسير في السماء بسرعات عظيمة بل مذهلة أحيانًا. وهٰذه أمور لا خلاف فيها عند الفلكيّين المعاصرين، والتفصيل في أمثلتها يطول بغير كبير فائدة.

وقد اَتَّفَقَ أربابُ الهيئةِ(١) على أنَّ الشَّمسَ بقدرِ الأرضِ مئةَ مرَّةٍ ونيِّفًا وستِّينَ مرَّةً(٢)، والكواكبُ التي نرى كثيرًا(٣) منها أصغرُها بقدرِ الأرضِ(٤)، وبهٰذا يُعْرَفُ اَرتفاعُها وبعدُها.

وفي حديثِ أبي هُرَيْرَةَ الذي رَواهُ التِّرْمِذِيُّ: «إنَّ بينَ السَّماءِ والأرضِ [مسيرةَ] خمسِ مئةِ عامٍ، وبينَ كلِّ سماءينِ كذٰلكَ»(٥).

---

(١) أرباب الهيئة: الدارسون لهيئة النجوم في قبّة السماء وهم الراصدون الفلكيّون في لغتنا اليوم.

(٢) يبلغ قطر الأرض عند خطّ الاستواء ١٢٧٥٦كم ويبلغ قطر الشمس ١,٤ مليون كم، وهٰذا يعني أنّ قطر الشمس ١١٠ أضعاف قطر الأرض وحجم الشمس ١,٣ مليون مرّة من حجم الأرض.

(٣) في خ: «نراها كثيرًا»! وفي ط: «نراها كثير»! وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

(٤) أمّا بالنسبة لأحجام كواكب المجموعة الشمسيّة؛ فعطارد والمريخ وبلوتو أصغر من الأرض، والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون أكبر، والزهرة بحجمها تقريبًا أصغر منها قليلاً. وأمّا بالنسبة للنجوم؛ فما نشاهده منها لا بدّ أنّه أكبر من الأرض بأضعاف كثيرة؛ لأنّه لو لم يكن كذٰلك؛ ما رأيناه؛ لشدّة بعده عنّا.

(٥) (ضعيف). رواه: أحمد (٢/ ٣٧٠)، والترمذي (٤٨ـ التفسير، ٥٨ـ الحديد، ٥/ ٤٠٣/ ٣٢٩٨)، وابن أبي عاصم (٥٧٨)، والبزّار (٢/ ٢٧٣ـ كثير)، وابن أبي حاتم (٤/ ٢٧٣ـ كثير)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢٠٣ و٢٠٤)، والبيهقي في «الصفات» (٨٤٩)، والجورقاني في «الأباطيل» (٦٥ و٦٧)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٨)؛ من طرق ثلاث، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة. . . رفعه في سياق طويل.

وهٰذا واهٍ فيه علل ثلاث: **أولاها**: عنعنة الحسن على تدليسه. **والثانية**: ضعف الطرق الثلاثة إلى قتادة. **والثالثة**: أنّه رواه ابن جرير (٣٣٥٩٣ و٣٤٣٧٩) من طريقين قويّتين، عن قتادة، عن النبيّ ﷺ. فبان أنّ المعروف هاهنا الإعضال والوصل منكر، وإليه مال الترمذي والجورقاني وابن الجوزي والذهبي والهيثمي.

ولهٰذه القطعة **شاهد** رواه: أحمد (١/ ٢٠٦)، وأبو يعلى (٦٧١٣)، والروياني، وابن أبي شيبة في «العرش» (١٠)، والذهبي في «العلوّ» (ص٤٩)؛ بسند ساقط عن العبّاس مرفوعًا.

وآخر: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ٣٧٨ـ ابن كثير) بسند ساقط عن ابن عبّاس مرفوعًا.

وثالث: رواه: ابن جرير (٣٤٣٧٣)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص٣٧٦)، والطبراني (٩/ ٢٠٢/ ٨٩٨٦ و٨٩٨٧)، واللالكائي في «السنّة» (٦٥٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢٠٥ و٢٨١ و٥٦٧)، والبيهقي في «الصفات» (٨٥١ و٨٥٢)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٧/ ١٣٩)، والخطيب في «الجمع والتفريق» (٢/ ٤٧)، والذهبي في «العلوّ» (ص٦٤)؛ بسند حسن عن ابن مسعود موقوفًا ورفعه شاذّ.

ورابع: رواه: البزّار (٤٠٧٥)، وابن أبي شيبة في «العرش» (١٧)، والبيهقي في «الصفات» (٣٩٩ و٤٠٠ و٨٥٠)، والجورقاني في «الأباطيل» (٦٣ و٦٤)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٧)، والذهبي في «التذكرة» (٢/ ٧٤٨)؛ بسند واهٍ عن أبي ذرّ مرفوعًا.

وخامس: رواه: نعيم في «زوائد الزهد» (٢٩٠)، وأحمد (٢/ ١٩٧، ٣/ ٧٥)، والترمذي (٢٥٤٠ و٣٢٩٤)، وأبو يعلى (١٣٩٥)، وابن جرير (٣٣٣٩٠ و٣٣٣٩١)، وابن أبي حاتم (٤/ ٢٦٢ـ ابن كثير)، وابن=

وٱنْظُرْ إلى القمرِ وعجائبِ آياتِهِ: كيفَ يُبْدِيهِ اللهُ كالخيطِ الدَّقيقِ، ثمَّ يَتَزايَدُ نورُهُ ويَتَكامَلُ شيئًا فشيئًا كلَّ ليلةٍ حتَّى يَنْتَهِيَ إلى إبدارِهِ وكمالِهِ وتمامِهِ، ثمَّ يَأْخُذُ في النُّقصانِ حتَّى يَعودَ إلى حالتِهِ الأُولى؛ لِيَظْهَرَ مِن ذٰلكَ مواقيتُ العبادِ في معاشِهِم وعباداتِهِم ومناسكِهِم، فتَمَيَّزَتْ بهِ الأشهرُ والسِّنونَ وقامَ بهِ حسابُ العالمِ، معَ ما في ذٰلكَ مِن الحكمِ والآياتِ والعبرِ التي لا يُحْصيها إلَّا اللهُ[١].

وبالجملةِ؛ فما مِن كوكبٍ مِن الكواكبِ إلَّا وللرَّبِّ [تَبارَكَ و]تَعالى في خلقِهِ حكمٌ كثيرةٌ، ثمَّ في مقدارِهِ، ثمَّ في شكلِهِ ولونِهِ، [ثمَّ] في موضعِهِ مِن السَّماءِ وقربِهِ مِن وسطِها وبعدِهِ وقربِهِ مِن الكوكبِ[٢] الذي يَليهِ وبعدِهِ منهُ. وإذا أَرَدْتَ معرفةَ ذٰلكَ على سبيلِ الإجمالِ؛ فقِسْهُ /خ٣١٦/ بأعضاءِ بدنِكَ وٱختلافِها وتفاوتِ ما بينَ المتجاوراتِ منها وبعدِ ما بينَ المتباعداتِ وأشكالِها ومقاديرِها وتفاوتِ منافعِها وما خُلِقَتْ لهُ! وأيُّ نسبةٍ لذٰلكَ إلى عظمِ السَّماواتِ وكواكبِها وآياتِها[٣]؟!

= التي تجاوزها وكأنّها ترجع إلى الخلف.

ثانيًا: ومن الثابت أيضًا أنّ الأرض تدور حول الشمس، في مستو يميل على محور دورانها حول نفسها، من الغرب إلى الشرق، بعكس عقارب الساعة. وهٰذه الحقيقة تفسّر لنا ظواهر كونيّة ثلاثًا: أولاها: عدم ٱستواء الليل والنهار في جميع الأيّام. والثانية: تعاقب الفصول الأربعة. والثالثة: المسار الظاهري للشمس في دائرة البروج، حيث تبدو الشمس وكأنّها تغيّر مواضعها بالنسبة إلى النجوم في قبّة السماء، فتنزل تارة مقابل برج الدلو (مجموعة نجميّة تتوضّع على هيئة قريبة من شكل الدلو) وترتفع تارة مقابل برج الأسد... وهٰذا ما يسمّى بمنازل الشمس.

ثالثًا: وعليه؛ فللأجرام السماويّة بالنسبة للأرض حركتان: حركة حقيقيّة عُني بها أهل الفيزياء الفضائيّة بغرض التقنين والتفسير للظواهر. وحركة ظاهريّة نشهلها كلّ يوم، فنرى الشمس تشرق من الشرق وتذهب نحو الغرب. وليست الحركة الظاهريّة للأجرام السماويّة بالنسبة للأرض معتمدة عند عموم البشر فحسب، بل وعند خصوصهم من الراصدين الفلكيّين والأرصاديّين المعاصرين، فهٰؤلاء وغيرهم بنوا حساباتهم وخرائطهم على هٰذه الحركة الظاهريّة التي تعتمد الأرض مركزًا تدور حوله الأجرام، لا إنكارًا للحركة الحقيقيّة، بل توخّيًا للسهولة واليسر وتيسيرًا للانتفاع. وٱنظر مزيدًا في هٰذه القضيّة فيما تقدّم (١/ ٦٣-٦٩).

(١) سيأتي بعضها من كلام المصنّف نفسه عن قريب.

(٢) في خ: «يتبيّن إلى إبداره... فتميّزت بين الأشهر والسنين... حكمة كثيرة... الكواكب».

(٣) فعليك بهٰذا القياس كلّما أعيتك العلّة أو خفيت عن ذهنك الحكمة؛ فإنّه والله قياس الراسخين الذين لا تستخفّهم الحوادث ولا تبهرهم الغرائب. والله يرحم ابن القيّم ويقدّس روحه في علّيين.

وشمسِها وقمرِها وٱختلافِ مشارقِها ومغاربِها ودُؤوبِها في الحركةِ على الدَّوامِ مِن غيرِ فتورٍ في حركتِها ولا تغيُّرٍ في سيرِها بل تَجْري في منازلَ قد رُتِّبَتْ لها بحسابٍ مقدورٍ[١] لا يَزيدُ ولا يَنْقُصُ إلى أنْ يَطْوِيَها فاطرُها وبديعُها. وٱنْظُرْ إلى كثرةِ كواكبِها وٱختلافِ ألوانِها /خ٣١٥/ ومقاديرِها: فبعضُها يَميلُ إلى الحمرةِ، وبعضُها إلى البياضِ، وبعضُها إلى اللونِ الرَّصاصيِّ[٢].

ثمَّ ٱنْظُرْ إلى مسيرِ الشَّمسِ في فلكِها في مدَّةِ سنةٍ، ثمَّ هيَ في كلِّ يومٍ تَطْلُعُ وتَغْرُبُ بسيرٍ سَخَّرَها [لهُ] خالقُها لا تتَعَدَّاهُ ولا تَقْصُرُ عنهُ، ولولا طلوعُها وغروبُها؛ لَما عُرِفَ الليلُ والنَّهارُ ولا المواقيتُ، ولأطْبَقَ الظَّلامُ على العالمِ أو الضِّياءُ[٣] ولَمْ يَتَمَيَّزْ وقتُ المعاشِ عن وقتِ السُّباتِ والرَّاحةِ. وكيفَ قَدَّرَ لها العزيزُ العليمُ سفرينِ متباعدينِ: أحدُهُما: سفرُها صاعدةً إلى أوجِها، والثَّاني: سفرُها هابطةً إلى حضيضِها. تَنْتَقِلُ في منازلِ هٰذا السَّفرِ منزلةً منزلةً حتَّى تَبْلُغَ غايتَها منهُ، فأحْدَثَ ذٰلكَ السَّفرُ بقدرةِ الرَّبِّ [الخالقِ] القادرِ ٱختلافَ الفصولِ مِن الصَّيفِ والشِّتاءِ والخريفِ والرَّبيعِ. فإذا ٱنْخَفَضَ سيرُها عن وسطِ السَّماءِ؛ بَرَدَ الهواءُ وظَهَرَ الشِّتاءُ، وإذا ٱسْتَوَتْ في وسطِ السَّماءِ؛ ٱشْتَدَّ القيظُ، وإذا كانَتْ بينَ المسافتينِ؛ ٱعْتَدَلَ الزَّمانُ. وقامَتْ مصالحُ العبادِ والحيواناتِ والنَّباتِ بهٰذهِ الفصولِ الأربعةِ، وٱخْتَلَفَتْ بسببِها الأقواتُ وأحوالُ النَّباتِ وألوانُهُ[٤] ومنافعُ الحيوانِ والأغذيةِ وغيرِها[٥].

---

(١) في خ: «ودوائها في الحركة على الدوام من غير قبور...»، وفي ط: «... بحساب مقدّر».

(٢) يعزو الفلكيّون المعاصرون ٱختلاف ألوان النجوم في السماء إلى درجة حرارتها: فالنجوم الزرقاء أشدّ حرارة من الصفراء، والبرتقاليّة دون الصفراء حرارة وفوق الحمراء.

(٣) في خ: «وغروبها ما عرف الليل ولا النهار... والضياء».

(٤) في خ: «تنتقل من... فأخذت ذٰلك السفر... وإن ٱستوت... وأحوال العباد والألوان».

(٥) هٰذا كلام سليم، لٰكن لا بدّ معه من مقاربة علميّة عصريّة أسوقها على النحو التالي:

أوّلاً: من الثابت علميًّا أنّ الأرض تدور حول محورها القطبي، دورة كاملة كل ٢٤ ساعة تقريبًا، من الغرب إلى الشرق، بعكس عقارب الساعة. وهٰذه الحقيقة تفسّر لنا ظاهرتين كونيّتين: أولاهما: تعاقب الليل والنهار. والثانية: الحركة الظاهريّة اليوميّة للأجرام السماويّة، بما فيها الشمس والقمر، حيث تبدو هٰذه الأجرام لنا وكأنّها تدور حول الأرض من الشرق إلى الغرب بٱتّجاه عقارب الساعة تمامًا كما يرى السابقُ السيّارةَ=

بحسِّ اللمسِ عندَ هبوبِهِ؛ يُدْرَكُ حسُّهُ ولا يُرى شخصُهُ! فهوَ بحرٌ بينَ[١] السَّماءِ والأرضِ، والطَّيرُ محلِّقةٌ فيهِ سابحةٌ بأجنحتِها في أمواجِهِ كما تَسْبَحُ حيواناتُ البحرِ في الماءِ، وتَضْطَرِبُ جوانبُهُ وأمواجُهُ عندَ هيجانِهِ كما تَضْطَرِبُ أمواجُ البحرِ.

● فإذا شاءَ سبحانَهُ [وتعالى]؛ حَرَّكَهُ بحركةِ الرَّحمةِ فجَعَلَهُ رخاءً ورحمةً وبشرًا بينَ يدي رحمتِهِ ولاقحًا للسَّحابِ يَلْقَحُهُ بحملِ الماءِ كما يَلْقَحُ الذَّكرُ الأُنثى بالحملِ[٢]. وأسْمى[٣] رياحَ الرَّحمةِ المبشِّراتِ والنَّشرَ والذَّارياتِ والمرسَلاتِ والرُّخاءَ واللواقحَ، ورياحَ العذابِ العاصفَ والقاصفَ وهُما في البحرِ والعقيمَ والصَّرصرَ وهُما في البرِّ. وإنْ شاءَ؛ حَرَّكَهُ بحركةِ العذابِ فجَعَلَهُ عقيمًا وأوْدَعَهُ عذابًا أليمًا وجَعَلَهُ نقمةً على مَن يَشاءُ مِن عبادِهِ، فيَجْعَلُهُ صرصرًا ونحسًا وعاتيًا ومفسدًا لِما يَمُرُّ عليهِ.

وهيَ مختلفةٌ في مهابِّها، [فمنها] صبًا ودَبورٌ وجنوبٌ وشمالٌ[٤].

وفي منفعتِها وتأثيرِها أعظمُ اختلافٍ: فريحٌ ليِّنةٌ رطبةٌ تُغَذِّي النَّباتَ وأبدانَ الحيوانِ[٥]، وأُخرى تُجَفِّفُهُ[٦]، وأُخرى تُهْلِكُهُ وتُعْطِبُهُ، وأُخرى تَشُدُّهُ وتُصَلِّبُهُ، وأُخرى /خ٣٢٠/ توهِنُهُ وتُضْعِفُهُ.

● ولهٰذا يُخْبِرُ سبحانَهُ عن رياحِ [الرَّحمةِ] بصيغةِ الجمعِ؛ لاختلافِ منافعِها وما يَحْدُثُ منها: فريحٌ تُثيرُ السَّحابَ، وريحٌ تَلْقَحُهُ، وريحٌ تَحْمِلُهُ على متونِها، وريحٌ تُغَذِّي النَّباتَ... ولمَّا كانَتِ الرِّياحُ مختلفةً في مهابِّها وطبائعِها؛ جَعَلَ لكلِّ ريحٍ [ريحًا] مقابلتَها تَكْسِرُ سَوْرَتَها و[تَدْفَعُ] حدَّتَها وتُبْقي لينَها

---

(١) في ط: «تطاول السنين... يدرك جسمه ولا يرى... فهو يجري بين».

(٢) سيأتيك قريبًا مقاربة علميّة لتكوّن السحاب ودور الرياح في ذٰلك.

(٣) في خ: «والطير مختلفة... يلقحه على الماء...»، وفي ط: «... بالحمل وتسمّى».

(٤) الصبا: ريح شرقيّة ليّنة تهبّ على الجزيرة العربيّة، والدبور: ريح غربيّة عنيفة تقابل الصبا، والجنوب والشمال معروفتان. ثمّ أعلم أنّ منافع الرياح تتفاوت من إقليم إلى آخر. فالريح الشرقيّة (الصبا) هي ألطف الرياح وأحبّها لأهل الجزيرة العربيّة، ولٰكنّها أخبثها وأشدّها أذيّة لأهل الشام، ولذٰلك يسمّونها غضبًا ويسمّون الريح الغربيّة ذهبًا.

(٥) أي: تنشّطها وتعينها على الحركة والنموّ.

(٦) في خ: «والنشر والذاريات... ونحسًا وعاتية... وأخرى تجفّه».

واحدةٌ]! كما قالَ تَعالى: ﴿وَفي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ في الأُكُلِ إِنَّ في ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ﴾ [الرعد: ٤]. فكيفَ كانَتْ هٰذه الأجنَّةُ المختلفةُ مودعةً في بطنِ هٰذه الأُمِّ؟! وكيفَ كانَ حملُها مِن لقاحٍ واحدٍ[١]؟! صنعَ اللهِ الذي أتْقَنَ كلَّ شيءٍ لا إلٰهَ إلَّا هوَ! ولولا أنَّ هٰذا مِن أعظمِ آياتِه؛ لَما نَبَّهَ عليه عبادَهُ ودَعاهُم إلى[٢] التَّفكُّرِ فيه.

قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿وَتَرى الأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا /خ٣١٩/ عَلَيها الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ . ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيي المَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فيها وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ في القُبورِ﴾ [الحج: ٥-٧]، فجَعَلَ النَّظرَ في هٰذه الآيةِ وما قبلَها مِن خلقِ الجنينِ دليلاً على هٰذه النَّتائجِ الخمسِ مستلزمًا للعلمِ بها.

ثمَّ انْظُرْ: كيفَ أحْكَمَ جوانبَ الأرضِ بالجبالِ الرَّاسياتِ الشَّوامخِ الصُّمِّ الصِّلابِ، وكيفَ نَصَبَها فأحْسَنَ نصبَها، وكيفَ رَفَعَها وجَعَلَها أصلبَ أجزاءِ الأرضِ لئلَّا تَضْمَحِلَّ على تطاولِ الزَّمانِ وترادفِ الأمطارِ والرِّياحِ، بل أتْقَنَ صنعَها وأحْكَمَ وضعَها وأوْدَعَها مِن المنافعِ والمعادنِ والعيونِ ما أوْدَعَها، ثمَّ هَدى النَّاسَ إلى استخراجِ تلكَ المعادنِ منها وألْهَمَهُم كيفَ يَصْنَعونَ منها النُّقودَ [والحُلِيَّ] والزِّينةَ واللباسَ والسِّلاحَ وآلاتِ المعاشِ على اختلافِها، ولولا هدايتُهُ سبحانَهُ لهُم إلى ذٰلكَ؛ لَما كانَ لهُم علمٌ بشيءٍ منهُ ولا قدرةٌ عليهِ.

[١٩ـ فصل]

[في بدائع صنعته تعالى في خلق الهواء وإرسال الرياح]

● ومِن آياتِهِ الباهرةِ هٰذا الهواءُ اللطيفُ المحبوسُ بينَ السَّماءِ والأرضِ؛ يُدْرَكُ

---

(١) أمّا الأجنّة؛ فهي البذور. وأمّا اللقاح؛ فهو الماء، كما دلّت الآية، لا اللقاح بالمفهوم المعاصر، وإنّما ساغَ تسمية الماء لقاحًا على الاستعارة؛ لأنّ الحبّة لا تنبت بدونه عادة.

(٢) في خ: «اهتزّت وربت فتحرّكت وربت فارتفعت واخضرّت فأنبتت... عباده وحداهم إلى».

[١٨] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في خلق الأرض سهولا وجبالا]

وإذا نَظَرْتَ إلى الأرضِ كيفَ خُلِقَتْ؛ رَأَيْتَها مِن أعظمِ آياتِ /خ٣١٨/ فاطرِها ومبدعِها: خَلَقَها سبحانَهُ فراشًا ومهادًا، وذَلَّلَها للعبادِ[١]، وجَعَلَ فيها أرزاقَهُم وأقواتَهُم ومعايشَهُم، وجَعَلَ فيها السُّبلَ لِيَنْتَقِلوا فيها في حوائجِهم وتصرُّفاتِهم، وأرْساها بالجبالِ فجَعَلَها أوتادًا تَحْفَظُها[٢] لئلاَّ تَميدَ بهِم، ووَسَّعَ أكنافَها، ودَحاها فمَدَّها وبَسَطَها، وطَحاها فوسَّعَها مِن جوانبِها، وجَعَلَها كفاتًا للأحياءِ تَضُمُّهُم على ظهرِها ما داموا أحياءً، وكفاتًا للأمواتِ [تَضُمُّهُم في بطنِها إذا ماتوا، فظهرُها وطنٌ للأحياءِ وبطنُها وطنٌ للأمواتِ].

وقد أكْثَرَ تَعالى مِن ذكرِ الأرضِ في كتابِهِ ودَعا عبادَهُ إلى النَّظرِ إليها والتَّفكُّرِ في خلقِها: فقالَ تَعالى: [﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفاتًا . أَحْياءً وَأَمْواتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦]، وقالَ:] ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الماهِدونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، ﴿اللهُ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرارًا﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿[اللهُ] الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿أَفَلا يَنْظُرونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإلى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإلى الجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإلى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]، ﴿إِنَّ في السَّماواتِ وَالأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنينَ﴾ [الجاثية: ٣]... وهٰذا كثيرٌ في القرآنِ.

فٱنْظُرْ إليها وهيَ ميِّتةٌ [هامدةٌ] خاشعةٌ، فإذا أنْزَلْنا عليها الماءَ؛ ٱهْتَزَّتْ فتَحَرَّكَتْ، ورَبَتْ فٱرْتَفَعَتْ وٱخْضَرَّتْ، وأنْبَتَتْ مِن كلِّ زوجٍ بهيجٍ فأخْرَجَتْ عجائبَ النَّباتِ في المنظرِ والمخبرِ، بهيجٍ للنَّاظرينَ كريمٍ للمتناولينَ، فأخْرَجَتِ الأقواتَ على ٱختلافِها وتباينِ مقاديرِها وأشكالِها وألوانِها ومنافعِها والفواكهَ والثِّمارَ وأنواعَ الأدويةِ ومراعيَ الدَّوابِّ والطَّيرِ.

ثمَّ ٱنْظُرْ إلى قطعِها المتجاوراتِ وكيفَ يَنْزِلُ عليها ماءٌ واحدٌ فتُنْبِتُ الأزواجَ المختلفةَ [المتباينةَ في اللونِ والشَّكلِ والرَّائحةِ والطَّعمِ والمنفعةِ؛ واللقاحُ واحدٌ والأُمُّ

---

(١) في ط: «فاطرها وبديعها... وذلّلها لعباده».

(٢) في خ: «وجعل فيها ليسكنوا فيها في حوائجهم... أوتادًا لحفظها».

والثَّاني: أنْ يَتجاوَزَ هٰذا [إلى] النَّظرِ بالبصيرةِ الباطنةِ. فتُفْتَحُ لهُ أبوابُ السَّماءِ فيَجولُ في أقطارِها وملكوتِها /خ٣١٧/ وبينَ ملائكتِها، ثمَّ يُفْتَحُ لهُ بابٌ بعدَ بابٍ، حتَّى يَنْتَهِيَ بهِ سيرُ القلبِ إلى عرشِ الرَّحْمٰنِ، فيَنْظُرَ سعتَهُ وعظمتَهُ وجلالَهُ ومجدَهُ ورفعتَهُ، ويَرى السَّماواتِ السَّبعَ والأرضينَ السَّبعَ بالنِّسبةِ إليهِ كحلقةٍ ملقاةٍ بأرضٍ فلاةٍ، ويَرى الملائكةَ حافِّينَ مِن حولِهِ لهُم زجلٌ[1] بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ والتَّقديسِ والتَّكبيرِ، والأمرُ يَنْزِلُ مِن فوقِهِ بتدبيرِ الممالكِ والجنودِ التي لا يَعْلَمُها إلاَّ ربُّها ومليكُها، فيَنْزِلُ الأمرُ بإحياءِ قومٍ وإماتةِ آخرينَ وإعزازِ قومٍ وإذلالِ آخرينَ وإسعادِ قومٍ وشقاوةِ آخرينَ وإنشاءِ ملكٍ وسلبِ ملكٍ وتحويلِ نعمةٍ مِن محلٍّ إلى محلٍّ وقضاءِ الحاجاتِ على ٱختلافِها وتباينِها وكثرتِها مِن جبرِ كسيرٍ وإغناءِ فقيرٍ وشفاءِ مريضٍ وتفريجِ كربٍ ومغفرةِ ذنبٍ، وكشفِ ضرٍّ ونصرِ مظلومٍ وهدايةِ حيرانَ وتعليمِ جاهلٍ وردِّ آبقٍ وأمانِ خائفٍ وإجارةِ مستجيرٍ ومددٍ لضعيفٍ وإغاثةٍ لملهوفٍ وإعانةٍ لعاجزٍ[2] وٱنتقامٍ مِن ظالمٍ وكفٍّ لعدوانٍ. . . فهيَ مراسيمُ دائرةٌ بينَ العدلِ والفضلِ والحكمةِ والرَّحمةِ تَنْفُذُ في أقطارِ العوالمِ، لا يَشْغَلُهُ سمعُ شيءٍ منها عن سمعِ غيرِهِ، ولا تُغَلِّطُهُ كثرةُ المسائلِ والحوائجِ على ٱختلافِها وتباينِها وٱتِّحادِ وقتِها، ولا يَتَبَرَّمُ بإلحاحِ الملحِّينَ، ولا تَنْقُصُ ذرَّةٌ مِن خزائنِهِ، لا إلٰهَ إلاَّ هوَ العزيزُ الحكيمُ. فحينئذٍ يَقومُ القلبُ بينَ يدي الرَّحمٰنِ مطرقًا لهيبتِهِ خاشعًا لعظمتِهِ عانيًا[3] لعزَّتِهِ، فيَسْجُدُ بينَ يدي الملكِ الحقِّ المبينِ سجدةً لا يَرْفَعُ رأْسَهُ منها إلى يومِ المزيدِ.

فهٰذا سفرُ القلبِ وهوَ في وطنِهِ ودارِهِ ومحلِّ ملكِهِ، وهٰذا مِن أعظمِ آياتِ اللهِ وعجائبِ صنعِهِ. فيا لهُ مِن سفرٍ! ما أبركَهُ وأروحَهُ وأعظمَ ثمرتَهُ وربحَهُ وأجلَّ منفعتَهُ وأحسنَ عاقبتَهُ! سفرٌ هوَ حياةُ الأرواحِ ومفتاحُ السَّعادةِ وغنيمةُ العقولِ والألبابِ، لا كالسَّفرِ الذي هوَ قطعةٌ مِن العذابِ.

---

(١) الزجل: الصوت.

(٢) في خ: «ومجده ونعته. . . وإذلال قوم وإسعاد. . . الضعيف وإغاثة الملهوف وإعانة العاجز».

(٣) في خ: «وكفّ العدوان. . . إلاّ الله العزيز. . .»، وفي خ وط: «. . . عانٍ»! والعاني: الأسير.

ورحمتَها[١]. فرياحُ الرَّحمةِ متعدِّدةٌ.

وأمَّا ريحُ العذابِ؛ فإنَّهُ ريحٌ واحدةٌ تُرْسَلُ مِن وجهٍ واحدٍ لإهلاكِ ما تُرْسَلُ بإهلاكِهِ[٢]، فلا تَقومُ لها ريحٌ أُخرى تُقابِلُها وتكْسِرُ سَوْرَتَها وتَدْفَعُ حدَّتَها، بل تكونُ كالجيشِ العظيمِ الذي لا يُقاوِمُهُ شيءٌ يُدَمِّرُ كلَّ ما أتى عليهِ.

وتَأَمَّلْ حكمةَ القرآنِ وجلالتَهُ وفصاحتَهُ كيفَ ٱطَّرَدَ هٰذا فيهِ في البرِّ، وأمَّا في البحرِ؛ فجاءَتْ ريحُ الرَّحمةِ فيهِ بلفظِ الواحدِ، كقولِهِ تَعالى: ﴿هُوَ الَّذي يُسَيِّرُكُمْ في البَرِّ وَالبَحْرِ حَتَّى إذا كُنْتُمْ في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بريحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ﴾ [يونس: ٢٢]؛ فإنَّ السُّفنَ إنَّما تَسيرُ بالرِّيحِ الواحدةِ التي تأْتي مِن وجهٍ واحدٍ، فإذا ٱخْتَلَفَتِ الرِّياحُ على السُّفنِ وتَقابَلَتْ؛ لَمْ يَتِمَّ سيرُها، فالمقصودُ منها في البحرِ خلافُ المقصودِ منها في البرِّ؛ إذِ المقصودُ في البحرِ أنْ تكونَ واحدةً طيِّبةً لا يُعارِضُها شيءٌ، فأُفْرِدَتْ هُنا وجُمِعَتْ في البرِّ[٣].

● ثمَّ إنَّهُ سبحانَهُ أعْطى هٰذا المخلوقَ اللطيفَ الذي يُحَرِّكُهُ أضعفُ المخلوقاتِ ويَخْرِقُهُ مِن الشِّدَّةِ والقوَّةِ والبأْسِ ما تَقْلَقُ بهِ[٤] الأجسامُ الصُّلبةُ القويَّةُ الممتنعةُ ويُزْعِجُها عن أماكنِها [ويُفَتِّتُها] ويَحْمِلُها على متنِهِ[٥].

فٱنْظُرْ إليهِ معَ لطافتِهِ وخفَّتِهِ؛ إذا دَخَلَ في الزِّقِّ[٦] مثلاً وٱمْتلأَ بهِ ثمَّ وَضَعَ عليهِ الجسمَ الثَّقيلَ كالرَّحلِ وغيرِهِ وتَحامَلَ عليهِ لِيَغْمِسَهُ في الماءِ؛ لمْ يُطِقْ، وتَضَعُ الحديدَ الصُّلْبَ الثَّقيلَ على وجهِ الماءِ فيَرْسُبُ فيهِ! فٱمْتَنَعَ هٰذا اللطيفُ مِن قهرِ الماءِ [لهُ]، ولمْ يَمْتَنِعْ منهُ القويُّ الشَّديدُ. وبهٰذهِ الحكمةِ أمْسَكَ اللهُ سبحانَهُ السُّفنَ على وجهِ الماءِ معَ

---

(١) فيه نظر؛ لأنّ الأرصاديّين المعاصرين يرون أنّ تصادم الكتل الهوائيّة المختلفة لا يكسر حدّتها ولٰكن يسبّب حالة عدم ٱستقرار جوّي ربّما كانت أسوأ أثرًا وخطرًا. وإنّما تخفّ حدّة الرياح تدريجيًّا بخفّة الأسباب المثيرة لها وعودتها إلى المعدّلات الطبيعيّة، وأهمّ هٰذه الأسباب درجة الحرارة والضغط الجوّي.

(٢) في ط: «الريح مختلفة...»، وفي خ: «... مقابلها تكسر... لإهلاكه».

(٣) فٱرجع وتأمّل وٱحفظ؛ فإنّه باب نفيس من أبواب الإعجاز والدقّة في العبارة القرآنيّة.

(٤) في خ: «خلاف المقصود بها في البرّ... ويخرقه بين الشدّة والقوّة واليابس ما يعلف به»!

(٥) وحسبك مثلاً هٰذه الأعاصير الرهيبة التي لا تفتأ تجتاح شواطئ أمريكا واليابان وتفعل الأعاجيب.

(٦) الزقّ: من الأوعية الجلديّة.

ثقلِها وثقلِ ما تَحْويهِ. وكذٰلكَ كلُّ مجوَّفٍ حَلَّ فيهِ الهواءُ؛ فإنَّهُ لا يَرْسُبُ فيهِ؛ لأنَّ الهواءَ يَمْتَنِعُ مِن الغوصِ [في الماءِ] فتَتَعَلَّقُ بِهِ السَّفينةُ المشحونةُ الموقَرةُ /خ٣٢١/ . فتأمَّلْ كيفَ ٱسْتَجارَ هٰذا الجسمُ الثَّقيلُ العظيمُ بهٰذا اللطيفِ الخفيفِ وتَعَلَّقَ بهِ حتَّى أَمِنَ [مِن] الغرقِ! وهٰذا كالذي يَهْوي[1] في قَليبٍ، فيَتَعَلَّقُ بذيلِ رجلٍ قويٍّ شديدٍ يَمْتَنِعُ عنِ السُّقوطِ في القَليبِ، فيَنْجو بتعلُّقِهِ بهِ! فسبحانَ مَن عَلَّقَ هٰذا المركبَ العظيمَ الثَّقيلَ بهٰذا الهواءِ اللطيفِ مِن غيرِ عِلاقةٍ ولا عقدةٍ تُشاهَدُ!

[٢٠ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في السحاب والمطر]

ومِن آياتِهِ السَّحابُ المسخَّرُ بينَ السَّماءِ والأرضِ؛ كيفَ يُنْشِئُهُ سبحانَهُ بالرِّياحِ فتُثيرُهُ كِسَفًا، ثمَّ يُؤَلِّفُ بينَهُ ويَضُمُّ بعضَهُ إلى بعضٍ، ثمَّ تَلْقَحُهُ الرِّيحُ ـ وهيَ التي سَمَّاها سبحانَهُ لواقحَ ـ، ثمَّ يَسوقُهُ على متونِها إلى الأرضِ المحتاجةِ إليهِ، فإذا عَلاها وٱسْتَوى عليها؛ أَهْراقَ ماءَهُ عليها، فيُرْسِلُ سبحانَهُ عليهِ الرِّيحَ وهوَ في الجوِّ فتَذْروهُ وتُفَرِّقُهُ لئلَّا يُؤْذِيَ ويَهْدِمَ ما يَنْزِلُ عليهِ بجملتِهِ، حتَّى إذا رَوِيَتْ وأَخَذَتْ حاجتَها منهُ؛ أَقْلَعَ عنها وفارَقَها، فهيَ روايا الأرضِ محمولةٌ على ظهورِ الرِّياحِ[2].

[و]في التِّرْمِذِيِّ وغيرِهِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا رَأى السَّحابَ؛ قالَ: «هٰذهِ روايا الأرضِ، يَسوقُها اللهُ إلى قومٍ لا يَشْكُرونَهُ ولا يَذْكُرونَهُ»[3]. فالسَّحابُ حاملُ رزقِ العبادِ وغيرِهِمُ التي [عليها] ميرتُهُم[4].

وكانَ الحَسَنُ إذا رَأى السَّحابَ؛ قالَ: في هٰذهِ واللهِ رزقُكُم، ولٰكنَّكُم تُحْرَمونَهُ بخطاياكُم وذنوبِكُم.

---

(١) في خ: «فيه وإنّ الهواء يمتنع. . . المشحونة الموقورة. . . فتعلّق به. . . كالذي هوى».

(٢) في بعضه نظر سيأتي تفصيل القول فيه (٢/ ١٠٤) فراجعه إن شئت.

(٣) (ضعيف). قطعة من حديث أبي هريرة الذي تقدّم تفصيل القول فيه (٢/ ٤٧).

(٤) كذا في خ وط! وكأنّه تحريف صوابه الذي عليه ميرتهم. والميرة: الطعام.

وفي «الصَّحيح»[1] عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «بَيْنا رجلٌ بفلاةٍ مِن الأرضِ؛ إذْ سَمِعَ صوتًا في سحابةٍ: أَسْقِ حديقةَ فلانٍ. فمَرَّ الرَّجلُ معَ السَّحابةِ حتَّى أَتَتْ على حديقةٍ، فلمَّا تَوَسَّطَتْها؛ أَفْرَغَتْ فيها ماءَها. فإذا برجلٍ معَهُ مسحاةٌ يَسْحي الماءَ بِها، فقالَ: ما ٱسْمُكَ يا عَبْدَ اللهِ؟ قالَ: فلانٌ؛ للاسمِ[2] الذي سَمِعَهُ في السَّحابةِ. . .».

وبالجملةِ؛ فإذا تَأَمَّلْتَ السَّحابَ الكثيفَ المظلمَ؛ كيفَ تَراهُ يَجْتَمِعُ في جوٍّ صافٍ لا كدورةَ فيه، [وكيفَ يَخْلُقُهُ اللهُ] متى شاءَ وإذا شاءَ، وهوَ معَ لينِهِ ورخاوتِهِ حاملٌ للماءِ الثَّقيلِ بينَ السَّماءِ والأرضِ[3]، إلى أنْ يَأْذَنَ لهُ ربُّهُ وخالقُهُ في إرسالِ ما معَهُ مِن الماءِ، فيُرْسِلُهُ ويُنْزِلُهُ منهُ مقطَّعًا بالقطراتِ كلُّ قطرةٍ بقدرٍ /خ٣٢٢/ مخصوصٍ ٱقْتَضَتْهُ حكمتُهُ ورحمتُهُ، فيَرُشُّ الماءَ على الأرضِ رشًّا، ويُرْسِلُهُ قطراتٍ مفصَّلةً، لا تَخْتَلِطُ قطرةٌ منها بأُخرى، ولا يَتَقَدَّمُ [متأخِّرُها]، ولا يَتَأَخَّرُ متقدِّمُها، ولا تُدْرِكُ القطرةُ صاحبتَها فتَمْتَزِجَ بها، بل تَنْزِلُ كلُّ واحدةٍ في الطَّريقِ الذي رُسِمَ لها لا تَعْدِلُ عنهُ، حتَّى تُصيبَ الأرضَ قطرةً قطرةً، قد عُيِّنَتْ كلُّ قطرةٍ منها لجزءٍ مِن الأرضِ لا تَتَعَدَّاهُ إلى غيرِهِ، فلوِ ٱجْتَمَعَ الخلائقُ[4] كلُّهُم على أنْ يَخْلُقوا منها قطرةً واحدةً أو يُحْصوا عددَ القطرِ في لحظةٍ واحدةٍ؛ لَعَجَزوا عنهُ.

فتَأَمَّلْ كيفَ يَسوقُهُ سبحانَهُ رزقًا للعبادِ والدَّوابِّ والطَّيرِ والذَّرِّ والنَّملِ، يَسوقُهُ رزقًا للحيوانِ الفلانيِّ في الأرضِ الفلانيَّةِ بجانبِ الجبلِ الفلانيِّ، فيَصِلُ إليهِ على شدَّةٍ مِن الحاجةِ والعطشِ في وقتِ كذا وكذا.

[٢١ ـ فصل]

[في بدائع صنعته تعالى في تكوين النبات وتنويعه]

ثمَّ كيفَ أَوْدَعَهُ في الأرضِ ثمَّ أَخْرَجَ بِهِ أنواعَ الأغذيةِ والأدويةِ والأقواتِ: فهٰذا

---

(١) مسلم (٥٣ ـ الزهد، ٤ ـ الصدقة في المساكين، ٤/ ٢٢٨٨/ ٢٩٨٤).

(٢) في خ: «يؤذي ويتهدّم. . . حاجتها منها. . . أفرغت ما فيها. . . فلان الاسم».

(٣) قد تحمل السحابة المتوسّطة الحجم مئة ألف طن من الماء.

(٤) في خ: «صاحبتها فتزجّ بها. . .». وفي ط: «. . . ٱجتمع الخلق».

النَّباتُ يُغَذِّي، وهٰذا يُصْلِحُ الغذاءَ، وهٰذا يُنْفِذُهُ[١]، [وهٰذا يُقَوِّي] وهٰذا يُضْعِفُ، وهٰذا سمٌّ [قاتلٌ] وهٰذا شفاءٌ مِن السُّمِّ، وهٰذا يُمْرِضُ وهٰذا دواءٌ مِن المرضِ، وهٰذا يُبْرِدُ وهٰذا يُسَخِّنُ، وهٰذا إذا حَصَلَ في المعدةِ قَمَعَ الصَّفراءَ مِن أعماقِ العروقِ وهٰذا إذا حَصَلَ فيها وَلَّدَ الصَّفراءَ وٱسْتَحالَ إليها، وهٰذا يَدْفَعُ البلغمَ والسَّوداءَ وهٰذا يَسْتَحيلُ إليهما، وهٰذا يُهَيِّجُ الدَّمَ وهٰذا يُسَكِّنُهُ، [وهٰذا يُنَوِّمُ] وهٰذا يَمْنَعُ النَّومَ، وهٰذا يُفْرِحُ وهٰذا يَجْلِبُ الغمَّ. . . إلى غيرِ ذٰلكَ مِن عجائبِ النَّباتِ التي لا تكادُ تَخْلو ورقةٌ منهُ ولا عرقٌ ولا ثمرةٌ [مِن منافعَ] تَعْجزُ عقولُ البشرِ عنِ الإحاطةِ بها وتفصيلِها.

وٱنْظُرْ إلى مجاري الماءِ في تلكَ العروقِ الرَّقيقةِ الضَّئيلةِ الضَّعيفةِ[٢] التي لا يكادُ البصرُ يُدْرِكُها إلاَّ بعدَ تحديقِهِ؛ كيفَ يَقْوى على قسرِهِ و[على] ٱجتذابِهِ مِن مقرِّهِ ومركزِهِ إلى فوقٍ، ثمَّ يَتَصَرَّفُ في تلكَ المجاري بحسبِ قبولِها وسعتِها وضيقِها، ثمَّ تَتَفَرَّقُ وتَتَشَعَّبُ وتَدِقُّ إلى غايةٍ لا يَنالُها البصرُ[٣].

ثمَّ ٱنْظُرْ إلى تكوُّنِ حملِ الشَّجرِ وتقلُّبِهِ مِن حالٍ إلى حالٍ كتنقُّلِ أحوالِ الجنينِ المغيَّبِ عنِ الأبصارِ[٤]؛ تَرَ العجبَ العجابَ، فتَبارَكَ اللهُ ربُّ العالَمينَ وأحسنُ الخالقينَ /خ٣٢٣/. بينا تَراها حطبًا قائمًا عاريًا لا كسوةَ عليها؛ إذْ كَساها ربُّها وخالقُها مِن الزَّهرِ أحسنَ كسوةٍ، ثمَّ سَلَبَها تلكَ الكسوةَ وكَساها مِن الورقِ كسوةً هيَ أَثْبَتُ مِن الأُولى[٥]، ثمَّ أَطْلَعَ فيها حملَها ضعيفًا ضئيلاً بعدَ أنْ أَخْرَجَ ورقَها صيانةً وثوبًا لتلكَ الثَّمرةِ الضَّعيفةِ لِتَسْتَجِنَّ بهِ[٦] مِن البردِ والحرِّ والآفاتِ[٧]، ثمَّ ساقَ إلى تلكَ الثَّمراتِ

---

(١) ينفذه: يسهّل هضمه ويسرّع مروره في القناة الهضميّة.

(٢) في خ: «وٱنظر إلى إيجاد الماء في تلك العروق الدقيقة الضعيفة».

(٣) فلا تبقى خليّة من مئات الملايين من خلايا الورقة إلاّ ويصلها نصيبها من فرع من هٰذه الفروع الدقيقة، تمامًا كما يصل الدم إلى كلّ خليّة من خلايا البدن عن طريق الأوعية الدمويّة الشعريّة.

(٤) وهٰذه مقارنة صحيحة تقدّم إيرادها (١/ ٢٢) عند الكلام عن نموّ الجنين البشري في الرحم.

(٥) يسبق الورق الزهر في الظهور عادة لحاجة الشجر الملحّة إليه، لٰكن قد يكون الورق براعم صغيرة ويكثر الزهر وينتشر حتّى لا ترى غيره، وهٰذا مشهود جدًّا في أشجار اللوزيّات.

(٦) في خ: «حمل الشجر وتنقّله من حال. . . الضعيفة تسخن به».

(٧) لا ريب أنّ للورقة دورًا عظيمًا في حماية الثمرة الضعيفة من الحرّ والبَرَد وحبّات البرد، لٰكنّ دوره=

رزقَها وغذاءَها في تلكَ العروقِ والمجاري فتَغَذَّتْ بهِ كما يَتَغَذَّى الطفلُ بلبانِ أُمِّهِ، ثمَّ رَبَّاها ونَمَّاها شيئًا فشيئًا حتَّى ٱسْتَوَتْ وكَمَلَتْ وتَناهى إدراكُها فأَخْرَجَ ذٰلكَ الجَنَى اللذيذَ اللَّيِّنَ[1] مِن تلكَ الحطبةِ الصَّمَّاءِ[2].

هٰذا؛ وكم للهِ مِن آيةٍ في كلِّ ما يَقَعُ الحسُّ عليهِ ويُبْصِرُهُ العبادُ وما لا يُبْصِرونَهُ؛ تَفْنى الأعمارُ دونَ الإحاطةِ بها وبجميعِ تفاصيلِها!

[٢٢] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في تقليب الليل والنهار]

ومِن آياتِهِ سبحانَهُ [وتَعالى] الليلُ والنَّهارُ[3]، وهُما مِن أعجبِ آياتِهِ وبدائعِ مصنوعاتِهِ[4]، ولهٰذا يُعيدُ ذكرَهُما في القرآنِ ويُبْدِئُهُ: كقولِهِ [تَعالى]: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقولِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباسًا وَالنَّوْمَ سُباتًا وَجَعَلَ النَّهارَ نُشورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]، وقولِهِ [عَزَّ وجَلَّ]: ﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقولِهِ [عَزَّ وجَلَّ]: ﴿اللهُ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنوا فيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر: ٦١]... وهٰذا كثيرٌ

= الأعظم يكمن في صناعته للغذاء الذي تعيش عليه الشجرة، فالأوراق هي المصانع التي يُعَدّ فيها طعام الجذور والجذوع والأغصان ومحتويات الثمرة من الموادّ الغذائيّة.

(١) في ط: «ساق إلى تلك الثمار رزقها وغذاءها...»، وفي خ: «... اللذيذ من الليّن».

(٢) تحمل هٰذه الأوعية (العروق) الماء والأملاح المعدنيّة إلى الثمرة، وهناك تدأب خلايا قشرة الثمرة على تحويل الماء والأملاح إلى سكاكر وبروتينات تختزنها داخلها، وكذٰلك تختزن الفائض من السكر والبروتين الذي يأتيها من الأوراق، فتنمو وتتضخّم شيئًا فشيئًا حتّى تكتمل وتنضج.

(٣) قدّمت لك أنّ ظاهرة الليل والنهار ناتجة عن دوران الأرض حول نفسها مرّة كاملة كلّ ٢٤ ساعة تقريبًا. وأنّ ٱختلاف طول الليل والنّهار على مدى السنة ناتج عن ميلان محور دوران الأرض بالنسبة لمستوى دورانها حول الشمس.

(٤) لا تقتصر عجائب قدرة الله في هٰذه الآية على تتابع الليل والنهار: بل في تدرّجهما في الإقبال والإدبار نعمة ورحمة غير موجودة في كثير من الكواكب، وفي ٱختلاف طولهما، وفي تغيّر الحرارة فيهما، وفي حصول هٰذا التغيّر بالتدريج، وفي نشاط بعض الأحياء في الليل وبعضها في النهار، وفي نشاط بعض أجهزة الكائن الواحد في الليل وبعضها في النّهار... وغير ذٰلك كثير.

في القرآنِ.

فأنْظُرْ إلى هاتينِ الآيتينِ وما تَضَمَّنَتاهُ مِن العبرِ والدّلالاتِ على ربوبيّةِ اللهِ وحكمتِهِ؛ كيفَ جَعَلَ الليلَ سكنًا ولباسًا يَغْشى العالَمَ فتَسْكُنُ فيهِ الحركاتُ وتَأْوي الحيواناتُ إلى بيوتِها والطَّيرُ إلى أوكارِها وتَسْتَجِمُّ فيهِ النُّفوسُ وتَسْتَريحُ مِن كدِّ السَّعيِ والتَّعبِ، حتَّى إذا أخَذَتْ منهُ النُّفوسُ راحتَها وسباتَها وتَطَلَّعَتْ إلى معايشِها وتصرُّفِها؛ جاءَ فالقُ الإصباحِ سبحانَهُ [وتَعالى] بالنَّهارِ يَقْدُمُ جيشَهُ بشيرُ الصَّباحِ فهَزَمَ تلكَ الظُّلمةَ ومَزَّقَها كلَّ ممزَّقٍ وأزالَها وكَشَفَها عنِ العالَمِ فإذا هُم مبصرونَ، فأنْتَشَرَ الحيوانُ وتَصَرَّفَ في معاشِهِ ومصالحِهِ وخَرَجَتْ الطُّيورُ مِن أوكارِها. فيا لهُ مِن معادٍ ونشأةٍ دالٍّ على قدرةِ اللهِ سبحانَهُ على المعادِ الأكبرِ!

وتكرُّرُهُ ودوامُ مشاهدةِ النُّفوسِ لهُ /خ٣٢٤/ بحيثُ صارَ عادةً ومألَفًا مَنَعَها عنِ[1] الاعتبارِ بهِ والاستدلالِ [بهِ] على النَّشأةِ الثَّانيةِ وإحياءِ الخلقِ بعدَ موتِهِم! ولا ضعفَ في قدرةِ [اللهِ] القادرِ التَّامِّ القدرةِ ولا قصورَ في حكمتِهِ ولا في علمِهِ يوجِبُ تخلُّفَ ذٰلكَ، ولٰكنَّ اللهَ يَهْدي مَن يَشاءُ ويُضِلُّ مَن يَشاءُ! وهٰذا أيضًا مِن آياتِهِ الباهرةِ؛ أنْ يَعْمى عن هٰذهِ الآياتِ الواضحاتِ البيِّناتِ مَن شاءَ مِن خلقِهِ فلا يَهْتَدي بها ولا يُبْصِرُها، كمَن هوَ واقفٌ في الماءِ إلى حلقِهِ وهوَ يَسْتَغيثُ [مِن] العطشِ ويُنْكِرُ وجودَ الماءِ[2]! وبهٰذا وأمثالِهِ يُعْرَفُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ ويُشْكَرُ ويُحْمَدُ ويُتَضَرَّعُ إليهِ ويُسْأَلُ.

[٢٣] فصل

[في بدائع صنعته تعالى في خلق البحار]

ومِن آياتِهِ وعجائبِ مصنوعاتِهِ البحارُ المكتنفةُ لأقطارِ الأرضِ التي هيَ خلجانٌ

---

(١) في خ: «من العبرة والدلالة... مقدم جيشه... فهزم من تلك... عادة وما منعها من».

(٢) إي والله؛ إنّه من عجائب قدرته تعالى؛ يعطي عبده الشيء ويمكّنه منه ثمّ يحرمه منه وهو بين يديه؛ تراه غنيًّا مليًّا يعيش عيش المعدمين! تراه أستاذًا في الفيزياء الفضائيّة يحدّثك أنّ الأرض بل المجموعة الشمسيّة بأسرها لا تعدو أن تكون هباءة في صحراء الكون المترامية الأطراف، ولٰكنّه لا يصلّي، وربّما كان ملحدًا كأساتذته من الفلكيّين الأوروبيّين! ﴿واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تحشرون﴾.

مِن البحرِ الأعظمِ المحيطِ بجميعِ الأرضِ[١]، حتَّى إنَّ المكشوفَ مِن الأرضِ والجبالِ والمدنِ بالنِّسبةِ إلى الماءِ كجزيرةٍ صغيرةٍ في بحرٍ عظيمٍ وبقيَّةُ الأرضِ مغمورةٌ بالماءِ[٢].

[و]لولا إمساكُ الرَّبِّ تَبارَكَ وتَعالى لهُ بقدرتِهِ ومشيئتِهِ وحبسُهُ الماءَ؛ لَطَفَحَ على الأرضِ وعَلاها كلِّها! هٰذا طبعُ الماءِ! ولهٰذا حارَ عقلاءُ الطَّبائعيِّينَ في سببِ بروزِ هٰذا الجزءِ مِن الأرضِ معَ ٱقتضاءِ طبيعةِ الماءِ للعلوِّ عليهِ وأنْ يَغْمُرَهُ! ولمْ يَجِدوا ما يُحيلونَ عليهِ [ذٰلكَ] إلاَّ الاعترافَ بالعنايةِ الأزليَّةِ والحكمةِ الإلٰهيَّةِ التي ٱقْتَضَتْ ذٰلكَ لعيشِ الحيوانِ الأرضيِّ في الأرضِ. وهٰذا حقٌّ، ولٰكنَّهُ يوجِبُ[٣] الاعترافَ بقدرةِ اللهِ [تَعالى] وإرادتِهِ ومشيئتِهِ وعلمِهِ وحكمتِهِ وصفاتِ كمالِهِ، ولا محيصَ عنهُ[٤].

وفي «مسند الإمام أحمد» عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ أنَّهُ قالَ: «ما مِن يومٍ إلاَّ والبحرُ يَسْتَأْذِنُ ربَّهُ أنْ يُغْرِقَ بني آدَمَ»[٥].

وهٰذا أحدُ الأقوالِ في قولِهِ تَعالى: ﴿[وَالبَحْرِ] المَسْجُورِ﴾ [الطُّور: ٦]: [أنَّهُ] المحبوسُ. حَكاهُ ابنُ عَطِيَّةَ وغيرُهُ. قالوا: ومنهُ ساجورُ الكلبِ، وهيَ القلادةُ مِن عودٍ أو حديدٍ التي تُمْسِكُهُ.

---

(١) في خ وط: «البحر المحيط الأعظم بجميع (وفي خ: لجميع) الأرض»! وهٰذا سبق قلم من المصنّف رحمة الله عليه، أو سهو من الناسخ في نسخة قديمة صوابه ما أثبتّه. والله أعلى وأعلم.

(٢) يقدّر الجغرافيّون اليوم أنّ مساحة اليابسة لا تعدو ٢١٪ من مساحة الكرة الأرضيّة، وبقيّة الأرض مغمورة بالماء العذب أو المالح.

(٣) في خ: «بروز هٰذه الجزر. . . الماء العلوّ. . . ليعيش الحيوان. . . ولٰكنّه وجب».

(٤) السؤال المطروح هنا: لماذا لا يطغى الغلاف المائي الضخم للكرة الأرضيّة على اليابسة فيغرقها؟ والجواب العلميّ له هو قانون الجاذبيّة الذي أودعه الله جلّ وعلا في هٰذه الأرض وقدّره أدقّ تقدير وأحكمه؛ فأمسكت الماء في المنخفضات (البحار والمحيطات) كما أمسكت سائر المتحرّكات والساكنات على قشرتها. فإن فاض ماء المطر حينًا أو ماء البحر لعاصفة؛ فإنّه لا يلبث أن يجري عائدًا إلى المنخفضات التي حبسه الخالق سبحانه فيها رحمة بعباده ولطفًا بهم.

(٥) (ضعيف). رواه: إسحاق في «مسنده» (١/ ٥٣ـ بداية)، وأحمد (١/ ٤٣)، والإسماعيلي في «مسند عمر» (٤/ ٢١٥ـ ابن كثير)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٣٧)؛ من طريق العوّام بن حوشب، ثني شيخ كان مرابطًا بالساحل، لقيت أبا صالح مولى عمر، ثنا عمر. . . رفعه بنحوه.

قال ابن الجوزيّ: «العوّام ضعيف والشيخ مجهول». قلت: العوّام ثقة من رجال الستّة ما رأيت أحدًا ضعّفه. نعم؛ الشيخ مجهول، وأبو صالح مجهول كذٰلك. فالسند واه، وقد ضعّفه ابن كثير وشاكر.

وكذٰلكَ لولا أنَّ اللهَ [سبحانَهُ] يَحْبِسُ البحرَ ويُمْسِكُهُ؛ لفاضَ على الأرضِ، فالأرضُ في البحرِ كبيتٍ في جملةِ الأرضِ.

وإذا تأمَّلْتَ عجائبَ البحرِ وما فيهِ مِن الحيواناتِ على /خ٣٢٥/ اختلافِ أجناسِها وأشكالِها ومقاديرِها ومنافعِها ومضارِّها وألوانِها؛ حتَّى إنَّ فيها حيوانًا[١] أمثالَ الجبالِ لا يَقومُ لهُ شيءٌ[٢]! حتَّى إنَّ فيهِ مِن الحيواناتِ ما يُرى ظهورُها فيُظَنُّ أنَّها جزيرةٌ فيَنْزِلُ الرُّكَّابُ عليها فتُحِسُّ بالنَّارِ إذا أُوقِدَتْ فتَتَحَرَّكُ فيُعْلَمُ أنَّهُ حيوانٌ[٣]! وما مِن صنفٍ مِن أصنافِ حيوانِ البرِّ إلَّا وفي البحرِ أمثالُهُ، حتَّى الإنسانُ والفرسُ والبعيرُ وأصنافُها[٤]، وفيهِ أجناسٌ لا يُعْهَدُ لها نظيرٌ في البرِّ أصلاً.

هٰذا معَ ما فيهِ مِن الجواهرِ واللؤلؤِ [والمرجانِ: فتَرى اللؤلؤةَ كيفَ أُودِعَتْ في كِنٍّ كالبيتِ لها ـ وهيَ الصَّدفُ ـ تُكِنُّها وتَحْفَظُها، ومنهُ اللؤلؤُ] المكنونُ، وهوَ الذي في صدفِهِ لا تَمَسُّهُ الأيدي[٥]. وتأمَّلْ كيفَ نَبَتَ المرجانُ في قعرِهِ في الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ تحتَ الماءِ على هيئةِ الشَّجرِ[٦]. هٰذا معَ ما فيهِ مِن العنبرِ وأصنافِ النَّفائسِ التي يَقْذِفُها البحرُ

---

(١) في خ: «أو حديدة التي عكسه... كبيت في البحر في جملة... لحيوانًا».

(٢) كأنّه يريد الحوت الأزرق أو حوت العنبر؛ فإنّها أضخم المخلوقات المعروفة اليوم. والله أعلم.

(٣) من المفيد أن أنبّه هنا إلى قضيّة نغفل عنها كثيرًا عند التعامل مع تراث الأقدمين، وهي أنّ أدوات الترف العلمي الذي نعيشه اليوم من الأخبار المسموعة والمرئيّة لعجائب المخلوقات وأعماق البحار وسطح الكواكب لم تكن متاحة آنئذ، بل كانت غالب معلوماتهم مستندة إلى التلقّي النظري، ولذٰلك كانوا يصدّقون كلّ ما أتاهم من هٰذه الأخبار إن كانت في دائرة الإمكان، وكتب الحيوان القديمة العربيّة والأجنبيّة محشوّة بمثل هٰذه الغرائب، وأصحابها محمودون على ما أصابوا فيه معذورون على ما بالغوا فيه وأخطؤوا. والله أعلم.

(٤) في خ: «وأضعافها». وأغلبها معروف اليوم وله أسماء تقابل أسماء حيوانات البر كخروف البحر وعجل البحر وفيل البحر. وأمّا الإنسان؛ فلا أعلم حيوانًا يشبهه في البحر، لٰكن بعض الثديّات البحريّة التي تعتني بصغارها كانت تبدو لسكّان الشواطئ من بعيد بهيئة الأمّ التي ترضع صغارها، ومن هنا جاءت صورة عروس البحر الأسطوريّة.

(٥) في ط: «صدفه لم تمسّه الأيدي»، وأثبتّ ما في خ. هٰذا؛ ويعدّ اللؤلؤ أحد أثمن الجواهر، وينشأ من أصل حيوانيّ خلافًا لمعظم الجواهر الأخرى ذات الأصل المعدنيّ، حيث تكوّنه بعض الرخويّات المائيّة (المحار) داخل أصدافها، فإذا ما دخل إلى الصدفة كائن غريب؛ فإن بعض خلايا المحارة تفرز مادّة خاصّة تسمّى عرق اللؤلؤ تغطّي بها هٰذا الكائن في طبقات كرويّة متتابعة، فتتكوّن بذٰلك اللؤلؤة.

(٦) في خ: «على هيئة الشجرة»، وأثبتّ ما في ط. والمرجان تكوين صلب من كربونات الكالسيوم=

وتُسْتَخْرَجُ منه[١].

ثمَّ ٱنْظُرْ إلى عجائبِ السُّفنِ وسيرِها تَشُقُّهُ وتَمْخَرُهُ بلا قائدٍ يَقودُها ولا سائقٍ يَسوقُها، وإنَّما قائدُها وسائقُها الرِّياحُ التي يُسَخِّرُها اللهُ لإجرائِها، فإذا حُبِسَ عنها القائدُ والسَّائقُ؛ ظَلَّتْ راكدةً على وجهِ الماءِ! قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ الجَوارِ في البَحْرِ كَالأَعْلامِ . إنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إنَّ في ذٰلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكورٍ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٣]، وقالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿[وَهُوَ] الَّذي سَخَّرَ البَحْرَ لِتَأْكُلوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسونَها وَتَرى الفُلْكَ مَواخِرَ فيهِ وَلِتَبْتَغوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ﴾ [النحل: ١٤]. فما أعظمَها مِن آيةٍ! و[ما] أبينَها مِن دلالةٍ! ولهٰذا يُكَرِّرُ سبحانَهُ ذكرَها في كتابِهِ كثيرًا.

وبالجملةِ؛ فعجائبُ البحرِ وآياتُهُ أعظمُ وأكثرُ مِن أنْ يُحْصِيَها[٢] إلاَّ اللهُ سبحانَهُ[٣].

وقالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿إنَّا لَمَّا طَغى الماءُ حَمَلْناكُمْ في الجارِيَةِ . لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١-١٢].

[٢٤] فصل

[في بدائع صنعته تعالى في تنوع المملكة الحيوانية]

ومِن آياتِهِ سبحانَهُ خلقُ الحيوانِ على ٱختلافِ أصنافِهِ وأجناسِهِ وأشكالِهِ ومنافِعِهِ

= (الحجر الكلسي)، ذو أشكال وألوان جميلة جدًّا تدعو للإعجاب، ينشأ بفعل نوع من الرخويات التي تعيش في البحار الضحلة الدافئة، يجتمع هٰذا الحيوان بأعداد ضخمة تلتصق ببعضها مستندة إلى القاع الصخري، ثمّ تبدأ بترسيب كربونات الكالسيوم حول جذوعها، ممّا يسبّب نموّ الشعاب المرجانيّة تدريجيًّا.

(١) العنبر: مادّة شمعيّة دهنيّة التركيب والملمس، تحتوي على نسبة عالية من الكولسترول، يفرزها الكبد في بعض أنواع الحيتان الضخمة (حوت العنبر)، وتستخرج عادة من أمعاء الحيتان بعد صيدها، وربّما وجدت طافية على سطح الماء، لها رائحة عطريّة تدوم طويلاً، تستخدم غالبًا في صناعة العطور.

(٢) في خ: «أعظم وأكبر من أن يحيطها»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٣) ما زال المختصّون في الدراسات والكائنات البحريّة يتحفون البشريّة بغرائب وعجائب تأخذ بالألباب عن الأحياء المائيّة، وهم مقرّون بأنّهم لا يعلمون عن هٰذه الكائنات إلاّ أقلّ من القليل. هٰذا بالنسبة للمياه الضحلة، وأمّا الأعماق؛ فمعلوماتهم عنها كلا شيء. فجلّ سبحانه في علاه على هٰذا التنوّع العجيب الذي لا يخلو شيء منه من حكمة بل حكم عظيمة أذهلت الباحثين وأعجزتهم.

وألوانِه وعجائبِه المودعةِ [فيه]: فمنهُ الماشي على بطنِه، ومنهُ الماشي على رجليه، ومنهُ الماشي على أربعٍ. ومنهُ ما جُعِلَ سلاحُهُ في رجليهِ ـ وهوَ ذو المخالبِ ـ، ومنهُ ما جُعِلَ سلاحُهُ المناقيرَ كالنَّسرِ والرَّخَمِ والغُرابِ[1]، ومنهُ ما سلاحُهُ الأسنانُ، ومنهُ ما سلاحُهُ الصَّياصي ـ وهيَ القرونُ /خ٣٢٦/ ـ يُدافعُ بها عن نفسِه مَن يَرومُ أخذَهُ، ومنهُ ما أُعْطِيَ قوَّةً يَدْفَعُ بها عن نفسِه لمْ يَحْتَجْ إلى سلاحٍ كالأسدِ؛ فإنَّ سلاحَهُ قوَّتُهُ، ومنهُ ما سلاحُهُ في ذَرْقِه، وهوَ نوعٌ مِن الطَّيرِ إذا دَنا منهُ مَن يُريدُ أخذَهُ ذَرَقَ عليه فأهْلَكَهُ[2].

[٢٥ ـ فصل]

[التفكر في الآيات المشهودة وعجائب القدرة من أجل مقاصد القرآن]

ونحنُ نَذْكُرُ هُنا فصولاً منثورةً مِن هٰذا البابِ[3] مختصرةً، وإنْ تَضَمَّنَتْ بعضَ التَّكرارِ وإن كانَتْ غيرَ مرتَّبةٍ؛ فلا ضيرَ بالتَّكرارِ وتركِ التَّرتيبِ في هٰذا المقامِ الذي هوَ مِن أهمِّ فصولِ الكتابِ، بل هوَ لبُّ هٰذا القسمِ الأوَّلِ، ولهٰذا يُكَرِّرُ في القرآنِ ذكرَ آياتِه ويُعيدُها ويُبْدِئُها ويَأْمُرُ عبادَهُ بالنَّظرِ فيها مرَّةً بعدَ أُخرى، فهوَ مِن أجلِّ مقاصدِ[4] القرآنِ:

قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿قُلِ ٱنْظُروا ماذا في السَّماواتِ وَالأرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

وقالَ تَعالى: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ وَالأرْضِ وَٱخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ [وَالفُلْكِ الَّتي تَجْري في البَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ...﴾ إلى قولِه: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقالَ تَعالى: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ وَالأرْضِ وَٱخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ] لآياتٍ لأُولي الألْبابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقالَ تَعالى: ﴿أفَلا يَنْظُرونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإلى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإلى الجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإلى الأرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

---

(١) يعني: بالإضافة إلى المخالب؛ فإنّها سلاح أعظم لها من المناقير. والرخم: طير جارح.

(٢) الذرق: براز الطير.

(٣) في خ: «ومنها ما سلاحه... ومنها ما سلاحه... فصولاً منثورة في هٰذا الباب».

(٤) في خ: «فهو من أحد مقاصد»! والتصويب من ط.

وقالَ [اللهُ تَعالى]: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُروا في مَلَكوتِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقالَ [تَعالى]: ﴿إِنَّ اللهَ فالِقُ الحَبِّ وَالنَّوى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذٰلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكونَ . فالِقُ الإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبانًا ذٰلِكَ تَقْديرُ العَزيزِ العَليمِ . وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجومَ لِتَهْتَدوا بِها في ظُلُماتِ البَرِّ وَالبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنا الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمونَ . وَهُوَ الَّذي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنا الآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهونَ . وَهُوَ الَّذي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَجَنّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَالزَّيْتونَ وَالرُّمّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُروا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩][١]: فأَمَرَ سبحانَهُ بالنَّظرِ إليهِ وقتَ خروجِهِ وإثمارِهِ ووقتَ نضجِهِ وإدراكِهِ، يُقالُ أَيْنَعَتِ الثِّمارُ إذا نَضِجَتْ وطابَتْ؛ لأنَّ في خروجِهِ مِن بينِ الحطبِ والورقِ آيةً باهرةً وقدرةً بالغةً، ثمَّ في خروجِهِ مِن حدِّ العفوصةِ[٢] واليبوسةِ /خ٣٢٧/ والمرارةِ والحموضةِ إلى ذٰلكَ اللونِ المشرقِ النَّاصعِ والطَّعمِ الحلوِ اللذيذِ الشَّهيِّ لآياتٌ لقومٍ يُؤْمنونَ. وقالَ بعضُ السَّلفِ: حقٌّ على النَّاسِ أنْ يَخْرُجوا وقتَ إدراكِ الثِّمارِ وينعِها فيَنْظُروا إليها، ثمَّ تَلا: ﴿انْظُروا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾.

ولو أَرَدْنا أنْ نَسْتَوْعِبَ ما في آياتِ اللهِ المشهودةِ[٣] مِن العجائبِ والدّلالاتِ الشَّاهدةِ لهُ بأنَّهُ [اللهُ] الذي لا إِلٰهَ إلَّا هوَ الذي ليسَ كمثلِهِ شيءٌ وأنَّهُ الذي لا أعظمَ منهُ ولا أكملَ [منهُ] ولا أبرَّ ولا ألطفَ؛ لَعَجَزْنا نحنُ والأوَّلونَ والآخرونَ عن معرفةِ أدنى

---

(١) النوى: البذور الصلبة كبذر التمر والمشمش والدرّاق. فأنّى تؤفكون: فكيف تصرفون عن الإيمان به وتوحيده بعد رؤيتكم عجائب قدرته. فالق الإصباح: الذي يشقّ ظلام الليل بضوء الفجر. حسبانًا: على حساب منضبط لا يختلّ. فمستقرّ ومستودع: الرحم والصلب، أو سطح الأرض مستقرّ للأحياء وباطنها مستودع للموتى، وكلاهما حسن، والأولى أولى بالسياق. خضرًا: نباتًا أخضر. قنوان: عناقيد. دانية: قريبة، يمكن تناولها بسهولة. مشتبهًا وغير متشابه: يشبه بعضه بعضًا في الشكل حتّى لا يكاد المرء يفرّق بين الصنفين، فإذا أقترب أكثر ونظر أو لمس أو شمّ أو ذاق؛ تبيّن له آختلاف الحقيقتين.

(٢) العفوصة: الطعم القابض.

(٣) في خ: «الحلو اللذيذ السمين لآيات...»، وفي ط: «... المشهورة».

عشرِ معشارِ ذٰلكَ، ولٰكنْ ما لا يُدْرَكُ جميعُهُ لا يَنْبَغي تركُهُ ٱلبتَّةَ [دونَ][1] التَّنبيهِ على بعضِ ما يُسْتَدَلُّ بهِ على ذٰلكَ.

وهٰذا حينُ الشُّروعِ في الفصولِ:

[٢٦] فصل

[في دلالة نظام العالم على قدرة الخالق وحكمته]

تَأَمَّلِ العبرةَ في وضعِ هٰذا العالمِ وتأْليفِ أجزائِهِ ونظمِها على أحسنِ نظامٍ وأدلِّهِ على كمالِ قدرةِ خالقِهِ وكمالِ علمِهِ و[كمالِ] حكمتِهِ وكمالِ لطفِهِ. فإنَّكَ إذا تأمَّلْتَ العالمَ؛ وَجَدْتَهُ كالبيتِ المبنيِّ المعدِّ فيهِ جميعُ آلاتِهِ ومصالحِهِ وكلُّ ما يُحْتاجُ إليهِ: فالسَّماءُ سقفُهُ المرفوعُ عليهِ، والأرضُ مهادٌ وبساطٌ وفراشٌ ومستقرٌّ للسَّاكنِ، والشَّمسُ والقمرُ سراجانِ يُزْهِرانِ فيهِ، والنُّجومُ مصابيحُ لهُ وزينةٌ وأدلَّةٌ للمتنقِّلِ في طرقِ هٰذهِ الدَّارِ[2]، والجواهرُ والمعادنُ مخزونةٌ فيهِ كالذَّخائرِ والحواصلِ[3] المعدَّةِ المهيَّأةِ؛ كلُّ شيءٍ منها لشأْنِهِ الذي يَصْلُحُ لهُ، وضروبُ النَّباتِ مهيَّأٌ لمآربِهِ، وصنوفُ الحيوانِ مصرَّفةٌ لمصالحِهِ؛ فمنها الرَّكوبُ ومنها الحلوبُ ومنها الغذاءُ ومنها اللباسُ والأمتعةُ والآلاتُ[4] ومنها الحرسُ الذي وُكِلَ بحرسِ الإنسانِ يَحْرُسُهُ وهوَ نائمٌ وقاعدٌ ممَّا هوَ مستعدٌّ لإهلاكِهِ وأذاهُ فلولا ما سُلِّطَ عليهِ مِن ضدِّهِ لمْ يَسْتَقِرَّ للإنسانِ قرارٌ بينَهُم، وجَعَلَ الإنسانَ كالملكِ المخوَّلِ في ذٰلكَ المحكَّمِ فيهِ المتصرِّفِ بفعلِهِ وأمرِهِ.

ففي هٰذا أعظمُ دلالةٍ وأوضحُها على أنَّ العالمَ مخلوقٌ لخالقٍ حكيمٍ عليمٍ قديرٍ قَدَّرَهُ أحسنَ تقديرٍ ونَظَّمَهُ [أحسنَ] نظامٍ، وأنَّ الخالقَ لهُ يَسْتَحيلُ أنْ يَكونَ ٱثنينِ بل إلٰهٌ واحدٌ لا إلٰهَ إلاَّ هوَ تَعالى عمَّا يَقولُ الظَّالمونَ والجاحدونَ /خ٣٢٨/ علوًّا كبيرًا، وأنَّهُ

---

(١) ليست في خ وط، والسياق يقتضيها أو نحوها ضرورة.

(٢) في خ: «في طرف هٰذه الدار»! والتصويب من ط.

(٣) الذخائر: الأطعمة المخزونة. الحواصل: المواضع التي تخزن فيها الحبوب والأطعمة.

(٤) في خ: «الحيوان متصرّفة في جميع مصالحه فمنها المركوب ومنها المحلوب ومنها الدواء ومنها اللباس والأمتعة والآلة».

لو كانَ في السَّماواتِ والأرضِ إلٰهٌ غيرُ اللهِ لَفَسَدَ أمرُهُما وٱختَلَّ نظامُهُما[١] وتَعَطَّلَتْ مصالحُهُما.

وإذا كانَ البدنُ يَسْتَحيلُ أنْ يَكونَ المدبِّرَ لهُ روحانِ متكافئانِ متساويانِ، ولوْ كانَ كذٰلكَ؛ لَفَسَدَ [وهَلَكَ]، معَ إمكانِ أنْ يَكونـ[ـا] تحتَ قهرِ ثالثٍ؛ فكيفَ يُمْكِنُ أنْ يَكونَ المدبِّرُ لهٰذا العالمِ العلويِّ والسُّفليِّ إلٰهينِ متكافئينِ متساويينِ [ليسا تحتَ قهرِ ثالثٍ][٢]؟! هٰذا مِن المحالِ في أوائلِ العقولِ وبدائِهِ الفطرِ؛ فـ: ﴿لَوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿[ما ٱتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إلٰهٍ إذًا لَذَهَبَ كُلُّ إلٰهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفونَ] . عالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكونَ﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢].

فهٰذانِ بُرهانانِ يَعْجِزُ الأوَّلونَ والآخِرونَ أنْ يَقْدَحوا فيهِما بقدحٍ صحيحٍ أو يَأْتوا بأحسنَ منهُما، ولا يَعْتَرِضُ عليهِما إلاَّ مَن لمْ يَفْهَمِ المرادَ منهُما، ولولا خشيةُ الإطالةِ؛ لَذَكَرْنا تقريرَهُما[٣] وبيانَ ما تَضَمَّناهُ مِن السِّرِّ العجيبِ والبرهانِ الباهرِ.

وسَنُفْرِدُ إنْ شاءَ اللهُ [تَعالى] كتابًا مستقلاًّ لأدلَّةِ التَّوحيدِ[٤].

[٢٧] فصل

[في بدائع صنعته تعالى في خلق السماء]

تَأَمَّلْ خلقَ السَّماواتِ وٱرْجِعِ البصرَ فيها كرَّةً بعدَ كرَّةٍ؛ كيفَ تَراها مِن أعظمِ الآياتِ في علوِّها وٱرتفاعِها وسعتِها وقرارِها؛ بحيثُ لا تَصْعَدُ علوًّا كالنَّارِ ولا تَهْبِطُ نازلةً كالأجسامِ الثَّقيلةِ، ولا عمدَ تحتَها ولا عِلاقةَ فوقَها، بل هيَ ممسَكةٌ بقدرةِ [اللهِ] الذي يُمْسِكُ السَّماواتِ والأرضَ أنْ تَزولا.

---

(١) في ط: «بل الإلٰه واحد...»، وفي خ: «... مخلوق بخالق... وٱختلّ به نظامهما».
(٢) ساقطة من ط.
(٣) في خ: «فهٰذا برهان...»، وفي ط: «... لذكرنا تقديرهما».
(٤) لٰكنّه لم يفعل قدّس الله روحه بحسب ما وصل إلينا من مؤلّفاته، والله أعلم.

ثمَّ تأمَّلِ ٱستواءَها وٱعتدالَها؛ فلا صدعَ فيها ولا فَطْرَ ولا شقَّ ولا أمْتَ ولا عوجَ[(١)].

ثمَّ تأمَّلْ ما وُضِعَتْ عليهِ مِن هٰذا اللونِ الذي هوَ أحسنُ الألوانِ وأشدُّها موافقةً للبصرِ وتقويةً لهُ[(٢)]، حتَّى [إنَّ] مَن أصابَهُ شيءٌ أضَرَّ ببصرِهِ؛ يُؤْمَرُ بإدمانِ النَّظرِ إلى الخضرةِ وما قَرُبَ منها إلى السَّوادِ، وقالَ الأطبَّاءُ: إنَّ مَن كَلَّ بصرُهُ؛ فإنَّهُ مِن دوائِهِ أنْ يُديمَ النَّظرَ إلى[(٣)] إجَّانةٍ[(٤)] خضراءَ مملوءةٍ ماءً. فتأمَّلْ كيفَ جَعَلَ أديمَ السَّماءِ بهٰذا اللونِ؛ لِيُمْسِكَ الأبصارَ المتقلِّبَةَ فيهِ ولا يَنْكأ فيها[(٥)] بطولِ مباشرتِها لهُ. هٰذا بعضُ فوائدِ هٰذا اللونِ، والحكمةُ فيهِ أضعافُ ذٰلكَ[(٦)].

[٢٨] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في ٱختلاف الليل والنهار]

ثمَّ تأمَّلْ حالَ الشَّمسِ والقمرِ في طلوعِهِما وغروبِهِما لإقامةِ دولتيِ الليلِ والنَّهارِ:

ولولا طلوعُهُما /خ٣٢٩/؛ لَبَطَلَ أمرُ العالمِ! وكيفَ كانَ النَّاسُ يَسْعَوْنَ في معايشِهِم ويتَصَرَّفونَ في أُمورِهِم والدُّنيا مظلمةٌ عليهِم؟! وكيفَ كانوا يَتَهَنَّوْنَ بالعيشِ معَ فقدِ النُّورِ؟!

ثمَّ تأمَّلِ الحكمةَ في غروبِها؛ فإنَّهُ لولا غروبُها؛ لَمْ يَكُنْ للنَّاسِ هدوءٌ ولا قرارٌ،

---

(١) الفطر: الشقّ. الأمت: الارتفاع والانخفاض.

(٢) فيه نظر! والمعتمد اليوم أنّ الأخضر هو أكثر الألوان إراحة للنظر بخلاف الأزرق المتعب له، وهٰذا ما سيقرّره ٱبن القيّم نفسه بعد سطرين فقط. والله أعلم.

(٣) في ط: «تأمّل خلق السماء... ممسوكة بقدرة... يديم الاطلاع إلى».

(٤) إجّانة: إناء واسع.

(٥) في خ: «لا متّكأ فيها»! والتصويب من ط. وينكأ فيها: يؤذيها.

(٦) ترجع زرقة السماء علميًّا إلى تشتّت أشعّة الشمس عند ٱصطدامها بذرات الهواء والغبار والماء الموجودة في الغلاف الجوّي للكرة الأرضية؛ حيث تمتصّ هٰذه الذرّات أغلب أمواج الضوء وتعكس الموجة الزرقاء وما قاربها. ولذٰلك تبدو السماء من خارج الغلاف الجوّي للكرة الأرضيّة سوداء مظلمة مرصّعة بالنجوم المضيئة، تمامًا كما نرى نحن السماء في الليل؛ لأنّه ليس هناك ذرّات تشتّت الضوء وتنشره.

معَ فرطِ الحاجةِ إلى السُّباتِ وجمومِ الحواسِّ وٱنبعاثِ القوى الباطنةِ وظهورِ سلطانِها في النَّومِ المعينِ على هضمِ الطَّعامِ وتنفيذِ الغذاءِ إلى الأعضاءِ. ثمَّ لولا الغروبُ؛ لَكانَتِ الأرْضُ تَحْمى بدوامِ شروقِ الشَّمسِ وٱتِّصالِ طلوعِها حتَّى يَحْتَرِقَ كلُّ ما عليها مِن حيوانٍ ونباتٍ.

فصارَتْ تَطْلُعُ وقتًا بمنزلةِ السِّراجِ يُرْفَعُ لأهلِ البيتِ لِيَقْضُوا حوائجَهُم ثمَّ تَغيبُ عنهُم مثلَ ذٰلكَ لِيَقَرُّوا ويَهْدَؤوا[1]، وصارَ ضياءُ النَّهارِ معَ ظلامِ الليلِ وحرُّ هٰذا معَ بردِ هٰذا معَ تضادِّهِما متعاونينِ متظاهرينِ بهِما تمامُ مصالحِ العالمِ.

وقد أشارَ تَعالى إلى هٰذا المعنى ونبَّهَ عبادَهُ [عليهِ] بقولِهِ [عزَّ وجلَّ]: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلى يَوْمِ القِيامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْمَعونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَدًا إِلى يَوْمِ القِيامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنونَ فيهِ أَفَلا تُبْصِرونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٢]: وخَصَّ [سبحانَهُ] النَّهارَ بذكرِ البصرِ؛ لأنَّهُ محلُّهُ وفيهِ سلطانُ البصرِ وتصرُّفُهُ، وخَصَّ الليلَ بذكرِ السَّمعِ؛ لأنَّ سلطانَ السَّمعِ يَكونُ بالليلِ وتَسْمَعُ فيهِ الحيواناتُ ما لا تَسْمَعُ في النَّهارِ؛ لأنَّهُ وقتُ هدوءِ الأصواتِ وخمودِ الحركاتِ وقوَّةِ سلطانِ السَّمعِ [وضعفِ سلطانِ البصرِ، والنَّهارُ بالعكسِ فيهِ قوَّةُ سلطانِ البصرِ وضعفُ سلطانِ السَّمعِ]. فقولُهُ ﴿أَفَلا تَسْمَعونَ﴾ راجعٌ إلى قولِهِ [﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلى يَوْمِ القِيامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتيكُمْ﴾ بهِ، وقولُهُ] ﴿أَفَلا تُبْصِرونَ﴾ راجعٌ إلى قولِهِ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَدًا [إِلى يَوْمِ القِيامَةِ]﴾.

وقالَ تَعالى: ﴿تَبارَكَ الَّذي جَعَلَ في السَّماءِ بُروجًا وَجَعَلَ فيها سِراجًا وَقَمَرًا مُنيرًا . وَهُوَ الَّذي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكورًا﴾ [الفرقان: ٦١-٦٢]: فذَكَرَ تَعالى خلقَ الليلِ والنَّهارِ، وأنَّهُما خلفةٌ؛ أي: يَخْلُفُ أحدُهُما الآخرَ لا يَجْتَمِعُ معَهُ، ولوِ ٱجْتَمَعَ معَهُ؛ لَفاتَتِ المصلحةُ بتعاقبِهِما وٱختلافِهِما.

---

(١) في خ: «فلولا طلوعهما. . . النوم المعينة على هضم. . . ليقرّوا ويهتدوا».

وهٰذا هوَ المرادُ بٱختلافِ الليلِ والنَّهارِ؛ كونُ كلٍّ واحدٍ منهُما يَخْلُفُ /خ٣٣٠/ الآخرَ لا يُجامِعُهُ ولا يُحايِثُهُ، بل يَغْشى أحدُهُما صاحِبَهُ فيَطْلُبُهُ حثيثًا حتَّى يُزيلَهُ عن سلطانِهِ، ثمَّ يَجيءُ الآخرُ عَقيبَهُ فيَطْلُبُهُ[1] حثيثًا حتَّى يَهْزِمَهُ ويُزيلَهُ عن سلطانِهِ، فهُما يَتَطالَبانِ ولا يُدْرِكُ أحدُهُما صاحبَهُ.

[٢٩] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في تعاقب الفصول]

ثمَّ تأمَّلْ بعدَ ذٰلكَ أحوالَ هٰذهِ الشَّمسِ في ٱنخفاضِها وٱرتفاعِها لإقامةِ هٰذهِ الأزمنةِ والفصولِ[2] وما فيها مِن المصالحِ والحِكمِ؛ إذْ لو كانَ الزَّمانُ كلُّهُ فصلًا واحدًا؛ لَفاتَتْ مصالحُ الفصولِ الباقيةِ فيهِ: فلو كانَ صيفًا كلُّهُ؛ لفاتَتْ مصالحُ الشِّتاءِ، ولو كانَ شتاءً؛ لَفاتَتْ منافعُ الصَّيفِ، وكذٰلكَ لو كانَ ربيعًا كلُّهُ أو خريفًا كلُّهُ.

ففي الشِّتاءِ: تَغورُ الحرارةُ في الأجوافِ وبطونِ الأرضِ والجبالِ فتَتَوَلَّدُ موادُّ الثِّمارِ وغيرِها[3]، وتَبْرُدُ الظَّواهرُ ويَسْتَكْثِفُ الهواءُ فيهِ فيَحْصُلُ السَّحابُ والمطرُ والثَّلجُ والبَرَدُ الذي بهِ حياةُ الأرضِ وأهلِها وٱشتدادُ أبدانِ الحيوانِ وقوَّتِها وتزايُدُ القوى الطَّبيعيَّةِ وٱستخلافُ ما حَلَّلَهُ حرارةُ الصَّيفِ مِن الأبدانِ.

وفي الرَّبيعِ: تَتَحَرَّكُ الطَّبائعُ، وتَظْهَرُ الموادُّ المتولِّدةُ في الشِّتاءِ، فيَظْهَرُ النَّباتُ ويَتَنَوَّرُ الشَّجرُ بالزَّهرِ ويَتَحَرَّكُ الحيوانُ للتَّناسلِ.

---

(١) في خ: «يذّكّر أو أراد نشورًا. . . لا يجامعه ولا يجانبه. . . الآخر عقبه يطلبه».

(٢) يسمّى هٰذا في علم الفلك المعاصر الحركة الظاهريّة للشمس، وهي تنجم عن دوران الأرض حول الشمس على مستو يميل على محورها، فتبدو مطالع الشمس ومغاربها وكأنّها تتبدّل ٱرتفاعًا وٱنخفاضًا على دائرة البروج طوال السنة، فإذا جاءت أشعّتها عموديّة أو قريبة من ذٰلك على مكان ما؛ كان الصيف، ثمّ يزداد البرد بالتدريج متناسبًا مع ٱزدياد ميلانها. وٱنظر ما تقدّم (١/ ٤٥-٤٦).

(٣) من الثابت عند المهندسين الزراعيّين اليوم أنّ كثيرًا من المحاصيل الزراعيّة ـ ومنها على سبيل المثال القمح ـ تحتاج في كمال نموّها ووفرة عطائها إلى برد الشتاء كما تحتاج إلى حرّ الصيف، فإن لم يتوفّر لها ذٰلك؛ جاء المحصول ضعيفًا. ناهيك عن أثر البرد الشديد والثلج في القضاء على معظم الآفات الزراعيّة التي تفتك بالمحاصيل غالبًا بعد شتاء دافئ نسبيًّا.

وفي الصَّيفِ: يَحْتَدُّ الهواءُ ويَسْخُنُ جدًّا فتَنْضُجُ الثِّمارُ وتَنْحَلُّ فضلاتُ الأبدانِ والأخلاطُ التي انْعَقَدَتْ في الشِّتاءِ، وتَغورُ البرودةُ وتَهْرُبُ إلى الأجوافِ ولهٰذا تَبْرُدُ العيونُ والآبارُ، ولا تَهْضِمُ المعدةُ الطَّعامَ الذي[1] كانَتْ تَهْضِمُهُ في الشِّتاءِ مِن الأطعمةِ الغليظةِ؛ لأنَّها كانَتْ تَهْضِمُها بالحرارةِ التي سَكَنَتْ في البطونِ فلمَّا جاءَ الصَّيفُ خَرَجَتِ الحرارةُ إلى ظاهرِ الجسدِ وغارَتِ البرودةُ فيه[2].

فإذا جاءَ الخريفُ؛ اعْتَدَلَ الزَّمانُ وصَفا الهواءُ وبَرَدَ فانْكَسَرَ[3] ذٰلكَ السَّمومُ.

وجَعَلَهُ اللهُ بحكمتِهِ برزخًا بينَ سَمومِ الصَّيفِ وبردِ الشِّتاءِ؛ لئلَّا يَنْتَقِلَ الحيوانُ[4] وهلةً واحدةً مِن الحرِّ الشَّديدِ إلى البردِ الشَّديدِ فيَجِدَ أذاهُ ويَعْظُمَ ضررُهُ، فإذا انْتَقَلَ إليهِ بتدريجٍ وترتيبٍ؛ لمْ يَصْعُبْ عليهِ؛ فإنَّهُ عندَ كلِّ جزءٍ يَسْتَعِدُّ لقبولِ ما هوَ أشدُّ منهُ حتَّى تأتِيَ جمهرةُ[5] /خ٣٣١/ البردِ بعدَ استعدادٍ وقبولٍ؛ حكمةٌ بالغةٌ وآيةٌ باهرةٌ.

وكذٰلكَ الرَّبيعُ برزخٌ بينَ الشِّتاءِ والصَّيفِ يَنْتَقِلُ فيهِ الحيوانُ مِن بردِ هٰذا إلى حرِّ هٰذا بتدريجٍ وترتيبٍ.

فتَبارَكَ اللهُ ربُّ العالَمينَ وأحسنُ الخالقينَ.

---

(١) في خ وط: «التي»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٢) وهٰذا كلام سليم تمامًا، لٰكنّه يحتاج إلى مقاربة علميّة بلغة الطبّ المعاصر، فأقول:

أوّلًا: أودع الخالق جلَّ وعلا في بدن الإنسان آليّات عدّة للمحافظة على ثبات حرارته، وترجع هٰذه الآليّات جميعًا إلى أصل واحد هو التوازن بين الإنتاج الحراري والصرف الحراري في الجسم.

ثانيًا: إذا ما برد الجوّ في الشتاء؛ تقبّضت الأوعية المحيطيّة الخارجيّة لتخفيف الصرف الحراري ورجع الدم إلى الباطن (وهٰذا مراد ابن القيّم بالحرارة التي سكنت البطون)، وهٰذا يزيد في نشاط الجهاز الهضمي ويسرّع عمليّة الهضم. وأمّا في الصيف؛ فالحال على العكس تمامًا.

ثالثًا: وعليه؛ فإقبال الناس على الأطعمة الدسمة الحارّة في الشتاء يتناسب مع نشاط الجهاز الهضمي حينئذ من جهة ويوفّر للجسم مزيدًا من الحرارة التي هو بحاجة إليها من جهة أخرى، بخلاف الحال في الصيف، ولذٰلك ينصرف الناس إلى الأطعمة الخفيفة الباردة. وهٰذا من عجائب الأسرار التي أودعها الحكيم العليم في طبائع البشر. والله أعلى وأعلم.

(٣) في خ: «فيظهر النبات ويبرز الشجر بالزهر... الأطعمة المغلّظة... وانكسر»!

(٤) والنبات أيضًا؛ فإنّه لا يقلّ تأذّيًا بتقلّبات الطقس عن الحيوان، بل ربّما كان أشدّ تأذّيًا بذٰلك منه.

(٥) جمهرة البرد: شدّته ومعظمه.

[٣٠] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في أختلاف منازل الشمس والقمر]

ثمَّ تأمَّلْ حالَ الشَّمسِ والقمرِ وما أُودِعاهُ مِن النُّورِ والإضاءةِ.

وكيفَ جَعَلَ لهُما بروجًا ومنازلَ يَنْزِلانِها مرحلةً بعدَ مرحلةٍ لإقامةِ دولةِ السَّنةِ وتمامِ مصالحِ حسابِ العالمِ الذي لا غَناءَ لهُم في مصالحِهِم عنهُ، فبذٰلكَ يُعْلَمُ حسابُ الأعمارِ والآجالِ المؤجَّلةِ للدُّيونِ والإيجاراتِ والمعاملاتِ والعُدَدِ وغيرِ ذٰلكَ، فلولا حلولُ الشَّمسِ والقمرِ في تلكَ المنازلِ وتنقُّلُهُما فيها منزلةً بعدَ منزلةٍ؛ لمْ يُعْلَمْ شيءٌ مِن ذٰلكَ[١].

وقد نَبَّهَ [اللهُ] تَعالى على هٰذا في غيرِ موضعٍ مِن كتابِهِ: كقولِهِ [تَعالى]: ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ وَالحِسابَ ما خَلَقَ اللهُ ذٰلِكَ إلاَّ بِالحَقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمونَ﴾ [يونس: ٥]. وقالَ [تَعالى]: ﴿وَجَعَلْنا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ وَالحِسابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

[٣١] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في حركة الشمس في السماء]

ثمَّ تأمَّلِ الحكمةَ في طلوعِ الشَّمسِ على العالَمِ؛ كيفَ قَدَّرَهُ العزيزُ العليمُ سبحانَهُ؛ فإنَّها لو كانَتْ تَطْلُعُ في موضعٍ مِن السَّماءِ فتَقِفُ فيهِ ولا تَعْدوهُ؛ لَما وَصَلَ شعاعُها إلى كثيرٍ مِن الجهاتِ؛ لأنَّ ظلَّ أحدِ جوانبِ كرةِ الأرضِ يَحْجُبُها عنِ الجانبِ الآخرِ، فكانَ يَكونُ الليلُ دائمًا سرمدًا على مَن لمْ تَطْلُعْ عليهِم والنَّهارُ دائمًا سرمدًا[٢] على مَن هيَ طالعةٌ عليهِم، فيَفْسُدُ هٰؤلاءِ وهٰؤلاءِ. فاقْتَضَتِ الحكمةُ الإلٰهيَّةُ والعنايةُ الربَّانيَّةُ أنْ قَدَّرَ

---

(١) أمّا دائرة البروج ومنازل الشمس فيها؛ فقد تقدّم وصفها وتفسيرها (٢/ ٤٥-٤٦). وكذٰلك فللقمر منازل نجميّة مشابهة لمنازل الشمس في دائرة البروج في الوصف والتفسير، ولٰكنّ منازل القمر عند الفلكيّين ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل في كلّ منها ثلاثة عشر يومًا تقريبًا.

(٢) في خ: «جوانب كسرة الأرض... عليه والنهار سرمدًا دائمًا».

طلوعَها مِن أوَّلِ النَّهارِ مِن المشرقِ فتُشْرِقُ على ما قابَلَها مِن الأُفُقِ الغربيِّ، ثمَّ لا تَزالُ تَدورُ وتَغْشى جهةً بعدَ جهةٍ حتَّى تَنْتَهِيَ إلى المغربِ فتُشْرِقَ على ما ٱسْتَتَرَ عنها في أوَّلِ النَّهارِ، فيَخْتَلِفُ عندَهُمُ الليلُ والنَّهارُ فتَنْتَظِمُ مصالِحُهُم(١).

[٣٢] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في مقادير الليل والنهار]

ثمَّ تَأمَّلِ الحكمةَ في مقاديرِ الليلِ والنَّهارِ؛ تَجِدْها على غايةِ المصلحةِ والحكمةِ، وأنَّ مقدارَ اليومِ والليلةِ /خ٣٣٢/ لو زادَ على ما قُدِّرَ عليهِ أو نَقَصَ؛ لَفاتَتِ المصلحةُ وٱخْتَلَّتِ الحكمةُ بذٰلكَ، بل جَعَلَ مكيالَهُما أربعًا وعشرينَ ساعةً(٢)، وجَعَلا يَتَقارَضانِ الزِّيادةَ والنُّقصانَ بينَهُما، فما يَزيدُ في أحدِهِما مِن الآخرِ يَعودُ الآخرُ فيَسْتَرِدُّهُ منهُ.

قالَ تَعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ(٣) وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣]: وفيهِ قولانِ:

أحدُهُما: أنَّ المعنى: يُدْخِلُ ظلمةَ هٰذا في مكانِ ضياءِ ذٰلكَ وضياءَ هٰذا في مكانِ ظلمةِ الآخرِ، فيُدْخِلُ كلَّ واحدٍ منهُما في موضعِ صاحبِهِ. وعلى هٰذا فهيَ عامَّةٌ في كلِّ ليلٍ ونهارٍ.

والقولُ الثَّاني: أنَّهُ يَزيدُ في أحدِهِما ما يَنْقُصُهُ مِن الآخرِ، فما نَقَصَ منهُ يَلِجُ في الآخرِ لا يَذْهَبُ جملةً. وعلى هٰذا فالآيةُ خاصَّةٌ ببعضِ ساعاتِ كلٍّ مِن الليلِ والنَّهارِ في غيرِ زمنِ الاعتدالِ، فهيَ خاصَّةٌ في الزَّمانِ وفي مقدارِ ما يَلِجُ في أحدِهِما مِن الآخرِ.

وفي الأقاليمِ(٤) المعتدلةِ [غايةُ] ما تَنْتَهي [إليهِ] الزِّيادةُ خمسَ عشرةَ ساعةً، فيَصيرُ

---

(١) وهٰذا كلّه بحسب الحركة الظاهريّة للشمس كما قدّمت تفصيله مطوّلاً (١/ ٤٥-٤٦).

(٢) في ط: «وٱختلفت الحكمة...»! وفي خ وط: «... أربعة وعشرين ساعة»!وهي المدّة التي تكمل فيها الأرض دورة كاملة حول نفسها تقريبًا.

(٣) في ط: «وجعلا يتعاوضان...»! وفي خ: «... فيستردّ منه... الليل والنهار».

(٤) في خ: «مكان ضياء هٰذا... فما ينقص منه...»، وفي خ وط: «... وهو في الأقاليم»!

الآخرُ تسعَ ساعاتٍ، فإذا زادَ على ذٰلكَ؛ ٱنْحَرَفَ ذٰلكَ الإقليمُ في الحرارةِ والبرودةِ إلى أنْ يَنْتَهِيَ إلى حدٍّ لا يَسْكُنُهُ الإنسانُ ولا يَتكَوَّنُ فيهِ النَّباتُ[١].

وكلُّ موضعٍ لا تَقَعُ عليهِ الشَّمسُ لا يَعيشُ فيهِ حيوانٌ ولا نباتٌ لفرطِ بردِهِ ويبسِهِ، وكلُّ موضعٍ لا تُفارِقُهُ كذٰلكَ لفرطِ حرِّهِ ويبسِهِ[٢]، والمواضعُ التي يَعيشُ فيها الحيوانُ والنَّباتُ هيَ التي تَطْلُعُ عليها الشَّمسُ وتَغيبُ، وأعدلُها المواضعُ التي تَتَعاقَبُ عليها الفصولُ الأربعةُ ويَكونُ فيها ٱعتدالانِ خريفيٌّ وربيعيٌّ[٣].

[٣٣] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في إنارة القمر والنجوم في الليل]

ثمَّ تَأَمَّلْ إنارةَ القمرِ والكواكبِ في ظلمةِ الليلِ والحكمةَ في ذٰلكَ:

فإنَّ اللهَ [تَعالى] ٱقْتَضَتْ حكمتُهُ خلقَ الظُّلمةِ لهدوءِ الحيوانِ وبردِ الهواءِ على الأبدانِ والنَّباتِ فتُعادِلُ حرارةَ الشَّمسِ فيَقومُ الحيوانُ والنَّباتُ. فلمَّا كانَ ذٰلكَ مقتضى حكمتِهِ؛ شابَ الليلَ بشيءٍ مِن الأنوارِ، ولمْ يَجْعَلْهُ ظلمةً داجيةً حِنْدِسًا لا ضوءَ فيهِ أصلاً، فكانَ لا يَتَمَكَّنُ الحيوانُ فيهِ مِن شيءٍ مِن الحركةِ ولا الأعمالِ. ولمَّا كانَ الحيوانُ قد يَحْتاجُ في الليلِ إلى حركةٍ وسيرٍ وعملٍ لا يَتَهَيَّأُ لهُ بالنَّهارِ لضيقِ النَّهارِ أو لشدَّةِ الحرِّ أو لخوفِهِ بالنَّهارِ كحالِ كثيرٍ مِن الحيواناتِ؛ جَعَلَ في الليلِ مِن أضواءِ الكواكبِ /خ٣٣٣/ وضوءِ القمرِ ما يَتَأَتَّى معَهُ أعمالٌ كثيرةٌ كالسَّفرِ والحرثِ وغيرِ ذٰلكَ مِن أعمالِ

---

(١) يزداد الفارق بين الليل والنهار بالتدريج كلّما توجّهنا مبتعدين عن خطّ الاستواء شمالاً أو جنوبًا حتّى يصير النّهار ثلاثًا وعشرين ساعة والليل ساعة واحدة أو العكس، وأمّا في نقطة القطب؛ فليل سرمديّ مدّة ستّة أشهر يليه نهار سرمديّ كذٰلك. وعليه؛ فٱزدياد الفوارق بين الليل والنهار إنّما يحدث في المناطق الباردة فقط ولا يتصوّر في المناطق الحارّة. وٱمتداد النهار القطبيّ ستّة أشهر لا يجعل القطب حارًّا فضلاً عن أن يكون مفرطًا في الحرارة بل يهبه دفئًا نسبيًّا بالمقارنة مع الحال في الليل القطبيّ، وذٰلك لأنّ أشعّة الشمس لا تصل إلى القطب عموديّة أبدًا، وإنّما تصل ضعيفة شديدة الميلان.

(٢) وأكبر دليل على هٰذا المناطق القطبيّة المتقدّمة الذكر؛ فإنّ الحياة الحيوانيّة والنباتيّة فيها معدومة أو تكاد. هٰذا؛ مع أنّ الليل والنهار يتناوبان عليها كلّ ستّة أشهر.

(٣) في ط: «الحرارة أو البرودة...»، وفي خ: «... تطلع عليه... خريفيّ وصيفيّ وربيعيّ».

أهلِ الحرثِ والزَّرعِ[(١)]، فجَعَلَ ضوءَ القمرِ بالليلِ معونةً للحيوانِ على هٰذهِ الحركاتِ، وجَعَلَ طلوعَهُ في بعضِ الليلِ دونَ بعضٍ معَ نقصِ ضوئِهِ عن [ضوءِ] الشَّمسِ لئلَّا يَسْتَوِيَ الليلُ والنَّهارُ فتفوتَ حكمةُ الاختلافِ بينَهُما والتَّفاوتِ الذي قَدَّرَهُ العزيزُ العليمُ[(٢)].

فتأمَّلِ الحكمةَ البالغةَ والتَّقديرَ العجيبَ الذي ٱقْتَضى أنْ أعانَ الحيوانَ على دولةِ الظَّلامِ بجندٍ مِن النُّورِ يَسْتَعينُ بهِ على هٰذهِ الدَّولةِ المظلمةِ، ولمْ يَجْعَلِ الدَّولةَ كلَّها ظلمةً صرفًا بل ظلمةً مشوبةً بنورٍ رحمةً منهُ وإحسانًا. فسبحانَ مَن أَتْقَنَ [كلَّ] ما صَنَعَ[(٣)] وأحْسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ.

[٣٤] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في خلق النجوم]

ثمَّ تأمَّلْ حكمتَهُ تَبارَكَ وتَعالى في هٰذهِ النُّجومِ، وكثرتِها، وعجيبِ خلقِها، وأنَّها زينةٌ للسَّماءِ، وأدلَّةٌ يُهْتَدى بها في طرقِ البرِّ والبحرِ، وما جَعَلَ فيها مِن الضَّوءِ والنُّورِ بحيثُ يُمْكِنُنا رؤيتُها معَ البعدِ المفرطِ[(٤)]. ولولا ذٰلكَ؛ لمْ يَحْصُلْ لنا [بها] الاهتداءُ[(٥)] والدّلالةُ ومعرفةُ المواقيتِ.

ثمَّ تأمَّلْ تسخيرَها منقادةً بأمرِ ربِّها تَبارَكَ وتَعالى جاريةً على سَنَنٍ واحدٍ ٱقْتَضَتْ حكمتُهُ وعلمُهُ أنْ لا تَخْرُجَ عنهُ، فجَعَلَ منها البروجَ والمنازلَ والثَّوابتَ والسَّيَّارةَ والكبارَ والصِّغارَ والمتوسِّطَ والأبيضَ الأزهرَ[(٦)] والأبيضَ الأحمرَ ومنها ما يَخْفى على النَّاظرِ فلا

---

(١) في ط: «حركة ومسير وعلم... كثير من الحيوان... الحروث والزرع»!

(٢) ومن حكم تفاوت ضوء القمر من ليلة لأخرى معرفة أيّام الشهر العربيّ وبدايته ومنتصفه وآخره.

(٣) في ط: «ضوئه عن الشمس... أتقن ما صنع»، وفي خ: «... كلّها مظلمة صرفًا...».

(٤) إي والله المفرط. يقول الفلكيّون: يحتاج الضوء المنبعث من النجوم القريبة من الأرض لبضع سنوات حتّى يصل إلينا (يسمّى أقرب النجوم إلى الأرض ألفاقنطوري ويبعد عنها ٤ سنوات ضوئيّة)، وأمّا البعيدة؛ فمفرطة في البعد إلى درجة أنّ ضوءها لم يصلنا حتّى الآن! فإذا علمت أنّ سرعة الضوء ٣٠٠,٠٠٠كم/ ثانية؛ فتخيّل بعد النجوم القريبة! ودع البعيدة فإنّها أبعد من الخيال.

(٥) في خ: «في طريق البرّ... بحيث يمكنّا... لم يجعل لنا بها الاهتداء». والتصويب من ط.

(٦) في خ: «سنن واحد أقتضته... والأبيض والأزهر». والتصويب من ط.

يُدْرِكُهُ[١].

وجَعَلَ منطقةَ البروجِ قسمينِ؛ مرتفعةً ومنخفضةً، وقَدَّرَ سيرَها تقديرًا واحدًا، ونَزَّلَ الشَّمسَ والقمرَ والسيَّاراتِ منها منازِلَها: فمنها ما يَقْطَعُها في شهرٍ واحدٍ وهوَ القمرُ، ومنها ما يَقْطَعُها في عامٍ، ومنها ما يَقْطَعُها في عدَّةِ أعوامٍ. كلُّ ذٰلكَ موجَبُ الحكمةِ والعنايةِ.

وجَعَلَ ذٰلكَ أسبابًا لِما يُحْدِثُهُ سبحانَهُ في هٰذا العالمِ، فيَسْتَدِلُّ بها النَّاسُ على تلكَ الحوادثِ التي تُقارِنُها؛ [لمعرفتِهِم بما يَكونُ معَ طلوعِ الثُّريَّا إذا طَلَعَتْ وغروبِها إذا سَقَطَتْ مِن الحوادثِ التي تُقارِنُها]، وكذٰلكَ غيرُها مِن المنازِلِ والسيَّاراتِ[٢].

ثمَّ تَأَمَّلْ جعلَهُ سبحانَهُ بناتِ نَعْشٍ وما قَرُبَ منها ظاهرةً لا تَغيبُ؛ لقربِها مِن المركزِ، ولِما في ذٰلكَ مِن الحكمةِ الإلٰهيَّةِ، وأنَّها بمنزلةِ الأعلامِ التي يَهْتَدي بها[٣] النَّاسُ في الطُّرقِ المجهولةِ في البرِّ والبحرِ، فهُم يَنْظُرونَ إليها وإلى الجُدَيِّ[٤] والفرقدينِ[٥] كلَّ وقتٍ أرادوا فيَهْتَدونَ بها حيثُ شاؤوا/خ٣٣٤/.

---

(١) أمّا البروج والمنازل؛ فتقدّم شيء من الكلام عنها. وأمّا أحجام النجوم؛ فتفاوتها معلوم ملحوظ قديمًا وحديثًا. وأمّا ألوانها؛ فتقدّم أنّها راجعة إلى درجة حرارتها، والأزهر أشدّ حرارة من الأحمر. وأمّا الثوابت والسيّارة؛ فبحسب الظاهر، وأمّا في الحقيقة؛ فما من ثابت في النجوم عند الفلكيّين اليوم، ولٰكنّها تتحرّك جميعًا بسرعات عالية جدًّا، وإن كنّا لا نلحظ هٰذه الحركة، بل ولا ينتظر الفلكيّون المعاصرون أن يصبح التغيّر في مواضعها ملحوظًا على مدى آلاف السنوات، نظرًا لبعدها الخياليّ الساحق عنّا، ولذٰلك اعتمدوا في دراساتهم وحساباتهم أنّها ثابتة.

(٢) فإذا طلعت الشمس في رأس برج الحمل؛ استدلّ به على بدء الربيع واعتدال الجوّ وذوبان الثلوج، وإذا طلعت في رأس الجدي؛ فهو الشتاء وما يكون فيه من الأمطار... إلخ. فهٰذه حقائق أودعها الله في حركات النجوم وشرع لعباده تتبّعها والانتفاع بها، وهو ما يريده ابن القيّم بـ«الحوادث التي تقارنها»، بخلاف ما يسطّره الدجّالون من المنجّمين عمّا تقوله الأبراج لمن ولد في هٰذا الوقت ومن لم يولد فيه ممّا تطالعنا به الصحف الكاذبة والفضائيّات الماجنة كلّ صباح، وسيأتيك تفصيل هذا في المجلد الثالث.

(٣) في خ: «الحوادث التي تعارنها... ولما كان من الحكمة... يهتدي به».

(٤) الجُدَيّ Alrucaba: هو ما يسمّى في الفلك الحديث بنجم القطب Polaris، وهو واحد من مجموعة تسمّى بنات نعش الصغرى Benet nash، وهٰذه جزء من مجموعة الدبّ الأصغر Ursa minor.

(٥) الفرقدان: نجمان، أخفّهما إضاءة هو Phercad والأعظم إضاءة هو *Kochab*، وكلاهما من مجموعة الدبّ الأصغر *Ursa minor*.

[٣٥] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في أختلاف سير الكواكب]

ثمَّ تأمَّلِ اختلافَ سيرِ الكواكبِ[١] وما فيهِ من العجائبِ:

كيفَ تجدُ بعضَها لا يَسيرُ إلَّا معَ رفقتِهِ، ولا يُفْرِدُ عنهُم سيرَهُ أبدًا، بل لا يَسيرونَ إلَّا جميعًا[٢]. وبعضُها يَسيرُ سيرًا مطلقًا غيرَ مقيَّدٍ برفيقٍ ولا صاحبٍ، بل إذا اتَّفقَ لهُ مصاحبتُهُ في منزلٍ؛ وافقَهُ فيهِ ليلةً وفارقَهُ الليلةَ الأُخرى، فبينا تَراهُ رفيقَهُ وقرينَهُ[٣] إذ رَأيْتَهُما مفترقينِ متباعدينِ كأنَّهُما لمْ يَتَصاحَبا قطُّ[٤].

وهٰذهِ السَّيَّارةُ لها في سيرِها سيرانِ مختلفانِ غايةَ الاختلافِ: سيرٌ عامٌّ يَسيرُ بها فلكُها، وسيرٌ خاصٌّ تَسيرُ هيَ في فلكِها. كما شَبَّهوا ذٰلكَ بنملةٍ تَدِبُّ على رحًى ذاتَ الشِّمالِ والرَّحى تأخُذُ ذاتَ اليمينِ، فللنملةِ في ذٰلكَ حركتانِ مختلفتانِ إلى جهتينِ متباينتينِ: إحداهُما بنفسِها، والأخرى مكرهةٌ عليها تبعًا للرَّحى تَجْذِبُها إلى غيرِ مقصدِها[٥]. وبذٰلكَ يَحْصُلُ التَّقدُّمُ فيها كلَّ منزلةٍ إلى جهةِ الشَّرقِ ثمَّ يَسيرُ فلكُها بمنزلتِها[٦] إلى جهةِ الغربِ[٧].

---

(١) الكوكب في لغة الفلك اليوم جسم معتم يدور حول أحد النجوم ويستمدّ ضوءه منه. إلّا أنّ ابن القيّم يرحمه الله أستعمل لفظة «الكوكب» هنا للدّلالة على جميع الأجرام السماويّة؛ سواء أكانت نجومًا أم كواكب بالمعنى المعاصر، وكذٰلك جاءت هٰذه اللفظة في القرآن عامّة في جميع الأجرام.

(٢) الثنائيّات النجميّة نظام يتكوّن من نجمين يدوران بأنتظام حول مركز واحد ويرتبطان بقوّة جذب متبادلة خلال حركتهما معًا في الفضاء. وهناك أيضًا ثلاثيّات نجميّة ومجموعات نجميّة ترتبط فيها النجوم بعضها ببعض بالطريقة نفسها، وفي بعض الأبراج مجموعات نجميّة، وبعضها لا يعدّ مجموعة نجميّة.

(٣) في ط: «فيها من العجائب... ورفيقه وقرينه»، وفي خ: «... بسيره أبدًا...».

(٤) وهٰذا الترافق المؤقّت لا يكون حقيقيًا ولا يدلّ على قرب أحد هٰذين النجمين من الآخر غالبًا، وإنّما يحصل عندما يقع أحد النجمين في مجال نظر الآخر.

(٥) في خ: «رأيتهما متفرّقين... مختلفان وغاية...»، وفي ط: «... غير جهة قصدها».

(٦) في خ وط: «وبذٰلك يجعل التقدّم... وبمنزلتها»! وما أثبتّه أوضح على ما فيه.

(٧) وهٰذا كلام جيّد، ومن المعتمد عند الفلكيّين اليوم أنّ للنجوم أربعة أنواع من الحركات: أوّلها: دوران النجم حول نفسه. فإن كان النجم فردًا من مجموعة نجميّة؛ فله نظام حركة محدّد ضمن هٰذه المجموعة. ثمّ هناك حركة ثالثة تدور فيها النجوم المنفردة والمجموعات النجميّة حول مركز المجرّة التي تنتمي إليها. وأخيرًا؛ فالمجرّة نفسها تتحرّك سابحة في الفضاء مبتعدة عن المجرّات الأخرى.

فاسْأَلِ الزَّنادقةَ والمعطِّلةَ[١]: أيُّ طبيعةٍ اقْتَضَتْ هٰذا؟! وأيُّ فلكٍ أوْجَبَهُ؟! وهلاَّ كانَتْ كلُّها راتبةً أو متنقِّلةً أو على مقدارٍ واحدٍ وشكلٍ واحدٍ [وحركةٍ واحدةٍ وجريانٍ واحدٍ]؟ وهل هٰذا إلاَّ صنعُ مَن بَهَرَتِ العقولَ حكمتُهُ وشَهِدَتْ مصنوعاتُهُ ومبتدعاتُهُ: بأنَّهُ الخالقُ البارئُ المصوِّرُ الذي ليسَ كمثلِهِ شيءٌ؛ أحْسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ وأتْقَنَ كلَّ ما صَنَعَهُ[٢]، وأنَّهُ العليمُ الحكيمُ الذي خَلَقَ فسَوَّى وقَدَّرَ فهَدى، وأنَّ هٰذهِ إحدى آياتِهِ الدَّالَّةِ عليهِ وعجائبِ مصنوعاتِهِ الموصلةِ للأفكارِ إذا سافَرَت فيها إليهِ، وأنَّهُ خلقٌ مسخَّرٌ مربوبٌ مدبَّرٌ؟!

﴿إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأرْضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلى العَرْشِ يُغْشي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثيثًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجومَ مُسَخَّراتٍ بِأمْرِهِ ألا لَهُ الخَلْقُ وَالأمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فإنْ قُلْتَ: فما الحكمةُ في [كونِ] بعضِ النُّجومِ راتبًا وبعضِها متنقِّلاً[٣]؟

قيلَ: إنَّها لو كانَتْ كلُّها راتبةً؛ لَبَطَلَتِ الدّلالةُ والحكمُ التي نَشَأتْ مِن تنقُّلِها في منازِلِها ومسيرِها في بروجِها، ولو كانَتْ كلُّها متنقِّلةً؛ لَمْ يَكُنْ لمسيرِها منازلُ تُعْرَفُ بها ولا رسمٌ يُقاسُ عليهِ؛ لأنَّهُ إنَّما يُقاسُ مسيرُ المتنقِّلةِ منها /خ٣٣٥/ بالرَّاتبِ كما يُقاسُ مسيرُ[٤] السَّائرينَ على الأرضِ بالمنازلِ التي يَمُرُّونَ عليها، فلو كانَتْ كلُّها بحالٍ واحدةٍ؛ لاخْتَلَطَ نظامُها، ولَبَطَلَتِ الحكمُ والفوائدُ والدّلالاتُ التي في اختلافِها، ولَتَشَبَّثَ المعطِّلُ بذٰلكَ وقالَ: لو كانَ فاعلُها ومبدعُها مختارًا؛ لَمْ تَكُنْ على وجهٍ واحدٍ وأمرٍ واحدٍ وقدرٍ واحدٍ!

فهٰذا التَّرتيبُ والنِّظامُ الذي هيَ عليهِ مِن أدلِّ الدَّلائلِ على وجودِ خالقِها[٥] وقدرتِهِ

---

(١) ومنهم أكثر الفلكيّين المعاصرين للأسف الشديد! لا تكاد تشتمّ من كلامهم إلاّ روائح التعطيل وأنتان الإلحاد مع كلّ ما يرون ويعرفون!! ﴿فإنّها لا تعمى الأبصار ولٰكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾.

(٢) في ط: «فسل الزنادقة...»، وفي خ: «... أو متنقلة... شيء وأحسن... ما صنع».

(٣) يعني: بحسب الظاهر المنظور بالعين وبالتيليسكوب لا في الحقيقة كما تقدّم قبل قليل.

(٤) في خ: «الذي نشأت... سير المتنقّلة... سير»، وفي ط: «... رسم يقاس عليها...».

(٥) في خ: «المعطّل بذٰلك وقالوا...»، وفي ط: «... وجود الخالق».

وإرادتِهِ وعلمِهِ وحكمتِهِ ووحدانيَّتِهِ.

[٣٦] فصل

[في بدائع الإعجاز اللفظي في القرآن بين الآية والآيات]

ثمَّ تأمَّلْ هٰذا الفلكَ الدَّوَّارَ[١] بشمسِهِ وقمرِهِ ونجومِهِ [وبروجِهِ]، وكيفَ يَدورُ على هٰذا العالمِ هٰذا الدَّورانَ الدَّائمَ إلى آخرِ الأجلِ على هٰذا التَّرتيبِ والنِّظامِ، وما في طيِّ ذٰلكَ مِنِ اختلافِ الليلِ والنَّهارِ والفصولِ والحرِّ والبردِ، وما في ضمنِ ذٰلكَ مِن مصالحِ ما على الأرضِ مِن أصنافِ الحيوانِ والنَّباتِ... وهل يَخفى على ذي بصيرةٍ أنَّ هٰذا إبداعُ المبدعِ الحكيمِ وتقديرُ العزيزِ العليمِ؟!

ولهٰذا خاطَبَ الرُّسلُ أُممَهُم[٢] مخاطبةَ مَن لا شَكَّ عندَهُ في اللهِ وإنَّما دَعَوْهُم إلى عبادتِهِ وحدَهُ لا إلى الإقرارِ بهِ، فقالَتْ لهُم: ﴿أفي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالأرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]؟! فوجودُهُ سبحانَهُ وربوبيَّتُهُ وقدرتُهُ أظهرُ مِن كلِّ شيءٍ على الإطلاقِ، فهوَ أظهرُ للبصائرِ مِنَ الشَّمسِ للأبصارِ وأبينُ للعقولِ مِن كلِّ ما تَعْقِلُهُ وتُقِرُّ بوجودِهِ، فما يُنْكِرُهُ إلَّا مكابرٌ بلسانِهِ وقلبِهِ وعقلِهِ وفطرتِهِ، وكلُّها تُكَذِّبُهُ.

قالَ [اللهُ] تَعالى: ﴿اللهُ الَّذي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ ٱسْتَوى عَلى العَرْشِ [وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْري لِأجَلٍ مُسَمًّى] يُدَبِّرُ الأمْرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ توقِنونَ . وَهُوَ الَّذي مَدَّ الأرْضَ وَجَعَلَ فيها رَواسِيَ وَأنْهارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فيها زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشي اللَّيْلَ النَّهارَ إنَّ في ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ . وَفي الأرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وجَنَّاتٌ مِنْ أعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ في الأُكُلِ إنَّ في ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ﴾ [الرعد: ٢-٤][٣].

---

(١) يريد جميع الأجرام السماوية.

(٢) في ط: «أمّتهم».

(٣) صنوان وغير صنوان: أصناف متماثلات وأصناف غير متماثلات.

[وقالَ تَعالى: ﴿إِنَّ في السَّماواتِ وَالأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنينَ .] وَفي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنونَ . وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللهُ /خ٣٣٦/ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْريفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ . تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلوها عَلَيْكَ بِالحَقِّ فَبِأَيِّ حَديثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنونَ﴾ [الجاثية: ٣-٦].

وقالَ تعالى: ﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى في الأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريمٍ . هٰذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُوني ماذا خَلَقَ الَّذينَ مِنْ دونِهِ بَلِ الظَّالِمونَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ [لقمان: ١٠-١١].

وقالَ تَعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ . وَالأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلونَ . وَلَكُمْ فيها جَمالٌ حينَ تُريحونَ وَحينَ تَسْرَحونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكونوا بالِغيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤوفٌ رَحيمٌ . وَالخَيْلَ وَالبِغالَ وَالحَميرَ لِتَرْكَبوها وَزينَةً وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمونَ . وَعَلى اللهِ قَصْدُ السَّبيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعينَ . هُوَ الَّذي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فيهِ تُسيمونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتونَ وَالنَّخيلَ وَالأَعْنابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ في ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ في ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ . وَما ذَرَأَ لَكُمْ في الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوانُهُ إِنَّ في ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرونَ . وَهُوَ الَّذي سَخَّرَ البَحْرَ لِتَأْكُلوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسونَها وَتَرى الفُلْكَ مَواخِرَ فيهِ وَلِتَبْتَغوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ . وَأَلْقى في الأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ وَأَنْهارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدونَ . وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدونَ . أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرونَ﴾ [النحل: ٤-١٧][1].

---

(١) خصيم مبين: قويّ قادر يخاصم ويجادل عن حقوقه. تريحون: تعيدون الأنعام من المرعى إلى مأواها. تسرحون: تأخذون الأنعام من المأوى إلى المرعى. وعلى الله قصد السبيل: عليه سبحانه بيان سبيل الحقّ والهدى. ومنها جائر: ومن الطرق ما هو منحرف. تسيمون: ترعون مواشيكم. ذرأ: خلق وبثّ في الأرض. مواخر: تجري وتشقّ الماء. الرواسي: الجبال. تميد: تضطرب. سبلاً: طرقًا يسير فيها الخلق.

وَتَأَمَّلْ كيفَ وَحَّدَ سبحانَهُ الآيةَ[١] مِن قولِهِ ﴿هُوَ الَّذي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ [وَمِنْهُ شَجَرٌ فيهِ تُسيمونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتونَ وَالنَّخيلَ وَالأَعْنابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ في ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ]﴾ وخَتَمَها بأصحابِ الفكرِ: فأمَّا توحيدُ الآيةِ؛ فلأنَّ موضعَ الدّلالةِ واحدٌ، وهوَ الماءُ الذي أنْزَلَهُ مِن السَّماءِ فأخْرَجَ بهِ كلَّ ما ذَكَرَهُ مِن الأرضِ، وهوَ على ٱختلافِ أنواعِهِ لقاحُهُ واحدٌ وأُمُّهُ واحدةٌ، فهٰذا نوعٌ واحدٌ مِن آياتِهِ. وأمَّا /خ٣٣٧/ تخصيصُهُ ذٰلكَ بأهلِ الفكرِ؛ فلأنَّ الموضعَ موضعُ فكرٍ - وهوَ نظرُ القلبِ وتأمُّلُهُ - لا موضعُ نظرٍ مجرَّدٍ بالعينِ، فلا يَنْتَفِعُ النَّاظرُ بمجرَّدِ رؤيةِ العينِ [أنَّ هٰذهِ المخلوقاتِ التي ذَكَرَها مِن الماءِ] حتَّى يَنْتَقِلَ[٢] منهُ إلى نظرِ القلبِ في حكمةِ ذٰلكَ وبديعِ صنعِهِ والاستدلالِ بهِ على خالقِهِ وباريهِ، وذٰلكَ هوَ الفكرُ بعينِهِ.

وأمَّا قولُهُ [تعالى] في الآيةِ التي بعدَها: ﴿إِنَّ في ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ﴾؛ فجَمَعَ الآياتِ؛ لأنَّها تَضَمَّنَتِ الليلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقمرَ والنُّجومَ وهيَ آياتٌ متعدِّدةٌ مختلفةٌ في أنفسِها وخلقِها وكيفيَّاتِها: فإنَّ إظلامَ الجوِّ لغروبِ الشَّمسِ ومجيءِ الليلِ الذي يَلْبَسُ العالمَ كالثَّوبِ فيَسْكُنونَ تحتَهُ آيةٌ باهرةٌ، ثمَّ ورودُ جيشِ الضِّياءِ يَقْدُمُهُ بشيرُ الصَّباحِ فيَنْهَزِمُ عسكرُ الظَّلامِ ويَنْتَشِرُ الحيوانُ ويَنْكَشِطُ ذٰلكَ اللباسُ بجملتِهِ آيةٌ أُخرى، ثمَّ في الشَّمسِ التي هيَ [آيةُ النَّهارِ] آيةٌ أُخرى، [وفي القمرِ الذي هوَ آيةُ الليلِ آيةٌ أُخرى]، وفي النُّجومِ آياتٌ أُخرُ كما قَدَّمْناهُ، هٰذا معَ ما يَتْبَعُها مِن الآياتِ المقارنةِ لها مِن الرِّياحِ وٱختلافِها وسائرِ ما يُحْدِثُهُ اللهُ بسببِها آياتٌ[٣] أُخرُ. فالموضعُ موضعُ جمعٍ. وخَصَّ هٰذهِ الآياتِ بأهلِ العقلِ؛ لأنَّها أعظمُ ممَّا قبلَها وأدلُّ وأكبرُ والأُولى كالبابِ لهٰذهِ، فمَنِ ٱسْتَدَلَّ بهٰذهِ الآياتِ وأعْطاها حقَّها مِن الدّلالةِ؛ ٱسْتَحَقَّ مِن الوصفِ [فوقَ]

---

(١) يعني: قال تعالى: ﴿إنّ في ذٰلك لآية﴾، ولم يقل: ﴿إنّ في ذٰلك لآيات﴾.

(٢) في خ وط: «وأمّا تخصيصه ذٰلك بأهل الفكر؛ فلأنّ هٰذه المخلوقات التي ذكرها من الماء؛ فلأنّ الموضع موضع فكر، وهو نظر القلب وتأمّله لا موضع نظر مجرّد بالعين، فلا ينتفع الناظر بمجرّد رؤية العين حتّى ينتقل... إلخ»! فما بين المنقوطتين مقحم ليس هٰذا موضعه، ولذٰلك نقلته إلى موضعه بعد سطر وجعلته بين حاصرتين. والله أعلم.

(٣) في ط: «ويسكنون تحته...»، وفي خ: «... ورد جيش... الله يسلبها آيات».

ما يَسْتَحِقُّهُ صاحبُ الفكرِ، وهوَ العقلُ[١]. ولأنَّ منزلةَ العقلِ بعدَ منزلةِ الفكرِ، فلمَّا دَلَّهُم بالآيةِ الأُولى على الفكرِ؛ نَقَلَهُم بالآيةِ الثَّانيةِ التي هيَ أعظمُ منها إلى العقلِ الذي هوَ فوقَ الفكرِ، فتَأَمَّلْهُ.

وأمَّا قولُهُ في الآيةِ [الثَّالثةِ]: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣]؛ فوَحَّدَ الآيةَ وخَصَّها بأهلِ التَّذكُّرِ: فأمَّا توحيدُها؛ فكتوحيدِ الأولى سواءً؛ فإنَّ [ما] ذَرَأَ في الأرضِ على اختلافِهِ مِن الجواهرِ والنَّباتِ والمعادنِ والحيوانِ كلُّهُ في محلٍّ واحدٍ ومقرٍّ واحدٍ، فهوَ نوعٌ مِن أنواعِ آياتِهِ وإنْ تَعَدَّدَتْ أصنافُهُ وأنواعُهُ. وأمَّا تخصيصُهُ إيَّاها بأهلِ التَّذكُّرِ؛ فطريقةُ القرآنِ في ذٰلكَ أنْ يَجْعَلَ آياتِهِ للتَّبصُّرِ والتَّذكُّرِ، كما قالَ تَعالى في سورةِ قٓ [٧-٨]: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ /خ٣٣٨/ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾، فالتَّبصرةُ التَّعقُّلُ والذِّكرى التَّذكُّرُ والفكرُ بابُ ذٰلكَ ومدخلُهُ، فإذا فَكَّرَ تَبَصَّرَ وإذا تَبَصَّرَ تَذَكَّرَ، فجاءَ التَّذكُّرُ في الآيةِ لترتيبِهِ على العقلِ المرتَّبِ على الفكرِ، فقدَّمَ الفكرَ إذْ هوَ البابُ والمدخلُ ووَسَّطَ العقلَ إذ هوَ ثمرةُ الفكرِ ونتيجتُهُ وأخَّرَ التَّذكُّرَ إذْ هوَ المطلوبُ مِن الفكرِ والعقلِ. فتَأَمَّلْ ذٰلكَ حقَّ التَّأمُّلِ.

[٣٧ـ فصل]

[بين التذكر والتفكر]

فإنْ قُلْتَ: فما الفرقُ بينَ التَّذكُّرِ والتَّفكُّرِ؛ فإذا تَبَيَّنَ الفرقُ ظَهَرَتِ الفائدةُ؟!

قُلْتُ: التَّفكُّرُ والتَّذكُّرُ أصلُ الهدى والصَّلاحِ وهُما قطبا السَّعادةِ، ولهٰذا وَسَّعْنا الكلامَ في الفكرِ في هٰذا الوجهِ لعظمِ المنفعةِ وشدَّةِ الحاجةِ إليهِ، قالَ الحَسَنُ: ما زالَ أهلُ العلمِ يَعودونَ بالتَّذكُّرِ على التَّفكُّرِ وبالتَّفكُّرِ على التَّذكُّرِ ويُناطِقونَ القلوبَ[٢] حتَّى نَطَقَتْ فإذا لها أسماعٌ وأبصارٌ.

فاعْلَمْ أنَّ التَّفكُّرَ طلبُ القلبِ ما ليسَ بحاصلٍ مِن العلومِ مِن أمرٍ هوَ حاصلٌ منها.

---

(١) في ط: «الوصف ما يستحقّه صاحب. . .» إلخ! ومعنى الكلام: استحقّ أن يوصف بالعقل.

(٢) في خ: «فكتوحيد الأدلّة. . . تعدّدت أوصافه وآياته. . . ولهٰذا أوسعنا. . . ويناطقون القلب».

هٰذا حقيقتُهُ؛ فإنَّهُ لو لمْ يَكُنْ ثَمَّ موادُّ تكونُ موردًا للفكرِ؛ ٱسْتَحالَ الفكرُ؛ لأنَّ الفكرَ بغيرِ[1] متعلَّقٍ متفكَّرٍ فيهِ محالٌ، وتلكَ الموادُّ هيَ الأُمورُ الحاصلةُ، ولو كانَ المطلوبُ بها حاصلاً عندَهُ؛ لمْ يَتَفَكَّرْ فيهِ.

فإذا عُرِفَ هٰذا؛ فالمتفكِّرُ يَنْتَقِلُ مِن المقدِّماتِ والمبادئِ التي عندَهُ إلى المطلوبِ الذي يُريدُهُ، فإذا ظَفِرَ بهِ وتَحَصَّلَ لهُ؛ تَذَكَّرَ بهِ وأبْصَرَ مواقعَ الفعلِ والتَّركِ وما يَنْبَغي إيثارُهُ وما يَنْبَغي ٱجتنابُهُ. فالتَّذَكُّرُ هوَ مقصودُ التَّفكُّرِ وثمرتُهُ.

فإذا [هوَ] تَذَكَّرَ؛ عادَ بتذكُّرِهِ على تفكُّرِهِ، فٱسْتَخْرَجَ [بهِ] ما لمْ[2] يَكُنْ حاصلاً عندَهُ.

فهوَ لا يَزالُ يَكُرُّ بتفكُّرِهِ[3] على تذكُّرِهِ وبتذكُّرِهِ على تفكُّرِهِ ما دامَ عاقلاً؛ لأنَّ العلمَ والإرادةَ لا يقفانِ [بهِ] على حدٍّ، بل هوَ دائمًا سائرٌ بينَ العلمِ والإرادةِ.

وإذا عَرَفْتَ معنى كونِ آياتِ الرَّبِّ تَبارَكَ وتَعالى تبصرةً وذكرى يُتَبَصَّرُ بها مِن عمى القلبِ ويُتَذَكَّرُ بها مِن غفلتِهِ؛ فإنَّ المضادَّ للعلمِ: إمَّا عمى القلبِ، وزوالُهُ بالتَّبصُّرِ. وإمَّا غفلتُهُ، وزوالُهُ بالتَّذكُّرِ.

والمقصودُ تنبيهُ القلبِ مِن رقدتِهِ بالإشارةِ إلى شيءٍ مِن بعضِ آياتِ اللهِ، ولو ذَهَبْنا نَتَتَبَّعُ ذٰلكَ؛ لَنَفِدَ الزَّمانُ ولمْ نُحِطْ بتفصيلِ واحدةٍ مِن آياتِهِ على التَّمامِ[4]/ خ٣٣٩/ ، ولٰكنْ ما لا يُدْرَكُ جملةً لا يُتْرَكُ جملةً، وأحسنُ ما أُنْفِقَتْ فيهِ الأنفاسُ التَّفكُّرُ في آياتِ اللهِ وعجائبِ صنعِهِ والانتقالُ منها إلى تعلُّقِ القلبِ والهمَّةِ بهِ دونَ شيءٍ[5] مِن مخلوقاتِهِ.

فلذٰلكَ عَقَدْنا هٰذا الكتابَ على هٰذينِ الأصلينِ؛ إذْ هُما أفضلُ ما يَكْتَسِبُهُ العبدُ في هٰذهِ الدَّارِ.

---

(١) في خ: «بحاصل يحصل من... ثمّ مراد يكون...»، وفي ط: «... الفكر هو بغير».

(٢) في ط: «من المقامات والمبادئ... فإذا تذكر... فأستخرج ما لم»!

(٣) في خ: «لا يزال يكرّره بتفكّره»! وفي ط: «لا يزال يكرّر بتفكره»! تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) كيف؛ والمختصّون المتفرّغون للبحث في هٰذه العلوم أقرّوا بعد آلاف الصفحات ومئات الاكتشافات بأنّ ما عندهم لا يعدو أن يكون وشلاً من بحر؟!

(٥) في خ: «يقفان به على حدّ بل هو دائمًا سائرًا... بدون شيء».

[٣٨] فصل

[في مكابرة من جحد الصانع وعطل القدرة]

سَلِ المعطِّلَ الجاحدَ: ما تَقولُ في دولابٍ دائرٍ على نهرٍ، قد أُحْكِمَتْ آلاتُهُ وأُحْكِمَ تركيبُهُ وقُدِّرَتْ أدواتُهُ أحسنَ تقديرٍ وأبلغَهُ بحيثُ لا يَرى النَّاظرُ فيهِ خللاً في مادَّتِهِ ولا في صورتِهِ، وقد جُعِلَ على حديقةٍ عظيمةٍ فيها مِن كلِّ أنواعِ الثِّمارِ والزُّروعِ يَسْقيها حاجتَها، وفي تلكَ الحديقةِ مَن يَلُمُّ شعثَها ويُحْسِنُ مراعاتَها وتعهُّدَها والقيامَ بجميعِ مصالِحِها فلا يَخْتَلُّ منها شيءٌ ولا تَتْلَفُ ثمارُها، ثمَّ يَقْسِمُ قيمتَها عندَ الجَذاذِ[١] على سائرِ المخارجِ بحسبِ حاجاتِهِم وضروراتِهِم فيَقْسِمُ لكلِّ صنفٍ منهُم ما يَليقُ بِهِ ويَقْسِمُهُ هٰكذا على الدَّوامِ...

أَتَرى هٰذا ٱتِّفاقًا بلا صانعٍ ولا مختارٍ ولا مدبِّرٍ، بلِ ٱتَّفَقَ وجودُ ذٰلكَ الدُّولابِ والحديقةِ وكلُّ ذٰلكَ ٱتِّفاقًا مِن غيرِ فاعلٍ ولا قيِّمٍ ولا مدبِّرٍ؟!

أفَتَرى ما يَقولُ لكَ عقلُكَ في ذٰلكَ لو كانَ؟! وما الذي يُفْتيكَ بِهِ؟! وما الذي يُرْشِدُكَ إليهِ؟!

ولٰكنْ مِن حكمةِ العزيزِ الحكيمِ أنْ خَلَقَ قلوبًا عميًا لا بصائرَ لها فلا تَرى هٰذهِ الآياتِ الباهرةَ إلاَّ رؤيةَ الحيواناتِ البهيميَّةِ[٢]، كما خَلَقَ أعينًا عميًا لا أبصارَ لها والشَّمسُ والقمرُ والنُّجومُ مسخَّراتٌ بأمرِهِ وهيَ لا تَراها[٣]! فما ذنبُها إنْ أنْكَرَتْها وجَحَدَتْها فهيَ تَقولُ في ضوءِ النَّهارِ هٰذا ليلٌ ولٰكنَّ أصحابَ الأعينِ لا يَعْرِفونَ شيئًا؟! ولقد أحْسَنَ القائلُ:

وَهَبْنـي قُلْـتُ هٰـذا الصُّبْـحُ لَيْـلٌ ... أيَعْمـى[٤] العـالَمـونَ عَـنِ الضِّيـاءِ

---

(١) في خ: «حيث لا يرى... يسقيها حاجته... ثمّ يقسمها قيّمها...». والجذاذ: جني الثمار.

(٢) ومنهم من يسمّى بروفيسورًا في الفيزياء الفضائيّة أو أستاذًا في الفيزياء النوويّة أو دكتورًا في هندسة المورِّثات؛ تنحني لهم الهامات وتسبغ عليهم الألقاب، وليس وراء ذٰلك من الإيمان حبّة خردل.

(٣) في خ: «خلق أعيانًا لا أبصار... والنجوم وبأمره هي لا تراها».

(٤) في خ: «ولقد أحسن القائل هو أبو الطيّب... ليل أمتعني».

[٣٩] فصل

[ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده]

ثمَّ تَأمَّلِ الممسكَ للسَّماواتِ والأرضِ الحافظَ لهُـ[ـما أنْ تَزولا أو تَقَعا أو يَتَعَطَّلَ بعضُ ما فيهما! أفَتَرى مَنِ الممسكُ لذٰلكَ]؟! ومَنِ القيِّمُ بأمرِهِ؟! ومَنِ المقيمُ لهُ[١]؟!

فلو تَعَطَّلَتْ بعضُ آلاتِ هٰذا الدُّولابِ العظيمِ والحديقةِ العظيمةِ؛ مَن كانَ يُصْلِحُهُ؟! وماذا كانَ عندَ الخلقِ كلِّهِم مِن الحيلةِ في ردِّهِ كما كانَ؟!

فلو أمْسَكَ عنهُم قيِّمُ السَّماواتِ والأرضِ الشَّمسَ فجَعَلَ عليهِمُ الليلَ سرمدًا؛ مَن ذا الذي كانَ /خ٣٤٠/ يُطْلِعُها عليهِم ويَأْتيهِم بالنَّهارِ؟! ولو حَبَسَها في الأُفقِ ولمْ يُسَيِّرْها؛ فمَن ذا الذي [كانَ] يُسَيِّرُها [عنهُم] ويَأْتيهِم[٢] بالليلِ؟! ولو أنَّ السَّماءَ والأرضَ زالَتا؛ فمَن ذا الذي كانَ يُمْسِكُهُما[٣] مِن بعدِهِ؟!

[٤٠] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في تدرج الحر والبرد]

ثمَّ تَأمَّلْ هٰذهِ الحكمةَ البالغةَ في الحرِّ والبردِ وقيامِ الحيوانِ والنَّباتِ عليهِما، وفَكِّرْ في دخولِ أحدِهِما على الآخرِ بالتَّدريجِ والمهلةِ حتَّى يَبْلُغَ نهايتَهُ، ولو دَخَلَ عليهِ مفاجأةً؛ لأضَرَّ ذٰلكَ بالأبدانِ وأهْلَكَها وبالنَّباتِ، كما لو خَرَجَ الرَّجلُ مِن حمَّامٍ مفرطِ

---

(١) كثيرًا ما تسمع أنّ سرّ هٰذا الانسجام والانتظام هو خضوع هٰذه الأجرام صغيرها وكبيرها لقوانين مستقرّة معروفة عند الفيزيائيّين. والجواب أن يقال:

أوّلًا: أمّا أنّها مستقرّة؛ فنعم؛ فاستقرار الكون شاهد على استقرارها. وأمّا أنّها معروفة؛ فلا والله، فالفيزيائيّون المتعمّقون في أبحاث الفضاء والذرّة عارفون معترفون بالجهل والقصور، وفي كلّ فترة يستحدثون قانونًا لسدّ عجز القانون الذي قبله.

ثانيًا: سلّمنا وصدّقنا، فكان ماذا؟! من وضع هٰذا الميزان وأرسى هٰذه القوانين وأخضع لها جميع المخلوقات من الذرّة إلى المجرّة؟! ﴿الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان﴾. لا ريب أنّ هٰذه القوانين كلّها لا تعدو أن تكون قطرة من بحر هٰذا الميزان.

(٢) في خ: «المقيم بأمره ومن المقيم له لو تعطّل...»، وفي ط: «... يسيّرها ويأتيهم».

(٣) في خ: «فلو أنّ السماء...»، وفي ط: «... كان يمسكها».

الحرارةِ إلى مكانٍ مفرطٍ في البرودةِ، ولولا العنايةُ والحكمةُ والرَّحمةُ والإحسانُ؛ لَما كانَ ذٰلكَ!

فإنْ قُلْتَ: هٰذا التَّدريجُ والمهلةُ إنَّما كانَ لإبطاءِ سيرِ الشَّمسِ في ٱرتفاعِها وٱنخفاضِها! قيلَ لكَ: فما السَّببُ في ذٰلكَ الإبطاءِ في الانخفاضِ والارتفاعِ[1]؟

فإنْ قُلْتَ: السَّببُ في ذٰلكَ بعدُ المسافةِ مِن مشارقِها ومغاربِها. قيلَ لكَ: فما السَّببُ في بعدِ المسافةِ؟

[ولا يُمْكِنُهُ أيضًا أنْ يَقولَ: بعدُ المسافةِ؛ لأنَّ القمرَ يَقْطَعُها في شهرٍ والشَّمسَ تَقْطَعُها في سنةٍ؛ لهٰذهِ الحكمةِ البيِّنةِ][2].

ولا تَزالُ المسألةُ متوجِّهةً عليكَ كلَّما عَيَّنْتَ سببًا حتَّى تُفْضِيَ بكَ إلى أحدِ أمرينِ: إمَّا مكابرةٌ ظاهرةٌ ودعوى أنَّ ذٰلكَ ٱتِّفاقٌ مِن غيرِ مدبِّرٍ ولا صانعٍ، وإمَّا الاعترافُ بربِّ العالَمينَ والإقرارُ بقيُّومِ السَّماواتِ والأرضينَ والدُّخولُ في زمرةِ أُولي العقلِ مِن العالَمينَ، ولنْ تَجِدَ بينَ القسمينِ واسطةً أبدًا.

فلا تُتْعِبْ ذهنَكَ بهذياناتِ الملحدينَ؛ فإنَّها عندَ مَن عَرَفَها مِن هوسِ الشَّياطينِ وخيالاتِ المبطلينَ. وإذا طَلَعَ فجرُ الهدى وأشْرَقَتْ [أنوارُ][3] النُّبوَّةِ؛ فعساكرُ تلكَ الخيالاتِ والوساوسِ في أوَّلِ المنهزمينَ. ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرونَ﴾ [الصف: ٨].

[٤١] فصل
[في لطائف حكمته تعالى في خلق النار]

ثمَّ تَأمَّلِ الحكمةَ في خلقِ النَّارِ على ما هيَ عليهِ مِن الكمونِ والظُّهورِ: فإنَّها لو

---

(١) في خ: «مفرط في البرد. . . الإبطاء في الانحطاط والارتفاع».

(٢) وهٰذا بحسب الحركة الظاهريّة للشمس والقمر، وقد تقدّم لك (٢/ ٤٥-٤٦) تفسير تتابع الفصول الأربعة بما يغني عن إعادته هنا.

(٣) ساقطة من خ وط، وبها يستقيم السياق

كانَتْ ظاهرةً أبدًا كالماءِ والهواءِ؛ كانَتْ تُحْرِقُ العالمَ وتَنْتَشِرُ ويَعْظُمُ الضَّررُ بها والمفسدةُ[(١)]، ولو كانَتْ كامنةً لا تَظْهَرُ أبدًا؛ لَفاتَتِ المصالحُ المترتِّبةُ على وجودِها. فٱقْتَضَتْ حكمةُ العزيزِ العليمِ أنْ جَعَلَها مخزونةً في الأجسامِ، يُخْرِجُها ويَنْفُثُها الرَّجلُ عندَ حاجتِهِ إليها، فيُمْسِكُها ويَحْبِسُها بمادَّةٍ يَجْعَلُها فيها مِن الحطبِ ونحوِهِ فلا يَزالُ حابسَها ما ٱحْتاجَ إلى بقائِها، فإذا ٱسْتَغْنى عنها وتَرَكَ حبسَها بالمادَّةِ؛ خَبَتْ بإذنِ ربِّها وفاطرِها فسَقَطَتِ المؤنةُ /خ٣٤١/ والمضرَّةُ ببقائِها[(٢)]. فسبحانَ مَن سَخَّرَها وأنْشأَها على تقديرٍ محكمٍ عجيبٍ ٱجْتَمَعَ فيهِ الاستمتاعُ والانتفاعُ والسَّلامةُ مِن الضَّررِ.

قالَ تَعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئونَ . نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعًا لِلْمُقْوِينَ . فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧١-٧٤].

[فسبحانَ ربِّنا العظيمِ]! لقد تَعَرَّفَ إلينا بآياتِهِ وشفانا ببيِّناتِهِ وأغنانا بها عن دلالاتِ العالمينَ. فأخْبَرَ سبحانَهُ: أنَّهُ جَعَلَها تذكرةً [تُذَكِّرُنا] بنارِ الآخرةِ فنَسْتَجيرُ[هُ][(٣)] منها ونَهْرُبُ إليهِ منها. ومتاعًا للمُقْوينَ، وهمُ المسافرونَ النَّازلونَ بالقَوَى والقِيِّ - وهيَ الأرضُ الخاليةُ -، وهُم أحوجُ إلى الانتفاعِ بالنَّارِ للإضاءةِ والطَّبخِ والخبزِ والتَّدفِّي والأُنسِ وغيرِ ذٰلكَ[(٤)].

---

(١) فضلاً عن ضياعها وتبدّدها والقضاء على مصادرها.

(٢) وهٰذا كلام صحيح، لٰكنّه يحتاج إلى مقاربة علميّة بالألفاظ العصريّة الاصطلاحيّة:

فأمّا أنّ الله سبحانه جعل النار مخزونة في الأجسام؛ فهٰذا ما نسمّيه اليوم بالطاقة الكامنة، ففي الحطب طاقة كامنة، وفي الفحم، وفي البترول، وفي الوقود النووي... إلخ.

وأمّا إخراجها ونفثها عند الحاجة إليها؛ فيكون بإشعال الحطب أو غيره عند الحاجة إليه.

وأمّا حبس النار بالمادّة؛ فيريد به إبقاء النار مشتعلة بإضافة موادّ جديدة قابلة للاشتعال.

وأمّا ترك حبسها؛ فبالعكس.

(٣) في خ: «الأجسام مخرجها ويقيمها الرجل...»، وفي ط: «... تذكرة بنار الآخرة فنستجير».

(٤) قال ابن القيّم في «طريق الهجرتين» (ص٢٥٦): «خصّ المقوين بالذكر، وإن كانت منفعتها عامّة للمسافرين والمقيمين، تنبيهًا لعباده - والله أعلم بمراده من كلامه - على أنّهم كلّهم مسافرون، وأنّهم في هٰذه الدّار على جناح سفر، ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين، وأنّهم عابرو سبيل وأبناء سفر». قلت: وأيضًا؛ فلأنّ المتاع معطوف على التذكرة، والتذكرة لا تكون إلاّ للمقوين، الذين علموا أنّهم راحلون.

[٤٢] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في تخصيص البشر بالنار]

ثمَّ تأمَّلْ حكمتَهُ تعالى في كونِهِ خَصَّ بها الإنسانَ دونَ غيرِهِ مِن الحيواناتِ؛ فلا حاجةَ بالحيوانِ إليها، بخلافِ الإنسانِ؛ فإنَّهُ لو فَقَدَها؛ لَعَظُمَ الدَّاخلُ عليهِ في معاشِهِ ومصالحِهِ، وغيرُهُ مِن الحيواناتِ لا يَسْتَعْمِلُها ولا يَتَمَتَّعُ بها.

ونُنَبِّهُ مِن مصالحِ النَّارِ على خَلَّةٍ صغيرةِ القدرِ عظيمةِ النَّفعِ، وهيَ في هٰذا المصباحِ الذي يَتَّخِذُهُ النَّاسُ فيَقْضونَ بهِ مِن حوائجِهِم ما شاؤوا مِن ليلِهِم، ولولا هٰذهِ الخَلَّةُ؛ لكانَ النَّاسُ نصفَ أعمارِهِم بمنزلةِ أصحابِ القبورِ! فمَن كانَ يَسْتَطيعُ كتابةً أو خياطةً أو صناعةً أو تصرُّفًا في ظلمةِ الليلِ الدَّاجي؟! وكيفَ كانَتْ تكونُ حالُ مَن عَرَضَ لهُ وجعٌ في وقتٍ مِن الليلِ فٱحْتاجَ إلى ضياءٍ أو دواءٍ أو ٱستخراجِ دمٍ أو غيرِ ذٰلكَ[١]؟!

ثمَّ ٱنْظُرْ إلى ذٰلكَ النُّورِ المحمولِ في ذبالةِ المصباحِ[٢] على صغرِ جوهرِهِ كيفَ يُضيءُ ما حولَكَ كلَّهُ فترى بهِ القريبَ والبعيدَ!

ثمَّ ٱنْظُرْ إلى أنَّهُ لوِ ٱقْتَبَسَ منهُ كلُّ مَن يُفْرَضُ أو يُقْدَرُ مِن خلقِ اللهِ؛ كيفَ لا يَفْنى ولا يَنْفَدُ ولا يَضْعُفُ[٣]!

وأمَّا منافعُ النَّارِ في إنضاجِ الأطعمةِ والأدويةِ وتجفيفِ ما لا يُنْتَفَعُ إلَّا بجفافِهِ وتحليلِ ما لا يُنْتَفَعُ إلَّا بتحليلِهِ وعقدِ ما لا يُنْتَفَعُ إلَّا بعقدِهِ وتركيبِهِ؛ فأكثرُ مِن أنْ تُحْصى.

ثمَّ تأمَّلْ ما أُعْطِيَتْهُ النَّارُ مِن الحركةِ الصَّاعدةِ بطبعِها إلى العلوِّ[٤]، فلولا المادَّةُ تُمْسِكُها؛ لَذَهَبَتْ صاعدةً، كما أنَّ الجسمَ الثَّقيلَ لولا الممسكُ يُمْسِكُهُ؛ لَذَهَبَ نازلًا!

---

(١) ألا ترى إلى حالنا كيف تكون عند ٱنقطاع التيّار الكهربائيّ؟! هٰذا مع أنّ لدينا بدائل عدّة سهلة وميسّرة! فكيف لو لم تكن؟!

(٢) ذبالة المصباح: فتيلته التي تشتعل.

(٣) تمامًا كحال العلم وأهله، بل صاحب العلم يزداد ويزكو كلّما ٱقتبس منه.

(٤) وذٰلك لأنّ أكثر نواتج الاحتراق غازيّة، والغازات الساخنة تنطلق عاليًا، فتحمل معها جزيئات لم تحترق أو لم يكتمل ٱحتراقها بعد، فتحترق هٰذه الجزيئات في طريق صعودها، فترى النار صاعدة.

فمَنْ أعطى هٰذا القوَّةَ التي يَطْلُبُ بها الهبوطَ إلى مستقرِّه، وأعْطى هٰذهِ القوَّةَ التي تَطْلُبُ /خ٣٤٢/ بها الصُّعودَ إلى مستقرِّها؟! وهل ذٰلك إلَّا بتقديرِ العزيزِ العليمِ؟!

[٤٣] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في الهواء والرياح]

ثمَّ تَأمَّلْ هٰذا الهواءَ وما فيهِ مِن المصالحِ:

فإنَّهُ حياةُ هٰذهِ الأبدانِ والممسكُ لها مِن داخلٍ بما تَسْتَنْشِقُ منهُ ومِن خارجٍ بما تُباشِرُ بهِ مِن رَوْحِهِ فتَتَغذَّى بهِ ظاهرًا وباطنًا[١].

وفيهِ تَطَّرِدُ هٰذهِ الأصواتُ فيَحْمِلُها ويُؤَدِّيها للقريبِ والبعيدِ كالبريدِ والرَّسولِ الذي شَأْنُهُ حملُ الأخبارِ والرَّسائلِ[٢].

وهوَ الحاملُ لهٰذهِ الرَّوائحِ على ٱختلافِها؛ يَنْقُلُها مِن موضعٍ إلى موضعٍ، فتَأْتي العبدَ الرَّائحةُ مِن حيثُ تَهُبُّ الرِّيحُ[٣]. وكذٰلكَ يَأْتيهِ الصوتُ[٤].

وهوَ أيضًا الحاملُ للحرِّ والبردِ اللذينِ بهِما صلاحُ الحيوانِ والنَّباتِ.

---

(١) في خ: «ليتغذّى به ظاهرًا وباطنًا». فأمّا الهواء المستنشق؛ فأهمّيته معلومة، وأمّا الهواء الخارجي المباشر للبدن؛ فحسبك في أهمّيّته أن تنظر إلى حال الجلد بعد نزع اللاصق الطبّي عن جرح ما.

(٢) تطّرد الأصوات: تجري ويتبع بعضها بعضًا. ثمّ ٱعلم أنّ الصوت حركة موجيّة تنتقل ٱهتزازاتها عبر الأجسام الماديّة، ولذٰلك لا بدّ من توسّط الهواء أو غيره من الموادّ غازيّة كانت أو سائلة أو صلبة في نقل الصوت؛ لأنّ الصوت لا ينتقل في الفراغ.

(٣) يحمل الهواء بعض جزيئات الموادّ التي يمرّ عليها كالطعام أو الكحول أو البنزين... فإذا وصل شيء منها ـ ولو كان يسيرًا جدًّا ـ إلى الأنف؛ ٱنحلّ في الغشاء المخاطي للأنف، فتحسّست لذٰلك نهايات العصب الشمّي Olfactory nerve، فٱنتقل الحسّ عبر ألياف العصب الشمّي إلى الدماغ، وهناك يتمّ التعرّف على حقيقة الرائحة. ولذٰلك يتأثّر الشمّ كثيرًا بحركة الرياح، وربّما ينعدم تمامًا إذا كانت الريح تحمل الرائحة إلى الجهة المعاكسة.

(٤) الصوت حركة موجيّة تنتشر على شكل كرات متتابعة بغض النظر عن جهة الريح، وهو أشبه ما يكون بالدوائر المتتالية التي تراها إذا ألقيت حجرًا في الماء. ومع ذٰلك؛ فللريح دور قويّ في تيسير ٱنتشار هٰذه الموجات أو مقاومتها وإضعافها؛ إلاّ أنّ أثرها في ذٰلك أضعف من أثرها في الشمّ، ولذٰلك غالبًا ما يصلنا صوت المؤذّن ولو كانت الريح معاكسة.

وتَأَمَّلْ منفعةَ الرِّيحِ وما يَجْري لهُ في البرِّ والبحرِ وما هُيِّئَتْ لهُ مِن الرَّحمةِ والعذابِ.

وتَأَمَّلْ كم سُخِّرَ للسَّحابِ مِن ريحٍ حتَّى أمْطَرَ[1]: فسُخِّرَتْ لهُ المثيرةُ أوّلاً، [فتُثيرُهُ] بينَ[2] السَّماءِ والأرضِ. ثمَّ سُخِّرَتْ لهُ الحاملةُ التي تَحْمِلُهُ على متنِها كالجملِ الذي يَحْمِلُ الرَّاويةَ. ثمَّ سُخِّرَتْ لهُ المؤلِّفةُ، فتُؤلِّفُ بينَ كِسَفِهِ وقطعِهِ حتَّى يَجْتَمِعَ بعضُها إلى بعضٍ فتَصيرَ طبقًا واحدًا. ثمَّ سُخِّرَتْ لهُ اللاقحةُ، بمنزلةِ الذَّكرِ الذي يَلْقَحُ الأُنثى، فتَلْقَحُهُ بالماءِ، ولولاها لكانَ جهامًا لا ماءَ فيهِ[3]. ثمَّ سُخِّرَتْ لهُ المزجيةُ، التي تُزْجيهِ وتَسوقُهُ إلى حيثُ أُمِرَ، فيُفْرِغُ ماءَهُ هنالكَ. ثمَّ سُخِّرَتْ لهُ بعدَ إعصارِهِ المفرِّقةُ[4]، التي تَبُثُّهُ وتُفَرِّقُهُ في الجوِّ فلا يَنْزِلُ مجتمعًا، ولو نَزَلَ جملةً؛ لأهْلَكَ المساكنَ والحيوانَ والنَّباتَ، بل تُفَرِّقُهُ فتَجْعَلُهُ قطرًا[5].

وكذٰلكَ الرِّياحُ التي تَلْقَحُ الشَّجرَ والنَّباتَ، ولولاها؛ لَكانَتْ عقيمًا[6].

وكذٰلكَ الرِّياحُ التي تُسَيِّرُ السُّفنَ، ولولاها؛ لَوَقَفَتْ على ظهرِ البحرِ.

ومِن منافعِها أنَّها: تُبْرِدُ الماءَ، وتُضْرِمُ النَّارَ التي يُرادُ إضرامُها، وتُجَفِّفُ الأشياءَ التي يُحْتاجُ إلى جفافِها.

وبالجملةِ؛ فحياةُ ما على الأرضِ مِن نباتٍ وحيوانٍ بالرِّياحِ؛ فإنَّهُ لولا تسخيرُ اللهِ لها لعبادِهِ؛ لَذَوى النَّباتُ وماتَ الحيوانُ وفَسَدَتِ المطاعمُ وأنْتَنَ العالمُ وفَسَدَ. ألا تَرى إذا رَكَدَتِ الرِّياحُ كيفَ يَحْدُثُ الكربُ والغمُّ الذي لو دامَ لأتْلَفَ النُّفوسَ وأسْقَمَ الحيوانَ وأمْرَضَ الأصحَّاءَ وأنْهَكَ المرضى وأفْسَدَ الثِّمارَ وعَفَّنَ الزَّرعَ وأحْدَثَ الوباءَ في

---

(١) سيأتي (٢/ ١٠٤) تفصيل الكلام في التفسير العلمي لهطول المطر.

(٢) في خ: «وفيه مطرد هٰذه الأصوات. . .»، وفي ط: «. . . وكذٰلك تأتيه الأصوات. . . أوّلاً بين».

(٣) في خ: «اللاقحة منزلة الذكر. . .»! والجهام: السحاب الذي لا ماء فيه.

(٤) بعد إعصاره: بعد أن يصبّ ما فيه من الماء. المفرّقة: الريح التي تفرّق الماء فتجعله قطرات.

(٥) في خ: «بل مفرّقة فيجعله قطرًا»! والتصويب من ط.

(٦) وتشارك الرياح في ذٰلك الحشرات وقطرات الماء بل والإنسان والحيوان أحيانًا، وتتفاوت أهمّية الرياح في الإلقاح بين نبات وآخر، فمن النبات ما لابدّ من توسّط الحشرات في إلقاحه، لٰكن يبقى للرياح دور الصدارة في ذٰلك في أغلب الأحوال.

الجوِّ[١]/ خ٣٤٣/ ؟! فسبحانَ مَن جَعَلَ هبوبَ الرِّياحِ تأْتي برَوْحِهِ ورحمتِهِ ولطفِهِ ونعمتِهِ كما قالَ النَّبيُّ ﷺ في الرِّياحِ: «إنَّها مِن رَوْحِ اللهِ تأْتي بالرَّحمةِ»[٢].

ونُنَبِّهُ للطيفةٍ في هٰذا الهواءِ، وهيَ أنَّ الصَّوتَ أثرٌ يَحْدُثُ عندَ أصطكاكِ [وقرعِ] الأجرامِ، وليسَ نفسَ الاصطكاكِ كما قالَ ذٰلكَ مَن قالَهُ، ولٰكنَّهُ موجَبُ الاصطكاكِ وقرعِ الجسمِ للجسمِ أو قلعِهِ عنهُ، فسببُهُ قرعٌ أو قلعٌ، فيَحْدُثُ الصَّوتُ، فيَحْمِلُهُ الهواءُ ويُؤَدِّيهِ إلى مسامعِ النَّاسِ، فيَنْتَفِعونَ بهِ في حوائجِهِم ومعاملاتِهِم بالليلِ والنَّهارِ، وتَحْدُثُ الأصواتُ العظيمةُ مِن حركاتِهِم.

فلو كانَ أثرُ هٰذهِ الحركاتِ والأصواتِ يَبْقى في الهواءِ كما يَبْقى الكتابُ في القرطاسِ؛ لامْتَلأَ العالمُ منهُ، ولَعَظُمَ الضَّررُ بهِ، وأشْتَدَّتْ مؤنتُهُ، وأحْتاجَ النَّاسُ إلى محوِهِ مِن الهواءِ والاستبدالِ بهِ أعظمَ مِن حاجتِهِم إلى الاستبدالِ بالكتابِ المملوءِ كتابةً؛ فإنَّ ما يُلْقى مِن الكلامِ في الهواءِ أضعافُ ما يودَعُ [في] القرطاسِ. فأقْتَضَتْ حكمةُ العزيزِ الحكيمِ أنْ جَعَلَ هٰذا الهواءَ قرطاسًا خفيًّا يَحْمِلُ الكلامَ بقدرِ ما يُبْلِغُ الحاجةَ، ثمَّ يَنْمَحي[٣] بإذنِ ربِّهِ فيَعودُ جديدًا نقيًّا لا شيءَ فيهِ، فيَحْمِلُ ما حُمِّلَ كلَّ وقتٍ.

---

(١) بلى! وكنت أظنّ هٰذا مقصورًا على بلادنا ونحوها من المناطق الحارّة، فإذا بالمدن الأوروبيّة تعيش رعبه، فالمخلّفات التي تنفثها مصانعهم في الجوّ لا بدّ لها من ريح تحملها بعيدًا عن المدن، فإن سكنت الريح؛ عادت هٰذه الغازات السامّة الثقيلة نازلة إلى البيوت والصدور!

(٢) (صحيح). رواه: معمر في «الجامع» (٢٠٠٠٤)، والشافعي في «الأم» (١/ ٢٥٣)، وابن أبي شيبة (٢٩٢٠٩)، وأحمد (٢/ ٢٥٠ و٢٦٨ و٤٠٩ و٤٣٧ و٥١٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٢٠ و٩٠٦)، وابن ماجه ٣٣ـ الأدب، ٢٩ـ النهي عن سبّ الريح، ٢/ ١٢٢٨/ ٣٧٢٧)، وأبو داوود (٣٥ـ الأدب، ١٠٤ـ ما يقول إذا هاجت الريح، ٢/ ٧٤٧/ ٥٠٩٧)، والنسائي في «اليوم والليلة» (٩٣٦-٩٣٨)، وأبو يعلى (٦١٤٢)، وابن حبّان (١٠٠٧ و٥٧٣٢)، والطبراني في «الدعاء» (٩٧١-٩٧٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٨١٦ و٨١٧)، والحاكم (٤/ ٢٨٥)، والبيهقي (٣/ ٣٦١)، والبغوي في «السنّة» (١١٥٣)؛ من طرق، عن الزهري، عن ثابت الزرقي (وجاء مرة: عمرو بن سليم الزرقي)، عن أبي هريرة... به.

وهٰذا سند صحيح، رجاله ثقات، والتردّد بين ثابت وعمرو تردّد بين ثقتين، فلا يضر، والظاهر أنّ الزهري رواه عنهما. وقد صحّحه الحاكم والمنذري والنووي والذهبي والعسقلاني والألباني.

(٣) في ط: «وننبّه على لطيفة...»، وفي خ: «... ولٰكنّه موجب للاصطكاك... أعظم من حاجاتهم... يمحى».

[٤٤] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في سكون الأرض وٱستقرارها]

ثمَّ تأمَّلْ خلقَ الأرضِ على ما هيَ عليهِ حينَ خُلِقَتْ واقفةً ساكنةً لِتكونَ مهادًا ومستقرًّا للحيوانِ والنَّباتِ والأمتعةِ وتُمَكِّنَ الحيوانَ والنَّاسَ مِن السَّعيِ عليها في مآربِهِم والجلوسِ لراحاتِهِم والنَّومِ لهدوئِهِم مِن أعمالِهِم. ولو كانَتْ رجراجةً متكفِّئةً[1]؛ لم يَسْتَطيعوا على ظهرِها قرارًا ولا هدوءًا، ولا ثَبَتَ لهُم عليها بناءٌ، ولا أمْكَنَهُم عليها صناعةٌ ولا تجارةٌ ولا حراثةٌ ولا مصلحةٌ! وكيفَ كانوا يَتَهَنَّوْنَ بالعيشِ والأرضُ تَرْتَجُّ مِن تحتِهِم؟! وٱعْتَبِرْ ذٰلكَ بما يُصيبُهُم مِن الزَّلازلِ على قلَّةِ مُكْثِها؛ كيفَ تُصَيِّرُهُم إلى تركِ منازلِهِم والهربِ عنها؟!

وقد نَبَّهَ [اللهُ تَعالى] على ذٰلكَ: بقولِهِ: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]. وقولِهِ تَعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]. وقولِهِ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا[2] (وفي القراءةِ الأُخرى: مِهادًا)﴾ [طه: ٥٣].

وفي «جامع التِّرمذيِّ» وغيرِهِ مِن حديثِ: أنسِ بنِ مالكٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «لمَّا خَلَقَ اللهُ الأرضَ جَعَلَتْ تَميدُ، فخَلَقَ الجبالَ عليها فٱسْتَقَرَّتْ. فعَجِبَتِ الملائكةُ مِن شدَّةِ الجبالِ، فقالوا: /خ٣٤٤/ يا ربِّ! هل مِن خلقِكَ شيءٌ أشدُّ مِن الجبالِ؟ قالَ: نعمْ؛ الحديدُ. قالوا: يا ربِّ! فهل مِن خلقِكَ شيءٌ أشدُّ مِن الحديدِ؟ قالَ: نعمْ؛ النَّارُ. قالوا: يا ربِّ! فهل مِن خلقِكَ شيءٌ أشدُّ مِن النَّارِ؟ [قالَ: نعمْ؛ الماءُ. قالوا: يا ربِّ! فهل مِن خلقِكَ شيءٌ أشدُّ مِن الماءِ؟] قالَ: نعمْ؛ الرِّيحُ. قالوا: يا ربِّ! فهل مِن خلقِكَ شيءٌ أشدُّ مِن الرِّيحِ؟ قالَ: نعمْ؛ ابنُ آدمَ يَتَصَدَّقُ صدقةً بيمينِهِ يُخْفيها عن شمالِهِ»[3].

---

(١) في ط: «ويتمكّن الحيوان... منكفئة»، وفي خ: «... لهدوئهم والتمكّن من أعمالهم...».

(٢) في خ: «ولا يثبت لهم عليها بناء... الله الذي جعل لكم الأرض مهادًا»!

(٣) (ضعيف). رواه: أحمد (٣/ ١٢٤)، وعبد بن حميد (١٢١٣)، وبحشل في «تاريخ واسط» (١/ ٦٢)، والترمذي (٤٨ـ التفسير، ٩٦ـ باب، ٥/ ٤٥٤/ ٣٣٦٩)، وأبو يعلى (٤٣١٠)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٨٧٥ و٨٩٩ و٩٠٠)، والبيهقي في «الشعب» (٣٤٤١)، والضياء في «المختارة» (٢١٤٨-٢١٥٠)، والمزّي في «التهذيب» (١١/ ٤٤٣)؛ من طرق، عن العوّام بن حوشب، عن سليمان بن أبي سليمان مولى ابن=

[٤٥ ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في توسط الأرض بين الليونة واليبس]

ثمَّ تَأمَّلِ الحكمةَ البالغةَ في ليونةِ الأرضِ معَ يُبْسِها؛ فإنَّها لو أفْرَطَتْ في اللينِ كالطِّينِ؛ لمْ يَسْتَقِرَّ عليها بناءٌ ولا حيوانٌ ولا تَمَكَّنا مِن الانتفاعِ بها، ولو أفْرَطَتْ في اليبسِ كالحجرِ؛ لمْ يُمْكِنْ حرثُها ولا زرعُها ولا شقُّها وفلحُها ولا حفرُ عيونِها ولا البناءُ عليها، فنَقَصَتْ عن يبسِ الحجارةِ، وزادَتْ على ليونةِ الطِّينِ، فجاءَتْ بتقديرِ ربِّها وفاطرِها[1] على أحسنِ ما جاءَ عليهِ مهادُ الحيوانِ مِن الاعتدالِ بينَ اللينِ واليبوسةِ، فتهَيَّأَ عليها جميعُ المصالحِ.

[٤٦] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في مهاب الرياح]

ثمَّ تَأمَّلِ الحكمةَ البالغةَ في أنْ جَعَلَ مهبَّ الشَّمالِ عليها أرفعَ مِن مهبِّ الجنوبِ[2]!

[و]حكمةُ ذٰلكَ أنْ تَتَحَدَّرَ المياهُ على وجهِ الأرضِ فتَسْقِيَها وتَرْوِيَها ثمَّ تَفيضَ

= عبّاس، عن أنس. . . رفعه. وهٰذا سند ضعيف من أجل سليمان فإنّه مجهول لا يكاد يعرف، ولذٰلك قال الترمذي: «غريب لا نعرفه مرفوعًا إلّا من هٰذا الوجه»، وضعّفه الألباني.

ورواه: عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في «العظمة» (٨٧٦ و٩٠٨)؛ من طريق قتادة، عن الحسن، عن قيس بن عباد. . . فذكره بطوله. وهٰذا سند قويّ، ولٰكنّه موقوف.

ورواه: ابن جرير في «التفسير» (٥٩١) و«التاريخ» (١/ ٣٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٩٠١)، والحاكم (٢/ ٤٩١)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ٣) و«الصفات» (٨٠٤)؛ من وجهين، عن ابن عبّاس. . . مقتصرًا على ذكر الجبال. وصحّح الحاكم والذهبي إحدى طريقيه على شرطهما. قلت: ولٰكنّه موقوف.

وجملة القول أنّ هٰذا المتن صحّ موقوفًا، وليس له حكم الرفع؛ لأنّه لا يبعد أن يكون إسرائيليًّا، بل هٰذا هو الراجح لشبهه بمرويّاتهم في سفر التكوين، ثمّ جاء بعض المجاهيل فرفعه. والله أعلم.

(١) في خ: «فهل شيء من خلقك أشدّ. . . يتصدّق صديقة. . . فنقصت من يبس. . . ربّها فاطرها».

(٢) «جعل مهبّ الشمال»: جعل الموضع الذي تهبّ منه رياح الشمال. «أرفع»: أعلى، وربّما أضيق. «من مهبّ الجنوب»: من الموضع الذي تهبّ منه رياح الجنوب. هٰذا المعنى الحرفي للكلام المذكور، وما هو بالبيّن، ولا تبيّن لي مراده منه، والله أعلم.

فتَصُبَّ في البحرِ! فكما أنَّ البانيَ، إذا رَفَعَ سطحًا؛ رَفَعَ أحدَ جانبيهِ وخَفَضَ الآخرَ؛ ليَكونَ مصبًّا للماءِ، ولو جَعَلَهُ مستويًا؛ لَعامَ عليهِ الماءُ فأَفْسَدَهُ. كذٰلكَ جُعِلَ مهبُّ الشَّمالِ في كلِّ بلدٍ أرفعَ مِن مهبِّ الجنوبِ، ولولا ذٰلكَ؛ لَبَقِيَ الماءُ واقفًا على وجهِ الأرضِ، فمَنَعَ النَّاسَ مِن العملِ [و]الانتفاعِ، وقَطَعَ الطُّرقَ[1] والمسالكَ، وأضرَّ بالخلقِ[2].

أفيَحْسُنُ عندَ مَن لهُ مُسكةٌ مِن عقلٍ أنْ يَقولَ: هٰذا كلُّهُ اتِّفاقٌ مِن غيرِ تدبيرِ العزيزِ الحكيمِ الذي أتْقَنَ كلَّ شيءٍ [خَلَقَهُ]؟!

[٤٧] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في خلق الجبال]

ثمَّ تأمَّلِ الحكمةَ العجيبةَ في الجبالِ، التي قد يَحْسَبُها الجاهلُ الغافلُ فضلةً في الأرضِ لا حاجةَ إليها، وفيها مِن المنافعِ ما لا يُحْصيهِ إلَّا خالقُها وناصبُها. وفي حديثِ إسلامِ ضِمامِ بنِ ثَعْلَبَةَ قولُهُ للنَّبيِّ ﷺ: بالذي نَصَبَ الجبالَ وأَوْدَعَ فيها المنافعَ؛ آللهُ أمَرَكَ بكذا وكذا؟ قالَ: «اللهمَّ! نعم»[3].

---

(١) في ط: «مستويًا لقام عليه...»، وفي خ: «... وقطع الطريق».

(٢) على أنّه لم يتّضح لي المقصود تمامًا، لكنّ في هٰذه العبارات نظرًا من وجهين: أوّلهما: أنّ الرياح تتفاوت تفاوتًا عظيمًا من وقت لآخر ومن بلد لأخرى وما يصدق في شمال الكرة الأرضية لا يصدق في جنوبها وما يصدق في السواحل لا يصدق في الجبال أو السهول الداخليّة. والثاني: أنّه لا أثر يذكر للريح على حركة الماء الهاطل على سطح الأرض، وإنّما يجتمع الماء الذي لم تمتصّه التربة ليشكّل سيولاً تتّجه حسب قانون الجاذبيّة نحو المنخفضات والأودية في أيّ اتّجاه كانت حتّى تصبّ في بحيرة أو نهر أو بحر.

(٣) (صحيح). رواه: النسائي في «المجتبى» (٢٢ـ الصيام، ١٠ـ وجوب الصيام، ٤/ ١٢١/ ٢٠٩٠) و«الكبرى» (٢٤٠١ و٥٨٦٣)، وابن منده في «الإيمان» (١٢٩)؛ من طرق، عن سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس... رفعه بهٰذا اللفظ تقريبًا. وسنده صحيح.

وأصل الحديث عند: البخاري (٣ـ العلم، ٦ـ وقل ربّ زدني علمًا، ١/ ١٤٨/ ٦٣)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٣ـ أركان الإسلام، ١/ ٤١/ ١٣)؛ لكن ليس فيه هٰذا اللفظ.

وكذٰلك؛ فظاهر رواية النسائي أن الضمير في قوله «وجعل فيها المنافع» عائد إلى الأرض لا إلى الجبال. وأمّا رواية ابن منده؛ فظاهرها أنّ المنافع عائدة إلى الجبال كما ذكر ابن القيّم هنا. والله أعلم.

فمِن منافعِها: أنَّ الثَّلجَ يَسْقُطُ عليها فيَبْقى في قُلَلِها[١] حاضنًا لشرابِ النَّاسِ إلى حينِ /خ٣٤٥/ نفادِهِ، وجُعِلَ فيها لِيَذوبَ أوَّلاً فأوَّلاً فتَجْرِيَ منهُ[٢] السُّيولُ الغزيرةُ وتَسيلَ منهُ الأنهارُ والأوديةُ، فيَنْبُتَ في المروجِ والوهادِ والرُّبى ضروبُ النَّباتِ والفواكهِ والأدويةِ التي لا يَكونُ مثلُها في السَّهلِ والرَّملِ. فلولا الجبالُ؛ لَسَقَطَ الثَّلجُ على وجهِ الأرضِ، فأنْحَلَّ جملةً وساحَ دفعةً، فعُدِمَ وقتَ الحاجةِ إليهِ، وكانَ [في] أنحلالِهِ جملةً السُّيولُ التي تُهْلِكُ ما مَرَّتْ عليهِ فتَضُرُّ بالنَّاسِ ضررًا لا يُمْكِنُ تلافيهِ ولا دفعُ أذيَّتِهِ[٣].

ومِن منافعِها: ما يَكونُ في حصونِها وقُلَلِها مِن المغاراتِ والكهوفِ والمعاقلِ التي هيَ بمنزلةِ الحصونِ والقلاعِ، وهيَ أيضًا أكنانٌ للنَّاسِ والحيوانِ.

ومِن منافعِها: ما يُنْحَتُ مِن أحجارِها[٤] للأبنيةِ على أختلافِ أصنافِها والأرحيةِ وغيرِها[٥].

ومِن منافعِها: ما يوجَدُ فيها مِن المعادنِ على أختلافِ أصنافِها مِن الذَّهبِ والفضَّةِ والنُّحاسِ والحديدِ والرَّصاصِ والزَّبَرْجَدِ والزُّمُرُّدِ وأضعافِ ذٰلكَ مِن أنواعِ المعادنِ التي يَعْجِزُ البَشرُ عن معرفتِها على التَّفصيلِ، حتَّى إنَّ فيها ما يَكونُ الشَّيءُ اليسيرُ منهُ تَزيدُ قيمتُهُ ومنفعتُهُ على قيمةِ الذَّهبِ بأضعافٍ مضاعفةٍ، وفيها مِن المنافعِ ما لا يَعْلَمُهُ إلَّا فاطرُها ومبدعُها سبحانَهُ [وتَعالى].

ومِن منافعِها أيضًا: أنَّها تَرُدُّ الرِّياحَ العاصفةَ وتَكْسِرُ حدَّتَها فلا تَدَعُها تَصْدُمُ ما تحتَها. ولهٰذا؛ [فـ]ـالسَّاكنونَ تحتَها[٦] في أمانٍ مِن الرِّياحِ العظامِ المؤذيةِ.

---

(١) قلل الجبال: أعاليها.

(٢) في خ: «الذي قد يحسبها... قللها حاصلاً لشراب...»، وفي ط: «... فأوّلاً فتجيء منه».

(٣) في خ: «والفواكه والأودية... السهل والرمال... ولا دفعه أذيّته (وفي ط: لأذيّته)».

(٤) في خ: «وقللها في المغارات... في أحجارها»، والتصويب من ط.

(٥) في خ: «على أختلافها والأرجية وغيرها». والأرحية: جمع رحا، وهي حجر الطاحون.

(٦) يعني: على السفوح الداخليّة لها؛ لأنّ الأعاصير العاتية تنشأ عادة في البحر ثمّ تجتاح الشواطئ والسهول الساحليّة، فإن كان هاهنا سلسلة جبليّة؛ صدّت عُظم هٰذه الأعاصير ومعظمها، ولم يصب أهل السهول الداخليّة من أضرارها إلّا الشيء اليسير.

ومِن منافعِها أيضًا: أنَّها تَرُدُّ عنهُمُ السُّيولَ إذا كانَتْ في مجاريها[١] فتَصْرِفُها عنهُم[٢] ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ، ولولاها لَخَرَّبَتِ[٣] السُّيولُ في مجاريها ما مَرَّتْ بهِ فتكونُ لهُم بمنزلةِ السَّدِّ والسَّكْرِ.

ومِن منافعِها: أنَّها أعلامٌ يُسْتَدَلُّ بها في الطُّرقاتِ، فهيَ بمنزلةِ الأدلَّةِ المنصوبةِ المرشدةِ إلى الطُّرقِ. ولهٰذا سمَّاها اللهُ [سبحانَهُ] أعلامًا، فقالَ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الجَوارِ في البَحْرِ كَالأعلامِ﴾ [الشورى: ٣٢]: فالجواري هيَ السُّفنُ، والأعلامُ الجبالُ، واحدُها علمٌ. قالَتِ الخَنْساءُ:

وَإنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُداةُ بِهِ ... كَأنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسِهِ نارُ

فسُمِّيَ الجبلُ علمًا مِن العلامةِ والظُّهورِ.

ومِن منافعِها /خ٣٤٦/ أيضًا: ما يَنْبُتُ فيها مِن العقاقيرِ والأدويةِ التي لا تكونُ في السُّهولِ والرِّمالِ، كما أنَّ ما يَنْبُتُ في السُّهولِ والرِّمالِ لا يَنْبُتُ مثلُهُ في الجبالِ، وفي كلٍّ مِن هٰذا وهٰذا منافعُ وحِكَمٌ لا يُحيطُ بها إلاَّ الخلاَّقُ العليمُ.

ومِن منافعِها: أنَّها تكونُ حصونًا مِن الأعداءِ يَتَحَرَّزُ فيها عبادُ اللهِ مِن أعدائِهم كما يَتَحَصَّنونَ بالقلاعِ، بل تكونُ أبلغَ وأحصنَ مِن كثيرٍ مِن القلاعِ والمدنِ.

ومِن منافعِها: ما ذَكَرَهُ اللهُ تَعالى في كتابِهِ أنَّهُ جعَلَها للأرضِ أوتادًا تُثَبِّتُها ورواسيَ بمنزلةِ مراسي السُّفنِ، وأَعْظِمْ بها منفعةً وحكمةً!

هٰذا وإذا تَأمَّلْتَ خلقتَها العجيبةَ البديعةَ على هٰذا الوضعِ؛ وَجَدْتَها في غايةِ المطابقةِ للحكمةِ: فإنَّها لو طالَتْ واْسْتَدَقَّتْ كالحائطِ؛ لَتَعَذَّرَ الصُّعودُ عليها والانتفاعُ بها وسَتَرَتْ عنِ النَّاسِ الشَّمسَ والهواءَ فلم[٤] يَتَمَكَّنوا مِن الانتفاعِ بها، ولو بُسِطَتْ على وجهِ الأرضِ؛ لَضَيَّقَتْ عليهِمُ المزارعَ والمساكنَ ولَمَلأَتِ السَّهلَ ولَما حَصَلَ لهُم بها

(١) يعني: إذا اعترضت الجبال طريق السيل ردّته على الناس.
(٢) في ط: «المعادن الذي يعجز...»، وفي خ: «... مجاريها تصرّف عنهم».
(٣) في خ: «ولولاها خرّبت»، وفي ط: «... ولولاها لأخربت».
(٤) في خ: «ما ينبت فيها العقاثر والأدوية... وأعظم بها من منفعة... تأمّلت خلقها... ولم».

الانتفاعُ مِن التَّحصُّنِ والمغاراتِ والأكنانِ ولَما سَتَرَتْ عنهُمُ الرِّياحَ ولا حَجَبَتِ السُّيولَ، ولو جُعِلَتْ مستديرةً شكلَ الكرةِ؛ لَمْ يَتَمَكَّنوا مِن صعودِها ولا حَصَلَ[1] لهُم بها الانتفاعُ التَّامُّ، فكانَ أولى الأشكالِ والأوضاعِ بها وأليقَها وأوقعَها على[2] وفقِ المصلحةِ هٰذا الشَّكلُ الذي نُصِبَتْ عليهِ.

ولقد دَعانا اللهُ سبحانَهُ في كتابِهِ إلى النَّظرِ فيها وفي كيفيَّةِ خلقِها، فقالَ: ﴿أفَلا يَنْظُرونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإلى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإلى الجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإلى الأرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-١٩]. فخلقُها ومنافعُها مِن أكبرِ الشَّواهدِ على قدرةِ بارئِها وفاطرِها وعلمِهِ وحكمتِهِ ووحدانيَّتِهِ[3].

هٰذا؛ معَ أنَّها: تُسَبِّحُ بحمدِهِ [الأنبياء: ٧٩]، وتَخْشَعُ لهُ وتَسْجُدُ [الحج: ١٨]، وتَشَّقَّقُ وتَهْبِطُ مِن خشيتِهِ [البقرة: ٧٤]، وهيَ التي خافَتْ مِن ربِّها وفاطرِها وخالقِها على شدَّتِها وعظمِ خلقِها مِن الأمانةِ إذ عَرَضَها عليها وأشْفَقَتْ مِن حملِها [الأحزاب: ٧٢].

ومنها الجبلُ الذي تَجَلَّى لهُ ربُّهُ فساخَ وتَدَكْدَكَ [الأعراف: ٤٣].

ومنها الجبلُ الذي كَلَّمَ اللهُ عليهِ موسى كليمَهُ ونجيَّهُ [مريم ٥٢، طه ٨٠، القصص ٢٩ و٤٦].

[ومنها الجبلُ الذي حَبَّبَ اللهُ رسولَهُ وأصحابَهُ إليهِ وأَحَبَّهُ رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُهُ[4]].

---

(١) في خ: «من التحصين. . .»، وفي ط: «. . . ولما حجبت. . . ولما حصل».

(٢) في خ: «لهم بالانتفاع التامّ. . . والأوضاع بها وإليها واقعها على».

(٣) وللجبال دور كبير في زيادة كميّة الهطل المطري في مختلف البلدان، وذٰلك لأنّها تصدّ الغيوم المنخفضة عن الانفلات وتضطرّها لصبّ مائها. وأنظر مصداق ذٰلك في المفارقة بين سواحل ليبيا الصحراويّة وسواحل الجزائر الخصبة وذٰلك لوجود الجبال العالية في الثانية دون الأولى.

وتصدّ الجبال أيضًا الرياح الصحراويّة الحارّة والرمال الحارقة القاتلة للنبات والحيوان وتحول دون ٱمتداد التصحّر أكثر وأكثر.

وتمدّ الجبال السهول المجاورة بالتربة الغنيّة الصالحة للزراعة التي تتكوّن من تفتّت صخور الجبال بتأثير عوامل الحتّ والتعرية.

(٤) يشير إلى قول النبيّ ﷺ عن جبل أحد: «هٰذا جبل يحبّنا ونحبّه». رواه: البخاري (٢٤ـ الزكاة، =

ومنها الجبلانِ اللذانِ جَعَلَهُما اللهُ سورًا على بيتِهِ، وجَعَلَ /خ٣٤٧/ الصَّفا في ذيلِ أحدِهِما والمروةَ في ذيلِ الآخرِ، وشَرَعَ لعبادِهِ السَّعيَ بينَهُما وجَعَلَهُ مِن مناسكِهِم ومتعبَّداتِهِم.

ومنها جبلُ الرَّحمةِ المنصوبُ عليهِ ميدانُ عَرَفاتٍ. فللهِ! كم مِن ذنبٍ مغفورٍ وعثرةِ مقالةٍ وزلَّةٍ معفوٍّ عنها وحاجةٍ مقضيَّةٍ وكربةٍ مفروجةٍ وبليَّةٍ مدفوعةٍ ونعمةٍ متجدِّدةٍ وسعادةٍ مكتسبةٍ وشقاوةٍ ممحوَّةٍ! كيفَ؛ وهوَ الجبلُ المخصوصُ بذٰلكَ الجمعِ الأعظمِ والوفدِ الأكرمِ الذينَ[1] جاؤوا مِن كلِّ فجٍّ عميقٍ وقوفًا لربِّهِم مستكينينَ لعظمتِهِ خاشعينَ لعزَّتِهِ شعثًا غبرًا حاسرينَ عن رؤوسِهِم يَسْتَقيلونَهُ عثراتِهِم ويَسْألونَهُ حاجاتِهِم فيَدْنو منهُم ثمَّ يُباهي بهِمُ الملائكةَ[2]؟! فللهِ ذٰلكَ الجبلُ[3] وما يَنْزِلُ عليهِ مِن الرَّحمةِ والتَّجاوزِ عنِ الذُّنوبِ العظامِ.

ومنها جبلُ حِراءَ الذي كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَخْلو فيهِ بربِّهِ[4] حتَّى أكْرَمَهُ اللهُ برسالتِهِ وهوَ في غارِهِ، فهوَ الجبلُ الذي فاضَ منهُ النُّورُ على أقطارِ العالمِ؛ فإنَّهُ لَيَفْخَرُ على الجبالِ وحُقَّ لهُ ذٰلكَ.

فسبحانَ مَنِ اخْتَصَّ برحمتِهِ وتكريمِهِ مَن شاءَ مِن الجبالِ والرِّجالِ: فجَعَلَ منها جبالاً هيَ مغناطيسُ القلوبِ، كأنَّها مركَّبةٌ منهُ، فهيَ تَهْوي إليهِ كلَّما ذَكَرَتْها وتَهْفو نحوَها. كما اخْتَصَّ مِن الرِّجالِ مَن خَصَّهُ بكرامتِهِ وأتَمَّ عليهِ نعمتَهُ ووَضَعَ عليهِ محبَّةً منهُ، فأحَبَّهُ وحَبَّبَهُ إلى ملائكتِهِ وعبادِهِ المؤمنينَ، ووَضَعَ لهُ القبولَ [في الأرضِ] بينَهُم.

= ٥٤ـ خرص التمر، ٣/٣٤٣/١٤٨١)، ومسلم (١٥ـ الحجّ، ٩٣ـ أحد جبل يحبّنا ونحبّه، ٢/١٠١١/١٣٩٢)؛ من حديث أبي حميد الساعدي. ومسلم (الموضع السابق، ١٣٩٣) من حديث أنس.

(١) في خ: «بحمده وتخضع له وتسجد له... ستورًا على بيته... وكرب مفروجه... الذي».

(٢) يشير إلى ما رواه مسلم (١٥ـ الحجّ، ١٩ـ فضل الحجّ والعمرة، ٢/ ٩٨٢/١٣٤٨) عن عائشة؛ أنّ النبيّ ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة، وإنّه ليدنو ثمّ يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هٰؤلاء؟».

(٣) في خ: «لعظمته خاضعين لعزّته...»، وفي ط: «... فلله ذاك الجبل».

(٤) رواه: البخاري (١ـ بدء الوحي، ٣ـ باب، ١/ ٢٣/ ٣)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٧٣ـ بدء الوحي، ١/ ١٣٩/ ١٦٠)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

[و]إذا تَـأمَّلْـتَ البِقـاعَ وَجَـدْتَهـا تَشْقـى كَمـا تَشْقـى الرِّجـالُ وَتَسْعَـدُ

فدَعْ عنكَ الجبلَ الفلانيَّ وجبلَ بني فلانٍ وجبلَ كذا[١]!

خُـذْ مـا تَـراهُ وَدَعْ شَيْئًـا سَمِعْـتَ بِـهِ في طَلْعَةِ الشَّمسِ[٢] ما يُغْنيكَ عَنْ زُحَلِ

هٰذا؛ وإنَّها لَتَعْلَمُ أنَّ لها موعدًا ويومًا تُنْسَفُ فيها نسفًا وتَصيرُ كالعهنِ مِن هولِهِ وعظمِهِ، فهيَ مشفقةٌ مِن هولِ ذٰلكَ الموعدِ منتظرةٌ لهُ.

وكانَتْ أمُّ الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنها إذا سافَرَتْ فصَعِدَتْ على جبلٍ؛ تقولُ لمَن معَها: أَسْمِعِ الجبالَ ما وَعَدَها ربُّها! فيقولُ: ما أُسْمِعُها؟! فتَقولُ: ﴿وَيَسْألونَكَ عَنِ الجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُها قاعًا صَفْصَفًا . لا تَرى فيها عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧][٣].

فهٰذا حالُ الجبالِ وهيَ الحجارةُ /خ٣٤٨/ الصُّلبةُ! وهٰذهِ رقَّتُها وخشيَتُها وتدكدُكُها مِن جلالِ ربِّها وعظمتِهِ! وقد أخْبَرَ عنها فاطرُها وباريها أنَّهُ لو أنْزَلَ عليها كلامَهُ؛ لَخَشَعَتْ وتَصَدَّعَتْ[٤] مِن خشيةِ اللهِ [الحشر: ٢١]!

فيا عجبًا مِن مضغةِ لحمٍ أقسى مِن هٰذهِ الجبالِ؛ تَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلى عليهـ[ـا] ويُذْكَرُ الرَّبُّ تَبارَكَ وتَعالى فلا تَلينُ ولا تَخْشَعُ ولا تُنيبُ! فليسَ بمستنكرٍ [على ا]للهِ عَزَّ وجَلَّ ولا يُخالِفُ حكمتَهُ أنْ يَخْلُقَ لها نارًا تُذيبُها إذ لَمْ تَلِنْ على كلامِهِ وذكرِهِ وزواجرِهِ ومواعظِهِ! فمَن لمْ يَلِنْ للهِ في هٰذهِ الدَّارِ قلبُهُ ولمْ يُنِبْ إليهِ ولمْ يُذِبْهُ حبُّهُ[٥] والبكاءُ مِن خشيتِهِ؛ فلْيَتَمَتَّعْ قليلاً؛ فإنَّ أمامَهُ المليِّنَ الأعظم، وسَيُرَدُّ إلى عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ فيَرى ويَعْلَم!

---

(١) يشير إلى جبال يعظِّمها كثير من الناس ويلهجون بذكرها: فللشعراء جبالٌ لا يفتؤون يذكرونها، وبعض الرافضة تعظِّم جبل رضوى، والصوفيَّة يذكرون جبل قاف المزعوم...

(٢) في خ: «من أخصّه بكرامته... في طلعة البدر»، والتصويب من ط.

(٣) ينسفها: يقتلعها من أصولها. قاعًا صفصفًا: أرضًا ملساء. لا ترى فيه عوجًا ولا أمتًا: لا ترى فيها انخفاضًا ولا ارتفاعًا.

(٤) في خ: «وهٰذا رقّتها... من حال ربّها وعظمته...»، وفي ط: «... ولتصدّعت».

(٥) في خ: «إذ لم تكن على... فمن لم يكن لله...»، وفي خ وط: «... يذبه بحبّه».

[٤٨] فصل

[ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا]

ولمَّا ٱقْتَضَتْ حكمتُهُ تَبارَكَ وتَعالى أنْ جَعَلَ مِن الأرضِ السَّهلَ والوعرَ والجبالَ والرِّمالَ لِيُنْتَفَعَ بكلٍّ ذٰلكَ في وجهِهِ ويَحْصُلَ منهُ ما خُلِقَ لهُ وهُيِّئَتِ الأرضُ بهٰذهِ المثابةِ؛ لَزِمَ مِن ذٰلكَ أنْ صارَتْ كالأُمِّ التي تَحْمِلُ في بطنِها أنواعَ الأولادِ مِن كلِّ صنفٍ، ثمَّ تُخْرِجُ للنَّاسِ والحيوانِ مِن ذٰلكَ ما أذِنَ لها فيهِ ربُّها أنْ تُخْرِجَهُ إمَّا بعلمِهِم وإمَّا بدونِهِ، ثمَّ يُرَدُّ إليها ما خَرَجَ منها. وجَعَلَها سبحانَهُ كفاتًا للأحياءِ ما داموا على ظهرِها، فإذا ماتوا؛ ٱسْتُودِعَتْهُم في بطنِها، فكانَتْ كفاتًا لهُم تَضُمُّهُم على ظهرِها أحياءً وفي بطنِها أمواتًا. فإذا كانَ يومُ الوقتِ المعلومِ وقد أثْقَلَها الحملُ وحانَ وقتُ الولادةِ ودنوِّ المخاضِ؛ أوْحى إليها ربُّها وفاطرُها أنْ تَضَعَ حملَها وتُخْرِجَ أثقالَها، فتُخْرِجُ النَّاسَ مِن بطنِها إلى ظهرِها وتَقولُ: ربِّ! هٰذا ما ٱسْتَوْدَعْتَني، وتُخْرِجُ كنوزَها بإذنِهِ تَعالى، ثمَّ تُحَدِّثُ أخبارَها وتَشْهَدُ على بنيها بما عَمِلوا على ظهرِها مِن خيرٍ أو شرٍّ.

[٤٩] فصل

[في أسباب الزلازل وحكمة الله فيها]

ولمَّا كانَتِ الرِّياحُ تَجولُ فيها وتَدْخُلُ في تجاويفِها وتُحْدِثُ فيها الأبخرةَ وتَنْخَفِقُ الرِّياحُ ويَتَعَذَّرُ عليها المنفذُ؛ أذِنَ اللهُ سبحانَهُ لها في الأحيانِ بالتَّنفُّسِ، فتَحْدُثُ فيها الزَّلازلُ العظامُ[١]، فيَحْدُثُ مِن ذٰلكَ لعبادِهِ الخوفُ والخشيةُ والإنابةُ والإقلاعُ عن

---

(١) لا يرى الجيولوجيّون المعاصرون للرياح أيّ دور في حدوث الزلازل، وإنّما يرون أنّ الزلزال هو ٱهتزاز عنيف لسطح الأرض ينجم عن الحركة المفاجئة أو الاصطدام المفاجئ أو التكسّر المفاجئ للوحات صخريّة ضخمة جدًّا موجودة في أعماق قشرة الأرض، وذٰلك نتيجة للضغوط الشديدة التي تتعرّض لها هٰذه اللوحات. وغالبًا ما تقع الزلازل عند الصدوع بين لوحتين صخريّتين متجاورتين. وتبدأ الزلازل أوّلاً في أعماق قشرة الأرض، ثمّ تنتشر على شكل موجات عموديًّا إلى السطح ثمّ أفقيًّا إلى مسافات تطول أو تقصر بحسب شدّة الزلزال. ويرجع معظم الدمار الذي تخلّفه الزلازل إلى الموجات العموديّة التي تسبّب ترنّح الأبنية وٱرتفاعها وٱنخفاضها وربّما ٱنزلاقها وٱنهيارها.

معاصيهِ والتَّضرُّعُ إليهِ والنَّدمُ:

كما قالَ بعضُ السَّلفِ وقد زُلزِلَتِ /خ٣٤٩/ الأرضُ: إنَّ ربَّكُم يَسْتَعْتِبُكُم.

وقالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، وقد زُلْزِلَتِ المدينةُ، فخَطَبَهُم ووَعَظَهُم وقالَ: لَئِنْ عادَتْ؛ لا أُساكِنُكُم فيها[1].

[٥٠] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في عزة الذهب والفضة]

ثمَّ تَأمَّلْ حكمةَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في عزَّةِ هٰذينِ النَّقدينِ؛ الذَّهبِ والفضَّةِ، وقصورِ خبرةِ العالمِ عمَّا حاولوا مِن صنعتِهِما والتَّشبُّهِ بخلقِ اللهِ إيَّاهُما، معَ شدَّةِ حرصِهِم وبلوغِ أقصى جهدِهِم واجتهادِهِم في ذٰلكَ، فلمْ يَظْفَروا بسوى الضَّيعةِ[2]!

ولو مُكِّنوا مِن أنْ يَصْنَعوا مثلَ ما خَلَقَ اللهُ مِن ذٰلكَ؛ لَفَسَدَ أمرُ العالَمِ، واسْتَفاضَ الذَّهبُ والفضَّةُ في النَّاسِ حتَّى صارا كالسَّعفِ والفخَّارِ، وكانَتْ تَتَعَطَّلُ المصلحةُ التي وُضِعا لأجلِها، وكانَتْ كثرتُهُما جدًّا سببَ تعطُّلِ الانتفاعِ بهِما؛ فإنَّهُ لا يَبْقى لهُما قيمةٌ، ويَبْطُلُ كونُهُما قيمًا لنفائسِ الأموالِ والمعاملاتِ وأرزاقِ المقاتلةِ، ولمْ يَتَسَخَّرْ بعضُ النَّاسِ لبعضٍ؛ إذْ يَصيرُ الكلُّ أربابَ ذهبٍ وفضَّةٍ، فلو أغْنى خلقَهُ كلَّهُم؛ لأفْقَرَهُم كلَّهُم؛ فمَن يَرْضى لنفسِهِ بامتهانِها في الصَّنائعِ[3] التي لا قِوامَ للعالمِ إلَّا بها؟!

فسبحانَ مَن جَعَلَ عزَّتَهُما سببَ نظامِ العالمِ، ولمْ يَجْعَلْها في العزَّةِ كالكبريتِ الأحمرِ الذي لا يُوصَلُ إليهِ فتفوتَ المصلحةُ بالكلِّيَّةِ، بل وَضَعَهُما وبَثَّهُما في العالمِ بقدرٍ اقْتَضَتْهُ حكمتُهُ ورحمتُهُ ومصالحُ عبادِهِ.

---

(١) في خ: «وهيئت الأرض بهٰذه الآية... أساكنكم بها»، وفي ط: «... من خير وشرّ...».

(٢) في خ: «وقصور حيرة... بسوى الصيغة»! وفي ط: «... بسوى الصنعة». وكلاهما تحريف.

(٣) في خ: «حتّى صار كالشقف والفخّار وكانت تتعطّل المصلحة التي وضيع لأجلها وكانت كثرتهما جدًّا سبب تعطّل الانتفاع بها فإنّه لها قيمة لنفسه ولم يتسخّر بعض الناس لبعض إذ يصيروا الكل أرباب ذهب وفضّة فلو أغنى خلقه كلّهم لأفقرهم فمن يرضى ويبطل كونهما قيمًا لنفائس الأموال والمعاملات وأرزاق المعاملة بامتهانها في الصنائع...» إلخ. وهٰذا سقط وتحريف ونقل للكلام من محلّه بالجملة.

وقَرَأْتُ بخطِّ الفاضلِ جِبْريلَ بنِ رَوْحٍ[١] الأنْبارِيِّ؛ قالَ: أَخْبَرَني بعضُ مَن تَداوَلَ المعادنَ أَنَّهُم أَوْغَلوا في طلبِها إلى بعضِ نواحي الجبلِ، فٱنْتَهَوْا إلى موضعٍ، وإذا فيهِ أمثالُ الجبالِ مِن الفضَّةِ، ومِن دونِ ذٰلكَ وادٍ يَجْري متصبِّبًا[٢] بماءٍ غزيرٍ لا يُدْرَكُ ولا حيلةَ في عبورِهِ، فٱنْصَرَفوا إلى حيثُ يَعْمَلونَ ما يَعْبُرونَ بهِ، فلمَّا هيَّؤوهُ وعادوا؛ راموا[٣] طريقَ النَّهرِ، فما وَقَفوا لهُ على أثرٍ، ولا عَرَفوا إلى أينَ يَتَوَجَّهونَ، فٱنْصَرَفوا آيِسينَ[٤].

وهٰذا أحدُ ما يَدُلُّ على بطلانِ صناعةِ الكيمياءِ، وأنَّها عندَ التَّحقيقِ زغلٌ وضيعةٌ[٥] لا غير[٦]، وقد ذَكَرْنا بطلانَها وبيَّنَّا فسادَها مِن أربعينَ وجهًا في رسالةٍ مفردةٍ[٧].

والمقصودُ أنَّ حكمةَ اللهِ [تَعالى] ٱقْتَضَتْ عزَّةَ هٰذينِ الجوهرينِ وقلَّتَهُما بالنِّسبةِ إلى الحديدِ والنُّحاسِ والرَّصاصِ لصلاحِ /خ٣٥٠/ أمرِ النَّاسِ.

وٱعْتَبِرْ ذٰلكَ بأنَّهُ إذا ظَهَرَ الشَّيءُ الظَّريفُ المستحسنُ ممَّا يُحْدِثُهُ النَّاسُ مِن الأمتعةِ؛ كانَ نفيسًا عزيزًا ما دامَ فيهِ قلَّةٌ وهوَ مرغوبٌ فيهِ، فإذا فَشا وكَثُرَ في أيدي النَّاسِ وقَدَرَ عليهِ الخاصُّ والعامُّ؛ سَقَطَ عندَهُم وقَلَّتْ رغباتُهُم فيهِ، ومِن هٰذا قولُ القائلِ: نفاسةُ الشَّيءِ مِن عزَّتِهِ، ولهٰذا كانَ أزهدَ النَّاسِ في العالِمِ أهلُهُ وجيرانُهُ وأرغبَهُم فيهِ البعداءُ عنهُ.

---

(١) في ط: «وضعهما وأنبتهما في...»، وفي خ: «... جبريل بن ذنوح».

(٢) في خ وط: «يجري متصلبًا»! ولا معنى له! وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

(٣) في خ: «إلى حيث يعلمون...»، وفي ط: «... وعادوا وراموا».

(٤) في خ: «فما وقعوا له...» إلخ. وأصحاب الحادثة مجاهيل، وسياقها أولى بالحكايات الخرافيّة منه بالوقائع. والله أعلى وأعلم.

(٥) في ط: «زغل وصنعة»! وهٰذا تصحيف صوابه ما أثبتّه من خ.

(٦) ٱعلم أنّ هٰذا الكلام إنّما ينطبق على كيمياء عصر ابن القيّم رحمة الله عليه؛ إذ كان الهدف الأوّل والشغل الشاغل للكيماويّين إذ ذاك هو الوصول إلى تركيب الإكسير، تلك المادّة الخياليّة التي إذا أضيف قطرات منها إلى المعادن الخسيسة؛ حوّلتها إلى معادن نفيسة! نعم؛ باءت جهودهم من هٰذه الناحية بالفشل، ولٰكنّها أسهمت من ناحية أخرى في تطوير علم الكيمياء حتّى غدا حجر الأساس الذي لا يستغنى عنه في جميع الصناعات المعاصرة تقريبًا.

(٧) ولٰكنّها لم تصل إلينا للأسف الشديد.

[٥١] فصل

[إنا كل شيء خلقناه بقدر]

وتأمَّلِ الحكمةَ البديعةَ في تيسيرِهِ سبحانَهُ على عبادِهِ ما هُم أحوجُ إليهِ وتوسيعِهِ وبذلِهِ: فكلَّما كانوا أحوجَ إليهِ؛ كانَ أكثرَ وأوسعَ، وكلَّما ٱسْتَغْنَوا عنهُ؛ كانَ أقلَّ، وإذا تَوَسَّطَتِ الحاجةُ؛ تَوَسَّطَ[١] وجودُهُ فلمْ يَكُنْ بالعامِّ ولا بالنَّادرِ... على مراتبِ الحاجاتِ وتفاوتِها.

فٱعْتَبِرْ هٰذا بالأُصولِ الأربعةِ؛ التُّرابِ والماءِ والهواءِ والنَّارِ، وتأمَّلْ سعةَ ما خَلَقَ اللهُ منها وكثرتَهُ [وعمومَهُ].

● فتأمَّلْ سعةَ الهواءِ وعمومَهُ ووجودَهُ بكلِّ مكانٍ؛ لأنَّ الحيوانَ المخلوقَ في البرِّ لا يُمْكِنُهُ الحياةُ إلَّا بهِ[٢]، فهوَ معَهُ أينَ كانَ وحيثُ كانَ؛ لأنَّهُ لا يَسْتَغْني عنهُ لحظةً واحدةً، ولولا كثرتُهُ وسعتُهُ وٱمتدادُهُ في أقطارِ العالمِ؛ لاخْتَنَقَ العالَمُ مِن الدُّخانِ والبخارِ المتصاعدِ المنعقدِ. فتأمَّلْ حكمةَ ربِّكَ في أنْ سَخَّرَ لهُ الرِّياحَ، فإذا تَصاعَدَ إلى الجوِّ؛ أحالَتْهُ سحابًا أو ضبابًا، فأذْهَبَتْ عنِ العالَمِ شرَّهُ وأذاهُ.

فسَلِ الجاحدَ: مَن الذي دَبَّرَ هٰذا التَّدبيرَ وقَدَّرَ هٰذا التَّقديرَ؟! وهل يَقْدِرُ[٣] [أهلُ] العالمِ كلُّهُم لوِ ٱجْتَمَعوا أنْ يُحيلوا ذٰلكَ ويَقْلِبوهُ سحابًا أو ضبابًا أو يُذْهِبوهُ عنِ النَّاسِ ويَكْشِفوهُ عنهُم[٤]؟! ولو شاءَ ربُّهُ تَعالى؛ لَحَبَسَ عنهُ الرِّياحَ فٱخْتَنَقَ على وجهِ الأرضِ فأهْلَكَ ما عليها مِن الحيوانِ والنَّاسِ.

● فصلٌ: ومِن ذٰلكَ سعةُ [هٰذهِ] الأرضِ وٱمتدادُها، ولولا ذٰلكَ؛ لَضاقَتْ عن مساكنِ الإنسِ والحيوانِ وعن مزارعِهِم ومراعيهِم ومنابتِ ثمارِهِم وأعشابِهِم.

فإنْ قُلْتَ: فما حكمةُ هٰذهِ القفارِ الخاليةِ والفلواتِ الفارغةِ الموحشةِ؟! فٱعْلَمْ أنَّ

---

(١) في خ: «وبذله وكلّما كانوا... أقلّ إذا توسّطت الحاجة توسّطت».

(٢) وكذلك الحيوان البحريّ؛ لأنّه يعيش على الهواء المنحلّ في الماء، فإن عدمه؛ مات.

(٣) في ط: «وكثرته فتأمّل سعة... معه أينما كان...»، وفي خ: «... وهل تقدير».

(٤) لا والله! هاهم يغوصون في أوحال ما جنته أيديهم من النفايات الكيماويّة والذريّة؛ لا يجدون لها تصريفًا! ويعانون من الأمطار الحامضيّة؛ لا يجدون لهم مخرجًا!

فيها معايشَ ما لا يُحْصيهِ إلَّا اللهُ مِن الوحوشِ والدَّوابِّ، وعليها أرزاقُهُم وفيها مطردُهُم ومنزلُهُم كالمدنِ والمساكنِ /خ١٣٥/ للإنسِ، وفيها مجالُهُم ومرعاهُم ومصيفُهُم ومشتاهُم، ثمَّ فيها بعدُ متَّسعٌ ومتنفَّسٌ للنَّاس ومضطرَبٌ إذا ٱحْتاجوا إلى الانتقالِ والبدوِ والاستبدالِ بالأوطانِ، فكم مِن بيداءَ سَمْلَقٍ[1] صارَتْ قصورًا وجِنانًا ومساكنَ، ولولا سعةُ الأرضِ وفسحُها؛ لكانَ أهلُها كالمحصورينَ والمحبوسينَ في أماكنِهم لا يَجدونَ عنها ٱنتقالاً إذا فَدَحَهُم ما يُزْعِجُهُم عنها ويَضْطَرُّهُم إلى النُّقلةِ منها.

● وكذٰلكَ الماءُ، لولا كثرتُهُ وتدفُّقُهُ في الأوديةِ والأنهارِ؛ لَضاقَ عن حاجةِ النَّاسِ إليهِ، ولَغَلَبَ القويُّ فيهِ الضَّعيفَ وٱسْتَبَدَّ بهِ دونَهُ، فيَحْصُلُ الضَّررُ وتَعْظُمُ البليَّةُ معَ شدَّةِ حاجةِ جميعِ الحيوانِ إليهِ مِن الطَّيرِ والوحوشِ[2] والسِّباعِ، فٱقْتَضَتِ الحكمةُ أنْ كانَ بهٰذهِ الكثرةِ والسَّعةِ في كلِّ وقتٍ.

● وأمَّا النَّارُ؛ فقد تَقَدَّمَ أنَّ الحكمةَ ٱقْتَضَتْ كمونَها، متى شاءَ العبدُ أوْراها عندَ الحاجةِ، فهيَ وإنْ لمْ تكُنْ مبثوثةً في كلِّ مكانٍ؛ فإنَّها عتيدةٌ[3] حاصلةٌ متى ٱحْتيجَ إليها، واسعةٌ لكلِّ ما يُحْتاجُ إليهِ منها، غيرَ أنَّها مودعةٌ في أجسامٍ جُعِلَتْ معادنَ [لها]؛ للحكمةِ التي تَقَدَّمَتْ.

[٥٢] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في نزول المطر]

● ثمَّ تأمَّلِ الحكمةَ البالغةَ في نزولِ المطرِ على الأرضِ مِن علوٍّ لِيَعُمَّ بسقيِهِ وهادَها وتلولَها وظرابَها وآكامَها ومنخفضَها ومرتفعَها، ولو كانَ ربُّها تَعالى إنَّما يَسْقيها مِن ناحيةٍ مِن نواحيها؛ لَما أتى [الماءُ] على النَّاحيةِ المرتفعةِ إلَّا إذا ٱجْتَمَعَ في السُّفلى وكَثُرَ، وفي ذٰلكَ [ضررٌ و]فسادٌ، فٱقْتَضَتْ حكمتُهُ أنْ سَقاها مِن فوقِها، فيُنْشِئُ سبحانَهُ

---

(١) سملق: أرض ملساء لا نبات فيها ولا بناء.

(٢) في خ: «فيها معاش ما... والمساكن كالإنس... مع شدّة مع جميع... الطير والوحش».

(٣) عتيدة: حاضرة مهيّأة.

السَّحابَ ـ وهيَ رَوايا الأرضِ ـ، ثمَّ يُرْسِلُ الرِّياحَ فتَحْمِلُ الماءَ مِن البحرِ وتَلْقَحُها [بهِ] كما يَلْقَحُ الفحلُ الأُنثى، ولهٰذا تَجِدُ البلادَ القريبةَ مِن البحرِ كثيرةَ الأمطارِ، وإذا بَعُدَتْ مِن البحرِ قَلَّ مطرُها[١].

وفي هٰذا المعنى يَقولُ الشَّاعرُ[٢] يَصِفُ السَّحابَ:

شَرِبْنَ بماءِ البَحْرِ ثُمَّ تَرَفَّعَتْ ... متى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ[٣]

وفي «الموطإ» مرفوعًا ـ وهو أحدُ الأحاديثِ الأربعةِ المقطوعةِ ـ: «إذا نَشَأَتْ سحابةٌ بحريَّةٌ ثمَّ تَشاءَمَتْ؛ فتلكَ عينٌ غُدَيْقَةٌ»[٤].

فاللهُ سبحانَهُ يُنْشِئُ الماءَ في السَّحابِ إنشاءً؛ تارةً يَقْلِبُ الهواءَ ماءً، وتارةً يَحْمِلُهُ الهواءُ مِن البحرِ فيُلَقِّحُ بهِ السَّحابَ[٥]، ثمَّ يَنْزِلُ منهُ على الأرضِ للحِكَمِ التي ذَكَرْناها. ولو أنَّهُ ساقَهُ مِن البحرِ إلى الأرضِ جاريًا على ظهرِها /خ٣٥٢/؛ لَمْ يَحْصُلْ عمومُ

---

(١) أمّا كثرة أمطار الساحل بالنسبة للداخل؛ فنعم. وأمّا حمل الماء من البحر وإلقاح السحاب به؛ فلو كان صحيحًا؛ لجاء المطر مالحًا. وانظر ما سيأتي في الصفحة التالية.

(٢) في خ: «تعالى أما يسقيها... فينشئ سحابة السحاب... الفحل للأنثى... قول الشاعر».

(٣) في خ: «ترفّعت لجحجج خضرًا بهل تنتج»! والتصويب من ط و«شرح ابن عقيل على الألفيّة» (٣/٦). والبيت لأبي ذؤيب الهذلي، يصف السحاب بأنّها شربت من ماء البحر وأخذت ماءها من أمواجه الخضر ذات الصوت المرتفع. و«متى» هنا حرف جرّ بمعنى «من» على لغة هذيل.

(٤) (موضوع). رواه مالك في «الموطأ» (١/١٩٢) بلاغًا. ووصله: ابن أبي الدنيا في «المطر»، والطبراني في «الأوسط» (٧٧٥٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٧٢٦)، وابن الصلاح في «بلاغات مالك» (ص١٢)؛ من طريق محمّد بن عمر الواقدي، ثنا عبدالحكيم بن عبدالله بن أبي فروة، سمعت عوف بن الحارث بن الطفيل، سمعت عائشة... رفعته. قال الطبراني: «تفرّد به الواقدي». وقال الهيثمي (٢/٢٢١): «وثّقه غير واحد، وبقيّة رجاله لا بأس بهم وقد وثّقوا». قلت: وكذّبه أئمّة ورعون، وخلاصة حاله الترك، وحديثه ساقط، ولذٰلك قال ابن الصلاح: «ليس إسناده بذاك».

ورواه: الشافعي في «الأمّ» (١/٢٥٥)، والبيهقي في «المعرفة» (٢٠٥٠)؛ أنا من لا أتّهم، ثني إسحاق بن عبدالله، عن النبيّ ﷺ... فذكره. والذي لم يتّهمه الإمام الشافعي ـ وهو إبراهيم بن محمّد بن أبي يحيى ـ اتّهمه غيره من أئمّة الجرح والتعديل بكلّ علّة، وحديثه ساقط على إرساله، ولذٰلك قال ابن عبدالبرّ: «بلاغ مالك خير من حديثه».

وقوله: إذا نشأت بحريّة؛ أي: ابتدأت من جهة البحر. تشاءمت: تحوّلت إلى جهة الشام. عين غديقة: سحابة كثيرة الماء.

(٥) تقدّم ما في هٰذا الكلام آنفًا.

السَّقي[١] إلَّا بتخريبِ كثيرٍ مِن الأرضِ، ولَمْ يَحْصُلْ عمومُ السَّقي لأجزائِها. فصاعَدَهُ سبحانَهُ إلى الجوِّ بلطفِهِ وقدرتِهِ، ثُمَّ أَنْزَلَهُ على الأرضِ بغايةٍ[٢] مِن اللطفِ والحكمةِ التي لا ٱقتراحَ لجميعِ عقولِ الحكماءِ فوقَها، فأَنْزَلَهُ ومعَهُ رحمتُهُ على الأرضِ[٣].

● فصلٌ: ثُمَّ تأمَّلِ الحكمةَ البالغةَ في إنزالِهِ بقدرِ الحاجةِ، حتَّى إذا أَخَذَتِ الأرضُ حاجتَها منهُ، وكانَ تتابعُهُ عليها بعدَ ذٰلكَ يَضُرُّها؛ أَقْلَعَ عنها، وأَعْقَبَهُ بالصَّحوِ. فهما ـ أعني: الصَّحوَ والغيمَ ـ يَعْتَقِبانِ على العالمِ لِما فيهِ صلاحُهُ، ولو دامَ أحدُهُما؛ كانَ فيهِ فسادُهُ:

فلو تَوالَتِ الأمطارُ؛ لأَهْلَكَتْ ما على الأرضِ. ولو زادَتْ على الحاجةِ؛ أَفْسَدَتِ الحبوبَ والثِّمارَ وعَفَّنَتِ الزُّروعَ والخضرواتِ وأَرْخَتِ الأبدانَ وخَثَّرَتِ[٤] الهواءَ فحَدَثَتْ ضروبٌ مِن الأمراضِ وفَسَدَ أكثرُ المآكلِ وتَقَطَّعَتِ المسالكُ والسُّبلُ.

ولو دامَ الصَّحوُ؛ لجَفَّتِ الأبدانُ وغِيضَ الماءُ وٱنْقَطَعَ مَعينُ العيونِ والآبارِ

---

(١) ولا خصوصه! وأيّ فائدة للأرض في الماء المالح الشديد الملوحة؟!

(٢) في خ: «والله سبحانه... للحكمة التي... ولم يجعل عموم...»، وفي ط: «... بعناية».

(٣) وهٰذا تفصيل وتبسيط لما يراه الجغرافيّون الطبيعيّون وأهل الأرصاد الجويّة في أسباب الإمطار:

أوّلاً: تقوم أشعّة الشمس بتسخين اليابسة وتبخير الماء من المسطّحات المائيّة كالأنهار والبحيرات والبحار، فيتشبّع الهواء الحار ببخار الماء.

ثانيًا: يرتفع الهواء الساخن المشبع ببخار الماء تدريجيًّا إلى طبقات الجوّ العليا، وذٰلك بفعل عوامل عديدة أهمّها تيّارات الحمل الهوائيّة الصاعدة.

ثالثًا: يصل الهواء المشبع ببخار الماء إلى مستويات جويّة عالية أكثر برودة فيبدأ بخار الماء بالتكثّف والتحوّل إلى قطيرات صغيرة جدًّا تشكل بٱجتماعها السحاب. ولا يرجع تكثّف بخار الماء إلى ٱنخفاض الحرارة فحسب، ولٰكن هناك عوامل كثيرة لها دورها في هٰذه الظاهرة.

رابعًا: يتراكم السحاب وتزداد كثافة القطيرات المائيّة فيه وحجمها حتّى يصبح السحاب قابلاً للإمطار. وذٰلك بسبب ٱزدياد التبخّر أو بسبب تصادم كتلتين هوائيّتين مختلفتين أو غير ذٰلك.

خامسًا: ثمّ هناك توجيهات علميّة مختلفة لسقوط المطر، بعضها وجيه معقول وبعضها دون ذٰلك، وربّما كان الإمطار ناجمًا عنها جميعًا، وربّما كان ناجمًا عن عوامل أخر لمّا يتوصّل الباحثون إليها بعد.

سادسًا: وفي كلّ حال، فمعرفة التوجيه العلميّ للقضيّة أو عدم معرفته لا يزحزح يقين المؤمن الراسخ، بأنّ وراء الظواهر الطبيعيّة والتفسيرات العلميّة يد الخلّاق الحكيم الرزّاق الكريم الذي يسوق السحاب إلى هٰذا المكان بالتحديد دون ما قبله وما بعده من الأماكن القريبة المتاخمة.

(٤) في ط: «الصحو والتغييم...»، وفي خ: «... معتقبان... أهلكت ما... وحرّت».

والأنهارِ والأوديةِ وعَظُمَ الضَّررُ وٱحْتَدَمَ الهواءُ فيَبِسَ ما على الأرضِ وجَفَّتِ الأبدانُ وغَلَبَ اليبسُ وأحْدَثَ ذٰلكَ ضروبًا مِن الأمراضِ عسرةَ الزَّوالِ.

فٱقْتَضَتْ حكمةُ اللطيفِ الخبيرِ أنْ عاقَبَ بينَ الصَّحوِ والمطرِ على هٰذا العالمِ، فٱعْتَدَلَ الأمرُ وصَحَّ الهواءُ ودَفَعَ كلٌّ واحدٍ منهُما عاديةَ الآخرِ وٱسْتَقامَ أمرُ العالمِ وصَلَحَ.

[٥٣] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في تلاحق أنواع الثمار]

ثمَّ تأمَّلِ الحكمةَ الإلٰهيَّةَ في إخراجِ الأقواتِ والثِّمارِ والحبوبِ والفواكهِ متلاحقةً شيئًا بعد شيءٍ [متتابعةً] ولمْ يَخْلُقْها كلَّها جملةً واحدةً! فإنَّها لو خُلِقَتْ كذٰلكَ على وجهِ الأرضِ ولمْ تكُنْ تَنْبُتُ على هٰذهِ السُّوقِ والأغصانِ؛ لَدَخَلَ الخللُ وفاتَتِ المصالحُ التي رُتِّبَتْ على تلاحقِها وتتابعِها؛ فإنَّ كلَّ فصلٍ وأوانٍ يَقْتَضي مِن الفواكهِ والنَّباتِ غيرَ ما يَقْتَضيهِ الفصلُ الآخرُ، فهٰذا حارٌّ وهٰذا باردٌ وهٰذا معتدلٌ، وكلٌّ في فصلِهِ موافقٌ للمصلحةِ لا يَليقُ بهِ غيرُ ما خُلِقَ فيهِ[١].

ثمَّ إنَّهُ سبحانَهُ خَلَقَ تلكَ الأقواتَ مقارنةً لمنافعَ أُخرَ مِن العصفِ والخشبِ والورقِ والنَّوْرِ والسَّعَفِ والكَرَبِ[٢] وغيرِها مِن منافعِ النَّباتِ والشَّجرِ غيرِ الأقواتِ كعلفِ البهائمِ وآلاتِ الأبنيةِ والسُّفنِ والرِّحالِ والأواني وغيرِها ومنافعِ النَّورِ /خ٣٥٣/ مِن الأدويةِ[٣] والمنظرِ البهيجِ الذي يَسُرُّ النَّاظرينَ وحسنِ مرائي الشَّجرِ وخِلْقتِها البديعةِ الشَّاهدةِ لفاطرِها ومبدعِها بغايةِ الحكمةِ واللطفِ.

---

(١) ولا يبعد أن يكون ما نعانيه اليوم من غرائب الآفات وعجائب الأمراض التي لم تكن في أسلافنا راجعًا ـ ولو جزئيًّا ـ إلى ٱجتماع خضار وفواكه المناطق الحارّة والباردة والمعتدلة وخضار وفواكه الصيف والشتاء والربيع والخريف على موائدنا!

(٢) العصف: التبن أو العيدان. النور: الزهر. السعف: ورق النخيل. الكرب: أصول ورق النخل التي تتّصل بوساطتها بالساق.

(٣) في خ: «المصالح التي رتب... الفواكه والثمار غير... غير ما خلق له... من الأودية».

[٥٤ ـ فصل]

[في بدائع صنعته تعالى في حياة الأغصان الجافة]

ثمَّ إذا تأمَّلْتَ: إخراجَ ذٰلكَ النَّورِ البهيِّ مِن نفسِ ذٰلكَ الحطبِ، ثمَّ [إخراجَ] الورقِ الأخضرِ، ثمَّ إخراجَ تلكَ الثِّمارِ على ٱختلافِ أنواعِها وأشكالِها ومقاديرِها وألوانِها وطعومِها [وروائحِها] ومنافعِها وما يُرادُ منها! ثمَّ تأمَّلْ أينَ كانَتْ مستودعةً في تلكَ الخشبةِ وهاتيكَ العيدانِ وجُعِلَتِ الشَّجرةُ لها كالأُمِّ! فهل كانَ في قدرةِ الأبِ العاجزِ الضَّعيفِ إبرازُ هٰذا التَّصويرِ العجيبِ وهٰذا التَّقديرِ المحكمِ وهٰذهِ الأصباغِ الفائقةِ وهٰذهِ الطُّعومِ اللذيذةِ والرَّوائحِ الطَّيِّبةِ وهٰذهِ المناظرِ المستحسنةِ[١]؟!

فسَلِ الجاحدَ: مَن تَوَلَّى تقديرَ ذٰلكَ وتصويرَهُ وإبرازَهُ وتربيتَهُ شيئًا فشيئًا وسوقَ الغذاءِ إليهِ في تلكَ العروقِ اللطافِ ـ التي يَكادُ البصرُ يَعْجِزُ عن إدراكِها ـ وتلكَ المجاري الدِّقاقِ؟! فمَنِ الذي تَوَلَّى ذٰلكَ كلَّهُ؟! ومَنِ الذي أطْلَعَ لها الشَّمسَ وسَخَّرَ لها الرِّياحَ وأنْزَلَ عليها المطرَ ودَفَعَ عنها الآفاتِ؟!

[٥٥ ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في خلق الجذور]

● وتأمَّلْ تقديرَ اللطيفِ الخبيرِ! فإنَّ الأشجارَ لمَّا كانَتْ تَحْتاجُ إلى الغذاءِ الدَّائمِ كحاجةِ النَّاسِ وسائرِ الحيوانِ ولمْ يَكُنْ لها أفواهٌ كأفواهِ الحيوانِ ولا حركةٌ تَنْبَعِثُ بها لتناولِ الغذاءِ؛ جُعِلَتْ أُصولُها مركوزةً في الأرضِ [لـ]ـيُسْرِعَ [لها] الغذاءُ وتَمْتَصَّهُ مِن أسفلِ الثَّرى فتُؤَدِّيَهُ إلى أغصانِها فتُؤَدِّيَهُ الأغصانُ إلى الورقِ والثَّمرِ، كلٌّ لهُ شربٌ معلومٌ لا يَتَعَدَّاهُ يَصِلُ إليهِ في مجارٍ وطرقٍ قد أُحْكِمَتْ غايةَ الإحكامِ، فتَأْخُذُ الغذاءَ مِن أسفلَ فتَلْقَمُهُ بعروقِها كما يَلْتَقِمُ الحيوانُ غذاءَهُ بفمِهِ ثمَّ تَقْسِمُهُ على حملِها بحسبِ ما يَحْتَمِلُهُ[٢]، فتُعْطي كلَّ جزءٍ منهُ بحسبِ ما يَحْتاجُ إليهِ لا تَظْلِمُهُ ولا تَزيدُهُ على قدرِ حاجتِهِ.

---

(١) في ط: «وطعومها ومنافعها...»، وفي خ: «... والأراييح الطيّبة وهٰذه المناظر العجيبة».

(٢) في خ: «ولا حركة تبعث... والثمرة كلّ لشرب معلوم... وتلقمه... ما تحمله».

فسَلِ الجاحدَ: مَن أعطاها هٰذا؟! ومَن هَداها إليهِ ووَضَعَهُ فيها؟! فلوِ ٱجْتَمَعَ الأوَّلونَ والآخرونَ؛ هل كانَتْ قدرتُهُم وإرادتُهُم تَصِلُ إلى تربيةِ ثمرةٍ واحدةٍ [منها] هٰكذا بإشارةٍ أو صناعةٍ أو حيلةٍ أو مزاولةٍ؟! وهل ذٰلك إلاَّ [مِن] صنعِ مَن شَهِدَتْ لهُ مصنوعاتُهُ ودَلَّتْ عليهِ آياتُهُ، كما قيلَ /خ٣٥٤/ :

فَواعَجَبًا كَيْفَ يَعْصي الإلٰـهَ ... أمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجاحِدُ
وَلِلَّهِ في كُلِّ تَحْريكَةٍ ... وَتَسْكينَةٍ أبَدًا شاهِدُ
وَفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ على أنَّهُ واحِدُ

● فصلٌ: ثمَّ تأمَّلْ إذا نَصَبْتَ خيمةً أو فسطاطًا كيفَ تُمِدُّهُ مِن كلِّ جانبٍ بالأطنابِ لِيَثْبُتَ فلا يَسْقُطَ ولا يَتَعَوَّجَ؛ فهٰكذا تَجِدُ النَّباتَ والشَّجرَ لهُ عروقٌ[1] ممتدَّةٌ في الأرضِ منتشرةٌ إلى [كلِّ] جانبٍ لِتُمْسِكَهُ وتُقيمَهُ، وكلَّما ٱنْتَشَرَتْ أعاليهِ؛ ٱمْتَدَّت عروقُهُ وأطنابُهُ مِن أسفلَ في الجهاتِ، ولولا ذٰلكَ؛ كيفَ كانَتْ تَثْبُتُ هٰذهِ النَّخيلُ الطِّوالُ الباسقاتُ والدَّوْحُ العظامُ[2] على الرِّياحِ العواصفِ؟!

وتأمَّلْ سبقَ الخلقِ الإلٰهيِّ للصِّناعةِ البشريَّةِ حتَّى يُعَلِّمَ النَّاسَ نصبَ الخيمِ والفساطيطِ مِن خِلْقَةِ الشَّجرِ[3] والنَّباتِ؛ لأنَّ عروقَها أطنابٌ لها كأطنابِ الخيمةِ، وأغصانُ الشَّجرِ [يُتَّخَذُ منها الفساطيطُ]، ثمَّ يُحاكى بها الشَّجرةُ.

[٥٦ ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في خلق الأوراق]

● ثمَّ تأمَّلِ الحكمةَ في خلقِ الورقِ؛ فإنَّكَ تَرى في الورقةِ الواحدةِ مِن جملةِ العروقِ الممتدَّةِ فيها المبثوثةِ فيها ما يَبْهَرُ النَّاظرَ: فمنها غلاظٌ ممتدَّةٌ في الطُّولِ

---

(١) الأطناب: الحبال التي تربط الخيمة بأوتادها. عروق: جذور.
(٢) الباسق: الطويل العالي. الدوح: الشجر العظيم أيًّا كان.
(٣) في خ: «الخلق الإلٰهيّة. . .»، وفي ط: «. . . من خلقه للشجر».

والعرضِ. ومنها دقاقٌ تَتَخَلَّلُ تلكَ الغلاظَ، منسوجةٌ نسجًا دقيقًا معجبًا، لو كانَ ممَّا يَتَوَلَّى البشرُ صنعَ مثلِهِ بأيديهم؛ لَما فَرَغـ[ـوا] مِن ورقةٍ في عامٍ كاملٍ، ولاحْتاجوا فيهِ إلى آلاتٍ وحركاتٍ وعلاجٍ تَعْجزُ قدرتُهُم عن تحصيلِهِ. فبَثَّ الخلاَّقُ العليمُ في أيَّامٍ قلائلَ مِن ذٰلكَ ما يَمْلأُ الأرضَ سهلَها وجبالَها بلا آلاتٍ ولا معينٍ ولا فكرةٍ ولا معالجةٍ، إنْ هيَ إلاَّ إرادتُهُ النَّافذةُ في كلِّ شيءٍ وقدرتُهُ التي لا يَمْتَنِعُ منها شيءٌ، ﴿إنَّما أمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئًا أنْ يَقولَ لَهُ كُنْ فَيَكونُ﴾ [يٰس: ٨٢].

فتأمَّلِ الحكمةَ في تلكَ العروقِ المتخلِّلةِ الورقةَ بأسرِها لِتَسْقِيَها وتُوصِلَ إليها المادَّةَ فتَحْفَظَ عليها حياتَها ونضارتَها بمنزلةِ العروقِ المبثوثةِ [في الأبدانِ التي تُوصِلُ الغذاءَ إلى كلِّ جزءٍ منهُ].

وتأمَّلْ ما في العروقِ الغلاظِ مِن إمساكِها الورقَ بصلابتِها ومتانتِها[١] لئلاَّ تتَمَزَّقَ وتَضْمَحِلَّ، فهيَ بمنزلةِ الأعصابِ[٢] لبدنِ الحيوانِ، فتَراها قد أُحْكِمَتْ صنعتُها ومُدَّتِ العروقُ في طولِها وعرضِها لِتَتَماسَكَ فلا يَعْرِضُ لها التَّمزُّقُ.

● فصلٌ: ثمَّ تأمَّلْ حكمةَ اللطيفِ الخبيرِ في كونِها جُعِلَتْ زينةً للشَّجرِ وسترًا /خ٣٥٥/ ولباسًا للثَّمرةِ ووقايةً لها مِن الآفاتِ التي تَمْنَعُ كمالَها، ولهٰذا؛ إذا جُرِّدَتِ الشَّجرةُ مِن ورقِها؛ فَسَدَتِ الثَّمرةُ ولمْ يُنْتَفَعْ بها[٣].

● وأنْظُرْ كيفَ جُعِلَتْ وقايةً لمَنْبِتِ الثَّمرةِ الضَّعيفةِ مِن اليبسِ، فإذا ذَهَبَتِ الثَّمرةُ؛ بَقِيَ الورقُ وقايةً لتلكَ الأفنانِ الضَّعيفةِ مِن الحرِّ، حتَّى إذا طَفِئَتْ تلكَ الجمرةُ ولمْ يَضُرَّ الأفنانَ عُراها مِن ورقِها[٤]؛ سَلَبَها [إيَّاهُ] لِتكْتَسِيَ[٥] لباسًا جديدًا أحسنَ منهُ.

---

(١) في خ: «دقاق تحلّل... على تحصيله... لتسقيها وترسل إليها... ومنابتها».

(٢) يعني: العضلات والأوتار والأربطة، وربّما العظام.

(٣) في خ: «الشجرة عن عروقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها»! وقد قدّمت لك (٢/ ٥٦-٥٧) أنّ ذٰلك عائد بالدرجة الأولى لوظيفة الأوراق في صناعة الغذاء للشجرة كاملة، فإذا قطعت الأوراق في أيّام نشاط الشجرة؛ ماتت الشجرة جوعًا.

(٤) الذي يضرّ الأفنان حينئذ بقاء الورق عليها؛ لأنّ الأشجار غير دائمة الخضرة إنّما تخلع ورقها وقاية لأغصانها من الموت بردًا في الشتاء! فسبحان من له في كلّ تحريكة وتسكينة حكم لا تعدّ ولا تحصى.

(٥) في خ: «يضرّ الأفنان عزلها من... لتكسى»، وفي ط: «... ورقها وسلبها...».

فتَبارَكَ اللهُ ربُّ العالَمينَ الذي يَعْلَمُ مساقطَ تلكَ الأوراقِ ومنابتَها، فلا تَخْرُجُ ورقةٌ منها إلاَّ بإذنِهِ، ولا تَسْقُطُ إلاَّ بعلمِهِ.

[٥٧ـ فصل]

[والنجم والشجر يسجدان]

ومعَ هٰذا؛ فلو شاهَدَها العبادُ على كثرتِها وتنوُّعِها وهيَ تُسَبِّحُ بحمدِ ربِّها معَ الثِّمارِ والأفنانِ والأشجارِ؛ لَشاهَدوا مِن جمالِها أمرًا آخرَ، ولَرَأَوا خِلْقَتَها بعينٍ أُخرى، ولَعَلِموا أنَّها لشأْنٍ عظيمٍ خُلِقَتْ وأنَّها لمْ تُخْلَقْ سدًى.

قالَ تَعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ﴾ [الرحمٰن: ٦]: فالنَّجمُ ما ليسَ لهُ ساقٌ مِن النَّباتِ، والشَّجرُ ما لهُ ساقٌ(١)، وكلُّها ساجدةٌ للهِ مسبِّحةٌ بحمدِهِ. ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِنْ لا تَفْقَهونَ تَسْبيحَهُمْ [إِنَّهُ كانَ حَليمًا غَفورًا]﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولعلَّكَ أنْ تَكونَ ممَّن غَلُظَ حجابُهُ فذَهَبَ إلى أنَّ التَّسبيحَ دلالتُها على صانعِها فقطْ!

فاْعْلَمْ أنَّ هٰذا القولَ يَظْهَرُ بطلانُهُ مِن أكثرَ مِن ثلاثينَ وجهًا قد ذَكَرْنا أكثرَها في موضعٍ آخرَ. وفي أيِّ لغةٍ تُسَمَّى الدّلالةُ على الصَّانعِ تسبيحًا وسجودًا وصلاةً وتأْويبًا وهبوطًا مِن خشيتِهِ كما ذَكَرَ تَعالى [ذٰلكَ] في كتابِهِ؟! فتارةً يُخْبِرُ عنها بالتَّسبيحِ [الإسراء: ٤٤]. وتارةً بالسُّجودِ [الرحمٰن: ٦]. وتارةً بالصَّلاةِ كقولِهِ تَعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبيحَهُ﴾ [النور: ٤١]، أفَتَرى يَقْبَلُ عقلُكَ أنْ يَكونَ معنى الآيةِ: [كلٌّ] قد(٢) عَلِمَ اللهُ دلالتَهُ عليهِ، وسَمَّى تلكَ الدّلالةَ صلاةً وتسبيحًا وفَرَّقَ بينَهُما وعَطَفَ أحدَهُما على الآخرِ؟! وتارةً يُخْبِرُ عنها بالتَّأْويبِ كقولِهِ: ﴿يا جِبالُ أَوِّبي مَعَهُ﴾

---

(١) وبه قال ابن عبّاس وجماعة، ورجّحه ابن جرير. وقال مجاهد والحسن وقتادة: هو نجم السماء، ورجّحه ابن كثير. وكلاهما صحيح إن شاء الله، واللفظ محتمل، وإن كان الثاني أولى بالظاهر وأكثر انسجامًا مع معاني اللفظ في مختلف مواضعه القرآنيّة.

(٢) في خ: «حجابه فتذهب... أيّ ذكر لغة...»، وفي ط: «... تعالى في كتابه... الآية قد».

[سبأ: ١٠]. وتارةً يُخْبِرُ عنها بالتَّسبيحِ الخاصِّ بوقتٍ دونَ وقتٍ كالعشيِّ والإشراقِ [صّ: ١٨]، أفَتَرى دلالتَها على صانعِها إنَّما تكونُ في هٰذينِ الوقتينِ؟! وبالجملةِ؛ فبطلانُ هٰذا القولِ أظهرُ لذوي البصائرِ مِن أنْ يَطْلُبوا دليلاً على بطلانِه[1]. والحمدُ للهِ.

[٥٨] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في خلق البذور والثمار]

ثمَّ تأمَّلْ حكمتَهُ سبحانَهُ في إيداعِ العَجَمِ والنَّوى[2] في جوفِ الثَّمرةِ /خ٣٥٦/ وما في ذٰلكَ مِن الحكمِ والفوائدِ التي: منها: أنَّه كالعظمِ لبدنِ الحيوانِ، فهوَ يُمْسِكُ بصلابتِهِ رخاوةَ الثَّمرةِ ورقَّتَها ولطافتَها، ولولا ذٰلك؛ لَتَشَدَّخَتْ وتَفَسَّخَتْ ولأسْرَعَ إليها الفسادُ، فهوَ بمنزلةِ العظمِ والثَّمرةُ بمنزلةِ اللحمِ الذي يَكْسوهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ العظامَ. ومنها: أنَّ في ذٰلكَ بقاءَ المادَّةِ وحفظَها؛ إذ ربَّما تَعَطَّلَتِ الشَّجرةُ أو نوعُها، فخَلَقَ فيها ما يَقومُ مقامَها عندَ تعطُّلِها، وهوَ النَّوى الذي يُغْرَسُ فيَعودُ مثلَها. ومنها: ما في تلكَ الحبوبِ مِن أقواتِ الحيواناتِ، وما فيها مِن المنافعِ والأدهانِ والأدويةِ والأصباغِ، وضروبٍ أُخرَ مِن المصالحِ التي يَتَعَلَّمُها النَّاسُ وما خَفِيَ عليهم منها أكثرُ.

فتأمَّلِ الحكمةَ في إخراجِهِ سبحانَهُ هٰذهِ الحبوبَ لمنافعَ فيها وكسوتِها لحمًا لذيذًا شهيًّا يَتَفَكَّهُ بهِ ابنُ آدمَ!

ثمَّ تأمَّلْ هٰذهِ الحكمةَ البديعةَ في أنْ جَعَلَ للثَّمرةِ الرَّقيقةِ اللطيفةِ التي يُفْسِدُها الهواءُ والشَّمسُ غلافًا يَحْفَظُها وغشاءً يُواريها كالرُّمَّانِ والجوزِ واللوزِ ونحوِهِ. وأمَّا ما لا يَفْسُدُ إذا كانَ بارزًا؛ فجَعَلَ لهُ في أوَّلِ خروجِهِ غشاءً يُواريهِ لضعفِهِ ولقلَّةِ صبرِهِ على

---

(١) وألحقُ به في البطلان قول من قال: تسبيحة الورد والفلّ والياسمين هو العطر الذي يجري في خمائله وما لا عطر له منها فتسبيحه في ألوانه الخلّابة! فكيف يسبّح إذًا ما لا عطر له ولا لون كالحشائش والنجيليّات والشوكيّات؟! أم تراها لا تسبّح؟! وكيف كان تسبيحها قبل ظهور أزهارها؟! وكيف يكون بعد أختفاء ألوانها؟! هٰذا كلّه من الخوض والتنطع بما لا علم للخلق به ولا دليل لهم عليه والتنكّب عن ظواهر الكتاب والسنّة كبرًا وبطرًا.

(٢) العجم والنوى: البزر.

الحرِّ، فإذا ٱشْتَدَّ وقَوِيَ؛ تَفَتَّقَ عنهُ[١] ذٰلكَ الغشاءُ وضَحى للشَّمسِ والهواءِ، كطلعِ النَّخلِ وغيرِهِ!

[٥٩] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في خلق الرمان]

ثمَّ تَأمَّلْ خلقةَ الرُّمَّانِ وماذا فيهِ مِن الحكمِ والعجائبِ! فإنَّكَ تَرى داخلَ الرُّمَّانةِ كأمثالِ التِّلالِ شحمًا متراكمًا في نواحيها، وتَرى ذٰلكَ الحبَّ فيها مرصوفًا رصفًا ومنضودًا نضدًا لا يُمْكِنُ الأيدي أنْ تَنْضِدَهُ، وتَرى الحبَّ مقسومًا أقسامًا وفرقًا وكلَّ قسمٍ وفرقةٍ منهُ ملفوفًا بلفائفَ وحجبٍ منسوجةٍ أعجبَ نسجٍ وألطفَهُ [وأدقَّهُ] على غيرِ منوالٍ إلَّا منوالَ ﴿كُنْ فَيَكونُ﴾، ثمَّ تَرى الوعاءَ المحكمَ الصُّلبَ قدِ ٱشْتَمَلَ على ذٰلكَ كلِّهِ وضَمَّهُ أحسنَ ضمٍّ!

فتَأمَّلْ هٰذهِ الحكمةَ البديعةَ في الشَّحمِ المودعِ فيها؛ فإنَّ الحبَّ لا يَمُدُّ بعضُهُ بعضًا؛ [إذْ لو مَدَّ بعضُهُ بعضًا]؛ لاخْتَلَطَ وصارَ حبَّةً واحدةً، فجُعِلَ ذٰلكَ الشَّحمُ خلالَهُ لِيَمُدَّهُ بالغذاءِ. والدَّليلُ عليهِ أنَّكَ تَرى أُصولَ الحبِّ مركوزةً في ذٰلكَ الشَّحمِ.

وهٰذا بخلافِ حبِّ العنبِ؛ فإنَّهُ ٱسْتَغْنى عن ذٰلكَ بأنْ جُعِلَ لكلِّ حبَّةٍ مجرًى تَشْرَبُ /خ٣٥٧/ منهُ، فلا تَشْرَبُ حقَّ أُختِها، بل يَجْري الغذاءُ في ذٰلكَ العرقِ مجرًى واحدًا ثمَّ يَنْقَسِمُ منهُ في مجاري الحبوبِ كلِّها فيَنْبَعِثُ منهُ في كلِّ مجرًى غذاءُ تلكَ الحبَّةِ. فتَبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ.

ثمَّ إنَّهُ لَفَّ ذٰلكَ الحبَّ في تلكَ الرُّمَّانةِ بتلكَ اللفائفِ لِيَضُمَّهُ ويُمْسِكَهُ فلا يَضْطَرِبَ و[لا] يَتَبَدَّدَ، ثمَّ غَشَّى فوقَ ذٰلكَ بالغشاءِ الصُّلبِ صونًا لهُ وحفظًا[٢] وممسكًا لهُ بإذنِ اللهِ وقدرتِهِ.

فهٰذا قليلٌ مِن كثيرٍ مِن حكمةِ هٰذهِ الثَّمرةِ الواحدةِ، ولا يُمْكِنُنا ولا غيرَنا ٱستقصاءُ

---

(١) في خ: «نوعها فخلف فيها... وكسوته لحمًا... جعل الثمرة... تفتّق عن».

(٢) في خ: «بل مجرى الغذاء في ذٰلك العرق مجرى واحد... كلّها فينصبّ منه في... وحفاظًا».

ذٰلكَ ولو طالَتِ الأيّامُ واتّسَعَ الفكرُ، ولٰكنَّ هٰذا مُنَبِّهٌ على ما وراءَهُ، واللبيبُ يَكْتَفي ببعضِ ذٰلكَ، وأمّا مَن غَلَبَتْ عليهِ الشّقاوةُ؛ فكَأَيِّنْ مِن آيةٍ في السّماواتِ والأرضِ مَرَّ عليها وهوَ عنها معرضٌ غافلٌ[١] عن موضعِ الدّلالةِ فيها.

[٦٠] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في ريع الزرع]

ثمَّ تأمَّلْ هٰذا الرَّيعَ والنَّماءَ الذي وَضَعَهُ اللهُ في الزَّرعِ حتَّى صارَتِ الحبَّةُ الواحدةُ ربَّما أنبَتَتْ سبعَ مئةِ حبَّةٍ! ولمْ تُنْبِتِ الحبَّةُ حبَّةً واحدةً مثلَها؛ لِيَكونَ في الغلَّةِ متَّسعًا لِما يُرَدُّ في الأرضِ مِن الحبِّ وما يَكْفي النَّاسَ ويَقوتُ الزَّارعَ إلى إدراكِ زرعِهِ.

وكذٰلكَ ثمارُ الأشجارِ والنَّخيلِ يَريعُ هٰذا الرَّيعَ[٢]؛ لِيَفِيَ بما يُحْتاجُ إليهِ للقوتِ والزِّراعةِ.

وكذٰلكَ ما يَخْرُجُ معَ الأصلِ الواحدِ منها مِن الصِّنوانِ[٣]؛ لِيَكونَ لِما يَقْطَعُهُ النَّاسُ [مِن ذٰلكَ] ويَسْتَعْمِلونَهُ[٤] في مآربِهِم خلفًا، فلا تَبْطُلُ المادَّةُ عليهِم ولا تَنْقُصُ.

ولو أنَّ صاحبَ بلدٍ مِن البلادِ أرادَ عمارتَهُ؛ لأعْطى أهلَهُ ما يَبْذُرونَهُ فيهِم وما يُقيتُهُم إلى استواءِ الزَّرعِ، فاقْتَضَتْ حكمةُ اللطيفِ الخبيرِ أنْ أخْرَجَ مِن الحبَّةِ الواحدةِ حبَّاتٍ عديدةً؛ لِيُقيتَ الخارجُ النَّاسَ ويَدَّخِروا[٥] منهُ ما يَزْرَعونَ.

---

(١) في ط: «وكأيّن... يمرون عليها وهم عنها معرضون غافلاً»، وفي خ: «وكأيّن...».

(٢) يريع هٰذا الريع: يعطي هٰذه الزيادة.

(٣) الصنوان: إذا خرجت نخلتان أو ثلاث من أصل واحد؛ فكلّ واحدة منهنّ صنو، والاثنان صنوان، والجمع صنوان.

(٤) في ط: «ولو أنبتت الحبة حبّة واحدة مثلها لا يكون في الأرض متّسع لما يَرِدُ في الغلّة من الحبّ وما يكفي الناس ويقوت الزارع إلى إدراك زرعه فصار الزرع يريع بهٰذا الريع ليفي بما يحتاج إليه للقوت والزراعة وكذٰلك ثمار الأشجار والنخيل وكذٰلك ما يخرج مع الأصل الواحد منها من الصنوان ليكون لما يقطعه الناس ويستعملونه»! وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

(٥) في خ وط: «ويدّخرون»! والصواب حذف النون؛ لأنّه معطوف على المنصوب. نعم؛ له وجه بإثبات النون، ولٰكنّه ضعيف.

[٦١] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في إخراج الحبوب]

ثمَّ تأمَّلِ الحكمةَ في أكثرِ الحبوبِ كالبُرِّ والشَّعيرِ ونحوِهِما؛ كيفَ يَخْرُجُ الحبُّ مدرجًا في قشورٍ[١] على رؤوسِها أمثالُ الأسنَّةِ فلا يَتَمَكَّنُ جندُ الطَّيرِ مِن إفسادِها والعبثِ فيها! فإنَّهُ لو صادَفَ الحبَّ بارزًا لا صِوانَ عليهِ ولا وقايةَ تَحولُ دونَهُ؛ لَتَمَكَّنَ[٢] منهُ كلَّ التَّمكُّنِ فأفْسَدَ وعابَ وعاثَ وأكَبَّ عليهِ أكلاً ما ٱستَطاعَ وعَجَزَ أربابُ الزَّرعِ عن ردِّهِ! فجَعَلَ اللطيفُ الخبيرُ /خ٣٥٨/ عليهِ هٰذهِ الوقاياتِ لِتَصونَهُ فيَتَناوَلَ الطَّيرُ منه[٣] مقدارَ قوتِهِ ويَبْقى أكثرُهُ للإنسانِ؛ فإنَّهُ أولى بهِ؛ لأنَّهُ هوَ الذي كَدَحَ فيهِ وشَقِيَ بهِ، ولأنَّ الذي[٤] يَحْتاجُ إليهِ أضعافُ حاجةِ الطَّيرِ.

[٦٢] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في حمل الشجر]

ثمَّ تأمَّلِ الحكمةَ الباهرةَ في هٰذهِ الأشجارِ؛ كيفَ تَراها في كلِّ عامٍ لها حملٌ ووضعٌ؛ فهيَ دائمًا في حملٍ وولادةٍ!

فإذا أذِنَ لها ربُّها في الحملِ؛ ٱحْتَبَسَتِ الحرارةُ الطَّبيعيَّةُ في داخلِها وٱخْتَبَأَتْ فيها؛ لِيَكونَ حملُها في الوقتِ المقدَّرِ لها، فيَكونُ ذٰلكَ الوقتُ بمنزلةِ وقتِ العلوقِ ومبدإِ تكوينِ النُّطفِ، فتَعْمَلُ المادَّةُ في أجوافِها عملَها وتُهَيِّئُها للعلوقِ.

حتَّى إذا آذَنَ وقتُ الحملِ؛ دَبَّ فيها الماءُ فلانَتْ أعطافُها وتَحَرَّكَتْ للحملِ وسَرى الماءُ في أفنانِها وٱنْتَشَرَتْ فيها الحرارةُ والرُّطوبةُ.

حتَّى إذا آذَنَ وقتُ[٥] الولادةِ؛ كُسِيَتْ مِن سائرِ الملابسِ الفاخرةِ مِن النَّورِ والورقِ

---

(١) في ط: «الحكمة في كثرة... مدويًا في قشور»! وفي خ: «... مدرجًا في قشوره»!

(٢) في خ: «لا صفوان عليه ولو فاته يحول دونه ليتمكّن»! لا صوان عليه: ليس له وعاء يصونه.

(٣) في خ: «وعاب وعثى والت عليه...»، وفي ط: «... فينال الطير منه».

(٤) في خ: «كدح فيه وسعى وكان الذي»! وفي ط: «... وكان الذي»! وكلاهما تحريف.

(٥) في ط: «ليكون فيها حملها... حتّى إذا آن وقت».

ما تَتَبَخْتَرُ فيه وتَميسُ بِه وتَفْخَرُ على[(١)] العقيم.

فإذا ظَهَرَتْ أولادُها وبانَ للنَّاظِرِ حملُها؛ عُلِمَ حينئذٍ كرمُها وطيبُها مِن لؤمِها وبخلِها، فتَوَلَّى تغذيةَ ذٰلكَ الحملِ مَن تَوَلَّى غذاءَ الأجنَّةِ في بطونِ أُمَّهاتِها، وكَساها الأوراقَ، وصانَها مِن الحرِّ والبردِ.

فإذا تكامَلَ الحملُ وآنَ وقتُ الفطامِ؛ تَدَلَّتْ إليكَ أفنانُها كأنَّما تُناوِلُكَ ثمرةَ درِّها، فإذا قابَلْتَها؛ رَأَيْتَ الأفنانَ كأنَّها تَلَقَّاكَ بأولادِها [و]تُحَيِّيكَ وتُكْرِمُكَ بِهِم وتُقَدِّمُهُم إليكَ، حتَّى كأنَّ مناوِلاً يُناوِلُكَ إيَّاهُم بيدِهِ، ولا سيَّما قطوفِ جنَّاتِ النَّعيمِ الدَّانيةِ التي يَتَناوَلُها المؤمنُ قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا، وكذٰلكَ تَرى الرَّياحينَ كأنَّها تُحَيِّيكَ بأنفاسِها[(٢)] وتُقابِلُكَ بطيبِ رائحتِها[(٣)].

وكلُّ هٰذا إكرامًا لكَ وعنايةً بأمرِكَ وتخصيصًا لكَ وتفضيلاً على غيرِكَ مِن الحيواناتِ!

أفَيَجْمُلُ بكَ الاشتغالُ بهٰذهِ النِّعمِ عنِ المنعِمِ بها؟! فكيفَ إذا ٱسْتَعَنْتَ بها على معاصيهِ وصَرَفْتَها في مساخطِهِ؟! فكيفَ إذا جَحَدْتَهُ وأَضَفْتَها إلى غيرِهِ، كما قالَ: ﴿وَتَجْعَلونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]؟!

فجديرٌ بمَن لهُ مُسكةٌ مِن عقلٍ أنْ يُسافِرَ بفكرِهِ في هٰذهِ النِّعمِ والآلاءِ ويُكَرِّرَ ذكرَها؛ لعلَّهُ يوقِفُهُ على المرادِ منها ما هوَ؟ ولأيِّ شيءٍ خُلِقَ؟ ولماذا هُيِّئَ؟ وأيُّ أمرٍ طُلِبَ منهُ على هٰذهِ النِّعمِ؟ [كما] قالَ تَعالى: ﴿فَٱذْكُروا آلاءَ اللهِ /خ٣٥٩/ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]! فذكرُ آلائِهِ تَبارَكَ وتَعالى ونعمِهِ على عبدِهِ سببُ الفلاحِ

---

(١) في خ: «ما تفتخر فيه وتحسن به وتفتخر على».

(٢) في خ: «كومها وبخلها فتولّى ففدية ذٰلك... إيّاها بيده... بأنفسها».

(٣) هٰذه صياغة شاعريّة للحادثة تنطلق من رؤية إيمانيّة، لٰكن لا بدّ من ٱستكمالها بمقاربة علميّة بلغة معاصرة، فأقول: أشار الشيخ يرحمه الله بٱحتباس الحرارة الطبيعيّة داخل الشجر إلى مرحلة السكون الشتوي التي يمرّ بها كثير من الأشجار كاللوزيّات والتفاحيّات؛ حيث ترى الشجرة عارية تمامًا. لٰكن ما يكاد الشتاء ينتهي حتّى يدبّ الماء في أغصان الشجرة وتظهر البراعم الخضراء الجديدة التي ما تلبث أن تزهر، وعندئذ لا قبلئذ يحصل التلقيح وينعقد الحمل، ومع جفاف أوراق الأزهار (البتلات) وسقوطها بفعل الحرّ ينكشف الحمل الذي يتنامى تدريجيًّا حتى النضوج.

والسَّعادةِ؛ لأنَّ ذٰلكَ لا يَزيدُهُ إلَّا محبَّةً للهِ وحمدًا وشكرًا وطاعةً وشهودَ تقصيرِهِ بل تفريطِهِ في القليلِ ممَّا يَجبُ للهِ عليهِ.

ولله درُّ القائلِ:

قَدْ هَيَّؤوكَ لأمْرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ ... فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أنْ تَرْعى مَعَ الهَمَلِ

[٦٣] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في الثمار الأرضية والشجرية]

ثمَّ تأمَّلِ الحكمةَ في شجرةِ اليقطينِ والبطِّيخِ والجزرِ؛ كيفَ لمَّا اقْتَضَتِ الحكمةُ أنْ يكونَ حملُهُ ثمارًا كبارًا؛ جُعِلَ نباتُهُ منبسطًا على الأرضِ؛ إذْ لوِ انْتَصَبَ قائمًا كما يَنْتَصِبُ الزَّرعُ؛ لَضَعُفَتْ قوَّتُهُ عن حملِ هٰذهِ الثِّمارِ الثَّقيلةِ ولَنَفَضَتْ قبلَ إدراكِها[1] وانتهائِها إلى غاياتِها. فاقْتَضَتْ حكمةُ مبدعِهِ وخالقِهِ أنْ بَسَطَهُ ومَدَّهُ على الأرضِ لِيُلْقِيَ عليها ثمارَهُ فتَحْمِلَها عنهُ الأرضُ. فتَرى العرقَ الضَّعيفَ الدَّقيقَ مِن ذٰلكَ منبسطًا على الأرضِ وثمارَهُ مبثوثةً حواليهِ كأنَّها حيوانٌ قدِ اكْتَنَفَها جراؤُها فهيَ تُرْضِعُهُم[2].

ولمَّا كانَ شجرُ اللوبياءِ والباذنجانِ والباقلَّاءِ وغيرِها ممَّا يَقْوى على حملِ ثمرِهِ[3]؛ أنْبَتَهُ اللهُ منتصبًا قائمًا على ساقِهِ؛ إذْ لا يَلْقى مِن حملِ ثمارِهِ مؤنةً ولا يَضْعُفُ عنها.

[٦٤] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في موافاة الثمار في أنسب الأوقات]

ثمَّ تأمَّلْ كيفَ اقْتَضَتِ الحكمةُ الإلٰهيَّةُ موافاةَ أصنافِ الفواكِهِ والثِّمارِ للنَّاسِ بحسبِ الوقتِ المشاكلِ لها المقتضي لها، فتُوافيهم كموافاةِ الماءِ للظَّمآنِ، فتَتَلَقَّاها

---

(١) نفضت قبل إدراكها: ألقت حملها وأسقطته قبل اكتماله.

(٢) في خ: «إذ لو انتصبت... كأنّه حيوان... ترضعها»، وفي ط: «... مبدعها وخالقها...».

(٣) في ط: «حمل ثمرته». واللوبياء: الفاصولياء. والباقلّاء: الفول. وليس للّوبياء والباقلّاء شجر، ولٰكنّها نباتات شجيريّة بمصطلح المهندسين الزراعيّين اليوم.

الطَّبيعةُ بٱنشراحٍ وٱشتياقٍ منتظرةً لقدومِها كٱنتظارِ الغائبِ للغائبِ.

فلو كانَ الصَّيفُ ونباتُهُ إنَّما يُوافي في الشِّتاءِ؛ لَصادَفَ مِن النَّاسِ كراهيةً[١] وٱستثقالاً بورودِهِ معَ ما كانَ فيهِ مِن المضرَّةِ للأبدانِ والأذى لها، وكذٰلكَ لو وافى ربيعيُّها في الخريفِ أو خريفيُّها في الرَّبيعِ؛ لَمْ يَقَعْ مِن النُّفوسِ ذٰلكَ الموقعَ ولا ٱستطابَتْهُ وٱسْتَلَذَّتْهُ ذٰلكَ الالتذاذَ، ولهٰذا تَجِدُ المتأخِّرَ منها عن وقتِهِ فائتًا مملولاً مخلولَ الطَّعمِ. ولا يُظَنُّ أنَّ هٰذا لجريانِ العادةِ المجرَّدةِ بذٰلكَ؛ فإنَّ العادةَ إنَّما جَرَتْ بهِ لأنَّهُ وافَقَ[٢] الحكمةَ والمصلحةَ التي لا يُخِلُّ بها الحكيمُ الخبيرُ[٣].

[٦٥] فصل

[في بدائع صنعته تعالى في خلق النخلة]

ثمَّ تأمَّلْ هٰذهِ النَّخلةَ التي هيَ إحد[ى] آياتِ اللهِ؛ تَجِدْ فيها مِن العجائبِ والآياتِ ما يَبْهَرُكَ!

فإنَّهُ لمَّا قُدِّرَ أنْ يكونَ /خ٣٦٠/ [فيهِ] إناثٌ تَحْتاجُ إلى اللقاحِ؛ جُعِلَتْ فيها ذكورٌ تُلْقِحُها بمنزلةِ ذكورِ الحيوانِ وإناثِهِ، ولذٰلكَ ٱشْتَدَّ شبهُها مِن بينِ سائرِ الأشجارِ بالإنسانِ، خصوصًا بالمؤمنِ كما مَثَّلَهُ النَّبيُّ ﷺ[٤]، وذٰلكَ مِن وجوهٍ كثيرةٍ:

أحدُها: ثباتُ أصلِها في الأرضِ وٱستقرارُهُ فيها، وليست بمنزلةِ الشَّجرةِ التي ٱجْتُثَّتْ مِن فوقِ الأرضِ ما لها مِن قرارٍ.

الثَّاني: طيبُ ثمرتِها وحلاوتُها وعمومُ المنفعةِ بها، كذٰلكَ المؤمنُ طيِّبُ الكلامِ

---

(١) في ط: «موافقات أصناف...»، وفي خ: «... فتلقّاها... منظرة... كراهة».

(٢) في خ وط: «ربيعها في الخريف أو خريفها...»! وفي خ: «... لأنّه وفق».

(٣) وٱنظر ما تقدّم (٢/ ٦٩).

(٤) فيما رواه: البخاري (٣ـ العلم، ٤ـ قول المحدّث حدّثنا، ١/ ١٤٥/ ٦١)، ومسلم (٥٠ـ المنافقين، ١٥ـ مثل المؤمن، ٤/ ٢١٦٤/ ٢٨١١)؛ عن ابن عمر؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنّها مثل المسلم، فحدّثوني ما هي؟». فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في نفسي أنّها النخلة، فٱستحييت. ثمّ قالوا: حدّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هي النخلة».

طَيِّبُ العملِ فيهِ المنفعةُ لنفسِهِ ولغيرِهِ.

الثَّالثُ: دوامُ لباسِها وزينتِها فلا يَسْقُطُ عنها صيفًا ولا شتاءً، كذٰلكَ المؤمنُ لا يَزولُ عنهُ لباسُ التَّقوى وزينتُها حتَّى يُوافِيَ ربَّهُ تَعالى.

الرَّابعُ: سهولةُ تناولِ ثمرتِها وتيسُّرُهُ: أمَّا قصيرُها؛ فلا يُحْوِجُ[1] المتناوِلَ أنْ يَرْقاها، وأمَّا باسقُها؛ فصعودُهُ سهلٌ بالنِّسبةِ إلى صعودِ الشَّجرِ الطِّوالِ وغيرِها فتَراها كأنَّها [قد هُيِّئَتْ] منها المراقي والدَّرجُ إلى أعلاها. وكذٰلكَ المؤمنُ خيرُهُ سهلٌ قريبٌ لمَن رامَ تناولَهُ لا بالعسرِ ولا[2] باللئيمِ.

الخامسُ: أنَّ ثمرتَها مِن أنفعِ ثمارِ العالمِ: فإنَّهُ يُؤْكَلُ رَطْبُهُ فاكهةً وحلاوةً. ويابسُهُ يَكونُ قوتًا وأُدْمًا[3] وفاكهةً، ويُتَّخَذُ منهُ الخَلُّ والنَّاطفُ[4] والحلوى، ويَدْخُلُ في الأدويةِ والأشربةِ.

وعمومُ المنفعةِ بهِ وبالعنبِ فوقَ كلِّ الثِّمارِ، وقدِ ٱخْتَلَفَ النَّاسُ في أيِّهما أنفعُ وأفضلُ، وصَنَّفَ الجاحظُ في المحاكمةِ بينَهُما مجلَّدًا فأطالَ فيهِ الحجاجَ والتَّفضيلَ مِن الجانبينِ. وفصلُ النِّزاعِ في ذٰلكَ: أنَّ النَّخلَ في معدنِهِ ومحلِّ سلطانِهِ أفضلُ [مِن العنبِ] وأعمُّ نفعًا وأجدى على أهلِهِ كالمدينةِ[5] والحجازِ والعراقِ، والعنبُ في معدنِهِ ومحلِّ سلطانِهِ أفضلُ وأعمُّ نفعًا وأجدى على أهلِهِ كالشَّامِ والجبالِ والمواضعِ الباردةِ التي لا تَقْبَلُ النَّخيلَ.

وحَضَرْتُ مرَّةً في مجلسٍ [بـ]ـمكَّةَ فيهِ مِن أكابرِ البلدِ، فجَرَتْ هٰذهِ المسألةُ: وأخَذَ بعضُ الجماعةِ [الحاضرينَ] يُطْنِبُ في تفضيلِ النَّخلِ وفوائدِهِ، وقالَ في أثناءِ كلامِهِ: ويَكْفي في تفضيلِهِ أنَّا نَشْتَري بنواهُ العنبَ؛ فكيفَ يُفَضَّلُ عليهِ ثمرٌ يَكونُ نواهُ ثمنًا لهُ؟! وقال آخرُ مِن الجماعةِ: قد فَصَلَ النَّبيُّ ﷺ النِّزاعَ في هٰذهِ المسألةِ وشَفى فيها بنهيِهِ

(١) في خ: «أحدها نبات... ثمرتها وتيسيره...»، وفي ط: «... فلا يحتاج».
(٢) في خ: «رام تناولاً بالعسر ولا»! وفي ط: «رام تناوله لا بالغرّ ولا»! وكلاهما تحريف.
(٣) الأدم: كلّ ما يؤكل بالخبز من الأطعمة.
(٤) الناطف: نوع مشهور عند أهل الشام من الحلوى، هو أشبه ما يكون بالكريما.
(٥) في خ: «ويابسه فيكون قوتًا... بالمدينة»!

عن تسميةِ شجرِ العنبِ كرمًا /خ٣٦١/ وقالَ: «الكرمُ قلبُ المؤمنِ»[١]؛ فأيُّ دليلٍ أبينُ مِن هٰذا؟ وأخَذوا يُبالِغونَ في تقريرِ ذٰلكَ!

فقُلْتُ للأوَّلِ: ما ذَكَرْتَهُ مِن كونِ نوى التَّمرِ ثمنًا للعنبِ فليسَ بدليلٍ؛ فإنَّ هٰذا لهُ أسبابٌ: أحدُها: حاجتُكُم إلى النَّوى للعلفِ، فيَرْغَبُ صاحبُ العنبِ فيهِ لعلفِ ناضحِهِ وحمولتِهِ. الثَّاني: أنَّ نوى العنبِ لا فائدةَ فيهِ ولا يَجْتَمِعُ. الثَّالثُ: أنَّ الأعنابَ عندَكُم قليلةٌ جدًّا، والتَّمرُ فأكثرُ شيءٍ عندَكُم، فيَكْثُرُ نواهُ فيُشْتَرى بهِ الشَّيءُ اليسيرُ مِن العنبِ، وأمَّا في بلادٍ فيها سلطانُ العنبِ؛ فلا يُشْتَرى بالنَّوى منهُ شيءٌ ولا قيمةَ لنوى التَّمرِ فيها.

وقُلْتُ لمَنِ ٱحْتَجَّ بالحديثِ: هٰذا الحديثُ مِن حججِ فضلِ العنبِ؛ لأنَّهُم كانوا يُسَمُّونَهُ شجرةَ الكرمِ لكثرةِ منافعِهِ وخيرِهِ؛ فإنَّهُ يُؤْكَلُ رطبًا ويابسًا وحلوًا وحامضًا وتَجيءُ منهُ[٢] أنواعُ الأشربةِ والحلوى والدِّبسِ وغيرِ ذٰلكَ، فسَمَّوْهُ كرمًا لكثرةِ خيرِهِ، فأخْبَرَهُمُ النَّبيُّ ﷺ أنَّ قلبَ المؤمنِ أحقُّ منهُ بهٰذهِ التَّسميةِ؛ لكثرةِ ما أوْدَعَ اللهُ فيهِ مِن الخيرِ والبرِّ والرَّحمةِ واللينِ والعدلِ والإحسانِ والنُّصحِ وسائرِ أنواعِ البرِّ والخيرِ التي وَضَعَها اللهُ في قلبِ المؤمنِ، فهوَ أحقُّ بأنْ يُسَمَّى كرمًا مِن شجرِ العنبِ[٣]، ولمْ يُرِدِ النَّبيُّ ﷺ إبطالَ ما في شجرِ العنبِ مِن المنافعِ والفوائدِ وأنَّ تسميتَهُ كرمًا كذبٌ وأنَّها لفظةٌ لا معنى تحتَها كتسميةِ الجاهلِ عالمًا والفاجرِ برًّا والبخيلِ سخيًّا، ألا ترى أنَّهُ لمْ يَنْفِ فوائدَ شجرِ العنبِ وإنَّما أخْبَرَ أنَّ قلبَ المؤمنِ أغزرُ فوائدَ وأعظمُ منافعَ منها. هٰذا الكلامُ أو قريبٌ منهُ جَرى في ذٰلكَ المجلسِ.

وأنتَ إذا تَدَبَّرْتَ قولَ النَّبيِّ ﷺ «الكرمُ قلبُ المؤمنِ»؛ وَجَدْتَهُ مطابقًا لقولِهِ في النَّخلةِ «مثلُها مثلُ المسلمِ»: فشَبَّهَ النَّخلةَ بالمسلمِ في حديثِ ابنِ عُمَرَ، وشَبَّهَ المسلمَ

---

(١) رواه: البخاري (٧٨ـ الأدب، ١٠١ـ لا تسبّوا الدهر، ١٠/ ٥٦٤/ ٦١٨٢ و٦١٨٣)، ومسلم (٤٠ـ الألفاظ، ٢ـ تسمية العنب كرمًا، ٤/ ١٧٦٣/ ٢٢٤٧)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في خ: «تفضيل النخيل... وأمّا في بلادها فيها...»، وفي ط: «... وتجنى منه».

(٣) بياض في ح بقدر كلمة، وفي حاشيتها: «بياض هٰكذا»؛ إشارة إلى سقط في الأصل الذي نُقلت عنه، وسيمتدّ هٰذا السقط عدّة صفحات.

بالكرمِ في الحديثِ الآخرِ ونَهاهُم أنْ يَخُصُّوا شجرَ العنبِ بٱسمِ الكرمِ دونَ قلبِ المؤمنِ[١].

وقد قالَ بعضُ النَّاسِ في هٰذا معنًى آخرَ: وهوَ أنَّهُ نَهاهُم عن تسميةِ شجرِ العنبِ كرمًا؛ لأنَّهُ يُقْتَنَى منهُ أُمُّ الخبائثِ، فيُكْرَهُ أنْ يُسَمَّى بٱسمٍ يُرَغِّبُ فيها ويَحُضُّهُم عليها مِن بابِ سدِّ الذَّرائعِ في الألفاظِ!

وهٰذا لا بأْسَ بِهِ لولا[٢]: أنَّ قولَهُ «فإنَّ الكرمَ قلبُ المؤمنِ» كالتَّعليلِ لهٰذا النَّهيِ والإشارةِ إلى أنَّهُ أولى بهٰذهِ التَّسميةِ مِن شجرِ العنبِ، ورسولُ اللهِ ﷺ أعلمُ بما أرادَ مِن كلامِهِ، فالذي قَصَدَهُ هوَ الحقُّ. وبالجملةِ؛ فاللهُ سبحانَهُ عَدَّدَ على عبادِهِ مِن نعمِهِ عليهِم ثمراتِ النَّخيلِ والأعنابِ فساقَها فيما عَدَّدَهُ عليهِم مِن نعمِهِ[٣]. والمعنى الأوَّلُ أظهرُ مِن المعنى الآخرِ إنْ شاءَ اللهُ؛ فإنَّ أُمَّ الخبائثِ تُتَّخَذُ مِن كلِّ ثمرٍ، كالنَّخيلِ: كما قالَ تَعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنابِ تَتَّخِذونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، وقالَ أنسٌ: نَزَلَ تحريمُ الخمرِ وما بالمدينةِ مِن شرابِ الأعنابِ شيءٌ وإنَّما كانَ شرابُ القومِ الفضيخَ المتَّخذَ مِن التَّمرِ[٤]. فلو كانَ نهيُهُ ﷺ عن تسميةِ شجرِ العنبِ كرمًا لأجلِ المسكرِ؛ لمْ يُشَبِّهِ النَّخلةَ بالمؤمنِ؛ لأنَّ المسكرَ يُتَّخَذُ منها. واللهُ أعلمُ.

الوجهُ السَّادسُ مِن وجوهِ التَّشبيهِ: أنَّ النَّخلةَ أصبرُ الشَّجرِ على الرِّياحِ والجهدِ وغيرُها مِن الدَّوحِ العظامِ تُميلُها الرِّيحُ تارةً وتَقْلَعُها تارةً وتَقْصِفُ أفنانَها، ولا صبرَ لكثيرٍ منها على العطشِ كصبرِ النَّخلةِ. فكذٰلكَ المؤمنُ صبورٌ على البلاءِ لا تُزَعْزِعُهُ الرِّياحُ.

السَّابعُ: أنَّ النَّخلةَ كلَّها منفعةٌ لا يَسْقُطُ منها شيءٌ بغيرِ منفعةٍ: فتمرُها منفعةٌ، وجذعُها فيهِ مِن المنافعِ ما لا يُجْهَلُ للأبنيةِ والسُّقوفِ وغيرِ ذٰلكَ، وسعفُها تُسْقَفُ بهِ البيوتُ مكانَ القصبِ ويُسْتَرُ بهِ الفُرَجُ والخللُ، وخُوصُها يُتَّخَذُ منهُ المكاتِلُ والزَّنابيلُ

(١) ولم ينههم عن ذٰلك في النخل؛ لأنّه تحصيل حاصل؛ إذ لم يكونوا يسمّونه كرمًا.

(٢) لولا ثلاث ذكرها الشيخ رحمة الله عليه تباعًا.

(٣) يعني: ولو كانت العلّة المذكورة صحيحة؛ لما عدّ الله سبحانه العنب في النعم.

(٤) رواه: البخاري (٧٤ـ الأشربة، ٢ـ الخمر من العنب، ١٠/ ٣٥/ ٥٥٨٠)، ومسلم (٣٦ـ الأشربة، ١ـ تحريم الخمر، ٣/ ١٥٧٠/ ١٩٨٠-١٩٨٢)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

وأنواعُ الآنيةِ والحصرُ وغيرُها، وليفُها وكَرَبُها فيهِ مِن المنافعِ ما هوَ معلومٌ عندَ النَّاسِ[(١)]. وقد طابَقَ بعضُ النَّاسِ هٰذهِ المنافعَ وصفاتِ المسلمِ، وجَعَلَ لكلِّ منفعةٍ منها صفةً في المسلمِ تُقابِلُها، فلمَّا جاءَ إلى الشَّوكِ الذي في النَّخلةِ؛ جَعَلَ بإزائِهِ مِن المسلمِ صفةَ الحدَّةِ على أعداءِ اللهِ وأهلِ الفجورِ، فيَكونُ عليهِم في الشِّدَّةِ والغلظةِ بمنزلةِ الشَّوكِ وللمؤمنينَ والمتَّقينَ بمنزلةِ الرُّطبِ حلاوةً وليِنًا، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

الثَّامنُ: أنَّها كلَّما طالَ عمرُها؛ ٱزْدادَ خيرُها وجادَ ثمرُها. وكذٰلكَ المؤمنُ إذا طالَ عمرُهُ؛ ٱزْدادَ خيرُهُ وحَسُنَ عملُهُ.

التَّاسعُ: أنَّ قلبَها مِن أطيبِ القلوبِ وأحلاها[(٢)]، وهٰذا أمرٌ خُصَّتْ بهِ دونَ سائرِ الشَّجرِ. وكذٰلكَ قلبُ المؤمنِ مِن أطيبِ القلوبِ.

العاشرُ: أنَّها لا يَتَعَطَّلُ نفعُها بالكلِّيَّةِ أبدًا، بل إنْ تَعَطَّلَتْ منها منفعةٌ؛ ففيها منافعُ أُخرُ، حتَّى لو تَعَطَّلَتْ ثمارُها سنةً؛ لَكانَ للنَّاسِ في سعفِها وخُوصِها وليفِها وكَرَبِها منافعُ وآرابٌ. وهٰكذا المؤمنُ لا يَخْلو عن شيءٍ مِن خصالِ الخيرِ قطُّ، بلْ إنْ أَجْدَبَ منهُ جانبٌ مِن الخيرِ؛ أَخْصَبَ منهُ جانبٌ، فلا يَزالُ خيرُهُ مأمولاً وشرُّهُ مأمونًا. وفي «التِّرْمِذِيِّ» مرفوعًا إلى النَّبيِّ ﷺ: «خيرُكُم مَن يُرْجى خيرُهُ ويُؤْمَنُ شرُّهُ، وشرُّكُم مَن لا يُرْجى خيرُهُ ولا يُؤْمَنُ شرُّهُ»[(٣)].

---

(١) السعف: ورق النخل إذا يبس. الخوص: الورق الطريّ. المكاتل والزنابيل: من الأوعية. الكرب: الأصل الذي ترتكز به الورقة على الساق.

(٢) وهو الذي يسمّى بجمّار النخل.

(٣) (**صحيح**). رواه: الإمام أحمد (٢/ ٣٦٨ و٣٧٨)، والترمذي (٣٤ـ الفتن، ٧٦ـ باب، ٤/ ٥٢٨/ ٢٢٦٣)، وابن حبّان (٥٢٧ و٥٢٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٢٤٦ و١٢٤٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٢٦٨)؛ من طريق العلاء بن محمّد، عن أبيه، عن أبي هريرة... رفعه. قال الترمذي: «حسن صحيح». وقال الهيثمي (٨/ ١٨٦): «رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح». قلت: هم رجال مسلم، لٰكنّ في حديث العلاء كلامًا، وحسبه أن يكون حسنًا.

ورواه: ابن أبي شيبة (٣٤٤١٩)، والبيهقي في «الشعب» (١١٢٦٦ و١١٢٦٧)؛ من طريق عبيد بن نسطاس، عن سعيد المقبري، [عن أبيه]، [عن أبي هريرة]... رفعه. وعبيد مستور، وقد اضطرب فيه وصلاً=

فهٰذا فصلٌ معترضٌ ذَكَرْناهُ ٱستطرادًا للحكمةِ في خلقِ النَّخلةِ وهيئتِها، فلْنَرْجِعْ إليه[1].

فتأمَّلْ خلقةَ الجذعِ الذي لها كيفَ هوَ؛ تَجِدْهُ كالمنسوجِ مِن خيوطٍ ممدودةٍ كالسَّدى وأُخرى معترضةٍ كاللُّحْمَةِ[2] كنحوِ المنسوجِ باليدِ، وذٰلكَ لِتَشْتَدَّ وتَصْلُبَ فلا تَنْقَصِفَ مِن حملِ القِنْوانِ الثَّقيلةِ وتَصْبِرَ على هزِّ الرِّياحِ العاصفةِ ولبثِها في السُّقوفِ والجسورِ والأواني وغيرِ ذٰلكَ ممَّا يُتَّخَذُ منها.

وهٰكذا سائرُ الخشبِ غيرِها[3] إذا تأمَّلْتَهُ شبهُ النَّسجِ، ولا تَراهُ مصمتًا[4] كالحجرِ الصَّلْدِ، بل تَرى بعضَهُ كأنَّهُ تَداخَلَ بعضًا طولاً وعرضًا كتداخلِ أجزاءِ اللحمِ بعضِها في بعضٍ؛ فإنَّ ذٰلكَ أمتنُ لهُ وأهْيأُ لِما يُرادُ منهُ؛ فإنَّهُ لو كانَ مصمتًا كالحجارةِ؛ لَمْ يُمْكِنْ أنْ يُسْتَعْمَلَ في الآلاتِ والأبوابِ والأواني والأمتعةِ والأسرَّةِ والتَّوابيتِ وما يُشْبِهُها.

ومِن بديعِ الحكمةِ في الخشبِ أنْ جُعِلَ يَطْفو على الماءِ، وذٰلكَ للحكمةِ البالغةِ؛ إذْ لولا ذٰلكَ؛ لَما كانَتْ هٰذهِ السُّفنُ تَحْمِلُ أمثالَ الجبالِ مِن الحمولاتِ والأمتعةِ وتَمْخُرُ البحرَ مقبلةً ومدبرةً، ولولا ذٰلك؛ لَما تَهَيَّأَ للنَّاسِ هٰذهِ المرافقُ لحملِ هٰذهِ التِّجاراتِ

= وإرسالاً وبإثبات أبيه وإسقاطه، فالسند ضعيف.

وله شاهد من حديث ابن عمر عند أبي نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٥٣) بسند ساقط.

وآخر من حديث أنس عند: أبي يعلى (٣٩١٠)، وابن عديّ (٦/ ٢٣٢٣)؛ بسند ساقط أيضًا.

وثالث من حديث ابن عبّاس عند: عبد بن حميد (٦٧٥)، والحارث (١٠٧٠ـ زوائد الهيثمي)، والعقيلي (٤/ ٣٤٠)، والطبراني (١٠/ ٣١٨/ ١٠٧٧٥)، وأبي نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١٨)؛ بسند ساقط.

ورابع من حديث جابر عند القضاعي (١٢٤٨) بسند ساقط.

وخامس من حديث ابن مسعود عند ابن حبّان في «الثقات» (٦/ ٣٤١) بسند ضعيف على وقفه.

وسادس من حديث أبي الدرداء عند البخاري في «الأدب المفرد» (١٥٩) بسند قويّ لٰكنّه موقوف.

وحديث الترجمة صحيح بمجموع طريقيه، وأمّا الشواهد؛ فليس فيها كبير فائدة، وقد صحّحه الترمذي والمنذري والألباني.

(١) يعني: إلى الكلام في خلق النخلة وهيئتها.

(٢) السدى واللحمة: خيوط الطول والعرض التي تتراكب لتكوين النسيج.

(٣) في خ وط: «وغيرها»! ولا بدّ من حذف الواو ليستقيم الكلام.

(٤) المصمت: المملوء من الداخل، غير المفرّغ، الذي لا جوف له.

العظيمةِ والأمتعةِ الكثيرةِ ونقلِها مِن بلدٍ إلى بلدٍ بحيثُ لو نُقِلَتْ في البرِّ لَعَظُمَتِ المؤنةُ في نقلِها وتَعَذَّرَ على النَّاسِ كثيرٌ مِن مصالحِهم.

[٦٦] فصل

[في بدائع صنعته تعالى في النباتات الطبية]

ثمَّ تأمَّلْ أحوالَ هٰذهِ العقاقيرِ والأدويةِ التي يُخْرِجُها اللهُ مِن الأرضِ وما خَصَّ بهِ كلَّ واحدٍ منها وجَعَلَ عليهِ مِن العملِ والنَّفعِ: فهٰذا يَغورُ في المفاصلِ فيَسْتَخْرِجُ الفضولَ الغليظةَ القاتلةَ لوِ ٱحْتَبَسَتْ[١]، وهٰذا يَسْتَخْرِجُ المِرَّةَ السّوداءَ، وهٰذا يَسْتَخْرِجُ المِرَّةَ الصَّفراءَ[٢]، وهٰذا يُحَلِّلُ الأورامَ، وهٰذا يُسَكِّنُ الهيجانَ والقلقَ، وهٰذا يَجْلِبُ النَّومَ ويُعيدُهُ إذا أعْوَزَ الإنسانَ[٣]، وهٰذا يُخَفِّفُ البدنَ إذا وَجَدَ الثِّقَلَ، وهٰذا يُفَرِّحُ القلبَ إذا تَراكَمَتْ عليهِ الغمومُ، وهٰذا يَجْلو البلغمَ ويَكْشِطُهُ، وهٰذا يُحِدُّ مِن البصرِ، وهٰذا يُطَيِّبُ النَّكهةَ، وهٰذا يُسَكِّنُ هيجانَ الباءةِ، وهٰذا يُهَيِّجُها، وهٰذا يُبَرِّدُ الحرارةَ ويُطْفِئُها، وهٰذا يَقْتُلُ البرودةَ ويُهَيِّجُ الحرارةَ، وهٰذا يَدْفَعُ ضررَ غيرِهِ مِن الأدويةِ والأغذيةِ، وهٰذا يُقاوِمُ بكيفيَّتِهِ كيفيَّةَ غيرِهِ فيَعْتَدِلانِ فيَعْتَدِلُ المزاجُ[٢] بتناولِهِما، وهٰذا يُسَكِّنُ العطشَ، وهٰذا يَصْرِفُ الرِّياحَ الغليظةَ ويَطْرُدُها، وهٰذا يُعْطي اللونَ إشراقًا ونضارةً، وهٰذا يَزيدُ في أجزاءِ البدنِ بالسِّمنِ، وهٰذا يَنْقُصُ منها، وهٰذا يَدْبَغُ المعدةَ، وهٰذا يَجْلوها ويَغْسِلُها. . . إلى أضعافِ ذٰلكَ ممَّا لا يُحْصيهِ العبادُ[٤].

فسَلِ المعطِّلَ: مَن جَعَلَ هٰذهِ المنافعَ والقوى في هٰذهِ النَّباتاتِ والحشائشِ والحبوبِ والعروقِ؟! ومَن أعطى كلًّا منها خاصِّيَّتَهُ؟! ومَن هَدى العبادَ بلِ الحيوانَ إلى تناولِ ما

---

(١) يشير إلى الأعشاب التي لها أثر مجفّف مضاد للاحتقان.

(٢) تقدّم الكلام في مراد الأطبّاء الأقدمين بالمرّة السوداء والصفراء والمزاج (١/ ٤٧).

(٣) في ط: «إذا أعوزه الإنسان»! وإنّما يقال أعوزَ النومُ الإنسانَ لا أعوز الإنسانُ النومَ!

(٤) مع أنّنا نعيش اليوم في عصر الحبّات والكبسولات والأمبولات المركّبة كيماويًّا؛ فإنّ الإحصائيّات الصيدلانيّة الدقيقة تفيد أنّ أكثر من ٧٠٪ من الأدوية المعتمدة في الدساتير الدوائيّة الأوروبيّة مستخرجة من أصل نباتي؛ سواء أكانت نباتيّة خالصة أم مشوبة بموادّ أخرى أم معالجة كيماويًّا.

يَنْفَعُ منهُ وتركِ ما يَضُرُّ؟! ومَن فَطَّنَ لها النَّاسَ والحيوانَ البهيمَ؟! وبأيِّ عقلٍ وتجربةٍ كانَ يوقَفُ على ذٰلكَ ويُعْرَفُ ما خُلِقَ لهُ ـ كما زَعَمَ مَن قَلَّ نصيبُهُ مِن التَّوفيقِ ـ لولا إنعامُ الذي أعْطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمَّ هَدى؟! وهَبْ أنَّ الإنسانَ فَطَنَ لهٰذهِ الأشياءِ بذهنهِ وتجاربِهِ وفكرِهِ وقياسِهِ[1]؛ فمَنِ الذي فَطَّنَ لها البهائمَ في أشياءَ كثيرةٍ منها ما لا يَهْتَدي إليها الإنسانُ، حتّى صارَ بعضُ السِّباعِ يَتَداوى مِن جراحِهِ ببعضِ تلكَ العقاقيرِ مِن النَّباتاتِ فيَبْرَأُ؟! فمَنِ الذي جَعَلَهُ يَقْصِدُ ذٰلكَ النَّباتَ دونَ غيرِهِ؟! وقد شُوهِدَ بعضُ الطَّيرِ يَحْتَقِنُ عندَ الحصرِ بماءِ البحرِ فيُسَهِّلُ عليهِ الخارجَ! وبعضُ الطَّيرِ يَتَناوَلُ إذا اُعْتَلَّ شيئًا مِن النَّباتِ فتَعودُ صحَّتُهُ! وقد ذَكَرَ الأطبَّاءُ في مبادئِ الطِّبِّ في كتبِهِم مِن هٰذا عجائبَ[2].

فسَلِ المعطِّلَ: مَن أَلْهَمَها ذٰلكَ؟! ومَن أَرْشَدَها إليهِ؟! ومَن دَلَّها عليهِ؟! أفَيَجوزُ أنْ يَكونَ هٰذا مِن غيرِ مدبِّرٍ عزيزٍ حكيمٍ وتقديرِ عزيزٍ عليمٍ وتقديرِ لطيفٍ خبيرٍ بَهَرَتْ حكمتُهُ العقولَ وشَهِدَتْ لهُ الفطرُ بما اُسْتَوْدَعَها مِن تعريفِهِ بأنَّهُ اللهُ الذي لا إلٰهَ إلَّا هوَ الخالقُ البارئُ المصوِّرُ الذي لا تَنْبَغي العبادةُ إلَّا لهُ وأنَّهُ لو كانَ معَهُ في سماواتِهِ وأرضِهِ إلٰهٌ سواهُ؛ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ والأرضُ واُخْتَلَّ نظامُ الملكِ؟! فسبحانَهُ وتَعالى عمَّا يَقولُ الظَّالمونَ والجاحدونَ علوًّا كبيرًا.

[٦٧ ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في خلق النباتات البرية]

ولعلَّكَ أنْ تَقولَ: ما حكمةُ هٰذا النَّباتِ المبثوثِ في الصَّحارى والقفارِ والجبالِ

---

(١) أفيبطل هٰذا ما فيها من بدائع الحكم ولطائف التدبير؟! ولو تعلّمنا أن ننتفع ببرنامج ما في الكومبيوتر؛ فهل يبطل هٰذا ذكاء صانعه ودقّة مبرمجه؟! ولو أنقرضت هٰذه العشبة الطبيّة؛ أفكنّا نهتدي لهٰذا الدواء؟! ولو أهتدينا؛ أفكنّا نستطيع أن نصنّعه؟! ولو أستطعنا؛ فكم سنحتاج لذٰلك من العقول والتجارب والأموال؟! فسبحان من أودع في عشبة بريّة لا يؤبه لها عقارًا بل عقارات تعجز المصانع الضخمة في الدول المتقدّمة عنها أو تكاد، ثمّ سخّرها لعباده بغير نفقة ولا عناء ولا زرع ولا سقي! وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إنّ الإنسان لظلوم كفّار!

(٢) وما زالوا يكتشفون من هٰذه العجائب ما يبهرهم ويعجز عقولهم! فلعنة الله على الكافرين.

التي لا أنيسَ بها ولا ساكنَ؟! وتَظُنَّ أنَّهُ فضلةٌ لا حاجةَ إليهِ ولا فائدةَ في خلقِهِ! وهٰذا مقدارُ عقلِكَ ونهايةُ علمِكَ! فكم لباريهِ وخالقِهِ فيهِ مِن حكمةٍ وآيةٍ مِن طعمٍ وحشٍ وطيرٍ ودوابَّ مساكنُها حيثُ لا تَراها تحتَ الأرضِ وفوقَها؛ فذٰلكَ بمنزلةِ مائدةٍ نَصَبَها اللهُ لهٰذهِ الوحوشِ والطُّيورِ والدَّوابِّ تَتَناوَلُ منها كفايتَها ويَبْقى الباقي كما يَبْقى الرِّزقُ الواسعُ الفاضلُ عنِ الضَّيفِ لسعةِ ربِّ الطَّعامِ وغناهُ التَّامِّ وكثرةِ إنعامِهِ(١).

[٦٨] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في إدراك الحيوانات وعقولها]

ثمَّ تَأمَّلِ الحكمةَ البالغةَ في إعطائِهِ سبحانَهُ بهيمةَ الأنعامِ الأسماعَ والأبصارَ لِيَتِمَّ تناولُها لمصالحِها ويَكْمُلَ انتفاعُ الإنسانِ بها؛ إذ لو كانَتْ عمياءَ وصمَّاءَ؛ لمْ يَتَمكَّنْ مِن الانتفاعِ بها. ثمَّ سَلَبَها العقولَ التي للإنسانِ على كبرِ خلقِها؛ لِيَتِمَّ تسخيرُهُ إيَّاها فيَقودَها ويُصَرِّفَها حيثُ شاءَ، ولو أُعْطِيَتِ العقولَ على كِبَرِ خلقِها؛ لامْتَنَعَتْ مِن طاعتِهِ واسْتَعْصَتْ عليهِ ولمْ تكُنْ مسخَّرةً لهُ. فأُعْطِيَتْ مِن التَّمييزِ والإدراكِ ما تَتِمُّ بِهِ مصلحتُها ومصلحةُ مَن ذُلِّلَتْ لهُ، وسُلِبَتْ مِن الذِّهنِ والعقلِ ما مُيِّزَ بِهِ عليها الإنسانُ ولِيَظْهَرَ أيضًا فضيلةُ التَّمييزِ والاختصاصِ! ثمَّ تَأمَّلْ كيفَ قادَها وذَلَّلَها على كبرِ أجسامِها ولمْ يَكُنْ يُطيقُها لولا تسخيرُ اللهِ لها: قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأنْعامِ ما تَرْكَبونَ . لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهورِهِ ثُمَّ تَذْكُروا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وتَقولوا سُبْحانَ الَّذي سَخَّرَ لَنا هٰذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنينَ﴾ [الزخرف: ١٢-١٣]؛ أي: مطيقينَ ضابطينَ. وقالَ تَعالى: ﴿أوَلَمْ يَرَوْا أنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أيْدينا أنْعامًا فَهُمْ لَها مالِكونَ . وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلونَ﴾ [يس: ٧١-٧٢]. فتَرى البعيرَ على عظمِ خلقتِهِ يَقودُهُ الصَّبيُّ الصَّغيرُ ذليلاً منقادًا، ولو أُرْسِلَ عليهِ؛ لَسَوَّاهُ بالأرضِ ولَفَصَّلَهُ عضوًا عضوًا!

---

(١) وفيها فوائد وحكم أخرى غير الغذاء؛ ففيها الدواء، وتنقية الهواء، واختزان الماء، ومنع انجراف التربة وتقدّم الصحراء... وهٰذا غيض من فيض.

فسَلِ المعطِّلَ: مَنِ الذي ذَلَّلَهُ وسَخَّرَهُ وقادَهُ على قوَّتِهِ لبشرٍ ضعيفٍ مِن أضعفِ المخلوقاتِ وفَرَّغَ بذٰلكَ التَّسخيرِ النَّوعَ الإنسانيَّ لمصالحِ معاشِهِ ومعادِهِ؟! فإنَّهُ لو كانَ يُزاوِلُ مِن الأعمالِ والأحمالِ ما يُزاوِلُ الحيوانُ؛ لَشُغِلَ بذٰلكَ عن كثيرٍ مِن الأعمالِ؛ لأنَّهُ كانَ يَحْتاجُ مكانَ الجملِ الواحدِ إلى عدَّةِ أناسيَّ يَحْمِلونَ أثقالَهُ وحملَهُ ويَعْجزونَ عن ذٰلكَ، وكانَ ذٰلكَ يَسْتَفْرِغُ أوقاتَهُم ويَصُدُّهُم عن مصالحِهِم، فأُعينوا بهٰذهِ الحيواناتِ معَ ما لهُم فيها مِن المنافعِ التي لا يُحْصيها إلَّا اللهُ مِن الغذاءِ والشَّرابِ والدَّواءِ واللباسِ والأمتعةِ والآلاتِ والأواني والرُّكوبِ والحرثِ والمنافعِ الكثيرةِ والجَمالِ.

[٦٩] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في خلق آلات البطش عند الحيوان]

ثمَّ تَأمَّلِ الحكمةَ في خلقِ آلاتِ البطشِ في الحيواناتِ مِن الإنسانِ وغيرِهِ:

فالإنسانُ لمَّا خُلِقَ مهيَّأً لمثلِ هٰذهِ الصِّناعاتِ مِن البناءِ والخياطةِ والكتابةِ والنِّجارةِ وغيرِها؛ خُلِقَ لهُ كفٌّ مستديرٌ منبسطٌ وأصابعُ[١] يَتَمَكَّنُ بها مِن القبضِ والبسطِ والطَّيِّ والنَّشرِ والجمعِ والتَّفريقِ وضمِّ الشَّيءِ إلى مثلِهِ.

والحيوانُ البهيمُ لمَّا لمْ يَتَهَيَّأْ لتلكَ الصَّنائعِ؛ لمْ يُخْلَقْ لهُ تلكَ الأكفُّ والأصابعُ، بل لمَّا قُدِّرَ أنْ يكونَ غذاءُ بعضِها مِن صيدِهِ كالسِّباعِ؛ خُلِقَ لها [أ]كفٌّ لطافٌ مُدْمَجَةٌ ذواتُ براثنَ ومخالبَ تَصْلُحُ لاقتناصِ الصَّيدِ ولا تَصْلُحُ للصِّناعاتِ. هٰذا [كلُّهُ] في آكلةِ اللحمِ مِن الحيوانِ.

وأمَّا آكلةُ النَّباتِ؛ فلمَّا قُدِّرَ أنَّها لا تَصْطادُ ولا صنعةَ لها؛ خُلِقَ لبعضِها أظلافٌ تَقيها خشونةَ الأرضِ إذا جالَتْ في طلبِ المرعى، ولبعضِها حوافرُ ململمةٌ مقعَّرةٌ كأخمصِ القدمِ لِتَنْطَبِقَ على الأرضِ وتَتَهَيَّأَ للرُّكوبِ والحمولةِ، ولمْ يُخْلَقْ لها براثنُ ولا أنيابٌ[٢]؛ لأنَّ غذاءَها لا يَحْتاجُ إلى ذٰلكَ.

---

(١) في خ: «فصل: ثمّ تأمّل حكمته تعالى في الكفّ حيث جعلها مستديرة منبسط وأصابع»!
(٢) في خ: «ومقعّرة... للكواكب والحمولة...»، وفي ط: «... أظلافًا... ولا أنيابًا».

[٧٠] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في خلقة السباع وتحريم لحومها]

ثمَّ تأمَّلِ الحكمةَ في خلقةِ الحيوانِ الذي يَأْكُلُ اللحمَ مِن البهائمِ؛ كيفَ جُعِلَتْ لهُ /خ٣٦٢/ أسنانٌ حدادٌ وبراثنُ شدادٌ وأشداقٌ مهروتةٌ[1] وأفواهٌ واسعةٌ، وأُعينَتْ بأسلحةٍ وأدواتٍ تَصْلُحُ للصَّيدِ والأكلِ! ولذٰلكَ تَجِدُ سباعَ الطَّيرِ ذواتِ مناقيرَ حدادٍ ومخالبَ كالكلاليبِ.

ولهٰذا حَرَّمَ النَّبيُّ ﷺ كلَّ ذي نابٍ مِن السِّباعِ ومخلبٍ مِن الطَّيرِ[2]؛ لضررِهِ وعدوانِهِ وشرِّهِ، والمغتذي شبيهٌ بالغاذي، فلوِ اغْتَذَى بها الإنسانُ؛ لصارَ فيهِ مِن أخلاقِها وشرِّها وعدوانِها ما يُشابِهُها[3] [بهِ]، فحَرَّمَ على الأُمَّةِ أكلَها.

ولم يُحَرِّمْ عليهِمُ الضَّبُعَ[4]؛ وإنْ كانَ ذا نابٍ؛ فإنَّهُ ليسَ مِن السِّباعِ عندَ أحدٍ مِن

---

(١) في ط: «خلق الحيوان...»، وفي خ: «... جعل له...». والمهروتة: الواسعة.

(٢) رواه مسلم (٣٤ـ الصيد، ٣ـ تحريم أكل كلّ ذي ناب، ٣/ ١٥٣٤/ ١٩٣٤) من حديث ابن عبّاس.

(٣) في خ: «ومخاليب كالمكاليب... متشبّهة بالغاذي فلو أغتذى به الإنسان... ما يشبّهها».

(٤) (صحيح). روى الشافعي في «الأمّ» (٢/ ١٩٣)، وعبدالرزّاق (٨٦٨١ و٨٦٨٢)، وابن أبي شيبة (١٥٦١٧)، وأحمد (٣/ ٢٩٧ و٣١٨ و٣٢٢)، والدارمي (٢/ ٧٤)، وابن ماجه (٢٨ـ الصيد، ١٥ـ الضبع، ٢/ ١٠٧٨/ ٣٢٣٦)، وأبو داوود (٢١ـ الأطعمة، ٣١ـ أكل الضبع، ٢/ ٣٨٢/ ٣٨٠١ و٣٠٨٥)، والترمذي (٧ـ الحجّ، ٢٨ـ الضبع يصيدها المحرم، ٣/ ٢٠٧/ ٨٥١ و١٧٩١)، والنسائي (٢٤ـ المناسك، ٨٩ـ ما لا يقتله المحرم، ٥/ ١٩١/ ٢٨٣٦// ٤٢ـ الصيد، ٢٧ـ الضبع، ٧/ ٢٠٠/ ٤٣٣٤)، وأبو يعلى (٢١٢٧ و٢١٥٩)، وابن الجارود في «المنتقى» (٤٣٨ و٨٩٠)، وابن خزيمة (٢٦٤٥ و٢٦٤٦)، والطحاوي في «معاني الآثار» (٢/ ١٦٤) و«المشكل» (٤/ ٣٧٠ و٣٧١)، وابن حبّان في «الصحيح» (٣٩٦٥) و«الثقات» (٥/ ١١٣)، وابن عدي (٢/ ٥٤٨)، والدارقطني (٢/ ٢٤٥ و٢٤٦)، والإسماعيلي في «المعجم» (٣٨٩)، والحاكم (١/ ٤٥٢)، وابن حزم في «المحلّى» (٧/ ٢٢٧ و٤٠١)، والبيهقي (٥/ ١٨٣، ٩/ ٣١٨)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (١/ ١٥٣)، والبغوي في «شرح السنّة» (١٩٩٢)، والمزّي في «التهذيب» (١٧/ ٢٣٢)؛ من طرق، عن عبدالله بن عبيد بن عمير، عن عبدالرحمٰن بن أبي عمّار؛ قال: سألت جابر بن عبدالله عن الضبع؛ أصيد هو؟ قال: نعم. قلت: آكلها؟ قال: نعم. قلت: أشيء سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. صحّحه البخاري. وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وأقرّه البغوي والمنذري. وقال الحاكم: «على شرط الشيخين»، وسكت عنه الذهبي، وتعقّبه الألباني فقال: «هو على شرط مسلم وحده؛ لأنّ عبدالرحمٰن بن أبي عمّار لم يخرّج له البخاري»، قلت: ولا خرّج لعبدالله بن عبيد بن عمير، وكلاهما ثقة من رجال مسلم. وقال البيهقي: «جيّد تقوم به الحجّة»، وأقرّه العسقلاني.

الأُمم، والتَّحريمُ إنَّما كانَ لِما تَضَمَّنَ الوصفينِ؛ أنْ يَكونَ ذا نابٍ وأنْ يَكونَ مِن السِّباعِ. ولا يُقالُ: هٰذا يَنْتَقِضُ[1] بالسَّبُعِ إذا لمْ يَكُنْ لهُ نابٌ! لأنَّ هٰذا لمْ يُوجَدْ أبدًا. فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ على مَن أُوتِيَ جوامعَ الكلمِ فأوْضَحَ الأحكامَ وبيَّنَ الحلالَ والحرامَ.

فانْظُرْ حكمةَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في خلقِهِ وأمرِهِ فيما خَلَقَهُ وفيما شَرَعَهُ؛ تَجِدْ مصدرَ ذٰلكَ كلِّهِ الحكمةَ البالغةَ التي لا يَخْتَلُّ نظامُها ولا يَنْخَرِمُ أبدًا [ولا يَخْتَلُّ أصلاً].

[٧١ ـ فصل]

[في تفاوت الناس في إدراك حكمة الخلق والأمر]

ومِن النَّاسِ مَن يَكونُ حظُّهُ مِن مشاهدةِ حكمةِ الأمرِ أعظمَ مِن مشاهدةِ حكمةِ الخلقِ. وهٰؤلاءِ خواصُّ العبادِ، الذينَ عَقَلوا عنِ اللهِ أمرَهُ ودينَهُ، وعَرَفوا حكمتَهُ فيما أحْكَمَهُ، وشَهِدَتْ[2] فطَنُهُم وعقولُهُم أنَّ مصدرَ ذٰلكَ حكمةٌ بالغةٌ وإحسانٌ [ناظرٌ][3]

= وقد توبع ابن أبي عمّار. فرواه: ابن خزيمة (٢٦٤٧ و٢٦٤٨)، والطحاوي في «المعاني» (٢/ ١٦٤ و١٦٥) و«المشكل» (٤/ ٣٧٢ و٣٧٣)، والطبراني في «الأوسط» (٩١٤٤)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ٤١٩، ٢/ ٧٨٢، ٣/ ١٠٠٢)، والدارقطني (٢/ ٢٤٦ و٢٤٧)، والحاكم (١/ ٤٥٣)، والبيهقي (٥/ ١٨٣، ٩/ ٣١٩)، والخطيب في «التاريخ» (٥/ ١٦٧)؛ من طريقين قويّتين، عن جابر. . . بذكر الأكل والصيد وبالاقتصار على الصيد برفعه وبالاقتصار على الموقوف.

وروى الشافعي (٢/ ١٩٢) نحوه عن عكرمة مرسلاً وعن ابن عبّاس موقوفًا.

وروى: الروياني (١٤٦٣)، وابن قانع في «المعجم» (٦٤٤)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ٤٣ـ مجمع)، والبيهقي (٩/ ٣١٩)؛ من طريق الحسن بن أبي جعفر، ثنا أبو محمّد، عن عبدالرحمٰن بن معقل؛ أنّه سأل النبيّ ﷺ: ما تقول في الضبع؟ قال: «لا آكله ولا أنهى عنه». قال الهيثمي: «الحسن بن أبي جعفر ضعّفه جماعة من الأئمّة ووثّقه ابن عدي وغيره». قلت: خلاصة حاله الضعف، وأبو محمّد الله أعلم من هو. والحديث ضعّفه البيهقي وابن عبدالبرّ والعسقلاني.

فهٰذه أدلّة في القوّة كما ترى في أنّ النبيّ ﷺ لم يحرّم الضبع، فهو مخصوص من عموم تحريم ذوات الأنياب والمخالب. وإليه ذهب جماعة من أهل العلم منهم الليث والشافعي وأحمد وابن حزم وابن تيميّة وابن القيّم والعسقلاني والشوكاني والألباني. والله أعلى وأعلم.

(١) في خ: «ذا ناب فإنّه ليس من السباع ولا يقال فهٰذا ينتقض».

(٢) في خ: «لا يحلّ نظامها ولا يختلّ أبدًا. . . حكمته فيما أحلّه وشهدت».

(٣) ساقطة من ط.

ومصلحةٌ أُرِيدَتْ بالعبادِ في معاشِهِم ومعادِهِم. وهُم في ذٰلكَ درجاتٌ لا يُحْصيها إلاَّ اللهُ.

ومنهُم مَن يكونُ حظُّهُ [مِن مشاهدةِ حكمةِ الخلقِ أوفرَ مِن حظِّهِ] مِن حكمةِ الأمرِ. وهُم أكثرُ الأطبّاءِ والطبائعيِّينَ، الذي صَرَفوا أفكارَهُم إلى ٱستخراجِ منافعِ النَّباتِ والحيوانِ وقواها وما تَصْلُحُ لهُ مفردةً ومركَّبةً، وليسَ لهُم نَصيبٌ في حكمةِ الأمرِ إلاَّ كما للفقهاءِ مِن حكمةِ الخلقِ بل أقلُّ مِن ذٰلكَ!

ومنهُم مَن فُتِحَ عليهِ بمشاهدةِ الخلقِ والأمرِ بحسبِ ٱستعدادِهِ وقوَّتِهِ فرَأى الحكمةَ الباهرةَ التي بَهَرَتِ العقولَ في هٰذا وهٰذا: فإذا نَظَرَ إلى خلقِهِ وما فيهِ [مِن الحكمِ]؛ ٱزْدادَ إيمانًا ومعرفةً وتصديقًا بِما جاءَتْ [بهِ] الرُّسلُ، وإذا نَظَرَ إلى أمرِهِ وما تَضَمَّنَهُ مِن الحكمِ الباهرةِ؛ ٱزْدادَ إيمانًا ويقينًا وتسليمًا. لا كمَن حُجِبَ بالصَّنعةِ عنِ الصَّانعِ وبالكواكبِ عن مُكَوْكِبِها /خ٣٦٣/ فعَمِيَ بصرُهُ وغَلُظَ عنِ اللهِ حجابُهُ، ولو أعْطى علمَهُ حقَّهُ؛ لَكانَ مِن أقوى النَّاسِ إيمانًا؛ لأنَّهُ ٱطَّلَعَ مِن حكمةِ اللهِ وباهرِ آياتِهِ وعجائبِ صنعِهِ الدَّالَّةِ عليهِ وعلى علمِهِ وقدرتِهِ وحكمتِهِ [على] ما خَفِيَ عن غيرِهِ، ولٰكنْ مِن حكمةِ اللهِ أيضًا أنْ سَلَبَ كثيرًا مِن عقولِ هٰؤلاءِ خاصِّيَّتَها[1] وحَجَبَها عن معرفتِهِ وأوْقَفَها عندَ ظاهرٍ مِن العلمِ بالحياةِ الدُّنيا وهُم عنِ الآخرةِ هُم غافلونَ؛ لدناءَتِها وخسَّتِها وحقارتِها وعدمِ أهليَّتِها لمعرفتِهِ ومعرفةِ أسمائِهِ وصفاتِهِ وأسرارِ دينِهِ وشرعِهِ، والفضلُ بيدِ اللهِ يُؤْتيهِ مَن يَشاءُ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ.

وهٰذا بابٌ لا يَطَّلِعُ الخلقُ منهُ على ما لهُ نسبةٌ إلى الخافي عنهُم منهُ أبدًا، بل علمُ الأوَّلينَ والآخرينَ منهُ كنقرةِ العصفورِ مِن البحرِ[2]. ومعَ هٰذا؛ فليسَ ذٰلكَ بموجبٍ للإعراضِ عنهُ واليأسِ منهُ، بل يَسْتَدِلُّ العاقلُ بِما ظَهَرَ لهُ منهُ على ما وراءَهُ.

---

(١) في خ: «وإذا نظرت إلى أمره... عن الصانع... الله وبراهينه وعجائب... هٰؤلاء خاصّها».

(٢) ذكرني قدّس الله روحه بقول أستاذ الأمراض العصبيّة في آخر محاضراته: أنتم تعلمون اليوم أشياء كثيرة عن الجملة العصبيّة. فإن تخصّصتم في هٰذا الفرع؛ تبيّن لكم أنّ ما تجهلونه عنها أعظم ممّا تعلمونه، فإن توسّعتم ودخلتم عالم الأبحاث؛ تبيّن لكم أنّكم لا تعلمون شيئًا عن الجملة العصبيّة.

[٧٢] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في أستقلال أولاد البهائم بأنفسها]

ثمَّ تأمَّلْ أولادَ ذواتِ[(١)] الأربعِ مِن الحيوانِ؛ كيفَ تَراها تَتْبَعُ أُمَّهاتِها مستقلَّةً بأنفسِها[(٢)] فلا تَحْتاجُ إلى الحملِ والتَّربيةِ كما يَحْتاجُ إليهِ أولادُ الإنسِ! فمِن أجلِ أنَّهُ ليسَ [عندَ] أُمَّهاتِها ما عندَ أُمَّهاتِ البشرِ مِن التَّربيةِ والملاطفةِ والرِّفقِ والآلاتِ المتَّصلةِ والمنفصلةِ؛ أعْطاها اللطيفُ الخبيرُ النُّهوضَ والاستقلالَ بأنفسِها على قربِ العهدِ بالولادةِ.

وكذٰلكَ تَرى فراخَ[(٣)] كثيرٍ مِن الطَّيرِ كالدَّجاجِ والدُّرَّاجِ [والقَبَجِ][(٤)] يَدْرُجُ ويَلْقُطُ حينَ يَخْرُجُ مِن البيضةِ[(٥)]، وما كانَ منها ضعيفَ النُّهوضِ كفراخِ الحمامِ واليَمامِ؛ أعْطى سبحانَهُ أُمَّهاتِها مِن فضلِ[(٦)] العطفِ والشَّفقةِ والحنانِ ما تَمُجُّ بهِ الطُّعْمَ في أفواهِ الفراخِ مِن حواصلِها[(٧)]، فتُخَبِّئُهُ في أعزِّ مكانٍ فيها، ثمَّ تَسوقُهُ مِن فيها إلى أفواهِ الفراخِ، ولا تَزالُ كذٰلكَ حتَّى يَنْهَضَ الفرخُ ويَسْتَقِلَّ بنفسِهِ. وذٰلكَ كلُّهُ مِن حظِّها وقسمِها الذي وَصَلَ إليها مِن الرَّحمةِ الواحدةِ مِن المئةِ[(٨)]. فإذا ٱسْتَقَلَّ بنفسِهِ وأمْكَنَهُ الطَّيرانُ؛ لمْ يَزَلْ بهِ الأبوانِ يُعالِجانِهِ أتمَّ معالجةٍ وألطفَها حتَّى يَطيرَ مِن وكرِهِ ويَسْتَرْزِقَ لنفسِهِ ويَأْكُلَ مِن

---

(١) في ط: «تأمل أولي ذوات»! وفي خ: «تأمّل أوّلاً ذوات»! وكلاهما تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) يعني: في الحركة عمومًا وفي تناول الطعام أحيانًا. وأمّا تدبير أمورها والبحث عن طعامها وصيدها والدفاع عن أنفسها؛ فلا تستقلّ فيه إلاّ بعد حين يطول أو يقصر. وهٰذا بحسب العامّ الغالب، وإلاّ؛ فمن الحيوانات ما يحمل أولاده ويعنى بها كالجرابيّات (الكنغر وأشباهه) والقرود.

(٣) في خ: «مشتغلة بأنفسها... فمن أجل الله ليس...»، وفي ط: «... ولذٰلك ترى أفراخ».

(٤) الدرّاج: طائر يشبه الدجاج. والقبج: الحجل.

(٥) لو كانت الدجاجة تربّي صغارها وتطعمها من حواصلها؛ لما ٱستطاع الإنسان أن يستحدث هٰذه المداجن الواسعة ولصار الدجاج نادرًا لا يفي بحاجة الناس.

(٦) في ط: «من فضله»! وليس كذٰلك. وفضل العطف: العطف الزائد.

(٧) تمجّ: تبصق. الطعم: الطعام. الحوصلة: المعدة الأولى للطائر التي تبلّل الحبّ وتليّنه.

(٨) روى: البخاري (٨١ـ الرقاق، ١٩ـ الرجاء مع الخوف، ١١/٣٠١/٦٤٦٩)، ومسلم (٤٩ـ التوبة، ٤ـ سعة رحمة الله، ٤/٢١٠٨/٢٧٥٢)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ؛ قال: «جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعًا وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذٰلك الجزء تتراحم الخلائق، حتّى ترفع الدابّة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه». وهٰذا لفظ مسلم.

حيثُ يأْكُلانِ، [ثمَّ يتْرُكانِه](١) كأنَّهُما لمْ يَعْرِفاه(٢) ولا عَرَفَهُما قطُّ، بل يَطْرُدانِه عنِ الوكرِ [و]لا يَدعانِه وأقواتَهُما وبيتَهُما، بل يقولانِ لهُ بلسانٍ يَفْهَمُهُ: ٱتَّخِذْ لكَ وكرًا /خ٣٦٤/ وقوتًا؛ فلا وكرَ لكَ عندَنا ولا قوتَ!

فسَلِ المعطِّلَ: أهٰذا كلُّهُ عن إهمالٍ؟! ومنِ الذي ألْهَمَهُما ذٰلكَ؟! ومنِ الذي عَطَّفَهُما على الفراخِ وهيَ صغارٌ أحوجَ ما كانَتْ إليهِما ثمَّ سَلَبَ ذٰلكَ عنهُما(٣) إذا ٱسْتَغْنَتِ الفراخُ؛ رحمةً بالأُمَّهاتِ تَسْعى في مصالحِها؛ إذ لو دامَ لها ذٰلكَ؛ لأضرَّ بها وشَغَلَها عن معاشِها، لا سيَّما معَ كثرةِ ما يَحْتاجُ إليهِ أولادُها مِن الغذاءِ، فوَضَعَ فيها الرَّحمةَ والإيثارَ والحنانَ رحمةً بالفراخِ وسَلَبَها إيَّاها عندَ ٱستغنائِها رحمةً بالأُمَّهاتِ؟! أفيَجوزُ أنْ يَكونَ هٰذا كلُّهُ بلا تدبيرِ [مدبِّرٍ] حكيمٍ ولا عنايةٍ ولا لطفٍ منهُ سبحانَهُ وتَعالى؟!

لقد قامَتْ أدلَّةُ ربوبيَّتِهِ وبراهينُ إلٰهيَّتِهِ وشواهدُ حكمتِهِ وآياتُ قدرتِهِ فلا يَسْتَطيعُ العقلُ لها جحودًا إنْ هيَ إلَّا مكابرةٌ باللسانِ مِن كلِّ جحودٍ كفورٍ! أفي اللهِ شَكٌّ فاطرِ السَّماواتِ والأرضِ؟! وإنَّما يَكونُ الشَّكُّ فيما تَخْفى أدلَّتُهُ وتُشْكِلُ براهينُهُ، فأمَّا مَن لهُ في كلِّ شيءٍ محسوسٍ أو معقولٍ آيةٌ بل آياتٌ مؤدِّيَةٌ عنهُ شاهدةٌ [لهُ] بأنَّهُ اللهُ الذي لا إلٰهَ إلَّا هوَ ربُّ العالمينَ؛ فكيفَ يَكونُ فيهِ شكٌّ؟!

[٧٣] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في قوائم الحيوانات]

ثمَّ تأمَّلِ الحكمةَ البالغةَ في قوائمِ الحيوانِ؛ كيفَ ٱقْتَضَتْ أنْ تكونَ زوجًا لا فردًا إمَّا ٱثنتينِ(٤) وإمَّا أربعًا؛ لِيَتَهَيَّأَ لهُ المشيُ والسَّعيُ وتَتِمَّ بذٰلكَ مصلحتُهُ؟!

---

(١) ساقطة من خ وط، ولا بدّ منها ليستقيم السياق.

(٢) في خ: «في أعزّ مكان منها... ولا يزال بها كذٰلك حتّى ينهض... لم يعرفانه».

(٣) في خ: «بل يقولان لهما... ذٰلك عنها»! وفي خ وط: «... ألهمها... ما كانت إليها...»! وهٰذا التناوب والتقلّب بين المثنّى والجمع غير سائغ لغة، ولا يقع ممّن هو دون ابن القيّم بدرجات، ولٰكنّها أقلام الناسخين التي خبّت في هٰذه المادّة ووضعت!

(٤) في خ: «مكابرة للسان... مؤدّيه عنها شاهدة... لا فردًا أإثنين».

إذ لو كانَتْ فردًا؛ لمْ يَصْلُحْ لذٰلكَ؛ لأنَّ الماشيَ يَنْتَقِلُ ببعضِ قوائمِهِ ويَعْتَمِدُ على بعضٍ:

فذو القائمتينِ يَنْقُلُ واحدةً ويَعْتَمِدُ على الأُخرى.

وذو الأربعِ يَنْقُلُ ٱثنتينِ[1] ويَعْتَمِدُ على ٱثنتينِ، وذٰلكَ مِن خلافٍ؛ لأنَّهُ لو كانَ يَنْقُلُ قائمتينِ مِن جانبٍ ويَعْتَمِدُ على قائمتينِ مِن الجانبِ الآخرِ؛ لمْ يَثْبُتْ على الأرضِ حالَ نقلِهِ قوائمَهُ، ولكانَ مشيُهُ نقزًا كنقزِ الطَّائرِ[2]، وذٰلكَ ممَّا يُؤْذيهِ ويُتْعِبُهُ لثقلِ بدنِهِ بخلافِ الطَّائرِ، ولهٰذا إذا مَشى الإنسانُ كذٰلكَ قليلاً؛ أجْهَدَهُ وشَقَّ عليهِ؛ بخلافِ مشيِهِ الطَّبيعيِّ الذي هوَ [معينٌ] لهُ. فٱقْتَضَتِ الحكمةُ تقديمَ نقلِ اليمنى مِن يديهِ[3] معَ اليسرى مِن رجليهِ وإقرارَ يسرى اليدينِ ويمنى الرِّجلينِ، ثمَّ نقلَ الأُخريينِ كذٰلكَ، وهٰذا أسهلُ ما يَكونُ مِن المشيِ وأخفُّهُ /خ٣٦٥/ على الحيوانِ.

[٧٤] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في ظهور الحيوانات]

ثمَّ تأمَّلِ الحكمةَ البالغةَ في أنْ جَعَلَ ظهورَ الدَّوابِّ مبسوطةً كأنَّها سقفٌ على عمدِ القوائمِ؛ لِيَتَهَيَّأَ ركوبُها وتَسْتَقِرَّ الحمولةُ عليها!

ثمَّ خولِفَ هٰذا في الإبلِ، فجُعِلَ ظهورُها مسنَّمةً معقودةً كالقبوِ[4]؛ لِما خُصَّتْ بهِ مِن فضلِ القوَّةِ وعظمِ ما تَحْمِلُهُ، والأقباءُ تَحْمِلُ أكثرَ ممَّا تَحْمِلُ السُّقوفُ[5]، حتَّى قيلَ: إنَّ عقدَ الأقباءِ إنَّما أُخِذَ مِن ظهورِ الإبلِ.

---

(١) في خ: «لو كان ذٰلك فردًا... على أخرى...»، وفي ط: «... ينقل اثنتين».

(٢) في خ وط: «نقرًا كنقر الطائر»! وهو تصحيف صوابه ما أثبتّه. والنقز: الوثب أو كالوثب.

(٣) في ط: «ويتعبه لنقل بدنه... الطبيعي الذي هو له...»! وفي خ: «... من بدنه»!

(٤) القبو: القُبَّة.

(٥) وهٰذا أمر مشهور يعرفه البنّاء المبتدئ ويقرّ به المهندس المعماريّ العظيم، ولذٰلك لا تخلو المساجد الضخمة والقصور العظيمة الحديثة والقديمة والجسور من الأقواس.

[٧٥ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في توازن أعضاء الجمل]

وتأمَّلْ كيفَ لمَّا طَوَّلَ قوائمَ البعيرِ؛ طَوَّلَ عنقَهُ: لِيَتَناوَلَ المرعى مِن قيامٍ، فلو قَصُرَتْ عنقُهُ؛ [لَمْ يُمْكِنْهُ ذٰلكَ معَ طولِ قوائمِهِ. ولِيَكونَ أيضًا طولُ عنقِهِ] موازنًا للحملِ على ظهرِهِ إذا ٱسْتَقَلَّ بهِ، كما تَرى طولَ قصبةِ القَبّانِ[١]، حتَّى قيلَ: إنَّ القَبّانَ إنَّما عُمِلَ على خِلْقَةِ الجملِ[٢] مِن طولِ عنقِهِ وثقلِ ما يَحْمِلُهُ، ولهٰذا تَراهُ يَمُدُّ عنقَهُ إذا ٱسْتَقَلَّ بالحملِ كأنَّهُ يُوازِنُهُ موازنةً.

[٧٦] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في فروج الحيوانات]

ثمَّ تَأمَّلِ الحكمةَ في كونِ فرجِ الدَّابَّةِ جُعِلَ بارزًا مِن ورائِها لِيَتَمَكَّنَ الفحلُ مِن ضِرابِها! ولو جُعِلَ في أسفلِ بطنِها كما جُعِلَ للمرأةِ؛ لمْ يَتَمَكَّنِ الفحلُ مِن ضرابِها إلاَّ على الوجهِ الذي تُجامَعُ [بهِ] المرأةُ[٣].

وقد ذُكِرَ في كتبِ الحيوانِ أنَّ فرجَ الفِيْلَةِ في أسفلِ بطنِها، فإذا كانَ وقتُ الضِّرابِ؛ ٱرْتَفَعَ ونَشَزَ وبَرَزَ للفحلِ فتَمَكَّنَ[٤] مِن ضِرابِها! فلمَّا جُعِلَ في الفِيْلَةِ على خلافِ ما هوَ في سائرِ البهائمِ؛ خُصَّتْ بهٰذهِ الخاصِّيَّةِ عنها؛ لِيَتَهَيَّأَ الأمرُ الذي بهِ دوامُ النَّسلِ.

[٧٧] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في كسوة الحيوانات دون الناس]

● ثمَّ تَأمَّلْ كيفَ: كُسِيَتْ أجسامُ الحيوانِ البهيميِّ هٰذهِ الكسوةَ مِن الشَّعرِ والوبرِ

---

(١) القبّان: ميزان يستعمل للأوزان الضخمة.

(٢) في خ: «الدوابّ بتشحطه كأنها سقف... طول نصبة القبان... من حلقة الجمل».

(٣) يعني: وهٰذا غير وارد ولا ممكن في الحيوان.

(٤) في ط: «أنّ فروج الفيلة... فيتمكن»! والتصويب من خ.

والصُّوفِ، وكُسِيَتِ الطُّيورُ الرِّيشَ، وكُسِيَتْ بعضُ الدَّوابِّ مِن الجلدِ ما هوَ في غايةِ الصَّلابةِ والقوَّةِ كالسُّلَحْفاةِ، وبعضُها مِن الرِّيشِ ما هوَ كالأسنَّةِ[١]؛ كلُّ ذٰلكَ بحسبِ حاجاتِها إلى الوقايةِ مِن الحرِّ والبردِ والعدوِّ الذي يُريدُ أذاها! فإنَّها لمَّا لمْ يَكُنْ لها سبيلٌ إلى اتِّخاذِ الملابسِ واصطناعِ الكسوةِ وآلاتِ الحربِ؛ أُعينَتْ بملابسَ وكسوةٍ لا تُفارِقُها، وآلاتٍ وأسلحةٍ تَدْفَعُ [بها] عن نفسِها، وأُعينَتْ بأظلافٍ وأخفافٍ وحوافرَ لمَّا عَدِمَتِ الأحذيةَ والنِّعالَ فمعَها حذاؤُها وسقاؤُها. وخُصَّ الفرسُ والبغلُ والحمارُ بالحوافرِ لمَّا خُلِقَ للرَّكضِ والشَّدِّ والجري، وجُعِلَ ذٰلكَ لها أيضًا سلاحًا عندَ انتصافِها[٢] /خ٣٦٦/ مِن خصمِها عوضًا عنِ الصَّياصي[٣] والمخالبِ والأنيابِ والبراثنِ.

فتَأمَّلْ هٰذا اللطفَ والحكمةَ! فإنَّها لمَّا كانَتْ بهائمَ خرسًا لا عقولَ لها ولا أكفَّ ولا أصابعَ مهيَّأةٌ للانتفاعِ والدِّفاعِ ولا حظَّ لها فيما يَتَصَرَّفُ فيهِ الآدميُّونَ مِن النَّسجِ والغزلِ ولطفِ الحيلةِ؛ جُعِلَتْ كسوتُها مِن خلقتِها باقيةً عليها ما بَقِيَتْ لا تَحْتاجُ إلى الاستبدالِ بها، وأُعْطِيَتْ آلاتٍ وأسلحةً تَحْفَظُ بها أنفسَها؛ كلُّ ذٰلكَ لِتَتِمَّ الحكمةُ التي أُريدَتْ بها ومنها.

● وأمَّا الإنسانُ؛ فإنَّهُ ذو حيلةٍ وكفٌّ مهيَّأةٍ للعملِ فهيَ تَغْزِلُ وتَنْسُجُ، ويَتَّخِذُ لنفسِهِ الكسوةَ ويَسْتَبْدِلُ بها حالاً بعدَ حالٍ، ولهُ في ذٰلكَ صلاحٌ مِن جهاتٍ عديدةٍ:

منها: أنْ يَسْتَريحَ إذا خَلَعَ كسوتَهُ إذا شاءَ ويَلْبَسَها إذا شاءَ، ليسَ كالمضطرِّ إلى حملِ كسوةٍ.

ومنها: أنَّهُ يَتَّخِذُ[٤] لنفسِهِ ضروبًا مِن الكسوةِ للصَّيفِ وضروبًا للشِّتاءِ؛ فإنَّ كسوةَ الصَّيفِ لا تَليقُ بالشِّتاءِ وكسوةَ الشِّتاءِ لا تَليقُ بالصَّيفِ، فيَتَّخِذُ لنفسِهِ في كلِّ فصلٍ كسوةً موافقةً.

---

(١) كأنّه يريد القنفذ وما أشبهه.

(٢) في خ: «بحسب حاجتها . . . وجعل لها ذٰلك أيضًا سلاحًا عند انتصابها».

(٣) في خ: «من الصياصي». والتصويب من ط. والصياصي: القرون.

(٤) في خ: «من خلقها باقية . . . وأعطيت آلة . . . مهيّأة للكل . . . أنّه ليتّخذ».

ومنها: أنَّهُ يَجْعَلُها تابعةً لشهوتِهِ وإرادتِهِ.

ومنها: أنَّهُ يَتَلَذَّذُ بأنواعِ الملابسِ كما يَتَلَذَّذُ بأنواعِ المطاعمِ، فجُعِلَتْ كسوتُهُ متنوِّعةً تابعةً لاختيارِهِ كما جُعِلَتْ مطاعمُهُ كذٰلكَ، فهوَ يَكْتَسي ما شاءَ مِن أنواعِ الملابسِ المتَّخذةِ مِن النَّباتِ[1] تارةً كالقطنِ والكتَّانِ ومِن الحيوانِ تارةً كالوبرِ والصُّوفِ والشَّعرِ ومِن الدُّودِ تارةً كالحريرِ والإبْرِيْسَمِ[2] ومِن المعادنِ تارةً كالذَّهبِ والفضَّةِ، فجُعِلَتْ كسوتُهُ متنوِّعةً لِتَتِمَّ لذَّتُهُ وسرورُهُ وابْتهاجُهُ وزينتُهُ بها. وكذٰلكَ كانَتْ[3] كسوةُ أهلِ الجنَّةِ منفصلةً عنهُم كما هيَ في الدُّنيا، ليسَتْ مخلوقةً مِن أجسامِهِم كالحيوانِ، فدَلَّ على أنَّ ذٰلكَ أكملُ وأجلُّ وأبلغُ في النِّعمةِ.

ومنها: إرادةُ تمييزِهِ عنِ الحيوانِ في ملبسِهِ كما مَيَّزَهُ عنهُ في مطعمِهِ ومسكنِهِ وبيانِهِ وعقلِهِ وفهمِهِ[4].

ومنها: اختلافُ الكسوةِ واللباسِ وتباينُهُ بحسبِ تباينِ أحوالِهِ وصنائعِهِ وحربِهِ وسلمِهِ وظعنِهِ وإقامتِهِ وصحَّتِهِ ومرضِهِ ونومِهِ ويقظتِهِ ورفاهيتِهِ، فلكلِّ حالٍ مِن هٰذهِ الأحوالِ لباسٌ وكسوةٌ تَخُصُّها لا تَليقُ إلَّا بها، فلمْ يَجْعَلْ كسوتَهُ /خ٣٦٧/ في هٰذهِ الأحوالِ كلِّها واحدةً لا سبيلَ إلى الاستبدالِ بها[5]، فهٰذا مِن تكريمِهِ وتفضيلِهِ على سائرِ الحيوانِ.

[٧٨] فصل

[لماذا لا يرى شيء من الحيوانات النافقة على كثرتها]

ثمَّ تأمَّلْ خلَّةً[6] عجيبةً جُعِلَتْ للبهائمِ والوحوشِ والسِّباعِ والدَّوابِّ على كثرتِها،

---

(١) في خ: «أنّه يلتذّ... كما يلتذّ... من الثياب»، وفي ط: «... ما يشاء من...».
(٢) الإبريسم: من أنواع الحرير. وفي ضبطه لغات عدّة.
(٣) في خ: «وابتهاجه وزينته بهٰذا...»، وفي ط: «... ولذٰلك كانت».
(٤) في خ: «كما يميّزه عنه في مطعمه ومسكنه وما به وعقله وفهمه».
(٥) في خ: «الكسوة واللباس وثيابه بحسب... إلى الاستدلال بها».
(٦) خلّة: خصلة.

لا يُرى منها شيءٌ [ميِّتًا][(١)]، ولَيْسَتْ شيئًا قليلًا فتَخْفى لقلَّتِها، بل قد قيلَ: إنَّها أكثرُ مِن النَّاس!

وٱعْتَبِرْ ذٰلكَ بما تراهُ في هٰذهِ الصَّحارى مِن أسرابِ الظِّباءِ والبقرِ والوعولِ والذِّئابِ والنُّمورِ وضروبِ الهوامِّ على ٱختلافِها وسائرِ دوابِّ الأرضِ وأنواعِ الطُّيورِ التي هيَ أضعافُ أضعافِ بني آدَمَ؛ لا تَكادُ تَرى منها شيئًا ميِّتًا لا في كِناسِهِ ولا في أوكارِهِ ولا في مساقطِهِ[(٢)] ومراعيهِ وطرقِهِ ومواردِهِ ومناهلِهِ ومعاقلِهِ ومعاصمِهِ؛ إلَّا ما عَدا عليهِ عادٍ؛ إمَّا ٱفْتَرَسَهُ سبعٌ أو رَماهُ صائدٌ أو عَدا عليهِ عادٍ أشْغَلَهُ وأشْغَلَ بني جنسِهِ عن إحرازِ جسمِهِ وإخفاءِ جيفتِهِ!

فدَلَّ ذٰلكَ على أنَّها إذا أحَسَّتْ بالموتِ ولَمْ تُغْلَبْ على أنفسِها؛ كَمَنَتْ حيثُ[(٣)] لا يُوصَلُ إلى أجسامِها، وقَبَرَتْ جيفَها قبلَ نزولِ البَيْنِ بها، ولولا ذٰلكَ؛ لامْتَلأتِ الصَّحارى بجيفِها وأفْسَدَتِ الهواءَ بروائِحِها، فعادَ ضررُ ذٰلكَ بالنَّاسِ، وكانَ سبيلًا إلى وقوعِ الوباءِ[(٤)].

---

(١) ليست في خ وط، وإنّما أضفتها لاقتضاء السياق لها.

(٢) في خ: «لقلّتها بل وقد قيل... في ساقطة». والكناس: بيت الظبي. والمساقط: المواضع.

(٣) في خ: «عن إبراز جنسه وإخفاء... مكثت حيث»، وفي ط: «... على نفسها...».

(٤) أمّا أن يلجأ الحيوان عندما تخور قواه ويستسلم للموت إلى ركن آمن يقيه عدوان السباع؛ فحسن ممكن. وأمّا الحفر والدفن؛ ففيه نظر. والمختصّون المعاصرون في عالم الحيوان وعلومه يعزون الخصال المذكورة هنا لظواهر ثلاث:

أولاهما: ظاهرة الاصطفاء الطبيعي، التي تقتضي أنّ الحيوانات السليمة القويّة في القطيع هي التي تنجو من عدوان السباع بخلاف المريضة أو الضعيفة التي تسقط سريعًا في براثنها، وإنّما يأكل الذئب من الغنم القاصية. ومعلوم أنّ تكرار هٰذه الظاهرة وتتابعها اليومي مرارًا كثيرة سيخلّص القطيع من الحيوانات الضعيفة والمريضة، ويجعل الموت الطبيعيّ ظاهرة نادرة فيه.

والثانية: أنّ السباع أنفسها يأكل بعضها بعضًا ويأكل قويّها ضعيفها؛ فالأسود تأكل الأسد النافق بل والمريض وتأكل النمر والفهد إذا تمكّنت منهما، بل لا تتردّد أمّهات السباع في أكل من مات من أولادها وتقسيمه على الأحياء منهم.

والثالثة: ظاهرة التوازن الغذائي الهرميّ في بيئة الغابة، فالبقايا التي تتركها السباع من صيدها تتتابع عليها اللاحمات الأضعف، ثمّ تتخاطفها القمّامات كالضباع والنسور القرعاء حتّى تبقى عظامًا متناثرة هنا وهناك، ثمّ تأتي القوارض فالحشرات فالذباب فالنمل... وهٰكذا؛ تختفي الجثث بل والهياكل العظميّة =

وقد دَلَّ على ذٰلكَ[(١)] قولُهُ تَعالى في قصَّةِ ٱبني آدَمَ: ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرابًا يَبْحَثُ في الأرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أخيهِ قالَ يا وَيْلَتا أعَجَزْتُ أنْ أكونَ مِثْلَ هٰذا الغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أخي فَأصْبَحَ مِنَ النَّادِمينَ﴾ [المائدة: ٣١][(٢)].

وأمَّا ما جُعِلَ عيشُهُ بينَ النَّاسِ كالأنعامِ والدَّوابِّ؛ فلقدرةِ الإنسانِ على نقلِهِ وٱحتيالِهِ في دفعِ أذيَّتِهِ؛ مُنِعَ ممَّا جُعِلَ في الوحوشِ كالسِّباعِ.

فتأمَّلْ هٰذا الذي حارَ بنو آدَمَ فيهِ وفيما يَفْعَلونَ بهِ؛ كيفَ جُعِلَ طبعًا في البهائمِ، وكيفَ تَعَلَّموهُ مِن الطَّيرِ.

[٧٩ـ فصل]

[لكل مسمى من أسمه نصيب]

وتأمَّلِ الحكمةَ في إرسالِ اللهِ تَعالى لابنِ آدَمَ الغرابَ المُؤْذِنَ ٱسمُهُ بغربةِ القاتلِ مِن أخيهِ وغربتِهِ هوَ مِن رحمةِ اللهِ تَعالى وغربتِهِ مِن أبيهِ وأهلِهِ وٱستيحاشِهِ منهُم وٱستيحاشِهِم منهُ، وهوَ مِنَ الطُّيورِ التي تَنْفِرُ منها الإنسُ ومِن نعيقِها وتَسْتَوْحِشُ بها، فأرْسَلَ إليهِ مثلَ هٰذا الطَّائرِ حتَّى صارَ كالمعلِّمِ لهُ والأُستاذِ، وصارَ بمنزلةِ /خ٣٦٨/ المتعلِّمِ والمُستَدِلِّ[(٣)].

ولا تُنْكِرْ حكمةَ هٰذا البابِ وٱرتباطَ المسمَّياتِ فيهِ بأسمائِها: فقد قالَ النَّبيُّ ﷺ: «إذا بَعَثْتُمْ إليَّ بريدًا؛ فٱبْعَثُوهُ حسنَ الاسمِ حسنَ الوجهِ»[(٤)]. وكانَ يَسْأَلُ عنِ ٱسمِ

= للحيوانات النافقة والفرائس على حدّ سواء من البراري.

(١) في خ: «يوصل إلى أقسامها... الصحارى بجيفتها...»، وفي ط: «... دلّ على هٰذا».

(٢) ظاهر الآية أنّ الله سبحانه أراد أن يعرّف ابن آدم القاتل سنّة البشر في الموتى فأرسل له هٰذين الغرابين ليريه ذٰلك، فهٰذه حالة خاصّة لا تدلّ على أنّ من طبع الغربان ـ بله غيرها من الحيوان ـ أن تدفن موتاها بهٰذه الطريقة. والله أعلى وأعلم.

(٣) في خ: «وكيف تعلمون من الطير... وأهله وٱستحيائه منهم... المتعلّم والمستند».

(٤) (صحيح). وقد جاء من حديث جماعة من الصحابة وغيرهم:

* فرواه ابن النجّار في «الذيل» (١/ ١١٢ـ لآلئ) من طريق النضر بن سلمة المروزي، ثنا محمّد بن عبدالله بن حوشب الطائفيّ، ثنا سفيان الثوريّ، عن عبدالله بن محرّر، عن يزيد بن الأصمّ، عن عليّ... رفعه. وهٰذا ساقط: النضر متّهم، وابن محرّر متروك، ورواية يزيد عن عليّ منقطعة على الأرجح.

الأرضِ إذا نَزَلَها وٱسمِ الرَّسولِ إذا جاءَ إليهِ[1]. ولمَّا جاءَهُم سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو يومَ

= * ورواه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (١/ ١١٣ـ لآلئ) من طريق قويّة، عن الحسن بن دينار، عن أبي أمامة. . . رفعه. والحسن متّهم، وروايته عن أبي أمامة منقطعة.

* ورواه: ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ٣٢٩)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٤٢٦)، والديلمي في «المسند» (١/ ١١٢ـ لآلئ)، وابن النجّار في «الذيل» (١/ ١١٢ـ لآلئ)؛ من طريق النضر بن إسماعيل البجلي، عن طلحة بن عمرو الحضرمي، عن عطاء، عن ابن عبّاس. . . رفعه. قال أبو زرعة: «طلحة عن عطاء مرسل»؛ يعني: منقطع. قلت: وطلحة متروك.

* ورواه: البزّار (١٧٠١ ـ مختصر الزوائد)، والعقيلي (٣/ ١٥٨)، وابن حبّان في «المجروحين» (٢/ ٨٣) تعليقًا، والطبراني في «الأوسط» (٧٧٤٣)، وأبو الشيخ في «أخلاقه ﷺ» (٧٩٦)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ١٥٦)، والبغوي في «شرح السنّة» (٣٣٦١)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٥٩) تعليقًا، والذهبي في «الميزان» (٣/ ١٩٤) تعليقًا؛ من طريق عمر بن راشد (وقال البزّار: عمر بن أبي خثعم)، ثنا يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة. . . رفعه. وهٰذا ضعيف له علّتان: فأمّا الأولى: فقال الهيثمي (٨/ ٥٠): «في إسناد الطبراني عمر بن راشد وثّقه العجلي وضعّفه جمهور الأئمّة وبقيّة رجاله ثقات، وطريق البزّار ضعيفة». وقال البغوي: «عمر بن راشد ضعيف». قلت: ولا سيّما في روايته عن ابن أبي كثير. ومتابعة ابن أبي خثعم له ـ إن لم تكن من أخطاء الرواة ـ لا تفيده؛ فإنّه متروك أو شبه المتروك. وأمّا الثانية؛ فالمخالفة؛ فقد رواه: ابن أبي عمر في «مسنده» (١/ ١١٣ـ لآلئ)، وابن قتيبة في «الغريب» (١/ ٢٨٧)؛ من طريق همّام بن يحيى، عن يحيى بن أبي كثير، عن الحضرميّ بن لاحق، عن النبيّ ﷺ. . . به. وهمّام ثقة، فالقول قوله، والحضرميّ لا بأس بحديثه ولٰكنّ روايته عن النبيّ ﷺ معضلة. وعليه؛ فوصل الحديث عن أبي هريرة من مناكير المتروكين، والصواب أنّه من حديث الحضرميّ معضلاً. ولذٰلك أعلّه البزار والعقيلي وابن حبّان وابن الجوزي والذهبي والهيثمي والألباني.

* ورواه البزّار (١٧٠٠ ـ مختصر الزوائد) من طريق قويّة، عن قتادة، عن عبدالله بن بريدة، عن أبيه. . . رفعه. قال البزّار: «لا نعلمه رواه بهٰذا الإسناد إلّا قتادة». وقال الهيثمي: «صحيح». قلت: لٰكنّ قتادة عنعن على تدليسه وقول البخاري: «لا نعرف لقتادة سماعًا من ابن بريدة». فهٰذه شبهة ٱنقطاع، لٰكنّها شبهة غير قويّة؛ لأنّها عنعنة عن تابعيّ عاصر قتادة وساكنه في بلده فٱحتمال سماعه منه قويّ جدًّا، وأهل العلم يغتفرون هٰذا؛ لأنّ الجبال أمثال قتادة إنّما يدلّسون عن الصحابة طلبًا للعلوّ ورغبة عن الرواية عن نظرائهم ورغبة في الاختصار، فإذا ما ذكروا التابعيّ؛ ضعفت شبهة التدليس ورجح السماع، ولذٰلك مال أكثر أهل العلم كالترمذي والحاكم والبغوي والمنذري والنووي والذهبي والهيثمي والعسقلاني والألباني إلى تقوية حديث قتادة عن عبدالله بن بريدة ولم يلتفتوا إلى هٰذه الشبهة لضعفها.

وخلاصة القول أنّ المعوّل في تقوية هٰذا المتن على حديث بريدة وحده، وربّما ينتفع بمعضل الحضرمي بعض الشيء، وأمّا الطرق الأخرى المذكورة؛ فساقطة دون حدّ الاعتبار. وقد قوّى هٰذا الحديث الهيثمي والعسقلاني والسيوطي والألباني.

(١) **(صحيح)**. رواه قتادة وٱختلف عليه فيه على وجهين:

روى **أوّلهما**: أحمد (٥/ ٣٤٧)، وأبو داوود (٢٢ـ الطبّ، ٢٤ـ الطيرة، ٢/ ٤١٢/ ٣٩٢٠)، وابن أبي=

الحُدَيْبِيَةِ؛ قالَ: «قد سَهُلَ [لكُم مِن] أمرِكُم»[١]. ولمَّا أرادَ تغييرَ ٱسمِ حزنٍ بسَهْلٍ؛ قالَ: [يا رسولَ اللهِ! إنَّ السَّهلَ يُوطَأُ ويُمْتَهَنُ. قالَ: فما زالَتْ فينا الحزونةُ[٢] و][٣] لم يَزَلْ معنى ٱسمِهِ فيهِ وفي ذرِّيَّتِهِ. ولمَّا سَألَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ الرَّجلَ عنِ ٱسمِهِ وٱسمِ أبيهِ ودارِهِ ومنزلِهِ، فأخْبَرَهُ أنَّهُ جَمْرَةُ بنُ شِهابٍ وأنَّ دارَهُ بالحُرَقَةِ وأنَّ مسكنَهُ منها ذاتُ لظًى؛ قالَ لهُ: أدْرِكْ بيتَكَ فقدِ ٱحْتَرَقَ! فكانَ كما قالَ. وشواهدُ هٰذا البابِ أوسعُ مِن أنْ تُذْكَرَ هاهُنا.

وهٰذا بابٌ لطيفُ المنزعِ شديدُ المناسبةِ بينَ الأسماءِ والمسمَّياتِ، وكثيرًا ما أُولِعَ النَّاسُ قديمًا وحديثًا بنعيقِ الغرابِ وٱستدلالِهِم بهِ على البَيْنِ والاغترابِ، ويَنْسِبونَهُ إلى

= خيثمة في «التاريخ» (٧٦٢ـ صحيحة)، والبزّار (١٩٨٥ـ كشف الأستار)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٢٢)، وابن حبّان (٥٨٢٧)، وتمّام في «الفوائد» (١٠٣٢)، والبيهقي في «السنن» (٨/ ١٤٠) و«شعب الإيمان» (١١٧٠)؛ من طريق هشام الدستوائيّ، عنه، عن عبدالله بن بريدة، عن أبيه... رفعه. وهٰذا سند صحيح على ما فصّلته في الحاشية السابقة.

وروى الثاني: الطبراني في «الأوسط» (٤٧٠١)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبيّ ﷺ» (٧٨٢)؛ من طريق سعيد بن بشير، عنه، عن مطرّف بن عبدالله بن الشخّير، عن أبيه... رفعه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٥٠): «سعيد بن بشير ثقة وفيه ضعف». قلت: هو ضعيف في قتادة بالتحديد، وقد خالف الدستوائيّ الثقة الثبت، فالمعروف قول الدستوائيّ وقوله منكر.

وله شاهد عند ابن إسحاق في «السيرة» (٤/ ٩٩ـ ابن هشام) من حديث عمرو بن شعيب مرسلاً.

(١) (صحيح). رواه البخاري (٥٤ـ الشروط، ١٥ـ الشروط في الجهاد، ٥/ ٣٢٩/ ٢٧٣١ و٢٧٣٢) من طريق معمر؛ قال: أخبرني أيّوب، عن عكرمة؛ أنّه لمّا جاء سهيل... فذكره.

قال العسقلاني: «هٰذا موصول إلى معمر بالإسناد المذكور أوّلاً، وهو مرسل، ولم أقف على من وصله بذكر ابن عبّاس فيه. لٰكن له شاهد موصول عند ابن أبي شيبة من حديث سلمة بن الأكوع... وللطبراني نحوه من حديث عبدالله بن السائب» اهـ. قلت: أمّا حديث سلمة؛ فعند ابن أبي شيبة (٣٦٨٤٠) من طريق موسى بن عبيدة، عن إياس بن سلمة، عن أبيه... رفعه. وموسى ضعيف. وأمّا حديث عبدالله بن السائب؛ فعند الطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ١٤٩ـ مجمع)، قال الهيثمي: «فيه مؤمّل بن وهب المخزومي، تفرّد عنه ابنه عبدالله، وقد وثّق، وبقيّة رجاله رجال الصحيح». قلت: مؤمّل مجهول.

وعليه؛ فالشاهدان ضعيفان، ولٰكنّهما يشدّان المرسل المتقدّم ويحسّنانه على أقلّ تقدير، بل هو صحيح بهما إن شاء الله، ولا سيّما أنّ أصله في «الصحيح».

(٢) رواه البخاري (٧٨ـ الأدب، ١٠٧ـ أسم الحزن، ١٠/ ٥٧٤/ ٦١٩٠ و٦١٩١). وليس عنده بهٰذا التمام، وإنّما هو كذٰلك عند أبي داوود (٣٥ـ الأدب، ٧٠ـ تغيير الاسم القبيح، ٢/ ٧٠٧/ ٤٩٥٦) بسند صحيح رجاله ثقات رجال البخاري.

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من ط.

الشُّؤْمِ ويَنْفُرونَ منهُ[١] ويَنْفُرُ منهُم[٢]، فكانَ جديرًا أنْ يُرْسَلَ هٰذا الطَّائرُ إلى القاتلِ مِن ٱبنَيْ آدَمَ دونَ غيرِهِ مِن الطُّيورِ، فكأنَّهُ صورةُ طائرِهِ الذي أُلْزِمَهُ في عنقِهِ وطارَ[٣] عنهُ مِن عملِهِ.

ولا تظنَّ أنَّ إرسالَ الغرابِ وَقَعَ ٱتِّفاقًا خاليًا مِن الحكمةِ؛ فإنَّكَ إذا خَفِيَ عليكَ وجهُ الحكمةِ؛ فلا تُنْكِرْها، وٱعْلَمْ أنَّ خفاءَها مِن لطفِها وشرفِها، ولِلهِ تَعالى فيما يُخْفي وجهَ الحكمةِ فيهِ على البشرِ الحكمُ الباهرةُ المتضمِّنةُ للغاياتِ المحمودةِ.

[٨٠] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في وجه الدابة]

ثمَّ تأمَّلِ الحكمةَ الباهرةَ في وجهِ الدَّابَّةِ كيفَ هوَ:

فإنَّكَ تَرى العينينِ فيهِ شاخصتينِ أمامَها؛ لِتُبْصِرَ ما بينَ يديها أتمَّ مِن بصرِ غيرِها؛ لأنَّها تَحْرُمُ نفسَها وراكبَها فتتَّقي أنْ تَصْدِمَ حائطًا أو تَتَرَدَّى في حفرةٍ، جُعِلَتْ عيناها كعيني المنتصبِ القامةِ؛ لأنَّها طليعتُهُ.

وجُعِلَ فوها مشقوقًا[٤] في أسفلِ الخطمِ؛ لِتَتَمَكَّنَ مِن العضِّ والقبضِ على العلفِ؛ إذْ لو كانَ فوها في مقدَّمِ الخطمِ كما أنَّهُ مِن الإنسانِ في مقدَّمِ الذَّقنِ؛ لما ٱسْتَطاعَتْ أنْ تَتَناوَلَ بهِ شيئًا مِن الأرضِ، ألا تَرى الإنسانَ لا يَتَناوَلُ الطَّعامَ بفيهِ لٰكنْ بيدِهِ؟ فلمَّا لمْ تكُنِ الدَّابَّةُ /خ٣٦٩/ تَتَناوَلُ [طعامَها] بيدِها؛ جُعِلَ خطمُها مشقوقًا مِن أسفلِهِ؛ لِتَضَعَهُ على العلفِ ثمَّ تَقْضَمُهُ. وأُعِينَتْ بالجَحْفَلَةِ ـ وهيَ لها كالشَّفةِ للإنسانِ ـ لِتَلْتَقِمَ[٥] بها ما قَرُبَ منها وما بَعُدَ.

---

(١) في ط: «الباب أكثر من أن نذكرها هاهنا...»، وفي خ: «... وينسبونها... منها».

(٢) ولا يذهبنّ بك الظنّ إلى مشروعيّة التطيّر بالغراب والبوم ونحوها، ولا إلى أنّ ابن القيّم يرى مشروعيّة ذٰلك، وإنّما ساقه هنا بيانًا لما عند الناس في هٰذه القضيّة، وترك التفصيل فيها لموضع آخر يبيّن فيه أنّ «الطيرة باب من الشرك وإلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته»، فأنظره في الباب الخامس من هٰذا الكتاب.

(٣) في خ: «هٰذا الطائر إلى العامل من بني آدم... عنقه وصار».

(٤) في خ: «وراكبها فبقي أن تصطدم حائطًا ويتردّى... لأنّها طليعة... فوها مستوفيًا».

(٥) في خ: «في مقدّمة الذقن... أسفله لتضعفه على... للإنسان لتقمقم».

[٨١ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في الذنب]

وقد أشْكَلَتْ منفعةُ الذَّنبِ على بعضِ النَّاسِ ولَمْ يَهْتَدِ إليها، وفيها منافعُ عديدةٌ:

فمنها: أنَّهُ بمنزلةِ الطَّبقِ على الدُّبُرِ والغطاءِ على حياها يُواريهما ويَسْتُرُهُما[١].

ومنها: أنَّ بينَ الدُّبرِ ومراقِّ البطنِ مِن الدَّابَّةِ لهُ وَضَرٌ[٢] يَجْتَمِعُ عليهِ الذُّبابُ والبعوضُ فيُؤْذي الدَّابَّةَ، فجُعِلَ أذنابُها كالمذابِّ لها والمراوحِ تَطْرُدُ بهِ ذٰلكَ.

ومنها: أنَّ الدَّابَّةَ تَسْتَريحُ إلى تحريكِهِ وتصريفِهِ يمنةً ويسرةً؛ فإنَّهُ لمَّا كانَ قيامُها على الأربعِ بكلِّ جسمِها، وشُغِلَتْ قدماها بحملِ البدنِ عنِ التَّصرُّفِ والتَّقلُّبِ؛ كانَ لها في تحريكِ الذَّنبِ راحةٌ.

وعَسى أنْ يَكونَ فيهِ حكمٌ أُخرُ تَقْصُرُ عنها أفهامُ الخلقِ أو يَزْدَريها السَّامعُ إذا عُرِضَتْ عليهِ؛ لأنَّهُ لا يَعْرِفُ[٣] موقعَها إلَّا في وقتِ الحاجةِ. فمِن ذٰلكَ أنَّ الدَّابَّةَ تَرْبِضُ في الوحلِ فلا يَكونُ شيءٌ أعونَ على رفعِها مِن الأخذِ بذنبِها[٤]!

[٨٢] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في خرطوم الفيل]

ثمَّ تأمَّلْ مِشْفَرَ الفيلِ[٥] وما فيهِ مِن الحكمِ الباهرةِ: فإنَّهُ يَقومُ [لهُ] مقامَ اليدِ في تناولِ العلفِ والماءِ وإيرادِهِما إلى جوفِهِ، ولولا ذٰلكَ؛ ما ٱسْتَطاعَ أنْ يَتَناوَلَ شيئًا مِن

---

(١) الطبق: الغطاء. الدبر: الشرج. الحيا: الفرج. وهٰذه المنفعة هي منفعة جماليّة؛ لأنّ الإنسان يشمئزّ من منظر هٰذه الأعضاء المكشوفة.

(٢) مراقّ البطن: أسافله. وضر: وسخ، أقذار.

(٣) في خ: «فلأنّه لا يعرف»! وفي ط: «فإنّه لا يعرف»! والصواب ما أثبتّه.

(٤) تربض في الوحل: تقف فيه وتعلق. الأخذ بذنبها: الإمساك به وشدّه لإعانة الدابّة على التخلّص من الوحل الذي علقت به. هٰذا؛ وللذيل أيضًا دور كبير في التوازن الحركي عند كثير من ذوات الذيل، وبدونه تصبح حركة هٰذه الحيوانات مضطربة. وبعض ذوات الذيل ـ كالقرود ـ تتعلّق وتتسلّق بوساطة ذيلها... وغير ذٰلك كثير يعسر على غير المختصّين تتبّعه.

(٥) في خ: «شفر الفيل»! والمشفر: الشفة الغليظة. ومشفر الفيل: خرطومه.

الأشياءِ مِن الأرضِ؛ لأنَّهُ ليسَتْ لهُ عنقٌ يَمُدُّها كسائرِ الأنعامِ، فلمَّا عَدِمَ العنقَ؛ أُخْلِفَ عليهِ مكانَهُ الخرطومُ الطَّويلُ لِيَسُدَّ مسدَّهُ. وجُعِلَ قادرًا على سدلِهِ ورفعِهِ [وثنيِهِ] والتَّصرُّفِ بهِ كيفَ شاءَ. وجُعِلَ وعاءً أجوفَ ليِّنَ الملمسِ، فهوَ يَتَناوَلُ بهِ حاجتَهُ، ويَحْمِلُ ما أرادَ إلى جوفِهِ، ويَحْبِسُ فيهِ[1] ما يُريدُ، ويَكيدُ بهِ إذا شاءَ، ويُعْطي ويَتَناوَلُ إذا أرادَ.

فسَلِ المعطِّلَ: مَنِ الذي عَوَّضَهُ وأَخْلَفَ عليهِ مكانَ العضوِ الذي مُنِعَهُ ما يَقومُ لهُ مقامَهُ ويَنوبُ منابَهُ غيرُ الرَّؤوفِ الرَّحيمِ بخلقِهِ المتكفِّلِ بمصالحِهِم اللطيفِ بهِم؟! وكيفَ يَتَأتَّى ذٰلكَ معَ الإهمالِ وخلوِّ العالمِ عن قيِّمِهِ وبارئِهِ ومبدعِهِ وفاطرِهِ لا إلٰهَ إلاَّ هوَ العزيزُ الحكيمُ؟!

فإنْ قُلْتَ: فما بالُهُ لمْ يُخْلَقْ ذا عُنُقٍ كسائرِ الأنعامِ؟! وما الحكمةُ في ذٰلكَ؟!

قيلَ ـ واللهُ أعلمُ [بحكمتِهِ] في /خ٣٧٠/ مصنوعاتِهِ ـ: لأنَّ رأْسَهُ وأُذنيهِ أمرٌ هائلٌ [عظيمٌ] وحملٌ ثقيلٌ[2]، فلو كانَ ذا عنقٍ كسائرِ الأعناقِ؛ لانْهَدَّتْ رقبتُهُ بثقلِهِ ووَهَنَتْ بحملِهِ، فجُعِلَ رأْسُهُ ملصقًا بجسمِهِ؛ لئلاَّ يَنالَهُ منهُ شيءٌ مِن الثِّقلِ والمؤنةِ، وخُلِقَ لهُ مكانَ العنقِ هٰذا المِشْفَرُ الطَّويلُ يَتَناوَلُ بهِ غذاءَهُ.

ولمَّا طالَتْ عنقُ البعيرِ للحكمةِ في ذٰلكَ؛ صَغُرَ رأْسُهُ بالنِّسبةِ إلى عظمِ جثَّتِهِ؛ لئلاَّ يُؤْذِيَهُ ثقلُهُ ويُوهِنَ عنقَهُ[3].

فسبحانَ مَن فاقَتْ حِكَمُهُ[4] عَدَّ العادِّينَ وحصرَ الحاصرينَ.

[٨٣] فصل

[في بدائع صنعته تعالى في خلقة الزرافة]

ثمَّ تَأمَّلْ خلقَ الزَّرافةِ وٱختلافَ أعضائِها وشبهَها بأعضاءِ جميعِ الحيوانِ: فرأْسُها

---

(١) في ط: «يقوم مقام. . . ويحمله ما أراد. . . ويحبس منه»، وفي خ: «. . . عنق يمدّ بها. . .».

(٢) في خ: «العالم فيه وبارئه. . . هائل بل ثقيل»، وفي ط: «. . . أعلم في مصنوعاته. . .».

(٣) في خ: «لئلا ينال منه شيء. . . ثقله ووهن عنقه».

(٤) في خ: «من قامت أدلة حكمته»! وفي ط: «من فاتت حكمه»! وكلاهما تحريف صوابه ما أثبتّه.

رأْسُ فرسٍ، وعنقُها عنقُ بعيرٍ، وأظلافُها أظلافُ بقرةٍ، وجلدُها جلدُ نَمِرٍ!

حتَّى زَعَمَ بعضُ النَّاسِ أنَّ لقاحَها مِن فحولٍ شتَّى، وذَكَروا أنَّ أصنافَها مِن حيوانِ البرِّ، إذا وَرَدَتِ الماءَ؛ يَنْزو بعضُها على بعضٍ، فتَنْزو المستوحشةُ على السَّائمةِ، فتُنْتَجُ مثلَ هٰذا الشَّخصِ الذي هوَ كالملتقَطِ مِن أُناسٍ شتَّى!

وما أرى هٰذا القائلَ إلاَّ كاذبًا عليها وعلى الخلقةِ؛ إذْ ليسَ في الحيوانِ صنفٌ يُلْقِحُ صنفًا آخرَ؛ فلا الجملُ يُلْقِحُ البقرَ، ولا الثَّورُ يُلْقِحُ النَّاقةَ، ولا الفرسُ يُلْقِحُهُما[1] ولا يُلْقِحانِهِ، ولا الوحوشُ تُلْقِحُ بعضُها بعضًا ولا الطُّيورُ. وإنَّما يَقَعُ هٰذا نادرًا فيما يَتَقارَبُ كالبقرِ الوحشيِّ والأهليِّ [والضَّأْنِ والمعزِ والفرسِ والحمارِ والذِّئبِ والضَّبعِ، فيَتَوَلَّدُ مِن ذٰلكَ البغلُ والسِّمعُ والعِسبارُ.

وقولُ الفقهاءِ: «هل تَجِبُ الزَّكاةُ في المتولِّدِ مِن الوحشيِّ والأهليِّ]؟ فيهِ وجهانِ»: هٰذا إنَّما يُتَصَوَّرُ في واحدٍ أوِ اثْنينِ أو ثلاثةٍ يَكْمُلُ بها النِّصابُ، فأمَّا نصابُ كلِّ متولِّدٍ مِن الوحشيِّ والأهليِّ؛ فلا وجودَ لذٰلكَ!

والأحكامُ المتعلِّقةُ بهٰذهِ المتولِّداتِ تُذْكَرُ في الزَّكاةِ وجزاءِ الصَّيدِ والأضاحي والأطعمةِ فيُغَلَّبُ في كلِّ بابٍ الأحوطُ: ففي الأضاحي يُغَلَّبُ عدمُ الإجزاءِ[2]، وفي الإحرامِ والحرمِ يُغَلَّبُ وجوبُ الجزاءِ، وفي الأطعمةِ يُغَلَّبُ جانبُ التَّحريمِ، وفي الزَّكاةِ اختلافٌ مشهورٌ[3].

وسُئِلَ شيخُنا أبو العبَّاسِ بنُ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ عن حمارٍ نَزا على فرسٍ فأَحْبَلَها؛ فهل يَكونُ لبنُ الفرسِ حلالاً أو حرامًا؟ فأجابَ بأنَّهُ حلالٌ، ولا حكمَ للفحلِ

(١) في خ: «ينزو بعضها عن بعض...»، وفي ط: «... ولا الفرس يلقحها».

(٢) في خ: «تذكر في الذكورة وجزاء الصيد والأضاحي والأحوط فيغلَّب... عدم الجزاء»! وفي ط: «... والأضاحي والأحوط...»! وكلاهما تحريف! ولا محلّ لتكرار «الأحوط» هنا، وإنّما هي محرّفة عن «الأطعمة» كما يدلّ عليه السياق. والله أعلم.

(٣) تغليب الأحوط سليم على سبيل الورع الفردي، وأمّا أن تناط الأحكام الفقهيّة به؛ فلا يخلو من نظر! إذ كيف يكون الحيوان الواحد صيدًا يجب فيه الجزاء وحرامًا لا يؤكل؟! هٰذا تناقض تتنزّه عنه الشريعة المحكمة! ولذٰلك لم يلتفت شيخ الإسلام إلى هٰذا الباب في فتواه الآتية بعد هٰذا مباشرة، فاقرأها وتأمّل.

في اللبنِ في هٰذا الموضعِ، بخلافِ الأناسيِّ؛ لأنَّ لبنَ الفرسِ حادثٌ مِن العلفِ فهوَ تابعٌ للحمِها، ولمْ يَسْرِ وَطْءُ الفحلِ إلى هٰذا /خ٣٧١/ اللبنِ؛ فإنَّهُ لا حرمةَ هناكَ تَنْتَشِرُ؛ بخلافِ لبنِ الفحلِ في الأناسيِّ؛ فإنَّهُ تَنْتَشِرُ بِهِ حرمةُ الرِّضاعِ. ولا حرمةَ هاهُنا[1] تَنْتَشِرُ مِن جهةِ الفحلِ [إلَّا] إلى الولدِ خاصَّةً؛ فإنَّهُ يَتكَوَّنُ منهُ ومِن الأُمِّ، فغَلَبَ عليهِ التَّحريمُ. وأمَّا اللبنُ؛ فلمْ يَتكَوَّنْ بوطئِهِ، وإنَّما تَكَوَّنَ مِن العلفِ، فلم يَكُنْ حرامًا. هٰذا بسطُ كلامِهِ وتقريرُهُ.

والمقصودُ إبطالُ زعمِ أنَّ هٰذهِ الحيواناتِ المختلفةَ يُلَقِّحُ بعضُها بعضًا [عندَ المواردِ] فتتَكَوَّنُ الزَّرافةُ، وأنَّهُ كاذبٌ عليها وعلى الإبداعِ!

والذي يَدُلُّ على كذبِهِ أنَّهُ ليسَ الخارجُ مِن بينِ ما ذَكَرْنا مِن الفرسِ والحمارِ والذِّئبِ والضَّبعِ [والضَّأْنِ] والمعزِ لهُ عضوٌ مِن كلٍّ[2] واحدٍ مِن أبيهِ وأُمِّهِ كما يكونُ للزَّرافةِ عضوٌ مِن الفرسِ وعضوٌ مِن الجملِ، بل يكونُ كالمتوسِّطِ بينَهُما الممتزجِ منهُما، كما نُشاهِدُهُ في البغلِ؛ فإنَّكَ تَرى رأْسَهُ وأُذنيهِ وكَفَلَهُ وحوافرَهُ وسطًا بينَ أعضاءِ أبيهِ وأُمِّهِ مشتقَّةً منهُما، حتَّى تَجِدَ شحيجَهُ[3] كالممتزجِ مِن صهيلِ الفرسِ ونهيقِ الحمارِ.

فهٰذا يَدُلُّ على أنَّ الزَّرافةَ ليسَ بنتاجٍ لآباءٍ[4] مختلفةٍ كما زَعَمَ هٰذا الزَّاعمُ، بل مِن خلقٍ عجيبٍ وصنعٍ بديعٍ مِن خلقِ اللهِ الذي أبْدَعَهُ آيةً ودلالةً على قدرتِهِ وحكمتِهِ التي لا يُعْجِزُها شيءٌ؛ لِيُرِيَ عبادَهُ أنَّهُ خالقُ أصنافِ الحيوانِ كلِّها كما يَشاءُ وفي أيِّ لونٍ شاءَ: فمنها المتشابهُ الخلقةِ المتناسبُ الأعضاءِ، ومنها المختلفُ التَّركيبِ والشَّكلِ والصُّورةِ[5]. كما أرى عبادَهُ قدرتَهُ التَّامَّةَ في خلقِهِ لنوعِ الإنسانِ على الأقسامِ الأربعةِ الدَّالَّةِ على أنَّهُ مخلوقٌ بقدرتِهِ ومشيئتِهِ تابعٌ لها: فمنهُ ما خُلِقَ مِن غيرِ أبٍ ولا أُمٍّ، وهوَ

---

(١) يعني: في قضيّة الحمار والفرس. ووقع في خ: «ولا حرمة هناك»، ولا يصحّ.

(٢) في خ: «بوطئه إمّا تكوّن من العلف...»، وفي ط: «... والمعز عضوًا من كلّ».

(٣) الكفل: العجز. الشحيج: صوت البغل.

(٤) في ط: «الفرس وعضوًا من الجمل... وهٰذا يدلّ... بنتاج آباء».

(٥) لٰكنّه يتناسب مع بيئته التي يعيش فيها وطعامه وصيده وأعدائه أبدع تناسب وأعظمه.

أبو النَّوعِ الإنسانيِّ. ومنهُ ما خُلِقَ مِن ذكرٍ بلا أُنثى، وهيَ أُمُّهُمُ التي خُلِقَتْ مِن ضِلَعِ آدَمَ. ومنهُ ما خُلِقَ مِن أُنثى بلا ذكرٍ، وهوَ المسيحُ ابنُ مَرْيَمَ. ومنهُ ما خُلِقَ مِن ذكرٍ وأُنثى، وهوَ سائرُ النَّوعِ الإنسانيِّ. لِيُرِيَ عبادَهُ آياتِهِ ويَتَعَرَّفَ إليهِم بآلائِهِ وقدرتِهِ [و]أنَّهُ إذا أرادَ شيئًا فإنَّما يَقولُ لهُ كُنْ فيَكونُ.

وأمَّا طولُ عنقِ الزَّرافةِ وما لها فيهِ مِن المصلحةِ؛ فلأنَّ منشأها ومرعاها ـ كما ذَكَرَ المعتنونَ بمحالِّها[1] ومساكنِها ـ في عياطِلَ[2] ذواتِ أشجارٍ /خ٣٧٢/ شاهقةٍ ذاهبةٍ طولاً؛ [فـ]ـأُعينَتْ بطولِ العنقِ لِتَتَناوَلَ [أطرافَ] الشَّجرِ الذي هناكَ وثمارَها. وهٰذا ما وَصَلَتْ إليهِ معرفتُهُم، وحكمةُ اللطيفِ الخبيرِ فوقَ ذٰلكَ وأجلُّ منهُ.

[٨٤] فصل

[في عجائب فطنة النمل وسعة حيلته]

ثمَّ تأمَّلْ هٰذهِ النَّملةَ الضَّعيفةَ وما أُعْطِيَتْهُ مِن الفطنةِ والحيلةِ في جمعِ القوتِ وادِّخارِهِ وحفظِهِ ودفعِ الآفةِ [عنهُ]؛ فإنَّكَ تَرى في ذٰلكَ عبرًا وآياتٍ!

فتَرى جماعةَ النَّملِ إذا أرادَتْ إحرازَ القوتِ؛ خَرَجَتْ مِن أسرابِها طالبةً لهُ، فإذا ظَفِرَتْ بهِ؛ أخَذَتْ طريقًا مِن أسرابِها إليهِ وشَرَعَتْ في نقلِهِ، فتَراها رفقتينِ: رفقةً حاملةً تَحْمِلُهُ إلى بيوتِها سربًا ذاهبًا، ورفقةً خارجةً مِن بيوتِها إليهِ لا تُخالِطُ تلكَ في طريقِها بل هُما كالخيطينِ بمنزلةِ جماعةِ النَّاسِ الذَّاهبينَ في طريقٍ والجماعةِ الرَّاجعينَ مِن جانبِهِم.

فإذا ثَقُلَ عليها حملُ الشَّيءِ مِن ذٰلكَ؛ اجْتَمَعَتْ عليهِ جماعةٌ مِن النَّملِ وتَساعَدَتْ على حملِهِ بمنزلةِ الخشبةِ والحجرِ الذي تَتَساعَدُ الفئةُ مِن النَّاسِ عليهِ: فإذا كانَ الذي ظَفِرَ بهِ منهنَّ واحدةً؛ ساعَدَها رفقتُها عليهِ إلى بيتِها وخَلَّوْا بينَها وبينَهُ، وإنْ كانَ الذي صادَفَهُ جماعةً؛ تَساعَدْنَ عليهِ ثمَّ تَقاسَمْنَهُ[3] على بابِ البيتِ.

---

(١) في خ: «كما يري . . . الأقسام الرابعة . . . بحالها»، وفي ط: «. . . شيئًا أن يقول . . .».

(٢) عياطل: جمع عيطل، وهو الطويل، وكأنّه يريد هنا بالعياطل الغابات ذات الأشجار العالية.

(٣) في خ: «الآفة عنه كأنّك . . . الراجعين من جانبهم طريق فإذا . . . تساعدت عليه ثمّ تقاسمته».

ولقد أخْبَرَ بعضُ الصَّادقينَ أنَّهُ شاهَدَ منهُنَّ يومًا عجبًا؛ قالَ: رَأَيْتُ نملةً جاءَتْ إلى شقِّ جرادةٍ؛ فزاوَلَتْهُ، فلمْ تُطِقْ حملَهُ مِن الأرضِ، فذَهَبَتْ غيرَ بعيدٍ، ثمَّ جاءَتْ معَها بجماعةٍ مِن النَّملِ. قالَ: فرَفَعْتُ ذٰلكَ الشِّقَّ مِن الأرضِ، فلمَّا وَصَلَتِ النَّملةُ برفقتِها إلى مكانِهِ؛ دارَتْ حولَهُ ودُرْنَ معَها، فلمْ يَجِدْنَ شيئًا، فرَجَعْنَ. فوَضَعْتُهُ، ثمَّ جاءَتْ فصادَفَتْهُ، فزاوَلَتْهُ، فلمْ تُطِقْ رفعَهُ مِن الأرضِ، فذَهَبَتْ غيرَ بعيدٍ، ثمَّ جاءَتْ بهنَّ. فرَفَعْتُهُ، فدُرْنَ حولَ مكانِهِ، فلمْ يَجِدْنَ شيئًا، فذَهَبْنَ. فوَضَعْتُهُ، فعادَتْ، فجاءَتْ بهنَّ. فرفَعْتُهُ، فدُرْنَ حولَ المكانِ، فلمَّا لمْ يَجِدْنَ شيئًا؛ تَحَلَّقْنَ حلقةً، وجَعَلْنَ تلكَ النَّملةَ في وسطِها، ثمَّ تَحامَلْنَ عليها فقَطَّعْنَها [قطعًا] عضوًا[1] عضوًا وأنا أنْظُرُ!

ومِن عجيبِ [أمرِ] الفطنةِ فيها إذا نَقَلَتِ الحبَّ إلى مساكنِها؛ كَسَرَتْهُ لئلاَّ يَنْبُتَ، فإنْ كانَ ممَّا يَنْبُتُ الفلقتانِ منهُ؛ كَسَرَتْهُ أربعًا! فإذا أصابَهُ ندًى [أ]و بللٌ وخافَتْ /خ٣٧٣/ عليهِ الفسادَ؛ أخْرَجَتْهُ للشَّمسِ، ثمَّ تَرُدُّهُ إلى بيوتِها! ولهٰذا تَرى في بعضِ الأحيانِ حبًّا كثيرًا على أبوابِ مساكنِها مكسَّرًا، ثمَّ تَعودُ عن قريبٍ فلا تَرى منهُ واحدةً.

ومِن فطنتِها أنَّها لا تَتَّخِذُ قريتَها إلاَّ على نَشْزٍ مِن الأرضِ[2]؛ لئلاَّ يَفيضَ عليها السَّيلُ فيُغْرِقَها، فلا تَرى قريةَ نملٍ في بطنِ وادٍ ولٰكنْ في أعلاهُ وما ٱرْتَفَعَ عنِ السَّيلِ منهُ.

ويَكْفي مِن فطنتِها ما نَصَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في كتابِهِ مِن قولِها لجماعةِ النَّملِ وقد رَأَتْ سُلَيْمانَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وجنودَهُ: ﴿يا أيُّها النَّمْلُ ٱدْخُلوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرونَ﴾ [النمل: ١٨]. فتكَلَّمَتْ بعشرةِ أنواعٍ مِن الخطابِ في هٰذهِ النَّصيحةِ: النِّداءِ، والتَّنبيهِ، والتَّسميةِ، والأمرِ، والنُّصحِ[3]، والتَّحذيرِ، والتَّخصيصِ، [والتَّفهيمِ]، والتَّعميمِ، والاعتذارِ. فٱشْتَمَلَتْ نصيحتُها معَ الاختصارِ على هٰذهِ الأنواعِ العشرةِ. ولذٰلكَ أَعْجَبَ سُلَيْمانَ قولُها، وتَبَسَّمَ ضاحكًا منهُ، وسَأَلَ اللهَ أنْ يُوزِعَهُ شكرَ نعمتِهِ عليهِ لمَّا سَمِعَ كلامَها.

---

(١) في خ: «ولقد أخبرني... فوضعته فجاءته فصادفته... قطعًا عضوًا».

(٢) على نشز من الأرض: على مكان مرتفع منها.

(٣) في ط: «نقلت الحبّ إلاّ مساكنها... والأمر والنصّ»، وفي خ: «... عن السيل منه...».

ولا تُسْتَبْعَدُ هٰذِهِ الفطنةُ مِن أُمَّةٍ مِن الأُممِ تُسَبِّحُ بحمدِ [اللهِ] ربِّها كما في «الصَّحيح»(١) عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «نَزَلَ نبيٌّ مِن الأنبياءِ تحتَ شجرةٍ، فلَدَغَتْهُ نملةٌ، فأَمَرَ بجَهازِهِ فأُخْرِجَ، ثمَّ [أ]حْرَقَ قريةَ النَّملِ، فأوْحى اللهُ إليهِ: مِن أجلِ أنْ لَدَغَتْكَ نملةٌ أحْرَقْتَ أُمَّةً مِن الأُممِ تُسَبِّحُ، فهلاَّ نملةً واحدةً!».

[٨٥] فصل

[في عجائب فطنة الحيوان في صيده]

ومِن عجيبِ الفطنةِ في الحيوانِ: أنَّ الثَّعلبَ إذا أعْوَزَهُ الطَّعامُ ولمْ يَجِدْ صيدًا؛ تَماوَتَ ونَفَخَ بطنَهُ حتَّى يَحْسِبَهُ الطَّيرُ ميتًا، فيقَعَ عليهِ ليَأْكُلَ منهُ، فيَثِبَ الثَّعلبُ عليهِ فيأْخُذَهُ.

ومِن عجيبِ الفطنةِ في هٰذهِ الذُّبابةِ الكبيرةِ التي تُسَمَّى أسدَ الذُّبابِ؛ فإنَّكَ تَراهُ حينَ يُحِسُّ بالذُّبابِ قد وَقَعَ قريبًا منهُ يَسْكُنُ مليًّا حتَّى كأنَّهُ مَواتٌ لا حَراكَ بهِ، فإذا رَأى الذُّبابَ قدِ ٱطْمَأَنَّ وغَفَلَ عنهُ؛ دَبَّ دبيبًا رفيقًا حتَّى يكونَ منهُ بحيثُ ينالُهُ، ثمَّ يَثِبُ عليهِ فيأْخُذُهُ.

ومِن عجيبِ حيلِ العنكبوتِ: أنَّهُ يَنْسِجُ تلكَ الشَّبكةَ شركًا للصَّيدِ، ثمَّ يَكْمُنُ في جوفِها، فإذا نَشَبَ فيها البَرْغَشُ والذُّبابُ؛ وَثَبَ عليهِ وٱمْتَصَّ دمَهُ.

فهٰذا يَحْكي صيدَ الأشراكِ والشِّباكِ، والأوَّلُ يَحْكي صيدَ الكلابِ والفهودِ.

ولا تَزْدَرِيَنَّ العبرةَ بالشَّيءِ الحقيرِ مِن الذَّرَّةِ [والنَّملةِ] والبعوضِ والعنكبوتِ؛ فإنَّ المعنى النَّفيسَ يُقْتَبَسُ مِن الشَّيءِ الحقيرِ، والازدراءُ بذٰلكَ ميراثٌ مِن الذينَ ٱسْتَنْكَرَتْ عقولُهُم ضربَ اللهِ تَعالى في كتابِهِ المثَلَ بالذُّبابِ والعنكبوتِ والكلبِ والحمارِ، فأنْزَلَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعوضَةً /خ٣٧٤/ فما فَوْقَها﴾ [البقرة: ٢٦].

---

(١) البخاري (٥٩ـ بدء الخلق، ١٦ـ إذا وقع الذباب، ٦/٣٥٦/٣٣١٩)، ومسلم (٣٩ـ السلام، ٣٩ـ النهي عن قتل النمل، ٤/١٧٥٩/٢٢٤١)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فما أغزرَ الحكمَ وأكثرَها في هٰذهِ الحيواناتِ التي تَزْدَريها وتَحْتَقِرُها! وكم مِن دلالةٍ فيها على الخالقِ وحكمتِهِ ولطفِهِ ورحمتِهِ!

فَسَلِ المعطِّلَ: مَن ألْهَمَها هٰذهِ الحيلَ والتَّلطُّفَ في اقتناصِ صيدِها الذي جُعِلَ قِوامَها؟! ومَن جَعَلَ هٰذهِ الحيلَ فيها بدلَ ما سَلَبَها مِن القوَّةِ والقدرةِ فأغْناها ما أعْطاها[١] مِن الحيلةِ عمَّا سَلَبَها مِن القوَّةِ والقدرةِ سوى اللطيفِ الخبيرِ؟!

[٨٦] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في خلقة الطيور]

ثمَّ تَأمَّلْ جسمَ الطَّائرِ [وخلقتَهُ]؛ فإنَّهُ حينَ قُدِّرَ أنْ يكونَ[٢] طائرًا في الجوِّ؛ خُفِّفَ جسمُهُ، وأُدْمِجَ خلقُهُ، واقْتُصِرَ بهِ مِن القوائمِ الأربعِ على اثنتينِ، ومِن الأصابعِ الخمسِ على أربعٍ، ومِن مخرجي البولِ[٣] والزِّبلِ على واحدٍ يَجْمَعُهُما جميعًا. ثمَّ خُلِقَ ذا جُؤْجُؤٍ ممدودٍ[٤]؛ لِيَسْهُلَ عليهِ اختراقُ الهواءِ كيفَ تَوَجَّهَ فيهِ كما يُجْعَلُ صدرُ السَّفينةِ بهٰذهِ الهيئةِ لِيَشُقَّ الماءَ بسرعةٍ وتَنْفُذَ فيهِ. وجُعِلَ في جناحيهِ وذنبِهِ ريشاتٌ طوالٌ متانٌ لِيَنْهَضَ بها للطَّيرانِ. وكُسِيَ جسمُهُ كلُّه الرِّيشَ لِيَتَداخَلَهُ الهواءُ ويَحْمِلَهُ.

ولمَّا قُدِّرَ أنْ يكونَ طعامُهُ اللحمَ والحبَّ يَبْلَعُهُ [بلعًا] بلا[٥] مضغٍ؛ نُقِصَ مِن خلقِ الأسنانِ، وخُلِقَ لهُ منقارٌ صلبٌ يَتَناوَلُ بهِ طعامَهُ فلا يَتَسَحَّجُ[٦] مِن لقطِ الحبِّ ولا يَنْقَصِفُ مِن نهشِ اللحمِ.

ولمَّا عَدِمَ الأسنانَ وصارَ يَزْدَرِدُ الحبَّ صحيحًا واللحمَ غريضًا؛ أُعينَ[٧] بفضلِ

---

(١) في خ: «ثمّ يكنّ في جوفها فإذا نشب فيها البرغث... جُعل قوتها... فأغناها وأعطاها».

(٢) في خ وط: «بأن يكون»! والأصل حذف الباء. و«خلقته» ساقطة من ط.

(٣) في ط: «وأدمج خلقته... ومن مخرج البول».

(٤) في ط: «جؤجؤ محدود»! والجؤجؤ: الصدر. والممدود: الانسيابيّ الشكل.

(٥) في خ: «وجعلت في جناحيه...»، وفي ط: «... الهواء فيحمله... يبلعه بلا».

(٦) يتسحّج: يتجرّح ويتخدّش.

(٧) في خ: «عريضًا أعيش»! واللحم الغريض: الذي لم يطبخ.

حرارةٍ في الجوفِ تَطْحَنُ الحبَّ وتَطْبُخُ اللحمَ فاْستَغْنى عنِ المضغِ. والذي يَدُلُّكَ على قوَّةِ الحرارةِ التي أُعينَ بها أنَّكَ ترى عَجَمَ الزَّبيبِ وأمثالِهِ يَخْرُجُ مِن بطنِ الإنسانِ صحيحًا وينْطَحِنُ في جوفِ الطَّائرِ حتَّى لا يُرى لهُ أثرٌ[1].

ثمَّ اْقتَضَتِ الحكمةُ أنْ جُعِلَ يَبيضُ بيضًا ولا يَلِدُ ولادةً؛ لئلاَّ يَثْقُلَ عنِ الطَّيرانِ؛ فإنَّهُ لو كانَ ممَّا يَحْمِلُ ويَمْكُثُ حملُهُ في جوفِهِ حتَّى يَسْتَحْكِمَ ويَكْمُلَ؛ لأثقَلَهُ وأعاقَهُ[2] عنِ النُّهوضِ والطَّيرانِ.

[٨٧ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في عطف الطائر على صغاره]

وتأمَّلِ الحكمةَ في كونِ الطَّائرِ المرسلِ السَّابحِ [في الجوِّ] يُلْهَمُ صبرَ نفسِهِ أُسبوعًا أو أُسبوعينِ باْختيارِهِ قاعدًا على بيضِهِ حاضنًا لهُ ويَتَحَمَّلُ[3] مشقَّةَ الحبسِ، ثمَّ إذا خَرَجَ فراخُهُ؛ [تَحَمَّلَ مشقَّةَ الكسبِ وجمعِ الحبِّ في حوصلتِهِ ثمَّ يَزُقُّهُ فراخَهُ[4]]، وليسَ بذي رويَّةٍ ولا فكرةٍ في عاقبةِ أمرِهِ ولا يُؤَمِّلُ في فراخِهِ ما يُؤَمِّلُ الإنسانُ في ولدِهِ مِن العونِ والرِّفدِ وبقاءِ الذِّكرِ. فهٰذا مِن فعلِهِ يَشْهَدُ بأنَّهُ معطوفٌ على فراخِهِ لعلَّةٍ لا يَعْلَمُها هوَ ولا يُفَكِّرُ فيها مِن دوامِ النَّسلِ وبقائِهِ.

[٨٨ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في خلقة البيضة]

ثمَّ تَأمَّلْ خلقةَ البيضةِ وما فيها مِن المُحِّ الأصفرِ الخاثرِ والماءِ الأبيضِ الرَّقيقِ، فبعضُهُ يَنْشَأُ منهُ /خ٣٧٥/ الفرخُ وبعضُهُ يَغْتَذي منهُ إلى أنْ يَخْرُجَ مِن البيضةِ، وما في

---

(١) حرارة الطيور أعلى من حرارة الثديّات بدرجة واحدة تقريبًا. وكذٰلك؛ فللطيور معدتان حوصلة وقانصة، فالحوصلة تؤدّي دور المضغ وزيادة كما سيأتي قريبًا.

(٢) في ط: «صحيحًا وينطبخ في جوف... يستحكم ويثقل لأثقله وعاقه».

(٣) في خ: «ملهم صبر نفسه...»، وفي ط: «... له ويحتمل».

(٤) يزقّه فراخه: يضعه في فم فراخه ويطعمها إيّاه.

ذٰلكَ مِن الحكمةِ! فإنَّهُ لمَّا كانَ نشوءُ الفرخِ في تلكَ القشرةِ المنخفضةِ[١] التي لا نفاذَ فيها للواصلِ مِن خارجٍ[٢]؛ جُعِلَ معَهُ في جوفِ البيضةِ مِن الغذاءِ ما يَكْتَفي بهِ إلى خروجِهِ.

[٨٩] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في حوصلة الطائر]

وتأمَّلِ الحكمةَ في حوصلةِ الطَّائرِ وما قُدِّرَتْ لهُ:

فإنَّ مسلكَ الطَّعامِ إلى القانصةِ ضيِّقٌ لا يَنْفُذُ فيهِ الطَّعامُ إلَّا قليلاً، فلو كانَ الطَّائرُ لا يَلْتَقِطُ حبَّةً ثانيةً حتَّى تَصِلَ الأُولى إلى جوفِهِ؛ لَطالَ ذٰلكَ عليهِ، فمتى كانَ يَسْتَوْفي طعامَهُ، وإنَّما يَخْتَلِسُهُ ٱختلاسًا لشدَّةِ الحذرِ؟! فجُعِلَتْ لهُ الحوصلةُ كالمِخْلاةِ المعلَّقةِ أمامَهُ لِيوعِيَ فيها ما ٱزْدَرَدَ مِن الطُّعْمِ بسرعةٍ، ثمَّ يَنْفُذُ إلى القانصةِ على مهلٍ[٣].

وفي الحوصلةِ أيضًا خصلةٌ أُخرى؛ فإنَّ مِن الطَّيرِ ما يَحْتاجُ إلى أنْ يَزُقَّ فراخَهُ، فيَكونُ ردُّ الطُّعمِ مِن قربٍ[٤] لِيَسْهُلَ عليهِ[٥].

[٩٠] فصل

[في بدائع صنعته تعالى في ألوان الطيور]

ثمَّ تَأمَّلْ هٰذهِ الألوانَ والأصباغَ والوشيَ التي تَراها في كثيرٍ مِن الطَّيرِ كالطَّاووسِ

---

(١) في خ وط: «البشرة المنخفضة»! ولا معنى له! فإن لم يكن ما أثبتّه الصواب فهو قريب منه.

(٢) في خ: «لا نفاذ فيها للأصل من خارج»!

(٣) في خ وط: «إلى القابضة ضيّق... القابضة على مهل»! وكلاهما تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) في خ: «فإنّ الطائر ما يحتاج أن يرزق... من قريب»، وفي ط: «... فيكون ردّه...».

(٥) يحتوي الجهاز الهضمي لأغلب الطيور على معدتين:

المعدة الأولى أو الحوصلة Crop: ولها وظيفة تخزينيّة، ووظيفة ترطيب وتطرية الحبّ المبتلع وهضمه جزئيًّا بوساطة الخمائر اللعابيّة والخمائر التي تفرزها وحيدات الخليّة التي تنشط في هٰذا الموضع، وعليه؛ فلهٰذه المعدة دور يشبه دور الفم والأسنان واللسان في الهضم عند الإنسان. فإن أعاد الطائر الطعام إلى منقاره ووضعه في مناقير صغاره؛ وصل الطعام إليها طريًّا يسهل ٱزدراده. وإلّا؛ تحوّل الطعام من الحوصلة إلى:

المعدة الثانية الحقيقيّة: وهي المقابلة للمعدة عند الإنسان، وتتكوّن من قسمين: المعدة الهاضمة Proventriculos التي تفرز العصارات الهاضمة، والمعدة العضليّة أو القانصة Gizzard التي تطحن الطعام.

والدُّرَّاجِ وغيرِهما، التي لو خُطَّتْ بدقيقِ الأقلامِ ووُشيَتْ بالأيدي؛ لَمْ يَكُنْ هٰذا!

فمِن أينَ في الطَّبيعةِ المجرَّدةِ هٰذا التَّشكيلُ والتَّخطيطُ والتَّلوينُ والصِّبغُ العجيبُ البسيطُ والمركَّبُ الذي لوِ ٱجْتَمَعَتِ الخليقةُ على أنْ يُحاكوهُ؛ لَتَعَذَّرَ عليهِم؟!

فتَأَمَّلْ ريشَ الطَّاووسِ كيفَ هوَ! فإنَّكَ تَراهُ كنسجِ الثَّوبِ الرَّفيعِ مِن خيوطٍ رفاعٍ جدًّا قد أُلِّفَ بعضُها إلى بعضٍ كتأليفِ الخيطِ إلى الخيطِ بل الشَّعرةِ إلى الشَّعرةِ! ثمَّ تَرى النَّسجَ إذا مَدَدْتَهُ يَنْفَتِحُ قليلاً قليلاً ولا يَنْشَقُّ؛ لِيَتَداخَلَهُ الهواءُ فيَحْمِلَ الطَّائرَ إذا طارَ[1]! فتَرى في وسطِ الرِّيشةِ عمودًا غليظًا متينًا قد نُسِجَ عليهِ ذٰلكَ الثَّوبُ كهيئةِ[2] الشَّعرِ لِيُمْسِكَهُ بصلابتِهِ، وهوَ القصبةُ التي تكونُ في وسطِ الرِّيشةِ، وهوَ معَ ذٰلكَ أجوفُ لِيَشْتَمِلَ على الهواءِ فيَحْمِلَ الطَّائرَ!

فأيُّ طبيعةٍ فيها هٰذهِ الحكمةُ والخبرةُ واللطفُ؟! ثمَّ لو كانَ ذٰلكَ في الطَّبيعةِ كما يَقولونَ؛ لَكانَتْ مِن أدلِّ الدَّلائلِ وأعظمِ البراهينِ على قدرةِ مبدعِها ومنشئِها وعلمِهِ وحكمتِهِ؛ فإنَّهُ لمْ يَكُنْ لها ذٰلكَ مِن نفسِها بل إنَّما هوَ لها ممَّن خَلَقَها وأبْدَعَها[3]!

فما كَذَّبَهُ المعطِّلُ هوَ أحدُ البراهينِ والآياتِ التي على مثلِها يَزْدادُ إيمانُ المؤمنينَ. وهٰكذا آياتُ اللهِ يُضِلُّ بها مَن يَشاءُ ويَهْدي مَن يَشاءُ.

[٩١] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في عنق الطائر وساقيه]

تأمَّلْ هٰذا الطَّائرَ الطَّويلَ السَّاقينِ، وٱعْرِفِ المنفعةَ في طولِ ساقيهِ! فإنَّهُ يَرْعى أكثرَ مرعاهُ في ضحضاحٍ مِن الماءِ، فتَراهُ يَرْكُزُ على ساقيهِ كأنَّهُ ربيئةٌ فوقَ

---

(١) في خ: «يفتح قليلاً... فيثقل (وفي ط: فينتقل) الطائر إذا طار».

(٢) في خ: «عمودًا غليظًا مبنيًا... الثوب الذي كهيئة».

(٣) والآخرون يقولون: هٰذه حركة منتظمة بفعل القوّة الجاذبة الدورانيّة! وهٰذا خاضع لنظريّة إينشتاين! وهٰذا! وهٰذا! فمن قنّن هٰذه القوانين وأخضع لها الأجسام من الذرّة إلى المجرّة؟! ومن يستحقّ العبادة سواه؟! ها أنت تعلم علم اليقين والقوانين أنّه نظام معجز ما له من فطور! أفليس هٰذا أدعى للإيمان؟! أفلست أولى بالإيمان من جاهل لا يرى أو لا يدرك ما يرى؟! ويلك آمن! ويلك آمن!

مَرْقَبٍ[(١)]، ويَتَأَمَّلُ ما دَبَّ في الماءِ /خ٣٧٦/ ، فإذا رَأى شيئًا مِن حاجتِهِ؛ خَطا خطوًا رفيقًا حتَّى يَتَناوَلَهُ. ولو كانَ قصيرَ القائمتينِ؛ كانَ إذا خَطا نحوَ الصَّيدِ لِيَأْخُذَهُ؛ لَصِقَ بطنُهُ بالماءِ، فيُثَوِّرُهُ ويَذْعَرُ الصَّيدَ منهُ فيَنْفِرُ، فخُلِقَ لهُ[(٢)] ذانِكَ العمودانِ لِيُدْرِكَ بهِما حاجتَهُ ولا يَفْسُدُ عليهِ مطلبُهُ.

وكلُّ طائرٍ؛ فلهُ نصيبٌ مِن طولِ السَّاقينِ والعنقِ لِيُمْكِنَهُ تَناولُ الطُّعْمِ مِن الأرضِ، ولو طالَ ساقاهُ وقَصُرَتْ عنقُهُ؛ لَمْ[(٣)] يُمْكِنْهُ أنْ يَتَناوَلَ شيئًا مِن الأرضِ. وربَّما أُعينَ معَ عنقِهِ بطولِ المنقارِ لِيَزْدادَ مطلبُهُ سهولةً عليهِ وإمكانًا.

[٩٢- فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في تقدير رزق الطيور]

● ثمَّ تَأَمَّلْ هٰذهِ العصافيرَ؛ كيفَ تَطْلُبُ أكلَها بالنَّهارِ كلِّهِ! فلا هيَ تَفْقِدُهُ، ولا هيَ تَجِدُهُ مجموعًا معدًّا، بل تَنالُهُ بالحركةِ والطَّلبِ في الجهاتِ والنَّواحي.

فسبحانَ الذي قَدَّرَهُ ويَسَّرَهُ؛ كيفَ لَمْ يَجْعَلْهُ ممَّا يَتَعَذَّرُ عليها إذا ٱلْتَمَسَتْهُ ولا [مـ]ـمَّا يَفوتُها إذا قَعَدَتْ عنهُ، وجَعَلَها قادرةً عليهِ في كلِّ حينٍ وأوانٍ وبكلِّ أرضٍ ومكانٍ حتَّى مِن الجدرانِ والأسطحةِ والسُّقوفِ؛ تَنالُهُ بالهُوَيْنا مِن السَّعيِ فلا يُشارِكُهـ[ـا] فيهِ غيرُ بني جنسِها مِن الطَّيرِ. ولو كانَ ما تَقْتاتُ بهِ يوجَدُ معدًّا مجموعًا كلُّهُ؛ كانَتِ [الطَّيرُ][(٤)] تَشْرَكُها فيهِ وتَغْلِبُها عليهِ، ولحكمةٍ أُخرى[(٥)] بديعةٍ، وذٰلكَ أنَّها لو وَجَدَتْهُ معدًّا مجموعًا؛ لأكَبَّتْ عليهِ بحرصِ الرَّغبةِ فلا تُقْلِعُ عنهُ وإنْ شَبِعَتْ حتَّى تَبْشَمَ[(٦)] وتَهْلِكَ. وكذٰلكَ النَّاسُ، لو جُعِلَ طعامُهُم معدًّا لهُم بغيرِ سعيٍ ولا تعبٍ؛ أدَّى ذٰلكَ إلى

---

(١) في خ: «مركب»! ويركز: يقف ساكنًا. الربيئة: الطليعة، الذي يتقدّم جماعته للمراقبة.

(٢) في خ وط: «كان يخطو نحو الصيد...»، وفي خ: «... بطنه الماء... منه فيقفز فخلق».

(٣) في خ وط: «ذلك العمودان...»! وفي خ: «... تناول طعم... وقصرت عنه لم».

(٤) يعني: الأنواع الأخرى الأكبر والأقوى من الطير.

(٥) في خ: «ولو كانت ما تقات به... عليه وحمة أخرى».

(٦) في خ: «لأكنّت عليه بحرص... حتّى يشم». والبشم: التخمة.

الشَّرهِ والبطنةِ، ولَكَثُرَ الفسادُ وعَمَّتِ الفواحشُ ولَبَغَوْا في الأرضِ. فسبحانَ اللطيفِ الخبيرِ الذي لمْ يَخْلُقْ شيئًا سدًى ولا عبثًا.

● وٱنْظُرْ في هٰذهِ الطَّيرِ التي لا تَخْرُجُ إلَّا بالليلِ كالبومِ والهامِ والخُفَّاشِ؛ فإنَّ أقواتَها هُيِّئَتْ لها في الجوِّ، لا مِن الحبِّ ولا مِن اللحمِ بل مِن البعوضِ والفراشِ وأشباهِهِما ممَّا تَلْتَقِطُهُ مِن الجوِّ، فتَأْخُذُ منهُ بقدرِ حاجتِها، ثمَّ تَأْوي إلى بيوتِها فلا تَخْرُجُ إلى مثلِ[١] ذٰلكَ الوقتِ بالليلِ[٢].

وذٰلكَ أنَّ هٰذهِ الضُّروبَ مِن البعوضِ والفراشِ وأشباهِهِما مبثوثةٌ في الجوِّ لا يَكادُ يَخْلو منها موضعٌ منهُ، وٱعْتَبِرْ ذٰلكَ بأنْ تَضَعَ سراجًا بالليلِ في سطحٍ أو عرصةِ الدَّارِ، فيَجْتَمعُ عليهِ مِن هٰذا الضَّربِ شيءٌ كثيرٌ. وهٰذا الضَّربُ مِن الفراشِ ونحوِها ناقصُ الفطنةِ ضعيفُ الحيلةِ ليسَ في الطَّيرِ[٣] أضعفُ منهُ ولا أجهلُ، وفيما يُرى مِن تهافتِهِ على النَّارِ وأنتَ تَطْرُدُهُ عنها حتَّى يُحْرِقَ نفسَهُ دليلٌ على ذٰلكَ[٤].

فجُعِلَ معاشُ هٰذهِ الطُّيورِ التي تَخْرُجُ بالليلِ مِن هٰذا الضَّربِ فتَقْتاتُ منهُ، فإذا أتى بالنَّهارِ؛ ٱنْقَطَعَتْ إلى أوكارِها، فالليلُ /خ٣٧٧/ لها بمنزلةِ نهارِ غيرِها[٥] مِن الطَّيرِ

---

(١) في خ: «ممّا يلقطه من الجوّ... بقدر الحاجة ثمّ... تخرج إلّا مثل».

(٢) الثابت اليوم أنّ أغلب طعام البوم والهام هو القوارض ـ فئران وجرذان الحقول ـ والضفادع والسحالي ونحوها. وأمّا الخفّاش؛ فأنواع كثيرة؛ يعيش بعضها على ثمار الأشجار، وبعضها على الذباب والفراش والبعوض والجنادب، وبعضها على الدماء الحيوانيّة أو البشريّة. وأمّا البعوض والفراش؛ فتتغذّى عليها الطيور الأصغر حجمًا كالورور والدوري والسنونو ونحوها.

(٣) على طريقة المتقدّمين في عدّ كلّ ما يطير من الحيوان كالذباب والبعوض والنسور والخفّاش في جنس الطيور، ولعلّ التصنيف العلميّ للنبات والحيوان هو أهمّ ما أتى به علم النبات والحيوان المعاصرين.

(٤) فيه نظر! وعلماء الحيوان والدارسون لسلوكه اليوم لا يرون شيئًا من هٰذه المخلوقات ناقص الفطنة. وممّا يدلّ على صحّة رؤياهم أنّ أكثر الناس يحتال ويحتال للتخلّص من هٰذا البعوض، ولٰكنّه لا يلبث أن يعود خفية من حيث لا يحتسبون ويصيب حاجته منهم! وممّا يدلّ على ذٰلك أيضًا تلك الأفلام العجيبة التي تريك كم تحتال هٰذه الحشرات في وضع بيوضها وإبعادها عن أعين الأعداء! وأمّا تهافت كثير من هٰذه الحشرات على الضوء؛ فعائد إلى: طلبها للغذاء الذي يتوفّر لها بكثرة عند الضوء، أو للتكاثر واللقاء مع أبناء جنسها، أو للأمن من أعدائها من طيور الليل وغيرها فإنّها تخشى الضوء ولا تقترب منه. فسبحان الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى.

(٥) في خ: «تهافته في... وإذا أتى بالنهار...»، وفي ط: «... بمنزلة النهار لغيرها».

ونهارُها بمنزلةِ ليلِ غيرِها، ومعَ ذٰلكَ؛ فساقَ لها الذي تكَفَّلَ بأرزاقِ الخلقِ رزقَها وخَلَقَهُ لها في الجوِّ ولمْ يَدَعْها بلا رزقٍ معَ ضعفِها وعجزِها.

وهٰذهِ إحد[ى] الحكمِ والفوائدِ في خلقِ هٰذهِ الفراشِ والجنادبِ والبعوضِ، فكم فيها مِن رزقٍ لأُمَّةٍ تُسَبِّحُ بحمدِ ربِّها! ولولا ذٰلكَ؛ لانْتَشَرَتْ وكَثُرَتْ حتَّى [أضَرَّتْ بالنَّاسِ ومَنَعَتْهُمُ القرارَ[١].

فانْظُرْ إلى عجيبِ تقديرِ اللهِ وتدبيرِهِ؛ كيفَ] اضْطَرَّ العقولَ إلى أنْ شَهِدَتْ بربوبيَّتِهِ وقدرتِهِ وعلمِهِ وحكمتِهِ وأنَّ ذٰلكَ الذي تُشاهِدُهُ[٢] ليسَ باتِّفاقٍ ولا بإهمالٍ مِن سائرِ وجوهِ الأدلَّةِ التي لا تَتَمَكَّنُ الفطرُ مِن جحدِها أصلاً.

[٩٣ ـ فصل]

[في بدائع صنعته تعالى في خلق الخفاش]

وإذْ قد جَرى الكلامُ إلى الخُفَّاشِ؛ فهوَ مِن الحيواناتِ العجيبةِ الخلقةِ، بينَ خلقةِ الطُّيورِ[٣] وذواتِ الأربعِ، وهوَ إلى ذواتِ الأربعِ أقربُ؛ فإنَّهُ ذو أُذنينِ ناشزتينِ وأسنانٍ ووبرٍ، وهوَ يَلِدُ ولادًا ويُرْضِعُ ويَمْشي على أربعٍ، وكلُّ هٰذا صفةُ ذواتِ الأربعِ، ولهُ جناحانِ يَطيرُ بهما معَ الطُّيورِ[٤].

ولمَّا كانَ بصرُهُ يَضْعُفُ عن نورِ الشَّمسِ؛ كانَ نهارُهُ كليلِ غيرِهِ، فإذا غابَتِ الشَّمسُ؛ انْتَشَرَ. ومِن ذٰلكَ سُمِّيَ ضعيفُ البصرِ أخفشَ، والخفشُ ضعفُ البصرِ. ولمَّا كانَ كذٰلكَ؛ جُعِلَ قوتُهُ مِن هٰذهِ الطُّيورِ الضِّعافِ التي تَطيرُ بالليلِ[٥].

---

(١) يعرف هٰذا بالهرم الغذائي، وهو طرف من التوازن البيئي الذي يسعى أنصار الطبيعة للحفاظ عليه.

(٢) في خ: «خلق هٰذا الفراش... الذي شاهده».

(٣) في خ: «وإذا جرى الكلام... بين خلقة الطير».

(٤) هٰذا كلام علميّ سليم. وليس بين الخفّاش وبين الطيور شبه إلّا من جهة الطيران، ومع ذٰلك؛ فجناحا الخفّاش لا يشبهان جناحي الطير ولا ريش لهما، وإنّما هما غشاءان ممتدّان بين الأصابع يغطيهما الوبر. ولذٰلك صنّفه علماء الحيوان المعاصرون اليوم في جملة الثديّات.

(٥) في خ وط: «جعلت قوته من...»، وفي ط: «... التي لا تطير إلّا بالليل».

وقد زَعَمَ بعضُ مَن تكَلَّمَ في الحيوانِ أنَّهُ ليسَ يَطْعَمُ شيئًا وإنَّما غذاؤهُ مِن النَّسيمِ البارِدِ فقطْ! وهٰذا كذبٌ عليهِ وعلى الخلقةِ؛ لأنَّهُ يبولُ.

وقد تكَلَّمَ الفقهاءُ في بولِهِ: هلْ هوَ نجسٌ لأنَّهُ بولُ غيرِ مأْكولٍ، أو نجسٌ معفوٌّ عن يسيرِهِ لمشقَّةِ التَّحرُّزِ منهُ[١]؟ على قولينِ هُما روايتانِ عن أحمدَ. وبعضُ الفقهاءِ لا يُنَجِّسُ بولَهُ بحالٍ[٢]، وهٰذا أقيسُ الأقوالِ؛ إذْ لا نصَّ فيهِ، ولا يَصِحُّ قياسُهُ على الأبوالِ النَّجسةِ لعدمِ الجامعِ المؤثِّرِ [و]وضوحِ الفرقِ. وليسَ هٰذا موضعَ ٱستيفاءِ الحججِ في هٰذهِ المسألةِ مِن الجانبينِ.

والمقصودُ أنَّهُ لو كانَ لا يَأْكُلُ شيئًا؛ لمْ يَكُنْ لهُ أسنانٌ؛ إذْ لا معنى للأسنانِ في حقِّ مَن لا يَأْكُلُ شيئًا. ولهٰذا؛ لمَّا عَدِمَ الطِّفلُ الرَّضيعُ الأكلَ؛ لمْ يُعْطَ الأسنانَ، فلمَّا كَبِرَ وٱحْتاجَ إلى الغذاءِ؛ أُعينَ عليهِ بالأسنانِ التي تَقْطَعُهُ والأضراسِ التي تَطْحَنُهُ. وليسَ في الخليقةِ شيءٌ مهملٌ ولا عنِ الحكمةِ بمعطَّلٍ ولا شيءٌ لا معنى لهُ.

وأمَّا الحكمُ والمنافعُ في [خلقِ] الخُفَّاشِ؛ فقد ذَكَرَ منها الأطبَّاءُ في كتبِهِم ما ٱنْتَهَتْ إليهِ معرفتُهُم، حتَّى إنَّ بولَهُ يَدْخُلُ في بعضِ الأكحالِ، فإذا كانَ هٰذا بولَهُ الذي لا يَخْطُرُ بالبالِ أنَّ /خ٣٧٨/ فيهِ منفعةً ٱلبتَّةَ؛ فما الظَّنُّ بجملتِهِ[٣]؟!

[٩٤ـ فصل]

[في لطائف ٱحتيال الحيوان في الدفاع عن نفسه]

ولقد أَخْبَرَ بعضُ مَن شُهِدَ بصدقِهِ أنَّهُ رأى رُخًّا ـ وهوَ طائرٌ معروفٌ[٤] ـ قد

---

(١) وهٰذا عجيب حقًّا! فنحن لا نكاد نرى هٰذا الحيوان إلاّ في الكتب وبرامج التيليفزيون! فٱنظر إلى مدى الدمار الذي لحق البيئة في بلادنا!

(٢) في خ: «وهما روايتان. . . بحاله»! وهٰذا قول ثالث، وهو الذي نصره ابن القيّم كما ترى.

(٣) وكذٰلك برازه يستعمل سمادًا، وهو أغلى أنواع الأسمدة الزراعيّة، وهو جزء من الهرم الغذائي وضرورة من ضرورات التوازن البيئي كما تقدّم آنفًا.

(٤) في الكتب والقصص الخرافيّة، يقولون: هو قادر على حمل الفيل والكركدن إلى عشّه! ولا تعرف طيور بهٰذا الحجم اليوم ولا فيما مضى من حياة الإنسان على ظهر البسيطة! نعم؛ قد ذكر الجيولوجيّون طيورًا بهٰذا الحجم، لٰكن في أحقاب موغلة في القدم قبل خلق الإنسان بملايين السنين، وما هي بالطيور، ولٰكنّها من=

عَشَّشَ[١] في شجرةٍ، فنَظَرَ إلى حيَّةٍ عظيمةٍ قد أقْبَلَتْ نحوَ عشِّهِ فاتحةً فاها لِتَبْتَلِعَهُ، فبينَما هوَ يضْطَرِبُ في حيلةِ النَّجاةِ [منها]؛ إذْ وَجَدَ حسكةً في العشِّ، فحَمَلَها، فألقاها في فمِ الحيَّةِ، فلمْ تَزَلْ تَلْتَوِي حتَّى ماتَتْ!

[٩٥] فصل

[في بدائع صنعته تعالى في حياة النحل]

ثمَّ تَأمَّلْ في أحوالِ النَّحلِ وما فيها مِن العبرِ والآياتِ!

فٱنْظُرْ إليها وإلى ٱجتهادِها في صنعةِ العسلِ وبنائِها البيوتَ المسدَّسةَ التي هيَ مِن أتمِّ الأشكالِ وأحسنِها ٱستدارةً وأحكمِها صنعًا، فإذا ٱنْضَمَّ بعضُها إلى بعضٍ؛ لمْ يَكُنْ في بيتِها فرجةٌ ولا خللٌ[٢]، كلُّ هٰذا بغيرِ مقياسٍ ولا آلةٍ ولا بيكارٍ[٣]!

وذٰلكَ مِن أثرِ صنعِ اللهِ وإلهامِهِ إيَّاها وإيحائِهِ إليها، كما قالَ تَعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذي مِنَ الجِبالِ بُيوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرُشونَ . ثُمَّ كُلي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَٱسْلُكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إنَّ في ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

فتَأمَّلْ كمالَ طاعتِها وحسنَ ٱئْتمارِها لأمرِ ربِّها تَعالى؛ كيفَ ٱتَّخَذَتْ بيوتَها في هٰذهِ الأمكنةِ الثَّلاثةِ في الجبالِ والشَّقفاناتِ وفي الشَّجرِ وفي بيوتِ النَّاسِ حيثُ يَعْرُشونَ؛ أيْ: يَبْنونَ العروشَ وهيَ البيوتُ، فلا يُرى للنَّحلِ بيتٌ غيرَ هٰذهِ الثَّلاثةِ ٱلبتَّةَ.

= الزواحف المجنّحة (الدينوصورات) غالبًا. والظاهر أنّ صاحب القصّة إنّما رأى بعض النسور الضخمة فسمّاه رخًّا على ما سمع من ضخامة الرخّ. والله أعلم.

(١) في خ: «لم يحتج بعظ الأسنان فلمّا كبر... وأمّا الحكمة... بصدقه أن... عشعش».

(٢) ومن عجائب هٰذه البيوت: أنّ المسدّس الواحد فيها تتساوى أضلاعه تمامًا، ويتساوى أيضًا مع المسدّس الآخر، وتتساوى المسافة بين المسدّسين كلّ مرّة. ومن عجائبها أيضًا أنّ قياسات المسدّسات تختلف إذا ٱختلفت الغاية منها، فالمسدّسات التي تربّى فيها الملكات تختلف في الحجم عن مسدّسات الذكور وهٰذه تختلف عن مسدّسات العاملات وعن مسدّسات خزن العسل!

(٣) في خ: «وإلى أجسادها في صنعة العسل وبنائها لبيوت مسدّسة...»، وفي ط: «... يكن فيها فرجة... بغير قياس ولا آلة ولا بركار». والبيكار والبركار والفرجار واحد.

وتأمَّلْ كيفَ أكثرُ بيوتِها في الجبالِ والشّقفانِ[١] ـ وهوَ البيتُ المقدَّمُ في الآيةِ ـ ثمَّ في الأشجارِ ـ وهيَ مِن أكثرِ بيوتِها ـ وفيما يَعْرُشُ النَّاسُ. وأقلُّ بيوتِها بينَهُم حيثُ يَعْرُشُونَ، وأمَّا في الجبالِ والشَّجرِ؛ فبيوتٌ عظيمةٌ يُؤْخَذُ منها العسلُ الكثيرُ[٢] جدًّا.

وتأمَّلْ كيفَ أدَّاها حسنُ الامتثالِ إلى أنِ اتَّخذَتِ البيوتَ قبل المرعى: فهيَ تَتَّخِذُ [البيوتَ] أوَّلاً، فإذا اسْتَقرَّ لها بيتٌ؛ خرَجَتْ منهُ فرَعَتْ وأكلَتْ مِن الثِّمارِ ثمَّ آوَتْ إلى بيوتِها؛ لأنَّ ربَّها سبحانَهُ أمَرَها باتِّخاذِ البيوتِ أوَّلاً ثمَّ بالأكلِ بعدَ ذٰلكَ، ثمَّ إذا أكلَتْ؛ سَلَكَتْ سبلَ ربِّها مذلَّلةً لا يَسْتَوْعِرُ[٣] عليها شيءٌ تَرْعى ثمَّ تَعودُ.

ومِن عجيبِ شأنِها أنَّ لها أميرًا يُسَمَّى اليَعْسوبَ؛ لا يَتِمُّ لها رواحٌ ولا إيابٌ ولا عملٌ ولا مرعًى إلَّا بهِ، فهيَ مؤتمرةٌ لأمرِهِ سامعةٌ لهُ مطيعةٌ، ولهُ عليها تكليفٌ وأمرٌ ونهيٌ، وهيَ رعيَّةٌ لهُ منقادةٌ لأمرِهِ متَّبعةٌ لرأْيِهِ يُدَبِّرُها كما يُدَبِّرُ الملكُ أمرَ رعيَّتِهِ، حتَّى إنَّها إذا آوَتْ إلى بيوتِها؛ وَقَفَ على بابِ البيتِ فلا يَدَعُ واحدةً تُزاحِمُ /خ٣٧٩/ الأُخرى ولا تَتَقَدَّمُ عليها في العبورِ، بل تَعْبُرُ بيوتَها واحدةً [بعدَ] واحدةٍ بغيرِ تزاحمٍ ولا تصادمٍ ولا تراكمٍ، كما يَفْعَلُ الأميرُ إذا انْتَهى بعسكرِهِ إلى معبرٍ ضيِّقٍ لا يَجوزُهُ إلَّا واحدٌ فواحدٌ[٤].

ومَن تَدَبَّرَ أحوالَها وسياساتِها وهدايتَها واجتماعَ شملِها وانتظامَ أمرِها وتدبيرَ ملكِها وتفويضَ كلِّ عملٍ إلى واحدٍ منها؛ يَتَعَجَّبُ منها كلَّ العجبِ، ويَعْلَمُ أنَّ هٰذا ليسَ في مقدورِها ولا هوَ مِن ذاتِها؛ فإنَّ هٰذهِ أعمالٌ محكمةٌ متقنةٌ في غايةِ الإحكامِ والإتقانِ. فإذا نَظَرْتَ إلى العاملِ[٥]؛ رَأَيْتَهُ مِن أضعفِ خلقِ اللهِ وأجهلِهِ بنفسِهِ وبحالِهِ

---

(١) في ط: «وتلك من أثر...»، وفي خ: «... لأمر ربّها فقال اتخذت... والشفقانات... والشفقان». ولم يتبيّن لي الصواب في لفظة «الشقفان» هل هو بتقديم القاف أو الفاء، ولا عرفت معناها، والظاهر أنّها عاميّة بمعنى المرتفعات أو الجرف الصخريّة.

(٢) في ط: «وممّا يعرش الناس... منها من العسل الكثير»،

(٣) في ط: «فهي تتّخذ أوّلاً ثمّ إذا استقرّ لها...»، وفي خ: «... لا استوعر».

(٤) في خ وط: «واحد واحد»! وفيه إشكال نحويّ، ويمكن تمريره على ضعف وتأويل.

(٥) في خ: «يدبّرهما كيف يدبّر الملك... تزاحم أخرى ولا تتقدّم... نظرت إلى القائل».

وأعجزِه عنِ القيامِ بمصلحتِهِ فضلاً عمَّا يَصْدُرُ منهُ مِن الأُمورِ العجيبةِ.

ومِن عجيبِ أمرِها أنَّ فيها أميرينِ لا يَجْتَمِعانِ في بيتٍ واحدٍ ولا يَتَأَمَّرانِ على جمعٍ واحدٍ، بل إذا ٱجْتَمَعَ منها جندانِ وأميرانِ؛ قَتَلوا أحدَ الأميرينِ وقَطَّعوهُ وٱتَّفَقوا على الأميرِ الواحدِ مِن غيرِ معاداةٍ بينَهُم ولا أذًى مِن بعضِهِم لبعضٍ، بل يَصيرونَ يدًا واحدةً وجندًا واحدًا[١].

---

(١) هاهنا ملاحظات أسوقها فيما يلي:

أوّلاً: يفضّل المعاصرون من أهل النِّحالة والدارسين في علم الحشرات ٱستعمال «ملكة النحل» بدل «أمير النحل»، وذٰلك لأنّ أهمّ وظائف الملكة في خليّة النحل هي التكاثر ووضع البيض، فهي في الحقيقة أمّ الخليّة كاملة أو أمّ أكثر من فيها على الأقلّ، ومعلوم أنّ لفظة «ملكة النحل» أولى بالأمومة ووضع البيض من لفظة «أمير النحل».

ثانيًا: وملكة النحل تبقى دائمًا مشغولة بوضع البيض وتكوين الأجيال الجديدة التي تحلّ محلّ النحلات الهالكات في الخليّة، وليس هناك أيّ دليل على أنّ للملكة سلطانًا وأمرًا ونهيًا على العاملات الموجودات في الخليّة، وإنّما تقوم هٰذه العاملات بوظائفها تلقائيًا دونما أمر أو ضغط أو إكراه، بل إنّها تتفانى في خدمة جماعة النحل وتحقيق مصلحتها دون أن تنتظر أمرًا ولا جزاء.

ثالثًا: ولا تخرج الملكة من الخليّة إطلاقًا إلّا بغرض الإلقاح أو التحضير للإلقاح، ولا تقف بالتالي على باب الخليّة لتنظيم دخول النحلات وخروجها أبدًا، وليس هٰذا من مهامّها، ولٰكنّ العاملات يدخلن ويخرجن بنظام تلقائيّ فطرهنّ المولى سبحانه وتعالى عليه.

رابعًا: ومن المتّفق عليه أنّ نزع الملكة وفقدانها من الخليّة يجعل الخليّة في حالة قلق، وإعادة الملكة إليها تجعلها في حالة أمان وٱطمئنان وتشجّعها على العمل.

خامسًا: وأمّا ٱنتظام أمر النحل جماعات وعجزها وٱضطرابها فرادى؛ فصحيح ثابت علميًّا؛ فإنّ النحلة إذا عزلت عن الخليّة، ثمّ وضعت في أيّ بيئة مهما كانت جيّدة وغنيّة بالغذاء؛ فإنّها لا تلبث أن تموت بعد يومين أو ثلاثة!

سادسًا: وٱجتماع ملكتين في خليّة واحدة وارد وممكن جدًّا وعندئذ: فإمّا أن تقتتل الملكتان حتّى تقضي إحداهما على الأخرى دون تدخّل العاملات، وإمّا أن تقتل العاملات واحدة من الملكتين ويبقين الملكة القويّة القادرة على الإنجاب عادة، وإمّا أن تبقى إحدى الملكتين مهملة في الخليّة لا دور لها، وإمّا أن تخرج إحدى الملكتين مع جماعة من العاملات من الخليّة لتكوين خليّة جديدة. وفي كلّ حال تبقى الخليّة الواحدة جماعة واحدة لها ملكة حقيقيّة واحدة.

سابعًا: وأمّا ٱجتماع جندين من خليّتين مختلفتين على ملكة واحدة؛ فغير وارد؛ لأنّ عاملات الخليّة الواحدة لا تسمح لعاملات خليّة أخرى بالدخول إلى خليّتها مهما كان السبب، بل إنّها تتفانى في الدفاع عن خليّتها ومنع الغريبات من الوصول إليها.

هذا ما يقوله أهل النحالة المعاصرة. والله أعلى وأعلم.

[٩٦] فصل

[في لطيف أحتيال النحل في صناعة العسل]

ومن عجيبِ أمرِها ما لا يَهْتَدي لهُ أكثرُ النَّاسِ ولا يَعْرِفونَهُ، وهوَ النِّتاجُ الذي يَكونُ لها؛ هل هوَ على وجهِ الولادةِ والتَّولُّدِ أوِ الاستحالةِ؟ فقَلَّ مَنْ يَعْرِفُ ذٰلكَ أو يَفْطَنُ لهُ!

وليسَ نتاجُها على واحدٍ مِن هٰذينِ الوجهينِ، وإنَّما نتاجُها بأمرٍ مِن أعجبِ العجبِ؛ فإنَّها إذا ذَهَبَتْ إلى المرعى؛ أَخَذَتْ تلكَ الأجزاءَ الصَّافيةَ[١] التي على الورقِ مِن الوردِ والزَّهرِ والحشيشِ وغيرِهِ وهيَ الطَّلُّ[٢] فتَمَصُّها، وذٰلكَ مادَّةُ العسلِ، ثمَّ إنَّها تَكْبِسُ الأجزاءَ المنعقدةَ على وجهِ الورقةِ وتَعْقِدُها على رجلِها كالعدسةِ؛ فتَمْلأُ بِها المسدَّساتِ الفارغةَ مِن العسلِ، ثمَّ يَقومُ يَعْسوبُها على بيتِهِ مبتدئًا منهُ فيَنْفُخُ فيهِ، ثمَّ يَطوفُ على تلكَ البيوتِ بيتًا بيتًا ويَنْفُخُ فيها كلِّها، فتَدِبُّ فيها الحياةُ بإذنِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، فتَتَحَرَّكُ وتَخْرُجُ طيورًا بإذنِ اللهِ[٣]. وتلكَ إحدى الآياتِ والعجائبِ التي قَلَّ مَن يَتَفَطَّنُ إليها[٤]!

---

(١) كذا في خ وط! وفي القلب أنّه تحريف صوابه «الطافية».

(٢) الطّلّ: الندى.

(٣) يعني: حشرات كاملة. وأنظر ما تقدّم (٢/ ١٥٢) في تصنيف المتقدّمين للحيوانات.

(٤) وهٰذا كلام عامّ يتناول أمورًا ثلاثة أفصّلها على النحو التالي:

* **فأمّا صناعة العسل**؛ فتتمّ على النحو التالي:

أوّلاً: ترتشف النحلات السارحات الرحيق Nictar الذي يجتمع في كأس الزهرة عند قاعدة بتلاتها، وتبتلعه، فيصل إلى معدة العسل، حيث تصبّ عليه الخمائر اللعابيّة وأهمّها Invertase التي تحوّل الرحيق إلى سكّر الفواكه Fructose.

ثانيًا: تعود السارحات إلى الخليّة، فتصبّ الرحيق المهضوم من فمها في البيوت السداسيّة، وعندئذ تأتي مجموعة أخرى من العاملات فتحرّك الرحيق المهضوم بخراطيمها وتقلّبه وتصبّ عليه مزيدًا من اللعاب والخمائر حتّى ينضج ويصبح عسلاً خامًا.

ثالثًا: تقوم مجموعة ثالثة من العاملات بتحريك أجنحتها وتهوية العسل حتّى تبخّر الماء الزائد منه، وعندئذ يأخذ العسل قوامه الغرويّ المعروف وتصبح نسبة السكر فيه ٨٣٪ تقريبًا، وهو العسل الخالص.

* **وأمّا ما تحمله السارحات في أرجلها**؛ فهو حبّات الطلع التي تأخذها من الزهرة وتملأ بها الجيوب الموجودة في الطرفين السفليّين والتي تشبه السلال، ثمّ تنقل حمولتها إلى الخليّة ثمّ تخرجها وتكبسها كالكرات=

وهٰذا كلُّه مِن ثمرةِ ذٰلكَ الوحيِ الإلٰهيِّ؛ أفادَها وأكْسَبَها هٰذا التَّدبيرَ [والسَّفرَ] والمعاشَ والبناءَ والنَّتاجَ.

فسَلِ المعطِّلَ [الضَّالَّ]: مَن الذي أوْحى إليها أمرَها وجَعَلَ ما جَعَلَ في طباعِها؟! ومَن الذي سَهَّلَ لها سبلَهُ ذللاً منقادةً لا تسْتَعْصي عليها ولا تَسْتَوْعِرُها ولا تَضِلُّ عنها على بعدِها؟! ومَن الذي هَداها لشأْنِها؟! ومَن الذي أنْزَلَ لها مِن الطَّلِّ ما إذا جَنَتْهُ رَدَّتْهُ عسلاً /خ٣٨٠/ صافيًا مختلفًا ألوانُهُ في غايةِ الحلاوةِ واللذاذةِ والمنفعةِ؛ مِن بينِ أبيضَ يُرى فيه الوجهُ أعظمَ مِن رؤيتِهِ في المرآةِ ـ وسَمَّاهُ لي مَن جاءَ بِهِ وقالَ: هٰذا أفخرُ ما يَعْرِفُ النَّاسُ مِن العسلِ وأصفاهُ وأطيبُهُ، فإذا طعمُهُ ألذُّ شيءٍ يَكونُ مِن الحلو[ى] ـ ومِن بينِ أحمرَ وأخضرَ وموَرَّدٍ وأسودَ وأشقرَ... وغيرِ ذٰلكَ مِن الألوانِ والطُّعومِ المختلفةِ فيهِ بحسبِ مراعيهِ ومادَّتِها[(١)].

[٩٧ ـ فصل]

[في التنويه بفضل العسل ومنافعه العلاجية]

وإذا تَأمَّلْتَ ما فيهِ مِن المنافعِ والشِّفاءِ ودخولَهُ في غالبِ الأدويةِ[(٢)]، حتَّى كانَ المتقدِّمونَ لا يَعْرِفونَ السُّكَّرَ ولا هوَ مذكورٌ في كتبِهِم أصلاً، وإنَّما كانَ الذي يَسْتَعْمِلونَهُ[(٣)] في الأدويةِ هوَ العسلَ، وهوَ المذكورُ في كتبِ القومِ.

= وتلقيها في البيوت السداسيّة، فتعجنها عاملات أخرى مع العسل وتغذّي بها يرقات النحل الصغيرة.

* **وأمّا توليد أجيال النحل الجديدة**؛ فمن وظائف الملكة، وهي لا تنفخ على البيوت السداسيّة، ولٰكن تضع البيوض فيها؛ الذكور في بيوت الذكور، والعاملات في بيوت العاملات، والملكات في بيوت الملكات. وعند فقس البيوض تقوم العاملات بتغذية كلّ نوع من اليرقات بالغذاء المناسب لها حتّى تصبح حشرة كاملة.

(١) يظنّ كثير من الناس أنّ لون العسل معيار للجودة والرداءة، وليس كذٰلك، وإنّما معيار الجودة والرداءة الصحيح هو طبيعة المرعى. فالنحل الذي يرعى الماء والسكّر يعطي عسلاً فقيرًا، والنحل الذي يرعى نوعًا واحدًا من الشجر كالحمضيّات مثلاً يعطي عسلاً دون العسل الذي يعطيه النحل الذي يرعى الأزهار البريّة المختلفة وأشجار الغابات العديدة المتنوّعة.

(٢) يعني: لوجدت شيئًا عجيبًا وفضلاً كثيرًا.

(٣) في خ: «أفادها وألبسها... ولا مضلّ عنها... وسمّاه لمن جاء... وإنّما كانوا يستعملونه».

ولَعَمْرُ اللهِ؛ إنَّهُ لأنفعُ مِن السُّكَّرِ وأجدى، وأجلى للأخلاطِ وأقمعُ لها وأذهبُ لضررِها، وأقوى للمعدةِ، وأشدُّ تفريحًا للنفسِ وتقويةً للأرواحِ وتنفيذًا للدَّواءِ وإعانةً لهُ على ٱستخراجِ الدَّاءِ مِن أعماقِ البدنِ.

ولهٰذا لمْ يَجِئْ في شيءٍ مِن الحديثِ قطُّ ذكرُ السُّكَّرِ[1]، ولا كانوا يَعْرِفونَهُ أصلاً، ولو عَدِمَ مِن العالَمِ؛ لَمَا ٱحْتاجوا إليهِ[2]، ولو عَدِمَ العسلُ؛ لاشْتَدَّتِ الحاجةُ إليهِ.

وإنَّما غَلَبَ على بعضِ المدنِ[3] ٱستعمالُ السُّكَّرِ حتَّى هَجَروا العسلَ وٱسْتَطابوهُ عليهِ ورَأَوْهُ أقلَّ حدَّةً وحرارةً منهُ، ولمْ يَعْلَموا أنَّ مِن منافعِ العسلِ ما فيهِ مِن الحدَّةِ والحرارةِ، فإذا لمْ يُوافِقْ مَن يَسْتَعْمِلُهُ؛ كَسَرَها بمقابِلِها، فيَصيرُ أنفعَ لهُ مِن السُّكَّرِ.

وسَنُفْرِدُ إنْ شاءَ اللهُ مقالةً نُبَيِّنُ فيها فضلَ العسلِ على السُّكَّرِ مِن طرقٍ عديدةٍ لا تُمْنَعُ وبراهينَ كثيرةٍ لا تُدْفَعُ[4].

وستى رَأَيْتَ السُّكَّرَ يَجْلو بلغمًا ويُذيبُ خلطًا أو يَشْفي مِن داءٍ؟! وإنَّما غايتُهُ بعضُ التَّنفيذِ للدَّواءِ إلى العروقِ للطافتِهِ وحلاوتِهِ.

وأمَّا الشِّفاءُ الحاصلُ مِن العسلِ؛ فقد حَرَمَهُ اللهُ لكثيرٍ مِن النَّاسِ، حتَّى صاروا يَذُمُّونَهُ ويَخْشَوْنَ غائلتَهُ مِن حرارتِهِ وحدَّتِهِ! ولا ريبَ أنَّ كونَهُ شفاءً وكونَ القرآنِ شفاءً والصَّلاةِ شفاءً وذكرِ اللهِ والإقبالِ عليهِ شفاءً أمرٌ لا يَعُمُّ الطَّبائعَ والأنفسَ!

فهٰذا كتابُ اللهِ هوَ الشِّفاءُ النَّافعُ، وهوَ أعظمُ الشِّفاءِ، وما أقلَّ المستشفينَ بهِ! بل لا يَزيدُ الطَّبائعَ الرَّديئةَ إلاَّ رداءةً، ولا يَزيدُ الظَّالمينَ إلاَّ خسارًا!

وكذٰلكَ ذكرُ اللهِ والإقبالُ عليهِ والإنابةُ إليهِ والفزعُ إلى الصَّلاةِ؛ كمْ قد شُفِيَ بهِ مِن عليلٍ! وكم قد عُوفِيَ بهِ مِن مريضٍ! وكم قامَ مقامَ كثيرٍ مِن الأدويةِ التي لا تَبْلُغُ قريبًا مِن مبلغِهِ في الشِّفاءِ! وأنتَ /خ٣٨١/ ترى كثيرًا مِن النَّاسِ بل أكثرَهُم لا نصيبَ لهُم مِن

---

(١) يعني: الحديث الصحيح. وقد جاء في بعض الواهيات. وٱنظر: «زاد المعاد» (٤/ ٣٥٥).

(٢) في خ: «ولهٰذا لا يجيء في شيء. . . لما ٱحتاج إليه».

(٣) كما هو حالنا اليوم؛ لسوء تدبيرنا، الذي حملنا على أن نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

(٤) فصّل يرحمه الله في ذٰلك في «زاد المعاد» (٤/ ٣٣ و٥٠ و٣٤٠ و٣٥٥).

الشِّفاءِ بذٰلكَ إليهِ أصلاً!

ولقد رَأيْتُ في بعضِ كتبِ الأطبَّاءِ المسلمينَ في ذكرِ الأدويةِ المفردةِ ذكرَ الصَّلاةِ؛ ذَكَرَها في بابِ الصَّادِ [و]ذَكَرَ مِن منافعِها في البدنِ التي تُوجِبُ الشِّفاءَ وجوهًا عديدةً ومِن منافعِها في الرُّوحِ والقلبِ.

وسَمِعْتُ شيخَنا أبا العبَّاسِ ابنَ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ يَقولُ، وقد عَرَضَ لهُ بعضُ الآلامِ، فقالَ لهُ الطَّبيبُ: أضرُّ ما عليكَ الكلامُ في العلمِ والفكرُ فيهِ والتَّوجُّهُ والذِّكرُ[1]. فقالَ: ألستُمْ تَزْعُمونَ أنَّ النَّفسَ إذا قَوِيَتْ وفَرِحَتْ؛ أَوْجَبَ فرحُها لها قوَّةً تُعينُ بها الطَّبيعةَ على دفعِ العارضِ؛ فإنَّهُ عدوُّها، فإذا قَوِيَتْ عليهِ؛ قَهَرَتْهُ[2]؟ فقالَ [لهُ] الطَّبيبُ: بلى. فقالَ: [أنا] إذا اشْتَغَلَتْ نفسي بالتَّوجُّهِ والذِّكرِ والكلامِ في العلمِ، وظَفِرَتْ بما يُشْكِلُ عليها منهُ؛ فَرِحَتْ بهِ وقَوِيَتْ، فأَوْجَبَ ذٰلكَ دفعَ العارضِ. هٰذا أو نحوَهُ مِن الكلامِ.

[هٰذا]؛ والمقصودُ أنَّ تركَ كثيرٍ مِن النَّاسِ الاستشفاءَ بالعسلِ لا يُخْرِجُهُ عن كونِهِ شفاءً، [كما أنَّ تركَ أكثرِهِمُ الاستشفاءَ بالقرآنِ مِن أمراضِ القلوبِ لا يُخْرِجُهُ عن كونِهِ شفاءً] لها، وهوَ شفاءٌ لِما في الصُّدورِ وإنْ لمْ يَسْتَشْفِ بهِ أكثرُ المرضى، كما قالَ تعالى: ﴿يا أيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما في الصُّدورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنينَ﴾ [يونس: ٥٧]، فعَمَّ بالموعظةِ والشِّفاءِ وخَصَّ بالهدى والمعرفةِ، فهوَ نفسُهُ شفاءٌ؛ اسْتُشْفِيَ بهِ أو لمْ يُسْتَشْفَ بهِ.

ولمْ يَصِفِ اللهُ في كتابِهِ بالشِّفاءِ إلَّا القرآنَ والعسلَ، فهُما الشِّفاآنِ: هٰذا شفاءُ القلوبِ مِن أمراضِ غيِّها وضلالِها وأدواءِ شبهاتِها وشهواتِها، وهٰذا شفاءٌ للأبدانِ مِن كثيرٍ مِن أسقامِها وأخلاطِها وآفاتِها.

ولقد أصابَني أيَّامَ مُقامي بمكَّةَ أسقامٌ مختلفةٌ؛ ولا طبيبَ هناكَ ولا أدويةَ كما في

---

(١) أيّ طبيب هٰذا قاتله الله؟! لعلّه كان يهوديًّا أو نصرانيًّا؛ فقد كانوا ـ وما زالوا ـ أهل هٰذا الاختصاص للأسف الشديد.

(٢) وهٰذا صحيح ثابت، بل هو ركيزة أساسيّة من ركائز الطبّ المعاصر.

غيرِها مِن المدنِ[1]، فكُنْتُ أَسْتَشْفي بالعسلِ وماءِ زمزمَ، ورَأيْتُ فيهما مِن الشِّفاءِ أمرًا عجبًا[2].

وتأمَّلْ إخبارَهُ سبحانَهُ وتَعالى عنِ القرآنِ بأنَّهُ نفسَهُ شفاءٌ، وقالَ عنِ العسلِ: ﴿فيهِ شِفاءٌ للنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، وما كانَ نفسُهُ شفاءً أبلغُ ممَّا جُعِلَ فيهِ شفاءٌ.

وليسَ هٰذا موضعَ استقصاءِ فوائدِ العسلِ ومنافعِهِ.

[٩٨] فصل

[في عجائب صنعة الله في لبن الأنعام]

ثمَّ تأمَّلِ العبرةَ التي ذَكَرَها اللهُ عزَّ وجلَّ في الأنعامِ وما أسقانا مِن بطونِها مِن اللبنِ الخالصِ السَّائغِ الهنيءِ المريءِ الخارجِ مِن بينِ الفرثِ والدَّمِ!

فتأمَّلْ كيفَ يَنْزِلُ الغذاءُ مِن أفواهِها إلى المعدةِ، فيَنْقَلِبُ بعضُهُ بإذنِ اللهِ دمًا يَسْري[3] في عروقِها وأعضائِها وشعورِها ولحومِها، فإذا أرْسَلَتْهُ العروقُ في مجاريها إلى جملةِ الأجزاءِ؛ قَلَبَهُ كلُّ عضوٍ وعصبٍ وغضروفٍ وشعرٍ /خ٣٨٢/ وظفرٍ وحافرٍ إلى طبيعتِهِ، ثمَّ يَبْقى الدَّمُ في تلكَ الخزائنِ التي لهُ؛ إذْ بهِ قوامُ الحيوانِ، [ثمَّ] يَنْصَبُّ ثقلُهُ إلى الكرشِ فيَصيرُ زِبْلًا، ثمَّ يَنْقَلِبُ باقيهِ لبنًا صافيًا أبيضَ سائغًا للشَّاربينَ، فيَخْرُجُ مِن بينِ الفرثِ والدَّمِ، حتَّى إذا أُنْهِكَتِ الشَّاةُ[4] أو غيرُها حلبًا؛ خَرَجَ اللبنُ مشوبًا بحمرتِهِ. فصَفَّى اللهُ سبحانَهُ الألطفَ مِن الثُّفلِ[5] بالطَّبخِ الأوَّلِ وانْفَصَلَ إلى الكبدِ وصارَ دمًا، وكانَ مخلوطًا بالأخلاطِ الأربعةِ فأذْهَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ كلَّ خلطٍ منها إلى مقرِّهِ وخزانتِهِ

---

(١) لأنَّ أكثر الأطبّاء كانوا من اليهود والنصارى، ومكّة محرّمة على الكافرين.

(٢) في خ: «فرحها لها قرّة تعيين... هٰذا أو غيره... وضلالها وإذا شبهاتها... عجيبًا».

(٣) في خ وط: «بإذن الله وما يسري»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) في خ: «الخزائن الذي له... إذا بهلت الشاة»! وفي ط: «... ينصبّ ثقله...».

(٥) في خ: «خرج الدم مشوبًا بحمرته...»! وفي ط: «خرج الدم مشربًا بحمرة... من النقل»!

والثفل: الفضلات التي تبقى بعد امتصاص المفيد من الطعام. خرج مشوبًا بحمرته: خرج اللبن من ضرع الشاة ملوّثًا بحمرة الدم.

[المهيَّأةِ لهُ مِن المرارةِ والطُّحالِ والكليةِ، وباقي الدَّمِ الخالصِ يَدْخُلُ في أوردةِ الكبدِ، فيَنْصَبُّ] مِن تلكَ العروقِ إلى الضَّرعِ، فيَقْلِبُهُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى مِن صورةِ الدَّمِ وطبعِهِ [وطعمِهِ] إلى صورةِ اللبنِ وطبعِهِ وطعمِهِ، فاُسْتُخْرِجَ مِن الفرثِ والدَّمِ[1].

فسَلِ المعطِّلَ الجاحدَ: مَنِ الذي دَبَّرَ هٰذا التَّدبيرَ وقَدَّرَ هٰذا التَّقديرَ وأَتْقَنَ هٰذا الصُّنعَ ولَطَفَ هٰذا اللطفَ سوى اللطيفِ الخبيرِ؟!

[٩٩] فصل

[في لطائف حكمة الله في خلقة السمك والحيوانات البحرية]

ثمَّ تأمَّلِ العبرةَ في السَّمكِ وكيفيَّةِ خلقتِهِ:

فإنَّهُ خُلِقَ غيرَ ذي قوائمَ؛ لأنَّهُ لا يَحْتاجُ إلى المشيِ؛ إذْ كانَ مسكنُهُ الماءَ.

ولمْ يُخْلَقْ لهُ رئةٌ؛ لأنَّ منفعةَ الرِّئةِ التَّنفُّسُ، والسَّمكُ لمْ يَحْتَجْ إليهِ لأنَّهُ يَنْغَمِسُ في الماءِ.

وخُلِقَتْ لهُ عوضَ القوائمِ أجنحةٌ شِدادٌ يَقْذِفُ بها مِن جانبيهِ كما يَقْذِفُ صاحبُ

---

(١) قدّمت الكلام في مراحل هضم الطعام وامتصاصه (٢/ ٤٠)، وفي مفهوم الأخلاط الأربعة عند القدماء وموقف الأطبّاء المحدثين منها (١/ ٤٨).

بقي أن أشير إلى أنّ الثدي غدّة كباقي الغدد الخارجيّة الإفراز في الجسم، تتلقّى تغذيتها الدمويّة من القلب عن طريق فروع الشريان الإبطي، وتعمل خلاياها على اصطناع اللبن وتركيبه ثمّ صبّه على أقنية تنفتح على الحلمة. ومع الضغط على الحلمة تتقلّص بعض الألياف العضليّة الموجودة في الثدي فيندفع اللبن.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وإنّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم ممّا في بطونه من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين﴾ [النحل: ٦٦]؛ فيمكن أن يفهم على أحد وجهين:

أوّلهما: أنّ ضروع هٰذه الأنعام تقع بين أعضاء الصدر ـ التي أهمها القلب والأوعية الدموية والدم ـ وأعضاء البطن ـ التي أهمّها الكرش بما فيه من الفرث ـ، وعليه تكون «بين» للظرفيّة المكانيّة.

والثاني: أنّ المرحلة الأولى في تكوين الحليب تبدأ بالطعام المهضوم ـ وهو الفرث ـ، ثمّ تُمتَصّ العناصر الغذائيّة فتصبح في مجرى الدم، حيث تحوّل إلى الكبد للمعالجة، فالقلب للتوزيع، فالثدي الذي يحوّل الغذاء الواصل عن طريق الدم إلى لبن خالص. وهٰذا ما ذكره ابن القيّم في المتن تمامًا، وإنّما أعدت صياغته باللغة العلميّة المعاصرة فحسب. وعليه تكون «بين» للظرفيّة الزمانيّة.

وكلا الوجهين صحيح، والثاني أفضل، والله أعلم.

المركبِ بالمقاذيفِ مِن جانبي السَّفينةِ[(١)].

وكُسِيَ جلدُهُ[(٢)] قشورًا متداخلةً كتداخلِ الجَوْشَنِ[(٣)]؛ لِيَقِيَهُ مِن الآفاتِ.

وأُعينَ بقوَّةِ الشَّمِّ؛ لأنَّ بصرَهُ ضعيفٌ والماءُ يَحْجُبُهُ، فصارَ يَشَمُّ الطَّعامَ مِن بعدٍ فيَقْصِدُهُ.

وقد ذُكِرَ في بعضِ كتبِ الحيوانِ أنَّ مِن فيهِ إلى صماخِهِ[(٤)] منافذَ، فهوَ يَصُبُّ الماءَ فيها بفيهِ ويُرْسِلُهُ مِن صماخيهِ، فيَتَرَوَّحُ بذٰلكَ؛ كما يأْخُذُ الحيوانُ النَّسيمَ الباردَ بأنفِهِ [ثمَّ يُرْسِلُهُ لِيَتَرَوَّحَ بهِ؛ فإنَّ الماءَ للحيوانِ البحريِّ كالهواءِ للحيوانِ البرِّيِّ][(٥)]. فهما بحرانِ أحدُهُما ألطفُ مِن الآخرِ؛ بحرُ هواءٍ يَسْبَحُ فيهِ حيوانُ البرِّ وبحرُ ماءٍ يَسْبَحُ فيهِ حيوانُ البحرِ، فلو فارَقَ كلٌّ مِن الصِّنفينِ بحرَهُ إلى البحرِ الآخرِ؛ ماتَ، فكما يَخْتَنِقُ الحيوانُ البرِّيُّ في الماءِ يَخْتَنِقُ [الحيوانُ البحريُّ] في الهواءِ. فسبحانَ مَن لا يُحْصي العادُّونَ آياتِهِ، ولا يُحيطونَ بتفصيلِ آيةٍ منها على الانفرادِ، بل إنْ عَلِموا منها وجهًا؛ جَهِلوا منها أوجهًا.

فتَأَمَّلِ الحكمةَ البالغةَ في كونِ السَّمكِ أكثرَ الحيوانِ نسلاً، ولهٰذا ترى في جوفِ

---

(١) أجنحة: هي الزعانف بلغة العصر، ولها شبه عظيم بالأجنحة. المقاذيف: المجاذيف.

(٢) في ط: «وأنّه خلق...»، وفي خ: «... فالسّمك لم... شداد إذ يقذف... كسي جلدًا».

(٣) الجوشن: الدرع.

(٤) الصماخ هنا هو الخيشوم، الذي يفتح على جانبي رأس السمكة، وإنّما سمّاه الصماخ لأنّه أشبه ما يكون بالأذنين على جانبي الرأس مع أنّه لا علاقة للخيشوم بالسمع إطلاقًا.

(٥) كيف يتنفّس السمك؟

أوّلاً: لو وضعت قليلاً من الماء على النار مدّة؛ لرأيت فقاقيع الهواء تخرج منه، فهٰذا يدلّك على أنّ في الماء هواءً منحلاً، وهو الهواء الذي يتنفّسه السمك وغيره من الأحياء المائيّة.

ثانيًا: تُدخل السمكة الماء إلى فمها ثمّ تدفعه خارجًا عن طريق خياشيمها في عمليّة مستمرّة.

ثالثًا: يمرّ الماء قبل خروجه من الخياشيم على أوعية دمويّة شعريّة كثيرة جدًّا مغطّاة بغشاء رقيق جدًّا يسمح بالتبادل الغازي، فيمرّ الأوكسجين من الماء إلى الأوعية الدمويّة، ويمرّ ثاني أكسيد الكربون من الأوعية الدمويّة إلى الماء، وبذٰلك تتمّ عمليّة التنفّس عند السمكة تمامًا كجميع الكائنات الحيّة.

رابعًا: وهناك عدد غير قليل من الأسماك تتنفّس الهواء الخارجي عن طريق الرئة أو عن طريق أكياس هوائيّة تنوب مناب الرئة.

خامسًا: وبعض الأسماك ـ كثعبان السمك ـ والضفادع تتنفّس بالتبادل الغازي عن طريق الجلد.

السَّمكةِ الواحدةِ مِن البيضِ ما لا يُحْصى كثرةً. وحكمةُ ذٰلكَ أنْ يَتَّسِعَ لِما يَغْتَذي بهِ مِن أصنافِ الحيوانِ؛ فإنَّ أكثرَها يأْكُلُ السَّمكَ، حتَّى السِّباعَ؛ لأنَّها في حافَّاتِ الآجامِ[1] جاثمةٌ تَعْكُفُ على الماءِ الصَّافي، فإذا تَعَذَّرَ عليها صيدُ البرِّ؛ رَصَدَتِ السَّمكَ فٱخْتَطَفَتْهُ. فلمَّا كانتِ السِّباعُ تأْكُلُ السَّمكَ والطَّيرُ تأْكُلُهُ والنَّاسُ تأْكُلُهُ والسَّمكُ الكبارُ تأْكُلُهُ ودوابُّ البرِّ / خ٣٨٣/ تأْكُلُهُ، وقد جَعَلَهُ اللهُ سبحانَهُ غذاءً لهٰذهِ الأصنافِ؛ ٱقْتَضَتْ حكمتُهُ أنْ يكونَ بهٰذهِ الكثرةِ[2].

ولو رأى العبدُ ما في البحرِ مِن ضروبِ الحيواناتِ والجواهرِ والأصنافِ التي لا يُحْصيها إلَّا اللهُ ولا يَعْرِفُ النَّاسُ منها إلَّا الشَّيءَ القليلَ الذي لا نسبةَ لهُ أصلًا إلى ما غابَ عنهُم؛ لَرَأى العجبَ، ولَعَلِمَ سعةَ ملكِ اللهِ وكثرةَ جنودِهِ التي[3] لا يَعْلَمُها إلَّا هوَ[4].

[١٠٠ـ فصل]

[في بدائع صنعته تعالى في خلق الجراد]

[و]هٰذا الجرادُ: نثرةُ حوتٍ مِن حيتانِ البحرِ يَنْثُرُهُ مِن مَنْخِرَيْهِ[5]! وهوَ جندٌ مِن جنودِ اللهِ[6]، ضعيفُ الخلقةِ عجيبُ التَّركيبِ، فيهِ خلقُ سبعِ حيواناتٍ! فإذا رَأَيْتَ عساكرَهُ قد أقْبَلَتْ؛ أبْصَرْتَ جندًا لا مردَّ لهُ ولا يُحْصى منهُ عددٌ ولا عدَّةٌ، فلو جَمَعَ الملكُ خيلَهُ ورجلَهُ ودوابَّهُ وسلاحَهُ لِيَصُدَّهُ عن بلدِهِ؛ لَما أمْكَنَهُ ذٰلكَ! فٱنْظُرْ كيفَ يَنْسابُ على الأرضِ كالسَّيلِ فيَغْشى السَّهلَ والجبلَ والبدوَ والحضرَ، حتَّى يَسْتُرَ نورَ

---

(١) الآجام: الغابات.

(٢) وهٰذه إشارة إلى ما يعرف اليوم في علم البيئة بالهرم الغذائي.

(٣) في خ: «كما يختنق... إن علموا فيها... جائمة يعتكف... كان السباع... جنوده الذي».

(٤) إي والله؛ إنّه لعجب، وإنّ لواسع، ولا يعلم ما فيه من جنود الله إلّا هو.

(٥) هٰذا صدًى لخبر إسرائيليّ تناقله بعض الصحابة والتابعين ثمّ رفعه بعض المتّهمين، ولذٰلك عدّه ابن الجوزي والذهبي والعسقلاني والألباني في الموضوعات.

(٦) أمّا هٰذا؛ فصدًى لحديث حسن بمجموع طرقه.

الشَّمسِ بكثرتِهِ، ويَسُدَّ وجهَ السَّماءِ بأجنحتِهِ، ويَبْلُغَ مِن الجوِّ إلى حيثُ لا يَبْلُغُ طائرٌ أكبرُ جناحينِ منهُ.

فسَلِ المعطِّلَ: مَنِ الذي بَعَثَ هٰذا الجندَ الضَّعيفَ الذي لا يَسْتَطيعُ أنْ يَرُدَّ عن نفسِهِ حيوانًا رامَ أخذَهُ بفيهِ على العسكرِ أهلِ القوَّةِ والكثرةِ والعددِ والحيلةِ؛ فلا يَقْدِرونَ بأجمعِهِم على دفعِهِ، بل يَنْظُرونَ إليهِ يَسْتَبِدُّ بأقواتِهِم دونَهُم ويُمَزِّقُها كلَّ ممزَّقٍ ويَذَرُ الأرضَ قفرًا منها وهُم لا يَسْتَطيعونَ أنْ يَرُدُّوهُ ولا يَحولوا بينَهُ وبينَها؟!

[١٠١- فصل]

[من لطائف حكمته تعالى أنه جعل الجزاء من جنس العمل]

وهٰذا مِن حكمتِهِ سبحانَهُ؛ أنَّهُ يُسَلِّطُ الضَّعيفَ مِن خلقِهِ الذي لا مُؤْنَةَ لهُ على القويِّ فيَنْتَقِمُ بِهِ منهُ ويُنْزِلُ بِهِ ما كانَ يَحْذَرُهُ منهُ حتَّى لا يَسْتَطيعَ لذٰلكَ مردًّا ولا صرفًا!

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنودَهُما مِنْهُمْ ما كانوا يَحْذَرونَ﴾ [القصص: ٥-٦].

فواحسرتا على ٱستقامةٍ معَ اللهِ وإيثارٍ لمرضاتِهِ في كلِّ حالٍ يُمَكِّنُ بِهِ الضَّعيفُ المستضعفُ حتَّى يُرِيَ مَنِ ٱسْتَضْعَفَهُ أنَّهُ أولى باللهِ ورسولِهِ منه[١]!

ولٰكنِ ٱقْتَضَتْ حكمةُ العزيزِ الحكيمِ أنْ يَأْكُلَ الظَّالمُ الباغي ويَتَمَتَّعَ[٢] في خفارةِ ذنوبِ المظلومِ المبغيِّ عليهِ، فذنوبُهُ مِن أعظمِ أسبابِ الرَّحمةِ في حقِّ ظالمِهِ. كما أنَّ المسؤولَ إذا رَدَّ السَّائلَ؛ فهوَ في خفارةِ كذبِهِ، ولو صَدَقَ السَّائلُ؛ لَما أفْلَحَ مَن رَدَّهُ. وكذٰلكَ السَّارقُ وقاطعُ الطَّريقِ في خفارةِ منعِ أصحابِ الأموالِ حقوقَ اللهِ فيها، ولو أدَّوْا ما للهِ [عليهِم] فيها؛ لَحَفِظَها اللهُ عليهِم.

وهٰذا أيضًا بابٌ عظيمٌ مِن حكمةِ اللهِ، يَطَّلِعُ النَّاظرُ فيهِ على سرائرَ مِن أسرارِ

---

(١) وهٰذا والله حالنا وداؤنا ودواؤنا، فالله يرحم ابن القيّم ويجزيه عن أمّته خير الجزاء.

(٢) في خ: «يحمى منه عدد ولا عدّة. . . ويمنع»! وفي ط: «. . . أخذه بعثه على العسكر. . .»!

التَّقديرِ وتسليطِ العالمِ بعضِهِم على بعضٍ وتمكينِ الجناةِ والبغاةِ. فسبحانَ /خ٣٨٤/ مَن لهُ في كلِّ شيءٍ حكمةٌ بالغةٌ وآيةٌ باهرةٌ.

حتَّى إنَّ الحيواناتِ العاديةَ على النَّاسِ في أموالِهِم وأرزاقِهِم وأبدانِهِم تَعيشُ في خفارةِ ما كَسَبَتْ أيديهِم، ولولا ذٰلكَ؛ لمْ يُسَلَّطْ عليهِم منها شيئًا.

ولعلَّ هٰذا الفصلَ الطَّرديَّ أنفعُ لمتأمِّلِه مِن كثيرٍ مِن الفصولِ المتقدِّمةِ؛ فإنَّهُ إذا أعْطاهُ حقَّهُ مِن النَّظرِ والفكرِ؛ عَظُمَ انتفاعُهُ بِه جدًّا[١]. واللهُ الموفِّقُ.

ويُحْكى أنَّ بعضَ أصحابِ الماشيةِ كانَ يَشوبُ[٢] اللبنَ ويَبيعُهُ على أنَّهُ خالصٌ، فأرْسَلَ اللهُ عليهِ سيلاً فذَهَبَ بالغنمِ، فجَعَلَ يَعْجَبُ، فأُتِيَ في منامِهِ فقيلَ لهُ: أتَعْجَبُ مِن أخذِ السَّيلِ غنمَكَ؟ إنَّهُ تلكَ القطراتُ التي شِبْتَ بها اللبنَ، اجْتَمَعَتْ فصارَتْ سيلاً.

فقِسْ على هٰذهِ الحكايةِ[٣] ما تَراهُ في نفسِكَ وفي غيرِكَ؛ تَعْلَمْ حينئذٍ: أنَّ اللهَ قائمٌ بالقسطِ، وأنَّهُ قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كَسَبَتْ، وأنَّهُ لا يَظْلِمُ مثقالَ ذرَّةٍ.

والأثرُ الإسرائيليُّ معروفٌ: أنَّ رجلاً كانَ يَشوبُ الخمرَ ويَبيعُهُ على أنَّهُ خالصٌ، فجَمَعَ مِن ذٰلكَ كيسَ ذهبٍ وسافَرَ بهِ، فرَكِبَ البحرَ ومعَهُ قردٌ لهُ، فلمَّا نامَ؛ أخَذَ القردُ الكيسَ وصَعِدَ بهِ إلى أعلى المركبِ ثمَّ فَتَحَهُ، فجَعَلَ يُلْقيهِ؛ دينارًا في الماءِ ودينارًا في المركبِ! كأنَّهُ يُقالُ لهُ[٤] بلسانِ الحالِ: ثمنُ الماءِ صارَ إلى الماءِ ولمْ نَظْلِمْكَ!

وتأمَّلِ الحكمةَ في حبسِ اللهِ [عَزَّ وجَلَّ] الغيثَ عن عبادِهِ وابتلائِهِم بالقحطِ إذا مَنَعوا الزَّكاةَ وحَرَموا المساكينَ؛ كيفَ جُوزوا على منعِ ما للمساكينِ قِبَلَهُم مِن القوتِ بمنعِ اللهِ مادَّةَ القوتِ والرِّزقِ وحبسِها عنهُم، فقالَ لهُ بلسانِ الحالِ: مَنَعْتُمُ الحقَّ، فمُنِعْتُمُ الغيثَ، فهلاَّ اسْتَنْزَلْتُموهُ ببذلِ ما للهِ قِبَلَكُم!

وتأمَّلْ حكمةَ اللهِ تَعالى في صرفِهِ الهدى والإيمانَ عن قلوبِ الذينَ يَصْرِفونَ

---

(١) إي والله؛ إنّه لعظيم المنفعة، جليل القدر. والله؛ إنّه لكلام ورثة الأنبياء حقًّا وصدقًا. فهل من سامع؟! فهل من مجيب؟!

(٢) في ط: «أسرار من أسرار... شيء ولعلّ...»، وفي خ: «... الفصل الطريّ... يشيب»!

(٣) في ط: «غنمك إنّما هي تلك القطرات التي كنت تشيب بها...»! وفي خ: «... الحكايات».

(٤) في خ: «كأنّه فقال له»، وفي ط: «كأنّه يقول له».

النَّاسَ عنهُ، فصَدَّهُم عنهُ كما صَدُّوا عبادَهُ؛ صدًّا بصدٍّ ومنعًا بمنعٍ!

وتأمَّلْ حكمتَهُ تَعالى في محقِ أموالِ المرابينَ وتسليطِ المتلفاتِ عليها كما فَعَلوا بأموالِ النَّاسِ ومَحَقوها عليهِم وأتْلَفوها بالرِّبا؛ جوزوا إتلافًا بإتلافٍ! فقَلَّ أنْ تَرى مرابيًا؛ إلَّا وآخرتُهُ إلى محقٍ وقلَّةٍ وحاجةٍ[1].

وتأمَّلْ حكمتَهُ تَعالى في تسليطِ العدوِّ على العبادِ إذا جارَ قويُّهُم على ضعيفِهِم ولم يُؤْخَذْ للمظلومِ حقُّهُ مِن ظالمِهِ؛ كيفَ يُسَلِّطُ عليهِم مَن يَفْعَلُ بهِم كفعلِهِم برعاياهُم وضعفائِهِم سواءً[2]! وهٰذِهِ سنَّةُ اللهِ تَعالى منذُ قامَتِ الدُّنيا إلى أنْ تُطْوى الأرضُ ويُعيدُها كما بَدَأها.

وتأمَّلْ حكمتَهُ تَعالى في أنْ جَعَلَ ملوكَ العبادِ وأُمراءَهُم وولاتَهُم مِن جنسِ أعمالِهِم بل كأنَّ أعمالَهُم ظَهَرَتْ في صورِ ولاتِهِم وملوكِهِم: فإنِ ٱسْتَقاموا ٱسْتَقامَتْ /خ٣٨٥/ ملوكُهُم، وإنْ عَدَلوا عَدَلوا عليهِم[3]، وإنْ جاروا جارَتْ ملوكُهُم وولاتُهُم، وإنْ ظَهَرَ فيهِمُ المكرُ والخديعةُ فولاتُهُم كذٰلكَ، وإنْ مَنَعوا حقوقَ اللهِ لديهِم وبَخِلوا بها مَنَعَتْ ملوكُهُم وولاتُهُم ما لهُم عندَهُم مِن الحقِّ وبَخِلوا بها عليهِم، وإنْ أخَذوا ممَّن يَسْتَضْعِفونَهُ ما لا يَسْتَحِقُّونَهُ في معاملاتِهِم أخَذَتْ منهمُ الملوكُ ما لا يَسْتَحِقُّونَهُ وضَرَبوا عليهِمُ[4] المكوسَ والوظائفَ، وكلُّ ما يَسْتَخْرِجونَهُ مِن الضَّعيفِ يَسْتَخْرِجُهُ الملوكُ منهُم بالقوَّةِ... فعمَّالُهُم ظَهَرَتْ في صورِ أعمالِهِم! وليسَ في الحكمةِ الإلٰهيَّةِ أنْ يُوَلّى على الأشرارِ الفجّارِ إلَّا مَن يَكونُ مِن جنسِهِم!

ولمَّا كانَ الصَّدرُ الأوَّلُ خيارَ القرونِ وأبرَّها؛ كانَتْ ولاتُهُم كذٰلكَ، فلمَّا شابوا؛ شِيبَتْ لهمُ الولاةُ.

فحكمةُ اللهِ تَأْبى أنْ يُوَلِّي علينا في هٰذِهِ الأزمانِ مثلَ مُعاوِيَةَ وعُمَرَ بنِ عَبْدِالعَزيزِ

---

(١) فهل من معتبر؟!

(٢) ومن ذٰلك أنّك لا ترى مسؤولاً يتكبّر على العباد ويعطّل مصالحهم إلّا وفوقه من يسومه ألوان الذلّ ويمرّغ أنفه بالتراب؛ جزاء وفاقًا.

(٣) في خ: «كفعلتهم برعاياهم... وهٰذه سنّته تعالى...»، وفي ط: «... عدلوا عدلت عليهم».

(٤) في ط: «معاملتهم أخذت... وضربت عليهم»، وفي خ: «... ما لا يستحقّوه...».

فضلاً عن مثلِ أبي بَكْرٍ وعُمَرَ! بل ولاتُنا على قدرِنا وولاةُ مَن قبلَنا على قدرِهِم، وكلٌّ مِن الأمرينِ موجَبُ[١] الحكمةِ ومقتضاها[٢].

ومَن لهُ فطنةٌ، إذا سافرَ بفكرِهِ في هٰذا البابِ؛ رَأى الحكمةَ الإلٰهيَّةَ سائرةً في القضاءِ والقدرِ ظاهرةً وباطنةً فيهِ كما [هيَ] في الخلقِ والأمرِ سواءً.

فإيَّاكَ أنْ تَظُنَّ بظنِّكَ الفاسدِ أنَّ شيئًا مِن أقضيتِهِ وأقدارِهِ عارٍ عنِ الحكمةِ البالغةِ، بل جميعُ أقضيتِهِ تَعالى وأقدارِهِ واقعةٌ على أتمِّ وجوهِ الحكمةِ والصَّوابِ، ولٰكنَّ العقولَ [الضَّعيفةَ محجوبةٌ بضعفِها عن إدراكِها كما أنَّ الأبصارَ] الخُفَّاشيَّةَ محجوبةٌ بضعفِها عن ضوءِ الشَّمسِ، وهٰذهِ العقولُ الصِّغارُ إذا صادَفَها الباطلُ؛ جالَتْ فيهِ وصالَتْ ونَطَقَتْ وقالَتْ كما أنَّ الخُفَّاشَ إذا صادَفَهُ [ظلامُ] الليلِ طارَ وسارَ:

خَفافيشُ أعْشاها النَّهارُ بِضَوْئِهِ وَلاءَمَها قِطْعٌ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمُ

وتَأمَّلْ حكمتَهُ تَبارَكَ وتَعالى في عقوباتِ الأُممِ الخاليةِ وتنويعِها عليهِم بحسبِ تنوُّعِ[٣] جرائمِهِم كما قالَ تَعالى: ﴿وَعادًا وَثَمودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبيلِ وَكانوا مُسْتَبْصِرينَ . وَقارونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ موسى بِالبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَروا في الأرْضِ وَما كانوا سابِقينَ . فَكُلًّا أخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الأرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أغْرَقْنا وَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كانوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِمونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠].

وتَأمَّلْ حكمتَهُ تَعالى في مسخِ مَن مَسَخَ مِن الأُممِ في صورٍ مختلفةٍ مناسبةٍ لتلكَ الجرائمِ؛ فإنَّهُم لمَّا مُسِخَتْ قلوبُهُم وصارَتْ على قلوبِ تلكَ الحيواناتِ وطبائعِها؛ اقْتَضَتِ الحكمةُ البالغةُ أنْ جُعِلَتْ صورُهُم على /خ٣٨٦/ صورِها لِتَتِمَّ المناسبةُ ويَكْمُلَ الشَّبَهُ، وهٰذا غايةُ الحكمةِ.

---

(١) في خ: «في مثل هٰذه الأزمان... وولاة من قبلهم... الأمرين يوجب».

(٢) فتأمّل وأرجع البصر، فوالله؛ لهٰذا فقه الواقع الذي نحتاجه اليوم.

(٣) في ط: «ولازمها قطع من الليل...»، وفي خ: «... بحسب تنويع».

وٱعْتَبِرْ هٰذا بمَن مُسِخوا قردةً وخنازيرَ؛ كيفَ غَلَبَتْ عليهِم صفاتُ هٰذهِ الحيواناتِ وأخلاقُها[١] وأعمالُها!

ثمَّ إنْ كُنْتَ مِن المتوسِّمينَ[٢]؛ فٱقْرَأْ هٰذهِ النُّسخةَ مِن وجوهِ أشباهِهِم ونظرائِهِم؛ كيفَ تَراها باديةً عليها وإنْ كانَتْ مستورةً بصورةِ الإنسانيَّةِ!

فٱقْرَأْ نسخةَ القردةِ مِن صورِ أهلِ المكرِ والخديعةِ والفسقِ الذينَ لا عقولَ لهُم بل هُم أخفُّ النَّاسِ عقولاً وأعظمُهُم مكرًا وخداعًا وفسقًا! فإنْ لَمْ تَقْرَأْ نسخةَ القردةِ مِن وجوهِهِم؛ فَلَسْتَ مِن المتوسِّمينَ.

وٱقْرَأْ نسخةَ الخنازيرِ مِن صورِ أشباهِهِم، ولا سيَّما أعداءِ خيارِ خلقِ اللهِ بعدَ الرُّسلِ وهُم أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ؛ فإنَّ هٰذهِ النُّسخةَ ظاهرةٌ على وجوهِ الرَّافضةِ؛ يَقْرَؤُها كلُّ مؤمنٍ كاتبٍ وغيرِ كاتبٍ، وهيَ تَظْهَرُ وتَخْفى بحسبِ خنزيريَّةِ القلبِ وخبثِهِ. فإنَّ الخنزيرَ أخبثُ الحيواناتِ وأردؤُها طباعًا، ومِن خاصِّيَّتِهِ أنَّهُ يَدَعُ الطَّيِّباتِ فلا يأْكُلُها ويَقومُ الإنسانُ عن رجيعِهِ فيُبادِرُ إليهِ. فتأمَّلْ مطابقةَ هٰذا الوصفِ لأعداءِ الصَّحابةِ؛ كيفَ تَجِدُهُ منطبقًا عليهِم! فإنَّهُم عَمَدوا إلى أطيبِ خلقِ اللهِ وأطهرِهِم[٣] فعادَوْهُم وتَبَرَّؤوا منهُم، ثمَّ والَوْا كلَّ عدوٍّ لهُم مِن النَّصارى واليهودِ والمشركينَ، فٱسْتَعانوا في [كلِّ] زمانٍ على حربِ المؤمنينَ الموالينَ لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ بالمشركينَ والكفَّارِ وصرَّحوا بأنَّهُم خيرٌ منهُم! فأيُّ شبهٍ ومناسبةٍ أوْلى بهٰذا الضَّربِ مِن الخنازيرِ؟! فإنْ لَمْ تَقْرَأْ هٰذهِ النُّسخةَ مِن وجوهِهِم؛ فلَسْتَ مِن المتوسِّمينَ!

وأمَّا الأخبارُ التي تكادُ تَبْلُغُ حدَّ التَّواترِ[٤] بمسخِ مَن مُسِخَ منهُم عندَ الموتِ خنزيرًا؛ فأكثرُ مِن أنْ تُذْكَرَ هاهُنا، وقد أفْرَدَ لها الحافظُ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِالواحدِ المَقْدِسِيُّ كتابًا[٥].

---

(١) في ط: «فإنّها لما مسخت... وطباعها اقتضت...»، وفي خ: «... الحيوانات واختلافها».

(٢) الذين ذكرهم تعالى في قوله: ﴿إنّ في ذٰلك لآيات للمتوسّمين﴾ [الحجر: ٧٥].

(٣) في خ: «كان مستورة... نسخة القرد... خيار عباد الله... ومن خاصّيّتها... وأطهره».

(٤) في خ: «فأيّ شبهة ومناسبة... تبلغ عدد التواتر».

(٥) لعلّه يشير إلى كتاب «النهي عن سبّ الأصحاب وبيان ما فيه من العذاب» للضياء المقدسيّ؛ فقد طوّل فيه الكلام في هٰذه الأخبار.

وتأمَّلْ حكمتَهُ تَعالى في عذابِهِ الأُممَ السَّالفةَ بعذابِ الاستئصالِ لمَّا كانوا أطولَ أعمارًا وأعظمَ قوًى وأعتى على اللهِ وعلى رسلِهِ، فلمَّا تَقاصَرَتِ الأعمارُ وضَعُفَتِ القوى؛ رَفَعَ عذابَ الاستئصالِ وجَعَلَ عذابَهُم بأيدي المؤمنينَ. فكانَتِ الحكمةُ في كلِّ واحدٍ مِن الأمرينِ ما ٱقْتَضَتْهُ في وقتِهِ.

وتأمَّلْ حكمتَهُ تَبارَكَ وتَعالى في إرسالِ الرُّسلِ في الأُممِ واحدًا بعدَ واحدٍ، كلَّما ماتَ واحدٌ؛ خَلَفَهُ آخرُ؛ لحاجتِها إلى تتابعِ الرُّسلِ والأنبياءِ؛ لضعفٍ في عقولِها وعدمِ ٱكتفائِها بآثارِ شريعةِ الرَّسولِ السَّابقِ. فلمَّا ٱنْتَهَتِ النَّوبةُ إلى مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِاللهِ رسولِ اللهِ ونبيِّهِ [ﷺ]؛ أَرْسَلَهُ[1] إلى أكملِ الأُممِ عقولاً ومعارفَ /خ٣٨٧/ وأصحِّها أذهانًا وأغزرِها علومًا، وبَعَثَهُ بأكملِ شريعةٍ ظَهَرَتْ في الأرضِ منذُ قامَتِ الدُّنيا إلى حينِ مبعثِهِ، فأغْنى اللهُ الأُمَّةَ بكمالِ رسولِها وكمالِ شريعتِهِ وكمالِ عقولِها وصحَّةِ أذهانِها عن رسولٍ يَأْتي بعدَهُ، [و] أقامَ لهُ مِن أُمَّتِهِ ورثةً يَحْفَظونَ شريعتَهُ ووَكَّلَهُم بها حتَّى يُؤَدُّوها إلى نظرائِهِم ويَزْرَعوها في قلوبِ أشباهِهِم فلمْ يَحْتاجوا معَهُ إلى رسولٍ آخرَ ولا نبيٍّ ولا محدَّثٍ.

ولهٰذا قالَ ﷺ: «إنَّهُ قد كانَ في الأُممِ قبلَكُم محدَّثونَ، فإنْ يَكُنْ في أُمَّتي أحدٌ؛ فعُمَرُ»[2]: فجَزَمَ بوجودِ المحدَّثينَ في الأُممِ، وعَلَّقَ وجودَهُ في أُمَّتِهِ بحرفِ الشَّرطِ. وليسَ هٰذا بنقصانٍ لأُمَّتِهِ عمَّن قبلَهُم، بل هٰذا مِن كمالِ أُمَّتِهِ على مَن قبلَها؛ فإنَّها لكمالِها وكمالِ نبيِّها وكمالِ شريعتِهِ لا تَحْتاجُ إلى محدَّثٍ، بل إنْ وُجِدَ؛ فهوَ صالحٌ للمتابعةِ والاستشهادِ لا أنَّهُ عمدةٌ؛ لأنَّها في غُنيةٍ بما بَعَثَ اللهُ بِهِ نبيَّها عن كلِّ منامٍ أو إلهامٍ أو مكاشفةٍ أو تحديثٍ، وأمَّا مَن قبلَها؛ فللحاجةِ إلى ذٰلكَ جُعِلَ فيهِمُ المحدَّثونَ.

ولا تَظُنَّ أنَّ تخصيصَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهُ بهٰذا تفضيلٌ لهُ على أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ، بل هٰذا مِن أقوى مناقبِ الصِّدِّيقِ؛ فإنَّهُ لكمالِ مشربِهِ مِن حوضِ النُّبوَّةِ وتمامِ رضاعِهِ مِن

---

(١) في ط: «فلمّا أنتهت النبوّة. . .»، وفي خ: «. . . عبد الله رسوله ونبيّه فأرسله».

(٢) رواه: البخاري (٦٠ـ الأنبياء، ٥٤ـ باب، ٦/ ٥١٢/ ٣٤٦٩) من حديث أبي هريرة، ومسلم (٤٤ـ الصحابة، ٢ـ فضائل عمر، ٤/ ١٨٦٤/ ٢٣٩٨) من حديث عائشة.

ثدي الرِّسالةِ ٱسْتَغْنى بذٰلكَ عمَّا يَتَلَقَّاهُ مِن تحديثٍ أو غيرِهِ، فالذي يَتَلَقَّاهُ مِن مشكاةِ النُّبوَّةِ أتمُّ مِن الذي يَتَلَقَّاهُ [عُمَرُ] مِن التَّحديثِ.

فتَأَمَّلْ هٰذا الموضعَ وأعْطِهِ حقَّهُ مِن المعرفةِ. وتَأَمَّلْ ما فيهِ مِن الحكمةِ البالغةِ الشَّاهدةِ: للهِ بأنَّهُ الحكيمُ الخبيرُ، وأنَّ رسولَهُ ﷺ أكملُ خلقِهِ وأكملُهُم شريعةً، وأنَّ أُمَّتَهُ أكملُ الأُممِ.

وهٰذا فصلٌ معترضٌ، وهوَ أنفعُ فصولِ الكتابِ، ولولا الإطالةُ؛ لَوَسَّعْنا فيهِ المقالَ، وكَثَّرْنا فيهِ الشَّواهدَ[1] والأمثالَ. ولقدْ فَتَحَ اللهُ الكريمُ فيهِ البابَ، وأرْشَدَ فيهِ إلى الصَّوابِ، وهوَ المرجوُّ لتمامِ نعمتِهِ، ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ.

[١٠٢] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في الحمل والولادة]

فأعِدِ الآنَ النَّظرَ فيكَ وفي نفسِكَ مرَّةً ثانيةً:

مَنِ الذي دبَّرَكَ بألطفِ التَّدبيرِ وأنتَ جنينٌ في بطنِ أُمِّكَ في موضعٍ لا يدَ تَنالُكَ ولا بصرَ يُدْرِكُكَ ولا حيلةَ لكَ في ٱلتماسِ الغذاءِ ولا في دفعِ الضُّرِّ [عنكَ]؟ فمَنِ الذي أجْرى إليكَ مِن دمِ الأُمِّ ما يَغذوكَ كما يَغْذو الماءُ النَّباتَ، وقَلَبَ ذٰلكَ الدَّمَ لبنًا[2]، ولمْ يَزَلْ يُغَذِّيكَ بهِ في أضيقِ المواضعِ /خ٣٨٨/ وأبعدِها مِن حيلةِ التَّكسُّبِ والطَّلبِ؟

حتَّى إذا كَمَلَ خلقُكَ وٱسْتَحْكَمَ، وقَوِيَ أديمُكَ على مباشرةِ الهواءِ وبصرُكَ على ملاقاةِ الضِّياءِ، وصَلُبَتْ عظامُكَ على مباشرةِ الأيدي والتَّقلُّبِ على الغبراءِ؛ هاجَ الطَّلْقُ بأُمِّكَ، فأزْعَجَكَ إلى الخروجِ أيَّما إزعاجٍ إلى عالمِ الابتلاءِ، فرَكَضَكَ الرَّحمُ ركضةً منهُ كأنْ[3] لمْ يَضُمَّكَ قطُّ ولمْ يَشْتَمِلْ عليكَ!

---

(١) في خ: «عمّا يلقاه من تحديث أو غيره...»، وفي ط: «... وأكثرنا فيه من الشواهد».

(٢) على سبيل المجاز؛ يعني: جعل هٰذا الدم بمثابة اللبن لك في حال الرضاعة. لأنّ الجنين لا يتغذّى باللبن في بطن أمّه، وإنّما ينتقل الأوكسجين والموادّ الغذائيّة من دمها إلى دمه مباشرة عبر أغشية نفوذة، وكذٰلك تنتقل الفضلات من دمه إلى دمها مباشرة عبر الأغشية نفسها.

(٣) في خ: «أضيق المواضع وأبعدهما... ركضة في مكانه كأنّه»! ركضك: دفعك لتخرج.

فيا بعدَ ما بينَ ذٰلكَ القبولِ والاشتمالِ حينَ وُضِعْتَ نطفةً وبينَ هٰذا الدَّفعِ والطَّردِ والإخراجِ! وكانَ مبتهجًا بحملِكَ فصارَ يَسْتَغيثُ ويَعُجُّ إلى ربِّكَ مِن ثقلِكَ!

فمَنِ الذي فَتَحَ لكَ بابَهُ حتَّى وَلَجْتَ، ثمَّ ضَمَّهُ عليكَ حتَّى حُفِظْتَ وكَمَلْتَ، ثمَّ فَتَحَ ذٰلكَ البابَ ووَسَّعَهُ حتَّى خَرَجْتَ منهُ كلمحِ البصرِ؛ لمْ يَخْنُقْكَ ضيقُهُ ولمْ تَحْبِسْكَ صعوبةُ طريقِكَ فيه؟!

فلو تأمَّلْتَ حالَكَ في دخولِكَ مِن ذٰلكَ البابِ وخروجِكَ منهُ؛ لَذَهَبَ بكَ العجبُ كلَّ مذهبٍ: فمَنِ الذي أوْحى إليهِ أنْ يَتَضايَقَ عليكَ وأنتَ نطفةٌ حتَّى لا تَفْسُدَ هناكَ، ثمَّ أوْحى إليهِ أنْ يَتَّسِعَ لكَ ويَنْفَسِحَ حتَّى تَخْرُجَ منهُ سليمًا؟!

[١٠٣ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في تغذية الجنين والوليد]

إلى أنْ خَرَجْتَ فريدًا وحيدًا ضعيفًا لا قشرةَ ولا لباسَ ولا متاعَ ولا مالَ، أحوجَ خلقِ اللهِ وأضعفَهُم وأفقرَهُم، فصَرَفَ ذٰلكَ اللبنَ الذي كُنْتَ تَتَغَذَّى بهِ في بطنِ أُمِّكَ إلى خزانتينِ معلَّقتينِ على صدرِها؛ تَحْمِلُ غذاءَكَ على صدرِها كما حَمَلَتْكَ في بطنِها، ثمَّ ساقَهُ إلى تلكَ الخزانتينِ ألطفَ سوقٍ على مجارٍ وطرقٍ قد تَهَيَّأتْ لهُ، فلا يَزالُ واقفًا في طرقِهِ ومجاريهِ حتَّى تَسْتَوْفيَ[1] ما في الخزانةِ فيَجْري ويَنْساقُ إليكَ. فهوَ [بئرٌ] لا تَنْقَطِعُ مادَّتُها ولا تَنْسَدُّ طرقُها، يَسوقُها إليكَ في طرقٍ لا يَهْتَدي إليها الطَّوَّافُ ولا يَسْلُكُها الرَّجَّالُ.

فمَن رَقَّقَهُ لكَ وصَفَّاهُ[2] وأطابَ طعمَهُ وحَسَّنَ لونَهُ وأحْكَمَ طبخَهُ أعدلَ إحكامٍ؛ لا بالحارِّ المؤذي ولا بالباردِ المردي[3]، ولا المرِّ ولا المالحِ، ولا الكريهِ الرَّائحةِ، بل قَلَبَهُ إلى ضربٍ آخرَ مِن التَّغذيةِ والمنفعةِ خلافَ ما كانَ في البطنِ[4]، فوافاكَ في أشدِّ

---

(١) في خ وط: «يستوفي»! وهو تصحيف! وتستوفي ما في الخزانة: تطلبه بالرضاعة.
(٢) في ط: «فتح لك الباب...»، وفي خ: «... لم يحقيك ضيقه... كنت تغذّى... وصفّاها».
(٣) في خ وط: «الرديّ»! والغالب أنّه تحريف صوابه ما أثبتّه.
(٤) وهٰذا يدلّ على أنّه عندما ذكر اللبن في البطن إنّما أراد المعنى المجازي كما قدّمت آنفًا.

أوقاتِ الحاجةِ إليهِ على حينِ ظمإٍ شديدٍ وجوعٍ مفرطٍ؛ جَمَعَ لكَ فيهِ بينَ الشَّرابِ والغذاءِ، فحينَ تُولَدُ قد تَلَمَّظْتَ وحَرَّكْتَ شفتيكَ للرَّضاعِ، فتَجِدُ الثَّديَ المعلَّقَ كالإداوةِ قد تَدَلَّى إليكَ وأقبلَ بدرِّهِ عليكَ. ثمَّ جَعَلَ في رأسِهِ /خ٣٨٩/ تلكَ الحلمةَ التي هيَ بمقدارِ صغرِ فمِكَ؛ فلا يَضيقُ عنها ولا يَتْعَبُ بٱلتقامِها. ثمَّ نَقَبَ لكَ في رأسِها نقبًا لطيفًا بحسبِ ٱحتمالِكَ، ولمْ يُوَسِّعْهُ فتَخْتَنِقَ باللبنِ، ولمْ يُضَيِّقْهُ فتَمَصَّهُ بكلفةٍ، بل جَعَلَهُ بقدرِ ٱقْتَضَتْهُ حكمتُهُ ومصلحتُكَ؟!

فمَن عَطَّفَ عليكَ قلبَ الأُمِّ ووَضَعَ فيهِ الحنانَ العجيبَ والرَّحمةَ الباهرةَ حتَّى تكونَ في أهنإِ ما يَكونُ مِن شأنِها وراحتِها ومقيلِها، فإذا أَحَسَّتْ منكَ بأدنى صوتٍ أو بكاءٍ؛ قامَتْ إليكَ وآثَرَتْكَ على نفسِها على مدى الأنفاسِ منقادةً إليكَ بغيرِ قائدٍ ولا سائقٍ إلاَّ قائدَ الرَّحمةِ وسائقَ الحنانِ، تَوَدُّ لو أنَّ كلَّ ما يُؤْلِمُكَ بجسمِها وأنَّهُ لمْ يَطْرُقْكَ منهُ شيءٌ وأنَّ حياتَها تُزادُ في حياتِكَ؟! فمَنِ الذي وَضَعَ ذٰلكَ في قلبِها؟!

حتَّى إذا قَوِيَ بدنُكَ وٱتَّسَعَتْ أمعاؤُكَ وخَشُنَتْ عظامُكَ وٱحْتَجْتَ إلى غذاءٍ أصلبَ مِن غذائِكَ لِيَشْتَدَّ بهِ عظمُكَ ويَقْوى عليهِ لحمُكَ؛ وَضَعَ في فمِكَ آلةَ القطعِ والطَّحنِ، فنَصَبَ لكَ أسنانًا تَقْطَعُ بها الطَّعامَ وطواحينَ تَطْحَنُهُ بها.

فمَنِ الذي حَبَسَها عنكَ أيَّامَ رضاعِكَ رحمةً بأُمِّكَ ولطفًا بها ثمَّ أعْطاكَها أيَّامَ أكلِكَ رحمةً بكَ وإحسانًا إليكَ ولطفًا بكَ؟! فلو أنَّكَ خَرَجْتَ مِن البطنِ ذا سنٍّ ونابٍ وناجذٍ وضرسٍ؛ كيفَ كانَ حالُ أُمِّكَ بكَ؟! ولو أنَّكَ مُنِعْتَها وقتَ الحاجةِ إليها؛ كيفَ كانَ حالُكَ بهٰذهِ الأطعمةِ التي لا تُسيغُها إلاَّ بعدَ تقطيعِها وطحنِها؟!

وكلَّما ٱزْدَدْتَ قوَّةً وحاجةً إلى الأسنانِ في أكلِ المطاعمِ المختلفةِ؛ زِيدَ لكَ في تلكَ الآلاتِ، حتَّى تَنْتَهِيَ إلى النَّواجذِ فتُطيقَ نهشَ اللحمِ وقطعَ الخبزِ وكسرَ الصُّلبِ، ثمَّ إذا ٱزْدَدْتَ قوَّةً؛ زِيدَ لكَ فيها، حتَّى تَنْتَهِيَ إلى الطَّواحينِ التي هيَ آخرُ الأضراسِ.

فمَنِ الذي ساعَدَكَ بهٰذهِ الآلاتِ وأنْجَدَكَ بها[1] ومَكَّنَكَ بها مِن ضروبِ الغذاءِ؟!

---

(١) في ط: «وضع في فيك آلة...»، وفي خ: «... تقطيعها وطبخها... وأنجد لك بها».

[١٠٤ ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في إخراج الوليد لا يعلم شيئًا]

ثمَّ إنَّهُ اَقْتَضَتْ حكمتُهُ أنْ أَخْرَجَكَ مِن بطنِ أُمِّكَ لا تَعْلَمُ شيئًا بل غبيًّا لا عقلَ ولا فهمَ ولا علمَ، وذٰلكَ مِن رحمتِهِ بكَ؛ فإنَّكَ على ضعفِكَ لا تَحْتَمِلُ العقلَ والفهمَ والمعرفةَ، بل كُنْتَ تَتَمَزَّقُ وتَتَصَدَّعُ. بل جَعَلَ ذٰلكَ يَنْشَأُ فيكَ بالتَّدريجِ شيئًا فشيئًا، فلا يُصادِفُكَ ذٰلكَ وهلةً واحدةً، بل يُصادِفُكَ يسيرًا يسيرًا حتَّى يَتَكامَلَ /خ٣٩٠/ فيكَ. واَعْتَبِرْ ذٰلكَ بأنَّ الطِّفلَ إذا سُبِيَ صغيرًا مِن بلدِهِ ومِن بينِ أبويهِ ولا عقلَ لهُ؛ فإنَّهُ لا يُؤْلِمُهُ ذٰلكَ[1]، وكلَّما كانَ أقربَ إلى العقلِ؛ كانَ أشقَّ عليهِ وأصعبَ، حتَّى إذا كانَ عاقلاً؛ فلا تَراهُ [إلَّا] كالوالهِ الحيرانِ.

ثمَّ لو وُلِدْتَ عاقلاً فهيمًا كحالِكَ في كِبَرِكَ؛ تَنَغَّصَتْ عليكَ حياتُكَ أعظمَ تنغيصٍ وتَنَكَّدَتْ أعظمَ تنكيدٍ؛ لأنَّكَ تَرى نفسَكَ محمولاً رضيعًا معصَّبًا بالخرقِ مربَّطًا بالقمطِ مسجونًا في المهدِ عاجزًا ضعيفًا عمَّا يُحاوِلُهُ الكبيرُ، فكيفَ كانَ يَكونُ عيشُكَ معَ تعقُّلِكَ التَّامِّ في هٰذهِ الحالةِ؟! ثمَّ لمْ يَكُنْ يوجَدُ لكَ مِن الحلاوةِ واللطافةِ والوقعِ في القلبِ والرَّحمةِ بكَ ما يوجَدُ للمولودِ الطِّفلِ، بل تَكونُ أنكدَ خلقِ اللهِ وأثقلَهُم وأعنتَهُم وأكثرَهُم فضولاً!

فكانَ[2] دخولُكَ هٰذا العالمَ وأنتَ غبيٌّ لا تَعْقِلُ شيئًا ولا تَعْلَمُ ما فيهِ أهلُهُ محضَ الحكمةِ والرَّحمةِ بكَ والتَّدبيرِ، فتَلْقى الأشياءَ بذهنٍ ضعيفٍ ومعرفةٍ ناقصةٍ، ثمَّ لا يَزالُ يَتَزايَدُ فيكَ العقلُ والمعرفةُ شيئًا فشيئًا حتَّى تَأْلَفَ الأشياءَ وتَمْرُنَ عليها وتَخْرُجَ مِن التَّأمُّلِ لها والحيرةِ فيها وتَسْتَقْبِلَها بحسنِ التَّصرُّفِ فيها والتَّدبيرِ لها والإتقانِ لها. وفي ذٰلكَ وجوهٌ أُخرُ مِن الحكمةِ غيرُ ما ذَكَرْناهُ.

فمَن هٰذا الذي هوَ قيِّمٌ[3] عليكَ بالمرصادِ يَرْصُدُكَ حتَّى يُوافِيَكَ بكلِّ شيءٍ مِن

---

(١) في خ: «بل غائبًا لا عقل... يهدمه ذٰلك»، وفي ط: «... جعل ذٰلك ينتقل فيك...».

(٢) في خ: «عاقلاً فيهما كحالك... القلب والرحمة بل ما...»، وفي خ وط: «... وكان»!

(٣) في ط: «وتتمرّن عليها وتخرج...»، وفي خ: «وتمرن عليها فتخرج من... هو القيّم».

المنافعِ والآرابِ والآلاتِ في وقتِ حاجتِكَ لا يُقَدِّمُها عن وقتِها ولا يُؤَخِّرُها عنهُ؟!

ثمَّ إنَّهُ أعْطاكَ الأظفارَ وقتَ حاجتِكَ إليها لمنافعَ شتَّى: فإنَّها تُعينُ الأصابعَ وتُقَوِّيها؛ فإنَّ أكثرَ العملِ لمَّا كانَ برؤوسِ الأصابعِ وعليها الاعتمادُ؛ أُعينَتْ بالأظفارِ[1] قوَّةً لها. معَ ما فيها مِن منفعةِ حكِّ الجسمِ وقشطِ الأذى[2] الذي لا يَخْرُجُ باللحمِ منهُ... إلى غيرِ ذٰلكَ مِن فوائدِها.

ثمَّ جَمَّلَكَ بالشَّعرِ على الرَّأسِ زينةً ووقايةً وصيانةً مِن الحرِّ والبردِ؛ إذ هوَ مجمعُ الحواسِّ ومعدنُ الفكرِ والذِّكرِ وثمرةُ العقلِ تَنْتَهي إليهِ.

ثمَّ خَصَّ الذَّكرَ بأنْ جَمَّلَ وجهَهُ باللحيةِ وتوابعِها؛ وقارًا وهيبةً وجمالاً وفصلاً [لهُ] عن سنِّ الصِّبا وفرقًا بينَهُ وبينَ الإناثِ. وبَقِيَتِ الأُنثى على حالِها؛ لِما خُلِقَتْ لهُ مِن ٱستمتاعِ الذَّكرِ بها، فبَقِيَ وجهُها على حالِهِ ونضارتِهِ /خ٣٩١/ ؛ لِيَكونَ أهيجَ للرَّجلِ على الشَّهوةِ وأكملَ للذَّةِ الاستمتاعِ [بِها].

[١٠٥ـ فصل]

[في بدائع صنعته تعالى في الإذكار والإيناث]

فالماءُ واحدٌ، [والجوهرُ واحدٌ]، والوعاءُ واحدٌ، واللقاحُ واحدٌ؛ فمَنِ الذي أعطى الذَّكرَ الذُّكوريَّةَ والأُنثى الأُنوثيَّةَ؟!

ولا تَلْتَفِتْ إلى ما يَقولُـ[ـهُ] الجهلةُ مِن الطَّبائعيِّينَ في سببِ الإذكارِ والإيناثِ وإحالةِ ذٰلكَ على الأُمورِ الطَّبيعيَّةِ التي لا تَكادُ تَصْدُقُ في هٰذا الموضعِ إلَّا ٱتِّفاقًا وكذبُها أكثرُ مِن صدقِها! وليسَ ٱستنادُ الإذكارِ والإيناثِ إلَّا [على] محضِ المرسومِ[3] الإلٰهيِّ الذي يُلْقيهِ إلى ملكِ التَّصويرِ[4] حينَ يَقولُ: يا ربِّ! ذكرٌ أمْ أُنثى؟ شقيٌّ أم سعيدٌ؟ فما

---

(١) في خ: «يوافيك لكلّ شيء...»، وفي ط: «... أعينت بالأظافر».

(٢) القشط والكشط واحد.

(٣) في ط: «يخرج باللحم عنه...»، وفي خ: «... وبقي الإناث على حالها... الرسوم».

(٤) كما في الحديث المتّفق عليه الذي سيأتي (٢/١٨٣).

الرِّزقُ؟ فما الأجلُ؟ فيُوحي ربُّكَ ما يَشاءُ، ويَكْتُبُ الملكُ. فإذا كانَ للطَّبيعةِ تأْثيرٌ في الإذكارِ والإيناثِ؛ فلها تأْثيرٌ [في] الرِّزقِ والأجلِ والشَّقاوةِ والسَّعادةِ، وإلَّا؛ فلا؛ إذْ مخرجُ الجميعِ ما يُوحيهِ اللهُ إلى الملَكِ. ونحنُ لا نُنْكِرُ أنَّ لذٰلكَ أسبابًا أُخرَ[1]، ولٰكنْ تلكَ مِن الأسبابِ التي ٱسْتَأْثَرَ اللهُ بها دونَ البشرِ[2].

---

(١) في خ: «سببًا آخر»، والأولى ما أثبتّه من ط.

(٢) لا بدّ لنا هنا من بعض التفصيل فيما ثبت علميًّا في مسألة الإذكار والإيناث:

أوّلاً: يحتوي ماء المرأة عادة على بويضة واحدة Ovum (وفي أحوال قليلة ٱثنتين وفي أحوال نادرة أكثر من ٱثنتين)، وبويضات جميع النساء طوال فترة النشاط الجنسي نوع واحد لا يتغيّر، كلّها تحمل الكروموسوم الجنسي X.

ثانيًا: يحتوي ماء الرجل الطبيعي على ملايين النطف Sperm، وهٰذه النطف نوعان متساويان عند الرجل الواحد بل عند جميع الرجال: ٥٠٪ منها يحمل الكروموسوم الجنسي X، وهي النطف المؤنّثة أو التي تنجب الإناث أو منيّ الإناث، و٥٠٪ منها تحمل الكروموسوم الجنسي Y، وهي النطف المذكّرة أو التي تنجب الذكور أو منيّ الذكور.

ثالثًا: يلقي الرجل عند الجماع ٣٠٠-٥٠٠ مليون نطفة في فرج المرأة Vagina (لا في الرحم)، وما تلبث هٰذه النطف أن تسبح صاعدة في سباق نحو الأعلى، حيث يصل بضعة آلاف منها فقط إلى الرحم، وبضع مئات إلى موضع التلقيح وهناك تلتقي نطفة واحدة من هٰذه المئات بالبويضة النازلة من الأعلى فتلقحها، وبهٰذا يكون الحمل قد بدأ. وإن لم يتمّ هٰذا اللقاء بسبب موت النطف أو البويضة قبل ٱلتقائها؛ فليس هاهنا حمل.

رابعًا: إذا سبقت النطفة التي تنجب الإناث (منيّ الإناث) ذات الكروموسوم X إلى البويضة فلقحتها؛ كان المولود أنثى. وإذا سبقت النطفة التي تنجب الذكور (منيّ الذكور) ذات الكروموسوم Y إلى البويضة فلقحتها؛ كان المولود ذكرًا.

خامسًا: وبناءً على هٰذه الحقائق العلميّة الثابتة أستطيع أن أقول: [١] جميع الرجال القادرون على الإنجاب موهّبون لإنجاب الذكور والإناث؛ لأنّ ماء كلّ منهم يحتوي على ٥٠٪ من النطف المذكّرة و٥٠٪ من النطف المؤنّثة. [٢] وجميع النساء القادرات على الإنجاب موهّبات لإنجاب الذكور والإناث؛ لأنّها منفعلة لا تأتي بشيء من عندها وإنّما تتلقّى من الرجل العدد نفسه من النطاف المذكّرة والمؤنّثة. [٣] ولا يقرّ العلم فكرة الرجل الذي لا ينجب إلّا الذكور (أبي الصبيان)، ولا فكرة المرأة التي لا تنجب إلّا الإناث (أمّ البنات)، ولا العكس، ويرى ذٰلك جهلاً صرفًا وتخرّصًا من تخرّصات العوام. [٤] وجنس المولود يتحدّد عمليًّا بدءًا من لحظة الإلقاح وليس بعد ذٰلك بقليل أو كثير.

سادسًا: وعليه أيضًا؛ فليس للمرأة أثر ما في التذكير والتأنيث من الناحية النظريّة ولا من الناحية العمليّة. وأمّا الرجل؛ فله أثر نظريّ في التذكير والتأنيث؛ لأنّ ماءه يحوي أسباب التذكير وأسباب التأنيث، وأمّا من الناحية العمليّة؛ فإنّه كالمرأة، لا أثر له في التذكير والتأنيث؛ لأنّه يلقي ماءه عند المرأة، ثمّ لا يملك بعد ذٰلك إلّا أن ينتظر لمعرفة نتيجة السباق وهل فازت فيه نطفة مذكّرة أو نطفة مؤنّثة. فماذا بقي إذن؟! إنّها مشيئة القاهر فوق عباده في أن تسبق هٰذه وتتأخّر تلك، إنّها يده التي تسوق هٰذه النطفة المهينة الضعيفة في سبيل=

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿لله مُلْكُ السَّماواتِ وَالأرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إناثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكورَ . أوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرانًا وَإناثًا ويَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقيمًا إنَّهُ عَليمٌ قَديرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]: فذَكَرَ أصنافَ النِّساءِ الأربعةَ معَ الرِّجالِ: إحداها: مَن تَلِدُ الإناثَ فقط. الثّانيةُ: مَن تَلِدُ الذُّكورَ فقط. الثّالثةُ: مَن تَلِدُ الزَّوجينِ الذَّكرَ والأُنثى، وهوَ معنى التَّزويجِ هُنا؛ أي: يَجْعَلُ ما يَهَبُ لهُ زوجينِ ذكرًا وأُنثى. الرّابعةُ: العقيمُ التي لا تَلِدُ أصلًا[1].

= ما كانت لتسلكه ـ ولو أجتمع لها الثقلان ـ بغير هٰذا اللطف الباهر وهٰذه العناية الفائقة؛ ﴿من نطفة خلقه فقدّره . ثمّ السبيل يسّره﴾.

سابعًا: غالبًا ما أحال المتقدّمون من العوامّ والأطبّاء ـ بل وكثير من المعاصرين للأسف الشديد ـ مسألة الإذكار والإيناث إلى المرأة وعصّبوا جناية البنات بها، ولٰكنّهم لم يحيلوا ذٰلك دائمًا إلى بنيتها الجسديّة أو أصولها الوراثيّة، وإنّما أضافوا إلى ذٰلك أسبابًا طبيعيّة كوقت الحمل بالنسبة للقمر والشمس والأبراج النجميّة والأطعمة والأدوية التي تأتي بالذكور أو العكس. . . في جملة طويلة من التخرّصات التي تجدها منثورة في كتب الطبّ القديم ومعاجم الأدوية. وهٰذه أمور غير ثابتة ولا مقبولة علميًّا، ولا تكاد تصدق إلّا أتّفاقًا كما ذكر ابن القيّم يرحمه الله تعالى هنا.

ثامنًا: وأمّا المرسوم الإلٰهيّ الذي يُلقى إلى الملك؛ فإشارة إلى ما ورد في حديث أنس الآتي (٢/١٨٣) وغيره من النصوص الصحيحة. فهٰذه النصوص الصحيحة الصريحة تفيد أنّ كتابة الجنس والرزق والأجل في صحيفة الملك تتمّ في هٰذا اليوم. وأمّا من ظنّ أنّ جنس المولود يتمّ تحديده في هٰذا اليوم لا قبلئذ؛ فقد أخطأ علميًّا وشرعيًّا: فأمّا علميًّا؛ فلما تقدّم تفصيله. وأمّا شرعيًّا؛ فلأمور منها: [١] أنّ قوله ﷺ في حديث ثوبان الآتي قريبًا: «فإذا أجتمعا فعلا منيّ الرجل منيّ المرأة أذكرا. . .»، وقوله ﷺ في حديث أبن مسعود المتّفق عليه: «إذا أستقرّت النطفة في الرحم؛ أخذها الملك بكفّه فقال: أي ربّ! أذكر أم أنثى»؛ يفيدان أنّ الإذكار والإيناث يتمّ لحظة الإلقاح. [٢] أنّ قوله ﷺ في حديث أنس الآتي قريبًا: «فإذا أراد أن يخلّقها؛ قال: يا ربّ! أذكر أم أنثى. . . فيكتب كذٰلك في بطن أمّه»؛ يفيد أنّ كتابة جنس الجنين في صحيفة الملك ـ وليس تحديد جنسه ـ هو الذي يكون عند تخليق المضغة بالشكل الإنساني. [٣] أنّ من الثابت أنّ الرزق والأجل قد كتبا وحُدّدا قبل ذٰلك بكثير بل قبل خلق آدم عليه السلام، فحقّ الجنس أن يلحق بهما، دلّ على ذٰلك قوله ﷺ في حديث أبن مسعود: «فيقال للملك: أنطلق إلى أمّ الكتاب؛ فإنّك تجد قصّة هٰذه النطفة».

تاسعًا: وأمّا أنّ أسباب الإذكار والإيناث من الأمور التي أستأثر الله بها؛ فصحيح بالنسبة لعصر ابن القيّم بلا ريب. وصحيح بالنسبة لعصرنا أيضًا؛ لأنّنا نعلم التفسير العلمي للإذكار والإيناث وتوقيت حصول الإذكار والإيناث وتوقيت ظهور الإذكار والإيناث ونجهل ما وراء ذٰلك من الأسباب التي تجعل النطفة المذكّرة تسبق المؤنّثة أو العكس. نعم؛ قد يفتح الله لمن بعدنا معارف ليست عندنا، بل قد يأتون بوسائط وأدوية تؤثّر في التذكير والتأنيث، هٰذه أمور ممكنة، وليس في نصوص الشرع ما يمنع وقوعها فيما أعلم، والله أعلم.

(١) فيه نظر من وجوه:

ومِمَّا يَدُلُّ على أنَّ سببَ الإذكارِ والإيناثِ لا يَعْلَمُهُ البشرُ ولا يُدْرَكُ بالقياس والفكرِ وإنَّما يُعْلَمُ بالوحيِ ما رَوى مسلمٌ في «صحيحِهِ»[١] مِن حديثِ ثَوْبانَ؛ قالَ: كُنْتُ عندَ النَّبيِّ ﷺ، فجاءَ حبرٌ مِن أحبارِ اليهودِ، فقالَ: السَّلامُ عليكَ يا مُحَمَّدُ! فدَفَعْتُهُ دفعةً كادَ يُصْرَعُ منها. فقالَ: لِمَ تَدْفَعُني؟ فقُلْتُ: ألا تَقولُ: يا رسولَ اللهِ! فقالَ اليهوديُّ: إنَّما نَدْعوهُ بٱسمِهِ الذي سَمَّاهُ بهِ أهلُهُ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ ٱسمي مُحَمَّدٌ الذي سَمَّاني بهِ أهلي». فقالَ اليهوديُّ: جِئْتُ أَسألُكَ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أَيَنْفَعُكَ شيءٌ إنْ حَدَّثْتُكَ؟». قالَ: أَسْمَعُ بأُذنيَّ. فنكَتَ رسولُ اللهِ ﷺ بعودٍ معَهُ، فقالَ: «سَلْ». فقالَ اليهوديُّ: أينَ يَكونُ النَّاسُ يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسَّماواتُ /خ٣٩٢/ ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «هُم في الظُّلمةِ دونَ الجسرِ». قالَ: فمَن أَوَّلُ النَّاسِ إجازةً؟ قالَ: «فقراءُ المهاجرينَ». قالَ اليهوديُّ: فما تُحْفَتُهُم حينَ يَدْخُلونَ الجنَّةَ؟ فقالَ: «زيادةُ كبدِ النُّونِ»[٢]. قالَ: فما غذاؤُهُم على إثرِها؟ قالَ: «يُنْحَرُ لهُم ثورُ الجنَّةِ الذي يَأْكُلُ مِن أطرافِها». قالَ: فما شرابُهُم عليهِ؟ قالَ: «مِن عينٍ [فيها] تُسَمَّى سلسبيلاً». قالَ: صَدَقْتَ، وجِئْتُ أسألُكَ عن شيءٍ لا يَعْلَمُهُ إلاَّ نبيٌّ أو رجلٌ أو رجلانِ. قالَ: «يَنْفَعُكَ إنْ

= أوّلها: أنّ الآية جاءت بلفظ (مَن) الذي يتناول الرجال والنساء معًا، بل هو أولى بالرجال منه بالنساء، لأنّ الخطاب يتناولهم أصلاً ويتناول النساء تبعًا، ولأنّ الهبة وقعت لهم أصلاً وللنساء تبعًا، وذلك أنّ الولد ينتسب ويرجع إلى الرجل أوّلاً وآخرًا لا إلى المرأة.

والثاني: أنّ ظاهر الآية يتناول أصناف النعم والمواهب الإلهيّة ودرجاتها على الرجال والنساء معًا، ولا يتناول أصناف النساء ولا أصناف الرجال.

والثالث: أنّ الإذكار والإيناث لا يرجع إلى المرأة نظريًا ولا عمليًا، بل هو راجع إلى الرجل من الناحية النظريّة فقط، وأمّا عمليًا؛ فهو بيد الله وحده.

والرابع: أنّ العقم لا يرجع إلى المرأة وحدها، بل قد يكون سببه الرجل وقد يكون سببه المرأة، بل حدّثني بعض المختصّين أنّ أكثر الحالات التي مرّت به كان سبب العقم فيه عائدًا إلى الرجل.

وعلى هٰذا؛ فمعنى الآية: لله سبحانه وتعالى ملك السماوات والأرض يتصرّف فيهما كيف شاء بحكمته وقدرته: فينعم على بعض الناس (رجالاً كانوا أو نساء) بالذكور فقط وعلى بعضهم بالإناث فقط وعلى بعضهم بالذكور والإناث معًا ويحرم بعضهم هٰذه النعمة فلا يعطيه ذكرًا ولا أنثى. وليس هاهنا أقسام للرجال ولا أصناف للنساء. والله أعلى وأعلم.

(١) (٣ـ الحيض، ٨ـ صفة منيّ الرجل والمرأة، ١/ ٢٥٢/ ٣١٥).

(٢) في خ: «السام عليك يا محمّد... إجازة قال المهاجرون... كبد حوت النون».

حَدَّثْتُكَ». قالَ: أَسْمَعُ بأُذنيَّ. قالَ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ عنِ الولدِ؟ قالَ: «ماءُ الرَّجلِ أبيضُ، وماءُ المرأةِ أصفرُ، فإذا ٱجْتَمَعا فعَلا منيُّ الرَّجلِ منيَّ المرأةِ أذْكَرا بإذنِ اللهِ، وإنْ عَلا منيُّ المرأةِ منيَّ الرَّجلِ آنَثا بإذنِ[1] اللهِ»[2]. قالَ اليهوديُّ: لقد صَدَقْتَ، وإنَّكَ لنبيٌّ. ثمَّ ٱنْصَرَفَ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لقد سَأَلَني [عن هٰذا الذي سَأَلَني] عنهُ، وما لي علمٌ بهِ، حتَّى أتاني اللهُ بهِ»[3].

---

(١) في ط: «من عين تسمّى... ذكر بإذن... أنثى بإذن»، وفي خ: «... أو رجلين... أذكر بإذن... آنث بإذن». والتصويب من «صحيح مسلم».

(٢) يصرع: يسقط. أسمع بأذنيّ؛ يعني: ولا ألتزم بالإيمان. تحفتهم: الطعام الذي يُهدى إليهم. النون: الحوت. أذكرا: أنجبا ذكرًا. آنثا: أنجبا أنثى.

(٣) ودعني وإيّاك الآن نفهم هٰذا الحديث النبويّ العظيم على ضوء ما قدّمته من الحقائق العلميّة:

أوّلاً: قال ﷺ: **«ماء الرجل»**: الذي يضمّ نوعين من المنيّ: منيّ الرجل أو النطف المذكَّرة التي تنجب الرجال، ومنيّ المرأة أو النطف المؤنَّثة التي تنجب الإناث. **«أبيض»**: معروف مشهور. **«وماء المرأة»**: الذي يحتوي على بويضة واحدة عادة. **«أصفر»**: لأنّ بويضة المرأة تشبه بيضة الدجاج إلى حدّ بعيد. وهٰذه معجزة علميّة أيضًا؛ لأنّ النساء بله الرجال لا يعرفن لون هٰذا الماء؛ لأنّهنّ لا يرينه ـ إن رأينه ـ إلّا بعد أن يتلوّث بمفرزات الرحم والعنق والمهبل. **«فإذا ٱجتمعا»**: ماء الرجل وماء المرأة. **«فعلا»**: فسبق إلى الأعلى، إلى موضع تلقيح البويضة، ثمّ قام بتلقيح البويضة. **«منيّ الرجل»**: النطف المذكَّرة التي تنجب الرجال، فهٰذه كانت السابقة. **«منيّ المرأة»**: النطف المؤنَّثة التي تنجب الإناث، فهٰذه كانت مسبوقة متأخّرة. **«أذكرا»**: أنجبا ذكرًا. **«بإذن الله»**: وحده وقدرته وإرادته. **«وإن علا منيّ المرأة منيّ الرجل»**: إن سبقت النطف المؤنَّثة التي تنجب الإناث إلى الأعلى ولقّحت البويضة وجاءت النطف المذكَّرة التي تنجب الذكور متأخّرة. **«آنثا بإذن الله»**: أنجبا أنثى بقدرة الله وحده وإرادته.

ثانيًا: فإن قلت: فأنت فهمت أنّ منيّ الرجل ومنيّ المرأة في هٰذا الحديث هما نوعان من المنيّ موجودان في ماء الزوج أو الرجال عمومًا؛ فما الدليل على ذٰلك؟! قلت: دليله أنّ النبيّ ﷺ قال مرّة في هٰذا الحديث «ماء الرجل وماء المرأة» ومرّة «منيّ الرجل ومنيّ المرأة»، والأصل أنّ ٱختلاف اللفظ أو المبنى دليل على ٱختلاف المعنى، ومن المستبعد جدًّا أن يغيّر الذي أوتي جوامع الكلم العبارة عبثًا. فهٰذا الأصل يفسح المجال رحبًا للفهم المذكور طالما أنّه لم يخرج عن الأصول الشرعيّة واللغويّة.

ثالثًا: فإن قلت: فأهل العلم قد فهموا منيّ الرجل والمرأة على أنّهما منيّ الزوج والزوجة لا ماء الزوج فقط! قلت: نعم؛ وأهل العلم على العينين والرأس، وهم القوم لا يشقى متّبعهم، لٰكن الأصل أن نلتزم منهجهم وطريقتهم في فهم الكتاب والسنّة، وأمّا مفردات أقوالهم وآرائهم؛ فلا تلتزم بالضرورة! ولو كان ذٰلك لازمًا واجبًا؛ للزم مَن قبلنا ومَن قبلهم حتّى نرجع إلى القول الأوّل الذي قيل في شرح النصّ ولا نخرج عنه، ومعلوم أنّ أهل العلم لا يقرّون مثل هٰذا التحجّر.

رابعًا: فإن قلت: لو كان الأمر كما تقول؛ لجاء أصرح وأوضح وأبعد عن الاحتمال! قلت: لا؛ تأبى=

والذي دَلَّ عليهِ العقلُ والنَّقلُ أَنَّ الجنينَ يُخْلَقُ مِن الماءينِ جميعًا: فالذَّكرُ يَقْذِفُ ماءَهُ في رحمِ الأُنثى، وكذٰلكَ هيَ تُنْزِلُ ماءَها إلى حيثُ يَنْتَهي ماؤُهُ، فيَلْتَقي الماءانِ على أمرٍ قد قَدَّرَهُ اللهُ وشاءَهُ، فيُخْلَقُ الولدُ منهُما جميعًا[1]. وأيُّهما غَلَبَ؛ كانَ الشَّبهُ لهُ، كما في «صحيح البخاريِّ»[2]: عن حُمَيْدٍ، عن أنسٍ؛ قالَ: بَلَغَ عَبْدَاللهِ بنَ سَلَامٍ قدومُ النَّبيِّ ﷺ، فأتاهُ، فقالَ: إنِّي سائلُكَ عن ثلاثٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إلَّا نبيٌّ. قالَ: ما أَوَّلُ أشراطِ السَّاعةِ؟ وما أوَّلُ طعامٍ يَأْكُلُـ[ـهُ] أهلُ الجنَّةِ؟ ومِن أيِّ شيءٍ يَنْزِعُ الولدُ إلى أبيهِ ومِن [أيِّ] شيءٍ يَنْزِعُ إلى أخوالِهِ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أَخْبَرَني بهنَّ آنفًا جبريلُ». فقالَ عَبْدُاللهِ: ذاكَ عدوُّ اليهودِ مِن الملائكةِ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أمَّا أوَّلُ أشراطِ السَّاعةِ؛ فنارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِن المشرقِ إلى المغربِ. وأمَّا أوَّلُ طعامٍ يَأْكُلُهُ أهلُ الجنَّةِ؛ فزيادةُ كبدِ الحوتِ. وأمَّا الشَّبهُ في الولدِ؛ فإنَّ الرَّجلَ إذا غَشِيَ المرأةَ وسَبَقَها ماؤُهُ؛ كانَ الشَّبهُ لهُ، وإنْ سَبَقَتْ؛ كانَ الشَّبهُ لها». فقالَ: أشْهَدُ أنَّكَ رسولُ اللهِ... وذَكَرَ الحديثَ[3].

= ذٰلك عظمة الكتاب والسنّة وخلودهما وعموميّتهما وعالميّتهما. إنّ من إعجاز الكتاب والسنّة أن يقرأهما الأمّيّ فيفهمهما على طريقته ويسلّم لهما ويزداد بهما إيمانًا، وطالب العلم فيفهمهما على طريقته ويسلّم لهما ويزداد بهما إيمانًا، والعالم المتبحّر كذٰلك، وأهل القرون السابقة واللاحقة إلى يوم القيامة كذٰلك... ولو راح النبيّ ﷺ يحدّث الصحابة عن البويضة وملايين النطاف والكروموسومات؛ لكان هٰذا قمّة الإلغاز والتعمية بالنسبة إليهم وإلى من تلاهم حتّى عصرنا هٰذا بل ولأغلب المعاصرين. لا، وإنّما جاء ﷺ بألفاظ جوامع يفهمها كلّ الخلق مهما اختلف عصرهم أو مصرهم أو تحصيلهم العلميّ ويؤمنوا بها ويسلّموا لها تسليمًا. وانظر مزيدًا في هٰذا في المقدّمة (١/ ٥٧).

خامسًا: وجملة القول أنّ هاهنا معجزة علميّة طبيّة للنبيّ ﷺ، ولا والله؛ ما وقفت على أدقّ ولا أصوب ولا أبعد عن الافتعال والتأويل المتمحّل منها، ولا رأيت ـ على قلّة ما رأيت ـ من سبقني إلى التنبيه إليها، فَلْتُضف إلى معجزاته ﷺ العلميّة الباهرة المتكاثرة على مرّ الأيّام؛ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانًا.

(١) في ط: «فيخلق الولد بينهما جميعًا»! والتصويب من خ.

(٢) (٦٠ـ الأنبياء، ١ـ خلق آدم، ٦/ ٣٦٢/ ٣٣٢٩).

(٣) لا بدّ لنا هنا أيضًا من شيء من التفصيل في مبادئ علم الوراثة Genetics:

أوّلًا: تحمل الصفات الوراثيّة عند الإنسان بُنى صغيرة كالخيوط موجودة داخل نواة الخليّة تسمّى الكروموسومات Chromosomes، فكلّ كروموسوم يحمل آلاف الصفات الوراثيّة بدءًا من الشكل الخارجي للجسم وحتّى الصفات النفسيّة.

ثانيًا: يبدأ الإنسان من بيضة ملقّحة تحتوي على ٢٣ زوجًا من الكروموسومات، نصفها يأتي من بويضة=

وفي الصَّحيحينِ(١): عن أُمِّ سَلَمَةَ؛ [أنَّ أُمَّ سُلَيْم](٢) قالَتْ: يا رسولَ اللهِ! إنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيي مِن الحقِّ؛ هل على المرأةِ مِن غسلٍ إذا هيَ ٱحْتَلَمَتْ؟ فقالَ: «نعمْ؛ إذا رَأَتِ الماءَ الأصفرَ». فضَحِكَتْ أُمُّ سَلَمَةَ فقالَتْ: أوَتَحْتَلِمُ المرأةُ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فبِمَ يُشْبِهُـ[ـها] الولدُ؟».

فهٰذهِ الأحاديثُ الثَّلاثةُ تَدُلُّ /خ٣٩٣/ على: أنَّ الولدَ يُخْلَقُ مِن الماءينِ. وأنَّ الإذكارَ والإيناثَ يَكونُ بغلبةِ أحدِ الماءينِ وقهرِهِ للآخرِ وعلوِّهِ عليهِ. وأنَّ الشَّبهَ يَكونُ

= الأمّ ونصفها من نطفة الأب، وهٰكذا يكون لكلّ صفة وراثيّة أصلان محمولان على كروموسومين أحدهما من الأم والآخر من الأب.

ثالثًا: إذا كان الأصلان قويّين متعادلين؛ أثّرا معًا، وكان الولد وسطًا بين الأبوين. فمثلاً إذا كانت زمرة دم الأب A نقيّة وزمرة الأمّ B نقيّة؛ فزمرة جميع الأبناء ستكون AB؛ لأنّ كلتا الزمرتين متعادلتان في القوّة.

ثالثًا: إذا كان أحد الأصلين قويًّا والآخر ضعيفًا؛ فإنّ الأصل القويّ سيعلو على الضعيف ويغلبه وينفرد بالتأثير ويجعل الولد شبيهًا له. فمثلاً إذا كانت زمرة دم الأب A نقيّة وزمرة دم الأمّ O؛ فإنّ زمرة جميع الأولاد ستكون A كأبيهم؛ لأنّ هٰذه الزمرة قويّة تعلو وتسود وزمرة O ضعيفة مغلوبة.

خامسًا: قال النبيّ ﷺ: «إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة؛ كان الشبه له، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل كان الشبه لها». قال العسقلاني (٧/٢٧٣): «ووقع عند مسلم من حديث عائشة: «إذا علا ماء الرجل ماء المرأة؛ أشبه أعمامه...»، ونحوه للبزّار عن ابن مسعود وفيه: «... فأيّهما أعلى كان له الشبه». والمراد بالعلوّ هنا السبق؛ لأنّ كلّ من سبق فقد علا شأنه، فهو علوّ معنويّ». قلت: وكذٰلك السبق معنويّ أيضًا، وكلا اللفظين بمعنى الغلبة والظهور والسيادة.

سادسًا: وعلى هٰذا؛ فمعنى حديث أنس وحديث عائشة وحديث ابن مسعود واحد، وهو: إذا كان ماء الرجل غالبًا ظاهرًا على ماء المرأة؛ كان الشبه للأب، والعكس بالعكس.

ثامنًا: فإذا قارنّا هٰذا المعنى بعبارة أهل الوراثة المعاصرين وهي: إذا كان الأصل الوراثي المحمول على كروموسوم الأب الموجود في مائه غالبًا ظاهرًا على الأصل المحمول على كروموسوم الأمّ الموجود في مائها؛ كان الشبه للأب، والعكس بالعكس. إذا فعلنا ذٰلك؛ ظهر لنا الانطباق التامّ بين العبارتين، وأنّ عبارة المعاصرين لا تختلف عن عبارته ﷺ إلاّ في التحديد الدقيق لموضع الغلبة والظهور في ماء الرجل والمرأة، بخلاف عبارة النبيّ ﷺ التي جاءت عامّة مفهومة لكلّ الناس في كلّ العصور على طريقة السنّة في الإعجاز.

تاسعًا: وعليه؛ فهاهنا معجزة علميّة طبيّة جديدة للنبيّ ﷺ تضاف إلى معجزاته المتظاهرة المتكاثرة على مرّ الأيّام؛ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانًا.

(١) البخاري (الموضع السابق، ٣٣٢٨)، ومسلم (٣ـ الحيض، ٧ـ وجوب الغسل على المرأة، ١/٢٥١/٣١٣).

(٢) زيادة مستفادة من البخاري ومسلم لا يستقيم المعنى بدونها.

بالسَّبقِ، فمَن سَبَقَ ماؤهُ إلى الرَّحمِ؛ كانَ الشَّبهُ له»[١].

وهٰذهِ أُمورٌ ليسَ عندَ أهلِ الطَّبيعةِ ما يَدُلُّ عليها، ولا تُعْلَمُ إلاَّ بالوحيِ، وليسَ في صناعتِهِم أيضًا ما يَنْفيها[٢].

على أنَّ في النَّفسِ مِن حديثِ ثَوْبانَ ما فيها، وإنَّهُ يُخافُ أنْ لا يكونَ أحدُ رواتِهِ حَفِظَهُ كما يَنْبَغي، وأنْ يَكونَ السُّؤالُ إنَّما وَقَعَ فيهِ عنِ الشَّبهِ لا عنِ الإذكارِ والإيناثِ كما سَألَ عنهُ عبدُاللهِ بنُ سَلاَمٍ، ولذٰلكَ لمْ يُخْرِجْهُ البُخاريُّ!

وفي الصَّحيحين[٣] مِن حديثِ: عُبَيْدِاللهِ بنِ أبي بَكْرِ بنِ أنَسٍ، عن أنَسٍ، عنِ النَّبيِّ[٤] ﷺ؛ قالَ: «إنَّ اللهَ وَكَّلَ بالرَّحمِ ملكًا، فيَقولُ: يا ربِّ نطفةٌ! يا ربِّ علقةٌ! يا ربِّ مضغةٌ! فإذا أرادَ أنْ يُخَلِّقَها؛ قالَ: يا ربِّ! أذكرٌ أم أُنثى؟ شقيٌّ أم سعيدٌ؟ فما الرِّزقُ؟ فما الأجلُ؟ فيُكْتَبُ كذٰلكَ في بطنِ أُمِّهِ».

أفَلا تَراهُ كيفَ[٥] أحالَ بالإذكارِ والإيناثِ على مجرَّدِ المشيئةِ، وقَرَنَهُ بما لا تأْثيرَ للطَّبيعةِ فيهِ مِن الشَّقاوةِ والسَّعادةِ والرِّزقِ والأجلِ، ولمْ يَتَعَرَّضِ الملكُ للشَّبهِ الذي للطَّبيعةِ فيهِ مدخلٌ؟! أوَلا تَرى عبدَاللهِ بنَ سَلاَمٍ لمْ يَسْألْ إلاَّ عنِ الشَّبَهِ الذي يُمْكِنُ الجوابُ عنهُ، ولمْ[٦] يَسْألْ عنِ الإذكارِ والإيناثِ معَ أنَّهُ أبلغُ مِن الشَّبهِ؟! واللهُ أعلمُ.

وإنْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ قد قالَهُ؛ فهوَ عينُ الحقِّ.

وعلى كلِّ تقديرٍ؛ فهوَ يُبْطِلُ ما زَعَمَهُ بعضُ الطَّبائعيِّينَ مِن معرفةِ أسبابِ الإذكارِ والإيناثِ[٧]. واللهُ أعلمُ.

---

(١) تقدّم لك تفصيل ذٰلك كلّه قبل قليل بما يغني عن الإعادة.

(٢) في خ: «ولا يعلمه إلاّ بالوحي...»، وفي ط: «... ما ينافيها».

(٣) البخاري (٦ـ الحيض، ١٧ـ مخلّقة وغير مخلّقة، ١/٤١٨/٣١٨)، ومسلم (٤٦ـ القدر، ١ـ كيفيّة الخلق الآدميّ، ٤/٢٠٣٨/٢٦٤٦).

(٤) في خ: «عبدالله بن أبي بكر...»!، وفي خ وط: «... بن أبي بكر بن أنس عن أبيه عن النبيّ»! وكلاهما تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٥) في خ: «نطفة يا ربّ مضغة يا ربّ علقة...»! وفي ط: «... أفلا ترى كيف».

(٦) في خ: «يتعرّض الملك لكسبه الذي...»، وفي ط: «... عنه لم».

(٧) لا بدّ هاهنا من ملاحظات أسوقها فيما يلي:

[١٠٦] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في الات الجماع]

فَانْظُرْ كيفَ جُعِلَتْ آلاتُ الجماعِ في الذَّكرِ والأُنثى جميعًا على وَفْقِ الحكمةِ:

= أوّلاً: حديث ثوبان صحيح رواه مسلم في «صحيحه»، ورواته ثقات ليس فيه صدوق فضلاً عن صاحب أوهام، ولذلك قال ابن القيّم في «تحفة المودود» (ص٢٢٣): «والحديث صحيح لا مطعن فيه».

ثانيًا: عرض للمتبحّرين من أهل التدقيق والتأمّل في النصوص كالقرطبي وابن القيّم والعسقلاني إشكال عند التوفيق بين حديث ثوبان وأحاديث عائشة وأنس وابن مسعود وغيرها.

ثالثًا: اختلف الأئمّة الأعلام في معالجة هٰذا الإشكال:

١) فمال جماعة منهم إلى توهيم رواة حديث ثوبان؛ قال ابن القيّم في «التبيان» (ص٣٣٩): «وقد تكلّم فيه بعضهم وقال: الظاهر أنّ الحديث وهم فيه بعض الرواة...» إلخ. وهٰذا مشكل من جهة أنّ توهيم الثقات الأثبات لا بدّ أن يُستند فيه إلى دليل قويّ، وإلاّ؛ انفتح على السنّة باب عظيم الخطر، وأصبحت كلّ فرضيّة علميّة ـ ولا أقول نظريّة ـ وسيلة لنقض شيء من السنّة بدعوى الوهم أو الخطإ أو اختلاط حديث في حديث... إلخ، وقد سلك قوم من القدماء والمعاصرين هٰذا المسلك فما أفلحوا ولا أنجحوا.

٢) ومال جماعة منهم القرطبي صاحب «المفهم» والعسقلاني إلى التوفيق بين النصوص بضرب من التأويل ذكره العسقلاني في «فتح الباري» (٧/ ٢٧١)، فجاؤوا بشيء حسن لولا أنّه يتعارض في بعض أوجهه مع المعطيات العلميّة الحديثة.

٣) ومال ابن القيّم إلى التوقّف تقريبًا، فعرض هنا للإشكال ثمّ ختم بقوله: «وإن كان رسول الله ﷺ قد قاله فهو عين الحقّ». وعرض في «التبيان» (ص٣٣٩) لقول الطائفة الموهّمة ثمّ ختم كلامه بقوله: «وقالت طائفة: الحديث صحيح لا مطعن في سنده ولا منافاة بينه وبين حديث ابن سلام... وفي حديث ثوبان قضيّة ضبطت وحفظت».

رابعًا: ونحن، وإن كنّا لا نملك قيراطًا من بصائر هٰؤلاء الأئمّة، فقد جاءنا المجهر الإلكتروني بفتوح عجيبة في علم الخليّة Cytology وكشوف مذهلة في آليّات توارث الصفات بين الأجيال، استطعنا من خلالها أن ندرك أنّ هٰذه النصوص صحيحة ومتوافقة ولا إشكال فيها بوجه ما، بل هي في الواقع معجزات عظيمة من معجزات النبيّ ﷺ العلميّة المتكاثرة على مرّ الأيّام كما بيّنت فيما سبق آنفًا من الحواشي. وفي هٰذا عبرة عظيمة لنا بأن لا نتسرّع في توهيم الرواة وردّ الأحاديث ولو جاء ظاهرها على خلاف المعطيات العلميّة المعاصرة.

خامسًا: وأمّا مزاعم الطبائعيّين؛ فقد قدّمت ما فيها بما يغني عن الإعادة هنا.

سادسًا: وممّا ينبغي أن يقف طالب العلم عنده ثمّ لا ينصرف عنه قول ابن القيّم قدّس الله روحه في عليّين: «وإن كان رسول الله ﷺ قد قاله؛ فهو عين الحقّ». فانظر إلى هٰذا التحكيم المطلق لكلام النبيّ ﷺ، المصطبغ قلبًا وقالبًا بقوله تعالى ﴿حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجًا ممّا قضيت ويسلّموا تسليمًا﴾! ولا أغالي والله إن قلت: إنّ هٰذا المنهج الربّاني الفريد في التعامل مع آثار النبيّ ﷺ لا يرضى بها بدلاً ولا يبغي عنها حولاً هو أحد أهمّ الأسباب التي أمدّت آثار ابن القيّم ومؤلّفاته بأسباب الخلود وجعلتها محطّ أنظار أهل العلم ومحلّ اعتبارهم حتّى عصرنا هٰذا.

فجُعِلَتْ في حقِّ الذَّكرِ آلةً ناشزةً تَمْتَدُّ حتَّى تُوصِلَ المنيَّ إلى قعرِ الرَّحمِ[١]؛ بمنزلةِ مَن يُناوِلُ غيرَهُ شيئًا فهوَ يَمُدُّ يدَهُ إليهِ حتَّى يُوصِلَهُ إيَّاهُ، ولأنَّهُ يَحْتاجُ إلى أنْ يَقْذِفَ ماءَهُ في قعرِ الرَّحمِ. وأمَّا الأُنثى؛ فجُعِلَ لها وعاءٌ مجوَّفٌ؛ لأنَّها تَحْتاجُ إلى أنْ تَقْبَلَ ماءَ الرَّجلِ وتُمْسِكَهُ وتَشْتَمِلَ عليهِ، فأُعْطِيَتْ آلةً تَليقُ بها.

ثمَّ لمَّا كانَ ماءُ الرَّجلِ يَنْحَدِرُ مِن أجزاءِ الجسدِ رقيقًا ضعيفًا لا يُخْلَقُ منهُ الولدُ؛ جُعِلَ لهُ الأُنْثَيانِ وعاءً يُطْبَخُ فيهما ويُحْكَمُ إنضاجُهُ فيَشْتَدُّ ويَنْعَقِدُ ويَصيرُ قابلاً لأنْ يَكونَ مبدأً للتَّخليقِ. ولمْ تَحْتَجْ المرأةُ إلى ذٰلكَ؛ لأنَّ رِقَّةَ مائِها ولطافتَهُ إذا مازَجَ غلظَ ماءِ الرَّجلِ وشدَّتَهُ؛ قَوِيَ بهِ واسْتَحْكَمَ، ولو كانَ الماءانِ رقيقينِ ضعيفينِ؛ لمْ يَتَكَوَّنِ الولدُ منهُما.

وخُصَّ الرَّجلُ بآلةِ النُّضجِ والطَّبخِ لحِكمٍ:

منها: أنَّ حرارتَهُ أقوى، والأُنثى باردةٌ، فلو أُعْطِيَتْ تلكَ الآلةَ /خ٣٩٤/؛ لمْ يَسْتَحْكِمْ طبخُ الماءِ وإنضاجُهُ فيها.

ومنها: أنَّ ماءَها لا يَخْرُجُ عن محلِّهِ، بل يَنْزِلُ مِن بينِ ترائِبِها[٢] إلى محلِّهِ، بخلافِ ماءِ الرَّجلِ، فلو أُعْطِيَتِ المرأةُ تلكَ الآلةَ؛ لكانَتْ تَحْتاجُ إلى آلةٍ أُخرى يوصَلُ بها الماءُ إلى محلِّهِ.

ومنها: أنَّها لمَّا كانَتْ محلاًّ للجماعِ؛ أُعْطِيَتْ مِن الآلةِ ما يَليقُ بها، فلو أُعْطِيَتْ آلةَ الرَّجلِ؛ لمْ تَحْصُلْ لها اللذَّةُ والاستمتاعُ، ولَكانَتْ تلكَ الآلةُ معطَّلةً بغيرِ منفعةٍ.

فالحكمةُ التَّامَّةُ فيما وُجِدَ[تْ] خِلْقَةُ كلٍّ منهُما عليهِ[٣].

---

(١) يعني عنق الرحم في اللغة الطبيّة المعاصرة. ثمّ تسبح النطاف بعد ذٰلك إلى داخل الرحم.

(٢) في خ: «يمدّ يديه إليه... لا يتكوّن الولد منهما... النضج والطبخ بحكم... بين أترابها».

(٣) لا بدّ هاهنا من شيء من التفصيل أسوقه فيما يلي:

أوّلاً: يتكوّن ماء الرجل من ملايين النطاف التي تسبح في وسط سائل. تنشأ هٰذه النطاف في الأنثيين أو الخصيتين Testis، ثمّ تجري في قناة طويلة متعرّجة تصبّ عليها سوائل من الخصية والحويصل المنوي Seminal Vesicle والبروستات Prostate، وتنتهي هٰذه القناة بالإحليل، الذي يقذف هٰذا الماء في أقصى مهبل المرأة Vagina، ومن ثمّ تبدأ النطاف بالسباحة صعودًا نحو الرحم بحثًا عن البويضة لإلقاحها. وعليه؛ فليس هاهنا ماء رقيق ينحدر من أنحاء الجسم إلى الخصيتين ثمّ يطبخ فيهما.

[١٠٧] فصل

[في عجائب صنعته تعالى في تقدير أعضاء البدن أحسن تقدير]

فَٱرْجِعِ الآنَ إلى نفسِكَ وكرِّرِ النَّظرَ فيكَ؛ فهوَ يَكْفيكَ! وتَأمَّلْ أعضاءَكَ [وتقديرَ] كلِّ عضوٍ منها للأربِ والمنفعةِ المهيَّإِ لها:

فاليدانِ للعلاجِ والبطشِ والأخذِ والإعطاءِ والمحاربةِ والدَّفعِ.

والرِّجلانِ لحملِ البدنِ والسَّعيِ والرُّكوبِ وٱنتصابِ القامةِ.

والعينانِ للاهتداءِ والجمالِ والزِّينةِ والمَلاحةِ ورؤيةِ ما في السَّماواتِ والأرضِ وآياتِهما وعجائبِهما.

والفمُ للغذاءِ والكلامِ والجمالِ وغيرِ ذٰلكَ.

والأنفُ للتَّنفُّسِ وإخراجِ[١] فضلاتِ الدِّماغِ وزينةٌ للوجهِ[٢].

واللسانُ للبيانِ والتَّرجمةِ عنكَ.

والأُذنانِ صاحبتا الأخبارِ تُؤَدِّيانِها إليكَ.

= ثانيًا: يتكوّن ماء المرأة من بويضة واحدة عادة تسبح في وسط سائل. تنشأ هٰذه البويضة وتكتمل في المبيضين Ovary، اللذين يلقيان بويضة واحدة فقط بالتناوب بينهما كل شهر مرّة. وما إن تسقط هٰذه البويضة حتّى تتلقّفها قناة خاصّة، تتدحرج البويضة فيها ببطء بٱتّجاه الرحم تنتظر وصول واحدة فقط من الملايين الكثيرة التي ألقاها الرجل ويتمّ الإلقاح بلقائهما. وعليه: فللمرأة آلة ينضج فيها ماؤها تقابل آلة الرجل التي ينضج فيها ماؤه وآلة توصل هٰذا الماء الناضج إلى محلّه، وماء المرأة لا ينزل إلى الرحم من ترائبها ولٰكن من مبيضها عن طريق هٰذه القناة.

ثالثًا: ترجع كثافة ماء الرجل لكثرة النطاف الموجودة فيه (٣٠٠-٥٠٠ مليون) بخلاف ماء المرأة الذي يحتوي بويضة واحدة فقط. ومع ذٰلك؛ فلا يعدّل ماء الرجل ماء المرأة ويقوّيه، ولا حاجة للمرأة بكثافته، والمهمّ أن تصل نطفة واحدة من هٰذه الملايين إلى البويضة وتلقّحها، وهٰكذا يبدأ الحمل.

رابعًا: وحرارة الرجل كحرارة المرأة سواء، لٰكنّ البويضة تنضج وتكتمل في حرارة الجسم الطبيعيّة، بخلاف النطفة التي تحتاج إلى جوّ أكثر برودة ـ لا أكثر حرارة ـ لتنضج، ولذٰلك جعل الله سبحانه الخصيتين خارج البطن وأحاطهما بغشاء رقيق يسهّل تبريدهما، وبذٰلك تنضج النطاف وتحفظ كما تحفظ الأطعمة في الثلاجة. ولذٰلك يحذّر الأطبّاء الرجال من الحمّامات الشديدة الحرارة التي قد تؤثّر على الخصيتين وتقتل النطاف فيهما وتسبّب العقم.

(١) في خ: «والأخذ والعطاء... والرجلان تحملان... للنفس ولإخراج».

(٢) تقدّم تفصيل القول في هٰذا فٱرجع إليه إن شئت (٢/ ٢٦-٢٨).

واللسانُ يُبَلِّغُ عنكَ.

[و]المعدةُ خزانةٌ يَسْتَقِرُّ فيها الغذاءُ فتَطْبُخُهُ وتُنْضِجُهُ وتُصْلِحُهُ إصلاحًا آخرَ وطبخًا آخرَ غيرَ الإصلاحِ والطَّبخِ الذي تَوَلَّيْتَهُ مِن خارجٍ. فأنتَ تُعاني إنضاجَهُ وطبخَهُ وإصلاحَهُ حتَّى تَظُنَّ أنَّهُ قد كَمَلَ وأنَّهُ قدِ اسْتَغْنى عن طبخٍ آخرَ وإنضاجٍ آخرَ، وطبَّاخُهُ الدَّاخلُ ومنضِجُهُ يُعاني مِن نضجِهِ وطبخِهِ ما لا تَهْتَدي إليهِ ولا تَقْدِرُ عليهِ، فهوَ يُوقِدُ عليهِ نيرانًا تُذيبُ الحصى وتُذيبُ ما لا تُذيبُهُ النَّارُ، وهيَ في ألطفِ موضعٍ منكَ [لا تُحْرِقُكَ] ولا تَلْتَهِبُ عليكَ، وهيَ أشدُّ حرارةً مِن النَّارِ، وإلَّا؛ فما يُذيبُ هٰذهِ الأطعمةَ الغليظةَ الشَّديدةَ جدًّا حتَّى يَجْعَلَها ماءً ذائبًا(١)؟!

وجَعَلَ الكبدَ للتَّخليصِ وأخذِ صفوِ الغذاءِ وألطفِهِ، ثمَّ رَتَّبَ منها مجاريَ وطرقًا يَسوقُ بِها الغذاءَ إلى كلِّ عضوٍ وعظمٍ وعصبٍ ولحمٍ وشعرٍ وظفرٍ(٢).

وجَعَلَ المنافذَ والأبوابَ لإدخالِ ما يَنْفَعُكَ وإخراجِ ما يَضُرُّكَ.

وجَعَلَ الأوعيةَ المختلفةَ خزائنَ تَحْفَظُ مادَّةَ حياتِكَ: فهٰذهِ خزانةٌ للطَّعامِ، وهٰذهِ خزانةٌ للحرارةِ، وهٰذهِ خزائنُ للدَّمِ. وجَعَلَ منها خزائنَ مُورَياتٍ(٣) لئلَّا تَخْتَلِطَ بالخزائنِ الأُخرِ: فجَعَلَ خزانةً للمِرَّةِ السَّوداءِ، وأُخرى للمِرَّةِ الصَّفراءِ، وأُخرى للبولِ، وأُخرى للمنيِّ(٤).

---

(١) في ط: «يجعله ماء ذائبًا». وهٰذا كلام صحيح، ومفرزات المعدة من الإنزيمات والأحماض هي نار تهضم الأطعمة وتذيبها بل هي أقوى أثرًا من النار، وقد تقدّم تفصيل هٰذا كلّه (٢/ ٤٠).

(٢) وهٰذا أيضًا مختصر صحيح لوظائف الكبد، الذي يتلقّى الطعام المهضوم الذي امتصّته الأمعاء عن طريق الأوعية الدمويّة: فيعدّل ما يحتاج إلى التعديل، ويخرّب ما فيه من السموم والضرر ويهدمه أو يقلّص أثره، ويهيّئ ما ينبغي إرساله إلى أنحاء الجسم، ويعدّ ما يلزم خزنه للخزن، ويفرز الخمائر الهاضمة وغيرها. وقد تقدّم شيء من وظائفه عند الكلام عن عمليّة الهضم (٢/ ٤٠).

(٣) في خ وط: «مؤديات»! ولا معنى لها! فلعلّها تحريف عمّا أثبتّه. ومعنى الخزائن الموريات: المستورات غير المفتوحات على الخزائن الأخر. والله أعلم.

(٤) الأوعية هنا: الأواني. فخزانة الطعام: المعدة والأمعاء. وخزانة الحرارة في لغة الأقدمين: القلب؛ لأنّه هو الذي يدفع الدم الحار إلى أنحاء الجسم. وخزائن الدم: هي الأوعية الدمويّة. وخزانة المرّة السوداء: الطحال. وخزانة المرّة الصفراء: كيس الصفراء. وخزانة البول: المثانة. وخزانة المنيّ: الخصية.

فتأمَّلْ حالَ الطَّعامِ في وصولِهِ إلى المعدةِ وكيفَ /خ٣٩٥/ يَسْري منها في البدنِ. فإنَّهُ إذا ٱستَقرَّ فيها؛ ٱشْتَمَلَتْ عليهِ وٱنْضَمَّتْ، فتَطْبُخُهُ وتُجيدُ صنعتَهُ، ثمَّ تَبْعَثُهُ إلى الكبدِ في مجارٍ دقاقٍ، وقد جُعِلَ بينَ الكبدِ وبينَ تلكَ المجاري غشاءٌ كالمصفاةِ الضَّيِّقةِ الأبخاشِ تُصَفِّيهِ[1]، فلا يَصِلُ إلى الكبدِ منهُ شيءٌ غليظٌ خشنٌ فينكؤُها؛ لأنَّ الكبدَ رقيقةٌ لا تَحْمِلُ الغليظَ. فإذا قَبِلَتْهُ الكبدُ؛ أنفَذَتْهُ إلى البدنِ كلِّهِ في مجارٍ مهيَّأةٍ لهُ بمنزلةِ المجاري المعدَّةِ للماءِ لِيَسْلُكَ في الأرضِ فيَعُمَّها بالسَّقيِ، ثمَّ يَبْعَثُ ما بَقِيَ مِن الخبثِ والفضولِ إلى مغايضَ ومصارفَ قد أُعِدَّتْ لها: فما كانَ مِن مرَّةٍ صفراءَ بَعَثَتْ بهِ إلى المرارةِ، وما كانَ مِن مرَّةٍ سوداءَ بَعَثَتْ بهِ إلى الطُّحالِ، وما كانَ مِن الرُّطوبةِ المائيَّةِ بَعَثَتْ بهِ إلى المثانةِ[2].

فمَن [ذا] الذي تَوَلَّى ذٰلكَ كلَّهُ وأحْكَمَهُ ودبَّرَهُ وقَدَّرَهُ أحسنَ تقديرٍ[3]؟!

[١٠٨ـ فصل]

[في الرد على من جحد الخالق من معطلة الطبائعيين]

وكأنِّي بكَ أيُّها المسكينُ تَقولُ: هٰذا كلُّهُ مِن فعلِ الطَّبيعةِ[4]! وفي الطَّبيعةِ عجائبُ وأسرارٌ؟!

---

(١) الغالب أنّه يريد الغشاء المساريقي The Mesentery الذي يغلف المعدة والأمعاء ويحتوي على الشعيرات الدمويّة الواردة إليهما والصادرة عنهما، وهي التي سمّاها المصنّف هنا بالمجاري الدقاق. لٰكن ليس لهٰذا الغشاء وظيفة في تصفية الوارد إلى الكبد؛ لأنّ التصفية تتمّ في الأمعاء عند الامتصاص، وإنّما وظيفته ربط الأحشاء وتثبيتها في جوف البطن حتّى لا يتكوّم بعضها فوق بعض أو تنفلت وتتدحرج في جوف البطن.

(٢) تقدّم تفصيل القول في هٰذا ومقاربته علميًا وطبيًا، فراجعه إن شئت (١/ ٤٨، ٢/ ٤٠). لٰكن بقي أن أذكّر هنا بأنّ للكبد دورًا عظيمًا في تنظيم عمليّة الإطراح البولي، ولٰكنّ التكرير وإرسال السوائل إلى المثانة إنّما يبدأ من الكلية لا من الكبد.

(٣) في خ: «صنعته بعثه إلى الكبد... خشن فلا ينكوها...»، وفي ط: «... فأحسن تقديره».

(٤) وكذٰلك يقولون اليوم في البرامج العلميّة عن النباتات والحيوانات: حَبَتْهُ الطبيعة، أعطته الطبيعة، زوّدته الطبيعة! وأجترّها منهم من تبعهم إلى جحر الضبّ من الاشتراكيّين والبعثيّين حتّى أربوا عليهم! وثالثة الأثافي تلك السموم التي تدسّ في برامج الكرتون، لٰكنّها ليست الطبيعة هٰذه المرّة، بل: أمّنا الطبيعة!

فلو أرادَ اللهُ أنْ يَهْدِيَكَ؛ لَسَأَلْتَ نفسَكَ بنفسِكَ وقُلْتَ: أَخْبِريني عن هٰذهِ الطَّبيعةِ؛ أهيَ ذاتٌ قائمةٌ [بنفسِها لها علمٌ وقدرةٌ على هٰذهِ الأفعالِ العجيبةِ، أم لَيْسَتْ كذٰلكَ بل عَرَضٌ وصفةٌ قائمةٌ بالمطبوعِ تابعةٌ لهُ محمولةٌ فيهِ؟

فإنْ قالَتْ لكَ: بل هيَ ذاتٌ قائمةٌ بنفسِها لها العلمُ التَّامُّ والقدرةُ والإرادةُ والحكمةُ. فقُلْ لها: هٰذا هوَ الخالقُ البارئُ المصوِّرُ، فلِمَ تُسَمِّينَهُ طبيعةً؟! ويا لَلّهِ عن ذكرِ الطَّبائعِ] يُرَغَّبُ فيها! فهلاَّ سَمَّيْتِهِ بما سَمَّى بهِ نفسَهُ على ألسنِ رسلِهِ ودَخَلْتِ في جملةِ العقلاءِ والسُّعداءِ؛ فإنَّ هٰذا الذي وَصَفْتِ بهِ الطَّبيعةَ صفتُهُ تَعالى!

[وإنْ] قالَتْ لكَ: بلِ الطَّبيعةُ عرضٌ محمولٌ مفتقرٌ إلى حاملٍ، وهٰذا كلُّهُ فعلُها بغيرِ علمٍ منها ولا إرادةٍ ولا قدرةٍ ولا شعورٍ أصلاً، وقد شوهِدَ مِن آثارِها ما شوهِدَ[1]! فقُلْ لها: هٰذا ما [لا] يُصَدِّقُهُ ذو عقلٍ سليمٍ! كيفَ تَصْدُرُ هٰذهِ الأفعالُ العجيبةُ والحِكَمُ الدَّقيقةُ التي تَعْجزُ عقولُ العقلاءِ عن معرفتِها وعنِ القدرةِ عليها ممَّن لا فعلَ لهُ ولا قدرةَ ولا حكمةَ ولا شعورَ؟! وهلِ التَّصديقُ بمثلِ هٰذا إلاَّ دخولٌ في سلكِ المجانينِ والمُبَرْسَمينَ[2]؟! ثمَّ قُلْ لها بعدُ: ولو ثَبَتَ لكِ ما ٱدَّعَيْتِ؛ فمعلومٌ أنَّ مثلَ هٰذهِ الصِّفةِ ليسَتْ بخالقةٍ لنفسِها ولا مبدعةٍ لذاتِها؛ فمَن ربُّها ومبدِعُها [وخالِقُها]؟! ومَن طَبَعَها وجَعَلَها تَفْعَلُ ذٰلكَ؟! فهيَ إذًا مِن أدلِّ الدَّلائلِ على بارئِها وفاطرِها وكمالِ قدرتِهِ وعلمِهِ وحكمتِهِ!

فلمْ يُجْدِ عليكَ تعطيلُـ[ـكَ] ربَّ العالمِ وجحدُكَ لصفاتِهِ وأفعالِهِ إلاَّ مخالفتَكَ العقلَ والفطرةَ! ولو حاكَمْناكَ[3] إلى الطَّبيعةِ؛ لأَرَيْناكَ أنَّكَ خارجٌ عن موجَبِها! فلا أنتَ معَ موجَبِ العقلِ ولا الفطرةِ ولا الطَّبيعةِ ولا الإنسانيَّةِ أصلاً! وكَفى بذٰلكَ جهلاً وضلالاً!

---

(١) هٰكذا يقول المعاصرون منهم على الأقل! فإنّها لا تعمى الأبصار ولٰكن تعمى القلوب التي في الصدور. ووقع في خ: «شوهد من آثارها من شوهد»!

(٢) البرسام: ألتهاب شديد في الرئة أو القصبات.

(٣) في خ: «وأدلّ الدليل على... ولو حكّمناك»، وفي ط: «... يجد بك تعطيلك...».

فإنْ /خ٣٩٦/ رَجَعْتَ إلى العقلِ وقُلْتَ: لا تُوجَدُ حكمةٌ إلاَّ مِن حكيمٍ قادرٍ عليمٍ، ولا تدبيرٌ متقنٌ إلاَّ مِن صانعٍ قادرٍ مختارٍ مدبِّرٍ عليمٍ بما يُدَبِّرُ قادرٍ عليهِ لا يُعْجِزُهُ [ولا يَصْعُبُ عليهِ] ولا يَؤودُهُ.

قيلَ لكَ: فقد أقْرَرْتَ[1] ويحكَ بالخلاَّقِ العظيمِ الذي لا إلٰهَ غيرُهُ ولا ربَّ سواهُ؛ فدَعْ تسميتَهُ طبيعةً [أ]و عقلاً فعَّالاً أو موجِبًا بذاتِهِ، وقُلْ: هٰذا هوَ اللهُ الخالقُ البارئُ المصوِّرُ، ربُّ العالمينَ وقيُّومُ السَّماواتِ والأرضينَ وربُّ المشارقِ والمغاربِ، الذي أحْسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ وأتْقَنَ ما صَنَعَ! فما لكَ جَحَدْتَ أسماءَهُ وصفاتِهِ بل وذاتَهُ وأضَفْتَ صنعَهُ إلى غيرِهِ وخلقَهُ إلى سواهُ معَ أنَّكَ مضطرٌّ إلى الإقرارِ بهِ وإضافةِ الإبداعِ والخلقِ والرُّبوبيَّةِ والتَّدبيرِ إليهِ ولا بدَّ؟! فالحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

على أنَّكَ لو تَأَمَّلْتَ قولَكَ «طبيعةٌ» ومعنى هٰذهِ اللفظةِ؛ [لَدَلَّكَ] على الخالقِ البارئِ لفظُها كما دَلَّ العقولَ عليهِ معناها؛ لأنَّ طبيعةً فعيلةٌ بمعنى مفعولةٍ؛ أي: مطبوعةٍ، ولا يُحْتَمَلُ غيرُ هٰذا ٱلبتَّةَ[2]؛ لأنَّها على بناءِ الغرائزِ التي رُكِّبَتْ في الجسمِ ووُضِعَتْ فيهِ كالسَّجيَّةِ والغريزةِ والنَّجيرةِ والسَّليقةِ[3] والطَّبيعةِ، فهيَ التي طُبِعَ عليها الحيوانُ وطُبِعَتْ فيهِ، ومعلومٌ أنَّ طبيعةً مِن غيرِ طابعٍ لها محالٌ! فقد دَلَّ لفظُ الطَّبيعةِ على البارئِ تَعالى كما دَلَّ معناها عليهِ.

والمسلمونَ يَقولونَ: إنَّ الطَّبيعةَ خلقٌ مِن خلقِ اللهِ مسخَّرٌ مربوبٌ، وهيَ سنَّتُهُ في خليقتِهِ التي أجْراها عليها[4]، ثمَّ إنَّهُ يَتَصَرَّفُ فيها كيفَ شاءَ وكما شاءَ فيَسْلُبُها تأثيرَها إذا أرادَ ويَقْلِبُ تأثيرَها إلى ضدِّهِ إذا شاءَ؛ لِيُرِيَ عبادَهُ أنَّهُ وحدَهُ البارئُ المصوِّرُ، وأنَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ كما يَشاءُ، [و] ﴿إنَّما أمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئًا أنْ يقولَ لَهُ كُنْ فَيَكونُ﴾ [يَس: ٨٢].

---

(١) في خ: «جهلاً أو ضلالاً...»، وفي ط: «... عليم بما يريد... فإذًا أقررت».

(٢) في خ: «ولنفظها كما دلّ المعقول عليه لمعناها... فعليّة بمعنى مفعول... هٰذه ٱلبتّة».

(٣) في خ: «كالشحنة والغريزيّة والبحيرة والسلعة»! وفي ط: «... والبحيرة...»! وكلّه تحريف! ولا محلّ للبحيرة هنا، ولا هي من الغرائز المركّبة في الجسم، بل هي النجيرة بمعنى الخلق والسجيّة.

(٤) وبعبارتنا اليوم: هي هٰذه القوانين التي أرساها الله سبحانه يوم خلق السماوات والأرض وجعلها تحكم ما فيها من الذرّة إلى المجرّة في الأمر والقدر والبقاء والزوال والحركة والسكون والثبات والتوازن...

وأنَّ الطَّبيعةَ التي أَنْتَهى نظرُ الخفافيشِ إليها إنَّما هيَ خلقٌ مِن خلقِهِ بمنزلةِ سائرِ مخلوقاتِهِ؛ فكيفَ يَحْسُنُ بمَن لهُ حظٌّ مِن إنسانيَّةٍ أو عقلٍ أنْ يَنْسى مَن طَبَعَها وخَلَقَها ويُحيلَ الصُّنعَ والإبداعَ عليها؟! ولمْ يَزَلِ اللهُ سبحانَهُ يَسْلُبُها قوَّتَها ويُحيلُها ويَقْلِبُها إلى ضدِّ ما جُعِلَتْ لهُ حتَّى يُرِيَ عبادَهُ أنَّهـ[ـا] خلقُهُ وصنعُهُ مسخَّرةٌ بأمرِهِ، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

[١٠٩] فصل

[في بدائع صنعته تعالى في نمو الكائنات الحية]

فأعِدِ النَّظرَ في نفسِكَ:

وتأمَّلْ حكمةَ اللطيفِ الخبيرِ في تركيبِ البدنِ، ووضعِ هٰذهِ الأعضاءِ مواضعَها منهُ، وإعدادِها لِما أُعِدَّتْ لهُ، وإعدادِ هٰذهِ الأوعيةِ المعدَّةِ لحملِ الفضلاتِ وجمعِها لكيلا تَنْتَشِرَ في البدنِ فتُفْسِدَهُ!

ثمَّ تأمَّلِ الحكمةَ البالغةَ في تنميتِكَ وتكبيرِ أجزائِكَ[١] مِن غيرِ تفكيكٍ ولا تفصيلٍ! ولو أنَّ صائغًا أخَذَ تمثالاً مِن ذهبٍ أو فضَّةٍ أو نحاسٍ، فأرادَ أنْ يَجْعَلَهُ أكبرَ ممَّا /خ٣٩٧/ هوَ؛ هل كانَ يُمْكِنُهُ ذٰلكَ إلَّا بعدَ أنْ يَكْسِرَهُ ويَصوغَهُ صياغةً أُخرى؟!

والرَّبُّ تَعالى يُنَمِّي جسمَ[٢] الطِّفلِ وأعضاءَهُ الظَّاهرةَ والباطنةَ وجميعَ أجزائِهِ وهوَ باقٍ ثابتٌ على شكلِهِ وهيئتِهِ لا يَتَزايَلُ ولا يَنْفَكُّ ولا يَنْقُصُ!

وأعجبُ مِن هٰذا كلِّهِ تصويرُهُ في الرَّحمِ حيثُ لا تَراهُ العيونُ ولا تَلْمُسُهُ الأيدي ولا تَصِلُ إليهِ الآلاتُ، فيَخْرُجُ بشرًا سويًّا مستوفيًا لكلِّ ما فيهِ مصلحتُهُ وقِوامُهُ مِن عضوٍ وحاسَّةٍ وآلةٍ مِن الأحشاءِ والجوارحِ والحواملِ والأعصابِ والرِّباطاتِ والأغشيةِ والعظامِ المختلفةِ الشَّكلِ والقدرِ والمنفعةِ والموضعِ إلى غيرِ ذٰلكَ مِن اللحمِ والشَّحمِ والمخِّ وما

---

(١) في خ وط: «تنميتك وكثرة أجزائك»! ولا محلّ للكثرة هنا، ولا الكلام فيها! فلعلّ الصواب ما أثبتّه، وربّما كان الصواب: «تنميتك مع كثرة أجزائك». والله أعلم.

(٢) في خ: «من غير تكليف ولا تفصيل ولو أنّ صانعًا... هو أهل كان... ينمي جسم».

في ذٰلكَ مِن دقيقِ التَّركيبِ ولطيفِ الخلقةِ وخفيِّ الحكمةِ وبديعِ الصَّنعةِ؛ كلُّ هٰذا صنعُ اللهِ أحسنِ الخالقينَ في قطرةٍ مِن ماءٍ مهينٍ.

وما كَرَّرَ عليكَ في [كتابِهِ] مبدأَ خلقِكَ وإعادتَهُ ودَعاكَ إلى التَّفكيرِ فيهِ إلَّا لِما لكَ مِن العبرةِ والمعرفةِ. فلا تَسْتَطِلْ[1] هٰذا الفصلَ وما فيهِ مِن نوعِ تكرارٍ يَشْتَمِلُ على مزيدِ فائدةٍ؛ فإنَّ الحاجةَ إليهِ ماسَّةٌ والمنفعةُ عظيمةٌ.

[١١٠- فصل]

[في تكريم بني آدم وتسخير ما في الدنيا لهم]

فٱنْظُرْ إلى بعضِ ما خَصَّكَ بهِ وفَضَّلَكَ بهِ على البهائمِ المهملةِ؛ إذ خَلَقَكَ على هيئةٍ تَنْتَصِبُ قائمًا وتَسْتَوي جالسًا وتَسْتَقْبِلُ الأشياءَ ببدنِكَ وتُقْبِلُ عليها بجملتِكَ فيُمْكِنُكَ العملُ والصَّلاحُ والتَّدبيرُ، ولو كُنْتَ كذواتِ الأربعِ المكبوبةِ على وجهِها[2]؛ لَمْ يَظْهَرْ لكَ فضيلةُ التَّميُّزِ والاختصاصِ، ولَمْ يَتَهَيَّأْ منكَ ما تَهَيَّأَ مِن هٰذهِ النِّصبةِ[3].

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ في البَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

فسبحانَ مَن أَلْبَسَ خلعَ الكرامةِ كلِّها لبني آدَمَ مِن العقلِ والعلمِ والبيانِ والنُّطقِ والشَّكلِ والصُّورةِ الحسنةِ والهيئةِ الشَّريفةِ والقدِّ المعتدلِ[4] وٱكتسابِ العلومِ بالاستدلالِ والفكرِ وٱقتناصِ الأخلاقِ الشَّريفةِ الفاضلةِ مِن البرِّ والطَّاعةِ والانقيادِ! فكم بينَ حالِهِ وهوَ نطفةٌ داخلٌ في الرَّحمِ مستودَعٌ هناكَ وبينَ حالِهِ والملكُ يَدْخُلُ عليهِ في جنَّاتِ عَدْنٍ[5]! فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ.

---

(١) في خ: «والأعصاب والرطوبات والأغشية... إلى التفكّر فيه... فلا تستطيل».

(٢) في خ: «وتقبل عليها بجهلك... على وجهه»، وفي ط: «... العلم والصلاح...».

(٣) في ط: «تميّز وٱختصاص... هٰذه النسبة»! والصواب ما أثبتّه من خ. والنصبة: هيئة الانتصاب.

(٤) في ط: «وفضّلناهم على كثير ممّا...»! وفي خ: «... والقدر المعتدل».

(٥) يعني: أنّ الله خلق ابن آدم من ماء مهين، ثمّ ما زال يرقّيه ويحبوه ويخصّه بالنعمة تلو الأخرى حتّى يصير في الجنّة دار الكرامة المطلقة والنعمة التامّة.

فالدُّنيا قريةٌ، والمؤمنُ رئيسُها، والكلُّ[١] مشغولٌ بهِ ساعٍ في مصالحِهِ، والكلُّ قد أُقيمَ في خدمتِهِ وحوائجِهِ: فالملائكةُ الذينَ هُم حملةُ عرشِ الرَّحمٰنِ ومَن حولَهُ يَسْتَغْفِرونَ لهُ، والملائكةُ الموكَّلونَ بهِ يَحْفَظونَهُ، والموكَّلونَ بالقطرِ والنَّباتِ يَسْعَوْنَ في رزقِهِ ويَعْمَلونَ فيهِ، والأفلاكُ مسخَّرةٌ منقادةٌ دائرةٌ بما فيهِ مصالحُهُ، والشَّمسُ والقمرُ والنُّجومُ مسخَّراتٌ جارياتٌ بحسابِ أزمنتِهِ وأوقاتِهِ وإصلاحِ رواتبِ أقواتِهِ، والعالمُ الجويُّ مسخَّرٌ لهُ برياحِهِ وهوائِهِ وسحابِهِ /خ٣٩٨/ وطيرِهِ وما أُودِعَ فيهِ، والعالمُ السُّفليُّ كلُّهُ مسخَّرٌ لهُ مخلوقٌ لمصالحِهِ أرضُهُ وجبالُهُ وبحارُهُ [وأنهارُهُ] وأشجارُهُ وثمارُهُ ونباتُهُ وحيوانُهُ وكلُّ ما فيهِ[٢].

كما قالَ تَعالى: ﴿اللهُ الَّذي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ ما في السَّماواتِ وَما في الأَرْضِ جَميعًا مِنْهُ إِنَّ في ذٰلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ﴾ [الجاثية: ١٢-١٣].

وقالَ تَعالى: ﴿اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ في البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ . وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُموهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصوها إِنَّ الإِنْسانَ لَظَلومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

فالسَّائرُ في معرفةِ آلاءِ اللهِ وتأمُّلِ حكمتِهِ وبديعِ صفاتِهِ أطولُ باعًا وأملأُ صواعًا مِن اللصيقِ بمكانِهِ المقيمِ في بلدِ عادتِهِ وطبعِهِ راضيًا بعيشِ بني جنسِهِ لا [يَرْضى] لنفسِهِ [إلاَّ] أنْ يكونَ واحدًا منهُم يقولُ: لي أُسوةٌ بهِم! وهلْ أنا إلاَّ مِن رَبيعةَ أو مُضَرَ؟!

وليسَتْ نفائسُ البضائعِ إلاَّ لمَنِ ٱمْتَطى غاربَ الاغترابِ وطَوَّفَ في الآفاقِ حتَّى رَضِيَ مِن الغنيمةِ بالإيابِ[٣]، فٱسْتَلانَ ما ٱسْتَوْعَرَهُ البطَّالون وأنِسَ بما ٱسْتَوْحَشَ منهُ الجاهلون.

---

(١) في ط: «داخل إلى الرحم مستودع. . .»، وفي خ: «. . . والمؤمن يلبسها والكلّ».
(٢) راجع ما قدّمته في هذا (١/ ٧٣-٧٤).
(٣) في خ: «فالسير في معرفة آلاء الله. . . أمتطَ غارب الأغراب. . . الغنيمة بالآيات».

[١١١] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في الحواس]

فأعِدِ النَّظرَ في نفسِكَ وحكمةِ الخلَّاقِ العليم في خلقِكَ! وٱنْظُرْ إلى الحواسِّ التي منها تُشْرِفُ على الأشياءِ؛ كيفَ جَعَلَها اللهُ في الرَّأْسِ كالمصابيحِ فوقَ المنارةِ؛ لِتتَمَكَّنَ بها مِن مطالعةِ الأشياءِ، ولمْ تُجْعَلْ في الأعضاءِ التي تُمْتَهَنُ كاليدينِ والرِّجلينِ فتتَعَرَّضَ للآفاتِ بمباشرةِ الأعمالِ والحركاتِ، ولا جَعَلَها في الأعضاءِ التي في وسطِ البدنِ كالبطنِ والظَّهرِ فيَعْسُرَ عليها التَّلفُّتُ والاطِّلاعُ [على الأشياءِ]. فلمَّا لمْ يَكُنْ لها في شيءٍ مِن هٰذهِ الأعضاءِ موضعٌ؛ كانَ الرَّأْسُ أليقَ المواضعِ بها وأجملَها. فالرَّأْسُ صومعةُ الحواسِّ.

ثمَّ تأمَّلِ الحكمةَ في أنْ جَعَلَ الحواسَّ خمسًا في مقابلةِ المحسوساتِ الخمسِ؛ لِيَلْقى خمسًا بخمسٍ؛ كي لا يَبْقى شيءٌ مِن المحسوساتِ لا يَنالُهُ بحاسَّةٍ. فجَعَلَ البصرَ في مقابلةِ المبصراتِ، والسَّمعَ في مقابلةِ الأصواتِ، والشَّمَّ في مقابلةِ أنواعِ الرَّوائحِ المختلفاتِ، والذَّوقَ في مقابلةِ الكيفيَّاتِ المَذوقاتِ، واللمسَ في مقابلةِ الملموساتِ؛ فأيُّ محسوسٍ بَقِيَ بلا حاسَّةٍ؟! ولو كانَ في المحسوساتِ شيءٌ غيرُ هٰذهِ؛ لأعْطاكَ لهُ حاسَّةً سادسةً[١].

---

(١) فإن قال قائل: قد ذكر المختصّون في دراسة الحيوان حواسّ أخرى موجودة عند بعض الحيوانات كحسّ الضغط والمجال المغناطيسي والكهربائي وحسّ الاتّجاه والإحساس المسبق بالزلازل والبراكين والأعاصير والأمطار. . . إلخ، وهٰذه ليست موجودة عند الإنسان. فالجواب من وجوه:

أحدها: أنّ هٰذه الحواسّ عند بعض الحيوان قد جاءت تعويضًا لحواسّ أخرى مفقودة أو ناقصة، فالإحساس بالموجات الصوتيّة عند الخفّاش مثلاً جاء تعويضًا عن ضعف البصر.

والثاني: أنّ بعض هٰذه الحواسّ لا نفع له عند الإنسان، فالإحساس بالضغط ينفع الحيوان البحري في حركته والإحساس بالمجال المغناطيسي ينفع الطيور والأسماك في هجرتها، وهٰذه الأشياء لا حاجة للإنسان بها، فإن كان لها نفع؛ فهو محدود جدًّا.

والثالث: أنّ الله عوّض الإنسان عن الحواسّ الناقصة والمفقودة بالعقل، فمهما بلغ بصر الصقر قوّة؛ فالمنظار المقرّب أقوى وأدقّ.

فسبحان من خلق كلّ شيء بقدر، فعطاؤه كرم وحِكم ومنعه كرم وحِكم.

ولمَّا كانَ ما عَداها إنَّما يُدْرَكُ بالباطنِ؛ أعْطاكَ الحواسَّ الباطنةَ، وهيَ هٰذهِ الأخماسُ التي جَرَتْ عليها ألسنةُ العامَّةِ والخاصَّةِ؛ حيثُ يَقولونَ للمفكِّرِ المتأمِّلِ: ضَرَبَ أخماسَهُ في أسداسِهِ؛ فأخماسُهُ حواسُّهُ [الخمسُ] وأسداسُهُ /خ٣٩٩/ جهاتُهُ السِّتُّ، وأرادوا بذٰلكَ أنَّهُ جَذَبَهُ القلبُ وسارَ بهِ في الأقطارِ والجهاتِ حتَّى قَلَّبَ حواسَّهُ الخمسَ في جهاتِهِ السِّتِّ وضَرَبَها[1] فيها لشدَّةِ فكرِهِ.

[١١٢] فصل

[في بدائع صنعته تعالى في إعانة الحواس بالوسائط]

ثمَّ أُعينَتْ هٰذهِ الحواسُّ بمخلوقاتٍ أُخَرَ منفصلةٍ عنها تكونُ واسطةً في أجسامِها:

فأُعينَتْ حاسَّةُ البصرِ بالضِّياءِ والشُّعاعِ، فلولاهُ؛ لَمْ يَنْتَفِعِ النَّاظرُ ببصرِ[هِ]، فلو مُنِعَ الضِّياءَ والشُّعاعَ؛ لَمْ تَنْفَعِ العينُ شيئًا.

وأُعينَتْ حاسَّةُ السَّمعِ بالهواءِ يَحْمِلُ الأصواتَ في الجوِّ ثمَّ يُلْقيهـ[ـا] إلى الأُذنِ فتَحْويهِ ثمَّ تُلْقيهِ إلى القوَّةِ السَّامعةِ، ولولا الهواءُ؛ لَمْ يَسْمَعِ الرَّجلُ شيئًا.

وأُعينَتْ حاسَّةُ الشَّمِّ بالنَّسيمِ اللطيفِ يَحْمِلُ الرَّائحةَ ثمَّ يُؤَدِّيها إليها فتُدْرِكُها فلولا هوَ لَمْ تَشَمَّ شيئًا.

وأُعينَتْ حاسَّةُ الذَّوقِ بالرِّيقِ المتحلِّلِ في الفمِ تُدْرِكُ القوَّةُ الذَّائقةُ بهِ طعومَ الأشياءِ، ولهٰذا لَمْ يَكُنْ لهُ طعمٌ لا حلوٌ ولا حامضٌ ولا مالحٌ ولا حِرِّيفٌ[2]؛ لأنَّهُ كانَ يَتَحَلَّلُ تلكَ الطُّعومُ إلى طعمِهِ فلا يَحْصُلُ بهِ مقصودُهُ.

وأُعينَتْ حاسَّةُ اللمسِ بقوَّةٍ جَعَلَها [اللهُ] فيها تُدْرِكُ بها الملموساتِ، ولَمْ تَحْتَجْ إلى شيءٍ مِن خارجٍ، بخلافِ غيرِها مِن الحواسِّ، بل تُدْرِكُ الملموساتِ بلا واسطةٍ بينَها وبينَها؛ لأنَّها إنَّما تُدْرِكُها بالاجتماعِ والملامسةِ، فلَمْ تَحْتَجْ إلى واسطةٍ[3].

---

(١) في خ: «وهٰذه هي الأخماص التي جرت عليه... وضروبها».

(٢) في خ: «الذائقة بطعوم الأشياء... ولا حريق»! والحرّيف: اللاذع للّسان كالفلفل.

(٣) حاسّة اللمس حاسّة متعدّدة الجوانب فهناك حسّ الحرارة والبرودة والملوسة والخشونة والضغط=

[١١٣] فصل

[في فضل السمع والبصر وأحوال من عدم أحدهما]

ثمَّ تأمَّلْ حالَ مَن عَدِمَ البصرَ وما يَنالُهُ مِن الخللِ في أُمورِهِ! فإنَّهُ لا يَعْرِفُ موضعَ قدمِهِ، ولا يُبْصِرُ ما بينَ يديهِ، ولا يُفَرِّقُ بينَ الألوانِ والمناظرِ الحسنةِ مِن القبيحةِ، ولا يَتَمَكَّنُ مِنِ ٱستفادةِ علمٍ مِن كتابٍ يَقْرَؤُهُ، ولا يَتَهَيَّأُ لهُ الاعتبارُ والنَّظرُ في عجائبِ ملكِ اللهِ. هٰذا؛ معَ أنَّهُ لا يَشْعُرُ بكثيرٍ مِن مصالحِهِ ومضارِّهِ، فلا يَشْعُرُ بحفرةٍ يَهْوي فيها، ولا بحيوانٍ يَقْصِدُهُ كالسَّبعِ فيَحْتَرِزَ منهُ[1]، ولا بعدوٍّ يَهْوي نحوَهُ لِيَقْتُلَهُ، ولا يَتَمَكَّنُ مِن هربٍ إنْ طُلِبَ، بل هوَ ملقى السَّلَمَ لمَن رامَهُ بأذًى. ولولا حفظٌ خاصٌّ مِن اللهِ لهُ قريبٌ مِن حفظِ الوليدِ وكلاءتِهِ؛ لَكانَ عطبُهُ [إليهِ] أقربَ مِن سلامتِهِ؛ فإنَّهُ بمنزلةِ لحمٍ على وضمٍ[2]. ولذٰلكَ جَعَلَ اللهُ ثوابَهُ إذا صَبَرَ وٱحْتَسَبَ الجنَّةَ[3].

ومِن كمالِ لطفِهِ: أنْ عَكَسَ نورَ بصرِهِ إلى بصيرتِهِ فهوَ أقوى النَّاسِ بصيرةً وحدسًا، وجَمَعَ عليهِ همَّهُ فقلبُهُ مجموعٌ عليهِ غيرُ مشتَّتٍ؛ لِيَهْنَأَ لهُ العيشُ وتَتِمَّ مصلحتُهُ فلا يُظَنَّ أنَّهُ مغمومٌ حزينٌ متأسِّفٌ.

هٰذا حكمُ مَن وُلِدَ أعمى. فأمَّا مَن أُصيبَ بعينيهِ بعدَ البصرِ؛ فهوَ بمنزلةِ سائرِ أهلِ البلاءِ المتنقِّلينَ مِن العافيةِ إلى البليَّةِ، فالمحنةُ عليهِ شديدةٌ؛ لأنَّهُ قد حيلَ بينَهُ وبينَ ما أَلِفَهُ مِن المرائي والصُّورِ ووجوهِ الانتفاعِ ببصرِهِ. فهٰذا لهُ حكمٌ آخرُ.

وكذٰلكَ مَن عَدِمَ السَّمعَ /خ٤٠٠/؛ فإنَّهُ يَفْقِدُ روحَ المخاطبةِ والمحاورةِ، ويَعْدَمُ لذَّةَ المذاكرةِ ونغمةَ الأصواتِ الشَّجيَّةِ، وتَعْظُمُ المؤنةُ على النَّاسِ في خطابِهِ ويَتَبَرَّمونَ

= والألم. وهي حاسّة قويّة ودقيقة جدًّا عند الإنسان، وكثير من الحيوان أحدّ من الإنسان بصرًا وسمعًا وشمًّا، ولٰكن ليس شيء منها أدقّ منه ملمسًا. وقد تقدّم الكلام في بقيّة الحواسّ فراجعه (٢/ ٢٤-٢٨).

(١) في خ: «فصل فتأمّل... ٱستفاذة علم من كتابة يقرأ...»، وفي ط: «... فيتحرّز منه».

(٢) في ط: «لكان عطبه أقرب...». لحم على وضم: لحم موضوع على خشبة أو نحوها معروض لعموم الناس لا يُمنع أحد من أخذ ما شاء منه.

(٣) يشير إلى ما رواه البخاري (٧٥ـ المرضى، ٧ـ فضل من ذهب بصره، ١٠/ ١١٦/ ٥٦٥٣) عن أنس، عن النبيّ ﷺ؛ قال: «إنّ الله قال: إذا ٱبتليت عبدي بحبيبتيه فصبر؛ عوضته منهما الجنّة»؛ يريد: عينيه.

بهِ، ولا يَسْمَعُ شيئًا مِن أخبارِ النَّاسِ وأحاديثِهِم، فهوَ بينَهُم شاهدٌ كغائبٍ وحيٌّ كميتٍ وقريبٌ كبعيدٍ(١).

وقدِ ٱخْتَلَفَ النُّظَّارُ في أيِّهِما أقربُ إلى الكمالِ وأقلُّ ٱختلالاً لأُمورِهِ؛ الضَّريرُ أو الأطرشُ، وذَكَروا في ذٰلكَ وجوهًا.

وهٰذا مبنيٌّ على أصلٍ [آخرَ]، وهو: أيُّ الصِّفتينِ أكملُ؛ صفةُ السَّمعِ أو صفةُ البصرِ؟ وقد ذَكَرْنا الخلافَ فيهِما فيما تَقَدَّمَ مِن هٰذا الكتابِ، وذَكَرْنا أقوالَ النَّاسِ وأدلَّتَهُم والتَّحقيقَ في ذٰلكَ؛ فأيُّ الصِّفتينِ(٢) كانَتْ أكملَ؛ فالضَّررُ بعدمِها أقوى.

والذي يَليقُ بهٰذا الموضعِ أنْ يُقالَ: عادمُ البصرِ أشدُّهُما ضررًا وأسلمُهُما دينًا وأحمدُهُما عاقبةً، وعادمُ السَّمعِ أقلُّهُما ضررًا في دنياهُ وأجهلُهُما بدينِهِ وأسوأُ عاقبةً. فإنَّهُ إذا عَدِمَ السَّمعَ؛ عَدِمَ المواعظَ والنَّصائحَ، وٱنْسَدَّتْ عليهِ أبوابُ العلومِ النَّافعةِ، وٱنْفَتَحَتْ لهُ طرقُ الشَّهواتِ التي يُدْرِكُها البصرُ، ولا يَنالُهُ مِن العلمِ ما يَكُفُّهُ عنها. فضررُهُ في دينِهِ أكثرُ، وضررُ الأعمى في دنياهُ أكثرُ. ولهٰذا لمْ يَكُنْ في الصَّحابةِ أطرشُ، وكانَ فيهِم جماعةٌ أضِرَّاءُ. وقلَّ أنْ يَبْتَلِيَ اللهُ أولياءَهُ بالطَّرشِ، ويَبْتَلي كثيرًا منهُم بالعمى(٣).

هٰذا فصلُ الخطابِ في هٰذهِ المسألةِ: فمضرَّةُ الطَّرشِ في الدِّينِ، ومضرَّةُ العمى في الدُّنيا، والمعافى مَن عافاهُ اللهُ منهُما ومَتَّعَهُ بسمعِهِ وبصرِهِ وجَعَلَهُما الوارثينِ منهُ(٤).

[١١٤] فصل

[في فضل الفهم والنطق وأحوال من عدم أحدهما]

وأمَّا مَن عَدِمَ البيانينِ؛ بيانَ القلبِ وبيانَ اللسانِ(٥)؛ فذٰلك بمنزلةِ الحيواناتِ

---

(١) لٰكن حالهم اليوم ليس بهٰذا السوء، كما سيأتي بعد صفحة.

(٢) في خ: «أهل البلاد المتنقّلين... أيّ الصنفين... الناس وأدلّة التحقيق... فأيّ الصنفين».

(٣) والعميان من العلماء في عصرنا وقبله كثر، وأمّا الطرشان؛ فندرة، ومن هٰذه الندرة الأديب الأريب مصطفى صادق الرافعي رحمه الله، لٰكنّه لم يولد أطرش.

(٤) في خ: «والنصائح وأفسدت... النافعة وٱتضح له طرق... وجعله الوارث منه».

(٥) غالبًا ما يكون أصل العلّة هنا البلاهة أو التخلّف العقلي، الذي يتطوّر مع إهمال الطفل وعدم=

البهيميَّةِ، بل هيَ أحسنُ حالاً منهُ؛ فإنَّ فيها ما خُلِقَتْ لهُ مِن المصالح والمنافعِ التي تُسْتَعْمَلُ فيها وهٰذا يَجْهَلُ كثيرًا ممَّا تَهْتَدي إليهِ البهائمُ ويُلْقي نفسَهُ فيما تَكُفُّ البهائمُ أنفسَها عنهُ.

وإنْ عَدِمَ بيانَ اللسانِ دونَ بيانِ القلبِ؛ عَدِمَ خاصَّةَ الإنسانِ ـ وهيَ النُّطقُ ـ، وٱشْتَدَّتِ المؤنةُ بهِ وعليهِ، وعَظُمَتْ حسرتُهُ، وطالَ تأسُّفُهُ على ردِّ الجوابِ ورجعِ الخطابِ، فهوَ كالمقعدِ الذي يَرى ما هوَ محتاجٌ إليهِ ولا تَمْتَدُّ إليهِ يدُهُ ولا رجلُهُ[1].

فكم للهِ على عبدِهِ مِن نعمةٍ سابغةٍ في هٰذهِ الأعضاءِ والجوارحِ والقُوى والمنافعِ التي فيه فهوَ [لاهٍ] لا يَلْتَفِتُ إليها ولا يَشْكُرُ اللهَ عليها، ولو فَقَدَ شيئًا منها؛ لَتَمَنَّى أنَّهُ لهُ بالدُّنيا وما عليها! فهوَ يَتَقَلَّبُ في نعمِ اللهِ بسلامةِ أعضائِهِ وجوارحِهِ وقُواهُ وهوَ عارٍ مِن شكرِها، ولو عُرِضَتْ عليهِ الدُّنيا بما فيها بزوالِ واحدةٍ منها؛ لأبى المعاوضةَ وعَلِمَ أنَّها معاوضةُ غبنٍ! ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

[١١٥] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في أعداد الأعضاء]

ثمَّ تأمَّلْ حكمتَهُ [تعالى] في الأعضاءِ التي خُلِقَتْ فيكَ آحادًا ومثنى وثُلاثَ ورُباعَ، وما في ذٰلكَ مِن الحكمِ البالغةِ!

● فالرَّأْسُ واللسانُ والأنفُ والذَّكَرُ خُلِقَ كلٌّ منها واحدًا فقط، ولا مصلحةَ في كونِهِ أكثرَ مِن ذٰلكَ:

ألا تَرى أنَّهُ لو أُضيفَ إلى الرَّأْسِ رأْسٌ آخرُ؛ لأثْقَلا بدنَهُ مِن غيرِ حاجةٍ إليهِ؛ لأنَّ جميعَ الحواسِّ التي يُحْتاجُ إليها مجتمعةٌ في رأْسٍ واحدٍ؟ ثمَّ إنَّ الإنسانَ كانَ يَنْقَسِمُ

= الحرص والصبر على تعليمه النطق. وبعض الناس يخجلون من طفلهم الأبكم فيعزلونه عن الناس ويخفونه عن الأعين ممّا يجعل آفته تتطوّر إلى البلاهة.

(١) لكن تطوّر الحال اليوم بفضل الله ورحمته عمّا كان عليه في أيّام ابن القيّم رحمة الله عليه، بل عمّا كان عليه قبل عقود قليلة مضت، فأصبح لأصحاب الآفات البصريّة والسمعيّة والنطقيّة مدارس خاصّة يتعلّمون فيها القراءة والكتابة ولغة الإشارات وحركات الشفاه، وتطوّرت الطرق والأجهزة التي تعين هٰؤلاء المصابين على التعلّم والتأقلم حتّى يكونوا أعضاء نافعة فعّالة في المجتمع ولا يبقوا عالة على غيرهم.

برأسيهِ قسمينِ: فإنْ تَكَلَّمَ مِن أحدِهما وسَمِعَ بهِ وأبْصَرَ وشَمَّ وذاقَ؛ بَقِيَ الآخرُ معطَّلاً لا أَرَبَ فيهِ، وإنْ تَكَلَّمَ وأبْصَرَ وسَمِعَ بهما معًا كلامًا واحدًا وسمعًا واحدًا وبصرًا واحدًا؛ كانَ الآخرُ فضلةً لا فائدةَ فيهِ، وإنِ ٱخْتَلَفَ إدراكُهُما؛ ٱخْتَلَفَتْ عليهِ أحوالُهُ وإدراكاتُهُ.

وكذٰلكَ لو كانَ لهُ لسانانِ في فمٍ واحدٍ: فإنْ تَكَلَّمَ بهما [كلامًا واحدًا؛ كانَ أحدُهُما ضائعًا، وإنْ تَكَلَّمَ بأحدِهما دونَ الآخرِ؛ فكذٰلكَ، وإنْ تَكَلَّمَ بهما] معًا كلامينِ مختلفينِ؛ خَلَّطَ على السَّامعِ ولمْ يَدْرِ بأيِّ الكلامينِ يَأْخُذُ.

وكذٰلكَ لو كانَ لهُ هَنَوانِ[1] أو فمانِ؛ لَكانَ ـ معَ قبحِ الخلقةِ ـ أحدُهُما فضلةً لا منفعةَ فيهِ!

● وهٰذا بخلافِ الأعضاءِ التي خُلِقَتْ مثنى كالعينينِ والأُذنينِ والشَّفتينِ واليدينِ والرِّجلينِ والسَّاقينِ والفخذينِ والوركينِ والثَّديينِ؛ فإنَّ الحكمةَ فيها ظاهرةٌ والمصلحةَ بيِّنةٌ والجمالَ والزِّينةَ عليها باديةٌ:

فلو كانَ الإنسانُ بعينٍ واحدةٍ؛ لكانَ مشوَّهَ الخلقةِ ناقصَها.

وكذٰلكَ الحاجبانِ.

وأمَّا اليدانِ والرِّجلانِ والسَّاقانِ والفخذانِ؛ فتعدُّدُهُما ضروريٌّ للإنسانِ لا تَتِمُّ مصلحتُهُ إلاَّ بذٰلكَ. ألا تَرى مَن قُطِعَتْ إحدى يديهِ أو رجليهِ كيفَ تَبْقى حالُهُ وعجزُهُ؟ فلو أنَّ النَّجارَ والخيَّاطَ والحدَّادَ والخبَّازَ والبنَّاءَ وأصحابَ الصَّنائعِ التي لا [تَـ]ـتَأتَّى إلاَّ باليدينِ شَلَّتْ يدُ أحدِهما؛ لَتَعَطَّلَتْ عليهِ صنعتُهُ. فٱقْتَضَتِ الحكمةُ أنْ أُعْطِيَ [مِن هٰذا الضَّربِ مِن الجوارحِ والأعضاءِ ٱثنينِ ٱثنينِ.

وكذٰلكَ أُعْطِيَ] شفتينِ؛ لأنَّهُ لا تَكْمُلُ مصلحتُهُ إلاَّ بهما، وفيهما ضروبٌ عديدةٌ مِن المنافعِ [و]مِن الكلامِ والذَّوقِ وغطاءِ الفمِ والجمالِ والزِّينةِ والقبلةِ وغيرِ ذٰلكَ.

● وأمَّا الأعضاءُ الثُّلاثيَّةُ؛ فهيَ جوانبُ أنفِهِ وحيطانُهُ، وقد ذَكَرْنا حكمةَ ذٰلكَ فيما تَقَدَّمَ[2].

---

(١) هنوان: فرجان.

(٢) أنظر (٢/٢٦-٢٨).

● وأمَّا الأعضاءُ الرُّباعيَّةُ؛ فالكعابُ الأربعةُ التي هيَ مجمعُ القدمينِ والممسكةُ لهُما، وبهِما قوَّةُ القدمينِ وحركتُهُما، وفيهِما منافعُ[1] السَّاقينِ.

وكذٰلكَ أجفانُ العينينِ [الأربعةُ فيها مِن الحكمِ والمنافعِ أنَّها غطاءٌ للعينينِ] [و]وقايةٌ لهُما وجمالٌ وزينةٌ وغيرُ ذٰلكَ مِن الحكمِ.

فاقْتَضَتِ الحكمةُ البالغةُ أنْ جُعِلَتِ الأعضاءُ على ما هيَ عليهِ مِن العددِ والشَّكلِ والهيئةِ، فلو زادتْ أو نَقَصَتْ؛ لَكانَ نقصًا في /خ٤٠١/ الخلقةِ.

ولهٰذا يوجَدُ في النَّوعِ الإنسانيِّ مِن زائدٍ في الخلقةِ وناقصٍ منها: ما يَدُلُّ على حكمةِ الرَّبِّ تَعالى وأنَّهُ لو شاءَ؛ لَجَعَلَ خلقَهُ كلَّهُم هٰكذا، ولِيَعْلَمَ الكاملُ الخلقةِ تمامَ النِّعمةِ عليهِ وأنَّهُ خُلِقَ خلقًا سويًّا معتدلاً؛ لمْ يُزَدْ في خلقِهِ ما لا يَحْتاجُ إليهِ، ولمْ يُنْتَقَصْ منهُ ما يَحْتاجُ إليهِ كما يَراهُ في غيرِهِ، فهوَ أجدرُ أنْ يَزْدادَ شكرًا وحمدًا لربِّهِ ويَعْلَمَ أنَّ ذٰلكَ ليسَ مِن صنعِ الطَّبيعةِ وإنَّما ذٰلكَ صنعُ اللهِ الذي أتْقَنَ كلَّ شيءٍ وأنَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ.

[١١٦] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في اختلاف الصور والأصوات]

مِن أينَ للطَّبيعةِ هٰذا الاختلافُ والفرقُ الحاصلُ في النَّوعِ الإنسانيِّ بينَ صورِهِم؛ فقَلَّ أنْ يُرى اثنانِ متشابهانِ مِن كلِّ وجهٍ، وذٰلكَ مِن أندرِ ما في العالمِ؛ بخلافِ أصنافِ الحيوانِ كالنَّعَمِ والوحوشِ والطَّيرِ وسائرِ الدَّوابِّ؟!

فإنَّكَ تَرى السِّربَ مِن الظِّباءِ والثُّلَّةَ مِن الغنمِ والذَّودَ مِن الإبلِ والصُّوارَ مِن البقرِ تَتَشابَهُ حتَّى لا يُفَرَّقَ بينَ أحدٍ منها وبينَ الآخرِ إلاَّ بعدَ طولِ تأمُّلٍ أو بعلامةٍ ظاهرةٍ[2]. والنَّاسُ مختلفةٌ صورُهُم وخلقتُهُم، فلا يَكادُ اثنانِ منهُم يَجْتَمِعانِ في صفةٍ واحدةٍ وخلقةٍ

---

(١) في خ: «والمصلحة بادية بيّنة والجمال... فالكفاف الأربعة... وفيهما من منافع».

(٢) ولذٰلك ترى المختصّين في الدراسات والأبحاث على الأسماك والطيور وغيرها من الحيوانات البرّيّة يلجؤون إلى وسمها بأرقام تثبّت عليها للتفريق بينها، وأمّا الحيوانات الأهليّة؛ فأكثر تشابهًا وأبعد تفريقًا. نعم؛ لا ريب أنّ لهٰذه الحيوانات آليّات للتفريق فيما بينها تعتمد على حواسّ أخرى غير البصر، لٰكنّها تبقى دون مستوى ودقّة الفروق وآليّات التميز التي عند الإنسان. والله أعلم.

واحدةٍ بل ولا صوتٍ واحدٍ ولا حنجرةٍ واحدةٍ.

والحكمةُ البالغةُ في ذٰلكَ أنَّ النَّاسَ يَحْتاجونَ إلى أنْ يَتَعارَفوا بأعيانِهِم وحُلاهم لِما يَجْري بينَهُم مِن المعاملاتِ. فلولا الفرقُ والاختلافُ في الصُّورِ؛ لَفَسَدَتْ أحوالُهُم، وتَشَتَّتَ نظامُهُم، ولمْ يُعْرَفِ الشَّاهدُ مِن المشهودِ عليهِ، ولا المَدينُ مِن ربِّ الدَّينِ، ولا البائعُ مِن المشتري، ولا كانَ الرَّجلُ يَعْرِفُ عِرْسَهُ[1] مِن غيرِها للاختلاطِ، ولا هيَ تَعْرِفُ بعلَها مِن غيرِهِ، وفي ذٰلكَ أعظمُ الفسادِ والخللِ!

فمَنِ الذي مَيَّزَ بينَ حلاهُم وصورِهِم وأصواتِهِم وفَرَّقَ بينَها بفروقٍ لا تَنالُها العبارةُ ولا يُدْرِكُها الوصفُ؟!

فسَلِ المعطِّلَ: أهٰذا فعلُ الطَّبيعةِ؟! وهل في الطَّبيعةِ اقتضاءُ هٰذا الاختلافِ والافتراقِ في النَّوعِ؟! وأينَ قولُ الطَّبائعيِّينَ: إنَّ فعلَها متشابهٌ لأنَّها واحدةٌ في نفسِها لا تَفْعَلُ بإرادةٍ ولا مشيئةٍ فلا يُمْكِنُ اختلافُ أفعالِها؟! فكيفَ يَجْمَعُ المعطِّلُ بينَ هٰذا وهٰذا؟!

﴿فَإِنَّها لا تَعْمى الأبْصارُ وَلٰكِنْ تَعْمى القُلوبُ الَّتي في الصُّدورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وربَّما وَقَعَ في النَّوعِ الإنسانيِّ تشابهٌ بينَ اثنينِ لا يكادُ يُمَيَّزُ بينَهُما[2]، فتَعْظُمُ عليهِمُ المؤنةُ في معاملتِهِما، وتَشْتَدُّ الحاجةُ إلى تمييزِ المستحقِّ منهُما والمؤاخذِ بذنبِهِ ومَن عليهِ الحقُّ.

وإذ يَعْرِضُ هٰذا في التَّشابهِ في الأسماءِ كثيرًا ويَلْقى الشَّاهدُ والحاكمُ[3] مِن ذٰلكَ ما يَلْقى؛ فما الظَّنُّ لو وُضِعَ التَّشابُهُ في الخلقةِ والصُّورةِ؟!

ولمَّا كانَ الحيوانُ البهيمُ والطَّيرُ والوحوشُ لا يَضُرُّها هٰذا التَّشابُهُ شيئًا؛ لمْ تَدْعُ الحكمةُ إلى الفرقِ بينَ كلِّ زوجينِ منها. فتَبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ الذي وَسِعَتْ حكمتُهُ كلَّ شيءٍ.

---

(١) العرس: الزوجة.

(٢) ويحصل هٰذا غالبًا في التوائم الحقيقيّة، وربّما وقع في الأخوة غير التوائم، ولٰكنّه نادر جدًّا.

(٣) والباحث المحقّق المدقّق في رجال الأسانيد.

[١١٧] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في اختصاص الرجل باللحية]

ثمَّ تأمَّلْ لِمَ صارَتِ المرأةُ والرَّجلُ إذا أدركا[١] اشْتَرَكا في نباتِ العانةِ ثمَّ يَنْفَرِدُ الرَّجلُ عنِ المرأةِ باللحيةِ؟!

فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لمَّا جَعَلَ الرَّجلَ قيِّمًا على المرأةِ وجَعَلَها كالخولِ لهُ والعاني في يديهِ[٢]: مَيَّزَهُ عليها بما فيهِ لهُ المهابةُ والعزُّ والوقارُ والجلالةُ؛ لكمالِهِ وحاجتِهِ إلى ذٰلكَ، ومُنِعَتْها المرأةُ؛ لكمالِ الاستمتاعِ بها والتَّلذُّذِ؛ لِتَبْقى نضارةُ وجهِها وحسنُهُ لا يَشينُهُ الشَّعرُ. واشْتَرَكا في سائرِ الشُّعورِ للحكمةِ والمنفعةِ التي فيها.

[١١٨] فصل

[في بدائع صنعته تعالى في النطق والأصوات]

ثمَّ تأمَّلْ هٰذا الصَّوتَ الخارجَ مِن الحلقِ وتهيئةَ آلاتِهِ، والكلامَ وانْتظامَهُ، والحروفَ ومخارجَها وأدواتِها ومقاطعَها وأجراسَها؛ تَجِدِ الحكمةَ الباهرةَ في هواءٍ ساذجٍ يَخْرُجُ مِن الجوفِ فيَسْلُكُ في أُنبوبةِ الحنجرةِ حتَّى يَنْتَهِيَ إلى الحلقِ واللسانِ والشَّفتينِ والأسنانِ، فيَحْدُثُ لهُ هناكَ مقاطعُ ونهاياتٌ وأجراسٌ، يُسْمَعُ لهُ عندَ كلِّ مقطعٍ ونهايةٍ جرسٌ متميِّزٌ منفصلٌ عنِ الآخرِ، يَحْدُثُ بسببِهِ الحرفُ!

فهوَ صوتٌ واحدٌ ساذجٌ، يَجْري في قصبةٍ واحدةٍ، حتَّى يَنْتَهِيَ إلى مقاطعَ وحدودٍ تُسْمَعُ لهُ منها تسعةٌ وعشرونَ حرفًا، يَدورُ عليها الكلامُ كلُّهُ؛ أمرُهُ ونهيُهُ، وخبرُهُ واستخبارُهُ، ونظمُهُ ونثرُهُ، وخطبُهُ ومواعظُهُ وفضولُهُ. فمنهُ المضحكُ ومنهُ المبكي، ومنهُ المؤيسُ ومنهُ المطمعُ، ومنهُ المخوِّفُ ومنهُ المرجِّي، والمسلِّي والمحزنُ، والقابضُ للنَّفسِ والجوارحِ والمنشِّطُ لها، والذي يُسْقِمُ الصَّحيحَ ويُبْرِئُ السَّقيمَ، ومنهُ ما يُزيلُ النِّعَمَ ويُحِلُّ النِّقَمَ، ومنهُ ما يُسْتَدْفَعُ بِهِ البلاءُ ويُسْتَجْلَبُ بهِ النَّعماءُ وتُسْتَمالُ بهِ

---

(١) أدركا: وصلا إلى سنّ البلوغ.

(٢) الخول: الخدم والأعوان. العاني: الأسير.

القلوبُ ويُؤَلَّفُ بِهِ بينَ المتباغضينِ ويُوالى بِهِ بينَ المتعاديينِ ومنهُ ما هوَ بضدِّ ذٰلكَ، ومنهُ الكلمةُ التي لا يُلْقي لها صاحبُها بالاً يَهْوي بها في النَّارِ أبعدَ ممَّا بينَ المشرقِ والمغربِ، والكلمةُ التي لا يُلْقي لها صاحبُها بالاً يَرْكُضُ بها في أعلى علِّيِّينَ في جوارِ ربِّ العالمينَ.

فسبحانَ مَن أنْشَأَ ذٰلكَ كلَّهُ مِن هواءٍ ساذجٍ[1] يَخْرُجُ مِن الصَّدرِ لا يَدْري ما يُرادُ بِهِ ولا أينَ يَنْتَهي ولا أينَ مستقرُّهُ!

هٰذا إلى ما في ذٰلكَ مِن ٱختلافِ الألسنةِ واللغاتِ التي لا يُحْصيها إلَّا اللهُ، فيَجْتَمعُ الجمعُ مِنَ النَّاسِ مِن بلادٍ شتَّى، فيَتكلَّمُ كلٌّ منهُم بلغةٍ، فتَسْمَعُ لغاتٍ مختلفةً وكلامًا منتظمًا مؤلَّفًا ولا يُدْرِكُ كلٌّ منهُم ما يَقولُ الآخرُ.

واللسانُ الذي هوَ جارحةٌ واحدٌ في الشَّكلِ والمنظرِ، وكذٰلكَ الحلقُ والأضراسُ[2] والشَّفتانِ، والكلامُ مختلفٌ متفاوتٌ أعظمَ تفاوتٍ! فالآيةُ في ذٰلكَ كالآيةِ في الأرضِ التي تُسْقى بماءٍ واحدٍ ويَخْرُجُ مِن ذٰلكَ مِن أنواعِ النَّباتِ والأزهارِ والحبوبِ والثِّمارِ تلكَ الأنواعُ المختلفةُ المتباينةُ، ولهٰذا أخْبَرَ اللهُ سبحانَهُ في كتابِهِ أنَّ في كلٍّ منهُما آياتٍ للعالمينَ: فقالَ: ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالأرْضِ وَٱخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ في ذٰلِكَ لآياتٍ لِلْعالِمينَ﴾ [الروم: ٢٢]، وقالَ تَعالى: ﴿وَفي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِن أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ في الأُكُلِ إِنَّ في ذٰلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ﴾ [الرعد: ٤].

فٱنْظُرِ الآنَ في الحنجرةِ؛ كيفَ هيَ كالأُنبوبِ لخروجِ الصَّوتِ، واللسانِ والشَّفتينِ والأسنانِ لصياغةِ الحروفِ والنَّغماتِ. ألا تَرى أنَّ مَن سَقَطَتْ أسنانُهُ لَمْ يُقِمِ الحروفَ التي تَخْرُجُ منها ومِن اللسانِ، ومَن نَقَصَتْ شفتُهُ كيفَ لَمْ يُقِمِ الحروفَ الشَّفهيَّةَ، ومَن

---

(١) الساذج: الساده، الذي يأتي على هيئة واحدة أو لون واحد.

(٢) هي كذٰلك من حيث الهيئة العامّة والتعداد، وأمّا في الحقيقة والمخبر؛ فالاختلاف فيما بينها أعجب من الاختلاف في بصمات الأصابع، وٱحتمال الاتّفاق فيها أندر من ٱحتمال الاتّفاق في البصمات، ولذٰلك أصبحت هيئة الأسنان وطبعتها معتمدة كعلامة فارقة في الطبّ الشرعيّ والبحث الجنائي.

ثَقُلَ لسانُهُ كيفَ لمْ يُقِمِ الرَّاءَ واللامَ والذَّالَ، ومَن عَرَضَتْ لهُ آفةٌ في حلقِهِ كيفَ لمْ يَتَمَكَّنْ مِن الحروفِ الحلقيَّةِ.

وقد شَبَّهَ أصحابُ التَّشريحِ: مخرجَ الصَّوتِ بالمزمارِ، والرِّئةَ بالزِّقِّ[1] الذي يَنْفُخُ فيهِ مِن تحتِهِ لِيَدْخُلَ الرِّيحُ فيهِ، والعضلاتِ[2] التي تَقْبِضُ على الرِّئةِ لِيَخْرُجَ الصَّوتُ مِن الحنجرةِ بالأكفِّ التي تَقْبِضُ على الزِّقِّ حتَّى يَخْرُجَ الهواءُ في القصبةِ، والشَّفتينِ والأسنانَ التي تَصوغُ الصَّوتَ حروفًا ونغمًا بالأصابعِ التي تَخْتَلِفُ على المزمارِ فتَصوغُهُ ألحانًا، والمقاطعَ التي يَنْتَهي إليها الصَّوتُ بالأبْخاشِ التي في القصبةِ. حتَّى قيلَ: إنَّ المزمارَ إنَّما اتُّخِذَ على مثالِ ذٰلكَ مِن الإنسانِ.

فإذا تَعَجَّبْتَ مِن الصِّناعةِ التي تَعْمَلُها أكفُّ النَّاسِ حتَّى تَخْرُجَ منها تلكَ الأصواتُ؛ فما أحراكَ بطولِ التَّعجُّبِ مِن الصِّناعةِ الإلٰهيَّةِ التي أَخْرَجَتْ تلكَ الحروفَ والأصواتَ منكَ مِن اللحمِ والدَّمِ والعروقِ والعظامِ! ويا بعدَ ما بينَهُما! ولٰكنَّ المألوفَ المعتادَ لا يَقَعُ عندَ النُّفوسِ موقعَ التَّعجُّبِ، فإذا رَأَتْ ما لا نسبةَ لهُ إليهِ أصلاً إلاَّ أنَّهُ غريبٌ عندَها؛ تَلَقَّتْهُ بالتَّعجُّبِ وتسبيحِ الرَّبِّ تَعالى، وعندَها مِن آياتِهِ العجيبةِ الباهرةِ ما هوَ أعظمُ مِن ذٰلكَ ممَّا لا يُدْرِكُهُ القياسُ[3].

ثمَّ تَأَمَّلِ اختلافَ هٰذهِ النَّغماتِ وتباينَ هٰذهِ الأصواتِ معَ تشابهِ الحناجرِ والحلوقِ والألسنةِ والشِّفاهِ والأسنانِ[4]! فمَنِ الذي مَيَّزَ بينَها أتمَّ تمييزٍ معَ تشابهِ محالِّها سوى الخلاَّقِ العليمِ؟!

---

(١) الزقّ: كير الحدّاد الذي ينفخ فيه النار، وهو المنفاخ. وهٰذا التشبيه لطيف جدًّا فيه دقّة وطرافة.

(٢) في ط: «والفضلات»! ومن البيّن أنّ المراد هنا العضلات التي تشارك في عمليّة التنفّس.

(٣) وهٰذه ملاحظات عظيمة تستحقّ الوقوف عندها والانتفاع بها، ولا أظنّ أحدًا ينجو من هٰذه الآفة فمستقلّ ومستكثر، وقد قالوا قديمًا وصدقوا: مزمار الحيّ لا يطرب.

والله؛ لعجائب الإلقاح وعلوق البيضة الملقّحة في الرحم وتحوّلها شيئًا فشيئًا ومرورها بأطوارها المختلفة باطّراد وانتظام حتّى تصبح جنينًا ينمو ويصير بشرًا، هٰذه وحدها تكفي البشريّة جمعاء ليبقوا ذاهلين خاشعين من مولدهم إلى وفاتهم.

(٤) يعني: من حيث الهيئة العامّة؛ فهٰذه حنجرة وتلك حنجرة وهٰذا سنّ وذاك سنّ! لٰكن شتّان بينهما عند الفحص والتدقيق.

[١١٩] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في منافع أجزاء الفم]

وفي هٰذهِ الآلاتِ مآربُ أُخرى ومنافعُ سوى منفعةِ الكلامِ: ففي الحنجرةِ مسلكُ النَّسيمِ البارِدِ الذي يُرَوِّحُ على الفؤادِ بهٰذا النَّفَسِ الدَّائمِ المتتابعِ[١].

وفي اللسانِ منفعةُ الذَّوقِ: فتُذاقُ بهِ الطُّعومُ، وتُدْرَكُ لذَّتُها، ويُمَيَّزُ بهِ بينَها فيُعْرَفُ حقيقةُ كلِّ واحدٍ منها. وفيهِ معَ ذٰلكَ معونةٌ على إساغةِ الطَّعامِ وأنْ يَلوكَهُ ويَقْلِبَهُ حتَّى يَسْهُلَ مسلكُهُ في الحلقِ.

وفي الأسنانِ مِن المنافعِ ما هوَ معلومٌ مِن تقطيعِ الطَّعامِ كما تقدَّمَ[٢]. وفيها إسنادُ الشَّفتينِ وإمساكُهُما عنِ الاسترخاءِ وتشويهِ الصُّورةِ، ولهٰذا ترَى مَن سَقَطَتْ أسنانُهُ كيفَ تَسْتَرْخي شفتاهُ.

وفي الشَّفتينِ منافعُ عديدةٌ: يُرْشَفُ بهما[٣] الشَّرابُ حتَّى يَكونَ الدَّاخلُ منهُ إلى حلقِهِ بقدرٍ فلا يَشْرَقُ بهِ الشَّاربُ. ثمَّ هُما بابٌ مغلقٌ على الفمِ الذي يَنْتَهي إليهِ ما يَخْرُجُ مِن الجوفِ ومنهُ يَبْتَدِئُ ما يَلِجُ فيهِ، فهما غطاءٌ وطابقٌ عليهِ يَفْتَحُهُما البوَّابُ متى شاءَ ويُغْلِقُهُما إذا شاءَ، وهُما أيضًا جمالٌ وزينةٌ للوجهِ، وفيهِما منافعُ أُخرى سوى ذٰلكَ[٤]. وٱنْظُرْ إلى مَن سَقَطَتْ شفتاهُ ما أشوهَ منظرَهُ!

وقد بانَ أنَّ كلَّ واحدٍ مِن هٰذهِ الأعضاءِ يَتَصَرَّفُ إلى وجوهٍ شتَّى مِن المنافعِ والمآربِ والمصالحِ كما تَتَصَرَّفُ الأداةُ الواحدةُ في أعمالٍ شتَّى.

---

(١) تقدّم الكلام في وظائف الرئة في (٢/ ٣٦ و٦٩).

(٢) (٢/ ١٧٤).

(٣) في خ وط: «يرشف بها»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) وللشفة دور عظيم في تكييف السوائل الحارّة الداخلة إلى الفم كالشاي والقهوة والحساء، وبدون الشفتين سيحترق اللسان والحلق ولا بدّ، وكذٰلك تكيّف الشفتان السوائل الشديدة البرودة. وتحفظ الشفتان رطوبة الفم فيه: فلا يندلق البصاق إلى الخارج، ولا يجف اللسان والحلق كما يحصل لمن ينام فاتحًا فمه. وتبلّل الشفتان سطوح الأسنان فتكشطان الجراثيم والعوامل المؤذية عنها وتمنعانها من نخرها. ولو تفرغ المرء لتعداد منافع الشفتين لسوّد في ذٰلك صفحات.

[١٢٠ـ فصل]

[في بدائع صنعته تعالى في القلب والدماغ والعينين]

هٰذا؛ ولو رَأَيْتَ الدِّماغَ وكُشِفَ لكَ عن تركيبِهِ وخلقِهِ؛ لَرَأَيْتَ العجبَ العجابَ، ولَكُشِفَ لكَ عن تركيبٍ يَحارُ فيهِ العقلُ[١]! قد كُنَّ[٢] بحجبٍ وأغشيةٍ بعضُها فوقَ بعضٍ لِتَصونَهُ عنِ الأعراضِ وتَحْفَظَهُ عنِ الاضطرابِ. ثمَّ أُطْبِقَتْ عليهِ الجمجمةُ بمنزلةِ الخوذةِ وبيضةِ الحديدِ؛ لِتَقِيَهُ حِدَّةَ الصَّدمةِ والسَّقطةِ والضَّربةِ التي تَصِلُ إليهِ فتَتَلَقَّاها تلكَ البيضةُ عنهُ بمنزلةِ الخوذةِ التي على رأْسِ المحاربِ. ثمَّ جُلِّلَتْ تلكَ الجمجمةُ بالجلدِ الذي هوَ فروةُ الرَّأْسِ يَسْتُرُ العظمَ مِنَ البروزِ للمؤذياتِ. ثمَّ كُسِيَتْ تلكَ الفروةُ حلَّةً مِنَ الشَّعَرِ الوافرِ وقايةً لها وسترًا مِنَ الحرِّ والبردِ والأذى وجمالاً وزينةً لهُ[٣].

فسَلِ المعطِّلَ: مَنِ الذي حَصَّنَ الدِّماغَ هٰذا التَّحصينَ وقَدَّرَهُ هٰذا التَّقديرَ وجَعَلَهُ خزانةً أَوْدَعَ فيها مِنَ المنافعِ والقوى والعجائبِ ما أَوْدَعَهُ ثمَّ أَحْكَمَ سدَّ تلكَ الخزانةِ وحَصَّنَها أتمَّ تحصينٍ وصانَها أعظمَ صيانةٍ وجَعَلَها معدنَ الحواسِّ والإدراكاتِ؟!

ومَنِ الذي جَعَلَ الأجفانَ على العينينِ كالغشاءِ والأشفارَ كالأشراجِ والأهدابَ

---

(١) إي والله؛ قد حارت فيه عقول العلماء وأطبّاء الأمراض العصبيّة وما زالت تحار، وهم معترفون اليوم بأنّهم لا يكادون يعرفون عنه شيئًا، ولذٰلك ترى أغلب علاجاتهم لا تعدو التخفيف والتسكين. نسأل الله تعالى أن يحفظ علينا أدمغتنا وعقولنا.

(٢) كنّ: ستر وغطّي.

(٣) فصارت البنى التي تحيط بالدماغ وتقيه من الضغوط والصدمات سبعًا، وهي:

١ــ الأم الحنون pia mater: وهي غشاء رقيق يلتصق على الدماغ ويلتفّ حوله ويحمل الأوعية الدموية الواردة إلى الدماغ والصادرة عنه.

٢ــ الفضاء تحت العنكبوتي Subarachnoid space: وهو فراغ يشبه شبكة العنكبوت مملوء بسائل لزج يمتصّ الصدمات ويمنع وصول أذيّتها إلى الدماغ.

٣ــ الأم العنكبوتيّة Arachnoid mater: وهي غشاء ليفي رقيق.

٤ــ الفضاء تحت الجافية Subdural space: وفيه طبقة رقيقة من السائل.

٥ــ الأم الجافية Dura mater: وهي غشاء ليفي سميك قاس يلتصق بباطن عظام الجمجمة.

٦ــ عظام الجمجمة Skull: وهي قويّة جدًّا وإن بدت رقيقة، وفيها من أسباب القوّة ما يحيّر الأطبّاء، وتتوضع بشكل يزيد في قوّتها وتحمّلها للصدمات، ولذٰلك قلّما تحدث الكسور في الجمجمة.

٧ــ طبقات فروة الرأس من الجلد والشعر.

كالرُّفوفِ عليها إذا ٱنْفَتَحَتْ[1]؟! ومَنِ الذي رَكَّبَ طبقاتِها المختلفةَ طبقةً فوقَ طبقةٍ حتَّى بَلَغَتْ عددَ السَّماواتِ سبعًا، وجَعَلَ لكلِّ طبقةٍ منفعةً وفائدةً، فلوِ ٱخْتَلَّتْ طبقةٌ منها؛ لاخْتَلَّ البصرُ[2]؟! ومَن شَقَّهُما في الوجهِ أحسنَ شقٍّ، وأعطاهُما أحسنَ شكلٍ، وأَوْدَعَ الملاحةَ فيهما، وجَعَلَهُما مرآةً للقلبِ وطليعةً وحارسًا للبدنِ ورائدًا يُرْسِلُهُ كالجندِ في مهمَّاتِهِ فلا يَتْعَبُ ولا يَعْنى على كثرةِ ظعنِهِ وطولِ سفرِهِ؟! ومَن أَوْدَعَ النُّورَ الباصرَ فيهِ في قدرِ جرمِ العدسةِ[3] فيَرى فيهِ السَّماواتِ والأرضَ والجبالَ والشَّمسَ والقمرَ والبحارَ والعجائبَ مِن داخلِ سبعِ طبقاتٍ، وجَعَلَهُما في أعلى الوجهِ بمنزلةِ الحارسِ على الرَّابيةِ العاليةِ ربيئةً للبدنِ؟!

ومَن حَجَبَ الملكَ[4] في الصَّدرِ وأَجْلَسَهُ هناكَ على كرسيِّ المملكةِ وأقامَ جندَ الجوارحِ والأعضاءِ والقوى الباطنةِ والظَّاهرةِ في خدمتِهِ وذَلَّلَها لهُ: فهيَ مؤتمرةٌ إذا أمَرَها منتهيةٌ إذا نَهاها، سامعةٌ لهُ مطيعةٌ، تَكْدَحُ وتَسْعى في مرضاتِهِ فلا تَسْتَطيعُ منهُ خلاصًا ولا خروجًا عن أمرِهِ، فمنها رسولُهُ ومنها بريدُهُ ومنها ترجمانُهُ ومنها أعوانُهُ، وكلٌّ منها على عملٍ لا يَتَعَدَّاهُ ولا يَتَصَرَّفُ في غيرِ عملِهِ. حتَّى إذا أرادَ الرَّاحةَ؛ أَوْعَزَ إليها بالهدوءِ والسُّكونِ لِيأْخُذَ الملكُ راحتَهُ، فإذا ٱسْتَيْقَظَ مِن منامِهِ[5]؛ قامَتْ جنودُهُ بينَ يديهِ على أعمالِها، وذَهَبَتْ حيثُ وَجَّهَها دائمًا لا تَفْتُرُ. فلو شاهَدْتَهُ في محلِّ ملكِهِ؛ والأشغالُ والمراسيمُ صادرةٌ عنهُ وواردةٌ، والعساكرُ في خدمتِهِ، والبُرُدُ[6] تَتَرَدَّدُ بينَهُ وبينَ جندِهِ ورعيَّتِهِ؛ لَرَأَيْتَ لهُ شأْنًا عجيبًا[7]!

---

(١) الأشفار: أطراف الأجفان التي تكون عادة قويّة وسميكة. الأشراج: جمع شرجة، وهي مسيل الماء؛ لأنّ الدمع يسيل على هٰذه الأشفار بصورة أو أخرى. والأهداب: الرموش.

(٢) تقدّم تفصيل القول في هٰذا في (٢/ ٢٤).

(٣) كأنّه يشير إلى إنسان العين. وقد تقدّم هٰذا وبيان ما فيه (٢/ ٢٥).

(٤) يعني: القلب.

(٥) لا ريب أنّ في الهدوء والجلوس والاضطجاع والنوم راحة للقلب، ولٰكن وصف القلب الذي في الصدر بالنوم فيه إشكال من جهة أنّ القلب لا يتوقّف عن الحركة وخدمة مختلف أعضاء الجسم ليلاً ولا نهارًا.

(٦) البرد: جمع بريد، وهي الرسائل.

(٧) راجع ما تقدّم في القلب والعقل (١/ ٧١).

فماذا فاتَ الجاهلَ الغافلَ مِن العجائبِ والمعارفِ والعبرِ التي لا يُحْتاجُ فيها إلى طولِ الأسفارِ وركوبِ القفارِ؟!

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَفي الأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنينَ . وَفي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]: فدَعا عبادَهُ إلى التَّفكُّرِ في أنفسِهِم والاستدلالِ بها على فاطرِها وباريها، ولولا هٰذا؛ لمْ نُوَسِّعِ الكلامَ في هٰذا البابِ ولا أطَلْنا النَّفَسَ إلى هٰذهِ الغايةِ، ولٰكنَّ العبرةَ بذٰلكَ حاصلةٌ والمنفعةَ عظيمةٌ والفكرةَ فيهِ ممَّا يَزيدُ المؤمنَ إيمانًا.

فكم دونَ القلبِ مِن حرسٍ! وكم لهُ مِن خادمٍ! وكم لهُ مِن عبدٍ! ولا يَشْعُرُ بهِ!

وللهِ! ما خُلِقَ لهُ وهُيِّئَ لهُ وأُريدَ منهُ وأُعِدَّ لهُ مِن الكرامةِ والنَّعيمِ أو الهوانِ والعذابِ: فإمَّا على سريرِ الملكِ في مقعدِ صدقٍ عندَ مليكٍ مقتدرٍ يَنْظُرُ إلى وجهِ ربِّهِ ويَسْمَعُ خطابَهُ، وإمَّا أسيرٌ في السِّجنِ الأعظمِ بينَ أطباقِ النِّيرانِ في العذابِ الأليمِ!

فلو عَقَلَ هٰذا السُّلطانُ ما هُيِّئَ لهُ؛ لَضَنَّ بملكِهِ ولَسَعى في الملكِ الذي لا يَنْقَطِعُ ولا يَبيدُ، ولٰكنَّهُ ضُرِبَ عليهِ حجبُ الغفلةِ؛ لِيَقْضِيَ اللهُ أمرًا كانَ مفعولاً!

[١٣١] فصل

[في أعضاء البدن لطائف بدائع تدل على حكمة الله]

ومَن جَعَلَ في الحلقِ منفذينِ: أحدُهُما: للصَّوتِ وللنَّفَسِ الواصلِ إلى الرِّئةِ. والآخرُ: للطَّعامِ والشَّرابِ، وهوَ المريءُ الواصلُ إلى المعدةِ. وجَعَلَ بينَهُما حاجزًا يَمْنَعُ عبورَ أحدِهِما في طريقِ الآخرِ، فلو وَصَلَ الطَّعامُ مِن منفذِ النَّفَسِ إلى الرِّئةِ؛ لأهْلَكَ الحيوانَ[1]؟!

ومَن جَعَلَ الرِّئةَ مروحةً للقلبِ تُرَوِّحُ عليهِ لا تَني ولا تَفْتُرُ؛ لكيلا تَنْحَصِرَ الحرارةُ

---

(١) يجتمع مجرى النفس ومجرى الطعام في البلعوم Pharynx، الذي تقوم في وسطه زائدة لحميّة تسمّى لسان المزمار Epiglottis تتحكّم بها مراكز عصبيّة ودماغيّة. وعندما يتنفّس الإنسان؛ تنحرف هٰذه الزائدة نحو الخلف فتسدّ المري وتسمح بمرور الهواء إلى الحنجرة Larynx فبقيّة الجهاز التنفّسي. وعند ابتلاع الطعام؛ تنحرف هٰذه الزائدة نحو الأمام فتسدّ مجرى الهواء وتسمح بمرور الطعام إلى المري Esophagus فقط.

فيهِ فيَهْلِكَ[1]؟

مَن جَعَلَ المنافذَ لفضلاتِ الغذاءِ، وجَعَلَ لها أشراجًا تَقْبِضُها لكيلا تَجْرِيَ جريًا دائمًا فتُفْسِدَ على الإنسانِ عيشَهُ وتَمْنَعَ النَّاسَ مِن مجالسةِ بعضِهِم بعضًا[2]؟!

مَن جَعَلَ المعدةَ كأشدِّ ما يَكونُ مِن العصبِ؛ لأنَّها هُيِّئَتْ لطبخِ الأطعمةِ وإنضاجِها، فلو كانَتْ لحمًا غضًّا؛ لانْطَبَخَتْ هيَ ونَضِجَتْ، فجُعِلَتْ كالعصبِ الشَّديدِ لِتَقْوى على الطَّبخِ والإنضاجِ ولا تُنْهِكُها النَّارُ التي تحتَها[3]؟!

مَن جَعَلَ الكبدَ رقيقةً ناعمةً؛ لأنَّها هُيِّئَتْ لقبولِ الصَّفوِ واللطيفِ مِن الغذاءِ والهضمِ وعملٍ هوَ ألطفُ مِن عملِ المعدةِ[4]؟!

مَن حَصَّنَ المخَّ اللطيفَ الرَّقيقَ في أنابيبَ صلبةٍ مِن العظامِ لِتَحْفَظَهُ وتَصونَهُ فلا يَفْسُدَ ولا يَذوبَ[5]؟

مَن جَعَلَ الدَّمَ السَّيَّالَ محبوسًا محصورًا في العروقِ بمنزلةِ الماءِ في الوعاءِ لِيَنْضَبِطَ فلا يَجْرِيَ؟!

مَن جَعَلَ الأظْفارَ على أطرافِ الأصابعِ وقايةً لها وصيانةً مِن الأعمالِ والصِّناعاتِ؟!

---

(١) راجع ما تقدّم في هٰذه القضيّة (٢/ ٣٦ و٦٩).

(٢) الأشراج لغة: المجاري، والمراد بها هنا المستقيم Rectum والشرج Anus، التي تحتفظ بالفضلات البرازيّة وتسمح بإفراغها في أوقات محدّدة ولا تتركها تسيل كلّ وقت. وكذٰلك تحتفظ المثانة Urinary bladder بالبول بالطريقة نفسها.

(٣) أمّا أنّ حول المعدة نارًا؛ فقد تقدّم القول في توجيهه (٢/ ٤٠).

وأمّا أنّ المعدة عصب؛ فعلى طريقة الأقدمين في وصف العضلات، وما زال الناس إلى اليوم يصفون الطفل القويّ البنية فيقولون: «عصبه قويّ»، ويرى الأطبّاء المعاصرون أنّ المعدة تتكوّن من طبقات ثلاث؛ بطانة داخليّة مفرزة، وطبقة عضليّة سميكة، ثمّ غلاف خارجي.

بقي أن يقال: إذا كانت المعدة تفرز هٰذه المواد الهاضمة التي لها هٰذا الأثر القويّ على الأطعمة؛ فلماذا لا تهضم نفسها؟! وجوابه أنّ بطانة المعدة تفرز أيضًا مادة مخاطيّة تغطّي خلايا المعدة كالطلاء، وتمنع وصول آثار الأحماض والخمائر الهاضمة إلى جسم المعدة وتحمي المعدة منها. فجلّ من قال ﴿إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر﴾ في علاه.

(٤) راجع ما تقدّم في وظائف الكبد (٢/ ٤٠ و١٨٧).

(٥) في ط: «ليحفظها ويصونها...»! وهو تحريف مفسد للمعنى صوابه ما أثبتّه. والمراد بالمخّ هنا مخّ العظم Marrow وليس الدماغ.

مَن جَعَلَ داخلَ الأُذنِ مستويًا كهيئةِ الكوكبِ[(١)]؛ لِيَطَّرِدَ فيهِ الصَّوتُ حتَّى يَنْتَهِيَ إلى السَّمعِ الدَّاخلِ وقدِ ٱنْكَسَرَتْ حدَّةُ الهواءِ فلا يَنْكَؤُهُ، ولِيَتَعَذَّرَ على الهوامِّ النُّفوذُ إليهِ قبلَ أنْ يُمْسَكَ، ولِيُمْسَكَ ما عَساهُ أنْ يَغْشاها مِن القذى والوسخِ، ولغيرِ ذٰلكَ مِن الحكمِ[(٢)]؟

مَن جَعَلَ على الفخذينِ والوركينِ مِن اللحمِ أكثرَ ممَّا على سائرِ الأعضاءِ؛ لِيَقِيَها مِن الأرضِ فلا تَأْلَمُ عظامُها مِن كثرةِ الجلوسِ كما يَأْلَمُ مَن قد نَحَلَ جسمُهُ وقَلَّ لحمُهُ مِن طولِ الجلوسِ حيثُ لمْ يَحُلْ بينَهُ وبينَ الأرضِ حائلٌ[(٣)]؟!

مَن جَعَلَ ماءَ العينينِ مالحًا يَحْفَظُها مِن الذَّوبانِ، وماءَ الأُذنِ مرًّا يَحْفَظُها مِن الذُّبابِ والهوامِّ والبعوضِ، وماءَ الفمِ عذبًا يُدْرَكُ بهِ طعومُ الأشياءِ فلا يُخالِطُها طعمُ غيرِها[(٤)]؟!

مَن جَعَلَ بابَ الخلاءِ في الإنسانِ في أسترِ موضعٍ منهُ، كما أنَّ البنَّاءَ الحكيمَ يَجْعَلُ موضعَ التَّخلِّي في أسترِ موضعٍ في الدَّارِ، وهٰكذا منفذُ الخلاءِ في الإنسانِ في أسترِ موضعٍ؛ ليسَ بارزًا مِن خلفِهِ ولا ناشزًا بينَ يديهِ بل مغيَّبٌ في موضعٍ غامضٍ مِن البدنِ يَلْتَقي عليهِ الفخذانِ بما عليهِما مِن اللحمِ متواريًا، فإذا جاءَ وقتُ الحاجةِ وجَلَسَ الإنسانُ لها؛ بَرَزَ ذٰلكَ المخرجُ للأرضِ؟!

مَن جَعَلَ الأسنانَ حدادًا لقطعِ الطَّعامِ وتفصيلِهِ والأضراسَ عراضًا لرضِّهِ وطحنِهِ؟!

مَن[(٥)] سَلَبَ الإحساسَ الحيوانيَّ الشُّعورَ والأظفارَ التي في الآدميِّ[(٦)]؛ لأنَّها قد

---

(١) كهيئة الكوكب: كهيئة المسمار، أسطوانيّ الشكل. وهٰذا مجرى السمع الظاهر.

(٢) راجع ما تقدّم في خلق الأذن وحكمها (٢/ ٢٦).

(٣) ترجع ضخامة الوركين والفخذين والطرفين السفليّين عمومًا بالنسبة للعلويّين لحكمة عظيمة، وهي أنّ من وظائف الطرفين السفليّين حمل الجسم ونقله، ولذٰلك كانت عظامهما أشدّ ضخامة وقــوة وكانت عضلاتهما أشدّ ضخامة وقوّة.

(٤) راجع ما تقدّم في حكمها (٢/ ٢٦).

(٥) في ط: «ومن»، والأولى حذف الواو.

(٦) يعني: جعلها فاقدة للإحساس. ثمّ ٱعلم أنّ الشعرة تتكوّن من قسمين: بصلة منغرسة في الجلد، وهي القسم الحيّ من الشعرة بجميع الاعتبارات. وساق ظاهرة، وهي خلايا ميّتة بجميع الاعتبارات. فإذا ٱقتلعت الشعرة من أصلها؛ آلمتك؛ لأنّ الموضع الحيّ منها هو الذي تأذّى. وأمّا إذا قصصتها؛ فإنّك لن تشعر=

تَطولُ وتَمْتَدُّ وتَدْعو الحاجةُ إلى أخذِها وتخفيفِها؟! فلو أعْطاها الحسَّ؛ لآلَمَتْهُ وشَقَّ عليهِ أخذُ ما شاءَ منها، فلو كانَتْ تُحِسُّ؛ لَوَقَعَ الإنسانُ منها في إحدى البليَّتينِ: إمَّا تركُها حتَّى تَطولَ وتَفْحُشَ وتَثْقُلَ عليهِ، وإمَّا مقاساةُ الألمِ والوجعِ عندَ أخذِها!

مَن جَعَلَ باطنَ الكفِّ غيرَ قابلٍ لإنباتِ الشَّعرِ؟! لأنَّهُ لو أشْعَرَ؛ لَتَعَذَّرَ على الإنسانِ صحَّةُ اللمسِ، ولَشَقَّ عليهِ كثيرٌ من الأعمالِ التي تُباشَرُ بالكفِّ.

ولهٰذهِ الحكمةِ لمْ يَكُنْ هَنُ الرَّجلِ[1] قابلاً لإنباتِهِ؛ لأنَّهُ يَمْنَعُهُ مِن الجماعِ، ولمَّا كانَتِ المادَّةُ تَقْتَضي إنباتَهُ هناكَ؛ نَبَتَ حولَ هَنِ الرَّجلِ والمرأةِ.

ولهٰذهِ الحكمةِ سُلِبَ عنِ الشَّفتينِ.

وكذا باطنِ الفمِ.

وكذا أيضًا عنِ القدمِ أخمصِها وظاهرِها؛ لأنَّها تُلاقي التُّرابَ والوسخَ والطِّينَ والشَّوكَ، فلو كانَ هناكَ شعرٌ؛ لآذى الإنسانَ جدًّا، وحَمَلَ مِن الأرضِ كلَّ وقتٍ ما يُثْقِلُ الإنسانَ[2].

وليسَ هٰذا للإنسانِ وحدَهُ، بل تَرى البهائمَ قد جَلَّلَها الشَّعَرُ كلَّها وأُخْلِيَتْ هٰذهِ المواضعُ منهُ لهٰذهِ الحكمةِ!

أفلا تَرى الصَّنعةَ الإلٰهيَّةَ كيفَ سُلِبَتْ وجوهَ الخطإِ والمضرَّةِ وجاءَتْ بكلِّ صوابٍ وكلِّ منفعةٍ وكلِّ مصلحةٍ؟!

[١٣٢ـ فصل]

[لله في كل مخلوق حكم لا تدفع وإن خفي بعضها]

ولمَّا اَجْتَهَدَ الطَّاعنونَ في الحكمةِ العائبونَ للخلقةِ فيما يَطْعُنونَ بهِ؛ عابوا الشَّعرَ

= بالألم؛ لأنّ الأذيّة تقع على ساق الشعرة، وهو ميّت لا إحساس فيه. وكذٰلك الظفر سواء.

(١) هن الرجل: ذكره.

(٢) غالبًا ما يوجد في ظاهر القدم والأصابع شعر يقلّ أو يكثر، وأمّا الأخمص؛ فكراحة اليد لا ينمو فيه الشعر أبدًا، ولو نما؛ لعظمت المصيبة فيه، وكثرت الالتهابات والخراجات والآلام إلى درجة لا يستطيع الإنسان أن يدوس على قدميه إطلاقًا.

تحتَ الآباطِ وشعرَ العانةِ وشعرَ باطنِ الأنفِ وشعرَ الرُّكبتينِ، وقالوا: أيُّ حكمةٍ فيها؟! وأيُّ فائدةٍ؟!

وهٰذا مِن فرطِ جهلِهِم وسخافةِ عقولِهِم؛ فإنَّ الحكمةَ لا يَجبُ أنْ تكونَ بأسرِها معلومةً للبشرِ ولا أكثرِها، بل لا نسبةَ لِما عَلِموهُ إلى ما جَهِلوهُ منها، فلو قيسَتْ علومُ الخلائقِ كلِّهِم بوجوهِ حكمةِ اللهِ تَعالى في خلقِهِ وأمرِهِ إلى ما خَفِيَ عنهُم منها؛ كانَتْ كنقرةِ عصفورٍ في البحرِ[١]! وحسبُ الفطنِ اللبيبِ أنْ يَسْتَدِلَّ بما عَرَفَ منها على ما لَمْ يَعْرِفْ، ويَعْلَمَ الحكمةَ فيما جَهِلَهُ منها فيما عَلِمَهُ، بل أعظمُ وأدقُّ[٢].

وما مثلُ هٰؤلاءِ الحمقى النَّوْكى[٣] إلاَّ كمثلِ رجلٍ لا علمَ لهُ بدقائقِ الصَّنائعِ والعلومِ مِن البناءِ والهندسةِ والطِّبِّ بل والحياكةِ والخياطةِ والنِّجارةِ، إذا رامَ الاعتراضَ بعقلِهِ الفاسدِ على أربابِها في شيءٍ مِن آلاتِهِم وصنائعِهِم وترتيبِ صناعتِهِم، فخَفِيَتْ عليهِ، فجَعَلَ كلَّما خَفِيَ عليهِ منها شيءٌ قالَ: هٰذا لا فائدةَ فيهِ! وأيُّ حكمةٍ تَقْتَضيهِ[٤]؟!

هٰذا؛ معَ أنَّ أربابَ الصَّنائعِ بشرٌ مثلُهُ يُمْكِنُهُ أنْ يُشارِكَهُم في صنائعِهِم ويَفوقَهُم فيها! فما الظَّنُّ بمَن بَهَرَتْ حكمتُهُ العقولَ، الذي لا يُشارِكُهُ مشارِكٌ في حكمتِهِ كما لا يُشارِكُهُ مشارِكٌ في خلقِهِ، فلا شريكَ لهُ بوجهٍ؟! فمَن ظَنَّ أنْ يَكْتالَ حكمتَهُ بمكيالِ عقلِهِ[٥] ويَجْعَلَ عقلَهُ عيارًا عليها؛ فما أدْرَكَهُ أقرَّ بهِ، وما لَمْ يُدْرِكْهُ نَفاهُ؛ فهوَ مِن أجهلِ

---

(١) إي والله. وما زالت حِكَم الله سبحانه وتعالى في خلق الإنسان والحيوان والنبات والجماد تتكشّف للخلق تترى، وما لم يكن يعرف له حكمة صارت له حكمة، وما كان له حكمة صار له حكم، وما كان يعدّ زائدًا في يوم من الأيّام أظهر العلم فوائده ومضارّ نقصه.

(٢) يعني: بل ما جهله من حكم هٰذه الأشياء أعظم وأدقّ ممّا عرفه. وهٰذا عين الحقّ.

(٣) النوكى: الحمقى.

(٤) واليوم؛ فقد أصبح الخطب أجسم والمصيبة أعظم! فإن تكلّم الطبيب أو المهندس أو الفيزيائيّ؛ سكت الناس جميعًا وسلّموا له قوله، فإن ماراه أحد وجادله؛ لم يلتفتوا إليه، وربّما أسكتوه وقالوا: أين شهادتك؟! أنت لست من أهل الاختصاص فلا تتكلّم فيما لا علم لك به! فإن تكلّم العالم في آية أو حديث أو حكم شرعيّ؛ تدخّل الكبير والصغير؛ هٰذا يقول: في رأيي كذا! وذاك يقول: المنطق والعقل يقول كذا! وثالث يقول: تغيّرت الدنيا، ولكلّ عصر حكمه! ورابع يقول: في أوروبا اليوم... وخامس... وسادس... ويا حسرتا على أحوال المسلمين وما آلت إليه أمورهم.

(٥) يعني: من ظنّ أنّه يستطيع بعقله القاصر أن يقوّم حكمة الله في هٰذا وذاك.

الجاهلينَ!

ولله في كلِّ ما خَفِيَ على النَّاسِ وجهُ الحكمةِ فيهِ حكمٌ عديدةٌ لا تُدْفَعُ ولا تُحْجَبُ.

فأعْلَم الآنَ أنَّ تحتَ منابتِ هٰذهِ الشُّعورِ مِن الحرارةِ والرُّطوبةِ ما اقْتَضَتِ الطَّبيعةُ إخراجَ هٰذهِ الشُّعورِ عليها، ألا تَرى أنَّ العشبَ يَنْبُتُ في مستنقعِ المياهِ بعدَ نضوبِ الماءِ عنها لِما خُصَّتْ بهِ مِن الرُّطوبةِ؟! ولهٰذا كانَتْ هٰذهِ المواضعُ مِن أرطبِ مواضعِ البدنِ، وهيَ أقبلُ لنباتِ الشَّعرِ وأهيأُ، فدَفَعَتِ الطَّبيعةُ تلكَ الفضلاتِ والرُّطوباتِ إلى خارجٍ فصارَتْ شعرًا، ولو حَبَسَتْها في داخلِ البدنِ؛ لأضَرَّتْهُ وآذَتْ باطنَهُ، فخروجُها عينُ مصلحةِ الحيوانِ، واحتباسُها إنَّما يَكونُ لنقصٍ وآفةٍ فيهِ[1]. وهٰذا كخروجِ دمِ الحيضِ مِن المرأةِ؛ فإنَّهُ عينُ مصلحتِها وكمالِها، ولهٰذا يَكونُ احتباسُهُ لفسادٍ في الطَّبيعةِ ونَقْصٍ فيها. ألا تَرى أنَّ مَنِ احْتَبَسَ عنهُ شعرُ الرَّأْسِ واللحيةِ بعدَ إنباتِهِ كيفَ تَراهُ ناقصَ الطَّبيعةِ

---

(١) جاء هٰذا على طريقة الأطبّاء القدامى في اعتماد القياس المنطقي في التفسير والتعليل، وهو أمر مسوّغ بل ومشكور بالنسبة للمعلومات والوسائل المتاحة في ذٰلك العصر، لٰكن ليس من السائغ اليوم أن يقال: إنّ الشعر ينبت على الجسم كما ينبت العشب في المستنقع في الأماكن الحارّة الرطبة، وليس هو أيضًا بالفضلات والرطوبات التي يدفعها البدن للخارج! نعم؛ لا ريب أنّ له حكمًا عديدة كما استظهر الشيخ يرحمه الله تعالى، وقد بيّن الطبّ المعاصر شيئًا منها، وما زال أكثرها مجهولًا، وسأذكر لك بعضًا منها فيما يلي:

أوّلًا: فأمّا شعر الأنف؛ فله دور في تدفئة الهواء الداخل إلى الأنف، وتنقيته من الأجسام الغريبة، ورفع سويّة حساسية بشرة الأنف للأجسام الغريبة؛ لأنّ البشرة المشعّرة أعلى حساسية من غير المشعّرة، وإمساك المفرزات الأنفيّة عن السيلان إلى الخارج.

ثانيًا: وأمّا شعر الركبة؛ فالاعتراض عليه سخف من المعترض؛ لأنّ البشرة فوقه وتحته مشعّرة؛ فلماذا لا تكون الركبة كذٰلك؟! ولو كانت الركبة بغير شعر؛ لكان عيبًا غير متناسب مع منظر الفخذ والساق، ولقال المعترض: لماذا لم تكن الركبة كبقيّة الرجل؟!

ثالثًا: وأمّا شعر العانة؛ فيمنع التماسّ والتلاصق بين بشرة الفخذ وبشرة أسفل البطن ممّا يخفّف من تهتك هٰذه البشرة عند المشي، وهٰذا ما يسمّيه الناس بالتسلّخ. ويخفّف أيضًا سيلان العرق من هٰذه المواضع. وله أثر أيضًا في التهييج الجنسيّ، ولذٰلك لا يحلقه الكفرة. فإن قلت: فلم أمرنا النبيّ ﷺ بالحلق إن كان له هٰذا النفع؟! فالجواب أنّه ﷺ لم يأمر بحلقه يوميًّا ولا أسبوعيًّا، وإنّما إذا طال وكثر؛ لأنّ لطوله وكثرته مضارّها كما أنّ لطول الأظفار مضارّها، فكان خلقه لحكمة وحلقه لحكمة.

رابعًا: وكذٰلك شعر الإبط يخفّف التماس بين باطن اليد والجذع، ويخفّف سيلان العرق، ثمّ هو وشعر العانة قرينة ظاهرة للبلوغ ودخول سنّ الشباب ولزوم الفروض الشرعيّة والأحكام القانونيّة.

ناقصَ الخلقةِ ضعيفَ التَّركيبِ؟! فإذا شاهَدْتَ ذٰلكَ في الشَّعرِ الذي عَرَفْتَ بعضَ حكمتِهِ؛ فما لكَ لا تَعْتَبِرُهُ في الشَّعرِ الذي خَفِيَتْ عليكَ حكمتُهُ[1]؟!

ومَن جَعَلَ الرِّيقَ يَجْري جريًا دائمًا إلى الفمِ لا يَنْقَطِعُ عنهُ؛ لِيَبُلَّ الحلقَ واللهواتِ ويُسَهِّلَ الكلامَ ويُسيغَ الطَّعامَ؟! قالَ بُقْراطُ[2]: الرُّطوبةُ في الفمِ مطيَّةُ الغذاءِ. فتَأَمَّلْ حالَكَ عندَما يَجِفُّ ريقُكَ بعضَ الجفافِ ويَقِلُّ ينبوعُ هٰذهِ العينِ التي لا يُسْتَغْنى عنها[3]!

[١٢٣] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في بكاء الأطفال]

ثمَّ تَأَمَّلْ حكمةَ اللهِ تَعالى في كثرةِ بكاءِ الأطفالِ وما لَهُم فيهِ مِن المنفعةِ!

فإنَّ الأطبَّاءَ والطَّبائعيِّينَ شَهِدوا منفعةَ ذٰلكَ وحكمتَهُ وقالوا: في أدمغةِ الأطفالِ رطوبةٌ، لو بَقِيَتْ في أدمغتِهِم؛ لأَحْدَثَتْ أحداثًا عظيمةً، فالبكاءُ يُسيلُ ذٰلكَ ويُحْدِرُهُ مِن أدمغتِهِم فتَقْوى أدمغتُهُم وتَصِحُّ[4].

وأيضًا؛ فإنَّ البكاءَ والعِياطَ[5] يُوَسِّعُ عليهِ مجاريَ النَّفَسِ ويَفْتَحُ العروقَ ويُصَلِّبُها ويُقَوِّي الأعصابَ.

وكم للطِّفلِ مِن منفعةٍ ومصلحةٍ فيما تَسْمَعُهُ مِن بكائِهِ وصراخِهِ[6]!

---

(١) وهٰذه قاعدة عظيمة ينبغي التزامها في كلّ ما خفي من حكم الأمر والخلق والقدر. ومن أعرض عن هذه القاعدة ولم يجعلها نصب عينيه في كلّ ما يعرض له؛ فقد فاته خير كثير وحضره شرّ كبير وصار قلبه موردًا لكلّ مشكّك وموسوس من شياطين الإنس والجنّ.

(٢) أحد مشاهير أطبّاء اليونان، يسمّونه أبا الطبّ.

(٣) في ط: «عنه»! هٰذا؛ وتزيد كميّة اللعاب التي تفرزها الغدد اللعابيّة عن ثلاثة ليترات في اليوم.

(٤) بعد أن يغسل الدمع العين ينحدر إلى الأنف عن طريق قناة خاصّة. وعند البكاء يزداد إفراز الدمع، ويزداد بالتالي الدمع الواصل إلى الأنف، والذي يختلط هناك بالمخاط الأنفي ويسيل إلى الخارج. فالذي يسيل من الأنف إذن عند البكاء وفي غير البكاء لا يعدو أن يكون مفرزًا للأنف أو الجيوب الأنفيّة أو دمعًا واردًا من العين. وأمّا سوائل الدماغ (أو رطوباته أو فضلاته على لغة الأطبّاء القدامى)؛ فلا تنحدر إلى الأنف ولا إلى غيره، فإن حصل هٰذا؛ كان دليلاً على آفة خطيرة أو كسر في قاع الجمجمة.

(٥) العياط: الصراخ في عاميّة أهل الشام.

(٦) عندما يبكي الطفل؛ فإنّه يشتكي أذيّة ألمّت به من جوع أو عطش أو تخمة أو ألم أو ضيق... =

[١٢٤ـ فصل]

[في اختلاف مذاهب الناس في حكمة إيلام الأطفال]

فإذا كانَتْ هٰذهِ الحكمةُ في البكاءِ الذي سببُهُ ورودُ الألمِ والمؤذي وأنتَ لا تَعْرِفُها ولا تَكادُ تَخْطُرُ ببالِكَ؛ فهٰكذا إيلامُ الأطفالِ[١] فيهِ وفي أسبابِهِ وعواقبِهِ الحميدةِ مِن الحكمِ ما قد خَفِيَ على أكثرِ النَّاسِ واضْطَرَبَ عليهِمُ الكلامُ في حكمتِهِ اضطرابَ الأرْشِيَّةِ[٢] وسَلَكوا في هٰذا البابِ مسالكَ:

● فقالَتْ طائفةٌ: ليسَ إلَّا محضَ المشيئةِ العاريةِ عنِ الحكمةِ والغايةِ المطلوبةِ! وسَدُّوا على أنفسِهِم هٰذا البابَ جملةً، وكلَّما سُئِلوا عن شيءٍ؛ أجابوا بـ ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وهٰذا[٣] مِن أصدقِ الكلامِ، وليسَ المرادُ بِهِ نفيَ حكمتِهِ تَعالى وعواقبِ أفعالِهِ الحميدةِ وغاياتِها المطلوبةِ منها، وإنَّما المرادُ بالآيةِ إفرادُهُ بالإلٰهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ، وأنَّهُ لكمالِ حكمتِهِ لا معقِّبَ لحكمِهِ ولا يُعْتَرَضُ عليهِ بالسُّؤالِ؛ لأنَّهُ لا يَفْعَلُ شيئًا سدًى ولا خَلَقَ شيئًا عبثًا، وإنَّما يُسْأَلُ عن فعلِهِ مَن خَرَجَ عنِ الصَّوابِ ولمْ يَكُنْ فيهِ منفعةٌ ولا فائدةٌ.

ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿أمِ اتَّخَذوا آلِهَةً مِنَ الأرْضِ هُمْ يُنْشِرونَ . لَوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إلَّا اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفونَ . لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٣]؛ كيفَ ساقَ الآيةَ في الإنكارِ على مَنِ اتَّخَذَ مِن دونِهِ آلهةً لا تُساويهِ فسَوَّاها بِهِ معَ أعظمِ الفرقِ؟! فقولُهُ ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ إثباتٌ لحقيقةِ الإلٰهيَّةِ وإفرادٌ لهُ بالرُّبوبيَّةِ والإلٰهيَّةِ، وقولُهُ ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ نفيٌ لصلاحِ تلكَ الآلهةِ المتَّخذةِ للإلٰهيَّةِ فإنَّها مسؤولةٌ مربوبةٌ مدبَّرةٌ فكيفَ يُسَوَّى بينَها وبينَهُ معَ أعظمِ الفرقانِ؟!

= ومن الضروري أن يسعى الكبار عندئذ في تلبية حاجته؛ لأنّ إهمال ذٰلك قد ينطوي على خطورة. وأمّا دعوى توسيع مجاري التنفّس وتقوية العروق؛ ففيها نظر كبير.

(١) يعني: فيما يصيبهم من الأوجاع والأمراض.

(٢) اضطراب الأرشيّة: اختلاف الخصوم والمتنازعين.

(٣) يعني الآية لا كلام هٰذه الطائفة.

فهٰذا الذي سيقَ لهُ الكلامُ، فجَعَلَها الجبريَّةُ ملجأً ومعقلاً في إنكارِ حكمتِهِ وتعليلِ أفعالِهِ المحمودةِ بغاياتِها المحمودةِ وعواقبِها السَّديدةِ. واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ.

● وقالَتْ طائفةٌ: الحكمةُ في ٱبتلائِهِم تعويضُهُم في الآخرةِ بالثَّوابِ التَّامِّ.

فقيلَ لهُم: قد كانَ يُمْكِنُ إيصالُ الثَّوابِ إليهِم بدونِ هٰذا الإيلامِ!

فأجابوا بأنَّ توسُّطَ الإيلامِ في حقِّهِم كتوسُّطِ التَّكاليفِ في حقِّ المكلَّفينَ.

فقيلَ لهُم: فهٰذا يَنْتَقِضُ عليكُم بإيلامِ أطفالِ الكفَّارِ.

فأجابوا بأنَّا لا نَقولُ إنَّهُم في النَّارِ كما قالَهُ مَن قالَهُ مِن النَّاسِ، والنَّارُ لا يَدْخُلُها أحدٌ إلاَّ بذنبٍ، وهٰؤلاءِ لا ذنبَ لهُم. وكذا الكلامُ معَهُم في مسألةِ الأطفالِ والحجاجُ فيها مِن الجانبينِ بما ليسَ هٰذا موضعَهُ[1].

فأُورِدَ عليهِم ما لا جوابَ لهُم عنهُ، وهوَ إيلامُ أطفالِهِمُ الذينَ قُدِّرَ بلوغُهُم وموتُهُم على الكفرِ؛ فإنَّ هٰذا لا تَعويضَ فيهِ قطعًا، ولا هوَ عقوبةٌ على الكفرِ؛ فإنَّ العقوبةَ لا تكونُ سلفًا وتعجيلاً.

فحاروا في هٰذا الموضعِ وٱضْطَرَبَتْ أُصولُهُم ولمْ يَأْتوا بما يَقْبَلُهُ العقلُ.

● وقالَتْ طائفةٌ ثالثةٌ: هٰذا السُّؤالُ لو تَأَمَّلَهُ مُورِدُهُ لَعَلِمَ أنَّهُ ساقطٌ وأنَّ تكلُّفَ الجوابِ عنهُ إلزامُ ما لا يَلْزَمُ؛ فإنَّ هٰذهِ الآلامَ وتوابعَها وأسبابَها مِن لوازمِ النَّشأةِ الإنسانيَّةِ التي لمْ يُخْلَقِ [الإنسانُ] منفكًّا عنها، فهيَ كالحرِّ والبردِ والجوعِ والعطشِ والتَّعبِ والنَّصبِ والهمِّ والغمِّ والضَّعفِ والعجزِ، فالسُّؤالُ عن حكمتِها كالسُّؤالِ عن حكمةِ الحاجةِ إلى الأكلِ عندَ الجوعِ والحاجةِ إلى الشَّرابِ عندَ الظَّمإِ وإلى النَّومِ والرَّاحةِ عندَ التَّعبِ! فإنَّ هٰذهِ الآلامَ هيَ مِن لوزامِ النَّشأةِ الإنسانيَّةِ التي لا يَنْفَكُّ عنها الإنسانُ ولا الحيوانُ، فلو تَجَرَّدَ عنها؛ لمْ يَكُنْ إنسانًا، بل كانَ ملَكًا أو خلقًا آخرَ. وليسَتْ آلامُ الأطفالِ بأصعبَ مِن آلامِ البالغينَ، لٰكنْ لمَّا صارَتْ لهُم عادةً؛ سَهُلَ موقعُها عندَهُم. وكم بينَ ما يُقاسيهِ الطِّفلُ ويُعانيهِ البالغُ العاقلُ[2]! وكلُّ ذٰلكَ مِن مقتضى الإنسانيَّةِ

---

(١) قد فصّل فيه يرحمه الله في «مدارج السالكين» (٢/٢١٨ - طبعة ابن خزيمة).

(٢) قد يعاني الطفل آلامًا كآلام البالغ العاقل وأكثر في بعض الأمراض، ولٰكنّه لا يحمل أبدًا ما يحمله=

وموجَبِ الخلقةِ، فلو لمْ يُخْلَقْ كذٰلكَ؛ لكانَ خلقًا آخرَ. أفَترى أنَّ الطِّفلَ إذا جاعَ أو عَطِشَ أو بَرَدَ أو تَعِبَ قد خُصَّ مِن ذٰلكَ بما لمْ يُمْتَحَنْ بهِ الكبيرُ؟! فإيلامُهُ بغيرِ ذُلكَ مِن الأوجاعِ والأسقامِ كإيلامِهِ بالجوعِ والعطشِ والبردِ والحرِّ دونَ ذٰلكَ أو فوقَهُ، وما خُلِقَ الإنسانُ بلِ الحيوانُ إلاَّ على هٰذهِ النَّشأةِ.

قالوا: فإنْ سألَ سائلٌ وقالَ: فلمَ خُلِقَ كذٰلكَ؟ وهلاَّ خُلِقَ خلقةً غيرَ قابلةٍ للألمِ!

فهٰذا سؤالٌ فاسدٌ؛ فإنَّ اللهَ تَعالى خَلَقَهُ في عالمِ الابتلاءِ والامتحانِ مِن مادَّةٍ ضعيفةٍ فهيَ عرضةٌ للآفاتِ، وركَّبَهُ تركيبًا معرَّضًا لأنواعٍ مِن الآلامِ. وجَعَلَ فيهِ الأخلاطَ الأربعةَ التي لا قِوامَ لهُ إلاَّ بها ولا يَكونُ إلاَّ عليها، وهيَ لا محالةَ تُوجِبُ ٱمتزاجًا وٱختلاطًا وتفاعلاً يَبْغي بعضُها على بعضٍ بكيفيَّتِهِ تارةً وبكميَّتِهِ تارةً وبهِما تارةً وذٰلكَ موجبٌ للآلامِ قطعًا، ووجودُ الملزومِ بدونِ لازمِهِ محالٌ[1]. ثمَّ إنَّهُ سبحانَهُ ركَّبَ فيهِ مِن القوى والشَّهوةِ والإرادةِ ما يُوجِبُ حركتَهُ الدَّائبةَ وسعيَهُ في طلبِ ما يُصْلِحُهُ ودفعِ ما يَضُرُّهُ بنفسِهِ تارةً وبمَن يُعينُهُ تارةً، فأحوجَ النَّوعَ بعضَهُ إلى بعضٍ، فحَدَثَ مِن ذٰلكَ الاختلاطُ بينَهُم وبغيُ بعضِهِم على بعضٍ، فيَحْدُثُ مِن ذٰلكَ مِن الآلامِ والشُّرورِ بنحوِ ما يَحْدُثُ مِن ٱمتزاجِ أخلاطِهِ وٱختلاطِها وبغيِ بعضِها على بعضٍ.

والآلامُ لا تَتَخَلَّفُ عن هٰذا الاختلاطِ والامتزاجِ أبدًا إلاَّ في دارِ البقاءِ والنَّعيمِ المقيمِ لا في دارِ الابتلاءِ والامتحانِ. فمَن ظَنَّ أنَّ الحكمةَ في أنْ يَجْعَلَ خصائصَ تلكَ الدَّارِ في هٰذهِ؛ فقد ظَنَّ باطلاً. بلِ الحكمةُ التَّامَّةُ البالغةُ ٱقْتَضَتْ أنْ تكونَ هٰذهِ الدَّارُ ممزوجةً عافيتُها ببلائِها وراحتُها بعنائِها ولذَّتُها بآلامِها وصحَّتُها بسقمِها وفرحُها بغمِّها، فهيَ دارُ ٱبتلاءٍ تُدْفَعُ بعضُ آفاتِها ببعضٍ، كما قالَ القائلُ:

أَصْبَحْـــتُ فـــي دارِ بَلِيَّـــاتِ أَدْفَـــعُ آفـــاتٍ بِــآفـــاتِ

ولقد صَدَقَ؛ فإنَّكَ إذا فَكَّرْتَ في الأكلِ والشُّربِ واللباسِ والجماعِ والرَّاحةِ وسائرِ ما يُسْتَلَذُّ بهِ؛ رَأَيْتَهُ يُدْفَعُ بها ما قابَلَهُ مِن الآلامِ والبليَّاتِ! أفلا تَراكَ تَدْفَعُ بالأكلِ

= العاقل من الهمّ والغمّ والضيق. نسأل الله العافية.

(١) راجع ما تقدّم في هٰذا (١/ ٤٨).

أَلَمَ الجوعِ وبالشُّربِ أَلَمَ العطشِ وباللباسِ أَلَمَ الحرِّ والبردِ... وكذا سائرُها؟!

ومِن هُنا قالَ بعضُ العقلاءِ: إنَّ لَذَّاتِها إنَّما هيَ دفعُ آلامٍ لا غيرُ، فأمَّا اللذَّاتُ الحقيقيَّةُ؛ فلها دارٌ أُخرى ومحلٌّ آخرُ غيرُ هٰذه[١].

فوجودُ هٰذهِ الآلامِ واللذَّاتِ الممتزجةِ المختلطةِ مِن الأدلَّةِ على المعادِ وأنَّ الحكمةَ التي ٱقْتَضَتْ ذٰلكَ هيَ أَولى بٱقتضاءِ دارينِ؛ دارٍ خالصةٍ لِلَّذَّاتِ لا يَشوبُها ألمٌ ما، ودارٌ خالصةٌ للألمِ لا يَشوبُها لذَّةٌ ما، والدَّارُ الأُولى الجنَّةُ، والدَّارُ الثَّانيةُ النَّارُ.

أفلا تَرى كيفَ دَلَّكَ ما أنتَ[٢] مجبولٌ عليهِ في هٰذهِ النَّشأةِ مِن اللذَّةِ والألم على الجنَّةِ والنَّارِ ورَأيتَ شواهدَهُما وأدلَّةَ وجودِهِما مِن نفسِكَ حتَّى كأنَّكَ تُعايِنُهُما عيانًا؟!

وٱنْظُرْ كيفَ دَلَّ العيانُ والحسُّ والوجودُ على حكمةِ الرَّبِّ تَعالى وعلى صدقِ رسلِهِ فيما أَخْبَروا بهِ مِن الجنَّةِ والنَّارِ! فتَأَمَّلْ كيفَ قادَ النَّظرُ في حكمةِ اللهِ تَعالى إلى شهادةِ العقولِ والفطرِ بصدقِ رسلِهِ وأنَّ ما أَخْبَروا بهِ تفصيلاً يَدُلُّ عليهِ العقلُ مجملاً!

فأينَ هٰذا مِن مقامِ مَن أَدَّاهُ علمُهُ إلى المعارضةِ بينَ ما جاءَتْ بهِ الرُّسلُ وبينَ شواهدِ العقلِ وأدلَّتِهِ؟! ولٰكنَّ تلكَ العقولَ كادَها باريها ووَكَلَها إلى أنفسِها، فحَلَّتْ بها عساكرُ الخذلانِ مِن كلِّ جانبٍ.

وحسبُكَ بهٰذا الفصلِ وعظيمِ منفعتِهِ مِن هٰذا الكتابِ، واللهُ المحمودُ المسؤولُ تمامَ نعمتِهِ.

فهٰذهِ كلماتٌ مختصرةٌ نافعةٌ في مسألةِ إيلامِ الأطفالِ لعلَّكَ لا تَظْفَرُ بها في أكثرِ الكتبِ.

[١٢٥ - فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في خلق البواعث الطبيعية]

فٱرْجِعِ الآنَ إلى نفسِكَ، وفَكِّرْ في هٰذهِ الأفعالِ الطَّبيعيَّةِ التي جُعِلَتْ في الإنسانِ،

---

(١) تقدّم (١/ ٣٦٨-٣٧٥) تفصيل القول في هٰذا وما فيه.

(٢) في ط: «كيف دلّك ذٰلك مع ما أنت»! وفيه إشكال.

وما فيها مِن الحكمةِ والمنفعةِ، وما جُعِلَ لكلِّ واحدٍ منها في الطَّبعِ المجرَّدِ، والدَّاعي الذي يَقْتَضيهِ ويَسْتَحِثُّهُ:

فالجوعُ يَسْتَحِثُّ الأكلَ ويَطْلُبُهُ لِما فيهِ مِن قوامِ البدنِ وحياتِهِ ومماتِهِ، والكَرى يَقْتَضي النَّومَ ويَسْتَحِثُّهُ لِما فيهِ مِن راحةِ البدنِ والأعضاءِ وإجمامِ القوى وعودِها إلى قوَّتِها جديدةً غيرَ كالَّةٍ، والشَّبَقُ يَقْتَضي الجماعَ الذي بِهِ دوامُ النَّسلِ وقضاءُ الوطرِ وتمامُ اللذَّةِ[1].

فتَجِدُ هٰذهِ الدَّواعيَ تَسْتَحِثُّ الإنسانَ لهٰذهِ الأُمورِ وتَتَقاضاها منهُ بغيرِ ٱختيارِهِ، وذٰلكَ عينُ الحكمةِ؛ فإنَّهُ لو كانَ الإنسانُ إنَّما يَسْتَدْعي هٰذهِ المستحِثَّاتِ إذا أرادَها؛ لأوْشَكَ أنْ يَشْتَغِلَ عنها بما يَعْروهُ مِن العوارضِ مدَّةً، فيَنْحَلَّ بدنُهُ ويَهْلِكَ ويَترامى إلى الفسادِ وهوَ لا يَشْعُرُ، كما إذا ٱحْتاجَ بدنُهُ إلى شيءٍ مِن الدَّواءِ والصَّلاحِ فدافَعَهُ وأعْرَضَ عنهُ حتَّى إذا ٱسْتَحْكَمَ بهِ الدَّاءُ أهْلَكَهُ.

فٱقْتَضَتْ حكمةُ اللطيفِ الخبيرِ أنْ جُعِلَتْ فيهِ بواعثُ ومستحِثَّاتٌ تَؤُزُّهُ أزًّا إلى ما فيهِ قِوامُهُ وبقاؤُهُ ومصلحتُهُ وتَرِدُ عليهِ بغيرِ ٱختيارِهِ ولا ٱستدعائِهِ، فجُعِلَ لكلِّ واحدٍ مِن هٰذهِ الأفعالِ محرِّكٌ مِن نفسِ الطَّبيعةِ يُحَرِّكُهُ ويَحْدوهُ عليهِ[2].

[١٢٦ ـ فصل]

[في لطائف حكمته تعالى في توازن قوى البدن]

ثمَّ ٱنْظُرْ إلى ما أُعْطِيَهُ مِن القوى المختلفةِ التي بها قِوامُهُ: فأُعْطِيَ القوَّةَ الجاذبةَ الطَّالبةَ المستحِثَّةَ التي تَقْتَضي معلومَها مِن الغذاءِ وتُورِدُهُ على الأعضاءِ بحسبِ قبولِها، ثمَّ أُعْطِيَ القوَّةَ الممسكةَ التي تُمْسِكُ الطَّعامَ وتَحْبِسُهُ ريثَما تُنْضِجُهُ الطَّبيعةُ وتُحْكِمُ طبخَهُ وتُهَيِّئُهُ لمصارفِهِ وتَبْعَثُهُ لمستحقِّهِ، ثمَّ أُعْطِيَ القوَّةَ الهاضمةَ التي تَصْرِفُهُ في البدنِ وتَهْضِمُهُ في المعدةِ، ثمَّ أُعْطِيَ القوَّةَ الدَّافعةَ ـ وهيَ التي تَدْفَعُ ثقلَهُ وما لا منفعةَ فيهِ ـ فتَدْفَعُهُ وتُخْرِجُهُ عنِ البدنِ لئلَّا يُؤْذِيَهُ ويُنْهِكَهُ.

---

(١) الكرى: النعاس. الإجمام: الراحة. الشبق: شدّة الشهوة. الوطر: الحاجة.

(٢) يحدوه عليه: يحمله إليه ويحثّه عليه.

فمَن أعْطاكَ هٰذهِ القوى عندَ شدَّةِ حاجتِكَ إليها؟! ومَن جَعَلَها خادمًا لكَ؟! ومَن أعْطاها أفعالَها وٱسْتَعْمَلَ كلَّ واحدٍ منها على غيرِ عملِ الآخرِ؟! ومَن ألَّفَ بينَها على تباينِها حتَّى ٱجْتَمَعَتْ في شخصٍ واحدٍ ومحلٍّ واحدٍ؟! ولو عادى بينَها؛ كانَ بعضُها يُذْهِبُ بعضًا؛ فمَن كانَ يَحولُ بينَهُ وبينَ ذٰلكَ؟!

فلولا القوَّةُ الجاذبةُ؛ كيفَ كُنْتَ متحرِّكًا لطلبِ الغذاءِ الذي بهِ قوامُ البدنِ؟! ولولا الممسكةُ؛ كيفَ كانَ الطَّعامُ يَذْهَبُ في الجوفِ حتَّى تَهْضِمَهُ المعدةُ؟! ولولا الهاضمةُ؛ كيفَ كانَ يُطْبَخُ حتَّى يَخْلُصَ منهُ الصَّفوُ إلى سائرِ أجزاءِ البدنِ وأعماقِهِ؟! ولولا الدَّافعةُ؛ كيفَ كانَ الثِّقلُ المؤذي القاتلُ لوِ ٱنْحَبَسَ يَخْرُجُ أوَّلاً فأوَّلاً فيَسْتَريحُ البدنُ فيَخِفُّ ويَنْشَطُ؟!

فتأمَّلْ كيفَ وُكِلَتْ هٰذهِ القوى بكَ وبالقيامِ[1] بمصالحِكَ! فالبدنُ كدارٍ للملكِ فيها حشمُهُ وخدمُهُ، قد وَكَلَ بتلكَ الدَّارِ أقوامًا يقومونَ بمصالحِها: فبعضُهُم لاقتضاءِ حوائجِها وإيرادِها عليها، وبعضُهُم لقبضِ الواردِ وحفظِهِ وخزنِهِ إلى أنْ يُهَيَّأَ ويُصْلَحَ، وبعضُهُم يَقْبِضُهُ فيُهَيِّئُهُ ويُصْلِحُهُ ويَدْفَعُهُ إلى أهلِ الدَّارِ ويُفَرِّقُهُ عليهِم بحسبِ حاجاتِهِم، وبعضُهُم لمسحِ الدَّارِ وتنظيفِها وكنسِها مِن المزابلِ والأقذارِ. فالملكُ هو الملكُ الحقُّ المبينُ جَلَّ جلالُهُ، والدَّارُ أنتَ، والحشمُ والخدمُ الأعضاءُ والجوارحُ، والقُوَّامُ عليها هٰذهِ القوى التي ذَكَرْناها.

[١٢٧] تنبيه
[إلى الفارق بين نظر الطبائعي ونظر المؤمن إلى الأمور]

فرقٌ بينَ نظرِ الطَّبيبِ والطَّبائعيِّ في هٰذهِ الأُمورِ وكونِهِ مقصورًا على النَّظرِ في حفظِ الصِّحَّةِ ودفعِ السَّقمِ فهوَ يَنْظُرُ فيها مِن هٰذهِ الجهةِ فقط وبينَ نظرِ المؤمنِ العارفِ فيها فهوَ يَنْظُرُ فيها مِن جهةِ دلالتِها على خالقِها وباريها وما لهُ فيها مِن الحكمِ البالغةِ والنِّعمِ السَّابغةِ والآلاءِ التي دَعا العبادَ إلى شكرِها وذكرِها.

---

(١) في ط: «فمن أعطاك هٰذه القوّة... هٰذه القوّة بك والقيام»! والصواب ما أثبتّه.

[١٢٨] تنبيه

[إلى لطائف حكمته تعالى في الحفظ والنسيان]

تَأَمَّلْ حكمةَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في الحفظِ والنِّسيانِ الذي خَصَّ بهِ نوعَ الإنسانِ وما لهُ فيهما مِن الحكمِ وما للعبدِ فيهما مِن المصالحِ! فإنَّهُ لولا القوَّةُ الحافظةُ التي خُصَّ بها؛ لَدَخَلَ عليهِ الخللُ في أُمورِهِ كلِّها، ولمْ يَعْرِفْ ما لهُ وما عليهِ، ولا ما أَخَذَ ولا ما أَعْطى، ولا ما سَمِعَ ورَأى، ولا ما قالَ ولا ما قيلَ لهُ، ولا ذَكَرَ مَن أَحْسَنَ إليهِ ولا مَن أساءَ إليهِ ولا مَن عامَلَهُ، ولا مَن نَفَعَهُ فيَقْرُبَ منهُ ولا مَن ضَرَّهُ فيَنْأى عنهُ، ثمَّ كانَ لا يَهْتَدي إلى الطَّريقِ الذي سَلَكَهُ أوَّلَ مرَّةٍ ولو سَلَكَهُ مرارًا، ولا يَعْرِفُ علمًا ولو دَرَسَهُ عمرَهُ، ولا يَنْتَفِعُ بتجربةٍ، ولا يَسْتَطيعُ أنْ يَعْتَبِرَ شيئًا على ما مَضى، بل كانَ خليقًا أنْ يَنْسَلِخَ مِن الإنسانيَّةِ أصلاً. فتأَمَّلْ عظيمَ المنفعةِ عليكَ في هٰذهِ الخلالِ وموقعَ الواحدةِ منها فضلاً عن جميعِهِنَّ[١].

ومِن أعجبِ النِّعمِ عليهِ نعمةُ النِّسيانِ؛ فإنَّهُ لولا النِّسيانُ؛ لَما سَلا شيئًا، ولا انْقَضَتْ لهُ حسرةٌ، ولا تَعَزَّى عن مصيبةٍ، ولا ماتَ لهُ حزنٌ، ولا بَطَلَ لهُ حقدٌ، ولا اسْتَمْتَعَ بشيءٍ مِن متاعِ الدُّنيا معَ تذكُّرِ الآفاتِ، ولا رَجا غفلةً مِن عدوٍّ ولا نعمةً مِن حاسدٍ...

فتأَمَّلْ نعمةَ اللهِ في الحفظِ والنِّسيانِ معَ اختلافِهِما وتضادِّهِما وجعلَهُ في كلِّ واحدٍ منهما ضربًا مِن المصلحةِ.

[١٢٩] تنبيه

[إلى لطائف حكمته تعالى في اختصاص البشر بالحياء]

تَأَمَّلْ هٰذا الخُلُقَ الذي خُصَّ بهِ الإنسانُ دونَ جميعِ الحيوانِ، وهوَ خُلُقُ الحياءِ، الذي هوَ مِن أفضلِ الأخلاقِ وأجلِّها وأعظمِها قدرًا وأكثرِها نفعًا، بل هوَ خاصَّةُ

---

(١) فإن لم تقنع بهٰذا؛ فتأمّل أحوال من أصيب بالخرف من الشيوخ، وكيف يصبح العليم الحليم كطفل رضيع لا يعي ما حوله، فعندئذ ستدرك قيمة هٰذه النعمة، وتسأل الله السلامة والعافية.

الإنسانيَّةِ، فمَن لا حياءَ فيهِ؛ ليسَ معَهُ مِن الإنسانيَّةِ إلَّا اللحمُ والدَّمُ وصورتُهُما الظَّاهرةُ كما أنَّهُ ليسَ معَهُ مِن الخيرِ شيءٌ.

ولولا هٰذا الخلقُ؛ لمْ يُقْرَ الضَّيفُ، ولمْ يُوفَ بالوعدِ، ولمْ تُؤَدَّ أمانةٌ، ولمْ يُقْضَ لأحدٍ حاجةٌ، ولا تَحرَّى الرَّجلُ الجميلَ فآثَرَهُ والقبيحَ فتَجَنَّبَهُ، ولا سَتَرَ لهُ عورةً، ولا أمْتَنَعَ مِن فاحشةٍ. وكثيرٌ مِن النَّاسِ لولا الحياءُ الذي فيهِ؛ لمْ يُؤَدِّ شيئًا مِن الأُمورِ المفترضةِ عليهِ، ولمْ يَرْعَ لمخلوقٍ حقًّا، ولمْ يَصِلْ لهُ رحمًا، ولا بَرَّ لهُ والدًا؛ فإنَّ الباعثَ على هٰذهِ الأفعالِ إمَّا دينيٌّ - وهوَ رجاءُ عاقبتِها الحميدةِ - وإمَّا دنيويٌّ علويٌّ - وهوَ حياءُ فاعلِها مِن الخلقِ -. فتبيَّنَ[1] أنَّهُ لولا الحياءُ إمَّا مِن الخالقِ أو مِن الخلائقِ؛ لمْ يَفْعَلْها صاحبُها[2].

وفي التِّرْمذيِّ وغيرِهِ مرفوعًا: «أسْتَحْيوا مِن اللهِ حقَّ الحياءِ». قالوا: وما حقُّ الحياءِ؟ قالَ: «أنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وما حَوى، والبطنَ وما وَعى، وتَذْكُرَ المقابرَ والبِلى»[3].

---

(١) في ط: «قد تبيّن»، والأولى ما أثبتّه.

(٢) فإن أعياك الدليل على صحّة هٰذا الكلام؛ فتأمّل أحوال الأوروبّيين المعاصرين وعهرهم وأنبعاثهم في الفجور لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا؛ كلّ ذٰلك لفقدانهم الحياء من الخلق والخالق! نسأل الله أن يجيرنا ويجير أولادنا وبلادنا منهم ومن أذنابهم.

(٣) (لا بأس به). رواه: ابن أبي شيبة (٣٤٣٠٩)، وأحمد (١/٣٨٧)، والترمذي (٣٨ـ القيامة، ٢٤ـ باب، ٤/٦٣٧/٢٤٥٨)، وابن أبي الدنيا في «المكارم» (٩٠) و«الورع» (٥٩)، والبزّار (٢٠٢٥)، وابن نصر في «الصلاة» (٤٥٠)، وأبو يعلى (٥٠٤٧)، والحاكم (٤/٣٢٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧٧٣٠ و١٠٥٦١) و«الآداب» (١٠١٥)، والبغوي (٤٠٣٣)؛ من طرق، عن أبان بن إسحاق (ووقع عند ابن أبي شيبة: محمّد بن إسحاق!)، عن الصبّاح بن محمّد، عن مرّة الهمداني، عن ابن مسعود... رفعه. قال الترمذي: «إنّما نعرفه من هٰذا الوجه من حديث أبان عن الصبّاح». قلت: أبان ثقة والعلّة في الصبّاح فإنّه ضعيف أتّهمه ابن حبّان فما أنصف. وصحّحه الحاكم! ووافقه الذهبي مع أنّه قال في «الميزان»: «رفع حديثين هما من قول ابن مسعود»! وقال المنذري: «تُكلّم فيه لرفعه هٰذا الحديث».

ولٰكنّه لم ينفرد بهٰذا المرفوع، بل جاء من وجه آخر، فرواه: الطبراني في «الصغير» (٤٩٥) و«الكبير» (١٠/١٨٨/١٠٢٩٠)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/٢٠٩)؛ ثنا السريّ بن سهل الجنديسابوري، ثنا عبدالله بن رشيد، ثنا مجّاعة بن الزبير، عن قتادة، عن عقبة بن عبدالغافر، عن أبي عبيدة، عن ابن مسعود... رفعه. قال الطبراني: «لم يروه عن قتادة إلّا مجّاعة، تفرّد به ابن رشيد». وذكر نحوه أبو نعيم وزاد: «غريب». =

وقالَ ﷺ: «إذا لمْ تَسْتَحِ؛ فٱصْنَعْ ما شِئْتَ»(١).

وأصحُّ القولينِ فيهِ قولُ أبي عُبَيْدٍ والأكثرينَ: إنَّهُ تهديدٌ: كقولِهِ تَعالى: ﴿ٱعْمَلُوا ما شِئْتُمْ﴾ [فصِّلت: ٤٠]، وقولِهِ: ﴿كُلُوا وتَمَتَّعُوا قَليلاً﴾ [المرسلات: ٤٦].

وقالَتْ طائفةٌ: هوَ إذنٌ وإباحةٌ. والمعنى أنَّكَ إذا أرَدْتَ أنْ تَفْعَلَ فعلاً؛ فٱنْظُرْ قبلَ فعلِهِ: فإنْ كانَ ممَّا يُسْتَحْيا فيهِ مِن اللهِ ومِن النَّاسِ؛ فلا تَفْعَلْهُ، وإنْ كانَ ممَّا لا يُسْتَحْيا منهُ؛ فٱفْعَلْهُ؛ فإنَّهُ ليسَ بقبيحٍ.

وعندي أنَّ هٰذا الكلامَ صورتُهُ صورةُ الطَّلبِ ومعناهُ معنى الخبرِ، وهوَ في قوَّةِ قولِهِم(٢): مَن لا يَسْتَحي؛ صَنَعَ ما يَشْتَهي. فليسَ بإذنٍ، ولا هوَ مجرَّدَ تهديدٍ، وإنَّما هوَ في معنى الخبرِ. والمعنى أنَّ الرَّادعَ عنِ القبيحِ إنَّما هوَ الحياءُ، فمَن لمْ يَسْتَحِ؛ فإنَّهُ يَصْنَعُ ما شاءَ.

وإخراجُ هٰذا المعنى في صيغةِ الطَّلبِ(٣) لنكتةٍ بديعةٍ جدًّا، وهيَ أنَّ للإنسانِ آمرينِ وزاجرينِ: آمرٌ وزاجرٌ مِن جهةِ الحياءِ، فإذا أطاعَهُ؛ ٱمْتَنَعَ مِن فعلِ كلِّ ما يَشْتَهي. ولهُ آمرٌ وزاجرٌ مِن جهةِ الهوى والطَّبيعةِ، فمَن لمْ يُطِعْ آمرَ الحياءِ وزاجرَهُ؛ أطاعَ آمرَ الهوى والشَّهوةِ ولا بدَّ. فإخراجُ الكلامِ في قالبِ الطَّلبِ يَتَضَمَّنُ هٰذا المعنى دونَ أنْ يُقالَ: مَن لا يَسْتَحي صَنَعَ ما يَشْتَهي!

= قلت: السريّ وابن رشيد ومجّاعة ليّنون، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه، فالسند ضعيف أيضًا.

وله شاهد من حديث عائشة عند: الخرائطي في «المكارم» (٣٠٠)، والطبراني في «الأوسط» (٧٣٣٨)؛ بسند فيه متروك ووضاع. وآخر من حديث الحكم بن عمير عند: الطبراني في «الكبير» (٣/٢١٩/٣١٩٢)، وأبي نعيم في «الحلية» (١/٣٥٨)؛ بسند فيه متروك.

وقد تردّدت طويلاً في شأن هٰذا الحديث، ثمّ ٱنفصلت إلى تقويته لأمرين: **أوّلهما**: أنني لم أجد لتهمة الصبّاح وجهًا مقبولاً لدى النظر في مرويّاته وأقوال مجرّحيه، ممّا يجعل الوجه الأوّل صالحًا للاعتبار. **والثاني**: أنّ الحديث من الترغيب الذي يغمض فيه بعض الشيء. ثمّ وجدت الألباني قد ضعّف الحديث في «المشكاة»، ثمّ عاد إلى تقويته في «الترمذي»، فتابعته على تاليه حامدًا لله.

(١) رواه البخاري (٦٠ـ الأنبياء، ٥٤ـ باب، ٦/٥١٥/٣٤٨٣ و٣٤٨٤) عن أبي مسعود؛ قال: قال ﷺ: «إنّ ممّا أدرك الناس من كلام النبوّة: إذا لم تستحي؛ فٱصنع ما شئت».

(٢) في قوّة قولهم: يؤدّي المعنى نفسه.

(٣) إخراج هٰذا المعنى: إخراج الخبر. في صيغة الطلب: في صيغة الأمر الذي هو من صيغ الإنشاء.

[١٣٠] تنبيه

[إلى عظيم نعمته تعالى في البيانين اللفظي والخطي]

تَأَمَّلْ نعمةَ اللهِ على الإنسانِ بالبيانينِ: البيانِ النُّطقيِّ، والبيانِ الخطِّيِّ!

● وقد اَعْتَدَّ بهما سبحانَهُ في جملةِ ما اَعْتَدَّ بهِ مِن نعمِهِ على العبدِ، فقالَ تَعالى في أوَّلِ سورةٍ أُنْزِلَتْ على رسولِ اللهِ ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ . ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥][١].

فتَأَمَّلْ كيفَ جَمَعَ في هٰذهِ الكلماتِ مراتبَ الخلقِ كلِّها! وكيفَ تَضَمَّنَتْ مراتبَ الموجوداتِ الأربعةَ بأوجزِ لفظٍ وأوضحِهِ وأحسنِهِ!

فذَكَرَ أوَّلاً عمومَ الخلقِ، وهوَ إعطاءُ الوجودِ الخارجيِّ.

ثمَّ ذَكَرَ ثانيًا خصوصَ خلقِ الإنسانِ؛ لأنَّهُ موضعُ العبرةِ، والآيةُ فيهِ عظيمةٌ، وفي شهودِهِ عجائبَهُ محضُ تعدُّدِ النِّعمِ[٢]. وذَكَرَ مادَّةَ خلقِهِ هاهُنا مِن العلقةِ. وفي سائرِ المواضعِ يَذْكُرُ ما هوَ سابقٌ عليها: إمَّا مادَّةَ الأصلِ وهوَ التُّرابُ أوِ الطِّينُ أو الصَّلصالُ كالفخَّارِ، أو مادَّةَ الفرعِ وهوَ الماءُ المهينُ. وذَكَرَ في هٰذا الموضعِ أوَّلَ مبادئ تعلُّقِ التَّخليقِ بهِ، وهوَ العلقةُ؛ فإنَّهُ كانَ قبلَها نطفةً، فأوَّلُ اَنْتقالِها إنَّما هوَ إلى العلقةِ[٣].

ثمَّ ذَكَرَ ثالثًا التَّعليمَ بالقلمِ الذي هوَ مِن أعظمِ نعمِهِ على عبادِهِ؛ إذْ بهِ تُخَلَّدُ العلومُ وتُثَبَّتُ الحقوقُ وتُعْلَمُ الوصايا وتُحْفَظُ الشَّهاداتُ ويُضْبَطُ حسابُ المعاملاتِ الواقعةِ بينَ النَّاسِ، وبهِ تُقَيَّدُ أخبارُ الماضينَ للباقينَ اللاحقينَ. ولولا الكتابةُ؛ لانْقَطَعَتْ أخبارُ بعضِ الأزمنةِ عن بعضٍ ودَرَسَتِ السُّننُ وتَخَبَّطَتِ الأحكامُ ولَمْ يَعْرِفِ الخلفُ مذاهبَ السَّلفِ وكانَ يَعْظُمُ الخللُ الدَّاخلُ على النَّاسِ في دينِهِم ودنياهُم لِما يَعْتَرِيهِم مِن النِّسيانِ

---

(١) راجع ما تقدّم في هٰذه الآية (١/ ١٩٢).

(٢) في ط: «ومن شهوده عمّا فيه محض تعدّد النعم»! وأرجو أنّ ما أثبتّه أولى بالصواب.

(٣) يريد أنّ النطفة، وإن كانت أصل العلقة وأسبق منها فإنّها ليست مبدأ الحمل. وهٰذا كلام صحيح؛ لأنّ الحمل إنّما يبدأ بأجتماع نطفة الذكر ببويضة الأنثى: فإن لم يتمّ هٰذا الاجتماع؛ ماتت النطفة بعد ساعات. وإن تمّ؛ تكوّنت البيضة الملقّحة التي ما تلبث أن تعلق في جدار الرحم فتسمّى العلقة.

الذي يَمْحو صورَ العلمِ مِن قلوبِهِم. فجَعَلَ لهُمُ الكتابَ وعاءً حافظًا للعلمِ مِن الضَّياعِ كالأوعيةِ التي تَحْفَظُ الأمتعةَ مِن الذَّهابِ والبطلانِ[1]. فنعمةُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بتعليمِ القلمِ بعدَ القرآنِ مِن أجلِّ النِّعمِ.

والتَّعليمُ بهِ، وإنْ كانَ ممَّا يَتَخَلَّصُ إليهِ الإنسانُ بالفطنةِ والحيلةِ، فإنَّ الذي بَلَغَ بهِ ذٰلكَ وأوْصَلَهُ إليهِ عطيَّةٌ وَهَبَها اللهُ منهُ وفضلٌ أعْطاهُ اللهُ إيَّاهُ وزيادةٌ في خلقِهِ وفضلِهِ، فهوَ الذي عَلَّمَهُ الكتابةَ وإنْ كانَ هوَ المتعلِّمَ، ففعلُهُ فعلٌ مطاوعٌ لتعليمِ الذي عَلَّمَ بالقلمِ؛ فإنَّهُ عَلَّمَهُ فتَعَلَّمَ كما أنَّهُ عَلَّمَهُ الكلامَ فتَكَلَّمَ. هٰذا؛ ومَن أعطاهُ الذِّهنَ الذي يَعي بهِ واللسانَ الذي يُتَرْجِمُ بهِ والبنانَ الذي يَخُطُّ بهِ؟! ومَن هَيَّأَ ذهنَهُ لقبولِ هٰذا التَّعليمِ دونَ سائرِ الحيواناتِ؟! ومَن الذي أنْطَقَ لسانَهُ وحَرَّكَ بنانَهُ؟! ومَنِ الذي دَعَمَ البنانَ بالكفِّ ودَعَمَ الكفَّ بالسَّاعدِ[2]؟!

فكم للهِ مِن آيةٍ نحنُ غافلونَ عنها في التَّعليمِ بالقلمِ!

فقِفْ وقفةً في حالِ الكتابةِ! وتأمَّلْ حالَكَ؛ وقد أمْسَكْتَ القلمَ وهوَ جمادٌ، ووَضَعْتَهُ على القرطاسِ وهوَ جمادٌ، فيَتَوَلَّدُ مِن بينِهِما أنواعُ الحكمِ وأصنافُ العلومِ وفنونُ المراسلاتِ والخطبِ والنَّظمِ والنَّثرِ وجواباتُ المسائلِ! فمَنِ الذي أجْرى فَلَكَ المعاني على قلبِكَ ورَسَمَها في ذهنِكَ، ثمَّ أجْرى العباراتِ الدَّالَّةَ عليها على لسانِكَ، ثمَّ حَرَّكَ بها بنانَكَ حتَّى صارَتْ نقشًا عجيبًا معناهُ أعجبُ مِن صورتِهِ، فتَقْضي بهِ مآرِبَكَ وتَبْلُغُ بهِ حاجةً في صدرِكَ وتُرْسِلُهُ إلى الأقطارِ النَّائيةِ والجهاتِ المتباعدةِ فيَقومُ مقامَكَ

(١) وهٰذا من أبدع التشبيه وأصحّه. وما زال أهل اللغة يقولون: اللغة وعاء العلم وبدونها يضطرب نظمه وينفرط عقده! وهٰذه الكتابة وعاء اللغة، فصارت بالتالي وعاء لجميع الآداب والعلوم وبدونها تضيع أصولها وفروعها.

(٢) من الثابت عند الأطبّاء المعاصرين أنّ في دماغ البشر مراكز تسيطر على الكتابة، فإن أصيب بعض هٰذه المراكز بآفة ما؛ فإنّ المصاب سيعاني من عجز في الكتابة عمومًا، أو في كتابة الكلام المسموع، أو في قراءة الكلام المكتوب. . . إلخ، وذٰلك مهما كان فطنًا ذكيًّا صاحب حيلة. فبان أنّ الله سبحانه هو الذي هيّأ الإنسان وأهّبه في الأصل لتعلّم القراءة والكتابة بما أودعه في دماغه من هٰذه المراكز التي لم يخلق مثلها في أدمغة الحيوانات. وهٰذه حقائق معلومة بالفطرة لا تحتاج إلى دليل، وابن القيّم قدّس الله روحه لم يذكرها لإثباتها ولٰكن للتنبيه على ذكرها وشكرها.

ويُتَرْجِمُ عنكَ ويَتَكَلَّمُ على لسانِكَ ويَقومُ مقامَ رسولِكَ ويُجْدي عليكَ ما لا يُجْدي مَن تُرْسِلُهُ سوى مَن عَلَّمَ بالقلمِ[1] عَلَّمَ الإنسانَ ما لمْ يَعْلَمْ؟!

والتَّعليمُ بالقلمِ /خ٤١٦/ يَسْتَلْزِمُ المراتبَ الثَّلاثةَ: مرتبةَ الوجودِ الذِّهنيِّ، والوجودِ اللفظيِّ، والوجودِ الرَّسميِّ. فقد دَلَّ التَّعليمُ [بالقلم] على أنَّهُ سبحانَهُ هوَ المعطي لهٰذِهِ المراتبِ. ودَلَّ قولُهُ ﴿خَلَقَ﴾ على أنَّهُ يُعْطي الوجودَ العينيَّ. فدَلَّتْ هٰذِهِ الآياتُ معَ اختصارِها ووجازتِها وفصاحتِها على أنَّ مراتبَ الوجودِ بأسرِها مسندةٌ إليهِ تَعالى خلقًا وتعليمًا.

وذَكَرَ خلقينِ [وتعليمينِ]: خلقًا عامًّا وخلقًا خاصًّا، وتعليمًا [خاصًّا و]عامًّا[2].

وذَكَرَ مِن صفاتِهِ هاهُنا اسمَ الأكرمِ الذي فيهِ كلُّ خيرٍ وكلُّ كمالٍ؛ فلهُ كلُّ كمالٍ وصفًا[3]، ومنهُ كلُّ خيرٍ فعلًا، فهوَ الأكرمُ في ذاتِهِ وأوصافِهِ وأفعالِهِ، وهٰذا الخلقُ والتَّعليمُ إنَّما نَشَأَ مِن كرمِهِ وبرِّهِ وإحسانِهِ لا مِن حاجةٍ دَعَتْهُ إلى ذٰلكَ وهوَ الغنيُّ الحميدُ.

● وقولُهُ تَعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الإنْسانَ . عَلَّمَهُ الْبَيانَ﴾ [الرحمٰن: ١-٤]:

دَلَّتْ هٰذِهِ الكلماتُ على إعطائِهِ سبحانَهُ مراتبَ الوجودِ بأسرِها:

فقولُهُ ﴿خَلَقَ الإنْسانَ﴾ إخبارٌ عنِ الإيجادِ الخارجيِّ العينيِّ، وخَصَّ الإنسانَ بالخلقِ لِما تَقَدَّمَ[4].

وقولُهُ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ إخبارٌ عن[5] إعطاءِ الوجودِ [العلميِّ] الذِّهنيِّ؛ فإنَّما تَعَلَّمَ الإنسانُ القرآنَ بتعليمِهِ، كما أنَّهُ إنَّما صارَ إنسانًا بخلقِهِ، فهوَ الذي خَلَقَهُ وعَلَّمَهُ.

---

(١) هٰذا جواب قوله «فمن الذي أجرى فلك المعاني. . .» إلخ.

(٢) فالخلق العامّ في قوله: ﴿الذي خلق﴾، والخاصّ في قوله: ﴿خلق الإنسان﴾، والتعليم الخاصّ في قوله: ﴿علّم بالقلم﴾، والعامّ في قوله: ﴿علّم الإنسان﴾.

(٣) في خ: «يعطي الوجود الفي. . . كمال الوصف»، وفي ط: «. . . وتعليمًا عامًّا. . .».

(٤) قبل صفحتين من أنّه موضع العبرة والآية فيه عظيمة. . . إلخ.

(٥) في خ: «إنّما ينشأ من كرمه وبرّه. . . بقوله خلق الإنسان. . . إخبارًا عن. . . إخبارًا عن».

ثمَّ قالَ: ﴿عَلَّمَهُ البَيانَ﴾: والبيانُ هنا يَتَناوَلُ مراتبَ ثلاثةً كلٌّ منها يُسَمّى بيانًا: أحدُها: البيانُ الذِّهنيُّ الذي يُمَيِّزُ فيهِ بينَ المعلوماتِ، الثّاني: البيانُ اللفظيُّ الذي يُعَبِّرُ بِهِ عن تلكَ المعلوماتِ ويُتَرْجِمُ عنها فيَفْهَمُها غيرُهُ[1]، والثّالثُ: البيانُ الرَّسميُّ الخطِّيُّ الذي يَرْسُمُ بِهِ تلكَ الألفاظَ فيَتَبَيَّنُ النّاظرُ معانيَها كما تَبَيَّنَ السّامعُ[2] معانيَ الألفاظِ. فهٰذا بيانٌ للعينِ، وذاكَ بيانٌ للسَّمعِ، والأوَّلُ بيانٌ للقلبِ.

وكثيرًا ما يَجْمَعُ سبحانَهُ بينَ هٰذهِ الثَّلاثةِ: كقولِهِ [تَعالى]: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقولِهِ: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ﴾ [النحل: ٧٨].

ويَذُمُّ مَن عَدِمَ الانتفاعَ بها في ٱكتسابِ الهدى والعلمِ النّافعِ: كقولِهِ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨]، وقولِهِ: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلى قُلوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

وقد تَقَدَّمَ بسطُ هٰذا الكلامِ[3].

[١٣١] تنبيه

[إلى بديع حكمته تعالى فيما أعطى ومنع من العلوم]

تَأَمَّلْ حكمةَ اللطيفِ الخبيرِ فيما: أعْطى الإنسانَ علمَهُ ممّا[4] فيهِ صلاحُ معاشِهِ ومعادِهِ، ومَنَعَ عنهُ علمَ ما لا حاجةَ لهُ بِهِ فجهلُهُ بِهِ لا يَضُرُّ وعلمُهُ لا يَنْتَفِعُ بِهِ ٱنتفاعًا طائلاً. ثمَّ يَسَّرَ عليهِ طرقَ ما هوَ محتاجٌ إليهِ مِن العلمِ أتَمَّ تيسيرٍ، وكلَّما كانَتْ حاجتُهُ إليهِ مِن العلمِ أعظمَ؛ كانَ تيسيرُهُ إيّاهُ عليهِ أتمَّ.

---

(١) في خ وط: «ويترجم عنها فيها غيره»! وهٰذا تحريف بيّن لا معنى له صوابه ما أثبتّه.

(٢) في ط: «فيتبيّن للناظر معانيها كما يبين للسامع»، والأولى ما أثبتّه من خ.

(٣) وٱنظره إن شئت (١/ ١٩٤ و٢٩٠-٢٩٣).

(٤) في خ وط: «أعطى الإنسان علمه بما»! وكلاهما تحريف صوابه ما أثبتّه.

● فأعطاهُ معرفةَ خالقِهِ وبارئِهِ ومبدعِهِ سبحانَهُ والإقرارَ بهِ، ويَسَّرَ عليهِ طرقَ هٰذهِ المعرفةِ. فليسَ في العلومِ ما هوَ أجلُّ منها ولا أظهرُ عندَ العقلِ والفطرةِ، وليسَ في طرقِ العلومِ التي تُنالُ بها أكثرُ مِن طرقِها ولا أدلُّ ولا أبينُ ولا أوضحُ. فكلُّ ما تَراهُ بعينِكَ /خ٤١٧/ أو تَسْمَعُهُ بأُذنِكَ أو تَعْقِلُهُ بقلبِكَ وكلُّ ما يَخْطُرُ ببالِكَ وكلُّ ما نالَتْهُ حاسَّةٌ مِن حواسِّكَ فهوَ دليلٌ على الرَّبِّ تَبارَكَ وتَعالى.

فطرقُ العلمِ بالصَّانعِ فطريَّةٌ[1] ضروريَّةٌ ليسَ في العلومِ أجلُّ منها، وكلُّ ما ٱسْتُدِلَّ بهِ على الصَّانعِ فالعلمُ بوجودِهِ أظهرُ مِن دلالتِهِ. ولهٰذا قالَتِ الرُّسلُ لأُممِهِم: ﴿أفي اللهِ شَكٌّ [فاطِرِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ]﴾ [إبراهيم: ١٠]، فخاطَبوهُم مخاطبةَ مَن لا يَنْبَغي [أنْ] يَخْطُرَ لهُ شكٌّ ما في وجودِ اللهِ سبحانَهُ.

ونَصَبَ مِن الأدلَّةِ [الدَّالَّةِ] على وجودِهِ ووحدانيَّتِهِ وصفاتِ كمالِهِ [الأدلَّةَ] على ٱختلافِ أنواعِها ولا يُطيقُ حصرَها إلَّا اللهُ، ثمَّ رَكَزَ ذٰلكَ[2] في الفطرةِ ووَضَعَهُ في العقلِ جملةً، ثمَّ بَعَثَ الرُّسلَ مذكِّرينَ بهِ ـ ولهٰذا يقولُ تَعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ المُؤْمِنينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقولُهُ: ﴿فَذَكِّرْ إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى﴾ [الأعلى: ٩]، وقولُهُ: ﴿إنَّما أنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، وقولُهُ: ﴿فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضينَ﴾ [المدثر: ٤٩]، وهوَ كثيرٌ في القرآنِ ـ ومفصِّلينَ لِما في الفطرةِ والعقلِ [مِن] العلمِ بهِ جملةً.

فٱنْظُرْ كيفَ وُجِدَ الإقرارُ بهِ وبتوحيدِهِ وصفاتِ كمالِهِ ونعوتِ جلالِهِ وحكمتِهِ في خلقِهِ وأمرِهِ ـ المقتضيةِ[3] إثباتَ رسالةِ رسلِهِ ومجازاةَ المحسنِ بإحسانِهِ والمسيءِ بإساءتِهِ ـ مودَعًا في الفطرةِ مركوزًا فيها، فلو خُلِّيَتْ على ما خُلِقَتْ عليهِ لمْ يَعْرِضْ لها[4] ما يُفْسِدُها ويُحَوِّلُها ويُغَيِّرُها عمَّا فُطِرَتْ عليهِ؛ لأَقَرَّتْ بوحدانيَّتِهِ ووجوبِ شكرِهِ وطاعتِهِ

---

(١) في خ: «وكلّ ما ناله حاسّه... العلم بالصانع نطرته»! وفي ط: «... العلم بالصنائع فطريّة»!
(٢) في ط: «وصفات كماله على ٱختلاف...»، وفي خ: «... ثمّ ذكر ذٰلك».
(٣) في خ: «المفضية»، وفي حاشية خ: «العلّها المتضمّنة»، وما أثبتّه من ط أولى.
(٤) يعني: لو خلّيت على ما خلقت دون أن يعرض لها، فـ«لم يعرض» ليس جوابًا للشرط.

وبصفاتِهِ وحكمتِهِ في أفعالِهِ وبالثَّوابِ والعقابِ. ولٰكنَّها لمَّا فَسَدَتْ وٱنْحَرَفَتْ عنِ المنهجِ الذي خُلِقَتْ عليهِ؛ أَنْكَرَتْ ما أَنْكَرَتْ وجَحَدَتْ ما جَحَدَتْ. فبَعَثَ اللهُ رسلَهُ: مذكِّرينَ لأصحابِ الفطرِ الصَّحيحةِ السَّليمةِ، فٱنْقادوا طوعًا وٱختيارًا ومحبَّةً وإذعانًا بما جَعَلَ مِن شواهدِ ذٰلكَ في قلوبِهِم، حتَّى إنَّ منهُم مَن لمْ يَسْأَلْ عنِ المعجزةِ والخارقِ، بل عَلِمَ صحَّةَ الدَّعوةِ مِن ذاتِها، وعَلِمَ أنَّها دعوةُ حقٍّ برهانُها فيها. ومُعْذِرينَ ومقيمينَ البيِّنَةَ على أصحابِ الفطرِ الفاسدةِ؛ لئلاَّ تَحْتَجَّ على اللهِ بأنَّهُ ما أرْشَدَها ولا هَداها، فيَحِقُّ القولُ عليها بإقامةِ الحجَّةِ، فلا يَكونُ سبحانَهُ ظالمًا لها بتعذيبِها وإشقائِها. وقد بَيَّنَ ذٰلكَ سبحانَهُ [في قولِهِ]: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ . لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلى الكافِرِينَ﴾ [يس: ٦٩-٧٠].

فتَأَمَّلْ كيفَ ظَهَرَتْ معرفةُ اللهِ والشَّهادةُ لهُ بالتَّوحيدِ وإثباتُ أسمائِهِ وصفاتِهِ ورسالةِ رسلِهِ والبعثِ للجزاءِ مسطورةً مثبتةً في الفطرِ[١]، ولمْ يَكُنْ لِيَعْرِفَ بها أنَّها ثابتةٌ في فطرتِهِ، فلمَّا ذَكَّرَتْهُ الرُّسلُ ونَبَّهَتْهُ؛ رَأى ما أَخْبَروهُ بِهِ مستقرًّا في فطرتِهِ شاهدًا بهِ عقلُهُ بل وجوارحُهُ ولسانُ حالِهِ. وهٰذا أعظمُ ما يَكونُ مِن الإيمانِ، وهوَ الذي كَتَبَهُ سبحانَهُ في قلوبِ أوليائِهِ وخاصَّتِهِ فقالَ: ﴿أُولٰئِكَ كَتَبَ في قُلوبِهِمُ الإيمانَ [وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ]﴾ [المجادلة: ٢٢].

فتَدَبَّرْ هٰذا الفصلَ؛ فإنَّهُ مِن الكنوزِ في هٰذا الكتابِ، وهوَ حقيقٌ بأنْ تُثْنى عليهِ الخناصرُ. وللهِ الحمدُ والمنَّةُ.

والمقصودُ؛ أنَّ /خ٤١٨/ [اللهَ] سبحانَهُ أَعْطى العبدَ مِن هٰذهِ المعارفِ وطرقِها ويَسَّرَها عليهِ ما لمْ يُعْطِهِ مِن غيرِها لعظمِ حاجتِهِ في معاشِهِ ومعادِهِ إليها، ثمَّ وَضَعَ في العقلِ مِن الإقرارِ بحسنِ شرعِهِ ودينِهِ الذي هوَ ظلُّهُ في أرضِهِ وعدلُهُ بينَ عبادِهِ[٢] ونورُهُ في العالمِ [ما لوِ ٱجْتَمَعَتْ عقولُ العالمينَ] كلِّهِم فكانوا على أعقلِ رجلٍ واحدٍ منهُم لَما أَمْكَنَهُمْ أنْ يَقْتَرِحوا شيئًا أَحْسَنَ منهُ ولا أعْدَلَ ولا أصلحَ ولا أنفعَ للخليقةِ في معاشِها

---

(١) في خ: «فلو خلقت على ما خلقت. . . لم يشك عن المعجزة والخارق. . . في الفطرة».

(٢) في خ: «وعدله من عباده». ومعنى ظلّه في أرضه: آثار رحمته.

ومعادِها، فهوَ أعظمُ آياتِهِ وأوضحُ بيِّناتِهِ وأظهرُ حججِهِ على [أنَّهُ] اللهُ الذي لا إلٰهَ إلاَّ هوَ وأنَّهُ المتَّصفُ بكلِّ كمالٍ [و]المنزَّهُ عن كلِّ عيبٍ ومثالٍ، فضلاً عن أنْ يَحْتاجَ إلى إقامةِ شاهدٍ مِن خارجٍ عليهِ بالأدلَّةِ والشَّواهدِ لتكثيرِ طرقِ الهدى وقطعِ المعذرةِ وإزاحةِ العلَّةِ والشُّبهةِ؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فأثْبَتَ في الفطرةِ حسنَ العدلِ والإنصافِ والصِّدقِ والبرِّ والإحسانِ والوفاءِ بالعهدِ والنَّصيحةِ للخلقِ ورحمةِ المسكينِ ونصر[ة] المظلومِ ومواساةِ أهلِ الحاجةِ والفاقةِ وأداءِ الأماناتِ ومقابلةِ الإحسانِ بالإحسانِ والإساءةِ بالعفوِ والصَّفحِ والصَّبرِ في مواطنِ الصَّبرِ والبذلِ في مواطنِ البذلِ والانتقامِ في موضعِ الانتقامِ والحلمِ في موضعِ الحلمِ والسَّكينةِ والوقارِ والرَّأفةِ والرِّفقِ والتُّؤدةِ وحسنِ الأخلاقِ وجميلِ المعاشرةِ معَ الأقاربِ والأباعدِ وسترِ العوراتِ وإقالةِ العثراتِ والإيثارِ عندَ الحاجاتِ وإغاثةِ اللهفاتِ وتفريجِ الكرباتِ والتَّعاونِ على أنواعِ الخيرِ والبرِّ والشَّجاعةِ والسَّماحةِ والبصيرةِ والثَّباتِ والعزيمةِ والقوَّةِ في الحقِّ واللينِ لأهلِهِ والشِّدَّةِ على أهلِ الباطلِ والغلظةِ عليهم والإصلاحِ بينَ النَّاسِ والسَّعيِ في إصلاحِ ذاتِ البينِ وتعظيمِ مَن يَسْتَحِقُّ التَّعظيمَ وإهانةِ مَن يَسْتَحِقُّ الإهانةَ وتنزيلِ النَّاسِ منازلَهُم وإعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ وأخذِ ما سَهُلَ عليهم وطَوَّعَتْ بهِ أنفسُهُم مِن الأعمالِ والأموالِ والأخلاقِ وإرشادِ ضالِّهم وتعليمِ جاهلِهم واحتمالِ جفوتِهم واستواءِ قريبِهم وبعيدِهم في الحقِّ فأقربُهُم[1] إليهِ أولاهُم بالحقِّ وإنْ كانَ بعيدًا وأبعدُهُم عنهُ أبعدُهُم عنِ الحقِّ[2] وإنْ كانَ حبيبًا قريبًا. . . إلى غيرِ ذٰلكَ مِن معرفةِ العدلِ[3] الذي وَضَعَهُ بينَهُم في المعاملاتِ والمناكحاتِ والجناياتِ وما أوْدَعَ في فطرِهِم مِن حسنِ شكرِهِ وعبادتِهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ وأنَّ نعمَهُ عليهم توجِبُ بذلَ قدرتِهِم وطاقتِهِم في شكرِهِ والتَّقرُّبِ إليهِ وإيثارِهِ على ما سواهُ، وأثْبَتَ في الفطرِ علمَها بقبحِ

---

(١) في خ: «الانتقام والحكم في موضع الحكم. . . والرفق والتودّد في حسن. . . وأقربهم».
(٢) في ط: «أبعدهم من الحقّ»، والأولى ما أثبته من خ.
(٣) في خ وط: «. . . معرفة العقل»! وهو تحريف لا معنى له لعلّ صوابه ما أثبتّه.

أضدادِ /خ٤١٩/ ذٰلكَ [كلِّه]، ثمَّ بَعَثَ رسلَهُ في الأمرِ بما أثْبَتَ في الفطرِ حسنَهُ وكمالَهُ والنَّهي عمَّا أثْبَتَ فيها قبحَهُ وعيبَهُ وذَمَّهُ. فطابَقَتِ الشَّريعةُ[1] المنزَّلةُ للفطرةِ المكمَّلةِ مطابقةَ التَّفصيلِ لجملتِهِ، وقامَتْ شواهدُ دينِهِ في الفطرةِ تُنادي للإيمانِ: حيَّ على الفلاح! وصَدَعَتْ تلكَ الشَّواهدُ والآياتُ دياجيَ ظلمِ الإباءِ كما صَدَعَ الليلَ ضوءُ الصَّباحِ، وقَبِلَ حاكمُ الشَّريعةِ شهادةَ العقلِ والفطرةِ لمَّا كانَ الشَّاهدُ غيرَ متَّهمٍ ولا معرَّضٍ للجراحِ.

● فصلٌ: وكذٰلكَ أعْطاهُم مِن العلومِ المتعلِّقةِ بصلاحِ معاشِهِم ودنياهُم بقدرِ حاجاتِهِم[2] كعلمِ الطِّبِّ والحسابِ وعلمِ الزِّراعةِ والغراسِ و[ضروبِ] الصَّنائعِ وٱستنباطِ المياهِ وعقدِ الأبنيةِ وصنعةِ السُّفنِ وٱستخراجِ المعادنِ وتهيئتِها لِما يُرادُ منها وتركيبِ الأدويةِ وصنعةِ الأطعمةِ ومعرفةِ ضروبِ الحيلِ في صيدِ الوحشِ والطَّيرِ ودوابِّ الماءِ والتَّصرُّفِ في وجوهِ التِّجاراتِ ومعرفةِ وجوهِ المكاسبِ... وغيرِ ذٰلكَ ممَّا فيهِ قيامُ معايشِهِم.

● ثمَّ مَنَعَهُم سبحانَهُ علمَ ما سوى ذٰلكَ ممَّا ليسَ مِن شأْنِهِم ولا فيهِ مصلحةٌ لهُم ولا نشأتُهُم قابلةٌ لهُ كعلمِ الغيبِ وعلمِ ما كانَ وكلِّ ما يكونُ والعلمِ بعددِ القطرِ وأمواجِ البحرِ وذرَّاتِ الرِّمالِ وساقطِ الأوراقِ وعددِ الكواكبِ ومقاديرِها وعلمِ ما فوقَ السَّماواتِ وما تحتَ الثَّرى وما في لججِ البحارِ وأقطارِ العالمِ وما يُكِنُّهُ النَّاسُ في صدورِهِم وما تَحْمِلُ مِن أُنثى[3] وما تَغيضُ الأرحامُ وما تَزْدادُ... إلى سائرِ ما حَجَبَ عنهُم علمَهُ.

فمَن تَكَلَّفَ معرفةَ ذٰلكَ؛ فقد ظَلَمَ نفسَهُ وبَخَسَ مِن التَّوفيقِ حظَّهُ ولَمْ يَحْصُلْ إلَّا على الجهلِ المركَّبِ والخيالِ الفاسدِ في أكثرِ أمرِهِ.

وجَرَتْ سنَّةُ اللهِ وحكمتُهُ أنَّ هٰذا الضَّربَ مِن النَّاسِ أجهلُهُم بالعلمِ النَّافعِ وأقلُّهُم

---

(١) في خ: «وأثبت في الفطرة بقبيح أضداد ذٰلك كلّه... وذمّه فطابقة الشريعة».

(٢) في خ: «التفصيل لمعجملته... وقيل حاكم الشريعة شاهدة العقل... حاجتهم».

(٣) في ط: «والغراس والصنائع... ليس في شأنهم... ومساقط الأوراق... تحمل كلّ أنثى».

صوابًا! فترى عندَ مَن لا يَرْفَعونَ بهِ رأْسًا مِن الحلمِ والعلمِ النَّافعِ[١] ما لا يَخْطُرُ ببالِهِم أصلاً، وذٰلكَ مِن حكمةِ اللهِ في خلقِهِ وهوَ العزيزُ الحكيمُ.

ولا يَعْرِفُ هٰذا إلَّا مَنِ اطَّلَعَ على ما عندَ القومِ مِن أنواعِ الخيالِ وضروبِ المحالِ وفنونِ الوساوسِ والهوى [والهوسِ] والخبطِ، وهُم يَحْسَبونَ أنَّهُم على شيءٍ، ألا إنَّهُم هُمُ الكاذبونَ[٢].

فالحمدُ للهِ الذي مَنَّ على المؤمنينَ إذْ بَعَثَ فيهِم رسولاً مِن أنفسِهِم يَتْلو عليهِمْ آياتِهِ ويُزَكِّيهِم ويُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا مِن قبلُ لَفي ضلالٍ مبينٍ.

● فصلٌ: ومِن حكمتِهِ سبحانَهُ ما مَنَعَهُم مِن علمِ السَّاعةِ[٣] ومعرفةِ آجالِهِم.

وفي ذٰلكَ مِن الحكمةِ البالغةِ ما لا يَحْتاجُ إلى نظرٍ.

فلو عَرَفَ الإنسانُ مقدارَ عمرِهِ: فإنْ كانَ قصيرَ العمرِ؛ لمْ يَتَهَنَّأْ بالعيشِ، وكيفَ يَتَهَنَّأُ بهِ وهوَ يَتَرَقَّبُ الموتَ /خ٤٢٠/ في ذٰلكَ الوقتِ؟! فلولا طولُ الأملِ؛ لَخَرِبَتِ

---

(١) في خ: «إلى سائر ما تحت غرب عنهم علمه فمتى تكلّف... وحكمته إلى هٰذا الضرب...»، وفي ط: «... الحكم والعلم الحقّ النافع».

(٢) والأمثلة على هٰذه العلوم ووساوس أصحابها اليوم كثيرة جدًّا، وربّما كانت اليوم أكثر كمًّا وكيفًا ممّا كان في عصر ابن القيّم رحمة الله عليه.

فأنظر مثلاً إلى ما يسمّى زورًا وبهتانًا بعلم أصل الإنسان الأحفوري، وكيف يجتهد أهله في البحث عن أصل الإنسان ومنشئه وتطوّره، وما خرجوا به من الخيالات والمحالات التي لم تشمّ رائحة علم ولا صواب! اللهمّ غفرًا؛ قد أصابوا في قضيّة واحدة، وهي أنّهم اكتشفوا أنّهم أحفاد القردة، لٰكن فاتتهم الخنازير، ولعلّهم يكتشفونها قريبًا، فيزداد الذين آمنوا إيمانًا!

وليس هٰذا بأبعد ما عند القوم من الوساوس والخيالات؛ فهناك ما يسمّى بعلم أصل الحياة على الأرض، وأصل الأرض، وأصل النجوم والمجرّات ونشأتها وتكوّنها... وغير ذٰلك من الفرضيّات التي تنطلق أساسًا من جحود الخالق سبحانه وإنكار ربوبيّته وخلقه لهٰذا الكون.

وتنفق اليوم آلاف المليارات المسروقة من خيرات شعوب العالم الفقير على رحلات لا طائل تحتها ولا فائدة تجنى منها إلى المريخ والمشتري وغيرها وعلى إرسال الإشارات والشيفرات إلى سكان الكواكب الأخرى ورصد أجوبتهم وتعقّب ردودهم...

ولو رحنا نعدّد ما عند القوم من المحالات والخيالات الفاسدة؛ لطال بنا الكلام بغير فائدة، فالله يرحم ابن القيّم ويغفر له ويعلي درجته؛ فقد والله وضع يده على آفة القوم وخبر أحوالهم وأنصف في وصفهم ووصف علومهم. والله المستعان.

(٣) في خ وط: «ما منعهم من العلم علم الساعة»! وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

الدُّنيا، وإنَّما عمارتُها بالآمالِ. وإنْ كانَ طويلَ العمرِ، وقد تَحَقَّقَ ذٰلكَ؛ فهوَ واثقٌ بالبقاءِ، فلا يُبالي بالانهماكِ في الشَّهواتِ والمعاصي وأنواعِ الفسادِ، ويقولُ: إذا قَرُبَ الوقتُ؛ أَحْدَثْتُ توبةً!

وهٰذا مذهبٌ لا يَرْتَضيهِ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِن عبادِهِ ولا يَقْبَلُـ[ـهُ] منهُم [ولا تَصِحُّ عليهِ أحوالُ العالمِ]. ولا يَصْلُحُ العالمُ إلَّا على هٰذا الذي اقْتَضَتْهُ حكمتُهُ وسَبَقَ في علمِهِ. فلو أنَّ عبدًا مِن عبيدِكَ عَمِلَ على أنْ يُسْخِطَكَ أعوامًا ثمَّ يُرْضِيَكَ ساعةً واحدةً إذا تَيَقَّنَ أنَّهُ صائرٌ إليكَ؛ لمْ تَقْبَلْ منهُ، ولمْ يَفُزْ لديكَ بما يَفوزُ بِهِ مَن همُّهُ رضاكَ.

وكذا سنَّةُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ أنَّ العبدَ إذا عايَنَ الانتقالَ إلى اللهِ تَعالى لمْ تَنْفَعْهُ توبةٌ ولا إقلاعٌ: قالَ تَعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذينَ يَعْمَلونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قالَ إنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء: ١٨]، وقولُهُ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّةَ اللهِ الَّتي قَدْ خَلَتْ في عِبادِهِ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

واللهُ تَعالى إنَّما يَغفِرُ للعبدِ إذا كانَ وقوعُ الذَّنبِ منهُ على وجهِ غلبةِ الشَّهوةِ وقوَّةِ الطَّبيعةِ فيُواقعُ الذَّنبَ معَ كراهتِهِ لهُ مِن غيرِ إصرارٍ في نفسِهِ، فهٰذا تُرْجى لهُ مغفرةُ اللهِ وصفحُهُ وعفوُهُ؛ لعلمِهِ تَعالى بضعفِهِ وغلبةِ شهوتِهِ لهُ وأنَّهُ يَرى كلَّ وقتٍ ما لاصبرَ لهُ عليهِ، فـ[ـهوَ] إذا واقَعَ الذَّنبَ؛ واقَعَهُ مواقعةَ ذليلٍ خاضعٍ لربِّهِ خائفٍ [منهُ] يَعْتَلِجُ في صدرِهِ شهوةُ النَّفسِ [والذَّنبِ] وكراهةُ الإيمانِ لهُ، فهوَ يُجيبُ داعيَ النَّفسِ تارةً وداعيَ الإيمانِ تاراتٍ.

فأمَّا مَن بَنى أمرَهُ على أنْ لا يَقِفَ عن ذنبٍ ولا يُقَدِّمَ خوفًا ولا يَدَعَ للهِ شهوةً وهوَ فرحٌ مسرورٌ يَضْحَكُ ظهرًا لبطنٍ إذا ظَفِرَ بالذَّنبِ؛ فهٰذا الذي يُخافُ عليهِ أنْ يُحالَ بينَهُ وبينَ التَّوبةِ ولا يُوَفَّقَ لها؛ فإنَّهُ مِن معاصيهِ وقبائحِهِ على نقدٍ عاجلٍ يَتَقاضاهُ سلفًا وتعجيلاً، ومِن توبتِهِ وإيابِهِ ورجوعِهِ إلى اللهِ على دينٍ مؤجَّلٍ إلى انقضاءِ الأجلِ.

وإنَّما كانَ هٰذا الضَّربُ مِن النَّاسِ يُحالُ بينَهُم وبينَ التَّوبةِ غالبًا؛ لأنَّ النُّزوعَ عنِ اللذَّاتِ والشَّهواتِ إلى مخالفةِ الطَّبعِ والنَّفسِ والاستمرارَ على ذٰلكَ شديدٌ على النَّفسِ

صعبٌ عليها أثقلُ مِن الجبالِ(١)، ولا سيَّما إذا ٱنْضافَ إلى ذٰلكَ ضعفُ البصيرةِ وقلَّةُ النَّصيبِ مِن الإيمانِ، فنفسُهُ لا تُطَوِّعُ لهُ أنْ يَبيعَ نقدًا بنسيئةٍ ولا عاجلاً بآجلٍ! كما قالَ بعضُ هٰؤلاءِ وقد سُئِلَ: أيُّما أحبُّ إليكَ درهمٌ اليومَ أو دينارٌ غدًا؟ فقالَ: لا هٰذا ولا هٰذا ولٰكنْ ربعُ درهمٍ مِن أوَّلِ أمسِ! فحرامٌ على هٰؤلاءِ أنْ يُوَفَّقوا للتَّوبةِ إلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ.

فإذا بَلَغَ العبدُ حدَّ الكِبَرِ وضَعُفَتْ بصيرتُهُ ووَهَنَتْ قواهُ/خ٤٢١/ وقد أوْجَبَتْ لهُ تلكَ الأعمالُ قوَّةً في غيِّهِ وضعفًا في إيمانِهِ؛ صارَتْ كالملَكةِ لهُ بحيثُ لا يَتَمَكَّنُ مِن تركِها؛ فإنَّ كثرةَ المزاولاتِ تُعْطي الملَكاتِ، فتَبْقى للنَّفسِ هيئةٌ راسخةٌ وملَكةٌ ثابتةٌ في الغيِّ والمعاصي، وكلَّما صَدَرَ منهُ واحدٌ منها؛ أثَّرَ آثرًا زائدًا(٢) على أثرِ ما قبلَهُ، فيَقْوى الأثرانِ وهَلُمَّ جرًّا، فيَهْجُمُ عليهِ الضَّعفُ والكبرُ ووهنُ القوَّةِ على هٰذهِ الحالِ، فيَنْتَقِلُ إلى اللهِ بنجاستِهِ وأوساخِهِ وأدرانِهِ لمْ يَتَطَهَّرْ للقدومِ على اللهِ، فما ظنُّهُ بربِّهِ(٣)؟!

ولو أنَّهُ تابَ وأنابَ وقتَ القدرةِ [والإمكانِ]؛ لَقُبِلَتْ توبتُهُ ومُحِيَتْ سيِّئاتُهُ، ولٰكنْ حيلَ بينَهُم وبينَ ما يَشْتَهونَ، ولا شيءَ [أشهى] لمَنِ ٱنْتَقَلَ إلى اللهِ على هٰذهِ الحالِ مِن التَّوبةِ، ولٰكنْ فَرَّطَ في أداءِ الدَّينِ حتَّى نَفِدَ المالُ، ولو أدَّاهُ وقتَ الإمكانِ؛ لَقَبِلَهُ ربُّهُ. وسَيَعْلَمُ المسوِّفُ المفرِّطُ أيَّ ديَّانٍ ٱدَّانَ وأيَّ غريمٍ يَتَقاضاهُ يومَ يكونُ الوفاءُ مِن الحسناتِ فإنْ فَنِيَتْ فبحملِ(٤) السَّيِّئاتِ.

فبانَ أنَّ [مِن] حكمةِ اللهِ ونعمِهِ على عبادِهِ أنْ سَتَرَ عنهُم مقاديرَ آجالِهِم ومبلغَ أعمارِهِم، فلا يَزالُ الكيِّسُ يَتَرَقَّبُ الموتَ وقد وَضَعَهُ بينَ عينيهِ فيَنْكَفُّ عمَّا يَضُرُّهُ في معادِهِ ويَجْتَهِدُ فيما يَنْفَعُهُ ويُسَرُّ بهِ عندَ القدومِ.

---

(١) في خ: «خائف منه مختلج في... ولا يدع له شهوة... عاجل فيتقاضاه... الجبال عليها».

(٢) في خ: «بصيرته وذهبت قواه... تعطي الذكات فتبقى... واحدًا منها أبر أبرًا زائدًا».

(٣) فإذا كان ـ حال قوّة قلبه وكمال عقله وجوارحه وقبل سيطرة المعاصي عليه ـ لم يتمكّن من دحر شيطانه بالتوبة؛ فأنّى له ذٰلك الآن وقد وهنت قواه وتأصّلت المعاصي طباعًا فيه وحملت عليه الشياطين حملتها خشية ٱنفلاته وضياع جهودهم الطويلة عبثًا؟! هيهات هيهات إلّا أن يدركه الله بمدّ من عنده.

(٤) في ط: «ولا شيء لمن ٱنتقل... المسرف والمفرّط... فبحمل»، وفي خ: «... فتحمل».

[١٣٢ـ فصل]

[في اختلاف مذاهب الناس في حكمة ستر الآجال]

فإنْ قُلْتَ: فها هوَ معَ ذٰلكَ قد غُيِّبَ عنهُ مقدارُ أجلِهِ وهوَ يترَقَّبُ الموتَ في كلِّ ساعةٍ ومعَ ذٰلكَ يُقارِفُ الفواحشَ ويَنْتَهِكُ المحارمَ! فأيُّ فائدةٍ وحكمةٍ حَصَلَتْ بسترِ أجلِهِ عنهُ؟!

قيلَ: لَعَمْرُ اللهِ؛ إنَّ الأمرَ كذٰلكَ، وهوَ الموضعُ الذي حَيَّرَ الألبابَ والعقلاءَ وٱفْتَرَقَ النَّاسُ لأجلِهِ فرقًا شتَّى:

ففرقةٌ أنْكَرَتِ الحكمةَ وتعليلَ أفعالِ الرَّبِّ جملةً، وقالوا بالجبرِ المحضِ، وسَدُّوا على أنفسِهِمُ البابَ، وقالوا: لا تُعَلَّلُ أفعالُ الرَّبِّ تَعالى ولا هيَ مقصودٌ بها مصالحُ العبادِ وإنَّما مصدرُها محضُ المشيئةِ وصِرفُ الإرادةِ! فأنْكَروا حكمةَ اللهِ في أمرِهِ ونهيِهِ.

وفرقةٌ نَفَتْ لأجلِهِ القدرَ جملةً، وزَعَموا أنَّ أفعالَ العبادِ غيرُ مخلوقةٍ للهِ حتَّى يُطْلَبَ لها وجوهُ الحكمةِ، وإنَّما هيَ خلقُهُم وإبداعُهُم، فهيَ واقعةٌ بحسبِ جهلِهِم وظلمِهِم وضعفِهِم، فلا يَقَعُ على السَّدادِ والصَّوابِ إلَّا أقلُّ القليلِ منها.

فهاتانِ الطَّائفتانِ متقابلتانِ أعظمَ تقابلٍ: فالأُولى غَلَتْ في الجبرِ وإنكارِ الحِكَمِ المقصودةِ[1] في أفعالِ اللهِ! والثَّانيةُ غَلَتْ في القدرِ وأخْرَجَتْ كثيرًا مِن الحوادثِ بل أكثرَها عن ملكِ الرَّبِّ وقدرتِهِ!

وهَدى اللهُ أهلَ السُّنَّةِ الوسطَ لِما ٱخْتَلَفوا فيهِ مِن الحقِّ بإذنِهِ: فأثْبَتوا للهِ عَزَّ وجَلَّ عمومَ القدرةِ والمشيئةِ، وأنَّهُ تَعالى أنْ يَكونَ في ملكِهِ ما لا يَشاءُ أو يَشاءُ ما لا يَكونُ، وأنَّ أهلَ سماواتِهِ وأرضِهِ أعجزُ وأضعفُ مِن /خ٤٢٢/ أنْ يَخْلُقوا ما لا يَخْلُقُهُ اللهُ أو يُحْدِثوا ما لا يَشاءُ بل ما شاءَ [اللهُ] كانَ ووَجَبَ وجودُهُ بمشيئتِهِ وما لمْ يَشَأْ لمْ يَكُنْ وٱمْتَنَعَ وجودُهُ لعدمِ مشيئتِهِ لهُ[2]، وأنَّهُ لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بهِ ولا تَتَحَرَّكُ في العالمِ العلويِّ والسُّفليِّ ذرَّةٌ إلَّا بإذنِهِ. ومعَ ذٰلكَ؛ فلهُ في كلِّ ما خَلَقَ وقَضى وقَدَّرَ وشَرَعَ مِن

---

(١) في خ: «ومع ذٰلك يفارق الفواحش... حتّى يطلب وجود الحكمة... الحكمة المقصودة».

(٢) في خ: «يحدثوا ما لم يشأه...»، وفي ط: «... لعدم المشيئة له».

الحكم البالغةِ والعواقبِ الحميدةِ ما ٱقْتَضاهُ كمالُ حكمتِهِ وعلمِهِ، وهوَ العليمُ الحكيمُ، فما خَلَقَ شيئًا ولا قَضاهُ ولا شَرَعَهُ إلاَّ لحكمةٍ بالغةٍ وإنْ تَقاصَرَتْ عنها عقولُ البشرِ، فهوَ الحكيمُ القديرُ، فلا تُجْحَدُ [حكمتُهُ] كما لا تُجْحَدُ قدرتُهُ.

والطَّائفةُ الأُولى جَحَدَتِ الحكمةَ، والثَّانيةُ جَحَدَتِ القدرةَ، والأُمَّةُ الوسطُ أثْبَتَتْ لهُ كمالَ الحكمةِ وكمالَ القدرةِ.

فالفرقةُ الأُولى تَشْهَدُ [في] المعصيةِ مجرَّدَ المشيئةِ والخَلْقِ العاري عنِ الحكمةِ، وربَّما شَهِدَتِ الجبرَ وأنَّ حركاتِهِم بمنزلةِ حركاتِ الأشجارِ ونحوِها! والفرقةُ الثَّانيةُ تَشْهَدُ في المعصيةِ مجرَّدَ كونِها فاعلةً محدِثةً مختارةً هيَ التي شاءَتْ ذٰلكَ بدونِ مشيئةِ اللهِ! والأُمَّةُ الوسطُ تَشْهَدُ عزَّ الرُّبوبيَّةِ وقهرَ المشيئةِ ونفوذَها في كلِّ شيءٍ، وتَشْهَدُ معَ ذٰلكَ فعلَها وكسبَها وٱختيارَها وإيثارَها شهواتِها على مرضاةِ ربِّها. فيُوجِبُ الشُّهودُ الأوَّلُ لها سؤالَ ربِّها والتَّذلُّلَ والتَّضرُّعَ لهُ أنْ يُوَفِّقَها لطاعتِهِ ويَحولَ بينَها وبينَ معصيتِهِ وأنْ يُثَبِّتَها على دينِهِ ويَعْصِمَها بطواعيتِهِ، ويُوجِبُ الشُّهودُ الثَّاني لها ٱعترافَها بالذَّنبِ وإقرارَها بِهِ على نفسِها وأنَّها هيَ الظَّالمةُ[١] المستحقَّةُ للعقوبةِ وتنزيهَ ربِّها عنِ الظُّلمِ وأنْ يُعَذِّبَها بغيرِ ٱستحقاقٍ منها أو يُعَذِّبَها على ما لمْ تَعْمَلْهُ، فيَجْتَمِعُ لها مِن الشُّهودينِ شهودُ التَّوحيدِ والشَّرعِ والعدلِ والحكمةِ.

[١٣٣ـ فصل]

[في مشاهد الخلق في مواقعة الذنب]

وقد ذَكَرْنا في «الفتوحات القدسيَّة» مشاهدَ الخلقِ في مواقعةِ الذَّنبِ، وأنَّها تَنْتَهي إلى ثمانيةِ مشاهدَ[٢]:

---

(١) في خ: «ويوجب لها الشهود الثاني ٱعترافها... وإنّما هي الظالمة».

(٢) «الفتوحات القدسيّة» من كتب ابن القيّم المفقودة، لٰكنّه ذكر هٰذه المشاهد في «مدارج السالكين» (١/ ٤٧٩ـ ط. ابن خزيمة)، وتوسّع فيها زيادة على ما ذكره في «الفتوحات»، حتّى جعلها ثلاثة عشر مشهدًا، فراجعه؛ فإنّه عظيم الفائدة.

أحدُها: المشهدُ الحيوانيُّ البهيميُّ. الذي شهودُ صاحبِهِ مقصورٌ على شهودِ لذَّتِهِ[١] بِهِ فقطْ، وهوَ في هٰذا المشهدِ مشاركٌ لجميعِ الحيواناتِ، وربَّما يَزيدُ عليهـ[ـا] في اللذَّةِ وكثرةِ التَّمتُّعِ[٢]!

والثَّاني: مشهدُ الجبرِ وأنَّ الفاعلَ فيهِ سواهُ والمحرِّكَ لهُ غيرُهُ ولا ذنبَ لهُ هوَ. وهٰذا مشهدُ المشركينَ وأعداءِ الرُّسلِ.

الثَّالثُ: مشهدُ القدرِ. وهوَ أنَّهُ هوَ الخالقُ لفعلِهِ المحدِثُ لهُ بدونِ مشيئةِ اللهِ وخلقِهِ. وهٰذا مشهدُ القدريَّةِ المجوسيَّةِ.

الرَّابعُ: مشهدُ أهلِ العلمِ والإيمانِ. وهوَ مشهدُ /خ٤٢٣/ القدرِ والشَّرعِ، يَشْهَدُ فعلَهُ وقضاءَ اللهِ وقدرَهُ كما تَقَدَّمَ.

الخامسُ: مشهدُ الفقرِ والفاقةِ والعجزِ والضَّعفِ وأنَّهُ إنْ لمْ يُعِنْهُ اللهُ ويُثَبِّتْهُ ويُوَفِّقْهُ فهوَ هالكٌ. والفرقُ بينَ مشهدِ هٰذا ومشهدِ الجبريَّةِ ظاهرٌ[٣].

السَّادسُ: مشهدُ التَّوحيدِ. الذي يَشْهَدُ فيهِ انفرادَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بالخلقِ والإبداعِ ونفوذِ[٤] المشيئةِ، وأنَّ الخلقَ أعجزُ مِن أنْ يَعْصوهُ بغيرِ مشيئتِهِ. والفرقُ بينَ هٰذا وبينَ المشهدِ الخامسِ: أنَّ صاحبَهُ شاهدٌ لكمالِ فقرِهِ وضعفِهِ وحاجتِهِ، وهٰذا شاهدٌ لتفرُّدِ اللهِ بالخلقِ والإبداعِ وأنَّهُ لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بهِ.

السَّابعُ: مشهدُ الحكمةِ. وهوَ أنْ يَشْهَدَ حكمةَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في قضائِهِ وتخليتِهِ بينَ العبدِ والذَّنبِ. وللهِ في ذٰلكَ حكمٌ تَعْجِزُ العقولُ عنِ الإحاطةِ بها، وذَكَرْنا منها في ذٰلكَ الكتابِ[٥] قريبًا مِن أربعينَ حكمةً، وقد تَقَدَّمَ في أوَّلِ هٰذا الكتابِ التَّنبيهُ على

---

(١) في ط: «مقصور على شهوات لذّته»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه من خ.

(٢) وهو والله مشهد أغلب الخلق اليوم، ولا سيّما الأوروبيّين ومن تبعهم في جحر الضبّ.

(٣) لأنّ صاحب هٰذا المشهد يرى أنّ: الطاعة فعله والتوفيق والتثبيت والإعانة من الله، والمعصية فعله والتخلية بينه وبينها من الله. بخلاف الجبريّ الذي يرى أنّ الطاعة والمعصية والإعانة والتخلية مع الذنب كلّها أفعال الله وحده لا ينسب شيء منها للعبد الذي هو كالهباءة في مهبّ الرياح.

(٤) في خ: «القدر وهو أيضًا هو... لم يغثه الله ويثبته... والفرق في مشهد... والإبداع وتفرّد».

(٥) يعني: «الفتوحات القدسيّة». وكذٰلك فصّل فيها في «مدارج السالكين» (١/ ٤٨٧ـ ط. ابن خزيمة) وفي مواضع أخرى كثيرة منثورة في تضاعيف الكتاب بما يمكن أن يجمع منه رسالة صغيرة.

بعضِها[١].

الثَّامنُ: مشهدُ الأسماءِ والصِّفاتِ. وهوَ أنْ يَشْهَدَ ٱرتباطَ الخلقِ والأمرِ والقضاءِ والقدرِ بأسمائِهِ [تَعالى] وصفاتِهِ وأنَّ ذٰلكَ موجَبُها ومقتضاها. فأسماؤُهُ الحسنى ٱقْتَضَتْ ما ٱقْتَضَتْهُ مِن التَّخليةِ بينَ العبدِ وبينَ الذَّنبِ؛ فإنَّهُ الغفَّارُ التَّوَّابُ العفوُّ الحليمُ، وهٰذهِ أسماءٌ تَطْلُبُ آثارَها وموجَباتِها ولا بدَّ، «فلو لمْ تُذْنِبوا؛ لَذَهَبَ اللهُ بكُم، ولَجاءَ بقومٍ يُذْنِبونَ، فيَسْتَغْفِرونَ، فيَغْفِرُ لهُم»[٢].

وهٰذا المشهدُ والذي قبلَهُ أجلُّ هٰذهِ المشاهدِ وأشرفُها وأرفعُها قدرًا، وهُما لخواصِّ الخليقةِ، فتَأمَّلْ بعدَ ما بينَهُما وبينَ المشهدِ الأوَّلِ.

وهٰذانِ المشهدانِ يَطْرَحانِ العبدَ على بابِ المحبَّةِ ويَفْتَحانِ لهُ مِن المعارفِ والعلومِ أُمورًا لا يُعَبَّرُ عنها.

وهٰذا بابٌ عظيمٌ مِن أبوابِ المعرفةِ قَلَّ مَنِ ٱسْتَفْتَحَهُ مِنَ النَّاسِ، وهوَ شهودُ الحكمةِ البالغةِ في قضاءِ السَّيِّئاتِ وتقديرِ المعاصي. وإنَّما ٱسْتَفْتَحَ النَّاسُ بابَ الحِكَمِ في الأوامرِ والنَّواهي وخاضوا فيها وأتَوْا بما [وَصَلَتْ إليهِ علومُهُم، وٱسْتَفْتَحوا أيضًا بابَها في المخلوقاتِ كما قَدَّمْناهُ وأتَوْا] فيهِ بما وَصَلَتْ إليهِ قواهُم، وأمَّا هٰذا البابُ؛ فكما رَأيْتَ كلامَهُم فيهِ[٣]، فقَلَّ أنْ تَرى لأحدِهِم فيهِ ما يَشْفي أو يُلِمُّ!

وكيفَ يَطَّلِعُ على حكمةِ هٰذا البابِ مَن عندَهُ أنَّ أعمالَ العبادِ ليسَتْ مخلوقةً للهِ ولا داخلةً تحتَ مشيئتِهِ أصلاً؟! وكيفَ يَتَطَلَّبُ لها حكمةً أو يُثْبِتُها؟! أمْ [كيفَ] يَطَّلِعُ عليها مَن يَقولُ: هيَ خلقُ اللهِ، ولٰكنَّ أفعالَهُ غيرُ معلَّلةٍ بالحِكَمِ ولا يَدْخُلُها لامُ تعليلٍ أصلاً[٤]، وإنْ جاءَ شيءٌ مِن ذٰلكَ؛ صُرِفَ إلى لامِ العاقبةِ لا إلى لامِ العلَّةِ والغايةِ، فأمَّا إذا جاءَتِ الباءُ في أفعالِهِ؛ صُرِفَتْ إلى باءِ المصاحبةِ لا إلى باءِ السَّببيَّةِ[٥]؟!

(١) فٱنظره (١/ ٧٧).
(٢) رواه مسلم (٤٩ـ التوبة، ٢ـ سقوط الذنوب بالاستغفار، ٤/ ٢١٠٦/ ٢٧٤٩).
(٣) يعني: فكلامهم فيه كما رأيت، أو أنّ ما هنا تحريف صوابه: «فقد رأيت كلامهم فيه».
(٤) في خ: «أمورًا لا يصبر عنها... لها حكمة أو ثبتها... ولا مدخلها بالأمر تعليل أصلاً».
(٥) في خ: «باء المصاحقة لا إلى باء السببيّة».

وإذا كانَ المتكلِّمونَ عندَ النَّاسِ /خ٤٢٤/ هُم هٰؤلاءِ الطَّائفتينِ؛ فإنَّهُم لا يَرَوْنَ الحقَّ خارجًا عنهُما! ثمَّ كثيرٌ مِن الفضلاءِ يَتَحَيَّرُ إذا رَأى بعضَ أقوالِهِمُ الفاسدةِ ولا يَدْري أينَ يَذْهَبُ! ولمَّا عُرِّبَتْ كتبُ الفلاسفةِ؛ صارَ كثيرٌ مِن النَّاسِ إذا رَأى أقوالَ المتكلِّمينَ الضَّعيفةَ، وقد قالوا: إنَّ هٰذا هوَ الذي جاءَ بهِ الرَّسولُ، قَطَعَ القنطرةَ وعَدَّى إلى ذٰلكَ البرِّ[1]! وكلُّ ذٰلكَ مِن الجهلِ القبيحِ والظَّنِّ الفاسدِ أنَّ الحقَّ لا يَخْرُجُ عن أقوالِهِم[2]، فما أكثرَ خروجَ [الحقِّ] عن أقوالِهِم! وما أكثرَ ما يَذْهَبونَ في المسائلِ التي هي حقٌّ وصوابٌ إلى خلافِ الصَّوابِ! [والمقصودُ أنَّ المتكلِّمينَ لو أَجْمَعوا على شيءٍ؛ لمْ يَكُنْ إجماعُهُم حجَّةً عندَ أحدٍ مِن العلماءِ، فكيفَ إذا اَخْتَلَفوا]؟!

[١٣٤- فصل]

[في حكمه تعالى في تقدير المعصية على العباد]

والمقصودُ أنَّ مشاهدةَ حكمةِ اللهِ في أقضيتِهِ وأقدارِهِ التي يُجْريها على عبادِهِ

= ثمّ اْعلم أنّ لام التعليل ولام العاقبة متطابقتان في الأثر النحويّ إلى درجة أنّ البصريّين ومن تبعهم جعلوهما واحدة وأنكروا أنّهما اْثنتان، والمعتمد في النحو المعاصر أنّهما اْثنتان لاختلافهما في المعنى: فما بعد لام التعليل سبب لما قبلها ونتيجة له في الوقت نفسه، وما بعد لام العاقبة نتيجة لما قبلها فقط وليس سببًا له. ومنكرو التعليل يجعلون جميع اللامات في أفعاله تعالى للعاقبة، فليس الإنذار في قوله تعالى ﴿إنك لمن المرسلين... لتنذر قومًا﴾ هو السبب في إرسال النبيّ ﷺ والغاية المقصودة منه، وإنّما أرسله الله لغير هدف ولا غاية فكانت عاقبة إرساله ونتيجتها إنذار الناس! فتأمّل وتعجّب.

وأمّا باء التعليل؛ فما بعدها سبب لما قبلها، كقوله تعالى: ﴿فكلًّا أخذنا بذنبه﴾، فالذنب سبب الأخذ. وباء المصاحبة كاْسمها تحمل معنى «مع»، كقوله تعالى: ﴿اْهبط بسلام﴾؛ أي: مرفقًا به محفوفًا به. ومنكرو التعليل يجعلون جميع الباءات في أفعاله تعالى للمصاحبة، فالذنب عندهم ليس سببًا للأخذ في المثال الأوّل، لٰكنّ الأخذ جاء مترافقًا به في كلّ مرّة هٰكذا بغير قصد! فتأمّل وتعجّب.

ولابن القيّم كلام طويل وردود مفحمة لهٰؤلاء منثورة في مجلّدات «مدارج السالكين» الثلاثة، فراجعه إن شئت التوسّع مستعينًا بفهارس طبعة ابن خزيمة، وسيأتي له مزيد من الكلام في هٰذه القضيّة هنا.

(١) يعني: أعرض عن قضايا الدين من غير أن يفهمها أو يطمئنّ قلبه بها وتحوّل إلى ما عند الفلاسفة!

(٢) ساهم شيخا الإسلام رحمهما الله في سدّ هٰذه الثغرة كثيرًا، وصنّفا فيها كتبًا عديدة مفيدة، لٰكن مع ذٰلك ما زال موقف أهل السنّة من أكثر هٰذه القضايا غائبًا أو مغيّبًا عن ساحات الفكر في أغلب أصقاع العالم الإسلامي! ولا يخلو أهل السنّة من شيء من المسؤوليّة عن هٰذه الجناية؛ لتقصيرهم في نشر فكرهم كمًّا وكيفًا.

بٱختياراتِهم وإراداتِهم هيَ مِنَ[١] ألطفِ ما تَكَلَّمَ فيهِ النَّاسُ وأدقِّهِ وأغمضِهِ.

وفي ذٰلكَ حكمٌ لا يَعْلَمُها إلَّا الحكيمُ العليمُ سبحانَهُ، [ونحنُ نُشيرُ إلى بعضِها:

● فمنها: أنَّهُ سبحانَهُ] يُحِبُّ التَّوَّابينَ، حتَّى إنَّهُ [مِن محبَّتِهِ لهُم] يَفْرَحُ بتوبةِ أحدِهِم أعظمَ مِن فرحِ الواجدِ براحلتِهِ التي عليها طعامُهُ وشرابُهُ في الأرضِ الدَّوِّيَّةِ المُهْلِكَةِ إذا فَقَدَها وأَيِسَ منها[٢]. وليسَ في أنواعِ الفرحِ أكملُ ولا أعظمُ مِن هٰذا الفرحِ كما سَنُوَضِّحُ ذٰلكَ ونَزيدُهُ تقريرًا عن قريبٍ إنْ شاءَ اللهُ[٣]. ولولا المحبَّةُ التَّامَّةُ للتَّوبةِ ولأهلِها؛ لمْ يَحْصُلْ هٰذا الفرحُ.

ومِن المعلومِ أنَّ وجودَ المسبَّبِ بدونِ سببِهِ ممتنعٌ، وهل يوجَدُ ملزومٌ بدونِ لازمِهِ أو غايةٌ بدونِ وسيلتِها؟! وهٰذا معنى قولِ بعضِ العارفينَ: لو لمْ تكُنِ التَّوبةُ أحبَّ الأشياءِ إليه؛ لَما ٱبْتَلى بالذَّنبِ أكرمَ المخلوقاتِ عليه.

فالتَّوبةُ هيَ غايةُ كمالِ كلِّ آدميٍّ. وإنَّما كانَ كمالُ أبيهِم بها، فكم بينَ حالِهِ وقد قيلَ لهُ ﴿إنَّ لَكَ ألَّا تَجوعَ فيها وَلا تَعْرى . وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فيها وَلا تَضْحى﴾ [طه: ١١٨-١١٩] وبينَ قولِهِ ﴿ثُمَّ ٱجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى﴾ [طه: ١٢٢]! فالحالُ الأُولى حالُ أكلٍ وشربٍ وتمتُّعٍ، والحالُ الأُخرى حالُ ٱجتباءٍ وٱصطفاءٍ وهدايةٍ، فيا بُعْدَ ما بينَهُما! ولمَّا كانَ [كمالُهُ بالتَّوبةِ؛ كانَ] كمالُ بنيهِ [أيضًا] بها، كما قالَ تَعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ المُنافِقينَ وَالمُنافِقاتِ وَالمُشْرِكينَ وَالمُشْرِكاتِ وَيَتوبَ اللهُ عَلى المُؤْمِنينَ وَالمُؤْمِناتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣]. فكمالُ الآدميِّ في هٰذهِ الدَّارِ بالتَّوبةِ النَّصوحِ وفي الآخرةِ بالنَّجاةِ مِن النَّارِ ودخولِ الجنَّةِ، وهٰذا الكمالُ مرتَّبٌ على كمالِهِ الأوَّلِ.

والمقصودُ أنَّهُ سبحانَهُ لمحبَّتِهِ التَّوبةَ وفرحِهِ بها: يَقْضي على عبدِهِ بالذَّنبِ، ثمَّ إنْ كانَ ممَّن سَبَقَتْ لهُ الحسنى؛ قَضى لهُ بالتَّوبةِ، وإنْ كانَ ممَّن غَلَبَتْ عليهِ الشَّقاوةُ[٤]؛

---

(١) في خ: «فقطع القنطرة... وكلّ هٰذا من الجهل... هي الحقّ وصواب... هو من».

(٢) في ط: «فرح الواحد...»! الدوّيّة: البرّيّة الخالية. المهلكة: التي يهلك من ضاع فيها. وقد روى هٰذا المعنى صاحبا «الصحيح» عن جماعة من الصحابة. وقد تقدّم بطوله وتخريجه (١/ ٨٨).

(٣) يعني في القسم المتعلّق بالإرادة من الكتاب. وقد فصّلت القول فيه (١/ ٣٠-٣٢).

(٤) في خ وط: «فالحال الأوّل...»، وفي خ: «... الآدميّ مشاهدة الدار... عليه شقاوته».

أقامَ عليهِ حجَّةَ عدلِه وعاقبَهُ بذنبِه.

● فصلٌ: ومنها أنَّهُ سبحانَهُ يُحِبُّ أنْ يَتَفَضَّلَ عليهِم ويُتِمَّ عليهِم نعمَهُ ويُرِيَهُمْ مواقعَ برِّه وكرمِه.

فلمحبَّتِه الإفضالَ والإنعامَ يُنَوِّعُهُ عليهِم أعظمَ الأنواعِ وأكثرَها في سائرِ الوجوهِ الظَّاهرةِ والباطنةِ.

ومِن /خ٤٢٥/ أعظمِ أنواعِ الإحسانِ والبرِّ: أنْ يُحْسِنَ إلى مَن أساءَ، ويَعْفُوَ عمَّن ظَلَمَ، ويَغْفِرَ لمَن أذْنَبَ، ويَتوبَ على مَن تابَ إليهِ، ويَقْبَلَ عُذْرَ مَنِ ٱعْتَذَرَ إليهِ. وقد نَدَبَ عبادَهُ إلى هٰذهِ الشِّيمِ الفاضلةِ والأفعالِ الحميدةِ وهوَ أولى بها منهُم وأحقُّ، وكانَ لهُ في تقديرِ أسبابِها مِن الحِكمِ والعواقبِ الحميدةِ ما يَبْهَرُ العقولَ، فسبحانَهُ [وبحمدِهِ].

وحَكى بعضُ العارفينَ أنَّهُ قالَ: طُفْتُ في ليلةٍ مطيرةٍ شديدةِ الظُّلمةِ وقد خَلا الطَّوافُ، وطابَتْ نفسي، فوَقَفْتُ عندَ المُلْتَزَمِ، ودَعَوْتُ [اللهَ] فقُلْتُ: اللهمَّ! ٱعْصِمْني حتَّى لا أعْصِيَكَ. فهَتَفَ بهِ هاتفٌ: أنتَ تَسْألُني العصمةَ، وكلُّ عبادي يَسْألوني العصمةَ، فإذا عَصَمْتُهُم[1]؛ فعَلى مَن أتَفَضَّلُ؟ ولمَن أغْفِرُ؟ قالَ: فبَقِيتُ ليلتي إلى الصَّباحِ أسْتَغْفِرُ اللهَ حياءً منهُ.

هٰذا؛ ولو شاءَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أنْ لا يُعْصى في الأرضِ طرفةَ عينٍ؛ لمْ يُعْصَ، ولٰكنِ ٱقْتَضَتْ مشيئَتُهُ ما هوَ موجَبُ حكمتِهِ سبحانَهُ. فمَن أجهلُ باللهِ ممَّنْ يَقولُ: إنَّهُ يُعْصى قسرًا بغيرِ ٱختيارِهِ ومشيئتِهِ؟! سبحانَهُ وتَعالى عمَّا يَقولونَ علوًّا كبيرًا.

● فصلٌ: ومنها: أنَّهُ سبحانَهُ لهُ الأسماءُ الحسنى، ولكلِّ ٱسمٍ مِن أسمائِهِ أثرٌ مِن الآثارِ في الخلقِ والأمرِ لا بدَّ مِن ترتُّبِهِ عليهِ كترتُّبِ المرزوقِ والرِّزقِ على الرَّازقِ وترتُّبِ المرحومِ وأسبابِ الرَّحمةِ على الرَّاحمِ[2] وترتُّبِ المرئيَّاتِ والمسموعاتِ على السَّميعِ

---

(١) في خ: «أعظم الأنواع... ما أساء ويعفو عن ظلمه... الحكمة والعواقب... عصمتم».

(٢) لم أقف على «الرازق» و«الراحم» مطلقة في أسمائه تعالى، لٰكن جاءت مقيّدة بلفظ «خير الرازقين» و«أرحم الراحمين»، فهي أولى بالصفات منها بالأسماء، والأسماء المشتقّة من هٰذه الصفات هي الرزّاق والرحمٰن والرحيم، وكثيرًا ما يستعمل ابن القيّم «الأسماء» ويريد بها «الصفات»؛ لأنّ الباب واحد.

والبصيرِ. . . ونظائرِ ذٰلكَ في جميعِ الأسماءِ. فلو لمْ يَكُنْ في عبادِهِ مَن يُخْطِئُ ويُذْنِبُ لِيَتوبَ عليهِ ويَغْفِرَ لهُ ويَعْفُوَ عنهُ؛ لمْ يَظْهَرْ أثرُ أسمائِهِ الغفورِ والعفوِّ والحليمِ والتَّوَّابِ وما جَرى مجراها. وظهورُ أثرِ هٰذهِ الأسماءِ ومتعلَّقاتِها في الخليقةِ كظهورِ آثارِ سائرِ الأسماءِ الحسنى ومتعلَّقاتِها: فكما أنَّ اسمَهُ الخالقَ يَقْتَضي مخلوقًا والبارئَ يَقْتَضي مبروءًا والمصوِّرَ يَقْتَضي مصوَّرًا [ولا بدَّ، فأسماؤُهُ الغفَّارُ والتَّوَّابُ [والحليمُ والعفوُّ][1] تَقْتَضي مغفورًا] لهُ وما يَغْفِرُهُ لهُ وكذٰلكَ مَن يَتوبُ عليهِ وأُمورًا يَتوبُ عليهِ مِن أجلِها ومَن يَحْلُمُ عنهُ ويَعْفو عنهُ وما يَكونُ متعلَّقَ الحلمِ والعفوِ. فإنَّ هٰذهِ الأُمورَ متعلِّقةٌ بالغيرِ، ومعانيها مستلزمةٌ لمتعلَّقاتِها.

وهٰذا بابٌ أوسعُ مِن أنْ يُدْرَكَ، واللبيبُ يَكْتَفي منهُ باليسيرِ، وغليظُ الحجابِ في وادٍ ونحنُ في وادٍ:

وَإِنْ كانَ أَثْلُ الوادِ يَجْمَعُ بَيْنَنا ... فَغَيْرُ خَفِيٍّ شِيحُهُ مِن خُزامِهِ[2]

فتَأَمَّلْ ظهورَ هٰذينِ الاسمينِ ـ اسمِ الرزَّاقِ واسمِ الغفَّارِ ـ في الخليقةِ؛ تَرَ ما يُعْجِبُ العقولَ[3]! وتَأَمَّلْ آثارَهُما حقَّ التَّأمُّلِ في أعظمِ مجامعِ الخليقةِ[4]، وانْظُرْ كيفَ وَسِعَهُم رزقُهُ ومغفرتُهُ، ولولا ذٰلكَ؛ لَما كانَ لهُم[5] /خ٤٢٦/ مِن قيامٍ أصلاً، فلكلٍّ منهُم نَصيبٌ مِن [الرِّزقِ و]المغفرةِ؛ فإمَّا متَّصلاً بنشأتِهِ الثَّانيةِ، وإمَّا مختصًّا بهٰذهِ النَّشأةِ.

● فصلٌ: ومنها: أنَّهُ سبحانَهُ يُعَرِّفُ عبدَهُ عزَّهُ في قضائِهِ وقدرِهِ ونفوذِ مشيئتِهِ وجريانِ حكمِهِ[6]، وأنَّهُ لا محيصَ للعبدِ عمَّا قَضاهُ عليهِ ولا مفرَّ لهُ منهُ بل هوَ في قبضةِ مالكِهِ وسيِّدِهِ، وأنَّهُ عبدُهُ وابنُ عبدِهِ وابنُ أَمَتِهِ ناصيتُهُ بيدِهِ ماضٍ فيهِ حكمُهُ عدلٌ فيهِ

---

(١) «والحليم والعفوّ» زيادة منّي يقتضيها الكلام التالي.

(٢) الأثل: من أشجار البوادي الكبيرة. الشيح: من نباتات البوادي، ريحه حسن وطعمه مرّ يرعاه الجمل. الخزام: نبات جميل الزهر عطر الريح جدًّا. والمقصود أنّ التفاوت بيننا كبير جدًّا وإن كنّا جميعًا أبناء لأب واحد وأمّ واحدة.

(٣) في خ: «ترتيبه عليه كترتيب. . . متعلّق الحكم والعفو. . . أسم الرازق. . . يعجب الغفور».

(٤) أعظم مجامع الخليقة هو موقف عرفة.

(٥) في خ وط: «ترى ما يعجب. . . لما كان له»! والصواب ما أثبتّه.

(٦) في ط: «يعرّف عباده. . .»، وفي خ وط: «. . . وجريان حكمته»، والصواب ما أثبتّه.

قضاؤُهُ.

● فصلٌ: ومنها: أنَّهُ يُعَرِّفُ العبدَ حاجتَهُ إلى حفظِهِ لهُ ومعونتِهِ وصيانتِهِ. وأنَّهُ كالوليدِ الطِّفلِ في حاجتِهِ إلى مَن يَحْفَظُهُ ويَصونُهُ، فإنْ لمْ يَحْفَظْهُ مولاهُ الحقُّ ويَصُنْهُ ويُعِنْهُ؛ فهوَ[1] هالكٌ ولا بدَّ، وقد مَدَّتِ الشَّياطينُ أيديَها إليهِ مِن كلِّ جانبٍ تُريدُ تمزيقَ حالِهِ كلِّهِ وإفسادَ شأْنِهِ كلِّهِ. وأنَّ مولاهُ وسيِّدَهُ إنْ وَكَلَهُ إلى نفسِهِ؛ وَكَلَهُ إلى ضيعةٍ وعجزٍ وذنبٍ وخطيئةٍ وتفريطٍ، فهلاكُهُ أدنى إليهِ مِن شِراكِ نعلِهِ؛ فقد أجْمَعَ العلماءُ باللهِ على أنَّ التَّوفيقَ أنْ لا يَكِلَ[2] اللهُ العبدَ إلى نفسِهِ، وأجْمَعوا على أنَّ الخذلانَ أنْ يُخَلِّيَ بينَهُ وبينَ نفسِهِ.

● فصلٌ: ومنها: أنَّهُ سبحانَهُ يَسْتَجْلِبُ مِن عبدِهِ بذٰلكَ ما هوَ [مِن] أعظمِ أسبابِ السَّعادةِ لهُ مِن: ٱستعاذتِهِ وٱستعانتِهِ بهِ مِن شرِّ نفسِهِ وكيدِ عدوِّهِ، ومِن أنواعِ الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ والابتهالِ والإنابةِ والفاقةِ والمحبَّةِ والرَّجاءِ والخوفِ، وأنواعِ [مِن] كمالاتِ العبدِ تَبْلُغُ نحوَ المئةِ، ومنها ما لا تُدْرِكُهُ العبارةُ وإنَّما يُدْرَكُ بوجودِهِ... فيَحْصُلُ للرُّوحِ بذٰلكَ قربٌ خاصٌّ لمْ يَكُنْ [يَحْصُلُ] بدونِ هٰذهِ الأسبابِ، ويَجِدُ العبدُ مِن نفسِهِ كأنَّهُ ملقًى على بابِ مولاهُ بعدَ أنْ كانَ نائيًا عنهُ، وهٰذا الذي أثْمَرَ لهُ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ [وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ]﴾، وهوَ ثمرةُ: «لَلهُ أفرحُ بتوبةِ عبدِهِ...»[3].

وأسرارُ هٰذا الوجهِ يَضيقُ عنها القلبُ واللسانُ، وعَسى أنْ يَجيئَكَ في القسمِ الثَّاني مِن الكتابِ ما تَقَرُّ بهِ عينُكَ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى[4].

فكمْ بينَ عبادةِ مُدِلٍّ على ربِّهِ بعبادتِهِ[5] شامخٍ بأنفِهِ، كلَّما طَلَبَ منهُ أوصافَ العبدِ؛ قامَتْ صورُ تلكَ الأعمالِ في نفسِهِ تَحْجُبُهُ[6] عن معبودِهِ وإلٰهِهِ، وبينَ عبادةِ مَن

---

(١) في خ: «ومنها أن يعرّف...»، وفي خ وط: «... الحق ويصونه ويعينه فهو».
(٢) في خ: «أنّ التوفيق ألا أن يكل»! والتصويب من ط.
(٣) متّفق عليه. تقدّم بطوله وتخريجه (١/ ٨٨).
(٤) فصّلت القول فيما يتعلّق بالقسم الثاني من الكتاب (١/ ٣٠-٣٢).
(٥) مدلّ على ربّه بعبادته: معجب بها يمنّ على الله بها بقلبه وربّما بلسانه.
(٦) في ط: «يحبّ التوّابين وهو ثمر لله... مدلّ صاحبها على ربّه... نفسه فحجبته».

قد كَسَرَ الذُّلُّ قلبَهُ كلَّ الكسرِ، وأحْرَقَ ما فيهِ مِن الرُّعوناتِ والحماقاتِ والخيالاتِ، فهوَ لا يَرى نفسَهُ [معَ اللهِ] إلاَّ مسيئًا، كما لا يَرى ربَّهُ إليهِ إلاَّ محسنًا، فهوَ لا [يَرْضى أنْ] يَرى نفسَهُ طرفةَ عينٍ [إلاَّ] قد كَسَرَ إزراؤُهُ على نفسِهِ قلبَهُ وذَلَّلَ لسانَهُ وجوارحَهُ وطَأْطَأَ منهُ ما ٱرْتَفَعَ مِن غيرِهِ، فقلبُهُ واقفٌ بينَ يدي ربِّهِ [وقوفَ] ناكسِ الرَّأْسِ خاضعٍ غاضِّ البصرِ خاشعِ الصَّوتِ هادئِ الحركاتِ، قد سَجَدَ بينَ /خ٤٢٧/ يدي ربِّهِ سجدةً[1] إلى المماتِ!

فلو لمْ يَكُنْ مِن ثمرةِ ذٰلكَ القضاءِ والقدرِ إلاَّ هٰذا وحدَهُ؛ لَكَفى [بهِ حكمةً]. واللهُ المستعانُ.

● فصلٌ: ومنها: أنَّهُ سبحانَهُ يَسْتَخْرِجُ بذٰلكَ مِن عبدِهِ تمامَ عبوديَّتِهِ؛ فإنَّ تمامَ العبوديَّةِ هوَ تكميلُ مقامِ الذُّلِّ والانقيادِ، وأكملُ الخلقِ عبوديَّةً أكملُهُم ذلاًّ للهِ وٱنقيادًا وطاعةً. والعبدُ ذليلٌ لمولاهُ الحقِّ بكلِّ وجهٍ مِن وجوهِ الذُّلِّ فهوَ: ذليلٌ لعزِّهِ، وذليلٌ لقهرِهِ، وذليلٌ لربوبيَّتِهِ وتصرُّفِهِ فيهِ، وذليلٌ لإحسانِهِ إليهِ وإنعامِهِ عليهِ؛ فإنَّ مَن أحْسَنَ إليكَ فقدِ ٱسْتَعْبَدَكَ وصارَ قلبُكَ معبَّدًا لهُ، وذليلُ تعبُّدٍ لحاجتِهِ إليهِ على مدى الأنفاسِ في جلبِ كلِّ ما يَنْفَعُهُ ودفعِ كلِّ ما يَضُرُّهُ.

وهُنا نوعانِ[2] مِن أنواعِ التَّذلُّلِ والتَّعبُّدِ لهُما أثرٌ عجيبٌ [و]يَقْتَضِيانِ مِن صاحبِهِما مِن الطَّاعةِ والفوزِ ما لا يَقْتَضيهِ غيرُهُما:

أحدُهُما: ذلُّ المحبَّةِ. وهٰذا نوعٌ آخرُ غيرُ ما تَقَدَّمَ، وهوَ خاصَّةُ المحبَّةِ ولبُّها، بل وروحُها وقوامُها وحقيقتُها، وهوَ المرادُ على الحقيقةِ مِن العبدِ لو فَطِنَ. وهٰذا يَسْتَخْرِجُ مِن قلبِ المحبِّ مِن أنواعِ التَّقرُّبِ والتَّودُّدِ والتَّملُّقِ والإيثارِ والرِّضى والحمدِ والشُّكرِ والصَّبرِ والتَّقدُّمِ وتحمُّلِ العظائمِ ما لا يَسْتَخْرِجُهُ الخوفُ وحدَهُ ولا الرَّجاءُ وحدَهُ، كما قالَ بعضُ الصَّحابةِ: إنَّهُ لَيَسْتَخْرِجُ محبَّتُهُ في قلبي[3] مِن طاعتِهِ ما لا يَسْتَخْرِجُهُ خوفُهُ، أو

---

(١) في خ: «قلبه وذٰلك لسانه...»، وفي ط: «... خاضع الصوت... بين يديه سجدة».

(٢) في ط: «هو بتكميل مقام الذلّ... ورفع كلّ ما يضرّه...»، وفي خ: «... وهو نوعان».

(٣) في خ: «أثر عجيب ومقتضيات... من قلبي»، وفي ط: «... والصبر والتندّم وتحمّل...».

كما قالَ . فهٰذا ذلُّ المحبِّينَ .

[الذُّلُّ] الثَّاني : ذلُّ المعصيةِ .

فإذا ٱنْضافَ هٰذا إلى هٰذا؛ هناكَ فَنِيَتِ الرُّسومُ، وتَلاشَتِ الأنفسُ، وٱضْمَحلَّتِ القلوبُ، وبَطَلَتِ الدَّعاوى جملةً، وذَهَبَتِ الرُّعوناتُ، وطاحَتِ الشَّطحاتُ، ومُحِيَ مِن القلبِ واللسانِ أنا وأنا، وٱسْتَراحَ المسكينُ مِن شكاوى الصُّدودِ والإعراضِ والهجرِ، وتَجَرَّدَ الشُّهودُ فلمْ يَبْقَ إلَّا شهودُ العزِّ والجلالِ المحضِ الذي [قد] تَفَرَّدَ بِهِ ذو الجلالِ والإكرامِ الذي لا[1] يُشارِكُهُ أحدٌ مِن خلقِهِ في ذرَّةٍ مِن ذرَّاتِهِ وشهودُ الذُّلِّ والفقرِ المحضِ مِن جميعِ الوجوهِ بكلِّ ٱعتبارٍ فيَشْهَدُ غايةَ ذلِّهِ وٱنكسارِهِ وعزَّةَ محبوبِهِ وجلالَهُ وعظمتَهُ وقدرتَهُ وغناهُ .

فإذا تَجَرَّدَ لهُ هٰذانِ الشُّهودانِ ولمْ يَبْقَ ذرَّةٌ مِن ذرَّاتِ الذُّلِّ والفقرِ والضَّرورةِ إلى ربِّهِ [إلَّا] شاهَدَها فيهِ بالفعلِ وقد شَهِدَ مقابِلَها هناكَ؛ فللهِ! أيُّ مقامٍ أُقيمَ [فيهِ] هٰذا القلبُ إذْ ذاكَ؟! وأيُّ قربٍ حَظِيَ بهِ؟! وأيُّ نعيمٍ أدرَكَهُ؟! وأيُّ رَوْحٍ باشَرَهُ؟!

فتَأمَّلِ الآنَ موقعَ الكسرةِ التي حَصَلَتْ لهُ بالمعصيةِ في هٰذا الموطنِ؛ ما أعجبَها! وما أعظمَ موقعَها! كيفَ جاءَتْ: فمَحَقَتْ /خ٤٢٨/ مِن نفسِهِ الدَّعاوى والرُّعوناتِ وأنواعَ الأماني الباطلةِ، ثمَّ أوْجَبَتْ[2] لهُ الحياءَ والخجلَ مِن صالحِ ما عَمِلَ، ثمَّ أوْجَبَتْ لهُ ٱستكثارَ قليلِ ما يَرِدُ عليهِ مِن ربِّهِ لعلمِهِ بأنَّ قدرَهُ أصغرُ مِن ذٰلكَ وأنَّهُ لا يَسْتَحِقُّهُ، وٱستقلالَ أمثالِ الجبالِ مِن عملِهِ الصَّالحِ بأنَّ سيِّئاتِهِ وذنوبَهُ تَحْتاجُ مِن المكفِّراتِ والماحياتِ إلى أعظمَ مِن هٰذا، فهوَ لا يَزالُ محسنًا ـ و[هوَ] عندَ نفسِهِ المسيءُ المذنبُ ـ منكسرًا ذليلًا خاضعًا، لا يَرْتَفِعُ لهُ رأْسٌ ولا يَنْقامُ لهُ صدرٌ .

وإنَّما ساقَهُ إلى هٰذا الذُّلُّ الذي[3] أوْرَثَهُ إيَّاهُ مباشرةُ الذَّنبِ! فأيُّ شيءٍ أنفعُ لهُ مِن هٰذا الدَّواءِ؟!

---

(١) في خ: «وٱضمحلّت الفلوى . . . وتجرّد الشهوة . . . لم»، وفي ط: «. . . الذي تفرّد . . .».

(٢) في خ: «فيه بالعقل وقد شهد . . . القلب إذ ذاك قرب وأيّ قرب . . . ثمّ أوجب».

(٣) في خ: «من المكفّرات والمباحات . . .»، وفي ط: «. . . محسنًا وعند . . . الذلّ والذي».

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمودٌ عَواقِبُهُ وَرُبَّما صَحَّتِ الأجسامُ بالعِلَلِ

ونكتةُ هٰذا الوجهِ: أنَّ العبدَ متى شَهِدَ صلاحَهُ وٱستقامتَهُ؛ شَمَخَ بأنفِهِ وتَعاظَمَتْ نفسُهُ وظَنَّ أنَّهُ وأنَّهُ... فإذا ٱبْتُلِيَ بالذَّنبِ؛ تَصاغَرَتْ إليهِ نفسُهُ وذَلَّ وخَضَعَ وتيَقَّنَ أنَّهُ وأنَّهُ...

● فصلٌ: ومنها: أنَّ العبدَ يَعْرِفُ: حقيقةَ نفسِهِ وأنَّها [الجاهلةُ][1] الظَّالمةُ. وأنَّ ما صَدَرَ منها مِن شرٍّ فقد صَدَرَ مِن أهلِهِ ومعدنِهِ؛ إذِ الجهلُ [والظُّلمُ] منبعُ الشَّرِّ كلِّهِ. وأنَّ كلَّ ما فيها مِن خيرٍ وعلمٍ وهدًى وإنابةٍ وتقوًى فهوَ مِن ربِّها تَعالى، هوَ الذي زَكَّاها بهِ وأعْطاها إيَّاهُ، لا منها، فإذا لمْ يَشَأْ تزكيةَ العبدِ؛ تَرَكَهُ معَ دواعي جهلِهِ وظلمِهِ، فهوَ تَعالى الذي يُزَكِّي مَن يَشاءُ مِن النُّفوسِ، [فتَزْكو وتَأْتي] بأنواعِ الخيرِ والبرِّ، ويَتْرُكُ تزكيةَ مَن يَشاءُ منها [فتَأْتي] بأنواعِ الشَّرِّ والخبثِ، وكانَ مِن دعاءِ النَّبيِّ ﷺ: «اللهمَّ! آتِ نفسي تقواها، وزَكِّها أنتَ خيرُ مَن زَكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها»[2].

فإذا ٱبْتَلى اللهُ العبدَ بالذَّنبِ؛ عَرَفَ [بهِ] نفسَهُ ونقصَها، فرُتِّبَ لهُ على ذٰلكَ التَّعريفِ حِكَمٌ ومصالحُ عديدةٌ:

منها: أنَّهُ يَأْنَفُ مِن نقصِها ويَجْتَهِدُ في كمالِها.

ومنها: أنَّهُ يَعْلَمُ فقرَها دائمًا إلى مَن يَتَوَلَّاها ويَحْفَظُها.

ومنها: أنَّهُ يَسْتَريحُ ويُريحُ العبادَ مِن الرُّعوناتِ والحماقاتِ التي ٱدَّعاها أهلُ الجهلِ في أنفسِهِم؛ مِن قِدَمٍ، أوِ ٱتِّصالٍ بالقديمِ، [أ]و ٱتِّحادٍ بهِ، أو حلولٍ [فيهِ]... أو غيرِ ذٰلكَ مِن المحالاتِ! فلولا أنَّ هٰؤلاءِ غابَ عنهُم شهودُهُم لنقصِ أنفسِهِم وحقيقتِها؛ لمْ يَقَعوا فيما وَقَعوا فيهِ[3].

● فصلٌ: ومنها: تعريفُهُ سبحانَهُ عبدَهُ سَعةَ حلمِهِ وكرمِهِ في سَترِهِ عليهِ، وأنَّهُ لو

---

(١) زيادة منّي يقتضيها السياق.

(٢) رواه مسلم (٤٨ـ الذكر، ١٨ـ التعوّذ من شرّ ما عمل، ٤/ ٢٠٨٨/ ٢٧٢٢) عن زيد بن أرقم.

(٣) إي والله؛ ما وقعوا في حماقات الولاية والوصول والاتّحاد والحلول إلّا لإعجابهم بأنفسهم وحجّهم إليها وطوافهم حولها وعبادتهم لها. فالله يرحم ابن القيّم ما أعمق فكرته وأدقّ ملاحظته!

شاءَ لَعاجَلَهُ على الذَّنبِ ولَهَتَكَهُ بينَ عبادِهِ فلمْ يَطِبْ لهُ معَهُم عيشٌ أبدًا، ولٰكنْ جَلَّلَهُ بسَترِهِ وغَشَّاهُ بحلمِهِ وقَيَّضَ لهُ مَن يَحْفَظُهُ وهوَ في حالتِهِ تلكَ، بل كانَ شاهدًا وهوَ يُبارِزُهُ بالمعاصي والآثامِ وهوَ معَ ذٰلكَ يَحْرُسُهُ بعينِهِ /خ٤٢٩/ التي لا تَنام.

وقد جاءَ في بعضِ الآثارِ: «يَقولُ اللهُ [تَعالى]: أنا الجوادُ الكريمُ، مَن أعظمُ منِّي جودًا وكرمًا، عبادي يُبارِزونَني[1] بالعظائمِ وأنا أكْلَؤُهُم في منازِلِهِم»[2]. فأيُّ حلمٍ أعظمُ مِن هٰذا الحلمِ؟! وأيُّ كرمٍ أوسعُ مِن هٰذا الكرمِ؟! فلولا حلمُهُ [وكرمُهُ] ومغفرتُهُ؛ لَما ٱسْتَقَرَّتِ السَّماواتُ والأرضُ في أماكنِها.

وتأمَّلْ قولَهُ تَعالى: ﴿إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالأرْضَ أنْ تَزولا وَلَئِنْ زالَتا إنْ أمْسَكَهُما مِنْ أحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إنَّهُ كانَ حَليمًا غَفورًا﴾ [فاطر: ٤١]: هٰذِهِ الآيةُ تَقْتَضي الحلمَ والمغفرةَ، فلولا حلمُهُ ومغفرتُهُ؛ لَزالَتا عن أماكنِهِما.

ومِن هٰذا قولُهُ [تَعالى]: ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأرْضُ وَتَخِرُّ الجِبالُ هَدًّا . أنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩١].

● فصلٌ: ومنها: تعريفُهُ عبدَهُ أنَّهُ لا سبيلَ لهُ إلى النَّجاةِ إلَّا بعفوِهِ ومغفرتِهِ، [وأنَّهُ رهينٌ بحقِّهِ[3]، فإنْ لَمْ يَتَغَمَّدْهُ بعفوِهِ ومغفرتِهِ]؛ فهوَ مِن الهالكينَ[4] لا محالةَ. فليسَ أحدٌ مِن خلقِهِ إلَّا وهوَ محتاجٌ إلى عفوِهِ ومغفرتِهِ كما هوَ محتاجٌ إلى فضلِهِ ورحمتِهِ.

● فصلٌ: ومنها: تعريفُهُ عبادَهُ كرمَهُ سبحانَهُ في قبولِ توبتِهِ ومغفرتِهِ لهُ على ظلمِهِ وإساءتِهِ. فهوَ الذي جادَ عليهِ بأنْ وَفَّقَهُ للتَّوبةِ وألْهَمَهُ إيَّاها ثمَّ قَبِلَها منهُ، فتابَ عليهِ أوَّلًا

---

(١) في خ: «شاء عاجله على الذنب وهتكه بين عباده فلم يطب لهم معه . . . يبارزوني».

(٢) (موضوع). رواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٢ و٩٣) من وجهين أحدهما قويّ، عن الفضيل بن عياض. . . موقوفًا بنحوه. وما هو من كلام الفضيل كما لا يخفى، وإنّما هو من الإسرائيليّات التي أكثر الصالحون ـ ومنهم الفضيل ـ من روايتها وتناقلها على سبيل الموعظة. ولذٰلك قال ابن القيّم يرحمه الله: «في بعض الآثار»؛ يعني: غير المرفوعة.

ثمّ تلقّفه الكذّابون وركّبوا له إسنادًا مرفوعًا. فرواه الديلمي (٨٠٩٢) بسند مسلسل بالمجاهيل، عن عمّار بن الحسن، ثنا إبراهيم بن هدبة، عن أنس. . . رفعه. وابن هدبة دجّال مفضوح قليل الحياء.

(٣) رهين بحقّه: حبيس معاقب بما لله عليه من الحقوق.

(٤) في خ وط: «وإلّا فهو من الهالكين»! وهٰذا غلط شائع لائق بأقلام النساخ صوابه ما أثبتّه.

وآخرًا. فتوبةُ العبدِ محفوفةٌ بتوبةٍ قبلَها عليهِ مِن اللهِ إذنًا وتوفيقًا، وتوبةٍ ثانيةٍ منهُ عليهِ قبولاً ورضًى. فلهُ الفضلُ في التَّوبةِ والكرمُ أوَّلاً وآخرًا لا إلٰهَ إلاَّ هوَ.

● فصلٌ: ومنها: إقامةُ حجَّةِ عدلِهِ على عبدِهِ؛ لِيَعْلَمَ العبدُ أنَّ للهِ عليهِ الحجَّةَ البالغةَ. فإذا أصابَهُ ما أصابَهُ مِن المكروهِ؛ فلا يَقُلْ: أنَّى هٰذا؟! ولا: مِن أينَ أُتيتُ؟! ولا: بأيِّ ذنبٍ أُصِبْتُ؟! فما أصابَ العبدَ مِن مصيبةٍ قطُّ دقيقةٍ ولا جليلةٍ؛ إلاَّ بما كَسَبَتْ يَداهُ وما يَعْفو اللهُ عنهُ أكثرُ، وما نَزَلَ بلاءٌ قطُّ إلاَّ بذنبٍ ولا رُفِعَ [بلاءٌ] إلاَّ بتوبةٍ[١].

ولهٰذا وَضَعَ اللهُ المصائبَ والبلايا والمحنَ رحمةً بينَ عبادِهِ يُكَفِّرُ بها مِن خطاياهُم، فهيَ مِن أعظمِ نعمِهِ عليهِم، وإنْ كَرِهَتْها أنفسُهُم.

ولا يَدْري العبدُ أيُّ النِّعمتينِ عليهِ أعظمُ: نعمتُهُ عليهِ فيما يَكْرَهُ، أو نعمتُهُ عليهِ فيما يُحِبُّ؟!

و«ما يُصيبُ المؤمنَ مِن همٍّ ولا وَصَبٍ[٢] ولا أذًى حتَّى الشَّوكةِ يُشاكُها؛ إلاَّ كَفَّرَ اللهُ بها مِن خطاياهُ»[٣].

وإذا كانَ للذُّنوبِ عقوباتٌ ولا بدَّ؛ فكلُّ ما عوقِبَ بهِ [العبدُ] مِن ذٰلكَ قبلَ الموتِ خيرٌ لهُ ممَّا بعدَهُ وأيسرُ وأسهلُ بكثيرٍ[٤].

● فصلٌ: ومنها: أنْ يُعامِلَ العبدُ بني جنسِهِ في إساءتِهِم إليهِ وزلاَّتِهِم معَهُ بما يُحِبُّ أنْ يُعامِلَهُ اللهُ بهِ في إساءتِهِ وزلاَّتِهِ وذنوبِهِ؛ فإنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العملِ: فمَن [عَفا]؛ عَفا اللهُ عنهُ، ومَن سامَحَ أخاهُ في إساءتِهِ إليهِ؛ سامَحَهُ اللهُ /خ٤٣٠/ في

---

(١) في خ: «ما أصابه به من المكروه فلا يقل من أين هٰذا...»، وفي ط: «... ولا رفع إلاّ بتوبة».

(٢) الوصب: المرض.

(٣) هٰذا لفظ حديث رواه: البخاري (٧٥ـ المرضى، ١ـ باب كفّارة المرض، ١٠/١٠٣/٥٦٤٠-٥٦٤٢)، ومسلم (٤٥ـ البرّ، ١٤ـ ثواب المؤمن، ٤/١٩٩١/٢٥٧٢-٢٥٧٤)؛ من حديث عائشة وأبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهم، وهٰذا لفظ حديث أبي سعيد وأبي هريرة عند البخاري.

(٤) فإن قلت: أفلا تفي الصلاة والصوم والزكاة والصدقة بهٰذه الذنوب وتكفي؟ أفلا يعفو الله ويصفح دون مقابل؟ فالجواب أنّ أغلب عفوه تعالى وصفحه دون مقابل، ولولا ذٰلك لما قامت للعبد قائمة، لٰكن لا بدّ من قليل يسير من العقوبات المباشرة للحكم التي ذكرها المصنّف قدّس الله روحه فيما تقدّم ويأتي إن شاء الله.

إساءتِهِ[١]، ومَن أغْضى وتَجاوَزَ؛ تَجاوَزَ اللهُ عنهُ، ومَنِ آسْتَقْصى؛ آسْتَقْصى [اللهُ] عليهِ.

ولا تَنْسَ حالَ الذي قَبَضَتِ الملائكةُ [روحَهُ]. فقيلَ لهُ: هل عَمِلْتَ خيرًا؟! هل عَمِلْتَ حسنةً؟! قالَ: ما أعْلَمُهُ. قيلَ: تَذَكَّرْ. قالَ: كُنْتُ أُبايِعُ النَّاسَ فكُنْتُ أُنْظِرُ الموسرَ وأتَجاوَزُ عنِ المعسرِ (أو قالَ: كُنْتُ آمُرُ فتياني أنْ يَتَجاوزوا في السِّكَّةِ). فقالَ اللهُ: نحنُ أحقُّ بذٰلكَ منكَ. وتَجاوَزَ اللهُ عنهُ[٢].

فاللهُ عَزَّ وجَلَّ يُعامِلُ العبدَ في ذنوبِهِ بمثلِ ما يُعامِلُ بِهِ العبدُ النَّاسَ في ذنوبِهِم.

فإذا عَرَفَ العبدُ ذٰلكَ؛ كانَ [في] ٱبتلائِهِ بالذُّنوبِ مِنَ الحكمِ والفوائدِ ما هوَ أنفعُ الأشياءِ لهُ.

● فصلٌ: ومنها: أنَّهُ إذا عَرَفَ هٰذا فأحْسَنَ إلى مَن أساءَ إليهِ ولمْ يُقابِلْهُ بإساءتِهِ إساءةً مثلَها؛ تَعَرَّضَ بذٰلكَ لمثلِها مِن ربِّهِ تَعالى، وأنَّهُ سبحانَهُ يُقابِلُ إساءتَهُ وذنوبَهُ بإحسانِهِ كما كانَ هوَ يُقابِلُ بذٰلكَ إساءةَ الخلقِ إليهِ، واللهُ أوسعُ فضلاً وأكرمُ[٣] وأجزلُ عطاءً.

فمَن أحَبَّ أنْ يُقابِلَ اللهُ إساءتَهُ بالإحسانِ؛ فلْيُقابِلْ هوَ إساءةَ النَّاسِ إليهِ بالإحسانِ.

ومَن عَلِمَ أنَّ الذُّنوبَ والإساءةَ لازمةٌ للإنسانِ؛ لمْ تَعْظُمْ عندَهُ إساءةُ النَّاسِ [إليهِ]. فلْيَتَأمَّلْ هوَ حالَهُ معَ اللهِ كيفَ هيَ معَ فرطِ إحسانِهِ إليهِ وحاجتِهِ هوَ إلى ربِّهِ وهٰكذا هوَ لهُ! فإذا كانَ العبدُ هٰكذا لربِّهِ؛ فكيفَ يُنْكِرُ أنْ يكونَ النَّاسُ لهُ بتلكَ المنزلةِ؟!

● فصلٌ: ومنها: أنَّهُ يُقيمُ معاذيرَ الخلائقِ، وتَتَّسِعُ رحمتُهُ لهُم، ويَنْفَرِجُ بطانُهُ، ويَزولُ عنهُ ذٰلكَ الحصرُ والضِّيقُ والانحراقُ وأكلُ[٤] بعضِهِ بعضًا، ويَسْتَريحُ العصاةُ مِن

---

(١) في ط: «فمن عفا الله عنه...»، وفي خ: «... سامحه الله في سيئاته».

(٢) رواه: البخاري (٣٤ـ البيوع، ١٧ـ من أنظر موسرًا، ٤/٣٠٧/ ٢٠٧٧ و٢٠٧٨)، ومسلم (٢٢ـ المساقاة، ٦ـ فضل إنظار المعسر، ٣/١١٩٤/ ١٥٦٠ و١٥٦٢)؛ من حديث حذيفة وأبي هريرة. وتفرّد به مسلم (١٥٦١) من حديث أبي مسعود. رضي الله عنهم جميعًا.

(٣) في خ: «إساءته وذنوبه وإحسانه بإحسانه... والله أفضل وأكرم».

(٤) في ط: «ويتفرّج بطانه... والانحراف وأكل»! وينفرج بطانه: يستريح باله وخاطره.

دعائِهِ عليهِم وقنوتِهِ عليهِم وسؤالِ اللهِ أنْ يَخْسِفَ بِهِمُ الأرضَ ويُسَلِّطَ عليهِم البلاءَ.

فإنَّهُ حينئذٍ يَرى نفسَهُ واحدًا منهُم، فهوَ يَسْألُ اللهَ لهُم ما يَسْألُهُ لنفسِهِ، وإذا دَعا لنفسِهِ بالتَّوبةِ والمغفرةِ؛ أَدْخَلَهُم معَهُ، فيَرْجو لهُم فوقَ ما يَرْجو لنفسِهِ، ويَخافُ على نفسِهِ أكثرَ ممَّا يَخافُ عليهِم.

فأينَ هٰذا مِن حالِهِ الأُولى، وهوَ ناظرٌ إليهِم بعينِ الاحتقارِ والازدراءِ، لا يَجِدُ في قلبِهِ رحمةً لهُم ولا دعوةً ولا يَرْجو لهُم نجاةً؟!

فالذَّنبُ في حقِّ مثلِ هٰذا مِن أعظمِ أسبابِ رحمتِهِ!

ومعَ هٰذا؛ فيُقيمُ أمرَ اللهِ فيهِم طاعةً للهِ ورحمةً بهِم وإحسانًا إليهِم؛ إذْ هوَ عينُ مصلحتِهِم، لا غلظةً ولا قوَّةً [ولا] فظاظةً[1].

● فصلٌ: ومنها: أنْ يَخْلَعَ صولةَ الطَّاعةِ مِن قلبِهِ، ويَنْزِعَ عنهُ رداءَ الكِبْرِ والعظمةِ الذي ليسَ لهُ، ويَلْبَسَ رداءَ الذُّلِّ والانكسارِ والفقرِ والفاقةِ. فلو دامَتْ تلكَ الصَّولةُ والعِزَّةُ في قلبِهِ؛ لَخيفَ عليهِ ما هوَ /خ٤٣١/ [مِن أعظمِ الآفاتِ، كما في الحديثِ: «لو لَمْ تُذْنِبوا؛ لَخِفْتُ عليكُم ما هوَ] أشدُّ مِن ذٰلكَ؛ العُجبُ»[2]، أو كما قالَ ﷺ.

---

(١) وهٰذه ملاحظة عظيمة جدًّا قلّ أن يتنبّه لها الناس، ولا سيّما من كان له نوع سلطة دينيّة منهم: فرحمة المذنب وإقامة عذره لا ينبغي أن تصل إلى الشفاعة في حدود الله والمداهنة في أحكامه، وإقامة الحدود والأحكام لا ينبغي أن تتمّ بالشدّة والغلظة والسبّ واللعن والإذلال والإهانة. وأدلّة هٰذا من الكتاب والسنّة كثيرة. فالله يرحم ابن القيّم ما أدقّ كلامه! وما أعظم تمسّكه بكتاب الله وسنّة رسوله!

(٢) (حسن). رواه: البزّار (٢٣٠٣ ـ مختصر الزوائد)، والعقيلي (٢/ ١٥٩)، وابن عديّ في «الكامل» (٣/ ١١٥٢)، والقضاعي في «الشهاب» (١٤٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (٧٢٥٥)؛ من طريقين قويّتين، عن سلاّم بن أبي الصهباء، عن ثابت، عن أنس. . . رفعه.

قال البزّار: «لا نعلم رواه عن ثابت إلاّ سلاّم، وهو مشهور». وقال العقيلي: «لا يتابع عليه عن ثابت، وقد روي بغير هٰذا الإسناد بإسناد صالح». وقال المنذري والهيثمي: «إسناده جيّد». قلت: هو كذٰلك إن كان سلاّم بن أبي الصهباء هو سلاّم بن سليمان المزني المترجم في «التهذيب»، وهو وجيه جدًّا. وإن كان غيره؛ فحديثه لا يعدو أن يكونَ صالحًا في الشواهد. ولهٰذا قال الذهبي عقبه في «الميزان» (٢/ ١٨٠): «ما أحسنه من حديث لو صحّ». وتعقّبه الألباني في «الصحيحة» (٦٥٨) بقوله: «هو حسن على الأقلّ بشاهده الآتي وغيره؛ فقد أخرجه أبو الحسن القزويني في «الأمالي» (١٢/ ١) عن كثير بن يحيى، ثنا أبي، عن الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد. . . مرفوعًا. وهٰذا إسناد لا بأس به في الشواهد، رجاله ثقات، غير يحيى والد كثير، وهو يحيى بن كثير أبو النضر صاحب البصري، قال الحافظ: ضعيف».

فكم بينَ آثارِ [العُجبِ والكِبْرِ وصولةِ الطَّاعةِ وبينَ آثارِ] الذُّلِّ والانكسارِ!

كما قيلَ[١]: يا آدَمُ! لا تَجزَعْ مِن كأسِ ذلٍّ كانَتْ سببَ كَيْسِكَ؛ فقدِ ٱسْتُخْرِجَ منكَ داءُ العُجْبِ وأُلْبِسْتَ رداءَ العبوديَّةِ! [يا آدَمُ! لا تَجْزَعْ] مِن قولي لكَ: ٱخْرُجْ منها؛ فلكَ خَلَقْتُها، ولٰكنِ ٱنْزِلْ إلى دارِ المجاهدةِ، وٱبْذُرْ بذرَ العبوديَّةِ، فإذا كَمَلَ الزَّرْعُ وٱسْتَحْصَدَ؛ فتعالَ فٱسْتَوْفِهِ.

لا يُوحِشَنَّكَ ذاكَ العَتْبُ إنَّ لَهُ ... لُطْفًا يُريكَ الرِّضى في حالةِ الغَضَبِ

فبينا هوَ لابسٌ ثوبَ الإدلالِ[٢] الذي لا يَليقُ بمثلِهِ؛ تَدارَكَهُ ربُّهُ برحمتِهِ، فنَزَعَهُ عنهُ، وألْبَسَهُ ثوبَ الذُّلِّ الذي لا يَليقُ بالعبدِ غيرُهُ. فما لَبِسَ العبدُ ثوبًا أكملَ عليهِ ولا أحسنَ ولا أبهى مِن ثوبِ العبوديَّةِ، وهوَ ثوبُ المذلَّةِ الذي لا عزَّ لهُ بغيرِهِ.

● فصلٌ: ومنها: أنَّ للهِ عَزَّ وجَلَّ على القلوبِ أنواعًا مِن العبوديَّةِ مِن الخشيةِ والخوفِ والإشفاقِ وتوابعِها [مِن المحبَّةِ والإنابةِ وٱبتغاءِ الوسيلةِ إليهِ وتوابعِها]، وهٰذهِ العبوديَّاتُ لها أسبابٌ تُهَيِّجُها وتَبْعَثُ عليها، فكلُّ ما قَيَّضَهُ الرَّبُّ تَعالى لعبدِهِ مِن الأسبابِ الباعثةِ على ذُلكَ المهيِّجةِ لهُ؛ فهوَ مِن أسبابِ رحمتِهِ لهُ.

ورُبَّ ذنبٍ قد هاجَ لصاحبِهِ مِن الخوفِ والإشفاقِ والوجلِ والإنابةِ والمحبَّةِ والإيثارِ والفرارِ إلى اللهِ ما لا يَهيجُهُ لهُ كثيرٌ مِن الطَّاعاتِ!

وكمْ مِن ذنبٍ كانَ سببًا لاستقامةِ العبدِ وفرارِهِ إلى اللهِ وبعدِهِ عن طرقِ الغيِّ!

وهوَ بمنزلةِ مَن خَلَّطَ، فأحَسَّ بسوءِ مزاجِهِ[٣]، وكانَ عندَهُ أخلاطٌ مزمنةٌ قاتلةٌ وهوَ لا يَشْعُرُ بها، فشَرِبَ دواءً أزالَ تلكَ الأخلاطَ العفنةَ التي لو دامَتْ؛ لَتَرامَتْ بِهِ إلى الفسادِ والعطبِ.

= وجملة القول أنّه: إن كان ابن أبي الصبهاء هو سلاّم بن سليمان المزني؛ فالحديث فوق الحسن، وإن كانا أثنين؛ فالحديث حسن بشاهده، وقد مال إلى تقويته العقيلي والمنذري والهيثمي والمناوي والألباني.

(١) بلسان الواقع أو بلسان الحال، كما بيّنه المصنّف يرحمه الله في «المدارج» (١/ ٣٧٥ ـ ط. ابن خزيمة)، وليس هٰذا بالخبر المرفوع ولا غير المرفوع أيضًا.

(٢) في خ: «كأس زلة كانت بسبب كسيك... الإذلال»، وفي ط: «... فبينما هو لابس...».

(٣) سوء مزاجه: سوء صحّته. وقد تقدّم الكلام في المزاج (١/ ٤٨).

وإنَّ مَن يَبْلُغ رحمتُهُ ولطفُهُ وبرُّهُ بعبدِهِ هٰذا المبلغَ وما هوَ أعجبُ وألطفُ منهُ لَحقيقٌ بأنْ يَكونَ الحبُّ كلُّهُ لهُ والطَّاعةُ[1] كلُّها لهُ، وأنْ يُذْكرَ فلا يُنْسى ويُطاعَ فلا يُعْصى ويُشْكرَ فلا يُكْفرَ.

● فصلٌ: ومنها: أنْ يَعْرِفَ العبدُ مقدارَ نعمةِ معافاتِه وفضلَهُ في توفيقِهِ لهُ وحفظِهِ إيَّاهُ؛ فإنَّهُ مَن تَربَّى في العافيةِ لا يَعْلَمُ ما يُقاسيهِ المبتلى ولا يَعْرِفُ مقدارَ النِّعمةِ.

فلو عَرَفَ أهلُ طاعةِ اللهِ: أنَّهُم هُمُ المنعَمُ عليهِم في الحقيقةِ، وأنَّ للهِ عليهِم مِن الشُّكرِ أضعافَ ما على غيرِهِم، وإنْ تَوَسَّدوا التُّرابَ ومَضَغوا الحصى، فهُم أهلُ النِّعمةِ المطلقةِ. وأنَّ مَن خَلَّى اللهُ بينَهُ وبينَ معاصيهِ؛ فقد سَقَطَ مِن عينِهِ وهانَ عليهِ، وأنَّ ذٰلكَ ليسَ مِن كرامتِهِ على ربِّهِ، وإنْ وَسَّعَ اللهُ عليهِ في الدُّنيا ومَدَّ لهُ مِن أسبابِها، فإنَّهُم أهلُ الابتلاءِ/خ٤٣٢/ على الحقيقةِ.

فإذا طالَبَتِ العبدَ نفسُهُ بما تُطالِبُهُ مِن الحظوظِ والأقسامِ وأَرَتْهُ أنَّهُ في بليَّةٍ وضائقةٍ؛ تَدارَكَهُ اللهُ برحمتِهِ وابْتَلاهُ ببعضِ الذُّنوبِ، فرَأى ما كانَ فيهِ مِن المعافاةِ والنِّعمةِ، وأنَّهُ لا نسبةَ لِما كانَ فيهِ مِن النِّعمِ إلى ما طَلَبَتْهُ نفسُهُ مِن الحظوظِ، فحينئذٍ يَكونُ أكثرُ أمانيهِ وآمالِهِ العودَ إلى حالِهِ وأنْ يُمَتِّعَهُ اللهُ بعافيتِهِ.

● فصلٌ: ومنها: أنَّ التَّوبةَ تُوجِبُ للتَّائبِ آثارًا عجيبةً مِن المعاملةِ التي لا تَحْصُلُ بدونِها، فتوجِبُ لهُ مِن المحبَّةِ والرِّقَّةِ واللطفِ وشكرِ اللهِ وحمدِهِ والرِّضى عنهُ عبوديَّاتٍ أُخرَ. فإنَّهُ إذا تابَ إلى اللهِ؛ قَبِلَ اللهُ توبتَهُ، فرَتَّبَ لهُ على ذٰلكَ القبولِ أنواعًا مِن النِّعمِ لا يَهْتَدي العبدُ لتفاصيلِها، بل لا يَزالُ يَتَقَلَّبُ في بركتِها وآثارِها ما لَمْ يَنْقُضْها أو يُفْسِدْها[2].

● فصلٌ: ومنها: أنَّ اللهَ سبحانَهُ يُحِبُّهُ ويَفْرَحُ بتوبتِهِ أعظمَ فرحٍ، وقد تَقَرَّرَ أنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العملِ، فلا شيءَ يَعْدِلُ الفرحةَ[3] التي يَظْفَرُ بها عندَ التَّوبةِ النَّصوحِ.

---

(١) في خ: «به لترامت به... فحقيق...»، وفي ط: «... لحقيق به أن... والطاعات».
(٢) في خ: «وإن وسع له في الدنيا... تقبّل الله توبته...»، وفي ط: «... ويفسدها».
(٣) في خ وط: «من جنس العمل فلا ينسى الفرحة»! وهٰذا تحريف بيّن أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

وتَأَمَّلْ كيفَ تَجِدُ القلبَ يَرْقُصُ فرحًا[١] وأنتَ لا تَدْري سببَ ذٰلكَ الفرحِ ما هوَ! وهٰذا أمرٌ لا يُحِسُّ بهِ إلَّا حيُّ القلبِ، وأمَّا ميِّتُ القلبِ؛ فإنَّما يَجِدُ الفرحَ عندَ ظفرِهِ بالذَّنبِ ولا يَعْرِفُ فرحًا غيرَهُ.

فوازِنْ إذًا بينَ هٰذينِ الفرحينِ! وٱنْظُرْ ما يُعْقِبُـ[ـهُ] فرحُ الظَّفرِ بالذَّنبِ مِن أنواعِ الأحزانِ والهمومِ والغمومِ والمصائبِ؛ فمَن يَشْتَري فرحةَ ساعةٍ بغمِّ الأبدِ؟! وٱنْظُرْ ما يُعْقِبُهُ فرحُ الظَّفرِ بالطَّاعةِ والتَّوبةِ النَّصوحِ مِن الانشراحِ الدَّائمِ والنَّعيمِ وطيبِ العيشِ! [و]وازِنْ بينَ هٰذا وهٰذا، ثمَّ ٱخْتَرْ ما يَليقُ بكَ ويُناسِبُكَ، وكلٌّ يَعْمَلُ على شاكلتِهِ، وكلُّ أمرئٍ يَصْبو إلى ما يُناسِبُهُ!

● فصلٌ: ومنها: [أنَّهُ] إذا شَهِدَ ذنوبَهُ ومعاصيَهُ وتفريطَهُ في حقِّ ربِّهِ: ٱسْتَكْثَرَ القليلَ مِن نعمِ ربِّهِ عليهِ - ولا قليلَ منهُ - لعلمِهِ أنَّ الواصلَ إليهِ منها كثيرٌ على مسيءٍ مثلِهِ، وٱسْتَقَلَّ الكثيرَ مِن عملِهِ لعلمِهِ بأنَّ الذي يَنْبَغي أنْ يَغْسِلَ بهِ نجاستَهُ وأوضارَهُ وأوساخَهُ أضعافُ ما يَأْتي بهِ. فهوَ دائمًا مستقلٌّ لعملِهِ [كائنًا ما] كانَ، مستكثرٌ لنعمةِ اللهِ عليهِ وإنْ دَقَّتْ.

وقد تَقَدَّمَ التَّنبيهُ على هٰذا الوجهِ، وهوَ مِن ألطفِ الوجوهِ، فعليكَ بمراعاتِهِ؛ فلهُ تأثيرٌ عجيبٌ، ولوْ لمْ يَكُنْ في فوائدِ الذَّنبِ إلَّا هٰذا؛ لَكَفى بهِ.

فأينَ حالُ هٰذا مِن حالِ مَن لا يَرى للهِ عليهِ نعمةً؛ إلَّا ويَرى أنَّهُ كانَ يَنْبَغي أنْ يُعْطى ما هوَ فوقَها وأجلُّ منها! وأنَّهُ لا يَقْدِرُ أنْ يَتكَلَّمَ! وكيفَ يُعانِدُ القدرَ! وهوَ /خ٤٣٣/ مظلومٌ معَ الرَّبِّ لا يُنْصِفُهُ ولا يُعْطيهِ مرتبتَهُ! بل هوَ مغرًى بمعاندتِهِ لفضلِهِ وكمالِهِ! وأنَّهُ كانَ يَنْبَغي لهُ أنْ يَنالَ الثُّريَّا ويَطَأَ بأخمصِهِ هنالكَ ولٰكنَّهُ مظلومٌ مبخوسُ الحظِّ؟!

وهٰذا الضَّربُ مِن أبغضِ الخلقِ إلى اللهِ وأشدِّهِم مقتًا عندَهُ، وحكمةُ اللهِ تَقْتَضي أنَّهُم لا يَزالونَ في سَفالٍ. فهُم بينَ عتبٍ على الخالقِ وشكوى لهُ، وذلٍّ لخلقِهِ وحاجةٍ

---

(١) في ط: «تجد القلب حيًّا فرحًا»، والأولى ما أثبتّه من خ.

إليهم وخدمةِ لهُم، أشغلُ النَّاسِ قلوبًا بأربابِ الولاياتِ والمناصبِ يَنْتَظِرونَ ما يَقْذِفونَ بهِ إليهم مِن عظامِهم وغسالةِ أيديهم وأوساخِهم، وأفرغُ النَّاسِ قلوبًا عن معاملةِ اللهِ والانقطاعِ إليهِ والتَّلذُّذِ بمناجاتِهِ والطُّمأنينةِ بذكرِهِ وقرَّةِ العينِ بخشيتِهِ والرِّضى بهِ!

فعياذًا باللهِ مِن زوالِ نعمتِهِ وتحوُّلِ عافيتِهِ[1] وفجأةِ نقمتِهِ ومِن جميعِ سخطِهِ.

● فصلٌ: ومنها: أنَّ الذَّنبَ يوجِبُ لصاحبِهِ التَّيقُّظَ والتَّحرُّزَ: مِن مصائدِ عدوِّهِ ومكامنِهِ. ومِن أينَ يَدْخُلُ عليهِ اللصوصُ والقطَّاعُ ومكامنُهُم؟ ومِن أينَ يَخْرُجونَ عليهِ؟ وفي أيِّ وقتٍ يَخْرُجونَ؟ فهوَ قدِ اسْتَعَدَّ لهُم وتأهَّبَ، وعَرَفَ بماذا يَسْتَدْفعُ شرَّهُم وكيدَهُم. فلو أنَّهُ مَرَّ عليهِم على غرَّةٍ وطمأنينةٍ[2]؛ لمْ يَأْمَنْ أنْ يَظْفَروا بهِ ويَجْتاحوهُ جملةً.

● فصلٌ: ومنها: أنَّ القلبَ يَكونُ ذاهلاً عن عدوِّهِ معرضًا عنهُ مشتغلاً ببعضِ مهمَّاتِهِ: فإذا أصابَهُ سهمٌ مِن عدوِّهِ؛ اسْتُجْمِعَتْ لهُ قوَّتُهُ وحاسَّتُهُ وحميَّتُهُ وطَلَبَ بثأرِهِ إنْ كانَ قلبُهُ حرًّا كريمًا، كالرَّجلِ الشُّجاعِ إذا جُرِحَ؛ فإنَّهُ لا يَقومُ لهُ شيءٌ، بل تَراهُ بعدَها هائجًا طالبًا مقدامًا. والقلبُ الجبانُ المَهينُ إذا جُرِحَ، كالرَّجلِ الضَّعيفِ المَهينِ إذا جُرِحَ؛ وَلَّى هاربًا والجراحاتُ في أكتافِهِ. وكذٰلكَ الأسدُ إذا جُرِحَ؛ فإنَّهُ لا يُطاقُ.

فلا خيرَ فيمَن لا مروءةَ لهُ بطلبِ أخذِ ثأرِهِ مِن أعدى عدوِّهِ؛ فما شيءٌ أشفى للقلبِ مِن أخذِهِ بثأرِهِ مِن عدوِّهِ، ولا [عدوَّ] أعدى لهُ مِن الشَّيطانِ، فإنْ كانَ [قلبُهُ] مِن قلوبِ الرِّجالِ المتسابقينَ في حلبةِ المجدِ؛ جَدَّ في أخذِ الثَّأرِ وغاظَ عدوَّهُ كلَّ الغيظِ وأنْضاهُ[3]، كما جاءَ عن بعضِ السَّلفِ: إنَّ المؤمنَ لَيُنْضي[4] شيطانَهُ كما يُنْضي أحدُكُم بعيرَهُ في سفرِهِ[5].

---

(١) في خ: «مسيء مثله أن يستقلّ الكثير... معتب على الخالق... وتحويل عافيته».

(٢) في خ: «لصاحبه السقط والتحرّز... ومن أين يخرجوا عليه... عليهم في غيره وطمأنينة».

(٣) أنضاه: جعله ضعيفًا مهزولاً.

(٤) في خ: «قلبه حرّ كريم كا الشجاع... جرح ذلّ هاربًا... المؤمن ينضي».

(٥) (لا بأس به مرفوعًا). رواه: أحمد (٢/ ٣٨٠)، وابن أبي الدنيا في «المكائد» (٢٠)؛ من طرق ثلاث، عن ابن لهيعة، عن موسى بن وردان، عن أبي هريرة،... رفعه.

● فصلٌ: ومنها: أنَّ مثلَ هٰذا يَصيرُ كالطَّبيبِ يَنْتَفعُ بِهِ المرضى في علاجِهِم ودوائِهِم.

والطَّبيبُ الذي عَرَفَ المرضَ مباشرةً وعرفَ دواءَهُ وعلاجَهُ أحذقُ وأخبرُ مِن الطَّبيبِ الذي إنَّما عَرَفَهُ وصفًا. هٰذا في أمراضِ /خ٤٣٤/ الأبدانِ، وكذٰلكَ في أمراضِ القلوبِ وأدوائِها.

وهٰذا معنى قولِ بعضِ الصُّوفيَّةِ: أعرفُ النَّاسِ بالآفاتِ أكثرُهُم آفاتٍ!

وقالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ [رَضِيَ اللهُ عنهُ]: إنَّما تُنْقَضُ عُرى الإسلامِ عروةً عروةً إذا نَشَأَ في الإسلامِ مَن لَمْ يَعْرِفِ[1] الجاهليَّةَ.

ولِهٰذا كانَ الصَّحابةُ أعرفَ الأُمَّةِ بالإسلامِ وتفاصيلِهِ وأبوابِهِ وطرقِهِ، وأشدَّ النَّاسِ رغبةً فيهِ ومحبَّةً لهُ وجهادًا لأعدائِهِ وتكلُّمًا بأعلامِهِ وتحذيرًا مِن خلافِهِ؛ لكمالِ علمِهِم بضدِّهِ. فجاءَهُمُ الإسلامُ؛ كلُّ خصلةٍ منهُ مضادَّةٌ لكلِّ خصلةٍ ممَّا كانوا عليهِ، فآزدادوا لهُ معرفةً وحبًّا وفيهِ جهادًا بمعرفتِهِم بضدِّهِ. وذٰلكَ بمنزلةِ مَن كانَ في حصرٍ شديدٍ وضيقٍ ومرضٍ وفقرٍ وخوفٍ ووحشةٍ، فقَيَّضَ اللهُ لهُ مَن نَقَلَهُ [منهُ] إلى فضاءٍ وسعةٍ وأمنٍ وعافيةٍ وغنًى وبهجةٍ ومسرَّةٍ؛ فإنَّهُ يَزْدادُ سرورُهُ وغبطتُهُ ومحبَّتُهُ بما نُقِلَ إليهِ بحسبِ معرفتِهِ بما كانَ فيهِ.

وليسَ حالُ هٰذا كمَن وُلِدَ في الأمنِ والعافيةِ والغنى والسُّرورِ؛ فإنَّهُ لا يَشْعُرُ بغيرِهِ[2]، وربَّما قُيِّضَتْ لهُ أسبابٌ تُخْرِجُهُ عن ذٰلكَ إلى ضدِّهِ وهوَ لا يَشْعُرُ، وربَّما ظَنَّ أنَّ كثيرًا مِن أسبابِ الهلاكِ والعطبِ تُفْضي بِهِ إلى السَّلامةِ والأمنِ والعافيةِ فيَكونُ هلاكُهُ على يدي نفسِهِ [وهوَ لا يَشْعُرُ]. وما أكثرَ هٰذا الضَّربَ مِن النَّاسِ[3]!

= قال الهيثمي والعراقي: «فيه ابن لهيعة». قلت: هو من رواية قتيبة بن سعيد وغيره عنه، وكان قتيبة مدقّقًا فهمًا فيما يأخذه عنه، ولذٰلك قال الذهبيّ في رواية له عنه: إسناده نظيف. وموسى بن وردان حسن الحديث صدوق ربّما أخطأ. ومثل هٰذا المتن ممّا يحمل عنهما، ولا سيّما أنّ معناه ظاهر الصحّة مشهود له في الجملة، وقد ضعّفه الألباني مع أنّه يحسّن مثل هٰذا السند عادة. والله أعلم.

(١) في خ: «والطبيب الذي كان المرض...»، وفي ط: «... من لا يعرف».

(٢) في خ: «كلّ خصلة منها مضادّة...»، وفي ط: «... فإنّه لم يشعر».

(٣) وآختبر صدق هٰذا بالنظر في أحوال أهل البدع وأصل بدعهم وما آنتهى إليه حالهم: فالخوارج بدؤوا بتحكيم كتاب الله وآنتهوا إلى قتل أوليائه وهم لا يشعرون، والروافض بدؤوا بحبّ آل البيت وآنتهوا إلى=

فإذا عَرَفَ الضِّدَّينِ، وعَلِمَ مباينةَ الطَّرفينِ، وعَرَفَ أسبابَ الهلاكِ على التَّفصيلِ؛ كانَ أحرى أنْ تَدومَ لهُ النِّعمةُ ما لمْ يُؤْثِرْ أسبابَ زوالِها على علمٍ.

وفي مثلِ هٰذا قالَ القائلُ:

عَـرَفْـتُ الشَّـرَّ لا لِلشَّـرِّ لٰكِـنْ لِتَـوَقِّيـهِ ... ومَنْ لا يَعْرِفُ الشَّرَّ مِن النَّاسِ يَقَعْ فيهِ

وهٰذهِ حالُ المؤمنِ؛ يكونُ فطنًا حاذقًا، أعرفَ النَّاسِ بالشَّرِّ وأبعدَهُم منهُ، فإذا تكَلَّمَ في الشَّرِّ وأسبابِهِ؛ ظَنَنْتَهُ مِن شرِّ النَّاسِ، فإذا خالَطْتَهُ وعَرَفْتَ طويَّتَهُ؛ رأيتَهُ مِن أبرِّ النَّاسِ.

والمقصودُ أنَّ مَن بُلِيَ بالآفاتِ؛ صارَ مِن أعرفِ النَّاسِ بطرقِها، وأمْكَنَهُ أنْ يَسُدَّها على نفسِهِ وعلى مَنِ ٱسْتَنْصَحَهُ مِن النَّاسِ ومَن لمْ يَسْتَنْصِحْهُ[1].

● فصلٌ: ومنها: أنَّهُ سبحانَهُ يُذيقُ عبدَهُ ألمَ الحجابِ [عنهُ] والبعدِ وزوالِ ذٰلكَ [الأُنسِ و]القربِ؛ لِيَمْتَحِنَ عبدَهُ: فإنْ أقامَ على الرِّضى بهٰذهِ الحالِ، ولمْ يَجِدْ نفسَهُ تُطالِبُهُ بحالِها الأوَّلِ معَ اللهِ، بلِ ٱطْمَأنَّتْ وسَكَنَتْ إلى غيرِهِ؛ عَلِمَ أنَّهُ لا يَصْلُحُ، فوَضَعَهُ في مرتبتِهِ التي تَليقُ بهِ. وإنِ ٱسْتَغاثَ ٱستغاثةَ الملهوفِ، وتَقَلَّقَ تقلُّقَ المكروبِ، ودَعا دعاءَ /خ٤٣٥/ المضطرِّ، وعَلِمَ أنَّهُ قد فاتَتْهُ حياتُهُ [حقًّا]، فهوَ يَهْتِفُ بربِّهِ أنْ يَرُدَّ عليهِ حياتَهُ ويُعيدَ عليهِ ما لا حياةَ لهُ بدونِهِ؛ عَلِمَ أنَّهُ موضعٌ لِما أُهِّلَ لهُ، فرُدَّ عليهِ أحوجَ ما هوَ إليهِ، فعَظُمَتْ بهِ فرحتُهُ، وكَمَلَتْ بِهِ لذَّتُهُ، [وتَمَّتْ بهِ نعمتُهُ]، وٱتَّصَلَ بهِ سرورُهُ، وعَلِمَ حينئذٍ مقدارَهُ فعَضَّ عليهِ بالنَّواجذِ وثَنى عليهِ الخناصرَ، وكانَ حالُهُ كحالِ ذٰلكَ الفاقدِ لراحلتِهِ التي عليها طعامُهُ وشرابُهُ في الأرضِ المُهْلِكَةِ إذا وَجَدَها بعدَ معاينةِ الهلاكِ. فما أعظمَ موقعَ ذٰلكَ الوجدانِ عندَهُ!

وللهِ أسرارٌ وحِكَمٌ ومنبِّهاتٌ وتعريفاتٌ لا تَنالُها عقولُ[2] البشرِ.

= تأليههم وهم لا يشعرون، والصوفيّة بدؤوا بتصفية النفس وٱنتهوا إلى تصفيتها من الإسلام جملة وهم لا يشعرون... وما أكثر هٰذا الضرب من الناس.

(١) في خ: «حاذقًا فإذًا يكون أعرف... من ٱستصحبه من الناس ومن لم يستصحبه».

(٢) في خ: «لا يصلح فوضع... وتقلق بقلق المكروب... قد فاته حياته... بعقول».

فَقُلْ لِغَلِيظِ القَلْبِ وَيْحَكَ لَيْسَ ذا بِعُشِّكَ فَأْدْرُجْ طالبًا عُشَّكَ البالي[١]
وَلا تَكُ مِمَّنْ مَدَّ باعًا إلى جَنًى فَقَصَّرَ عَنْهُ قالَ ذا لَيْسَ بالحالي[٢]

فالعبدُ إذا بُلِيَ بعدَ الأُنسِ بالوحشةِ، وبعدَ القربِ بنارِ البعادِ؛ ٱشْتاقَتْ نفسُهُ إلى لذَّةِ تلكَ المعاملةِ، فحَنَّتْ وأنَّتْ وتَصَدَّعَتْ وتَعَرَّضَتْ لنفحاتِ مَن ليسَ لها منهُ عوضٌ أبدًا، ولا سيَّما إذا تَذَكَّرَتْ برَّهُ ولطفَهُ وحنانَهُ وقربَهُ؛ فإنَّ هٰذهِ الذِّكرى تَمْنَعُها القرارَ وتُهَيِّجُ منها البلابلَ، كما قالَ القائلُ وقد فاتَهُ طوافُ الوداعِ فرَكِبَ الأخطارَ ورَجَعَ إليهِ:

وَلَمَّا تَذَكَّرْتُ المَنازِلَ بِالحِمى وَلَمْ يُقْضَ لي تَسْليمَةُ المُتَزَوِّدِ
تَيَقَّنْتُ أنَّ العَيْشَ لَيْسَ بِنافِعي إذا أنا لَمْ أنْظُرْ إلَيْها بمَوْعِدِ

وإنِ ٱسْتَمَرَّ إعراضُها ولمْ تَحِنَّ إلى مهدِها الأوَّلِ ولمْ تُحِسَّ بفاقتِها الشَّديدةِ وضرورتِها إلى مراجعةِ قربِها مِن ربِّها؛ فهيَ ممَّنْ إذا غابَ لمْ يُطْلَبْ وإذا أبَقَ لمْ يُسْتَرْجَعْ وإذا جَنى لمْ يُسْتَعْتَبْ! وهٰذهِ هيَ النُّفوسُ التي لمْ تُؤَهَّلْ لِما هنالكَ! وبحسبِ المعرضِ هٰذا الحرمانُ؛ فإنَّهُ يَكْفيه، وذٰلكَ ذنبٌ عقابُهُ فيه.

● فصلٌ: ومنها: أنَّ الحكمةَ الإلٰهيَّةَ ٱقْتَضَتْ تركيبَ الشَّهوةِ والغضبِ في الإنسانِ.

وهاتانِ القوَّتانِ فيهِ بمنزلةِ صفاتِهِ الذَّاتيَّةِ لا يَنْفَكُّ عنهُما، وبهما وَقَعَتِ المحنةُ والابتلاءُ وعُرِّضَ لنيلِ الدَّرجاتِ العلى واللحاقِ بالرَّفيقِ الأعلى والهبوطِ إلى أسفلِ سافلينَ. فهاتانِ[٣] القوَّتانِ لا تَدَعانِ العبدَ حتَّى تُنيلاهُ منازلَ الأبرارِ [أ]و تَضَعاهُ[٤] تحتَ أقدامِ الأشرارِ.

ولنْ يَجْعَلَ اللهُ مَن شهوتُهُ مصروفةٌ إلى ما أعَدَّ لهُ في دارِ النَّعيمِ وغضبُهُ حَمِيَّةٌ للهِ ولكتابِهِ ولرسولِهِ ولدينِهِ، كمَن شهوتُهُ مصروفةٌ في هواهُ وأمانيهِ العاجلةِ /خ٤٣٦/

---

(١) ليس هٰذا بعشّك فادرجي: مثل يضرب لمن يدخل في أمر لا يحسنه. فادرجي: فسيري إلى غيره.

(٢) مدّ باعًا: مدّ يده. جنًى: ثمر. الحالي: الحلو. وهٰذا أيضًا مثل يضرب لمن يذمّ الشيء بعد أن حاول الحصول عليه فعجز عنه.

(٣) في خ: «لا ينفكّ عنها وبهما... وعرّض نيل الدرجات... سافلين وبهاتان».

(٤) في خ وط: «لا يدعان... ينيلانه... يضعانه»! ولا بدّ من حذف النون.

وغضبُهُ مقصورٌ على حظِّهِ ولوِ ٱنْتُهِكَتْ محارمُ اللهِ وحدودُهُ وعُطِّلَـ[ـتْ] شرائعُهُ وسنَّتُهُ بعدَ أنْ يَكونَ هوَ ملحوظًا[١] بعينِ الاحترامِ والتَّعظيمِ والتَّوقيرِ ونفوذِ الكلمةِ! وهٰذهِ حالُ أكثرِ الرُّؤساءِ أعاذَنا اللهُ منها[٢].

فلَن يَجْعَلَ [اللهُ] هٰذينِ الصِّنفينِ في دارٍ واحدةٍ: فهٰذا صَعِدَ بشهوتِهِ وغضبِهِ إلى أعلى علِّيِّينَ، وهٰذا هوى بهِما[٣] إلى أسفلِ سافلينَ.

والمقصودُ أنَّ تركيبَ الإنسانِ على هٰذا الوجهِ هوَ غايةُ الحكمةِ، ولا بدَّ أنْ تَقْتَضِيَ كلُّ واحدةٍ مِن القوَّتينِ أثَرَها[٤]، فلا بدَّ مِن وقوعِ الذَّنبِ والمخالفاتِ والمعاصي، ولا بدَّ مِن ترتُّبِ آثارِ هاتينِ القوَّتينِ عليهِما، ولو لَمْ يُخْلَقا في الإنسانِ؛ لَمْ يَكُنْ إنسانًا بل كانَ ملَكًا، فالتَّرتُّبُ مِن موجَباتِ الإنسانيَّةِ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «كلُّ بني آدَمَ خطَّاءٌ وخيرُ الخطَّائينَ التَّوَّابونَ»[٥].

---

(١) في خ: «كمن جعل شهوته... ملحوظ»، وفي ط: «... ولو أنتهك... وسنّته...».

(٢) لمّا أعرض عنها قدّس الله روحه وٱستعاذ بالله منها؛ أناله الله إيّاها، فقلّما تجد عالمًا كتب له من القبول والرضى والرياسة والإمامة ما كتب لابن القيّم، شهد بذٰلك الموافق والمخالف.

(٣) في ط: «فهٰذا ركض بشهوته وغضبه...»، وفي خ: «... وهٰذا هوى بها».

(٤) في خ وط: «أن يقتضي كل واحد من القوّتين أثره»! والصواب ما أثبتّ بدليل ما بعده.

(٥) (ضعيف). رواه: ابن أبي شيبة (٣٤٢٠٥)، وأحمد (٣/١٩٨)، وعبد بن حميد في «المسند» (١١٩٧- منتخب)، والدارمي (٢/٣٠٣)، وابن ماجه (٣٧- الزهد، ٣٠- التوبة، ٢/١٤٢٠/٤٢٥١)، والترمذي (٣٨- القيامة، ٤٩- باب، ٤/٦٥٩/٢٤٩٩)، وأبو يعلى (٢٩٢٢)، والروياني (١٣٦٦)، وابن حبّان في «المجروحين» (٢/١١١)، وابن عديّ في «الكامل» (٥/١٨٥٠)، والحاكم (٤/٢٤٤)، والبيهقي في «الشعب» (٧١٢٧)، والأصبهاني في «الترغيب» (٧٤٧)، والمزّي في «التهذيب» (٢١/١٣١)؛ من طريق عليّ بن مسعدة الباهلي، ثنا قتادة، عن أنس... رفعه.

وهاهنا علّتان: إحداهما: أنّ ابن مسعدة فيه ضعف، وقد ليّنه الذهبي، وقال العسقلاني: «صدوق له أوهام»، وقد تفرّد بهٰذا دون أصحاب قتادة. وكان من الممكن أن يُتساهل ويحمل عنه مثل هٰذا لولا العلّة الثانية؛ فإنّه خولف، فرواه أحمد في «الزهد» (٤٩٦) من طريق عبدالوهّاب الخفّاف، أنبأنا سعد (تحريف صوابه سعيد، وهو ابن أبي عروبة)، عن قتادة؛ قال: أوحى الله إلى نبيّ من الأنبياء... فذكره. وعبدالوهّاب قويّ في ابن أبي عروبة، وهٰذا إمام في قتادة، فالقول قوله، وحديث ابن مسعدة بين الشذوذ والنكارة.

ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٣٣٣) من طريق سليمان بن عيسى، ثنا مالك، عن ابن شهاب، عن أنس... رفعه مختصرًا. قال أبو نعيم: «غريب من حديث مالك، تفرّد به سليمان بن عيسى، وهو الحجازيّ، وفيه ضعف». قلت: هو السجزيّ الكذّاب صاحب الترجمة المخزية في «اللسان»، والسند ساقط.

فأمَّا مَنِ ٱكْتَنَفَتْهُ العصمةُ وضُرِبَتْ عليهِ سرادقاتُ الحفظِ؛ فهُم أقلُّ أفرادِ النَّوعِ الإنسانيِّ، وهُم خلاصتُهُ ولبُّهُ.

● فصلٌ: ومنها: أنَّ اللهَ سبحانَهُ إذا أرادَ بعبدِهِ خيرًا؛ أنساهُ رؤيةَ طاعاتِهِ [ورَفَعَها مِن قلبِهِ ولسانِهِ.

فإذا ٱبْتُلِيَ بالذَّنبِ؛ جَعَلَهُ نصبَ عينيهِ، ونَسِيَ طاعاتِهِ]، وجَعَلَ همَّهُ كلَّهُ بذنبِهِ، فلا يَزالُ ذنبُهُ أمامَهُ إنْ قامَ أو قَعَدَ أو غَدا أو راحَ، فيكونُ هٰذا عينَ الرَّحمةِ في حقِّهِ.

كما قالَ بعضُ السَّلفِ: إنَّ العبدَ لَيَعْمَلُ الذَّنبَ فيَدْخُلُ بهِ الجنَّةَ ويَعْمَلُ الحسنةَ فيَدْخُلُ بها النَّارَ. قالوا: وكيفَ ذٰلكَ؟! قالَ: يَعْمَلُ الخطيئةَ، فلا تَزالُ نصبَ عينيهِ كلَّما ذَكَرَها بَكى ونَدِمَ وتابَ وٱسْتَغْفَرَ وتَضَرَّعَ وأنابَ إلى اللهِ وذَلَّ لهُ وٱنْكَسَرَ وعَمِلَ لها أعمالاً، فتكونُ سببَ الرَّحمةِ في حقِّهِ. ويَعْمَلُ الحسنةَ، فلا تَزالُ نصبَ عينيهِ يَمُنُّ بها ويَراها ويَعْتَدُّها على ربِّهِ وعلى الخلقِ ويَتَكَبَّرُ بها ويَتَعَجَّبُ مِن النَّاسِ كيفَ لا[1] يُعَظِّمونَهُ ويُكْرِمونَهُ ويُجِلُّونَهُ عليها، فلا تَزالُ هٰذهِ الأُمورُ بهِ حتَّى تَقوى عليهِ آثارُها فتُدْخِلَهُ النَّارَ!

فعلامةُ [السَّعادةِ] أنْ تَكونَ حسناتُ العبدِ خلفَ ظهرِهِ [وسيِّئاتُهُ نصبَ عينيهِ، وعلامةُ الشَّقاوةِ أنْ يَجْعَلَ حسناتِهِ نصبَ عينيهِ وسيِّئاتِهِ خلفَ ظهرِهِ]. واللهُ المستعانُ.

● فصلٌ: ومنها: أنَّ شهودَ العبدِ ذنوبَهُ وخطاياهُ يُوجِبُ لهُ أنْ لا يَرى لنفسِهِ على أحدٍ فضلاً ولا لهُ على أحدٍ حقًّا.

فإنَّهُ يَشْهَدُ عيوبَ نفسِهِ وذنوبَهُ فلا يَظُنُّ أنَّهُ خيرٌ مِن مسلمٍ يُؤْمِنُ باللهِ ورسولِهِ ويُحَرِّمُ ما حَرَّمَ اللهُ ورسولُهُ. فإذا شَهِدَ ذٰلكَ مِن نفسِهِ؛ لمْ يَرَ لها على النَّاسِ /خ٤٣٧/ حقوقًا مِن الإكرامِ يَتَقاضاهُم إيَّاها ويَذُمُّهُم على تركِ القيامِ بها؛ فإنَّها عندَهُ أخسُّ قدرًا وأقلُّ قيمةً مِن أنْ يَكونَ لها على عبادِ[2] اللهِ حقوقٌ يَجِبُ عليهِم مراعاتُها أو لها عليهِم

= ومجموع الطريقين لا ترقى بالحديث إلى الحسن كما ترى، ولذٰلك ضعّفه الترمذي وابن حبّان وأبو نعيم والذهبي، ومال إلى تقويته الحاكم والعجلوني والصنعاني والألباني. والله أعلم.

(١) في خ: «ويراها ويعدّها على ربّه... الناس كي لا»! والتصويب من ط.

(٢) في خ: «مسلم مؤمن بالله... وإذا شهد ذٰلك... لها عند عباد».

فضلٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُكْرَمَ ويُعَظَّمَ ويُقَدَّمَ لأجلِهِ، فيَرى أَنَّ مَن سَلَّمَ عليهِ أو لَقِيَهُ بوجهٍ منبسطٍ فقد أَحْسَنَ إليهِ وبَذَلَ لهُ ما لا يَسْتَحِقُّهُ.

فٱسْتَراحَ هٰذا في نفسِهِ، وأراحَ النَّاسَ مِن شكايتِهِ وغضبِهِ على الوجودِ وأهلِهِ. فما أطيبَ عيشَهُ! وما أنعمَ بالَهُ! وما أقرَّ عينَهُ! وأينَ هٰذا ممَّن لا يَزالُ عاتبًا على الخلقِ، شاكيًا تركَ قيامِهِم بحقِّهِ[١]، ساخطًا عليهِم وهُم عليهِ أسخطُ؟!

فسبحانَ مَن بَهَرَتْ حكمتُهُ عقولَ العالمينَ.

● فصلٌ: ومنها: أَنَّهُ يُوجِبُ لهُ الإمساكَ عن عيوبِ النَّاسِ [والفكرِ فيها؛ فإنَّهُ في شغلٍ بعيبِ نفسِهِ. فطوبى لمَن شَغَلَهُ عيبُهُ عن عيوبِ النَّاسِ]، وويلٌ لمَن نَسِيَ عيبَهُ وتَفَرَّغَ لعيوبِ النَّاسِ. هٰذا مِن علامةِ الشَّقاوةِ، كما أنَّ الأوَّلَ مِن أماراتِ السَّعادةِ.

● فصلٌ: ومنها: أَنَّهُ إذا وَقَعَ في الذَّنبِ؛ شَهِدَ نفسَهُ مثلَ إخوانِهِ الخطَّائينَ، وشَهِدَ أنَّ المصيبةَ واحدةٌ والجميعَ مشتركونَ في الحاجةِ بل في الضَّرورةِ إلى مغفرةِ اللهِ وعفوِهِ ورحمتِهِ، فكما يُحِبُّ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لهُ أخوهُ المسلمُ كذٰلكَ هوَ أيضًا يَنْبَغي أَنْ يَسْتَغْفِرَ لأخيهِ المسلمِ، فيَصيرَ هِجِّيراهُ[٢]: ربِّ! ٱغْفِرْ لي ولوالديَّ وللمسلمينَ والمسلماتِ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ.

وقد كانَ بعضُ السَّلفِ[٣] يَسْتَحِبُّ لكلِّ أحدٍ أَنْ يُداوِمَ على هٰذا الدُّعاءِ كلَّ يومٍ سبعينَ مرَّةً فيَجْعَلَ لهُ منهُ وردًا لا يُخِلُّ بهِ. وسَمِعْتُ شيخَنا يَذْكُرُهُ، وذَكَرَ فيهِ فضلاً عظيمًا لا أَحْفَظُهُ، وربَّما كانَ مِن جملةِ أورادِهِ التي لا يُخِلُّ بها، وسَمِعْتُهُ يَقولُ: إنْ جَعَلَهُ بينَ السَّجدتينِ؛ جازَ[٤].

---

(١) في ط: «مراعاتها أو له لأجله فضل يستحقّ...»، وفي خ: «... شاكيًا يرى قيامه بحقّه».

(٢) في خ: «أنّ المعصية واحدة... هجيرا». والهجّيرى: الشأن والدأب والعادة.

(٣) كأنّه يريد بعض أشياخ الصوفيّة المتقدّمين؛ فإنّه ٱستعمل لفظ «السلف» لهم في غيرما كتاب.

(٤) الظاهر أنّ شيخ الإسلام قدّس الله روحه ذكر فضل هٰذا الدعاء ونحوه في الجملة؛ فإنّ إخلاص الدعوة للمسلمين وٱختصاصهم بالدعاء في السجود وبين السجدتين وقبل التسليم وفي مختلف المناسبات داخل الصلاة وخارجها أمر عظيم الأهمّيّة جزيل الأجر يدلّ على ٱهتمام المسلم بإخوانه وحبّه الخير لهم، وهٰذه أخلاق الملائكة الكرام وأفعالهم. وأمّا ٱستحباب التقيّد بلفظ معيّن وعدد معيّن وجعله من الورد اليوميّ؛ فلا يكون بالرأي المجرّد، بل لا بدّ فيه من دليل شرعيّ، وهو غير موجود هنا، والله أعلم.

فإذا شَهِدَ العبدُ أنَّ إخوانَهُ مصابونَ بمثلِ ما أُصيبَ به محتاجونَ إلى ما هوَ محتاجٌ إليهِ؛ لمْ يَمْتَنِعْ مِن مساعدتِهِم إلاَّ لفرطِ جهلِهِ بمغفرةِ اللهِ وفضلِهِ، وحقيقٌ بهٰذا أنْ لا يُساعَدَ؛ فإنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العملِ.

وقد(١) قالَ بعضُ السَّلفِ: إنَّ اللهَ لمَّا عَتَبَ على الملائكةِ بسببِ قولِهِم ﴿أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ﴾(٢) [البقرة: ٣٠]، وٱمْتَحَنَ هاروتَ وماروتَ بما ٱمْتَحَنَهُما بهِ(٣)؛ جَعَلَتِ الملائكةُ بعدَ ذٰلكَ تَسْتَغْفِرُ لبني آدمَ وتَدْعو اللهَ لهُم.

---

(١) في خ: «لا يخلّ بها وسمعت. . . السجدتين جائز فإذا شهد. . . العمل قد».

(٢) ٱختلف أهل التفسير في وجه قول الملائكة هٰذا القول لله سبحانه وتعالى على أوجه توسّع الطبري في «تفسيره» (٦٠٦-٦١٦) في إيرادها ونقدها، ثمّ ختم بقوله: «وأولى هٰذه التأويلات بقول الله جلّ ثناؤه تأويل من قال: إنّ ذٰلك منها ٱستخبار لربّها بمعنى أعلمنا يا ربّنا. . . لا إنكار منها لما أعلمها ربها أنّه فاعل، وإن كانت قد ٱستعظمت لمّا أخبرت بذٰلك [يعني: بأنّ بني آدم سيعصون ربّهم في الأرض] أن يكون لله خلق يعصيه» اهـ. وإلى ذٰلك مال ابن كثير في «التفسير» و«التاريخ». وهو أولى الأقوال بطبيعة الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وعليه؛ فليس هاهنا ما يستدعي عتب الربّ تعالى على ملائكته.

(٣) (**قصّة هاروت وماروت منكرة**). رواها: أحمد (٢/ ١٣٤)، وعبد بن حميد (٧٨٧- منتخب)، والبزّار (٢٩٣٨- زوائد)، وابن أبي حاتم في «العلل» (١٦٩٩) تعليقًا، وابن حبّان (٦١٨٦)، والبيهقي (١٠/ ٤)؛ من طريق زهير بن محمّد، عن موسى بن جبير، عن نافع، عن ابن عمر، أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنّ آدم لمّا أُهبط إلى الأرض؛ قالت الملائكة: أي ربّ! أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك؟! قال: إنّي أعلم ما لا تعلمون. قالوا: ربّنا! نحن أطوع لك من بني آدم. قال الله لملائكته: هلمّوا ملكين من الملائكة فننظر كيف يعملان. قالوا: ربّنا! هاروت وماروت. قال: فأهبطا إلى الأرض». قال: «فمُثّلت لهما الزهرة أمرأة من أحسن البشر، فجاءاها فسألاها نفسها، فقالت: لا والله؛ حتّى تكلّما بهٰذه الكلمة من الإشراك. قالا: والله؛ لا نشرك بالله أبدًا. فذهبت عنهما، ثمّ رجعت بصبيّ تحمله، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله؛ حتّى تقتلا هٰذا الصبيّ. فقالا: لا والله؛ لا نقتله أبدًا. فذهبت، ثمّ رجعت بقدح من خمر تحمله، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله؛ حتّى تشربا هٰذا الخمر. فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبيّ، فلمّا أفاقا، قالت المرأة: والله؛ ما تركتما من شيء أبيتما إلاّ فعلتماه حين سكرتما. فخيّرا عند ذٰلك بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فٱختارا عذاب الدنيا».

قال الهيثمي (٥/ ٧١): «رجاله رجال الصحيح، خلا موسى بن جبير، وهو ثقة». قلت: بل فيه علل: **فأولاها**: سوء حفظ زهير؛ فإنّه صاحب أغاليط. **والثانية**: أنّ ابن جبير مستور. **والثالثة**: أنّهما خولفا، قال البزّار: «رواه بعضهم عن نافع عن ابن عمر موقوفًا، وإنّما أتي رفع هٰذا عندي من زهير؛ لأنّه لم يكن بالحافظ». قلت: وتابع نافعًا على وقفه: مجاهد عند ابن أبي حاتم (١٠٠٧)، وسعيد بن جبير عند الحاكم (٤/ ٦٠٧). **والرابعة**: أنّهما خولفا مخالفة أخرى، قال البيهقي: «رواه موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر، عن كعب؛ قال: ذكرت الملائكة أعمال بني آدم. . . فذكر بعض هٰذه القصّة، وهٰذا أشبه». **والخامسة**: =

● فصلٌ: ومنها: أنَّهُ إذا شَهِدَ نفسَهُ معَ ربِّهِ مسيئًا خاطئًا مفرِّطًا معَ فرطِ إحسانِ اللهِ إليهِ في كلِّ طرفةِ /خ٤٣٨/ عينٍ وبرِّه [به] ودفعِهِ عنهُ وشدَّةِ حاجتِهِ إلى ربِّهِ وعدمِ ٱستغنائِهِ عنهُ نَفَسًا واحدًا وهٰذهِ حالُهُ معَهُ؛ فكيفَ يَطْمَعُ أنْ يكونَ النَّاسُ معَهُ كما يُحِبُّ وأنْ يُعامِلوهُ بمحضِ الإحسانِ[١] وهوَ لمْ يُعامِلْ ربَّهُ بتلكَ المعاملةِ؟! وكيفَ يَطْمَعُ أنْ يُطيعَهُ مملوكُهُ وولدُهُ وزوجتُهُ في كلِّ ما يُريدُ[هُ] ولا يَعْصوهُ ولا يُخِلُّوا[٢] بحقوقِهِ وهوَ معَ ربِّهِ ليسَ كذٰلكَ؟! وهٰذا يُوجِبُ لهُ أنْ يَسْتَغْفِرَ لمسيئِهِم ويَعْفُوَ عنهُ ويُسامِحَهُ ويُغْضِيَ عنِ الاستقصاءِ في طلبِ حقِّهِ.

فهٰذهِ الآثارُ ونحوُها: متى ٱجْتَناها العبدُ مِنَ الذَّنبِ؛ فهيَ علامةُ كونِهِ رحمةً [في حقِّهِ]. ومَنِ ٱجْتَنى منهُ أضدادَها وأوْجَبَتْ لهُ خلافَ ما ذَكَرْناهُ؛ فهيَ واللهِ علامةُ الشَّقاوةِ، وأنَّهُ مِن هوانِهِ على اللهِ وسقوطِهِ مِن عينِهِ خَلَّى بينَهُ وبينَ معاصيهِ؛ لِيُقيمَ عليهِ حجَّةَ عدلِهِ فيُعاقِبَهُ بٱستحقاقِهِ.

وتَتَداعى السَّيِّئاتُ في حقِّ مثلِ هٰذا وتَتَألَّفُ، فيَتَوَلَّدُ مِنَ الذَّنبِ الواحدِ ما شاءَ اللهُ مِنَ المتالفِ والمعاطبِ التي يَهْوي بها في دركاتِ العذابِ!

والمصيبةُ كلُّ المصيبةِ؛ الذَّنبُ يَتَوَلَّدُ مِنَ الذَّنبِ، ثمَّ يَتَوَلَّدُ مِنَ الاثنينِ ثالثٌ، ثمَّ

= أنّه قد جاء من وجه آخر فرواه: عبدالرزّاق في «تفسيره» (٩٧)، وابن أبي شيبة (٣٤٢٠٣)، وابن جرير (١٦٨٤ و١٦٨٥)، وابن أبي حاتم (١٠٠٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٤٨)؛ من طريق الثوري، عن موسى بن عقبة، عن سالم بن عبدالله بن عمر، عن أبيه، عن كعب الأحبار موقوفًا عليه. وهٰذا صحيح على شرطهما.

وعليه؛ فالصواب في هٰذا أنّه من الإسرائيليّات التي حدّث بها كعب الأحبار وتلقّاها عنه بعض الصحابة رضي الله عنهم كعليّ وابن عمر وابن عبّاس، فكانوا يذكرونها تارة بغير عزو فتروى موقوفة عليهم، ويروونها تارة معزوّة إلى صاحبها كعب فتروى موقوفة عليه، وأمّا رفعها؛ فجاء من وجه ضعيف عن ابن عمر، فحدّه حدّ النكارة، وإلى ذٰلك مال أبو حاتم الرازي والبزّار والبيهقي والذهبي وابن كثير وشاكر والألباني.

وهٰذه القصّة من الإسرائيليّات المنكرة التي لا ينبغي أن تتداول إلّا على وجه التحذير ففيها رائحة الوثنيّات القديمة التي تدّعي أنّ الزهرة آلهة الجمال! وفيها تهمة للملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون بمجادلة ربّهم ومراجعته. وفيها إقامة عذر أهل الآثام بأنّهم لا يملكون دفع ما فطروا عليه من الشهوات واتّهام الله الذي ركّب فيهم هٰذه الطباع بالظلم! وغير ذٰلك ممّا يطول تتبّعه.

(١) في خ: «مفرّطًا مع الله وفرط... بمحض الإنسان».

(٢) في خ وط: «ولا يعصونه ولا يخلّون»! وله وجه ضعيف، والجادّة ما أثبتّه.

تَقْوى الثَّلاثةُ فتُوجِبُ رابعًا... وهَلُمَّ جرًّا. ومَن لمْ يَكُنْ لهُ فقهُ نفسٍ[(١)] في هٰذا البابِ؛ هَلَكَ مِن حيثُ لا يَشْعُرُ!

فالحسناتُ والسَّيِّئاتُ آخذٌ بعضُها برقابِ بعضٍ، يَتْلو بعضُها بعضًا ويُثْمِرُ بعضُها بعضًا، قالَ بعضُ السَّلفِ: إنَّ مِن ثوابِ الحسنةِ الحسنةَ بعدَها وإنَّ مِن عقابِ السَّيِّئةِ السَّيِّئةَ بعدَها. وهٰذا أظهرُ عندَ النَّاسِ مِن أنْ تُضْرَبَ لهُ الأمثالُ وتُطْلَبَ لهُ الشَّواهدُ[(٢)]. واللهُ المستعانُ.

[١٣٥] فصل
[في لطائف حكمته تعالى فيما أبتلى به عباده المخلصين]

فصلٌ: وإذا تَأَمَّلْتَ حكمتَهُ سبحانَهُ فيما ٱبْتَلى بِهِ عبادَهُ وصفوتَهُ بما ساقَهُم بِهِ إلى أجلِّ الغاياتِ وأكملِ النِّهاياتِ التي لمْ يَكونوا يَعْبُرونَ إليها إلَّا[(٣)] على جسرٍ مِن الابتلاءِ والامتحانِ، وكانَ ذٰلكَ الجسرُ لكمالِهِ كالجسرِ الذي لا سبيلَ إلى عبورِهِم إلى الجنَّةِ إلَّا عليهِ، وكانَ ذٰلكَ الابتلاءُ والامتحانُ عينَ المنحِ في حقِّهِم والكرامةِ، فصورتُهُ صورةُ ٱبتلاءٍ [وٱمتحانٍ] وباطنُهُ فيهِ الرَّحمةُ [والنِّعمةُ] والمنَّةُ.

فكم للهِ مِن نعمةٍ[(٤)] جسيمةٍ ومنَّةٍ عظيمةٍ تُجْنى مِن قطوفِ الابتلاءِ والامتحانِ!

● فتَأَمَّلْ [حالَ] أبينا آدَمَ [على نبيِّنا وعليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ] وما آلَتْ إليهِ محنتُهُ مِن الاصطفاءِ والاجتباءِ والتَّوبةِ /خ٤٣٩/ والهدايةِ ورفعةِ المنزلةِ! ولولا تلكَ المحنةُ التي جَرَتْ عليهِ ـ وهيَ إخراجُهُ مِن الجنَّةِ وتوابعُ ذٰلكَ ـ؛ لَما وَصَلَ [إلى ما وَصَلَ] إليهِ. فكمْ بينَ حالتِهِ الأُولى وحالتِهِ الثَّانيةِ في نهايتِهِ[(٥)]!

---

(١) في ط: «فالمصيبة كلّ المصيبة...»، وفي خ: «... يكن معه نفس»، وما أثبتّه أولى.

(٢) لأنّه كثير مشهور جدًّا لا يخفى على من راقب أحواله مع الله أدنى مراقبة، وأمّا أدلّته من الكتاب والسنّة؛ فكثيرة يطول تتبّعها.

(٣) في خ: «فيماذا أبتلى به عباده... يعبرون عليها إلّا».

(٤) في ط: «والامتحان عين المنهج في حقّهم...»، وفي خ: «... فكم لله في نعمة».

(٥) في خ: «بين حاله الأولى...». وقد تقدّم (١/ ٩٣ وقبلها) تفصيل أكبر في هٰذا.

● وتأمَّلْ حالَ أبينا الثَّاني نوحٍ ﷺ وما آلَتْ إليهِ محنتُهُ وصبرُهُ على قومِهِ تلكَ القرونَ كلَّها! حتَّى أقرَّ اللهُ عينَهُ، وأغْرَقَ أهلَ الأرضِ بدعوتِهِ، وجَعَلَ العالَمَ بعدَهُ مِن ذرِّيَّتِهِ، وجَعَلَهُ خامسَ خمسةٍ وهُم أُولو العزمِ الذينَ هُم أفضلُ الرُّسلِ[1]، وأمرَ رسولَهُ ونبيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أنْ يَصْبِرَ كصبرِهِ [الأحقاف: ٣٥] وأثنى عليهِ بالشُّكرِ فقالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، فوَصَفَهُ بكمالِ الصَّبرِ والشُّكرِ.

● ثمَّ تَأمَّلْ حالَ أبينا الثَّالثِ إبْراهيمَ ﷺ إمامِ الحنفاءِ وشيخِ الأنبياءِ وعمومِ العالَمِ وخَليلِ ربِّ العالمينَ مِن بني آدَمَ، وتأمَّلْ ما آلَتْ إليهِ محنتُهُ وصبرُهُ وبذلُـ[ـهُ] نفسَهُ للهِ، وتأمَّلْ كيفَ آلَ بهِ بذلُهُ للهِ نفسَهُ ونصرُهُ دينَهُ إلى أنِ اتَّخَذَهُ اللهُ خليلاً لنفسِهِ وأمَرَ رسولَهُ وخليلَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أنْ[2] يَتَّبِعَ ملَّتَهُ!

وأُنَبِّهُكَ على خصلةٍ واحدةٍ ممَّا أكْرَمَهُ اللهُ بهِ في محنتِهِ بذبحِ ولدِهِ؛ فإنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالى جازاهُ على تسليمِهِ ولدَهُ لأمرِ اللهِ بأنْ بارَكَ في نسلِهِ وكَثَّرَهُ حتَّى مَلأَ السَّهلَ والجبلَ. فإنَّ اللهَ [تَبارَكَ و]تَعالى لا يَتَكَرَّمُ عليهِ أحدٌ وهوَ أكرمُ الأكرمينَ، فمَن تَرَكَ لوجهِهِ أمرًا أو فَعَلَهُ لوجهِهِ؛ بَذَلَ اللهُ لهُ أضعافَ ما تَرَكَهُ مِن ذٰلكَ الأمرِ أضعافًا مضاعفةً وجازاهُ بأضعافِ ما فَعَلَهُ لأجلِهِ أضعافًا مضاعفةً. فلمَّا أُمِرَ إبْراهيمُ بذبحِ ولدِهِ فبادَرَ لأمرِ اللهِ، ووافَقَ عليهِ الولدُ أباهُ رضًى[3] منهُما وتسليمًا، وعَلِمَ اللهُ منهُما الصِّدقَ والوفاءَ؛ فَداهُ بذِبْحٍ عظيمٍ وأعطاهُما ما أعطاهُما مِن فضلِهِ، وكانَ مِن بعضِ عطاياهُ أنْ بارَكَ في ذرِّيَّتِهِما حتَّى مَلَؤُوا الأرضَ. فإنَّ المقصودَ بالولدِ إنَّما هوَ التَّناسلُ وتكثيرُ الذُّرِّيَّةِ، ولهٰذا: قالَ إبْراهيمُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، وقالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]. فغايةُ ما كانَ يَحْذَرُ ويَخْشى مِن ذبحِ ولدِهِ انْقطاعُ نسلِهِ، فلمَّا بَذَلَ ولدَهُ للهِ وبَذَلَ الولدُ نفسَهُ؛ ضاعَفَ اللهُ [لهُ] النَّسلَ وبارَكَ فيهِ وكَثَّرَ[هُ] /خ٤٤٠/ حتَّى مَلَؤُوا الدُّنيا، وجَعَلَ النُّبوَّةَ والكتابَ في ذرِّيَّتِهِ خاصَّةً،

---

(١) وهم محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح عليهم أفضل الصلاة والسلام من ربّ الأنام.
(٢) في خ: «الثاني نوحًا... ﷺ على أن»، وفي ط: «... الأنبياء وعمود العالم...».
(٣) في خ: «به من محنته بذبح... لأمر الله أن بارك... ملؤوا السهل... الولد بأنّه رضى».

وأَخْرَجَ منهُم مُحَمَّدًا ﷺ.

وقد ذُكِرَ[١] أَنَّ داوودَ عليهِ السَّلامُ أرادَ أَنْ يَعْلَمَ عددَ بني إسرائيلَ، فأَمَرَ بإحضارِهِم، وبَعَثَ لذٰلكَ نقباءَ وعرفاءَ، وأَمَرَهُم أَنْ يَرْفَعوا إليهِ ما بَلَغَ عددُهُم، فمَكَثوا مدَّةً لا يَقْدِرونَ على ذٰلكَ، فأوْحى اللهُ إلى داوودَ: أَنْ قد عَلِمْتَ أَنِّي وَعَدْتُ أباكَ إبْراهيمَ لمَّا أَمَرْتُهُ بذبحِ ولدِهِ فبادَرَ إلى طاعةِ أمري أَنْ أُبارِكَ لهُ في ذرِّيَّتِهِ حتَّى يَصيروا في عددِ النُّجومِ وأَجْعَلَهُم بحيثُ لا يُحْصى عددُهُم، وقد أَرَدْتَ أنتَ أَنْ تُحْصِيَ عددًا قَدَّرْتُ أَنَّهُ لا يُحْصى... وذَكَرَ باقِيَ الحديثِ.

فجَعَلَ مِن نسلِهِ هاتينِ الأُمَّتينِ العظيمتينِ اللتينِ لا يُحْصي[٢] عددَهُم إلَّا اللهُ خالقُهُم ورازقُهُم، وهُم بنو إسرائيلَ وبنو إسماعيلَ. هٰذا سوى ما أَكْرَمَهُ اللهُ بهِ مِن رفعِ الذِّكرِ والثَّناءِ الجميلِ على ألسنةِ جميعِ الأُممِ وبينَ الملائكةِ في السَّماواتِ.

فهٰذا مِن بعضِ ثمرةِ معاملتِهِ.

فتبًّا لمَن عَرَفَهُ ثمَّ عامَلَ غيرَهُ ما أخسَرَ صفقتَهُ وما أعظمَ حسرتَهُ!

● فصلٌ: ثمَّ تَأَمَّلْ حالَ الكليمِ [موسى] عليهِ السَّلامُ وما آلَتْ إليهِ محنتُهُ وفُتونُهُ [طه: ٤٠] مِن أوَّلِ ولادتِهِ إلى منتهى أمرِهِ! حتَّى كَلَّمَهُ اللهُ منهُ إليهِ تكليمًا [النساء: ١٦٤]. وكَتَبَ لهُ التَّوراةَ بيدِهِ[٣]. ورَفَعَهُ إلى أعلى السَّماواتِ[٤] واحْتَمَلَ لهُ ما لا يَحْتَمِلُ

---

(١) يعني في الأخبار الإسرائيليّات.

(٢) في خ: «لمّا أمر بذبح... تحصي عددهم وذكر باقي... الذين لا يحصي».

(٣) رواه: البخاري (٨٢ـ القدر، ١١ـ تحاجّ آدم وموسى، ١١/ ٥٠٤/ ٦٦١٤)، ومسلم (٤٦ـ القدر، ٢ـ حجاج آدم وموسى، ٤/ ٢٠٤٢/ ٢٦٥٢)؛ عن أبي هريرة في سياق تحاجّ آدم وموسى عليهما السلام.

(٤) رواه: البخاري (٩٧ـ التوحيد، ٣٧ـ وكلّم الله موسى، ١٣/ ٤٧٨/ ٧٥١٧ و٣٤٩ و٣٢٠٧)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٧٤ـ الإسراء، ١/ ١٤٥/ ١٦٢-١٦٤)؛ عن أنس وأبي ذرّ ومالك بن صعصعة.

واختلفوا في محلّ موسى عليه السلام هل هو في السماء السادسة أو السابعة، فجاء في بعض الروايات أنّه في السابعة وفي أكثرها أنّه في السادسة وإبراهيم ﷺ في السابعة. قال العسقلاني مرّة: «الأرجح رواية الجماعة»، وقال مرّة: «المشهور في الروايات أنّ الذي في السابعة هو إبراهيم»، ثمّ جمع بين الروايات بأنّه «يحتمل أن يكون [يعني محمّدًا ﷺ] لقي موسى في السادسة، فأصعد معه إلى السابعة تفضيلاً له على غيره من أجل كلام الله تعالى، وظهرت فائدة ذٰلك في كلامه مع المصطفى ﷺ فيما يتعلّق بأمر أمّته في الصلاة». وعلى كلّ حال؛ فمحلّ موسى ﷺ في أعلى السماوات كما قرّر ابن القيّم يرحمه الله.

لغيرِه؛ فإنَّهُ رَمى الألواحَ على الأرضِ حتَّى تكَسَّرَتْ [الأعراف: ١٥٠][(١)]، وأخَذَ بلحيةِ نبيِّ اللهِ هارونَ وجَرَّهُ إليهِ [الأعراف: ١٥٠]، ولَطَمَ وجهَ مَلَكِ الموتِ ففقَأَ عينَهُ[(٢)]، وخاصَمَ ربَّهُ ليلةَ الإسراءِ في شأنِ [مُحَمَّدٍ] رسولِ اللهِ ﷺ[(٣)]؛ وربُّهُ يُحِبُّهُ على ذٰلكَ كلِّهِ ولا سَقَطَ شيءٌ [منهُ] مِن عينِهِ ولا سَقَطَتْ منزلتُهُ عندَهُ، بل [هوَ] الوجيهُ عندَ اللهِ القريبُ، ولولا ما تَقَدَّمَ [لهُ] مِن السَّوابقِ وتحمُّلِ الشَّدائدِ والمحنِ العظامِ في [اللهِ و]مقاساةِ الأمرِ الشَّديدِ بينَ فِرْعَوْنَ وقومِهِ ثمَّ بني إسرائيلَ وما آذَوْهُ بهِ وما صَبَرَ عليهِم للهِ؛ [لَمْ يَكُنْ ذٰلكَ].

● ثمَّ تأمَّلْ حالَ المسيحِ ﷺ وصبرَهُ على قومِهِ وٱحتمالَهُ في اللهِ ما تَحَمَّلَهُ منهُم، حتَّى رَفَعَـ[ـهُ] اللهُ إليهِ وطَهَّرَهُ مِن الذينَ كَفروا وٱنْتَقَمَ مِن أعدائِهِ وقَطَّعَهُم في الأرضِ

---

(١) لٰكن ليس في الآية دليل على أنّه كسرها، وإنّما جاء أنّه ألقاها فحسب، والذي عند أهل الكتاب أنّها تكسّرت، وقد تقدّم شيء من التفصيل في هٰذا (١/ ٤٦٦-٤٦٧).

(٢) روى: البخاري (٢٣ـ الجنائز، ٦٨ـ الدفن في الأرض المقدّسة، ٣/ ٢٠٦/ ١٣٣٩)، ومسلم (٤٣ـ الفضائل، ٤٢ـ فضائل موسى، ٤/ ١٨٤٢/ ٢٣٧٢)؛ عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ؛ قال: «أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فلمّا جاءه صكّه ففقأ عينه، فرجع إلى ربّه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. فردّ الله إليه عينه وقال: ٱرجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور، فله بما غطّت يده بكلّ شعرة سنة. قال: أي ربّ! ثمّ مه؟ قال: ثمّ الموت. قال: فالآن. فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدّسة رمية بحجر».

وقد ٱختلف أهل العلم كثيرًا في توجيه هٰذه الحادثة كما بسطه العسقلاني في «الفتح» (٦/ ٤٤٢)، وأولى الأقوال بالصواب فيما أرى: أنّ الله عزّ وجلّ كان قد أمر موسى ﷺ بإعداد كتائب بني إسرائيل لدخول الأرض المقدسة، ولم يكن ﷺ يرتاب في أنّهم سيدخلونها معه وتحت إمرته، فما عرف ملك الموت ولا صدّقه، فكان ما كان، فلمّا حقّت الحقائق؛ كان لقاء ربّه أحبّ إليه من الدنيا بما فيها. والله أعلم.

(٣) يشير إلى ما جاء في حديث مالك بن صعصعة ـ المتّفق عليه الذي تقدّم آنفًا ـ من قوله ﷺ: «فأتيت على موسى، فسلّمت عليه. فقال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبيّ الصالح. فلمّا جاوزته؛ بكى. فنودي: ما يبكيك؟ قال: ربّ! هٰذا غلام بعثته بعدي، يدخل من أمّته الجنّة أكثر ممّا يدخل من أمّتي».

وعليه؛ فمراد ابن القيّم بالمخاصمة هنا المعاتبة. وقد ٱجتهد العسقلاني في «الفتح» (٧/ ٢١١) في توجيه عبارة موسى عليه السلام فأطال بما خلاصته أنّ «بكاء موسى لم يكن حسدًا، معاذ الله، فإنّ الحسد في ذٰلك العالم [الروحيّ العلويّ] منزوع عن آحاد المؤمنين، فكيف بمن ٱصطفاه الله تعالى». ثمّ نقل بعض أقوال أهل العلم في ذٰلك، وفيها: «أنّ الله جعل الرحمة في قلوب الأنبياء أكثر ممّا جعل في قلوب غيرهم، لذٰلك بكى رحمة لأمّته». وأمّا وصفه نبيّنا ﷺ بالغلام؛ «فإشارة إلى صغر سنّه بالنسبة إليه... وإلى ما أنعم الله به عليه ﷺ من ٱستمرار القوّة في الكهولة وإلى أن دخل في سنّ الشيخوخة ولم يدخل على بدنه هرم»اهـ.

ومَزَّقَهُم كلَّ ممزَّقٍ وسَلَبَهُم ملكَهُم وفخرَهُم إلى آخرِ الدَّهرِ.

● فصلٌ: فإذا جِئْتَ إلى النَّبيِّ ﷺ وتأمَّلْتَ: سيرتَهُ معَ قومِهِ، وصبرَهُ في اللهِ، وٱحتمالَهُ ما لمْ يَحْتَمِلْهُ نبيٌّ قبلَهُ، وتلوُّنَ /خ٤٤١/ الأحوالِ عليهِ مِن سلمٍ وخوفٍ وغنًى وفقرٍ وأمنٍ وإقامةٍ في وطنِهِ وظعنٍ عنهُ وتركِهِ للهِ، وقتلَ أحبابِهِ وأوليائِهِ بينَ يديهِ، وأذى الكفَّارِ لهُ بسائرِ أنواعِ الأذى مِن القولِ والفعلِ والسِّحرِ والكذبِ والافتراءِ عليهِ والبهتانِ... وهوَ معَ ذٰلكَ كلِّهِ صابرٌ على أمرِ اللهِ يَدْعو إلى اللهِ!

فلمْ يُؤْذَ نبيٌّ ما أُوذِيَ، ولمْ يَحْتَمِلْ في اللهِ ما ٱحْتَمَلَهُ، ولمْ يُعْطَ نبيٌّ ما أُعْطِيَهُ. فرَفَعَ اللهُ لهُ ذكرَهُ، وقَرَنَ ٱسمَهُ بٱسمِهِ، وجَعَلَهُ سيِّدَ النَّاسِ كلِّهِم، وجَعَلَهُ أقربَ الخلقِ إليهِ وسيلةً، وأعظَمَهُم عندَهُ جاهًا، وأوسعَهُم عندَهُ شفاعةً. وكانَتْ تلكَ المحنُ والابتلاءُ عينَ كرامتِهِ، وهيَ ممَّا زادَهُ اللهُ بها شرفًا وفضلاً وساقَهُ بها إلى أعلى المقاماتِ.

وهٰذا حالُ ورثتِهِ مِن بعدِهِ الأمثلِ فالأمثلِ؛ كلٌّ لهُ نصيبٌ مِن المحنةِ يَسوقُهُ اللهُ بهِ إلى كمالِهِ بحسبِ متابعتِهِ لهُ.

ومَن لا نصيبَ لهُ مِن ذٰلكَ فحظُّهُ مِن الدُّنيا حظُّ مَن خُلِقَ لها [وخُلِقَتْ لهُ] وجُعِلَ خَلاقُهُ ونصيبُهُ فيها: فهوَ يَأْكُلُ منها رغدًا ويَتَمَتَّعُ فيها حتَّى يَنالَهُ نصيبُهُ مِن الكتابِ، يُمْتَحَنُ أولياءُ اللهِ وهوَ في دَعَةٍ وخفضِ عيشٍ[١]، ويَخافونَ وهوَ آمنٌ، ويَحْزَنونَ وهوَ في أهلِهِ مسرورٌ، لهُ شأنٌ ولهُم شأنٌ، وهوَ في وادٍ وهُم في وادٍ، همُّهُ ما يُقيمُ بهِ جاهَهُ ويَسْلَمُ بهِ مالُهُ وتُسْمَعُ بهِ كلمتُهُ لَزِمَ مِن ذٰلكَ ما لَزِمَ[٢] ورَضِيَ مَن رَضِيَ وسَخِطَ مَن سَخِطَ وهمُّهُم إقامةُ دينِ اللهِ وإعلاءُ كلمتِهِ وإعزازُ أوليائِهِ وأنْ تَكونَ الدَّعوةُ لهُ وحدَهُ فيَكونَ هوَ وحدَهُ المعبودَ لا غيرُهُ ورسولُهُ المطاعَ لا سواهُ.

فللهِ سبحانَهُ مِن الحكمِ في ٱبتلائِهِ أنبياءَهُ ورسلَهُ وعبادَهُ المؤمنينَ ما تَتَقاصَرُ عقولُ العالمينَ عن معرفتِهِ!

---

(١) الخلاق: النصيب. الدعة وخفض العيش: الحياة الرخيّة المترفة.

(٢) في خ: «ما لم يتحمّله نبيّ... يسوقه الله بها إلى كماله... لزم من ذٰلك من لزم».

وهل وَصَلَ مَن وَصَلَ إلى المقاماتِ المحمودةِ والنِّهاياتِ الفاضلةِ إلَّا على جسرِ المحنةِ والابتلاءِ؟!

كَذا المَعالي إذا ما رُمْتَ تُدْرِكُها فَٱعْبُرْ إلَيْها عَلى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

والحمدُ للهِ وحدَهُ، وصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ [وآلِهِ] وصحبِهِ وسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا دائمًا أبدًا إلى يومِ الدِّينِ، ورَضِيَ اللهُ عن أصحابِ رسولِ اللهِ أجمعينَ.

[١٣٦] فصل

[في لطائف حكمته تعالى في شريعته الحنيفية]

وإذا تَأَمَّلْتَ الحكمةَ الباهرةَ في هٰذا الدِّينِ القويم والمِلَّةِ الحنيفيَّةِ والشَّريعةِ /خ٤٤٢/ المحمَّديَّةِ، التي لا تَنالُ العبارةُ كمالَها ولا يُدْرِكُ الوصفُ حسنَها ولا تَقْتَرِحُ عقولُ العقلاءِ ولوِ ٱجْتَمَعَتْ وكانَتْ على أكملِ عقلِ رجلٍ منهُم فوقَها[١]، وحسبُ العقولِ الكاملةِ الفاضلةِ أنْ أدْرَكَتْ حسنَها وشَهِدَتْ بفضلِها وأنَّهُ ما طَرَقَ العالَمَ شريعةٌ أكملُ ولا أجلُّ ولا أعظمُ منها، فهيَ نفسُها الشَّاهدُ والمشهودُ لهُ والحجَّةُ والمحتجُّ لهُ والدَّعوى والبرهانُ، ولو لمْ يَأْتِ الرَّسولُ ببرهانٍ عليها؛ لَكَفى بهـ[ـا] برهانًا وآيةً وشاهدًا على أنَّها مِن عندِ اللهِ، وكلُّها شاهدةٌ لهُ بكمالِ العلمِ وكمالِ الحكمةِ وسعةِ الرَّحمةِ والبرِّ والإحسانِ والإحاطةِ بالغيبِ والشَّهادةِ والعلمِ بالمبادئ والعواقبِ، وأنَّها مِن أعظمِ نعمِ اللهِ[٢] التي أنْعَمَ بها على عبادِهِ، فما أنْعَمَ [عليهم] بنعمةٍ أجلَّ مِن أنْ هَداهُم لها وجَعَلَهُم مِن أهلِها وممَّنِ ٱرْتَضاها لهُم وٱرْتَضاهُم لها، فلهٰذا ٱمْتَنَّ على عبادِهِ بأنْ هَداهُم لها:

قالَ تَعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلى المُؤْمِنينَ إذْ بَعَثَ فيهِمْ رَسولاً مِنْ أنْفُسِهِمْ يَتْلو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَإنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

---

(١) في خ: «يقترح العقول العقلاء... على محمل كل رجل منهم فوقها».
(٢) في خ: «ولا أعظم منها في نفسها... ولو لم تأت الرسل ببرهان... نعمة الله».

وقالَ معرِّفًا لعبادِهِ ومذكِّرًا لهُم عظيمَ نعمتِهِ عليهِم [و]مستدعيًا منهُم شكرَهُم على أنْ جَعَلَهُم مِن أهلِها: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دينًا﴾ [المائدة: ٣]:

وتَأَمَّلْ كيفَ وَصَفَ الدِّينَ الذي ٱخْتارَهُ لهُم بالكمالِ والنِّعمةَ التي أَسْبَغَها عليهِم بالتَّمامِ: إيذانًا في الدِّينِ [بـ]ـأَنَّهُ لا نقصَ [فيهِ] ولا عيبَ ولا خللَ ولا شيءَ خارجًا عنِ الحكمةِ بوجهٍ بل هوَ الكاملُ في حسنِهِ وجلالتِهِ، ووَصَفَ النِّعمةَ بالتَّمامِ إيذانًا بدوامِها وٱتِّصالِها وأَنَّهُ لا يَسْلُبُهُم إيَّاها بعدَ إذْ أعطاهُموها بل[1] يُتِمُّها [لهُم] بالدَّوامِ في هٰذهِ الدَّارِ وفي دارِ القرارِ. وتَأَمَّلْ: حسنَ ٱقترانِ التَّمامِ بالنِّعمةِ وحسنَ [ٱقترانِ] الكمالِ بالدِّينِ، وإضافةَ الدِّينِ إليهِم إذْ هُمُ القائمونَ بهِ [أو] المقيمونَ لهُ وإضافـ[ـةَ] النِّعمةِ إليهِ إذْ هوَ وليُّها ومُسْديها والمنعمُ بها عليهِم فهيَ نعمتُهُ حقًّا وهُم قابلوها، وأتى في الإكمالِ[2] باللامِ المؤذنةِ بالاختصاصِ وأَنَّهُ شيءٌ خُصُّوا بهِ دونَ الأُمم[3] /خ٤٤٣/ ، وفي إتمامِ النِّعمةِ بـ«على» المؤذنةِ بالاستعلاءِ والاشتمالِ والإحاطةِ[4]، فجاءَ «أَتْمَمْتُ» في مقابلةِ «أَكْمَلْتُ» و«عليكُم» في مقابلةِ «لكُم» و«نعمتي» في مقابلةِ «دينِكُم»، وأَكَّدَ ذٰلكَ وزادَهُ تقريرًا وكمالاً وإتمامًا للنِّعمةِ بقولِهِ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دينًا﴾.

وكانَ بعضُ السَّلفِ يقولُ: يا لهُ مِن دينٍ، لو أنَّ لهُ رجالاً[5]!

* * * * *

---

(١) في خ: «بأن هداهم لها وقال . . . أعطاها بل»، وفي خ وط: «. . . لا نقص ولا عيب. . .».

(٢) في ط: «القائمون به المقيمون له. . . وأتى في الكمال».

(٣) لأنّ الاختصاص من أهمّ معاني اللام الجارّة وأكثرها تواترًا، وكثير من معانيها الأخرى راجع إليه على الحقيقة أو المجاز.

(٤) لأنّ الاستعلاء أصل معنى «على»، ومعانيها المختلفة راجعة إليه حقيقة أو مجازًا. ولأنّ «على» تأتي بمعنى «في» التي تفيد الاشتمال والإحاطة.

(٥) إي والله! ومنهم من يقول اليوم: الإسلام دين بلا رجال، وغيره رجال بلا دين! والله يغفر لنا ويرحمنا؛ فإنّ عظم التقصير ومعظمه عائد إلينا؛ أعني: طلّاب العلم، ولا سيّما أهل الحديث منهم؛ فإنّهم أشدّ الناس تقصيرًا في نشر ما عندهم من الحقّ وخدمته وترتيبه وتهذيبه وتقريبه لعقول العامّة وتيسيره عليهم؛ بخلاف أهل البدع الناشطين في حرب السنّة ونشر بدعهم. وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

[الباب الثالث]
[في العقل ودلالته على محاسن الشريعة]
[وبيان حسن الأفعال أو قبحها في ذاتها]

[١ـ فصل]
[في دلالة أحكام الشريعة على صفات كماله تعالى]

وقد ذَكَرْنا فصلاً مختصرًا في دلالةِ خلقِهِ على وحدانيَّتِهِ وصفاتِ كمالِهِ[1] ونعوتِ جلالِهِ وأسمائِهِ الحسنى، وأرَدْنا أنْ نَخْتِمَ بِهِ القسمَ الأوَّلَ مِن الكتابِ، ثمَّ رَأَيْنا أنْ نُتْبِعَهُ فصلاً في دلالةِ دينِهِ وشرعِهِ على وحدانيَّتِهِ وعلمِهِ وحكمتِهِ ورحمتِهِ وسائرِ صفاتِ كمالِهِ؛ إذْ هٰذا مِن أشرفِ العلومِ التي يَكْتَسِبُها العبدُ في هٰذهِ الدَّارِ [و]يَدْخُلُ بها إلى الدَّارِ الآخرةِ.

وقد كانَ الأولى بنا الإمساكَ عن ذٰلكَ؛ لأنَّ ما يَصِفُهُ الواصفونَ [منهُ] وتَنْتَهي إليهِ علومُهُم هوَ كما يُدْخِلُ الرَّجلُ إصبعَهُ في اليمِّ ثمَّ يَنْزِعُها، فهوَ يَصِفُ البحرَ بما يَعْلَقُ على إصبعِهِ مِن البللِ! وأينَ ذٰلكَ مِن البحرِ؟! فيَظُنُّ السَّامعُ أنَّ تلكَ الصِّفةَ أحاطَتْ بالبحرِ، وإنَّما هيَ[2] صفةُ ما عَلِقَ على الإصبعِ منهُ! وإلاَّ؛ فالأمرُ أجلُّ وأعظمُ وأوسعُ مِن أنْ تُحيطَ عقولُ البشرِ بأدنى جزءٍ منهُ! وماذا عسى أنْ يَصِفَ بهِ النَّاظرُ إلى قرصِ الشَّمسِ مِن ضوئِها وقدرِها وحسنِها وعجائبِ صنعِ اللهِ فيها؟!

ولٰكنْ قد رَضِيَ اللهُ مِن عبادِهِ بالثَّناءِ عليهِ وذكرِ آلائِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وحكمتِهِ

(١) في خ: «وصفة كماله»، والأولى ما أثبتّه من ط.
(٢) في ط: «هٰذه الدار يدخل...»، وفي خ: «... الأولى بها الإمساك... وإنّما هو».

وجلالِهِ؛ معَ أَنَّهُ لا يُحْصى ثناءٌ عليهِ أبدًا بل هوَ كما أثنى على نفسِه، فلا يَبْلُغُ مخلوقٌ ثناءً عليهِ تَبارَكَ وتَعالى ولا وصفَ كتابِهِ ودينِهِ بما يَنْبَغي لهُ! بل لا يَبْلُغُ أحدٌ مِن الأُمَّةِ ثناءَ على رسولِهِ كما هوَ أهلُ أنْ يُثْنى عليهِ بل هوَ فوقَ ما يُثْنونَ [به] عليهِ! ومعَ هٰذا؛ [فـ]ـإنَّ اللهَ تَعالى يُحِبُّ أنْ يُحْمَدَ ويُثْنى عليهِ وعلى كتابِهِ ودينِهِ ورسولِهِ.

فهٰذهِ مقدِّمةُ اعتذارٍ بينَ يدي القصورِ مِن راكبِ هٰذا البحرِ الأعظمِ، واللهُ عليمٌ بمقاصدِ العبادِ ونيّاتِهم، وهوَ أولى بالعذرِ والتَّجاوزِ.

[٢] فصل

[في تفاوت بصائر الخلق في كمال الشريعة وحسنها]

وبصائرُ النَّاسِ في هٰذا النُّورِ الباهرِ تَنْقَسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

أحدُها: مَن عَدِمَ /خ٤٤٤/ بصيرةَ الإيمانِ جملةً، فهوَ لا يَرى مِن هٰذا الضَّوءِ إلاَّ الظُّلماتِ[١] والرَّعدَ والبرقَ، فهوَ يَجْعَلُ إصبعَهُ في أُذُنِهِ مِن الصَّواعقِ ويدَهُ على عينِهِ مِن البرقِ خشيةَ أنْ يُخْطَفَ بصرُهُ، ولا يُجاوزُ نظرُهُ [إلى] ما[٢] وراءَ ذٰلكَ مِن الرَّحمةِ وأسبابِ الحياةِ الأبديَّةِ. فهٰذا القسمُ هوَ الذي لمْ يَرْفَعْ بهٰذا الدِّينِ رأْسًا ولمْ يَقْبَلْ هدى اللهِ الذي هَدى بهِ عبادَهُ ولوْ جاءَتْهُ كلُّ آيةٍ؛ لأنَّهُ ممَّن سَبَقَتْ لهُ الشَّقاوةُ وحَقَّتْ عليهِ الكلمةُ. ففائدةُ إنذارِ هٰذا إقامةُ الحجَّةِ عليهِ لِيُعَذَّبَ بذنبِهِ لا بمجرَّدِ علمِ اللهِ [فيهِ].

القسمُ الثَّاني: أصحابُ البصيرةِ الضَّعيفةِ الخُفَّاشيَّةِ، الذينَ[٣] نسبةُ أبصارِهِم إلى هٰذا النُّورِ كنسبةِ [أبصارِ] الخُفَّاشِ إلى جرمِ الشَّمسِ، فهُم تبعٌ لآبائِهِم وأسلافِهِم، دينُهُم دينُ العادةِ والمنشإِ، وهُمُ الذينَ قالَ فيهِم أميرُ المؤمنينَ عَلِيُّ بنُ أبي طالبٍ: أو منقادٌ للحقِّ لا بصيرةَ لهُ في أحنائِهِ[٤]. فهٰؤلاءِ إذا كانوا منقادينَ لأهلِ البصائرِ لا يَتَخالَجُهُم

---

(١) في خ: «الباهر فيقسم... هٰذا الصنف إلاّ الظلمات».

(٢) في ط: «إصبعيه في أذنيه... يجاوز نظره ما»، وفي خ: «... يجاوز بصره ما».

(٣) في خ: «ففائدة إنكار هٰذا إقامة الحجّة عليه لتعذيب بدنه لا لمجرّد... الخفّاشيّة التي».

(٤) في خ: «المعاد والمنشأ...»! وفي خ وط: «... في إحيائه»! وقد تقدّم صحيحًا (١/ ٣٤٧).

شكٌّ ولا ريبٌ؛ فهُم على سبيلِ نجاةٍ[(١)].

القسمُ الثّالثُ: وهُم خلاصةُ الوجودِ ولبابُ بني آدمَ، وهُم أصحابُ البصائرِ النّافذةِ، الذينَ شَهِدَتْ بصائرُهُم هٰذا النُّورَ المبينَ فكانوا منهُ على بصيرةٍ ويقينٍ ومشاهدةٍ لحسنِهِ وكمالِهِ، بحيثُ لو عُرِضَ على عقولِهِم ضدُّهُ لَرَأَوْهُ كالليلِ البهيمِ الأسودِ.

وهٰذا هوَ المحكُّ والفرقانُ بينَهُم وبينَ الذينَ قبلَهُم؛ فإنَّ أُولٰئكَ بحسبِ داعيهِم ومَن يَقْتَرِنُ بهِم[(٢)]، كما قالَ [فيهِم] عَلِيُّ بنُ أبي طالِبٍ: أتباعُ كلِّ ناعقٍ، يَميلونَ معَ كلِّ ريحٍ، لمْ يَسْتَضيئوا بنورِ العلمِ ولمْ يَلْجَؤُوا إلى ركنٍ وثيقٍ[(٣)]. وهٰذا علامةُ عدمِ البصيرةِ؛ أنَّكَ تَراهُ يَسْتَحْسِنُ الشَّيءَ وضدَّهُ، ويَمْدَحُ الشَّيءَ ويَذُمُّهُ بعينِهِ إذا [جاءَ] في قالَبٍ لا يَعْرِفُهُ، فيُعَظِّمُ طاعةَ الرَّسولِ ويَرى عظيمًا مخالفتَهُ ثمَّ هوَ مِن أشدِّ النَّاسِ مخالفةً لهُ ونفيًا لِما أثْبَتَهُ ومعاداةً للقائمينَ بسنَّتِهِ[(٤)]. وهٰذا مِن عدمِ البصيرةِ.

فهٰذا القسمُ الثّالثُ إنَّما عملُهُم على البصائرِ، وبها تفاوتُ مراتبِهِم في درجاتِ الفضلِ. كما قالَ بعضُ السَّلفِ وقد ذَكَرَ السَّابقينَ /خ٤٤٥/ ، فقالَ: إنَّما كانوا يَعْمَلونَ على البصائرِ. وما أُوتِيَ أحدٌ أفضلَ مِن بصيرةٍ في دينِ اللهِ ولو قَصَّرَ في العملِ. قالَ تَعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبادَنا إبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقوبَ أُولي الأَيْدي وَالأَبْصارِ﴾ [صَ: ٤٥]: قالَ ابنُ عَبّاسٍ: أُولي القوَّةِ في طاعةِ اللهِ والأبصارِ في المعرفةِ في أمرِ اللهِ، وقالَ قَتادَةُ ومُجاهِدٌ: أُعْطوا قوَّةً في العبادةِ وبصرًا في الدِّينِ. وأعلمُ النَّاسِ أبصرُهُم بالحقِّ إذا ٱخْتَلَفَ النَّاسُ وإنْ كانَ مقصِّرًا في العملِ.

وتحتَ كلٍّ مِن هٰذهِ الأقسامِ أنواعٌ لا يُحْصي مقاديرَها وتفاوتَها إلَّا اللهُ.

إذا عُرِفَ هٰذا: فالقسمُ الأوَّلُ لا يَنْتَفِعُ بهٰذا البابِ ولا يَزْدادُ بهِ إلَّا ضلالةً. والقسمُ الثَّاني يَنْتَفِعُ بهِ[(٥)] بقدرِ فهمِهِ وٱستعدادِهِ. والقسمُ الثَّالثُ، وإليهِم هٰذا الحديثُ يُساقُ،

---

(١) وإن كانوا منقادين للصوفيّة والمخرّفين والدجّالين وأهل البدع؛ فلا تأس على الهالكين.

(٢) في خ: «لا يختلجهم شكّ... الأبصار النافذة...»، وفي ط: «... ومن يقرن بهم».

(٣) في ط: «أتباع كلّ صائح...»! والتصويب من ط وممّا تقدّم (١/ ٣٤٧).

(٤) وهٰذا حال السواد الأعظم من المسلمين اليوم، ومن لم يكن كذٰلك؛ فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

(٥) في خ: «وهٰذا القسم الثالث... والأبصار في المعرفة بالله... ينتفع منه».

وهُم أُولو الألبابِ الذينَ يَخُصُّهُمُ اللهُ في كتابِهِ بخطابِ التَّنبيهِ والإرشادِ، وهُمُ المرادونَ على الحقيقةِ بالتَّذكرةِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَما يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولو الألْبابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

[٣] فصل

[في الاستدلال بما ظهر من الحكم على ما خفي منها وبالجملة على التفاصيل]

قد شَهِدَتِ الفطرُ [السَّليمةُ] والعقولُ بأنَّ للعالَمِ ربًّا، قادرًا، حكيمًا، عليمًا، [رحيمًا]، كاملاً في ذاتِهِ وصفاتِهِ، لا يكونُ إلاَّ مريدًا للخيرِ لعبادِهِ، مُجْرِيًا لهمُ الشَّريعةَ والسُّنَّةَ الفاضلةَ العائدةَ باستصلاحِهِم الموافقةَ لِما رَكَّبَ في عقولِهِم مِن استحسانِ الحسنِ واستقباحِ القبيحِ وما جَبَلَ[١] طباعَهُم عليهِ مِن إيثارِ النَّافعِ لهُم المصلحِ لشأْنِهِم، وتركِ الضَّارِّ المفسدِ لهُم. وشَهِدَتْ هٰذهِ الشَّريعةُ [لهُ] بأنَّهُ أحكمُ الحاكمينَ وأرحمُ الرَّاحمينَ وأنَّهُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ علمًا.

وإذا عُرِفَ ذٰلكَ؛ [فليسَ] مِن الحكمةِ الإلٰهيَّةِ بل ولا الحكمةِ في ملوكِ العالَمِ أنَّهُم [يُسَوُّونَ] بينَ مَن هُم تحتَ تدبيرِهِم في تعريفِهِم كلَّ ما يَعْرِفُهُ الملوكُ وإعلامِهِم جميعَ ما يَعْلَمونَهُ وإطلاعِهِم على كلِّ ما يُجْرونَ عليهِ[٢] سياساتِهِم في أنفسِهِم وفي منازلِهِم، حتَّى لا يَنْهَوْنَ في بلدٍ نهيًا[٣] إلاَّ أخبَروا مَن تحتَ أيديهِم /خ٤٤٦/ بالسَّببِ في ذٰلكَ والمعنى الذي قَصَدوهُ منهُ، ولا يَأْمُرونَ رعيَّتَهُم بأمرٍ ولا يَضْرِبونَ عليهِم بعثًا ولا يَسوسونَهُم سياسةً إلاَّ أَخْبَروهُم بوجهِ ذٰلكَ وسببِهِ وغايتِهِ ومدَّتِهِ، بل لا تَتَصَرَّفُ بهِمُ الأحوالُ في مطاعمِهِم وملابسِهِم ومراكبِهِم إلاَّ وَقَفوهُم على أغراضِهِم منهُ! ولا شَكَّ أنَّ هٰذا منافٍ للحكمةِ والمصلحةِ بينَ المخلوقينَ؛ فكيفَ بشأْنِ ربِّ[٤] العالمينَ وأحكمِ الحاكمينَ الذي لا يُشارِكُهُ في علمِهِ ولا [في] حكمتِهِ أحدٌ أبدًا؟! فحسبُ العقولِ الكاملةِ

---

(١) في خ: «الفطرة السليمة... لهم على الشريعة... وبما جبل». وجاء فوق «مريدًا»: «يشاء».
(٢) في خ: «وإذا عرفت... ما يجرون عليهم»، وفي ط: «... من هو تحت تدبيرهم...».
(٣) في خ وط: «حتّى لا يقيموا في بلد فيها»! وهو تحريف لا معنى له أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.
(٤) في ط: «على أغراضهم فيه...»، وفي خ: «... وكيف يشاؤه ربّ».

أنْ تَسْتَدِلَّ بما عَرَفْتَ مِن حكمتِهِ على ما غابَ عنها وتَعْلَمَ أنَّ لهُ حكمةً[١] في كلِّ ما خَلَقَهُ وأمَرَ بهِ وشَرَعَهُ.

وهلْ تَقْتَضي الحكمةُ أنْ يُخْبِرَ اللهُ تَعالى [كلَّ عبدٍ مِن] عبادِهِ بكلِّ ما يَفْعَلُهُ ويُوقِفَهُم على وجهِ تدبيرِهِ في كلِّ ما يُريدُهُ وعلى حكمتِهِ في صغيرِ ما ذَرَأَ وبَرَأَ مِن خليقتِهِ؟! وهلْ في قوى المخلوقاتِ ذٰلكَ؟! بل طَوى [سبحانَهُ] كثيرًا مِن [حِكَمِ] صنعِهِ وأمرِهِ[٢] عن جميعِ خلقِهِ فلمْ يُطْلِعْ على ذٰلكَ مَلَكًا مقرَّبًا ولا نبيًّا مرسلاً.

والمدبِّرُ الحكيمُ مِن البشرِ إذا ثَبَتَتْ حكمتُهُ وٱبتغاؤُهُ الصَّلاحَ لمَن تحتَ تدبيرِهِ وسياستِهِ؛ كُفِيَ[٣] في ذٰلكَ تتبُّعَ مقاصدِهِ فيمَن يُوَلِّي ويَعْزِلُ وفي جنسِ ما يَأْمُرُ بهِ ويَنْهَى عنهُ وفي تدبيرِهِ لرعيَّتِهِ وسياستِهِ لهُم دونَ تفاصيلِ كلِّ فعلٍ مِن أفعالِهِ. اللهمَّ! إلاَّ أنْ يَبْلُغَ الأمرُ في ذٰلكَ مبلغًا لا يوجَدُ لفعلِهِ[٤] منفذٌ ومساغٌ في المصلحةِ أصلاً، فحينئذٍ يَخْرُجُ بذٰلكَ عنِ ٱستحقاقِ ٱسمِ الحكيمِ!

ولنْ يَجِدَ أحدٌ في خلقِ اللهِ ولا في أمرِهِ واحدًا مِن هٰذا الضَّربِ، بل غايةُ ما يُخْرِجُهُ تفتيشُ المتعنِّتِ أُمورٌ[٥] يَعْجِزُ العقلُ عن معرفةِ وجوهِها وحكمتِها، وأمَّا أنْ يَنْفِيَ ذٰلكَ عنها؛ فمعاذَ اللهِ! إلاَّ أنْ يَكونَ ما أَخْرَجَهُ كذبًا على الخلقِ والأمرِ فلمْ يَخْلُقِ اللهُ ذٰلكَ ولا شَرَعَهُ!

وإذا عُرِفَ هٰذا؛ فقد /خ٤٤٧/ عُرِفَ أنَّ ربَّ العالمينَ أحكمُ الحاكمينَ والعالِمُ بكلِّ شيءٍ والغنيُّ عن كلِّ شيءٍ والقادرُ على كلِّ شيءٍ، ومَن هٰذا شأْنُهُ؛ لمْ تَخْرُجْ أفعالُهُ وأوامرُهُ قطُّ عنِ الحكمةِ والرَّحمةِ والمصلحةِ. وما يَخْفى على العبادِ مِن معاني حكمتِهِ [في صنعِهِ] وإبداعِهِ وأمرِهِ وشرعِهِ؛ فيَكْفيهِمْ فيهِ معرفتُهُ بالوجهِ العامِّ[٦]؛ أنْ تَضَمَّنَتْهُ

---

(١) في ط: «ولا حكمته أحد...»، وفي خ وط: «... وأعلم أنّ له حكمة»!
(٢) في خ: «قوى المخلوق... أمره وصنعه وأمره»، وفي ط: «... من صنعه وأمره».
(٣) في خ: «ذٰلك لا ملك مقرّب ولا نبيًّا مرسل... من تحت تدبيره وسياسته لهم كفي».
(٤) في خ: «تفاصيل كلمة فعل... يبلغ به الآن في ذٰلك مبلغًا لا يوجد لفضله».
(٥) في خ: «أمره ولا وحدانيّته من هٰذا... أمورًا»، وفي ط: «... تخرجه نفس المتعنّت أمور».
(٦) في ط: «اعلم أنّ ربّ...»، وفي خ: «... العالمين وأحكم... بمعرفته بالوجه العامّ».

حكمةٌ بالغةٌ وإنْ لمْ يَعْرِفوا تفصيلَها، وأنَّ ذٰلكَ مِن علمِ الغيبِ الذي ٱسْتَأْثَرَ اللهُ بِهِ، فيَكْفيهِمْ في ذٰلكَ الإسنادُ إلى الحكمةِ البالغةِ العامَّةِ الشَّامِلةِ التي عَلِموا ما خَفِيَ منها بما ظَهَرَ لهُم[1].

هٰذا؛ وإنَّ اللهَ [سبحانَهُ و]تَعالى بَنى أُمورَ عبادِهِ على أنْ عَرَّفَهُم معانيَ جلائلِ خلقِهِ وأمرِهِ دونَ دقائقِهِما وتفاصيلِهِما، وهٰذا مطَّردٌ في الأشياءِ أُصولِها وفروعِها.

فأنتَ إذا رَأيْتَ الرَّجلينِ مثلاً أحدُهُما أكثرُ شعرًا مِن الآخرِ [أ]و أشدُّ بياضًا [أ]و أحدُّ ذهنًا؛ لأمْكَنَكَ أنْ تَعْرِفَ ـ [مِن] جهةِ السَّببِ الذي أجْرى اللهُ عليهِ سنَّةَ الخليقةِ ـ وجهَ ٱختصاصِ كلٍّ واحدٍ منهُما بما ٱخْتُصَّ بهِ، وهٰكذا في ٱختلافِ الصُّورِ والأشكالِ. ولٰكنْ لو أرَدْتَ أنْ تَعْرِفَ المعنى الذي [كانَ] [لهُ][2] شعرُ هٰذا مثلاً يَزيدُ على شعرِ الآخرِ بعددٍ معيَّنٍ، أو المعنى الذي فَضَّلَهُ اللهُ بهِ في القدرِ المخصوصِ والتَّشكيلِ المخصوصِ، ومعرفةَ القدرِ الذي بينَهُما مِن التَّفاوتِ وسببِهِ؛ لَما أمْكَنَ ذٰلكَ أصلاً!

وقِسْ على هٰذا جميعَ المخلوقاتِ مِن الرِّمالِ[3] والجبالِ والأشجارِ ومقاديرِ الكواكبِ وهيئاتِها.

وإذا كانَ لا سبيلَ إلى [معرفةِ هٰذا في الخلقِ، بل يَكْفي فيهِ العلَّةُ العامَّةُ والحكمةُ الشَّاملةُ؛ فهٰكذا في الأمرِ يُعْلَمُ أنَّ جميعَ ما أمَرَ بهِ متضمِّنٌ لحكمةٍ بالغةٍ، وأمَّا تفاصيلُ أسرارِ المأموراتِ والمنهيَّاتِ؛ فلا سبيلَ إلى] علمِ البشريَّةِ [بها][2]، ولٰكنْ يُطْلِعُ اللهُ مَن شاءَ مِن خلقِهِ على ما شاءَ منهُ. فٱعْتَصِمْ بهٰذا الأصلِ[4].

---

(١) في خ: «ذٰلك الاستناد... ما خفي منها ممّا ظهر لهم».

(٢) ساقطة من خ وط.

(٣) في خ: «المخلوقات بين الرمال»، والصواب ما أثبتّه من ط.

(٤) جاء في خ بعد هٰذا: «تمّ. يتلوه في الجزء الثاني إن شاء الله تعالى فصل حاجة الناس إلى الشريعة ضروريّة فوق حاجتهم إلى كلّ شيء. الحمد لله وحده سبحانه لا نحصي ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده. وصلّ اللهمّ وسلّم على نبيّنا محمّد الذي أصطفيته وأجتبيته وجعلته سفيرًا بينك وبين عبادك وأمنته على وحيك، نسألك اللهمّ أن تحيينا وتميتنا وتبعثنا على دينه إنّك يا الله أهل الجود والكرم، وعلى آله وصحبه وسلّم. جرى ذٰلك سنة عشر وثلاث مئة وألف لتسع وعشرين خلين من ذا القعدة سنة ١٣١٠ من هجرته. فيا ربّ أغفر لمن كان كاتبه، وعمّ به يا ربّ من قال آمينا. بقلم عبده وابن عبده عبدالرحمٰن بن=

[٤] فصل

[حاجة الخلق للشرائع تفوق كل حاجة]

حاجةُ النَّاسِ إلى الشَّريعةِ ضروريَّةٌ فوقَ حاجتِهِم إلى كلِّ شيءٍ[١]، ولا نسبةَ لحاجتِهِم إلى علمِ الطِّبِّ إليها!

ألا تَرى أنَّ أكثرَ العالمِ يَعيشونَ بغيرِ طبيبٍ، ولا يَكونُ الطَّبيبُ إلاَّ في بعضِ المدنِ الجامعةِ، وأمَّا أهلُ البدوِ كلُّهُم وأهلُ الكُفورِ[٢] كلُّهُم وعامَّةُ بني آدَمَ؛ فلا يَحْتاجونَ إلى طبيبٍ، وهُم أصحُّ أبدانًا وأقوى طبيعةً ممَّن هوَ متقيِّدٌ بالطَّبيبِ، ولعلَّ أعمارَهُم متقاربةٌ[٣]؟

وقد فَطَرَ اللهُ بني آدَمَ على تناولِ ما يَنْفَعُهُم واْجتنابِ ما يَضُرُّهُم، وجَعَلَ لكلِّ قومٍ عادةً وعرفًا في اْستخراجِ ما يَهْجُمُ عليهِم مِن الأدواءِ، حتَّى إنَّ كثيرًا مِن أُصولِ الطِّبِّ إنَّما أُخِذَتْ عن عوائدِ النَّاسِ وعرفِهِم وتجاربِهِم؟!

وأمَّا الشَّريعةُ؛ فمبناها على تعريفِ مواقعِ رضى اللهِ وسخطِهِ في حركاتِ العبادِ الاختياريَّةِ، فمبناها على الوحيِ المحضِ.

والحاجةُ إلى الشَّريعةِ أشدُّ مِن الحاجةِ إلى التَّنفُّسِ فضلاً عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ؛ لأنَّ غايةَ ما يُقَدَّرُ في عدمِ التَّنفُّسِ والطَّعامِ والشَّرابِ موتُ البدنِ وتعطُّلُ الرُّوحِ عنهُ، وأمَّا ما يُقَدَّرُ عندَ عدمِ الشَّريعةِ؛ ففسادُ الرُّوحِ والقلبِ جملةً وهلاكُ الأبدِ. وشَتَّانَ بينَ هٰذا وهلاكِ البدنِ بالموتِ[٤]!

= محمّد بن عبدالرحمٰن بن عبدالله بن محمّد بن عبدالوهّاب شيخ الإسلام رحمهم الله تعالى. وصلّى الله على محمّد وآله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين. وقف منجز لله تعالى ولا يقرّ إلّا من يصونه من الشرّ والحفظ»اهـ. والكلمتان الأخيرتان غير مقروءتين.

(١) إلى هنا ينتهي الأصل المخطوط (خ).

(٢) جمع كَفْر، وهو القرية.

(٣) وهٰذا صحيح وملحوظ قديمًا وحديثًا، والأطبّاء المحدثون يعزون هٰذه الظاهرة إلى أنّ بيئة أهل البوادي والقرى وظروفهم المعيشيّة أكثر اْنسجامًا مع المعايير الصحيّة من بيئة أهل المدن وظروفهم، سواء من ناحية الهواء أو الغذاء أو نمط الحركة والحياة اليوميّة.

(٤) وهٰذا عين الحقّ، ولو اْستغربه أو اْستبعده الأكثرون! وتأمّل حال من اْبتلي بولد فاجر يجلب عليه المصائب والمخازي؛ كيف يتمنّى من كلّ قلبه لو أنّه يموت ويرتاح من شروره أو أنّه لم يره أصلاً.

فليسَ النَّاسُ قطُّ إلى شيءٍ أحوجَ منهُم إلى معرفةِ ما جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ والقيامِ بِهِ والدَّعوةِ إليهِ والصَّبرِ عليهِ وجهادِ مَن خَرَجَ عنهُ حتَّى يَرْجِعَ إليهِ، وليسَ للعالَمِ صلاحٌ بدونِ ذٰلكَ ٱلبتَّةَ، ولا سبيلَ إلى الوصولِ إلى السَّعادةِ والفوزِ الأكبرِ إلَّا بالعبورِ على هٰذا الجسرِ.

[٥] فصل

[في أن حسن الشرائع مركوز في العقول والفطر]

الشَّرائعُ كلُّها في أُصولِها ـ وإنْ تَبايَنَتْ ـ متَّفقةٌ مركوزٌ حسنُها في العقولِ. ولو وَقَعَتْ على غيرِ ما هيَ عليهِ؛ لَخَرَجَتْ عنِ الحكمةِ والمصلحةِ والرَّحمةِ، بل مِن المحالِ أنْ تَأْتِيَ بخلافِ ما أَتَتْ بِهِ، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]. وكيفَ يُجَوِّزُ ذو العقلِ أنْ تَرِدَ شريعةُ أحكمِ الحاكمينَ بضدِّ ما وَرَدَتْ بِهِ؟!

● فالصَّلاةُ قد وُضِعَتْ على أكملِ الوجوهِ وأحسنِها التي تَعَبَّدَ بها الخالقُ تَبارَكَ وتَعالى عبادَهُ؛ مِن تضمُّنِها للتَّعظيمِ لهُ بأنواعِ الجوارحِ مِن نطقِ اللسانِ وعملِ اليدينِ والرِّجلينِ والرَّأْسِ وحواسِّهِ وسائرِ أجزاءِ البدنِ كلٌّ يَأْخُذُ حظَّهُ مِن الحكمةِ في هٰذهِ العبادةِ العظيمةِ المقدارِ معَ أخذِ الحواسِّ الباطنةِ بحظِّها منها وقيامِ القلبِ بواجبِ عبوديَّتِهِ فيها.

فهيَ مشتملةٌ على: الثَّناءِ والحمدِ والتَّمجيدِ والتَّسبيحِ والتَّكبيرِ وشهادةِ الحقِّ، والقيامِ بينَ يديِ الرَّبِّ مقامَ العبدِ الذَّليلِ الخاضعِ المدبَّرِ المربوبِ، ثمَّ التَّذلُّلِ لهُ في هٰذا المقامِ والتَّضرُّعِ والتَّقرُّبِ إليهِ بكلامِهِ، ثمَّ ٱنحناءِ الظَّهرِ ذلاًّ لهُ وخشوعًا وٱستكانةً، ثمَّ ٱستوائِهِ قائمًا لِيَسْتَعِدَّ لخضوعٍ أكملَ لهُ مِن الخضوعِ الأوَّلِ ـ وهوَ السُّجودُ مِن قيامٍ ـ فيَضَعُ أشرفَ شيءٍ فيهِ ـ وهوَ وجهُهُ ـ على التُّرابِ خشوعًا لربِّهِ وٱستكانةً وخضوعًا لعظمتِهِ وذلاًّ لعزَّتِهِ وقدِ ٱنْكَسَرَ لهُ قلبُهُ وذَلَّ لهُ جسمُهُ وخَشَعَتْ لهُ جوارحُهُ، ثمَّ يَسْتَوي قاعدًا يَتَضَرَّعُ لهُ ويَتَذَلَّلُ بينَ يديهِ ويَسْأَلُهُ مِن فضلِهِ، ثمَّ يَعودُ إلى حالِهِ مِن الذُّلِّ والخشوعِ

والاستكانةِ، فلا يَزالُ هٰذا دأبَهُ حتَّى يَقْضِيَ صلاتَهُ فيَجْلِسَ عندَ إرادةِ الانصرافِ منها مثنيًا على ربِّهِ مسلِّمًا على نبيِّهِ وعلى عبادِهِ ثمَّ يُصَلِّي على رسولِهِ ثمَّ يَسْأَلُ ربَّهُ مِن خيرِهِ وبرِّهِ وفضلِهِ.

فأيُّ شيءٍ بعدَ هٰذهِ العبادةِ مِن الحسنِ؟! وأيُّ كمالٍ وراءَ هٰذا الكمالِ؟! وأيُّ عبوديَّةٍ أشرفُ مِن هٰذهِ العبوديَّةِ؟!

فمَن جَوَّزَ عقلُهُ أنْ تَرِدَ الشَّريعةُ بضدِّها مِن كلِّ وجهٍ في القولِ والعملِ، وأنَّهُ لا فرقَ في نفسِ الأمرِ بينَ هٰذهِ العبادةِ وبينَ ضدِّها مِن السُّخريةِ والسَّبِّ والبطرِ[1] وكشفِ العورةِ والبولِ على السَّاقينِ والضَّحكِ والصَّفيرِ وأنواعِ المجونِ وأمثالِ ذٰلكَ؛ فَلْيُعَزِّ عقلَهُ، ولْيَسْأَلِ اللهَ أنْ يَهَبَهُ عقلًا سواهُ!

● وأمَّا حسنُ الزَّكاةِ، وما تَضَمَّنَتْهُ مِن مواساةِ ذوي الحاجاتِ والمسكنةِ والخَلَّةِ[2] مِن عبادِ اللهِ الذينَ يَعْجِزونَ عن إقامةِ نفوسِهِم ويُخافُ عليهِمُ التَّلفُ إذا خَلَّاهُمُ الأغنياءُ وأنفسَهُم، وما فيها مِن الرَّحمةِ والإحسانِ والبرِّ والطُّهرةِ وإيثارِ أهلِ الإيثارِ والاتِّصافِ بصفةِ الكرمِ والجودِ والفضلِ والخروجِ مِن سماتِ أهلِ الشُّحِّ والبخلِ والدَّناءةِ؛ فأمرٌ لا يَسْتَرِيبُ عاقلٌ في حسنِهِ ومصلحتِهِ وأنَّ الآمرَ بهِ أحكمُ الحاكمينَ. وليسَ يَجوزُ في العقلِ ولا في الفطرةِ ٱلبتَّةَ أنْ تَرِدَ شريعةٌ مِن الحكيمِ العليمِ بضدِّ ذٰلكَ أبدًا.

● وأمَّا الصَّومُ؛ فناهيكَ بهِ مِن عبادةٍ تَكُفُّ النَّفسَ عن شهواتِها وتُخْرِجُها عن شَبَهِ البهائمِ إلى شَبَهِ الملائكةِ المقرَّبينَ! فإنَّ النَّفسَ إذا خُلِّيَتْ ودواعيَ شهواتِها؛ ٱلْتَحَقَتْ بعالمِ البهائمِ، فإذا كُفَّتْ شهواتُها للهِ؛ ضُيِّقَتْ مجاري الشَّيطانِ، وصارَتْ قريبةً مِن اللهِ بتركِ عاداتِها وشهواتِها محبَّةً لهُ وإيثارًا لمرضاتِهِ وتقرُّبًا إليهِ. فيَدَعُ الصَّائمُ أحبَّ الأشياءِ إليهِ وأعظمَها لصوقًا بنفسِهِ مِن الطَّعامِ والشَّرابِ والجماعِ مِن أجلِ ربِّهِ، فهوَ عبادةٌ لا تُتَصَوَّرُ[3] حقيقتُها إلَّا بتركِ الشَّهوةِ للهِ، فالصَّائمُ يَدَعُ طعامَهُ وشرابَهُ وشهواتِهِ مِن أجلِ

---

(١) كذا في ط! وهي غريبة هنا! ولا يبعد أنّها محرّفة عن «والتكبّر».

(٢) المسكنة: الضعف والذلّة. الخلّة: الفقر والحاجة.

(٣) في ط: «بترك عادتها وشهواتها... عبادة ولا تتصوّر»! والصواب ما أثبتّه.

ربِّهِ. وهٰذا معنى كونِ الصَّومِ لهُ تبارَكَ وتَعالى، وبهٰذا فَسَّرَ النَّبيُّ ﷺ هٰذهِ الإضافةَ في الحديثِ، فقالَ: «يقولُ اللهُ تَعالى: كلُّ عملِ ٱبنِ آدمَ يُضاعَفُ الحسنةُ بعشرةِ أمثالِها. قالَ اللهُ: إلاَّ الصَّومَ؛ فإنَّهُ لي، وأنا أجْزي بهِ، يَدَعُ طعامَهُ وشرابَهُ مِن أجلي»[١]. حتَّى إنَّ الصَّائمَ لَيَتَصَوَّرُ بصورةِ مَن لا حاجةَ لهُ في الدُّنيا إلاَّ في تحصيلِ رضى اللهِ.

وأيُّ حسنٍ يَزيدُ على حسنِ هٰذهِ العبادةِ التي تَكْسِرُ الشَّهوةَ وتَقْمَعُ النَّفسَ وتُحْيي القلبَ وتُفْرِحُهُ وتُزَهِّدُ في الدُّنيا وشهواتِها وتُرَغِّبُ فيما عندَ اللهِ وتُذَكِّرُ الأغنياءَ بشأْنِ المساكينِ وأحوالِهِم وأنَّهُم قد أخَذوا بنصيبٍ مِن عيشِهِم فتُعَطِّفُ قلوبَهُم عليهِم ويَعْلَمونَ ما هُمْ فيهِ مِن نعمِ اللهِ فيَزْدادونَ لهُ شكرًا[٢]؟! وبالجملةِ؛ فعونُ الصَّومِ على تقوى اللهِ أمرٌ مشهورٌ، فما ٱسْتَعانَ أحدٌ على تقوى اللهِ وحفظِ حدودِهِ وٱجتنابِ محارمِهِ بمثلِ الصَّومِ!

فهوَ شاهدٌ لمَن شَرَعَهُ وأَمَرَ بهِ بأنَّهُ أحكمُ الحاكمينَ وأرحمُ الرَّاحمينَ، وأنَّهُ إنَّما شَرَعَهُ إحسانًا إلى عبادِهِ ورحمةً بِهِم ولطفًا بهِم لا بخلاً عليهِم برزقِهِ ولا مجرَّدَ تكليفٍ وتعذيبٍ خالٍ مِن الحكمةِ والمصلحةِ بل هوَ غايةُ الحكمةِ والرَّحمةِ والمصلحةِ، وأنَّ شرعَ هٰذهِ العباداتِ لهُم مِن تمامِ نعمتِهِ عليهِم ورحمتِهِ بهِم.

● وأمَّا الحجُّ؛ فشأْنٌ آخرُ لا يُدْرِكُهُ إلاَّ الحنفاءُ الذينَ ضَرَبوا في المحبَّةِ بسهمٍ، وشأْنُهُ أجلُّ مِن أنْ تُحيطَ بهِ العبارةُ، وهوَ خاصَّةُ هٰذا الدِّينِ الحنيفِ، حتَّى قيلَ في قولِهِ تَعالى ﴿حُنَفاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣١]؛ أي: حجَّاجًا[٣]. وجَعَلَ اللهُ بيتَهُ الحرامَ قيامًا للنَّاسِ، فهوَ عمودُ العالَمِ الذي عليهِ بناؤُهُ، فلو تَرَكَ النَّاسُ كلُّهُمُ الحجَّ

---

(١) رواه: البخاري (٣٠ـ الصوم، ٩ـ هل يقول إنّي صائم، ٤/١١٨/١٩٠٤)، ومسلم (١٣ـ الصيام، ٣٠ـ فضل الصيام، ٢/٨٠٧/١١٥١)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في ط: «فيزدادوا له شكرًا»! وصوّبت في الحاشية.

(٣) لا ريب أنّ الحجّ من أصول الحنيفيّة السمحة، وكذٰلك فسياق الآية في سورة الحجّ يدعم هٰذا التأويل إلى حدّ ما. لٰكنّ هٰذه اللفظة ومشتقّاتها وردت في آيات أخرى لا تدعم هٰذا التأويل، وهي أعمّ بكثير من أن تُقصر على هٰذا المعنى وحده. ولذٰلك صدّر ابن القيّم يرحمه الله الفقرة بـ«قيل» التي تفيد التضعيف أو تشعر على الأقلّ بأنّه قول في جملة أقوال أخرى كثيرة. والله أعلى وأعلم.

سنةً؛ لَخَرَّتِ السَّماءُ على الأرضِ، هٰكذا قالَ ترجمانُ القرآنِ ابنُ عَبَّاسٍ، فالبيتُ الحرامُ قيامُ العالَمِ، فلا يَزالُ قيامًا ما دامَ هٰذا البيتُ محجوجًا.

فالحجُّ هوَ خاصَّةُ الحنيفيَّةِ ومعونةُ الصَّلاةِ وسرُّ قولِ العبدِ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ؛ فإنَّهُ مؤسَّسٌ على التَّوحيدِ المحضِ والمحبَّةِ الخالصةِ، وهوَ ٱستزارةُ المحبوبِ لأحبابِهِ ودعوتُهُم إلى بيتِهِ ومحلِّ كرامتِهِ، ولهٰذا إذا دَخَلوا في هٰذهِ العبادةِ؛ فشعارُهُم لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ؛ إجابةَ محبٍّ لدعوةِ حبيبِهِ، ولهٰذا كانَ للتَّلبيةِ موقعٌ عندَ اللهِ، وكلَّما أكثرَ العبدُ منها؛ كانَ أحبَّ إلى ربِّهِ وأحظى، فهوَ لا يَمْلِكُ نفسَهُ أنْ يقولَ: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ، حتَّى يَنْقَطِعَ نَفَسُهُ.

وأمَّا أسرارُ ما في هٰذهِ العبادةِ مِن الإحرامِ وٱجتنابِ العوائدِ وكشفِ الرَّأْسِ ونزعِ الثِّيابِ المعتادةِ والطَّوافِ والوقوفِ بعَرَفَةَ ورمي الجمارِ وسائرِ شعائرِ الحجِّ؛ فممَّا شَهِدَتْ بحسنِهِ العقولُ السَّليمةُ والفطرُ المستقيمةُ، وعَلِمَتْ بأنَّ الذي شَرَعَ هٰذا لا حكمةَ فوقَ حكمتِهِ[1]. وسَنَعودُ إنْ شاءَ اللهُ إلى الكلامِ في ذٰلكَ في موضعِهِ[2].

● وأمَّا الجهادُ؛ فناهيكَ بهِ مِن عبادةٍ هيَ سنامُ العباداتِ وذروتُها.

وهوَ المحكُّ والدَّليلُ المفرِّقُ بينَ المحبِّ والمدَّعي: فالمحبُّ قد بَذَلَ مهجتَهُ ومالَهُ لربِّهِ وإلٰهِهِ، متقرِّبًا إليهِ ببذلِ أعزِّ ما بحضرتِهِ، يَوَدُّ لو أنَّ لهُ بكلِّ شعرةٍ نَفْسًا يَبْذُلُها في حبِّهِ ومرضاتِهِ، ويَوَدُّ أنْ لو قُتِلَ فيهِ ثمَّ أُحْيِيَ ثمَّ قُتِلَ ثمَّ أُحْيِيَ ثمَّ قُتِلَ، فهوَ يَفْدي بنفسِهِ حبيبَهُ وعبدَهُ ورسولَهُ ولسانُ حالِهِ يقولُ:

يَفْديكَ بِالنَّفْسِ صَبٌّ لَوْ يَكونُ لَهُ ... أَعَزُّ مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ فَداكَ بِهِ

فهوَ قد سَلَّمَ نفسَهُ ومالَهُ لمشتريها، وعَلِمَ أنَّهُ لا سبيلَ إلى أخذِ السِّلعةِ إلَّا ببذلِ ثمنِها، ﴿إنَّ اللهَ ٱشْتَرى مِنَ المُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ

---

(١) ولولا ذٰلك؛ لما تعلّقت قلوب الناس بهٰذا البيت، فلا تكاد ترجع منه حتّى تشتاق للعودة إليه، مع ما في ذٰلك من المشقّة الماليّة والبدنيّة وفراق الأهل والأحبّة. فسبحان من له في كلّ خلق أو أمر آية تدلّ على كمال علمه وعظيم حكمته ورحمته.

(٢) لعلّه أراد أن يفصّل في هذا في القسم الثاني من الكتاب، وقد تقدّم لك ما فيه (١/ ٣٠-٣٢).

فَيَقْتُلونَ وَيُقْتَلونَ﴾ [التوبة: ١١١].

وإذا كانَ مِن المعلومِ المستقرِّ عندَ الخلقِ أنَّ علامةَ المحبَّةِ الصَّحيحةِ بذلُ الرُّوحِ والمالِ في مرضاةِ المحبوبِ؛ فالمحبوبُ الحقُّ الذي لا تَنْبَغي المحبَّةُ إلَّا لهُ وكلُّ محبَّةٍ سوى محبَّتِهِ فباطلةٌ[١] أولى بأنْ يَشْرَعَ لعبادِهِ الجهادَ الذي هوَ غايةُ ما يَتَقَرَّبونَ بِهِ إلى إلٰهِهِم وربِّهِم، وكانَتْ قرابينُ مَن قبلَهُم مِن الأُممِ في ذبائحِهِم وقرابينُهُم تقديمُ أنفسِهِم للذَّبحِ في اللهِ مولاهُمُ الحقِّ.

فأيُّ حسنٍ يَزيدُ على حسنِ [هٰذهِ][٢] العبادةِ؟!

ولهٰذا ٱدَّخَرَها اللهُ لأكملِ الأنبياءِ وأكملِ الأُممِ عقلاً وتوحيدًا ومحبَّةً للهِ.

● وأمَّا الضَّحايا والهدايا؛ فقربانٌ إلى الخالقِ سبحانَهُ، يَقومُ مقامَ الفديةِ عنِ النَّفسِ المستحقَّةِ للتَّلفِ، فديةً وعوضًا وقربانًا إلى اللهِ وتشبُّهًا بإمامِ الحنفاءِ وإحياءً لسنَّتِهِ أنْ فَدى اللهُ ولدَهُ بالقربانِ فجَعَلَ ذٰلكَ في ذرِّيَّتِهِ باقيًا أبدًا.

● وأمَّا الأيمانُ والنُّذورُ؛ فعقودٌ يَعْقِدُها العبدُ على نفسِهِ يُؤكِّدُ بها ما أَلْزَمَ بِهِ نفسَهُ مِن الأُمورِ باللهِ وللهِ، فهي تعظيمٌ للخالقِ ولأسمائِهِ ولحقِّهِ بأنْ تكونَ[٣] العقودُ بِهِ ولهُ، وهٰذا غايةُ التَّعظيمِ، فلا يَعْقِدُ بغيرِ ٱسمِهِ ولا لغيرِ القربِ إليهِ، بل إنْ حَلَفَ؛ فبٱسمِهِ تعظيمًا وتبجيلاً وتوحيدًا وإجلالاً، وإنْ نَذَرَ؛ فلهُ توحيدًا وطاعةً ومحبَّةً وعبوديَّةً، فيَكونُ هوَ المعبودَ وحدَهُ والمستعانَ بِهِ وحدَهُ.

● وأمَّا المطاعمُ والمشاربُ والملابسُ والمناكحُ؛ فهيَ داخلةٌ فيما يُقيمُ الأبدانَ ويَحْفَظُها مِن الفسادِ والهلاكِ وفيما يَعودُ ببقاءِ النَّوعِ الإنسانيِّ؛ لِيَتِمَّ بذٰلكَ قوامُ الأجسادِ وحفظُ النَّوعِ، فيَتَحَمَّلَ الأمانةَ التي عُرِضَتْ على السَّماواتِ والأرضِ، ويَقْوى على حملِها وأدائِها، ويَتَمَكَّنَ مِن شكرِ مولى الإنعامِ ومسديهِ.

---

(١) في ط: «وكل محبّة سوى محبّته فالمحبّة له باطلة»! وفيه عيّ وركّة تليق بأقلام النسّاخ، فربّما كان الصواب ما أثبتّه، وربّما كان الصواب: «وكلّ محبوب سواه فالمحبّة له باطلة». وما أثبتّه أولى بالصواب من هٰذا الأخير. والله أعلم.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) في ط: «وأن تكون»، وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

وفَرَّقَ في هٰذهِ الأنواعِ بينَ المباحِ والمحظورِ والحسنِ والقبيحِ والضَّارِّ والنَّافعِ والطَّيِّبِ والخبيثِ: فحَرَّمَ منها القبيحَ والخبيثَ والضَّارَّ، وأباحَ منها الحسنَ والطَّيِّبَ والنَّافعَ. كما سَيأْتي إنْ شاءَ اللهُ.

وتأمَّلْ ذٰلكَ في المناكحِ؛ فإنَّ مِن المستقرِّ في العقولِ والفطرِ أنَّ قضاءَ هٰذا الوطرِ في الأُمَّهاتِ والبناتِ والأخواتِ والعمَّاتِ والخالاتِ والجدَّاتِ مستقبَحٌ في كلِّ عقلٍ مستهجنٌ في كلِّ فطرةٍ[1]، ومِن المحالِ أنْ يَكونَ المباحُ مِن ذٰلكَ مساويًا للمحظورِ في نفسِ الأمرِ ولا فرقَ بينَهُما إلاَّ مجرَّدُ التَّحكُّمِ بالمشيئةِ! سبحانَكَ هٰذا بهتانٌ عظيمٌ! وكيفَ يَكونُ في نفسِ الأمرِ نكاحُ الأُمِّ وٱستفراشُها مساويًا لنكاحِ الأجنبيَّةِ وٱستفراشِها وإنَّما فَرَّقَ بينَهُما محضُ الأمرِ؟!

وكذٰلكَ مِن المحالِ أنْ يَكونَ الدَّمُ والبولُ والرَّجيعُ مساويًا للخبزِ والماءِ والفاكهةِ ونحوِها وإنَّما الشَّارعُ فَرَّقَ بينَهُما فأباحَ هٰذا وحَرَّمَ هٰذا معَ ٱستواءِ الكلِّ في نفسِ الأمرِ!

● وكذٰلكَ أخذُ المالِ بالبيعِ والهبةِ والوصيَّةِ والميراثِ لا يَكونُ مساويًا لأخذِهِ بالقهرِ والغلبةِ والغصبِ والسَّرقةِ والجنايةِ حتَّى يَكونَ إباحةُ هٰذا وتحريمُ هٰذا راجعًا إلى محضِ الأمرِ والنَّهيِ المفرِّقِ بينَ المتماثلينِ!

● وكذٰلكَ الظُّلمُ والكذبُ والزُّورُ والفواحشُ كالزِّنى واللواطِ وكشفِ العورةِ بينَ الملإِ ونحوِ ذٰلكَ؛ كيفَ يُسَوِّغُ عقلُ عاقلٍ أنَّهُ لا فرقَ قطُّ في نفسِ الأمرِ بينَ ذٰلكَ وبينَ العدلِ والإحسانِ والعفَّةِ والصِّيانةِ وسترِ العورةِ وإنَّما الشَّارعُ يَحْكُمُ بإيجابِ هٰذا وتحريمِ هٰذا؟!

وهٰذا ممَّا لو عُرِضَ على العقولِ السَّليمةِ التي لمْ تَخْتَلَّ ولمْ يَمَسَّها ميلٌ للمثالاتِ

---

(١) سليمة طبيعيّة، ولا ينافي هٰذا أن تجد فيمن ٱنتكست فطرته من يقول بخلافه! وقد مرّ بي أيّام دراستي للطبّ البشري في جامعة. . . أستاذ ملحد في علم الحيوان، كان لا يفتأ يكرّر على أسماعنا أنّه لا فرق في النكاح بين أمٍّ وأخت وأجنبيّة، والمنع لا يعدو أن يكون إكراهًا قانونيًّا (يريد القانون المدني، وأمّا الشرعيّ؛ فهو منسلخ عنه ٱلبتّة)! ومثل هٰذا لا ينبغي أن يلتفت إليه ولا ينقل كلامه، لٰكنّ الذي يدمي القلب أن تفتح أبواب الجامعات له ولأمثاله! وأين؟! في عاصمة خلافة حملت راية الإسلام ذات يوم من المحيط إلى المحيط وفتحت به أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا! وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

الفاسدةِ وتعظيمُ أهلِها وحسنُ الظَّنِّ بهِم؛ لَكانَتْ أشدَّ إنكارًا لهُ وشهادةً ببطلانِهِ مِن كثيرٍ مِن الضَّروريَّاتِ.

وهل رَكَّبَ اللهُ في فطرةِ عاقلٍ قطُّ أنَّ الإحسانَ والإساءةَ والصِّدقَ والكذبَ والفجورَ والعفَّةَ والعدلَ والظُّلمَ وقتلَ النُّفوسِ وإنجاءَها بلِ السُّجودَ للهِ وللصَّنمِ سواءٌ في نفسِ الأمرِ لا فرقَ بينَهُما وإنَّما الفرقُ بينَهُما الأمرُ المجرَّدُ؟! وأيُّ جحدٍ للضَّروريَّاتِ أعظمُ مِن هٰذا؟! وهلْ هٰذا إلَّا بمنزلةِ مَن يَقولُ: إنَّهُ لا فرقَ بينَ الرَّجيعِ والبولِ والدَّمِ والقيءِ وبينَ الخبزِ والماءِ واللحمِ والفاكهةِ والكلُّ سواءٌ في نفسِ الأمرِ وإنَّما الفرقُ بالعوائدِ؟! فأيُّ فرقٍ بينَ مدَّعي هٰذا الباطلِ وبينَ مدَّعي ذٰلكَ الباطلِ؟! وهلْ هٰذا إلَّا بهتٌ للعقلِ والحسِّ والضَّرورةِ والشَّرعِ والحكمةِ؟!

[٦ـ فصل]

[في دلالة النصوص على أن المعروف ما تعرفه العقول وتقر بحسنه] [والمنكر ما تنكره العقول وتقر بقبحه]

وإذا كانَ لا معنى عندَهُم للمعروفِ إلَّا ما أُمِرَ بِهِ فصارَ معروفًا بالأمرِ ولا للمنكرِ إلَّا ما نُهِيَ عنهُ فصارَ منكرًا بنهيِهِ؛ فأيُّ معنًى لقولِهِ: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؟! وهلْ حاصِلُ ذٰلكَ[1] زائدٌ على أنْ يُقالَ: يَأْمُرُهُم بما يَأْمُرُهُم بهِ ويَنْهاهُم عمَّا يَنْهاهُم عنهُ؟! وهٰذا كلامٌ يُنَزَّهُ عنهُ آحادُ العقلاءِ فضلًا عن كلامِ ربِّ العالمينَ!

وهلْ دَلَّتِ الآيةُ إلَّا على أنَّهُ أَمَرَهُم بالمعروفِ الذي تَعْرِفُهُ العقولُ وتُقِرُّ بحسنِهِ الفطرُ، فأَمَرَهُم بما هوَ معروفٌ في نفسِهِ عندَ كلِّ عقلٍ سليمٍ ونَهاهُم عمَّا هوَ منكرٌ في الطِّباعِ والعقولِ بحيثُ إذا عُرِضَ على العقولِ السَّليمةِ أنْكَرَتْهُ أشَدَّ الإنكارِ كما أنَّ ما أمَرَ بهِ إذا عُرِضَ على العقلِ السَّليمِ قَبِلَهُ أعظمَ قبولٍ وشَهِدَ بحسنِهِ؟! كما قالَ بعضُ

---

(١) يعني: إذا آستبدلنا لفظ «المعروف» بمعناه عندهم.

الأعرابِ: وقد سُئِلَ: بِمَ عَرَفْتَ أنَّهُ رسولُ اللهِ؟ فقالَ: ما أَمَرَ بشيءٍ فقالَ العقلُ لَيْتَهُ نَهى عنه[(١)]، ولا نَهى عن شيءٍ فقالَ العقلُ لَيْتَهُ أَمَرَ بهِ! فهٰذا الأعرابيُّ أعرفُ باللهِ ودينِهِ ورسولِهِ مِن هٰؤلاءِ، وقد أقرَّ عقلُهُ وفطرتُهُ بحسنِ ما أُمِرَ بهِ وقبحِ ما نُهِيَ عنهُ، حتَّى كانَ في حقِّهِ مِن أعلامِ نبوَّتِهِ وشواهِدِ رسالتِهِ[(٢)]، ولو كانَ جهةُ كونِهِ معروفًا ومنكرًا هوَ الأمرَ المجرَّدَ؛ لمْ يَكُنْ فيهِ دليلٌ، بل كانَ يُطْلَبُ لهُ الدَّليلُ مِن غيرِهِ!

ومَن سَلَكَ ذٰلكَ المسلكَ الباطلَ؛ لمْ يُمْكِنْهُ أنْ يَسْتَدِلَّ على صحَّةِ نبوَّتِهِ بنفسِ دعوتِهِ ودينِهِ! ومعلومٌ أنَّ نفسَ الدِّينِ الذي جاءَ بهِ والملَّةِ التي دَعا إليها مِن أعظمِ براهينِ صدقِهِ وشواهدِ نبوَّتِهِ. ومَن لمْ يُثْبِتْ لذٰلكَ[(٣)] صفاتٍ وجوديَّةً أوْجَبَتْ حسنَهُ وقبولَ العقولِ لهُ ولضدِّهِ صفاتٍ أوْجَبَتْ قبحَهُ ونفورَ العقولِ عنهُ؛ فقد سَدَّ على نفسِهِ بابَ الاستدلالِ بنفسِ الدَّعوةِ وجَعَلَها مستدَلًّا عليهِ فقط.

وممَّا يَدُلُّ على صحَّةِ ذٰلكَ قولُهُ تَعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ فهٰذا صريحٌ في أنَّ الحلالَ كانَ طيِّبًا قبلَ حِلِّهِ وأنَّ الخبيثَ كانَ خبيثًا قبلَ تحريمِهِ ولمْ يُسْتَفَدْ طيبُ هٰذا وخبثُ هٰذا مِن نفسِ الحلِّ والتَّحريمِ لوجهينِ اثنينِ: أحدُهُما: أنَّ هٰذا علمٌ مِن أعلامِ نبوَّتِهِ التي احْتَجَّ اللهُ بها على أهلِ الكتابِ، فقالَ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فلو كانَ الطَّيِّبُ والخبيثُ إنَّما اسْتُفيدَ مِن التَّحريمِ والتَّحليلِ؛ لمْ يَكُنْ في ذٰلكَ دليلٌ؛ فإنَّهُ بمنزلةِ أنْ يُقالَ: يُحِلُّ لهُم ما يُحِلُّ ويُحَرِّمُ عليهِم ما يُحَرِّمُ! وهٰذا أيضًا باطلٌ؛ فإنَّهُ لا فائدةَ فيهِ، وهوَ الوجهُ الثَّاني. فثَبَتَ أنَّهُ أَحَلَّ ما هوَ طيِّبٌ في نفسِهِ قبلَ الحِلِّ فكَساهُ بإحلالِهِ طيبًا آخرَ فصارَ منشأُ طيبِهِ مِن الوجهينِ معًا.

فتَأمَّلْ هٰذا الموضعَ حقَّ التَّأمُّلِ؛ يُطْلِعْكَ على أسرارِ الشَّريعةِ، ويُشْرِفْكَ على

---

(١) في ط: «ينهى عنه»، والأولى ما أثبتّه.

(٢) يعني: حتّى كان حسنُ ما أمر به ﷺ وقبحُ ما نهى عنه دليلاً من أدلّة نبوّته بالنسبة للأعرابيّ.

(٣) يعني: للدين والملّة التي دعا إليها النبيّ ﷺ.

محاسنِها وكمالِها وبهجتِها وجلالِها، وأنَّهُ مِن الممتنعِ في حكمةِ أحكمِ الحاكمينَ أنْ تَرِدَ بخلافِ ما وَرَدَتْ بهِ، وأنَّ اللهَ تَعالى يَتَنَزَّهُ عن ذٰلكَ كما يَتَنَزَّهُ عن سائرِ ما لا يَليقُ بهِ.

وممَّا يَدُلُّ على ذٰلكَ قولُهُ تَعالى: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطانًا وَأَنْ تَقولوا عَلى اللهِ ما لا تَعْلَمونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وهٰذا دليلٌ على أنَّها فواحشُ في نفسِها لا تَسْتَحْسِنُها العقولُ، فعَلَّقَ التَّحريمَ بها لفحشِها؛ فإنَّ ترتيبَ الحكمِ على الوصفِ المناسبِ المشتقِّ يَدُلُّ على أنَّهُ هوَ العلَّةُ المقتضيةُ لهُ، وهٰذا دليلٌ في جميعِ هٰذهِ الآياتِ التي ذَكَرْناها، فدَلَّ على أنَّهُ حَرَّمَها لكونِها فواحشَ وحَرَّمَ الخبيثَ لكونِهِ خبيثًا وأمَرَ بالمعروفِ لكونِهِ معروفًا، والعلَّةُ يَجِبُ أنْ تُغايِرَ المعلولَ، فلو كانَ كونُهُ فاحشةً هوَ معنى كونِهِ منهيًّا عنهُ وكونُهُ خبيثًا هوَ معنى كونِهِ محرَّمًا؛ كانَتِ العلَّةُ عينَ المعلولِ، وهٰذا محالٌ، فتأَمَّلْهُ. وكذا تحريمُ الإثمِ والبغيِ دليلٌ على أنَّ هٰذا وصفٌ ثابتٌ لهُ قبلَ التَّحريمِ[1].

ومِن هٰذا قولُهُ تَعالى: ﴿وَلا تَقْرَبوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢]. فعَلَّلَ النَّهيَ في الموضعينِ بكونِ المنهيِّ عنهُ فاحشةً، ولو كانَ جهةُ كونِهِ فاحشةً هوَ النَّهيَ؛ لَكانَ تعليلاً للشَّيءِ بنفسِهِ، ولَكانَ بمنزلةِ أنْ يُقالَ: لا تَقْرَبوا الزِّنى؛ فإنَّهُ يَقولُ لكُم لا تَقْرَبوهُ، أو: فإنَّهُ منهيٌّ عنهُ! وهٰذا محالٌ مِن وجهينِ: أحدُهُما: أنَّهُ يَتَضَمَّنُ إخلاءَ الكلامِ مِن الفائدةِ، والثَّاني: أنَّهُ تعليلٌ للنَّهيِ بالنَّهيِ.

ومِن ذٰلكَ قولُهُ تَعالى: ﴿وَلَوْلا أَنْ تُصيبَهُمْ مُصيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْديهِمْ فَيَقولوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكونَ مِنَ المُؤْمِنينَ﴾ [القصص: ٤٧]: فأَخْبَرَ تَعالى أنَّ ما قَدَّمَتْ أيديهِم قبلَ البعثةِ سببٌ لإصابتِهِم بالمصيبةِ، وأنَّهُ سبحانَهُ لو أصابَهُم

(١) وللتقريب أقول: لو قلت: عاقب الشرطيّ المذنب؛ فهٰذا يدلّ على: أنّ الذنب هو سبب العقوبة، وأنّه سابق للعقوبة وموجود قبلها، وليست العقوبة هي التي أوجدته وجعلته ذنبًا. وكذٰلك قوله تعالى ﴿حرّم ربّي الفواحش﴾ يدلّ على: أنّ الفحش هو سبب التحريم، وأنّ الفواحش سابقة للتحريم موجودة قبله، وليس التحريم هو الذي أوجدها وجعلها فواحش. هٰذا مراد ابن القيّم ممّا تقدّم، لٰكنّه عبّر عنه بأسلوب أهل الأصول.

بما يَسْتَحِقُّونَ مِن ذٰلكَ ؛ لاحْتَجُّوا عليهِ بأنَّهُ لَمْ يُرْسِلْ إليهِم رسولاً ولَمْ يُنَزِّلْ عليهِم كتابًا، فقَطَعَ هٰذِهِ الحجَّةَ بإرسالِ الرَّسولِ وإنزالِ الكتابِ لئلاَّ يَكونَ للنَّاسِ على اللهِ حجَّةٌ بعدَ الرُّسلِ. وهٰذا صريحٌ في أنَّ أعمالَهُم قبلَ البعثةِ كانَتْ قبيحةً بحيثُ ٱسْتَحَقُّوا أنْ يُصيبَهُم[1] بها المصيبةُ، ولٰكنَّهُ سبحانَهُ لا يُعَذِّبُ إلَّا بعدَ إرسالِ الرُّسلِ.

وهٰذا هوَ فصلُ الخطابِ وتحقيقُ القولِ في هٰذا الأصلِ العظيمِ: أنَّ القبحَ ثابتٌ للفعلِ في نفسِهِ، وأنَّهُ لا يُعَذِّبُ اللهُ عليهِ إلَّا بعدَ إقامةِ الحجَّةِ بالرِّسالةِ.

وهٰذهِ النُّكتةُ هيَ التي فاتَتِ المُعْتَزِلَةَ والكُلَّابِيَّةَ[2] كليهِما فٱسْتَطالَتْ كلُّ طائفةٍ منهُما على الأُخرى لعدمِ جمعِها بينَ هٰذينِ الأمرينِ: فٱسْتَطالَتِ الكُلَّابِيَّةُ على المُعْتَزِلَةِ بإثباتِهِمُ العذابَ قبلَ إرسالِ الرُّسلِ وترتيبِهِمُ العقابَ على مجرَّدِ القبحِ العقليِّ، وأحْسَنوا في ردِّ ذٰلكَ عليهِم. وٱسْتَطالَتِ المُعْتَزِلَةُ عليهِم في إنكارِهِمُ الحسنَ والقبحَ العقليَّينِ جملةً وجعلِهِمُ ٱنتفاءَ العذابِ قبلَ البعثةِ دليلاً على ٱنتفاءِ القبحِ وٱسْتواءِ الأفعالِ في أنفسِها[3]، وأحْسَنوا في ردِّ هٰذا عليهِم. فكلُّ طائفةٍ ٱسْتَطالَتْ على الأُخرى بسببِ إنكارِها الصَّوابَ!

وأمَّا مَن سَلَكَ هٰذا المسلكَ الذي سَلَكْناهُ[4]؛ فلا سبيلَ لواحدةٍ مِن الطَّائفتينِ إلى

---

(١) في ط: «أن يصيبوا»! وله وجه ضعيف، والغالب أنّه سبق قلم صوابه ما أثبتّه.

(٢) المعتزلة معروفون معروفة أصولهم ومذهبهم الذميم. وأمّا الكلاّبيّة؛ فأتباع عبدالله بن سعيد بن كُلّاب، من أقرب متكلّمة البصرة إلى السنّة، وقد تابعه أبو الحسن الأشعري في أغلب أقواله، وله مقولات شاذّة تفرّد بها لم يسبقه بها أحد. وٱنظر «أعلام النبلاء» (١١/ ١٧٤).

(٣) وسلك الأشاعرة في هٰذه القضيّة ـ على عادتهم في أغلب القضايا ـ مسلك الكلاّبيّة وٱتّبعوا منهجهم فيها، وما زال مذهبهم هٰذا يدرّس في معظم بلاد المسلمين ويتداول على أنّه مذهب أهل السنّة في القضيّة. وهٰذا أمر يرجع بالدرجة الأولى إلى ٱجتماع طوائف البدع المختلفة ورميهم أهل السنّة والحديث عن قوس واحدة ومحاولاتهم المستميتة لإخماد أصواتهم، ولا يخلو أهل الحديث والأثر من تقصير في نشر ما عندهم من الحقّ وتعريف الناس به، وذٰلك لأنّ أكثر الشباب المساكين الذين يتلقّون عن الأشاعرة ونحوهم صفحات بيضاء يكتب فيها أشياخهم ما شاؤوا بغير عناء، فلو قيّض الله لهم من الجادّين من أهل السنّة من يقذف الحقّ في قلوبهم ولو بكلمات يسيرة؛ فلن يتمكّن أهل الضلالات من أن يزرعوا فيهم ضلالاتهم التي تنافي العقل والنقل بسهولة. والله أعلم.

(٤) من أنّ القبح ثابت للفعل في نفسه وأنّ الله لا يعذّب عليه إلاّ بعد إقامة الحجّة.

ردُّ قولِهِ ولا الظَّفرِ عليهِ أصلاً؛ فإنَّهُ موافقٌ لكلِّ طائفةٍ على ما معَها مِن الحقِّ مقرِّرٌ لهُ، مخالفٌ لها في باطلِها منكرٌ لهُ.

وليسَ معَ النُّفاةِ قطُّ دليلٌ واحدٌ صحيحٌ على نفيِ الحسنِ والقبحِ العقليَّينِ وأنَّ الأفعالَ المتضادَّةَ كلَّها في نفسِ الأمرِ سواءٌ لا فرقَ بينَها إلاَّ بالأمرِ والنَّهيِ، وكلُّ أدلَّتِهم على هٰذا باطلةٌ كما سَنَذْكُرُها ونَذْكُرُ بطلانَها إنْ شاءَ اللهُ تَعالى. وليسَ معَ المُعْتَزِلَةِ دليلٌ واحدٌ صحيحٌ قطُّ يَدُلُّ على إثباتِ العذابِ على مجرَّدِ القبحِ العقليِّ قبلَ بعثةِ الرُّسلِ، وأدلَّتُهُم على ذٰلكَ كلُّها باطلةٌ كما سَنَذْكُرُها ونَذْكُرُ بطلانَها إنْ شاءَ اللهُ تَعالى.

وممَّا يَدُلُّ على ذٰلكَ أيضًا أنَّهُ سبحانَهُ يَحْتَجُّ على فسادِ مذهبِ مَن عَبَدَ غيرَهُ بالأدلَّةِ العقليَّةِ التي تَقْبَلُها الفطرُ والعقولُ ويَجْعَلُ ما رَكَّبَهُ في العقولِ مِن حسنِ عبادةِ الخالقِ وحدَهُ وقبحِ عبادةِ غيرِهِ مِن أعظمِ الأدلَّةِ على ذٰلكَ، وهٰذا في القرآنِ أكثرُ مِن أنْ يُذْكَرَ هاهُنا، ولولا أنَّهُ مستقرٌّ في العقولِ والفطرِ حسنُ عبادتِهِ وشكرِهِ وقبحُ عبادةِ غيرِهِ وتركِ شكرِهِ؛ لَما ٱحْتَجَّ عليهِم بذٰلكَ أصلاً، وإنَّما كانَتِ الحجَّةُ في مجرَّدِ الأمرِ! وطريقةُ القرآنِ صريحةٌ في هٰذا:

كقولِهِ تَعالى: ﴿يا أيُّها النَّاسُ ٱعْبُدوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ وَالَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقونَ . الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ فِراشًا وَالسَّماءَ بِناءً وَأنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلوا لِلهِ أنْدادًا وَأنْتُمْ تَعْلَمونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]: فذَكَرَ سبحانَهُ أمرَهُم بعبادتِهِ، وذَكَرَ ٱسمَ الرَّبِّ مضافًا إليهِم لمقتضى عبوديَّتِهِم لربِّهِم ومالكِهِم، ثمَّ ذَكَرَ ضروبَ إنعامِهِ عليهِم بإيجادِهِم وإيجادِ مَن قبلَهُم وجعلِ الأرضِ فراشًا لهُم يُمْكِنُهُمُ الاستقرارُ عليها والبناءُ والسُّكنى وجعلِ السَّماءِ بناءً وسقفًا، فذَكَرَ أرضَ العالَمِ وسقفَهُ، ثمَّ ذَكَرَ إنزالَ مادَّةِ أقواتِهِم ولباسِهِم وثمارِهِم؛ منبِّهًا بهٰذا على ٱستقرارِ حسنِ عبادةِ مَن هٰذا شأنُهُ وشكرِهِ في الفطرِ العقولِ[1] وقبحِ الإشراكِ بِهِ وعبادةِ غيرِهِ.

---

(١) في ط: «شأنه وتشكره الفطر والعقول»! وهٰذا تحريف لائق بالنسّاخ صوابه ما أثبتّه إن شاء الله.

ومِن هٰذا قولُهُ تَعالى حاكيًا عن صاحبِ ياسينَ أنَّهُ قالَ لقومِهِ محتجًّا بما تُقِرُّ بِهِ فطرُهُم وعقولُهُم: ﴿وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذي فَطَرَني وَإِلَيْهِ تُرْجَعونَ﴾ [يس: ٢٢]. فتأمَّلْ هٰذا الخطابَ كيفَ تَجِدُ تحتَهُ أشرفَ معنًى وأجلَّهُ وهوَ: أنَّ كونَهُ سبحانَهُ فاطرًا لعبادِهِ يَقْتَضي عبادَتَهُم لهُ، وأنَّ مَن كانَ مفطورًا مخلوقًا فحقيقٌ بهِ أنْ يَعْبُدَ فاطرَهُ وخالقَهُ، ولا سيَّما إذا كانَ مردُّهُ إليهِ. فمبدؤُهُ منهُ ومصيرُهُ إليهِ، وهٰذا يُوجِبُ عليهِ التَّفرُّغَ لعبادتِهِ. ثمَّ ٱحْتَجَّ عليهِم بما تُقِرُّ بِهِ عقولُهُم وفطرُهُم مِن قبحِ عبادةِ غيرِهِ وأنَّها أقبحُ شيءٍ في العقلِ وأنكرُهُ، فقالَ: ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنْقِذونِ . إِنِّي إِذًا لَفي ضَلالٍ مُبينٍ﴾ [يس: ٢٣-٢٤]. أفلا تَراهُ كيفَ لمْ يَحْتَجَّ عليهِم بمجرَّدِ الأمرِ، بلِ ٱحْتَجَّ عليهِم بالعقلِ الصَّحيحِ ومقتضى الفطرةِ؟

ومِن هٰذا قولُهُ تَعالى: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعوا لَهُ إِنَّ الَّذينَ تَدْعونَ مِنْ دونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقوا ذُبابًا وَلَوِ اجْتَمَعوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلوبُ . ما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤]: فضَرَبَ لهُم سبحانَهُ مثلاً مِن عقولِهِم يَدُلُّهُم على قبحِ عبادتِهِم لغيرِهِ وأنَّ هٰذا أمرٌ مستقرٌّ قبحُهُ وهُجْنَتُهُ[1] في كلِّ عقلٍ وإنْ لمْ يَرِدْ بِهِ الشَّرْعُ. وهلْ في العقلِ أنكرُ وأقبحُ مِن: عبادةِ مَن لوِ ٱجْتَمَعوا كلُّهُم لمْ يَخْلُقوا ذبابًا واحدًا وإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شيئًا لمْ يَقْدِروا على الانتصارِ منهُ وٱستنقاذِ ما سَلَبَهُم إيَّاهُ[2]، وتركِ عبادةِ الخلَّاقِ العليمِ القادرِ على كلِّ شيءٍ الذي ليسَ كمثلِهِ شيءٌ؟! أفلا تَراهُ كيفَ ٱحْتَجَّ عليهِم بما رَكَّبَهُ في العقولِ مِن حسنِ عبادتِهِ وحدَهُ وقبحِ عبادةِ غيرِهِ؟!

وقالَ تَعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ

---

(١) الهجنة: العيب والقبح.

(٢) وقد تغيّرت الأحوال اليوم وتطوّرت ـ زعموا ـ وٱستكثر البشر من وسائل مكافحة الذباب في بيوتهم وزرائبهم ومزارعهم، وكثرت المبيدات وٱزدادت سمّيّة حتى غدت تهدّد صحّة الإنسان وذراريه ومواشيه ومزروعاته وبيئته، وما زال الذباب مع ذٰلك كلّه يتطفّل على الإنسان والحيوان والنبات ويمعن في إيذائها. إنّها والله قمّة الذلّ والعجز البشريّ لو كانوا يعلمون! ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾! ألا ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾!

هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً﴾ [الزمر: ٢٩]: هٰذا مثلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لمَن عَبَدَهُ وحدَهُ فسَلِمَ لهُ ولمَن عَبَدَ مِن دونِهِ آلهةً فهُم شركاءُ فيهِ متشاكسونَ عسرونَ؛ فهلْ يَسْتَوي في العقولِ هٰذا وهٰذا؟!

وقد أكْثَرَ تَعالى مِن هٰذهِ الأمثالِ ونَوَّعَها مستدلاًّ بها على حسنِ شكرِهِ وعبادتِهِ وقبحِ عبادةِ غيرِهِ، ولمْ يَحْتَجَّ عليهِم بنفسِ الأمرِ بل بما رَكَّبَهُ في عقولِهِم مِن الإقرارِ بذٰلكَ. وهٰذا كثيرٌ في القرآنِ، فمَن تتَبَّعَهُ؛ وَجَدَهُ.

وقالَ تَعالى: ﴿وَقَضى رَبُّكَ ألاَّ تَعْبُدوا إلاَّ إيَّاهُ وَبِالوالِدَيْنِ إحْسانًا﴾ فذَكَرَ توحيدَهُ وذَكَرَ المناهيَ التي نَهاهُم عنها والأوامرَ التي أمَرَهُم بها... ثمَّ خَتَمَ الآياتِ بقولِهِ: ﴿كُلُّ ذٰلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْروهًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٣٥]؛ أيْ: مخالفةُ هٰذهِ الأوامرِ وارتكابُ هٰذهِ المناهي سيِّئةٌ مكروهةٌ للهِ. [و][1] تَأمَّلْ قولَهُ: ﴿سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْروهًا﴾؛ أي: إنَّهُ سيِّئٌ في نفسِ الأمرِ عندَ اللهِ، حتَّى لو لمْ يَرِدْ بهِ تكليفٌ؛ لَكانَ سيِّئُهُ في نفسِهِ عندَ اللهِ مكروهًا لهُ، وكراهتُهُ سبحانَهُ لهُ لِما هوَ عليهِ مِن الصِّفةِ التي اقْتَضَتْ أنْ كَرِهَهُ، ولو كانَ قبحُهُ إنَّما هوَ مجرَّدُ النَّهيِ؛ لمْ يَكُنْ مكروهًا للهِ[2]؛ إذْ لا معنى للكراهةِ عندَهُم إلاَّ كونُهُ منهيًّا عنهُ، فيَعودُ قولُهُ ﴿كُلُّ ذٰلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْروهًا﴾ إلى معنى كلُّ ذٰلكَ نُهِيَ عنهُ عندَ ربِّكَ، ومعلومٌ أنَّ هٰذا غيرُ مرادٍ مِن الآيةِ! وأيضًا؛ فإذا وَقَعَ ذٰلكَ منهُم[3]؛ فهوَ عندَ النُّفاةِ للحسنِ والقبحِ محبوبٌ للهِ مرضيٌّ لهُ؛ لأنَّهُ إنَّما وَقَعَ بإرادتِهِ، والإرادةُ عندَهُم هيَ المحبَّةُ لا فرقَ بينَهُما! والقرآنُ صريحٌ في أنَّ هٰذا كلَّهُ قبيحٌ عندَ اللهِ مكروهٌ مبغوضٌ لهُ وَقَعَ أو لمْ يَقَعْ. وجَعَلَ سبحانَهُ هٰذا البغضَ والقبحَ سببًا للنَّهيِ عنهُ، ولهٰذا جَعَلَهُ علَّةً وحكمةً للأمرِ [بضدِّهِ][4]، فتَأمَّلْهُ[5]، والعلَّةُ غيرُ المعلولِ.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) لأنّه تعالى غير منهيّ عنه، وإنّما المنهيّ عنه العباد، فلزم أن لا يكون مكروهًا بالنسبة إليه!

(٣) يعني: إذا وقعت تلك الفواحش المنهيّ عنها في الآيات من العباد.

(٤) زيادة لا بدّ منها ليستقيم المعنى.

(٥) هو ظاهر بيّن في قوله تعالى: ﴿فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما﴾؛ فهٰذا مكروه للمولى سبحانه قبيح في العقول والفطر، ولذٰلك نهى عنه جلّ وعلا . ثمّ قال: ﴿وقل لهما قولاً كريمًا واخفض لهما جناح=

وقالَ تَعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ وَالميزانَ لِيَقومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]: دَلَّ ذٰلِكَ على أَنَّ في نفسِ الأمرِ قسطًا، وأَنَّ اللهَ سبحانَهُ أَنْزَلَ كتابَهُ وأَنْزَلَ الميزانَ ـ وهوَ العدلُ ـ لِيَقومَ النَّاسُ بالقسطِ، وأَنْزَلَ الكتابَ لأجلِهِ والميزانَ. فعُلِمَ أَنْ في نفسِ الأمرِ ما هوَ قسطٌ وعدلٌ حسنٌ ومخالفتُهُ قبيحةٌ، وأنَّ الكتابَ والميزانَ نَزَلا لأجلِهِ. ومَن يَنْفي الحسنَ والقبحَ يَقولُ: ليسَ في نفسِ الأمرِ ما هوَ عدلٌ حسنٌ، وإنَّما صارَ قسطًا وعدلاً بالأمرِ فقط! ونحنُ لا نُنْكِرُ أَنَّ الأمرَ كَساهُ حسنًا وعدلاً إلى حسنِهِ وعدلِهِ في نفسِهِ، فهوَ في نفسِهِ قسطٌ حسنٌ، وكَساهُ الأمرُ حسنًا آخرَ يُضاعَفُ بِهِ كونُهُ عدلاً حسنًا، فصارَ ذٰلكَ ثابتًا لهُ مِن الوجهينِ جميعًا.

ومِن هٰذا قولُهُ تَعالى: ﴿وَإِذا فَعَلوا فاحِشَةً قالوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالفَحْشاءِ أَتَقولونَ عَلى اللهِ ما لا تَعْلَمونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]: فقولُهُ ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالفَحْشاءِ﴾ دليلٌ على أَنَّها في نفسِها فحشاءُ وأَنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بما يَكونُ كذٰلكَ وأَنَّهُ يَتَعالى ويَتَقَدَّسُ عنهُ، ولو كانَ كونُهُ فاحشةً إِنَّما عُلِمَ بالنَّهي خاصَّةً؛ كانَ بمنزلةِ أَنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بما يَنْهى عنهُ! وهٰذا كلامٌ يُصانُ عنهُ [كلامُ][1] آحادِ العقلاءِ فكيفَ بكلامِ ربِّ العالمينَ؟! ثمَّ أَكَّدَ سبحانَهُ هٰذا الإنكارَ بقولِهِ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالقِسْطِ وَأَقيموا وُجوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعوهُ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، فأَخْبَرَ أَنَّهُ يَتَعالى عنِ الأمرِ بالفحشاءِ، بل أوامرُهُ كلُّها حسنةٌ في العقولِ مقبولةٌ في الفطرِ؛ فإنَّهُ أَمَرَ بالقسطِ لا بالجورِ وبإقامةِ الوجوهِ لهُ عندَ مساجدِهِ لا لغيرِهِ وبدعوتِهِ وحدَهُ مخلصينَ لهُ الدِّينَ لا بالشِّركِ، فهٰذا هوَ الذي يَأْمُرُ بِهِ تَعالى لا بالفحشاءِ. أفلا تَراهُ كيفَ يُخْبِرُ بحسنِ ما يَأْمُرُ بِهِ ويُحَسِّنُهُ ويُنَزِّهُ نفسَهُ عنِ الأمرِ بضدِّهِ وأَنَّهُ لا يَليقُ بِهِ تَعالى؟!

[ومِن هٰذا قولُهُ تَعالى][2]: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ

= الذلّ...﴾، فأمر بضدّ القبيح الذي كرهه ونهى عنه. فصار قبح الفعل في نفسه وكراهية المولى له سببًا للنهي عنه وعلّة للأمر بضدّه. وقس على هٰذا سائر الآيات.

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ اللهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]: فَٱحْتَجَّ سبحانَهُ على حسنِ دينِ الإسلامِ وأنَّهُ لا شيءَ أحسنُ منهُ بأنَّهُ يَتَضَمَّنُ إسلامَ الوجهِ للهِ ـ وهوَ إخلاصُ القصدِ والتَّوجُّهِ والعملِ لهُ سبحانَهُ ـ، والعبدُ معَ ذٰلكَ محسنٌ آتٍ بكلِّ حسنٍ، لا مرتكبٌ للقبحِ الذي يَكْرَهُهُ اللهُ، بلْ هوَ مخلصٌ لربِّهِ محسنٌ في عبادتِهِ بما يُحِبُّهُ ويَرْضاهُ، وهوَ معَ ذٰلكَ متَّبعٌ لملَّةِ إبْراهيمَ في محبَّتِهِ للهِ وحدَهُ وإخلاصِ الدِّينِ لهُ وبذلِ النَّفسِ والمالِ في مرضاتِهِ وحبِّهِ. هٰذا ٱحتجاجٌ منهُ على أنَّ دينَ الإسلامِ أحسنُ الأديانِ ممَّا تَضَمَّنَهُ ممَّا تَسْتَحْسِنُهُ العقولُ وتَشْهَدُ بِهِ الفطرُ وأنَّهُ قد بَلَغَ الغايةَ القصوى في درجاتِ الحسنِ والكمالِ. وهٰذا ٱستدلالٌ بغيرِ الأمرِ المجرَّدِ، بل هوَ دليلٌ على أنَّ ما كانَ كذٰلكَ فحقيقٌ بأنْ يَأْمُرَ بِهِ عبادَهُ ولا يَرْضى منهُم سواهُ.

ومثلُ هٰذا قولُهُ تَعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلى اللهِ وَعَمِلَ صالِحًا وَقالَ إِنَّني مِنَ المُسْلِمينَ﴾ [فصلت: ٣٣]: فهٰذا ٱحتجاجٌ بما رُكِّبَ في العقولِ والفطرِ؛ لأنَّهُ لا قولَ للعبدِ أحسنُ مِن هٰذا القولِ.

وقالَ تَعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذينَ هادوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]؛ فأيُّ شيءٍ أصرحُ مِن هٰذا؟! حيثُ أَخْبَرَ سبحانَهُ أنَّهُ حَرَّمَهُ عليهِم معَ كونِهِ طيِّبًا في نفسِهِ، فلولا أنَّ طيبَهُ أمرٌ ثابتٌ لهُ بدونِ الأمرِ؛ لَمْ يَكُنْ لِيَجْمَعَ الطِّيبَ والتَّحريمَ. وقد أَخْبَرَ تَعالى أنَّهُ حَرَّمَ عليهِم طيِّباتٍ كانَتْ حلالًا عقوبةً لهُم؛ فهٰذا تحريمُ عقوبةٍ، بخلافِ التَّحريمِ على هٰذهِ الأُمَّةِ؛ فإنَّهُ تحريمُ صيانةٍ وحمايةٍ، ولا فرقَ عندَ النُّفاةِ بينَ الأمرينِ بلِ الكلُّ سواءٌ. فإنَّهُ سبحانَهُ أَمَرَ عبادَهُ بما أَمَرَهُم بهِ رحمةً منهُ وإحسانًا وإنعامًا عليهِم؛ لأنَّ صلاحَهُم في معاشِهِم وأبدانِهِم وأحوالِهِم وفي معادِهِم ومآلِهِم إنَّما هوَ بفعلِ ما أُمِروا بِهِ، وهوَ في ذٰلكَ بمنزلةِ الغذاءِ الذي لا قوامَ للبدنِ إلَّا بِهِ بل أعظمُ وليسَ مجرَّدَ تكليفٍ وٱبتلاءٍ كما يَظُنُّهُ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ، ونَهاهُم عمَّا نَهاهُم عنهُ صيانةً وحميةً لهُم؛ إذ لا بقاءَ لصحَّتِهِم ولا حفظَ لها إلَّا بهٰذهِ الحميةِ. فلمْ يَأْمُرْهُم حاجةً منهُ إليهِم وهوَ الغنيُّ الحميدُ، ولا حَرَّمَ عليهِم ما حَرَّمَ بخلًا منهُ عليهِم وهوَ الجوادُ الكريمُ، بل أمرُهُ ونهيُهُ عينُ حظِّهِم وسعادتِهِم العاجلةِ والآجلةِ، ومصدرُ أمرِهِ ونهيِهِ رحمتُهُ الواسعةُ وبرُّهُ

وجودُهُ وإحسانُهُ وإنعامُهُ، فلا يُسْألُ عمَّا يَفْعَلُ لكمالِ حكمتِهِ وعلمِهِ ووقوعِ أفعالِهِ على وَفْقِ المصلحةِ والرَّحمةِ والحكمةِ.

وقالَ تَعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفوا رَسولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرونَ . أَمْ يَقولونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهونَ . وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩-٧١]: فأخْبَرَ سبحانَهُ أنَّ الحقَّ لوِ اتَّبَعَ أهواءَ العبادِ فجاءَ شرعُ اللهِ ودينُهُ بأهوائِهِم؛ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ والأرضُ ومَن فيهِنَّ. ومعلومٌ: أنَّ عندَ النُّفاةِ يَجوزُ أنْ يَرِدَ شرعُ اللهِ ودينُهُ بأهواءِ العبادِ، وأنَّهُ لا فرقَ في نفسِ الأمرِ بينَ ما وَرَدَ بِهِ وبينَ ما تَقْتَضيهِ أهواؤُهُم إلَّا مجرَّدُ الأمرِ، وأنَّهُ لو وَرَدَ بأهوائِهِم جازَ وكانَ تعبُّدًا ودينًا! وهٰذِهِ مخالفةٌ صريحةٌ للقرآنِ، وأنَّهُ مِن المحالِ أنْ يَتَّبِعَ الحقُّ أهواءَهُم، وأنَّ أهواءَهُم مشتملةٌ على قبحٍ عظيمٍ لو وَرَدَ الشَّرعُ بِهِ لَفَسَدَ العالمُ أعلاهُ وأسفلُهُ وما بينَ ذٰلكَ. ومعلومٌ أنَّ هٰذا الفسادَ إنَّما يَكونُ لقبحِ خلافِ ما شَرَعَهُ اللهُ وأمَرَ بِهِ ومنافاتِهِ لصلاحِ العالمِ علويِّهِ وسفليِّهِ، وأنَّ خرابَ العالمِ وفسادَهُ لازمٌ لحصولِهِ ولشرعِهِ، وأنَّ كمالَ حكمةِ اللهِ وكمالَ علمِهِ ورحمتِهِ وربوبيَّتِهِ يَأْبى ذٰلكَ ويَمْنَعُ منهُ. ومَن يَقولُ: الجميعُ في نفسِ الأمرِ سواءٌ، يُجَوِّزُ ورودَ التَّعبُّدِ بكلِّ شيءٍ، سواءٌ كانَ مِن مقتضى أهوائِهِم أو خلافِها!

ومثلُ هٰذا قولُهُ تَعالى: ﴿لَوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إلَّا اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ﴾ [الأنبياء: ٢٢]؛ أي: لو كانَ في السَّماواتِ والأرضِ آلهةٌ تُعْبَدُ غيرُ اللهِ؛ لَفَسَدَتا وبَطَلَتا. ولمْ يَقُلْ أربابٌ بل قالَ آلهةٌ، والإلٰهُ هوَ المعبودُ المألوهُ، وهٰذا يَدُلُّ على أنَّهُ مِن الممتنعِ المستحيلِ عقلًا أنْ يَشْرَعَ اللهُ عبادةَ غيرِهِ أبدًا، وأنَّهُ لو كانَ معَهُ معبودٌ سواهُ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ والأرضُ. فقبحُ عبادةِ غيرِهِ قدِ اسْتَقَرَّ في الفطرِ والعقولِ وإنْ لمْ يَرِدْ بالنَّهيِ عنهُ شرعٌ، بلِ العقلُ يَدُلُّ على أنَّهُ أقبحُ القبيحِ على الإطلاقِ وأنَّهُ مِن المحالِ أنْ يَشْرَعَهُ اللهُ قطُّ، فصلاحُ العالمِ في أنْ يَكونَ اللهُ وحدَهُ هوَ المعبودَ وفسادُهُ وهلاكُهُ في أنْ يُعْبَدَ معَهُ غيرُهُ، ومحالٌ أنْ يَشْرَعَ لعبادِهِ ما فيهِ فسادُ العالَمِ وهلاكُهُ، بلْ هوَ المنزَّهُ عن ذٰلكَ.

فصلٌ: وقد أنْكَرَ تَعالى على مَن نَسَبَ إلى حكمتِهِ التَّسويةَ بينَ المختلفينِ كالتَّسويةِ بينَ الأبرارِ والفجّارِ: فقالَ تَعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدينَ في الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقينَ كَالْفُجّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقالَ تَعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذينَ اجْتَرَحوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. فدَلَّ على أنَّ هٰذا حكمٌ سيِّئٌ قبيحٌ يُنَزَّهُ اللهُ عنهُ. ولمْ يُنْكِرْهُ سبحانَهُ مِن جهةِ أنَّهُ أخْبَرَ بأنَّهُ لا يَكونُ، وإنَّما أنْكَرَهُ مِن جهةِ قبحِهِ في نفسِهِ وأنَّهُ حكمٌ سيِّئٌ يَتَعالى ويَتَنَزَّهُ عنهُ لمنافاتِهِ لحكمتِهِ وغناهُ وكمالِهِ ووقوعِ أفعالِهِ كلِّها على السَّدادِ والصَّوابِ والحكمةِ، فلا يَليقُ بهِ أنْ يَجْعَلَ البرَّ كالفاجرِ ولا المحسنَ كالمسيءِ ولا المؤمنَ كالمفسدِ في الأرضِ، فدَلَّ على أنَّ هٰذا قبيحٌ في نفسِهِ يَتَعالى[1] اللهُ عن فعلِهِ.

ومِن هٰذا أيضًا إنكارُهُ سبحانَهُ على مَن جَوَّزَ أنْ يَتْرُكَ عبادَهُ سدًى فلا يَأْمُرُهُم ولا يَنْهاهُم ولا يُثيبُهُم ولا يُعاقِبُهُم، وأنَّ هٰذا الحسبانَ باطلٌ واللهُ متعالٍ عنهُ لمنافاتِهِ لحكمتِهِ وكمالِهِ:

كما قالَ تَعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]: قالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ عنهُ: أيْ: مهملاً لا يُؤْمَرُ ولا يُنْهى. وقالَ غيرُهُ: لا يُثابُ ولا يُعاقَبُ. والقولانِ واحدٌ؛ لأنَّ الثَّوابَ والعقابَ غايةُ الأمرِ والنَّهيِ، فهوَ سبحانَهُ خَلَقَهُم للأمرِ والنَّهيِ في الدُّنيا والثَّوابِ والعقابِ في الآخرةِ. فأنْكَرَ سبحانَهُ على مَن زَعَمَ أنَّهُ يُتْرَكُ سدًى إنكارَ مَن جَعَلَ في العقلِ استقباحَ ذٰلكَ واستهجانَهُ وأنَّهُ لا يَليقُ أنْ يُنْسَبَ ذٰلكَ إلى أحكمِ الحاكمينَ.

ومثلُهُ قولُهُ تَعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعونَ . فَتَعالى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَريمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥]: فنَزَّهَ نفسَهُ سبحانَهُ وباعَدَها عن هٰذا الحسبانِ وأنَّهُ يَتَعالى عنهُ ولا يَليقُ بهِ لقبحِهِ ولمنافاتِهِ لحكمتِهِ

(١) في ط: «تعالى»، وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

وملكِهِ وإلٰهيَّتِهِ.

أفلا ترَى كيفَ ظَهَرَ في العقلِ الشَّهادةُ بدينِهِ وشرعِهِ وبثوابِهِ وعقابِهِ؟ وهٰذا يَدُلُّ على إثباتِ المعادِ بالعقلِ كما يَدُلُّ على إثباتِهِ بالسَّمعِ، وكذٰلكَ دينُهُ وأمرُهُ وما بَعَثَ بهِ رسلَهُ هوَ ثابتٌ في العقولِ جملةً ثمَّ عُلِمَ بالوحيِ. فقد تَطابَقَتْ شهادةُ العقلِ والوحيِ على توحيدِهِ وشرعِهِ والتَّصديقِ بوعدِهِ ووعيدِهِ، وأنَّهُ سبحانَهُ دَعا عبادَهُ على ألسنةِ رسلِهِ إلى ما وُضِعَ في العقولِ حسنُهُ والتَّصديقُ بهِ جملةً، فجاءَ الوحيُ مفصِّلاً ومبيِّنًا ومقرِّرًا ومذكِّرًا لِما هوَ مركوزٌ في الفطرِ والعقولِ.

ولهٰذا سَأَلَ هِرَقْلُ أبا سُفْيانَ في جملةِ ما سَأَلَهُ عنهُ مِن أدلَّةِ النُّبوَّةِ وشواهدِها عمَّا يَأْمُرُ بِهِ النَّبيُّ ﷺ، فقالَ: بمَ يَأْمُرُكُم؟ قالَ: يَأْمُرُنا بالصَّلاةِ والصِّدقِ والعفافِ، فجَعَلَ ما يَأْمُرُ بهِ مِن أدلَّةِ نبوَّتِهِ[1]. فإنَّ أكذبَ الخلقِ وأفجرَهُم مَن ٱدَّعى النُّبوَّةَ وهوَ كاذبٌ فيها على اللهِ، وهٰذا محالٌ أنْ يَأْمُرَ إلَّا بما يَليقُ بكذبِهِ وفجورِهِ وٱفترائِهِ، فدعوتُهُ تَليقُ بهِ، وأمَّا الصَّادقُ البارُّ الذي هوَ أصدقُ الخلقِ وأبرُّهُم؛ فدعوتُهُ لا تكونُ إلَّا أكملَ دعوةٍ وأشرفَها وأجلَّها وأعظمَها؛ فإنَّ العقولَ والفطرَ تَشْهَدُ بحسنِها وصدقِ القائمِ بها. فلو كانَتِ الأفعالُ كلُّها سواءً في نفسِ الأمرِ؛ لمْ يَكُنْ هناكَ فرقانٌ بينَ ما يَجوزُ أنْ يَدْعُوَ إليهِ الرَّسولُ وما لا يَجوزُ أنْ يَدْعُوَ إليهِ؛ إذِ العُرْفُ[2] وضدُّهُ إنَّما يُعْلَمُ بنفسِ الدَّعوةِ والأمرِ والنَّهيِ.

وكذٰلكَ مسألةُ النَّجاشيِّ لجعفرٍ وأصحابِهِ عمَّا يَدْعو إليهِ الرَّسولُ[3].

---

(١) رواه: البخاري (١ـ بدء الوحي، ٦ـ باب، ١/ ٣١/ ٧)، ومسلم (٣٢ـ الجهاد، ٢٦ـ كتابه ﷺ إلى هرقل، ٣/ ١٣٩٣/ ١٧٧٣)؛ من حديث ابن عبّاس عن أبي سفيان رضي الله عنهم.

(٢) المعروف.

(٣) (صحيح). رواه: ابن إسحاق (ص١٩٤/ رقم٢٨٢) (١/ ٢٦٤ـ ابن هشام)، وأحمد (١/ ٢٠١، ٥/ ٢٩٠)، وإسحاق (١٨٣٥)، وابن خزيمة (٢٢٦٠)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ١١١/ ١٤٧٩) و«الطوال» (١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١١٥) و«الدلائل» (١٩٤)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ٩ و١٤٤) و«الشعب» (٨٢) و«الدلائل» (٢/ ٣٠١) و«الاعتقاد» (ص٤٦)؛ من طريق ابن إسحاق، ثني ابن شهاب، عن أبي بكر بن عبدالرحمٰن بن الحارث بن هشام، عن أمّ سلمة... فذكرت خبرًا طويلاً في قصّة هجرة الحبشة، وفيه أنّ النجاشي قال لجعفر بن أبي طالب: ما هٰذا الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من=

فَدَلَّ على أنَّهُ مِن المستقرِّ في العقولِ والفطرِ ٱنقسامُ الأفعالِ إلى قبيحٍ وحسنٍ في نفسِهِ، وأنَّ الرُّسلَ تَدْعو إلى حسنِها وتَنْهى عن قبيحِها، وأنَّ ذٰلكَ مِن آياتِ صدقِهِم وبراهينِ رسالتِهِم، وهوَ أولى وأعظمُ عندَ أُولي الألبابِ والحِجا مِن مجرَّدِ خوارقِ العاداتِ، وإنْ كانَ ٱنتفاعُ ضعفاءِ العقولِ بالخوارقِ في الإيمانِ أعظمَ مِن ٱنتفاعِهِم بنفسِ الدَّعوةِ وما جاءَ بهِ مِن الإيمانِ.

فطرقُ الهدايةِ متنوِّعةٌ رحمةً مِن اللهِ بعبادِهِ ولطفًا بهِم لتفاوتِ عقولِهِم وأذهانِهِم وبصائرِهِم:

فمنهُم مَن يَهْتَدي بنفسِ ما جاءَ بهِ وما دَعا إليهِ مِن غيرِ أنْ يَطْلُبَ منهُ برهانًا خارجًا عن ذٰلكَ، كحالِ الكُمَّلِ مِن الصَّحابةِ كالصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عنهُ.

ومنهُم مَن يَهْتَدي بمعرفتِهِ بحالِهِ ﷺ وما فُطِرَ عليهِ مِن كمالِ الأخلاقِ والأوصافِ والأفعالِ وأنَّ عادةَ اللهِ أنْ لا يُخْزِيَ مَن قامَتْ بهِ تلكَ الأوصافُ والأفعالُ؛ لعلمِهِ باللهِ ومعرفتِهِ بهِ وأنَّهُ لا يُخْزي مَن كانَ بهٰذهِ المثابةِ، كما قالَتْ أُمُّ المؤمنينَ خَديجَةُ رَضِيَ اللهُ عنها لهُ ﷺ: «أَبْشِرْ! فواللهِ؛ لَنْ يُخْزِيَكَ اللهُ أبدًا؛ إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وتَصْدُقُ الحديثَ وتَحمِلُ الكَلَّ وتَقْري الضَّيفَ وتُعينُ على نوائبِ الحقِّ»[1]، فٱسْتَدَلَّتْ بمعرفتِها باللهِ وحكمتِهِ ورحمتِهِ على أنَّ مَن كانَ كذٰلكَ؛ فإنَّ اللهَ لا يُخْزيهِ ولا يَفْضَحُهُ، بل هوَ جديرٌ بكرامةِ اللهِ وٱصطفائِهِ ومحبَّتِهِ وتوبتِهِ.

= هٰذه الأمم؟ فقال جعفر: كنّا أهل جاهليّة نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام حتّى بعث الله فينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار (فعدّد عليه أمور الإسلام ثمّ قرأ له صدر سورة مريم). فبكى النجاشيّ وأساقفته ثمّ قال: إنّ هٰذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. . . إلخ.

قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٠): «رجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرّح بالسماع». قلت: وحديثه لا ينزل عن رتبة الحسن، والسند كذٰلك.

ولقصّة هجرة الحبشة شواهد كثيرة مطوّلة ومختصرة يجزم الواقف عليها بصحّة مساءلة النجاشي للمسلمين، وغير هٰذا الموضع أولى منه بالتفصيل، فلأدع ذٰلك لمحلّه إن قدّر الله في العمر بقيّة.

(١) رواه: البخاري (١ـ بدء الوحي، ٣ـ باب، ١/ ٢٢/ ٣)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٧٣ـ بدء الوحي، ١/ ١٣٩/ ١٦٠)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

وهٰذهِ المقاماتُ في الإيمانِ عَجَزَ عنها أكثرُ الخلقِ، فٱحْتاجوا إلى الخوارقِ والآياتِ المشهودةِ بالحسِّ، فآمَنَ كثيرٌ منهُم عليها[١].

وأضعفُ النَّاسِ إيمانًا مَن كانَ إيمانُهُ صادرًا مِن المظهرِ ورؤيةِ غلبتِهِ ﷺ للنَّاسِ، فٱسْتَدَلُّوا بذٰلكَ المظهرِ والغلبةِ والنُّصرةِ على صحَّةِ الرِّسالةِ. فأينَ بصائرُ هٰؤلاءِ مِن بصائرِ مَن آمَنَ بهِ وأهلُ الأرضِ قد نَصَبوا لهُ العداوةَ وقد نالَهُ مِن قومِهِ ضروبُ الأذى وأصحابُهُ في غايةِ قلَّةِ العددِ والمخافةِ مِن النَّاسِ ومعَ هٰذا فقلبُهُ ممتلئٌ بالإيمانِ واثقٌ بأنَّهُ سَيَظْهَرُ على الأُممِ وأنَّ دينَهُ سَيَعْلو كلَّ دينٍ[٢]؟!

وأضعفُ مِن هٰؤلاءِ إيمانًا إيمانُ العادةِ والمَرْبى والمنشإ؛ فإنَّهُ نَشَأَ بينَ أبوينِ مسلمينِ وأقاربَ وجيرانٍ وأصحابٍ كذٰلكَ، فنَشَأَ واحدًا منهُم، ليسَ عندَهُ مِن الرَّسولِ والكتابِ إلَّا ٱسمُهُما، ولا مِن الدِّينِ إلَّا ما رَأى عليهِ أقاربَهُ وأصحابَهُ! فهٰذا دينُ العوائدِ، وهوَ أضعفُ شيءٍ؛ وصاحبُهُ بحسبِ مَن يَقْتَرِنُ بهِ، فلو قُيِّضَ لهُ مَنْ يُخْرِجُهُ عنهُ؛ لمْ يَكُنْ عليهِ كلفةٌ في الانتقالِ عنهُ[٣].

والمقصودُ أنَّ خواصَّ الأُمَّةِ ولبابَها لمَّا شَهِدَتْ عقولُهُم حسنَ هٰذا الدِّينِ وجلالتَهُ وكمالَهُ وشَهِدَتْ قبحَ ما خالَفَهُ ونقصَهُ ورداءتَهُ؛ خالَطَ الإيمانُ بهِ ومحبَّتُهُ بشاشةَ قلوبِهِم، فلو خُيِّرَ بينَ أنْ يُلْقى في النَّارِ وبينَ أنْ يَخْتارَ دينًا غيرَهُ؛ لاخْتارَ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ وتُقَطَّعَ أعضاؤُهُ ولا يَخْتارَ دينًا غيرَهُ.

وهٰذا الضَّربُ مِن النَّاسِ همُ الذينَ ٱسْتَقَرَّتْ أقدامُهُم في الإيمانِ، وهُم أبعدُ النَّاسِ عنِ الارتدادِ عنهُ وأحقُّهُم بالثَّباتِ عليهِ إلى يومِ لقاءِ اللهِ. ولهٰذا قالَ هِرَقْلُ لأبي سُفْيانَ:

---

(١) وهٰذه الطريق الثالثة من طرق الإيمان وتليها الرابعة.

(٢) وبذٰلك سبق الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم من جاء بعدهم من الخلق، وسبق من آمن قبل الفتح من آمن بعده، والسابقون الأوّلون من جاء بعدهم. فقام أعداء الله من الرافضة إلى أولٰئك الأبرار الأطهار فكفّروهم وسبّوهم وجرّحوهم، على مذهب من قال: رمتني بدائها وٱنسلّت.

(٣) ومع هٰذه الفئة من المسلمين نجحت جهود التنصير، فتراهم يجلبون بخيلهم ورجلهم على الأطراف والأصقاع الإسلاميّة البعيدة التي لا يتكلّم أهلها العربيّة ولا يعرفون كتابًا ولا سنّة إلّا بالاسم. ومع ذٰلك؛ فالثمرات التي حصدوها متواضعة جدًّا بحمد الله تعالى بالنسبة للجهود المبذولة والأموال المصروفة، ولولا ضغوط دولهم وتدخّل جيوشهم؛ ما أصابوا شيئًا قطّ. والله أعلم.

أَيَرْتَدُّ أحدٌ منهُم عن دينِهِ سخطةً لهُ؟ قالَ: لا. قالَ: فكذٰلكَ الإيمانُ إذا خالَطَتْ بشاشتُهُ القلوبَ لا يَسْخَطُهُ أحدٌ[1].

والمقصودُ أنَّ الدَّاخلينَ في الإسلامِ، المستدلِّينَ على أنَّهُ مِن عندِ اللهِ لحسنِهِ وكمالِهِ وأنَّهُ دينُ اللهِ الذي لا يَجوزُ أنْ يَكونَ مِن عندِ غيرِهِ، هُم خواصُّ الخلقِ. والنُّفاةُ سَدُّوا على أنفسِهِم هٰذا الطَّريقَ فلا يُمْكِنُهُم سلوكُهُ.

[٧] فصل

[في مراتب الأعمال في الحسن والقبح]

وتحقيقُ هٰذا المقامِ بالكلامِ في مقامينِ: أحدُهُما: في الأعمالِ خصوصًا ومراتبِها في الحسنِ والقبحِ. الثَّاني: في الموجوداتِ عمومًا ومراتبِها في الخيرِ والشَّرِّ[2].

● أمَّا المقامُ الأوَّلُ؛ فالأعمالُ: إمَّا أنْ تَشْتَمِلَ على مصلحةٍ خالصةٍ أو راجحةٍ، وإمَّا أنْ تَشْتَمِلَ على مفسدةٍ خالصةٍ أو راجحةٍ، وإمَّا أنْ تَسْتَوِيَ مصلحتُها ومفسدتُها. فهٰذهِ أقسامٌ خمسةٌ. منها أربعةٌ تَأْتي بها الشَّرائعُ: فتَأْتي بما مصلحتُهُ خالصةٌ أو راجحةٌ آمرةً بهِ مقتضيةً لهُ، وما مفسدتُهُ خالصةٌ أو راجحةٌ فحكمُها فيهِ النَّهيُ عنهُ وطلبُ إعدامِهِ. فتَأْتي بتحصيلِ المصلحةِ الخالصةِ والرَّاجحةِ أو تكميلِها بحسبِ الإمكانِ، وتعطيلِ المفسدةِ الخالصةِ أو الرَّاجحةِ أو تقليلِها بحسبِ الإمكانِ. فمدارُ الشَّرائعِ والدِّياناتِ على هٰذهِ الأقسامِ الأربعةِ.

● وتَنازَعَ النَّاسُ هُنا في مسألتينِ:

* **المسألةُ الأولى: في وجودِ المصلحةِ الخالصةِ والمفسدةِ الخالصةِ.**

فمنهُم مَن مَنَعَهُ وقالَ: لا وجودَ لهُ.

قالَ: لأنَّ المصلحةَ هيَ النَّعيمُ واللذَّةُ وما يُفْضي إليهِ، والمفسدةُ هيَ العذابُ

---

(١) قطعة من حديث أبي سفيان المتّفق عليه الذي تقدّم آنفًا. وبشاشته: الانشراح له.

(٢) أطال قدّس الله روحه في تحقيق الكلام في المقام الأوّل بما لا مزيد عليه فشغله ذٰلك عن التفصيل في المقام الثاني! على أنّه فصّل فيه في غيرما كتاب كـ «مدارج السالكين» و«شفاء العليل».

والألمُ وما يُفْضي إليهِ. قالوا: والمأمورُ بهِ لا بدَّ أنْ يَقْتَرِنَ بهِ ما يَحْتاجُ معَهُ إلى الصَّبرِ على نوعٍ مِن الألمِ وإنْ كانَ فيهِ لذَّةٌ وسرورٌ وفرحٌ، فلا بدَّ مِن وقوعِ أذًى، لٰكنْ لمَّا كانَ هٰذا مغمورًا بالمصلحةِ؛ لمْ يُلْتَفَتْ إليهِ ولمْ تُعَطَّلِ المصلحةُ لأجلِهِ، فتركُ الخيرِ الكثيرِ الغالبِ لأجلِ الشَّرِّ القليلِ المغلوبِ شرٌّ كثيرٌ.

قالوا: وكذٰلكَ الشَّرُّ المنهيُّ عنهُ إنَّما يَفْعَلُهُ الإنسانُ لأنَّ لهُ فيهِ غرضًا ووطرًا ما، وهٰذهِ مصلحةٌ عاجلةٌ لهُ، فإذا نُهِيَ عنهُ وتَرَكَهُ؛ فاتَتْ عليهِ مصلحتُهُ ولذَّتُهُ العاجلةُ. وإنْ كانَتْ مفسدتُهُ أعظمَ مِن مصلحتِهِ، بل مصلحتُهُ مغمورةٌ جدًّا في جنبِ مفسدتِهِ، كما قالَ تَعالى في الخمرِ والميسرِ: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]. فالرِّبا والظُّلمُ والفواحشُ والسِّحرُ وشربُ الخمرِ وإنْ كانَتْ شرورًا ومفاسدَ؛ ففيها منفعةٌ ولذَّةٌ لفاعلِها، ولذٰلكَ يُؤْثِرُها ويَخْتارُها، وإلَّا؛ فلو تَجَرَّدَتْ مفسدتُها مِن كلِّ وجهٍ؛ لَما آثَرَها العاقلُ ولا فَعَلَها أصلاً. ولمَّا كانَتْ خاصَّةُ العقلِ النَّظرَ إلى العواقبِ والغاياتِ؛ كانَ أعقلُ النَّاسِ أتْرَكَهُم لِما تَرَجَّحَتْ مفسدتُهُ في العاقبةِ وإنْ كانَتْ فيهِ لذَّةٌ ما ومنفعةٌ يسيرةٌ بالنِّسبةِ إلى مضرَّتِهِ.

ونازَعَهُم آخرونَ وقالوا: القسمةُ تَقْتَضي إمكانَ هٰذينِ القسمينِ، والوجودُ يَدُلُّ على وقوعِهِما؛ فإنَّ معرفةَ اللهِ ومحبَّتَهُ والإيمانَ بهِ خيرٌ محضٌ مِن كلِّ وجهٍ لا مفسدةَ فيهِ بوجهٍ ما.

قالوا: ومعلومٌ أنَّ الجنَّةَ خيرٌ محضٌ لا شرَّ فيها أصلاً، وأنَّ النَّارَ شرٌّ محضٌ لا خيرَ فيها أصلاً، وإذا كانَ هٰذانِ القسمانِ موجودينِ في الآخرةِ؛ فما المحيلُ[1] لوجودِهِما في الدُّنيا؟

قالوا: وأيضًا؛ فالمخلوقاتُ كلُّها: منها ما هوَ خيرٌ محضٌ لا شرَّ فيهِ أصلاً كالأنبياءِ والملائكةِ، ومنها ما هوَ شرٌّ محضٌ لا خيرَ فيهِ أصلاً كإبليسَ والشَّياطينِ، ومنها ما هوَ خيرٌ وشرٌّ وأحدُهُما غالبٌ على الآخرِ فمِن النَّاسِ مَن يَغْلِبُ خيرُهُ على شرِّهِ ومنهُم

---

(١) في ط: «فما المحلّ»! وهٰذا تحريف يفسد المعنى صوابه ما أثبتّه.

مَن يَغْلِبُ شرُّهُ على خيرِه. فهٰكذا الأعمالُ: منها ما هوَ خالصُ المصلحةِ وراجحُها، وخالصُ المفسدةِ وراجحُها. هٰذا في الأعمالِ، كما أنَّ ذٰلكَ في العمَّالِ.

قالوا: وقد قالَ اللهُ تَعالى في السَّحرةِ: ﴿وَيَتَعَلَّمونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فهٰذا دليلٌ على أنَّهُ مضرَّةٌ خالصةٌ لا منفعةَ فيهِ: إمَّا لأنَّ بعضَ أنواعِهِ مضرَّةٌ خالصةٌ لا منفعةَ فيها بوجهٍ، فما كلُّ السِّحرِ يُحَصِّلُ غرضَ السَّاحرِ، بل يَتَعَلَّمُ مئةَ بابٍ منهُ حتَّى يُحَصِّلَ غرضَهُ ببابٍ والباقي مضرَّةٌ خالصةٌ، وقِسْ على هٰذا، فهٰذا[1] مِن القسمِ الخالصِ المفسدةِ. وإمَّا لأنَّ المنفعةَ الحاصلةَ للسَّاحرِ لمَّا كانَتْ مغمورةً مستهلَكةً في جنبِ المفسدةِ العظيمةِ فيهِ؛ جُعِلَتْ كَلا منفعةٍ، فيَكونُ مِن القسمِ الرَّاجحِ المفسدةِ.

وعلى القولينِ؛ فكلُّ مأمورٍ بهِ فهوَ راجحُ المصلحةِ على تركِهِ وإنْ كانَ مكروهًا للنُّفوسِ. قالَ تَعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]: فبَيَّنَ أنَّ الجهادَ الذي أُمِروا بهِ، وإنْ كانَ مكروهًا للنُّفوسِ شاقًّا عليها، فمصلحتُهُ راجحةٌ وهوَ خيرٌ لهُم وأحمدُ عاقبةً وأعظمُ فائدةً مِن التَّقاعدِ عنهُ وإيثارِ البقاءِ والرَّاحةِ، فالشَّرُّ الذي فيهِ مغمورٌ بالنِّسبةِ إلى ما تَضَمَّنَهُ مِن الخيرِ.

وهٰكذا كلُّ منهيٍّ عنهُ فهوَ راجحُ المفسدةِ وإنْ كانَ محبوبًا للنُّفوسِ موافقًا للهوى، فمضرَّتُهُ ومفسدتُهُ أعظمُ ممَّا فيهِ مِن المنفعةِ، وتلكَ المنفعةُ واللذَّةُ مغمورةٌ مستهلكةٌ في جنبِ مضرَّتِهِ: كما قالَ تَعالى: ﴿وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقالَ: ﴿وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وفصلُ الخطابِ في المسألةِ: إذا أُريدَ بالمصلحةِ الخالصةِ أنَّها في نفسِها خالصةٌ مِن المفسدةِ لا يَشوبُها مفسدةٌ؛ فلا ريبَ في وجودِها، وإنْ أُريدَ بها المصلحةُ التي لا يَشوبُها مشقَّةٌ ولا أذًى في طريقِها والوسيلةِ إليها ولا في ذاتِها؛ فليسَتْ بموجودةٍ بهٰذا

---

(١) يعني التسعة والتسعين بابًا التي لم يحصّل بها أيّ غرض.

الاعتبارِ؛ إذِ المصالحُ والخيراتُ واللذَّاتُ والكمالاتُ كلُّها لا تُنالُ إلاَّ بحظٍّ مِن المشقَّةِ ولا يُعْبَرُ إليها إلاَّ على جسرٍ مِن التَّعبِ. وقد أجْمَعَ عقلاءُ كلِّ أُمَّةٍ على: أنَّ النَّعيمَ لا يُدْرَكُ بالنَّعيمِ، وأنَّ مَن آثَرَ الرَّاحةَ فاتَتْهُ الرَّاحةُ، وأنْ بحسبِ ركوبِ الأهوالِ واْحتمالِ المشاقِّ تكونُ الفرحةُ والملذَّةُ. فلا فرحةَ لمَن لا همَّ لهُ، ولا لذَّةَ لمَن لا صبرَ لهُ، ولا نعيمَ لمَن لا شقاءَ لهُ، ولا راحةَ لمَن لا تعبَ لهُ. بل إذا تَعِبَ العبدُ قليلاً؛ اْستَراحَ طويلاً، وإذا تَحَمَّلَ مشقَّةَ الصَّبرِ ساعةً؛ قادَهُ لحياةِ الأبدِ. وكلُّ ما فيهِ أهلُ النَّعيمِ المقيمِ فهوَ صبرُ ساعةٍ. واللهُ المستعانُ، ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ.

وكلَّما كانَتِ النُّفوسُ أشرفَ والهمَّةُ أعلى؛ كانَ تعبُ البدنِ أوفرَ وحظُّهُ مِن الرَّاحةِ أقلَّ:

كما قالَ المُتَنَبِّي:

وَإذا كانَتِ النُّفوسُ كِبارًا ... تَعِبَتْ في مُرادِها الأجْسامُ

وقالَ ابنُ الرُّوميِّ:

قَلْبٌ يَظَلُّ عَلى أفْكارِهِ وَيَدٌ ... تُمْضي الأُمورَ وَنَفْسٌ لَهْوُها التَّعَبُ

وقالَ مسلمٌ في «صحيحه»[1]: قالَ يَحْيى بنُ أبي كَثيرٍ: لا يُنالُ العلمُ براحةِ الجسمِ.

ولا ريبَ عندَ كلِّ عاقلٍ أنَّ كمالَ الرَّاحةِ بحسبِ التَّعبِ وكمالَ النَّعيمِ بحسبِ تحمُّلِ المشاقِّ في طريقِهِ، وإنَّما تَخْلُصُ الرَّاحةُ واللذَّةُ والنَّعيمُ في دارِ السَّلامِ، فأمَّا في هٰذه الدَّارِ؛ فكلاَّ ولمَّا.

وبهٰذا التَّفصيلِ يَزولُ النِّزاعُ في المسألةِ وتَعودُ مسألةَ وِفاقٍ.

❁ فصلٌ: وأمَّا المسألةُ الثَّانيةُ ـ وهيَ ما تَساوَتْ مصلحتُهُ ومفسدتُهُ ـ:

فقدِ اْخْتُلِفَ في وجودِهِ وحكمِهِ: فأثْبَتَ وجودَهُ قومٌ، ونَفاهُ آخرونَ.

والجوابُ: هٰذا القسمُ لا وجودَ لهُ وإنْ حَصَرَهُ التَّقسيمُ. بلِ التَّفصيلُ: إمَّا أنْ

---

(١) (٥ـ المساجد، ٣١ـ أوقات الصلوات، ١/٤٢٨/٦١٢).

يَكونَ حصولُهُ أولى بالفاعلِ وهوَ راجحُ المصلحةِ، وإمَّا أنْ يَكونَ عدمُهُ أولى بهِ وهوَ راجحُ المفسدةِ.

وأمَّا فعلٌ يَكونُ حصولُهُ أولى [بالفاعلِ][1] لمصلحتِهِ وعدمُهُ أولى بهِ لمفسدتِهِ وكلاهُما متساويانِ؛ فهٰذا ممَّا لمْ يَقُمْ دليلٌ على ثبوتِهِ، بلِ الدَّليلُ يَقْتَضي نفيَهُ؛ فإنَّ المصلحةَ والمفسدةَ والمنفعةَ والمضرَّةَ واللذَّةَ والألمَ إذا تَقابَلا؛ فلا بدَّ أنْ يَغْلِبَ أحدُهُما الآخرَ فيَصيرَ الحكمُ للغالبِ، وأمَّا أنْ يَتَدافَعا ويَتَصادَما بحيثُ لا يَغْلِبُ أحدُهُما الآخرَ؛ فغيرُ واقعٍ؛ فإنَّهُ: إمَّا أنْ يُقالَ: يُوجَدُ الأثرانِ معًا، وهوَ محالٌ لتصادمِهِما في المحلِّ الواحدِ. وإمَّا أنْ يُقالَ: يَمْتَنِعُ وجودُ كلٍّ مِن الأثرينِ، وهوَ ممتنعٌ؛ لأنَّهُ ترجيحٌ لأحدِ الجائزينِ مِن غيرِ مرجِّحٍ[2]. وهٰذا المحالُ إنَّما نَشَأَ مِن فرضِ تدافعِ المؤثِّرينِ وتصادمِهِما [بحيثُ لا يَغْلِبُ أحدُهُما الآخرَ][3]، فهوَ محالٌ، فلا بدَّ أنْ يَقْهَرَ[4] أحدُهُما صاحبَهُ فيَكونَ الحكمُ لهُ.

فإنْ قيلَ: ما المانعُ مِن أنْ يَمْتَنِعَ وجودُ الأثرينِ؟ قولُكُم «إنَّهُ محالٌ لوجودِ مقتضيهِ»[5]: إنْ أرَدْتُم بهِ المقتضيَ السَّالمَ عنِ المعارضِ؛ فغيرُ موجودٍ، وإنْ أرَدْتُمُ المقتضيَ المقارنَ لوجودِ المعارضِ؛ فتخلُّفُ أثرِهِ عنهُ غيرُ ممتنعٍ، والمعارضُ قائمٌ هاهُنا في كلٍّ منهُما، فلا يَمْتَنِعُ تخلُّفُ الأثرينِ.

فالجوابُ: أنَّ المعارضَ إذا كانَ قد سَلَبَ تأثيرَ المقتضي في موجَبِهِ معَ قوَّتِهِ وشدَّةِ اقتضائِهِ لأثرِهِ ومعَ هٰذا فقد قَوِيَ على سلبِهِ قوَّةَ التَّأْثيرِ والاقتضاءِ؛ فلأنْ يَقْوى على سلبِهِ قوَّةَ منعِهِ لتأثيرِهِ هوَ[6] في مقتضاهُ وموجَبِهِ بطريقِ الأولى. ووجهُ الأولويَّةِ أنَّ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) فيه نظر؛ لأنّ المرجّح موجود، وهو أنّ الجائز الأوّل محالٌ كما تقدّم قبل سطرين، فلم يبق إلّا الجائز الثاني، ولم يعد الأمر ترجيحًا بغير مرجّح. وسيأتي مزيد من التفصيل في هٰذه القضيّة قريبًا.

(٣) ليست في ط، ولا يستقيم السياق إلّا بها.

(٤) «فهو محال»: هٰذا الفرض المتقدّم محال. «فلا بدّ أن يقهر»: فلم يبق إلّا أن يقهر... إلخ.

(٥) «إنّه محال»: امتناع وجود الأثرين محال. «لوجود مقتضيه»: لوجود فعل يقتضي أثره.

(٦) يعني: لأن يقوى المعارض على سلب المقتضي قدرته على منع تأثير المعارض. وفي هذا الكلام نظر يأتي تفصيله قريبًا.

ٱقتضاءَهُ لأثرِهِ أشدُّ مِن منعِهِ تأْثيرَ غيرِهِ، فإذا قَوِيَ على سلبِهِ للأقوى؛ فسلبُهُ للأضعفِ أولى وأحرى.

فإنْ قيلَ: هٰذا يَنْتَقِضُ بكلِّ[1] مانعٍ يَمْنَعُ تأْثيرَ العلَّةِ في معلولِها، وهوَ باطلٌ قطعًا.

قيلَ: لا يَنْتَقِضُ بما ذَكَرْتُم والنَّقضُ مندفعٌ: فإنَّ العلَّةَ والمانعَ هاهُنا لمْ يَتَدافَعا ويَتَصادَما، ولٰكنَّ المانعَ أضْعَفَ العلَّةَ فبَطَلَ تأْثيرُها، فهوَ عائقٌ لها عنِ الاقتضاءِ. وأمَّا في مسألتِنا؛ فالعلَّتانِ متصادمتانِ متعارضتانِ، كلٌّ منهُما تَقْتَضي أثرَها، فلو بَطَلَ أثرُهُما؛ لَكانَت كلُّ واحدةٍ مؤثِّرةً غيرَ مؤثِّرةٍ غالبةً مغلوبةً مانعةً ممنوعةً، وهٰذا يَمْتَنِعُ. وهوَ دليلٌ يُشْبِهُ دليلَ التَّمانعِ[2].

وسرُّ الفرقِ أنَّ العلَّةَ الواحدةَ إذا قارَنَها مانعٌ مَنَعَ تأْثيرَها؛ لمْ تَبْقَ مقتضيةً لهُ بلِ المانعُ عاقَها عنِ ٱقتضائِها، وهٰذا غيرُ ممتنعٍ. وأمَّا العلَّتانِ المتمانعتانِ اللتانِ كلٌّ منهُما مانعةٌ للأُخرى مِن تأْثيرِها؛ فإنَّ تمانعَهُما وتقابلَهُما يَقْتَضي إبطالَ كلِّ واحدةٍ منهُما للأُخرى وتأْثيرَها فيها وعدمَ تأْثيرِها معًا، وهوَ جمعٌ بينَ النَّقيضينِ. لأنَّها إذا بَطَلَتْ؛ لمْ تَكُن مؤثِّرةً، وإذا لمْ تَكُنْ مؤثِّرةً؛ لمْ تُبْطِلْ غيرَها فتكونَ كلٌّ منهُما مؤثِّرةً غيرَ مؤثِّرةٍ باطلةً غيرَ باطلةٍ، وهٰذا محالٌ. فثَبَتَ أنَّهُما لا بدَّ أنْ تُؤَثِّرَ إحداهُما في الأُخرى بقوَّتِها فيَكونَ الحكمُ لها[3].

---

(١) في ط: «ينتقض لكلّ»! وله وجه ضعيف، والغالب أنّه تحريف لما أثبتّه.

(٢) دليل التمانع أحد أدلّة أهل الكلام على أنّ الخالق جلّ وعلا واحد، وصورته: أنّه إذا كان للعالم صانعان فٱختلفا في إحياء كائن أو إماتته: فإمّا أن يحصل مرادهما معًا، وهٰذا مستحيل لأنّه يستلزم الجمع بين الضدّين. أو لا يحصل مراد أحد منهما، وهٰذا يستلزم عجزهما فلا يكون أحد منهما ربًّا. أو يحصل مراد أحدهما، فهو الربّ القادر والآخر مربوب عاجز. ولا يخلو من إشكالات وإيرادات ليس هٰذا محلّها.

(٣) ولي على هٰذا الكلام ملاحظات أسوقها على النحو التالي:

أوّلاً: من الثابت المستقرّ عند الفيزيائيّين أنّ لكلّ فعل ردّ فعل يساويه في القوّة ويعاكسه في الاتجاه فيبطل كلّ منهما تأثير الآخر وتكون محصّلتهما صفرًا. وهٰذا القانون المطّرد الذي أودعه المولى سبحانه في الكون يعدّ الأساس الأوّل الذي يقوم عليه علم السكون statics، وهو أحد فروع علم الفيزياء.

ثانيًا: وشواهد هٰذا القانون المطّرد في الواقع أكثر من أن تذكر: فالحجر الثقيل يستقرّ على الأرض الصخريّة؛ لأنّ متانة هٰذه الأرض وصلابتها تدفعه نحو الأعلى بقوّة تساوي قوّة ثقله وتعاكسها فتبطل كلّ منهما تأثير الأخرى وتكون محصّلتهما صفرًا ويثبت الحجر في مكانه، فإن كانت متانة الأرض وصلابتها ضعيفة كما=

فإنْ قيلَ:

[١] فما تَقولونَ فيمَن تَوَسَّطَ أرضًا مغصوبةً ثمَّ بَدا لهُ في التَّوبةِ: فإنْ أمَرْتُموهُ باللبثِ؛ فهوَ محالٌ، وإنْ أمَرْتُموهُ بقطعِها والخروجِ مِن الجانبِ الآخرِ؛ فقد أمَرْتُموهُ بالحركةِ والتَّصرُّفِ في ملكِ الغيرِ، وكذٰلكَ إنْ أمَرْتُموهُ بالرُّجوعِ؛ فهوَ حركةٌ منهُ وتصرُّفٌ في أرضِ الغصبِ؟ فهٰذا قد تَعارَضَتْ فيهِ المصلحةُ والمفسدةُ، فما الحكمُ في هٰذهِ الصُّورةِ؟

[٢] وكذٰلكَ مَن تَوَسَّطَ بينَ فئةٍ مثبَتةٍ بالجراحِ[1] منتظرينَ للموتِ وليسَ لهُ انتقالٌ إلَّا على أحدِهِم: فإنْ أقامَ على مَن هوَ فوقَهُ؛ قتَلَهُ، وإنِ انْتَقَلَ إلى غيرِهِ؛ قتَلَهُ! فقد تَعارَضَتْ هنا مصلحةُ النَّقلةِ ومفسدتُها على السَّواءِ.

[٣] وكذٰلكَ مَن طَلَعَ عليهِ الفجرُ وهوَ مجامعٌ: فإنْ أقامَ؛ أفْسَدَ صومَهُ، وإنْ نَزَعَ؛ فالنَّزْعُ مِن الجماعِ، والجماعُ مركَّبٌ مِن الحركتينِ! فهاهُنا أيضًا قد تَضادَّتِ العلَّتانِ.

[٤] وكذٰلكَ أيضًا إذا تَترَّسَ الكفَّارُ بأسرى مِن المسلمينَ هُم بعددِ المقاتلةِ ودارَ الأمرُ: بينَ قتلِ التُّرسِ، وبينَ الكفِّ عنهُ وقتلِ الكفَّارِ المقاتلةَ المسلمينَ! فهاهُنا أيضًا قد

= في الأرض الرمليّة أو الطينيّة؛ فستكون قوّة ثقل الحجر أعظم من قوّة دفع الأرض له فتتغلّب عليها وينغرس الحجر في الرمل والطين. وكذٰلك ترى الطائرة العموديّة أحيانًا ثابتة فوق نقطة معيّنة، وهٰذا يحصل عندما تكون قوّة دفع المروحة للطائرة نحو الأعلى تعادل قوّة ثقل الطائرة التي تشدّها نحو الأسفل فتبطل كلّ منهما تأثير الأخرى وتكون محصّلتهما صفرًا وتبقى الطائرة ثابتة في مكانها... وغيره كثير.

ثالثًا: وعليه؛ فليس من المحال أن يتقابل مؤثّران متساويان تمامًا فيعدّل كلّ واحد منهما الآخر ويبطل تأثيره؛ لأنّ الوجود والوقوع أكبر دليل على عدم الاستحالة.

رابعًا: ولست أريد أن أقول: إنّ المصلحة والمفسدة قد تتساويان في بعض الأعمال من كلّ وجه حتّى لا ترجح إحداهما على الأخرى. ولٰكن أريد أن أشير إلى أنّ الاحتكام في هٰذه المسألة إلى قواعد المنطق الصوري هو المشكل؛ لأنّ قواعد علم الفيزياء ـ وهي أصوب وأولى بالاعتماد ـ تردّه.

خامسًا: وأخيرًا؛ فلا المنطق الصوريّ يصلح أساسًا لمعالجة هٰذه المسألة ولا قواعد علم الفيزياء، فهٰذه قضيّة شرعيّة تعالج بدراسة مفرداتها وأمثلتها والموازنة بين مفاسدها ومصالحها بالميزان الشرعيّ فقط. ولذٰلك لم يكتف ابن القيّم رحمة الله عليه بعرض القضيّة هنا منطقيًّا، وإنّما انطلق إلى التفصيل والدرس والتحرير من الناحية الشرعيّة حتّى خلص إلى ما يشبه اليقين بأنّ هٰذا التوازن الدقيق في المصالح والمفاسد أمر خياليّ غير موجود في واقع الشريعة.

(١) مثبتة بالجراح: لا حراك بها من شدّة الجراح.

تَقابَلَتِ المصلحةُ والمفسدةُ على السَّواءِ.

[٥] وكذٰلكَ أيضًا إذا أُلْقِيَ في مركبِهِم نارٌ وعايَنوا الهلاكَ بها: فإنْ أقاموا؛ ٱحْتَرقوا، وإنْ لَجَؤوا إلى الماءِ؛ هَلَكوا بالغرقِ!

[٦] وكذٰلكَ الرَّجلُ إذا ضاقَ عليهِ الوقتُ ليلةَ عَرَفَةَ ولمْ يَبْقَ منهُ إلَّا ما يَسَعُ قدرَ صلاةِ العشاءِ: فإنِ ٱشْتَغَلَ بها؛ فاتَهُ الوقوفُ، وإنِ ٱشْتَغَلَ بالذَّهابِ إلى عَرَفَةَ؛ فاتَتْهُ الصَّلاةُ! فهاهُنا قد تَعارَضَتِ المصلحتانِ والمفسدتانِ على السَّواءِ.

[٧] وكذٰلكَ الرَّجلُ إذا ٱسْتَيْقَظَ قبلَ طلوعِ الشَّمسِ وهوَ جنبٌ ولمْ يَبْقَ مِن الوقتِ إلَّا ما يَسَعُ قدرَ الغسلِ أو الصَّلاةِ بالتَّيمُّمِ: فإنِ ٱغْتَسَلَ؛ فاتَتْهُ مصلحةُ الصَّلاةِ في الوقتِ، وإنْ صَلَّى بالتَّيمُّمِ؛ فاتَتْهُ مصلحةُ الطَّهارةِ! فقد تَقابَلَتِ المصلحةُ والمفسدةُ.

[٨] وكذٰلكَ إذا ٱغْتَلَمَ البحرُ[١] بحيثُ يَعْلَمُ ركبانُ السَّفينةِ أنَّهُم لا يَخْلُصونَ إلَّا بتغريقِ شطرِ الرُّكبانِ لِتَخِفَّ بهمُ السَّفينةُ: فإنْ أَلْقَوْا شطرَهُم؛ كانَ فيهِ مفسدةٌ، وإنْ تَرَكوهُم؛ كانَ فيهِ مفسدةٌ! فقد تَقابَلَتِ المفسدتانِ والمصلحتانِ على السَّواءِ.

[٩] وكذٰلكَ لو أُكْرِهَ رجلٌ على إفسادِ درهمٍ مِن درهمينِ متساويينِ أو إتلافِ حيوانٍ مِن حيوانينِ متساويينِ أو شربِ قدحٍ مِن قدحينِ متساويينِ أو وَجَدَ كافرينِ قويَّينِ في حالِ المبارزةِ لا يُمْكِنُهُ إلَّا قتلُ أحدِهِما أو قَصَدَ المسلمينَ عدوَّانِ متكافئانِ مِن كلِّ وجهٍ في القربِ والبعدِ والعددِ والعداوةِ! فإنَّهُ في هٰذهِ الصُّورِ كلِّها تَساوَتِ المصالحُ والمفاسدُ ولا يُمْكِنُكُم ترجيحُ أحدٍ مِن المصلحتينِ ولا أحدٍ مِن المفسدتينِ، ومعلومٌ أنَّ هٰذهِ حوادثُ لا تَخْلوا مِن حكمٍ للهِ فيها.

[١٠] وأمَّا ما ذَكَرْتُم مِنِ ٱمتناعِ تقابلِ المصلحةِ والمفسدةِ على السَّواءِ؛ فكيفَ يُمْكِنُكُمْ إنكارُهُ[٢] وأنتم تَقولونَ بالموازنةِ، وأنَّ مِن النَّاسِ مَن تَسْتَوي حسناتُهُ وسيِّئاتُهُ فيَبْقى في الأعرافِ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ لِتقابُلِ مقتضى الثَّوابِ والعقابِ في حقِّهِ؛ فإنَّ حسناتِهِ قَصَّرَتْ بهِ عن دخولِ النَّارِ وسيِّئاتِهِ قَصَّرَتْ بهِ عن دخولِ الجنَّةِ، وهٰذا ثابتٌ عنِ

---

(١) ٱغتلم البحر: هاج.

(٢) في ط: «فكيف عليكم إنكاره»! وهو تحريف لا معنى له صوابه ما أثبتّه.

الصَّحابةِ حُذَيْفَةَ بنِ اليَمانِ وابنِ مَسْعودٍ وغيرِهما؟!

فالجوابُ مِن وجهينِ: مجملٍ ومفصَّلٍ:

أمَّا المجملُ؛ فليسَ في شيءٍ ممَّا ذَكَرْتُم دليلٌ على محلِّ النِّزاعِ؛ فإنَّ موردَ النِّزاعِ أنْ تَتَقابَلَ المصلحةُ والمفسدةُ وتَتَساوَيا فتَتَدافَعا ويَبْطُلَ أثرُهُما، وليسَ في هٰذهِ الصُّورِ شيءٌ كذٰلكَ.

وهٰذا يَتَبَيَّنُ بالجوابِ التَّفصيليِّ عنها صورةً صورةً:

[١] فأمَّا مَن تَوَسَّطَ أرضًا مغصوبةً؛ فإنَّهُ مأمورٌ مِن حينَ دَخَلَ فيها بالخروجِ منها، فحكمُ الشَّارعِ في حقِّهِ المبادرةُ إلى الخروجِ، وإنِ ٱسْتَلْزَمَ ذٰلكَ حركةً في الأرضِ المغصوبةِ؛ فإنَّها حركةٌ تَتَضَمَّنُ تركَ الغصبِ، فهيَ مِن بابِ ما لا خلاصَ عنِ الحرامِ إلاَّ بهِ، وإنْ قيلَ: إنَّها واجبةٌ؛ فوجوبٌ عقليٌّ لزوميٌّ لا شرعيٌّ مقصودٌ[١]. فمفسدةُ هٰذهِ الحركةِ مغمورةٌ في مصلحةِ تفريغِ الأرضِ والخروجِ عنِ الغصبِ. وإذا قُدِّرَ تَساوي الجوانبِ بالنِّسبةِ إليهِ؛ فالواجبُ القدرُ المشتركُ، وهوَ الخروجُ مِن أحدِها[٢] وعلى كلِّ تقديرٍ فمفسدةُ هٰذهِ الحركةِ مغمورةٌ جدًّا في مصلحةِ تركِ الغصبِ، فليسَ ممَّا نحنُ فيهِ بسبيلٍ.

[٢] وأمَّا مسألةُ مَن تَوَسَّطَ بينَ قتلى لا سبيلَ لهُ إلى المقامِ أو النَّقلةِ إلاَّ بقتلِ أحدِهِم؛ فهٰذا ليسَ مكلَّفًا في هٰذهِ الحالِ، بل هوَ في حكمِ المُلْجَإِ، والمُلْجَأُ ليسَ مكلَّفًا ٱتِّفاقًا؛ فإنَّهُ لا قصدَ لهُ ولا فعلَ، وهٰذا مُلْجَأٌ مِن حيثُ إنَّهُ لا سبيلَ لهُ إلى تركِ النَّقلةِ عن واحدٍ إلاَّ إلى آخرَ، فهوَ مُلْجأٌ إلى لبثِهِ فوقَ واحدٍ ولا بدَّ، ومثلُ هٰذا لا يُوصَفُ فعلُهُ بإباحةٍ ولا تحريمٍ ولا حكمٍ مِن أحكامِ التَّكليفِ؛ لأنَّ أحكامَ التَّكليفِ منوطةٌ بالاختيارِ، فلا تَتَعَلَّقُ بمَن لا ٱختيارَ لهُ.

---

(١) يعني: وإن قيل: إنّ حركة الخروج من الأرض واجبة؛ فهٰذا لا يعني أنّ الشرع يوجب على الرجل أن يغتصب أرضًا ثمّ يتحرّك للخروج منها، وإنّما هو وجوب يستلزمه ترك الغصب.

(٢) يعني: إذا قدّر أنّه توسّط الأرض تمامًا بحيث تكون جميع أطرافها على بعد واحد منه؛ فالواجب أن يخرج من واحد منها لا على التعيين. فإن لم تكن متساوية البعد؛ وجب أن يخرج من أقربها؛ ليتخلّص بأسرع وقت من التلبّس بالمعصية.

فلو كانَ بعضُهُم مسلمًا وبعضُهُم كافرًا معَ ٱشتراكِهِم في العصمةِ؛ فقد قيلَ: يَلْزَمُهُ الانتقالُ إلى الكافرِ أو المقامُ عليهِ؛ لأنَّ قتلَهُ أخفُّ مفسدةً مِن قتلِ المسلمِ، ولهٰذا يَجوزُ قتلُ مَن لا يَقْتُلُهُ في المعركةِ إذا تَتَرَّسَ بهِمُ الكفَّارُ فيَرْميهِم ويَقْصِدُ الكفَّارَ.

[٣] وأمَّا مَن طَلَعَ عليهِ الفجرُ وهوَ مجامعٌ: فالواجبُ عليهِ النَّزْعُ عينًا، ويَحْرُمُ عليهِ ٱستدامةُ الجماعِ واللبثُ. وإنَّما ٱخْتُلِفَ في وجوبِ القضاءِ والكفَّارةِ عليهِ على ثلاثةِ أقوالٍ في مذهبِ أَحْمَدَ وغيرِهِ: أحدُها: عليهِ القضاءُ والكفَّارةُ، وهٰذا ٱختيارُ القاضي أبي يَعْلى. الثَّاني: لا شيءَ عليهِ، وهٰذا ٱختيارُ شيخِنا، وهوَ الصَّحيحُ. الثَّالثُ: عليهِ القضاءُ دونَ الكفَّارةِ. وعلى الأقوالِ كلِّها؛ فالحكمُ في حقِّهِ وجوبُ النَّزعِ، والمفسدةُ التي في حركةِ النَّزعِ مفسدةٌ مغمورةٌ في مصلحةِ إقلاعِهِ ونزعِهِ، فليسَتِ المسألةُ مِن مواردِ النِّزاعِ.

[٤] وأمَّا إذا تَتَرَّسَ الكفَّارُ بأسرى مِن المسلمينَ بعددِ المقاتلةِ؛ فإنَّهُ لا يَجوزُ رميُهُم إلاَّ أنْ يُخْشى على جيشِ المسلمينَ وتكونَ مصلحةُ حفظِ الجيشِ أعظمَ مِن مصلحةِ حفظِ الأُسارى، فحينئذٍ يَجوزُ رميُ الأُسارى ويَكونُ مِن بابِ دفعِ أعظمِ المفسدتينِ بٱحتمالِ أدناهُما. فلوِ ٱنْعَكَسَ الأمرُ وكانَتْ مصلحةُ بقاءِ الأسرى أعظمَ مِن رميِهِم؛ لَمْ يَجُزْ رميُهُم. فهٰذا البابُ مبنيٌّ على دفعِ أعظمِ المفسدتينِ بأدناهُما وتحصيلِ أعظمِ المصلحتينِ بتفويتِ أدناهُما. فإنْ فُرِضَ الشَّكُّ وتَساوى الأمرانِ؛ لَمْ يَجُزْ رميُ الأسرى؛ لأنَّهُ على يقينٍ مِن قتلِهِم، وعلى ظنٍّ وتخمينٍ مِن قتلِ أصحابِهِ وهلاكِهِم. ولو قُدِّرَ أنَّهُم تَيَقَّنوا ذٰلكَ[1] ولمْ يَكُنْ في قتلِهِمُ ٱستباحةُ بيضةِ الإسلامِ وغلبةُ العدوِّ على الدِّيارِ؛ لَمْ يَجُزْ أنْ يَقُوا[2] نفوسَهُم بنفوسِ الأسرى كما لا يَجوزُ للمكرَهِ على قتلِ المعصومِ أنْ يَقْتُلَهُ ويَقِيَ نفسَهُ بنفسِهِ، بلِ الواجبُ عليهِ أنْ يَسْتَسْلِمَ للقتلِ ولا يَجْعَلَ النُّفوسَ المعصومةَ وقايةً لنفسِهِ.

[٥] وأمَّا إذا أُلْقِيَ في مركبِهِم نارٌ؛ فإنَّهُم يَفْعَلونَ ما يَرَوْنَ السَّلامةَ فيهِ. وإنْ

---

(١) يعني: لو قدّر أنّهم تيقّنوا أنّ العدوّ سيقتلهم؛ أي: سيقتل جيش المسلمين.

(٢) في ط: «أن يقي»! والصواب ما أثبتّه.

شَكُّوا؛ هلِ السَّلامةُ في مقامِهِم أو في وقوعِهِم في الماءِ أو تَيَقَّنوا الهلاكَ في الصُّورتينِ أو غَلَبَ على ظَنِّهِم غلبةٌ متساويةٌ لا يَتَرَجَّحُ أحدُ طرفَيْها؛ ففي الصُّورِ الثَّلاثِ قولانِ لأهلِ العلمِ وهُما روايتانِ منصوصتانِ عن أحْمَدَ:

إحداهُما: أنَّهُم يُخَيَّرونَ بينَ الأمرينِ؛ لأنَّهُما موتتانِ قد عَرَضَتا لهُم فلهُم أنْ يَخْتاروا أيسرَهُما عليهِم؛ إذْ لا بدَّ مِن أحدِهِما، وكلاهُما بالنِّسبةِ إليهِم سواءٌ، فيُخَيَّرونَ بينَهُما.

والقولُ الثَّاني: أنَّهُ[1] يَلْزَمُهُمُ المقامُ ولا يُعينونَ على أنفسِهِم؛ لئلاَّ يكونَ موتُهُم بسببٍ مِن جهتِهِم، ولِيَتَمَحَّصَ موتُهُم شهادةً بأيدي عدوِّهِم.

[٦] وأمَّا الذي ضاقَ عليهِ وقتُ الوقوفِ بعَرَفَةَ والصَّلاةِ؛ فإنَّ الواجبَ في حقِّهِ تَقوى اللهِ بحسبِ الإمكانِ. وقدِ اخْتُلِفَ في تعيينِ ذٰلكَ الواجبِ على ثلاثةِ أقوالٍ في مذهبِ أحْمَدَ وغيرِهِ:

أحدُها[2]: أنَّ الواجبَ في حقِّهِ معيَّنًا إيقاعُ الصَّلاةِ في وقتِها؛ فإنَّها قد تَضَيَّقَتْ، والحجُّ لمْ يَتَضَيَّقْ وقتُهُ؛ فإنَّهُ إذا فَعَلَهُ في العامِ القابلِ لمْ يَكُنْ قد أخْرَجَهُ عن وقتِهِ، بخلافِ الصَّلاةِ.

والقولُ الثَّاني: أنَّهُ يُقَدِّمُ الحجَّ ويَقْضي الصَّلاةَ بعدَ الوقتِ؛ لأنَّ مشقَّةَ فواتِهِ وتكلُّفِهِ إنشاءَ سفرٍ آخرَ أو إقامةً في مكَّةَ إلى قابلٍ ضررٌ عظيمٌ تَأْباهُ الحَنيفيَّةُ السَّمحةُ، فيَشْتَغِلُ بإدراكِهِ ويَقْضي الصَّلاةَ.

والثَّالثُ: يَقْضي الصَّلاةَ وهوَ سائرٌ إلى عَرَفَةَ، فيَكونُ في طريقِهِ مصلِّيًا كما يُصَلِّي الهاربُ مِن سيلٍ أو سبعٍ أو عدوٍّ اتِّفاقًا أو الطَّالبُ لعدوٍّ يَخْشى فواتَهُ على أصحِّ القولينِ.

وهٰذا أقْيَسُ الأقوالِ وأقربُها إلى قواعدِ الشَّرعِ ومقاصدِهِ؛ فإنَّ الشَّريعةَ مبناها على تحصيلِ المصالحِ بحسبِ الإمكانِ وأنْ لا يَفوتَ منها شيءٌ: فإنْ أمْكَنَ تحصيلُها كلِّها؛ حُصِّلَتْ، وإنْ تَزاحَمَتْ ولمْ يُمْكِنْ تحصيلُ بعضِها إلاَّ بتفويتِ البعضِ؛ قُدِّمَ أكملُها

---

(١) في ط: «أن»! وأرجو أنّ الصواب ما أثبته.

(٢) في ط: «أحدهما»! والصواب ما أثبته.

وأهمُّها وأشدُّها طلبًا للشَّارِعِ.

وقد قالَ عَبْدُاللهِ بنُ أُنَيْسٍ: بَعَثَني رسولُ اللهِ ﷺ إلى خالِدِ بنِ سُفْيانَ العُرَنِيِّ، وكانَ نحوَ عُرَنَةَ وعَرَفاتٍ، فقالَ: «اذْهَبْ فاقْتُلْهُ». فرأيْتُهُ، وحَضَرَتْ صلاةُ العصرِ، فقُلْتُ: إنِّي أخافُ أنْ يكونَ بيني وبينَهُ ما أنْ أُؤَخِّرَ الصَّلاةَ[1]. فانْطَلَقْتُ أمشي وأنا أُصَلِّي أُومئُ إيماءً نحوَهُ. فلمَّا دَنَوْتُ منهُ؛ قالَ لي: مَن أنتَ؟ قلتُ: رجلٌ مِن العربِ، بَلَغَني أنَّكَ تَجْمَعُ لهٰذا الرَّجلِ، فجِئْتُكَ في ذٰلكَ. قالَ: إنِّي لفي ذٰلكَ. قالَ: فمَشَيْتُ معَهُ ساعةً، حتَّى إذا أمْكَنَني؛ عَلَوْتُهُ بسيفي حتَّى بَرَدَ[2]. رواهُ أبو داوودَ.

[٧] وأمَّا مسألةُ المستيقظِ قبلَ طلوعِ الشَّمسِ جنبًا وضيقِ الوقتِ عليهِ بحيثُ لا

---

(١) يعني: إنِّي أخاف أن يحصل بيني وبينه ما يشغلني فيكون سببًا في تأخير الصلاة.

(٢) (حسن). رواه: ابن إسحاق (٤/ ٢٠١ـ ابن هشام)، وابن أبي شيبة (٨٣٦٣)، وأحمد (٣/ ٤٩٦)، وأبو داوود (٢ـ الصلاة، ٢٨٩ـ صلاة الطالب، ١/ ٤٠١/ ١٢٤٩)، وأبو يعلى (٩٠٥)، وابن خزيمة (٩٨٢ و٩٨٣)، والطبري في «التاريخ» (٢/ ٢٠٨)، وابن حبّان (٧١٦٠)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٤٤٥)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ٢٥٦، ٩/ ٣٨) و«الدلائل» (٤/ ٤٢)، والضياء في «المختارة» (٩/ ٢٨/ ١٢ و١٣)؛ كلّهم من طريق ابن إسحاق، ثني محمّد بن جعفر بن الزبير، [عن عبدالله بن عبدالله بن أنيس]، [عن عبدالله بن أنيس]... فذكره مطوّلاً ومختصرًا. قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٠٦): «فيه راو لم يسمّ، وهو ابن عبدالله بن أنيس، وبقيّة رجاله ثقات». قلت: سمّاه البيهقي عبدالله بن عبدالله بن أنيس، وفيه جهالة، وحديثه لا يعدو أن يكون صالحًا في المتابعات.

ورواه: ابن أبي عاصم في «الآحاد» (٢٠٣١)، والطبراني (٦/ ٢٠٦ـ مجمع)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٥) و«أخبار أصبهان» (١/ ١٨٩)؛ من طريق عبدالعزيز بن محمّد، عن يزيد بن عبدالله بن الهاد، عن محمّد بن كعب، عن عبدالله بن أنيس... فذكره بنحوه لٰكنّه قال بعد أن طلب منه أن يبيت عنده ووافق: فرحت في أثره، فصلّيت العصر ركعتين خفيفتين وأشفقت أن يراني... إلخ. قال الهيثمي: «رجاله ثقات». قلت: هو حسن إن سلم من إرسال محمّد بن كعب.

وله شاهد مختصر ضعيف من حديث عبادة بن الصامت عند الطبراني (٦/ ٢٠٧ـ مجمع)، وآخران مرسلان ضعيفان عند البيهقي في «الدلائل» (٤/ ٤٠).

وقصّة قتل خالد بن سفيان حسنة على الأقلّ بمجموع طرقها، وذكر الصلاة إيماءً يشهد له اللفظ الذي ذكرته في الطريق الثانية، ووجه ذٰلك أنّه صلّاها ركعتين فهي صلاة خوف، وكان يسير في أثر الرجل على مرأى منه، فمن المستبعد جدًّا أن يكون نزل وصلّى بركوع وسجود، فلم يبق إلّا أنّه صلّى إيماءً، فصار الشاهد صالحًا لتقوية الحديث متنًا وسندًا. ولذٰلك صحّح الحديث ابن خزيمة وابن حبّان وسكت عنه المنذري وقوّاه الهيثمي والعسقلاني، لٰكن ضعّفه الألباني.

يَتَّسِعُ للغسلِ والصَّلاةِ؛ فهٰذا الواجبُ في حقِّهِ عندَ جمهورِ العلماءِ أنْ يَغْتَسِلَ وإنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ، ولا تُجْزِئُهُ الصَّلاةُ بالتَّيمُّمِ؛ لأنَّهُ واجدٌ للماءِ، وإنْ كانَ غيرَ مفرِّطٍ في نومِهِ؛ فلا إثمَ عليهِ، كما لو نامَ حتَّى طَلَعَتِ الشَّمسُ، والواجبُ في حقِّهِ المبادرةُ إلى الغسلِ والصَّلاةِ، وهٰذا وقتُها في حقِّ أمثالِهِ. وعلى هٰذا القولِ الصَّحيحِ؛ فلا يَتَعارَضُ هاهُنا مصلحةٌ ومفسدةٌ متساويتانِ، بل مصلحةُ الصَّلاةِ بالطَّهارةِ أرجحُ مِن إيقاعِها في الوقتِ بالتَّيمُّمِ.

وفي المسألةِ قولٌ ثانٍ ـ وهوَ روايةٌ عن مالكٍ ـ أنَّهُ يَتَيَمَّمُ ويُصَلِّي في الوقتِ؛ لأنَّ الشَّارعَ لهُ ٱلتفاتٌ إلى إيقاعِ الصَّلاةِ في الوقتِ بالتَّيمُّمِ أعظمُ مِن ٱلتفاتِهِ إلى إيقاعِها بطهارةِ الماءِ خارجَ الوقتِ. والعدمُ المبيحُ للتَّيمُّمِ هوَ العدمُ بالنِّسبةِ إلى وقتِ الصَّلاةِ لا مطلقًا؛ فإنَّهُ لا بدَّ أنْ يَجِدَ الماءَ ولو بعدَ حينٍ، ومعَ هٰذا فأوْجَبَ عليهِ الشَّارعُ التَّيمُّمَ؛ لأنَّهُ عادمٌ للماءِ بالنِّسبةِ إلى وقتِ الصَّلاةِ. وهٰكذا هٰذا النَّائمُ، وإنْ كانَ واجدًا للماءِ، لٰكنَّهُ عادمٌ بالنِّسبةِ إلى الوقتِ. وصاحبُ هٰذا القولِ يَقولُ: مصلحةُ إيقاعِ الصَّلاةِ في الوقتِ بالتَّيمُّمِ أرجحُ في نظرِ الشَّارعِ مِن إيقاعِها خارجَ الوقتِ بطهارةِ الماءِ[1].

فعلى كلا القولينِ لمْ تَتَساوَ المصلحةُ والمفسدةُ، فثبَتَ أنَّهُ لا وجودَ لهٰذا القسمِ في الشَّرعِ.

[٨] وأمَّا مسألةُ ٱغتلامِ البحرِ؛ فلا يَجوزُ إلقاءُ أحدٍ منهُم في البحرِ بالقرعةِ ولا غيرِها؛ لاستوائِهِم في العصمةِ، وقتلِ مَن لا ذنبَ لهُ وقايةً لنفسِ القاتلِ بهِ وليسَ أولى بذٰلكَ منهُ. نعم؛ لو كانَ في السَّفينةِ مالٌ أو حيوانٌ؛ وَجَبَ إلقاءُ المالِ ثمَّ الحيوانِ؛ لأنَّ المفسدةَ في فواتِ الأموالِ والحيواناتِ أولى مِن المفسدةِ في فواتِ أنفسِ النَّاسِ المعصومةِ.

---

(١) وفي قوله هٰذا نظر! ويرد عليه أنّه إذا قام قبل طلوع الشمس وضاق الوقت عليه أن يجمع بين الوضوء والصلاة؛ فهل يصلّي بغير وضوء؟! فإن قال نعم؛ فمشكل وباب خطير، وإن قال لا؛ لزمه مثل ذٰلك في الغسل ولا فرق. ولذٰلك رجّح ابن القيّم رحمة الله عليه القول الأوّل كما تراه بيّنًا في قوله: «وعلى هٰذا القول الصحيح. . .» إلخ.

[٩] وأمَّا سائرُ الصُّورِ التي تَساوَتْ مفاسدُها كإتلافِ الدِّرهمينِ والحيوانينِ وقتلِ أحدِ العدوَّينِ؛ فهٰذا الحكمُ فيهِ التَّخييرُ بينَهُما؛ لأنَّهُ لا بدَّ مِن إتلافِ أحدِهما وِقايةً لنفسِهِ، وكلاهُما سواءٌ، فيُخَيَّرُ بينَهُما. وكذٰلكَ العدوَّانِ المتكافئانِ يُخَيَّرُ بينَ قتالِهِما كالواجبِ المخيَّرِ وأولى[١].

[١٠] وأمَّا مَن تَساوَتْ حسناتُهُ وسيِّئاتُهُ وتَدافَعَ أثرُهُما، فهوَ حجَّةٌ عليكُم؛ فإنَّ الحكمَ للحسناتِ وهيَ تَغْلِبُ السَّيِّئاتِ؛ فإنَّهُ لا يَدْخُلُ النَّارَ ولٰكنَّهُ يَبْقى على الأعرافِ مدَّةً ثمَّ يَصيرُ إلى الجنَّةِ. فقد تَبَيَّنَ غلبةُ الحسناتِ لجانبِ السَّيِّئاتِ، ومنعُها مِن ترتُّبِ أثرِها عليها، وأنَّ الأثرَ هوَ أثرُ الحسناتِ فقط.

فبانَ[٢] أنَّهُ لا دليلَ لكُم على وجودِ هٰذا القسمِ أصلاً، وأنَّ الدَّليلَ يَدُلُّ على ٱمتناعِهِ.

● فإنْ قيلَ: فما[٣] قولُكُم فيما إذا عارَضَ المفسدةَ مصلحةٌ أرجحُ منها وتَرَتَّبَ الحكمُ على الرَّاجحِ: هل يَتَرَتَّبُ عليهِ معَ بقاءِ المرجوحِ مِن المصلحةِ والمفسدةِ لٰكنَّهُ لمَّا كانَ مغمورًا لمْ يُلْتَفَتْ إليهِ؟ أو تَقولونَ: إنَّ المرجوحَ زالَ أثرُهُ بالرَّاجحِ فلمْ يَبْقَ لهُ أثرٌ؟ ومثالُ ذٰلكَ أنَّ اللهَ تَعالى حَرَّمَ الميتةَ والدَّمَ ولحمَ الخنزيرِ لِما في تناوُلِها مِن المفسدةِ الرَّاجحةِ، وهيَ خبثُ التَّغذيةِ[٤]، والغاذي شبيهٌ بالمغتذي، فيَصيرُ المغتذي بهٰذهِ الخبائثِ خبيثَ النَّفسِ[٥]، فمِن محاسنِ الشَّريعةِ تحريمُ هٰذهِ الخبائثِ، فإنِ ٱضْطُرَّ إليها

---

(١) في ط: «المخيّر والولي»! وفيه تحريف بيّن أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٢) بالدراسة التفصيليّة للأمثلة التي أوردتموها وظننتم أنّها دليل لكم على تقابل المصلحة والمفسدة على السواء دون رجحان إحداهما.

(٣) في ط: «فإن قيل لكم فما»! وزيادة «لكم» هنا سبق قلم من الناسخ لا محلّ لها إطلاقًا، وإنّما المراد «فإن قيل لنا»، فهاهنا سؤال جديد يفترض أنّ سائلاً ما أورده وابن القيّم سيجيب عليه قريبًا.

(٤) هٰذه واحدة من علل تحريم هٰذه المذكورات فقط، والأمر أعظم وأوسع، ولو تتبّع الباحث المدقّق ما ثبت علميًّا من مفاسد الاغتذاء بهٰذا وأضراره؛ لخرج برسالة لطيفة. وٱنظر ما تقدّم (١/ ٥٩).

(٥) ينكر كثير من الأطبّاء المعاصرين هٰذه الفكرة، ويرون أنّ البروتينات والشحوم الحيوانيّة تتحلّل في الجهاز الهضمي للإنسان إلى وحدات أوّليّة متشابهة في جميع اللحوم، فالوحدات الأوّليّة التي تخرج عن الخنزير تشبه الوحدات الأوّليّة التي تخرج عن البقر والغنم، ثمّ يعيد الجسم بناءها على شكل بروتينات وشحوم بشريّة تختلف عن أصلها الذي كانت عليه.

وفي هٰذا الكلام تسرّع كبير، وهو ممّا يصحّ أن يقال فيه: حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء! لأنّ لحم=

وخافَ على نفسِهِ الهلاكَ إنْ لمْ يَتناوَلْها؛ أُبيحَتْ لهُ. فهل إباحتُها والحالةُ هٰذهِ معَ بقاءِ وصفِ الخبثِ فيها لٰكنْ عارَضَهُ مصلحةٌ أرجحُ منهُ وهيَ حفظُ النَّفس؟ أو إباحتُها أزالَتْ وصفَ الخبثِ منها فما أُبيحَ لهُ إلَّا طيِّبٌ وإنْ كانَ خبيثًا في حالِ الاختيارِ؟

قيلَ: هٰذا موضعٌ دقيقٌ، وتحقيقُهُ يَسْتَدْعي اطِّلاعًا على أسرارِ الشَّريعةِ والطَّبيعةِ؛ فلا تَسْتَهْوِنْهُ وأعْطِهِ حقَّهُ مِن النَّظرِ والتَّأمُّلِ. وقدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فيهِ على قولينِ: فكثيرٌ منهُم أو أكثرُهُم سلكَ مسالكَ التَّرجيحِ معَ بقاءِ وصفِ الخبثِ فيهِ وقالَ: مصلحةُ حفظِ النَّفسِ أرجحُ مِن مفسدةِ خبثِ التَّغذيةِ، وهٰذا قولُ مَن لمْ يُحَقِّقِ النَّظرَ ويُمْعِنِ التَّأمُّلَ بلِ اسْتَرْسَلَ معَ ظاهرِ الأمرِ. والصَّوابُ أنَّ وصفَ الخبثِ منتفٍ حالَ الاضطرارِ.

وكشفُ الغطاءِ عنِ المسألةِ: أنَّ وصفَ الخبثِ غيرُ مستقلٍّ بنفسِهِ في المحلِّ المغتذى بهِ[١]، بل هوَ متولِّدٌ مِن القابلِ والفاعلِ، فهوَ حاصلٌ مِن المغتذي والمغتذى بهِ. ونظيرُهُ تأثيرُ السُّمِّ في البدنِ، هوَ موقوفٌ على الفاعلِ والمحلِّ القابلِ إذا عَلِمَ ذٰلكَ.

فتناولُ هٰذهِ الخبائثِ في حالِ الاختيارِ يُوجِبُ حصولَ الأثرِ المطلوبِ عدمُهُ، فإذا كانَ المتناولُ لها مضطرًّا؛ فإنَّ ضرورتَهُ تَمْنَعُ قبولَ الخبثِ الذي في المغتذى بهِ فلمْ تَحْصُلْ تلكَ المفسدةُ؛ لأنَّها مشروطةٌ بالاختيارِ الذي بهِ يَقْبَلُ المحلُّ خبثَ التَّغذيةِ، فإذا زالَ الاختيارُ؛ زالَ شرطُ القبولِ فلمْ تَحْصُلِ المفسدةُ أصلاً.

وإنِ اعْتاصَ[٢] هٰذا على فهمِكَ؛ فانْظُرْ في الأغذيةِ والأشربةِ الضَّارَّةِ التي لا يَتَخَلَّفُ عنها الضَّررُ إذا تَناوَلَها المختارُ الواجدُ لغيرِها، فإذا اشْتَدَّتْ ضرورتُهُ إليها ولمْ يَجِدْ منها بدًّا؛ فإنَّها تَنْفَعُهُ ولا يَتَوَلَّدُ لهُ منها ضررٌ أصلاً؛ لأنَّ قبولَ طبيعتِهِ لها وفاقتَها

= الخنزير لا يحتوي على بروتينات وشحوم فحسب، بل وعلى موادّ أخرى كثيرة بسيطة ومعقّدة. فلو سلّمنا بأنّ الشحوم والبروتينات تتحلّل كليًّا إلى وحدات أوّليّة مشتركة بين جميع الحيوانات ـ وفي القلب شيء من هٰذا التسليم وميل قويّ إلى عدم صحّته ـ؛ فلا يبعد أن تمرّ الموادّ الأخرى كما هي وتؤثّر على طباع الآكل.

ومن تأمّل في أحوال المجتمعات الغربيّة التي أشربت حبّ الخنزير؛ فسيرى طباع الخنزير وغرائزه واضحة بيّنة فيها إلى درجة يجزم العاقل فيها بصحّة انتقال صفات الغاذي إلى المغتذي. والله أعلى وأعلم.

(١) في ط: «المتغذّى به»، وله وجه، لٰكنّ السياق قبله وبعده يرجّح أنّه تحريف لما أثبتّه.

(٢) اعتاص: صعب وصار عويصًا.

وميلَها إليها مَنَعَها مِن التَّضرُّرِ بها؛ بخلافِ حالِ الاختيارِ. وأمثلةُ ذٰلكَ معلومةٌ مشهودةٌ بالحسِّ[١]. فإذا كانَ هٰذا في الأوصافِ الحسِّيَّةِ المؤثِّرةِ في محالِّها بالحسِّ؛ فما الظَّنُّ بالأوصافِ المعنويَّةِ التي تأثيرُها إنَّما يُعْلَمُ بالعقلِ أو بالشَّرعِ؟!

فلا تَظُنَّ أنَّ الضَّرورةَ أزالَتْ وصفَ المحلِّ وبَدَّلَتْهُ؛ فإنَّا لَمْ نَقُلْ هٰذا ولا يَقولُهُ عاقلٌ، وإنَّما الضَّرورةُ مَنَعَتْ تأثيرَ الوصفِ وأبْطَلَتْهُ، فهيَ مِن بابِ المانعِ الذي يَمْنَعُ تأثيرَ المقتضي لا أنَّهُ يُزيلُ قوَّتَهُ. ألا تَرى أنَّ السَّيفَ الحادَّ إذا صادَفَ حجرًا؛ فإنَّهُ يَمْنَعُ قطعَهُ وتأثيرَهُ لأنَّهُ يُزيلُ حدَّتَهُ وتهيُّؤَهُ لقطعِ القابلِ؟

ونظيرُ هٰذا الملابسُ المحرَّمةُ إذا اضْطُرَّ إليها؛ فإنَّ ضرورتَهُ تَمْنَعُ ترتُّبَ المفسدةِ التي حُرِّمَتْ لأجلِها.

فإنْ قالَ: فهٰذا يَنْتَقِضُ عليكُم بتحريمِ نكاحِ الأَمَةِ؛ فإنَّهُ حُرِّمَ للمفسدةِ التي تَتَضَمَّنُهُ مِن إرقاقِ ولدِهِ، ثُمَّ أُبيحَ عندَ الضَّرورةِ إليهِ ـ وهيَ خوفُ العَنَتِ[٢] الذي هوَ أعظمُ فسادًا مِن إرقاقِ الولدِ ـ، ومعَ هٰذا؛ فالمفسدةُ قائمةٌ بعينِها، ولٰكنْ عارَضَها مصلحةُ حفظِ الفرجِ عنِ الحرامِ، وهيَ أرجحُ عندَ الشَّارعِ مِن رقِّ الولدِ!

قيلَ: هٰذا لا يَنْتَقِضُ بما قَرَّرْناهُ؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ لمَّا حَرَّمَ نكاحَ الأَمَةِ لِما فيهِ مِن مفسدةِ رقِّ الولدِ واشتغالِ الأَمَةِ بخدمةِ سيِّدِها فلا يَحْصُلُ لزوجِها مِن السَّكنِ إليها

---

(١) يسلّم الأطبّاء المعاصرون بالدور النفسي في التأثير الدوائي: فالمريض الذي يستحسن دواء ما ويرتاح له أكثر انتفاعًا به من غيره، بل ربّما شفي بعض المرضى عند معالجتهم بحبوب وهميّة لا تحتوي أيّة مادّة علاجيّة. وكذٰلك؛ فالآكل الذي يستحسن طعامًا ما ويحبّه هو أكثر انتفاعًا به وامتصاصًا له وتمثّلًا. ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف يكون آكل الخنزير مثلًا مع محبّته واستحسانه أكثر تشرّبًا به وامتصاصًا له وبالتالي أكثر تضرّرًا بخبائثه من آخر يأكله كارهًا مرغمًا.

وأمرٌ آخر يعزى إليه عدم حصول أضرار الخنزير والميتة ونحوها من المحرّمات إذا أكلها المضطرّ، وهو أنّ هٰذه المحرّمات سموم بطيئة التأثير جدًّا، لا تظهر آثارها إلّا بعد تراكمها سنين عدّة، فمن أكل مضطرًّا يومًا أو أسبوعًا؛ فلن يجد أضرارها ولن يشعر بآثارها، ومعلوم أنّ الضرورة هنا لا تمتدّ أشهرًا بله سنين.

وأمرٌ ثالث، وهو أنّ المضطرّ لن يلبث أن يعود إلى أكل الطيّبات بعد زوال الضرورة، وهٰذه الطيّبات تنفي أثر هاتيك الخبائث وتطرده. وهٰذا أمرٌ ثابت طبًّا، بل وشرعًا أيضًا، ألا ترى كيف أفتوا بجواز أكل الجلّالة إذا علفت علفًا طبيعيًّا لمدّة كافية؟ فهٰذا كذٰلك.

(٢) العنت: المشقّة، الشدّة، الزنى.

والإيواءِ ودوامِ المعاشرةِ ما تَقَرُّ بهِ عينُهُ وتَسْكُنُ بهِ نفسُهُ؛ أباحَهُ عندَ الحاجةِ إليهِ بأنْ لا يَقْدِرَ على نكاحِ حرَّةٍ ويَخْشى على نفسِهِ مواقعةَ المحظورِ، وكانَتِ المصلحةُ لهُ في نكاحِها في هٰذهِ الحالِ أرجحَ مِن تلكَ المفاسدِ. وليسَ هٰذا حالَ ضرورةٍ يُباحُ لها المحظورُ؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ لا يَضْطَرُّ عبدَهُ إلى الجماعِ بحيثُ إنْ لمْ يُجامِعْ ماتَ؛ بخلافِ الطَّعامِ والشَّرابِ، ولهٰذا لا يُباحُ الزِّنى بضرورةٍ كما يُباحُ الخنزيرُ والميتةُ والدَّمُ. وإنَّما الشَّهوةُ وقضاءُ الوطرِ يَشُقُّ على الرَّجلِ تحمُّلُهُ وكفُّ النَّفسِ عنهُ لضعفِهِ وقلَّةِ صبرِهِ، فرَحِمَهُ أرحمُ الرَّاحمينَ وأباحَ لهُ أطيبَ النِّساءِ وأحسنَهُنَّ أربعًا مِن الحرائرِ وما شاءَ مِن ملكِ يمينِهِ مِن الإماءِ، فإنْ عَجَزَ عن ذٰلكَ أباحَ لهُ نكاحَ الأَمَةِ رحمةً بهِ وتخفيفًا عنهُ لضعفِهِ. ولهٰذا قالَ تَعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِناتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ...﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذينَ يَتَّبِعونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَميلوا مَيْلاً عَظِيمًا . يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٥-٢٨]، فأخْبَرَ سبحانَهُ أنَّهُ شَرَعَ لهُم هٰذهِ الأحكامَ تخفيفًا عنهُم لضعفِهِم وقلَّةِ صبرِهِم رحمةً بهِم وإحسانًا إليهِم. فليسَ هاهُنا ضرورةٌ تُبيحُ المحظورَ، وإنَّما هيَ مصلحةٌ أرجحُ مِن مصلحةٍ ومفسدةٌ أقلُّ مِن مفسدةٍ، فٱخْتارَ لهُم أعظمَ المصلحتينِ وإنْ فاتَتْ أدناهُما ودَفَعَ عنهُم أعظمَ المفسدتينِ وإنْ فاتَتْ أدناهُما.

وهٰذا شأْنُ الحكيمِ اللطيفِ الخبيرِ البرِّ المحسنِ. فإذا تَأَمَّلْتَ شرائعَ دينِهِ التي وَضَعَها بينَ عبادِهِ؛ وَجَدْتَها لا تَخْرُجُ عن: تحصيلِ المصالحِ الخالصةِ أو الرَّاجحةِ بحسبِ الإمكانِ، وإنْ تَزاحَمَتْ؛ قَدَّمَ أهمَّها وأجلَّها وإنْ فاتَتْ أدناها. وتعطيلِ[1] المفاسدِ الخالصةِ أو الرَّاجحةِ بحسبِ الإمكانِ، وإنْ تَزاحَمَتْ عَطَّلَ أعظمَها فسادًا بٱحتمالِ أدناها. وعلى هٰذا وَضَعَ أحكمُ الحاكمينَ شرائعَ دينِهِ دالَّةً عليهِ شاهدةً لهُ بكمالِ علمِهِ وحكمتِهِ ولطفِهِ بعبادِهِ وإحسانِهِ إليهِم.

---

(١) في ط: «وإن تزاحمت قَدَمُ أهمَّها وأجلُّها وإن فاتت أدناهما وتعطيلُ»!!

وهٰذه الجملةُ لا يَسْتَرِيبُ فيها مَن لهُ ذوقٌ مِن الشَّريعةِ وارتضاعٌ مِن ثديِها وورودٌ مِن صفوِ حوضِها، وكلَّما كانَ تضلُّعُهُ منها أعظمَ؛ كانَ شهودُهُ لمحاسنِها ومصالحِها أكملَ.

[٨ ـ فصل]

[لا يصح القياس في الأحكام الفقهية والكلام في العلل]

[إلا على طريقة مثبتي الحسن والقبح العقليين]

ولا يُمْكِنُ أحدًا مِن الفقهاءِ أنْ يَتَكَلَّمَ في مآخذِ الأحكامِ وعللِها والأوصافِ المؤثِّرَةِ فيها حقًّا وصدقًا إلاَّ على هٰذه الطَّريقةِ. وأمَّا طريقةُ إنكارِ الحكمِ والتَّعليلِ ونفي الأوصافِ المقتضيةِ لحسنِ ما أمَرَ بهِ وقبحِ ما نَهى عنهُ وتأثيرِها واقتضائِها للحبِّ والبغضِ الذي هوَ مصدرُ الأمرِ والنَّهيِ بطريقةٍ جدليَّةٍ كلاميَّةٍ؛ [فـ][1] لا يُتَصَوَّرُ بناءُ الأحكامِ عليها ولا يُمْكِنُ فقيهًا أنْ يَسْتَعْمِلَها في بابٍ واحدٍ مِن أبوابِ الفقهِ.

كيفَ؛ والقرآنُ وسنَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ مملوآنِ مِن تعليلِ الأحكامِ بالحكمِ والمصالحِ وتعليلِ الخلقِ بهما والتَّنبيهِ على وجوهِ الحكمِ التي لأجلِها شُرِعَ تلكَ الأحكامُ ولأجلِها خُلِقَ تلكَ الأعيانُ.

ولو كانَ هٰذا في القرآنِ والسُّنَّةِ في نحوِ مئةِ موضعٍ أو مئتينِ؛ لَسُقْناها، ولٰكنَّهُ يَزيدُ على ألفِ موضعٍ بطرقٍ متنوِّعةٍ: فتارةً يَذْكُرُ «لامَ التَّعليلِ» الصَّريحةَ، وتارةً يَذْكُرُ «المفعولَ لأجلِهِ» الذي هوَ المقصودُ بالفعلِ، وتارةً يَذْكُرُ «مِن أجلِ» الصَّريحةَ في التَّعليلِ، وتارةً يَذْكُرُ أداةَ «كي»، وتارةً يَذْكُرُ «الفاءَ وإنَّ»[2]، وتارةً يَذْكُرُ أداةَ «لعلَّ» المتضمِّنةَ للتَّعليلِ المجرَّدةَ عن معنى الرَّجاءِ المضافِ إلى المخلوقِ، وتارةً يُنَبِّهُ على السَّببِ يَذْكُرُهُ صريحًا، وتارةً يَذْكُرُ الأوصافَ المشتقَّةَ المناسبةَ لتلكَ الأحكامِ ثمَّ يُرَتِّبُها عليها ترتيبَ المسبَّباتِ على أسبابِها، وتارةً يُنْكِرُ على مَن زَعَمَ أنَّهُ خَلَقَ خلقَهُ وشَرَعَ دينَهُ

---

(١) زيادة لا بدّ منها يقتضيها السياق.

(٢) «الفاء وإن»: إن أرادهما مجتمعتين؛ فهي «فإنّ»، وإن أراد كلّ واحدة منهما على حدة فالفاء هي السببيّة و«إنّ» هي التعليليّة التي بمعنى «لأنّ». والكلام صحيح على الوجهين، والأوّل أولى.

عبثًا وسدًى، وتارةً يُنْكِرُ على مَن ظَنَّ أنَّهُ يُسَوِّي بينَ المختلفينِ اللذينِ يقْتَضِيانِ أثرينِ مختلفينِ، وتارةً يُخْبِرُ بكمالِ حكمتِهِ وعلمِهِ المقتضي أنَّهُ لا يُفَرِّقُ بينَ متماثلينِ ولا يُسَوِّي بينَ مختلفينِ وأنَّهُ يُنَزِّلُ الأشياءَ منازِلَها ويُرَتِّبُها مراتبَها، وتارةً يَسْتَدْعي مِن عبادِهِ التَّفكُّرَ والتَّأمُّلَ والتَّدبُّرَ والتَّعقُّلَ لحسنِ ما بَعَثَ بِهِ رسولَهُ وشَرَعَهُ لعبادِهِ كما يَسْتَدْعي منهُمُ التَّفكُّرَ والنَّظرَ في مخلوقاتِهِ وحكمِها وما فيها مِن المنافعِ والمصالحِ، وتارةً يَذْكُرُ منافعَ مخلوقاتِهِ منبِّهًا بها على كمالِ حكمتِهِ وعلمِهِ كما يَذْكُرُ مصالحَ[1] أمرِهِ منبِّهًا بها على ذٰلكَ وأنَّهُ اللهُ الذي لا إِلٰهَ إلَّا هوَ، وتارةً يَخْتِمُ آياتِ خلقِهِ وأمرِهِ بأسماءٍ وصفاتٍ تُناسِبُها وتَقْتَضيها.

والقرآنُ مملوءٌ مِن أوَّلِهِ إلى آخرِهِ بذكرِ حكمِ الخلقِ والأمرِ ومصالحِهِما ومنافعِهِما وما تَضَمَّناهُ مِن الآياتِ الشَّاهدةِ لهُ الدَّالَّةِ عليهِ، ولا يُمْكِنُ مَن لهُ أدنى ٱطِّلاعٍ على معاني القرآنِ إنكارُ ذٰلكَ.

وهلْ جَعَلَ اللهُ سبحانَهُ في فطرِ العبادِ ٱستواءَ العدلِ والظُّلمِ والصِّدقِ والكذبِ والفجورِ والعفَّةِ والإحسانِ والإساءةِ والصَّبرِ والعفوِ والاحتمالِ والطَّيشِ والانتقامِ والحدَّةِ والكرمِ والسَّماحةِ والبذلِ والبخلِ والشُّحِّ والإمساكِ؟! بل الفطرةُ على الفرقانِ بينَ ذٰلكَ كالفطرةِ على قبولِ الأغذيةِ النَّافعةِ وتركِ ما لا يَنْفَعُ ولا يُغَذِّي، ولا فرقَ في الفطرةِ بينَهُما أصلاً.

[٩- فصل]

[لا يجوز على أحكم الحاكمين]

[أن يأمر بما نهى عنه أو ينهى عما أمر به]

وإذا تأمَّلْتَ الشَّريعةَ التي بَعَثَ اللهُ بها رسولَهُ حقَّ التَّأمُّلِ؛ وَجَدْتَها مِن أوَّلِها إلى آخرِها شاهدةً بذٰلكَ ناطقةً بهِ، ووَجَدْتَ الحكمةَ والمصلحةَ والعدلَ والرَّحمةَ باديًا على

---

(١) في ط: «وعلمه كأن يذكر مصالح»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه إن شاء الله.

صفحاتِها مناديًا عليها يَدْعو العقولَ والألبابَ إليها، وأنَّهُ لا يَجوزُ على أحكم الحاكمينَ ولا يَليقُ بهِ أنْ يَشْرَعَ لعبادِهِ ما يُضادُّها، وذٰلكَ لأنَّ الذي شَرَعَها عَلِمَ ما في خلافِها مِن المفاسدِ والقبائحِ والظُّلمِ والسَّفَهِ الذي يَتَعالى عن إرادتِهِ وشرعِهِ وأنَّهُ لا يَصْلُحُ العبادُ إلاَّ عليها ولا سعادةَ لهُم بدونِها ٱلبتَّةَ.

فتَأمَّلْ محاسنَ الوضوءِ بينَ يدي الصَّلاةِ وما تَضَمَّنَهُ مِن النَّظافةِ والنَّزاهةِ ومجانبةِ الأوساخِ والمستقذراتِ.

وتَأمَّلْ كيفَ وُضِعَ على الأعضاءِ الأربعةِ التي هيَ آلةُ البطشِ والمشيِ ومجمعُ الحواسِّ[1] التي تعلَّقُ أكثرِ الذُّنوبِ والخطايا بها. ولهٰذا خَصَّها النَّبيُّ ﷺ بالذِّكرِ في قولِهِ: «إنَّ اللهَ كَتَبَ على ابنِ آدَمَ حظَّهُ مِن الزِّنى أدْرَكَ ذٰلكَ لا محالةَ: فالعينُ تَزْني وزِناها النَّظرُ، والأُذنُ تَزْني وزِناها الاستماعُ، واليدُ تَزْني وزِناها البطشُ، والرِّجلُ تَزْني وزِناها المشيُ، والقلبُ يَتَمَنَّى ويَشْتَهي، والفرجُ يُصَدِّقُ ذٰلكَ ويُكَذِّبُهُ»[2]. فلمَّا كانَتْ هٰذهِ الأعضاءُ هيَ أكثرَ الأعضاءِ مباشرةً للمعاصي؛ كانَ وسخُ الذُّنوبِ ألصقَ بها وأعلقَ مِن غيرِها، فشَرَعَ أحكمُ الحاكمينَ الوضوءَ عليها لِيَتَضَمَّنَ نظافتَها وطهارتَها مِن الأوساخِ الحسِّيَّةِ وأوساخِ الذُّنوبِ والمعاصي.

وقد أشارَ النَّبيُّ ﷺ إلى هٰذا المعنى بقولِهِ: «إذا تَوَضَّأَ العبدُ المسلمُ؛ خَرَجَتْ خطاياهُ معَ الماءِ (أو: معَ آخرِ قطرِ الماءِ)»[3]. «حتَّى تَخْرُجَ مِن تحتِ أظفارِهِ»[4].

وقالَ أبو أُمَامَةَ: يا رسولَ اللهِ! كيفَ الوضوءُ؟ فقالَ: «أمَّا [الوضوءُ][5]؛ فإنَّكَ إذا تَوَضَّأْتَ فغَسَلْتَ كفَّيكَ فأنْقَيْتَهُما؛ خَرَجَتْ خطاياكَ مِن بينِ أظفارِكَ وأناملِكَ، فإذا

---

(١) مجمع الحواسّ: الوجه والرأس. والأعضاء الأربعة هي: اليدان، والقدمان، والوجه، والرأس.

(٢) رواه: البخاري (٧٩ـ الاستئذان، ١٢ـ زنى الجوارح دون الفرج، ١١/٢٦/٦٣٤٣)، ومسلم (٤٦ـ القدر، ٥ـ قدّر على ابن آدم حظّه من الزنى، ٤/٢٠٤٦/٢٦٥٧)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) قطعة من حديث رواه مسلم (٢ـ الطهارة، ١١ـ خروج الخطايا مع ماء الوضوء، ١/٢١٥/٢٤٤)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) قطعة من حديث رواه مسلم (الموضع السابق، ١/٢١٦/٢٤٥)؛ من حديث عثمان.

(٥) زيادة لا بدّ منها مستفادة من «سنن النسائي».

مَضْمَضْتَ وٱسْتَنْشَقْتَ بمَنْخِرَيْكَ وغَسَلْتَ وجهَكَ ويديكَ إلى المِرْفَقَيْنِ ومَسَحْتَ برأسِكَ وغَسَلْتَ رجليكَ إلى الكعبينِ؛ ٱغْتَسَلْتَ مِن عامَّةِ خطاياكَ، فإنْ أنتَ وَضَعْتَ وجهَكَ للهِ؛ خَرَجْتَ مِن خطاياكَ كيومَ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ». رَواهُ النَّسائيُّ[1].

والأحاديثُ في هٰذا البابِ كثيرةٌ.

فٱقْتَضَتْ حكمةُ أحكمِ الحاكمينَ ورحمتُهُ أنْ شَرَعَ الوضوءَ على هٰذهِ الأعضاءِ التي هيَ أكثرُ الأعضاءِ مباشرةً للمعاصي، وهيَ الأعضاءُ الظَّاهرةُ البارزةُ للغبارِ والوسخِ أيضًا، وهيَ أسهلُ الأعضاءِ غسلاً فلا يَشُقُّ تكرارُ غسلِها في اليومِ والليلةِ، فكانَتِ الحكمةُ الباهرةُ في شرعِ الوضوءِ عليها دونَ سائرِ الأعضاءِ.

وهٰذا يَدُلُّ على أنَّ المضمضةَ مِن آكدِ أعضاءِ الوضوءِ، ولهٰذا كانَ النَّبيُّ ﷺ يُداوِمُ عليها، ولمْ يُنْقَلْ عنهُ بإسنادٍ قطُّ أنَّهُ أخَلَّ بها يومًا واحدًا، وهٰذا يَدُلُّ على أنَّها فرضٌ لا يَصِحُّ الوضوءُ بدونِها كما هوَ الصَّحيحُ مِن مذهبِ أحْمَدَ وغيرِهِ مِن السَّلفِ[2].

فمَن سَوَّى بينَ هٰذهِ الأعضاءِ وغيرِها، وجَعَلَ تعيينَها بمجرَّدِ الأمرِ الخالي عنِ الحكمةِ والمصلحةِ؛ فقد ذَهَبَ مذهبًا فاسدًا! فكيفَ إذا زَعَمَ معَ ذٰلكَ أنَّهُ لا فرقَ في نفسِ الأمرِ بينَ التَّعبُّدِ بذٰلكَ وبينَ أنْ يُتَعَبَّدَ بالنَّجاسةِ وأنواعِ الأقذارِ والأوساخِ والأنتانِ والرَّائحةِ الكريهةِ ويُجْعَلَ ذٰلكَ مكانَ الطَّهارةِ والوضوءِ، وأنَّ الأمرينِ سواءٌ، وإنَّما يَحْكُمُ بمجرَّدِ المشيئةِ بهٰذا الأمرِ دونَ ضدِّهِ، ولا فرقَ بينَهُما في نفسِ الأمرِ؟! وهٰذا قولٌ تصوُّرُهُ كافٍ في الجزمِ ببطلانِهِ.

وجميعُ مسائلِ الشَّريعةِ كذٰلكَ آياتٌ بيِّناتٌ ودلالاتٌ واضحاتٌ وشواهدُ ناطقاتٌ بأنَّ الذي شَرَعَها لهُ الحكمةُ البالغةُ والعلمُ المحيطُ والرَّحمةُ والعنايةُ بعبادِهِ وإرادةُ الصَّلاحِ لهُم وسوقُهُم بها إلى كمالِهِم وعواقبِهِم الحميدةِ.

---

(١) (١ـ الطهارة، ١٠٨ـ ثواب من توضّأ كما أمر، ١/ ٩١/ ١٤٧)؛ من حديث أبي أمامة عن عمرو بن عبسة. وهو أيضًا عند مسلم (٦ـ المسافرين، ٥٢ـ إسلام عمرو بن عبسة، ١/ ٥٦٩/ ٨٣٢) بنحوه. لٰكن السائل عندهما للنبيّ ﷺ هو عمرو بن عبسة لا أبو أمامة.

(٢) ومنهم ابن أبي ليلى وحمّاد بن سليمان وأبو ثور وأبو عبيد وإسحاق وأبو الحسين بن القطّان وابن المنذر وابن سيّد الناس وابن القيّم والألباني، وأدلّة وجوبها صحيحة، والله أعلى وأعلم.

وقد نبَّهَ سبحانَهُ عبادَهُ على هٰذا فقالَ: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إذا قُمْتُمْ إلى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إلى المَرافِقِ وَامْسَحوا بِرُؤوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إلى الكَعْبَيْنِ...﴾ إلى قولِهِ: ﴿ما يُريدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلٰكِنْ يُريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ﴾ [المائدة: ٦]. فأخْبَرَ سبحانَهُ أنَّهُ لمْ يأْمُرْهُم بذٰلكَ حرجًا عليهِم وتضييقًا ومشقَّةً، ولٰكنْ إرادةَ تطهيرِهِم وإتمامِ نعمتِهِ عليهِم لِيَشْكُروهُ على ذٰلكَ، فلهُ الحمدُ كما هوَ أهلُهُ وكما يَنْبَغي لكرمِ وجهِهِ وعزِّ جلالِهِ.

[١٠- فصل]

[في رد دليل الفخر الرازي في نفي التحسين والتقبيح العقليين]

فإنْ قيلَ: فما جوابُكُم عنِ الأدلَّةِ التي ذَكَرَها نفاةُ التَّحسينِ والتَّقبيحِ على كثرتِها؟

قيلَ: قد كَفَوْنا بحمدِ اللهِ مؤنةَ إبطالِها بقدحِهِم فيها، وقد أبْطَلَها كلَّها واعْتَرَضَ عليها فضلاءُ أتباعِها وأصحابِها أبو عَبْدِاللهِ بنُ الخَطيبِ[1] وأبو الحُسَيْنِ الآمِديُّ[2]، واعْتَمَدَ كلٌّ منهُم على مسلكٍ مِن أفسدِ المسالكِ، واعْتَمَدَ القاضي[3] على مسلكٍ مِن جنسِهِما في المفاسدِ. فاعْتَمَدَ هٰؤلاءِ الفضلاءُ على ثلاثةِ[4] مسالكَ فاسدةٍ وتَعَرَّضوا لإبطالِ ما سِواها والقدحِ فيهِ، ونحنُ نَذْكُرُ مسالكَهُمُ التي اعْتَمَدوا عليها ونُبَيِّنُ فسادَها وبطلانَها:

● فأمَّا ابنُ الخَطيبِ؛ فاعْتَمَدَ على المسلكِ المشهورِ وهوَ: أنَّ فعلَ العبدِ غيرُ اختياريٍّ، وما ليسَ بفعلٍ اختياريٍّ لا يكونُ حسنًا ولا قبيحًا عقلًا بالاتِّفاقِ؛ لأنَّ القائلينَ

---

(١) هو الفخر الرازي الذي تقدّمت ترجمته (١/ ١١٦).

(٢) العلاّمة، المصنّف، فارس الكلام، سيف الدين، عليّ بن أبي عليّ بن محمّد، الحنبلي ثمّ الشافعيّ، اشتغل بالفلسفة والمنطق فبرع فيهما لٰكنّهما أورثاه ضعفًا في علوم الشريعة الأخرى ورقّة في الدين. توفّي سنة ٦٣١هـ. ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٣/ ٢٩٣)، و«أعلام النبلاء» (٢٢/ ٣٦٤).

(٣) يريد الإمام، العلاّمة، أوحد المتكلّمين، مقدّم الأصوليّين، أبا بكر، محمّد بن الطيّب، ابن الباقلاّني. كان على طريقة الأشعريّ وربّما خالفه في بعض الأشياء، توفّي سنة ٤٠٣هـ. ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٥/ ٣٧٩)، و«أعلام النبلاء» (١٧/ ١٩٠).

(٤) في ط: «ثلاث»! لٰكنّها صوّبت في الحاشية.

بالحسنِ والقبحِ العقليَّينِ يَعْتَرِفونَ بأنَّهُ إنَّما يَكونُ كذٰلكَ إذا كانَ ٱختياريًّا، وقد ثَبَتَ أنَّهُ ٱضطراريٌّ، فلا يُوصَفُ بحسنٍ ولا قبحٍ على المذهبينِ[١].

أمَّا بيانُ كونِهِ غيرَ ٱختياريٍّ؛ فلأنَّهُ: إنْ لمْ يَتمَكَّنِ العبدُ مِن فعلِهِ وتركِهِ؛ فواضحٌ. وإنْ كانَ متمكِّنًا مِن فعلِهِ وتركِهِ؛ كانَ جائزًا: فإمَّا أنْ يَفْتَقِرَ ترجيحُ الفاعليَّةِ على التَّاركيَّةِ إلى مرجِّحٍ، أو لا. فإنْ لمْ يَفْتَقِرْ؛ كانَ ٱتِّفاقيًّا، والاتِّفاقُ لا يُوصَفُ بالحسنِ والقبحِ. وإنِ ٱفْتَقَرَ إلى مرجِّحٍ؛ فهوَ معَ مرجِّحِهِ: إمَّا أنْ يَكونَ لازمًا، وإمَّا جائزًا. فإنْ كانَ لازمًا؛ فهوَ ٱضطراريٌّ. وإنْ كانَ جائزًا؛ عادَ التَّقسيمُ. فإمَّا أنْ يَنْتَهِيَ إلى ما يَكونُ لازمًا فيَكونُ ضروريًّا، أو لا فيَنْتَهِيَ إليهِ[٢] فيَتَسَلْسَلُ وهوَ محالٌ، أو يَكونَ ٱتِّفاقيًّا فلا يُوصَفُ بحسنٍ ولا قبحٍ[٣]!

● فهذا الدَّليلُ هوَ الذي يَصولُ بهِ ويَجولُ ويُثْبِتُ بهِ الجبرَ[٤] ويَرُدُّ بهِ على القَدَريَّةِ ويَنْفي بهِ التَّحسينَ والتَّقبيحَ، وهوَ فاسدٌ مِن وجوهٍ متعدِّدةٍ:

أحدُها: أنَّهُ يَتَضَمَّنُ التَّسويةَ بينَ الحركةِ الضَّروريَّةِ والاختياريَّةِ وعدمَ التَّفريقِ بينَهُما، وهوَ باطلٌ بالضَّرورةِ والحسِّ والشَّرعِ! فالاستدلالُ على أنَّ فعلَ العبدِ غيرُ ٱختياريٍّ ٱستدلالٌ على ما هوَ معلومُ البطلانِ ضرورةً وحسًّا وشرعًا، فهوَ بمنزلةِ الاستدلالِ على الجمعِ بينَ النَّقيضينِ وعلى وجودِ المحالِ[٥].

الوجهُ الثَّاني: لو صَحَّ الدَّليلُ المذكورُ؛ لَزِمَ منهُ أنْ يَكونَ الرَّبُّ تَعالى غيرَ مختارٍ في فعلِهِ؛ لأنَّ التَّقسيمَ المذكورَ والتَّرديدَ جارٍ فيهِ بعينِهِ؛ بأنْ يُقالَ: فعلُهُ تَعالى إمَّا أنْ يَكونَ لازمًا أو جائزًا: فإنْ كانَ لازمًا؛ كانَ ضروريًّا. وإنْ كانَ جائزًا: فإنِ ٱحْتاجَ إلى

---

(١) يعني: على مذهب من يثبت الحسن والقبح العقليّ وعلى مذهب من ينكره.

(٢) يعني: أو لا ينتهي إلى ما يكون لازمًا بل إلى ما يكون جائزًا، ويعود التقسيم من جديد.

(٣) لاحظ أنّ الفخر الرازي هٰذا عالم كبير وأصوليّ بارع وإمام باهر الذكاء يعظّمه الأشاعرة والشافعيّة كثيرًا ويصدرون عن أقواله! فٱنظر إلام ٱنتهى به المنطق والفلسفة، ٱنتهى به إلى أن يثبت أنّ حركات لسان العبد بالتسبيح أو الجحود كدقّات قلبه سواء بسواء لا فرق بينهما أبدًا! كلام يأباه عقل طفل في الأوّل الابتدائيّ! فقاتل الله الفلسفة والمنطق كم أفسدت على المسلمين من علوم وعقول!

(٤) يعني: أنّ العبد مجبور على أفعاله غير مختار.

(٥) في ط: «وجود المحال إلّا به»! ولا معنى لهٰذه الزيادة، والله أعلم من أين جاءت.

مرجِّح؛ عادَ التَّقسيمُ، وإلاَّ؛ فهوَ ٱتِّفاقيٌّ! ويَكْفي في بطلانِ الدَّليلِ المذكورِ أنْ يَسْتَلْزِمَ كونَ الرَّبِّ غيرَ مختارٍ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ الدَّليلَ المذكورَ لو صَحَّ؛ لَزِمَ بطلانُ الحسنِ والقبحِ الشَّرعيَّينِ؛ لأنَّ فعلَ العبدِ ضروريٌّ أوِ ٱتِّفاقيٌّ، وما كانَ كذٰلكَ؛ فإنَّ الشَّرعَ لا يُحَسِّنُهُ ولا يُقَبِّحُهُ؛ لأنَّهُ لا يَرِدُ بالتَّكليفِ بهِ، فضلاً عن أنْ يَجْعَلَهُ متعلَّقَ الحسنِ والقبحِ.

الوجهُ الرَّابعُ: قولُهُ: «إمَّا أنْ يَكونَ الفعلُ لازمًا أو جائزًا». قُلْنا: هوَ لازمٌ عندَ مرجِّحِهِ التَّامِّ. وكانَ ماذا قولُكَ: «يَكونُ ضروريًّا»؟ أتَعْني بهِ أنَّهُ لا بدَّ منهُ، أو تَعْني بهِ أنَّهُ لا يَكونُ ٱختياريًّا؟ فإنْ عَنَيْتَ الأوَّلَ؛ مَنَعْنا ٱنتفاءَ اللازمِ[1]؛ فإنَّهُ لا يَلْزَمُ منهُ أنْ يَكونَ غيرَ مختارٍ، ويَكونُ حاصلُ الدَّليلِ: إنْ كانَ لا بدَّ منهُ؛ فلا بدَّ منهُ! ولا يَلْزَمُ مِن ذٰلكَ أنْ يَكونَ غيرَ ٱختياريٍّ. وإنْ عَنَيْتَ الثَّانيَ ـ وهوَ أنَّهُ لا يَكونُ ٱختياريًّا ـ؛ مَنَعْنا الملازمةَ؛ إذْ لا يَلْزَمُ مِن كونِهِ لا بدَّ منهُ أنْ يَكونَ غيرَ ٱختياريٍّ. وأنتَ لمْ تَذْكُرْ على ذٰلكَ دليلاً بل هيَ دعوى معلومةُ البطلانِ بالضَّرورةِ.

الوجهُ الخامسُ: أنْ يُقالَ: هوَ جائزٌ. قولُكَ: «إمَّا أنْ يَتَوَقَّفَ ترجُّحُ الفاعليَّةِ على التَّاركيَّةِ على مرجِّحٍ أو لا». قُلْنا: يَتَوَقَّفُ على مرجِّحٍ. قولُكَ عندَ المرجِّحِ: «إمَّا أنْ يَجبَ أو يَبْقى جائزًا». قُلْنا: هوَ واجبٌ بالمرجِّحِ جائزٌ بالنَّظرِ إلى ذاتِهِ، والمرجِّحُ هوَ الاختيارُ، وما وَجَبَ بالاختيارِ لا يُنافي أنْ يَكونَ ٱختياريًّا، فلزومُ الفعلِ بالاختيارِ لا يُنافي كونَهُ ٱختياريًّا.

الوجهُ السَّادسُ: أنَّ هٰذا الدَّليلَ الذي ذَكَرْتَهُ بعينِهِ حجَّةٌ على أنَّهُ ٱختياريٌّ؛ لأنَّهُ وَجَبَ بالاختيارِ، وما وَجَبَ بالاختيارِ لا يَكونُ إلاَّ ٱختياريًّا، وإلاَّ؛ كانَ ٱختياريًّا غيرَ ٱختياريٍّ، وهوَ جمعٌ بينَ النَّقيضينِ. والدَّليلُ المذكورُ حجَّةٌ على فسادِ قولِكَ وأنَّ الفعلَ الواجبَ بالاختيارِ ٱختياريٌّ.

الوجهُ السَّابعُ: أنَّ صدورَ الفعلِ عنِ المختارِ بشرطِ تعلُّقِ ٱختيارِهِ بهِ لا يُنافي كونَهُ

---

(١) يعني: أثبتنا اللازم، ووافقناك على القول به؛ فإنّه لا يضرّنا.

مقدورًا لهُ، وإلاَّ؛ كانَتْ إرادتُهُ وقدرتُهُ غيرَ مشروطةٍ في الفعلِ، وهوَ محالٌ، وإذا لَمْ يُنافِ ذٰلكَ كونَهُ مقدورًا؛ فهوَ ٱختياريٌّ قطعًا.

الوجهُ الثَّامنُ: قولُكَ: «إنْ لَمْ يَتَوَقَّفْ على مرجِّحٍ؛ فهوَ ٱتِّفاقيٌّ»: إنْ عَنَيْتَ بالمرجِّحِ ما يُخْرِجُ الفعلَ عن أنْ يكونَ ٱختياريًّا ويَجْعَلُهُ ٱضطراريًّا؛ فلا يَلْزَمُ مِن نفيِ هٰذا المرجِّحِ كونُهُ ٱتِّفاقيًّا؛ إذْ هٰذا مرجِّحٌ خاصٌّ، ولا يَلْزَمُ مِن نفيِ المرجِّحِ المعيَّنِ نفيٌ لمطلقِ المرجِّحِ، فما المانعُ مِن أنْ يَتَوَقَّفَ على مرجِّحٍ لا يَجْعَلُهُ[1] ٱضطراريًّا غيرَ ٱختياريٍّ؟! وإنْ عَنَيْتَ بالمرجِّحِ ما هوَ أعمُّ مِن ذٰلكَ؛ لَمْ يَلْزَمْ مِن توقُّفِهِ على المرجِّحِ الأعمِّ أنْ يكونَ غيرَ ٱختياريٍّ؛ لأنَّ المرجِّحَ هوَ الاختيارُ، وما تَرَجَّحَ بالاختيارِ؛ لَمْ يَمْتَنِعْ كونُهُ ٱختياريًّا.

الوجهُ التَّاسعُ: قولُكَ: «وإنْ لَمْ يَتَوَقَّفْ على مرجِّحٍ فهوَ ٱتِّفاقيٌّ»: ما تَعْني بالاتِّفاقيِّ؟ أتَعْني بهِ ما لا فاعلَ لهُ، أو ما فاعلُهُ مرجِّحٌ بٱختيارِهِ، أو معنًى ثالثًا؟ فإنْ عَنَيْتَ الأوَّلَ؛ لَمْ يَلْزَمْ مِن عدمِ المرجِّحِ الموجِبِ كونَهُ ٱضطراريًّا أنْ يكونَ الفعلُ صادرًا مِن غيرِ فاعلٍ؛ وإنْ عَنَيْتَ الثَّانيَ؛ لَمْ يَلْزَمْ منهُ كونُهُ ٱضطراريًّا، وإنْ عَنَيْتَ معنًى ثالثًا؛ فأبْدِهِ!

الوجهُ العاشرُ: أنَّ غايةَ هٰذا الدَّليلِ أنْ يكونَ الفعلُ لازمًا عندَ وجودِ سببِهِ، وأنتَ لمْ تُقِمْ دليلاً على أنَّ ما كانَ كذٰلكَ يَمْتَنِعُ تحسينُهُ وتقبيحُهُ سوى الدَّعوى المجرَّدةِ، فأينَ الدَّليلُ على أنَّ ما كانَ لازمًا بهٰذا الاعتبارِ يَمْتَنِعُ تحسينُهُ وتقبيحُهُ؟ ودليلُكَ إنَّما يَدُلُّ على أنَّ ما كانَ غيرَ ٱختياريٍّ مِن الأفعالِ ٱمْتَنَعَ تحسينُهُ وتقبيحُهُ. فمحلُّ النِّزاعِ لَمْ يَتَناوَلْهُ الدَّليلُ المذكورُ، وما تَناوَلَهُ وصَحَّتْ مقدِّماتُهُ فهوَ غيرُ متنازَعٍ فيهِ، فدليلُكَ لَمْ يُفِدْ شيئًا.

الوجهُ الحادي عشرَ: أنَّ قولَكَ «يَلْزَمُ أنْ لا يُوصَفَ بحسنٍ ولا قبحٍ على المذهبينِ» باطلٌ؛ فإنَّ منازعيكَ إنَّما يَمْنَعونَ مِن وصفِ الفعلِ بالحسنِ والقبحِ إذا لَمْ يَكُنْ متعلَّقَ القدرةِ والاختيارِ، أمَّا ما وَجَبَ بالقدرةِ والاختيارِ؛ فإنَّهُم لا يُساعِدونَكَ على

---

(١) في ط: «مرجّح ولا يجعله»! والصواب حذف الواو.

ٱمتناعِ وصفِهِ بالحسنِ والقبحِ أبدًا.

الوجهُ الثَّاني عشرَ: أنَّ هٰذا الدَّليلَ لو صَحَّ؛ لَزِمَ بطلانُ الشَّرائعِ والتَّكاليفِ جملةً؛ لأنَّ التَّكليفَ إنَّما يكونُ بالأفعالِ الاختياريَّةِ؛ إذْ يَسْتَحيلُ أنْ يُكَلَّفَ المرتعشُ بحركةِ يدِهِ وأنْ يُكَلَّفَ المحمومُ بتسخينِ جلدِهِ والمقرورُ بقُرِّهِ[1]! وإذا كانَتِ الأفعالُ ٱضطراريَّةً غيرَ ٱختياريَّةٍ؛ لَمْ يُتَصَوَّرْ تعلُّقُ التَّكليفِ والأمرِ والنَّهيِ بها. فلو صَحَّ الدَّليلُ المذكورُ؛ لَبَطَلَتِ الشَّرائعُ جملةً.

فهٰذا هوَ الدَّليلُ الذي ٱعْتَمَدَهُ ابنُ الخَطيبِ وأَبْطَلَ أدلَّةَ غيرِهِ.

[١١ـ فصل]

[في رد دليل الآمدي في نفي التحسين والتقبيح العقليين]

● وأمَّا الدَّليلُ الذي ٱعْتَمَدَ عليهِ الآمِدِيُّ؛ فهوَ أنَّ حسنَ الفعلِ لو كانَ أمرًا زائدًا على ذاتِهِ؛ لَزِمَ قيامُ المعنى بالمعنى، وهوَ محالٌ؛ لأنَّ العرضَ لا يقومُ بالعرضِ!

● وهٰذا في البطلانِ مِن جنسِ ما قبلَهُ؛ فإنَّهُ منقوضٌ بما لا يُحْصى مِن المعاني التي توصَفُ بالمعاني كما يُقالُ: علمٌ ضروريٌّ، وعلمٌ كسبيٌّ، وإرادةٌ جازمةٌ، وحركةٌ سريعةٌ، وحركةٌ بطيئةٌ، وحركةٌ مستديرةٌ، وحركةٌ مستقيمةٌ، ومزاجٌ معتدلٌ، ومزاجٌ منحرفٌ، وسوادٌ برَّاقٌ، وحمرةٌ قانيةٌ، وخضرةٌ ناصعةٌ، ولونٌ مشرقٌ، وصوتٌ شجٍ[2] وحسنٌ ورخيمٌ[3] ورفيعٌ ودقيقٌ وغليظٌ... وأضعافُ أضعافِ ذٰلكَ ممَّا لا يُحْصى ممَّا تُوصَفُ المعاني والأعراضُ فيهِ بمعانٍ وأعراضٍ وجوديَّةٍ، ومنِ ٱدَّعى أنَّها عدميَّةٌ فهوَ مكابرٌ!

وهلْ شَكَّ أحدٌ في وصفِ المعاني بالشِّدَّةِ والضَّعفِ، فيُقالُ: همٌّ شديدٌ، وحبٌّ

---

(١) والمقرور بقرّه: والبردان ببرده.

(٢) الصوت الشجي بتشديد الياء وتخفيفها: المطرب الذي يهيّج الأحزان.

(٣) في ط: «شج وحسّ رخيم»! وهٰذا تحريف بيّن ولا يوصف الحسّ بالرخامة والدقّة والغلظة، ولٰكنّ هٰذه كلّها صفات الصوت، وسيأتي في الصفحة التالية على الجادّة.

شديدٌ، وحزنٌ شديدٌ، وألمٌ شديدٌ، ومقابلُها. فوصفُ المعاني بصفاتِها أمرٌ معلومٌ عندَ كلِّ العقلاءِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ قولَهُ «يَلْزَمُ منهُ قيامُ المعنى بالمعنى» غيرُ صحيحٍ، بلِ المعنى يُوصَفُ بالمعنى ويَقومُ بهِ تبعًا لقيامِهِ بالجوهرِ الذي هوَ المحلُّ، فيَكونُ المعنيانِ جميعًا قائمينِ بالمحلِّ وأحدُهُما تابعٌ للآخرِ وكلاهُما تبعٌ للمحلِّ، فما قامَ العرضُ بالعرضِ وإنَّما قامَ العرضانِ جميعًا بالجوهرِ، فالحركةُ والسُّرعةُ قائمتانِ بالمتحرِّكِ والصَّوتُ وشَجْوُهُ[1] وغلظُهُ ودقَّتُهُ وحسنُهُ وقبحُهُ قائمةٌ بالحاملِ لهُ، والمحالُ إنَّما هوَ قيامُ المعنى بالمعنى مِن غيرِ أنْ يَكونَ لهُما حاملٌ، فأمَّا إذا كانَ لهُما حاملٌ وأحدُهُما صفةٌ للآخرِ وكلاهُما قامَ بالمحلِّ الحاملِ؛ فليسَ بمحالٍ. وهٰذا في غايةِ الوضوحِ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ حسنَ الفعلِ وقبحَهُ شرعًا أمرٌ زائدٌ عليهِ؛ لأنَّ المفهومَ منهُ زائدٌ على المفهومِ مِن نفسِ الفعلِ. وهُما وجوديَّانِ لا عدميَّانِ؛ لأنَّ نقيضَهُما يُحْمَلُ على العدمِ فهوَ عدميٌّ فهُما إذًا وجوديَّانِ؛ لأنَّ كونَ أحدِ النَّقيضينِ عدميًّا يَسْتَلْزِمُ كونَ نقيضِهِ وجوديًّا.

فلو صَحَّ دليلُكُمُ المذكورُ؛ لَزِمَ أنْ لا يُوصَفَ بالحسنِ والقبحِ شرعًا، ولا خلاصَ عن هٰذا إلَّا بإلزامِ كونِ الحسنِ والقبحِ الشَّرعيَّينِ عدميَّينِ، ولا سبيلَ إليهِ؛ لأنَّ الثَّوابَ والعقابَ والمدحَ والذَّمَّ مرتَّبٌ عليهِما ترتُّبَ الأثرِ على مؤثِّرِهِ والمقتضَى على مقتضيهِ، وما كانَ كذٰلكَ لمْ يَكُنْ عدمًا محضًا؛ إذِ العدمُ المحضُ لا يَتَرَتَّبُ عليهِ ثوابٌ ولا عقابٌ ولا مدحٌ ولا ذمٌّ.

وأيضًا؛ فإنَّهُ لا معنى لكونِ الفعلِ حسنًا وقبيحًا شرعًا إلَّا أنَّهُ يَشْتَمِلُ على صفةٍ لأجلِها كانَ حسنًا محبوبًا للرَّبِّ مرضيًّا لهُ متعلَّقًا للمدحِ والثَّوابِ وكونُ القبيحِ مشتملاً على صفةٍ لأجلِها كانَ قبيحًا مبغوضًا للرَّبِّ متعلَّقًا للذَّمِّ والعقابِ، وهٰذهِ أُمورٌ وجوديَّةٌ ثابتةٌ لهُ في نفسِهِ. ومحبَّةُ الرَّبِّ لهُ وأمرُهُ بهِ كَساهُ أمرًا وجوديًّا زادَهُ حسنًا إلى حسنِهِ

---

(١) في ط: «والصوت وشجاه»! والشجا بالألف هو شوك الحلق! وقد جاء آنفًا على الجادّة.

وبغضُهُ لهُ ونهيُهُ عنهُ كَساهُ أمرًا وجوديًّا زادَهُ قبحًا إلى قبحِهِ. فجعلُ ذٰلكَ كلِّهِ عدمًا محضًا ونفيًا صرفًا لا يَرْجِعُ إلى أمرٍ ثبوتيٍّ في غايةِ البطلانِ والإحالةِ.

فظَهَرَ أنَّ هٰذا الدَّليلَ في غايةِ البطلانِ. ولمْ نَتَعَرَّضْ للوجوهِ التي قَدَحوا بها فيهِ؛ فإنَّها معَ طولِها غيرُ شافيةٍ ولا مقنعةٍ، فمَنِ اكْتَفى بها؛ فهيَ موجودةٌ في كتبِهِم.

[١٢ـ فصل]

[في رد دليل ابن الباقلاني وابن الحاجب والجويني]

[في نفي التحسين والتقبيح العقليين]

● وأمَّا المسلكُ الذي اعْتَمَدَهُ كثيرٌ منهُم كالقاضي وأبي المَعالي[1] وأبي عمرٍو ابنِ الحاجِبِ[2] مِن المتأخِّرينَ؛ فهوَ:

أنَّ الحسنَ والقبحَ لو كانا ذاتيَّينِ[3]؛ لَما اخْتَلَفا باختلافِ الأحوالِ والمتعلَّقاتِ والأزمانِ ولاستحالَ ورودُ النَّسخِ على الفعلِ؛ لأنَّ ما ثَبَتَ للذَّاتِ فهوَ باقٍ ببقائِها لا يَزولُ وهيَ باقيةٌ. ومعلومٌ أنَّ الكذبَ يكونُ حسنًا إذا تَضَمَّنَ عصمةَ دمِ نبيٍّ أو مسلمٍ، ولو كانَ قبحُهُ ذاتيًّا لهُ؛ لَكانَ قبيحًا أينَ وُجِدَ. وكذٰلكَ ما نُسِخَ مِن الشَّريعةِ: لو كانَ حسنُهُ لذاتِهِ؛ لمْ يَسْتَحِلْ قبيحًا، ولو كانَ قبحُهُ لذاتِهِ؛ لمْ يَسْتَحِلْ حسنًا بالنَّسخِ.

قالوا: وأيضًا؛ لو كانَ ذاتيًّا؛ لاجْتَمَعَ النَّقيضانِ في صدقِ مَن قالَ: لأكْذِبَنَّ غدًا! فإنَّهُ لا يَخْلو إمَّا أنْ يَكْذِبَ في الغدِ أو يَصْدُقَ: فإنْ كَذَبَ؛ لَزِمَ قبحُهُ لكونِهِ كذبًا، وحسنُهُ لاستلزامِهِ صدقَ الجزءِ الأوَّلِ والمستلزِمُ للحسنِ حسنٌ، فيَجْتَمِعُ في الجزءِ الثَّاني الحسنُ والقبحُ وهُما نقيضانِ. وإنْ صَدَقَ؛ لَزِمَ حسنُ الجزءِ الثَّاني مِن حيثُ إنَّهُ صدقٌ

---

(١) أمّا القاضي؛ فابن الباقلّاني كما تقدّم (٢/ ٣١٩). وأمّا أبو المعالي؛ فالجويني إمام الحرمين الذي تقدّمت ترجمته (١/ ٢٩٨).

(٢) الإمام، النحويّ، اللغويّ، الأصوليّ، الفقيه المالكيّ، صاحب المؤلّفات المشهورة، عثمان بن عمر بن أبي بكر، جمال الدين، أبو عمرو، ابن الحاجب. توفّي سنة ٦٤٦هـ. ترجمته في: «وفيات الأعيان» (١/ ٣١٤)، و«الأعلام» (٤/ ٢١١).

(٣) الحسن والقبح الذاتي هو الحسن والقبح العقليّ بعينه.

في نفسِهِ وقبحُهُ مِن حيثُ إنَّهُ مستلزِمٌ لكذبِ الجزءِ الأوَّلِ، فلَزِمَ النَّقيضانِ.

قالوا: وأيضًا؛ فلو كانَ القتلُ والجلدُ وقطعُ الأطرافِ قبيحًا لذاتِهِ أو لصفةٍ لازمةٍ للذَّاتِ؛ لمْ يَكُنْ حسنًا في الحدودِ والقصاصِ؛ لأنَّ مقتضى الذَّاتِ لا يَتَخَلَّفُ عنها، فإذا تَخَلَّفَ فيما ذَكَرْنا مِن الصُّورِ وغيرِها؛ دَلَّ على أنَّهُ ليسَ ذاتيًّا.

● فهٰذا تقريرُ هٰذا المسلكِ، وهوَ مِن أفسدِ المسالكِ لوجوهٍ:

* **أحدُها**: أنَّ كونَ الفعلِ حسنًا أو قبيحًا لذاتِهِ أو لصفةٍ؛ لمْ يُعْنَ بهِ أنَّ ذٰلكَ يَقومُ بحقيقةٍ لا يُنْفَكُّ عنها بحالٍ مثلِ كونِهِ عرضًا وكونِهِ مفتقرًا إلى محلٍّ يَقومُ بهِ وكونِ الحركةِ حركةً والسَّوادِ لونًا! ومِن هاهُنا غَلِطَ علينا المنازعونَ لنا في المسألةِ وأَلْزَمونا ما لا يَلْزَمُنا!

وإنَّما نَعْني بكونِهِ حسنًا أو قبيحًا لذاتِهِ أو لصفتِهِ: أنَّهُ في نفسِهِ منشأٌ للمصلحةِ والمفسدةِ، وترتُّبُهُما عليهِ كترتُّبِ المسبَّباتِ على أسبابِها المقتضيةِ لها، وهٰذا كترتُّبِ الرِّيِّ على الشُّربِ والشِّبعِ على الأكلِ وترتُّبِ منافعِ الأغذيةِ والأدويةِ ومضارِّها عليها.

فحسنُ الفعلِ أو قبحُهُ هوَ مِن جنسِ كونِ الدَّواءِ الفلانيِّ حسنًا نافعًا أو قبيحًا ضارًّا وكذٰلكَ الغذاءُ واللباسُ والمسكنُ والجماعُ والاستفراغُ والنَّومُ والرِّياضةُ وغيرُها؛ فإنَّ ترتُّبَ آثارِها عليها ترتُّبُ المعلولاتِ والمسبَّباتِ على عللِها وأسبابِها، ومعَ ذٰلكَ فإنَّها تَخْتَلِفُ بٱختلافِ الأزمانِ والأحوالِ والأماكنِ والمحلِّ القابلِ ووجودِ المعارضِ.

فتخلُّفُ الشِّبعِ والرِّيِّ عنِ الخبزِ واللحمِ والماءِ في حقِّ المريضِ ومَن بهِ علَّةٌ تَمْنَعُهُ مِن قبولِ الغذاءِ لا تُخْرِجُهُ عن كونِهِ مقتضيًا ذٰلكَ لذاتِه[1] حتَّى يُقالَ: لو كانَ كذٰلكَ لذاتِهِ؛ لم يَتَخَلَّفْ؛ لأنَّ ما بالذَّاتِ لا يَتَخَلَّفُ! وكذٰلكَ تخلُّفُ الانتفاعِ بالدَّواءِ في شدَّةِ الحرِّ والبردِ وفي وقتِ تزايدِ العلَّةِ لا يُخْرِجُهُ عن كونِهِ نافعًا في ذاتِهِ. [و][2] كذٰلكَ تخلُّفُ الانتفاعِ باللباسِ في زمنِ الحرِّ مثلاً لا يَدُلُّ على أنَّهُ ليسَ في ذاتِهِ نافعًا ولا حسنًا.

---

(١) في ط: «مقتضيًا كذٰلك لذاته»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه. ومعنى الكلام أنّ المرض الذي يمنع صاحبه من الارتواء بالماء مثلاً لا يخرج الماء عن كونه مقتضيًا للارتواء في حقيقته.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

فهٰذهِ قوى الأغذيةِ والأدويةِ واللباسِ ومنافعُ الجماعِ والنَّومِ تتَخَلَّفُ عنها آثارُها زمانًا ومكانًا وحالاً وبحسبِ القبولِ والاستعدادِ، فتكونُ نافعةً حسنةً في زمانٍ دونَ زمانٍ ومكانٍ دونَ مكانٍ وحالٍ دونَ حالٍ وفي حقِّ طائفةٍ أو شخصٍ دونَ غيرِهم، ولمْ يُخْرِجْها ذٰلكَ عن كونِها مقتضيةً لآثارِها بقواها وصفاتِها. فهٰكذا أوامرُ الرَّبِّ تَبارَكَ وتَعالى وشرائعُهُ سواءٌ، يكونُ الأمرُ منشأَ المصلحةِ ونافعًا للمأمورِ في وقتٍ دونَ وقتٍ، فيأْمُرُهُ بهِ تَبارَكَ وتَعالى في الوقتِ الذي عَلِمَ أنَّهُ مصلحةٌ فيهِ ثمَّ يَنْهى عنهُ في الوقتِ الذي يكونُ فعلُهُ فيهِ مفسدةً، على نحوِ ما يَأْمُرُ الطَّبيبُ بالدَّواءِ والحميةِ في وقتٍ هوَ مصلحةٌ للمريضِ ويَنْهاهُ عنهُ في الوقتِ الذي يَكونُ تناوُلُهُ مفسدةً لهُ. بل أحكمُ الحاكمينَ الذي بَهَرَتْ حكمتُهُ العقولَ أولى بمراعاةِ مصالحِ عبادِهِ ومفاسدِهِم في الأوقاتِ والأحوالِ والأماكنِ والأشخاصِ، وهل وُضِعَتِ الشَّرائعُ إلَّا على هٰذا؟!

فكانَ نكاحُ الأُختِ حسنًا في وقتِهِ حينَ لمْ[1] يَكُنْ بدٌّ منهُ في التَّناسلِ وحفظِ النَّوعِ الإنسانيِّ، ثمَّ صارَ قبيحًا لمَّا ٱسْتُغْنِيَ عنهُ فحَرَّمَهُ على عبادِهِ. فأباحَهُ في وقتٍ كانَ فيهِ حسنًا، وحَرَّمَهُ في وقتٍ صارَ فيهِ قبيحًا.

وكذٰلكَ كلُّ ما نَسَخَهُ مِن الشَّرعِ ـ بلِ الشَّريعةِ الواحدةِ ـ كلُّهُ لا يَخْرُجُ[2] عن هٰذا، وإنْ خَفِيَ وجهُ المصلحةِ والمفسدةِ فيهِ على أكثرِ النَّاسِ.

وكذٰلكَ إباحةُ الغنائمِ: كانَ قبيحًا في حقِّ مَن قبلَنا؛ لئلاَّ تَحمِلَهُم إباحتُها على القتالِ لأجلِها والعملِ لغيرِ اللهِ فتَفوتَ عليهِم مصلحةُ الإخلاصِ التي هيَ أعظمُ المصالحِ، فحَمى أحكمُ الحاكمينَ جانبَ هٰذهِ المصلحةِ العظيمةِ بتحريمِها عليهِم لِيَتَمَحَّضَ قتالُهُم للهِ لا للدُّنيا، فكانَتِ المصلحةُ في حقِّهِم تحريمَها عليهِم. ثمَّ لمَّا أوْجَدَ هٰذهِ الأُمَّةَ التي هيَ أكملُ الأُممِ عقولاً وأرسخُهُم إيمانًا وأعظمُهُم توحيدًا وإخلاصًا وأرغبُهُم في الآخرةِ وأزهدُهُم في الدُّنيا؛ أباحَ لهمُ الغنائمَ، وكانَتْ إباحتُها حسنةً بالنِّسبةِ إليهِم وإنْ كانَتْ قبيحةً بالنِّسبةِ إلى مَن قبلَهُم، فكانَتْ كإباحةِ الطَّبيبِ

---

(١) في ط: «حتّى لم»! وهو تحريف صوابه «حين لم» أو «حيث لم».

(٢) في ط: «كلّها لا تخرج»! وهٰذا تحريف من فعل النسّاخ أو الطابعين صوابه ما أثبتّه.

اللحمَ للصَّحيحِ الذي لا يُخْشى عليهِ مِن مضرَّتِه وحميتِه منهُ للمريضِ المحمومِ.

* وهٰذا الحكمُ فيما شُرِعَ في الشَّريعةِ الواحدةِ في وقتٍ ثمَّ نُسِخَ في وقتٍ آخرَ:

[١] كالتَّخييرِ في الصَّومِ في أوَّلِ الإسلامِ بينَ الإطعامِ وبينَهُ لمَّا كانَ غيرَ مألوفٍ لهُم ولا معتادٍ والطِّباعُ تأباهُ إذْ هوَ هجرُ مألوفِها ومحبوبِها ولمْ تَذُقْ بعدُ حلاوتَهُ وعواقبَهُ المحمودةَ وما في طيِّهِ مِن المصالحِ والمنافعِ، فخُيِّرَتْ بينَهُ وبينَ الإطعامِ ونُدِبَتْ إليهِ، فلمَّا عَرَفَتْ علَّتَهُ ـ يَعْني: حكمتَهُ ـ وأَلِفَتْهُ وعَرَفَتْ ما ضِمْنَهُ مِن المصالحِ والفوائدِ؛ حَتَمَ عليها عينًا ولمْ يُقْبَلْ منها سواهُ. فكانَ التَّخييرُ في وقتِهِ مصلحةً، وتعيينُ الصَّومِ في وقتِهِ مصلحةً، فاقْتَضَتِ الحكمةُ البالغةُ شرعَ كلِّ حكمٍ في وقتِهِ؛ لأنَّ المصلحةَ فيهِ في ذٰلكَ الوقتِ.

[٢] وكانَ فرضُ الصَّلاةِ أوَّلاً ركعتينِ ركعتينِ لمَّا كانوا حديثي عهدٍ بالإسلامِ ولمْ يَكونوا معتادينَ لها ولا أَلِفَتْها طباعُهُم وعقولُهُم فُرِضَتْ عليهِم بوصفِ التَّخفيفِ، فلمَّا ذُلِّلَتْ بها جوارحُهُم وطُوِّعَتْ بها أنفسُهُم واطْمَأنَّتْ إليها قلوبُهُم وباشَرَتْ نعيمَها ولذَّتَها وطيبَها وذاقَتْ حلاوةَ عبوديَّةِ اللهِ فيها ولذَّةَ مناجاتِهِ؛ زِيدَتْ ضِعْفَها، وأُقِرَّتْ في السَّفرِ على الفرضِ الأوَّلِ لحاجةِ المسافرِ إلى التَّخفيفِ ولمشقَّةِ السَّفرِ عليهِ. فتأمَّلْ كيفَ جاءَ كلُّ حكمٍ في وقتِهِ مطابقًا للمصلحةِ والحكمةِ شاهدًا للهِ بأنَّهُ أحكمُ الحاكمينَ وأرحمُ الرَّاحمينَ الذي بَهَرَتْ حكمتُهُ العقولَ والألبابَ وبَدا على صفحاتِها بأنَّ ما خالَفَها هوَ الباطلُ وأنَّها هيَ عينُ المصلحةِ والصَّوابِ.

[٣] ومِن هٰذا أمرُهُ سبحانَهُ لهُم بالإعراضِ عنِ الكافرينَ وتركِ أذاهُم والصَّبرِ عليهِم والعفوِ عنهُم لمَّا كانَ ذٰلكَ عينَ المصلحةِ لقلَّةِ عددِ المسلمينَ وضعفِ شوكتِهِم وغلبةِ عدوِّهِم، فكانَ هٰذا في حقِّهِم إذْ ذاكَ عينَ المصلحةِ. فلمَّا تَحَيَّزوا إلى دارِ [الإسلامِ][(١)] وكَثُرَ عددُهُم وقَوِيَتْ شوكتُهُم وتَجَرَّأَتْ أنفسُهُم لمناجزةِ عدوِّهِم؛ أذِنَ لهُم في ذٰلكَ إذنًا مِن غيرِ إيجابٍ عليهِم؛ لِيُذيقَهُم حلاوةَ النَّصرِ والظَّفرِ وعزَّ الغلبةِ، ولأنَّ

---

(١) زيادة تعين على فهم السياق.

الجهادَ[1] أشقُّ شيءٍ على النُّفوسِ، فجَعَلَهُ أوَّلاً إلى ٱختيارِهِم إذنًا لا حتمًا. فلمَّا ذاقوا عزَّ النَّصرِ والظَّفرِ وعَرَفوا عواقبَهُ الحميدةَ؛ أوْجَبَهُ اللهُ عليهِم حتمًا فٱنْقادوا لهُ طوعًا ورغبةً ومحبَّةً، فلو أتاهُمُ الأمرُ بِهِ مفاجأةً على ضعفٍ وقلَّةٍ؛ لَنَفَروا عنهُ أشدَّ النِّفارِ.

[٤] وتأمَّلِ الحكمةَ الباهرةَ في شرعِ الصَّلاةِ أوَّلاً إلى بيتِ المقدسِ إذْ كانَتْ قبلةَ الأنبياءِ، فبُعِثَ بما بُعِثَ بِهِ الرُّسلُ وبما يَعْرِفُهُ أهلُ الكتابِ، وكانَ ٱستقبالُ بيتِ المقدسِ مقرِّرًا لنبوَّتِهِ وأنَّهُ بُعِثَ بما بُعِثَ بِهِ الأنبياءُ قبلَهُ وأنَّ دعوتَهُ هيَ دعوةُ الرُّسلِ بعينِها وليسَ بدعًا مِن الرُّسلِ ولا مخالفًا لهُم بل مصدِّقًا لهُم مؤمنًا بهِم. فلمَّا ٱسْتَقَرَّتْ أعلامُ نبوَّتِهِ في القلوبِ، وقامَتْ شواهدُ صدقِهِ مِن كلِّ جهةٍ، وشَهِدَتِ القلوبُ لهُ بأنَّهُ رسولُ اللهِ حقًّا وإنْ أنْكَروا رسالتَهُ عنادًا وحسدًا وبغيًا، وعَلِمَ سبحانَهُ أنَّ المصلحةَ لهُ ولأُمَّتِهِ أنْ يَسْتَقْبِلوا الكعبةَ البيتَ الحرامَ أفضلَ بقاعِ الأرضِ وأحبَّها إلى اللهِ وأعظمَ البيوتِ وأشرفَها وأقدمَها؛ قَرَّرَ قبلَهُ أُمورًا كالمقدِّماتِ بينَ يديهِ لعظمِ شأْنِهِ:

فذَكَرَ النَّسخَ أوَّلاً، وأنَّهُ إذا نَسَخَ آيةً أو حكمًا؛ أتى بخيرٍ منهُ أو مثلِهِ، وأنَّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّ لهُ ملكَ السَّماواتِ والأرضِ. ثمَّ حَذَّرَهُمُ التَّعنُّتَ على رسولِهِ والإعراضَ كما فَعَلَ أهلُ الكتابِ قبلَهُم. ثمَّ حَذَّرَهُم مِن أهلِ الكتابِ وعداوتِهِم وأنَّهُم يَوَدُّونَ لو رَدُّوهُم كفَّارًا فلا يَسْمَعوا منهُم ولا يَقْبَلوا قولَهُم. ثمَّ ذَكَرَ تعظيمَ دينِ الإسلامِ وتفضيلَهُ على اليهوديَّةِ والنَّصرانيَّةِ وأنَّ أهلَهُ همُ السُّعداءُ الفائزونَ لا أهلَ الأماني الباطلةِ. ثمَّ ذَكَرَ ٱختلافَ اليهودِ والنَّصارى وشهادةَ بعضِهِم على بعضٍ بأنَّهُم لَيْسوا على شيءٍ، فحقيقٌ بأهلِ الإسلامِ أنْ لا يَقْتَدوا بهِم وأنْ يُخالِفوهُم في هديِهِمُ الباطلِ. ثمَّ ذَكَرَ جرمَ مَن مَنَعَ عبادَهُ مِن ذكرِ ٱسمِهِ في بيوتِهِ ومساجدِهِ وأنْ يُعْبَدَ فيها وظلمَهُ، وأنَّهُ بذٰلكَ ساعٍ في خرابِها؛ لأنَّ عمارتَها إنَّما هيَ بذكرِ ٱسمِهِ وعبادتِهِ فيها. ثمَّ بيَّنَ أنَّ لهُ المشرقَ والمغربَ، وأنَّهُ سبحانَهُ لعظمتِهِ وإحاطتِهِ حيثُ ٱسْتَقْبَلَ المصلِّي؛ فثَمَّ وجهُهُ تَعالى، فلا يَظُنَّ الظَّانُّ أنَّهُ إذا ٱسْتَقْبَلَ البيتَ الحرامَ؛ خَرَجَ عن كونِهِ مستقبلاً ربَّهُ وقبلتَهُ؛ فإنَّ اللهَ

(١) في ط: «وكان الجهاد»! وهو تحريف صوابه ما أثبته.

واسعٌ عليمٌ. ثمَّ ذَكَرَ عبوديَّةَ أهلِ السَّماواتِ والأرضِ لهُ وأنَّهُم كلٌّ لهُ قانتونَ. ثمَّ نَبَّهَ على عدمِ المصلحةِ في موافقةِ أهلِ الكتابِ، وأنَّ ذٰلكَ لا يَعودُ بٱستصلاحِهِم ولا يُرْجى معَهُ إيمانُهُم، وأنَّهُم لنْ يَرْضَوا عنهُ حتَّى يَتَّبعَ ملَّتَهُم، وضِمْنَ هٰذا تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ موافقتَهُم في القبلةِ لا مصلحةَ فيها فسواءٌ وافَقْتَهُمْ فيها أو خالَفْتَهُمْ؛ فإنَّهُم لنْ يَرْضَوا عنكَ حتَّى تَتَّبعَ ملَّتَهُم. ثمَّ أخْبَرَ أنَّ هداهُ هوَ الهدى الحقُّ، وحَذَّرَهُ مِن ٱتِّباعِ أهوائِهِم. ثمَّ ٱنْتَقَلَ إلى تعظيمِ إبْراهيمَ صاحبِ البيتِ وبانيهِ والثَّناءِ عليهِ وذكرِ إمامتِهِ للنَّاسِ وأنَّهُ أحقُّ مَنِ ٱتُّبِعَ. ثمَّ ذَكَرَ جلالةَ البيتِ وفضلَهُ وشرفَهُ، وأنَّهُ أمنٌ للنَّاسِ ومثابةٌ لهُم يَثوبونَ إليهِ ولا يَقْضونَ منهُ وطرًا، وفي هٰذا تنبيهٌ على أنَّهُ أحقُّ بالاستقبالِ مِن غيرِهِ. ثمَّ أمَرَهُم أنْ يَتَّخِذوا مِن مقامِ إبْراهيمَ مصلًّى. ثمَّ ذَكَرَ بناءَ إبراهيمَ وإسماعيلَ البيتَ وتطهيرَهُ بعهدِهِ وإذنِهِ ورفعَهُما قواعدَهُ وسؤالَهُما ربَّهُما القبولَ منهُما وأنْ يَجْعَلَهُما مسلمينِ لهُ ويُرِيَهُما مناسكَهُما ويَبْعَثَ في ذرِّيَّتِهِما رسولاً منهُم يَتْلو عليهِم آياتِهِ ويُزَكِّيهِم ويُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ. ثمَّ أخْبَرَ عن جهلِ مَن رَغِبَ عن ملَّةِ إبْراهيمَ وسفهِهِ ونقصانِ عقلِهِ. ثمَّ أكَّدَ عليهِم أنْ يَكونوا على ملَّةِ إبْراهيمَ، وأنَّهُم إنْ خَرَجوا عنها إلى يهوديَّةٍ أو نصرانيَّةٍ أو غيرِها؛ كانوا ضلَّالًا غيرَ مهتدينَ.

وهٰذهِ كلُّها مقدِّماتٌ بينَ يدي الأمرِ بٱستقبالِ الكعبةِ لمَن تَأمَّلَها وتَدَبَّرَها وعَلِمَ ٱرتباطَها بشأْنِ القبلةِ؛ فإنَّهُ يَعْلَمُ بذٰلكَ عظمةَ القرآنِ وجلالتَهُ وتنبيهَهُ على كمالِ دينِهِ وحسنِهِ وجلالتِهِ وأنَّهُ هوَ عينُ المصلحةِ لعبادِهِ لا مصلحةَ لهُم سواهُ، ويَسوقُ بذٰلكَ[١] النُّفوسَ إلى الشَّهادةِ لهُ بالحسنِ والكمالِ والحكمةِ التَّامَّةِ.

فلمَّا قَرَّرَ ذٰلكَ كلَّهُ؛ أعْلَمَهُم بما سَيَقولُ السُّفهاءُ مِن النَّاسِ إذا تَرَكوا قبلتَهُم؛ لئلَّا يَفْجَأَهُم مِن غيرِ علمٍ بهِ فيَعْظُمَ موقعُهُ عندَهُم، فلمَّا وَقَعَ؛ لمْ يَهُلْهُم ولمْ يَصْعُبْ عليهِم. بل أخْبَرَ أنَّ لهُ المشرقَ والمغربَ يَهْدي مَن يَشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ. ثمَّ أخْبَرَ أنَّهُ كما جَعَلَهُم أُمَّةً وسطًا خيارًا ٱخْتارَ لهُم أوسطَ جهاتِ الاستقبالِ وخيرَها كما ٱخْتارَ لهُم خيرَ

(١) في ط: «سواه وشوّق بذٰلك»! وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

الأنبياءِ وشَرَعَ لهُم خيرَ الأديانِ وأنْزَلَ عليهِم خيرَ الكتبِ وجَعَلَهُم شهداءَ على النَّاسِ كلِّهِم لكمالِ فضلِهِم وعلمِهِم وعدالتِهِم، وظَهَرَتْ حكمتُهُ في أنِ آخْتارَ لهُم أفضلَ قبلةٍ وأشرفَها لِتَتَكامَلَ جهاتُ الفضلِ في حقِّهِم بالقبلةِ والرَّسولِ والكتابِ والشَّريعةِ.

ثمَّ نبَّهَ سبحانَهُ على حكمتِهِ البالغةِ في أنْ جَعَلَ القبلةَ أوَّلاً هيَ بيتَ المقدسِ؛ لِيَعْلَمَ سبحانَهُ واقعًا في الخارجِ ما كانَ معلومًا لهُ قبلَ وقوعِهِ[1]: ممَّن يَتَّبِعُ الرَّسولَ في جميعِ أحوالِهِ ويَنْقادُ لهُ ولأوامرِ الرَّبِّ تَعالى ويَدِينُ بها كيفَ كانَتْ وحيثُ كانَتْ، فهٰذا هوَ المؤمنُ حقًّا الذي أعْطى العبوديَّةَ حقَّها. ومَن يَنْقَلِبُ على عقبيهِ ممَّنْ لمْ يَرْسَخْ في الإيمانِ قلبُهُ ولمْ يَسْتَقِرَّ عليهِ قدمُهُ فعارَضَ وأعْرَضَ ورَجَعَ على حافرتِهِ[2] وشَكَّ في النُّبوَّةِ وخالَطَ قلبَهُ شبهةُ الكفَّارِ الذينَ قالوا: إنْ كانَتِ القبلةُ الأُولى حقًّا؛ فقد خَرَجْتُمْ عنِ الحقِّ، وإنْ كانَتْ باطلاً؛ فقدْ كُنْتُمْ على باطلٍ، وضاقَ عقلُهُ المنكوسُ عنِ القسمِ الثَّالثِ الحقِّ وهوَ أنَّها كانَتْ حقًّا ومصلحةً في الوقتِ الأوَّلِ ثمَّ صارَتْ مفسدةً باطلةَ الاستقبالِ في الوقتِ الثَّاني.

ولهٰذا أخْبَرَ سبحانَهُ عن عظمِ شأْنِ هٰذا التَّحويلِ والنَّسخِ في القبلةِ، فقالَ: ﴿وَإِنْ كانَتْ لَكَبيرَةً إلاَّ عَلى الَّذينَ هَدى اللهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ثمَّ أخْبَرَ أنَّهُ سبحانَهُ لمْ يَكُنْ يُضَيِّعُ ما تَقَدَّمَ لهُم مِن الصَّلواتِ إلى القبلةِ الأُولى، وأنَّ رأْفَتَهُ ورحمتَهُ بهِم تأْبى إضاعةَ

---

(١) قال تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلاّ لنعلم من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه﴾ [البقرة: ١٤٣]: أختلف أهل التفسير في وجه قوله تعالى ﴿إلاّ لنعلم﴾ مع أنّه علم من قبل أن يخلق آدم ﷺ ما هو كائن إلى يوم القيامة:

فقال الطبري: «أمّا معناه عندنا؛ فإنّه: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلاّ ليعلم رسولي وحزبي وأوليائي من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه».

وقال البغوي: «أراد به العلم الذي يتعلّق به الثواب والعقاب؛ فإنّه لا يتعلّق بما هو عالم به في الغيب [و]إنّما يتعلّق بما يوجد، [فـ]ـمعناه لنعلم العلم الذي يستحقّ العامل عليه الثواب والعقاب».

وقال ابن كثير: «إنّما شرعنا لك يا محمّد التوجّه أوّلاً إلى بيت المقدس ثمّ صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتّبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجّهت ممّن ينقلب...» إلخ.

فهٰذه ثلاثة أوجه حسنة في تأويل الآية، وهي متقاربة جدًّا عند التحليل والنظر خارجة من مشكاة واحدة، وأقربها إلى قول ابن القيّم في الآية قول الإمام البغويّ.

(٢) رجع على حافرته: عاد إلى ما كان عليه من الضلال.

ذٰلكَ عليهِم وقد كانَ طاعةً لهُم.

فلمَّا قَرَّرَ سبحانَهُ ذٰلكَ كلَّهُ وبيَّنَ حسنَ هٰذهِ الجهةِ بعظمةِ البيتِ وعلوِّ شأْنِهِ وجلالتِهِ؛ قالَ: ﴿قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرامِ وَحَيْثُما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وأكَّدَ ذٰلكَ عليهِم مرَّةً بعدَ مرَّةٍ اعتناءً بهٰذا الشَّأْنِ وتفخيمًا لهُ وأنَّهُ شأْنٌ يَنْبَغي الاعتناءُ بهِ والاحتفالُ بأمرِهِ.

فتَدَبَّرْ هٰذا الاعتناءَ وهٰذا التَّقريرَ وبيانَ المصالحِ النَّاشئةِ مِن هٰذا الفرعِ مِن فروعِ الشَّريعةِ وبيانَ المفاسدِ النَّاشئةِ مِن خلافِهِ، وأنَّ كلَّ جهةٍ فهيَ في وقتِها كانَ استقبالُها هوَ المصلحةَ، وأنَّ للرَّبِّ تَعالى الحكمةَ البالغةَ في شرعِ القبلةِ الأُولى وتحويلِ عبادِهِ عنها إلى المسجدِ الحرامِ. فهٰذا معنى كونِ الحسنِ والقبحِ ذاتيًّا للفعلِ لا ناشئًا مِن ذاتِهِ[1]. ولا ريبَ عندَ ذوي العقولِ أنَّ مثلَ هٰذا يَخْتَلِفُ باختلافِ الأزمانِ والأمكنةِ والأحوالِ والأشخاصِ.

[٥] وتأمَّلْ حكمةَ الرَّبِّ تَعالى في أمرِهِ إبْراهيمَ خليلَهُ ﷺ بذبحِ ولدِهِ؛ لأنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ خليلاً، والخُلَّةُ منزلةٌ تَقْتَضي إفرادَ الخليلِ بالمحبَّةِ وأنْ لا يَكونَ لهُ فيها منازعٌ أصلاً، بل قد تَخَلَّلَتْ محبَّتُهُ جميعَ أجزاءِ القلبِ والرُّوحِ فلمْ يَبْقَ فيها موضعٌ خالٍ مِن حبِّهِ فضلاً عن أنْ يَكونَ محلاًّ لمحبَّةِ غيرِهِ. فلمَّا سَأَلَ إبْراهيمُ الولدَ وأُعْطِيَهُ؛ أخَذَ شعبةً مِن قلبِهِ كما يَأْخُذُ الولدُ شعبةً مِن قلبِ والدِهِ، فغارَ المحبوبُ على خليلِهِ أنْ يَكونَ في قلبِهِ موضعٌ لغيرِهِ، فأمَرَهُ بذبحِ الولدِ لِيُخْرِجَ حبَّهُ مِن قلبِهِ ويَكونَ اللهُ أحبَّ إليهِ وآثرَ عندَهُ ولا يَبْقى في القلبِ سوى محبَّتِهِ، فوَطَّنَ نفسَهُ على ذٰلكَ وعَزَمَ عليهِ، فخَلَصَتِ المحبَّةُ لوليِّها ومستحقِّها، فحَصَلَتْ مصلحةُ المأْمورِ بهِ مِن العزمِ عليهِ وتوطينِ النَّفسِ على الامتثالِ، فبَقِيَ الذَّبحُ مفسدةً لحصولِ المصلحةِ بدونِهِ، فنَسَخَهُ في حقِّهِ لمَّا صارَ مفسدةً وأمَرَهُ بهِ لمَّا كانَ عزمُهُ عليهِ وتوطينُ نفسِهِ مصلحةً لهُما. فأيُّ حكمةٍ فوقَ هٰذا؟! وأيُّ

---

(١) يعني: وليس معناه كون الحسن والقبح ناشئًا من ذاته. ولو رفع لكان أقوى وأصحّ.

لطفٍ وبرٍّ وإحسانٍ يَزيدُ على هٰذا؟! وأيُّ مصلحةٍ فوقَ هٰذهِ المصلحةِ بالنِّسبةِ إلى هٰذا ونسخِهِ[(١)]؟!

وإذا تأمَّلْتَ أمرَ الشَّرائعِ النَّاسخةِ والمنسوخةِ؛ وَجَدْتَها كلَّها بهٰذهِ المنزلةِ: فمنها ما يَكونُ وجهُ المصلحةِ فيهِ ظاهرًا مكشوفًا، ومنها ما يَكونُ ذٰلكَ فيهِ خفيًّا لا يُدْرَكُ إلَّا بفضلِ فطنةٍ وجَوْدَةِ إدراكٍ.

* فصلٌ: وهاهُنا سرٌّ بديعٌ مِن أسرارِ الخلقِ والأمرِ، بهِ يَتَبَيَّنُ لكَ حقيقةُ الأمرِ، وهوَ أنَّ اللهَ لمْ يَخْلُقْ شيئًا ولمْ يأْمُرْ بشيءٍ ثمَّ أبْطَلَهُ وأعْدَمَهُ بالكلِّيَّةِ، بل لا بدَّ أنْ يُثْبِتَهُ بوجهٍ ما؛ لأنَّهُ إنَّما خَلَقَهُ لحكمةٍ لهُ في خلقِهِ وكذٰلكَ أمرُهُ بهِ وشرعُهُ إيَّاهُ هوَ لِما فيهِ مِن المصلحةِ، ومعلومٌ أنَّ تلكَ المصلحةَ والحكمةَ تَقْتَضي إبقاءَهُ. فإذا عارَضَ تلكَ المصلحةَ مصلحةٌ أُخرى أعظمُ منها؛ كانَ ما ٱشْتَمَلَتْ عليهِ أولى بالخلقِ والأمرِ، ويَبْقى في الأُولى ما شاءَ مِن الوجهِ الذي يَتَضَمَّنُ المصلحةَ، ويَكونُ هٰذا مِن بابِ تزاحمِ المصالحِ، والقاعدةُ فيها شرعًا وخلقًا تحصيلُها وٱجتماعُها بحسبِ الإمكانِ، فإنْ تَعَذَّرَ؛ قُدِّمَتِ المصلحةُ العظمى وإنْ فاتَتِ الصُّغرى. وإذا تأمَّلْتَ الشَّريعةَ والخلقَ؛ رَأَيْتَ ذٰلكَ ظاهرًا. وهٰذا سرٌّ قَلَّ مَن تَفَطَّنَ لهُ مِن النَّاسِ.

فتأمَّلِ الأحكامَ المنسوخةَ حكمًا حكمًا؛ كيفَ تَجِدُ المنسوخَ لمْ يَبْطُلْ بالكلِّيَّةِ، بل لهُ بقاءٌ بوجهٍ:

[١] فمِن ذٰلكَ نسخُ القبلةِ وبقاءُ بيتِ المقدسِ معظَّمًا محترمًا تُشَدُّ إليهِ الرِّحالُ ويُقْصَدُ بالسَّفرِ إليهِ وحطُّ الأوزارِ عندَهُ وٱستقبالِهِ معَ غيرِهِ مِن الجهاتِ في السَّفرِ. فلمْ

---

(١) هٰذا حسن جدًّا؛ إلّا قوله «فغار المحبوب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره»؛ ففيه نظر لأمور: أوّلها: أنّ مثل هٰذا الكلام يحتاج إلى توقيف، ولا ينبغي أن يقال بالرأي المجرّد. والثاني: أنّه بعيد عن عبارات الصحابة والتابعين قريب من عبارات الصوفيّة الذين يسترسلون مع ربّهم في مقامات البسط والعشق والهيمان. والثالث: أنّ الأولى أن يقال: ٱبتلى الله سبحانه أبانا إبراهيم ﷺ بأنواع من البلاء ـ ومنها الذبح ـ وأمره فوفّى ذٰلك أعظم توفية وأتمّه غاية التمام، فٱتّخذه سبحانه خليلاً له؛ جزاء وفاقًا على تجريده طاعته وحبّه وعبوديّته لله سبحانه وحده مع غاية الرضى به والاطمئنان إليه بصورة تعجز الكلمات مهما بلغت عن وصفها، فالخلّة كانت ثمرة هٰذا ونتيجته، لا أنّ الله سبحانه ٱتّخذه خليلاً أوّلاً ثمّ راح يمتحنه أيستحقّ هٰذا المقام أم لا. والله أعلى وأعلم.

يَبْطُلْ تعظيمُهُ وٱحترامُهُ بالكلِّيَّةِ وإنْ بَطَلَ خصوصُ ٱستقبالِهِ بالصَّلواتِ؛ فالقصدُ إليهِ لِيُصَلَّى فيهِ باقٍ وهوَ نوعٌ مِن تعظيمِهِ وتشريفِهِ بالصَّلاةِ فيهِ، والتَّوجُّهُ إليهِ قصدًا لفضيلتِهِ وشرفِهِ[١] لهُ نسبةٌ مِن التَّوجُّهِ إليهِ بالاستقبالِ بالصَّلواتِ[٢]. فقَدَّمَ البيتَ الحرامَ عليهِ في الاستقبالِ؛ لأنَّ مصلحتَهُ أعظمُ وأكملُ، وبَقِيَ قصدُهُ وشدُّ الرِّحالِ إليهِ والصَّلاةُ فيهِ منشأً للمصلحةِ، فتَمَّتْ للأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ المصلحتانِ المتعلِّقتانِ بهٰذينِ البيتينِ، وهٰذا نهايةُ ما يَكونُ مِن اللطفِ وتحصيلِ المصالحِ وتكميلِها لهُم. فتَأَمَّلْ هٰذا الموضعَ.

[٢] ومِن ذٰلكَ نسخُ التَّخييرِ في الصَّومِ بتعيينِهِ؛ فإنَّ لهُ بقاءً وبيانًا ظاهرًا وهوَ أنَّ الرَّجلَ: كانَ إذا أرادَ؛ أفْطَرَ وتَصَدَّقَ، فحَصَلَتْ لهُ مصلحةُ الصَّدقةِ دونَ مصلحةِ الصَّومِ. وإنْ شاءَ؛ صامَ ولمْ يَفْدِ، فحَصَلَتْ لهُ مصلحةُ الصَّومِ دونَ الصَّدقةِ. فحَتَّمَ الصَّومَ على المكلَّفِ لأنَّ مصلحتَهُ أتمُّ وأكملُ مِن مصلحةِ الفديةِ، ونَدَبَ إلى الصَّدقةِ في شهرِ رَمَضانَ، فإذا صامَ وتَصَدَّقَ؛ حَصَلَتْ لهُ المصلحتانِ معًا، وهٰذا أكملُ ما يَكونُ مِن الصَّومِ، وهوَ الذي كانَ يَفْعَلُهُ النَّبيُّ ﷺ؛ فإنَّهُ كانَ أجودَ ما يَكونُ في رَمَضانَ[٣]. فلمْ تَبْطُلِ المصلحةُ الأُولى جملةً، بل قُدِّمَ عليها ما هوَ أكملُ منها وجوبًا، وشُرِعَ الجمعُ بينَها وبينَ الأُخرى ندبًا وٱستحبابًا[٤].

[٣] ومِن ذٰلكَ نسخُ ثباتِ الواحدِ مِن المسلمينَ للعشرةِ مِن العدوِّ بثباتِهِ للاثنينِ، ولمْ تَبْطُلِ الحكمةُ الأُولى مِن كلِّ وجهٍ، بل بَقِيَ ٱستحبابُهُ وإنْ زالَ وجوبُهُ، بل إذا غَلَبَ على ظنِّ المسلمينَ ظفرُهُم بعدوِّهِم وهُم عشرةُ أمثالِهِم؛ وَجَبَ عليهِمُ الثَّباتُ وحَرُمَ عليهِمُ الفرارُ[٥]، فلمْ تَبْطُلِ الحكمةُ الأُولى مِن كلِّ وجهٍ.

---

(١) في ط: «الفضيلته وشرعه»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) يعني: والتوجّه إليه بالسفر لفضله هو نوع من التعظيم يشبه تعظيم المتوجّه إلى القبلة بالصلاة لها.

(٣) رواه: البخاري (١ـ بدء الوحي، ٥ـ باب، ١/ ٣٠/ ٦)، ومسلم (٤٣ـ الفضائل، ١٢ـ كان ﷺ أجود الناس، ٤/ ١٨٠٣/ ٢٣٠٨)؛ عن ابن عباس. وزادا: «فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».

(٤) وكذٰلك بقيت المصلحة الأولى في حقّ المطيق الذي يشقّ عليه الصوم لكبر أو زمانة، فهٰذا مخيّر بين الصوم والصدقة (الكفّارة). فإن ٱشتدّ به الحال وخشي على نفسه الهلاك؛ ٱمتنع الصوم ولزمت الصدقة.

(٥) كما إذا كان المسلم في موقع دفاعيّ حصين؛ فإنّه يظفر بالعشرة والعشرين، ولا ينبغي له أبدًا حينئذ أن يفرّ ويسلّم موقعه للكفرة. وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

[٤] ومِن ذٰلكَ نسخُ وجوبِ الصَّدقةِ بينَ يدي مناجاةِ الرَّسولِ ﷺ؛ لَمْ يَبْطُلْ حكمُهُ بالكلِّيَّةِ، بل نُسِخَ وجوبُهُ وبَقِيَ ٱستحبابُهُ والنَّدبُ إليهِ وما عُلِمَ مِن تنبيهِهِ وإشارتِهِ[١]، وهوَ أنَّهُ إذا ٱسْتُحِبَّتِ الصَّدقةُ بينَ يدي مناجاةِ المخلوقِ؛ فٱستحبابُها بينَ يدي مناجاةِ اللهِ عندَ الصَّلواتِ والدُّعاءِ أولى. فكانَ بعضُ السَّلفِ الصَّالحِ يَتَصَدَّقُ بينَ يدي الصَّلاةِ والدُّعاءِ إذا أمْكَنَهُ ويَتَأَوَّلُ هٰذِهِ الأولويَّةَ. ورَأَيْتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تَيْمِيَّةَ يَفْعَلُهُ ويَتَحَرَّاهُ ما أمْكَنَهُ وفاوَضْتُهُ فيهِ فذَكَرَ لي هٰذا التَّنبيهَ والإشارةَ.

[٥] ومِن ذٰلكَ نسخُ الصَّلواتِ الخمسينَ التي فَرَضَها اللهُ على رسولِهِ ليلةَ الإسراءِ بخمسٍ؛ فإنَّها لمْ تَبْطُلْ بالكلِّيَّةِ، بل أُثْبِتَتْ خمسينَ في الثَّوابِ والأجرِ وجُعِلَتْ خمسًا في العملِ والوجوبِ. وقد أشارَ تَعالى إلى هٰذا بعينِهِ حيثُ يَقولُ على لسانِ نبيِّهِ: «لا يُبَدَّلُ القولُ لديَّ، هيَ خمسٌ وهيَ خمسونَ في الأجرِ»[٢]. فتَأَمَّلْ هٰذهِ الحكمةَ البالغةَ والنِّعمةَ السَّابغةَ؛ فإنَّهُ لمَّا ٱقْتَضَتِ المصلحةُ أنْ تَكونَ خمسينَ تكميلاً للثَّوابِ وسوقًا لهُم بها إلى أعلى المنازلِ، وٱقْتَضَتْ أيضًا أنْ تكونَ خمسًا لعجزِ الأُمَّةِ وضعفِهِم وعدمِ ٱحتمالِهِمُ الخمسينَ؛ جَعَلَها خمسًا مِن وجهٍ وخمسينَ مِن وجهٍ جمعًا بينَ المصالحِ وتكميلاً لها.

ولوْ لمْ نَطَّلِعْ مِن حكمتِهِ في شرعِهِ وأمرِهِ ولطفِهِ بعبادِهِ ومراعاةِ مصالحِهِم وتحصيلِها لهُم على أتمِّ الوجوهِ إلاَّ على هٰذهِ الثَّلاثةِ وحدَها؛ لَكَفى بها دليلاً على ما وراءَها[٣]. فسبحانَ مَن لهُ في كلِّ ما خَلَقَ وأمَرَ حكمةٌ بالغةٌ شاهدةٌ لهُ بأنَّهُ أحكمُ الحاكمينَ وأرحمُ الرَّاحمينَ وأنَّهُ اللهُ الذي لا إلٰهَ إلاَّ هوَ ربُّ العالمينَ.

[٦] ومِن ذٰلكَ الوصيَّةُ للوالدينِ والأقربينَ؛ فإنَّها كانَتْ واجبةً على مَن حَضَرَهُ الموتُ، ثمَّ نَسَخَ اللهُ ذٰلكَ بآيةِ المواريثِ وبَقِيَتْ مشروعةً في حقِّ الأقاربِ الذينَ لا يَرِثونَ. وهل ذٰلكَ على سبيلِ الوجوبِ أو الاستحبابِ؟ فيهِ قولانِ للسَّلفِ والخلفِ،

---

(١) يعني: والندب إليه وإلى ما علم من تنبيهه وإشارته.

(٢) قطعة من حديث الإسراء الذي رواه: البخاري (٨ـ الصلاة، ١ـ كيف فرضت الصلاة، ١/٤٥٨/٣٤٩)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٧٤ـ الإسراء به ﷺ، ١/١٤٥/١٦٢)؛ عن أنس رضي الله عنه.

(٣) وهٰذا أصل نفيس جدًّا حريّ بطالب العلم أن يفهمه ويحكمه؛ فإنّه نافع في كثير من الأبواب عندما تعزّ الأدلّة والشواهد. والله يرحم ابن القيّم ويجزيه خير الجزاء.

وهُما في مذهبِ أحْمَدَ:

فعلى القولِ الأوَّلِ بالاستحبابِ: إذا أوصى للأجانبِ دونَهُم؛ صَحَّتِ الوصيَّةُ، ولا شيءَ للأقاربِ.

وعلى القولِ بالوجوبِ: فهل لهُم أنْ يُبْطِلوا وصيَّةَ الأجانبِ ويَخْتَصُّوا هُم بالوصيَّةِ كما للورثةِ أنْ يُبْطِلوا وصيَّةَ الوارثِ، أو يُبْطِلوا ما زادَ على ثلثِ الثُّلثِ ويَخْتَصُّوا هُم بثلثِهِ كما للورثةِ أنْ يُبْطِلوا ما زادَ على ثلثِ المالِ مِن الوصيَّةِ ويكونُ الثُّلثُ في حقِّهِم بمنزلةِ المالِ كلِّهِ في حقِّ الورثةِ؟ على وجهينِ. وهٰذا الثَّاني أقيسُ وأفقهُ، وسرُّهُ أنَّ الثُّلثَ لمَّا صارَ مستحقًّا لهُم؛ كانَ بمنزلةِ جميعِ المالِ في حقِّ الورثةِ، وهُم لا يَكونونَ أقوى مِن الورثةِ، فكما لا سبيلَ للورثةِ إلى إبطالِ الوصيَّةِ بالثُّلثِ للأجانبِ فلا سبيلَ لهٰؤلاءِ إلى إبطالِ الوصيَّةِ بثلثِ الثُّلثِ للأجانبِ.

وتحقيقُ هٰذهِ المسائلِ والكلامُ على مآخذِها لهُ موضعٌ آخرُ. والمقصودُ هُنا أنَّ إيجابَ الوصيَّةِ للأقاربِ، وإنْ نُسِخَ، لمْ يَبْطُلْ بالكلِّيَّةِ، بل بَقِيَ منهُ ما هوَ منشأُ المصلحةِ كما ذَكَرْناهُ ونُسِخَ منهُ ما لا مصلحةَ فيهِ بلِ المصلحةُ في خلافِهِ.

[٧] ومِن ذٰلكَ نسخُ الاعتدادِ في الوفاةِ بحولٍ بالاعتدادِ بأربعةِ أشهرٍ وعشرٍ على المشهورِ مِن القولينِ في ذٰلكَ، فلمْ تَبْطُلِ العدَّةُ الأُولى جملةً.

[٨] ومِن ذٰلكَ حبسُ الزَّانيةِ في البيتِ حتَّى تَموتَ: فإنَّهُ على أحدِ القولينِ لا نسخَ فيهِ؛ لأنَّهُ مُغَيًّى بالموتِ أو يَجْعَلَ اللهُ لهنَّ سبيلاً، وقد جَعَلَ اللهُ لهُنَّ سبيلاً بالحدِّ. وعلى القولِ الآخرِ هوَ منسوخٌ بالحدِّ، وهوَ عقوبةٌ مِن جنسِ عقوبةِ الحبسِ. فلمْ تَبْطُلِ العقوبةُ عنها بالكلِّيَّةِ، بل نُقِلَتْ مِن عقوبةٍ إلى عقوبةٍ، وكانَتِ العقوبةُ الأُولى أصلحَ في وقتِها؛ لأنَّهُم كانوا حديثي عهدٍ بجاهليَّةٍ وزنًى فأُمِروا بحبسِ الزَّانيةِ أوَّلاً، ثمَّ لمَّا ٱسْتَوْطَنَتْ أنفسُهُم على عقوبتِها وخَرَجوا عن عوائدِهِمُ الجاهليَّةِ ورَكَنوا إلى التَّحريمِ والعقوبةِ؛ نُقِلوا إلى ما هوَ أغلظُ مِن العقوبةِ الأُولى وهوَ الرَّجمُ والجلدُ. فكانَتْ كلُّ عقوبةٍ في وقتِها هيَ المصلحةَ التي لا يُصْلِحُهُمْ سواها.

وهٰذا الذي ذَكَرْناهُ إنَّما هوَ في نسخِ الحُكْمِ الذي ثَبَتَ بشرعِهِ وأمرِهِ. وأمَّا ما كانَ

مستصحَبًا بالبراءةِ الأصليّةِ[١]؛ فهٰذا لا يَلْزَمُ مِن رفعِهِ بقاءُ شيءٍ منهُ؛ لأنَّهُ لمْ يَكُنْ مصلحةً لهُم، وإنَّما أُخِّرَ عنهُم تحريمُهُ إلى وقتٍ لضربٍ مِن المصلحةِ في تأْخيرِ التَّحريمِ، ولمْ يَلْزَمْ مِن ذٰلكَ أنْ يَكونَ مصلحةً حينَ فعلِهِم إيَّاهُ. وهٰذا كتحريمِ الرِّبا والمسكرِ وغيرِ ذٰلكَ مِن المحرَّماتِ التي كانوا يَفْعَلونَها ٱستصحابًا لعدمِ التَّحريمِ؛ فإنَّها لمْ تكُنْ مصلحةً في وقتٍ، ولهٰذا لمْ يَشْرَعْها اللهُ تعالى، ولهٰذا كانَ رفعُها بالخطابِ لا يُسَمَّى نسخًا، إذْ لو كانَ ذٰلكَ نسخًا؛ لَكانَتِ الشَّريعةُ كلُّها نسخًا، وإنَّما النَّسخُ رفعُ الحكمِ الثَّابتِ بالخطابِ لا رفعُ موجَبِ الاستصحابِ، وهٰذا متَّفقٌ عليهِ.

* فصلٌ: وأمَّا ما خَلَقَهُ سبحانَهُ؛ فإنَّهُ أوْجَدَهُ لحكمةٍ في إيجادِهِ: فإذا ٱقْتَضَتْ حكمتُهُ إعدامَهُ جملةً؛ أعْدَمَهُ وأحْدَثَ بدلَهُ، وإذا ٱقْتَضَتْ حكمتُهُ تبديلَهُ وتغييرَهُ وتحويلَهُ مِن صورةٍ إلى صورةٍ؛ بَدَّلَهُ وغَيَّرَهُ وحَوَّلَهُ ولمْ يُعْدِمْهُ جملةً.

ومَن فَهِمَ هٰذا؛ فَهِمَ مسألةَ المعادِ وما جاءَتْ بِهِ الرُّسلُ فيهِ.

فإنَّ القرآنَ والسُّنَّةَ إنَّما دَلاَّ على تغييرِ العالمِ وتحويلِهِ وتبديلِهِ لا جعلِهِ عدمًا محضًا وإعدامِهِ بالكليَّةِ، فدَلَّ على تبديلِ الأرضِ غيرَ الأرضِ والسَّماواتِ وعلى تشقُّقِ السَّماءِ وٱنفطارِها وتكويرِ الشَّمسِ وٱنتثارِ الكواكبِ وسَجْرِ البحارِ[٢] وإنزالِ المطرِ على أجزاءِ بني آدَمَ المختلطةِ بالتُّرابِ فيَنْبُتونَ كما يَنْبُتُ النَّباتُ وتُرَدُّ تلكَ الأرواحُ بعينِها إلى تلكَ الأجسادِ التي أُحيلَتْ ثمَّ أُنْشِئَتْ نشأةً أُخرى، وكذٰلكَ القبورُ تُبَعْثَرُ وكذٰلكَ الجبالُ تُسَيَّرُ ثمَّ تُنْسَفُ وتَصيرُ كالعهنِ المنفوشِ وتَقيءُ الأرضُ يومَ القيامةِ أفلاذَ أكبادِها أمثالَ الأُسطوانِ مِن الذَّهبِ والفضَّةِ وتَميدُ الأرضِ وتَدْنو الشَّمسُ مِن رؤوسِ النَّاسِ. . .

فهٰذا هوَ الذي أخْبَرَ بهِ القرآنُ والسُّنَّةُ، ولا سبيلَ لأحدٍ مِن الملاحدةِ الفلاسفةِ وغيرِهِم إلى الاعتراضِ على هٰذا المعادِ الذي جاءَتْ بهِ الرُّسلُ بحرفٍ واحدٍ. وإنَّما

---

(١) الحكم الذي ثبت بشرعه وأمره: الحكم الذي نزل الإسلام به. الحكم المستصحب بالبراءة الأصليّة: ما كان حلالاً قبل الإسلام وجرى المسلمون عليه دون أن ينزل الإسلام فيه بتحليل.

(٢) سجر البحار: ٱشتعالها وٱتّقادها نارًا، وقيل: ٱمتلاؤها. والأوّل أولى، وعليه جماعة من أهل العلم، وليس هٰذا محلّ التفصيل به. والله أعلم.

ٱعتراضاتُهُم على المعادِ الذي عليهِ طائفةٌ مِن المتكلِّمينَ أنَّ الرُّسلَ جاؤوا بهِ[(١)]، وهوَ أنَّ اللهَ يُعْدِمُ أجزاءَ العالَمِ العلويِّ والسُّفليِّ كلِّها فيَجْعَلُها عدمًا محضًا ثمَّ يُعيدُ ذٰلكَ العدمَ وجودًا! ويا ليتَ شعري! أينَ في القرآنِ والسُّنَّةِ أنَّ اللهَ يُعْدِمُ ذرَّاتِ العالَمِ وأجزاءَهُ جملةً ثمَّ يَقْلِبُ ذٰلكَ العدمَ وجودًا؟!

وهٰذا هوَ المعادُ الذي أنْكَرَتْهُ الفلاسفةُ ورَمَتْهُ بأنواعِ الاعتراضاتِ وضروبِ الإلزاماتِ وٱحْتاجَ المتكلِّمونَ إلى تعسُّفِ الجوابِ وتقريرِهِ بأنواعٍ مِن المكابراتِ. وأمَّا المعادُ الذي أخْبَرَتْ بهِ الرُّسلُ؛ فبريءٌ مِن ذٰلكَ كلِّهِ مصونٌ عنهُ لا مطمعَ للعقلِ في الاعتراضِ عليهِ ولا يُقَدِّمُ فيهِ شبهةً واحدةً.

وقد أخْبَرَ سبحانَهُ: أنَّهُ يُحْيي العظامَ بعدَما صارَتْ رميمًا، وأنَّهُ قد عَلِمَ ما تَنْقُصُ الأرضُ مِن لحومِ بني آدمَ وعظامِهِم فيَرُدُّ ذٰلكَ إليهِم عندَ النَّشأةِ الثَّانيةِ، وأنَّهُ يُنْشِئُ تلكَ الأجسادَ بعينِها بعدَما بَلِيَتْ نشأةً أُخرى ويَرُدُّ إليها تلكَ الأرواحَ. فلمْ يَدُلَّ القرآنُ على أنَّهُ يُعْدِمُ تلكَ الأرواحَ ويُفْنيها حتَّى تَصيرَ عدمًا محضًا ثمَّ يَخْلُقُها خلقًا جديدًا[(٢)]، ولا دَلَّ على أنَّهُ يُفْني الأرضَ والسَّماواتِ ويُعْدِمُهُما عدمًا صرفًا ثمَّ يُجَدِّدُ وجودَهُما، وإنَّما دَلَّتِ النُّصوصُ على تبديلِهِما وتغييرِهِما مِن حالٍ إلى حالٍ.

فلو أُعْطِيَتِ النُّصوصُ حقَّها؛ لارْتَفَعَ أكثرُ النِّزاعِ مِن العالَمِ، ولٰكنْ خَفِيَتِ النُّصوصُ وفُهِمَ منها خلافُها وخلافُ مرادِها، وٱنْضافَ إلى ذٰلكَ تسليطُ الآراءِ عليها وٱتِّباعُ ما تَقْضي بهِ، فتَضاعَفَ البلاءُ وعَظُمَ الجهلُ وٱشْتَدَّتِ المحنةُ وتَفاقَمَ الخطبُ. وسببُ ذٰلكَ كلِّهِ الجهلُ بما جاءَ بهِ الرَّسولُ وبالمرادِ منهُ[(٣)]. فليسَ للعبدِ أنفعُ مِن سمعِ

---

(١) يعني: وزعموا أنّ الرسل جاؤوا به؛ شأن المتكلّمين في فلسفة مختلف القضايا الشرعيّة وإلقاء ظلال منطقهم البغيض عليها ثمّ إلصاقها بدين الرسل. والمشكل حقًّا أنّ أكثر الناس لا يعرفون أصول دين الرسل إلّا من خلال كتب المتكلّمة أو من تلقّى عنها. وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

(٢) في ط: «فلم يدلّ على أنّه يعدم تلك الأرواح ويفنيها حتّى تصير عدمًا محضًا فلم يدلّ القرآن على أنّه يعدم تلك الأرواح ثمّ يخلقها خلقًا جديدًا»!

(٣) وهٰذه الفقرة على ٱختصارها جامعة لأسباب النزاع في العالم بأسره؛ لأنّ المنازع للحقّ أحد ٱثنين: جاهل به، أو عالم به ولٰكنّه حكّم عقله عليه وٱتّبع هواه. والله يرحم ابن القيّم ويجزيه خير الجزاء.

ما جاءَ بِهِ الرَّسولُ وعقلٍ معناهُ، وأمَّا مَن لمْ يَسْمَعْهُ ولمْ يَعْقِلْهُ؛ فهوَ مِن الذينَ قالَ اللهُ فيهِم: ﴿وَقالوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا في أَصْحابِ السَّعيرِ﴾ [الملك: ١٠].

فلْنَرْجِعْ إلى الكلامِ على الدَّليلِ المذكورِ، وهوَ أنَّ الحسنَ أو القبحَ لو كانَ ذاتيًّا لَما ٱخْتَلَفَ... إلى آخرِهِ، فنَقولُ: قد بَيَّنَّا أنَّ ٱختلافَهُ بحسبِ الأزمنةِ والأمكنةِ والأحوالِ والشُّروطِ لا يُخْرِجُهُ عن كونِهِ ذاتيًّا[1].

* **الثَّاني**[2]: أنَّهُ ليسَ المَعْنِيُّ مِن كونِهِ ذاتيًّا إلَّا أنَّهُ ناشئٌ مِن الفعلِ، فالفعلُ منشؤُهُ، وهٰذا لا يُوجِبُ [عدمَ] ٱختلافِهِ [بٱختلافِ الأحوالِ]، بدليلِ[3] ما ذَكَرْنا مِن الصُّورِ.

* **الثَّالثُ**: أنَّهُ يَجوزُ ٱقتضاءُ الذَّاتِ الواحدةِ لأمرينِ متنافيينِ بحسبِ شرطينِ متنافيينِ: فيَقْتَضي التَّبريدَ مثلاً في محلٍّ معيَّنٍ بشرطٍ معيَّنٍ، والتَّسخينَ في محلٍّ آخرَ بشرطٍ آخرَ[4]. والجسمُ في حيِّزِهِ يَقْتَضي السُّكونَ، فإذا خَرَجَ عن حيِّزِهِ؛ ٱقْتَضى الحركةَ. واللحمُ يَقْتَضي الصِّحَّةَ بشرطِ سلامةِ البدنِ مِن الحمَّى والمرضِ المانعِ[5] مِن الاغتذاءِ، ويَقْتَضي المرضَ بشرطِ كونِ الجسمِ محمومًا ونحوَهُ. ونظائرُ ذٰلكَ أكثرُ مِن أنْ تُحْصى[6].

فإنْ قيلَ: محلُّ النِّزاعِ أنَّ الفعلَ لذاتِهِ أو لوصفٍ لازمٍ لهُ يَقْتَضي الحسنَ والقبحَ، والشَّرطانِ المتنافيانِ يَمْتَنِعُ أنْ يَكونَ كلٌّ واحدٍ منهما وصفًا لازمًا؛ لأنَّ اللازمَ يَمْتَنِعُ ٱنفكاكُ الشَّيءِ عنهُ!

---

(١) فيما تقدّم في الوجه الأوّل من بيان فساد مسلك القاضي وأبي المعالي وابن الحاجب.

(٢) كذا! وليس هاهنا وجه آخر في ردّ مسلك القاضي وأبي المعالي وٱبن الحاجب، وإنّما هو تقرير لما تقدّم في الوجه الأوّل وخاتمة له!

(٣) في ط: «وهٰذا لا يوجب ٱختلافه بدليل»! ولا معنى له! ولا يستقيم المعنى إلّا بما أضفته.

(٤) ألا ترى إلى الكهرباء: تقتضي التبريد إذا مرّت في المكيّف، وتقتضي التسخين إذا مرّت في المدفأة؟ فالله يرحم ابن القيّم ما أسدّ رأيه!

(٥) في ط: «والمرض الممتنع»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٦) إي والله أكثر من أن تحصى! وهٰذا الماء فيما ذكره الكيماويّون المعاصرون: يسلك سلوك الأحماض في الأوساط القاعديّة، وسلوك القواعد في الأوساط الحامضيّة!

قيلَ: معنى كونِه يَقْتَضي الحسنَ والقبحَ لذاتِه أو لوصفِهِ اللازمِ: أنَّ الحسنَ يَنْشأُ مِن ذاتِه أو مِن وصفِهِ بشرطٍ معيَّنٍ، والقبحَ يَنْشأُ مِن ذاتِه أو مِن وصفِهِ بشرطٍ آخرَ، فإذا عَدِمَ شرطُ الاقتضاءِ أو وُجِدَ مانعٌ يَمْنَعُ الاقتضاءَ؛ زالَ الأمرُ المترتِّبُ بحسبِ الذَّاتِ أوِ الوصفِ لزوالِ شرطِهِ أو لوجودِ مانعِهِ. وهٰذا واضحٌ جدًّا.

* **الثَّالثُ**[١]: أنَّ قولَكُمْ: «يَحْسُنُ الكذبُ إذا تَضَمَّنَ عصمةَ نبيٍّ أو مسلمٍ»؛ فهٰذا فيهِ طريقانِ:

[١] **أحدُهُما**: لا نُسَلِّمُ أنَّهُ يَحْسُنُ الكذبُ، فضلاً عن أنْ يَجِبَ، بل لا يكونُ الكذبُ إلَّا قبيحًا. وأمَّا الذي يَحْسُنُ؛ فالتَّعريضُ والتَّوريةُ: كما وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ النَّبويَّةُ[٢]، وكما عَرَّضَ إبراهيمُ للملكِ الظَّالمِ بقولِهِ «هٰذهِ أُختي» لزوجتِهِ، وكما قالَ «إنِّي سقيمٌ» فعَرَّضَ بأنَّهُ سقيمٌ قلبُهُ مِن شركِهِم أو سَيَسْقَمُ يومًا ما، وكما فَعَلَ في قولِهِ ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]؛ فإنَّ الخبرَ والطَّلبَ كلاهُما معلَّقٌ بالشَّرطِ والشَّرطُ متَّصلٌ بهما[٣]. ومعَ هٰذا؛ فسَمَّاها ﷺ ثلاثَ كذباتٍ[٤]، وامْتَنَعَ بها مِن مقامِ الشَّفاعةِ[٥]. فكيفَ يَصِحُّ دعواكُم أنَّ الكذبَ يَجِبُ إذا تَضَمَّنَ عصمةَ مسلمٍ معَ ذٰلكَ؟!

فإنْ قيلَ: كيفَ سمَّاها إبراهيمُ كذباتٍ وهيَ توريةٌ وتعريضٌ صحيحٌ؟!

---

(١) كذا في ط! وقد تقدّم الوجه الثالث قبل سطور، فحقّ هٰذا أن يكون الرابع.

والراجح فيما أرى أنّ هاهنا تحريفًا، لٰكن ليس في هٰذا الموضع، بل عند قوله «الثاني أنّه ليس المعنيّ»، فهٰذا تقرير لما كان في الوجه الأوّل كما تقدّم، ولفظة «الثاني» فيه تحريف أو إضافة من الناسخ، ولفظة «الثالث» الأولى محرّفة عن «الثاني» أو من تعديل الناسخ، وهٰذا هو الثالث على الصواب.

(٢) صحّت حوادث عدّة في تعريضه ﷺ في المزاح والجدّ وفي إقراره بذٰلك. ولتفصيله مواضع أخر.

(٣) الخبر هو «بل فعله كبيرهم هٰذا»! والطلب «فاسألوهم»، والشرط «إن كانوا ينطقون».

وعليه؛ فمعنى كلام سيّدنا إبراهيم ﷺ: إن كانت هٰذه الأصنام تنطق؛ فالذي كسّرها هو الصنم الكبير، فاسألوها. وهٰذا كلام متين وصحيح وليس فيه أيّ كذب، وهو من باب: لو كان لله ولد؛ فأنا أوّل العابدين.

(٤) فيما رواه: البخاري (٦٠ـ الأنبياء، ٨ـ واتّخذ الله إبراهيم خليلاً، ٦/ ٣٨٨/ ٣٣٥٨)، ومسلم (٤٣ـ الفضائل، ٤١ـ فضائل إبراهيم، ٤/ ١٨٤٠/ ٢٣٧١)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) كما ثبت في حديث أنس المتّفق عليه الذي تقدّم تخريجه (١/ ٨٢).

قيلَ: لا يَلْزَمُنا جوابُ هٰذا السُّؤالِ؛ إذِ الغرضُ إبطالُ ٱستدلالِكُم، وقد حَصَلَ، فالجوابُ عنهُ تبرُّعٌ منَّا وتكميلٌ للفائدةِ.

ولمْ أجِدْ في هٰذا المقامِ للنَّاسِ جوابًا شافيًا يَسْكُنُ القلبُ إليهِ. وهٰذا السُّؤالُ لا يَخْتَصُّ بِهِ طائفةٌ معيَّنةٌ بل هوَ واردٌ عليكُم بعينِهِ. وقد فَتَحَ اللهُ الكريمُ بالجوابِ عنهُ فنَقولُ: الكلامُ لهُ نسبتانِ: نسبةٌ إلى المتكلِّمِ وقصدِهِ وإرادتِهِ، ونسبةٌ إلى السَّامعِ وإفهامِ المتكلِّمِ إيَّاهُ مضمونَهُ. فإذا أخْبَرَ المتكلِّمُ بخبرٍ مطابقٍ للواقعِ، وقَصَدَ إفهامَ المخاطَبِ؛ فهوَ صدقٌ مِن الجهتينِ[1]. وإنْ قَصَدَ خلافَ الواقعِ، وقَصَدَ معَ ذٰلكَ إفهامَ المخاطَبِ خلافَ ما قَصَدَ بل معنًى ثالثًا لا هو الواقعُ ولا هوَ المرادُ؛ فهوَ كذبٌ مِن الجهتينِ بالنِّسبتينِ معًا[2]. وإنْ قَصَدَ معنًى مطابقًا صحيحًا، وقَصَدَ مع ذٰلكَ التَّعميةَ على المخاطبِ وإفهامَهُ خلافَ ما قَصَدَهُ؛ فهوَ صدقٌ بالنِّسبةِ إلى قصدِهِ كذبٌ بالنِّسبةِ إلى إفهامِهِ[3]. ومِن هٰذا البابِ التَّوريةُ والمعاريضُ. وبهٰذا أُطْلِقَ عليها إبراهيمُ الخليلُ ﷺ ٱسمَ الكذبِ، معَ أنَّهُ الصَّادقُ في خبرِهِ ولمْ يُخْبِرْ إلَّا صدقًا. فتَأمَّلْ هٰذا الموضعَ الذي أشْكَلَ على النَّاسِ.

وقد ظَهَرَ بهٰذا أنَّ الكذبَ لا يكونُ قطُّ إلَّا قبيحًا، وأنَّ الذي يَحْسُنُ ويَجِبُ إنَّما هوَ التَّوريةُ، وهيَ صدقٌ، وقد يُطْلَقُ عليها الكذبُ بالنِّسبةِ إلى الإفهامِ لا إلى الغايةِ[4].

---

(١) فلو نجح زيد، فقال المتكلّم: نجح زيد، وفهم السامع أنّ زيدًا نجح؛ فقد صدق المتكلّم، وفهم السامع ما أراده المتكلّم، فهو صدق من الجهتين.

(٢) فيه إشكال لم يتبيّن له وجه تحريره من تحريف أو سقط أو زيادة في غير محلّها؛ لأنّ الكذب بالنسبتين لا يحتاج إلى توسّط معنًى ثالث بناء على ما تقدّم! فلو نجح زيد، فقصد المتكلّم خلاف الواقع وقال: ما نجح زيد، وفهم السامع ما قصده المتكلّم من عدم نجاح زيد؛ فهٰذا كذب من الجهتين؛ لأنّ قصد المتكلّم الكذب، وأفهم السامع الكذب.

(٣) فلو نام زيد، فقال المتكلّم: توفّي زيد؛ فهٰذا معنًى صحيح، لأنّ الوفاة ترادف النوم في القرآن الكريم، ولٰكنّ المتكلّم لا يريد أن يفهم السامع هٰذا المعنى على وجهه الصحيح بل يريده أن يفهم أنّ زيدًا مات ورحل عن الدنيا. فهٰذا صدق بالنسبة للمتكلّم، كذب بالنسبة لما فهمه السامع.

(٤) في ط: «لا إلى العناية»! ولا محلّ هنا للفظة «العناية»، بل هي تحريف لما أثبتّه. ومعنى الكلام: هي كذب بالنسبة إلى ما فهمه السامع لا إلى غاية المتكلّم ومقصده الحقيقيّ من كلامه.

[٢] **الطَّريقُ الثَّاني**: أنَّ تخلُّفَ القبحِ عنِ الكذبِ لفواتِ شرطٍ أو قيامِ مانعٍ يَقْتَضي مصلحةً راجحةً على الصِّدقِ لا يُخْرِجُهُ عن كونِهِ قبيحًا لذاتِهِ، وتقريرُهُ ما تَقَدَّمَ. وقد تَقَدَّمَ أنَّ اللهَ سبحانَهُ حَرَّمَ الميتةَ والدَّمَ ولحمَ الخنزيرِ للمفسدةِ التي في تناولِها، وهيَ ناشئةٌ مِن ذواتِ هٰذهِ المحرَّماتِ، وتخلُّفُ التَّحريمِ عنها عندَ الضَّرورةِ لا يُوجِبُ أنْ تكونَ ذاتُها غيرَ مقتضيةٍ للمفسدةِ التي حُرِّمَتْ لأجلِها. فهٰكذا الكذبُ المتضمِّنُ نجاةَ نبيٍّ أو مسلمٍ.

* **الوجهُ الرَّابعُ**: قولُهُ: «لو كانَ ذاتيًّا؛ لاجْتَمَعَ النَّقيضانِ في صدقِ مَن قالَ لأكذبنَّ غدًا وكذبِهِ...» إلى آخرِ ما ذَكَرَ. جوابُهُ: أنَّهُ متى يَجْتَمِعُ النَّقيضانِ: إذا كانَ الحسنُ والقبحُ باعتبارٍ واحدٍ مِن جهةٍ واحدةٍ، أو إذا كانا[١] باعتبارينِ مِن جهتينِ، أو أعمَّ مِن ذٰلكَ؟

فإنْ عَنَيْتُمُ الأوَّلَ؛ فمسلَّمٌ، ولٰكنْ لا نُسَلِّمُ الملازمةَ[٢]؛ فإنَّهُ لا يَلْزَمُ مِن اجتماعِ الحسنِ والقبحِ في الصُّورةِ المذكورةِ أنْ يَكونَ لجهةٍ واحدةٍ واعتبارٍ واحدٍ؛ فإنَّ اجتماعَ الحسنِ والقبحِ فيهما باعتبارينِ مختلفينِ مِن جهتينِ متباينتينِ، وهٰذا ليسَ ممتنعًا؛ فإنَّهُ إذا كانَ كذبًا؛ كانَ قبيحًا بالنَّظرِ إلى ذاتِهِ وحسنًا بالنَّظرِ إلى تضمُّنِهِ صدقَ الخبرِ الأوَّلِ. ونظيرُهُ أنْ يَقولَ: واللهِ لأشْرَبَنَّ الخمرَ غدًا، أو: واللهِ لأسْرِقَنَّ هٰذا الثَّوبَ غدًا، ونحوَهُ.

وإنْ عَنَيْتُمُ الثَّانيَ؛ فهوَ حقٌّ، ولٰكنْ لا نُسَلِّمُ انتفاءَ اللازمِ[٣].

وإنْ عَنَيْتُمُ الثَّالثَ؛ مَنَعْنا الملازمةَ أيضًا على التَّقديرِ الأوَّلِ، وانتفاءَ اللازمِ على التَّقديرِ الثَّاني. وهٰذا واضحٌ جدًّا.

* **الوجهُ الخامسُ**: قولُهُ «القتلُ والضَّربُ حسنٌ إذا كانَ حدًّا أو قصاصًا وقبيحٌ في غيرِهِ، فلو كانَ ذاتيًّا؛ لاجْتَمَعَ النَّقيضانِ» كلامٌ في غايةِ الفسادِ:

---

(١) في ط: «وإذا كانا»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) «لا نسلّم الملازمة»: لا نسلّم أنّ المثال الذي ذكرتموه يستلزم اجتماع الحسن والقبح باعتبار واحد من جهة واحدة. وقد تقدّم بيان ذٰلك أوضح بيان في متن الصفحة السابقة وحواشيها.

(٣) «وإن عنيتم الثاني»: إن عنيتم أنّ الحسن والقبح اجتمعا في المثال المذكور باعتبارين مختلفين من جهتين متباينتين. «فهو حقّ»: فقد صدقتم. «لٰكن لا نسلّم انتفاء اللازم»: لا نسلّم أنّ اجتماع الحسن والقبح على هٰذه الصورة يجعلهما غير ذاتيّين.

فإنَّ القتلَ والضَّربَ واحدٌ بالنَّوعِ: فالقبيحُ منهُ ما كانَ ظلمًا وعدوانًا، والحسنُ منهُ ما كانَ جزاءً على إساءةٍ إمَّا حدًّا وإمَّا قصاصًا. فلمْ يَرْجِعِ الحسنُ والقبحُ إلى واحدٍ بالعينِ[١]. ونظيرُ هٰذا السُّجودُ: فإنَّهُ في غايةِ الحسنِ لذاتِهِ إذا كانَ عبوديَّةً وخضوعًا للواحدِ المعبودِ، وفي غايةِ القبحِ إذا كانَ لغيرِهِ.

ولو سَلَّمْنا أنَّ القتلَ والضَّربَ الواحدَ بالعينِ إذا كانَ حدًّا أو قصاصًا فإنَّهُ يَكونُ حسنًا قبيحًا؛ لَمْ يَكُنْ ذٰلكَ محالاً؛ لأنَّهُ بٱعتبارينِ: فهوَ حسنٌ لِما تَضَمَّنَهُ مِن الزَّجرِ والنَّكالِ وعقوبةِ المستحِقِّ، وقبيحٌ بالنَّظرِ إلى المقتولِ المضروبِ. فهوَ قبيحٌ لهُ، حسنٌ في نفسِهِ. وهٰذا كما أنَّهُ مكروهٌ مبغوضٌ لهُ، وهوَ محبوبٌ مرضيٌّ لفاعلِهِ والآمرِ بهِ. فأيُّ محالٍ في هٰذا؟!

فظَهَرَ أنَّ هٰذا الدَّليلَ فاسدٌ[٢]. واللهُ أعلمُ.

[١٣] فصل
[في رد قول من زعم أن إثبات الحسن والقبح العقليين]
[يستلزم أن لا يكون الخالق مختارا]

فهٰذهِ أقوى أدلَّةِ النُّفاةِ بٱعترافِهِم بضعفِ ما سواها، فلا حاجةَ بنا إلى ذكرِها وبيانِ فسادِها[٣]؛ فقد تَبَيَّنَ الصُّبحُ لذي عينينِ، وجُلِيَتْ عليكَ المسألةُ رافلةً في حللِ أدلَّتِها الصَّحيحةِ وبراهينِها المستقيمةِ.

---

(١) الواحد بالنوع مثل «الإنسان»، والواحد بالعين مثل «زيد» «عمرو»... «الضرب واحد بالنوع»: الضرب نوع عامّ يضمّ تحته أعيانًا أو مفردات كثيرة كضرب الولد وضرب الجار وضرب الاعتداء وضرب الأعداء وضرب التأديب وضرب التعذيب. «واحد بالعين»: فرد واحد من أفراد النوع.

(٢) لأنّه مبنيّ على أصل فاسد، وهو النظر إلى اللفظة المفردة مصدرًا كانت أو فعلاً والحكم عليها بالحسن أو القبح. وأصل الردّ عليه هو أنّ اللفظة لا تصير مفيدة إلاّ إذا كانت في سياق جملة تامّة المعنى، وعندئذ يحكم عليها بالصحّة والخطإ والحسن والقبح... إلخ. فتمسّك بهٰذا؛ فإنّه يلخّص لك ما تقدّم من حجّة القوم وردّ ابن القيّم قدّس الله روحه لها، ويعينك على التعامل مع جملة طويلة عريضة من حجج أهل الكلام في قضايا التوحيد والإيمان والقدر وأصول الفقه.

(٣) لأنّ أهلها الذين يُفترض بهم نصرها والدفاع عنها قد ٱعترفوا بفسادها، وأهل مكّة أدرى بشعابها.

ولا تَغْضُضْ طرفَ بصيرتِكَ عن هٰذهِ المسألةِ؛ فإنَّ شأْنَها عظيمٌ وخطبُها جسيمٌ.

● وقدِ ٱحْتَجَّ بعضُهُم بدليلٍ أفسدَ مِن هٰذا كلِّهِ، فقالوا: لو حَسُنَ الفعلُ أو قَبُحَ لذاتِهِ أو لصفةٍ؛ لمْ يَكُنِ البارئُ تَعالى مختارًا في الحُكمِ؛ لأنَّ الحُكمَ بالمرجوحِ على خلافِ المعقولِ، فيَلْزَمُ الآخرُ، فلا ٱخْتيارَ!

وتقريرُ هٰذا الاستدلالِ ببيانِ الملازمةِ المذكورةِ أوَّلاً وبيانِ ٱنتفاءِ اللازمِ ثانيًا:

● أمَّا **المقامُ الأوَّلُ**، وهوَ بيانُ الملازمةِ: فإنَّ الفعلَ لو حَسُنَ لذاتِهِ أو لصفتِهِ؛ لَكانَ راجحًا على القبحِ في كونِهِ متعلَّقًا للوجوبِ أوِ النَّدبِ، ولو قَبُحَ لذاتِهِ أو لصفتِهِ؛ لَكانَ راجحًا على الحسنِ في كونِهِ متعلَّقًا للتَّحريمِ أو الكراهةِ. فحينئذٍ: إمَّا أنْ يَتَعَلَّقَ الحُكمُ بالرَّاجحِ المقتضي لهُ أو المرجوحِ المقتضي لضدِّهِ، والثَّاني باطلٌ قطعًا لاستلزامِهِ ترجيحَ المرجوحِ وهوَ باطلٌ بصريحِ العقلِ، فتَعَيَّنَ الأوَّلُ ضرورةً. فإذا كانَ تعلُّقُ الحكمِ بالرَّاجحِ لازمًا ضرورةً؛ لمْ يَكُنِ الباري مختارًا في حُكمِهِ[1]!

● فتَأَمَّلْ هٰذهِ الشُّبهةَ ما أفسدَها وأبينَ بطلانَها! والعجبُ ممَّن يَرْضى لنفسِهِ أنْ يَحْتَجَّ بمثلِها!

* وحسبُكَ[2] فسادًا لحجَّةٍ مضمونُها[3] أنَّ اللهَ تَعالى لمْ يَشْرَعِ السُّجودَ لهُ وتعظيمَهُ وشكرَهُ ويُحَرِّمِ السُّجودَ للصَّنمِ وتعظيمَهُ لحسنِ هٰذا وقبحِ هٰذا، [وإنَّما شَرَعَهُ][4] معَ ٱستوائِهِما تفريقًا بينَ المتماثلينِ! فأيُّ برهانٍ أوضحُ مِن هٰذا على فسادِ هٰذهِ الشُّبهةِ الباطلةِ؟!

* **الثَّاني**[5]: أنْ يُقالَ: هٰذا يُوجِبُ أنْ تكونَ أفعالُهُ كلُّها مستلزمةً للتَّرجيحِ بغيرِ

---

(١) وللإيضاح أقول: إذا كان الصدق حسنًا لذاته؛ فالأمر به راجح والأمر بالكذب مرجوح، والأمر بالمرجوح باطل عقلاً، فوجب أن يأمر الله بالراجح، وإذا وجب على الله شيء ولزمه الأمر به والنهي عن ضده؛ لم يكن سبحانه مختارًا! فتأمّل هٰذا الدليل العجيب الذي يتنزّه عنه تلاميذ المدارس! ثمّ سل نفسك: ما الذي جعل أولٰئك الأذكياء يتمرّغون في هٰذه الأوحال؟! إنّه علم الكلام؛ الفلسفة والمنطق؛ أبعده الله من علم.

(٢) من هنا بدأ الكلام في المقام الثاني، وهو بيان ٱنتفاء اللازم، وله عدّة وجوه هٰذا أوّلها.

(٣) في ط: «وحسبك فساد الحجّة مضمونها»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) ساقطة من ط! ولا يستقيم الكلام إلاّ بها أو بنحوها.

(٥) كذا صرّح بالثاني دون الأوّل، وهو ما تقدّم من ٱستلزامه ٱستواء السجود لله وللصنم.

مرجِّح[١]؛ إذْ لو تَرَجَّحَ الفعلُ منها بمرجِّحٍ؛ لَزِمَ عدمُ الاختيارِ بعينِ ما ذَكَرْتُمْ؛ إذِ الحكمُ بالمرجِّحِ لازمٌ.

فإنْ قيلَ: لا يَلْزَمُ الاضطرارُ وتركُ الاختيارِ؛ لأنَّ المرجِّحَ هوَ الإرادةُ والاختيارُ.

قيلَ: فهلاَّ قَنَعْتُمْ بهٰذا الجوابِ منَّا وقُلْتُم إذًا: كانَ ٱختيارُهُ تَعالى متعلِّقًا بالفعلِ لِما فيهِ مِن المصلحةِ الدَّاعيةِ إلى فعلِهِ وشرعِهِ وتحريمُهُ لهُ لِما فيهِ مِن المفسدةِ الدَّاعيةِ إلى تحريمِهِ والمنعِ منهُ، فكانَ الحكمُ بالرَّاجحِ في الموضعينِ متعلِّقًا بٱختيارِهِ تَعالى وإرادتِهِ؛ فإنَّهُ الحكيمُ في خلقِهِ وأمرِهِ: فإذا عَلِمَ في الفعلِ مصلحةً راجحةً شرعيَّةً؛ أَوْجَبَهُ وشَرَعَهُ وفَرَضَهُ، وإذا عَلِمَ فيهِ مفسدةً راجحةً؛ كَرِهَهُ وأَبْغَضَهُ وحَرَّمَهُ. هٰذا في شرعِهِ. وكذٰلكَ في خلقِهِ لمْ يَفْعَلْ شيئًا إلاَّ ومصلحتُهُ راجحةٌ وحكمتُهُ ظاهرةٌ[٢]، وٱشتمالُهُ على المصلحةِ والحكمةِ التي فَعَلَهُ لأجلِها لا يُنافي ٱختيارَهُ، بل لا يَتَعَلَّقُ [ٱختيارُهُ][٣] بالفعلِ إلاَّ لِما فيهِ مِن المصلحةِ والحكمةِ، وكذٰلكَ تركُهُ لِما فيهِ مِن خلافِ حكمتِهِ. فلا يَلْزَمُ مِن تعلُّقِ الحكمِ بالرَّاجحِ أنْ لا يكونَ الحكمُ ٱختياريًّا؛ فإنَّ المختارَ الذي هوَ أحكمُ الحاكمينَ لا يَخْتارُ إلاَّ ما يكونُ على وَفْقِ الحكمةِ والمصلحةِ.

* **الثَّالثُ**: أنَّ قولَهُ «إذا لَزِمَ تعلُّقُ الحكمِ بالرَّاجحِ لمْ يَكُنْ مختارًا» تلبيسٌ؛ فإنَّهُ إنَّما تَعَلَّقَ بالرَّاجحِ بٱختيارِهِ وإرادتِهِ، وٱختيارُهُ وإرادتُهُ ٱقْتَضَتْ تعلُّقَهُ بالرَّاجحِ على وجهِ اللزومِ؛ فكيفَ لا يكونُ مختارًا وٱختيارُهُ ٱسْتَلْزَمَ تعلُّقَ الحكمِ بالرَّاجحِ؟!

* **الرَّابعُ**: أنَّ تعلُّقَ حكمِهِ تَعالى بالفعلِ المأمورِ بهِ أوِ المنهيِّ عنهُ إمَّا أنْ يكونَ جائزَ الوجودِ والعدمِ أو راجحَ الوجودِ أو راجحَ العدمِ: فإنْ كانَ جائزَ الطَّرفينِ؛ لمْ يَتَرَجَّحْ أحدُهُما إلاَّ بمرجِّحٍ. وإنْ كانَ راجحًا؛ فالتَّعلُّقُ لازمٌ؛ لأنَّ الحكمَ يَمْتَنِعُ ثبوتُهُ معَ المساواةِ ومعَ المرجوحيَّةِ: أمَّا الأوَّلُ؛ فلاستلزامِهِ التَّرجيحَ بلا مرجِّحٍ، وأمَّا الثَّاني؛

---

(١) يعني: وهو باطل عقلاً وشرعًا، ففررتم من باطل مزعوم فوقعتم في مثله!

(٢) وقد أطال ابن القيّم قدّس الله روحه في الفصول الماضية في إرساء هٰذه الحقيقة وتثبيتها في الأذهان، ثمّ أوصى بقياس الغائب بالحاضر والخفيّ بالمنظور.

(٣) ساقطة من ط! ولا يستقيم الكلام إلاّ بها أو بنحوها.

فلاستلزامِهِ ترجيحَ المرجوحِ. وهوَ باطلٌ بصريحِ العقلِ[١]. فلا يَثْبُتُ إلَّا معَ المرجِّحِ التَّامِّ، وحينئذٍ فيَلْزَمُ عدمُ الاختيارِ[٢]. وما تُجيبونَ بهِ عنِ الإلزامِ المذكورِ هوَ جوابُنا[٣] بعينِهِ عن شبهتِكُمُ التي ٱسْتَدْلَلْتُمْ بها.

* الخامسُ: أنَّ هٰذهِ الشُّبهةَ الفاسدةَ مستلزمةٌ لأحدِ الأمرينِ ولا بدَّ: إمَّا التَّرجيحُ بلا مرجِّحٍ، وإمَّا أنْ لا يَكونَ الباري تَعالى مختارًا كما قَرَّرْتُم! وكلاهُما باطلٌ.

* السَّادسُ: أنَّها تَقْتَضي أنْ لا يَكونَ في الوجودِ قادرٌ مختارٌ إلَّا مَن يُرَجِّحُ أحدَ المتساويينِ على الآخرِ بلا مرجِّحٍ، وأمَّا مَن رَجَّحَ أحدَ الجائزينِ بمرجِّحٍ؛ فلا يَكونُ مختارًا! وهٰذا مِن أبطلِ الباطلِ[٤]! بلِ القادرُ المختارُ لا يُرَجِّحُ أحدَ مقدورَيْهِ على الآخرِ إلَّا بمرجِّحٍ، وهوَ معلومٌ بالضَّرورةِ.

[١٤ـ فصل]

[في رد ٱحتجاج نفاة الحسن والقبح بقوله تعالى]

[وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا]

وٱحْتَجَّ النُّفاةُ أيضًا بقولِهِ تَعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

ووجهُ الاحتجاجِ بالآيةِ أنَّهُ سبحانَهُ نَفى التَّعذيبَ قبلَ بعثةِ الرُّسلِ، فلو كانَ حسنُ الفعلِ وقبحُهُ ثابتًا لهُ[٥] قبلَ الشَّرعِ؛ لَكانَ مرتكبُ القبيحِ وتاركُ الحسنِ فاعلًا للحرامِ وتاركًا للواجبِ؛ لأنَّ قبحَهُ عقلًا يَقْتَضي تحريمَهُ عقلًا عندَكُم وحسنَهُ عقلًا يَقْتَضي

---

(١) يعني: الترجيح بلا مرجّح وترجيح المرجوح، فكلاهما باطل بصريح العقل.

(٢) هم قالوا: إذا كان الحسن والقبح عقليّين؛ فالله مجبر على الحسن غير مختار! وٱستدلّوا لذلك بالدليل المتقدّم. فطرد ابن القيّم دليلهم وقال: فبناء على دليلكم فالله مجبر على الخلق والأمر كلّه غير مختار سواء أكان الحسن والقبح عقليّين أم لا.

(٣) في ط: «هو جوابكم»، وله وجه ضعيف، والجادّة ما أثبتّه.

(٤) فٱنظر إلام يقود علم الكلام! لا يزال أحدهم يأتي بالمقدّمات والشبهات حتّى ينتهي إلى أنّ لون اللبن أسود! والمصيبة كلّ المصيبة أنّه مقتنع أنّه على صواب عامل على إقناع غيره بصوابه!

(٥) يعني للفعل.

وجوبَهُ عقلاً، فإذا فَعَلَ المحرَّمَ وتَرَكَ الواجبَ؛ ٱسْتَحَقَّ العذابَ عندَكُم، والقرآنُ نصٌّ صريحٌ أنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ بدونِ بعثةِ الرُّسلِ. فهٰذا تقريرُ الاستدلالِ ٱحتجاجًا وٱلتزامًا.

ولا ريبَ أنَّ الآيةَ حجَّةٌ على تناقضِ المثبتينَ إذا أثْبَتوا التَّعذيبَ قبلَ البعثةِ. فيَلْزَمُ تناقضُهُم وإبطالُ جمعِهِم بينَ هٰذينِ الحكمينِ: إثباتِ الحسنِ والقبحِ عقلاً، وإثباتِ التَّعذيبِ على ذٰلكَ بدونِ البعثةِ. وليسَ إبطالُ القولِ بمجموعِ الأمرينِ موجبًا لإبطالِ كلِّ واحدٍ منهُما، فلعلَّ الباطلَ هوَ قولُهُم بجوازِ التَّعذيبِ قبلَ البعثةِ، وهٰذا هوَ المتعيِّنُ؛ لأنَّهُ خلافُ نصِّ القرآنِ وخلافُ صريحِ العقلِ أيضًا. فإنَّ اللهَ سبحانَهُ إنَّما أقامَ الحجَّةَ على العبادِ برسلِهِ؛ قالَ تَعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرينَ لِئَلَّا يكونَ لِلنَّاسِ عَلى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]؛ فهٰذا صريحٌ بأنَّ الحجَّةَ إنَّما قامَتْ بالرُّسلِ، وأنَّهُ بعدَ مجيئِهِم لا يَكونُ للنَّاسِ على اللهِ حجَّةٌ، وهٰذا يَدُلُّ على أنَّهُ لا يُعَذِّبُهُم قبلَ مجيءِ الرُّسلِ إليهِم؛ لأنَّ الحجَّةَ حينئذٍ لمْ تَقُمْ عليهِم.

فالصَّوابُ في المسألةِ: إثباتُ الحسنِ والقبحِ عقلاً، ونفيُ التَّعذيبِ على ذٰلكَ إلَّا بعدَ بعثةِ الرُّسلِ. فالحسنُ والقبحُ العقليُّ لا يَسْتَلْزِمُ التَّعذيبَ، وإنَّما يَسْتَلْزِمُهُ مخالفةُ المرسلينَ.

وأمَّا المعتزلةُ؛ فقد أجابوا عن ذٰلكَ بأنْ قالوا: الحسنُ والقبحُ العقليُّ يَقْتَضي ٱستحقاقَ العقابِ على فعلِ القبيحِ وتركِ الحسنِ، ولا يَلْزَمُ مِن ٱستحقاقِ العقابِ وقوعُهُ لجوازِ العفوِ عنهُ. قالوا: ولا يَرِدُ هٰذا علينا حيثُ نَمْنَعُ العفوَ بعدَ البعثةِ إذا أوْعَدَ الرَّبُّ على الفعلِ؛ لأنَّ العذابَ قد صارَ واجبًا بخبرِهِ ومستحقًّا بٱرتكابِ القبيحِ، وهوَ سبحانَهُ لمْ يَحْصُلْ منهُ إيعادٌ قبلَ البعثةِ، فلا يَقْبُحُ العفوُ؛ لأنَّهُ لا يَسْتَلْزِمُ خُلْفًا في الخبرِ، وإنَّما غايتُهُ تركُ حقٍّ لهُ قد[1] وَجَبَ قبلَ البعثةِ. وهٰذا حسنٌ[2].

والتَّحقيقُ في هٰذا أنَّ سببَ العقابِ قائمٌ قبلَ البعثةِ، ولٰكنْ لا يَلْزَمُ مِن وجودِ سببِ

---

(١) في ط: «حقّ له وقد»! والصواب ما أثبتّه.

(٢) وهٰذا من إنصافه وٱعتداله يرحمه الله؛ لم يمنعه بغضه للاعتزال من قبول ما عند القوم من الحقّ.

العذابِ حصولُهُ؛ لأنَّ هٰذا السَّببَ قد نَصَبَ اللهُ لهُ شرطًا وهوَ بعثةُ الرُّسلِ، وٱنتفاءُ التَّعذيبِ قبلَ البعثةِ هوَ لانتفاءِ شرطِهِ لا لعدمِ سببِهِ ومقتضيهِ.

وهٰذا فصلُ الخطابِ في هٰذا المقامِ، وبهِ يَزولُ كلُّ إشكالٍ في المسألةِ ويَنْقَشِعُ غيمُها ويُسْفِرُ صبحُها. واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ.

[١٥ـ فصل]

[في رد زعم النفاة أنه لو كان الفعل حسنا لذاته]

[لامتنع نسخه قبل إيقاع المكلف له]

وٱحْتَجَّ بعضُهُم أيضًا بأنْ قالَ: لو كانَ الفعلُ حسنًا لذاتِهِ؛ لامْتَنَعَ مِن الشَّارعِ نسخُهُ قبلَ إيقاعِ المكلَّفِ لهُ وقبلَ تمكُّنِهِ منهُ؛ لأنَّهُ إذا كانَ حسنًا لذاتِهِ؛ فهوَ منشأٌ للمصلحةِ الرَّاجحةِ؛ فكيفَ يُنْسَخُ ولَمْ تَحْصُلْ منهُ تلكَ المصلحةُ؟!

وأجابَ المعتزلةُ عن هٰذا بالتزامِهِ، ومَنَعوا النَّسخَ قبلَ وقتِ الفعلِ.

ونازَعَهُم جمهورُ هٰذهِ الأُمَّةِ في هٰذا الأصلِ وجَوَّزوا وقوعَ النَّسخِ قبلَ حضورِ وقتِ الفعلِ، ثمَّ ٱنْقَسَموا قسمينِ:

فنفاةُ التَّحسينِ والتَّقبيحِ بَنَوْهُ على أصلِهِم.

ومثبتو التَّحسينِ والتَّقبيحِ أجابوا عن ذٰلكَ بأنَّ المصلحةَ كما تَنْشَأُ مِن الفعلِ؛ فإنَّها أيضًا قد تَنْشَأُ مِن العزمِ عليهِ وتوطينِ النَّفسِ على الامتثالِ، وتكونُ المصلحةُ المطلوبةُ هيَ العزمَ وتوطينَ النَّفسِ لا إيقاعَ الفعلِ في الخارجِ. فإذا أُمِرَ المكلَّفُ بأمرٍ، فعَزَمَ عليهِ وتَهَيَّأَ لهُ ووَطَّنَ نفسَهُ على ٱمتثالِهِ، فحَصَلَتِ المصلحةُ المرادةُ منهُ؛ لَمْ يَمْتَنِعْ نسخُ الفعلِ وإنْ لَمْ يُوقِعْهُ لأنَّهُ لا مصلحةَ لهُ فيهِ. وهٰذا كأمرِ إبراهيمَ الخليلِ بذبحِ ولدِهِ؛ فإنَّ المصلحةَ لَمْ تَكُنْ في ذبحِهِ، وإنَّما كانَتْ في ٱستسلامِ الوالدِ والولدِ لأمرِ اللهِ وعزمِهِما عليهِ وتوطينِهِما أنفسَهُما على ٱمتثالِهِ، فلمَّا حَصَلَتْ هٰذهِ المصلحةُ؛ بَقِيَ الذَّبحُ مفسدةً في حقِّهِما فنَسَخَهُ اللهُ ورَفَعَهُ.

وهٰذا هوَ الجوابُ الحقُّ الشَّافي في المسألةِ، وبهِ تَتَبَيَّنُ الحكمةُ الباهرةُ في إثباتِ

ما أثْبَتَهُ اللهُ مِن الأحكامِ ونسخِ ما نَسَخَهُ منها بعدَ وقوعِهِ ونسخِ ما نَسَخَ منها قبلَ إيقاعِهِ، وأنَّ لهُ في ذٰلكَ كلِّهِ مِن الحِكمِ البالغةِ ما تَشْهَدُ لهُ بأنَّهُ أحكمُ الحاكمينَ وأنَّهُ اللطيفُ الخبيرُ الذي بَهَرَتْ حكمتُهُ العقولَ، فتَبارَكَ اللهُ ربُّ العالَمينَ.

[١٦ـ فصل]

[في رد زعم النفاة أنّ الحسن والقبح العقليين]

[يستلزمان عدم تعلق الطلب بالمطلوب لنفسه]

وممَّا احْتَجَّ بهِ النُّفاةُ أيضًا أنَّهُ: لو حَسُنَ الفعلُ أو قَبُحَ لغيرِ الطَّلبِ؛ لمْ يَكُنْ تعلُّقُ الطَّلبِ [بالمطلوبِ][(١)] لنفسِهِ لتوقُّفِهِ على أمرٍ زائدٍ!

● وتقريرُ هٰذهِ الحجَّةِ: أنَّ حسنَ الفعلِ وقبحَهُ لا يَجوزُ أنْ يَكونَ لغيرِ نفسِ الطَّلبِ، بل لا معنى لحسنِهِ إلَّا كونُهُ مطلوبًا للشَّارعِ إيجادُهُ ولا لقبحِهِ إلَّا كونُهُ مطلوبًا لهُ إعدامُهُ؛ لأنَّهُ لو حَسُنَ وقَبُحَ لمعنًى غيرِ الطَّلبِ الشَّرعيِّ؛ لمْ يَكُنِ الطَّلبُ متعلِّقًا بالمطلوبِ لنفسِهِ، بل كانَ التَّعلُّقُ لأجلِ ذٰلكَ المعنى، فيَتَوَقَّفُ الطَّلبُ على حصولِ الاعتبارِ الزَّائدِ على الفعلِ، وهٰذا باطلٌ؛ لأنَّ التَّعلُّقَ نسبةٌ بينَ الطَّلبِ والفعلِ، والنِّسبةُ بينَ الأمرينِ لا تَتَوَقَّفُ إلَّا على حصولِهِما، فإذا حَصَلَ الفعلُ؛ تَعَلَّقَ الطَّلبُ بهِ، سواءٌ حَصَلَ فيهِ اعتبارٌ زائدٌ على ذاتِهِ أو لا. فإنْ قُلْتُمْ: الطَّلبُ، وإنْ لمْ يَتَوَقَّفْ إلَّا على الفعلِ المطلوبِ والفاعلِ المطلوبِ منهُ، لٰكنَّ تعلُّقَهُ بالفعلِ متوقِّفٌ على جهةِ الحسنِ والقبحِ المقتضي لتعلُّقِ الطَّلبِ بهِ. قُلْنا: الطَّلبُ قديمٌ، والجهةُ الموجبةُ للحسنِ والقبحِ حادثةٌ، ولا يَصِحُّ توقُّفُ القديمِ على الحادثِ. وسرُّ الدَّليلِ أنَّ تعلُّقَ الطَّلبِ بالفعلِ ذاتيٌّ، فلا يَجوزُ أنْ يَكونَ معلَّلًا بأمرٍ زائدٍ على الفعلِ؛ إذْ لو كانَ تعلُّقُهُ بهِ معلَّلًا؛ لمْ يَكُنْ ذاتيًّا.

هٰذا[(٢)] وجهُ تقريرِ هٰذهِ الشُّبهةِ، وإنْ كانَ كثيرٌ مِن شرَّاحِ «المختصرِ»[(٣)] لمْ يَفْهَموا

---

(١) ساقطة من ط، ولا يستقيم السياق إلّا بها أو بنحوها.

(٢) في ط: «وهٰذا»! ولا لزوم للواو.

(٣) الظاهر أنّه يريد «مختصر ابن الحاجب»، وهو مختصر لكتاب «منتهى السول والأمل في علمي=

تقريرَها على هٰذا الوجهِ فقرَّروها على وجهٍ آخرَ لا يُفيدُ شيئًا[١].

● وبعدُ؛ فهيَ شبهةٌ فاسدةٌ مِن وجوهٍ:

* **أحدُها**: أنْ يُقالَ: ما تَعْنونَ بأنَّ تعلُّقَ الطَّلبِ بالفعلِ ذاتيٌّ لهُ؟! أتَعْنونَ بهِ أنَّ التَّعلُّقَ مقوِّمٌ لماهيَّةِ الطَّلبِ وأنَّ تقوُّمَ الماهيَّةِ بهِ كتقوُّمِها بجنسِها وفصلِها[٢]، أم تَعْنونَ بهِ أنَّهُ لا تُعْقَلُ ماهيَّةُ الطَّلبِ إلَّا بالتَّعلُّقِ المذكورِ، أم أمرًا آخرَ؟

فإنْ عَنَيْتُمُ الأوَّلَ، والتَّعلُّقُ نسبةٌ إضافيَّةٌ، وهيَ عدميَّةٌ عندَكُم لا وجودَ لها في الأعيانِ؛ فكيفَ تكونُ النِّسبةُ العدميَّةُ مقوِّمةً للماهيَّةِ الوجوديَّةِ؟! وأنتُم تَقولونَ: إنَّهُ ليسَ لمتعلَّقِ الطَّلبِ مِن الطَّلبِ صفةٌ ثبوتيَّةٌ؛ لأنَّ هٰذا هوَ الكلامُ النَّفسيُّ، وليسَ لمتعلَّقِ القولِ فيهِ صفةٌ ثبوتيَّةٌ!

وإنْ عَنَيْتُمُ الثَّانيَ؛ فلا يَلْزَمُ مِن ذٰلكَ توقُّفُ الطَّلبِ على اعتبارٍ زائدٍ على الفعلِ يَكونُ ذٰلكَ الاعتبارُ شرطًا في الطَّلبِ.

وإنْ عَنَيْتُم أمرًا ثالثًا؛ فلا بدَّ مِن بيانِهِ، وعلى تقديرِ بيانِهِ؛ فإنَّهُ لا يُنافي توقُّفَ التَّعلُّقِ على الشَّرطِ المذكورِ.

* **الثَّاني**: أنَّ غايةَ ما قَرَّرْتُموهُ أنَّ التَّعلُّقَ ذاتيٌّ للطَّلبِ، والذَّاتيُّ لا يُعَلَّلُ كما ادَّعَيْتُموهُ في المنطقِ دعوى مجرَّدةٌ ولمْ تُقَرِّروهُ، ولمْ تُبَيِّنوا ما معنى كونِهِ غيرَ معلَّلٍ، حتَّى ظنَّ بعضُ المقلِّدينَ مِن المنطقيِّينَ أنَّ معناهُ ثبوتيَّةُ الذَّاتِ لنفسِهِ بغيرِ واسطةٍ، وهٰذا

= الأصول والجدل»، والأصل والمختصر كلاهما لابن الحاجب، وللمختصر شروح عدّة. وقد تقدّمت ترجمة ابن الحاجب (٢/ ٣٢٥).

(١) وخلاصة ما قرّره ابن القيّم يرحمه الله هنا على سبيل الإيضاح أنّه إذا كان السجود لله مثلاً حسنًا لسبب آخر زائد على أمر الله به؛ فإنّ أمر الله به متوقّف على هٰذا السبب الزائد، وهٰذا باطل؛ لأنّ الأمر متعلّق بالسجود نفسه حصل الأمر الزائد أو لا.

(٢) كذا في ط! ولم يتّضح لي معناه إن كان صوابًا ولا وجهه إن كان تحريفًا! فالحجّة عسرة غير بيّنة، وتقريرها وردّها أعسر وأبعد منالاً! وإذا كان شرّاح «المختصر» ـ كما تقدّم وسيأتي ـ لم يستطيعوا تقرير هٰذه القضيّة على الوجه الصحيح، وإذا كان ابن القيّم ـ وهو من هو ـ لم يستطع أن يجزم بمقصودهم من الكلام فأورد له أكثر من احتمال؛ فلا عتب على العبد الضعيف إن لم يقف على معنى الكلام إن كان صوابًا أو وجه الصواب فيه إن كان تحريفًا.

في غايةِ الفسادِ، لا يَقولُهُ مَن يَدْري ما يَقولُ، وإنَّما معناهُ: أنَّهُ لا تَحْتاجُ الذَّاتُ في ٱتِّصافِها بِهِ إلى علَّةٍ مغايرةٍ لعلَّةِ وجودِها، بل علَّةُ وجودِها هيَ علَّةُ ٱتِّصافِ الذَّاتِ، فهٰذا معنى كونِهِ غيرَ معلَّلٍ بعلَّةٍ خارجيَّةٍ عن علَّةِ الذَّاتِ بل علَّةُ الذَّاتِ علَّتُهُ. ولبسَ هٰذا موضعَ ٱستقصاءِ الكلامِ على ذٰلكَ.

والمقصودُ أنَّ كونَ التَّعلُّقِ ذاتيًّا للطَّلبِ فلا يُعَلَّلُ بغيرِ علَّةِ الطَّلبِ لا يُنافي توقُّفَهُ على شرطٍ. فهَبْ أنَّ صفةَ الفعلِ لا تكونُ علَّةً للتَّعلُّقِ؛ فما المانعُ أنْ تكونَ شرطًا لهُ، ويَكونَ تعلُّقُ الطَّلبِ بالفعلِ مشروطًا بكونِهِ على الجهةِ المذكورةِ، فإذا ٱنْتَفَتْ تلكَ الجهةُ؛ ٱنْتَفى التَّعلُّقُ لانتفاءِ شرطِهِ؟! وهٰذا ممَّا لمْ تَتَعَرَّضوا لبطلانِهِ أصلاً ولا سبيلَ لكُم إلى إبطالِهِ.

* **الثَّالثُ**: أنَّ قولَكَ «الطَّلبُ قديمٌ، والجهةُ المذكورةُ حادثةٌ للفعلِ، ولا يَصِحُّ توقُّفُ القديمِ على الحادثِ» كلامٌ في غايةِ البطلانِ؛ فإنَّ الفعلَ المطلوبَ حادثٌ، والطَّلبَ متوقِّفٌ عليهِ؛ إذْ لا تُتَصَوَّرُ ماهيَّةُ الطَّلبِ بدونِ المطلوبِ! فما كانَ جوابُكُم عن توقُّفِ الطَّلبِ على الفعلِ الحادثِ فهوَ جوابُنا عن توقُّفِهِ على جهةِ الفعلِ الحادثةِ؛ فإنَّ جهتَهُ لا تَزيدُ عليهِ، بل هيَ صفةٌ مِن صفاتِهِ.

فإنْ قُلْتُمْ: التَّوقُّفُ هاهُنا إنَّما هوَ لتعلُّقِ الطَّلبِ بالمطلوبِ لا لنفسِ الطَّلبِ، ولا تَجِدونَ محذورًا في توقُّفِ التَّعلُّقِ لأنَّهُ حادثٌ!

قُلْنا: فهلاَّ قَنَعْتُم بهٰذا الجوابِ في صفةِ الفعلِ وقُلْتُمْ: التَّوقُّفُ على الجهةِ المذكورةِ هوَ توقُّفُ التَّعلُّقِ لا تَوَقُّفُ نفسِ الطَّلبِ معَهُ! فنسبةُ التَّعلُّقِ إلى جهةِ الفعلِ كنسبتِهِ إلى ذاتِهِ، ونسبةُ الطَّلبِ إلى الجهةِ كنسبتِهِ إلى نفسِ الفعلِ سواءً بسواءٍ، فنسبةُ القديمِ إلى أحدِ الحادثينِ كنسبتِهِ إلى الآخرِ، ونسبةُ تعلُّقِهِ بأحدِ الحادثينِ كنسبةِ تعلُّقِهِ بالآخرِ. فتَبَيَّنَ فسادُ الدَّليلِ المذكورِ[1].

---

(١) فتأمّل بالله عليك هٰذا الدليل، وٱرجع البصر فيه مرّة وٱثنتين وعشرًا، ثمّ ٱرجع إلى نفسك وسلها: ماذا فهمت من هٰذا الهذيان؟! لا شيء! أهذا هو الدين الذي جاء به محمّد ﷺ؟! لا والله! ألا قاتل الله أهل الكلام! يعرضون عن الحقائق البيّنات ويخوضون في هٰذه الترّهات!

[١٧- فصل]

[في اللوازم الفاسدة لنفي التحسين والتقبيح]

● وحسبُكَ بمذهبٍ فسادًا: ٱستلزامُهُ جوازَ ظهورِ المعجزةِ على يدِ الكاذبِ وأنَّهُ ليسَ بقبيحٍ، وٱستلزامُهُ جوازَ نسبةِ الكذبِ إلى أصدقِ الصَّادقينَ وأنَّهُ لا يَقْبُحُ منهُ، وٱستلزامُهُ التَّسويةَ بينَ التَّثليثِ والتَّوحيدِ في العقلِ وأنَّهُ قبلَ ورودِ النُّبوَّةِ لا يَقْبُحُ التَّثليثُ ولا عبادةُ الأصنامِ ولا مسبَّةُ المعبودِ ولا شيءٌ مِن أنواعِ الكفرِ ولا السَّعيُ في الأرضِ بالفسادِ ولا يَقْبُحُ[١] شيءٌ مِن القبائحِ أصلاً.

وقدِ ٱلْتَزَمَ النُّفاةُ ذٰلكَ وقالوا: إنَّ هٰذهِ الأشياءَ لمْ تَقْبُحْ عقلاً، وإنَّما جهةُ قبحِها السَّمعُ فقطْ، وإنَّهُ لا فرقَ قبلَ السَّمعِ بينَ ذكرِ اللهِ والثَّناءِ عليهِ وحمدِهِ وبينَ ضدِّ ذٰلكَ، ولا بينَ شكرِهِ بما يَقْدِرُ عليهِ العبدُ وبينَ ضدِّهِ، ولا بينَ الصِّدقِ والكذبِ والعفَّةِ والفجورِ والإحسانِ إلى العالَمِ والإساءةِ إليهِم بوجهٍ ما، وإنَّما التَّفريقُ [حَصَلَ][٢] بالشَّرعِ بينَ متماثلينِ مِن كلِّ وجهٍ!

وقد كانَ تصوُّرُ هٰذا المذهبِ على حقيقتِهِ كافيًا في العلمِ ببطلانِهِ وأنْ لا يُتكلَّفَ ردُّهُ، ولهٰذا رَغِبَ عنهُ فحولُ الفقهاءِ والنُّظَّارِ مِن الطَّوائفِ كلِّهِم:

فأطْبَقَ أصحابُ أبي حَنيفَةَ على خلافِهِ، وحَكَوْهُ عن أبي حَنيفَةَ نصًّا.

وٱخْتارَهُ مِن أصحابِ أحْمَدَ أبو الخَطَّابِ[٣] وابنُ عَقيلٍ[٤] وأبو يَعْلى الصَّغيرُ[٥]، ولمْ يَقُلْ أحدٌ مِن متقدِّميهِم بخلافِهِ، ولا يُمْكِنُ أنْ يُنْقَلَ عنهُم حرفٌ واحدٌ موافقٌ للنُّفاةِ.

وٱخْتارَهُ من أئمَّةِ الشَّافِعيَّةِ الإمامُ أبو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيِّ بنِ إسْماعيلَ القَفَّالُ

---

(١) في ط: «ولا تقبيح»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) شيخ الحنابلة، الإمام، العلاّمة، محفوظ بن أحمد بن حسن، تلميذ القاضي أبي يعلى. ت ٥١٠هـ. ترجمته في «أعلام النبلاء» (١٩/ ٣٤٨).

(٤) شيخ الحنابلة، الإمام، العلاّمة، البحر، المتكلّم، أبو الوفاء، علي بن عقيل، صاحب التصانيف. ت٥١٣هـ. ترجمته في «أعلام النبلاء» (١٩/ ٤٤٦).

(٥) شيخ الحنابلة، المفتي، القاضي، محمّد بن محمّد بن أبي خازم، أحد الأذكياء. ت٥٦٠هـ. ترجمته في «أعلام النبلاء» (٢٠/ ٣٥٣).

الكبيرُ[١] وبالَغَ في إثباتِهِ وبَنى كتابَهُ «محاسن الشَّريعة» عليهِ وأحْسَنَ فيهِ ما شاءَ، وكذٰلكَ الإمامُ سَعْدُ بنُ عَلِيٍّ الزَّنْجانِيُّ[٢] بالَغَ في إنكارِهِ على أبي الحَسَنِ الأشْعَرِيِّ القولَ بنفيِ التَّحسينِ والتَّقبيحِ وأنَّهُ لمْ يَسْبِقْهُ إليهِ أحدٌ، وكذٰلكَ أبو القاسِمِ الرَّاغِبُ[٣]، وكذٰلكَ أبو عَبْدِاللهِ الحَليميُّ[٤]، وخلائقُ لا يُحْصَوْنَ.

● وكلُّ مَن تكَلَّمَ في عللِ الشَّرعِ ومحاسنِهِ وما تَضَمَّنَهُ مِن المصالحِ ودرءِ المفاسدِ فلا يُمْكِنُهُ ذٰلكَ إلَّا بتقريرِ الحسنِ والقبحِ العقليَّينِ؛ إذْ لو كانَ حسنُهُ وقبحُهُ بمجرَّدِ الأمرِ والنَّهيِ؛ لمْ يُتَعَرَّضْ في إثباتِ ذٰلكَ لغيرِ الأمرِ والنَّهيِ فقطْ.

● وعلى تصحيحِ الكلامِ في القياسِ وتعليقِ الأحكامِ بالأوصافِ المناسبةِ المقتضيةِ لها دونَ الأوصافِ الطَّرديَّةِ التي لا مناسبةَ فيها فيُجْعَلُ الأوَّلُ ضابطًا للحكمِ دونَ الثَّاني لا بدَّ مِن إثباتِ[٥] هٰذا الأصلِ، فلو تَساوَتِ الأوصافُ في أنفسِها؛ لانْسَدَّ بابُ القياسِ والمناسباتِ والتَّعليلِ بالحِكَمِ والمصالحِ ومراعاةِ الأوصافِ المؤثِّرةِ دونَ الأوصافِ التي لا تأثيرَ لها.

[١٨] فصل

[في أصول مسألة التحسين والتقبيح]

وإذْ قدِ انْتَهَيْنا في هٰذهِ المسألةِ إلى هٰذا الموضعِ ـ وهوَ بحرُها ومعظمُها ـ؛ فلْنَذْكُرْ سرَّها وغايتَها وأُصولَها التي أُثْبِتَتْ عليها، فبذٰلكَ تَتِمُّ الفائدةُ؛ فإنَّ كثيرًا مِن الأُصوليِّينَ ذَكَروها مجرَّدةً ولمْ يَتَعَرَّضوا لسرِّها وأصلِها الذي أُثْبِتَتْ عليهِ.

---

(١) الشاشي، إمام الوقت، العلّامة، الأصولي، اللغوي، صاحب التصانيف، على ميل فيه لمذاهب المعتزلة. ت٣٣٦هـ. ترجمته في «أعلام النبلاء» (١٦/ ٢٨٣).

(٢) الإمام، العلّامة، القدوة، شيخ الحرم، أبو القاسم، الصوفيّ. توفّي ٤٧١هـ عن تسعين عامًا. ترجمته في: «أعلام النبلاء» (١٨/ ٣٨٥).

(٣) تقدّمت ترجمته في (١/ ١١٦).

(٤) القاضي، العلّامة، رئيس المحدّثين والمتكلّمين بما وراء النهر، الحسين بن الحسن بن محمّد الشافعيّ، أحد الأذكياء. ت٤٠٣هـ. ترجمته في «وفيات الأعيان» (٢/ ١٣٧)، «أعلام النبلاء» (١٧/ ٢٣١).

(٥) في ط: «دون الثاني إلّا على إثبات»! والصواب ما أثبتّه.

● وللمسألةِ ثلاثةُ أُصولٍ هيَ أساسُها:

* **الأصلُ الأوَّلُ**: هلْ أفعالُ الرَّبِّ تَعالى معلَّلةٌ بالحِكمِ والغاياتِ؟ وهٰذهِ مِن أجلِّ مسائلِ التَّوحيدِ المتعلِّقةِ بالخلقِ والأمرِ والشَّرعِ[1] والقدرِ.

* **الأصلُ الثَّاني**: أنَّ تلكَ الحِكمَ المقصودةَ فعلٌ يَقومُ بِهِ سبحانَهُ وتَعالى قيامَ الصِّفةِ بهِ فيَرْجِعُ إليهِ حُكمُها ويُشْتَقُّ لهُ اسمُها أمْ يَرْجِعُ إلى المخلوقِ فقطْ مِن غيرِ أنْ يَعودَ إلى الرَّبِّ منها حُكمٌ أو يُشْتَقَّ لهُ منها اسمٌ؟

* **الأصلُ الثَّالثُ**: هل تعلُّق إرادةِ الرَّبِّ تَعالى بجميعِ الأفعالِ تعلُّقٌ واحدٌ: فما وُجِدَ منها فهوَ مرادٌ لهُ محبوبٌ مرضيٌّ طاعةً كانَ أو معصيةً، وما لمْ يُوجَدْ منها فهوَ مكروهٌ لهُ مبغوضٌ غيرُ مرادٍ طاعةً كانَ أو معصيةً؟ [أو أنَّ هٰذهِ الأفعالَ هيَ متعلَّقٌ أيضًا لمحبَّتِهِ][2]: فهوَ يُحِبُّ الأفعالَ الحسنةَ التي هيَ منشأُ المصالحِ وإنْ لمْ يَشَأْ تكوينَها وإيجادَها لأنَّ في مشيئتِهِ لإيجادِها فواتَ حكمةٍ أُخرى هيَ أحبُّ إليهِ منها، ويُبْغِضُ الأفعالَ القبيحةَ التي هيَ منشأُ المفاسدِ ويَمْنَعُها ويَمْقُتُ أهلَها وإنْ شاءَ تكوينَها وإيجادَها لِما تَسْتَلْزِمُهُ مِن حكمةٍ ومصلحةٍ هيَ أحبُّ إليهِ منها ولا بدَّ مِن توسُّطِ هٰذهِ الأفعالِ في وجودِها؟

فهٰذهِ الأُصولُ الثَّلاثةُ عليها مدارُ هٰذهِ المسألةِ ومسائلِ القدرِ والشَّرعِ.

● وقدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فيها قديمًا وحديثًا إلى اليوم:

* فالجَبْرِيَّةُ[3]: تَنْفي الأُصولَ الثَّلاثةَ، وعندَهُم أنَّ اللهَ لا يَفْعَلُ لحكمةٍ ولا يَأْمُرُ لها ولا يَدْخُلُ في أمرِهِ وخلقِهِ لامُ التَّعليلِ بوجهٍ وإنَّما هيَ لامُ العاقبةِ كما لا يَدْخُلُ في أفعالِهِ باءُ السَّببيَّةِ وإنَّما هيَ باءُ المصاحبةِ[4]. ومنهُم مَن يُثْبِتُ الأصلَ الثَّالثَ ويَنْفي الأصلينِ الأوَّلينِ كما هوَ أحدُ القولينِ للأشْعَرِيِّ وقولُ كثيرٍ مِن أئمَّةِ أصحابِهِ وأحدُ

---

(١) في ط: «والأمر بالشرع»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) ساقطة من ط، ولا يستقيم الكلام إلّا بها أو بنحوها.

(٣) ومنهم الأشاعرة اليوم، فهٰذا مذهبهم وقولهم، وإن كانوا لا يصرّحون بالجبر لفظًا!

(٤) تقدّم تفصيل هٰذه الأمور وبيان معانيها فأنظره إن شئت (٢/ ٢٣٩).

القولين لأبي المعالي[١].

* والمشهورُ مِن مذهبِ المُعْتَزِلَةِ: إثباتُ الأصلِ الأوَّلِ وهوَ التَّعليلُ بالحِكَمِ والمصالحِ. ونفيُ الثَّاني بناءً على قواعدِهِمُ الفاسدةِ في نفيِ الصِّفاتِ. فأمَّا الأصلُ الثَّالثُ؛ فَهُم فيهِ ضدُّ الجَبْرِيَّةِ مِن كلِّ وجهٍ، فهُما طرفا نقيضٍ؛ فإنَّهُم لا يُثْبِتونَ لأفعالِ العبادِ سوى المحبَّةِ لحسنِها والبغضِ لقبيحِها[٢]، وأمَّا المشيئةُ لها؛ فعندَهُم أنَّ مشيئةَ اللهِ لا تَتَعَلَّقُ بها بناءً منهُم على نفيِ خلقِ أفعالِ العبادِ، فلَيْسَتْ عندَهُم إرادةُ اللهِ لها إلاَّ بمعنى محبَّتِهِ لحسنِها فقط، وأمَّا قبيحُها؛ فليسَ مرادًا للهِ بوجهٍ. وأمَّا الجَبْرِيَّةُ؛ فعندَهُم أنَّهُ لمْ يَتَعَلَّقْ بها سوى المشيئةِ والإرادةِ، وأمَّا المحبَّةُ عندَهُم؛ فهيَ نفسُ الإرادةِ والمشيئةِ، فما شاءَهُ فقد أحَبَّهُ ورَضِيَهُ.

* وأمَّا أصحابُ القولِ الوسطِ ـ وهُم أهلُ التَّحقيقِ مِن الأُصوليِّينَ والفقهاءِ والمتكلِّمينَ ـ؛ فيُثْبِتونَ الأُصولَ الثَّلاثةَ: فيُثْبِتونَ الحِكمةَ المقصودةَ بالفعلِ في أفعالِهِ تَعالى وأوامرِهِ. ويَجْعَلونَها عائدةً إليهِ حكمًا ومشتقًّا لهُ اسمُها. فالمعاصي كلُّها ممقوتةٌ مكروهةٌ وإنْ وَقَعَتْ بمشيئتِهِ وخلقِهِ، والطَّاعاتُ كلُّها محبوبةٌ لهُ مرضيَّةٌ وإنْ لمْ يَشَأْها ممَّن لمْ يُطِعْهُ، ومَن وُجِدَتْ منهُ؛ فقد تَعَلَّقَ بها المشيئةُ والحبُّ، فما لمْ يُوجَدْ مِن أنواعِ المعاصي فلمْ تَتَعَلَّقْ بِهِ مشيئتُهُ ولا محبَّتُهُ، وما وُجِدَ منها تَعَلَّقَتْ بِهِ مشيئتُهُ دونَ محبَّتِهِ، وما لمْ يُوجَدْ مِن الطاعاتِ المقدورةِ تَعَلَّقَ بها محبَّتُهُ دونَ مشيئتِهِ، وما وُجِدَ منها تَعَلَّقَ بِهِ محبَّتُهُ ومشيئتُهُ.

● ومَن لمْ يُحْكِمْ هٰذهِ الأُصولَ الثَّلاثةَ؛ لمْ يَسْتَقِرَّ لهُ في مسائلِ الحِكَمِ والتَّعليلِ والتَّحسينِ والتَّقبيحِ قدمٌ، بل لا بدَّ مِن تناقضِهِ، ويَتَسَلَّطُ عليهِ خصومُهُ مِن جهةِ نفيِهِ لواحدٍ منها.

* ولهٰذا؛ لمَّا رَأى القَدَرِيَّةُ الجَبْرِيَّةُ[٣] أنَّهُم لو سَلَّموا للمُعْتَزِلَةِ شيئًا مِن هٰذا

---

(١) لٰكنَّ الذي عليه الأشاعرة اليوم هو نفي الأصول الثلاثة خلافًا لأولٰئك الأئمّة!

(٢) في ط: «والبغض لقبحها»، وهو ضعيف ومشكل، والجادّة ما أثبتّه.

(٣) في ط: «القدريّة والجبريّة»! والواو زيادة ناسخ أو غيره. ومن ألف أسلوب ابن القيّم؛ أدرك أنّ=

تَسَلَّطوا عليهم بهِ؛ سَدُّوا على أنفسِهِم البابَ بالكلِّيَّةِ وأنكَروها جملةً، فلا حِكمةَ عندَهُم ولا تعليلَ ولا محبَّةَ تَزيدُ على المشيئةِ!

* ولمَّا أنكَرَ المُعْتَزِلَةُ رجوعَ الحِكمةِ إليهِ تَعالى؛ سَلَّطوا عليهِم خصومَهُم فأبْدَوْا تناقضَهُم وكَشَفوا عوراتِهِم.

* ولمَّا سَلَكَ أهلُ السُّنَّةِ القولَ الوسطَ وتَوَسَّطوا بينَ الفريقينِ؛ لمْ يَطْمَعْ أحدٌ في مناقضتِهِم ولا في إفسادِ قولِهِم.

وأنتَ إذا تَأمَّلْتَ حججَ الطَّائفتينِ وما ألْزَمَتْهُ كلٌّ منهُما للأُخرى؛ عَلِمْتَ أنَّ مَن سَلَكَ القولَ الوسطَ؛ لمْ يَلْزَمْهُ شيءٌ مِن إلزاماتِهِم ولا تناقضِهِم. والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ هادي مَن يَشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ.

[١٩] فصل

[لا بد من إثبات حب وبغض وراء المشيئة العامة]

[وإثبات صفة الحكمة لدفع التناقض]

وقد سَلَّمَ كثيرٌ مِن النُّفاةِ أنَّ كونَ الفعلِ حسنًا أو قبيحًا بمعنى الملاءمةِ والمنافرةِ والكمالِ والنُّقصانِ عقليٌّ وقالَ: نحنُ لا نُنازِعُكُم في الحسنِ والقبحِ بهٰذينِ الاعتبارينِ، وإنَّما النِّزاعُ في إثباتِهِ عقلاً بمعنى كونِهِ متعلَّقَ المدحِ والذَّمِّ عاجلاً والثَّوابِ والعقابِ آجلاً، فعندَنا لا مدخلَ للعقلِ في ذٰلكَ، وإنَّما يُعْلَمُ بالسَّمعِ المجرَّدِ. فيُطْلَقُ الحسنُ والقبحُ بمعنى الملاءمةِ والمنافرةِ وهوَ عقليٌّ، وبمعنى الكمالِ والنُّقصانِ وهوَ عقليٌّ، وبمعنى ٱستلزامِهِ للثَّوابِ والعقابِ وهوَ محلُّ النِّزاعِ.

وهٰذا التَّفصيلُ لو أُعْطِيَ حقَّهُ وٱلْتُزِمَتْ لوازمُهُ؛ رُفِعَ النِّزاعُ وأعادَ المسألةَ ٱتِّفاقيَّةً؛ فإنَّ[1] كونَ الفعلِ صفةَ كمالٍ أو نقصانٍ يَسْتَلْزِمُ إثباتَ تعلُّقِ الملاءمةِ والمنافرةِ

= القدريّة عنده صنفان: قدريّة جبريّة (وهم الجبريّة)، وقدريّة حقّة (وهم المعتزلة). ٱنظر (٢/٣٦٧). وذٰلك لأنّ الطائفتين ضلّتا في القدر فٱستحقّتا هٰذا الاسم. والكلام هنا مع الطائفة الأولى كما هو بيّن.

(١) في ط: «ٱتّفاقيّة وأنّ»! وهو تحريف بيّن، ولا يستقيم الكلام إلاّ بالفاء التعليليّة وكسر همزة «إنّ».

[بهِ][(١)]؛ لأنَّ الكمالَ محبوبٌ للعالمِ والنَّقصَ مبغوضٌ لهُ، ولا معنى للملاءمةِ والمنافرةِ إلَّا الحبُّ والبغضُ؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ يُحِبُّ الكاملَ مِن الأفعالِ والأقوالِ والأعمالِ ومحبَّتُهُ لذٰلكَ بحسبِ كمالِهِ، ويُبْغِضُ النَّاقصَ منها ويَمْقُتُهُ ومقتُهُ لهُ بحسبِ نقصانِهِ. ولهٰذا أسْلَفْنا أنَّ مِن أُصولِ المسألةِ إثباتَ صفةِ الحبِّ والبغضِ للهِ، فتأمَّلْ كيفَ عادَتِ المسألةُ إليهِ وتَوَقَّفَتْ عليهِ.

واللهُ سبحانَهُ يُحِبُّ كلَّ ما أمَرَ بهِ ويُبْغِضُ كلَّ ما نَهى عنهُ، ولا يُسَمَّى ذٰلكَ ملاءمةً أو منافرةً، بل يُطْلَقُ عليهِ الأسماءُ التي أطْلَقَها على نفسِهِ وأطْلَقَها عليهِ رسولُهُ مِن محبَّتِهِ للفعلِ الحسنِ المأمورِ بهِ وبغضِهِ للفعلِ القبيحِ ومقتِهِ لهُ، وما ذاكَ إلَّا لكمالِ الأوَّلِ ونقصانِ الثَّاني.

فإذا كانَ الفعلُ مستلزمًا للكمالِ والنُّقصانِ واستلزامُهُ لهُ عقليٌّ، والكمالُ والنُّقصانُ يَسْتَلْزِمُ الحبَّ والبغضَ الذي سَمَّيْتُموهُ ملاءمةً ومنافرةً واستلزامُهُ عقليٌّ؛ فإنَّ كونَ[(٢)] الفعلِ حسنًا كاملاً محبوبًا مرضيًّا وكونَهُ قبيحًا ناقصًا مسخوطًا مبغوضًا أمرٌ عقليٌّ.

بَقِيَ حديثُ المدحِ والذَّمِّ والثَّوابِ والعقابِ.

ومَن أحاطَ علمًا بما أسْلَفْناهُ في ذٰلكَ؛ انْكَشَفَتْ لهُ المسألةُ وأسْفَرَتْ عن وجهِها وزالَ عنها كلُّ شبهةٍ وإشكالٍ.

فأمَّا المدحُ والذَّمُّ؛ فترتُّبُهُ على النُّقصانِ والكمالِ عقليٌّ كترتُّبِ المسبَّباتِ على أسبابِها، فمدحُ العقلاءِ لمؤثِرِ الكمالِ والمتَّصفِ بهِ وذمُّهُم لمؤثِرِ النَّقصِ والمتَّصفِ بهِ أمرٌ عقليٌّ فطريٌّ، وإنكارُهُ يُزاحِمُ المكابرةَ[(٣)].

وأمَّا العقابُ؛ فقد قَرَّرْنا أنَّ ترتُّبَهُ على فعلِ القبيحِ مشروطٌ بالسَّمعِ، وأنَّهُ إنَّما انْتَفى عندَ انتفاءِ السَّمعِ انتفاءَ المشروطِ لانتفاءِ شرطِهِ لا انتفاءَهُ لانتفاءِ سببِهِ؛ فإنَّ سببَهُ قائمٌ ومقتضيَهُ موجودٌ؛ إلَّا أنَّهُ لمْ يَتِمَّ لتوقُّفِهِ على شرطِهِ.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.
(٢) في ط: «عقليّ فبيان كون»! وهٰذا تحريف لا معنى له صوابه ما أثبتّه.
(٣) يزاحم المكابرة: يعادلها ويقاربها.

وعلى هٰذا؛ فكونُهُ متعلِّقًا للثَّوابِ والعقابِ والمدحِ والذَّمِّ عقليٌّ، وإنْ كانَ وقوعُ العقابِ موقوفًا على شرطٍ وهوَ ورودُ السَّمعِ.

وهل يُقالُ: إنَّ الاستحقاقَ ليسَ بثابتٍ؛ لأنَّ ورودَ السَّمعِ شرطٌ فيهِ؟ هٰذا فيهِ طريقانِ للنَّاسِ، ولعلَّ النِّزاعَ لفظيٌّ: فإنْ أُريدَ بالاستحقاقِ الاستحقاقُ التَّامُّ؛ فالحقُّ نفيُهُ. وإنْ أُريدَ بِهِ قيامُ السَّببِ والتَّخلُّفُ لفواتِ شرطٍ أو وجودِ مانعٍ؛ فالحقُّ إثباتُهُ.

فعادَتِ الأقسامُ الثَّلاثةُ ـ أعْني الكمالَ والنُّقصانَ والملاءمةَ والمنافرةَ والمدحَ والذَّمَّ ـ إلى عرفٍ واحدٍ، وهوَ كونُ الفعلِ محبوبًا أو مبغوضًا. ويَلْزَمُ مِن كونِهِ محبوبًا أنْ يَكونَ كمالاً وأنْ يُسْتَحَقَّ عليهِ المدحُ والثَّوابُ، ومِن كونِهِ مبغوضًا أنْ يَكونَ نقصًا يُسْتَحَقُّ بِهِ الذَّمُّ والعقابُ. فظَهَرَ أنَّ ٱلتزامَ لوازمِ هٰذا التَّفصيلِ وإعطاءَهُ حقَّهُ يَرْفَعُ النِّزاعَ ويُعيدُ المسألةَ ٱتِّفاقيَّةً.

ولٰكنَّ أُصولَ الطَّائفتينِ تَأْبى ٱلتزامَ ذٰلكَ، فلا بدَّ لهُما مِن التَّناقضِ إذا طَرَّدوا أُصولَهُم. وأمَّا مَن كانَ أصلُهُ إثباتَ الحكمةِ وٱتِّصافَ الرَّبِّ تَعالى بها وإثباتَ الحبِّ والبغضِ لهُ وأنَّهما أمرٌ وراءَ المشيئةِ العامَّةِ؛ فأُصولُهُ مستلزمةٌ[1] لفروعِهِ وفروعُهُ دالَّةٌ على أُصولِهِ، فأُصولُهُ وفروعُهُ لا تَتَناقَضُ وأدلَّتُهُ لا تَتَمانَعُ ولا تَتَعارَضُ.

[٢٠ـ فصل]

[في شبه نفاة الحسن والقبح من الأشاعرة]

[وإلزاماتهم لمن أثبته من المعتزلة][2]

قالَ النُّفاةُ: لو قَدَّرَ نفسَهُ وقد خُلِقَ تامَّ الخلقةِ كاملَ العقلِ دفعةً واحدةً مِن

---

(١) في ط: «فأصول مستلزمة»! والأولى ما أثبتّه.

(٢) تنبيه: يتضمّن هٰذا الفصل ردود الكلابيّة والأشاعرة وأضرابهم من نفاة الحسن والقبح العقليين على القدريّة والمعتزلة وأضرابهم ممّن يثبت الحسن والقبح العقليّين، وسيأتي لابن القيّم قدّس الله روحه في الفصل الذي يليه تعقّب طويل على هٰذه الردود يبيّن فيه ما فيها من الصواب ـ وهو قليل نادر ـ ويفنّد ما فيها من الدعاوى والمغالطات ـ وهو الكثير الغالب ـ.

لٰكن هاهنا إشكالان: أوّلهما: صعوبة عبارات النفاة وٱستغلاقها في كثير من الأحيان إلى درجة أنّ آخر=

[غير][١] أنْ يَتَخَلَّقَ بأخلاقِ قومٍ ولا تَأدَّبَ بتأديبِ الأبوينِ ولا تَرَبَّى في الشَّرعِ ولا تَعَلَّمَ مِن متعلِّمٍ، ثمَّ عُرِضَ عليهِ أمرانِ: أحدُهُما الاثنانِ أكثرُ مِن الواحدِ، والثَّاني أنَّ الكذبَ قبيحٌ بمعنى أنَّهُ يَسْتَحِقُّ مِن اللهِ تَعالى لومًا عليهِ؛ لمْ نَشُكَّ أنَّهُ لا يَتَوَقَّفُ في الأوَّلِ ويَتَوَقَّفُ في الثَّاني! ومَن حَكَمَ بأنَّ الأمرينِ سِيَّانِ بالنِّسبةِ إلى عقلِهِ؛ خَرَجَ عن قضايا العقولِ وعانَدَ كعنادِ الفضولِ! كيفَ؛ ولو تَقَرَّرَ عندَهُ أنَّ اللهَ تَعالى لا يَتَضَرَّرُ بكذبٍ ولا يَنْتَفِعُ بصدقٍ، وأنَّ القولينِ في حكمِ التَّكليفِ على وتيرةٍ واحدةٍ؛ لمْ يُمْكِنْهُ أنْ يَرُدَّ أحدَهُما دونَ الثَّاني بمجرَّدِ عقلِهِ[٢]؟!

والذي يُوَضِّحُهُ: أنَّ الصِّدقَ والكذبَ على حقيقةٍ ذاتيَّةٍ لا تَتَحَقَّقُ ذاتُهُما إلاَّ بأركانِ تلكَ الحقيقةِ، مثلاً كما يُقالُ: إنَّ الصِّدقَ إخبارٌ عن أمرٍ على ما هوَ عليهِ، والكذبَ إخبارٌ عن أمرٍ على خلافِ ما هوَ بهِ. ونحنُ نَعْلَمُ أنَّ مَن أدْرَكَ هٰذهِ الحقيقةَ؛ عَرَفَ المحقَّقَ، ولمْ يَخْطُرْ ببالِهِ كونُهُ حسنًا أو قبيحًا. فلمْ يَدْخُلِ الحسنُ والقبحُ إذًا في صفاتِهِما الذَّاتيَّةِ التي تَحَقَّقَتْ حقيقتُهُما بها [ولا لَزِمَهُما في الوهمِ بالبديهةِ][٣]، ولو لَزِمَهُما في الوهمِ بالبديهةِ كما بيَّنَّا؛ لَلَزِمَهُما[٤] في الوجودِ ضرورةً؛ فإنَّ مِن الأخبارِ[٥]

= العبارة ينسى أوّلها. والآخر: بُعد الردّ عليها وتفنيدها؛ فإنّ بين العبارة وبين الردّ عليها قريبًا من أربعين صفحة من المعاناة تستنفد من القارئ الدؤوب جهده ومن الباحث الصبور صبره، وأنّى وكيف يتذكّر القارئ ما تقدّم له قبل أربعين صفحة؟! ومن هنا رأيت أن أنصح الباحث الجادّ أن يقرأ فكرة واحدة متكاملة من هٰذا الفصل، ثمّ يتحوّل مباشرة ـ مستعينًا بالإحالات التي سجلتها في الحواشي ـ إلى تفنيد ابن القيّم لهٰذه الفكرة في الفصل التالي إثباتًا أو إسقاطًا، ثمّ يعود بعد ذٰلك إلى الفكرة التالية هنا... وهٰكذا دواليك. فهٰذه الطريقة ستكفل له أمرين: **أوّلهما**: فهم كلام النفاة من خلال تعقّب ابن القيّم له. **والآخر**: معرفة وجه الصواب أو الخطإ فيه مباشرة. وبغير هٰذا؛ فلن يخرج القارئ من هٰذين الفصلين المهمّين بكبير فائدة. والله الموفّق.

(١) ساقطة من ط ولا يستوي الكلام بدونها.

(٢) أنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الأوجه ١-٨).

(٣) ساقطة من ط، ولا بدّ منها لفهم السياق، وقد أثبتّها مستفيدًا ممّا يأتي (٢/ ٣٩٤).

(٤) في ط: «ولو ألزمها في الوهم بالبديهة كما بيّنّا ولألزمها»! وهٰذه تحريفات بالجملة أفسدت العبارة وزادتها أستعصاء على أستعصائها، والصواب ما أثبتّه.

(٥) يعني: ولٰكنّ هٰذا غير واقع؛ فإنّ من الأخبار... إلخ. فتأمّل عبارات القوم؛ فإنّها أشبه ما تكون بالكلمات المتقاطعة!

التي هيَ صادقةٌ ما يُلامُ عليهِ مثلُ الدّلالةِ[١] على [مَن][٢] هَرَبَ مِن ظالمٍ ومِن الأخبارِ التي هيَ كاذبةٌ ما يُثابُ عليها مثلُ إنكارِ الدّلالةِ عليهِ[٣].

فلمْ يَدْخُلْ كونُ الكذبِ قبيحًا في حدِّ الكذبِ ولا لَزِمَهُ في الوهمِ ولا لَزِمَهُ في الوجودِ؛ فلا يَجوزُ أنْ يُعَدَّ مِن الصِّفاتِ الذَّاتيّةِ التي تَلْزَمُ النَّفسَ وجودًا وعدمًا عندَهُم، ولا يَجوزُ أنْ يُعَدَّ مِن الصِّفاتِ التَّابعةِ للحدوثِ؛ فلا يُعْقَلُ بالبديهةِ ولا بالنَّظرِ؛ فإنَّ النَّظرَ لا بدَّ أنْ يُرَدَّ إلى الضَّروريِّ البديهيِّ، وإذْ لا بديهيَّ فلا مردَّ لهُ أصلاً، فلمْ يَبْقَ لهُم إلاَّ الاسترواحُ إلى عاداتِ النَّاسِ مِن تسميةِ ما يَضُرُّ بهِم قبيحًا وما يَنْفَعُهُم حسنًا! ونحنُ لا نُنْكِرُ أمثالَ تلكَ الأسامي، على أنَّها تَخْتَلِفُ بعادةِ قومٍ [دونَ قومٍ][٤] وزمانٍ [دونَ زمانٍ][٤] ومكانٍ دونَ مكانٍ وإضافةٍ دونَ إضافةٍ، وما يَخْتَلِفُ بتلكَ النِّسبِ والإضافاتِ لا حقيقةَ لهُ في الذَّاتِ. فربَّما يَسْتَحْسِنُ قومٌ ذبحَ الحيوانِ وربَّما يَسْتَقْبِحُهُ قومٌ، وربَّما يَكونُ بالنِّسبةِ إلى قومٍ وزمانٍ حسنًا وربَّما يَكونُ قبيحًا. لٰكنَّا وَضَعْنا الكلامَ في حكمِ التَّكليفِ بحيثُ يَجِبُ الحسنُ بهِ وجوبًا يُثابُ عليهِ قطعًا ولا يَتَطَرَّقُ إليهِ لومٌ أصلاً، ومثلُ هٰذا يَمْتَنِعُ إدراكُهُ عقلاً.

قالوا: فهٰذهِ طريقةُ أهلِ الحقِّ على أحسنِ ما تَقَرَّرَ وأحسنِ ما تَحَرَّرَ[٥]!

قالوا: وأيضًا؛ فنحنُ لا نُنْكِرُ اشتهارَ حسنِ الفضائلِ التي ذُكِرَ ضربُهُم بها الأمثالَ وقبحِها بينَ الخلقِ وكونَها محمودةً مشكورةً مُثْنًى على فاعلِها أو مذمومةً مذمومًا فاعلُها، ولٰكنَّا نُثْبِتُها إمَّا بالشَّرائعِ وإمَّا بالأغراضِ، ونحنُ إنَّما نُنْكِرُها في حقِّ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لانتفاءِ الأغراضِ عنهُ، فأمَّا إطلاقُ النَّاسِ هٰذهِ الألفاظَ فيما يَدورُ بينَهُم فيُسْتَمَدُّ مِن الأغراضِ، ولٰكنْ قد تَبْدو الأغراضُ وتَخْفى فلا يَنْتَبِهُ لها إلاَّ المحقِّقونَ[٦].

---

(١) في ط: «يلام عليه من الدلالة»! وهو تحريف دلّ عليه ما بعده وما يأتي (٢/ ٣٩٤).
(٢) زيادة يقتضيها السياق دلّ عليها ما يأتي (٢/ ٣٩٤).
(٣) انظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الأوجه ٩-١١).
(٤) زيادة يقتضيها السياق دلّ عليها ما يأتي (٢/ ٣٩٥).
(٥) انظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الأوجه ١٢-١٣).
(٦) انظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الأوجه ١٤-١٥).

قالوا: ونحنُ نُنَبِّهُ على مثاراتِ للغلطِ فيهِ، وهيَ ثلاثةُ مثاراتٍ يَغْلَطُ الوهمُ فيها:

الأُولى: أنَّ الإنسانَ يُطْلِقُ ٱسمَ القبحِ على ما يُخالِفُ غرضَهُ وإنْ كانَ يُوافِقُ غرضَ غيرِهِ مِن حيثُ إنَّهُ لا يَلْتَفِتُ إلى الغيرِ؛ فإنَّ كلَّ طبعٍ مشغوفٌ بنفسِهِ ومستحقرٌ لغيرِه، فيَقْضِي بالقبحِ مطلقًا، وربَّما يُضيفُ القبحَ إلى ذاتِ الشَّيءِ ويقولُ: هوَ في نفسِهِ قبيحٌ! فقد قَضى بثلاثةِ أُمورٍ هوَ مصيبٌ في واحدٍ منها ـ وهوَ أصلُ الاستقباحِ ـ مخطئٌ في أمرينِ: أحدُهُما: إضافةُ القبحِ إلى ذاتِهِ، وغَفَلَ عن كونِهِ قبيحًا لمخالفةِ غرضِهِ. والثَّاني: حكمُهُ بالقبحِ مطلقًا، ومنشؤُهُ عدمُ الالتفاتِ إلى غيرِهِ، بل عدمُ الالتفاتِ[١] إلى بعضِ أحوالِ نفسِهِ؛ فإنَّهُ قد يَسْتَحْسِنُ في بعضِ الأحوالِ عينَ ما يَسْتَقْبِحُهُ إذا ٱخْتَلَفَ الغرضُ[٢].

الغلطةُ الثَّانيةُ: سببُها أنَّ الوهمَ غالبٌ للعقلِ في جميعِ الأحوالِ؛ إلَّا في حالةٍ نادرةٍ، قد لا يَلْتَفِتُ الوهمُ إلى تلكَ الحالةِ النَّادرةِ ولا يَذْكُرُها[٣]. كحكمِهِ على الكذبِ بأنَّهُ قبيحٌ مطلقًا وغفلتِهِ عن الكذبِ الذي يُسْتَفادُ منهُ عصمةُ نبيٍّ أو وليٍّ، وإذا[٤] قَضى بالقبحِ مطلقًا وٱسْتَمَرَّ عليهِ مدَّةً وتكَرَّرَ ذٰلكَ على سمعِهِ ولسانِهِ؛ ٱنْغَرَسَ في قلبِهِ ٱستقباحُهُ والنَّفرةُ منهُ، فلو وَقَعَتْ تلكَ الحالةُ النَّادرةُ؛ وَجَدَ في نفسِهِ نفرةً عنهُ لطولِ نشوئِهِ على الاستقباحِ؛ فإنَّهُ أُلْقِيَ إليهِ منذُ الصِّبا على سبيلِ التَّأْديبِ[٥] والإرشادِ أنَّ الكذبَ قبيحٌ لا يَنْبَغِي أنْ يُقْدِمَ عليهِ أحدٌ، ولا يُنَبَّهُ على حسنِهِ في بعضِ الأحوالِ خيفةَ مِن أنْ لا تَسْتَحْكِمَ نفرتُهُ عنِ الكذبِ فيُقْدِمَ عليهِ وهوَ قبيحٌ في أكثرِ الأحوالِ، والسَّماعُ في الصِّغرِ كالنَّقشِ في الحجرِ ويَنْغَرِسُ في النَّفسِ ويَجِدُ التَّصديقَ بها مطلقًا، وهوَ صدقٌ لٰكنْ لا على الإطلاقِ بل في أكثرِ الأحوالِ ٱعْتَقَدَهُ مطلقًا[٦].

---

(١) في ط: «بل عن الالتفات»، وله وجه ضعيف، والغالب أنّه تحريف لما أثبتّه.

(٢) ٱنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الأوجه ١٦-٢٠).

(٣) في ط: «النادرة عند ذكرها»! تحريف لا معنى له صوابه ما أثبتّه مستأنسًا بما يأتي (٢/ ٤٠٢).

(٤) في ط: «إذا»! ولا بدّ من إثبات الواو كما سيأتي (٢/ ٤٠٢).

(٥) في ط: «التأدّب»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٦) ٱنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الوجه ٢١).

الغلطةُ الثَّالثةُ: سببُها سبقُ الوهمِ إلى العكسِ؛ فإنَّ مَن رَأى شيئًا مقرونًا بشيءٍ يَظُنُّ أنَّ الشَّيءَ لا محالةَ مقرونٌ بهِ مطلقًا، ولا يَدْري أنَّ الأخصَّ أبدًا مقرونٌ بالأعمِّ، والأعمَّ لا يَلْزَمُ أنْ يَكونَ مقرونًا بالأخصِّ. ومثالُهُ نفرةُ نفسِ الذي نَهَشَتْهُ الحيَّةُ عنِ الحبلِ المرقَّشِ اللونِ؛ لأنَّهُ وَجَدَ الأذى مقرونًا بهٰذهِ الصُّورةِ، فتَوَهَّمَ أنَّ هٰذهِ الصُّورةَ مقرونةٌ بالأذى. وكذٰلكَ يَنْفِرُ عنِ العسلِ إذا شَبَّهَهُ بالعذرةِ[١]؛ لأنَّهُ وَجَدَ الاستقذارَ مقرونًا بالرَّطبِ الأصفرِ، فتَوَهَّمَ أنَّ الرَّطبَ الأصفرَ يَقْتَرِنُ بهِ الاستقذارُ، وقد يَغْلِبُ عليهِ الوهمُ حتَّى يَتَعَذَّرَ الأكلُ وإنْ كانَ حكمُ العقلِ يُكَذِّبُ الوهمَ، ولٰكنْ خُلِقَتْ قوى النَّفسِ مطيعةً للأوهامِ وإنْ كانَتْ كاذبةً. حتَّى إنَّ الطَّبعَ يَنْفِرُ عن حسناءَ سُمِّيَتْ بٱسمِ اليهودِ؛ إذْ وَجَدَ الاسمَ مقرونًا بالقبحِ، فظَنَّ أنَّ القبحَ أيضًا يُلازِمُ الاسمَ[٢]. ولهٰذا يُورَدُ على بعضِ العوامِّ مسألةٌ عقليَّةٌ جليَّةٌ فيَقْبَلُها، فإذا قُلْتَ: هٰذا مذهبُ الأشْعَرِيِّ أوِ المُعْتَزِليِّ أوِ الظَّاهِرِيِّ أو غيرِهِ؛ نَفَرَ عنهُ إنْ كانَ سيِّئَ الاعتقادِ فيمَن نَسَبْتَها إليهِ، وليسَ هٰذا طبعَ العامِّيِّ، بل طبعُ أكثرِ العقلاءِ المتوسِّمينَ بالعلمِ[٣]؛ إلَّا العلماءَ الرَّاسخينَ الذينَ أراهُمُ اللهُ الحقَّ حقًّا وقَوَّاهُم على ٱتِّباعِهِ. وأكثرُ الخلقِ تَرى نفوسَهُم مطيعةً للأوهامِ الكاذبةِ معَ علمِهِم بكذبِها، وأكثرُ إقدامِ الخلقِ وإحجامِهِم بسببِ هٰذهِ الأوهامِ؛ فإنَّ الوهمَ عظيمُ الاستيلاءِ، ولذٰلكَ[٤] يَنْفِرُ طبعُ الإنسانِ عنِ المبيتِ في بيتٍ فيهِ ميِّتٌ معَ قطعِهِ بأنَّهُ لا

---

(١) العذرة: الغائط.

(٢) لٰكن صار كثير من المسلمين اليوم ـ للأسف الشديد ـ ينفرون من أسماء أمّهات المؤمنين وغيرهنّ من الصحابيّات والتابعيّات بل من الأسماء العربيّة عمومًا، ويجتهدون في الإغراب والاستغراب ويتخيّرون لبناتهم ما شاؤوا من أسماء الكفرة من النصارى واليهود. وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

(٣) وهٰذا واقع ملموس ومتكرّر، وقد أخذت نفسي بمراعاته فيما يرد عليّ: فإن ذكرت حكمًا شرعيًّا؛ اكتفيت ببيان أنّه الراجح من مذهب الشافعيّ أو أحمد أو قول النوويّ دون أن أذكر أنّه المذهب الذي اختاره ابن عثيمين مثلاً؛ لأنّ متعصّبة المذهبيّة ومخرّفة الصوفيّة في بلاد الشام قد أشربوا عقول الناس أنّ هٰذا الشيخ وهّابيّ مبغض للنبيّ ﷺ لا ينبغي أن يلتفت له أو يؤخذ عنه! وإن كان الكلام في حديث؛ اكتفيت بتضعيف الترمذي والنووي والذهبي والعسقلاني دون أن أذكر تضعيف الألباني؛ لأنّهم أشاعوا في الخلق أنّه مدّع يرى نفسه أعظم من الأئمّة الستّة ويتهجّم على الصحيحين ويضعّف أحاديثهما! والله حسيبهم.

(٤) في ط: «وكذٰلك»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

يَتَحَرَّكُ، ولٰكنَّهُ يَتَوَهَّمُ في كلِّ ساعةٍ حركتَهُ ونطقَهُ[١].

قالوا: فإذا ٱنْتَبَهْتَ لهٰذهِ المثاراتِ؛ عَرَفْتَ بها سرَّ القضايا التي تَسْتَحْسِنُها العقولُ وسرَّ ٱستحسانِها إيَّاها، والقضايا التي تَسْتَقْبِحُها العقولُ وسرَّ ٱستقباحِها لها.

ولْنَضْرِبْ لذٰلكَ مثلينِ، وهُما ممَّا يَحْتَجُّ بهِما علينا أهلُ الإثباتِ:

المثلُ الأوَّلُ: الملكُ العظيمُ المستولي على الأقاليم، إذا رَأى ضعيفًا مشرفًا على الهلاكِ؛ فإنَّهُ يَميلُ إلى إنقاذِهِ ويَسْتَحْسِنُهُ وإنْ كانَ لا يَعْتَقِدُ أصلَ الدِّينِ لِيَنْتَظِرَ ثوابًا أو مجازاةً، ولا سيَّما إذا لَمْ يَعْرِفْهُ المسكينُ ولَمْ يَرَهُ بأنْ كانَ أعمى أصمَّ لا يَسْمَعُ الصَّوتَ، وإنْ كانَ لا يُوافِقُ ذٰلكَ غرضَهُ بل ربَّما يَتْعَبُ بهِ. بل يَحْكُمُ العقلاءُ بحسنِ الصَّبرِ على السَّيفِ إذا أُكْرِهَ على كلمةِ الكفرِ أو على إفشاءِ السِّرِّ ونقضِ العهدِ، وهوَ على خلافِ غرضِ الكفرةِ. وعلى الجملةِ؛ فٱستحسانُ مكارمِ الأخلاقِ وإفاضةِ النِّعمِ لا يُنْكِرُهُ إلَّا مَن عانَدَ[٢].

المثلُ الثَّاني: العاقلُ إذا سَنَحَتْ لهُ حاجةٌ وأمْكَنَ قضاؤُها بالصِّدقِ كما أمْكَنَ بالكذبِ بحيثُ تَساوَيا في حصولِ الغرضِ منهُما كلَّ التَّساوي؛ فإنَّهُ يُؤْثِرُ الصِّدقَ ويَخْتارُهُ ويَميلُ إليهِ طبعُهُ، وما ذاكَ إلَّا لحسنِهِ، فلولا أنَّ الكذبَ على صفةٍ يَجِبُ عندَهُ الاحترازُ عنهُ؛ لَما تَرَجَّحَ[٣] الصِّدقُ عندَهُ[٤].

قالوا[٥]: وهٰذا الفرضُ[٦] واضحٌ في حقِّ مَن أنْكَرَ الشَّرائعَ وفي حقِّ مَن لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعوةُ حتَّى لا يُلْزِمونا كونَ التَّرجيحِ بالتَّكليفِ.

فهٰذا مِن حججِهِم[٧]. ونحنُ نُجيبُ عن ذٰلكَ فنُبَيِّنُ أنَّهُ لا يَثْبُتُ حكمٌ على هٰذينِ

---

(١) ٱنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الوجه ٢٢).

(٢) ٱنظر الردّ على هٰذا المثل في (فصل ٢٢/ الأوجه ٢٣-٢٩).

(٣) في ط: «وإلّا لما ترجّح»! وهٰذا غلط لغويّ شائع يليق بأقلام النسّاخ صوابه ما أثبتّه.

(٤) ٱنظر الردّ على هٰذا المثل في (فصل ٢٢/ الأوجه ٣٠-٣٣).

(٥) يعني: أهل إثبات الحسن والقبح العقليّين.

(٦) في ط: «وهٰذا الغرض»! وهو تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٧) يعني: حجج أهل إثبات الحسن والقبح العقليّين.

المثالينِ، فنَقولُ:

أمَّا قضيَّةُ إنقاذِ الملكِ وحسنِهِ حتَّى في حقِّ مَن لمْ تَبْلُغْهُ الدَّعوةُ وأنْكرَ الشَّرائعَ؛ فسببُهُ دفعُ الأذى الذي يَلْحَقُ الإنسانَ مِن رقَّةِ القلبِ، وهوَ طبعٌ يَسْتَحيلُ الانفكاكُ عنهُ، وذلكَ لأنَّ الإنسانَ يُقَدِّرُ نفسَهُ في تلكَ البليَّةِ، ويُقَدِّرُ غيرَهُ معرِضًا عنِ الإنقاذِ، فيَسْتَقْبِحُهُ منهُ لمخالفةِ غرضِهِ، فيَعودُ ويُقَدِّرُ ذلكَ الاستقباحَ مِن المشرفِ على الهلاكِ في حقِّ نفسِهِ، فيَدْفَعُ عن نفسِهِ ذلكَ القبحَ المتوهَّمَ. فإنْ فُرِضَ في بهيمةٍ أو شخصٍ لا رقَّةَ فيهِ؛ فهوَ بعيدٌ تصوُّرُهُ لو تَصَوَّرَهُ، فيَبْقى أمرٌ آخرُ، وهوَ طلبُ الثَّناءِ على إحسانِهِ. فإنْ فُرِضَ بحيثُ لا يُعْلَمُ أنَّهُ المنقذُ، فيَتَوَقَّعُ أنْ يُعْلَمَ، فيَكونُ ذلكَ التَّوقُّعُ باعثًا. فإنْ فُرِضَ في موضعٍ يَسْتَحيلُ أنْ يُعْلَمَ، فيَبْقى ميلٌ وترجيحٌ يُضاهي نفرةَ طبعِ السَّليمِ عنِ الحبلِ، وذلكَ أنَّهُ رَأى هذهِ الصُّورةَ مقرونةً بالثَّناءِ فيَظُنُّ أنَّ الثَّناءَ مقرونٌ بها بكلِّ حالٍ، كما أنَّهُ لمَّا رَأى الأذى مقرونًا بصورةِ الحبلِ وطبعُهُ[1] يَنْفُرُ عنِ الأذى، فيَنْفُرُ عنِ المقرونِ بهِ. فالمقرونُ باللذيذِ لذيذٌ، والمقرونُ بالمكروهِ مكروهٌ. بلِ الإنسانُ إذا جالَسَ مَن عَشِقَهُ في مكانٍ، فإذا انْتَهى إليهِ؛ أَحَسَّ في نفسِهِ مِن ذلكَ المكانِ [ما لا يُحِسُّهُ][2] مِن غيرِهِ.

قالَ الشَّاعرُ:

أمُرُّ على الدِّيارِ دِيارِ لَيْلى ... أُقَبِّلُ ذا الجِدارَ وَذا الجِدارا

وَما حُبُّ الدِّيارِ شَغَفْنَ قَلْبي ... وَلٰكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارا

وقالَ ابنُ الرُّوميِّ منبِّهًا على سببِ حبِّ الأوطانِ:

وَحَبَّبَ أوْطانَ الرِّجالِ إلَيْهِمُ ... مَآرِبُ قَضَّاها الشَّبابُ هُنالِكا

إذا ذُكِّروا أوْطانَهُمْ ذَكَّرَتْهُمُ ... عُهودًا جَرَتْ فيها فَحَنُّوا لِذٰلِكا

قالوا: وشواهدُ ذلكَ ممَّا يَكْثُرُ، وكلُّ ذلكَ مِن حكمِ الوهمِ.

قالوا: وأمَّا الصَّبرُ على السَّيفِ في تركِهِ كلمةَ الكفرِ معَ طمأْنينةِ النَّفسِ؛ فلا يَسْتَحْسِنُهُ جميعُ العقلاءِ لولا الشَّرعُ، بل ربَّما اسْتَقْبَحوهُ؛ فإنَّما يَسْتَحْسِنُهُ مَن يَنْتَظِرُ

---

(١) في ط: «فطبعه»! والصواب ما أثبتّه مستأنسًا بما يأتي (٢/٤٠٧).

(٢) كذا هو بين حاصرتين في ط للدلالة على أنّه زيادة من المحقّق.

الثَّوابَ على الصَّبرِ أو مَن يَنْتَظِرُ الثَّناءَ عليهِ بالشَّجاعةِ والصَّلابةِ في الدِّينِ. فكم مِن شجاعٍ رَكِبَ متنَ الخطرِ وهَجَمَ على عددٍ وهوَ يَعْلَمُ أنَّهُ لا يُطيقُهُم ويَسْتَحْقِرُ ما ينالُهُ مِن الألمِ[1] لِما يَعْتاضُهُ مِن توهُّمِ الثَّناءِ والحمدِ ولو بعدَ موتِهِ!

وكذلكَ إخفاءُ السِّرِّ وحفظُ العهدِ إنَّما يَتَواصى النَّاسُ بِهِما لِما فيهِما مِن المصالحِ، ولذلكَ أكثَروا الثَّناءَ عليهِما. فمَن يَحْتَمِلُ الضَّررَ لا للهِ؛ فإنَّما يَحْتَمِلُهُ لأجلِ الثَّناءِ، فإنْ فُرِضَ مَن لا يَسْتَوْلي عليهِ هذا الوهمُ ولا يَنْتَظِرُ الثَّناءَ والثَّوابَ؛ فهوَ يَسْتَقْبِحُ السَّعيَ في هلاكِ نفسِهِ بغيرِ فائدةٍ ويَسْتَحْمِقُ مَن يَفْعَلُ ذلكَ قطعًا. فمَن سَلَّمَ أنَّ مثلَ ذلكَ يُؤْثِرُ الهلاكَ على الحياةِ؟!

قالوا: وهذا هوَ الجوابُ عمَّن عَرَضَتْ لهُ حاجةٌ وأمْكَنَ قضاؤُها بالصِّدقِ والكذبِ واسْتَوَيا عندَهُ وإيثارِهِ الصِّدقَ. على أنَّا نَقولُ: تقديرُ استواءِ الصِّدقِ والكذبِ في المقصودِ معَ قطعِ النَّظرِ عنِ الغيرِ تقديرٌ مستحيلٌ؛ لأنَّ الصِّدقَ والكذبَ متنافيانِ، ومِن المحالِ تساوي المتنافيينِ في جميعِ الصِّفاتِ، فلأجلِ ذلكَ التَّقديرِ المستحيلِ يَسْتَبْعِدُ العقلُ إيثارَ الكذبِ ومنعَ إيثارِ الصِّدقِ!

قالوا: ولا يَلْزَمُ مِن استبعادِ منعِ إيثارِ الصِّدقِ على التَّقديرِ المستحيلِ استبعادُهُ في نفسِ الأمرِ، وإنَّما يَلْزَمُ لو كانَ التَّقديرُ المستلزمُ واقعًا، وهوَ ممنوعٌ.

قالوا: ولَئِنْ سَلَّمْنا أنَّ ذلكَ التَّقديرَ ممكنٌ؛ فغايَتُهُ أنْ يَدُلَّ على حسنِ الصِّدقِ شاهدًا، ولكنْ لا يَلْزَمُ حسنُهُ غائبًا إلَّا بطريقِ قياسِ الغائبِ على الشَّاهدِ، وهوَ فاسدٌ لوضوحِ الفرقِ المانعِ مِن القياسِ[2].

والذي يَقْطَعُ دابرَ [هذا][3] القياسِ أنَّ السَّيِّدَ لو رَأى عبيدَهُ وإماءَهُ يَموجُ بعضُهُم في بعضٍ ويَرْكَبونَ الظُّلمَ والفواحشَ وهوَ مطَّلعٌ عليهِم قادرٌ على منعِهِم؛ لَقَبُحَ ذلكَ منهُ، واللهُ عَزَّ وجَلَّ قد فَعَلَ ذلكَ بعبادِهِ بل أعانَهُم وأمَدَّهُم ولم يَقْبُحْ منهُ

---

(١) في ط: «من الأمل»! وهذا غلط مطبعيّ على الأغلب وربّما كان سبق قلم من الناسخ.

(٢) انظر الردّ على هذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الوجه ٣٤).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

سبحانَهُ[١].

ولا يَصِحُّ قولُهُم: إنَّهُ سبحانَهُ تَرَكَهُم لِيَنْزَجِروا بأنفسِهِم لِيَسْتَحِقُّوا الثَّوابَ؛ لأنَّهُ سبحانَهُ قد عَلِمَ أنَّهُم لا يَنْزَجِرونَ ولمْ يَمْنَعْهُم[٢] قهرًا. فكمْ مِن ممنوعٍ مِن الفواحشِ لعلَّةٍ وعجزٍ! وذٰلكَ أحسنُ مِن تمكينِهِ معَ العلمِ بأنَّهُ لا يَنْزَجِرُ!

وبالجملةِ؛ فقياسُ أفعالِ اللهِ على أفعالِ العبادِ باطلٌ قطعًا، وهوَ محضُ التَّشبيهِ في الأفعالِ، ولهٰذا جَمَعَتِ المُعْتَزِلَةُ القَدَرِيَّةُ بينَ التَّعطيلِ في الصِّفاتِ والتَّشبيهِ في الأفعالِ، فهُم مُعَطِّلَةٌ مُشَبِّهَةٌ، لباسُهُم معلَّمٌ مِن الطَّرفينِ.

كيفَ؛ وإنَّ إنقاذَ الغريقِ الذي ٱسْتَدْلَلْتُمْ بِهِ حجَّةٌ عليكُم؟! فإنَّ نفسَ الإغراقِ والإهلاكِ يَحْسُنُ منهُ سبحانَهُ ولا يَقْبُحُ وهوَ أقبحُ شيءٍ منَّا، فالإنقاذُ إنْ كانَ حسنًا؛ فالإغراقُ يَجِبُ أنْ يكونَ قبيحًا[٣].

فإنْ قُلْتُم: لعلَّ في ضمنِ الإغراقِ والإهلاكِ سرًّا لمْ نَطَّلِعْ عليهِ وغرضًا لمْ نَصِلْ إليهِ؛ فقَدِّروا مثلَهُ في تركِ إنقاذِنا نحنُ للغرقى بل في إهلاكِنا لِمَن نُهْلِكُهُ! والفعلانِ مِن حيثُ التكليفُ والإيجابُ مستويانِ عقلاً وشرعًا[٤]!

فإنَّهُ سبحانَهُ لا يَتَضَرَّرُ بمعصيةِ العبدِ ولا يَنْتَفِعُ بطاعتِهِ ولا تَتَوَقَّفُ قدرتُهُ في الإحسانِ إلى العبدِ على فعلٍ يَصْدُرُ مِن العبدِ، بل كما أنْعَمَ[٥] عليهِ ٱبتداءً بأجزلِ المواهبِ وأفضلِ العطايا مِن حسنِ الصُّورةِ وكمالِ الخلقةِ وقوامِ البنيةِ وإعدادِ الآلةِ وإتمامِ الأداةِ وتعديلِ القامةِ وما مَتَّعَهُ مِن رَوْحِ الحياةِ وفَضَّلَهُ بهِ مِن حياةِ الأرواحِ وما أكْرَمَهُ بهِ مِن قبولِ العلمِ وهَداهُ إلى معرفتِهِ التي هيَ أسنى جوائزِهِ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصوها﴾ [إبراهيم: ٣٤]؛ فهوَ سبحانَهُ أقدرُ على الإنعامِ عليهِ دوامًا. فكيفَ يُوجِبُ

---

(١) ٱنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الوجه ٣٥).

(٢) في ط: «ولا يمنعهم»! والصواب ما أثبتّه.

(٣) ٱنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الوجه ٣٦).

(٤) ٱنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الأوجه ٣٧-٣٨).

(٥) في ط: «بل كلّما أنعم»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه. ووجه الكلام: «بل كما أنعم عليه ٱبتداء... فهو سبحانه أقدر على الإنعام عليه دوامًا».

على العبيدِ عبادةً شاقَّةً في الحالِ لارتقابِ ثوابٍ في ثاني الحالِ؟! أليسَ لو ألْقى إليهِ زمامَ الاختيارِ حتَّى يَفْعَلَ ما يَشاءُ جريًا على سوقِ طبعِهِ المائلِ إلى لذيذِ الشَّهواتِ، ثمَّ أجْزَلَ لهُ في العطاءِ مِن غيرِ حسابٍ؛ كانَ ذٰلكَ أروحَ للعبدِ ولمْ يَكُنْ قبيحًا عندَ العقلِ[١]؟

فقد تَعارَضَ الأمرانِ: أحدُهُما: أنْ يُكَلِّفَهُم فيأْمُرَ وينْهى حتَّى يُطاعَ ويُعْصى، ثمَّ يُثيبَهُم ويُعاقِبَهُم على فعلِهِم. الثَّاني: أنَّهُ لا يُكَلِّفُهُم بأمرٍ ولا نهيٍ؛ إذْ لا يَنْتَفِعُ سبحانَهُ منهُم بطاعةٍ ولا يَتَضَرَّرُ منهُم بمعصيةٍ، كلاًّ؛ بل لا تكونُ نعمُهُ ثوابًا بلِ ٱبتداءً[٢]. وإذا تَعارَضَ في العقولِ هٰذانِ الأمرانِ؛ فكيفَ يَهْتَدي العقلُ إلى ٱختيارِ أحدِهِما حقًّا وقطعًا؟! فكيفَ تُعَرِّفُنا العقولُ وجوبًا على النَّفسِ بالمعرفةِ وعلى الجوارحِ بالطَّاعةِ وعلى الباري سبحانَهُ بالثَّوابِ والعقابِ[٣]؟!

قالوا: ولا سيَّما على أُصولِ المُعْتَزِلَةِ القَدَرِيَّةِ؛ فإنَّ التَّكليفَ بالأمرِ والنَّهيِ والإيجابِ مِن اللهِ لا حقيقةَ لهُ على أصلِهِم: فإنَّهُ لا يَرْجِعُ إلى ذاتِ الرَّبِّ تَعالى صفةٌ[٤] يَكونُ بها آمرًا ناهيًا موجبًا مكلِّفًا بالأمرِ والنَّهيِ للخلقِ. ومعلومٌ أنَّهُ لا يَرْجِعُ إلى ذاتِهِ مِن الخلقِ صفةٌ. والعقلُ عندَهُم إنَّما يَعْرِفُهُ على هٰذهِ الصِّفةِ، ويَسْتَحيلُ عندَهُم أنْ يَعْرِفَهُ بأنَّهُ يَقْتَضي ويَطْلُبُ منهُ[٥] شيئًا أو يَأْمُرُهُ ويَنْهاهُ بشيءٍ كما يَعْقِلُ الأمرَ والنَّهيَ بالطَّلبِ القائمِ بالآمرِ والنَّاهي. فإذا لمْ يَقُمْ بهِ طلبٌ؛ ٱسْتَحالَ أنْ يَكونَ آمرًا ناهيًا.

فغايةُ العقلِ عندَهُم أنْ يَعْرِفَهُ على صفةٍ يَسْتَحيلُ عليهِ [معَها][٦] الاتِّصافُ بالأمرِ والنَّهيِ، فكيفَ يَعْرِفُهُ على صفةِ [مَن][٦] يُريدُ منهُ طاعةً فيَسْتَحِقُّ عليها ثوابًا أو يَكْرَهُ منهُ معصيةً يَسْتَحِقُّ عليها عقابًا؟! وإذْ لا أمرَ ولا نهيَ يُعْقَلُ؛ فلا طاعةَ ولا معصيةَ؛ إذْ هُما

---

(١) ٱنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الأوجه ٣٩-٤٥).

(٢) في ط: «ثوابًا بل ٱبتلاء»! وهٰذا تحريف شنيع يردّه أوّل الكلام، فإذا كان لا يكلّفهم بأمر ولا نهي؛ فكيف يكون الابتلاء؟! وإنّما معنى الكلام: لا تكون نعمه ثوابًا على عمل صالح وإنّما تكون ٱبتداء منه بغير عمل. وقد جاءت على الصواب (٢/ ٤٣٣).

(٣) ٱنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الأوجه ٤٦-٥٠).

(٤) عند المعتزلة وعلى أصلهم، والكلام على لسان الكلاّبيّة والأشاعرة يشنّعون به على المعتزلة.

(٥) يعني: من العبد، أو: من عقل العبد.

(٦) زيادة يقتضيها السياق.

فرعُ الأمرِ والنَّهيِ، فلا ثوابَ ولا عقابَ؛ إذْ هُما فرعُ الطَّاعةِ والمعصيةِ!

وغايةُ ما يقولونَ: إنَّهُ يَخْلُقُ في الهواءِ أو في البحرِ «ٱفْعَلْ» أو «لا تَفْعَلْ»، بشرطِ أنْ لا يَدُلَّ الأمرُ والنَّهيُ المخلوقُ على صفةٍ في ذاتِهِ غيرَ كونِهِ عالمًا قادرًا! ومعلومٌ أنَّ هٰذا لا يَدُلُّ إلَّا على كونِ الفاعلِ قادرًا عالمًا حيًّا مريدًا لفعلِهِ، وأمَّا دلالتُهُ على حقيقةِ الأمرِ والنَّهيِ المستلزمةِ للطَّاعةِ والمعصيةِ المستلزمينِ للثَّوابِ والعقابِ؛ فلا!

فتَعْرِفُ مِن ذٰلكَ أنَّ: مَن نَفى قيامَ الكلامِ والأمرِ والنَّهيِ بذاتِ اللهِ؛ لمْ يُمْكِنْهُ إثباتُ التَّكليفِ على العبدِ أبدًا، ولا إثباتُ حكمٍ للفعلِ بحسنٍ ولا قبحٍ! وفي ذٰلكَ إبطالُ الشَّرائعِ جملةً معَ ٱستنادِها إلى قولِ[1] مَن قامَتِ البراهينُ على صدقِهِ ودَلَّتِ المعجزةُ على نبوَّتِهِ، فضلًا عنِ الأحكامِ العقليَّةِ المتعارضةِ[2] المستندةِ إلى عاداتِ النَّاسِ المختلفةِ بالإضافةِ والنِّسبِ والأزمنةِ والأمكنةِ والأقوالِ.

وقد عُرِفَ بهٰذا أنَّ: مَن نَفى قولَ اللهِ وكلامَهُ؛ فقد نَفى التَّكليفَ جملةً، وصارَ مِن أخبثِ القَدَريَّةِ وشرِّهِم مقالةً؛ حيثُ أثْبَتَ تكليفًا وإيجابًا وتحريمًا بلا أمرٍ ولا نهيٍ ولا ٱقتضاءٍ ولا طلبٍ، وهٰذهِ مقدرتُهُ في حقِّ الرَّبِّ تَعالى، وأثْبَتَ فعلًا وطاعةً ومعصيةً بلا فاعلٍ ولا محدِثٍ، وهٰذهِ مقدرتُهُ في حقِّ العبدِ. فلْيُتَنَبَّهْ لهٰذهِ الثَّلاثةِ[3].

قالوا: وأيضًا؛ فما مِن معنًى يُسْتَنْبَطُ مِن قولٍ أو فعلٍ لِيُرْبَطَ بهِ حكمٌ مناسبٌ لهُ إلَّا ومِن جنسِهِ في العقلِ أمرٌ آخرُ يُعارِضُهُ يُساويهِ في الدَّرجةِ أو يَفْضُلُ عليهِ في المرتبةِ، فيَتَحَيَّرُ العقلُ في الاختيارِ إلى أنْ يَرِدَ شرعٌ يَخْتارُ أحدَهُما أو يُرَجِّحُهُ[4] مِن تلقائِهِ، فيَجِبُ على العاقلِ ٱعتبارُهُ وٱختيارُهُ لترجيحِ الشَّرعِ لهُ لا لرجحانِهِ في نفسِهِ[5].

---

(١) يعني: حتّى لو كانت الشرائع مستندة إلى قول. . . إلخ.

(٢) كذا! فإن لم تكن تحريفًا: فإمّا أن يكون المعنى: لم يمكنه إثبات التكليف فضلًا عن إثبات الأحكام العقليّة المتعارضة. . . وإمّا أن يكون معناها: وفي ذٰلك إبطال الشرائع جملة وإبطال الأحكام العقليّة المتعارضة أيضًا. والأوّل أولى بالسياق، والثاني أقعد. والله أعلم.

(٣) ٱنظر تصويب إلزام الأشاعرة والكلّابيّة للمعتزلة بهٰذا وإلزامهم بمثله في (فصل ٢٢/ الوجه ٥١).

(٤) في ط: «ويرجّحه»، والأولى ما أثبتّه مستأنسًا بما يأتي (٢/ ٤٥٢).

(٥) ٱنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الوجه ٥٢).

ونَضْرِبُ لذٰلكَ مثالاً فنقولُ: إذا قَتَلَ إنسانٌ مثلَهُ؛ عَرَضَ للعقلِ الصَّريحِ هاهُنا آراءٌ متعارضةٌ مختلفةٌ: منها: أنَّهُ يَجِبُ أنْ يُقْتَلَ قصاصًا ردعًا للجناةِ وزجرًا للطُّغاةِ وحفظًا للحياةِ وشفاءً للغيظِ وتبريدًا لحرِّ المصيبةِ اللاحقةِ لأولياءِ القتيلِ. ويُعارِضُهُ معنًى آخرُ: أنَّهُ إتلافٌ بإزاءِ إتلافٍ وعدوانٌ في مقابلةِ عدوانٍ، ولا يَحْيا الأوَّلُ لقتلِ الثَّاني، ففيهِ تكثيرُ المفسدةِ بإعدامِ النَّفسينِ، وأمَّا مصلحةُ الرَّدعِ والزَّجرِ وٱستبقاءِ النَّوعِ؛ فأمرٌ متوهَّمٌ، وفي القصاصِ ٱستهلاكٌ محقَّقٌ. فقد تَعارَضَ الأمرانِ، وربَّما يُعارِضُهُ أيضًا معنًى ثالثٌ وراءَهُما، فيُفَكِّرُ العقلُ: أيُراعي شرائطَ أُخرَ وراءَ مجرَّدِ الإنسانيَّةِ مِن العقلِ والبلوغِ والعلمِ والجهلِ والكمالِ والنَّقصِ والقرابةِ والأجنبيَّةِ أو لا؟! فيَتَحَيَّرُ العقلُ كلَّ التَّحيُّرِ، فلا بدَّ إذًا مِن شارعٍ يُفَصِّلُ هٰذهِ الخطَّةَ ويُقَرِّرُ قانونًا يَطَّرِدُ عليهِ أمرُ الأُمَّةِ وتَسْتَقيمُ عليهِ مصالحُهُم[1].

وظَهَرَ بهٰذا أنَّ المعانيَ المستنبطةَ إذا كانَتْ راجعةً إلى مجرَّدِ ٱستنباطِ العقلِ؛ فيَلْزَمُ مِن ذٰلكَ أنْ تكونَ الحركةُ الواحدةُ مشتملةً على صفاتٍ متناقضةٍ وأحوالٍ متنافرةٍ[2].

وليسَ معنى قولِنا «إنَّ العقلَ ٱسْتَنْبَطَ منها» أنَّها كانَتْ موجودةً في الشَّيءِ فٱسْتَخْرَجَها العقلُ، بلِ العقلُ تَرَدَّدَ بينَ إضافاتِ الأحوالِ بعضِها إلى بعضٍ ونِسَبِ الأشخاصِ والحركاتِ نوعًا إلى نوعٍ وشخصًا إلى شخصٍ، فطَرَأَ عليهِ[3] مِن تلكَ المعاني ما حَكَيْناهُ وأَحْصَيْناهُ، وربَّما يَبْلُغُ مبلغًا يَشُذُّ عنِ الإحصاءِ. فعُرِفَ بذٰلكَ أنَّ المعانيَ لمْ تَرْجِعْ إلى الذَّاتِ، بل إلى مجرَّدِ الخواطرِ الطَّارئةِ على الأصلِ، وهيَ متعارضةٌ[4].

قالوا: وأيضًا؛ لو ثَبَتَ الحسنُ والقبحُ العقليّانِ؛ لَتَعَلَّقَ بهِما الإيجابُ والتَّحريمُ شاهدًا وغائبًا على العبدِ والرَّبِّ، واللازمُ محالٌ، فالملزومُ كذٰلكَ:

---

(١) ٱنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الأوجه ٥٣-٥٧).
(٢) ٱنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الأوجه ٥٨-٥٩).
(٣) في ط: «فيطرأ عليه»! والأولى ما أثبتّه مستأنسًا بما يأتي (٢/ ٤٦٤).
(٤) ٱنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الوجه ٦٠).

أَمَّا الملازمةُ[١]؛ فقد كَفانا أهلُ الإثباتِ[٢] تقريرَها بألتزامِهم أنَّهُ يَجِبُ على العبدِ عقلاً بعضُ الأفعالِ الحسنةِ ويَحْرُمُ عليهِ القبيحُ ويَسْتَحِقُّ الثَّوابَ والعقابَ على ذٰلكَ، وأنَّهُ يَجِبُ على الرَّبِّ تَعالى فعلُ الحسنِ ورعايةُ الصَّلاحِ والأصلحِ ويَحْرُمُ عليهِ فعلُ القبيحِ والشَّرِّ وما لا فائدةَ فيهِ كالعبثِ، ووَضَعوا بعقولِهِم شريعةً أَوْجَبوا بها على الرَّبِّ تَعالى وحَرَّموا عليهِ، وهٰذا عندَهُم ثمرةُ المسألةِ وفائدتُها[٣]!

وأمَّا آنتفاءُ اللازمِ؛ فإنَّ الوجوبَ والتَّحريمَ بدونِ الشَّرعِ ممتنعٌ؛ إذْ لو ثَبَتَ بدونِهِ؛ لَقامَتِ الحجَّةُ بدونِ الرُّسلِ، واللهُ سبحانَهُ إنَّما أَثْبَتَ الحجَّةَ بالرُّسلِ خاصَّةً، كما قالَ تَعالى: ﴿لِئَلَّا يَكونَ لِلنَّاسِ عَلى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. وأيضًا؛ فلو ثَبَتَ بدونِ الشَّرعِ؛ لاسْتُحِقَّ الثَّوابُ والعقابُ عليهِ، وقد نَفى اللهُ سبحانَهُ العقابَ قبلَ البعثةِ: فقالَ: ﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسولاً﴾ [الإسراء: ١٥]. وقالَ تَعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخونَ فيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحًا غَيْرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]، فإنَّما آحْتَجَّ عليهِم بالنَّذيرِ. وقالَ تَعالى: ﴿وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثونَ . لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهونَ﴾ [الزخرف: ٧٧-٧٨]، والحقُّ هاهُنا هوَ ما بُعِثَ به المرسلونَ بآتِّفاقِ المفسِّرينَ. وقالَ تَعالى: ﴿كُلَّما أُلْقِيَ فيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذيرٌ . قالوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا في ضَلالٍ كَبيرٍ﴾ [الملك: ٨-٩]. وقالَ تَعالى: ﴿وَيَوْمَ يُناديهِمْ فَيَقولُ ماذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلينَ﴾ [القصص: ٦٥]، فلا يَسْأَلُهُم تَبارَكَ وتَعالى عن موجَباتِ عقولِهِم بل عمَّا أجابوا بِهِ رسلَهُ فعليهِ يَقَعُ الثَّوابُ والعقابُ. وقالَ تَعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَني آدَمَ أَلَّا تَعْبُدوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبينٌ . وأَنِ آعْبُدوني هٰذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١]، فآحْتَجَّ عليهِم تَبارَكَ وتَعالى بما عَهِدَ إليهِم على ألسنةِ رسلِهِ خاصَّةً؛ فإنَّ عهدَهُ هوَ أمرُهُ

---

(١) بين الحسن والقبح والإيجاب والتحريم.

(٢) من المعتزلة. وأمّا أهل السنّة من المثبتة؛ فلا يلزمهم هٰذا ولا يلتزمونه.

(٣) أنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الوجه ٦١).

ونهيُهُ الذي بلَّغَتْهُ رسلُهُ. وقالَ تَعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانوا كافِرينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فهٰذا في حكمِ الوجوبِ والتَّحريمِ على العبادِ قبلَ البعثة[١].

وأمَّا ٱنتفاءُ الوجوبِ والتَّحريمِ على مَن لهُ الخلقُ والأمرُ ولا يُسْأَلُ عمَّا يَفْعَلُ؛ فمِن وجوهٍ متعدِّدةٍ:

أحدُها: أنَّ الوجوبَ والتَّحريمَ في حقِّهِ سبحانَهُ غيرُ معقولٍ على الإطلاقِ! وكيفَ يُعْلَمُ أنَّهُ سبحانَهُ يَجِبُ عليهِ أنْ يَمْدَحَ ويَذُمَّ ويُثيبَ ويُعاقِبَ على الفعلِ بمجرَّدِ العقلِ؟! وهلْ ذٰلكَ إلاَّ مغيَّبٌ عنَّا؟! فبمَ نَعْرِفُ[٢] أنَّهُ رَضِيَ عن فاعلٍ وسَخِطَ على فاعلٍ وأنَّهُ يُثيبُ هٰذا ويُعاقِبُ هٰذا؛ ولمْ يُخْبِرْ عنهُ بذٰلكَ مخبرٌ صادقٌ ولا دَلَّ على مواقعِ رضاهُ وسخطِهِ عقلٌ ولا أَخْبَرَ عن محكومِهِ ومعلومِهِ مخبرٌ[٣]؟!

فلمْ يَبْقَ إلاَّ قياسُ أفعالِهِ على أفعالِ عبادِهِ، وهوَ مِن أفسدِ القياسِ وأعظمِهِ بطلانًا؛ فإنَّهُ تَعالى كما أنَّهُ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ في ذاتِهِ ولا في صفاتِهِ؛ فكذٰلكَ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ في أفعالِهِ!

وكيفَ يُقاسُ على خلقِهِ في أفعالِهِ فيَحْسُنُ منهُ ما يَحْسُنُ منهُم ويَقْبُحُ منهُ ما يَقْبُحُ منهُم؛ ونحنُ نَرى كثيرًا مِن الأفعالِ تَقْبُحُ منَّا وهيَ حسنةٌ منهُ تَعالى، كإيلامِ الأطفالِ والحيوانِ وإهلاكِ مَن لو أهْلَكْناهُ نحنُ لَقَبُحَ منَّا مِن الأموالِ والأنفسِ، وهوَ منهُ تَعالى مستحسنٌ غيرُ مستقبحٍ. وقد سُئِلَ بعضُ العلماءِ عن ذٰلكَ، فأنْشَدَ السَّائلَ:

وَيَقْبُحُ مِنْ سِواكَ الفِعْلُ عِنْدي ... فَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذاكا

ونحنُ نَرى تركَ إنقاذِ الغرقى والهلكى قبيحًا منَّا، وهوَ سبحانَهُ إذا أغْرَقَهُم وأهْلَكَهُم؛ لمْ يَكُنْ قبيحًا منهُ. ونَرى تركَ أحدِنا عبيدَهُ وإماءَهُ يَقْتُلُ بعضُهُم بعضًا ويُسيءُ بعضُهُم بعضًا[٤] ويُفْسِدُ بعضُهُم بعضًا وهوَ متمكِّنٌ مِن منعِهِم قبيحًا، وهوَ سبحانَهُ قد تَرَكَ عبادَهُ

---

(١) ٱنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الأوجه ٦١-٦٢).

(٢) في ط: «فيم نعرف»! فربّما كانت تصحيفًا وربّما كانت خطأً مطبعيًّا صوابه ما أثبتّه.

(٣) ٱنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الوجه ٦٣) من الفصل التالي.

(٤) كذا في ط، ولا يبعد أنّها تحريف صوابه: «ويسبي بعضهم بعضًا».

كذٰلكَ وهوَ قادرٌ على منعِهم وهوَ منهُ حسنٌ غيرُ قبيحٍ؟! وإذا كانَ هٰذا شأْنَهُ سبحانَهُ وشأْنَنا؛ فكيفَ يَصِحُّ قياسُ أفعالِه على أفعالِنا؟!

فلا يُدْرَكُ إذًا للوجوبِ والتَّحريمِ عليهِ وجهٌ. كيفَ؛ والإيجابُ والتَّحريمُ يَقْتَضي موجبًا ومحرِّمًا آمرًا ناهيًا بينَهُ فرقٌ[1] وبينَ الذي يَجِبُ عليهِ ويَحْرُمُ، وهٰذا محالٌ في حقِّ الواحدِ القهَّارِ؟! فالإيجابُ والتَّحريمُ طلبٌ للفعلِ والتَّركِ على سبيلِ الاستعلاءِ؛ فكيفَ يُتَصَوَّرُ غالبًا [للهِ تَعالى][2]؟!

قالوا: وأيضًا؛ فلهٰذا الإيجابِ والتَّحريمِ اللذينِ زَعَمْتُم على اللهِ لوازمُ فاسدةٌ يَدُلُّ فسادُها على فسادِ الملزومِ[3]:

اللازمُ الأوَّلُ: إذا أوْجَبْتُم على اللهِ تَعالى رعايةَ الصَّلاحِ والأصلحِ في أفعالِه؛ فيَجِبُ أنْ تُوجِبوا على العبدِ رعايةَ الصَّلاحِ والأصلحِ أيضًا في أفعالِه، حتَّى يَصِحَّ اعتبارُ الغائبِ بالشَّاهدِ. وإذا لمْ يَجِبْ علينا رعايتُهما بالاتِّفاقِ بحسبِ المقدورِ؛ بَطَلَ ذٰلكَ في الغائبِ. ولا يَصِحُّ تفريقُكُم بينَ الغائبِ والشَّاهدِ بالتَّعبِ والنَّصبِ الذي يَلْحَقُ الشَّاهدَ دونَ الغائبِ؛ لأنَّ ذٰلكَ لو كانَ فارقًا في محلِّ الإلزامِ؛ لَكانَ فارقًا في أصلِ الصَّلاحِ، فإنْ ثَبَتَ الفرقُ في صفتِهِ ومقدارِهِ؛ ثَبَتَ في أصلِه، وإنْ بَطَلَ الفرقُ؛ ثَبَتَ الإلزامُ المذكورُ.

اللازمُ الثَّاني: أنَّ القرباتِ مِن النَّوافلِ صلاحٌ، فلو كانَ الصَّلاحُ واجبًا؛ وَجَبَ وجوبَ الفرائضِ.

اللازمُ الثَّالثُ: أنَّ خلودَ أهلِ النَّارِ في النَّارِ يَجِبُ أنْ يَكونَ صلاحًا لهُم دونَ أنْ يُرَدُّوا فيُعْتِبوا ربَّهُم[4] ويَتوبوا إليهِ. ولا يَنْفَعُكُمُ اعتذارُكُم عن هٰذا الإلزامِ بأنَّهُ لو رُدُّوا لَعادوا لِما نُهوا عنهُ؛ فإنَّ هٰذا حقٌّ، ولٰكنْ لو أماتَهُم وأعْدَمَهُم فقَطَعَ عِتابَهُم؛ كانَ أصلحَ

---

(١) في ط: «وبينه فرق»! وإثبات الواو ضعيف جدًّا. ومعنى الكلام أنّ الإيجاب والتحريم يقتضيان آمرًا وناهيًا يختلف عن المأمور المنهيّ ولا يتّحد معه.

(٢) في ط: «فكيف يتصوّر غائبًا»! وهٰذا تحريف لا معنى له، أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه. وربّما كان الصواب: «فكيف يتصوّر عاليًا على الله تعالى». وما بين الحاصرتين زيادة يستلزمها السياق.

(٣) أنظر تصويب إلزام الأشاعرة والكلّابيّة للمعتزلة بهٰذا وإلزامهم بمثله في (فصل ٢٢/ الوجه٦٣).

(٤) يعتبوا ربّهم: يزيلوا عتبه بالتوبة والاستغفار.

لهُم، ولو غَفَرَ لهُم ورَحِمَهُم وأخْرَجَهُم مِن النَّارِ؛ كانَ أصلحَ لهُم مِن إماتتِهِم وإعدامِهِم، ولمْ يَتَضَرَّرْ سبحانَهُ بذٰلكَ.

اللازمُ الرَّابعُ: أنَّ ما فَعَلَهُ الرَّبُّ تَعالى مِن الصَّلاحِ والأصلحِ وتَرَكَهُ مِن الفسادِ والعبثِ لو كانَ واجبًا عليهِ؛ لَما ٱسْتَوْجَبَ بفعلِهِ لهُ حمدًا وثناءً؛ فإنَّهُ في فعلِهِ ذٰلكَ قد قَضى ما وَجَبَ عليهِ، وما ٱسْتَوْجَبَهُ العبدُ بطاعتِهِ مِن ثوابِهِ؛ فإنَّهُ عندَكُم حقُّهُ الواجبُ لهُ على ربِّهِ، ومَن قَضى دينَهُ؛ لمْ يَسْتَوْجِبْ بقضائِهِ شيئًا آخرَ[١].

اللازمُ الخامسُ: أنَّ خلقَ إبليسَ وجنودِهِ أصلحُ للخلقِ وأنفعُ لهُم مِن أنْ لمْ يُخْلَقْ معَ أنَّ إقطاعَهُ مِن العبادِ مِن كلِّ ألفٍ تسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعونَ[٢].

اللازمُ السَّادسُ: أنَّهُ معَ كونِ خلقِهِ أصلحَ لهُم وأنفعَ [يَلْزَمُ][٣] أنْ يَكونَ إنظارُهُ إلى يومِ القيامةِ أصلحَ لهُم وأنفعَ مِن إهلاكِهِ وإماتتِهِ.

اللازمُ السَّابعُ: أنْ يَكونَ تمكينُهُ مِن إغوائِهِم وجريانُهُ منهُم مجرى الدَّمِ في أبشارِهِم أنفعَ لهُم وأصلحَ لهُم مِن أنْ يُحالَ بينَهُم وبينَهُ.

اللازمُ الثَّامنُ: أنْ يَكونَ إماتةُ الرُّسلِ أصلحَ للعبادِ مِن بقائِهِم بينَ أظهرِهِم معَ هدايتِهِم لهُم وأصلحَ مِن أنْ يُحالَ بينَهُم وبينَها[٤].

اللازمُ العاشرُ[٥]: ما أَلْزَمَهُ أبو الحَسَنِ الأشْعَرِيُّ للجُبَّائيِّ[٦] وقد سَأَلَهُ عن ثلاثةِ

---

(١) فطاعة العبد توجب له حقًّا على الله تعالى، فإذا أدخله الله الجنّة؛ فقد أدّى حقّ العبد وسدّد الدين الذي عليه، وهٰذا لا يستحقّ من العبد حمدًا ولا ثناءً.

(٢) كما روى: البخاري (٦٠ـ الأنبياء، ٧ـ قصّة يأجوج ومأجوج، ٦/ ٣٨٢/ ٣٣٤٨)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٩٦ـ يقول الله لآدم أخرج بعث النار، ١/ ٢٠١/ ٢٢٢)؛ عن أبي سعيد؛ قال ﷺ: «يقول الله عزّ وجلّ لآدم: أخرج بعث النار. قال: وما بعث النار؟ قال: من كلّ ألف تسع مئة وتسعة وتسعين...» إلخ.

(٣) ساقطة من ط، ولا بدّ منها لفهم السياق.

(٤) يعني: بين الرسل وبين الإماتة.

(٥) كذا من غير لازم تاسع! والغالب فيما أرى أنّ هاهنا سقطًا وليس خطأً في الترقيم.

(٦) أمّا الجبّائيّ؛ فقدّمت ترجمته (١/ ١١٧).

وأمّا الأشعريّ؛ فالعلّامة، إمام المتكلّمين، أبو الحسن، عليّ بن إسماعيل بن إسحاق، من أحفاد أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. له ذكاء مفرط وتبحّر في العلم وأشياء حسنة على مذهب السلف في الصفات وغيره وردود على المعتزلة وهتك لأستارهم، وله أيضًا أشياء كثيرة شذّ بها عن مذهب السلف. توفّي في حدود=

إخوةٍ أماتَ اللهُ أحدَهُم صغيرًا وأحيا الآخرين، فٱختارَ أحدُهُما الإيمانَ والآخرُ الكفرَ، فرَفَعَ درجةَ المؤمنِ البالغِ على أخيهِ الصَّغيرِ في الجنَّةِ لعملِهِ. فقالَ أخوهُ: يا ربِّ! لمَ لا تُبَلِّغُني منزلةَ أخي؟! فقالَ: إنَّهُ عاشَ وعَمِلَ أعمالاً ٱستَحَقَّ بها هٰذهِ المنزلةَ. فقالَ: يا ربِّ! فهلاَّ أحْيَيْتَني حتَّى أعْمَلَ مثلَ عملِهِ! فقالَ: كانَ الأصلحُ لكَ أنْ توَفَّيْتُكَ صغيرًا؛ لأنِّي عَلِمْتُ أنَّكَ إنْ بَلَغْتَ ٱخْتَرْتَ الكفرَ، فكانَ الأصلحُ في حقِّكَ أنْ أمَتُّكَ صغيرًا. فنادى أخوهُما الثَّالثُ مِن أطباقِ النَّارِ: يا ربِّ! فهلاَّ عَمِلْتَ معي هٰذا الأصلحَ وٱخْتَرَمْتَني صغيرًا كما عَمِلْتَهُ معَ أخي وٱخْتَرَمْتَهُ صغيرًا؟! فأُسْكِتَ الجُبَّائيُّ ولمْ يُجِبْهُ بشيءٍ.

فإذا عَلِمَ اللهُ سبحانَهُ أنَّهُ لوِ ٱخْتَرَمَ العبدَ قبلَ البلوغِ وكمالِ العقلِ؛ لَكانَ ناجيًا، ولو أمْهَلَهُ وسَهَّلَ لهُ النَّظرَ؛ لَعانَدَ وكَفَرَ وجَحَدَ؛ فكيفَ يُقالُ: إنَّ الأصلحَ في حقِّهِ إبقاؤُهُ حتَّى يَبْلُغَ؛ والمقصودُ عندَكُم بالتَّكليفِ الاستصلاحُ والتَّعويضُ بأسنى الدَّرجاتِ التي لا تُنالُ إلاَّ بالأعمالِ؟! أوَلَيْسَ الواحدُ منَّا إذا عَلِمَ مِن حالِ ولدِهِ أنَّهُ إذا أُعْطِيَ مالاً يَتَّجِرُ بهِ هَلَكَ وخَسِرَ[1] بسببِ ذٰلكَ؛ فإنَّهُ لا يُعَرِّضُهُ لذٰلكَ ويَقْبُحُ منهُ تعريضُهُ لهُ، وهوَ مِن ربِّ العالمينَ حسنٌ غيرُ قبيحٍ؟! وكذٰلكَ مَن عَلِمَ مِن حالِ ولدِهِ أنَّهُ لو أعطاهُ سيفًا أو سلاحًا يُقاتِلُ بهِ العدوَّ قَتَلَ بهِ نفسَهُ[2] وأعطى السِّلاحَ لعدوِّهِ؛ فإنَّهُ يَقْبُحُ منهُ إعطاؤُهُ ذٰلكَ السِّلاحَ، والرَّبُّ تَعالى قد عَلِمَ مِن أكثرِ عبادِهِ ذٰلكَ ولَمْ يَقْبُحْ منهُ سبحانَهُ تمكينُهُمْ وإعطاؤُهُمُ الآلاتِ بل هوَ حسنٌ منهُ؟!

كيفَ وقد ساعَدوا على نفوسِهِم بأنَّ[3] اللهَ سبحانَهُ لو عَلِمَ أنَّهُ لو أرْسَلَ رسولاً إلى خلقِهِ وكَلَّفَهُ الأداءَ عنهُ معَ علمِهِ بأنَّهُ لا يُؤَدِّي؛ فإنَّ علمَهُ سبحانَهُ بذٰلكَ يَصْرِفُهُ عن إرادةِ الخيرِ والصَّلاحِ، وهٰذا بمثابةِ مَن أدلى حبلاً إلى غريقٍ لِيُخَلِّصَ نفسَهُ مِن الغرقِ معَ علمِهِ

= ٣٣٠هـ. ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١١/ ٣٤٦)، و«أعلام النبلاء» (١٥/ ٨٥).

(١) في ط: «فهلك وخسر»! والفاء زيادة من الناسخ تفسد المعنى.

(٢) في ط: «فقتل به نفسه»! وهٰذه أيضًا زيادة من الناسخ تفسد المعنى.

(٣) في ط: «نفوسهم أنَّ»! ولا بدّ من زيادة الباء ليستقيم الكلام.

بأنَّهُ يَخْنُقُ نفسَهُ به! وقد ساعَدوا أيضًا على نفوسِهِم بأنَّ اللهَ سبحانَهُ إذا عَلِمَ أنَّ في تكليفِهِ عبدًا مِن عبادِهِ فسادَ الجماعةِ؛ فإنَّهُ يَقْبُحُ تكليفُهُ؛ لأنَّهُ ٱستفسادٌ لِمَن يَعْلَمُ أنَّهُ يَكْفُرُ عندَ تكليفِهِ؟!

الإلزامُ الحادي عشرَ: أنَّهُم قالوا وصَدَقوا بأنَّ الرَّبَّ تَعالى قادرٌ على التَّفضُّلِ بمثلِ الثَّوابِ ٱبتداءً بلا واسطةِ عملٍ! فأيُّ غرضٍ لهُ في تعريضِ العبادِ للبلوى والمشاقِّ؟! ثمَّ قالوا وكَذَبوا[1]: الغرضُ في التَّكليفِ أنَّ ٱستيفاءَ المستحِقِّ حقَّهُ أهنأُ لهُ وألذُّ مِن قبولِ التَّفضُّلِ وٱحتمالِ المنَّةِ!

وهٰذا كلامُ أجهلِ الخلقِ بالرَّبِّ تَعالى وبحقِّهِ وبعظمتِهِ، ومساوٍ بينَهُ وبينَ آحادِ النَّاسِ، وهوَ مِن أقبحِ التَّشبيهِ وأخبثِهِ، تَعالى اللهُ عن ضلالِهِم علوًّا كبيرًا.

فكيفَ يَسْتَنْكِفُ العبدُ المخلوقُ المربوبُ مِن قبولِ فضلِ اللهِ تَعالى ومنَّتِهِ؟! وهلِ المنَّةُ في الحقيقةِ إلاَّ للهِ المانِّ بفضلِهِ؟! قالَ تَعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَموا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ﴾ [الحجرات: ١٧]. وقالَ تَعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلى المُؤْمِنينَ إِذْ بَعَثَ فيهِمْ رَسولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. ولمَّا قالَ النَّبيُّ ﷺ للأنصارِ: «ألَمْ أجِدْكُم ضلاَّلاً فهَداكُمُ اللهُ بي وعالةً فأغْناكُمُ اللهُ بي؟». فأجابوهُ بقولِهِمْ: اللهُ ورسولُهُ أمنُّ[2].

ويا لَلعقولِ التي قد خُسِفَ بها! أيُّ حقٍّ للعبدِ على الرَّبِّ حتَّى يَمْتَنِعَ مِن قبولِ منَّتِهِ عليهِ؟! فبأيِّ حقٍّ ٱسْتَحَقَّ الإنعامَ عليهِ بالإيجادِ وكمالِ الخلقةِ وحسنِ الصُّورةِ وقوامِ البنيةِ وإعطائِهِ القوى والمنافعَ والآلاتِ والأعضاءَ وتسخيرِ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ لهُ؟! ومِن أقلِّ ما لهُ عليهِ مِن النِّعمِ التَّنفُّسُ في الهواءِ، الذي لا يَكادُ يَخْطُرُ ببالِهِ أنَّهُ مِن النِّعمِ، وهوَ في اليومِ والليلةِ أربعةٌ وعشرونَ ألفَ نفسٍ! فإذا كانَتْ أقلُّ نعمِهِ

---

(١) يعني: فلمّا قيل لهم: فأيُّ غرض له في تعريض العباد للمشاقّ؟ أجابوا وهم كاذبين في جوابهم.

(٢) رواه: البخاري (٦٤ـ المغازي، ٥٦ـ غزوة الطائف، ٨/٤٧/ ٤٣٣٠)، ومسلم (١٢ـ الزكاة، ٤٦ـ إعطاء المؤلّفة قلوبهم، ٢/٧٣٨/ ١٠٦١)؛ من حديث عبدالله بن زيد رضي الله عنه.

عليهم ولا أقلَّ منها أربعةٌ وعشرونَ ألفَ نعمةٍ كلَّ يومٍ وليلةٍ؛ فما الظَّنُّ بما هوَ أجلُّ منها مِن النِّعم؟!

فيا لَلعقولِ السَّخيفةِ المخسوفِ بها! أيُّ علمٍ لكُم؟! وأيُّ سعيٍ يُقابِلُ القليلَ مِن نعمِهِ الدُّنيويَّةِ حتَّى لا يَبْقى للهِ عليكُم منَّةٌ إذا أثابكُم لأنَّكُمُ ٱسْتَوْفَيْتُمْ ديونكُم قِبَلَهُ ولا نعمةَ لهُ عليكُم فيها؟! فأيُّ أُمَّةٍ مِن الأُممِ بَلَغَ جهلُها باللهِ هٰذا المبلغَ وٱسْتَنْكَفَتْ عن قبولِ منَّتِهِ وزَعَمَتْ أنَّ لها الحقَّ على ربِّها وأنَّ تفضُّلَهُ عليها ومنَّتَهُ مكدِّرٌ لالتذاذِها بعطائِهِ؟! ولو أنَّ العبدَ ٱسْتَعْمَلَ هٰذا الأدبَ معَ ملكٍ مِن ملوكِ الدُّنيا؛ لَمَقَتَهُ وأبْعَدَهُ وسَقَطَ مِن عينِهِ، معَ أنَّهُ لا نعمةَ لهُ عليهِ في الحقيقةِ، إنَّما المنعِمُ في الحقيقةِ هوَ اللهُ وليُّ النِّعمِ ومُوليها!

ولقد كَشَفَ القومُ عن أقبحِ عورةٍ مِن عوراتِ الجهلِ بهٰذا الرَّأْيِ السَّخيفِ والمذهبِ القبيحِ! والحمدُ للهِ الذي عافانا ممَّا ٱبْتَلى بهِ أربابَ هٰذا المذهبِ، المستنكفينَ مِن قبولِ منَّةِ اللهِ، الزَّاعمينَ أنَّ ما أنْعَمَ اللهُ بهِ عليهِم حقُّهُم عليهِ وحقُّهُم قِبَلَهُ، وأنَّهُ لا يَسْتَحِقُّ الحمدَ والثَّناءَ على أداءِ ما عليهِ مِن الدَّينِ والخروجِ ممَّا عليهِ مِن الحقِّ؛ لأنَّ أداءَ الواجبِ يقْتَضي غيرَهُ! تَعالى اللهُ عن إفكِهِم وكذبِهِم علوًّا كبيرًا.

الإلزامُ الثَّاني عشرَ: أنَّهُ يَلْزَمُهُم أنْ يُوجبوا على اللهِ عَزَّ وجَلَّ أنْ يُميتَ كلَّ مَن عَلِمَ مِن الأطفالِ أنَّهُ لو بَلَغَ لكَفَرَ وعانَدَ؛ فإنَّ ٱخترامَهُ هوَ الأصلحُ لهُ بلا ريبٍ، أو أنْ يَجْحَدوا علمَهُ سبحانَهُ بما سَيكونُ قبلَ كونِهِ كما ٱلْتَزَمَهُ سلفُهُمُ الخبيثُ الذينَ ٱتَّفَقَ سلفُ الأُمَّةِ الطَّيِّبُ على تكفيرِهِم! ولا خلاصَ لهُم عن أحدِ هٰذينِ الإلزامينِ إلَّا بٱلْتزامِ مذهبِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّ أفعالَ اللهِ تَعالى لا تُقاسُ بأفعالِ عبادِهِ ولا تَدْخُلُ تحتَ شرائعِ عقولِهِمُ القاصرةِ، بل أفعالُهُ لا تُشْبِهُ أفعالَ خلقِهِ ولا صفاتُهُ صفاتِهِم ولا ذاتُهُ ذواتِهِم، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الإلزامُ الثَّالثَ عشرَ: أنَّهُ سبحانَهُ لا يُؤْلِمُ أحدًا مِن خلقِهِ أبدًا؛ لعدمِ المنفعةِ في ذٰلكَ بالنِّسبةِ إليهِ وإلى العبدِ. ولا يَنْفَعُكُمُ ٱعتذارُكُم بأنَّ الإيلامَ سببُ مضاعفةِ الثَّوابِ ونيلِ الدَّرجاتِ العلى؛ لأنَّ هٰذا يَنْتَقِضُ بالحيوانِ البهيمِ ويَنْتَقِضُ بالأطفالِ الذينَ لا

يَسْتَحِقُّونَ ثوابًا ولا عقابًا. ولا يَنْفَعُكُمُ ٱعتذارُكُم بأنَّ الطِّفلَ يَنْتَفِعُ بهِ بالآخرةِ في زيادةِ ثوابِهِ؛ لانتقاضِهِ عليكُم بالطِّفلِ الذي عَلِمَ اللهُ أنَّهُ يَبْلُغُ ويَخْتارُ الكفرَ والجحودَ؛ فأيُّ مصلحةٍ لهُ في إيلامِهِ؟! وأيُّ معنًى ذَكَرْتُموهُ على أُصولِكُمُ الفاسدةِ؛ فهوَ منتقضٌ عليكُم بما لا جوابَ لكُم عنهُ!

الإلزامُ الرَّابعَ عشرَ: أنَّ مَن عَلِمَ اللهُ سبحانَهُ مِن الأطفالِ أنَّهُ إذا بَلَغَ يَخْتارُ الإيمانَ[1] والعملَ الصَّالحَ؛ فإنَّ الأصلحَ في حقِّهِ أنْ يُحْيِيَهُ حتَّى يَبْلُغَ ويُؤْمِنَ فيَنالَ بذلكَ الدَّرجةَ العاليةَ وأنْ لا يَخْتَرِمَهُ صغيرًا، وهٰذا ممَّا لا جوابَ لكُم عنهُ.

الإلزامُ الخامسَ عشرَ: مِن أعظمِ الإلزاماتِ وأصحِّها إلزامًا، وقدِ ٱلْتَزَمَهُ القَدَرِيَّةُ، وهوَ أنَّهُ ليسَ في مقدورِ اللهِ تَعالى لطفٌ لوْ فَعَلَهُ اللهُ تَعالى بالكفَّارِ لآمَنوا! وقدِ ٱلْتَزَمَ المُعْتَزِلَةُ القَدَرِيَّةُ هٰذا اللازمَ، وبَنَوْهُ على أصلِهِمُ الفاسدِ أنَّهُ يَجِبُ على اللهِ تَعالى أنْ يَفْعَلَ في حقِّ كلِّ عبدٍ ما هوَ الأصلحُ لهُ، فلو كانَ في مقدورِهِ فعلٌ يُؤْمِنُ العبدُ عندَهُ؛ لَوَجَبَ عليهِ أنْ يَفْعَلَهُ بهِ! والقرآنُ مِن أوَّلِهِ إلى آخرِهِ يَرُدُّ هٰذا القولَ ويُكَذِّبُهُ ويُخْبِرُ تَعالى أنَّهُ: لو شاءَ لَهَدى النَّاسَ جميعًا، ولو شاءَ لآمَنَ مَن في الأرضِ كلِّهِم جميعًا، ولو شاءَ لآتى كلَّ نفسٍ هداها.

الإلزامُ السَّادسَ عشرَ: وهوَ ممَّا ٱلْتَزَمَهُ القومُ أيضًا: أنَّ لطفَهُ ونعمتَهُ وتوفيقَهُ بالمؤمنِ كلطفِهِ بالكافرِ وأنَّ نعمتَهُ عليهِما سواءٌ، لمْ يَخُصَّ المؤمنَ بفضلٍ عنِ الكافرِ! وكَفى بالوحيِ وصريحِ المعقولِ وفطرةِ اللهِ والاعتبارِ الصَّحيحِ وإجماعِ الأُمَّةِ ردًّا لهٰذا القولِ وتكذيبًا لهُ.

الإلزامُ السَّابعَ عشرَ: أنْ ما مِن أصلحَ إلاَّ وفوقَهُ ما هوَ أصلحُ منهُ، والاقتصارُ على رتبةٍ واحدةٍ كالاقتصارِ على الصَّلاحِ، فلا معنى لقولِكُم: يَجِبُ مراعاةُ الأصلحِ؛ إذْ لا نهايةَ لهُ، فلا يُمْكِنُ في العقلِ رعايتُهُ[2].

---

(١) في ط: «أنّ من علم الله سبحانه إذا بلغ الأطفال يختارون الإيمان»! وفيه سقط ظاهر أورث خللاً، وقد أثبتّ أقرب ما يؤدّي المعنى ممّا تقدّم من عبارات ابن القيّم.

(٢) في ط: «فلا يمكن الفعل رعايته»! وهو تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

الإلزامُ الثَّامنَ عشرَ: أنَّ الإيجابَ والتَّحريمَ يَقْتَضي سؤالَ الموجِبِ المحرِّمِ لِمَن أَوْجَبَ عليهِ وحَرَّمَ هل فَعَلَ مقتضى ذٰلكَ أم لا؟ وهٰذا محالٌ في حقِّ مَن لا يُسْأَلُ عمَّا يَفْعَلُ، وإنَّما يُعْقَلُ في حقِّ المخلوقينَ وأنَّهُم يُسْأَلونَ!

وبالجملةِ؛ فَتَحْتُمْ بهٰذهِ المسألةِ طريقًا للاستغناءِ عنِ النُّبوَّاتِ[١]، وسَلَّطْتُمْ [عليكُم][٢] بها الفلاسفةَ والصَّابئةَ والبراهمةَ وكلَّ منكرٍ للنُّبوَّاتِ، فهٰذهِ المسألةُ [بابٌ][٣] بينَنا وبينَهُم[٤]!

فإنَّكُم إذا زَعَمْتُمْ أنَّ في العقلِ حاكمًا يُحَسِّنُ ويُقَبِّحُ ويُوجِبُ ويُحَرِّمُ ويَتَقاضى الثَّوابَ والعقابَ؛ لَمْ تكُنِ الحاجةُ إلى البعثةِ ضروريَّةً؛ لإمكانِ الاستغناءِ عنها بهٰذا الحاكمِ.

ولهٰذا قالتِ الفلاسفةُ ـ وزادَتْ عليكُم حجَّةً وتقريرًا ـ: قدِ ٱشْتَمَلَ الوجودُ على خيرٍ مطلقٍ وشرٍّ مطلقٍ وخيرٍ وشرٍّ ممتزجينِ: والخيرُ المطلقُ مطلوبٌ في العقلِ لذاتِهِ، والشَّرُّ المطلقُ مرفوضٌ في العقلِ لذاتِهِ، والممتزجُ مطلوبٌ مِن وجهٍ ومرفوضٌ مِن وجهٍ وهوَ بحسبِ الغالبِ مِن جهتِهِ.

ولا يَشُكُّ العاقلُ أنَّ العلمَ بجنسِهِ ونوعِهِ[٥] خيرٌ ومحمودٌ ومطلوبٌ، والجهلَ بجنسِهِ ونوعِهِ شرٌّ في العقلِ فهوَ مستقبحٌ عندَ الجمهورِ، والفطرُ السَّليمةُ داعيةٌ إلى تحصيلِ المستحسنِ ورفضِ المستقبحِ سواءٌ حَمَلَهُ عليهِ شارعٌ أو لمْ يَحْمِلْهُ.

ثمَّ الأخلاقُ الحميدةُ والخصالُ الرَّشيدةُ مِن العفَّةِ والجودِ والسَّخاءِ والنَّجدةِ مستحسناتٌ فعليَّةٌ، وأضدادُها مستقبحاتٌ فعليَّةٌ، وكمالُ حالِ الإنسانِ أنْ تَسْتَكْمِلَ النَّفسُ قوى العلمِ الحقِّ والعملِ الخَيِّرِ.

والشَّرائعُ إنَّما تَرِدُ بتمهيدِ ما تَقَرَّرَ في العقلِ لا بتغييرِهِ، لٰكنَّ العقولَ الحَزْوَرِيَّةَ[٦]

---

(١) في ط: «للاستغناء عن الصواب»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه دلّ عليه ما سيأتي (٢/ ٤٨٧).

(٢) ساقطة من ط، دلّ عليها ما سيأتي (٢/ ٤٨٧).

(٣) ساقطة من ط، دلّ عليها ما سيأتي (٢/ ٤٨٧).

(٤) ٱنظر الردّ على هٰذه الفقرة في (فصل ٢٢/ الوجه ٦٤).

(٥) يعني: أنّ جنس العلم ونوعه. وما زال الكلام للفلاسفة.

(٦) في ط: «الحرورية»؛ براءين! والحرورية طائفة معروفة من الخوارج، ولا وجه لذكرها هنا، =

لمَّا كانَتْ قاصرةً عنِ اكتسابِ المعقولاتِ بأسرِها عاجزةً عنِ الاهتداءِ إلى المصلحةِ الكلِّيَّةِ الشَّاملةِ لنوعِ الإنسانِ؛ وَجَبَ من حيثُ الحكمةُ أنْ يَكونَ بينَ النَّاسِ شرعٌ يَفْرِضُهُ شارعٌ يَحْمِلُهُم على الإيمانِ بالغيبِ جملةً[١] ويَهْديهم إلى مصالحِ معاشِهِم ومعادِهِم تفصيلاً، فيَكونُ قد جَمَعَ لهُم بينَ حَظَّيِ العلمِ والعملِ[٢] على مقتضى العقلِ، وحَمَلَهُم على التَّوجُّهِ إلى الخيرِ المحضِ والإعراضِ عنِ الشَّرِّ المحضِ استبقاءً لنوعِهِم واستدامةً لنظامِ العالمِ.

ثمَّ ذاكَ الشَّارعُ[٣] يَجبُ أنْ يَكونَ مميَّزًا مِن بينِهِم بآياتٍ تَدُلُّ على أنَّها مِن عندِ ربِّهِ سبحانَهُ، راجحًا عليهِم بعقلِهِ الرَّزينِ ورأْيِهِ المتينِ وحديثِهِ النَّافذِ وخلقِهِ الحسنِ وسمتِهِ وهديِهِ، يَلينُ لهُم في القولِ ويُشاوِرُهُم في الأمرِ ويُكَلِّمُهُم على قدرِ عقولِهِم ويُكَلِّفُهُم بحسبِ وسعِهِم وطاقتِهِم.

قالوا: وقد أَخْطَأَتِ المُعْتَزِلَةُ حينَ رَدُّوا الحسنَ والقبحَ إلى الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ للأفعالِ، وكانَ مِن حقِّهِم تقريرُ ذٰلكَ في العلمِ والجهلِ[٤]؛ إذِ الأفعالُ تَخْتَلِفُ بالأشخاصِ والأزمانِ وسائرِ الإضافاتِ، وليسَ هيَ على صفاتٍ نفسيَّةٍ لازمةٍ لها بحيثُ لا تُفارِقُها ٱلبتَّةَ.

ثمَّ زادَتِ الصَّابئةُ[٥] في ذٰلكَ على الفلاسفةِ وقالوا: لَمَّا كانَتِ الموجوداتُ في

= وليس من المألوف ولا المسموع أن توصف العقول بالحروريّة، ولا صلة للحروريّة بالمعقولات والمصالح الكليّة نفيًا ولا إيجابًا! وإنّما هي العقول الحَزْوَريَّة أو الحَزَوَّريَّة، وهي العقول الضعيفة. والله أعلم.

(١) في ط: «الإيمان بالغيب جملة جملة»! وهٰذا تكرار من الناسخ أو الطابع.

(٢) في ط: «العلم والعدل»! ولا محلّ للعدل هنا، وإنّما هو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) ما زال الكلام للفلاسفة. ثمّ اعلم أنّ الأولى أن لا تستعمل لفظة «الشارع» في حقّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لأنّهم ليسوا بشارعين في الحقيقة بل مبلّغون لما شرعه الله سبحانه. وليس هٰذا محلّ الردّ على الفلاسفة، ولا هٰذه العبارة بشرّ أقوالهم، وإنّما أحببت أن أنبّه إليها لكثرة ما جرت على ألسنة الأصوليّين وغيرهم من أهل السنّة.

(٤) يعني: وكان عليهم إحالة الحسن والقبح إلى العلم والجهل.

(٥) نحلة يؤمن أصحابها بحضرة إلٰهيّة مقدّسة، تفيض على موجودات سفليّة تسمّى الروحانيّات، وهٰذه الروحانيّات هي الأسباب المتوسّطة في الاختراع والإبداع وتصريف الأمور. وأهل هٰذه النحلة متفاوتون في عقائدهم: فمنهم الناجون اللاحقون بأهل الإيمان (قبل الإسلام)، ومنهم الضلّال منكرو النبوّات الذين =

العالمِ السُّفليِّ مركَّبةً على تأثيرِ الكواكبِ والرُّوحانيَّاتِ التي هيَ مدبِّراتُ الكواكبِ، وكانَ في اتِّصالاتِها نظر سعدٍ[1] ونحسٍ؛ وَجَبَ أنْ يكونَ في آثارِها حسنٌ وقبحٌ في الأخلاقِ والخَلْقِ والأفعالِ. والعقولُ الإنسانيَّةُ متساويةٌ في النَّوعِ، فوَجَبَ أنْ يُدْرِكَها كلُّ عقلٍ سليمٍ وطبعٍ قويمٍ، [و][2] لا تَتَوَقَّفُ معرفةُ المعقولاتِ على مَن هوَ مثلُ ذلكَ العاقلِ في النَّوعِ[3]، فنحنُ لا نَحْتاجُ إلى مَن يُعَرِّفُنا حسنَ الأشياءِ وقبحَها وخيرَها وشرَّها ونفعَها وضرَّها، وكما أنَّا نَسْتَخْرِجُ بالعقولِ مِن طبائعِ الأشياءِ منافعَها ومضارَّها كذلكَ نَسْتَنْبِطُ مِن أفعالِ نوعِ الإنسانِ حسنَها وقبيحَها، فنُلابِسُ ما هوَ أحسنُ منها بحسبِ الاستطاعةِ، ونَجْتَنِبُ ما هوَ قبيحٌ منها بحسبِ الطَّاقةِ؛ فأيُّ حاجةٍ بنا إلى شارعٍ[4] يَتَحَكَّمُ على عقولِنا؟!

وزادَتِ التَّناسُخيَّةُ[5] على الصَّابئيَّةِ بأنْ قالوا: نوعُ الإنسانِ لمَّا كانَ موصوفًا بنوعِ اختيارٍ في أفعالِهِ مخصوصًا بنطقٍ وعقلٍ في علومِهِ وأحوالِهِ؛ ارْتَفَعَ عنِ الدَّرجةِ الحيوانيَّةِ ارتفاعَ استخسارٍ لها[6]: فإنْ كانَتْ أعمالُهُ على مناهجِ الدَّرجةِ الإنسانيَّةِ؛ ارْتَفَعَتْ إلى الملائكةِ، وإنْ كانَتْ على مناهجِ الدَّرجةِ الحيوانيَّةِ؛ انْخَفَضَتْ إليها أو إلى أسفلَ. وهوَ أبدًا في أحدِ أمرينِ: إمَّا فعلٌ يقْتَضي جزاءً، أو مجازاةٌ على فعلٍ. فما بالُهُ يَحْتاجُ في

= جمعوا بين مذاهب الفلاسفة وعقائد عبدة النجوم. وانظر لمزيد من التفصيل: «الملل والنحل» للشهرستاني (٢/ ٢٨٩ وما بعدها) وما سيأتي من كلام ابن القيّم هنا (٣/ ٥).

(١) في ط: «نظر سعيد»! وهو تحريف صوابه ما أثبتُه.

(٢) ساقطة من ط، ولا بدّ منها.

(٣) يقولون: العقل السليم يستطيع أن يدرك الحسن والقبح بنفسه، ولا يحتاج إلى عقل آخر بشريّ من نوع عقله نفسه، ولذلك لا حاجة للأنبياء. ومن هنا ينكرون النبوّات.

(٤) المقصود بالشارع هنا النبيّ؛ لأنّ الصابئة يؤمنون بالحضرة الإلهيّة المقدّسة.

(٥) التناسخ: انتقال الأرواح من جسد إلى جسد. وقد أخذت نحل كثيرة بهذا الأصل، وكلّ منها كيّفه على طريقته. فالبوذيّون يرون أنّ الروح تنتقل بعد موت صاحبها إلى حيوان لطيف كالطيور والغزلان إن كان صالحًا أو إلى حيوان خبيث إن كان طالحًا، حيث تتطهّر هناك مدّة من الزمن، ثمّ تعود إلى الجسد لتعيش فيه في نعيم أبديّ. ويؤمن بالتناسخ أيضًا الهندوس والكونفوشيّون والدروز والإسماعيليّة، وكلّ يكيّفه حسب ضلالته. فليس التناسخ بنحلة مستقلّة لها أتباعها ولكنّه عقيدة يؤمن بها أتباع نحل مختلفة.

(٦) كذا! فإن لم يكن تحريفًا؛ فمعناه: ارتفع عن الحيوانيّة لشعوره بنقصها وخسّتها.

أفعالِهِ وأحوالِهِ إلى شخصٍ مثلِهِ يُحَسِّنُ أو يُقَبِّحُ[(١)]؟! فلا العقلُ يُحَسِّنُ ويُقَبِّحُ ولا الشَّرعُ، ولٰكنْ حسنُ أفعالِهِ جزاءٌ على حسنِ أفعالِ غيرِهِ وقبحُ أفعالِهِ كذٰلكَ[(٢)]، وربَّما يَظْهَرُ حسنُها وقبحُها صورًا حيوانيَّةً روحانيَّةً، وإنَّما يَصيرُ الحسنُ والقبحُ في الحيواناتِ أفعالاً إنسانيَّةً[(٣)]، وليسَ بعدَ هٰذا العالمِ عالمٌ آخرُ يُحاكَمُ[(٤)] فيهِ ويُحاسَبُ ويُثابُ ويُعاقَبُ.

وزادَتِ البَراهِمَةُ[(٥)] على التَّناسُخيَّةِ بأنْ قالوا: نحنُ لا نَحْتاجُ إلى شريعةٍ وشارعٍ أصلاً؛ فإنَّ ما يَأْمُرُ بهِ النَّبيُّ لا يَخْلو أنْ[(٦)] يكونَ معقولاً أو غيرَ معقولٍ: فإنْ كانَ معقولاً؛ فقدِ ٱسْتُغْنِيَ بالعقلِ عنِ النَّبيِّ، وإنْ لمْ يَكُنْ معقولاً؛ لمْ يَكُنْ مقبولاً.

فهٰذهِ الطَّوائفُ كلُّها لمَّا جَعَلَتْ مِن العقلِ[(٧)] حاكمًا بالحسنِ والقبحِ؛ أدَّاها إلى هٰذهِ الآراءِ الباطلةِ والنِّحلِ الكافرةِ. وأنتُم يا معاشرَ المثبتةِ يَصْعُبُ عليكُمُ الرَّدُّ عليهِم وقد وافَقْتُموهُم على هٰذا الأصلِ! وأمَّا نحنُ؛ فأخَذْنا عليهِم رأْسَ الطَّريقِ وسَدَدْنا عليهِمُ الأبوابَ. فمَن طَرَّقَ لهُمُ الطَّريقَ وفَتَحَ لهُمُ الأبوابَ ثمَّ رامَ مناجزةَ القومِ؛ فقد رامَ مرتقًى صعبًا!!

فهٰذهِ مجامعُ جيوشِ النُّفاةِ قد وافَتْكَ بعُدَدِها وعديدِها وأقْبَلَتْ إليكَ بحدِّها وحديدِها: فإنْ كُنْتَ مِن أبناءِ الطَّعنِ والضَّربِ؛ فقد ٱلْتَقى الزَّحفانِ وتَقابَلَ الصَّفَّانِ، وإنْ كُنْتَ مِن أصحابِ التُّلولِ[(٨)]؛ فٱلْزَمْ مقامَكَ ولا تَدْنُ مِن الوطيسِ؛ فإنَّهُ قد حَمِيَ،

---

(١) ومن هنا فهم ينكرون النبوّات.

(٢) لأنّ الروح لم تنفخ في جسده ٱبتداءً، وإنّما جاءته من جسد آخر خبيث أو طيّب، وبالتالي فأعماله الحاليّة هي ٱنعكاس لما سبق للروح من أعمال في الجسد السابق.

(٣) لأنّ التناسخ كما يكون من إنسان إلى إنسان؛ فإنّه يكون من إنسان إلى حيوان وبالعكس.

(٤) في ط: «يحكم»! وهو تحريف أو سوء قراءة للأصل صوابه ما أثبتّه.

(٥) ينتسبون إلى رجل منهم يقال له برهام، يؤمنون بالصانع الحكيم، وينكرون النبوّات، ونحلتهم بين نحلة الفلاسفة وعبدة النجوم، وهي منتشرة في الهند. وٱنظر للتفصيل: «الملل والنحل» (٣/ ٧٠٦).

(٦) في ط: «لا يخلو إمّا أن»! ولا محلّ لـ «إمّا» في هٰذا السياق، بل هي من إضافات النسّاخ.

(٧) في ط: «في العقل»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٨) التلول: الروابي، وأصحاب التلول يراقبون المعركة ولا ينخرطون فيها عادة.

وإنْ كُنْتَ مِن أهلِ الأسرابِ[١] الذينَ يَسْألونَ عنِ الأنباءِ ولا يَثْبُتونَ عندَ اللقاءِ؛

فَـدَعِ الحُـروبَ لأقْـوامٍ لَهـا خُلِقـوا ... وَما لَها مِن سِوى أجسامِهِمْ جَنَنُ[٢]
وَلا تَلُمْهُـمْ عَلـى مـا فيـكَ مِـنْ جُبُـنٍ ... فَبِئْسَـتِ الخَلَّتـانِ اللُّـؤْمُ وَالجُبْـنُ

[٢١ - فصل]

[في بيان موقف أهل السنة وتوسطهم بين المثبتين والنفاة]

● **قالَ المتوسِّطونَ مِن أهلِ الإثباتِ**: ما منكُم أيُّها الفريقانِ إلاَّ مَن معَهُ حقٌّ وباطلٌ، ونحنُ نُساعِدُ كلَّ فريقٍ على حقِّهِ ونَصيرُ لهُ ونُبْطِلُ ما معَهُ مِن الباطلِ ونَرُدُّهُ عليهِ، فنَجْعَلُ حقَّ الطَّائفتينِ مذهبًا ثالثًا يَخْرُجُ مِن بينِ فرثٍ ودمٍ لبنًا خالصًا سائغًا للشَّاربينَ، مِن غيرِ أنْ نَنْتَسِبَ إلى ذي مقالةٍ وطائفةٍ معيَّنةٍ ٱنتسابًا يَحْمِلُنا على قبولِ جميعِ أقوالِها[٣] والانتصارِ لها بكلِّ غثٍّ وسمينٍ وردِّ جميعِ أقوالِ خصومِها ومكابريها على ما معَهُم[٤] مِن الحقِّ، حتَّى ولو كانَتْ تلكَ الأقوالُ منسوبةً إلى رئيسِها وطائفتِها؛ لَبالَغَتْ في نصرتِها وتقريرِها[٥]، وهٰذهِ آفةٌ ما نَجا منها إلاَّ مَن أنْعَمَ اللهُ عليهِ وأهَّلَهُ لمتابعةِ الحقِّ أينَ كانَ ومعَ مَن كانَ. وأمَّا مَن يَرى أنَّ الحقَّ وقفٌ مؤبَّدٌ على طائفتِهِ وأهلِ مذهبِهِ وحِجْرٌ محجورٌ على مَن سواهُم ممَّن لعلَّهُ أقربُ إلى الحقِّ والصَّوابِ منهُ؛ فقد حُرِمَ خيرًا كثيرًا وفاتَهُ هدًى عظيمٌ. وهنا نحنُ نَجْلِسُ مجلسَ الحكومةِ بينَ هاتينِ المقالتينِ، فمَن أدْلى بحجَّتِهِ في موضعٍ؛ كانَ المحكومَ لهُ في ذٰلكَ الموضعِ، وإنْ كانَ المحكومَ عليهِ حيثُ يُدْلي خصمُهُ بحجَّتِهِ.

---

(١) أهل الأسراب: الماكثون في بيوتهم ممّن لا يملك الشجاعة أو القوّة لخوض المعركة.

(٢) الجنن: القبر، والميّت، والكفن. وأولى معانيها بهٰذا البيت الأخير.

(٣) في ط: «جميع أحوالها»، والغالب أنّه تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) في ط: «على ما معها»! وهو تحريف أو سبق قلم صوابه ما أثبتّه.

(٥) يعني: لو أنّ هٰذه الأقوال نفسها جاءت على لسان معظّمهم أو طائفتهم؛ لبالغوا في الانتصار لها وتصحيحها! وهٰذه ظاهرة منتشرة جدًّا في عالم المسلمين اليوم، تطول جميع فئاتهم بلا ٱستثناء، حتّى أهل الأثر للأسف الشديد، وإن كان الإنصاف فيهم أكثر كمًّا وكيفًا والتعصّب فيهم أقلّ كمًّا وكيفًا وكانوا أعدل وأقلّ وقوعًا فيها، والمعصوم من عصمه الله.

واللهُ تَعالى أَرْسَلَ رسولَهُ بالهدى ودينِ الحقِّ والعدلِ بينَ الطَّوائفِ المختلفةِ؛ قالَ تَعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نوحًا وَالَّذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيموا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقوا فيهِ كَبُرَ عَلى الْمُشْرِكينَ ما تَدْعوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدي إِلَيْهِ مَنْ يُنيبُ . وَما تَفَرَّقوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذينَ أُورِثوا الكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفي شَكٍّ مِنْهُ مُريبٍ . فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ [الشُّورى: ١٣-١٥]:

فأَخْبَرَ تَعالى أَنَّهُ شَرَعَ لنا دينَهُ الذي وَصَّى بِهِ نوحًا والنَّبِيِّينَ مِن بعدِهِ، وهوَ دينٌ واحدٌ، ونَهانا عنِ التَّفرُّقِ فيهِ[١]. ثمَّ أَخْبَرَنا أَنَّهُ ما تَفَرَّقَ مَن قبلَنا في الدِّينِ إلاَّ مِن بعدِ العلمِ الموجِبِ للاتِّفاقِ[٢] وعدمِ التَّفرُّقِ، وأنَّ الحاملَ على ذٰلكَ التَّفرُّقِ البغيُ مِن بعضِهِم على بعضٍ وإرادةُ كلِّ طائفةٍ أَنْ يَكونَ العلوُّ والظُّهورُ لها ولقولِها دونَ غيرِها، وإذا تأَمَّلْتَ تفرُّقَ أهلِ البدعِ والضَّلالِ؛ رَأَيْتَهُ صادرًا عن هٰذا بعينِهِ.

ثمَّ أمَرَ سبحانَهُ نبيَّهُ أَنْ يَدْعُوَ إلى دينِهِ الذي شَرَعَهُ لأنبيائِهِ وأَنْ يَسْتَقيمَ كما أمَرَهُ ربُّهُ، وحَذَّرَهُ مِن اتِّباعِ أهواءِ المتفرِّقينَ، وأمَرَهُ أَنْ يُؤمِنَ بكلِّ ما أَنْزَلَهُ اللهُ مِن الكتبِ، وهٰذهِ حالُ المحقِّ؛ أَنْ يُؤْمِنَ بكلِّ ما جَمَعَهُ مِن الحقِّ على لسانِ أيِّ طائفةٍ كانَتْ.

ثمَّ أَمَرَهُ أَنْ يُخْبِرَهُم بأنَّهُ أُمِرَ بالعدلِ بينَهُم، وهٰذا يَعُمُّ العدلَ في الأقوالِ والأفعالِ والآراءِ والمحاكماتِ، فنَصَبَهُ ربُّهُ ومرسِلُهُ للعدلِ بينَ الأُممِ، فهٰكذا وارثُهُ يَنْتَصِبُ للعدلِ بينَ المقالاتِ والآراءِ والمذاهبِ، ونسبتُهُ منها إلى القدرِ المشتركِ بينَهُما مِن الحقِّ[٣]، فهوَ أولى بهِ وبتقريرِهِ وبالحكمِ لمَن خاصَمَ بهِ.

---

(١) في ط: «عن التفريق فيه»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) في ط: «الموجب للإثبات»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) القدر المشترك بينهما من الحقّ: القدر المشترك بين الحقّ الذي معه والحقّ الذي عند أرباب المقالات. فهو يلتزم بقول أصحاب مقالة ما وينتسب إليه ويوافقهم عليه إذا كان مطابقًا لما عنده من الحقّ.

ثمَّ أمَرَهُ أنْ يُخبِرَهُم بأنَّ الرَّبَّ المعبودَ واحدٌ؛ فما الحاملُ للتَّفرُّقِ والاختلافِ وهوَ ربُّنا وربُّكُم والدِّينُ واحدٌ ولكلِّ عاملٍ عملُهُ لا يَعْدُوهُ إلى غيرِهِ؟!

ثمَّ قالَ: ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾: والحجَّةُ هاهُنا هيَ الخصومةُ؛ أي: لا وجهَ[١] لخصومةٍ بينَنا وبينكُم بعدَما ظَهَرَ الحقُّ وأسْفَرَ صبحُهُ وبانَتْ أعلامُهُ[٢] وانْكَشَفَتِ الغمَّةُ عنهُ. وليسَ المرادُ نفيَ الاحتجاجِ مِن الطَّرفينِ - كما يَظُنُّهُ بعضُ مَن لا يَدْري ما يَقولُ - وأنَّ الدِّينَ لا احتجاجَ فيهِ! كيفَ؛ والقرآنُ مِن أوَّلِهِ إلى آخرِهِ حججٌ وبراهينُ على أهلِ الباطلِ قطعيَّةٌ يقينيَّةٌ وأجوبةٌ لمعارضتِهِم وإفسادٌ لأقوالِهِم بأنواعِ الحججِ والبراهينِ وإخبارٌ عن أنبيائِهِ ورسلِهِ بإقامةِ الحججِ والبراهينِ وأمرٌ لرسولِهِ بمجادلةِ المخالفينَ بالتي هيَ أحسنُ؟! وهل تكونُ المجادلةُ إلَّا بالاحتجاجِ وإفسادِ حججِ الخصمِ؟! وكذلكَ أمَرَ المسلمينَ بمجادلةِ أهلِ الكتابِ بالتي هيَ أحسنُ. وقد ناظَرَ النَّبيُّ ﷺ جميعَ طوائفِ الكفرِ أتمَّ مناظرةٍ وأقامَ عليهِم ما أفْحَمَهُم بهِ مِن الحججِ؛ حتَّى عَدَلَ بعضُهُم إلى محاربتِهِ بعدَ أنْ عَجَزَ عن ردِّ قولِهِ وكسرِ حجَّتِهِ، واختارَ بعضُهُم مسالمتَهُ ومتاركتَهُ، وبعضُهُم بَذَلَ الجزيةَ عن يدٍ وهوَ صاغرٌ، كلُّ ذلكَ بعدَ إقامةِ الحججِ عليهِم وأخذِها بكَظَمِهِم[٣] وأسرِها لنفوسِهِم، وما اسْتَجابَ لهُ مَنِ اسْتَجابَ إلَّا بعدَ أنْ وَضَحَتْ لهُ الحجَّةُ ولمْ يَجِدْ إلى ردِّها سبيلاً، وما خالَفَهُ أعداؤُهُ إلَّا عنادًا منهُم وميلاً إلى المكابرةِ بعدَ اعترافِهِم بصحَّةِ حججِهِ وأنَّها لا تُدْفَعُ[٤]، فما قامَ الدِّينُ إلَّا على ساقِ الحجَّةِ. فقولُهُ: ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: لا خصومةَ؛ فإنَّ الرَّبَّ واحدٌ فلا وجهَ للخصومةِ فيهِ ودينُهُ واحدٌ، وقد قامَتِ الحجَّةُ وتَحَقَّقَ البرهانُ فلمْ يَبْقَ للاحتجاجِ والمخاصمةِ فائدةٌ؛ فإنَّ فائدةَ الاحتجاجِ ظهورُ الحقِّ لِيُتَّبَعَ، فإذا ظَهَرَ وعانَدَهُ المخالفُ وتَرَكَهُ جحودًا وعنادًا؛ لمْ يَبْقَ للاحتجاجِ فائدةٌ، فلا حجَّةَ بينَنا وبينكُم أيُّها الكفَّارُ؛ فقد وَضَحَ الحقُّ واسْتَبانَ، ولمْ يَبْقَ

(١) في ط: «هي الخصومة أي للخصومة ولا وجه»! وهذا سبق قلم حذفه أولى من إثباته.

(٢) في ط: «وباتت أعلامه»! وهذا تصحيف من الناسخ أو غلط من الطابع صوابه ما أثبتّه.

(٣) أخذها بكظمهم: أخذها بحلوقهم وأفواههم وأنفاسهم.

(٤) وهذه أمور لا تخفى على من قرأ شيئًا يسيرًا من سيرة النبيّ ﷺ، ومفرداتها أكثر من أن تحيط بها حاشية أو تخريج، ولا بدّ لمن أراد التفصيل فيها من العودة إلى كتب السيرة.

إلَّا الإقرارُ بهِ أوِ العنادُ، واللهُ يَجْمَعُ بينَنا يومَ القيامةِ فيَقْضي للمحقِّ على المبطلِ وإليهِ المصيرُ.

قالوا: وها نحنُ نَتَحَرَّى القسطَ بينَ الفريقينِ عملاً بقولِه ﷺ: «المقسطونَ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ على منابرَ مِن نورٍ عن يمينِ الرَّحمٰنِ، الذينَ يَعْدِلونَ في حكمِهِم وأهليهِم وما وَلُوا»[(١)]. ويَكْفي في هٰذا قولُهُ تَعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا كُونوا قَوَّامينَ لِلهِ شُهَداءَ بِالقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَنْ لا تَعْدِلوا اَعْدِلوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَاتَّقوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبيرٌ بِما تَعْمَلونَ﴾ [المائدة: ٨].

● **قالوا: قد أصابَ أهلُ الإثباتِ مِن المُعْتَزِلَةِ في قولِهِم:** إنَّ الحسنَ والقبحَ صفاتٌ ثبوتيَّةٌ للأفعالِ معلومةٌ بالعقلِ والشَّرعِ، وإنَّ الشَّرعَ جاءَ بتقريرِ ما هوَ مستقرٌّ في الفطرِ والعقولِ مِن تحسينِ الحسنِ والأمرِ بهِ وتقبيحِ القبيحِ والنَّهيِ عنهُ، وإنَّهُ لَمْ يَجِئْ بما يُخالِفُ العقلَ والفطرةَ وإنْ جاءَ بما يُعْجِزُ العقولَ عن [تفصيلِ][(٢)] أحوالِهِ والاستقلالِ بهِ. فالشَّرائعُ جاءَتْ بمَحاراتِ العقولِ لا مُحالاتِها[(٣)]، وفرقٌ بينَ ما لا تُدْرِكُ العقولُ حسنَهُ وبينَ ما تَشْهَدُ بقبحِهِ، فالأوَّلُ ممَّا يَأْتي بهِ الرُّسلُ دونَ الثَّاني. وأَخْطَؤوا في ترتيبِ العقابِ على هٰذا القبيحِ عقلاً كما تَقَدَّمَ.

وأصابوا في إثباتِ الحكمةِ للهِ تَعالى، وأنَّهُ سبحانَهُ لا يَفْعَلُ فعلاً خاليًا عنِ الحكمةِ، بل كلُّ أفعالِهِ مقصودةٌ لعواقبِها الحميدةِ وغاياتِها المحبوبةِ لهُ. وأَخْطَؤوا في موضعينِ: أحدُهُما: أنَّهُم أعادوا تلكَ الحكمةَ إلى المخلوقِ ولَمْ يُعيدوها إلى الخالقِ سبحانَهُ على فاسدِ أُصولِهِم في نفيِ قيامِ الصِّفاتِ بهِ، فنَفَوُا الحكمةَ مِن حيثُ أثْبَتوها وجَحَدوها مِن حيثُ أقَرُّوا بها. الموضعُ الثَّاني: أنَّهُم وَضَعُوا لتلكَ الحكمةِ شريعةً بعقولِهِم، وأوْجَبوا على الرَّبِّ تَعالى بها وحَرَّموا، وشَبَّهوهُ بخلقِهِ في أفعالِهِ بحيثُ ما حَسُنَ منهُم حَسُنَ منهُ وما قَبُحَ منهُم قَبُحَ منهُ، فلَزِمَتْهُم بذٰلكَ اللوازمُ الشَّنيعةُ وضاقَ

---

(١) رواه مسلم (٣٣ـ الإمارة، ٥ـ فضيلة الإمام العادل، ٣/ ١٤٥٨/ ١٨٢٧) من حديث ابن عمرو.

(٢) ساقطة من ط، ولا بدّ منها ليستقيم السياق.

(٣) محارات العقول: محيّراتها. محالاتها: المستحيلات عندها.

عليهِمُ المجالُ وعَجَزوا عنِ التَّخلُّصِ مِن تلكَ الإلزاماتِ[١]. ولو أنَّهُم أثْبَتوا لهُ حكمةً تَليقُ بهِ، لا يُشْبِهُ خلقَهُ فيها، بل نسبتُها إليهِ كنسبةِ صفاتِهِ إلى ذاتِهِ، فكما أنَّهُ لا يُشْبِهُ خلقَهُ في صفاتِهِ فكذٰلكَ في أفعالِهِ[٢].

ولا يَصِحُّ الاستدلالُ بقبحِ القبيحِ وحسنِ الحسنِ منهُم على ثبوتِ ذٰلكَ في حقِّهِ تَعالى. ومِن هاهُنا ٱسْتَطالَ عليهِمُ النُّفاةُ وصاحوا عليهِم مِن كلِّ قطرٍ وأقاموا عليهِم ثائرةَ الشَّناعةِ.

وأصابوا أيضًا في قولِهِم بأنَّ الرَّبَّ تَعالى لا يَمْتَنِعُ في نفسِهِ الوجوبُ والتَّحريمُ، وٱخْطَؤُوا في جعلِ ذٰلكَ تابعًا لمقتضى عقولِهِم وآرائِهِم. بل يَجِبُ عليهِ ما أوْجَبَهُ [هوَ][٣] على نفسِهِ، ويَحْرُمُ عليهِ ما حَرَّمَهُ هوَ على نفسِهِ. فهوَ الذي كَتَبَ على نفسِهِ الرَّحمةَ، وأحَقَّ على نفسِهِ نصرَ المؤمنينَ، وأحقَّ على نفسِهِ ثوابَ المطيعينَ، وحَرَّمَ على نفسِهِ الظُّلمَ كما جَعَلَهُ محرَّمًا بينَ عبادِهِ.

وأصابوا في قولِهِم: إنَّهُ سبحانَهُ لا يُحِبُّ الشَّرَّ والكفرَ وأنواعَ الفسادِ بل يكْرَهُها، وإنَّهُ يُحِبُّ الإيمانَ والخيرَ والبرَّ والطَّاعةَ. ولٰكنْ أخْطَؤُوا في تفسيرِ هٰذهِ المحبَّةِ والكراهةِ بمجرَّدِ معانٍ مفهومةٍ مِن ألفاظٍ خَلَقَها في الهواءِ أو في الشَّجرةِ، ولمْ يَجْعَلوها معانيَ قائمةً بهِ[٤] تَعالى على فاسدِ أُصولِهِم في التَّعطيلِ ونفيِ الصِّفاتِ، فنَفَوُا المحبَّةَ والكراهةَ مِن حيثُ أثْبَتوها، وأعادوها إلى مجرَّدِ الشَّرعِ، ولمْ يُثْبِتوا لهُ حقيقةً قائمةً بذاتِهِ[٥]. فإنَّ شرعَ اللهِ هوَ أمرُهُ ونهيُهُ، ولمْ يَقُمْ بهِ عندَهُم أمرٌ ولا نهيٌ، فحقيقةُ قولِهِم أنَّهُ لا شرعٌ ولا محبَّةٌ ولا كراهةٌ، وإنْ زَخْرَفوا القولَ وتَحَيَّلوا لإثباتِ ما سَدُّوا على نفوسِهِم طريقَ

---

(١) في ط: «فلزمته بذٰلك... عن تلك الالتزامات»! وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

(٢) يعني: لو فعلوا ذٰلك؛ لنجوا من تلك اللوازم. حذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) في ط: «معاني ما يهدى به»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه دلّ عليه ما يأتي.

(٥) كذا في ط! فربّما كان المراد: لم يثبتوا لله حقيقة قائمة بذاته تعالى. وربّما كان المراد: لم يثبتوا للشرع حقيقة قائمة بذاته تعالى. وربّما كانت تحريفًا صوابه: «ولم يثبتوها له حقيقة قائمة بذاته»؛ أي: لم يثبتوا المحبّة والكراهة كحقائق قائمة بالله تعالى.

إثباتِهِ.

وأصابوا أيضًا في قولِهِم: إنَّ مصلحةَ المأمورِ تَنْشَأُ مِن الفعلِ تارةً ومِن الأمرِ تارةً أُخرى، فربَّ فعلٍ لمْ يَكُنْ منشأً لمصلحةِ المكلَّفِ، فلمَّا أُمِرَ بِهِ؛ صارَ منشأً لمصلحتِهِ بالأمرِ. ولو تَوَسَّطوا هٰذا التَّوسُّطَ وسَلَكوا هٰذا المسلكَ وقالوا: إنَّ المصلحةَ تَنْشَأُ مِن الفعلِ المأمورِ بِهِ تارةً ومِن الأمرِ تارةً ومنهُما تارةً ومِن العزمِ المجرَّدِ تارةً؛ لانْتَصَفوا مِن خصومِهِم: فمثالُ الأوَّلِ: الصِّدقُ والعفَّةُ والإحسانُ والعدلُ؛ فإنَّ مصالحَها ناشئةٌ منها. ومثالُ الثَّاني: التَّجرُّدُ في الإحرامِ والتَّطهُّرُ بالتُّرابِ والسَّعيُ بينَ الصَّفا والمروةِ ورميُ الجمارِ ونحوُ ذٰلكَ؛ فإنَّ هٰذهِ الأفعالَ لو تَجَرَّدَتْ عنِ الأمرِ؛ لمْ تَكُنْ منشأً لمصلحةٍ، فلمَّا أُمِرَ بها؛ نَشَأَتْ مصلحتُها مِن نفسِ الأمرِ. ومثالُ الثَّالثِ: الصَّومُ والصَّلاةُ والحجُّ وإقامةُ الحدودِ وأكثرُ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ؛ فإنَّ مصلحتَها ناشئةٌ مِن الفعلِ والأمرِ معًا، فالفعلُ يَتَضَمَّنُ مصلحةً، والأمرُ بهِ يَتَضَمَّنُ مصلحةً أُخرى، فالمصلحةُ فيها مِن وجهينِ. ومثالُ الرَّابعِ: أمرُ اللهِ تَعالى خليلَهُ إبراهيمَ بذبحِ ولدِهِ؛ فإنَّ المصلحةَ إنَّما نَشَأَتْ مِن عزمِهِ على المأمورِ بهِ لا مِن نفسِ الفعلِ، وكذٰلكَ أمرُهُ نبيَّهُ ﷺ ليلةَ الإسراءِ بخمسينَ صلاةً[1]. فلمَّا حَصَرْتُمُ المصلحةَ في الفعلِ وحدَهُ؛ تَسَلَّطَ عليكُم خصومُكُم بأنواعِ المناقضاتِ والإلزاماتِ.

● **قالوا: وقد أصابَ النُّفاةُ حيثُ قالوا:** إنَّ الحجَّةَ إنَّما تَقومُ على العبادِ بالرِّسالةِ، وإنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُهُم قبلَ البعثةِ. ولٰكنَّهُم نَقَضوا الأصلَ ولمْ يَطْرُدوهُ؛ حيثُ جَوَّزوا تعذيبَ مَن لمْ تَقُمْ عليهِ الحجَّةُ أصلاً مِن الأطفالِ والمجانينِ ومَن لمْ تَبْلُغْهُ الدَّعوةُ.

وأخْطَؤوا في تسويتِهِم بينَ الأفعالِ التي خالَفَ اللهُ بينَها فجَعَلَ بعضَها حسنًا وبعضَها قبيحًا وركَّبَ في العقولِ والفطرِ التَّفرقةَ بينَهُما كما رَكَّبَ في الحواسِّ التَّفرقةَ بينَ الحلوِ والحامضِ والمرِّ والعذبِ والسُّخنِ والباردِ والضَّارِّ والنَّافعِ، فزَعَمَ النُّفاةُ أنَّهُ لا

---

(١) كما تقدّم في (٢/ ٣٣٥).

فرقَ في نفسِ الأمرِ أصلاً بينَ فعلٍ وفعلٍ في الحسنِ والقبحِ وإنَّما يَعودُ الفرقُ إلى عادةٍ مجرّدةٍ أو وهمٍ أو خيالٍ أو مجرّدِ الأمرِ والنَّهيِ، وسَلَبوا الأفعالَ خواصَّها التي جَعَلَها اللهُ عليها مِن الحسنِ والقبحِ، فخالفوا الفطرَ والعقولَ، وسَلَّطوا عليهم خصومَهُم بأنواعِ الإلزاماتِ والمناقضاتِ الشَّنيعةِ جدًّا، ولمْ يَجِدوا إلى ردِّها سبيلاً إلاَّ بالعناءِ وجحدِ الضَّرورةِ[١].

وأصابوا في نفيِهِمُ الإيجابَ والتَّحريمَ على اللهِ، الذي أَثْبَتَهُ القَدَريَّةُ مِن المُعْتَزِلَةِ ووَضَعوا على اللهِ شريعةً بعقولِهم قادَتْهُم إلى ما لا قِبَلَ لهُم بهِ مِن اللوازمِ الباطلةِ. وأَخْطَؤوا في نفيِهم عنهُ إيجابَ ما أَوْجَبَهُ على نفسِهِ وتحريمَ ما حَرَّمَهُ على نفسِهِ بمقتضى حكمتِهِ وعدلِهِ وعزَّتِهِ وعلمِهِ.

وأَخْطَؤوا أيضًا في نفيِهم حكمتَهُ تَعالى في خلقِهِ وأمرِهِ وأنَّهُ لا يَفْعَلُ شيئًا لشيءٍ ولا يَأْمُرُ بشيءٍ لشيءٍ، وفي إنكارِهِمُ الأسبابَ والقوى التي أَوْدَعَها اللهُ في الأعيانِ والأعمالِ وجعلِهم كلَّ لامٍ دَخَلَتْ في القرآنِ لتعليلِ أفعالِهِ وأوامرِهِ لامَ عاقبةٍ وكلَّ باءٍ دَخَلَتْ لربطِ المسبَّبِ بسببِهِ[٢] باءَ مصاحبةٍ، فنَفَوُا الحِكمَ والغاياتِ المطلوبةَ في أوامرِهِ وأفعالِهِ وردُّوها إلى العلمِ والقدرةِ، فجَعَلوا مطابقةَ المعلومِ للعلمِ ووقوعَ المقدورِ على وَفْقِ القدرةِ هوَ الحكمةَ! ومعلومٌ أنَّ وقوعَ المقدورِ بالقدرةِ ومطابقةَ المعلومِ للعلمِ غيرُ الحكمةِ والغاياتِ[٣] المطلوبةِ مِن الفعلِ، وتعلُّقُ القدرةِ بمقدورِها والعلمِ بمعلومِهِ أعمُّ مِن كونِ المعلومِ والمقدورِ مشتملاً على حكمةٍ ومصلحةٍ أو مجرَّدًا عن ذٰلكَ، والأعمُّ لا يُشْعِرُ بالأخصِّ ولا يَسْتَلْزِمُهُ، وهل هٰذا في الحقيقةِ إلاَّ نفيٌ للحكمةِ وإثباتٌ لأمرٍ آخرَ؟!

وأَخْطَؤوا أيضًا في: تسويتِهم بينَ المحبَّةِ والمشيئةِ، وأنَّ كلَّ ما شاءَهُ اللهُ مِن الأفعالِ والأعيانِ فقد أَحَبَّهُ ورَضِيَهُ وما لمْ يَشَأْهُ فقد كَرِهَهُ وأَبْغَضَهُ، فمحبَّتُهُ مشيئتُهُ

---

(١) في ط: «بالعناء وجحدوا الضرورة»! وهٰذه زيادة من كيس الناسخ أفسدت السياق.

(٢) في ط: «لربط السبب بسببه»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) في ط: «ومطابقة المعلوم للعلم عين الحكمة والغايات»! وهٰذا تحريف عكس المعنى وألصق بابن القيّم ما ينكره أشدّ الإنكار وأفسد العبارة التي بعدها فجعلها سائبة غير مرتبطة بما قبلها وبعدها!

وإرادتُهُ العامَّةُ وكراهتُهُ وبغضُهُ عدمُ مشيئتِهِ وإرادتِهِ. فلَزِمَهُم مِن ذٰلكَ أَنْ يَكونَ إبليسُ محبوبًا لهُ وفِرْعَوْنُ وهامانُ وجميعُ الشَّياطينِ والكفَّارِ، بل أَنْ يَكونَ الكفرُ والفسوقُ والظُّلمُ والعصيانُ الواقعةُ في العالمِ محبوبةً لهُ مرضيَّةً، وأَنْ يَكونَ الإيمانُ والهدى ووفاءُ العهدِ والبرُّ التي لَمْ تُوجَدْ مِنَ النَّاسِ مكروهةً مسخوطةً لهُ مكروهةً ممقوتةً عندَهُ. فسَوَّوْا بينَ الأفعالِ التي فاوَتَ اللهُ بينَها، وسَوَّوْا بينَ المشيئةِ المتعلِّقةِ بتكوينِها وإيجادِها والمحبَّةِ المتعلِّقةِ[1] بالرِّضى بها وآختيارِها. وهٰذا ممَّا آسْتَطالَ بهِ عليهِم خصومُهُم كما آسْتَطالوا هُم عليهِم حيثُ أَخْرَجوها عن مشيئةِ اللهِ وإرادتِهِ العامَّةِ ونَفَوْا تعلُّقَ قدرتِهِ وخلقِهِ بها.

● **فآسْتَطالَ كلٌّ مِن الفريقينِ على الآخرِ بسببِ ما معَهُم مِن الباطلِ**، وهَدى اللهُ أهلَ السُّنَّةِ ـ الذينَ هُم وسطٌ في المقالاتِ والنِّحلِ ـ لِما آخْتَلَفَ الفريقانِ فيهِ مِن الحقِّ بإذنِهِ، واللهُ يَهْدي مَن يَشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ:

فالقَدَرِيَّةُ حَجَروا على اللهِ وأَلْزَموهُ شريعةً حَرَّموا عليهِ الخروجَ عنها. وخصومُهُم مِن الجَبْرِيَّةِ جَوَّزوا عليهِ كلَّ فعلٍ ممكنٍ يَتَنَزَّهُ عنهُ سبحانَهُ إذْ لا يَليقُ بغناهُ وحمدِهِ وكمالِهِ، ممَّا نَزَّهَ نفسَهُ عنهُ وحَمَدَ نفسَهُ بأَنَّهُ لا يَفْعَلُهُ! فالطَّائفتانِ متقابلتانِ غايةَ التَّقابلِ.

والقَدَرِيَّةُ أَثْبَتوا لهُ حكمةً وغايةً مطلوبةً مِن أفعالِهِ على حسبِ ما أَثْبَتوهُ لخلقِهِ[2]. والجَبْرِيَّةُ نَفَوْا حكمتَهُ اللائقةَ بِهِ التي لا يُشابِهُهُ فيها أحدٌ!

والقَدَرِيَّةُ قالَتْ: إنَّهُ لا يُريدُ مِن عبادِهِ طاعتَهُم وإيمانَهُم وإنَّهُ لا يَشاءُ ذٰلكَ منهُم[3]. والجَبْرِيَّةُ قالَتْ: إنَّهُ يُحِبُّ الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ ويَرْضاهُ مِن فاعلِهِ! والقَدَرِيَّةُ قالَتْ: إنَّهُ يَجِبُ عليهِ سبحانَهُ أَنْ يَفْعَلَ بكلِّ شخصٍ ما هوَ الأصلحُ لهُ. والجَبْرِيَّةُ قالَتْ: إنَّهُ يَجوزُ أَنْ يُعَذِّبَ أولياءَهُ وأهلَ طاعتِهِ ومَن لَمْ يَعْصِهِ قطُّ[4]، ويُنَعِّمَ

---

(١) في ط: «والمحبّة والمتعلّقة»! وهٰذا خطأ ناسخ أو طابع.

(٢) فقاسوه بخلقه، وجعلوا حكمته من جنس حكمتهم، وألزموه بما ألزموهم به!

(٣) في ط: «وإنّه لا يسأل ذٰلك منهم»! وهٰذا تحريف لا معنى له صوابه ما أثبتّه.

(٤) في ط: «ومن لم يطعه قطّ»! وهٰذا تحريف يعكس المعنى صوابه ما أثبتّه.

أعداءَهُ ومَن كَفَرَ بهِ وأشْرَكَ، ولا فرقَ عندَهُ بينَ هٰذا وهٰذا!

فلْيَعْجَبِ العاقلُ مِن هٰذا التَّقابلِ والتَّباعدِ الذي يَزْعُمُ كلُّ فريقٍ أنَّ قولَهُم هوَ محضُ العقلِ وما خالَفَهُ باطلٌ بصريحِ العقلِ!

وكذٰلكَ القَدَرِيَّةُ قالَتْ: إنَّهُ ألْقى إلى عبادِهِ زمامَ الاختيارِ وفَوَّضَ إليهِمُ المشيئةَ والإرادةَ، وإنَّهُ لمْ يَخُصَّ أحدًا منهُم دونَ أحدٍ بتوفيقٍ ولا لطفٍ ولا هدايةٍ بل ساوى بينَهُم في مقدورِهِ، ولو قَدَرَ أنْ يَهْدِيَ أحدًا ولمْ يَهْدِهِ؛ كانَ بخلاً، وإنَّهُ لا يَهْدي أحدًا ولا يُضِلُّهُ إلاَّ بمعنى البيانِ والإرشادِ وأمَّا خلقُ الهدى والضَّلالِ؛ فهوَ إليهِم ليسَ إليهِ. وقالَتِ الجَبْرِيَّةُ: إنَّهُ سبحانَهُ أجْبَرَ عبادَهُ على أفعالِهِم، بل قالوا: إنَّ أفعالَهُم هيَ نفسُ أفعالِهِ، ولا فعلَ لهُم في الحقيقةِ ولا قدرةَ ولا اختيارَ ولا مشيئةَ، وإنَّما يُعَذِّبُهُم على ما فَعَلَهُ هوَ لا على ما فَعَلوهُ، ونسبةُ أفعالِهِم إليهِم[١] كحركاتِ الأشجارِ والمياهِ والجماداتِ[٢]!

فالقَدَرِيَّةُ سَلَبوهُ قدرتَهُ على أفعالِ العبادِ ومشيئتَهُ لها، والجَبْرِيَّةُ جَعَلوا أفعالَ العبادِ نفسَ أفعالِهِ وأنَّهُم لَيْسوا فاعلينَ لها في الحقيقةِ ولا قادرينَ عليها! فالقَدَرِيَّةُ سَلَبَتْهُ كمالَ ملكِهِ، والجَبْرِيَّةُ سَلَبَتْهُ كمالَ حكمتِهِ! والطَّائفتانِ سَلَبَتاهُ[٣] كمالَ حمدِهِ!

وأهلُ السُّنَّةِ الوسطُ أثْبَتوا كمالَ الملكِ والحمدِ والحكمةِ: فوَصَفوهُ بالقدرةِ التَّامَّةِ على كلِّ شيءٍ مِن الأعيانِ وأفعالِ العبادِ وغيرِهِم، وأثْبَتوا لهُ الحكمةَ التَّامَّةَ في جميعِ خلقِهِ وأمرِهِ، وأثْبَتوا لهُ الحمدَ كلَّهُ في جميعِ ما خَلَقَهُ وأمَرَ بهِ، ونَزَّهوهُ عن دخولِهِ تحتَ شريعةٍ يَضَعُها العبادُ بآرائِهِم كما نَزَّهوهُ عمَّا نَزَّهَ نفسَهُ عنهُ ممَّا لا يَليقُ بهِ. فٱسْتَوْلَوْا على محاسنِ المذاهبِ وتَجَنَّبوا أرْدَأَها ففازوا بالقِدْحِ المعلَّى، وغيرُهُم طافَ على أبوابِ المذاهبِ ففازَ بأخسِّ المطالبِ[٤]. والهدى هدى اللهِ يَخْتَصُّ بهِ مَن يَشاءُ مِن عبادِهِ.

---

(١) في ط: «ونسبة أفعالهم إليه»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه. ونسبة أفعالهم إلى الله عندهم أنّه هو فاعلها، ونسبتها إليهم ـ فيما يرون ـ كحركات الأشجار والجمادات لأنّهم مجبرون عليها!

(٢) وهٰذا مذهب الأشاعرة، وكتبهم تنضح به تلميحًا وتصريحًا، ومن يضلل الله فما له من هاد.

(٣) في ط: «والطائفتان سلبته»! والجادّة ما أثبتّه.

(٤) جزاء وفاقًا! أمّا أهل السنّة؛ فأقبلوا على كتاب ربّهم وسنّة نبيّهم ﷺ ولم يرضوا بغيرهما بدلاً ولا عنهما حولاً، فزادهم الله هدًى وإيمانًا، وذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وأمّا أهل البدع والضلالات؛ =

[٢٢] فصل

[في رد شبه نفاة الحسن والقبح من الكلابية والأشاعرة]

[وبيان سلامة أهل السنة من التناقضات والمعارضات]

إذا عَرَفْتَ هٰذهِ المقدِّمةَ؛ فالكلامُ على كلماتِ النُّفاةِ مِن وجوهٍ:

● **أحدُها**: قولُكُم: «لو قَدَّرَ الإنسانُ نفسَهُ وقد خُلِقَ تامَّ الخلقةِ تامَّ العقلِ دفعةً مِن غيرِ تأدُّبٍ بتأديبِ الأبوينِ ولا تعلُّمٍ مِن معلِّمٍ، ثمَّ عُرِضَ عليهِ أمرانِ: أحدُهُما أنَّ الواحدَ أكثرُ مِن الاثنينِ، والآخرُ أنَّ الكذبَ قبيحٌ؛ لمْ يَتَوَقَّفْ في الأوَّلِ ويَتَوَقَّفُ في الثَّاني»؛ فهٰذا تقديرٌ مستحيلٌ رَكَّبْتُم عليهِ أمرًا غيرَ معلومِ الصِّحَّةِ؛ فإنَّ تقديرَ الإنسانِ كذٰلكَ محالٌ.

● **الوجهُ الثَّاني**: سَلَّمْنا إمكانَ التَّقديرِ، لٰكنْ لِمَ قُلْتُم بأنَّهُ لا يَتَوَقَّفُ في كونِ الواحدِ نصفَ الاثنينِ ويَتَوَقَّفُ في كونِ الكذبِ قبيحًا بعدَ تصوُّرِ حقيقتِهِ؟ فلا نُسَلِّمُ أنَّهُ إذا تَصَوَّرَ ماهيَّةَ الكذبِ؛ تَوَقَّفَ في الجزمِ بقبحِهِ! وهل هٰذا إلَّا دعوى مجرَّدةٌ؟!

● **الوجهُ الثَّالثُ**: سَلَّمْنا أنَّهُ قد يَتَوَقَّفُ في الحكمِ بقبحِهِ، ولٰكنْ لا يَلْزَمُ مِن ذٰلكَ أنْ لا يَكونَ قبيحًا لذاتِهِ وقبحُهُ معلومٌ للعقلِ، وتوقُّفُ الذِّهنِ في الحكمِ العقليِّ لا يُخْرِجُهُ عن كونِهِ عقليًّا، ولا يَجِبُ التَّساوي في العقليَّاتِ إذْ بعضُها أجلى مِن بعضٍ.

فإنْ قُلْتُم: فهٰذا التَّوقُّفُ يَنْفي أنْ يَكونَ الحكمُ بقبحِهِ ضروريًّا، وهوَ يُبْطِلُ قولَكُم!

قُلْنا: هٰذا إنَّما لَزِمَ مِن التَّقديرِ المستحيلِ في الواقعِ والمحالُ قد يَلْزَمُهُ محالٌ آخرُ. سَلَّمْنا أنَّهُ يَنْفي كونَ الحكمِ بقبحِهِ ضروريًّا ٱبتداءً، فلِمَ قُلْتُم إنَّهُ لا يَكونُ ضروريًّا بعدَ التَّأمُّلِ والنَّظرِ؛ والضَّروريُّ أعمُّ مِن كونِهِ ضروريًّا ٱبتداءً بلا واسطةٍ أو ضروريًّا بواسطةٍ، ونفيُ الأخصِّ لا يَسْتَلْزِمُ نفيَ الأعمِّ؟! ومنِ ٱدَّعى سلبَ الوسائطِ عنِ الضَّروريَّاتِ؛ فقد كابَرَ أوِ ٱصْطَلَحَ معَ نفسِهِ على تسميةِ الضَّروريَّاتِ بما لا يَتَوَقَّفُ على واسطةٍ[١].

= فأعرضوا عن الكتاب والسنّة وسلّطوا عقولهم عليهما أخذًا وردًّا، فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم.

(١) يعني: فسمّى ما لا يتوقّف على واسطة ضروريًّا وما يتوقّف على واسطة غير ضروري، وهٰذا أصطلاح خاصّ لا يلزمنا متابعته عليه.

● **الوجهُ الرَّابعُ**: أنَّ تصوُّرَ ماهيَّةِ الكذبِ يَقْتَضي جزمَ العقلِ بقبحِهِ، ونسبةُ الكذبِ إلى العقلِ كنسبةِ المتنافراتِ الحسِّيَّةِ إلى الحسِّ، فكما أنَّ إدراكَ الحواسِّ المتنافراتِ يَقْتَضي نفرتَها عنها فكذٰلكَ إدراكُ العقلِ لحقيقةِ الكذبِ، ولا فرقَ بينَهُما إلَّا فرقُ ما بينَ إدراكِ الحسِّ وإدراكِ العقلِ، فإنْ جازَ القدحُ في مدركاتِ العقولِ وحكمِها فيها بالحسنِ والقبحِ؛ جازَ القدحُ في مدركاتِ الحواسِّ.

● **الوجهُ الخامسُ**: أنَّكُم فَتَحْتُم بابَ السَّفْسَطَةِ[1]؛ فإنَّ القدحَ في معلوماتِ العقولِ وموجَباتِها كالقدحِ في مدركاتِ الحواسِّ وموجَباتِها، فمَن لَجَأَ إلى المكابرةِ في المعقولاتِ؛ فقد فَتَحَ بابَ المكابرةِ في المحسوساتِ. ولهٰذا كانَتِ السَّفْسَطَةُ حالاً تَعْرِضُ أحيانًا في هٰذا وهٰذا ولَيْسَتْ مذهبًا لأُمَّةٍ مِن النَّاسِ يَعيشونَ عليهِ كما يَظُنُّهُ بعضُ أهلِ المقالاتِ، ولا يُمْكِنُ أنْ تَعيشَ أُمَّةٌ ولا أحدٌ على ذٰلكَ ولا تَتِمَّ لهُ مصلحةٌ، وإنَّما هيَ حالٌ عارضةٌ لكثيرٍ مِن النَّاسِ، وهيَ تَكْثُرُ وتَقِلُّ، وما مِن صاحبِ مذهبٍ باطلٍ إلَّا وهوَ مرتكبٌ للسَّفْسَطَةِ شاءَ أمْ أبى. وسَنَذْكُرُ إنْ شاءَ اللهُ فصلاً فيما بعدُ[2] نُبَيِّنُ فيهِ أنَّ جميعَ أربابِ المذاهبِ الباطلةِ سُوفِسْطائيَّةٌ صريحًا ولزومًا قريبًا وبعيدًا.

● **الوجهُ السَّادسُ**: قولُكُم: «مَن حَكَمَ بأنَّ هٰذينِ الأمرينِ سِيَّانِ بالنِّسبةِ إلى عقلِهِ؛ خَرَجَ عن قضايا العقولِ»! جوابُهُ أنَّكُم: إنْ أرَدْتُم بالتَّسويةِ كونَهُما معقولينِ في الجملةِ؛ فمِن أينَ يَخْرُجُ عن قضايا العقولِ مَن حَكَمَ بذٰلكَ؟! وهلِ الخارجُ في الحقيقةِ عنها إلَّا مَن مَنَعَ هٰذا الحُكمَ؟! وإنْ[3] أرَدْتُم بالتَّسويةِ الاستواءَ في الإدراكِ وأنَّ كليهِما على رتبةٍ واحدةٍ مِن الضَّرورةِ؛ فلا يَلْزَمُ مِن عدمِ هٰذا الاستواءِ أنْ لا يكونَ العلمُ بقبحِ الكذبِ عقليًّا[4].

---

(١) نوع من الجدل يستخدم مقدّمات المنطق ونتائجه بأساليب تقوم على المغالطة والخداع للوصول إلى إنكار حقائق الأشياء وبدهيّات العقول، فينتهي بك مثلاً إلى أنّك غير موجود أصلاً أو أنّ النار لا تحرق!

(٢) لعله أراد أن يجعله في القسم الثاني من الكتاب، وقد تقدّم لك (١/ ٣٠-٣٢) الكلام في شأنه.

(٣) في ط: «فإن»! والصواب ما أثبتّه.

(٤) وذٰلك لأنّ القضايا العقليّة متفاوتة: فبعضها من بدائه العقول، وبعضها تحتاج إلى مزيد نظر وتأمّل، وبعضها لا يدركه إلاّ الأفراد النادرون، وذٰلك لا يخرجها جميعًا عن كونها قضايا عقليّة.

● **الوجهُ السَّابعُ**: قولُكُم «لو تَقَرَّرَ عندَ المثبتِ أنَّ اللهَ تَعالى لا يَتَضَرَّرُ بكذبٍ ولا يَنْتَفِعُ بصدقٍ كانَ الأمرانِ في حكمِ التَّكليفِ على وتيرةٍ واحدةٍ» كلامٌ لا يَرْتَضيهِ عاقلٌ! فإنَّ مِن المتقرِّرِ أنَّ اللهَ تَعالى لا يَتَضَرَّرُ بكذبٍ ولا يَنْتَفِعُ بصدقٍ، وإنَّما يَعودُ نفعُ الصِّدقِ وضررُ الكذبِ على المكلَّفِ. ولٰكنْ ليتَ شِعري! مِن أينَ يَلْزَمُ أنْ يَكونَ هٰذانِ الضِّدَّانِ بالنِّسبةِ إلى التَّكليفِ على وتيرةٍ واحدةٍ؟! وهلْ هٰذا إلَّا مجرَّدُ تحكُّمٍ ودعوى باطلةٍ؟!

● **الوجهُ الثَّامنُ**: أنَّهُ لا يَلْزَمُ مِن كونِ الحكيمِ لا يَتَضَرَّرُ بالقبحِ ولا يَنْتَفِعُ بالحسنِ أنْ لا يُحِبَّ هٰذا ولا يُبْغِضَ هٰذا بل تَكونُ[1] نسبتُهُما إليهِ نسبةً واحدةً. بلِ الأمرُ بالعكسِ، وهوَ أنَّ حكمتَهُ تَقْتَضي بغضَهُ للقبيحِ وإنْ لمْ يَتَضَرَّرْ بهِ ومحبَّتَهُ للحسنِ وإنْ لمْ يَنْتَفِعْ بهِ.

وحينئذٍ يَنْقَلِبُ هٰذا الكلامُ عليكُم ونكونُ أسعدَ بهِ منكُم فنَقولُ: لو تَقَرَّرَ عندَ النَّافي أنَّ اللهَ تَعالى حكيمٌ عليمٌ يَضَعُ الأشياءَ مواضعَها ويُنْزِلُها منازلَها؛ لَعَلِمَ أنَّ الأمرينِ ـ أعْني: الصِّدقَ والكذبَ ـ بالنِّسبةِ إلى شرعِهِ وتكليفِهِ متباينانِ غايةَ التَّباينِ متضادَّانِ، وأنَّهُ يَسْتَحيلُ في حكمتِهِ التَّسويةُ بينَهُما وأنْ يَكونا على وتيرةٍ واحدةٍ. ومعلومٌ أنَّ هٰذا هوَ المعقولُ وما ذَكَرْتُموهُ خارجٌ عنِ المعقولِ.

● **الوجهُ التَّاسعُ**: قولُكُم: «إنَّ الصِّدقَ والكذبَ على حقيقةٍ ذاتيَّةٍ، وإنَّ الحسنَ والقبحَ غيرُ داخلينِ في صفاتِهِما الذَّاتيَّةِ، ولا يَلْزَمُهُما في الوهمِ بالبديهةِ ولا في الوجودِ ضرورةً»! جوابُهُ أنَّكُم: إنْ أرَدْتُم أنَّ الحسنَ والقبحَ لا يَدْخُلُ في مسمَّى الصِّدقِ والكذبِ؛ فمسلَّمٌ، ولٰكنْ لا يُفيدُكُم شيئًا؛ فإنَّ غايتَهُ إنَّما يَدُلُّ على تغايرِ المفهومينِ، فكانَ ماذا؟! وإنْ أرَدْتُم أنَّ ذاتَ الصِّدقِ والكذبِ لا تَقْتَضي الحسنَ والقبحَ ولا تَسْتَلْزِمُهُما؛ فهل هٰذا إلَّا مجرَّدُ المذهبِ ونفسُ الدَّعوى[2]؟! وهيَ مصادرةٌ على المطلوبِ. وخصومُكُم يَقولونَ: إنَّ معنى كونِهِما ذاتيَّينِ للصِّدقِ والكذبِ أنَّ ذاتَ

---

(١) كذا في ط، وله وجه، وربّما كان تحريفًا صوابه: «بله كون»، والله أعلم.

(٢) يعني: التي نحن بصدد النظر فيها ومناقشتها! فاحتجاجكم لمذهبكم بمذهبكم ولدعواكم بالدعوى نفسها غير مقبول إطلاقًا!

الصِّدقِ والكذبِ تَقْتَضي الحسنَ والقبحَ، وليسَ مرادُهُم أنَّ الحسنَ والقبحَ صفةٌ داخلةٌ في مسمَّى الصِّدقِ والكذبِ. وأنتُم لمْ تُبْطِلوا عليهِم هٰذا.

● **الوجهُ العاشرُ**: قولُكُم «ولا يَلْزَمُهُما في الوهمِ بالبديهةِ ولا في الوجودِ» دعوى مجرَّدةٌ! كيفَ وقد عُلِمَ بطلانُها بالبرهانِ والضَّرورةِ؟!

● **الوجهُ الحادي عشرَ**: قولُكُم: «إنَّ مِن الأخبارِ التي هيَ صادقةٌ ما يُلامُ عليهِ مثلُ الدّلالةِ على مَن هَرَبَ مِن ظالمٍ، ومِن الأخبارِ التي هيَ كاذبةٌ ما يُثابُ عليها مثلُ إنكارِ الدّلالةِ عليهِ، فلمْ يَدْخُلْ كونُ الكذبِ قبيحًا في حدِّ الكذبِ ولا لَزِمَهُ في الوهمِ ولا في الوجودِ ولا يَجوزُ أنْ يُعَدَّ مِن الصِّفاتِ الذّاتيّةِ التي تَلْزَمُ النَّفسَ وجودًا وعدمًا»! جوابُهُ مِن وجوهٍ:

أحدُها: أنّا لا نُسَلِّمُ أنَّ الصِّدقَ يَقْبُحُ في حالٍ ولا أنَّ الكذبَ يَحْسُنُ في حالٍ أبدًا ولا تَنْقَلِبُ ذاتُهُ، وإنَّما يَحْسُنُ اللومُ على الخبرِ الصّادقِ مِن حيثُ لمْ يُعَرِّضِ المخبرُ ولمْ يُوَرِّ بما يَقْتَضي سلامةَ النَّبيِّ أو الوليِّ[1].

الوجهُ الثّاني: أنَّهُ أخبَرَ بما لا يَجوزُ لهُ الإخبارُ بِهِ لاستلزامِهِ مفسدةً راجحةً، ولا يَقْتَضي هٰذا كونَ الصِّدقِ قبيحًا، بلِ الإخبارُ بالصِّدقِ هوَ القبيحُ، وفرقٌ بينَ النِّسبةِ المطابقةِ التي هيَ صدقٌ وبينَ الإعلامِ بها، فالقبحُ إنَّما نَشَأَ مِن الإعلامِ لا مِن النِّسبةِ الصّادقةِ، والإعلامُ غيرُ ذاتيٍّ للخبرِ ولا داخلٍ في حدِّهِ؛ إذِ الخبرُ غيرُ الإخبارِ، ولا يَلْزَمُ مِن كونِ الإخبارِ قبيحًا أنْ يَكونَ الخبرُ قبيحًا. وهٰذهِ الدَّقيقةُ غَفَلَ عنها الطّائفتانِ كلاهُما[2].

الوجهُ الثّالثُ: أنَّ قبحَ الصِّدقِ وحسنَ الكذبِ المذكورينِ في بعضِ المواضعِ لمعارضةِ مصلحةٍ أو مفسدةٍ راجحةٍ لا يَقْتَضي عدمَ اتِّصافِ ذاتِ كلٍّ منهُما بحكمِهِ عقلًا؛ فإنَّ العللَ العقليّةَ والأوصافَ الذّاتيّةَ المقتضيةَ لأحكامِها قد تَتَخَلَّفُ عنها لفواتِ شرطٍ أو قيامِ مانعٍ، ولا يُوجِبُ ذٰلكَ سلبَ اقتضائِها لأحكامِها عندَ عدمِ المانعِ وقيامِ الشَّرطِ. وقد تَقَدَّمَ تقريرُ ذٰلكَ.

---

(١) وقد تقدّم (٢/ ٣٤٠) تفصيل هٰذا وتوضيحه.

(٢) وهي دقيقة عظيمة وحجّة سليمة، والله يرحم ابن القيّم ويجزل ثوابه.

● **الوجهُ الثَّاني عشرَ**: قولُكُم «إنَّهُ لمْ يَبْقَ للمثبتينَ إلَّا الاسترواحُ إلى عاداتِ النَّاسِ مِن تسميةِ ما يَضُرُّهُم قبيحًا وما يَنْفَعُهُم حسنًا» كلامٌ باطلٌ؛ فإنَّ آسترواحَهُم إلى ما رَكَّبَهُ اللهُ تَعالى في عقولِهِم وفطرِهِم وبَعَثَ رسلَهُ بتقريرِهِ وتكميلِهِ مِن آستحسانِ الحسنِ وآستقباحِ القبيحِ.

● **الوجهُ الثَّالثَ عشرَ**: قولُكُم: «إنَّها تَخْتَلِفُ بعادةِ قومٍ دونَ قومٍ وزمانٍ دونَ زمانٍ ومكانٍ دونَ مكانٍ وإضافةٍ دونَ إضافةٍ»؛ فقد تَقَدَّمَ[1] أنَّ هٰذا الاختلافَ لا يُخْرِجُ هٰذهِ القبائحَ والمستحسناتِ عن كونِ الحسنِ والقبحِ ناشئينِ مِن ذواتِها[2] وأنَّ الزَّمانَ المعيَّنَ والمكانَ المخصوصَ والشَّخصَ القابلَ[3] والإضافةَ شروطٌ لهٰذا الاقتضاءِ على حدِّ آقتضاءِ الأغذيةِ والأدويةِ والمساكنِ والملابسِ آثارَها؛ فإنَّ آختلافَها بالأزمنةِ والأمكنةِ والأشخاصِ والإضافاتِ لا يُخْرِجُها عنِ الاقتضاءِ الذَّاتيِّ[4]. ونحنُ لا نَعْني بكونِ الحسنِ والقبحِ ذاتيَّينِ إلَّا هٰذا، والمشاحَّةُ[5] في الاصطلاحاتِ لا تَنْفَعُ طالبَ الحقِّ ولا تُجْدي عليهِ إلَّا المناكدةَ والتَّعنُّتَ، فكم يُعيدونَ ويُبْدونَ[6] في الذَّاتيِّ وغيرِ الذَّاتيِّ! سمُّوا هٰذا المعنى بما شِئْتُم، ثمَّ إنْ أمْكَنَكُم إبطالُهُ؛ فأبْطِلوهُ!

● **الوجهُ الرَّابعَ عشرَ**: قولُكُم: «نحنُ لا نُنكِرُ آشتهارَ القضايا الحسنةِ والقبيحةِ بينَ الخلقِ[7] وكونَها محمودةً مشكورةً مُثْنًى على فاعلِها أو [مذمومةً][8] مذمومًا

---

(١) (٢/ ٣٢٥ وما بعدها).

(٢) في ط: «ناشئًا من ذواتهما»! والصواب ما أثبتّه.

(٣) في ط: «والشخص والقابل»! والصواب حذف الواو كما سيأتي بعد سطر.

(٤) يقوم دليل القوم هنا على أصل فاسد، وهو النظر إلى اللفظة المفردة والحكم عليها بالحسن أو القبح، وأصل الردّ عليه أنّ اللفظة لا تصير مفيدة إلّا إذا جاءت في سياق تامّ المعنى، وعندئذ يحكم عليها بالحسن والقبح. وقد قدّمت لك أنّ هٰذا أصل جامع ينبغي لطالب العلم أن يتمسّك به ويرجع إليه في التعامل مع حجج المتكلّمة المختلفة في قضايا التوحيد والإيمان والقدر وغيرها.

(٥) في الأصول الخطّيّة: «والمشاحنة»، وصوّبها محقّق ط إلى «والمشاحّة»، وهو الصواب.

(٦) في ط: «فكم يعيدوا ويبدوا»! ولا وجه هنا لحذف النون بنصب ولا جزم.

(٧) في ط: «من الخلق»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه دلّ عليه ما تقدّم (٢/ ٣٦٠).

(٨) ساقطة من ط، ولا بدّ منها، وأثبتّها بالنظر لما تقدّم (٢/ ٣٦٠).

[فاعلُها][1]، ولٰكنْ سببُ ذكرِها إمَّا التَّديُّنُ بالشَّرائعِ وإمَّا الأغراضُ[2]، ونحنُ إنَّما نُنْكِرُها في حقِّ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لانتفاءِ الأغراضِ[2] عنهُ. فهٰذا معتركُ القولِ بينَ الفرقِ في هٰذهِ المسألةِ وغيرِها».

فنَقولُ لكُم: ما تَعْنونَ معاشرَ النُّفاةِ بـ«الأغراضِ[2]» التي نَفَيْتُموها عنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ونَفَيْتُم لأجلِها حسنَ أوامرِهِ الذَّاتيَّةِ وقبحَ نواهيهِ الذَّاتيَّةِ وزَعَمْتُم لأجلِها أنَّهُ لا فرقَ عندَهُ بينَ مذمومِها ومحمودِها وأنَّها بالنِّسبةِ إليهِ سواءٌ؟ فأخْبِرونا عن مرادِكُم بهٰذهِ اللفظةِ البديعةِ المحتمِلةِ: أتَعْنونَ بها الحِكَمَ والمصالحَ والعواقبَ الحميدةَ والغاياتِ المحبوبةَ التي يَفْعَلُ ويَأْمُرُ لأجلِها؟ أمْ تَعْنونَ بها أمرًا وراءَ ذٰلكَ يَجِبُ تنزيهُ الرَّبِّ عنهُ كما يُشْعِرُ بهِ لفظُ الأغراضِ[2] مِن الإراداتِ؟

فإنْ أرَدْتُمُ المعنى الأوَّلَ؛ فنفيُكُم إيَّاهُ عن أحكمِ الحاكمينَ مذهبٌ لكُم خالَفْتُم بهِ صريحَ المنقولِ وصحيحَ المعقولِ[3]، وأتَيْتُم ما لا تُقِرُّ بهِ العقولُ مِن فعلِ فاعلٍ حكيمٍ مختارٍ لا لحكمةٍ ولا لمصلحةٍ ولا لغايةٍ محمودةٍ ولا عاقبةٍ مطلوبةٍ بلِ الفعلُ وعدمُهُ بالنِّسبةِ إليهِ سِيَّانِ، وقُلْتُم ما تُنْكِرُهُ الفطرُ والعقولُ ويَرُدُّهُ التَّنزيلُ والاعتبارُ! وقد قَرَّرْنا مِن ذكرِ الحِكمِ الباهرةِ في الخلقِ والأمرِ ما تَقَرُّ بهِ عينُ كلِّ طالبٍ للحقِّ، وهاهُنا مِن أدلَّةِ إثباتِ الحِكمِ المقصودةِ بالخلقِ والأمرِ أضعافُ أضعافِ ما ذَكَرْنا، بل لا نسبةَ لِما ذَكَرْناهُ إلى ما تَرَكْناهُ. وكيفَ يُمْكِنُ إنكارُ ذٰلكَ؛ والحكمةُ في خلقِ العالمِ وأجزائِهِ ظاهرةٌ لمَن تَأمَّلَها باديةٌ لمَن أبْصَرَها، وقد رُقِمَتْ سطورُها على صفحاتِ المخلوقاتِ يَقْرَؤُها كلُّ عاقلٍ كاتبٍ وغيرِ كاتبٍ، [و]نُصِبَتْ شاهدةً للهِ بالوحدانيَّةِ والرُّبوبيَّةِ والعلمِ والحكمةِ واللطفِ والخبرةِ؟!

تَأمَّلْ سُطورَ الكائِناتِ فَإنَّها ... مِنَ المَلإِ الأعْلى إلَيْكَ رَسائِلُ

---

(١) ساقطة من ط، ولا بدّ منها، وأثبتّها بالنظر لما تقدّم (٢/ ٣٦٠).

(٢) في ط: «الأعراض»؛ بالعين المهملة! وهٰذا عجيب! ولا محلّ للأعراض بالمهملة هنا، ثمّ إنّها تقدّمت (٢/ ٣٦٠) مرارًا بالمعجمة على الجادّة!

(٣) في ط: «صريح المنقول وصريح المعقول»! وهو تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه، وما أكثر ما يذكر ابن القيّم هٰذه العبارة على الجادّة في مصنّفاته.

وَقَدْ خُطَّ فيها لَوْ تَأَمَّلْتَ خَطَّها ... ألا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ

وأمَّا النُّصوصُ على ذٰلكَ؛ فمَن طَلَبَها؛ بَهَرَتْهُ كثرتُها وتطابقُها، ولعلَّها أنْ تَزيدَ على المِئِينَ!

وما يَتَخَيَّلُهُ[1] النُّفاةُ لحكمةِ اللهِ تَعالى أنَّ إثباتَها يَسْتَلْزِمُ ٱفتقارًا منهُ وٱستكمالاً بغيرِهِ؛ فهوسٌ ووساوسُ: فإنَّ هٰذا بعينِهِ واردٌ عليهِم في أصلِ الفعلِ. وأيضًا؛ فهٰذا إنَّما هوَ إكمالٌ للصُّنعِ لا ٱستكمالٌ بالصُّنعِ. وأيضًا؛ فإنَّهُ سبحانَهُ فعالُهُ عن كمالِهِ؛ فإنَّهُ كَمَلَ ففَعَلَ، لا أنَّ كمالَهُ عن فعالِهِ، فلا يُقالُ فعلَ فكَمَلَ كما يُقالُ للمخلوقِ. وأيضًا؛ فإنَّ مصدرَ الحكمةِ ومتعلَّقاتِها وأسبابَها عنهُ سبحانَهُ؛ فهوَ الخالقُ وهوَ الحكيمُ وهوَ الغنيُّ مِن كلِّ وجهٍ أكملَ الغنى وأتمَّهُ، وكمالُ الغنى والحمدِ في كمالِ القدرةِ والحكمةِ، ومِن المحالِ أنْ يَكونَ سبحانَهُ وتَعالى فقيرًا إلى غيرِهِ، فأمَّا إذا كانَ كلُّ شيءٍ فهوَ فقيرٌ إليهِ مِن كلِّ وجهٍ وهوَ الغنيُّ المطلقُ عن كلِّ شيءٍ؛ فأيُّ محذورٍ في إثباتِ حكمتِهِ معَ ٱحتياجِ مجموعِ العالمِ وكلِّ ما يُقَدَّرُ معَهُ إليهِ دونَ غيرِهِ؟! وهلِ الغنيُّ إلاَّ ذٰلكَ؟! وللهِ سبحانَهُ في كلِّ صنعٍ مِن صنائعِهِ وأمرٍ مِن شرائعِهِ حكمةٌ باهرةٌ وآيةٌ ظاهرةٌ تَدُلُّ على وحدانيَّتِهِ وعلمِهِ وحكمتِهِ وغناهُ وقيُّوميَّتِهِ وملكِهِ، لا تُنْكِرُها إلاَّ العقولُ السَّخيفةُ، ولا تَنْبو عنها إلاَّ الفطرُ المنكوسةُ:

وَلِلّهِ فِي كُلِّ تَسْكينَةٍ ... وَتَحْريكَةٍ أَبَدًا شاهِدُ

وَفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِدُ

وبالجملةِ؛ فنحنُ لا نُنْكِرُ حكمةَ اللهِ ولا نُساعِدُكُم على جحدِها لتسميتِكُم إيَّاها أغراضًا[2] وإخراجِكُم لها في هٰذا القالَبِ؛ فالحقُّ لا يُنْكَرُ حكمُهُ بسوءِ التَّعبيرِ عنهُ! وهٰذا اللفظُ بدعيٌّ لمْ يَرِدْ بِهِ كتابٌ ولا سنَّةٌ ولا أَطْلَقَهُ أحدٌ مِن أئمَّةِ الإسلامِ وأتباعِهِم على اللهِ. وقد قالَ الإمامُ أَحْمَدُ: لا نُزيلُ عنِ اللهِ صفةً مِن صفاتِهِ لأجلِ شناعةِ المشنِّعينَ. فهلْ نُنْكِرُ صفاتِ كمالِهِ سبحانَهُ لأجلِ تسميةِ المُعَطِّلَةِ والجَهْميَّةِ لها

---

(١) في ط: «وما يحيله»! وهو تحريف بيّن أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٢) في ط: «أعراضًا»! وهو تصحيف صوابه ما أثبتّه.

أعراضًا[١]؟!

ولأربابِ المقالاتِ أغراضٌ في سوءِ التَّعبيرِ عن مقالاتِ خصومِهِم وتخيُّرِهِم لها أقبحَ الألفاظِ وحسنِ التَّعبيرِ عن مقالاتِ أصحابِهِم وتخيُّرِهِم لها أحسنَ الألفاظِ، وأتباعُهُم محبوسونَ في قيودِ تلكَ العباراتِ ليسَ معَهُم في الحقيقةِ سواها، بل ليسَ معَ المتبوعينَ غيرُها!

وصاحبُ البصيرةِ لا تَهولُهُ تلكَ العباراتُ الهائلةُ، بل يُجَرِّدُ المعنى عنها ولا يَكْسوهُ عبارةً منها، ثمَّ يَحْمِلُهُ على محلِّ الدَّليلِ السَّالمِ عنِ المعارضِ، فحينئذٍ يَتَبَيَّنُ لهُ الحقُّ مِن الباطلِ والحالي مِن العاطلِ[٢].

● **الوجهُ الخامسَ عشرَ**: قولُكُم: «مستندُ الاستحسانِ والاستقباحِ التَّديُّنُ بالشَّرائعِ». فيُقالُ: لا ريبَ أنَّ التَّديُّنَ بالشَّرائعِ يَقْتَضي الاستحسانَ والاستقباحَ، ولٰكنَّ الشَّرائعَ إنَّما جاءَتْ بتكميلِ الفطرِ وتقريرِها لا بتحويلِها وتغييرِها: فما كانَ في الفطرةِ مستحسنًا؛ جاءَتِ الشَّريعةُ بٱستحسانِهِ فكَسَتْهُ حُسنًا إلى حُسنِهِ فصارَ حَسنًا مِن الجهتينِ، وما كانَ في الفطرةِ مستقبحًا؛ جاءَتِ الشَّريعةُ بٱستقباحِهِ فكَسَتْهُ قبحًا إلى قبحِهِ فصارَ قبيحًا مِن الجهتينِ. وأيضًا؛ فهٰذهِ القضايا مستحسنةٌ ومستقبحةٌ عندَ مَن لمْ تَبْلُغْهُ الدَّعوةُ ولمْ يُقِرَّ بنبوَّةٍ. وأيضًا؛ فمجيءُ الرَّسولِ بالأمرِ بحسنِها والنَّهيِ عن قبيحِها دليلٌ على نبوَّتِهِ وعَلَمٌ على رسالتِهِ، كما قالَ بعضُ الصَّحابةِ، وقد سُئِلَ عمَّا أَوْجَبَ إسلامَهُ فقالَ: ما أَمَرَ بشيءٍ فقالَ العقلُ: ليتَهُ نَهى عنهُ، ولا نَهى عن شيءٍ فقالَ العقلُ: ليتَهُ أَمَرَ بهِ. فلو كانَ الحسنُ والقبحُ لمْ يَكُنْ مركوزًا في الفطرِ والعقولِ؛ لمْ يَكُنْ ما أَمَرَ بهِ الرَّسولُ ونَهى عنهُ عَلَمًا مِن أعلامِ صدقِهِ. ومعلومٌ أنَّ شرعَهُ ودينَهُ عندَ الخاصَّةِ مِن أكبرِ أعلامِ صدقِهِ وشواهدِ نبوَّتِهِ كما تَقَدَّمَ.

● **الوجهُ السَّادسَ عشرَ**: قولُكُم في مثاراتِ الغلطِ التي يَغْلَطُ الوهمُ فيها إنَّها ثلاثةٌ

---

(١) كذا بالعين المهملة، ويصحّ في هٰذا الموضع المعجمة والمهملة بخلاف ما تقدّم، والجهميّة يسمّون الصفات أعراضًا ويتوسّلون بهٰذه التسمية المبتدعة إلى جحد صفات كماله تعالى وإنكارها.

(٢) الحالي: المزيّن بالحليّ. العاطل: الذي لا حلي له.

مثاراتٍ[١]: «الأولى: أنَّ الإنسانَ يُطْلِقُ ٱسمَ القبيحِ على ما يُخالِفُ غرضَهُ وإنْ كانَ يُوافِقُ غرضَ غيرِهِ مِن حيثُ إنَّهُ لا يَلْتَفِتُ إلى الغيرِ؛ فإنَّ كلَّ طبعٍ مشغوفٌ بنفسِهِ، فيَقْضي بالقبحِ مطلقًا! فقد أصابَ في الحُكمِ بالقبحِ. وأخْطأَ في إضافةِ القبحِ إلى ذاتِ الشَّيءِ، وغَفَلَ عن كونِهِ قبيحًا لمخالفةِ غرضِهِ. وأخْطأَ في حكمِهِ بالقبحِ مطلقًا، ومنشؤُهُ عدمُ الالتفاتِ إلى غيرِهِ».

فحاصلُهُ أمرانِ: أحدُهُما: أنَّهُ إنَّما قَضى بالحسنِ والقبحِ لموافقتِهِ غرضَهُ ومخالفتِهِ. الثَّاني: أنَّ هٰذهِ الموافقةَ والمخالفةَ لَيْسَتْ عامَّةً في حقِّ كلِّ شخصٍ وزمانٍ ومكانٍ، بل ولا في جميعِ أحوالِ الشَّخصِ. هٰذا حاصلُ ما طَوَّلْتُمْ بهِ.

فيُقالُ: لا ريبَ أنَّ الحسنَ يُوافِقُ الغرضَ والقبحَ يُخالِفُهُ، ولٰكنَّ موافقةَ هٰذا ومخالفةَ هٰذا لِما قامَ بكلٍّ واحدٍ مِن الصِّفاتِ التي أَوْجَبَتِ المخالفةَ والموافقةَ؛ إذْ لو كانا سواءً في نفسِ الأمرِ وذاتُهُما لا تَقْتَضي حسنًا ولا قبحًا؛ لمْ يَخْتَصَّ أحدُهُما بالموافقةِ والآخرُ بالمخالفةِ ولمْ يَكُنْ أحدُهُما بما ٱخْتَصَّ بهِ أولى مِن العكسِ! فما لَجَأْتُم إليهِ مِن موافقةِ الغرضِ ومخالفتِهِ مِن أكبرِ الأدلَّةِ على أنَّ ذاتَ الفعلِ متَّصفةٌ بما لأجلِهِ وافَقَ الغرضَ وخالَفَهُ. وهٰذا كموافقةِ الغرضِ ومخالفتِهِ في الطُّعومِ والأغذيةِ والرَّوائحِ؛ فإنَّ ما لاءَمَ الإنسانَ ووافَقَهُ مخالفٌ بالذَّاتِ والوصفِ لِما نافَرَهُ منها وخالَفَهُ، ولمْ تَكُنْ تلكَ الملاءمةُ والمنافرةُ لمجرَّدِ العادةِ بل لِما قامَ بالملائمِ والمنافرِ مِن الصِّفاتِ، ففي الخبزِ والماءِ واللحمِ والفاكهةِ مِن الصِّفاتِ التي ٱقْتَضَتْ ملاءمتَها الإنسانَ ما ليسَ في التُّرابِ والحجرِ والقصبِ والعَصْفِ[٢] وغيرِها، ومَن ساوى بينَ الأمرينِ؛ فقد كابَرَ حسَّهُ وعقلَهُ. فهٰكذا ما لاءَمَ العقولَ والفطرَ مِن الأعمالِ والأحوالِ وما خالَفَها هوَ لِما قامَ بكلٍّ منها مِن الصِّفاتِ التي ٱخْتُصَّتْ بهِ فأَوْجَبَتِ[٣] الملاءمةَ والمنافرةَ، فملاءمةُ العدلِ والإحسانِ والبرِّ للعقولِ والفطرِ والحيوانِ لِما ٱخْتُصَّتْ بهِ ذواتُ هٰذهِ الأفعالِ مِن أُمورٍ

---

(١) في ط: «ثلاث مثارات»! والجادّة ما أثبتّه.

(٢) العصف: ما يبقى بعد أخذ الحبّ من التّبن والقشور.

(٣) في ط: «فأوجب»! والصواب ما أثبتّه.

لَيْسَتْ في الظُّلم والإساءةِ، ولَيْسَتْ هٰذهِ الملاءمةُ والمنافرةُ لمجرَّدِ العادةِ والتَّديُّنِ بالشَّرائعِ بل هيَ أُمورٌ ذاتيَّةٌ لهٰذهِ الأفعالِ. وهٰذا ممَّا لا يُنْكِرُهُ العقلُ بعدَ تصوُّرِه.

● **الوجهُ السَّابعَ عشرَ**: أنَّا لا نُنْكِرُ أنَّ للعادةِ وٱختلافِ الزَّمانِ والمكانِ والإضافةِ والحالِ تأْثيرًا في الملاءمةِ والمنافرةِ، ولا نُنْكِرُ أنَّ الإنسانَ يُلائِمُهُ ما ٱعْتادَهُ مِن الأغذيةِ والمساكنِ والملابسِ ويُنافِرُهُ ما لَمْ يَعْتَدْهُ منها وإنْ كانَ أشرفَ منها وأفضلَ، ومِن هٰذا إلفُ الأوطانِ وحبُّ المساكنِ والحنينُ إليها. ولٰكنْ؛ هل يَلْزَمُ مِن هٰذا أنْ تكونَ الملاءمةُ والمنافرةُ كلُّها تَرْجِعُ إلى الإلفِ والعادةِ المجرَّدةِ؟! معلومٌ[1] أنَّ هٰذا ممَّا لا سبيلَ إليهِ؛ إذ الحكمُ على فردٍ جزئيٍّ مِن أفرادِ النَّوعِ لا يَقْتَضي الحكمَ على جميعِ النَّوعِ، وٱستلزامُ الفردِ المعيَّنِ مِن النَّوعِ للازمٍ معيَّنٍ لا يَقْتَضي ٱستلزامَ [جميعِ][2] النَّوعِ لهُ، وثبوتُ خاصَّةٍ معيَّنةٍ للفردِ الجزئيِّ لا يَقْتَضي ثبوتَها للنَّوعِ الكلِّي.

● **الوجهُ الثَّامنَ عشرَ**: أنَّ غايةَ ما ذَكَرْتُم مِن خطإِ الوهمِ في ٱعتقادِهِ إضافةَ القبحِ إلى ذاتِ الفعلِ وحكمِهِ بالاستقباحِ مطلقًا ممَّا قد يَعْرِضُ في بعضِ الأفعالِ؛ فهل يَلْزَمُ مِن ذٰلكَ أنَّهُ حيثُ قَضى بهاتينِ القضيَّتينِ يَكونُ غالطًا بالنِّسبةِ إلى كلِّ فعلٍ؟! ونحنُ إنَّما عَلِمْنا غلطَهُ فيما غَلِطَ فيهِ لقيامِ الدَّليلِ العقليِّ على غلطِهِ، فأمَّا إذا كانَ الدَّليلُ العقليُّ مطابقًا لحكمِهِ؛ فمِن أينَ لكمُ الحكمُ بغلطِهِ؟!

فإنْ قُلْتُمْ: إذا ثَبَتَ أنَّهُ يَغْلَطُ في حُكمٍ ما؛ لَمْ يَكُنْ حكمُهُ مقبولًا؛ إذْ لا ثقةَ بحكمِهِ! قُلْنا: إذا جَوَّزْتُم أنْ يَكونَ في الفطرةِ حاكمانِ؛ حاكمُ الوهمِ وحاكمُ العقلِ، ونَسَبْتُم حكمَ العقلِ إلى حكمِ الوهمِ، وقُلْتُم في بعضِ القضايا التي يَجْزِمُ العقلُ بها: هيَ مِن حكمِ الوهمِ؛ لَمْ يَبْقَ لكُم وثوقٌ بالقضايا التي يَجْزِمُ بها العقلُ ويَحْكُمُ بها؛ لاحتمالِ أنْ يَكونَ مستندُها حكمَ الوهمِ لا حكمَ العقلِ! فلا بدَّ لكُم مِن التَّفريقِ بينَهُما، ولا بدَّ للتَّفريقِ أنْ تكونَ قضاياهُ ضروريَّةً ٱبتداءً وٱنتهاءً، وإذا جَوَّزْتُمْ أنْ يَكونَ بعضُ القضايا الضَّروريَّةِ وهميَّةً؛ لَمْ يَبْقَ لكُم طريقٌ إلى التَّفريقِ.

---

(١) في ط: «ومعلوم»! والصواب حذف الواو.

(٢) زيادة تفيد في فهم السياق.

● **الوجهُ التَّاسعَ عشرَ**: أنَّ هٰذا الذي فَرَضْتُموهُ فيمَن يَسْتَقْبِحُ شيئًا لمخالفةِ غرضِهِ ويَسْتَحْسِنُهُ لموافقةِ غرضِهِ أو بالعكسِ إنَّما موردُهُ الحسِّيَّاتُ[١] غالبًا كالمآكلِ والملابسِ والمساكنِ والمناكحِ؛ فإنَّها بحسبِ الدَّواعي والميولِ والعوائدِ والمناسباتِ، فهيَ إنَّما تكونُ في الجزئيَّاتِ[٢]، وأمَّا الكلِّيَّاتُ العقليَّةُ؛ فلا تكادُ تُقاسُ بتلكَ[٣]، فلا يكونُ العدلُ والصِّدقُ والإحسانُ حسنًا عندَ بعضِ العقولِ قبيحًا عندَ بعضِها كما يكونُ اللونُ الأسودُ[٤] مشتهًى حسنًا موافقًا لبعضِ النَّاسِ مبغوضًا مستقبحًا لبعضِهِم، ومنِ اعْتَبَرَ هٰذا بهٰذا؛ فقد خَرَجَ واعْتَبَرَ الشَّيءَ بما لا يَصِحُّ اعتبارُهُ بهِ. ويُؤَيِّدُ هٰذا الوجهُ التَّالي:

● **الوجهُ العشرونَ**: أنَّ العقلَ إذا حَكَمَ بقبحِ الكذبِ والظُّلمِ والفواحشِ؛ فإنَّهُ لا يَخْتَلِفُ حكمُهُ بذٰلكَ في حقِّ نفسِهِ ولا غيرِهِ، بل يَعْلَمُ أنَّ كلَّ عقلٍ يَسْتَقْبِحُها وإنْ كانَ يَرْتَكِبُها لحاجتِهِ أو جهلِهِ، فلمَّا أصابَ في استقباحِها؛ أصابَ في نسبةِ القبحِ إلى ذاتِها وأصابَ في حكمِهِ بقبحِها مطلقًا، ومَن غَلَّطَهُ في بعضِ هٰذهِ الأحكامِ؛ فهوَ الغالطُ عليهِ. وهٰذا بخلافِ ما إذا حَكَمَ باستحسانِ مطعمٍ أو ملبسٍ أو مسكنٍ أو لونٍ؛ فإنَّهُ يَعْلَمُ أنَّ غيرَهُ يَحْكُمُ باستحسانِ غيرِهِ، وأنَّ هٰذا ممَّا يَخْتَلِفُ باختلافِ العوائدِ والأُممِ والأشخاصِ، فلا يَحْكُمُ بهِ حكمًا كلِّيًّا؛ إلَّا حيثُ يَعْلَمُ أنَّهُ لا يَخْتَلِفُ، كما يَحْكُمُ حكمًا كلِّيًّا بأنَّ: كلَّ ظمآنَ يَسْتَحْسِنُ شربَ الماءِ ما لمْ يَمْنَعْ منهُ مانعٌ، وكلَّ مقرورٍ يَسْتَحْسِنُ لباسَ ما فيهِ دفؤُهُ ما لمْ يَمْنَعْ منهُ مانعٌ، وكذٰلكَ كلُّ جائعٍ يَسْتَحْسِنُ ما يَدْفَعُ بهِ سورةَ الجوعِ[٥]. فهٰذا حكمٌ كلِّيٌّ في هٰذهِ الأُمورِ المستحسنةِ لا غلطَ فيهِ معَ كونِ المحسوساتِ عرضةً لاختلافِ النَّاسِ في استحسانِها واستقباحِها بحسبِ الأغراضِ والعوائدِ والإلفِ؛ فما الظَّنُّ بالأُمورِ الكلِّيَّةِ العقليَّةِ التي لا تَخْتَلِفُ، إنَّما هيَ نفيٌ وإثباتٌ؟!

● **الوجهُ الحادي والعشرونَ**: قولُكُم: «مِن مثاراتِ الغلطِ أنَّ الوهمَ غالبٌ للعقلِ

---

(١) في ط: «مورده الحسنات»! وهٰذا تحريف ظاهر صوابه ما أثبتّه.

(٢) في ط: «في الحركات»! وهٰذا تحريف بيّن ربّما كان صوابه ما أثبتّه وربّما كان «الحسّيّات».

(٣) في ط: «فلا تكاد تعارض تلك»! وفيه تحريف بيّن، فإن لم يكن صوابه ما أثبتّه؛ فهو نحوه.

(٤) في ط: «اللون أسود»! وهٰذا خطأ أو سبق قلم صوابه ما أثبتّه.

(٥) المقرور: البردان. سورة الجوع: شدّته.

في جميعِ[1] الأحوالِ؛ إلَّا في حالةٍ نادرةٍ، وقد لا يَلْتَفِتُ[2] الوهمُ إلى تلكَ الحالةِ النَّادرةِ بل لا تَخْطُرُ بالبالِ، فيَقْضي بالقبح مطلقًا لاستيلاءِ قبحِهِ على قلبِهِ وذهابِ الحالةِ النَّادرةِ عن ذكرِهِ، كحكمِهِ على الكذبِ[3] بأنَّهُ قبيحٌ مطلقًا وغفلتِهِ عنِ الكذبِ [الذي][4] يُسْتَفادُ بِهِ عصمةُ دمِ نبيٍّ أو وليٍّ، وإذا قَضى بالقبح مطلقًا وٱسْتَمَرَّ عليهِ مدَّةً وتَكَرَّرَ ذٰلكَ على سمعِهِ ولسانِهِ؛ ٱنْغَرَسَ في قلبِهِ ٱستقباحٌ مستندٌ. . . إلى آخرِهِ».

فمضمونُهُ بعدَ الإطالةِ أنَّهُ: لو كانَ الكذبُ قبيحًا لذاتِهِ؛ لَما تَخَلَّفَ عنهُ القبحُ، ولٰكنَّهُ يَتَخَلَّفُ إذا تَضَمَّنَ عصمةَ دمِ نبيٍّ، ففي هٰذهِ الحالةِ ونحوِها لا يَكونُ قبيحًا، وهيَ حالةٌ نادرةٌ لا تَكادُ تَخْطُرُ بالبالِ، فيَقْضي العقلُ بقبحِ الكذبِ مطلقًا ويَغْفُلُ عن هٰذهِ الحالةِ وهيَ تُنافي حكمَهُ بقبحِهِ مطلقًا، ثمَّ تُتْرَكُ ويَنْشَأُ على ذٰلكَ الاعتقادِ فيَظُنُّ أنَّ قبحَهُ لذاتِهِ مطلقًا وليسَ كذٰلكَ.

وهٰذا بعدَ تسليمِهِ لا يَمْنَعُ كونَهُ قبيحًا لذاتِهِ وأنَّ تخلُّفَ القبحِ عنهُ لمعارضٍ راجحٍ، كما أنَّ الاغتذاءَ بالميتةِ والدَّمِ ولحمِ الخنزيرِ يُوجِبُ نباتًا خبيثًا وإنْ تَخَلَّفَ عنهُ ذٰلكَ عندَ المَخْمَصَةِ[5]. كيفَ؛ وقد بيَّنَّا أنَّ القبحَ لا يَتَخَلَّفُ عنِ الكذبِ أصلًا، وأمَّا إذا تَضَمَّنَ عصمةَ وليٍّ؛ فالحسنُ إنَّما هوَ التَّعريضُ، والصِّدقُ لا يَقْبُحُ أبدًا، وإنَّما القبيحُ الإعلامُ بِهِ، وفرقٌ بينَ الخبرِ والإخبارِ، فالقبحُ إنَّما وَقَعَ في الإخبارِ لا في الخبرِ؟! ولو سَلَّمْنا ذٰلكَ كلَّهُ؛ فتخلُّفُ الحكمِ العقليِّ لقيامِ مانعٍ أو لفواتِ شرطٍ غيرُ مستنكرٍ.

فهٰذهِ الشُّبهةُ مِن أضعفِ الشُّبهِ، وحسبُكَ ضعفًا بحكمٍ إنَّما يَسْتَنِدُ إليها وإلى أمثالِها.

● **الوجهُ الثَّاني والعشرونَ**: [قولُكُم][6]: «إنَّ الوهمَ قد سَبَقَ إلى العكسِ، كمَن

---

(١) في ط: «من مثارات الغلط إنّما هو مخالف للغرض في جميع»! وهٰذا تحريف بيّن، صوابه ما أثبتّه مستأنسًا بما تقدّم (٢/ ٣٦١).

(٢) في ط: «نادرة بل لا يلتفت»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه مستأنسًا بما تقدّم (٢/ ٣٦١).

(٣) في ط: «فحكمه على الكذب»! وهٰذا تحريف أفسد السياق، وٱنظر ما تقدّم (٢/ ٣٦١).

(٤) ساقطة من ط، ولا بدّ منها، وقد جاءت في السياق المتقدّم (٢/ ٣٦١).

(٥) المخمصة: الجوع الشديد. وقد تقدّم تقرير هٰذا (٢/ ٣١١).

(٦) زيادة يقتضيها السياق.

يَرى شيئًا مقرونًا بشيءٍ، فيَظُنُّ الشَّيءَ لا محالةَ مقرونًا بهِ مطلقًا، ولا يَدْري أنَّ الأخصَّ أبدًا مقرونٌ بالأعمِّ مِن غيرِ عكسٍ»، وتمثيلُكُم ذٰلكَ بنفرةِ السَّليمِ[1] مِن الحبلِ المرقَّشِ ونفورِ الطَّبعِ عنِ العسلِ إذا شُبِّهَ بالعَذِرَةِ. . . إلى آخرِ ما ذَكَرْتُم مِن الأمثالِ: كنفرةِ الطَّبعِ عنِ الحسناءِ ذاتِ الاسمِ القبيحِ، ونفرةِ الرَّجلِ عنِ البيتِ الذي فيهِ الميِّتُ، ونفرةِ كثيرٍ مِن النَّاسِ عنِ الأقوالِ الصَّحيحةِ التي تُضافُ إلى مَن يُسيئونَ الظَّنَّ بهِم.

فنحنُ لا نُنْكِرُ أنَّ للوهمِ تأْثيرًا في النُّفوسِ وفي الحبِّ والبغضِ، بل هوَ غالبٌ على أكثرِ النُّفوسِ في كثيرٍ مِن الأحوالِ، ولٰكنْ إذا سُلِّطَ عليهِ العقلُ الصَّريحُ؛ تَبيَّنَ غلطُهُ وأنَّ ما حَكَمَ بهِ إنَّما هوَ موهومٌ لا معقولٌ: كما إذا سُلِّطَ العقلُ الصَّريحُ والحسُّ على الحبلِ المرقَّشِ؛ تَبيَّنَ أنَّ نفرةَ الطَّبعِ عنهُ مستندُها الوهمُ الباطلُ، وكذٰلكَ إذا سُلِّطَ الذَّوقُ والعقلُ على العسلِ؛ تَبيَّنَ أنَّ نفرةَ الطَّبعِ عنهُ مستندُها الوهمُ الكاذبُ، وإذا تأمَّلَ الطَّرفُ محاسنَ الجميلةِ البديعةِ الجمالِ؛ تَبيَّنَ أنَّ نفرتَهُ عنها لقبحِ اسمِها وهمٌ فاسدٌ، وإذا سُلِّطَ العقلُ الصَّريحُ على الميِّتِ؛ تَبيَّنَ أنَّ نفرةَ الرَّجلِ عنهُ لتوهُّمِ حركتِهِ وثورانِهِ خيالٌ باطلٌ ووهمٌ فاسدٌ. . . وهٰكذا نظائرُ ذٰلكَ.

أفتَرى يَلْزَمُ مِن هٰذا أنَّا إذا سَلَّطْنا العقلَ الصَّريحَ على الكذبِ والظُّلمِ والفواحشِ والإساءةِ إلى النَّاسِ وكفرانِ النِّعمِ وضربِ الوالدينِ والمبالغةِ في إهانتِهِما وسبِّهِما وأمثالِ ذٰلكَ؛ تَبيَّنَ أنَّ حكمَهُ بقبحِها وهمٌ منهُ لِيَكونَ نظيرَ ما ذَكَرْتُم مِن الأمثلةِ؟! وهل في الاعتبارِ أفسدُ مِن اعتبارِكُم هٰذا [بهٰذا][2]؟! فإنَّ الحكمَ فيما ذَكَرْتُم قد تَبيَّنَ بالعقلِ الصَّريحِ والحسِّ أنَّهُ حكمٌ وهميٌّ، ونحنُ لا نُنازِعُ فيهِ ولا عاقلٌ؛ لأنَّا إنْ سَلَّطْنا عليهِ العقلَ والحسَّ؛ ظَهَرَ أنَّ مستندَهُ الوهمُ، وأمَّا في القضايا التي رُكِّبَ في العقولِ والفطرِ حسنُها وقبحُها؛ فإنَّا إذا سَلَّطْنا العقلَ الصَّريحَ عليها؛ لمْ يَحْكُمْ لها بخلافِ ما هيَ عليهِ أبدًا؛ إلَّا أنْ يَلْجَؤوا إلى دبُوسِ السَّلَّاقِ[3]، وهوَ الصِّدقُ المتضمِّنُ هلاكَ وليِّ

---

(١) السليم: الذي نهشته الأفعى، سمّي كذٰلك تفاؤلاً بسلامته ونجاته.

(٢) ساقطة من ط، ولا يستقيم السياق إلّا بها، والمعنى: قياس هٰذا بهٰذا.

(٣) تقدّم بيان معناه (١/ ١٠٢).

[و]الكذبُ المتضمِّنُ عصمتَهُ، وليسَ معَكم ما تَصولونَ بهِ سواهُ، وقد بيَّنَّا حقيقةَ الأمرِ فيهِ بما فيهِ كفايةٌ. وحتَّى لو كانَ الأمرُ فيهما كما ذَكَرْتُم قطعًا؛ لمْ يَجُزْ أنْ يُبْطَلَ بهما ما رَكَّبَهُ اللهُ في العقولِ والفطرِ وألْزَمَها إيَّاهُ ٱلتزامًا لا ٱنفكاكَ لها عنهُ من ٱستحسانِ الحسنِ وٱستقباحِ القبيحِ والحكمِ بقبحِهِ والتَّفرقةِ العقليَّةِ التَّابعةِ لذواتِهما وأوصافِهما بينَهُما.

وقد أنْكَرَ اللهُ سبحانَهُ على العقولِ التي جَوَّزَتْ أنْ يَجْعَلَ اللهُ فاعلَ القبيحِ وفاعلَ الحسنِ سواءً، ونَزَّهَ نفسَهُ عن هٰذا الظَّنِّ وعن نسبةِ هٰذا الحكمِ الباطلِ إليهِ، ولولا أنَّ ذٰلكَ قبيحٌ عقلاً؛ لَما أنْكَرَهُ على العقولِ التي جوَّزَتْهُ؛ فإنَّ الإنكارَ إنَّما كانَ يَتَوجَّهُ عليهِم بمجرَّدِ الشَّرعِ والخبرِ لا بإفسادِ ما ظَنُّوهُ عقلاً.

ولا يُقالُ: فلو كانَ هٰذا الحكمُ باطلاً قطعًا لَما جَوَّزَهُ أُولٰئكَ العقلاءُ.

لأنَّ هٰذا ٱحتجاجٌ بعقولِ أهلِ الشِّركِ الفاسدةِ التي عابَها اللهُ وشَهِدَ عليهِم بأنَّهُم لا يَعْقِلونَ وشَهِدوا على أنفسِهِم بأنَّهُم لو كانوا يَسْمَعونَ أو يَعْقِلونَ ما كانوا في أصحابِ السَّعيرِ! وهل يُقالُ: إنَّ ٱستحسانَ عبادةِ الأصنامِ بعقولِهِم وٱستحسانَ التَّثليثِ والسُّجودِ للقمرِ وعبادةِ النَّارِ وتعظيمِ الصَّليبِ يَدُلُّ على حسنِها لاستحسانِ بعضِ العقلاءِ لها؟!

فإنْ قيلَ: فهٰذا حجَّةٌ عليكُم؛ فإنَّ عقولَ هٰؤلاءِ قد قَضَتْ بحسنِها وهيَ أقبحُ القبائحِ!

قيلَ: ما مثلُنا ومثلُكُم في ذٰلكَ إلاَّ كمثلِ مَن قالَ: إذا كانَ الأحولُ يَرى القمرَ ٱثنينِ؛ لمْ يَبْقَ لنا وثوقٌ بكونِ صحيحِ الفمِ إذا ذاقَ الشَّيءَ المرَّ يَذوقُهُ عذبًا وحلوًا، وإذا كانَ صاحبُ الفهمِ السَّقيمِ يَعيبُ القولَ الصَّحيحَ ويَشْهَدُ ببطلانِهِ؛ لمْ يَبْقَ لنا وثوقٌ بشهادةِ صاحبِ الفهمِ المستقيمِ بصحَّتِهِ... إلى أمثالِ ذٰلكَ! فإذا كانَتْ فطرةُ أُمَّةٍ مِن الأُممِ وشرذمةٍ مِن النَّاسِ وعقولُهُم قد فَسَدَتْ؛ فهلْ يَلْزَمُ من هٰذا إبطالُ شهادةِ العقولِ السَّليمةِ والفطرِ المستقيمةِ؟! ولو صَحَّ لكُم هٰذا الاعتراضُ؛ لَبَطَلَ ٱستدلالُكُم على كلِّ منازعٍ لكُم في كلِّ مسألةٍ؛ فإنَّهُ عاقلٌ وقد شَهِدَ عقلُهُ بها بخلافِ قولِكُم! وكَفى بهٰذا فسادًا وبطلانًا، وكَفى بردِّ العقولِ وسائرِ العقلاءِ لهُ. والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ.

● **الوجهُ الثَّالثُ والعشرونَ**: قولُكُم: «إنَّ الملكَ العظيمَ إذا رَأى مسكينًا مشرفًا

على الهلاكِ؛ ٱسْتَحْسَنَ إنقاذَهُ، والسَّببُ في ذٰلكَ دفعُ الأذى الذي يَلْحَقُ الإنسانَ مِن رقَّةِ الجنسيَّةِ[1]، وهوَ طبعٌ يَسْتَحيلُ الانفكاكُ عنهُ. . .» إلى آخرِهِ. كلامٌ في غايةِ الفسادِ؛ فإنَّ مضمونَهُ أنَّ هٰذا الإحسانَ العظيمَ والتَّنزُّلَ مِن مثلِ هٰذا الملكِ القادرِ إلى الإحسانِ إلى مجهودٍ مضرورٍ قد مَسَّهُ الضُّرُّ وتَقَطَّعَتْ بهِ الأسبابُ وٱنْقَطَعَتْ بهِ الحيلُ ليسَ فعلاً حسنًا في نفسِهِ ولا فرقَ عندَ العقلِ بينَ ذٰلكَ وأنْ يُلْقِيَ عليهِ حجرًا يُغْرِقُهُ، وإنَّما مالَ إليهِ طبعُهُ لرقَّةِ الجنسيَّةِ ولتصويرِهِ نفسَهُ في تلكَ الحالِ وٱحتياجِهِ إلى مَن يُنْقِذُهُ! وإلاَّ؛ فلو جَرَّدْنا النَّظرَ إلى ذاتِ الفعلِ وضَرَبْنا صفحًا عن لوازمِهِ وما يَقْتَرِنُ بهِ ويَبْعَثُ عليهِ؛ لمْ يَقْضِ العقلُ بحسنِهِ ولمْ يُفَرِّقْ بينَهُ وبينَ إلقاءِ حجرٍ عليهِ حتَّى يُغْرِقَهُ!

هٰذا قولٌ يَكْفي في فسادِهِ مجرَّدُ تصوُّرِهِ! وليسَ في المقدِّماتِ البديهيَّةِ ما هوَ أجلى وأوضحُ مِن كونِ مثلِ هٰذا الفعلِ حسنًا لذاتِهِ حتَّى يُحْتَجَّ بها عليهِ؛ فإنَّ الاحتجاجَ إنَّما يَكونُ بالأوضحِ على الأخفى، فإذا كانَ المطلوبُ المستدَلُّ عليهِ أوضحَ مِن الدَّليلِ؛ كانَ الاستدلالُ عناءً وكلفةً! ولٰكنْ [يَكْفي][2] تصوُّرُ الدَّعوى ومقابلتُها تصويرًا مجرَّدًا يُعْرَضانِ [فيهِ][2] على العقولِ التي لمْ يَسْبِقْ إليها تقليدُ الآراءِ ولمْ يَتَواطَأْ عليها ويَتَلَقَّاها صاغرٌ عن كابرٍ وولدٌ عن والدٍ حتَّى نَشَأَتْ معَها بنشأتِها فهيَ تَسْعى في نصرتِها بما دَبَّ ودَرَجَ مِن الأدلَّةِ لاعتقادِها أوَّلاً أنَّها حقٌّ في نفسِها لإحسانِها الظَّنَّ بأربابِها، فلو تَجَرَّدَتْ مِن حبِّ مَن والَتْهُ وبغضِ مَن خالَفَتْهُ وجَرَّدَتِ النَّظرَ وصابَرَتِ العلمَ وتابَعَتِ المسيرَ في المسألةِ إلى آخرِها؛ لأوْشَكَ أنْ تَعْلَمَ الحقَّ مِن الباطلِ. ولٰكنْ حبُّكَ الشَّيءَ يُعْمي ويُصِمُّ، والنَّاظرُ بعينِ البغضِ يَرى المحاسنَ مساوئَ؛ هٰذا في إدراكِ البصرِ معَ ظهورِهِ ووضوحِهِ، فكيفَ في إدراكِ البصيرةِ؟! لا سيَّما إذا صادَفَ مشكلاً[3]! فهٰذهِ بليَّةُ أكثرِ العالمِ.

فإنْ تَنْجُ مِنها [تَنْجُ][4] مِن ذي عَظيمَةٍ   وَإلاَّ فَإنِّي لا إخالُكَ ناجِيا

---

(١) يعني: الرقّة التي تقتضيها الطبيعة البشريّة. وقد تقدّمت (٢/ ٣٦٤) بلفظ: «رقّة القلب».

(٢) ساقطة من ط، ولا بدّ منها ليستقيم السياق.

(٣) يعني: أمرًا مشكلاً.

(٤) ساقطة من ط، ولا بدّ منها.

● **الوجهُ الرَّابعُ والعشرونَ:** أنَّ اقترانَ هٰذه الأُمورِ التي ذكَرْتُموها مِن رقَّةِ الجنسيَّةِ وتصوُّرِ نفسِه بصورةِ مَن يُريدُ إنقاذَهُ ونحوِها هيَ أُمورٌ تَقْتَرِنُ بهٰذا الإحسانِ فيَقْوى الباعثُ على فعلِه ولا يوجِبُ[١] تجرُّدَهُ عن وصفٍ يَقْتَضي حسنَهُ وأنْ لا تكونَ ذاتُهُ مقتضيةً لحسنِه وإنِ اقْتَرَنَ بفاعلِه[٢] هٰذه الأُمورُ. وما مثلُكُم في ذٰلكَ إلَّا كمثلِ مَن قالَ: إنَّ تناولَ الأطعمةِ والأغذيةِ والأدويةِ ليسَ حسنًا لذاتِه؛ فإنَّهُ يَقْتَرِنُ بتناولِها مِن لذَّةِ المَرِّ لفمِ المعدةِ[٣] ما يُوجِبُ نزوعَها إلى طلبِ الغذاءِ لقيامِ البنيةِ، وكذٰلكَ الأدويةُ وغيرُها. ومعلومٌ أنَّ هٰذه البواعثَ والدَّواعيَ وأسبابَ الميولِ لا تُنافي الاقتضاءَ الذَّاتيَّ وقيامَ الصِّفاتِ التي تَقْتَضي الانتفاعَ بها، فكذٰلكَ تلكَ البواعثُ والدَّواعي وأسبابُ الميولِ التي تَحْصُلُ لفاعلِ الإحسانِ ومنقذِ الغريقِ والحريقِ ومَنْ يُنْجي الهالكَ[٤] لا تُنافي ما عليهِ هٰذه الأفعالُ في ذواتِها مِن الصِّفاتِ التي تَقْتَضي حسنَها وقبحَ أضدادِها.

● **الوجهُ الخامسُ والعشرونَ:** قولُكُم: «إنَّهُ يُقَدِّرُ نفسَهُ في تلكَ الحالِ وتقديرُهُ غيرَهُ[٥] معرضًا عنِ الإنقاذِ، فيَسْتَقْبِحُهُ منهُ لمخالفتِه غرضَهُ، فيَدْفَعُ عن نفسِه ذٰلكَ القبحَ المتوهَّمَ». فيُقالُ: هٰذا القبحُ المتوهَّمُ إنَّما نَشَأَ عنِ القبحِ المحقَّقِ في تركِ الإحسانِ إليهِ معَ قدرتِه عليهِ وعدمِ تضرُّرِه بهِ، فالقبحُ محقَّقٌ في تركِ إنقاذِه ومتوهَّمٌ في تصويرِه نفسَهُ بتلكَ الحالِ وعدمَ إنقاذِ غيرِه[٦] لهُ، فلولا تلكَ الحقيقةُ؛ لَمْ يَحْكُمِ العقلُ بهٰذا القبحِ الموهومِ. وكونُ الإنقاذِ موافقًا للغرضِ وتركُهُ مخالفًا لهُ لا يَنْفي أنْ يَكونَ في ذاتِه حسنًا وقبيحًا وأنَّهُ إنَّما وافقَ[٧] الغرضَ أو خالَفَهُ لِما اتَّصَفَتْ بهِ ذاتُهُ مِن الصِّفاتِ المقتضيةِ لهٰذه

---

(١) يعني: هٰذا الاقتران.

(٢) في ط: «وأن لا يكون ذاته... اقتران بفاعل»! وهٰذا تصحيف وتحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) في ط: «اللّذة المرّة لفم المعدة»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه. وليس للمرّة بكسر الميم أو فتحها محلّ هنا، وإنّما هي لذّة مَرّ الطعام أو مروره إلى فم المعدة.

(٤) في ط: «وما ينجي الهالك»! وهٰذا تحريف لا معنى له أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٥) كذا في ط، وله وجه، وقد تقدّم (٢/ ٣٦٤): «ويقدّر غيره».

(٦) في ط: «وعدم إنقاذه غيرَهُ»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٧) في ط: «وقبيحًا ملائمًا وافق»! وهٰذا تحريف بيّن مفسد للسياق، صوابه ما أثبتّه إن شاء الله، وربّما كان صوابه «وقبيحًا بل إنّما وافق»، أو «وقبيحًا وإنّما وافق». فمنشأ التحريف اتّصال كلمتين معًا!

الموافقةِ والمخالفةِ.

● **الوجهُ السَّادسُ والعشرونَ**: قولُكُم: «فلو فُرِضَ هٰذا في بهيمةٍ أو شخصٍ لا رقَّةَ فيهِ فيَبْقى أمرٌ آخرُ وهوَ طلبُ الثَّناءِ على إحسانِهِ». فيُقالُ: طلبُ الثَّناءِ يَقْتَضي أنَّ هٰذا الفعلَ ممَّا يَتَعَلَّقُ بهِ الثَّناءُ، وما ذاكَ إلَّا لأنَّهُ في نفسِهِ على صفةٍ تَقْتَضي الثَّناءَ على فاعلِهِ، ولو كانَ هٰذا الفعلُ مساويًا لضدِّهِ في نفسِ الأمرِ؛ لَمْ يَتَعَلَّقِ الثَّناءُ بهِ والذَّمُّ بضدِّهِ، وفعلُهُ لتوقُّعِ الثَّناءِ لا يَنْفي أَنْ يَكونَ على صفةٍ لأجلِها ٱستَحَقَّ فاعلُهُ الثَّناءَ، بل هوَ بٱقتضاءِ ذٰلكَ أولى مِن نفيِهِ.

● **الوجهُ السَّابعُ والعشرونَ**: قولُكُم: «فإنْ فُرِضَ في موضعٍ يَسْتَحيلُ أَنْ يُعْلَمَ؛ فيَبْقى ميلٌ وترجيحٌ يُضاهي نفرةَ طبعِ السَّليمِ عنِ الحبلِ، وذٰلكَ أنَّهُ رَأى هٰذهِ الصُّورةَ مقرونةً بالثَّناءِ فيَظُنُّ أنَّ الثَّناءَ مقرونٌ بها بكلِّ حالٍ، كما أنَّهُ لمَّا رَأى الأذى مقرونًا بصورةِ الحبلِ وطبعُهُ يَنْفُرُ عنِ الأذى فيَنْفُرُ عنِ المقرونِ بهِ. فالمقرونُ باللذيذِ لذيذٌ والمقرونُ بالمكروهِ مكروهٌ».

فيُقالُ: يا عجبًا! كيفَ يُرَدُّ أعظمُ الإحسانِ الذي فَطَرَ اللهُ عقولَ عبادِهِ وفِطَرَهُم على ٱستحسانِهِ[1] حتَّى لو تُصُوِّرَ نطقُ الحيوانِ البهيمِ لَشَهِدَ بٱستحسانِهِ إلى مجرَّدِ وهمٍ وخيالٍ فاسدٍ يُشْبِهُ نفرةَ طبعِ الرَّجلِ السَّليمِ عن حبلٍ مرقَّشٍ! فتَأَمَّلْ كيفَ تَحْمِلُ نصرةُ الآراءِ[2] المتقلَّدةِ وبغضُ مخالفتِها على أمثالِ هٰذهِ الشُّنعِ! وهل سَوَّى اللهُ سبحانَهُ في العقولِ والفطرِ بينَ إنقاذِ الغريقِ والحريقِ وتخليصِ الأسيرِ مِن عدوِّهِ وإحياءِ النُّفوسِ وبينَ نفرةِ طبعِ السَّليمِ عن حبلٍ مرقَّشٍ لتوهُّمِهِ أنَّهُ حيَّةٌ[3]؟! وقد كانَ مجرَّدُ تصوُّرِ هٰذهِ الشُّبهةِ كافيًا في العلمِ ببطلانِها، ولٰكنَّا زِدْنا الأمرَ إيضاحًا وبيانًا.

● **الوجهُ الثَّامنُ والعشرونَ**: قولُكُم: «الإنسانُ إذا جالَسَ مَن عَشِقَهُ في مكانٍ، فإذا ٱنْتَهى إليهِ؛ أَحَسَّ في نفسِهِ تفرقةً بينَ ذٰلكَ المكانِ وغيرِهِ»! وٱستشهادُكُم على ذٰلكَ

---

(١) في ط: «على إحسانه»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه إن شاء الله.

(٢) في ط: «كيف يحمل نفرة الآراء»! وهٰذا تحريف قلب المعنى رأسًا على عقب.

(٣) فإذ لم يسوّ الله سبحانه ولا عامّة العقلاء بين الأمرين؛ فقياسكم أحدهما على الآخر ساقط!

بقولِ الشَّاعرِ: أَمُرُّ على الدِّيارِ دِيارِ لَيْلى... وقولِهِ: وحَبَّبَ أَوْطانَ الرِّجالِ إِلَيْهِمُ...

فيُقالُ: لا ريبَ أنَّ الأمرَ هٰكذا، ولٰكنْ هل يَلْزَمُ مِن هٰذا ٱستواءُ الصِّدقِ والكذبِ في نفسِ الأمرِ وٱستواءُ العدلِ والظُّلمِ والبرِّ والفجورِ والإحسانِ والإساءةِ؟ بل هٰذا المثالُ نفسُهُ حجَّةٌ عليكُم؛ فإنَّهُ لمْ يَمِلْ بطبعِهِ إلى ذٰلكَ المكانِ معَ مساواتِهِ لجميعِ الأمكنةِ عندَهُ، وكذٰلكَ حنينُهُ إلى وطنِهِ ومحبَّتُهُ لهُ، وكذٰلكَ حنينُهُ إلى إلفِهِ مِن النَّاسِ وغيرِهِم؛ فإنَّ هٰذا لا يَقَعُ منهُ معَ تَساوي تلكَ الأماكنِ والأشخاصِ عندَهُ، بل لظنِّهِ ٱختصاصَها بأُمورٍ لا توجَدُ في سواها، فترَتَّبَ ذٰلكَ الحبُّ والميلُ على هٰذا الظَّنِّ. ثمَّ لهُ حالانِ: أحدُهُما: أنْ يكونَ كما ظَنَّهُ. [والآخرُ: أنْ لا يكونَ كما ظَنَّهُ][1] بل ذٰلكَ المكانُ أو الشَّخصُ مساوٍ لغيرِهِ وربَّما يكونُ غيرُهُ أكملَ منهُ في الأوصافِ التي تَقْتَضي حبَّهُ والميلَ إليهِ. فهٰذا إذا سُلِّطَ العقلُ الحسنُ على سببِ ميلِهِ وحبِّهِ؛ عَلِمَ أنَّهُ مجرَّدُ إلفٍ أو عادةٍ أو تذكُّرٍ أو تخيُّلٍ.

وهٰذا الوهمُ مستندٌ إلى ما تَقَرَّرَ في العقلِ مِن أنَّ ٱختصاصَ الحبِّ والميلِ بالشَّيءِ دونَ غيرِهِ لِما ٱخْتُصَّ بهِ مِن الصِّفاتِ التي ٱقْتَضَتْ ذٰلكَ وكذٰلكَ تعلُّقُ النَّفرةِ والبغضِ بهِ، ثمَّ يَغْلِبُ[2] الوهمُ حتَّى يَتَخَيَّلَ تلكَ الصِّفاتِ قائمةً بالمحلِّ ولَيْسَتْ فيهِ[3] بل يكونُ المحلُّ مقارنًا تلكَ الصِّفاتِ، فيُحبُّ ويُبْغِضُ لأجلِ تلكَ المقارنةِ[4]، فمقارنُ المحبوبِ محبوبٌ ومقارنُ المكروهِ مكروهٌ. كقولِهِ:

وَمـا حُـبُّ الـدِّيارِ شَغَفْـنَ قَلْبـي ... وَلٰكِـنْ حُـبُّ مَـنْ سَكَـنَ الـدِّيـارا

وقولِ الآخرِ:

إذا ذَكَـروا أَوْطـانَهُـم ذَكَّـرَتْهُـمُ ... عُهـودًا جَـرَتْ فيهـا فَحَنُّـوا لِـذالِكـا

● **الوجهُ التَّاسعُ والعشرونَ**: قولُكُم: «إنَّ الصَّبرَ على السَّيفِ في تركِ كلمةِ الكفرِ

---

(١) ساقطة من ط، ولا يتمّ السياق إلاّ بها.

(٢) في ط: «ثمّ تغلّب»! وفيه عسر وإشكال والغالب أنّه تصحيف صوابه ما أثبتّه.

(٣) في ط: «تلك الصفات بائنة عن المحلّ وليست فيه»! وهٰذا تحريف لا معنى له صوابه ما أثبتّه إن شاء الله. ومعنى الكلام أنّه: يتخيّل صفات المحبوب قائمة بمحلّ لقائه به وما هي كذٰلك في الحقيقة.

(٤) في ط: «لأجل تلك المفارقة»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

لا يَسْتَحْسِنُهُ العقلاءُ لولا الشَّرعُ، بل ربَّما ٱسْتَقْبَحوهُ، إنَّما يُسْتَحْسَنُ الثَّوابُ أوِ الثَّناءُ بالشَّجاعةِ وكذٰلكَ الصَّبرُ[1] على حفظِ السِّرِّ والوفاءِ بالعهدِ لِما في ذٰلكَ مِن المصالحِ.

فإنْ فُرِضَ حيثُ لا ثناءَ فيهِ؛ فقد وُجِدَ مقرونًا بالثَّناءِ، فيَبْقى ميلُ الوهمِ للمقرونِ[2]»!

فيُقالُ لكُمْ: ٱستحسانُ الشَّرعِ لهُ مطابقٌ لاستحسانِ العقلِ لا مخالفٌ، وكذٰلكَ ٱنتظارُ الثَّوابِ بهِ هوَ لحسنِهِ في نفسِهِ[3]، وكذٰلكَ المصالحُ المترتِّبةُ على حفظِ السِّرِّ والوفاءِ بالعهدِ هيَ لِما قامَ بذواتِ هٰذهِ الأفعالِ مِن الصِّفاتِ التي أوْجَبَتِ المصالحَ؛ إذ لو ساوَتْ غيرَها؛ لمْ تَكُنْ بٱقتضاءِ المصلحةِ أولى منها.

وقولُكُم: «إنَّهُ إذا فُرِضَ حيثُ لا ثناءَ؛ يبقى ميلُ الوهمِ للمقارنِ»[4]؛ فقد تَقَدَّمَ أنَّ هٰذا الميلَ تبعٌ للحقيقةِ وأنَّهُ يَسْتَحيلُ وجودُهُ في فعلٍ لا تَقْتَضي ذاتُهُ المصلحةَ والاستحسانَ، وأنَّ حصولَ الوهمِ المقارنِ تبعٌ للحقيقةِ الثَّابتةِ لاستحالةِ حصولِ هٰذا الوهمِ في فعلٍ لا تكونُ ذاتُهُ منشأً للأمرِ الموهومِ فيَتَوَهَّمُ الذِّهنُ حيثُ تَنْتَفي الحقيقةُ.

● **الوجهُ الثَّلاثونَ**: قولُكُم: «إنَّ مَن عَرَضَتْ لهُ حاجةٌ وأمْكَنَ قضاؤُها بالصِّدقِ والكذبِ... وإنَّهُ إنَّما يُؤْثِرُ الصِّدقَ لأنَّهُ وَجَدَهُ مقرونًا بالثَّناءِ، فهوَ يُؤْثِرُهُ لِما يَقْتَرِنُ بهِ مِن الثَّناءِ»! فجوابُهُ أيضًا ما تَقَدَّمَ، وأنَّ ٱقترانَهُ بالثَّناءِ لِما ٱخْتُصَّ بهِ مِن الصِّفاتِ التي ٱقْتَضَتِ الثَّناءَ على فاعلِهِ.

كيفَ؛ والكذبُ متضمِّنٌ لفسادِ نظمِ العالمِ، ولا يُمْكِنُ قيامُ العالمِ عليهِ لا في معاشِهِم ولا في معادِهِم، بل هوَ متضمِّنٌ لفسادِ المعاشِ والمعادِ، ومفاسدُ الكذبِ اللازمةُ لهُ معلومةٌ عندَ خاصَّةِ النَّاسِ وعامَّتِهِم؟!

كيفَ؛ وهوَ منشأُ كلِّ شرٍّ وفسادٍ، [وشرُّ] الأعضاءِ لسانٌ كذوبٌ[5]؟!

وكم قد أُزيلَتْ بالكذبِ مِن دولٍ وممالكَ وخُرِّبَتْ بهِ مِن بلادٍ وٱسْتُلِبَتْ بهِ مِن نعمٍ

---

(١) في ط: «وكذٰلك بالصبر»! والصواب ما أثبتّه مستأنسًا بما تقدّم (٢/ ٣٦٤)

(٢) في ط: «ميل الوهم المقرون»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) في ط: «به وهو حسنه في نفسه»! وفيه تحريف أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٤) في ط: «لا ثناء ينفي ميل الوهم للمقارنة»! وهٰذان تحريفان قد تقدّما على الجادّة قبل سطور!

(٥) في ط: «كلّ شرّ وفسادُ الأعضاء لسان كذوب»! وهو مشكل جدًّا، وأرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

وتَعَطَّلَتْ بهِ مِن معايشَ وفَسَدَتْ بهِ مصالحُ وغُرِسَتْ بهِ عداواتٌ وقُطِّعَتْ بهِ مودَّاتٌ وٱفْتَقَرَ بهِ غنيٌّ وذَلَّ بهِ عزيزٌ وهُتِكَتْ بهِ مصونةٌ ورُمِيَتْ بهِ محصنةٌ وخَلَتْ بهِ دورٌ وقصورٌ وعُمِرَتْ بهِ قبورٌ وأُزيلَ بهِ أُنسٌ وٱسْتُجْلِبَتْ بهِ وحشةٌ وأُفْسِدَ بهِ بينَ الابنِ وأبيهِ وغاضَ بينَ الأخِ وأخيهِ[1] وأحالَ الصَّديقَ عدوًّا مبينًا وردَّ الغنيَّ العزيزَ ذليلاً مسكينًا! وكم فرَّقَ بينَ الحبيبِ وحبيبِهِ فأفْسَدَ عليهِ عيشتَهُ ونَغَّصَ عليهِ حياتَهُ! وكم جَلا عنِ الأوطانِ! وكم سَوَّدَ مِن وجوهٍ وطَمَسَ مِن نورٍ وأعْمى مِن بصيرةٍ وأفْسَدَ مِن عقلٍ وغَيَّرَ مِن فطرةٍ وجَلَبَ مِن معرَّةٍ[2] وقُطِّعَتْ بهِ السُّبلُ وعَفَتْ بهِ معالمُ الهدايةِ ودَرَسَتْ[3] بهِ مِن آثارِ النُّبوَّةِ وخَفِيَتْ بهِ مِن طرقِ الرَّشادِ وتَعَطَّلَتْ بهِ مِن مصالحِ العبادِ في المعاشِ والمعادِ! وهٰذا وأضعافُهُ ذرَّةٌ مِن مفاسدِهِ وجناحُ بعوضةٍ مِن مضارِّهِ ومصالحِهِ. ألا فما يَجْلُبُهُ مِن غضبِ الرَّحمٰنِ وحرمانِ الجنانِ وحلولِ دارِ الهوانِ أعظمُ مِن ذٰلكَ!

وهل مُلِئَتِ الجحيمُ إلَّا بأهلِ الكذبِ الكاذبينَ على اللهِ وعلى رسولِهِ وعلى دينِهِ وعلى أوليائِهِ المكذِّبينَ بالحقِّ حميَّةً وعصبيَّةً جاهليَّةً؟! وهل عُمِرَتِ الجنانُ إلَّا بأهلِ الصِّدقِ الصَّادقينَ المصدِّقينَ بالحقِّ؟! قالَ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكافِرينَ . وَالَّذي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقونَ . لَهُمْ ما يَشاؤونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنينَ﴾ [الزمر: ٣٢-٣٤].

وإذا كانَتْ هٰذهِ حالَ الكذبِ والصِّدقِ؛ أفليسَ مِن أبطلِ الباطلِ: دعوى تساويهما وأنَّ العقلَ إنَّما يُؤْثِرُ الصِّدقَ لتوهُّمِ ٱقترانِهِ بالثَّناءِ وإنَّما يَتَجَنَّبُ الكذبَ لتوهُّمِ ٱقترانِهِ بالقبحِ كتوهُّمِ ٱقترانِ اللسعِ في الحبلِ المرقَّشِ، وردُّ ٱستقباحِ هٰذهِ المفاسدِ والمقابحِ التي لا أقبحَ منها إلى مجرَّدِ وهمٍ باطلٍ شبهِ نفرةِ الطَّبعِ عنِ الحبلِ المرقَّشِ؟! ونفسُ العلمِ بهٰذهِ المقالةِ كافٍ في الجزمِ ببطلانِها.

---

(١) غاض بين الأخ وأخيه: ذهب ما بينهما من الودّ.

(٢) المعرّة: الإثم والغرم والجناية والأذى.

(٣) عفت: ٱنمحت. درست: ٱنمحت وزالت.

ولو ذَهَبْنا نُعَدِّدُ قبائحَ الكذبِ النَّاشئةَ مِن ذاتِهِ وصفاتِهِ؛ لَزادَتْ على الألفِ، وما مِن عاقلٍ إلاَّ وعندَهُ العلمُ ببعضِ ذٰلكَ علمًا ضروريًّا مركوزًا في فطرتِهِ. فما سَوَّى اللهُ بينَهُ وبينَ الصِّدقِ أبدًا. ودعوى ٱستوائِهِما كدعوى ٱستواءِ النُّورِ والظُّلمةِ والكفرِ والإيمانِ وخرابِ العالمِ وإهلاكِ الحرثِ والنَّسلِ وعمارتِهِ، بل كدعوى ٱستواءِ الجوعِ والشِّبعِ والرِّيِّ والظَّمإِ والفرحِ والغمِّ وأنَّهُ لا فرقَ عندَ العقلِ بينَ علمِهِ بهٰذا وهٰذا!

● **الوجهُ الحادي والثَّلاثونَ**: قولُكُم: «الصِّدقُ والكذبُ متنافيانِ، ومِن المحالِ تساوي المتنافيينِ في جميعِ الصِّفاتِ...» إلى آخرِهِ: إقرارٌ منكُم بالحقِّ ونقضٌ لِما أصَّلْتُموهُ؛ فإنَّهُما إذا كانا متنافيينِ ذاتًا وصفاتٍ[1]؛ لَمْ يَرْجِعِ الفرقُ بينَهُما ٱستحسانًا وٱستقباحًا إلى مجرَّدِ العادةِ والمنشإِ والمربى أو مجرَّدِ التَّديُّنِ بالشَّرائعِ، بل يَكونُ مرجعُ الفرقِ إلى ذاتِهِما وأنَّ ذاتَ هٰذا مقتضيةٌ لحسنِهِ وذاتَ هٰذا مقتضيةٌ لقبحِهِ. وهٰذا هوَ عينُ الصَّوابِ، لولا أنَّكُم لا تَثْبُتونَ عليهِ، وتُصَرِّحونَ بأنَّ الفرقَ بينَهُما سببُهُ العادةُ والتَّربيةُ والمنشأُ والتَّديُّنُ بشرائعِ الأنبياءِ، حتَّى لو فُرِضَ ٱنتفاءُ ذٰلكَ؛ لَمْ يُؤْثِرِ الرَّجلُ الصِّدقَ على الكذبِ! وهل في التَّناقضِ أقبحُ مِن هٰذا؟!

● **الوجهُ الثَّاني والثَّلاثونَ**: قولُكُم: «إنَّ غايةَ هٰذا أنْ يَدُلَّ على قبحِ الكذبِ وحسنِ الصِّدقِ شاهدًا، ولا يَلْزَمُ منهُ حسنُهُ وقبحُهُ غائبًا إلاَّ بطريقِ قياسِ الغائبِ على الشَّاهدِ، وهوَ باطلٌ لوضوحِ الفرقِ»، وٱستنادُكُم في الفرقِ إلى ما ذَكَرْتُم مِن تخليةِ اللهِ بينَ عبادِهِ يَموجُ بعضُهُم في بعضٍ ظلمًا وإفسادًا وقبحِ ذٰلكَ شاهدًا[2].

فيا للهِ العجبُ! كيفَ يُجَوِّزُ العقلُ ٱلتزامَ مذهبٍ ملتزَمٍ معَهُ جوازُ الكذبِ على ربِّ العالمينَ وأصدقِ الصَّادقينَ، وأنَّهُ لا فرقَ أصلاً بالنِّسبةِ إليهِ بينَ الصِّدقِ والكذبِ، بل جوازُ الكذبِ عليهِ ـ سبحانَهُ وتَعالى عمَّا يَقولونَ علوًّا كبيرًا ـ كجوازِ الصِّدقِ وحسنُهُ كحسنِهِ؟!

---

(١) في ط: «ذاتًا وصفاتًا»! وهٰذا جمع مؤنّث سالم ينصب بالكسرة، على أنّ الكوفيّين أجازوا نصب المجموع بالألف والتاء بالفتحة، لٰكنّ السائر المعتمد مذهب من نصب بالكسرة.

(٢) في ط: «وقبحُ ذٰلك شاهدٌ»! والصواب ما أثبتّه. والمعنى: وقبح ذٰلك الآن بين العباد.

وهل هٰذا إلاَّ مِن أعظمِ الإفكِ والباطلِ، ونسبتُهُ إلى اللهِ تَعالى جوازًا كنسبةِ ما لا يَليقُ بجلالِهِ إليهِ مِن الولدِ والزَّوجةِ والشَّريكِ بل كنسبةِ أنواعِ الظُّلمِ والشَّرِّ إليهِ جوازًا، تَعالى اللهُ عن ذٰلكَ علوًّا كبيرًا؟! فمَن أصدقُ مِن اللهِ حديثًا؟! ومَن أصدقُ مِن اللهِ قيلاً؟!

وهل هٰذا الإفكُ المفترى إلاَّ رافعٌ للوثوقِ بأخبارِهِ ووعدِهِ ووعيدِهِ وتجويزٌ عليهِ وعلى كلامِهِ ما هوَ مِن أقبحِ القبائحِ التي يَتَنَزَّهُ عنها بعضُ عبيدِهِ ولا تَليقُ بِهِ فضلاً عنهُ سبحانَهُ؟! فلو ٱلْتَزَمْتُمْ كلَّ إلزامٍ يَلْزَمُ مسمَّى[1] الحسنِ والقبحِ العقليَّينِ؛ لَكانَ أسهلَ مِن ٱلتزامِ هٰذا الإدِّ[2] الذي تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ منهُ وتَنْشَقُّ الأَرضُ وتَخِرُّ الجبالُ هدًّا!

ولا نسبةَ في القبحِ بينَ الولدِ والشَّريكِ والزَّوجةِ وبينَ الكذبِ. ولهٰذا فَطَرَ اللهُ عقولَ عبادِهِ على الإزراءِ والذَّمِّ والمقتِ للكاذبِ دونَ مَن لهُ زوجةٌ وولدٌ وشريكٌ، فتنزُّهُ أصدقِ الصَّادقينَ عن هٰذا القبيحِ كتنزُّهِهِ عنِ الولدِ والزَّوجةِ والشَّريكِ. بل لا يُعْرَفُ أحدٌ مِن طوائفِ العالمِ جَوَّزَ الكذبَ على اللهِ؛ لِما فَطَرَ اللهُ عقولَ البشرِ وغيرِهِم على قبحِهِ ومقتِ فاعلِهِ وخسَّتِهِ ودناءتِهِ، ونَسَبَ طوائفُ[3] المشركينَ الشَّريكَ والولدَ إليهِ لَمَّا لَمْ يَكُنْ قبحُهُ عندَهُم كقبحِ الكذبِ.

وكَفى بمذهبٍ بطلانًا وفسادًا هٰذا القولُ العظيمُ والإفكُ المبينُ لازمُهُ! ومعَ هٰذا؛ فأهلُهُ لا يَتحاشَوْنَ مِنِ ٱلتزامِهِ! فلوِ ٱلْتَزَمَ القائلُ أيَّ مذهبٍ ٱلْتَزَمَ كانَ خيرًا لهُ مِن هٰذا[4].

ونحنُ نَسْتَغْفِرُ اللهَ مِن التَّقصيرِ في ردِّ هٰذا المذهبِ القبيحِ، ولٰكنَّ ظهورَ قبحِهِ للعقولِ والفطرِ أقوى شاهدٍ على ردِّهِ وإبطالِهِ، ولقد كانَ كافيَنا مِن ردِّهِ نفسُ تصويرِهِ وعرضِهِ على عقولِ النَّاسِ وفطرِهِم.

فلْيَتَأَمَّلِ اللبيبُ الفاضلُ ماذا يَعودُ إليهِ نصرُ المقالاتِ والتَّعصُّبُ لها وٱلتزامُ لوازمِها وإحسانُ الظَّنِّ بأربابِها بحيثُ يَرى مساوئَهُم محاسنَ وإساءةُ الظَّنِّ بخصومِهِم

---

(١) في ط: «كلّ إلزام بلزوم مسمّى»! وهو تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.
(٢) الإدّ: الأمر العظيم.
(٣) في ط: «ونسبة طوائف»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.
(٤) في ط: «القائل أن يذهب الذمّ كان خيرًا له من هٰذا»! وهٰذا تحريف لا معنى له صوابه ما أثبتّه.

بحيثُ يَرى محاسنَهُم مساوئَ! كَمْ أَفْسَدَ هٰذا السُّلوكُ مِن فطرةٍ وصاحبُها مِن الذينَ يَحْسَبونَ أَنَّهُم على شيءٍ ألا إنَّهُم همُ الكاذبونَ!

ولا يُتَعَجَّبُ مِن هٰذا؛ فإنَّ مرآةَ القلبِ لا يَزالُ [الهوى][1] يَتَنَفَّسُ فيها حتَّى يَسْتَحْكِمَ صَدَؤُها[2]، فليسَ ببدعٍ لها أنْ تَرى الأشياءَ على خلافِ ما هيَ عليهِ! فمبدأُ الهدى والفلاحِ صقالُ تلكَ المرآةِ ومنعُ الهوى مِن التَّنفُّسِ فيها وفتحُ عينِ البصيرةِ في أقوالِ مَن يُسيءُ الظَّنَّ بهِم كما يَفْتَحُها في أقوالِ مَن يُحَسِّنُ الظَّنَّ بهِ وقيامُكَ للهِ وشهادتُكَ بالقسطِ وأنْ لا يَحْمِلَكَ بغضُ منازعيكَ وخصومِكَ على جحدِ دينِهِم وتقبيحِ محاسنِهِم وتركِ العدلِ فيهِم؛ فإنَّ اللهَ لا يَعْتَدُّ بتعبِ مَن هٰذا شأْنُهُ، ولا يُجْدي علمُهُ نفعًا[3] أحوجَ ما يَكونُ إليهِ، واللهُ يُحِبُّ المقسطينَ ولا يُحِبُّ الظَّالمينَ.

● **الوجهُ الثَّالثُ والثَّلاثونَ**: قولُكُم: «إنَّ مستندَ الحكمِ بقبحِ الكذبِ غائبًا [قياسُ الغائبِ][4] على الشَّاهدِ، وهو فاسدٌ»!

فيُقالُ: الرَّبُّ تَعالى لا يَدْخُلُ معَ خلقِهِ في قياسِ تمثيلٍ ولا قياسِ شمولٍ يَسْتَوي أفرادُهُ، فهٰذانِ النَّوعانِ مِن القياسِ يَسْتَحيلُ ثبوتُهُما في حقِّهِ. وأمَّا قياسُ الأَولى؛ فهوَ غيرُ مستحيلٍ في حقِّهِ[5]، بل هوَ واجبٌ لهُ، وهوَ مستعملٌ في حقِّهِ عقلاً ونقلاً:

---

(١) ساقطة من ط، ولا بدّ منها ليستقيم السياق.

(٢) في ط: «يستحكم صداؤها»! والصواب ما أثبتّه.

(٣) كذا، وهو حسن، وفي القلب أنّه محرّف عن «ولا يجدي عمله نفعًا»، والله أعلم.

(٤) ساقطة من ط، ولا بدّ منها ليستقيم السياق، وقد دلّ عليها ما تقدّم (٢/ ٣٦٥).

(٥) أمّا قياس التمثيل؛ فكالنصّ الذي جاء في ترك الحائض الصلاة أيّام حيضها؛ فقد اتّفق أهل العلم على أنّ النفساء مثل الحائض في هٰذا وألحقوها بها. فمثل هٰذا القياس لا يليق بالله سبحانه وتعالى لأنّه ليس كمثله شيء حتّى يُقاس عليه قياسًا صحيحًا.

وأمّا قياس الشمول الذي يستوي أفراده؛ فكأن يقال في قضيّة ما: ما يحلّ لزيد هنا يحلّ لعمرو لاستوائهما وشمول الحكم لهما. فمثل هٰذا القياس لا يليق به تعالى لأنّه لا يستوي مع خلقه في شيء حتّى يُلحق بهم في الحكم.

وأمّا قياس الأولى؛ فكأن يقال: قد نهى تعالى عن إيذاء الأبوين بالتأفّف فالنهي عن إيذائهما بالضرب من باب الأولى. فمثل هٰذا القياس قد يصحّ في حقّه تعالى، كأن يقال: من طرق باب الكريم أجابه وأكرمه وأعطاه، والله أولى بإجابة من طرق بابه وإكرامه وإعطائه...

أمَّا العقلُ؛ فكاستدلالِنا على أنَّ معطيَ الكمالِ أحقُّ بالكمالِ، فمَن جَعَلَ غيرَهُ سميعًا بصيرًا عالمًا متكلِّمًا حيًّا حكيمًا قادرًا مريدًا رحيمًا محسنًا فهوَ أولى بذٰلكَ وأحقُّ بهِ[1]، ويَثْبُتُ لهُ مِن هٰذهِ الصِّفاتِ أكملُها وأتمُّها. وهٰذا مقتضى قولِهِم: كمالُ المعلولِ مستفادٌ مِن كمالِ علَّتِهِ. ولٰكنْ نحنُ نُنَزِّهُ اللهَ عَزَّ وجَلَّ عن إطلاقِ هٰذهِ العبارةِ في حقِّهِ بل نَقولُ: كلُّ كمالٍ ثَبَتَ للمخلوقِ غيرِ مستلزمٍ للنَّقصِ فخالقُهُ ومعطيهِ إيَّاهُ أحقُّ بالاتِّصافِ بهِ، وكلُّ نقصٍ في المخلوقِ فالخالقُ أحقُّ بالتَّنزُّهِ عنهُ كالكذبِ والظُّلمِ والسَّفهِ والعيبِ، بل يَجِبُ تنزيهُ الرَّبِّ تَعالى عنِ النَّقائصِ والعيوبِ مطلقًا وإنْ لمْ يَتَنَزَّهْ عنها بعضُ المخلوقينَ. وكذٰلكَ إذا ٱسْتَدْلَلْنا على حكمتِهِ تَعالى بهٰذهِ الطَّرائقِ نحوَ أنْ يُقالَ: إذا كانَ الفاعلُ الحكيمُ الذي لا يَفْعَلُ فعلاً إلَّا لحكمةٍ وغايةٍ مطلوبةٍ لهُ مِن فعلِهِ أكملَ مِمَّن يَفْعَلُ لا لغايةٍ ولا لحكمةٍ ولا لأجلِ عاقبةٍ محمودةٍ هيَ[2] مطلوبةٌ مِن فعلِهِ في الشَّاهدِ؛ ففي حقِّهِ تَعالى أولى وأحرى، فإذا كانَ الفعلُ للحكمةِ كمالاً فينا؛ فالرَّبُّ تَعالى أولى بهِ وأحقُّ، وكذٰلكَ إذا كانَ التَّنزُّهُ عنِ الظُّلمِ والكذبِ كمالاً في حقِّنا؛ فالرَّبُّ تَعالى أولى وأحقُّ بالتَّنزُّهِ عنهُ.

وبهٰذا ونحوِهِ ضَرَبَ اللهُ الأمثالَ في القرآنِ وذَكَّرَ العقولَ ونَبَّهَها وأرْشَدَها إلى ذٰلكَ[3]:

كقولِهِ: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً﴾ [الزمر: ٢٩]: فهٰذا مثلٌ ضَرَبَهُ يَتَضَمَّنُ قياسَ الأَولى؛ يَعْني: إذا كانَ المملوكُ فيكُم لهُ ملَّاكٌ مشتركونَ فيهِ وهُم متنازعونَ ومملوكٌ آخرُ لهُ مالكٌ واحدٌ؛ فهل يَكونُ هٰذا وهٰذا سواءً؟ فإذا كانَ هٰذا ليسَ عندَكُم كمَن لهُ ربٌّ واحدٌ ومالكٌ واحدٌ؛ فكيفَ تَرْضَوْنَ أنْ تَجْعَلوا لأنفسِكُم آلهةً متعدِّدةً تَجْعَلونَها شركاءَ للهِ تُحِبُّونَها كما تُحِبُّونَهُ

---

(١) في ط: «فهو أولى لذٰلك وأحقّ منه»! وفيه تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) في ط: «محمودة وهي»! والأولى حذف الواو.

(٣) إلى هنا انتهى يرحمه الله من تقرير وجوب قياس الأولى في حقّه تعالى من جهة العقل وبدأ بعد هٰذا بإيراد الأدلّة النقليّة عليه.

وتَخافونَها كما تَخافونَهُ وتَرْجونَها كما تَرْجونَهُ؟!

وكقولِهِ تَعالى: ﴿وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]؛ يَعْني: أنَّ أحدَكُم لا يَرْضى أنْ يَكونَ لهُ بنتٌ، فكيفَ تَجْعَلونَ للهِ ما لا تَرْضَوْنَهُ لأنفسِكُم؟!

وكقولِهِ: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلوكًا لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوونَ الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمونَ . وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ [النحل: ٧٥-٧٦]؛ يَعْني: إذا كانَ لا يَسْتَوي عندَكُم عبدٌ مملوكٌ لا يَقْدِرُ على شيءٍ وغنيٌّ موسَّعٌ عليهِ يُنْفِقُ ممَّا رَزَقَهُ اللهُ؛ فكيفَ تَجْعَلونَ الصَّنمَ الذي هوَ أسوأُ حالاً مِن هٰذا العبدِ شريكًا للهِ؟! وكذٰلكَ إذا كانَ لا يَسْتَوي عندَكُم رجلانِ أحدُهُما أبكمُ لا يَعْقِلُ ولا يَنْطِقُ وهوَ معَ ذٰلكَ عاجزٌ لا يَقْدِرُ على شيءٍ وآخرُ على طريقٍ مستقيمٍ في أقوالِهِ وأفعالِهِ وهوَ آمرٌ بالعدلِ عاملٌ بهِ لأنَّهُ على صراطٍ مستقيمٍ؛ فكيفَ تُسَوُّونَ بينَ اللهِ وبينَ الصَّنمِ في العبادةِ؟!

ونظائرُ ذٰلكَ كثيرةٌ في القرآنِ وفي الحديثِ كقولِهِ في حديثِ الحارثِ الأشْعَرِيِّ: «وإنَّ اللهَ أمَرَكُم أنْ تَعْبُدوهُ ولا تُشْرِكوا بهِ شيئًا، وإنَّ مَثَلَ مَن أشْرَكَ كمَثَلِ رجلٍ ٱشْتَرى عبدًا مِن خالصِ مالِهِ وقالَ لهُ: ٱعْمَلْ وأدِّ إليَّ، فكانَ يَعْمَلُ ويُؤَدِّي إلى غيرِهِ؛ فأيُّكُم يُحِبُّ أنْ يَكونَ عبدُهُ كذٰلكَ؟»[1].

---

(١) (صحيح). قطعة من حديث الكلمات التي أُمر يحيى ﷺ أن يبلّغها بني إسرائيل.

رواه معمر في «الجامع» (٢٠٧٠٩) عن يحيى بن أبي كثير بلاغًا. ووصله: الطيالسي (١١٦١ و١١٦٢)، وابن سعد (٤/ ٤٩٤)، وأحمد (٤/ ١٣٠ و٢٠٢)، والبخاري في «التاريخ» (٢/ ٢٦٠)، والترمذي (٤٥ـ الأمثال، ٣ـ مثل الصلاة والصيام، ٥/ ١٤٨/ ٢٨٦٣ و٢٨٦٤)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (١٠٣٦)، والبزّار (٦٩٥)، وابن نصر في «الصلاة» (١٢٤-١٢٧)، والنسائي في «الكبرى» (٣٢٧٤ـ تحفة)، وأبو يعلى (١٥٧١)، وابن خزيمة (٤٨٣ و٩٣٠ و١٨٩٥)، وابن قانع في «المعجم» (١/ ١٦٧)، وابن حبّان (٦٢٣٣)، والطبراني (٣/ ٢٨٥/ ٣٤٢٧-٣٤٣١)، ابن منده في «الإيمان» (٢١٢)، والحاكم (١/ ١١٧ و١١٨ و٢٣٦ و٤٢١)، والبيهقي في «السنن» (٨/ ١٥٧)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢١/ ٢٧٩)، وابن عساكر في «التاريخ» =

فاللهُ سبحانَهُ لا تُضْرَبُ [لهُ][1] الأمثالُ التي يَشْتَرِكُ هوَ وخلقُهُ فيها لا شمولاً ولا تمثيلاً، وإنَّما يُسْتَعْمَلُ في حقِّهِ قياسُ الأَولى كما تَقَدَّمَ.

● **الوجهُ الرَّابعُ والثَّلاثونَ:** أنَّ النُّفاةَ إنَّما رَدُّوا على خصومِهِم مِن الجَهْمِيَّةِ المُعْتَزِلَةِ في إنكارِ الصِّفاتِ بقياسِ الغائبِ على الشَّاهدِ. فقالوا[2]: العالِمُ شاهدًا مَن لهُ العلمُ[3] والمتكلِّمُ مَن قامَ بهِ الكلامُ والحيُّ والمريدُ والقادرُ مَن قامَ بهِ الحياةُ والإرادةُ والقدرةُ ولا يُعْقَلُ إلَّا هٰذا. قالوا: ولأنَّ شرطَ إطلاقِ الاسمِ شاهدًا وجودُ هٰذهِ الصِّفاتِ، ولا يَسْتَحِقُّ الاسمَ في الشَّاهدِ إلَّا مَن قامَتْ بهِ؛ فكذٰلكَ في الغائبِ. قالوا: ولأنَّ شرطَ العلمِ والقدرةِ والإرادةِ في الشَّاهدِ الحياةُ؛ فكذٰلكَ في الغائبِ. قالوا: ولأنَّ علمَ كونِ العالِمِ عالمًا شاهدًا وجودُ العلمِ وقيامُهُ بهِ؛ فكذٰلكَ في الغائبِ.

فقالوا بقياسِ الغائبِ على الشَّاهدِ في العلَّةِ والشَّرطِ والاسمِ والحدِّ، فقالوا: حدُّ العالِمِ شاهدًا مَن قامَ بهِ العلمُ فكذٰلكَ غائبًا، وشرطُ صحَّةِ إطلاقِ الاسمِ عليهِ شاهدًا قيامُ العلمِ بهِ فكذٰلكَ غائبًا، وعلَّةُ كونِهِ[4] عالمًا شاهدًا قيامُ العلمِ بهِ فكذٰلكَ غائبًا.

فكيفَ تُنْكِرونَ هُنا قياسَ الغائبِ على الشَّاهدِ وتَحْتَجُّونَ بهِ في مواضعَ أُخرى[5]؟!

= (٦٤/ ١٨٤-١٨٦)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (١/ ٣٨٣)، والمزّي في «التهذيب» (٥/ ٢١٧)؛ من طرق، عن يحيى بن أبي كثير تارة وعن معاوية بن سلام تارة أخرى، كلاهما عن زيد بن سلام، عن أبي سلام ممطور، عن الحارث الأشعري. . . رفعه. وهٰذا سند صحيح. وقد أغمض الشيخان عن عنعنة ابن أبي كثير فخرّجاها في مواضع، على أنّه صرّح بالتحديث عند أبي يعلى وابن حبّان وتوبع كما ترى.

وله شاهد من حديث علي عند: عبدالرزّاق (٥١٤١)، والبزّار (٢١٧ مختصر الزوائد). وآخر من حديث ابن مسعود عند البيهقي في «الشعب» (٥٣٨).

والحديث؛ قال الترمذي في الموضعين: «حسن صحيح غريب». قال: «قال محمّد بن إسماعيل [يعني البخاري]: الحارث الأشعريّ له صحبة وله غير هٰذا الحديث». وصحّحه ابن خزيمة وابن حبّان والحاكم والذهبي والمنذري والألباني.

(١) كذا في ط إشارة إلى أنّها إضافة من المحقّق.

(٢) أي النفاة في ردّهم على المعتزلة.

(٣) في ط: «العالم شاهدُ مَن له العلم»! ولا بدّ من نصب «شاهدًا» ليستقيم المعنى، وستأتي على الجادّة مرارًا فيما يلي.

(٤) في ط: «غائبًا وعليه كونه»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه كما تقدّم قبل سطر واحد!

(٥) «فكيف تنكرون»: أيّها النفاة. «هنا»: في مسألة التحسين والتقبيح. «قياس الشاهد على =

وأيُّ تناقضٍ أكبرُ مِن هٰذا[١]؟!

فإنْ كانَ قياسُ الغائبِ على الشَّاهدِ باطلاً؛ بَطَلَ ٱحتجاجُكُم علينا بهِ في هٰذهِ المواضعِ. وإنْ كانَ صحيحًا؛ بَطَلَ ردُّكُم في هٰذا الموضعِ. فأمَّا أنْ يكونَ صحيحًا إذا ٱسْتَدْلَلْتُم بهِ باطلاً إذا ٱسْتَدَلَّ بهِ خصومُكُم؛ فهٰذا أقبحُ التَّطفيفِ، وقبحُهُ ثابتٌ بالعقلِ والشَّرعِ[٢].

● **الوجهُ الخامسُ والثَّلاثونَ**: قولُكُم: «إنَّ اللهَ خَلَّى بينَ العبادِ وظلمِ بعضِهِم بعضًا، وإنَّ ذٰلكَ ليسَ بقبيحٍ منهُ، وإنَّهُ قبيحٌ منَّا»[٣]! فذٰلكَ فاسدٌ على أصلِ التَّكليفِ!

فإنَّ التَّكليفَ إنَّما يَتِمُّ بإعطاءِ القدرةِ والاختيارِ، واللهُ تَعالى قد أَقْدَرَ عبادَهُ على الطَّاعاتِ والمعاصي والصَّلاحِ والفسادِ، وهٰذا الإقدارُ هوَ مناطُ الشَّرعِ والأمرِ والنَّهيِ، فلولاهُ لَمْ يَكُنْ شرعٌ ولا رسالةٌ ولا ثوابٌ ولا عقابٌ وكانَ النَّاسُ بمنزلةِ الجماداتِ والأشجارِ والنَّباتِ، فلو حالَ سبحانَهُ بينَ العبادِ وبينَ القدرةِ على المعاصي؛ لارْتَفَعَ الشَّرعُ والرِّسالةُ والتَّكليفُ وٱنْتَفَتْ فوائدُ البعثةِ ولَزِمَ مِن ذٰلكَ لوازمُ لا يُحِبُّها اللهُ وتَعَطَّلَتْ بهِ غاياتٌ محمودةٌ محبوبةٌ للهِ وهيَ ملزومةٌ لإقدارِ العبادِ وتمكينِهِم مِن الطَّاعةِ والمعصيةِ، ووجودُ الملزومِ بدونِ اللازمِ محالٌ. وقد نَبَّهْنا على شيءٍ يسيرٍ مِن الحكمِ المطلوبةِ والغاياتِ المحمودةِ فيما سَلَفَ مِن هٰذا الفصلِ وفي أوَّلِ الكتابِ[٤].

فلو أنَّ الرَّبَّ تَعالى خَلَقَ خلقَهُ ممنوعينَ مِن المعاصي غيرَ قادرينَ عليها بوجهٍ؛ لَمْ يَكُنْ لإرسالِ الرُّسلِ وإنزالِ الكتبِ والأمرِ والنَّهيِ والثَّوابِ والعقابِ سببٌ يَقْتَضيهِ ولا حكمةٌ تَسْتَدْعيهِ، وفي ذٰلكَ تعطيلُ الأمرِ جملةً، بل تعطيلُ الملكِ والحمدِ، والرَّبُّ

= الغائب»: قياس المولى سبحانه بعباده. «في مواضع أخرى»: منها مسألة الأسماء والصفات التي ٱحتججتم بها على المعتزلة في إثبات ما أثبتّموه من الصفات.

(١) في ط: «أكثر من هٰذا»! وهو تصحيف صوابه ما أثبتّه.

(٢) وهٰذه علّة عظيمة ما أقلّ الناجين منها وما أندرهم! يعيب أحدهم غيره بتقديس الرجال وهو مكبّ عليه باليدين وبالفم، يعيب غيره بالتقليد وهو غارق فيه! ففتّش نفسك يا طالب العلم وباغي الحقّ، فوالله؛ لهٰذا أحقّ ما تفتّش لأجله النفوس.

(٣) في ط: «فإنّه قبيح منّا»! والصواب ما أثبتّه.

(٤) ٱنظر ما تقدّم (١/ ٧٧، ٢/ ٣٢٦ وما بعدها).

تَعالى لهُ الخلقُ والأمرُ ولهُ الملكُ والحمدُ والغاياتُ المطلوبةُ والعواقبُ المحمودةُ التي لأجلِها أنْزَلَ كتبَهُ وأرْسَلَ رسلَهُ وشَرَعَ شرائعَهُ وخَلَقَ الجنَّةَ والنَّارَ ووَضَعَ الثَّوابَ والعقابَ، وذٰلكَ لا يَحْصُلُ إلاَّ بإقدارِ العبادِ على الخيرِ والشَّرِّ وتمكينِهِم مِن ذٰلكَ، فأعْطاهُمُ الأسبابَ والآلاتِ التي يَتَمَكَّنونَ بها مِن فعلِ هٰذا وهٰذا. فلهٰذا حَسُنَ منهُ تَبارَكَ وتَعالى التَّخليةُ بينَ عبادِهِ وبينَ ما هُم فاعِلوهُ وقَبُحَ مِن أحدِنا أنْ يُخَلِّيَ بينَ عبيدِهِ وبينَ الإفسادِ وهوَ قادرٌ على منعِهِم.

هٰذا؛ معَ أنَّهُ سبحانَهُ لمْ يُخَلِّ بينَهُم [وبينَهُ][1]، بل مَنَعَهُم منهُ وحَرَّمَهُ عليهِم ونَصَبَ لهُمُ العقوباتِ الدُّنيويَّةَ والأُخرويَّةَ على القبائحِ وأحَلَّ بهِم مِن بأْسِهِ وعذابِهِ وانْتقامِهِ[2] ما لا يَفْعَلُهُ السَّيِّدُ مِن المخلوقينَ بعبيدِهِ لِيَمْنَعَهُم ويَزْجُرَهُم.

فقولُكُم «إنَّهُ خَلَّى بينَ عبادِهِ وبينَ إفسادِ بعضِهِم بعضًا وظلمِ بعضِهِم بعضًا» كذبٌ عليهِ؛ فإنَّهُ لمْ يُخَلِّ بينَهُم [وبينَ ذٰلكَ][1] شرعًا ولا قدرًا، بل حالَ بينَهُم وبينَ ذٰلكَ شرعًا أتمَّ حيلولةٍ، ومَنَعَهُم قدرًا بحسبِ ما تَقْتَضيهِ حكمتُهُ الباهرةُ وعلمُهُ المحيطُ، وخَلَّى بينَهُم وبينَ ذٰلكَ بحسبِ ما تَقْتَضيهِ حكمتُهُ وشرعُهُ ودينُهُ، فمنعُهُ سبحانَهُ لهُم [و][1] حيلولتُهُ بينَهُم وبينَ الشَّرِّ أعظمُ مِن تخليتِهِ، والقدرُ الذي خَلاَّهُ بينَهُم مِن ذٰلكَ[3] هوَ ملزومُ أمرِهِ وشرعِهِ ودينِهِ، فالذي فَعَلَهُ في الطَّرفينِ غايةُ الحكمةِ والمصلحةِ، ولا نهايةَ فوقَهُ لاقتراحِ عقلٍ.

ولو خَلَّى بينَهُم كما زَعَمْتُم؛ لَكانوا بمنزلةِ الأنعامِ السَّائمةِ، بل لو تَرَكَهُم ودواعيَ طباعِهِم؛ لأهْلَكَ بعضُهُم بعضًا وخَرِبَ العالَمُ ومَن عليهِ، بل ألْجَمَهُم لجامَ العجزِ والمنعِ مِن كلِّ ما يُريدونَ، فلو أنَّهُ خَلَّى بينَهُم وبينَ ما يُريدونَ؛ لَفَسَدَتِ الخليقةُ، كما ألْجَمَهُم بلجامِ الشَّرعِ والأمرِ. ولو مَنَعَهُم جملةً ولمْ يُمَكِّنْهُم ولمْ يُقْدِرْهُم؛ لَتَعَطَّلَ الأمرُ والشَّرعُ جملةً، وانْتَفَتْ حكمةُ البعثةِ والإرسالِ والثَّوابِ والعقابِ. فأيُّ حكمةٍ فوقَ هٰذهِ

---

(١) ساقطة من ط، ولا بدّ منها لتمام السياق.

(٢) ورَوحه ورحمته ورضوانه إذا تركوا الفساد والإفساد وفعلوا عكسه من الصلاح والإصلاح.

(٣) في ط: «بينهم في ذٰلك»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

الحكمةِ؟! وأيُّ أمرٍ أحسنُ ممَّا فَعَلَهُ بهم؟!

ولو أعْطى النَّاسُ هٰذا المقامَ بعضَ حقِّهِ؛ لَعَلِموا أنَّهُ مقتضى الحكمةِ البالغةِ والقدرةِ التَّامَّةِ والعلمِ المحيطِ وأنَّهُ غايةُ الحكمةِ.

ومَن فُتِحَ لهُ فهمٌ في القرآنِ؛ رَآهُ مِن أوَّلِهِ إلى آخرِهِ يُنَبِّهُ العقولَ على هٰذا ويُرْشِدُها إليهِ ويَدُلُّها عليهِ، وأنَّهُ يَتَعالى ويَتَنَزَّهُ أنْ يكونَ هٰذا منهُ عبثًا أو سدًى أو باطلاً أو بغيرِ الحقِّ أو لا لمعنًى ولا لداعٍ وباعثٍ، وأنَّ مصدرَ ذاكَ جميعِهِ عن عزَّتِهِ وحكمتِهِ. ولهٰذا؛ كثيرًا ما يَقْرِنُ تَعالى بينَ هٰذينِ الاسمينِ «العزيزِ الحكيمِ» في آياتِ التَّشريعِ والتَّكوينِ والجزاءِ؛ لِيَدُلَّ عبادَهُ على أنَّ مصدرَ ذٰلكَ كلِّهِ عن حكمةٍ بالغةٍ وعزَّةٍ قاهرةٍ.

ففَهِمَ الموفَّقونَ عنِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مرادَهُ وحكمتَهُ، وانْتَهَوْا إلى ما وَقَفُوا عليهِ ووَصَلَتْ إليهِ أفهامُهُم وعلومُهُم، ورَدُّوا علمَ ما غابَ عنهُم إلى أحكمِ الحاكمينَ ومَن هوَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وتَحَقَّقوا بما عَلِموهُ[1] مِن حكمتِهِ التي بَهَرَتْ عقولَهُم أنَّ للهِ في كلِّ ما خَلَقَ وأمَرَ وأثابَ وعاقَبَ مِن الحكمِ البوالغِ ما تَقْصُرُ عقولُهُم عن إدراكِهِ، وأنَّهُ تَعالى هوَ الغنيُّ الحميدُ العليمُ الحكيمُ، فمصدرُ خلقِهِ وأمرِهِ وثوابِهِ وعقابِهِ غناهُ وحمدُهُ وعلمُهُ وحكمتُهُ، ليسَ مصدرُهُ مشيئةً مجرَّدةً وقدرةً خاليةً مِن الحكمةِ والرَّحمةِ والمصلحةِ والغاياتِ المحمودةِ المطلوبةِ لهُ خلقًا وأمرًا، وأنَّهُ سبحانَهُ لا يُسْأَلُ عمَّا يَفْعَلُ لكمالِ حكمتِهِ وعلمِهِ ووقوعِ أفعالِهِ كلِّها على أحسنِ الوجوهِ وأتمِّها على الصَّوابِ والسَّدادِ ومطابقةِ الحِكَمِ، والعبادُ يُسْألونَ إذْ لَيْسَتْ أفعالُهُم كذٰلكَ[2].

ولهٰذا قالَ خطيبُ الأنبياءِ شُعَيْبٌ[3] ﷺ: ﴿إنِّي تَوَكَّلْتُ عَلى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ [هود: ٥٦]: فأخْبَرَ عن

---

(١) في ط: «بما عملوه»! وهو تحريف أو غلط مطبعيّ.

(٢) وهٰذه لمحة دقيقة وقبس لطيف جدًّا من معاني قوله تعالى ﴿لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون﴾ بخلاف فهم الجبريّة وغيرهم من أهل الضلالة لهٰذه الآية الكريمة!

(٣) بل هود عليهما الصلاة والسلام. وقد أطال ابن القيّم يرحمه الله الكلام في هٰذه الآية وفصّل في معانيها في أكثر من كتاب، وجاءت كلّها بذكر هود عليه الصلاة والسلام، فكأنّ ما هنا سبق قلم أو وهم منه يرحمه الله أو من الناسخ. وانظر على سبيل المثال «مدارج السالكين» (١/ ٨٢ـ ط. ابن خزيمة).

عمومِ قدرتِه تَعالى، وأنَّ الخلقَ كلَّهُم تحتَ تسخيرِهِ وقدرتِه، وأنَّهُ آخذٌ بنواصيهِم، فلا محيصَ لهُم عن نفوذِ مشيئتِهِ وقدرتِهِ فيهِم. ثمَّ عَقَّبَ ذٰلكَ بالإخبارِ عن تصرُّفِه فيهِم وأنَّهُ بالعدلِ لا بالظُّلمِ وبالإحسانِ لا بالإساءةِ وبالصَّلاحِ لا بالفسادِ: فهوَ يَأْمُرُهُم وينْهاهُم إحسانًا إليهِم وحمايةً وصيانةً لهُم، لا حاجةً[١] إليهِم ولا بخلاً عليهِم، بل جودًا وكرمًا ولطفًا وبرًّا. ويُثيبُهُم إحسانًا وتفضُّلاً ورحمةً، لا لمعاوضةٍ وٱستحقاقٍ منهُم ودَيْنٍ واجبٍ لهُم يَسْتَحِقُّونَهُ عليهِ. ويُعاقِبُهُم عدلاً وحكمةً لا تشفِّيًا ولا مخافةً ولا ظلمًا كما يُعاقِبُ الملوكُ وغيرُهُم. بل هوَ على الصِّراطِ المستقيمِ، وهوَ صراطُ العدلِ والإحسانِ، في أمرِهِ ونهيِهِ وثوابِهِ وعقابِهِ.

فتَأَمَّلْ ألفاظَ هٰذهِ الآيةِ وما جَمَعَتْهُ مِن عمومِ القدرةِ وكمالِ الملكِ ومِن تمامِ الحكمةِ والعدلِ والإحسانِ وما تَضَمَّنَتْهُ مِن الرَّدِّ على الطَّائفتينِ؛ فإنَّها مِن كنوزِ القرآنِ، ولقد كَفَتْ وشَفَتْ لمَن فُتِحَ عليهِ بفهمِها: فكونُهُ تَعالى على صراطٍ مستقيمٍ: يَنْفي ظلمَهُ للعبادِ وتكليفَهُ إيَّاهُم ما لا يُطيقونَ، ويَنْفي العيبَ مِن أفعالِهِ وشرعِهِ، ويُثْبِتُ لها غايةَ الحكمةِ والسَّدادِ ردًّا على منكري ذٰلكَ. وكونُ كلِّ دابَّةٍ تحتَ قبضتِهِ وقدرتِهِ وهوَ آخذٌ بناصيتِها: يَنْفي أنْ يَقَعَ في ملكِهِ مِن أحدٍ مِن المخلوقاتِ شيءٌ بغيرِ مشيئتِهِ وقدرتِهِ، وأنَّ مَن ناصيتُهُ[٢] بيدِ اللهِ وفي قبضتِهِ لا يُمْكِنُهُ أنْ يَتَحَرَّكَ إلاَّ بتحريكِهِ ولا يَفْعَلَ إلاَّ بإقدارِهِ ولا يَشاءَ إلاَّ بمشيئتِهِ تَعالى؛ ردًّا على مُنْكِري ذٰلكَ مِن القَدَرِيَّةِ. فالطَّائفتانِ ما وَفَّتا الآيةَ[٣] معناها ولا قَدَروها[٤] حقَّ قدرِها.

فهوَ سبحانَهُ على صراطٍ مستقيمٍ في عطائِهِ ومنعِهِ وهدايتِهِ وإضلالِهِ وفي نفعِهِ وضرِّهِ وعافيتِهِ وبلائِهِ وإغنائِهِ وإفقارِهِ[٥] وإعزازِهِ وإذلالِهِ وإنعامِهِ وٱنتقامِهِ وثوابِهِ وعقابِهِ وإحيائِهِ وإماتتِهِ وأمرِهِ ونهيِهِ وتحليلِهِ وتحريمِهِ وفي كلِّ ما يَخْلُقُ وكلِّ ما يَأْمُرُ بهِ. وهٰذهِ

---

(١) في ط: «ولا حاجة»! ولا حاجة للواو، ولعلّها غلط مطبعيّ.
(٢) يعني: ويقرّر أنّ من ناصيته... إلخ.
(٣) في ط: «ما وفيا الآية»! والصواب ما أثبتّه.
(٤) تحوّل من المثنّى إلى الجمع على تقدير أتباع الطائفتين والقائلين بقولهما.
(٥) في ط: «وإغناه وإفقاره»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

المعرفةُ باللهِ لا تكونُ إلاَّ للأنبياءِ ولورثتِهِم.

ونظيرُ هٰذهِ الآيةِ قولُهُ تَعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ [النحل: ٧٦]: فالمثلُ الأوَّلُ للصَّنمِ وعابديهِ، والمثلُ الثَّاني ضَرَبَهُ اللهُ تَعالى لنفسِهِ وأنَّهُ يَأْمُرُ بالعدلِ وهوَ على صراطٍ مستقيمٍ، فكيفَ يُسَوَّى بينَهُ وبينَ الصَّنمِ الذي لهُ مثلُ السَّوءِ؟!

فما فَعَلَهُ الرَّبُّ تَبارَكَ وتَعالى معَ عبادِهِ هوَ غايةُ الحكمةِ والإحسانِ والعدلِ في إقدارِهِم وإعطائِهِم ومنعِهِم وأمرِهِم ونهيِهِم، فدعوى المدَّعي أنَّ هٰذا نظيرُ تخليةِ السَّيِّدِ بينَ عبيدِهِ وإمائِهِ يَفْجُرُ بعضُهُم ببعضٍ ويُسيءُ بعضُهُم بعضًا أكذبُ دعوى وأبطلُها، والفرقُ بينَهُما أظهرُ وأعظمُ مِن أنْ يُحْتاجَ إلى ذكرِهِ والتَّنبيهِ عليهِ[1].

والحمدُ للهِ الغنيِّ الحميدِ، فغناهُ التَّامُّ قارَنَ حمدَهُ[2] وملكَهُ وعزَّتَهُ وحكمتَهُ وعلمَهُ وإحسانَهُ وعدلَهُ ودينَهُ وشرعَهُ وحكمَهُ وكرمَهُ ومحبَّتَهُ للمغفرةِ والعفوِ عنِ الجناةِ والصَّفحِ عنِ المسيئينَ وتوبةِ التَّائبينَ وصبرِ الصَّابرينَ وشكرِ الشَّاكرينَ الذينَ يُؤْثِرونَهُ على غيرِهِ ويَتَطَلَّبونَ مراضيَهُ ويَعْبُدونَهُ وحدَهُ ويَسيرونَ في عبيدِهِ بسيرةِ العدلِ والإحسانِ والنَّصائحِ ويُجاهِدونَ أعداءَهُ فيَبْذُلونَ دماءَهُم وأموالَهُم في محبَّتِهِ ومرضاتِهِ فيَتَمَيَّزُ الخبيثُ مِن الطَّيِّبِ ووليُّهُ مِن عدوِّهِ وتَخْرُجُ[3] طيِّباتُ هٰؤلاءِ وخبائثُ أُولٰئِكَ إلى الخارجِ فيَتَرَتَّبُ عليها آثارُها المحبوبةُ للرَّبِّ تَعالى مِن الثَّوابِ والعقابِ والحمدِ لأوليائِهِ والذَّمِّ لأعدائِهِ.

وقد نَبَّهَ تَعالى على هٰذهِ الحكمةِ في كتابِهِ في غيرِ موضعٍ، كقولِهِ تَعالى: ﴿ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَميزَ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ

---

(١) إي والله، فقاتلهم الله ما أخسّ دعواهم وأحطّها وأكذبها، وقاتل الله التعصّب للمقالات كيف يجرّ أصحابه إلى مخاز يتنزّه عنها صغار طلاّب العلم!

(٢) في ط: «فغناه التامّ فارق وحمده»! وهٰذا تحريف لا معنى له، أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٣) في ط: «ويخرج»، والأولى ما أثبتّه.

عَلى الغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَجْتَبي مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. وهٰذهِ الآيةُ مِن كنوزِ القرآنِ، نبَّهَ فيها على حكمتِهِ تَعالى المقتضيةِ تمييزَ الخبيثِ مِن الطَّيِّبِ، وأنَّ ذٰلكَ التَّمييزَ لا يَقَعُ إلَّا برسلِهِ، فاَجْتَبى منهُم مَن شاءَ وأرْسَلَهُ إلى عبادِهِ، فتَمَيَّزَ[١] برسالتِهِم الخبيثُ مِن الطَّيِّبِ والوليُّ مِن العدوِّ ومَن يَصْلُحُ لمجاورتِهِ وقربِهِ وكرامتِهِ ممَّن لا يَصْلُحُ إلَّا للوقودِ. وفي هٰذا تنبيهٌ على الحكمةِ في إرسالِ الرُّسلِ وأنَّهُ لا بدَّ منهُ، وأنَّ اللهَ تَعالى لا يَليقُ بِهِ الإخلالُ بهِ، وأنَّ مَن جَحَدَ رسالةَ رسلِهِ فما قَدَرَهُ حقَّ قدرِهِ ولا عَرَفَهُ حقَّ معرفتِهِ ونَسَبَهُ إلى ما لا يَليقُ بهِ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إذْ قالوا ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

فتَأَمَّلْ هٰذا الموضعَ حقَّ التَّأمُّلِ، وأعْطِهِ حظَّهُ مِن الفكرِ، فلو لمْ يَكُنْ في هٰذا الكتابِ سواهُ؛ لَكانَ مِن أجلِّ ما يُسْتَفادُ[٢]. واللهُ الهادي إلى سبيلِ الرَّشادِ.

● **الوجهُ السَّادسُ والثَّلاثونَ**: قولُكُم: «إنَّ الإغراقَ والإهلاكَ يَحْسُنُ منهُ تَعالى، وهوَ أقبحُ شيءٍ منَّا، فكيفَ يَدَّعونَ حسنَ إنقاذِ الغرقى عقلاً...» إلى آخرِهِ! كلامٌ فاسدٌ جدًّا؛ فإنَّ الإغراقَ والإهلاكَ مِن الرَّبِّ تَعالى لا يَخْرُجُ قطُّ عنِ المصلحةِ والعدلِ والحكمةِ:

فإنَّهُ إذا أغْرَقَ أعداءَهُ وأهْلَكَهُم وانْتَقَمَ منهُم؛ كانَ هٰذا غايةَ الحكمةِ والعدلِ والمصلحةِ.

وإنْ أغْرَقَ أولياءَهُ وأهلَ طاعتِهِ؛ فهوَ سببٌ مِن الأسبابِ التي نَصَبَها لموتِهِم وتخليصِهِم مِن الدُّنيا والوصولِ إلى دارِ كرامتِهِ ومحلِّ قربِهِ، ولا بدَّ مِن موتٍ على كلِّ حالٍ، فاخْتارَ لهُم أكملَ الموتتينِ وأنفعَهُما لهُم[٣] في معادِهِم؛ لِيُوصِلَهُم إلى درجاتٍ عاليةٍ لا تُنالُ إلَّا بتلكَ الأسبابِ التي نَصَبَها اللهُ موصلةً لها كإيصالِ[٤] سائرِ الأسبابِ إلى

---

(١) في ط: «فيتميّز»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) إي والله، وقد أبدع ابن القيّم في هٰذه القضيّة غاية الإبداع وأتى فيها بما لم يأت به غيره فيما أعلم، فكشف عن قلوبنا شبهات أهل الكلام التي ما زالت تأتينا من هنا وهناك وأحرقها فما أبقى لها أثرًا.

(٣) في ط: «وأنفعها لهم»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) في ط: «نصبها الله موصلها كإيصال»! وهٰذا تحريف لا معنى له، وكأنّ الكلمتين المثبتتين تراكبتا والتصقتا فوقع المحظور.

مسبَّباتِها.

ولهٰذا سَلَّطَ على أنبيائِهِ وأوليائِهِ ما سَلَّطَ عليهم مِن القتلِ وأذى النَّاسِ وظلمِهِم لهُم وعدوانِهِم عليهِم، وما ذاكَ لهوانِهِم عليهِ ولا لكرامةِ أعدائِهِم عليهِ، بل ذاكَ عينُ كرامتِهِم وهوانِ أعدائِهِم عليهِ وسقوطِهِم مِن عينِهِ؛ لِيَنالوا بذٰلكَ ما خُلِقوا لهُ مِن مساكنِتِهِم في دارِ الهوانِ، ويَنالَ أولياؤُهُ وحزبُهُ ما هُيِّئَ لهُم مِن الدَّرجاتِ العلى والنَّعيمِ المقيمِ، فكانَ تسليطُ أعدائِهِ وأعدائِهِم عليهِم عينَ كرامتِهِم وعينَ إهانةِ أعدائِهِم. فهٰذا مِن بعضِ حِكمِهِ تَعالى في ذٰلكَ، ووراءَ ذٰلكَ مِن الحِكمِ ما لا تَبْلُغُهُ العقولُ والأفهامُ.

و[مِن هُنا][(١)] كانَ إغراقُهُ وإهلاكُهُ وٱبتلاؤُهُ محضَ الحكمةِ والعدلِ في حقِّ أعدائِهِ ومحضَ الإحسانِ والفضلِ والرَّحمةِ في حقِّ أوليائِهِ، فلهٰذا حَسُنَ منهُ.

ولعلَّ الإغراقَ وتسليطَ القتلِ عليهِم أسهلُ الموتتينِ عليهِم[(٢)] معَ ما في ضمنِهِ مِن الثَّوابِ العظيمِ، فيَكونُ قد بَلَغَ حسنُ ٱختيارِهِ لهُم إلى أنْ خَفَّفَ عليهِمُ الموتةَ وأعاضَهُم عليها أفضلَ الثَّوابِ؛ فإنَّهُ لا يَجدُ الشَّهيدُ مِن ألمِ القتلِ إلاَّ كمسِّ القرصةِ[(٣)]،

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ ماتَ بِغَيْرِهِ ... تَنَوَّعَتِ الأَسْبابُ وَالمَوْتُ واحِدُ

فليسَ إماتةُ أوليائِهِ شهداءَ بيدِ أعدائِهِ إهانةً لهُم ولا غضبًا عليهِم، بل كرامةً ورحمةً وإحسانًا ولطفًا، وكذٰلكَ الغرقُ والحرقُ والرَّدمُ والتَّردِّي والبطنُ[(٤)] وغيرُ ذٰلكَ. والمخلوقُ ليسَ بهٰذهِ المثابةِ، فلهٰذا قَبُحَ منهُ الإغراقُ والإهلاكُ وحَسُنَ مِن اللطيفِ الخبيرِ.

● **الوجهُ السَّابعُ والثَّلاثونَ**: قولُكُم: «إذا كانَ للهِ في إغراقِهِ وإهلاكِهِ سبحانَهُ حكمةٌ وسرٌّ لا نَطَّلعُ عليهِ نحنُ؛ فقدِّروا مثلَهُ[(٥)] في تركِ إنقاذِنا الغرقى[(٦)]»! كلامٌ تُغني

---

(١) زيادة مفيدة لاتّصال الكلام وتتابعه.

(٢) وكم من ميّت على فراشه عانى الأمرّين قبل أن يموت! ولقد سمعت فيهم من يقول: لو كان الموت يباع ويشترى؛ لاشتريته بحرّ مالي.

(٣) كما ثبت في الحديث الصحيح.

(٤) يعني: وداء البطن. والميّت بهٰذه المذكورات شهيد كما ثبت في الحديث الصحيح.

(٥) في ط: «نحن فقد رأوا مثله»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٦) وترك الإيمان بالرسل ونصرهم والدعوة إلى الإسلام، وعبادة الجانّ والشياطين والأصنام وقتال أهل الحقّ والدين وأولياء الله... وكثير ممّا يشبه هٰذا من الموبقات ولا فرق! فتأمّل وتعجّب كيف تصدر هٰذه=

ركَّتُهُ وفسادُهُ عن تكلُّفِ ردِّهِ!

وهل يَجوزُ أنْ يُقالَ: إذا كانَ للهِ الحكمةُ البالغةُ والأسرارُ العظيمةُ في إهلاكِ مَن يُهْلِكُهُ وٱبتلاءِ مَن يَبْتَليهِ ولهٰذا حَسُنَ منهُ ذٰلكَ؛ فيَلْزَمُ مِن هٰذا أنْ يُقالَ: يَجوزُ أنْ يَكونَ في تركِنا إنجاءَ الغرقى ونصرَ المظلومِ وسَدَّ الخَلَّةِ وسترَ العورةِ حِكمًا وأسرارًا لا يَعْلَمُها العقلاءُ؟!

والمناكدةُ في البحوثِ إذا وَصَلَتْ إلى هٰذا الحدِّ؛ سَمُجَتْ وثَقُلَتْ على النُّفوسِ ومَجَّتْها القلوبُ والأسماعُ[1].

● **الوجهُ الثَّامنُ والثَّلاثونَ**: قولُكُم: «الفعلانِ مِن حيثُ الصِّفاتُ النَّفسيَّةُ واحدٌ[2]؛ فكيفَ يَقْبُحُ أحدُهُما مِن فاعلٍ ويَحْسُنُ الآخرُ»؟! فبمنزلةِ أنْ يُقالَ: السُّجودُ للهِ والسُّجودُ للصَّنمِ واحدٌ مِن حيثُ الصِّفاتُ النَّفسيَّةُ؛ فكيفَ يَقْبُحُ أحدُهُما ويَحْسُنُ الآخرُ؟! وهل في الباطلِ أبطلُ مِن هٰذا الوهمِ؟! فما جَعَلَ اللهُ ذٰلكَ واحدًا أصلًا! وليسَ إماتةُ اللهِ لعبدِهِ مثلَ قتلِ المخلوقِ لهُ، ولا إجاعتُهُ وإعراؤُهُ وٱبتلاؤُهُ مساويًا في الصِّفاتِ النَّفسيَّةِ لفعلِ المخلوقِ بالمخلوقِ ذٰلكَ! ودعوى التَّساوي كذبٌ وباطلٌ؛ فلا أعظمَ مِن التَّفاوتِ بينَهُما! وهل يَتَساوى في العقلِ والفطرةِ فعلُ اللهِ وفعلُ المخلوقِ؟! فيا للهِ العجبُ! إنْ تَناوَلَهُما ٱسمُ الفعلِ المشترَكِ؛ صارا سواءً في الصِّفاتِ النَّفسيَّةِ! أتُرى حَصَلَ لهُما هٰذا التَّساوي مِن جهةِ الفعلينِ؟! أو الذي[3] أوْجَبَ هٰذا الخيالَ الفاسدَ ٱتِّحادُ المحلِّ وتعلُّقُ الفعلينِ بهِ؟! وهل يَدُلُّ هٰذا على ٱستواءِ الفعلينِ في الصِّفاتِ النَّفسيَّةِ؟! ولقد وَهَتْ أركانُ مسألةٍ بُنِيَتْ على هٰذا الشَّفا؛ فإنَّهُ شفا جرفٍ هارٍ. واللهُ المستعانُ.

= العبارات عن مسلم فضلًا عن أن يكون عالمًا مطاعًا متّبعًا!

(١) إي والله! ولا تظنّن أنّ هٰذا النوع من الاحتجاج مضى وٱندثر! فوالله؛ لتسمع من الحجج على رقص الصوفيّة وحضراتهم وٱستغاثاتهم بالأولياء والصالحين بل وٱستغاثاتهم بالضلّال والمنحرفين ما هو أسمج من هٰذا وأثقل. وكذٰلك الحال مع معطّلة الصفات ومحترقة المذهبيّة وخوارج العصر الحديث مكفّرة الأمّة قاطبة. وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

(٢) في ط: «واحدة»! وهٰذه زيادة ناسخ! والوصف للفعلين لا للصفات.

(٣) في ط: «الفعلين والذي»! والصواب ما أثبتّه.

● **الوجهُ التَّاسعُ والثَّلاثونَ**: قولُكُم: «مواجبُ العقولِ في أصلِ التَّكليفِ متعارضةُ الأُصولِ[1]»! فيُقالُ: معاذَ اللهِ مِن تعارضِها[2]! بل هيَ متَّفقةُ الأُصولِ، مستقرٌّ حسنُها في العقولِ والفطرِ مركوزٌ ذٰلكَ فيها، فما شَرَعَ اللهُ شيئًا فقالَ العقلُ السَّليمُ: لَيْتَهُ شَرَعَ خلافَهُ. بل هيَ معارضةٌ بينَ العقلِ والهوى: فالعقلُ[3] يَقْضي بحسنِها ويَدْعو إليها ويَأْمُرُ بمتابعتِها جملةً في بعضِها وجملةً وتفصيلاً في بعضٍ، والهوى والشَّهوةُ قد يَدْعُوانِ غالبًا إلى خلافِها. فالتَّعارضُ واقعٌ بينَ مواجبِ العقولِ ومواجبِ الهوى. وما جَعَلَ اللهُ في العقلِ ولا في الفطرةِ ٱستقباحَ ما أَمَرَ بهِ ولا ٱستحسانَ ما نَهى عنهُ، وإنْ مالَ الهوى إلى خلافِ أمرِهِ ونهيِهِ؛ فالعقلُ حينئذٍ يَكونُ مأمورًا معَ الهوى مقهورًا في قبضتِهِ وتحتَ سلطانِهِ.

● **الوجهُ الأربعونَ**: قولُكُم: «نُطالِبُكُم بإظهارِ وجهِ الحسنِ في أصلِ التَّكليفِ والإيجابِ عقلاً وشرعًا»!

فيُقالُ: يا للهِ العجبُ! أَيَحْتاجُ أمرُ اللهِ تَعالى لعبادِهِ بما فيهِ غايةُ صلاحِهِم وسعادتِهِم في معاشِهِم ومعادِهِم ونهيُهُ لهُم عمَّا فيهِ هلاكُهُم وشقاؤُهُم في معاشِهِم ومعادِهِم إلى المطالبةِ بحسنِهِ؟! ثمَّ لا يُقْتَصَرُ على المطالبةِ بحسنِهِ عقلاً، حتَّى يُطالَبَ بحسنِهِ عقلاً وشرعًا! فأيُّ حسنٍ لمْ يَأْمُرِ اللهُ بهِ ويَسْتَحِبَّهُ لعبادِهِ ويَنْدُبْهُم إليهِ؟! وأيُّ حسنٍ فوقَ حسنِ ما أَمَرَ بهِ وشَرَعَهُ؟! وأيُّ قبيحٍ لمْ يَنْهَ عنهُ ولمْ يَزْجُرْ عبادَهُ مِن ٱرتكابِهِ؟! وأيُّ قبحٍ فوقَ قبحِ ما نَهى عنهُ؟!

وهلْ في العقلِ دليلٌ أوضحُ مِن علمِهِ بحسنِ ما أَمَرَ اللهُ بهِ مِن الإيمانِ والإسلامِ والإحسانِ وتفاصيلِها مِن العدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القربى وأنواعِ البرِّ والتَّقوى وكلِّ معروفٍ تَشْهَدُ الفطرُ والعقولُ بهِ مِن عبادتِهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ على أكملِ الوجوهِ وأتمِّها

---

(١) في ط: «فواجب العقول... معارضة الأصول»! وهٰذان تحريفان جعلا الكلام بغير معنًى. فأمّا الأوّل؛ فسيأتي بعد سطور قليلة من كلام المصنّف على الجادّة، وأمّا الآخر؛ فدلّ على وجه الصواب فيه فحوى الكلام المتقدّم (٢/ ٣٦٧).

(٢) في ط: «تعارضهما»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) في ط: «هي متعارضة بين... والعقل»! وهٰذان تحريفان صوابهما ما أثبتّه.

والإحسانِ إلى خلقِهِ بحسبِ الإمكانِ؟! فليسَ في العقلِ مقدِّماتٌ هيَ أوضحُ مِن هٰذا المستدَلِّ عليهِ فتُجْعَلَ دليلاً لهُ.

وكذٰلكَ ليسَ في العقلِ دليلٌ أوضحُ مِن قبحِ ما نَهى عنهُ مِن الفواحشِ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ والإثمِ والبغيِ بغيرِ الحقِّ والشِّركِ باللهِ بأَنْ يُجْعَلَ لهُ عديلٌ مِن خلقِهِ فيُعْبَدَ كما يُعْبَدُ ويُحَبَّ كما يُحَبُّ ويُعَظَّمَ كما يُعَظَّمُ ومِن الكذبِ على اللهِ وعلى أنبيائِهِ وعبادِهِ المؤمنينَ الذي فيهِ خرابُ العالمِ وفسادُ الوجودِ.

فأيُّ عقلٍ لمْ يُدْرِكْ حسنَ ذٰلكَ وقبحَ هٰذا؛ فأحرى أنْ لا يُدْرِكَ الدَّليلَ على ذٰلكَ!

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الأَذْهَانِ شَيْءٌ إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى الدَّلِيلِ

فما أبقى اللهُ عَزَّ وجَلَّ حسنًا إلاَّ أمَرَ بِهِ وشَرَعَهُ ولا قبيحًا إلاَّ نَهى عنهُ وحَذَّرَ منهُ، ثمَّ إنَّهُ سبحانَهُ أَوْدَعَ في الفطرِ والعقولِ الإقرارَ بذٰلكَ، فأقامَ عليها الحجَّةَ مِن الوجهينِ. ولٰكنِ اقْتَضَتْ رحمتُهُ وحكمتُهُ أنْ لا يُعَذِّبَها إلاَّ بعدَ إقامتِها عليها برسلِهِ، وإنْ كانَتْ قائمةً عليها بما أَوْدَعَ فيها واسْتَشْهَدَها عليهِ مِن الإقرارِ بِهِ وبوحدانيَّتِهِ واستحقاقِهِ الشُّكرَ مِن عبادِهِ بحسبِ طاقتِهِم على نعمِهِ وبما نَصَبَ عليها مِن الأدلَّةِ المتنوِّعةِ المستلزمةِ إقرارَها بحسنِ الحسنِ وقبحِ القبيحِ.

● **الوجهُ الحادي والأربعونَ:** أنَّا نَذْكُرُ لكُم وجهًا مِن الوجوهِ الدَّالَّةِ على وجهِ الحسنِ في أصلِ التَّكليفِ والإيجابِ فنَقولُ:

لا ريبَ أنَّ إلزامَ النَّاسِ شريعةً يَأْتَمِرونَ بأوامرِها التي فيها صلاحُهُم ويَنْتَهونَ عن مناهيها التي فيها فسادُهُم أحسنُ عندَ كلِّ عاقلٍ مِن تركِهِم هملاً كالأنعامِ لا يَعْرِفونَ معروفًا ولا يُنْكِرونَ منكرًا ويَنْزُو بعضُهُم على بعضٍ نزوَ الكلابِ والحمرِ ويَعْدو بعضُهُم على بعضٍ عدوَ السِّباعِ والكلابِ والذِّئابِ ويَأْكُلُ قويُّهُم ضعيفَهُم ولا يَعْرِفونَ اللهَ ولا يَعْبُدونَهُ ولا يَذْكُرونَهُ ولا يَشْكُرونَهُ ولا يُمَجِّدونَهُ ولا يَدينونَ بدينٍ بل هُم مِن جنسِ الأنعامِ السَّائمةِ، ومَن كابَرَ عقلَهُ في هٰذا؛ سَقَطَ الكلامُ معَهُ، ونادى على نفسِهِ بغايةِ الوقاحةِ ومفارقةِ الإنسانيَّةِ! وما نظيرُ مطالبتِكُم هٰذهِ إلاَّ مطالبةُ مَن يَقولُ: نحنُ نُطالِبُكُم بإظهارِ وجهِ المنفعةِ في خلقِ الماءِ والهواءِ والرِّياحِ والتُّرابِ وخلقِ الأقواتِ والفواكهِ

والأنعامِ بل في خلقِ الأسماعِ والأبصارِ والألسنِ والقُوى والأعضاءِ التي في العبدِ؛ فإنَّ هٰذهِ أسبابٌ ووسائلُ ووسائطُ!

وأمَّا أمرُهُ وشرعُهُ ودينُهُ؛ فكمالُهُ غايةٌ وسعادةٌ في المعاشِ والمعادِ، ولا ريبَ عندَ العقلاءِ أنَّ وجهَ الحسنِ فيهِ أعظمُ مِن وجهِ الحسنِ في الأُمورِ الحسِّيَّةِ، وإنْ كانَ الحسِّيُّ هوَ الغالبَ[1] على النَّاسِ، وإنَّما غايةُ أكثرِهم إدراكُ الحسنِ والمنفعةِ في الحسِّيَّاتِ وتقديمُها وإيثارُها على مداركِ العقولِ والبصائرِ، قالَ تَعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمونَ . يَعْلَمونَ ظاهِرًا مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غافِلونَ﴾ [الروم: ٦-٧].

ولو ذَهَبْنا نَذْكُرُ وجوهَ المحاسنِ المودعةِ في الشَّريعةِ لَزادَتْ على الأُلوفِ، ولَعَلَّ اللهَ أنْ يُساعِدَ بمصنَّفٍ في ذٰلكَ، معَ أنَّ هٰذهِ المسألةَ بابُهُ وقاعدتُهُ التي عليها بناؤُهُ[2].

● **الوجهُ الثَّاني والأربعونَ**: قولُكُم: «إنَّهُ سبحانَهُ لا يَتَضَرَّرُ بمعصيةِ العبدِ ولا يَنْتَفِعُ بطاعتِهِ ولا تَتَوَقَّفُ قدرتُهُ في الإحسانِ على فعلٍ يَصْدُرُ مِن العبدِ، بل كما أَنْعَمَ عليهِ ٱبتداءً فهوَ قادرٌ على أنْ يُنْعِمَ عليهِ بلا توسُّطٍ»!

فيُقالُ: هٰذا حقٌّ، ولٰكنْ لا يَلْزَمُ منهُ[3] أنْ لا تكونَ الشَّريعةُ والأمرُ والنَّهيُ معلومةَ الحسنِ عقلاً وشرعًا، ولا يَلْزَمُ منهُ أيضًا عدمُ حسنِ التَّكليفِ عقلاً وشرعًا! فذكرُكُم هٰذا عديمُ الفائدةِ؛ فإنَّهُ لَمْ يَقُلْ منازعوكُم ولا غيرُهُم: إنَّ اللهَ سبحانَهُ يَتَضَرَّرُ بمعاصي العبادِ ويَنْتَفِعُ بطاعتِهِم، ولا: إنَّهُ غيرُ قادرٍ على إيصالِ الإحسانِ إليهِم بلا واسطةٍ! ولٰكنَّ تركَ التَّكليفِ وتركَ العبادِ هملاً كالأنعامِ لا يُؤْمَرونَ ولا يُنْهَوْنَ منافٍ لحكمتِهِ وحمدِهِ وكمالِ ملكِهِ وإلٰهيَّتِهِ فيَجِبُ تنزيهُهُ عنهُ، ومَن نَسَبَهُ إليهِ؛ فما قَدَرَهُ حقَّ قدرِهِ، وحكمتُهُ البالغةُ ٱقْتَضَتِ الإنعامَ عليهِمُ ٱبتداءً وبواسطةِ الإيمانِ، والواسطةُ مِن إنعامِهِ عليهِم أيضًا، فهوَ

---

(١) في ط: «وإن كان الحسن هو الغالب»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٢) لم يفرد يرحمه الله مصنّفًا لهٰذه المسألة، لكنّه أطال في التفصيل فيها في كثير من مؤلّفاته كهٰذا الكتاب و«مدارج السالكين» و«شفاء العليل». والله أعلم.

(٣) في ط: «لا يلزم فيه»! وهٰذا تحريف بيّن دلّ عليه ما بعده.

المنعمُ بالوسيلةِ والغايةِ، ولهُ الحمدُ والنِّعمةُ في هٰذا وهٰذا.

● **يُوَضِّحُهُ الوجهُ الثَّالثُ والأربعونَ**: وهوَ أنَّ إنعامَهُ عليهِ ٱبتداءً بالإيجادِ وإعطاءِ الحياةِ والعقلِ والسَّمعِ والبصرِ والنِّعمِ التي سَخَّرَها لهُ إنَّما فَعَلَها بهِ لأجلِ عبادتِهِ إيَّاهُ وشكرِهِ لهُ كما: قالَ تَعالى: ﴿وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنْسَ إلَّا لِيَعْبُدونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦]. وقالَ تَعالى: ﴿قُلْ ما يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، وأصحُّ الأقوالِ في الآيةِ أنَّ معناها: ما يَصْنَعُ بكُم ربِّي لولا عبادتُكُم إيَّاهُ، فهوَ سبحانَهُ لمْ يَخْلُقْكُم إلَّا لعبادتِهِ. فكيفَ يُقالُ بعدَ هٰذا: إنَّ تكليفَهُ إيَّاهُم عبادتَهُ غيرُ حسنٍ في العقلِ لأنَّهُ قادرٌ على الإنعامِ عليهِم بالجزاءِ مِن غيرِ توسُّطِ العبادةِ؟!

● **الوجهُ الرَّابعُ والأربعونَ**: أنَّ قدرتَهُ سبحانَهُ على الشَّيءِ لا تَنْفي حكمتَهُ البالغةَ مِن [عدمِ][1] وجودِهِ؛ فإنَّهُ تَعالى يَقْدِرُ على مقدوراتٍ تُمْنَعُ بحكمتِهِ: كقدرتِهِ على قيامِهِ السَّاعةَ الآنَ، وقدرتِهِ على إرسالِ الرُّسلِ بعدَ النَّبيِّ ﷺ، وقدرتِهِ على إبقائِهِم بينَ ظهورِ الأُمَّةِ إلى يومِ القيامةِ، وقدرتِهِ على إماتةِ إبليسَ وجنودِهِ وإراحةِ العالَمِ منهُم...

وقد ذَكَرَ سبحانَهُ في القرآنِ قدرتَهُ على ما لا يَفْعَلُهُ لحكمتِهِ في غيرِ موضعٍ: كقولِهِ تَعالى: ﴿قُلْ هُوَ القادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وقولِهِ تَعالى: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ في الأَرْضِ وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقولِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ . بَلى قادِرينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ﴾ [القيامة: ٣-٤]؛ أي: نَجْعَلُها كخفِّ البعيرِ صفحةً واحدةً[2]، وقولِهِ تَعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلٰكِنْ حَقَّ القَوْلُ

---

(١) زيادة لا بدّ منها ليستقيم الكلام دلّت عليها الأمثلة التالية.

(٢) كذا جاء في كتب المفسّرين نقلاً عن جماعة من الصحابة والتابعين ولم أر لهم قولاً غيره. على أنّ الآية تحتمل معنًى آخر أقوى من هٰذا وأليق بالسياق فيما أرى، وهو: أيظنّ الإنسان أنّا لا نستطيع أن نبعثه وننشر عظامه بعد أن صارت ترابًا؟! بلى؛ نحن قادرون على ذٰلك وعلى ما هو أعظم من ذٰلك من إعادة إنشاء بنانه وأدقّ تفاصيله كما كانت تمامًا دون زيادة أو نقص أو تغير.

فهٰذا ـ وإن كان مخالفًا لأقوال السلف ـ أولى وأليق بالسياق لأمور: **أوّلها**: أنّ تحويل اليد كخفّ البعير غريب عن السياق. **والثاني**: أنّ هٰذا التحويل ليس بأعجب آيات القدرة ولا هو أعجب من جمع الرميم ونشره عظامًا، والموضع يستلزم آية أعظم من آية نشر العظام، كما تقول: أتحسب أنّي لن أحصل حقّي؟ بلى أنا قادر=

مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]، وقولِه: ﴿[وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ](١) لآمَنَ مَنْ في الأرْضِ كُلُّهُمْ جَميعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقولِه: ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]. فهٰذِه وغيرُها مقدوراتٌ لهُ سبحانَهُ، وإنَّما آمْتَنَعَتْ لكمالِ حكمتِه، فهيَ التي آقْتَضَتْ عدمَ وقوعِها. فلا يَلْزَمُ مِن كونِ الشَّيءِ مقدورًا أنْ يَكونَ حسنًا موافقًا للحكمةِ.

وعلى هٰذا؛ فقدرتُهُ تَبارَكَ وتَعالى على ما ذَكَرْتُم لا تَقْتَضي حسنَهُ وموافقتَهُ لحكمتِهِ، ونحنُ إنَّما نَتَكَلَّمُ معَكُم(٢) في الثَّاني لا في الأوَّلِ. فالكلامُ في الحكمةِ [وما](٣) تَقْتَضي الحكمةُ والعنايةُ(٤) غيرُ الكلامِ في المقدورِ، فمتعلَّقُ الحكمةِ شيءٌ ومتعلَّقُ القدرةِ شيءٌ. ولٰكنْ أنتُم إنَّما أُتيتُم مِن إنكارِ الحكمةِ، فلا يُمْكِنُكُمُ التَّفريقُ بينَ المتعلَّقينِ، بل قدِ آعْتَرَفَ سلفُكُم وأئمَّتُكُم بأنَّ الحكمةَ لا تَخْرُجُ عن صحَّةِ تعلُّقِ القدرةِ بالمقدورِ ومطابقتِهِ لها أو تعلُّقِ العلمِ بالمعلومِ ومطابقتِهِ لهُ، ولمَّا بَنَيْتُم على هٰذا الأصلِ؛ لمْ يُمْكِنْكُمُ الفرقُ بينَ موجَبِ الحكمةِ وموجَبِ القدرةِ، فتَوَعَّرَتْ عليكُمُ الطَّريق وألْجَأْتُم أنفسَكُم إلى أصعبِ مضيقٍ.

● **الوجهُ الخامسُ والأربعونَ:** قولُكُم: «إنَّهُ تَعالى لو ألْقى إلى العبدِ زمامَ الاختيارِ وتَرَكَهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ جريًا على رسومِ طبعِهِ المائلِ إلى لذيذِ الشَّهواتِ، ثمَّ أجْزَلَ لهُ في العطاءِ مِن غيرِ حسابٍ؛ كانَ أروحَ للعبدِ ولمْ يَكُنْ قبيحًا عندَ العقلِ»!

فيُقالُ لكُم: ما تَعْنونَ بإلقاءِ زمامِ الاختيارِ إليهِ؟ أتَعْنونَ بهِ أنَّهُ لا يُكَلِّفُهُ ولا يَأْمُرُهُ ولا يَنْهاهُ بل يَجْعَلُهُ كالبهيمةِ السَّائمةِ المهملةِ؟ أمْ تَعْنونَ بِهِ أنَّهُ يُلْقي إليهِ زمامَ الاختيارِ معَ تكليفِهِ وأمرِهِ ونهيِهِ؟

= على تحصيله والانتقام ممّن ظلمني. أتحسب أنّي لن أنجح؟ بلى أنا قادر على النجاح ولو فشل جميع التلاميذ. **والثالث:** أنّ الغالب في لفظة «التسوية» في القرآن هو هٰذا المعنى، ومنه: ﴿الذي خلق فسوّى﴾، ﴿الذي خلقك فسوّاك﴾، ﴿ثمّ سوّاه ونفخ فيه من روحه﴾، وكثير غيرها، فهٰذا كذاك. والله أعلى وأعلم.

(١) ساقطة من ط، ولا يستقيم الكلام إلاّ بها.

(٢) في ط: «نتكلّم معهم»! والكلام بصيغة الخطاب قبله وبعده.

(٣) ساقطة من ط، ولا يستقيم الكلام إلاّ بها.

(٤) كذا، وهو حسن، والعناية الإلٰهيّة هي اللطف والدقّة وحسن التدبير في الأمر والقدر، ولا يبعد أيضًا أن تكون «العناية» تحريفًا صوابه «الغاية».

فإنْ عَنَيْتُمُ الأوَّلَ؛ فهوَ مِن أقبحِ شيءٍ في العقلِ وأعظمِهِ نقصًا في الآدميِّ، ولو تُرِكَ ورسومَ طبعِهِ؛ لَكانَتِ البهائمُ أكملَ منهُ، ولَمْ يَكُنْ مكرَّمًا مفضَّلاً على كثيرٍ ممَّا خَلَقَ اللهُ تفضيلاً، بل كانَ كثيرٌ مِن المخلوقاتِ أو أكثرُها مفضَّلاً عليهِ؛ فإنَّهُ يكونُ مصدودًا عن كمالِهِ الذي هوَ مستعدٌّ لهُ قابلٌ لهُ، وذٰلكَ أسوأُ حالاً وأعظمُ نقصًا ممَّا مُنِعَ كمالاً ليسَ قابلاً لهُ!

وتَأمَّلْ حالَ الآدميِّ المخلَّى ورسومَ طبعِهِ المتروكَ ودواعيَ هواهُ؛ كيفَ تَجِدُهُ مِن شرارِ[1] الخليقةِ وأفسدِها للعالمِ[2]! ولولا مَن يَأْخُذُ على يديهِ؛ لأهْلَكَ الحرثَ والنَّسلَ وكانَ شرًّا مِن الخنازيرِ والذِّئابِ والحيَّاتِ! فكيفَ يَسْتَوي في العقلِ أمرُهُ ونهيُهُ بما فيهِ صلاحُهُ وصلاحُ غيرِهِ بِهِ وتركُهُ وما فيهِ أعظمُ فسادِهِ[3] وفسادِ النَّوعِ وغيرِهِ بهِ؟! وكيفَ لا يَكونُ هٰذا القولُ قبيحًا؟! وأيُّ قبحٍ أعظمُ مِن هٰذا؟!

ولهٰذا أنْكَرَ اللهُ سبحانَهُ على مَن جَوَّزَ عقلُهُ مثلَ هٰذا ونَزَّهَ نفسَهُ عنهُ:

فقالَ تَعالى: ﴿أيَحْسَبُ الإنْسانُ أنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]: قالَ الشَّافِعيُّ: معطَّلاً لا يُؤْمَرُ ولا يُنْهى، وقيلَ: لا يُثابُ ولا يُعاقَبُ[4].

وقالَ تَعالى: ﴿أفَحَسِبْتُمْ أنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثًا وَأنَّكُمْ إلَيْنا لا تُرْجَعونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ثمَّ نَزَّهَ نفسَهُ عن هٰذا الظَّنِّ الكاذبِ وأنَّهُ لا يَليقُ بهِ ولا يَجوزُ في العقولِ نسبةُ مثلِهِ إليهِ لمنافاتِهِ لحكمتِهِ وربوبيَّتِهِ وإلٰهيَّتِهِ وحمدِهِ فقالَ: ﴿فَتَعالى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَريمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

وقالَ تَعالى: ﴿وَما خَلَقْنا السَّماواتِ وَالأرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعبينَ . ما خَلَقْناهُما إلاَّ بِالحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]: وفُسِّرَ الحقُّ بالثَّوابِ والعقابِ وفُسِّرَ بالأمرِ والنَّهيِ، وهٰذا تفسيرٌ لهُ ببعضِ معناهُ، والصَّوابُ أنَّ الحقَّ هوَ إلٰهيَّتُهُ وحكمتُهُ المتضمِّنةُ للخلقِ

---

(١) في ط: «في شرار»، وله وجه ضعيف، والغالب أنّه تحريف لما أثبته.

(٢) فإن لم تصدّق هٰذا الكلام؛ فأنظر دلائله الأكيدة في أحوال الإنسان الأوروبيّ المعاصر.

(٣) يعني: والتخلية بينه وبين ما فيه أعظم فساده. ولا يبعد أنّ هاهنا سقطًا أورث العبارة هٰذا القلق.

(٤) والقولان صحيحان، ومعناهما واحد، كما تقدّم تفصيله (١/ ٨٧ و١٣٣، ٢/ ٢٩٤).

والأمرِ والثَّوابِ والعقابِ، فمصدرُ ذٰلكَ كلِّهِ الحقُّ وبالحقِّ وُجِدَ وبالحقِّ قامَ وغايتُهُ الحقُّ وبهِ قيامُهُ، فمحالٌ أنْ يَكونَ على غيرِ هٰذا الوجهِ؛ فإنَّهُ يَكونُ باطلاً وعبثًا، فتَعالى اللهُ عنهُ لمنافاتِهِ إلٰهيَّتَهُ وحكمتَهُ وكمالَ ملكِهِ وحمدِهِ.

وقالَ تَعالى: ﴿إنَّ في خلقِ السَّماواتِ وَالأرْضِ وَٱخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الألْبابِ . الَّذينَ يَذْكُرونَ اللهَ قِيامًا وَقُعودًا وَعَلى جُنوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرونَ في خَلْقِ السَّماواتِ وَالأرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]. وتأمَّلْ كيفَ أخْبَرَ سبحانَهُ عنهُ بنفيِ الباطليَّةِ عن خلقِهِ دونَ إثباتِ الحكمةِ: لأنَّ بيانَ نفيِ الباطلِ على سبيلِ العمومِ والاستغراقِ أوغلُ في المعنى المقصودِ وأبلغُ مِن إثباتِ الحِكَمِ؛ لأنَّ بيانَ جميعِها لا يَفي بها أفهامُ الخليقةِ، وبيانَ البعضِ يُؤْذِنُ بتناهي الحكمةِ، ونفيُ البطلانِ والخلوِّ عنِ الحكمةِ والفائدةِ تُفيدُ أنَّ كلَّ جزءٍ مِن أجزاءِ العالمِ علويِّهِ وسفليِّهِ متضمِّنٌ لحِكَمٍ جمَّةٍ وآياتٍ باهرةٍ. ثمَّ أخْبَرَ سبحانَهُ عنهُم بتنزيهِهِ عنِ الخلقِ باطلاً خِلْوًا عنِ الحكمةِ، ولا معنى لهٰذا التَّنزيهِ عندَ النُّفاةِ؛ فإنَّ الباطلَ عندَهُم هوَ المحالُ لذاتِهِ، فعلى قولِهِم نَزَّهوهُ عنِ المحالِ لذاتِهِ الذي ليسَ بشيءٍ كالجمعِ بينَ النَّقيضينِ وكونِ الجسمِ الواحدِ لا يَكونُ في مكانينِ، ومعلومٌ قطعًا أنَّ هٰذا ليسَ مرادَ الرَّبِّ تَعالى ممَّا نَزَّهَ نفسَهُ عنهُ وأنَّهُ لا يُمْدَحُ أحدٌ بتنزيهِهِ عن هٰذا ولا يَكونُ المنزَّهُ بهِ مثنيًا ولا حامدًا ولمْ يَخْطُرْ هٰذا بقلبِ بشرٍ حتَّى يُنْكِرَهُ اللهُ على مَن زَعَمَهُ ونَسَبَهُ إليهِ!

وقالَ تَعالى: ﴿وَما خَلَقْنا السَّماواتِ وَالأرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبينَ . ما خَلَقْناهُما إلاَّ بِالحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]: فنَفى اللعبَ عن خلقِهِ [للسَّماواتِ والأرضِ][١] وأثْبَتَ أنَّهُ إنَّما خَلَقَهُما بالحقِّ، فجَمَعَ تَعالى بينَ [نفيِ][٢] اللعبِ الصَّادرِ عن غيرِ حكمةٍ وغايةٍ محمودةٍ وإثباتِ الحقِّ المتضمِّنِ للحِكَمِ والغاياتِ المحمودةِ والعواقبِ المحبوبةِ.

والقرآنُ مملوءٌ مِن هٰذا: بنفيِ العبثِ والباطلِ واللعبِ تارةً، وتنزيهِ الرَّبِّ نفسَهُ عنهُ تارةً، وإثباتِ الحِكَمِ الباهرةِ في خلقِهِ تارةً.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق دلّ ما قبلها وما بعدها عليها.

[فـ]ـكيفَ يَجوزُ أنْ يُقالَ: إنَّهُ لوْ عَطَّلَ خلقَهُ وتَرَكَهُم سدًى؛ لَمْ يَكُنْ ذٰلكَ قبيحًا في العقلِ؟!

فإنْ عَنَيْتُم أنَّهُ يُلْقي إليهِ زمامَ الاختيارِ معَ أمرِهِ ونهيِهِ[1]؛ فهٰذا حقٌّ؛ فإنَّهُ جَعَلَهُ مختارًا مأمورًا منهيًّا، وإنْ كانَ ٱختيارُهُ مخلوقًا لهُ تَعالى؛ إذْ هوَ مِن جملةِ الحوادثِ الصَّادرةِ عن خلقِهِ[2]، ولٰكنَّ هٰذا الاختيارَ لا يُنافي التَّكليفَ، ولا يكونُ بوجهٍ إلَّا بهِ[3]، بل لا يَصِحُّ التَّكليفُ إلَّا بهِ.

● **الوجهُ السَّادسُ والأربعونَ**: قولُكُم: «فقد تَعارَضَ الأمرانِ: أحدُهُما: أنْ يُكَلِّفَهُم فيَأْمُرَ ويَنْهى حتَّى يُطاعَ ويُعْصى ثمَّ يُثيبَهُم ويُعاقِبَهُم، الثَّاني: أنْ لا يُكلِّفَهُم؛ إذْ لا يَتَزَيَّنُ منهُم بطاعةٍ ولا تَشينُهُ معصيتُهُم. وإذا تَعارَضَ في المعقولِ هٰذانِ الأمرانِ؛ فكيفَ يُهْدى العقلُ إلى ٱختيارِ أحدِهِما عقلًا؟! فكيفَ يُعَرِّفُنا الوجوبَ على نفسِهِ بالمعرفةِ وعلى الجوارحِ بالطَّاعةِ وعلى الرَّبِّ تَعالى بالثَّوابِ؟!».

فيُقالُ لكُم: لَمْ يَتَعارَضْ بحمدِ اللهِ الأمرانِ؛ لأنَّ أحدَهُما قد عُلِمَ قبحُهُ في المعقولِ والآخرُ قد عُلِمَ حسنُهُ في المعقولِ؛ فكيفَ يَتَعارَضُ في العقلِ جوازُ الأمرينِ وأنْ تَكونَ نسبتُهُما إلى الرَّبِّ تَعالى نسبةً واحدةً؟! وإنَّما يَتَعارَضُ الجائزاتُ على حدٍّ سواءٍ[4] بحيثُ لا يَتَرَجَّحُ بعضُها عن بعضٍ، فأمَّا الحسنُ والقبحُ؛ فلمْ يَتَعارَضْ في العقلِ قطُّ ٱستواؤُهُما! وقد قَرَّرْنا بما لا مدفعَ لهُ قبحَ التَّركِ سدًى بمنزلةِ الأنعامِ السَّائمةِ وحسنَ الأمرِ والنَّهيِ وٱستصلاحِهِم في معاشِهِم ومعادِهِم؛ فكيفَ يُقالُ: إنَّ هٰذينِ الأمرينِ سواءٌ في العقلِ بحيثُ يَتَعارَضانِ فيهِ ويَقْضي بٱستوائِهِما بالنِّسبةِ إلى أحكمِ الحاكمينَ؟!

---

(١) لا ريب أنّهم لم يقصدوا هٰذا، بل كلامهم المتقدّم والآتي نصّ في خلافه! وابن القيّم يعلم تمام العلم أنّهم يريدون غيره، وإنّما ساق الكلام معهم على سبيل فتح الباب لهم للرجوع إلى الحقّ؛ يعني: فهٰذا القدر هو الحقّ الذي لا ينبغي أن يتعدّاه العاقل في هٰذا الباب، فإن أردتموه؛ فلا خلاف لنا معكم، وإن أردتم غيره؛ فقد بيّنّا ما في ذٰلك من الضلال. وهٰذا الأسلوب يتكرّر كثيرًا في كتب ابن القيّم وشيخه رحمهما الله.

(٢) والحوادث الصادرة عن جميع الخَلْق هي خَلْق له سبحانه، ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾.

(٣) في ط: «ولا يكون إلّا به بوجه»! فربّما كان غلطًا مطبعيًّا صوابه ما أثبتّه وربّما كان تحريفًا، أو أنّ في الكلام سقطًا؛ فإنّ في العبارة قلقًا. والله أعلم.

(٤) في ط: «على كلّ سواء»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

فإنْ قيلَ: إنَّما تَعارَضا في المقدوريَّةِ؛ إذْ نسبةُ القدرةِ إليهما واحدةٌ!

قُلْنا: قد تَقَدَّمَ أنَّهُ لا يَلْزَمُ مِن كونِ الشَّيءِ مقدورًا أنْ لا يَكونَ ممتنعًا لمنافاتِهِ الحكمةَ، وقد بيَّنَّا ذٰلكَ قريبًا. فكونُ تركِهِم[1] هملاً وسدًى مقدورًا للرَّبِّ تَعالى لا يَقْتَضي معارضتَهُ لمقدورِهِ الآخرِ في تكليفِهِم وأمرِهِم ونهيِهِم.

● **الوجهُ السَّابعُ والأربعونَ:** قولُكُم: «إذْ لا يَتَزَيَّنُ منهُم بطاعةٍ ولا تَشينُهُ معصيتُهُم»!

قُلْنا: ومَنِ الذي نازَعَ في هٰذا؟! ولٰكنَّ حسنَ التَّكليفِ لا يَنْفي ذٰلكَ[2] عن الرَّبِّ تَعالى، وأنَّهُ إنَّما يُكَلِّفُهُم تكليفَ مَن لا يَبْلُغونَ ضرَّهُ فيَضُرُّوهُ ولا يَبْلُغونَ نفعَهُ فيَنْفَعوهُ[3]، وأنَّهُم لو كانوا كلُّهُم على أتْقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منهُم؛ ما زادَ ذٰلكَ في ملكِهِ شيئًا، ولو كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ منهُم؛ ما نَقَصَ ذٰلكَ مِن ملكِهِ[4] شيئًا[5].

وهاهُنا ٱخْتَلَفَتِ الطُّرقُ بالنَّاسِ في علَّةِ التَّكليفِ وحكمتِهِ معَ كونِهِ سبحانَهُ لا يَنْتَفِعُ بطاعتِهِم ولا تَضُرُّهُ معصيتُهُم:

فسَلَكَتِ الجَبْرِيَّةُ مسلكَها المعروفَ، وأنَّ ذٰلكَ صادرٌ عن محضِ المشيئةِ وصرفِ الإرادةِ، وأنَّهُ لا علَّةَ لهُ ولا يَحُثُّ عليهِ سوى محضِ الإرادةِ.

وسَلَكَتِ القَدَرِيَّةُ مسلكَها المعروفَ، وهل ذٰلكَ إلَّا ٱستئجارٌ منهُ لعبيدِهِ لِيَنالوا أجرَهُم بالعملِ فيَكونَ ألذَّ مِن ٱقتضائِهِمُ الثَّوابَ بلا عملٍ لِما فيهِ مِن تكديرِ المنَّةِ؟!

والمسلكانِ كما تَرى! وحسبُكَ ما يَدُلُّ عليهِ العقلُ الصَّريحُ والنَّقلُ الصحيحُ مِن بطلانِهِما وفسادِهِما[6].

---

(١) في ط: «فيكون تركهم»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) كذا! وفيها قلق وٱستغلاق، ولعلّ صوابها «ولٰكنّ حصول التكليف لا ينفي ذٰلك»، أو أنّ في الكلام تقديمًا وتأخيرًا صوابه «ولٰكنّ ذٰلك لا ينفي حسن التكليف»، وهٰذا الثاني أجود وأولى بالسياق.

(٣) في ط: «لا يبلغوا ضرّه فيضرّوه ولا يبلغوا نفعه فينفعوه»! والجادّة ما أثبتّه.

(٤) في ط: «في ملكه»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٥) كما سيأتي قريبًا في حديث أبي ذرّ المخرّج في «صحيح مسلم».

(٦) وقد تقدّم للمصنّف تفصيل طويل في هٰذه الأدلّة على مدى الصفحات السابقة، بل ما زال الكلام فيها وفيما يتبعها إلى الآن.

وليسَ عندَ النَّاسِ غيرُ هٰذينِ المسلكينِ إلاَّ مسلكَ مَن هوَ خارجٌ عنِ الدِّياناتِ وأتباعِ الرُّسلِ ممَّنْ يَرى أنَّ الشَّرائعَ وُضِعَتْ نواميسَ يَقومُ عليها مصلحةُ النَّاسِ ومعيشتُهُم؛ فإنَّ فائدتَها تكميلُ قوَّةِ النَّفسِ [العلميَّةِ و][1] العمليَّةِ وٱرتياضُها لِتَخْرُجَ عن شبهِ الأنعامِ فتَصيرَ مستعدَّةً لأنْ تكونَ محلاًّ لقبولِ الفلسفةِ العليا والحكمةِ! وهٰذا مسلكٌ خارجٌ عن مناهجِ الأنبياءِ وأُممِهِم[2].

وأمَّا أتباعُ الرُّسلِ الذينَ هُم أهلُ البصائرِ؛ فحكمةُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في تكليفِهِم ما كَلَّفَهُم بهِ أعظمُ وأجلُّ عندَهُم ممَّا يَخْطُرُ بالبالِ أو يَجْري بهِ المقالُ، ويَشْهَدونَ لهُ سبحانَهُ في ذٰلكَ بالحِكمِ الباهرةِ والأسرارِ العظيمةِ أكثرَ ممَّا يَشْهَدونَهُ في مخلوقاتِهِ وما تَضَمَّنَتْهُ مِن الأسرارِ والحِكمِ، ويَعْلَمونَ معَ ذٰلكَ أنَّهُ لا نسبةَ لِما أطْلَعَهُم سبحانَهُ عليهِ مِن ذٰلكَ إلى ما طَوى علمَهُ عنهُم وٱسْتَأْثَرَ بهِ دونَهُم، وأنَّ حكمتَهُ في أمرِهِ ونهيِهِ وتكليفِهِم أجلُّ وأعظمُ ممَّا تُطيقُهُ عقولُ البشرِ.

فهُم يَعْبُدونَهُ سبحانَهُ بأمرِهِ ونهيِهِ لأنَّهُ تَعالى أهلُ أنْ يُعْبَدَ وأهلُ أنْ يَكونَ الحَدُّ كلُّهُ لهُ والعبادةُ كلُّها لهُ، حتَّى لو لَمْ يَخْلُقْ جنَّةً ولا نارًا ولا وَضَعَ ثوابًا ولا عقابًا؛ لَكانَ أهلَ أنْ[3] يُعْبَدَ أقصى ما تَنالُهُ قدرةُ خلقِهِ مِن العبادةِ، وفي بعضِ الآثارِ الإلٰهيَّةِ: «لو لَمْ أخْلُقْ جنَّةً ولا نارًا؛ أَلَمْ أكُنْ أهلَ أنْ[4] أُعْبَدَ»[5]، حتَّى إنَّهُ لو قُدِّرَ أنَّهُ لَمْ يُرْسِلْ رسلَهُ ولَمْ يُنْزِلْ كتبَهُ؛ لَكانَ في الفطرةِ والعقلِ ما يَقْتَضي شكرَهُ وإفرادَهُ بالعبادةِ كما أنَّ فيهِما ما يَقْتَضي تناولَ المنافعِ وٱجتنابَ المضارِّ ولا فرقَ بينَهُما في الفطرةِ والعقلِ.

فإنَّ اللهَ فَطَرَ خليقتَهُ على محبَّتِهِ والإقبالِ عليهِ وٱبتغاءِ الوسيلةِ إليهِ وأنَّهُ لا شيءَ على الإطلاقِ أحبُّ إليها منهُ، وإنْ فَسَدَتْ فطرُ أكثرِ الخلقِ بما طَرَأَ عليها ممَّا ٱقْتَطَعَها

---

(١) زيادة مستفادة ممّا تقدّم (٢/ ٣٧٨) وما يأتي (٢/ ٤٩٢).

(٢) وهو مسلك الفلاسفة وتابعهم الصابئة على بعضه كما تقدّم (٢/ ٣٧٨ و٣٧٩).

(٣) في ط: «أهلاً أن»! ولا يصحّ نحويًا، بل لا بدّ من حذف التنوين؛ لأنّ «أهلاً» مضافة إلى المصدر المؤوّل من «أن» وما بعدها، وتقدير الكلام: لكان أهلَ العبادة، والتنوين لا يجتمع مع الإضافة.

(٤) في ط: «أهلاً أن»! وقد تقدّم قبله.

(٥) (لم أقف عليه). لكنّ تصديره بعبارة «الأثر الإلهي» يرجّح أنّه إسرائيليّ. والله أعلم.

واَجْتالَها عمَّا خُلِقَ فيها. كما قالَ تَعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فبَيَّنَ سبحانَهُ أنَّ إقامةَ الوجهِ ـ وهوَ إخلاصُ القصدِ [للهِ][(١)] وبذلُ الوسعِ لدينِهِ المتضمِّنِ محبَّتَهُ وعبادتَهُ حنيفًا مقبلاً عليهِ معرضًا عمَّا سواهُ ـ هوَ فطرتُهُ التي فَطَرَ عليها عبادَهُ، فلو خُلُّوا ودواعيَ فطرِهِم؛ لَما رَغِبوا عن ذٰلكَ ولا اَختاروا سواهُ، ولٰكنْ غُيِّرَتِ الفطرُ وأُفْسِدَتْ: كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «ما مِن مولودٍ إلاَّ يُولَدُ على الفطرةِ، فأبواهُ يُهَوِّدانِهِ ويُنَصِّرانِهِ ويُمَجِّسانِهِ، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها مِن جدعاءَ؟ حتَّى تكونوا أنتُم تَجْدَعونَها»[(٢)]. ثمَّ يَقولُ أبو هُرَيْرَةَ: اَقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ [الروم: ٣٠-٣١]. و﴿مُنِيبِينَ﴾ نُصِبَ على الحالِ مِن المفعولِ[(٣)]؛ أي: فَطَرَهُم منيبينَ إليهِ، والإنابةُ إليهِ تَتَضَمَّنُ الإقبالَ عليهِ بمحبَّتِهِ وحدَهُ والإعراضِ عمَّا سواهُ. وفي «صحيح مسلم»[(٤)]: عن عِياضِ بنِ حِمارٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «إنَّ اللهَ أمَرَني أنْ أُعَلِّمَكُم ما جَهِلْتُم ممَّا عَلَّمَني في مقامي هٰذا؛ إنَّهُ قالَ: كلُّ مالٍ نَحَلْتُهُ عبدًا فهوَ لهُ حلالٌ. وإنِّي خَلَقْتُ عبادي حنفاءَ، فأتَتْهُمُ الشَّياطينُ فاَجْتالَتْهُم عن دينِهِم وأمَرَتْهُم أنْ يُشْرِكوا بي ما لمْ أُنَزِّلْ بهِ سلطانًا وحَرَّمَتْ عليهِم ما أحْلَلْتُ لهُم»[(٥)]. فأخْبَرَ سبحانَهُ أنَّهُ إنَّما خَلَقَ عبادَهُ على الحنيفيَّةِ المتضمِّنةِ لكمالِ حبِّهِ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) رواه: البخاري (٢٣ـ الجنائز، ٧٩ـ إذا أسلم الصبيّ، ٣/٢١٨/١٣٥٨)، ومسلم (٤٦ـ القدر، ٦ـ معنى كلّ مولود يولد، ٤/٢٠٤٧/٢٦٥٨)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

و«يولد على الفطرة»: يولد وفي قلبه ميل أصيل لقبول الإسلام ومحبّته واتّباعه. «كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء»: كما تلد البهيمة ولدها كامل الخلقة لا عيب فيه. «هل تحسّون فيها من جدعاء»؛ يعني: فالأب والأمّ هما اللذان ينزعان الفطرة عن الولد كما تُجدع أذن الحيوان. والجدعاء: المقطوعة.

(٣) وهو في هٰذه الآية لفظة «الناس» الأولى.

(٤) (٥١ـ الجنّة، ١٦ـ الصفات التي يعرف بها أهل الجنّة والنار، ٤/٢١٩٧/٢٨٦٥).

(٥) كلّ مال نحلته عبدًا. . . : كلّ مال أعطيته لعبد من عبادي فهو حلال، ولا يصير حرامًا بتحريمه إيّاه على نفسه برأيه وهواه، حتّى أكون أنا الذي أحرّمه عليه لحقّي أو لحقّ العباد. حنفاء: مسلمين متوجّهين إلى الله وحده منصرفين عن غيره. أجتالتهم الشياطين: ساقوهم معهم في طرق الباطل.

والخضوعِ لهُ والذُّلِّ لهُ وكمالِ طاعتِهِ وحدَهُ دونَ غيرِهِ، وهٰذا مِن الحقِّ الذي خُلِقَتْ له[١]، وبهِ قامَتِ السَّماواتُ والأرضُ وما بينَهُما، وعليهِ قامَ العالمُ، ولأجلِهِ خُلِقَتِ الجنَّةُ والنَّارُ، ولأجلِهِ أرْسَلَ رسلَهُ وأنْزَلَ كتبَهُ، ولأجلِهِ أهْلَكَ القرونَ التي خَرَجَتْ عنهُ وآثَرَتْ غيرَهُ.

فكونُهُ سبحانَهُ أهلَ أنْ يُعْبَدَ[٢] ويُحَبَّ ويُحْمَدَ ويُثْنى عليهِ أمرٌ ثابتٌ لهُ لذاتِهِ فلا يَكونُ إلَّا كذٰلكَ كما أنَّهُ الغنيُّ القادرُ الحيُّ القيُّومُ السَّميعُ البصيرُ. فهوَ سبحانَهُ الإلٰهُ الحقُّ المبينُ، والإلٰهُ هوَ الذي يَسْتَحِقُّ أنْ يُؤَلَّهَ محبَّةً وتعظيمًا وخشيةً وخضوعًا وتذلُّلًا وعبادةً. فهوَ الإلٰهُ الحقُّ ولو لمْ يَخْلُقْ خلقَهُ، وهوَ الإلٰهُ الحقُّ ولو لمْ يَعْبُدوهُ، فهوَ المعبودُ حقًّا المحمودُ حقًّا ولو قُدِّرَ أنَّ خلقَهُ لمْ يَعْبُدوهُ ولمْ يَحْمَدوهُ ولمْ يَأْلَهوهُ. فهوَ اللهُ الذي لا إلٰهَ إلَّا هوَ قبلَ أنْ يَخْلُقَهُم وبعدَ أنْ خَلَقَهُم وبعدَ أنْ يُفْنِيَهُم، لمْ يَسْتَحْدِثْ بخلقِهِ لهُم ولا بأمرِهِ إيَّاهُم ٱستحقاقَ الإلٰهيَّةِ والحمدِ، بل إلٰهيَّتُهُ[٣] وحمدُهُ ومجدُهُ وغناهُ أوصافٌ ذاتيَّةٌ لهُ يستحيلُ مفارقتُها لهُ كحياتِهِ[٤] ووجودِهِ وقدرتِهِ وعلمِهِ وسائرِ صفاتِ كمالِهِ.

فأولياؤُهُ وخاصَّتُهُ وحزبُهُ: لمَّا شَهِدَتْ عقولُهُم وفطرُهُم أنَّهُ أهلُ أنْ يُعْبَدَ وإنْ لمْ يُرْسِلْ إليهِم رسولًا ولمْ يُنَزِّلْ عليهِم كتابًا ولو لمْ يَخْلُقْ جنَّةً ولا نارًا؛ عَلِموا أنَّهُ لا شيءَ في العقولِ والفطرِ أحسنُ مِن عبادتِهِ ولا أقبحُ مِن الإعراضِ عنهُ، وجاءَتِ الرُّسلُ وأُنْزِلَتِ الكتبُ لتقريرِ ما ٱسْتَوْدَعَ سبحانَهُ في الفطرِ والعقولِ مِن ذٰلكَ وتكميلِهِ وتفصيلِهِ[٥] وزيادتِهِ حسنًا إلى حسنِهِ، فٱتَّفَقَتْ شريعتُهُ وفطرتُهُ وتَطابَقَتا وتوافَقَتا[٦] وظَهَرَ أنَّهُما مِن مشكاةٍ واحدةٍ. فعَبَدوهُ وأَحَبُّوهُ ومَجَّدوهُ وحَمَدوهُ بداعي الفطرةِ وداعي الشَّرعِ وداعي

---

(١) يعني: العباد.

(٢) في ط: «أهلاً أن يعبد»! وقد تقدّم بيان وجه الغلط فيه قبل صفحة.

(٣) في ط: «بل الإلٰهيّة»، وله وجه، والغالب أنّها تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) في ط: «لحياته»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٥) في ط: «وتفضيله»! وهٰذا تصحيف صوابه ما أثبتّه.

(٦) في ط: «وتطابقا وتوافقا»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه، والكلام عن الشريعة والفطرة.

العقلِ، فٱجْتَمَعَتْ لهمُ الدَّواعي ونادَتْهُم مِن كلِّ جهةٍ ودَعَتْهُم إلى وليِّهِم وإلٰهِهِم وفاطرِهِم، فأقْبَلوا إليهِ بقلوبٍ سليمةٍ لمْ يُعارِضْ خبرَهُ عندَها شبهةٌ تُوجِبُ ريبًا وشكًّا ولا أمرَهُ شهوةٌ تُوجِبُ رغبتَها عنهُ وإيثارَها سواهُ، فأجابوا دواعيَ المحبَّةِ والطَّاعةِ إذ نادَتْ بهِم حَيَّ على الفلاحِ، وبَذَلوا أنفسَهُم في مرضاةِ مولاهُمُ الحقِّ بذلَ أخي السَّماح[1]، وحَمَدوا عندَ الوصولِ إليهِ مسراهُم وإنَّما يَحْمَدُ القومُ السُّرى عندَ الصَّباح[2]. فدينُهُم دينُ الحبِّ وهوَ الدِّينُ الذي لا إكراهَ فيه، وسيرُهُم سيرُ المحبِّينَ وهوَ الذي لا وقفةَ تَعْتَريه:

إنِّي أَدِينُ بِدِينِ الحُبِّ وَيْحَكُمُ ... فَذاكَ دِيني وَلا إكْراهَ في الدِّينِ
وَمَنْ يَكُنْ دِينُهُ كُرْهًا فَلَيْسَ لَهُ ... إلَّا العَناءُ وَإلَّا السَّيْرُ في الطِّينِ
وَما ٱسْتَوى سَيْرُ عَبْدٍ في مَحَبَّتِهِ ... وَسَيْرُ خالٍ مِنَ الأشْواقِ في دِيني[3]
فَقُلْ لغيرِ أخي الأشْواقِ وَيْحَكَ قَدْ ... غُبِنْتَ حَظَّكَ لا تَغْتَرَّ بالدُّونِ
نَجائِبُ الحُبِّ تَعْلو بِالمُحِبِّ إلى ... أعْلى المَراتِبِ مِنْ فَوْقِ السَّلاطينِ[4]
وأطْيَبُ العَيْشِ في الدَّارَيْنِ قَدْ رَغِبَتْ ... عَنْهُ التُّجارُ فَباعَتْ بَيْعَ مَغْبونِ
فَإنْ تُرِدْ عِلْمَهُ فَٱقْرأْهُ وَيْحَكَ في ... آياتِ طٰهَ وَفي آياتِ ياسينِ[5]

ولا ريبَ أنَّ كمالَ العبوديَّةِ تابعٌ لكمالِ المحبَّةِ وكمالَ المحبَّةِ تابعٌ لكمالِ المحبوبِ في نفسِهِ، واللهُ سبحانَهُ لهُ الكمالُ المطلقُ التَّامُّ مِن كلِّ

---

(١) أخي السماح: صاحب السماحة، وهي المساهلة وعدم التدقيق في الحساب.

(٢) السرى: السير بالليل. وسير الليل صعب ومخيف، ولٰكن إذا بلغ المسافر غايته وٱستراح من سفره قبل ٱشتداد حرّ النهار؛ حمد هٰذا السير. وهٰذا مثل مشهور.

(٣) في ط: «في دين»! والصواب ما أثبتّه، والمعنى: لا يستوي سير المحبّ وسير غيره في عقيدتي.

(٤) النجائب: جمع نجيبة، وهي الناقة الذلول الجيّدة. والمراد أنّ من ركب مراكب الحبّ في صلته بربّه جلّ وعلا؛ فلا بدّ أنّه سيسبق السائرين ويبلغ أعلى مراتب الواصلين.

(٥) أمّا آيات طٰه؛ فيريد بها قوله تعالى: ﴿فمن ٱتّبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ [١٢٣-١٢٤]. وأمّا آيات يٰس؛ فالاحتمالات فيها كثيرة، والغالب أنّه ذكرها مراعاة للقافية دون أن يقصد آية منها على وجه التحديد، وربما أراد مجموع السورة؛ فلا بدّ أنّها تتناول سعادة الدارين بطريقة أو بأخرى، ولم أقف على موضع محدّد منها في ذٰلك.

وجهٍ[1] الذي لا يَعْتَرِيهِ توهُّمُ نقصٍ أصلاً، ومَن هٰذا شأْنُهُ؛ فإنَّ القلوبَ لا يَكونُ شيءٌ أَحبَّ إليها منهُ ما دامَتْ فطرُها وعقولُها سليمةً، وإذا كانَ أَحبَّ[2] الأشياءِ إليها؛ فلا محالةَ أنَّ محبَّتَهُ توجِبُ عبوديَّتَهُ وطاعتَهُ وتتبُّعَ مرضاتِهِ وٱستفراغَ الجهدِ في التَّعبُّدِ لهُ والإنابةِ إليهِ. وهٰذا الباعثُ أكملُ بواعثِ العبوديَّةِ وأقواها. حتَّى لو فُرِضَ تجرُّدُهُ عنِ الأمرِ والنَّهيِ والثَّوابِ والعقابِ؛ ٱسْتَفْرَغَ الوسعَ وٱسْتَخْلَصَ القلبَ للمعبودِ الحقِّ.

ومِن هٰذا قولُ بعضِ السَّلفِ: إنَّهُ لَيَسْتَخْرِجُ حبُّهُ مِن قلبي ما لا يَسْتَخْرِجُهُ قولُهُ.

ومنهُ قولُ عُمَرَ في صُهَيْبٍ: لو لَمْ يَخَفِ اللهَ لَمْ يَعْصِهِ[3].

وقد كانَ هٰذا هوَ الواجبَ على كلِّ عاقلٍ كما قالَ بعضُهُم:

هَبِ البَعْثَ لَمْ تَأْتِنا رُسْلُهُ ... وَجاحِمَةُ النَّارِ لَمْ تُضْرَمِ

أَلَيْسَ مِنَ الواجِبِ المُسْتَحَقْـ ... ـقِ طاعَةُ رَبِّ الوَرى الأَكْرَمِ

وقد قامَ رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى تَفَطَّرَتْ قدماهُ. فقيلَ لهُ: تَفْعَلُ هٰذا وقد غُفِرَ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذنبِكَ وما تأخَّرَ؟! قالَ: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا»[4]. وٱقْتَصَرَ ﷺ مِن جوابِهِم على ما تُدْرِكُهُ عقولُهُم وتَنالُهُ أفهامُهُم[5]، وإلاَّ؛ فمِن المعلومِ أنَّ باعثَهُ على ذٰلكَ الشُّكرِ أمرٌ يَجِلُّ عنِ الوصفِ ولا تَنالُهُ العبارةُ ولا الأذهانُ. فأينَ هٰذا الشُّهودُ مِن شهودِ طائفةِ القَدَريَّةِ والجَبْرِيَّةِ!

فلْيَعْرِضِ العاقلُ اللبيبُ ذَيْنِكَ المشهدينِ على هٰذا المشهدِ، ولْيَنْظُرْ ما بينَ الأمرينِ مِن التَّفاوتِ! فاللهُ سبحانَهُ يُعْبَدُ ويُحْمَدُ ويُحَبُّ لأنَّهُ أهلٌ لذٰلكَ ومستحِقُّهُ، بل ما يَسْتَحِقُّهُ سبحانَهُ مِن عبادِهِ أمرٌ لا تَنالُهُ قدرتُهُم ولا إرادتُهُم ولا تَتَصَوَّرُهُ عقولُهُم ولا

---

(١) في ط: «التامّ في كلّ وجه»! وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

(٢) في ط: «وإذا كانت أحبّ»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) كذا ذكره جماعة من أهل العلم، فإن صحّ ـ وما إخاله ـ فلم أتبيّن وجهه.

(٤) رواه: البخاري (٦٥ـ التفسير، ٢ـ ليغفر لك الله، ٨/ ٥٨٤/ ٤٨٣٦ و٤٨٣٧)، ومسلم (٥٠ـ المنافقين، ١٨ـ إكثار الأعمال، ٤/ ٢١٧١/ ٢٨١٩ و٢٨٢٠)؛ من حديث المغيرة وعائشة على الترتيب.

(٥) وذٰلك لأنّ هٰذه الأمور أعمق من أن يعبّر عنها بالكلمات، ولا تدرك إلاّ بالذوق والممارسة العمليّة. وحاشا ابن القيّم أن يُفهم من كلامه أنّ من بعد الصحابة أدركوا وفهموا ما لم يدركه الصحابة رضوان الله عليهم ولم يفهموه!

يُمْكِنُ أحدًا مِن خلقِهِ[(١)] قطُّ أَنْ يَعْبُدَهُ حقَّ عبادتِهِ ولا يُوَفِّيَهُ حقَّهُ مِن المحبَّةِ والحمدِ.

ولهٰذا قالَ أفضلُ خلقِهِ وأكملُهُم وأعرفُهُم بِهِ وأحبُّهُم إليهِ وأطوعُهُم لهُ: «لا أُحْصِي ثناءً عليكَ»[(٢)].

وأَخْبَرَ أنَّ عملَهُ ﷺ لا يَسْتَقِلُّ بالنَّجاةِ فقالَ: «لن يُنْجِيَ أحدًا منكُم عملُهُ». قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ! قالَ: «ولا أنا؛ إلاَّ أنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ برحمةٍ منهُ وفضلٍ»[(٣)]. عليهِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عددَ ما خَلَقَ في السَّماءِ وعددَ ما خَلَقَ في الأرضِ وعددَ ما بينَهُما وعددَ ما هوَ خالقٌ.

وفي الحديثِ المرفوعِ المشهورِ: «إنَّ مِن الملائكةِ مَن هوَ ساجدٌ للهِ لا يَرْفَعُ رأْسَهُ منذُ خُلِقَ، ومنهُم راكعٌ لا يَرْفَعُ رأْسَهُ مِن الرُّكوعِ منذُ خُلِقَ إلى يومِ القيامةِ، وإنَّهُم يَقولونَ يومَ القيامةِ: سبحانَكَ! ما عَبَدْناكَ حقَّ عبادتِكَ»[(٤)].

---

(١) في ط: «ولا يمكن أحد من خلقه»! ولا يصحّ نحويًّا إلاّ بنصب «أحد».

(٢) رواه مسلم (٤ـ الصلاة، ٤٢ـ ما يقال في الركوع والسجود، ٢/٥٠٨/٤٨٦) من حديث أبي هريرة عن عائشة رضي الله عنهما.

(٣) رواه: البخاري (٨١ـ الرقاق، ١٨ـ القصد والمداومة، ١١/٢٩٤/٦٤٦٣)، ومسلم (٥٠ـ المنافقين، ١٧ـ لن يدخل أحد الجنّة بعمله، ٤/٢١٦٩/٢٨١٦)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) **(صحيح)**. وقد جاء عن جماعة من الصحابة وغيرهم:

* فرواه: ابن نصر في «الصلاة» (٢٦٠)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥١٧)، والخطيب في «التاريخ» (١٢/٣٠٦)؛ من طريقين قويّتين، عن عبّاد بن منصور، سمعت عديّ بن أرطاة يخطب على منبر المدائن، سمعت فلانًا ما بيني وبين رسول الله ﷺ غيره؛ قال: قال ﷺ... فذكره. قال ابن كثير (٤/٤٠٣): «إسناده لا بأس به». قلت: في الشواهد لحال عبّاد؛ فإنّه ليّن. وعديّ فقويّ الحديث، وجهالة الصحابيّ لا تضرّ.

* ورواه: ابن نصر في «الصلاة» (٢٥٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥٣٦)، والحاكم (٣/٨٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٦)؛ من طريق إسحاق بن محمّد بن إسماعيل الفرويّ، ثنا عبدالملك بن قدامة الجمحي، عن عبدالرحمٰن بن عبدالله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر، عن عمر... رفعه بنحوه في سياق. قال الحاكم: «على شرط البخاري». وردّه الذهبي فقال: «منكر غريب، وما هو على شرط البخاري، عبدالملك ضعيف تفرّد به». قلت: النكارة راجعة إلى السياق، وأمّا هٰذه القطعة بالتحديد؛ فليست كذٰلك، وإنّما هي ضعيفة فحسب لحال الفروي وعبدالملك وعبدالرحمٰن فثلاثتهم ليّنون.

لكن رواه ابن نصر (٢٥٨) من طريق أخرى، عن الحسن، عن عمر... رفعه. وهٰذا واهٍ: الطريق إلى الحسن فيها ضعف وانقطاع، والحسن لم يلحق عمر.

* ورواه: الطبراني (٢/١٨٤/١٧٥١) وفي «الأوسط» (٣٥٩٢) من طريق عروة بن مروان، ثنا =

ولمَّا كانَتْ عبادتُهُ تَعالى تابعةً لمحبَّتِهِ وإجلالِهِ، وكانَتِ المحبَّةُ نوعينِ: محبَّةً تَنْشَأُ عنِ الإنعامِ والإحسانِ فتُوجِبُ شكرًا وعبوديَّةً بحسبِ كمالِها ونقصانِها، ومحبَّةً تَنْشَأُ عن جمالِ المحبوبِ وكمالِهِ فتوجِبُ عبوديَّةً وطاعةً أكملَ مِن الأُولى؛ كانَ الباعثُ على الطَّاعةِ والعبوديَّةِ لا يَخْرُجُ عن هٰذينِ النَّوعينِ. وأمَّا أنْ تَقَعَ الطَّاعةُ صادرةً عن خوفٍ محضٍ غيرِ مقرونٍ بمحبَّتِهِ؛ فهٰذا قد ظَنَّهُ كثيرٌ مِن المتكلِّمينَ، وهيَ عندَهُم غايةُ المعارفِ بناءً على أصلِهِمُ الباطلِ أنَّ اللهَ لا تَتَعَلَّقُ المحبَّةُ بذاتِهِ وإنَّما تَتَعَلَّقُ بمخلوقاتِهِ ممَّا في الجنَّةِ مِن النَّعيمِ، فهُم لا يُحِبُّونَهُ لذاتِهِ ولا لإحسانِهِ، ويُنْكِرونَ محبَّتَهُ لذٰلكَ، وإنَّما المحبوبُ عندَهُم في الحقيقةِ غيرُهُ! وهٰذا مِن أبطلِ الباطلِ! وسَنَذْكُرُ في القسمِ الثَّاني إنْ شاءَ اللهُ مِن هٰذا الكتابِ بطلانَ هٰذا المذهبِ مِن أكثرِ مِن مئةِ وجهٍ[1].

ولو عَرَفَ القومُ صفاتِ الأرواحِ وأحكامَها؛ لَعَلِموا أنَّ طاعةَ مَن لا تَجِبُ عبادتُهُ محالٌ، وأنَّ مَن أتى بصورةِ الطَّاعةِ خوفًا مجرَّدًا عنِ الحبِّ؛ فليسَ بمطيعٍ ولا عابدٍ وإنَّما هوَ كالمكرَهِ أو كأجيرِ السُّوءِ الذي إنْ أُعْطِيَ عَمِلَ وإنْ لمْ يُعْطَ كَفَرَ وأبِقَ. وسَيَرِدُ عليكَ بسطُ الكلامِ في هٰذا عن قريبٍ إنْ شاءَ اللهُ[2].

والمقصودُ أنَّ الطَّاعةَ والعبادةَ النَّاشئةَ عن محبَّةِ الكمالِ والجمالِ أعظمُ مِن الطَّاعةِ النَّاشئةِ عن رؤيةِ الإنعامِ والإحسانِ[3]. وفرقٌ عظيمٌ بينَ ما تَعَلَّقَ بالحيِّ الذي لا يَموتُ

= عبيدالله بن عمرو، عن عبدالكريم بن مالك الجزري، عن عطاء، عن جابر... رفعه بنحوه. قال الهيثمي (١٠/ ٣٦١): «عروة بن مروان قال الدارقطني: ليس بقويّ في الحديث، وبقيّة رجاله رجال الصحيح».

* ورواه ابن نصر في «الصلاة» (٢٥٧) من طريق لا بأس بها، عن سعيد بن جبير... مرسلاً بنحوه.

* ورواه أبو الشيخ في «العظمة» (٢٥٦ و٥١٨) من طريق قويّة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي عيسى... موقوفًا بنحوه. وله حكم الإرسال، لٰكنّ أبا عيسى هٰذا لا يعرف.

* وللقطعة الأخيرة منه (مقولة الملائكة) شاهد صحيح عند: الآجرّي في «الشريعة» (٣٨٢)، والحاكم (٤/ ٥٨٦)، و«زوائد يحيى على الزهد» (١٣٥٧)؛ من حديث سلمان.

فهٰذه طرق عدّة موصولة ومرسلة يسيرة الضعف، لا ينبغي معها التوقّف في تصحيح القدر الذي أورده ابن القيّم هنا من الحديث. والله أعلم.

(١) تقدّم بسط القول في القسم الثاني من الكتاب (١/ ٣٠-٣٢)، فراجعه إن شئت كان الله لك.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) وهٰذه بدورها أكمل وأعظم من الطاعة الناشئة عن الخوف. وانظر ما بعده.

وبينَ ما تَعَلَّقَ بالمخلوقِ وإنْ شَمَلَ النَّوعينِ ٱسمُ المحبَّةِ، ولٰكنْ؛ كم بينَ مَن يُحِبُّكَ لذاتِكَ وأوصافِكَ وجمالِكَ وبينَ مَن يُحِبُّكَ لخيرِكَ ودراهِمِكَ(١)!

فصلٌ: والأسماءُ الحسنى والصِّفاتُ العُلا مقتضيةٌ لآثارِها مِن العبوديَّةِ والأمرِ ٱقتضاءَها لآثارِها مِن الخلقِ والتَّكوينِ، فلكلِّ صفةٍ عبوديَّةٌ خاصَّةٌ هيَ مِن موجَباتِها ومقتضياتِها؛ أعْني: مِن موجَباتِ العلمِ بها والتَّحقُّقِ بمعرفتِها، وهٰذا مطَّردٌ في جميعِ أنواعِ العبوديَّةِ التي على القلبِ والجوارحِ:

فعلمُ العبدِ بتفرُّدِ الرَّبِّ تَعالى بالضَّرِّ والنَّفعِ والعطاءِ والمنعِ والخلقِ والرِّزقِ والإحياءِ والإماتةِ يُثْمِرُ لهُ عبوديَّةَ التَّوكُّلِ عليهِ باطنًا ولوازمَ التَّوكُّلِ وثمراتِهِ ظاهرًا.

وعلمُهُ بسمعِهِ تَعالى وبصرِهِ وعلمِهِ وأنَّهُ لا يَخْفى عليهِ مثقالُ ذرَّةٍ في السَّماواتِ والأرضِ وأنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأخفى ويَعْلَمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخْفي الصُّدورُ يُثْمِرُ لهُ: حفظَ لسانِهِ وجوارحِهِ وخطراتِ قلبِهِ عن كلِّ ما لا يُرْضي اللهَ، وأنْ يَجْعَلَ تعلُّقَ هٰذهِ الأعضاءِ بما يُحِبُّهُ اللهُ ويَرْضاهُ، فيُثْمِرُ لهُ ذٰلكَ الحياءَ باطنًا، ويُثْمِرُ لهُ الحياءُ ٱجتنابَ المحرَّماتِ والقبائحِ.

ومعرفتُهُ بغناهُ وجودِهِ وكرمِهِ وبرِّهِ وإحسانِهِ ورحمتِهِ تُوجِبُ لهُ سعةَ الرَّجاءِ، ويُثْمِرُ لهُ ذٰلكَ مِن أنواعِ العبوديَّةِ الظَّاهرةِ والباطنةِ بحسبِ معرفتِهِ وعلمِهِ.

وكذٰلكَ معرفتُهُ بجلالِ اللهِ وعظمتِهِ وعزِّهِ تُثْمِرُ لهُ الخضوعَ والاستكانةَ والمحبَّةَ، وتُثْمِرُ لهُ تلكَ الأحوالُ الباطنةُ أنواعًا مِن العبوديَّةِ الظَّاهرةِ هيَ موجَباتُها.

وكذٰلكَ علمُهُ بكمالِهِ وجمالِهِ وصفاتِهِ العلا يُوجِبُ لهُ محبَّةً خاصَّةً تُنْزِلُهُ(٢) أنواعَ العبوديَّةِ.

فرَجَعَتِ العبوديَّةُ كلُّها إلى مقتضى الأسماءِ والصِّفاتِ وٱرْتَبَطَتْ بها ٱرتباطَ الخلقِ

---

(١) وهٰذا حسن لطيف إن وقفت فيه عند هٰذا الحدّ. وبالغ جماعة من ضلّال الصوفيّة فقالوا: لا نعبده طمعًا بجنّته ولا خوفًا من ناره بل حبًّا به أو لأنّه يستحقّ أن يعبد أو نحو هٰذا! وهٰذا غرور وتنطّع مردود على أصحابه بصريح الكتاب وصحيح السنّة، وقد توسّع ابن القيّم يرحمه الله في بيان عواره في غيرما كتاب.

(٢) في ط: «خاصّة بمنزلة»! وهو تحريف لا معنى له.

بها، فخلقُهُ سبحانَهُ وأمرُهُ هوَ موجَبُ أسمائِهِ وصفاتِهِ في العالَمِ وآثارُها ومقتضاها؛ لأنَّهُ لا يَتزَيَّنُ مِن عبادِهِ بطاعتِهِم ولا تَشِينُهُ معصيتُهُم.

وتأمَّلْ قولَهُ ﷺ في الحديثِ الصَّحيحِ الذي يَرْويهِ عن ربِّهِ تَبارَكَ وتَعالى[1]: «يا عبادي! إنَّكُم لَنْ تَبْلُغوا ضرِّي فتَضُرُّوني، ولَنْ تَبْلُغوا نفعي فتَنْفَعوني».

ذَكَرَ هٰذا عَقِبَ قولِهِ: «يا عبادي! إنَّكُم تُخْطِئونَ بالليلِ والنَّهارِ، وأنا أغْفِرُ الذُّنوبَ جميعًا، فاْسْتَغْفِروني أغْفِرْ لكُم». فتَضَمَّنَ ذٰلكَ أنَّ ما يَفْعَلُهُ تَعالى بِهِم في غفرانِ زلَّاتِهِم وإجابةِ دعواتِهِم وتفريجِ كرباتِهِم ليسَ لجلبِ منفعةٍ منهُم ولا لدفعِ مضرَّةٍ يَتَوَقَّعُها منهُم كما هوَ عادةُ المخلوقِ الذي يَنْفَعُ غيرَهُ لِيُكافِئَهُ بنفعِ مثلِهِ أو لِيَدْفَعَ عنهُ ضررًا، فالرَّبُّ تَعالى لَمْ يُحْسِنْ إلى عبادِهِ لِيُكافِئوهُ ولا لِيَدْفَعوا عنهُ ضررًا.

فقالَ: «لَنْ تَبْلُغوا نفعي فتَنْفَعوني، ولَنْ تَبْلُغوا ضرِّي فتَضُرُّوني»: إنِّي لستُ إذا هَدَيْتُ مستهديَكُم وأطْعَمْتُ مستطعمَكُم وكَسَوْتُ مستكسيَكُم وأرْوَيْتُ مستسقيَكُم وكَفَيْتُ مستكفيَكُم وغَفَرْتُ لمستغفرِكُم بالذي أطْلُبُ منكُم أنْ تَنْفَعوني أو تَدْفَعوا عنِّي ضررًا؛ فإنَّكُم لَن تَبْلُغوا ذٰلكَ وأنا الغنيُّ الحميدُ؛ كيفَ والخلقُ عاجزونَ عمَّا يَقْدِرونَ عليهِ مِن الأفعالِ إلَّا بإقدارِهِ وتيسيرِهِ وخلقِهِ؟! فكيفَ بما لا يَقْدِرونَ عليهِ؟! فكيفَ يَبْلُغونَ نفعَ الغنيِّ الصَّمدِ الذي يَمْتَنِعُ في حقِّهِ أنْ يَسْتَجْلِبَ مِن غيرِهِ نفعًا أو يَسْتَدْفِعَ منهُ ضررًا بل ذٰلك مستحيلٌ في حقِّهِ؟!

ثمَّ ذَكَرَ بعدَ هٰذا قولَهُ: «يا عبادي! لو أنَّ أوَّلَكُم وآخرَكُم وإنسَكُم وجنَّكُم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكُم؛ ما زادَ ذٰلكَ في ملكي شيئًا، ولو أنَّ أوَّلَكُم وآخرَكُم وإنسَكُم وجنَّكُم كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ منكُم؛ ما نَقَصَ ذٰلكَ مِن ملكي شيئًا»: فبَيَّنَ سبحانَهُ أنَّ ما أمَرَهُم بِهِ مِن الطَّاعاتِ وما نَهاهُم عنهُ مِن السَّيِّئاتِ لا يَتَضَمَّنُ اْستجلابَ نفعِهِم ولا اْستدفاعَ ضررِهِم كأمرِ السَّيِّدِ عبدَهُ والوالدِ ولدَهُ والإمامِ رعيَّتَهُ بما يَنْفَعُ الآمرَ والمأمورَ ونهيِهِم عمَّا يَضُرُّ النَّاهيَ والمنهيَّ، فبَيَّنَ تَعالى أنَّهُ المنزَّهُ عن لحوقِ

---

(١) رواه مسلم (٤٥ـ البرّ والصلة، ١٥ـ تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤/ ٢٥٧٧) من حديث أبي ذرّ.

نفعِهِم وضرِّهِم بهِ في إحسانِهِ إليهِم بما يَفْعَلُهُ بهِم وبما يَأْمُرُهُم بهِ.

ولهٰذا ذَكَرَ[١] الأصلينِ بعدَ هٰذا وأنَّ تقواهُم وفجورَهُمُ الذي هوَ طاعتُهُم ومعصيتُهُم لا يَزيدُ في ملكِهِ شيئًا ولا يَنْقُصُهُ وأنَّ نسبةَ ما يَسْألونَهُ كلُّهُم إيَّاهُ فيُعْطيهِم إلى ما عندَهُ كلا نسبةٍ فتَضَمَّنَ ذٰلكَ: أنَّهُ لمْ يَأْمُرْهُم ولمْ يُحْسِنْ إليهِم بإجابةِ الدَّعواتِ وغفرانِ الزَّلَّاتِ وتفريجِ الكرباتِ لاستجلابِ منفعةٍ ولا لاستدفاعِ مضرَّةٍ، وأنَّهُم لو أطاعوهُ كلُّهُم لمْ يَزيدوا في ملكِهِ شيئًا ولو عَصَوْهُ كلُّهُم لمْ يَنْقُصوا مِن ملكِهِ شيئًا، وأنَّهُ الغنيُّ الحميدُ.

ومَن كانَ هٰكذا؛ فإنَّهُ لا يَتَزَيَّنُ بطاعةِ عبادِهِ ولا تَشينُهُ معاصيهِم، ولٰكنْ لهُ مِن الحِكمِ البوالغِ في تكليفِ عبادِهِ وأمرِهِم ونهيِهِم ما يَقْتَضيهِ ملكُهُ التَّامُّ وحمدُهُ وحكمتُهُ.

ولو لمْ يَكُنْ في ذٰلكَ إلَّا أنَّهُ يَسْتَوْجِبُ مِن عبادِهِ شكرَ نعمِهِ التي لا تُحْصى بحسبِ قُواهُم وطاقتِهِم لا بحسبِ ما يَنْبَغي لهُ؛ فإنَّهُ أعظمُ وأجلُّ مِن أنْ يَقْدِرَ خلقُهُ عليهِ، ولٰكنَّهُ سبحانَهُ يَرْضى مِن عبادِهِ بما تَسْمَحُ بهِ طبائعُهُم وقواهُم؛ فلا شيءَ أحسنُ في العقولِ والفطرِ مِن شكرِ المنعمِ ولا أنفعُ للعبدِ منهُ.

فهٰذانِ مسلكانِ آخرانِ في حسنِ التَّكليفِ والأمرِ والنَّهيِ: أحدُهُما: يَتَعَلَّقُ بذاتِهِ وصفاتِهِ، وأنَّهُ أهلٌ لذٰلكَ، وأنَّ جمالَهُ تعالى وكمالَهُ وأسماءَهُ وصفاتِهِ تَقْتَضي مِن عبادِهِ غايةَ الحبِّ والذُّلِّ والطَّاعةِ لهُ. والثَّاني: متعلِّقٌ بإحسانِهِ وإنعامِهِ، ولا سيَّما معَ غناهُ عن عبادِهِ، وأنَّهُ إنَّما يُحْسِنُ إليهِم رحمةً منهُ وجودًا وكرمًا لا لمعاوضةٍ ولا لاستجلابِ منفعةٍ ولا لدفعِ مضرَّةٍ. وأيُّ المسلكينِ سَلَكَهُ العبدُ؛ أوْقَفَهُ على محبَّتِهِ وبذلِ الجهدِ في مرضاتِهِ.

فأينَ هٰذانِ المسلكانِ مِن ذينِكَ المسلكينِ[٢]؟!

وإنَّما أُتِيَ القومُ مِن إنكارِهِمُ المحبَّةَ، وذٰلكَ الذي حَرَمَهُم مِن العلمِ والإيمانِ ما حَرَمَهُم وأوْجَبَ لهُم سلوكَ تلكَ الطُّرقِ المسدودةِ. واللهُ الفتَّاحُ العليمُ.

● **الوجهُ الثَّامنُ والأربعونَ**: قولُكُم «فلا تكونُ نعمُهُ تعالى ثوابًا بلِ ٱبتداءً» كلامٌ

---

(١) في ط: «ولهٰذا لمّا ذكر»! ولا محلّ لـ «لمّا» هنا!

(٢) يريد مسلكي الجبريّة والقدريّة اللذين تقدّما (٢/ ٤٣٣).

يَحْتَمِلُ حقًّا وباطلاً:

فإنْ أرَدْتُم بهِ أنَّهُ لا يُثِيبُهُم على أعمالِهِم بالجنَّةِ ونعيمِها ويَجْزِيهِم بأحسنِ ما كانوا يَعْمَلونَ؛ فهوَ باطلٌ. والقرآنُ أعظمُ شاهدٍ ببطلانِهِ: قالَ تَعالى: ﴿فَالَّذِينَ هاجَروا وَأُخْرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأُوذوا في سَبيلي وَقاتَلوا وَقُتِلوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ ثَوابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقالَ تَعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذي عَمِلوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذي كانوا يَعْمَلونَ﴾ [الزمر: ٣٥]، وقالَ تَعالى: ﴿وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتي أُورِثْتُموها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقالَ تَعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ قالوا رَبُّنا اللهُ ثُمَّ اسْتَقاموا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ . أُولَئِكَ أَصْحابُ الجَنَّةِ خالِدينَ فيها جَزاءً بِما كانوا يَعْمَلونَ﴾ [الأحقاف: ١٣-١٤]، وقالَ تَعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ خالِدينَ فيها وَنِعْمَ أَجْرُ العامِلينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦]، وقالَ تَعالى: ﴿وَالَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الجَنَّةِ غُرَفًا تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ خالِدينَ فيها نِعْمَ أَجْرُ العامِلينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨]. . . وهٰذا في القرآنِ كثيرٌ، يُبَيِّنُ أنَّ الجنَّةَ ثوابُهُم وجزاؤُهُم. فكيفَ يُقالُ: لا تكونُ نعمُهُ ثوابًا على الإطلاقِ؟!

بل لا تكونُ نعمُهُ تَعالى في مقابلةِ الأعمالِ والأعمالُ ثمنًا لها؛ فإنَّهُ لنْ يُدْخِلَ أحدًا الجنَّةَ عملُهُ، ولا يَدْخُلُها أحدٌ إلاَّ بمجرَّدِ فضلِ اللهِ ورحمتِهِ[1]. وهٰذا لا يُنافي ما تَقَدَّمَ مِن النُّصوصِ؛ فإنَّها إنَّما تَدُلُّ على أنَّ الأعمالَ أسبابٌ لا أعواضٌ وأثمانٌ، والذي نَفاهُ النَّبيُّ ﷺ في الدُّخولِ بالعملِ هوَ نفيُ استحقاقِ العِوضِ ببذلِ عوضِهِ، فالمثبتُ باءُ السَّببيَّةِ والمنفيُّ باءُ المعاوضةِ والمقابلةِ. وهٰذا فصلُ الخطابِ في هٰذهِ المسألةِ.

والقَدَريَّةُ الجَبْرِيَّةُ: تَنْفي باءَ السَّببيَّةِ جملةً، وتُنْكِرُ أنْ تكونَ الأعمالُ سببًا في النَّجاةِ ودخولِ الجنَّةِ. وتلكَ النُّصوصُ وأضعافُها تُبْطِلُ قولَهُم.

---

(١) كذا! والذي يظهر لي أنّ لفظة «مجرّد» هنا سبق قلم، وأنّه يرحمه الله يريد «لا يدخلها أحد إلاّ بفضل الله ورحمته»، وبهٰذا يستقيم ما تقدّم من الكلام وما تأخّر ولا يتعارضان. وربّما كان الصواب «ولا يدخلها أحد بمجرّد فضل الله ورحمته». والأوّل أفضل.

والقَدَرِيَّةُ النُّفاةُ[1]: تُثْبِتُ باءَ المعاوضةِ والمقابلةِ، وتَزْعُمُ أنَّ الجنَّةَ عوضُ الأعمالِ وأنَّها ثمنٌ لها وأنَّ دخولَها إنَّما هوَ بمحضِ الأعمالِ. والنُّصوصُ النَّافيةُ لذٰلكَ تُبْطِلُ قولَهُم.

والعقلُ والفطرُ تُبْطِلُ قولَ الطَّائفتينِ، ولا يَصِحُّ في النُّصوصِ والعقولِ إلاَّ ما ذَكَرْناهُ مِن التَّفصيلِ.

وبهِ يَتَبَيَّنُ أنَّ الحقَّ معَ الوسطِ بينَ الفرقِ في جميعِ المسائلِ، لا يُسْتَثْنى مِن ذٰلكَ شيءٌ، فما ٱخْتَلَفَتِ الفرقُ إلاَّ كانَ الحقُّ معَ الوسطِ.

وكلٌّ مِن الطَّائفتينِ معَهُ حقٌّ وباطلٌ، فأصابَ الجَبْرِيَّةُ في نفيِ المعاوضةِ وأخْطَؤوا في نفيِ السَّببيَّةِ، وأصابَ القَدَرِيَّةُ في إثباتِ السَّببيَّةِ وأخْطَؤوا في إثباتِ المعاوضةِ، فإذا ضَمَمْتَ أحدَ نفيِي الجَبْرِيَّةِ إلى أحدِ إثباتِي القَدَرِيَّةِ ونَفَيْتَ باطلَهُما؛ كُنْتَ أسعدَ بالحقِّ منهُما.

فإنْ أرَدْتُم بأنَّ نعمَهُ لا تكونُ ثوابًا هٰذا القدرَ وأنَّها لا تكونُ عوضًا، بل هوَ المنعمُ بالأعمالِ والثَّوابِ، ولهُ المنَّةُ في هٰذا وهٰذا، ونعمُهُ بالثَّوابِ مِن غيرِ ٱستحقاقٍ ولا ثمنٍ يُعاوَضُ عليهِ بل فضلٌ منهُ وإحسانٌ؛ فهٰذا هوَ الحقُّ، فهوَ المانُّ بهدايتِهِ للإيمانِ وتيسيرِهِ للأعمالِ وإحسانِهِ بالجزاءِ، كلُّ ذٰلكَ مجرَّدُ منَّتِهِ وفضلِهِ. قالَ تَعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أنْ أسْلَموا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أنْ هَداكُمْ لِلإيمانِ إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

● **الوجهُ التَّاسعُ والأربعونَ:** قولُكُم: «وإذا تَعارَضَ في العقولِ هٰذانِ الأمرانِ؛ فكيفَ يَهْتَدي العقلُ إلى ٱختيارِ أحدِهما؟!».

قُلْنا: قد تَبَيَّنَ بحمدِ اللهِ أنَّهُ لا تعارضَ في العقولِ بينَ الأمرينِ أصلاً، وإنَّما يُقَدَّرُ التَّعارضُ بينَ العقلِ والهوى. وأمَّا أنْ يَتَعارَضَ في العقولِ إرشادُ العبادِ إلى سعادتِهِم في المعاشِ والمعادِ وتركُهُم هملاً كالأنعامِ السَّائمةِ لا يَعْرِفونَ معروفًا ولا يُنْكِرونَ منكرًا؛

---

(١) يعني: القدريّة الحقّة من المعتزلة ونحوهم.

فلمْ يَتَعارَضْ هٰذانِ في عقلٍ صحيحٍ أبدًا.

● **الوجهُ الخمسونَ**: قولُكُم: «فكيفَ يُعَرِّفُنا العقلُ وجوبًا على نفسِهِ بالمعرفةِ وعلى الجوارحِ بالطَّاعةِ وعلى الرَّبِّ بالثَّوابِ والعقابِ؟!».

فيُقالُ: وأيُّ ٱستبعادٍ في ذٰلكَ؟! وما الذي يُحيلُهُ؟!

فقد عَرَّفَنا العقلُ مِن الواجباتِ عليهِ ما يَقْبُحُ مِن العبدِ تركُها، كما عَرَّفَنا وعَرَّفَ أهلَ العقولِ وذوي الفطرِ التي لمْ تَتَواطأْ على الأقوالِ الفاسدةِ وجوبَ الإقرارِ باللهِ وربوبيَّتِهِ وشكرِ نعمتِهِ ومحبَّتِهِ، وعَرَّفَنا قبحَ الإشراكِ بهِ والإعراضِ عنهُ ونسبتِهِ إلى ما لا يَليقُ بهِ، وعَرَّفَنا قبحَ الفواحشِ والظُّلمِ والإساءةِ والفجورِ والكذبِ والبهتِ والإثمِ والبغيِ والعدوانِ؛ فكيفَ نَسْتَبْعِدُ مِن أنْ يُعَرِّفَنا وجوبًا على نفسِهِ بالمعرفةِ وعلى الجوارحِ بالشُّكرِ المقدورِ المستحسنِ في العقولِ التي جاءَتِ الشَّرائعُ بتفصيلِ ما أَدْرَكَهُ العقلُ منهُ جملةً وبتقريرِ ما أَدْرَكَهُ تفصيلاً؟!

وأمَّا الوجوبُ على اللهِ بالثَّوابِ والعقابِ؛ فهٰذا ممَّا تَتَبايَنُ فيهِ الطَّائفتانِ أعظمَ تباينٍ:

فأثْبَتَتِ القَدَرِيَّةُ مِن المُعْتَزِلَةِ عليهِ تَعالى وجوبًا عقليًّا وَضَعوهُ شريعةً لهُ بعقولِهِم وحَرَّموا عليهِ الخروجَ عنهُ وشَبَّهوهُ في ذٰلكَ كلِّهِ بخلقِهِ! وبَدَّعَهُم في ذٰلكَ سائرُ الطَّوائفِ وسَفَّهوا رأيَهُم فيهِ وبيَّنوا مناقضتَهُم وألْزَموهُم بما لا محيدَ لهُم عنهُ.

ونَفَتِ الجَبْرِيَّةُ أنْ يَجبَ عليهِ ما أَوْجَبَهُ على نفسِهِ ويَحْرُمَ عليهِ ما حَرَّمَهُ على نفسِهِ، وجَوَّزوا عليهِ ما يَتَعالى ويَتَنَزَّهُ عنهُ وما لا يَليقُ بجلالِهِ ممَّا حَرَّمَهُ على نفسِهِ، وجَوَّزوا عليهِ تركَ ما أَوْجَبَهُ على نفسِهِ ممَّا يَتَعالى ويَتَنَزَّهُ عن تركِهِ وفعلِ ضدِّهِ!

فتَبايَنَ الطَّائفتانِ أعظمَ تباينٍ. وهَدى اللهُ الذينَ آمَنوا أهلَ السُّنَّةِ الوسطَ للطَّريقةِ المثلى التي جاءَ بها رسولُهُ ونَزَلَ بها كتابُهُ، وهيَ: أنَّ العقولَ البشريَّةَ بل وسائرَ المخلوقاتِ لا تُوجِبُ على ربِّها شيئًا ولا تُحَرِّمُهُ وأنَّهُ يَتَعالى ويَتَنَزَّهُ عن ذٰلكَ. وأمَّا ما كَتَبَهُ على نفسِهِ وحَرَّمَهُ على نفسِهِ؛ فإنَّهُ لا يُخِلُّ بهِ ولا يَقَعُ منهُ خلافُهُ، فهوَ إيجابٌ منهُ على نفسِهِ بنفسِهِ وتحريمٌ منهُ على نفسِهِ بنفسِهِ، فليسَ فوقَهُ تَعالى موجِبٌ ولا محرِّمٌ.

وسَيَأْتي إنْ شاءَ اللهُ بسطُ ذٰلكَ وتقريرُهُ»[١].

● **الوجهُ الحادي والخمسونَ**: قولُكُم: «إنَّهُ على أُصولِ المُعْتَزِلَةِ يَسْتَحيلُ الأمرُ والنَّهيُ والتَّكليفُ»، وتقريرُكُم ذٰلكَ[٢]؛ فكلامٌ لا مطعنَ فيهِ، والأمرُ فيهِ كما ذَكَرْتُم، وأنَّ حقيقةَ قولِ القومِ أنَّهُ لا أمرٌ ولا نهيٌ ولا شرعٌ أصلاً[٣]؛ إذْ ذٰلكَ إنَّما يَصِحُّ إذا ثَبَتَ قيامُ الكلامِ بالمرسِلِ الآمرِ النَّاهي وقيامُ الاقتضاءِ والطَّلبِ والحبِّ لِما أمَرَ بهِ والبغضِ لِما نَهى عنهُ، فأمَّا إذا لمْ يَثْبُتْ لهُ كلامٌ ولا إرادةٌ ولا اقتضاءٌ ولا طلبٌ ولا حبٌّ ولا بغضٌ قائمٌ بهِ؛ فإنَّهُ لا يُعْقَلُ أصلاً كونُهُ آمرًا ولا ناهيًا ولا باعثًا للرُّسلِ ولا محبًّا للطَّاعةِ باغضًا للمعصيةِ! فأُصولُ هٰذهِ الطَّائفةِ [في] تعطيلِ الصِّفاتِ [وتجريدِ الموصوفِ] عن صفاتِ كمالِهِ[٤]؛ فإنَّها تَسْتَلْزِمُ إبطالَ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ جملةً.

ولٰكنْ؛ ربَّ لازمٍ لا يَلْتَزِمُهُ صاحبُ المقالةِ، ويَتَناقَضُ في القولِ بملزومِهِ دونَ القولِ بهِ. ولا ريبَ أنَّ فسادَ اللازمِ مستلزمٌ لفسادِ الملزومِ[٥].

ولٰكنْ يُقالُ لكُم معاشرَ الجَبْرِيَّةِ: لا تكونوا ممَّن يَرى القذاةَ في عينِ أخيهِ ولا يَرى الجذعَ المعترِضَ في عينِهِ! فقد ألْزَمَتْكُمُ القَدَرِيَّةُ ما لا محيدَ لكُم عنهُ، وقالوا: مَن نَفى فعلَ العبدِ جملةً؛ فقد عَطَّلَ الشَّرائعَ والأمرَ والنَّهيَ؛ فإنَّ الأمرَ والنَّهيَ لا يَتَعَلَّقُ إلاَّ بالفعلِ المأمورِ بهِ، فهوَ الذي يُؤْمَرُ بهِ ويُنْهى عنهُ ويُثابُ عليهِ ويُعاقَبُ، فإذا نَفَيْتُم فعلَ العبدِ؛ رَفَعْتُمْ متعلَّقَ الأمرِ والنَّهيِ، وفي ذٰلكَ إبطالُ الأمرِ والنَّهيِ! فلا فرقَ بينَ رفعِ المأمورِ بهِ المنهيِّ عنهُ ورفعِ المأمورِ المنهيِّ نفسِهِ؛ فإنَّ الأمرَ يَسْتَلْزِمُ آمرًا ومأمورًا بهِ، ولا تَصِحُّ لهُ حقيقةٌ إلاَّ بهٰذهِ الثَّلاثِ! ومعلومٌ أنَّ أمرَ الآمرِ بفعلِ نفسِهِ ونهيَهُ عن

---

(١) فيما يأتي (٢/ ٤٦٦ وما بعدها).

(٢) في ط: «وتقديركم ذٰلك»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) بالنظر إلى لوازمه كما سيأتي بعد سطور. والمعتزلة؛ فإنّهم يثبتون أمرًا ونهيًا وشرعًا وحكمةً، وهم خير من الجبريّة والأشاعرة من هٰذا الوجه.

(٤) في ط: «هٰذه الطائفة تعطّل الصفات عن صفات كماله»! والغالب أنّه مطبعيّ.

(٥) لاحظ إنصاف أهل السنّة! بيّن يرحمه الله لازم قول المعتزلة، ولٰكنّه لم يحمله عليهم ولا حمّلهم جريرته، بل اكتفى بتقريره بيانًا لفساد الأصل الذي قام عليه. خلافًا لأعداء السنّة وأهلها، الذين يبنون اللازم على اللازم بأوهامهم وأهوائهم، ثمّ يحمّلونها لأهل السنّة وينسبونها لهم وربّما كفّروهم بها. والله حسيبهم.

[فعلِ][(١)] نفسِهِ يُبْطِلُ التَّكليفَ جملةً؛ فإنَّ التَّكليفَ لا يُعْقَلُ معناهُ إلَّا إذا كانَ المكلَّفُ قد كُلِّفَ بفعلِهِ الذي هوَ المقدورُ لهُ التَّابعُ لإرادتِهِ ومشيئتِهِ، وأمَّا إذا رَفَعْتُم ذٰلكَ مِن البينِ وقُلْتُم: بل هوَ مكلَّفٌ بفعلٍ للهِ حقيقةً[(٢)] لا يَدْخُلُ تحتَ قدرةِ العبدِ؛ لا هوَ متمكِّنٌ مِن الإتيانِ بهِ ولا هوَ واقعٌ بإرادتِهِ ومشيئتِهِ؛ فقد نَفَيْتُمُ التَّكليفَ جملةً مِن حيثُ أثْبَتوهُ[(٣)]، وفي ذٰلكَ إبطالٌ للشَّرائعِ والرِّسالةِ جملةً.

قالوا: فَلْيَتَأَمَّلِ المنصفُ الفطِنُ لا البليدُ المتعصِّبُ صحَّةَ هٰذا الإلزامِ؛ فلنْ يَجِدَ عنهُ محيدًا!

قالوا: فأنتُم معاشرَ الجَبْرِيَّةِ قَدَرِيَّةٌ مِن حيثُ نفيُكُمُ الفعلَ المأمورَ بهِ. فإنْ كانَ خصومُكُم قَدَرِيَّةً مِن حيثُ نَفَوا تَعَلُّقَ القدرةِ القديمةِ [بهِ][(٤)]؛ فأنتم أولى أنْ تكونوا قَدَرِيَّةً مِن حيثُ نَفَيْتُم فعلَ العبدِ لهُ وتأثيرَهُ فيهِ وتعلُّقَهُ بمشيئتِهِ.

فأنتُم أثْبَتُّمْ قدرًا على اللهِ وقدرًا على العبدِ: أمَّا القدرُ على اللهِ؛ فحيثُ زَعَمْتُم أنَّهُ تَعالى يَأْمُرُ بفعلِ نفسِهِ ويَنْهى عن فعلِ نفسِهِ، ومعلومٌ أنَّ ذٰلكَ لا يَصْلُحُ أنْ يكونَ مأمورًا بهِ منهيًّا عنهُ، فأثْبَتُّم أمرًا ولا مأمورًا بهِ ونهيًا ولا منهيًّا عنهُ، وهٰذهِ قَدَرِيَّةٌ محضةٌ في حقِّ الرَّبِّ. وأمَّا في حقِّ العبدِ؛ فإنَّكُم جَعَلْتُموهُ مأمورًا منهيًّا مِن غيرِ أنْ يكونَ لهُ فعلٌ يُؤْمَرُ بهِ ويُنْهى عنهُ! فأيُّ قَدَرِيَّةٍ أبلغُ مِن هٰذهِ؟! فمَنِ الذي تَضَمَّنَ قولُهُ إبطالَ الشَّرائعِ وتعطيلَ الأوامرِ؟!

فلْيَتَنَبَّهِ اللبيبُ لمواقعِ هٰذهِ[(٥)] المساجلةِ وسهامِ هٰذهِ المناضلةِ، ثمَّ لْيَخْتَرْ منهُما إحدى خطَّتينِ، ولا واللهِ ما فيهِما حظٌّ لمختارٍ.

ولا يَنْجو مِن هٰذهِ الورطاتِ إلَّا مَن: أثْبَتَ كلامَ اللهِ القائمَ بهِ المتضمِّنَ لأمرِهِ

---

(١) ساقطة من ط، ولا بدّ منها ليستقيم السياق.

(٢) في ط: «بفعل الله حقيقة»! والصواب ما أثبتّه.

(٣) يعني: من حيث أثبته المعتزلة القدريّة. وفي القلب أنّها محرّفة صوابها «أثبتّموه» أنتم؛ يعني: من حيث ظننتم أنّكم أثبتّموه وعبتم نفيه عن غيركم.

(٤) ساقطة من ط، ولا بدّ منها ليستقيم السياق.

(٥) في ط: «لمواقعة هٰذه»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

ونهيِهِ ووعدِهِ ووعيدِهِ، وأثبتَ لهُ ما أثبَتَ لنفسِهِ مِن صفاتِ كمالِهِ ومِن الأُمورِ الثُّبوتيَّةِ القائمةِ، ثمَّ أثبَتَ معَ ذٰلكَ فعلَ العبدِ وٱختيارَهُ ومشيئتَهُ وإرادتَهُ التي هيَ مناطُ الشَّرائعِ ومتعلَّقُ الأمرِ والنَّهيِ. فلا جَبْرِيٌّ ولا جَهْمِيٌّ ولا قَدَرِيٌّ!

وكيفَ يَخْتارُ العاقلُ آراءً ومذاهبَ هٰذهِ بعضُ لوازمِها؟! ولو صابَرَها إلى آخرِها؛ لاسْتَبانَ لهُ مِن فسادِها وبطلانِها ما يُتَعَجَّبُ معَهُ مِن قائلِها ومنتحلِها! واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ.

● **الوجهُ الثَّاني والخمسونَ**: قولُكُم: «إنَّهُ ما مِن معنًى يُسْتَنْبَطُ مِن قولٍ أو فعلٍ لِيُرْبَطَ بهِ معنًى مناسبٌ لهُ إلاَّ ومِن حيثُ العقلُ يُعارِضُهُ معنًى آخرُ يُساويهِ في الدَّرجةِ أو يَفْضُلُ عليهِ في المرتبةِ، فيَتَحَيَّرُ العقلُ في الاختيارِ إلى أنْ يَرِدَ شرعٌ يَخْتارُ أحدَهُما أو يُرَجِّحُهُ مِن تلقائِهِ، فيَجِبُ على العاقلِ ٱعتبارُهُ وٱختيارُهُ لترجيحِ الشَّرعِ لهُ لا لرجحانِهِ في نفسِهِ»[1]!

فيُقالُ: إنْ أَرَدْتُم بهٰذهِ المعارضةِ أنَّها ثابتةٌ في جميعِ الأفعالِ والأقوالِ المشتملةِ على الأوصافِ المناسبةِ التي رُبِطَتْ بها الأحكامُ كما يَدُلُّ عليهِ كلامُكُم؛ فدعوى باطلةٌ بالضَّرورةِ، وهوَ كذبٌ محضٌ! وكذٰلكَ إنْ أَرَدْتُم أنَّها ثابتةٌ في أكثرِها!

فأيُّ معارضةٍ في العقلِ للوصفِ القبيحِ في الكذبِ والفجورِ والظُّلمِ وإهلاكِ الحرثِ والنَّسلِ والإساءةِ إلى المحسنينَ وضربِ الوالدينِ وٱحتقارِهِما والمبالغةِ في إهانتِهِما بلا جرمٍ؟! وأيُّ معارضةٍ في العقلِ للأوصافِ القبيحةِ في الشِّركِ باللهِ ومشيئتِهِ وكفرانِ نعمِهِ؟! وأيُّ معارضةٍ في العقلِ للوصفِ القبيحِ في نكاحِ الأُمَّهاتِ وٱستفراشِهِنَّ كٱستفراشِ الإماءِ والزَّوجاتِ... إلى أضعافِ أضعافِ ما ذَكَرْنا ممَّا تَشْهَدُ العقولُ بقبحِهِ مِن غيرِ معارضٍ فيها؟! بل نحنُ لا نُنْكِرُ أنْ يَكونَ داعي الشَّهوةِ والهوى وداعي العقلِ يَتَعارَضانِ، فإنْ أَرَدْتُم هٰذا التَّعارُضَ؛ فمسلَّمٌ، ولٰكنْ لا يُجْدي عليكُم إلاَّ عكسَ مطلوبِكُم.

---

(١) كذا جاءت هٰذه الفقرة هنا بالمعنى، وقد تقدّمت (٢/ ٣٦٨) بصيغة أكثر وضوحًا، فليراجعها هناك من شاء التدقيق في كشف هذه الشبهة.

وكذٰلكَ أيُّ معارضةٍ في العقولِ للأوصافِ المقتضيةِ حسنَ عبادةِ اللهِ وشكرِهِ وتعظيمِهِ وتمجيدِهِ والثَّناءِ عليهِ بآلائِهِ وإنعامِهِ وصفاتِ جلالِهِ ونعوتِ كمالِهِ وإفرادِهِ بالمحبَّةِ والعبادةِ والتَّعظيمِ؟! وأيُّ معارضةٍ في العقولِ للأوصافِ المقتضيةِ حسنَ الصِّدقِ والبرِّ والإحسانِ والعدلِ والإيثارِ وكشفِ الكرباتِ وقضاءِ الحاجاتِ وإغاثةِ اللهفاتِ والأخذِ على أيدي الظَّالمينَ وقمعِ المفسدينَ ومنعِ البغاةِ والمعتدينَ وحفظِ عقولِ العالمينَ وأموالِهِم ودمائِهِم وأعراضِهِم بحسبِ الإمكانِ والأمرِ بما يُصْلِحُها ويُكَمِّلُها والنَّهيِ عمَّا يُفْسِدُها ويَنْقُصُها؟! وهٰذهِ حالُ جملةِ الشَّرائعِ وجمهورِها، إذا تَأَمَّلَها العقلُ؛ جَزَمَ أنَّهُ يَسْتَحيلُ على أحكمِ الحاكمينَ أنْ يَشْرَعَ خلافَها لعبادِهِ.

وأمَّا إنْ أَرَدْتُم أنَّ في بعضِ ما يَدِقُّ منها مسائلَ تَتعارَضُ فيها الأوصافُ المستنبطةُ في العقولِ فيَتَحَيَّرُ العقلُ بينَ المناسبِ منها وغيرِ المناسبِ؛ فهٰذا، وإنْ كانَ واقعًا، فإنَّهُ لا يَنْفي[1] حسنَها الذَّاتيَّ وقبحَ منهيِّها الذَّاتيَّ، وكونُ الوصفِ خفيَّ المناسبةِ والتَّأْثيرِ في بعضِ المواضعِ ممَّا لا يَدْفَعُهُ. وهٰذهِ حالُ كثيرٍ مِن الأُمورِ العقليَّةِ المحضةِ بلِ الحسِّيَّةِ.

وهٰذا الطِّبُّ معَ أنَّهُ حسِّيٌّ تجريبيٌّ يُدْرَكُ منافعُ الأغذيةِ والأدويةِ وقواها وحرارتُها وبرودتُها ورطوبتُها ويبوستُها فيهِ بالحسِّ[2]، ومعَ هٰذا؛ فأنتُم تَرَوْنَ ٱختلافَ أهلِهِ في كثيرٍ مِن مسائلِهِم في الشَّيءِ الواحدِ: هل هوَ نافعٌ كذا ملائمٌ لهُ أو منافرٌ مؤذٍ؟ وهل هوَ حارٌّ أو باردٌ؟ وهل هوَ رطبٌ أو يابسٌ؟ وهل فيهِ قوَّةٌ تَصْلُحُ لأمرٍ مِن الأُمورِ أو لا قوَّةَ فيهِ؟ ومعَ هٰذا؛ فالاختلافُ المذكورُ لا يَنْفي عندَ العقلاءِ ما جُعِلَ في الأغذيةِ والأدويةِ مِن القوى والمنافعِ والمضارِّ والكيفيَّاتِ؛ لأنَّ سببَ الاختلافِ خفاءُ تلكَ الأوصافِ على بعضِ العقلاءِ ودقَّتُها وعجزُ الحسِّ والعقلِ عن تمييزِها ومعرفةِ مقاديرِها والنِّسبِ الواقعةِ بينَ كيفيَّاتِها وطبائعِها. ولمْ يَكُنْ هٰذا الاختلافُ بموجِبٍ عندَ أحدٍ مِن العقلاءِ إنكارَ جملةِ العلمِ وجمهورَ قواعدِهِ ومسائلِهِ ودعوى أنَّهُ ما مِن وصفٍ يُسْتَنْبَطُ مِن دواءٍ مفردٍ أو مركَّبٍ أو مِن غذاءٍ إلَّا وفي العقلِ ما يُعارِضُهُ فيَتَحَيَّرُ العقلُ! ولوِ ٱدَّعى هٰذا

---

(١) في ط: «فإنّها لا تنفي»، وله وجه ضعيف، والأولى ما أثبتّه.

(٢) راجع ما تقدّم في هٰذا (١/ ٤٨).

مدّعٍ؛ لَضَحِكَ منهُ العقلاءُ ممَّا عَلِموهُ بالضَّرورةِ والحسِّ مِن ملاءمةِ الأوصافِ ومنافرتِها واْقتضاءِ تلكَ الذَّواتِ للمنافعِ والمضارِّ في الغالبِ! ولا يَكونُ اْختلافُ بعضِ العقلاءِ يُوجِبُ إنكارَ ما عُلِمَ بالضَّرورةِ والحسِّ، فهٰكذا الشَّرائعُ.

● **الوجهُ الثَّالثُ والخمسونَ:** أنَّ قولَكُم: «إذا قَتَلَ إنسانٌ إنسانًا عَرَضَ للعقلِ هاهُنا آراءٌ متعارضةٌ مختلفةٌ. . .» إلى آخرِه!

فيُقالُ: إنْ أرَدْتُم أنَّ العقلَ يُسَوِّي بينَ ما شَرَعَهُ اللهُ مِن القصاصِ وبينَ تركِهِ لمصلحةِ الجاني؛ فبهتٌ للعقلِ وكذبٌ عليهِ؛ فإنَّهُ لا يَسْتَوي عندَ عاقلٍ قطُّ حسنُ الاقتصاصِ مِن الجاني بمثلِ ما فَعَلَ وحسنُ تركِهِ والإعراضِ عنهُ، ولا يُعْلَمُ عقلٌ صحيحٌ يُسَوِّي بينَ الأمرينِ[1]! وكيفَ يَسْتَوي أمرانِ أحدُهُما يَسْتَلْزِمُ فسادَ النَّوعِ وخرابَ العالمِ وتركَ الانتصارِ للمظلومِ وتمكينَ الجناةِ مِن البغيِ والعدوانِ والثَّاني يَسْتَلْزِمُ صلاحَ النَّوعِ وعمارةَ العالمِ والانتصارَ للمظلومِ وردعَ الجناةِ والبغاةِ والمعتدينَ؟! فكانَ القصاصُ حياةَ العالمِ وصلاحَ الوجودِ، وقد نَبَّهَ تَعالى على ذٰلكَ بقولِهِ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وفي ضمنِ هٰذا الخطابِ ما هوَ كالجوابِ لسؤالٍ مقدَّرٍ: أنَّ إعدامَ هٰذهِ البنيةِ الشَّريفةِ وإيلامَ هٰذهِ النَّفسِ وإعدامَها في مقابلةِ إعدامِ المقتولِ تكثيرٌ لمفسدةِ القتلِ؛ فلأيَّةِ حكمةٍ صَدَرَ هٰذا ممَّن وَسِعَتْ رحمتُهُ كلَّ شيءٍ وبَهَرَتْ حكمتُهُ العقولَ؟! فتَضَمَّنَ الخطابُ جوابَ ذٰلكَ بقولِهِ تَعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾: وذٰلكَ لأنَّ القاتلَ إذا تَوَهَّمَ أنَّهُ يُقْتَلُ قصاصًا بمَن قَتَلَهُ؛ كَفَّ عنِ القتلِ واْرْتَدَعَ وآثَرَ حبَّ حياتِهِ ونفسِهِ، فكانَ فيهِ حياةٌ لهُ ولمَن أرادَ قتلَهُ. ومِن وجهٍ آخرَ، وهوَ أنَّهُم كانوا إذا قُتِلَ الرَّجلُ مِن عشيرتِهِم وقبيلتِهِم؛ قتَلوا بهِ كلَّ مَن وَجَدوهُ مِن عشيرةِ القاتلِ وحيِّهِ وقبيلتِهِ، وكانَ في ذٰلكَ مِن

(١) وأبلغ دليل على هٰذا أنّ شرائع الخلق الوضعيّة المعروفة منذ فجر التاريخ وحتّى أيّامنا هٰذه، بدءًا من الأمم الوثنيّة كالبابليّين ومرورًا بالأمم التي لا ترجع إلى دين كالمغول وٱنتهاء بالأمم الملحدة كالشيوعيّين، لم يسوّ أحد منهم بين القصاص من الجاني وتركه والإعراض عنه! حتّى جاء الجبريّة والأشاعرة وأضرابهم فتولّوا كبر هٰذا وأمثاله وتحمّلوا أوضاره.

الفسادِ والهلاكِ ما يَعُمُّ ضررُهُ وتَشْتَدُّ مؤنتُهُ، فشَرَعَ اللهُ تَعالى القصاصَ وأنْ لا يُقْتَلَ بالمقتولِ غيرُ قاتلِهِ، ففي ذٰلكَ حياةُ عشيرتِهِ وحيِّهِ وأقاربِهِ. ولمْ تكُنِ الحياةُ في القصاصِ مِن حيثُ إنَّهُ قتلٌ، بل مِن حيثُ كونُهُ قصاصًا يُؤْخَذُ القاتلُ وحدَهُ بالمقتولِ لا غيرُهُ، فتَضَمَّنَ القصاصُ الحياةَ في الوجهينِ.

وتَأَمَّلْ ما تحتَ هٰذهِ الألفاظِ الشَّريفةِ مِن الجلالةِ والإيجازِ والبلاغةِ والفصاحةِ والمعنى العظيمِ:

فصَدَّرَ الآيةَ بقولِهِ ﴿لَكُمْ﴾ المؤذِنِ بأنَّ منفعةَ القصاصِ مختصَّةٌ بكُم عائدةٌ إليكُم، فشرعُهُ إنَّما كانَ رحمةً بكُم وإحسانًا إليكُم، فمنفعتُهُ ومصلحتُهُ لكُم لا لِمَن لا يَبْلُغُ العبادُ ضرَّهُ ونفعَهُ.

ثمَّ عَقَّبَهُ بقولِهِ ﴿في القِصاصِ [حياةٌ][(١)]﴾؛ إيذانًا بأنَّ الحياةَ الحاصلةَ إنَّما هيَ في العدلِ، وهوَ أنْ يُفْعَلَ بِهِ كما فَعَلَ[(٢)].

والقصاصُ في اللغةِ المماثلةُ، وحقيقتُهُ راجعةٌ إلى الاتِّباعِ، ومنهُ قولُهُ تَعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]؛ أي: ٱتْبَعي أثَرَهُ، ومنهُ قولُهُ: ﴿فَٱرْتَدَّا على آثارِهِما قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]؛ أي: يَقُصَّانِ الأثرَ ويَتَّبِعانِهِ، ومنهُ: قصُّ الحديثِ وٱقتصاصُهُ؛ لأنَّهُ يَتْبَعُ بعضُهُ بعضًا في الذِّكرِ. فسُمِّيَ جزاءُ الجاني قصاصًا؛ لأنَّهُ يُتْبَعُ أثرُهُ فيُفْعَلُ بِهِ كما فَعَلَ. وهٰذا أحدُ ما يُسْتَدَلُّ بِهِ على أنْ يُفْعَلَ بالجاني كما فَعَلَ فيُقْتَلَ بمثلِ ما قَتَلَ بِهِ لتحقيقِ معنى القصاصِ، وقد ذَكَرْنا أدلَّةَ المسألةِ مِن الطَّرفينِ وترجيحَ القولِ الرَّاجحِ بالنَّصِّ والأثرِ والمعقولِ في كتابِ «تهذيب السُّنن»[(٣)].

ونكَّرَ سبحانَهُ الحياةَ تعظيمًا لها وتفخيمًا لشأنِها، وليسَ المرادُ حياةً ما، بلِ المعنى أنَّ في القصاصِ حصولَ هٰذهِ الحقيقةِ المحبوبةِ للنُّفوسِ المؤثَرةِ عندَها

---

(١) ساقطة من ط، والسياق يستوجب ذكرها.

(٢) لأنّ تقديم الجارّ والمجرور يفيد القصر والحصر والتخصيص في اللغة، وهٰذه المعاني ظاهرة بقوّة في سياق الآية نظرًا لتقدّم الجارّ والمجرور الأوّل ﴿لكم﴾ ثمّ الثاني ﴿في القصاص﴾ على المبتدأ ﴿حياة﴾.

(٣) (٦/ ٣٣٦).

المستحسَنةِ في كلِّ عقلٍ. والتَّنكيرُ كثيرًا ما يَجيءُ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ: كقولِه: ﴿وَسارِعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقولِه: ﴿وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى﴾ [النجم: ٤].

ثمَّ خَصَّ أُولي الألباب ـ وهُم أُولو العقولِ التي عَقَلَتْ عنِ اللهِ أمرَهُ ونهيَهُ وحكمتَهُ ـ إذْ همُ المنتفعونَ بالخطابِ.

ووازِنْ بينَ هٰذهِ الكلماتِ وبينَ قولِهِمْ: القتلُ أنفى للقتلِ؛ لِيَتَبَيَّنَ مقدارُ التَّفاوتِ وعظمةُ القرآنِ وجلالتُهُ[١].

● **الوجهُ الرَّابعُ والخمسونَ**: قولُكُم: «إنَّ القصاصَ إتلافٌ بإزاءِ إتلافٍ وعدوانٌ في مقابلةِ عدوانٍ، ولا يَحْيا الأوَّلُ بقتلِ الثَّاني، ففيهِ تكثيرُ المفسدةِ بإعدامِ النَّفسينِ. وأمَّا مصلحةُ الرَّدعِ والزَّجرِ واستبقاءِ النَّوعِ؛ فأمرٌ متوهَّمٌ، وفي القصاصِ استهلاكٌ محقَّقٌ»!

فيُقالُ: هٰذا الكلامُ مِن أفسدِ الكلامِ وأبينِهِ بطلانًا؛ فإنَّهُ يَتَضَمَّنُ التَّسويةَ بينَ القبيحِ والحسنِ ونفيَ حسنِ القصاصِ الذي اتَّفقَتِ العقولُ والدِّياناتُ على حسنِهِ وصلاحِ الوجودِ بهِ! وهل يَسْتَوي في عقلٍ أو دينٍ أو فطرةٍ القتلُ ظلمًا وعدوانًا بغيرِ حقٍّ والقتلُ قصاصًا وجزاءً بحقٍّ؟!

ونظيرُ هٰذهِ التَّسويةِ تسويةُ المشركينَ بينَ الرِّبا والبيعِ؛ لاستوائِهِما في صورةِ العقدِ[٢]! ومعلومٌ أنَّ استواءَ الفعلينِ في الصُّورةِ لا يُوجِبُ استواءَهُما في الحقيقةِ، ومدَّعي ذٰلكَ في غايةِ المكابرةِ. وهل يَدُلُّ استواءُ السُّجودِ للهِ والسُّجودِ للصَّنمِ في الصُّورةِ الظَّاهرةِ ـ وهوَ وضعُ الجبهةِ على الأرضِ ـ على أنَّهما سواءٌ في الحقيقةِ حتَّى يَتَحَيَّرَ العقلُ بينَهُما ويَتَعارَضانِ فيهِ؟!

ويَكْفي في فسادِ هٰذا إطباقُ العقلاءِ قاطبةً على قبحِ القتلِ الذي هوَ ظلمٌ وبغيٌ وعدوانٌ وحسنِ القتلِ الذي هوَ جزاءٌ وقصاصٌ وردعٌ وزجرٌ، والفرقُ بينَ هٰذينِ مثلُ الفرقِ بينَ الزِّنى والنِّكاحِ بل أعظمُ وأظهرُ، بلِ الفرقُ بينَهُما مِن جنسِ الفرقِ بينَ

---

(١) أطال الأديب الأريب مصطفى صادق الرافعي النفس في هٰذا التفاوت في «وحي القلم».

(٢) إي والله؛ إنّهما لنظيران. والله يرحم ابن القيّم ما أحسن جوابه وأحضر حجّته!

الإصلاحِ في الأرضِ والإفسادِ فيها، فما تَعارَضَ في عقلٍ صحيحٍ قطُّ هٰذانِ الأمرانِ حتَّى يَتَحَيَّرَ بينَهُما؛ أيَّهُما[١] يُؤْثِرُهُ ويَخْتارُهُ!

وقولُكُم: «إنَّهُ إتلافٌ بإزاءِ إتلافٍ وعدوانٌ في مقابلةِ عدوانٍ»؛ فكذٰلكَ هوَ! لٰكنْ إتلافٌ حسنٌ هوَ مصلحةٌ وحكمةٌ وصلاحٌ للعالمِ في مقابلةِ إتلافٍ هوَ فسادٌ وسفهٌ وخرابٌ للعالمِ، فأنَّى يَسْتَوِيانِ أمْ كيفَ يَعْتَدِلانِ حتَّى يَتَحَيَّرَ العقلُ بينَ الإتلافِ الحسنِ وتركِهِ؟!

وقولُكُم: «لا يَحْيا الأوَّلُ بقتلِ الثَّاني»! قُلْنا: يَحْيا بهِ عددٌ كثيرٌ مِن النَّاسِ؛ إذْ لو تُرِكَ ولَمْ يُؤْخَذْ على يديهِ؛ لأهْلَكَ النَّاسُ بعضُهُم بعضًا، فإنْ لمْ يَكُنْ في قتلِ الثَّاني حياةٌ للأوَّلِ؛ ففيهِ حياةُ العالمِ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَلَكُمْ في القِصاصِ حَياةٌ يا أُولي الألبابِ﴾ [البقرة: ١٧٩]. ولٰكنَّ هٰذا المعنى لا يُدْرِكُهُ حقَّ الإدراكِ إلَّا أُولو الألبابِ[٢].

فأينَ هٰذهِ الشَّريعةُ وهٰذهِ الحكمةُ وهٰذهِ المصلحةُ مِن هٰذا الهذيانِ الفاسدِ وأنْ يُقالَ: قتلُ الجاني إتلافٌ بإزاءِ إتلافٍ وعدوانٌ في مقابلةِ عدوانٍ فيَكونُ قبيحًا لولا الشَّرعُ؟! فوازِنْ بينَ هٰذا وبينَ ما شَرَعَهُ اللهُ وجَعَلَ مصالحَ عبادِهِ منوطةً بهِ.

وقولُكُم: «فيهِ تكثيرُ المفسدةِ بإعدامِ النَّفْسينِ»! فيُقالُ: لو أعْطَيْتُم رُتَبَ المصالحِ والمفاسدِ حقَّها؛ لمْ تَرْتَضوا بهٰذا الكلامِ الفاسدِ؛ فإنَّ الشَّرائعَ والفطرَ والعقولَ متَّفقةٌ على تقديمِ المصلحةِ الرَّاجحةِ، وعلى ذٰلكَ قامَ العالمُ، وما نحنُ فيهِ كذٰلكَ؛ فإنَّهُ ٱحتمالٌ لمفسدةِ إتلافِ الجاني إلى هٰذهِ المفسدةِ العامَّةِ، فمَن تَحَيَّرَ عقلُهُ بينَ هاتينِ المفسدتينِ؛ فلفسادٍ فيهِ! والعقلاءُ قاطبةً متَّفقونَ على أنَّهُ يَحْسُنُ إتلافُ جزءٍ لسلامةِ كلٍّ كقطعِ الإصبعِ أوِ اليدِ المتآكلةِ لسلامةِ سائرِ البدنِ، وكذٰلكَ يَحْسُنُ الإيلامُ لدفعِ إيلامٍ أعظمَ منهُ كقطعِ العروقِ وبطِّ الخُرَاجِ[٣] ونحوِهِ. فلو طَرَدَ العقلاءُ قياسَكُم هٰذا الفاسدَ

---

(١) يجوز فيها الرفع على الابتداء والنصب على الاشتغال.

(٢) وهٰذا غمز ظاهر في أصحاب هٰذه الدعوى بأنّهم ليسوا من أولي الألباب.

(٣) بتخفيف الراء لا بتشديدها على ما هو مشهور عند العامّة، وهو الورم القيحي في أيّ موضع من مواضع الجسم. وبطّ الخراج: شقّه وٱستخراج ما فيه من القيح.

وقالوا: هٰذا إيلامٌ محقَّقٌ لدفعِ إيلامٍ متوهَّمٍ؛ لَفَسَدَ الجسدُ جملةً! ولا فرقَ عندَ العقولِ بينَ هٰذا وبينَ قياسِكُم في الفسادِ!

● **الوجهُ الخامسُ والخمسونَ:** قولُكُم «إنَّ مصلحةَ الرَّدعِ والزَّجرِ وإحياءِ النَّوعِ أمرٌ متوهَّمٌ» كلامٌ بيِّنٌ فسادُهُ! بل هوَ أمرٌ متحقِّقٌ وقوعُهُ عادةً، ويَدُلُّ عليهِ ما نُشاهِدُهُ مِن الفسادِ العامِّ عندَ تركِ الجناةِ والمفسدينَ وإهمالِهِم وعدمِ الأخذِ على أيديهِم[1]!

والمتوهِّمُ مَن زَعَمَ أنَّ ذٰلكَ موهومٌ، وهوَ بمثابةِ مَن دَهَمَهُ العدوُّ فقالَ: لا نُعَرِّضُ أنفسَنا لمشقَّةِ قتالِهِم؛ فإنَّهُ مفسدةٌ متحقِّقةٌ، وأمَّا ٱستيلاؤُهُم على بلادِنا وسبيُهُم ذرارِيَنا وقتلُ مقاتلتِنا؛ فموهومٌ! فيا ليتَ شِعْرِي! مَنِ الواهمُ المخطئُ في وهمِهِ؟! ونظيرُهُ أيضًا أنَّ الرَّجلَ إذا تَبَيَّغَ بِهِ الدَّمُ[2] وتَضَرَّرَ [وٱضْطُرَّ][3] إلى إخراجِهِ؛ لا يَتَعَرَّضُ لشقِّ جلدِهِ وقطعِ عروقِهِ؛ لأنَّهُ ألمٌ محقَّقٌ لا موهومٌ! ولوِ ٱطَّرَدَ هٰذا القياسُ الفاسدُ؛ لَخَرِبَ العالمُ وتَعَطَّلَتِ الشَّرائعُ.

والاعتمادُ في طلبِ مصالحِ الدَّارينِ ودفعِ مفاسدِهِما مبنيٌّ على هٰذا الذي سَمَّيْتُموهُ أنتُم موهومًا: فالعمَّالُ في الدُّنيا إنَّما يَتَصَرَّفونَ بناءً على الغالبِ المعتادِ الذي ٱطَّرَدَتْ بِهِ العادةُ وإنْ لَمْ يَجْزِموا بِهِ؛ فإنَّ الغالبَ صدقُ العادةِ وٱطِّرادُها عندَ قيامِ أسبابِها، فالتَّاجرُ يَحْتَمِلُ[4] مشقَّةَ السَّفرِ في البرِّ والبحرِ بناءً على أنَّهُ يَسْلَمُ ويَغْنَمُ، فلو طَرَدَ هٰذا القياسَ الفاسدَ وقالَ: السَّفرُ مشقَّةٌ متحقِّقةٌ، والكسبُ أمرٌ موهومٌ؛ لَتَعَطَّلَتْ أسفارُ النَّاسِ بالكلِّيَّةِ! وكذٰلكَ عمَّالُ الآخرةِ؛ لو قالوا: تعبُ العملِ ومشقَّتُهُ أمرٌ متحقِّقٌ وحسنُ الخاتمةِ أمرٌ موهومٌ؛ لَعَطَّلوا الأعمالَ جملةً! وكذٰلكَ الأُجراءُ والصُّنَّاعُ والملوكُ والجندُ وكلُّ طالبِ أمرٍ مِن الأُمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ؛ لولا بناؤُهُ على الغالبِ وما

---

(١) كما هو الحال في الدول المتحضّرة (!) التي منعت الإعدام فأرتفعت نسبة جرائم القتل فيها أضعافًا مضاعفة! وهٰذا طرف من المعيشة الضنك التي تعهّد الله بها لمن تنكّب عن ذكره وأعرض عن دينه.

(٢) تبيّغ به الدم: هاج وثار وزاد. وهٰذا من أوصاف القدماء لما يعرف حاليًا بداء أرتفاع الضغط الشرياني Hypertension. وكانوا يعالجونه بالحجامة أحيانًا وبالفصد أحيانًا.

(٣) ليست في ط، والسياق يقتضيها.

(٤) في ط: «فالتاجر يحمل»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

جَرَتْ بِهِ العادةُ؛ لَما ٱحْتَمَلَ المشقَّةَ المتيقَّنةَ لأمرٍ منتظرٍ. ومِن هاهُنا قيلَ: إنَّ إنكارَ هٰذهِ المسألةِ يَسْتَلْزِمُ تعطيلَ الدُّنيا والآخرةِ مِن وجوهٍ متعدِّدةٍ.

● **الوجهُ السَّادسُ والخمسونَ**: قولُكُم: «ويُعارِضُهُ معنًى ثالثٌ وراءَهُما، فيُفَكِّرُ العقلُ الواعي في شروطٍ أُخرى وراءَ مجرَّدِ الإنسانيَّةِ مِن العقلِ والبلوغِ والعلمِ والجهلِ والكمالِ والنَّقصِ والقرابةِ والأجنبيَّةِ، فيَتَحَيَّرُ العقلُ كلَّ التَّحيُّرِ، فلا بدَّ إذًا مِن شارعٍ يُفَصِّلُ هٰذهِ الخطَّةَ ويُعَيِّنُ قانونًا يَطَّرِدُ عليهِ أمرُ الأُمَّةِ ويَسْتَقيمُ عليهِ مصالحُهُم»!

فيُقالُ: لا ريبَ أنَّ الشَّرائعَ تأْتي بما لا تَسْتَقِلُّ العقولُ بإدراكِهِ، فإذا جاءَتْ بهِ الشَّريعةُ؛ ٱهْتدى العقلُ حينئذٍ إلى وجهِ حسنِ مأْمورِهِ وقبحِ منهيِّهِ [بما][1] فسَّرَتْهُ الشَّريعةُ على وجهِ الحكمةِ والمصلحةِ الباعثينِ لشرعِهِ، فهٰذا ممَّا لا يُنْكَرُ. وهٰذا الذي قُلْنا فيهِ: إنَّ الشَّرائعَ تَأْتي بمَحاراتِ العقولِ لا بمُحالاتِ العقولِ. ونحنُ لمْ نَدَّعِ ولا عاقلٌ قطُّ أنَّ العقلَ يَسْتَقِلُّ بجميعِ تفاصيلِ ما جاءَتْ بِهِ الشَّريعةُ بحيثُ لو تُرِكَ وحدَهُ لاهْتَدى إلى كلِّ ما جاءَتْ بهِ!

إذا عُرِفَ هٰذا؛ فغايةُ ما ذَكَرْتُم أنَّ الشَّريعةَ الكاملةَ ٱشْتَرَطَتْ في وجوبِ القصاصِ شروطًا لا يَهْتَدي العقلُ إليها! وأيُّ شيءٍ يَلْزَمُ مِن هٰذا؟! وماذا يَفْتَحُ لكُم ومنازِعوكُم يُسَلِّمونَهُ لكُم؟!

وقولُكُم: «إنَّ هٰذا معارضٌ للوصفِ المقتضي لثبوتِ القصاصِ مِن قيامِ مصلحةِ العالمِ»: إمَّا غفلةٌ عنِ الشُّروطِ المعارضةِ، وإمَّا إصطلاحٌ طارٍ[2] سَمَّيْتُم فيهِ ما لا يَهْتَدي العقلُ إليهِ مِن شروطِ ٱقتضاءِ الوصفِ لموجَبِهِ معارضةً. فيا للهِ العجبُ! أيُّ معارضةٍ هاهُنا إذا كانَ العقلُ والفطرةُ قد شَهِدا بحسنِ القتلِ قصاصًا وٱنتظامِهِ للعالمِ، وتَوَقَّفا في ٱقتضاءِ هٰذا الوصفِ هل يُضَمُّ إليهِ شرطٌ آخرُ غيرُهُ أمْ يَكْفي بمجرَّدِهِ وفي تعيينِ تلكَ الشُّروطِ، فأدْرَكَ العقلُ ما ٱسْتَقَلَّ بإدراكِهِ وتَوَقَّفَ عمَّا لا يَسْتَقِلُّ بإدراكِهِ حتَّى ٱهْتَدى إليهِ بنورِ الشَّريعةِ؟!

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أي: طارئ، سهّلت الهمزة فأصبحت: طاري، وحذفت ياء المنقوص النكرة وأعيض بالتنوين.

● يُوَضِّحُ هٰذا الوجهُ السَّابعُ والخمسونَ: أنَّ ما وَرَدَتْ بهِ الشَّريعةُ في أصلِ القصاصِ وشروطِهِ منقسمٌ إلى قسمينِ:

أحدُهُما: ما حسنُهُ معلومٌ بصريحِ العقلِ الذي لا يَسْتَرِيبُ فيهِ عاقلٌ، وهوَ أصلُ القصاصِ وٱنتظامُ مصالحِ العالمِ بهِ.

والثَّاني: ما حسنُهُ معلومٌ بنظرِ العقلِ وفكرِهِ وتأمُّلِهِ فلا يَهْتَدي إليهِ إلَّا الخواصُّ، وهوَ ما ٱشْتُرِطَ لاقتضاءِ هٰذا الوصفِ[1] أو جُعِلَ تابعًا لهُ:

فٱشْتُرِطَ لهُ المكافأةُ في الدِّينِ.

وهٰذا في غايةِ المراعاةِ للحكمةِ والمصلحةِ؛ فإنَّ الدِّينَ هوَ الذي فَرَّقَ بينَ النَّاسِ في العصمةِ، وليسَ في حكمةِ اللهِ وحسنِ شرعِهِ أنْ يَجْعَلَ دمَ وليِّهِ وعبدِهِ وأحبِّ خلقِهِ إليهِ وخيرِ بريَّتِهِ [و]مَن خَلَقَهُ لنفسِهِ وٱخْتَصَّهُ بكرامتِهِ وأهَّلَهُ لجوارِهِ في جنَّتِهِ والنَّظرِ إلى وجهِهِ وسماعِ كلامِهِ في دارِ كرامتِهِ كدمِ عدوِّهِ وأمقتِ خلقِهِ إليهِ وشرِّ بريَّتِهِ والعادلِ عن عبادتِهِ[2] إلى عبادةِ الشَّيطانِ الذي خَلَقَهُ للنَّارِ وللطَّردِ عن بابِهِ والإبعادِ عن رحمتِهِ. وبالجملةِ؛ فحاشا حكمتِهِ أنْ يُسَوِّيَ بينَ دماءِ خيرِ البريَّةِ ودماءِ شرِّ البريَّةِ في أخذِ هٰذهِ بهٰذهِ، سيَّما وقد أباحَ لأوليائِهِ دماءَ أعدائِهِ وجَعَلَهُم قرابينَ لهُم.

وإنَّما ٱقْتَضَتْ حكمتُهُ أنْ يَكُفُّوا عنهُم إذا صاروا تحتَ قهرِهِم وإذلالِهِم كالعبيدِ لهُم يُؤَدُّونَ إليهِمُ الجزيةَ التي هيَ خراجُ رؤوسِهِم[3] معَ بقاءِ السَّببِ الموجبِ لإباحةِ دمائِهِم، وهٰذا التَّركُ والكفُّ لا يَقْتَضي ٱستواءَ الدَّمينِ[4] عقلاً ولا شرعًا ولا مصلحةً، ولا ريبَ أنَّ الدَّمينِ قبلَ القهرِ والإذلالِ لمْ يَكونا بمستويينِ لأجلِ الكفرِ؛ فأيُّ موجبٍ لاستوائِهِما بعدَ الاستذلالِ والقهرِ والكفرُ قائمٌ بعينِهِ؟! فهل في الحكمةِ وقواعدِ الشَّريعةِ

---

(١) في ط: «ما ٱشترط ٱقتضاء هٰذا الوصف»، وله وجه ضعيف، والجادّة ما أثبتّه.

(٢) في ط: «والعادل به عن عبادته»! والصواب ما أثبتّه.

(٣) خراج رؤوسهم: الضريبة التي تؤخذ منهم بحساب الرؤوس عن كلّ رأس كذا. كان الأمر هٰكذا في زمان مضى وٱنقضى، نسأل الله أن يعيد للإسلام عزّه وأمجاده.

(٤) كذا، وهو صحيح، وهو مثنّى «دم»، يجوز تثنيتها على «دَمَيان» و«دَمان» وتصير في حالة النصب والجرّ «دَمَيَيْن» و«دَمَيْن».

وموجَباتِ العقولِ أنْ يَكونَ الإذلالُ والقهرُ للكافرِ موجبًا لمساواةِ دمِهِ لدمِ المسلمِ؟! هٰذا ممَّا تَأْباهُ الحكمةُ والمصلحةُ والعقولُ.

وقد أشارَ ﷺ إلى هٰذا المعنى وكَشَفَ الغطاءَ وأوْضَحَ المشكلَ بقولِهِ: «المسلمونَ تَتكافَأُ دماؤُهُم»(١)، أو قالَ: «المؤمنونَ...»(٢). فعَلَّقَ المكافأةَ بوصفٍ لا يَجوزُ إلغاؤُهُ

---

(١) (صحيح). وقد جاء عن جماعة من الصحابة:

* فرواه ابن ماجه (٢١ـ الديات، ٣١ـ المسلمون تتكافأ دماؤهم، ٢/ ٨٩٥/ ٢٦٨٣) من طريق حنش الصنعاني، عن عكرمة، عن ابن عبّاس... رفعه. وهٰذا ساقط، حنش متروك.

* ورواه: ابن ماجه (الموضع السابق، ٢/ ٨٩٥/ ٢٦٨٤)، والطبراني (٢/ ٢٠٦/ ٤٧١)، وابن عدي (٥/ ١٩٦٨)، والبيهقي (٨/ ٣٠)؛ من طريق عبدالسلام بن أبي الجنوب، عن الحسن، عن معقل بن يسار... رفعه. وهاهنا علل ثلاث: أولاها: قول الهيثمي (٦/ ٢٩٥): «فيه عبدالسلام بن أبي الجنوب وهو ضعيف»، قلت: شديد الضعف. والثانية: أنّ الحسن عنعن على تدليسه والخلاف في سماعه من معقل أصلاً. والثالثة: أنّ عبدالرزاق (١٨٥٠٦) وابن أبي شيبة (٢٧٩٦٠) روياه من طريقين قويّين عن الحسن مرسلاً. وخلاصة القول أنّ المعروف هاهنا الإرسال والرفع ضعيف ومنكر.

* ورواه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٧٤): ثنا محمّد بن عيسى بن شيبة، ثنا سعيد بن يحيى بن سعيد، ثنا أبو القاسم بن أبي الزناد، أني إبراهيم بن نافع (وفي مطبوع الأوسط: ابن أبي نافع!)، عن أبي الزبير، عن جابر... رفعه. وهاهنا علّتان: محمّد بن عيسى مستور، وعنعنة أبي الزبير، فالسند ضعيف.

* ورواه: الطيالسي (٢٢٥٨)، والشافعي في «الأم» (٧/ ٣٤٧)، وعبدالرزّاق (٩٤٤٥)، وابن أبي شيبة (٢٧٩٥٩)، وأحمد (٢/ ١٨٠ و١٩٢ و٢١١ و٢١٥)، وابن ماجه (الموضع السابق، ٢٦٨٣)، وأبو داوود (٩ـ الجهاد، ١٥٩ـ السريّة ترد على أهل العسكر، ٢/ ٨٩/ ٢٧٥١ و٤٥٣١)، وابن أبي عاصم في «الديات» (ص٢٥)، والبيهقي (٦/ ٣٣٥، ٨/ ٢٩، ٩/ ٥١)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢١/ ١٨٨)، والبغوي (٢٥٣٢ و٢٥٤٢)؛ من طرق، عن عمرو بن شعيب، [عن أبيه]، [عن جدّه]... رفعه بلفظ «المسلمون»، وجاء في مرّات نادرة بلفظ «المؤمنون»، بحيث يترجّح أنّ المحفوظ هنا هو اللفظ الأوّل. وسنده حسن، والرواية المرسلة عند الشافعيّ وعبدالرزّاق لا تضرّه لكثرة الروايات الموصولة وصحّتها.

وجملة القول أنّ هٰذا اللفظ صحيح عن النبيّ ﷺ بأجتماع مرسل الحسن وحديثي جابر وابن عمرو، وقد حسّن الألباني حديث ابن عمرو.

(٢) (صحيح). وقد جاء أيضًا عن جماعة من الصحابة:

* فرواه: أبو يعلى (٤٧٥٧)، والدارقطني (٣/ ١٣١)، والبيهقي (٨/ ٢٩)، والخطيب في «الجمع والتفريق» (٢/ ٤١٥)؛ من طريق عبيدالله بن عبدالرحمٰن بن موهب، ثنا مالك بن محمّد بن أبي الرجال، عن عمرة، عن عائشة... رفعته. قال الهيثمي (٦/ ٢٩٦): «رجاله رجال الصحيح، غير مالك بن أبي الرجال، وقد وثّقه ابن حبّان ولم يضعّفه أحد». قلت: وروى عنه جماعة، فحديثه لا بأس به. وفي ابن موهب كلام لا ينحطّ به إلى الضعف، وما هو من رجال الصحيح. فالسند صالح في الشواهد.

* ورواه: ابن حبّان (٥٩٩٦)، وبحشل في «تاريخ واسط» (١/ ١٦٥)؛ من طريق سنان بن الحارث، =

وإهدارُهُ وتعليقُها بغيرِهِ؛ إذْ يَكونُ إبطالاً لِما ٱعْتَبَرَهُ الشَّارِعُ وٱعتبارًا لِما أَبْطَلَهُ! فإذا عَلَّقَ المكافأةَ بوصفِ الإيمانِ؛ كانَ كتعليقِهِ سائرَ الأحكامِ بالأوصافِ كتعليقِ القطعِ بوصفِ السَّرقةِ والرَّجمِ بوصفِ الزِّنى والجلدِ بوصفِ القذفِ والشُّربِ! ولا فرقَ بينَهُما أصلاً. فكلُّ مَن عَلَّقَ الأحكامَ بغيرِ الأوصافِ التي عَلَّقَها بها[1] الشَّارعُ؛ كانَ تعليقُهُ منقطعًا منصرمًا. وهٰذا ممَّا ٱتَّفَقَ أئمَّةُ الفقهاءِ على صحَّتِهِ.

فقد أدَّى نظرُ العقلِ إلى أنَّ دمَ عدوِّ اللهِ الكافرِ لا يُساوي دمَ وليِّهِ ولا يُكافِئُهُ أبدًا، وجاءَ الشَّرعُ بموجَبِهِ؛ فأيُّ معارضةٍ هاهُنا؟! وأيُّ حيرةٍ؟! إنْ هوَ إلاَّ بصيرةٌ على بصيرةٍ ونورٌ على نورٍ.

وليسَ هٰذا مكانَ ٱستيعابِ الكلامِ على هٰذهِ المسألةِ، وإنَّما الغرضُ التَّنبيهُ على أنَّ في صريحِ العقلِ الشَّهادةَ لِما جاءَ بِهِ الشَّرعُ فيها.

فصلٌ: وعكسُ هٰذا أنَّهُ لمْ تُشْتَرَطِ المكافأةُ في علمٍ وجهلٍ ولا في كمالٍ[2] وقبحٍ ولا في شرفٍ وضَعَةٍ[3] ولا في عقلٍ وجنونٍ ولا في أجنبيَّةٍ وقرابةٍ خَلا الوالدَ والولدَ.

وهٰذا مِن كمالِ الحكمةِ وتمامِ النِّعمةِ، وهوَ في غايةِ المصلحةِ؛ إذ لو رُوعِيَتْ هٰذهِ

= عن طلحة بن مصرّف، عن مجاهد، عن ابن عمر... رفعه. وسنان وثّقه ابن حبّان وروى عنه جماعة فحديثه حسن، والبقيّة بين ثقة وصدوق، فالسند حسن.

* ورواه: عبدالرزّاق (١٨٥٠٧)، وأحمد (١/ ١١٩ و١٢٢)، وأبو داوود (٣٣ـ الديات، ١١ـ إيقاد المسلم بالكافر، ٢/ ٥٨٨/ ٤٥٣٠)، وعبدالله في «زوائد المسند» (١/ ١٢٢) و«السنّة» (١١٧٦)، والبزّار (٤٨٦ و٧١٣ و٧١٤)، وابن نصر في «الصلاة» (٦٠٥ و٦٠٦)، والنسائي في «المجتبى» (٤٥ـ القسامة، ٩ و١٠ـ القود بين الأحرار والمماليك، ٨/ ١٩/ ٤٧٤٨ و٤٧٤٩ و٤٧٥٩ و٤٧٦٠) وفي «الكبرى» (٦٩٣٦ و٦٩٣٧ و٦٩٤٧ و٦٩٤٨ و٨٦٨١ و٨٦٨٢)، وأبو يعلى (٣٣٨ و٥٦٢ و٦٢٨)، والطحاوي (٣/ ١٩٢)، والطبراني في «الأوسط» (٥٢٧٣)، والدارقطني (٣/ ٩٨)، والحاكم (٢/ ١٤١)، والبيهقي (٧/ ١٣٣، ٨/ ٢٩ و١٩٣)، والبغوي (٢٥٣١)، والمزّي في «التهذيب» (٢٦/ ٢٨)؛ من طرق ثلاث، عن عليّ... رفعه بلفظ «المؤمنون» وفي مرات نادرة بلفظ «المسلمون»، بحيث يترجّح هنا أنّ المحفوظ الأوّل دون الثاني. والطرق الثلاث صحيحة، بل صحّح الحاكم إحداها على شرطهما ووافقه الذهبي، والحديث صحيح غاية بمجموعها، بل أصله في الصحيحين لٰكن ليس عندهما هٰذا اللفظ، وقد صحّحه الألباني.

(١) في ط: «علقها به»! والصواب ما أثبتّه.

(٢) كذا، وله وجه، وفي القلب أنّه تحريف صوابه «جمال».

(٣) الضعة: الخسّة والدناءة في المنزلة، وصاحبها وضيع.

الأُمورُ؛ لتَعَطَّلَتْ مصلحةُ القصاصِ إلاَّ في النَّادرِ البعيدِ؛ إذْ قَلَّ أنْ يَسْتَوِيَ شخصانِ مِن كلِّ وجهٍ، بل لا بدَّ مِن التَّفاوتِ بينَهُما في هٰذهِ الأوصافِ أو في بعضِها، فلو أنَّ الشَّريعةَ جاءَتْ بأنْ لا يُقْتَصَّ إلاَّ مِن مكافئٍ مِن كلِّ وجهٍ؛ لَفَسَدَ العالمُ وعَظُمَ الهرجُ وٱنْتَشَرَ الفسادُ. ولا يَجوزُ على عاقلٍ وضعُ هٰذهِ السِّياسةِ الجائرةِ، وواضعُها إلى السَّفهِ أقربُ منهُ إلى الحكمةِ، فلا جَرَمَ أنْ هَدَتْكَ الشَّرائعُ[1] إلى ٱعتبارِ ذٰلكَ.

وأمَّا الولدُ والوالدُ؛ فمَنَعَ مِن جريانِ القصاصِ بينَهُما حقيقةُ البعضيَّةِ والجزئيَّةِ التي بينَهُما؛ فإنَّ الولدَ جزءٌ مِن الوالدِ، ولا يُقْتَصُّ لبعضِ أجزاءِ الإنسانِ مِن بعضٍ. وقد أشارَ تَعالى إلى ذٰلكَ بقولِهِ: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]، وهوَ قولُهُمْ: الملائكةُ بناتُ اللهِ، فدَلَّ على أنَّ الولدَ جزءٌ مِن الوالدِ. وعلى هٰذا الأصلِ ٱمْتَنَعَتْ شهادتُهُ لهُ وقطعُهُ بالسَّرقةِ مِن مالِهِ وحدُّهُ أباهُ على قذفِهِ. وعن هٰذا الأصلِ ذَهَبَ كثيرٌ مِن السَّلفِ ـ ومنهُمُ الإمامُ أحمدُ وغيرُهُ ـ إلى أنَّ لهُ أنْ يَتَمَلَّكَ ما شاءَ مِن مالِ ولدِهِ وهوَ كالمباحِ في حقِّهِ. وقد ذَكَرْنا المسألةَ مستقصاةً بأدلَّتِها وبيَّنَّا دلالةَ القرآنِ عليها مِن وجوهٍ متعدِّدةٍ في غيرِ هٰذا الموضعِ.

وهٰذا المأْخذُ أحسنُ مِن قولِهِم: إنَّ الأبَ لمَّا كانَ هوَ السَّببَ في إيجادِ الولدِ؛ فلا يَكونُ الولدُ سببًا في إعدامِهِ.

وفي المسألةِ مسلكٌ آخرُ، وهوَ مسلكٌ قويٌّ جدًّا، وهوَ أنَّ اللهَ سبحانَهُ جَعَلَ في قلبِ الوالدِ مِن الشَّفقةِ على ولدِهِ والحرصِ على حياتِهِ ما يُوازي شفقتَهُ على نفسِهِ وحرصَهُ على حياةِ نفسِهِ وربَّما يَزيدُ على ذٰلكَ فقد يُؤْثِرُ الرَّجلُ حياةَ ولدِهِ على حياتِهِ وكثيرًا ما يَحْرُمُ الرَّجلُ نفسَهُ حظوظَها ويُؤْثِرُ بها ولدَهُ، وهٰذا القدرُ مانعٌ مِن كونِهِ يُريدُ إعدامَهُ وإهلاكَهُ، بل لا يَقْصِدُ في الغالبِ إلاَّ تأْديبَهُ وعقوبتَهُ على إساءتِهِ، فلا يَقَعُ قتلُهُ في الأغلبِ عن قصدٍ وتعمُّدٍ بل عن خطإٍ وسبقِ يدٍ، وإذا وَقَعَ ذٰلكَ غلطًا؛ أُلْحِقَ بالقتلِ الذي لمْ يُقْصَدْ بِهِ إزهاقُ النَّفسِ. فأسبابُ التُّهمةِ والعداوةِ الحاملةِ على القتلِ لا تكادُ

---

(١) في ط: «فلا جرم أهدتك الشرائع»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه إن شاء الله.

تُوجَدُ في الآباءِ، وإنْ وُجِدَتْ نادرًا؛ فالعبرةُ بما ٱطَّرَدَتْ عليهِ عادةُ الخليقةِ.

وهُنا للنَّاسِ طريقانِ:

أحدُهُما: أنَّا إذا تَحَقَّقْنا التُّهمةَ وقصدَ القتلِ والإزهاقِ بأنْ يُضْجِعَهُ ويَذْبَحَهُ مثلاً؛ أجْرَيْنا الحدَّ بينَهُما لتحقُّقِ قصدِ الجنايةِ وٱنتفاءِ المانعِ مِن القصاصِ. وهٰذا قولُ أهلِ المدينةِ.

والثَّاني: أنَّهُ لا يُجْرى القصاصُ بحالٍ وإنْ تَحَقَّقَ قصدُ القتلِ؛ لمكانِ الجزئيَّةِ والبعضيَّةِ المانعةِ مِن الاقتصاصِ مِن بعضِ الأجزاءِ لبعضٍ. وهوَ قولُ الأكثرينَ. ولا يَرِدُ عليهِمْ قتلُ الولدِ لوالدِهِ وإنْ كانَ بعضَهُ؛ لأنَّ الأبَ لمْ يُخْلَقْ مِن نطفةِ الابنِ، فليسَ الأبُ بجزءٍ لهُ حقيقةً ولا حكمًا؛ بخلافِ الولدِ؛ فإنَّهُ جزءٌ حقيقةً.

وليسَ هٰذا موضعَ ٱستقصاءِ الكلامِ على هٰذهِ المسائلِ؛ إذِ المقصودُ بيانُ ٱشتمالِها على الحكمِ والمصالحِ التي نُدْرِكُها بالعقلِ وإنْ لمْ يَسْتَقِلَّ بها، فجاءَتِ الشَّريعةُ بها مقرِّرةً لِما ٱسْتَقَرَّ في العقلِ إدراكُهُ ولو مِن بعضِ الوجوهِ.

وبعدَ النُّزولِ عن هٰذا المقامِ فأقْصى ما فيهِ أنْ يُقالَ: إنَّ الشَّريعةَ جاءَتْ بما يَعْجَزُ العقلُ عن إدراكِهِ لا بما يُحيلُهُ العقلُ، ونحنُ لا نُنْكِرُ ذٰلكَ، ولٰكنْ لا يَلْزَمُ منهُ نفيُ الحِكمِ والمصالحِ التي ٱشْتَمَلَتْ عليها الأفعالُ في ذواتِها. واللهُ أعلمُ.

● **الوجهُ الثَّامنُ والخمسونَ**: قولُكُم: «وظَهَرَ بهٰذا أنَّ المعانيَ المستنبطةَ راجعةٌ إلى مجرَّدِ ٱستنباطِ العقلِ ووضعِ الذِّهنِ مِن غيرِ أنْ يَكونَ الفعلُ مشتملاً عليها»: كلامٌ في غايةِ الفسادِ والبطلانِ، لا يَرْتَضيهِ أهلُ العلمِ والإنصافِ، وتصوُّرُهُ حقَّ التَّصوُّرِ كافٍ في الجزمِ ببطلانِهِ مِن وجوهٍ عديدةٍ:

أحدُها: أنَّ العقلَ والفطرةَ يَشْهَدانِ ببطلانِهِ والوجودُ يُكَذِّبُهُ؛ فإنَّ أكثرَ المعاني المستنبطةِ مِن الأحكامِ لَيْسَتْ مِن أوضاعِ الأذهانِ المجرَّدةِ عنِ ٱشتمالِ الأفعالِ عليها، ومدَّعي ذٰلكَ في غايةِ المكابرةِ التي لا تُجْدي عليهِ إلَّا توهينَ المقالةِ! وهٰذهِ المعاني المستنبطةُ مِن الأحكامِ موجودةٌ مشهودةٌ، يَعْلَمُ العقلاءُ أنَّها لَيْسَتْ مِن أوضاعِ الذِّهنِ، بل الذِّهنُ أدْرَكَها وعَلِمَها، وكانَ نسبةُ الذِّهنِ إلى إدراكِها كنسبةِ البصرِ إلى إدراكِ الألوانِ

وغيرِها وكنسبةِ السَّمعِ إلى إدراكِ الأصواتِ وكنسبةِ الذَّوقِ إلى إدراكِ الطُّعومِ والشَّمِّ إلى إدراكِ الرَّوائحِ؛ فهلْ يَسوغُ لعاقلٍ أنْ يَدَّعِيَ أنَّ هٰذهِ المدركاتِ مِن أوضاعِ الحواسِّ؟! وكذٰلكَ العقلُ إذا أدْرَكَ ما ٱشْتَمَلَ عليهِ الكذبُ والفجورُ وخرابُ العالمِ والظُّلمُ وإهلاكُ الحرثِ والنَّسلِ والزِّنى بالأُمَّهاتِ وغيرُ ذٰلكَ مِن القبائحِ وأدْرَكَ ما ٱشْتَمَلَ عليهِ الصِّدقُ والبرُّ والإحسانُ والعدلُ وشكرانُ المنعمِ والعفَّةُ وفعلُ كلِّ جميلٍ مِن الحسنِ؛ لمْ تَكُنْ تلكَ المعاني التي ٱشْتَمَلَتْ عليها هٰذهِ الأفعالُ مجرَّدَ وضعِ الذِّهنِ وٱستنباطِ العقلِ! ومدَّعي ذٰلكَ مصابٌ في عقلِهِ! فإنَّ المعانيَ التي ٱشْتَمَلَتْ عليها المنهيَّاتُ الموجبةُ لتحريمِها أُمورٌ ناشئةٌ مِن الأفعالِ لَيْسَتْ أوضاعًا ذهنيَّةً، والمعانيَ التي ٱشْتَمَلَتْ عليها المأموراتُ الموجِبةُ لحسنِها لَيْسَتْ مجرَّدَ أوضاعٍ ذهنيَّةٍ بلْ أُمورٌ حقيقيَّةٌ ناشئةٌ مِن ذواتِ الأفعالِ ترتُّبُ آثارِها عليها كترتُّبِ آثارِ الأدويةِ والأغذيةِ عليها. وما نظيرُ هٰذهِ المقالةِ إلَّا مقالةُ مَن يَزْعُمُ أنَّ القوى والآثارَ المستنبطةَ مِن الأغذيةِ والأدويةِ لا حقيقةَ لها [و]إنَّما هيَ أوضاعٌ ذهنيَّةٌ! ومعلومٌ أنَّ هٰذا بابٌ مِن السَّفسطةِ[1]!

فٱعْرِضْ معانيَ الشَّريعةِ الكلِّيَّةَ على عقلِكَ، وٱنْظُرِ ٱرتباطَها بأفعالِها وتعلُّقَها بها، ثمَّ تأمَّلْ: هل تَجِدُها أُمورًا حقيقيَّةً تَنْشَأُ مِن الأفعالِ فإذا فُعِلَ الفعلُ نَشَأَ منهُ أثرُهُ؟ أو تَجِدُها أوضاعًا ذهنيَّةً لا حقيقةَ لها؟

وإذا أرَدْتَ معرفةَ بطلانِ المقالةِ؛ فكَرِّرِ النَّظرَ في أدلَّتِها، فأدلَّتُها مِن أكبرِ الشَّواهدِ على بطلانِها، بلِ العاقلُ يَسْتَغْني بأدلَّةِ الباطلِ عن إقامةِ الدَّليلِ على بطلانِهِ، بل نفسُ دليلِهِ هوَ دليلُ بطلانِهِ[2].

الوجهُ الثَّاني: أنَّ ٱستنباطَ العقولِ ووضعَ الأذهانِ لِما لا حقيقةَ لهُ مِن بابِ الخيالاتِ والتَّقديراتِ التي لا يَتَرَتَّبُ عليها علمٌ ولا معلومٌ ولا صلاحٌ ولا فسادٌ؛ إذْ هيَ

---

(١) راجع ما تقدّم (٢/ ٣٩٢) في معنى السفسطة.

(٢) وذٰلك من وجهين على الأقلّ: **أوّلهما**: أنّه لو كان لصاحب هٰذه المقالة دليل قويّ؛ لساقه وٱستغنى به عن المكابرة بالمحسوس. **والثاني**: أنّه لو كان صاحب هٰذه المقالة يعقل ما يقول؛ لم يورد هٰذه الأدلّة الواهية، وإذ كان لا يعقل ما يقول؛ وجب ٱطّراح مقالته وعدم الالتفات إليها.

خيالاتٌ مجرَّدةٌ وأوهامٌ مقدَّرةٌ كوضعِ الذِّهنِ سائرَ ما يَضَعُهُ مِن المقدَّراتِ الذِّهنيَّةِ، ومعلومٌ أنَّ المعانيَ المستنبطةَ مِن الأحكامِ هيَ مِن أجلِّ العلومِ ومعلومَها مِن أشرفِ المعلوماتِ وأنفعِها للعبادِ وهيَ منشأُ مصالحِهِم في معاشِهِم ومعادِهِم وترتُّبُ آثارِها عليها مشهودٌ في الخارجِ معقولٌ في الفطرِ قائمٌ في العقولِ؛ فكيفَ يُدَّعى أنَّهُ مجرَّدُ وضعٍ ذهنيٍّ لا حقيقةَ لهُ بهِ؟!

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ ٱستنباطَ الذِّهنِ لِما يَسْتَنْبِطُهُ مِن المعاني وٱعتقادَهُ أنَّ الأفعالَ مشتملةٌ عليها معَ كونِ الأمرِ ليسَ كذٰلكَ جهلٌ مركَّبٌ وٱعتقادٌ باطلٌ؛ فإنَّهُ إذا ٱعْتَقَدَ أنَّ الأفعالَ مشتملةٌ على تلكَ المعاني وأنَّها منشؤُها وليسَ كذٰلكَ؛ كانَ ٱعتقادًا للشَّيءِ بخلافِ ما هوَ بِهِ، وهٰذا غايةُ الجهلِ، فكيفَ يُدَّعى هٰذا في أشرفِ العلومِ وأزكاها وأنفعِها وأعظمِها تضمُّنًا لمصالحِ العبادِ في المعاشِ والمعادِ؟! وهل هوَ إلَّا لبُّ الشَّريعةِ ومضمونُها؟! فكيفَ يَسوغُ أنْ يُدَّعى فيها هٰذا الباطلُ ويُرْمى بهٰذا البهتانِ؟!

وبالجملةِ؛ فبطلانُ هٰذا القولِ أظهرُ مِن أنْ يُتَكَلَّفَ ردُّهُ، ولمْ يَقُلْ هٰذا القولَ مَن شَمَّ للفقهِ رائحةً أصلًا.

● **الوجهُ التَّاسعُ والخمسونَ**: قولُكُم: «لو كانَتْ صفاتٍ نفسيَّةً للفعلِ؛ لَزِمَ مِن ذٰلكَ أنْ تكونَ الحركةُ الواحدةُ مشتملةً على صفاتٍ متناقضةٍ وأحوالٍ متنافرةٍ»!

فيُقالُ: وما الذي يُحيلُ أنْ يَكونَ الفعلُ مشتملًا على صفتينِ مختلفتينِ، تَقْتَضي كلٌّ منهُما أثرًا غيرَ الأثرِ الآخرِ، وتكونُ إحدى الصِّفتينِ والأثرينِ أولى بهِ وتكونُ مصلحتُهُ أرجحَ، فإذا رُتِّبَ على صفتِهِ الأُخرى أثرُها؛ فاتَتِ المصلحةُ الرَّاجحةُ المطلوبةُ شرعًا وعقلًا؟!

بل هٰذا هوَ الواقعُ، ونحنُ نَجِدُ هٰذا حسًّا في قوى الأغذيةِ والأدويةِ ونحوِها مِن صفاتِ الأجسامِ الحسِّيَّةِ المدركةِ بالحسِّ[1]؛ فكيفَ بصفاتِ الأفعالِ المدركةِ بالعقلِ؟! وأمثلةُ ذٰلكَ في الشَّريعةِ تَزيدُ على الألفِ.

---

(١) وأمثِّل للتقريب بالبنيسلين Penicillin؛ فإنّه دواء شاف معروف، وربّما ٱنقلب سمًّا قاتلًا لمن يتحسّس له، ومع ذٰلك؛ فما من عاقل يقول البنيسلين لا يعدّ دواء.

فهٰذهِ الصَّلاةُ في وقتِ النَّهي: فيها مصلحةُ تكثيرِ العبادةِ وتحصيلِ الأرباحِ ومزيدِ الثَّوابِ والتَّقرُّبِ إلى ربِّ الأربابِ، وفيها مفسدةُ المشابهةِ بالكفَّارِ في عبادةِ الشَّمسِ وفي تركِها مصلحةُ سدِّ ذريعةِ الشِّركِ وفطمِ النُّفوسِ عنِ المشابهةِ للكفَّارِ حتَّى في وقتِ العبادةِ. وكانَتْ هٰذهِ المفسدةُ أولى بالصَّلاةِ في أوقاتِ النَّهي مِن مصلحتِها، فلو شُرِعَتْ لِما فيها مِن المصلحةِ؛ لَفاتَتْ مصلحةُ التَّركِ وحَصَلَتْ مفسدةُ المشابهةِ التي هيَ أقوى مِن مصلحةِ الصَّلاةِ حينئذٍ. ولهٰذا كانَتْ مصلحةُ أداءِ الفرائضِ في هٰذهِ الأوقاتِ أرجحَ مِن مفسدةِ المشابهةِ بحيثُ لَمَّا ٱنْغَمَرَتْ هٰذهِ المفسدةُ بالنِّسبةِ إلى الفريضةِ؛ لمْ يُمْنَعْ منها، بخلافِ النَّافلةِ؛ فإنَّ في فعلِها في غيرِ هٰذهِ الأوقاتِ غُنيةً عن فعلِها فيها، فلا تَفوتُ مصلحتُها، فيَقَعُ فعلُها في وقتِ النَّهي مفسدةً راجحةً. ومِن هاهُنا جَوَّزَ كثيرٌ مِن الفقهاءِ ذواتِ الأسبابِ[1] في وقتِ النَّهي لترجُّحِ مصلحتِها؛ فإنَّها لا تُقْضى أو لا يُمْكِنُ تداركُها، فكانَتْ مفسدةُ تفويتِها أرجحَ مِن مفسدةِ المشابهةِ المذكورةِ. وليسَ هٰذا موضعَ ٱستقصاءِ هٰذهِ المسألةِ.

فما الذي يُحيلُ ٱشتمالَ الحركةِ الواحدةِ على صفاتٍ مختلفةٍ بهٰذهِ المثابةِ ويَكونُ بعضُها أرجحَ مِن بعضٍ فيُقْضى للرَّاجحِ عقلاً وشرعًا؟!

وعلى هٰذا المثالِ مسائلُ عامَّةٌ للشَّريعةِ، ولولا الإطالةُ؛ لَكَتَبْنا منها ما يَبْلُغُ ألفَ مثالٍ، والعالمُ يَنْتَبِهُ بالجزئيَّاتِ للقاعدةِ الكلِّيَّةِ.

● **الوجهُ السِّتُّونَ**: قولُكُم: «وليسَ معنى قولِنا «إنَّ العقلَ ٱسْتَنْبَطَ منها» أنَّها كانَتْ موجودةً في الشَّيءِ فٱسْتَخْرَجَها العقلُ، بلِ العقلُ تَرَدَّدَ بينَ إضافاتِ الأحوالِ بعضِها إلى بعضٍ ونسبِ الحركاتِ والأشخاصِ نوعًا إلى نوعٍ وشخصًا إلى شخصٍ، فطَرَأَ عليهِ مِن تلكَ المعاني ما حَكَيْناهُ، وربَّما يَبْلُغُ مبلغًا يَشُذُّ عنِ الإحصاءِ. فعُرِفَ أنَّ المعانيَ لمْ تَرْجِعْ إلى الذَّاتِ، بل إلى مجرَّدِ الخواطرِ، وهيَ متعارضةٌ»!

فيُقالُ: يا عجبًا لعقلٍ يَروجُ عليهِ مثلُ هٰذا الكلامِ ويَبْني عليهِ هٰذهِ القاعدةَ العظيمةَ!

---

(١) يعني: الصلوات ذوات الأسباب كتحيَّة المسجد وصلاة الموت.

وذٰلكَ بناءٌ على شفا جرفٍ هارٍ! وقد تَقَدَّمَ ما يَكْفي في بطلانِ هٰذا الكلامِ ونَزيدُ هاهُنا أنَّهُ كلامٌ فاسدٌ لفظًا ومعنًى:

فإنَّ الاستنباطَ هوَ ٱستخراجُ الشَّيءِ الثَّابتِ الخفيِّ الذي لا يَعْثُرُ عليهِ كلُّ أحدٍ. ومنهُ ٱستنباطُ الماءِ، وهوَ ٱستخراجُهُ مِن موضعِهِ. ومنهُ قولُهُ تَعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]؛ أي: يَسْتَخْرِجونَ حقيقتَهُ وتدبيرَهُ بفطنِهِم وذكائِهِم وإيمانِهِم ومعرفتِهِم بمواطنِ الأمنِ والخوفِ. ولا يَصِحُّ معنًى[1] إلَّا في شيءٍ ثابتٍ لهُ حقيقةٌ خفيَّةٌ يَسْتَنْبِطُها الذِّهنُ ويَسْتَخْرِجُها، فأمَّا ما لا حقيقةَ لهُ؛ فإنَّهُ مجرَّدُ ذهنٍ، فلا ٱستنباطَ فيهِ بوجهٍ، وأيُّ شيءٍ يُسْتَنْبَطُ منهُ وإنَّما هوَ تقديرٌ وفرضٌ؟! وهٰذا لا يُسَمَّى ٱستنباطًا في عقلٍ ولا لغةٍ!

وحينئذٍ؛ فيُقْلَبُ الكلامُ عليكُم، ويَكونُ مَن يَقْلِبُهُ أسعدَ بالحقِّ منكُم، فنَقولُ: وليسَ معنى قولِنا «إنَّ العقلَ ٱسْتَنْبَطَ مِن تلكَ الأفعالِ» أنَّ ذٰلكَ مجرَّدَ خواطرَ طارئةٍ، وإنَّما معناهُ أنَّها كانَتْ موجودةً في الأفعالِ فٱسْتَخْرَجَها العقلُ بٱستنباطِهِ كما يُسْتَخْرَجُ الماءُ الموجودُ في الأرضِ بٱستنباطِهِ، ومعلومٌ أنَّ هٰذا هوَ المعقولُ المطابقُ للعقلِ واللغةِ وما ذَكَرْتُموهُ فخارجٌ عنِ العقلِ واللغةِ جميعًا. فعُرِفَ أنَّهُ لا يَصِحُّ معنى الاستنباطِ إلَّا لشيءٍ موجودٍ يَسْتَخْرِجُهُ العقلُ ثمَّ يَنْسُبُ إليهِ أنواعَ تلكَ الأفعالِ وأشخاصَها فإنْ كانَ أولى بهِ؛ حَكَمَ لهُ بالاقتضاءِ والتَّأْثيرِ.

وهٰذا هوَ المعقولُ، وهوَ الذي يَعْرِضُهُ الفقهاءُ والمتكلِّمونَ على مناسباتِ الشَّريعةِ وأوصافِها وعللِها التي تُرْبَطُ بها الأحكامُ. فلو ذَهَبَ هٰذا مِن أيديهِم؛ لانْسَدَّ عليهِم بابُ الكلامِ في القياسِ والمناسباتِ والحِكمِ وٱستخراجِ ما تَضَمَّنَتْهُ الشَّريعةُ مِن ذٰلكَ وتعليقِ الأحكامِ بأوصافِها المقتضيةِ لها، إذا كانَ مردُّ الأمرِ بزعمِكُم إلى مجرَّدِ خواطرَ طارئةٍ على العقلِ ومجرَّدِ وضعِ الذِّهنِ! وهٰذا مِن أبطلِ الباطلِ وأبينِ المحالِ!

ولقد أنْصَفَكُم خصومُكُم في ٱدِّعائِهِم عليكُم لازمَ هٰذا المذهبِ، وقالوا: لو رُفِعَ

---

(١) أي: ولا يصحّ الاستنباط من حيث المعنى.

الحسنُ والقبحُ مِن الأفعالِ الإنسانيَّةِ إلى مجرَّدِ تعلُّقِ الخطابِ بها؛ لَبَطَلَتِ المعاني العقليَّةُ التي تُسْتَنْبَطُ مِن الأُصولِ الشَّرعيَّةِ، فلا يُمْكِنُ أنْ يُقاسَ فعلٌ على فعلٍ ولا قولٌ على قولٍ، ولا يُمْكِنُ أنْ يُقالَ لِم كذا؛ إذْ لا تعليلَ للذَّواتِ ولا صفاتَ للأفعالِ هيَ عليها في نفسِ الأمرِ حتَّى تَرْتَبِطَ بها الأحكامُ! وذٰلكَ رفعٌ للشَّرائعِ بالكلِّيَّةِ مِن حيثُ إثباتُها، لا سيَّما والتَّعلُّقُ أمرٌ عدميٌّ، ولا معنى لحسنِ الفعلِ أو قبحِهِ إلَّا التَّعلُّقُ العدميُّ بينَهُ وبينَ الخطابِ، فلا حسنَ في الحقيقةِ ولا قبحَ لا شرعًا ولا عقلًا! لا سيَّما إذا ٱنْضَمَّ إلى ذٰلكَ نفيُ فعلِ العبدِ وٱختيارِهِ بالكلِّيَّةِ وأنَّهُ مجبورٌ محضٌ! فهٰذا فعلُهُ وذٰلكَ صفةُ فعلِهِ، فلا فعلَ لهُ ولا وصفَ لقولِهِ ٱلبتَّةَ! فأيُّ تعطيلٍ ودفعٍ للشَّرائعِ أكثرُ مِن هٰذا؟! فهٰذا إلزامُهُم لكُم كما أنَّكُم ألْزَمْتُموهُم نظيرَ ذٰلكَ في نفيِ صفةِ الكلامِ وأنْصَفْتُموهُم في الإلزامِ.

● **الوجهُ الحادي والسِّتُّونَ**: قولُكُم: «لو ثَبَتَ الحسنُ والقبحُ العقليَّانِ[1]: لَتَعَلَّقَ بهِما الإيجابُ والتَّحريمُ شاهدًا وغائبًا[2]، واللازمُ محالٌ، فالملزومُ كذٰلكَ...» إلى آخرِهِ!

* فنَقولُ: الكلامُ هاهُنا في مقامينِ: أحدُهُما: في التَّلازمِ المذكورِ بينَ الحسنِ والقبحِ العقليَّينِ وبينَ الإيجابِ والتَّحريمِ غائبًا، والثَّاني: في ٱنتفاءِ اللازمِ وثبوتِهِ.

[١] فأمَّا المقامُ الأوَّلُ؛ فلمثبتي الحسنِ والقبحِ طريقانِ:

أحدُهُما: ثبوتُ التَّلازمِ والقولُ باللازمِ. وهٰذا القولُ هوَ المعروفُ عنِ المُعْتَزِلَةِ، وعليهِ يُناظِرونَ، وهوَ القولُ الذي نَصَبَ خصومُهُم الخلافَ معَهُم فيهِ[3].

والقولُ الثَّاني: إثباتُ الحسنِ والقبحِ [دونَ لازمِهِ][4]؛ فإنَّهُم يَقولونَ بإثباتِهِ ويُصَرِّحونَ بنفيِ الإيجابِ قبلَ الشَّرعِ على العبدِ وبنفيِ إيجابِ العقلِ على اللهِ شيئًا ٱلبتَّةَ، كما صَرَّحَ بهِ كثيرٌ مِن الحَنَفِيَّةِ والحَنابِلَةِ كأبي الخَطَّابِ وغيرِهِ والشَّافِعِيَّةِ كسَعْدِ بنِ

---

(١) في ط: «الحسن والقبح العقليين»! ونبّه على وجه الصواب فيه في الحاشية.

(٢) الإيجاب والتحريم شاهدًا: الإيجاب والتحريم على العباد. الإيجاب والتحريم غائبًا: الإيجاب والتحريم على الله جلّ وعلا.

(٣) وقد تقدّم تفصيله وردّه (٢/ ٣٤٧ و٣٥٧ و٣٧٠) فراجعه إن شئت.

(٤) ساقطة من ط، والسياق يستوجب إثباتها.

عَلِيٍّ الزَّنْجانِيِّ الإمامِ المشهورِ وغيرِهِ[١]. ولهٰؤلاءِ في نفيِ الإيجابِ العقليِّ مِن المعرفةِ باللهِ وثبوتِهِ خلافٌ[٢].

فالأقوالُ إذًا أربعةٌ لا مزيدَ عليها: أحدُها نفيُ الحسنِ والقبحِ. [والثَّاني: إثباتُ الحسنِ والقبحِ معَ القولِ بالإيجابِ العقليِّ، وهوَ قولُ المُعْتَزِلَةِ. والثَّالثُ: إثباتُ الحسنِ والقبحِ ونفيُ الإيجابِ العقليِّ في العمليَّاتِ والعلميَّاتِ معًا. والرَّابعُ: إثباتُ الحسنِ والقبحِ][٣] ونفيُ الإيجابِ العقليِّ في العمليَّاتِ دونَ العلميَّاتِ كالمعرفةِ، وهٰذا ٱختيارُ أبي الخَطَّابِ وغيرِهِ. فعُرِفَ أنَّهُ لا تَلازُمَ بينَ الحسنِ والقبحِ وبينَ الإيجابِ والتَّحريمِ العقليَّيْنِ[٤]. فهٰذا أحدُ المقامينِ.

[٢] وأمَّا المقامُ الثَّاني ـ وهوَ ٱنتفاءُ اللازمِ وثبوتُهُ ـ؛ فللنَّاسِ فيهِ هاهُنا ثلاثةُ طرقٍ:

أحدُها: ٱلتزامُ ذٰلكَ والقولُ بالوجوبِ والتَّحريمِ العقليَّيْنِ شاهدًا وغائبًا. وهٰذا قولُ المُعْتَزِلَةِ.

وهٰؤلاءِ يقولونَ بترتُّبِ الوجوبِ [غائبًا على الوجوبِ][٥] شاهدًا[٦] وبترتُّبِ المدحِ والذَّمِّ عليهِ.

وأمَّا العقابُ؛ فلهُم فيهِ ٱختلافٌ وتفصيلٌ، ومَن أثْبَتَهُ منهُم؛ لمْ يُثْبِتْهُ على الوجوبِ الثَّابتِ بعدَ البعثةِ، ولٰكنَّهُم يقولونَ: إنَّ العذابَ الثَّابتَ بعدَ الإيجابِ الشَّرعيِّ نوعٌ آخرُ غيرُ العذابِ الثَّابتِ على الإيجابِ العقليِّ. وبذٰلكَ يُجيبونَ عنِ النُّصوصِ النَّافيةِ للعذابِ قبلَ البعثةِ.

وأمَّا الإيجابُ والتَّحريمُ العقليَّانِ غائبًا؛ فهُم مصرِّحونَ بهِما، ويُفَسِّرونَ ذٰلكَ

---

(١) وقد تقدّمت تراجمهم (٢/ ٣٥٢ و٣٥٣).

(٢) يعني أنّهم يثبتون المعرفة العقليّة بالله ثمّ يختلفون بعد إثباتها: فمنهم من يرى أنّ العقل يوجب بعد المعرفة بالله عبادته وحده ويحرّم عبادة من دونه وهو مناط الثواب والعقاب، ومنهم من يرى أنّ العقل لا يقتضي بعد هٰذه المعرفة وجوبًا ولا تحريمًا ولا ثوابًا ولا عقابًا قبل مجيء الشرع بذٰلك.

(٣) ساقطة من ط، والسياق يستوجب ذكرها أو ذكر نحوها، ولا معنى للكلام بغير ذٰلك.

(٤) لأنّه لو كان التلازم حقيقيًّا لا بدّ منه؛ لما ٱختلف أهل النظر فيه إثباتًا ونفيًا.

(٥) ساقطة من ط، والسياق يستوجب ذكرها، ولا معنى للكلام بدونها.

(٦) يعني أنّ ما يجب على العباد يجب على ربّ العباد!

باللزومِ الذي أوْجَبَتْهُ حكمتُهُ وحَرَّمَتْهُ وأنَّهُ يَسْتَحيلُ عليهِ خلافُهُ كما يَسْتَحيلُ عليهِ الحاجةُ والنَّومُ والتَّعبُ واللغوبُ. فهٰذا معنى الوجوبِ والامتناعِ في حقِّ اللهِ عندَهُم، فهوَ وجوبٌ ٱقْتَضَتْهُ ذاتُهُ وحكمتُهُ وغناهُ وٱمتناعٌ يَسْتَحيلُ عليهِ الاتِّصافُ بهِ لمنافاتِهِ كمالَهُ وغناهُ. قالوا: وهٰذا في الأفعالِ نظيرُ ما تَقولونَهُ[1] في الصِّفاتِ؛ أنَّهُ يَجِبُ لهُ كذا ويَمْتَنِعُ عليهِ كذا، فقولُنا نحنُ في الأفعالِ نظيرُ قولِكُم في الصِّفاتِ ما يَجِبُ لهُ منها وما يَمْتَنِعُ عليهِ، فكما أنَّ ذٰلكَ وجوبٌ وٱمتناعٌ ذاتيٌّ يَسْتَحيلُ عليهِ خلافُهُ فهٰكذا ما تَقْتَضيهِ حكمتُهُ وتأْباهُ وجوبٌ وٱمتناعٌ يَسْتَحيلُ عليهِ الإخلالُ بهِ وإنْ كانَ مقدورًا لهُ لٰكنَّهُ لا يُخِلُّ بهِ لكمالِ حكمتِهِ وعلمِهِ وغناهُ.

والفرقةُ الثَّانيةُ: مَنَعَتْ ذٰلكَ جملةً وأحالَتِ القولَ بهِ[2]، وجَوَّزَتْ على الرَّبِّ تَعالى كلَّ شيءٍ ممكنٍ، وردَّتِ الإحالةَ والامتناعَ في أفعالِهِ إلى غيرِ الممكنِ مِن المحالاتِ كالجمعِ بينَ النَّقيضينِ وبابِهِ[3]. فقابَلوا المُعْتَزِلَةَ أشدَّ مقابلةٍ، وٱقْتَسَموا [مَعَهُم] طرفي[4] الإفراطِ والتَّفريطِ. وردَّ هٰؤلاءِ الوجوبَ والتَّحريمَ الذي جاءَتْ بهِ النُّصوصُ إلى مجرَّدِ صدقِ المخبِرِ، فما أَخْبَرَ بأنَّهُ يَكونُ فهوَ واجبٌ لتصديقِ العلمِ لمعلومِهِ والمخبَرِ لخبرِهِ. وقد يُفَسِّرونَ التَّحريمَ بالامتناعِ عقلًا، كتحريمِ الظُّلمِ على نفسِهِ؛ فإنَّهُم يُفَسِّرونَ الظُّلمَ بالمستحيلِ لذاتِهِ كالجمعِ بينَ النَّقيضينِ، وليسَ عندَهُم في المقدورِ شيءٌ هوَ ظلمٌ يَتَنَزَّهُ اللهُ عنهُ معَ قدرتِهِ عليهِ لغناهُ وحكمتِهِ وعدلِهِ. فهٰذا قولُ هٰؤلاءِ.

والفرقةُ الثَّالثةُ همُ الوسطُ بينَ هاتينِ الفرقتينِ: فإنَّ الفرقةَ الأُولى أوْجَبَتْ على اللهِ شريعةً بعقولِها وحَرَّمَتْ عليهِ وأوْجَبَتْ ما لمْ يُحَرِّمْهُ على نفسِهِ ولمْ يُوجِبْهُ على نفسِهِ. والفرقةُ الثَّانيةُ جَوَّزَتْ عليهِ ما يَتَعالى ويَتَنَزَّهُ عنهُ لمنافاتِهِ حكمتَهُ وحمدَهُ وكمالَهُ. والفرقةُ الوسطُ أثْبَتَتْ لهُ ما أَثْبَتَهُ لنفسِهِ مِن الإيجابِ والتَّحريمِ الذي هوَ مقتضى أسمائِهِ وصفاتِهِ

---

(١) في ط: «ما يقولونه»! وهو تصحيف صوابه ما أثبتّه. والكلام للمعتزلة يتوجّهون به إلى الأشاعرة.
(٢) أحالت القول به: عدّته من المستحيلات.
(٣) وهٰؤلاء هم الأشاعرة والكلاّبيّة.
(٤) في ط: «واقتسما طرفي»! وفيه تحريف وسقط صوابه ما أثبتّه.

الذي لا يَليقُ بهِ نسبتُهُ إلى ضدِّهِ؛ لأنَّهُ موجَبُ كمالِهِ وحكمتِهِ وعدلِهِ، ولمْ تُدْخِلْهُ تحتَ شريعةٍ وَضَعَتْها بعقولِها كما فَعَلَتِ الفرقةُ الأُولى، ولمْ تُجَوِّزْ عليهِ ما نَزَّهَ نفسَهُ عنهُ كما فَعَلَتْهُ الفرقةُ الثَّانيةُ.

قالتِ الفرقةُ الوسطُ: قد أَخْبَرَ تَعالى أَنَّهُ حَرَّمَ الظُّلمَ على نفسِهِ: كما قالَ على لسانِ رسولِهِ: «يا عبادي! إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلمَ على نفسي...»[1]، وقالَ: ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقالَ: ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصِّلت: ٤٦]، وقالَ: ﴿وَلا يُظْلَمونَ فَتيلاً﴾ [النساء: ٤٩]، وقالَ: ﴿وَما اللهُ يُريدُ ظُلْمًا لِلْعِبادِ﴾ [غافر: ٣١]. فأَخْبَرَ عن تحريمِهِ على نفسِهِ ونَفى عن نفسِهِ فعلَهُ وإرادتَهُ.

*** وللنَّاسِ في تفسيرِ هٰذا الظُّلمِ ثلاثةُ أقوالٍ بحسبِ أُصولِهِم وقواعدِهِم:**

[١] أحدُها[2]: أنَّ الظُّلمَ الذي حَرَّمَهُ [اللهُ] وتَنَزَّهَ عن فعلِهِ وإرادتِهِ هوَ نظيرُ الظُّلمِ مِن الآدميِّينَ بعضِهِم لبعضٍ، وشَبَّهوهُ في الأفعالِ ـ ما يَحْسُنُ منها وما لا يَحْسُنُ ـ بعبادِهِ، فضَرَبوا لهُ مِن قِبَلِ أنفسِهِم الأمثالَ وصاروا بذٰلكَ مشبِّهةً ممثِّلةً في الأفعالِ، فٱمْتَنَعوا مِن إثباتِ المثلِ الأعلى الذي أَثْبَتَهُ لنفسِهِ ثمَّ ضَرَبوا لهُ الأمثالَ ومَثَّلوهُ في أفعالِهِ بخلقِهِ. كما أنَّ الجَهْمِيَّةَ المُعَطِّلَةَ ٱمْتَنَعَتْ مِن إثباتِ المثلِ الأعلى الذي أَثْبَتَهُ لنفسِهِ ثمَّ ضَرَبوا لهُ الأمثالَ ومَثَّلوهُ في صفاتِهِ بالجماداتِ النَّاقصةِ بل بالمعدوماتِ. وأهلُ السُّنَّةِ: نَزَّهوهُ عن هٰذا وهٰذا، وأَثْبَتوا لهُ ما أَثْبَتَهُ لنفسِهِ مِن صفاتِ الكمالِ ونَزَّهوهُ فيها عنِ الشَّبهِ والمثالِ، فأَثْبَتوا لهُ المثلَ الأعلى ولمْ يَضْرِبوا لهُ الأمثالَ، فكانوا أسعدَ الطَّوائفِ بمعرفتِهِ وأحقَّهُم بالإيمانِ بهِ وبولايتِهِ ومحبَّتِهِ، وذٰلكَ فضلُ اللهِ يُؤْتيهِ مَن يَشاءُ.

ثمَّ ٱلْتَزَمَ أصحابُ هٰذا التَّفسيرِ عنهُ مِن اللوازمِ الباطلةِ ما لا قِبَلَ لهُم بهِ: قالوا عن هٰذا التَّفسيرِ الباطلِ: إنَّهُ تَعالى إذا أَمَرَ العبدَ ولمْ يُعِنْهُ بجميعِ مقدورِهِ تَعالى مِن وجوهِ الإعانةِ؛ كانَ ظالمًا لهُ، وٱلْتَزَموا لذٰلكَ أنَّهُ لا يَقْدِرُ أنْ يَهْدِيَ ضالاًّ كما قالوا إنَّهُ لا يَقْدِرُ أنْ يُضِلَّ مهتديًا! وقالوا عنهُ أيضًا: إنَّهُ إذا أَمَرَ ٱثْنينِ بأمرٍ واحدٍ وخَصَّ أحدَهُما بإعانتِهِ

(١) قطعة من حديث أبي ذرّ الذي رواه مسلم وتقدّم تخريجه (٢/ ٤٤٢).

(٢) وهو قول المعتزلة.

على فعلِ المأمورِ بهِ؛ كانَ ظالمًا! وقالوا عنهُ أيضًا: إنَّهُ إذا ٱشْتَرَكَ ٱثنانِ في ذنبٍ يُوجِبُ العقابَ، فعاقَبَ بهِ أحدَهُما وعَفا عنِ الآخرِ؛ كانَ ظالمًا... إلى غيرِ ذٰلكَ مِن اللوازمِ الباطلةِ التي جَعَلوا لأجلِها تركَ تسويتِهِ بينَ عبادِهِ في فضلِهِ وإحسانِهِ ظلمًا!

[٢] فعارَضَهُم أصحابُ التَّفسيرِ الثَّاني[١] وقالوا: الظُّلمُ المنزَّهُ عنهُ هوَ الأُمورُ الممتنعةُ لذاتِها[٢]، فلا يَجوزُ أنْ يَكونَ مقدورًا ولا أنَّهُ تَعالى تَرَكَهُ بمشيئتِهِ وٱختيارِهِ، وإنَّما هوَ مِن بابِ الجمعِ بينَ الضِّدَّينِ وجعلِ الجسمِ الواحدِ في مكانينِ وقلبِ القديمِ محدثًا والمحدثِ قديمًا ونحوِ ذٰلكَ، وإلَّا؛ فكلُّ ما يُقَدِّرُهُ الذِّهنُ وكانَ وجودُهُ ممكنًا والرَّبُّ قادرٌ عليهِ؛ فليسَ بظلمٍ سواءٌ فَعَلَهُ أو لمْ يَفْعَلْهُ[٣].

وتَلَقَّى هٰذا القولَ عنهُم طوائفُ مِن أهلِ العلمِ، وفَسَّروا الحديثَ بهِ، وأَسْنَدوا ذٰلكَ وقَوَّوْهُ بآياتٍ وآثارٍ زَعَموا أنَّها تَدُلُّ عليهِ، كقولِهِ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]؛ يَعْني: لمْ تَتَصَرَّفْ في غيرِ ملكِكَ، بل إنْ عَذَّبْتَ؛ عَذَّبْتَ مَن تَمْلِكُ.

وعلى هٰذا؛ فجَوَّزوا تعذيبَ كلِّ عبدٍ لهُ ولو كانَ محسنًا ولمْ يَرَوْا ذٰلكَ ظلمًا: بقولِهِ تَعالى: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وبقولِ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ لو عَذَّبَ أهلَ سماواتِهِ وأهلَ أرضِهِ؛ لَعَذَّبَهُم وهوَ غيرُ ظالمٍ لهُم»[٤]، وبقولِهِ ﷺ في دعاءِ الهمِّ والحزنِ: «اللهمَّ! إنِّي عبدُكَ وابنُ عبدِكَ، ماضٍ فيَّ حكمُكَ، عدلٌ فيَّ قضاؤُكَ»[٥]،

---

(١) وهم الجبريّة من الكلّابيّة والأشاعرة ومن سلك مسلكهم.

(٢) في ط: «عنه في الأمور الممتنعة لذاتها»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه إن شاء الله.

(٣) ولا تظنّنه بدعًا من القول، ولا مبالغة أطلق لها ابن القيّم يرحمه الله عنان خياله. إنّه مذهب القوم الذي يدرّسونه في كتبهم ويقرؤه جماهير المريدين من الأطبّاء والمهندسين والحاصلين على أعلى الدرجات العلميّة ثمّ يسلّمونه لأصحابه بالحرف وكأنّه قرآن منزل! فتأمّل إلام أنتهت أحوال المسلمين!

(٤) (صحيح). تقدّم تفصيل القول فيه (١/ ٩٠).

(٥) (حسن). رواه: ابن أبي شيبة (٢٩٣٠٩)، وأحمد (١/ ٣٩١ و٤٥٢)، والحارث بن أبي أسامة، وابن أبي الدنيا «الفرج» (٥٣)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، والشاشي (٢٨٢)، وابن حبّان (٩٧٢)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٦٩/ ١٠٣٥١) و«الدعاء» (١٠٣٥)، والحاكم (١/ ٥٠٩)، والبيهقي في «الصفات» (٧)، والأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (١٢٧٧)؛ من طرق، عن فضيل بن مرزوق، ثنا أبو سلمة الجهني، عن القاسم بن عبدالرحمٰن، عن أبيه، عن ابن مسعود... به.

وهٰذا سند فيه كلام من أوجه: الوجه الأوّل: أشار إليه الحاكم بقوله: «على شرط مسلم إن سلم من=

وبما رُوِيَ عن إياس بنِ مُعاوِيَةَ[(١)] قالَ: ما ناظَرْتُ بعقلي كلِّه أحدًا إلاَّ القَدَرِيَّةَ؛ قُلْتُ لهُم: ما الظُّلمُ؟ قالوا: أَنْ تأْخُذَ ما ليسَ لكَ أو تَتَصَرَّفَ فيما ليسَ لكَ. قُلْتُ: فللهِ كلُّ شيءٍ!

وٱلْتَزَمَ هٰؤلاءِ عن هٰذا القولِ لوازمَ باطلةً كقولِهِم: إنَّ اللهَ تَعالى يَجوزُ عليهِ أَنْ يُعَذِّبَ أنبياءَهُ ورسلَهُ وملائكتَهُ وأولياءَهُ وأهلَ طاعتِهِ ويُخَلِّدَهُم في العذابِ الأليمِ، ويُكْرِمَ أعداءَهُ مِن الكفَّارِ والمشركينَ والشَّياطينِ ويَخُصَّهُم بجنَّتِهِ وكرامتِهِ، وكلاهُما عدلٌ وجائزٌ عليهِ، وإنَّهُ يُعْلَمُ أنَّهُ لا يَفْعَلُ ذٰلكَ بمجرَّدِ خبرِهِ، فصارَ ممتنعًا لإخبارِهِ أنَّهُ لا يَفْعَلُهُ لا لمنافاتِهِ حكمتَهُ، ولا فرقَ بينَ الأمرينِ بالنِّسبةِ إليهِ، ولٰكنْ أرادَ هٰذا وأَخْبَرَ بهِ وأرادَ الآخرَ وأَخْبَرَ بهِ[(٢)]، فوَجَبَ هٰذا لإرادتِهِ وخبرِهِ وٱمْتَنَعَ ضدُّهُ لعدمِ إرادتِهِ وٱختيارِهِ بأنْ لا يَكونَ! وٱلْتَزَموا لهُ أيضًا أنَّهُ يَجوزُ أنْ يُعَذِّبَ الأطفالَ الذينَ لا ذنبَ لهُم أصلاً ويُخَلِّدَهُم في الجحيمِ، وربَّما قالوا بوقوعِ ذٰلكَ!

[٣] فأنْكَرَ على الطَّائفتينِ معًا أصحابُ التَّفسيرِ الثَّالثِ وقالوا: الصَّوابُ الذي

= إرسال عبدالرحمٰن بن عبدالله». قلت: قد ثبت سماع عبدالرحمٰن من أبيه جملة من الأحاديث، فردّ سماعه لهٰذا تعنّت. والوجه الثاني: أشار إليه الذهبي بقوله: «أبو سلمة لا يدرى من هو». والهيثمي (١٠/ ١٩٠): «رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجهني، وقد وثّقه ابن حبّان». قلت: أبو سلمة هٰذا هو موسى بن عبدالله الجهني، ثقة من رجال مسلم، وقد خفي أمره على الذهبي والهيثمي والعسقلاني في «اللسان» لا في «أمالي الأذكار»، ونبّه إلى وجه الصواب فيه شاكر والألباني. والوجه الثالث: أشار إليه الدارقطني؛ فقد رواه: الضبّي في «الدعاء»، والبزّار (١٩٩٤)، وابن السنّي (٣٤٠)، والدارقطني في «العلل» (٨١٩) معلّقًا، والبيهقي في «الصفات» (٨)، والرافعي في «التدوين» (٢/ ٣٣٨)؛ من طريق قويّة، عن عبدالرحمٰن بن إسحاق أبي شيبة الواسطي، عن القاسم، عن ابن مسعود. . . به منقطعًا. وليس بالقادح، فلو كان أبو شيبة ثقة؛ لكان الوصل زيادة ثقة لا بدّ من المصير إليها؛ فكيف وهو ضعيف؟! والوجه الرابع: أنّ في فضيل بن مرزوق كلامًا، ولٰكنّه يسير، لا ينزل بحديثه عن رتبة الحسن، وقد تابعه أبو شيبة الواسطي كما تقدّم. وخلاصة الكلام أنّ الأوجه الأربعة غير قادحة، والحديث لا ينزل عن رتبة الحسن، وقد حسّنه العسقلاني والألباني.

وله شاهد عند ابن السنّي (٣٣٩) من طريق قويّة، عن فيّاض، عن عبدالله بن زبيد، عن أبي موسى. . . رفعه. وعبدالله هٰذا الظاهر أنّه ابن الحارث اليامي، فإن كان كذٰلك؛ فمستور، وروايته عن أبي موسى منقطعة، وإن لم يكنه؛ فلم أعرفه. ولذٰلك قال العسقلاني: «غريب».

(١) أبو واثلة، العلاّمة، قاضي البصرة، أحد التابعين، كان يضرب به المثل في الذكاء والدهاء والسؤدد والعقل. توفي سنة ١٢١ هـ. ترجمته في: «حلية الأولياء» (٣/ ١٢٣)، «أعلام النبلاء» (٥/ ١٥٥).

(٢) يعني: أراد أن يكرم ملائكته وأنبياءه وأولياءه وأخبر به، وأراد أن يعذّب أعداءه من الكفّار والمشركين والشياطين وأخبر به؛ إرادة مجرّدة.

دَلَّتْ عليهِ النُّصوصُ أنَّ الظُّلمَ الذي حَرَّمَهُ اللهُ على نفسِهِ وتَنَزَّهَ عنهُ فعلاً وإرادةً هوَ ما فَسَّرَهُ بِهِ سلفُ الأُمَّةِ وأئمَّتُها أنَّهُ: لا يُحَمَّلُ المرءُ سيِّئاتِ غيرِهِ، ولا يُعَذَّبُ بما لَمْ تَكْسِبْ يداهُ ولَمْ يَكُنْ سَعى فيهِ، ولا يُنْقَصُ مِن حسناتِهِ، ولا يُجازى بها أو ببعضِها إذا قارَنَها أو طَرَأ عليها ما يَقْتَضي إبطالَها أو اقتصاصُ المظلومينَ منها.

وهٰذا الظُّلمُ الذي نَفى اللهُ تَعالى خوفَهُ عنِ العبدِ بقولِهِ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾ [طٰه: ١١٢]: قالَ السَّلفُ والمفسِّرونَ: لا يَخافُ أنْ يُحْمَلَ عليهِ مِن سيِّئاتِ غيرِهِ ولا يُنْقَصَ مِن حسناتِهِ.

فهٰذا[١] هوَ المعقولُ مِن الظُّلمِ ومِن عدمِ خوفِهِ، وأمَّا الجمعُ بينَ النَّقيضينِ وقلبُ القديمِ محدثًا والمحدثِ قديمًا؛ فممَّا يَتَنَزَّهُ كلامُ آحادِ العقلاءِ عن تسميتِهِ ظلمًا وعن نفيِ خوفِهِ عنِ العبدِ؛ فكيفَ بكلامِ ربِّ العالمينَ؟!

وكذٰلكَ قولُهُ: ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ وَلٰكِنْ كانوا هُمُ الظَّالِمينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]: فنَفى أنْ يكونَ تعذيبُهُ لهُم ظلمًا، ثمَّ أَخبَرَ أنَّهُم همُ الظَّالمونَ بكفرِهِم، ولو كانَ الظُّلمُ المنفيُّ هوَ المحالَ؛ لَمْ يَحْسُنْ مقابلةُ قولِهِ ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ﴾ بقولِهِ ﴿وَلٰكِنْ كانوا هُمُ الظَّالِمينَ﴾، بل يَقْتَضي الكلامُ أنْ يُقالَ: «وما ظَلَمْناهُم ولٰكنْ تَصَرَّفْنا في ملكِنا وعبيدِنا»، فلمَّا نَفى الظُّلمَ عن نفسِهِ وأثْبَتَهُ لهُم؛ دَلَّ على أنَّ الظُّلمَ المنفيَّ هوَ أنْ يُعَذِّبَهُم بغيرِ جرمٍ وأنَّهُ إنَّما عَذَّبَهُم بجرمِهِم وظلمِهِم. ولا تَحْتَمِلُ الآيةُ غيرَ هٰذا، ولا يَجوزُ تحريفُ كلامِ اللهِ لنصرةِ المقالاتِ.

[وقالَ تَعالى][٢]: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلونَ الجَنَّةَ وَلا يُظْلَمونَ نَقيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]: ولا ريبَ أنَّ هٰذا مذكورٌ في سياقِ التَّحريضِ على الأعمالِ الصَّالحةِ والاستكثارِ منها؛ فإنَّ صاحبَها يُجْزى بها ولا يُنْقَصُ منها بذرةً. ولهٰذا يُسَمِّيهِ تَعالى توفيةً: كقولِهِ[٣]: ﴿وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجورَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ﴾

---

(١) في ط: «ولا ينقص من حسناته ما يتحمّل فهٰذا»! وهٰذه زيادة لا محلّ لها هنا ولا معنى.

(٢) زيادة يقتضيها الكلام.

(٣) في ط: «ولهٰذا يسمّى تعالى موفّيه كقوله»! وله وجه ضعيف، والغالب أنّه تحريف لما أثبتّه.

[آل عمران: ١٨٥]، وقولِه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلونَ﴾ [الزمر: ٧٠]. فتركُ الظُّلمِ هوَ العدلُ لا فعلُ كلِّ ممكنٍ، وعلى هٰذا قامَ الحسابُ ووُضِعَ الموازينُ القسطُ ووُزِنَتِ الحسناتُ والسَّيِّئاتُ وتَفاوَتَتِ الدَّرجاتُ العُلا بأهلِها والدَّركاتُ السُّفلى بأهلِها.

وقالَ تَعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]؛ أي: لا يُضيعُ جزاءَ مَن أحْسَنَ ولو بمثقالِ ذرَّةٍ. فدَلَّ على أنَّ إضاعتَها وتركَ المجازاةِ بها معَ عدمِ ما يُبْطِلُها ظلمٌ يَتَعالى اللهُ عنهُ، ومعلومٌ أنَّ تركَ المجازاةِ عليها مقدورٌ يَتَنَزَّهُ اللهُ عنهُ لكمالِ عدلِه وحكمتِه. ولا تَحْتَمِلُ الآيةُ قطُّ غيرَ معناها المفهومِ منها.

وقالَ تَعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]؛ أي: لا يُعاقِبُ العبدَ بغيرِ إساءةٍ ولا يَحْرِمُهُ ثوابَ إحسانِه، ومعلومٌ أنَّ ذٰلكَ مقدورٌ لهُ تَعالى.

وهوَ نظيرُ قولِه: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما في صُحُفِ موسى . وَإِبْراهيمَ الَّذي وَفَّى . أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى . وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ [النَّجم: ٣٦-٣٩]: فأخْبَرَ أنَّهُ ليسَ على أحدٍ مِن وزرِ[1] غيرِه شيءٌ، وأنَّهُ لا يَسْتَحِقُّ إلَّا ما سَعاهُ، وأنَّ هٰذا هوَ العدلُ الذي نَزَّهَ نفسَهُ عن خلافِه.

[وَقالَ تَعالى][2]: ﴿وَقالَ الَّذي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمودَ وَالَّذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَما اللهُ يُريدُ ظُلْمًا لِلْعِبادِ﴾ [غافر: ٣٠-٣١]: بيَّنَ أنَّ هٰذا العقابَ لمْ يَكُنْ ظلمًا مِن اللهِ للعبادِ بل لذنوبِهم واستحقاقِهم.

ومعلومٌ أنَّ المحالَ الذي لا يُمْكِنُ ولا يَكونُ مقدورًا أصلًا[3] لا يَصْلُحُ أنْ يُمْدَحَ الممدوحُ بعدمِ إرادتِه ولا فعلِه ولا يُحْمَدَ على ذٰلكَ، وإنَّما يَكونُ المدحُ بتركِ الأفعالِ لِمَن هوَ قادرٌ عليها وأنْ يَتَنَزَّهَ عنها لكمالِه وغناهُ وحمدِه. وعلى هٰذا يَتِمُّ قولُهُ «إنِّي

(١) في ط: «على أحد في وزر»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.
(٢) ساقطة من ط، ولا بدّ منها لفهم السياق.
(٣) في ط: «ولا يكون مقدّرًا أصلًا»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

حَرَّمْتُ الظُّلمَ على نفسي»[(١)] وما شاكَلَهُ مِن النُّصوصِ. فأمَّا أنْ يَكونَ المعنى: إنِّي حَرَّمْتُ على نفسي ما لا حقيقةَ لهُ وما ليسَ بممكنٍ مثلَ خلقِ مثلي ومثلَ جعلِ القديمِ محدثًا والمحدثِ قديمًا ونحوَ ذٰلكَ مِن المحالاتِ، ويَكونَ المعنى: إنِّي أَخْبَرْتُ عن نفسي بأنَّ ما لا يَكونُ مقدورًا لا يَكونُ منِّي؛ فهٰذا ممَّا يَتيَقَّنُ المنصفُ أنَّهُ ليسَ مرادًا مِن اللفظِ قطعًا[(٢)]، وأنَّهُ يَجِبُ تنزيهُ كلامِ اللهِ ورسولِهِ عن حملِهِ على مثلِ ذٰلكَ!

قالوا: وأمَّا ٱستدلالُكُم بتلكَ النُّصوصِ الدَّالَّةِ على أنَّهُ سبحانَهُ إنْ عَذَّبَهُم فإنَّهُم عبادُهُ وأنَّهُ غيرُ ظالمٍ لهُم وأنَّهُ لا يُسْأَلُ عمَّا يَفْعَلُ وأنَّ قضاءَهُ فيهِم عدلٌ [و]بمناظرةِ إياسٍ للقَدَريَّةِ؛ فهٰذهِ النُّصوصُ وأمثالُها كلُّها حقٌّ يَجِبُ القولُ بموجَبِها، ولا تُحَرَّفُ معانيها، والكلُّ مِن عندِ اللهِ. ولٰكنْ؛ أيُّ دليلٍ فيها يَدُلُّ على أنَّهُ تَعالى يَجوزُ عليهِ أنْ يُعَذِّبَ أهلَ طاعتِهِ ويُنَعِّمَ أهلَ معصيتِهِ، وأنَّهُ يُعَذِّبُ بغيرِ جرمٍ ويَحْرِمُ المحسنَ جزاءَ عملِهِ، ونحوِ ذٰلكَ؟! بل كلُّها متَّفقةٌ متطابقةٌ دالَّةٌ على كمالِ القدرةِ وكمالِ العدلِ والحكمةِ: فالنُّصوصُ التي ذَكَرْناها تَقْتَضي كمالَ عدلِهِ وحكمتِهِ وغناهُ ووضعِهِ العقوبةَ والثَّوابَ مواضعَهُما وأنَّهُ لا يَعْدِلُ بهما عن سَنَنِهِما. والنُّصوصُ التي ذَكَرْتُموها تَقْتَضي كمالَ قدرتِهِ وٱنفرادَهُ بالرُّبوبيَّةِ والحُكمِ، وأنَّهُ ليسَ فوقَهُ آمرٌ ولا ناهٍ يَتَعَقَّبُ أفعالَهُ بسؤالٍ، وأنَّهُ لو عَذَّبَ أهلَ سماواتِهِ وأرضِهِ؛ لَكانَ ذٰلكَ تعذيبًا لحقِّهِ عليهِم وكانوا إذْ ذاكَ مستحقِّينَ للعذابِ؛ لأنَّ أعمالَهُم لا تَفي بنجاتِهِم: كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «لَنْ يُنْجِيَ أحدًا منكُم عملُهُ»، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «ولا أنا، إلَّا أنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ برحمةٍ منهُ وفضلٍ»[(٣)]. فرحمتُهُ لهُم لَيْسَتْ في مقابلةِ أعمالِهِم ولا هيَ ثمنًا لها؛ فإنَّها خيرٌ منها، كما قالَ في الحديثِ نفسِهِ[(٤)]: «ولو رَحِمَهُم؛ لَكانَتْ رحمتُهُ لهُم خيرًا مِن أعمالِهِم»[(٥)]؛ أي: فجَمَعَ بينَ الأمرينِ في الحديثِ: أنَّهُ لو عَذَّبَهُم؛ لَعَذَّبَهُم بٱستحقاقِهِم فلمْ يَكُنْ

---

(١) قطعة من حديث أبي ذرّ الذي رواه مسلم وتقدّم تخريجه (٢/ ٤٤٢).

(٢) في ط: «ليس مرادًا في اللفظ قطعًا»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) متّفق عليه من حديث أبي هريرة كما تقدّم (٢/ ٤٣٩).

(٤) هو حديث آخر عن صحابيّ آخر. فإمّا أنّه سها يرحمه الله، وإمّا أنّ في الكلام سقطًا.

(٥) (صحيح). تقدّم تفصيل القول في تخريجه (١/ ٩٠).

ظالمًا لهُم، وأنّـهُ لو رَحِمَهُم؛ لَكانَ ذٰلكَ مجرَّدَ فضلِـهِ وكرمِـهِ لا بأعمالِهِم؛ إذْ رحمتُـهُ خيرٌ مِن أعمالِهِم. فصلواتُ اللهِ وسلامُـهُ على مَن خَرَجَ هٰـذا الكلامُ أوَّلاً مِن شفتيـهِ؛ فإنَّهُ أعرفُ الخلقِ باللهِ وبحقِّهِ وأعلمُهُم بهِ وبعدلِهِ وفضلِهِ وحكمتِهِ وما يَسْتَحِقُّهُ على عبادِهِ.

وطاعاتُ العبادِ كلُّها[1] لا تكونُ مقابلةً لنعمِ اللهِ عليهِم ولا مساويةً لها بل ولا للقليلِ منها؛ فكيفَ يَسْتَحِقُّونَ بها على اللهِ النَّجاةَ؟! وطاعةُ المطيعِ لا نسبةَ لها إلى نعمةٍ مِن نعمِ اللهِ عليهِ، فتَبْقى سائرُ النِّعمِ تَتَقاضاهُ شكرًا، والعبدُ لا يَقومُ بمقدورِهِ الذي يَجِبُ للهِ عليهِ، فجميعُ عبادِهِ تحتَ عفوِهِ ورحمتِهِ وفضلِهِ، فما نَجا منهُم أحدٌ إلاَّ بعفوِهِ ومغفرتِهِ ولا فازَ بالجنَّةِ إلاَّ بفضلِهِ ورحمتِهِ.

وإذا كانَتْ هٰذهِ حالَ العبادِ؛ فلو عَذَّبَهُم؛ لَعَذَّبَهُم وهوَ غيرُ ظالمٍ لهُم، لا لكونِهِ قادرًا عليهِم وهُم ملكُهُ بل لاستحقاقِهِم، ولو رَحِمَهُم؛ لَكانَ ذٰلكَ بفضلِهِ لا بأعمالِهِم.

وأمَّا قولُهُ «فإنَّهُم عبادُكَ»؛ فليسَ المرادُ بهِ أنَّكَ قادرٌ عليهِم مالكٌ لهُم! وأيُّ مدحٍ في هٰذا؟! ولو قُلْتَ لشخصٍ: إنْ عَذَّبْتَ فلانًا؛ فإنَّكَ قادرٌ على ذٰلكَ؛ أيُّ مدحٍ يَكونُ في ذٰلكَ؟!

بل في ضمنِ ذٰلكَ الإخبارُ بغايةِ العدلِ، وأنَّهُ تَعالى إنْ عَذَّبَهُم؛ فإنَّهُم عبادُهُ الذينَ أنْعَمَ عليهِم بإيجادِهِم وخلقِهِم ورزقِهِم وإحسانِهِ إليهِم لا بوسيلةٍ منهُم ولا في مقابلةِ بذلٍ بَذَلوهُ، بلِ ٱبْتَدَأهُم بنعمِهِ وفضلِهِ، فإذا عَذَّبَهُم بعدَ ذٰلكَ وهُم عبيدُهُ؛ لمْ يُعَذِّبْهُم إلاَّ بجرمِهِم وٱستحقاقِهِم وظلمِهِم؛ فإنَّ مَن أنْعَمَ عليهِمُ ٱبتداءً بجلائلِ النِّعمِ؛ كيفَ يُعَذِّبُهُم بغيرِ ٱستحقاقِ أعظمِ النِّقمِ[2]؟!

وفيهِ أيضًا أمرٌ آخرُ ألطفُ مِن هٰذا، وهوَ أنَّ كونَهُم عبادَهُ يَقْتَضي عبادتَهُ وحدَهُ

---

(١) في ط: «وطاعات العبد كلّها»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) وهٰذه لمحة لطيفة جدًّا. ومقتضى كلام ابن القيّم يرحمه الله هنا أنّ نبيّ الله عيسى ﷺ إنّما نسب الخاطئين من النصارى أهل التثليث إلى الله تعالى بقوله ﴿فإنّهم عبادك﴾ إشارة إلى أنّهم أولى بك وأقرب إليك منّي، وأنا لا أعدو أن أكون نبيّهم ورسولهم، وأنت ربّهم الذي ٱبتدأهم وخلقهم وأعطاهم وأماتهم وأحياهم، وأنت أرحم بهم وأشفق عليهم منّي، فلا يمكن أن تعذّبهم إلاّ بعد أن ٱستحقّوا العذاب أضعافًا مضاعفة.

وتعظيمَهُ وإجلالَهُ كما يُجِلُّ العبدُ سيِّدَهُ ومالكَهُ الذي لا يَصِلُ إليهِ نفعٌ إلاَّ على يدِهِ ولا يَدْفَعُ عنهُ ضرًّا إلاَّ هوَ، فإذا كَفَروا بِهِ أقبحَ الكفرِ وأشْرَكوا بِهِ أعظمَ الشِّرْكِ ونَسَبوهُ إلى كلِّ نقيصةٍ ممَّا تكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ منهُ وتَنْشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجبالُ هدًّا؛ كانوا أحقَّ عبادِهِ وأولاهُم بالعذابِ. والمعنى: هُم عبادُكَ الذينَ أشْرَكوا بكَ وعَدَلوا بكَ وجَحَدوا حقَّكَ؛ فهُم عبادٌ مستحقُّونَ للعذابِ.

وفيهِ أمرٌ آخرُ أيضًا لعلَّهُ ألطفُ ممَّا قبلَهُ، وهوَ: إنْ تُعَذِّبْهُم؛ فإنَّهُم عبادُكَ، وشأْنُ السيِّدِ المحسنِ المنعمِ أنْ يَتَعَطَّفَ على عبدِهِ ويَرْحَمَهُ ويَحْنُوَ عليهِ، فإنْ عَذَّبْتَ هٰؤلاءِ وهُم عبيدُكَ؛ [فإنَّكَ][(١)] لا تُعَذِّبُهُم إلاَّ بأستحقاقِهِم وإجرامِهِم، وإلاَّ؛ فكيفَ يَشْقى العبدُ بسيِّدِهِ وهوَ مطيعٌ لهُ متَّبِعٌ لمرضاتِهِ؟!

فتَأَمَّلْ هٰذهِ المعانيَ، ووازِنْ بينَها وبينَ قولِ مَن يَقولُ: إنْ تُعَذِّبْهُم؛ فأنتَ الملكُ القادرُ وهُمُ المملوكونَ المربوبونَ، وإنَّما تَصَرَّفْتَ في ملكِكَ مِن غيرِ أنْ يَكونَ قامَ بهِم سببُ العذابِ! فإنَّ القومَ نفاةُ الأسبابِ، وعندَهُم أنَّ كفرَ الكافرينَ وشركَهُم ليسَ سببًا للعذابِ، بل العذابُ بمجرَّدِ المشيئةِ ومحضِ الإرادةِ!

وكذٰلكَ الكلامُ في مناظرةِ إياسٍ للقَدَرِيَّةِ، إنَّما أرادَ بأنَّ التَّصرُّفاتِ الواقعةَ منهُ تَعالى في ملكِهِ لا تكونُ ظلمًا قطُّ، وهٰذا حقٌّ؛ فإنَّ كلَّ ما فَعَلَهُ الرَّبُّ ويَفْعَلُهُ لا يَخْرُجُ عنِ العدلِ والحكمةِ والمصلحةِ والرَّحمةِ، فليسَ في أفعالِهِ ظلمٌ ولا جورٌ ولا سفهٌ، وهٰذا حقٌّ لا ريبَ فيهِ، فإياسٌ بَيَّنَ أنَّهُ سبحانَهُ في تصرُّفِهِ في ملكِهِ غيرُ ظالمٍ.

فهٰذهِ مجامعُ طرقِ العالَمِ في هٰذا المقامِ، قد أُلْقِيَتْ إليكَ مختصرةً بذكرِ قواعدِها وأدلَّتِها وترجيحِ الصَّوابِ منها وإبطالِ الباطلِ، ولعلَّكَ لا تَجِدُ هٰذا التَّفصيلَ والكلامَ على هٰذهِ المذاهبِ وأُصولِها في كتابٍ مِن كتبِ القومِ[(٢)]، واللهُ تَعالى المسؤولُ إتمامَ نعمتِهِ ومزيدَ العلمِ والهدى؛ إنَّهُ المانُّ بفضلِهِ.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ولا في كتب غيرهم، وما أظنّ ـ في حدّ ما اطّلعت عليه ـ أنّ هناك أحدًا تكلّم في هٰذه المسألة فأجاد فيها وأفاض وكفى وشفى كما فعل ابن القيّم قدّس الله روحه في علّيين هنا وفي كتبه الأخرى.

* فصلٌ: وكذٰلكَ الكلامُ في الإيجابِ في حقِّ اللهِ سواءٌ الأقوالُ فيهِ كالأقوالِ في التَّحريمِ.

وقد أخْبَرَ سبحانَهُ عن نفسِهِ أنَّهُ كَتَبَ على نفسِهِ وأحَقَّ على نفسِهِ: قالَ تَعالى: ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ المُؤْمِنينَ﴾ [الروم: ٤٧]. وقالَ تَعالى: ﴿وَإِذا جاءَكَ الَّذينَ يُؤْمِنونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقالَ تَعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ المُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ فَيَقْتُلونَ ويُقْتَلونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا في التَّوْراةِ وَالإِنْجيلِ وَالقُرْآنِ﴾ [التوبة: ١١١].

وفي الحديثِ الصَّحيحِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ لمُعاذٍ: «أتَدْري ما حَقُّ اللهِ على عبادِهِ؟». قُلْتُ: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ. قالَ: «حقُّهُ عليهِم أنْ يَعْبُدوهُ ولا يُشْرِكوا بهِ شيئًا. أتَدْري ما حقُّ العبادِ على اللهِ إذا فَعَلوا ذٰلكَ؟». قُلْتُ: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ. قالَ: «حقُّهُم عليهِ أنْ لا يُعَذِّبَهُم»[1]. ومنهُ قولُهُ ﷺ في غيرِ حديثٍ: مَن فَعَلَ كذا؛ كانَ على اللهِ أنْ يَفْعَلَ بهِ كذا وكذا[2]؛ في الوعدِ والوعيدِ.

ونظيرُ هٰذا ما أخْبَرَ سبحانَهُ مِن قسمِهِ لَيَفْعَلَنَّ ما أقْسَمَ عليهِ: كقولِهِ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعينَ﴾ [الحجر: ٩٢]. [وقولِهِ][3]: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨]. وقولِهِ: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]. وقولِهِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعينَ﴾ [ص: ٨٥]. وقولِهِ: ﴿فَالَّذينَ هاجَروا وَأُخْرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأُوذوا في سَبيلي وَقاتَلوا وَقُتِلوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. وقولِهِ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المُرْسَلينَ﴾ [الأعراف: ٦]. وقولِهِ فيما يَرْويهِ عنهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «وعزَّتي وجلالي؛ لأَقْتَصَّنَّ للمظلومِ مِنَ الظّالمِ ولو لطمةً ولو ضربةً

---

(١) رواه: البخاري (٥٦ـ الجهاد، ٤٦ـ اسم الفرس والحمار، ٦/٥٨/٢٨٥٦)، ومسلم (١ـ الإيمان، ١٠ـ من مات على التوحيد دخل الجنة، ١/٥٨/٣٠)؛ من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٢) في ط: «ﷺ في غير هٰذا حديث... يفعل به وكذا وكذا»! وهٰذان تحريفان صوابهما ما أثبته.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

بيدِ»[(١)]. . . إلى أمثالِ ذٰلكَ مِن صيغِ القسمِ المتضمِّنِ معنى إيجابِ المقسِمِ على نفسِهِ أو منعِهِ نفسَهُ، وهوَ القسمُ الطَّلبيُّ المتضمِّنُ للحظرِ والمنعِ[(٢)]، بخلافِ القسمِ الخبريِّ المتضمِّنِ للتَّصديقِ أوِ التَّكذيبِ. ولهٰذا قسَّمَ الفقهاءُ وغيرُهُمُ اليمينَ إلى موجِبٍ للحظرِ والمنعِ أوِ التَّصديقِ والتَّكذيبِ.

قالوا: وإذا كانَ معقولاً مِن العبدِ أنْ يكونَ طالبًا مِن نفسِهِ وتكونَ نفسُهُ طالبةً منهُ؛ لقولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقولِهِ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الهَوى﴾ [النازعات: ٤٠]؛ معَ كونِ العبدِ لهُ آمرٌ وناهٍ فوقَهُ؛

---

(١) (حسن بنحوه). لم أقف عليه بهٰذا اللفظ بالضبط، ويبدو لي أنّه مجموع من حديثين أو أكثر.

وأقرب شيء إليه ما رواه: أحمد (٣/٤٩٥)، والبخاري في «الأدب» (٩٧٠) و«الأفعال» (٤٦٣) و«التاريخ» (٧/١٦٩)، وابن أبي أسامة (٤٤ و٤٥ـ زوائد الهيثمي)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (٥١٤) و«الآحاد» (٢٠٣٤)، والروياني (١٤٩١)، والطبراني في «الأوسط» (٨٥٨٨)، وابن قانع في «المعجم» (٢/١٣٥)، والحاكم (٢/٤٣٧، ٤/٥٧٤)، والبيهقي في «الصفات» (١٣١ و٦٠٠)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢٣/٢٣٢) و«العلم» (١/١١١ و١١٢)، والخطيب في «الراوي والسامع» (١٦٨٦) و«الرحلة» (٣١ و٣٢)، وابن بشكوال في «المبهمات» (٢/٧٣١ و٧٣٢)، والضياء في «المختارة» (٩/٢٥/١٠)، والمزّي في «التهذيب» (٢٣/٣٩٤)، والعسقلاني في «التغليق» (٥/٣٥٥)؛ من طريق قويّة، عن القاسم بن عبدالواحد، ثني عبدالله بن محمّد بن عقيل، ثنا جابر، عن عبدالله بن أنيس، عن النبيّ ﷺ؛ قال: «يقول الله: أنا الملك أنا الديّان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنّة أن يدخل الجنّة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة حتّى أقصّه منه حتّى اللطمة». قال الهيثمي (١/١٣٨): «عبدالله بن محمّد ضعيف». قلت: ليّن حسن الحديث في الشواهد، والقاسم بن عبدالواحد مثله، فالسند ليّن، وقد صحّحه الحاكم والذهبي وحسّنه المنذري والعسقلاني، وقال الألباني: «حسن أو قريب منه».

ورواه: الطبراني في «الشاميّين» (١٥٦)، وتمّام في «الفوائد»، والعسقلاني في «التغليق» (٥/٣٥٦)؛ من طريق الحسن بن جرير الصوري، ثنا عثمان بن سعيد الصيداوي، ثنا سليمان بن صالح، ثنا عبدالرحمٰن بن ثابت بن ثوبان، عن الحجّاج بن دينار، عن محمّد بن المنكدر، عن جابر، عن عبدالله بن أنيس. . . رفعه. قال العسقلاني: «إسناده صالح»، وأقرّه الألباني.

ورواه الخطيب في «الرحلة» (٣٣) من طريق عمر بن صبح، عن مقاتل بن حيّان، عن أبي جارود العبسي، عن جابر، عن عبدالله بن أنيس. . . رفعه. وعمر بن صبح متروك متّهم، وأبو الجارود إن كان الغطفاني؛ فلا بأس بحديثه، وإلّا؛ فما عرفته.

والحديث حسن بمجموع طريقيه الأوليين، وقد علّقه البخاري في «صحيحه» (٩٧ـ التوحيد، ٣٢ـ ولا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمن أذن له، ١٣/٤٥٣)، وقوّاه الحاكم والمنذري والذهبي والعسقلاني والألباني.

(٢) يعني: والإيجاب أيضًا.

فالرَّبُّ تَعالى الذي ليسَ فوقَهُ آمرٌ ولا ناهٍ كيفَ يَمْتَنِعُ منهُ أنْ يَكونَ طالبًا مِن نفسِهِ فيَكْتُبَ على نفسِهِ ويُحِقَّ على نفسِهِ ويُحَرِّمَ على نفسِهِ؟! بل ذٰلكَ أولى وأحرى في حقِّهِ مِن تصوُّرِهِ في حقِّ العبدِ؛ وقد أخْبَرَ بِهِ عن نفسِهِ وأخْبَرَ بِهِ رسولُهُ.

قالوا: وكتابةُ ما كَتَبَهُ على نفسِهِ وإحقاقُهُ ما أَحَقَّهُ[1] عليها متضمِّنٌ لإرادتِهِ ذٰلكَ ومحبَّتِهِ لهُ ورضاهُ بِهِ وأنَّهُ لا بدَّ أنْ يَفْعَلَهُ، وتحريمُهُ ما حَرَّمَهُ على نفسِهِ متضمِّنٌ لبغضِهِ لذٰلكَ وكراهتِهِ لهُ وأنَّهُ لا يَفْعَلُهُ. ولا ريبَ أنَّ محبَّتَهُ لِما يُريدُ أنْ يَفْعَلَهُ ورضاهُ بِهِ يُوجِبُ وقوعَهُ بمشيئتِهِ واختيارِهِ، وكراهتُهُ للفعلِ وبغضُهُ لهُ يَمْنَعُ وقوعَهُ منهُ معَ قدرتِهِ عليهِ لو شاءَ. وهٰذا غيرُ ما يُحِبُّهُ مِن فعلِ عبدِهِ ويَكْرَهُهُ منهُ، فذاكَ نوعٌ وهٰذا نوعٌ. ولمَّا لمْ يُمَيِّزْ كثيرٌ مِن النَّاسِ بينَ النَّوعينِ وأدْخَلوهُما تحتَ حكمٍ واحدٍ؛ اضْطَرَبَتْ عليهِم مسائلُ القضاءِ والقدرِ والحِكَمِ والتَّعليلِ. وبهٰذا التَّفصيلِ سَفَرَ لكَ وجهُ المسألةِ وتَبَلَّجَ صبحُها.

ففرقٌ بينَ فعلِهِ سبحانَهُ الذي هوَ فعلُهُ وبينَ فعلِ عبادِهِ الذي هوَ مفعولُهُ: فمحبَّتُهُ تَعالى وكراهتُهُ للأوَّلِ تُوجِبُ وقوعَهُ وامتناعَهُ، وأمَّا محبَّتُهُ وكراهتُهُ للثَّاني فلا تُوجِبُ وقوعَهُ ولا امتناعَهُ.

فإنَّهُ يُحِبُّ الطَّاعةَ والإيمانَ مِن عبادِهِ كلِّهِم، وإنْ لمْ تَكُنْ محبَّتُهُ موجبةً لطاعتِهِم وإيمانِهِم جميعًا؛ إذْ لمْ يُحِبَّ[2] فعلَهُ الذي هوَ إعانتُهُم وتوفيقُهُم وخلقُ ذٰلكَ لهُم، ولو أحبَّ ذٰلكَ؛ لاسْتَلْزَمَ طاعتَهُم وإيمانَهُم. ويُبْغِضُ معاصيَهُم وكفرَهُم وفسوقَهُم، ولمْ تَكُنْ هٰذهِ الكراهةُ والبغضُ مانعةً مِن وقوعِ ذٰلكَ منهُم؛ إذْ لمْ يَكْرَهْ سبحانَهُ خذلانَهُم وإضلالَهُم؛ لِما لهُ في ذٰلكَ مِن الغاياتِ المحبوبةِ التي فواتُها يَسْتَلْزِمُ فواتَ ما هوَ أحبُّ إليهِ مِن إيمانِهِم وطاعتِهِم. وتعقُّلُ ذٰلكَ ممَّا يَقْصُرُ عنهُ عقولُ أكثرِ النَّاسِ، وقد أشَرْنا إليهِ فيما تَقَدَّمَ مِن الكتابِ[3].

فالرَّبُّ تَعالى يُحِبُّ مِن عبادِهِ الطَّاعةَ والإيمانَ، ويُحِبُّ معَ ذٰلكَ مِن تضرُّعِهِم

---

(١) في ط: «ما حقّه»، وله وجه ضعيف، والغالب أنّه تحريف لما أثبتّه.
(٢) إذ لم يحبّ: لأنّه لم يحبّ.
(٣) راجع ما تقدّم (١/ ٧٧ وما بعدها).

وتذلُّلِهم وتوبتِهم واستغفارِهم ومِن توبتِهِ ومغفرتِهِ وعفوِهِ وصفحِهِ وتجاوزِهِ ما هوَ ملزومٌ لمعاصيهِم وذنوبِهِم، ووجودُ الملزومِ بدونِ لازمِهِ ممتنعٌ[1].

وإذا عُقِلَ هٰذا في حقِّ المذنبينَ؛ فيُعْقَلُ مثلُهُ في حقِّ الكفَّارِ، وأنَّ خلقَهُم وإضلالَهُم لازمٌ لأُمورٍ محبوبةٍ للرَّبِّ تَعالى لمْ تكُنْ تَحْصُلُ إلاَّ بوجودِ لازمِها؛ إذْ وجودُ الملزومِ بدونِ لازمِهِ ممتنعٌ، فكانَتْ تلكَ الأُمورُ المحبوبةُ والغاياتُ المحمودةُ متوقِّفةً على خلقِهِم وإضلالِهِم توقُّفَ الملزومِ على لازمِهِ.

وهٰذا فصلٌ معترضٌ لمْ يكُنْ مِن غرضِنا وإنْ كانَ أهمَّ ممَّا سُقْنا الكلامَ لأجلِهِ.

ونكتةُ المسألةِ الفرقُ بينَ ما هوَ فعلٌ لهُ تَسْتَلْزِمُ محبَّتُهُ وقوعَهُ منهُ وبينَ ما هوَ مفعولٌ لهُ لا تَسْتَلْزِمُ محبَّتُهُ لهُ وقوعَهُ مِن عبدِهِ.

وإذا عُرِفَ هٰذا؛ فالظُّلمُ والكفرُ والفسوقُ والعصيانُ وأنواعُ الشُّرورِ واقعةٌ في مفعولاتِهِ المنفصلةِ التي لا يَتَّصِفُ بها دونَ أفعالِهِ القائمةِ بهِ.

ومَنِ انْكَشَفَ لهُ هٰذا المقامُ؛ فَهِمَ معنى قولِهِ ﷺ: «والشَّرُّ ليسَ إليكَ»[2].

فهٰذا الفرقُ العظيمُ يَزولُ بِهِ أكثرُ الشُّبهِ التي حارَتْ لها عقولُ كثيرٍ مِن النَّاسِ في هٰذا البابِ وهَدى اللهُ الذينَ آمَنوا لِما اخْتَلَفوا فيهِ مِن الحقِّ بإذنِهِ واللهُ يَهْدي مَن يَشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ.

فما في مخلوقاتِهِ ومفعولاتِهِ تَعالى مِن الظُّلمِ والشَّرِّ فهوَ بالنِّسبةِ إلى فاعلِهِ المكلَّفِ الذي قامَ بِهِ الفعلُ، كما أنَّهُ بالنِّسبةِ إليهِ يَكونُ زنًى وسرقةً وعدوانًا وأكلاً وشربًا ونكاحًا، فهوَ الزَّاني السَّارقُ الآكلُ النَّاكحُ، واللهُ خالقُ كلِّ فاعلٍ وفعلِهِ، ولَيْسَتْ نسبةُ هٰذهِ الأفعالِ إلى خالقِها كنسبتِها إلى فاعلِها الذي قامَتْ بهِ، كما أنَّ نسبةَ صفاتِ المخلوقِ إليهِ[3] كطولِهِ وقصرِهِ وحسنِهِ وقبحِهِ وشكلِهِ ولونِهِ لَيْسَتْ كنسبتِها إلى خالقِها فيهِ.

---

(١) يعني: ولذٰلك كتب عليهم المعصية وقدّر وقوعهم فيها. كما تقدّم (١/ ٧٧ وما بعدها).

(٢) قطعة من دعاء الاستفتاح الطويل الذي رواه مسلم (٦ـ المسافرين، ٢٦ـ الدعاء في صلاة الليل، ١/ ٥٣٤/ ٧٧١) من حديث علي رضي الله عنه.

(٣) في ط: «المخلوقين إليه»! ولا يستقيم الكلام إلّا بما أثبتّه.

فتأمَّلْ هٰذا الموضعَ وأعْطِ الفرقَ حقَّهُ وفَرِّقْ بينَ النِّسبتينِ: فكما أنَّ صفاتِ المخلوقِ لَيْسَتْ صفاتٍ للهِ بوجهٍ وإنْ كانَ هوَ خالقَها؛ فكذٰلكَ أفعالُهُ لَيْسَتْ أفعالاً للهِ تَعالى ولا إليهِ وإنْ كانَ هوَ خالقَها(١).

فَلْنَرْجِعِ الآنَ إلى ما نحنُ بصددِهِ فنَقولَ: الأمرُ الذي كَتَبَهُ على نفسِهِ مستحَقٌّ عليهِ الحمدُ والثَّناءُ، ويَتَعالى ويَتَقَدَّسُ عن تركِهِ إذْ تركُهُ منافٍ للثَّناءِ والحمدِ الذي يَسْتَحِقُّهُ عليهِ [لكونِهِ](٢) متضمِّنًا لِما يَسْتَحِقُّ لذاتِهِ. وهٰذا بحمدِ اللهِ بيِّنٌ(٣) عندَ مَن أُوتِيَ العلمَ والإيمانَ، وهوَ مستقرٌّ في فطرِهِم، لا يَنْسَخُهُ منها شبهاتُ المبطلينَ. وهٰذا الموضعُ ممَّا خَفِيَ على طائفتي القَدَرِيَّةِ والجَبْرِيَّةِ فخَبَطوا في عشواءَ(٤) وخَبَطوا في ليلةٍ ظلماءَ. واللهُ الموفِّقُ الهادي للصَّوابِ.

* **فصلٌ**: وقد ظَهَرَ بهٰذا بطلانُ قولِ طائفتينِ معًا:

الذينَ وَضَعوا للهِ شريعةً بعقولِهِم؛ أوْجَبوا عليهِ وحَرَّموا فيها(٥) ما لمْ يُوجِبْهُ على نفسِهِ ولمْ يُحَرِّمْهُ على نفسِهِ، وسَوَّوْا بينَهُ وبينَ عبادِهِ فيما يَحْسُنُ منهُم ويَقْبُحُ! وبذٰلكَ اسْتَطالَ عليهِم خصومُهُم وأبْدَوا تناقضَهُم(٦) وكَشَفوا عوراتِهِم وبيَّنوا فضائحَهُم.

وكذٰلكَ بطلانُ قولِ الطَّائفةِ التي: جَوَّزَتْ عليهِ كلَّ شيءٍ، وأنْكَرَتْ حكمتَهُ، وجَحَدَتْ في الحقيقةِ ما يَسْتَحِقُّهُ مِن الحمدِ والثَّناءِ على ما يَفْعَلُهُ ممَّا يُمْدَحُ بفعلِهِ وعلى تركِ ما يَتْرُكُهُ معَ قدرتِهِ عليهِ ممَّا يُمْدَحُ بتركِهِ، وجَعَلَتِ النَّوعينِ واحدًا، ولا فرقَ عندَهُم بالنِّسبةِ إليهِ تَعالى بينَ فعلِ ما يُمْدَحُ بفعلِهِ وبينَ تركِهِ ولا بينَ تركِ ما يُمْدَحُ بتركِهِ وبينَ فعلِهِ! وبهٰذا تَسَلَّطَ عليهِم خصومُهُم، وأبْدَوا تناقضَهُم وبيَّنوا(٧) فضائحَهُم.

---

(١) وهٰذه لمحة رائقة رائعة؛ فتمسّك بها واحفظها؛ فإنّها أمّ الباب التي لا تجد لها مثيلاً في كتاب.

(٢) ساقطة من ط، ولا بدّ منها ليستقيم السياق نحويًّا على الأقلّ.

(٣) لا بدّ أنّه كان كذٰلك عندما كتبه يرحمك الله، ولٰكنّ أقلام النسّاخ عملت فيه تحريفًا وتصحيفًا حتّى لا يكاد يدرك له معنًى.

(٤) كذا! والعشواء: الناقة التي لا تبصر. ولا يقال: خبطوا في عشواء، بل: خبطوا خبط عشواء!

(٥) في ط: «وحرّموا منها»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٦) في ط: «وأبدوا مناقضتهم»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٧) في ط: «وأبدوا مناقضتهم وتبيّنوا»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

قالَ المتوسِّطونَ: وأمَّا نحنُ؛ فلا يَلْزَمُنا شيءٌ مِن هٰذِهِ الفضائحِ والأباطيلِ؛ فإنَّا لَمْ نُوافِقْ طائفةً مِن الطَّائفتينِ على كلِّ ما قالَتْهُ، بل وافَقْنا كلَّ طائفةٍ فيما أصابَتْ فيهِ مِن الحقِّ وخالَفْناها فيما خالَفَتْ فيهِ الحقَّ، فكُنا أسعدَ بهِ مِن الطَّائفتينِ، وللهِ المنَّةُ والفضلُ. هٰذا قولُنا؛ قد أوْضَحْناهُ في هٰذِهِ المسألةِ غايةَ الإيضاحِ، وأفْصَحْنا عنهُ بما أمْكَنَنا مِن الإفصاحِ، فمَن وَجَدَ سبيلاً إلى المعارضة أو رامَ طريقًا إلى المناقضة؛ فلْيُبْدِها؛ فإنَّا مِن وراءِ الرَّدِّ عليه وإهداءِ عيوبِ مقالتِهِ إليه. ونحنُ نَعْلَمُ أنَّهُ لا يَرُدُّ علينا مقالَتَنا إلاَّ بإحدى المقالتينِ اللتينِ كَشَفْنا عن عُوارِهِما وبَيَّنَّا فسادَهُما، فلْيَسْتُرْ عورةَ مقالتِهِ ويُصْلِحْ فسادَها ويَرُمَّ شعثَها[1] ثمَّ لْيَلْقَ خصومَهُ بها، فالمحاكمةُ إلى النَّقلِ الصَّريحِ والعقلِ الصَّحيحِ. واللهُ المستعانُ.

● **الوجهُ الثَّاني والسِّتُّونَ**: قولُكُم: «الوجوبُ والتَّحريمُ بدونِ الشَّرعِ ممتنعٌ؛ لأنَّهُ لو ثَبَتَ؛ لَقامَتِ الحجَّةُ بدونِ الرُّسلِ، واللهُ سبحانَهُ إنَّما أقامَ حجَّتَهُ برسلِهِ...» إلى آخرِهِ.

فيُقالُ: لا ريبَ أنَّ الوجوبَ والتَّحريمَ اللذينِ هُما متعلَّقُ الثَّوابِ والعقابِ بدونِ الشَّرعِ ممتنعٌ كما قَرَّرْتُموهُ، والحجَّةُ إنَّما قامَتْ على العبادِ بالرُّسلِ.

ولٰكنْ؛ هٰذا الوجوبُ والتَّحريمُ[2] بمعنى حصولِ المقتضي للثَّوابِ والعقابِ وإنْ تَخَلَّفَ عنهُ مقتضاهُ لقيامِ مانعٍ أو فواتِ شرطٍ كما تَقَدَّمَ تقريرُهُ[3].

وقد قالَ تَعالى: ﴿وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقولوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكونَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ﴾ [القصص: ٤٧]: فأخْبَرَ تَعالى أنَّ ما قَدَّمَتْ أيديهِمْ سببٌ لإصابةِ المصيبةِ إيَّاهُم، وأنَّهُ سبحانَهُ أرْسَلَ رسولَهُ وأنْزَلَ كتابَهُ لئلاَّ يقولوا ربَّنا لولا أرْسَلْتَ إلينا رسولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ. فدلَّتِ الآيةُ على بطلانِ قولِ

---

(١) يرمّ شعثها: يصلح أضطرابها وفسادها.

(٢) الذي نثبته نحن عقليًا تبعًا لإثباتنا للحسن والقبح العقليّين. وفي السياق ضعف كما ترى، والغالب أنّ هاهنا سقطًا.

(٣) راجع ما تقدّم (٢/٣٢٦-٣٤٠).

الطَّائفتينِ جميعًا: الذينَ يقولونَ: إنَّ أعمالَهُم قبلَ البعثةِ لَيْسَتْ قبيحةً لذاتِها بل إنَّما قَبُحَتْ بالنَّهي فقطْ، والذينَ يقولونَ: إنَّها قبيحةٌ ويَسْتَحِقُّونَ عليها العقوبةَ عقلاً بدونِ البعثةِ. فنَظَمَتِ الآيةُ بطلانَ قولِ الطَّائفتينِ، ودَلَّتْ على القولِ الوسطِ الذي ٱخْتَرْناهُ ونَصَرْناهُ؛ أنَّها قبيحةٌ في نفسِها ولا يَسْتَحِقُّونَ العقابَ إلَّا بعدَ إقامةِ الحجَّةِ بالرِّسالةِ.

فلا تلازمَ بينَ ثبوتِ الحسنِ والقبحِ العقليَّينِ وبينَ ٱستحقاقِ الثَّوابِ والعقابِ، فالأدلَّةُ إنَّما ٱقْتَضَتِ ٱرتباطَ الثَّوابِ والعقابِ بالرِّسالةِ وتوقُّفَهُما عليها ولمْ تَقْتَضِ توقُّفَ الحسنِ والقبحِ بكلِّ ٱعتبارٍ عليها، وفرقٌ بينَ الأمرينِ.

● **الوجهُ الثَّالثُ والسِّتُّونَ**: قولُكُم: «كيفَ يُعْلَمُ أنَّهُ سبحانَهُ يَجِبُ عليهِ أنْ يَمْدَحَ ويَذُمَّ ويُثيبَ ويُعاقِبَ على الفعلِ بمجرَّدِ العقلِ؟! وهل ذٰلكَ إلَّا غيبٌ عنَّا؟! فبمَ يُعْرَفُ أنَّهُ رَضِيَ عن فاعلٍ وسَخِطَ على فاعلٍ وأنَّهُ يُثيبُ هٰذا ويُعاقِبُ هٰذا؛ ولمْ يُخْبِرْ عنهُ بذٰلكَ مخبرٌ صادقٌ ولا دَلَّ على مواقعِ رضاهُ وسخطِهِ عقلٌ ولا أَخْبَرَ عن معلومِهِ ومحكومِهِ مخبرٌ؟! فلمْ يَبْقَ إلَّا قياسُ أفعالِهِ على أفعالِ عبادِهِ، وهوَ مِن أفسدِ القياسِ؛ فإنَّهُ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ»!

* فيُقالُ: هٰذا لازمٌ للمُعْتَزِلَةِ ومَن وافَقَهُم حيثُ يُوجِبونَ على اللهِ ويُحَرِّمونَ بالقياسِ على عبادِهِ، ولا ريبَ أنَّ هٰذا مِن أفسدِ القياسِ وأبطلِهِ. ولٰكنْ؛ مِن أينَ يَنْفي ذٰلكَ إثباتَ صفاتِ أفعالٍ ٱقْتَضَتْ حسنَها وقبحَها عقلاً ولمْ يُعْلَمْ ترتُّبُ الثَّوابِ والعقابِ عليها إلَّا بالرِّسالةِ كما نَصَرْناهُ؟!

فأنتُم معاشرَ النُّفاةِ: سَلَبْتُمُ الأفعالَ خواصَّها وصفاتِها التي لا تَنْفَكُّ عنها ولا تُعْقَلُ مجرَّدةً عنها أبدًا، وظَنَنْتُم أنَّ قولَ المُعْتَزِلَةِ الباطلَ في إيجابِها وتحريمِها على اللهِ لا يَتِمُّ [إبطالُهُ][1] إلَّا بهٰذا النَّفيِ، فأخْطَأْتُم في الأمرينِ معًا؛ فإنَّ [إبطالَ][1] قولِهِم لا يَتَوَقَّفُ على نفيِ الحسنِ والقبحِ، ونفيُهُما باطلٌ. وخصومُكُم مِن المُعْتَزِلَةِ: أثْبَتوا للهِ شريعةً عقليَّةً أَوْجَبوا عليهِ فيها وحَرَّموا بمقتضى عقولِهِم، وظَنُّوا أنَّهُم لا يُمْكِنُهُم إثباتُ الحسنِ

(١) ساقطة من ط، والسياق يقتضيها ضرورة، وبدونها ينقلب المعنى رأسًا على عقب.

والقبحِ إلاَّ بذٰلكَ، فأخطَؤُوا في الأمرينِ معًا؛ فإنَّ اللهَ تَعالى لا يُقاسُ بعبادِهِ في أفعالِهِ كما لا يُقاسُ بهِم في ذاتِهِ وصفاتِهِ فليسَ كمثلِهِ شيءٌ في ذاتِهِ ولا في صفاتِهِ ولا في أفعالِهِ، وإثباتُ الحسنِ والقبحِ لا يَسْتَلْزِمُ هٰذا الإيجابَ والتَّحريمَ العقليَّينِ.

فلْيَتَأمَّلِ اللبيبُ هٰذهِ الدَّقائقَ التي هيَ مجامعُ مآخذِ الفرقِ؛ فبها يَتَبيَّنُ[1] أنَّ النَّاسَ إنَّما تكلَّموا في حواشي المسألةِ ولمْ يَخوضوا لُجَّتَها ويَقْتَحِموا غَمْرَتَها. واللهُ المستعانُ.

وأمَّا إلزامُكُم لخصومِكُم مِن المُعْتَزِلَةِ تلكَ اللوازمَ؛ فلا ريبَ أنَّها مستلزِمةٌ لبطلانِ قولِهِم معَ أضعافِها مِن اللوازمِ التي تُبَيِّنُ فسادَ مذهبِهِم ونحنُ مساعدوكُم عليها. [لٰكنَّ خصومَكُم مِن المُعْتَزِلَةِ ألْزَموكُم أيضًا لوازمَ لا محيدَ لكُم عنها][2] كما لا محيدَ لهُم عن إلزاماتِكُم:

فمنها: أنَّكُم سَدَدْتُم على أنفسِكُم طريقَ الاستدلالِ بالمعجزةِ على النُّبوَّةِ حيثُ جَوَّزْتُم على اللهِ أنْ يُؤَيِّدَ الكذَّابَ كما يُؤَيِّدُ الصَّادقَ! وعندَكُم أنَّ كلا الأمرينِ بالنِّسبةِ إليهِ تَعالى سواءٌ! ولمْ تَعْتَذِروا عن هٰذا الإلزامِ المقاومِ لسائرِ إلزاماتِكُم[3] بعذرٍ صحيحٍ، وهٰذهِ أعذارُكُم مسطورةٌ في الصَّحائفِ.

ومنها: إلزامُ الإفحامِ بنفيِ [إلزامِ] المكلَّفِ[4] النَّظرَ في المعجزةِ لعدمِ الوجوبِ عقلاً. وٱعتذارُكُم عن هٰذا الإلزامِ بأنَّ الوجوبَ ثابتٌ نَظَرَ أو لمْ يَنْظُرِ ٱعتذارٌ يُبْطِلُ أصلَكُم: فإنَّ ثبوتَ الوجوبِ بدونِ نظرِ المكلَّفِ؛ لو كانَ شرعيًّا؛ لَتَوَقَّفَ على الشَّرعِ المتوقِّفِ في حقِّ المكلَّفِ على النَّظرِ في المعجزةِ، فلمَّا ثَبَتَ الوجوبُ وإنْ لمْ يَنْظُرْ في المعجزةِ؛ عُلِمَ أنَّ الوجوبَ عقليٌّ لا يَتَوَقَّفُ على ثبوتِ الشَّرعِ[5].

---

(١) في ط: «فيها يتبيّن»، وله وجه ضعيف، والغالب أنّه تصحيف لما أثبتّه.

(٢) ساقطة من ط، ولا بدّ منها لتمام الكلام.

(٣) المقاوم لسائر إلزاماتكم: المعادل في بشاعته وشناعته جميع الإلزامات التي ألزمتموها للمعتزلة.

(٤) في ط: «ومنها إلزام الإفحام ونفي المكلّف»! وفيه تحريف وسقط أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٥) وبسط هٰذه الحجّة أنّه: إذا كان العقل لا يحسّن شيئًا ولا يقبّحه كما تقولون؛ فهٰذا يعني أنّ النظر في حجج الرسل ومعجزاتهم لا يَحْسُنُ عقلاً، وبالتالي فهو غير واجب عقلاً، فيبقى الكافر معذورًا على كفره!=

فإنْ قيلَ: هوَ ثابتٌ في نفسِ الأمرِ على تقديرِ ثبوتِ الرِّسالةِ. قيلَ: فحينئذٍ يَعودُ الإلزامُ، وهوَ أنَّهُ: لا يَنْظُرُ حتَّى يَجِبَ، ولا يَجِبُ حتَّى تَثْبُتَ الرِّسالةُ، ولا تَثْبُتُ حتَّى يَنْظُرَ[1]!

ولهٰذا عَدَلَ مَن عَدَلَ إلى مقابلةِ هٰذا الإلزامِ بمثلِهِ وقالوا: هٰذا لازمٌ للمُعْتَزِلَةِ؛ لأنَّ الوجوبَ عندَهُم نظريٌّ!

وهٰذا[2] لا يُغْني شيئًا، ولا يَدْفَعُ الإلزامَ المذكورَ، بل غايتُهُ مقابلةُ الفاسدِ بمثلِهِ، وهوَ لا يُجْدي في دفعِ الإلزامِ شيئًا. وهٰذا يَدُلُّ على بطلانِ المقالتينِ. وأمَّا نحنُ؛ فلنا في دفعِ هٰذا الإلزامِ عشرةُ مسالكَ، وليسَ هٰذا موضعَ هٰذهِ المسألةِ، وإنَّما المقصودُ أنَّ المُعْتَزِلَةَ أُلْزِمَتْ نظيرَ ما أَلْزَموهُم بهِ.

ومنها: إلزامُ التَّعطيلِ للشَّرائعِ جملةً. وقد تَقَدَّمَ بيانُهُ قريبًا، حيثُ بَيَّنَّا أنَّ متعلَّقَ الأمرِ والنَّهيِ إنَّما هوَ فعلُ العبدِ الاختياريُّ، فإذا بَطَلَ أنْ يَكونَ لهُ فعلٌ اختياريٌّ؛ بَطَلَ متعلَّقُ الأمرِ والنَّهيِ، فلَزِمَ بطلانُ الأمرِ والنَّهيِ؛ لأنَّ وجودَهُ بدونِ متعلَّقِهِ محالٌ.

. . . إلى سائرِ تلكَ اللوازمِ التي أسْلَفْناها قبلُ فلا نُطيلُ بإعادتِها.

قالوا: أمَّا نحنُ؛ فلا يَلْزَمُنا شيءٌ مِن هٰذهِ اللوازمِ مِن الطَّرفينِ؛ فإنَّا لمْ نَسْلُكْ واحدًا مِن الطَّريقينِ، فلا سبيلَ لإحدى الطَّائفتينِ إلى إلزامِنا بلازمٍ واحدٍ باطلٍ ولله الحمدُ، فمَن رامَ ذٰلكَ؛ فَلْيُبْدِهِ.

* فإنْ قيلَ: فمِن أصلِكُم إثباتُ التَّعليلِ والحكمةِ في الخلقِ والأمرِ؛ فما تَصْنَعونَ بهٰذهِ اللوازمِ التي أَلْزَمْناها المُعْتَزِلَةَ؟! وماذا [يَكونُ][3] جوابُكُم عنها إذا وَجَّهْناها إليكُم؟!

قيلَ: لا ريبَ أنَّا نُثْبِتُ للهِ ما أَثْبَتَهُ لنفسِهِ وشَهِدَتْ بهِ الفطرُ والعقولُ مِن الحكمةِ

= فإن قلتم: ليس معذورًا لأنّ الشرع يوجب عليه النظر. قلنا: وكيف يلتزم الكافر ما أوجبه الشرع وهو لا يؤمن به ولا يراه حقًّا؟! وهٰذه حجّة قاصمة مفحمة لا محيد للقوم عنها.

(١) وهٰذا ما يسمّى بالدور، وهو باطل في بدائه العقول.

(٢) يعني: هٰذه الحيدة عن الجواب والعدول إلى مقابلة الإلزام بمثله.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

في خلقِهِ وأمرِهِ ونَقولُ: إنَّ كلَّ ما خَلَقَهُ وأمَرَ بهِ فلهُ فيهِ حكمةٌ بالغةٌ وآياتٌ باهرةٌ لأجلِها خَلَقَهُ وأمَرَ بهِ. ولٰكنْ لا نَقولُ: إنَّ للهِ تَعالى في خلقِهِ وأمرِهِ كلِّهِ حكمةً مماثلةً لِما للمخلوقِ مِن ذٰلكَ ولا مشابِهةً لهُ. بلِ الفرقُ بينَ الحكمتينِ كالفرقِ بينَ الفعلينِ وكالفرقِ بينَ الوصفينِ والذَّاتينِ، فليسَ كمثلِهِ شيءٌ في وصفِهِ ولا في فعلِهِ ولا في حكمةٍ مطلوبةٍ لهُ مِن فعلِهِ، بلِ الفرقُ بينَ الخالقِ والمخلوقِ في ذٰلكَ كلِّهِ أعظمُ فرقٍ وأبينُهُ وأوضحُهُ عندَ العقولِ والفطرِ.

وعلى هٰذا؛ فجميعُ ما ألْزَمْتُموهُ لأصحابِ الصَّلاحِ والأصلحِ[1] بل وأضعافُهُ وأضعافُ أضعافِهِ للهِ فيهِ حكمةٌ يَخْتَصُّ بها لا يُشارِكُهُ فيها غيرُهُ، ولأجلِها حَسُنَ منهُ ذٰلكَ وقَبُحَ مِن المخلوقِ لانتفاءِ تلكَ الحكمةِ في حقِّهِ.

وهٰذا كما يَحْسُنُ منهُ تَعالى مدحُ نفسِهِ والثَّناءُ على نفسِهِ وإنْ قَبُحَ مِن أكثرِ خلقِهِ ذٰلكَ. ويَليقُ بجلالِهِ الكبرياءُ والعظمةُ ويَقْبُحُ مِن خلقِهِ تعاطيهِما، كما رَوى عنهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «الكبرياءُ إزاري، والعظمةُ ردائي، فمَن نازَعَني واحدًا منهُما؛ عَذَّبْتُهُ»[2]. وكما يَحْسُنُ منهُ إماتةُ خلقِهِ وٱبتلاؤُهُم وٱمتحانُهُم بأنواعِ المحنِ ويَقْبُحُ ذٰلكَ مِن خلقِهِ. وهٰذا أعظمُ مِن أنْ نَذْكُرَ أمثلتَهُ.

فليسَ بينَ اللهِ وبينَ خلقِهِ جامعٌ يُوجِبُ أنْ يَحْسُنَ منهُ ما حَسُنَ منهُم ويَقْبُحَ منهُ ما

---

(١) وهم المعتزلة كما تقدّم (٢/ ٣٧٢).

(٢) رواه مسلم (٤٥ـ البرّ والصلة، ٣٨ـ تحريم الكبر، ٤/ ٢٠٢٣/ ٢٦٢٠) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد مرفوعًا: «العزّ إزاره والكبرياء رداؤه...».

نعم؛ رواه: الطيالسي (٢٣٨٧)، وابن أبي شيبة (٢٦٥٧٠)، والحميدي (١١٤٩)، وأحمد (٢/ ٢٤٨ و٣٧٦ و٤١٤ و٤٢٧ و٤٤٢)، وابن ماجه (٣٧ـ الزهد، ١٦ـ البراءة من الكبر، ٢/ ١٣٩٧/ ٤١٧٤)، وأبو داوود (٢٦ـ اللباس، ٢٦ـ ما جاء في الكبر، ٢/ ٤٥٦/ ٤٠٩٠)، وابن حبّان (٣٢٨)، والبغوي (٣٥٩٢)؛ من طرق، عن عطاء بن السائب، عن الأغرّ أبي مسلم، عن أبي هريرة... رفعه باللفظ الذي أورده ابن القيّم. وعطاء صدوق ٱختلط، لٰكن روى عنه في بعض روايات أحمد الثوريُّ، وسماعه قديم قبل الاختلاط، فالسند حسن لذاته، صحيح برواية مسلم المتقدّمة. وقد صحّحه ابن حبّان والحاكم والذهبي.

وعليه؛ فقد جاءت بعض روايات هٰذا الحديث بلفظ «العزّ» وبعضها بلفظ «العظمة». والأوّل أصحّ وأرجح، وهو الذي رجّحه الألباني في «الصحيحة» (٥٤١). والثاني صحيح أيضًا، لٰكن لا يبعد أن يكون رواية بالمعنى؛ فإنّ العزّ يقتضي العظمة ولا بدّ. والله أعلم.

قَبُحَ منهُم، وإنَّما تَتَوَجَّهُ تلكَ الإلزاماتُ إلى مَن قاسَ أفعالَ اللهِ بأفعالِ عبادِهِ، وأمَّا مَن أثْبَتَ لهُ حكمةً تَخْتَصُّ بهِ لا تُشْبِهُ ما للمخلوقينَ مِن الحكمةِ؛ فهوَ عن تلكَ الإلزاماتِ بمعزِل ومنزلُهُ منها أبعدُ منزل.

ونكتةُ الفرقِ أنَّ بطلانَ الصَّلاحِ والأصلحِ لا يَسْتَلْزِمُ بطلانَ الحكمةِ والتَّعليلِ. واللهُ الموفِّقُ.

● **الوجهُ الرَّابعُ والسِّتُّونَ**: قولُكُم: «أنتُم فَتَحْتُم بهٰذهِ المسألةِ طريقًا للاستغناءِ عنِ النُّبوَّاتِ وسَلَّطْتُم عليكُم بها الفلاسفةَ والبَراهِمَةَ والصَّابِئَةَ وكلَّ منكرٍ للنُّبوَّاتِ؛ فإنَّ هٰذهِ المسألةَ بابٌ بينَنا وبينَهُم؛ فإنَّكُم إذا زَعَمْتُم أنَّ في العقلِ حاكمًا يُحَسِّنُ ويُقَبِّحُ ويُوجِبُ ويُحَرِّمُ ويَتَقاضى الثَّوابَ والعقابَ، لمْ تكُنِ الحاجةُ إلى البعثةِ ضروريَّةً، لإمكانِ الاستغناءِ عنها بهٰذا الحاكمِ[1] . . . » إلى آخرِهِ.

❁ قالَ المثبتونَ: هٰذا كلامٌ هائل، وهوَ عندَ التَّحقيقِ باطل، لو أنْصَفَ موردُهُ؛ لَعَلِمَ أنَّا وهوَ كما قالَ الأوَّلُ[2]: رَمَتْني بدائِها وانْسَلَّتْ! وقد بَيَّنَّا أنَّ النُّفاةَ سَدُّوا على أنفسِهِم طريقَ إثباتِ النُّبوَّةِ بإنكارِهِم هٰذهِ المسألةَ وقالوا: إنَّهُ يَحْسُنُ مِن اللهِ كلُّ شيءٍ حتَّى إظهارُ المعجزةِ على يدِ الكاذبِ، ولا فرقَ بالنِّسبةِ إليهِ بينَ إظهارِها على يدِ الصَّادقِ ويدِ الكاذبِ، وليسَ في العقلِ ما يَدُلُّ على ٱستحالةِ هٰذا وجوازِ هٰذا، وتَتَوَقَّفُ معرفتُهُ على[3] السَّمعِ! لا سيَّما إذا ٱنْضَمَّ إلى ذٰلكَ إنكارُ كونِ العبدِ[4] فاعلًا مختارًا ٱلبتَّةَ؛ فإنَّ ذٰلكَ يَسُدُّ البابَ جملةً؛ لأنَّ متعلَّقَ الأمرِ والنَّهيِ إنَّما هوَ أفعالُ العبادِ الاختياريَّةُ، فمَن لا فعلَ لهُ ولا ٱختيارَ أصلًا؛ فكيفَ يُعْقَلُ أنْ يكونَ مأمورًا منهيًّا؟! وقد تَقَدَّمَ حديثُ الإفحامِ وعجزُكُم عنِ الجوابِ عنه[5]!

---

(١) في ط: «عنها فهٰذا الحاكم»! وهو تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه دلّ عليه ما تقدّم (٢/ ٣٧٨).

(٢) يعني: صاحب المثل، وهٰذا من الأمثال المشهورة.

(٣) في ط: «هٰذا وتوقّع معرفته على»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه. وربّما كان صوابه: «هٰذا وترجع معرفته إلى».

(٤) في ط: «إلى ذٰلك كون إنكار العبد»! وهٰذا خطأ ظاهر من الناسخ أو الطابع.

(٥) فانظره فيما تقدّم (٢/ ٤٨٤).

قالوا: وأمَّا نحنُ؛ فإنَّا سَهَّلْنا بذٰلكَ الطَّريقَ إلى إثباتِ النُّبوَّاتِ، بل لا يُمْكِنُ إثباتُها إلاَّ بالاعترافِ بهٰذهِ المسألةِ؛ فإنَّهُ إذا ثَبَتَ أنَّ مِن الأفعالِ حسنًا ومنها قبيحًا، وأنَّ إظهارَ المعجزةِ على يدِ الكاذبِ قبيحٌ، وأنَّ اللهَ يَتعالى ويَتَقَدَّسُ عن فعلِ القبائحِ؛ عَلِمْنا بذٰلكَ صحَّةَ نبوَّةِ مَن أَظْهَرَ اللهُ على يديهِ الآياتِ والمعجزاتِ. أمَّا أنتُم؛ فإنَّكُم لا يُمْكِنُكُمُ العلمَ بذٰلكَ.

قالوا: وكذٰلكَ نحنُ قُلْنا: إنَّ العبدَ فاعلٌ مختارٌ لفعلِهِ، وأوامرُ الشَّرعِ ونواهيهِ متوجِّهةٌ إلى مجرَّدِ فعلِهِ الاختياريِّ القائمِ بهِ، وهوَ متعلَّقُ الثَّوابِ والعقابِ. وأمَّا أنتُم؛ فلا يُمْكِنُكُم ذٰلكَ؛ لأنَّ تلكَ الأفعالَ عندَكُم هيَ فعلُ اللهِ في العبدِ، لا صنعَ للعبدِ فيها أصلاً؛ فكيفَ يَتَوَجَّهُ أمرُ الشَّرعِ ونهيُهُ إلى غيرِ فاعلٍ، بل يُؤْمَرُ ويُنْهى بما لا قدرةَ لهُ عليهِ ٱلبتَّةَ، بل بفعلِ غيرِهِ؟!

قالوا: فَلْيَتَدَبَّرِ المنصفُ هٰذا المقامَ؛ فإنَّهُ يَتبيَّنُ لهُ أنَّهُ سَدَّ على نفسِهِ طريقَ النُّبوَّاتِ وفَتَحَ بابَ الاستغناءِ عنها.

قالوا: وأيضًا؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ فَطَرَ عبادَهُ على الفرقِ بينَ الحسنِ والقبيحِ وركَّبَ في عقولِهِم إدراكَ ذٰلكَ والتَّمييزَ بينَ النَّوعينِ كما فَطَرَهُم على الفرقِ بينَ النَّافعِ والضَّارِّ والملائمِ لهُم والمنافرِ وركَّبَ في حواسِّهِم إدراكَ ذٰلكَ والتَّمييزَ بينَ أنواعِهِ، والفطرةُ الأُولى هيَ خاصَّةُ الإنسانِ التي تَمَيَّزَ بها عن غيرِهِ مِن الحيواناتِ، وأمَّا الفطرةُ الثَّانيةُ؛ فمشتركةٌ بينَ أصنافِ الحيوانِ[١]. وحجَّةُ اللهِ عليهِ إنَّما تَقومُ بواسطةِ الفطرةِ الأُولى، ولهٰذا ٱختُصَّ مِن بينِ سائرِ الحيواناتِ بإرسالِ الرُّسلِ إليهِ وبالأمرِ والنَّهيِ والثَّوابِ والعقابِ. فجَعَلَ سبحانَهُ في عقلِهِ ما يُفَرِّقُ بينَ الحسنِ والقبحِ وما يَنْبَغي إيثارُهُ وما يَنْبَغي ٱجتنابُهُ، ثمَّ أقامَ عليهِ حجَّتَهُ برسالتِهِ بواسطةِ هٰذا الحاكمِ الذي يَتَمَكَّنُ بهِ مِن العلمِ بالرِّسالةِ وحسنِ الإرسالِ وحسنِ ما تَضَمَّنَهُ مِن الأوامرِ وقبحِ ما نَهى عنهُ؛ فإنَّهُ لولا [الذي][٢] رُكِّبَ في عقلِهِ مِن إدراكِ ذٰلكَ؛ لَما أمْكَنَهُ معرفةُ حسنِ الرِّسالةِ وحسنِ

---

(١) الأولى هي التفريق بين الحسن والقبيح، والثانية التفريق بين النافع والضارّ والملائم والمنافر.

(٢) ليست في ط، والسياق يستلزمها ضرورة.

المأمورِ وقبحِ المحظورِ.

ولهٰذا قُلْنا[١]: إنَّ مَن أنْكَرَ الحسنَ والقبحَ العقليَّينِ لَزِمَهُ إنكارُ الحسنِ والقبحِ للشَّريعةِ وإنْ زَعَمَ أنَّهُ مقرٌّ بهِ؛ فإنَّ إخبارَ الشَّرعِ عنِ الفعلِ بأنَّهُ حسنٌ أو قبيحٌ مطابقٌ لكونِهِ في نفسِهِ كذٰلكَ، فإذا كانَ في نفسِهِ ليسَ بحسنٍ ولا بقبيحٍ؛ فإنَّ هٰذا الخبرَ لا مَخْبَرَ لهُ[٢] إلاَّ مجرَّدُ تعلُّقِ «اْفْعَلْ» أو «لا تَفْعَلْ» بهِ، وهٰذا التَّعليقُ عندَكُم جائزٌ أنْ يكونَ بخلافِ ما هوَ بهِ وأنْ يَتَعَلَّقَ الطَّلبُ بالمنهيِّ عنهُ والنَّهيُ بالمأمورِ بهِ، والتَّعلُّقُ لمْ يَجْعَلْهُ حسنًا ولا قبيحًا، بل غايتُهُ أنْ جَعَلَ الفعلَ مأمورًا منهيًّا، فعادَ الحسنُ والقبحُ إلى مجرَّدِ كونِهِ مأمورًا منهيًّا، ولا فرقَ عندَكُم بالنَّظرِ إلى ذاتِ الفعلِ بينَ النَّوعينِ، بل ما كانَ مأمورًا يَجوزُ أنْ يَقَعَ منهيًّا وبالعكسِ، فلمْ يَكْتَسِبِ الأمرُ والنَّهيُ صفةَ حسنٍ ولا قبحٍ أصلاً، فلا حسنٌ ولا قبحٌ إذًا عقلاً ولا شرعًا، وإنَّما هوَ تعلُّقُ الطَّلبِ بالفعلِ والتَّركِ!

وهٰذا ممَّا لا خلاصَ منهُ إلاَّ بالقولِ بأنَّ للأفعالِ خواصَّ وصفاتٍ [هيَ][٣] عليها في أنفسِها اْقْتَضَتْ: أنْ يُؤْمَرَ بحسنِها ويُنْهى عن سيِّئِها، ويُخْبَرَ عن حسنِها بما هوَ عليهِ ويُخْبَرَ عن قبيحِها بما يكونُ عليهِ. فيَكونُ للخبرِ مَخْبَرٌ ثابتٌ في نفسِهِ، وللأمرِ والنَّهيِ[٤] متعلَّقٌ ثابتٌ في نفسِهِ.

قالوا: فعلمُهُ مِن الفعلِ بحسنِ الحسنِ وقبحِ القبيحِ، ثمَّ علمُهُ بأنَّ ما أمَرَتْ بهِ الرُّسلُ هوَ الحسنُ وما نَهَتْ عنهُ هوَ القبيحُ: طريقٌ إلى تصديقِ الرُّسلِ وأنَّهُم جاؤوا بالحقِّ مِن عندِ اللهِ. ولهٰذا قالَ بعضُ الأعرابِ، وقد سُئِلَ: بماذا عَرَفْتَ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ؟ فقالَ: ما أمَرَ بشيءٍ فقالَ العقلُ: لَيْتَهُ نَهى عنهُ، ولا نَهى عن شيءٍ فقالَ العقلُ: لَيْتَهُ أمَرَ بهِ. أفلا تَرى هٰذا الأعرابيَّ كيفَ جَعَلَ مطابقةَ الحسنِ والقبحِ الذي رَكَّبَ

---

(١) في ط: «ولهٰذا ما قلنا»! وهٰذا يؤدّي عكس المعنى المطلوب تمامًا! فإمّا أنّ الصواب ما أثبتّه. وإمّا أنّ الصواب: «ولهٰذا فإنّا قلنا».

(٢) لا مخبر له: لا حقيقة له، والمخبر عكس المظهر.

(٣) ليست في ط، والسياق يستلزمها ضرورة.

(٤) في ط: «بما هو عليه ويُخبر غيرُه بقبحها بما تكون عليه فيكون للخبر مُخْبِر ثابت في نفسه والأمرُ والنهي»! وهٰذه تحريفات فرّغت الكلام من كلّ معنًى مفيد.

اللهُ في العقولِ إدراكَهُ لِما جاءَ بِهِ الرَّسولُ شاهدًا على صحَّةِ رسالتِهِ وعلمًا عليها، ولمْ يَقُلْ: إنَّ ذٰلكَ يَفْتَحُ طريقَ[1] الاستغناءِ عنِ النُّبوَّةِ بحاكمِ العقلِ؟!

قالوا أيضًا: فهٰذا إنَّما يَلْزَمُ أنْ لو قيلَ بأنَّ ما جاءَتْ بِهِ الرُّسلُ ثابتٌ في العقلِ إدراكُهُ مفصَّلاً قبلَ البعثةِ؛ فحينئذٍ يُقالُ: هٰذا يَفْتَحُ بابَ الاستغناءِ عنِ الرِّسالةِ! ومعلومٌ أنَّ إثباتَ الحسنِ والقبحِ العقليَّينِ لا يَسْتَلْزِمُ هٰذا ولا يَدُلُّ عليهِ، بل غايةُ العقلِ أنْ يُدْرِكَ بالإجمالِ حسنَ ما أتى الشَّرعُ بتفصيلِهِ أو قبحَهُ، فيُدْرِكُهُ العقلُ جملةً ويأْتي الشَّرعُ بتفصيلِهِ.

وهٰذا كما أنَّ العقلَ يُدْرِكُ حسنَ العدلِ، وأمَّا كونُ هٰذا الفعلِ المعيَّنِ عدلاً أو ظلمًا؛ فهٰذا ممَّا يَعْجَزُ العقلُ عن إدراكِهِ في كلِّ فعلٍ وعقدٍ[2]. وكذٰلكَ يَعْجِزُ عن إدراكِ حسنِ كلِّ فعلٍ وقبحِهِ دونَ أنْ تَأْتِيَ[3] الشَّرائعُ بتفصيلِ ذٰلكَ وتبيينِهِ، وما أَدْرَكَهُ العقلُ الصَّريحُ مِن ذٰلكَ أَتَتِ الشَّرائعُ بتقريرِهِ، وما كانَ حسنًا في وقتٍ قبيحًا في وقتٍ ولمْ يَهْتَدِ العقلُ لوقتِ حسنِهِ مِن وقتِ قبحِهِ أَتَتِ الشَّرائعُ بالأمرِ بهِ في وقتِ حسنِهِ وبالنَّهيِ عنهُ في وقتِ قبحِهِ. وكذٰلكَ الفعلُ يَكونُ مشتملاً على مصلحةٍ ومفسدةٍ ولا تَعْلَمُ العقولُ مفسدتَهُ أَرجحُ أمْ مصلحتَهُ، فيَتَوَقَّفُ العقلُ في ذٰلكَ، فتَأْتي الشَّرائعُ ببيانِ ذٰلكَ وتَأْمُرُ براجحِ المصلحةِ وتَنْهى عن راجحِ المفسدةِ. وكذٰلكَ الفعلُ يَكونُ مصلحةً لشخصٍ مفسدةً لغيرِهِ، والعقلُ لا يُدْرِكُ ذٰلكَ، فتَأْتي الشَّرائعُ ببيانِهِ، فتَأْمُرُ بهِ مَن هوَ مصلحةٌ لهُ وتَنْهى عنهُ مِن حيثُ هوَ مفسدةٌ في حقِّهِ[4]. وكذٰلكَ الفعلُ يكونُ مفسدةً في الظَّاهرِ وفي ضمنِهِ مصلحةٌ عظيمةٌ لا يَهْتَدي إليها العقلُ فلا يُعْلَمُ إلَّا بالشَّرعِ كالجهادِ والقتلِ في اللهِ، ويَكونُ في الظَّاهرِ مصلحةً وفي ضمنِهِ مفسدةٌ عظيمةٌ لا يَهْتَدي إليها العقلُ، فتَجيءُ الشَّرائعُ ببيانِ ما في ضمنِهِ مِن المصلحةِ والمفسدةِ الرَّاجحةِ. هٰذا معَ أنَّ ما يَعْجَزُ العقلُ

---

(١) في ط: «إنّ ذٰلك يقبّح طريق»! وهٰذا تحريف بيّن يؤدّي عكس المقصود تمامًا صوابه ما أثبتّه.

(٢) كذا في ط! وما أظنّه إلّا تحريفًا، والمناسب هنا أن يقال: في كلّ فعل وترك.

(٣) في ط: «وقبحه وأن تأتي»! ولا معنى له، فلعلّ الصواب ما أثبتّه، ولعلّه «حتّى تأتي».

(٤) كذا، وهو حسن، ولو حذفت «حيث» لكان أحسن، فالله أعلم.

عن إدراكِهِ مِن حسنِ الأفعالِ وقبحِها ليسَ بدونِ ما يُدْرِكُهُ مِن ذٰلكَ.

فالحاجةُ إلى الرُّسلِ ضروريَّةٌ، بل هيَ فوقَ كلِّ حاجةٍ، فليسَ العالمُ إلى شيءٍ أحوجَ منهُم إلى المرسلينَ صلواتُ اللهِ عليهِم أجمعينَ.

ولهٰذا يُذَكِّرُ سبحانَهُ عبادَهُ نعمَهُ عليهِم برسولِهِ ويَعُدُّ ذٰلكَ عليهِم مِن أعظمِ المننِ منهُ؛ لشدَّةِ حاجتِهِم إليهِ ولتوقُّفِ مصالحِهِم الجزئيَّةِ والكلِّيَّةِ عليهِ وأنَّهُ لا سعادةَ لهُم ولا فلاحَ ولا قيامَ إلاَّ بالرُّسلِ.

فإذا كانَ العقلُ قد أدْرَكَ حسنَ بعضِ الأفعالِ وقبحَها؛ فمِن أينَ لهُ معرفةُ اللهِ تَعالى بأسمائِهِ وصفاتِهِ وآلائِهِ التي تَعَرَّفَ بها اللهُ إلى عبادِهِ على ألسنةِ رسلِهِ؟ ومِن أينَ لهُ معرفةُ تفاصيلِ شرعِهِ ودينِهِ الذي شَرَعَهُ لعبادِهِ؟ ومِن أينَ لهُ تفاصيلُ مواقعِ محبَّتِهِ ورضاهُ وسخطِهِ وكراهتِهِ؟ ومِن أينَ لهُ معرفةُ تفاصيلِ ثوابِهِ وعقابِهِ وما أعدَّ لأوليائِهِ وما أعدَّ لأعدائِهِ ومقاديرِ الثَّوابِ والعقابِ وكيفيَّتِهِما ودرجاتِهِما؟ ومِن أينَ لهُ معرفةُ الغيبِ الذي لمْ يُظْهِرِ اللهُ عليهِ أحدًا مِن خلقِهِ إلاَّ مَنِ ٱرْتَضاهُ مِن رسلِهِ؟ إلى غيرِ ذٰلكَ ممَّا جاءَتْ بهِ الرُّسلُ وبَلَّغَتْهُ عنِ اللهِ وليسَ في العقلِ طريقٌ إلى معرفتِهِ. فكيفَ يكونُ معرفةُ حسنِ بعضِ الأفعالِ وقبحِها بالعقلِ مغنيًا عمَّا جاءَتْ بهِ الرُّسلُ؟!

فظَهَرَ أنَّ ما ذَكَرْتُموهُ مجرَّدُ تهويلٍ مشحونٍ بالأباطيلِ[1]، والحمدُ للهِ.

* وقد ظَهَرَ بهٰذا قصورُ الفلاسفةِ في معرفةِ النُّبوَّاتِ، وأنَّهُم لا علمَ عندَهُم بها إلاَّ كعلمِ عوامِّ النَّاسِ بما عندَهُم مِن العقليَّاتِ، بل علمُهُم بالنُّبوَّاتِ وحقيقتِها وعظمِ قدرِها وما جاءَتْ بهِ أقلُّ بكثيرٍ مِن علمِ العامَّةِ بعقليَّاتِهِم، فهُم عوامٌّ بالنِّسبةِ إليها كما أنَّ مَن لمْ يَعْرِفْ علومَهُم عوامٌّ بالنِّسبةِ إليهِم.

فلولا النُّبوَّاتُ؛ لمْ يَكُنْ في العالمِ علمٌ نافعٌ ٱلبتَّةَ ولا عملٌ صالحٌ ولا صلاحٌ في

---

(١) شأن أهل الباطل إلى يومنا هٰذا؛ لا تجد لهم حملة على أهل الأثر إلاّ وحشوها التهويل والبهتان! يخالفون قول الشافعيّ وأبي حنيفة كلّ يوم مرارًا وتكرارًا، فإن خالفه صاحب الأثر؛ رموه عن قوس واحدة بالحطّ من شأن علماء الأمّة وتسفيه مذاهبهم! وإن نهاهم عن الاستغاثة بالعباد؛ رموه ببغض النبيّ ﷺ وحرب أوليائه! والله حسيبهم.

معيشةٍ ولا قوامٌ لمملكةٍ، ولكانَ النَّاسُ بمنزلةِ البهائمِ والسِّباعِ العاديةِ والكلابِ الضَّاريةِ التي يَعْدو بعضُها على بعضٍ. وكلُّ خيرٍ في العالمِ فمِن آثارِ النُّبوَّةِ، وكلُّ شرٍّ وَقَعَ[١] في العالمِ أو سَيَقَعُ فبسببِ خفاءِ آثارِ النُّبوَّةِ ودروسِها[٢]. فالعالمُ جسدٌ روحُهُ النُّبوَّةُ[٣]، ولا قيامَ للجسدِ بدونِ روحِهِ.

ولهٰذا؛ إذا تَمَّ ٱنكسافُ شمسِ النُّبوَّةِ مِن العالمِ، ولمْ يَبْقَ في الأرضِ شيءٌ مِن آثارِها ٱلبتَّةَ[٤]؛ ٱنْشَقَّتْ سماؤُهُ وٱنْتَثَرَتْ كواكبُهُ وكُوِّرَتْ شمسُهُ وخُسِفَ قمرُهُ ونُسِفَتْ جبالُهُ وزُلْزِلَتْ أرضُهُ وأُهْلِكَ مَن عليها.

فلا قيامَ للعالمِ إلاَّ بآثارِ النُّبوَّةِ، ولهٰذا كانَ كلُّ موضعٍ ظَهَرَتْ فيهِ آثارُ النُّبوَّةِ فأهلُهُ أحسنُ حالاً وأصلحُ بالاً مِن الموضعِ الذي يَخْفى فيهِ آثارُها.

وبالجملةِ؛ فحاجةُ العالمِ إلى النُّبوَّةِ أعظمُ مِن حاجتِهِم إلى نورِ الشَّمسِ وأعظمُ مِن حاجتِهِم إلى الماءِ والهواءِ الذي لا حياةَ لهُم بدونِهِ.

* **فصلٌ**: وأمَّا ما ذَكَرَهُ الفلاسفةُ مِن مقصودِ الشَّرائعِ، وأنَّ ذٰلكَ لاستكمالِ النَّفسِ قوى العلمِ والعملِ، والشَّرائعُ تَرِدُ بتمهيدِ ما تَقَرَّرَ في العقلِ لا بتغييرِهِ[٥]... إلى آخرِهِ؛ فهٰذا مقامٌ يَجِبُ الاعتناءُ بشأْنِهِ وأنْ لا نَضْرِبَ عنهُ صفحًا فنَقولُ:

للنَّاسِ في المقصودِ بالشَّرائعِ والأوامرِ والنَّواهي أربعةُ طرقٍ:

[١] **أحدُها: طريقُ مَن يَقولُ مِن الفلاسفةِ وأتباعِهِم مِن المنتسبينَ إلى المللِ**: إنَّ المقصودَ بها تهذيبُ أخلاقِ النُّفوسِ وتعديلُها لِتَسْتَعِدَّ بذٰلكَ لقبولِ الحكمةِ العلميَّةِ والعمليَّةِ. ومنهُم مَن يَقولُ: لِتَسْتَعِدَّ بذٰلكَ لأنْ تكونَ محلاًّ لانتقاشِ صورِ المعقولاتِ

---

(١) في ط: «وكلّ دين في العالم... وكل شيء وقع»! وهٰذان تحريفان بيّنان صوابهما ما أثبتّه. ومعلوم أنّ كثيرًا من الأديان ليست من آثار النبوّة، وأنّ كثيرًا ممّا وقع وسيقع من آثارها.

(٢) دروسها: زوالها وٱنمحاء آثارها.

(٣) في ط: «فالعالم حينئذ روحه النبوّة»! وهٰذا تحريف بيّن لا معنى له صوابه ما أثبتّه.

(٤) عندما تبقى حثالة من الناس لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، هم شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة، كما صحّ في بعض الأحاديث المرفوعة.

(٥) في ط: «ما تقرّر في العقل بتعبيره»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه دلّ عليه ما تقدّم (٢/ ٣٧٨).

فيها. ففائدةُ ذٰلكَ عندَهُم كالفائدةِ الحاصلةِ مِن صقلِ المرآةِ لِتَسْتَعِدَّ لظهورِ الصُّورِ فيها!
وهٰؤلاءِ يَجْعَلونَ الشَّرائعَ مِن جنسِ الأخلاقِ الفاضلةِ والسِّياساتِ العادلةِ!

ولهٰذا رامَ فلاسفةُ الإسلامِ(١) الجمعَ بينَ الشَّريعةِ والفلسفةِ كما فَعَلَ ابنُ سينا(٢) والفارابيُّ(٣) وأضرابُهُما. وآلَ بهِم إلى أنْ تكلَّموا في خوارقِ العاداتِ والمعجزاتِ على طريقِ الفلاسفةِ المشَّائينَ(٤) وجَعَلوا لها أسبابًا ثلاثةً: أحدُها القوى الفلكيَّةُ، الثَّاني القوى النَّفسيَّةُ، الثَّالثُ القوى الطَّبيعيَّةُ. وجَعَلوا جنسَ الخوارقِ جنسًا واحدًا، وأدْخَلوا ما للسَّحرةِ وأربابِ الرِّياضةِ والكهنةِ وغيرِهِم معَ ما للأنبياءِ والرُّسلِ في ذٰلكَ، وجَعَلوا سببَ ذٰلكَ كلِّهِ واحدًا وإنِ اخْتَلَفَتْ بالغاياتِ، والنَّبيُّ قصدُهُ الخيرُ والسَّاحرُ قصدُهُ الشَّرُّ!

وهٰذا المذهبُ مِن أفسدِ مذاهبِ العالمِ وأخبثِها. وهوَ مبنيٌّ على: إنكارِ الفاعلِ المختارِ، وأنَّهُ تَعالى لا يَعْلَمُ الجزئيَّاتِ، ولا يَقْدِرُ على تغييرِ العالمِ، ولا يَخْلُقُ شيئًا بمشيئتِهِ وقدرتِهِ، وعلى إنكارِ الجنِّ والملائكةِ ومعادِ الأجسامِ. وبالجملةِ؛ فهوَ مبنيٌّ

---

(١) هم الفلاسفة الذين نشؤوا في بيوت مسلمة في عالم المسلمين، وأمّا نسبة عقائدهم وما يدينون به إلى الإسلام؛ فكنسبة الليل إلى النهار والضلال إلى الهدى! وممّا يؤسف له بحقّ أنّ ألسنة المسلمين المعاصرين تلهج بذكر هٰؤلاء الضلّال والثناء عليهم في كلّ مناسبة، ولا يكاد يخطر على بال أحدهم عند الكلام عن مساهمة المسلمين في الحضارة والعلوم إلاّ ابن سينا وابن رشد والفارابي. لماذا؟! لأنّ الأوروبيّين المعاصرين عظّموا هٰؤلاء الضلّال وأثنوا عليهم؛ فكان علينا في مدارسنا وجامعاتنا أن ندخل معهم في جحر الضبّ ونعظّم من عظّموا ونكرّم من كرّموا! ويلكم! والله؛ ما عظّموهم إلاّ لمتابعتهم ملّة حكمائهم وفلاسفتهم اليونانيّين! ما عظّموهم إلاّ إضلالاً لكم وإشاعة لفاحشتهم فيكم! وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

(٢) أبو عليّ، الحسين بن عبدالله بن الحسن بن عليّ، العلاّمة، الشهير، الفيلسوف، صاحب التصانيف في المنطق والفلسفة والطبّ. كان أبوه من دعاة الإسماعيليّة (فرقة باطنيّة مشهورة)، وٱشتغل هو بالفلسفة والمنطق وتكلّم بأشياء لا تُحتمل كفّره عليها كثير من أهل العلم. لٰكن ذكروا أنّه ٱغتسل بعد ذٰلك وتاب وتصدّق بما معه على الفقراء وردّ المظالم وأعتق مماليكه وجعل يختم القرآن كلّ ثلاث قبيل وفاته سنة ٤٢٨هـ وهو دون الستّين. فأمره إلى الله، فهو الذي يفصل بين عباده يوم تبلى السرائر ويكشف ما في الضمائر، وفي كلّ حال، وسواء أصحّت توبته أم لا، فإنّ كتبه ومؤلّفاته لم تتب، فتنبّه. وٱنظر مزيدًا في ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٢/ ١٥٧)، «أعلام النبلاء» (١٧/ ٥٣١).

(٣) أبو نصر، محمّد بن محمّد بن طرخان، التركيّ، الفارابيّ، الحكيم، شيخ الفلسفة والمنطق، أحد الأذكياء، صاحب التصانيف المشهورة التي كفّره عليها جماعة من أهل العلم. توفّي في دمشق سنة ٣٣٩هـ عن نحو من ثمانين سنة. ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٥/ ١٥٣)، و«أعلام النبلاء» (١٥/ ٤١٦).

(٤) أتباع أرسطو، كان يملي عليهم دروسه وهو يمشي فسمّوا بالمشّائين. «الملل والنحل»(٢/ ٣٦٩).

على الكفرِ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ. وليسَ هٰذا موضعَ الرّدِّ على هٰؤلاءِ وكشفِ باطلِهِم وفضائحِهِم إذِ المقصودُ ذكرُ طرقِ النّاسِ في المقصودِ بالشّرائعِ والعباداتِ.

وهٰذهِ الفرقةُ غايةُ ما عندَها في العباداتِ والأخلاقِ والحكمةِ العلميّةِ أنّهُم رَأَوُا النّفسَ لها شهوةٌ وغضبٌ بقوّتِها العمليّةِ ولها تصوُّرٌ وعلمٌ بقوّتِها العلميّةِ فقالوا: كمالُ الشّهوةِ في العفّةِ، وكمالُ الغضبِ في الحلمِ والشّجاعةِ[1]، وكمالُ القوّةِ النّظريّةِ بالعلمِ، والتّوسُّطُ في جميعِ ذٰلكَ بينَ طرفي الإفراطِ والتّفريطِ هوَ العدلُ. هٰذا غايةُ ما عندَ القومِ مِن المقصودِ بالعباداتِ والشّرائعِ، وهوَ عندَهُم غايةُ كمالِ النّفسِ، وهوَ ٱستكمالُ قوّتِها العلميّةِ والعمليّةِ: فٱستكمالُ قوّتِها العلميّةِ عندَهُم بٱنطباعِ صورِ المعلوماتِ في النّفسِ، وٱستكمالُ قوّتِها العمليّةِ[2] بالعدلِ.

وهٰذا، معَ أنّهُ غايةُ ما عندَهُم مِن العلمِ والعملِ، فليسَ[3] فيهِ بيانُ خاصّيّةِ النّفسِ التي لا كمالَ لها بدونِها ٱلبتّةَ[4]، وهوَ الذي خُلِقَتْ لهُ وأُرِيدَ منها، بل ما عَرَفَهُ القومُ؛ لأنّهُ لمْ يَكُنْ عندَهُم مِن معرفةِ متعلَّقِهِ[5] إلّا نزرٌ يسيرٌ غيرُ مجدٍ ولا محصِّلٍ للمقصودِ. وذٰلكَ [هوَ][6]: معرفةُ اللهِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ، ومعرفةُ ما يَنْبَغي لجلالِهِ وما يَتَعالى ويَتَقَدَّسُ عنهُ، ومعرفةُ أمرِهِ ودينِهِ، والتّمييزُ بينَ مواقعِ رضاهُ وسخطِهِ، وٱستفراغُ الوسعِ في التّقرُّبِ إليهِ، وٱمتلاءُ القلبِ بمحبّتِهِ بحيثُ يكونُ سلطانُ حبِّهِ قاهرًا لكلِّ محبّةٍ. ولا سعادةَ للعبدِ في دنياهُ ولا في أُخراهُ إلّا بذٰلكَ، ولا كمالَ للرُّوحِ بدونِ ذٰلكَ ٱلبتّةَ. وهٰذا هوَ الذي خُلِقَ لهُ وأُرِيدَ منهُ، بل ولأجلِهِ خُلِقَتِ السّماواتُ والأرضُ وٱتُّخِذَتِ الجنّةُ والنّارُ، كما سَيَأْتي تقريرُهُ مِن أكثرِ مِن مئةِ وجهٍ إنْ شاءَ اللهُ[7]. ومعلومٌ أنّهُ ليسَ عندَ

---

(١) في ط: «في الحكم والشجاعة»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه دلّ عليه ما سيأتي (٢/ ٤٩٧).

(٢) في ط: «قوّتها العلميّة»! وهو تحريف ظاهر أو خطأ مطبعيّ.

(٣) في ط: «وليس»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) في ط: «بدونه ٱلبتّة»! والصواب ما أثبتّه، والكلام عائد على خاصيّة النفس.

(٥) في ط: «معرفةِ متعلَّقة»! ومتعلَّق كمال النفس هو خالقها وفاطرها.

(٦) زيادة يقتضيها السياق، وأشار بـ«ذٰلك» إلى مصدر كمال النفس ومتعلَّقها.

(٧) يعني في القسم الثاني من الكتاب، وقد تقدّم لك (١/ ٣٠-٣٢) تفصيل القول في شأنه.

القومِ مِن هٰذا خبرٌ، بلْ هُم في وادٍ وأهلُ الشَّأْنِ في وادٍ.

وهٰذا هوَ الدِّينُ الذي أجْمَعَتِ الأنبياءُ عليهِ مِن أوَّلِهم إلى خاتمتِهم، كلُّهُم جاءَ بهِ وأخْبَرَ عنِ اللهِ أنَّهُ دينُهُ الذي رَضِيَهُ لعبادِهِ وشَرَعَهُ لهُم وأمَرَهُم بهِ: كما قالَ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولاً أنِ ٱعْبُدوا اللهَ وَٱجْتَنِبوا الطّاغوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقالَ تَعالى: ﴿وَما أرْسَلْنا [مِنْ] قَبْلِكَ مِنْ رَسولٍ إلاَّ نُوحي إلَيْهِ أنَّهُ لا إلٰهَ إلاَّ أنا فَٱعْبُدونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقالَ تَعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقالَ تَعالى: ﴿وَٱسْأَلْ مَنْ أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أجَعَلْنا مِنْ دونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. وقالَ: ﴿يا أيُّها الرُّسُلُ كُلوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَٱعْمَلوا صالِحًا إنِّي بِما تَعْمَلونَ عَليمٌ . وَأنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأنا رَبُّكُمْ فَٱتَّقونِ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٢]. وقالَ تَعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نوحًا وَالَّذي أوْحَيْنا إلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إبْراهيمَ وَموسى وَعيسى أنْ أقيموا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقوا فيهِ كَبُرَ عَلى المُشْرِكينَ...﴾ [الشورى: ١٣]. وقالَ تَعالى: ﴿فَأقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلٰكِنَّ أكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمونَ . مُنيبينَ إلَيْهِ وَٱتَّقوهُ وَأقيموا الصَّلاةَ وَلا تكونوا مِنَ المُشْرِكينَ﴾ [الروم: ٣٠-٣١]. وقالَ تَعالى: ﴿وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالغايةُ الحميدةُ التي يَحْصُلُ بها كمالُ بني آدَمَ وسعادتُهُم ونجاتُهُم هيَ معرفةُ اللهِ ومحبَّتُهُ وعبادتُهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وهيَ حقيقةُ قولِ العبدِ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ، وبها بُعِثَتِ الرُّسلُ ونَزَلَتْ جميعُ الكتبِ، ولا تَصْلُحُ النَّفسُ ولا تَزْكو ولا تَكْمُلُ إلاَّ بذٰلكَ. قالَ تَعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكينَ . الَّذينَ لا يُؤْتونَ الزَّكاةَ﴾ [فصِّلت: ٦-٧]؛ أي: لا يُؤْتونَ ما تَزْكى[1] بهِ أنفسُهم مِن التَّوحيدِ والإيمانِ، ولهٰذا فَسَّرَها غيرُ واحدٍ مِن السَّلفِ بأنْ قالوا: لا يُؤْتونَ الزَّكاةَ: لا يقولونَ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ[2]. فعبادةُ اللهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ وأنْ يَكونَ

(١) في الباب وجهان: زَكا يَزْكو وزَكِيَ يَزْكى، والأوّل أصحّ وأشهر، ومعناهما نما وعلا وصفا.

(٢) وقال جماعة: بل هي الصدقة، ورجّحه ابن جرير. ومال ابن كثير إلى ما مال إليه ابن القيّم من أنّ الزكاة هنا تطهير النفس من الرذائل وأوّلها ورأسها الشرك. والقولان حسنان، ولا تناقض بينهما.

اللهُ أحبَّ إلى العبدِ مِن كلِّ ما سواهُ هوَ أعظمُ وصيَّةٍ جاءَتْ بها الرُّسلُ ودَعَوْا إليها الأُمَمَ.

وسَنُبَيِّنُ إنْ شاءَ اللهُ عن قريبٍ[1] بالبراهينِ الشَّافيةِ: أنَّ النَّفسَ ليسَ لها نجاةٌ ولا سعادةٌ ولا كمالٌ إلَّا بأنْ يَكونَ اللهُ وحدَهُ محبوبَها ومعبودَها لا أحبَّ إليها منهُ ولا آثرَ عندَها مِن مرضاتِهِ والتَّقرُّبِ إليهِ، وأنَّ النَّفسَ محتاجةٌ بل مضطرَّةٌ إليهِ حيثُ هوَ معبودُها ومحبوبُها وغايةُ مرادِها أعظمَ مِن اضطرارِها إليهِ مِن حيثُ هوَ ربُّها وخالقُها وفاطرُها.

ولهٰذا كانَ مَن آمَنَ باللهِ خالقِهِ ورازقِهِ وربِّهِ ومليكِهِ ولمْ يُؤْمِنْ بأنَّهُ لا إلٰهَ يُعْبَدُ ويُحَبُّ ويُخْشى ويُخافُ غيرُهُ بل أشْرَكَ معَهُ في عبادتِهِ غيرَهُ؛ فهوَ كافرٌ بهِ مشركٌ شركًا لا يَغْفِرُهُ اللهُ:

كما قالَ تَعالى: ﴿إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بهِ﴾ [النساء: ١١٦].

وقالَ تَعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دونِ اللهِ أنْدادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأخْبَرَ أنَّ مَن أحَبَّ شيئًا سوى اللهِ مثلَ ما يُحِبُّ اللهَ؛ فقدِ اتَّخَذَ مِن دونِ اللهِ أندادًا.

ولهٰذا يَقولُ أهلُ النَّارِ لمعبوداتِهِم وهُم معَهُم فيها: ﴿تَاللهِ إنْ كُنَّا لَفي ضَلالٍ مُبينٍ . إذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالَمينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]، وهٰذِهِ التَّسويةُ إنَّما كانَتْ في الحبِّ والتَّألُّهِ لا في الخلقِ والقدرةِ والرُّبوبيَّةِ.

وهيَ العدلُ الذي أخْبَرَ بهِ عنِ الكفَّارِ بقولِهِ: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذينَ كَفَروا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلونَ﴾ [الأنعام: ١]، وأصحُّ القولينِ أنَّ المعنى: ثمَّ الذينَ كفَروا بربِّهِم يَعْدِلونَ فيَجْعَلونَ لهُ عدلًا يُحِبُّونَهُ ويَعْبُدونَهُ كما يُحِبُّونَ اللهَ ويَعْبُدونَهُ.

فما ذَكَرَ الفلاسفةُ مِن الحكمةِ العمليَّةِ والعلميَّةِ ليسَ فيها مِن العلومِ والأعمالِ ما تَسْعَدُ بهِ النُّفوسُ وتَنْجو بهِ مِن العذابِ: فليسَ في حكمتِهِمُ العلميَّةِ إيمانٌ باللهِ ولا ملائكتِهِ ولا كتبِهِ ولا رسلِهِ ولا لقائِهِ، وليسَ في حكمتِهِمُ العمليَّةِ عبادتُهُ وحدَهُ لا شريكَ

---

(١) يعني في القسم الثاني من الكتاب، وقد تقدّم تفصيل القول في شأنه (١/ ٣٠-٣٢).

لهُ وٱتِّباعُ مرضاتِهِ وٱجتنابُ مساخطِهِ. ومعلومٌ أنَّ النَّفسَ لا سعادةَ لها ولا فلاحَ إلاَّ بذٰلكَ.

فليسَ في حكمتِهِمُ العمليَّةِ والعلميَّةِ ما تَسْعَدُ بِهِ النُّفوسُ وتَفوزُ، ولهٰذا لمْ يَكونوا داخلينَ في الأُممِ السُّعداءِ في الآخرةِ، وهُمُ الأُممُ الأربعةُ المذكورونَ في قولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنوا وَالَّذينَ هادوا والنَّصارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

فصلٌ: وهٰذهِ الكمالاتُ الأربعةُ[١] التي ذَكَرَها الفلاسفةُ للنَّفسِ لا بدَّ منها في كمالِها وصلاحِها.

ولٰكنْ قَصَّروا غايةَ التَّقصيرِ في أنَّهُم لمْ يُبيِّنوا متعلَّقها ولم يَحُدُّوا لها حدًّا فاصلاً بينَ ما تَحْصُلُ بِهِ السَّعادةُ وما لا تَحْصُلُ بهِ: فإنَّهُم لمْ يَذْكُروا متعلَّقَ العفَّةِ ولا عمَّاذا تكونُ ولا مقدارَها الذي إذا تَجاوَزَهُ العبدُ وَقَعَ في الفجورِ. وكذٰلكَ الحِلمُ لمْ يَذْكُروا مواقعَهُ ومقدارَهُ وأينَ يَحْسُنُ وأينَ يَقْبُحُ. وكذٰلكَ الشَّجاعةُ. وكذٰلكَ العلمُ، لمْ يُمَيِّزوا العلمَ الذي تَزْكو بِهِ النُّفوسُ وتَسْعَدُ مِن غيرِهِ، بل لمْ يَعْرِفوهُ أصلاً.

وأمَّا الرُّسلُ صلواتُ اللهِ عليهِم وسلامُهُ؛ فبيَّنوا ذٰلكَ غايةَ البيانِ وفَصَّلوهُ أحسنَ تفصيلٍ.

وقد جَمَعَ اللهُ ذٰلكَ[٢] في كتابِهِ في آيةٍ واحدةٍ، فقالَ: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطانًا وَأَنْ تَقولوا عَلى اللهِ ما لا تَعْلَمونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]: فهٰذهِ الأنواعُ الأربعةُ التي حَرَّمَها تحريمًا مطلقًا لمْ يُبِحْ منها شيئًا لأحدٍ مِن الخلقِ ولا في حالٍ مِن الأحوالِ؛ بخلافِ الميتةِ والدَّمِ ولحمِ الخنزيرِ؛ فإنَّها تَحْرُمُ في حالٍ وتُباحُ في حالٍ، وأمَّا هٰذهِ

---

(١) وهي: العفّة، والحلم والشجاعة، والعلم، والعدل، كما تقدّم (٢/ ٤٩٤).

(٢) يعني: كمالات الفلاسفة الأربعة. وليس هٰذا من باب تفسير القرآن وحمل آياته على مصطلحات الفلاسفة وقواعدهم، وإنّما هو من باب بيان ما عند القوم من القصور والتقصير، وأنّ ما أتوا به من خير بعد طول تأمّل وتفكير، ورأوا أنّهم جاؤوا بما لم يأت به غيرهم، وأخذهم به العجب والغرور كلّ مأخذ، لا يعدو أن يكون قطرة من بحر ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام.

الأربعةُ فهيَ محرَّمةٌ [مطلقًا][(١)]: فالفواحشُ متعلِّقةٌ بالشَّهوةِ، وتعديلُ قوَّةِ الشَّهوةِ بٱجتنابِها. والبغيُ بغيرِ الحقِّ متعلِّقٌ بالغضبِ، وتعديلُ القوَّةِ الغضبيَّةِ بٱجتنابِه. والشِّركُ باللهِ ظلمٌ عظيمٌ، بل هوَ الظُّلمُ على الإطلاقِ، وهوَ منافٍ للعدلِ والعلمِ، وقولُهُ ﴿وَأَنْ تُشْرِكوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطانًا﴾ متضمِّنٌ تحريمَ أصلِ الظُّلمِ في حقِّ اللهِ، وذٰلكَ يَسْتَلْزِمُ إيجابَ العدلِ في حقِّهِ، وهوَ عبادتُهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ. [والقولُ على اللهِ بلا علمٍ مِن أعظمِ المحرَّماتِ، وقولُهُ تَعالى ﴿وَأَنْ تَقولوا عَلى اللهِ ما لا تَعْلَمونَ﴾ يَتَضَمَّنُ إيجابَ العلمِ بهِ وبأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وشريعتِهِ][(٢)].

فإنَّ النَّفسَ لها القوَّتانِ العلميَّةُ والعمليَّةُ، وعملُ الإنسانِ عملٌ ٱختياريٌّ تابعٌ لإرادةِ العبدِ، وكلُّ إرادةٍ فلها مرادٌ وكمالٌ، وهوَ إمَّا مرادٌ لنفسِهِ وإمَّا مرادٌ لغيرِهِ يَنْتَهي إلى المرادِ لنفسِهِ ولا بدَّ. فالقوَّةُ العمليَّةُ تَسْتَلْزِمُ أنْ يَكونَ للنَّفسِ مرادٌ تُسْتَكْمَلُ بإرادتِهِ: فإنْ كانَ ذٰلكَ المرادُ مضمحلاًّ فانيًا؛ زالَتِ الإرادةُ بزوالِهِ ولَمْ يَكُنْ للنَّفسِ مرادٌ غيرُهُ ففاتَها أعظمُ سعادتِها وفلاحِها. فيَجِبُ إذًا أنْ يَكونَ مرادُها الذي تَسْتَكْمِلُ بإرادتِهِ وحبِّهِ وإيثارِهِ باقيًا لا يَفْنى ولا يَزولُ، وليسَ ذٰلكَ إلَّا اللهَ وحدَهُ.

وسَنَذْكُرُ إنْ شاءَ اللهُ عن قريبٍ[(٣)] معنى تعلُّقِ الإرادةِ بهِ تَعالى وكونِهِ مرادًا والعبدُ مريدٌ لهُ؛ فإنَّ هٰذا ممَّا أشْكَلَ على بعضِ المتكلِّمينَ حيثُ قالوا: إنَّ الإرادةَ لا تَتَعَلَّقُ إلَّا بحادثٍ، وأمَّا القديمُ؛ فكيفَ يَكونُ مرادًا؟! وخَفِيَ عليهِمُ الفرقُ بينَ الإرادةِ الغائيَّةِ والإرادةِ الفاعليَّةِ وجَعَلوا الإرادتينِ واحدةً[(٤)]!

---

(١) ليست في ط، والسياق يستلزمها أو يستلزم نحوها ضرورة.

(٢) ساقطة من ط! ولا بدّ منها لتمام الكلام وبيان أنّ الكمالات الأربعة التي ذكرها الفلاسفة مجموعة في آية واحدة من آيات القرآن الكريم.

(٣) يعني في القسم الثاني من الكتاب، وقد تقدّم لك تفصيل القول في شأنه (١/ ٣٠-٣١).

(٤) فلو أنّك رأيت رجلاً منطلقًا من بيته عند الأذان، فقلت له: إلى أين؟ فقال: أريد الصلاة، فهٰذه إرادة فاعليّة، ومعنى كلامه: أريد أن أفعل الصلاة. فلو قال: أريد المسجد، فهٰذه إرادة غائيّة، ومعنى كلامه: أريد أن أصل إلى المسجد فهو غايتي ومطلبي. فهناك إذًا فرق ظاهر بين الإرادة الغائيّة والإرادة الفاعليّة، ومن الممكن أن تتعلّق الأولى بالله تعالى، والأدلّة على ذٰلك كثيرة، بخلاف الثانية التي لا يمكن أن تتعلّق إلاّ بحادث. وابن القيّم إنّما ينعى على من خلط بين الإرادتين وجعلهما واحدة جهلاً أو تجاهلاً.

والمقصودُ أنَّ هٰؤلاءِ الفلاسفةَ لمْ يَذْكُروا هٰذا في كمالِ النَّفسِ، وإنَّما جَعَلوا كمالَها في تعديلِ الشَّهوةِ والغضبِ، والشَّهوةُ هيَ جلبُ ما يَنْفَعُ البدنَ ويُبْقي النَّوعَ والغضبُ دفعُ ما يَضُرُّ البدنَ، وما تَعَرَّضوا لمرادِ الرُّوحِ المحبوبَ لذاتِه، وجَعَلوا كمالَها العلميَّ في مجرَّدِ العلم! وغَلِطوا في ذٰلكَ مِن وجوهٍ كثيرةٍ:

منها: أنَّ ما ذَكَروهُ لا يُعْطي كمالَ النَّفسِ الذي خُلِقَتْ لهُ كما بيَّنَّاهُ.

ومنها: أنَّ ما ذَكَروهُ في كمالِ القوَّةِ العمليَّةِ إنَّما غايتُهُ إصلاحُ البدنِ الذي هوَ آلةُ النَّفسِ، ولمْ يَذْكُروا كمالَ النَّفسِ الإراديَّ والعملَ بالمحبَّةِ والخوفِ والرَّجاءِ.

ومنها: أنَّ كمالَ النَّفسِ في العلمِ والإرادةِ لا في مجرَّدِ العلمِ؛ فإنَّ مجرَّدَ العلمِ ليسَ بكمالٍ للنَّفسِ ما لمْ تكُنْ مريدةً محبَّةً لمَن لا سعادةَ لها إلَّا بإرادتِه ومحبَّتِه. فالعلمُ المجرَّدُ لا يُعْطي النَّفسَ كمالاً ما لمْ تَقْتَرِنْ بهِ الإرادةُ والمحبَّةُ[1].

ومنها: أنَّ العلمَ لو كانَ كمالاً بمجرَّدِه؛ لمْ يَكُنْ ما عندَهُم مِن العلمِ كمالاً للنَّفسِ؛ فإنَّ غايةَ ما عندَهُم: [إمَّا][2] علومٌ رياضيَّةٌ صحيحةٌ، مصالحُها مِن جنسِ مصالحِ الصِّناعاتِ، وربَّما كانَتِ الصِّناعاتُ أصلحَ وأنفعَ مِن كثيرٍ منها[3]. وإمَّا علمٌ طبيعيٌّ صحيحٌ، غايتُهُ معرفةُ العناصرِ وبعضِ خواصِّها وطبائعِها ومعرفةُ بعضِ ما يَتَرَكَّبُ منها وما يَسْتَحيلُ مِن المركَّباتِ إليها[4] وبعضِ ما يَقَعُ في العالمِ مِن الآثارِ بٱمتزاجِها

(١) قارن بما تقدّم (١/ ٢٨٠ و٤٧٠).

(٢) ساقطة من ط، والسياق يقتضيها.

(٣) ربّما قال قائل: يا عجبًا لابن القيّم! يحطّ من قدر العلوم الرياضيّة ويقلّل من شأنها؛ وقد شهد العقلاء من الأمم قاطبة أنّها أنفع العلوم وأسّ الصناعة والزراعة والتجارة! وجواب هٰذا الكلام من أوجه:

أوّلها: أنّ ابن القيّم إنّما تكلّم عن صناعة عصره التي كانت حرفيّة يدويّة ورياضيّات عصره التي كانت نظريّة في الغالب الأعمّ. بخلاف حالها اليوم وكثرة تطبيقاتها العمليّة.

والثاني: أنّ العلوم الرياضيّة لم تتبوّأ مكانتها المعاصرة حتّى ٱنفصلت تمامًا عن المنطق والفلسفة، وأصبحت ٱختصاصًا مستقلاً بعيدًا عنهما، بل ربّما كان الفلاسفة المعاصرون من أجهل الناس فيها.

والثالث: أنّ ابن القيّم قال: «وأنفع من كثير منها»، ولم يقل: «وأنفع منها جميعًا».

وعليه؛ فكلام ابن القيّم سليم تمامًا بالنظر إلى حال الصناعات والرياضيّات وأهلهما في عصره.

(٤) في ط: «وما يستحيل من الموجبات إليها»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

وٱختلاطِها[١]، وأيُّ كمالٍ للنَّفسِ في هٰذا؟! وأيُّ سعادةٍ لها فيهِ؟! وإمَّا علمٌ إلٰهيٌّ كلُّهُ باطلٌ لمْ يُوَفَّقوا لإصابةِ الحقِّ فيهِ في مسألةٍ واحدةٍ.

ومنها: أنَّ كمالَ النَّفسِ وسعادتَها المستفادَ عنِ الرُّسلِ صلواتُ اللهِ عليهِم ليسَ عندَهُمُ اليومَ منهُ حسٌّ ولا خبر ولا عينٌ ولا أثر، فهُم أبعدُ النَّاسِ مِن كمالاتِ النُّفوسِ وسعاداتِها.

وإذا عُرِفَ ذٰلكَ، وأنَّهُ لا بدَّ للنَّفسِ مِن مرادٍ محبوبٍ لذاتِهِ لا تَصْلُحُ إلاَّ بهِ ولا تَكْمُلُ إلاَّ بحبِّهِ وإيثارِهِ وقطعِ العلائقِ عن غيرِهِ، وأنَّ ذٰلكَ هوَ النِّهايةُ وغايةُ مطلوبِها ومرادِها الذي إليهِ يَنْتَهي الطَّلَبُ؛ فليسَ ذٰلكَ إلاَّ اللهَ الذي لا إلٰهَ إلاَّ هوَ. قالَ تَعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرونَ . لَوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٢]. وليسَ صلاحُ الإنسانِ وحدَهُ وسعادتُهُ إلاَّ بذٰلكَ، بل وكذٰلكَ الملائكةُ والجنُّ، وكلُّ حيٍّ شاعرٍ لا صلاحَ لهُ إلاَّ بأنْ يَكونَ اللهُ وحدَهُ إلٰهَهُ ومعبودَهُ وغايةَ مرادِهِ.

وسَيَمُرُّ بكَ إنْ شاءَ اللهُ بسطُ القولِ وإقامةُ البراهينِ على هٰذا المطلوبِ الأعظمِ الذي هوَ غايةُ سعادةِ النُّفوسِ وأشرفُ مطالبِها[٢].

فلْنَرْجِعْ إلى ما كُنَّا فيهِ مِن بيانِ طرقِ النَّاسِ في مقاصدِ العباداتِ:

[٢] **الطَّريقُ الثَّاني: طريقُ مَن يَقولُ مِن المُعْتَزِلَةِ ومَن تابَعَهُم**: إنَّ اللهَ سبحانَهُ عَرَّضَهُم بها للثَّوابِ وٱسْتَأْجَرَهُم بتلكَ الأعمالِ للخيرِ، فعاوَضَهُم عليها معاوضةً! قالوا: والإنعامُ منهُ في الآخرةِ بدونِ الأعمالِ غيرُ حسنٍ؛ لِما فيهِ مِن تكديرِ منَّةِ[٣] العطاءِ ٱبتداءً! ولِما فيهِ مِنَ الإخلالِ بالمدحِ والثَّناءِ والتَّعظيمِ الذي لا يُسْتَحَقُّ إلاَّ بالتَّكليفِ! ومنهُم مَن يَقولُ: إنَّ الواجباتِ الشَّرعيَّةَ لُطَفٌ في [تحصيلِ][٤] الواجباتِ العقليَّةِ! ومنهُم

---

(١) علم طبيعيّ صحيح: هو علم الفيزياء أو الكيمياء الفيزيائيّة في لغتنا المعاصرة. العناصر: الحديد والنحاس ونحوه. ما يتركّب منها: ما يمكن أن يصنع منها من المركبات بالخلط والمعالجة الحراريّة ونحوها. ما يستحيل من المركّبات إليها: ما يتحوّل من الفلزّات والمواد الخام إلى العناصر المفردة بعد معالجته.

(٢) يعني في القسم الثاني من الكتاب، وقد تقدّم تفصيل الكلام في شأنه (١/ ٣٠-٣٢).

(٣) في ط: «لما فيه من تكرير منّة»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٤) زيادة يستلزمها السياق.

مَن يَقولُ: إنَّ الغايةَ المقصودةَ التي يَحْصُلُ بها الثَّوابُ هيَ العملُ، والعلمُ وسيلةٌ إليهِ، حتَّى ربَّما قالوا ذٰلكَ في معرفةِ اللهِ تَعالى وأنَّها إنَّما وَجَبَتْ لأنَّها لُطَفٌ في أداءِ الواجباتِ العمليَّةِ[١]!

وهٰذهِ الأقوالُ تصوُّرُ العاقلِ اللبيبِ لها حقَّ التَّصوُّرِ كافٍ في جزمِهِ ببطلانِها رافعٌ عنهُ مؤنةَ الرَّدِّ عليها، والوجوهُ الدَّالَّةُ على بطلانِها أكثرُ مِن أنْ تُذْكَرَ هاهُنا.

[٣] **الطَّريقُ الثَّالثُ: طريقُ الجَبْرِيَّةِ ومَن وافَقَهُم**: أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتَعالى[٢] ٱمْتَحَنَ عبادَهُ بذٰلكَ وكَلَّفَهُم لا لحكمةٍ ولا لغايةٍ مطلوبةٍ لهُ ولا بسببٍ مِن الأسبابِ، فلا لامُ تعليلٍ ولا باءُ سببٍ، إنْ هوَ إلَّا محضُ المشيئةِ وصرفُ الإرادةِ، كما قالوا في الخلقِ سواءً! وهٰؤلاءِ قابَلوا مَن قبلَهُم مِن القَدَرِيَّةِ والمُعْتَزِلَةِ أعظمَ مقابلةٍ فهُما طرفا نقيضٍ لا يَلْتَقِيانِ!

[٤] **الطَّريقُ الرَّابعُ: طريقُ أهلِ العلمِ والإيمانِ الذينَ عَقَلوا عنِ اللهِ أمرَهُ ودينَهُ وعَرَفوا مرادَهُ بما أمَرَهُم [بهِ][٣] ونَهاهُم عنهُ، وهيَ**: أنَّ نفسَ معرفةِ اللهِ ومحبَّتِهِ وطاعتِهِ والتَّقرُّبِ إليهِ وٱبتغاءِ الوسيلةِ إليهِ أمرٌ مقصودٌ لذاتِهِ، وأنَّ اللهَ سبحانَهُ يَسْتَحِقُّهُ لذاتِهِ، وهوَ سبحانَهُ المحبوبُ لذاتِهِ الذي لا تَصْلُحُ العبادةُ والمحبَّةُ والذُّلُّ والخضوعُ والتَّألُّهُ إلَّا لهُ، فهوَ يَسْتَحِقُّ ذٰلكَ لأنَّهُ أهلُ أنْ يُعْبَدَ ولو لمْ يَخْلُقْ جنَّةً ولا نارًا ولو لمْ يَضَعْ ثوابًا ولا عقابًا، كما جاءَ في بعضِ الآثارِ: «لو لمْ أخْلُقْ جنَّةً ولا نارًا؛ أما كُنْتُ أهلَ[٤] أنْ أُعْبَدَ؟»[٥].

فهوَ سبحانَهُ يَسْتَحِقُّ غايةَ الحبِّ والطَّاعةِ والثَّناءِ والمجدِ والتَّعظيمِ لذاتِهِ ولِما لهُ

---

(١) كذا! وهو مناقض لقول الأوّلين! فالأوّلون يرون أنّ الواجبات الشرعيّة غير مقصودة لذاتها وإنّما جاءت على وجه اللطف والمعونة لتحصيل الواجبات العقليّة من العلم والمعرفة ونحوها. والآخرون يرون أنّ العلم والمعرفة غير مقصودين لذاتها وإنّما هما لطف ومعونة لأداء الواجبات العمليّة. فلله الحمد والمنّة على الإسلام والسنّة.

(٢) في ط: «أنّ الله تعالى سبحانه»، والأولى ما أثبتّه.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) في ط: «أما كنت أهلاً»! ولا بدّ من حذف التنوين لأنّه مضاف إلى المصدر المؤوّل.

(٥) (لم أقف عليه). لكنّ تصديره بعبارة «الأثر الإلهيّ» يرجّح أنّه إسرائيليّ. والله أعلم.

مِن أوصافِ الكمالِ ونعوتِ الجلالِ، وحبُّهُ والرِّضى بهِ وعنهُ والذُّلُّ لهُ والخضوعُ والتَّعبُّدُ هوَ غايةُ سعادةِ النَّفسِ وكمالِها، والنَّفسُ إذا فَقَدَتْ ذٰلكَ؛ كانَتْ بمنزلةِ الجسدِ الذي فقدَ روحَهُ وحياتَهُ والعينِ التي فَقَدَتْ ضوءَها ونورَها بل أسوأَ حالاً مِن ذٰلكَ مِن وجهينِ:

أحدُهُما: أنَّ غايةَ الجسدِ إذا فَقَدَ روحَهُ أنْ يَصيرَ معطَّلاً ميتًا وكذٰلكَ العينُ تَصيرُ معطَّلةً. وأمَّا النَّفسُ إذا فقَدَتْ كمالَها المذكورَ؛ فإنَّها تَبْقى معذَّبةً متألِّمةً، وكلَّما ٱشْتَدَّ حجابُها؛ ٱشْتَدَّ عذابُها وألمُها. وشاهدُ هٰذا [ما][1] يَجِدُهُ المحبُّ الصَّادقُ المحبَّةِ مِن العذابِ والألمِ عندَ ٱحتجابِ محبوبِهِ عنهُ، ولا سيَّما إذا يَئِسَ مِن قربِهِ وحَظِيَ غيرُهُ بحبِّهِ ووصلِهِ، هٰذا معَ إمكانِ التَّعوُّضِ عنهُ بمحبوبٍ آخرَ نظيرِهِ أو خيرٍ منهُ. فكيفَ بروحٍ فَقَدَتْ محبوبَها الحقَّ الذي لمْ تُخْلَقْ إلَّا لمحبَّتِهِ، ولا كمالَ لها ولا صلاحَ أصلاً إلَّا بأنْ يَكونَ أحبَّ إليها مِن كلِّ ما سواهُ، وهوَ محبوبُها الذي لا تُعَوَّضُ منهُ بسواهُ[2] بوجهٍ ما، كما قالَ القائلُ:

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إذا ضَيَّعْتَهُ عِوَضٌ … وَما مِنَ اللهِ إنْ ضَيَّعْتَهُ عِوَضُ؟!

ولو لمْ يَكُنِ ٱحتجابُهُ سبحانَهُ عن عبدِهِ أشدَّ أنواعِ العذابِ عليهِ؛ لم يَتَوَعَّدْ بهِ أعداءَهُ، كما قالَ تَعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجوبونَ . ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الجَحيمِ﴾ [المطففين: ١٥-١٦]: فأخْبَرَ أنَّ لهُم عذابينِ: أحدُهُما عذابُ الحجابِ عنهُ، الثَّاني صِلِيُّ الجحيمِ، وأحدُ العذابينِ أشدُّ مِن الآخرِ. وهٰذا كما أنَّهُ سبحانَهُ يُنْعِمُ على أوليائِهِ بنعيمينِ: نعيمِ كشفِ الحجابِ فَيَنْظُرونَ إليهِ، ونعيمِ الجنَّةِ وما فيها، وأحدُ النَّعيمينِ أحبُّ إليهِم مِن الآخرِ وآثرُ عندَهُم وأقرُّ لعيونِهِم.

كما في «الصَّحيح»[3] عنهُ ﷺ؛ أنَّهُ قالَ: «إذا دَخَلَ أهلُ الجنَّةِ [الجنَّةَ][4]؛ نادى منادٍ أهلَ الجنَّةِ: إنَّ لكُم عندَ اللهِ موعدًا يُريدُ أنْ يُنْجِزَكُموهُ. فيَقولونَ: ما هوَ؟ ألَمْ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.
(٢) في ط: «لا تعوّض منه سواه»! والصواب ما أثبتّه.
(٣) مسلم (١ـ الإيمان، ٨٠ـ إثبات رؤية المؤمنين ربّهم، ١/١٦٣/١٨١) من حديث صهيب.
(٤) زيادة يقتضيها السياق مستفادة من «صحيح مسلم».

يُبَيِّضْ وجوهَنا ويُثَقِّلْ موازينَنا ويُدْخِلْنا الجنَّةَ ويُجِرْنا مِن النَّارِ؟». قالَ: «فيَكْشِفُ الحجابَ، فيَنْظُرونَ إليهِ، فما أَعْطاهُم شيئًا أَحبَّ إليهِم مِن النَّظرِ إليهِ».

وفي حديثٍ غيرِ هٰذا: «أَنَّهُم إذا نَظَروا إلى ربِّهِم تَبارَكَ وتَعالى أَنْساهُم لذَّةُ النَّظرِ إليهِ ما هُم فيهِ مِن النَّعيمِ»[1].

والوجهُ الثَّاني: أنَّ البدنَ والأعضاءَ آلاتٌ للنَّفسِ ورعيَّةٌ للقلبِ وخدمٌ لهُ، فإذا فَقَدَ بعضُهُم كمالَهُ الذي خُلِقَ لهُ؛ كانَ بمنزلةِ هلاكِ بعضِ جندِ الملكِ ورعيَّتِهِ وتعطُّلِ بعضِ آلاتِهِ وقد لا يَلْحَقُ الملكَ مِن ذٰلكَ ضررٌ أصلاً، وأمَّا إذا فَقَدَ القلبُ كمالَهُ الذي خُلِقَ لهُ وحياتَهُ ونعيمَهُ؛ كانَ بمنزلةِ هلاكِ الملكِ وأسرِهِ وذهابِ ملكِهِ مِن يديهِ وصيرورتِهِ أسيرًا في أيدي أعاديهِ. فهٰكذا الرُّوحُ إذا عَدِمَتْ كمالَها وصلاحَها في معرفةِ فاطرِها وبارئِها وكونِهِ أحبَّ شيءٍ إليها ورضاهُ وٱبتغاءِ الوسيلةِ إليهِ آثرَ شيءٍ عندَها حتَّى يكونَ ٱهتمامُها بمحبَّتِهِ ومرضاتِهِ ٱهتمامَ المحبِّ التَّامِّ المحبَّةِ بمرضاةِ محبوبِهِ الذي لا يَجِدُ منهُ عوضًا؛ كانَتْ بمنزلةِ الملكِ الذي ذَهَبَ منهُ ملكُهُ وأَصْبَحَ أسيرًا في أيدي أعاديهِ يَسومونَهُ سوءَ

---

(١) (لم أقف عليه بهٰذا اللفظ وهو بنحوه ضعيف). رواه: ابن ماجه (المقدّمة، ١٣ـ ما أنكرت الجهميّة، ١/٦٦/١٨٤)، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنّة» (٩٧)، والبزّار (١٥٠١ـ مختصر الزوائد)، والعقيلي (٢/٢٧٤)، وابن أبي حاتم (٣/٥٣٦ـ ابن كثير)، والآجري في «الشريعة» (٦٢٦)، وابن عديّ (٦/٢٠٣٩)، والدارقطني في «الرؤية» (٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٢٠٨) و«الجنّة» (٩١)، والبيهقي في «البعث» (٤٩٣)، والبغوي في «التفسير» (٤/٥٤٧)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/٢٦٠ و٢٦١)؛ من طرق، عن أبي عاصم العبّاداني، ثنا الفضل الرقاشي، عن محمّد بن المنكدر، عن جابر... رفعه بلفظ: «لا يزال الله ينظر إليهم وينظرون إليه ولا يلتفتون إلى نعيمهم ما داموا ينظرون إليه حتّى يحتجب عنهم».

قال البزّار: «لا نعلمه يروى عن جابر إلّا بهٰذا الإسناد». وقال ابن كثير: «فيه نظر». وقال الهيثمي (٧/١٠١): «فيه الفضل بن عيسى الرقاشي وهو ضعيف». وقال السيوطي: «أبو عاصم العبّاداني منكر الحديث، وكان الفضل يرى القدر كاد يغلب على حديثه الوهم». قلت: لو عكس لكان أولى بالصواب؛ فإنّ حديث الرقاشي أشدّ نكارة من حديث العبّاداني، وهما آفة هٰذا الحديث، وقد ضعّفه العقيلي وابن عديّ والذهبي والألباني، وأوغل ابنَ الجوزي فجعله موضوعًا.

ورواه اللالكائي في «أصول الاعتقاد» (٨٥٢) من طريق سويد بن عبدالعزيز، ثنا عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن أبيه، عن جدّه عليّ بن أبي طالب... رفعه في سياق طويل. وهٰذا ساقط: سويد واه، وعمرو يروي عن زيد عن آبائه نسخة موضوعة.

ومعنى الحديث صحيح لا ريب، لٰكن هٰذا شيء ونسبته إلى النبيّ ﷺ شيء، وما قبله يغني عنه.

العذابِ.

وهٰذا الألمُ كامنٌ في النَّفسِ، لٰكنْ يَسْتُرُهُ سترُ الشَّهواتِ ويُواريهِ حجابُ الغفلةِ، حتَّى إذا كُشِفَ الغطاءُ وحيلَ بينَ العبدِ وبينَ ما يَشْتَهي؛ وَجَدَ حقيقةَ ذٰلكَ الألمِ وذاقَ طعمَهُ وتَجَرَّدَ ألمُهُ عمَّا يَحْجُبُهُ ويُواريهِ.

وهٰذا أمرٌ يُدْرَكُ بالعيانِ والتَّجربةِ في هٰذهِ الدَّارِ؛ تكونُ الأسبابُ المؤلمةُ للرُّوحِ والبدنِ موجودةً مقتضيةً لآثارِها، ولٰكنْ يَقومُ للقلبِ مِن فرحِهِ بحظٍّ نالَهُ مِن مالٍ أو جاهٍ أو وصالِ حبيبٍ ما يُواري عنهُ شهودَ الألمِ وربَّما لا يَشْعُرُ بهِ أصلاً، فإذا زالَ المعارضُ؛ ذاقَ طعمَ الألمِ ووَجَدَ مسَّهُ. ومَنِ اعْتَبَرَ أحوالَ نفسِهِ وغيرِهِ؛ عَلِمَ ذٰلكَ. فإذا كانَ هٰذا في هٰذهِ الدَّارِ؛ فما الظَّنُّ عندَ المفارقةِ والفطامِ عنِ الدُّنيا والانتقالِ إلى اللهِ والمصيرِ إليهِ؟!

فلْيَتَأمَّلِ العاقلُ الفطنُ النَّاصحُ لنفسِهِ هٰذا الموضعَ حقَّ التَّأمُّلِ ولْيَشْغَلْ بهِ كلَّ أفكارِهِ: فإنْ فَهِمَهُ وعَقَلَهُ واسْتَمَرَّ إعراضُهُ؛

فَما تَبْلُغُ الأعْداءُ مِنْ جاهِلٍ ... ما يَبْلُغُ الجاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

وإنْ لمْ يَفْهَمْهُ لغلظِ حجابِهِ وكثافةِ طبعِهِ؛ فيَكْفيهِ الإيمانُ بما أعَدَّ اللهُ تَعالى في الجنَّةِ لأهلِها مِن نعيمِ الأكلِ والشُّربِ والنِّكاحِ والمناظرِ المبهجةِ وما أعَدَّ في النَّارِ لأهلِها مِن السَّلاسلِ والأغلالِ والحميمِ ومقطَّعاتِ الثِّيابِ مِن النَّارِ ونحوِ ذٰلكَ.

والمقصودُ بيانُ أنَّ الحاجةَ إلى الرُّسلِ صلواتُ اللهِ عليهِم وسلامُهُ ضروريَّةٌ، بل هيَ في أعلى مراتبِ الضَّرورةِ، ولَيْسَتْ نظرًا لحاجتِهِم إلى النَّجاةِ وأسبابِها[1]، بل هيَ أعظمُ من ذٰلكَ.

* * * * *

(١) في ط: «الحاجتهم إلى الحاجة وأسبابها»! وهٰذا تحريف بيّن، فلعلّ صوابه ما أثبتّه، ولعلّ صوابه «لحاجتهم إلى الجنّة وأسبابها».

مفتاح دار السعادة

ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة

٣

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار ابن خزيمة
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض
الملز - شارع الاحساء - غرب حديقة الحيوان
هاتف: ٤٧٣٠٧٨٨ - ٤٧٦٩٩٣٢ - فاكس: ٤٧٦٠٧٩٥

مفتاح دار السعادة

ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة

للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر
المعروف بابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١هـ)

تحقيق وتعليق
عامر بن علي ياسين

الجزء الثالث

دار ابن خزيمة



[الباب الرابع]

[في بيان ضلال أهل التنجيم]

[وإبطال مزاعمهم في تأثير الكواكب في الموجودات الأرضية]

[١ـ فصل]

[في أنقسام الصابئة إلى شقي وسعيد]

وأمّا ما ذُكِرَ عنِ الصَّابئةِ مِن الاستغناءِ عنِ النُّبوَّةِ؛ فهٰذا ليسَ مذهبًا لجميعِهِم، بل فيهِم سعيدٌ وشقيٌّ، كما قالَ تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ آمَنوا وَالَّذينَ هادوا وَالنَّصارى وَالصَّابئينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ﴾ [البقرة: ٦٢][1]، فأدْخَلَ المؤمنينَ مِن الصَّابئينَ في أهلِ السَّعادةِ، ولمْ يَنالوا ذٰلكَ إلاَّ بالإيمانِ بالرُّسلِ. ولٰكنْ منهُم مَن أنكَرَ النُّبوَّاتِ وعَبَدَ الكواكبَ، وهُم فِرَقٌ كثيرةٌ ليسَ هٰذا موضعَ ذكرِهِم.

فأمّا قولُهُم «إنَّ الموجوداتِ في العالمِ السُّفليِّ مركَّبةٌ على تأثيرِ الكواكبِ والرُّوحانيَّاتِ، وفي أتِّصالِها سعودٌ ونحوسٌ يُوجِبُ أنْ يَكونَ في آثارِها حسنٌ وقبحٌ في الأخلاقِ والأعمالِ يُدْرِكُهُ كلُّ ذي عقلٍ سليمٍ، فلا حاجةَ لنا إلى مَن يُعَرِّفُنا حسنَها وقبحَها . . . إلى آخرِ كلامِهِم»؛ فكلامُ مَن هوَ أجهلُ النَّاسِ وأضلُّهُم وأبعدُهُم عن الإنسانيَّةِ!

وقائلُ هٰذهِ المقالةِ منادٍ على نفسِهِ أنَّهُ لمْ يَعْرِفْ فاطرَهُ فاطرَ السَّماواتِ والأرضِ ولا صفاتِهِ ولا أفعالَهُ، بل ولا عَرَفَ نفسَهُ التي بينَ جنبيهِ ولا ما يُسْعِدُها ويُشْقيها ولا

---

(١) الصابئون: أختار أبن جرير وأبن كثير وجماعة من أهل التفسير أنّهم قوم لا دين لهم مقرّر يتّبعونه، وإنّما هم موحّدون على أصل الفطرة. من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا: قبل مجيء النبيّ ﷺ، وأمّا بعد مجيئه ﷺ؛ فلا يقبل ممّن بلغه الإسلام غيره.

غايتَها ولا لماذا خُلِقَتْ ولا بماذا تَكْمُلُ وتَصْلُحُ وبماذا تَفْسُدُ وتَهْلِكُ، بل هوَ أجهلُ النَّاسِ بنفسِهِ وبفاطرِها وبارئِها.

وهل يَتَمَكَّنُ العقلُ بعدَ معرفةِ النَّفسِ ومعرفةِ فاطرِها ومبدعِها أنْ يَجْحَدَ النُّبوَّةَ أو يُجَوِّزَ على اللهِ وعلى حكمتِهِ أنْ يَتْرُكَ النَّوعَ البشريَّ الذي هوَ خلاصةُ المخلوقاتِ سدًى ويَدَعَهُم هملاً معطَّلاً ويَخْلُقَهُم عبثًا باطلاً؟! ومَن جَوَّزَ ذٰلكَ على اللهِ سبحانَهُ؛ فما قَدَرَهُ حقَّ قدرِهِ، بل ولا عَرَفَهُ ولا آمَنَ بِهِ!

قالَ تَعالى: ﴿وَما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إذْ قالوا ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]: فأخْبَرَ تَعالى أنَّ مَن جَحَدَ رسالاتِهِ فما قَدَرَهُ حقَّ قدرِهِ ولا عَرَفَهُ ولا عَظَّمَهُ ولا نَزَّهَهُ عمَّا لا يَليقُ بِهِ تَعالى اللهُ عمَّا يَقولُ الظَّالمونَ علوًّا كبيرًا.

ثمَّ يُقالُ لهٰذهِ الطَّائفةِ: بماذا عَرَفْتُم أنَّ الموجوداتِ بالعالمِ السُّفليِّ كلَّها مركَّبةٌ على تأثيرِ الكواكبِ والرُّوحانيَّاتِ؟! وهل هٰذا إلَّا كذبٌ بحتٌ وبهتٌ؟! فهَبْ أنَّ بعضَ الآثارِ المشاهدةِ مسبَّبٌ عن تأثيرِ بعضِ الكواكبِ والعلويَّاتِ كما يُشاهَدُ مِن تأثيرِ الشَّمسِ والقمرِ في الحيوانِ والنَّباتِ وغيرِهِما؛ فمِن أينَ لكُم أنَّ جميعَ أجزاءِ العالمِ السُّفليِّ صادرٌ عن تأثيرِ الكواكبِ والرُّوحانيَّاتِ؟! وهل هٰذا إلَّا كذبٌ وجهلٌ؟!

فهٰذا العالمُ فيهِ مِن التَّغيُّرِ والاستحالةِ والكونِ والفسادِ ما لا يُمْكِنُ إضافتُهُ إلى كوكبٍ ولا يُتَصَوَّرُ وقوعُهُ إلَّا بمشيئةِ فاعلٍ مختارٍ قادرٍ مؤثِّرٍ في الكواكبِ والرُّوحانيَّاتِ مسخِّرٍ لها بقدرتِهِ مدبِّرٍ لها بمشيئتِهِ[1]، كما تَشْهَدُ عليها أحوالُها وهيآتُها وتسخيرُها وانقيادُها أنَّها مدبَّرةٌ مربوبةٌ مسخَّرةٌ بأمرِ قادرٍ قاهرٍ يُصَرِّفُها كيفَ يَشاءُ ويُدَبِّرُها كما يُريدُ ليسَ لها مِن الأمرِ شيءٌ ولا يُمْكِنُ أنْ تَتَصَرَّفَ بأنفسِها بذرَّةٍ فضلاً [عن] أنْ تُعْطِيَ العالمَ وجودَهُ، فلو أرادَتْ حركةً غيرَ حركتِها أو مكانًا غيرَ مكانِها أو هيئةً أو حالاً غيرَ ما هيَ عليهِ؛ لَمْ تَجِدْ إلى ذٰلكَ سبيلاً؛ فكيفَ تَكونُ ربًّا لكلِّ ما تحتَها معَ كونِها عاجزةً مصرَّفةً مقهورةً مسخَّرةً آثارُ الفقرِ مسطورةٌ في صفحاتِها وآياتُ العبوديَّةِ والتَّسخيرِ باديةٌ عليها؟!

---

(١) في ط: «مدبّر بها بمشيئته»! وهٰذا تحريف بيّن، يؤدّي عكس المعنى تمامًا، لأنّ التدبير بالكواكب يعني أنّه يدبّر الكون بوساطة الكواكب، وهٰذا ما يقوله أهل الضلالة من المنجّمين والبرّاجين.

فبأيِّ اْعتبارٍ نَظَرَ إليها العاقلُ؛ رَأى آثارَ الفقرِ وشواهدَ الحدوثِ وأدلَّةَ التَّسخيرِ والتَّصريفِ فيها، فهيَ خَلْقُ مَنْ لَيْسَ كمثلِهِ شيءٌ وآياتُ مَن آياتُهُ عبيدٌ مسخَّراتٌ بأمرِهِ، ﴿أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]!

وأمَّا قولُهُم «إنَّ في اْتِّصالاتِ الكواكبِ نظرَ سعودٍ ونحوسٍ»؛ فممَّا أضْحَكوا بهِ العقلاءَ عليهِم مِن جميعِ الأُممِ، ونادَوْا بهِ على جهلِهِم وضلالِهِم، وصاروا بهِ مركزًا لكلِّ كذَّابٍ وكلِّ أفَّاكٍ وكلِّ زنديقٍ وكلِّ مفرطٍ في الجهلِ بالنُّبوَّاتِ وما جاءَتْ بهِ الرُّسلُ مِن الحقائقِ[1] العقليَّةِ والبراهينِ اليقينيَّةِ. وسَنُريكَ طرفًا مِن جهالاتِهِم وكذبِهِم وتناقضِهِم وبطلانِ مقالتِهِم لِيَعْرِفَ اللبيبُ نعمةَ اللهِ عليهِ في عقلِهِ ودينِهِ.

[٢- فصل]

[في بطلان علم الأحكام]

[وبيان جهل المنجمين وكذبهم وتناقضهم]

● فيُقالُ لهُم[2]:

المؤثِّرُ في هٰذهِ السُّعودِ والنُّحوسِ؛ هل هوَ الكوكبُ وحدَهُ والبرجُ[3] وحدَهُ، أوِ

---

(١) في ط: «الرسل بالحقائق»! والصواب ما أثبتّه.

(٢) هٰذا هو الوجه الأوّل من الكلام على بطلان علم الأحكام أو ما يعرف اليوم بالتنجيم.

(٣) البرج: مجموعة من النجوم، تصوّرها الأقدمون على هيئة خياليّة، كالحوت أو العقرب أو السرطان، فسمّوها بأسماء ما تخيّلوه.

ويرجع الشكل الثابت نسبيًّا للبرج الواحد ولتوضّع الأبراج المختلفة في قبّة السماء إلى أمرين: **أحدهما**: أنّ بعض نجوم البرج الواحد تكون متقاربة فعلاً ممّا يجعل بينها قوى جذب تحافظ على المسافات فيما بينها. **والآخر**: أنّ نجوم هٰذه الأبراج تبعد عنّا بعدًا شاسعًا يفوق الخيال ممّا يجعل التغيّر في هيئة توضّعها يحتاج إلى عشرات آلاف السنين ليصبح مرئيًّا للعين.

ومع ذٰلك؛ فلا ينبغي أن يخطر في بالك أنّ في السماء نجومًا تتوضّع على شكل سرطان أو عقرب أو جدي أو ثور؛ لأمرين: **أوّلهما**: أنّك إذا نظرت في خرائط الفلكيّين؛ وجدت أنّ هيئة هٰذه المجموعات النجميّة بعيدة جدًّا عن التصوّر المفترض، فلو نظرت إلى المجموعة النجميّة المسمّاة ببرج العقرب دون أن تعرف أنّ اْسمها العقرب؛ لما خطر العقرب في بالك إطلاقًا، ولذٰلك تجد تسميات اليونانيّين مختلفة عن تسميات العرب للمجموعة الواحدة في كثير من الأحيان؛ لأنّ كلاًّ منهما تخيّلها كما يهوى، وإن كان العرب مقلّدين في أغلب=

الكوكبُ بشرطِ حصولِه في البرجِ[١]؟ والكلُّ محالٌ: أمّا الأوّلُ والثّاني؛ فإنّهُما يُوجِبانِ دوامَ الأثرِ؛ لكونِ المؤثِّرِ دائمَ الثُّبوتِ. والثّالثُ أيضًا محالٌ؛ لأنَّهُ لمَّا ٱخْتَلَفَ أثرُ الكوكبِ بسببِ ٱختلافِ البرجينِ؛ لَزِمَ أنْ تكونَ طبيعةُ كلِّ برجٍ مخالفةً بالماهيّةِ لطبيعةِ البرجِ الثّاني؛ إذْ لوْ لمْ يَكُنْ كذٰلكَ؛ كانَتْ طبائعُ جميعِ البروجِ متساويةً في تمامِ الماهيّةِ، فوَجَبَ أنْ يكونَ أثرُ الكوكبِ في جميعِ البروجِ أثرًا واحدًا؛ لأنَّ الأشياءَ المتساويةَ في تمامِ الماهيّةِ يَمْتَنِعُ أنْ تَلْزَمَها لوازمُ مختلفةٌ، ولمَّا كانَتْ آثارُ كلِّ كوكبٍ واجبةَ الاختلافِ بسببِ ٱختلافِ البروجِ؛ لَزِمَ القطعُ بكونِ البروجِ مختلفةً في الطَّبيعةِ والماهيّةِ، وهٰذا يَقْتَضي كونَ الفلكِ[٢] مركَّبًا لا بسيطًا[٣]، وقد قُلْتُم أنتُم وجميعُ الفلاسفةِ: إنَّ الفلكَ بسيطٌ لا تركيبَ فيهِ[٤].

= الأحيان. والثاني: أنّ نجوم البرج الواحد لا تتوضّع على سطح واحد، وإنّما تتوضّع في فراغ، فربّما نرى النجمين متقاربين أو متلاصقين وأحدهما يبعد عنّا ٥٠ سنة ضوئيّة والآخر ١٥٠ سنة ضوئيّة، ولٰكنّهما يقعان على خطّ نظر واحد، تمامًا كما يفعل بعض أصحاب ألعاب الخفّة الذين يحرّكون أصابعهم من وراء ستارة، فترى ظلال الأصابع على شكل الذئب والأرنب والقطّة، فما تراه من أشكال الأبراج في السماء وفي خرائط الفلكيّين هو كالظلّ الذي يصنعه صاحب الخفّة بيده سواء بسواء.

فإذا عرفت هٰذا وفهمته تمامًا، فلن تنطلي عليك عبارات القوم أمثال: «برج الحوت والسرطان برجان مائيّان»، «مواليد برج العقرب يتّسمون بالعنف وسرعة الغضب»... إلخ هرائهم! لأنّه ليس هناك حوت ولا عقرب ولا سرطان في قبّة السماء حقيقة ولا تقريبًا، وعلى التسليم والتنزّل بأنّ هناك أشكالاً مقاربة ـ ولا والله ما هي بالقريبة ولا المقاربة ـ لهٰذه الأسماء المدّعاة؛ فإنّ ذٰلك لا يعدو أن يكون بحسب المنظور، وأمّا في الواقع الفراغيّ الفضائيّ؛ فليس هناك عقرب ولا أفعى جزمًا وقولاً واحدًا. وانظر أيضًا ما سيأتي (٣/ ١٧).

(١) يرى المنجّمون أنّ للكوكب بحدّ ذاته ٱتّصال نحس أو سعد، وأنّ هٰذا الاتّصال يتأثّر وجودًا وعدمًا وقوّة وضعفًا بحصوله في برج ما أو ٱتّفاق مطلعه مع مطلع برج ما.

(٢) الفلك: هو المدار الذي يسبح فيه الكوكب أو النجم أو المجموعة النجميّة (البرج).

(٣) لعلّه لأنّ العناصر البسيطة لا تختلف طبائعها وتأثيراتها وإنّما يقع ذٰلك في المركّبات! والذي يراه أهل التنجيم أنّ البروج مختلفة في الطبيعة والماهيّة، بل إفكهم كلّه قائم على هٰذه الدعوى. ولٰكنّهم لا يسلّمون بٱستلزام ذٰلك لكون الفلك مركّبًا؛ لأنّ ٱختلاف طبائع البروج يرجع عندهم إلى ٱختلاف أعداد النجوم فيها ومواضعها وتقاربها وتباعدها وطبيعة كلّ نجم منها وحجمه وشدّة إضاءته وتأثيره في غيره... إلخ.

(٤) ٱستوقفتني هٰذه العبارة طويلاً وأعدت قراءتها وتحليلها مرارًا دون أن أدرك لها معنى! ثمّ فتح الله بمنّه وفضله فتنبّهت إلى أنّ الأقدمين كانوا يرون أنّ الأرض محاطة بأفلاك كرويّة يدور في الأوّل منها القمر وفي الثاني عطارد وفي الثالث الزهرة وفي الرابع الشمس وفي الخامس المرّيخ وفي السادس المشتري وفي السابع=

ومِن العجبِ جوابُ بعضِ الأحكاميِّينَ(١) عن هٰذا بأنَّ الكواكبَ حيواناتٌ ناطقةٌ فاعلةٌ بالقصدِ والاختيارِ، فلذٰلكَ تَصْدُرُ عنها الأفعالُ المختلفةُ(٢)!

وهٰذا مكابرةٌ مِن هٰؤلاءِ ظاهرةٌ؛ فإنَّ دلائلَ التَّسخيرِ والاضطرارِ عليها ـ مِن لزومِها حركةً لا سبيلَ لها إلى الخروجِ عنها ولزومِها موضعًا مِن الفلكِ لا تَتَمَكَّنُ مِن الانتقالِ عنهُ وٱطِّرادِ سيرِها على وجهٍ مخصوصٍ لا تُفارِقُهُ ٱلبتَّةَ ـ أبينُ دليلٍ على أنَّها مسخَّرةٌ مقهورةٌ على حركاتِها محرَّكةٌ بتحريكِ قاهرٍ لها لا متحرِّكةٌ بإرادتِها وٱختيارِها، كما قالَ تَعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ ألا لَهُ الخَلْقُ وَالأمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ثمَّ يُقالُ: لا يَنْفَعُكُمْ هٰذا الجوابُ شيئًا؛ فإنَّ طبائعَ البروجِ: إنْ كانَتْ متساويةً في

= زحل (وهو آخر ما عرفوه من المجموعة الشمسيّة) وفي الفلك الثامن النجوم الثابتة ثمّ ٱختلفوا هل هناك تاسع يحيط بالجميع أو لا! والمهمّ هنا أنّهم تخيّلوا هٰذه الأفلاك الكرويّة أجسامًا مادّيّة تحصر الكوكب الذي يسير فيها وتمنعه من الانفلات وكأنّها السكّة التي يسير عليها القطار! ومن هنا ٱختلفوا في كون هٰذه الأفلاك المادّيّة بسيطة أو مركّبة! وأنت تعلم اليوم أنّ المدار الذي يدور فيه القمر حول الأرض مثلاً هو خطّ خياليّ تصوّري ليس له وجود ولا سكّة مادّيّة ملموسة في الفضاء الخارجي، وكذٰلك الحال في سائر الأفلاك، وهٰذا يعني أنّها ليست بالبسيطة ولا بالمركّبة. والله أعلى وأعلم.

(١) تنقسم الدراسات المتعلّقة بالنجوم إلى فرعين:

الأوّل: يرصد مواضع النجوم والكواكب وغيرها في قبّة السماء، ويدرس أبعادها وأحجامها وحركاتها وتقاربها وتباعدها ولونها وإضاءتها وكسوفها وخسوفها... إلخ. وهٰذا ما أطلقوا عليه قديمًا علم الهيئة وعلم الرصد وحديثًا علم الفلك Astronomy .

الثاني: يتناول صلة هٰذه النجوم والكواكب ومطالعها ومنازلها ومساقطها بالوقائع الأرضيّة الحاضرة والمستقبليّة من الأشكال والأخلاق والأعمال والأمراض والسعود والنحوس... إلخ. وهٰذا ما عرف قديمًا بعلم (!) الأحكام أو علم (!) التنجيم Astrology، وأهله هم الأحكاميّون أو المنجّمون أو البرّاجون، وربّما سمّى بعضهم نفسه الوسيط الروحاني أو البروفيسور الفلكي أو الأستاذ أو الدكتور في علوم الفضاء وما وراء الطبيعة... إلخ هٰذه التسميات الخدّاعة التي تنطلي على العوامّ.

وممّا ينبغي أن تتنبّه له أنّ الأوّل علم له أصول وضوابط وقوانين تنتظم أكثر أبوابه، ولا يخلو مع ذٰلك من الافتراضات والتخيّلات المعقولة التي تحتمل الصدق والكذب. والثاني إفك وزور يقلّد اللاحق فيه السابق لا تسنده تجربة ولا يحكمه قانون يسلّم العقل بالمصير إليه.

(٢) وهٰذا غريب جدًّا، ربّما يقوله بعض الدجّالين المخرّفين ممّن تعلّق بشيء من هٰذه الضلالة، والمشهور عن الكبار منهم غيره. والله أعلم.

تمامِ الماهيَّةِ؛ كانَ ٱختصاصُ كلِّ برجٍ بأثرِهِ الخاصِّ ترجيحًا لأحدِ طرفي الممكنِ على الآخرِ بلا مرجِّحٍ، وإنْ لمْ تكُنْ متساويةً؛ لَزِمَ تركيبُ الفلكِ! وممَّا أَضْحَكْتُم بهِ العقلاءَ منكُم أنَّكُم جعَلْتُموها أجسامًا ناطقةً فاعلةً بالاختيارِ ونَفَيْتُم أنْ يكونَ فاطرُها ومبدعُها حيًّا قيُّومًا فاعلاً بالاختيارِ وهٰذهِ الحوادثُ مستندةٌ إلى مشيئتِهِ وٱختيارِهِ جاريةٌ على وَفْقِ حكمتِهِ وعلمِهِ[١]، معَ كونِ هٰذهِ الكواكبِ عبيدَهُ وخلقًا مسخَّرًا[٢] بأمرِهِ ولا تَمْلِكُ لأنفسِها ولا لِما تحتَها ضرًّا ولا نفعًا ولا سعدًا ولا نحسًا، كما قالَهُ العقلاءُ مِن بني آدَمَ وٱتَّفَقَتْ عليهِ الرُّسلُ وأتباعُهُم!

فإنْ قيلَ: لا نُسَلِّمُ أنَّ الفلكَ بسيطٌ، بل هوَ مركَّبٌ مِن هٰذهِ البروجِ، وطبيعةُ كلِّ برجٍ مخالفةٌ لطبيعةِ البرجِ الآخرِ، بل طبيعةُ كلِّ دقيقةٍ وثانيةٍ[٣] مخالفةٌ لطبيعةِ الدَّقيقةِ الأُخرى والثَّانيةِ الأُخرى، ولا يَتِمُّ علمُ الأحكامِ إلَّا بهٰذا.

قيلَ: قولُكُم بأنَّهُ قديمٌ أبديٌّ غيرُ قابلٍ للكونِ والفسادِ ولا يَقْبَلُ الانحلالَ ولا الخرقَ ولا الالتئامَ معَ كونِ طبيعةِ كلِّ جزءٍ منهُ صغيرٍ أو كبيرٍ[٤] مخالفةً لطبيعةِ الجزءِ الآخرِ ـ كما صَرَّحَ بهِ أبو مَعْشَرٍ[٥] ـ جمعٌ بينَ النَّقيضينِ! فإنَّهُ إذا كانَ مركَّبًا مِن أجزاءٍ مختلفةِ الماهيَّةِ؛ لمْ يَمْتَنِعِ ٱنحلالُهُ وٱنفطارُهُ وٱنشقاقُهُ! فكيفَ جَمَعْتُم بينَ تكذيبِ الرُّسلِ في الإخبارِ عنِ ٱنقطاعِهِ وٱنشقاقِهِ وٱنحلالِهِ وبينَ دعواكُم تركُّبَهُ مِن ماهيَّاتٍ مختلفةٍ في أنفسِها غيرِ ممتنعٍ على المركَّبِ منها الانحلالُ والانفطارُ؟! فلا للرُّسلِ صَدَّقْتُم، ولا معَ وجوبِ العقلِ وَقَفْتُم، بل أنتُم مِن أهلِ هٰذهِ الآيةِ: ﴿وَقالوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا

---

(١) تنبّه إلى أنّ كلام ابن القيّم هنا يتناول طائفة الصابئة، الذين نحوا منحى الفلاسفة في الإلٰهيّات وزادوا عليهم التنجيم. وأمّا عموم المنجّمين؛ فأنواع وأديان كثر، ومنهم المسلمون للأسف الشديد، وهٰؤلاء لا يقولون بالضرورة بنفي الفاعليّة والاختيار عن الله، بل بعضهم لم يسمع بهٰذه القضيّة من الأساس.

(٢) في ط: «وخلق مسخّر»! ونبّه في الحاشية إلى وجه الصواب.

(٣) لأنّ القياسات هنا تقدّر بالزوايا: فدائرة البروج ٣٦٠ درجة والدرجة ٦٠ دقيقة والدقيقة ٦٠ ثانية.

(٤) في ط: «صغيرًا أو كبيرًا»! وهٰذا تحريف ظاهر، ولا محلّ للنصب هنا.

(٥) جعفر بن محمّد البلخيّ، المنجّم، صاحب التصانيف في التنجيم، قيل: كان محدّثًا فمُكر به ودخل في هٰذا الهذيان وٱشتهر فيه وطار ذكره، نسأل الله اللطف والعافية، توفّي ٢٧٢هـ. ترجمته في: «وفيات الأعيان» (١/ ٣٥٨)، «أعلام النبلاء» (١٣/ ١٦١).

في أَصْحابِ السَّعيرِ﴾ [الملك: ١٠].

فإنْ قيلَ: لِم لا يَجوزُ أنْ يُقالَ: إنَّ كلَّ برجٍ مِن البروجِ الاثني عشرَ قدِ ٱرْتَسَمَتْ فيهِ كواكبُ صغيرةٌ بَلَغَتْ في الصِّغرِ إلى حيثُ لا يُمْكِنُنا أنْ نُحِسَّ بها(١)، ثمَّ إنَّ الكوكبَ إذا وَقَعَ في مسامتةِ برجٍ خاصٍّ(٢)؛ ٱمْتَزَجَ نورُ ذٰلكَ الكوكبِ بأنوارِ تلكَ الكواكبِ الصِّغارِ المرتسمةِ في تلكَ القطعةِ في الفلكِ، فيَحْصُلُ بهٰذا السَّببِ آثارٌ مخصوصةٌ(٣). وإذا كانَ هٰذا محتملاً ولمْ يَبْطُلْ بالدَّليلِ ثبوتُهُ؛ تَعَيَّنَ المصيرُ إليهِ(٤).

قيلَ: طبائعُ تلكَ الكواكبِ: إنْ كانَتْ مختلفةً بالماهيَّةِ؛ عادَ المحذورُ المذكورُ، وإنْ كانَتْ واحدةً؛ لَزِمَ أنْ يَكونَ ذٰلكَ(٥) الامتزاجُ متشابهًا، فلا يُتَصَوَّرُ صدورُ الآثارِ المتضادَّةِ المختلفةِ عنهُ(٦).

● **الوجهُ الثَّاني في الكلامِ على بطلانِ علمِ الأحكامِ:** أنَّ معرفةَ جميعِ المؤثِّراتِ الفلكيَّةِ ممتنعةٌ، وإذا كانَ كذٰلكَ؛ ٱمْتَنَعَ الاستدلالُ بالأحوالِ الفلكيَّةِ على حدوثِ الحوادثِ السُّفليَّةِ(٧).

---

(١) هي كذٰلك كما يقول الفلكيّون المعاصرون، والمجموعات التي ظنّها المتقدّمون خمسة نجوم أو عشرة تبيّن للمعاصرين أنّها مجموعات تزيد على المئة والمئتين. لٰكن سرّ خفائها لا يرجع بالضرورة إلى صغر حجمها، بل كثيرًا ما يكون سبب ذٰلك شدّة بعدها وضعف إضاءتها.

(٢) في مسامتة برج خاصّ: على خطّ رؤية واحد مع ذلك البرج بالنسبة للراصد الأرضيّ.

(٣) كذا! وليس هٰذا فرضًا ذهنيًّا مجرّدًا من بنات أفكار ابن القيّم يرحمه الله، ولٰكنّه الأصل الذي يقوم عليه إفك المنجّمين والمعنى الذي يدور عليه كلامهم قديمًا وحديثًا وإن ٱختلفت العبارة والصياغة.

(٤) لماذا؟! هل كلّ محتمل لم يبطل بالدليل ثبوته يتعيّن المصير إليه؟! أوليس العكس هو الصحيح؟! أوليس الأصل أنّ ما لم يثبت بالدليل الصحيح لا ينبغي أن يصار إليه؟! أوليس الأصل أن يقيم صاحب الدعوى البيّنة على دعواه وإلّا ردّت عليه؟! ثمّ نستطيع أن نقلب دليلكم المزعوم عليكم فنقول: ومن المحتمل أن يكون المنجّمون والبرّاجون كذّابين أفّاكين من أهل جهنّم، ولم يبطل بالدليل ثبوت ذٰلك، فتعيّن المصير إليه!

(٥) في ط: «وإن كانت واحدة لم يكن ذٰلك»! وهٰذا تحريف قبيح قلب المعنى رأسًا على عقب، فتأمّله؛ يتبيّن لك صواب ما أثبتّه.

(٦) قد تبيّن لك آنفًا أنّ هٰذه الحجّة تقوم على فكرة كانت معتمدة في يوم من الأيّام ثمّ أظهر علم الفلك المعاصر بطلانها. ومن هنا؛ فلا ينبغي لمن يتعرّض اليوم لإبطال إفك المنجّمين أن يستكثر بها على خصومه؛ ففي القويّ والصحيح ما يغني عن الضعيف. والله أعلم.

(٧) وهٰذه حجّة كما ترى في القوّة والوجاهة، والمعطيات الفلكيّة المعاصرة تزيدها قوّة ورسوخًا يومًا=

وإنّما قُلْنا: إنَّ معرفةَ جميعِ المؤثِّراتِ الفلكيّةِ ممتنعةٌ لوجوهٍ:

أحدُها: أنّهُ لا سبيلَ إلى معرفةِ الكواكبِ إلاّ بواسطةِ القوى الباصرةِ[١]، والمرئيُّ إذا كانَ صغيرًا أو في غايةِ البعدِ مِن الرَّائي؛ فإنَّهُ يَتَعَذَّرُ رؤيتُهُ لذٰلكَ؛ فإنَّ أصغرَ الكواكبِ الّتي في فلكِ الثَّوابتِ[٢] ـ وهوَ الذي تُمْتَحَنُ بهِ قوّةُ البصرِ ـ مثلُ كرةِ الأرضِ بضعةَ عشرَ مرّةً[٣]، وكرةُ الأرضِ أعظمُ مِن كرةِ عطاردَ كذا مرّةً[٤]، فلو قَدَّرْنا أنَّهُ حَصَلَ في الفلكِ الأعظمِ كواكبُ كثيرةٌ يكونُ حجمُ كلٍّ واحدٍ منها مساويًا لحجمِ عطاردَ؛ فإنَّهُ لا شكَّ أنَّ البصرَ لا يَقْوى على إدراكِهِ، فثَبَتَ أنَّهُ لا يَلْزَمُ مِن عدمِ إبصارِنا شيئًا مِن الكواكبِ في الفلكِ الأعظمِ عدمُ تلكَ الكواكبِ، وإذا كانَ كذٰلكَ؛ فاحتمالُ[٥] أنَّ في الفلكِ الأعظمِ وفي فلكِ الثَّوابتِ وفي سائرِ الأفلاكِ كواكبَ صغيرةً ـ وإنْ كنّا لا نُحِسُّ بها ولا نَراها ـ

= بعد يوم، بل ممّا لا ريب فيه أنّ ما نعرفه اليوم عن أقرب الكواكب إلينا لا يعدو أن يكون قطرة من بحر؛ فكيف بغيرها؟! فكيف بجميع المؤثّرات الفلكيّة؟!

(١) ما زالت القوّة الباصرة هي الوسيلة الأولى لوصد الكواكب والنجوم القريبة والبعيدة حتّى أيّامنا هٰذه، لٰكنّ هٰذه القوّة أعينت اليوم بالتيليسكوبات الأرضيّة والفضائيّة والمركبات والمجسّات وشاشات الكومبيوتر وغيرها ممّا ضاعف إمكانيّاتها آلاف المرّات. نعم؛ استحدثت وسائل أخرى كتحليل الطيوف الضوئيّة ونحوها، ولٰكنّها تبقى ضعيفة الدور قياسًا بما تقدّم.

(٢) تنبّه إلى أنّ المقصود بالكواكب هنا هو النجوم، وعلى عدم التفريق بينهما جاءت لغة القرآن. وأمّا المعاصرون؛ فاصطلحوا على أنّ الكواكب (أو السيّارات) هي أجرام سماويّة معتمة باردة تعكس الضوء الذي تتلقّاه من النجوم، والنجوم (أو الثوابت) هي أجرام سماويّة مضيئة ملتهبة.

وفلك الثوابت هو الفلك الثامن عندهم على ما تقدّم. ووصف النجوم بالثوابت صحيح بالنسبة للراصد الأرضي، ولمواضع بعضها بالنسبة لبعض في قبّة السماء؛ فإنّها تحافظ على مسافات ثابتة فيما بينها، ولمواضعها في القبّة السماويّة، وأمّا في الواقع؛ فإنّها تتحرّك بسرعات متفاوتة في مداراتها، ولٰكنّ رصد حركتها بصريًّا يحتاج لمئات وربّما آلاف السنين نظرًا لشدّة بعدها عن الأرض.

(٣) هي أعظم من ذٰلك بكثير، وأقرب الثوابت إلينا يبعد عنّا عدّة سنوات ضوئيّة، وما كان كذٰلك لا يمكن أن نراه ما لم يكن حجمه ضعف حجم الأرض نصف مليون مرّة على الأقلّ.

(٤) حجم الأرض يقارب ١٨ مرّة حجم عطارد.

(٥) لم يعد هٰذا احتمالاً اليوم، بل أصبح حقيقة ثابتة: فما عدّه الأقدمون نجمًا واحدًا صار عند المعاصرين اثنين أو ثلاثة أو أكثر، وما كان تشكيلاً مؤلّفًا من بضعة نجوم صار اليوم مؤلّفًا من بضع مئات منها، وكلّما تحسّنت وسائل الرصد أكثر وازدادت عدسات التيليسكوبات اتّساعًا؛ ظهرت أجرام فلكيّة جديدة لم يكونوا يرونها من قبل.

موجبٌ أمتناعَ معرفةِ جميعِ المؤثِّراتِ الفلكيّةِ.

فإنْ قُلْتُم: إنَّها لمَّا كانَتْ صغيرةً وآثارُها ضعيفةً لمْ تَصِلْ آثارُها وقواها إلى هٰذا العالمِ.

قيلَ لكُم: صغرُ الجثَّةِ لا يُوجبُ ضعفَ الأثرِ؛ فإنَّ عطاردَ أصغرُ الأجرامِ الفلكيّةِ جرمًا عندَكُم[1] معَ أنَّ آثارَهُ قويّةٌ، وأيضًا فالرَّأسُ والذَّنبُ نقطتانِ وهميَّانِ وأمَّا أنتُم فقد أثْبَتُّم لهُما آثارًا[2]، وأيضًا السِّهامُ مثلُ سهمِ السَّعادةِ وسهمِ الغيبِ نقطٌ وهميّةٌ ولها عندَكُم آثارٌ قويّةٌ[3]!

الوجهُ الثَّاني ممَّا يَدُلُّ على أنَّ معرفةَ جميعِ المؤثِّراتِ الفلكيّةِ غيرُ ممكنةٍ[4]: أنَّ الكواكبَ المرئيَّةَ غيرُ مرصودةٍ بأسرِها[5]؛ فإنَّكُم أنتُم وغيرُكُم قد قُلْتُم: إنَّ المجرَّةَ عبارةٌ عن أجرامٍ كوكبيَّةٍ صغيرةٍ جدًّا[6] مرتكزةٍ في فلكِ الثَّوابتِ على هٰذا السَّمتِ المخصوصِ، ولا ريبَ أنَّ الوقوفَ التَّامَّ على طبائعِها متعذِّرٌ.

وثالثُها: أنَّ جميعَ الكواكبِ الثَّابتةِ المحسوسةِ لمْ يَحْصُلِ الوقوفُ التَّامُّ على طبائعِها[5]؛ لأنَّ كلامَ الأحكاميينَ قليلُ الحاصلِ، لا سيَّما في طبائعِ الثَّوابتِ. نعمْ؛ غايةُ ما عندَهُم أنَّهُمُ ٱدَّعَوْا أنَّهُم كَشَفوا بعضَ الثَّوابتِ التي في الفلكِ الأوَّلِ والثَّاني، فأمَّا

---

(١) في حدود معارف ذٰلك العصر، وهناك أجرام فلكيّة كثيرة أصغر من عطارد، منها على سبيل المثال بلوتو، الذي لا يزيد قطره عن نصف قطر عطارد، لٰكنّ القدامى لم يعرفوا ما بعد زحل من الكواكب.

(٢) لو أخذنا دوران عطارد حول الشمس مثلاً؛ فإنّ نقطة الرأس هي أقرب نقطة من مدار عطارد إلى الشمس ونقطة الذنب هي أبعد نقطة من مداره عنها، وكذٰلك الشأن في الكواكب والنجوم الأخرى.

(٣) سهم السعادة أو سهم القمر أو طالع القمر، وسهم الغيب والدِّين أو سهم الشمس أو طالع الشمس: هي مواضع فلكيّة مصطلحة عند المنجّمين، لهم في حسابها وتقديرها طرائق أفتراضيّة غاية في الغرابة والتعقيد، كأن يحسب السهم الأوّل بدءًا من الشمس وبأتّجاه القمر والآخر بالعكس.

(٤) في ط: «غير معلوم»! وهٰذا تحريف بيّن أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٥) بل ولا عشر معشارها ولا دون ذٰلك، لا في ذاك العصر ولا في أيّامنا هٰذه.

(٦) المجرّة: تجمّع هائل من النجوم والغازات والغبار الكوني تتخلّلها مجالات مغناطيسيّة وكهربائيّة هائلة. وجميع النجوم التي نراها في السماء تتبع مجرّة واحدة هي التي تنتمي إليها المجموعة الشمسيّة، وهي مجرّة درب التبّانة (أو: اللبّانة)، وهناك مجرّات أخرى كثيرة في الفضاء، وصل عدد المعروف منها إلى اليوم حوالي ١٠٠٠٠ مجرّة، أقربها إلينا سحابتا ماجلان.

البقيّةُ؛ فقلَّما تكَلَّموا في معرفةِ طبائعِها.

ورابعُها: أنْ بتقديرِ أنَّهُم عَرَفوا طبائعَ هٰذهِ الكواكبِ حالَ بساطتِها[(١)]، لٰكنْ لا شبهةَ أنَّهُ لا يُمْكِنُ الوقوفُ على طبائعِها حالَ ٱمتزاجِ بعضِها بالبعضِ؛ لأنَّ الامتزاجاتِ الحاصلةَ مِن طبائعِ ألفِ كوكبٍ أو أكثرَ[(٢)] بحسبِ الأجزاءِ الفلكيَّةِ يَبْلُغُ في الكثرةِ إلى حيثُ لا يَقْدِرُ العقلُ على ضبطِها.

وخامسُها: آلاتُ الرَّصدِ لا تَفي بضبطِ الثَّواني والثَّوالثِ، ولا شكَّ أنَّ الثَّانيةَ الواحدةَ مثلُ الأرضِ كذا وكذا ألفَ مرَّةٍ أو أقلَّ أو أكثرَ، ومعَ هٰذا التَّفاوتِ العظيمِ كيفَ يُمْكِنُ الوصولُ إلى الغرضِ؟! حيثُ قيلَ: إنَّ الإنسانَ الشَّديدَ الجري بينَ رفعِهِ رجلَهُ ووضعِهِ الأُخرى يَتَحَرَّكُ جرمُ الفلكِ الأقصى ثلاثةَ آلافِ ميلٍ[(٣)]! وإذا كانَ الأمرُ كذٰلكَ؛ فكيفَ [يُمْكِنُ][(٤)] ضبطُ هٰذهِ المؤثِّراتِ؟!

وسادسُها: هَبْ أنَّا عَرَفْنا تلكَ الامتزاجاتِ الحاصلةَ في ذٰلكَ الوقتِ؛ فلا ريبَ أنَّهُ لا يُمْكِنُنا معرفةُ الامتزاجاتِ التي كانَتْ حاصلةً قبلَهُ، معَ أنَّا نَعْلَمُ قطعًا أنَّ الأشكالَ السَّالفةَ ربَّما كانَتْ عائقةً ومانعةً عن مقتضَياتِ الأشكالِ الحاصلةِ في الحالِ. ولا ريبَ أنَّا نُشاهِدُ أشخاصًا كثيرةً مِن النَّباتِ والحيوانِ والإنسانِ تَحْدُثُ مقارنةً لطالعٍ واحدٍ[(٥)]، معَ أنَّ كلَّ واحدٍ منها مخالفٌ للآخرِ في أكثرِ الأُمورِ، وذٰلكَ أنَّ الأحوالَ السَّالفةَ في حقِّ كلِّ واحدٍ تكونُ مخالفةً للأحوالِ السَّالفةِ في حقِّ الآخرِ، وذٰلكَ يَدُلُّ [على][(٤)] أنَّهُ لا ٱعتمادَ على مقتضى الوقتِ، بل لا بدَّ مِن الإحاطةِ بالطَّوالعِ السَّالفةِ. وذٰلكَ ممَّا لا وقوفَ عليهِ أصلًا؛ فإنَّهُ ربَّما كانَتِ الطَّوالعُ السَّالفةُ دافعةً مقتضَياتِ هٰذا الطَّالعِ الحاضرِ.

---

(١) يعني: طبيعة كلّ كوكب (أو نجم) على حدة بغضّ النظر عن الكواكب (أو النجوم) الأخرى ومدى تأثيرها فيه. وهٰذا تقدير موغل في الخيال غير وارد إطلاقًا بالنظر لمعطيات علم الفلك المعاصر.

(٢) يقدّر الفلكيّون المعاصرون أنّ في المجرّة التي نتبع نحن إليها ـ وهي درب اللبّانة أو درب التبّانة Milky Way ـ مئة مليار نجم على الأقلّ، منها مليار نجم على الأقلّ تشبه شمسنا إلى درجة الالتباس. هٰذا؛ وفي الفضاء مجرّات أخرى كثيرة، وليست مجرّتنا بأعظمها.

(٣) تتفاوت سرعة حركة الأجرام الفلكيّة تفاوتًا بالغًا، فمنها البطيء ومنها السريع. والمجرّة التي ننتمي إليها تسبح في الفضاء بسرعة تقدّر بـ٢٠٠ ميل في الثانية.

(٤) زيادة يستلزمها السياق.

(٥) المراد بالطالع هنا البرج.

وعلى هٰذا الوجهِ عَوَّلَ ابنُ سِينا في كتابيهِ اللذينِ سمَّاهُما «الشِّفاءُ» و«النَّجاة» في إبطالِ هٰذا العلم. فثَبَتَ بهٰذا أنَّ الوقوفَ التَّامَّ على المؤثِّراتِ جميعِها ممتنعٌ مستحيلٌ، وإذا كانَ الأمرُ كذٰلكَ؛ كانَ الاستدلالُ بالأشخاصِ الفلكيَّةِ على الأحوالِ السُّفليَّةِ باطلاً قطعًا(١).

● **الوجهُ الثَّالثُ**(٢): أنَّ تأثيرَ الكواكبِ فيما ذَكَرْتُم مِن السَّعدِ والنَّحسِ إمَّا بالنَّظرِ في مفردِهِ وإمَّا بالنَّظرِ إلى ٱنضمامِهِ إلى غيرِهِ. فمتى لمْ يُحِطِ المنجِّمُ بهاتينِ الحالتينِ؛ لمْ يَصِحَّ منهُ أنْ يَحْكُمَ لهُ بتأثيرٍ، ولمْ يَحْصُلْ إلاَّ على تعارضِ التَّقديرِ. ومِن المعلومِ(٣) أنَّ في فلكِ البروجِ كواكبَ شَذَّتْ عنِ الرَّصدِ معرفةُ أقدارِها وأعدادِها، ولمْ يَعْرِفِ الأحكاميُّونَ ما يُوجِبُهُ خواصُّ مجموعاتِها وأفرادِها، فخَرَجَ الفريقانِ أصحابُ الرَّصدِ والأحكامِ عنِ الإحاطةِ بما في طباعِها، وما عَسى أنْ تُؤَثِّرَهُ معَ السيَّارةِ(٤) عندَ ٱنفرادِها وٱجتماعِها. فما الذي يُؤَمِّنُكُم كلَّكُم عندَ وقوعِ نجمٍ مِن تلكَ النُّجومِ المجهولةِ على درجةِ الطَّالعِ أنْ يَكونَ موجبًا مِن الحكمِ ما لا يُوجِبُهُ النَّظرُ بدونِهِ(٥)؟!

● **الوجهُ الرَّابعُ**: أنَّ تأثيرَ الكواكبِ يَخْتَلِفُ بٱختلافِ أقدارِها: فما كانَ مِن القدرِ الأوَّلِ أثَّرَ بوقوعِهِ على الدَّرجةِ وإنْ لمْ تُضْبَطِ الدَّقيقةُ، وما كانَ مِن القدرِ الأخيرِ لمْ يُؤَثِّرْ إلاَّ بضبطِ الدَّقيقةِ. ولا ريبَ أنَّ الجهالةَ بتلكَ الكواكبِ ومقاديرِها يُوجِبُ كذبَ الأحكامِ النُّجوميَّةِ وبطلانَها(٦).

---

(١) وهٰذه حجّة علميّة صحيحة ودقيقة تشهد لها المعطيات الفلكيّة المعاصرة، وقد جوّدها ابن القيّم يرحمه الله وقرّرها أحسن تقرير وأوضحه، فتمسّك بها وٱحفظها، فلا بدّ أنّك ستحتاج إليها كثيرًا مع تزايد المنجّمين والبرّاجين المطّرد بعد أن أصبحوا موضع ترحيب المجلّات والإذاعات والفضائيّات، وٱنتشرت سمومهم في طبقات المسلمين ٱنتشار النار في الهشيم.

(٢) من الكلام على بطلان علم الأحكام.

(٣) بلا أدنى ريب، بل الثابت اليوم أنّ المرئي المعروف من النجوم لا يعدو أن يكون قطرة في بحر متلاطم الأمواج. هٰذا؛ مع التطوّر الهائل في وسائل الرصد وآلاته.

(٤) يعني: الكواكب السيّارة. وهي المجموعة الشمسيّة المؤلّفة من عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتو، على خلاف لهم في شأن بلوتو ليس هٰذا محلّ إيراده.

(٥) وهٰذا الوجه فرع للأصل المتقدّم قبله وراجع إليه.

(٦) وهٰذا أيضًا فرع عن الوجه الثاني آيل في الحقيقة إليه. ومقتضى الكلام هنا أنّنا لا نشكّ في أنّ تأثيرات الكواكب والنجوم تتفاوت قوّة وضعفًا بحسب الكبر والصغر والقرب والبعد وشدّة الإنارة وغير ذٰلك، =

● **الوجهُ الخامسُ**: أنَّها لو كانَ لها تأْثيرٌ كما يَزْعُمونَ؛ لَمْ يَخْلُ: إمَّا أنْ تكونَ فيهِ مختارةً مريدةً، أو غيرَ مختارةٍ ولا مريدةٍ. وكلاهُما محالٌ:

أمَّا الأوَّلُ؛ فلأنَّهُ يُوجِبُ جريَ الأحكامِ على وَفْقِ آختيارِها وإرادتِها ولَمْ يَتَوَقَّفْ على آتِّصالاتِها وآنفصالاتِها ومفارقتِها ومقارنتِها وهبوطِها في حضيضِها[١] وآرتفاعِها في أوجِها كما هوَ المعروفُ مِن الفاعلِ بالاختيارِ[٢]، ولا سيَّما الأجرامِ العلويَّةِ المؤثِّرةِ في سائرِ السُّفليَّاتِ. ولاخْتَلَفَتْ آثارُها[٣] أيضًا عندَ هٰذهِ الأُمورِ بحسبِ الدَّواعي والإراداتِ. ولأمْكَنَها أنْ تُسْعِدَ مَن أرادَتْهُ بنحسِهِ وتُنْحِسَ مَن أرادَتْهُ بسعدِهِ[٤] كما هوَ شأْنُ الفاعلِ المختارِ.

وإنْ لمْ تَكُنْ مختارةً ومريدةً؛ فتأْثيرُها بحسبِ الذَّاتِ والطَّبعِ، وما كانَ هٰكذا؛ لَمْ يَخْتَلِفْ أثرُهُ إلَّا بآختلافِ القوابلِ والمعدَّاتِ، وعندَكُم أنَّ آختلافَ تلكَ القوابلِ والمعدَّاتِ مستندٌ إلى تأْثيرِها! فأيُّ محالٍ أبلغُ مِن هٰذا؟! وهلْ هٰذا إلَّا دورٌ[٥] ممتنعٌ في بدائِهِ العقولِ[٦]؟!

● **الوجهُ السَّادسُ**: أنَّ هٰذا العلمَ مشتملٌ على أُصولٍ يَشْهَدُ صريحُ العقلِ

= ولٰكنّ هٰذا لا يعني أن نقتصر في حساباتنا على القويّ دون الضعيف؛ لأنّه قد يقترن بالضعيف من الظروف ما يفعّل أثره ويضاعفه، كأن يرافق الحدث زمانًا أو مكانًا بالدقائق والثواني، فيكون الإعراض عنه سببًا في أخطاء فادحة في التقديرات.

(١) في ط: «وهبوطها بها في حضيضها»! والصواب حذف «بها».

(٢) لو فرضنا القمر مثالًا؛ فإنّ حضيضه هو أقرب نقطة من مداره إلى الأرض، وأوجه هو أبعد نقطة من مداره عنها.

(٣) يعني: ولو كان الأمر كذٰلك؛ لاختلفت آثارها. . . إلخ.

(٤) في ط: «أن تسعد من أراد أنّه ينحسه وتنحس من أراد أنّه يسعده»! وهٰذا تحريف بيّن لا معنى له صوابه ما أثبتّه. ومعنى الكلام: أنّ هٰذه الكواكب لو كانت فاعلة مختارة؛ لكان بإمكانها أن تسعد من شاءت في أيّام نحسه وتنحس من شاءت في أوقات سعده.

(٥) الدور الممتنع عقلًا هو ترتيب (ب) على (أ) بحيث لا يحصل (ب) إلّا إذا حصل (أ) ولا يحصل (أ) إلّا إذا حصل (ب)! تمامًا كقصّة البيضة والدجاجة: من أين جاءت الدجاجة؟ من البيضة، ومن أين جاءت البيضة؟ من الدجاجة. . .

(٦) هٰذا يشبه الوجه الأوّل، ولا يخلو من نظر؛ لأنّ أكثرهم يرى النجوم غير مختارة ولا مريدة، ولٰكنّهم لا يقرّون بأنّ تأثيرها بحسب الذات والطبع فحسب، بل يضيفون إلى ذٰلك ما يرافقها زمانًا ومكانًا.

بفسادِها. وهيَ، وإنْ كانَتْ في الكثرةِ إلى حيثُ لا يُمْكِنُ ذكرُها، فنحنُ نَعُدُّ بعضَها:

فالأوّلُ: مِن المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّهُ ليسَ في السَّماءِ حملٌ ولا ثورٌ ولا حيَّةٌ ولا عقربٌ ولا دبٌّ ولا كلبٌ ولا ثعلبٌ؛ إلاَّ أنَّ المتقدِّمينَ لمَّا قَسَّموا الفلكَ إلى أثني عشرَ قسمًا وأرادوا أنْ يُمَيِّزوا كلَّ قسمٍ منها بعلامةٍ مخصوصةٍ؛ شَبَّهوا الكواكبَ المذكورةَ في تلكَ القطعةِ المعيَّنةِ بصورةِ حيوانٍ مخصوصٍ تشبيهًا بعيدًا جدًّا[١]!

ثمَّ إنَّ هٰؤلاءِ الأحكاميِّينَ فَرَّعوا على هٰذهِ الأسماءِ تفريعاتٍ طويلةً؛ فَرَّعوا أنَّ الصُّورَ السُّفليَّةَ مطيعةٌ للصُّورِ العلويَّةِ: فالعقاربُ مطيعةٌ لصورِ العقربِ، والأفاعي مطيعةٌ لصورِ التِّنِّينِ، وكذا القولُ في الأسدِ والسُّنبلةِ[٢]...

ومَن عَرَفَ كيفَ وُضِعَتْ هٰذهِ الأسماءُ، ثمَّ سَمِعَ قولَ هٰؤلاءِ الأحكاميِّينَ؛ ضَحِكَ منهُم وتَبَيَّنَ لهُ فرطُ جهلِهِم وكذبِهِم[٣].

الثَّاني: أنَّ هٰؤلاءِ لمَّا عَجَزوا عن معرفةِ طالعِ القرانِ؛ أقاموا طالعَ سنةِ القرانِ مقامَ القرانِ، ومعلومٌ أنَّ هٰذا في غايةِ الفسادِ[٤].

---

(١) هو كذٰلك والله بعيد جدًّا كما تقدّم (٣/٧). وعلى سبيل المثال فهاهنا كوكبة (أي مجموعة من النجوم) رأى اليونانيّون فيها صورة ملكتهم كاسيوبيا فأسموها بأسمها Cassiopeia. ثمّ أخذ العرب عنهم الفلك فأبقى بعضهم على الاسم كما هو، وغيّره آخرون حسبما رأوه في هٰذه المجموعة من الصور، فمنهم من أسماها المرأة المسلسلة، ومنهم من أسماها ذات الكرسيّ، ومنهم من أسماها الناقة، وبطن الناقة، والسنام، والكفّ الخضيب... إلخ! وكلّ يدّعي أنّها على هيئة ما أسماها به! وكلّ بنى على ما أوهمته إيّاه عيناه! والحقيقة بعيدة كلّ البعد عن هٰذه الأوهام والتخيّلات. وقس على ذٰلك سائر المجموعات؛ فإنّك لا تكاد تجد لها صلة تذكر بأسمها. هٰذا؛ والكلام كلّه في الخرائط النجميّة المرسومة على الورق، فكيف لو علمت أنّ بين النجمين المتلاصقين على الخريطة مسافات تفوق الخيال، وأنّ أحدهما أقرب إلينا من الآخر بمئات السنين الضوئيّة، وكلّ ما هنالك أنّهما وقعا بالنسبة إلينا على خط رؤية واحد! فأيّ حوت؟! وأيّ عقرب؟! وأين هما على الأوراق والخرائط فضلاً عن الفضاء والفراغ؟!

(٢) وهٰذا مشهور مشهود: فمواليد برج الثور يرجع الكلام فيهم دائمًا إلى القوّة والسرعة والحسم، ومواليد برج الميزان يرجع الكلام فيهم أبدًا إلى الاعتدال والتوسط... إلخ هٰذا الهراء! وأنظر وفتّش؛ تر.

(٣) لٰكنّ أكثر الناس ليسوا كذٰلك للأسف الشديد! ألا تراهم يسارعون إلى صفحات الأبراج في المجلاّت وينصتون إلى ما يوصيه البرّاجون والبرّاجات في الفضائيّات؟!

(٤) لمّا لم يستطيعوا أن يحسبوا الآثار الأرضيّة المزعومة لاقتران الكواكب والنجوم يومًا بيوم؛ بنوا أقوالهم على الحسابات السنويّة! ألم تتغيّر هٰذه الاقترانات بين أوّل السنة وآخرها؟! ألم تتباعد المقتربات=

الثَّالثُ: أنَّهُمُ ٱخْتَلَفوا ٱختلافًا شديدًا في الواحدةِ مِن مسائلِ هٰذا العلمِ؛ فإنَّ أقوالَهُم في حدودِ الكواكبِ كثيرةٌ مختلفةٌ، وليسَ معَ أحدٍ منهُم شبهةٌ ولا خيالٌ فضلاً عن حجَّةٍ وٱستدلالٍ[١]! ثمَّ إنَّ كثيرًا منهُم مِن غيرِ حجَّةٍ ولا دليلٍ ربَّما أخَذوا واحدًا مِن تلكَ الأقوالِ مِن غيرِ بصيرةٍ بل بمجرَّدِ التَّشهِّي، مثلَ أخذِهِم في ذٰلكَ بحدودِ الضَّربينِ[٢]، وذٰلكَ مِن أدلِّ الدَّلائلِ على فسادِ هٰذا العلمِ!

الرَّابعُ: أنَّ أقوالَهُم متناقضةٌ: فإنَّ منهُم مَن يقولُ: كونُ زُحَلَ في بيتِ المالِ دليلُ الفقرِ، ومنهُم مَن يقولُ: يَدُلُّ على وجدانِ كنزٍ[٣]!

الخامسُ: أنَّ هٰذا العلمَ، معَ أنَّهُ تقليدٌ محضٌ[٤]، فلَيْسَ أيضًا تقليدًا منتظمًا؛ لأنَّ لكلِّ قومٍ فيهِ مذهبًا ولكلِّ طائفةٍ فيهِ مقالةٌ: فللبابِليِّينَ فيهِ مذهبٌ، وللفُرْسِ مذهبٌ آخرُ، وللهِنْدِ مذهبٌ، وللصِّينِ مذهبٌ رابعٌ[٥]. والأقوالُ إذا تَعارَضَتْ وتَعَذَّرَ التَّرجيحُ؛ كانَ دليلاً على فسادِها وبطلانِها. وسَيَأْتي إنْ شاءَ اللهُ بسطُ هٰذهِ الوجوهِ أكثرَ مِن هٰذا.

● **الوجهُ السَّابعُ ممَّا يَدُلُّ على بطلانِ القولِ بالأحكامِ**: أنَّ الطَّالعَ عندَهُم هوَ الشَّكلُ المخصوصُ الحاصلُ للفلكِ عندَ ٱنفصالِ الولدِ مِن رحمِ أُمِّهِ. وإذا ثَبَتَ هٰذا؛

= وتتقارب المبتعدات؟! وكذٰلك يمتدّ البرج الواحد على مدى ثلاثين يومًا، وحكم من ولد في أوّل ساعات البرج كحكم من ولد في آخرها! ألم تتغيّر الاقترانات على مدى ثلاثين يومًا؟! قاتلهم الله على هٰذا الكذب! وقاتل من صدّقهم وتابعهم على جهله وسخفه وقلّة عقله!

(١) وما زال الحال على ذٰلك إلى اليوم، وما زالت تقديرات الفلكيّين في أبعاد النجوم وأحجامها متضاربة مع كلّ هٰذا التطوّر في وسائل الرصد وحساباته، وذٰلك لأنّ المسافات شاسعة جدًّا والأحجام تفوق التصوّر وأيّ خطأ على الورق وإن كان جزءًا من مليون من الميليمتر سيؤدّي إلى تفاوت عظيم في الحسابات.

(٢) كذا! فإن لم تكن محرّفة؛ فلم يتبيّن لي مقصوده بها. على أنّ المعنى واضح، وهو أنّهم يلتزمون في صناعتهم حدود اليونان أو الهند دون فارس أو الصين مثلاً.

(٣) يدلّ زحل عند المنجّمين على النحوس عمومًا كالخسارة والفشل والمرض، لٰكن تختلف دلالته عند الإشراق عنها عند الغروب، وتتغيّر دلالته أيضًا بحسب مسيره في دائرة البروج وتأثّره بها وبحسب ما ينظر إليه بتثليث أو تربيع أو تسديس أو مقابلة، ولذٰلك لا تجد برّاجًا يوافق الآخر على دلالته في وقت من الأوقات.

(٤) هو كذٰلك بلا ريب. قال المتقدّمون منهم: المرّيخ يدلّ على كذا، فتابعهم من تلاهم عليه؛ بغير حجّة من عقل أو تجربة! فلا تكاد تجد علمًا فيه من التقليد الأعمى ما في التنجيم.

(٥) ورام بعض الدجّالين المعاصرين أن يجمعوا بين هٰذه المذاهب، فأتوا بضروب من التناقضات والسخافات التي ينبو عنها من له أدنى مسكة من عقل. وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

فنقولُ: الاستدلالُ بحصولِ ذٰلكَ الشَّكلِ على جميعِ الأحوالِ الكلِّيَّةِ التي تَحْصُلُ لهٰذا الولدِ إلى آخرِ عمرِهِ ٱستدلالٌ باطلٌ قطعًا، ويَدُلُّ عليهِ وجوهٌ:

أحدُها: أنَّ ذٰلكَ الشَّكلَ، كما حَدَثَ في تلكَ اللحظةِ، فإنَّهُ يَفْنى ويَزولُ ويَحْدُثُ شكلٌ آخرُ. فذٰلكَ الشَّكلُ المعيَّنُ معدومٌ في[١] جميعِ أجزاءِ عمرِ هٰذا الإنسانِ، والمعدومُ لا يَكونُ علَّةً للموجودِ ولا جزءًا مِن أجزاءِ العلَّةِ[٢]. وإذا كانَ كذٰلكَ؛ ٱمْتَنَعَ الاستدلالُ بذٰلكَ الشَّكلِ منها[٣] على الأحوالِ التي تَحْدُثُ في جميعِ أجزاءِ العمرِ.

الثَّاني: أنَّهُ لا مشابهةَ بينَ ذٰلكَ الشَّكلِ المخصوصِ وبينَ هٰذا الإنسانِ الذي ٱنْفَصَلَ مِن بطنِ الأُمِّ؛ إلاَّ في أمرٍ واحدٍ، وهوَ أنَّ كلَّ واحدٍ ظَهَرَ بعدَ الخفاءِ، وهوَ بمجرَّدِ ذٰلكَ لا يُوجِبُ ٱرتباطَ ذٰلكَ الشَّكلِ المخصوصِ للفلكِ بسائرِ أحوالِ هٰذا الإنسانِ ٱلبتَّةَ، فمدَّعي ذٰلكَ فاسدُ العقلِ.

والنَّظرُ الثَّالثُ: أنَّهُ عندَ حدوثِ ذٰلكَ الطَّالعِ حَدَثَتْ أنواعٌ مِن الحيواناتِ وأنواعٌ مِن النَّباتِ وأنواعٌ مِن الجماداتِ، فلو كانَ ذٰلكَ الطَّالعُ يُوجِبُ آثارًا مخصوصةً؛ لَوَجَبَ ٱشتراكُ كلِّ الأشياءِ التي حَدَثَتْ في عالمِنا هٰذا في ذٰلكَ الوقتِ في تلكَ الآثارِ، وحيثُ لَمْ يَكُنِ الأمرُ كذٰلكَ؛ عَلِمْنا أنَّ القولَ بتأثيرِ الطَّالعِ باطلٌ.

الرَّابعُ: هَبْ أنَّ الطَّالعَ لهُ أثرٌ؛ إلاَّ أنَّ الواجبَ أنْ يُقالَ: الطَّالعُ المعتبرُ هوَ طالعُ مسقطِ النُّطفةِ لا طالعُ الولادةِ. وذٰلكَ لأنَّهُ[٤] عندَ مسقطِ النُّطفةِ يَأْخُذُ ذٰلكَ الشَّخصُ في التَّكوُّنِ والتَّولُّدِ، فأمَّا عندَ الولادةِ؛ فالشَّخصُ قد تَمَّ تكوُّنُهُ وحدوثُهُ، ولا حادثَ في هٰذا الوقتِ إلاَّ ٱنتقالُهُ مِن مكانٍ إلى آخرَ. فثَبَتَ أنَّهُ لو كانَ للطَّالعِ ٱعتبارٌ؛ لَوَجَبَ أنْ يَكونَ

---

(١) في ط: «المعيّن معدّ في»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٢) فيه نظر؛ لأنّ أصحاب هٰذه الدعوى إنّما جعلوه علّة بالنّظر إلى وجوده في وقت من الأوقات، كما يبقى الأب علّة للولد ولو مات وعدم بعد وجوده. والله أعلم.

(٣) في ط: «منهما»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه! ولا محلّ للمثنّى هنا، وإنّما هو ضمير جمع يعود على الظواهر الفلكيّة المختلفة الحاصلة لحظة الولادة. والله أعلم.

(٤) في ط: «وذٰلك لأنّ»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه، ولا يصح لغة أن يجيء أسم «إنّ» جملة ولا شبه جملة. وربّما كان الصواب «وذٰلك لأنْ» بسكون النون، وما أثبتّه أجود.

المعتبرُ هوَ طالعَ مسقطِ النُّطفةِ لا طالعَ الولادةِ[١].

● **الوجهُ الثَّامنُ**: أنَّ الأرصادَ لا تَنْفَكُّ عن نوعِ الخللِ والزَّللِ، وقد صَنَّفَ أبو عليِّ بنُ الهَيْثَمِ[٢] رسالةً بليغةً في أقسامِ الخللِ الواقعِ في آلاتِ الرَّصدِ وبيَّنَ أنَّ ذٰلكَ الخللَ لَيْسَ في وسعِ الإنسانِ دفعُهُ وإزالتُهُ[٣].

وإذا عُرِفَ هٰذا فنقولُ: إذا بَعُدَ العهدُ بتجديدِ الرَّصدِ؛ اجْتَمَعَتْ تلكَ المسامحاتُ القليلةُ، ويَحْصُلُ بسببِها تفاوتٌ عظيمٌ في مواضعِ الكواكبِ. وكذٰلكَ إذا وُجِدَ موضعُ الكوكبِ[٤] بحسبِ بعضِ الزِّيجاتِ[٥] [على][٦] درجةٍ معيَّنةٍ [على][٦] حينَ وُجِدَ بحسبِ زيجٍ آخرَ [على][٦] غيرِ تلكَ الدَّرجةِ؛ ربَّما حَصَلَ التَّفاوتُ بالبرجِ. ولمَّا كانَ علمُ الأحكامِ مبنيًّا على مواضعِ الكواكبِ ومناسباتِها، ثمَّ قد تبيَّنَ أنَّ التَّفاوتَ الكبيرَ [ربَّما][٦] وَقَعَ في مواضعِ الكواكبِ[٧]؛ عُلِمَ بطلانُ هٰذا العلمِ وفسادُهُ[٨].

● **الوجهُ التَّاسعُ**: أنَّ المعقولَ مِن تأثيرِ هٰذهِ الكواكبِ في العالمِ السُّفليِّ هوَ أنَّها

---

(١) وهٰذا وجيه جيّد، بخلاف ما سبقه؛ فإنّه لا يخلو من نظر وإيرادات تضعفه وتفسد الاحتجاج به. لٰكن من المهمّ أن نتنبّه إلى أنّ طالع مسقط النطفة الذي يتكوّن الشخص فيه ويتولّد ليس هو طالع لحظة الجماع وإلقاء الماء ولكنّه طالع لحظة ألتقاء النطفة بالبويضة وتكوّن البيضة الملقّحة؛ لأنّ هٰذه اللحظة بالذات هي لحظة مبدإ الجنين. كما تقدّم (٢/ ٢١) وسيأتي (٣/ ٢٠٣).

(٢) محمّد بن الحسن بن الهيثم، الرياضيّ، الفيزيائيّ، الفلكيّ، مهندس أهل البصرة، كان يلقّب ببطليموس الثاني، طلبه الحاكم الفاطميّ للنظر في أمر النيل وبالغ في إكرامه وولّاه بعض الدواوين، له مؤلّفات كثيرة تزيد على السبعين، توفي نحو ٤٣٠هـ وقد جاوز الثمانين. ترجمته في: «طبقات الأطباء» (٢/ ٩٠) لابن أبي أصيبعة، «الأعلام» (٦/ ٨٣) للزركلي.

(٣) وآلات الرصد اليوم لا تخلو من الخطإ. لٰكنّ التفاوت عظيم بين ما كان وبين الحال الآن. وممّا يسلّم به الفيزيائيّون المعاصرون أنّه لا بدّ من خطإ عند كلّ قياس، وأنّ الدقّة تكمن في تقليل هٰذا الخطإ قدر الإمكان، وأمّا إلغاؤه نهائيًّا فلا سبيل إليه. لٰكن المشكل في الحسابات الفلكيّة أنّ الخطأ مهما كان ضئيلاً فسيكون له شأن عظيم مع عظم البعد والحجم.

(٤) في ط: «الكواكب»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٥) الزيج: الجدول الفلكيّ الذي يستخدم لتحديد مواضع النجوم وضبط حركاتها وألتقائها وتقاربها وتباعدها وتوقيت رؤيتها وكسوفها وخسوفها... إلى غير ذٰلك من الحوادث الفلكيّة.

(٦) زيادة يقتضيها السياق.

(٧) في ط: «وقع في قطع الكواكب»! وهٰذا تحريف بيّن أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٨) وهٰذه حجّة قويّة وصحيحة، وسيأتي مزيد من التفصيل فيها في الوجه التاسع عشر.

بحسبِ مساقطِ شعاعاتِها تُسَخِّنُ هٰذا العالمَ أنواعًا مِن السُّخونةِ[١]. فأمَّا تأثيراتُها في حصولِ الأحوالِ النَّفسانيَّةِ مِن الذَّكاءِ والبلادةِ والسَّعادةِ والشَّقاوةِ وحسنِ الخلقِ وقبحِهِ والغنى والفقرِ والهمِّ والسُّرورِ واللذَّةِ والألمِ؛ فلو كانَ معلومًا؛ لَكانَ طريقُ علمِهِ إمَّا بالخبرِ الذي لا يَجوزُ عليهِ الكذبُ، أو الحسِّ الذي يَشْتَرِكُ فيهِ النَّاسُ، أو ضرورةِ العقلِ أو نظرِهِ. وشيءٌ مِن هٰذا كلِّهِ غيرُ موجودٍ ٱلبتَّةَ، فالقولُ بهِ باطلٌ[٢]!

ولا يُمْكِنُ للأحكاميِّينَ أنْ يَدَّعوا واحدًا مِن الثَّلاثةِ الأُوَلِ، وغايتُهُم أنْ يَدَّعوا أنَّ النَّظرَ والتَّجربةَ قادَهُم إلى ذٰلكَ وأَوْقَعَهُم عليهِ. ونحنُ نُبَيِّنُ فسادَ هٰذا النَّظرِ والتَّجربةِ بما لا يُمْكِنُ دفعُهُ مِن الوجوهِ التي ذَكَرْناها ونَذْكُرُ غيرَها ممَّا هوَ مثلُها وأقوى منها[٣].

وكلُّ علمٍ صحيحٍ فلهُ براهينُ يَسْتَنِدُ إليها تَنْتَهي إلى الحسِّ أو ضرورةِ العقلِ، وأمَّا هٰذا العلمُ؛ فلا يَنْتَهي إلَّا إلى حدسٍ وتخمينٍ[٤] وظنونٍ لا تُغْني مِن الحقِّ شيئًا، وغايةُ أهلِهِ تقليدُ مَن لمْ يَقُمْ دليلٌ على صدقِهِ!

● **الوجهُ العاشرُ**: أنَّا إذا فَرَضْنا أنَّ رجلينِ سَألا منجِّمينَ في وقتٍ واحدٍ في بلدٍ واحدٍ عن خصمينِ: أيُّهُما الظَّافرُ بصاحبِهِ؟ فهاهُنا يَكونُ الطَّالعُ مشتركًا بينَ كلِّ واحدٍ مِن ذينِكَ الخصمينِ:

فإنْ دَلَّ ذٰلكَ الطَّالعُ على حالِ الغالبِ والمغلوبِ معَ كونِهِ مشتركًا بينَ الخصمينِ؛ لَزِمَ كونُ كلٍّ منهُما غالبًا لخصمِهِ ومغلوبًا مِن جانبِهِ، وذٰلكَ محالٌ.

فإنْ قالوا: بينَ حالِ كلِّ واحدٍ منهُما ٱختلافٌ بسببِ طالعِ الأصلِ أو طالعِ التَّحويلِ أو برجِ الانتهاءِ. قُلْنا: هٰذا تسليمٌ لقولِ مَن يَقولُ: إنَّ طالعَ الوقتِ لا يَدُلُّ على

---

(١) هٰذا كلام سليم ومعقول من الناحية النظريّة، لٰكنّه مهمل الأثر من الناحية العمليّة. نعم؛ للنيازك الفضائيّة التي تسقط على الأرض وتحترق في غلافها الجويّ أثر حراريّ لا ينكر. والله أعلم.

(٢) وهٰذه أعظم الحجج على أهل هٰذا الإفك أهلكهم الله تعالى، فتمسّك بها وٱجعلها لك عمدة؛ ففيها غنية عن كثير سواها، ولا تتعب نفسك أخذًا وردًّا مع من لا خلاق له ولا حياء عنده ممّن ٱحترف اللف والدوران، فهو المدّعي، وعليه البيّنة، فإن عجز عنها؛ أراحك من نفسه بنفسه، وإن أتاك بما عنده من الترّهات والشبهات؛ فٱستعن عليه بما تقدّم ويأتي من هٰذه الوجوه.

(٣) ٱنظر تفاصيل ذٰلك في الوجه الثامن عشر.

(٤) في ط: «جحد وتخمين»! وهٰذا تحريف بيّن، أرجو أن صوابه ما أثبتّه.

شيءٍ أصلاً، بل لا بدَّ مِن رعايةِ الأحوالِ الماضيةِ[١].

لٰكنَّ الأحوالَ الماضيةَ كثيرةٌ غيرُ مضبوطةٍ، فتوقُّفُ دلالةِ طالعِ الوقتِ على تلكَ الأحوالِ الماضيةِ يَقْتَضي التَّوقُّفَ على شرائطَ لا يُمْكِنُ ٱعتبارُها ٱلبتَّةَ!

وقد ساعَدَ أصحابُ الأحكامِ على [هٰذا بـ][٢] الاعترافِ بأنَّ الاعتمادَ على طالعِ الوقتِ غيرُ مفيدٍ، بل لا يَتِمُّ الأمرُ إلَّا عندَ معرفةِ طالعِ الأصلِ وطالعِ[٣] التَّحويلِ وبرجِ الانتهاءِ ومعرفةِ التَّسييراتِ، فعندَ ٱعتبارِ جملةِ هٰذهِ الأُمورِ يَتِمُّ الاستدلالُ، ومعَ ٱعتبارِ جملتِها وتحريرِها بحيثُ يُؤْمَنُ الغلطُ فيها[٤] يَكونُ الاستدلالُ على سبيلِ الظَّنِّ لا على سبيلِ القطعِ.

● **الوجهُ الحادي عشرَ**: أنَّا لو فَرَضْنا جادَّةً مسلوكةً وطريقًا يَمْشي فيهِ النَّاسُ ليلاً ونهارًا، ثمَّ حَصَلَ في تلكَ **الجادَّةِ** آبارٌ[٥] متقاربةٌ بحيثُ لا يَقْدِرُ سالكُ ذٰلكَ الطَّريقِ على سلوكِهِ إلَّا بتأمُّلٍ كثيرٍ وتفكُّرٍ شديدٍ حتَّى يَتَخَلَّصَ مِن الوقوعِ في تلكَ الآبارِ[٦]؛ فإنَّ مِن المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ سلامةَ مَن يَمْشي في هٰذهِ الطَّريقِ مِن العميانِ لا يَكونُ كسلامةِ مَن يَمْشي مِن البصراءِ، بل لا بدَّ أنْ[٧] يَكونَ عطبُ العميانِ في ذٰلكَ الطَّريقِ كثيرًا جدًّا وأنْ تَكونَ سلامةُ البصراءِ عاليةً جدًّا[٨].

إذا عَرَفْتَ هٰذا؛ فنَقولُ: مثالُ العميانِ عندَ الأحكاميِّينَ الذينَ لا يَعْرِفونَ أحكامَ النُّجومِ وهُمُ الأكثرونَ مِن الخلائقِ، ومثالُ البصراءِ عندَهُم هُم أهلُ هٰذا العملِ وهُمُ الأقلُّونَ، ومثالُ الطَّريقِ الذي حَصَلَتْ فيهِ الآبارُ[٦] العميقةُ المهلكةُ الزَّمانُ الذي يَمْضي

---

(١) فيه نظر! والقوم لا يلتزمون هٰذه النتيجة، وكلامهم لا يقتضيها، وإنّما يقتضي الصيغة التالية: إنّ طالع الوقت لا يدلّ وحده على كلّ شيء بل لا بدّ معه من ٱعتبار الأحوال الماضية. وهٰذا ما سيأتي بعد سطرين.

(٢) زيادة لا يتمّ السياق ويصبح له معنًى مفهوم إلّا بها.

(٣) في ط: «فطالع»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) وأنّى لهم هٰذا؟!

(٥) في ط: «في تلك الجادّة آثار»! وهو تصحيف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٦) في ط: «الآثار»! وهو تصحيف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٧) في ط: «بل ولا بدّ أن»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٨) في ط: «وأن يكون سلامة البصراء غالية جدًّا»! وهٰذا تصحيف بيّن صوابه ما أثبتّه.

على الخلقِ أجمعينَ، ومثالُ تلكَ الآبارِ[١] المصائبُ الزَّمانيَّةُ والمحنُ والبلايا. فلو كانَ هٰذا العلمُ صحيحًا؛ لَوَجَبَ أنْ يَكونَ فوزُ المنجِّمينَ بالغنى والسَّلامةِ والنِّعمِ أتمَّ فوزٍ وسلامتُهُم فوقَ كلِّ سلامةٍ. ومعلومٌ أنَّ الأمرَ بالعكسِ، والغالبُ كونُ المنجِّمينَ ومَن سَمِعَ منهُم وعَمِلَ بقولِهِم في الإدبارِ والنَّحسِ والحرمانِ، والواقعُ أبينُ شاهدٍ بذٰلكَ، ولو ذَهَبْنا نَذْكُرُ الوقائعَ التي شوهِدَتْ مِن ذٰلكَ وٱشْتَمَلَتْ عليها التَّواريخُ؛ لَزادَتْ على أُلوفٍ عديدةٍ، فلا نَجِدُ أحدًا راعى هٰذا العلمَ وتَقَيَّدَ بهِ في حركاتِهِ وٱختياراتِهِ إلاَّ وكانَتْ عاقبتُهُ قريبًا إلى إدبارٍ ونكايةٍ وبلايا لا يُصابُ بها سواهُ، ومَن كَثُرَ خُبْرُهُ بأحوالِ النَّاسِ؛ فإنَّهُ يَعْرِفُ مِن ذٰلكَ ما لا يَعْرِفُ غيرُهُ[٢].

● **الوجهُ الثَّاني عشرَ**: أنَّا نُشاهِدُ عالمًا كثيرًا يُقْتَلونَ في ساعةٍ واحدةٍ في حربٍ وخلقًا يَغْرَقونَ في ساعةٍ واحدةٍ، معَ القطعِ بٱختلافِ طوالعِهِم وٱقتضائِها عندَكُم أحوالاً مختلفةً، ولو كانَ للطَّوالعِ تأثيرٌ في هٰذا؛ لامْتَنَعَ عندَ ٱختلافِها الاشتراكُ في ذٰلكَ.

ولا يَنْفَعُكُم جوابُ مَنِ ٱنْتَصَرَ لكُم بأنَّ الطَّوالعَ قد يَكونُ بعضُها أقوى مِن بعضٍ، ولَعَلَّ طالعَ الوقتِ أقوى مِن طالعِ الأصلِ فكانَ الحكمُ لهُ[٣]؛ فإنَّ طالعَ الوقتِ ٱقْتَضى هلاكًا أو غرقًا عامًّا وهوَ أقوى مِن طالعِ الأصلِ فكانَ التَّأْثيرُ لهُ. لأنَّا نَقولُ: هٰذا بعينِهِ يُبْطِلُ عليكُم طالعَ المولودِ والأصلِ ويُحيلُ القولَ بتأْثيرِهِ[٤] وٱعتبارِهِ جملةً؛ فإنَّ الطَّوالعَ بعدَهُ مختلفةٌ كثيرةٌ، وٱقتضاءُ بعضِها[٥] أو أكثرِها أقوى منهُ، فيَكونُ الحكمُ بموجَبِهِ باطلاً؛ إذْ لا أمانَ لكُم مِنِ ٱقتضاءِ الطَّوالعِ بعدَهُ ضدَّ ما ٱقْتَضاهُ، وحينئذٍ فلا يُفيدُ ٱعتبارُهُ شيئًا[٦].

● **الوجهُ الثَّالثَ عشرَ**: أنَّا نَرى الجيشينِ العظيمينِ والحزبينِ المتقابلينِ يَقْتَتِلانِ

---

(١) في ط: «الآثار»! وهو تصحيف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٢) يُحكى أنّ أحدهم خرج في ظلام الليل يرصد ويحسب، فتعثّر بحجر فأنكسرت قدمه، وبقي على حاله حتّى حمله الناس إلى بيته صباحًا وهم يقولون: يا من جهلت ما في الأرض! ما لك ولأسباب السماء؟!

(٣) في ط: «وكان الحكم له»، والصواب ما أثبتّه.

(٤) يحيل القول بتأثيره: يجعله مستحيلاً.

(٥) في ط: «كثيرة وأصل بعضها»! وهٰذا تحريف بيّن أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٦) وهٰذه حجّة قويّة جيّدة لمن تأمّلها.

ويَخْتَصِمانِ، وقد أُخِذَ طالعُ الوقتِ لكلٍّ منهُما، ومعَ هٰذا فالمنصورُ والغالبُ أحدُهُما، معَ أنَّ الطَّالعَ واحدٌ! ولا يَنْفَعُكُم في هٰذا جوابُ مَنِ آنْتَصَرَ لكُم بأنَّهُ لا مانعَ مِن القولِ بخطإِ الأخذِ للطَّالعِ في الحسابِ والحكمِ؛ فإنَّهُ لو أُخِذَ لهُما أيُّ طالعٍ كانَ؛ لمْ يَكُنِ الغالبُ إلَّا أحدَهُما، حتَّى لو كانَ الطَّالعُ قطعًا لا يُتَصَوَّرُ فيهِ الغلطُ؛ لمْ يَكُنْ بدٌّ مِن كونِ أحدِهِما غالبًا والآخرِ مغلوبًا، وهٰذا يُبْطِلُ مذهبَ الأحكامِ بلا ريبٍ[١].

● **الوجهُ الرَّابعَ عشرَ**: أنَّ الأجزاءَ المفترضةَ في الفلكِ إمَّا أنْ تكونَ متشابهةً في الطَّبيعةِ والماهيَّةِ أو مختلفةً فيها:

فإنْ كانَتْ متساويةً؛ كانَ الجزءُ الذي هوَ الطَّالعُ مساويًا لسائرِ الأجزاءِ وحكمُ سائرِ الأجزاءِ واحدًا.

وإنْ كانَتِ الأجزاءُ مختلفةً في الماهيَّةِ والطَّبيعةِ؛ فلا ريبَ أنَّ الفلكَ جِرْمُهُ في غايةِ العظمِ، حتَّى قالوا: إنَّ الرَّجلَ الشَّديدَ العدوِ إذا رَفَعَ رجلَهُ ووَضَعَها يكونُ الفلكُ قد تَحَرَّكَ ثلاثةَ آلافِ ميلٍ[٢]، وإذا كانَ كذٰلكَ؛ فمِنَ الوقتِ الذي يَنْفَصِلُ الولدُ مِن بطنِ أُمِّهِ إلى أنْ يَأْخُذَ المنجِّمُ الأسطرلابَ[٣] ويَأْخُذَ الارتفاعَ يكونُ الفلكُ قد تَحَرَّكَ مثلَ كلِّ الأرضِ كذا ألفَ مرَّةٍ[٤]! وإذا كانَ الأمرُ كذٰلكَ؛ فالجزءُ الذي يَأْخُذُهُ المنجِّمُ بالأسطرلابِ ليسَ الجزءَ الطَّالعَ في الحقيقةِ. و[عليهِ؛ فـ]إذا[٥] كانتِ الأجزاءُ الفلكيَّةُ مختلفةً في الطَّبيعةِ والماهيَّةِ؛ عَلِمْنا أنَّ أخذَ الطَّوالعِ محالٌ.

وقدِ آعْتَرَفَ فضلاؤُكُم[٦] بهٰذا وقالوا: إنَّ الأمرَ وإنْ كانَ كذٰلكَ؛ إلَّا أنَّ التَّجربةَ قد

---

(١) لا يخلو هٰذا من نظر وإيرادات تضعف القول به، وهم لا يرون أنّ طالع الوقت يطلع على الخلق جميعًا بالأثر نفسه. والله أعلم.

(٢) تقدّم تفصيل القول في حركة الأجرام السماويّة ومفهوم الفلك عند الأقدمين (٢/ ٧٥، ٣/ ٨).

(٣) الأسطرلاب والأصطرلاب Astrolabe آلة قديمة، آسمها باليونانيّة أصطرلابون، ومعناه مرآة النجوم، آستعملوها لمعرفة الوقت وأبعاد الكواكب والنجوم وقياسات فلكيّة ورياضيّة أخرى كثيرة.

(٤) تقدّم تفصيل القول في هٰذا في الوجه الثاني (٣/ ١١)، وهٰذا فرع عنه وعائد في الحقيقة إليه.

(٥) ما بين الحاصرتين زيادة آقتضاها السياق.

(٦) يعني: المتفوّقين منكم المفضّلين في هٰذا الهذيان على غيرهم الذين يخضع الباقون لقولهم ويسلّمون لهم. ولا والله؛ ما يشتغل بهٰذا الهذيان فاضل.

دَلَّتْ على أنَّ هٰذا الطَّالعَ الذي [أُخِذَ بدلَ الذي][١] تَعَذَّرَ على الإنسانِ تحصيلُهُ يَدُلُّ على كثيرٍ مِن مقدِّمةِ المعرفةِ[٢] معَ ما فيهِ مِن الخللِ الكثيرِ الذي ذَكَرْتُم، فوَجَبَ أَنْ لا يُهْمَلَ!

وهٰذا خطأٌ بيِّنٌ؛ فإنَّ التَّجاربَ التي دَلَّتْ على كذبِ ذٰلكَ وبطلانِهِ ووقوعِ الأمرِ بخلافِهِ أضعافُ أضعافِ التَّجربةِ التي دَلَّتْ على صدقِهِ كما سَنَذْكُرُ قطرةً مِن بحرِهِ عن قريبٍ إنْ شاءَ اللهُ[٣].

ولهٰذا قالَ أبو نَصْرٍ الفارابيُّ[٤]: وٱعْلَمْ أنَّكَ لو قَلَبْتَ أوضاعَ المنجِّمينَ فجَعَلْتَ الحارَّ باردًا والباردَ حارًّا والسَّعدَ نحسًا والنَّحسَ سعدًا والذَّكرَ أُنثى والأُنثى ذكرًا ثمَّ حَكَمْتَ؛ لَكانَتْ أحكامُكَ مِن جنسِ أحكامِهِم؛ تُصيبُ تارةً وتُخْطِئُ تاراتٍ[٥]! وهل معَهُم إلَّا الحدسُ والتَّخمينُ والظُّنونُ الكاذبةُ؟!

ولقد حُكِيَ أنَّ ٱمْرَأَةً أَتَتْ منجِّمًا فأَعْطَتْهُ درهمًا فأَخَذَ طالعَها وحَكَمَ وقالَ: الطَّالعُ يُخْبِرُ بكذا. فقالَتْ: لَمْ يَكُنْ شيءٌ مِن ذٰلكَ. ثمَّ أَخَذَ الطَّالعَ وقالَ: يُخْبِرُ بكذا. فأَنْكَرَتْهُ. حتَّى قالَ: إنَّهُ لَيَدُلُّ على قطعٍ في بيتِ المالِ. فقالَتِ: الآنَ صَدَقْتَ، وهوَ الدِّرهمُ الذي دَفَعْتُهُ إليكَ!

● **الوجهُ الخامسَ عشرَ:** أنَّ الأجسامَ لا تَفْعَلُ في غيرِها[٦] إلَّا بواسطةِ المماسَّةِ[٧]، وهٰذهِ الكواكبُ لا مماسَّةَ لها بأعضائِنا وأبدانِنا وأرواحِنا، فيَمْتَنِعُ كونُها

---

(١) ساقطة من ط، والسياق يستلزمها ضرورة.

(٢) كذا! فإن لم يكن تحريفًا؛ فمعناه: من المعرفة المقدّمة.

(٣) فراجعه في الوجه الثامن عشر.

(٤) تقدّمت ترجمته (٢/ ٤٩٣).

(٥) وهٰذا غاية في الصحّة، وذٰلك أنّ الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والسعود والنحوس مسألة أفتراضيّة بحتة لا ترجع إلى صفة ذاتيّة في الكوكب.

(٦) في ط: «لا تنفع في غيرها»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٧) إن أريد بالمماسّة ٱلتقاء مادّة الجسم المؤثّر بمادّة الجسم المتأثّر؛ ففي الكلام نظر بيّن، وهو مردود بالعلم والحسّ والشهود.

وإن أريد بالمماسّة ما هو أعمّ من ذٰلك؛ فنعم: فلولا الموجات الكهرطيسيّة التي ٱنطلقت من جهاز التحكّم عن بعد وٱصطدمت بالمتأثّر؛ لما وقع الأثر، ولولا وقوع جسم ما بتماسّ مع مجال جاذبيّة الآخر؛ ما تأثّر بها، ولولا وقوع الممغنَط بتماسّ المجال المغناطيسي للمغنِط؛ لما تأثّر به، ولولا وقوع المتأثّر حراريًّا=

فاعلةً فينا.

أقصى ما في البابِ أنْ يُقالَ: إنَّها وإنْ لَمْ تَكُنْ مماسَّةً لأعضائِنا إلاَّ أنَّ شعاعَها يَصِلُ إلى أجسامِنا[١]!

فيُقالُ: لا ريبَ أنَّ تأثيرَ الشُّعاعِ إنَّما يكونُ بالتَّسخينِ عندَ المسامتةِ أو بالتَّبريدِ عندَ الانحرافِ عنِ المسامتةِ[٢]. فهٰذا بعدَ تصحيحِهِ يَقْتَضي أنْ لا يَكونَ لهٰذهِ الكواكبِ تأثيرٌ في هٰذا العالَمِ إلاَّ على سبيلِ التَّسخينِ والتَّبريدِ، فأمَّا أنْ تُعْطِيَ العلومَ والأخلاقَ والمحبَّةَ والبغضاءَ والموالاةَ والمعاداةَ والعفَّةَ والحرِّيَّةَ والنَّذالةَ والخبثَ والمكرَ والخديعةَ؛ فذٰلكَ خارجٌ عن معقولِ العقلاءِ، وهوَ مِن حماقاتِ الأحكاميِّينَ وجهالاتِهِم!

فإنْ قيلَ: التَّأْثيرُ بالتَّسخينِ والتَّبريدِ يُوجِبُ ٱختلافَ أمزجةِ الأبدانِ، وٱختلافُ أمزجةِ الأبدانِ يُوجِبُ ٱختلافَ أفعالِ النَّفسِ!

قيلَ: فنحنُ نَرى التَّسخينَ يَقْتَضي حرارةً وحدَّةً في المزاجِ، يَفْعَلُ بها هٰذا غايةَ الخيرِ والأفعالِ الحميدةِ وهٰذا غايةَ الشَّرِّ والأفعالِ الخبيثةِ، والشُّعاعُ قد سَخَّنَ مَرْكَبَهُما[٣]، فما الموجِبُ لانفعالِ نفسيهِما عن هٰذا التَّسخينِ هٰذا الانفعالَ المتباعدَ المتناقضَ؟!

وأيضًا؛ فما الموجبُ لاختلافِ القوابلِ وتأثيرُ الكوكبِ فيها [واحدٌ] بطبعِهِ[٤]

= بتماسّ مع إشعاع المؤثّر؛ لما وقع الأثر.

وعندي أنّ ابن القيّم إنّما أراد هٰذا الأخير الصحيح بدليل أنّه ألحقه مباشرة بالكلام عن الإشعاع والتسخين والتبريد، ومعلوم أنّ هٰذا النوع من التأثير لا ينجم عن مماسّة مباشرة مع الجسم المؤثّر.

(١) وهٰذا معقول ـ ولا أقول صحيحًا ـ بالنسبة للنجوم. وأمّا السيارات كعطارد والزهرة والمرّيخ ـ وهي أهمّ عناصر التأثير عندهم ـ فلا شعاع لها أصلاً، وإنّما هي أجسام باردة تتلقّى أشعة الشمس وتعكسها.

(٢) المسامتة: الوقوع على خط نظر الراصد، والمراد بها هنا أن تقع الأشعّة عموديّة على الموضع المتأثّر. وقد تقدّمت (٣/ ٢٠ و٢١) الإشارة إلى انعدام أثر النجوم سوى الشمس في التسخين والتبريد الأرضيّين. وأضيف هنا فأقول: لو أنّك أوقدت شمعة واحدة في زاوية قاعة فسيحة وجلست في زاويتها المقابلة؛ فإنّ أثر الشمعة عليك تدفئة وتبريدًا أقوى من أثر النجوم مجتمعة. هٰذا صحيح وثابت علميًّا.

(٣) في ط: «مركَّبها»! ولا معنى له، والغالب أنّ الصواب ما أثبتّه، فالشعاع سخّن الجسم الذي هو مَرْكَبُ المزاج. والله أعلم.

(٤) في ط: «وتأثير الكواكب فيها بطبعه»! وفيه تحريف بيّن وسقط صوابهما ما أثبتّه.

وتسخينِه وتبريدِه؟! فكيفَ ٱختَلَفَتِ القوابلُ هٰذا الاختلافَ العظيمَ وهيَ مستندةٌ إلى تأثيرٍ واحدٍ[(١)]؟!

● **الوجهُ السَّادسَ عشرَ**: أنَّ رجلاً لو جَلَسَ في دارٍ لها بابانِ شرقيٌّ وغربيٌّ، فسألَ المنجِّمَ وقالَ: مِن أيِّهِما يَقْتَضي الطَّالعُ خروجي؟ فإذا قالَ لهُ المنجِّمُ مِن الشَّرقيِّ؛ أمْكَنَهُ تكذيبُهُ والخروجُ مِن الغربيِّ، وبالعكسِ. وكذٰلكَ السَّفرُ في يومٍ واحدٍ وٱبتداءُ البناءِ وغيرُهُ في يومٍ يُعَيِّنُهُ لهُ المنجِّمُ ويَحْكُمُ بٱقتضاءِ الطَّالعِ لهُ مِن غيرِ تقدُّمٍ عنهُ ولا تأخُّرٍ؛ فإنَّهُ يُمْكِنُهُ تكذيبُهُ في ذٰلكَ أجمعَ.

فإنْ قُلْتُم: إنَّ المنجِّمَ إذا أخْبَرَهُ بما يَفْعَلُهُ ويَخْتارُهُ يَصيرُ ذٰلكَ داعيًا لهُ إلى أنْ يُخالِفَهُ في قولِهِ ويُكَذِّبَهُ، فالطَّريقُ إلى علمِ صدقِهِ أنْ يَحْكُمَ ذٰلكَ المنجِّمُ على معيَّنٍ ويَكْتُبَهُ في كتابٍ ويُخْفِيَهُ أو يَذْكُرَهُ لإنسانٍ آخرَ ويُخْفِيَهُ عن صاحبِ الواقعةِ، فهاهُنا يَظْهَرُ صدقُ المنجِّمِ[(٢)].

قُلْتُ: هٰذا العذرُ مِن أسقطِ الأعذارِ؛ لأنَّ النُّجومَ لو كانَتْ ـ كما تَزْعُمونَ ـ دالَّةً على جميعِ الكائناتِ الواقعةِ في هٰذا العالمِ؛ لَعَرَفَ المنجِّمُ ذٰلكَ الذي يَسْتَقِرُّ عليهِ ٱختيارُهُ على كلِّ حالٍ؛ شاءَ تكذيبَهُ أو لمْ يَشَأْهُ، فلمَّا لمْ يَكُنِ الأمرُ كذٰلكَ؛ سَقَطَ القولُ بصحَّةِ هٰذا العذرِ.

فإنْ قيلَ: الأشخاصُ الفلكيَّةُ مؤثِّراتٌ والسُّفليَّةُ قوابلُ، ويَجوزُ أنْ تَخْتَلِفَ الأحوالُ الصَّادرةُ عنِ الفاعلِ بسببِ ٱختلافِ القوابلِ! وإذا كانَ كذٰلكَ؛ فهَبْ أنَّ الدَّلائلَ الفلكيَّةَ دَلَّتْ على أنَّهُ إنَّما يَخْتارُ الخروجَ مِن البابِ الفلانيِّ؛ [فهٰذا لا يَمْنَعُ أنْ يَخْرُجَ مِن البابِ الثَّاني][(٣)]؛ لأنَّ كونَ الإنسانِ مشغوفًا بتكذيبِ المنجِّمِ حالةٌ حاصلةٌ في النَّفسِ

---

(١) وأيضًا؛ فالقول بأثر التسخين والتبريد على الأمزجة سخف مردود على قائله، ولو كان للتسخين والتبريد تأثير على الأمزجة والطباع والسعود والنحوس؛ لكان أثر المدفأة على الأمزجة والطباع والأخلاق أعظم من أثر الكواكب والنجوم مجتمعة، وكذٰلك المروحة والموقد والفرن ومحرّك السيارة وغيرها.

(٢) يعني كذبه! وٱحتمال إصابة المنجّم في باب الخروج كٱحتمال إصابة أي إنسان آخر! وكلّما كثرت الأبواب زاد خطأ الجميع!

(٣) زيادة لا بدّ منها لفهم السياق.

مانعةٌ مِن ظهورِ ذٰلكَ الأثرِ الذي تَقْتَضيهِ الموجِباتُ الفلكيَّةُ، فلهٰذا الأمرِ لمْ يَحْصُلِ الأمرُ على وَفْقِ حكمِ المنجِّمِ.

قيلَ: إذا ٱقْتَضَتِ الموجباتُ الفلكيَّةُ أثرًا؛ ٱمْتَنَعَ أنْ يَحْصُلَ في النَّفسِ ما يُضادُّهُ؛ لأنَّ تلكَ الإرادةَ والميولَ والعزومَ الواقعةَ في النَّفسِ هيَ عندَكُم مِن موجِّباتِ الآثارِ الفلكيَّةِ، فيَمْتَنِعُ أنْ تكونَ مضادَّةً لموجِباتِها. لا سيَّما والمنجِّمُ يَحْكُمُ بأنَّهُ إنَّما تَقْتَضي النُّجومُ أنْ يُريدَ الإنسانُ كذا وكذا، ولَيْسَ حكمُهُ أنَّ الطَّالعَ يَقْتَضي كذا وكذا إلَّا أنْ يُريدَ الإنسانُ خلافَهُ، هٰذا ما لا يَقولُهُ أحدٌ منكُم، فعُلِمَ بطلانُ هٰذا الاعتذارِ[1].

● **الوجهُ السَّابعَ عشرَ**: أنَّهُ لا سبيلَ إلى معرفةِ طبائعِ البروجِ وطبائعِ الكواكبِ وٱمتزاجاتِها إلَّا بالتَّجربةِ، وأقلُّ ما لا بدَّ منهُ في التَّجربةِ أنْ يَحْصُلَ ذٰلكَ الشَّيءُ على حالةٍ واحدةٍ مرَّتينِ[2]؛ إلَّا أنَّ الكواكبَ لا يُمْكِنُ تحصيلُ ذٰلكَ فيها؛ لأنَّهُ إذا حَصَلَ كوكبٌ معيَّنٌ في موضعٍ معيَّنٍ في الفلكِ، وكانَتْ سائرُ الكواكبِ متَّصلةً بهِ على وضعٍ مخصوصٍ وشكلٍ مخصوصٍ؛ فإنَّ ذٰلكَ الموضعَ المعيَّنَ بحسبِ الدَّرجةِ والدَّقيقةِ لا يَعودُ إلَّا بعدَ أُلوفٍ مِن السِّنينَ[3]، وعمرُ الإنسانِ الواحدِ لا يَفي بذٰلكَ، بل عمرُ البشرِ لا يَفي بهِ، والتَّواريخُ التي تَضْبِطُ هٰذهِ المدَّةَ ممَّا لا يُمْكِنُ وصولُها إلى الإنسانِ، فثَبَتَ أنَّهُ لا سبيلَ إلى الوصولِ إلى هٰذهِ الأحوالِ مِن جهةِ التَّجربةِ ٱلبتَّةَ.

ولا يَنْفَعُكُمُ ٱعتذارُ مَنِ ٱعْتَذَرَ عنكُم بأنَّهُ لا حاجةَ في التَّجربةِ إلى ما ذَكَرْتُم؛ لأنَّا

---

(١) وهٰذه حجّة قويّة ظاهرة، والوقائع أكبر دليل عليها، وسيأتي قريبًا ذكر بعضها.

(٢) هٰذا على التنزّل وغاية التساهل، وإلّا؛ فلا بدّ علميًّا لاعتماد التجربة وسيلة لإثبات ظاهرة ما، لا بدّ من تكرار التجربة مرّات كثيرة وتكرّر الظاهرة مع تكرار التجربة دائمًا أو غالبًا.

(٣) وهٰذا في غاية الصحّة. لأنّ الظاهرة الفلكيّة الواحدة تضمّ عناصر عدّة. فلو نظرنا إلى السماء في لحظة معيّنة، فكانت الشمس في العقرب، والقمر في المحاق، وعطارد على زاوية سمت كذا درجة، والزهرة والمريخ والمشتري كلّ منها على زاوية ما؛ فعودة هٰذه الظاهرة على الهيئة المذكورة بالتقريب بله التحديد أمر يحتاج إلى عشرات آلاف السنين على أدنى تقدير. وعليه؛ فمن المستحيل أن يقال: إنّا عرفنا الآثار الأرضيّة لهٰذه الهيئة الفلكيّة بالتجربة. فإن قالوا: نحن نكتفي بالظواهر الرئيسيّة هنا وهي كون الشمس في العقرب والقمر في المحاق. فقد أسقطوا علمهم وناقضوا أنفسهم وأهملوا أوضاع عطارد والزهرة... إلخ التي زعموا أنّها من أهمّ المؤثرات الفلكيّة وبنوا إفكهم على قربها وبعدها وظهورها وآختفائها وتقابلها.

إذا شاهَدْنا حادثًا معيَّنًا في وقتٍ مخصوصٍ؛ فلا شكَّ أنَّهُ قد تَحْصُلُ في الفلكِ ٱتِّصالاتٌ للكواكبِ المختلفةِ في ذٰلكَ الوقتِ، فلو قَدَّرْنا عودَ الوضعِ الفلكيِّ بتمامِهِ على تلكَ الحالِ ألفَ مرَّةٍ؛ لمْ يُعْلَمْ أنَّ المؤثِّرَ في ذٰلكَ الحادثِ هل هوَ مجموعُ الاتِّصالاتِ أوِ ٱتِّصالٌ معيَّنٌ منها. فإذا عَلِمْنا أنَّ ذٰلكَ الوضعَ بجملتِهِ فاتَ وما عادَ، ولٰكنَّهُ عادَ ٱتِّصالٌ واحدٌ مِن تلكَ الاتِّصالاتِ، وكلَّما عادَ ذٰلكَ الاتِّصالُ المعيَّنُ؛ فإنَّهُ يَعودُ ذٰلكَ الأثرُ بعينِهِ، [عَلِمْنا بالتَّجربةِ أنَّ ذٰلكَ الأثرَ حَصَلَ لأجلِ هٰذا الاتِّصالِ بعينِهِ][(١)] لا لأجلِ سائرِ الاتِّصالاتِ، فثَبَتَ أنَّ الرُّجوعَ في هٰذا البابِ إلى التَّجربةِ غيرُ متعذِّرٍ!

وهٰذا الاعتذارُ في غايةِ الفسادِ والمكابرةِ؛ لأنَّ تخلُّفَ ذٰلكَ الأثرِ عن ذٰلكَ الاتِّصالِ العائدِ أكثرُ مِن ٱقترانِهِ بهِ، والتَّجربةُ شاهدةٌ بذٰلكَ، كما قدِ ٱشْتُهِرَ بينَ العقلاءِ أنَّ المنجِّمينَ إذا أجْمَعوا على شيءٍ مِن الأحكامِ لمْ يَكَدْ يَقَعُ[(٢)].

● ونحنُ نَذْكُرُ طرفًا مِن ذٰلكَ فنَقولُ في **الوجهِ الثَّامنَ عشرَ**:

* لمَّا نَظَرَ حذَّاقُكُم وفضلاؤُكُم سنةَ سبعٍ وثلاثينَ عامَ صِفِّينَ في مخرجِ[(٣)] عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ مِن الكوفةِ إلى محاربةِ أهلِ الشَّامِ؛ ٱتَّفَقوا على أنَّهُ يُقْتَلُ ويُقْهَرُ جيشُهُ، فظَهَرَ كذبُهُم، وٱنْتَصَرَ جيشُهُ على أهلِ الشَّامِ، ولمْ يَقْدَروا على التَّخلُّصِ منهُم إلَّا بالحيلةِ التي وَضَعوها مِن نشرِ المصاحفِ على الرِّماحِ والدُّعاءِ إلى ما فيها.

وقد قيلَ: إنَّ هٰذا الاتِّفاقَ منهُم إنَّما كانَ في حربِ المؤمنينَ للخوارجِ؛ فإنَّهُم ٱتَّفقوا على أنَّهُ مَن خَرَجَ في ذٰلكَ الطَّالعِ قُتِلَ وهُزِمَ جيشُهُ؛ فإنَّ القمرَ كانَ إذ ذاكَ في العقربِ! فخالَفَهُم عليٌّ وقالَ: بل نَخْرُجُ ثقةً باللهِ وتوكُّلاً عليهِ وتكذيبًا لقولِ المنجِّمِ.

---

(١) ساقطة من ط، ولا بدّ منها لتمام الكلام.

(٢) وخلاصة هٰذا الوجه أنّ التجربة لا تدلّ بوجه من الوجوه على صلة ٱتّصال فلكيّ معيّن ولا على صلة مجموع الاتّصالات الفلكيّة في وقت ما بأيّ سعد ونحس أو مرض وصحّة أو نجاح وفشل أو حياة وموت أو غير ذٰلك من الظواهر الأرضيّة المشابهة.

وهٰذا الوجه من أقوى الأوجه التي ذكرها ابن القيّم يرحمه الله، وهو في حقيقة الأمر مكمّل للوجه التاسع المتقدّم آنفًا، وٱجتماعهما يشكّل حجّة من أعظم الحجج على أهل هٰذا الهذيان الملعون، فتمسّك بهما؛ ففيهما غنية عن كثير من الحجج، وليس في غيرهما عنهما غنًى ٱلبتّة.

(٣) في ط: «من مخرج»! وهو تحريف ظاهر صوابه ما أثبتّه.

فما غَزا بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ أتمَّ منها؛ قَتَلَ عدوَّهُ، وأيَّدَهُ اللهُ عليهِم بالنَّصرِ والظَّفرِ بهِم، ورَجَعَ مؤيَّدًا منصورًا مأجورًا. والقصَّةُ معروفةٌ في السِّيرِ والتَّواريخ.

* وكذٰلكَ ٱتِّفاقُ ملئِكُم في سنةِ ستٍّ وستِّينَ على غلبةِ عُبَيْدِاللهِ بنِ زيادٍ[١] للمُخْتارِ بنِ أبي عُبَيْدٍ[٢] وأنَّهُ لا بدَّ أنْ يَقْتُلَهُ أو يَأْسِرَهُ، فسارَ إليهِ في نحوٍ مِن ثمانينَ ألفَ مقاتلٍ، فلَقِيَهُ إبْراهيمُ بنُ الأشْتَرِ[٣] صاحبُ المختارِ بأرضِ نَصيبينَ وهوَ فيما دونَ سبعةِ آلافِ مقاتلٍ، فٱنْهَزَمَ أصحابُ ابنِ زيادٍ بعدَ أنْ قُتِلَ منهُم خلقٌ لا يُحْصيهِم إلاَّ اللهُ، حتَّى إنَّهُ قيلَ: إنَّهُم قُتِلَ منهُم ثلاثةٌ وسبعونَ ألفًا، ولمْ يُقْتَلْ مِن أصحابِ ابنِ الأشْتَرِ سوى عددٍ لا يَبْلُغونَ مئةً. وفيهِم يَقولُ الشَّاعرُ:

بَـرَزوا نَحْـوَهُـمْ بِسَبْعَـةِ آلا ... فٍ أرَتْهُـمْ عَجـائِبًـا فـي اللِقـاءِ

فَتَعَشَّـوْا مِنْهُـم بِسَبْعيـنَ أَلْفًـا ... أوْ يَـزيـدونَ قَبْـلَ وَقْـتِ العَشـاءِ

فَجَـزاكَ ابـنَ مـالِـكٍ وأبـا إسْـ ... ـحـاقَ عَنَّـا الإلٰـهُ خَيْـرَ جَـزاءِ

يُريدُ بٱبنِ مالكٍ إبْراهيمَ بنَ مالِكِ بنِ الأشْتَرِ، وأبو إسْحاقَ كنيةُ المُخْتارِ. وقَتَلَ ابنُ الأشْتَرِ عُبَيْدَاللهِ بنَ زِيادٍ في المعركةِ ولمْ يَعْلَمْ بهِ، حتَّى إذا هَدَأَ الليلُ؛ قالَ لأصحابِهِ: لقد ضَرَبْتُ على شاطئِ هٰذا النَّهرِ رجلاً، فرَجَعَ إليَّ سيفي وفيهِ رائحةُ المسكِ، ورَأَيْتُ إقدامًا وجرأةً، فصَرَعْتُهُ فذَهَبَتْ رجلاهُ قِبَلَ المشرقِ ويَداهُ قِبَلَ المغربِ، فٱنْظُروهُ. فأتَوْهُ بالنِّيرانِ، فإذا هوَ عُبَيْدُ اللهِ بنُ زِيادٍ. ذَكَرَ ذٰلكَ المُبَرِّدُ في «الكامل». فٱنْظُرْ حكمةَ اللهِ في ٱنعكاسِ ما قالَ الكاذبونَ المنجِّمونَ.

---

(١) ابن أبيه، أبو حفص، أمير العراق وفاتح بيكند وقاتل الحسين سبط النبيّ ﷺ. كان جميل الصورة قبيح السريرة سفّاكًا للدّماء. قتل يوم عاشوراء سنة ٦٧هـ، عامله الله بما يستحقّ. ترجمته في: «تاريخ ابن عساكر» (٣٧/ ٤٣٣)، «أعلام النبلاء» (٣/ ٥٤٥).

(٢) الثقفيّ، الكذّاب، الخبيث، المكّار. ٱدّعى أنّ الوحي يأتيه وأنّه يعلم الغيب. وثق به ابن الزبير وأوصى به نائبه على العراق، فراح يكيد ويمكر ويفسد حتّى ٱشتدّ أمره ولحقه جماعة كثيرون من أهل الشقاق والنفاق، فكلّف ابن الزبير أخاه مصعبًا بملاحقته حتّى ظفر به وقتله في رمضان سنة ٦٧هـ. ترجمته في «تاريخ الطبري» (٣/ ٢٤٢/ سنة ٥٤)، «أعلام النبلاء» (٣/ ٥٣٨).

(٣) إبراهيم بن مالك بن الأشتر النخعي، أحد الأبطال والأشراف، كان شيعيًا، أمّره مصعب بن الزبير، وقتل معه سنة ٧٢هـ. ترجمته في: «تاريخ الطبري» (٣/ ٤٣٧/ سنة ٦٦)، «أعلام النبلاء» (٤/ ٣٥).

وقيلَ: لمَّا عَلِمَ عُبَيْدُاللهِ بنُ زِيادٍ أنَّ أمرَ القتالِ قد تيَسَّرَ؛ سَألَ[١] منجِّمَهُ عن قوَّةِ نجمِهِ ونجمِ ابنِ الأشْتَرِ، وقالَ: واللهِ؛ إنِّي لأعْلَمُ أنَّهُ ليسَ بشيءٍ[٢]؛ إلاَّ أنِّي كُنْتُ أنا وهوَ صغيرانِ [فـ]ـوَقَعَتْ بيني وبينَهُ خصومةٌ بسببِ حَمامٍ كُنَّا نَلْعَبُ بهِ، فضَرَبَني إلى الأرضِ وقَعَدَ على صدري وقالَ: واللهِ؛ إنِّي قاتلُكَ، ولا يَقْتُلُكَ أحدٌ غيري إنْ شاءَ اللهُ، وأنا مِن ٱستثنائِهِ بالمشيئةِ خائفٌ[٣]. فذَهَبَ بهِ منجِّمُهُ إلى ما قَرَّرَهُ المنجِّمونَ لهُ مِن قوَّةِ نجمِهِ، وأنَّ هٰذا وهمٌ منهُ، وحكمُ النُّجومِ يقْضي على وهمِهِ. فحَقَّقَ اللهُ سبحانَهُ ذٰلكَ الوهمَ، وأبْطَلَ حكمَ الطَّالعِ والنَّجمِ.

* ومِن ذٰلكَ ٱتِّفاقُهُم عندَما تَمَّ بناءُ بغدادَ سنةَ ستٍّ وأربعينَ ومئةٍ أنَّ طالعَها يقْضي بأنَّهُ لا يَموتُ فيها خليفةٌ، وشاعَ ذٰلكَ حتَّى هَنَّأ الشُّعراءُ بهِ المَنْصورَ، حتَّى قالَ بعضُ شعرائِهِ:

يَهْنِيكَ مِنْها بَلْدَةٌ تَقْضي لَنا ... أنَّ المَماتَ بِها عَلَيْكَ حَرامُ

لَمَّا قَضَتْ أحْكامُ طالِعِ وَقْتِها ... أنْ لا يُرى فيها يَموتُ إمامُ

وأكَّدَ هٰذا الهذيانَ في نفوسِ العوامِّ: موتُ المَنْصورِ بطريقِ مكَّةَ، ثمَّ المَهْدِيِّ بماسَبَذانَ، ثمَّ الهادي بِعِيساباذَ، ثمَّ الرَّشيدِ بِطُوسَ. فلمَّا قُتِلَ بها الأمينُ بشارعِ بابِ الأنبارِ؛ ٱنْخَرَمَ الأصلُ الباطلُ الذي أصَّلوهُ، وظَهَرَ الزُّورُ الذي لَفَّقوهُ، حتَّى رُجِعَ إلى الحقِّ الأوَّلِ، فقالَ:

كَذَبَ المُنَجِّمُ في مَقالَتِهِ الَّتي ... نَطَقَتْ بِهِ كَذِبًا عَلى بَغْدانِ

قَتْلُ الأمِينِ بِها لَعَمْري يَقْتَضي ... تَكْذيبَهُمْ في سائِرِ الحُسْبانِ

ثمَّ ماتَ ببغدادَ جماعةٌ مِن الخلفاءِ مثلُ الواثِقِ والمُتَوَكِّلِ والمُعْتَضِدِ والمُكْتَفي والنَّاصِرِ وغيرِ هٰؤلاءِ.

---

(١) في ط: «وسأل»! ولا بدّ من حذف الواو.

(٢) فلماذا تسأل إذًا؟! أيليق أن يلعب المرء بمثل هٰذا؟! هٰذا؛ ولم يمض سوى بضعة وخمسين عامًا على وفاة النبيّ ﷺ! إن صحّ الخبر. نسأل الله السلامة والعافية.

(٣) يعني: لأنّ من علّق الأمر بمشيئة الله يوشك أن يحقّق الله مقصده.

* ومِن ذٰلكَ ٱتّفاقُهُم في سنةِ ثلاثٍ وعشرينَ ومئتينِ في قصَّةِ عَمُّوريَّةَ أنَّ المُعْتَصِمَ إنْ خَرَجَ لفتحِها كانَتِ الدَّائرةُ عليهِ وأنَّ النَّصرَ لعدوِّه، فرَزَقَهُ اللهُ التَّوفيقَ في مخالفتِهِم، ففَتَحَ اللهُ على يديهِ ما كانَ مغلقًا، وأصْبَحَ كذبُهُم وخرصُهُم بعدَ أنْ كانَ موهومًا عندَ العامَّةِ محقَّقًا، ففَتَحَ عَمُّوريَّةَ وما والاها مِن كلِّ حصنٍ وقلعةٍ، وكانَ ذٰلكَ مِن أعظمِ الفتوحاتِ المعدودةِ. وفي ذٰلكَ الفتحِ قامَ أبو تَمَّامٍ الطَّائيُّ منشدًا لهُ على رؤوسِ الأشهادِ:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ ... في حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ
وَالعِلْمُ في شُهُبِ الأرْماحِ لامِعَةً ... بينَ الخَميسَيْنِ لا في السَّبْعَةِ الشُّهُبِ[1]
أَيْنَ الرِّوايَةُ أَمْ أَيْنَ النُّجومُ وَما ... صاغوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فيها[2] وَمِنْ كَذِبِ
تَخَرُّصًا وَأَحادِيثًا مُلَفَّقَةً ... لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إذا عُدَّتْ وَلا غَرَبِ[3]
عَجائِبًا زَعَموا الأَيَّامَ مُجْفِلَةً[4] ... عَنْهُنَّ في صَفَرِ الأَصْفارِ أَوْ رَجَبِ[5]
وَخَوَّفوا النَّاسَ مِنْ دَهْياءَ مُظْلِمَةٍ ... إذا بَدا الكَوْكَبُ الغَرْبِيُّ ذو الذَّنَبِ[6]
وَصَيَّروا الأَبْرُجَ العُلْيا مُرَتَّبَةً ... ما كانَ مُنْقَلِبًا أَوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ[7]
يَقْضونَ بِالأَمْرِ عَنْها وَهْيَ غافِلَةٌ ... ما دارَ في فَلَكٍ مِنْها وفي قُطُبِ
لَوْ بَيَّنَتْ[8] قَطُّ أَمْرًا قَبْلَ مَوْقِعِهِ ... لَمْ يَخْفَ ما حَلَّ بِالأَوْثانِ وَالصُّلُبِ

وهيَ في نحوٍ مِن سبعينَ بيتًا أُجيزَ على كلِّ بيتٍ منها بألفِ درهمٍ.

---

(١) الخميسين: الجيشين. السبعة الشهب: هي الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل، ولم يكن الأقدمون يعرفون ما بعد زحل من كواكب المجموعة الشمسيّة.

(٢) في ط: «من زخرف منها»! وفيه تحريف صوابه ما أثبتّه مستأنسًا بديوان أبي تمّام (١/ ١٩٠).

(٣) «غرب»: بئر تنزح ماؤها بالدلو. ومعنى البيت أنّ أقوال المنجّمين وأحاديثهم مختلقة مصطنعة يمجّها الطبع السليم، وليست كالنبع الصافي الذي يندفع ماؤه تلقائيًّا بل ولا كالبئر التي ينزح ماؤها بالدلاء.

(٤) في ط: «زعموا الأيّام تجعله»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه من «الديوان» (١/ ١٩٠).

(٥) يعني: ذكر المنجّمون عجائب زعموا أنّ الأيّام ستأتي بها قريبًا في صفر أو رجب.

(٦) يعني: خوّفوا الناس من مصيبة عظيمة إذا ظهر بعض الكواكب في السماء في مواضع زعموها.

(٧) في ط: «الأبراج العلياء مَرْتَبَةً»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه، والمعنى أنّهم زعموا أنّ هٰذه النجوم على ٱختلاف أنواعها وصفاتها هي التي ترتّب ما يجري من الأحداث.

(٨) في ط: «لو ثبّتت»، والصواب ما أثبتّه.

* ومِن ذٰلكَ ٱتّفاقُهُم سنةَ ٱثنتينِ وتسعينَ ومئتينِ في قصَّةِ القرامطةِ على أنَّ المُكْتَفِيَ باللهِ إنْ خَرَجَ لمقاتلتِهِم؛ كانَ هوَ المغلوبَ المهزومَ[1]، وكانَ المسلمونَ قد لَقُوا منهُم على توالي الأيّامِ شرًّا عظيمًا وخطبًا جسيمًا؛ فإنَّهُم قَتَلوا النِّساءَ والأطفالَ، وٱسْتَباحوا الحريمَ والأموالَ، وهَدَموا المساجدَ ورَبَطوا فيها خيولَهُم ودوابَّهُم، وقَصَدوا وفدَ اللهِ وزوّارَ بيتِهِ فأوْقَعوا فيهِم مِن القتلِ الذَّريعِ والفعلِ الشَّنيعِ، وأباحوا محارمَ اللهِ وعَطَّلوا شرائعَهُ، فعَزَمَ المُكْتَفي على الخروجِ إليهِم بنفسِهِ، فجَمَعَ وزيرُهُ القاسِمُ بنُ عُبَيْدِاللهِ[2] مَن قَدَرَ عليهِ مِن المنجِّمينَ وفيهِم زعيمُهُم أبو الحَسَنِ العاصِمِيُّ[3]، وكلُّهُم أَوْجَبَ عليهِ بأنْ يُشيرَ على الخليفةِ أنْ لا يَخْرُجَ؛ فإنَّهُ إنْ خَرَجَ؛ لَمْ يَرْجِعْ، وبخروجِهِ تَزولُ دولتُهُ، وبهٰذا[4] تَشْهَدُ النُّجومُ التي يَقْضي بها طالعُ مولدِهِ، وأخافوا الوزيرَ مِن الهلاكِ إنْ خَرَجَ معَهُ، وقد كانَ المُكْتَفي أمرَ الوزيرَ بالخروجِ معَهُ، فلَمْ يَجِدْ بدًّا مِن متابعتِهِ، فخَرَجَ وفي قلبِهِ ما فيهِ، وأقامَ المُكْتَفي بالرَّقَّةِ حتَّى أَخَذَ أعداءَ اللهِ جميعًا، وسُقِيَتْ جموعُهُم بكأسِ السَّيفِ نَجيعا[5]. ثمَّ جاءَ الخبرُ مِن مِصْرَ بموتِ خُمارُوَيْهِ بنِ أَحْمَدَ بنِ طُولونَ[6] وكانوا بهِ يَسْتَطيلونَ، فأرْسَلَ المُكْتَفي مَن تَسَلَّمَها[7] وٱسْتَحْضَرَ القوّادَ المِصْرِيَّةَ إلى حضرتِهِ، ثمَّ لمَّا عادَ؛ أمَرَ القاسِمَ بنَ عُبَيْدِاللهِ الوزيرَ بإحضارِ رئيسِ المنجِّمينَ، وصَفَعَهُ الصَّفعَ الكثيرَ بعدَ أنْ وَقَفَهُ ووَبَّخَهُ على عظيمِ كذبِهِ وٱفترائِهِ وتَبَرَّأَ منهُ

---

(١) في ط: «المغلوب الملزوم»! وهٰذا تحريف غريب صوابه ما أثبتّه.

(٢) ابن سليمان بن وهب الحارثيّ، الظلوم، العاتي، سفّاك الدماء، الزنديق. هلك سنة ٢٩١هـ عن ثلاث وثلاثين سنة. ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٣/ ٣٦١)، «أعلام النبلاء» (١٤/ ١٨).

(٣) الظاهر أنّ ذكره خمل بموته ولم يخلّف آثارًا ولذٰلك لم أقف له على ترجمة.

(٤) في ط: «وبهٰذه»! والصواب ما أثبتّه.

(٥) نجيعًا: أصابهم فأثّر فيهم.

(٦) التركيّ، صاحب مصر والشام. كان بطلاً شجاعًا جوادًا مبذّرًا، تزوّج المعتضد ٱبنته. قتله مماليكه لفحشه بهم سنة ٢٨٢هـ عن ثلاث وثلاثين سنة. ترجمته في: «تاريخ دمشق» (١٧/ ٤٥)، «أعلام النبلاء» (١٣/ ٤٤٦).

(٧) يعني: تسلّم مصر وولي أمرها بٱسم الخليفة وأعادها إلى مملكته، وذٰلك أنّه بموت خمارويه هٰذا زال حكم الطولونيّة عن مصر وعادت إلى حظيرة الخلافة.

ومِن كلِّ مَن يَقولُ برأيِهِ.

قالَ أبو حَيَّانَ التَّوْحِيدِيُّ في كتابِ «الإمتاع والمؤانسة» وقد ذَكَرَ هٰذهِ القصَّةَ: فهٰذا وما أشْبَهَهُ مِن الافتراءِ والكذبِ، لو ظَهَرَ ونُشِرَ وعُيِّرَ أهلُهُ بهِ ووُقِفوا عليهِ وزُجِروا عنِ الدَّعوى المشرفةِ على الغيبِ؛ لكانَ مقمعةً لمَن يُطْلِقُ لسانَهُ بالاطِّلاعِ على ما يَكونُ[١] في غدٍ وقطعًا لألسنتِهِم وكفًّا لدعواهُم وتأديبًا لصغيرِهِم وكبيرِهِم[٢].

* ومِن ذٰلكَ اتِّفاقُهُم سنةَ ثلاثٍ وخمسينَ وثلاثِ مئةٍ عندَما أرادَ القائدُ جَوْهَرٌ العزيزُ بناءَ مدينةِ القاهِرَةِ، وقد كانَ سَبَقَ مولاهُ الملقَّبَ بالمُعِزِّ إلى دخولِ الدِّيارِ المِصْرِيَّةِ لمَّا أمَرَهُ المُعِزُّ بدخولِها بالدَّعوةِ[٣]، وأمَرَهُ إذا دَخَلَها أنْ يَبْنِيَ بها مدينةً عظيمةً تكونُ نجومُ طالعِها في غايةِ الاستقامةِ، ويَكونُ بطالعِ الكوكبِ القاهرِ، وهوَ زُحَلُ أوِ المِرِّيخُ على اختلافِ حالِهِ. فجَمَعَ القائدُ جَوْهَرٌ المنجِّمينَ بها، وأمَرَ كلَّ واحدٍ منهُم أنْ يُحَقِّقَ الرَّصدَ ويُحْكِمَهُ، وأمَرَ البنَّائينَ أنْ لا يَضَعوا الأساسَ حتَّى يُقالَ لهُم ضَعوهُ، وأنْ يَكونوا على هيئةٍ مِن التَّيقُّظِ والإسراعِ حتَّى يُوافِقوا تلكَ السَّاعةَ التي اتَّفَقَتْ عليها أرصادُ أُولٰئكَ الجماعةِ، فوُضِعَتِ الأساساتُ على ذٰلكَ في الوقتِ الحاضرِ، وسَمَّوْها بالقاهِرَةِ إشارةً بزعمِهِمُ الكاذبِ إلى الكوكبِ القاهرِ، واتَّفَقوا كلُّهُم بأنَّ الوقتَ الذي بُنِيَتْ فيهِ يَقْضي بدوامِ جَدِّهِم وسعادتِهِم ودولتِهِم، وأنَّ الدَّعوةَ لا تَخْرُجُ فيها عنِ الفاطِمِيَّةِ وإنْ تَداوَلَتْها الألسنُ العربيَّةُ والعجميَّةُ. فلمَّا مَلَكَها أسَدُ الدِّينِ شِيْرْكُوه بنُ شاذِي[٤] ثمَّ ابنُ أخيهِ

---

(١) في ط: «على ما لا يكون»! وهٰذا يعكس المراد تمامًا. وقد قلّبت «الإمتاع والمؤانسة» صفحة صفحة فلم أعثر على هٰذه القصّة لأتبيّن وجه الصواب فيها. والله أعلم.

(٢) والآن فكذٰلك، فلو ذكر كلّ واحد من المعثّرين الذين يلتفتون إلى أولٰئك الدجاجلة ما تبيّن له من أكاذيبهم؛ لاندثر خبرهم وانمحى أثرهم.

(٣) إلى نحلة بني عبيد التي ظاهرها الرفض والاتّصال بأهل البيت والعلويّة والفاطميّة، وباطنها الزندقة والانحلال والمجوسيّة واليهوديّة. وعامّة جيوش هٰؤلاء من البربر والأشرار والزعران، جاءت من قبل المغرب، ثمّ توسّعت حتّى ملكت مصر وأكثر الشام وأذاقت المسلمين فيهما الويلات وأماتت علوم الكتاب والسنّة وأحيت البدع والضلالات. وجوهر هٰذا هو قائد جيوش المعزّ، مات سنة ٣٨١هـ. والمعزّ هو أوّل من توسّع في مصر والشام من أمراء تلك الدولة، مات سنة ٣٦٥هـ عن ستّ وأربعين سنة.

(٤) الأمير المنصور، وقائد جيوش نور الدين الزنكي في الشام، أرسله إلى مصر لحمايتها من خطر=

الملكُ النَّاصرُ صلاحُ الدِّينِ يوسُفُ بنُ أيُّوبَ، ومعَ ذٰلكَ المِصْريُّونَ قائمونَ بدعوةِ العاضدِ عَبْدِاللهِ بنِ يوسُفَ[1]؛ تَوَهَّمَ الجهَّالُ أنَّ ما قالَ المنجِّمونَ مِن قبلُ حقٌّ لتبدُّلِ اللسانِ وحالُ الدَّعوةِ مستبقًى، فلمَّا ردَّ صلاحُ الدِّينِ الدَّعوةَ إلى بني العبَّاسِ؛ انْكَشَفَ الأمرُ وزالَ الالتباسُ وظَهَرَ كذبُ المنجِّمينَ والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

وكانَتِ المدَّةُ بينَ وضعِ الأساسِ وانْقِراضِ دولةِ الملاحدةِ منها نحوَ مئةٍ وثلاثةٍ وتسعينَ عامًا، فنَقَضَ انقطاعُ دولتِهِم على المنجِّمينَ أحكامَهُم وخَرَّبَ ديارَهُم وأهْتَكَ أستارَهُم وكَشَفَ أسرارَهُم، وأجْرى اللهُ سبحانَهُ تكذيبَهُم والطَّعنَ عليهِم على لسانِ الخاصِّ والعامِّ.

حتَّى اعْتَذَرَ مَنِ اعْتَذَرَ منهُم بأنَّ البنَّائينَ كانوا قد سَبَقوا الرَّصَّادينَ إلى وضعِ الأساسِ! وليسَ هٰذا مِن بهتِ القومِ ووقاحتِهِم ببعيدٍ؛ فإنَّهُ لو كانَ كذٰلك؛ لَرَأى الحاضرونَ تبديلَ البناءِ وتغييرَهُ؛ فإنَّهُ لو دَخَلَهُم شكٌّ في تقديمٍ أو تأْخيرٍ أو سبقٍ بما دونَ الدَّقيقةِ في التَّقديرِ؛ لَما[2] سامَحوا بذٰلكَ معَ المقتضي التَّامِّ والطَّاعةِ الظَّاهرةِ والاحتياطِ الذي لا مزيدَ فوقَهُ، وليسَ في تبديلِ حجرٍ أو تحويلِهِ برفعِهِ ووضعِهِ كبيرُ أمرٍ على البنَّائينَ ولا مشقَّةٌ، وقرائنُ الأحوالِ في إقامةِ دولةٍ بتقريرِها وإنشاءِ قاعدةٍ بتحريرِها شاهدةٌ بأنَّ الغفلةَ عن مثلِ هٰذا الخطبِ الجسيمِ ممَّا لا يُتَسامَحُ بها البتَّةَ. ويا للهِ العجبُ! كيفَ لمْ يَظْهَرْ سبقُ البنَّائينَ للرَّاصدينَ إلَّا بعدَ انقراضِ دولةِ الملاحدةِ، وأمَّا مدَّةَ بقاءِ دولتِهِم؛ فكانَ البناءُ مقارنًا للطَّالعِ المرصودِ؟! فهل في البهتِ فوقَ هٰذا؟!

* ومِن ذٰلكَ اتِّفاقُهُم سنةَ خمسٍ وتسعينَ وثلاثِ مئةٍ في أيَّامِ الحاكمِ[3] على أنَّها

= الفرنج، فطرد العدوّ ثمّ دخل القاهرة وملكها. توفي سنة ٥٦٤هـ. ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٢/ ٤٧٩)، و«أعلام النبلاء» (٢٠/ ٥٨٧).

(١) أمّا صلاح الدين؛ فهو الأيّوبيّ المشهور. وأمّا العاضد؛ فآخر خلفاء العبيديّة الزنادقة، خلعه صلاح الدين جزاه الله كلّ خير واستأصل شأفة دولته ومحقها سنة ٥٦٤هـ، فلم يبق لها في مصر بقيّة، وأمّا في الشام؛ فبقيت من دولته بقيّة تحصّنت في جبال الدروز ولبنان والنصيريّة وسمعان، وظلّت خنجرًا في خاصرة دولة صلاح الدين وعونًا للمغول والصليبيّين عليه وعلى من جاء بعده من حكّام المسلمين حتّى أيّامنا هٰذه.

(٢) في ط: «في التعذر لما»! وهٰذا تحريف بيّن أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٣) بأمر الله، العلويّ الفاطميّ بالدعوى، الباطنيّ المجوسيّ الملحد في الحقيقة.

السَّنةُ التي يَنْقَضي فيها بِمصْرَ دولةُ العُبَيْدِيِّينَ، هٰذا معَ ٱتِّفاقِ أُولٰئكَ على أنَّ دعوتَهُم لا تَنْقَطعُ مِن القاهرةِ، وذٰلكَ عندَ خروجِ الوَليدِ بنِ هِشامٍ المعروفِ بأبي رَكْوَةَ الأُمَويِّ[١] وحكمِ الطَّالعِ لهُ بأنَّهُ هوَ القاطعُ لدعوةِ العُبَيْدِيِّينَ وأنَّهُ لا بدَّ أنْ يَسْتَوْليَ على الدِّيارِ المِصْريَّةِ ويَأْخُذَ الحاكِمَ أسيرًا، ولمْ يَبْقَ بِمصْرَ منجِّمٌ إلاَّ حَكَمَ بذٰلكَ، وأكبرُهُمُ المعروفُ بالفِكْريِّ منجِّمِ الحاكمِ[٢]، وكانَ أبو رَكْوَةَ قد مَلَكَ بَرْقَةَ وأعمالَها وكَثُرَتْ جموعُهُ وقَوِيَتْ شوكتُهُ وخَرَجَتْ إليهِ جيوشُ الحاكمِ مِن مِصْرَ فعادَتْ مغلوبةً، فلمْ يَشُكَّ النَّاسُ في حذقِ المنجِّمينَ.

وكانَ مِن تدبيرِ الحاكمِ أنْ دَعا خواصَّ رجالِهِ وأمَرَهُم أنْ يَعْمَلوا بما رَآهُ مِن ٱحتيالِهِ، وهوَ أنْ يُكاتِبوا أبا رَكْوَةَ بأنَّهُم على مذهبِهِ وأنَّهُم مائلونَ عنِ الدَّعوةِ الحاكِميَّةِ وراغبونَ في الدَّعوةِ الوَليديَّةِ الأُمَويَّةِ، وأطْمَعوهُ بكلِّ ما أوْهَموهُ بِهِ أنَّهُم صادقونَ ولهُ مناصحونَ، فلمَّا وَثِقَ بما قالوهُ وخَفِيَ عليهِ ما ٱحْتالوهُ؛ زَحَفَ بعساكرِهِ حتَّى نَزَلَ بريسمَ[٣] على ثلاثةِ فراسخَ مِن مِصْرَ، فخَرَجَتْ إليهِ العساكرُ الحاكِميَّةُ فهَزَمَتْهُ، فتَحَقَّقَ أنَّها كانَتْ خديعةً فهَرَبَ، وقُتِلَ خلقٌ كثيرٌ مِن عسكرِهِ، وطُلِبَ فأُخِذَ أسيرًا ودُخِلَ بهِ القاهِرَةَ على جملٍ مشهورٍ، ثمَّ أمَرَ الحاكمُ بقتلِهِ بعدَما أُحْضِرَ بينَ يديهِ مغلولاً بغلٍّ مِن حديدٍ، وذٰلكَ في رَجَبٍ سنةَ سبعٍ وتسعينَ وثلاثِ مئةٍ، وكانَ مبدأُ خروجِهِ في رَجَبٍ سنةَ خمسٍ وتسعينَ، فظَهَرَ كذبُ المنجِّمينَ.

وكانَ هٰذا الفِكْريُّ قدِ ٱسْتَوْلى على الحاكِمِ؛ فإنَّهُ ٱتَّفقَتْ لهُ معَهُ قضيَّتانِ أمالَتاهُ إليهِ: إحداهُما: أنَّ الحاكِمَ عَزَمَ على إرسالِ أُسطولٍ إلى مدينةِ صُورَ لمحاربتِهِم، فسَأَلَهُ الفِكْريُّ أنْ يَكونَ تدبيرُهُ إليهِ لِيُخْرِجَهُ في طالعٍ يَخْتارُهُ، وتكونُ العهدةُ إنْ لمْ يَظْفَرْ عليهِ،

---

(١) ٱسمه الوليد، وهو من سلالة هشام بن عبدالملك، ولقّب بأبي ركوة لأجل ركوة كان يحملها على طريقة الصوفيّة، أظهر العبادة والورع، ولقّب نفسه الثائر بأمر الله المنتقم من أعداء الله، ولعن الحاكم في خطبته. ظفر به الحاكم سنة ٣٩٧هـ. ترجمته في «البداية والنهاية» (٨/ ٩٦).

(٢) لم أقف له على ذكر.

(٣) كذا في ط! وجاء في بعض المطبوعات: «فوسيم»! وما أراهما إلاّ تحريفًا، وقد راجعت القصّة مطوّلة ومختصرة في مظانّها فلم أر لهٰذا الموضع ذكرًا.

واتَّفَقَ ظهورُ الأُسطولِ. الثَّانيةُ: أنَّهُ ذَكَرَ أنَّ بساحلِ بِرْكَةِ رُمَيْسَ مسجدًا قديمًا، وأنَّ تحتَهُ كنزًا عظيمًا، وسَأَلَهُ أنْ يَتَوَلَّى هوَ هدمَهُ، فإنْ ظَهَرَ الكنزُ، وإلاَّ؛ بَناهُ هوَ مِن مالِهِ وأوْدَعَهُ السِّجنَ، فاتَّفَقَ إصابةُ الكنزِ، فطاشَ المغرورُ بذٰلكَ.

فلمَّا حَكَمَ عليهِ الفِكْرِيُّ بتغييرِ دولتِهِ وقَضى المنجِّمونَ بمثلِ قضائِهِ، فوَقَعَ للحاكمِ أنْ يُغَيِّرَ أوضاعَ المملكةِ والدَّولةِ لِيَكونَ ذٰلكَ هوَ مقتضى الحُكمِ النُّجوميِّ، فصارَ يَأْمُرُ في يومِهِ بخلافِ كلِّ ما يَأْمُرُ بهِ في أمسِهِ: فأمَرَ بسبِّ الصَّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهِم على رؤوسِ المنابرِ والمساجدِ[١]، ثمَّ أمَرَ بقطعِ سبِّهِم وعقوبةِ مَن سَبَّهُم. وأمَرَ بقطعِ شجرةِ الزَّرَجُونِ[٢] مِن الأرضِ وأوْجَبَ القتلَ على مَن شَرِبَ الخمرَ، ثمَّ أمَرَ بغرسِ هٰذهِ الشَّجرةِ وأباحَ شربَ الخمرِ. وأهْمَلَ النَّاسَ فنُهِبَ الجانبُ الغربيُّ مِن القاهِرَةِ وقُتِلَتْ فيهِ جماعةٌ، ثمَّ ضَبَطَ الأمرَ حتَّى أمَرَ أنْ لا تُغْلَقَ الحوانيتُ ليلاً ولا نهارًا، وأمَرَ مناديَهُ يُنادي: مَن عَدِمَ لهُ ما يُساوي درهمًا؛ أخَذَ مِن بيتِ المالِ عنهُ درهمينِ بعدَ أنْ يَحْلِفَ على ما عَدِمَهُ أو يَعْضُدَهُ شهادةُ رجلينِ، حتَّى تَحَيَّلَ النَّاسُ في سترِ حوانيتِهِم بالجريدِ لئلاَّ تَدْخُلَها الكلابُ. ثمَّ عَمَدَ إلى كلِّ متولٍّ في دولتِهِ ولايةً فعَزَلَهُ وقتلَ وزيرَهُ الحَسَنَ بنَ عمادٍ. كلُّ ذٰلكَ لِيَكونَ قولُ أهلِ التَّنجيمِ إنَّ دولتَهُ تَتَغَيَّرُ واقعًا على هٰذا الضَّربِ مِن التَّغييرِ!

فلمَّا كانَ مِن أمرِ أبي رَكْوَةَ ما تَقَدَّمَ ذكرُهُ؛ ساءَ ظَنُّهُ بعلمِ النِّجامةِ، فأمَرَ بقتلِ منجِّمِهِ الفِكْرِيِّ، وأطْلَقَ في المنجِّمينَ العيبَ والذَّمَّ.

وكانَ قد جَمَعَ بينَ المنجِّمينَ بالدِّيارِ المِصْريَّةِ واسْتَدْعى غيرَهُم، وأمَرَهُم أنْ يَرْصُدوا لهُ رصدًا يَعْتَمِدُ عليهِ، فصارَتِ الطَّوائفُ النُّجوميَّةُ إلى هٰذا الرَّصدِ يَتَحاكَمونَ وإنْ تَضَمَّنَ بعضَ خلافِ الرَّصدِ المأمونيِّ، ووَضَعوا لهُ الزِّيجَ[٣] المسمَّى بالحاكِميِّ.

وكانَ هٰذا الفِكْرِيُّ قد أخَذَ علمَ النِّجامةِ عمَّن أخَذَهُ عنِ العاصِميِّ، فسَيَّرَ أوقاتَ الحاكمِ وساعاتِهِ ووافَقَهُ على ذٰلكَ المنجِّمونَ. فلمَّا قَتَلَهُ؛ لمْ يَزَلْ أثرُ التَّنجيمِ عن نفسِهِ

---

(١) وكان هٰذا ديدن هٰذه الدولة وشعارها منذ قامت وحتّى محقها الله تعالى.

(٢) الزرجون: العنب.

(٣) الجدول الفلكيّ الذي يستخدم لضبط مواضع النجوم وحساب حركاتها كما تقدّم (٣/ ٢٠).

لتشوُّفِ النَّفسِ على التَّطلُّعِ إلى الحوادثِ قبلَ وقوعِها، وكانَ بعدُ يَتَوَلَّعُ بهٰذا العلمِ ويَجْمَعُ أصحابَهُ. فحَكَموا لهُ في جملةِ أحكامِهِم بركوبِ الحمارِ على كلِّ حالٍ، وألْزَموهُ أنْ يَتَعاهَدَ الجبلَ المقطَّمَ في أكثرِ الأيَّامِ، ويَنْفَرِدَ وحدَهُ بخطابِ زُحَلَ بما عَلَّموهُ إيَّاهُ من الكلامِ، ويَتَعاهَدَ فعلَ ما وَضَعوهُ لهُ مِن البُخوراتِ والأعْزامِ[1]، وحَكَموا لهُ بأنَّهُ ما دامَ على ذٰلكَ وهوَ يَرْكَبُ الحمارَ فهوَ سالمُ النَّفسِ عن كلِّ إيذاءٍ. فلَزِمَ ما أشاروا بهِ عليهِ. وأذِنَ اللهُ العزيزُ العليمُ ربُّ الكواكبِ ومسخِّرُها ومدبِّرُها أنَّ هلاكَهُ كانَ في ذٰلكَ الجبلِ على ذٰلكَ الحمارِ؛ فإنَّهُ خَرَجَ بحمارِهِ إلى ذٰلكَ الجبلِ على عادتِهِ، وانْفَرَدَ بنفسِهِ منقطعًا عن موكبِهِ، وقدِ اسْتَعَدَّ لهُ قومٌ بسكاكينَ تَقْطُرُ منها المنايا، فقَطَّعوهُ هنالكَ للوقتِ والحينِ، ثمَّ أعْدَموا جُثَّتَهُ فلمْ يُعْلَمْ لها خبرٌ، فمِن هٰذا يَقولُ أتباعُهُ الملاحدةُ: إنَّهُ غائبٌ منتظرٌ!

وأظْهَرَتْ قدرةُ الرَّبِّ القاهرِ تَبارَكَ اسْمُهُ وتَعالى جدُّهُ تكذيبَ قولِ تلكَ الطَّائفةِ المفترينَ، ووقوعَ الأمرِ بضدِّ ما حَكَموا بهِ؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وإنَّ اللهَ لَسَميعٌ عَليمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]، فظَهَرَ مِن كذبِهِم وجهلِهِم بتغييرِ دولتِهِ في خروجِ أبي رَكْوَةَ وفي هٰذا الحينِ، فهٰذا في مبدئِها وهٰذا في ختامِها، فهلْ بعدَ ذٰلكَ وثوقٌ للعاقلِ بالنُّجومِ وأحكامِها؟! كلاَّ لَعَمْرُ اللهِ؛ ليسَ بها وثوق، وإنَّما غايةُ أهلِها الاعتمادُ على رازقٍ ومرزوق[2]؟!

فأمَّا إصابةُ الفِكْرِيِّ بظَفَرِ الأُسطولِ؛ فإنَّما كانَ بتحيُّلٍ دَبَّرَهُ على أهلِ صُورَ لا بالطَّالعِ، فكانَتِ الغلبةُ لهُ عليهِم بالتَّحيُّلِ الذي دَبَّرَهُ ساعةَ القتالِ لا بما ذَكَرَهُ مِن حكمِ الطَّالعِ قبلَ تلكَ الحالِ[3].

---

(١) الأعزام والعزائم: جمع عزيمة، وهي كلّ كلام يطلب به حصول محبوب أو دفع مكروه. ومنها العزائم والرقى الشرعيّة كالآيات القرآنيّة والأدعية المأثورة التي يطلب بها شفاء مريض أو نحوه، ومنها العزائم والرقى الشركيّة الضلاليّة كعزائم السحرة والمنجّمين والمخرّفين والصوفيّة وأشباههم الذين يطلبون من الجنّ والكواكب والأضرحة والأموات قضاء حاجاتهم بما تصوغه ألسنتهم من عبارات الإفك والشرك.

(٢) يعني: كما في المثل العامّيّ الشاميّ: رزق الهُبْل على المجانين.

(٣) حتّى لو لم يحتل، ألا يستطيع الإنسان العادي أن يقدّر قوّته وقوّة عدوّه ويرجّح المنتصر؟! وكيف=

وأمَّا إصابةُ الكنزِ؛ فليسَ مِن النُّجومِ في شيءٍ، ومعرفةُ مواضعِ الكنوزِ علمٌ متداولٌ بينَ النَّاسِ، وفيهِ كتبٌ مصنَّفةٌ معروفةٌ بأيدي أربابِ هٰذا الفنِّ، وفيها خطأٌ كثيرٌ[١] وصوابٌ قد دَلَّ الواقعُ عليهِ[٢].

* ومِن ذٰلكَ ٱتِّفاقُهُم سنةَ ٱثنتينِ وثمانينَ وخمس مئةٍ على خروجِ ريحٍ سوداءَ تَكونُ في سائرِ أقطارِ الأرضِ عامَّةً فتُهْلِكُ كلَّ مَن على ظَهرِها إلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ لنفسِهِ مغارةً في الجبالِ، بسببِ أنَّ الكواكبَ كانَتْ بزعمِهِمُ ٱجْتَمَعَتْ في برجِ الميزانِ، وهوَ برجٌ هوائيٌّ لا يَخْتَلِفُ فيهِ منهُمُ ٱثنانِ، كما ٱجْتَمَعَتْ في برجِ الحوتِ زمنَ نوحٍ، وهوَ عندَهُم برجٌ مائيٌّ، فحَصَلَ الطُّوفانُ المائيُّ[٣]، قالوا: وكذا ٱجتماعُها في البرجِ الميزانيِّ يُوجِبُ طوفانًا هوائيًّا، ودَخَلَ ذٰلكَ في قلوبِ الرَّعاعِ مِن النَّاسِ، فٱتَّخَذوا المغاراتِ ٱستدفاعًا لِما أَنْذَرَهُم بهِ الكذَّابونَ مِن النَّاسِ. فأَذِنَ اللهُ ربُّ العالمينَ مسخِّرُ الرِّياحِ ومدبِّرُ الكواكبِ أَنَّهُ لمَّا كانَ ذٰلكَ الوقتُ الذي حَدُّوهُ والأجلُ الذي عَدُّوهُ؛ قَلَّ هبوبُ الرِّياحِ عن عادتِها حتَّى أهَمَّ النَّاسَ ذٰلكَ ورَأَوْا مِن الكربِ بقلَّةِ هبوبِ الرِّياحِ ما هوَ خلافُ المعتادِ، فظَهَرَ كذبُهُم للخاصِّ والعامِّ.

= تصبر مدينة ضعيفة ليس لها عون ولا مدد على عساكر المصريّة والمغاربة وأشرارها وزعرانها؟!

(١) ودجل كبير وأكل لأموال الناس بالسحر والشعوذة، ونسبة خطإ أصحاب الكنوز وكذبهم أضعاف نسبة خطإ المنجّمين وكذبهم؛ لأنّ المنجّمين يحكمون في قضايا يفيد فيها الذكاء وقوّة الملاحظة والاطلاع على أحوال السائل وظروفه فتزداد أحتمالات إصابة حدسهم وتخمينهم، بخلاف أهل الكنوز الراجمين بالغيب دونما أثارة من دليل! ومن العجيب حقًّا أنّ الذين يتردّدون على أولٰئك الدجاجلة الفتّاحين وضاربي المندل وإخوان الجنّ (مْخاوي الجنّ في عاميّة أهل الشام) لا يكاد يخطر ببال أحدهم: لماذا ينتظر هٰذا العارف الذي كشف عنه الحجاب أو خضعت له الجانّ؛ لماذا ينتظر دراهمي وولائمي وأعطياتي ولا يذهب بنفسه أو يرسل أبناءه أو إخوانه أو أقرباءه فيستخرج الكنز الدفين ويعيش حياة الملوك؟!

(٢) الأرجح فيما أرى أنّ الفكريّ نفسه هو الذي أخفى الكنز في المسجد ثمّ ٱستخرجه لينال الشهرة والحظوة، والحظوة عند الحاكم ـ الذي نال من العزّ وحوت خزائنه من الأموال والكنوز ما يعجز خليفة بغداد عن معشارها ـ تستحقّ هٰذا الكنز وأضعافه. وما زال ورثة هٰذا الفكريّ من الدجّالين يفعلون هٰذا إلى اليوم، فإذا وقع الصيد في شباكهم وطار صيتهم في الناس؛ عاد لهم كنزهم الذي أنفقوه أضعافًا مضاعفة.

(٣) سبحان الله! من أين لكم هٰذا؟! من الذي أرّخ لكم شهر الطوفان ويومه؟! يكذبون ويكذبون ويكذبون، ثمّ يكذبون.

وكانوا قد دبّروا في قصّةِ هٰذهِ الرِّيحِ التي ذكروها بأنْ عزَوْها إلى عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ[١]، وضمَّنوها جزءًا بمضمونِ هٰذهِ الرِّيحِ، وذَكَروا قصَّةً طويلةً في آخرِها: أنَّ الرَّاويَ عن عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ لهُ: لقد صَدَّقَني المنجِّمونَ فيما حَكَيْتُ عنكَ وقالوا: إنَّهُ تَجتمعُ الكواكبُ في برجِ الميزانِ كما ٱجتَمَعَتْ في برجِ الحوتِ على عهدِ نوحٍ وأحْدَثَتِ الغرقَ. فقُلْتُ لهُ: يا أميرَ المؤمنينَ! كم تُقيمُ هٰذهِ الرِّيحُ على وجهِ الأرضِ؟ قالَ: ثلاثةَ أيَّامٍ ولياليها، وتكونُ قوَّتُها مِن نصفِ الليلِ إلى نصفِ النَّهارِ مِن اليومِ الثَّاني! وٱنْظُرْ إلى ٱتِّفاقِهِم على أنَّ الكواكبَ إذا ٱجْتَمَعَتْ في برجِ الميزانِ حَصَلَ هٰذا الطُّوفانُ الهوائيُّ، وٱتِّفاقِهِم على ٱجتماعِها فيهِ في ذٰلكَ الوقتِ، ولمْ يَقَعْ ذٰلكَ الطُّوفانُ!

* ومِن ذٰلكَ ٱتِّفاقُهُم في الدَّولةِ الصَّلاحِيَّةِ[٢] بحكمِ زُحَلَ والدَّالي[٣] أنَّ مدينةَ الإسْكَنْدَرِيَّةِ لا يَموتُ فيها مِن الغُزِّ[٤] والٍ، فلمَّا ماتَ بها الملكُ المعظَّمُ شمسُ الدَّولةِ تُوران شاه بنُ أيُّوبَ بنِ شاذي سنةَ خمسٍ وسبعينَ وخمس مئةٍ ثمَّ واليها فخرُ الدِّينِ قَراجا بنُ عبدِاللهِ سنةَ تسعٍ وثمانينَ ثمَّ واليها سَعْدُ الدِّينِ سُودَكِينُ بنُ عَبْدِاللهِ سنةَ خمسٍ وستِّ مئةٍ؛ ٱنْخَرَمَتْ هٰذهِ القاعدةُ أصلاً، وبَطَلَ قولُهُم فرعًا وأصلاً، حتَّى قالَ بعضُ شعراءِ ذٰلكَ العصرِ عندَ موتِ الأميرِ فَخْرِ الدِّينِ:

وَقَضى كُلُوحُ الثَّغْرِ عِنْدَ مَماتِهِ ... أنَّ المُنَجِّمَ كاذِبٌ لا يَصْدُقُ
لَوْ كانَ فيهِ لا يَموتُ مُؤَمَّرٌ ... أوْدى وَفَخْرُ الدِّينِ حَيٌّ يُرْزَقُ

* ومِن ذلكَ ٱجتماعُهُم في سنةِ خمسَ عشرةَ وستِّ مئةٍ لمَّا نَزَلَ الفِرِنْجُ على دِمْياطَ على أنَّهُم لا بدَّ أنْ يَغْلِبوا على البلاد فيَتَمَلَّكوا ما بأرضِ مِصْرَ مِن رقابِ العباد، وأنَّهُم لا تَدورُ عليهِمُ الدَّائرةُ إلاَّ إذا قامَ قائمُ الزَّمانِ[٥] وظَهَرَ براياتِهِ الخافقةِ ذٰلكَ الأوانِ! فكَذَّبَ اللهُ ظنونَهُم، وأتى مِن لطفِهِ الخفيِّ ما لَمْ يَكُنْ في حساب، ورَدَّ الفِرِنْجَ بعدَ القتلِ الذَّريعِ

---

(١) وما أكثر ما عزيت الأكاذيب والافتراءات إلى هٰذا الإمام، وما زالت تعزى إليه حتّى أيّامنا هٰذه.
(٢) دولة صلاح الدين الأيّوبيّ.
(٣) أمّا زحل؛ فمعروف، وقد تقدّم الكلام في حكمه. وأمّا الدالي؛ فما عرفته؛ إلاّ أن يكون محرّفًا.
(٤) الغزّ: طائفة من الترك.
(٥) يعني: المهديّ المنتظر آخر الزمان.

فيهم والأسرِ على العقاب[١].

وكانَ المُنَجِّمونَ قد أجْمَعوا في أمرِ هٰذهِ الواقعةِ على نحوِ ما أجْمَعَ عليهِ مَن قبلَهُم في شأْنِ عَمُّورِيَّةَ، واتَّفَقَ أنْ كانَ مبدأُ هٰذا الفتحِ في سابعِ رَجَبٍ سنةَ ثمانَ عشرةَ وستِّ مئةٍ ومبدأُ ذٰلكَ الفتحِ في سابعِ رَجَبٍ أيضًا سنةَ ثلاثٍ وعشرينَ ومئتينِ.

قالَ الفاضلُ العلاَّمةُ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللهِ بنِ مَحْمودٍ الحُسَيْنِيُّ: ولمَّا كَذَّبَ اللهُ هٰؤلاءِ القومَ فيما ادَّعَوْهُ؛ نَسَجْتُ على منوالِ أبي تَمَّامٍ في قصيدتِهِ البائيَّةِ المكسورةِ، فعَمِلْتُ بائيَّةً مفتوحةً، وهيَ:

الحَمْـدُ لِلـهِ حَمْـدًا يَبْلُـغُ الأَرَبـا	نَقْضي بِهِ مِنْ حُقوقِ اللهِ ما وَجَبا
حَمْـدًا يَـزيـدُ إذِ النُّعْمَـى تَـزيـدُ بِـهِ	أُخْراهُ أُولاهُ تُعْطي ضِعْفَ ما وَهَبا[٢]
لا يَيْـأَسُ المَـرْءُ مِـن رَوحِ الإِلٰـهِ فَكَـمْ	مَنْ راحَ في مُسْتَهَلٍّ كانَ قَدْ صَعُبا[٣]
فَكَـمْ مَشـى بِـكَ مَكْـروهٌ رَكَضْـتَ بِـهِ	مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ إلى ما تَشْتَهي خَبَبا[٤]
وَكَـمْ تَقَطَّـعَ دونَ المُشْتَهـى سَبَـبٌ	وَكـانَ مِنْـكَ لأَعْلـى المُنْتَهـى سَبَبـا[٥]
لا يَنْبَغـي لَـكَ فـي مَكْـروهِ حـادِثَـةٍ	أنْ تَبْتَغي لَكَ في غَيْرِ الرِّضى طَلَبا
لِلـهِ فـي الخَلْـقِ تَـدْبيـرٌ يَفـوتُ مَـدى	أَسْـرارِ حِكْمَتِـهِ أَحْكـامَ مَـنْ حَسَبـا
ٱبْـغِ النَّجـاةَ إذا مـا ذو النِّجـامَـةِ فـي	زُورٍ مِنَ القَوْلِ يَقْضي كُلَّ ما قَرُبـا
وَذو الأَراجيـزِ مِمَّـا قَـدْ يَقـولُ فَـدَعْ	فمـا أرى جِيزَ شَـيْءٌ كـانَ قَـدْ كُتِبـا[٦]

---

(١) جمع عقب، وارْتدّ على عقبيه: عاد من حيث أتى.

(٢) في ط: «إذا النعمى...»، والصواب ما أثبتّه. ومعنى البيت: أحمده حمدًا متزايدًا مع زيادة النعمة؛ لأنّ الحمد نعمة جديدة من الله تستحقّ مزيدًا من الحمد، والعبد بعد الحمد أعظم نعمة منه قبله.

(٣) رَوح الإلٰه: رحمته. راح: وجد رحمة الله. ومعنى البيت: لا ينبغي أن ييأس العبد من رحمة الله، فكم ممّن ضاق عليه الأمر واستصعب في أوّله ثمّ جاءه فرج الله ورحمته فتيسّرت أموره وحاجاته.

(٤) الخبب: نوع من السير السريع يشبه سير الحصان.

(٥) يعني: كم رغبت بأمر، ثمّ حال دونه مانع فحزنت لذٰلك، ثمّ تبيّن لك بعد حين أنّ الخير كلّه والرحمة كلّها كانت في ذٰلك المانع.

(٦) في ط: «فما أراجيز شيء»! ولا معنى له! ذو الأراجيز: الشاعر. يعني: لا تتّبعه في كلّ ما يقول. ما أرى جِيزَ شيء كان قد كتبا: أرى أنّ أشياء كثيرة كتبها الشعراء رجمًا بالغيب ثمّ لم تقع.

مـا كــانَ لِلّــهِ فــي ديــوانِ قُــدْرَتِــهِ ... مِنْ كاتِبٍ بِحُدوسِ الظَّنِّ إِذْ كَتَبا[١]

لا يَعْلَــمُ الغَيْــبَ إِلاَّ اللــهُ خــالِقُنــا ... لا عــالِـمٌ غَيْـرَهُ عُجْمًـا ولا عَــرَبًـا

لا شَــيْءَ أَجْهَـلُ مِمَّــنْ يَـدَّعـي ثِقَـةً ... بِحَــدْسِــهِ وَتَــرى فيمـا يَـرى رِيَبـا

قَـدْ يَجْهَـلُ المَـرْءُ مـا فـي بَيْتِـهِ نَظَـرًا ... فَكَيْـفَ عَنْـهُ بِمـا فـي غَيْبِـهِ ٱحْتَجَبـا

قَـدْ كَـذَّبَ اللـهُ قَـوْلَ القـائِليـنَ غَـدًا ... إِذا أَتــى رَجَـبٌ لَـمْ تَحْمَـدُوا رَجَبـا

قـالـوا يُـرى عَجَـبٌ فيـهِ فَقُلْـتُ لَهُـمْ ... بِـالنَّصْـرِ بَعْـدَ إِيـاسٍ تُبْصِـروا عَجَبـا

فـي مُنْقَضـى السَّبْعَـةِ الأَيّـامِ مِنْـهُ أَتـى ... ما فاتَ في مُقْتَضاهُ السَّبْعَةَ الشُّهُبا[٢]

وأَعْتَمَــتْ فيــهِ عَــوّاءُ النُّجـومِ عَلـى ... عَـوّاءِ ذِئْـبٍ مِـنَ الكُفّـارِ قَـدْ حَـرِبـا[٣]

والشِّعْــرَيــانِ فَكُــلٌّ مِنْهُمـا شَعَـرَتْ ... بِـأَنَّ لِلْحَـقِّ فيهِـمْ سَيْـفَ مَـنْ غَلَبـا[٤]

وَصَــحَّ عَــنْ قَمَــرِ الأَفْــلاكِ أَنَّهُــمُ ... مــا فيهِـمُ غيـرُ مَقْهـورٍ وَقَـدْ نَشَبـا

عَطاؤُهُمْ[٥] رُدَّ في وَجْهَيْ عُطارِدِهِمْ ... إِلـى الَّـذي مِنْهُـمُ مـا شـاءَ قَـدْ سَلَبـا

وَقَــدْ بَــدَتْ زُهْــرَةُ الإِسْــلامِ زاهِــرَةً ... قَدْ أَظْلَمَتْ فَوْقَهُمْ مِنْ دونِها سُحُبا

وَأَجْمَلَـتْ[٦] حُمْـرَةُ المِـرِّيـخِ حُكْمَهُـمُ ... فَفُسِّـرَتْ بِـدَمٍ فيهِـمْ لِمَـنْ خَضَبـا

وَلَـمْ يَـكُ المُشْتَـري تُقْضـى سَعـادَتُـهُ ... إِلاَّ إِلـى المُشْتَـري نَفْسًـا بِمـا طَلَبـا

وَقِيــلَ مُنْقَلِــبُ الأَبْــراجِ ذو قَــدَرٍ ... فَعــادَ مِنْــهُ فَبـاتَ النَّفْـعُ مُنْقَلِبـا[٧]

---

(١) فالله سبحانه وتعالى لم يُمْلِ غيبه على منجّم ولا شاعر ولا كلّف واحدًا منهما بالكتابة في لوحه المحفوظ، وإنّما يتكلّمون بالظنّ والحدس.

(٢) في ط: «ما يأت في مقتضاه السبعة الشهبا»! وهٰذا تحريف بيّن قلب المعنى وأورث اللفظ غلطًا نحويًّا. والشهب السبعة هي الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل.

(٣) أعتمت: أظلمت. عوّاء النجوم: مجموعة من النجوم هي من المنازل التي ينزل فيها القمر. عوّاء ذئب: ذئب يعوي. حرب: أستكلب وأشتدّ عدوانه. يعني: أظلمت النجوم على الكفرة المستكلبين.

(٤) الشعريان: نجمان معروفان، وقد تبيّن حديثًا أنّ كلاًّ منهما مجموعة من النجوم. ومعنى البيت: أنّ هٰذه النجوم رأت أنّ الغالب هو صاحب الحقّ.

(٥) في ط: «غطاؤهم»! ولا معنى له، فلعلّ الصواب ما أثبتّه.

(٦) كذا في ط، والمراد أنّ حمرة المرّيخ بيّنت ما سيجري لهم على الإجمال. ويمكن أن تكون مصحّفة صوابها «وأخملت»؛ أي أنّ حمرة المرّيخ أبطلت حكمهم.

(٧) في ط: «وقبل منقلب الأبراج ذو قدس»! ولا معنى له! وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه. وهم زعموا=

كَمْ حامِلٍ ثائِرٍ في الثَّوْرِ أو حَمَلٍ أجازَ فيهِمْ عَلى جَوزائِهِمْ حَرَبا
وَلَمْ يَدُرْ فَلَكٌ إلاَّ لِذي مَلِكٍ يُديرُ جَيْشًا عَلَيْهِمْ عَسْكَرًا نُجُبًا[١]
حَتَّى غَدا ثَغْرُ دِمْياطٍ ـ وَقَدْ حَكَمُوا أنْ لا يُرى باسِمًا ـ مُسْتَجْمِعًا شنبا[٢]
يَفْتَرُّ عَنْ صُبْحِ إيمانٍ بِهِ جَذِلاً وَكانَ في لَيْلِ كُفْرٍ باتَ مُكْتَئِبا
وَمَدَّ كَفًّا لَهُ التَّوْحيدُ فَانْقَبَضَتْ رِجْلٌ مِنَ الشِّرْكِ في تَأْخيرِهِ هَرَبا
وَتِلْكَ حَرْبٌ صَليبٌ عُودُها فَقَضَتْ أنْ لا يَعودَ صَليبٌ بَعْدُ مُنْتَصِبا[٣]
وأُطْلِقَ القَوْلُ بِالتَّأْذينِ إذْ خَرِسَتْ لَهُ نَواقيسُ جَرْجِيسٍ فَما احْتُسِبا

* وممَّا اتَّفَقَ عليهِ المنجِّمونَ أنَّ الإنسانَ إذا أرادَ أنْ يَسْتَجيبَ اللهُ دعاءَهُ؛ جَعَلَ الرَّأْسَ في وسطِ السَّماءِ معَ المشْتَري ويَنْتَظِرُ منهُ القبولَ، والقمرَ متَّصلاً بهِ أو منصرفًا عنهُ يَتَّصِلُ بصاحبِ الطَّالعِ، أو صاحبَ الطَّالعِ متَّصلاً بالمُشْتَري ناظرًا إلى الرَّأْسِ نظرةَ مودَّةٍ[٤]! فهنالكَ لا يَشُكُّونَ أنَّ الإجابةَ حاصلةٌ! قالوا: وكانَتْ ملوكُ اليونانِ يَلْزَمونَ ذٰلكَ فيَحْمَدونَ عُقباهُ[٥]!

والعاقلُ إذا تأمَّلَ هٰذا الهذيانَ؛ لمْ يَحْتَجْ في علمِهِ ببطلانِهِ ومحالِهِ إلى فكرٍ ونظرٍ؛ فإنَّ ربَّ السَّماواتِ والأرضِ سبحانَهُ لا يَتأَثَّرُ بحركاتِ النُّجومِ، بل يَتَقَدَّسُ ويَتَعالى عن ذٰلكَ. فيا للعقولِ التي أَضْحَكَتْ عليها العقلاءَ مِن المؤمنينَ والكفَّارِ! ما هٰذهِ الاتِّصالاتُ حتَّى تَكونَ على وجوبِ إجابةِ اللهِ مِن أقوى الدّلالاتِ؟!

* وممَّا عليهِ المنجِّمونَ متَّفقونَ أو كالمتَّفقينَ أنَّ الخبرَ إذا وَرَدَ في وقتٍ ما أو دَنا

= أنّ منقلب الأبراج حكمت بهزيمة المسلمين فأنقلب حكمهم عليهم.

(١) وما تقدّم في هٰذه الأبيات من أحكام النجوم فليس من باب الإيمان بأحكامها، وإنّما من باب مقابلة المنجّمين بعكس مقصدهم، وبأنّ هٰذه النجوم لم تطلع بما زعمتم إفكًا وضلالاً، بل طلعت بما حكم به الله من فوق سبع سماوات من نصر المسلمين وهزيمة الصليبيّين المعتدين.

(٢) مستجمعًا: ضاحكًا بملء فيه. شنبًا: ظاهرًا بياض أسنانه وجمالها. والمعنى: زعم المنجّمون أنّ الصليبيّين سيحتلّون دمياط وستدخلها الآلام والأحزان، فإذا بهم يندحرون عنها وتحلّ بها الأفراح.

(٣) صليب عودها: شديد عودها، قاسية على الأعداء، هزمتهم شرّ هزيمة.

(٤) لم يتبيّن لي مراده بهٰذا!

(٥) فأين كانت عقباه المحمودة هٰذه عندما هزمتهم فارس وعندما تمزّقت دولتهم وورثها الرومان؟!

مِن الوجودِ[١] والقمرُ وعُطارِدُ في بروجٍ ثوابتَ والقمرُ منصرفٌ عنِ السُّعودِ؛ فالخبرُ ليسَ بباطلٍ!

والباطلُ مثلُ هٰذا؛ فإنَّهُ يَلْزَمُهُم: أنَّ مَن وَضَعَ خبرًا باطلاً في ذٰلكَ الوقتِ أنَّ الطَّالعَ المذكورَ يُصَحِّحُهُ، أو [أنْ][٢] يقولوا: لا يُمْكِنُ أحدًا أنْ يَكْذِبَ في ذٰلكَ الوقتِ!

وقد أوْرَدَ أبو مَعْشَرٍ المنجِّمُ هٰذا السُّؤالَ في كتابِ «الأسرار» لهُ وأجابَ عنهُ: أنَّ الأخبارَ تَخْتَلِفُ، فإنْ وَرَدَ خبرٌ مكروهٌ مِن أسبابِ الشَّرِّ والجورِ والأفعالِ المنسوبةِ إلى طبائعِ النُّحوسِ والطَّالعُ في القمرِ منصرفٌ عن سعدٍ؛ فالخبرُ باطلٌ، وإنْ وَرَدَ خبرٌ محبوبٌ ومِن أسبابِ الخيرِ والعدلِ والأفعالِ المنسوبةِ إلى طبائعِ السُّعودِ والطَّالعُ في سعدٍ[٣] والقمرُ منصرفٌ عن سعدٍ؛ فالخبرُ حقٌّ!

قالَ: وزُحَلُ لا يَدُلُّ في كلِّ حالٍ على الكذبِ، بل يَدُلُّ على وجودِ العوائقِ عمَّا يُوقعُ ذٰلكَ الخبرَ، لٰكنَّ البلاءَ المرِّيخُ أوِ الذَّنبُ[٤] إذا ٱسْتَوْلَيا على الأوتادِ وعلى القمرِ أو عُطارِدَ؛ فإنَّهُما يَدُلاَّنِ على الكذبِ والبطلانِ!

ثمَّ قالَ: وعلى كلِّ حالٍ: فالقمرُ في العقربِ والبروجِ الكاذبةِ يُنْذِرُ بكذبٍ في نفسِ الخبرِ أو زيادةٍ أو نقصانٍ، وفي الحَمَلِ والبروجِ الصَّادقةِ يَدُلُّ على صدقٍ فيهِ وٱستواءٍ، وفي السَّرطانِ والبروجِ المنقلبةِ لا يَدُلُّ[٥] على ٱنقلابِ الخبرِ إلى باطلٍ ولٰكنَّهُ قد يَنْقَلِبُ فيَصيرُ أقوى ممَّا هوَ عليهِ الآنَ إلاَّ أنْ يَنْظُرَ إليهِ نحسٌ فيُفْسِدَهُ ويُبْطِلَهُ!

ثمَّ قالَ: وٱعْرِفْ صدقَ الخبرِ مِن سهمِ الغيبِ إذا شَكَكْتَ فيهِ[٦]، فإنْ كانَ سليمًا مِن المرِّيخِ والذَّنبِ ويَنْظُرُ إليهِ صاحبُهُ أو القمرُ أو الشَّمسُ نَظَرَ صلاحٍ؛ فهوَ حقٌّ!

---

(١) في ط: «في وقت أو ما دنا من الوجود»! فربما كان الصواب ما أثبتّه، وربّما كان هاهنا تحريف لم أقف على وجه الصواب فيه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) في ط: «السعود وفي الطالع سعد»! وهٰذا خطأ بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٤) كذا! ولم يتبيّن لي مراده بالذنب، ولعلّه ذنب التنّين، وهما عقدتان في فلك القمر.

(٥) في ط: «تنذر بكذب... تدلّ على صدق... لا تدلّ»! وهو تصحيف صوابه ما أثبتّه.

(٦) تقدّم التعريف بسهم الغيب (٣/ ١٣).

هٰذا منتهى كلامِهِ في الجوابِ! وهوَ ـ كما تَراهُ ـ متضمِّنٌ أنْ: عندَ هٰذهِ الاتِّصالاتِ التي ذَكَرَها يَكونُ الخبرُ صحيحًا صدقًا، وعندَ تلكَ الاتِّصالاتِ الأُخَرِ تكونُ منذرةً بالكذبِ!

فيُقالُ: لهٰؤلاءِ الكذَّابينَ المفترينَ الملبِّسينَ: أيَسْتَحيلُ عندَكُم معاشرَ المنجِّمينَ أنْ يَضَعَ أحدُكُم خبرًا كاذبًا عندَ تلكَ الاتِّصالاتِ، أمْ ذٰلكَ واقعٌ في دائرةِ الإمكانِ، بل هوَ موجودٌ في الخارجِ؟ وكذٰلكَ يَسْتَحيلُ أنْ يَصْدُقَ مخبرٌ عندَ الاتِّصالاتِ الأُخَرِ، أو يَبْعُدُ صدقُ العالَمِ عندَها ويكونُ كذبُهُم إذ ذاكَ أكثرَ منهُ في غيرِ ذٰلكَ الوقتِ؟ وهل في الهوسِ أبلغُ مِن هٰذا[1]؟!

ولو تَتَبَّعْنا أحكامَهُم وقضاياهُمُ الكاذبةَ التي وَقَعَ الأمرُ بخلافِها؛ لَقامَ منها عدَّةُ أسفارٍ.

* وأمَّا نكباتُ مَن تَقَيَّدَ بعلمِ أحكامِ النُّجومِ في أفعالِهِ وسفرِهِ ودخولِهِ البلدَ وخروجِهِ منهُ واختيارِهِ الطَّالعَ لعمارةِ الدَّارِ والبناءِ بالأهلِ وغيرِ ذٰلكَ؛ فعندَ الخاصَّةِ والعامَّةِ منهُم عبرٌ يَكْفي العاقلَ بعضُها في تكذيبِ هٰؤلاءِ القومِ ومعرفتِهِ لافترائِهِم على اللهِ وأقضيتِهِ وأقدارِهِ، بل لا يَكادُ يُعْرَفُ أحدٌ تَقَيَّدَ بالنُّجومِ في ما يَأْتيهِ ويَذَرُهُ إلَّا نُكِبَ أقبحَ نكبةٍ وأشنعَها مقابلةً لهُ بنقيضِ قصدِهِ وموافاةً للنُّحوسِ[2] لهُ مِن حيثُ ظَنَّ أنَّهُ يَفوزُ بسعدِهِ! فهٰذهِ سنَّةُ اللهِ في عبادِهِ التي لا تُبَدَّلُ وعادتُهُ[3] التي لا تُحَوَّلُ؛ أنَّ مَنِ اطْمَأَنَّ إلى غيرِهِ أو وَثِقَ بسواهُ أو رَكَنَ إلى مخلوقٍ يُدَبِّرُهُ؛ أجْرى اللهُ لهُ بسببِهِ أو مِن جهتِهِ خلافَ ما عَلَّقَ بهِ آمالَهُ.

وانْظُرْ ما كانَ أقوى تعلُّقَ بني بَرْمَكَ[4] بالنُّجومِ حتَّى في ساعاتِ أكلِهِم وركوبِهِم

---

(١) وهٰذه الصحف والمجلّات والأرضيّات والفضائيّات والإذاعات تبثّ كلّ يوم أخبارًا من جميع الأصناف والألوان، منها الكذب ومنها الصدق، ومنها ما يطلع مع زحل ومنها ما يأتي مع المرّيخ. والله المستعان على هٰذا الهذيان.

(٢) في ط: «وموافاة النحوس»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) تقدّم (٢/ ٤٣) القول في نسبة العادة إليه تعالى.

(٤) هم البرامكة المعروفون الذين استأصلهم الرشيد، وهم الذين أحيوا التنجيم في الأمّة بعد مماته وأنفقوا الأموال في ترجمة مؤلفات اليونان فيه وقرّبوا أهله وأغدقوا عليهم.

وعامَّةِ أفعالِهم وكيفَ كانَتْ نكبتُهُمُ الشَّنيعةُ!

وٱنْظُرْ حالَ ٱبنِ مُقْلَةَ الوزيرِ[١] وتعظيمَهُ لعلمِ أحكامِ النُّجومِ ومراعاتَهُ لها أشدَّ المراعاةِ ودخولَهُ دارًا بناها بطالعٍ زَعَمَ الكذَّابونَ المفترونَ أنَّهُ طالعُ سعدٍ لا يَرى بهِ في الدَّارِ مكروهًا فقُطِعَتْ يدُهُ ونُكِبَ في دارِهِ أقبحَ نكبةٍ نُكِبَها وزيرٌ قبلَهُ[٢]!

وقتلى المنجِّمينَ أكثرُ مِن أنْ يُحْصِيَهُم إلاَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ.

● **الوجهُ التَّاسعَ عشرَ**: أنَّ هٰؤلاءِ القومَ قد أقَرُّوا على أنفسِهِم بشهادةِ بعضِهِم[٣] على بعضٍ بفسادِ أُصولِ هٰذا العلمِ وأساسِهِ.

* فقد كانَ أوائلُهُم مِن الأقدمينَ وكبارُ رصَّادِهِم مِن عهدِ بَطْلِيموسَ وطيموخارسَ ومانالاوسَ قد حَكَموا في الكواكبِ الثَّابتةِ بمقدارٍ وٱتَّفَقوا أنَّهُ صحيحُ الاعتبارِ، وأقامَ الأمرُ على ذٰلكَ فوقَ سبعِ مئةِ عامٍ، والنَّاسُ ليسَ بأيديهِم سوى تقليدِهِم. حتَّى كانَ في عهدِ المأْمونِ، فٱتَّفَقَ مِن رصَّادِهِم وحكَّامِهِم علماءُ الفريقينِ[٤] ـ مثلُ خالدِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ المَرْوَرَزِيِّ، وحَسَنٍ صاحبِ الزِّيجِ المَأْمونيِّ، ومُحَمَّدِ بنِ الجَهْمِ، ويَحْيى بنِ أبي مَنْصورٍ ـ على أنَّهُمُ ٱمْتَحَنوا رصدَ الأوائلِ، فوَجَدوهُم غالطينَ فيما رَصَدوهُ، فرَصَدوا هُم رصدًا لأنفسِهِم وحَرَّروهُ وسَمَّوْهُ الرَّصدَ الممتحَنَ، وجَعَلوهُ مبدأً ثانيًا بعدَ ذٰلكَ الزَّمنِ. وكانَ لأوائلِهِم إجماعٌ على صحَّةِ رصدِهِم، ولهٰؤلاءِ إجماعٌ على خطئِهِم فيهِ! فتَضَمَّنَ ذٰلكَ إجماعُ الأواخرِ على الأوائلِ أنَّهُم كانوا غالطينَ وإقرارُ الأواخرِ على أنفسِهِم أنَّهُم كانوا بالعملِ بهِ مخطئينَ[٥]!

---

(١) في ط: «أبي مقلة الوزير»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه. وهو أبو عليّ محمّد بن عليّ بن حسن بن مقلة الوزير الكبير. توفي سنة ٣٢٨هـ. ٱنظر أخباره وٱعتناءه بالنجوم في «أعلام النبلاء» (١٥/ ٢٢٤).

(٢) أحرقت داره بعد ستّة أشهر وظلّت عبرة للخلق.

(٣) في ط: «وشهادة بعضهم»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه إن شاء الله.

(٤) يعني: علماء الرصد الفلكيّين وأهل الأحكام المنجّمين.

(٥) من المفيد هنا أن أنبّه إلى جملة من القضايا، فأقول:

أوّلاً: إنّ ما رصده بطليموس وأصحابه وحدّدوا مواضعه في قبّة السماء بالنسبة لبقيّة النجوم وزوايا سمته بالنسبة للراصد الأرضي يتمتّع بقدر كبير من المصداقيّة والصحّة، وما زال معمولاً بأكثره حتّى أيّامنا هٰذه.

ثانيًا: إنّ من جاء بعدهم من المسلمين ثمّ من الفلكيّين المعاصرين لم يخالفوا المتقدّمين في كبير =

* ثمَّ حَدَثَتْ طائفةٌ أُخرى منهُم كبيرُهُم وزعيمُهُم أبو مَعْشَرٍ مُحَمَّدُ بنُ جَعْفَرٍ، وكانَ بعدَ الرَّصدِ الممتحَنِ بنحوٍ مِن ستِّينَ عامًا، فرَدَّ عليهِم، وبيَّنَ خَطَأَهُم، كما ذَكَرَ أبو سَعيدِ بنُ شاذانَ بنِ بَحْرٍ المنجِّمُ في كتابِ «أسرار النُّجوم»؛ قالَ: قالَ أبو مَعْشَرٍ: أَخْبَرَني مُحَمَّدُ بنُ موسى المنجِّمُ الحُلَيْسُ وليسَ بالخُوارِزْمِيِّ؛ قالَ: حَدَّثَني يَحْيى بنُ أبي مَنْصورٍ (أو قالَ: حَدَّثَني مُحَمَّدُ بنُ مُحَمَّدٍ الحُلَيْسُ)؛ قالَ: دَخَلْتُ على المَأْمونِ وعندَهُ جماعةُ المنجِّمينَ، وعندَهُ رجلٌ قد تَنَبَّأَ، وقد دَعا القضاةَ والفقهاءَ ولَمْ يَحْضُروا بعدُ ونحنُ لا نَعْلَمُ. فقالَ لي ولِمَن حَضَرَ مِن المنجِّمينَ: اْذْهَبوا فخُذوا الطَّالعَ لدعوى رجلٍ في شيءٍ يَدَّعيهِ وعَرِّفوني بما يَدُلُّ عليه[1] الفلكُ مِن صدقِهِ وكذبِهِ، ولَمْ يُعْلِمْنا

= شيء، وإنّما آستدركوا عليهم في أمور بسيطة كأختلاف زاوية السمت درجة واحدة أو بضعة دقائق (الدقيقة جزء من ستّين من الدرجة) أو آختلاف نحوه في حساب المسافات والأوقات. ومثل هٰذا لا يسوّغ تخطئه إحدى الطائفتين بله التشنيع عليهما، بل هو بحقّ مدعاة لاحترام أولٰئك الأوائل المتقدّمين وتقدير جهودهم العلميّة والثناء على دقّتهم، ولا سيّما أنّ الحسابات الفلكيّة المعاصرة بمراصدها العملاقة الأرضيّة والفضائيّة وتقنياتها المتطوّرة لم تضف في هٰذا المجال بالتحديد كبير شيء إلى ما أبدعه المتقدّمون.

ثالثًا: وكثيرًا ما ترجع الانحرافات والخلافات بين حسابات المتقدّمين والمتأخّرين إلى حقيقة علميّة لم تستقرّ إلّا في العصر الحديث، وهي أنّ هٰذه النجوم التي ظنّها المتقدّمون ثوابت ليست ثوابت في الحقيقة، وإنّما هي أجرام سماويّة متحرّكة، ولٰكنّ رصد حركتها وملاحظة تغيّر مواضعها يحتاج لمئات وربّما آلاف السنين نظرًا لبعدها الشاسع الذي يفوق الخيال عنّا. وهٰذا سرّ الاختلافات الطفيفة في المواضع وزوايا السمت بين حسابات اليونانيّين فالمسلمين فالمعاصرين، وذٰلك أنّ مدّة الألف عام الفارقة بين هٰؤلاء وهٰؤلاء وهٰؤلاء لا بدّ أن تحدث شيئًا من الانزياح ولو كان بأجزاء الدرجة، ورصد مثل هٰذه الفوارق الزهيدة إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على دقّة هٰذه الحسابات وصحّتها أوّلًا وتاليًا وثالثًا.

رابعًا: ومع ذٰلك؛ فما من عذر للمنجّمين والبرّاجين الذين يربطون الحوادث الأرضيّة بالحوادث الفلكيّة في البناء على حسابات الماضين التي آنزاحت وتبدّلت، ولا بدّ لهم من حسابات حديثة يعتمدون عليها حفظًا لماء الوجه على الأقلّ وحتّى لا تكون تنبّؤاتهم لمواليد الحمل مستندة إلى ما يوصيه الحوت أو الثور! ومعلوم أنّ هٰذا الأمر لا عين له ولا أثر عند أولٰئك الدجاجلة قديمًا ولا حديثًا؛ لأنّ أكثرهم لا يعرف شيئًا عن الفلك ولا يتقن إلّا الدجل والكذب والمكر بالمغفّل الذي وقع في براثنه، ومن بقي منهم فقصاراه أن يعيد عليك ما كتبه المتقدّمون.

وخامسًا وأخيرًا: فأحبّ أن أذكّرك بما تقدّم تقريره (٩/٣) من الفارق العظيم بين علم الفلك وبين هذيان المنجّمين، وأنّ الكلام مع هٰؤلاء شيء ومع الآخرين شيء آخر؛ فلا تجمع بينهما فتضطرب بك الأمور وتقع في المحظور وتتّسع عليك دائرة الخصوم بغير لزوم.

(١) في ط: «بما يدلّه عليه»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

المأمونُ أنَّهُ متنبِّئٌ. فجئْنا إلى ناحيةٍ مِن القصرِ، وأحْكَمْنا أمرَ الطَّالعِ وصَوَّرْناهُ، فوَقَعَ الشَّمسُ والقمرُ في دقيقةِ الطَّالعِ والطَّالعُ الجديُ والمُشْتَري في السُّنْبُلَةِ[١] يَنْظُرُ إليهِ والزُّهرةُ وعُطارِدُ في العَقْرَبِ يَنْظُرانِ إليهِ، فقالَ كلُّ مَن حَضَرَ مِن المنجِّمينَ: هٰذا الرَّجلُ صحيحٌ لا كذبَ فيهِ. قالَ يَحْيى: وأنا ساكتٌ. فقالَ ليَ المأمونُ: قُلْ. فقُلْتُ: هوَ في طلبِ تصحيحِهِ، ولهُ حجَّةٌ زُهَرِيَّةٌ وعُطارِدِيَّةٌ، وتصحيحُ ما يَدَّعيهِ لا يَتِمُّ لهُ. فقالَ: مِن أينَ قُلْتَ؟ فقُلْتُ: لأنَّ صحَّةَ الدَّعاوى مِن المُشْتَري، وهوَ يَنْظُرُ إليهِ زُحَلُ موافقةً، إلَّا أنَّهُ كارهٌ لهٰذا البرجِ[٢]، ولا يَتِمُّ لهُ التَّصديقُ ولا التَّصحيحُ، والذي قالوهُ إنَّما هوَ مِن حجَّةٍ عُطارِدِيَّةٍ وزُهَرِيَّةٍ، وذٰلكَ يَكونُ مِن جنسِ التَّحسينِ والتَّزويقِ والخداعِ عن غيرِ حقيقةٍ. فقالَ: للهِ درُّكَ. ثمَّ قالَ: تَدْرونَ ما يَدَّعي هٰذا الرَّجلُ؟ قُلْنا: لا. قالَ: هٰذا يَدَّعي النُّبوَّةَ. فقُلْتُ: يا أميرَ المؤمنينَ! ومعَهُ شيءٌ يَحْتَجُّ بهِ؟ فسَأَلَهُ. فقالَ: نعم؛ معي خاتمٌ ذو فصَّينِ؛ أَلْبَسُهُ فلا يَتَغَيَّرُ منِّي شيءٌ، ويَلْبَسُهُ غيري فلا يَتَمالَكُ مِن الضَّحكِ حتَّى يَنْزِعَهُ. ومعي قلمٌ شاميٌّ أَكْتُبُ بهِ، ويَأْخُذُهُ غيري فلا تَنْطَلِقُ إصبعُهُ بهِ. فقُلْتُ: يا سيِّدي هٰذا عُطارِدُ والزُّهَرَةُ قد عَمِلا عملَهُما. فأَمَرَهُ أميرُ المؤمنينَ، فأَظْهَرَ ما ٱدَّعاهُ منهُما، وكانَ ذٰلكَ ضربًا مِن الطَّمْلَساتِ[٣]، فما زالَ بهِ المَأْمونُ أيَّامًا كثيرةً حتَّى أقَرَّ وتَبَرَّأَ مِن دعوى النُّبوَّةِ ووَصَفَ الحيلةَ التي ٱحْتالَها في الخاتمِ والقلمِ، فوَهَبَ لهُ المأمونُ ألفَ دينارٍ وصَرَفَهُ. فلَقِيناهُ بعدَ ذٰلكَ، فإذا هوَ أعلمُ النَّاسِ بعلمِ النُّجومِ ومِن أكبرِ أصحابِ عَبْدِاللهِ القُشَيْرِيِّ، وهوَ الذي عَمِلَ طِلَّسْمَ الخنافسِ[٤] في دورِ بَغْدادَ[٥]! قالَ أبو مَعْشَرٍ: لو كُنْتُ في القومِ؛ ذَكَرْتُ أشياءَ خَفِيَتْ عليهِم، وكُنْتُ أقولُ: الدَّعوى باطلةٌ مِن أصلِها؛ إذِ البرجُ منقلبٌ وهوَ الجَدْيُ، والمُشْتَري في الوَبالِ، والقمرُ في المُحاقِ، والكوكبانِ

---

(١) السنبلة: العذراء بلغة البرّاجين اليوم.

(٢) كذا! وما هو بالبيّن! ولا يبعد أنّ فيه سقطًا أو تحريفًا.

(٣) في ط: «ضرب من الطلمسات»! وهاهنا خطأ نحريّ وتحريف. والطملسة: التلطّف بالحيلة.

(٤) الطلّسم: العقد الذي لا ينحلّ، قفل سرّيّ خفيّ لا بدّ من إعمال الحيلة لفتحه.

(٥) ما إخالها صحيحة، فالسند مجاهيل من أهل التنجيم، وحسبك بها تهمة! فإن صحّت؛ فوالله؛ لتسامح المأمون مع المنجّمين وٱستماعه لهم كبيرة! وأكبر منها تسامحه مع المتنبّئ الضالّ وإعطاؤه الجائزة.

النّاظرانِ إلى الطّالعِ في برجِ كذّابٍ وهوَ العَقْرَبُ[١].

فتأمَّلْ كيفَ ٱخْتَلَفَتْ أحكامُهُم معَ ٱتّحادِ الطّالعِ، وكلٌّ منهُم يُمْكِنُهُ تصحيحُ حكمِهِ بشبهةٍ مِن جنسِ شبهةِ الآخرِ! فلوِ ٱتَّفَقَ أنِ ٱدّعى رجلٌ صادقٌ في ذٰلكَ الوقتِ والطّالعِ دعوى، ألمْ يكُنِ ٱدّعاؤُهُ ممكنًا غيرَ مستحيلٍ، ودعواهُ صحيحةً في نفسِها؟! أتقولونَ: إنَّهُ لا يُمْكِنُ أنْ يَدَّعِيَ أحدٌ في ذٰلكَ الوقتِ والطّالعِ دعوى صحيحةً ٱلبتّةَ[٢]؟! ومِنَ المعلومِ لجميعِ العقلاءِ أنَّهُ يُمْكِنُ إذْ ذاكَ [وقوعُ] دعوتينِ مِن رجلٍ محقٍّ ومبطلٍ بذٰلكَ الطّالعِ بعينِهِ! فما أسخفَ عقلَ مَن ٱرْتَبَطَ بهٰذا الهذيانِ وبَنى عليهِ جميعَ حوادثِ الزّمانِ!

وليسَ بيدِ القومِ إلّا ما ٱعْتَرَفَ بهِ فاضلُهُم وزعيمُهُم أبو مَعْشَرٍ؛ [فقد] قالَ شاذانُ[٣] في الكتابِ المذكورِ أيضًا: قُلْتُ لأبي مَعْشَرٍ: الذَّنَبُ باردٌ يابسٌ، فلمَ قُلْتُم إنَّهُ يَدُلُّ على التّأنيثِ؟ فقالَ: هٰكذا قالوا. قُلْتُ: فقد قالوا إنَّهُ ليسَ بصادقِ اليبسِ لٰكنَّهُ باردٌ. فنَظَرَ لي فقالَ: كلُّ الأعراضِ الغائبةِ توهُّمٌ، لا يكونُ شيءٌ منها يقينًا، وإنَّما يكونُ توهُّمٌ أقوى مِن توهُّمٍ.

ومَن تأمَّلَ أحوالَ القومِ عَلِمَ أنْ ما معَهُم إلّا زَرْقٌ[٤] وتفرُّسٌ يُصيبونَ معَها ويُخْطِئونَ.

قالَ شاذانُ في كتابِهِ المذكورِ: كانَ الرّازيُّ الثَّنَوِيُّ الذي بالهِنْدِ يُكاتِبُ أبا المَعْشَرِ ويُهاديهِ، فأنْفَذَ لأبي مَعْشَرٍ مولّدًا لابنِ ملكِ سَرَنْديبَ[٥] طالعُهُ الجوزاءُ والشّمسُ والقمرُ في الجَدْيِ والقمرُ خارجٌ عنِ الشُّعاعِ وعُطارِدُ في الدَّلْوِ والمُشْتَري في الحَمَلِ وزُحَلُ في السَّرَطانِ راجعٌ في بُحْرانِ الرُّجوعِ[٦]، فحَكَمَ لهُ أبو مَعْشَرٍ بأنَّهُ يَعيشُ دورَ زُحَلَ الأوسطَ. فقُلْتُ: سبحانَ اللهِ! جاءَهُ راجعٌ في بُحرانِ الرُّجوعِ، في بيتٍ ساقطٍ عنِ الأوتادِ، لا

---

(١) وكلّ دجّال يقول مثله بعد ٱنكشاف الغطاء وظهور الحقائق!

(٢) إن قالوا: لا يمكن لأحد أن يدّعي دعوى صحيحة. قلنا: فدعواكم بدلالة الفلك على كذب المتنبّئ أو صدقه أو غير ذٰلك كذب إذًا؛ لأنّها جاءت في الطالع نفسه، فأكذبتم أنفسكم بأنفسكم. وإن قالوا: بلى يمكن. قلنا: هٰذا يبطل أن يكون الطالع دالًّا على كذبه إذًا.

(٣) في ط: «يمكن إذ ذاك دعوتين . . . أبو معشر وقال شاذان»! والصواب ما أثبتّه.

(٤) زرق: نظر بأعينهم كغيرهم من الخلق، أو رمي ورجم بالغيب، أو دجل وتضليل.

(٥) سرنديب: هي جزيرة سيريلانكا اليوم.

(٦) في بحران الرجوع: متوغّل في طريق رجوعه، في وسط طريق رجوعه.

يُعْطيهِ إلاَّ دورَ الأصغرِ، ويَحْتاجُ أنْ يُسْقِطَ منهُ الخمسين، وجَعَلْتُ أُنْكِرُ عليهِ ذٰلكَ وأُخَوِّفُهُ أنْ تَسْقُطَ منزلتُهُ عندَ أهلِ تلكَ البلادِ. . . إلى أنْ ذَكَرَ محاورةً طويلةً انْتَهَتْ بهِما إلى أنَّ أبا مَعْشَرٍ أخَذَ ذٰلكَ مِن عاداتِ أهلِ الهِنْدِ في طولِ الأعمارِ!

وقالَ شاذانُ في مسألةٍ سُئِلَ عنها: ما أنتُم إلاَّ زَرَّاقينَ!

* ثمَّ حَدَثَتْ بعدَ هٰؤلاءِ جماعةٌ منهُم أبو الحُسَيْنِ عَبْدُالرَّحْمٰنِ بنُ عُمَرَ بنِ عَبْدٍ المعروفُ بالصُّوفيِّ[1]، وكانَ بعدَ أبي مَعْشَرٍ بنحوٍ مِن سبعينَ عامًا، فذَكَرَ أنَّهُ قد عَثَرَ مِن غَلَطِ الأواخرِ بعدَ الأوائلِ على أشياءَ كثيرةٍ، وصَنَّفَ كتابًا في معرفةِ الثَّوابتِ، وحَمَلَهُ إلى عَضُدِ الدَّوْلَةِ بنِ بُوَيْهِ فاسْتَحْسَنَهُ وأجْزَلَ ثوابَهُ، وبَيَّنَ في هٰذا الكتابِ مِن أغاليطِ أتباعِ الرَّصدِ الثَّاني أُمورًا كثيرةً لِعُطارِدَ المنجِّمِ ومُحَمَّدِ بنِ جابرٍ البَتَّانِيِّ وعَلِيِّ بنِ عيسى الحَرَّانِيِّ، فقالَ في مقدِّمةِ كتابِهِ: ولمَّا رَأيْتُ هٰؤلاءِ القومَ معَ ذكرِهِم في الآفاقِ وتقدُّمِهِم في الصِّناعةِ واقتداءِ النَّاسِ بهِم واشتغالِهِم بمؤلَّفاتِهِم قد تَبِعَ كلُّ واحدٍ منهُم مَن تَقَدَّمَهُ مِن غيرِ تأمُّلٍ لخطئِهِ وصوابِهِ بالعيانِ والنَّظرِ، وأوْهَموا النَّاسَ بالرَّصدِ، حتَّى ظَنَّ كلُّ مَن نَظَرَ في مؤلَّفاتِهِم أنَّ ذٰلكَ عن معرفةٍ بالكواكبِ ومواضعِها. . . إلى أنْ قالَ: ومعوَّلُهُم على آلاتٍ مصوَّرةٍ مِن عملِ مَن لا يَعْرِفُ الكواكبَ بأعيانِها، وإنَّما عَوَّلوا على ما وَجَدوهُ في الكتبِ مِن أطوالِها وعروضِها فرَسَموها في الكرةِ مِن غيرِ معرفةِ خطئِها وصوابِها. . .

ثمَّ قالَ: وزادوا أيضًا على أطوالِ الكواكبِ أطوالاً كثيرةً وعلى عروضِها دقائقَ يسيرةً ونَقَصوا منها، أوْهَموا بذٰلكَ أنَّهُم رَصَدوا الكلَّ وأنَّهُم وَجَدوا بينَ أرصادِهِم وأوضاعِ بَطْلِيموسَ مِن الخلافِ في أطوالِها وعروضِها القدرَ الذي خالَفوا بهِ سوى الزِّيادةِ التي وَجَدوها مِن حركاتِها في المدَّةِ التي بينَهُم وبينَهُ مِن السِّنينَ مِن غيرِ أنْ عَرَفوا الكواكبَ بأعيانِها[2]!

---

(١) فلكيّ مشهور وليس من أهل التنجيم، تميّز عن أكثر الفلكيّين بالبحث الجادّ وعدم التقليد لليونانيّين، رصد النجوم نجمًا نجمًا بنفسه وحدّد مواضعها وأحجامها، وما زالت جهوده موضع اعتبار حتّى أيّامنا هٰذه، آثاره كثيرة. ترجمته في «الأعلام» (٣/ ٣١٩).

(٢) تقدّم آنفًا (٣/ ٤٦) تقرير القول في هٰذه القضيّة. والحقّ أنّ هٰذه الآفة ليست آفة الفلك وحده، بل آفة كلّ صناعة وعلم قديمًا وحديثًا، فالبحّاثون المبتكرون قلّة في كلّ علم، والأكثريّة نقّالون بطّالون متشبّعون=

ولهُ تواليفُ أُخرُ مشحونةٌ ببيانِ أغاليطِهِم وإيضاحِ أكاذيبِهِم وتخاليطِهِم. وشَهِدَ عليهِم بأنَّهُم تارةً قَلَّدوا في الأقوالِ النُّجوميَّةِ، وتارةً قَلَّدوا فيما وَجَدوهُ مِن الصُّورِ الكوكبيَّةِ، فهُم مقلِّدونَ في القولِ والفعلِ ليسَ معَ القومِ بصيرةٌ. وشَهِدَ عليهِم بأنَّهُم مموِّهونَ مدلِّسونَ بل كاذبونَ مفترونَ مِن جهةِ أنَّهُم زادوا دقائقَ ما بينَ زمانِهِم وزمانِ بَطْلِيموسَ وأوْهَموا بها أنَّهُم رَصَدوا ما رَصَدَهُ مَن قبلَهُم فعَثَروا على ما لمْ يَعْثُروا عليهِ.

* ثمَّ حَدَثَتْ جماعةٌ أُخرى، منهُم الكوشِيارُ [بنُ لبانَ] بنِ باشهري الدَّيْلَمِيُّ[1]، ومِن تآليفِهِ «الزِّيجات» و«الجامع»[2] و«المجمل في الأحكام»، وهوَ عندَهُم نهايةٌ في الفنِّ، وكانَ بعدَ الصُّوفيِّ بنحوِ ثلاثينَ عامًا، وذَكَرَ في مقدِّمةِ كتابِهِ «المجمل»: أنِّي جَمَعْتُ في هٰذا الكتابِ مِن أُصولِ صناعةِ النُّجومِ والطَّريقِ إلى التَّصرُّفِ فيها ما ظَنَنْتُهُ كافيًا في معناهُ مغنيًا عمَّا سواهُ، وأكثرُ الأمرِ فيما أخَذْتُ بهِ أقربُ طريقٍ عَزَوْتُهُ إلى القياسِ وأوضحُ سبيلٍ سَلَكْتُهُ إلى الصَّوابِ؛ إذْ هيَ صناعةٌ غيرُ مبرهنةٍ، وللخواطرِ والظُّنونِ [فيها][3] مجال بلا نهايةٍ صوابٍ ومحال. . .

إلى أنْ ذَكَرَ علمَ الأحكامِ فقالَ فيهِ: ولا سبيلَ للبرهانِ عليهِ، ولا هوَ مدركٌ بكلِّيَّتِهِ، نعم ولا بأكثرِهِ؛ لأنَّ الشَّيءَ الذي يُسْتَعْمَلُ فيهِ هٰذا العلمُ أشخاصُ النَّاسِ، وجميعُ ما دونَ الفلكِ القَمَرِيِّ مطبوعٌ على الانتقالِ والتَّغيُّرِ، ولا يَثْبُتُ على حالٍ واحدةٍ في أكثرِ الأمرِ، ولا للإنسانِ كاملُ القوَّةِ[4] مِن الحَدْسِ بخواصِّ الأحوالِ التي تكونُ مِن

= بجهود غيرهم، وقد نالت علوم الشريعة من ذٰلك حصّة الأسد للأسف الشديد. وفي كلّ حال؛ فمثل هٰذا لا يعيب إلّا صاحبه ولا يسقط العلم جملة.

(١) في ط: «الكوشيار بن ياسر بن الديلمي»! تحريف صوابه ما أثبتّه، وسقط آسم أبيه فأضفته. وفي آسم جدّه خلاف: فقيل باشهري وباشهيار. ونسبوه جيليًّا لا ديلميًّا، فلا يبعد فيما أرى أن تكون «الديلمي» محرّفة عن «الجيلي»، وربّما كان الرجل ديلميًّا جيليًّا. والله أعلم. والرجل ـ حسبما تفيده مؤلّفاته ـ من أهل التنجيم لا من أهل الفلك، ووفاته في حدود ٣٥٠هـ على ما ذكره الزركلي في «الأعلام» (٥/ ٢٣٦)، لٰكن ظاهر كلام ابن القيّم أنّه كان حيًّا في حدود ٤٠٠هـ، فالله أعلم.

(٢) كذا جاء هنا! وفي «الأعلام»: «الزيج الجامع».

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) في ط: «بكامل القوّة»! وهو مشكل، فلعلّ الصواب ما أثبتّه.

ٱمتزاجاتِ الكواكبِ، فبَلَغَ مِن الصُّعوبةِ وتعسُّرِ الوقوفِ عليهِ إلى أنْ دَفَعَهُ بعضُ النَّاسِ وظَنُّوا أنَّهُ شيءٌ لا يُدْرِكُهُ أحدٌ ٱلبتَّةَ. وأكثرُ المنفردينَ بالعلمِ الأوَّلِ ـ يَعْني علمَ الهيئةِ ـ يُنكِرونَ هٰذا العلمَ ويَجْحَدونَ منفعتَهُ ويقولونَ هوَ شيءٌ يَقَعُ بالاتِّفاقِ وليسَ عليهِ برهانٌ[1]...

إلى أنْ قالَ: ومِن المنفردينَ بالعلمِ الثَّاني ـ يَعْني علمَ الأحكامِ ـ مَن يَأْتي على جزئيَّاتِهِ بحججٍ على سبيلِ النَّظرِ والجدلِ يَظُنُّ أنَّها[2] برهانٌ لجهلِهِ بطريقِ البرهانِ وطبيعتِهِ.

فحَصَلَ مِن كلامِ هٰذا تجهيلُ أصحابِ الأحكامِ، كما حَصَلَ في كلامِ الصُّوفيِّ تكذيبُ أصحابِ الأرصادِ[3]، وهٰذانِ رجلانِ مِن عظمائِهِم وزعمائِهِم.

* ثمَّ حَدَثَتْ جماعةٌ أُخرى، منهُمُ المنجِّمُ المعروفُ بالفِكْريِّ[4]، منجِّمُ الحاكِمِ بالدِّيارِ المِصْريَّةِ، وكانَ قدِ ٱنْتَهَتْ إليهِ رياسةُ هٰذا العلمِ، وكانَ قد قَرَأَ على مَن قَرَأَ على العاصِمِيِّ، فوَضَعَ هوَ وأصحابُهُ رصدًا آخرَ، وهوَ الرَّصدُ الحاكِمِيُّ، وخالَفَ فيهِ أصحابَ الرَّصدِ الممتحَنِ في أشياءَ، وعلى ذٰلكَ التَّفاوتِ بَنَوُا الزِّيجَ الحاكِمِيَّ. وكانَ

---

(١) وفي هٰذا الكلام فائدتان عظيمتان ينبغي أن تشدّ يدك عليهما:

فأولاهما: أنّ أهل الفلك ينكرون التنجيم ويجحدون منفعته ويقولون هو شيء يقع ٱتّفاقًا لا برهان له. وهٰذه ظاهرة مطّردة، فلا تكاد تجد مبرّزًا في علم الفلك ـ كأرسطو والفارابي وابن سينا والمعاصرين ـ إلاّ وهو منكر على المنجّمين علمهم وأوضاعهم. فإذا علمت أنّ المنجّمين والبرّاجين عالة في كلّ ما لديهم من المعلومات الفلكيّة والرصد والخرائط والحسابات والاقترانات والكسوف والخسوف على الفلكيّين؛ عليهم يعوّلون وعن أحكامهم وحساباتهم يصدرون؛ بان لك سقوط التنجيم؛ لأنّ الفلكيّين أصحاب الأصول الذين يُرجع إليهم في هٰذا الشأن يذمّون أهله ويسفّهون أحكامهم، وأهل مكّة أدرى بشعابها.

والثانية: ما قدّمته لك مرارًا من وجوب التفريق بين الفلكيّين والمنجّمين وعدم أخذ الأوّلين بضلالة الآخرين وتقويلهم ما لم يقولوه وتوسيع دائرة الخصوم بغير حقّ.

(٢) في ط: «فظنّ أنّها»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) في بعض حساباتهم، وفي تشبّعهم بالعلم والدرس ودعواهم الرصد والبحث مع أنّهم نقلة مقلّدون. وأمّا تخطئة عموم الفلكيّين وإسقاط علمهم جملة؛ فمجازفة عظيمة لم يقصد لها الصوفيّ الذي ألّف في هٰذا الباب تواليف عظيمة ولا ابن القيّم الذي ٱعتمد بعض أقوال أهله فيما تقدّم ويأتي.

(٤) تقدّم ذكره وذكر دجله ومخازيه قبل قليل.

الحاكِمُ قد أمَرَهُم أنْ يَحْذوا على فعلِ المأمونِ، فأمَرَ أنْ يَجْتَمعوا عندَهُ، فٱجْتَمَعَ المنجِّمونَ ورئيسُهُمُ الفِكْرِيُّ فوَضَعوا الزِّيجَ الحاكِمِيَّ، وخالَفوا أصحابَ الرَّصدِ المَأمونِيِّ ومالوا بأتباعِهِم إلى الرَّصدِ الحاكِمِيِّ!

ولو ٱتَّفَقَ بعدَ ذٰلكَ رصدٌ آخرُ؛ لَسَلَكَ أصحابُهُ في خلافِ مَن تَقَدَّمَهُم مسلكَ أوائلِهِم.

هٰذا؛ ومستندُهُم ومعوَّلُهُمُ الحسُّ والحسابُ وهُما لا يَقْبَلانِ التَّغليطَ، فما الظَّنُّ بما يَدَّعونَهُ مِن علمِ الأحكامِ الذي مبناهُ على هواجسِ الظُّنونِ وخيالاتِ الأوهامِ[1]؟!

* ثمَّ حَدَثَتْ جماعةٌ أُخرى منهُم أبو الرَّيْحانِ البِيْرُونِيُّ[2] مؤلِّفُ كتابِ «التَّفهيمِ إلى صناعة التَّنجيم»، جَمَعَ فيهِ بينَ الهندسةِ والحسابِ والهيئةِ والأحكامِ، وكانَ بعدَ كوشيارَ بنحوٍ مِن أربعينَ سنةً، فخالَفَ مَن تَقَدَّمَهُ وأتى مِن مناقضتِهِم والرَّدِّ عليهِم بما هوَ دالٌّ على فسادِ الصِّناعةِ في نفسِها. وخَتَمَ كتابَهُ بقولِهِ في الخبيءِ والضَّميرِ[3]: «ما أكثرَ ٱفتضاحَ المنجِّمينَ فيهِ! وما أكثرَ إصابةَ الرَّاصدينَ فيهِ بما يَسْتَعْمِلونَهُ مِن كلامِهِ وقتَ السُّؤالِ ويَرَوْنَهُ باديًا مِن آثارٍ وأفعالٍ على السَّائلِ[4]! وقالَ: وعندَ البلوغِ إلى هٰذا الموضعِ مِن صناعةِ التَّنجيمِ كفايةٌ، ومَن تَعدَّاهُ؛ فقد عَرَّضَ نفسَهُ وصناعتَهُ لِما بَلَغَتْ إليهِ الآنَ مِن السُّخريةِ والاستهزاءِ، فقد جَهِلَها المتفقِّهونَ فيها فضلاً عنِ المتنسبينَ إليها. ٱنْتَهى كلامُهُ[5].

---

(١) راجع لأغلاط الفلكيّين والمقارنة بين علمي الفلك والتنجيم ما تقدّم (٣/ ٩، ٣/ ٤٦).

(٢) محمّد بن أحمد الخوارزمي، الفيلسوف، الرياضيّ، الفلكيّ، المؤرّخ، العالم، المتفنّن. ٱطّلع على فلسفة الهند واليونان، وألّف مؤلّفات كثيرة، وعلت منزلته عند ملوك عصره، توفي ٤٤٠هـ. ترجمته في «اللباب» (١/ ١٩٧)، و«الأعلام» (٥/ ٣١٤).

(٣) الخبيء: المخبوء عمومًا أينما كان. الضمير: المخبوء في النفس خصوصًا.

(٤) «ما أكثر ٱفتضاح المنجّمين فيه»: ما أكثر ما ينكشف كذب المنجّم إذا بحث عن المخبوء والمضمر في النجوم. «وما أكثر إصابة الراصدين بما يستعملونه من...» إلخ: وأمّا من رصد الناس وتفرّس فيهم وفي أقوالهم ولهجاتهم وأنفعالاتهم؛ فيوشك أن تكثر إصابته ويعرف الكاذب من الصادق والسارق من البريء.

(٥) وقد وقفت على نسخة نفيسة من هٰذا الكتاب مترجمة إلى اللغة الإنكليزية، وقرأتها كلّها تقريبًا، فرأيت في عبارات البيرونيّ ما يدلّ على عزوفه عن التنجيم وعدم ثقته به ولا بأهله. فمن ذٰلك ما ذكره في صناعة أحكام النجوم؛ فإنّ جلّ سؤال السائل مقصور عليها، ولأنّها عند أكثر الناس ثمرة العلوم الرياضيّة، وإن كان ٱعتقادنا في هٰذه الثمرة وهٰذه الصناعة شبيه بٱعتقاد أقلّهم». وقال مرّة عن المنجّمين (ص٢٣٦): «وليس =

* ثمَّ حَدَثَتْ جماعةٌ أُخرى، منهُم أبو الصَّلْتِ أُمَيَّةُ بنُ عَبْدِالعَزيزِ بنِ أُمَيَّةَ الأنْدَلُسِيُّ[١] الشَّاعرُ المنجِّمُ الطَّبيبُ الأديبُ، وكانَ بعدَ البِيْرُونِيِّ بنحوٍ مِن ثمانينَ عامًا، ودَخَلَ مِصْرَ وأقامَ بها نحوَ عامينِ[٢]، ولمَّا كانَ بالغربِ[٣]؛ تُوُفِّيَتْ والدةُ الأميرِ عَلِيِّ بنِ تَميمٍ صاحبِ المَهْدِيَّةِ، وكانَ قد وافَقَ موتُها إخبارَ المنجِّمينَ بذٰلكَ قبلَ وقوعِهِ، فعَمِلَ أُمَيَّةُ قصيدةً يَرْثيها، وهيَ مِن مستحسنِ شعرِهِ، فقالَ فيها:

وَراعَــكِ قَــوْلٌ لِلْمُنَجِّــمِ مُــوهِــمٌ ... وَمَــنْ يَعْتَقِــدْ زَرْقَ المُنَجِّــمِ يُـوهَــمِ

فَــواعَجَبًــا يَهْــذي المُنَجِّــمُ دَهْــرَهُ ... وَيَكْــذِبُ إلاَّ فيــكِ قَــوْلُ المُنَجِّــمِ

وكانَ المذكورُ رأْسًا في الصِّناعةِ[٤]، وقدِ اْعتَرَفَ بأنَّ المنجِّمَ كذَّابٌ صاحبُ زَرْقٍ وهذيانٍ.

* ثمَّ حَدَثَتْ طائفةٌ أُخرى بالمَغْرِبِ، منهُم أبو إسْحاقَ [ابنُ] الزُّرْقالَّةِ[٥] وأصحابُهُ، وهوَ بعدَ أبي الصَّلْتِ بنحوٍ مِن مئةِ عامٍ، وقد خالَفَ الأوائلَ والأواخرَ في الصِّناعتينِ الرَّصديَّةِ[٦] والأحكاميَّةِ، فأسْقَطَ مِن الرَّصدِ الممتحَنِ المَأْمونِيِّ في البروجِ درجاتٍ، ومِن الرَّصدِ الحاكِمِيِّ دقائقَ، وسَلَكَ في الأحكامِ طرقًا غيرَ الطُّرقِ المعهودةِ منهُ اليومَ وزَعَمَ أنَّ عليها المعوَّلَ وأنَّ طرقَ مَن تَقَدَّمَهُ لَيْسَتْ بشيءٍ!

ولو حَدَثَ في هٰذا العصرِ مَن يُشْبِهُ مَن تَقَدَّمَهُ؛ لَرَأَيْنا اْختلافًا آخرَ، ولٰكنَّ هٰذه

= للقوم في هٰذا الباب دربة، فتختلف ما في كتبهم بل تتضادّ». فالظاهر أنّه ألّف «التفهيم» لإظهار معرفته بالباب وإن كان غير مؤمن به ولا معتقد لصحّته. وهٰذه طعنة في صميم المنجّمين. والله أعلم.

(١) الدانيّ، مولده بالأندلس، ثمّ رحل إلى مصر وأقام بها نحو عشرين عامًا، ثمّ عاد إلى المغرب وتوفّي فيها سنة ٥٢٨ أو ٥٢٩هـ. ترجمته في: «أعلام النبلاء» (١٩/ ٦٣٤)، «الأعلام» (٢/ ٢٣). لٰكن ظاهر ما في تراجمه ومؤلّفاته وشعره الآتي قريبًا أنّه لم يكن منجّمًا بل كان فلكيًّا.

(٢) الذي في «الأعلام» أنّه عاش فيها عشرين عامًا سجن خلالها.

(٣) يعني: المغرب. والمهديّة من أعمال المغرب اليوم.

(٤) صناعة الفلك ورصد النجوم لا التنجيم كما هو الظاهر من تراجمه ومؤلّفاته وشعره المتقدّم آنفًا.

(٥) في ط: «أبو إسحاق الزرقال»! والصواب ما أثبتّه، وربّما كان الصواب «أبو إسحاق الزرقلي»، وهو إبراهيم بن يحيى النقّاش المغربي الأندلسي القرطبي. لٰكن ذكر في «الأعلام» (١/ ٧٩) أنّ وفاته كانت ٤٩٣هـ بخلاف ما جاء هنا. فالله أعلم.

(٦) في ط: «الصناعتين والرصديّة»! والواو زيادة ناسخ أو طابع لا محلّ لها.

الصِّناعةَ قد ماتَتْ، ولمْ يَبْقَ بأيدي المنتسبينَ إليها إلاَّ تقليدُ هٰؤلاءِ الضُّلَّالِ فيما فَهِموهُ مِن كلامِهِمُ الباطلِ، وما لمْ يَفْهَموهُ منهُ فقد يَظُنُّونَ أنَّهُ صحيحٌ ولٰكنَّ أفهامَهُم نَبَتْ[1] عنه[2]!

وهٰذا شأْنُ جميعِ أهلِ الضَّلالِ معَ رؤسائِهِم ومتبوعيهِم! فجهَّالُ النَّصارى إذا ناظَرَهُمُ الموحِّدُ في تثليثِهِم وتناقضِهِ وتكاذبِهِ؛ قالوا: الجوابُ على القسِّيس، والقسِّيسُ يَقولُ: الجوابُ على المطرانِ، والمطرانُ يُحيلُ الجوابَ على البَتْرَك، والبَتْرَكُ على الأُسْقُفِ، والأُسْقُفُ على البابِ[3]، والبابُ على الثَّلاثِ مئةٍ والثَّمانيةَ عَشَرَ أصحابِ المجمعِ[4] الذينَ اْجْتَمَعوا في عهدِ قُسْطَنْطينَ ووَضَعوا للنَّصارى هٰذا التَّثليثَ والشِّرْكَ المناقضَ للعقولِ والأديانِ! ولَعَلَّهُم عندَ اللهِ أحسنُ حالاً مِن أكثرِ القائلينَ بأحكامِ النُّجومِ الكافرينَ بربِّ العالمينَ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ.

[٣] فصل

[في رسالة ابن عيسى في الرد على المنجمين]

ورَأَيْتُ لبعضِ فضلائِهِم ـ وهوَ أبو القاسمِ عِيسى بنُ عَلِيِّ بنِ عيسى[5] ـ رسالةً بليغةً في الرَّدِّ عليهِم وإبداءِ تناقضِهِم، كَتَبَها لمَّا بَصَّرَهُ اللهُ رشدَهُ وأراهُ بطلانَ ما عليهِ

(١) نبت عنه: عجزت.

(٢) وعادت هٰذه الصناعة فعاشت وانتعشت في أيّامنا هٰذه، وراحت الإذاعات والفضائيّات والصحف تؤزّها أزًّا وتنشرها بين العامّة والخاصّة بصورة مخطّطة ومدروسة وكأنّها مؤامرة عالميّة، لٰكن مع ذٰلك ليس بأيدي المنتسبين إليها إلاّ تقليد من سبقهم من الضلاّل والنقل عمّن عاصرهم من محتالي الغرب مع إضافة بعض المصطلحات الحديثة والألفاظ الأجنبيّة إيهامًا وتلبيسًا.

(٣) هو البابا بلغتهم اليوم.

(٤) الأوّل، وهو مجمع نيقية، وكان بعد موت المسيح بثلاث مئة عام تقريبًا، في القسطنطينيّة، لٰكن المشهور أنّ عدد المجتمعين كان ٣١٣، فلعلّ ما هنا تحريف. والله أعلم.

(٥) ابن الجرّاح البغداديّ، الشيخ الجليل، العالم المسند الثبت، كان يرمى بشيء من مذهب الفلاسفة، وكان أوحد زمانه في المنطق والعلوم القديمة. ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١١/ ١٧٩)، «أعلام النبلاء» (١٦/ ٥٤٩).

هٰؤلاءِ الضُّلَّالُ الجهَّالُ، كتبَها نصيحةً لبعضِ إخوانِه، فأحْبَبْتُ أنْ أُورِدَها بلفظِها وإنْ تَضَمَّنَتْ بعضَ الطُّولِ والتّكرارِ، وأتَعَقَّبَ بعضَ كلامِهِ بتقريرِ ما يَحْتاجُ إلى تقريرٍ وسؤالٍ يُورَدُ عليهِ ويُطْعَنُ بِهِ على كلامِهِ ثمَّ بالجوابِ عنهُ؛ لِيَكونَ قوّةً للمسترشِدِ وبيانًا للمتحيِّرِ وتبصرةً للمهتدي ونصيحةً لإخواني المسلمينَ. وهٰذا أوَّلُها:

● بسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيمِ، عَصَمَكَ اللهُ مِن قبولِ المحالاتِ واعتقادِ ما لمْ تَقُمْ عليهِ الدّلالاتُ، وضاعَفَ لكَ الحسناتِ، وكَفاكَ المهمَّاتِ، بمنِّهِ ورحمتِهِ.

كُنْتَ ـ أدامَ اللهُ توفيقَكَ وتسديدَكَ ـ ذَكَرْتَ لي اهتمامَكَ بما قد لَهَجَ بِهِ وجوهُ أهلِ زمانِنا مِنَ النَّظرِ في أحكامِ النُّجومِ وتصديقِ كلِّ ما يَأْتي مَنِ ادَّعى أنَّهُ عارفٌ بها مِن علمِ الغيبِ الذي تَفَرَّدَ اللهُ سبحانَهُ وتَعالى بِهِ ولمْ يَجْعَلْهُ لأحدٍ مِنَ الأنبياءِ والمرسلينَ ولا ملائكتِهِ المقرَّبينَ ولا عبادِهِ الصَّالحينَ مِن معرفةِ طويلِ الأعمارِ وقصيرِها وحميدِ العواقبِ وذميمِها وسائرِ ما يَتَجَدَّدُ ويَحْدُثُ ويُتَخَوَّفُ ويُتَمَنَّى، وسَأَلْتَني[1] أنْ أعْمَلَ كتابًا أذْكُرُ فيهِ بعضَ ما وَقَعَ مِنِ اختلافِهِم في أُصولِ الأحكامِ الدَّالَّةِ على وهمِهِم وقبحِ اعتقادِهِم وما يُسْتَدَلُّ بهِ[2] مِن طريقِ النَّظرِ والقياسِ على ضعفِ مذهبِهِم وأُلَخِّصُ ذٰلكَ وأخْتَصِرُهُ وأُقَرِّبُهُ بحسبِ الوسعِ والطَّاقةِ، فوَعَدْتُكَ بذٰلكَ. وقد ضَمَّنْتُهُ كتابي هٰذا، واللهَ أسألُ عونًا على ما قَرَّبَ منهُ وتوفيقًا لِما أزْلَفَ لديهِ؛ إنَّهُ قريبٌ مجيبٌ فعَّالٌ لِما يُريدُ.

● [و]لَسْتُ مستعملاً للتَّحاملِ على مَن أثْبَتَ تأْثيرَ الكواكبِ في هٰذا العالمِ وتركِ إنصافِهِم كما فَعَلَ قومٌ رَدُّوا عليهِم؛ فإنَّهُم دَفَعُوهُم عنْ أنْ يَكونَ لها تأْثيرٌ البتَّةَ غيرَ وجودِ الضِّياءِ في المواضعِ التي تَطْلُعُ فيها الشَّمسُ والقمرُ وعدمُهُ فيما غابا عنهُ وما جَرى هٰذا المجرى!

بل أُسَلِّمُ لهُم أنَّها تُؤَثِّرُ تأْثيرًا ما يَجْري على الأمرِ الطَّبيعيِّ: مثلَ أنْ يَكونَ البلدُ القليلُ العَرْضِ[3] مزاجُهُ يَميلُ عنِ الاعتدالِ إلى الحرِّ واليبسِ، وكذٰلكَ مِزاجُ أهلِهِ

---

(١) في ط: «وسألني»! وهو تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٢) في ط: «وممّ يستدلّ به»! وهو تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٣) القليل العرض: القريب من خطّ الاستواء فأرقام خطوط عرضه قليلة. والكثير العرض بعكسه.

ضعيفٌ وألوانُهُم سودٌ وصفرٌ كالنُّوبةِ والحبشةِ. وأنْ يَكونَ البلدُ الكثيرُ العرضِ مزاجُهُ يَميلُ عنِ الاعتدالِ إلى البردِ والرُّطوبةِ، وكذٰلكَ مزاجُ أهلِهِ وأجسامُهُم عبلةٌ[١] وألوانُهُم بيضٌ وشعورُهُم شقرٌ مثلُ التُّرْكِ والصَّقالِبَةِ[٢]. ومثلُ أنْ يَكونَ النَّباتُ يَنْمو ويَقْوى ويَتَكامَلُ ويَنْضُجُ ثمرُهُ بالشَّمسِ والقمرِ؛ فإنَّ أهلَ الصَّحراءِ ومَن يُعانيها مجمعونَ[٣] على أنَّ القِثَّاءَ تَطولُ وتَغْلُظُ بالقمرِ[٤]، وقد شاهَدْتُ غيرَ شجرةٍ كبيرةٍ حاملةٍ مِن التِّينِ والتُّوتِ وغيرِهما فما قابلَ الشَّمسَ منها أسْرَعَ نضجُ الثَّمرِ الكائنِ فيهِ وما خَفِيَ عنها بَقِيَ ثمرُهُ فجًّا وتَأَخَّرَ إدراكُهُ[٥]، ومثالُ ذٰلكَ ما يُشاهَدُ مِن حالِ الرَّيْحانِ الذي يُقالُ لهُ اللَّيْنُوفَرُ وحالِ الخُبَّازى وورقِ الخَطْمِيِّ والآذَرْيُونِ[٦] وأشياءَ كثيرةٍ مِن النَّباتِ؛ فإنَّا نَراهُ يَتَحَرَّكُ ويَنْفَتِحُ معَ طلوعِ الشَّمسِ ويَضْعُفُ إذا غابَتْ[٧]؛ لأنَّ هٰذهِ أُمورٌ محسوسةٌ. وليسَ الكلامُ في هٰذا التَّأْثيرِ؛ كيفَ هوَ وعلى أيِّ سبيلٍ يَقَعُ، فما يَليقُ بغرضِنا هاهُنا، فلذٰلكَ أدَعُهُ.

فأمَّا ما يَزْعُمونَهُ فيما عَدا هٰذا مِن أنَّ النُّجومَ تُوجِبُ أنْ يَعيشَ فلانٌ كذا وكذا سنةً وكذا وكذا شهرًا ويَنْتَهونَ في التَّحديدِ إلى جزءٍ مِن ساعةٍ، وأنْ يَدُلَّ على تقلُّدِ رجلٍ بعينِهِ الملكَ وتقلُّدِ آخرَ بعينِهِ الوزارةَ وطولِ مدَّةِ كلٍّ واحدٍ منهُما في الولايةِ وقصرِها، وما فَعَلَهُ الإنسانُ وما يَفْعَلُهُ في منزلِهِ وما يُضْمِرُهُ في قلبِهِ وما هوَ متوجِّهٌ فيهِ مِن حاجاتِهِ، وما هوَ في بطنِ الحاملِ، والسَّارقِ مَن هوَ والمسروقِ ما هوَ[٨] وأينَ هوَ وكميَّتِهِ وكيفيَّتِهِ،

---

(١) عبلة: ضخمة. وهٰذا مشهود اليوم في أجسام أواسط أوروبة وشمالها.

(٢) الصقالبة: سكان أوروبة الشرقيّة؛ أوكرانية ورومانية وبلغارية ويوغوسلافيا البائدة.

(٣) في ط: «مجموعون»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) لا ريب أنّ لتقلّب الليل والنّهار أثرًا على نموّ النبات، بخلاف نور القمر ومنازله المختلفة في الشهر؛ فإنّي لم أقف فيما رجعت إليه على دراسات موثّقة في هٰذا الشأن، لٰكنّ هٰذا لا يعني أنّه احتمال غير وارد، إنّما الأولى عدم التعجّل فيه بنفي أو إثبات. والله أعلى وأعلم.

(٥) أمّا هٰذا؛ فصحيح علميّ ثابت بالبرهان العلميّ والتجربة العمليّة.

(٦) نباتات معروفة.

(٧) وعكسه من النباتات التي تتفتّح أوراقها وأزهارها وتنتشر أغصانها مع غياب الشمس ثمّ تنكمش مع شروقها. فتعالى الله الملك الحقّ.

(٨) في ط: «والسارق ومن هو والمسروق وما هو»! ولا لزوم لهٰذه الواوات.

وما يَجِبُ بالكسوفِ وما يَحْدُثُ معَهُ، والمختارِ مِن الأعمالِ في كلِّ يومٍ بحسبِ اتِّصالِ القمرِ بالكواكبِ مِن أنْ يكونَ هٰذا اليومُ صالحًا للقاءِ الملوكِ والرُّؤساءِ وأصحابِ السُّيوفِ وهٰذا يومٌ محمودٌ للقاءِ الكتَّابِ والوزراءِ وهٰذا اليومُ محمودٌ للقاءِ القضاةِ وهٰذا اليومُ محمودٌ بأُمورِ النِّساءِ وهٰذا اليومُ محمودٌ لشربِ الدَّواءِ والفصدِ والحجامةِ وهٰذا اليومُ محمودٌ للعبِ الشِّطْرَنْجِ والنَّردِ وغيرِ ذٰلكَ: فمحالٌ أنْ يكونَ معلومًا مِن طريقِ الحسِّ. وليسَ بنصٍّ[1] مِن كتابِ اللهِ، بل قد نَصَّ اللهُ سبحانَهُ وتَعالى فيهِ على بطلانِهِ بقولِهِ تَبارَكَ وتَعالى: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ في السَّماواتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ [النمل: ٦٥]. ولا في سنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، بل قد جاءَ عنهُ ﷺ أنَّهُ قالَ: «مَن أتى عرَّافًا أو كاهنًا أو منجِّمًا، فصَدَّقَهُ بما يَقولُ؛ فقد كَفَرَ بما أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ»[2]. ولا هاهُنا ضرورةٌ تَدْعو

---

(١) في ط: «وليس نصّ»! ولا يستقيم الكلام إلّا بنصب «نصّ» أو إضافة الباء.

(٢) (صحيح). وقد جاء عن جماعة من الصحابة:

* فرواه الطبراني (٢٢/ ٦٩/ ١٦٩) من طريق سليمان بن أحمد الواسطي، ثنا يحيى بن الحجّاج، ثنا عيسى بن سنان، عن أبي بكر بن بشير، سمعت واثلة... رفعه. قال الهيثمي (٥/ ١٢١): «فيه الواسطي، وهو متروك». قلت: ومتّهم أيضًا، ويحيى وعيسى ليّنان، وابن بشير مجهول. فالسند ساقط.

* ورواه: معمر في «الجامع» (٢٠٣٤٨)، وابن وهب في «الجامع» (٦٨٧)، والطيالسي (٣٨٢)، وابن الجعد (٤٣٨ و٢٠١٧-٢٠٣٤)، وابن أبي شيبة (٢٣٥١٨)، والبزّار (١٨٧٣ و١٩٣١)، وأبو يعلى (٥٤٠٨)، والشاشي (٨٩١)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٧٦/ ١٠٠٠٥) و«الأوسط» (١٤٧٦)، وابن عدي (٣/ ١١٣٠، ٥/ ١٦٦٥، ٧/ ٢٥٩٣)، والدارقطني في «العلل» (٩٢٢)، والحاكم في «المعرفة» (ص٢٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٠٤، ٨/ ٢٤٦)، والبيهقي (٨/ ١٣٦)، والخطيب في «التاريخ» (٨/ ٦٠)، وابن الجوزي في «الواهيات» (١٣١٢)، والذهبي في «الميزان» (٤/ ١٦٧)؛ من طرق كثيرة عن ابن مسعود موقوفًا ومرفوعًا. لٰكنّ طريقه المرفوعة ضعيفة مرجوحة برواية الثقات لهٰذه الطريق نفسها موقوفة، وأمّا طرقه الموقوفة فكثيرة وقويّة، ولذٰلك فالصواب هاهنا الوقف والرفع منكر. وإلى ذٰلك مال الدارقطني وابن الجوزي والمنذري والعسقلاني. لٰكن قال العسقلاني: «ومثله لا يقال بالرأي»! وفي قوله هٰذا نظر ظاهر، وكونه بالرأي محتمل جدًّا بل راجح، والأمثلة على نحوه من آراء الصحابة كثيرة.

* ورواه ابن أبي شيبة (٢٣٥١٥) من طريق قويّة عن عليّ موقوفًا.

* ورواه ابن الجعد (٢٠٣٥) من طريق قويّة عن حذيفة موقوفًا.

* ورواه ابن وهب في «الجامع» (٦٨٦) من طريق قويّة عن حبّان بن أبي جبلة لا أدري رفعه أم لا.

* ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٤٦) من طريق الثوري، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن وهب، عن ابن عمر... رفعه. قال أبو نعيم: «غريب من حديث الثوري عن أبي إسحاق». قلت: الطريق إلى سفيان=

إلى القولِ بهِ. ولا هوَ أوَّلٌ في المعقولِ. ولا يَأْتونَ عليهِ ببرهانٍ ولا دليلٍ مقنعٍ. وهٰذهِ هيَ الطُّرقُ التي تَثْبُتُ بها الموجوداتُ وتُعْلَمُ بها حقائقُ الأشياءِ، لا طريقَ هاهُنا غيرُها، ولا شيءَ لأحكامِ النُّجومِ منها.

= الثوري ضعيفة، وسعيد بن وهب مستور.

* ورواه البزّار (١١٧٠ـ مختصر الزوائد) من طريق لا بأس بها، عن الحسن، عن عمران... رفعه. قال المنذري والعسقلاني: «إسناده جيّد». وقال الهيثمي (٥/ ١٢٠): «رجاله رجال الصحيح، خلا إسحاق بن الربيع، وهو ثقة». قلت: بل صدوق يهم، والحسن عن عمران منقطع.

* ورواه: ابن حبّان في «المجروحين» (١/ ٣٠٣)، والطبراني في «الأوسط» (٦٦٦٦)، وابن عديّ (٣/ ١٠١٥)، والذهبي في «الميزان» (٢/ ٥٠)؛ من طريق محمّد بن أبي السريّ، ثنا رشدين بن سعد، عن جرير بن حازم، عن قتادة، عن أنس... رفعه. قال الهيثمي (٥/ ١٢١): «فيه رشدين بن سعد وهو ضعيف». قلت: وابن أبي السريّ كثير الأوهام، ولذٰلك قال العسقلاني: «سنده ليّن».

* ورواه: أحمد (٢/ ٤٠٨ و٤٧٦)، والدارمي (١/ ٢٥٩)، والبخاري في «التاريخ» (٣/ ١٦)، وابن ماجه (١ـ الطهارة، ١٢١ـ النهي عن إتيان الحائض، ١/ ٢٠٩/ ٦٣٩)، وأبو داوود (٢٢ـ الطب، ٢١ـ الكهّان، ٢/ ٤٠٨/ ٣٩٠٤)، والترمذي (١ـ الطهارة، ١٠٢ـ كراهية إتيان الحائض، ١/ ٢٤٢/ ١٣٥)، والنسائي في «الكبرى» (٩٠١٧)، وابن الجارود (١٠٧)، وابن المنذر في «الأوسط» (٧٩٥)، والطحاوي في «المعاني» (٣/ ٤٥)، والعقيلي (١/ ٣١٨)، وابن عدي (٢/ ٦٣٧)، وابن بطّة (٩٩٤ و١٠١٤)، والبيهقي (٧/ ١٩٨)؛ من طرق، عن حمّاد بن سلمة، ثنا حكيم الأثرم، عن أبي تميمة الهجيمي، عن أبي هريرة... رفعه. قال البخاري في ترجمة حكيم: «لا يتابع عليه، ولا يعرف لأبي تميمة سماع من أبي هريرة»، وتابعه الترمذي والدارقطني والمنذري. قلت: حكيم لا بأس بحديثه، وسماع أبي تميمة من أبي هريرة محتمل جدًّا.

وهاهنا متابعة رواها: إسحاق (١/ ٤٢٣/ ٤٨٢ و١/ ٤٣٤/ ٥٠٣)، وابن بطّة (٩٩٢)، والحاكم (١/ ٨)، والبيهقي (٨/ ١٣٥)؛ من طرق قويّة، عن عوف بن أبي جميلة، عن خلاس ومحمّد، عن أبي هريرة... رفعه. ورواية خلاس عن أبي هريرة صحيفة، لٰكن تابعه محمّد بن سيرين، فصحّ السند، وبذٰلك جزم الحاكم والذهبي والعراقي والعسقلاني.

ومتابعة ثانية رواها الطحاوي (٣/ ٤٤) من طريق إسماعيل بن عيّاش، عن سهيل، عن الحارث بن مخلد، عن أبي هريرة... رفعه. وهٰذا ضعيف: إسماعيل مخلّط في غير الشاميّين، والحارث فيه جهالة.

* ورواه البزّار (١١٧١ـ مختصر الزوائد): ثنا عقبة بن سنان، ثنا غسّان بن مضر، ثنا سعيد بن يزيد، عن أبي نضرة، عن جابر... رفعه. قال الهيثمي (٥/ ١٢٠): «رجال الصحيح، خلا عقبة بن سنان، وهو ضعيف». قلت: كأنّ هٰذا غلط مطبعي؛ لأنّ في مطبوع «مختصر زوائد البزّار» نقلاً عنه: «وهو ثقة»، وهو الحقّ، ولذٰلك قال المنذري: «إسناد قويّ جيّد».

فهٰذه عشرة وجوه لهٰذا الحديث، الخمسة الأولى ليست محلاً للاعتبار، والسادس والسابع والثامن ضعيفة في حدّ الاعتبار، والأخيران قويّان، والحديث صحيح غاية بمجموع الخمسة الأخيرة، وقد قوّى مفرداته الحاكم والذهبي والمنذري وابن كثير والهيثمي والعراقي والعسقلاني والألباني.

وأنا أبْتَدِئُ الآنَ بوصفِ جملةٍ مِن ٱختلافِهِم في الأُصولِ التي يَبْنُونَ عليها أمرَهُم ويُفَرِّعونَ عنها أحكامَهُم، وأذْكُرُ المستبشعَ مِن أقاويلِهِم وقضاياهُم وظاهرِ مناقضاتِهِم، ثمَّ آتي بطرفٍ مِنِ ٱحتجاجِهِم والاحتجاجِ عليهِم. واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ بفضلِهِ.

● **ذكرُ ٱختلافِهِم في الأُصولِ**: زَعَموا جميعًا أنَّ الخيرَ والشَّرَّ والإعطاءَ والمنعَ وما أشْبَهَ ذٰلكَ يَكونُ في العالَمِ بالكواكبِ وبحسبِ السُّعودِ منها والنُّحوسِ وعلى حسبِ كونِها مِن البروجِ الموافقةِ والمنافرةِ لها وعلى حسبِ نظرِها بعضِها إلى بعضٍ مِن التَّسديسِ والتَّربيعِ والتَّثليثِ والمقابلةِ وعلى حسبِ محاشدةِ بعضِها بعضًا وعلى حسبِ كونِها في شرفِها وهبوطِها ووبالِها[١]. ثمَّ ٱخْتَلَفوا على أيِّ وجهٍ يَكونُ ذٰلكَ:

فزَعَمَ قومٌ منهُم أنَّ فعلَها بطبائعِها!

وزَعَمَ آخرونَ أنَّ ذٰلكَ ليسَ فعلاً لها لٰكنَّها تَدُلُّ عليهِ بطبائعِها!

* **قُلْتُ**[٢]: وزَعَمَ آخرونَ أنَّها تَفْعَلُ في البعضِ بالعرضِ وفي البعضِ بالذَّاتِ.

● **قالَ**: وزَعَمَ آخرونَ أنَّها تَفْعَلُ بالاختيارِ لا بالطَّبعِ؛ إلاَّ أنَّ السَّعدَ منها لا يَخْتارُ إلاَّ الخيرَ، والنَّحسَ منها لا يَخْتارُ إلاَّ الشَّرَّ. وهٰذا بعينِهِ نفيٌ للاختيارِ؛ فإنَّ حقيقةَ القادرِ المختارِ القدرةُ على فعلِ أيِّ الضِّدَّينِ شاءَ وتركِ أيِّهِما شاءَ.

* **قُلْتُ**: ليسَ هٰذا بشيءٍ؛ فإنَّهُ لا يَلْزَمُ مِن كونِ المختارِ مقصورَ الاختيارِ على نوعٍ واحدٍ سلبُ ٱختيارِهِ[٣].

ولٰكنَّ الذي يُبْطِلُ هٰذا أنَّهُم يَقولونَ: إنَّ الكوكبَ النَّحسَ سعدٌ في برجِ كذا وفي بيتِ كذا وإذا كانَ النَّاظرُ إليهِ مِن النُّجومِ كذا وكذا، وكذٰلكَ الكوكبُ السَّعدُ...

---

(١) وكلّها من مصطلحات القوم المتعلّقة بمواضع النجوم بالنسبة للنجوم الأخرى أو للراصد، ولا أطيل عليك بتفصيلها؛ فإنّه لا طائل تحته ولا حاجة لك فيه.

(٢) القائل هو ابن القيّم قدّس الله روحه، وكذا كلّ ما صدّر بـ«قلت» فيما يأتي.

(٣) تعلّم من ٱبن القيّم هٰذا الإنصاف؛ يردّ قول ٱبن عيسى مع أنّه يجري في مصلحته ويعمل في صفّه! لم يقل: السكوت أفضل؛ لأنّ الردّ يطرّق علينا لأهل الضلالة ويمكّنهم من الاستطالة! ليتنا نكون كذٰلك! ليتنا نكون نصيفه! المشكل أنّنا عندما نحبّ ابن القيّم نتمسّك بفتاوى وٱختيارات وقضايا جزئيّة ونشدّ عليها ونعيب من خالفها، ثمّ نعرض عن هٰذه النفائس والأسس المنهجيّة التي لها أبلغ الأثر وأدومه من الناحية العمليّة.

ويقولونَ: إنَّها تَفْعَلُ بالذَّاتِ خيرًا وبالعرضِ شرًّا، وبالعكسِ... وقد يقولونَ: إنَّها تَخْتارُ في زمانٍ خلافَ ما تَخْتارُ في زمانٍ آخرَ، وقد تَتَّفِقُ كلُّها أو أكثرُها على إيثارِ الخيرِ فيَكونُ في العالمِ في ذٰلكَ الوقتِ على الأكثرِ الخيرُ والنَّفعُ والحسنُ، قالوا: كما كانَ في زمنِ هُرْمُزَ وفي أيَّامِ أنوشَرْوَانَ، وبضدِّ ذٰلكَ أيضًا.

فيُقالُ: إذا كانَتْ مختارةً وقد تَتَّفِقُ على إرادةِ الخيرِ وعلى إرادةِ الشَّرِّ[١]؛ بطلَ دلالةُ حصولِها في البروجِ المعيَّنةِ ودلالةُ نظرِ بعضِها إلى بعضٍ بتسديسٍ أو تربيعٍ أو تثليثٍ أو مقابلةٍ؛ لأنَّ هٰذا شأْنُ مَن لا يَقَعُ فعلُهُ إلَّا على وجهٍ واحدٍ في وقتٍ معيَّنٍ على شروطٍ معيَّنةٍ، ولا ريبَ أنَّ هٰذا يَنْفي الاختيارَ[٢]؛ فكيفَ يَصِحُّ قولُكُم بذٰلكَ وجمعُكُم بينَ هاتينِ القضيَّتينِ؛ أعني: جوازَ ٱختيارِها في زمانٍ خلافَ ما تَخْتارُهُ في زمانٍ آخرَ وجوازَ ٱتِّفاقِها على الخيرِ وٱتِّفاقِها على الشَّرِّ مِن غيرِ ضابطٍ ولا دليلٍ يَدُلُّكُم عليهِ، ثمَّ تَحْكُمونَ بتلكَ الأحكامِ مستندينَ فيها إلى حركاتِها المخصوصةِ وأوضاعِها ونسبةِ بعضِها إلى بعضٍ[٣]؟! وهل هٰذا إلَّا ضُحْكَةٌ للعقلاءِ؟!

● **قالَ**: وزَعَمَ آخرونَ أنَّها لا تَفْعَلُ بٱختيارٍ، بل تَدُلُّ بٱختيارٍ. وهٰذا كلامٌ لا يُعْقَلُ معناهُ؛ إلَّا أنِّي ذَكَرْتُهُ لمَّا كانَ مقولاً.

وٱخْتَلَفوا: فقالَتْ فرقةٌ: مِن الكواكبِ ما هو سعدٌ ومنها ما هوَ نحسٌ، وهيَ تُسْعِدُ غيرَها وتَنْحَسُهُ. وقالَتْ فرقةٌ: هيَ في أنفسِها طبيعةٌ واحدةٌ، وإنَّما تَخْتَلِفُ دلالتُها على السُّعودِ والنُّحوسِ وإنْ لمْ تَكُنْ في أنفسِها مختلفةً.

وٱخْتَلَفوا: فقالَ قومٌ: إنَّها تُؤَثِّرُ في الأبدانِ والأنفسِ جميعًا، وقالَ الباقونَ: بل في الأبدانِ دونَ الأنفسِ.

---

(١) في ط: «على إرادة الخير وعلى إرادة الخير والشرّ»! وهٰذا وهم ناسخ أو طابع، والصواب ما أثبتّه بدليل ما يأتي بعد سطور.

(٢) في ط: «هٰذا يبقي الاختيار»! وهٰذا تحريف قلب المعنى رأسًا على عقب.

(٣) تنبّه إلى أنّ القضيّتين اللتين جمعوهما جمع المتناقضات: إحداهما: جواز ٱختيار الكواكب في زمن خلاف ما تختاره في غيره وجواز ٱتّفاقها على خير أو شرّ. والثانية: دلالتها على السعود والنحوس والخير والشرّ عند حصولها في برج ما ومقابلتها لكوكب ما.

* **قُلْتُ**: أكثرُ المنجِّمينَ على القولِ بأنَّها تُسْعِدُ وتَنْحَسُ غيرَها.

وأمَّا الفرقةُ التي قالَتْ هيَ دالَّةٌ على السَّعدِ والنَّحسِ؛ فقولُهُم، وإنْ كانَ أقربَ إلى التَّوحيدِ مِن قولِ الأكثرينَ منهُم[١]، فهوَ أيضًا قولٌ مضطربٌ متناقضٌ؛ فإنَّ الدّلالةَ الجنسيَّةَ[٢] لا تَخْتَلِفُ ولا تَتَناقَضُ. وهٰذا قولُ مَن يَقولُ منهُم: إنَّ للفلكِ طبيعةً مخالفةً لطبيعةِ الأُسْتُقُصَّاتِ[٣] الكائنةِ الفاسدةِ، وإنَّها لا حارَّةٌ ولا باردةٌ ولا يابسةٌ ولا رطبةٌ ولا سعدٌ ولا نحسٌ فيها، وإنَّما يَدُلُّ بعضُ أجرامِها وبعضُ أجزائِها على الخيرِ وبعضُها على الشَّرِّ، وٱرتباطُ الخيرِ والشَّرِّ والسَّعدِ والنَّحسِ بها ٱرتباطُ المدلولاتِ بأدلَّتِها لا ٱرتباطُ المعلولاتِ بعللِها. ولا ريبَ أنَّ قائلَ هٰذا أعقلُ وأقربُ مِن أصحابِ القولِ بالاقتضاءِ الطَّبيعيِّ والعِلِّيَّةِ.

وأمَّا القولُ بتأثيرِها في الأبدانِ والأنفسِ؛ فهوَ قولُ بَطْلِيموسَ وشيعتِهِ وأكثرِ الأوائلِ مِن المنجِّمينَ. وهٰؤلاءِ لهُم قولانِ: أحدُهُما: أنَّها تَفْعَلُ في الأنفسِ بالذَّاتِ وفي الأبدانِ بالعرضِ؛ لأنَّ الأبدانَ تَنْفَعِلُ عنِ الأنفسِ. والثَّاني: أنَّها هيَ سببُ جميعِ ما في عالَمِ الكونِ والفسادِ وفعلُها في ذٰلكَ كلِّهِ بالذَّاتِ. وكأنَّهُ لا خلافَ بينَ الطَّائفتينِ؛ فإنَّ الذينَ قالوا فعلُها في النُّفوسِ[٤] لا يُضيفونَ ٱنفعالَ الأبدانِ إلى غيرِها بذاتِهِ[٥] بل بوسائطَ.

● **قالَ**: وٱخْتَلَفَ رؤساؤُهُم بَطْلِيموسُ ودُوْرْسُوسُ وأنْطِيقُوسُ ورِيمْسُسُ وغيرُهُم

---

(١) لأنّ من ذهب هٰذا المذهب لا يبعد أن يقول: إنّ الله عزّ وجلّ هو الذي أودع فيها خاصّيّة الدلالة على السعد والنحس. فهٰذا وإن كان ضلالة كبيرة وكذبًا على الله تعالى وقولًا عليه بغير علم؛ إلّا أنّه لا يخرج من الملّة. بخلاف قول من يرى النجوم فاعلة مختارة تنحس وتسعد وتعطي وتمنع وتقضي وتبرم كيف شاءت، فهٰذا جعل النجوم أربابًا مع الله، وٱتّخذها أندادًا من دون الله.

(٢) في ط: «الدلالة الحسنة»! ولا محلّ هنا لحسن ولا لقبح!! وأرجو أنّها محرّفة عمّا أثبتّ. ومعنى الكلام: أنّ الكواكب جنس واحد، والجنس الواحد لا تتغيّر دلالته وتختلف، فما الذي يجعل هٰذا يدلّ على نحس والآخر يدلّ على سعد وهما جنس واحد ومادّة واحدة؟!

(٣) الأُستقصّات: الأصول البسيطة.

(٤) يعني: أصحاب القول الأوّل الذين يقولون فعلها في النفوس بالذات وفي الأبدان بالعرض.

(٥) في ط: «إلى غيرها بذاتها»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه، والضمير راجع إلى «غيرها».

مِن علماءِ الرُّومِ والهِنْدِ وبابلَ في الحدودِ وغيرِها وتَضادُّوا في المواضعِ التي يَأْخُذونَ منها دليلَهُم: فبعضُهُم يُغَلِّبُ ربَّ بيتِ الطَّالعِ(١)، وبعضُهُم يَقولُ بالدَّليلِ المستولي على الحظوظِ!

وٱخْتَلَفوا: فزَعَمَ بَطْلِيمُوسُ أنَّهُ يَعْلَمُ سهمَ السَّعادةِ(٢) بأنْ: يَأْخُذَ أبدًا العددَ الذي يَحْصُلُ مِن موضعِ الشَّمسِ إلى موضعِ القمرِ، ويَبْتَدِئَ مِن الطَّالعِ فيَرْصُدَ منهُ مثلَ ذٰلكَ العددِ ويَأْخُذَ إلى الجهةِ التي تَتْلو مِن البروجِ، فيَكونُ قد عَرَفَ موضعَ السَّهمِ!

وزَعَمَ غيرُهُ أنَّهُ: يَعُدُّ مِن الشَّمسِ، ثمَّ يَبْتَدِئُ مِن الطَّالعِ فيَعُدُّ مثلَ ذٰلكَ إلى الجهةِ المتقدِّمةِ مِن البروجِ.

* قُلْتُ: وزَعَمَ آخرونَ أنَّ بَطْلِيمُوسَ يَرى أنَّ جميعَ ما يَكونُ ويَفْسُدُ إنَّما يُعْرَفُ دليلُهُ مِن موضعِ ٱلتقاءِ النَّيِّرينِ(٣)؛ إمَّا الاجتماعُ وإمَّا الامتلاءُ(٤)؛ لأنَّ هٰذينِ الكوكبينِ عندَهُ مثلُ الرَّئيسينِ العظيمينِ أحدُهُما يَأْتَمِرُ لصاحبِهِ ـ وهوَ القمرُ ـ، وهما سببا جميعِ ما يَحْدُثُ في عالمِ الكونِ والفسادِ، ولأنَّ(٥) الكواكبَ الجاريةَ والثَّابتةَ منهُما بمنزلةِ الجندِ والعسكرِ مِن السُّلطانِ. فإذا أرادَ النَّظرَ في أمرٍ مِن الأُمورِ: فإنْ كانَ بعدَ الاجتماعِ أو عندَهُ؛ يَأْخُذُ الدَّليلَ عليهِ مِن الكوكبِ المستولي على جزءِ الاجتماعِ وجزئَيِ الشَّمسِ والقمرِ في الحالِ(٦) ويُشارِكُهُ معَ الشَّمسِ بالنِّسبةِ إلى الطَّالعِ. وإذا كانَ بعدَ الامتلاءِ أو عندَهُ؛ فإنَّهُ يَنْظُرُ أيُّ النَّيِّرينِ كانَ فوقَ الأرضِ عندَ الامتلاءِ، ويَنْظُرُ إلى الكوكبِ المستولي على ذٰلكَ الجزءِ وجزءِ النَّيِّرِ الذي كانَ، [ثمَّ يَرْصُدُ](٧) بُعْدَ الشَّمسِ كبُعْدِ القمرِ

---

(١) الطالع هو البرج كما تقدّم، وربّ بيت الطالع: الكوكب السيّار الذي يجري في هٰذا البرج.

(٢) في ط: «بطليموس أنهم يعلم بهم السعادة»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه. وقد تقدّم (٣/ ١٣) التعريف بسهم السعادة.

(٣) هما الشمس والقمر كما هو واضح فيما يلي.

(٤) الاجتماع والاتّصال والمقارنة والاحتراق كلّها واحد، وهو مقارنة القمر للشمس وٱحتراقه بها وٱختفاؤه تمامًا من قبّة السماء. وكذٰلك البدور والاستقبال والامتلاء واحد، وهو ظهور القمر بكامل نوره.

(٥) في ط: «وأنّ»! والصواب ما أثبتّه.

(٦) في ط: «وفي الحال»! ولا محلّ للواو هنا.

(٧) زيادة لا بدّ منها ليستقيم الكلام نحويًّا على نسق كلام العرب، وأمّا فهمه فدونه خرط القتاد!

مِن سهمِ السَّعادةِ. فلذٰلكَ يَجِبُ عندَهُ أنْ يُؤْخَذَ العددُ أبدًا مِن الشَّمسِ إلى القمرِ؛ لِتَبقى تلكَ النِّسبةُ ـ وهيَ البعدُ بينَ كلِّ واحدٍ مِن النَّيِّرينِ ـ طالعَهُ محفوظًا[1]. فهٰذا قولٌ آخرُ غيرُ قولِ أُولٰئِكَ[2].

وللفرسِ مذهبٌ آخرُ، وهوَ أنَّهُم قالوا: لمَّا كانَتِ الشَّمسُ لها نوبةُ النَّهارِ والقمرُ لهُ نوبةُ الليلِ، وكانَ سهمُ السَّعادةِ بالنَّهارِ يُؤْخَذُ مِن الشَّمسِ إلى القمرِ؛ وَجَبَ أنْ يُعْكَسَ ذٰلكَ بالليلِ؛ لأنَّ نسبةَ النَّهارِ إلى الشَّمسِ مثلُ نسبةِ الليلِ إلى القمرِ، وكلُّ واحدٍ مِن النَّيِّرينِ يَنوبُ واحدًا مِن الزَّمانينِ، فيَأْخُذونَ سهمَ السَّعادةِ بالليلِ مِن القمرِ إلى الشَّمسِ وبالنَّهارِ بالعكسِ! وزَعَموا أنَّ كلامَ بَطْليمُوسَ إنَّما يَدُلُّ على هٰذا؛ لأنَّهُ قالَ: وإنْ أخَذْنا مِن الشَّمسِ إلى القمرِ إلى خلافِ تأْليفِ البروجِ وآلْقَيْناهُ بالعكسِ؛ كانَ موافقًا للأوَّلِ. فقالوا: يَجِبُ أنْ يُعْكَسَ الأمرُ بالليلِ!

فهٰذا آختلافُ المنجِّمينَ على بَطْليموسَ يَنْقُضُ بعضُهُ بعضًا، وليسَ بأيدي الطَّائفةِ برهانٌ يُرَجِّحونَ بهِ قولاً على قولٍ[3]، ﴿إنْ يَتَّبِعونَ إلاَّ الظَّنَّ وَإنَّ الظَّنَّ لا يُغْني مِنَ الحَقِّ شَيْئًا . فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إلاَّ الحَياةَ الدُّنْيا . ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ العِلْمِ إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ آهْتَدى﴾ [النجم: ٢٨-٣٠].

● **قالَ**: وآخْتَلَفوا: فرَتَّبَتْ طائفةٌ منهُمُ البروجَ المذكَّرةَ والمؤنَّثةَ مِن البرجِ الطَّالعِ، فعَدُّوا واحدًا مذكَّرًا وآخَرَ مؤنَّثًا، وصَيَّروا الابتداءَ بالمذكَّرِ! وقَسَّمَتْ طائفةٌ أُخرى البروجَ أربعةَ أجزاءٍ، وجَعَلوا البروجَ المذكَّرةَ هيَ التي مِن الطَّالعِ إلى وسطِ السَّماءِ والتي تُقابِلُها مِن الغربِ إلى وتدِ الأرضِ، وجَعَلوا الرُّبعينِ الباقيينِ مؤنَّثينِ!

---

(١) في ط: «طالعه محفوظ»! وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

(٢) وما هو والله بالواضح ولا المفهوم! ولست أدري ممّن جاء هٰذا الغموض؛ من بطليموس نفسه، أو من ترجمة كلامه إلى العربيّة، أو من آبن عيسى، أو آبن القيّم، أو الناسخ، أو الطابع! وفي كلّ حال؛ ففهم مثل هٰذه الطرق يحتاج إلى صور بيانيّة وأمثلة لمصطلحات القوم، ولا أحبّ والله أن أضيّع أوقاتي وأوقات القارئ بمثل هٰذا. والله يرحم ابن القيّم ويغفر له، كان بحرًا واسعًا، ومن ذا يستطيع مجاراته في موسوعيّته؟!

(٣) فإذا عرفت أنّ قول بطليموس نفسه لا يعدو أن يكون ظنًّا مبتدعًا وهوًى متّبعًا لم يأت صاحبه عليه بأثارة من علم ولا حجّة من عقل ولا دليل من تجربة؛ بان لك على أيّ جرف هار بنى القوم بنيانهم.

* **قُلْتُ**: ومِن هذيانِهِم في هٰذا الذي أضْحَكوا بهِ عليهِمُ العقلاءَ أنَّهُم جَعَلوا البروجَ قسمينِ؛ حارَّ المزاجِ وباردَ المزاجِ، وجَعَلوا الحارَّ منها ذكرًا والباردَ أُنثى! وٱبْتَدَؤُوا بالحَمَلِ وصَيَّروهُ ذكرًا حارًّا، ثمَّ الذي بعدَهُ مؤنَّثًا باردًا[١]، ثمَّ هٰكذا إلى آخرِها، فصارَتْ ستَّةٌ ذكورًا وستَّةٌ إناثًا، ولَيْسَتْ على الولاءِ[٢]، بل واحدٌ ذكرٌ وثلاثةٌ أُخرُ أُنثى مخالفةٌ لهُ[٣] في الطَّبيعةِ والذُّكوريَّةِ والأُنوثيَّةِ! معَ أنَّ قسمةَ الفلكِ إلى البروجِ قسمةٌ فرضيَّةٌ وضعيَّةٌ! فهلْ في أنواعِ هذيانِ الهاذينَ أعجبُ مِن هٰذا؟!

ولمَّا رَأى مَن بِهِ رمقٌ مِن عقلٍ منهُم تهافتَ هٰذا الكلامِ وسخريةَ العقلاءِ منهُ؛ رامَ تقريبَهُ بغايةِ جهدِهِ وحذقِهِ، فقالَ: إنَّما ٱبْتَدَأَ بالذَّكرِ دونَ الأُنثى لأنَّ الذَّكرَ أشرفُ مِن الأُنثى؛ لأنَّهُ فاعلٌ والأُنثى منفعلةٌ! فٱعْجَبوا يا معشرَ العقلاءِ! وٱسْألوا اللهَ أنْ لا يَخْسِفَ بعقولِكُم كما خَسَفَ بعقولِ هٰؤلاءِ لهٰذا الهذيانِ! أفترى في البروجِ ناكحًا ومنكوحًا يكونُ المنكوحُ منها منفعلاً لناكحِهِ بالذُّكوريَّةِ والأُنوثيَّةُ تابعةٌ لهٰذا الفعلِ والانفعالِ فيها؟!

● قالَ: وأيضًا؛ فالذُّكوريَّةُ سببُ الإفرادِ والإزواجِ فيها[٤]؛ فإنَّ الأفرادَ ذكورٌ والأزواجَ إناثٌ! وهٰذا أعجبُ مِن الأوَّلِ؛ أنَّ الذَّكرَ يَنْضَمُّ إلى الذَّكرِ فيَصيرُ المضمومُ إليهِ أُنثى! فتبًّا للمصغي إليكُم والمجوِّزِ عقلُهُ صدقَكُم وإصابتَكُم! وأمَّا أنتُم؛ فقد أشْهَدَ اللهُ سبحانَهُ عقلاءَ عبادِهِ وأنْبَأهُم مقدارَ عقولِكُم وسخافتَها. فللهِ الحمدُ والمنَّةُ.

* [قُلْتُ][٥]: قالَ المنتصرُ لهُم: وإنَّما جَعَلوا الأفرادَ للذَّكرِ والأزواجَ للأُنثى: لأنَّ الفردَ يَحْفَظُ طبيعتَهُ؛ أعْني: يَنْقَسِمُ دائمًا إلى فردٍ. والزَّوجَ لا يَحْفَظُ طبيعتَهُ؛ أعْني: يَنْقَسِمُ مرَّةً إلى الأفرادِ ومرَّةً إلى الأزواجِ، كما يَعْرِضُ ذٰلكَ للأُنثى؛ فإنَّها تَلِدُ مرَّةً مثلَها

---

(١) والذي بعده هو الثور! فكيف يكون الحمل مذكّرًا حارًّا والثور مؤنّثًا باردًا؟! والله؛ لا يستحقّ هٰؤلاء الناس أن يلتفت إليهم ولا أن تسوّد الصفحات في الردّ عليهم لولا أنّ المصيبة بهم عمّت وطمّت.

(٢) ليست على الولاء: ليست متتالية كلّ ذكر بين أنثيين بالضرورة! لٰكن هٰذا يناقض ما سبقه من قوله: «وصيّروه ذكرًا حارًّا ثمّ الذي بعده مؤنّثًا باردًا ثمّ هٰكذا...»!

(٣) في ط: «مخالف له»! وليس بالمستقيم!

(٤) في ط: «الانفراد والإزواج فيها»! وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه! ومع ذٰلك فالكلام غير واضح! ولا يبعد أنّ فيه سقطًا، وفي كلّ حال فالمراد أنّ الذكوريّة سبب الإفراد والازواج سبب التأنيث.

(٥) زيادة يقتضيها السياق؛ لأنّ الكلام التالي ليس من كلام ابن عيسى بل هو من تعقّبات ابن القيّم.

ومرَّةً ذكرًا مخالفًا لها ومرَّةً ذكرينِ ومرَّةً أُنثيينِ ومرَّةً ذكرًا وأُنثى!

وفسادُ هٰذا والعلمُ بفسادِ عقلِ صاحبِهِ ونظرِهِ مغنٍ لذي اللبِّ عن تطلُّبِ دليلِ فسادِهِ.

قالَ المنتصرُ: وإنَّما جَعَلوا للبرجِ الأُنثى مثلَ برجِ الذَّكرِ[١]؛ فلأنَّ الطبيعةَ هٰكذا أَلِفَتِ الأعدادَ واحدًا فردًا وآخرَ زوجًا هٰكذا بالغًا ما بَلَغَ!

هٰذهِ القسمةُ عندَهُم هيَ قسمةٌ ذاتيَّةٌ للبروجِ. ولها قسمةٌ ثانيةٌ بالعرضِ، وهيَ أنَّهُم يَبْدَؤُونَ مِن الطَّالعِ إلى الثَّاني عشرَ، فيَأْخُذونَ واحدًا ذكرًا وهوَ الأوَّلُ وآخرَ أُنثى وهوَ ما يَليهِ.

وهٰذهِ تَخْتَلِفُ بحسبِ ٱختلافِ الطَّالعِ. والقسمةُ الأُولى إنَّما كانَتْ ذاتيَّةً؛ لأنَّ الابتداءَ لها برأْسِ الحملِ، وهوَ موضعُ تقاطعِ الدَّائرتينِ اللتينِ هُما فلكُ البروجِ ومعدَّلُ النَّهارِ والليلِ[٢]. وأمَّا القسمةُ الأُخرى؛ فإنَّهُ[٣] لا يَبْقى على حالٍ واحدةٍ؛ لأنَّهُ مأْخوذٌ مِن الجزءِ المماسِّ لأُفقِ البلدِ، وهوَ دائمًا يَتَغَيَّرُ بحركتِهِ معَ الكلِّ وحصولِ الأجزاءِ كلِّها واحدًا بعدَ آخرَ على الأُفقِ دورةً واحدةً.

وأمَّا قسمةُ الفلكِ أرباعًا؛ فإنَّهُم قالوا: إذا خَرَجَ خطٌّ مِن أُفقِ المشرقِ إلى أُفقِ المغربِ، وخطٌّ مِن وتدِ الأرضِ إلى وسطِ السَّماءِ؛ ٱنْقَسَمَتِ البروجُ أربعةَ أقسامٍ، كلُّ قسمٍ ثلاثةُ بروجٍ على طبيعةٍ واحدةٍ، ٱبتداءُ كلِّ قسمٍ مِن طرفِ قطرٍ إلى طرفِ القطرِ الذي يَليهِ، وأطرافُ هٰذينِ القطرينِ تُسَمَّى أوتادَ العالمِ: والقسمُ الأوَّلُ مِن وتدِ المشرقِ إلى وتدِ العاشرِ ذكرٌ شرقيٌّ مجفِّفٌ سريعٌ[٤]، ومِن وتدِ العاشرِ إلى وتدِ الغاربِ مؤنَّثٌ جنوبيٌّ

---

(١) في ط: «للبرج الأنثى بل برج الذكر»! وما هو بالمفهوم، وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه! ويكون المعنى: جعلوا عدد البروج الإناث مثل عدد البروج الذكور!

(٢) لأنّ رأس الحمل أو بدايته تكون في ٢١ آذار من كلّ عام، وهو يوم الاعتدال الربيعيّ، حيث يستوي الليل والنهار، فهٰذا مراده بمعدّل النهار والليل.

(٣) في ط: «ومعدّل النهار وأمّا الليل للقسمة فإنّه»! وفيه تحريف أو سقط أو كلاهما، وأرجو أنّ ما أثبتّه يفي بالمراد ويوضّح المقصود.

(٤) في ط: «مخفّف سريع»؛ بالخاء! وهٰذا تصحيف بيّن صوابه ما أثبتّه.

محرقٌ وسطٌ، ومِن ذيلِ الغاربِ إلى وتدِ الرَّابعِ ذكرٌ مقبلٌ رطبٌ غربيٌّ بطيءٌ، ومِن وتدِ الرَّابعِ إلى وتدِ الطَّالعِ مؤنَّثٌ دليلٌ مبرِّدٌ شماليٌّ وسطٌ(١).

وهٰذهِ القسمةُ مخالفةٌ لتلكَ القسمتينِ؛ لأنَّ هٰذهِ قسمةُ البروجِ بأربعةِ أقسامٍ متساويةٍ؛ كلُّ ثلاثةِ بروجٍ منها تسعونَ درجةً لها طبيعةٌ تَخُصُّها! معَ أنَّ الفلكَ شيءٌ واحدٌ وطبيعةٌ واحدةٌ، وقسمتُهُ إلى الدَّرَجِ(٢) والبروجِ قسمةٌ وهميَّةٌ بحسبِ الوضعِ، فكيفَ ٱخْتَلَفَتْ طبائعُها وأحكامُها وتأثيراتُها وٱخْتَلَفَتْ بالذُّكوريَّةِ والأُنوثيَّةِ؟!

ثمَّ إنَّ بعضَ الأوائلِ منهُم لمْ يَقْتَصِرْ على ذٰلكَ، بلِ ٱبْتَدَأَ بالدَّرجةِ الأُولى مِن الحَمَلِ(٣) فنَسَبَها إلى الذُّكوريَّةِ والثَّانيةَ إلى الأُنوثيَّةِ... [و](٤)هٰكذا إلى آخرِ الحوتِ(٥)!

ولا ريبَ أنَّ [هٰذا](٤) الهذيانَ لازمٌ لمَن قالَ بقسمةِ البروجِ إلى ذكرٍ وأُنثى وقالَ الذَّكرُ طبيعةُ الفردِ والأُنثى طبيعةُ الزَّوجِ؛ فإنَّ هٰذا بعينِهِ لازمٌ لهُم في درجاتِ البرجِ الواحدِ! وكأنَّ هٰذا القائلَ تَصَوَّرَ لزومَهُ لأُولٰئكَ فٱلْتَزَمَهُ!

وأمَّا بَطْلِيمُوسُ؛ فلهُ هذيانٌ آخرُ؛ فإنَّهُ ٱبْتَدَأَ بأوَّلِ درجةِ [مِن](٤) كلِّ برجٍ ذكرٍ: فنَسَبَ منها إلى تمامِ ٱثنتي عشرةَ درجةً ونصفٍ(٦) إلى الذُّكوريَّةِ، ومنهُ إلى تمامِ خمسٍ وعشرينَ درجةً إلى الأُنوثيَّةِ، ثمَّ قَسَّمَ باقي البرجِ بالنِّصفينِ فنَسَبَ النِّصفَ الأوَّلَ إلى الذَّكرِ والنِّصفَ الآخرَ إلى الأُنثى! وعلى هٰذهِ القسمةِ ٱبْتَدَأَ بالبروجِ الأُنثى: فنَسَبَ الثُّلثَ ونصفَ السُّدسِ(٧) إلى الأُنوثيَّةِ، ومثلَها بعدَهُ إلى الذُّكوريَّةِ، وبَقِيَ

---

(١) كذا! وفي القسمة إشكاليّة من حيث الجهات لم أستطع تصوّرها بعد طول عناء. وكذٰلك لم أفهم المقصود بـ«ذكر مقبل» و«مؤنّث دليل»!

(٢) الدرج: جمع درجة، والدرجة وحدة لقياس الزوايا، تشكل فيها كلّ ٣٦٠ درجة دائرة كاملة.

(٣) يعني: برج الحمل.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) وهو آخر الأبراج عندهم، ويبدأ من ٢/١٩ وينتهي بـ ٣/٢٠ على الحساب الميلاديّ.

(٦) في ط: «ٱثنتي عشرة درجة وبضعًا»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه. فكأنّ «نصف» جاءت منصوبة خطأً، ثمّ تحرّفت إلى «بضعًا».

(٧) للبرج الواحد في قبّة السماء ٣٠ درجة، فالثلث ١٠ درجات، ونصف السدس ٢,٥ درجة، والمجموع ١٢,٥ درجة. وعليه؛ فقد فعل بطليموس في الأبراج المؤنّثة ما فعله في المذكّرة سواء؛ إلّا أنّه بدأ=

سدسٌ[١] قَسَمَهُ بنصفينِ فَنَسَبَ النِّصفَ الأوَّلَ إلى الأُنثى والآخرَ إلى الذَّكرِ كما عَمِلَ بالبرجِ الذَّكرِ! حتَّى أتى على البروجِ كلِّها.

وأمَّا دُوْرُوسُوسُ؛ فلهُ هذيانٌ آخرُ؛ فإنَّهُ يُقَسِّمُ البروجَ كلَّها، كلُّ برجٍ ثمانيةٌ وخمسونَ دقيقةً ومئةٌ وخمسونَ ثانيةً[٢]، ثمَّ يَنْظُرُ: فإنْ كانَ البرجُ ذكرًا؛ أعْطى القسمةَ الأولى للذَّكرِ ثمَّ الثَّانيةَ للأُنثى إلى أنْ يَأْتِيَ على الأقسامِ كلِّها، وإنْ كانَ البرجُ أُنثى؛ أعطى القسمةَ الأُولى [للأُنثى ثمَّ الثَّانيةَ][٣] للذَّكرِ إلى أنْ يَأْتِيَ على الأقسامِ كلِّها.

ولو قُدِّرَ أنَّ جاهلاً آخرَ تَفَنَّنَ في هٰذهِ الأوضاعِ وقَلَبَها وتَكَلَّمَ عليها؛ كانَ مِن جنسِ كلامِهِم، ولمْ يَكُنْ عندَهُم مِن البرهانِ ما يَرُدُّونَ بهِ قولَهُ، بل إنْ رَأَوْهُ قد أصابَ في بعضِ أحكامِهِ لا في أكثرِها؛ أحْسَنوا بهِ الظَّنَّ وتَقَلَّدوا قولَهُ وجَعَلوهُ قدوةً لهُم! وهٰذا شأْنُ الباطلِ[٤].

● **عُدْنا إلى كلامِ عيسى في رسالتِهِ؛ قالَ**: واخْتَلَفوا في الحدودِ: فزَعَمَ أهلُ مِصْرَ أنَّها تُؤْخَذُ مِن أربابِ البيوتِ، وزَعَمَ الكلْدانيُّونَ أنَّها تُؤْخَذُ مِن مدبِّرِ المثلَّثاتِ[٥]. وإذا كانَ اختلافُ الذينَ يَعْتَدُّونَ بهِم في أُصولِهِم هٰذا الاختلافَ، وليسَ هُم ممَّن يُطالِبُ بالبرهانِ ولا يَعْتَقِدُ الشَّيءَ حتَّى يَصِحَّ على البحثِ والقياسِ فيَعْرِفوا[٦] معَ مَنِ الحقُّ مِن رؤسائِهِم وفي أيِّ قولٍ هوَ مِن أقوالِهِم فيَعْمَلونَ بهِ، وإنَّما طريقتُهُم التَّسليمُ لِما وَجَدوهُ في الكتبِ المنقولةِ مِن لسانٍ إلى لسانٍ، فكيفَ يَجوزُ لهُم أنْ يَتَفَرَّدوا باعتقادِ قولٍ مِن هٰذهِ الأقوالِ ويَنْصَرِفوا عمَّا سواهُ إلاَّ على طريقِ الشَّهوةِ والتَّخمينِ؟! واللهُ المستعانُ.

= في المذكّر بالنسبة إلى الذكر وفي المؤنّث بالنسبة إلى الأنثى. ولو جعل الكلام في المؤنّثة على نسق الكلام في المذكّرة؛ لوفّر علينا هٰذا العناء، ففي الكلام من التعقيد والاستغلاق ما يكفي ويفي.

(١) وهو الدرجات الخمس الفاضلة بعد خصم ١٠+ ٥, ٢+ ١٠+ ٥, ٢ من ٣٠.

(٢) يعني: يقسّم كلّ برج إلى ثلاثين قسمًا، كلّ قسم درجة واحدة تقريبًا.

(٣) ساقطة من ط، ولا بدّ منها ليستقيم الكلام.

(٤) ولقد كنت أعلم أنّ القوم أهل دجل ونفاق، لٰكن أن تصل الصفاقة وقلّة الحياء وضمور العقول إلى هٰذه الدرجة؛ فهو فوق التصوّر والله.

(٥) لم يتبيّن لي مرادهم بـ «مدبّر المثلّثات».

(٦) في ط: «فيعرفون»! ولها وجه ضعيف، والأولى ما أثبتّه.

● **ذكرُ بعضِ ما يُسْتَبْشَعُ مِن أقوالِهِم ويُسْتَدَلُّ بهِ على مناقضتِهِم:**

مِن ذٰلكَ زعمُهُم أنَّ الفلكَ جسمٌ واحدٌ وطبيعةٌ واحدةٌ وأنَّهُ شيءٌ واحدٌ وليسَ بأشياءَ مختلفةٍ، ثمَّ زَعَموا بعدَ ذٰلكَ أنَّ بعضَهُ ذكرٌ وبعضَهُ أُنثى، ولا دلالةٌ لهُم على ذٰلكَ ولا برهانٌ، ولا وَجَدْنا جسمًا واحدًا في الشَّاهدِ بعضُهُ ذكرٌ وبعضُهُ أُنثى!

* **قُلْتُ**: قد رامَ بعضُ الملبِّسينَ مِن فضلائِهِم تصحيحَ هٰذا الهذيانِ فقالَ: ليسَ يَسْتَحيلُ أنْ يكونَ جسمٌ واحدٌ بعضُهُ أُنثى وبعضُهُ ذكرٌ: كالرَّجلِ مثلاً؛ فإنَّ العينَ والأُذنَ واليدَ والرِّجلَ منهُ مؤنَّثةٌ، والرَّأْسَ والصُّلبَ والصَّدرَ والظَّهرَ منهُ ذكرٌ. وأيضًا؛ فإنَّ الجسمَ مركَّبٌ مِن الهَيُولى[1] والصُّورةِ، والهَيُولَى مذكَّرةٌ[2] والصُّورةُ مؤنَّثةٌ. وأيضًا؛ لمَّا وَجَدَ المنجِّمونَ الشَّمسَ تَدُلُّ على الآباءِ والأبُ ذكرٌ، والقمرَ يَدُلُّ على الأُمِّ وهيَ أُنثى؛ قالوا: إنَّ الشَّمسَ ذكرٌ والقمرَ أُنثى[3]. قالوا: وقد قالَ أرِسْطُو في كتابِ «الحيوان»: طمثُ المرأةِ يَقِلُّ في نقصانِ الشَّهرِ[4]. وكذٰلكَ قالَ بعضُ النَّاسِ: إنَّ القمرَ أُنثى. وقالوا أيضًا: فالشَّمسُ إذا كانَتْ قريبًا مِن سمتِ الرُّؤوسِ[5]؛ كانَ الحرُّ واليبسُ وهُما مِن طبيعةِ الذُّكوريَّةِ، والقمرُ إذا كانَ يَقْرُبُ مِن سمتِ الرُّؤوسِ بالليلِ؛ كانَ البردُ والرُّطوبةُ[6] وهُما مِن طبيعةِ الأُنثى! فلْيَعْجَبِ العاقلُ اللبيبُ مِن هٰذهِ الخرافاتِ!

فأمَّا أعضاءُ الإنسانِ الذُّكورُ والأُنثى؛ فذٰلكَ أمرٌ راجعٌ إلى مجرَّدِ اللفظِ وإلحاقِ علامةِ التَّأْنيثِ في تصغيرِهِ ووصفِهِ وخبرِهِ وعودِ الضَّميرِ عليهِ بلفظِ التَّأْنيثِ وجمعِهِ جمعَ المؤنَّثِ، وليسَ ذٰلكَ عائدًا إلى طبيعةِ العضوِ ومزاجِهِ. فنظيرُ هٰذا قولُ النُّحاةِ: الشَّمسُ مؤنَّثةٌ؛ للحاقِ العلامةِ لها في تصغيرِها فنَقولُ شُمَيْسَةٌ، وفي الخبرِ عنها نحوُ الشَّمسُ

---

(١) الهيولى: الأصل، المادّة الأوّليّة.

(٢) كيف؟! اللفظ مؤنّث، والمعنى مؤنّث! فما لهٰؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا.

(٣) مع أنّ اللفظ لا يساعد على هٰذا التقسيم في اللغة العربيّة وكثير غيرها من لغات الخلق.

(٤) كذا في ط! وسيذكر ابن القيّم رحمه الله قريبًا أنّه تحريف من المنجّمين لكلام أرسطو، فالظاهر أنّه تحريف في اللفظ والمعنى معًا، وهو اللائق بأهل التقليد الأعمى، ولذٰلك أثبتّه كما هو.

(٥) قريبًا من سمت الرؤوس: قريبة من أن تكون عموديّة على الرؤوس.

(٦) وهٰذا غير صحيح إطلاقًا. والقمر يقرب من سمت الرؤوس في الحرّ والبرد.

طالعةٌ. والقمرُ مذكَّرٌ لعدمِ لحاقِ العلامةِ لهُ في شيءٍ مِن ذٰلكَ. فعلى هٰذا الوجهِ وَقَعَ التَّذكيرُ والتَّأْنيثُ في أعضاءِ الحيوانِ[1]. وأمَّا قسمتُكُمُ البروجَ وأجزاءَ الفلكِ إلى مذكَّرٍ ومؤنَّثٍ؛ فلَيْسَتْ بهٰذا الاعتبارِ، بل بٱعتبارِ الفعلِ والانفعالِ والحرارةِ والرُّطوبةِ. فتشبيهُ أحدِ البابينِ بالآخرِ تلبيسٌ وجهلٌ.

وأمَّا تركُّبُ الجسمِ مِن الهَيُولَى والصُّورةِ؛ فأكثرُ العقلاءِ نَفَوْهُ وقالوا: هوَ شيءٌ واحدٌ متَّصلٌ متواردٌ عليهِ الاتِّصالُ والانفصالُ كما يَتَوارَدُ عليهِ غيرُهُما مِن الأعراضِ فيَقْبَلُها، ولا يَلْزَمُهُ مِن قبولِ الاتِّصالِ والانفصالِ أنْ يَكونَ هناكَ شيءٌ آخرُ غيرُ الجسميَّةِ يَقْبَلُ بهِ ذٰلكَ. والذينَ قالوا بتركيبِهِ منهُما لمْ يَقُلْ أحدٌ منهُم أصلاً إنَّهُ مركَّبٌ مِن ذكرٍ وأُنثى. والصُّورةُ مؤنَّثةٌ في اللفظِ لا في الطَّبيعةِ. وا ضحكاهُ على عقولِهِمُ السَّخيفةِ!

وأمَّا دلالةُ الشَّمسِ على الأبِ وهوَ مذكَّرٌ ودلالةُ القمرِ على الأُمِّ وهيَ أُنثى؛ فلو سَلِمَتْ لكُم هٰذهِ الدّلالةُ؛ كيفَ يَلْزَمُ منها تذكيرُ ما دَلَّ على الذَّكرِ وتأْنيثُ ما يَدُلُّ على الأُنثى؟! وأينَ الارتباطُ العقليُّ بينَ الدَّليلِ والمدلولِ في ذٰلكَ؟! كيفَ؛ ودلالةُ الشَّمسِ على الأبِ والقمرِ على الأُمِّ مبنيَّةٌ[2] على تلكَ الدَّعاوى الباطلةِ التي ليسَ لها مستندٌ [تَسْتَنِدُ] إليهِ إلَّا خيالاتٌ وأوهامٌ لا يَرْضاها العقلاءُ[3].

وأمَّا ما حَكَوْهُ عن أرِسْطو؛ فنقلٌ محرَّفٌ، ونحنُ نَذْكُرُ نصَّهُ في الكتابِ المذكورِ؛ فإنَّ لنا بهِ نسخةً مصحَّحةً قدِ ٱعْتُنِيَ بها[4].

قالَ في المقالةِ الثَّامنةَ عشرةَ[5] بعدَ أنْ تَكَلَّمَ في علَّةِ الإذكارِ والإيناثِ، وذَكَرَ قولَ مَن قالَ إنَّ سببَ الإذكارِ حرارةُ الرَّحِمِ وسببَ الإيناثِ برودتُهُ، وأبْطَلَ هٰذا بأنَّ الرَّحِمَ

---

(١) ولذٰلك تتفاوت اللغات المختلفة في ذٰلك تذكيرًا وتأنيثًا، فما كان في العربيّة مذكّرًا تجده في الألمانيّة مثلاً مؤنّثًا، وهٰذا أمر عانيت منه كثيرًا خلال دراستي للغة الألمانيّة. فالمسألة ٱصطلاحيّة صرفة.

(٢) في ط: «مبنيّ»، ولها وجه ضعيف، والأولى ما أثبتّه.

(٣) ولو عكس عليهم المخالف فقال: بل الشمس لفظة مؤنّثة في العربيّة وغيرها من لغات العالم ـ في حدّ ٱطّلاعي ـ، فوجب أن تكون دلالتها على الأنثى؛ لكان من جنس قولهم، بل أولى بالقبول!

(٤) وهٰذا يصدّق ما أشار إليه كثير من المؤرّخين من سعة مكتبة ٱبن القيّم وعظيم ولعه بٱقتناء الكتب. وٱنظر ما تقدّم (١/ ١٤).

(٥) في ط: «الثامنة عشر»! والصواب ما أثبتّه.

مشتملٌ على الذَّكرِ والأُنثى معًا في الإنسانِ وفي كلِّ حيوانٍ يَلِدُ، وقالَ: فقد كانَ يَنْبَغي على قولِ هٰذا القائلِ أنْ يَكونَ التَّوأمانِ إمَّا ذكرينِ وإمَّا أُنثيينِ. وأبْطَلَهُ بوجوهٍ أُخرَ. وهٰذا رأْيُ أنْبَذَقْليسَ. وذَكَرَ قولَ دِيْمُقْراطِيسَ أنَّ ذٰلكَ ليسَ لأجلِ حرارةِ الرَّحمِ وبرودتِهِ، بل بحسبِ الماءِ الذي يَخْرُجُ مِن الذَّكرِ وطبيعتِهِ في الحرارةِ والبرودةِ، وجَعَلَ قوَّةَ الإذكارِ والإيناثِ تابعةً لماءِ الذَّكرِ. وذَكَرَ قولَ طائفةٍ أُخرى أنَّ خروجَ الماءِ مِن النَّاحيةِ اليمنى مِن البدنِ هيَ علَّةُ الإذكارِ، وخروجَهُ مِن النَّاحيةِ اليسرى هيَ علَّةُ الإيناثِ، قالَ: إنَّ النَّاحيةَ اليمنى مِن الجسدِ أسخنُ مِن النَّاحيةِ اليسرى وأنضجُ وأدفأُ مِن غيرِها. ورَجَّحَ قولَ دِيْمُقْراطيسَ بالنِّسبةِ إلى هٰذهِ الآراءِ[1]. ثمَّ قالَ: فقد بيَّنَّا العلَّةَ التي مِن أجلِها يُخْلَقُ في الرَّحمِ ذكرٌ وأُنثى، والأعراضُ التي تَعْرِضُ تَشْهَدُ لِما بيَّنَّا؛ [فـ]ـإنَّ الأحداثَ يَلِدونَ الإناثَ أكثرَ مِن الشَّبابِ، والمتشيِّبونَ يَلِدونَ إناثًا أيضًا أكثرَ مِن الشَّبابِ؛ لأنَّ الحرارةَ التي في الأحداثِ لَيْسَتْ بتامَّةٍ بعدُ، والحرارةُ التي في الشُّيوخِ ناقصةٌ، والأجسامُ الرَّطبةُ التي خلقتُها شبيهةٌ بخلقةِ بعضِ النِّساءِ تلدُ إناثًا أكثرَ. ثمَّ قالَ: فإذا كانَتِ الرِّيحُ شمالاً؛ كانَ الولدُ ذكرًا، وإذا كانَتْ جنوبًا؛ كانَ المولودُ أُنثى؛ لأنَّ الأجسادَ إذا هَبَّتْ مِن الجنوبِ؛ كانَتْ رطبةً[2]، وكذٰلكَ يَكونُ الزَّرعُ أكثرَ، وكلَّما كَثُرَ الزَّرعُ؛ يَكونُ الطَّبخُ غيرَ نضجٍ. ولحالِ هٰذهِ العلَّةِ يَكونُ زرعُ الذُّكورِ أرطبَ، ويَكونُ دمُ طمثِ النِّساءِ مِن قِبَلِ الطِّباعِ عندَ خروجِهِ أرطبَ أيضًا.

قُلْتُ: ومرادُهُ بالزَّرعِ الماءُ الذي يَكونُ مِن الرَّجلِ.

قالَ: ولحالِ هٰذهِ العلَّةِ يَكونُ طمثُ النِّساءِ مِن قِبَلِ الطِّباعِ في نقصِ الأهلَّةِ أكثرَ؛ لأنَّ تلكَ الأيَّامَ أبردُ مِن سائرِ أيَّامِ الشَّهرِ، وهيَ أرطبُ أيضًا لنقصِ الأهلَّةِ وقلَّةِ الحرارةِ، والشَّمسُ تُصَيِّرُ الصَّيفَ والشِّتاءَ في كلِّ سنةٍ، فأمَّا القمرُ؛ فيَفْعَلُ ذٰلكَ في كلِّ شهرٍ.

فتأمَّلْ كلامَ الرَّجلِ؛ فإنَّهُ لمْ يَتَعَرَّضْ لكونِ القمرِ ذكرًا ولا أُنثى ولا أحالَ على

---

(١) وهو أقرب الأقوال للصحيح المعتمد عند الأطبّاء المعاصرين.

(٢) يعني: لأنّ الأجساد تكون رطبة إذا هبّت الريح من الجنوب... وإنّما اضطربت العبارة على هٰذا النحو بحكم الترجمة الحرفية.

ذٰلكَ، وإنَّما أحالَ على الأُمورِ الطَّبيعيَّةِ في الكائناتِ الفاسداتِ، وبيَّنَ تأْثيرَ النَّيِّرينِ في الرُّطوبةِ واليبوسةِ والحرارةِ والبرودةِ، وجَعَلَ لذٰلكَ تأْثيرًا في الإذكارِ والإيناثِ لا للنُّجومِ والطَّوالعِ.

ومعَ أنَّ كلامَهُ أقربُ إلى العقولِ مِن كلامِ المنجِّمينَ فهوَ باطلٌ مِن وجوهٍ كثيرةٍ[1] معلومةٍ بالحسِّ والعقلِ وأخبارِ الأنبياءِ؛ فإنَّ الإذكارَ والإيناثَ لا يقومُ عليهِ دليلٌ ولا يَسْتَنِدُ إلى أمرٍ طبيعيٍّ، وإنَّما هوَ مجرَّدُ مشيئةِ الخالقِ البارئ المصوِّرِ الذي ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إناثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكورَ . أوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرانًا وَإناثًا ويَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقيمًا إنَّهُ عَليمٌ قَديرٌ﴾ [الشُّورى: ٤٩-٥٠]، ﴿الَّذي أعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ [طٰه: ٥٠]، ولهٰذا هوَ قرينُ الأجلِ والرِّزقِ والسَّعادةِ والشَّقاوةِ، حيثُ يَسْتَأْذِنُ الملكُ الموكَّلُ بالمولودِ ربَّهُ وخالقَهُ، فيَقولُ: يا ربِّ! أذكرٌ أم أُنثى؟ سعيدٌ أم شقيٌّ؟ فما الرِّزقُ؟ فما الأجلُ؟ فيَقْضي اللهُ ما يَشاءُ ويَكْتُبُ الملكُ[2].

ولاستقصاءِ الكلامِ في هٰذهِ المسألةِ موضعٌ هوَ أليقُ بها مِن هٰذا[3]، وقد أشْبَعْنا الكلامَ فيها في كتابِ «الرُّوح والنَّفْس وأحوالها وشقاوتها وسعادتها ومقرّها بعد الموت»[4]، والمقصودُ الكلامُ على أقوالِ الأحكاميِّينَ مِن أصحابِ النُّجومِ وبيانُ تهافتِها وأنَّها إلى المحالاتِ والتَّخيُّلاتِ أقربُ منها إلى العلومِ والحقائقِ.

وأمَّا قولُ المنتصرِ لكُم «إنَّ الشَّمسَ إذا كانَتْ مسامتةً للرُّؤوسِ؛ كانَ الحرُّ واليبسُ وهُما مِن طبيعةِ الذُّكورِ، وإذا كانَ القمرُ مسامتًا للرُّؤوسِ؛ كانَ البردُ والرُّطوبةُ[5]، وهُما مِن طبيعةِ الأُنثى»؛ فيُقالُ: هٰذا لا يَدُلُّ على تأْنيثِ القمرِ وتذكيرِ الشَّمسِ بوجهٍ مِن الوجوهِ؛ فإنَّ البردَ والرُّطوبةَ يَكونانِ أيضًا بسببِ بعدِ الشَّمسِ مِن المسامتةِ وميلِها عنِ

---

(١) هو كذٰلك بحقّ؛ أقرب إلى الصواب من أقوال المنجّمين، وفيه صواب، وفيه خطأ كثير.

(٢) كما ثبت في الحديث المتّفق عليه الذي تقدّم (٢/ ١٨٣).

(٣) تقدّم شيء من التفصيل والاستقصاء في هٰذه القضيّة (٢/ ١٧٧).

(٤) لابن القيّم يرحمه الله كتابان في الروح: أحدهما «الروح» المطبوع. والآخر هٰذا المذكور هنا، ولعلّه أضعاف المطبوع كمًّا وكيفًا، ولٰكنّه مفقود للأسف الشديد.

(٥) وهٰذه عجيبة حقًّا! وقد تقدّم أنّ مسامتة القمر للرؤوس تقع في شدّة الحرّ وشدّة البرد.

الرُّؤوسِ وحصولِها في البروجِ الشَّماليَّةِ، سواءٌ كانَ القمرُ مسامتًا أو غيرَ مسامتٍ، فيَنْبَغي على قولِكُم أنْ يَكونَ سببُ هٰذا البردِ أُنثى، وهٰذا لا يَقولُهُ عاقلٌ! بلِ الأسبابُ طبيعيَّةٌ مِن بردِ الهواءِ وتكاثفِهِ وتأْثيرِ الشَّمسِ في تحليلِ الأبخرةِ التي تَكونُ منها الحرارةُ بسببِ بعدِها عنِ الرُّؤوسِ، وليسَ سببُ ذٰلكَ أُنثى ٱقْتَضَتْهُ وفَعَلَتْهُ[١]!

فقد جَمَعْتُم إلى جهلِكُم بالطَّبيعةِ والكذبِ على الخلقةِ القولَ الباطلَ على اللهِ وعلى خلقِهِ! وليسَ العجبُ إلاَّ ممَّنْ يَدَّعي شيئًا مِن العقلِ والمعرفةِ كيفَ يَنْقادُ لهُ عقلُهُ بالإصغاءِ إلى محالاتِكُم وهذياناتِكُم؟! ولٰكنْ كلُّ مجهولٍ مهيبٌ!

ولمَّا تكايَسَ مَن تكايَسَ منكُم في أمرِ الهَيُولى وزَعَمَ أنَّها أُنثى وأنَّ الصُّورةَ ذكرٌ وأنَّ الجسمَ الواحدَ مشتملٌ على الذَّكرِ والأُنثى؛ أضْحَكَ عقلاءَ الفلاسفةِ عليهِ؛ فإنَّ زعيمَهُم ومعلِّمَهُمُ الأوَّلَ نصَّ في كتابِ «الحيوان» لهُ على أنَّ الهَيُولى في الجسمِ كالذَّكرِ.

وإنْ قُلْتُم: فهٰذا يَشْهَدُ لقولِنا أيضًا؛ لأنَّها إنْ كانَتْ عندَهُ كالذَّكرِ؛ فالصُّورةُ أُنثى، فصارَ الجسمُ الواحدُ بعضُهُ ذكرٌ[٢] وبعضُهُ أُنثى! قُلْنا: القائلونَ بتركُّبِ الأجسامِ مِن الهَيُولى والصُّورةِ لمْ يَقولوا إنَّ أحدَهُما متميِّزٌ عنِ الآخرِ كما زَعَمْتُم ذٰلكَ في أجزاءِ الفلكِ، بل عندَهُمُ الهَيُولى والصُّورةُ قدِ ٱتَّحَدا وصارا شيئًا واحدًا فالإشارةُ الحسِّيَّةُ إلى أحدِهِما هيَ بعينِها إشارةٌ إلى الآخرِ، وأنتُم جَعَلْتُمُ الجزءَ المذكَّرَ مِن الفلكِ مباينًا[٣]

---

(١) من المعتمد اليوم عند الجغرافيّين الطبيعيّين وأهل الأرصاد الجويّة أنّ تقلّب درجات الحرارة ٱرتفاعًا وٱنخفاضًا يرجع بصورة أساسيّة إلى التسخين الشمسي للأرض، حيث تمتصّ الأرض الأشعّة الشمسيّة الواردة إليها فتسخن قشرتها ثمّ تسخّن هٰذه القشرة ما يليها من طبقات الهواء.

فإذا تقرّر لك هٰذا؛ فٱعلم أنّه كلّما كانت أشعّة الشمس الواردة إلى الأرض أقرب إلى العموديّة؛ كان المنعكس منها أقلّ والممتصّ أكبر وبالتالي فالتسخين أعظم، ومن هنا يشتدّ التسخين ساعة الظهيرة في مختلف أصقاع الأرض ويكون أعظم ما يكون في عروض الاستواء وما جاورها. وإذا مالت الأشعّة؛ كان المنعكس منها أكبر والممتصّ أقلّ وبالتالي فالتسخين أقلّ، ومن هنا يخفّ التسخين شيئًا فشيئًا عند الغروب ويكون أخفّ ما يكون في العروض القطبيّة.

(٢) في ط: «بعضه ذكرًا»، وله وجه ضعيف، والأولى ما أثبتّه.

(٣) في ط: «من القلب مباينًا»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

للجزءِ الأُنثى منهُ بالوضعِ والحقيقةِ والإشارةَ إلى أحدِهِما غيرَ الإشارةِ إلى الآخرِ!

وللكلامِ معَ أصحابِ الهَيُولى مقامٌ آخرُ ليسَ هٰذا موضعَهُ؛ فإنَّ دعوى تركُّبِ الجسمِ منهُما دعوى فاسدةٌ مِن وجوهٍ كثيرةٍ[١]، وليسَ يَصِحُّ شيءٌ هُنا غيرُ الهَيُولى الصِّناعيّةِ كالخشبِ للسَّريرِ والطَّبيعيّةِ كالمنيِّ للمولودِ، وهيَ المادَّةُ الصِّناعيّةُ والطَّبيعيّةُ، وما سوى ذٰلكَ فخيالٌ ومحالٌ. واللهُ المستعانُ.

● **عُدْنا إلى كلامِ صاحبِ الرِّسالةِ؛ قالَ**: ومِن ذٰلكَ زعمُهُم أنَّهُ إنِ ٱتَّفقَ مولودٌ ابنُ ملكٍ وٱبنُ حجّامٍ في البلدِ والوقتِ والطّالعِ والدَّرجةِ وكانَتْ سائرُ دلالاتِ السَّعادةِ موجودةً في مولدَيْهِما؛ وَجَبَ أنْ يكونَ مِنِ ٱبنِ الملكِ ملكٌ جليلٌ سائسٌ مدبِّرٌ ومِنِ ابنِ الحجّامِ [حجّامٌ][٢] حاذقٌ. وهٰذا يُخْرِجُ النُّجومَ عن أنْ تكونَ تَدُلُّ على ما يَتَحَدَّدُ مِن حالِ الإنسانِ ويَجْعَلُها تَدُلُّ على حذقِهِ في صناعةِ أبيهِ[٣] وتقصيرِهِ فيها.

* **قُلْتُ**: وممّا يُوَضِّحُ فسادَ قولِهِم في ذٰلكَ أنَّ بَطْلِيموسَ جَعَلَ الكواكبَ الدّالَّةَ على الصِّناعاتِ ثلاثةً؛ المِرِّيخَ والزُّهَرَةَ وعُطارِدًا! وقالَ: لأنَّ الصِّناعاتِ العمليّةَ تَحْتاجُ إلى ثلاثةِ أشياءَ ضروريّةٍ: أحدُها المعرفةُ، والثّاني الآلةُ، والثّالثُ الطّاقةُ في الكفِّ؛ لِيَخْرُجَ المعمولُ[٤] المصنوعُ حسنًا.

والآلةُ للمِرِّيخِ، [والآلةُ][٥] التي يُشيرُ إليها تكونُ على الأكثرِ إمّا حديدًا وإمّا مصاحبةً للحديدِ، ولذٰلكَ يَقولونَ: صورتُهُ صورةُ شابٍّ بيمناهُ سيفٌ مسلولٌ وبيسراهُ رأْسُ سنانٍ وهوَ راكبٌ أسدًا وثيابُهُ حمرٌ تَلَهَّبُ! وآخرونَ منهُم يَقولونَ: على رأْسِهِ بيضةٌ وبيسراهُ طَبَرْزِينٌ[٦] وعليهِ خرقةٌ حمراءُ وهوَ راكبٌ فرسًا أشهبَ.

والمعرفةُ لعُطارِدَ، ولذٰلكَ يَقولونَ: صورتُهُ صورةُ شابٍّ بيمناهُ حيّةٌ وبيسراهُ لوحٌ

---

(١) والطبّ المعاصر لا يلتفت إلى هٰذه الدعوى أدنى ٱلتفات.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) في ط: «حذقه وصناعة أبيه»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٤) في ط: «ليخرج المعلول»! تحريف صوابه ما أثبتّه! ولا محلّ هنا لعلّة ولا لمعلول.

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

(٦) طبرزين: يبدو لي أنّها العصا التي رأسها كالكرة وكان فرسان اليونان يستخدمونها في قتالهم.

يَقْرَؤُهُ وعلى رأْسِهِ تاجٌ وثيابُهُ ملوّنةٌ[١] بالتَّزاويقِ والنُّقوشِ.

وما شاكَلَ ذٰلكَ[٢] للزُّهَرَةِ، ولذٰلكَ يقولونَ: صورتُها صورةُ ٱمرأةٍ حسنةٍ بينَ يديها مدقٌّ تَضْرِبُ بِهِ وهيَ راكبةٌ على جملٍ، ومنهُم مَن يَقولُ: ٱمرأةٌ جالسةٌ مرخاةُ الشَّعرِ ذوائبُها بيسراها وباليمنى مرآةٌ تَنْظُرُ فيها نظيفةُ الثَّوبِ عليها طوقٌ وأَسْوِرَةٌ وخلاخلُ.

وأمَّا الشَّمسُ والقمرُ؛ فهما الدَّالَّانِ على الملكِ، فالشَّمسُ صورتُها صورةُ رجلٍ بيدِهِ اليمنى عصًا يَتَوَكَّأُ عليها وباليسرى حرزٌ[٣] راكبٌ عجلةً تَجُرُّها أربعةُ نمورٍ، ومنهُم مَن يَقولُ: صورتُها صورةُ رجلٍ جالسٍ قابضٍ على أربعةِ أعنَّةِ أفراسٍ ووجهُهُ كالطَّبَقِ يَلْتَهِبُ نارًا[٤]!

قالوا: ودلائلُ الملكِ لَيْسَتْ بأعيانِها هيَ دلائلَ الصِّناعاتِ، ودلائلُ الصِّناعاتِ [لَيْسَتْ بأعيانِها][٥] هيَ دلالاتِ الملكِ، بل قد يَجوزُ أنْ تَدُلَّ[٦] على رياسةٍ ما؛ إلاَّ أنَّ الملكَ أخصُّ مِن الرِّياسةِ، ولكلٍّ واحدٍ مِن الكواكبِ على الإطلاقِ دلالةٌ على رياسةٍ ما في معنًى مِن المعاني.

فيُقالُ: أرَأَيْتُم إنْ حَصَلَتْ أدلَّةُ الملكِ في طالعِ مولودٍ ليسَ مِن الملكِ في شيءٍ، بل أكثرُ المولودينَ لا يَنالونَ الملكَ ٱلبتَّةَ، وإنَّما يَنالُهُ واحدٌ مِن النَّاسِ، ولا يَلْزَمُ أنْ يَكونَ في آبائِهِ ملكٌ ولا [أنْ] يَكونَ ابنَ ملكٍ؛ فما بالُ طالعِ الملكِ المشتركِ بينَ عدَّةِ أولادٍ خَصَّ هٰذا وحدَهُ؟! حتَّى إنَّ أكثرَكُم يَنْظُرُ بنصِّ بَطْليموسَ إلى جنسِ المولودِ وما يَصْلُحُ لهُ، فيَحْكُمُ على ٱبنِ الملكِ بالملكِ وعلى ٱبنِ الحجَّامِ بالحجامةِ، فإنْ كانَ طالعُهُما واحدًا؛ حَكَمَ بتقدُّمِ ٱبنِ الحجَّامِ في رياسةِ صناعتِهِ وكونِهِ كملكِهِم! ومعلومٌ أنَّ

---

(١) في ط: «وثيابه ملوّثة»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٢) ما شاكل ماذا؟! الآلة، أم المعرفة، أم غير ذٰلك؟! الغالب أنّه تحريف صوابه «الطاقة في الكفّ».

(٣) كذا! ولا أدري ما المقصود بها! ولعلّها تحريف.

(٤) لاحظ صلة التنجيم وأهله بالوثنيّة اليونانيّة القديمة؛ هٰذه الصور المفترضة للكواكب هي صور آلهتهم، فالمريخ عندهم إلٰه الحرب وعطارد إلٰه الحكمة والزهرة إلٰهة الجمال... وهٰذا إحياء لذاك.

(٥) زيادة لا بدّ منها ليستقيم السياق.

(٦) يعني: دلائل الصناعات.

الحسَّ والوجودَ أكبرُ المكذِّبينَ لكُم في هٰذهِ الأحكامِ؛ فما أكثرَ مَن نالَ الملكَ وليسَ هوَ مِن أبناءِ الملوكِ ٱلبتَّةَ ولا كانَ طالعُهُ يَقْتَضي ذٰلكَ، وحُرِمَهُ مَن يَقْتَضيهِ طالعُهُ بزعمِكُم ممَّن أبوهُ ملكٌ! وكذٰلكَ الكلامُ في غيرِ الملكِ مِن الطَّالعِ الذي يَقْتَضي كونَ المولودِ حكيمًا عالمًا أو حاذقًا في صناعتِهِ كم قد أخْلَفَ وحَصَلَ العلمُ والحكمةُ والتَّقدُّمُ في الصِّناعةِ لغيرِ أربابِ ذٰلكَ الطَّالعِ! وفي ذٰلكَ أبيَنُ تكذيبٍ لكُم وإبطالٍ لقولِكُم. واللهُ المستعانُ.

● قالَ صاحبُ الرِّسالةِ: وأبعدُ مِن ذٰلكَ قولُهُم: إنَّ الكواكبَ المتحيِّرةَ[1] أجلُّ مِن الثَّوابتِ وأبينُ تأْثيرًا في العالمِ، وإنَّ كلَّ واحدٍ مِن الكواكبِ الثَّابتةِ يَفْعَلُ فعلاً واحدًا لا يَزولُ عنهُ مِن غيرِ أنْ يَنْحَسَ أو يُسْعِدَ. وإنَّ عُطارِدَ هوَ مِن الكواكبِ المتحيِّرةِ ليسَ لهُ طبعٌ يُعْرَفُ، وإنَّهُ نحسٌ إذا قارَنَ النُّحوسَ وسعدٌ إذا قارَنَ السُّعودَ. ومِن ذٰلكَ قولُهُم: إنَّ قوَّةَ القمرِ التَّرطيبُ، وإنَّ العلَّةَ في ذٰلكَ قربُ فلكِهِ مِن الأرضِ وقبولُهُ البخاراتِ الرَّطبةَ التي تَرْتَفعُ إليهِ منها. وإنَّ قوَّةَ زُحَلَ أنْ يُبْرِدَ ويُجَفِّفَ تجفيفًا يسيرًا، وإنَّ علَّةَ ذٰلكَ بعدُهُ عن حرارةِ الشَّمسِ وعنِ البخاراتِ الرَّطبةِ التي تَرْتَفعُ مِن الأرضِ. وإنَّ قوَّةَ المرِّيخِ مجفِّفةٌ محرقةٌ لمشاكلةِ لونِهِ للونِ النَّارِ ولقربِهِ مِن الشَّمسِ؛ لأنَّ الكرةَ التي فيها الشَّمسُ موضوعةٌ تحتَهُ[2]!

* قُلْتُ: فلْيَتأمَّلِ العاقلُ ما في هٰذا الكلامِ مِن ضروبِ المحالِ! وما للفلكِ ووصولِ البخاراتِ الأرضيَّةِ إليهِ؟! وهل في قوَّةِ البخاراتِ تصاعدُها إلى سطحِ الفلكِ معَ البعدِ المفرطِ؟! والبخارُ إذا ٱرْتَفَعَ؛ فغايةُ ٱرتفاعِهِ كٱرتفاعِ السَّحابِ لا يَتَعَدَّاهُ! وهل تَتَأثَّرُ العلويَّاتُ بطبائعِ السُّفليَّاتِ وتَتَكَيَّفُ بكيفيَّاتِها وتَنْفَعِلُ عنها[3]؟!

---

(١) الكواكب المتحيّرة هي عطارد والزهرة والمرّيخ والمشتري وزحل، وسمّيت متحيّرة لأنّها ترجع أحيانًا من سمت مسيرها بالحركة الشرقيّة وتتبع للغربيّة.

(٢) تقدم (٣/ ٨) أنّ المتقدّمين من أهل الفلك ظنّوا أنّ القمر وعطارد والزهرة تقع تحت الشمس ثمّ تأتي الشمس في الفلك الرابع، ثمّ يأتي المرّيخ فوقها في الفلك الخامس، ثمّ فوقه المشتري فزحل.

(٣) وهٰذا كلام لا ريب في صحّته وتعجّب في محلّه! وممّا لا خلاف فيه اليوم عند أهل الجغرافيّة الطبيعيّة والأرصاد الجويّة أنّ مكوّنات الغلاف الجوّي للأرض ثابتة محفوظة لا تتسرّب إلى الفضاء الخارجيّ=

وممّا يَدُلُّ على فسادِ ذٰلكَ أيضًا أنَّ القمرَ لو كانَ مترطِّبًا مِن البخاراتِ؛ وَجَبَ أنْ تَزْدادَ رطوبتُهُ في كلِّ يومٍ؛ لأنَّهُ دائمُ القبولِ للبخاراتِ! ولا يقولونَ ذٰلكَ! وإنِ ٱلْتَزَمَهُ منهُم مكابِرٌ وقالَ: كلَّ يومٍ يَزْدادُ رطوبةً! قُلْتُ لهُ: فما تُنْكِرُ أنْ تكونَ دلالةُ زُحَلَ والمِرِّيخِ على النُّحوسِ تَتَزايَدُ وتكونُ دلالتُهُ على النُّحوسِ في اليومِ أكثرَ مِن دلالتِهِ في الأمسِ؟! ولو فُتِحَ عليكُم هٰذا البابُ؛ فلعلَّ السَّعدَ يَنْقَلِبُ نحسًا وبالعكسِ! وهٰذا يَرْفَعُ الأمانَ عن أُصولِ هٰذا العلمِ.

وأيضًا؛ فإذا جَوَّزْتُمُ ٱنفعالَ الفلكيَّاتِ عن أجزاءِ هٰذا العالمِ السُّفليِّ؛ لَزِمَكُم تجويزُ فسادِ هٰذهِ الكواكبِ مِن هٰذهِ الأجزاءِ العنصريَّةِ[1]، ولَزِمَكُم تجويزُ أنْ يَرْتَفِعَ إلى القمرِ مِن الأدخنةِ ما يوجِبُ جفافَهُ وبلوغَهُ في اليبسِ الغايةَ!

وأيضًا؛ فإذا جَوَّزْتُم ذٰلكَ؛ فلمَ لا تُجَوِّزونَ نفوذَ تلكَ البخاراتِ إلى ما وراءَ فلكِ القمرِ حتَّى يَتَرَطَّبَ فلكُ الأفلاكِ[2]؟! فإنْ قُلْتُم: فلكُ القمرِ عائقٌ عن ذٰلكَ! قُلْنا: وكرةُ الأثيرِ[3] حائلةٌ بينَ عالَمِنا هٰذا وبينَ فلكِ القمرِ؛ فكيفَ جَوَّزْتُم وصولَ البخاراتِ الأرضيَّةِ إلى فلكِ القمرِ؟!

و[أمَّا قولُكُم «إنَّ قوَّةَ المِرِّيخِ مجفِّفةٌ محرقةٌ لمشاكلةِ لونِهِ للونِ النَّارِ»؛ فهل][4] في مشابهةِ لونِ المِرِّيخِ للونِ النَّارِ ما يَقْتَضي[5] تأثيرَهُ الإحراقَ والتَّجفيفَ؟! وهل في الهذيانِ أعجبُ مِن هٰذا؟! فإنْ أرادوا النَّارَ البسيطةَ؛ فإنَّها لا لونَ لها. وإنْ أرادوا النَّارَ

= إطلاقًا. ولو أنّ محتويات الغلاف الجوّي من النيتروجين والأوكسجين وبخار الماء وغيرها تتسرّب إلى الفضاء الخارجيّ؛ لتفرّق الغلاف الجوّيّ الأرضيّ وتبعثر وضاع شيئًا فشيئًا في الفضاء الخارجيّ المترامي الأطراف وأستحالت الحياة على وجه الأرض!

(١) في ط: «هٰذه الأجرام العنصريّة»، وله وجه، والغالب أنّه تحريف لما أثبتّه.

(٢) قدّمت (٣/ ٨) مفهوم الفلكيّين القدامى للفضاء الخارجيّ، وفلك الأفلاك هٰذا عندهم الغالب أنّه الفلك التاسع الواقع فوق فلك الثوابت والمحيط بجميع الأفلاك كالكرة.

(٣) كرة الأثير عند الأقدمين ـ ومنهم من يسمّيها حشو الفلك ـ هي الغلاف الجويّ المحيط بالكرة الأرضيّة والذي يفصل بينها وبين فلك القمر.

(٤) ساقطة من ط! ولا بدّ منها ليستقيم الكلام.

(٥) في ط: «ممّا يقتضي»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

الحادثةَ؛ فهيَ بحسبِ مادّتِها التي تُوجِبُ حمرتَها وصفرتَها وبياضَها[(١)].

وأمّا كونُ الشَّمسِ تحتَهُ؛ فهٰذا لا يَقْتَضِي تأْثيرَها فيهِ وإعطاءَهُ قوَّةَ التَّجفيفِ والإحراقِ؛ فإنَّ الشَّمسَ لو أثَّرَتْ فيهِ ذٰلكَ وأعْطَتْهُ إيّاهُ؛ لَكانَتِ الشَّمسُ [أولى][(٢)] بهٰذا التَّأْثيرِ والإعطاءِ للزُّهَرَةِ، ونسبتُها إلى كرةِ الزُّهَرَةِ كنسبتِها إلى كرةِ المِرِّيخِ، فهلاَّ كانَتْ قوَّةُ الزُّهَرَةِ التَّجفيفَ والإحراقَ، بل تأْثيرُ الشَّمسِ فيما تحتَها أولى مِن تأْثيرِها فيما فوقَها[(٣)]؟!

● **قالَ صاحبُ الرِّسالةِ:** وإنَّ الكواكبَ الثَّابتةَ[(٤)] التي في الدُّبِّ الأكبرِ[(٥)] قوَّتُها كقوَّةِ المِرِّيخِ! وهٰذا غلطٌ عظيمٌ[(٦)]؛ لأنَّ لونَ هٰذهِ الكواكبِ غيرُ مشبِهٍ للونِ النَّارِ، ولَيْسَتِ الكرةُ التي فيها الشَّمسُ موضوعةً تحتَها، بلِ الكرةُ التي فيها زُحَلُ موضوعةٌ تحتَها، فهيَ بأنْ يَكونَ حالُها مشبِهًا لحالِ زُحَلَ أولى؛ لأنَّها فوقَهُ، وبعدُها عنِ الشَّمسِ وعن حراراتِ الأرضِ أكثرُ مِن بعدِهِ!

---

(١) يرجع اللون الأحمر للمرّيخ إلى طبيعة غلافه الغازي المكوّن بصورة رئيسيّة من ثاني أوكسيد الكربون. والمرّيخ كوكب بارد بالقياس إلى الأرض، معدّل حرارته نهارًا ١٠م وليلاً -٧٠م وحرارة قطبيه تصل إلى -١٢٥م. فأين الحرارة والإحراق والتجفيف من هٰذا؟! قاتلهم الله.

(٢) ساقطة من ط، والسياق يستلزمها ضرورة.

(٣) تقدّم لك آنفًا وقبل ذٰلك أيضًا (٣/٨) نظرة الفلكيّين القدامى للفضاء وتوضّع الأجرام فيه. وأنت تعلم اليوم أنّه ليس في الفضاء فوق وتحت، وإنّما هي أجرام سيّارة تدور حول الشمس! وأمّا قول ابن القيّم يرحمه الله بأنّ الزهرة أولى بالتجفيف والإحراق؛ فلازم لهم على تصوّرهم المتقدّم للفضاء، ولازم لهم أيضًا بحسب المعطيات الفلكيّة الحديثة التي تجزم بأنّ الزهرة أقرب إلى الشمس من المريخ بملايين الأميال، وهي بالتالي أشدّ حرارة منه.

(٤) يعني: وقولهم: إنّ الكواكب الثابتة... إلخ.

(٥) الدبّ الأكبر Ursa Major: مجموعة نجميّة ضخمة تصوّرها الأقدمون على صورة الدبّ. ومن نظر إليها في الخرائط الفلكيّة أو تأمّلها في الفضاء؛ فلن يرى هناك دبًّا ولا كلبًا.

(٦) أمّا وصفه لدعوى المنجّمين بأنّها غلط عظيم؛ فحقّ لا ريب فيه. وأمّا تعليله لذٰلك بوضع كرة الشمس وزحل؛ فباطل لا ريب فيه. ومن الثابت اليوم أنّ مجموعة الدبّ الأكبر مجموعة نجميّة ضخمة، بعيدة عن الأرض وعن زحل وعن الشمس بعدًا شاسعًا جدًّا يفوق التصوّر وليست تحت شيء منها ولا فوقه، وليست مشابهة للمرّيخ ولا لزحل، بل هي مشابهة للشمس في طبيعتها، بل في نجومها ما هو بحجم الشمس جرمًا وحرارة وإضاءة وما هو فوق ذٰلك وما هو دون ذٰلك، ولٰكنّ الذي يحول دون الشعور بحرارتها وإضاءتها هو البعد العظيم، فجلّ وعلا من قال: ﴿وإنّا لموسعون﴾.

* قُلْتُ: والعجبُ مِن هٰؤلاءِ! يَعْلَمونَ قولَ مقدَّمِهم بَطْلِيموسَ إنَّ طبائعَ الأجرامِ السَّماويَّةِ واحدةٌ، ثمَّ يَحْكُمونَ على بعضِها بالحرارةِ وعلى بعضِها بالبرودةِ وكذٰلكَ بالرُّطوبةِ واليبوسةِ[١]!

● قالَ: وزَعَموا أنَّ عُطارِدَ معتدلٌ في التَّجفيفِ والتَّرطيبِ؛ لأنَّهُ لا يَبْعُدُ في وقتٍ مِن الأوقاتِ عن حرِّ الشَّمسِ بعدًا كثيرًا ولأنَّ وضعَهُ[٢] فوقَ كرةِ القمرِ[٣]! وأنَّ الكواكبَ الثَّابتةَ التي في الجاثي[٤] حالُها شبيهةٌ بحالِهِ، وليسَ يوجَدُ لها مِن السَّببينِ اللذينِ دَلَّا على طبيعةِ عُطارِدَ شيءٌ[٥]، بل الدَّورُ يُوجِبُ لها ضدَّ ذٰلكَ[٦]، وهوَ أنَّها بعيدةٌ مِن الشَّمسِ في أكثرِ الأوقاتِ، وأنَّ فلكَها أبعدُ أفلاكِ الكواكبِ مِن كرةِ القمرِ[٧].

وقالوا: إنَّ الكواكبَ التي في النَّقادِ[٨] تُشْبِهُ حالَ عُطارِدَ وزُحَلَ في بعضِ الأوقاتِ وتُشْبِهُ حالَ المُشْتَري والمرِّيخِ في بعضِها!

* قُلْتُ: وقدِ ٱسْتَدَلَّ فضلاؤُكُم على ٱختلافِ طبائعِ الكواكبِ بٱختلافِ ألوانِها

---

(١) وقول بطليموس هنا ـ وإن كان مقدّمهم ـ هو الخطأ. ومن المستقرّ الثابت عند الفلكيّين المعاصرين أنّ الأجرام السماويّة نوعان: أجرام سماويّة باردة هي الكواكب التي منها عطارد والزهرة والأرض والمريخ... إلخ. وأجرام سماويّة ملتهبة وهي النجوم الثابتة (بالنسبة لنا، وما هي بالثابتة في حقيقة الأمر، كما قدّمت مرارًا). ومن العجيب حقًّا أن يقال: إنّ طبائع الأجرام السماويّة واحدة! كيف؟! وهل طبيعة الأرض كطبيعة الشمس؟! وهل طبيعة القمر كطبيعة الشمس؟!

(٢) في ط: «كثيرًا ولا وضعه»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٣) معنى هٰذا الكلام أنّ عطارد متوسّط في موضعه ـ بحسب رؤية الأقدمين ـ بين الشمس والقمر، فيكتسب من الشمس حرارة وتجفيفًا ومن القمر برودة ورطوبة، فيكون وسطًا بينهما. والمعتمد اليوم أنّ عطارد أعظم كواكب المجموعة الشمسيّة حرارة، وأنّ حرارة جانبه الشمسيّ تبلغ ٤٠٠م تقريبًا.

(٤) في ط: «التي في الجاني»! وليس في المجموعات النجميّة كوكبة الجاني، وإنّما هي كوكبة الجاثي Hercules، وهي مجموعة ضخمة من النجوم رآها الأقدمون على شكل رجل جاث على ركبته لٰكن وضعه مقلوب في قبّة السماء.

(٥) في ط: «شيئًا»! وهي نائب فاعل لـ«يوجد»!

(٦) في ط: «بل الدور يوجد لها ضدّ ذٰلك»، والصواب ما أثبتّه.

(٧) تختلف كوكبة الجاثي عن عطارد ٱختلافًا جذريًّا من جهة أنّ الجاثي مجموعة من النجوم الملتهبة البعيدة جدًّا عن الأرض بخلاف عطارد الذي هو كوكب سيّار معتم قريب نسبيًّا إلى الأرض.

(٨) إن كانت صحيحة؛ فلم يتبيّن لي مقصودهم منها.

فقالوا:

زُحَلُ لونُهُ الغبرةُ والكمودةُ، فحَكَمْنا بأنَّهُ على طبعِ السَّوداءِ، وهوَ البردُ واليبسُ؛ فإنَّ السَّوداءَ لها مِن الألوانِ الغبرةُ[١].

وأمَّا المِرِّيخُ؛ فإنَّهُ يُشْبِهُ لونُهُ لونَ النَّارِ، فلا جرمَ قُلْنا طبعُهُ حارٌّ يابسٌ[٢].

وأمَّا الشَّمسُ؛ فهيَ حارَّةٌ يابسةٌ لوجهينِ: أحدُهُما: أنَّ لونَها يُشْبِهُ لونَ الحمرةِ، الثَّاني: أنَّا نَعْلَمُ بالبديهةِ[٣] أنَّها مسخِّنةٌ للأجسامِ منشِّفةٌ للرُّطوباتِ[٤].

وأمَّا الزُّهَرَةُ؛ فإنَّا نَرى لونَها كالمركَّبِ مِن البياضِ والصُّفرةِ، ثمَّ إنَّ البياضَ يَدُلُّ على طبيعةِ البلغمِ الذي هوَ البردُ والرُّطوبةُ والصُّفرةُ تَدُلُّ على الحرارةِ، ولمَّا كانَ بياضُ الزُّهَرَةِ أكثرَ مِن صفرتِها؛ حَكَمْنا عليها بأنَّ بردَها ورطوبتَها أكثرُ[٥].

وأمَّا المُشْتَري؛ فلمَّا كانَتْ صفرتُهُ أكثرَ ممَّا هيَ في الزُّهَرَةِ؛ كانَتْ سخونتُهُ أكثرَ مِن سخونةِ الزُّهَرَةِ وكانَ في غايةِ الاعتدالِ[٦].

وأمَّا القمرُ؛ فهوَ أبيضُ وفيهِ كمودةٌ، فبياضُهُ يَدُلُّ على البردِ[٧].

وأمَّا عُطارِدُ؛ فإنَّا نَرى عليهِ الألوانَ مختلفةً، فربَّما رَأَيْناهُ أخضرَ وربَّما رَأَيْناهُ أغبرَ وربَّما رَأَيْناهُ على خلافِ هٰذينِ اللونينِ، وذٰلكَ في أوقاتٍ مختلفةٍ، معَ كونِهِ في الأُفقِ على ارتفاعٍ واحدٍ، فلا جرمَ قُلْنا: إنَّهُ لكونِهِ قابلاً للألوانِ المختلفةِ يَجِبُ أنْ يكونَ لهُ طبائعُ مختلفةٌ، إلاَّ أنَّا لمَّا وَجَدْنا الغالبَ[٨] عليهِ الغبرةَ الأرضيَّةَ؛ قُلْنا: طبيعتُهُ أميلُ إلى

---

(١) تقدّم الكلام في السوداء (١/٤٨). وزحل؛ فكوكب بارد تصل الحرارة فيه إلى -١٨٠م.

(٢) راجع ما تقدّم آنفًا في اللون الأحمر للمرّيخ وفي حرارته.

(٣) في ط: «نعلم بالتدبير»! وهٰذا تحريف لا معنى له صوابه ما أثبتّه.

(٤) تبلغ حرارة سطح الشمس قريبًا من ٦٠٠٠م.

(٥) وأمّا الفلكيّون المعاصرون؛ فيرون الزهرة كوكبًا حارًّا جدًّا تبلغ حرارة سطحه قريبًا من ٤٠٠م، وجافًّا لا يحتوي في غلافه الجوّيّ على شيء من بخار الماء، بل يتكوّن غلافه الجوّي بصورة رئيسيّة من ثاني أوكسيد الكربون! فانظر على شفا أيّ جرف هار بنى القوم أحكامهم! وتبعهم دجاجلة عصرنا حذو القذّة بالقذّة.

(٦) في غاية الاعتدال!! إلى درجة أنّ حرارة سطحه تقارب -١٥٠م! فتأمّل.

(٧) مع أنّ حرارة وجهه المنير +١٢٠م! فتأمّل.

(٨) في ط: «وجدنا في الغالب عليه»! ولا يستقيم الكلام إلاّ بحذف «في».

الأرضِ واليبس[١]!!

وهٰذا التَّقريرُ باطلٌ مِن وجوهٍ عديدةٍ:

أحدُها: أنَّ المشاركةَ في بعضِ الصِّفاتِ لا تَقْتَضي المشاركةَ في الماهيَّةِ والطَّبيعةِ ولا في صفةٍ أُخرى.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الدّلالةَ بمجرَّدِ اللونِ على الطَّبيعةِ ضعيفةٌ جدًّا؛ فإنَّ النُّورةَ والنُّوشادِرَ والزِّرنيخَ والزِّئبقَ المُصَعَّدَ والكبريتَ[٢] في غايةِ البياضِ معَ أنَّ طبائعَها في غايةِ الحرارةِ.

الثَّالثُ: أنَّ ألوانَ الكواكبِ لَيْسَتْ كما ذَكَرْتُم: فزُحَلُ رصاصيُّ اللونِ، وهٰذا مخالفٌ للغبرةِ والسَّوادِ الخالصِ. وأمَّا المُشْتَري؛ فلا بدَّ أنَّ بياضَهُ أكثرُ مِن صفرتِهِ، فيَلْزَمُ على قولِكُم أنَّ بردَهُ أكثرُ مِن حرِّهِ، وهُم يُنْكِرونَ ذٰلكَ. وأمَّا الزُّهَرَةُ؛ فلا صفرةَ فيها ٱلبتَّةَ، بل الزُّرقةُ ظاهرةٌ في أمرِها، فيَلْزَمُ أنْ تكونَ خالصةَ البردِ. وأمَّا المِرِّيخُ؛ فإنْ كانَ حرُّهُ لشبهِهِ بالنَّارِ في لونِهِ؛ فهٰذِهِ المشابهةُ في الشَّمسِ والنَّارِ أتمُّ، فيَلْزَمُ أنْ تكونَ حرارةُ الشَّمسِ وسخونتُها أقوى مِن حرارةِ المِرِّيخِ، وهُم لا يَقولونَ ذٰلكَ[٣]. وأمَّا عُطارِدُ؛ فإنَّا وإنْ رَأَيْناهُ مختلفَ اللونِ في الأوقاتِ المختلفةِ؛ إلَّا أنَّ السَّببَ فيهِ أنَّا لا نَراهُ إلَّا إذا كانَ قريبًا مِن الأُفقِ، وحينئذٍ يَكونُ بينَنا وبينَهُ بخاراتٌ مختلفةٌ، فلا جرمَ أنِ ٱخْتَلَفَ لونُهُ لهٰذا السَّببِ. وأمَّا القمرُ؛ فقد قالَ زعيمُكُمُ المؤخَّرُ أبو مَعْشَرٍ: إنَّهُ لا يَنْسِبُ لونَهُ إلى البياضِ إلَّا مَن عَدِمَ الحسَّ البصريَّ! فتبَيَّنَ بطلانُ قولِكُم في طبائعِ الكواكبِ وتناقضُهُ وٱختلافُهُ!!

ولمَّا عَلِمَ بعضُ فضلائِكُم فسادَ قولِكُم في طبائعِ الكواكبِ وأنَّ العقلَ يَشْهَدُ بتكذيبِهِ؛ صَدَفَ عنهُ وأنْكَرَهُ وقالَ: إنَّما نُشيرُ بهٰذهِ القوى والطَّبائعِ إلى ما يَحْدُثُ عن كلِّ

(١) مع أنّ حرارة الجانب المشمس فيه تصل إلى ٤٠٠م كما تقدّم. فتأمّل.

(٢) موادّ كيماويّة معروفة، والنّورة خليط يحتوي على الزرنيخ ويستعمل طلاء لإزالة الشعر.

(٣) وهٰذا من أعجب الجهل! وحريّ بمن تردّى به الحال إلى هٰذه الدرجة أن لا يلتفت إليه بأخذ ولا بردّ! وقد تقدّم لك سرّ لون المرّيخ وحرارته، وفيه ما يقطع دابر هٰؤلاء ومن سار على نهجهم.

واحدٍ مِن الأجرامِ السّماويّةِ ويَنْفَعِلُ بها مِن الكائناتِ الفاسداتِ، لا أنَّها بطبائِعِها تَفْعَلُ ذٰلكَ، بل يَحْدُثُ عنها ما يَكونُ حارًّا أو باردًا أو رطبًا أو يابسًا، كما يُقالُ: إنَّ الحركةَ تُسَخِّنُ والصَّومَ يُجَفِّفُ، لا على أنَّها تَفْعَلُ ذٰلكَ بطبائِعِها بل بما يَحْدُثُ عنها، فبَطْلِيموسُ قالَ: إنَّ القمرَ مرطِّبٌ والشَّمسُ تُسَخِّنُ بحسبِ ما يَحْدُثُ عنهُما وتَنْفَعِلُ المنفعلاتُ بتلكَ القوى لا بأنَّ طبائعَها مكيِّفاتٌ!

فيُقالُ: نحنُ[١] لمْ نُنازِعْكُم في تأْثيرِ الشَّمسِ والقمرِ في هٰذا العالَمِ بالرُّطوبةِ والبرودةِ واليبوسةِ وتوابعِها وتأْثيرِها في أبدانِ الحيوانِ والنَّباتِ، ولٰكنْ هُما جزءٌ مِن السَّببِ المؤثِّرِ ولَيْسا بمؤثِّرٍ تامٍّ؛ فإنَّ تأْثيرَ الشَّمسِ مثلاً كانَ بواسطةِ الهواءِ وقبولِهِ للسُّخونةِ والحرارةِ بٱنعكاسِ شعاعِ الشَّمسِ عليهِ عندَ مقابلتِها لجرمِ الأرضِ[٢]، ويَخْتَلِفُ هٰذا القبولُ عندَ قربِ الشَّمسِ مِن الأرضِ وبعدِها[٣]، فيَخْتَلِفُ حالُ الهواءِ وأحوالُ الأبخرةِ في تكاثفِها وبرودتِها وتلطُّفِها وحرارتِها، فتَخْتَلِفُ التَّأْثيراتُ بٱختلافِ هٰذهِ الأسبابِ، والشَّمسُ جزءُ السَّببِ[٤] في ذٰلكَ والأرضُ جزءٌ والهواءُ جزءٌ والمقابلةُ الموجبةُ لانعكاسِ الأشعَّةِ جزءٌ والمحلُّ القابلُ للتَّأْثيرِ والانفعالِ جزءٌ.

ونحنُ لا نُنْكِرُ أنَّ قوَّةَ البردِ بسببِ بعدِ الشَّمسِ عن سمتِ رؤوسِنا[٥] وقوَّةَ الحرِّ بسببِ قربِ الشَّمسِ مِن سمتِ رؤوسِنا.

ولا نُنْكِرُ أنَّ الشَّمسَ إذا طَلَعَتْ؛ فإنَّ الحيوانَ ناطقَهُ وبهيمَهُ يَخْرُجُ مِن مكامِنِهِ وأكنَّتِهِ وتَظْهَرُ القوَّةُ والحركةُ فيهِم، ثمَّ ما دامَتِ الشَّمسُ صاعدةً في الرُّبعِ الشَّرقيِّ فحركاتُ الحيوانِ في الازديادِ والقوَّةِ، وتَسْتَمِرُّ هٰذهِ الحالُ إلى غروبِ الشَّمسِ، ثمَّ كلَّما

---

(١) في ط: «فقال نحن»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه. وليس ما بعده كلام بطليموس ولا كلام المنجّم، وإنّما هو كلام ٱبن القيّم!

(٢) وهٰذا صحيح ثابت، وقد قدّمت آنفًا أنّ تأثير الشمس يرجع إلى ٱمتصاص الأرض لأشعّتها، فتسخن الأرض بذٰلك، ثمّ تسخّن ما يليها من طبقات الهواء.

(٣) أي: بحسب تعامد الأشعّة مع الأرض وميلانها كما سيأتي من كلام ٱبن القيّم بعد أسطر قليلة.

(٤) في ط: «والسبب جزء الشمس»! وسيأتي على الصواب بعد ثلاث صفحات.

(٥) عن سمت رؤوسنا: عن التعامد مع رؤوسنا.

ٱزْدادَ نورُ الشَّمسِ عن هٰذا العالمِ بعدًا؛ ٱزْدادَ الضَّعفُ والفتورُ في حركةِ الحيوانِ وهَدَأَتِ الأجسادُ ورَجَعَتِ الحيواناتُ إلى مكامنِها، فإذا طَلَعَتِ الشَّمسُ؛ رَجَعوا إلى الحالةِ الأُولى.

ولا نُنْكِرُ أيضًا ٱرتباطَ فصولِ العالمِ الأربعةِ بحركاتِ الشَّمسِ وحلولِها في أبراجِها(١).

ولا نُنْكِرُ أنَّ السُّودانَ لمَّا كانَ مسكنُهُم خطَّ الاستواءِ إلى محاذاةِ ممرِّ رأْسِ السَّرطانِ(٢)، وكانَتِ الشَّمسُ تَمُرُّ على [سمتِ](٣) رؤوسِهِم في السَّنةِ إمَّا مرَّةً وإمَّا مرَّتينِ(٤)؛ تَسَوَّدَتْ أبدانُهُم وجَعُدَتْ شعورُهُم وقَلَّتْ رطوبتُهُم(٥) فساءَتْ أخلاقُهُم وضَعُفَتْ عقولُهُم(٦).

---

(١) فصّلت القول في تفسير الفلكيّين المعاصرين للفصول الأربعة فيما تقدّم (٢/ ٤٦).

(٢) يعني: مدار السرطان في لغتنا المعاصرة، وهو خطّ عرض ٢٣,٥ تقريبًا.

(٣) زيادة يقتضيها السياق، وإلاّ؛ فالشمس تمرّ على رؤوس جميع الخلائق كلّ يوم! ومعنى «على سمت رؤوسهم»: عموديّة عليها.

(٤) تصل أشعّة الشمس عموديّة أو شبه عموديّة على المنطقة المحصورة بين مداري السرطان والجدي معظم أيّام السنة تقريبًا.

(٥) أمّا ٱسمرار البشرة وٱسودادها؛ فلا خلاف في أثر الشمس فيه، وله تفسير علميّ ليس هٰذا محلّ بسطه. وأمّا جعودة الشعر؛ فالأمر فيها ليس بهٰذه البساطة، لٰكن يمكن قبول هٰذا القول تجاوزًا مع الإشارة إلى أثر الجانب الوراثي الظاهر في هٰذه القضيّة. وأمّا قلّة الرطوبة؛ فصدًى للنظريّة الطبيّة اليونانيّة، كانوا يرون أنّ في جسم الإنسان رطوبة زائدة عن الحاجة، فإذا تعرّض لحرارة معتدلة؛ أنضجتها ثمّ جفّفتها وخلّصته منها، وإذا زادت الحرارة، جفّفت ما يحتاج إليه من الرطوبات الضروريّة، وإذا نقصت؛ بقيت الرطوبات الزائدة في بدنه وأضرّت به! وهٰذا لا يصحّ علميًّا ولا عمليًّا.

(٦) وهاهنا ملاحظات أسوقها فيما يلي:

أوّلاً: لا ينكر أنّ الحرّ والبرد الشديدين يحولان دون قيام دولة حضاريّة مزدهرة، ولذٰلك تركّزت معظم الحضارات قديمًا وحديثًا حول المنطقة المعتدلة، فلم تقم حضارة في العروض الاستوائيّة ولا القطبيّة، بل كان الفايكنج (شعوب السويد والنرويج وفنلندة قديمًا) همجًا أكلة للحوم البشر حتّى القرون الوسطى.

ثانيًا: وٱبن القيّم يرحمه الله إنّما نظر في أحوال البربر والسودان وطبائعهم في عصره من غلبة الجهل والهمجيّة وكثرة الفساد والأذى والتخريب، فجعل علّة ذٰلك هيئتهم ولون بشرتهم! فهو معذور بنظره وفكره بناء على المعطيات المتوفّرة في عصره، مخطئ بتعليله.

ثالثًا: والحقّ أنّ تخلّف الشعوب السوداء قديمًا لا يرجع بوجه من الوجوه إلى سواد بشرتهم ولا إلى=

وأمّا الذينَ مساكنُهُم أقربُ إلى محاذاةِ ممرِّ السَّرطانِ؛ فالسَّوادُ فيهِم أقلُّ وطبائعُهُم أعدلُ وأخلاقُهُم أحسنُ وأجسامُهُم ألطفُ، كأهلِ الهندِ واليمنِ وبعضِ أهلِ الغربِ.

وعكسُ هٰؤلاءِ الذينَ مساكنُهُم على ممرِّ رأسِ السَّرطانِ إلى محاذاةِ بناتِ نَعْشٍ الكبرى[1]، فهٰؤلاءِ لأجلِ أنَّ الشَّمسَ لا تُسامِتُ رؤوسَهُم ولا تَبْعُدُ عنهُم أيضًا بعدًا كثيرًا ولمْ يَعْرِضْ لهُم حرٌّ شديدٌ ولا بردٌ شديدٌ؛ فألوانُهُم متوسِّطةٌ وأجسامُهُم معتدلةٌ وأخلاقُهُم فاضلةٌ، كأهلِ الشَّامِ والعراقِ وخُراسانَ وفارِسَ والصِّينِ. ثمَّ مَن كانَ مِن هٰؤلاءِ أميلُ إلى ناحيةِ الجنوبِ؛ كانَ أتمَّ في الذَّكاءِ والفهمِ، ومَن كانَ منهُم يَميلُ إلى ناحيةِ الشَّرقِ؛ فهُم أقوى نفوسًا وأشدُّ ذكورةً، ومَن كانَ يَميلُ إلى ناحيةِ الغربِ؛ غَلَبَ عليهِ اللينُ والرَّزانةُ[2]. ومَن تَأمَّلَ هٰذا حقَّ التَّأمُّلِ وسافرَ بفكرِهِ في أقطارِ العالمِ؛ عَلِمَ حكمةَ اللهِ في نشرِهِ مذهبَ أهلِ العراقِ وما فيهِ مِن اللينِ وما شاكَلَهُ في أهلِ المشرقِ، ومذهبَ أهلِ المدينةِ وما فيهِ مِن الشِّدَّةِ والقوَّةِ في أهلِ المغربِ.

وأمَّا مَن كانَتْ مساكنُهُم محاذيةً لبناتِ نَعْشٍ[3] ـ وهمُ الصَّقالِبَةُ[4] والرُّومُ ـ؛ فإنَّهُم لكثرةِ بعدِهِم عن مسامتةِ الشَّمسِ؛ صارَ البردُ غالبًا عليهِم والرُّطوبةُ الفضليَّةُ [زائدةً][5]

= جعودة شعرهم فضلاً عن قلّة رطوباتهم، ولٰكن إلى طبيعة بلادهم القاسية التي لا تسمح بقيام دول حضاريّة واسعة تزدهر فيها الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم، وإنّما تسمح بكيانات قبليّة صغيرة همّها الصراع من أجل البقاء وتحصيل أوّليّات العيش. وأمّا اليوم؛ فسرّ تخلّفهم هو الاستعمار الأوروبي الذي ما زال يعيث في بلادهم فسادًا ويعمل على نهب خيراتها.

رابعًا: ولو تأمّلت اليوم؛ لوجدت أكثر الأفارقة السود مسلمين، وهٰذا دليل على كمال العقل، بخلاف الأوروبيّين البيض عبدة الصلبان! وكذٰلك الإسلام في أمريكا أكثر انتشارًا في السود منه في البيض! وأمّا العيث في البلاد والترويج للفساد والفتك في العباد؛ فقد ضرب الأوروبيّون البيض فيه الرقم القياسيّ، فلا تجد في العالم فسادًا إلّا وهم أولياؤه ورعاته. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(١) بنات نعش الكبرى مجموعة من النجوم تابعة لكوكبة الدبّ الأكبر، وتقع إلى الشمال من كوكبة السرطان، والمسافة بينها وبين رأس السرطان تقابل على الأرض المنطقة المعتدلة الشماليّة.

(٢) من تأمّل هٰذا حقّ التأمّل؛ علم أنّه لا يصحّ تعميمه في عصر من العصور أو دولة من الدول فضلاً عن أن يعمّم على مختلف الأزمنة والأمكنة!

(٣) شمال المنطقة المعتدلة، وتسمّى اليوم بالمعتدلة الباردة.

(٤) الصقالبة: سكّان أوروبة الشرقيّة؛ أوكرانية ورومانية وبلغارية ويوغوسلافية البائدة.

(٥) زيادة يقتضيها السياق. وقد تقدّم المراد بالرطوبة الفضليّة قبل صفحة.

فيهم؛ لأنَّهُ ليسَ مِن الحرارةِ هناكَ ما يُنَشِّفُها ويُنْضِجُها، فلذٰلكَ صارَتْ ألوانُهُم بيضاءَ وشعورُهُم سَبْطَةً شقراءَ وأبدانُهُم رَخْصَةً(١) وطبائعُهُم مائلةً إلى البرودةِ وأذهانُهُم جامدةً.

وكلُّ واحدٍ مِن هٰذينِ الطَّرفينِ ـ وهُما الإقليمُ الأوَّلُ والسَّابعُ(٢) ـ يَقِلُّ فيهِ العمرانُ ويَنْقَطِعُ بعضُهُ عن بعضٍ لأجلِ غلبةِ اليبسِ، ثمَّ لا تَزالُ العمارةُ تَزْدادُ في الإقليمِ الثَّاني [والثَّالثِ](٣) والسَّادسِ والخامسِ ويَقِلُّ الخرابُ فيها، وأمَّا الإقليمُ الرَّابعُ؛ فإنَّهُ أكثرُ الأقاليمِ عمارةً وأقلُّها خرابًا لفضلِ الوسطِ(٤) على الأطرافِ بسببِ ٱعتدالِ المزاجِ، وهوَ الذي ٱنْتَشَرَتْ فيهِ دعوةُ الإسلامِ وضَرَبَ الدِّينُ بجرانِهِ فيهِ(٥) وظَهَرَ فيهِ أعظمَ مِن ظهورِهِ في سائرِ الأقاليمِ. ولهٰذا قالَ النَّبيُّ ﷺ: «زُوِيَتْ لِيَ الأرضُ فرَأَيْتُ مشارِقَها ومغارِبَها، وسَيَبْلُغُ ملكُ أُمَّتي ما زُوِيَ لي منها»(٦). فكانَ ٱنتشارُ دعوتِهِ ﷺ في أعدلِ الأرضِ، ولذٰلكَ ٱنْتَشَرَتْ شرقًا وغربًا أكثرَ مِن ٱنتشارِها جنوبًا وشمالاً، ولهٰذا زُوِيَتْ لهُ فأُرِيَ مشارِقَها ومغارِبَها وبَشَّرَ أُمَّتَهُ بٱنتشارِ مملكتِها في هٰذينِ الرُّبعينِ؛ فإنَّهُما أعدلُ الأرضِ وأهلُهُما أكملُ النَّاسِ خَلقًا وخُلقًا، فظَهَرَ الكمالُ لهُ في الكتابِ والدِّينِ والأصحابِ والشَّريعةِ والبلادِ والممالكِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ.

فإنْ قيلَ: فقد فَضَّلْتُمُ الإقليمَ الرَّابعَ على سائرِ الأقاليمِ معَ أنَّ شيئًا مِن الأدويةِ لا يَتَوَلَّدُ فيهِ إلاَّ دواءً ضعيفًا(٧)، وإنَّما تَتَكَوَّنُ الأدويةُ في سائرِ الأقاليمِ(٨).

---

(١) رخصة: طريّة، ناعمة.

(٢) وذٰلك لأنّه ٱحتسب الإقليم المعتدل أربعًا؛ شماليًّا وجنوبيًّا وشرقيًّا وغربيًّا.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) في ط: «وأقلّها خرابًا بالفصل الوسط»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٥) ضرب بجرانه فيه: ٱستقام أمره وٱستقرّ فيه.

(٦) رواه مسلم (٥٢ـ الفتن، ٥ـ هلاك هٰذه الأمّة، ٤/ ٢٢١٥/ ٢٨٨٩) من حديث ثوبان.

(٧) في ط: «لا تتولّد فيه الأدواء ضعيفًا»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه!

(٨) في سائر الأقاليم: في الأقاليم الأخرى. وربّما كان هٰذا التعميم صحيحًا بالنظر للصناعة الدوائيّة في عصر ٱبن القيّم التي كانت تعتمد أساسًا على ما يرد من الهند والصين من الأعشاب الطبيّة، لٰكن في المناطق المعتدلة اليوم جملة غير قليلة من الأعشاب الطبيّة المتعدّدة المنافع. والله أعلم.

قيلَ: هٰذا مِن أدلِّ الدَّلائلِ على فضلِهِ عليها؛ لأنَّ طبيعةَ الدَّواءِ لا تكونُ معتدلةً؛ إذ لو حَصَلَ فيها الاعتدالُ؛ لَكانَ غذاءً لا دواءً، والطَّبيعةُ الخارجةُ عنِ الاعتدالِ لا تَحْدُثُ إلاَّ في المساكنِ الخارجةِ عنِ الاعتدالِ[١].

وكذٰلكَ حالُ الشَّمسِ في المواضعِ التي تُسامِتُها، فموضعُ حضيضِها وغايةُ قربِها مِن الأرضِ في البراري الجنوبيَّةِ [حيثُ][٢] تكونُ تلكَ الأماكنُ محترقةً ناريَّةً لا يَتَكَوَّنُ فيها حيوانٌ ٱلبتَّةَ[٣].

ولذٰلكَ ـ واللهُ أعلمُ ـ كانَ أكثرُ البخارِ مِن الجانبِ الجنوبيِّ دونَ الشَّماليِّ؛ لأنَّ الشَّمسَ إذا كانَتْ في حضيضِها كانَتْ أقربَ إلى الأرضِ، وإذا كانَتْ في أوجِها كانَتْ أبعدَ، وعندَ قربِها مِن الأرضِ يَعْظُمُ تسخينُها[٤]، والسُّخونةُ جاذبةٌ للرُّطوباتِ، وإذا ٱنْجَذَبَتِ الرُّطوباتُ إلى الجانبِ الجنوبيِّ؛ ٱنْكَشَفَ الجانبُ الشَّماليُّ ضرورةً وصارَ مستقرًّا للحيوانِ الأرضيِّ، والجنوبيُّ أعظمُ الجانبينِ رطوبةً وأكثرُها مياهًا ومقرًّا للحيوانِ المائيِّ[٥].

وأمَّا المواضعُ المسامتةُ لأوجِ الشَّمسِ في الشَّمالِ؛ فهيَ غيرُ محترقةٍ بل معتدلةٌ؛ لبعدِ الشَّمسِ مِن الأرضِ!

وبسببِ التَّفاوتِ[٦] القليلِ الحاصلِ بينَ أقربِ قربِ الشَّمسِ مِن الأرضِ وأبعدِ

---

(١) راجع ما تقدّم (١/ ٤٨) في النظريّة الطبّيّة اليونانيّة.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) الواقع أنّ المناطق الاستوائيّة في أفريقيّة وآسية وأمريكا الجنوبيّة أغنى من المناطق المعتدلة أضعافًا مضاعفة بالغطاء النباتيّ وأوسع كثيرًا في التعداد الحيوانيّ كمًّا وكيفًا، فكأنّ ابن القيّم يرحمه الله إنّما يتحدّث عمّا يعرفه هو من المناطق الصحراويّة التي تفصل بين بلاد المسلمين والمناطق الاستوائيّة.

(٤) ترجع شدّة الحرارة والتسخين والتبخّر في المناطق الاستوائيّة بالدرجة الأولى إلى تعامد أشعّة الشمس (أو تسامتها بعبارة الأقدمين) مع الأرض في هٰذه المناطق لا إلى قربها وبعدها من الأرض هناك، والأرض إنّما تبتعد عن الشمس وتقترب منها خلال دورانها حولها بجملتها لا بمنطقة فيها دون أخرى.

(٥) فيه نظر! والجغرافيّون الطبيعيّون المعاصرون لا يقرّون هٰذا التحليل! ومن المشكل حقًّا أنّهم تارة يقولون: السخونة جاذبة للرطوبات، وتارة يقولون: السخونة مجفّفة للرطوبات! مع ملاحظة أنّ المقصود بالجانب الجنوبيّ هو المنطقة الاستوائيّة لا نصف الكرة الأرضيّة الجنوبيّ.

(٦) في ط: «وسبب التفاوت»! ولا بدّ من إثبات الباء.

بعدِها منها صارَ الجنوبيُّ محترقًا والجانبُ الشَّماليُّ معتدلاً[١]. فلو كانَتِ الشَّمسُ حاصلةً في فلكِ الكواكبِ[٢]؛ لَفَسَدَ هٰذا العالمُ مِن شدَّةِ البردِ، ولو فَرَضْنا أنَّها ٱنْحَدَرَتْ إلى فلكِ القمرِ؛ لأحْرَقَتْ هٰذا العالمَ. فٱقْتَضَتْ حكمةُ العزيزِ العليمِ الحكيمِ أنْ وَضَعَ الشَّمسَ وسطَ الكواكبِ السَّبعةِ[٣]، وجَعَلَ حركتَها المعتدلةَ وقربَها المعتدلَ سببًا لاعتدالِ هٰذا العالمِ، وجَعَلَ قربَها وبعدَها وٱرتفاعَها وٱنخفاضَها سببًا لفصولِهِ التي هيَ نظامُ مصالحِهِ[٤]، فتَبارَكَ اللهُ ربُّ العالَمينَ وأحسنُ الخالقينَ.

وأهلُ الإقليمِ الأوَّلِ لأجلِ قربِهِم مِن الموضعِ المحاذي لحضيضِ الشَّمسِ كانَتْ سخونةُ هوائِهِم شديدةً، ولا جرمَ كانوا أشدَّ سوادًا مِن مكانِ خطِّ الاستواءِ.

وأهلُ الإقليمِ الثَّاني سخونةُ هوائِهِم ألطفُ فكانوا سمرَ الألوانِ.

والإقليمُ الثَّالثُ والرَّابعُ أعدلُ الأقاليمِ مزاجًا بسببِ ٱعتدالِ الهواءِ وبسببِ تعديلِ ٱرتفاعِ الشَّمسِ [فـ]لا تكونُ في أبعدِ بعدِها عنِ الأرضِ. فهاهُنا وإنْ حَصَلَتْ مسامتةٌ مفيدةٌ لمزيدِ السُّخونةِ لٰكنْ حَصَلَ أيضًا البعدُ المقلِّلُ للسُّخونةِ فحَصَلَ الاعتدالُ مِن بعضِ الوجوهِ، وفي الجانبِ الجنوبيِّ وإنْ حَصَلَ مزيدُ القربِ مِن الأرضِ لٰكنْ لمْ يَحْصُلْ هناكَ مسامتةٌ[٥]. [فلا جرمَ أنْ صارَتْ أكثرُ] المساكنِ المعمورةِ [متاخمةً] لخطِّ الاعتدالِ[٦] في الجانبينِ بهٰذهِ الطَّريقِ، وصارَ أهلُ الإقليمِ الثَّالثِ والرَّابعِ أفضلَ النَّاسِ صورًا وأخلاقًا.

وأمَّا الإقليمُ الخامسُ؛ فإنَّ سخونةَ الهواءِ هناكَ أقلُّ مِنَ الاعتدالِ بمقدارٍ يسيرٍ، فلا جرمَ صارَ في جزءِ البردِ وصارَتْ طبائعُ أهلِهِ أقلَّ نضجًا مِن طبائعِ أهلِ الإقليمِ

---

(١) تقدّم في الصفحة السابقة ما في هٰذا والذي قبله.

(٢) يعني: لو كانت بعيدة عنّا كبعد النجوم الأخرى.

(٣) وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، ولم تكن أورانوس ونبتون وبلوتو معروفة آنئذ.

(٤) ٱنظر ما تقدّم في تفسير تقلّب الفصول (٢/ ٤٦).

(٥) لٰكنّ المسامتة في جهة الجنوب الأقرب إلى خطّ الاستواء أكثر وأشدّ! وقد تقدّم هٰذا من كلام ٱبن القيّم في الصفحة السابقة وقبلها! وربّما كان في الكلام سقطًا! فالله أعلم.

(٦) في ط: «هناك مسامتة للمساكن المعمورة لخطّ الاعتدال»! وهٰذا كلام غير مفهوم إطلاقًا، ومن الواضح أنّ فيه سقطًا وتحريفًا، وأرجو أنّي ٱستدركت شيئًا من ذٰلك بما أضفته.

الرَّابعِ؛ إلاَّ أنَّ بعدَهُم عنِ الاعتدالِ قليلٌ.

وأمَّا أهلُ الإقليمِ السَّادسِ والسَّابعِ؛ فإنَّ أهلَها مقرورونَ[١]، ولغلبةِ البردِ والرُّطوبةِ عليهِم يَشْتَدُّ بياضُ ألوانِهِم وزرقةُ عيونِهِم.

وأمَّا المواضعُ التي تَقْرُبُ مِن أنْ يَكونَ الخطُّ فيها فوقَ الرَّأْسِ[٢]؛ فهناكَ لا يَصِلُ تسخينُ الشَّمسِ إليها، فلا جرمَ عَظُمَ البردُ فيها، ولمْ يَكُنْ هناكَ حيوانٌ ٱلبتَّةَ[٣].

وهٰذا كلُّهُ يَدُلُّ على أنَّ الشَّمسَ جزءُ السَّببِ وأنَّ الهواءَ جزءُ السَّببِ والأرضَ جزءٌ وٱنعكاسَ الشُّعاعِ جزءٌ وقبولَ المنفعلاتِ جزءٌ، [و]مجموعُ ذٰلكَ سببٌ واحدٌ قَدَّرَهُ العليمُ القديرُ وأَجْرى عليهِ نظامَ العالمِ.

وقَدَّرَ سبحانَهُ أشياءَ أُخَرَ لا يَعْرِفُها هٰؤلاءِ الجهَّالُ ولا عندَهُم منها خبرٌ؛ مِن تدبيرِ الملائكةِ وحركاتِهِم، وطاعةِ أُسْتُقُصَّاتِ العالمِ[٤] وموادِّهِ لهُم، وتصريفِهِم تلكَ الموادَّ بحسبِ ما رُسِمَ لهُم مِن التَّقديرِ الإلٰهيِّ والأمرِ الرَّبَّانيِّ.

ثمَّ قَدَّرَ تَعالى أشياءَ أُخرَ تُمانِعُ هٰذهِ الأسبابَ عندَ التَّصادمِ وتُدافِعُها وتَقْهَرُ موجَبَها ومقتضاها؛ لِيَظْهَرَ عليها أثرُ القهرِ والتَّسخيرِ والعبوديَّةِ وأنَّها مصرَّفةٌ مدبَّرةٌ بتصريفِ قاهرٍ قادرٍ كيفَ يَشاءُ؛ لِيَدُلَّ عبادَهُ على أنَّهُ هوَ وحدَهُ الفعَّالُ لِما يُريدُ المدبِّرُ لخلقِهِ كيفَ يَشاءُ، وأنَّ كلَّ ما في المملكةِ الإلٰهيَّةِ طوعُ قدرتِهِ وتحتَ مشيئتِهِ، وأنَّهُ ليسَ شيءٌ يَسْتَقِلُّ وحدَهُ بالفعلِ إلاَّ اللهَ وكلُّ ما سواهُ لا يَفْعَلُ شيئًا إلاَّ بمشاركٍ ومعاونٍ ولهُ ما يُعاوِقُهُ ويُمانِعُهُ ويَسْلُبُهُ تأْثيرَهُ: فتارةً يَسْلُبُ سبحانَهُ النَّارَ إحراقَها ويَجْعَلُها بردًا كما جَعَلَها على خليلِهِ بردًا وسلامًا [الأنبياء ٦٩ و...]، وتارةً يُمْسِكُ بينَ أجزاءِ الماءِ فلا يَتَلاقى كما

---

(١) في ط: «فإنّ أهلها محرورون»! والمحرور: المغيظ المحنق، ولا محلّ لها هنا، فلعلّ الصواب ما أثبتّه. والمقرور: المصاب بالبرد.

(٢) يكون الخطّ فيها فوق الرأس: تكون أشعّة الشمس فيها شديدة الميل بحيث تكاد تكون أفقيّة موازية لرأس الراصد وخطّ نظره.

(٣) لا يخلو شيء من المناطق الباردة من أنواع كثيرة من النباتات والحيوانات، ولا سيّما المناطق القطبيّة الشماليّة، حتّى القطب الجنوبي فيه أنواع مختلفة من الحيوانات المتلائمة مع بيئته القاسية.

(٤) أستقصّات العالم: أصوله البسيطة.

فَعَلَ لموسى وقومِهِ [البقرة ٥٠ و. . .]، وتارةً يَشُقُّ الأجرامَ السَّماويَّةَ كما شَقَّ القمرَ لخاتمِ أنبيائِهِ ورسلِهِ[١] وفتَحَ السَّماءَ لمصعدِهِ وعروجِهِ[٢]، وتارةً يَقْلِبُ الجمادَ حيوانًا كما قَلَبَ عصا موسى ثعبانًا [الأعراف ١٠٧ و. . .]، وتارةً يُغَيِّرُ هٰذا النِّظامَ ويُطْلِعُ الشَّمسَ مِن مغربِها كما أَخْبَرَ بِهِ أصدقُ خلقِهِ عنهُ[٣].

فإذا أتى الوقتُ المعلومُ، فشَقَّ السَّماواتِ وفَطَرَها ونَثَرَ الكواكبَ على وجهِ الأرضِ ونَسَفَ جبالَ العالمِ ودَكَّها مع الأرضِ وكَوَّرَ شمسَ العالمِ وقمرَهُ، ورَأى ذٰلكَ الخلائقُ عيانًا؛ ظَهَرَ للخلائقِ كلِّهِم صدقُهُ وصدقُ رسلِهِ وعمومُ قدرتِهِ وكمالُها، وأنَّ العالمَ بأسرِهِ منقادٌ لمشيئتِهِ طوعُ قدرتِهِ لا يَسْتَعْصي عليهِ ٱنفعالُهُ لِما يَشاؤُهُ ويُريدُهُ منهُ، وعَلِمَ الذينَ كَفَروا وكَذَّبوا رسلَهُ مِن الفلاسفةِ والمنجِّمينَ والمشركينَ والسُّفهاءِ الذينَ سَمَّوْا أنفسَهُمُ الحكماءَ[٤] أنَّهُم كانوا كاذبينَ.

وٱجْتَمَعَ جماعةٌ مِن الكبراءِ والفضلاءِ يومًا فقَرَأَ قارئٌ ﴿إذا الشَّمسُ كُوِّرَتْ . وَإذا النُّجومُ ٱنْكَدَرَتْ . وإذا الجبالُ سُيِّرَتْ﴾ حتَّى بَلَغَ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ﴾ [التّكوير: ١-١٤]، وفي الجماعةِ أبو الوفاءِ ٱبنُ عَقيلٍ[٥]، فقالَ لهُ قائلٌ: يا سيِّدي! هَبْ أنَّهُ أنْشَرَ

---

(١) روى: البخاري (٦١ـ المناقب، ٢٧ـ سؤال المشركين آية، ٦/ ٦٣١/ ٣٦٣٦-٣٦٣٨)، ومسلم (٥٠ـ المنافقين، ٨ـ ٱنشقاق القمر، ٤/ ٢١٥٨/ ٢٨٠٠-٢٨٠٣)؛ من حديث ٱبن مسعود وأنس وٱبن عبّاس وٱبن عمر؛ أنّ أهل مكّة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم ٱنشقاق القمر مرّتين.

(٢) في حادثة المعراج المشهورة، وقد تقدّم تخريج أحاديثها في أكثر من مناسبة. وٱنظر (١/ ١٠٩).

(٣) روى: البخاري (٦٥ـ التفسير، ٩ـ هلمّ شهداؤكم، ٨/ ٢٩٦/ ٤٦٣٥ و٤٦٣٦)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٧٢ـ الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، ١/ ١٣٧/ ١٥٧ و١٥٨)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنّه ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتّى تطلع الشمس من مغربها. . . ».

ورواه بنحوه: البخاري (٥٩ـ بدء الخلق، ٤ـ صفة الشمس والقمر، ٦/ ٢٩٧/ ٣١٩٩)، ومسلم (الموضع السابق، ١٥٩)؛ من حديث أبي ذرّ رضي الله عنه.

(٤) إي والله؛ سفهاء سمّوا أنفسهم حكماء، وجهلة سمّوا أنفسهم علماء! والمشكل حقًّا أنّ العوامّ الهوامّ يصدّقون كلّ ما رأوا وسمعوا! فإن سألتهم: من أين لك هٰذا؟! قالوا: سمعته في الراديو! رأيته في التيليفزيون! قرأته في كتاب! فإذا كان كذٰلك؛ فقد جاز عندهم القنطرة.

(٥) الإمام العلّامة، شيخ الحنابلة، عليّ بن عقيل بن محمّد، البغداديّ الظفريّ، صاحب التصانيف. كان عظيم الذكاء، لٰكنّه ٱتّصل بأهل الكلام فحصلت فيه شائبة تجهّم وٱعتزال وبدع وافق فيها هٰذه الطوائف، والله يغفر له. توفي ٥١٣هـ. ترجمته في: «أعلام النبلاء» (١٩/ ٤٤٣)، و«لسان الميزان» (٤/ ٢٧٩).

الموتى للبعثِ والحسابِ، وزَوّجَ النُّفوسَ بقرنائِها للثّوابِ والعقابِ، فما الحكمةُ في هدمِ الأبنيةِ وتسييرِ الجبالِ ودكِّ الأرضِ وفطرِ السّماءِ ونثرِ النُّجومِ وتخريبِ هٰذا العالمِ وتكويرِ شمسِهِ وخسفِ قمرِهِ؟! فقالَ ٱبنُ عَقيلٍ على البديهةِ: إنَّما بَنى لهُم هٰذِه الدَّارَ للسُّكنى والتَّمتُّعِ، وجَعَلَها وما فيها للاعتبارِ والتَّفكُّرِ والاستدلالِ عليهِ بحسنِ التَّأمُّلِ والتَّذكُّرِ، فلمَّا ٱنْقَضَتْ مدَّةُ السُّكنى وأجلاهُم عنِ الدَّارِ؛ خَرَّبَها لانتقالِ السَّاكنِ منها.

فأرادَ أنْ يُعْلِمَهُم بأنَّ في إحالةِ الأحوالِ وإظهارِ تلكَ الأهوالِ وإبدالِ ذٰلكَ[١] الصُّنعِ العظيمِ بيانًا لكمالِ قدرتِهِ ونهايةِ حكمتِهِ وعظمةِ ربوبيَّتِهِ وعزِّ جلالِهِ وعظمِ شأْنِهِ وتكذيبًا لأهلِ الإلحادِ وزنادقةِ المنجِّمينَ وعبّادِ الكواكبِ والشَّمسِ والقمرِ والأوثانِ؛ لِيَعْلَمَ الذينَ كَفَروا أنَّهُم كانوا كاذبينَ. فإذا رَأَوْا أنَّ منارَ آلهتِهِم قدِ ٱنْهَدَمَ وأنَّ معبوداتِهِم قدِ ٱنْتَثَرَتْ والأفلاكَ التي زَعَموا أنَّها وما حَوَتْهُ هيَ الأربابُ المستوليةُ على هٰذا العالمِ قد تَشَقَّقَتْ وٱنْفَطَرَتْ؛ ظَهَرَتْ حينئذٍ فضائحُهُم وتَبَيَّنَ كذبُهُم وظَهَرَ أنَّ العالمَ مربوبٌ محدَثٌ مدبَّرٌ لهُ ربٌّ يُصَرِّفُهُ كيفَ يَشاءُ تكذيبًا لملاحدةِ الفلاسفةِ القائلينَ بقدمِهِ.

فكم للهِ مِن حكمةٍ في هدمِ هٰذهِ الدَّارِ ودلالةٍ على عظيمِ قدرتِهِ وعزَّتِهِ وسلطانِهِ وٱنفرادِهِ بالرُّبوبيَّةِ وٱنقيادِ المخلوقاتِ بأسرِها لقهرِهِ وإذعانِها لمشيئتِهِ! فتبارَكَ اللهُ ربُّ العالمينَ.

ونحنُ لا نُنكِرُ ولا نَدْفَعُ أنَّ الزَّرعَ والنَّباتَ لا يَنْمو ولا يَنْشَأُ إلَّا في المواضعِ التي تَطْلُعُ عليها الشَّمسُ، ونحنُ نَعْلَمُ أيضًا أنَّ وجودَ بعضِ النَّباتِ في بعضِ البلادِ[٢] لا سببَ لهُ إلَّا ٱختلافُ البلدانِ في الحرِّ والبردِ الذي سببُهُ حركةُ الشَّمسِ وتقاربُها في قربِها وبعدِها مِن ذٰلكَ البلدِ[٣]، وأيضًا فإنَّ النَّخلَ يَنْبُتُ في البلادِ الحارَّةِ ولا يَنْبُتُ في البلادِ

---

(١) في ط: «وإبداء ذٰلك»! وله وجه، والغالب أنّه تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) يعني: دون غيرها من البلاد.

(٣) لا ريب أنّ لتفاوت درجات الحرارة بين إقليم وآخر أثرًا عظيمًا في توزيع الغطاء النباتي كمًّا وكيفًا في الإقليمين. لٰكن حصر ذٰلك بالتفاوت الحراري فيه نظر؛ لأنّ لدرجة الرطوبة أثرًا عظيمًا على ذٰلك، ولتوزّع المياه الجوفيّة والسطحيّة والأمطار أثرًا بالغًا أيضًا، وكذٰلك لطبيعة التربة والرياح والتضاريس والقرب والبعد من البحر آثار لا ينبغي إغفالها. والله أعلم.

الباردةِ، وشجرُ الموزِ لا يَنْبُتُ في البلادِ الباردةِ، وكذٰلكَ يَنْبُتُ في البلادِ الجنوبيّةِ أشجارٌ وفواكهُ وحشائشُ لا يُعْرَفُ شيءٌ منها في جانبِ الشّمالِ وبالعكسِ.

وكذٰلكَ الحيواناتُ يَخْتَلِفُ تكوُّنُها بحسبِ ٱختلافِ حرارةِ البلادِ وبرودتِها: فإنَّ النَّسرَ والفيلَ يَكونانِ بأرضِ الهندِ ولا يَكونانِ في سائرِ الأقاليمِ التي هيَ دونَها في الحرارةِ، وكذٰلكَ غزالُ المسكِ والكَرَكَنْدُ[1] وغيرُ ذٰلكَ.

وكذٰلكَ لا نَدْفَعُ تأْثيرَ القمرِ في وقتِ ٱمتلائِهِ[2] في الرُّطوباتِ حتَّى في جَزْرِ البحارِ ومدِّها؛ فإنَّ منها ما يَأْخُذُ في الازديادِ مِن حينِ يُفارِقُ القمرُ الشَّمسَ إلى وقتِ الامتلاءِ ثمَّ يَأْخُذُ في الانتقاصِ[3] ولا يَزالُ نُقصانُهُ يَسْتَمِرُّ بحسبِ نقصانِ القمرِ حتَّى يَنْتَهِيَ إلى غايةِ نقصانِهِ عندَ حصولِ المحاقِ.

ومِن البحارِ ما يَحْصُلُ فيهِ المدُّ والجزرُ في كلِّ[4] يومٍ وليلةٍ معَ طلوعِ القمرِ وغروبِهِ، وذٰلكَ موجودٌ في بحرِ فارسَ وبحرِ الهندِ وكذٰلكَ بحرُ الصِّينِ. وكيفيَّتُهُ أنَّهُ: إذا بَلَغَ القمرُ مشرقًا مِن مشارقِ البحرِ؛ ٱبْتَدَأَ البحرُ بالمدِّ، ولا يَزالُ كذٰلكَ إلى أنْ يَصيرَ القمرُ إلى وسطِ سماءِ ذٰلكَ الموضعِ، فعندَ ذٰلكَ يَنْتَهي منتهاهُ، فإذا زالَ القمرُ مِن مغربِ ذٰلكَ الموضعِ؛ ٱبْتَدَأَ المدُّ مِن تحتِ الأرضِ، ولا يَزالُ زائدًا إلى أنْ يَصِلَ القمرُ إلى وتدِ الأرضِ، فحينئذٍ يَنْتَهي المدُّ منتهاهُ، ثمَّ يَبْتَدِئُ الجزرُ ثانيًا ويَرْجِعُ الماءُ كما كانَ[5].

---

(١) الكركند: حيوان بحري يعيش في قاع المحيطات قريبًا من الشاطئ في المناطق الدافئة، من القشريّات، قشرته صلبة كالدرع، يتغذّى على السرطانات والقواقع والأسماك الصغيرة، قد يصل وزنه إلى ٢٠ كغ، وأهل الشواطئ يحبّون لحمه كثيرًا.

(٢) وقت الامتلاء: عندما يكون بدرًا.

(٣) في ط: «ثمّ إنّه في الانتقاص»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) في ط: «وفي كلّ»! ولا حاجة لهٰذه الواو.

(٥) المدّ والجزر: ٱرتفاع وٱنخفاض المسطّحات المائيّة في فترات محدّدة تبعًا لحركة القمر الظاهريّة حول الأرض. حيث ترتفع مياه المسطّحات المائيّة وتنخفض مرّتين خلال الفترة بين طلوعين متتاليين للقمر (٢٤ ساعة و٥٠ دقيقة). ويحصل المدّ التامّ مرّتين شهريًّا عندما يكون القمر بدرًا وعند بزوغه الأوّل حيث تتّحد قوّة الشمس وقوّة القمر في جذب الماء، ويحصل المدّ المحاقي (وهو المدّ الأضعف) عندما تتعامد قوّة الشمس وقوّة القمر في جذب الماء، وذٰلك في التربيع الأوّل والثالث من الشهر القمري. هٰذا؛ ولا تقتصر قوّة جذب القمر على الماء، بل إنّها تطول اليابسة والهواء أيضًا، ولٰكنّ ذٰلك لا يظهر عيانًا.

وسكّانُ البحرِ كلّما رَأوا في البحرِ ٱنتفاخًا[١] وهيجانَ رياحٍ عاصفةٍ وأمواجٍ شديدةٍ؛ عَلِموا أنَّهُ ٱبْتَدَأَ المدُّ، فإذا ذَهَبَ الانتفاخُ وقَلَّتِ الأمواجُ والرِّياحُ؛ عَلِموا أنَّهُ وقتُ الجزرِ.

وأمَّا أصحابُ الشُّطوطِ والسَّواحلِ؛ فإنَّهُم يَجدونَ عندَهُم في وقتِ المدِّ للماءِ حركةً مِن أسفلِهِ إلى أعلاهُ، فإذا رَجَعَ الماءُ ونَزَلَ؛ فذٰلكَ وقتُ الجزرِ.

وكذٰلكَ أيَّامُ بُحْراناتِ الأمراضِ[٢] بحسبِ زيادةِ القمرِ ونقصانِهِ منطبقةٌ عليها[٣].

وكذٰلكَ الأخلاطُ التي في بدنِ الإنسانِ: ما دامَ القمرُ آخذًا في الزِّيادةِ؛ فإنَّها تكونُ أزيدَ، ويَكونُ ظاهرُ البدنِ أكثرَ رطوبةً وحسنًا. فإذا نَقَصَ ضوءُ القمرِ؛ صارَتِ الأخلاطُ في غورِ البدنِ والعروقِ وٱزْدادَ ظاهرُ البدنِ يبسًا[٤].

وكذٰلكَ ألبانُ الحيواناتِ تَتَزايَدُ مِن أوَّلِ الشَّهرِ إلى نصفِهِ، فإذا أخَذَ القمرُ في النُّقصانِ؛ نَقَصَتْ غزارتُها.

وكذٰلكَ أدمغةُ الحيواناتِ في أوَّلِ الشَّهرِ أزيدُ منها في نصفِهِ الأخيرِ.

وإنْ حَدَثَ في أجوافِ الطُّيورِ بيضٌ في النِّصفِ الأوَّلِ مِن الشَّهرِ؛ كانَ بياضُهُ أكثرَ مِن بياضِ الحادثِ في نصفِهِ الثَّاني.

وكذٰلكَ الإنسانُ إذا نامَ أو قَعَدَ في ضوءِ القمرِ؛ حَدَثَ في بدنِهِ الاسترخاءُ والكسلُ وهاجَ عليهِ الزُّكامُ والصُّداعُ.

وإذا وُضِعَتْ لحومُ الحيواناتِ مكشوفةً تحتَ ضوءِ القمرِ؛ تَغَيَّرَتْ طعومُها وتَعَفَّنَتْ.

---

(١) يعني: ٱرتفاعًا. ولعلّها محرّفة عنها.

(٢) البحران عند الأطبّاء القدامى: تغيّر عظيم يحدث دفعة واحدة يفضي إلى الصحّة أو العطب.

(٣) من المقبول عند الأطبّاء المحدثين أنّ تواتر بعض الأمراض يزداد في ساعة معيّنة من النهار أو الليل. فالأزمات القلبيّة تزداد في ساعات الصباح والآفات التنفّسيّة في ساعات الليل. وبعض الأمراض يزداد في وقت معيّن من السنة فالقرحات المعديّة تزداد في الخريف والإسهالات في الصيف والتحسّس في الربيع... إلخ. لٰكن لم أقف لهم على كلام في أثر القمر على سير شيء من الأمراض، وعدم الوجدان لا يكفي للجزم بعدم الوجود. وٱنظر ما بعده.

(٤) هناك دراسات حديثة تشير إلى أثر ما للقمر على سوائل الجسم البشري، ولٰكنّها غير موثّقة بصورة كافية لقبولها فضلاً عن الجزم بها.

وكذٰلكَ السَّمكُ في البحارِ والآجامِ الجاريةِ توجَدُ مِن أوَّلِ الشَّهرِ إلى وقتِ الامتلاءِ أكثرَ، وخروجُها مِن قعورِ البحارِ والآجامِ أظهرُ، ومِن بعدِ الامتلاءِ إلى الاجتماعِ فإنَّها تَدْخُلُ قعورَ البحارِ والآجامِ. والذي يَظْهَرُ مِن سمينِ السَّمكِ في النِّصفِ الأوَّلِ أكثرُ مِن الذي يَظْهَرُ في الثَّاني منهُ.

وكذٰلكَ حُرُشُ الأرضِ يَكونُ خروجُها مِن أَجْحِرَتِها[1] في النِّصفِ الأوَّلِ مِن الشَّهرِ أكثرَ مِن خروجِها في النِّصفِ الثَّاني.

وأصحابُ الغراسِ يَزْعُمونَ أنَّ الأشجارَ والغروسَ إذا غُرِسَتْ والقمرُ زائدُ الضَّوءِ؛ كانَ نشوؤُها وكمالُها وإسراعُها في النَّباتِ أحمدَ مِن التي تُغْرَسُ في محاقِهِ وذهابِ نورِهِ.

وكذٰلكَ تكونُ الرَّياحينُ والبقولُ والأعشابُ مِن الاجتماعِ إلى الامتلاءِ[2] أزيدَ نشوءًا وأكثرَ نموًّا، وفي النِّصفِ الثَّاني بالضِّدِّ مِن ذٰلكَ.

وكذٰلكَ القثَّاءُ والقرعُ والخيارُ والبطِّيخُ يَنْمو نموًّا بالغًا عندَ ازديادِ الضَّوءِ، وأمَّا في وسطِ الشَّهرِ عندَ حصولِ الامتلاءِ؛ فهناكَ يَعْظُمُ النُّموُّ حتَّى يَظْهَرَ التَّفاوتُ للحسِّ في الليلةِ الواحدةِ.

وكذٰلكَ الينابيعُ تَزْدادُ في النِّصفِ الأوَّلِ مِن الشَّهرِ وتَنْقُصُ في النِّصفِ الثَّاني.

إلى غيرِ ذٰلكَ مِن الوجوهِ التي تُؤَثِّرُ فيها الشَّمسُ والقمرُ في هٰذا العالمِ.

فنحنُ لمْ نَدْفَعْكُم عن هٰذهِ التَّأثيراتِ وأضعافِها[3].

إنَّما الذي أنْكَرَهُ عليكُمُ العقلاءُ مِن أهلِ المللِ وغيرِهِم أنَّ جملةَ الحوادثِ في هٰذا العالمِ خيرِها وشرِّها وصلاحِها وفسادِها وجميعَ أشخاصِهِ وأنواعِهِ وصورِهِ وقواهُ ومددَ

---

(١) حرش الأرض: ما فيها من الحشرات والهوامّ. الأجحرة: بيوت الهوامّ المحفورة في الأرض.

(٢) الفترة بين الاجتماع والامتلاء هي النصف الأوّل للشهر القمريّ.

(٣) أشرت آنفًا إلى أنّي لم أقف على دراسات جادّة في أثر نور القمر على نموّ النبات والحيوان والحليب وغيره ممّا ذكر هنا. نعم؛ هناك من يشير إلى أثر ما للقمر على سوائل الجسم، وما هو بالموثّق، وعلى فرض صحّتها؛ فإنّها لا تصلح حجّة للقوم؛ لأنّ هٰذا الأثر ـ إن ثبت ـ عامّ يطول جميع الأجسام ولا يختصّ أبيض ولا أسود ولا غنيًّا ولا فقيرًا ولا ذكرًا ولا أنثى ولا مولودًا في برج كذا أو غيره على ما يزعمون!

بقاءِ أشخاصِهِ وجميعَ أحوالِها العارضةِ لها وتكوُّنَ الجنينِ ومدَّةَ لُبثِهِ في بطنِ أُمِّهِ وخروجَهُ إلى الدُّنيا وعمرَهُ ورزقَهُ وشقاوتَهُ وسعادتَهُ وحسنَهُ وقبحَهُ وحذقَهُ وبلادتَهُ وجهلَهُ وعلمَهُ بل ونزولَ الأمطارِ وٱختلافَ أنواعِ الشَّجرِ والنَّباتِ في الشَّكلِ واللونِ والطُّعومِ والرَّوائحِ والمقاديرِ بلِ ٱنقسامَ الحيوانِ إلى الطَّيرِ وأصنافِهِ والبحريِّ وأنواعِهِ والبرِّيِّ وأقسامِهِ وأشكالَ هٰذِهِ الحيواناتِ وٱختلافَ صورِها وأنواعِها وأفعالِها وأخلاقِها ومنافعِها بل وتكوُّنَ المعادنِ المنطبعةِ كالحديدِ والرَّصاصِ والنُّحاسِ والذَّهبِ والفضَّةِ بل وغيرِ المنطبعةِ كالملحِ والقارِ والزِّرنيخِ والنِّفطِ والزِّئبقِ بلِ العداوةَ الواقعةَ بينَ الذِّئابِ والغنمِ والحيَّاتِ والسِّباعِ وبني آدَمَ والصَّداقةَ والعداوةَ بينَ أفرادِ النَّوعِ الواحدِ سيَّما بينَ ذكورِهِ وإناثِهِ. . . وبالجملةِ؛ فالأرزاقُ والآجالُ والعزُّ والذُّلُّ والرِّفعةُ والخفضُ والغنى والفقرُ والإحياءُ والإماتةُ والمنعُ والإعطاءُ والضَّرُّ والنَّفعُ والهدى والضَّلالُ والتَّوفيقُ والخذلانُ وجميعُ ما في العالمِ والأشخاصِ هوَ أفعالُها[1] وقواها وصفاتُها وهيئاتُها، والمعطي لهٰذا كلِّهِ هوَ ٱتِّصالاتُها[2] وٱنفصالاتُها وٱتِّصالاتُها بنقطٍ وٱنفصالاتُها عن نقطٍ ومقارنتُها ومفارقتُها ومسامتتُها ومباينتُها، فهيَ المعطيةُ لهٰذا كلِّهِ المدبِّرةُ الفاعلةُ، فهيَ الآلهةُ والأربابُ على الحقيقةِ وما تحتَها عبيدٌ خاضعونَ لها ناظرونَ إليها.

فهٰذا، كما أنَّهُ الكفرُ الذي خَرَجوا بِهِ عن جميعِ المللِ وعن جملةِ شرائعِ الأنبياءِ ولمْ يُمْكِنْهُم أنْ يُقيموا بينَ أربابِ المللِ إلَّا بالتَّستُّرِ بهِم ومنافقتِهِم والتَّزيِّي بزيِّهِم ظاهرًا وإلَّا فقتلُ هٰؤلاءِ مِن الأمرِ الضَّروريِّ في كلِّ ملَّةٍ لأنَّهُم سوسُها وأعداؤُها، فهوَ مِن الهذيانِ الذي أضْحَكوا بِهِ العقلاءَ على عقولِهِم، حتَّى رَدَّ عليهِم مَن لا يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ مِن الفلاسفةِ كالفارابيِّ وابنِ سينا[3] وغيرِهِما مِن عقلاءِ الفلاسفةِ وسَخِرُوا منهُم وٱسْتَضْعَفوا عقولَهُم ونَسَبوهُم إلى الزَّرْقِ والزَّرْنَجَةِ[4] والتَّلبيسِ.

---

(١) في ط: «والأشخاص وأفعالها»! ولا يستقيم الكلام إلّا بما أثبتّه.

(٢) في ط: «والمعطي له هٰذه وٱتصالاتها»! وفيه تحريف بيّن أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٣) ٱنظر ما تقدّم في ترجمتهما (٢/ ٤٩٣).

(٤) الزرق: لفظة فارسيّة معناها الاحتيال. الزرنجة: لفظة فارسيّة معناها خفّة الحركة.

[٤ـ فصل معترض]

[في رد أبي البركات البغدادي على المنجمين]

وقد رَدَّ عليهم أفضلُ المتأخِّرينَ مِن فلاسفةِ الإسلام أبو البَرَكاتِ البَغْداديُّ[١] في كتابِ «المعتبر»[٢] لهُ فقالَ: وأمَّا علمُ أحكامِ النُّجومِ؛ فإنَّهُ لا يَتَعَلَّقُ بهِ منه[٣] أكثرُ مِن قولِهِم بغيرِ دليلٍ بحرِّ الكواكبِ وبردِها ورطوبتِها ويبوستِها واعتدالِها، كما يَقولونَ بأنَّ زُحَلَ منها باردٌ يابسٌ والمِرِّيخَ حارٌّ يابسٌ والمُشْتَرِيَ معتدلٌ والاعتدالَ خيرٌ والإفراطَ شرٌّ، ويُنْتِجونَ مِن ذٰلكَ أنَّ الخيرَ يُوجِبُ سعادةً والشَّرَّ يُوجِبُ منحسةً وما جانَسَ ذٰلكَ: ممَّا لمْ يَقُلْ بهِ علماءُ الطَّبيعيِّينَ، ولمْ تُنْتِجْهُ مقدِّماتُهُم في أنظارِهِم وإنَّما الذي أَنْتَجَتْهُ هوَ أنَّ السَّماءَ والسَّماويَّاتِ فعَّالةٌ فيما تَحْويهِ وتَشْتَمِلُ عليهِ وتَتَحَرَّكُ حولَهُ فعلاً على الإطلاقِ، ولمْ يَحْصُلْ لهُ مِن العلمِ الطَّبيعيِّ حدٌّ ولا تقديرٌ، والقائلونَ بهِ ٱدَّعَوْا حصولَهُ مِن التَّوقيفِ والتَّجربةِ والقياسِ منهُما كما ٱدَّعى أهلُ الكيمياءِ.

وإلاَّ؛ فمتى يَقولُ صاحبُ العلمِ الطَّبيعيِّ بحسبِ أنظارِهِ التي سَبَقَتْ: إنَّ المُشْتَرِيَ سعدٌ[٤] والمِرِّيخَ نحسٌ، والمِرِّيخَ حارٌّ يابسٌ وزُحَلَ باردٌ يابسٌ؛ والحارُّ والباردُ مِن الملموساتِ، وما دَلَّهُ على هٰذا لمسٌ كما يُسْتَدَلُّ بلمسِ الملموساتِ؛ فإنَّ ذٰلكَ ما ظَهَرَ للحسِّ كما ظَهَرَ في الشَّمسِ حيثُ تُسَخِّنُ الأرضَ بشعاعِها؟! وإنْ كانَ في السَّماءِ بيانُ شيءٍ مِن طبائعِ الأضدادِ؛ فالأولى أنْ تكونَ كلُّها حارَّةً؛ لأنَّ كواكبَها كلَّها منيرةٌ.

ومتى يَقولُ الطَّبيعيُّ بتقطُّعِ الفلكِ وقسمتِهِ كما قَسَّمَهُ المنجِّمونَ قسمةً وهميَّةً إلى بروجٍ ودَرَجٍ ودقائقَ؛ وذٰلكَ جائزٌ للمتوهِّمِ كجوازِ غيرِهِ، غيرُ واجبٍ في الوجودِ ولا

---

(١) كان يهوديّ الديانة ثمّ أسلم، لقّب بأوحد الزمان، تأثّر بأبن سينا ومذهبه في العقل الفعّال. ت ٥٦٠هـ وقد جاز الثمانين. ترجمته في: «تاريخ الحكماء للشهرزوري» (ص١٥٢)، «موسوعة أعلام الفلسفة لمحمّد أحمد منصور» (ص٢٧).

(٢) في ط: «كتاب التعبير»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه من مصادر الترجمة.

(٣) كذا! فربّما كان تحريفًا لم أدرك وجه الصواب فيه، وربّما كان غامضًا لانقطاعه عن السياق الذي يوضّح المراد به وعلام تعود هٰذه الضمائر؟

(٤) في ط: «سعيد»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

حاصلٍ؟! فنَقَلوا ذٰلكَ التَّوهُّمَ الجائزَ إلى الوجودِ الواجبِ في أحكامِهم، وكانَ الأصلُ فيهِ على زعمِهِم حركةُ الشَّمسِ في الأيَّامِ والشُّهورِ، فجَعَلوا منها قسمةً وهميّةً، وجَعَلوها حيثُ حَكَموا كالحاصلةِ الوجوديّةِ المتميِّزةِ بحدودٍ وخطوطٍ، كأنَّ الشَّمسَ بحركتِها مِن وقتٍ إلى وقتٍ مثلِهِ خَطَّتْ في السَّماءِ خطوطًا وأقامَتْ فيها جدرانًا وحدودًا وغَرَسَتْ في أجزائِها طباعًا معتبرةً تَبْقى فتَبْقى بِها[١] القسمةُ إلى تلكَ البروجِ والدَّرجِ معَ جوازِ الشَّمسِ عنها!

وليسَ في جوهرِ الفلكِ ٱختلافٌ يَتَميَّزُ موضعٌ منهُ عن موضعٍ سوى الكواكبِ، والكواكبُ تَتَحَرَّكُ عن أمكنتِها فتَبْقى الأمكنةُ على التَّشابهِ؛ فبماذا تَتَميَّزُ درجةٌ عن درجةٍ ويَبْقى ٱختلافُها بعدَ حركةِ المتحرِّكِ في سمتِها؟! فكيفَ يَقيسُ الطَّبيعيُّ على هٰذهِ الأُصولِ ويُنْتِجُ منها نتائجَ ويَحْكُمُ بحسبِها أحكامًا؟! فكيفَ يَقولُ[٢] بالحدودِ التي تَجْعَلُ خمسَ درجاتٍ مِن برجٍ لكوكبٍ[٣] وستَّةً لآخرَ وأربعةً لآخرَ ويَخْتَلِفُ فيها المِصْريُّونَ والبابِليُّونَ ويَصْدُقُ الحكمُ معَ الاختلافِ؟!

وأربابُ البيوتاتِ[٤] كأنَّها أملاكٌ بُنِيَتْ بصكوكٍ وحكّامٍ؛ الأسدُ للشَّمسِ والسَّرطانُ للقمرِ، وإذا نَظَرَ النَّاظرُ؛ وَجَدَ الأسدَ أسدًا مِن جهةِ كواكبَ شَكَّلوها بشكلِ الأسدِ ثمَّ ٱنْتَقَلَتْ عن مواضعِها التي كانَتْ بها أسدًا، فأيُّ بيتٍ[٥] للشَّمسِ معَ ٱنتقالِ السَّاكنِ؟ وكذٰلكَ السَّرطانُ للقمرِ. هٰذا مِن ظواهرِ الصِّناعةِ وما لا يُمارى فيهِ، ومَن طالعُهُ الأسدُ فالشَّمسُ كوكبُهُ وربَّةُ بيتِهِ.

ومِن الدَّقائقِ في الحقائقِ النُّجوميّةِ المذكَّرةُ والمؤنَّثةُ والمظلمةُ والنَّيِّرةُ والزَّائدةُ في السَّعادةِ!

ودَرَجُ الآثارِ مِن جهةِ أنَّها أجزاءُ الفلكِ التي قَطَعوها وما ٱنْقَطَعَتْ.

---

(١) في ط: «طباعًا معتبرًا بنفي فتبقى به»! وهٰذا تحريف لا معنى له أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٢) في ط: «ويحكم بحسنها أحكامًا فكيف أن يقول»! وفيه تصحيف ظاهر وزيادة لا محلّ لها.

(٣) في ط: «من برج الكوكب»! وفيه تحريف ظاهر صوابه ما أثبتّه.

(٤) في ط: «وأرباب اليبوسات»! ولا محلّ هنا لذكر اليبوسات!

(٥) في ط: «التي كان بها أسدًا كأنّ الملك بيت»! وهٰذا تحريف ظاهر صوابه ما أثبتّه.

معَ ٱنتقالِ[١] أنَّ الكوكبَ يَنْظُرُ إلى الكوكبِ مِن ستِّينَ درجةً نظرَ تسديسٍ لأنَّهُ سدسُ الفلكِ ولا يَنْظُرُ إليهِ مِن خمسينَ ولا سبعينَ، وقد كانَ قبلَ السِّتِّينَ بخمسِ دَرَجٍ وهوَ أقربُ مِن ستِّينَ وبعدَها بخمسِ دَرَجٍ وهوَ أبعدُ مِن السِّتِّينَ لا يَنْظُرُ! فليتَ شعري! ما هوَ هٰذا النَّظرُ؟! أتَرى الكوكبَ يَظْهَرُ للكوكبِ ثمَّ يَحتَجِبُ عنهُ؟! أو شعاعُهُ يَخْتَلِطُ بشعاعِهِ عندَ حدٍّ لا يَخْتَلِطُ بِهِ قبلَهُ ولا بعدَهُ؟!

وكذٰلكَ التَّربيعُ مِن الرُّبعِ الذي هوَ تسعونَ درجةً والتَّثليثُ مِن الثُّلثِ الذي هوَ مئةٌ وعشرونَ، فلِمَ لا يكونُ التَّخميسُ مِن الخمسِ والتَّسبيعُ مِن السُّبُعِ والتَّعشيرُ مِن العشرِ؟!

والحملُ حارٌّ يابسٌ مِن البروجِ النَّاريَّةِ، والثَّورُ باردٌ يابسٌ مِن الأرضيَّةِ، والجوزاءُ حارٌّ رطبٌ[٢] مِن الهوائيَّةِ، والسَّرطانُ باردٌ رطبٌ مِن المائيَّةِ! ما قالَ الطَّبيعيُّ قطُّ هٰذا ولا يَقولُ بِهِ!

وإذا ٱحْتَجُّوا وقاسوا؛ كانَتْ مبادئُ قياساتِهم: أنَّ الحملَ منقلبٌ لأنَّ الشَّمسَ إذا نَزَلَتْ فيهِ يَنْقَلِبُ الزَّمانُ مِن الشِّتاءِ إلى الرَّبيعِ، والثَّورُ ثابتٌ لأنَّهُ إذا نَزَلَتِ الشَّمسُ فيهِ يَثْبُتُ الرَّبيعُ على ربيعيَّتِهِ! والحقُّ أنَّهُ لا ٱنقلابَ في الحملِ ولا ثباتَ في الثَّورِ، بل هوَ في كلِّ يومٍ غيرُ ما هوَ في الآخرِ. ثمَّ إنَّ الزَّمانَ ٱنْقَلَبَ بحلولِ الشَّمسِ فيهِ، وهوَ يَبْقى دهرَهُ منقلبًا معَ خروجِ الشَّمسِ منهُ وحلولِها فيهِ، أتَراها تَخْتَلِفُ فيهِ أثرًا أو تُحيلُ منهُ طباعًا وتَبْقى تلكَ الاستحالةُ إلى أنْ تَعودَ فتُجَدِّدَها؟! ولِمَ لا يَقولُ قائلٌ: إنَّ السَّرطانَ حارٌّ يابسٌ؛ لأنَّ الشَّمسَ إذا نَزَلَتْ [فيهِ]؛ ٱشْتَدَّ حرُّ الزَّمانِ، وما يُجانِسُ هٰذا ممَّا لا يَلْزَمُ لا هوَ ولا ضدُّهُ؟!

ما في الفلكِ ٱختلافٌ يَعْرِفُهُ الطَّبيعيُّ إلَّا ما فيهِ[٣] مِن الكواكبِ ومواضعِها، وهوَ واحدٌ متشابهُ الجوهرِ والطَّبعِ! وهٰذهِ أقوالٌ قالَها قائلٌ فقَبِلَها قابلٌ ونَقَلَها ناقلٌ، فحَسُنَ بها ظنُّ السَّامعِ وٱغْتَرَّ بها مَن لا خبرةَ لهُ ولا قدرةَ لهُ على النَّظرِ، ثمَّ حَكَمَ بحسبِها

---

(١) وهٰذا غير مفهوم أبدًا، ومن المؤكّد أنّ فيه ما فيه من التحريف والسقط.
(٢) في ط: «حارة رطب»! وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.
(٣) في ط: «ما في الفلك [من] ٱختلاف معرفة الطبيعيّ إلاّ بما فيه»! فلعلّ ما أثبتّه يفي بالمقصود.

الحاكمونَ[١] بجيِّدٍ ورديءٍ وسلبٍ وإيجابٍ وسعدٍ ونحوسٍ، فصادَفَ بعضُهُ موافقةَ الوجودِ فصَدَقَ فاْغترَّ بهِ المغترُّونَ، ولمْ يَلْتَفِتوا إلى ما كَذَبَ منهُ فيُكَذِّبوهُ[٢]، بل عَذَروا وقالوا: هوَ منجِّمٌ، ما هوَ نبيٌّ حتَّى يَصْدُقَ في كلِّ ما يَقولُ! واْعتَذَروا لهُ بأنَّ العلمَ أوسعُ مِن أنْ يُحيطَ بهِ، ولو أحاطَ بهِ؛ لَصَدَقَ في كلِّ شيءٍ! ولعمرُ اللهِ؛ إنَّهُ لو أحاطَ بهِ علمًا صادقًا؛ لَصَدَقَ[٣]، والشَّأْنُ أنْ يُحيطَ بهِ على الحقيقةِ لا على أنْ يَفرِضَ فرضًا ويَتَوَهَّمَ وهمًا فيَنْقُلَهُ إلى الوجودِ ويُثْبِتَهُ في الموجودِ ويَنْسُبَ إليهِ ويَقيسَ عليهِ.

والذي يَصِحُّ منهُ ويَلْتَفِتُ إليهِ العقلاءُ هيَ أشياءُ غيرُ هٰذهِ الخرافاتِ التي لا أصلَ لها ممَّا حَصَلَ بتوقيفٍ أو تجربةٍ حقيقيَّةٍ: كالقِراناتِ[٤] والانتقالاتِ والمقابلةِ مِن جملةِ الاتِّصالاتِ فإنَّها المقارنةُ مِن جهةِ أنَّ تلكَ غايةُ القربِ وهٰذهِ غايةُ البعدِ، وممرُّ كوكبٍ مِن المتحيِّرةِ تحتَ كوكبٍ مِن الثَّابتةِ، وما يُفْرَضُ للمتحيِّرةِ مِن رجوعٍ واْستقامةٍ ورجوعٍ في شمالٍ واْنخفاضٍ في جنوبٍ، وغيرِ ذٰلكَ[٥].

وكأنِّي أُريدُ أنْ أَختَصِرَ الكلامَ هاهُنا وأُوافِقَ إشارتَكَ وأعملَ بحسبِ اْختيارِكَ رسالةً في ذٰلكَ: أذْكُرُ ما قيلَ فيها مِن علمِ أحكامِ النُّجومِ مِن أُصولٍ حقيقيَّةٍ أو مجازيَّةٍ أو وهميَّةٍ أو غلطيَّةٍ وفروعٍ نتائجَ أُنْتِجَتْ عن تلكَ الأُصولِ، وأذْكُرُ الجائزَ مِن ذٰلكَ والممتنعَ والقريبَ والبعيدَ، فلا أرُدُّ علمَ الأحكامِ مِن كلِّ وجهٍ كما رَدَّهُ مَن جَهِلَهُ[٦]، ولا أَقْبَلُ فيهِ كلَّ قولٍ كما قَبِلَهُ مَن لمْ يَعْقِلْهُ، بل أُوَضِّحُ موضعَ القبولِ والرَّدِّ في المقبولِ وموضعَ

---

(١) في ط: «ثم يحكم بحسبها الحاكمون»! ولا يستقيم النص إلّا بما أثبتّه.

(٢) في ط: «فيكذّبون»! والصواب ما أثبتّه.

(٣) يعني: لصدق وقال: هٰذه مخلوقات مربوبة مسخّرة، وهاهنا أقدار مكتوبة مقدّرة، فأيّ صلة لهٰذا بذاك؟! ثمّ اْعلم أنّ أكثر المنجّمين بل جميعهم يعلم ما هو عليه من الكذب والبهتان، لٰكنّه يصرّ ويتمادى طلبًا للرزق كما يتمادى آكل الربا وصاحب القمار وهو يعلم تمام العلم حرمة ما هو عليه.

(٤) في ط: «كالقرابات»! وهٰذا تحريف ناسخ أو غلط مطبعيّ!

(٥) وهٰذه كلّها من الحسابات الفلكيّة التي لا شبهة فيها ولا غبار عليها.

(٦) لاحظ أنّ أبا البركات البغداديّ يرحمه الله خلط هنا بين علمي الهيئة والأحكام أو بين علمي الفلك والتنجيم بمفهومنا المعاصر. وعلم التنجيم فمردود كلّه ليس فيه مقبول، وعلم الفلك شيء آخر فيه صواب كثير وفيه خبط وخلط قليل مردود.

التَّوقيفِ والتَّجويزِ والذي مِن المنجِّمِ والذي مِن التَّنجيمِ والذي منهُما.

وأُوَضِّحُ لكَ أنَّهُ لو أمْكَنَ للإنسانِ أنْ يُحيطَ بشكلِ كلِّ ما في الفلكِ علمًا؛ لأحاطَ علمًا بكلِّ ما يَحْويهِ الفلكُ؛ لأنَّ منهُ مباديَ الأسبابِ[1]، لٰكنَّهُ لا يُمْكِنُ ويَبْعُدُ عنِ الإمكانِ بعدًا عظيمًا، والبعضُ الممكنُ منهُ لا يَهْدي إلى بعضِ الحُكمِ لأنَّ البعضَ الآخرَ المجهولَ قد يُناقِضُ المعلومَ في حكمِهِ ويُبْطِلُ ما يُوجِبُهُ[2]، فنسبةُ المعلومِ إلى المجهولِ مِن الأحكامِ كنسبةِ المعلومِ إلى المجهولِ مِن الأسبابِ، وكَفى بذٰلكَ بعدًا. انْتَهى كلامُهُ.

ولو ذَهَبْنا نَذْكُرُ مَن رَدَّ عليهِم مِن عقلاءِ الفلاسفةِ والطَّبائعيِّينَ والرِّياضيِّينَ؛ لَطالَ ذٰلكَ جدًّا. هٰذا غيرُ ردِّ المتكلِّمينَ عليهِم؛ فإنَّا لا نَقْنَعُ بهِ ولا نَرْضى أكثرَهُ؛ فإنَّ فيهِ مِن المكابراتِ والمنوعِ الفاسدةِ والسُّؤالاتِ الباردةِ والتَّطويلِ الذي ليسَ تحتَهُ تحصيلٌ ما يُضَيِّعُ الزَّمانَ في غيرِ شيءٍ[3]، وكانَ تركُهُم لهٰذهِ المقابلةِ خيرًا لهُم منها؛ فإنَّهُم لا للتَّوحيدِ والإسلامِ نَصَروا ولا لأعدائِهِ كَسَروا. واللهُ المستعانُ وعليهِ التُّكلانُ.

[٤] فصل

فلنرجع إلى كلام صاحب الرسالة

● **قالَ**: زَعَموا أنَّ القمرَ والزُّهَرَةَ مؤنَّثتانِ. وأنَّ الشَّمسَ وزُحَلَ والمشتريَ

---

(١) أحسن رحمه الله باستعمال «لو»؛ فإنّه مستحيل شرطًا وجوابًا: فأمّا الشرط؛ فأنّى وكيف يحيط الإنسان بأشكال مئات المليارات من الكواكب والنجوم وغيرها من الأجرام السماويّة؟! وإذا كان شكل الأرض التي نعيش عليها ما زال حتّى أيّامنا هٰذه موضع أخذ وردّ بين الفلكيّين؛ فكيف بما عدا ذٰلك؟! وأمّا الجواب؛ فمتى كانت الإحاطة بالشكل تقتضي الإحاطة بالمحتوى؟! وها نحن نحيط بأشكال الجبال والأنهار والبحيرات والمحيطات ونرسمها ونصوّرها ثمّ لا نعرف عمّا في بطونها إلّا القليل القليل.

(٢) هٰذا مشكل جدًّا، وفيه رائحة الإقرار لزعم المنجّمين بأنّ للأجرام السماويّة آثارًا على الوقائع والأحكام الأرضيّة! فإن أراد هٰذا؛ فكلامه مردود، وإن قاله على سبيل التنزّل والتسليم بمزاعم الخصم جدلاً لا حقيقة لإبطالها تفصيلاً ـ وهو أهل ذٰلك وأولى به إن شاء الله ـ؛ فالقصور في العبارة وحدها.

(٣) وهٰذا منهج قويم ينبغي أن يتمسّك به طالب العلم ولا يحيد عنه، فما أكثر الأبواب التي ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب! وأقلّ ما فيها من الشرور إضاعة الأوقات في غير شيء.

والمِرِّيخَ مذكَّرةٌ. وأنَّ عُطارِدَ ذكرٌ أُنثى مشاركٌ للجنسينِ جميعًا. وأنَّ سائرَ الكواكبِ تُذَكَّرُ وتُؤَنَّثُ بسببِ الأشكالِ[١] التي تكونُ لها بالقياسِ إلى الشَّمسِ، وذٰلكَ أنَّها إذا كانَتْ مشرِّقةً متقدِّمةً للشَّمسِ؛ فهيَ مذكَّرةٌ، وإنْ كانَتْ مُغَرِّبَةً تابعةً؛ كانَتْ مؤنَّثةً. وأنَّ ذٰلكَ أيضًا يَكونُ بالقياسِ إلى أشكالِها إلى الأُفقِ[٢]، وذٰلكَ أنَّها إذا كانَتْ في الأشكالِ التي مِن المشرقِ إلى وسطِ السَّماءِ ممَّا تحتَ الأرضِ؛ فهيَ مذكَّرةٌ؛ لأنَّها إذا كانَتْ شرقيَّةً؛ فهيَ مِن ناحيةِ مهبِّ الصَّبا، وإذا كانَتْ في الرُّبعينِ الباقيينِ؛ فهيَ مؤنَّثةٌ؛ لأنَّها في ناحيةِ مهبِّ الدَّبورِ[٣]، وإذا كانَ هٰذا هٰكذا؛ صارَتِ الكواكبُ التي يُقالُ إنَّها مؤنَّثةٌ مذكَّرةً والتي يُقالُ إنَّها مذكَّرةٌ مؤنَّثةً، وصارَتْ طباعُها مستحيلةً، بل تَصيرُ أعيانُها تَنْقَلِبُ. وأنَّ القمرَ والزُّهَرَةَ مؤنَّثتانِ والكواكبَ الخمسةَ الباقيةَ مذكَّرةٌ على الوضعِ الأوَّلِ، فإنْ تَقَدَّمَ القمرُ والزُّهَرَةُ الشَّمسَ وكانا شرقيَّينِ؛ صارا مذكَّرينِ، وإنْ تَأخَّرَتِ الكواكبُ الخمسةُ وكانَتْ مُغَرِّبَةً تابعةً؛ كانَتْ مؤنَّثةً على الموضوعِ الثَّاني! ويَصيرُ عُطارِدُ ذكرًا إذا شَرَّقَ أُنثى إذا غَرَّبَ وذكرًا أُنثى إذا لمْ يَكُنْ بإحدى[٤] هاتينِ الصِّفتينِ!

* قُلْتُ: وقد أجابَ بعضُ فضلائِهم عن هٰذا الإلزامِ فقالَ: ليسَ ذٰلكَ بممتنعٍ[٥]؛ لأنَّا قد نَقولُ إنَّ الأدكنَ أبيضُ إذا قِسْناهُ إلى الأسودِ، ونَقولُ إنَّهُ أسودُ إذا قِسْناهُ إلى الأبيضِ، وهوَ شيءٌ واحدٌ بعينِهِ مرَّةً يَكونُ أسودَ ومرَّةً يَكونُ أبيضَ وهوَ في نفسِهِ لا أسودُ ولا أبيضُ. وكذٰلكَ الكواكبُ يُقالُ إنَّها ذكرانٌ وإناثٌ بالقياسِ إلى الأشكالِ؛ أَعْني: الجهاتِ، والجهاتِ إلى الرِّياحِ، والرِّياحِ إلى الكيفيَّاتِ؛ لأنَّها ذكرانٌ وإناثٌ.

وهٰذا تلبيسٌ منهُ؛ فإنَّ الأدكنَ فيهِ شائبةُ البياضِ والسَّوادِ فلذٰلكَ صَدَقَ عليهِ

---

(١) الأشكال: الجهات بعبارة القوم!

(٢) يعني: إلى جهاتها بالنسبة إلى الأفق.

(٣) الصبا: الريح الشرقيّة. الدبور: الريح الغربيّة. فانظر إلى هٰذا الإفك المبين! أيّ علاقة للصبا والدبور بالذكورة والأنوثة؟! وأيّ علاقة للأجرام الفضائيّة بالصبا والدبور والجهات الأرضيّة؟! ثمّ هٰذه الأجرام المذكورة؛ ما كان في المشرق بالنسبة للشاميّين هو في المغرب بالنسبة للعراقيّين والله المستعان.

(٤) في ط: «بأحد»! وفيه إشكال، وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

(٥) في ط: «ليس ذٰلك بممكن»! وهٰذا تحريف قلب المعنى رأسًا على عقب صوابه ما أثبتّه.

أسمُهُما؛ لأنَّ الكيفيَّينِ محسوستانِ فيهِ، فتكيُّفُهُ بهما أوْجَبَ أنْ يُطْلَقَ عليهِ[١] الاسمانِ.
وأمَّا تقسيمُ الكواكبِ إلى الذُّكورِ والإناثِ؛ فهيَ قسمةٌ وَضَعْتُم فيها تمييزَ كلِّ نوعٍ عنِ الآخرِ بحقيقتِهِ وطبيعتِهِ، وقُلْتُمُ البروجُ تَنْقَسِمُ إلى ذكورٍ وإناثٍ قسمةً تَمَيَّزَ فيها قسمٌ عن قسمٍ، لا أنَّ حقيقتَها متركِّبةٌ مِن طبيعتينِ ذكوريَّةٍ وأُنوثيَّةٍ بحيثُ يَصْدُقانِ على كلِّ برجٍ، فنظيرُ ما ذَكَرْتُم مِن الأدكنِ أنْ يكونَ كلُّ برجٍ ذكرًا وأُنثى! فأينَ أحدُ البابينِ مِن الآخرِ لولا التَّلبيسُ والمحالُ[٢]؟!

وأيضًا؛ فانْقسامُها إلى الذُّكورِ والإناثِ انْقسامٌ بحسبِ الطَّبيعةِ والتَّأثيرِ والتَّأثُّرِ الذي هوَ الفعلُ والانفعالُ، وما كانَ كذٰلكَ؛ لمْ تَنْقَلِبْ حقيقتُهُ وطبيعتُهُ بحسبِ الموضعِ والقربِ والبعدِ.

● **قالَ صاحبُ الرِّسالةِ**: وزَعَموا أنَّ القمرَ منذُ الوقتِ الذي يُهِلُّ فيهِ إلى وقتِ انْتصافِهِ الأوَّلِ في الضَّوءِ يكونُ فاعلاً للرُّطوبةِ خاصَّةً، ومنذُ وقتِ انْتصافِهِ الأوَّلِ في الضَّوءِ إلى وقتِ الامتلاءِ يكونُ فاعلاً للحرارةِ، ومنذُ وقتِ الامتلاءِ إلى وقتِ الانتصافِ الثَّاني[٣] في الضَّوءِ يكونُ فاعلاً لليبسِ، ومنذُ وقتِ الانتصافِ إلى الوقتِ الذي يَخْفى فيهِ ويُفارِقُ الشَّمسَ يكونُ فاعلاً للبرودةِ!

وأيُّ شيءٍ أقبحُ مِن هٰذا؟! ولا سيَّما وقد أعْطى قائلُهُ أنَّ القمرَ رطبٌ وأنَّهُ يَفْعَلُ بطبعِهِ لا باختيارِهِ! وكيفَ [يُمْكِنُ][٤] أنْ يَفْعَلَ شيءٌ واحدٌ بطبعِهِ الأشياءَ المتضادَّةَ مرَّةً في الدَّهرِ فضلاً عن أنْ يَفْعَلَها في كلِّ شهرٍ؟! وهلِ القولُ بأنَّ شيئًا واحدًا يَفْعَلُ بطبعِهِ في الأشياءِ التَّرطيبَ في وقتٍ ويَفْعَلُ بطبعِهِ التَّجفيفَ في آخرَ ويَفْعَلُ الإسخانَ في وقتٍ

---

(١) في ط: «أن يقال عليه»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) ومن هنا لا ينبغي الخوض مع أهل هٰذه البدع والضلالات في تفاصيل بدعهم ولا الاشتغال بردّها؛ فإنّك ما تكاد تغلق لهم بابًا وتسدّ عليهم طريقًا؛ إلاّ فتحوا لك أبوابًا من افتراضاتهم ومكابراتهم وجدلهم العقيم الذي لا يفضي بك إلاّ إلى إضاعة الأوقات وظلمة القلوب. وإنّما يردّ على هٰؤلاء وأمثالهم بالجملة وتتبّع أصول مذاهبهم لا فروعها، فمن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه، ومن يضلل الله فما له من هاد.

(٣) الانتصاف الأوّل: عندما يظهر نصف القمر في السماء في الليلة السابعة من الشهر القمري. الامتلاء: عندما يصير القمر بدرًا. والانتصاف الثاني: في الليلة الحادية والعشرين.

(٤) ساقطة من ط، ولا بدّ منها ليستقيم الكلام.

ويَفْعَلُ التَّبريدَ في آخرَ؛ إلاَّ كالقولِ بأنَّ شيئًا واحدًا تَنْقَلِبُ عينُهُ وقتًا بعدَ وقتٍ؟!

* قُلْتُ: قد قالوا: إنَّ الشَّمسَ لمَّا كانَتْ تَفْعَلُ هٰذهِ الأفاعيلَ بحسبِ صعودِها وهبوطِها في فلكِها ـ فإنَّها إذا كانَتْ مِن خمسَ عشرةَ درجةً مِن الحوتِ إلى خمسَ عشرةَ مِن الجوزاءِ؛ فَعَلَتِ التَّرطيبَ، وهوَ زمانُ الرَّبيعِ، [وإذا كانَتْ مِن خمسَ عشرةَ درجةً مِن الجوزاءِ إلى خمسَ عشرةَ درجةً مِن العذراءِ؛ فَفَعَلَتِ التَّسخينَ، وهوَ زمانُ الصَّيفِ، وكذٰلكَ مِن خمسَ عشرةَ درجةً مِن العذراءِ إلى خمسَ عشرةَ درجةً مِن القوسِ؛ تَفْعَلُ التَّجفيفَ، وهوَ زمانُ الخريفِ][(١)]، وكذٰلكَ مِن خمسَ عشرةَ درجةً مِن القوسِ إلى خمسَ عشرةَ مِن الحوتِ؛ تَفْعَلُ التَّبريدَ، وهوَ زمانُ الشِّتاءِ ـ وهٰذا دورُها في الفلكِ مرَّةً في العامِ، والقمرُ يَدورُ في شهرٍ واحدٍ؛ صارَتْ نسبةُ دورِ القمرِ في الفلكِ كنسبةِ دورِ الشَّمسِ فيهِ، فكانَتْ نسبةُ الشَّهرِ إلى القمرِ كنسبةِ السَّنةِ إلى الشَّمسِ، فالشَّهرُ يَجْمَعُ الفصولَ الأربعةَ كما تَجْمَعُهُ السَّنةُ، وما تَفْعَلُهُ الشَّمسُ في كلِّ تسعينَ يومًا وكسرٍ يَفْعَلُهُ القمرُ في سبعةِ أيَّامٍ وكسرٍ. قالوا: فآخرُ الشَّهرِ شبيهٌ بالشِّتاءِ وأوَّلُهُ شبيهٌ بالرَّبيعِ والرُّبعُ الثَّاني مِن الشَّهرِ شبيهٌ بالصَّيفِ والرُّبعُ الثَّالثُ منهُ شبيهٌ بالخريفِ. فهٰذا غايةُ ما قرَّروا بهِ هٰذا الحكمَ. قالوا: وأمَّا كونُ الشَّيءِ الواحدِ سببًا للضِّدَّينِ؛ فقد قضى أرِسْطاطاليسَ في كتابِ «السَّماع الطَّبيعي» على جوازِهِ.

والجوابُ عن هٰذا: أنَّ الشَّمسَ لَيْسَتْ هيَ الفاعلَ لهٰذهِ الطَّبائعِ المختلفةِ، وإنَّما قربُها وبعدُها وٱرتفاعُها وٱنخفاضُها أثَّرَ في سخونةِ الهواءِ وتبريدِهِ وفي تحلُّلِ البخاراتِ وتكاثفِها[(٢)]، فيَحْدُثُ بذٰلكَ في الحيوانِ والنَّباتِ والهواءِ هٰذهِ الطَّبائعُ والكيفيَّاتُ، والشَّمسُ جزءُ السَّببِ كما قرَّرْناهُ. وأمَّا القمرُ؛ فلا يُؤَثِّرُ قربُهُ ولا بعدُهُ وٱمتلاؤُهُ ونقصانُهُ في الهواءِ كما تُؤَثِّرُهُ الشَّمسُ، فلو كانَ ذٰلكَ كذٰلكَ؛ لَكانَ كلُّ شهرٍ مِن شهورِ العامِ يَجْمَعُ الفصولَ الأربعةَ بطبائعِها وتأْثيراتِها وأحكامِها، وهٰذا شيءٌ يَدْفَعُهُ الحسُّ فضلاً عنِ النَّظرِ والمعقولِ. وقياسُ القمرِ على الشَّمسِ في ذٰلكَ مِن أفسدِ القياسِ؛ فإنَّ الفارقَ

---

(١) ساقطة من ط، والسياق يستلزمها ضرورة.

(٢) راجع ما تقدّم (٢/٤٦) في التفسير العلميّ لحدوث الفصول الأربعة.

بينَهُما في الصِّفةِ والحركةِ والتَّأثيرِ أكثرُ مِن الجامعِ[١]، فالحكمُ على القمرِ بأنَّهُ يُحدِثُ الطَّبائعَ الأربعةَ قياسًا على الشَّمسِ والجامعُ بينَهُما قطعُهُ للفلكِ في كلِّ شهرٍ كما تَقْطَعُهُ في سنةٍ لا يَعْتَمِدُ عليهِ مَن لهُ خبرةٌ بطرقِ الأدلَّةِ وصنعةِ البرهانِ.

وأمَّا قولُكُم: إنَّ أرِسْطاطاليسَ نَصَّ في كتابِهِ على أنَّ الواحدَ قد يَكونُ سببًا للضِّدَّينِ؛ فنحنُ نَذْكُرُ كلامَهُ بعينِهِ مِن كتابِهِ[٢] ونُبَيِّنُ ما فيهِ[٣].

قالَ في المقالةِ الثَّانيةِ: وأيضًا؛ فإنَّ الواحدَ قد يَكونُ سببًا للضِّدَّينِ؛ فإنَّ الشَّيءَ الذي بحضورِهِ يَكونُ أمرٌ مِن الأُمورِ فغيبتُهُ قد تَكونُ سببًا لضدِّهِ، فيُقالُ في ذٰلكَ: إنَّ غيبةَ الرُّبَّانِ سببُ غرقِ السَّفينةِ وهوَ الذي كانَ حضورُهُ سببَ سلامتِها.

فتَأمَّلْ هٰذا الكلامَ، وقابِلْ بينَهُ وبينَ كلامِهِم في فعلِ القمرِ الأُمورَ المتضادَّةَ؛ يَظْهَرْ لكَ تلبيسُ القومِ وجهلُهُم: فإنَّ نظرَ ذٰلكَ يُوجِبُ بطلانَ هٰذهِ الطَّبائعِ والكيفيَّاتِ عندَ انقطاعِ تعلُّقِ القمرِ بهٰذا العالمِ كما بَطَلَ عملُ السَّفينةِ وجريُها عندَ غيبةِ الرُّبَّانِ عنها وانقطاعِ تعلُّقِهِ بها. [وكذٰلكَ][٤]؛ فلمْ يَكُنِ الرُّبَّانُ هوَ سببَ الغرقِ الذي هوَ ضدُّ السَّلامةِ كما كانَ القمرُ سببًا لليبسِ الذي هوَ ضدُّ الرُّطوبةِ وللحرارةِ التي هيَ ضدُّ البرودةِ، وإنَّما كانَتْ أسبابُ الغرقِ غلبةَ أحدِ الأسبابِ التي كانَ الرُّبَّانُ يَمْنَعُ فعلَها[٥]، فلمَّا غابَ عنها؛ عَمِلَ ذٰلكَ السَّببُ عملَهُ فغَرِقَتْ. وهٰذا أوضحُ مِن أنْ يَحْتاجَ إلى تقريرٍ، ولٰكنَّ الأذهانَ التي قدِ اعتادَتْ قبولَ المحالاتِ قد تَحْتاجُ في علاجِها إلى ما لا يَحْتاجُ إليهِ غيرُها. وباللهِ التَّوفيقُ.

● **قالَ صاحبُ الرِّسالةِ**: وقالوا في معرفةِ أحوالِ أُمَّهاتِ المدنِ: إنَّ ذٰلكَ يُعْلَمُ مِن المواضعِ التي [كانَ][٦] فيها الشَّمسُ والقمرُ في أوَّلِ ابتنائِها ومواضعِ الأوتادِ فيها،

---

(١) وهٰذه حقيقة علميّة زادتها المعطيات الفلكيّة المعاصرة رسوخًا وثباتًا.
(٢) في ط: «في كتابه»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.
(٣) انظر إلى سعة اطّلاعه ومشاركته في فنون العلم وولعه باقتناء الكتب والنظر في مذاهب أهلها.
(٤) زيادة يقتضيها السياق.
(٥) في ط: «يمنع فعله»! وهٰذا تحريف بيّن أو خطأ مطبعيّ.
(٦) زيادة يقتضيها السياق.

خاصَّةً وتدَ الطَّالعِ، كما يُفْعَلُ في المواليدِ. فإنْ لمْ يُوقَفْ على الزَّمانِ الذي ٱبْتُنِيَتْ فيهِ؛ فلْيُنْظَرْ إلى موضعِ وسطِ السَّماءِ في مواليدِ الولاةِ والملوكِ الذينَ كانوا في ذٰلكَ الزَّمانِ الذي بُنِيَتْ فيهِ تلكَ المدنُ[١].

* قُلْتُ: ونظيرُ هٰذا مِن هذيانِهِم قولُهُم: إنَّا نَعْرِفُ أحوالَ الأبِ مِن مولدِ الابنِ إذا لمْ يُعْرَفْ مولدُ الأبِ!

قالوا: إنَّ هٰذا الموضعَ تالٍ في المرتبةِ للطَّالعِ، وهوَ أخصُّ المواضعِ بالطَّالعِ، كما أنَّ الأبَ أخصُّ الأشياءِ بالابنِ فكذٰلكَ أخصُّ الأشياءِ بالملكِ مملكتُهُ، فموضعُ وسطِ سمائِهِ يَدُلُّ على مدينتِهِ وأحوالِها!

وكلُّ عاقلٍ يَعْلَمُ بطلانَ هٰذهِ الدّلالةِ وفسادَها، وأنَّهُ لا ٱرتباطَ بينَ طالعِ المدينةِ وطالعِ السُّلطانِ كما لا ٱرتباطَ بينَ طالعِ ولادةِ الابنِ وطالعِ ولادةِ أبيهِ، وإنَّما هٰذهِ تشبيهاتٌ بعيدةٌ ومناسباتٌ في غايةِ البعدِ.

● **قالَ صاحبُ الرِّسالةِ**: وقالوا في معرفةِ حالِ الوالدينِ: إنَّ الشَّمسَ وزُحَلَ يُشاكِلانِ الآباءَ بالطَّبعِ!

ولَسْتُ أدري كيفَ تُعْقَلُ دلالةُ شيءٍ ليسَ ممَّا يَتَوالَدُ بطبعِهِ على شيءٍ مِن طبعِهِ التَّوالدُ[٢]! لأنَّ الأبَ إنَّما يَكونُ أبًا بإضافتِهِ إلى ٱبنِهِ والابنُ إنَّما يَكونُ ٱبنًا بإضافتِهِ إلى أبيهِ.

وإنَّهُم يَسْتَدِلُّونَ على حالِ الأولادِ بالقمرِ والزُّهَرَةِ والمُشْتَري. وإنَّ أحوالَ الأبِ تُعْرَفُ مِن مواليدِ ٱبنِهِ بأنْ يُقامَ موضعُ الكوكبِ الدَّالِّ عليهِ ـ وهوَ الشَّمسُ أو زُحَلُ ـ مقامَ الطَّالعِ. ويُسْتَدَلُّ على حالِ الابنِ مِن مواليدِ أبيهِ بأنْ يُقامَ موضعُ الكوكبِ الدَّالِّ عليهِ ـ وهوَ أحدُ الكواكبِ الثَّلاثةِ القمرِ والمُشْتَري والزُّهَرَةِ ـ مقامَ الطَّالعِ!

وقد يَكونُ الإنسانُ في أكثرِ الأوقاتِ أبًا فيَكونُ الشَّمسُ وزُحَلُ يَدُلُّ عليهِ مِن مولدِ ٱبنِهِ. ولهُ في نفسِهِ مولدٌ لا محالةَ، ويُمْكِنُ أنْ يَكونَ ربُّ طالعِ مولدِهِ[٣] كوكبًا غيرَ

---

(١) إذا كان تاريخ بناء المدينة لا يعرف؛ فتاريخ ميلاد أوّل ملوكها أولى بأن لا يعرف.

(٢) في ط: «من طريق التوالد»! وهو تحريف لا معنى له صوابه ما أثبتّه.

(٣) ربّ طالع مولده: الكوكب الذي كان في برج مولده.

الكوكبينِ الدّالَّينِ على حالِهِ مِن مولدِ أبيهِ وٱبنِهِ. فيكونُ حالُهُ يُعْرَفُ مِن ثلاثةِ كواكبَ وثلاثةِ بروجٍ مختلفةِ الأشكالِ والطَّبائعِ. وتناقضُ هٰذا القولِ بيِّنٌ لمستعملِهِ فضلاً عن متوهِّمِهِ!

﴿ قُلْتُ: قد قالوا في الجوابِ عن هٰذِهِ إنَّهُ لا تناقضَ فيهِ بل هوَ حقٌّ واجبٌ. قالوا: إذا أرَدْنا أنْ نَعْرِفَ حالَ سُقْراطَ مثلاً مِن حيثُ هوَ إنسانٌ لَيْسَ إلاَّ؛ يُنْظَرُ[١] إلى ما يَخُصُّ الحيوانَ والإنسانَ الكلِّيَّ، وإذا أرَدْنا أنْ نَعْرِفَ حالَهُ مِن حيثُ هوَ أبٌ؛ يُنْظَرُ إلى[٢] المضافِ وما يَلْحَقُهُ، وإذا أرَدْنا أنْ نَعْرِفَ حالَهُ مِن حيثُ هوَ عالمٌ؛ يُنْظَرُ إلى الكيفيَّةِ وما يَخُصُّها. والأوَّلُ جوهرٌ والباقي أعراضٌ، وسُقْراطُ واحدٌ ونَعْرِفُ أحوالَهُ مِن مواضعَ مختلفةٍ متباينةٍ؛ مرَّةً يَكونُ جوهرًا ومرَّةً عرضًا. فكذٰلكَ إذا أرَدْنا أنْ نَعْرِفَ حالَهُ مِن مولدِهِ؛ نَظَرْنا إلى الطَّالعِ وربِّهِ، وإذا أرَدْنا أنْ نَعْرِفَ حالَهُ مِن مولدِ أبيهِ؛ نَظَرْنا إلى العاشرِ والشَّمسِ، وكذٰلكَ إذا أرَدْنا أنْ نَعْرِفَ حالَهُ مِن مولدِ ٱبنِهِ؛ نَظَرْنا إلى موضعٍ آخرَ، وليسَ ذٰلكَ متناقضًا كما أنَّ الأوَّلَ ليسَ متناقضًا!

فيُقالُ: هٰذا تشبيهٌ فاسدٌ[٣] وٱعتبارٌ باطلٌ! وإنَّ نظرَنا في طالعِ الأبِ لِنَسْتَدِلَّ بهِ على حالِ الولدِ ونظرَكُم في طالعِ الولدِ لِتَسْتَدِلُّوا[٤] بِهِ على حالِ الأبِ هوَ ٱستدلالٌ[٥] على شيءٍ واحدٍ وحكمٌ عليهِ بسببٍ لا يَقْتَضيهِ ولا يُقارِنُهُ[٦]! فأينَ هٰذا مِن تعرُّفِ إنسانيَّةِ سُقْراطَ وأُبوَّتِهِ وعدالتِهِ وعلمِهِ مثلاً وطبيعتِهِ؟! فإنَّ هٰذِهِ أحوالٌ مختلفةٌ لها أدلَّةٌ وأسبابٌ مختلفةٌ، فنظيرُها أنْ نَعْرِفَ: حالَ الولدِ مِن جهةِ سعادتِهِ ومحبَّتِهِ وصحَّتِهِ وسقمِهِ مِن طالعِهِ، وحالَهُ مِن جهةِ ما يُناسِبُهُ مِن الأغذيةِ والأدويةِ مِن مزاجِهِ، وحالَهُ مِن جهةِ أفعالِهِ ورئاستِهِ مِن أخلاقِهِ كالحياءِ والصَّبرِ والبذلِ، وحالَهُ مِن جهةِ ٱعتدالِ مزاجِهِ مِن ٱعتدالِ

(١) في ط: «هو إنسان أليس ينظر»! وهٰذا تحريف لا معنى له صوابه ما أثبتّه.
(٢) في ط: «أب أن ينظر إلى»! ولا بدّ من إسقاط «أن».
(٣) في ط: «هٰذا تنبيه فاسد»! وهو تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.
(٤) في ط: «في الطالع لتستدلّوا»! ولا يستقيم الكلام إلاّ بما أثبتّه.
(٥) في ط: «هو الاستدلال»! ولا يستقيم الكلام إلاّ بحذف التعريف.
(٦) في ط: «ولا يفارقه»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

أعضائِهِ وتركيبِهِ وصورتِهِ. فهٰذهِ أحوالٌ بحسبِ ٱختلافِ أسبابِها. فأينَ هٰذا مِن أخذِ حالِ الولدِ وعمرِهِ وسعادتِهِ وشقاوتِهِ مِن طالعِ أبيهِ وبالعكسِ؟!

فاللهُ يُعينُ العقلاءَ على تلبيسِكُم ومِحالِكُم[١]، ويُثَبِّتُ عليهِم ما وَهَبَهُم مِن العقولِ التي رَغِبَتْ بِهِم ورَغِبوا بها[٢] عن مثلِ ما أنتم عليهِ.

● قالَ: وزَعَمَ بَطْليموسُ أنَّ الفلكَ إذا كانَ على شكلٍ ما ذَكَرَهُ في مولدٍ ما وكانَتِ الكواكبُ في مواضعَ ذَكَرَها؛ وَجَبَ أنْ يَكونَ الولدُ أبيضَ اللونِ سَبِطًا، وإنْ وُجِدَ مولودٌ في بلادِ الحبشةِ والفلكُ متشكِّلٌ على ذٰلكَ الشَّكلِ والكواكبُ في المواضعِ التي ذَكَرَها؛ لَمْ يَمْضِ ذٰلكَ الحكمُ عليهِ ومَضى على المولودِ إنْ[٣] كانَ مِن الصَّقالبةِ[٤] أو مَن قَرُبَ مزاجُهُ مِن مزاجِهِم. وزَعَمَ أنَّ الفلكَ إذا كانَ على شكلٍ ما ذَكَرَهُ في مولدٍ ما وكانَتِ الكواكبُ في مواضعَ ذَكَرَها؛ فإنَّ صاحبَ الطَّالعِ يَتَزَوَّجُ[٥] أُختَهُ إنْ كانَ مصريًّا، فإنْ لَمْ يَكُنْ مصريًّا؛ لَمْ يَتَزَوَّجْها. وزَعَمَ أنَّ الفلكَ إذا كانَ على شكلٍ آخرَ ذَكَرَهُ في مولدٍ مِن المواليدِ وكانَتِ الكواكبُ في مواضعَ بَيَّنَها[٦]؛ تَزَوَّجَ الولدُ بأُمِّهِ إنْ كانَ فارسيًّا، وإنْ لَمْ يَكُنْ فارسيًّا؛ لَمْ يَتَزَوَّجْها.

وهٰذهِ مناقضةٌ شنيعةٌ؛ لأنَّهُ ذَكَرَ علَّةً ومعلولاً يُوجَدُ بوجودِها وتَرْتَفِعُ بٱرتفاعِهِ، ثمَّ ذَكَرَ أنَّها تُوجَدُ مِن غيرِ أنْ يُوجَدَ معلولُها!

❁ قُلْتُ: أربابُ هٰذا الفنِّ يَقولونَ: لا بدَّ مِن معرفةِ الأُصولِ التي يُحْكَمُ عليها لئلاَّ يَغْلَطَ الحاكمُ ويَذْهَبَ كلامُهُ إنْ لَمْ يَعْرِفِ الأُصولَ، وهيَ الجنسُ والشَّريعةُ والأخلاقُ والعاداتُ ممَّا يَحْتاجُ المنجِّمُ إلى تحصيلِها، ثمَّ يَحْكُمُ عليها.

---

(١) المحال بكسر الميم: الكيد والمكر.

(٢) في ط: «رغبت بها ورغبوا بها»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) في ط: «على المولود وإن»! ولا بدّ من حذف الواو.

(٤) الصقالبة: سكان أوروبة الشرقية؛ أوكرانية ورومانية وبلغارية ويوغوسلافية البائدة.

(٥) في ط: «فإنّ صاحب الولد يتزوّج»! وهٰذا سبق قلم ظاهر صوابه ما أثبتّه، وربّما كان صوابه «فإنّ ذٰلك الولد يتزوّج».

(٦) في ط: «في موضع بينهما»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

وكذٰلكَ قالَ بَطْلِيموسُ: إنَّهُ يَجِبُ على المنجِّمِ النَّظرُ في صورِ الأبدانِ وخواصِّ حالاتِ الأنفسِ وٱختلافِ العاداتِ والسُّنَنِ. قالَ: ويَجِبُ على مَن نَظَرَ في هٰذهِ الأشياءِ على المذهبِ الطَّبيعيِّ أنْ يَتَشَبَّثَ أبدًا بالأسبابِ الأُولِ الصَّحيحةِ؛ لئلَّا يَغْلَطَ بسببِ ٱشتباهِ المواليدِ فيَقولَ مثلاً إنَّ المولودَ في بلادِ الحبشِ يَكونُ أبيضَ اللونِ سبطَ الشَّعرِ وإنَّ المولودَ في بلادِ الرُّومِ أسودُ اللونِ جعدُ الشَّعرِ، أو يَغْلَطَ أيضًا في السُّنَنِ والعاداتِ التي يُخَصُّ بها بعضُ الأُممِ في الباهِ[1] فيَقولَ مثلاً إنَّ الرَّجلَ مِن أهلِ أنْطاكِيَةَ يَتَزَوَّجُ بأُختِهِ، وكانَ الواجبُ أنْ يَنْسُبَ ذٰلكَ إلى الفارسيِّ!

وفي الجملةِ: يَنْبَغي أنْ يَعْلَمَ أوَّلاً حالاتِ القضاءِ الكلِّيِّ ثمَّ يَأْخُذَ حالاتِ القضاءِ الجزئيِّ لِيَعْلَمَ منها الأمرَ في الزِّيادةِ والنُّقصانِ. وكذٰلكَ يَجِبُ ضرورةً أنْ يُقَدِّمَ في قسمةِ الأزمانِ أصنافَ الأسنانِ الزَّمانيَّةِ وموافقتَها لكلِّ واحدٍ مِن الأحداثِ وأنْ يَتَفَقَّدَ أمرَها؛ لئلَّا يَغْلَطَ في وقتٍ مِن الأوقاتِ في الأعراضِ العامِّيَّةِ البسيطةِ التي يُنْظَرُ فيها في المواليدِ فيَقولَ إنَّ الطِّفلَ يُباشِرُ الأعمالَ أو يَتَزَوَّجُ أو يَفْعَلُ شيئًا مِن الأشياءِ التي يَفْعَلُها مَن هوَ أتمُّ سنًّا منهُ وإنَّ الشَّيخَ الفانيَ يُولَدُ لهُ أو يَفْعَلُ شيئًا مِن أفعالِ الأحداثِ!

وهٰذا ونحوُهُ يَدُلُّ على أنَّ [هٰذهِ][2] الأُمورَ وغيرَها إنَّما هيَ بحسبِ ٱختلافِ العوائدِ والسُّنَنِ والبلادِ وخواصِّ الأنفسِ وٱختلافِ الأسنانِ والأغذيةِ وقواها أيضًا ممَّا فيها تأْثيرٌ قويٌّ وكذا الهواءُ والتُّربةُ واللِّباسُ وغيرُها؛ كلُّ هٰذهِ لها تأْثيرٌ في الأخلاقِ والأعمالِ، وأكبرُها العوائدُ والمزايا والمنشأُ.

فإحالةُ هٰذهِ الأُمورِ على الكواكبِ والطَّالعِ والمقارنةِ والمفارقةِ والمناظرةِ[3] مِن أبينِ الجهلِ، ولهٰذا ٱضْطُرَّ إمامُ المنجِّمينَ ومعلِّمُهُم إلى مراعاةِ هٰذهِ الأُمورِ وأخْبَرَ أنَّ الحاكمَ بدونِ معرفتِها والتَّشبُّثِ بها يَكونُ مخطئًا.

وحينئذٍ؛ فالطَّالعُ المعتبَرُ المؤثِّرُ إنَّما هوَ طالعُ العوائدِ والسُّنَنِ والبلادِ وخواصِّ

---

(١) الباه: الزواج.

(٢) ساقطة من ط، والسياق يستلزمها بالضرورة.

(٣) في ط: «والمناظر»، وله وجه ضعيف، والغالب أنّه تحريف صوابه ما أثبتّه.

هيئاتِ النُّفوسِ الإنسانيّةِ وقوى أغذيةِ أبدانِها وهوائِها وتربتِها وغيرِ ذٰلكَ ممَّا هوَ مشاهدٌ بالعيانِ تأثيرُهُ في ذٰلكَ.

أفلَيْسَ مِن أبينِ الجهلِ الإعراضُ عن هٰذهِ الأسبابِ والحوالةُ على حركاتِ النُّجومِ وٱجتماعِها وٱفتراقِها ومقابلتِها في تربيعٍ أو تثليثٍ أو تسديسٍ، ممَّا لو صَحَّ؛ لَكانَ غايتُهُ أنْ يَكونَ جزءَ سببٍ مِن الأسبابِ التي تَقْتَضي هٰذهِ الآثارَ، ثمَّ إنَّ لها مِن المقارناتِ والمفارقاتِ والصَّوارفِ والعوارضِ ما لا يُحْصي المنجِّمُ القليلَ مِن عشرِ معشارِهِ؟! أفلَيْسَ الحكمُ بمجرَّدِ معرفةِ جزءٍ مِن أجزاءِ السَّببِ[١] بالظَّنِّ والحدسِ والتَّقليدِ لِمَن حَسُنَ ظنُّهُ بِهِ حكمًا كاذبًا[٢]؟!

ولهٰذا كذبُ المنجِّمِ أضعافُ أضعافِ صدقِهِ بكثيرٍ، حتَّى إنَّ صدقَ بعضِ الزَّرَّاقينَ وأصحابِ الكشفِ وأربابِ الفراسةِ والحزَّائينَ[٣] أكثرُ مِن صدقِ هٰؤلاءِ بكثيرٍ، وما ذاكَ إلَّا لأنَّ المجهولَ مِن جملِ الأسبابِ وما يُعارِضُها ويَمْنَعُ تأثيرَها أكثرُ مِن المعلومِ[٤]، فكيفَ لا يَقَعُ الكذبُ والخطأُ؟! بل لا يَكادُ يَقَعُ الصِّدقُ والصَّوابُ إلَّا على سبيلِ التَّصادفِ.

ونحنُ لا نُنْكِرُ ٱرتباطَ المسبَّباتِ بأسبابِها كما ٱرْتَكَبَهُ كثيرٌ مِن المتكلِّمينَ وكابَروا العيانَ وجَحَدوا الحقائقَ، كما أنَّا لا نَرْضى بهذياناتِ الأحكاميِّينَ ومحالاتِهِم، بل نُثْبِتُ الأسبابَ والمسبَّباتِ والعللَ والمعلولاتِ، ونُبَيِّنُ معَ ذٰلكَ بطلانَ ما يَدَّعونَهُ مِن علمِ أحكامِ النُّجومِ وأنَّها هيَ المدبِّرةُ لهٰذا العالمِ المسعدةُ المشقيةُ المحييةُ المميتةُ المعطيةُ للعلومِ والأعمالِ والأخلاقِ والأرزاقِ والآجالِ وأنَّ نَظَرَكُم في هٰذا العالمِ موجبٌ لكُم مِن علمِ الغيبِ ما ٱنْفَرَدْتُم بِهِ عن سائرِ النَّاسِ! ولَيْسَ في طوائفِ النَّاسِ أقلُّ علمًا بالغيبِ منكُم، بل أنتُم أجهلُ النَّاسِ بالغيبِ على الإطلاقِ!

---

(١) يعني على التنزّل والتسليم بأنّه جزء من أجزاء السبب إفحامًا لهم وإقامة للحجّة عليهم، وإلاّ؛ فلا هو جزء من أجزاء السبب ولا صلة له بالسبب أصلاً.

(٢) في ط: «حكم كاذب»! ولا بدّ من نصبه لأنّه خبر «ليس»!

(٣) الزرّاقون: المحتالون الدجّالون. الحزّاؤون: الكهنة.

(٤) يعني: على التسليم معهم بأنّها أسباب.

ومنِ ٱعْتبَرَ حالَ حذّاقِكُم وعلمائِكُم؛ [تبَيَّنَ لهُ أنَّ][(١)] ٱعتمادَهُم على ملاحمَ مركّبةٍ مِن إخباراتِ بعضِ الكهّانِ ومناماتٍ وفراساتٍ وقصصٍ متوارثةٍ عن أهلِ الكتابِ وغيرِهِم ومزجِ ذٰلكَ بتجاربَ حَصَلَتْ معَ ٱقتراناتٍ نجوميّةٍ وٱتّصالاتٍ كوكبيّةٍ يُعْلَمُ بالحسابِ حصولُها في وقتٍ معيَّنٍ فقَضَيْتُم بحصولِ تلكَ الآثارِ أو نظيرِها عندَها... إلى أمثالِ ذٰلكَ مِن أسبابِ علمٍ تُقَدِّمُهُ المعرفةُ التي قد جُرِّبَ بينَ النّاسِ منها مثلُ ما جَرَّبْتُم فصَدَقَتْ تارةً وكَذَبَتْ تارةً!

فغايةُ الحركاتِ النُّجوميّةِ والاتّصالاتِ الكوكبيّةِ أنْ تكونَ كالعللِ والأسبابِ المشاهدةِ التي تأْثيراتُها موقوفةٌ على ٱنضمامِ أُمورٍ أُخرى إليها وٱرتفاعِ موانعَ تَمْنَعُها تأْثيرَها، فهيَ أجزاءُ أسبابٍ غيرُ مستقلّةٍ ولا موجِبةٍ. هٰذا؛ لو أقَمْتُم على تأْثيرِها دليلاً، فكيفَ وليسَ معكُم إلاّ الدّعاوى وتقليدُ بعضِكُم بعضًا وٱعترافُ حذّاقِكُم بأنَّ الذي يُجْهَلُ مِن بقيّةِ الأسبابِ المؤثّرةِ ومِن الموانعِ الصّارفةِ أعظمُ مِن المعلومِ منها بأضعافٍ مضاعفةٍ لا تَدْخُلُ تحتَ الوهمِ؟! فكيفَ يَسْتَقيمُ لعاقلٍ الحكمُ بعدَ هٰذا؟! وهل يكونُ في العالمِ أكذبُ منهُ؟!

● **قالَ صاحبُ الرِّسالةِ**: وإذا كانَ الفلكُ متى تَشَكَّلَ شكلاً ما؛ دَلَّ ـ إنْ كانَ في مولدِ مِصْرِيٍّ ـ على أنَّهُ يَتَزَوَّجُ أُختَهُ فذٰلكَ سنّةٌ كانَتْ لهُم وعادةٌ، وإنْ كانَ في مولدِ غيرِهِ؛ لمْ يَدُلَّ على ذٰلكَ!

ونحنُ نَجِدُ أهلَ مِصْرَ في وقتِنا هٰذا قد زالوا عن تلكَ العادةِ وتَرَكوا تلكَ السُّنَّةَ بدخولِهِم في الإسلامِ والنَّصرانيّةِ وٱستعمالِهِم أحكامَها، فيَجِبُ أنْ تَسْقُطَ هٰذهِ الدّلالةُ مِن مواليدِهِم لزوالِهِم عن تلكَ العادةِ، أو تكونَ الدّلالةُ تُوجِبُ ذٰلكَ في مولدِ كلِّ أحدٍ منهُم ومِن غيرِهِم، أو تَسْقُطَ الدّلالةُ وتَبْطُلَ بزوالِ أهلِ مِصْرَ عمّا كانوا عليهِ[(٢)]. وكذٰلكَ جمهورُ أهلِ فارِسَ. وأيُّ ذٰلكَ كانَ؛ فهوَ دالٌّ على قبحِ المناقضةِ وشدّةِ المغالطةِ! وقد رَأَيْتُ وجهَهُم بَطْليموسَ يَقولُ في كتابِهِ المعروفِ بـ«الأربعة»: فيَحْدُثُ كذا وكذا تَوَهَّمْنا

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) كذا! وهي تكرار لما تقدّم قبل قليل.

أنَّهُ يَكونُ كذا وكذا.

* قُلْتُ: الذي صَرَّحَ بِهِ بَطْلِيموسُ أنَّ علمَ أحكامِ النُّجومِ بعدَ ٱستقصاءِ معرفةِ ما يَنْبَغي معرفتُهُ إنَّما هوَ على جهةِ الحدسِ لا العلمِ واليقينِ.

[١] فمِن ذٰلكَ قولُهُ [المتقدِّمُ.

ومِن ذٰلكَ قولُهُ][(١)] هٰذا: وبالجملةِ؛ فإنَّ جميعَ علمِ حالِ هٰذا العنصرِ[(٢)] إنَّما يَسْتَقيمُ أنْ يُلْحَقَ على جهةِ الظَّنِّ والحدسِ لا على جهةِ اليقينِ، وخاصَّةً منهُ ما كانَ مركَّبًا مِن أشياءَ كثيرةٍ غيرِ متشابهةٍ.

قالَ شارحُ كلامِهِ: وإنَّما ذَهَبَ إلى ذٰلكَ لأنَّ الأفعالَ التي تَصْدُرُ عنِ الكواكبِ إنَّما هيَ بطريقِ العَرَضِ لأنَّها[(٣)] لا تَفْعَلُ بذواتِها شيئًا.

والدَّليلُ على ذٰلكَ قولُهُ في البابِ الثَّاني مِن كتابِ «الأربعة»: وإذا كانَ الإنسانُ قدِ ٱسْتَقْصى معرفةَ حركةِ جميعِ الكواكبِ والشَّمسِ والقمرِ حتَّى إنَّهُ لا يَذْهَبُ عليهِ شيءٌ مِن المواضعِ والأوقاتِ التي تَحْدُثُ لها فيها الأشكالُ[(٤)]، وكانَتْ عندَهُ معرفةٌ بطبائعِها قد أَخَذَها عنِ الأخبارِ المتواترةِ التي تَقَدَّمَتْهُ وإنْ لَمْ يَعْلَمْ طبائعَها في نفسِ جواهرِها لٰكنْ يَعْلَمُ قواها التي تَفْعَلُ بها كالعلمِ بقوَّةِ الشَّمسِ أنَّها تُسَخِّنُ وكالعلمِ بقوَّةِ القمرِ أنَّها تُرَطِّبُ وكذٰلكَ يَعْلَمُ أمرَ قوى سائرِ الكواكبِ، وكانَ قويًّا على معرفةِ أمثالِ سائرِ هٰذهِ الأشياءِ لا على المذهبِ الطَّبيعيِّ فقطْ لٰكنْ يُمْكِنُهُ أيضًا أنْ يَعْلَمَ بجودةِ الحدسِ خواصَّ الحالِ التي تكونُ مِن ٱمتزاجِ جميعِ ذٰلكَ.

قالَ الشَّارحُ: وبَطْلِيموسُ يَرى أنَّ علمَ الأحكامِ إنَّما يُلْحَقُ على جهةِ الحدسِ لا على جهةِ اليقينِ.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) كذا! وفي العبارة ركّة ظاهرة، والغالب أنّها راجعة إلى الترجمة.

(٣) في ط: «العرض وأنّها»! والصواب ما أثبتّه.

(٤) والاعتراف سيّد الأدلّة كما يقولون! ومن فمك أدينك! تأمّل قول رأس هٰذا العلم وشيخ هٰذه الصنعة وواضع أصولها «ٱستقصى»! أليس هٰذا أعظم دليل على سقوط هٰذا العلم وأهله؟! ومن الذي يستطيع أن يستقصي حركات الشمس والقمر وجميع الكواكب؟! من هو؟!

[٢] قُلْتُ: وكذٰلكَ صَرَّحَ أَرِسْطاطاليسَ في أَوَّلِ كتابِهِ «السَّماع الطَّبيعي» أنَّهُ لا سبيلَ إلى اليقينِ بمعرفةِ تأْثيرِ الكواكبِ فقالَ: لمَّا كانَتْ حالُ العلمِ واليقينِ في جميعِ السُّبلِ التي لها مبادئُ أو أسبابٌ أو أُسْتُقُصَّاتٌ إنَّما تَلْزَمُ مِن قِبَلِ المعرفةِ بهٰذه[١]، فإذا لمْ تُعْرَفِ الكواكبُ على أيِّ وجهٍ تَفْعَلُ هٰذهِ الأفاعيلَ ـ أعْني: بذاتِها أو بطريقِ العرضِ ـ ولمْ تُعْرَفْ ماهيَّتُها وذواتُها؛ لمْ تَكُنْ معرفتُنا بالشَّيءِ أنَّهُ يُفْعَلُ على جهةِ اليقينِ.

[٣] وهٰذا ثابتُ بنُ قُرَّةَ[٢] ـ وهوَ مَن هوَ عندَهُم ـ يَقولُ في كتابِ «ترتيب العلم»: وأمَّا علمُ القضاءِ مِن النُّجومِ؛ فقدِ ٱخْتَلَفَ فيهِ أهلُهُ ٱختلافًا شديدًا، وخَرَجَ فيهِ قومٌ إلى ٱدِّعاءِ ما لا يَصِحُّ ولا يَصْدُقُ ممَّا[٣] لا ٱتِّصالَ لهُ بالأُمورِ الطَّبيعيَّةِ، حتَّى ٱدَّعَوْا في ذٰلكَ ما هوَ مِن علمِ الغيبِ، ومعَ هٰذا فلمْ يُوجَدْ منهُ إلى زمانِنا هٰذا قريبٌ مِن التَّمامِ كما وُجِدَ غيرُهُ. هٰذا لفظُهُ معَ حسنِ ظنِّهِ بهِ[٤] وعَدِّهِ لهُ في العلومِ!

[٤] وهٰذا أبو نَصْرٍ الفارابيُّ يَقولُ: وٱعْلَمْ أنَّكَ لو قَلَبْتَ أوضاعَ المنجِّمينَ فجَعَلْتَ السَّعدَ نحسًا والنَّحسَ سعدًا والحارَّ باردًا والباردَ حارًّا والذَّكرَ أُنثى والأُنثى ذكرًا، ثمَّ حَكَمْتَ؛ لَكانَتْ أحكامُكَ مِن جنسِ أحكامِهِم تُصيبُ تارةً وتُخْطِئُ تارةً.

[٥] وهٰذا أبو عَلِيٍّ بنُ سِينا قد أتى في آخرِ كتابِهِ «الشِّفاء» في ردِّ هٰذا العلمِ وإبطالِهِ بما هوَ موجودٌ فيهِ.

[٥ـ فصل معترض]

[في مناظرة دارت بين جماعة من المنجمين]

وقَرَأْتُ بخطِّ رِزْقِ اللهِ المنجِّمِ ـ وكانَ مِن زعمائِهم ـ في كتابِ «المقايساتِ» لأبي

---

(١) يعني: بهٰذه المبادئ والأسباب والأُستقصّات. والأستقصّات: الأصول البسيطة.

(٢) أبو الحسن الحرّاني، الطبيب البارع، الرياضيّ الذكيّ، فيلسوف عصره، صاحب المصنّفات، الشقيّ، الصابئ، منجّم المعتضد وجليسه. توفي على ضلاله سنة ٢٨٨هـ. ترجمته في: «أعلام النبلاء» (١٣/ ٤٨٥)، «الأعلام» (٢/ ٩٨).

(٣) في ط: «ولا يصدق بما»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) يعني: بالتنجيم.

حَيَّانَ التَّوْحِيدِيِّ مناظرةً دارَتْ بينَ جماعةٍ مِن فضلائِهِم جمعَ جَمْعَهم بعضُ المجالسِ، فذَكَرْتُها ملخَّصةً ممَّا لا يَتَعَلَّقُ بها، بل ذَكَرْتُ مقاصدَها:

قالَ أبو حَيَّانَ: هٰذهِ مقايسةٌ دارَتْ في مجلسِ أبي سُلَيْمانَ مُحَمَّدِ بنِ طاهرِ بنِ بَهْرامَ السِّجِسْتانِيِّ وعندَهُ أبو زَكَرِيَّا الصَّيْمَرِيُّ والبُوشِنْجانِيُّ أبو الفتحِ وأبو مُحَمَّدٍ العَرُوضِيُّ وأبو مُحَمَّدٍ المَقْدِسِيُّ والقُوطَسِيُّ وغلامُ زُحَلَ، وكلٌّ واحدٍ مِن هٰؤلاءِ إمامٌ في شأْنِهِ فردٌ في صناعتِهِ.

● فقيلَ في المجلسِ: لِم خَلا علمُ النُّجومِ مِن الفائدةِ والثَّمرةِ وليسَ علمٌ مِن العلومِ كذٰلكَ؟ فإنَّ الطِّبَّ ليسَ على هٰذهِ الحالِ... ثمَّ ذُكِرَتْ فائدتُهُ والمنفعةُ بهِ، وكذٰلكَ الحسابُ والنَّحوُ والهندسةُ والصَّنائعُ ذُكِرَتْ وذُكِرَتْ منافعُها وثمراتُها. ثمَّ قالَ السَّائلُ: ولَيْسَ علمُ النُّجومِ كذٰلكَ؛ فإنَّ صاحبَهُ إذا ٱسْتَقْصى وبَلَغَ الحدَّ الأقصى في معرفةِ الكواكبِ وتحصيلِ سيرِها وٱقترانِها ورجوعِها ومقابلتِها وتربيعِها وتثليثِها وتسديسِها وضروبِ مزاجِها في مواضعِها مِن بروجِها وأشكالِها ومطالعِها ومعاطفِها ومغاربِها ومشارقِها ومذاهبِها حتَّى إذا حَكَمَ أصابَ وإذا أصابَ حَقَّقَ وإذا حَقَّقَ جَزَمَ وإذا جَزَمَ حَتَمَ[1]؛ فإنَّهُ لا يَسْتَطيعُ ٱلبتَّةَ قلبَ شيءٍ عن شيءٍ ولا صرفَ شيءٍ عن شيءٍ ولا تبعيدَ حالٍ قد دَنَتْ ولا نفيَ علَّةٍ قدِ ٱكْتُتِبَتْ[2] ولا رفعَ سعادةٍ قد أَجَمَّتْ[3] وأَطَلَّتْ؛ أعْني: أنَّ ٱمْرَأً لا يَقْدِرُ على أنْ يَجْعَلَ الإقامةَ سفرًا ولا الهزيمةَ ظفرًا ولا العقدَ حلًّا ولا الإبرامَ نقضًا ولا اليأْسَ رجاءً ولا الإخفاقَ دركًا ولا العدوَّ صديقًا ولا الوليَّ عدوًّا ولا البعيدَ قريبًا ولا القريبَ بعيدًا، فكانَ العالمُ بهِ الحاذقُ المتناهي في خفيَّاتِهِ بعدَ هٰذا التَّعبِ والنَّصبِ وبعدَ هٰذا الكدِّ والدَّأْبِ وبعدَ هٰذهِ الكلفةِ الشَّديدةِ والمعرفةِ الغليظةِ هوَ ملتزمًا للمقدارِ مستجديًا[4] لما يَأْتي بهِ الليلُ والنَّهارُ، وعادَتْ حالُهُ معَ علمِهِ الكثيرِ إلى

---

(١) أيّ منجّم هٰذا؟! وأين هو؟! ليس هٰذا بالمنجّم ولٰكنّه نبيّ مرسل! بل هٰذا علم من ﴿عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبّة...﴾.

(٢) في ط: «ولا يفي ملّة قد ٱكتبت»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٣) أجمّت: دنت وٱقتربت.

(٤) في ط: «ملتزم للمقدار مستجد»! وهو خبر كان منصوب. ومعنى «ملتزمًا للمقدار»: مستسلمًا=

حالِ الجاهلِ بهٰذا العلمِ الذي ٱنقيادُهُ كٱنقيادِهِ وٱعتبارُهُ كٱعتبارِهِ، ولَعَلَّ توكُّلَ الجاهلِ أحسنُ مِن توكُّلِ العالمِ بهِ ورضاهُ في الخيرِ المشتهى ونجاتُهُ مِن الشَّرِّ المتَّقى أقوى وأصحُّ مِن رجاءِ هٰذا المدلِّ بزيجِهِ وحسابِهِ وتقويمِهِ وأسْطُرْلابِهِ.

ولهٰذا لَقِيَ أبو الحُسَيْنِ النُّوريُّ[(١)] مانِيًا المنجِّمَ، [فـ]ـقالَ لهُ: أنتَ تَخافُ زُحَلَ وأنا أخافُ ربَّ زُحَلَ، وأنتَ تَرْجو المُشْتَرِيَ وأنا أعْبُدُ رَبَّ المُشْتَري، وأنتَ تَغْدو بالإشارةِ وأنا أغْدو بالاستخارةِ[(٢)]، فكم بينَنا[(٣)]!

وهٰذا أنُوشِرْوانَ ـ وكانَ مِن الملوكِ الأفاضلِ ـ كانَ لا يَرْفَعُ بالنُّجومِ رأْسًا. فقيلَ لهُ في ذٰلكَ. فقالَ: صوابُهُ يُشْبِهُ الحدسَ، وخطؤُهُ شديدٌ على النَّفسِ.

فمتى أفْضى هٰذا الفاضلُ النِّحريرُ والحاذقُ البصيرُ إلى هٰذا الحدِّ والغايةِ؛ كانَ علمُهُ عاريًا مِن الثَّمرةِ خاليًا مِن الفائدةِ حائلاً عنِ النَّتيجةِ بلا عائدةٍ ولا مرجوعٍ. وإنَّ أمرًا أوَّلُهُ على ما قرَّرْنا وآخرُهُ على ما ذَكَرْنا لحريٌّ أنْ لا يُشْغَلَ الزَّمانُ بهِ ولا يُوهَبَ العمرُ لهُ ولا يُعارَ الهمَّ والكدَّ ولا يُعاجَ عليهِ[(٤)] بوجهٍ ولا سببٍ.

هٰذا؛ إنْ كانَتِ الأحكامُ صحيحةً مدركةً محقَّقةً ومصابةً ملحقةً معروفةً محصَّلةً، ولمْ يكُنِ المذهبُ على ما زَعَمَ أربابُ الكلامِ والذينَ يَأْبَوْنَ تأْثيرَ هٰذهِ الأجرامِ العاليةِ في الأجسامِ السَّافلةِ ويَنْفونَ الوسائطَ بينَهُما والوصائلَ ويَدْفَعونَ الفواعلَ والقوابلَ. تَمَّ السُّؤالُ[(٥)].

● فأجابَ كلٌّ مِن هٰؤلاءِ بما سَنَحَ لهُ.

= للقدر. مستجديًا: من الاستجداء، وهو السؤال، فهو سائل عمّا سيحصل في الليل أو النهار.

(١) أحمد بن محمّد الخراساني، البغويّ، الصوفيّ، الزاهد، شيخ الطائفة، صاحب العبارات المشكلة التي يتعلّق بها الاتّحاديّة، يقال فسد دماغه في آخره، فأمره إلى الله فهو العالم بحقيقة حاله. توفي ٢٩٥هـ. ترجمته في: «حلية الأولياء» (١٠/ ٥٤٩)، «أعلام النبلاء» (١٤/ ٧٠).

(٢) في ط: «وأنت تعدو بالإشارة وأنا أعدو بالاستخارة»! وهٰذا تصحيف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٣) إن كان النوريّ دخل في شيء من وحدة الوجود ومات عليه؛ فما هو بخير من المنجّم، وربّما كان حال المنجّم خيرًا من حاله. والله أعلى وأعلم.

(٤) يُعاج عليه: يُمرّ عليه.

(٥) في ط: «ثم السؤال»؛ بالثاء المثلّثة، وله وجه ضعيف، والغالب أنّه تصحيف لما أثبتّه.

* فقالَ قائلٌ منهُم: عن هٰذا السُّؤالِ المَهولِ جوابانِ:

أحدُهُما: هوَ زجرٌ عنِ النَّظرِ فيهِ؛ لئلَّا يَكونَ هٰذا الإنسانُ معَ ضعفِ تجربتِهِ وٱضطرابِ غريزتِهِ وضعفِ بنيتِهِ غَدًا على ربِّهِ شريكًا لهُ في غيبِهِ متكبِّرًا على عبادِهِ ظانًّا بأنَّهُ فيما يَأْتي مِن شأْنِهِ قائمٌ بجدِّهِ وقدرتِهِ وحولِهِ وقوَّتِهِ وتشميرِهِ وتقليصِهِ[1] وتهجيرِهِ وتقريبِهِ؛ فإنَّ هٰذا النَّمطَ يَحْجُزُ الإنسانَ عنِ الخشوعِ لخالقِهِ والإذعانِ لربِّهِ ويُبْعِدُهُ عنِ التَّسليمِ لمدبِّرِهِ ويَحولُ بينَهُ وبينَ طرحِ الكاهلِ بينَ يدي مَن هوَ أملكُ لهُ وأولى بِهِ.

وأمَّا الجوابُ الآخرُ؛ فهوَ بشرى عظيمةٌ على نعمةٍ جسيمةٍ لمَن حَصَلَ لهُ هٰذا العلمُ، وذٰلكَ سرٌّ لوِ ٱطُّلِعَ عليهِ وغيبٌ لو وُصِلَ إليهِ؛ لَكانَ ما يَجِدُهُ الإنسانُ فيهِ مِنَ الرَّوحِ والرَّاحةِ والخيرِ في العاجلةِ والآجلةِ يَكفيهِ مؤْنةَ هٰذا الخطبِ الفادحِ ويُغْنيهِ عن تجشُّمِ هٰذا الكدِّ الكادحِ. فٱجْعَلْ أيُّها المنكرُ لشرفِ هٰذا العلمِ قِبَلَ عينِكَ ما يَخْفى عليكَ خفيُّهُ ومكنونُهُ تذلُّلاً للهِ تَقَدَّسَ ٱسمُهُ فيما ٱسْتَبانَ لكَ معلومُهُ ووَضَحَ عندَكَ مظنونُهُ[2].

ثمَّ قالَ: ٱعْلَمْ أنَّ العلمَ بِهِ حقٌّ[3] ولٰكنَّ الإصابةَ بعيدةٌ، ولَيْسَ كلُّ بعيدٍ محالاً ولا كلُّ قريبٍ صوابًا، ولا كلُّ صوابٍ معروفًا ولا كلُّ محالٍ موصوفًا. وإنَّما كانَ العلمُ [بِهِ] حقًّا والاجتهادُ فيهِ مبلِّغًا والقياسُ فيهِ صوابًا وبذلُ السَّعيِ دونَهُ محمودًا لاشتباكِ هٰذا العالمِ السُّفليِّ بذٰلكَ العالمِ العلويِّ[4] وٱتِّصالِ هٰذهِ الأجسامِ القابلةِ بتلكَ الأجسامِ الفاعلةِ وٱستحالةِ هٰذهِ الصُّورِ بحركاتِ تلكَ المحرِّكاتِ المشاكلةِ بالوحدةِ، وإذا صَحَّ

---

(١) تقليصه: تشميره ومضيّه.

(٢) وفي هٰذا الجواب الآخر مدح ظاهر لهٰذا العلم ووصف له بأنّه يحمل أهله على التذلّل لرب الكواكب والنجوم ويوجد لهم الراحة والإخبات في مسائل القضاء والقدر! فهل هٰذا صحيح؟! لا والله؛ ما شمّ هٰذا رائحة الصدق! فأمّا أهله؛ فما فيهم إلّا دجّال متأكّل بالباطل أو زنديق طالب للشرف والرياسة، وتراجم السابقين منهم بين يديك وأحوال المعاصرين لا تخفى عليك. وأمّا زبائنهم؛ فما ٱستفتوهم إلّا لضعف الرضى وفقدان التسليم بالمقادير كما هو معلوم ظاهر.

(٣) حقّ! هٰكذا دفعة واحدة! ما أجرأ هٰؤلاء الضلّال وأجلدهم على باطلهم! تجد العالم النحرير يحتجّ على قوله بالحجّة تلو الحجّة من الكتاب والسنّة ثمّ يقول: هٰذا غاية ما عندي فما كان فيه من صواب فمن الله وحده وما كان فيه من خطإ فمنّي ومن الشيطان! وساقط هٰؤلاء يدّعي بغير حياء أنّ ما عنده حقّ!

(٤) هٰكذا! بغير أثارة من دليل! هي مشتبكة وٱنتهى؛ فٱسمعوني وأطيعوني وسبّحوا لي وٱحمدوني!

هٰذا الاتّصالُ والتّشابكُ وهٰذهِ الحبالُ والرَّوابطُ؛ صَحَّ التَّأْثيرُ مِن العلويِّ وقبولُ التَّأْثيرِ مِن السُّفليِّ بالمواضعِ الشُّعاعيّةِ وبالمناسباتِ الشَّكليّةِ والأحوالِ الخفيّةِ والجليّةِ، وإذا صَحَّ التَّأْثيرُ مِن المؤثِّرِ وقبولُهُ مِن القابلِ؛ صَحَّ الاعتبارُ واْستَتَبَّ القياسُ وصَدَقَ الرَّصدُ وثَبَتَ الإلفُ واْسْتَحْكَمَتِ العادةُ واْنْكَشَفَتِ الحدودُ واْنْثالَتِ العللُ وتَعاضَدَتِ الشَّواهدُ وصارَ الصَّوابُ غامرًا والخطأُ مغمورًا والعلمُ جوهرًا راسخًا والظَّنُّ عرضًا زائلاً!

قيلَ: هل تَصِحُّ الأحكامُ أم لا؟

فقالَ: الأحكامُ لا تَصِحُّ بأسرِها ولا تَبْطُلُ مِن أصلِها، وذٰلكَ شيءٌ[1] يَتَبَيَّنُ إذا أُنعِمَ النَّظرُ وبُسِطَ الإصغاءُ وصُمِدَ نحوَ الفائدةِ بغيرِ متابعةِ الهوى وإيثارِ التَّعصُّبِ.

ثمَّ قالَ: الأُمورُ الموجودةُ على ضربينِ: ضربٍ لهُ الوجودُ الحقُّ، وضربٍ لهُ الوجودُ ولٰكنْ ليسَ الوجودَ الحقَّ. فأمَّا الأُمورُ الموجودةُ بالحقِّ؛ فقد أعْطَتِ الأُخرى نسبةً مِن جهةِ الوجودِ الحقِّ، وأمَّا الأُمورُ الموجودةُ لا بالحقِّ؛ فقد أعْطَتِ الأُخرى نسبةً مِن جهةِ الوجودِ واْرْتَجَعَتْ منها حقيقةَ ذٰلكَ[2].

فالحكمُ بالاعتبارِ الفاحصِ عن هٰذهِ الأسرارِ: إنْ أصابَ؛ فبسببِ الوجودِ الذي هوَ هٰذا العالمُ السُّفليُّ مِن ذٰلكَ العالمِ العلويِّ، وإنْ أخطأَ؛ فبآفاتِ هٰذا العالمِ السُّفليِّ مِن ذٰلكَ العالمِ العلويِّ[2].

والإصابةُ في هٰذهِ الأُمورِ السَّيَّالةِ المتبدِّلةِ عرضٌ، والإصابةُ في أُمورِ الفلكِ جوهرٌ. وقد يكونُ هناكَ ما هوَ كالخطإِ ولٰكنْ بالعرضِ لا بالذّاتِ، كما يكونُ هاهُنا ما هوَ كالصَّوابِ[3] والحقِّ لٰكنْ بالعرضِ لا بالذّاتِ. فلهٰذا صَحَّ بعضُ الأحكامِ وبَطَلَ بعضُها.

وممَّا يكونُ شاهدًا لهٰذا أنَّ العالمَ السُّفليَّ معَ تبدُّلِهِ في كلِّ حالةٍ واْستحالتِهِ في كلِّ طرفٍ ولمحٍ متقبِّلٌ لذٰلكَ العالمِ العلويِّ يَتَحَرَّكُ شوقًا إلى كمالِهِ وعشقًا لجمالِهِ وطلبًا للتَّشبُّهِ بهِ وتحقُّقًا بكلِّ ما أمْكَنَ مِن شكلِهِ، فهوَ بحقِّ التَّقبُّلِ يُعْطي هٰذا العالمَ السُّفليَّ ما

---

(١) في ط: «وذٰلك سبب»! والغالب أنّه تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) فما معنى هٰذا؟! ليس لك إلّا أن تصبر على هذيان القوم! فاْصبر وما صبرك إلّا بالله!

(٣) في ط: «هاهنا لا هو بالصواب»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

يَكونُ بِهِ مشابهًا للعالمِ العلويِّ، وبهٰذا التَّقبُّلِ يَقْبَلُ الإنسانُ النَّاقصُ الكاملَ ويَقْبَلُ الكاملُ مِن البشرِ المُلْكَ ويَقْبَلُ المَلِكُ الباريَ جَلَّ وعَزَّ[١].

* قالَ آخرُ: إنَّما وَجَبَ هٰذا التَّقبُّلُ والتَّشبُّهُ؛ لأنَّ وجودَ هٰذا العالمِ وجودٌ متهافتٌ مستحيلٌ لا صورةٌ لهُ ثابتةٌ ولا شكلٌ دائمٌ ولا هيئةٌ معروفةٌ، وكانَ مِن هٰذا الوجهِ فقيرًا إلى ما يَمُدُّهُ ويَشُدُّهُ، فإمَّا مسخُهُ[٢] فهوَ موجودٌ وثابتٌ مقابلٌ لذٰلكَ العالمِ الموجودِ الثَّابتِ، وإنَّما عَرَضَ ما عَرَضَ لأنَّ أحدَهُما مؤثِّرٌ والآخرَ قابلٌ، فبحقِّ هٰذهِ المرتبةِ ما وُجِدَ التَّواصلُ[٣].

* وقالَ آخرُ: قد يُغْفِلُ معَ هٰذا كلِّهِ المنجِّمُ ٱعتبارَ حركاتٍ كثيرةٍ مِن أجرامٍ مختلفةٍ؛ لأنَّهُ يَعجزُ عن نظمِها وتقويمِها ومزجِها وتسييرِها وتفصيلِ أحوالِها وتحصيلِ خواصِّها، معَ بعدِ حركةِ بعضِها وقربِ حركةِ بعضِها وبطئِها وسرعتِها وتوسُّطِها وٱلتفافِ صورِها وٱلتباسِ تقاطعِها وتداخلِ أشكالِها. ومِن الحكمةِ في هٰذا الإغفالِ أنَّ اللهَ تَقَدَّسَ ٱسمُهُ يُتِمُّ بذٰلكَ القدرِ المغفَلِ القليلِ[٤] الذي لا يُؤْبَهُ [لهُ][٥] والكثيرِ الذي لا يُحاوَلُ البحثُ عنهُ أمرًا لمْ يَكُنْ في حسبانِ الخلقِ ولا فيما أعْمَلوا فيهِ القياسَ والتَّقديرَ والتَّوهُّمَ. ولهٰذا يُحْكِمُ هٰذا الحاذقُ في صناعتِهِ لهٰذا الملكِ وهٰذا الماهرُ في عملِهِ لهٰذا الملكِ، ثمَّ يَلْتَقِيانِ[٦]، فتكونُ الدَّائرةُ على أحدِهما، معَ شدَّةِ الوقاعِ وصدقِ المِصاعِ[٧]. هٰذا و[كلٌّ منهُما][٥] قد حُكِمَ لهُ بالظَّفرِ والغلبِ[٨].

---

(١) وهٰذا كلام يصدق فيه بحقّ قول الأوّل: «أسمع جعجعة ولا أرى طحنًا»! لا حجّة ولا نتيجة ولا فائدة، هذيان أو كالهذيان. ولا والله؛ لا يستحقّ من بلغ هٰذه الدرجة من الوقاحة أن تسوّد الصفحات بردّ قوله لولا أنّ البلاء فيه وفي أمثاله عمّ وطمّ! ثمّ أين في هٰذا الجواب عن السؤال المطروح؟!

(٢) كذا في ط! وفيه تحريف بيّن لم أهتد إلى وجه الصواب فيه.

(٣) سلّمنا بهٰذا الهذيان كلّه! فأين فيه الجواب عن السؤال المطروح؟!

(٤) في ط: «القدر المقفل والقليل»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

(٦) يعني: يلتقي الملكان في المعركة، وكلّ منهما قد قال له منجّمه الحاذق: الغلبة لك!

(٧) المصاع: القتال والجلاد.

(٨) سلّمنا بهٰذا كلّه، لٰكن أين فيه الجواب عن السؤال المطروح؟!

* وقالَ آخرُ ـ وهوَ البُوشَنْجانِيُّ ـ: إنَّما يُؤْتى أحدُ الحاكمينِ لأحدِ السَّائلينِ لا مِن جهةِ غلطٍ يَكونُ في الحسابِ ولا مِن قلَّةِ مهارةٍ في العملِ، ولٰكنْ يَكونُ في طالعِهِ أنْ لا يُصيبَ في ذٰلكَ الحكمِ [أ]و يَكونُ في طالعِ الملكِ أنْ لا يُصيبَ منجِّمُهُ في تلكَ الحربِ، فمقتضى حالِهِ وحالِ صاحبِهِ يَحولُ بينَهُ وبينَ الصَّوابِ، ويَكونَ الآخرُ معَ صحَّةِ حسابِهِ وحسنِ إدراكِهِ قد وَجَبَ في طالعِ نفسِهِ وطالعِ صاحبِهِ ضدُّ ذٰلكَ، فيَقَعُ الأمرُ الواجبُ ويَبْطُلُ الآخرُ الذي ليسَ بواجبٍ، وقد كانَ المنجِّمانِ مِن جهةِ العلمِ والحسابِ أعْطَيا للصِّناعةِ حقَّها ووَفَّيا ما عليهِما ووَقَفا موقفًا واحدًا على غيرِ مزيَّةٍ بيِّنةٍ ولا علَّةٍ قائمةٍ[١]!

* قالَ آخرُ: ولولا هٰذهِ البقيَّةُ المندفنةُ والغايةُ المستترةُ[٢] التي ٱسْتَأْثَرَ اللهُ بها؛ لَكانَ لا يَعْرِضُ هٰذا الخطأُ معَ صحَّةِ الحسابِ ودقَّةِ النَّظرِ وشدَّةِ الغوصِ وتوفِّي المطلوبِ ومعَ غلبةِ الهوى والميلِ إلى المحكومِ لهُ. وهٰذهِ البقيَّةُ دائرةٌ في أُمورِ هٰذا الخلقِ فاضلِهِم وناقصِهِم ومتوسِّطِهِم في دقيقِها وجليلِها وصعبِها. ومَن كانَ لهُ في نفسِهِ باعثٌ على التَّصفُّحِ والنَّظرِ والبحثِ والاعتبارِ؛ وَقَفَ على ما أوْمَأْتُ إليهِ وسَلَّمَ[٣].

ولحكمةٍ جليلةٍ ضَرَبَ اللهُ دونَ هٰذا العلمِ بالأسداد وطَوى حقائقَهُ عن أكثرِ العبادِ[٤]. وذٰلكَ أنَّ العلمَ بما سَيَكونُ ويَحْدُثُ ويُسْتَقْبَلُ علمٌ حلوٌ عندَ النَّفسِ ولهُ موقعٌ عندَ العقلِ، فلا أحدَ إلاَّ وهوَ يَتَمَنَّى أنْ يَعْلَمَ الغيبَ ويَطَّلِعَ عليه ويُدْرِكَ ما سوفَ يَكونُ في غدٍ ويَجِدَ سبيلاً إليه، ولو ذُلِّلَ السَّبيلُ إلى هٰذا الفنِّ؛ لَرَأيْتَ النَّاسَ يُهْرَعونَ إليه ولا

(١) لا ريب أنّ في هٰذا الجواب من الوقاحة وقلّة الحياء ما فيه، وأنّ صاحبه لم يجب عن السؤال المطروح. لٰكن مع ذٰلك، ففي كلامه ـ لو تأمّلته ـ إسقاط لأصول التنجيم وفروعه. فإذا كان حساب المنجّم الصحيح الذي أعطى الصنعة حقّها قد لا يصيب: لأنّ في طالع السائل أن لا يصيب الحساب، أو لأنّ في طالع المنجّم أن لا يصيب حسابه، أو لأنّ في طالع الملك الآخر أن لا يصيب حساب منجّم الخصم... إلخ هٰذا الهذيان؛ فأيّ فائدة في حسابات المنجّمين إذًا؟!

(٢) كذا في ط، وله وجه في الجملة، وربّما كان صوابه: «والعناية المستترة».

(٣) لا ريب أنّه سيسلّم، لٰكن بكذب صاحب هٰذا القول ووقاحته وقلّة حيائه.

(٤) فعاندتم بصنعتكم حكمة الله، وادّعيتم إظهار ما أخفاه، وأتيتم بالإفك ولبّستم على الخلق وأفسدتم عليهم دينهم ودنياهم. فتأمّل حقّ التأمّل في أقوالهم؛ فإنّها أعظم شاهد على سفههم وضلالهم.

يُؤْثِرونَ شيئًا آخرَ عليه؛ لحلاوةِ هٰذا العلمِ عندَ الرُّوحِ ولصوقِهِ بالنَّفسِ وغرامِ كلِّ أحدٍ بهِ وفتنةِ كلِّ إنسانٍ فيهِ. فبنعمةٍ مِنَ اللهِ لَمْ يُفْتَحْ هٰذا البابُ ولَمْ يُكْشَفْ دونَهُ الغطاءُ حتَّى يَرْتَقِيَ كلُّ أحدٍ روضَهُ ويَلْزَمَ حدَّهُ ويَرْغَبَ فيما هوَ أجدى عليهِ وأنفعُ لهُ إمَّا عاجلاً وإمَّا آجلاً، فطوى اللهُ عنِ الخلقِ حقائقَ الغيبِ ونَشَرَ لهُم نبذًا منهُ وشيئًا يسيرًا يَتَعَلَّلونَ بهِ؛ لِيَكونَ هٰذا العلمُ محروصًا عليهِ كسائرِ العلومِ ولا يَكونَ مانعًا مِن غيرِهِ[١].

قالَ: فلولا هٰذهِ البقيَّةُ التي فَضَحَتِ الكاملينَ وأَعْجَزَتِ القادرينَ؛ لَكانَ تعجُّبُ الخلقِ مِن غرائبِ الأحداثِ وعجائبِ الصُّروفِ وطرائفِ الأحوالِ عبثًا وسفهًا وتوكُّلُهُم على اللهِ لهوًا ولعبًا.

* فقالَ آخرُ: وهٰذا يَتَّضِحُ بمثالٍ. ولْيَكُنِ المثالُ أنَّ ملكًا في زمانِكَ وبلادِكَ واسعَ الملكِ عظيمَ الشَّأْنِ بعيدَ الصِّيتِ سابغَ الهيبةِ معروفًا بالحكمةِ مشهورًا بالحزمِ، يَضَعُ الخيرَ في مواضعِهِ ويُوقِعُ الشَّرَّ في مواقعِهِ، عندَهُ جزاءُ كلِّ سيِّئةٍ وثوابُ كلِّ حسنةٍ، قد رَتَّبَ لبريدِهِ أصلحَ الأولياءِ لهُ، وكذٰلكَ نَصَبَ لجبايةِ أموالِهِ أقومَ النَّاسِ بها، وكذٰلكَ وَلَّى عمارةَ أرضِهِ أنهضَ النَّاسِ بها، وشَرَّفَ آخرَ بكتابتِهِ وآخرَ بوزارتِهِ وآخرَ بنيابتِهِ. فإذا نَظَرْتَ إلى ملكِهِ؛ وَجَدْتَهُ مؤزَّرًا بسدادِ الرَّأْيِ ومحمودِ التَّدبيرِ، وأولياؤُهُ حواليهِ وحاشيتُهُ بينَ يديهِ، وكلٌّ يَخِفُّ إلى ما هوَ منوطٌ بهِ ويَسْتَقْصي طاقتَهُ ويَبْذُلُ فيهِ، والملكُ يَأْمُرُ ويَنْهى ويُصْدِرُ ويُورِدُ ويُثيبُ ويُعاقِبُ، وقد عَلِمَ صغيرُ أوليائِهِ وكبيرُهُم ووضيعُ رعاياهُ وشريفُهُم ونبيهُ النَّاسِ وخاملُهُم أنَّ الأمرَ الذي تَعَلَّقَ بكذا وكذا صَدَرَ مِنَ الملكِ إلى كاتبِهِ لأنَّهُ مِن جنسِ الكتابةِ وعلائقِها وما يَدْخُلُ في شرائطِها ووثائقِها والأمرُ الآخرُ صَدَرَ إلى صاحبِ بريدِهِ لأنَّهُ مِن أحكامِ البريدِ وفنونِهِ والأمرُ الآخرُ أُلْقِيَ إلى صاحبِ المعونةِ لأنَّهُ مِن جنسِ ما هوَ مرتَّبٌ لهُ منصوبٌ مِن أجلِهِ والحديثُ الآخرُ صَدَرَ إلى القاضي لأنَّهُ مِن بابِ الدِّينِ والحكمِ والفصلِ. وكلُّ هٰذا مسلَّمٌ إلى الملكِ لا يُفْتَاتُ

---

(١) ماذا يقال لمن بلغت به الصفاقة وقلّة الحياء إلى أن يدّعي أنّ الله سبحانه يريدنا أن نحرص على صنعة التنجيم؟! أليست هٰذه الدعوى محادّة ظاهرة لقول النبيّ ﷺ: «من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»؟! لٰكن إذا لم تستحي فاصنع ما شئت.

عليه[١] في شيءٍ منهُ ولا يُسْتَبَدُّ بشيءٍ دونَهُ. فالأحوالُ على هٰذا كلُّها جاريةٌ على أُصولِها وقواعدِها في مجاريها، لا يُرَدُّ شيءٌ منها إلى غيرِ شكلِهِ ولا يَرْتَقي إلى غيرِ طبقتِهِ.

فلو وَقَفَ رجلٌ لهُ مِن الحزمِ نصيبٌ ومِن اليقظةِ قسطٌ على هٰذا الملكِ الجسيم وتَصَفَّحَ أبوابَهُ بابًا بابًا وحالاً حالاً وتَخَلَّلَ بيتًا بيتًا ورَفَعَ سجفًا سجفًا[٢]؛ لأمْكَنَهُ أنْ[٣] يَعْلَمَ ـ بما أثْمَرَهُ له[٤] هٰذا النَّظرُ ومَيَّزَهُ لهُ هٰذا القياسُ وأوْقَعَهُ عليهِ هٰذا الحدسُ ـ ما سَيَفْعَلُهُ هٰذا الملكُ غدًا وما يَتَقَدَّمُ بهِ إلى شهرٍ وما يَكادُ يَكونُ منهُ إلى سنةٍ وسنتينِ؛ لأنَّهُ يُعاني الأحوالَ ويُقايِسُ بينَها ويَلْتَقِطُ ألفاظَ الملكِ ولحظاتِهِ وإشاراتِهِ وحركاتِهِ، ويَقولُ في بعضِها رَأيْتُ الملكَ يَفْعَلُ كذا وكذا ويَفْعَلُ كذا وكذا وهٰذا يَدُلُّ على كذا وكذا، وإنَّما جَرَّأهُ هٰذهِ الجرأةَ على هٰذا الحكمِ والبتِّ أنَّهُ قد مَلَكَ لحظَ الملكِ ولفظَهُ وحركتَهُ وسكونَهُ وتعريضَهُ وتصريحَهُ وجدَّهُ وهزلَهُ وشكلَهُ وسجيَّتَهُ وتجعُّدَهُ واَسترسالَهُ ووجومَهُ ونشاطَهُ واَنقباضَهُ واَنبساطَهُ وغضبَهُ ورضاهُ.

ثمَّ هَجَسَ في نفسِ هٰذا الملكِ هاجسٌ وخَطَرَ ببالِهِ خاطرٌ، فقالَ: أُريدُ أنْ أعْمَلَ عملاً وأُؤثِّرَ أثرًا وأُحْدِثَ حالاً لا يَقِفُ عليها أوليائي ولا المطيعونَ لي ولا المختصُّونَ بقولي ولا المتعلِّقونَ بحبالي ولا أحدٌ مِن أعدائي المتتبِّعينَ لأمري والمحصينَ لأنفاسي، ولا أدْري كيفَ أفْتَتِحُهُ ولا أقْتَرِحُهُ؛ لأنِّي متى تَقَدَّمْتُ في ذٰلكَ إلى كلِّ مَن يَلوذُ بي ويَطوفُ بناحيتي؛ كانَ الأمرُ في ذٰلكَ نظيرَ جميعِ أُموري، وهٰذا هوَ الفسادُ الذي يَلْزَمُني تجنُّبُهُ ويَجِبُ عليَّ التَّيقُّظُ فيهِ. فيَقْدَحُ لهُ الفكرُ الثَّاقبُ أنَّهُ يَنْبَغي أنْ يَتأهَّبَ للصَّيدِ ذاتَ يومٍ، فيَتَقَدَّمُ بذٰلكَ ويُذيعُهُ، فيَأْخُذُ أصحابُهُ وخاصَّتُهُ في أُهبةِ ذٰلكَ وإعدادِ الآلةِ، فإذا تَكامَلَ ذٰلكَ لهُ؛ أصْحَرَ للصَّيدِ وتَقَلَّبَ في البيداءِ وصَمَّمَ على ما يَلوحُ لهُ وأمْعَنَ

---

(١) لا يفتأت عليه: لا يستبدّ بشيء دونه.

(٢) السجف: الستر.

(٣) في ط: «لا يمكنه أن»! وهٰذا تحريف بيّن قلب المعنى رأسًا على عقب. وصاحب هٰذا القول ـ وهو من المنجّمين كما تقدّم ـ يريد أن يستدلّ على صحّة التنجيم وإصابته في الأحوال الطبيعيّة، وسياق الكلام ظاهر فيما أثبتّه. والله المستعان.

(٤) في ط: «بما يثمره له»! وهٰذا أيضًا تحريف صوابه ما أثبتّه.

وراءَهُ ورَكَضَ خلفَهُ جوادَهُ ونَهى مَن معَهُ أنْ يَتْبَعَهُ، حتَّى إذا وَغَلَ في تلكَ الفجاجِ الخاويةِ والمدارجِ المتنائيةِ وتَباعَدَ عن متنِ الجادَّةِ ووضحِ المحجَّةِ؛ صادَفَ إنسانًا، فوَقَفَ وحاوَرَهُ وفاوَضَهُ فوَجَدَهُ حصينًا محصَّلاً يَتَّقِدُ فهمًا، فقالَ لهُ: أفيكَ خيرٌ؟ فقالَ: نعمْ، وهلِ الخيرُ إلاَّ فيَّ وعندي وإلاَّ معي؟ ألْقِ إليَّ ما بَدا لكَ، وخَلِّني وذٰلكَ! فقالَ لهُ: إنَّ الواقفَ عليكَ المكلِّمَ لكَ ملكُ هٰذا الإقليمِ؛ فلا تُرَعْ واْهْدَأْ. فقالَ: السَّعادةُ قَيَّضَتْني لكَ والجدُّ أطْلَعَكَ عليَّ. فيَقولُ لهُ الملكُ: إنِّي أُريدُ أنْ أُكَلِّفَكَ بأربٍ[1] في نفسي وأبْلُغَ بكَ إنْ بَلَغْتَ لي ذٰلكَ، أُريدُ أنْ تكونَ عينًا لي وصاحبًا لي ونصوحًا، واْطْوِ سرِّي عن سلخِ فؤادِكَ فضلاً عن غيرِهِ. فإذا [رَأى][2] منهُ التَّوثقةَ والتَّوكيدَ؛ ألْقى إليهِ ما يَأْمُرُهُ بهِ ويَحُثُّهُ على السَّعيِ فيهِ وأزاحَ علَّتَهُ في جميعِ ما يَتَعَلَّقُ المرادُ بهِ، ثمَّ ثَنى عنانَ دابَّتِهِ إلى وجهِ عسكرِهِ وأوليائِهِ واْلْحَقَ بهِم، فَقَضى وطرَهُ ثمَّ عادَ إلى سريرِهِ، وليسَ عندَ أحدٍ مِن رهطِهِ وبطانتِهِ وحاشيتِهِ وخاصَّتِهِ وعامَّتِهِ علمٌ بما قد أَسَرَّهُ إلى ذٰلكَ الإنسانِ.

فبينَما النَّاسُ على مكانِهِم وغفلاتِهِم؛ إذْ أَصْبَحوا ذاتَ يومٍ في حادثٍ عظيمٍ وخطبٍ جسيمٍ وشأْنٍ هائلٍ، فكلٌّ يَقولُ ذٰلكَ عندَ ذٰلكَ: ما أعجبَ هٰذا! مَن فَعَلَ هٰذا؟! متى تَهَيَّأَ هٰذا؟! هٰذا صاحبُ البريدِ ليسَ عندَهُ منهُ أثرٌ، [و]هٰذا صاحبُ المعونةِ وهوَ عنِ الخبرِ بمعزلٍ، وهٰذا الوزيرُ الأكبرُ وهوَ متحيِّرٌ، وهٰذا القاضي وهوَ متفكِّرٌ، وهٰذا حاجبُهُ وهوَ ذاهلٌ، وكلُّهُم عنِ الأمرِ الذي دَهَمَ غافلٌ، وقد قَضى الملكُ مأْربَتَهُ وأدْرَكَ حاجتَهُ وطَلَبَ بغيتَهُ ونالَ غَرَضَهُ[3]!

فلذٰلكَ يَنْظُرُ المنجِّمُ إلى زُحَلَ والمُشْتَري والمِرِّيخِ والشَّمسِ والقمرِ وعُطارِدَ

---

(١) في ط: «أن أطيعك لأرب»! وهٰذا تحريف لا معنى له أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) ضرب الملك مثلاً لربّ العالمين! ومراده أنّ الله سبحانه يُجري أمور هٰذا الكون على قوانين مطّردة وسنن ثابتة في غالب الأحيان، ولٰكنّه سبحانه وتعالى قد يخرم هٰذه السنن وينقض هٰذه القوانين أحيانًا، فحسابات المنجّمين تصيب في القوانين المطّردة وتخطئ في الأحوال الاستثنائيّة، لا لعيب فيها، ولٰكن لأنّ الله أستأثر بعلم الأحوال الاستثنائيّة ولم يطلع عليها أحدًا. وعلى التنزّل والقبول بهٰذا المثال الساقط من هٰذا المنجّم الساقط؛ فهل تأتي حسابات المنجّمين على الصواب غالبًا ولا تخطئ إلاّ في الأحوال الاستثنائيّة؟! أو أنّ العكس هو الصحيح؟! أنت تعرف الجواب!

والزُّهَرَةِ وإلى البروجِ وطبائعِها والرَّأْسِ والذَّنبِ وتقاطعِهما والهَيْلاجِ والكامداه[١] وإلى جميعِ ما دانى هٰذا وقارَنَهُ وكانَ لهُ فيهِ نتيجةٌ وثمرةٌ فيَحْسُبُ ويَمْزُجُ ويَرْسُمُ، فينْقَلِبُ عليهِ أشياءُ كثيرةٌ مِن سائرِ الكواكبِ التي لها حركاتٌ بطيئةٌ وآثارٌ مطويّةٌ، فيَنْبَعِثُ ممَّا أهْمَلَهُ وأغْفَلَهُ وأضْرَبَ عنهُ ولمْ يَتَّسِعْ[٢] لهُ ما يَمْلِكُ عليهِ حسَّهُ وعقلَهُ وفكرَهُ ورويَّتَهُ[٣] حتَّى لا يَدْري مِن أينَ أُتِيَ ومِن أينَ دُهِيَ وكيفَ ٱنْفَرَجَ عليهِ الأمرُ وٱنْسَدَّ دونَهُ المطلبُ وفاتَهُ المطلوبُ[٤] وعَزَبَ عنهُ الرَّأْيُ؟ هٰذا؛ ولا خطأَ لهُ في الحسابِ ولا نقصَ في قصدِ الحقِّ.

وهٰذا كي يُلاذَ باللهِ وحدَهُ في الأُمورِ كلِّها، ويُعْلَمَ أنَّهُ مالكُ الدُّهورِ ومدبِّرُ الخلائقِ وصاحبُ الدَّواعي والعلائقِ والقائمُ على كلِّ نفسٍ والحاضرُ عندَ كلِّ نَفَسٍ، وأنَّهُ إذا شاءَ نَفَعَ وإذا شاءَ ضَرَّ وإذا شاءَ عافى وإذا شاءَ أسْقَمَ وإذا شاءَ أغْنى وإذا شاءَ أفْقَرَ وإذا شاءَ أحْيا وإذا شاءَ أماتَ، وأنَّهُ كاشفُ الكرباتِ مغيثُ ذوي اللهفاتِ قاضي الحاجاتِ مجيبُ الدَّعواتِ، لَيْسَ فوقَ يدِهِ يدٌ، وهوَ الأحدُ الصَّمدُ على الأبدِ والسَّرمدِ[٥].

* وقالَ آخرُ: هٰذهِ الأُمورُ، وإنْ كانَتْ منوطةً بهٰذهِ العلويَّاتِ مربوطةً بالفلكيَّاتِ عنها تَحْدُثُ ومِن جهتِها تَنْبَعِثُ، فإنَّ في عَرَضِها ما لا يَسْتَحِقُّ أنْ يُنْسَبَ إلى شيءٍ منها إلَّا على وجهِ التَّقريبِ. ومثالُ ذٰلكَ: ملكٌ لهُ سلطانٌ واسعٌ ونعمةٌ جمَّةٌ، فهوَ يُفْرِدُ كلَّ أحدٍ بما هوَ لائقٌ بهِ وبما هوَ ناهضٌ فيهِ، فيُوَلِّي بيتَ المالِ مثلاً خازنًا أمينًا كافيًا شهمًا يُفَرِّقُ على يدِهِ ويُخْرِجُ على يدِهِ، ثمَّ إنَّ هٰذا الملكَ قد يَضَعُ في هٰذهِ الخزانةِ شيئًا لا علمَ للخازنِ بهِ وقد يُخْرِجُ منها شيئًا لا يَقِفُ الخازنُ عليهِ، ويكونُ هٰذا منهُ دليلاً على ملكِهِ وٱستبدادِهِ وتصرُّفِهِ وقدرتِهِ[٦].

---

(١) الهيلاج: حساب طالع المولود ونجمه بالفارسيّة. الكامداه: المسافة العشريّة بالفارسيّة.

(٢) في ط: «فينبعث فيما أهمله وأغفله وأضرب عنه لم يتّسع»! وفيه تحريف وسقط صوابه ما أثبتّه.

(٣) في ط: «وروؤيته»! والصواب ما أثبتّه.

(٤) في ط: «وفات المطلوب»، والأولى ما أثبتّه.

(٥) وهٰذا طيّب حسن، لٰكن من ضرورات هٰذه المرتبة من الإيمان التي لا تنفكّ عنها بحال الإعراض عن أقوال المنجّمين وعدم الالتفات إليها في صغير ولا كبير.

(٦) وهٰذا من جنس ما قبله، فليس هاهنا جواب عن السؤال المطروح، وكذٰلك فالمثالان غير منطبقين إطلاقًا على أحوال المنجّمين؛ لأنّ خطأهم ليس بالنادر الذي يقع مرّة كلّ حين، بل هو الأعمّ الأغلب، بل=

* وقالَ آخرُ: لمَّا كانَ صاحبُ علمِ النُّجومِ يُريدُ أنْ يَقِفَ على أحداثِ الزَّمانِ ومستقبلِ الوقتِ مِن خيرٍ وشرٍّ وخصبٍ وجدبٍ وسعادةٍ ونحسٍ وولايةٍ وعزلٍ ومقامٍ وسفرٍ وغمٍّ وفرحٍ وفقرٍ ويسارٍ ومحبَّةٍ وبغضٍ وجِدَةٍ وعدمٍ [وفقدانٍ][1] ووجدانٍ وعافيةٍ وسقمٍ وإلفةٍ وشتاتٍ وكسادٍ ونَفاقٍ وإصابةٍ وإخفاقٍ وحياةٍ ومماتٍ، وهوَ إنسانٌ ناقصٌ في الأصلِ لأنَّ نقصانَهُ بالطَّبعِ[2] وكمالَهُ بالعرضِ، ومعَ هٰذهِ الحالِ المحوطةِ بالشُّحِّ المعروفةِ بالظَّنِّ قد بارى بارِئَهُ ونازَعَ ربَّهُ وتتَبَّعَ غيبَهُ وتَحَلَّلَ حكمَهُ وعارَضَ مالكَهُ، فحَرَمَهُ اللهُ فائدةَ هٰذا العلمِ وصَرَفَهُ عنِ الانتفاعِ بهِ والاستثمارِ مِن شجرتِهِ، وأضافَهُ إلى مَن لا يُحيطُ بشيءٍ منهُ ولا يَحِلُّ بشيءٍ فيهِ[3]، ونَظَمَهُ في بابِ القصرِ والظهرِ[4]، وجَعَلَ غايةَ سعيِهِ فيهِ الخيبةَ[5] ونهايةَ علمِهِ بهِ الحيرةَ، وسَلَّطَ عليهِ في صناعتِهِ الظَّنَّ والحدسَ والحيلةَ والزَّرْقَ والكذبَ والختلَ. ولو شِئْتَ؛ لَذَكَرْتُ لكَ مِن ذٰلكَ صدرًا، وهوَ مبثوثٌ في الكتبِ ومنشورٌ في المجالسِ ومتداولٌ بينَ النَّاسِ. فلذٰلكَ وأشباهِهِ حَطَّ رتبتَهُ وردَّهُ على عقبيهِ؛ لِيَعْلَمَ أنَّهُ لا يَعْلَمُ إلَّا ما عُلِّمَ، وأنَّهُ لَيْسَ لهُ أنْ يَتَمَطَّى بما عَلِمَ على ما جَهِلَ؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ لا شريكَ لهُ في غيبِهِ ولا وزيرَ لهُ في ربوبيَّتِهِ، وإنَّهُ يُؤْنِسُ بالعلمِ لِيُطاعَ ويُعْبَدَ ويُوحِشُ بالجهلِ لِيُفْزَعَ إليهِ[6] ويُقْصَدَ، عَزَّ ربًّا وجَلَّ إلٰهًا وتَقَدَّسَ مشارًا إليهِ وتَعالى معتمَدًا عليهِ[7].

* وقالَ آخرُ ـ وهوَ العَرُوضِيُّ ـ: قد يَقْوى هٰذا العلمُ في بعضِ الدَّهرِ حتَّى يُشْغَفَ بهِ ويُدانَ بتعلُّمِهِ بقوَّةٍ سماويَّةٍ وشكلٍ فلكيٍّ، فيَكْثُرُ الاستنباطُ والبحثُ وتَشْتَدُّ العنايةُ

= أعترف رؤساؤهم ومقدّموهم أنّ جميع أحكامهم وحساباتهم مبنيّة على الوهم والظنّ!

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) وبالتطبّع أيضًا؛ فإنّه لا يدخل في هٰذا الباب إلّا الدجاجلة من أهل الخسّة ومن لا مروءة له.

(٣) في ط: «ولا يخلّ بشيء فيه»! وفيه تحريف يقلب المعنى، فلعلّ الصواب ما أثبتّه.

(٤) يعني: جعله من الخدم الذين يقفون عند الأبواب أو الدون الذين يجلسون خلف الملك؛ بخلاف غيره من أهل العلم ممّن توسّع لهم صدور المجالس. والله أعلم.

(٥) في ط: «في الخيبة»، وله وجه ما، والأولى ما أثبتّه.

(٦) في ط: «ليفزع به»! والغالب أنّه تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٧) وهٰذا حسن جدًّا، وهو أحسن الأقوال ما تقدّم وما تلا.

والفكرُ، فتَغْلِبُ الإصابةُ حتَّى يَزولَ الخطأُ. وقد يَضْعُفُ هٰذا العلمُ في بعضِ الدَّهرِ، فيَكْثُرُ الخطأُ فيهِ بشكلٍ آخرَ يَقْتَضي ذٰلكَ حتَّى يَسْقُطَ النَّظرُ فيهِ ويَحْرُمَ البحثُ عنهُ ويكونَ الدِّينُ حاظرًا للطَّلبِ والحكمِ بهِ. وقد يَعْتَدِلُ الأمرُ في دهرٍ آخرَ حتَّى: يَكونَ الخطأُ في قدرِ ذٰلكَ الصَّوابِ والصَّوابُ في قدرِ الخطإِ، وتكونَ الدَّواعي والصَّوارفُ متكافئةً، ويَكونَ الدِّينُ لا يَحُثُّ عليهِ كلَّ الحثِّ ولا يَحْظُرُ على طالبِهِ كلَّ الحظرِ[١].

قالَ: وهٰذا إذا صَحَّ؛ تَعَلَّقَ الأمرُ كلُّهُ بما يَتَّصِلُ بهٰذا العالمِ السُّفليِّ مِن ذٰلكَ العالمِ العلويِّ. فإذًا؛ الصَّوابُ والخطأُ محمولانِ على القوى المثبتةِ والأنوارِ الشَّائعةِ والآثارِ الذَّائعةِ والعللِ الموجبةِ والأسبابِ المتوافيةِ.

* وقالَ آخرُ ـ هوَ البُوشَنْجانيُّ[٢] ـ: أيُّها القومُ! اُخْتَصِروا الكلامَ وقَرِّبوا البقيَّةَ؛ فإنَّ الإطالةَ مَصَدَّةٌ عنِ الفائدةِ مَضَلَّةٌ للفهمِ والفطنةِ؛ هل تَصِحُّ الأحكامُ؟!

* فقالَ غلامُ زُحَلَ: ليسَ عن هٰذا جوابٌ يَثْبُتُ على كلِّ وجهٍ فصلٍ ولمْ يَبِنْ ذٰلكَ.

قالَ: لأنَّ صحَّتَها وبطلانَها يَتَعَلَّقانِ بآثارِ الفلكِ، وقد يَقْتَضي شكلُ الفلكِ في زمانٍ أنْ لا يَصِحَّ منها شيءٌ وإنْ غيصَ على دقائقِها وبُلِغَ إلى أعماقِها، وقد يَزولُ ذٰلكَ الشَّكلُ في وقتٍ آخرَ إلى أنْ يَكْثُرَ الصَّوابُ فيها والخطأُ ويَتَقارَبانِ. ومتى وَقَفَ الأمرُ على هٰذا الحدِّ؛ لمْ يُثْبَتْ على قضاءٍ ولمْ يُوثَقْ بجوابٍ[٣].

* وقالَ آخرُ: إنَّ اللهَ تَعالى وتَقَدَّسَ اُخْتَرَعَ هٰذا العالمَ وزَيَّنَهُ ورَتَّبَهُ وحَسَّنَهُ ووَشَّحَهُ ونَظَّمَهُ وهَذَّبَهُ وقَوَّمَهُ، وأظْهَرَ عليهِ البهجةَ وأبْطَنَ في أثنائِهِ الحكمةَ، وحَفَّهُ بما اُضْطَرَّ العقولَ إلى تصفُّحِهِ ومعرفتِهِ، وحَشاهُ بكلِّ ما حاشَ النُّفوسَ إلى علمِهِ وتعليمِهِ

---

(١) إن أراد بالدين وثنيّات الصين والهند وفارس واليونان القديمة؛ فنعم. وأمّا الإسلام؛ فالتنجيم فيه حرام في كلّ عصر ومصر، وربّما بلغ حدّ الكفر، وقد تقدّم لك قوله ﷺ: «من اُقتبس علمًا من النجوم؛ اُقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد».

(٢) تقدّم جواب البوشنجانيّ آنفًا، وإنّما حثّهم هنا على أن يختصروا ولا يحيدوا عن الجواب.

(٣) فاُنظر إلى مراوغة هٰذا الثعلب المكّار! يسدّ عليك جميع الأبواب! فإذا أخطأ واُفتضح أمره وبان دجله؛ فلا تلُمْه ولا تعتب عليه ولا تسفّه عقله وصنعته؛ لأنّه لا ذنب له؛ إذ إنّ شكل الفلك اُقتضى أن لا يصحّ شيء من الأحكام وإن بلغ إلى أعماقها! ولعمر الله؛ إنّ شكل الفلك دلّ وما زال يدلّ على أنّه لا علاقة للكواكب بما يجري على الأرض ولا يصحّ شيء من أحكام النجوم. والله المستعان.

والتَّعجُّبِ مِن أعاجيبِهِ، وأَمْتَعَ الأرواحَ بمحاسنِهِ، وأَوْدَعَهُ أُمورًا وٱسْتَخْزَنَهُ أسرارًا، ثُمَّ حَرَّكَ الألبابَ عليها حتَّى ٱسْتَثارَتْها ولَقَطَتْها وأَحَبَّتْها وعَشِقَتْها ودارَتْ عليها؛ لأنَّها عَرَفَتْ بها ربَّها وخالقَها وإلٰهَها وواضعَها وصانعَها وحافظَها وكافلَها.

ثمَّ إنَّهُ تَعالى مَزَجَ بعضَ ما فيهِ ببعضٍ وركَّبَ بعضَهُ على بعضٍ ونَسَجَ بعضَهُ في بعضٍ وأَمَدَّ بعضَهُ مِن بعضٍ وأحالَ بعضَهُ إلى بعضٍ بوسائطَ مِن أشخاصٍ وأجناسٍ وطبائعَ وأنفسٍ وعلومٍ وعقولٍ، وتَصَرَّفَ في ملكِهِ بقدرتِهِ وجودِهِ وحكمتِهِ، لا مُغَيَّبَ الفضلِ[1] ولا معدومَ الاختيارِ ولا مردودَ الحكمةِ ولا مجحودَ الذّاتِ ولا محدودَ الصِّفاتِ سبحانَهُ. وهوَ معَ هٰذا كلِّهِ لَمْ يَسْتَفِدْ شيئًا ولَمْ يَنْتَفِعْ بشيءٍ بلِ ٱسْتَفادَ منهُ كلُّ شيءٍ وبَلَغَ غايتَهُ؛ كلُّ شيءٍ بحسبِ مادَّتِهِ المنقادةِ وصورتِهِ المعتادةِ، ولَمْ يَثْبُتْ بشيءٍ وثَبَتَ بِهِ كلُّ شيءٍ، فهوَ الفاعلُ القادرُ الجوادُ الواهبُ والمنيلُ المُفْضِلُ والأوَّلُ السّابقُ.

فلمَّا كانَ الباحثُ عنِ العالمِ العلويِّ بتصفُّحِ[2] سكّانِهِ ومعرفةِ آثارِهِ ومواقعِهِ وأسرارِهِ متعرِّضًا لأنْ يَكونَ مشبهًا بها لبارئِهِ[3] مناسبًا لربِّهِ بهٰذا الوجهِ المعروفِ؛ ٱستَحالَ أنْ يَسْتَفيدَ بعلمِهِ كما ٱستَحالَ أنْ يَستَفيدَ خالقُهُ بفعلِهِ فيمَن يُغْنيهِ بصونِهِ وحلمِهِ وكرمِهِ، كلمتُهُ بَدَتْ[4] منهُ وصفتُهُ عادَتْ عليهِ[5].

وهٰذهِ حالٌ إذا فَطِنَ لها وأشْرَفَ ببصيرةٍ ثاقبةٍ عليها وتَحَقَّقَ بحقيقتِها وتَرَقَّى للخبرةِ بسنى ما فيها؛ عَلِمَ ٱضطرارًا عقليًّا أنَّها أجلُّ وأغلى وأنفسُ وأسمى وأدومُ وأبقى مِن جميعِ فوائدِ سائرِ العلومِ[6] التي حازَها أُولٰئكَ العالِمونَ؛ لأنَّ أُولٰئكَ عَلِموا فوائدَ

---

(١) في ط: «لا معيب الفضل»! وما هو بالسائغ، وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

(٢) في ط: «يتصفّح»! وهٰذا تصحيف صوابه ما أثبتّه.

(٣) في ط: «مثبتًا بها لبارئه»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٤) في ط: «بفعله فمن يفيه لصونه وحكمه لزمه كليّه بدت»! وهٰذه تحريفات بالجملة جعلت العبارة أشبه ما تكون بالكلمات المتقاطعة! وأرجو أنّي قاربت الصواب فيما أثبتّه.

(٥) فٱنظر إلى هٰذه العقول الماكرة الممكور بها! يرون أنّهم يشبهون الباريَ سبحانه وتعالى في غناه عن الخلق وعدم ٱنتفاعه منهم وهم أحطّ الخلق وأكثرهم جشعًا وطمعًا وتطلّعًا إلى ما في أيدي الناس وأكياسهم ومخاتلة ومراوغة لتحصيل ما يستطيعون منها بالنصب والاحتيال!

(٦) في ط: «فوائد سابق العلوم»! ولا محلّ هنا لسابق ولا لاحق! وإنّما هو تحريف صوابه ما أثبتّه.

علومِهِم فيما حَفِظَ عليهِم حدَّ الإنسانِ وخَلْقَهُ وعادتَهُ وخُلُقَهُ وشهوتَهُ وراحتَهُ واْجتلابَ نفعٍ ودفعَ ضررٍ، ونَقَصَتْ رتبتُهُم عن مشابهتِهِ ومناسبتِهِ والتَّشبُّهِ بخاصَّتِهِ والتَّحلِّي بحليتِهِ، ولِذٰلكَ جَبَرَ اللهُ نقصَهُم في علمِهِم بفوائدَ نالوها ومنافعَ خَبَروها. فأمَّا مَن أرادَ معرفةَ هٰذهِ الخفايا والأسرارِ مِن هٰذهِ الأجرامِ والأنوارِ على ما هُيِّئَتْ لهُ ونُظِمَتْ عليهِ؛ فهوَ حريٌّ جديرٌ أنْ يُعَرَّى مِن جميعِ ما وَجَدَهُ صاحبُ كلِّ علمٍ في علمِهِ مِن المرافقِ والمنافعِ ويُفْرِدَ بالحكمِ مَن رَتَّبَها على ما هيَ عليهِ غيرَ مستفيدٍ بذٰلكَ فائدةً ولا جدوى[1].

وهٰذهِ لطيفةٌ شريفةٌ، متى وُقِفَ عليها حقَّ الوقوفِ وتُقُبِّلَتْ حقَّ التَّقبُّلِ؛ كانَ المدركُ لها أجلَّ مِن كلِّ فائتٍ وإنْ عَزَّ؛ لأنَّها بشريَّةٌ صارَتْ إلٰهيَّةً وجسميَّةٌ اْستَحالَتْ روحانيَّةً وطينيَّةٌ اْنقَلَبَتْ نوريَّةً ومركَّبٌ عادَ بسيطًا وجزءٌ اْستَحالَ كلاًّ، وهٰذا أمرٌ قلَّما يُهْتَدى إليهِ ويُتَنَبَّهُ عليهِ!

* وقالَ آخرُ ـ وهوَ أبو سُلَيْمانَ المَنْطِقِيُّ ـ وقد سَألَهُ أبو حَيَّانَ تلميذُهُ عن هٰذهِ الأجوبةِ وما فيها مِن حقٍّ وباطلٍ: إنَّ هاهُنا أنفسًا خبيثةً وعقولاً رديَّةً ومعارفَ خسيسةً لا يَجوزُ لأربابِها أنْ يَنْشُقوا ريحَ الحكمةِ أو يَتَطاولوا إلى غرائبِ الفلسفةِ، والنَّهيُ وَرَدَ مِن أجلِهِم، وهوَ حقٌّ. فأمَّا النُّفوسُ التي قُوْتُها الحكمةُ وبُلْغَتُها العلمُ وعُدَّتُها الفضائلُ وعقدتُها الحقائقُ وذخرُها الخيراتُ وعادتُها المكارمُ وهمَّتُها المعالي؛ فإنَّ النَّهيَ لَمْ يُوَجَّهْ إليها والعتبَ لَمْ يُوقَعْ عليها[2]! وكيفَ يَكونُ ذٰلكَ وقد بانَ بما تَكَرَّرَ مِن القولِ أنَّ فائدةَ هٰذا العلمِ أجلُّ فائدةٍ وثمرتَهُ أجلُّ ثمرةٍ ونتيجتَهُ أشرفُ نتيجةٍ[3].

فلْيَكُنْ هٰذا كلُّهُ كافًّا عن سوءِ الظَّنِّ وكافيًا لكَ فيما وَقَعَ فيهِ القولُ وطالَ بينَ هٰؤلاءِ السَّادةِ الجَحاجِحَةِ[4] في العلمِ والفهمِ والبيانِ والنُّصحِ. اْنتَهَتِ الحكايةُ.

---

(١) فصارت العلوم المفيدة للبشر في دنياهم وأخراهم ـ ومنها علوم الكتاب والسنّة والتوحيد والصناعات والزراعات ـ في المرتبة الدنيا، وهذيان المنجّمين في المرتبة العليا المشابهة لله المناسبة له! ومن انتهى إلى هٰذا الحضيض؛ فلا يليق أن يلتفت إليه ولا أن يُردّ عليه.

(٢) هم فوق الصحابة إذًا! ولماذا الصحابة؟! هم فوق النبيّ ﷺ! فانظر إلام انتهى أولٰئك المعثّرون!

(٣) سبحان الله! أيّ فائدة وأيّ ثمرة وأيّ نتيجة؟!

(٤) الجحاجحة: السادة الكرام.

● فلْيَتَأَمَّلْ مَن أنْعَمَ اللهُ عليهِ بالعقلِ والعلمِ والإيمانِ وصانَهُ عن تقليدِ هٰؤلاءِ وأمثالِهِم مِن أهلِ الحيرةِ والضَّلالِ ما في هٰذهِ المحاورةِ وما أنْطَوَتْ عليهِ مِن أعترافِهِم بغايةِ علمِهِم ومستقرِّ أقدامِهِم فيهِ وما حَكَموا بهِ على أنفسِهِم مِن مقتضى حكمةِ اللهِ فيهِم: أنْ يَسْلُبَهُم ثمراتِ علومِ النَّاسِ وفوائدَها، وأنْ يَكْسُوَهُم لباسَ الخيبةِ وقهرَ النَّاسِ لهُم وإذلالَهُم إيَّاهُم، وأنْ يَجْعَلَ نصيبَ كلِّ أحدٍ مِن العلمِ والسَّعادةِ فوقَ نصيبِهِم، وأنْ يَجْعَلَ رزقَهُم مِن أبوابِ الكذبِ والظَّنِّ والزَّرْقِ، وهوَ أخبثُ مكاسبِ العالمِ، ومكسبُ البغايا وأربابِ المواخيرِ خيرٌ مِن مكاسبِ هٰؤلاءِ؛ لأنَّهُم كَسَبوها بذنوبٍ وشهواتٍ وهٰؤلاءِ اكْتَسَبوا ما اكْتَسَبوهُ بالكذبِ على اللهِ وادِّعاءِ ما يَعْلَمونَ هُم فيهِ كذبَ أنفسِهِم[١].

والعجبُ مِن شهادتِهِم على أنفسِهِم أنَّ حكمةَ اللهِ سبحانَهُ اقْتَضَتْ ذٰلكَ فيهِم لتعاطيهِم مشاركتَهُ في غيبِهِ والاطِّلاعَ على أسرارِ مملكتِهِ وتعدِّيهِم طورَ العبوديَّةِ التي هيَ سمتُهُم إلى طورِ الرُّبوبيَّةِ الذي لمْ يَجْعَلْ لأحدٍ سبيلاً إليهِ! فاقْتَضَتْ حكمةُ العزيزِ الحكيمِ أنْ عامَلَهُم: بنقيضِ قصودِهِم، وعكسِ مراداتِهِم، وجعلِ كلِّ واحدٍ فوقَهُم في كلِّ ملَّةٍ، ورمي النَّاسِ باللسانِ العامِّ والخاصِّ لهُم بأنَّهُم أكذبُ النَّاسِ وأنَّهُم[٢] هُمُ الزَّنادقةُ الدُّهريَّةُ أعداءُ الرُّسلِ وسوسُ المللِ وأنَّ طالعَهُم على مَن حَسَّنَ الظَّنَّ بهِم وتَقَيَّدَ بأحكامِهِم في حركاتِهِ وسكناتِهِ وتدبيرِهِ شرُّ طالعٍ والملكُ والولايةُ المَسوسُ بهِم أذلُّ ملكٍ وأقلُّهُ!

ومَن لهُ شيءٌ مِن تجاربِ الأُممِ وأخبارِ الدُّولِ والوزراءِ وغيرِهِم فعندَهُ مِن العلمِ بهٰذا ما ليسَ عندَ غيرِهِ. ولهٰذا الملوكُ والخلفاءُ والوزراءُ الذينَ لهُم قبولٌ في العالمِ وصيتٌ ولسانُ صدقٍ هُم أعداءُ هٰؤلاءِ الزَّنادقةِ كالمنصورِ والرَّشيدِ والمَهْدِيِّ وكخلفاءِ بني أُمَيَّةَ وكالملوكِ المؤيَّدينَ في الإسلامِ قديمًا وحديثًا، كانوا أشدَّ النَّاسِ إبعادًا لهٰؤلاءِ

---

(١) إي واللهِ؛ لأنّ المرابي والعاهر والزانية إنّما اكتسبوا ما اكتسبوا لقاء منفعة بذلوها وإن كانت خسيسة دنيئة، بخلاف هٰذا الدجّال الذي أخذ ماله بالاحتيال والمخادعة.

(٢) في ط: «فإنّهم». والأولى ما أثبتّه.

عن أبوابِهِم، ولَمْ يَقُمْ لهُم سوقٌ في عهدِهِم إلاَّ عندَ أشباهِهِم ونظرائِهِم مِن كلِّ منافقٍ متسترٍّ بالإسلامِ أو جاهلٍ مفرطٍ في الجهلِ أو ناقصِ العقلِ والدِّينِ.

وهٰؤلاءِ المذكورونَ في هٰذهِ المحاورةِ لمَّا صَفَوْا[١] وخلا بعضُهُم ببعضٍ ولَمْ يُمْكِنْهُم أنْ يَعْتَمِدوا مِن التَّلبيسِ والكذبِ والزَّرْقِ بعضُهُم معَ بعضٍ[٢] ما يَعْتَمِدونَهُ معَ غيرِهِم؛ تكَلَّموا بما عندَهُم[٣] في ذٰلكَ مِن: الاعترافِ بالجهلِ، وأنَّ الأمرَ إنَّما هوَ حدسٌ وظنٌّ وزَرْقٌ، وأنَّ أحوالَ العالمِ العلويِّ أجلُّ وأعظمُ مِن أنْ تَدْخُلَ تحتَ معارفِهِم وتُكالَ بقفزانِ[٤] عقولِهِم، وأنَّ جهلَهُم بذٰلكَ يُوجِبُ ولا بدَّ جهلَهُم بالأحكامِ، وأنَّهُم لا وثوقَ لهُم بشيءٍ ممَّا فيهِ لجوازِ تشكُّلِ الفلكِ بشكلٍ يَقْتَضي بطلانَ جميعِ الأحكامِ وتشكُّلِهِ بشكلٍ يَكونُ بطلانُها وصحَّتُها بالنِّسبةِ إليهِ على السَّواءِ وليسَ لهُم علمٌ بانتفاءِ هٰذا الشَّكلِ ولا بوقتِ حصولِهِ فإنَّهُ لَيْسَ جاريًا على قانونٍ مضبوطٍ ولا على حسابٍ معروفٍ.

ومع هٰذا؛ فكيفَ يَنْبَغي لعاقلٍ الوثوقُ بشيءٍ مِن علمِ أحكامِهِم؟!

وهٰذهِ شهادةُ فضلائِهِم وأئمَّتِهِم، ولو أنَّ خصومَهُمُ الذينَ لا يُشارِكونَهُم في صناعتِهِم قالوا هٰذا القولَ؛ لَمْ يَكُنْ مقبولاً كقبولِهِ منهُم[٥]!

والحمدُ للهِ الذي أشْهَدَ أهلَ العلمِ والإيمانِ جهلَ هٰؤلاءِ وحيرتَهُم وضلالَهُم وكذبَهُم وافتراءَهُم بشهادتِهِم عن نفوسِهِم وعلى صناعتِهِم، وأنَّ استفادةَ كلِّ ذي علمٍ بعلمِهِ وكلِّ ذي صناعةٍ بصناعتِهِ أعظمُ مِن استفادتِهِم بعلمِهِم، وأنَّ أحدًا منهُم لا يُمْكِنُهُ أنْ يَعيشَ إلاَّ في كنفِ مَن لَمْ يُحِطْ مِن هٰذا العلمِ بشيءٍ وتحتَ ظلِّ مَن هوَ أجهلُ النَّاسِ.

ومِن العجبِ قولُهُم: إنَّ طالعَ أحدِ الملِكينِ المتغالبينِ قد يَكونُ مقتضيًا أنْ لا يُصيبَ منجِّمُهُ في تلكَ الحربِ، وطالعُ المنجِّمِ يَقْتَضي خطأَهُ في ذٰلكَ الحكمِ، وطالعُ خصمِهِ ومنجِّمِهِ بالضِّدِّ.

---

(١) في ط: «لمّا صحوا»! ولا معنى له، وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.
(٢) في ط: «مع بعضهم بعضًا»! والغالب أنّه فعل ناسخ، ولا وجه له نحويًّا.
(٣) في ط: «تكلّموا ممّا عندهم»! والأولى ما أثبتّه.
(٤) قفزان: جمع قفيز، وحدة كيل قديمة.
(٥) لأنّ الاعتراف والإقرار سيّد الأدلّة كما يقولون.

فلْيَعْجَبْ ذو اللبِّ مِن هٰذا الهذيانِ وتهافتِه! فإذا كانَ الطَّالعُ مقتضيًا أنْ لا يُصيبَ المنجِّمُ في تلكَ الحربِ وقد أعطى الحسابَ والحكمَ حقَّهُ عندَ أربابِ الفنِّ بحيثُ يَشْهَدُ كلُّ واحدٍ منهُم أنَّ الحكمَ ما حَكَمَ بهِ؛ أفليسَ هٰذا مِن أبينِ الدّلائلِ على بطلانِ الوثوقِ بالطَّالعِ وأنَّ الحكمَ بهِ حكمٌ بغيرِ علمٍ وحكمٌ بما يَجوزُ كذبُهُ؟! فما في الوجودِ أعجبُ مِن هٰذا الطَّالعِ الصَّادقِ الكاذبِ المصيبِ المخطئ!

وأعجبُ مِن هٰذا أنَّ الطَّالعَ بعينِهِ يَكونُ قد حَكَمَ بهِ لظفرِ عدوٍّ هٰذا عليهِ منجِّمُهُ، فوافَقَ القضاءُ والقدرُ ذٰلكَ الطَّالعَ وذٰلكَ الحكمَ، فيَكونُ أحدُ المنجِّمينِ قد أصابَ لملكِهِ طالعًا وحكمًا والآخرُ قد أخْطَأَ لملكِهِ، وقد خرَجا بطالعٍ واحدٍ!

وأعْجَبُ مِن هٰذا كلِّهِ تشكُّلُ الفلكِ بشكلٍ وحصولُ طالعِ سعدٍ فيهِ بٱتِّفاقِ ملئِكُم، فيَحْدُثُ معَهُ مِن علوِّ كلمةِ مَن لا يَعْبَؤونَ بهِ ولا يَعُدُّونَهُ وظهورِ أمرِهِم وٱستيلائِهِم على المملكةِ والرِّئاسةِ والعزِّ والحياةِ ولَهَجِهِم بذمِّكُم وعيبِكُم وإبداءِ جهلِكُم وزندقتِكُم وإلحادِكُم، فتَحْتاجونَ أنْ تَنْضَوا إليهِم وتَعْتَصِموا بحبلِهِم وتَتَرَّسوا بهِم وتَقولوا لهُم[1] بألسنتِكُم ما تَنْطوي قلوبُكُم على خلافِهِ ممَّا لو أظْهَرْتُموهُ لَكُنْتُم حصائدَ سيوفِهِم كما صِرْتُم حصائدَ ألسنتِهِم! فأيُّ سعدٍ في هٰذا الطَّالعِ لَعَمْري أمْ أيُّ خيرٍ فيهِ؟!

ولَيْتَ شعري! كيفَ لمْ يُوجِبْ لكُم هٰذا الطَّالعُ بارقةً مِن سعادةٍ أو لائحًا مِن عزٍّ وقبولٍ؟!

ولٰكنْ؛ هٰذهِ حكمةُ ربِّ الطَّالعِ ومدبِّرِ الفلكِ وما حَواهُ ومسخِّرِ الكواكبِ ومجريها على ما يَشاءُ سبحانَهُ أنْ جَعَلَكُم كالذِّمَّةِ[2] بل أذلَّ منهُم تحتَ قهرِ عبيدِهِ، وجَعَلَ سهامَ سعادتِهِم مِن كلِّ خيرٍ وعلمٍ ورئاسةٍ وجاهٍ أوفرَ مِن سهامِكُم وبيوتَ شرفِهِم في هٰذا العالمِ أعمرَ مِن بيوتِكُم، بلْ خَرَّبَ بيوتَكُم بأيديهِم فلا يَنْعَمِرُ منها بيتٌ إلاَّ بالانضمامِ إليهِم والانتماءِ إلى شريعتِهِم وملَّتِهِم، وهٰذا شأْنُ العزيزِ الحكيمِ في الكذَّابينَ عليهِ.

قالَ تَعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ٱتَّخَذوا العِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ في الحَياةِ

---

(١) في ط: «وتقولون لهم»! وله وجه واهٍ، والصواب ما أثبتّه.

(٢) في ذٰلك العصر. واليوم؛ فيُبكى علينا ونحن لا نبكي!

الدُّنيا وَكَذٰلِكَ نَجْزي المُفْتَرينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]: قالَ أبو قِلابَةَ: هيَ لكلِّ مفترٍ مِن هٰذهِ الأُمَّةِ [إلى][1] يومِ القيامةِ.

وهٰذهِ المحاورةُ التي جَرَتْ بينَ أصحابِ هٰذا المجمعِ هيَ غايةُ ما يُمْكِنُ النُّجوميَّ أنْ يَقولَهُ، ولا يَصِلُ إلى ذٰلكَ [إلاَّ][2] المبرِّزونَ منهُم، ومعَ هٰذا فقد رَأيْتَ حاصلَها ومضمونَها.

ولَعَلَّهُم لو عَلِموا أنَّ هٰذهِ الكلماتِ تَصْدُرُ مِن جماعَتِهِم وتَتَّصِلُ بأهلِ الإيمانِ؛ لَمْ يَنْطِقوا منها ببنتِ شفةٍ، ويَأْبى اللهُ إلاَّ أنْ يَفْضَحَ المفتريَ الكذَّابَ ويُنْطِقَهُ بما يُبيِّنُ باطلَهُ.

[٦] فصل

[عودة إلى رسالة ٱبن عيسى في الرد على المنجمين]

● **قالَ صاحبُ الرِّسالةِ**: ذكرُ جملٍ مِنِ ٱحتجاجِهِم والاحتجاجِ عليهِم:

مِن أوكدِ ما يَسْتَدِلُّونَ بهِ على أنَّ الكواكبَ تَفْعَلُ في هٰذا العالمِ أو لها دلالةٌ على ما يَحْدُثُ فيهِ: أنَّهُمُ ٱمْتَحَنوا عدَّةَ مواليدَ صَحَّحوا طوالعَها وجماعةَ مسائلَ راعَوْها، فوَجَدوا القضيَّةَ في جميعِ ذٰلكَ صادقةً، فدَلَّهُم ذٰلكَ على أنَّ الأُصولَ التي عَمِلوا عليها صحيحةٌ!

فيُقالُ لهُم: إذا كانَ ما تَدَّعونَهُ مِن هٰذا دليلاً على صحَّةِ الأحكامِ؛ فما الفضلُ بينَكُم وبينَ مَن قالَ: الدَّليلُ على بطلانِ الأحكامِ أنَّا ٱمْتَحَنَّا مواليدَ صَحَّحْنا طوالعَها ومسائلَ تَفَقَّدْنا أحوالَها فوَجَدْنا جميعَها باطلاً ولَمْ يَصِحَّ الحكمُ في شيءٍ منها[3]؟!

فإنْ قالوا: إنَّما يَكونُ هٰذا لجوازِ الغلطِ على المنجِّمِ الذي عَمِلَها!

قيلَ لكُم: فما تُنْكِرونَ مِن أنْ يَكونَ صدقُ المنجِّمِ في حكمِهِ بٱتِّفاقٍ وتخمينٍ[4] كإخراجِ الزَّوجِ والفردِ وصدقِ الحَزْرِ في الوزنِ والكيلِ والذَّرعِ والعددِ، وإذا كانَتِ

---

(١) أضافها في ط، ولا بدّ منها.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) بل هٰذا أولى بالقبول بالنظر لما تقدّم من حجج ٱبن القيّم والمعطيات العلميّة المعاصرة، وقد قامت عدّة صحف غربيّة بإحصاءات علميّة في هٰذا الشأن وٱنتهت إلى أنّ أهله دجاجلة ليسوا على شيء.

(٤) الاتّفاق: المصادفة. والتخمين: ترجيح جانب على الآخر بالاعتماد على الفراسة والتجربة.

الدّلالةُ على صحّةِ مقالتِكُم صدقَكُم في بعضِ أحكامِكُم؛ فالدّلالةُ على بطلانِها كذبُكُم في بعضِها.

فإنْ قالوا: ليسَ ما قُلْناهُ بتخمينٍ؛ لأنَّا إنَّما نُحْكِمُهُ على أُصولٍ موضوعةٍ في كتبِ القدماءِ.

قيلَ لهُم: لَسْنا نَشُكُّ في أنَّكُم تَتَّبِعونَ ما في الكتبِ وتُقَلِّدونَ مَن تَقَدَّمَكُم، وما يَقَعُ مِن الصِّدقِ فإنَّما يَقَعُ بحسبِ الاتِّفاقِ، والذي حَصَلْتُم عليهِ هوَ الحدسُ والتَّخمينُ بحسبِ ما في الكتبِ.

وممَّا يَسْتَدِلُّ بهِ مَن يَنْتَسِبُ إلى الإسلامِ منهُم على تصحيحِ دلالةِ النُّجومِ قولُهُ تَعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً في النُّجومِ . فَقالَ إنِّي سَقيمٌ﴾، ولا حجَّةَ في هٰذا ٱلبتَّةَ؛ لأنَّ إبْراهيمَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إنَّما قالَ هٰذا لِيَدْفَعَ بهِ قومَهُ عن نفسِهِ، ألا تَرى أنَّهُ عَزَّ وجَلَّ قالَ بعدُ: ﴿فتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرينَ . فَراغَ إلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ ألا تَأْكُلونَ﴾ [الصافَّات: ٨٨-٩١]، فبَيَّنَ تَبارَكَ وتَعالى أنَّهُ إنَّما قالَ ذٰلكَ لِيَدْفَعَهُم بهِ لِما كانَ عَزَمَ عليهِ مِن أمرِ الأصنامِ، وليسَ يَحْتاجُ أحدٌ إلى معرفةِ أصحيحٌ هوَ أم سقيمٌ مِن النُّجومِ؛ لأنَّ ذٰلكَ يُوجَدُ حسًّا ويُعْلَمُ ضرورةً ولا يُحْتاجُ فيهِ إلى ٱستدلالٍ وبحثٍ.

* **قُلْتُ**: قدِ ٱحْتُجَّ لهُم بغيرِ هٰذهِ الحججِ، فنَذْكُرُها ونُبَيِّنُ بطلانَ ٱستدلالِهِم بها وبيانَ الباطلِ منها:

[٧ـ فصل]

[في الحجج التي ساقها الفخر الرازي لتقرير مذهب المنجمين]

قالَ أبو عبدِاللهِ الرّازِيُّ[1]:

● ٱعْلَمْ أنَّ المثبتينَ لهٰذا العلمِ ٱحْتَجُّوا مِن كتابِ اللهِ بآياتٍ.

---

(١) المتكلّم الأصولي المفسّر الفخر الرازي صاحب «مفاتيح الغيب» معظّم الشافعيّة والأشاعرة! فتدبّر كلامه هنا ثمّ تفكّر في أيّ مستنقع رتع هٰذا الرجل وفي أيّ هاوية هوى! والله يرحم الإمام الذهبي إذ يقول: «وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وسحر وٱنحراف عن السنّة»! وقد تقدّمت ترجمته (٤/ ٣١٩).

إحداها[1]: الآياتُ الدَّالَّةُ على تعظيمِ هٰذهِ الكواكبِ: فمنها قولُهُ تَعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالخُنَّسِ . الجَواري الكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٦-١٧]، وأكثرُ المفسِّرينَ على أنَّ المرادَ هوَ الكواكبُ التي تَسيرُ راجعةً تارةً ومستقيمةً أُخرى. ومنها قولُهُ تَعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمونَ عَظيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦]، وقد صَرَّحَ تَعالى بتعظيمِ هٰذا القسمِ، وذٰلكَ يَدُلُّ على غايةِ جلالةِ مواقعِ النُّجومِ ونهايةِ شرفِها. ومنها قولُهُ تَعالى: ﴿وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ . وَما أَدْراكَ ما الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١-٣]، قالَ ٱبنُ عَبَّاس: الثَّاقبُ هوَ زُحَلُ؛ لأنَّهُ يَثْقُبُ بنورِهِ سَمْكَ السَّماواتِ السَّبعِ[2]. ومنها أنَّهُ تَعالى بَيَّنَ إِلٰهِيَّتَهُ بكونِ هٰذهِ الكواكبِ تحتَ تدبيرِهِ وتسخيرِهِ فقالَ: ﴿وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ ألا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

النَّوعُ الثَّاني: الآياتُ الدَّالَّةُ على أنَّ لها تأثيرًا في هٰذا العالمِ: كقولِهِ تَعالى: ﴿فَالمُدَبِّراتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وقولِهِ: ﴿فَالمُقَسِّماتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]. قالَ بعضُهُم: المرادُ هٰذهِ الكواكبُ.

النَّوعُ الثَّالثُ: الآياتُ الدَّالَّةُ على أنَّهُ تَعالى وَضَعَ حركاتِ هٰذهِ الأجرامِ على وجهٍ يُنْتَفَعُ بها في مصالحِ هٰذا العالمِ: فقالَ: ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نورًا وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ وَالحِسابَ ما خَلَقَ اللهُ ذٰلِكَ إلاَّ بِالحَقِّ﴾ [يونس: ٥]، وقالَ: ﴿تَبارَكَ الَّذي جَعَلَ في السَّماءِ بُروجًا وَجَعَلَ فيها سِراجًا وَقَمَرًا مُنيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

النَّوعُ الرَّابعُ: أنَّهُ تَعالى حَكى عن إبْراهيمَ عليهِ السَّلامُ أنَّهُ تَمَسَّكَ بعلومِ النُّجومِ فقالَ: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً في النُّجومِ . فَقالَ إنِّي سَقيمٌ﴾ [الصافَّات: ٨٨-٨٩].

النَّوعُ الخامسُ: أنَّهُ قالَ: ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلٰكِنَّ

---

(١) سيأتي تفصيل الردّ على هٰذه الشبهات في الفصل التالي، فأتبع الشبهة بردّها مباشرة لتمام المنفعة.

(٢) كذا قال! ولم أقف عليه! والثابت عن ٱبن عبّاس غيره! فٱرجع إلى تفاسير أهل الأثر تجد مصداق ما ذكرت. نعم؛ جاء نحو هٰذا التأويل عن غير ٱبن عبّاس.

أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمونَ﴾ [غافر: ٥٧]، ولا يَكونُ المرادُ مِن هٰذا كبرَ الجثَّةِ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يَعْلَمُ ذٰلكَ، فوَجَبَ أنْ يَكونَ المرادُ كبرَ القدرِ والشَّرفِ.

وقالَ تَعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرونَ في خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً﴾ [آل عمران: ١٩١]، ولا يَجوزُ أنْ يَكونَ المرادُ أنَّهُ تَعالى خَلَقَها لِيُسْتَدَلَّ بتركيبِها وتأْليفِها على وجودِ الصَّانعِ؛ لأنَّ هٰذا القدرَ حاصلٌ في تركيبِ البقَّةِ والبعوضةِ، وفي حصولِ الحياةِ في بنيةِ الحيواناتِ [دلالةٌ][1] على وجودِ الصَّانعِ أقوى مِن دلالةِ تركيبِ الأجرامِ الفلكيَّةِ على وجودِ الصَّانعِ؛ لأنَّ الحياةَ لا يَقْدِرُ عليها أحدٌ إلَّا اللهُ، أمَّا تركيبُ الأجسامِ وتأْليفُها؛ فقد يَقْدِرُ على جنسِهِ غيرُ اللهِ. فلمَّا كانَ هٰذا النَّوعُ مِن الحكمةِ حاصلاً في غيرِ الأفلاكِ، ثمَّ إنَّهُ تَعالى خَصَّها بهٰذا التَّشريفِ ـ وهوَ قولُهُ: ﴿رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً﴾ ـ؛ عَلِمْنا أنَّ لهُ تَعالى في تخليقِها أسرارًا عاليةً وحِكمًا بالغةً تَتَقاصَرُ عقولُ البشرِ عن إدراكِها.

ويَقْرُبُ مِن هٰذهِ الآيةِ قولُهُ تَعالى: ﴿وَما خَلَقْنا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذينَ كَفَروا فَوَيْلٌ لِلَّذينَ كَفَروا مِنَ النَّارِ﴾ [صَ: ٢٧]، ولا يُمْكِنُ أنْ يَكونَ المرادُ أنَّهُ تَعالى خَلَقَها على وجهٍ يُمْكِنُ الاستدلالُ بها على وجودِ الصَّانعِ الحكيمِ؛ لأنَّ كونَها دالَّةً على الافتقارِ إلى الصَّانعِ أمرٌ ثابتٌ لها لذاتِها؛ لأنَّ كلَّ متحيِّزٍ فهوَ محدَثٌ[2] وكلَّ محدَثٍ فإنَّهُ مفتقرٌ إلى الفاعلِ، فثَبَتَ أنَّ دلالةَ المتحيِّزاتِ على وجودِ الفاعلِ أمرٌ ثابتٌ لها لذواتِها وأعيانِها، وما كانَ كذٰلكَ؛ لمْ يَكُنْ سببَ الفعلِ والجعلِ، فلمْ يُمْكِنْ حملُ قولِهِ ﴿وَما خَلَقْنا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً﴾ على هٰذا الوجهِ، فوَجَبَ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) هٰذه قاعدة من قواعد المتكلّمة التي ٱبتدعتها فطرهم الفاسدة وأفكارهم الكاسدة، ثمّ راحوا يخبّون ويضعون في آيات الكتاب وصحيح السنّة إثباتًا وردًّا بناء على هٰذه القاعدة! فٱنظر كيف صرفهم الله عن الدلائل البيّنة على أنّ هٰذه الأجرام مخلوقة مدبّرة مسخّرة إلى هٰذه الحجّة الغريبة العجيبة التي لا تصحّ في نفسها على الإطلاق بل تحتمل الصواب والخطأ بحسب مراد صاحبها منها، وليست هي من بدائه العقول والفطر، بل لا يكاد يحيط بها إلّا أهل الكلام ومن قلّدهم. وممّا ينبغي أن يتنبّه له طالب العلم أنّ أهل الكلام يتّخذون هٰذه القاعدة الكلاميّة المبتدعة مجنًّا يتترّسون به في نفي العلوّ عن العليّ العظيم جلّ عن أقوالهم وعلا.

حملُهُ على الوجهِ الذي ذَكَرْناه[١].

النَّوعُ السَّادسُ: رُوِيَ أنَّ عُمَرَ الخَيَّامَ[٢] كانَ يَقْرَأُ كتابَ «المِجَسْطي»[٣] على أُستاذِهِ، فدَخَلَ عليهِم واحدٌ مِن أجلافِ المتفقِّهة[٤]، فقالَ لهُم: ماذا تَقْرؤونَ؟ فقالَ عُمَرُ الخَيَّامُ[٢]: نحنُ في تفسيرِ آيةٍ مِن كتابِ اللهِ، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُروا إلى السَّماءِ فَوْقَهُم كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنّاها وَما لَها مِنْ فُروجٍ﴾ [ق: ٦]، فنحنُ نَنْظُرُ كيفَ خَلَقَ السَّماءَ وكيفَ بَناها وكيفَ صانَها عنِ الفروجِ[٥]؟!

النَّوعُ السَّابعُ: أنَّ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ لمَّا ٱسْتَدَلَّ على إثباتِ الصَّانعِ تَعالى بقولِهِ: ﴿رَبِّيَ الَّذي يُحْيي وَيُميتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. قالَ لهُ نِمْرودُ: أتَدَّعي أنَّهُ يُحْيي ويُميتُ بواسطةِ الطَّبائعِ والعناصرِ أو لا بواسطةِ هٰذهِ الأشياءِ؟ فإنِ ٱدَّعَيْتَ الأوَّلَ؛ فذٰلكَ ممَّا لا تَجِدُهُ ٱلبتَّةَ؛ لأنَّ كلَّ ما يَحْدُثُ في هٰذا العالمِ فإنَّما يَحْدُثُ بواسطةِ أحوالِ العناصرِ الأربعةِ والحركاتِ الفلكيَّةِ، وإذا ٱدَّعَيْتَ الثَّانيَ؛ فمثلُ هٰذا الإحياءِ والإماتةِ حاصلٌ منِّي ومِن كلِّ أحدٍ؛ فإنَّ الرَّجلَ قد يكونُ سببًا لحدوثِ الولدِ لٰكنْ بواسطةِ تمزيجِ الطَّبائعِ وتحريكِ الأجرامِ الفلكيَّةِ، وكذٰلكَ قد يُميتُ بهٰذهِ الوسائطِ[٦]. وهٰذا هوَ المرادُ مِن قولِهِ تَعالى حكايةً عنِ الخصمِ: ﴿أنا أُحْيي وأُميتُ﴾. ثمَّ إنَّ إبْراهيمَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ

---

(١) يعني: على صحّة التنجيم! وسيأتيك ردّ هٰذه الدعوى من قريب.

(٢) في ط: «عمر بن الخيّام»! وهٰذا وهم من الناسخ على الأغلب! وليس بٱبن الخيّام، وإنّما هو الخيّام أو الخيّاميّ، عمر بن إبراهيم، أبو الفتح، النيسابوري، الفارسيّ المستعرب، الشاعر، الفيلسوف، الرياضيّ، المنجّم، صاحب المصنّفات، ومنها المقطعات الشعريّة المعروفة بـ«الرباعيّات»، ٱتّهم في دينه فحجّ وأظهر التقوى ولزم بغداد. توفي ٥١٥هـ. ترجمته في «الأعلام» (٥/ ٣٨).

(٣) هو كتاب بطليموس في علم الفلك والرياضيّات والتنجيم.

(٤) لا نعرف من هو هٰذا الجلف! لٰكن الغالب أنّه رجل عاقل ديّن صيّن لا ذنب له إلّا الاستقامة على كتاب الله وسنّة نبيّه. وكثيرًا ما يتطاول أهل البدع على هٰذا الصنف من الناس وينبذونهم بما ليس فيهم.

(٥) من اللائق أن يقال لهٰذا المغترّ المعثّر: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنّا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنّهم كانوا مجرمين﴾ [التوبة: ٦٧]. وأن يقال للرازي: بمن تحتجّ هنا أيّها الشيخ؛ بصاحب «المجسطي» أم بالخيّام؟! وأحلاهما مرّ! والله المستعان.

(٦) في ط: «ولذٰلك قد نمت بهٰذه الوسائط»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

أجابَ عن هٰذا السُّؤالِ بقولِهِ: ﴿فإنَّ اللهَ يَأْتي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ المَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ يَعْني: هَبْ أنَّهُ سبحانَهُ إنَّما يُحْدِثُ حوادثَ العالمِ بواسطةِ الحركاتِ الفلكيَّةِ، لٰكنَّهُ تَعالى هوَ المبدئُ للحركاتِ الفلكيَّةِ؛ لأنَّ تلكَ الحركاتِ لا بدَّ لها مِن سببٍ، ولا سببَ لها سوى قدرةِ اللهِ تَعالى. فثَبَتَ أنَّ حوادثَ هٰذا العالمِ، وإنْ سَلَّمْنا أنَّها إنَّما حَصَلَتْ بواسطةِ الحركاتِ الفلكيَّةِ، لٰكنَّهُ لمَّا كانَ المدبِّرُ لتلكَ الحركاتِ الفلكيَّةِ هوَ اللهَ تَعالى؛ كانَ الكلُّ منهُ؛ بخلافِ الواحدِ منَّا؛ فإنَّا، وإنْ قَدَرْنا على الإحياءِ والإماتةِ بواسطةِ الطَّبائعِ وحركاتِ الأفلاكِ، إلَّا أنَّ حركاتِ الأفلاكِ لَيْسَتْ منَّا، بدليلِ أنَّا لا نَقْدِرُ على تحريكِها على خلافِ التَّحريكِ الإلٰهيِّ، وظَهَرَ الفرقُ. وهٰذا هوَ المرادُ مِن قولِ إبْراهيمَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ المَغْرِبِ﴾؛ يَعْني: هَبْ أنَّ هٰذهِ الحوادثَ في هٰذا العالمِ حَصَلَتْ بحركةِ الشَّمْسِ مِن المشرقِ؛ إلَّا أنَّ هٰذهِ الحركاتِ مِن اللهِ؛ لأنَّ كلَّ جسمٍ متحرِّكٍ فلا بدَّ لهُ مِن محرِّكٍ، وذٰلكَ المحرِّكُ لستَ أنتَ ولا أنا، فلِمَ لا تُحَرِّكُها مِن المغربِ؟ فثَبَتَ أنَّ اعتمادَ إبْراهيمَ الخليلِ عليهِ السَّلامُ في معرفةِ ثبوتِ الصَّانعِ على الدَّلائلِ الفلكيَّةِ وأنَّهُ ما نازَعَ الخصمَ في كونِ هٰذهِ الحوادثِ السُّفليَّةِ مرتبطةً بالحركاتِ الفلكيَّةِ(١).

واعْلَمْ أنَّكَ إذا عَرَفْتَ نهجَ الكلامِ في هٰذا البابِ؛ عَلِمْتَ أنَّ القرآنَ مملوءٌ مِن تعظيمِ الأجرامِ الفلكيَّةِ وتشريفِ الكراتِ الكوكبيَّةِ.

● وأمَّا الأخبارُ؛ فكثيرةٌ:

منها: ما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ نَهى عندَ قضاءِ الحاجةِ عنِ استقبالِ الشَّمسِ والقمرِ واستدبارِهما(٢).

ومنها: أنَّهُ لمَّا ماتَ ولدُهُ إبْراهيمُ؛ انْكَسَفَتِ الشَّمسُ، ثمَّ إنَّ النَّاسَ قالوا: إنَّما

---

(١) فتأمّل هٰذا الكلام الذي هو أشبه بهذيان المحموم! وهٰذه التأويلات التي لا تخطر ببال عاقل بله مسلم يعي ما يخرج من فيه! ثمّ تعجّب من مقلّدة هٰذا وأمثاله الذين يكيلون لهم المدائح بالقفيز والقنطار ويوالون ويعادون فيهم. نعوذ بالله من الخذلان.

(٢) (باطل). وسيأتي تفصيل القول فيه متابعة لتفصيل ابن القيّم في شأنه (٣/ ١٦٧ و١٦٨).

ٱنْكَسَفَتْ لموتِ إبْراهيمَ، فقالَ: «إنَّ الشَّمسَ والقمرَ آيتانِ مِن آياتِ اللهِ، لا يَنْكَسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياتِهِ، فإذا رَأَيْتُمْ ذٰلكَ؛ فٱفْزَعوا إلى الصَّلاةِ»[1].

ومنها: ما رَوى ٱبنُ مَسْعودٍ؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «إذا ذُكِرَ القدرُ فأَمْسِكوا، وإذا ذُكِرَ أصحابي فأَمْسِكوا، وإذا ذُكِرَ النُّجومُ فأَمْسِكوا»[2].

---

(١) رواه: البخاري (١٦ـ الكسوف، ١ـ الصلاة في الكسوف، ٢/٥٢٦/١٠٤١ و١٠٤٢ و١٠٤٣ و١٠٤٤ و١٠٥٢ و١٠٥٩)، ومسلم (١٠ـ الكسوف، ١ـ صلاة الكسوف، ٢/٦١٨/٩٠١ و٩٠٧ و٩١١ و٩١٢ و٩١٤ و٩١٥)؛ من حديث أبي مسعود وٱبن عمرو والمغيرة وعائشة وٱبن عبّاس وأبي موسى. وٱنفرد به البخاري (الموضع السابق، ١٠٤٠) من حديث أبي بكرة، ومسلم (الموضع السابق، ٩٠٤) من حديث جابر. رضي الله عنهم أجمعين. وجاء من حديث غيرهم في غير الصحيحين. وٱنظر ما سيأتي (٣/ ١٨٥).

(٢) (صحيح). وقد جاء من أوجه موصولاً ومرسلاً:

* فرواه الحارث (٧٤٣ـ زوائد الهيثمي) من طريق داوود بن المحبّر، ثنا صالح المرّي، عن الحسن... به مرسلاً. وهٰذا ساقط: داوود متّهم، وصالح ضعيف.

* ورواه: الطبراني (٢/ ٩٦/ ١٤٢٧)، وأبو طاهر الزيادي (٣٤ـ صحيحة)؛ من طريق يزيد بن ربيعة، ثنا أبو الأشعث، عن ثوبان... رفعه. قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٠٥): «فيه يزيد بن ربيعة وهو ضعيف». قلت: بل متروك منكر الحديث.

* ورواه: ٱبن عدي (٦/ ٢١٧٢)، والسهمي (١/ ٣٥٧)؛ من طريق محمّد بن الفضل بن عطيّة، عن كرز بن وبرة، عن عطاء، عن ٱبن عمر... رفعه. ومحمّد كذّاب متّهم، وكرز في حدّ الستر.

ورواه السهمي (١/ ٢٩٥) من طريق محمّد بن عمر الرومي، ثنا الفرات بن السائب، ثنا ميمون بن مهران، عن ابن عمر... رفعه. والفرات متروك، والروميّ ليّن.

وعلّقه: ٱبن حبّان في «المجروحين» (٣/ ١١٥)، والذهبي في «الميزان» (٤/ ٣٧٧)؛ من طريق يحيى بن سابق، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر... رفعه. وٱبن سابق ساقط.

* ورواه أبو الشيخ في «الطبقات» (٤/ ١٣٣): ثنا مسلمة بن الهيصم، ثنا أبو موسى محمّد بن المثنّى، ثنا الحكم بن سنان، ثنا داوود بن أبي هند، عن الحسن، عن أبي هريرة... رفعه. وهٰذا ضعيف: الحكم ضعيف، والحسن عنعن على تدليسه.

* ورواه أبو موسى المديني في «الصحابة» (٣/ ١٥ـ غابة، ٢/ ٣٧٧ـ إصابة) من طريق عليّ بن محمّد المنجوري، عن حمّاد، عن ثابت، عن عبدالله بن عبدالغافر مولى النبي... رفعه. والمنجوري ليّن أو ضعيف، وقد تفرّد بهٰذا عن عبدالله بن عبدالغافر الذي لا تثبت له صحبة.

* ورواه: الطبراني (١٠/ ١٩٨/ ١٠٤٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٠٨)؛ من طريق مسهر بن عبدالملك بن سلع الهمداني، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن ٱبن مسعود... رفعه. قال أبو نعيم: «تفرّد به مسهر». وقال الهيثمي (٧/ ٢٠٥): «وثّقه ابن حبّان وغيره وفيه خلاف، وبقيّة رجاله رجال الصحيح». وحسّنه العراقي والعسقلاني والسيوطي. والأقرب أنّه حسن في الشواهد لضعف يسير في مسهر.

ورواه: الحارث (٧٤٢ـ زوائد الهيثمي)، واللالكائي في «السنّة» (٢١٠)، والخطيب في «القول في=

ومِن النَّاسِ مَن يَرْوي أَنَّهُ ﷺ قالَ: «لا تُسافِروا والقمرُ في العقربِ»[١].

ومنهُم مَن يَرْوي ذٰلكَ عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه[٢]، وإنْ كانَ المحدِّثونَ لا يَقْبَلونَه[٣].

● وأمَّا الآثارُ؛ فكثيرةٌ[٤]:

منها: أنَّ رجلاً أتاه[٥]، فقالَ لهُ: إنِّي أُريدُ الخروجَ في تجارةٍ، وكانَ ذٰلكَ في محاقِ الشَّهرِ! فقالَ: تُريدُ أنْ يَمْحَقَ اللهُ تجارتَكَ؟ ٱسْتَقْبِلْ هلالَ الشَّهرِ بالخروجِ!

وعن عِكْرِمَةَ: أنَّ يهوديًّا منجِّمًا قالَ لهُ ٱبنُ عبَّاسٍ: وَيْحَكَ! تُخْبِرُ النَّاسَ بما لا

= علم النجوم» (١/ ٢٢٢ـ شرح الإحياء)، وابن عساكر؛ من طريق أبي قحذم النضر بن معبد، عن أبي قلابة، عن ٱبن مسعود. . . رفعه. والنضر ضعيف، وأبو قلابة لم يسمع ٱبن مسعود.

* ورواه عبدالرزّاق في «الأمالي» (٣٤ـ السلسلة الصحيحة) عن معمر، عن ٱبن طاووس، عن أبيه، عن النبيّ ﷺ. وهٰذا مرسل قويّ.

فهٰذه سبعة أوجه لهٰذا المتن: فالثلاثة الأولى منها ساقطة، وحديثا أبي هريرة ومولى النبيّ واهيان بغير متّهم ولا متروك، وحديث ٱبن مسعود في حدّ الحسن بطريقيه، ومرسل طاووس جيّد، والمتن قويّ بمجموع الأوجه الأربعة الأخيرة، وقد مال إلى تقويته الهيثمي والعراقي والعسقلاني والسيوطي والزبيدي والألباني.

(١) (موضوع). رواه الصولي في «الأوراد» (١٩٢٢ـ كشف الخفاء) عن المأمون، عن آبائه، عن ٱبن عبّاس رضي الله عنهما، عن عليّ رضي الله عنه. . . رفعه.

قال في «الدرر»: «هو إسناد صحيح إن ٱحتج بالخلفاء منهم وهم أربعة»! قلت: رواية المأمون عن آبائه لا تعادل روايته عن أبيه عن جدّه عن أبي جدّه. . . إلخ! وإنّما هي صيغة عامّة تحتمل الموصول والمنقطع والمعضل والسماع بواسطة، بل هي أقرب إلى البلاغات! ثمّ الجزم بأنّه أراد بآبائه الخلفاء الأربعة فيه نظر؛ لأنّ الأعمام وأعمام الآباء وأعمام الأجداد يدخلون في جملة الآباء لغة وشرعًا! أوليس من المستنكر أن يختصّ من لا يعرف بطلب الحديث ولا روايته بحديث يتناقلونه سرًّا فيما بينهم ويحجبونه عن غيرهم من أهل العلم والحفظ قريبًا من مئتي عام؟! فالإسناد ساقط سواء ٱحتجّ بالخلفاء الأربعة أم لا.

(٢) (منكر). رواه: ٱبن الجنيد في «السؤالات» (٤/ ٣٧٢ـ لسان الميزان)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٢٩٧، ١١/ ١٨٤)؛ من وجهين واهيين، عن عمر بن مجاشع، عن تميم بن الحارث، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. . . موقوفًا.

وهٰذا ساقط لأمور: أحدها: وهاء الطريقين إلى عمر ولو ٱجتمعتا. والثاني: أنّي لم أقف لتميم بن الحارث ولا لأبيه على ذكر. والثالث: قال العسقلاني: «المعروف عن عليّ الإنكار على من يعتقد ذٰلك، وعنه في ذٰلك قصّة ذكرها الخطيب في كتاب النجوم».

(٣) فإن لم يقبله المحدّثون؛ فهو غير مقبول؛ لأنّهم أهل الاختصاص، فقولهم هو الفصل في القضيّة، ولا يؤبه لقول من خالفهم.

(٤) كثيرة! والكذب أيضًا كثير! لاحظ أنّه لم يورد أثرًا واحدًا مسندًا ولا عزا شيئًا لمخرجه!

(٥) يعني: أتى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

تَدْري؟ فقالَ اليهوديُّ: إنَّ لكَ ٱبنًا، وهوَ في المكتبِ، ويَجيءُ غدًا محمومًا، ويَموتُ في اليومِ العاشرِ منهُ. قالَ ٱبنُ عَبَّاسٍ: ومتى تَموتُ أنتَ؟ قالَ: في رأْسِ السَّنةِ. ثمَّ قالَ لابنِ عَبَّاسٍ: لا تَموتُ أنتَ حتَّى تَعْمى. ثمَّ جاءَ ٱبنُ ٱبنِ عَبَّاسٍ وهوَ محمومٌ، وماتَ في العاشرِ، وماتَ اليهوديُّ في رأْسِ السَّنةِ، ولمْ يَمُتِ ٱبنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ حتَّى ذَهَبَ بصرُهُ.

وعنِ الشَّعْبِيِّ رَضِيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قالَ أبو الدَّرْداءِ: واللهِ؛ لقد فارَقَنا رسولُ اللهِ ﷺ وتَرَكَنا ولا طائرٌ يَطيرُ بجناحيهِ إلاَّ ونحنُ نَدَّعي فيهِ علمًا[1].

ولَيْسَتِ الكواكبُ موكلةً بالفسادِ والصَّلاحِ، ولٰكنَّ فيها دليلَ بعضِ الحوادثِ، عُرِفَ ذٰلكَ بالتَّجربةِ.

وجاءَ في الآثارِ أنَّ أوَّلَ مَن أُعْطِيَ هٰذا العلمَ آدمُ، وذٰلكَ أنَّهُ عاشَ حتَّى أدْرَكَ مِن ذرِّيَّتِهِ أربعينَ ألفَ أهلِ بيتٍ، وتَفَرَّقوا عنهُ في الأرضِ، وكانَ يَغْتَمُّ لخفاءِ خبرِهم عليهِ،

---

(١) (**لا بأس به**). يرويه فطر بن خليفة وٱختلف عليه فيه:

فرواه أوّلاً: البزّار (٣٨٩٧)، وٱبن حبّان (٦٥)، والطبراني (٢/١٥٥/١٦٤٧)، والدارقطني في «العلل» (١١٤٨)، وابن جميع في «المعجم» (ص١٤٢)، والذهبي في «التذكرة» (٣/٨٢٩)؛ من طريق سفيان، عن فطر بن خليفة، عن أبي الطفيل، عن أبي ذر... رفعه. وهٰذا سند حسن، وسفيان هو ٱبن عيينة، قال الدارقطني: «وقيل عن الثوري، وليس بصحيح عنه».

ورواه ثانيًا: أبو يعلى في «المسند» (٥١٠٩) من طريق صحيحة، عن فطر بن خليفة، عن عطاء، عن أبي الدرداء... رفعه. ورواية عطاء عن أبي الدرداء فيها كلام، والأظهر أنّه لم يسمعه.

ورواه ثالثًا: وكيع في «الزهد» (٥٢٢)، وابن سعد (٢/٤٢٨)، وأحمد (٥/١٦٢)، والطبري في «التفسير» (١٣٢٢٧)؛ من طرق ثلاث قويّة، عن فطر بن خليفة، عن منذر الثوريّ، عن أبي ذرّ... رفعه. قال البزّار: «منذر الثوريّ لم يدرك أبا ذرّ»، وأعلّه العسقلاني بالانقطاع.

وهٰذا الثالث هو أرجح الأوجه لأمرين: **أولهما**: ٱجتماع الثقات الثلاثة عليه. **والثاني**: أنّ فطرًا توبع عليه فيما رواه: الطيالسي (٤٧٩)، وأحمد (٥/١٥٣ و١٦٢)؛ من طريقين قويّتين، عن الأعمش، عن منذر الثوريّ، عن أشياخ له من التيم، عن أبي ذرّ... رفعه. فبيّنت هٰذه الطريق رجحان الوجه الأخير وٱنقطاعه. لٰكنّ ٱجتماع الأشياخ المبهمين بين الثوريّ وأبي ذرّ يسدّ هٰذه الحلقة المفقودة إلى حدّ ما ويكسب الطريق قوّة.

وعلّقه ابن القيّم هنا عن الشعبيّ عن أبي الدرداء. ولم أقف عليه موصولاً، لٰكنّهم لم يذكروا للشعبيّ سماعًا من أبي الدرداء، وما إخاله سمعه، والله أعلم.

وفي كلّ حال؛ فالقلب يرتاح لتقوية الحديث بٱجتماع الوجه الثالث الراجح مع هٰذه الطريق التي ذكرها ٱبن القيّم هنا. والله أعلى وأعلم.

فأكْرَمَهُ اللهُ تَعالى بهٰذا العلمِ، وكانَ إذا أرادَ أنْ يَعْرِفَ حالَ أحدِهِم؛ حَسَبَ لهُ بهٰذا الحسابِ، فيَقِفُ على حالتِهِ!

وعن مَيْمونَ بنِ مِهْرانَ؛ أنَّهُ قالَ: إيَّاكُم والتَّكذيبَ بالنُّجومِ؛ فإنَّهُ علمٌ مِن علمِ النُّبوَّةِ.

وعنهُ أيضًا؛ أنَّهُ قالَ: ثلاثٌ ٱرْتَضوهُنَّ: لا تُنازِعوا أهلَ القدرِ، ولا تَذْكُروا أصحابَ نبيِّكُم إلاَّ بخيرٍ، وإيَّاكُم والتَّكذيبَ بالنُّجومِ فإنَّهُ مِن علمِ النُّبوَّةِ.

ورُوِيَ أنَّ الشَّافِعِيَّ كانَ عالمًا بالنُّجومِ، وجاءَ لبعضِ جيرانِهِ ولدٌ، فحَكَمَ لهُ الشَّافِعِيُّ أنَّ هٰذا الولدَ يَنْبَغي أنْ يَكونَ على العضوِ الفلانيِّ منهُ خالٌ صفتُهُ كذا وكذا، فوُجِدَ الأمرُ كما قالَ.

وأيضًا؛ أنَّهُ تَعالى حَكى عن فِرْعَوْنَ أنَّهُ كانَ يَذْبَحُ أبناءَ بني إسرائيلَ ويَسْتَحْيي نساءَهُم، والمفسِّرونَ قالوا: إنَّ ذٰلكَ إنَّما كانَ لأنَّ المنجِّمينَ أخْبَروهُ بأنَّهُ سَيَجيءُ ولدٌ مِن بني إسْرائيلَ ويَكونُ هلاكُهُ على يدِهِ. وهٰذهِ الرِّوايةُ ذَكَرَها مُحَمَّدُ بنُ إسْحاقَ وغيرُهُ، وهٰذا يَدُلُّ على ٱعترافِ النَّاسِ قديمًا وحديثًا بعلمِ النُّجومِ.

● وأمَّا المعقولُ؛ فهوَ أنَّ هٰذا علمٌ ما خَلَتْ عنهُ ملَّةٌ مِن المللِ ولا أُمَّةٌ مِن الأُممِ، ولا يُعْرَفُ تاريخٌ مِن التَّواريخِ القديمةِ والحديثةِ إلاَّ وكانَ أهلُ ذٰلكَ الزَّمانِ مشتغلينَ بهٰذا العلمِ، ومعوِّلينَ عليهِ في معرفةِ المصالحِ، ولو كانَ هٰذا العلمُ فاسدًا بالكلِّيَّةِ؛ لاسْتَحالَ إطباقُ أهلِ المشرقِ والمغربِ مِن أوَّلِ بناءِ العالمِ إلى آخرِهِ عليهِ.

● وقالَ بَطْليموسُ في بعضِ كتبِهِ: بعضُ النَّاسِ يَعيبونَ هٰذا العلمَ، وذٰلكَ العيبُ إنَّما حَصَلَ مِن وجوهٍ:

الأوَّلُ: عجزُهُم عن معرفةِ حقيقةِ مواضعِ الكواكبِ بدقائقِها ومراتبِها. وذٰلكَ أنَّ الآلاتِ الرَّصديَّةَ لا تَنْفَكُّ عن مسامحاتٍ لا يَفي بضبطِها الحسُّ لأجلِ قلَّتِها في الآلاتِ الرَّصديَّةِ، لٰكنَّها وإنْ قَلَّتْ في هٰذهِ الآلاتِ إلاَّ أنَّها في الأجرامِ الفلكيَّةِ كثيرةٌ، فإذا تَباعَدَتِ الأرصادُ؛ حَصَلَ بسببِ تلكَ المسامحاتِ تفاوتٌ عظيمٌ في مواضعِ الكواكبِ.

الثَّاني: أنَّ هٰذا العلمَ علمٌ مبنيٌّ على معرفةِ الدَّلائلِ الفلكيَّةِ، وتلكَ الدَّلائلُ لا

تَحْصُلُ إلاَّ بتمزيجاتِ أحوالِ الكواكبِ، وهيَ كثيرةٌ جدًّا، ثمَّ إنَّها معَ كثرتِها قد تكونُ متعارضةً، ولا بدَّ فيها مِن التَّرجيحِ، وحينئذٍ يَصْعُبُ على أكثرِ الأفهامِ الإحاطةُ بتلكَ التَّمزيجاتِ الكثيرةِ، وبعدَ الإحاطةِ بها فإنَّهُ يَصْعُبُ التَّرجيحاتُ الجيِّدةُ، فلهٰذا السَّببِ لا يَتَّفِقُ مَن يُحيطُ بهٰذا العلمِ كما يَنْبَغي إلاَّ الفردُ بعدَ الفردِ، ثمَّ إنَّ الجهَّالَ يُظْهِرونَ مِن أنفسِهِم كونَهُم عارفينَ بهٰذا العلمِ، فإذا حَكَموا وأخْطَؤوا؛ ظَنَّ النَّاسُ أنَّ ذٰلكَ بسببِ أنَّ هٰذا العلمَ ضعيفٌ.

الثَّالثُ: أنَّ هٰذا العلمَ لا يَفي بإدْراكِ الجزئيَّاتِ على وجهِ التَّفصيلِ الباهرِ، فمَن حَكَمَ على هٰذا الوجهِ؛ فقد يَقَعُ في الخطإِ.

فلهٰذهِ الأسبابِ الثَّلاثةِ تَوَجَّهَتِ المطاعنُ إلى هٰذا العلمِ.

● وحُكِيَ أنَّ الأكاسرةَ، كانَ إذا أرادَ أحدُهُم طلبَ الولدِ؛ أمَرَ بإحضارِ المنجِّمِ، ثمَّ كانَ ذٰلكَ الملكُ يَخْلو بآمرأتِهِ، فساعةَ ما يَقَعُ الماءُ في الرَّحمِ؛ يَأْمُرُ خادمًا على البابِ يَضْرِبُ طستًا يكونُ في يدِهِ، فإذا سَمِعَ المنجِّمُ طنينَ الطَّستِ؛ أخَذَ الطَّالعَ وحَكَمَ عليهِ، حتَّى يُخْبِرَ بعددِ السَّاعاتِ التي يَمْكُثُ في بطنِ أُمِّهِ، ثمَّ إنَّهُ كانَ يَأْخُذُ الطَّالعَ عندَ الولادةِ مرَّةً أُخرى ويَحْكُمُ، فلا جرمَ كانَتْ أحكامُهُم كاملةً قويَّةً؛ لأنَّ الطَّالعَ الحقيقيَّ هوَ طالعُ مسقطِ النُّطفةِ؛ فإنَّ حدوثَ الولدِ إنَّما يكونُ في ذٰلكَ الوقتِ، فأمَّا طالعُ الولادةِ؛ فهوَ طالعٌ مستعارٌ؛ لأنَّ الولدَ لا يَحْدُثُ في ذٰلكَ الوقتِ وإنَّما يَنْتَقِلُ مِن مكانٍ إلى آخرَ.

ورُوِيَ أنَّ في عهدِ أرْدَشيرَ بنِ بابَكَ أنَّهُ قالَ في العهدِ الذي كَتَبَهُ لولدِهِ: لولا اليقينُ بالبوارِ الذي على رأْسِ ألفِ سنةٍ؛ لَكُنْتُ أكْتُبُ لكُم كتابًا، إنْ تَمَسَّكْتُم بهِ؛ لَن تَضِلُّوا أبدًا. وعَنى بالبوارِ ما أخْبَرَهُ المنجِّمونَ مِن أنَّهُ يَزولُ ملكُهُم عندَ رأْسِ ألفِ سنةٍ مِن ملكِ كَشْتاسِتَ. والمرادُ منهُ زوالُ دولتِهِم وظهورُ دولةِ الإسلامِ.

ورُوِيَ أنَّهُ دَخَلَ الفَضْلُ بنُ سَهْلٍ[1] على المأمونِ في اليومِ الذي قُتِلَ فيهِ، وأخْبَرَهُ

---

(١) السرخسي، الوزير، ذو الرياستين، أسلم سنة ١٩٠هـ على يد المأمون، وكان شيعيًّا منجّمًا ماكرًا، وقد ازدادت رفعته حتّى ثقل أمره على المأمون فدسّ عليه من يقتله سنة ٢٠٢هـ فيما زعموا. ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١٢/ ٣٣٩)، «أعلام النبلاء» (١٠/ ٩٩).

أَنَّهُ يُقْتَلُ في هٰذا اليومِ بينَ الماءِ والنَّارِ، وأَنْكَرَ المأْمونُ ذٰلكَ عليهِ، وقَوَّى قلبَهُ، ثمَّ ٱتَّفَقَ أَنَّهُ دَخَلَ الحَمَّامَ فقُتِلَ في الحَمَّامِ وكانَ الأمرُ كما أَخْبَرَ.

ثمَّ قالَ: وٱعْلَمْ أَنَّ التَّجارِبَ في هٰذا البابِ كثيرةٌ وفيما ذَكَرْنا كفايةٌ.

[٨ـ فصل]

[في إبطال ما أحتج به الرازي لتقرير مذهب المنجمين]

قُلْتُ: فهٰذا أقصى ما قَرَّرَ بهِ الرَّازِيُّ كلامَ هٰؤلاءِ ومذهبَهُم، ولقد نَثَرَ الكنانةَ ونَفَضَ الجَعْبَةَ وٱسْتَفْرَغَ الوسعَ وبَذَلَ الجهدَ ورَوَّجَ وبَهْرَجَ وقَعْقَعَ وفَرْقَعَ وجَعْجَعَ ولا تَرى طِحْنًا وجَمَعَ بينَ ما يُعْلَمُ بالاضطرارِ أَنَّهُ كذبٌ على رسولِ اللهِ ﷺ وعلى أصحابِهِ وبينَ ما يُعْلَمُ بالاضطرارِ أَنَّهُ خطأٌ في تأْويلِ كلامِ اللهِ ومعرفةِ مرادِهِ.

ولا يَروجُ ما ذَكَرَهُ إلَّا: على مفرطٍ في الجهلِ بدينِ الرُّسلِ وما جاؤوا بهِ، أو مقلِّدٍ لأهلِ الباطلِ والمِحالِ[1] مِن المنجِّمينَ وأقاويلِهِم، فإنْ جَمَعَ بينَ الأمرينِ؛ شَرِبَ كلامَهُ شربًا!

ونحنُ بحمدِ اللهِ ومعونتِهِ وتأْييدِهِ نُبَيِّنُ بطلانَ ٱستدلالِهِ وٱحتجاجِهِ، فنَقولُ:

● أمَّا الاستدلالُ بقولِهِ تَعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالخُنَّسِ. الجَوَارِي الكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٦-١٧]:

فإنَّ أكثرَ المفسِّرينَ على أنَّ المرادَ هوَ الكواكبُ التي تسيرُ راجعةً تارةً ومستقيمةً أُخرى. وهٰذا القولُ قد قالَهُ جماعةٌ مِن المفسِّرينَ. وأنَّها الكواكبُ الخمسةُ زُحَلُ وعُطارِدُ والمُشْتَري والمِرِّيخُ والزُّهَرَةُ. ورُوِيَ عن عَلِيٍّ، وٱخْتارَهُ ٱبنُ مُقاتِلٍ وٱبنُ قُتَيْبَةَ. قالوا: وسمَّاها خُنَّسًا لأنَّها في سيرِها تَتَقَدَّمُ إلى جهةِ المشرقِ ثمَّ تَخْنُسُ؛ أي: تَتَأَخَّرُ. وكنوسُها ٱستتارُها في مغربِها كما تكْنِسُ الظِّباءُ وتَفِرُّ مِن الوحوشِ إلى أنْ تَأْوِيَ إلى كناسِها، وهيَ أكنَّتُها. وتُسَمَّى هٰذهِ الكواكبُ المتحيِّرةَ؛ لأنَّها تَسيرُ مستقيمةً وتَسيرُ

(١) المحال بكسر الميم: الكيد والمكر.

راجعةً. وقيلَ: كنوسُها بالنِّسبةِ إلى النَّاظرِ، وهوَ ٱستتارُها تحتَ شعاعِ الشَّمس.

وقيلَ: هيَ النُّجومُ كلُّها. وهوَ ٱختيارُ أبي عُبَيْدٍ، وقالَهُ الحَسَنُ وقَتادَةُ[١]. وعلى هٰذا القولِ فيَكونُ بٱعتبارِ أحوالِها الثَّلاثةِ مِن طلوعِها وغروبِها وما بينَهُما: فهيَ خنَّسٌ عندَ أوَّلِ الطُّلوعِ؛ لأنَّ النَّجمَ منها يُرى كأنَّهُ يَبْدو ويَخْنُسُ، وتَكْنِسُ عندَ غروبِها تشبيهًا بالظِّباءِ التي تَأْوي إلى كناسِها، وهيَ جوارٍ ما بينَ طلوعِها وغروبِها. خنَّسٌ عندَ الطُّلوعِ، جوارٍ بعدَهُ، كنَّسٌ عندَ الغروبِ. وهٰذا كلُّهُ بالنِّسبةِ إلى أُفُقِ كلِّ بلدٍ تكونُ لها فيهِ الأحوالُ الثَّلاثةُ.

وقالَ عَبْدُاللهِ بنُ مَسْعودٍ: هيَ بقرُ الوحشِ. وهيَ روايةٌ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ، وٱخْتارَهُ سَعيدُ بنُ جُبَيْرٍ.

وقيلَ ـ وهوَ أضعفُ الأقوالِ ـ: الملائكةُ. حَكاهُ المَرْوَزِيُّ في «تفسيره».

فإنْ كانَ المرادُ بعضَ هٰذهِ الأقوالِ غيرَ ما حَكاهُ الرَّازِيُّ؛ فلا حجَّةَ لهُ.

وإنْ كانَ المرادُ ما حَكاهُ؛ فغايتُهُ أنْ يَكونَ اللهُ سبحانَهُ وتَعالى قد أقْسَمَ بها كما أقْسَمَ بالليلِ والنَّهارِ والضُّحى والوالدِ وولدِهِ والفجرِ وليالٍ عشرٍ والشَّفعِ والوترِ والسَّماءِ والأرضِ واليومِ الموعودِ وشاهدٍ ومشهودٍ والنَّفسِ والمرسلاتِ والعاصفاتِ والنَّاشراتِ والفارقاتِ والنَّازعاتِ والنَّاشطاتِ والسَّابحاتِ والسَّابقاتِ وما نُبْصِرُهُ وما لا نُبْصِرُهُ مِن كلِّ غائبٍ عنَّا وحاضرٍ، ممَّا فيهِ التَّنبيهُ على كمالِ ربوبيَّتِهِ وعزَّتِهِ وحكمتِهِ وقدرتِهِ وتدبيرِهِ وتنوُّعِ مخلوقاتِهِ الدَّالَّةِ عليهِ المرشدةِ إليهِ بما تَضَمَّنَتْهُ مِن عجائبِ الصَّنعةِ وبديعِ الخلقةِ وتَشْهَدُ لفاطرِها وبارئِها بأنَّهُ الواحدُ الأحدُ الذي لا شريكَ لهُ وأنَّهُ الكاملُ في علمِهِ وقدرتِهِ ومشيئتِهِ وحكمتِهِ وربوبيَّتِهِ وملكِهِ وأنَّها مسخَّرةٌ مذلَّلةٌ منقادةٌ لأمرِهِ مطيعةٌ لمرادِهِ منها، ففي الإقسامِ بها تعظيمٌ لخالقِها تَبارَكَ وتَعالى وتنزيهٌ لهُ عمَّا نَسَبَهُ إليهِ أعداؤُهُ الجاحدونَ المعطِّلونَ لربوبيَّتِهِ وقدرتِهِ ومشيئتِهِ ووحدانيَّتِهِ، وأنَّ مَن هٰذهِ عبيدُهُ ومماليكُهُ

---

(١) وهٰذا أولى الأقوال المذكورة هنا بالصواب، وتخصيص الآية بنوع معيّن من النجوم لا دليل عليه، ومال ٱبن جرير إلى أنّ الآية تعمّ كلّ ما صفته الخنوس أحيانًا والجري أحيانًا والكنوس أحيانًا؛ وقوفًا مع ظاهر الآية وتركًا للترجيح بغير مرجّح.

وخلقُهُ وصنعُهُ وإبداعُهُ؛ فكيفَ تُجْحَدُ ربوبيَّتُهُ وإلٰهيَّتُهُ؟! وكيفَ تُنكَرُ صفاتُ كمالِهِ ونعوتُ جلالِهِ؟! وكيفَ يَسُوغُ لذي حسٍّ سليمٍ وفطرةٍ مستقيمةٍ تعطيلُها عن صانعِها أو تعطيلُ صانعِها عن نعوتِ جلالِهِ وأوصافِ كمالِهِ وعن أفعالِهِ؟! فإقسامُهُ بها أكبرُ دليلٍ على فسادِ قولِ نوعي المعطِّلةِ والمشركينَ الذينَ جَعَلوها آلهةً تُعْبَدُ معَ دلائلِ الحدوثِ والعبوديَّةِ والتَّسخيرِ والافتقارِ عليها، وأنَّها أدلَّةٌ على بارئِها وفاطرِها وعلى وحدانيَّتِهِ، وأنَّهُ لا تَنْبَغي الرُّبوبيَّةُ والإلٰهيَّةُ لها بوجهٍ ما بل لا تَنْبَغي إلَّا لِمَنْ فَطَرَها وبَرَأَها.

كما قالَ القائلُ:

تَـأَمَّـلْ سُطـورَ الكـائِنـاتِ فَـإِنَّهـا ... مِـنَ المَـلإِ الأعْلـى إِلَيْـكَ رَسـائِـلُ
وَقَـدْ خُـطَّ فيهـا لَـوْ تَـأَمَّلْـتَ خَطُّهـا ... أَلاَ كُـلُّ شَـيْءٍ مـا خَـلا اللـهَ بـاطِـلُ

وقالَ آخرُ:

فَـواعَجَبًـا كَيْـفَ يَعْصـي الإِلٰـهَ ... أَمْ كَيْـفَ يَجْحَـدُهُ جـاحِـدُ
وَلِلّـهِ فـي كُـلِّ تَحْـريكَـةٍ ... وَتَسْكينَـةٍ أَبَـدًا شـاهِـدُ
وَفـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ ... تَـدُلُّ علـى أَنَّـهُ واحِـدُ

فلمْ يَكُنْ إقسامُهُ بها سبحانَهُ مقرِّرًا بذٰلكَ علمَ الأحكامِ النُّجوميَّةِ كما يَقولُهُ الكاذبونَ المفترونَ، بل مقرِّرًا لكمالِ ربوبيَّتِهِ ووحدانيَّتِهِ وتفرُّدِهِ بالخلقِ والإبداعِ وكمالِ حكمتِهِ وعلمِهِ وعظمتِهِ.

وهٰذا نظيرُ إخبارِهِ سبحانَهُ عن خلقِها وعن حكمةِ خالقِها: بقولِهِ: ﴿اللهُ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَموا أنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ وَأنَّ اللهَ قَدْ أحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقولِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقولِهِ: ﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ لا تَسْجُدوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدوا لِلهِ الَّذي خَلَقَهُنَّ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقولِهِ: ﴿إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأرْضَ ثُمَّ اسْتَوى عَلى العَرْشِ يُغْشي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثيثًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ ألاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ﴾

[الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ في ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ﴾ [النحل: ١٢].

وهٰؤلاءِ المشركونَ يُعَظِّمونَ الشَّمسَ والقمرَ والكواكبَ تعظيمًا؛ يَسْجُدونَ لها ويَتَذَلَّلونَ لها ويُسَبِّحونَها تسابيحَ معروفةً في كتبِهِم ودعواتٍ لا يَنْبَغي أنْ يُدعى بها إلَّا خالقُها وفاطرُها وحدَهُ! ويقولُ بعضُهُم في كتابِهِ: مصحفُ الشَّمسِ، مصحفُ القمرِ، مصحفُ زُحَلَ، مصحفُ عُطارِدَ! وبعضُهُم يقولُ: تسبيحةُ الشَّمسِ، تسبيحةُ القمرِ، تسبيحةُ عُطارِدَ، تسبيحةُ زُحَلَ؛ ولا يَتَحاشى مِن ذٰلكَ! وبعضُهُم يقولُ: دعوةُ الشَّمسِ، دعوةُ القمرِ، دعوةُ عُطارِدَ، دعوةُ زُحَلَ! وبعضُهُم يقولُ: هيكلُ الشَّمسِ والقمرِ وعُطارِدَ!

وأصلُهُ أنَّ الهيكلَ هوَ البيتُ المبنيُّ للعبادةِ، وكانَ الصَّابئونَ يَبْنونَ لكلِّ كوكبٍ مِن هٰذهِ الكواكبِ هيكلًا، ويُصَوِّرونَ فيهِ ذٰلكَ الكوكبَ، ويَتَّخِذونَهُ لعبادتِهِ وتعظيمِهِ ودعائِهِ، ويَزْعُمونَ أنَّ روحانيَّةَ ذٰلكَ الكوكبِ تَتَنَزَّلُ عليهِم فتُخاطِبُهُم وتَقْضي حوائجَهُم وشاهَدوا ذٰلكَ منها وعايَنوهُ، وتلكَ الرُّوحانيَّةُ هيَ الشَّياطينُ تَنَزَّلَتْ عليهِم وخاطَبَتْهُم وقَضَتْ حوائجَهُم.

ثمَّ لمَّا رامَ هٰذا الفعلَ مَن تَستَّرَ منهُم بالإسلامِ ولمْ يُمْكِنْهُ أنْ يَبْنِيَ لها بيوتًا يَعْبُدُها فيها[1]؛ كَتَبَ لها دعواتٍ وتسبيحاتٍ وأذكارًا سَمَّاها هياكلَ! ثمَّ مَنِ اشْتَدَّ تستُّرُهُ وخوفُهُ أخْرَجَها في قالبِ حروفٍ وكلماتٍ لا تُفْهَمُ لئلَّا يُبادَرَ إلى إنكارِها وردِّها! ومَن لمْ يَخَفْ منهُم؛ صَرَّحَ بتلكَ الدَّعواتِ والتَّسبيحاتِ والأذكارِ بلسانِ مَن يُخاطِبُهُ بالفارسيَّةِ والعربيَّةِ وغيرِها، فلمَّا أنْكَرَ عليهِ أهلُ الإيمانِ؛ قالَ: إنَّما ذَكَرْتُ هٰذهِ معرفةً لهٰذا العلمِ وإحاطةً بهِ لا اعتقادًا لهُ ولا ترغيبًا فيهِ!

وقد وَصَفَ [بعضُهُم][2] ذٰلكَ العلمَ وقَرَّرَهُ أتمَّ تقريرٍ وحَمَلَهُ هديَّةً إلى ملكِهِ فأثابَهُ عليهِ جملةً مِن الذَّهبِ يُقالُ: إنَّهُ ألفُ دينارٍ، وصارَ ذٰلكَ الكتابُ إمامًا لأهلِ هٰذا الفنِّ إليهِ يَلْجَؤونَ وعليهِ يُعَوِّلونَ وبهِ يَحْتَجُّونَ ويقولونَ: شهرةُ مصنِّفِهِ وجلالتُهُ وعلمُهُ وفضلُهُ

---

(١) في ط: «يعبدها فيه»! والصواب ما أثبتّه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

لا تُنْكَرُ ولا تُجْحَدُ! وفي هٰذا الكتابِ مِن مخاطبةِ الشّمسِ والقمرِ والكواكبِ بالخطابِ الذي لا يَليقُ إلاَّ باللهِ عَزَّ وجَلَّ ولا يَنْبَغي لأحدٍ سواهُ ومِن الخضوعِ والذُّلِّ والعبادةِ التي لَمْ يَكُنْ عبّادُ الأصنامِ يَبْلُغونَها مِن آلهتِهِم.

فباللهِ؛ أتَجْعَلُ قولَهُ تَعالى ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالخُنَّسِ . الجَوارِ الكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٦-١٧] دليلاً على هٰذا ومقدِّمةً لهُ في أوَّلِ الكتابِ؟!

فإنْ كانَ الإقسامُ بها دليلاً على تأثيراتِها في العالمِ كما يَقولونَ؛ فيَنْبَغي أنْ يَكونَ سائرُ ما أُقْسِمَ بِهِ كذٰلكَ[1]، وإنْ لَمْ يَكُنِ القسمُ دليلاً؛ بَطَلَ الاستدلالُ بهِ[2].

● وأمَّا قولُهُ تَعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]؛ ففيها قولانِ:

أحدُهُما: أنَّها النُّجومُ المعروفةُ. وعلى هٰذا ففي مواقعِها أقوالٌ: أحدُها: أنَّهُ انكدارُها وانتشارُها يومَ القيامةِ، وهٰذا قولُ الحَسَنِ، والمنجِّمونَ يُكَذِّبونَ بهٰذا[3] ولا يُقِرُّونَ بهِ. الثَّاني: مواقعُها منازِلُها، قالَهُ عَطاءٌ وقَتادَةُ. والثَّالثُ: أنَّهُ مغاربُها. الرَّابعُ: أنَّهُ مواقعُها عندَ طلوعِها وغروبِها، حَكاهُ ابنُ عَطِيَّةَ عن مُجاهِدٍ وأبي عُبَيْدَةَ. الخامسُ: أنَّ مواقعَها مواضعُها مِن السَّماءِ، وهٰذا [غيرُ][4] الذي حَكاهُ ابنُ الجَوْزِيِّ عن قَتادَةَ، حَكاهُ ابنُ عَطِيَّةَ عنهُ، فيُحْتَمَلُ أنْ يَكونا واحدًا وأنْ يَكونا قولينِ. السّادسُ: أنَّ مواقعَها انقضاضُها إثرَ العفريتِ وقتَ الرُّجومِ، حَكاهُ ابنُ عَطِيَّةَ أيضًا. ولَمْ يَذْكُرْ أبو الفَرَجِ ابنُ الجَوْزِيِّ سوى الثَّلاثةِ الأُولى.

والقولُ الثَّاني: أنَّ مواقعَ النُّجومِ هيَ منازلُ القرآنِ ونجومُهُ التي نَزَلَتْ على النَّبيِّ ﷺ في مدَّةِ ثلاثٍ وعشرينَ سنةً.

قالَ ابنُ عَطِيَّةَ: ويُؤَيِّدُ هٰذا القولَ عودُ الضَّميرِ على القرآنِ في قولِهِ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَريمٌ . في كِتابٍ مَكْنونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨]، وذٰلكَ أنَّ ذكرَهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ إلاَّ على هٰذا

---

(١) كالتين والزيتون والطور والقلم وغير ذٰلك كثير.
(٢) وفي هٰذه الفقرة الصغيرة أحسن الجواب على هٰؤلاء وأخصره وخير الكلام ما قلّ ودلّ.
(٣) في ط: «يكذّبون بها»! والغالب أنّه غلط مطبعيّ، وربّما كان تحريفًا.
(٤) زيادة يقتضيها السياق. والذي حكاه ابن الجوزي عن قتادة هو القول الثاني المتقدّم.

التَّأْويلِ[(١)].

ومَن لا يَتَأَوَّلُ هٰذا التَّأْويلَ يَقولُ: إنَّ الضَّميرَ يَعودُ على القرآنِ وإنْ لمْ يَتَقَدَّمْ ذكرُهُ لشهرةِ الأمرِ ووضوحِ المعنى: كقولِهِ تَعالى: ﴿حَتَّى تَوارَتْ بِالحِجابِ﴾ [ص: ٣٢][(٢)]، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٦][(٣)]، وغيرِ ذٰلكَ.

قُلْتُ: ويُؤيِّدُ القولَ الأوَّلَ أَنَّهُ أعادَ الضميرَ بلفظِ الإفرادِ والتَّذكيرِ، ومواقعُ النُّجومِ جمعٌ، فلو كانَ الضَّميرُ عائدًا عليها؛ لَقالَ: إنَّها لقرآنٌ كريمٌ[(٤)]. إلَّا أنْ يُقالَ: مواقعُ النُّجومِ دَلَّ على القرآنِ، فأعادَ الضَّميرَ عليهِ؛ لأنَّ مفسِّرَ الضَّميرِ يُكْتَفى فيهِ بذٰلكَ، وهوَ مِن أنواعِ البلاغةِ والإيجازِ.

فإنْ كانَ المرادُ مِن القسمِ نجومَ القرآنِ؛ بَطَلَ ٱستدلالُهُ بالآيةِ.

وإنْ كانَ المرادُ الكواكبَ، وهوَ قولُ الأكثرينَ؛ فلِما فيها مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على ربوبيَّةِ اللهِ تَعالى وٱنفرادِهِ بالخلقِ والإبداعِ؛ فإنَّهُ لا يَنْبَغي أنْ تكونَ الإلٰهيَّةُ إلَّا لهُ وحدَهُ كما أنَّهُ وحدَهُ المتفرِّدُ بخلقِها وإبداعِها وما تَضَمَّنَتْهُ مِن الآياتِ والعجائبِ. فالإقسامُ بها أوضحُ دليلٍ على تكذيبِ المشركينَ والمنجِّمينَ والدُّهريَّةِ ونوعي المعطِّلةِ كما تَقَدَّمَ.

● وكذٰلكَ قولُهُ: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣]. على أنَّ فيهِ قولينِ آخرينِ غيرَ القولِ الذي ذَكَرَهُ: أحدُهُما: أنَّهُ الثُّرَيَّا، وهٰذا قولُ ٱبنِ زَيْدٍ، حَكاهُ عنهُ أبو الفَرَجِ ٱبنُ الجَوْزِيِّ. وعنهُ روايةٌ ثانيةٌ أنَّهُ زُحَلُ، حَكاها عنهُ ٱبنُ عَطِيَّةَ[(٥)]. الثَّاني: أنَّهُ الجُدَيُّ[(٦)]،

---

(١) عبّر سبحانه عن القرآن بالضمير في ﴿إنّه﴾، والبيان يقتضي أن يسبق الضميرَ ٱسم ظاهرٌ يرجع الضمير إليه، وليس هاهنا ٱسم ظاهر يمكن أن يفسَّر بالقرآن إلّا ﴿مواقع النجوم﴾ فلزم أن يكون هٰذا معناها.

(٢) فالضمير في ﴿توارت﴾ راجع إلى الشمس، مع أنّه لم يسبق لها ذكر، وذٰلك ٱكتفاء بوضوح المعنى وقربه من فهم السامع.

(٣) فالضمير في ﴿عليها﴾ راجع إلى الأرض، مع أنّه لم يسبق لها ذكر، وذٰلك ٱكتفاء بوضوح المعنى وقربه من فهم السامع.

(٤) ٱنظر إلى هٰذا العدل والإنصاف؛ ينصر القول الأوّل لأنّه رآه أولى بمعنى الآية لغة وشرعًا، ولو كان ذٰلك يخدم المنجّمين في ضلالتهم! فتمسّك بهٰذا؛ فوالله؛ إنّه باب النجاة لمن رامه.

(٥) وهو القول الذي ٱكتفى به الرازي فيما تقدّم (٣/ ١٣١) نصرًا لمذهب المنجّمين.

(٦) وهو نجم القطب كما تقدّم (٢/ ٧٤).

حَكاهُ ٱبنُ عَطِيَّةَ عنِ ٱبنِ عَبَّاسٍ. وقولٌ آخرُ حَكاهُ أبو الفَرَجِ ٱبنُ الجَوْزِيِّ عن عَلِيِّ بنِ أَحْمَدَ النَّيْسابوريِّ أَنَّهُ جنسُ النُّجومِ[١].

● وأمَّا قولُهُ تَعالى: ﴿فَالْمُدَبِّراتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]؛ فلمْ يَقُلْ أحدٌ مِن الصَّحابةِ ولا التَّابعينَ ولا العلماءِ بالتَّفسيرِ: إنَّها النُّجومُ! وهٰذهِ الرِّواياتُ عنهُم: فقالَ ٱبنُ عَبَّاسٍ: هيَ الملائكةُ. قالَ عطاءٌ: وُكِلَتْ بأُمورٍ عَرَّفَهُمُ اللهُ العملَ بها. وقالَ عَبْدُالرَّحْمٰنِ بنُ سابطٍ: يُدَبِّرُ أُمورَ الدُّنيا أربعةٌ: جبريلُ وهوَ موكلٌ بالوحيِ والجنودِ، وميكائيلُ وهوَ موكلٌ بالقطرِ والنَّباتِ، وملكُ الموتِ وهوَ موكلٌ بقبضِ الأنفسِ، وإسْرافيلُ وهوَ يَنْزِلُ بالأمرِ عليهِم. وقيلَ: جبريلُ للوحيِ وإسرافيلُ للصُّورِ. وقالَ ٱبنُ قُتَيْبَةَ: ﴿فالمدبِّراتِ أمرًا﴾ الملائكةُ تَنْزِلُ بالحلالِ والحرامِ.

ولمْ يَذْكُرِ المتوسِّعونَ في نقلِ أقوالِ المفسِّرينَ كٱبنِ الجَوْزِيِّ والماوَرْدِيِّ وٱبنِ عَطِيَّةَ غيرَ الملائكةِ. حتَّى قالَ ٱبنُ عَطِيَّةَ: ولا أَحْفَظُ خلافًا أنَّها الملائكةُ. هٰذا معَ توسُّعِهِ في النَّقلِ وزيادتِهِ فيهِ على أبي الفرجِ وغيرِهِ، حتَّى إنَّهُ لَيَنْفَرِدُ بأقوالٍ لا يَحْكيها غيرُهُ.

فتفسيرُ المدبِّراتِ بالنُّجومِ كذبٌ على اللهِ وعلى المفسِّرينَ[٢].

● وكذٰلكَ المقسِّماتُ أمرًا: لمْ يَقُلْ أحدٌ مِن أهلِ التَّفسيرِ العالِمينَ بهِ: إنَّها النُّجومُ! بل قالوا: هيَ الملائكةُ التي تُقَسِّمُ أمرَ الملكوتِ بإذنِ ربِّها مِن الأرزاقِ والآجالِ والخلقِ في الأرحامِ وأمرِ الرِّياحِ والجبالِ. قالَ ٱبنُ عَطِيَّةَ: لأنَّ كلَّ هٰذا إنَّما هوَ بملائكةٍ تَخْدُمُهُ، فالآيةُ تتضَمَّنُ جميعَ الملائكةِ؛ لأنَّهُم كلَّهُم في أُمورٍ مختلفةٍ. قالَ أبو الطُّفَيْلِ عامرُ بنُ واثِلَةَ: كانَ عَلِيُّ بنُ أبي طالِبٍ على المنبرِ فقالَ: لا تَسْألونَ عن آيةٍ مِن كتابِ اللهِ وسنَّةٍ ماضيةٍ إلَّا قُلْتُ لكُم. فقامَ إليهِ ٱبنُ الكَوَّاءِ فسَأَلَهُ عنِ ﴿الذَّارياتِ ذَرْوًا فَالحامِلاتِ وِقْرًا فَالجارِياتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّماتِ أَمْرًا﴾. فقالَ: الذَّارياتُ الرِّياحُ،

---

(١) وهو أرجح الأقوال وأصحّها وأولاها بلفظ الآية، وإليه مال البخاري وٱبن جرير وٱبن كثير.

(٢) فمن أين أتى بها الرازي إذن عندما قال: «قال بعضهم: المراد هٰذه الكواكب»؟! إن أحسنّا الظنّ به؛ فإنّه ممّن ينقل عمّن هبّ ودبّ ويلقي الكلام على عواهنه دونما تثبّت. وإن كانت الأخرى؛ فلا بدّ أنّ المقصود بـ «بعضهم» هم أهل التنجيم، فٱستساغ الرجل أن ينقل أقوالهم ويحتجّ بها في تفسير كتاب الله!

والحاملاتُ السَّحابُ، والجارياتُ السُّفنُ، والمقسِّماتُ الملائكةُ. ثمَّ قالَ: سَلْ سؤالَ تعلُّمٍ ولا تَسْألْ سؤالَ تعنُّتٍ. وكذٰلكَ قالَ أبو الفَرَجِ، ولَمْ يَذْكُرْ فيهِ خلافًا في المقسِّماتِ أمرًا؛ يَعْني: الملائكةَ تُقَسِّمُ الأُمورَ على ما أَمَرَ اللهُ بهِ. قالَ ٱبنُ السَّائبِ: المقسِّماتُ أربعةٌ: جِبْريلُ، وهوَ صاحبُ الوحيِ والغلظةِ؛ يَعْني: العقوبةَ على أعداءِ الرُّسلِ. وميكائيلُ، وهوَ صاحبُ الرِّزقِ والرَّحمةِ. وإسرافيلُ، وهوَ صاحبُ الصُّورِ واللوحِ. وعُزْرائيلُ، وهوَ قابضُ الأرواحِ[١].

فتفسيرُ الآيةِ بأنَّها النُّجومُ تفسيرُ المنجِّمينَ ومَن سَلَكَ سبيلَهُم.

● وأمَّا وصفُهُ تَعالى بعضَ الأيَّامِ بأنَّها أيَّامُ نحسٍ كقولِهِ: ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ﴾ [فصلت: ١٦]؛ فلا ريبَ أنَّ الأيَّامَ التي أوْقَعَ اللهُ سبحانَهُ فيها العقوبةَ بأعدائِهِ وأعداءِ رسلِهِ كانَتْ أيَّامًا نحساتٍ عليهِم؛ لأنَّ النَّحسَ أصابَهُم فيها، وإنْ كانَتْ أيَّامَ خيرٍ لأوليائِهِ المؤمنينَ، فهيَ نحسٌ على المكذِّبينَ سعدٌ للمؤمنينَ. وهٰذا كيومِ القيامةِ؛ فإنَّهُ عسيرٌ على الكافرينَ يومُ نحسٍ لهُم، يسيرٌ على المؤمنينَ يومُ سعدٍ لهُم. قالَ مُجاهدٌ: أيَّامٌ نحساتٌ: مشائيمُ. وقالَ الضَّحَّاكُ: معناهُ: شديدٌ؛ أي: شديدُ البردِ، حتَّى كانَ البردُ عذابًا لهُم. قالَ أبو عَلِيٍّ: وأنْشَدَ الأصْمَعِيُّ في النَّحسِ بمعنى البردِ:

كَأنَّ سُلافَةً عُرِضَتْ لِنَحْسٍ يُحِيلُ شَفيفُها الماءَ الزُّلالا[٢]

وقالَ ٱبنُ عبَّاسٍ: نحساتٌ: متتابعاتٌ.

● وكذٰلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]، وكانَ اليومُ نحسًا عليهِم لإرسالِ العذابِ عليهِم. [ومستمرٌّ][٣]؛ أي: لا يُقْلِعُ عنهُم كما تُقْلِعُ مصائبُ الدُّنيا عن أهلِها، بل هٰذا النَّحسُ دائمٌ على هٰؤلاءِ المكذِّبينَ

---

(١) وهٰذا مشهور جدًّا على ألسنة الخلق، والظاهر أنّه كذٰلك عند أهل الكتاب، ولم يثبت في صحيح السنّة شيء في اسم ملك الموت. فالله أعلم.

(٢) سلافة: خمرة. عرضت لنحس (وفي ط: بنحس، والتصويب من لسان العرب): وضعت في ريح باردة حتّى بردت. يحيل: يبدّل. شفيفها: بردها. يعني أنّها تجعل الماء باردًا لشدّة بردها.

(٣) ساقطة من ط، ولا بدّ منها ليستقيم الكلام.

للرُّسلِ.

ومستمرٌّ صفةٌ للنَّحسِ لا لليومِ، ومَن ظَنَّ أنَّهُ صفةٌ لليومِ، وأنَّهُ كانَ يومَ الأربعاءِ آخرَ الشَّهرِ، وأنَّ هٰذا اليومَ نحسٌ أبدًا؛ فقد غَلِطَ وأخْطَأَ فهمَ القرآنِ. فإنَّ اليومَ المذكورَ بحسبِ ما يَقَعُ فيهِ، وكمْ للهِ مِن نعمةٍ على أوليائِهِ في هٰذا اليومِ، وإنْ كانَ لهُ فيهِ بلايا ونقمٌ على أعدائِهِ، كما يَقَعُ ذٰلكَ في غيرِهِ مِن الأيَّامِ.

فسعودُ الأيَّامِ ونحوسُها إنَّما هوَ بسعودِ الأعمالِ وموافقتِها لمرضاةِ الرَّبِّ ونحوسِ الأعمالِ [و]مخالفتِها لِما جاءَتْ بهِ الرُّسلُ، واليومُ الواحدُ يَكونُ يومَ سعدٍ لطائفةٍ ونحسٍ لطائفةٍ كما كانَ يومُ بدرٍ يومَ سعدٍ للمؤمنينَ ويومَ نحسٍ على الكافرينَ.

فما للكوكبِ والطَّالعِ والقراناتِ وهٰذا السَّعدَ والنَّحسَ؟! وكيفَ يُسْتَنْبَطُ علمُ أحكامِ النُّجومِ مِن ذٰلكَ؟! ولو كانَ المؤثِّرُ في هٰذا النَّحسِ هوَ نفسَ الكوكبِ والطَّالعِ؛ لَكانَ نحسًا على العالمِ! فأمَّا أنْ يَقْتَضِيَ الكوكبُ كونَهُ نحسًا لطائفةٍ سعدًا لطائفةٍ؛ فهٰذا هوَ المحالُ!

● **فصلٌ**: وأمَّا الاستدلالُ بالآياتِ الدَّالَّةِ على أنَّ اللهَ سبحانَهُ وَضَعَ حركاتِ هٰذهِ الأجرامِ على وجهٍ يُنْتَفَعُ بها في مصالحِ هٰذا العالمِ؛ بقولِهِ: ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نورًا وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ وَالحِسابَ ما خَلَقَ ذٰلِكَ إلاَّ بِالحَقِّ﴾ [يونس: ٥]، وقولِهِ تَعالى: ﴿تَبارَكَ الَّذي جَعَلَ في السَّماءِ بُروجًا وَجَعَلَ فيها سِراجًا وَقَمَرًا مُنيرًا﴾ الآيةَ [الفرقان: ٦١]؛ فمِن أطرفِ الاستدلالِ! فأينَ في هٰذهِ الآياتِ ما يَدُلُّ على ما يَدَّعيهِ المنجِّمونَ مِن كذبِهِم وبهتانِهِم وافترائِهِم؟!

ولو كانَ الأمرُ كما يَدَّعيهِ هٰؤلاءِ الكذَّابونَ؛ لَكانَتِ الدّلالةُ والعبرةُ فيهِ أعظمَ مِن مجرَّدِ الضِّياءِ والنُّورِ والحسابِ، ولَكانَ الأليقُ ذكرَ ما تَقْتَضيهِ مِن السَّعدِ والنَّحسِ وتُعْطيهِ مِن السَّعادةِ والشَّقاوةِ وتَهَبُهُ مِن الأعمارِ والأرزاقِ والآجالِ والصَّنائعِ والعلومِ والمعارفِ والصُّورِ الحيوانيَّةِ والنَّباتيَّةِ والمعدنيَّةِ وسائرِ ما في هٰذا العالمِ مِن الخيرِ والشَّرِّ.

● وأمَّا قولُهُ: ﴿تَبارَكَ الَّذي جَعَلَ في السَّماءِ بُروجًا وَجَعَلَ فيها سِراجًا وَقَمَرًا مُنيرًا﴾؛ فهوَ تعظيمٌ وثناءٌ منهُ تَعالى على نفسِهِ بجعلِ هٰذهِ البروجِ والشَّمسِ والقمرِ في

السَّماءِ.

وقدِ ٱخْتُلِفَ في البروجِ المذكورةِ في هٰذهِ الآيةِ:

فأكثرُ السَّلفِ على أنَّها القصورُ أوِ الكواكبُ العظامُ.

قالَ ٱبنُ المُنْذِرِ في «تفسيره»:

حَدَّثَنا موسى، حَدَّثَنا شُجاعٌ، حَدَّثَنا ٱبنُ إدْريسَ، عن أبيهِ، عن عَطِيَّةَ: ﴿جَعَلَ في السَّماءِ بُروجًا﴾؛ قالَ: قصورًا فيها حرسٌ.

حَدَّثَنا موسى، حَدَّثَنا أبو بَكْرٍ، حَدَّثَنا أبو مُعاوِيَةَ ووَكيعٌ، عن إسْماعيلَ، عن يَحْيى بنِ رافعٍ؛ قالَ: قصورًا في السَّماءِ.

حَدَّثَنا موسى، حَدَّثَنا أبو بَكْرٍ، حَدَّثَنا وَكيعٌ، عن سُفْيانَ، عنِ ٱبنِ أبي نَجيحٍ، عن مُجاهِدٍ؛ قالَ: ﴿بُروجًا﴾؛ يَعْني: النُّجومَ. وكذٰلكَ قالَ عِكْرِمَةُ.

حَدَّثَنا أبو أحْمَدَ، حَدَّثَنا يَعْلى، حَدَّثَنا إسْماعيلُ، عن أبي صالحٍ: ﴿تَبارَكَ الَّذي جَعَلَ في السَّماءِ بُروجًا﴾؛ قالَ: النُّجومُ الكبارُ.

وهٰذا موافقٌ لمعنى اللفظةِ في اللغةِ؛ فإنَّ العربَ تُسَمِّي البناءَ المرتفعَ برجًا؛ قالَ تَعالى: ﴿أَيْنَما كُنتُمْ يُدْرِككُّمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ في بُروجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقالَ الأخْطَلُ:

كَأَنَّها بُرْجُ رومِيٍّ يُشَيِّدُهُ   بانٍ بِجِصٍّ وَآجُرٍّ وَأَحْجارِ

قالَ الأعْمَشُ: كانَ أصحابُ عَبْدِاللهِ يَقْرَؤونَها: «تَبارَكَ الذي جَعَلَ في السَّماءِ قصورًا».

وأمَّا المتأخِّرونَ مِن المفسِّرينَ؛ فكثيرٌ منهُم يَذْهَبُ إلى أنَّها البروجُ الاثنا عشرَ التي تَنْقَسِمُ عليها المنازلُ، كلُّ برجٍ منزلتانِ وثلثٌ[1].

وهٰذهِ المنازلُ الثَّمانيةُ والعشرونَ يَبْدو منها للنَّاظرِ أربعةَ عشرَ منزلاً أبدًا ويَخْفى

---

(١) في ط: «منزلتان وثلاث»! وهٰذه سوء قراءة للأصل، كان المتقدّمون يكتبون الثلاث بغير ألف، فٱختلط على القارئ الثلث بالثلاث. ومن الواضح أنّ ١٢ برجًا، كلّ برج منزلتان وثلث، وهٰذا يساوي ٢٨ منزلة، وهي منازل القمر المعروفة المشهورة عند الفلكيّين.

منها أربعةَ عشرَ منزلاً، كما أنَّ البروجَ يَظْهَرُ منها أبدًا ستَّةٌ ويَخْفى ستَّةٌ. والعربُ تُسَمِّي أربعةَ عشرَ منزلاً منها شاميَّةً وأربعةَ عشرَ يَمانِيَةً: فأوَّلُ الشَّاميَّةِ الشَّرَطانُ[١] وآخرُها السِّماكُ الأعزلُ، وأوَّلُ اليَمانِيَةِ الغَفْرُ وآخرُها الرِّشاءُ. إذا طَلَعَ منها منزلٌ مِن المشرقِ؛ غابَ رقيبُهُ مِن الغربِ، وهوَ الخامسَ عشرَ[٢]. وبها تَنْقَسِمُ فصولُ السَّنَةِ الأربعُ: فللرَّبيعِ منها الحَمَلُ والثَّوْرُ والجَوْزاءُ، ومنازلُها الشَّرَطانُ والبَطينُ والثُّرَيَّا والدَّبَرانِ والهَقْعَةُ والهَنْعَةُ والذِّراعُ. وللصَّيفِ منها السَّرَطانُ والأسَدُ والسُّنْبُلَةُ[٣]، ومنازلُها النَّثْرَةُ والطَّرْفُ[٤] والجَبْهَةُ والزُّبْرَةُ والصَّرْفَةُ والعَوَّاءُ والسِّماكُ. وللخريفِ منها المِيزانُ والعَقْرَبُ والقَوْسُ، ومنازلُها الغَفْرُ والزُّباني[٥] والإكْليلُ والقَلْبُ والشَّوْلَةُ والنَّعائِمُ والبَلْدَةُ. وللشِّتاءِ منها الجَدْيُ والدَّلْوُ والحُوتُ، ومنازلُها سَعْدُ الذَّابِحِ وسَعْدُ بَلَعَ وسَعْدُ السُّعودِ وسَعْدُ الأخبيةِ والفَرْغُ المُقَدَّمُ ويُسَمَّى الأوَّلَ والفَرْغُ[٦] المُؤَخَّرُ ويُسَمَّى الثَّانيَ والرِّشاءُ[٧].

ولمَّا كانَ نزولُ القمرِ في هٰذِهِ المنازلِ معلومًا بالعيانِ والمشاهدةِ ونزولُ الشَّمسِ فيها إنَّما هوَ بالحسابِ لا بالرُّؤيةِ؛ قالَ تَعالى: ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نورًا وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ﴾ [يونس: ٥]، وقالَ تَعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْري لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذٰلِكَ تَقْديرُ العَزيزِ العَليم. وَالقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالعُرْجونِ القَديم﴾ [يَس: ٣٨-٣٩][٨]. فخَصَّ القمرَ بذكرِ تقديرِ المنازلِ دونَ الشَّمسِ، وإنْ كانَتْ مقدَّرةَ المنازلِ؛ لظهورِ ذٰلكَ للحسِّ في القمرِ، وظهورِ تفاوتِ نورِهِ بالزِّيادةِ والنُّقصانِ في كلِّ

---

(١) في ط: «فأوّل الشاميّة السرطان»! وهٰذا تصحيف بيّن، والسرطان برج وليس منزلة، والشرطان منزلة من برج الحمل، لا علاقة لها ببرج السرطان.

(٢) ورقيب الثاني السادس عشر والثالث السابع عشر... إلخ.

(٣) وهي العذراء في المشهور اليوم عند البرّاجين.

(٤) ومنهم من يسمّيها الطَّرْفَةَ.

(٥) في ط: «والزّبان»! وهٰذا خطأ صوابه ما أثبتّه، وهٰذا المنزل نجمان يسمّيان زُبانَيا العقرب.

(٦) في ط: «والفرع المقدّم ويسمّى الأوّل والفرع»! وهٰذا تصحيف و«الفرغ» بالمعجمة لا بالمهملة.

(٧) والمشهور في الفرغ الأوّل أو المقدّم أن يسمّى مقدّم الدلو، والفرغ الثاني أو المؤخّر أن يسمّى مؤخّر الدلو، والمشهور في الرِّشاء أن يسمّى بطن الحوت.

(٨) حتّى عاد: حتّى صار. والعرجون: أصل عنقود الرطب. القديم: هٰذا العود إذا مضت عليه الأيّام جفّ ومال فصار كالهلال.

منزلٍ منزلٍ[(١)].

ولذلكَ كانَ الحسابُ القمريُّ أشهرَ وأعرفَ عندَ الأُممِ وأبعدَ مِن الغلطِ وأصحَّ للضبطِ مِن الحسابِ الشَّمسيِّ ويَشْتَرِكُ فيهِ النَّاسُ دونَ الحسابِ الشَّمسيِّ[(٢)].

ولهٰذا قالَ تَعالى في القمرِ: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ وَالحِسابَ﴾ [يونس: ٥]، ولمْ يَقُلْ ذٰلكَ في الشَّمسِ.

ولهٰذا كانَتْ أشهرُ الحجِّ والصَّومِ والأعيادُ ومواسمُ الإسلامِ إنَّما هيَ على حسابِ القمرِ وسيرِهِ ونزولِهِ في منازلِهِ لا على حسابِ الشَّمسِ وسيرِها؛ حكمةً مِن اللهِ ورحمةً وحفظًا لدينِهِ؛ لاشتراكِ النَّاسِ في هٰذا الحسابِ وتعذُّرِ الغلطِ والخطإِ فيهِ، فلا يَدْخُلُ في الدِّينِ مِن الاختلافِ والتَّخليطِ ما دَخَلَ في دينِ أهلِ الكتابِ[(٣)].

فهٰذا الذي أَخْبَرَنا تَعالى بِهِ مِن شأْنِ المنازلِ وسيرِ القمرِ فيها وجعلِ الشَّمسِ سراجًا وضياءً يُبْصِرُ بِهِ الحيوانُ، ولولا ذٰلكَ لمْ يُبْصِرِ الحيوانُ، فأينَ هٰذا ممَّا يَدَّعيهِ الكذَّابونَ مِن علمِ الأحكامِ التي كذبُها أضعافُ صدقِها؟!

● **فصلٌ**: وأمَّا ما ذَكَرَهُ عن إبراهيمَ خليلِ الرَّحْمٰنِ أنَّهُ تَمَسَّكَ بعلمِ النُّجومِ حينَ قالَ: إنِّي سقيمٌ؛ فمِن الكذبِ والافتراءِ على خليلِ الرَّحْمٰنِ ﷺ؛ فإنَّهُ ليسَ في الآيةِ أكثرُ مِن أنَّهُ نظرَ نظرةً في النُّجومِ ثمَّ قالَ لهُم: إنِّي سقيمٌ!

فمَن ظَنَّ مِن هٰذا أنَّ علمَ أحكامِ النُّجومِ مِن علمِ الأنبياءِ وأنَّهُم كانوا يُراعونَهُ ويُعانونَهُ؛ فقد كَذَبَ على الأنبياءِ ونَسَبَهُم إلى ما لا يَليقُ، وهوَ مِن جنسِ مَن نَسَبَهُم إلى الكهانةِ والسِّحرِ وزَعَمَ أنَّ تلقِّيَهُمُ الغيبَ مِن جنسِ تلقِّي غيرِهِم، وإنْ كانوا فوقَهُم في ذٰلكَ لكمالِ نفوسِهِم وقوَّةِ ٱستعدادِها وقبولِها لفيضِ العلويَّاتِ عليها[(٤)]!

هٰؤلاءِ لمْ يَعْرِفوا الأنبياءَ ولا آمَنوا بهِم، وإنَّما هُم عندَهُم بمنزلةِ أصحابِ

---

(١) بخلاف الشمس التي يطمس نورها ضوء النجوم فيعسر تقدير منازلها وحسابها على غير الخبير.

(٢) لٰكنّ الحساب الشمسيّ ضروريّ لمعرفة الفصول والحرّ والبرد والرياح والأمطار وأوقات الزرع وأوقات الصيد البرّيّ والبحريّ وغير ذٰلك من الأمور التي لا تصلح معايش الناس إلّا بها. فتنبّه.

(٣) ولا يتحكّم أهل الكتاب بآلاتهم وأرصادهم في أعياد أمّة الإسلام ومواسمها فلله الحكمة البالغة.

(٤) وهو قول الفلاسفة كما تقدّم (٢/ ٤٩٢-٤٩٣).

الرِّياضاتِ الذينَ خُصُّوا بقوَّةِ الإدراكِ وزكاةِ النُّفوسِ وزكاةِ الأخلاقِ ونَصَبوا أنفسَهُم لإصلاحِ النَّاسِ وضبطِ أُمورِهِم!

ولا ريبَ أنَّ هٰؤلاءِ أبعدُ الخلقِ عنِ الأنبياءِ وأتباعِهِم ومعرفتِهِم ومعرفةِ مرسلِهِم وما أرْسَلَهُم بهِ، هٰؤلاءِ في شأْنٍ والرُّسلُ في شأْنٍ آخرَ، بل هُم ضدُّهُم في علومِهِم وأعمالِهِم وهديِهِم وإرادتِهِم وطرائقِهِم ومعادِهِم وفي شأْنِهِم كلِّهِ. ولهٰذا نَجِدُ أتباعَ هٰؤلاءِ ضدَّ أتباعِ الرُّسلِ في العلومِ والأعمالِ والهدى والإراداتِ.

ومتى بَعَثَ اللهُ رسولاً يُعاني التَّنجيمَ والزِّيجاتِ والطِّلَّسْماتِ والأوفاقَ والتَّداخينَ والبَخُوراتِ[1] ومعرفةَ القِراناتِ والحكمَ على الكواكبِ بالسُّعودِ والنُّحوسِ والحرارةِ والبرودةِ والذُّكورةِ والأُنوثةِ؟! وهل هٰذا إلاَّ صنائعُ المشركينَ وعلومُهُم؟! وهل بُعِثَتِ الرُّسلُ إلاَّ بالإنكارِ على هٰؤلاءِ ومحقِهِم ومحقِ علومِهِم وأعمالِهِم مِن الأرضِ؟! وهل للرُّسلِ أعداءٌ بالذَّاتِ إلاَّ هٰؤلاءِ ومَن سَلَكَ سبيلَهُم؟!

وهٰذا معلومٌ بالاضطرارِ لكلِّ مَن آمَنَ بالرُّسلِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِم وصَدَّقَهُم فيما جاؤوا بهِ وعَرَفَ مسمَّى رسولِ اللهِ وعَرَفَ مرسلَهُ.

وهل كانَ لإبْراهيمَ الخليلِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عدوٌّ مثلُ هٰؤلاءِ المنجِّمينَ الصَّابئينَ؟! وحَرَّانُ كانَتْ دارَ مملكتِهِم، والخليلُ أعدى عدوٍّ لهُم، وهمُ المشركونَ حقًّا، والأصنامُ التي كانوا يَعْبُدونَها كانَتْ صورًا وتماثيلَ للكواكبِ، وكانوا يَتَّخِذونَ لها هياكلَ ـ وهيَ بيوتُ العباداتِ ـ لكلِّ كوكبٍ منها هيكلٌ فيهِ أصنامٌ تُناسِبُهُ، فكانَتْ عبادتُهُم للأصنامِ وتعظيمُهُم لها تعظيمًا منهُم للكواكبِ التي وَضَعوا الأصنامَ عليها وعبادةً لها.

وهٰذا أقوى السَّببينِ في الشِّركِ الواقعِ في العالمِ، وهوَ الشِّركُ بالنُّجومِ وتعظيمُها واْعتقادُ أنَّها[2] أحياءٌ ناطقةٌ ولها روحانيَّاتٌ تَتَنَزَّلُ على عائديها ومخاطبيها. فصَوَّروا لها

---

(١) الزيجات: جداول حركات الكواكب. الطلسم: العقد الذي لا يحلّ، وهو نوع من الأقفال السرّيّة التي تحتاج إلى الذكاء والاحتيال لفتحها. الأوفاق: الأحيان، فالظاهر أنّها ترتيب الأمور بحسب الطوالع ونحوها. والتداخين والبخورات: مشهورة من أعمال السحرة والمخرّفين.

(٢) في ط: «واْعتقاده أنّها»! والصواب ما أثبتّه.

الصُّورَ الأرضيَّةَ، ثمَّ جَعَلوا عبادتَها وتعظيمَها ذريعةً إلى عبادةِ تلكَ الكواكبِ وٱستنزالِ روحانيَّاتِها، وكانَتِ الشَّياطينُ تتنَزَّلُ عليهِم وتُخاطِبُهُم وتُكَلِّمُهُم وتُريهِم مِن العجائبِ ما يَدْعوهُم إلى بذلِ نفوسِهِم وأولادِهِم وأموالِهِم لتلكَ الأصنامِ والتَّقرُّبِ إليها. وكانَ مبدأُ هٰذا الشِّركِ تعظيمَ الكواكبِ وظنَّ السُّعودِ والنُّحوسِ وحصولِ الخيرِ والشَّرِّ في العالمِ منها. وهٰذا هو شركُ خواصِّ المشركينَ وأربابِ النَّظرِ منهُم، وهوَ شركُ قومِ إبْراهيمَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

والسَّببُ الثَّاني: عبادةُ القبورِ والإشراكُ بالأمواتِ، وهوَ شركُ قومِ نوحٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهوَ أوَّلُ شركٍ طَرَقَ العالمَ، وفتنتُهُ أعمُّ، وأهلُ الابتلاءِ بهِ أكثرُ، وهُم جمهورُ أهلِ الإشراكِ.

وكثيرًا ما يَجْتَمِعُ السَّببانِ في حقِّ المشركِ؛ يَكونُ مقابريًّا نجوميًّا.

قالَ تَعالى عن قومِ نوحٍ: ﴿وَقالوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُواعًا وَلا يَغوثَ وَيَعوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. قالَ البخاريُّ في «صحيحه»[2]: قالَ ٱبنُ عَبَّاسٍ: كانَ هٰؤلاءِ رجالاً صالحينَ مِن قومِ نوحٍ، فلمَّا هَلَكوا؛ أوْحى الشَّياطينُ إلى قومِهِم أنِ ٱنْصِبوا على مجالِسِهِمُ التي كانوا يَجْلِسونَ عليها أنصابًا وسَمُّوها بأسمائِهِم، ففَعَلوا، فلمْ تُعْبَدْ، حتَّى إذا هَلَكَ أُولٰئكَ ونُسِخَ العلمُ عُبِدَتْ.

ولهٰذا لَعَنَ النَّبيُّ ﷺ الذينَ ٱتَّخذوا قبورَ أنبيائِهِم مساجدَ[3].

ونَهى عنِ الصَّلاةِ إلى القبورِ[4].

وقالَ: «اللهمَّ! لا تَجْعَلْ قبري وثنًا يُعْبَدُ»[5].

---

(١) وشرك المنجّمين والبرّاجين ومن أتاهم أو صدّقهم ولو أظهر العبادة والنسك وسلامة العقيدة.

(٢) (٦٥ـ التفسير، ٧١ـ نوح، ١ـ ﴿ودًّا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق﴾، ٨/ ٦٦٧/ ٤٩٢٠).

(٣) رواه: البخاري (٨ـ الصلاة، ٥٥ـ باب، ١/ ٥٣٢/ ٤٣٥ و٤٣٦ و٤٣٧)، ومسلم (٥ـ المساجد، ٣ـ النهي عن بناء المساجد على القبور، ١/ ٣٧٧/ ٥٣٠ و٥٣١)؛ من حديث عائشة وابن عبّاس وأبي هريرة.

(٤) رواه مسلم (١١ـ الجنائز، ٣٣ـ الجلوس على القبر، ٢/ ٦٦٨/ ٩٧٢) عن أبي مرثد الغنويّ.

(٥) (صحيح). وقد جاء من أوجه:

* فرواه أوّلاً: عبدالرزّاق (١٥٩١٦) من طريقين، عن صفوان بن سليم، عن سعيد بن أبي سعيد مولى المهريّ، عن النبيّ ﷺ. وهٰذا معضل قويّ.

وقالَ: «اْشْتَدَّ غضبُ اللهِ على قومٍ اتَّخَذوا قبورَ أنبيائِهِم مساجدَ»[١].

وقالَ: «إنَّ مَن كانَ قبلَكُم كانوا يَتَّخِذونَ قبورَ أنبيائِهِم مساجدَ، ألا فلا تَتَّخِذوا القبورَ مساجدَ؛ فإنِّي أنْهاكُم عن ذٰلكَ»[٢].

وأَخْبَرَ أنَّ هٰؤلاءِ شرارُ الخلقِ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ[٣].

وهٰؤلاءِ هُم أعداءُ نوحٍ كما أنَّ المشركينَ بالنُّجومِ أعداءُ إبْراهيمَ، فنوحٌ عاداهُ المشركونَ بالقبورِ وإبْراهيمُ عاداهُ المشركونَ بالنُّجومِ، والطَّائفتانِ صَوَّروا الأصنامَ على صورِ معبوديهِم ثمَّ عَبَدوها.

وإنَّما بُعِثَتِ الرُّسلُ بمحقِ الشِّركِ مِن الأرضِ ومحقِ أهلِهِ وقطعِ أسبابِهِ وهدمِ بيوتِهِ ومحاربةِ أهلِهِ؛ فكيفَ يُظَنُّ بإمامِ الحنفاءِ وشيخِ الأنبياءِ وخليلِ ربِّ الأرضِ والسَّماءِ أنَّهُ كانَ يَتَعاطى علمَ النُّجومِ ويأْخُذُ منهُ أحكامَ الحوادثِ؟! سبحانَكَ! هٰذا بهتانٌ عظيمٌ.

= * ورواه ثانيًا: عبدالرزّاق (١٥٨٧)، وابن أبي شيبة (٧٥٤٣ و١١٨١٩)؛ من طريقين قويّين، عن زيد بن أسلم، عن النبيّ ﷺ. وهٰذا معضل قويّ.

لٰكن رواه: مالك في «الموطأ» (١/ ١٧٢)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٣٧٠)؛ عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن النبيّ ﷺ. وهٰذا مرسل قويّ.

ورواه: البزّار (٢٨٦ـ مختصر الزوائد)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٥/ ٤٢)؛ من طريق عمر بن صهبان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء، عن أبي سعيد، عن النبيّ ﷺ... رفعه. قال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣١): «فيه عمر بن صهبان، وقد أجتمعوا على ضعفه».

والإرسال هنا زيادة ثقة يتعيّن المصير إليها، بخلاف الوصل فإنّه زيادة ضعيف منكرة، فالمرسل هنا هو الراجح المعروف والمعضل يقوّيه.

* ورواه ثالثًا: الحميدي (١٠٢٥)، وابن سعد (٢/ ٣٧٠)، وأحمد (٢/ ٢٤٦)، والبخاري في «التاريخ» (٣/ ٤٧)، وأبو يعلى (٦٦٨١)، وأبو نعيم (٧/ ٣١٧)، وابن عبدالبرّ (٥/ ٤٣ و٤٤)؛ من طريق حمزة بن المغيرة الكوفي، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة... رفعه بهٰذا اللفظ وبلفظ قريب منه. قال الهيثمي (٤/ ٥): «فيه إسحاق بن أبي إسرائيل، وفيه كلام لوقفه في القرآن، وبقيّة رجاله ثقات». وتعقّبه الألباني بأنّ إسحاق ثقة لا يجرّحه وقفه في القرآن، ثمّ إنّه توبع، وحمزة وسهيل صدوقان، فالسند حسن.

والحديث صحيح غاية بمجموع الأوجه الثلاثة.

(١) (صحيح). قطعة من الحديث المتقدّم قبله، فلها حكمه.

(٢) رواه مسلم (٥ـ المساجد، ٣ـ بناء المساجد على القبور، ١/ ٣٧٧/ ٥٣٢) من حديث جندب.

(٣) قطعة من حديث عائشة الذي رواه: البخاري (٨ـ الصلاة، ٤٨ـ هل تنبش قبور مشركي الجاهليّة، ١/ ٥٢٣/ ٤٢٧)، ومسلم (الموضع السابق، ١/ ٣٧٥/ ٥٢٨).

وإنَّما كانَتِ النَّظرةُ التي نَظَرَها في علمِ النُّجومِ مِن معاريضِ الأفعالِ كما كانَ قولُهُ ﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقولُهُ ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقولُهُ عنِ امرأتِهِ سارَةَ «هٰذِهِ أُختي»[1] مِن معاريضِ المقالِ لِيَتَوَصَّلَ بها إلى غرضِهِ مِن كسرِ الأصنامِ كما تَوَصَّلَ بتعريضِهِ بقولِهِ «هٰذِهِ أُختي» إلى خلاصِها مِن يدِ الفاجرِ.

ولمَّا غَلُظَ فهمُ هٰذا عن كثيرٍ مِنَ النَّاسِ[2] وكَثُفَتْ طباعُهُم عن إدراكِهِ؛ ظَنُّوا أنَّ نظرَهُ في النُّجومِ لِيَسْتَنْبِطَ منها علمَ الأحكامِ، وعَلِمَ أنَّ نجمَهُ وطالعَهُ يَقْضي عليهِ بالسَّقمِ! وحاشى للهِ أنْ يُظَنَّ ذٰلكَ بخليلِهِ ﷺ أو بأحدٍ مِن أتباعِهِ.

وهٰذا مِن جنسِ معاريضِ يوسُفَ الصِّدِّيقِ ﷺ حينَ تفتيشِ أوعيةِ أخيهِ عنِ الصَّاعِ؛ فإنَّ المفتِّشَ بدأَ بأوعيتِهِم معَ علمِهِ أنَّهُ ليسَ فيها، وأخَّرَ وعاءَ أخيهِ معَ علمِهِ أنَّهُ فيها، تعريضًا بأنَّهُ لا يَعْرِفُ في أيِّ وعاءٍ هيَ، ونفيًا للتُّهمةِ عنهُ بأنَّهُ لو كانَ عالمًا في أيِّ الأوعيةِ هيَ؛ لَبادَرَ إليها ولمْ يُكَلِّفْ نفسَهُ تعبَ التَّفتيشِ لغيرِها.

فلهٰذا نَظَرَ الخليلُ ﷺ في النُّجومِ نظرَ توريةٍ وتعريضٍ محضٍ يَنْفي بهِ عنهُ تهمةَ قومِهِ ويَتَوَصَّلُ بهِ إلى كيدِ أصنامِهِم.

● **فصلٌ**: وأمَّا الاستدلالُ بقولِهِ تَعالى ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وأنَّ المرادَ بهِ كبرُ القدرِ والشَّرفِ لا كبرُ الجثَّةِ؛ ففي غايةِ الفسادِ؛ فإنَّ المرادَ مِنَ الخلقِ هاهنا الفعلُ لا نفسُ المفعولِ، وهٰذا مِن أبلغِ الأدلَّةِ على المعادِ؛ أي: أنَّ الذي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ ـ وخلقُها أكبرُ مِن خلقِكُم ـ كيفَ يُعْجِزُهُ خلقُكُم بعدَما تَموتونَ خلقًا جديدًا؟!

ونظيرُ هٰذا في قولِهِ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]؛ أي: مثلَ هٰؤلاءِ المنكرينَ. فهٰذا استدلالٌ بشمولِ القدرةِ للنَّوعينِ، وأنَّها صالحةٌ لهُما، فلا يَجوزُ أنْ يُثْبَتَ تعلُّقُها بأحدِ المقدورينِ دونَ الآخرِ.

---

(١) متّفق عليه. تقدّم تخريجه (٢/ ٣٤٠).

(٢) لا والله؛ ما غلظ فهم هٰذا إلاّ على المنجّمين ومن سلك سبيلهم من أهل الضلالة، وما رأيت أحدًا من عامّة الناس وجهلتهم يتجرّأ على مثل هٰذا، سبحانك هٰذا بهتان عظيم.

فكذٰلكَ قولُهُ: ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]؛ أي: مَن لمْ تَعْجَزْ قدرتُهُ عن خلقِ العالمِ العلويِّ والسُّفليِّ؛ كيفَ يَعْجَزُ عن خلقِ النَّاسِ خلقًا جديدًا بعدَما أماتَهُم؟! ولا تعرُّضَ في هٰذا لأحكامِ النُّجومِ بوجهٍ قطُّ ولا لتأثيرِ الكواكبِ.

● وأمَّا قولُهُ تَعالى ﴿وَيَتَفَكَّرونَ في خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً﴾ [آل عمران: ١٩١]؛ فلا ريبَ أنَّ خلقَ السَّماواتِ والأرضِ مِن أعظمِ الأدلَّةِ على وجودِ فاطرِهما وكمالِ قدرتِهِ وعلمِهِ وحكمتِهِ وٱنفرادِهِ بالرُّبوبيَّةِ والوحدانيَّةِ، ومَن سَوَّى بينَ ذٰلكَ وبينَ البقَّةِ وجَعَلَ العبرةَ والدّلالةَ والعلمَ بوجودِ الرَّبِّ الخالقِ البارئ المصوِّرِ منهُما سواءً؛ فقد كابَرَ.

واللهُ سبحانَهُ إنَّما يَدْعو عبادَهُ إلى النَّظرِ والفكرِ في مخلوقاتِهِ العظامِ؛ لظهورِ أثرِ الدّلالةِ فيها، وبديعِ عجائبِ الصَّنعةِ والحكمةِ فيها، وٱتِّساعِ مجالِ الفكرِ والنَّظرِ في أرجائِها. وإلَّا؛ ففي كلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ تَدُلُّ على أنَّهُ واحدٌ. ولٰكنْ؛ أينَ الآيةُ والدّلالةُ في خلقِ العالمِ العلويِّ والسُّفليِّ إلى خلقِ القملةِ والبرغوثِ والبقَّةِ؟! فكيفَ يَسْمَحُ لعاقلٍ عقلُهُ أنْ يُسَوِّيَ بينَهُما ويَجْعَلَ الدّلالةَ مِن هٰذا كالدّلالةِ مِن الآخرِ؟!

واللهُ سبحانَهُ إنَّما يَذْكُرُ مِن مخلوقاتِهِ للدّلالةِ عليهِ أشرفَها وأظهرَها للحسِّ والعقلِ وأبينَها دلالةً وأعجبَها صنعةً كالسَّماءِ والأرضِ والشَّمسِ والقمرِ والليلِ والنَّهارِ والنُّجومِ والجبالِ والسَّحابِ والمطرِ وغيرِ ذٰلكَ مِن آياتِهِ، ولا يَدْعو عبادَهُ إلى التَّفكُّرِ في القملِ والبراغيثِ والبعوضِ والبقِّ والكلابِ والحشراتِ ونحوِها، وإنَّما يَذْكُرُ ما يَذْكُرُ مِن ذٰلكَ في سياقِ ضربِ الأمثالِ مبالغةً في الاحتقارِ والضَّعفِ: كقولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ تَدْعونَ مِنْ دونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقوا ذُبابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣]، فهُنا لمْ يُذْكَرِ الذُّبابُ في سياقِ الدّلالةِ على إثباتِ الصَّانعِ تَعالى. وكذٰلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحيي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعوضَةً فَما فَوْقَها﴾ [البقرة: ٢٦]. وكذٰلكَ قولُهُ: ﴿مَثَلُ الَّذينَ ٱتَّخَذوا مِن دونِ اللهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ العَنْكَبوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]. فتأمَّلْ ذكرَ هٰذهِ المخلوقاتِ الحقيرةِ

في أيِّ سياقٍ وذكرَ المخلوقاتِ العظيمةِ في أيِّ سياقٍ[١]!

وأمَّا قولُ مَن قالَ مِن المتكلِّمينَ المتكلِّفينَ: إنَّ دلالةَ حصولِ الحياةِ في الأبدانِ الحيوانيَّةِ أقوى مِن دلالةِ السَّماواتِ والأرضِ على وجودِ الصَّانعِ تَعالى؛ فبناءُ هٰذا القائلِ على الأصلِ الفاسدِ، وهوَ إثباتُ الجوهرِ الفردِ، وأنَّ تأْثيرَ الصَّانعِ تَعالى في خلقِ العالمِ العلويِّ والسُّفليِّ هوَ تركيبُ تلكَ الجواهرِ وتأْليفُها هٰذا التَّأْليفَ الخاصَّ، والتَّركيبُ جنسُهُ مقدورٌ للبشرِ وغيرِهِم، وأمَّا الإحداثُ والاختراعُ؛ فلا يَقْدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ.

والقولُ بالجوهرِ الفردِ وبناءُ المبدإِ والمعادِ عليهِ هوَ[٢] مِن أُصولِ المتكلِّمينَ الفاسدةِ التي نازَعَهُم فيها جمهورُ العقلاءِ؛ قالوا: وخلقُ اللهِ تَعالى وإحداثُهُ لِما يُحْدِثُهُ

---

(١) وأحبّ أن أسجّل هنا ملاحظات:

أوّلاً: من البيّن أنّ خلق الكون أعظم بكثير من خلق الإنسان، وهو أعظم بالتالي من خلق بقيّة أحياء المملكتين النباتيّة والحيوانيّة؛ لأنّ الإنسان أرقى الأحياء وأكملها. وقوله تعالى ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ كلام فصل في هٰذه القضيّة لا يرغب عنه إلاّ من سفه نفسه.

ثانيًا: لٰكن هل يقتضي كون خلقها أكبر أن تكون دلالتها على خالقها أكبر؟ هٰذا راجح جدًّا، وهو مقتضى الكلام، ولأجله سيقت الآية. والله أعلم.

ثالثًا: لٰكن كون دلالة خلق الكون أعظم لا يقتضي بالضرورة كون الاستدلال به أعظم؛ لأنّ الاستدلال يتفاوت بين شخص وشخص وعصر وعصر فالطبيب وعالم الحيوان والنبات أعظم استدلالاً بعجائب الأحياء على الخالق، بخلاف الفيزيائيّ والفلكيّ اللذين يعتبران أكثر بما يريانه من عظمة الكون وبديع صنعه والدقّة العظيمة في بنائه. وكذٰلك فعموم الناس اليوم أعظم اعتبارًا بعجائب الطبّ ودقائق علم الحيوان والنبات والكيمياء الحيويّة منهم بدقائق الفلك؛ لأنّ تلك العلوم خطت خطوات واسعة في هٰذا العصر بخلاف الفلك الذي ما زالت الأبحاث فيه كذرّة في مجرّة. ومن هنا نفهم بعض أسرار جمع الله سبحانه بين أنواع الاعتبار المختلفة في غير آية كقوله تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾.

رابعًا: وعليه؛ فمن قال إنّ الاستدلال بالبقّة أعظم من الاستدلال بالكون: فإن كان كلامه بالنسبة لنفسه أو لفئة معيّنة من أهل العلم؛ فلا إشكال. وإن كان يقصد الإطلاق والتعميم؛ فهٰذه مجازفة عظيمة، أقلّ ما يقال لصاحبها: ماذا تعرف أنت عن الكون؟! وبكم كوكب ونجم وجرم من أجرامه أحطت؟!

وأخيرًا: فقد أودع الله جلّ وعلا في هٰذا الكون أرضيّه وفضائيّه حيّه وجامده من عجائب الصنعة ودقائق التقدير ولطائف التدبير ما أعجز المتبحّرين من أهل العلوم كافّة وأخضعهم وأذلّهم، وليس شيء من ذٰلك بالمستحقر ولا المستهان به، بل في هٰذا الذباب والبعوض ونحوه من العجائب ما تعجز المجلّدات عن ذكر بعضه فضلاً عن الإحاطة به.

(٢) في ط: «عليه ممّا هو»، وله وجه واه عسر، وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

مِن أجسامِ العالمِ هوَ إحداثٌ لأجزائِها وذواتِها لا مجرَّدُ تركيبِ الجواهرِ منفردةً، ثمَّ قد فَرَغَ مِن خلقِها، وصنعُهُ وإبداعُهُ الآنَ إنَّما هوَ في تأليفِها وتركيبِها.

وهٰذا مِن أقوالِ أهلِ البدعِ التي ٱبْتَدَعوها في الإسلامِ وبَنَوا عليها المعادَ وحدوثَ العالمِ فسَلَّطوا عليهِم أعداءَ الإسلامِ ولَمْ يُمْكِنْهُم كسرُهُم لمَّا بَنَوُا المبدأَ والمعادَ على أمرٍ وهميٍّ خياليٍّ وظَنُّوا أنَّهُ لا يَتِمُّ لهُمُ القولُ بحدوثِ العالمِ وإعادةِ الأجسامِ إلَّا بهِ، وأقامَ منازِعوهُم حججًا كثيرةً جدًّا على بطلانِ القولِ بالجوهرِ وٱعْتَرَفوا هُم بقوَّةِ كثيرٍ منها وصحَّتِهِ فأَوْقَعَ ذٰلكَ شكًّا لكثيرٍ منهُم في أمرِ المبدإِ والمعادِ لبنائِهِ على شفا جرفٍ هارٍ.

وأمَّا أئمَّةُ الإسلامِ وفحولُ النُّظَّارِ؛ فلمْ يَعْتَمِدوا على هٰذهِ الطَّريقةِ، وهيَ عندَهُم أضعفُ وأوهى مِن أنْ يَبْنوا عليها شيئًا مِن الدِّينِ فضلًا عن حدوثِ العالمِ وإعادةِ الأجسامِ، وإنَّما ٱعْتَمَدوا على الطُّرقِ التي أرْشَدَ اللهُ سبحانَهُ إليها في كتابِهِ، وهيَ حدوثُ ذاتِ الحيوانِ والنَّباتِ وخلقُ نفسِ العالمِ العلويِّ والسُّفليِّ وحدوثُ السَّحابِ والمطرِ والرِّياحِ وغيرِها مِن الأجسامِ التي يُشاهَدُ حدوثُها بذواتِها لا مجرَّدُ حدوثِ تأليفِها وتركيبِها.

فعندَ القائلينَ بالجوهرِ لا يُشْهَدُ أنَّ اللهَ أحْدَثَ في هٰذا العالمِ شيئًا مِن الجواهرِ، وإنَّما أحْدَثَ تأليفَها وتركيبَها فقط، وإنْ كانَ إحداثُهُ بجواهرِهِ سابقًا متقدِّمًا قبلَ ذٰلكَ. وأمَّا الآنَ؛ فإنَّما تَحْدُثُ الأعراضُ مِن الاجتماعِ والافتراقِ والحركةِ والسُّكونِ فقطْ، وهيَ الأكوانُ عندَهُم. وكذٰلكَ المعادُ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ يُفَرِّقُ أجزاءَ العالمِ ـ وهوَ إعدامُهُ ـ ثمَّ يُؤَلِّفُها ويَجْمَعُها ـ وهوَ المعادُ ـ!

وهٰؤلاءِ ٱحْتاجوا إلى أنْ يَسْتَدِلُّوا على كونِ عينِ الإنسانِ وجوهرِهِ مخلوقةً؛ إذِ المشاهَدُ عندَهُم بالحسِّ دائمًا هوَ حدوثُ أعراضٍ في تلكَ الجواهرِ مِن التَّأليفِ الخالصِ.

وزَعَموا أنَّ كلَّ ما يُحْدِثُهُ اللهُ مِن السَّحابِ والمطرِ والزُّروعِ والثِّمارِ والحيوانِ؛ فإنَّما يُحْدِثُ فيهِ أعراضًا، وهيَ جمعُ الجواهرِ التي كانَتْ موجودةً وتفريقُها.

وزَعَموا أنَّ أحدًا لا يَعْلَمُ حدوثَ عينٍ مِن الأعيانِ بالمشاهدةِ ولا بضرورةِ العقلِ، وإنَّما يُعْلَمُ ذٰلكَ بالاستدلالِ.

وجمهورُ العقلاءِ مِن الطَّوائفِ يُخالِفونَ هٰؤلاءِ ويقولونَ: الرَّبُّ لا يَزالُ يُحْدِثُ الأعيانَ كما دَلَّ على ذٰلكَ الحسُّ والعقلُ والقرآنُ؛ فإنَّ الأجسامَ الحادثةَ بالمشاهدةِ، ذواتُها وأجزاؤُها حادثةٌ بعدَ أنْ لمْ تكُنْ جواهرَ مفرَّقةً فٱجْتَمَعَتْ، ومَن قالَ غيرَ ذٰلكَ؛ فقد كابَرَ الحسَّ والعقلَ؛ فإنَّ كونَ الإنسانِ والحيوانِ مخلوقًا محدَثًا كائنًا بعدَ أنْ لمْ يَكُنْ أمرٌ معلومٌ بالضَّرورةِ لجميعِ النَّاسِ، وكلُّ أحدٍ يَعْلَمُ أنَّهُ حَدَثَ في بطنِ أُمِّهِ بعدَ أنْ لمْ يَكُنْ، وأنَّ عينَهُ حَدَثَتْ، كما قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]. وليسَ هٰذا عندَهُم ممَّا يُسْتَدَلُّ عليهِ بل يُسْتَدَلُّ بهِ، كما هيَ طريقةُ القرآنِ؛ فإنَّهُ جَعَلَ حدوثَ الإنسانِ وخلقَهُ دليلاً لا مدلولاً عليهِ.

وقولُهُم: إنَّ الحادثَ أعراضٌ فقطْ، وإنَّهُ مركَّبٌ مِن الجواهرِ المفردةِ! قولانِ باطلانِ، بل يُعْلَمُ حدوثُ عينِ الإنسانِ وذاتِهِ وبطلانُ الجوهرِ الفردِ. ولو كانَ القولُ بالجوهرِ صحيحًا؛ لمْ يَكُنْ معلومًا إلاَّ بأدلَّةٍ خفيَّةٍ دقيقةٍ، فلا يَكونُ مِن أُصولِ الدِّينِ بل ولا مقدِّمةً فيها، فطريقتُهُم تَتَضَمَّنُ جحدَ المعلومِ ـ وهوَ حدوثُ الأعيانِ الحادثةِ وذواتِها ـ وإثباتَ ما ليسَ بمعلومٍ بل هوَ باطلٌ ـ وهوَ إثباتُ الجوهرِ الفردِ ـ.

وليسَ هٰذا موضعَ ٱستقصاءِ هٰذهِ المسألةِ[1]، والمقصودُ الكلامُ على قولِهِ «إنَّ الاستدلالَ بحصولِ الحياةِ في بنيةِ الحيوانِ على وجودِ الصَّانعِ أقوى مِن دلالةِ تركيبِ الأجرامِ الفلكيَّةِ»، وهوَ مبنيٌّ على هٰذا الأصلِ الفاسدِ.

● **فصلٌ**: وأمَّا ٱستدلالُهُ بقولِهِ تَعالى: ﴿وَما خَلَقْنا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً﴾ [صٓ: ٢٧]؛ فعجبٌ مِن العجبِ! فإنَّ هٰذا مِن أقوى الأدلَّةِ وأبينِها على بطلانِ قولِ المنجِّمينَ والدُّهريَّةِ الذين يُسْنِدونَ جميعَ ما في العالمِ مِن الخيرِ والشَّرِّ إلى النُّجومِ

---

(١) قدّمت (١/ ٦٩) أنّ إثبات الجوهر الفرد أصل صحيح معتمد عند الكيميائيّين المعاصرين تحت ٱسم قانون ٱنحفاظ الكتلة أو قانون لافوازييه، وأنّ الفساد ليس منها بل من عقول من رام أن يخضع لها أفعال ربّ العالمين ومقنّن القوانين. فراجعه كان الله لك.

وحركاتِها واتِّصالاتِها ويَزْعُمونَ أنَّ ما تأتي بهِ مِن الخيرِ والشَّرِّ مغنٍ عن تعريفِ[1] الرُّسلِ والأنبياءِ وكذٰلكَ ما تُعْطيهِ مِن السُّعودِ والنُّحوسِ!

وهٰذا هوَ السَّببُ الذي سُقْنا الكلامَ لأجلِهِ معَهُم لمَّا حَكَيْنا قولَهُم: إنَّهُ لمَّا كانَتِ الموجوداتُ في العالمِ السُّفليِّ مترتِّبةً على تأثيرِ الكواكبِ والرُّوحانيَّاتِ التي هيَ مدبِّراتُ الكواكبِ، وكانَ[2] في اتِّصالاتِها نظرُ سعدٍ ونحسٍ؛ وَجَبَ أنْ يَكونَ في آثارِها حسنٌ وقبحٌ في الخلقِ والأخلاقِ، والعقولُ الإنسانيَّةُ متساويةٌ في النَّوعِ، فوَجَبَ أنْ يُدْرِكَها كلُّ عقلٍ سليمٍ، ولا يَتَوَقَّفُ إدراكُها على مَن هوَ مثلُ ذاكَ العاقلِ في النَّوعِ، ﴿ما هٰذا إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]. . . إلى آخرِ كلامِكُمُ المتضمِّنِ خلقَ السَّماواتِ والأرضِ بغيرِ أمرٍ ولا نهيٍ ولا ثوابٍ ولا عقابٍ!

وهٰذا هوَ الباطلُ الذي نَفاهُ اللهُ سبحانَهُ عن نفسِهِ وأخْبَرَ أنَّهُ ظنُّ أعدائِهِ الكافرينَ.

ولهٰذا اتَّفَقَ المفسِّرونَ على أنَّ الحقَّ الذي خُلِقَتْ بهِ السَّماواتُ والأرضُ هوَ الأمرُ والنَّهيُ وما يَتَرَتَّبُ عليهِما مِن الثَّوابِ والعقابِ، فمَن جَحَدَ ذٰلكَ وجَحَدَ رسالةَ الرُّسلِ وكَفَرَ بالمعادِ وأحالَ حوادثَ العالمِ على حركاتِ الكواكبِ؛ فقد زَعَمَ أنَّ خلقَ السَّماواتِ والأرضِ أبطلُ الباطلِ وأنَّ العالمَ خُلِقَ عبثًا وتُرِكَ سدًى وخُلِّيَ هملاً وغايةُ ما خُلِقَ لهُ أنْ يَكونَ متمتِّعًا باللَّذَّاتِ الحسِّيَّةِ كالبهائمِ في هٰذهِ المدَّةِ القصيرةِ جدًّا ثمَّ يُفارِقُ الوجودَ وتُحْدِثُ حركاتُ الكواكبِ أشخاصًا مثلَهُ هٰكذا أبدًا! فأيُّ باطلٍ أبطلُ مِن هٰذا؟! وأيُّ عبثٍ فوقَ هٰذا؟! ﴿أفَحَسِبْتُمْ أنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثًا وَأنَّكُمْ إلَيْنا لا تُرْجَعونَ . فَتَعالى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لا إلٰهَ إلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَريمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

والحقُّ الذي خُلِقَتْ بهِ السَّماواتُ والأرضُ وما بينَهُما هوَ: إلٰهيَّةُ الرَّبِّ المتضمِّنةُ لكمالِ حكمتِهِ وملكِهِ، وأمرُهُ ونهيُهُ المتضمِّنُ لشرعِهِ، وثوابُهُ وعقابُهُ المتضمِّنُ لعدلِهِ وفضلِهِ ولقائِهِ.

فالحقُّ الذي وُجِدَ بهِ العالمُ كونُ اللهِ سبحانَهُ هوَ الإلٰهَ الحقَّ المعبودَ والآمرَ النَّاهيَ

---

(١) في ط: «والشرّ فعن تعريف»! وفيه تحريف وسقط أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٢) في ط: «وإن كان»! وهٰذه الزيادة من كيس الناسخ على الأغلب.

المتصرِّفَ في الممالكِ بالأمرِ والنَّهي، وذٰلكَ يَسْتَلْزِمُ إرسالَ الرُّسلِ وإكرامَ مَنِ ٱسْتَجابَ لهُم وتمامَ الإنعامِ عليهِ وإهانةَ مَن كَفَرَ بهِم وكَذَّبَهُم وٱختصاصَهُ بالشَّقاءِ[١] والهلاكِ، وذٰلكَ معقودٌ بكمالِ حكمةِ الرَّبِّ تَعالى وقدرتِهِ وعلمِهِ وعدلِهِ وتمامِ ربوبيَّتِهِ وتصرُّفِهِ وٱنفرادِهِ بالإلٰهيَّةِ وجريانِ المخلوقاتِ على موجَبِ حكمتِهِ وإلٰهيَّتِهِ وملكِهِ التَّامِّ وأنَّهُ أهلُ أنْ يُعْبَدَ ويُطاعَ وأنَّهُ أولى مَن أكْرَمَ أحبابَهُ وأولياءَهُ بالإكرامِ الذي يَليقُ بعظمتِهِ وغناهُ وجودِهِ وأهانَ أعداءَهُ المعرضينَ عنهُ الجاحدينَ لهُ المشركينَ بهِ المسوِّينَ بينَهُ وبينَ الكواكبِ والأوثانِ والأصنامِ في العبادةِ بالإهانةِ التي تَليقُ بعظمتِهِ وجلالِهِ وشدَّةِ بأسِهِ.

فهوَ اللهُ العزيزُ العليمُ غافرُ الذَّنبِ وقابلُ التَّوبِ شديدُ العقابِ ذو الطَّولِ لا إلٰهَ إلَّا هوَ إليهِ المصيرُ، وهوَ ذو الرَّحمةِ الواسعةِ الذي لا يُرَدُّ بأْسُهُ عنِ القومِ المجرمينَ، ألا لهُ الخلقُ والأمرُ تَبارَكَ اللهُ ربُّ العالمينَ.

وهوَ سبحانَهُ خَلَقَ العالَمَ العلويَّ والسُّفليَّ بسببِ الحقِّ ولأجلِ الحقِّ وضَمَّنَهُ الحقَّ، فبالحقِّ كانَ وللحقِّ كانَ وعلى الحقِّ ٱشْتَمَلَ، والحقُّ هوَ توحيدُهُ وعبادتُهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وموجَبُ ذٰلكَ ومقتضاهُ قامَ بعدلِهِ الذي هوَ الحقُّ وعلى الحقِّ ٱشْتَمَلَ. فما خَلَقَ اللهُ شيئًا إلَّا بالحقِّ وللحقِّ ونفسُ خلقِهِ لهُ حقٌّ وهوَ شاهدٌ مِن شواهدِ الحقِّ؛ فإنَّ أحقَّ الحقِّ هوَ التَّوحيدُ كما أنَّ أظلمَ الظُّلمِ هوَ الشِّركُ.

ومخلوقاتُ الرَّبِّ تَعالى كلُّها شاهدةٌ لهُ بأنَّهُ اللهُ الذي لا إلٰهَ إلَّا هوَ وأنَّ كلَّ معبودٍ باطلٌ سواهُ، وكلُّ مخلوقٍ شاهدٌ بهٰذا الحقِّ إمَّا شهادةَ نطقٍ وإمَّا شهادةَ حالٍ وإنْ ظَهَرَ بفعلِهِ وقولِهِ خلافُها، كالمشركِ الذي يَشْهَدُ حالُ خلقِهِ وإبداعِهِ وصنعِهِ لخالقِهِ وفاطرِهِ أنَّهُ اللهُ الذي لا إلٰهَ إلَّا هوَ وإنْ عَبَدَ غيرَهُ وزَعَمَ أنَّ لهُ شريكًا، فشاهدُ حالِهِ مكذِّبٌ لهُ مبطلٌ لشهادةِ فعلِهِ وقالِهِ.

وأمَّا قولُهُ: «إنَّهُ لا يُمْكِنُ أنْ يُقالَ: المرادُ أنَّهُ خَلَقَها على وجهٍ يُمْكِنُ الاستدلالُ بها على الصَّانعِ الحكيمِ... إلى آخرِ كلامِهِ»؛ فيُقالُ لهُ: إذا كانَتْ دلالتُها على صانعِها

---

(١) في ط: «بالشفاء»! وهٰذا تصحيف عكس المعنى تمامًا.

أمرًا ثابتًا لها لذواتِها، وذواتُها إنّما وُجِدَتْ بإيجادِهِ وتكوينِهِ؛ كانَتْ دلالتُها بسببِ فعلِ الفاعلِ المختارِ لها.

ولٰكنَّ هٰذا بناءٌ منهُ على أصلٍ فاسدٍ يُكَرِّرُهُ في كتبِهِ، وهوَ أنَّ الذَّواتَ لَيْسَتْ بمجعولةٍ ولا تَتَعَلَّقُ بفعلِ الفاعلِ[1]! وهٰذا ممَّا أنْكَرَهُ عليهِ أهلُ العلمِ والإيمانِ وقالوا: إنَّ كونَها ذواتًا وإنَّ وجودَها وأوصافَها وكلَّ ما يُنْسَبُ إليها هوَ بفعلِ الفاعلِ، فكونُها ذواتًا وما يَتْبَعُ ذٰلكَ مِن دلالتِها على الصَّانعِ كلُّهُ بجعلِ الجاعلِ، فهوَ الذي جَعَلَ الذَّواتَ والصِّفاتِ، وثبوتُ دلالتِها لذاتِها لا تَنْفي أنْ تكونَ بجعلِ الجاعلِ؛ فإنَّهُ لمَّا جَعَلَها على هٰذهِ الصِّفةِ مستلزمةً لدلالتِها عليهِ؛ كانَتْ دلالتُها عليهِ بجعلِهِ.

فإنْ قيلَ: لو قُدِّرَ عدمُ الجاعلِ لها؛ لَمْ يَرْتَفِعْ كونُها ذواتًا، ولو كانَتْ ذواتًا بجعلِهِ؛ لارْتَفَعَ كونُها ذواتًا بتقديرِ ٱرتفاعِهِ!

قيلَ: ما تَعْني بكونِها ذواتًا وماهيَّاتٍ؟ أَتَعْني بهِ تحقُّقَ ذٰلكَ في الخارجِ أو في الذِّهنِ أو أعمَّ منها؟ فإنْ عَنَيْتَ الأوَّلَ؛ فلا ريبَ في بطلانِ كونِها ذواتًا وماهيَّاتٍ على تقديرِ ٱرتفاعِ الجاعلِ. وإنْ عَنَيْتَ الثَّانيَ؛ فالصُّورُ الذِّهنيَّةُ مجعولةٌ لهُ أيضًا؛ لأنَّهُ هوَ الذي عَلَّمَ فأَوْجَدَ الخلائقَ الذِّهنيَّةَ في العلمِ كما أنَّهُ الذي خَلَقَ فأَوْجَدَ الحقائقَ الذِّهنيَّةَ[2] في العينِ، فهوَ الأكرمُ الذي خَلَقَ وعَلَّمَ، فما في الذِّهنِ بتعليمِهِ وما في الخارجِ بخلقِهِ. وإنْ عَنَيْتَ القدرَ المشتركَ بينَ الخارجِ والذِّهنِ ـ وهوَ مسمَّى كونِها ذواتًا وماهيَّاتٍ بقطعِ النَّظرِ عن تقييدِهِ بالذِّهنِ أو الخارجِ ـ؛ قيلَ لكَ: هٰذهِ لَيْسَتْ بشيءٍ ٱلبتَّةَ؛ فإنَّ الشَّيءَ إنَّما يكونُ شيئًا في الخارجِ أو في الذِّهنِ والعلمِ، وما ليسَ لهُ حقيقةٌ خارجيَّةٌ ولا ذهنيَّةٌ فلَيْسَ بشيءٍ بل هوَ عدمٌ صرفٌ، ولا ريبَ أنَّ العدمَ لَيْسَ بفعلِ فاعلٍ ولا جعلِ جاعلٍ.

فإنْ قيلَ: هيَ لا تَنْفَكُّ عن أحدِ الوجودينِ إمَّا الذِّهنيِّ وإمَّا الخارجيِّ، ولٰكنْ نحنُ أَخَذْناها مجرَّدةً عنِ الوجودينِ ونَظَرْنا إليها مِن هٰذهِ الحيثيَّةِ وهٰذا الاعتبارِ ثمَّ حَكَمْنا

---

(١) فأنظر بالله عليك كيف يمكر الشيطان بأهل الكلام ويهزأ بعقولهم ويجري بهم في متاهات لا يجنون منها إلّا جدالات عقيمة لا طائل تحتها ولا تعود على أصحابها إلّا بالحسرات!

(٢) كذا في ط، وله وجه، والغالب أنّه سبق قلم صوابه «الحقائق الخارجيّة».

عليها بقطعِ النَّظرِ عن تقيُّدِها بذهنٍ أو خارجٍ.

قيلَ: الحكمُ عليها بشيءٍ ما يَسْتَلْزِمُ تصوُّرَها لِيُمْكِنَ الحكمُ عليها، وتصوُّرُها معَ أخذِها مجرَّدةً عنِ الوجودِ والذِّهنِ محالٌ!

فإنْ قيلَ: مسلَّمٌ أنَّ ذٰلكَ محالٌ، ولٰكنْ إذا أخَذْناهُ معَ وجودِها الذِّهنيِّ أو الخارجيِّ؛ فهُنا أمرانِ: حقيقتُها وماهيَّتُها، والثَّاني وجودُها الذِّهنيُّ أو الخارجيُّ، فنحنُ أخَذْناها موجودةً وحَكَمْنا عليها مجرَّدةً، فالحكمُ على جزءِ هٰذا المأْخوذِ المتصوَّرِ.

قيلَ: هٰذا القدرُ المأْخوذُ عدمٌ محضٌ كما تَقَدَّمَ، والعدمُ لا يكونُ بجعلِ جاعلٍ.

ونكتةُ المسألةِ أنَّ الذَّواتَ مِن حيثُ هيَ ذواتٌ إمَّا أنْ تكونَ وجودًا أو عدمًا: فإنْ كانَتْ وجودًا؛ فهيَ بجعلِ الجاعلِ، وإنْ كانَتْ عدمًا؛ فالعدمُ كاسمِهِ لا يَتَعَلَّقُ بجعلِ الجاعلِ[1].

● **فصلٌ**: وأمَّا قولُهُ: «إنَّ إبْراهيمَ ﷺ كانَ اعتمادُهُ في إثباتِ الصَّانعِ على الدَّلائلِ الفلكيَّةِ...» كما قَرَّرَهُ؛ فيُقالُ: مِن العجبِ ذكرُكُم لخليلِ الرَّحمٰنِ في هٰذا المقامِ، وهوَ أعظمُ عدوٍّ لعبَّادِ الكواكبِ والأصنامِ التي اتُّخِذَتْ على صورِها، وهُم أعداؤُهُ الذينَ ألْقَوْهُ في النَّارِ، حتَّى جَعَلَها اللهُ عليهِ بردًا وسلامًا، وهوَ ﷺ أعظمُ الخلقِ براءةً منهُم.

وأمَّا ذٰلكَ التَّقريرُ الذي قَرَّرَهُ الرَّازِيُّ في المناظرةِ بينَهُ وبينَ الملكِ المعطِّلِ؛ فممَّا لمْ يَخْطُرْ بقلبِ إبْراهيمَ ولا بقلبِ المشركِ، ولا يَدُلُّ اللفظُ عليها ألبتَّةَ، وتلكَ المناظرةُ التي ذَكَرَها الرَّازِيُّ تُشْبِهُ أنْ تكونَ مناظرةً بينَ فيلسوفٍ ومتكلِّمٍ، فكيفَ يَسوغُ أنْ يُقالَ: إنَّها هيَ المرادةُ مِن كلامِ اللهِ تَعالى، فيُكْذَبَ على اللهِ وعلى خليلِهِ وعلى المشركِ المعطِّلِ؟!

وإبْراهيمُ أعلمُ باللهِ ووحدانيَّتِهِ وصفاتِهِ مِن أنْ يُوحِيَ إليهِ بهٰذهِ المناظرةِ.

ونحنُ نَذْكُرُ كلامَ أئمَّةِ التَّفسيرِ في ذٰلكَ؛ لِيُفْهَمَ معنى المناظرةِ وما دَلَّ عليهِ القرآنُ

---

(١) راجع ما تقدّم (٣/ ١٣٢) لاستكمال تفاصيل هٰذه الشبهة والردود عليها. وهي بالجملة من أسخف وأسفّ ما مرّ بي من الحجج، ولست أدري والله كيف ارتضى الرازي أن يأتي بمثل هٰذا ويحتجّ به وبنحوه من الكلام المتمحّل الذي يضرّ ولا ينفع. نسأل الله السلامة.

مِن تقريرِها:

قالَ ٱبنُ جَريرٍ: معنى الآيةِ: أَلَمْ تَرَ يا مُحَمَّدُ إلى الذي حاجَّ إبْراهيمَ في ربِّهِ حينَ قالَ لهُ إبْراهيمُ: ربِّيَ الذي يُحْيي ويُميتُ؛ يَعْني بذٰلكَ: ربِّيَ الذي بيدِهِ الحياةُ والموتُ يُحْيي مَن يَشاءُ ويُميتُ مَن أرادَ بعدَ الإحياءِ. قالَ: أنا أَفْعَلُ ذٰلكَ فأُحْيي وأُميتُ؛ أَسْتَحْيي مَن أَرَدْتُ قتلَهُ فلا أَقْتُلُهُ فيَكونُ ذٰلكَ منِّي إحياءً لهُ، وذٰلكَ عندَ العربِ يُسَمَّى إحياءً كما قالَ تَعالى: ﴿وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيا النَّاسَ جَميعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وأَقْتُلُ آخرَ، فيَكونُ ذٰلكَ منِّي إماتةً لهُ. قالَ إبْراهيمُ لهُ: فإنَّ اللهَ هوَ الذي يَأْتي بالشَّمسِ مِن مشرِقها، فإنْ كُنْتَ صادقًا أَنَّكَ إلٰهٌ؛ فأْتِ بها مِن مغربِها. قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَبُهِتَ الَّذي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ يَعْني: ٱنْقَطَعَ وبَطَلَتْ حجَّتُهُ.

ثمَّ ذَكَرَ مَن قالَ ذٰلكَ مِن السَّلفِ.

فرَوى عن قَتادَةَ: ذُكِرَ لنا أَنَّهُ دَعا برجلينِ، فقَتَلَ أحدَهُما وٱسْتَحْيا الآخرَ، وقالَ: أنا أُحْيي هٰذا وأُميتُ هٰذا. قالَ إبْراهيمُ عندَ ذٰلكَ: فإنَّ اللهَ يَأْتي بالشَّمسِ مِن المشرقِ فأْتِ بها مِن المغربِ.

وعن مجاهدٍ: أنا أُحْيي وأُميتُ؛ أَقْتُلُ مَن شِئْتُ وأَسْتَحْيي مَن شِئْتُ؛ أَدَعُهُ حيًّا فلا أَقْتُلُهُ.

وقالَ ٱبنُ وَهْبٍ: حَدَّثَني عَبْدُالرَّحْمٰنِ بنُ زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ؛ أَنَّ الجَبَّارَ قالَ لإبْراهيمَ: أنا أُحْيي وأُميتُ، إنْ شِئْتُ قَتَلْتُكَ وإنْ شِئْتُ ٱسْتَحْيَيْتُكَ. فقالَ إبْراهيمُ: إنَّ اللهَ يَأْتي بالشَّمسِ مِن المشرقِ فأْتِ بها مِن المغربِ. فبُهِتَ الذي كَفَرَ.

وقالَ الرَّبيعُ: لمَّا قالَ إبْراهيمُ: ربِّيَ الذي يُحْيي ويُميتُ. قالَ هوَ ـ يَعْني: نِمْرودَ ـ: فأنا أُحْيي وأُميتُ. فدَعا برجلينِ فٱسْتَحْيا أحدَهُما وقَتَلَ الآخرَ وقالَ: أنا أُحْيي وأُميتُ؛ أي: أَسْتَحْيي مَن شِئْتُ. فقالَ إبْراهيمُ: فإنَّ اللهَ يَأْتي بالشَّمسِ مِن المشرقِ.

وقالَ السُّدِّيُّ: لمَّا خَرَجَ إبْراهيمُ مِن النَّارِ؛ أَدْخَلوهُ على الملكِ، ولمْ يَكُنْ قبلَ ذٰلكَ دَخَلَ عليهِ، فكَلَّمَهُ وقالَ لهُ: مَن ربُّكَ؟ قالَ: ربِّيَ الذي يُحْيي ويُميتُ. قالَ نِمْرودُ: أنا أُحْيي وأُميتُ، أنا آخُذُ أربعةَ نفرٍ فأُدْخِلُهُم بيتًا فلا يُطْعَمونَ ولا يُسْقَوْنَ، حتَّى

إذا هَلَكوا مِن الجوعِ؛ أطْعَمْتُ آثنينِ وسَقَيْتُهُما فعاشا، وتَرَكْتُ الاثنينِ فماتا. فعَرَفَ إبْراهيمُ أنَّهُ لهُ قدرةٌ بسلطانِهِ وملكِهِ على أنْ يَفعَلَ ذٰلكَ. قالَ إبْراهيمُ: فإنَّ اللهَ يَأْتي بالشَّمسِ مِن المشرقِ فأْتِ بها مِن المغربِ. فبُهِتَ الذي كَفَرَ وقالَ: إنَّ هٰذا إنسانٌ مجنونٌ فأخْرِجوهُ، ألا تَرَوْنَ أنَّهُ مِن جنونِهِ آجْتَرَأَ على آلهتِكُم فكَسَرَها، وأنَّ النَّارَ لمْ تَأْكُلْهُ؟ وخَشِيَ أنْ يُفْتَضَحَ في قومِهِ، وكانَ يَزْعُمُ أنَّهُ ربٌّ، فأمَرَ بإبْراهيمَ فأُخْرِجَ.

وقالَ مُجاهِدٌ: أُحْيي فلا أقْتُلُ، وأُميتُ مَن قَتَلْتُ.

وقالَ آبنُ جُرَيْجٍ: أُتِيَ برجلينِ، فقَتَلَ أحدَهُما وتَرَكَ الآخرَ، فقالَ: أنا أُحْيي وأُميتُ، فأُميتُ مَن قَتَلْتُ وأُحْيي فلا أقْتُلُ.

وقالَ آبنُ إسْحاقَ: ذُكِرَ لنا ـ واللهُ أعلمُ ـ أنَّ نِمْرودَ قالَ لإبْراهيمَ: أرَأَيْتَ إلٰهَكَ هٰذا الذي تَعْبُدُ وتَدْعو إلى عبادتِهِ تَذْكُرُ مِن قدرتِهِ التي تُعَظِّمُهُ بها على غيرِهِ؛ ما هيَ؟ قالَ إبْراهيمُ: ربِّيَ الذي يُحْيي ويُميتُ. قالَ نِمْرودُ: أنا أُحْيي وأُميتُ. فقالَ لهُ إبْراهيمُ: كيفَ تُحْيي وتُميتُ؟ قالَ: آخُذُ الرَّجلينِ قدِ آسْتَوْجَبا القتلَ في حكمي، فأقْتُلُ أحدَهُما فأكونُ قد أمَتُّهُ، وأعْفو عنِ الآخرِ فأتْرُكُهُ فأكونُ قد أحْيَيْتُهُ. فقالَ لهُ إبْراهيمُ عندَ ذٰلكَ: فإنَّ اللهَ يَأْتي بالشَّمسِ مِن المشرقِ فأْتِ بها مِن المغربِ أعْرِفْ أنَّهُ كما تَقولُ. فبُهِتَ عندَ ذٰلكَ نِمْرودُ، ولمْ يَرْجِعْ إليهِ شيئًا، وعَرَفَ أنَّهُ لا يُطيقُ ذٰلكَ.

فهٰذا كلامُ السَّلفِ في هٰذهِ المناظرةِ، وكذٰلكَ سائرُ المفسِّرينَ بعدَهُم، لمْ يَقُلْ أحدٌ منهُم قطُّ إنَّ معنى الآيةِ أنَّ هٰذا الإحياءَ والإماتةَ حاصلٌ منِّي ومِن كلِّ أحدٍ؛ فإنَّ الرَّجلَ يَكونُ منهُ الحدوثُ بواسطةِ تمزيجِ الطَّبائعِ وتحريكِ الأجرامِ الفلكيَّةِ. . . بل نَقْطَعُ بأنَّ هٰذا لمْ يَخْطُرْ بقلبِ المشركِ المناظرِ آلبتَّةَ، ولا كانَ هٰذا مدارَهُ.

فلا يَحِلُّ تفسيرُ كلامِ اللهِ بمثلِ هٰذهِ الأباطيلِ[1]، ونَسْأَلُ اللهَ أنْ يُعيذَنا مِن القولِ عليهِ بما لمْ نَعْلَمْ؛ فإنَّهُ أعظمُ المحرَّماتِ على الإطلاقِ وأشدُّها إثمًا.

وقد ظَنَّ جماعةٌ مِن الأُصوليِّينَ وأربابِ الجدلِ أنَّ إبْراهيمَ آنْتَقَلَ معَ المشركِ مِن

---

(١) التي تشبه تأويلات الباطنيّة وإشارات الصوفيّة ونحوها.

حجّةٍ إلى حجّةٍ ولمْ يُجبْهُ عن قولِهِ: أنا أُحْيي وأُميتُ. قالوا: وكانَ يُمْكِنُهُ أنْ يُتِمَّ معَهُ الحجَّةَ الأُولى بأنْ يَقولَ: مرادي بالإحياءِ إحياءُ الميِّتِ وإيجادُ الحياةِ فيهِ لا ٱستبقاؤُهُ على حياتِهِ، وكانَ يُمْكِنُهُ تتميمُها بمعارضتِهِ في [حجّتِه][1] نفسِها بأنْ يَقولَ: فأحْيِ مَن أمَتَّ وقتَلْتَ إنْ كُنْتَ صادقًا. ولٰكنِ ٱنْتَقَلَ إلى حجَّةٍ أوضحَ مِن الأُولى فقالَ: إنَّ اللهَ يَأْتي بالشَّمسِ مِن المشرقِ فأْتِ بها مِن المغربِ، فٱنْقَطَعَ المشركُ المعطِّلُ!

ولَيْسَ الأمرُ كما ذَكَروهُ ولا هٰذا ٱنتقالٌ، بل هٰذا مطالبةٌ لهُ بموجَبِ دعواهُ الإلٰهيَّةَ، والدَّليلُ الذي ٱسْتَدَلَّ بهِ إبْراهيمُ قد تَمَّ وثَبَتَ موجَبُهُ، فلمَّا ٱدَّعى الكافرُ أنَّهُ يَفْعَلُ كما يَفْعَلُ اللهُ فيَكونُ إلٰهًا معَ اللهِ؛ طالَبَهُ إبْراهيمُ بموجَبِ دعواهُ مطالبةً تَتَضَمَّنُ بطلانَها فقالَ: إنْ كُنْتَ أنتَ ربًّا كما تَزْعُمُ فتُحْيي وتُميتُ كما يُحْيي ربِّي ويُميتُ؛ فإنَّ اللهَ يَأْتي بالشَّمسِ مِن المشرقِ فتَنْصاعُ لقدرتِهِ وتسخيرِهِ ومشيئتِهِ، فإنْ كُنْتَ أنتَ ربًّا؛ فأْتِ بها مِن المغربِ.

وتَأمَّلْ قولَ الكافرِ: أنا أُحْيي وأُميتُ، ولمْ يَقُلْ: أنا الذي أُحْيي وأُميتُ؛ يَعْني: أنا أفْعَلُ كما يَفْعَلُ اللهُ فأكونُ ربًّا مثلَهُ. فقالَ لهُ إبْراهيمُ: فإنْ كُنْتَ صادقًا؛ فٱفْعَلْ مثلَ فعلِهِ في طلوعِ الشَّمسِ، فإذا أطْلَعَها مِن جهةٍ؛ فأطْلِعْها أنتَ مِن جهةٍ أُخرى.

ثمَّ تَأمَّلْ ما في ضمنِ هٰذهِ المناظرةِ مِن حسنِ الاستدلالِ بأفعالِ الرَّبِّ المشهودةِ المحسوسةِ التي تَسْتَلْزِمُ وجودَهُ وكمالَ قدرتِهِ ومشيئتِهِ وعلمِهِ ووحدانيَّتَهُ مِن الإحياءِ والإماتةِ المشهودينِ اللذينِ لا يَقْدِرُ عليهِما إلاَّ اللهُ وحدَهُ وإتيانِهِ تَعالى بالشَّمسِ مِن المشرقِ [الذي][1] لا يَقْدِرُ أحدٌ سواهُ على ذٰلكَ.

وهٰذا برهانٌ لا يَقْبَلُ المعارضةَ بوجهٍ، وإنَّما لَبَّسَ عدوُّ اللهِ وأوْهَمَ الحاضرينَ أنَّهُ قادرٌ مِن الإحياءِ والإماتةِ على ما هوَ مماثلٌ لمقدورِ الرَّبِّ تَعالى، فقالَ لهُ إبْراهيمُ: فإنْ كانَ الأمرُ كما زَعَمْتَ؛ فأرِني قدرتَكَ على الإتيانِ بالشَّمسِ مِن المغربِ؛ لِتكونَ مماثلةً لقدرةِ اللهِ على الإتيانِ بها مِن المشرقِ.

---

(١) زيادة يستلزمها السياق.

فأينَ الانتقالُ في هٰذا الاستدلالِ والمناظرةِ؟! بل هٰذا مِن أحسنِ ما يَكونُ مِن المناظرةِ، والدَّليلُ الثَّاني مكمِّلٌ لمعنى الدَّليلِ الأوَّلِ ومبيِّنٌ لهُ ومقرِّرٌ لتضمُّنِ الدَّليلينِ أفعالَ الرَّبِّ الدَّالَّةَ عليهِ وعلى وحدانيَّتِهِ وٱنفرادِهِ بالرُّبوبيَّةِ والإلٰهيَّةِ كما لا تَقْدِرُ أنتَ ولا غيرُ اللهِ على مثلِها.

ولمَّا عَلِمَ عدوُّ اللهِ صحَّةَ ذٰلكَ وأنَّ مَن هٰذا شأْنُهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ ولا يَسْتَصْعِبُ عليهِ مرادٌ؛ خافَ أنْ يَقولَ لإبْراهيمَ: فَسَلْ ربَّكَ أنْ يَأْتِيَ بها مِن مغربِها، فيَفْعَلَ ذٰلكَ، فيَظْهَرَ لأتباعِهِ بطلانُ دعواهُ وكذبُهُ وأنَّهُ لا يَصْلُحُ للرُّبوبيَّةِ، فبُهِتَ وأمْسَكَ!

وفي هٰذهِ المناظرةِ نكتةٌ لطيفةٌ جدًّا، وهيَ أنَّ شركَ العالمِ إنَّما يَسْتَنِدُ إلى[1] عبادةِ الكواكبِ والقبورِ ثمَّ صُوِّرَتِ الأصنامُ على صورِها كما تَقَدَّمَ، فتَضَمَّنَ الدَّليلانِ اللذانِ ٱسْتَدَلَّ بهما إبْراهيمُ إبطالَ إلٰهيَّةِ تلكَ جملةً: بأنَّ اللهَ وحدَهُ هوَ الذي يُحْيي ويُميتُ، ولا يَصْلُحُ الحيُّ الذي يَموتُ للإلٰهيَّةِ لا في حالِ حياتِهِ ولا بعدَ موتِهِ؛ فإنَّ لهُ ربًّا قادرًا قاهرًا متصرِّفًا فيهِ إحياءً وإماتةً، ومَن كانَ كذٰلكَ؛ فكيفَ يَكونُ إلٰهًا حتَّى يُتَّخَذَ الصَّنمُ على صورتِهِ ويُعْبَدَ مِن دونِهِ؟! وكذٰلكَ الكواكبُ أظهرُها وأكبرُها للحسِّ هٰذهِ الشَّمسُ[2]، وهيَ مربوبةٌ مدبَّرةٌ مسخَّرةٌ لا تصرُّفَ لها في نفسِها بوجهٍ ما، بل ربُّها وخالقُها سبحانَهُ يَأْتي بها مِن مشرقِها فتَنْقادُ لأمرِهِ ومشيئتِهِ، فهيَ مربوبةٌ مسخَّرةٌ مدبَّرةٌ لا إلٰهٌ يُعْبَدُ مِن دونِ اللهِ.

● **فصلٌ**: وأمَّا ٱستدلالُهُ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ نَهى عندَ قضاءِ الحاجةِ عنِ ٱستقبالِ الشَّمسِ والقمرِ وٱستدبارِهما[3]؛ فكأنَّهُ ـ واللهُ أعلمُ ـ لمَّا رَأى بعضَ الفقهاءِ قد قالوا ذٰلكَ في

---

(١) في ط: «إنّما مستند إلى»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) لاحظ أنّه لم يقل «أكبرها» على الإطلاق، بل قيّد فقال «أكبرها للحسّ»، فلله درّه ما أفقه قلبه!

(٣) (باطل). رواه الحكيم الترمذي في «كتاب المناهي» (١/ ١١٣ ـ التلخيص الحبير) من طريق عبّاد بن كثير، عن عثمان الأعرج، عن الحسن، حدّثني سبعة رهط من أصحاب النبيّ ﷺ منهم أبو هريرة وجابر وابن عمرو وعمران ومعقل بن يسار وابن عمر وأنس يزيد بعضهم على بعض... رفعوه. قال ابن القيّم: «وهٰذا من أبطل الباطل». وقال العسقلاني: «وهو حديث باطل لا أصل له، بل هو من ٱختلاق عبّاد».

كتبِهِم في آدابِ التَّخلِّي: ولا تُستَقْبَلُ الشَّمسُ والقمرُ؛ ظَنَّ أنَّهُم إنَّما قالوا ذٰلكَ لنهيِ النَّبيِّ ﷺ عنهُ، فٱحْتَجَّ بالحديثِ!

وهٰذا مِن أبطلِ الباطلِ: فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لمْ يُنْقَلْ عنهُ ذٰلكَ في كلمةٍ واحدةٍ لا بإسنادٍ صحيحٍ ولا ضعيفٍ ولا مرسلٍ ولا متَّصلٍ. وليسَ لهٰذهِ المسألةِ أصلٌ في الشَّرعِ[١]، والذينَ ذَكَروها مِن الفقهاءِ: منهُم مَن قالَ: العلَّةُ أنَّ ٱسمَ اللهِ مكتوبٌ عليهِما! ومنهُم مَن قالَ: لأنَّ نورَهُما مِن نورِ اللهِ! ومنهُم مَن قالَ: إنَّ التَّنكُّبَ عنِ ٱستقبالِهِما وٱستدبارِهِما أبلغُ في التَّستُّرِ وعدمِ ظهورِ الفرجينِ!

وبكلِّ حالٍ؛ فما لهٰذا ولأحكامِ النُّجومِ[٢]؟! فإنْ كانَ هٰذا دالًّا على دعواكُم؛ فدلالةُ النَّهيِ عنِ ٱستقبالِ الكعبةِ بذٰلكَ أقوى وأولى[٣].

● وأمَّا الاستدلالُ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ يومَ موتِ ولدِهِ إبراهيمَ: «إنَّ الشَّمسَ والقمرَ آيتانِ مِن آياتِ اللهِ لا يَنكَسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياتِهِ، فإذا رَأَيْتُمْ ذٰلكَ؛ فٱفْزَعوا إلى الصَّلاةِ». وهٰذا الحديثُ صحيحٌ[٤]، وهوَ مِن أعظمِ الحججِ على بطلانِ قولِكُم.

فإنَّهُ ﷺ أخبَرَ أنَّهُما آيتانِ مِن آياتِ اللهِ، وآياتُ اللهِ لا يُحْصيها إلَّا اللهُ، فالمطرُ والنَّباتُ والحيوانُ والليلُ والنَّهارُ والبرُّ والبحرُ والجبالُ والشَّجرُ وسائرُ المخلوقاتِ آياتُهُ تَعالى الدَّالَّةُ عليهِ، وهيَ في القرآنِ أكثرُ مِن أنْ نَذْكُرَها هاهُنا. فهُما آيتانِ، لا ربَّانِ ولا إلٰهانِ، ولا يَنْفَعانِ ولا يَضُرَّانِ، ولا لهُما تصرُّفٌ في أنفسِهِما وذواتِهِما ٱلبتَّةَ فضلًا عن إعطائِهِما كلَّ ما في العالَمِ مِن خيرٍ وشرٍّ وصلاحٍ وفسادٍ، بل كلُّ ما فيهِ مِن ذرَّاتِهِ وأجزائِهِ وكلِّيَّاتِهِ وجزئيَّاتِهِ لهُ، تَعالى اللهُ عن قولِ المفترينَ المشركينَ علوًّا كبيرًا.

وفي قولِهِ ﷺ «لا يَنكَسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياتِهِ» قولانِ:

---

(١) لٰكنّها موجودة في كتب الفقه، معمول بها عند المقلّدة، فلله الحمد والمنّة على الإسلام والسنّة.

(٢) إي والله! ما لهٰذا ولأحكام النجوم؟! إلّا الحشد والجمع والاستكثار ممّا يقال وممّا لا يقال؛ تلبيسًا على العامّة وإيهامًا لهم.

(٣) لأنّ أحاديثها مخرّجة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة. يعني: وهٰذا يقتضي أن تكون الكعبة دالّة على أفعال الخلق ولها اتّصالات نحس وسعد بهم. . . إلخ ما أضافه القوم للنجوم.

(٤) تقدّم (٣/ ١٣٥) تخريجه في الصحيحين عن جماعة من الصحابة.

أحدُهُما: أنَّ موتَ الميِّتِ وحياتَهُ لا يَكونُ سببًا في ٱنكسافِهِما كما كانَ يَقولُهُ كثيرٌ مِن جهَّالِ العربِ وغيرِهِم عندَ الانكسافِ أنَّ ذٰلكَ لموتِ عظيمٍ أو ولادةِ عظيمٍ، فأبْطَلَ النَّبيُّ ﷺ ذٰلكَ وأخْبَرَ أنَّ موتَ الميِّتِ وحياتَهُ لا يُؤَثِّرُ في كسوفِهِما ٱلبتَّةَ.

والثَّاني: أنَّهُ لا يَحْصُلُ عنِ ٱنكسافِهِما موتٌ ولا حياةٌ، فلا يكونُ ٱنكسافُهُما سببًا لموتِ ميِّتٍ ولا لحياةِ حيٍّ.

وإنَّما ذٰلكَ تخويفٌ مِن اللهِ لعبادِهِ، أجْرى العادةَ بحصولِهِ في أوقاتٍ معلومةٍ بالحسابِ كطلوعِ الهلالِ وإبدارِهِ وسرارِهِ.

* فأمَّا سببُ كسوفِ الشَّمسِ؛ فهوَ توسُّطُ القمرِ بينَ جِرمِ الشَّمسِ وبينَ أبصارِنا؛ فإنَّ القمرَ عندَهُم[1] جسمٌ كثيفٌ مظلمٌ، وفلكُهُ دونَ فلكِ الشَّمسِ[2]، فإذا كانَ على مسامتةِ إحدى نقطتي الرَّأْسِ أو الذَّنبِ[3] أو قريبًا منهُما حالةَ الاجتماعِ مِن تحتِ الشَّمسِ؛ حالَ بينَنا وبينَ نورِ الشَّمسِ كسحابةٍ تَمُرُّ تحتَها إلى أنْ يَتَجاوَزَها مِن الجانبِ الآخرِ. فإنْ لمْ يَكُنْ للقمرِ عرضٌ[4]؛ سَتَرَ عنَّا نورَ كلِّ الشَّمسِ، وإنْ كانَ لهُ عرضٌ فبقدرِ ما يُوجِبُهُ عرضُهُ. وذٰلكَ أنَّ الخطوطَ الشُّعاعيَّةَ تَخْرُجُ مِن بصرِ النَّاظرِ إلى المرئيِّ على شكلِ مخروطٍ رأْسُهُ عندَ نقطةِ البصرِ وقاعدتُهُ عندَ جِرمِ المرئيِّ، فإذا وَجَّهْنا أبصارَنا إلى جِرمِ الشَّمسِ حالةَ كسوفِها؛ فإنَّهُ يَنْتَهي إلى القمرِ أوَّلًا مخروطُ الشُّعاعِ، فإذا تَوَهَّمْنا نفوذَهُ منهُ إلى الشَّمسِ؛ وَقَعَ جِرمُ الشَّمسِ في وسطِ المخروطِ. وإنْ لمْ يَكُنْ للقمرِ عرضٌ؛ ٱنْكَسَفَ كلُّ الشَّمسِ، وإنْ كانَ للقمرِ عرضٌ؛ فبقدرِ ما يُوجِبُهُ عرضُهُ يَنْحَرِفُ جِرمُ الشَّمسِ عن مخروطِ الشُّعاعِ ولا يَقَعُ كلُّهُ فيهِ، فيَنْكَسِفُ بعضُهُ ويَبْقى الباقي على ضيائِهِ، وذٰلكَ إذا كانَ العرضُ المرئيُّ أقلَّ مِن نصفِ مجموعِ قطرِ الشَّمسِ والقمرِ، حتَّى إذا ساوى العرضُ المرئيُّ نصفَ مجموعِ القطرينِ؛ كانَ صفحةُ القمرِ تُماسُّ مخروطَ

---

(١) يعني: عند الفلكيّين. وهٰذا ثابت معتمد إلى اليوم.

(٢) يعني: أقرب منها إلى الأرض.

(٣) على مسامتة: على خط نظر واحد. وتقدّم (٣/ ١٣) التعريف بالرأس والذنب.

(٤) لم يكن للقمر عرض: لم يكن له ميل وٱنحراف عن خط المسامتة، وهٰذا يحصل عندما يكون القمر في المحاق في اليومين الأخيرين من الشهر القمري.

الشُّعاعِ، فلا يَنْكَسِفُ ولا يَكونُ لكسوفِ الشَّمسِ لبثٌ؛ لأنَّ قاعدةَ المخروطِ المتَّصلِ بالشَّمسِ مساوٍ لقطرِها.

وكلَّما ٱبْتَدَأَ[١] القمرُ بالحركةِ بعدَ تمامِ الموازاةِ بينَهُ وبينَ الشَّمسِ؛ تَحَرَّكَ المخروطُ وٱبْتَدَأَتِ الشَّمسُ بالإسفارِ[٢].

إلاَّ أنَّ كسوفَ الشَّمسِ يَخْتَلِفُ بٱختلافِ أوضاعِ المساكنِ، حتَّى إنَّهُ يُرى في بعضِها ولا يُرى في بعضِها، ويُرى في بعضِها أقلَّ وفي بعضِها أكثرَ، بسببِ ٱختلافِ المنظرِ، إذِ الكاسفُ لَيْسَ عارضًا في جِرمِ الشَّمسِ يَسْتَوي فيهِ النُّظَّارُ مِن جميعِ الأماكنِ، بلِ الكاسفُ شيءٌ متوسِّطٌ بينَها وبينَ الأبصارِ، وهوَ قريبٌ منَّا[٣]، والمحجوبُ عنَّا بعيدٌ، فيَخْتَلِفُ التَّوسُّطُ بٱختلافِ مواضعِ النَّاظرينَ، وكذٰلكَ يَخْتَلِفُ كسوفُ الشَّمسِ في مباديها وعندَ ٱنجلائِها في كمِّيَّةِ ما يَنْكَسِفُ منها وفي زمانِ كسوفِها الذي هوَ مِن أوَّلِ البدوِّ إلى وسطِ الكسوفِ ومِن وسطِ الكسوفِ إلى آخرِ الانجلاءِ[٤].

فإنْ قيلَ: جِرمُ القمرِ أصغرُ مِن جِرمِ الشَّمسِ بكثيرٍ؛ فكيفَ يَحْجُبُ عنَّا كلَّ الشَّمسِ؟ قيلَ: إنَّما يَحْجُبُ عنَّا جِرمَ الشَّمسِ لقربِهِ منَّا وبعدِها عنَّا؛ لأنَّ الشَّيئينِ المختلفينِ في الصِّغرِ والكبرِ، إذا قَرُبَ الصَّغيرُ مِن الكبيرِ؛ يُرى مِن أطرافِ الكبيرِ أكثرَ ما يُرى منها مَعَ بعدِ الأصغرِ عنهُ، وكلَّما بَعُدَ الأصغرُ عنهُ وٱزْدادَ قربُهُ مِن النَّاظرِ؛ تَناقَصَ ما يُرى مِن أطرافِ الأكبرِ، إلى أنْ يَنْتَهِيَ إلى حدٍّ لا يُرى مِن الأكبرِ شيءٌ. والحسُّ شاهدٌ بذٰلكَ.

* وأمَّا سببُ خسوفِ القمرِ؛ فهوَ توسُّطُ الأرضِ بينَهُ وبينَ الشَّمسِ، حتَّى يَصيرَ القمرُ ممنوعًا مِن ٱكتسابِ النُّورِ مِن الشَّمسِ ويَبْقى ظلامُ ظلِّ الأرضِ في ممرِّهِ؛ لأنَّ

---

(١) في ط: «فكما ٱبتدأ»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٢) وكلّه ثابت علميًّا، وهو عين ما يقوله الفلكيّون اليوم، على ٱختلاف يسير في العبارة ٱقتضاه تطوّر المصطلحات والتعابير. والله يرحم ابن القيّم ويغفر له، ما أعظم ٱطّلاعه وأكثر معارفه.

(٣) في ط: «وهو قريب منها»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) وهٰذا أيضًا صحيح ثابت علميًّا، وقد صار من الشائع المشهور أن تسمع اليوم: يحدث في الساعة الفلانيّة كسوف كلّيّ شمال سوريّة جزئيّ في دمشق وبيروت وعمّان والرياض... وقد تكرّر هٰذا مرارًا، ولعلّك شهدت بعض ذٰلك.

القمرَ لا ضوءَ لهُ أبدًا، وإنَّما يَكْتَسِبُ[١] الضَّوءَ مِن الشَّمسِ.

وهل هٰذا الاكتسابُ خاصٌّ بالقمرِ أمْ يُشارِكُهُ فيهِ سائرُ الكواكبِ؟ ففيهِ قولانِ لأربابِ الهيئةِ[٢]:

أحدُهُما: أنَّ الشَّمسَ وحدَها هيَ المضيئةُ بذاتِها، وغيرُها مِن الكواكبِ مستضيئةٌ بضيائِها على سبيلِ العرضِ، كما عُرِفَ ذٰلكَ في القمرِ.

والقولُ الثَّاني: أنَّ القمرَ مخصوصٌ بالكمودةِ دونَ سائرِ الكواكبِ، وغيرُهُ مِن الكواكبِ مضيئةٌ بذاتِها كالشَّمسِ.

ورَدَّ هٰؤلاءِ على أربابِ القولِ الأوَّلِ بأنَّ الكواكبَ لوِ ٱسْتَفادَتْ أضواءَها مِن الشَّمسِ؛ لاخْتَلَفَ مقاديرُ تلكَ الأضواءِ فيما كانَ تحتَ فلكِ الشَّمسِ[٣] منها بسببِ القربِ والبعدِ مِن الشَّمسِ كما في القمرِ فإنَّهُ يَخْتَلِفُ[٤] ضوؤُهُ بحسبِ قربِهِ وبعدِهِ مِن الشَّمسِ.

والذي حَمَلَ أربابَ القولِ الأوَّلِ عليهِ ما وَجَدوهُ مِن تعلُّقِ حركاتِ الكواكبِ بحركاتِ الشَّمسِ وظَنُّوا أنَّ ضوءَها مِن ضيائِها[٥].

وليسَ الغرضُ ٱستيفاءَ الحجاجِ مِن الجانبينِ وما لكلِّ قولٍ وعليهِ، والمقصودُ ذكرُ سببِ الخسوفِ القمريِّ.

ولمَّا كانَتِ الأرضُ جسمًا كثيفًا، فإذا أشْرَقَتِ الشَّمسُ على جانبٍ منها؛ فإنَّهُ يَقَعُ

---

(١) في ط: «وأنّه يكتسب»! والأولى ما أثبتّه.

(٢) الثابت اليوم أنّ الأجرام السماويّة نوعان: أوّلها النجوم، وهي أجرام ملتهبة مضيئة بذاتها. والنوع الثاني الكواكب، وهي السيّارات، وهي أجرام باردة معتمة تعكس ما يصل إليها من ضوء النجوم. فالشمس نجم مضيء، وعطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتو كواكب معتمة تعكس ما يرد إليها من نور الشمس. وعليه؛ فقولا أرباب الهيئة فيهما نظر.

(٣) ما تحت فلك الشمس من الكواكب: عبارة للفلكيّين القدامى يراد بها القمر عطارد والزهرة. وما هي بالعبارة الصحيحة في عرف الفلكيّين المعاصرين بل هي مبنيّة على تصور خاطئ لأوضاع الكواكب في القبّة الفلكيّة. وقد تقدّم (٣/٨) شيء من التفصيل في هٰذا.

(٤) في ط: «فإنّه لا يختلف»! وهٰذا خطأ بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٥) كان هٰذا القول أوّلاً ٱستنتاجًا علميًّا مبنيًّا على الملاحظة والاستدلال ولم يكن مجرّد ظنّ، ثمّ أصبح اليوم حقيقة علميّة ثابتة إن كان مراده بالكواكب المجموعة الشمسيّة.

لها ظلٌّ في الجهةِ الأُخرى ـ لأنَّ كلَّ ذي ظلٍّ يَقَعُ [ظلُّهُ][١] في الجهةِ المقابلةِ للجِرمِ المضيءِ، فمتى أشْرَقَتْ عليها مِن ناحيةِ المشرقِ؛ وَقَعَتْ أظلالُها في ناحيةِ المغربِ، وإذا وَقَعَتْ عليها مِن ناحيـةِ المغربِ؛ مالَتْ أظلالُها إلى ناحيـةِ المشرقِ ـ والأرضُ أصغرُ مِن جِرمِ الشَّمسِ بكثيرٍ، فيَنْبَعِثُ ظلُّها ويَرْتَفِعُ في الهواءِ على شكلٍ مخروطٍ قاعدتُهُ قريبةٌ مِن تدويرِ الأرضِ ثمَّ لا يَزالُ يَنْخَرِطُ تَدْويرُهُ حتَّى يَدِقَّ ويَتَلاشى؛ لأنَّ قطرَ الشَّمسِ لمَّا كانَ أعظمَ مِن قطرِ الأرضِ؛ فالخطوطُ الشُّعاعيَّةُ المارَّةُ مِن جوانبِ الشَّمسِ إلى جوانبِ الأرضِ تكونُ متلاقيةً لا متوازيةً، فإذا مَرَّتْ على الاستقامةِ إلى الأرضِ؛ ٱنْقَذَفَتْ على جوانبِها، فتَلْتَقي لا محالةَ إلى نقطةٍ، فيَنْحَصِرُ ظلُّ الأرضِ في سطحِ مخروطٍ، فيَكونُ مخروطًا لا محالةَ، قاعدتُهُ حيثُ يَنْبَعِثُ مِن الأرضِ ورأْسُهُ عندَ نقطةِ تلاقي الخطوطِ. ولو كانَ قطرُ الأرضِ مساويًا لقطرِ الشَّمسِ؛ لَكانَتِ الخطوطُ الشُّعاعيَّةُ تَخْرُجُ إليها على التَّوازي، فيَكونَ الظِّلُّ متساويَ الغلظِ إلى أنْ يَنْتَهِيَ إلى محيطِ العالمِ. ولو كانَ قطرُ الشَّمسِ أصغرَ مِن قطرِ الأرضِ؛ لَكانَتِ الخطوطُ تَخْرُجُ على التَّلاقي في جهةِ الشَّمسِ وأوسعُها عندَ قطرِ الأرضِ، ولَكانَ الظِّلُّ يَزْدادُ غلظًا كلَّما بعدَ عنِ الأرضِ إلى أنْ يَنْتَهِيَ إلى محيطِ العالمِ، ويَلْزَمُ مِن ذٰلكَ أنْ يَنْخَسِفَ القمرُ في كلِّ ٱستقبالٍ، والوجودُ بخلافِهِ.

ولمَّا ثَبَتَ أنَّ ظلَّ الأرضِ مخروطيُّ الشَّكلِ، وقد وَقَعَ في الجهةِ المقابلةِ لجهةِ الشَّمسِ، فيَكونُ نقطةُ رأْسِهِ في سطحِ فلكِ البروجِ لا محالةَ، ويَدورُ بدورانِ الشَّمسِ مسامتًا للنُّقطةِ المقابلةِ لموضعِ الشَّمسِ.

وهٰذا الظِّلُّ الذي يَكونُ فوقَ الأرضِ هوَ الليلُ، فإنْ كانَتِ الشَّمسُ فوقَ الأرضِ؛ كانَ الظِّلُّ تحتَ الأرضِ بالنِّسبةِ إلينا[٢] ونحنُ في ضياءِ الشَّمسِ، وذٰلكَ النَّهارُ، والزَّمانُ الذي يُوازي دوامَ الظِّلِّ فوقَ الأرضِ هوَ زمانُ الليلِ.

فإذا ٱتَّفَقَ مرورُ القمرِ على محاذاةِ نقطتي الرَّأْسِ والذَّنبِ حالةَ الاستقبالِ؛ يَقَعُ في

---

(١) ساقطة من ط، والسياق يقتضيها.

(٢) يعني: في الجهة المقابلة من الكرة الأرضيّة، فلفظة «تحت» لفظة مجازيّة.

مخروطِ الظّلِّ لا محالةَ؛ لأنَّ الخطَّ الخارجَ مِن مركزِ العالمِ[١] المارَّ بمركزِ الشَّمسِ ثمَّ بمركزِ القمرِ مِن الجانبِ الآخرِ يَنْطَبِقُ على سهمِ مخروطِ الظّلِّ، فيَقَعُ القمرُ في وسطِ المخروطِ، فيَنْخَسِفُ كلُّهُ ضرورةً؛ لأنَّ الأرضَ تَمْنَعُهُ مِن قبولِ ضياءِ الشَّمسِ، فيَبْقى القمرُ على جوهرِهِ الأصليِّ.

فإنْ كانَ للقمرِ عرضٌ يَنْحَرِفُ عن سهمِ المخروطِ؛ بَقِيَ الضوءُ فيهِ بقدرِهِ[٢] وطبعِهِ، وقد يَقَعُ كلُّهُ في المخروطِ ولٰكنْ يَمُرُّ في جانبٍ منهُ[٣]، وقد يَقَعُ بعضُهُ في المخروطِ ويَبْقى بعضُهُ خارجًا، وربَّما يُماسُّ مخروطَ الظّلِّ ولا يَقَعُ [فيهِ][٤] مِن جرمِهِ شيءٌ، وإنَّما يَخْتَلِفُ هٰذا بٱختلافِ بعدِهِ مِن الخطِّ الخارجِ مِن مركزِ العالمِ المارِّ بمركزِ الشَّمسِ المطابقِ لسهمِ المخروطِ. حتَّى إذا عَظُمَ عرضُهُ بأنْ لا يَبْقى بينَهُ وبينَ إحدى نقطتَي الرَّأسِ والذَّنبِ أكثرُ مِن ثلاثَ عشرةَ دقيقةً؛ لا يُماسُّ المخروطَ أصلاً، وإذا وَقَعَ في جانبٍ منهُ؛ قَلَّ مكثُهُ، وربَّما لمْ يَكُنْ لهُ مكثٌ أصلاً.

وإنَّما يُعْرَفُ ذٰلكَ بتقديمِ معرفةِ قطرِ الظّلِّ وقطرِ القمرِ، [وقطرُ الظّلِّ] يَخْتَلِفُ بٱختلافِ أبعادِهِ عنِ الأرضِ[٥]، وكذٰلكَ قطرُ الظّلِّ أيضًا يَخْتَلِفُ بٱختلافِ أبعادِ الشَّمسِ عنِ الأرضِ؛ فإنَّ الشَّمسَ متى قَرُبَتْ مِن الأرضِ؛ كانَ ظلُّ الأرضِ دقيقًا قصيرًا، وإذا بَعُدَتْ عنها؛ كانَ ظلُّ الأرضِ طويلاً غليظًا؛ لأنَّها متى بَعُدَتْ عنِ الأرضِ؛ يُرى قطرُها أصغرَ وأقربَ تلاقيًا منها، وكلَّما كانَ أعظمَ مقدارًا في رأْيِ العينِ؛ فالخطوطُ الشُّعاعيَّةُ أقصرُ وأقربُ تلاقيًا. فلذٰلكَ يَخْتَلِفُ قطعُ القمرِ غلظَ الظّلِّ في أوقاتِ الكسوفاتِ. والموضعُ الذي يَقْطَعُهُ القمرُ مِن الظّلِّ يُسَمُّونَهُ فلكَ الجوهرِ.

وإذا عُرِفَ قطرُ الظّلِّ وعُرِفَ مقدارُ نصفِ قطرِ القمرِ[٦] وجُمِعَ بينَهُما ونُصِفَ ذٰلكَ

---

(١) يعني: مركز الكرة الأرضيّة.
(٢) يعني: بقدر العرض المنحرف عن سهم المخروط، وهٰذا ما يحصل في الخسوف الجزئيّ.
(٣) وهٰذا في الخسوف الكلّيّ، وتزداد مدّة الخسوف كلّما كان القمر أقرب إلى مركز مخروط الظلّ.
(٤) ساقطة من ط، ولا بدّ منها ليستقيم الكلام.
(٥) يعني: بٱختلاف أبعاد القمر عن الأرض؛ لأنّ القمر يدور حول الأرض في مدار بيضوي.
(٦) في ط: «مقدار قطر نصف القمر»! وهٰذا سبق قلم من المصنّف أو الناسخ أو الطابع.

وعُرِفَ عرضُ القمرِ إنْ كانَ لهُ عرضٌ، فإنْ كانَ العرضُ مساويًا لنصفِ مجموعِ القطرينِ؛ فإنَّ القمرَ يُماسُّ دائرةَ الظِّلِّ ولا يَنْكَسِفُ، وإنْ كانَ العرضُ أقلَّ مِن نصفِ مجموعِهما؛ فإنَّهُ يَنْكَسِفُ. فيُنْظَرُ إنْ كانَ مساويًا لنصفِ قطرِ الظِّلِّ؛ آنْكَسَفَ مِن القمرِ مثلُ نصفِ صفحتِهِ، وإنْ كانَ العرضُ أقلَّ مِن نصفِ قطرِ الظِّلِّ؛ فيَنْتَقِصُ العرضُ مِن نصفِ قطرِ الظِّلِّ، فإنْ كانَ الباقي مثلَ قطرِ القمرِ؛ آنْكَسَفَ كلُّهُ ولا يَكونُ لهُ مكثٌ، وإذا لمْ يَكُنْ لهُ عرضٌ؛ آنْكَسَفَ كلُّهُ ويَمْكُثُ زمانًا أكثرَ[1].

وأطولُ ما يَمْتَدُّ زمانُ الكسوفِ القمريِّ أربعُ ساعاتٍ، وأمَّا زمانُ الكسوفِ الشَّمسيِّ؛ فلا يَزيدُ على ساعتينِ.

وكسوفُ القمرِ يَخْتَلِفُ بآختلافِ أوضاعِ المساكنِ[2] ـ إذِ الكسوفُ عارضٌ في جهةٍ، وهوَ عبورُهُ في ظلامِ ظلِّ الأرضِ ـ بخلافِ كسوفِ الشَّمسِ[3]، وإنَّما يَخْتَلِفُ الوقتُ فقطْ[4] بأنْ يَكونَ في بعضِ المساكنِ على مضيِّ ساعةٍ مِن الليلِ، وفي بعضِها على مضيِّ نصفِ ساعةٍ، وقد يَطْلُعُ منكسفًا في بعضِ المساكنِ، ويَنْكَسِفُ بعدَ الطُّلوعِ في بعضِها[5]، وقد لا يُرى منكسفًا أصلاً إذا كانَتِ الشَّمسُ فوقَ الأرضِ حالةَ الاستقبالِ[6].

---

(١) وهٰذه أيضًا أمور صحيحة ثابتة معتمدة عند الفلكيّين اليوم على خلاف يسير في العبارة أستلزمه تطوّر المصطلحات العلميّة ولجوء أكثر المعاصرين إلى التعبير عن هٰذه التقديرات بصور إيضاحيّة ومعادلات رياضيّة تغني عن تطويل الشرح وتتفادى ما يورثه ذٰلك من إشكالات وصعوبة في أستيعاب الحادثة. والله يرحم أبن القيّم ويغفر له ما أعظم أطلاعه وأطول باعه!

(٢) بأختلاف أوضاع المساكن: شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا.

(٣) وكسوف الشمس أيضًا يختلف من جهة إلى أخرى، فيكون في بعض المواضع كليًّا، وفي بعضها جزئيًّا، وتتقلّص نسبة الكسوف تدريجيًّا كلّما أبتعدنا عن مركز الكسوف الكلّيّ.

(٤) وكذٰلك حجم الخسوف ومقداره، فيكون كلّيًّا في بعض المواضع جزئيًّا في أخرى، وتتقلّص نسبة الخسوف تدريجيًّا كلّما أبتعدنا عن مركز الخسوف الكلّيّ. وهٰذا مقتضى كلام أبن القيّم أوّل الفقرة وآخرها، لٰكن جاءت العبارة هنا موهمة تعوزها الدقّة، والغالب عندي أنّ فيها تحريفًا أو سقطًا.

(٥) وللتقريب أقول: لو حصل الكسوف في منتصف الليل بتوقيت مكّة: فيراه أهل المغرب العربي في اللحظة نفسها لٰكن في أوّل الليل بتوقيتهم (الساعة الثامنة مساءً)، ويراه أهل جاكرتا عاصمة إندونيسيّة في اللحظة نفسها لٰكن في آخر الليل بتوقيتهم (الساعة الرابعة صباحًا)، وأمّا أهل سيدني في أسترالية وأهل نيويورك؛ فلن يروا شيئًا لأنّ الشمس عندهم ساطعة وهم في قلب النهار.

(٦) وهٰذا يوافق ساعات النهار كما تقدّم.

وبدءُ الخسوفِ[1] في القمرِ أبدًا يَكونُ مِن طرفِهِ الشَّرقيِّ؛ إذْ هوَ الذَّاهبُ إلى الاستقبالِ نحوَ المشرقِ، والدُّخولُ في الظِّلِّ بحركتِهِ، ثمَّ يَنْحَرِفُ قليلاً قليلاً إلى الشَّمالِ أو الجنوبِ في بدءِ ٱنجلائِهِ أيضًا مِن طرفِهِ الشَّرقيِّ. وأمَّا في الشَّمسِ؛ فبدءُ كسوفِها مِن طرفِها الغربيِّ؛ إذِ الكاسفُ[2] لها يَأْتي مِن ناحيةِ الغربِ، وكذٰلكَ الانجلاءُ أيضًا مِن الطَّرفِ الغربيِّ، لٰكنْ بٱنحرافٍ منهُ إلى الشَّمالِ أوِ الجنوبِ.

* وإنَّما ذَكَرْنا هٰذا الفصلَ ولمْ يَكُنْ مِن غرضِنا؛ لأنَّ كثيرًا مِن هٰؤلاءِ الأحكاميِّينَ يُمَوِّهونَ على الجهَّالِ بأمرِ الكسوفِ ويُوهِمونَهُم أنَّ قضاياهُم وأحكامَهُمُ النُّجوميَّةَ مِن السَّعدِ والنَّحسِ والظَّفرِ والغلبةِ وغيرِها هيَ مِن جنسِ الحكمِ بالكسوفِ، فيُصَدِّقُ بذٰلكَ الأغمارُ والرَّعاعُ، ولا يَعْلَمونَ أنَّ الكسوفَ يُعْلَمُ بحسابِ سيرِ النَّيِّرينِ في منازِلِهِما، وذٰلكَ أمرٌ قد أَجْرى اللهُ تَعالى العادةَ المطَّردةَ بهِ كما أجراها في الإبدارِ والسِّرارِ[3] والهلالِ[4].

فمَن عَلِمَ ما ذَكَرْناهُ في هٰذا الفصلِ؛ عَلِمَ وقتَ الكسوفِ ودوامَهُ ومقدارَهُ وسببَهُ. وأمَّا أنَّهُ يَقْتَضي مِن التَّأْثيراتِ في الخيرِ والشَّرِّ والسَّعدِ والنَّحسِ والإماتةِ والإحياءِ كذا وكذا[5] كما يَحْكُمُ بهِ المنجِّمونَ؛ فقولٌ على اللهِ وعلى خلقِهِ بما لا يَعْلَمونَ.

* نعم؛ لا نُنْكِرُ أنَّ اللهَ سبحانَهُ يُحْدِثُ عندَ الكسوفينِ مِن أقضيتِهِ وأقدارِهِ ما يَكونُ بلاءً لقومٍ ومصيبةً لهُم ويَجْعَلُ الكسوفَ سببًا لذٰلكَ، ولهٰذا أَمَرَ النَّبيُّ ﷺ عندَ الكسوفِ بالفزعِ إلى ذكرِ اللهِ والصَّلاةِ والعتاقةِ والصَّدقةِ والصِّيامِ[6]؛ لأنَّ هٰذهِ الأشياءَ تَدْفَعُ

---

(١) في ط: «ويرى الخسوف»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٢) في ط: «إذا الكاسف»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) سرار الشهر بفتح السين وكسرها: آخر ليلة منه.

(٤) تأمّل كيف وظّف سعة ٱطّلاعه في الذبّ عن الدين وفضح الدجاجلة مصداقًا لما تقدّم (١/ ٤٨).

(٥) في ط: «والإحياء وكذا وكذا»! ولا بدّ من حذف الواو.

(٦) تقدّم (٣/ ١٣٥) تفصيل القول في تخريج أحاديث الكسوف من الصحيحين عن جماعة من الصحابة، لٰكنّه أشار هنا إلى أمور خاصّة في هٰذه الأحاديث:

* **فأمّا الذكر**؛ فقد جاء الأمر به عمومًا عند: البخاري (١٦ـ الكسوف، ١٤ـ الذكر في الكسوف، ٢/ ٥٤٥/ ١٠٥٩)، ومسلم (١٠ـ الكسوف، ٥ـ النداء بصلاة الكسوف، ٢/ ٦٢٨/ ٩١٢)؛ عن أبي موسى. =

موجَبَ الكسفِ الذي جَعَلَهُ اللهُ سببًا لِما جَعَلَهُ، فلولا ٱنعقادُ سببِ التَّخويفِ؛ لَما أَمَرَ بدفعِ موجَبِهِ بهٰذهِ العباداتِ.

وللهِ تَعالى في أيَّامِ دهرِهِ أوقاتٌ يُحْدِثُ فيها ما يَشاءُ مِن البلاءِ والنَّعماءِ، ويَقْضي مِن الأسبابِ بما يَدْفَعُ موجَبَ تلكَ الأسبابِ لِمَن قامَ بِهِ أو يُقَلِّلُهُ أو يُخَفِّفُهُ، فمَن فَزِعَ إلى تلكَ الأسبابِ أو بعضِها؛ ٱنْدَفَعَ عنهُ الشَّرُّ الذي جَعَلَ اللهُ الكسوفَ سببًا لهُ أو بعضُهُ.

ولهٰذا؛ قَلَّ ما يَسْلَمُ أطرافُ الأرضِ حيثُ يَخْفى الإيمانُ وما جاءَتْ بِهِ الرُّسلُ فيها مِن شرٍّ عظيمٍ يَحْصُلُ بسببِ الكسوفِ وتَسْلَمُ منهُ الأماكنُ التي يَظْهَرُ فيها نورُ النُّبوَّةِ والقيامُ بما جاءَتْ بِهِ الرُّسلُ أو يَقِلُّ فيها جدًّا[١].

= وجاء في بعض ألفاظ البخاري (١٠٥٢) عن ابن عبّاس. وبعض ألفاظ مسلم (٩٠١) عن عائشة.

* **وأمّا الصلاة**؛ فقد جاء الأمر بها في معظم أحاديث الكسوف المتقدّمة.

* **وأمّا العتاقة**؛ ففي حديث أسماء عند البخاري (١٦ـ الكسوف، ١١ـ من أحبّ العتاقة، ٢/٥٤٣/ ١٠٥٤). وأصله عند مسلم (١٠ـ الكسوف، ٣ـ ما عرض للنبي ﷺ، ٢/ ٦٢٤/ ٩٠٥) بغير ذكرها.

* **وأمّا الصدقة**؛ ففي بعض ألفاظ حديث عائشة عند: البخاري (١٦ـ الكسوف، ٢ـ الصدقة في الكسوف، ٢/٥٢٩/ ١٠٤٤)، ومسلم (١٠ـ الكسوف، ١ـ صلاة الكسوف، ٢/٦١٨/ ٩٠١).

* **وأمّا الصيام**؛ فلم أقف له على ذكر في شيء من أحاديث الكسوف، ولا وجه له في كسوف ولا خسوف؛ لأنّ الخسوف ينتهي قبل بدء الصوم غالبًا أو بعد بدئه بيسير، والكسوف أبعد وأبعد! والغالب عندي أنّ هٰذه اللفظة سبق قلم أو تحريف، وقد فصّل ٱبن القيّم يرحمه الله تعالى في الكسوف في «زاد المعاد» ولم يتطرّق للصوم، وسيعيد الكلام نفسه (٣/ ١٨٣) وبعد سطور قليلة أيضًا دون ذكره. فالله أعلم.

(١) وهاهنا ملاحظات أسوقها فيما يلي:

أوّلًا: لم يرد في شيء من نصوص خطبة الكسوف التي وقفت عليها ولا في غيرها أنّ الله سبحانه جعل الكسوفين سببًا للبلاء والمصائب، ولا أنّه سبحانه أرفق البلاء والمصائب بهما، وما جرّب الخلق ولا عهدوا زيادة للبلاء والمصائب أوقات الكسوفين.

ثانيًا: والذي جاء في مختلف نصوص خطبة الكسوف «أنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولٰكنّ الله تعالى يخوّف بهما عباده». وهٰذا ظاهر في أنّ الخوف ناشئ عن هاتين الظاهرتين بالذات لا عمّا يحدث بسببهما ويترافق معهما من البلايا والمصائب الموهومة.

ثالثًا: وربّما يظنّ بعض الناس أنّ معرفة التفسير العلميّ للكسوفين والتنبّؤ بأوقاتهما بالدقيقة والثانية يجعلهما أمرًا ٱعتياديًّا يتنافى مع كونهما مخوّفتين للخلق! وهٰذا جهل فاضح من رجل لا يعلم شيئًا ولٰكنّه يتشبّع بعبارة سمعها من هٰذا وكلمة أخذها عن ذاك، أو غرور واضح من رجل شدا شيئًا من العلم فٱغترّ وٱفتتن وكان علمه أكبر من عقله فلم يستطع أن يهضمه ويتمثّله ويضعه في موضعه.

وممّا لا مرية فيه عند العقلاء عمومًا أنّ التخويف حاصل على كلّ تقدير لجميع الخلق على العموم=

ولمَّا كَسَفَتِ الشَّمسُ على عهدِ النَّبيِّ ﷺ؛ قامَ فزعًا مسرعًا يَجُرُّ رداءَهُ، ونادى في النَّاسِ الصَّلاةُ جامعةٌ، وخَطَبَهُم بتلكَ الخطبةِ البليغةِ، وأخْبَرَ أنَّهُ لم يَرَ كيومِهِ ذٰلكَ في الخيرِ والشَّرِّ، وأمَرَهُم عندَ حصولِ مثلِ تلكَ الحالةِ بالعتاقةِ والصَّدقةِ والصَّلاةِ والتَّوبةِ[(١)].

فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ على أعلمِ الخلقِ باللهِ وبأمرِهِ وشأْنِهِ وتصريفِهِ أُمورَ[(٢)] مخلوقاتِهِ وتدبيرِهِ [لها] وأنصحِهِم للأُمَّةِ ومَن دَعاهُم إلى ما فيهِ سعادتُهُم في معاشِهِم ومعادِهِم ونَهاهُم عمَّا فيهِ هلاكُهُم في معاشِهِم ومعادِهِم.

* ولقد خَفِيَ ما جاءَتْ بهِ الرُّسلُ على طائفتينِ هَلَكَ بسببِهِما مَن شاءَ اللهُ ونَجا مِن شَرَكِهِما مَن سَبَقَتْ لهُ العنايةُ مِن اللهِ:

إحدى الطَّائفتينِ: وَقَفَتْ معَ ما شاهَدَتْهُ وعَلِمَتْهُ مِن أُمورِ هٰذهِ الأسبابِ والمسبَّباتِ

= ولمن يؤمن بالله واليوم الآخر منهم على الخصوص.

حدّثني أحد من حضر ظاهرة الكسوف الكلّيّ أنّه لم يملك إلاّ أن جثا على ركبتيه لهول ما رآه. فقلت له: لٰكن نقل التيليفزيون أصوات صياح وصفير وتصفيق! فقال لي: والله؛ ما فعلوها إلاّ تجلّدًا ومداراة لخوف أستولى على قلوبهم، لقد كان منظرًا رهيبًا.

وممّن أفصح عن هٰذا د. محمّد باسل الطائي في «أساسيّات علم الفلك والتقاويم» (ص١٠٩)؛ قال: «إنّ ظاهرة الكسوف الكلّي للشمس تضع الراصد في حالة نفسيّة خاصّة جدًّا، وقد شهدت شخصيًّا كسوف الشمس الكلّي... وقد ترك ذٰلك اليوم أثرًا عميقًا في ذاكرة كلّ من شهده... عندما أقتربت اللحظة التي يغطي فيها القمر قرص الشمس المتوهّج؛ خيّم الظلام سريعًا على الأرض، وكان بإمكان الراصد الواقف على مكان مرتفع مشاهدة شريط الظلام الزاحف نحوه... كما يلاحظ هٰذا المشاهد إذا كان واقفًا في أرض متموّجة تشتمل على مجموعة تلال كيف يغمر الظلام الوديان أوّلاً ثمّ يرتفع سريعًا ليغمر القمم حتّى وكأنّه طوفان عامّ صار يملأ الأمكنة... وحين يخيّم الظلام على الأرض يرى ظلال الأشياء حادّة بصورة غير أعتياديّة، وتصبح أشكال تلك الظلال غريبة ذات رهبة خاصّة». فأنظر إلى هٰذا النصّ نظرة تحليليّة وأنظر إلى هاتيك العبارات المظلّلة، إنّها ناطقة بالخوف وإن لم يصرّح صاحبها بذٰلك! فإذا كان هٰذا وصفه بعد سنتين من الحادثة؛ فكيف لو سجّل شعوره في تلك اللحظة؟! فكيف لو سمعته منه مباشرة دون ما يقتضيه التأليف من التحوير والتحرير؟!

وأخيرًا؛ فغاية ما يقدر عليه الخلق في شأن الكسوفين أن يحسبوا لهما ويرصدوهما ويصوّروهما، وماذا بعد؟! ليس إلاّ مشاعر الضعف والعجز عن تحريك ساكن أو الإتيان بقبس من نور! ليس إلاّ الضآلة والحقارة أمام أجرام هائلة تجري مربوبة خاضعة لنظام في غاية الدقّة أرساه من رفع السماء ووضع الميزان! ليس إلاّ الركوع والسجود خوفًا وطمعًا وذلاًّ بين يدي قاهرها ومسخّرها.

(١) متّفق عليه. تقدّم تخريجه (٣/ ١٣٥).

(٢) في ط: «وتعريفه أمور»! وهو تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

وأحالَتِ الأمرَ[١] عليها وظَنَّتْ أنَّهُ لَيْسَ وراءَها شيءٌ[٢]، فكَفَرَتْ بما جاءَتْ بهِ الرُّسلُ وجَحَدَتِ المبدأ والمعادَ والتَّوحيدَ والنُّبوَّاتِ وغيرَها بما[٣] أنْتَهى إليهِ علومُها ووَقَفَتْ عندَهُ أقدامُها مِن العلمِ بظاهرٍ مِن المخلوقاتِ وأحوالِها!

وجاءَ ناسٌ جهَّالٌ رَأَوْهُم قد أصابوا في بعضِها أو كثيرٍ منها فقالوا: كلُّ ما قالَهُ هٰؤلاءِ فهوَ صوابٌ لِما ظَهَرَ لنا مِن صوابِهِم!

وأنْضافَ إلى ذٰلكَ أنَّ أُولٰئكَ لمَّا وَقفوا على الصَّوابِ فيما أَدَّتْهُم إليهِ أفكارُهُم مِن الرِّياضيَّاتِ وبعضِ الطَّبيعيَّاتِ؛ وَثِقوا بعقولِهِم، وفَرِحوا بما عندَهُم مِن العلمِ، وظَنُّوا أنَّ سائرَ ما قَدَّمَتْهُ أفكارُهُم[٤] مِن العلمِ باللهِ وشأْنِهِ وعظمتِهِ هوَ كما أوْقَعَهُم عليهِ فكرُهُم وحكمُهُ حكمُ ما شَهِدَ بهِ الحسُّ مِن الطَّبيعيَّاتِ والرِّياضيَّاتِ، فتَفاقَمَ الشَّرُّ وعَظُمَتِ المصيبةُ وجُحِدَ اللهُ وصفاتُهُ وخَلْقُهُ للعالمِ وإعادتُهُ لهُ وجُحِدَ كلامُهُ ورسلُهُ ودينُهُ!

ورَأى كثيرٌ مِن هٰؤلاءِ أنَّهُم هُم خواصُّ النَّوعِ الإنسانيِّ وأهلُ الألبابِ، وأنَّ ما عداهُم همُ القشورُ، وأنَّ الرُّسلَ إنَّما قاموا بسياستِهِم لئلَّا يكونوا كالبهائمِ، فهُم بمنزلةِ قيِّمِ المارِسْتانِ[٥]، وأمَّا أهلُ العقولِ والرِّياضاتِ[٦] والأفكارِ؛ فلا يَحْتاجونَ إلى الرُّسلِ، بل هُم يُعَلِّمونَ الرُّسلَ ما يَصْنَعونَهُ لدعوةِ الإنسانيَّةِ، كما تَجِدُ في كتبِهِم: ويَنْبَغي للرَّسولِ أنْ يَفْعَلَ كذا وكذا!

والمقصودُ أنَّ هٰؤلاءِ لمَّا أوْقَفَتْهُم أفكارُهُم على العلمِ بما خَفِيَ على كثيرٍ مِن

---

(١) في ط: «وإحالة الأمر»! وهٰذا خطأ صوابه ما أثبتّه.

(٢) في ط: «ليس لها شيء»! وهٰذا تحريف بيّن قلب المعنى رأسًا على عقب. فربّما كان الصواب ما أثبتّه، وربّما كانت «لها» محرّفة عن «قبلها» أو «بعدها»، وربما كانت «شيء» محرّفة عن «مسبّب» أو «مسيّر»، لٰكنّ المعنى في كلّ حال أنّهم يظنّون أنّه ليس وراء هٰذه الأسباب قادر قاهر يجريها ويمنعها.

(٣) في ط: «وغيرها ممّا»، وله وجه ضعيف، والغالب أنّه تحريف لما أثبتّه، فهٰؤلاء جحدوا ما جحدوه آستنادًا إلى ما أنتهت إليه علومهم وثقة به.

(٤) في ط: «ما خدمته أفكارهم»! وهٰذا تحريف بيّن أرجو أنّ صوابه ما أثبتّه.

(٥) المارستان: المستشفى عمومًا، وكذلك البيمارستان، لكنّ أهل الشام ـ وابن القيّم يرحمه الله منهم ـ يختصّون هٰذه اللفظة بمستشفى الأمراض النفسيّة.

(٦) يعني: الرياضات الذهنيّة، وهي العلوم العامّة كالرياضيّات والفيزياء ونحوها.

أسرارِ المخلوقاتِ وطبائعِها وأسبابِها؛ ذَهَبوا بأفكارِهم وعقولِهم، وتَجاوَزوا ما جاءَتْ بهِ الرُّسلُ، وظَنُّوا أنَّ إصابتَهُم في الجميعِ سواءٌ!

وصارَ المقلِّدُ لهُم في فكرِهِم[١]، إذا خَطَرَ لهُ إشكالٌ على مذهبِهِم أو دَهَمَهُ ما لا حيلةَ لهُ في دفعِهِ مِن تناقضِهِم وفسادِ أُصولِهِم؛ يُحَسِّنُ الظَّنَّ بهِم ويقولُ: لا شكَّ أنَّ علومَهُم مشتملةٌ على حكمةٍ، والجوابُ عنهُ إنَّما يَعْسُرُ عليَّ إدراكُهُ؛ لأنَّ مَن لَمْ يُحَصِّلِ الرِّياضيَّاتِ ولَمْ يُحْكِمِ المنطقيَّاتِ وتُمِدُّهُ علومٌ قد صَقَلَتْها أذهانُ الأوَّلينَ وأحْكَمَتْها أفكارُ المتقدِّمينَ؛ فالفاضلُ كلُّ الفاضلِ مَن يَفْهَمُ كلامَهُم، وأمَّا الاعتراضُ عليهِم وإبطالُ فاسدِ أُصولِهِم؛ فعندَهُم مِن المحالِ الذي لا يُصَدَّقُ بهِ.

وهٰذا مِن خداعِ الشَّيطانِ وتلبيسِهِ بغرورِهِ لهٰؤلاءِ الجهَّالِ مقلِّدي أهلِ الضَّلالِ كما لَبَّسَ على أئمَّتِهِم وسلفِهِم بأنْ أوْهَمَهُم أنَّ كلَّ ما نالوهُ بأفكارِهِم فهوَ صوابٌ كما ظَهَرَتْ إصابتُهُم في الرِّياضيَّاتِ وبعضِ الطَّبيعيَّاتِ. فتَرَكَّبَ مِن[٢] ضلالِ هٰؤلاءِ وجهلِ أتباعِهِم ما اشْتَدَّتْ بهِ البليَّةُ وعَظُمَتْ لأجلِهِ الرَّزيَّةُ وخَرِبَ لأجلِهِ[٣] العالمُ وجُحِدَ ما جاءَتْ بهِ الرُّسلُ وكُفِرَ باللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ!

ولَمْ يَعْلَمْ هٰؤلاءِ أنَّ الرَّجلَ يَكونُ إمامًا في الحسابِ وهوَ أجهلُ خلقِ اللهِ بالطِّبِّ والهيئةِ والمنطقِ، ويَكونُ رأسًا في الطِّبِّ ويَكونُ مِن أجهلِ الخلقِ بالحسابِ والهيئةِ، ويَكونُ مقدَّمًا في الهندسةِ ولَيْسَ لهُ علمٌ بشيءٍ مِن قضايا الطِّبِّ[٤]. وهٰذهِ علومٌ متقاربةٌ، والبعدُ بينَها وبينَ علومِ الرُّسلِ التي جاءَتْ بها عنِ اللهِ أعظمُ مِن البعدِ بينَ بعضِها وبعضٍ. فإذا كانَ الرَّجلُ إمامًا في هٰذهِ العلومِ ولَمْ يَعْلَمْ بأيِّ شيءٍ جاءَتْ بهِ الرُّسلُ ولا تَحَلَّى بعلومِ الإسلامِ؛ فهوَ كالعامِّيِّ بالنِّسبةِ إلى علومِهِم بل أبعدُ منهُ. وهل يَلْزَمُ مِن

---

(١) في ط: «في كفرهم»! وهو تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه، والمقلّد إنّما يقلّد فكرهم فينتهي إلى كفرهم. والله أعلم.

(٢) في ط: «فركب من»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٣) في ط: «وضرب لأجله»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٤) وليس هٰذا موضع خلاف اليوم، لٰكن كان التفريق بينها مشكلاً في ذاك العصر، فقد كان لها جميعًا أصل واحد تنشأ عنه وتستمدّ منه، وهو الفلسفة والمنطق.

معرفةِ الرَّجلِ هيئةَ الأفلاكِ والطِّبِّ والهندسةَ والحسابَ أنْ يَكونَ عارفًا بالإلٰهيّاتِ وأحوالِ النُّفوسِ البشريّةِ وصفاتِها ومعادِها وسعادتِها وشقاوتِها؟! وهل هٰذا إلَّا بمنزلةِ مَن يَظُنُّ أنَّ الرَّجلَ إذا كانَ عالمًا بأحوالِ الأبنيةِ وأوضاعِها ووزنِ الأنهارِ[١] والقُنِيِّ والقنطرةِ؛ كانَ عالمًا باللهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وما يَنْبَغي لهُ وما يَسْتَحيلُ عليهِ؟! فعلومُ هٰؤلاءِ بمنزلةِ هٰذهِ العلومِ التي هيَ نتائجُ الأفكارِ والتَّجاربِ، فما لها ولعلومِ الأنبياءِ التي يَتَلَقَّوْنَها عنِ اللهِ بوسائطِ الملائكةِ؟!

هٰذا، وأينَ تعلُّقُ الرِّياضيّاتِ ـ التي هي نظرٌ في نوعيِ الكمِّ المتَّصلِ والمنفصلِ ـ والمنطقيّاتِ ـ التي هيَ نظرٌ في المعقولاتِ الثّابتةِ ونسبةِ بعضِها إلى بعضٍ بالكلِّيَّةِ والجزئيَّةِ والسَّلبِ والإيجابِ وغيرِ ذٰلكَ ـ بمعرفةِ ربِّ العالمينَ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وأمرِهِ ونهيِهِ وما جاءتْ بِهِ رسلُهُ وثوابِهِ وعقابِهِ؟!

ومِن الخدعِ الإبليسيَّةِ قولُ الجهّالِ: إنَّ فهمَ هٰذهِ الأُمورِ موقوفٌ على فهمِ هٰذهِ القضايا العقليّةِ[٢].

وهٰذا هوَ عينُ الجهلِ والحمقِ، وهوَ بمنزلةِ قولِ القائلِ: لا يَعْرِفُ حدوثَ الرُّمَّانةِ مَن لمْ يَعْرِفْ عددَ حبّاتِها وكيفيَّةَ تركيبِها وطبعَها، ولا يَعْرِفُ حدوثَ العينِ مَن لمْ يَعْرِفْ عددَ طبقاتِها وتشريحَها وما فيها مِن التَّركيبِ، ولا يَعْرِفُ حدوثَ هٰذا البيتِ مَن لمْ يَعْرِفْ عددَ لبناتِهِ وأخشابِهِ وطبائعَها ومقاديرَها... وغيرَ ذٰلكَ مِن الكلامِ الذي يَضْحَكُ منهُ كلُّ عاقلٍ ويُنادي على جهلِ قائلِهِ وحمقِهِ.

بلِ العلمُ باللهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ودينِهِ لا يَحْتاجُ إلى شيءٍ مِن ذٰلكَ ولا يَتَوَقَّفُ عليهِ، وآياتُ اللهِ التي دَعا عبادَهُ إلى النَّظرِ فيها دالَّةٌ عليهِ بأوَّلِ النَّظرِ دلالةً يَشْتَرِكُ فيها كلُّ سليمِ العقلِ والحاسَّةِ.

وأمَّا أدلَّةُ هٰؤلاءِ[٣]؛ فخيالاتٌ وهميَّةٌ وشبهٌ عسرةُ المدرَكِ بعيدةُ التَّحصيلِ متناقضةُ

---

(١) وزن الأنهار: تقدير ارتفاع منسوب المياه فيها وانخفاضه وحساب أوقات فيضانها ونحوه.
(٢) راجع ما قدّمته في هٰذا (١/ ٤٩-٥٣).
(٣) يعني: أدلّتهم في شأن الإلٰهيّات.

الأُصولِ، غيرُ مؤدِّيةٍ إلى معرفةِ اللهِ ورسلِهِ والتَّصديقِ بها، مستلزمةٌ للكفرِ باللهِ وجحدِ ما جاءَتْ بهِ رسلُهُ.

وهٰذا لا يُصَدِّقُ بهِ إلَّا مَن عَرَفَ ما عندَ هٰؤلاءِ وعَرَفَ ما جاءَتْ بهِ الرُّسلُ ووازَنَ بينَ الأمرينِ، فحينئذٍ يَظْهَرُ لهُ التَّفاوتُ. وأمَّا مَن قَلَّدَهُم وأحْسَنَ ظَنَّهُ بهِم ولَمْ يَعْرِفْ حقيقةَ ما جاءَتْ بهِ الرُّسلُ؛ فليسَ هٰذا عشَّهُ، بل هوَ في أوديةٍ هائمٌ حيرانُ يَنْقادُ لكلِّ حيرانَ.

يَغْدو مِنَ العِلْمِ في ثَوْبَيْنِ[١] مِن طَمَعٍ مُعَلَّمَيْنِ بِحِرْمانٍ وَخِذْلانِ

والطَّائفةُ الثَّانيةُ: رَأَتْ مقابلةَ هٰؤلاءِ بردِّ كلِّ ما قالوهُ مِن حقٍّ وباطلٍ، وظَنُّوا أنَّ مِن ضرورةِ تصديقِ الرُّسلِ ردَّ ما عَلِمَهُ هٰؤلاءِ بالعقلِ الضَّروريِّ وعَلِموا مقدِّماتِهِ بالحسِّ، فنازَعوهُم فيهِ، وتَعَرَّضوا لإبطالِهِ بمقدِّماتٍ جدليَّةٍ لا تُغْني مِن الحقِّ شيئًا، وليتَهُم معَ هٰذهِ الجنايةِ العظيمةِ لَمْ يُضيفوا ذٰلكَ إلى الرُّسلِ، بل زَعَموا أنَّ الرُّسلَ جاؤوا بما يقولونَهُ.

فساءَ ظنُّ أُولٰئكَ الملاحدةِ بالرُّسلِ، وظَنُّوا أنَّهُم هُم أعلمُ وأعرفُ منهُم، ومَن حَسُنَ ظَنُّهُ بالرُّسلِ [منهُم][٢] قالَ: إنَّهُم لَمْ يَخْفَ عليهِم ما نَقولُهُ، ولٰكنْ خاطَبوهُم بما تَحْتَمِلُهُ عقولُهُم مِن الخطابِ الجمهوريِّ النَّافعِ للجمهورِ، وأمَّا الحقائقُ؛ فكَتَموها عنهُم!

والذي سَلَّطَهُم على ذٰلكَ جحدُ هٰؤلاءِ لحقِّهِم ومكابرتُهُم إيَّاهُم على ما لا يُمْكِنُ المكابرةُ عليهِ ممَّا هوَ معلومٌ لهُم بالضَّرورةِ[٣]: كمكابرتِهِم إيَّاهُم في كونِ الأفلاكِ كرويَّةَ الشَّكلِ والأرضِ كذٰلكَ، وأنَّ نورَ القمرِ مستفادٌ مِن نورِ الشَّمسِ، وأنَّ الكسوفَ القمريَّ عبارةٌ عنِ انمحاءِ ضوءِ القمرِ بتوسُّطِ الأرضِ بينَهُ وبينَ الشَّمسِ مِن حيثُ إنَّهُ يَقْتَبِسُ نورَهُ

---

(١) إنَّما جعلهما ثوبين إشارة إلى قول النبيِّ ﷺ: «المتشبّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور».

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) هٰذه المكابرة حقيقة واقعة موجودة في أرقى الكتب المعتبرة عند أهل العلم، وقد وقع فيها علماء أفذاذ يشار إليهم بالبنان، ولا يلام والله أولٰئك الأعلام الذين تركوا للأمّة تراثًا عظيمًا تنغمر في بحره تلك الأخطاء والهنات، ولٰكن المؤسف أن تجد اليوم من ينقل كلامهم ويصرّ عليه ويدافع عنه!

منها والأرضُ كرةٌ والسَّماءُ محيطةٌ بها مِن [جميعِ][١] الجوانبِ فإذا وَقَعَ القمرُ في ظلِّ الأرضِ ٱنْقَطَعَ عنهُ نورُ الشَّمسِ كما قَدَّمْنا، وكقولِهِم إنَّ الكسوفَ الشَّمسيَّ معناهُ وقوعُ جِرمِ القمرِ بينَ النَّاظرِ وبينَ الشَّمسِ عندَ ٱجتماعِهِما في العقدتينِ على دقيقةٍ واحدةٍ، وكقولِهِم بتأثيرِ الأسبابِ المحسوسةِ في مسبَّباتِها وإثباتِ القوى والطَّبائعِ والأفعالِ والانفعالاتِ ممَّا تَقومُ عليهِ الأدلَّةُ العقليَّةُ والبراهينُ اليقينيَّةُ[٢] . . . فيَخوضُ هٰؤلاءِ معَهُم في إبطالِهِ، فيُغْريهِم ذٰلكَ بكفرِهِم وإلحادِهِم والوصيَّةِ لأصحابِهِم بالتَّمسُّكِ بما هُم عليهِ، فإذا قالَ لهُم هٰؤلاءِ: هٰذا الذي تَذْكُرونَهُ على خلافِ الشَّرعِ والمصيرُ إليهِ كفرٌ وتكذيبٌ بالرُّسُلِ؛ لمْ يَسْتَريبوا في ذٰلكَ ولمْ يَلْحَقْهُم فيهِ شكٌّ، ولٰكنَّهُم يَسْتَريبونَ بالشَّرعِ وتَنْقُصُ مرتبةُ الرُّسلِ مِن قلوبِهِم.

وضررُ الدِّينِ وما جاءَتْ بِهِ الرُّسلُ بهٰؤلاءِ مِن أعظمِ الضَّررِ وهوَ كضررِهِ بأُولٰئكَ الملاحدةِ. فهما ضررانِ على الدِّينِ: ضررُ مَن يَطْعُنُ فيهِ، وضررُ مَن يَنْصُرُهُ بغيرِ طريقِهِ. وقد قيلَ: إنَّ العدوَّ العاقلَ أقلُّ ضررًا مِن الصَّديقِ الجاهلِ؛ فإنَّ الصَّديقَ الجاهلَ يَضُرُّكَ مِن حيثُ يُقَدِّرُ أنَّهُ يَنْفَعُكَ. والشَّأْنُ كلُّ الشَّأنِ أنْ تَجْعَلَ العاقلَ صديقَكَ ولا تَجْعَلَهُ عدوَّكَ وتُغْرِيَهُ بمحاربةِ الدِّينِ وأهلِهِ[٣].

* فإنْ قُلْتَ: فقد أطَلْتَ في شأْنِ الكسوفِ وأسبابِهِ، وجِئْتَ بما شِئْتَ بِهِ مِن البيانِ الذي لمْ يَشْهَدْ لهُ الشَّرعُ بالصِّحَّةِ ولمْ يَشْهَدْ لهُ بالبطلانِ، بل جاءَ الشَّرعُ بما هوَ أهمُّ منهُ وأجلُّ فائدةً مِن الأمرِ عندَ الكسوفينِ بما يَكونُ سببًا لصلاحِ الأُمَّةِ في معاشِها ومعادِها، وأمَّا أسبابُ الكسوفِ وحسابُهُ والنَّظرُ في ذٰلكَ؛ فإنَّهُ مِن العلمِ الذي لا يَضُرُّ الجهلُ بِهِ ولا يَنْفَعُ نفعَ العلمِ بما جاءَتْ بِهِ الرُّسلُ، [وشتَّانَ بينَ هٰذا العلمِ][٤] وبينَ علومِ هٰؤلاءِ[٥]! فكيفَ نَصْنَعُ بالحديثِ الصَّحيحِ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ الشَّمسَ والقمرَ آيتانِ مِن

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) وكقولهم اليوم بأنّ الأرض تدور حول الشمس.

(٣) فالله يرحم ابن القيّم ما أعقله وأوسع أفقه! وما أحوج أهل العلم اليوم إلى قوله هٰذا ونصيحته.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) فتأمّل بالله عليك هٰذا التسليم المطلق لنصوص الشريعة! لم يستخفّه علمه ببعض أمور الفلك =

آياتِ اللهِ، لا يَنْخَسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياتِهِ، فإذا رَأَيْتُمْ ذٰلكَ؛ فٱفْزَعوا إلى ذكرِ اللهِ والصَّلاةِ»[1]؟! فكيفَ يُلائِمُ هٰذا ما قالَهُ هٰؤلاءِ في الكسوفِ؟!

قيلَ: وأيُّ مناقضةٍ بينَهُما؛ وليسَ فيهِ إلاَّ نفيُ تأثيرِ الكسوفِ في الموتِ والحياةِ على أحدِ القولينِ أو نفيُ تأثُّرِ النَّيِّرينِ بموتِ أحدٍ أو حياتِهِ على القولِ الآخرِ، وليسَ فيهِ تعرُّضٌ لإبطالِ حسابِ الكسوفِ ولا الإخبارُ بأنَّهُ مِن الغيبِ الذي لا يَعْلَمُهُ إلاَّ اللهُ؟! وأمرُ النَّبيِّ ﷺ عندَهُ بما أمَرَ بهِ مِن العتاقةِ والصَّلاةِ والدُّعاءِ والصَّدقةِ كأمرِهِ بالصَّلواتِ عندَ الفجرِ والغروبِ والزَّوالِ معَ تضمُّنِ ذٰلكَ دفعَ موجِبِ الكسوفِ الذي جَعَلَهُ اللهُ سبحانَهُ سببًا لهُ، فشَرَعَ النَّبيُّ ﷺ للأُمَّةِ عندَ ٱنعقادِ هٰذا السَّببِ ما هوَ أنفعُ لهُم وأجدى عليهِم في دنياهُم وأُخراهُم مِن ٱشتغالِهِم بعلمِ الهيئةِ وشأْنِ الكسوفِ وأسبابِهِ.

* فإنْ قيلَ: فما تَصْنَعونَ بالحديثِ الذي رواهُ ٱبنُ ماجه في «سننه» والإمامُ أحْمَدُ والنَّسائِيُّ مِن حديثِ النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ؛ قالَ: ٱنْكَسَفَتِ الشَّمسُ على عهدِ النَّبيِّ ﷺ، فخَرَجَ فزعًا يَجُرُّ ثوبَهُ حتَّى أتى المسجدَ، فلمْ يَزَلْ يُصَلِّي حتَّى ٱنْجَلَتْ، ثمَّ قالَ: «إنَّ ناسًا يَزْعُمونَ أنَّ الشَّمسَ والقمرَ لا يَنْكَسِفانِ إلاَّ لموتِ عظيمٍ مِن العظماءِ، وليسَ كذٰلكَ، إنَّ الشَّمسَ والقمرَ لا يَنْكَسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياتِهِ، فإذا تَجَلَّى اللهُ لشيءٍ مِن خلقِهِ؛ خَشَعَ لهُ»[2].

= ويحمله على المبالغة في قدر هذا العلم، بل أنزله في مكانه اللائق به، وقد جعل الله لكلّ شيء قدرًا.

(١) تقدّم تفصيل القول في تخريجه (٣/ ١٣٥ و١٧٥-١٧٦).

(٢) (حسن). معلوم أنّ أصل الحديث صحيح بما تقدّم (٣/ ١٣٥ و١٧٥-١٧٦) من مرويّات جماعة من الصحابة في الصحيحين، وإنّما الشأن هنا في الزيادة التي في آخره، وقد جاءت من وجهين:

* فرواها أبو قلابة الجرمي وٱختلف عليه فيها على أوجه: روى **أوّلها**: أحمد (٤/ ٢٦٩)، وابن ماجه (٥- الصلاة، ١٥٢- الكسوف، ١/ ٤٠١/ ١٢٦٢)، والنسائي (١٦- الكسوف، ١٦- نوع آخر، ٣/ ١٤١/ ١٤٨٤) وفي «الكبرى» (١٨٧٠)، وابن خزيمة (١٤٠٣ و١٤٠٤)، والحاكم (١/ ٣٣٢)، وابن حزم في «المحلّى» (٥/ ٩٧)؛ من طريق أيّوب السختياني وخالد الحذّاء وقتادة، عنه، عن النعمان بن بشير... رفعه في سياق خطبة الكسوف. وروى **الثّاني**: أحمد (٤/ ٢٦٧)، والبيهقي (٣/ ٣٣٣)؛ من طريق قويّة، عن أيّوب، عنه، عن رجل، عن النعمان... رفعه. وروى **الثالث**: الطحاوي في «المعاني» (١/ ٣٣٠) من طريق قويّة، عن أيّوب، عنه، عن النعمان أو غيره. وروى **الرّابع**: النسائي في «المجتبى» (الموضع السابق، ٣/ ١٤٤/ ١٤٨٦)، والروياني (١٥٢٣)، وابن خزيمة (١٤٠٢)؛ من طريق معاذ بن هشام، ثني أبي، عن قتادة، عنه، عن قبيصة=

قيلَ: قد قالَ أبو حامدٍ الغَزالِيُّ: إنَّ هٰذهِ الزِّيادةَ لمْ يَصِحَّ نقلُها، فيَجبُ تكذيبُ قائلِها، وإنَّما المرويُّ ما ذَكَرْنا؛ يَعْني: الحديثَ الذي لَيْسَتْ هٰذهِ الزِّيادةُ فيه. قالَ: ولو كانَ صحيحًا؛ لَكانَ تأْويلُهُ أهونَ مِن مكابرةِ أُمورٍ قطعيَّةٍ، فكم مِن ظواهرَ أُوِّلَتْ بالأدلَّةِ العقليَّةِ التي لا تَتبيَّنُ في الوضوحِ إلى هٰذا الحدِّ وأعظمَ.

فانْفَرَجَ بهِ الملحدُ[1] أنْ يُصَرِّحَ ناصرُ الشَّرعِ بأنَّ هٰذا وأمثالَهُ على خلافِ الشَّرعِ، فيَسْهُلُ عليهِ طريقُ إبطالِ الشَّرعِ إذْ كانَ[2] شرطُهُ أمثالَ ذٰلكَ!

وليسَ الأمرُ في هٰذهِ الزِّيادةِ كما قالَهُ أبو حامدٍ؛ فإنَّ إسنادَها لا مطعنَ فيهِ!

قالَ ابنُ ماجه: حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ المُثَنَّى وأحْمَدُ بنُ ثابتٍ وحُمَيْدُ بنُ الحَسَنِ؛ قالوا: حَدَّثَنا عَبْدُالوَهَّابِ؛ قالَ: حَدَّثَنا خالِدٌ الحَذَّاءُ، عن أبي قِلابَةَ، عنِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ... فذَكَرَهُ. وهٰؤلاءِ كلُّهُم ثقاتٌ حفَّاظٌ[3].

لٰكنْ لَعَلَّ هٰذهِ اللفظةَ مدرجةٌ في الحديثِ مِن كلامِ بعضِ الرُّواةِ، ولهٰذا لا تُوجَدُ

= الهلالي... رفعه. وروى الخامس: ابن أحمد في «السنّة» (٩١٤)، وابن قانع في «المعجم» (٢/ ٣٤٢)؛ من طريق قويّة، عن قتادة، عن أبي قلابة، عن عامر بن قبيصة (كذا! وكأنّ صوابه: عن أبي قلابة عن ابن عامر عن قبيصة)... رفعه. كما في «التحفة».

فالثالث راجع في الحقيقة إلى الأوّل، والرابع والخامس مرجوحان برواية الجماعة على الوجه الأوّل. فيبقى الأوّل والثاني: فإمّا أنّ أبا قلابة سمعه من النعمان ومن رجل، وإليه مال ابن حزم وابن التركماني. أو يقال: سمعه من الرجل ثمّ أرسله، وإليه مال ابن خزيمة والبيهقي، وهو الأرجح فيما أرى؛ لأنّ سماع أبي قلابة من النعمان غير ثابت. وعليه؛ فعلّة هٰذا السند الانقطاع، وقد ضعّفه الألباني.

* لٰكن رواه الدارقطني (٢/ ٦٤) من طريقين تقوّي إحداهما الأخرى، عن الحسن، عن أبي بكرة... به مرفوعًا. والحسن سمع أصل الحديث من أبي بكرة فيما رواه البخاري، فالسند حسن بمجموع طريقيه لا ينبغي أن يعلّ بعنعنة الحسن.

وعليه؛ فقد جاءت هٰذه الزيادة من وجهين أحدهما حسن أو قريب منه والآخر راجح الانقطاع، ومجموعهما يقوّي أنّ لها أصلاً، وإلى تقويتها مال الحاكم وابن حزم وابن التركماني والذهبي وابن القيّم والعسقلاني، ومال إلى ضعفها الألباني. والله أعلى وأعلم.

(١) في ط: «الملحدة»! وسياق الكلام يدلّ على صواب ما أثبتّه.

(٢) في ط: «وإن كان»! ولا معنى له، وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

(٣) لٰكن احتمال الانقطاع قويّ ووجيه لأمرين: أوّلهما: أنّه لم يثبت لأبي قلابة سماع من النعمان. والآخر: أنّه زاد بعضهم بينه وبين النعمان رجلاً مبهمًا.

في سائرِ أحاديثِ الكسوفِ، فقد رَواها عنِ النَّبيِّ ﷺ بضعةَ عَشَرَ صحابيًّا؛ عائشةُ أمُّ المؤمنينَ وأسْماءُ بنتُ أبي بَكْرٍ وعَلِيُّ بنُ أبي طالِبٍ وأُبَيُّ بنُ كَعْبٍ وأبو هُرَيْرَةَ وعَبْدُاللهِ بنُ عَبّاسٍ وعَبْدُاللهِ بنُ عُمَرَ وجابِرُ بنُ عَبْدِاللهِ وسَمُرَةُ بنُ جُنْدُبٍ وقَبيصَةُ الهِلالِيُّ وعَبْدُالرَّحْمٰنِ بنُ سَمُرَةَ[١]، فلمْ يَذْكُرْ أحدٌ منهُم هٰذهِ اللفظةَ التي ذُكِرَتْ في حديثِ النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ، فمِن هاهُنا نَخافُ أنْ تَكونَ أُدْرِجَتْ في الحديثِ إدراجًا، ولَيْسَتْ مِن لفظِ رسولِ اللهِ ﷺ[٢].

---

(١) أمّا أحاديث عائشة وأسماء وابن عبّاس وابن عمر؛ فمتّفق عليها كما تقدّم (٣/ ١٣٥ و١٧٥).
وأمّا حديث جابر؛ فتقدّم (٣/ ١٣٥ و١٧٥-١٧٦) أنّه عند مسلم.
وعنده أيضًا (١٠ـ الكسوف، ٥ـ النداء بالصلاة، ٢/ ٦٢٩/ ٩١٣) حديث عبدالرحمٰن بن سمرة.
وأمّا حديث عليّ؛ فعند: أحمد (١/ ١٤٣)، وابن خزيمة (١٣٨٨ و١٣٩٤)، والبيهقي (٣/ ٣٣٠).
وأمّا حديث أُبيّ؛ فعند: أبي داوود (١ـ الصلاة، ٢٦٢ـ من قال أربع ركعات، ١/ ٣٧٩/ ١١٨٢)، والحاكم (١/ ٣٣٣)؛ بسند ضعيف.
وأمّا حديث أبي هريرة؛ فعند النسائي (١٦ـ الكسوف، ١٤ـ نوع آخر، ٣/ ١٣٩/ ١٤٨٢) بسند حسن.
وأمّا حديث سمرة بن جندب؛ فعند: ابن ماجه (٥ـ إقامة الصلاة، ١٥٢ـ الكسوف، ١/ ٤٠٢/ ١٢٦٤)، وأبي داوود (الموضع السابق، ١١٨٤)، والترمذي (٢ـ الصلاة، ٣٩٧ـ القراءة في الكسوف، ٢/ ٤٥١/ ٥٦٢)، والنسائي (الموضع السابق، ١٥ـ نوع آخر، ٣/ ١٤٠/ ١٤٨٣ و١٤٩٤)، وابن خزيمة (١٣٩٧)، وابن حبّان (٢٨٥١ و٢٨٥٢ و٢٨٥٦)، والحاكم (١/ ٣٢٩)؛ بسند ضعيف.
وأمّا حديث قبيصة؛ فعند: أحمد (٥/ ٦١)، وأبي داوود (الموضع السابق، ١١٨٥ و١١٨٦)، والنسائي (الموضع السابق، ١٦ـ نوع آخر، ٣/ ١٤٤/ ١٤٨٥ و١٤٨٦)؛ بسند ضعيف، وقد تقدّم شيء من الكلام فيه عند تخريج حديث النعمان.
فهٰذه لمحة سريعة عن مواضع أحاديث هٰؤلاء الصحابة لمن رام النظر في ألفاظها، ومن شاء فليرجع إلى «جامع الأصول» (٤٢٦٩ـ٤٢٨٥)، وفي بعضها كلام طويل ليس هٰذا موضع التفصيل فيه.

(٢) قال ابن القطّان فيما نقل عنه المناوي في «الفيض» (٤/ ٢٩٤): «كلّ كلام مسوق في سياق لا يقبل دعوى درجه إلّا بحجّة». وهٰذا فرع صحيح بلا ريب، مبنيّ على قاعدة عظيمة، وهي استصحاب الأصل وبقاء كلّ شيء على ما كان عليه. وليس هاهنا دليل قويّ ولا ضعيف يصلح مستندًا لدعوى الإدراج، فلا إدراج.
على أنّ دعوى تفرّد النعمان بن بشير بهٰذه الزيادة فيها نظر، فقد تبيّن لك ممّا سبق أنّها جاءت أيضًا في حديثي قبيصة وأبي بكرة رضي الله عنهم أجمعين.
هٰذا؛ ولو صحّ أنّ النعمان بن بشير تفرّد بهٰذه الزيادة دون غيره؛ فذٰلك لا يقتضي إعلالها بالإدراج لأمرين: أحدهما: أنّ مثل هٰذه العبارة لا يقال عادة إلّا بتوقيف، ومن المستبعد جدًّا أن يضيفه الصحابيّ أو التابعيّ من كيسه. والآخر: أنّ بعض الصحابة تفرّدوا بأشياء في حديث الكسوف ـ كتفرّد أسماء بذكر العتاقة في بعض ألفاظ حديثها عند البخاري ـ ولم يستلزم ذٰلك ردّها بالإدراج، فهٰذا كذلك.

على أنَّ هاهُنا مسلكًا بعيدَ المأْخذِ لطيفَ المنزِعِ يَتَقَبَّلُهُ العقلُ السَّليمُ والفطرةُ السَّليمةُ، وهوَ أنَّ كسوفَ الشَّمسِ والقمرِ أوْجَبَ لهُما[١] مِن الخشوعِ والخضوعِ بآنمحاءِ نورِهما وآنقطاعِهِ عن هٰذا العالَمِ ما يَكونُ فيهِ سلطانُهُما وبهاؤُهُما، وذٰلكَ يُوجِبُ لا محالةَ لهُما مِن الخشوعِ والخضوعِ لربِّ العالمينَ وعظمتِهِ وجلالِهِ ما يَكونُ سببًا لتجلِّي الرَّبِّ تَبارَكَ وتَعالى لهُما[٢]. ولا يُسْتَنْكَرُ أنْ يَكونَ تجلِّي اللهِ سبحانَهُ وتَعالى لهُما في وقتٍ معيَّنٍ - كما يَدْنو مِن أهلِ الموقفِ عشيَّةَ عرفةَ[٣] وكما يَنْزِلُ كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدُّنيا عندَ مضيِّ نصفِ الليلِ[٤] - فيُحْدِثُ لهُما ذٰلكَ التَّجلِّي خشوعًا آخرَ ليسَ هوَ الكسوفَ. ولـمْ يَقُلِ النَّبيُّ ﷺ: إنَّ اللهَ إذا تَجَلَّى لهُما آنْكَسَفا، ولٰكنَّ اللفظةَ: «فإذا تَجَلَّى اللهُ لشيءٍ مِن خلقِهِ خَشَعَ لهُ»، ولفظُ الإمامِ أحْمَدَ في الحديثِ[٥]: «إذا بَدا اللهُ لشيءٍ مِن خلقِهِ خَشَعَ لهُ». فهاهُنا خشوعانِ: خشوعٌ أوْجَبَهُ كسوفُهُما بذهابِ ضوئِهما وآنمحائِهِ، فتَجَلَّى اللهُ سبحانَهُ لهُما فحَدَثَ لهُما عندَ تجلِّيهِ تَعالى خشوعٌ آخرُ بسببِ التَّجلِّي[٦] كما

---

(١) في ط: «وجب لهما»! وهو تحريف بيّن دلّ عليه ما بعده صوابه ما أثبتّه.

(٢) ستأتي هٰذه العبارة نفسها بعد قليل، لٰكن بصورة يتّضح فيها مراد ابن القيّم تمامًا.

(٣) رواه مسلم (١٥- الحج، ٧٩- فضل الحجّ والعمرة، ٢/ ٩٨٢/ ١٣٤٨) من حديث عائشة.

(٤) رواه: البخاري (١٩- التهجد، ١٤- الدعاء من آخر الليل، ٣/ ٢٩/ ١١٤٥)، ومسلم (٦- المسافرين، ٢٤- الدعاء آخر الليل، ٢/ ٥٢١/ ٧٥٨)؛ من حديث أبي هريرة. وفيه خلاف في توقيت النزول، وفّق بينه العسقلاني في «الفتح»، وهو في الثلث الأخير من الليل آكد.

(٥) لفظ الإمام أحمد هو اللفظ المتقدّم، والتالي هو لفظ النسائي.

(٦) وهاهنا ملاحظات لا بدّ من الإشارة إليها فيما يلي:

أوّلًا: نعم؛ لم يقل النبيّ ﷺ إذا تجلّى الله للشمس والقمر كسفا. لٰكنّ ظاهر قوله ﷺ «إنّ الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولٰكنّهما آيتان من آيات الله، إنّ الله عزّ وجلّ إذا بدا (وفي رواية: تجلّى) لشيء من خلقه خشع له» يفيد هٰذا المعنى؛ فقد نفى النبيّ ﷺ تفسير الناس لهاتين الظاهرتين بموت عظيم أو حياته وبيّن حقيقتهما وتفسيرهما.

ثانيًا: وأمّا تفسير النصّ بالخشوع الأوّل الذي يقتضي التجلّي ثمّ الخشوع الثاني؛ فهو فرضيّة صرفة لا يعضدها ظاهر هٰذا النصّ ولا غيره من النصوص التي وقفت عليها.

ثالثًا: وعلى هٰذا؛ فصرف النصّ عن ظاهره إلى الخشوع الأوّل فالتجلّي فالخشوع الثاني لا بدّ له من قرينة ترجّحه، ولا قرينة فيما أعلم!

رابعًا: وقول من قال «ولو كان صحيحًا؛ لكان تأويله أهون من مكابرة أمور قطعيّة»: إن أراد حمله على وجه يتّفق فيه الشرع واللغة والعلم؛ فحبّذا الوفاق، وإن أراد الهجوم على النصّ قسرًا وليًّا كيفما اتّفق=

حَدَثَ للجبلِ إذْ تَجَلَّى تَبارَكَ وتَعالى لهُ أنْ صارَ دكًّا وساخَ في الأرضِ. وهٰذا غايةُ الخشوعِ، لٰكنَّ الرَّبَّ تَبارَكَ وتَعالى ثَبَّتَهُما لتجلِّيهِ عنايةً بخلقِهِ لانتظامِ مصالحِهِم بهِما، ولو شاءَ سبحانَهُ؛ لَثَبَّتَ الجبلَ لتجلِّيهِ كما ثَبَّتَهُما، ولٰكنْ أرى كليمَهُ موسى أنَّ الجبلَ العظيمَ لمْ يُطِقِ الثَّباتَ لهُ، فكيفَ تُطيقُ أنتَ الثَّباتَ للرُّؤيةِ التي سَأَلْتَها؟!

● فصلٌ: وأمَّا ٱستدلالُهُ بحديثِ ٱبنِ مَسْعودٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «إذا ذُكِرَ القدرُ فأمْسِكوا، وإذا ذُكِرَ أصحابي فأمْسِكوا، وإذا ذُكِرَ النُّجومُ فأمْسِكوا»[(١)]؛ فهٰذا الحديثُ لو ثَبَتَ؛ لَكانَ حجَّةً عليهِ لا لهُ؛ إذْ لو كانَ علمُ الأحكامِ النُّجوميَّةِ حقًّا لا باطلاً؛ لمْ يَنْهَ عنهُ النَّبيُّ ﷺ ولا أمرَ بالإمساكِ عنهُ؛ فإنَّهُ لا يَنْهى عنِ الكلامِ في الحقِّ، بل هٰذا يَدُلُّ على أنَّ الخائضَ فيهِ خائضٌ فيما لا علمَ لهُ بهِ، وأنَّهُ لا يَنْبَغي لهُ أنْ يَخُوضَ فيهِ ويَقولَ على اللهِ ما لا يَعْلَمُ، فأينَ في هٰذا الحديثِ ما يَدُلُّ على صحَّةِ علمِ أحكامِ النُّجومِ؟!

● وأمَّا أحاديثُ النَّهيِ عنِ السَّفرِ والقمرُ في العقربِ[(٢)]؛ فصحيحٌ مِن كلامِ المنجِّمينَ، وأمَّا رسولُ ربِّ العالمينَ؛ فبريءٌ ممَّن نَسَبَ إليهِ هٰذا الحديثَ وأمثالَهُ؟! ولٰكنْ؛ إذا بَعُدَ الإنسانُ عن نورِ النُّبوَّةِ وٱشْتَدَّتْ غربتُهُ عمَّا جاءَ بهِ الرَّسولُ؛ جَوَّزَ عقلُهُ مثلَ هٰذا[(٣)]، كما يُجَوِّزُ عقلُ المشركينَ أنْ يَقولَ النَّبيُّ ﷺ: «لو حَسَّنَ أحدُكُم ظنَّهُ بحجرٍ؛ نَفَعَهُ»[(٤)]، وهٰذا ونحوُهُ مِن كلامِ عبَّادِ الأصنامِ الذينَ حَسَّنوا ظنَّهُم بالأحجارِ فساقَهُم حسنُ ظنِّهِم إلى دارِ البوارِ!

= إرضاء لخواطر أصحاب القطعيّات المزعومة؛ فهاهنا نظر كبير.

خامسًا: ولست أرى والله وجهًا لنصب الخلاف بين تجلّي الرحمٰن وبين التفسير العلميّ للكسوفين، ولا حاجة لصرف ولا لتأويل! أليس هناك سبب وسبب السبب؟! أليس هناك ظاهرة عمليّة وتفسير علميّ وسبب غيبيّ؟! بلى. وٱنظر ما تقدّم تفصيله في هٰذا (١/ ٦٩)؛ فإنّه مفيد إن شاء الله.

(١) (صحيح). تقدّم تفصيل القول في تخريجه (٣/ ١٣٥).

(٢) (موضوع). تقدّم تفصيل القول في تخريجه (٣/ ١٣٦).

(٣) إي والله؛ ما أحسن هٰذا! وما أصدقه على واقعنا!

(٤) (لا أصل له). ٱتّفق على ذٰلك جماعة المؤلّفين في الموضوعات وغيرهم، على خلاف بينهم في وصفه بـ«موضوع» أو «كذب» أو «لا أصل له». ومنهم ابن تيميّة وابن القيّم والعسقلاني والغزّي والسخاوي والفتّني والقاري والعجلوني.

● وأمَّا الرِّوايةُ عن عَلِيٍّ أنَّهُ نَهى عنِ السَّفرِ والقمرُ في العقربِ؛ فمِنَ الكذبِ على عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ، والمشهورُ عنهُ خلافُ ذٰلكَ وعكسُهُ، وأنَّهُ أرادَ الخروجَ لحربِ الخوارجِ، فاعْتَرَضَهُ منجِّمٌ فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ! لا تَخْرُجْ. فقالَ: لأيِّ شيءٍ؟ قالَ: إنَّ القمرَ في العقربِ، فإنْ خَرَجْتَ؛ أُصِبْتَ وهُزِمَ عسكرُكَ. فقالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عنهُ: ما كانَ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ولا لأبي بَكْرٍ ولا لِعُمَرَ منجِّمٌ، بل أَخْرُجُ ثقةً باللهِ وتوكُّلاً على اللهِ وتكذيبًا لقولِكَ. فما سافرَ بعدَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ سفرةً أبركَ منها؛ قَتَلَ الخوارجَ وكَفى المسلمينَ شرَّهُم، ورَجَعَ مؤيَّدًا منصورًا فائزًا ببشارةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ لِمَن قَتَلَهُم حيثُ يَقولُ: «شرُّ قَتْلى تحتَ أديمِ السَّماءِ، خيرُ قتيلٍ مَن قَتَلوهُ»[1]، وفي لفظٍ: «طوبى لِمَن قَتَلَهُم»[2]، وفي لفظٍ: «تَقْتُلُهُم أولى

---

(١) (صحيح). رواه: الطيالسي (١١٣٦)، وعبدالرزّاق (١٨٦٦٣)، والحميدي (٩٠٨)، وابن أبي شيبة (٣٧٨٨١)، وأحمد (٥/ ٢٥٠ و٢٥٣ و٢٥٦ و٢٦٩)، وابن ماجه (المقدّمة، ١٢ـ ذكر الخوارج، ١/ ٦٢/ ١٧٦)، والترمذي (٤٨ـ التفسير، ٤ـ آل عمران، ٥/ ٢٢٦/ ٣٠٠٠)، وعبدالله بن أحمد في «السنّة» (١٤٧٠-١٤٧٣)، والروياني (١١٧٨)، والمحاملي (٤٧٨ و٤٧٩)، والطحاوي في «المشكل» (٣/ ٢٠٩)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ١٢١/ ٧٥٥٣ و٨٠٣٣-٨٠٣٦ و٨٠٣٨-٨٠٤٠ و٨٠٤٤ و٨٠٤٩-٨٠٥٢ و٨٠٥٥ و٨٠٥٦) و«الأوسط» (٧٦٥٦) و«الصغير» (٣٣) و«الشاميّين» (١٢٧٩)، والآجرّي في «الشريعة» (٥٣ و٥٤)، وأبو الشيخ في «الطبقات» (٢/ ١٥٢)، والحاكم (٢/ ١٤٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٨٢)، والبيهقي (٨/ ١٨٨)؛ من طرق خمس، عن أبي أمامة رفعه. وبعض هٰذه الطرق حسن لذاته، والحديث بمجموعها صحيح لا ريب، وقد قوّاه الترمذي والحاكم والذهبي والهيثمي والألباني.

(٢) (صحيح). وقد جاء عن جماعة من الصحابة:

* رواه الطبراني (٦/ ٢٣٣ـ مجمع) من حديث عبدالله بن خبّاب. قال الهيثمي: «فيه محمّد بن عمر الكلاعي وهو ضعيف». قلت: منكر الحديث جدًّا، وفيه أيضًا انقطاع.

* ورواه الطبراني (٨/ ٣٣٨/ ٨٢٦٠) من طريق علي بن يحيى بن إسماعيل، ثنا أبي يحيى بن إسماعيل، عن عكرمة بن عمّار، عن عبدالله بن بدر، عن عبدالرحمٰن بن علي، عن طلق بن علي . . . رفعه. قال الهيثمي (٦/ ٢٣٥): «فيه علي بن يحيى بن إسماعيل عن أبيه، ولم أعرفهما».

* ورواه: أحمد في «فضائل الصحابة» (١٢٠٥)، وابنه في «المسند» (١/ ١٥١)، وأبو يعلى (٣٥٨)؛ من طريق نعيم بن حكيم، ثني أبو مريم، ثنا علي . . . رفعه. ونعيم له مناكير، وأبو مريم شبه المجهول.

ورواه الخطيب في «الجمع والتفريق» (٢/ ٣٩٧) من طريق أبان بن أبي عيّاش، عن مسلم بن أبي عمران، عن شقيق أبي وائل، عن علي . . . رفعه. لٰكنّ أبانًا متروك.

* ورواه أحمد (٢/ ٨٤) من طريق يحيى بن أبي حيّة أبي جناب، عن شهر، سمعت ابن عمر . . . =

الطَّائفتينِ بالحقِّ»[1]، وفي لفظٍ: «لَئِنْ أدرَكْتُهُم لأَقْتُلَنَّهُم قتلَ عادٍ»[2]، وقالَ عليٌّ لأصحابِهِ: لولا أنْ تَتَّكِلوا لَحَدَّثْتُكُم بما لكُم عندَ اللهِ في قتلِهِم. فكانَ هٰذا الظَّفرُ ببركةِ خلافِ ذٰلكَ المنجِّمِ وتكذيبِهِ والثِّقةِ باللهِ ربِّ النُّجومِ والاعتمادِ عليهِ.

وهٰذهِ سنَّةُ اللهِ فيمَنْ لَمْ يَلْتَفِتْ إلى النُّجومِ ولا بَنى عليها حركاتِهِ وسكناتِهِ وأسفارَهُ وإقامتَهُ، كما أنَّ سنَّتَهُ نكبةُ مَن كانَ منقادًا لأربابِها عاملاً بما يَحْكُمونَ لهُ بهِ، وفي التَّجارِبِ مِن هٰذا ما يَكْفي اللبيبَ المؤمنَ. واللهُ الموفِّقُ.

● **فصلٌ**: والذي أوْجَبَ للمنجِّمينَ كراهيةَ السَّفرِ والقمرُ في العقربِ:

أنَّهُم قالوا: السَّفرُ أمرٌ يُرادُ لخيرٍ مِن الخيراتِ، فإذا كانَ الوصولُ إلى ذٰلكَ الأمرِ أسرعَ؛ كانَ أجودَ، فيَنْبَغي على هٰذا أنْ يَكونَ القمرُ في برجٍ منقلبٍ، والعقربُ برجٌ

= رفعه. قال الهيثمي (٦/ ٢٣٢): «فيه أبو جناب وهو مدلّس». قلت: وليّن، وفيه أيضًا شهر لا يعدو أن يكون صالحًا في المتابعات.

* ورواه: أحمد (٣/ ٢٢٤)، وأبو داوود (٣٤ـ السنّة، ٣١ـ قتال الخوارج، ٢/ ٦٥٧/ ٤٧٦٥)، وابن نصر في «السنّة» (٥٢)، وأبو يعلى (٢٩٦٣ و٣١١٧)، والداني في «الفتن» (٢٧٦)، والبيهقي (٨/ ١٧١)، والضياء (٢٣٩١ و٢٣٩٢)؛ من طريق الأوزاعي، ثني قتادة، عن أنس (وزادوا مرّة: وأبي سعيد)... رفعه. وهٰذا سند قويّ؛ إلّا زيادة أبي سعيد؛ فمرسلة، فلعلّ الذي سمعه من أبي سعيد أنس ثمّ أخبر قتادة به عنه.

ورواه أبو يعلى مرّة (٣٩٠٨) من طريق مبارك بن سحيم، عن عبدالعزيز بن صهيب، عن أنس... رفعه. ومبارك بن سحيم هٰذا متروك.

* ورواه: الطبراني (٨/ ١٢١/ ٧٥٥٣)، والبيهقي (٨/ ١٨٨)؛ من طريقين، عن أبي أمامة... رفعه. وقد تقدّم حديث أبي أمامة آنفًا، لٰكن الشأن هنا في هٰذه الزيادة، فطريق البيهقي لا بأس بها وطريق الطبراني ضعيفة لٰكنّها تشدّ الطريق الأولى.

* ورواه: ابن سعد (٤/ ٤٦٩)، وأحمد (٤/ ٣٨٢ و٣٥٧)، وابن أبي عاصم (٩٠٦)، واللالكائي في «السنّة» (٢٣١٢)؛ من طريق حمّاد بن سلمة، ثنا سعيد بن جمهان، عن عبدالله بن أبي أوفى... رفعه. وسعيد صدوق له أفراد، فالسند حسن.

فهٰذه سبعة أوجه لهٰذا اللفظ؛ الأوّل واه، والثاني والثالث والرابع ضعيفة، والثلاثة الأخيرة في حدّ الحسن، وهٰذا اللفظ صحيح بمجموعها بلا ريب.

(١) جاء هٰذا في بعض ألفاظ حديث أبي سعيد الخدريّ عند مسلم (١٢ـ الزكاة، ٤٧ـ ذكر الخوارج، ٢/ ٧٤٥/ ١٠٦٥)، وأصله عند البخاري كما سيأتي.

(٢) جاء هٰذا في بعض ألفاظ حديث أبي سعيد الخدريّ عند البخاري (٩٧ـ التوحيد، ٢٣ـ تعرج الملائكة والروح إليه، ١٣/ ٤١٥/ ٧٤٣٢)، وأصله عند مسلم كما تقدّم.

ثابتٌ، والثَّوابتُ عندَهُم تَدُلُّ على الأُمورِ البطيئةِ!

قالوا: وأيضًا البرجُ للمِرِّيخ[١]، والمِرِّيخُ عندَهُم نحسٌ أكبرُ، والنَّحسُ يَنْحَسُ الحظوظَ على أصحابِها، فيَنْبَغي أنْ يكونَ القمرُ في برجِ سعدٍ؛ لأنَّ السَّعدَ يَنْفَعُ والنَّحسَ يَضُرُّ.

وأيضًا؛ فإنَّ هٰذا البرجَ هوَ برجُ هبوطِ القمرِ، وإذا كانَ الكوكبُ في هبوطِهِ؛ لا يَلْتَئِمُ لصاحبِهِ ما يُريدُهُ ويَقْصِدُهُ بل يكونُ وبالاً عليهِ؛ لأنَّ الكوكبَ الهابطَ عندَهُم كالمنكَّس.

وأيضًا؛ فإنَّ القمرَ عندَهُم ربُّ تاسعِ العقربِ، وإذا كانَ ربُّ التَّاسعِ منحوسًا؛ فالسَّفرُ مكروهٌ؛ لأنَّ التَّاسعَ منسوبٌ إلى السَّفرِ.

وبالجملةِ؛ فإنَّ العقربَ عندَهُم شرُّ البروجِ للقمرِ[٢] على الإطلاقِ.

قالوا: فلذٰلكَ يَنْبَغي الحذرُ مِن السَّفرِ والقمرُ في العقربِ.

قالوا: فمَن كَرِهَ السَّفرَ إذْ ذاكَ؛ فإنَّما يَكْرَهُهُ بعلمِهِ وعقلِهِ! وأميرُ المؤمنينَ عَلِيُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ أعقلُ أهلِ زمانِهِ وأعلمُهُم، فهوَ أولى بكراهتِهِ.

وليسَ ذٰلكَ مخصوصًا عندَهُم بالسَّفرِ وحدَهُ، بل يَكْرَهونَ جميعَ الابتداآتِ والاختياراتِ والقمرُ في العقربِ. و[ذٰلكَ أنَّهُ][٣] لمَّا كانَ القمرُ أسرعَ الكواكبِ حركةً؛ فهوَ أولى أنْ يكونَ دليلاً على الأُمورِ المنقلبةِ، والسَّفرُ أمرٌ منقلبٌ، والعقربُ برجٌ ثابتٌ غيرُ منقلبٍ[٤]!

والتَّجربةُ والواقعُ مِن أكبرِ شاهدٍ على تكذيبِهِم في هٰذا الحكمِ: فكم ممَّن سافَرَ وتَزَوَّجَ وٱبْتَدَأَ وٱخْتارَ والقمرُ في العقربِ وتَمَّ لهُ مرادُهُ على أكملِ ما كانَ يُؤَمِّلُهُ، ولا يَزالُ النَّاسُ يُنْشِئُونَ الأسفارَ والابتداآتِ والاختياراتِ في كلِّ وقتٍ والقمرُ في العقربِ

---

(١) من المستغرب أن يكون برج العقرب للمرّيخ! لأنّ المرّيخ من السيّارة التي لا تلزم برجًا معيّنًا بل تنزل مختلف البروج! لعلّه يكون أظهر ما يكون للراصد الأرضي إذا كان في العقرب فلذٰلك ألزموه به.

(٢) في ط: «البروج والقمر»! ولا يصحّ! فإمّا أنّ الصواب ما أثبتّه، وإمّا أنّ هاهنا سقطًا.

(٣) زيادة لإيضاح السياق.

(٤) فهو يتنافر مع الأمور المنقلبة وما يدلّ عليها، وهٰذا يقتضي ـ زعموا ـ عدم نجاحها وفلاحها.

وغيرِهِ ويَحْمَدونَ عواقبَ أسفارِهِم، كما أنْشَأَ أميرُ المؤمنينَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عنهُ سفرَ جهادِهِ للخوارجِ والقمرُ في العقربِ، وأنْشَأَ المُعْتَصِمُ سفرَ فتح عَمُّوريَّةَ وجهادِ أعداءِ اللهِ والقمرُ في العقربِ وقد أجْمَعَ الكذَّابونَ أنَّهُ إنْ خَرَجَ كُسِرَ عسكرُهُ وقُتِلَ أو أُسِرَ فبيَّنَ اللهُ للمسلمينَ كذبَهُم بذٰلكَ الفتحِ الجليلِ. . . ولوِ ٱسْتَقْصَيْنا أمثالَ هٰذهِ الوقائعِ؛ لَطالَ الأمرُ جدًّا.

ومَن أرادَ أنْ يَعْلَمَ كذبَهُم قطعًا؛ فلْيَبْتَدِئْ سفرًا أوِ ٱختيارًا أو بناءً أو غيرَهُ والقمرُ في العقربِ، ولْيَتَوَكَّلْ على اللهِ، ولْيُسافِرْ؛ فإنَّهُ يَرى ما يَغْبِطُهُ ويَسُرُّهُ.

ومِن أبينِ الكذبِ والبهتِ الكذبُ على الحسِّ والواقعِ. وهٰذا الذي كَرِهوهُ وحَذَّروا منهُ، لو كانَ الواقعُ شاهدًا بهِ؛ لَكانَ النَّاسُ لا يَخْتارونَ ولا يُسافِرونَ ولا يَبْتَدِئُونَ شيئًا ٱلبتَّةَ والقمرُ في العقربِ، وكانَ علمُهُم بهٰذا وتجربتُهُم لهُ معلومًا بالضَّرورةِ؛ فكيفَ والأمرُ بالعكسِ؟!

وأيضًا؛ فيُقالُ لهُ: قد يَكونُ القمرُ في العقربِ ويُجامِعُهُ السُّعودُ، وهُما المُشْتَري والزُّهَرَةُ مثلاً، ويَكونُ ربُّ بيتِ السَّفرِ وبيتِ الطَّالعِ أيضًا سعودانِ[١]، فهلاَّ قُلْتُم: إنَّ السَّفرَ حينئذٍ يَكونُ صالحًا لاجتماعِ هٰذهِ السُّعوداتِ في البرجِ المنقلبِ، وٱجتماعُها يُكْسِبُها قوَّةً! بل قالَ فضلاؤُكُم[٢]: يَكونُ القمرُ في العقربِ مسعودًا إنْ جامَعَ السُّعودَ! بلْ قالوا[٣]: إنَّ السُّعودَ أيضًا تَنْتَحِسُ فيهِ، فإذا حَلَّ السُّعودُ العقربَ؛ ٱنْتَحَسَتْ فيهِ! ولذٰلكَ قُلْتُم: إنَّ الشَّمسَ إذا حَلَّتِ [العقربَ][٤]؛ ضَعُفَتْ فيهِ أيضًا جدًّا، وإنْ كانَ معَهُ السَّعدانِ؛ أعْني: المُشْتَرِيَ والزُّهَرَةَ! [فـ]ـلو قُلِبَ عليكُم هٰذا الاستدلالُ، وقيلَ: إذا حَلَّتِ السُّعودُ في هٰذا البرجِ؛ قَوِيَ فعلُها وتَضافَرَ بعضُها معَ بعضٍ فقَوِيَ السَّعدُ بٱجتماعِها ولمْ يَقْوَ البرجُ على إنحاسِها، وقوَّةُ زُحَلَ والمِرِّيخِ النَّحسينِ على هٰذا البرجِ لا

---

(١) في ط: «ربّ بيت السفر وبيت الطالع وبيت السفر أيضًا سعودات»!

(٢) يعني: بل هلاّ قال فضلاؤكم. . .

(٣) يعني: ولٰكنّهم لم يقولوا ذٰلك بل قالوا. . .

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

تَسْتَلْزِمُ إنحاسَ هٰذهِ السُّعودِ، بل إنَّ سعادتَها تُؤثِّرُ في نحسِها؛ كانَ مِن جنسِ قولِكُم.

ومِن هُنا قالَ أبو نصرٍ الفارابيُّ: وٱعْلَمْ أنَّكَ لو قَلَبْتَ أوضاعَ المنجِّمينَ فجَعَلْتَ السَّعدَ نحسًا والنَّحسَ سعدًا والحارَّ باردًا وعكسَهُ؛ لَكانَتْ أحكامُكَ مِن جنسِ أحكامِهِم تُصيبُ وتُخْطِئُ!

● فصلٌ: وأمَّا ما ٱحْتُجَّ بهِ مِن الأثرِ عن عَلِيٍّ: أنَّ رجلاً أتاهُ فقالَ: إنِّي أريدُ السَّفرَ، وكانَ ذٰلكَ في مَحاقِ الشَّهرِ، فقالَ: أتُريدُ أنْ يَمْحَقَ اللهُ تجارتَكَ، ٱسْتَقْبِلْ هلالَ الشَّهرِ بالخروجِ!

فهٰذا لا يُعْلَمُ ثبوتُهُ عن عَلِيٍّ. والكذَّابونَ كثيرًا ما يُنَفِّقونَ سلعَهُم البطَّالةَ بنسبتِها إلى عَلِيٍّ وأهلِ بيتِهِ، كأصحابِ القرعةِ والجَفْرِ والبِطاقَةِ والهَفْتِ[١] والكيمياءِ والملاحمِ وغيرِها، فلا يَدْري ما كُذِبَ على أهلِ البيتِ إلاَّ اللهُ سبحانَهُ.

ثمَّ لوْ صَحَّ هٰذا عن عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ؛ لمْ يَكُنْ فيهِ تعريضٌ لثبوتِ أحكامِ النُّجومِ بوجهٍ. ولا ريبَ أنَّ ٱستقبالَ الأسفارِ والأفعالِ في أوائلِ النَّهارِ والشَّهرِ والعامِ لها مزيَّة[٢]. والنَّبيُّ ﷺ قد قالَ: «اللهمَّ! بارِكْ لأُمَّتي في بكورِها»[٣]، وكانَ صَخْرٌ الغامِدِيُّ

---

(١) من ضلالات الرافضة التي نسبوها إلى جعفر الصادق من روايته عن عليّ رضي الله عنه، وأكثرها من جنس كلام الكهنة والفلاسفة والمنجّمين.

(٢) أمّا أوائل النّهار؛ فثابت بالحديث الآتي قريبًا. وأمّا أوائل الأسابيع والشهور والسنوات؛ فلم يرد فيها شيء: بل ورد في الأسابيع ما يدلّ على خلافه؛ فقد صحّ أنّه ﷺ كان يستحبّ السفر يوم الخميس. وكذٰلك؛ فتوقيت أسفاره ﷺ في السِّيَر ـ إن صحّ ـ يدلّ على أنّه لم يكن يتوخّى أوائل الأشهر والسنوات في توقيت أسفاره وعمره وغزواته.

وكذٰلك؛ فالتجربة تشهد للبركة في أوائل النهار بخلاف الأسابيع والأشهر والسنوات.

وكذٰلك؛ فالطبّ والعلم يشهدان لفضل أوّل النّهار بخلاف الأسابيع والأشهر والسنوات.

وأيّ فرق بين الاثنين والثلاثاء وبين أوّل الشهر وثالثه وبين صفر وربيع في أداء عمل ما؟! وإنّما يفعل المرء ما يلزمه من الأعمال عندما يلزمه ويبكّر أوّل النّهار ٱلتماسًا لبركة دعاء النبيّ ﷺ، ولا يؤخّر ليستقبل أوّل الأسبوع أو الشهر أو السنة. والله أعلى وأعلم.

(٣) (صحيح). رواه: الطيالسي (١٢٤٦)، وسعيد بن منصور (٢٣٨٢)، وابن الجعد (١٧٧١ و٢٥٥٧)، وابن أبي شيبة (٣٣٦٠٨)، وأحمد (٢/ ٣٨٤ و٣٩٠ و٣٩١، ٣/ ٤١٦ و٤١٧ و٤٣١ و٤٣٢)، وعبد بن حميد (٤٣٢ ـ منتخب)، والدارمي (٢/ ٢١٤)، والبخاري في «التاريخ» (٤/ ٣١٠)، وابن ماجه (١٢ـ تجارات، ٤١ـ البركة في البكور، ٢/ ٧٥٢/ ٢٢٣٦)، وأبو داوود (٩ـ الجهاد، ٨٥ـ الابتكار في السفر، =

= ٢/ ٤١/ ٢٦٠٦)، والترمذي (١٢ـ البيوع، ٦ـ التبكير بالتجارة، ٣/ ٥١٧/ ١٢١٢)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٢٤٠٢)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٣٣)، والعقيلي (١/ ٢٣٦، ٤/ ٤٤٧)، والمحاملي (٣٣١)، وابن قانع في «معجمه» (٤٦٣)، وابن حبّان في «الصحيح» (٤٧٥٤ و٤٧٥٥)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٤/ ٧٢٧٥-٧٢٧٧) و«الأوسط» (٦٨٧٩)، وابن عدي (٧/ ٢٥٩٧)، والإسماعيلي في «المعجم» (٩٤)، والسهمي في «التاريخ» (ص٤١٤)، والقضاعي (١٤٩١ و١٤٩٣)، والبيهقي (٩/ ١٥١)، والخطيب في «التاريخ» (١/ ٤٠٥ و٤٠٦، ٢/ ١٠٦ و١٠٧، ٥/ ٢٤٠ و٤٧٦، ٩/ ٤٤١) و«الجمع والتفريق» (٢/ ٤٥٩)، والبغوي في «شرح السنّة» (٢٦٧٣)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٥٢٣ و٥٢٤)، والمزّي في «التهذيب» (١٣/ ١٢٦)، والذهبي في «الميزان» (٣/ ١٧٥) و«النبلاء» (١٢/ ١٢٢)؛ من طرق، عن يعلى بن عطاء، عن عمارة بن حديد، [عن صخر الغامدي]... رفعه. قال الترمذي: «حسن»، وصحّحه ابن حبّان وأقرّه العسقلاني. قلت: بل له علّتان: **أولاهما**: أنّ بعض الرواة أرسلوه، لٰكن المعتمد الوصل الذي أطبق عليه أغلب الثقات. **والثانية**: عمارة بن حديد مجهول، وبه أعلّه ابن عبدالبرّ والمنذري. فالسند ضعيف.

لٰكن له شاهد رواه: الطبراني في «الأوسط» (١٠٠٠)، وابن عدي (١/ ٣٥٥، ٣/ ١١٧٠، ٥/ ١٦٦٦، ٧/ ٢٦٠٣)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٥٠٢)؛ من طرق أربعة، عن جابر... رفعه. وطريق «الأوسط» حسنة، وطريق ابن عدي الأخيرة ضعيفة، والطريقان الأخريان ساقطتان. والحديث لا ينحطّ عن رتبة الحسن بمجموع طرقه، ولذٰلك قال المنذري: «بعض أسانيد جابر جيّد».

وآخر رواه: ابن ماجه (الموضع السابق، ٢٢٣٧)، والطبراني في «الأوسط» (٧٥٨)، وابن عدي (١/ ٣٥٤ و٣٥٥)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٥١٥ و٥٢٨)، والمزّي في «التهذيب» (٢٦/ ٥٤٤)؛ من طرق ثلاثة، عن أبي هريرة... رفعه. وٱجتماع الطرق الثلاثة يجعل الحديث صالحًا في الشواهد.

وثالث رواه: البزّار (٨٦٥ـ مختصر الزوائد)، وأبو يعلى في «المعجم» (٢٧٢)، والعقيلي (٣/ ٣١٩، ٤/ ١١٧)، وابن حبّان في «المجروحين» (١/ ١٥٥)، وابن عدي (١/ ١٧٠ و٢١٠، ٤/ ١٤١٣، ٥/ ١٧٣٠)، وأبو الشيخ في «الطبقات» (٣٨٦)، والسهمي في «التاريخ» (ص٩٦)، والخطيب في «التاريخ» (١٠/ ١٠٣) و«الجامع» (١٨٨)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٥١٩ـ٥٢٢، ٥٣٠ و٥٣١)، والذهبي في «الميزان» (٢/ ٣٠٩، ٣/ ١٧١ و٣٠٢)؛ من طرق سبع، عن أنس... رفعه. وثلاث من هٰذه الطرق ليس فيها متّهم ولا متروك، فٱجتماعها يجعل الحديث صالحًا في الشواهد.

ورابع رواه: البخاري في «التاريخ» (٦/ ١٩٩)، والبزّار (٨٦٦ و٨٦٧ـ مختصر الزوائد)، والعقيلي (٣/ ١٩٢)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٨٦/ ١٠٨٧٩، ١٢/ ١٧٧/ ١٢٩٦٦)، وابن عدي (٢/ ٧٧١، ٥/ ١٧١٥- ١٧١٧، ٧/ ٢٧٣٤)، وأبو الشيخ في «الطبقات» (٢٣٨)، والقضاعي في «الشهاب» (١٤٩٢)، والبيهقي في «الشعب» (٧٧٥٠ و٧٧٥٠م)، والخطيب في «الجامع» (١٧١٩)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٥٠٩-٥١٣ و٥٢٩)؛ من طرق أربع، عن ابن عبّاس... رفعه. وٱثنتان من هٰذه الأربع بغير متّهم ولا متروك، فالحديث بها صالح في الشواهد.

وخامس رواه: عبد بن حميد (٧٥٧)، وابن ماجه (الموضع السابق، ٢٢٣٨)، وابن حبّان في «المجروحين» (١/ ١٦٠)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٢٨٧/ ١٣٣٩٠) و«الأوسط» (٣٣٣٦) و«الصغير»

راوي الحديثِ إذا بَعَثَ تجارةً لهُ؛ بَعَثَها في أوّلِ النّهارِ، فأثْرى وكَثُرَ مالُهُ. ونسبةُ أوّلِ النّهارِ [إلى النّهارِ][1] نسبةُ أوّلِ الشّهرِ إليهِ وأوّلِ العامِ إليهِ، فللأوائلِ مزيّةُ القوّةِ، وأوّلُ النّهارِ والشّمسِ بمنزلةِ شبابِهِ، وآخرُهُ بمنزلةِ شيخوختِهِ. وهٰذا أمرٌ معلومٌ بالتّجربةِ، وحكمةُ اللهِ تَقْتَضيهِ.

● وأمّا ما ذَكَرَهُ عنِ اليَهوديِّ الّذي أخْبَرَ ٱبنَ عَبّاسٍ بما أخْبَرَهُ مِن موتِ ٱبنِهِ إلى تمامِ ذكرِ القصّةِ؛ فهٰذهِ الحكايةُ إنْ صَحّتْ[2] فهيَ مِن جنسِ إخبارِ الكهّانِ بشيءٍ مِن المغيّباتِ[3].

وقد أخْبَرَ ٱبنُ صَيّادٍ النّبيَّ ﷺ بما خَبَأَ لهُ في ضميرِهِ، فقالَ لهُ: «إنّما أنتَ مِن إخوانِ الكهّانِ»[4].

وعلمُ تقدمةِ المعرفةِ[5] لا يَخْتَصُّ بما ذَكَرَهُ المنجّمونَ بل لهُ عدّةُ أسبابٍ يُصيبُ ويُخْطِئُ ويَصْدُقُ الحكمُ معَها ويَكْذِبُ: منها الكهانةُ، ومنها المناماتُ، ومنها

= (٣٠٩)، وابن عديّ (١/ ٢٦٨، ٦/ ٢١٧٤ و٢١٩٦)، وأبو الشيخ في «الطبقات» (٤٢٦)، والخطيب في «الجمع والتفريق» (١/ ٣١٨) و«الجامع» (١٨٩)، والسمعاني في «الإملاء» (ص١١١)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٥٠٦-٥٠٨)؛ من حديث ابن عمر. وهو صالح في الشواهد بمجموع طرقه.

وشواهد أخرى من حديث عليّ وابن مسعود وعائشة والنوّاس وعمران وبريدة وعبدالله بن سلام وواثلة وأبي رافع وسهل بن سعد وأبي بكرة وكعب بن مالك وعبدالله بن عمرو ونبيط بن شريط والعرس بن عميرة وقرط بن جرير وابن المسيّب مرسلاً، والأربعة الأولى ضعيفة، وما تلاها ساقط لا يصلح لصالحة، والتفصيل في أسانيدها يطيل الكلام من غير جدوى، وليس هٰذا أليق المواضع به، وإنّما اكتفيت بذكر أقوى الشواهد لتطمئن نفس طالب العلم إلى صحّة الحديث.

وقد مال إلى تقويته الترمذي وابن خزيمة وابن حبّان والمنذري والعسقلاني والسخاوي والألباني.

(١) ساقطة من ط، ولا بدّ منها ليستقيم السياق.

(٢) وهو أمر بعيد جدًّا، وإنّما قاله ابن القيّم على التنزّل والتسليم، والرجل لم يورد لها سندًا ولم يعزها لمصدر موثوق.

(٣) يعني: التي يأتيهم بها الشياطين الذين يسترقون السمع فتقع كما أخبروا بها، وهٰذا من نوادر أخبار الكهّان كما صحّ في الحديث.

(٤) قصّة ابن صيّاد رواها مسلم (٥٣ـ الفتن، ١٩ـ ذكر ابن صيّاد، ٤/ ٢٢٤٠/ ٢٩٢٤-٢٩٣٢) عن جماعة من الصحابة، ولم يقل في شيء منها: «إنّما أنت من إخوان الكهّان»، لٰكن قال: «اخسأ فلن تعدو قدرك»، وفسّرها أهل العلم بأنّك لن تعدو أن تكون من جنس الكهّان، فكأنّ المعنى رسخ في ذهن ابن القيّم دون اللفظ، فصار يعزوه إلى النبيّ ﷺ، وكذٰلك فعل يرحمه الله في «المدارج» (٣/ ٢٠٧ـ ط. ابن خزيمة).

(٥) في ط: «تقدّم المعرفة»، وستأتي فيما يلي مرارًا على الجادّة.

الفأْلُ[١] والزَّجرُ، ومنها السَّانحُ والبارحُ[٢]، ومنها الكفُّ، ومنها ضربُ الحصى، ومنها الخطُّ في الأرضِ، ومنها الكشوفُ المستندةُ إلى الرِّياضةِ[٣]، ومنها الفراسةُ، ومنها الحِزارةُ[٤]، ومنها علمُ الحروفِ وخواصِّها[٥]. . . إلى غيرِ ذٰلكَ مِن الأُمورِ التي يُنالُ بها جزءٌ يسيرٌ مِن علمِ الكهَّانِ.

وهٰذا نظيرُ الأسبابِ التي يَسْتَدِلُّ بها الطَّبيبُ والفلاَّحُ والطَّبائعيُّ على أُمورٍ غيبيَّةٍ بما تَقْتَضيهِ تلكَ الأدلَّةُ[٦]. مثالُ الطَّبيبِ: إذا رَأى الجرحَ مستديرًا؛ حَكَمَ بأنَّهُ عسرُ البرءِ، وإذا رَآهُ مستطيلاً؛ حَكَمَ بأنَّهُ أسرعُ برءًا. وكذٰلكَ علاماتُ البحَّارينَ. وغيرُهُما. ومَن تأمَّلَ ما ذَكَرَهُ بُقْراطُ[٧] في علائمِ الموتِ؛ رَأى العجائبَ، وهيَ علاماتٌ صحيحةٌ مجرَّبةٌ[٨]. وكذٰلكَ ما يَحْكُمُ بِهِ[٩] الرُّبَّانُ في أُمورٍ تَحْدُثُ في البحرِ والرِّيحِ بعلاماتٍ تَدُلُّ على ذٰلكَ مِن طلوعِ كوكبٍ أو غروبِهِ أو علاماتٍ أُخرى، فيَقولُ: يَقَعُ مطرٌ، أو يَحْدُثُ

---

(١) الفأل: توقّع ما سيكون من خير أو شرّ بناء على كلمة تسمع أو منظر يُرى. ثمّ غلب الفأل في توقّع الخير والطيرة في توقّع الشرّ.

(٢) الزجر: التكهّن بالطير: فإن طار من يسار الرجل إلى يمينه؛ فهو السانح، ودلالته على الخير واليمن. وإن طار من يمينه إلى يساره؛ فهو البارح، ودلالته على الشرّ.

(٣) وهٰذه كشوف الصوفيّة، التي تتنزّل عليهم بعد طول سهر وصوم وذكر إلى حدّ الإرهاق، وترجع في الغالب الأعمّ إلى أوهام ورؤى تشبه ما يحصل للمدمنين أو إلى تنزّلات شيطانيّة في بعض الأحيان. وآنظر ما فصّلته في هٰذا في «مدارج السالكين» (١/ ٦١ـ ط. ابن خزيمة).

(٤) في ط: «الخزارة»! فإن كانت صحيحة؛ فهي بمعنى الدهاء؛ فإن الخازر في اللغة صاحب الدهاء. والأغلب أنّها محرّفة صوابها ما أثبتّه. والحزارة بمعنى الحدس والتخمين، وهي من باب الفراسة، وكثيرًا ما يلحق ابن القيّم المترادفات بعضها ببعض.

(٥) سيأتيك (٣/ ٢١٧) تفصيل عمليّ تتعرّف فيه على حقيقة هٰذا العلم.

(٦) شتّان بين الأسباب التي يستدلّ بها الطبيب والطبائعيّ والفلاّح وبين الأسباب التي يبني عليها هٰؤلاء دعاواهم بعلم الغيب.

(٧) أبو الطبّ، وأستاذ صناعته وناشرها ومعلّم أسرارها للناس، له حكم ووصايا في آداب الطبيب وأخلاقه ما زالت معتمدة إلى اليوم، يونانيّ، ولد سنة ٤٦٠ق م، وتوفي سنة ٣٦٥ق م.

(٨) وما يقدّره الأطبّاء اليوم من تطوّر الأمراض وتتالي الأعراض وسيرها نحو التفاقم أو الشفاء أكبر وأكثر، وربّما قدروا لأصحاب بعض الأمراض المستفحلة مدّة لحياته لا يتعدّاها غالبًا، وكثيرًا ما تأتي تقديراتهم صحيحة مطابقة، وربّما خابت أحيانًا، لٰكن الغالب إصابتها.

(٩) في ط: «وكذٰلك ما علم به»! وهٰذا تحريف بيّن لا معنى له صوابه ما أثبتّه.

ريحُ كذا وكذا، أو يَضْطَرِبُ البحرُ في مكانِ كذا ووقتِ كذا. . . فيَقَعُ ما يَحْكُمُ بهِ. وكذٰلكَ الفلاّحُ يَرى علاماتٍ فيَقولُ: هٰذهِ الشَّجرةُ يُصيبُها كذا وتَيْبَسُ في وقتِ كذا، وهٰذهِ الشَّجرةُ لا تَحْمِلُ العامَ وهٰذهِ تَحْمِلُ، وهٰذا النَّباتُ يُصيبُهُ كذا وكذا؛ لِما يَرى مِن علاماتٍ يَخْتَصُّ هوَ بمعرفتِها.

بل هٰذا أمرٌ لا يَخْتَصُّ بالإنسانِ، بل كثيرٌ مِن الحيوانِ يَعْرِفُ أوقاتَ المطرِ والصَّحوِ والبردِ وغيرِهِ كما ذَكَرَهُ النَّاسُ في كتبِ الحيوانِ:

والفرسُ الرَّديءُ الخُلُقِ، إذا رَأى اللجامَ مِن بعيدٍ؛ نَفَرَ وجَزِعَ وعَضَّ مَن يُريدُ أنْ يُلْجِمَهُ؛ علمًا منهُ بما يَكونُ بعدَ اللجامِ.

وهٰذهِ النَّملةُ، إذا خَزَنَتِ الحبَّ في بيوتِها؛ كَسَرَتْهُ نصفينِ؛ علمًا منها بأنَّهُ يَنْبُتُ إذا كانَ صحيحًا وأنَّهُ إذا ٱنْكَسَرَ لا يَنْبُتُ، فإذا خَزَنَتِ الكُسْفُرَةَ[1]؛ كَسَرَتْها بأربعةِ أرباعٍ؛ علمًا منها بأنَّها تَنْبُتُ إذا كُسِرَتْ بنصفينِ.

وهٰذا السِّنَّورُ[2] يَدْفُنُ أذاهُ ويُغَطِّيهِ بالتُّرابِ؛ علمًا منهُ بأنَّ الفأْرَ تَهْرُبُ مِن رائحتِهِ فيَفوتُهُ الصَّيدُ. ويَشَمُّهُ أوَّلاً: فإنْ وَجَدَ رائحتَهُ شديدةً؛ غَطَّاهُ بحيثُ يُواري الرَّائحةَ والجِرمَ، وإلاَّ؛ ٱكْتَفى بأيسرِ التَّغطيةِ.

وهٰذا الأسدُ، إذا مشى في لينٍ؛ سَحَبَ ذنبَهُ على آثارِ رجليهِ لِيُغَطِّيَهُما؛ علمًا منهُ بأنَّ المارَّ يَرى مواطِئَ رجليهِ ويديهِ.

وإذا أَلِفَ السِّنَّوْرُ المنزلَ؛ منعَ غيرَهُ مِن السَّنانيرِ الدُّخولَ إلى ذٰلكَ المنزلِ وحارَبَهُم أشدَّ محاربةٍ، وهُم مِن جنسِهِ؛ علمًا منهُ بأنَّ أربابَهُ ربَّما ٱسْتَحْسَنوهُ وقَدَّموهُ عليهِ أو شارَكوا بينَهُ وبينَهُ في المطعمِ. وإنْ أَخَذَ شيئًا ممَّا يَخْزُنُهُ[3] أصحابُ المنزلِ عنهُ؛ هَرَبَ؛ علمًا منهُ بما يَكونُ إليهِ منهُم مِن الضَّربِ. فإذا ضَرَبوهُ؛ تَمَلَّقَهُم أشدَّ التَّملُّقِ

(١) هي الكسبرة أو الكزبرة، لٰكن الباء الفارسيّة مخرجها قريب من الفاء، ولذٰلك يقولون الأصفهاني والأصبهاني. والكزبرة نبات مشهور يستعمل أخضر كمنكّه ويابسًا ضمن البهارات.

(٢) السنّور: القطّ.

(٣) في ط: «ممّا يجزيه»! وهو تصحيف بيّن صوابه ما أثبتّه.

وتَمَسَّحَ بِهِم ولَطِعَ أقدامَهُم[١]؛ علمًا منهُ بما يُحَصِّلُهُ لهُ الملقُ مِن العفوِ والإحسانِ.

وهٰذا في الحيوانِ البهيمِ أكثرُ مِن أنْ نَذْكُرَهُ، فلهُ مِن تقدمةِ المعرفةِ ما يَليقُ بهِ، وللخيلِ والحمامِ مِن ذٰلكَ عجائبُ، وكذٰلكَ الثَّعلبُ وغيرُهُ.

فعُلِمَ أنَّ هٰذا أمرٌ عامٌّ للإنسانِ والحيوانِ، [كلٌّ][٢] أُعْطِيَ مِن تقدمةِ المعرفةِ بحسبِهِ، وأسبابُ هٰذهِ التَّقدمةِ تَخْتَلِفُ.

والأُممُ الذينَ لمْ يَتَقَيَّدوا بالشَّرائعِ لهُمُ ٱعتبارٌ عظيمٌ بهٰذا، وكذٰلكَ مَن قَلَّ ٱلتفاتُهُ وٱعتناؤُهُ بما جاءَتْ بهِ الرُّسلُ؛ فإنَّهُ يَشْتَدُّ ٱلتفاتُهُ ويَكْثُرُ نظرُهُ وٱعتناؤُهُ بذٰلكَ.

وأمَّا أتباعُ الرُّسلِ؛ فقد أغناهُمُ اللهُ بما جاءَتْ بهِ الرُّسلُ مِن العلومِ النَّافعةِ والأعمالِ الصَّالحةِ عن هٰذا كلِّهِ، فلا يَعْتَنونَ بهِ ولا يَجْعَلونَهُ مِن مطالبِهِم المهمَّةِ؛ لأنَّ ما يَطْلُبونَهُ أغلى وأجلُّ مِن هٰذا. ومعَ هٰذا؛ فلهُم منهُ أوفرُ نصيبٍ بحسبِ متابعتِهِم الرُّسلَ مِن الفراسةِ الصَّادقةِ والمناماتِ الصَّالحةِ الصَّحيحةِ والكشوفاتِ المطابقةِ وغيرِها، وهممُهُم لا تَقِفُ عندَ شيءٍ مِن ذٰلكَ، بل هيَ طامحةٌ نحوَ كشفِ ما جاءَ بهِ الرُّسلُ مِن الهدى ودينِ الحقِّ في كلِّ مسألةٍ.

وهٰذا أعظمُ الكشوفِ وأجلُّهُ وأنفعُهُ في الدَّارينِ معَ كشفِ عيوبِ النَّفسِ وآفاتِ الأعمالِ، وأمَّا الكشفُ الجزئيُّ عمَّا أكَلَ فلانٌ وعمَّا أحْدَثَهُ في دارِهِ وعمَّا يَجْري لهُ في هٰذهِ ونحوِ ذٰلكَ؛ فهٰذا ممَّا لا يَعْبَأُ بهِ مَن عَلَتْ همَّتُهُ ولا يَلْتَفِتُ إليهِ ولا يَعُدُّهُ شيئًا، على أنَّهُ مشتركٌ بينَ المؤمنِ والكافرِ، فلعبَّادِ الأصنامِ والمجوسِ والصَّابئةِ والفلاسفةِ والنَّصارى مِن ذٰلكَ شيءٌ كثيرٌ، وذٰلكَ لا يَنْفَعُهُم عندَ اللهِ ولا يُخَلِّصُهُم مِن عذابِهِ.

وهٰؤلاءِ الكهَّانُ وعبيدُ الجنِّ والسَّحرةُ لهُم مِن ذٰلكَ أُمورٌ معروفةٌ وهُم أكفرُ الخلقِ.

فغايةُ هٰذا المنجِّمِ اليهوديِّ الذي أخْبَرَ ٱبنَ عبَّاسٍ بما أخْبَرَهُ أنْ يَكونَ واحدًا مِن هٰؤلاءِ[٣]! فكانَ ماذا؟! وهل يَقِفُ عندَ هٰذا إلَّا الهممُ الدَّنيئةُ السُّفليَّةُ التي لا نهضةَ لها

---

(١) لطع أقدامهم: لحسها.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) على التنزّل والتسليم بصحّة هٰذه القصّة. وعندي أنّها مكذوبة لا أصل لها، ولو كانت صحيحة؛ =

إلى اللهِ والدَّارِ الآخرةِ لِما يُرى لها بذٰلكَ مِن التَّمييزِ عنِ الهمجِ الرَّعاعِ مِن بني آدَمَ؟!

● فصلٌ: وأمَّا ٱحتجاجُهُ بحديثِ أبي الدَّرْداءِ: «لقد تُوُفِّيَ رسولُ اللهِ ﷺ وتَرَكَنا وما طائرٌ يُقَلِّبُ جناحيهِ إلَّا وقد ذَكَرَ لنا منهُ علمًا»[١]؛ فهٰذا حقٌّ وصدقٌ، وهوَ مِن أعظمِ الأدلَّةِ على إبطالِ قولِكُم وتكذيبِكُم فيما تَدَّعونَهُ مِن علمِ أحكامِ النُّجومِ.

فإنَّهُ ﷺ ذَكَّرَهُم علمَ كلِّ شيءٍ حتَّى الخِراءَةَ[٢]، ذَكَّرَهُم مِن علمِ كلِّ طائرٍ وكلِّ حيوانٍ وكلِّ ما في هٰذا العالمِ، ولمْ يُذَكِّرْهُم مِن علمِ أحكامِ النُّجومِ شيئًا ٱلبتَّةَ، وهوَ ﷺ أجلُّ مِن هٰذا وأعظمُ، وقد صانَهُ اللهُ سبحانَهُ عن ذٰلكَ، وإنَّما الذي ذَكَّرَكُم بهٰذهِ الأحكامِ المشركونَ عبَّادُ الأصنامِ والكواكبِ مثلُ بَطْليموسَ وبَنْكَلُوسا وطُمْطُم صاحبِ الدَّرَجِ[٣]، وهٰؤلاءِ مشركونَ عبَّادُ أصنامٍ، وكذٰلكَ أتباعُهُم!

أفلا يَسْتَحي رجلٌ أنْ يَذْكُرَ رسولَ اللهِ ﷺ في هٰذا المقامِ؟!

نعم؛ رسولُ اللهِ ﷺ ذَكَّرَ أُمَّتَهُ مِن تكذيبِكُم وكفرِكُم ومعاداتِكُم والبراءةِ منكُم والإخبارِ بأنَّكُم وما تَعْبُدونَ مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جهنَّمَ أنتُمْ لها وارِدونَ ما يَعْرِفُهُ مَن عَرَفَ ما جاءَ بهِ مِن أُمَّتِهِ والبهتَ[٤] والفريةَ والكذبَ على اللهِ ورسولِهِ.

[و]هل كانَ رسولُ اللهِ ﷺ أو أحدٌ مِن أهلِ بيتِهِ مثبتًا لأحكامِ النُّجومِ عاملًا بها في حركاتِهِ وسكناتِهِ وأسفارِهِ كما هوَ المعروفُ مِن المشركينَ وأتباعِهِم؟! سبحانَكَ هٰذا بهتانٌ عظيمٌ.

● وأمَّا قولُهُ: «إنَّهُ جاءَ في الآثارِ أنَّ أوَّلَ مَن أُعْطِيَ هٰذا العلمَ هوَ آدَمُ؛ لأنَّهُ عاشَ حتَّى أدْرَكَ مِن ذرِّيَّتِهِ أربعينَ ألفَ أهلِ بيتٍ تَفَرَّقوا عنهُ في الأرضِ، فكانَ يَغْتَمُّ لخفاءِ

= لما عجزنا عن مخارجها وغابت عنّا أسانيدها، مع أنّها ممّا تتوفّر دواعي الناس على نقله تعجّبًا.

(١) (لا بأس به). وقد تقدّم تفصيل القول في تخريجه (٣/ ١٣٧).

(٢) جاء في «صحيح مسلم» (٢ـ الإيمان، ١٧ـ الاستطابة، ١/ ٢٢٣/ ٢٦٢) أنّه قيل لسلمان: قد علّمكم نبيكم كلّ شيء حتّى الخراءة؟ فقال: أجل.

(٣) الدرج: جمع درجة، وهي وحدة قياس الزوايا.

(٤) يعني: ما يعرفه من عرف ما جاء به النبيّ ﷺ وعرف البهت والكذب... إلخ وفرّق بينهما من أهل العلم في هٰذه الأمّة.

خبرِهِم عليهِ، فأكْرَمَهُ اللهُ تَعالى بهٰذا العلمِ، فكانَ إذا أرادَ أنْ يَعْرِفَ حالَ أحدِهِم؛ حَسَبَ لهُ بهٰذا الحسابِ، فيَقِفُ على حالَتِهِ»؛ فليسَ هٰذا ببدعٍ مِن بهتِ المنجِّمينَ والملاحدةِ وإفكِهِم وٱفترائِهِم على آدَمَ، وقد عَمِلوا بالمثلِ السَّائرِ هنا: إذا كَذَبْتَ؛ فأَبْعِدْ شاهدَكَ[1]!

● فصلٌ: وأمَّا ما نَسَبَهُ إلى الشَّافِعِيِّ مِن حكمِهِ بالنُّجومِ على عمرِ ذٰلكَ المولودِ؛ فلقد نُسِبَ الشَّافِعِيُّ إلى هٰذا العلمِ وحكمِهِ فيهِ بأحكامٍ لَيَعْجَزُ عن مثلِها أئمَّةُ المنجِّمينَ!

* وأظُنُّ الذي غَرَّهُ في ذٰلكَ أبو عَبْدِاللهِ الحاكمُ؛ فإنَّهُ صَنَّفَ في «مناقب الشَّافعي» كتابًا كبيرًا، وذَكَرَ علومَهُ في أبوابٍ، وقالَ: البابُ الرَّابعُ والعشرونَ في معرفتِهِ تسييرَ الكواكبِ مِن علمِ النُّجومِ، وذَكَرَ فيهِ حكاياتٍ عنِ الشَّافِعِيِّ تَدُلُّ على تصحيحِهِ لأحكامِ النُّجومِ. وكأنَّ هٰذا الكتابَ وَقَعَ للرَّازيِّ، فتَصَرَّفَ فيهِ وزادَ ونَقَصَ وصَنَّفَ «مناقب الشَّافعي» مِن هٰذا الكتابِ، على أنَّ في كتابِ الحاكمِ مِن الفوائدِ والآثارِ ما لمْ يُلِمَّ بهِ الرَّازيُّ.

والذي غَرَّ الحاكمَ مِن هٰذهِ الحكاياتِ تساهلُهُ في إسنادِها. ونحنُ نُبَيِّنُها ونُبَيِّنُ حالَها لِيُتَبَيَّنَ أنَّ نسبةَ ذٰلكَ إلى الشَّافِعِيِّ كذبٌ عليهِ، وأنَّ الصَّحيحَ عنهُ مِن ذٰلكَ ما كانَتِ العربُ تَعْرِفُهُ مِن علمِ المنازلِ والاهتداءِ بالنُّجومِ في الطُّرقاتِ، وهٰذا هوَ الثَّابتُ الصَّحيحُ عنهُ بأصحِّ إسنادٍ إليهِ.

قالَ الحاكمُ: حَدَّثَنا أبو العَبَّاسِ مُحَمَّدُ بنُ يَعْقوبَ، حَدَّثَنا الرَّبيعُ بنُ سُلَيْمانَ؛ قالَ: قالَ الشَّافِعِيُّ: قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجومَ لِتَهْتَدوا بِها في ظُلُماتِ البَرِّ وَالبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقالَ: ﴿وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدونَ﴾ [النحل: ١٦]، كانَتِ العلاماتُ جبالاً يَعْرِفونَ مواضعَها مِن الأرضِ، وشمسًا وقمرًا ونجمًا ممَّا يَعْرِفونَ مِن الفلكِ، ورياحًا يَعْرِفونَ صفاتِها في الهواءِ تَدُلُّ على قصدِ البيتِ الحرامِ.

---

(١) قاتلهم الله! والله؛ لو قالوا: أعطاه البراق يركبه إلى أولاده وذرّيّته متى شاء أو الحصان المجنّح أو بساط الريح أو الفانوس السحريّ. . . لكان أولى بالتصديق من هٰذه الدعوى التي لا خطام لها ولا زمام.

* وأمَّا الحكاياتُ التي ذُكِرَتْ عنهُ في أحكامِ النُّجومِ؛ فثلاثُ حكاياتٍ:

[١] **إحداها**: قالَ الحاكمُ: قُرِئَ على أبي يَعْلى حَمْزَةَ بنِ مُحَمَّدٍ العَلَوِيِّ وأكثرُ ظنِّي أنِّي حَضَرْتُهُ، حَدَّثَنا أبو إسْحاقَ إبْراهيمُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ العَبَّاسِ الأزْدِيُّ في آخرينَ؛ قالوا: حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ أبي يَعْقوبَ الجَوَّالُ الدِّينَوَرِيُّ، حَدَّثَنا عَبْدُاللهِ بنُ مُحَمَّدٍ البَلَوِيُّ، حَدَّثَني خالي عُمارَةُ بنُ زَيْدٍ؛ قالَ: كُنْتُ صديقًا لمُحَمَّدِ بنِ الحَسَنِ، فدَخَلْتُ معَهُ يومًا على هارونَ الرَّشيدِ، فساءَلَهُ. ثمَّ إنِّي سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ الحَسَنِ وهوَ يَقولُ: إنَّ مُحَمَّدَ بنَ إدْريسَ يَزْعُمُ أنَّهُ للخلافةِ أهلٌ[١]! قالَ: فاْسْتَشاطَ هارونُ مِن قولِهِ غضبًا ثمَّ قالَ: عليَّ بهِ. فلمَّا مَثَلَ بينَ يديهِ؛ أطْرَقَ ساعةً، ثمَّ رَفَعَ رأْسَهُ إليهِ، فقالَ: إيهًا! قالَ الشَّافِعِيُّ: ما إيهًا يا أميرَ المؤمنينَ؟ أنتَ الدَّاعي وأنا المدعوُّ، وأنتَ السَّائلُ وأنا المجيبُ... فذَكَرَ حكايةً طويلةً سَأَلَهُ فيها عنِ العلومِ ومعرفتِهِ بها. إلى أنْ قالَ: كيفَ علمُكَ بالنُّجومِ؟ قالَ: أعْرِفُ الفلكَ الدَّائرَ والنَّجمَ السَّائرَ والقطبَ الثَّابتَ، والمائيَّ والنَّاريَّ، وما كانَتِ العربُ تُسَمِّيهِ الأنواءَ، ومنازلَ النَّيِّرينِ الشَّمسِ[٢] والقمرِ، والاستقامةَ والرُّجوعَ، والنُّحوسَ والسُّعودَ، وهيئاتِها وطبائعَها، وما أسْتَدِلُّ بهِ في برِّي وبحري، وأسْتَدِلُّ [به] في أوقاتِ صلاتي، وأعْرِفُ ما مَضى مِنَ الأوقاتِ في كلِّ ممسى ومصبحٍ، وظعني في أسفاري. قالَ: فكيفَ علمُكَ بالطِّبِّ؟ قالَ: أعْرِفُ ما قالَتِ الرُّومُ مثلَ أرِسْطاطاليسَ ومَهْراريسَ وفَرْفُوريُسَ وجالينوسَ وبُقْراطَ وأسْدِقليسَ بلغاتِهِم، وما نُقِلَ عن أطبَّاءِ العربِ وفلاسفةِ الهندِ ونَمَّقَتْهُ علماءُ الفرسِ مثلُ حاماسف وشاهْمُرو وبَهْمَرْدَ وبُزُرْجُمْهُرَ... ثمَّ ساقَ العلومَ على هٰذا النَّحوِ في حكايةٍ طويلةٍ يَعْلَمُ مَن لهُ علمٌ بالمنقولاتِ أنَّها كذبٌ مختلقٌ وإفكٌ مفترًى على الشَّافِعِيِّ.

والبلاءُ فيها مِن عندِ عَبْدِاللهِ بنِ مُحَمَّدٍ البَلَوِيِّ[٣] هٰذا؛ فإنَّهُ كذَّابٌ وضَّاعٌ، وهوَ الذي وَضَعَ رحلةَ الشَّافِعِيِّ، وذَكَرَ فيها مناظرتَهُ لأبي يوسُفَ بحضرةِ الرَّشيدِ، ولمْ يَرَ

---

(١) في ط: «يزعم أنّ للخلافة أهلاً»! ولا وجه لغضب الرشيد عليه فيه، بل الأولى عليه أن يقرّبه ويدنيه.

(٢) في ط: «ومنازل النيّران والشمس»! وهٰذا مشكل جدًّا، والغالب أنّه تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) في ط: «محمّد بن عبدالله البلويّ»! وقد تقدّم على الجادّة قبل سطور!

الشَّافِعِيُّ أبا يوسُفَ ولا ٱجْتَمَعَ بِهِ قطُّ وإنَّما دَخَلَ بغدادَ بعدَ موتِهِ.

ثمَّ إنَّ في سياقِ الحكايةِ ما يَدُلُّ مَن لهُ عقلٌ على أنَّها كذبٌ مفترًى:

فإنَّ الشَّافِعِيَّ لمْ يَعْرِفْ لغةَ هٰؤلاءِ اليونانِ ٱلبتَّةَ حتَّى يقولَ إنِّي أعْرِفُ ما قالوهُ بلغاتِهِم!

وأيضًا؛ ففي هٰذهِ[1] الحكايةِ أنَّ مُحَمَّدَ بنَ الحَسَنِ وَشى بالشَّافِعِيِّ إلى الرَّشيدِ وأرادَ قتلَهُ، وتعظيمُ مُحَمَّدٍ الشَّافِعِيَّ ومحبَّتُهُ لهُ وتعظيمُ الشَّافِعِيِّ لهُ وثناؤُهُ عليهِ هوَ المعروفُ وهوَ يَدْفَعُ هٰذا الكذبَ!

وأيضًا؛ فإنَّ الشَّافِعِيَّ رَحِمَهُ اللهُ لمْ يَكُنْ يَعْرِفُ علمَ الطِّبِّ اليونانيِّ، بل كانَ عندَهُ مِن طبِّ العربِ طرفٌ حُفِظَ عنهُ في منثورِ كلامِهِ بعضُهُ: كنهيِهِ عن أكلِ الباذنجانِ بالليلِ. وأكلِ البيضِ المصلوقِ بالليلِ. وكانَ يَقولُ: عجبًا لمَن يَتَعَشَّى ببيضٍ ويَنامُ كيفَ يَعيشُ. وكانَ يَقولُ: عجبًا لِمَن يَخْرُجُ مِن الحمَّامِ ولا يَأْكُلُ كيفَ يَعيشُ. وكانَ يَقولُ: عجبًا لِمن يَحْتَجِمُ ثمَّ يَأْكُلُ كيفَ يَعيشُ؛ يَعْني: عقبَ الحجامةِ. وكانَ يَقولُ: ٱحْذَرْ أنْ تَشْرَبَ لهٰؤلاءِ الأطبَّاءِ دواءً لا تَعْرِفُهُ[2]. وكانَ يَقولُ: لا تَسْكُنْ ببلدةٍ ليسَ فيها عالمٌ يُنَبِّئُكَ عن دينِكَ ولا طبيبٌ يُنَبِّئُكَ عن أمرِ بدنِكَ. وكانَ يَقولُ: لمْ أرَ شيئًا أنفعَ للوباءِ مِن البَنَفْسَجِ يُدَّهَنُ بِهِ ويُشْرَبُ... إلى أمثالِ هٰذهِ الكلماتِ التي حُفِظَتْ عنهُ. فأمَّا أنَّهُ كانَ يَعْلَمُ طبَّ اليونانِ والرُّومِ والهندِ والفرسِ بلغاتِها؛ فهٰذا بهتٌ وكذبٌ عليهِ قد أعاذَهُ اللهُ عن دَعْواهُ.

وبالجملةِ؛ فمَن لهُ علمٌ بالمنقولاتِ لا يَسْتَرِيبُ في كذبِ هٰذهِ الحكايةِ عليهِ، ولولا طولُها؛ لَسُقْناها لِيُتَبَيَّنَ أثرُ الصَّنعةِ والوضعِ عليها.

[٢] **أمَّا الحكايةُ الثَّانيةُ**؛ فقالَ الحاكِمُ: أَخْبَرَنا أبو الوَليدِ الفَقيهُ؛ قالَ: حُدِّثْتُ عنِ الحَسَنِ بنِ سُفْيانَ، عن حَرْمَلَةَ؛ قالَ: كانَ الشَّافِعِيُّ يُديمُ النَّظَرَ في كتبِ النُّجومِ، وكانَ لهُ صديقٌ وعندَهُ جاريةٌ قد حَبِلَتْ، فقالَ: إنَّها تَلِدُ إلى سبعةٍ وعشرينَ يومًا ويَكونُ في فخذِ الولدِ الأيسرِ خالٌ أسودُ ويَعيشُ أربعةً وعشرينَ يومًا ثمَّ يَموتُ، فجاءَتْ بِهِ على

---

(١) في ط: «وأيضًا فإنّ هٰذه»! وأرجو أنّ الصواب ما أثبتّه.

(٢) في ط: «دواء ولا تعرفه»! ولا حاجة لهذه الواو، بل هي مفسدة للمعنى.

النَّعتِ الذي وَصَفَ وٱنْقَضَتْ مدَّتُهُ فماتَ، فأَحْرَقَ الشَّافِعِيُّ بعدَ ذٰلكَ تلكَ الكتبَ وما عاوَدَ النَّظرَ في شيءٍ منها.

وهٰذا الإسنادُ رجالُهُ ثقاتٌ، لٰكنِ الشَّأْنُ فيمَن حَدَّثَ أبا الوليدِ بهٰذهِ الحكايةِ عن الحَسَنِ بنِ سُفْيانَ أو فيمَنْ حَدَّثَ بها الحَسَنَ عن حَرْمَلَةَ[١]!

وهٰذهِ الحكايةُ، لو صَحَّتْ؛ لَوَجَبَ أنْ تُثْنى الخناصرُ على هٰذا العلمِ وتُشَدَّ بهِ الأيدي لا أنْ تُحْرَقَ كتبُهُ ويُهانَ غايةَ الإهانةِ ويُجْعَلَ طعمةً للنَّارِ، وهٰذا لا يُفْعَلُ إلَّا بكتبِ المحالِ والباطلِ[٢].

ثمَّ إنَّهُ لَيْسَ في العالمِ طالعٌ للولادةِ يَقْتَضي هٰذا كلَّهُ كما سَنَذْكُرُهُ عن قريبٍ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى.

والطَّالعُ عندَ المنجِّمينَ طالعانِ: طالعُ مسقطِ النُّطفةِ، وهوَ الطَّالعُ الأصليُّ، وهٰذا لا سبيلَ إلى العلمِ بهِ إلَّا في أندرِ النَّادرِ الذي لا يَقْتَضيهِ الوجودُ[٣]. الثَّاني: طالعُ الولادةِ، وهُم معترفونَ أنَّهُ لا يَدُلُّ على أحوالِ الولدِ وجزئيَّاتِ أمرِهِ؛ لأنَّهُ [طالعُ][٤] ٱنتقالِ الولدِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، وإنَّما أخذوهُ بدلاً مِن الطَّالعِ الأصليِّ لمَّا تَعَذَّرَ عليهِمُ ٱعتبارُهُ. وهٰذهِ الحكايةُ لَيْسَ فيها أخذُ واحدٍ مِن الطَّالعينِ؛ لأنَّ فيها الحكمَ على المولودِ قبلَ خروجِهِ مِن غيرِ ٱعتبارِ طالعِهِ الأصليِّ، والمنجِّمُ يَقْطَعُ بأنَّ الحكمَ على هٰذا الولدِ لا سبيلَ إليهِ، وليسَ في صناعةِ النُّجومِ ما يُوجِبُ الحكمَ عليهِ والحالةُ هٰذهِ. وهٰذا يَدُلُّ على أنَّ هٰذهِ الحكايةَ كذبٌ مختلقٌ على الشَّافِعِيِّ على هٰذا الوجهِ.

[٣] وكذٰلكَ **الحكايةُ الثَّالثةُ**: وهيَ ما رَواهُ الحاكِمُ أيضًا: أَنْبَأَني عَبْدُالرَّحْمٰنِ بنُ الحَسَنِ القاضي، أنَّ زَكَرِيَّا بنَ يَحْيى السَّاجِيَّ حَدَّثَهُم، أَخْبَرَني أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدٍ ٱبنِ بِنْتِ

(١) لٰكن الحسن بن سفيان أدرك حرملة وروى عنه، فلا وجه للإعلال بالانقطاع هنا بخلاف الأوّل، فٱنحصرت العلّة في الأوّل.

(٢) وهٰذا وما بعده إعلال للمتن بالتناقض، فإذا كان هٰذا العلم دقيقًا إلى هٰذا الحدّ، فلماذا أحرق الشافعيّ كتبه وما عاود النّظر فيها؟! وقد تقدّم إعلال السند.

(٣) بل لا سبيل للعلم به إطلاقًا كما سيأتي بيانه (٣/ ٢١٤).

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

الشَّافِعِيِّ؛ قالَ: سَمِعْتُ أبي يَقولُ: كانَ الشَّافِعِيُّ وهوَ حَدَثٌ يَنْظُرُ في النُّجومِ، وما نَظَرَ في شيءٍ إلاَّ فاقَ فيهِ، فَجَلَسَ يومًا وٱمرأةٌ تَلِدُ، فحَسَبَ، فقالَ: تَلِدُ جاريةً عوراءَ على فرجِها خالٌ أسودُ وتَموتُ إلى كذا وكذا. فوَلَدَتْ، فكانَ كما قالَ. فجَعَلَ على نفسِهِ ألاَّ يَنْظُرَ فيهِ أبدًا!

وأمرُ هٰذهِ الحكايةِ كالتي قبلَها؛ فإنَّ ٱبنَ بنتِ الشَّافِعِيِّ لمْ يَلْقَ الشَّافِعِيَّ ولا رَآهُ، والشَّأْنُ فيمَن حَدَّثَهُ بهٰذا عنه[1].

* والذي عندي في هٰذا أنَّ النَّاقلَ ـ إنْ أُحْسِنَ بهِ الظَّنُّ ـ فإنَّهُ غَلِطَ على الشَّافِعِيِّ، والشَّافِعِيُّ كانَ مِن أفرسِ النَّاسِ، وكانَ قد قَرَأَ كتبَ الفراسةِ، وكانَتْ لهُ فيها اليدُ الطُّولى، فحَكَمَ في هٰذهِ القضيَّةِ وأمثالِها بالفراسةِ، فأصابَ الحكمَ، فظَنَّ النَّاقلُ أنَّ الحكمَ كانَ يَسْتَنِدُ إلى قضايا النُّجومِ وأحكامِها[2].

وقد بَرَّأ اللهُ مَن هوَ دونَ الشَّافِعِيِّ مِن ذٰلكَ الهذيانِ، فكيفَ بمثلِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ في عقلِهِ وعلمِهِ ومعرفتِهِ حتَّى يَرُوجَ عليهِ هذيانُ المنجِّمينَ الذي لا يَروجُ إلاَّ على جاهلٍ ضعيفِ العقلِ؟!

وتنزيهُ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ عن هٰذا هوَ الذي يَنْبَغي أنْ يَكونَ مِن مناقبِهِ، فأمَّا أنْ يُذْكَرَ في مناقبِهِ أنَّهُ كانَ منجِّمًا يَرى القولَ بأحكامِ النُّجومِ وتصحيحَها؛ فهٰذا فعلُ مَن يَذُمُّ بما يَظُنُّهُ مدحًا!

وإذا كانَ الشَّافِعِيُّ شديدَ الإنكارِ على المتكلِّمينَ مزريًا بهِم وكانَ حكمُهُ فيهِم أنْ يُضْرَبوا بالجريدِ ويُطافَ بهِم في القبائلِ؛ فماذا [يَكونُ][3] رأيُهُ في المنجِّمينَ؟! وهوَ

---

(١) وفيها علل المتن المتقدّمة في التي قبلها.

(٢) أيّ فراسة تلك التي تجعله يقول «تلد جارية عوراء على فرجها خال أسود وتموت إلى كذا وكذا»؟! هٰذه ليست فراسة، هٰذه قصّة ٱخترعها أحد المتمرّغين في أوحال تقديس الرجال وإسباغ هالات الولاية والعصمة عليهم! أناس لا يرضيهم أن يكون الشافعيّ إمامًا عظيمًا قلّما تجود الأيّام بنظيره! كيف؟! لا بدّ أن يكون سبّاقًا متميّزًا متفوّقًا على كلّ أحد في كلّ شيء! لو ٱستطاعوا لقالوا: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير! وأمّا من أورد هٰذا من أصحاب المناقب؛ فحاطبو ليل همّهم الجمع والاستكثار، وقد تساهلوا بإيراد الموضوع على النبيّ ﷺ؛ فلا عجب إن تساهلوا في الموضوع على الشافعيّ. والله أعلى وأعلم.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

أَجلُّ وأعلمُ مِن أنْ يَحْكُمَ بهٰذا الحكمِ على أهلِ الحقِّ ومَن قضاياهُم في الصِّدقِ [ثمَّ][(١)] يَنْتَهِيَ إلى الحدِّ الذي ذُكِرَ في هٰذهِ الحكايةِ.

فذَكَرَ عَبْدُالرَّحْمٰنِ بنُ أبي حاتِمٍ والحاكِمُ وغيرُهُما، عنِ الحُمَيْدِيِّ؛ قالَ: قالَ الشَّافِعِيُّ: خَرَجْتُ إلى اليمنِ في طلبِ كتبِ الفراسةِ حتَّى كَتَبْتُها وجَمَعْتُها، ثمَّ لمَّا كانَ ٱنصرافي؛ مَرَرْتُ في طريقي برجلٍ وهوَ محتبٍ بفناءِ دارِهِ أزرقِ العينِ ناتئِ الجبهةِ سِناطٍ[(٢)]. فقُلْتُ لهُ: هل مِن منزلٍ؟ قالَ: نعمْ. قالَ الشَّافِعِيُّ: وهٰذا النَّعتُ أخبثُ ما يَكونُ في الفراسةِ. فأنْزَلَني، فرَأيْتُ أكرمَ رجلٍ؛ بَعَثَ إليَّ بعشاءٍ وطيبٍ وعلفٍ لدوابِّي وفراشٍ ولحافٍ، وجَعَلْتُ أتَقَلَّبُ الليلَ أجمعَ ما أصْنَعُ بهٰذهِ الكتبِ؟ فلمَّا أصْبَحْتُ؛ قُلْتُ للغلامِ: أسْرِجْ. فأسْرَجَ، فرَكِبْتُ ومَرَرْتُ عليهِ وقُلْتُ لهُ: إذا قَدِمْتَ مكَّةَ ومَرَرْتَ بذي طُوًى؛ فٱسْألْ عن منزلِ مُحَمَّدِ بنِ إدْريسَ الشَّافِعِيِّ. فقالَ لي الرَّجلُ: أمولًى لأبيكَ أنا؟ قلتُ: لا. قالَ: فهل كانَتْ لكَ عندي نعمةٌ؟ قُلْتُ: لا. قالَ: فأينَ ما تَكَلَّفْتُ لكَ البارحةَ؟ قُلْتُ: وما هوَ؟ قالَ: ٱشْتَرَيْتُ لكَ طعامًا بدرهمينِ وأُدمًا بكذا وعطرًا بثلاثةِ دراهمَ وعلفًا لدوابِّكَ بدرهمينِ وكِرى الفراشِ[(٣)] واللحافِ درهمانِ. قالَ: قُلْتُ: يا غلامُ! فهل بَقِيَ شيءٌ؟ قالَ: كِرى المنزلِ؛ فإنِّي وَسَّعْتُ عليكَ وضَيَّقْتُ على نفسي. فغَبَطْتُ نفسي بتلكَ الكتبِ. فقُلْتُ لهُ بعدَ ذٰلكَ: هل بَقِيَ شيءٌ؟ قالَ: ٱمْضِ أخْزاكَ اللهُ؛ فما رَأيْتُ شرًّا منكَ!

وقالَ الرَّبيعُ: ٱشْتَرَيْتُ للشَّافِعِيِّ طيبًا بدينارٍ. فقالَ لي: ممَّنِ ٱشْتَرَيْتَهُ؟ فقُلْتُ: مِن ذٰلكَ الأشقرِ الأزرقِ. فقالَ: أشقرُ أزرقُ! ٱذْهَبْ فرُدَّهُ.

وقالَ الرَّبيعُ: مَرَّ أخي في صحنِ الجامعِ، فدَعاني الشَّافِعِيُّ فقالَ لي: يا رَبيعُ! ٱنْظُرْ إلى الذي يَمْشي، هٰذا أخوكَ؟ قُلْتُ: نعمْ أصْلَحَكَ اللهُ. قالَ: ٱذْهَبْ. ولمْ يَكُنْ رَآهُ قبلَ ذٰلكَ.

قالَ قُتَيْبَةُ بنُ سَعيدٍ: رَأيْتُ مُحَمَّدَ بنَ الحَسَنِ والشَّافِعِيَّ قاعدينِ بفناءِ الكعبةِ، فمَرَّ

---

(١) ساقطة من ط، والسياق يستلزمها ضرورة.

(٢) سناط: لا لحية له أصلاً.

(٣) كرى الفراش: أجرته.

رجلٌ. فقالَ أحدُهُما لصاحبِهِ: تَعالَ نَزْكَنْ[١] على هٰذا المارِّ؛ أيُّ حرفةٍ معَهُ؟ فقالَ أحدُهُما: هٰذا خيّاطٌ. وقالَ الآخرُ: هٰذا نجّارٌ. فبَعَثا إليهِ فسَألاهُ. فقالَ: كُنْتُ خيّاطًا واليومَ أَنْجُرُ، أو: كُنْتُ نجّارًا واليومَ أَخِيطُ.

وقالَ الرَّبيعُ: سَمِعْتُ الشّافِعِيَّ، وقَدِمَ عليهِ رجلٌ مِن أهلِ صنعاءَ، فلمّا رَآهُ؛ قالَ لهُ: مِن أهلِ صنعاءَ؟ قالَ: نعمْ. قالَ: فحدّادٌ أنتَ؟ قالَ: نعمْ.

وقالَ: كُنْتُ عندَ الشّافِعِيِّ إذ أتاهُ رجلٌ، فقالَ لهُ الشّافِعِيُّ: أنسّاجٌ أنتَ؟ قالَ: عندي أُجراءُ.

وقالَ: كُنّا عندَ الشّافِعِيِّ إذْ مَرَّ بهِ رجلٌ، فقالَ الشّافِعِيُّ: لا يَخْلو هٰذا أنْ يَكونَ حائكًا أو نجّارًا! قالَ: فدَعَوْناهُ، فقالَ: ما صنعتُكَ؟ فقالَ: نجّارٌ. فقُلْنا: أوَغيرَ ذٰلكَ؟ قالَ: عندي غلمانٌ يَعْمَلونَ الثِّيابَ.

وقالَ حَرْمَلَةُ: سَمِعْتُ الشّافِعِيَّ يَقولُ: ٱحْذَروا مِن كلِّ ذي عاهةٍ في بدنِهِ؛ فإنَّهُ شيطانٌ. قالَ حَرْمَلَةُ: قُلْتُ: مَن أُولٰئكَ؟ قالَ: الأعرجُ والأحولُ والأشلُّ وغيرُهُ[٢].

وقالَ: ٱشْتَهى الشّافِعِيُّ يومًا عنبًا أبيضَ، فأمَرَني، فٱشْتَرَيْتُ لهُ منهُ بدرهمٍ، فلمّا رَآهُ ٱسْتَجادَهُ، فقالَ لي: يا أبا مُحَمَّدٍ! ممَّنِ ٱشْتَرَيْتَ هٰذا؟ فسَمَّيْتُ لهُ البائعَ. فنَحّى الطَّبقَ مِن بينِ يديهِ، وقالَ لي: رُدَّهُ عليهِ، وٱشْتَرِ لي مِن غيرِهِ. فقُلْتُ لهُ: وما شأنُهُ؟ فقالَ: ألمْ أنْهَكَ أنْ تَصْحَبَ الأزرقَ الأشقرَ؛ فإنَّهُ لا يَنْجُبُ[٣]، فكيفَ آكلُ مِن شيءٍ ٱشْتَرَيْتَهُ لي ممَّن أنْهى عن صحبتِهِ؟! قالَ الرَّبيعُ: فرَدَدْتُ العنبَ على البائعِ، وٱعْتَذَرْتُ إليهِ بكلامٍ حسنٍ، وٱشْتَرَيْتُ لهُ عنبًا مِن غيرِهِ.

وقالَ حَرْمَلَةُ: سَمِعْتُ الشّافِعِيَّ يَقولُ: ٱحْذَروا الأعورَ والأحولَ والأعرجَ والأحدبَ والأشقرَ والكَوْسَجَ وكلَّ مَن بِهِ عاهةٌ في بدنِهِ وكلَّ ناقصِ الخلقِ، فٱحْذَروهُ؛ فإنَّهُ صاحبُ لؤمٍ ومعاملتُهُ عسرةٌ. وقالَ مرَّةً أُخرى: فإنَّهُم أصحابُ خَبٍّ[٤].

---

(١) نزكن: نتعرّف أموره ونتفهّم أحواله بالظّنّ، نتفرّس.

(٢) في هٰذا الإطلاق والتعميم ظلم كبير لكثير من الصالحين.

(٣) لا ينجب: لا يصير نجيبًا، والنجيب: الكريم.

(٤) الكوسج: الذي لا لحية له أصلاً. خبّ: خداع. وفي هٰذا الإطلاق والتعميم نظر لا يخفى.

وقالَ الرَّبيعُ: دَخَلْنا على الشَّافِعِيِّ عندَ وفاتِهِ أنا[١] والبُوَيْطِيُّ والمُزَنِيُّ ومُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللهِ بنِ عَبْدِالحَكَمِ. قالَ: فنَظَرَ إلينا الشَّافِعِيُّ ساعةً فأطالَ، ثُمَّ ٱلْتَفَتَ فقالَ: أمَّا أنتَ يا أبا يَعْقوبَ؛ فستَموتُ في حديدٍ؛ يَعْني: البُوَيْطِيَّ. وأمَّا أنتَ يا مُزَنِيُّ؛ فسَيكونُ لكَ بمِصْرَ هَنَاتٌ وهَنَاتٌ، ولَتُدْرِكَنَّ زمانًا تكونُ أقيسَ أهلِ ذٰلكَ الزَّمانِ. وأمَّا أنتَ يا مُحَمَّدُ؛ فسَتَرْجِعُ إلى مذهبِ أبيكَ. وأمَّا أنتَ يا ربيعُ؛ فأنتَ أنْفَعُهُم لي في نشرِ الكتبِ. قُمْ يا أبا يَعْقوبَ فتَسَلَّمِ الحلْقةَ. قالَ الرَّبيعُ: فكانَ كما قالَ.

وقالَ الرَّبيعُ: ما رَأَيْتُ أفطنَ مِن الشَّافِعِيِّ، لقد سَمَّى رجالاً ممَّن يَصْحَبُهُ، فوَصَفَ كلَّ واحدٍ منهُم بصفةٍ ما أخطَأَ فيها، فذَكَرَ المُزَنِيَّ والبُوَيْطِيَّ وفلانًا، فقالَ: لَيَفْعَلَنَّ فلانٌ كذا، وفلانٌ كذا، ولَيَصْحَبَنَّ فلانٌ السُّلطانَ ولَيُقَلَّدَنَّ القضاءَ.

وقالَ لهُم يومًا وقدِ ٱجْتَمَعوا: ما فيكُم أنفعُ [لي][٢] مِن هٰذا - وأَوْمَأَ إليَّ - لأنَّهُ أمثلُكُم بأخيهِ. وذَكَرَ صفاتٍ غيرَ هٰذهِ. قالَ: فلمَّا ماتَ الشَّافِعِيُّ؛ صارَ كلٌّ منهُم إلى ما ذَكَرَ فيهِ، ما أخْطَأَ في شيءٍ مِن ذٰلكَ.

وقالَ حَرْمَلَةُ: لمَّا وَقَعَ الشَّافِعِيُّ في الموتِ؛ خَرَجْنا مِن عندِهِ، فقُلْتُ لأبي: يا أبَهْ! كلُّ فراسةٍ كانَتْ للشَّافِعِيِّ أخَذْناها يدًا بيدٍ؛ إلاَّ قولَهُ: يَقْتُلُني أشقرُ، وها هوَ في السِّياقِ. فوافَيْنا عَبْدَاللهِ بنَ عَبْدِالحَكَمِ ويوسُفَ بنَ عَمْرٍو، فقُلْنا: إلى أينَ؟ قالا: إلى الشَّافِعِيِّ. فما بَلَغْنا المنزلَ حتَّى أدْرَكْنا الصُّراخَ عليهِ. قُلْنا: مَهْ! ما لكُم؟ قالوا: ماتَ الشَّافِعِيُّ. فقالَ أبي: مَن غَمَّضَهُ؟ قالوا: يوسُفُ بنُ عَمْرٍو. وكانَ أزْرَقَ[٣]!

وهٰذهِ الآثارُ وغيرُها ذَكَرَها ابنُ أبي حاتِمٍ والحاكِمُ في مصنَّفَيهِما في مناقبِ الشَّافِعِيِّ، وهيَ اللائقةُ بجلالتِهِ ومنصبِهِ[٤]، لا ما باعَدَهُ اللهُ منهُ مِن أكاذيبِ المنجِّمينَ وهذياناتِهِم. واللهُ أعلمُ.

---

(١) في ط: «عند وفاته وأنا»! والصواب ما أثبتّه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق دلّ عليها ما قبلها.

(٣) شتّان بين القتل والتغميض!

(٤) وفي بعضها مع ذٰلك نظر ومبالغة، والشافعيّ؛ فوالله إنّه لجليل.

● وأمَّا ما ٱحْتَجَّ بهِ مِن أنَّ فِرْعَوْنَ كانَ يَذْبَحُ أبناءَ بني إسرائيلَ ويَسْتَحْيي نساءَهُم لأنَّ المفسِّرينَ قالوا: كانَ ذٰلكَ بأنَّ المنجِّمينَ أخْبَروهُ بأنَّهُ سَيَجيءُ في بني إسرائيلَ مولودٌ يَكونُ هلاكُهُ على يديهِ!

فأكثرُ المفسِّرينَ إنَّما أحالوا ذٰلكَ على خبرِ الكهَّانِ، ورَوى بعضُهُم أنَّ قومَهُ أخْبَروهُ بأنَّ بني إسْرائيلَ يَزْعُمونَ أنَّهُ يُولَدُ منهُم مولودٌ يَكونُ هلاكُهُ على يديهِ. وهاتانِ الرِّوايتانِ هُما الدَّائرتانِ في كتبِ المفسِّرينَ[١].

وأمَّا هٰذهِ الرِّوايةُ ـ أنَّ المنجِّمينَ قالوا لهُ ذٰلكَ ـ؛ فغايتُها أنَّها مِن أخبارِ أهلِ الكتابِ، وقد خالَفَها غيرُها مِن الرِّواياتِ؛ فكيفَ يَسوغُ التَّمسُّكُ بها في [هٰذا][٢] الأمرِ العظيمِ[٣]؟!

وفي أخبارِ الكهَّانِ ما هوَ أعجبُ مِن ذٰلكَ، فقد أخْبَروا بظهورِ خاتمِ الرُّسلِ مُحَمَّدٍ ﷺ قبلَ ظهورِهِ، وذٰلكَ موجودٌ في دلائلِ النُّبوَّةِ.

ونحنُ لا نُنْكِرُ علمَ تقدمةِ المعرفةِ بأسبابٍ مفضيةٍ إليهِ تَخْتَلِفُ قوى النَّاسِ في إدراكِها وتحصيلِها، وإنَّما كلامُنا معَكُم في أُصولِ علمِ الأحكامِ وبيانِ فسادِها وكذبِ أكثرِ الأحكامِ التي يُسْنِدونَها إليها وبيانِ أنَّ ضررَ هٰذا العلمِ ـ لو كانَ حقًّا ـ أعظمُ مِن نفعِهِ في الدُّنيا والآخرةِ وأنَّ أهلَهُ لهُم أوفرُ نصيبٍ مِن قولِهِ [تَعالى]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ٱتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]!

* وأهلُ هٰذا العلمِ أذلُّ النَّاسِ في الدُّنيا، لا يُمْكِنُ أحدًا منهُم أنْ يَأْكُلَ رزقَهُ بهٰذا

---

(١) وهما الروايتان اللتان ذكرهما ابن كثير في «قصص الأنبياء» (٤٥٦ـ ط. ابن خزيمة).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) سلّمنا أنّ المنجّمين هم الذين تولّوا كبر هٰذه القضيّة ـ وهم والله أهل ذٰلك، هم أهل أن يكونوا قتلة الأنبياء والمعينين عليه ـ فكان ماذا؟! هل يدلّ ذٰلك على صحّة أحكام النجوم؟! أبدًا، فالاحتمالات مفتوحة، فربّما سمعوه ونسبوه إلى أحكام النجوم على عادتهم، وربّما قدّروا ما سيكون على سبيل الفراسة والحكم بالبداءات على الأواخر، وربّما تنزّلت عليهم الشياطين بذٰلك ليتمّ أمر الله وقدره وتظهر فضيلة موسى ﷺ. ومن قال: إنّ المنجّم لا يصيب أبدًا؟!

العلم إلاَّ بأعظم ذلٍّ، وعزيزُهُم لا بدَّ أنْ يَتَعَبَّدَ ويَنْضَوِيَ إلى مكَّاسٍ أو ديوانٍ أو والٍ يَكونُ تحتَ ظلِّهِ وفي كنفِهِ، وسائرُهُم على الطُّرقاتِ وفي كسرِ الحوانيتِ مُدَسَّسينَ[١]، صيدُهُم كلُّ ناقصِ العقلِ والإيمانِ والدِّينِ مِن صبيٍّ أوِ ٱمرأةٍ أو حمارٍ في مسلاخِ آدميٍّ[٢] أو ذبابِ طمعٍ[٣] لو لاحَ لهُ في عبادةِ الأصنامِ والشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ لَكانَ أوَّلَ العابدينَ، ورأسُ مالِهِمُ الكذبُ والزَّرْقُ وأخذُ أحوالِ[٤] السَّائلِ منهُ ومِن فلتاتِ لسانِهِ وهيئتِهِ وأغراضِهِ، فيُخْبِرونَهُ[٥] بما يُناسِبُ ذٰلكَ مِن الأحوالِ، فيَنْفَعِلُ عقلُهُ لهُم ويَقولُ: لقد أُعْطِيَ هٰؤلاءِ عطاءً لَمْ يُعْطَهُ غيرُهُم!

وتَراهُم في الغالبِ يَقْصِدُ أحدُهُم قريةً أو دكَّانًا منزويًا عنِ الطَّريقِ ويَصْلِي فيهِ للصَّيدِ[٦] ويَنْصِبُ الشَّرَكَ، فإذا لاحَ لهُ بدويٌّ أو حبشيٌّ أو تُركمانيٌّ؛ فإنَّهُ يَـتَبَرَّكُ بطلعتِهِ ويَقولُ: ٱجْلِسْ حتَّى أُبَيِّنَ لكَ ما يَقْتَضيهِ نجمُكَ وطالعُكَ وبيتُ مالِكَ وبيتُ فراشِكَ وبيتُ أفراحِكَ وهمومِكَ وكم بَقِيَ عليكَ مِن القطعِ؟ نعمْ؛ ما ٱسمُكَ وٱسمُ أُمِّكَ وأبيكَ؟ فإذا قالَ لهُ ٱسمَهُ وٱسمَ أبويهِ؛ أخْرَجَ لهُ الأصطرلابَ أو الكرةَ النُّحاسَ وقالَ: كيفَ قُلْتَ ٱسْمَكَ؟ فإذا أخْبَرَهُ ثانيةً؛ قالَ: وكيفَ قُلْتَ ٱسمَ الوالدةِ طَوَّلَ اللهُ عمرَها؟ فإذا قالَ: دَرَجَتْ إلى رحمةِ اللهِ تَعالى؛ قالَ: ما ماتَ مَنْ خَلَّفَ مثلَكَ. ثمَّ يَحْسِبُ ويَقولُ: فلانةٌ تسعةٌ، وتَزيدُ عليها تسعةً، تُسْقِطُ منها خمسةً، تَبْقى منها أربعةٌ.

ٱقْعُدْ وٱسْمَعْ يا أخي! إنِّي أرى عليكَ حججًا مكتوبةً ووثائقَ، ولا بدَّ لكَ مِن الوقوفِ بينَ يدي وليِّ أمرٍ إمَّا حاكمٍ وإمَّا والٍ، وأرى دمًا خارجًا عنكَ ما أنتَ مِن أهلِهِ، وأرى ناسًا قدِ ٱجْتَمَعوا حولَكَ. وإنْ كانَ شكلُ ذٰلكَ الرَّجلِ شكلَ مَن هوَ مِن أربابِ التُّهمِ؛ قالَ: وأرى خشبًا يُنْصَبُ ومساميرَ تُضْرَبُ وجناياتٍ تُؤْخَذُ.

---

(١) كسر الحوانيت: زوايا الخمّارات. مدسّسين: متخفّين.

(٢) في مسلاخ آدميّ: في جلد آدميّ، في صورة آدميّ.

(٣) كذا في ط! ولا يبعد أنّ فيها تحريفًا.

(٤) في ط: «وأخذ أموال»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٥) في ط: «وأعراضه فيخبروه»! والصواب ما أثبتّه.

(٦) يصلي للصيد: يخاتل وينصب الشراك، والمصالي المصائد.

نعم يا أخي! برجُكَ بالأسدِ، وهوَ ناريٌّ مذكَّرٌ، أَخَذْتَ منهُ نطاحَ مقدامٍ بطلٍ. نجمُكَ الزُّهَرَةُ، أنتَ قليلُ البختِ عندَ النَّاسِ مكفورُ الإحسانِ مقصودٌ بالأذى، قَلَّ أنْ صاحَبْتَ أحدًا فأثْمَرَتْ لكَ صحبتُهُ خيرًا.

نعم يا أخي! أسعدُ أيّامِكَ يومُ الجمعةِ، وخيرُ كسبِكَ كدُّ يدِكَ، اعْلَمْ أنَّهُ لا بدَّ لكَ مِن أسفارٍ وغربةٍ وركوبِ أهوالٍ واقتحامِ أخطارٍ وأُمورٍ عظامٍ أُبيِّنُها لكَ إنْ شاءَ اللهُ. هاتِ! لا تَبْخَلْ على نفسِكَ! حُطَّ يَدَكَ في جيبِكَ وحُلَّ الكيسَ! ولا يَزالُ يَلْكُزُهُ ويَجْذِبُهُ ويُطْمِعُهُ حتَّى يَسْتَخْرِجَ ما تَسْمَحُ بِهِ نفسُهُ. فإنْ رَأى منهُ تباطؤًا؛ قالَ: عَجِّلْ قبلَ خروجِ هٰذهِ السَّاعةِ السَّعيدةِ؛ فإنَّها ساعةٌ مباركةٌ، أما سَمِعْتَ قولَ نبيِّكَ: «يَسِّروا ولا تُعَسِّروا»[(١)]؟ فإذا حازَ ما أَخَذَهُ؛ قالَ لهُ: زِدْني؛ فإنَّ أُمورَكَ كثيرةٌ وتَحْتاجُ إلى تعبٍ وفكرٍ وحسابٍ طويلٍ! فإذا تَمَّ لهُ ما يَأْخُذُهُ منهُ؛ بَقِيَ هوَ مِن جُوًّا[(٢)]، فكالَ لهُ مِن جرابِ الكذبِ ما أمْكَنَهُ، ولا يُبالي أكَذَّبَهُ أم صَدَّقَهُ.

ثمَّ يَقولُ: يا أخي! برجُكَ الأسدُ، وهوَ سهمُ العداوةِ والحسدِ، وما عاداكَ أحدٌ قطُّ وأفْلَحَ، بلْ يُظْفِرُكَ اللهُ بِهِ ويَنْصُرُكَ عليهِ. نعمْ؛ وهوَ برجٌ ناريٌّ، والنَّارُ مِن النُّورِ، والنُّورُ فيهِ البهجةُ والسُّرورُ. أبْشِرْ؛ فأنتَ طويلُ العمرِ، لا تَموتُ في هٰذا الوقتِ، عمرُكَ مِن السِّتِّينَ إلى السَّبعينَ إلى الثَّمانينَ إلى التِّسعينَ، بيتُ كسبِكَ كذا وكذا، وأرى حاجةً محكمةً قد خَرَجَتْ عن يدِكَ. نعم؛ بغيرِ مرادِكَ. وأنتَ في غالبِ أحوالِكَ الخارجُ عن يدِكَ أكثرُ مِن الدَّاخلِ فيها، باللهِ؛ صَدَقْتُ أم لا؟ فيَقولُ: واللهِ صحيحٌ، والأمرُ كما قُلْتَ. [فيَقولُ لهُ][(٣)]: ولٰكنِ احْمَدِ اللهَ، كلُّ ما بَقِيَ عليكَ مِن القطعِ أربعةُ أشهرٍ وعشرةُ أيَّامٍ وتَخْرُجُ مِن نحسِكَ وتَدْخُلُ في برجِ سعادتِكَ وتَنْجو ويُخْلِفُ اللهُ عليكَ بالخيراتِ والبركاتِ، ولا بدَّ لكَ السَّاعةَ مِن رزقٍ يَأْتيكَ اللهُ بِهِ ويَفْرَحُ بِهِ أهلُكَ وعيلتُكَ وتَصْلُحُ

---

(١) رواه: البخاري (٣ـ العلم، ١١ـ كان ﷺ يتخوّلهم بالموعظة، ١/ ١٦٣/ ٦٩)، ومسلم (٣٢ـ الجهاد، ٣ـ الأمر بالتيسير، ٣/ ١٣٥٩/ ١٧٣٤)؛ من حديث أنس. وفي الباب عندهما عن غيره.

(٢) بقي هو من جوّا: صار في أمان وقد حصّل بغيته.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

حالُكَ ويَسْتَقيمُ سعدُكَ!!

الثّالثُ يا أخي مِن برجِكَ برجُ الميزانِ، وهوَ بيتُ الإخوانِ. سعدُكَ يا أخي منهُم منقوصٌ، وحظُّكَ منهُم مبخوسٌ[1]، غالبُ مَن أَوْلَيْتَهُ منهُم خيرًا جازاكَ بالشَّرِّ، وغالبُ مَن قُلْتَ فيهِ الخيرَ منهُم يَقولُ فيكَ الشَّرَّ، باللهِ؛ أما الأمرُ هٰكذا؟ وذٰلكَ يا أخي أنَّكَ خفيفُ الدَّمِ، كلُّ مَن رَآكَ مالَ إليكَ وأنِسَ بكَ، وأنتَ محسودٌ في مالِكَ وفي عافيتِكَ وفي أهلِكَ وأولادِكَ وكلِّ ما تَعْمَلُهُ بيدِكَ، ولٰكنَّ العينَ لا تُؤَثِّرُ فيكَ؛ لأنَّ كلَّ مَن برجُهُ الأسدُ لا بدَّ أنْ يَكونَ لهُ في رأْسِهِ أو جسدِهِ مثلُ شجَّةٍ أو ضربةٍ بينَ أكتافِهِ أو في ساقِهِ، وما هوَ بعيدٌ أنَّ في جسدِكَ شامةً أو في جسمِكَ ثلمةً، وهٰذا هوَ الذي يَدْفَعُ عنكَ العينَ وأنتَ لا تَدْري.

الرَّابعُ مِن بروجِكَ العقربُ، وهوَ بيتُ الآباءِ. أُراكَ كنتَ قليلَ السَّعدِ بينَ أبويكَ، ومعَ هٰذا فكانَ أكثرُ ميلِهِم وإشفاقِهِم معَ غيرِكَ وهُم عليكَ، وكانَ حظُّكَ منهُم ناقصًا، ولهُم تطلُّعٌ إلى كدِّكَ وكسبِكَ.

الخامسُ مِن بروجِكَ القوسُ، وهوَ بيتُ البنينَ. أُراكَ قليلاً ما يَعيشُ لكَ أولادٌ، تَدْفِنُهُم كلَّهُم ثمَّ تَموتُ أنتَ بعدَهُم، بل سوفَ يَكونُ لكَ ولدٌ يَشُدُّ اللهُ بهِ عضدَكَ ويُقَوِّي أمرَكَ وتَنالُ مِن جهتِهِ راحةً وخيرًا، وربَّما تَكونُ سعادتُكَ على يديهِ.

السَّادسُ مِن بروجِكَ الجديُ، وهوَ برجُ أمراضِكَ وأعلالِكَ. يا أخي! أمراضُكَ وأسقامُكَ كثيرةٌ، وأكثرُها في رأْسِكَ، وربَّما يَكونُ في أجنابِكَ، وهيَ أمراضٌ قويَّةٌ طوالٌ، اللهُ يُعافينا وإيَّاكَ، وكُنْتَ في صغرِكَ لا تَرْقُدُ في السَّريرِ إلاَّ بعدَ جهدٍ جهيدٍ، وعهدي بكَ الآنَ لا تَرْقُدُ في فراشِكَ إلاَّ بعدَ شدَّةٍ. نعم؛ وأكثرُ أمراضِكَ في الصَّيفِ والخريفِ.

السَّابعُ مِن بروجِكَ الدَّلوُ، وهوَ بيتُ الفراشِ. وأرى فراشَكَ خاليًا، أثمَّ زوجةٌ؟ فإنْ قالَ: نعمْ؛ قالَ لا بدَّ لكَ مِن فراقِها عن قريبٍ إمَّا بموتٍ وإمَّا بطلاقٍ؛ فإنَّ المرِّيخَ

---

(١) في ط: «منحوس»! وهو تصحيف صوابه ما أثبتّه.

منكَ في بيتِ الفراشِ. وإنْ قالَ: لا؛ قالَ: عجيبٌ! واللهِ؛ لقد أبْصَرْتُ في الطَّبائعِ أنَّ فراشَكَ فارغٌ، وأرى روحًا ناظرةً إليكَ بعينِ الأُلفةِ والمحبَّةِ خطورُكَ عليهِ وخطورُهُ عليكَ[١]، وأرى لكَ مِن قِبَلِهِ منفعةً ولكَ بهِ اتِّصالٌ وفرحٌ، أُبيِّنُ لكَ على أيِّ سببٍ يكونُ اجتماعُكُما؛ نعم؟ فإنْ قالَ لهُ: نعمْ؛ قالَ: هاتِ؛ فإنَّ الذي أعْطَيْتَني قليلٌ. فإذا أخذَ منهُ؛ قالَ: اعْلَمْ أنَّهُ لا بدَّ لكَ مِن الاتِّصالِ بهٰذا الشَّخصِ على كلِّ حالٍ؛ إلَّا أنِّي أرى قد عُمِلَ لكَ عملٌ وعُقِدَ لكَ عقدٌ وأنتَ في همٍّ وغمٍّ مِن ذٰلكَ، فإنْ شِئْتَ؛ عَمِلْتُ لكَ كتابًا نافعًا يكونُ لكَ حرزًا[٢] مِن كلِّ ما تَخافُهُ وتَحْذَرُهُ! ولا يَزالُ يَفْتِلُ لهُ في الذِّروةِ والغاربِ حتَّى[٣] يَسْتَكْتِبَهُ الحِرْزَ[٤]!

وكذبُ هٰذهِ الطَّائفةِ وجهلُها وزرقُها تُغْني شهرتُهُ[٥] عندَ الخاصَّةِ والعامَّةِ عن تكلُّفِ إيرادِهِ، وكلَّما كانَ المنجِّمُ أكذبَ [و]بالزَّرْقِ أعرفَ؛ كانَ على الجهَّالِ أروجَ!

● **فصلٌ**: وأمَّا قولُهُ: إنَّ هٰذا علمٌ ما خَلَتْ عنهُ ملَّةٌ مِن المللِ ولا أُمَّةٌ مِن الأُممِ ولا يُعْرَفُ تاريخٌ مِن التَّواريخِ القديمةِ والحديثةِ إلَّا وكانَ أهلُ ذٰلكَ الزَّمانِ مشتغلينَ بهٰذا العلمِ ومعوِّلينَ عليهِ في معرفةِ المصالحِ، ولو كانَ هٰذا العلمُ فاسدًا بالكلِّيَّةِ؛ لاسْتَحالَ إطباقُ أهلِ المشرقِ والمغربِ عليهِ!

فانْظُرْ ما في هٰذا الكلامِ مِن الكذبِ والبهتِ والافتراءِ على العالمِ مِن أوَّلِ بنائِهِ إلى

---

(١) خطورك عليه وخطوره عليك: أنت في باله وذاكرته وهو في بالك وذاكرتك.

(٢) الحرز: التعويذة، ألفاظ مكتوبة يحملها المرء معه لتقيه شرّ الجانّ والسحرة والحسّاد والمؤذيات عمومًا. قد تكون هٰذه الألفاظ قرآنيّة أو نبويّة أو أدعية أو عبارات مفهومة أو غير مفهومة، وكلّها غير مشروعة كما فصّلته في رسالة «التداوي بالرقى الإلٰهيّة» (ط. دار الحسن)، وأخطرها هٰذه الأخيرة؛ فقد يكون فيها شرك واستعاذة بالشياطين وصاحبها يدري أو لا يدري.

(٣) في ط: «في الذروة والقرب حتّى»! وهٰذا تحريف بيّن لا معنى له صوابه ما أثبتّه. و«لا يزال يفتل له في الذروة والغارب» عبارة مشهورة، معناها: لا يزال يتلطّف له ويخادعه حتّى يجيبه. قال في «اللسان» (مادة غرب): «والأصل فيه أنّ الرجل إذا أراد أن يؤنس البعير الصعب ليزمّه وينقاد له؛ جعل يمرّ يده عليه ويمسح غاربه [وهو أعلى سنامه] ويفتل وبره حتّى يستأنس ويضع فيه الزمام».

(٤) تأمّل هٰذا الكلام بطوله وأرجع البصر فيه، ثمّ اقرأ صفحة الأبراج في أيّ صحيفة أو مجلّة تقع بين يديك؛ تجد القولين من جنس واحد وطبيعة واحدة؛ ذرّيّة بعضها من بعض، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

(٥) في ط: «شهرتها»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

آخرِهِ!

فإنَّ آدَمَ وأولادَهُ كانوا براءَ مِن ذٰلكَ، وأئمَّتُكُم معترفونَ بأنَّ أوّلَ مَن عُرِفَ منهُ الكلامُ في هٰذا العلمِ وتُلُقِّيَتْ عنهُ أُصولُهُ وأوضاعُهُ هوَ إدْريسُ النَّبيُّ ﷺ، وكانَ بعدَ بناءِ هٰذا العالَمِ بزمنٍ طويلٍ، هٰذا لو ثَبَتَ ذٰلكَ عن إدْريسَ، فكيفَ وهوَ مِن الكذبِ الذي لَيْسَ معَ صاحبِهِ إلاَّ مجرَّدُ القولِ بلا علمٍ والكذبِ على رسولِ اللهِ ﷺ!

أوَلَيْسَ مِن الفريةِ والبهتِ أنْ يُنْسَبَ هٰذا العلمُ إلى أُمَّةِ موسى في زمنِهِ وبعدَهُ بأنَّهُم[1] كانوا معوِّلينَ في مصالحِهِم على هٰذا العلمِ وكذٰلكَ أُمَّةُ عيسى وأُمَّةُ يونُسَ والذينَ كانوا معَ نوحٍ ونَجَوْا معَهُ في السَّفينةِ؟!

وحسبُكَ بهٰذا الكذبِ والافتراءِ على تلكَ الأُمَّةِ المضبوطِ أمرُها المحفوظِ فعلُها[2]؛ فهل كانَ النَّبيُّ ﷺ وأصحابُهُ يُعَوِّلونَ على هٰذا العلمِ ويَعْتَمِدونَ عليهِ في مصالحِهِم أو قرنُ التَّابعينَ يَفْعَلُهُ أو قرنُ تابعي التَّابعينَ؟! وهٰذِهِ هيَ خيارُ قرونِ العالمِ على الإطلاقِ، كما أنَّ هٰذِهِ الأُمَّةَ خيرُ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ وهُم أعلمُ الأُممِ وأعرفُها وأكثرُ[ها] كتبًا وتصانيفَ وأعلاها شأنًا وأكملُها في كلِّ خيرٍ ورشدٍ وصلاحٍ، كما ثَبَتَ في «المسند» وغيرِهِ عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ أنَّهُ قالَ: «أنتُم تُوَفُّونَ سبعينَ أُمَّةً أنتُم خيرُها وأكرمُها على اللهِ»[3]. فهل رَأَيْتَ خيارَ قرونِ هٰذهِ الأُمَّةِ والموفَّقينَ مِن خلفائِها وملوكِها وساداتِها

---

(١) في ط: «فإنّهم»! وهو تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) هي أمّة الإسلام التي اختصّها المولى بهٰذه النعمة دون بقيّة الأنام.

(٣) (صحيح). وقد جاء عن جماعة من الصحابة وغيرهم:

* فرواه الطرسوسي في «مسند ابن عمر» (٢٤): ثنا محمّد بن سعيد بن زياد، ثنا سعيد بن راشد، ثنا عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر. . . رفعه. ومحمّد وسعيد متروكان، والسند ساقط.

* ورواه ابن جرير (٧٦٢١) من طريق قويّة عن قتادة. . . مرسلاً.

* ورواه: معمر في «الجامع» (٢٠٧٢٠)، وأحمد (٣/ ٦١)، والبغوي في «السنّة» (٤٠٣٩)؛ من طريق ابن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد. . . رفعه. وابن جدعان مضعّف، فالسند كذٰلك.

* ورواه: نعيم في «زوائد الزهد» (٣٨٢)، وأحمد في «المسند» (٤/ ٤٤٦ و٤٤٧، ٥/ ٣ و٥) و«الفضائل» (١٧١٠)، وعبد بن حميد (٤٠٩ و٤١١)، والدارمي (٢/ ٣١٣)، وابن ماجه (٣٧ـ الزهد، ٣٤ـ صفة أمّة محمّد، ٢/ ١٤٣٣/ ٤٢٨٧-٤٢٨٨)، والترمذي (٤٨ـ التفسير، ٤ـ آل عمران، ٥/ ٢٢٦/ ٣٠٠١)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٣١)، والروياني (٩٢١ و٩٢٤ و٩٣٧)، وابن جرير (٧٦١٩ و٧٦٢٠ و٣٠٤٨٩)،=

وكبرائِها معوِّلينَ على هٰذا العلمِ أو معتمِدينَ عليهِ في مصالِحِهم؟! وهٰذهِ سيرُهُم ما بعهدِها[1] مِن قدمٍ ولا يَتأتَّى الكذبُ عليهِم [فيها].

هٰذا؛ وقد أُعْطُوا مِن التَّأْييدِ والنَّصرِ والظَّفرِ بعدوِّهِم والاستيلاءِ على ممالكِ العالمِ ما لَمْ يَظْفَرْ بهِ أحدٌ مِن المعوِّلينَ على أحكامِ النُّجومِ، بل لا تَجِدُ المنجِّمينَ إلاَّ ذمَّةً لهُم، لولا اعتصامُهُم بحبلٍ منهُم؛ لَقُطِّعَتْ حبالُ أعناقِهِم. ولا تَجِدُ المعوِّلينَ على هٰذا العلمِ إلاَّ مخصوصينَ بالخذلانِ والحرمانِ، وهٰذا لأنَّهُم حقَّ عليهِم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ في الْحَياةِ الدُّنْيا وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]؛ قالَ أبو قِلابَةَ: هيَ لكلِّ مفترٍ مِن هٰذهِ الأُمَّةِ إلى يومِ القيامةِ.

نعم؛ لا نُنكِرُ أنَّ هٰذا العلمَ لهُ طلبةٌ مشغولونَ بهِ معتنونَ بأمرِهِ. وهٰذا لا يَدُلُّ على صحَّتِهِ: فهٰذا السِّحرُ لمْ يَزَلْ في العالمِ مَن يَشْتَغِلُ بهِ ويَتَطَلَّبُهُ أعظمَ مِن اشتغالِهِ بالنُّجومِ وطلبِهِ لها بكثيرٍ، وتأثيرُهُ في النَّاسِ ممَّا لا يُنْكَرُ، أفكانَ هٰذا دليلاً على صحَّتِهِ؟! وهٰذهِ الأصنامُ لمْ تَزَلْ تُعْبَدُ في الأرضِ مِن قبلِ نوحٍ وإلى الآنَ، ولها الهياكلُ المبنيَّةُ والسَّدنةُ، ولها الجيوشُ التي تُقاتِلُ عنها وتُحارِبُ لها وتَخْتارُ القتلَ والسَّبيَ وعقوبةَ اللهِ تَعالى ولا تَنْتَهي عنها، أفيَدُلُّ هٰذا على صحَّةِ عبادتِها وأنَّ عبَّادَها على الحقِّ؟!

ومِن العجبِ قولُهُ: «لو كانَ هٰذا العلمُ فاسدًا؛ لاستَحالَ إطباقُ أهلِ المشرقِ والمغربِ مِن أوَّلِ بناءِ العالمِ إلى آخرِهِ عليهِ»! ولَيْسَ في الفريةِ أبلغُ مِن هٰذا ولا في البهتانِ! أتَرى الرَّجلَ ما وَقَفَ على تأليفٍ لأحدٍ مِن أهلِ المشرقِ والمغربِ في إبطالِ هٰذا العلمِ والرَّدِّ على أهلِهِ؟! فقد رَأَيْنا نحنُ وغيرُنا ما يَزيدُ على مئةِ مصنَّفٍ في الرَّدِّ على

= والطبراني في «الكبير» (١٩/٤١٩/١٠١٢ و١٠٢٣-١٠٢٥ و١٠٣٠ و١٠٣٦-١٠٣٨) و«الأوسط» (١٤٣٧ و٦٣٩٨)، والحاكم (٤/٨٤)، والبيهقي (٩/٥)، والرافعي في «التدوين» (٢/٢٦٢)؛ من طرق خمس قويّة، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه. . . رفعه. وحكيم صدوق، فالسند حسن.

فهاهنا أربعة أوجه، الأوّل منها ساقط، والثاني والثالث ضعيفان، والرابع حسن لذاته، والحديث صحيح بمجموع هٰذه الأوجه لا ريب، وقد قوّاه الترمذي والحاكم والذهبي وابن القيّم وابن كثير والهيثمي والألباني، وقال العسقلاني: «حسن صحيح».

(١) في ط: «ما يعهدها»! وهٰذا تصحيف بيّن صوابه ما أثبتّه.

أهلِهِ وإبطالِ أقوالِهِم[١]، وهٰذهِ كتبُهُم بأيدي النَّاسِ، وكثيرٌ منها للفلاسفةِ الذينَ يُعَظِّمُهُم هٰؤلاءِ ويَرَوْنَ أنَّهُم خلاصةُ العالمِ كالفارابيِّ وٱبنِ سِيْنا وأبي البَرَكاتِ الأوْحَدِ وغيرِهِم[٢]، وقد حَكَيْنا كلامَهُم[٣]. وأمَّا الرُّدودُ في ضمنِ الكتبِ حينَ يُرَدُّ على أهلِ المقولاتِ؛ فأكثرُ مِن أنْ تُذْكَرَ، ولعلَّها أنْ تَزيدَ على عدَّةِ الألفِ، تَجِدُ في كلِّ كتابٍ منها الرَّدَّ على هٰؤلاءِ وإبطالَ مذهبِهِم ونسبتَهُم إلى الكذبِ والزَّرْقِ.

ولو أنَّ مقابلاً قابَلَهُ وقالَ: لو كانَ هٰذا العلمُ صحيحًا؛ لاسْتَحالَ إطباقُ أهلِ المشرقِ والمغربِ على ردِّهِ وإبطالِهِ؛ لَكانَ قولُهُ مِن جنسِ قولِهِ.

ولٰكنَّ أهلَ المشرقِ [والمغربِ][٤] فيهِم هٰذا وهٰذا كما يَشْهَدُ بهِ الحسُّ والتَّواريخُ القديمةُ والحديثةُ. ولقد رَأَيْنا مِن الرُّدودِ القديمةِ قبلَ قيامِ الإسلامِ على هٰؤلاءِ ما يَدُلُّ على أنَّ العقلاءَ لمْ يَزالوا يَشْهَدونَ عليهِم بالجهلِ وفسادِ المذهبِ ويَنْسُبونَهُم إلى الدَّعاوى الكاذبةِ والآراءِ الباطلةِ التي لَيْسَ معَ أصحابِها إلاَّ القولُ بلا علمٍ.

● **فصلٌ**: وأمَّا ما ذَكَرَهُ في أمرِ الطَّالعِ عنِ الفرسِ، وأنَّهُم كانوا يَعْتَنونَ بطالعِ مسقطِ النُّطفةِ، وهوَ طالعُ الأصلِ، ثمَّ يُحْكَمُ بموجَبِهِ، حتَّى يُحْكَمَ بعددِ السَّاعاتِ التي يَمْكُثُها الولدُ في بطنِ أُمِّهِ! فهٰذا مِن الكذبِ والبهتِ. ومَن أرادَ أنْ يَخْتَبِرَ كذبَهُ؛ فلْيُجَرِّبْهُ؛ فإنَّ تجربةَ مثلِ هٰذا لَيْسَتْ بمشقَّةٍ ولا عسرةٍ.

ثمَّ إنَّ هٰذا الواطئَ لا علمَ لهُ ولا لأحدٍ أنَّ الولدَ إنَّما يُخْلَقُ مِن أوَّلِ وطئِهِ الذي أنْزَلَ فيهِ دونَ ما بعدَهُ[٥]. وإنْ فُرِضَ أنَّهُ أمْسَكَ عن وطئِها بعدَ المرَّةِ الأُولى وحَبَسَها

---

(١) تأمّل سعة ٱطّلاعه يرحمه الله مصداقًا لما تقدّم (١/ ١٤).

(٢) تقدّمت تراجمهم (٢/ ٤٩٣ ، ٣/ ٩٥).

(٣) فيما تقدّم (٣/ ١٤ و٩٥ و١١١).

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) ثمّ جاء الطبّ الحديث بما يفضح هٰذه الدعوى ويبيّن إفك صاحبها! فمن الثابت علميًّا أنّ تكوّن الجنين يبدأ عند الإلقاح ومنهم من يقول عند التعشيش، والإلقاح لا يتمّ لحظة الوطء إطلاقًا، بل لا بدّ من فترة زمنيّة تمتدّ من بضع ساعات إلى يومين أو أكثر قليلاً، تهاجر فيها النطاف من الفرج إلى الرحم بحثًا عن بويضة المرأة، فإذا ٱلتقت بها تمّ الإلقاح وبدأ تكوّن الجنين. فمن حسب طالع لحظة الوطء؛ فقد تقدّم بضع ساعات وربّما بضعة أيّام عن تكوّن الجنين، فحسابه إفك وضلال، ودعوى من زعم أنّه يحكم بأحكام كاملة حتّى يحكم=

بحيثُ يَتيَقَّنُ أنَّ غيرَهُ لمْ يقْرَبْها ـ وهٰذا في غايةِ النُّدرةِ ـ؛ فلمْ[١] يُمْكِنِ المنجِّمَ أنْ يَعْلَمَ أحوالَ ذٰلكَ المولودِ ولا تفاصيلَ أمرِهِ ٱلبتَّةَ، ومدَّعي ذٰلكَ مجاهرٌ بالكذبِ والبهتِ.

وقدِ ٱعْتَرَفَ القومُ بأنَّ طالعَ الولادةِ لا يُفيدُ شيئًا؛ لأنَّ الولدَ لا يَحْدُثُ في ذٰلكَ الوقتِ، وإنَّما يَنْتَقِلُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ. وقدِ ٱعْتَرَفوا بأنَّ ضبطَهُ متعسِّرٌ جدًّا بل متعذِّرٌ؛ فإنَّهُ[٢] في اللحظةِ الواحدةِ مِن اللحظاتِ تَتَغَيَّرُ نصبةُ الفلكِ تغيُّرًا لا يُضْبَطُ ولا يُحْصيهِ إلاَّ اللهُ، ولا ريبَ أنَّ الطَّالعَ يَتَغَيَّرُ بذٰلكَ تغيُّرًا عظيمًا لا يُمْكِنُ ضبطُهُ. وقدِ ٱعْتَرَفوا هُم بهٰذا وأنَّ سببَ هٰذا التَّفاوتِ يُحيلُ أحكامَهُم، وٱعْتَرَفوا بأنَّهُ لا سبيلَ إلى الاحترازِ مِن ذٰلكَ. فأيُّ وثوقٍ لعاقلٍ بهٰذا العلمِ بعدَ هٰذا كلِّه؟!

وقد بيَّنَّا أنَّ غايةَ هٰذا لو صَحَّ وسَلِمَ مِن الخللِ جميعِهِ ـ ولا سبيلَ إليهِ ـ؛ لَكانَ جزءَ السَّببِ والعلَّةِ، والحكمُ لا يُضافُ إلى جزءِ سببِهِ. ثمَّ لو كانَ سببًا تامًّا؛ فصوارِفُهُ وموانعُهُ لا تَدْخُلُ تحتَ الضَّبطِ ٱلبتَّةَ، والحكمُ إنَّما يُضافُ إلى وجودِ سببِهِ التَّامِّ وٱنتفاءِ مانعِهِ. وهٰذهِ الأسبابُ والموانعُ ممَّا لا يَدْخُلُ تحتَ حصرٍ ولا ضبطٍ إلاَّ لمَن أحْصى كلَّ شيءٍ عددًا وأحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا لا إلٰهَ إلاَّ هوَ علاَّمُ الغيوبِ.

فلو ساعَدْناهُم على صحَّةِ أُصولِ هٰذا العلمِ وقواعدِهِ؛ لَكانَتْ أحكامُهُم باطلةً وهيَ أحكامٌ بلا علمٍ؛ لِما ذَكَرْناهُ مِن تعذُّرِ الإحاطةِ بمجموعِ الأسبابِ وٱنتفاءِ الموانعِ.

ولهٰذا كثيرًا ما يُجْمِعونَ على حكمٍ مِن أحكامِهِمُ الكاذبةِ فيَقَعُ الأمرُ بخلافِهِ كما تَقَدَّمَ.

= بعدد الساعات التي يمكثها الولد في بطن أمّه دعوى ساقطة.

وذكّرني هٰذا ببعض عشّاق الأبراج ممّن يدّعي أنّ برجه لا يخطئ معه أبدًا! فقلت له: وما هو برجك؟ قال: السرطان. قلت: مواليد أيّ شهر؟ قال: ٦/ ٧. فلمّا سألنا أمّه عن تاريخ مولده بالضبط؛ قالت: لا والله يا آبني! أنت ولدت في شهر٣ أيّام الشتاء، لٰكنّ أباك لم يسجّلك إلاّ بعد أشهر على عادة آبائنا وأجدادنا إذ لم يكن هناك مستشفيات ولا قابلات قانونيّات تسجّل تاريخ الولادة باليوم والساعة! ظنّ المعثّر أنّ تاريخ البطاقة الشخصيّة هو تاريخ ميلاده الصحيح فظنّ أنّ برجه السرطان، وصدّق ما جاء فيه من أقوال الأفّاكين، مع أنّ برجه الصحيح هو الحوت أو الحمل!

(١) كذا! وفي الكلام ٱنقطاع ظاهر، والغالب أنّ هاهنا سقطًا.

(٢) في ط: «فإنّ»! ولا يصحّ نحويًّا، بل صوابه ما أثبتّه.

● وأمَّا تلكَ الحكاياتُ المتضمِّنةُ لإصابتِهِم في بعضِ الأحوالِ؛ فلَيْسَتْ بأكثرَ مِن الحكاياتِ عن أصحابِ الكشفِ والفألِ وزجرِ الطَّائرِ والضَّربِ بالحصى والطَّرْقِ[1] والعيافةِ[2] والكهانةِ والخطِّ والحدسِ وغيرِها مِن علومِ الجاهليَّةِ، وأعْني بالجاهليَّةِ كلَّ مَن لَيْسَ مِن أتباعِ الرُّسلِ كالفلاسفةِ والمنجِّمينَ والكهَّانِ وجاهليَّةِ العربِ الذينَ كانوا قبلَ النَّبيِّ ﷺ؛ فإنَّ هٰذهِ كانَتْ علومًا لقومٍ لَيْسَ لهُم علمٌ بما جاءَتْ بِهِ الرُّسلُ.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) الطرق: ضرب الكاهن بالحصى.

(٢) العيافة: زجر الطير والتفاؤل أو التشاؤم بأسمائها وأصواتها وجهة طيرانها.

[الباب الخامس]
[في الكهانة والزجر والعدوى والطيرة]

[١ـ فصل]
[في علم الحروف]

ومِن هٰؤلاءِ مَن يَزْعُمُ أَنَّهُ يَأْخُذُ مِن الحروفِ علمَ المكانِ، ولهُم في ذٰلكَ تصانيفُ وكتبٌ، حتَّى يقولونَ: إذا أَرَدْتَ معرفةَ ما في رؤْيا السَّائلِ مِن خيرٍ أو شرٍّ؛ فخُذْ أَوَّلَ حرفٍ مِن كلامِهِ الذي يُكَلِّمُكَ بهِ وفَسِّرْ رؤْياهُ على معنى ذٰلكَ الحرفِ: فإنْ كانَ أَوَّلُ ما نَطَقَ بهِ باءً؛ فرؤْياهُ خيرٌ؛ لأنَّ الباءَ مِن البهاءِ والخيرِ، ألا تَراها في البرِّ والبركةِ وبلوغِ الآمالِ والبقاءِ والبشارةِ والبيانِ والبختِ؟ فإذا كانَ أَوَّلُ حرفٍ مِن كلامِهِ باءً؛ فاْعْلَمْ أَنَّهُ قد عايَنَ ما أَبْهاهُ وبَشَّرَهُ مِن الخيراتِ. وإنْ كانَ أَوَّلُ كلامِهِ تاءً؛ فقد بُشِّرَ بالتَّمامِ والكمالِ. وإنْ كانَ ثاءً؛ فبَشِّرْهُ بالأثاثِ والمتاعِ؛ لقولِهِ تَعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم: ٧٤]! ثمَّ قالوا: فعليكَ بهٰذهِ الأحرفِ الثَّلاثةِ؛ فلَيْسَ شيءٌ يَخْلو منها ويُجاوِزُها!

وإذا تَأَمَّلْتَ جهلَ هٰؤلاءِ؛ رَأَيْتَهُ شديدًا: فكيفَ حَكَموا على الباءِ بالبهاءِ والبركةِ دونَ البأْسِ والبغيِ والبينِ والبلاءِ والبوارِ والبعدِ؟! وكيفَ حَكَموا على الثَّاءِ بالأثاثِ دونَ الثُّفْلِ والثِّقْلِ والثَّلْبِ ونحوِهِ؟!

[٢ـ فصل]
[في الاستدلال بأول ما يقع البصر عليه]

وكذٰلكَ اْستدلالُهُ بأوَّلِ ما يَقَعُ بصرُهُ عليهِ، كما حُكِيَ عن أبي مَعْشَرٍ أَنَّهُ وَقَفَ هوَ وصاحبٌ لهُ على واحدٍ مِن هٰؤلاءِ، وكانا سائرينِ في خلاصِ محبوسٍ، فسَأَلاهُ، فقالَ:

أنتُما في طلبِ خلاصِ مسجونٍ. فعَجِبا مِن ذٰلكَ. فقالَ لهُ أبو مَعْشَرٍ: هلْ يَخْلُصُ أم لا؟ فقالَ: تَذْهَبانِ تَلْتَقِيانِهِ قد خَلَصَ. فوَجَدا الأمرَ كما قالَ. فٱسْتَدْعاهُ أبو مَعْشَرٍ وأكْرَمَهُ وتَلَطَّفَ لهُ في السُّؤالِ عن كيفيَّةِ علمِ ذٰلكَ. فقالَ: نحنُ نَأْخُذُ الفأْلَ بالعينِ والنَّظرِ، فيَنْظُرُ أحدُنا إلى الأرضِ ثمَّ يَرْفَعُ رأْسَهُ، فأوَّلُ شيءٍ يَقَعُ نظرُهُ عليهِ يكونُ الحكمُ بهِ، فلمَّا سَأَلْتُماني؛ كانَ أوَّلُ ما رَأَيْتُ ماءً في قربةٍ، فقُلْتُ: هٰذا محبوسٌ، ثمَّ لمَّا سَأَلْتُماني في الثَّانيةِ؛ نَظَرْتُ، فإذا هوَ قد أُفْرِغَ مِن القربةِ، فقُلْتُ: يَخْلُصُ. ويُصيبُ تارةً ويُخْطِئُ تارةً.

[٣ـ فصل]

[في الاستدلال بالأيام]

ومِن هٰذا أخذُ بعضِهِمُ الجوابَ عنِ التَّفاؤلِ بالأيَّامِ: فإذا رَأى أحدٌ رؤيا مثلًا يومَ أحدٍ أوِ ٱبْتَدَأَ فيهِ أمرًا؛ قالَ: حدَّةٌ وقوَّةٌ، وإنْ كانَ يومَ الجمعةِ؛ قالَ: ٱجتماعٌ وأُلفةٌ، وإنْ كانَ يومَ سبتٍ؛ قالَ: قطعٌ وفرقةٌ.

[٤ـ فصل]

[في الاستدلال بالمكان الذي يضع عليه السائل يده]

ومِن هٰذا ٱستدلالُ المسؤولِ بالمكانِ الذي يَضَعُ السَّائلُ يدَهُ عليهِ مِن جسدِهِ وقتَ السُّؤالِ: فإنْ وَضَعَ يدَهُ على رأْسِهِ؛ فهوَ رئيسُهُ وكبيرُهُ، والرِّجلينِ قوامُهُ[1]، والأنفُ بناءٌ مرتفعٌ أو تلٌّ أو نحوُهُ، والفمُ بئرٌ عذبةٌ، واللحيةُ أشجارٌ وزروعٌ. . . وعلى هٰذا النَّحوِ.

ومِن ذٰلكَ ما حُكِيَ عنِ[2] المَهْدِيِّ أنَّهُ رَأى رؤْيا وأُنْسِيَها فأصْبَحَ مغتمًّا بها، فدُلَّ على رجلٍ كانَ يَعْرِفُ الزَّجرَ والفأْلَ وكانَ حاذقًا بهِ وٱسمُهُ خُوَيْلِدٌ، فلمَّا دَخَلَ عليهِ؛ أَخْبَرَهُ بالذي أرادَهُ لهُ. فقالَ لهُ: يا أميرَ المؤمنينَ! صاحبُ الزَّجرِ والفأْلِ يَنْظُرُ إلى

---

(١) يعني: وإن وضع يده على الرجلين؛ فهو قوامه. ففيه ٱختصار وإشكال نحويّ.

(٢) حُكِيَ عن، ويُحْكى أنّ، وقيل ويقال، وبلغني عمّن مضى، وكان ياما كان! أقاصيص.

الحركةِ وأخطارِ النَّاس[1]. فغَضِبَ المَهْدِيُّ وقالَ: سبحانَ اللهِ! أحدُكُم يُذْكَرُ بعلمٍ ولا يَدْري ما هوَ، ومَسَحَ يدَهُ على رأسِهِ ووجهِهِ وضَرَبَ بها على فخذِهِ. فقالَ لهُ: أُخْبِرُكَ برؤياكَ يا أميرَ المؤمنينَ! قالَ: هاتِ. قالَ: رَأَيْتَ كأنَّكَ صَعَدْتَ جبلاً. فقالَ المَهْدِيُّ: للهِ أبوكَ يا سحَّارُ! صَدَقْتَ. قالَ: ما أنا بساحرٍ يا أميرَ المؤمنينَ! غيرَ أنَّكَ مَسَحْتَ بيدِكَ على رأسِكَ، فزَجَرْتُ لكَ، وعَلِمْتُ أنَّ الرَّأْسَ ليسَ فوقَهُ أحدٌ إلاَّ السَّماءُ، فأَوَّلْتُهُ بالجبلِ. ثمَّ نَزَلْتَ بيدِكَ إلى جبهتِكَ، فزَجَرْتُ لكَ بنزولِكَ إلى أرضٍ ملساءَ فيها عينانِ مالحتانِ. ثمَّ انْحَدَرْتَ إلى سفحِ الجبلِ، فلَقِيتَ رجلاً مِن فخذِكَ قُرَيْشٍ؛ لأنَّ أميرَ المؤمنينَ مَسَحَ بعدَ ذٰلكَ بيدِهِ على فخذِهِ، فعَلِمْتُ أنَّ الرَّجلَ الذي لَقِيَهُ مِن قرابتِهِ. قالَ: صَدَقْتَ. وأمَرَ لهُ بمالٍ، وأمَرَ أنْ لا يُحْجَبَ عنهُ[2].

[٥ ـ فصل]

[في زجر الطير والوحش وإثارتها]

ومِن هٰؤلاءِ أصحابُ[3] الطَّيرِ السَّانحِ والبارحِ والقعيدِ والنَّاطحِ، وأصلُ هٰذا أنَّهُم كانوا يَزْجُرونَ الطَّيرَ والوحشَ ويُثيرونَها: فما تَيامَنَ منها وأخَذَ ذاتَ اليمينِ سَمَّوْهُ سانحًا، وما تَياسَرَ منها سَمَّوْهُ بارحًا، وما اسْتَقْبَلَهُم منها فهوَ النَّاطحُ، وما جاءَهُم مِن خلفِهِم سَمَّوْهُ القعيدَ. فمِنَ العربِ مَن يَتَشاءَمُ بالبارحِ ويَتَبَرَّكُ بالسَّانحِ، ومنهُم مَن يَرى خلافَ ذٰلكَ!

قالَ المَدائِنِيُّ: سَأَلْتُ رُؤْبَةَ بنَ العَجَّاجِ: ما السَّانحُ؟ قالَ: ما ولاَّكَ ميامنَهُ. قالَ: قُلْتُ: فما البارحُ؟ قالَ: ما وَلاَّكَ مياسرَهُ. قالَ: والذي يَجيءُ مِن قُدَّامِكَ فهوَ النَّاطحُ والنَّطيحُ، والذي يَجيءُ مِن خلفِكَ فهوَ القاعدُ والقعيدُ.

---

(١) أخطار الناس: حركات أيديهم.

(٢) أنا لا أصدّق هٰذا النوع من الحكايا! هٰذه سير البطّالين وأخبار مجالس الأنس التي تبدأ سطرًا ثمّ تصير صفحة بفضل خيال السامعين الخصب وإضافاتهم التي لا تنتهي. وحُكي ويُحكى صيغ التمريض.

(٣) في ط: «ومن ذٰلك هٰؤلاء أصحاب»! فإن لم يكن مطبعيًّا؛ فالغالب أنّ الناسخ صحّح بالثانية ونسي أن يشطب الأولى.

وقالَ المُفَضَّلُ الضَّبِّيُّ: البارحُ ما يَأْتيكَ عنِ اليمينِ يُريدُ يسارَكَ، والسَّانحُ ما يَأْتيكَ عنِ اليسارِ فيَمُرُّ على اليمينِ.

وإنَّما ٱخْتَلَفوا في مراتبِها ومذاهبِها لأنَّها خواطرُ وحدوسٌ وتخميناتٌ لا أصلَ لها: فمَن تَبَرَّكَ بشيءٍ؛ مَدَحَهُ، ومَن تَشاءَمَ بشيءٍ؛ ذَمَّهُ.

ومَنِ ٱشْتُهِرَ بإحسانِ الزَّجرِ عندَهُم ووجوهِهِ حتَّى قَصَدَهُ النَّاسُ بالسُّؤالِ عن حوادثِهِم وما أمَّلُوهُ مِن أعمالِهِم سَمَّوْهُ عائفًا وعرَّافًا.

وقد كانَ في العربِ جماعةٌ يُعْرَفونَ بذٰلكَ: كعَرَّافِ اليمامةِ، والأبْلَقِ الأُسَيْدِيِّ، والأجْلَحِ، وعُرْوَةَ بنِ يَزيدَ[١]، وغيرِهِم. فكانوا يَحْكُمونَ بذٰلكَ ويَعْمَلونَ بِهِ ويَتَقَدَّمونَ ويَتَأَخَّرونَ في جميعِ ما يَتَقَلَّبونَ فيهِ ويَتَصَرَّفونَ في حالِ الأمنِ والخوفِ والسَّعةِ والضِّيقِ والحربِ والسِّلمِ. فإنْ أنْجَحوا فيما يَتَفاءَلونَ بِهِ؛ مَدَحوهُ وداوَموا عليهِ، وإنْ عَطِبوا فيهِ؛ تَرَكوهُ وذَمُّوهُ.

ومنهُم مَن أنْكَرَها بعقلِهِ وأبْطَلَ تأْثيرَها بنظرِهِ وذمَّ مَنِ ٱغْتَرَّ بها وٱعْتَمَدَ عليها وتَوَهَّمَ تأْثيرَها:

فمنهُمُ المُرَقِّشُ حيثُ يَقولُ:

وَلَقَدْ غَدَوْتُ وَكُنْتُ لا ... أغْدو عَلى واقٍ وَحاتِمْ
فَإذا الأشائِمُ كَالأيا ... مِنِ وَالأيامِنُ كَالأشائِمْ[٢]
وكَذاكَ لا خَيْرٌ وَلا ... شَرٌّ عَلى أحَدٍ بِدائِمْ
لا يَمْنَعَنَّكَ مِنْ بُغا ... ءِ الخَيْرِ تَعْقادُ التَّمائِمْ[٣]
قَدْ خُطَّ ذٰلِكَ في السُّطو ... رِ الأوَّلِيّاتِ القَدائِمْ

وقالَ حُمَيْمٌ الهُذَليُّ:

---

(١) عرّاف اليمامة هو رياح بن كحيلة. وهٰؤلاء جماعة كانوا يعرفون بالكهانة، وذكرتهم العرب في أشعارهم، ولهم في ذٰلك قصص وأخبار، وليس فوق ذٰلك كبير شيء.

(٢) الواقي والحاتم: سيأتيان في الصفحة التالية. الأشائم والأيامن: ما يُتشاءم به وما يُتفاءل به.

(٣) بغاء: طلب. تعقاد: عقد. التمائم: كلّ ما يحمله الإنسان للاستعاذة به من كلام مكتوب أو خرز أو خيوط أو حلقات.

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ العـائِفَيْـنِ وَإِنْ جَـرَتْ ... لَـكَ الطَّيْـرُ عَمَّـا فـي غَـدٍ عَمِيـانِ
يَظُنَّـانِ ظَنًّـا مَـرَّةً يُخْطِئـانِـهِ ... وَأُخْـرى عَلـى بَعْـضِ الـذي يَصِفـانِ
قَضـى اللـهُ أَنْ لا يَعْلَـمَ الغَيْـبَ غَيْـرُهُ ... فَفـي أَيِّ أَمْـرِ اللـهِ يَمْتَـرِيـانِ

وقالَ آخرُ:

ومـا أنـا مِمَّـنْ يَـزْجُـرُ الطَّيْـرَ هَمُّـهُ ... أطـارَ غُـرابٌ أَمْ تَعَـرَّضَ ثَعْلَـبُ
وَلا السَّـانِحـاتُ البـارِحـاتُ عَشِيَّـةً ... أَمَـرَّ سَليـمُ القَـرْنِ أَمْ مَـرَّ أَعْضَـبُ

وقالَ آخرُ يَمْدَحُ منكرَها:

وَلَيْـسَ بِهَيَّـابٍ إذا شَـدَّ رَحْلَـهُ ... يَقـولُ عَـدانـي اليَـوْمَ واقٍ وَحـاتِـمُ
وَلٰكِنَّـهُ يَمْضـي عَلـى ذاكَ مُقْـدِمًـا ... إذا صُـدَّ عَـنْ تِلْـكَ الهَنـاتِ الخُثـارِمُ

يَعْني بالواقي الصُّرَدَ، وبالحاتمِ الغرابَ[1] سَمَّوْهُ حاتمًا لأنَّهُ كانَ عندَهُم يَحْتِمُ بالفراقِ، والخُثارِمُ العاجزُ الضَّعيفُ الرَّأْيِ المتطيِّرُ.

وقد شَفى النَّبيُّ ﷺ أُمَّتَهُ في الطِّيَرَةِ حيثُ سُئِلَ عنها: فقالَ: «ذاكَ شيءٌ يَجِدُهُ أَحدُكُم؛ فلا يَصُدَّنَّهُ»[2]. وفي أثرٍ آخرَ: «إذا تَطَيَّرْتَ؛ فلا تَرْجِعْ»[3]؛ أي: امْضِ لِما قَصَدْتَ لهُ ولا يَصُدَّنَّكَ عنهُ الطِّيَرَةُ.

---

(١) الصرد: طائر عظيم الرأس، جارح، يصطاد الطيور. والغراب: مشهور.

(٢) رواه مسلم (٥ـ المساجد، ٧ـ تحريم الكلام في الصلاة، ١/ ٣٨١/ ٥٣٧) عن معاوية بن الحكم.

(٣) (حسن). وقد جاء من عدّة أوجه:

* فرواه: ابن أبي عاصم في «الآحاد» (١٩٦٢)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٢٨/ ٣٢٢٧)؛ من طريق إسماعيل بن قيس الأنصاري، ثني عبدالرحمٰن بن محمّد بن أبي الرجال، عن أبيه، عن جدّه حارثة بن النعمان... رفعه. قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٨١): «فيه إسماعيل بن قيس الأنصاري وهو ضعيف». قلت: منكر الحديث في حدّ الترك، والحديث ساقط.

* ورواه البيهقي في «الشعب» (١١٧٥) من حديث قتادة، قال ابن عبّاس: إذا مضيت فمتوكّل، وإذا نكصت فمتطيّر. وهٰذا منقطع على وقفه.

* ورواه: معمر في «الجامع» (١٩٥٠٤)، وابن قتيبة في «مختلف الحديث» (ص١٠٧)، والبيهقي في «الشعب» (١١٧٢)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٦/ ١٢٥) معلّقًا؛ من طريق إسماعيل بن أميّة، عن النبيّ ﷺ... به. قال البيهقي: «منقطع». وقال العسقلاني: «مرسل أو معضل». قلت: بل معضل.

* ورواه أحمد (١/ ٢١٣) من طريق ابن علاثة، ثنا مسلمة الجهني، عن الفضل بن عبّاس، عن النبيّ=

[٦ ـ فصل]

[في أن الطيرة على من تطير]

وٱعْلَمْ أنَّ التَّطيُّرَ إنَّما يَضُرُّ مَن أشْفَقَ منهُ وخافَ، وأمَّا مَن لمْ يُبالِ بهِ ولمْ يَعْبأْ بهِ شيئًا لمْ يَضُرَّهُ ٱلبتَّةَ، ولا سيَّما إنْ قالَ عندَ رؤيةِ ما يَتَطَيَّرُ بهِ أوسماعِهِ: اللهُمَّ! لا طيرَ إلاَّ طيرُكَ، ولا خيرَ إلاَّ خيرُكَ، ولا إلٰهَ غيرُكَ. اللهمَّ! لا يأتي بالحسناتِ إلاَّ أنتَ، ولا يَذْهَبُ بالسَّيِّئاتِ إلاَّ أنتَ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بكَ[1].

فالطِّيَرَةُ بابٌ مِن الشِّركِ وإلقاءِ الشَّيطانِ وتخويفِهِ ووسوستِهِ، يَكْبُرُ ويَعْظُمُ شأْنُها على مَن ٱتْبَعَها نفسَهُ وٱشْتَغَلَ بها وأكْثَرَ العنايةَ بها، وتَذْهَبُ وتَضْمَحِلُّ عمَّن لمْ يَلْتَفِتْ إليها ولا ألْقَى إليها بالَهُ ولا شَغَلَ بها نفسَهُ وفكرَهُ.

وٱعْلَمْ أنَّ مَن كانَ معتنيًا بها قائلاً بها؛ كانَتْ إليهِ أسْرَعَ مِن السَّيلِ إلى منحدرِهِ، وتَفَتَّحَتْ لهُ أبوابُ الوساوسِ فيما يَسْمَعُهُ ويَراهُ ويُعْطاهُ، ويَفْتَحُ لهُ الشَّيطانُ فيها مِن المناسباتِ البعيدةِ والقريبةِ في اللفظِ والمعنى ما يُفْسِدُ عليهِ دينَهُ ويُنَكِّدُ عليهِ عيشَهُ: فإذا سَمِعَ سفرجلاً أو أُهْدِيَ إليهِ؛ تَطَيَّرَ بهِ وقالَ: سفرٌ وجلاءٌ. وإذا رَأى ياسمينًا أو سَمِعَ ٱسمَهُ؛ تَطَيَّرَ بهِ وقالَ: يَأْسٌ ومَيْنٌ. وإذا رَأى سَوْسَنَةً أو سَمِعَها؛ قالَ: سَوْءٌ يَبْقى سنةً.

= ﷺ أنّه قال: «إنّما الطيرة ما أمضاك أو ردّك». وهٰذا واه: ابن علاثة ومسلمة لا يعدوان أن يكونا مقبولين في المتابعات، ورواية مسلمة عن الفضل بن عباس منقطعة.

* ورواه: البيهقي في «الشعب» (١١٧٣ و١١٧٤)، والبغوي في «السنّة» (١٣/ ١١٤)، والديلمي في «الفردوس»، وابن صصرى في «الأمالي»؛ من طريق محمّد بن إسحاق: قال مرّة عن الأعرج عن أبي هريرة رفعه، ومرّة: عن علقمة بن أبي علقمة عن أبي هريرة رفعه، ومرّة: عن علقمة عنه ﷺ مرسلاً بلفظ: «مخرجه من الطيرة ألاّ يرجع». وهٰذا ضعيف لعنعنة ابن إسحاق وٱضطرابه وٱنقطاع الوجه الثاني بين علقمة وأبي هريرة.

* ورواه: ابن قانع (٤/ ٥٦١ـ إصابة)، وابن السكن (٤/ ٥٦١ـ إصابة)؛ من طريق محمّد بن صالح بن شريح، عن أبيه، عن النعمان بن الرازيه... رفعه بلفظ «ولا يمنعنّ أحدًا من سفره». ومحمّد بن صالح مجهول، وأبوه لا بأس بحديثه.

فهٰذه أوجه في الضعف كما ترى، لٰكن ٱجتماعها يفيد أنّ للحديث أصلاً صالحًا، ولا سيّما أنّ حديث معاوية المتقدّم في مسلم يشهد لمعناه بقوّة.

(١) أمّا قوله: «اللهم! لا طير إلاّ طيرك...»؛ فصحّ به نصّ مرفوع كما سيأتي (٣/ ٢٣١-٢٣٢). وأمّا: «اللهم! لا يأتي بالحسنات...» إلخ؛ فلا يصحّ مرفوعًا، وٱنظر «الأذكار» (١٠١٤ـ ط. ابن خزيمة).

وإذا خَرَجَ مِن دارِهِ فَٱسْتَقْبَلَهُ أعورُ أو أشلُّ أو أعمى أو صاحبُ آفةٍ؛ تَطَيَّرَ بِهِ وتَشاءَمَ بيومِهِ. . .

ويُحْكى عن بعضِ الولاةِ أَنَّهُ خَرَجَ في بعضِ الأيَّامِ لبعضِ مهمَّاتِهِ، فَٱسْتَقْبَلَهُ رجلٌ أعورُ، فتَطَيَّرَ بِهِ وأَمَرَ بِهِ إلى الحبسِ. فلمَّا رَجَعَ مِن مهمَّتِهِ ولَمْ يَلْقَ شرًّا؛ أَمَرَ بإطلاقِهِ. فقالَ لهُ: سَأَلْتُكَ باللهِ؛ ما كانَ جرمي الذي حَبَسْتَني لأجلِهِ؟ فقالَ لهُ الوالي: لمْ يَكُنْ لكَ عندَنا جرمٌ، ولٰكنْ تَطَيَّرْتُ بكَ لمَّا رَأَيْتُكَ. فقالَ: فما أَصَبْتَ في يومِكَ برؤيتي؟ فقالَ: ممَّا لمْ أَلْقَ إلَّا خيرًا[1]. فقالَ: أيُّها الأميرُ! أنا خَرَجْتُ مِن منزلي فرَأَيْتُكَ فلَقِيتُ في يومي الشَّرَّ والحبسَ، وأنتَ رَأَيْتَني فلَقِيتَ في يومِكَ الخيرَ والسُّرورَ، فمَن أشأمُنا؟ والطِّيَرَةُ بمَن كانَتْ؟ فٱسْتَحْيا منهُ الوالي ووَصَلَهُ.

وقالَ أبو القاسمِ الزَّجَّاجيُّ: لمْ أَرَ أشدَّ تطيُّرًا مِن ٱبنِ الرُّوميِّ الشَّاعرِ، وكانَ قد تَجاوَزَ الحدَّ في ذٰلكَ، فعاتَبْتُهُ يومًا على ذٰلكَ، فقالَ: يا أبا القاسمِ! الفألُ لسانُ الزَّمانِ، والطِّيَرَةُ عنوانُ الحَدَثانِ[2].

وهٰذا جوابُ مَنِ ٱسْتَحْكَمَتْ علَّتُهُ فعَجَزَ عنها، وهوَ أيضًا بمنزلةِ مَن قد غَلَبَتْهُ الوساوسُ في الطَّهارةِ فلا يَلْتَفِتُ إلى علمٍ ولا إلى ناصحٍ، وهٰذهِ حالُ مَن تَقَطَّعَتْ بهِ أسبابُ التَّوكُّلِ وتَقَلَّصَ عنهُ لباسُهُ بل تَعَرَّى منهُ.

ومَن كانَ هٰكذا؛ فالبلايا إليهِ أسرعُ والمصائبُ بهِ أعلقُ والمحنُ لهُ ألزمُ؛ بمنزلةِ صاحبِ الدُّمَّلِ والقَرْحَةِ الذي يَهْتَدي[3] إلى قَرْحَتِهِ كلُّ مؤذٍ وكلُّ مصادمٍ فلا يَكادُ يُصْدَمُ مِن جسدِهِ أو يُصابُ غيرُها[4].

والمتطيِّرُ متعبُ القلبِ منكَّدُ الصَّدرِ كاسفُ البالِ سيِّئُ الخلقِ، يَتَخَيَّلُ مِن كلِّ ما يَراهُ أو يَسْمَعُهُ، أشدُّ النَّاسِ خوفًا وأنكدُهُم عيشًا، وأضيقُ النَّاسِ صدرًا وأحزنُهُم قلبًا،

---

(١) كذا! وهو تعبير غريب! ولا محلّ لـ«ممّا» هٰذه! والغالب أنّها تحريف!

(٢) الحدثان: حوادث الدهر ومصائبه! كأنّه يقول: التفاؤل خير مؤجّل لا بدّ من طول صبر ومضيّ أيّام قبل حصوله، بخلاف الطيرة؛ فإنّها بلاء معجّل ما يلبث أن ينزل بالمتطيّر. والله أعلم.

(٣) في ط: «الذي يهدي»، وله وجه، والغالب أنّه تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) سبحان الله! ما أروع هٰذا المثل! وما أعظم ٱنطباقه على الممثّل له!

كثيرُ الاحترازِ والمراعاةِ لِما لا يَضُرُّهُ ولا يَنْفَعُهُ، وكم قد حَرَمَ نفسَهُ بذٰلكَ مِن حظٍّ ومَنَعَها مِن رزقٍ وقَطَعَ عليها مِن فائدةٍ!

ويَكْفيكَ مِن ذٰلكَ قصَّةُ النَّابِغَةِ معَ زَبَّانَ بنِ سَيَّارٍ[1] الفَزاريِّ حينَ تَجَهَّزَ إلى الغزوِ، فلمَّا أرادَ الرَّحيلَ؛ نَظَرَ النَّابغةُ إلى جرادةٍ قد سَقَطَتْ عليهِ فقالَ: جرادةٌ تَجْرُدُ وذاتُ ألوانٍ، عزيزٌ مَن خَرَجَ مِن هٰذا الوجهِ[2]. ونَفَذَ زَبَّانُ[3] لوجهِهِ ولَمْ يَتَطَيَّرْ. فلمَّا رَجَعَ زَبَّانُ[3] سالمًا غانمًا؛ أنْشَأَ يقولُ:

تَحَيَّــرَ طِيَــرَةً فيهــا زِيــادٌ لِتُخْبِــرَهُ وَمــا فيهــا خَبيــرُ[4]
أقــامَ كَــأنَّ لُقْمــانَ بــنَ عــادٍ أَشــارَ لَــهُ بِحِكْمَتِــهِ مُشيــرُ[5]
تَعَلَّــمْ أنَّــهُ لا طَيْــرَ إلَّا عَلــى مُتَطَيِّــرٍ وَهْــوَ الثُّبــورُ
بَلــى شَــيْءٌ يُــوافِــقُ بَعْـضَ شَــيْءٍ أَحــايينًــا وَبــاطِلُــهُ كَثيــرُ

[٧ - فصل]

[فيما جاء في التطير في كتاب الله]

ولَمْ يَحْكِ اللهُ التَّطَيُّرَ إلَّا عن أعداءِ الرُّسلِ: كما قالوا لرسلِهِم: ﴿إنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أليمٌ . قالوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ

---

(١) في ط: «زياد بن سيّار»! وهٰذا تحريف مقصود من ناسخ أو محقّق صوابه ما أثبتّه، لٰكنّه لما قرأ في الشعر «تحيّر طيرة فيها زياد»؛ ظنّ أنّ «زبّان» تحريف فصوّبه! وليس كذٰلك! وزبّان بن سيّار من شعراء «المفضليّات» و«الحماسة الصغرى» توفي ١٠ ق هـ تقريبًا.

(٢) عزيز من خرج من هٰذا الوجه: ستكون العزّة لمن ترك هٰذا الغزو ولم يدخل فيه.

(٣) في ط: «زياد»! وهٰذا تحريف كما تقدّم في الحاشية السابقة.

(٤) كذا جاء هنا! وسيأتي (٣/ ٢٩١): «أطار الطير إذ سرنا زياد لتخبرنا...»! ولكلّ منهما وجهه، والظاهر أنّ ابن القيّم يرحمه الله كتبه من ذاكرته. ومعنى البيت هنا أنّ النابغة الذبياني (واسمه زياد بن معاوية) تحيّر في شأن الجرادة وما تخبره به، مع أنّه ليس في الجراد خبير بما سيكون.

(٥) لقمان بن عاد: من ملوك حمير، عمّر طويلاً، يقول أصحاب الأساطير أنّه خيّر في طول عمره بين عروض ثلاثة، فنصحه بعض الحكماء فاختار أن يعيش عمر سبعة نسور. والمراد من البيت أنّ النابغة جعل هٰذه الجرادة بمثابة الناصحين الحكماء الذين أشاروا على لقمان بن عاد بأن يختار النسور السبعة وظنّ أنّ القعود استجابة لنصيحة الجرادة سيطيل عمره كما أطالت استجابة لقمان بن عاد للحكماء عمره.

أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفونَ﴾ [يس: ١٨-١٩]. وكذلكَ حَكى اللهُ سبحانَهُ عن قوم فرعونَ فقالَ: ﴿فَإِذا جاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قالوا لَنا هٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّروا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]: حتَّى إذا أصابَهُمُ الخصبُ والسَّعةُ والعافيةُ؛ قالوا: لنا هٰذِهِ؛ أي: نحنُ الجديرونَ الحقيقونَ بِهِ[1] ونحنُ أهلُهُ، وإنْ أصابَهُم بلاءٌ وضيقٌ وقحطٌ ونحوُهُ؛ قالوا: هٰذِهِ بسببِ موسى وأصحابِهِ أُصِبْنا بشؤمِهِم ونُفِضَ علينا غبارُهُم، كما يقولُهُ المتطيِّرُ لِمَن تَطَيَّرَ بِهِ، فأخْبَرَ سبحانَهُ أنَّ طائرَهُم عندَهُ. كما قالَ تَعالى عن أعداءِ رسولِهِ ﷺ: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقولوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقولوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨]. فهٰذِهِ ثلاثةُ مواضعَ حَكى فيها التَّطيُّرَ عن أعدائِهِ.

وأجابَ سبحانَهُ عن تطيُّرِهم بموسى وقومِهِ بأنَّ طائرَهُم عندَ اللهِ لا بسببِ موسى. وأجابَ عن تطيُّرِ أعداءِ رسولِ اللهِ ﷺ بقولِهِ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [النساء ٧٨]. وأجابَ عنِ الرُّسلِ بقولِهِ: ﴿طائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس: ١٩].

وأمَّا قولُهُ: ﴿أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ[2] عِنْدَ اللهِ﴾: فقالَ ٱبنُ عَبَّاس: طائرُهُم ما قَضى عليهِم وقَدَّرَ لهُم. وفي روايةٍ: شؤمُهُم عندَ اللهِ ومِن قِبَلِهِ؛ أي: إنَّما جاءَهُمُ الشُّؤْمُ مِن قِبَلِهِ بكفرِهِم وتكذيبِهِم بآياتِهِ ورسلِهِ. وقالَ أيضًا: إنَّ الأرزاقَ والأقدارَ تَتْبَعُكُم.

وهٰذا كقولِهِ تَعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ ونُخْرِجُ. . .﴾ [الإسراء: ١٣]؛ أي: ما يَطيرُ لهُ مِن الخيرِ والشَّرِّ فهوَ لازمٌ لهُ في عنقِهِ. والعربُ تَقولُ: جَرى لهُ الطَّائرُ بكذا مِن الخيرِ والشَّرِّ. قالَ أبو عُبَيْدَةَ: الطَّائرُ عندَهُمُ الحظُّ، وهوَ الذي تُسَمِّيهِ العامَّةُ البختَ، يقولونَ: هٰذا يَطيرُ لفلانٍ؛ أي: يَحْصُلُ لهُ. قُلْتُ: ومنهُ الحديثُ: «فطارَ لنا عُثْمانُ بنُ مَظْعُونٍ»[3]؛ أي: أصابَنا بالقرعةِ لمَّا ٱقْتَرَعَ الأنصارُ على نزولِ

---

(١) في ط: «الحقيقيّون به»! وليس كذٰلك، وإنّما هو تحريف صوابه ما أثبتّه، يقال: فلان حقيق بهٰذا؛ أي: جدير به.

(٢) في ط: «طائركم»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٣) رواه البخاري (٢٣ـ الجنائز، ٣ـ الدخول على الميّت بعد الموت، ٣/ ١١٤/ ١٢٤٣) من حديث أمّ العلاء الأنصاريّة رضي الله عنها.

المهاجرينَ عليهِم. وفي حديثِ رُوَيْفعِ بنِ ثابتٍ: حتَّى إنَّ أحدَنا لَيَطيرُ لهُ النَّصْلُ والرِّيشُ وللآخرِ القِدْحُ[(١)]؛[(٢)] أي: يَحْصُلُ لهُ بالشَّركةِ في الغنيمةِ.

وقيلَ في قولِهِ تَعالى ﴿وَكُلَّ إِنْسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]: إنَّ الطَّائرَ هاهُنا هوَ العملُ. قالَهُ الفَرَّاءُ. وهوَ يَتَضَمَّنُ الرَّدَّ على نفاةِ القدرِ.

وخَصَّ العنقَ بذٰلكَ مِن بينِ سائرِ أجزاءِ البدنِ؛ لأنَّها محلُّ الطَّوقِ الذي يُطَوَّقُهُ الإنسانُ في عنقِهِ فلا يَسْتَطيعُ فكاكَهُ، ومِن هٰذا يُقالُ: إثمُ هٰذا في عنقِكَ، وٱفْعَلْ كذا وإثمُهُ في عنقي، والعربُ تَقولُ: طُوِّقَها طوقَ الحمامةِ، وهٰذا رِبْقَةٌ في رقبتِهِ. وعنِ الحَسَنِ بنِ آدَمَ: لِتَنْظُرْ لكَ صحيفةً إذا بُعِثْتَ قُلِّدْتَها في عنقِكَ. فخَصُّوا العنقَ بذٰلكَ لأنَّهُ موضعُ القلادةِ والتَّميمةِ وٱستعمالُهُمُ التَّعاليقَ فيها كثيرٌ، كما خُصَّتِ الأيدي بالذِّكرِ في نحوِ ﴿بِما كَسَبَتْ أَيْديكُمْ﴾ ﴿بِما قَدَّمَتْ يَداكَ﴾ ونحوِهِ.

---

(١) النصل: الرأس المعدنيّ الحادّ من السهم. القدح: القسم الخشبي من السهم. الريش: ما يكون في أسفل السهم من الريش الذي يساعده في طيرانه وسداد إصابته.

(٢) (صحيح). يرويه عيّاش بن عبّاس القتباني عن شييم بن بيتان وٱختلف عليه فيه على أوجه:

روى **الأوّل** أحمد (٤/ ١٠٨): ثنا يحيى بن إسحاق من كتابه، أنا ابن لهيعة، عن عيّاش، عن شييم، عن أبي سالم الجيشاني، عن شيبان بن أميّة، عن رويفع... مطوّلاً.

وروى **الثّاني**: أحمد (٤/ ١٠٨)، والنسائي في «المجتبى» (٤٨ـ الزينة، ١٢ـ عقد اللحية، ٨/ ١٣٥/ ٥٠٨٢) وفي «الكبرى» (٩٣٣٦)، والطحاوي (١/ ١٢٣)؛ من طريق حيوة بن شريح وابن لهيعة، عن عيّاش، عن شييم، سمع رويفع بن ثابت... به مطوّلاً ومختصرًا.

وروى **الثالث**: أحمد (٤/ ١٠٩)، وأبو داوود (١ـ الطهارة، ٢٠ـ ما ينهى أن يستنجى به، ١/ ٥٦/ ٣٦)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٢١٩٦)، والبزّار (٢٣١٧)، والطبراني (٥/ ٢٨/ ٤٤٩١)، والبيهقي (١/ ١١٠)، والبغوي (٢٦٨٠)، والمزّي (١٢/ ٥٩١)؛ من طرق، عن المفضّل بن فضالة، عن عيّاش، عن شييم، سمع شيبان القتباني، سمع رويفعًا... مطوّلاً ومختصرًا.

فالأوّل؛ وإن كان من جيّد حديث ابن لهيعة، لٰكنّه مرجوح بالثاني الذي تابع فيه الإمام الجليل حيوةُ ابنَ لهيعة. فيبقى الثاني والثالث: فإمّا أن يرجّح الثاني للسبب نفسه، وإمّا أن يجمع بينهما بأنّ شييمًا سمعه من رويفع ثمّ ثبّته فيه شيبان أو العكس فرواه على الوجهين، وهو أولى؛ لأنّ التصريح بالسماع ولفظ المتن يدعمه. وعلى الحالين فالحديث قويّ؛ لأنّ عيّاشًا وشييمًا ثقتان، وقد سكت عنه المنذري وصحّحه الألباني.

بقي أن أشير إلى أنّ أبا داوود رواه مرّة (٣٧) من طريق قويّة، عن عيّاش، أنّ شييمًا أخبره بهٰذا، عن أبي سالم، عن ابن عمرو، يذكر ذٰلك وهو معه مرابط. وهٰذا حديث آخر صحيح السند، لٰكن لم يذكر أبو داوود لفظه، ولا وقفت عليه عند غيره، وإن كان الأظهر أنّه ٱقتصر على المرفوع منه دون موضع الشاهد.

وقيلَ: المعنى أنَّ الشُّؤمَ العظيمَ هوَ الذي لهُم عندَ اللهِ مِن عذابِ النَّارِ وهوَ الذي أصابَهُم في الدُّنيا. وقيلَ: المعنى أنَّ سببَ شؤمِهِم عندَ اللهِ، وهوَ عملُهُم المكتوبُ عندَهُ، الذي يَجْري عليهِ ما يَسوؤُهُم[1] ويُعاقَبونَ عليهِ بعدَ موتِهِم بما وَعَدَهُمُ اللهُ، ولا طائرَ أشأَمَ مِن هٰذا. وقيلَ: حظُّهُم ونصيبُهُم.

وهٰذا لا يُناقِضُ قولَ الرُّسلِ: ﴿طائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾؛ أي: حظُّكُم وما نالَكُم مِن خيرٍ وشرٍّ معَكُم بسببِ أفعالِكُم وكفرِكُم ومخالفتِكُمُ النَّاصحينَ، ليسَ هوَ مِن أجلِنا ولا بسببِنا بل ببغيِكُم وعدوانِكُم؛ فطائرُ الباغي الظَّالم معَهُ وهوَ عندَ اللهِ.

كما قالَ تَعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقولوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَما لِهٰؤُلاءِ القَوْمِ لا يَكادونَ يَفْقَهونَ حَديثًا﴾ [النساء: ٧٨]، ولو فَقِهوا أو فَهِموا لَما تَطَيَّروا بما جِئْتَ بهِ؛ لأنَّهُ لَيْسَ فيما جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ ما يَقْتَضي الطِّيَرَةَ؛ فإنَّهُ كلَّهُ خيرٌ محضٌ لا شرَّ فيهِ وصلاحٌ لا فسادَ فيهِ وحكمةٌ لا عبثَ فيها ورحمةٌ لا جورَ فيها، فلو كانَ هٰؤلاءِ القومُ مِن أهلِ الفهمِ والعقولِ السَّليمةِ؛ لَمْ يَتَطَيَّروا مِن هٰذا؛ فإنَّ الطِّيَرَةَ إنَّما تكونُ بالشَّرِّ لا بالخيرِ المحضِ والمصلحةِ والحكمةِ والرَّحمةِ، ولَيْسَ فيما أَتَيْتَهُم بهِ لو فَهِموا ما يُوجِبُ تطيُّرَهُم، بل طائرُهُم معَهُم بسببِ كفرِهِم وشركِهِم وبغيِهِم، وهوَ عندَ اللهِ كسائرِ حظوظِهِم وأنصابِهِمُ التي يَنالونَها منهُ بأعمالِهِم وكسبِهِم.

ويُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ المعنى: ﴿طائرُكُمْ معَكُمْ﴾؛ أي: راجعٌ عليكُم، فالطَّيرُ الذي حَصَلَ لكُم إنَّما يَعودُ عليكُم. وهٰذا مِن بابِ القصاصِ في الكلامِ: مثلُ قولِهِ في الحديثِ: «أخَذْنا فألَكَ مِن فيكَ»[2]، ونظيرُهُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «إذا سَلَّمَ عليكُم أهلُ

---

(١) يعني: في الدنيا.

(٢) (صحيح). وقد جاء عن جماعة من الصحابة:

* فرواه: أحمد (٢/ ٣٨٨)، وأبو داوود (٢٢ـ الطبّ، ٢٤ـ الطيرة، ٢/ ٤١١/ ٣٩١٧)، وابن السنّي في «اليوم والليلة» (٢٩١)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبيّ ﷺ» (٧٨٦-٧٨٨)؛ من طرق، عن وهيب، عن سهيل بن أبي صالح، عن رجل، عن أبي هريرة... رفعه. قال المنذري: «فيه رجل مجهول». قلت: يعني: مبهمًا، وقد صرّح أبو الشيخ بأنّه أبو صالح والد سهيل من طريقين إحداهما صحيحة، وهو ثقة ثبت، فارتفعت الجهالة وصحّ السند، وقد صحّحه الألباني.

* ورواه: أبو الشيخ في «أخلاق النبيّ ﷺ» (٧٨٤)، والديلمي في «المسند» (٧٢٦ـ صحيحة)؛ من=

الكتاب؛ فقولوا وعليكم»[١]. فعلى هٰذا معنى ﴿طائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾؛ أي: نصيبُكُم طيرتُكُمُ التي تَطَيَّرْتُم بها؛ لأنَّهُمُ اعْتَقَدوا الشُّؤمَ فيها ولا شؤمَ فيها ٱلبتَّةَ، فقيلَ لهُم: الشُّؤمُ منكُم وهوَ نازلٌ بكُم، فتأمَّلْهُ.

وهٰذا يُشْبِهُ قولَهُ تَعالى: ﴿وَقَدْ مَكَروا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزولَ مِنْهُ الجِبالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]: قيلَ: جزاءُ مكرِهِم عندَهُ، فمَكَرَ بهِم كما مَكَروا برسلِهِ، ومكرُهُ تَعالى بهِم إنَّما كانَ بسببِ مكرِهِم، فهوَ مكرُهُم عادَ عليهِم وكيدُهُم عادَ عليهِم، فهٰكذا طيرتُهُم عادَتْ عليهِم وحَلَّتْ بهِم. وسُمِّيَ جزاءُ المكرِ مكرًا وجزاءُ الكيدِ كيدًا تنبيهًا على أنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العملِ.

ولمَّا ذَكَرَ سبحانَهُ أنَّ ما أصابَهُم مِن حسنةٍ وسيِّئةٍ ـ أي: نعمةٍ ومحنةٍ ـ فالكلُّ منهُ تَعالى بقضائِهِ وقدرِهِ؛ فكأنَّهُم قالوا: فما بالُكَ أنتَ تُصيبُكَ الحسناتُ والسَّيِّئاتُ كما تُصيبُنا؟! فذَكَرَ سبحانَهُ أنَّ ما أصابَهُ مِن حسنةٍ فمِنَ اللهِ مَنَّ بها عليهِ وأنْعَمَ بها عليهِ، وما أصابَهُ مِن سيِّئةٍ فمِن نفسِهِ؛ أي: بسببٍ مِن قِبَلِهِ؛ أي: لا لنقصِ ما جاءَ بِهِ ولا لشرٍّ فيهِ ولا لشؤمٍ يقْتَضي أنْ تُصيبَهُ السَّيِّئةُ بل بسببٍ مِن نفسِهِ ومِن قِبَلِهِ[٢].

وقد قيلَ: في قولِهِ تَعالى ﴿طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنونَ﴾ [النمل: ٤٧]: إنَّ طائرَهُم هاهُنا هوَ السَّببُ الذي يَجيءُ فيهِ خيرُهُم وشرُّهُم، فهوَ عندَ اللهِ وحدَهُ، وهوَ

= طريق حفص بن عمّار، نا مبارك بن فضالة، عن عبيدالله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر... رفعه. وهٰذا ضعيف: حفص مجهول، ومبارك ليّن يدلّس التسوية.

* ورواه: ابن أبي عاصم في «الآحاد» (١١١٧)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٢٠/ ٢٣) و«الأوسط» (٣٩٤١ و٩١٢٨)، وابن السنّي (٢٩٠)، وأبو الشيخ (٧٨٥)، وأبو نعيم في «الطب»؛ من طريق كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جدّه... رفعه. وكثير ساقط لا تصلح رواياته لاعتماد ولا لاعتضاد.

* ورواه العسكري والخلعي من حديث سمرة كما في «كشف الخفاء» (١٥٤).

(١) رواه: البخاري (٧٩ـ الاستئذان، ٢٢ـ الردّ على أهل الذمّة، ١١/ ٤٢/ ٦٢٥٧ و٦٢٥٨)، ومسلم (٣٩ـ السلام، ٤ـ ابتداء أهل الكتاب بالسلام، ٤/ ١٧٠٥/ ٢١٦٤ و٢١٦٣)؛ من حديث ابن عمر وأنس رضي الله عنهم على الترتيب، وهٰذا اللفظ لأنس.

(٢) ويمكن أن تكون الآية قد جاءت بالإفراد خطابًا لابن آدم لا للنبيّ ﷺ، فقال: ما أصابك من حسنة يا ابن آدم فمن الله... إلخ. وهو أولى والله أعلم.

قدرُهُ وقسمُهُ، إنْ شاءَ رَزَقَكُم وعافاكُم وإنْ شاءَ حَرَمَكُم وأبْتَلاكُم. ومِن هٰذا قالوا: طائرُ اللهِ لا طائرُكَ؛ أي: قدرُ[١] اللهِ الغالبُ الذي يأْتي بالحسناتِ ويَصْرِفُ السَّيِّئاتِ. ومنهُ اللهمَّ! لا طيرَ إلاَّ طيرُكَ ولا خيرَ إلاَّ خيرُكَ ولا إلٰهَ غيرُكَ. وعلى هٰذا؛ فالمَعْنِيُّ بطائرِكُم نصيبُكُم وحظُّكُم الذي يَطيرُ لكُم[٢]، ومَن فَسَّرَهُ بالعملِ؛ فالمعنى طائرُكُم الذي طارَ عنكُم مِن أعمالِكُم.

وبهٰذينِ القولينِ فُسِّرَ معنى قولِهِ تَعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]، وأنَّهُ ما طارَ عنهُ مِن عملِهِ أو صارَ لازمًا لهُ ممَّا قَضى اللهُ عليهِ وقَدَّرَ عليهِ وكَتَبَ لهُ مِن الرِّزقِ والأجلِ والشَّقاوةِ والسَّعادةِ.

[٨] فصل

[فيما جاء في التطير في السنة]

● وقد ثَبَتَ في «الصَّحيحينِ»[٣] عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ أنَّهُ قالَ في وصفِ السَّبعينَ ألفًا الذينَ يَدْخُلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ: إنَّهُمُ الذينَ «لا يَكْتَوونَ، ولا يَسْتَرْقونَ، ولا يَتَطيَّرونَ، وعلى ربِّهِم يَتَوكَّلونَ». زادَ مسلمٌ وحدَهُ: «ولا يَرْقونَ».

فسَمِعْتُ شيخَ الإسلامِ أبنَ تَيْمِيَّةَ يَقولُ: هٰذهِ الزِّيادةُ وهمٌ مِن الرَّاوي[٤]، لمْ يَقُلِ النَّبيُّ ﷺ «ولا يَرْقونَ»؛ لأنَّ الرَّاقيَ محسنٌ إلى أخيهِ، وقد قالَ النَّبيُّ ﷺ وقد سُئِلَ عنِ الرُّقى، فقالَ: «منِ أسْتَطاعَ منكُم أنْ يَنْفَعَ أخاهُ فلْيَنْفَعْهُ»[٥]، وقالَ: «لا بأْسَ بالرُّقى ما لمْ تَكُنْ شركًا»[٦]. والفرقُ بينَ الرَّاقي والمسترقي أنَّ المسترقيَ سائلٌ مُسْتَعْطٍ ملتفتٌ[٧] إلى

---

(١) في ط: «طائر الله لا طائر كلبي قدر»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٢) في ط: «الذي يطيّركم»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه أو صوابه «الذي يصير لكم».

(٣) البخاري (٧٦ـ الطبّ، ١٧ـ من أكتوى أو كوى، ١٠/ ١٥٥/ ٥٧٠٥)، ومسلم (١ـ الإيمان، ٩٤ـ دخول طوائف من المسلمين الجنّة، ١/ ١٩٩/ ٢٢٠)؛ من حديث ابن عبّاس.

(٤) راجع لهٰذا «التداوي بالرقى الإلٰهيّة بين الحكمة النبويّة والمعارف الطبّيّة» (ص٢٨- ط. الحسن).

(٥) رواه مسلم (٣٩ـ السلام، ٢١ـ أستحباب الرقية من العين، ٤/ ١٧٢٦/ ٢١٩٩) من حديث جابر.

(٦) رواه مسلم (٣٩ـ السلام، ٢٢ـ لا بأس بالرقى، ٤/ ١٧٢٧/ ٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك.

(٧) في ط: «سائل مسقط ملتفت»! وهذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه، والمستعطي: السائل.

غيرِ اللهِ بقلبِهِ، والرَّاقي محسنٌ نافعٌ.

قُلْتُ: والنَّبيُّ ﷺ لا يَجْعَلُ تركَ الإحسانِ المأذونِ فيهِ سببًا للسَّبقِ إلى الجنانِ. وهٰذا بخلافِ تركِ الاسترقاءِ؛ فإنَّهُ توكُّلٌ على اللهِ ورغبةٌ عن سؤالِ غيرِهِ، ورضًى بما قَضاهُ، وهٰذا شيءٌ وهٰذا شيءٌ.

● وفي «الصَّحيحين»[1] مِن حديثِ: أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ: «لا عدوى ولا طِيَرَةَ، وأُحِبُّ الفأْلَ الصَّالحَ». ونحوُهُ مِن حديثِ أنسٍ[2].

وهٰذا يَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ نفيًا وأنْ يكونَ نهيًا؛ أي: لا تَطَيَّروا. ولٰكنَّ قولَهُ في الحديثِ «لا عدوى[3] ولا صَفَرَ ولا هامةَ»[4] يَدُلُّ على أنَّ المرادَ النَّفيُ وإبطالُ هٰذهِ الأُمورِ التي كانَتِ الجاهليَّةُ تُعانيها. والنَّفيُ في هٰذا أبلغُ مِن النَّهيِ؛ لأنَّ النَّفيَ يَدُلُّ على بطلانِ ذٰلكَ وعدمِ تأْثيرِهِ، والنَّهيُ إنَّما يَدُلُّ على المنعِ منهُ.

● وقد رَوى ابنُ ماجه في «سننه» من حديثِ: سُفْيانَ، عن سَلَمَةَ، عن عيسى بنِ عاصِمٍ، عن زِرٍّ، عن عَبْدِاللهِ بنِ مَسْعودٍ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «الطِّيَرَةُ شركٌ، وما مِنَّا إلاَّ... ولٰكنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بالتَّوكُّلِ»[5]. وهٰذهِ اللفظةُ «وما مِنَّا إلاَّ» إلى آخرِهِ مدرجةٌ

---

(١) البخاري (٧٦ـ الطبّ، ٤٣ـ الطيرة، ١٠/ ٢١٢/ ٥٧٥٣)، ومسلم (٣٩ـ السلام، ٣٤ـ الطيرة، ٤/ ١٧٤٥/ ٢٢٢٣).

(٢) رواه: البخاري (٧٦ـ الطبّ، ٤٤ـ الفأل، ١٠/ ٢١٤/ ٥٧٥٦)، ومسلم (٣٩ـ السلام، ٣٤ـ الطيرة، ٤/ ١٧٤٦/ ٢٢٢٤).

(٣) في ط: «ولا عدوى»! ولا حاجة للواو.

(٤) هو أحد ألفاظ البخاري (٧٦ـ الطبّ، ٥٣ـ لا هامة، ١٠/ ٢٤١/ ٥٧٧٠) لحديث أبي هريرة المتقدّم قبل قليل.

(٥) (صحيح). رواه الطيالسي (٣٥٦)، وابن أبي شيبة (٢٦٣٨٢)، وأحمد (١/ ٣٨٩ و٤٣٨ و٤٤٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٩)، وابن ماجه (٣١ـ الطب، ٤٣ـ من كان يعجبه الفأل، ٢/ ١١٧٠/ ٣٥٣٨)، وأبو داوود (٢٢ـ الطب، ٢٤ـ الطيرة، ٢/ ٤٠٩/ ٣٩١٠)، والترمذي (٢٢ـ السير، ٤٧ـ الطيرة، ٤/ ١٦٠/ ١٦١٤)، وأبو يعلى (٥٠٩٢ و٥٢١٩)، والبزّار (١٨٤٠)، وابن أبي الدنيا في «التوكّل» (٤١ و٤٢)، والطحاوي في «المعاني» (٤/ ٣١٢)، وابن حبّان (٦١٢٢)، والحاكم (١/ ١٧ و١٨)، والسهمي في «التاريخ» (١/ ١٨٧)، والبيهقي في «السنن» (٨/ ١٣٩) و«الشعب» (١١٦٧)، والبغوي في «السنّة» (٣٢٥٧)؛ من طرق، عن سلمة بن كهيل... به مرفوعًا.

قال الترمذي: «حسن صحيح»، وأقرّه البغوي والمنذري والهيثمي والعسقلاني والألباني، وقال =

في الحديثِ ليستْ مِن كلامِ النَّبيِّ ﷺ، كذٰلكَ قالَهُ بعضُ الحفَّاظِ، وهوَ الصَّوابُ(١)؛ فإنَّ الطِّيَرَةَ نوعٌ مِن الشِّركِ:

كما هوَ في أثرٍ مرفوعٍ: «مَن رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ؛ فقد قارَفَ(٢) الشِّركَ»(٣).

وفي أثرٍ آخرَ: «مَن أَرْجَعَتْهُ الطِّيَرَةُ مِن حاجةٍ فقد أشْرَكَ». قالوا: وما كفَّارةُ ذٰلكَ؟ قالَ: «أنْ يَقولَ أحدُكُمُ: اللهمَّ! لا طيرَ إلَّا طيرُكَ ولا خيرَ إلَّا خيرُكَ»(٤).

= الحاكم: «صحيح سنده، ثقات رواته»، ووافقه الذهبي والعراقي والمناوي والألباني.

(١) قال الترمذي (الموضع السابق): «سمعت محمّد بن إسماعيل يقول: كان سليمان بن حرب يقول في هٰذا الحديث: وما منّا إلّا ولٰكنّ الله يذهبه بالتوكّل، قال سليمان: هٰذا عندي قول عبدالله بن مسعود». ونقل نحوه الخطّابي، لٰكن قال: «وكأنّه قول ابن مسعود». وقال البيهقي: «يقال: هٰذا من قول ابن مسعود، وليس من قول النبيّ ﷺ». وقال المناوي: «لٰكن تعقّبه ابن القطّان بأنّ كلّ كلام مسوق في سياق لا يقبل دعوى درجه إلّا بحجّة». قال الألباني في «الصحيحة» (٤٢٩): «ولا حجّة هنا في الإدراج، فالحديث صحيح بكامله». قلت: الناظر في صيغة كلام سليمان بن حرب لن يخفى عليه أنّه مبنيّ على الحدس لا على اليقين والبراهين، ولذٰلك اكتفى أهل العلم كالبغوي والمنذري والهيثمي والعسقلاني والسيوطي بنقل كلامه هٰذا ساكتين عليه، ولو توفّر لهم الدليل الذي يؤكّده ما قصّروا في نقله، بل صدّره بعضهم بصيغة التمريض كما فعل البيهقي والخطّابي والهيثمي، فالصواب ما ذهب إليه ابن القطان والمناوي والألباني من نفي الإدراج.

ويبدو لي أنّ سليمان بن حرب لم يستسغ نسبة التطيّر إلى النبيّ ﷺ لما فيه من الإخلال بكمال توكّله ﷺ فادّعى لذٰلك الإدراج، والكلام لا يستلزم نسبة التطيّر إليه ﷺ ضرورة: فمن الممكن أنّه ﷺ ساقه هٰكذا لتعميمه على الأمّة ولم يقصد به نفسه، أو أنّ حظه ﷺ من التطيّر لا يعدو بغض الاسم القبيح، أو أنّ ما يعرض له ﷺ من التطيّر لا يعدو أن يكون خاطرًا ذهنيًّا مجرّدًا لا يقبله العقل ولا يستقرّ في القلب، أو نحو هٰذا ممّا لا يمسّ مقام سيّد المتوكّلين ﷺ أدنى مساس. والله أعلم.

(٢) في ط: «قارن»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه، وقد جاء على الصواب في مصادر التخريج.

(٣) (حسن). رواه: ابن وهب في «الجامع»، والبزّار (١١٦٠ـ مختصر الزوائد)، وابن أبي حاتم في «العلل» (٢٣٤٧)؛ من طريق عبدالله بن عيّاش القتباني، عن أبيه، عن شييم بن بيتان، عن شيبان بن أميّة، عن رويفع بن ثابت... رفعه. قال البزّار: «لا يروى إلّا بهٰذا الإسناد». وقال أبو حاتم: «منكر». وقال الهيثمي (١٠٨/٥): «فيه سعيد بن أسد بن موسى روى عنه أبو زرعة الرازي ولم يضعّفه أحد، وشيخ البزّار إبراهيم غير منسوب، وبقيّة رجاله ثقات». قلت: سعيد وإبراهيم ثقتان توبعا، والعلّة القادحة هي جهالة شيبان.

لٰكن له شاهد عند: ابن وهب في «الجامع» (٦٥٦ و٦٥٧)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢٤/ ١٩٥)، والذهبي في «النبلاء» (٥١٧/١٦)؛ من طريقين إحداهما قويّة، عن فضالة بن عبيد... موقوفًا بلفظه. واحتمال أن يكون لهٰذا حكم الرفع قويّ.

وله شاهد آخر من حديث ابن عمرو، وهو الآتي بعده.

(٤) (صحيح). رواه: ابن وهب في «الجامع» (٦٥٨)، وأحمد (٢/ ٢٢٠)، والطبراني في «الكبير»=

● وفي «صحيح مسلم» مِن حديثِ مُعاويَةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَمِيِّ؛ أنَّهُ قالَ: يا رسولَ اللهِ! ومنَّا أُناسٌ يَتَطَيَّرونَ. فقالَ: «ذٰلكَ شيءٌ يَجِدُهُ أحدُكُم في نفسِهِ فلا يَصُدَّنَّهُ»[1].

فأخْبَرَ أنَّ تأذِّيَهُ وتشاؤمَهُ بالتَّطيُّرِ إنَّما هوَ في نفسِهِ وعقيدتِهِ لا في المتطيَّرِ بهِ، فوهمُهُ وخوفُهُ وإدراكُهُ هوَ الذي يُطَيِّرُهُ ويَصُدُّهُ لا ما رَآهُ وسَمِعَهُ.

فأوْضَحَ ﷺ لأُمَّتِهِ الأمرَ، وبيَّنَ لهُم فسادَ الطِّيَرَةِ؛ لِيَعْلَموا أنَّ اللهَ سبحانَهُ لمْ يَجْعَلْ لهُم عليها علامةً ولا فيها دلالةً ولا نَصَبَها سببًا لِما يَخافونَهُ ويَحْذَرونَهُ؛ لِتَطْمَئِنَّ قلوبُهُم ولِتَسْكُنَ نفوسُهُم إلى وحدانيَّتِهِ تَعالى التي أرْسَلَ بها رسلَهُ وأنْزَلَ بها كتبَهُ وخَلَقَ لأجلِها السَّماواتِ والأرضَ وعَمَّرَ الدَّارينِ الجنَّةَ والنَّارَ، فبسببِ التَّوحيدِ ومِن أجلِهِ جَعَلَ الجنَّةَ دارَ التَّوحيدِ وموجَباتِهِ وحقوقِهِ والنَّارَ دارَ الشِّركِ ولوازمِهِ وموجَباتِهِ، فقَطَعَ ﷺ عَلَقَ الشِّركِ مِن قلوبِهِم[2] لئلاَّ يَبْقى فيها عَلَقَةٌ منها ولا يَتَلَبَّسوا بعملٍ مِن أعمالِ أهلِهِ ألبتَّةَ.

● وفي الحديثِ المعروفِ: «أقِرُّوا الطَّيرَ على مَكِنَاتِها»[3].

= (٥/ ١٠٨ـ مجمع)، وابن السنّي في «اليوم والليلة» (٢٩٢)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢٤/ ٢٠١)؛ من طرق، عن ابن لهيعة، أنا ابن هبيرة، عن أبي عبدالرحمٰن الحبلي، عن ابن عمرو... رفعه. قال الهيثمي: «فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقيّة رجاله ثقات». قلت: رواه عنه عبدالله بن وهب وعبدالله بن يزيد وروايتهما عنه مستقيمة، فالسند جيّد.

ويشهد للقطعة الأولى الحديث المتقدّم قبله وشواهده.

ويشهد للقطعة الثانية: حديث بريدة عند البزّار (١١٦١ـ مختصر الزوائد) بسند واه، وحديث أبي هريرة عنده (١١٦٢ـ مختصر الزوائد) بسند لا بأس به.

وجاءت القطعة الثانية أيضًا عند: ابن أبي شيبة (٢٦٤٠٢ و٢٩٥٣٤ و٢٩٨٦٣)، وأبي الشيخ في «العظمة» (٧٠٧)، والبيهقي في «الشعب» (١١٨٠)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢٤/ ٢٠١)؛ من أوجه موقوفة على عليّ وابن عمرو وابن عبّاس. وهٰذه وإن لم تكن شواهد عمليًّا، لٰكنّها تزيد اليقين بصحّة هٰذا الأصل عن النبيّ ﷺ؛ لأنّ اجتماع هٰؤلاء الصحابة عليه يرجّح أنّه تلقّوه عنه ﷺ.

(١) رواه مسلم. وقد تقدّم تخريجه (٣/ ٢٢١).

(٢) علق الشرك: ما يعلق في القلب منه ومن أسبابه.

(٣) (**صحيح**). قطعة من حديث يرويه عبيدالله بن أبي يزيد المكّي واختلف عليه فيه:

فرواه **أوّلاً**: الطيالسي (١٦٣٤)، والشافعي في «السنن» (٤١٤)، والحميدي (٣٤٧)، وابن أبي شيبة (٢٦٣٩٢)، وإسحاق (١/ ١٥٨/ ١)، وأحمد (٦/ ٣٨١)، والفاكهي في «مكّة» (١٤٣٥)، وأبو داوود (١٠ـ الضحايا، ٢٠ـ العتيرة، ٢/ ١١٦/ ٢٨٣٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٣٢٨٤)، والنسائي في «الكبرى» (١٨٣٤٧ـ تحفة)، والطحاوي في «المشكل» (١/ ٣٤٣)، وابن قانع في «المعجم» (٣٩٧)، وابن حبّان =

قالَ أبو عُبَيْدٍ في «الغريب»: أرادَ: لا تَزْجُروها ولا تَلْتَفِتوا إليها، أقِرُّوها على مواضعِها التي جَعَلَها اللهُ لها ولا تَتَعَدَّوْا ذٰلكَ إلى غيرِهِ؛ أي: أنَّها لا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ.

وقالَ غيرُهُ: المعنى: أقِرُّوها على أمكنتِها؛ فإنَّهُم كانوا في الجاهليَّةِ إذا أرادَ أحدُهُم سفرًا أو أمرًا مِن الأُمورِ؛ أثارَ الطَّيرَ مِن أوكارِها لِيَنْظُرَ أيَّ وجهٍ تَسْلُكُ وإلى أيِّ ناحيةٍ تَطيرُ، فإنْ خَرَجَتْ ذاتَ اليمينِ؛ خَرَجَ لسفرِهِ ومَضى لأمرِهِ، وإنْ أخَذَتْ ذاتَ الشِّمالِ؛ رَجَعَ ولَمْ يَمْضِ، فأمَرَهُم أنْ يُقِرُّوها في أمكنتِها، وأبْطَلَ فعلَهُم ذٰلكَ ونَهاهُم عنهُ كما أبْطَلَ الاستقسامَ بالأزلامِ.

وقالَ ٱبنُ جَريرٍ: معنى ذٰلكَ: أقِرُّوا الطَّيرَ التي تَزْجُرونَها في مواضعِها المتمكِّنةِ فيها التي هيَ لها مستقَرٌّ وٱمْضوا لأُمورِكُم؛ فإنَّ زجرَكُم إيَّاها غيرُ مجدٍ عليكُم نفعًا ولا

= (٦١٢٦)، والطبراني (٢٥/١٦٧/٤٠٧)، والحاكم (٤/٢٣٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/٩٤ و٩٥)، والبيهقي (٩/٣١١)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٤/٣١٥)، والبغوي في «السنّة» (٢٨١٨)؛ من طريق سفيان، عنه، [عن أبيه]، سمع سباع بن ثابت، سمعت أمّ كرز الكعبيّة. . . رفعته. قال الإمام أحمد: «سفيان يهم في هٰذه الأحاديث، عبيدالله سمعها من سباع بن ثابت». وكذٰلك صحّح أبو داوود إسقاط والد عبيدالله.

ورواه ثانيًا: أبو عبيد في «الغريب» (حاشية أبي داوود ـ الموضع السابق)، والترمذي (١٨٣٥١ ـ تحفة)؛ من طريق ابن جريج، عنه، [عن أبيه]، عن سباع، [عن محمّد بن ثابت بن سباع]، عن أمّ كرز. . . رفعته. قال الترمذي: «صحيح». قلت: زاد أبو عبيد «عن أبيه»، وقد تقدّم قول الإمام أحمد وأبي داوود فيه. وزاد الترمذي بدلاً منه «محمّد بن ثابت بن سباع»، قال المزّي: «المحفوظ عن سباع عن أمّ كرز».

ورواه ثالثًا: أبو داوود (الموضع السابق، ٢٨٣٦)، والذهبي في «ميزان الاعتدال» (٢/١١٥) تعليقًا؛ من طريق حمّاد بن زيد، عنه، عن سباع، عن أمّ كرز الكعبيّة. . . رفعته. قال أبو داوود: «هٰذا هو الحديث وحديث سفيان وهم».

وحمّاد إمام جبل، وقد سلمت روايته من الاضطراب الواقع في الروايتين السابقتين: فإمّا أن ترجّح على ما تقدّم. أو يجمع بين الروايات بأن عبيدالله سمعه من أبيه أوّلاً ثمّ علا فسمعه من سباع، أو سمعه من سباع أوّلاً ثمّ ثبّته فيه أبوه. وكذٰلك الحال في شأن محمّد بن ثابت بن سباع. وهٰذا كثير متكرّر عند المحدّثين. وليس هاهنا علّة قادحة.

نعم؛ في سباع بن ثابت إشكال: فقد قال الذهبي في «الميزان»: «لا يكاد يعرف»، وقال في «الكاشف»: «وثّق»، ثمّ صحّح حديثه في «تلخيص المستدرك»، ثمّ ذكره في «تجريد أسماء الصحابة»، وهٰذا عجيب! وأمّا العسقلاني؛ فعدّه في الصحابة تبعًا للبغوي وابن قانع وابن الأثير. فإن ثبتت صحبته ـ وهٰذا قويّ راجح ـ فالسند صحيح. وإلى تقوية الحديث مال أحمد وأبو داوود والترمذي وابن حبّان والحاكم والذهبي ـ في «التلخيص» لا «الميزان» ـ والهيثمي والعسقلاني والألباني وغيرهم. والله أعلم.

دافعٍ عنكُم ضررًا.

وقالَ آخرونَ: هٰذا تصحيفٌ مِن الرُّواةِ وخطأٌ منهُم، ولا يُعْرَفُ المَكِناتُ إلَّا أسماءً لِبَيْضِ الضِّبابِ دونَ غيرِها.

قالَ الجَوْهَرِيُّ: المَكِنُ بيضُ الضَّبِّ. قالَ: ومَكِنُ الضِّبابِ طعامُ العربِ لا تَشْتَهيهِ نفوسُ العجمِ، وفي الحديثِ: «أَقِرُّوا على الطَّيرِ مَكُِناتِها»؛ بالضَّمِّ والفتح. قالَ أبو زيادٍ الكِلَابيُّ وغيرُهُ: إنَّا لا نَعْرِفُ للطَّيرِ مَكِناتٍ، فأمَّا المَكِناتُ؛ فإنَّما هيَ للضِّبابِ. قالَ أبو عُبَيْدٍ: ويَجوزُ في الكلامِ، وإنْ كانَ المَكِنُ للضِّبابِ، في أنْ يُجْعَلَ للطَّيرِ تشبيهًا بذٰلكَ: كقولِهِم مشافرُ الحبشيِّ، وإنَّما المشافرُ للإبلِ. وكقولِ زُهَيْرٍ يَصِفُ الأسدَ: لَهُ لِبَدٌ أظْفارُهُ لمْ تُقَلَّمِ، وإنَّما لهُ مخالبُ.

قالَ هٰؤلاءِ: فلعلَّ الرَّاويَ سَمِعَ: أَقِرُّوا الطَّيرَ في وُكُناتِها؛ بالواوِ؛ لأنَّ وُكُناتِ الطَّيرِ عشُّها وحيثُ تَسْقُطُ عليهِ مِن الشَّجرِ وتَأْوي إليهِ[1].

● وفي أثرٍ آخرَ: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيهِ لمْ يَنَلِ الدَّرجاتِ العلى: مَن تَكَهَّنَ أوِ اسْتَقْسَمَ أو رَجَعَ مِن سفرٍ مِن طِيَرَةٍ»[2]. وقد رُفِعَ هٰذا الحديثُ[3].

---

(١) فتحصّل من هٰذا أنّهم اختلفوا في ضبط «مكناتها» تبعًا لاختلافهم في أصلها ومعناها: فقالوا هي بيوض الطير مجازًا من بيوض الضباب، وقالوا مواضعها من الأمكنة، وقالوا مستقرّها من التمكّن، وقالوا ـ وهو أضعف الأقوال ـ تصحيف وكنات وهي الأعشاش، وقالوا غير ذٰلك.

والناظر في كلام القوم سيخرج بأمرين: **أحدهما**: أنّه لم يحفظ ضبط هٰذه اللفظة عنه ﷺ من وجه ينبغي المصير إليه، ولذٰلك اختلفوا في الميم فتحًا وضمًّا وبإبدالها واوًا وفي الكاف فتحًا وضمًّا وكسرًا. **والثاني**: أنّ لكلّ ضبط وجهًا يقرب أو يبعد، ولا يخلو أيضًا من عسرة وتكلّف في توجيهه اللغويّ والنحويّ.

ويبدو لي ـ والله يغفر لي ـ أنّ الأولى أن تكون هٰذه اللفظة «مَكَنَّاتها» جمع «مَكَنَّة»، وهي اسم مكان على وزن مَفْعَلَة كالمقبرة والمدرسة، ومعناه البيت أو العشّ، وفعله «كَنَّ» بمعنى لزم بيته واستتر فيه، ومعنى الحديث دعوا الطير في أعشاشها ولا تزجروها لتتفاءلوا أو تتشاءموا. فأصل الباب إذًا «كنن» وليس «مكن» ولا «وكن» فهٰذا أوجه معنًى ولغة ونحوًا. والله أعلم.

(٢) **(موقوف ضعيف)**. رواه: ابن أبي شيبة (٢٦٣٩٥)، وهنّاد (١٣١٣)، وابن حبّان في «روضة العقلاء» (ص٢١٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٧٣٩)، وابن عبدالبرّ في «العلم»، والمزّي في «التهذيب» (٢٢/ ٤٧٤) معلّقًا؛ من طرق قويّة، عن شريك أو الثوريّ أو عبيدالله بن عمر، عن عبدالملك بن عمير، عن رجاء بن حيوة، عن أبي الدرداء. . . موقوفًا. ورجاله ثقات، لٰكنّ رواية رجاء عن أبي الدرداء مرسلة.

(٣) (منكر). وقد جاء مرفوعًا من أوجه:

[٩- فصل]

[فيما جاء عن السلف الصالح في التطير]

فمَنِ ٱسْتَمْسَكَ بعروةِ التَّوحيدِ الوثقى وٱعْتَصَمَ بحبلِهِ المتينِ وتَوَكَّلَ على اللهِ؛ قَطَعَ هاجسَ الطِّيَرَةِ مِن قبلِ ٱستقرارِها وبادَرَ خواطرَها مِن قبلِ ٱستمكانِها.

قالَ عِكْرِمَةُ: كُنَّا جلوسًا عندَ ٱبنِ عَبَّاسٍ، فمَرَّ طائرٌ يَصيحُ، فقالَ رجلٌ مِن القومِ: خيرٌ خيرٌ. فقالَ لهُ ابنُ عَبَّاسٍ: لا خيرٌ ولا شرٌّ. مبادرةً بالإنكارِ عليهِ لئلَّا يَعْتَقِدَ لهُ تأثيرًا في الخيرِ أوِ الشَّرِّ.

= فرواه: الطبراني في «الأوسط» (٢٦٨٤)، والعسكري (٦٥٢- كشف الخفاء)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٧٤)، والخطيب في «التاريخ» (٥/ ٢٠١)، وابن الجوزي في «الواهيات» (١١٨٤)؛ من طريق محمّد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، عن الثوري، عن عبدالملك، عن رجاء، عن أبي الدرداء... رفعه. قال أبو نعيم: «غريب من حديث الثوري عن عبدالملك، تفرّد به محمّد بن الحسن». وقال الهيثمي (١/ ١٣٣): «وهو كذّاب». قلت: متروك متّهم على الأقلّ.

ورواه البيهقي في «الشعب» (١١٧٧) من طريق إبراهيم بن مهدي ثنا أبو المحيّاة، وعلّقه أيضًا (١١٧٧) عن عكرمة بن إبراهيم؛ كلاهما عن عبدالملك، عن رجاء، عن أبي الدرداء... رفعه. وإبراهيم بن مهدي مقبول، وعكرمة بن إبراهيم منكر الحديث يرفع الموقوفات.

ورواه: الطبراني (١٠/ ٢١٣- فتح، ٢١٦١- صحيحة)، وابن مردويه (٢/ ١٢- تفسير ابن كثير)، وتمّام في «الفوائد» (١٠٣١)؛ من طريق قويّة، عن إبراهيم بن يزيد، عن رقبة بن مصقلة، [عن عبدالملك بن عمير]، عن رجاء، [زاد تمّام: عن أمّ الدرداء]، عن أبي الدرداء... رفعه. قال المنذري والهيثمي والعسقلاني: «رجاله ثقات». زاد العسقلاني في «الفتح» (١٠/ ٢١٣): «إلّا أنّني أظنّ أنّ فيه ٱنقطاعًا». قلت: إبراهيم بن يزيد لا يستحقّ أن يوصف بأنّه صدوق بله ثقة: فقد قال أبو حاتم: «شيخ يكتب حديثه ولا يحتجّ به»، وقال البخاري: «لا يحتجّون بحديثه»، وقال الأزدي: «عنده مناكير»، ولم أر أحدًا وثّقه إلّا ابن حبّان، ولذٰلك قال الذهبي فيه: «وثّق»؛ تضعيفًا لما ورد في توثيقه؛ إذ من البيّن أنّ الرجل ليّن أو فيه ضعف، ومثله يكون صالحًا في المتابعات لا إذا ٱنفرد أو خالف كما هو الحال هنا.

وخلاصة القول أنّ الحديث ضعيف لأمور: **أوّلها**: أنّ الأوجه الموقوفة هنا هي القويّة. **الثاني**: أنّ الرفع ليس زيادة ثقة يتعيّن المصير إليها بل: زيادة متّهم (محمد بن الحسن) أو منكر الحديث (عكرمة بن إبراهيم) أو لين (إبراهيم بن يزيد) أو مقبول (إبراهيم بن مهدي). **الثالث**: وعلى التنزّل والتسليم بأنّ ٱجتماع هٰذه الأوجه يفيد الحديث قوّة؛ فقد نبّه العسقلاني إلى علّة أخرى، وهي الانقطاع بين رجاء وأبي الدرداء، وزيادة أمّ الدرداء بينهما تفرّد بها إبراهيم بن يزيد الليّن مع ٱضطرابه فيها وفي عبدالملك بن عمير إثباتًا وإسقاطًا خلافًا للخمسة الآخرين الثقات والضعفاء الذين رووا الحديث بإسقاطها؛ فكيف بالله يؤمن لهٰذه الزيادة ويقوّى بها السند؟! وكلام ابن القيّم هنا ظاهر في تضعيف الرفع. والله أعلم.

وخَرَجَ طاووسٌ معَ صاحبٍ لهُ في سفرٍ، فصاحَ غرابٌ، فقالَ الرَّجلُ: خيرٌ. فقالَ طاووسٌ: وأيُّ خيرٍ عندَهُ؟! واللهِ؛ لا تَصْحَبُني.

وقيلَ لكَعْبٍ: هل تَتَطَيَّرُ؟ فقالَ: نعم. فقيلَ لهُ: فكيفَ تقولُ إذا تَطَيَّرْتَ؟ قالَ: أقولُ: اللهمَّ! لا طيرَ إلَّا طيرُكَ، ولا خيرَ إلَّا خيرُكَ، ولا ربَّ غيرُكَ، ولا قوَّةَ إلَّا بكَ.

وكانَ بعضُ السَّلفِ يقولُ عندَ ذٰلكَ: طيرُ اللهِ لا طيرُكَ، وصباحُ اللهِ لا صباحُكَ، ومساءُ اللهِ لا مساؤُكَ.

وقالَ ابنُ عَبْدِالحَكَمِ: لمَّا خَرَجَ عُمَرُ بنُ عَبْدِالعَزيزِ مِن المدينةِ؛ قالَ مُزاحِمٌ: فنَظَرْتُ، فإذا القمرُ في الدَّبَرانِ[1]، فكَرِهْتُ أنْ أقولَ لهُ، فقُلْتُ: ألا تَنْظُرُ إلى القمرِ ما أحسنَ ٱستواءَهُ في هٰذهِ الليلةِ! قالَ: فنَظَرَ عُمَرُ، فإذا هوَ في الدَّبَرانِ. فقالَ: كأنَّكَ أرَدْتَ أنْ تُعْلِمَني أنَّ القمرَ في الدَّبَرانِ يا مُزاحِمُ! إنَّا لا نَخْرُجُ بشمسٍ ولا بقمرٍ، ولٰكنَّا نَخْرُجُ باللهِ الواحدِ القهَّارِ.

[١٠ ـ فصل]

[في ذكر أحاديث وآثار وأخبار توهم جواز الطيرة]

● [فصل فيما جاءَ عنِ النَّبيِّ ﷺ ممَّا يوهِمُ جوازَ الطِّيَرَةِ]:

فإنْ قيلَ: فما تَقولونَ فيما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ كانَ يَسْتَحِبُّ الفألَ؟

ففي «الصَّحيحين»[2] مِن حديثِ أنسٍ وأبي هُرَيْرَةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «لا عدوى ولا طِيَرَةَ، وخيرُها الفألُ». وفي لفظٍ: «وأصدقُها الفألُ». وفي لفظٍ: «وكانَ يُعْجِبُهُ الفألُ». وفي لفظِ مسلمٍ: «ويُعْجِبُني الفألُ الصَّالحُ»؛ أي: الكلمةُ الحسنةُ.

وقالَ: «إذا أبْرَدْتُم إليَّ بريدًا؛ فٱجْعَلوهُ حسنَ الاسمِ حسنَ الوجهِ»[3].

---

(١) منزل من منازل القمر تابع لبرج الثور. حيّرونا والله؛ ساعة يقولون: لا تسافروا والقمر في العقرب! وساعة: لا تسافروا والقمر في الدبران!

(٢) كما تقدّم تخريجهما (٣/ ٢٣٠).

(٣) (صحيح). وقد تقدّم تفصيل القول فيه (٢/ ١٣٦).

ورُوِيَ عن يَحْيى بنِ سَعيدٍ؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ لِلَقْحَةٍ[١] تُحْلَبُ: «مَن يَحْلُبُ هٰذهِ؟». فقامَ رجلٌ. فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «ما ٱسمُكَ؟». فقالَ الرَّجلُ: مُرَّةُ. فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «ٱجْلِسْ». ثمَّ قالَ: «مَنْ يَحْلُبُ هٰذهِ؟». فقامَ رجلٌ. فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «ما ٱسْمُكَ؟». فقالَ الرَّجلُ: حربٌ. فقالَ لهُ النَّبيُّ ﷺ: «ٱجْلِسْ». ثمَّ قالَ: «مَن يَحْلُبُ هٰذهِ؟». فقامَ رجلٌ. فقالَ لهُ النَّبيُّ ﷺ: «ما ٱسْمُكَ؟». فقالَ الرَّجلُ: يَعيشُ. فقالَ لهُ النَّبيُّ ﷺ: «يَعيشُ ٱحْلِبْ». فحَلَبَ[٢].

زادَ ابنُ وهبٍ في «جامعه» في هٰذا الحديثِ: فقامَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، فقالَ: أتَكَلَّمُ يا رسولَ اللهِ أمْ أَصْمُتُ؟ قالَ: «بلِ ٱصْمُتْ، وأُخْبِرُكَ بما أرَدْتَ، ظَنَنْتَ يا عُمَرُ أنَّها طِيَرَةٌ، ولا طيرَ إلاَّ طيرُهُ ولا خيرَ إلاَّ خيرُهُ، ولٰكنْ أُحِبُّ الفأْلَ»[٣].

وفي «جامع ابن وهب»: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بغلامٍ. فقالَ: «ما سَمَّيْتُمْ هٰذا

---

(١) اللقحة: الناقة الحلوب.

(٢) (حسن). رواه: مالك في «الموطأ» (٢/٩٧٣)، وابن وهب في «الجامع» (٦٥٢)؛ عن يحيى، عن النبيّ ﷺ. وهٰذا مرسل أو معضل.

ورواه معمر في «الجامع» (١٩٨٥٤) عن سماك بن الفضل، عن عكرمة، عن النبيّ ﷺ... فذكره مقتصرًا على أوّله. وهٰذا مرسل قويّ.

ورواه ابن وهب (٦٥٣): أني ابن لهيعة، عن عبدالله بن هبيرة، ثني موسى بن عليّ، عن أبيه، عنه ﷺ... مثله. وهٰذا سند قويّ، لٰكنّه مرسل أيضًا.

ورواه: ابن وهب في «الجامع» (٦٥٤)، وابن قانع في «المعجم» (١٢٢٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/٢٧٧/٧١٠)، وابن منده في «الصحابة» (٤/٣٦٤ـ غابة)، وأبو نعيم في «الصحابة» (٤/٦٣٤ـ غابة)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢٤/٧٢)؛ من طرق، عن ابن لهيعة، ثني الحارث بن يزيد، عن عبدالرحمٰن بن جبير بن نفير، [عن يعيش الغفاري]... رفعه. وهٰذا من جيّد حديث ابن لهيعة، فإنّ في الرواة عنه قتيبة بن سعيد وعبدالله بن وهب، ولذٰلك قال الهيثمي (٨/ ٥٠): «إسناده حسن»، لٰكن المشكل أنّ ابن وهب أرسله في «الجامع» بخلاف ما جاء عند ابن عبدالبرّ.

فإن ثبت الوصل في هٰذا الأخير؛ فالحديث صحيح بمجموع طرقه. وإن كان الجادّة فيه الإرسال؛ فٱجتماع هٰذه المراسيل مع تعدّد مخارجها يرفعها إلى درجة الحسن إن شاء الله.

(٣) (ضعيف جدًّا). رواه ابن وهب في «الجامع» (٦٥٥): أني ابن سمعان، عن محمّد بن إبراهيم بن الحارث التيمي؛ أنّه ﷺ قال... فذكر خبر الحلب، لٰكن جعل الأسماء المساور وخداشًا ولم يذكر ٱسم الثالث الذي حلب وزاد هٰذه الزيادة المذكورة هنا. وهٰذا سند ساقط: عبدالله بن زياد بن سليمان بن سمعان متروك متّهم مخالفته وزيادته مردودة عليه ولا كرامة. والتيمي عن النبيّ ﷺ مرسل.

الغلامَ؟». فقالوا: السَّائبَ. فقالَ: «لا تُسَمُّوهُ السَّائبَ، ولٰكنْ عَبْدَاللهِ». قالَ: فغُلِبوا على ٱسمِهِ، فلمْ يَمُتْ حتَّى ذَهَبَ عقلُهُ[١].

وفي «صحيح البخاري» من روايةِ: الزُّهْرِيِّ، عن سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، عن أبيهِ؛ أنَّ أباهُ جاءَ إلى النَّبيِّ ﷺ، فقالَ: «ما ٱسمُكَ؟». قالَ: حزنٌ. قالَ: «أنتَ سهلٌ». قالَ: لا أُغَيِّرُ ٱسمًا سَمَّانيهِ أبي. قالَ ٱبنُ المُسَيَّبِ: فما زالتِ الحزونةُ فينا بعدُ[٢].

وروى: مالكٌ، عن يَحْيى بنِ سَعيدٍ؛ أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ قالَ لرجلٍ: ما ٱسْمُكَ؟ قالَ: جَمْرَةُ. قالَ: ٱبنُ مَن؟ قالَ: ٱبنُ شِهابٍ. فقالَ: ممَّن؟ قالَ: مِن الحُرَقَةِ. قالَ: أينَ مسكنُكَ؟ قالَ: بِحَرَّةِ النَّارِ. قالَ: بأيِّها؟ قالَ: بذاتِ لظًى، فقالَ لهُ عُمَرُ: أدْرِكْ أهْلَكَ فقدِ ٱحْتَرَقوا! فكانَ كما قالَ عُمَرُ.

وفي غيرِ روايةِ مالِكٍ هٰذهِ القصَّةَ: عن مُجالِدٍ، عنِ الشَّعْبِيِّ؛ قالَ: جاءَ رجلٌ مِن جُهَيْنَةَ إلى عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنهُ. فقالَ لهُ: ما ٱسْمُكَ؟ قالَ: شِهابٌ. قالَ: ٱبنُ مَن؟ قالَ: ٱبنُ جَمْرَةَ، قالَ: ٱبنُ مَن؟ قالَ: ٱبنُ ضِرامٍ. قالَ: ممَّن؟ قالَ: مِن الحُرَقَةِ. قالَ: وأينَ منزِلُكَ؟ قالَ: بحرَّةِ النَّارِ. قالَ: ويحَكَ! أدْرِكْ منزلَكَ (أو: أهلكَ) فقدِ ٱحْتَرَقوا. قالَ: فأتاهُم فألفاهُم قدِ ٱحْتَرَقَ عامَّتُهُم[٣].

وقالَتْ عائِشَةُ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيمُّنُ ما ٱسْتَطاعَ؛ في تنعُّلِهِ وترجُّلِهِ

---

(١) (حسن دون قوله فغلبوا على ٱسمه . . . إلخ). رواه ابن وهب في «الجامع» (٤٩) عن ابن لهيعة، عن ابن أبي حبيب، عنه ﷺ . . . بالسياق المذكور. وهٰذا من جيّد حديث ابن لهيعة لأنّه من رواية ابن وهب عنه، وابن أبي حبيب ثقة من رجال الستة، لٰكنّ حديثه هٰذا مرسل.

نعم؛ روى: البغوي في «المعجم» (٢/ ١٢ـ إصابة)، وأبو نعيم في «الصحابة» (٢/ ٢٧١ـ غابة، ٢/ ١٢ـ إصابة)، وابن منده في «الصحابة» (٢/ ٢٧١ـ غابة، ٢/ ١٢ و٣٨٥ـ إصابة)، والجيزي في «صحابة مصر» (٢/ ٣٨٥ـ إصابة)؛ من طريق ابن لهيعة، عن أبي قبيل، سمعت رجلاً من بني غفار . . . فذكر نحوه دون قوله «فغلبوا . . . » إلخ، بل ظاهره أنّهم ٱستجابوا. وهٰذا من جيّد حديث ابن لهيعة؛ فقد رواه ابن منده من طريق قتيبة بن سعيد عنه. وأبو قبيل حيي بن هانئ صدوق. والغفاريّ صحابيّ لا تضرّ جهالته. فالسند جيّد.

فإن كانت الواقعة واحدة ـ وهو الراجح ـ؛ فرواية ابن وهب تتقوّى بما بعدها وتبقى الزيادة على ضعفها. وإن كانتا واقعتين؛ فالمعتمد الثاني والأوّل ضعيف، وتغييره ﷺ السائب إلى عبدالله يبقى ثابتًا.

(٢) تقدّم تخريجه (٢/ ١٣٨).

(٣) لٰكن أين جلالة مالك الإمام من ضعف مجالد؟!

ووضوئِهِ وفي شأنِه كلِّه[١].

وفي «صحيح البخاريِّ»[٢]: عنِ ٱبنِ عُمَرَ؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «الشُّؤمُ في ثلاثٍ: في المرأةِ والدَّارِ والدَّابَّةِ».

وفي «الصَّحيح»[٣] أيضًا مِن حديثِ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إنْ كانَ؛ ففي الفرسِ والمرأةِ والمسكنِ»؛ يَعْني: الشُّؤْمَ.

وفي «الموطَّإ»: عن يَحْيى بنِ سَعيدٍ؛ قالَ: جاءَتِ ٱمرأةٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَتْ: يا رسولَ اللهِ! دارٌ سَكَنَّاها والعددُ كثيرٌ والمالُ وافرٌ، فقَلَّ العددُ وذَهَبَ المالُ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «دَعوها، ذميمةً»[٤].

---

(١) رواه: البخاري (٤ـ الوضوء، ٣١ـ التيمّن في الوضوء، ١/٢٦٩/١٦٨)، ومسلم (٢ـ الطهارة، ١٩ـ التيمّن في الطهور، ١/٢٢٦/٢٦٨).

(٢) (٥٦ـ الجهاد، ٤٧ـ شؤم الفرس، ٦/٦٠/٢٨٥٨). ورواه أيضًا مسلم (٣٩ـ السلام، ٣٤ـ الطيرة والفأل، ٤/١٧٤٧/٢٢٢٥).

(٣) البخاري (الموضع السابق، ٢٨٥٩)، ومسلم (الموضع السابق، ٢٢٢٦).

(٤) (صحيح). وقد جاء عن النبيّ ﷺ من أوجه:

* فرواه ابن وهب في «الجامع» (٦٤٨) من طريق ابن سمعان... به. وابن سمعان هٰذا متروك متّهم.

* ورواه: مالك (٢/٩٧٢)، وابن وهب في «الجامع» (٦٤٧)؛ عن يحيى بن سعيد... به. وهٰذا مرسل أو معضل قويّ.

* ورواه: البخاري في «التاريخ» (٤/١٠٠)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٢١٦٠)، والطبراني في «الكبير» (٦/١٠٤/٥٦٣٩)، وأبو نعيم (٢/٨٦ـ إصابة)؛ من طريق سعد بن إسحاق بن كعب، عن سهل بن حارثة... به. قال الهيثمي (٥/١٠٨): «فيه يعقوب بن حميد بن كاسب». قلت: صدوق ربّما وهم وقد توبع، فالسند قويّ، لٰكن قال البخاريّ: «مرسل»؛ يعني: أنّه ليست لسهل صحبة، وإلى ذٰلك مال جماعة.

* ورواه الزهري وٱختلف عليه فيه: **فرواه أوّلًا** البيهقي في «الشعب» (١٣٦٢) من طريق قويّة، عن يونس، عنه، عن السائب بن يزيد ابن أخت نمر، عن عبدالرحمٰن بن عبد القاري، عن عمر... رفعه. قال البيهقي: «كذا وجدته موصولًا بالحديث الأوّل، وهو بهٰذا الإسناد غلط». **ورواه ثانيًا** البزّار (١١٥٩ـ مختصر الزوائد) من طريق سعيد بن سفيان، ثنا صالح بن أبي الأخضر، عنه، عن سالم، عن أبيه... رفعه. قال البزّار: «أخطأ فيه عندي صالح». وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/١٠٨): «صالح ضعيف يكتب حديثه، وفيه أيضًا سعيد بن سفيان»، قلت: صدوق يخطئ. **وروى الثالث** ابن عديّ في «الكامل» (٣/١٠٨٦) من طريق زمعة بن صالح، عنه، عن سعيد بن المسيّب، عن أبي هريرة... رفعه. وزمعة ضعيف. **وروى الرابع**: معمر في «الجامع» (١٩٥٢٦)، وابن وهب في «الجامع» (٦٤٩)، والبيهقي في «السنن» (٨/١٤٠)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢٤/٦٨)؛ من طريق سفيان ومعمر، عنه، عن عبدالله بن عبدالله بن الحارث بن نوفل، عن=

ولمَّا رَأى النَّبيُّ ﷺ يومَ أُحُدٍ فرسًا قد لَوَّحَ بذنبِهِ ورجلاً قدِ اَسْتَلَّ سيفَهُ، فقالَ لهُ: «شِمْ سيفَكَ[1]؛ فإنِّي أرى السُّيوفَ سَتُسَلُّ اليومَ»[2].

وكذٰلكَ قولُهُ لمَّا رَمى واقِدُ بنُ عَبْدِاللهِ عَمْرَو بنَ الحَضْرَميِّ[3] فقَتَلَهُ، فقالَ: «واقدٌ وَقَدَتِ الحربُ، وعامرٌ عَمَرَتِ الحربُ، وابنُ الحَضْرَميِّ حَضَرَتِ الحربُ»[4].

= عبدالله بن شدّاد بن الهاد . . . به. وسفيان ومعمر جبلان، فالقول قولهما، والأوجه الأخرى متراوحة بين الشذوذ والنكارة، وإلى ذٰلك مال البزّار وأبو حاتم، ولكنّه مرسل كما قال البيهقي.

* ورواه: ابن عديّ (٣/ ١٣٠٢)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٦٣)؛ من طريق سكين بن عبدالعزيز، عن إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود. . . رفعه. وهٰذا سند فيه ضعف، الهجري ليّن.

* ورواه: البخاري في «الأدب المفرد» (٩١٨)، وأبو داوود (٢٢ـ الطبّ، ٢٤ـ الطيرة، ٢/ ٤١٣/ ٣٩٢٤)، وابن قتيبة في «مختلف الحديث» (ص١٠٥)، والبيهقي في «السنن» (٨/ ١٤٠) و«الشعب» (١٣٦٤)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢٤/ ٦٩)، والضياء في «المختارة» (١٥٢٩)؛ من طريق عكرمة بن عمّار، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة، عن أنس. . . رفعه. قال البخاري: «في إسناده نظر»؛ يعني: لكلامهم في عكرمة؛ فإنّ فيه لينًا لا ينحطّ به عن رتبة الحسن أو الحسن في الشواهد في أسوإ الاحتمالات، ولذٰلك سكت عنه المنذري وحسّنه الألباني.

فهاهنا وجه ساقط، وثلاثة أوجه مرسلة صالحة للاعتبار، ووجه فيه ضعف يسير وخامس حسن أو حسن في الشواهد، فٱجتماعها يكسب الحديث قوّة لا ريب. والله أعلم.

(١) شم سيفك هنا: أغمده، وتأتي أيضًا بمعنى سُلَّه، من الأضداد.

(٢) **(لا يصحّ)**. ذكره ابن إسحاق في «السيرة» (ص٣٠٤/ ف٥٠٣) في سياق قصّة أحد التي رواها عن الزهريّ ومحمّد بن يحيى بن حبّان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبدالرحمٰن بن عمرو وغيرهم دخل حديث بعضهم في بعض وٱجتمع منه القصّة. ونقله ابن هشام (٣/ ٥٣) والطبري في «التاريخ» (٢/ ٦١) عن ابن إسحاق بغير سند.

فهٰذا، وإن ٱرتضاه أهل السير وأوردوه في كتبهم على سبيل ربط الأحداث وٱستكمال الطابع القصصي للسيرة، فمعلوم أنّ الحجّة العلميّة لا تقوم به. والله أعلم.

ووصله الساجي والدارقطني بسند فيه أبو غزيّة محمّد بن يحيى الزهري، وهو متروك. ٱنظر لذٰلك «جمع الجوامع» (١٤١٦٦ـ ترتيبه).

(٣) في ط: «عمر بن الحضرمي»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٤) **(لا أصل له من كلام النبيّ ﷺ ولا يصحّ عن غيره)**. ذكره ابن إسحاق في «السيرة» في سياق سريّة عبدالله بن جحش بغير سند. وعنه: ابن هشام (٢/ ١٨٥)، وابن سعد (٣/ ٢٠٩)، والطبري في «التاريخ» (٢/ ١٦)؛ قالوا: وقالت يهود تتفاءل على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرميّ قتله واقد بن عبدالله: عمرو عمرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب، وواقد وقدت الحرب. فجعل الله ذٰلك عليهم لا لهم.

وأسنده ابن جرير في «التفسير» (٤٠٨٥): ثنا ابن حميد، ثنا سلمة بن الفضل، عن ابن إسحاق، ثني الزهريّ ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير. . . فذكره. وهٰذا مرسل ضعيف: ابن حميد واهٍ في حدّ الترك، =

ولمَّا خَرَجَ النَّبيُّ ﷺ إلى بدرٍ؛ ٱستَقْبَلَ في طريقِهِ جبلينِ، فسَأَلَ عنهُما، فقالوا: ٱسمُ أحدِهِما مَسْلَحٌ والآخرُ مُخْزٍ[1] وأهلُهُما بنو النَّارِ وبنو حُراقٍ، فكَرِهَ المرورَ عليهِما وتَرَكَهُما على يسارِهِ وسَلَكَ ذاتَ اليمينِ[2].

● [فصل فيما جاءَ عنِ الصَّحابةِ ومَن تَلاهُمْ ممَّا يوهِمُ جوازَ الطِّيَرَةِ]:

وعَرَضَ عَبْدُاللهِ بنُ جَعْفَرٍ مالاً لهُ على مُعاوِيَةَ يُقالُ لهُ الدَّعَّانُ، وقالَ لهُ: ٱشْتَرِهِ منِّي. فقالَ لهُ مُعاوِيَةُ: هٰذا مالٌ يقولُ دَعْني.

ولمَّا نَزَلَ الحُسَيْنُ بنُ عَلِيٍّ كَرْبَلاءَ؛ قالَ: ما ٱسمُ هٰذا الموضعِ؟ قالوا: كَرْبَلاءُ. قالَ: كربٌ وبلاءٌ.

ولمَّا خَرَجَ عَبْدُاللهِ بنُ الزُّبَيْرِ مِن المدينةِ إلى مَكَّةَ؛ أَنْشَدَهُ أحدُ أخويهِ:

وَكُلُّ بَنِي أُمٍّ سَيُمْسُونَ لَيْلَةً ... وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَغْنامِهِمْ غيرُ واحِدِ

فقالَ لهُ عَبْدُاللهِ: ما أَرَدْتَ إلى هٰذا؟ قالَ: لَمْ أَتَعَمَّدْهُ. قالَ: هوَ أشدُّ عليَّ.

وقد كَرِهَ السَّلفُ ومَن بعدَهُم أنْ يُتْبَعَ الميِّتُ بنارٍ إلى قبرِهِ مِن مجمرٍ أو غيرِهِ، وفي معناهُ الشَّمعُ. قالَتْ عائِشَةُ: لا تَجْعَلوا آخرَ زادِهِ أنْ تتْبَعوهُ بالنَّارِ[3].

ولمَّا بايَعَ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِاللهِ عَلِيَّ بنَ أبي طالِبٍ، وكانَ أوَّلَ مَن بايَعَ؛ قالَ رجلٌ: أوَّلُ يدٍ بايَعَتْهُ يدٌ شَلَّاءُ! لا يَتِمُّ هٰذا الأمرُ لهُ!

ولمَّا بَعَثَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عنهُ مَعْقِلَ بنَ قَيْسٍ الرِّياحِيَّ مِن المدائِنِ في ثلاثةِ آلافٍ وأَمَرَهُ أنْ يَأْخُذَ على المَوْصِلِ ويَأْتِيَ نَصِيبِينَ ورأْسَ عَيْنٍ حتَّى يَأْتِيَ الرَّقَّةَ فيُقيمَ بها[4]، فسارَ مَعْقِلٌ حتَّى نَزَلَ الحَديثَةَ، فبينَما هوَ ذاتَ يومٍ جالسًا؛ إذْ نَظَرَ إلى كبشينِ يَتَناطَحانِ

= وابن الفضل كثير الخطإ، وكأنّ هٰذا من أوهامهما؛ فإنّه في أصل ابن إسحاق بغير إسناد!
وفي كلّ حال؛ فما هو من كلام النبيّ ﷺ، ولذٰلك قال ابن القيّم يرحمه الله (٣/ ٢٩٧): «كذب عليه ﷺ، وإنّما قال ذٰلك أعداؤه اليهود».

(١) أمّا المَسْلَح؛ فهو موضع السَّلح، وهو البراز، والمخزي معروف.

(٢) (لا يصحّ). ذكره ابن إسحاق بغير سند. وعنه: ابن هشام (٢/ ١٩٣)، والطبري (٢/ ٢٦).

(٣) وليس هٰذا من التطيّر في شيء، كما سيأتي (٣/ ٢٩٩).

(٤) يعني: ينتظر جيش أهل الشام للقتال.

حتَّى جاءَ رجلانِ فأخَذَ كلٌّ منهُما كبشًا فذَهَبَ بهِ، فقالَ شَدَّادُ بنُ أبي رَبيعَةَ الخَثْعَميُّ: سَتُصْرَفونَ مِن وجهِكُم هٰكذا لا تَغْلِبونَ ولا تُغْلَبونَ لافتراقِ الكبشينِ سليمينِ. فكانَ كذٰلكَ.

ولمَّا بَعَثَ مُعاويةُ في شأْنِ حُجْرِ بنِ عَدِيٍّ وأصحابِهِ؛ كانَ الذي جاءَهُم أعورَ يُقالُ لهُ هُدْبَةُ، وكانوا ثلاثةَ عشرَ رجلاً معَ حُجْرٍ. فنَظَرَ إليهِ رجلٌ منهُم فقالَ: إنْ صَدَقَ الفأْلُ؛ قُتِلَ نصفُنا؛ لأنَّ الرَّسولَ أعورُ. فلمَّا قَتَلوا سبعةً؛ وافى رسولٌ ثانٍ يَنْهى عن قتلِهِم، فكَفُّوا عنِ الباقينَ[١].

وقالَ عَوانَةُ بنُ الحَكَمِ: لمَّا دَعا ابنُ الزُّبَيْرِ إلى نفسِهِ؛ قامَ عَبْدُاللهِ بنُ مُطيعٍ لِيُبايِعَ، فقَبَضَ عَبْدُاللهِ بنُ الزُّبَيْرِ يدَهُ وقالَ لعُبَيْدِ اللهِ بنِ عَلِيِّ بنِ أبي طالِبٍ: قُمْ فبايِعْ، فقالَ عُبَيْدُاللهِ: قُمْ يا مُصْعَبُ فبايِعْ، فقامَ فبايَعَ. فتَفاءَلَ النَّاسُ وقالوا: أبى أنْ يُبايِعَ ابنَ مُطيعٍ وبايَعَ مُصْعَبًا، لَيَكونَنَّ في أمرِهِ صعوبةٌ أو شرٌّ. فكانَ كذٰلكَ.

وقالَ سَلَمَةُ بنُ مُحارِبٍ: نَزَلَ الحَجَّاجُ في محاربتِهِ لابنِ الأشْعَثِ دَيْرَ قُرَّةَ ونَزَلَ عَبْدُالرَّحْمٰنِ بنُ الأشْعَثِ ديرَ الجماجمِ، فقالَ الحجَّاجُ: اَسْتَقَرَّ الأمرُ في يدي وتَجَمْجَمَ بهِ أمرُهُ، واللهِ لأقْتُلَنَّهُ[٢].

وقالَ عَمْرُو بنُ مَرْوانَ الكَلْبِيُّ: حَدَّثَني مَرْوانُ بنُ يَسارٍ، عن سَلَمَةَ مولى يَزيدَ بنِ الوَليدِ؛ قالَ: كُنْتُ معَ يَزيدَ بنِ الوَليدِ بناحيةِ القَرْيَتَيْنِ قبلَ خروجِهِ على الوَليدِ بنِ يَزيدَ ونحنُ نَتَذاكَرُ أمرَهُ، إذْ عَرَضَ لنا ذئبٌ هناكَ، فتَناوَلَ يَزيدُ قوسَهُ فرَمى الذِّئبَ فأصابَ

---

(١) حجر بن عديّ صحابيّ كريم، كان من شيعة عليّ، فلمّا اَستقرّ الأمر لمعاوية وولّى زياد بن أبيه العراق؛ أكرمه زياد وعظّمه وسأله الله أن لا يستجيب للرعاع، لٰكنّ شيعة العراق على عادتهم ظلّوا به حتّى ثار على معاوية كما فعل الحسين سبط النبيّ ﷺ بعده، ثمّ ندم فعاد، فخشي زياد بن أبيه من ثورة أخرى له، فأرسله إلى معاوية، فأرسل معاوية بقتلهم في الطريق، ثمّ ندم فأتبع رسوله بآخر ليكفّوا عنهم. رضي الله عن صحابة رسوله ﷺ وغفر لهم ورحمهم أجمعين. اَنظر «أعلام النبلاء» (٣/ ٤٦٢).

(٢) عبدالرحمٰن بن محمّد بن الأشعث: ولاّه الحجّاج على سجستان، فثار عليه في جمع كبير فيه علماء وصلحاء وخلعوا الحجّاج ثمّ تمادى بهم الأمر فخلعوا عبدالملك بن مروان، فحاربهم الحجّاج وهزمهم حتّى فرّ ابن الأشعث واَحتمى بملك الترك، ثمّ حظي به الحجّاج وهلك في طريقه إليه سنة ٨٤هـ. اَنظر للتفصيل «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٨٤).

حلقَهُ، فقالَ: قَتَلْتُ الوليدَ وربِّ الكعبةِ. فكانَ كما قالَ.

وقالَ داوودُ بنُ عيسى بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيٍّ: خَرَجَ أبي وأبو جَعْفَرٍ غازيينِ في بلادِ الرُّومِ ومعَهُ غلامٌ لهُ ومعَ أبي جَعْفَرٍ مولًى لهُ، فسَنَحَتْ لهُ أربعةُ أظْبٍ، ثمَّ مَضَتْ تُخاتِلُنا[١] حتَّى غابَتْ عنَّا، ثمَّ رَجَعَتْ ومَضى واحدٌ. فقالَ لنا أبو جَعْفَرٍ: واللهِ؛ لا نَرْجِعُ جميعًا. فماتَ مولى أبي جَعْفَرٍ.

وأمَرَ بعضُ الأمراءِ جاريةً لهُ تُغَنِّي. فأنْدَفَعَتْ تقولُ:

هُمُ قَتَلوهُ كَيْ يَكونوا مَكانَهُ كَما غَدَرَتْ يَوْمًا بِكِسْرى مَرازِبُهْ[٢]

فقالَ: وَيْلَكِ! غنِّي غيرَ هٰذا. فغَنَّتْ:

هٰذا مَقامُ مُطَرَّدٍ هُدِمَتْ منازِلُهُ وَدُورُهْ

فقالَ: وَيْلَكِ! غنِّي غيرَ هٰذا. فقالَتْ: واللهِ يا سيِّدي ما أَعْتَمِدُ إلاَّ ما يَسُرُّكَ ويَسْبِقُ إلى لساني ما تَرى. ثمَّ غَنَّتْ:

كُلَيْبٌ لَعَمْري كانَ أكْثَرَ ناصِرًا وَأيْسَرَ جِرْمًا مِنْكَ ضُرِّجَ بِالدَّمِ[٣]

فقالَ: ما أرى أمري إلاَّ قريبًا. فسَمِعَ قائلاً يَقولُ: قُضِيَ الأمرُ الذي فيهِ تَسْتَفْتِيانِ!

● [فصل فيما جاءَ في أخبارِ الجاهليَّةِ وغيرِها ممَّا يوهِمُ صحَّةَ الطِّيَرَةِ]:

وقد ذُكِرَ في حربِ بني تَغْلِبَ أنَّ تَيْمَ اللاتِ أرْسَلَ بنيهِ في طلبِ مالٍ لهُ. فلمَّا أمسى؛ سَمِعَ صوتَ الرِّيحِ، فقالَ لامرأتِهِ: آنْظُري مِن أينَ نَشَأَ السَّحابُ ومِن أينَ نَشَأَتِ الرِّيحُ؟ فأخْبَرَتْهُ أنَّ الرِّيحَ طالعٌ مِن وجهِ السَّحابِ. فقالَ: واللهِ؛ إنِّي لأرى ريحًا تَهُدُّ هٰذهِ الصَّخرةَ وتَمْحَقُ الأثَرَ. فلمَّا دَخَلَ عليهِ بنوهُ؛ قالَ لهُم: ما لَقِيتُمْ؟ قالوا: سِرْنا مِن عندِكَ، فلمَّا بَلَغْنا غصنَ الشَّعْشَمَيْنِ؛ إذا بعُفْرٍ جاثماتٍ على دِعْصٍ مِن رملٍ[٤]. فقالَ: أمشرِّقاتٌ أم مغرِّباتٌ؟ قالوا: مغرِّباتٌ. قالَ: فما ريحُكُم؛ ناطحٌ أم دابرٌ أم بارحٌ أم

---

(١) أظب: جمع ظبي. تخاتلنا: تخادعنا.

(٢) المرازب: جمع مرزبان وهو الرئيس والقائد.

(٣) كليب: كليب وائل المشهور الذي قتله جسّاس فكانت حرب البسوس بين بكر وتغلب. أيسر جرمًا: أضخم جسدًا؛ يعني: أشدّ قوّة.

(٤) العفر: الظباء التي آختلط سوادها بحمرة. جاثمات: جالسات. دعص: كثيب.

سانحٌ[١]؟ فقالوا: ناطحٌ. فقالَ لنفسِهِ: يا تَيْمَ اللاتِ! دِعْصُ الشَّعْثَمَيْنِ ـ والشَّعْثَمُ الشَّيخُ الكبيرُ، وأنتَ شَعْثَمُ بني بَكْرٍ ـ وجواثمُ بِدِعْصٍ وريحٌ نَطَحَتْ فبَرَحَتْ. قالَ: ثمَّ ماذا؟ قالوا: ثمَّ رَأيْنا ذئبًا قد دَلَعَ لسانَهُ مِن فيهِ وهوَ يَطْحَرُ، وشعرُهُ عليهِ[٢]. فقالَ: ذٰلكَ حرَّانُ ذائرٌ ذو لسانٍ عذولٍ حامي الظَّهرِ همُّهُ سفكُ الدِّماءِ وهوَ أرقمُ الأراقمِ[٣]؛ يَعْني: مُهَلْهِلاً[٤]. قالَ: ثمَّ ماذا؟ قالوا: ثمَّ رَأيْنا ريحًا وسحابًا. قالَ: فهلْ مطرٌ ثَمَّ؟ قالوا: بلى. قالَ: ببرقٍ؟ قالوا: قد كانَ ذٰلكَ. فقالَ: أماءٌ سائلٌ؟ فقالوا: نعمْ. فقالَ: ذٰلكَ دمٌ سائلٌ ومُرْهَفاتٌ[٥]. قالَ: ثمَّ مَهْ؟ قالوا: ثمَّ طَلَعْنا قلعةَ الضُّعفاءِ، ثمَّ تَصَوَّبْنا مِن تلِّ فارانَ. قالَ: فكُنْتُم سواءً أو مترادفينَ؟ قالوا: بل سواءً. قالَ: فما سماؤُكُم؟ قالوا: جَنا[٦]. قالَ: فما ريحُكُم؟ قالوا: ناطحٌ. قالَ: فما فعلَ الجيشُ الذينَ لَقِيتُم؟ قالوا: نَجَوْنا منهُ هربًا، وجَدَّ القومُ في إثرِنا. قالَ: ثمَّ مَهْ؟ قالوا: ثمَّ رَأيْنا عُقابًا[٧] منقضَّةً على عُقابٍ، فتَشابَكا وهَوَيا إلى الأرضِ. قالَ: ذاكَ جمعٌ رامَ جمعًا فهوَ لاقيهِ. قالَ: ثمَّ مَهْ؟ قالوا: ثمَّ رَأيْنا سبعًا على سبعٍ يَنْهَشُهُ وبهِ بقيَّةٌ لمْ يَمُتْ. فقالَ: ذَروني! أما واللهِ؛ إنَّها لقبيلةٌ مصروعةٌ مأكولةٌ مقتولةٌ مِن بني وائلٍ بعدَ عزٍّ وٱمتناعٍ[٨].

وذَكَروا أنَّ تَيْمَ اللاتِ هٰذا مَرَّ يومًا بجملٍ أجربَ وعليهِ ثلاثُ غرابيبَ[٩]. فقالَ لبنيهِ: سَتَقِفونَ عليَّ مقتولاً. فكانَ كما قالَ، وقُتِلَ عن قريبٍ.

---

(١) الناطح: الريح الآتية من الأمام، والدابر عكسها. والبارح: الآتية من اليمين، والسانح عكسها.

(٢) دلع لسانه: أخرجه. يطحر: يحرّك لسانه مع نفسه شأن الكلاب عمومًا.

(٣) الأراقم: بطون من تغلب. أرقم الأراقم: رأسهم، أو أخبثهم، أو ثعبانهم.

(٤) المهلهل: أبو ليلى، الزير، عديّ بن ربيعة، أخو كليب وصاحب ثأره في الوقائع التي كانت بين بكر وتغلب. أنظر «الأعلام» (٤/ ٢٢٠).

(٥) مرهفات: سيوف. جعل لمعان البرق مقابلاً للمعان السيف، وقطر المطر لقطر الدم.

(٦) كذا في ط! ولم يتبيّن لي مراده بها، والغالب أنّها محرّفة.

(٧) من جوارح الطير، يشبه النسر، لٰكنّه لا يأكل الجيف، ورأسه مكسوّ بالريش.

(٨) فلم يكن كما قال! تغلب وبكر قبيلتان من بني وائل، ٱقتتلتا سنين طويلة، وكانوا أكفاء بعضهم لبعض، فهلك من هٰذه كما هلك من تلك، ولم تُبِدْ إحداهما الأخرى وتصرعها وتقتلها وتأكلها.

(٩) غرابيب: جمع غراب.

وكذٰلكَ قولُ عَلْقَمَةَ في مسيرِهِ معَ أصحابِهِ وقد مَرُّوا في الليلِ بشيخٍ فانٍ، فقالَ: لَقيتُم شيخًا كبيرًا فانيًا يُغالِبُ الدَّهرَ والدَّهرُ يُغالِبُهُ، يُخْبِرُكُم أنَّكُم سَتَلْقَوْنَ قومًا فيهِم ضعفٌ ووهنٌ. ثمَّ لَقِيَ سَبُعًا، فقالَ: دَلاحٌ لا يُغْلَبُ[1]. ثمَّ رَأى غرابًا يَنْفُضُ بجُؤْجُئِهِ[2]، فقالَ: أبْشِروا، ألا تَرَوْنَ أنَّهُ يُخْبِرُكُم أنْ قدِ اطْمَأنَّتْ بكُمُ الدَّارُ. فكانَ كذٰلكَ.

وذَكَرَ المدائِنِيُّ؛ قالَ: خَرَجَ رجلٌ مِن لِهْبٍ[3] ـ ولهُم عيافةٌ ـ في حاجةٍ لهُ ومعَهُ سقاءٌ مِن لبنٍ. فسارَ صدرَ يومِهِ، ثمَّ عَطِشَ، فأناخَ لِيَشْرَبَ، فإذا الغرابُ يَنْعَبُ، فأثارَ راحلتَهُ ومَضى. فلمَّا أجْهَدَهُ العطشُ؛ أناخَ لِيَشْرَبَ، فنَعَبَ الغرابُ، فأثارَ راحلتَهُ. ثمَّ الثَّالثةَ نَعَبَ الغرابُ وتَمَرَّغَ في التُّرابِ، فضَرَبَ الرَّجلُ السِّقاءَ بسيفِهِ، فإذا فيهِ أسودُ ضخمٌ[4]. ثمَّ مَضى، فإذا غرابٌ على سِدْرَةٍ، فصاحَ بهِ فوَقَعَ على سَلِمَةٍ[5]، فصاحَ بهِ فوَقَعَ على صخرةٍ، فانْتَهى إليهِ فإذا تحتَ الصَّخرةِ كنزٌ. فلمَّا رَجَعَ إلى أبيهِ؛ قالَ لهُ: ما صَنَعْتَ؟ قالَ: سِرْتُ صدرَ يومٍ، ثمَّ أنَخْتُ لأشْرَبَ، فإذا الغرابُ يَنْعَبُ. قالَ: أثِرْهُ وإلاَّ لستَ بابْني. قالَ: أثَرْتُهُ، ثمَّ أنَخْتُ لأشْرَبَ، فنَعَبَ الغرابُ وتَمَرَّغَ في التُّرابِ. قالَ: اضْرِبِ السِّقاءَ وإلاَّ لَسْتَ بابْني. قالَ: فَعَلْتُ، فإذا أسودُ ضخمٌ. قالَ: ثمَّ مَهْ؟ قالَ: ثمَّ رَأيْتُ غرابًا واقعًا على سِدْرَةٍ. قالَ: أطِرْهُ وإلاَّ لَسْتَ بابْني. قالَ: أطَرْتُهُ، فوَقَعَ على سَلِمَةٍ. قالَ: أطِرْهُ وإلاَّ لَسْتَ بابْني. قالَ: فوَقَعَ على صخرةٍ. قالَ: أخْبِرْني بما وَجَدْتَ. فأخْبَرَهُ.

وذَكَرَ أيضًا أنَّ أعرابيًّا أضلَّ ذَوْدًا لهُ وخادمًا[6]، فخَرَجَ في طلبِهِما، إذِ اشْتَدَّتْ عليهِ الشَّمسُ وحَمِيَ النَّهارُ، فمَرَّ برجلٍ يَحْلُبُ ناقةً. قالَ[7]: أظُنُّهُ مِن بني أسدٍ. فسَألَهُ

---

(١) دلاح: قويّ ثقيل.

(٢) الجؤجؤ: الصدر.

(٣) اللِهب: قبيلة من اليمن، يقال: هم أعيف العرب وأعرفهم بزجر الطير ونحوه.

(٤) أسود ضخم: ثعبان ضخم.

(٥) سلمة: حجارة.

(٦) أضلّ ذودًا وخادمًا: فقد قطيعًا من الجمال وخادمًا.

(٧) القائل هنا المدائني راوي القصّة.

عن ضالَّتِه. قالَ: ٱدْنُ فٱشْرَبْ مِن اللبنِ، وأدُلُّكَ على ضالَّتِكَ. قالَ: فشَرِبَ، ثمَّ قالَ: ما سَمِعْتَ حينَ خَرَجْتَ؟ قالَ: بكاءَ الصِّبيانِ ونباحَ الكلابِ وصراخَ الدِّيكةِ وثغاءَ الشّاءِ. قالَ: يَنْهاكَ عنِ الغدوِّ. ثمَّ مَهْ؟ قالَ: ثمَّ ٱرْتَفَعَ النَّهارُ فعَرَضَ لي ذئبٌ. قالَ: كَسُوبٌ[١] ذو ظُفُرٍ. ثمَّ مَهْ؟ قالَ: ثمَّ عَرَضَتْ لي نَعامَةٌ. قالَ: ذاتُ ريشٍ وٱسمُها حَسَنٌ[٢]، هل تَرَكْتَ في أهلِكَ مريضًا يُعادُ؟ قالَ: نعمْ. قالَ: ٱرْجِعْ إلى أهلِكَ فذودُكَ وخادمُكَ عندَهُم. فرَجَعَ فوَجَدَهُم.

وذَكَرَ أبو خالدٍ التَّيْميُّ؛ قالَ: كُنْتُ آخُذُ الإبلَ بضمانٍ[٣]، فأرْعاها في ظهرِ البَصْرَةِ، فطُرِدَتْ[٤]، فخَرَجْتُ أقْفو أثرَها حتَّى ٱنْتَهَيْتُ إلى القادِسيَّةِ، فٱخْتَلَطَتْ عليَّ الآثارُ، فقُلْتُ: لو دَخَلْتُ الكوفةَ فتَحَسَّسْتُ عنها، فأتَيْتُ الكناسةَ[٥]، فإذا النَّاسُ مجتمعونَ على عرَّافِ اليمامةِ. فوَقَفْتُ، ثمَّ قُلْتُ لهُ حاجتي. فقالَ: بعيدةٌ أشطانُ[٦] الهوى، جمعُ مثلِها على العاجزِ الباغي الغبيِّ ذو تكاليفَ، ولَتَرْجِعَنَّ. قالَ: فوَجَدْتُها في الشَّامِ معَ ابنِ عمٍّ لي، فصالَحْتُ أصحابَها عنها.

وقالَ المَدائِنيُّ: كانَ بالسَّوادِ زاجرٌ يُقالُ لهُ: مَهْرٌ، فأُخْبِرَ بهِ بعضُ العمَّالِ[٧]، فجَعَلَ يُكَذِّبُ زجرَهُ، ثمَّ أرْسَلَ إليهِ. فلمَّا أتاهُ؛ قالَ: إنِّي قد بَعَثْتُ بغنمٍ إلى مكانِ كذا وكذا؛ فٱنْظُرْ هل وَصَلَتْ أمْ لمْ تَصِلْ؟ وقد عَرَفَ العاملُ قبلَ ذٰلكَ أنَّ بينَها وبينَ الكَلاَّءِ مرحلةً[٨]. فقالَ لغلامِهِ: ٱخرُجْ فٱنْظُرْ أيَّ شيءٍ تَسْمَعُ؟ قالَ: وكانَ العاملُ قد أمَرَ غلامَهُ أنْ يَكْمُنَ في ناحيةِ الدَّارِ ويَصيحَ صياحَ ابنِ آوى. فخَرَجَ غلامُ الزَّاجرِ لِيَسْمَعَ، وصاحَ

---

(١) كسوب: جارح، يصيد لنفسه ولا يأكل الجيف. ومراده بذكره هنا أنّك ستكسب.

(٢) يعني: أنّها تدلّ على الغنى والنعيم.

(٣) آخذ الإبل بضمان: أرعاها وأدفع لصاحبها نسبة من الربح ويكون الباقي لي.

(٤) طردت: أُبعدت.

(٥) الكناسة: موضع في الكوفة.

(٦) الأشطان: الحبال.

(٧) العمّال: الولاة أو من دونهم من أهل الأمر.

(٨) في ط: «وبين الكَلاء رحلة»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه. والكلاّء: موضع قرب البصرة. والمرحلة: وحدة قديمة لقياس المسافات.

غلامُ العاملِ، فرَجَعَ إلى الزَّاجرِ غلامُهُ وأخْبَرَهُ بما سَمِعَ. فقالَ للعاملِ: قد ذَهَبَتْ عنكَ، وقُطِعَ عليها الطَّريقُ فٱستِيقَتْ. قالَ: فضَحِكَ العاملُ وقالَ: قد جاءَني خبرُها أنَّها وَصَلَتْ، والصَّائحُ الذي صاحَ غُلامي. قالَ: إنْ كانَ الصَّائحُ الذي صاحَ ٱبنَ آوى؛ فقد ذَهَبَتْ، وإنْ كانَ غلامَكَ؛ فقد ذَهَبَ الرَّاعي. قالَ: فبَلَغَهُ بعدَ ذٰلكَ ذهابُ الغنمِ وقتلُ الرَّاعي.

وذُكِرَ عنِ العُكْليِّ؛ أنَّهُ خَرَجَ في تسعةِ نفرٍ هوَ عاشرُهُم لِيُصيبوا الطَّريقَ، فرَأى غرابًا واقعًا فوقَ بانةٍ، فقالَ: يا قومُ! إنَّكُم تُصابونَ في سفرِكُم هٰذا، فٱزْدَجِروا وأطيعوني وٱرْجِعوا. فأبَوْا عليهِ، فأخَذَ قوسَهُ وٱنْصَرَفَ، وقُتِلَتِ التِّسعةُ. فأنْشَدَ يقولُ:

رَأيْتُ غُرابًا واقِعًا فَوْقَ بانَةٍ ... يُنَشْنِشُ أعْلى ريشِهِ وَيُطايِرُهْ[1]
فَقُلْتُ غُرابُ ٱغْتِرابٍ مِنَ النَّوى ... وَبانَةُ بَيْنٍ مِنْ حَبيبٍ تُجاوِرُهْ
فَما أعْيَفَ العُكْلِيَّ لا دَرَّ دَرُّهُ ... وَأزْجَرَهُ للطَّيْرِ لا عَزَّ ناصِرُهْ

وذُكِرَ عن كُثَيِّرِ عَزَّةَ أنَّهُ خَرَجَ يُريدُ مِصْرَ، وكانَتْ بها عَزَّةُ، فلَقِيَهُ أعْرابيٌّ مِن نَهْدٍ. فقالَ: أينَ تُريدُ؟ قالَ: أُريدُ عَزَّةَ بمِصْرَ. قالَ: ما رَأيْتَ في وجهِكَ! قالَ: رَأيْتُ غرابًا ساقطًا فوقَ بانةٍ يَنْتِفُ ريشَهُ. فقالَ: ماتَتْ عَزَّةُ. فٱنْتَهى ومَضى، فوافى مِصْرَ والنَّاسُ منصرِفونَ مِن جنازتِها، فأنْشَأ يقولُ:

فَأمَّا غُرابٌ فَٱغْتِرابٌ وَغُرْبَةٌ ... وَبانٌ فَبَيْنٌ مِنْ حَبيبٍ تُعاشِرُهْ

وذُكِرَ عنهُ أيضًا أنَّهُ هَوِيَ ٱمرأةً مِن قومِهِ بعدَ عَزَّةَ يُقالُ لها: أمُّ الحُوَيْرِثِ، وكانَتْ فائقةَ الجمالِ كثيرةَ المالِ. فقالَتْ لهُ: ٱخْرُجْ فأصِبْ مالاً وأتَزَوَّجُكَ. فخَرَجَ إلى اليمنِ، وكانَ عليها رجلٌ مِن بني مَخْزومٍ. فلمَّا كانَ ببعضِ الطَّريقِ؛ عَرَضَ لهُ قُوطٌ ـ والقُوطُ الجماعةُ مِن الظِّباءِ ـ فمَضى. ثمَّ عَرَضَ لهُ غرابٌ يَنْعَبُ ويَفْحَصُ التُّرابَ على رأْسِهِ، فأتى كُثَيِّرٌ حيًّا مِن الأزْدِ ثمَّ [مِن] بني لِهْبٍ، وهُم مِن أزجرِ العربِ، وفيهِم شيخٌ قد سَقَطَ حاجباهُ على عينيهِ، فقصَّ عليهِ ما عَرَضَ لهُ. فقالَ: إنْ كُنْتَ صادقًا؛ لقد ماتَتْ هٰذهِ المرأةُ أو تَزَوَّجَتْ رجلاً مِن بني كعبٍ. فٱغْتَمَّ لذٰلكَ وسَقِيَ بطنُهُ[2]، فكانَ ذٰلكَ سببَ

---

(١) بانة: نوع من الشجر. ينشنش ريشه: ينتف منه.
(٢) سقى بطنه: أصابه الاستسقاء، وهو ٱنتفاخ البطن بسبب ٱجتماع السوائل فيه.

موتِه[1]، وقالَ في ذٰلكَ:

تَيَمَّمْتُ لِهْبًا أبْتَغي العِلْمَ عِنْدَهُمْ ... وَقَدْ رُدَّ عِلْمُ العائفينَ إلى لِهْبِ
فَيَمَّمْتُ شَيْخًا مِنْهُمُ ذا أمانَةٍ ... بَصيرًا بِزَجْرِ الطَّيْرِ مُنْحَنِيَ الصُّلْبِ
فَقُلْتُ لَهُ ماذا تَرى في سَوانِحٍ ... وَصَوْتِ غُرابٍ يَفْحَصُ الأرضَ بِالتُّرْبِ
فَقالَ جَرى الطَّيْرُ السَّنيحُ بِبَيْنِها ... وَنادى غُرابٌ بِالفِراقِ وَبِالسَّلْبِ
فَإنْ لا تَكُنْ ماتَتْ فَقَدْ حالَ دونَها ... سِواكَ حَليلٌ باطِنٌ مِن بَني كَعْبِ

وقالَ رجلٌ مِن بني أَسَدٍ: تَزَوَّجْتُ ٱبنةَ عمٍّ لي، فخَرَجْتُ أُريدُها، فلَقِيَني شيءٌ كالكلبِ مدلِّيًا لسانَهُ في شقٍّ، فقُلْتُ: أُخِفْتُ وربِّ الكعبةِ. فأتَيْتُ القومَ، فلمْ أصِلْ إليها، ونافَرَني أهلُها. فخَرَجْتُ عنهُم، فمَكَثْتُ ثلاثةَ أيّامٍ، ثمَّ بَدا لي فيهِم، فخَرَجْتُ نحوَهُم، فلَقيتُ كلبةً تَنْطُفُ أطباؤُها لبنًا[2]، فقُلْتُ: أدْرَكْتُ وربِّ الكعبةِ. فدَخَلْتُ بأهلي، وحَمَلَتْ منِّي بغلامٍ ثمَّ آخرَ حتَّى وَلَدَتْ أولادًا.

وذُكِرَ عن يَحْيى بنِ خالِدٍ؛ قالَ: حَجَّ رجلانِ، فقيلَ لهُما: هاهُنا ٱمرأةٌ تَزْجُرُ. قالَ: فأتَياها، فسَألاها، فقالَ أحدُهُما: ما نُضْمِرُ؟ فقالَتْ: إنَّكَ لَتَسْألُني عن رجلٍ [محبوسٍ. وقالَ الثّاني: ما أُضْمِرُ؟ قالَتْ: إنَّكَ لَتَسْألُني عن رجلٍ][3] مقتولٍ. فقالَ: هوَ واللهِ الذي سَألَ عنهُ صاحبي. فقالَتْ: هوَ كما قُلْتُ. فسَألاها عن تفسيرِ ذٰلكَ. فقالَتْ: أما رَأيْتُما الجاريةَ التي مَرَّتْ ومعَها ديكٌ مشدودُ الرِّجلينِ حينَ سَألَني الأوَّلُ؟ قالا: بلى. قالَتْ: فلذٰلكَ قُلْتُ: إنَّهُ محبوسٌ مقيَّدٌ. قالَتْ: ورَأيْتُ الجاريةَ حينَ رَجَعَتْ، وسَألْتَني أنتَ والدِّيكُ مذبوحٌ، فقُلْتُ: مقتولٌ.

وذَكَرَ المَدائِنِيُّ أنَّ أهلَ بيتٍ مِن العجمِ كانوا إذا غابَ الرَّجلُ عن أهلِهِ ولمْ يَأْتِهِم خبرُهُ أربعَ حِجَجٍ؛ زَوَّجوا ٱمرأتَهُ. فتَزَوَّجَ رجلٌ جاريةً، وغابَ أربعَ حِجَجٍ لا يأْتيهِم، فأرادوا تزويجَ الجاريةِ، وكانَتْ مشغوفةً بهِ، فقالَتْ: دَعوني سنةً أُخرى، فأبَوْا عليها،

---

(١) جزاء وفاقًا إن صحّ الخبر.
(٢) تنطف أطباؤها لبنًا: تسيل أثداؤها باللبن.
(٣) ساقطة من ط، ولا بدّ منها ليستقيم الكلام.

وأتَوْا زاجرًا لهُم، فخَرَجَ الزَّاجرُ ومعَهُ تلميذٌ لهُ، فتَلَقَّاهُم قومٌ يَحْمِلونَ ميِّتًا ويدُ الميِّتِ على صدرِهِ. فقالَ الزَّاجرُ لتلميذِهِ: ماتَ الرَّجلُ؟ قالَ: ما ماتَ، ألا ترى يدَ الميِّتِ على صدرِهِ يُخْبِرُ أنَّهُ هوَ الميِّتُ والرَّجلُ صحيحٌ. فرَجَعا، فأخْبَرا الحاكمَ أنَّهُ لمْ يَمُتْ، فأمَرَ بتأجيلِها سنةً، فجاءَ زوجُها بعدَ شهرٍ.

وذَكَرَ ابنُ قُتَيْبَةَ عن إبْراهيمَ بنِ عَبْدِاللهِ؛ قالَ: دَخَلْتُ على رجلٍ ضريرٍ زاجرٍ مِن العربِ، وقد خَبَأْتُ سحابةَ عنوانٍ مِن كَتَّانٍ[1]. فقُلْتُ: أخْبِرْني بما خَبَأْتُ لكَ. فنَظَرَ قليلاً، ثمَّ قالَ: هوَ مِن نباتِ الماءِ. فقُلْتُ: زِدْني في الشَّرحِ. قالَ: هوَ قطعةٌ مِن كتَّانٍ. فسَأَلْتُهُ عن ذٰلكَ. فقالَ: سَأَلْتَني عنِ الخبيءِ، فوَقَعَتْ يدي على الحصيرِ، فقُلْتُ: إنَّهُ مِن نباتِ الماءِ. فقُلْتَ: زِدْني. قالَ[2]: وصاحَ صائحٌ مِن جانبِ الدَّارِ، فقَضَيْتُ بالسَّوادِ وبأنَّهُ صغيرٌ للتَّصغيرِ. ثمَّ نَظَرْتُ فلم يَكُنْ ذٰلكَ أولى بأنْ يكونَ قطعةً مِن كَتَّانٍ. قالَ: وسَأَلْتُهُ عن مقراضينِ في يدي قد أدْخَلْتُ إصبعيَّ في حلقتيهِما. فقالَ: في يدكَ خاتمٌ مِن حديدٍ[3].

وذَكَرَ ابنُ عُيَيْنَةَ: عنِ الزُّهْريِّ، عن مُحَمَّدِ بنِ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ، عن أبيهِ، عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنهُ؛ أنَّهُ كانَ يَرْمي الجمرةَ، فجاءَتْهُ حصاةٌ فأصابَتْ جبهتَهُ، ففَصَدَتْ منهُ عِرْقًا[4]، فقالَ رجلٌ مِن بني لِهْبٍ: أشْعَرَ أميرُ المؤمنينَ؟ وربِّ الكعبةِ؛ لا يَقومُ هٰذا المقامَ أبدًا. فقُتِلَ بعدَ ذٰلكَ[5].

● [فصل فيما جاءَ عنهُ ﷺ ممَّا يوهِمُ صحَّةَ التَّشاؤمِ والعدوى]:

---

(١) كذا! وفيه تحريف لم أهتد لوجه الصواب فيه.

(٢) في ط: «فقال»! والفاء زيادة ناسخ لا بدّ من حذفها.

(٣) وهٰذه قصص كثيرة، هي أقرب إلى ملح الأدباء وأحاديث المجالس، والمبالغة ـ إن لم أقل الصناعة ـ في أكثرها ظاهرة. وأنت تعلم أنّ حديث النبيّ ﷺ الذي توفّر جماعة الرواة على نقله، إن وقع في سنده رجل ليّن أو آخر فيه جهالة؛ استضعفناه وأسقطنا الحجّة به، فكيف بهٰذه الأخبار، التي تفرّد بها مَن جلّ عنايته جمع الغرائب واستكثار الملح، وجاءت غالبًا بلاغًا أو تعليقًا بغير إسناد أو خبرًا معضلاً أو مسلسلاً بالمجاهيل تجده في كتاب ولا تجده في غيره؟! لا ريب أنّ رصانة العلم تقضي بأن لا يلتفت في هٰذه القضيّة الجليلة لمثل هٰذا، ولا سيّما أنّها جاءت مخالفة لأصول الدين وعقائد الصحابة والتابعين. والله أعلى وأعلم.

(٤) فصدت منه عرقًا: جرحته في بعض عروقه.

(٥) والعهدة في هٰذا على الطريق إلى ابن عيينة.

وثَبَتَ في الصَّحيحينِ[١] مِن حديثِ ابنِ عُمَرَ؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «الشُّؤْمُ في الدَّارِ والمرأةِ والفرسِ». وفي لفظٍ فيهِما: «لا عدوى ولا صفرَ ولا طِيَرَةَ. وإنَّما الشُّؤْمُ في ثلاثةٍ؛ المرأةُ والفرسُ والدَّارُ». وفي لفظٍ آخرَ فيهِما: «إنْ يَكُنِ الشُّؤْمُ في شيءٍ حقًّا؛ ففي الفرسِ والمسكنِ والمرأةِ». وفي بعضِ طرقِ البُخاريِّ «والدَّابَّة» بدلَ «الفرس».

وفي الصَّحيحينِ[٢] أيضًا عن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنْ كانَ؛ ففي المرأةِ والفرسِ والمسكنِ»؛ يَعْني: الشُّؤْمَ. وقالَ البُخاريُّ: «إن كانَ في شيءٍ».

وفي «صحيح مسلم»[٣]: عن جابِرِ بنِ عَبْدِاللهِ، عن رسولِ اللهِ ﷺ؛ قالَ: «إنْ كانَ في شيءٍ؛ ففي الرَّبعِ والخادمِ والفرسِ».

وفي «صحيح مسلم»[٤]: عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «لا يُورِدُ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ»[٥].

وفي «موطَّإ مالك»: أنَّهُ بَلَغَهُ عن بُكَيْرِ بنِ عَبْدِاللهِ بنِ الأشَجِّ، عن أبي عَطِيَّةَ؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا عدوى ولا هامَ ولا صفرَ، ولا يَحُلَّ المُمْرِضُ على المُصِحِّ، ولْيَحْلُلِ المُصِحُّ حيثُ شاءَ». قالوا: يا رسولَ اللهِ! وما ذاكَ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّهُ أذًى»[٦].

---

(١) البخاري (٦٧ـ النكاح، ١٧ـ ما يتّقى من شؤم المرأة، ٩/١٣٧/٥٠٩٣ و٥٧٧٢ و٥٠٩٤ و٥٧٥٣) حسب ترتيب الألفاظ، ومسلم (٣٩ـ السلام، ٣٤ـ الطيرة والفأل، ٤/١٧٤٦/ ٢٢٢٥).

(٢) البخاري (الموضع السابق، ٥٠٩٥)، مسلم (الموضع السابق، ٤/١٧٤٨/ ٢٢٢٦).

(٣) (الموضع السابق، ٤/١٧٤٨/ ٢٢٢٧).

(٤) (٣٩ـ السلام، ٣٣ـ لا عدوى ولا طيرة، ٤/١٧٤٣/ ٢٢٢١). ورواه أيضًا البخاري (٧٦ـ الطبّ، ٥٣ـ لا هامة، ١٠/٢٤١/ ٥٧٧١).

(٥) ممرض: صاحب الإبل المريضة. مصحّ: صاحب الإبل السليمة. ومعنى الحديث: لا ينبغي لصاحب الإبل المريضة أن يرسل إبله لتشرب من الماء إذا كان على الماء إبل صحيحة.

(٦) (صحيح). كذا رواه يحيى وقوم من رواة «الموطإ» (٢/٩٤٦). ورواه القعنبي (٢٤/١٨٨ـ تمهيد): عن مالك، أنّه بلغه عن بكير بن عبدالله بن الأشجّ، عن ابن عطيّة الأشجعي، عن أبي هريرة. قال ابن عبدالبرّ: «وتابعه جماعة من أصحاب مالك منهم عبدالله بن يوسف وأبو المصعب ويحيى بن بكير». قال ابن عبدالبرّ: «والحديث محفوظ لأبي هريرة عن النبيّ ﷺ من وجوه كثيرة صحاح». قلت: منها اللفظ المتقدّم قبله=

وقالَ ابنُ وَهْبٍ: أخْبَرَني يونُسُ، عنِ ابنِ شِهابٍ، أنَّ أبا سَلَمَةَ بنَ عَبْدِالرَّحْمٰنِ قالَ: كانَ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ يُحَدِّثُنا عن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: «إنَّهُ لا عَدوى». وحَدَّثَنا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا يُورِدُ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ» الحديثَ. ثمَّ صَمَتَ أبو هُرَيْرَةَ بعدَ ذٰلكَ عن قولِهِ «ولا عَدوى» وأقامَ أنْ «لا يُورِدَ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ...» الحديثَ. قالَ: فقالَ الحارِثُ بنُ أبي ذُبابٍ ـ وهوَ ابنُ عمِّ أبي هُرَيْرَةَ ـ: قَدْ كُنْتُ أسْمَعُكَ يا أبا هُرَيْرَةَ تُحَدِّثُنا معَ هٰذا الحديثِ حديثًا آخرَ قد سَكَتَّ عنهُ، كُنْتَ تَقولُ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا عدوى». فأبى أبو هُرَيْرَةَ أنْ يُحَدِّثَ ذٰلكَ، وقالَ: «لا يُورِدُ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ». فماراهُ الحارِثُ في ذٰلكَ حتَّى غَضِبَ أبو هُرَيْرَةَ ورَطَنَ بالحبشيَّةِ. فقالَ للحارِثِ: أتَدْري ماذا قُلْتُ؟ قالَ: لا. قالَ أبو هُرَيْرَةَ: إنِّي أقولُ: أبَيْتُ أبَيْتُ. قالَ أبو سَلَمَةَ: فلَعَمْري؛ لقد كانَ أبو هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُنا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا عدوى». فلا أدري أنَسِيَ أبو هُرَيْرَةَ أو نَسَخَ أحدُ القولينِ الآخرَ[1]؟!

قالوا: هٰذا النَّهيُ عن إيرادِ المريضِ على المُصِحِّ إنَّما هوَ مِن أجلِ الطِّيَرَةِ التي تَلْحَقُ المُصِحَّ.

وقالَ مُسَدَّدٌ: حَدَّثَنا يَحْيى، عن هِشامٍ[2]، عن يَحْيى بنِ أبي كَثيرٍ، عنِ الحَضْرَمِيِّ بنِ لاحِقٍ، عن سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ؛ قالَ: سَأَلْتُ سَعْدَ بنَ مالِكٍ عنِ الطِّيَرَةِ؟ فانْتَهَرَني وقالَ: مَن حَدَّثَكَ؟ فكَرِهْتُ أنْ أُحَدِّثَهُ. فقالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «لا عدوى ولا طِيَرَةَ ولا هامةَ. وإنْ كانَتِ الطِّيَرَةُ في شيءٍ؛ ففي الفرسِ والمرأةِ والدَّارِ. فإذا كانَ الطَّاعونُ بأرضٍ وأنتُم بها؛ فلا تَفِرُّوا»[3].

= والآتي بعده، وكلاهما من ألفاظ «الصحيح» التي جاءت موصولة بأصحّ الأسانيد.

(١) رواه: البخاري (٧٦ـ الطبّ، ٥٣ـ لا هامة، ١٠/ ٢٤١/ ٥٧٧٠-٥٧٧١)، ومسلم (٣٩ـ السلام، ٣٣ـ لا عدوى، ٤/ ١٧٤٣/ ٢٢٢١). وهٰذا اللفظ لمسلم.

(٢) في ط: «حدّثنا يحيى بن [سعيد عن] هشام». ولا حاجة لهٰذه الزيادة.

(٣) (صحيح). رواه: أحمد (١/ ١٧٤ و١٨٠)، وأبو داوود (٢٢ـ الطب، ٢٤ـ الطيرة، ٢/ ٤١٢/ ٣٩٢١)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (٢٦٦)، وأبو يعلى (٧٦٦ و٧٩٨)، والطحاوي (٤/ ٣١٣)، والشاشي (١٥٣)، وابن حبّان (٦١٢٧)، والدارقطني في «العلل» (٦٣٦) تعليقًا، والخطيب في «الجمع و التفريق» (١/ ٢٢٨)، والضياء المقدسي في «المختارة» (٩٥٩-٩٦١)؛ من طريق يحيى بن أبي كثير، ثنا الحضرميّ... =

وفي «صحيح مسلم»[١]: عنِ الشَّريدِ بنِ سُوَيْدٍ؛ قالَ: كانَ في وفدِ ثَقيفَ رجلٌ مجذومٌ، فأرْسَلَ إليهِ النَّبيُّ ﷺ: «إنَّا قد بايَعْناكَ فَارْجِعْ».

وفي حديثٍ آخرَ: «فِرَّ مِن المجذومِ فرارَكَ مِن الأسدِ»[٢].

[١١] فصل

[في مسالك الناس في قضايا الخلاف]

[وموقف أهل الحق منها]

الآنَ ٱلْتَقَتْ حَلَقَتا البِطانِ[٣] وتَداعى نزالاً الفريقانِ[٤].

نعمْ؛ وهاهُنا أضعافُ أضعافِ ما ذَكَرْتُم وأضعافُ أضعافِهِ.

وللنَّاسِ هُنا مسلكانِ عليهِما يَعْتَمِدُ المتكلِّمونَ في هٰذا البابِ لا نَرْتَضيهِما بل نَسْلُكُ مسلكَ العدلِ والتَّوسُّطِ بينَ طرفِي الإفراطِ والتَّفريطِ: فدينُ اللهِ بينَ الغالي فيهِ

= به. وهٰذا سند حسن من أجل الحضرميّ فحديثه لا يرقى إلى الصحّة.

وروى القطعة الأخيرة من الحديث: البخاري (٧٦ـ الطبّ، ٣٠ـ ما يذكر في الطاعون، ١٠/١٧٨/٥٧٢٨)، ومسلم (٣٩ـ السلام، ٣٢ـ الطاعون، ٤/١٧٣٧/٢٢١٨)؛ من حديث سعد وغيره. وهي عند أبي يعلى أيضًا (٦٩٠ و٦٩١ و٧٢٨ و٨٠٠) من مسنده أيضًا.

ويشهد للقطعتين الأوليين أحاديث ابن عمرو وأبي هريرة وسهل وجابر التي تقدّم تخريجها في الصحيحين قبل قليل.

(١) (٣٩ـ السلام، ٣٦ـ ٱجتناب المجذوم، ٤/١٧٥٢/٢٢٣١).

(٢) (صحيح). علّقه البخاري (١٦ـ الطبّ، ١٩ـ الجذام، ١٠/١٥٨/٥٧٠٧): قال عفّان، ثنا سليم بن حيّان، ثني سعيد بن ميناء، سمعت أبا هريرة... رفعه. قال العسقلاني: «عفّان هو ٱبن مسلم الصفّار، وهو من شيوخ البخاريّ... وعلى طريقة ابن الصلاح يكون موصولاً». قال العسقلاني: «وقد وصله أبو نعيم من طريق أبي داوود الطيالسي وأبي قتيبة مسلم بن قتيبة كلاهما عن سليم بن حيّان شيخ عفّان فيه، وأخرجه أيضًا من طريق عمرو بن مرزوق لٰكن موقوفًا... وقد وصله ابن خزيمة أيضًا». قلت: أبو داوود وسليم ثقتان، والسند صحيح موصولاً، ولا يضرّه الوقف؛ لأنّ الرفع زيادة ثقة.

(٣) البطان: الحزام الذي يشدّ به القتب على ظهر البعير. وٱلتقت حلقتا البطان: كناية عن الاستعداد للسفر. وكأنّه يقول: قد فرغنا من إيراد الأدلّة، وحان وقت الحكم والترجيح.

(٤) في ط: «وتداعى نزال الفريقان»! ولا يصحّ فإمّا أنّ الصواب ما أثبتّه، أو أنّ الصواب «وتداعى نزال الفريقين». فالله أعلم.

والجافي عنهُ، والوادي بينَ الجبلينِ، والهدى بينَ الضَّلالتينِ.

وقد جَعَلَ اللهُ هٰذهِ الأُمَّةَ هيَ الأُمَّةَ الوسطَ في جميعِ أبوابِ الدِّينِ، فإذا ٱنْحَرَفَ غيرُها مِن الأُممِ إلى أحدِ الطَّرفينِ؛ كانَتْ هيَ في الوسطِ:

كما كانَتْ وسطًا في بابِ أسماءِ الرَّبِّ تَعالى وصفاتِهِ: بينَ الجَهْمِيَّةِ المعطِّلةِ[1]، والمشبِّهةِ الممثِّلةِ.

وكانَتْ وسطًا في بابِ الإيمانِ بالرُّسلِ: بينَ مَن عَبَدَهُم وأشْرَكَهُم باللهِ كالنَّصارى، وبينَ مَن قَتَلَهُم وكَذَّبَهُم. فآمَنوا بهِم وصَدَّقوهُم وتَرَكوهُم مِن العبوديَّةِ.

وكانَتْ وسطًا في القدرِ: بينَ الجَبْرِيَّةِ الذينَ يَنْفونَ أنْ يَكونَ للعبدِ فعلٌ أو كسبٌ أوِ ٱختيارٌ ٱلبتَّةَ بل هوَ مجبورٌ مقهورٌ لا ٱختيارَ لهُ ولا فعلَ، وبينَ القَدَرِيَّةِ النُّفاةِ الذينَ يَجْعَلونَهُ مستقلاًّ بفعلِهِ ولا يَدْخُلُ فعلُهُ تحتَ مقدورِ الرَّبِّ تَعالى ولا هوَ واقعٌ بمشيئةِ اللهِ تَعالى وقدرتِهِ. فأثْبَتوا لهُ فعلاً وكسبًا وٱختيارًا حقيقةً، وهوَ متعلَّقُ الأمرِ والنَّهيِ والثَّوابِ والعقابِ، وهوَ معَ ذٰلكَ واقعٌ بقدرةِ اللهِ ومشيئتِهِ، فما شاءَ اللهُ مِن ذٰلكَ كانَ وما لمْ يَشَأْ لمْ يَكُنْ، ولا يَتَحَرَّكُ ذرَّةٌ إلاَّ بمشيئتِهِ وإرادتِهِ، والعبادُ أضعفُ وأعجزُ [مِن] أنْ يَفْعَلوا ما لمْ يَشَأْهُ اللهُ ولا قَدَّرَهُ عليهِم[2].

وكذٰلكَ هُم وسطٌ في المطاعمِ والمشاربِ: بينَ اليهودِ الذينَ حُرِّمَتْ عليهِمُ الطَّيِّباتُ عقوبةً لهُم، وبينَ النَّصارى الذينَ يَسْتَحِلُّونَ الخبائثَ. فأَحَلَّ اللهُ لهٰذهِ الأُمَّةِ الوسطِ الطَّيِّباتِ وحَرَّمَ عليهِمُ الخبائثَ.

وكذٰلكَ لا تَجِدُ أهلَ الحقِّ دائمًا إلاَّ وسطًا بينَ طرفي الباطلِ.

وأهلُ السُّنَّةِ وسطٌ في النِّحلِ كما أنَّ المسلمينَ وسطٌ في المللِ.

وكذٰلكَ ما نحنُ فيهِ مِن هٰذا البابِ؛ فإنَّهُم وسطٌ: بينَ النُّفاةِ الذينَ يَنْفونَ الأسبابَ جملةً ويَمْنَعونَ ٱرتباطَها بالمسبَّباتِ وتأْثيرَها بها ويَسُدُّونَ هٰذا البابَ بالكلِّيَّةِ، ويَضْطَرِبونَ فيما وَرَدَ مِن ذٰلكَ، فيُقابِلونَ بالتَّكذيبِ منهُ ما يُمْكِنُهُم تكذيبُهُ، ويُحيلونَ

---

(١) في ط: «بين الجهميّة والمعطّلة»! والصواب حذف الواو؛ لأنّ الجهميّة والمعطّلة فريق واحد.

(٢) في ط: «ولا قدرة عليه»! فإمّا أنّ الصواب ما أثبتّه، وإمّا أنّ الصواب «ولا قدرة لهم عليه».

على الاتِّفاقِ والمصادفةِ ما لا قِبَلَ لهُم بدفعِهِ، مِن غيرِ أنْ يَكونَ لشيءٍ مِن هٰذهِ الأُمورِ مدخلٌ في التَّأْثيرِ أو تعلُّقٌ بالسَّببيَّةِ ٱلبتَّةَ، وربَّما يقولونَ: إنَّ أكثرَ ذٰلكَ مجرَّدُ خيالاتٍ وأوهامٍ في النُّفوسِ تَنْفَعِلُ عنها النُّفوسُ كٱنفعالِ أربابِ الخيالاتِ والأمراضِ والأوهام، وليسَ عندَهُم وراءَ ذٰلكَ شيءٌ، وهٰذا مسلكُ نفاةِ الأسبابِ وٱرتباطِ المسبَّباتِ بها، وهٰذا جوابُ كثيرٍ مِن المتكلِّمينَ. والمسلكُ الثَّاني مسلكُ المثبتينَ لهٰذهِ الأُمورِ المعتقدينَ لها الذَّاهبينَ إليها، وهيَ عندَهُم أقوى مِن الأسبابِ الحسِّيَّةِ أو في درجتِها، ولا يَلْتَفِتونَ إلى قدحِ قادحٍ فيها، والقدحُ فيها عندَهُم مِن جنسِ القدحِ في الحسِّيَّاتِ والضَّروريَّاتِ.

ونحنُ لا نَسْلُكُ سبيلَ هٰؤلاءِ ولا سبيلَ هٰؤلاءِ، بل نَسْلُكُ سبيلَ التَّوسُّطِ والإنصاف ونُجانِبُ طريقَ الجورِ والانحراف، فلا نُبْطِلُ الشَّرعَ بالقدرِ ولا نُكَذِّبُ بالقدرِ لأجلِ الشَّرعِ، بل نُؤْمِنُ بالمقدورِ ونُصَدِّقُ الشَّرعَ، فنُؤْمِنُ بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ وشرعِهِ وأمرِهِ ولا نُعارِضُ بينَهُما فنُبْطِلَ الأسبابَ المقدورةَ[1] أو نَقْدَحَ في الشَّريعةِ المنزَّلةِ كما فَعَلَهُ الطَّائفتانِ المنحرفتانِ:

فإحداهُما أبْطَلَتْ ما قَدَّرَهُ اللهُ مِن الأسبابِ بما فَهِمَتْهُ مِن الشَّرعِ، وهٰذا مِن تقصيرِها في الشَّرعِ والقدرِ.

والأُخرى تَوَصَّلَتْ إلى القدحِ في الشَّرعِ وإبطالِهِ بما تُشاهِدُهُ مِن تأثيرِ الأسبابِ وٱرتباطِها بمسبَّباتِها لمَّا ظَنَّتْ أنَّ الشَّرعَ نَفاها وكَذَّبَتْ بالشَّارعِ.

فالطَّائفتانِ جانيتانِ على الشَّرعِ.

لٰكنِ الموفَّقونَ المَهْدِيُّونَ آمَنوا بقدرِ اللهِ وشرعِهِ ولمْ يُعارِضوا أحدَهُما بالآخرِ، بل صَدَّقَ كلٌّ منهُما الآخرَ عندَهُم وقَرَّرَهُ، فكانَ الأمرُ تفصيلاً للقدرِ وكاشفًا عنهُ وحاكمًا عليهِ والقدرُ أصلٌ للأمرِ ومنفذٌ لهُ وشاهدٌ لهُ ومصدِّقٌ لهُ، فلولا القدرُ لَما وُجِدَ الأمرُ ولا تَحَقَّقَ ولا قامَ على ساقِهِ ولولا الأمرُ لَما تَمَيَّزَ القدرُ ولا تَبَيَّنَتْ مراتبُهُ وتصاريفُهُ، فالقدرُ مظهرٌ للأمرِ والأمرُ تفصيلٌ لهُ، واللهُ سبحانَهُ لهُ الخلقُ والأمرُ فلا يَكونُ إلَّا خالقًا آمرًا،

---

(١) تنبّه إلى أنّ المراد بالأسباب التي يثبتها أهل السنّة هو ما ثبتت سببيّته شرعًا أو علمًا أو عقلاً أو تجربةً، وأمّا الأسباب المزعومة للمنجّمين والقبوريّين وأهل الكهانة؛ فلا ولا كرامة.

فأمرُهُ تصريفٌ لقدرِهِ وقدرُهُ منفذٌ لأمرِهِ.

ومَن أبْصَرَ هٰذا حقَّ البصرِ وٱنْفَتَحَتْ لهُ عينُ قلبِهِ؛ تَبَيَّنَ لهُ سرُّ ٱرتباطِ الأسبابِ بمسبَّباتِها وجريانِها فيها وأنَّ القدحَ فيها وإبطالَها إبطالٌ للأمرِ، وتَبَيَّنَ لهُ أنَّ كمالَ التَّوحيدِ بإثباتِ الأسبابِ لا أنَّ إثباتَها نقضٌ للتَّوحيدِ كما زَعَمَ منكروها؛ حيثُ جَعَلوا إبطالَها مِن لوازمِ التَّوحيدِ فجَنَوْا على التَّوحيدِ والشَّرعِ وٱلْتَزَموا تكذيبَ الحسِّ والعقلِ ووَقَعوا في أنواعٍ مِن المكابرةِ سَلَّطَتْ عليهِم أعداءَ الشَّريعةِ وأوْجَبَتْ لهُم أنْ أساؤوا بها الظَّنَّ وتَنَقَّصوها وزَعَموا أنَّها خطابيَّةٌ وإقناعيَّةٌ وجدليَّةٌ لا برهانيَّةٌ، فعَظُمَ الخطبُ وتَفاقَمَ الأمرُ وٱشْتَدَّتِ البليَّةُ بالطَّائفتينِ! وقد قيلَ: إنَّ العدوَّ العاقلَ خيرٌ مِن الصَّديقِ الجاهلِ!

ونحنُ بحمدِ اللهِ نُبَيِّنُ الأمرَ في ذٰلكَ، ونُوَضِّحُ أيضًا ما يَتَبَيَّنُ بهِ تصديقُ كلٍّ مِن الأمرينِ الآخرَ وشهادتُهُ لهُ وتزكيتُهُ لهُ، ونُبَيِّنُ ٱرتباطَ كلٍّ مِن الأمرينِ بالآخرِ وعدمَ ٱنفكاكِهِ عنهُ، فنَقولُ وباللهِ التَّوفيقُ:

[١٢ـ فصل]

[في كشف الشبهات عما جاء في نصوص السنة وكلام الصحابة]

[مما يوهم صحة التطير]

● **[فصلٌ في الفرقانِ بينَ الفألِ والطِّيَرَةِ]**:

أمَّا ما ذَكَرْتُم مِن أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يُعْجِبُهُ الفألُ الحسنُ؛ فلا ريبَ في ثبوتِ ذٰلكَ عنهُ، وقد قُرِنَ ذٰلكَ بإبطالِ الطِّيَرَةِ. كما في الصَّحيحينِ(١) مِن حديثِ: الزُّهْريِّ، عن عُبَيْدِاللهِ بنِ عَبْدِاللهِ، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا طِيَرَةَ، وخيرُها الفألُ الحسنُ». قالوا: وما الفألُ الحسنُ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «الكلمةُ الصَّالحةُ يَسْمَعُها أحدُكُم». فٱبْتَدَأَهُمُ النَّبيُّ ﷺ بإزالةِ الشُّبهةِ وإبطالِ الطِّيَرَةِ؛ لئلَّا يَتَوَهَّموها عليهِ في إعجابِهِ بالفألِ الصَّالحِ:

---

(١) البخاري (٧٦ـ الطبّ، ٤٣ـ الطيرة، ١٠/ ٢١٢/ ٥٧٥٤)، ومسلم (٣٩ـ السلام، ٣٤ـ الطيرة والفأل، ٤/ ١٧٤٥/ ٢٢٢٣).

وليسَ في الإعجابِ بالفأْلِ ومحبَّتِهِ شيءٌ مِن الشِّركِ، بل ذٰلكَ إبانةٌ عن مقتضى الطَّبيعةِ وموجَبِ الفطرةِ الإنسانيَّةِ التي تَميلُ إلى ما يُلائِمُها ويُوافِقُها ممَّا يَنْفَعُها: كما أَخْبَرَهُم أَنَّهُ حُبِّبَ إليهِ مِن الدُّنيا النِّساءُ والطِّيبُ[1]. وفي بعضِ الآثارِ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ كانَ يُعْجِبُهُ الفاغِيَةُ، وهيَ نَوْرُ الحنَّاءِ[2]. وكانَ يُحِبُّ الحلواءَ

---

(١) (صحيح). وقد جاء عنه ﷺ من أوجه:

* فرواه: ابن سعد (١/ ١٩٢)، وأحمد (٣/ ١٢٨ و١٩٩ و٢٨٥)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٢٣٥)، وابن نصر في «الصلاة» (٣٢٢ و٣٢٣)، والنسائي في «المجتبى» (٣٦ـ العشرة، ١ـ حبّ النساء، ٧/ ٦١/ ٣٩٤٩) و«الكبرى» (٨٨٨٧)، وأبو يعلى (٣٤٨٢ و٣٥٣٠)، والعقيلي (٢/ ١٦٠)، وابن عدي (٣/ ١١٥٠ و١١٥١)، وأبو الشيخ في «أخلاقه ﷺ» (٢٣٢ و٧٢٠ و٧٢١)، والبيهقي (٧/ ٧٨)، والضياء في «المختارة» (١٧٣٦ و١٧٣٧)؛ من طرق، عن سلّام أبي المنذر، عن ثابت، عن أنس. . . رفعه. وهٰذا سند حسن من أجل سلّام؛ فإنّه صدوق يهم، وقد حسّنه العسقلاني.

وتوبع سلّام عند: النسائي (الموضع السابق، ٧/ ٦٢/ ٣٩٥٠)، والحاكم (٢/ ١٦٠)، والضياء (١٦٠٨)؛ من طريق سيّار، ثنا جعفر بن سليمان، ثنا ثابت، عن أنس. . . رفعه. صحّحه الحاكم والذهبي على شرط مسلم، وسيّار ـ على أنّه ليس من رجال مسلم ـ ليّن، فالسند لا يعدو أن يكون صالحًا في الشواهد.

وتابعه أيضًا يوسف الصفّار عن ثابت عند ابن حبّان في «المجروحين» (٣/ ١٣٥). ويوسف متروك.

ورواه: ابن نصر في «الصلاة» (٣٢١)، والعقيلي (٤/ ٤٢٠)، والطبراني في «الأوسط» (٥٧٦٨) و«الصغير» (٧٤٢)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٢/ ٣٧١، ١٤/ ١٩٠)، والضياء في «المختارة» (١٥٣٢ و١٥٣٣)؛ من طريقين تقوّي إحداهما الأخرى، عن الأوزاعي، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة، [عن أنس]. . . رفعه. وهٰذا سند قويّ لولا اختلاف الطريقين وصلاً وإرسالاً.

* ورواه ابن سعد (١/ ١٩٢) من طريق قويّة، عن رجل، عن عائشة. . . بنحوه. وفيه راو مبهم.

* ورواه ابن سعد (١/ ١٩٢) من طريق أبي هلال، عن قتادة، عن معقل بن يسار. . . رفعه دون ذكر الطيب. وأبو هلال ضعيف في قتادة، وقتادة عن معقل مرسل.

* ورواه: عبدالرزّاق (٧٩٣٩)، وابن سعد (١/ ١٩٢)؛ من مرسل سليمان التيمي والليث بن سعد والحسن وميمون بن مهران وسلمة بن كهيل.

وجملة القول أنّ حديث أنس صحيح بمجموع طرقه، فكيف بشواهده الموصولة والمرسلة؟! وقد صحّحه الحاكم والضياء والذهبي والعسقلاني والألباني.

(٢) (ضعيف). رواه: أحمد (٣/ ١٥٢)، والعقيلي (٣/ ٤٧)، والطبراني (١/ ٢٥٤/ ٧٣٤)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبيّ ﷺ» (٦٦٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٠٧٤)؛ من طريقين قويّتين، عن سليمان بن كثير، عن عبدالحميد بن قدامة، عن أنس. . . رفعه.

قال البخاري: «لا يتابع عليه»؛ يعني: عبدالحميد، وأقرّه العقيلي والذهبي والعسقلاني. وقال ابن القيّم في «الهدي» (٤/ ٣٤٩): «الله أعلم بحال هٰذا الحديث، فلا نشهد عليه ﷺ بما لا نعلم صحّته». وقال الهيثمي (٥/ ١٦٠): «رجاله ثقات». قلت: عبدالحميد لا يعرف إلّا بهٰذا الحديث، ولم يرو عنه إلّا سليمان، =

والعسلَ[١]. وكانَ يُحِبُّ الشَّرابَ البارِدَ الحلوَ[٢]. ويُحِبُّ حسنَ الصَّوتِ بالقرآنِ والأذانِ ويَسْتَمِعُ إليهِ[٣]. ويُحِبُّ معاليَ الأخلاقِ ومكارمَ الشِّيمِ[٤]. وبالجملةِ؛ يُحِبُّ كلَّ كمالٍ وخيرٍ وما يُفْضي إليهِما.

= وذكره العقيلي في «الضعفاء» وابن حبّان في «الثقات»، فهو مجهول، وأحسن أحواله أن يكون مقبولاً، فإذا أنفرد بحديث دون ثقات أصحاب أنس والمكثرين عنه؛ فمنكر أو ضعيف. وقد ضعّفه الألباني.

(١) رواه: البخاري (٦٨ـ الطلاق، ٨ـ لم تحرّم ما أحل الله، ٩/ ٣٧٤/ ٥٢٦٨)، ومسلم (١٨ـ الطلاق، ٣ـ وجوب الكفّارة، ٢/ ١١٠١/ ١٤٧٤)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) (صحيح). وقد جاء من أوجه:

* فرواه الزهريّ وآختلف عليه فيه: فرواه أوّلاً: ابن عديّ (٣/ ١٠٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٥٩٢٨) معلّقًا؛ عن طريق زمعة بن صالح، عنه، عن ابن المسيّب، عن أبي هريرة. . . رفعه. قال البيهقي: «ليس بمحفوظ». قلت: زمعة ضعيف. ورواه ثانيًا: معمر في «الجامع» (١٩٥٨٣)، وابن أبي شيبة (٢٤١٨٧)، والترمذي (٢٧ـ الأشربة، ٢١ـ أيّ الشراب أحبّ إليه ﷺ، ٤/ ٣٠٧/ ١٨٩٥)، والبيهقي في «الشعب» (٥٩٢٧)؛ من طريق يونس أو معمر، عن الزهريّ. . . مرسلاً. ورواه ثالثًا: الحميدي (٢٥٧)، وأحمد (٦/ ٣٨ و٤٠)، والترمذي في «السنن» (الموضع السابق، ٤/ ٣٠٧/ ١٧٩٥) و«الشمائل» (٢٠٥)، والنسائي في «الكبرى» (٦٨٤٤)، وأبو يعلى (٤٥١٦)، وابن حبّان في «الثقات» (٨/ ٣٨)، وأبو الشيخ في «أخلاقه ﷺ» (٧١٥ و٧١٦)، والحاكم (٤/ ١٣٧)، والبيهقي في «الشعب» (٥٩٢٨)، والبغوي (٣٠٢٦)؛ من طرق، عن ابن عيينة، عن معمر، عن الزهريّ، عن عروة، عن عائشة. . . رفعته. قال الحاكم والذهبي: «على شرطهما».

فأمّا الأوّل؛ فمرجوح لضعف زمعة. والثاني المرسل قويّ لتتابع يونس ومعمر عليه، وإلى ترجيحه مال الترمذي والبيهقي والبغوي. والثالث صحيح أيضًا، والوصل فيه زيادة ثقة يتعيّن الأخذ بها، والمرسل يقوّيه.

* وجاء عن عائشة من وجه آخر فرواه: ابن عدي (٤/ ١٥٠١)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبيّ ﷺ» (٧١٧)، والحاكم (٤/ ١٣٧)؛ من طريق عبدالله بن محمّد بن يحيى بن عروة، عن هشام، عن عروة، عن عائشة. . . رفعته. قال الذهبي: «عبدالله هالك».

* ورواه أيضًا: ابن أبي شيبة (٢٤١٨٩)، وأحمد (١/ ٣٣٨)، والبيهقي في «الشعب» (٥٩٢٦)؛ من طريق ابن جريج، [أني إسماعيل بن أميّة، عن رجل، عن ابن عبّاس. . .] رفعه. قال الهيثمي (٥/ ٨٢): «رجاله رجال الصحيح إلاّ أنّ تابعيّه لم يسمّ». قلت: وآختلف على ابن جريج فيه وصلاً وإرسالاً.

فمن لم ترتح نفسه لتصحيح حديث الزهريّ لذاته؛ فليصحّحه بحديث ابن عبّاس، وإلى تصحيح الحديث مال الحاكم والذهبي والألباني.

(٣) (لم أقف عليه بهٰذا اللفظ). لٰكنّ معناه صحيح بلا ريب، والأحاديث التي فيها الأمر بتحسين الصوت بالقرآن والتغنّي به وآستماع النبيّ ﷺ إلى الصوت الحسن بالقرآن وتقديمه الأندى صوتًا في الأذان كثيرة. وليس هٰذا محلّ تفصيلها.

(٤) (لم أقف عليه بهٰذا اللفظ). نعم؛ قد صحّ قوله ﷺ: «إنّ الله يحبّ معالي الأخلاق ويبغض سفسافها»، ولا ريب أنّه ﷺ يحبّ ما يحبّه الله تعالى، فلعلّه أراد هٰذا. والله أعلم.

واللهُ سبحانَهُ قد جَعَلَ في غرائزِ النَّاسِ الإعجابَ بسماعِ الاسمِ الحسنِ ومحبَّتَهُ وميلَ نفوسِهِم إليهِ، وكذٰلكَ جَعَلَ فيها الارتياحَ والاستبشارَ والسُّرورَ بٱسمِ السَّلامِ والفلاحِ والنَّجاحِ والتَّهنئةِ والبشرى والفوزِ والظَّفرِ والغُنْمِ والرِّبحِ والطِّيبِ ونيلِ الأُمنيةِ والفرحِ والغوثِ والعزِّ والغنى وأمثالِها، فإذا قَرَعَتْ هٰذهِ الأسماءُ الأسماعَ؛ ٱسْتَبْشَرَتْ بها النَّفسُ وٱنْشَرَحَ لها الصَّدرُ وقَوِيَ بها القلبُ، وإذا سَمِعَتْ أضدادَها؛ أَوْجَبَ لها ضدَّ هٰذهِ الحالِ فأَحْزَنَها ذٰلكَ وأثارَ لها خوفًا وطِيَرَةً وٱنكماشًا وٱنقباضًا عمَّا قَصَدَتْ لهُ وعَزَمَتْ عليهِ، فأَوْرَثَ لها ذٰلكَ ضررًا في الدُّنيا ونقصًا في الإيمانِ ومقارفةً للشِّركِ:

كما ذَكَرَهُ أبو عُمَرَ في «التَّمهيد» مِن حديثِ: المُقْرئ، عنِ ابنِ لَهِيعَةَ، حَدَّثَنا ابنُ هُبَيْرَةَ، عن أبي عَبْدِالرَّحْمٰنِ الحُبُلِيِّ، عن عَبْدِاللهِ بنِ عَمْرٍو، عن رسولِ اللهِ ﷺ؛ قالَ: «مَن أَرْجَعَتْهُ الطِّيَرَةُ مِن حاجتِهِ فقد أَشْرَكَ». قالَ: وما كفَّارةُ ذٰلكَ يا رسولَ الله؟ قالَ: «أَنْ يَقولَ أحدُهُمْ: اللهمَّ! لا طيرَ إلَّا طيرُكَ، ولا خيرَ إلَّا خيرُكَ، ولا إلٰهَ غيرُكَ. ثمَّ يَمْضِيَ لحاجتِهِ»[1].

وذَكَرَ ابنُ وَهْبٍ؛ قالَ: أَخْبَرَني أُسامَةُ بنُ زَيْدٍ؛ قالَ: سَمِعْتُ نافعَ بنَ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ يقولُ: سَأَلَ كَعْبُ الأحبارِ عَبْدَاللهِ بنَ عَمْرٍو: هل تَتَطَيَّرُ؟ فقالَ: نعمْ. قالَ: فكيفَ تَقولُ إذا تَطَيَّرْتَ؟ قالَ: أقولُ: اللهمَّ! لا طيرَ إلَّا طيرُكَ، ولا خيرَ إلَّا خيرُكَ، ولا ربَّ غيرُكَ، ولا قوَّةَ إلَّا بكَ. فقالَ كعبٌ: إنَّهُ أفقهُ العربِ. واللهِ؛ إنَّها لكذٰلكَ في التَّوراةِ.

وهٰذا الذي جَعَلَهُ اللهُ سبحانَهُ في طباعِ النَّاسِ وغرائزِهِم مِن الإعجابِ بالأسماءِ الحسنةِ والألفاظِ المحبوبةِ هوَ[2] نظيرُ ما جَعَلَ في غرائزِهِم مِن الإعجابِ بالمناظرِ الأنيقةِ والرِّياضِ المنوَّرةِ والمياهِ الصَّافيةِ والألوانِ الحسنةِ والرَّوائحِ الطَّيِّبةِ والمطاعمِ المستلذَّةِ، وذٰلكَ أمرٌ لا يُمْكِنُ دفعُهُ ولا يَجِدُ القلبُ عنهُ ٱنصرافًا، فهوَ يَنْفَعُ المؤمنَ ويَسُرُّ نفسَهُ ويُنَشِّطُها ولا يَضُرُّها في إيمانِها وتوحيدِها.

---

(١) (صحيح). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٣١-٢٣٢).

(٢) في ط: «المحبوبة وهو»! ولا بدّ من حذف الواو.

وأخْبَرَ ﷺ في حديثِ أبي هُرَيْرَةَ أنَّ الفأْلَ مِن الطِّيَرَةِ وهوَ خيرُها، فقالَ: «لا طِيَرَةَ، وخيرُها الفأْلُ»[١]. فأبطلَ الطِّيَرَةَ، وأخْبَرَ أنَّ الفأْلَ منها ولٰكنَّهُ خيرُها، ففَصَلَ بينَ الفأْلِ والطِّيَرَةِ لِما بينَهُما مِن الامتيازِ والتَّضادِّ ونفعِ أحدِهِما ومضرَّةِ الآخرِ.

ونظيرُ هٰذا منعُهُ مِن الرُّقى بالشِّركِ وإذنُهُ في الرُّقيةِ إذا لمْ تكُنْ شركًا لِما فيها مِن المنفعةِ الخاليةِ عنِ المفسدةِ[٢].

وقدِ اْعْتاصَ هٰذا الفرقانُ على أفهامِ كثيرٍ ممَّن غَلُظَ عن معرفةِ الحقِّ والدِّينِ حجابُهُ وغَلُظَ عنهُ طبعُهُ وكَثُفَ عنهُ فهمُهُ، فقالَ: السَّامعُ إذا سَمعَ مثلاً يا بشارةُ أو أبْشِرْ أو لا تَخَفْ أو يا نَجيحُ ونحوَهُ وسَمعَ ضدَّ ذٰلكَ؛ فإمَّا أنْ يُوجِبَ الأمرانِ ما يُشاكِلُهُما وإمَّا أنْ لا يُوجِبا شيئًا، فأمَّا أنْ يُوجِبَ أحدُهُما دونَ الآخرِ فلا وجهَ لهُ!

وهٰذا [قولُ][٣] مَن عَمِيَ عنِ الهدى وصَمَّ عن سماعِهِ، وإنَّما تَحْصُلُ الهدايةُ مِن ألفاظِ رسولِ اللهِ ﷺ وتُشْرِقُ ألفاظُها في صدرِ مَن تَلَقَّاها بالتَّصديقِ والقبولِ فأذْعَنَ لها بالسَّمعِ والطَّاعةِ وقابَلَها بالرِّضى والتَّسليمِ وعَلِمَ أنَّها منبعُ الهدى ومَعينُ الحقِّ.

ونحنُ بحمدِ اللهِ نُوَضِّحُ لمَنِ اْشْتبَهَ ذٰلكَ عليهِ فرقانَ ما بينَهُما وفائدةَ الفأْلِ ومضرَّةَ الطِّيَرَةِ، فنَقولُ:

الفأْلُ والطِّيَرَةُ، وإنْ كانَ مأْخذُهُما سواءً ومجتناهُما واحدًا، فإنَّهُما يختلفانِ بالمقاصدِ ويَفْتَرِقانِ بالمذاهبِ: فما كانَ محبوبًا مستحسنًا تَفاءَلوا بهِ وسَمَّوْهُ الفأْلَ وأَحَبُّوهُ ورَضُوهُ، وما كانَ مكروهًا منفِّرًا تَشاءَموا بهِ وكَرِهوهُ وتَطَيَّروا منهُ وسَمَّوْهُ طِيَرَةً؛ تفرقةً بينَ الأمرينِ وتفصيلاً بينَ الوجهينِ.

وسُئِلَ بعضُ الحكماءِ فقيلَ لهُ: ما بالُكُم تَكْرَهونَ الطِّيَرَةَ وتُحِبُّونَ الفأْلَ؟ فقالَ: لنا في الفأْلِ عاجلُ البشرى وإنْ قَصُرَ عنِ الأمل، ونَكْرَهُ الطِّيَرَةَ لِما يَلْزَمُ قلوبَنا مِن الوجل.

---

(١) متفق عليه. تقدّم تخريجه (٣/ ٢٣٠ و٢٥٥).

(٢) كما جاء في «صحيح مسلم» (٣٩ـ السلام، ٢٢ـ لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك، ٤/ ١٧٢٧/ ٢٢٠٠) من حديث عوف الأشجعيّ. وقد تقدّم شيء من هٰذا آنفًا.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

وهٰذا الفرقانُ حسنٌ جدًّا.

وأحسنُ منهُ ما قالَهُ ابنُ الرُّوميِّ في ذٰلكَ: الفأْلُ لسانُ الزَّمانِ، والطِّيرةُ عنوانُ الحدثانِ[١].

وقد كانَتِ العربُ تَقْلِبُ الأسماءَ تطيُّرًا وتفاؤلاً: فيُسَمُّونَ اللديغَ سليمًا [تفاؤلاً][٢] بآسمِ السَّلامةِ وتطيُّرًا مِن آسمِ السَّقمِ. ويُسَمُّونَ العطشانَ ناهلاً؛ أي: سَيَنْهَلُ، والنَّهَلُ الشُّربُ؛ تفاؤلاً بآسمِ الرِّيِّ. ويُسَمُّونَ الفلاةَ مفازةً؛ أي: منجاةً؛ تفاؤلاً بالفوزِ والنَّجاةِ، ولمْ يُسَمُّوها مهلكةً لأجلِ الطِّيَرَةِ.

وكانَتْ لهُم مذاهبُ في تسميةِ أولادِهِم: فمنهُم مَن سَمَّوْهُ بأسماءٍ تفاؤلاً بالظَّفرِ على أعدائِهِم نحوُ غالبٍ وغلاَّبٍ ومالكٍ وظالمٍ وعارمٍ ومنازلٍ ومقاتلٍ ومعاركٍ ومسهرٍ ومؤرِّقٍ ومصبحٍ وطارقٍ، ومنهُم مَن تَفاءَلَ بالسَّلامةِ[٣] كتسميتِهِم بسالمٍ وثابتٍ ونحوِهِ، ومنهُم مَن تَفاءَلَ بنيلِ الحظوظِ والسَّعادةِ كسعدٍ وسعيدٍ وأسعدَ ومسعودٍ وسُعدى وغانمٍ ونحوِ ذٰلكَ، ومنهُم مَن قَصَدَ التَّسميةَ بأسماءِ السِّباعِ ترهيبًا لأعدائِهِم نحوِ أسدٍ وليثٍ وذئبٍ وضِرْغامٍ وشبلٍ ونحوِها، ومنهُم مَن قَصَدَ التَّسميةَ بما غَلُظَ وخَشُنَ مِن الأجسامِ تفاؤلاً بالقوَّةِ كحجرٍ وصخرٍ وفهرٍ وجَنْدَلٍ، ومنهُم مَن كانَ يَخْرُجُ مِن منزلِهِ وآمرأتُهُ تَمْخَضُ فيُسَمِّي ما تَلِدُهُ بآسمِ أوَّلِ ما يَلْقاهُ كائنًا مَن كانَ مِن سبعٍ أو ثعلبٍ أو ضبٍّ أو كلبٍ أو ظبيٍ أو حشيشٍ أو غيرِهِ. . .

وكانَ القومُ على ذٰلكَ إلى أنْ جاءَ اللهُ بالإسلامِ ومُحَمَّدٍ رسولِهِ ﷺ ففَرَقَ بِهِ بينَ الهدى والضَّلالِ والغيِّ والرَّشادِ وبينَ الحسنِ والقبيحِ والمحبوبِ والمكروهِ والضَّارِّ والنَّافعِ والحقِّ والباطلِ، فكَرِهَ الطِّيَرَةَ وأبْطَلَها وآسْتَحَبَّ الفألَ وحَمِدَهُ، فقالَ: «لا طِيَرَةَ، وخيرُها الفأْلُ». قالوا: وما الفأْلُ؟ قالَ: «الكلمةُ الصَّالحةُ يَسْمَعُها أحدُكُم»[٤].

---

(١) قارن بما تقدّم (٣/ ٢٢٣)!

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) في ط: «بالسلام»! والصواب ما أثبتّه.

(٤) متّفق عليه. تقدّم تخريجه (٣/ ٢٣٠ و٢٥٥).

وقالَ عَبْدُاللهِ بنُ عَبَّاسٍ: لا طيرةَ، ولٰكنَّهُ فأْلٌ، والفأْلُ المرسلُ يسارٌ وسالمٌ ونحوُهُ مِن الاسمِ يَعْرِضُ لكَ على غيرِ ميعادٍ.

وسُئِلَ بعضُ العلماءِ عنِ الفأْلِ، فقالَ: أنْ تَسْمَعَ وأنتَ قد أضْلَلْتَ بعيرًا أو شيئًا: يا واجدُ! أو وأنتَ خائفٌ: يا سالمُ!

وقالَ الأصْمَعِيُّ: سَألْتُ ابنَ عَوْنٍ عنِ الفأْلِ، فقالَ: أنْ يَكونَ مريضًا فيَسْمَعَ: يا سالمُ! وأُخْبِرُكَ عن نفسي بقضيَّةٍ مِن ذٰلكَ، وهيَ أنِّي أضْلَلْتُ بعضَ الأولادِ يومَ التَّرويةِ بمكَّةَ، وكانَ طفلاً، فجَهَدْتُ في طلبِهِ والنِّداءِ عليهِ في سائرِ الرَّكبِ إلى وقتِ يومِ الثَّامنِ، فلمْ أقْدِرْ لهُ على خبرٍ، فأيِسْتُ منهُ. فقالَ لي إنسانٌ: إنَّ هٰذا عجزٌ، ٱركَبْ وٱدْخُلِ الآنَ إلى مَكَّةَ فتَطَلَّبْهُ فيها. فرَكِبْتُ فرسًا، فما هوَ إلاَّ أنِ ٱسْتَقْبَلْتُ جماعةً يَتَحَدَّثونَ في سوادِ الليلِ في الطَّريقِ، وأحدُهُم يَقولُ: ضاعَ لهُ شيءٌ فلَقِيَهُ، فلا أدْري ٱنقضاءُ كلمتِهِ كانَ أسرعَ أو وِجدانيَ الطِّفلَ معَ بعضِ أهلِ مَكَّةَ في محملةٍ، عَرَفْتُهُ بصوتِهِ.

فقولُهُ ﷺ «لا طِيَرَةَ»[1]، وخيرُها الفأْلُ» يَنْفي عنِ الفأْلِ مذهبَ الطِّيَرَةِ مِن تأثيرٍ أو فعلٍ أو شركةٍ ويُخَلِّصُ الفأْلَ منها.

وفي الفرقانِ بينَهُما فائدةٌ كبيرةٌ، وهيَ أنَّ التَّطيُّرَ هوَ التَّشاؤمُ مِن الشَّيءِ المرئيِّ أو المسموعِ، فإذا ٱسْتَعْمَلَها الإنسانُ فرَجَعَ بها مِن سفرِهِ وٱمْتَنَعَ بها ممَّا عَزَمَ عليهِ؛ فقد قَرَعَ بابَ الشِّركِ بل وَلَجَهُ وبَرِئَ مِن التَّوكُّلِ على اللهِ وفتحَ على نفسِهِ بابَ الخوفِ والتَّعلُّقِ بغيرِ اللهِ والتَّطيُّرِ ممَّا يَراهُ أو يَسْمَعُهُ، وذٰلكَ قاطعٌ لهُ عن مقامِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، و﴿ٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، و﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، فيَصيرُ قلبُهُ متعلِّقًا بغيرِ اللهِ عبادةً وتوكُّلاً، فيَفْسُدُ عليهِ قلبُهُ وإيمانُهُ وحالُهُ ويَبْقى هدفًا لسهامِ الطِّيَرَةِ تُساقُ إليهِ مِن كلِّ أوْبٍ، ويُقَيِّضُ لهُ الشَّيطانُ مِن ذٰلكَ ما يُفْسِدُ عليهِ دينَهُ ودنياهُ. وكمْ مَن هَلَكَ بذٰلكَ وخَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ!

---

(١) في ط: «ولا طيرة»! ولا بدَّ من حذف الواو.

فأينَ هٰذا مِن الفألِ الصَّالحِ السَّارِّ للقلوبِ المؤيِّدِ للآمالِ الفاتحِ بابَ الرَّجاءِ المسكِّنِ للخوفِ الرَّابطِ للجأْشِ الباعثِ على الاستعانةِ باللهِ والتَّوكُّلِ عليهِ والاستبشارِ المقوِّي لأملِهِ السَّارِّ لنفسِهِ؟! فهٰذا ضدُّ الطِّيَرَةِ! فالفألُ يُفْضي بصاحبِهِ إلى الطَّاعةِ والتَّوحيدِ، والطِّيَرَةُ تُفْضي بصاحبِها إلى المعصيةِ والشِّركِ. فلهٰذا ٱسْتَحَبَّ ﷺ الفألَ وأبْطَلَ الطِّيَرَةَ[١].

● [فصلٌ في الفرقانِ بينَ الطِّيَرَةِ والتَّفاؤلِ بالاسمِ الحسنِ]:

وأمَّا حديثُ اللَّقْحةِ ومنعُ النَّبيِّ ﷺ حربًا ومرَّةً مِن حلبِها وإذنُهُ ليعيشَ في حلبِها[٢]؛ فليسَ هٰذا بحمدِ اللهِ في شيءٍ مِن الطِّيَرَةِ؛ لأنَّهُ محالٌ أنْ يَنْهى عن شيءٍ ويُبْطِلَهُ ثمَّ يَتَعاطاهُ هوَ، وقد أعاذَهُ اللهُ سبحانَهُ مِن ذٰلكَ.

* قالَ أبو عُمَرَ: ليسَ هٰذا عندي مِن بابِ الطِّيَرَةِ؛ لأنَّهُ محالٌ أنْ يَنْهى عن شيءٍ ويَفْعَلَهُ، وإنَّما هوَ مِن طلبِ الفألِ الحسنِ، وقد كانَ أخْبَرَهُم عن أقبحِ الأسماءِ أنَّهُ حربٌ

---

(١) السؤال المطروح هنا: لماذا فرّق الإسلام بين الطيرة والفأل؟ أليس إذا سمع المرء «يا يسار» فتفاءل بتيسير مقاصده كما إذا سمع «يا عسران» فتطيّر من تعسير أمره؟ أليس الباب واحدًا من الناحية العقديّة؟

وجوابًا على هٰذا أقول: هاهنا حالتان:

أولاهما: أن ينسب الخير أو الشرّ إلى سماعه «يا يسار» أو «يا عسران»؛ فالباب هنا واحد، وكلاهما مقارفة للشرك، ولذٰلك أنكر ابن عبّاس وطاووس على من قال «خير» عند سماع الغراب ولم يرضياه وقالا: «لا خير ولا شرّ» كما تقدّم.

والحالة الثانية: أن يرى أنّ سماعه «يا يسار» أو «يا عسران» هو مقدّمة بين يدي تيسير أو تعسير سيأتي من الله ودليل على ذٰلك؛ فالبابان هنا مختلفان لأمرين:

أوّلهما: أنّ التفاؤل عامل إيجابيّ يدفع صاحبه إلى العمل والسعي رجاء لتحصيل مطلبه بخلاف التطيّر الذي هو عامل سلبيّ يصدّ صاحبه ويكبّله بالأوهام. ومن هنا نفهم سرّ تساهل النبيّ ﷺ في شأن التطيّر بقوله «وما منّا إلّا» لٰكن شريطه ألّا يصدّ صاحبه عن مقصده كما في النصوص المتقدّمة.

والأمر الآخر: أنّ المتفائل حسن الظنّ بالله ينتظر منه النعمة والفضل، بخلاف التطيّر المتشائم الذي لا يكاد يظنّ بربّه خيرًا ولا ينتظر منه إلّا المصائب! وحسن الظنّ بالله أمر مطلوب شرعًا وهو صفة المؤمن العارف بأسماء الله وصفاته وأفعاله، بخلاف سوء الظنّ بالله المنهيّ عنه شرعًا والذي هو صفة الكافر والمنافق الذي لا يرى ربّه إلّا متربّصًا به عاملاً على أذيّته. ومن هنا رغّب النبيّ ﷺ بالأوّل ونهى عن الثاني. والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

(٢) (حسن). وقد تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٣٧).

ومرَّةُ، فأكَّدَ ذٰلكَ حتَّى لا يَتَسَمَّى بها أحدٌ.

ثمَّ ساقَ مِن طريقِ: ابنِ لَهيعَةَ، عن جَعْفَرِ بنِ رَبيعَةَ، عن رَبيعَةَ بنِ يَزيدَ، عن عَبْدِاللهِ بنِ عامِرٍ اليَحْصُبيِّ؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «خيرُ الأسماءِ عَبْدُاللهِ وعَبْدُالرَّحْمٰنِ، وأصدقُها الحارثُ وهَمَّامٌ؛ حارِثٌ يَحْرُثُ لأبنائِهِ وهمَّامٌ يَهُمُّ بالخيرِ»[1].

---

(١) (حسن). وقد جاء من أوجه:

* فرواه: ابن وهب في «الجامع» (٥٣ و٦٨)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢٤/ ١٧) من طريق النضر بن عبدالجبّار؛ كلاهما عن ابن لهيعة... به فذكره. وهٰذا مرسل قويّ، لٰكن هاهنا أمران: أوّلهما: أنّه وقع في مطبوعة «التمهيد» موصولاً بزيادة معاوية بن أبي سفيان خلافًا لما في «جامع ابن وهب» ونسخة ابن القيّم من «التمهيد»، فإن لم يكن هٰذا من أخطاء النسّاخ والطابعين؛ فمنكر من تخليط ابن لهيعة والمعروف رواية ابن وهب. والثّاني: أنّهما زادا في المتن «وشرّها حرب ومرّة».

* ورواه ابن وهب (٤٦): أني داوود بن قيس، عن عبدالوهّاب بن بخت، عن النبيّ ﷺ... به دون القطعة الثالثة. وهٰذا مرسل قويّ أيضًا.

* وروى ابن وهب في «الجامع» (٥٩): أني معاوية بن صالح، عن الحسن بن جابر، عن النبيّ ﷺ: «عليكم من الأسماء بالحارث فإنّه ليس أحد إلاّ وهو يحرث لآخرته أو دنياه وهمّام فإنّه ليس أحد إلاّ وهو يهم بآخرته أو دنياه». وهٰذا مرسل صالح الإسناد.

* وروى: ابن حبّان في «المجروحين» (٢/ ٢٠٦)، وابن عديّ (٦/ ٢٤٠٢)؛ عن فرج بن فضالة، عن معاوية بن صالح، عن نافع، عن ابن عمر... رفعه دون «الحارث يحرث...». وفرج ضعيف.

* وروى ابن وهب (٦٩): أني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، بلغني أنّه ﷺ قال... فذكره كحديث ابن عمر سواء. وهٰذا معضل أو مرسل صالح.

* وروى: أحمد (٤/ ٣٤٥)، والبخاري في «الأدب» (٨١٤) و«الكنى» (ص٧٨)، وأبو داوود (٣٥ـ الأدب، ٦٩ـ تغيير الأسماء، ٢/ ٧٠٥/ ٤٩٥٠)، والنسائي (٢٨ـ الخيل، ٣ـ شية الخيل، ٦/ ٢١٨/ ٣٥٦٧)، وأبو يعلى (٧١٦٩)، والدولابي (٣٤٤ و٦١٢)، وابن أبي حاتم في «العلل» (٢٤٥١)، والطبراني (٢٢/ ٣٨٠/ ٩٤٩)، والبيهقي (٩/ ٣٠٦)، وابن عبدالبرّ (٢٤/ ١٠٢)، وابن عساكر (٥٦/ ٩١)، وابن الأثير في «الغابة» (٦/ ٣٢٩)؛ من طرق، عن محمّد بن مهاجر، عن عقيل بن شبيب، عن أبي وهب، عن النبيّ ﷺ... كحديث ابن عمر سواء. وهاهنا علّتان: أولاهما: أنّ عقيلاً مجهول. والثانية: أنّهم اختلفوا في أبي وهب؛ هل هو الجشمي الصحابي أو الكلاعي من أتباع التابعين، وأكثر الطرق على أنّه الكلاعي، وهو ما رجّحه أبو حاتم وابنه والعسقلاني كما فصّلته في «الأذكار» (٨٨٠ـ ط. ابن خزيمة). فالسند على ضعفه مرسل.

* وللقطعة الأولى: شاهد من حديث ابن عمر عند مسلم (٢١٣٢). وآخر من حديث عبدالرحمٰن بن سبرة سيأتي قريبًا. وثالث من حديث أنس عند: أبي يعلى (٢٧٧٨)، وابن عدي (١/ ٢٨٢)؛ بسند شديد الضعف. ورابع من حديث أبي هريرة عند ابن وهب (٧٠) بسند ساقط.

* وروى ابن عديّ (١/ ٢٣٢) بعضه في سياق منكر بسند ساقط.

* وروى القطعة الثانية ابن وهب (٧١) من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

وكانَ يَكْرَهُ الاسمَ القبيحَ لأنَّهُ كانَ يَتفاءَلُ بالحسنِ مِن الأشياءِ.

ثمَّ ساقَ مِن طريقِ: ابنِ وَهْبٍ، حَدَّثَني ابنُ لَهِيعَةَ، عنِ الحارِثِ بنِ يَزِيدَ، عن عَبْدِالرَّحْمٰنِ بنِ جُبَيْرٍ، عن يَعيشَ الغِفارِيِّ؛ قالَ: دَعا النَّبيُّ ﷺ يومًا بناقةٍ. فقالَ: «مَن يَحْلُبُها؟». فقامَ رجلٌ فقالَ: أنا. فقالَ: «ما ٱسْمُكَ؟». قالَ: مُرَّةُ. قالَ: «ٱقْعُدْ». ثمَّ قامَ آخرُ فقالَ: «ما ٱسْمُكَ؟». قالَ: جَمْرَةُ. قالَ: «ٱقْعُدْ». ثمَّ قامَ رجلٌ فقالَ: «ما ٱسْمُكَ؟». قالَ: يَعيشُ. قالَ: «ٱحْلُبْها»(١).

ورَوى حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ، عن حُمَيْدٍ، عن بَكْرِ بنِ عَبْدِاللهِ المُزَنِيِّ؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ إذا تَوَجَّهَ لحاجةٍ؛ يُحِبُّ أنْ يَسْمَعَ: يا نَجيحُ! يا راشِدُ! يا مبارَكُ(٢)!

= * وروى القطعة الأولى والثانية: البخاري في «التاريخ» (٥/ ٣٥)، والبيهقي في «الشعب» (٨٦٣٦)، وابن عساكر (٢٧/ ٢٤٢)؛ بسند ساقط.

* وروى الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٧٣/ ٩٩٩٢) و«الأوسط» (٦٩٨) بعضه في سياق فيه كذّاب.

ومع أنّ أكثر هٰذه المرويّات مراسيل؛ إلاّ أنّ ٱجتماعها يفيد أنّ للحديث أصلاً صالحًا عن النبيّ ﷺ، وقد قوّاه الألباني. والله أعلم.

(١) (حسن). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٣٧).

(٢) (صحيح). رواه: الترمذي (٢٢ـ السير، ٤٧ـ الطيرة، ٤/ ١٦١/ ١٦١٦)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ٣٤٤)، والطبراني في «الأوسط» (٤١٩٣) و«الصغير» (٥٥٠)، وأبو الشيخ في «الطبقات» (٣/ ١٨٣)، والضياء في «المختارة» (٥/ ٤٨/ ١٦٦٣، ٦/ ٧٠/ ٢٠٥٢)؛ من طريق محمّد بن رافع، عن أبي عامر العقدي، عن حمّاد بن سلمة، عن حميد، عن أنس... رفعه. وهٰذا سند فيه كلام من وجهين:

أوّلهما: أنّ حميدًا مدلّس وقد عنعن، لٰكن روايته عن أنس مقبولة لأنّ الواسطة فيها ثابت البناني، ثقة.

والثاني: رواية: الحارث (٨٠٣ـ زوائد الهيثمي)، وابن عبدالبرّ (٤/ ٧٢) تعليقًا؛ من طريق أحمد بن إسحاق، ثنا حمّاد، عن حميد، عن بكر بن عبدالله المزني، عن النبيّ ﷺ... مرسلاً. فهٰذه علّة أشار إليها البخاري والعسقلاني في «النكت الظراف» (٦٢٤). ولٰكنّها غير قادحة؛ لأنّ حميدًا ثقة واسع الرواية، فلا يبعد أن يكون له في هٰذا شيخان. فإن كان لا بدّ من الترجيح؛ فالموصول أرجح؛ لأنّ ابن رافع عن العقديّ عن حمّاد أولى وأوثق من الحارث عن أحمد بن إسحاق عن حمّاد، وهٰذا ما مال إليه مسلم، فردّ هٰذه العلّة بقوله: «محمّد بن رافع ثقة مأمون صحيح الكتاب»؛ يعني: فالقول قوله، والحديث موصول قويّ.

وله شاهد ذكره الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٦٠)؛ قال: «أخرج أبو سعيد في «شرف المصطفى» من طريق الحاكم من طريق ابن مجمع: لمّا نزل ﷺ على كلثوم بن الهدم هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة؛ قال كلثوم: يا نجيح (لمولًى له)! فقال ﷺ: أنجحت».

وإلى صحّة الحديث مال مسلم والحاكم والترمذي والعسقلاني والألباني.

وقد رُوِيَ مِن حديثِ بُرَيْدَةَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ لا يَتَطَيَّرُ مِن شيءٍ، ولٰكنْ كانَ إذا سَأَلَ عنِ اسمِ الرَّجلِ فكانَ حسنًا؛ رُئِيَ البشاشةُ في وجهِهِ، وإنْ كانَ سيِّئًا؛ رُئِيَ ذٰلكَ في وجهِهِ، وإذا سَأَلَ عنِ اسمِ الأرضِ وكانَ حسنًا؛ رُئِيَ ذٰلكَ فيهِ.

قلتُ: الحديثُ رواهُ الإمامُ أحْمَدُ في «مسنده»: حَدَّثَنا عَبْدُالصَّمَدِ، حَدَّثَنا هِشامٌ، عن قَتادَةَ، عن عَبْدِاللهِ بنِ بُرَيْدَةَ، عن أبيهِ؛ قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ لا يَتَطَيَّرُ مِن شيءٍ، ولٰكنَّهُ إذا أرادَ أنْ يأتِيَ أرضًا؛ سَأَلَ عنِ اسمِها، فإنْ كانَ حسنًا؛ رُئِيَ ذٰلكَ في وجهِهِ، وكانَ إذا بَعَثَ رجلاً؛ سَأَلَ عنِ اسمِهِ، فإنْ كانَ حسنَ الاسمِ؛ رُئِيَ البشرُ في وجهِهِ، وإنْ كانَ قبيحًا؛ رُئِيَ ذٰلكَ في وجهِهِ[(١)].

وقالَ أبو عُمَرَ: حَدَّثَنا عَبْدُالوارِثِ، حَدَّثَنا قاسِمٌ[(٢)]، حَدَّثَنا أحْمَدُ بنُ زُهَيْرٍ، حَدَّثَنا حُسَيْنُ بنُ حُرَيْثٍ، ثنا أوْسُ بنُ عَبْدِاللهِ بنِ بُرَيْدَةَ، عنِ الحُسَيْنِ بنِ واقِدٍ، عن عَبْدِاللهِ بنِ بُرَيْدَةَ، عن أبيهِ؛ قالَ: كانَ النَّبيُّ ﷺ لا يَتَطَيَّرُ ولٰكنْ كانَ يَتَفاءَلُ. فرَكِبَ بُرَيْدَةُ في سبعينَ راكبًا مِن أهلِ بيتِهِ مِن بني أسْلَمَ، فتَلَقَّى النَّبيَّ ﷺ ليلاً. فقالَ لهُ النَّبيُّ ﷺ: «مَن أنتَ؟». قالَ: أنا بُرَيْدَةُ. فالْتَفَتَ إلى أبي بَكْرٍ فقالَ: «يا أبا بَكْرٍ! بَرَدَ أمرُنا وصَلَحَ». ثمَّ قالَ: «ممَّن؟». قالَ: مِن أسْلَمَ. قالَ لأبي بَكْرٍ: «سَلِمْنا». ثمَّ قالَ: «ممَّن؟». قالَ: مِن بني سَهْمٍ. قالَ: «خَرَجَ سهمُنا»[(٣)].

قالَ أحْمَدُ بنُ زُهَيْرٍ: قالَ لنا أبو عَمَّارٍ: سَمِعْتُ أوْسًا يُحَدِّثُ هٰذا الحديثَ بعدَ

---

(١) (صحيح). تقدّم تفصيل القول في قطعة منه (٢/ ١٣٧) ولسائر الحديث حكمها.

(٢) سقط القاسم من مطبوعة «التمهيد» وجاء على الجادّة في مطبوعة «الاستيعاب».

(٣) (ضعيف جدًا). رواه: ابن عديّ (١/ ٤٠١)، وأبو الشيخ في «أخلاقه ﷺ» (٧٨١)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢٤/ ٧٣) و«الاستيعاب» (١/ ١٧٤ـ إصابة)؛ من طريق الحسين بن حريث، [ثنا أوس بن عبدالله بن بريدة]، [ثنا سهل بن عبدالله بن بريدة]، [ثني الحسين بن واقد]، عن عبدالله بن بريدة، عن أبيه... رفعه. وهٰذا سند ساقط، سواء أرواه أوس عن أخيه أم لا، فكلاهما متروك بتهمة.

ورواه البزّار (١٣٤٣ـ مختصر الزوائد) عن عبدالعزيز بن عمران، ثنا أفلح بن سعيد، عن سليمان بن فروة، عن أبيه، عن بريدة... بنحوه مختصرًا. قال البزّار: «لا نعلم له إلّا هٰذا الطريق». وقال الهيثمي (٦/ ٥٨): «فيه عبدالعزيز بن عمران الزهري وهو متروك». قلت: وسليمان وأبوه لم أقف لهما على ذكر.

والحديث ساقط بمفردات طرقه ومجموعها، وقد ضعّفه ابن عدي والهيثمي والعسقلاني والألباني.

ذٰلكَ عن أخيهِ سَهْلِ بنِ عَبْدِاللهِ عن أبيهِ عَبْدِاللهِ بنِ بُرَيْدَةَ، فأعَدْتُ ثلاثًا: مَن حَدَّثَكَ؟ قالَ: سَهْلٌ أخي.

* والذي يَكْشِفُ أمرَ حديثِ اللَّقْحَةِ ما زادَهُ ابنُ وَهْبٍ في «جامعه» [في] الحديثِ، فقالَ بعدَ أنْ ذَكَرَهُ: فقامَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ فقالَ: أتَكَلَّمُ يا رسولَ اللهِ أمْ أصْمُتُ؟ قالَ: «بلِ اصْمُتْ، وأُخْبِرُكَ بما أرَدْتَ، ظَنَنْتَ يا عُمَرُ أنَّها الطِّيَرَةُ، ولا طيرَ إلاَّ طيرُهُ ولا خيرَ إلاَّ خيرُهُ، ولٰكنْ أُحِبُّ الفألَ الحسنَ»[1]. فزالَ بذٰلكَ تعلُّقُ المتطيِّرينَ ووَضَحَ أمرُ الحديثِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

* ويُمْكِنُ أنْ يَكونَ هٰذا منهُ ﷺ على سبيلِ التَّأديبِ لأُمَّتِهِ لئلاَّ يَتَسَمَّوا بالأسماءِ القبيحةِ وليُبادِرَ مَن أسْلَمَ منهُم ولهُ اسمٌ قبيحٌ إلى إبدالِهِ بغيرِهِ، مِن غيرِ إيجابٍ منهُ ولا إلزامٍ، ولٰكنْ لوجهينِ مِن الاستحبابِ:

أحدُهُما[2]: انتقالُهُم عن مذاهبِ آبائِهِم ومقاصدِ سلفِهِمُ الفاسدةِ القبيحةِ التي يُحْزِنُ بها بعضُهُم بعضًا عندَ سماعِها وموافاةِ أهلِها ومخالطتِهِم ومفاجأتِهِم؛ لِما يَبْقى في ذٰلكَ مِن آثارِ الطِّيَرَةِ الكامنةِ في الغريزةِ، فإنْ سَلِمَ العبدُ منها وجاهَدَ نفسَهُ عليها عندَ لُقْيا صاحبِها وسماعِهِ لاسمِ أخيهِ؛ لمْ يَسْلَمْ مِن الكمدِ وحزنِ القلبِ، وقد يُؤَدِّي ذٰلكَ إلى البغضاءِ وإلى ضربٍ مِن النَّفرةِ والتَّفرقةِ كالصَّديقِ يَدْعوهُ الصَّديقُ القبيحُ الاسمِ فقد يَتَمَنَّى خاطرُهُ أنَّهُ لمْ يَصْحَبْهُ ولا رَآهُ ولا سَمِعَ اسمَهُ، حتَّى إذا صاحَ بهِ ودَعاهُ ذو الاسمِ الحسنِ؛ ابْتَهَجَ إليهِ وأقْبَلَ عليهِ وسُرَّ بصياحِهِ ودعائِهِ لهُ لراحةِ قلبِهِ إلى حسنِ اسمِهِ، فقد يَدْعو البعيدَ مِن قلبِهِ ويُبْعِدُ الصَّديقَ مِن نفسِهِ مِن أجلِ اسمِهِ، فكيفَ بهِ إذا رَآهُ مِن يومِهِ وعَبَّرَ لهُ تعبيرَ السُّوءِ مِن اشتقاقِ اسمِهِ؟! كيفَ يَعودُ متمنِّيًا لفقدِهِ في رقادِهِ متكرِّهًا للقائِهِ متطيِّرًا لرؤيتِهِ؟!

---

(١) (ضعيف جدًّا). وقد تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٣٧).

(٢) اقتصر يرحمه الله على ذكر أحد الوجهين فقط: فإمّا أنّه ذهل عن الآخر لطول الكلام، وإمّا أنّه أودعه في تضاعيف الكلام دون تصريح. وهٰذا الثاني أرجح، وعندي أنّه ما سيأتي (٣/ ٢٧٨) من قوله: «وقد يكون خوفه ﷺ على أهل الأسماء المكروهة...» إلخ.

وهٰذا ضدُّ التَّوادِ والتَّراحمِ والتَّوالفِ الذي قَصَدَ الشَّارعُ ربطَهُ بينَ المؤمنينَ، فكَرِهَ ﷺ لأُمَّتِهِ مقامَها على حالةٍ يُؤْذي بها بعضُهُم بعضًا لغيرِ عذرٍ ولا فائدةٍ تَعودُ عليهِم لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ ويُؤَدِّي هٰذا إلى التَّقاطعِ والتَّنافرِ، معَ أنَّهُ ﷺ قد نَدَبَهُم وٱسْتَحَبَّ لأحدِهِم[1] إدخالَ السُّرورِ على أخيهِ المسلمِ ما ٱسْتَطاعَ ودفعَ الأذى والمكروهِ عنهُ: فقالَ: «لا تَقاطَعوا، ولا تَدابَروا، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا، المسلمُ أخو المسلمِ»[2]. وقد أمَرَهُم يومَ الجمعةِ بالغسلِ والطِّيبِ عندَ ٱجتماعِهِم لئلَّا يُؤْذِيَ بعضُهُم بعضًا برائحتِهِ التي إنَّما يَتَجَشَّمُها ساعةً للاجتماعِ ثمَّ يَفْتَرِقا[3]. ومَنَعَ آكلَ الثُّومِ والبصلِ مِن دخولِ المسجدِ لأجلِ تأذِّي النَّاسِ والملائكةِ بهِ[4]. ومنعَ الاثنينِ أنْ يَتَناجَيا دونَ صاحبِهِما خشيةَ تأذِّيهِ وحزنِهِ[5]. ومَنَعَ أحدَهُم أنْ يَأْخُذَ متاعَ[6] أخيهِ لاعبًا لأنَّ ذٰلكَ يُؤْذيهِ[7].

---

(١) في ط: «وٱستحبّ لهم»! ولا يستقيم الكلام إلّا بما أثبتّه.

(٢) رواه: البخاري (٧٨ـ الأدب، ٥٧ـ ما ينهى عن التحاسد والتدابر، ١٠/ ٤٨١/ ٦٠٦٤ و٦٠٦٥)، ومسلم (٤٥ـ البرّ، ٧و٩ـ تحريم التحاسد والظنّ، ٤/ ١٩٨٥/ ٢٥٦٣ و٢٥٥٩)؛ من حديث أبي هريرة وأنس.

(٣) رواه: البخاري (١١ـ الجمعة، ٣ـ الطيب للجمعة، ٢/ ٣٦٤/ ٨٨٠)، ومسلم (٧ـ الجمعة، ٢ـ الطيب والسواك، ٢/ ٥٨١/ ٨٤٦)؛ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٤) رواه: البخاري (١٠ـ الأذان، ١٦٠ـ الثوم النيء والبصل، ٢/ ٣٣٩/ ٨٥٣-٨٥٦)، ومسلم (٥ـ المساجد، ١٧ـ نهي من أكل ثومًا وبصلًا، ١/ ٣٩٣/ ٥٦١ و٥٦٢ و٥٦٤)؛ من حديث ابن عمر وجابر وأنس. ورواه مسلم (الموضع السابق، ٥٦٣ و٥٦٥ و٥٦٧) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وعمر.

(٥) رواه: البخاري (٧٩ـ الاستئذان، ٤٥ـ لا يتناجى ٱثنان دون الثالث، ١١/ ٨١/ ٦٢٨٨ و٦٢٩٠)، ومسلم (٣٩ـ السلام، ١٥ـ تحريم مناجاة الاثنين، ٤/ ١٧١٧/ ٢١٨٣ و٢١٨٤)؛ عن ابن عمر وابن مسعود.

(٦) في ط: «أن يأكل متاع»! وهٰذا تحريف ظاهر صوابه ما أثبتّه.

(٧) (حسن صحيح). رواه: الطيالسي (١٣٠٢)، وأحمد (٤/ ٢٢١)، وعبد بن حميد (٤٣٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٤١)، وأبو داوود (٣٥ـ الأدب، ٩٣ـ من يأخذ الشيء على المزاح، ٢/ ٧١٩/ ٥٠٠٣)، والترمذي (٣٤ـ الفتن، ٣ـ لا يحلّ أن يروّع مسلمًا، ٤/ ٤٦٢/ ٢١٦٠)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٢٨٦٧)، والدولابي في «الكنى» (١٩٤٨)، والطحاوي (٤/ ٢٤٣)، وابن قانع في «المعجم» (١/ ١٠٣)، والطبراني (٢٢/ ٢٤١/ ٦٣٠)، والحاكم (٣/ ٦٣٧)، والبيهقي في «السنن» (٦/ ٩٢ و١٠٠) و«الشعب» (٥٤٩٤)، والبغوي (٢٥٧٢)، وابن عساكر (١٩/ ٧١)، والمزّي في «التهذيب» (١٤/ ٥٥٧)؛ من طرق، عن ابن أبي ذئب، عن عبدالله بن السائب بن يزيد، عن أبيه، عن جده... رفعه (وسقط أبوه عند الطيالسي، وجدّه في إحدى روايتي أحمد، ووقع سقط وخلط شديدان في مطبوعة المزّي لم يتنبّه لهما =

ومعلومٌ أنَّ ضررَ الاسمِ القبيحِ على كثيرٍ منهُم أشدُّ عليهِ عندَ همِّهِ وخروجِهِ مِن منزلِهِ ورؤيةِ صاحبِهِ في منامِهِ ودعائِهِ لهُ مِن رائحةِ الثُّومِ والبصلِ!

وهٰذا مِن كمالِ رأفتِهِ ورحمتِهِ ﷺ بالمؤمنينَ وعزَّةِ ما عَنِتوا عليهِ[١].

ولهٰذا ـ واللهُ أعلمُ ـ: غَيَّرَ كثيرًا مِن الأسماءِ القبيحةِ بأحسنَ منها، وغَيَّرَ أسماءً حسنةً إلى غيرِها خشيةَ الطِّيَرَةِ والتَّأذِّي عندَ نفيِها والخروجِ مِن عندِ المسمَّى، أو لتضمُّنِها تزكيةَ النَّفسِ ونحوِها:

فالأوَّلُ: كتغييرِهِ ٱسمَ الحُبابِ بنِ المُنْذِرِ بعَبْدِالرَّحْمٰنِ[٢]. وقالَ: «الحُبابُ ٱسمُ

= المحقّق). وهٰذا سند حسن من أجل عبدالله؛ فإنّه لم يرو عنه إلّا ابن أبي ذئب، لٰكن وثّقه كبار أهل الفنّ، فهٰذا يرفع جهالته ويحسّن حديثه، وإلى ذٰلك مال الترمذي والمنذري والعراقي والعسقلاني والألباني.

ورواه الطبراني (٧/ ١٤٥/ ٦٦٤١) مرّة عن ابن أبي ذئب، عن عبدالله بن يزيد بن السائب، عن أبيه، عن جدّه... رفعه. قال الهيثمي (٤/ ١٧٥): «فيه عبدالله بن يزيد بن السائب، ولم أجد من ترجمه». قلت: هو وهم من شيخ الطبراني على الأغلب والمحفوظ في الحديث ما تقدّم.

وله شاهد بلفظه من حديث زيد بن ثابت عند الحاكم (٣/ ٤٢١) لٰكنّ سنده ساقط. وآخر لمعناه من حديث بعض الصحابة عند أبي داوود (٥٠٠٤) بسند حسن. وثالث من حديث النعمان بن بشير عند الطبراني في «الكبير» (٦/ ٢٥٧ـ مجمع) و«الأوسط» (١٦٩٤) بسند وثّق الهيثمي رجاله. ورابع من حديث سليمان بن صرد عند الطبراني (٧/ ٩٩/ ٦٤٨٧) بسند فيه كلام. وخامس من حديث أبي حسن الأنصاري عند الطبراني (٢٢/ ٣٩٤/ ٩٨٠) بسند ضعيف.

(١) عزّة ما عنتوا عليه: صعوبة مشقّة المسلمين عليه ﷺ.

(٢) (ضعيف جدًّا). رواه ابن وهب في «الجامع» (٥٢): أني الليث بن سعد، عن خالد بن يزيد، عن ابن أبي هلال؛ أنّ رسول الله ﷺ... فذكره. وهٰذا معضل، سعيد بن أبي هلال لم يلق أحدًا من الصحابة، فقد سقط هنا التابعي والصحابي.

وروى: ابن أبي عاصم في «الآحاد» (٢٤٨٠)، وابن قانع في «المعجم» (٦٣٧)؛ من طريق قويّة، عن سويد بن عبدالعزيز، عن داوود بن عيسى، عن إسماعيل السدّيّ، عن خيثمة بن عبدالرحمٰن بن أبي سبرة، عن أبيه؛ قال: دخلت أنا وأبي على النبيّ ﷺ. فقال لأبي: «هٰذا ٱبنك؟». قال: نعم. قال: «ما ٱسمه؟». قال: الحباب. قال: «الحباب شيطان، لٰكن هو عبدالرحمٰن». وفيه علل: أولاها: أنّ سويدًا واهٍ. والثانية: داوود ما عرفته. والثالثة: السدّيّ ليّن. والرابعة: أنّهم ٱضطربوا فرواه: ابن أبي عاصم في «الآحاد» (٢٤٨٠)، والطبراني (٨/ ٥٣ـ مجمع)؛ من طريق سويد، عن داوود، عن السريّ بن إسماعيل، عن عبدالرحمٰن بن أبي سبرة... به. قال الهيثمي: «السريّ بن إسماعيل متروك». والخامسة: أنّهم خالفوا رواية الثقات في حديث عبدالرحمٰن بن سبرة أنّه ﷺ غيّر ٱسم عزيز وليس الحباب إلى عبدالرحمٰن كما سيأتي (٢/ ٢٧٠-٢٧١). وعلى هذا؛ فالحديث بهٰذا اللفظ منكر ساقط.

الشَّيطـانِ»(١). وغَيَّـرَ أبـا مُـرَّةَ إلـى أبـي حُلْـوَةَ(٢). وغَيَّـرَ أبـا العـاصـي إلـى

= وعليه؛ فقد جاء تغيير أسم الحباب بن المنذر بعبدالرحمٰن معضلاً، ولم يترجم من صنّفوا في الصحابة لعبدالرحمٰن بن المنذر ولا ذكروا في ترجمة الحباب شيئًا من هٰذا، فبان أنّه مطّرح لا يصح.

(١) (حسن). وقد جاء عن النبيّ ﷺ من وجوه:

* تقدّم في الحاشية السابقة من وجه ساقط عن عبدالرحمٰن بن أبي سبرة ومن وجه معضل أيضًا.

* ورواه ابن عدي (١/ ٢٣٢) من طريق إبراهيم بن الفضل المدنيّ، عن سعيد المقبريّ، عن أبي هريرة... رفعه. وإبراهيم متروك.

* ورواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٨٥٣) من طريق قويّة، عن حمّاد، عن عطاء بن السائب، عن الشعبيّ، أنّ عمر بن الخطاب قال: قال ﷺ لعبدالله بن عبدالله بن أبيّ: «الحباب أسم شيطان، أنت عبدالله». وفيه علل: أولاها: أنّ ابن السائب أختلط، والراوي عنه هنا هو حمّاد بن سلمة، وقد سمع قبل الاختلاط وبعده فلم تسلم رواياته. والثانية: أنّه خولف: فرواه الطبري (١٧٠٣٩ و١٧٠٤٤) من طريقين، عن مغيرة، [عن شباك]، عن الشعبيّ، عن النبيّ ﷺ... مرسلاً. وشباك ثقة من رجال مسلم، فالقول قوله. والثالثة: أنّ الشعبيّ لم يلحق عمر. فالوصل ضعيف منكر، والمعروف هنا الإرسال.

* وروى الطبري (٣٤١٧١) من طريق إبراهيم بن الحكم، ثني أبي، عن عكرمة؛ أنّ عبدالله بن عبدالله بن أبيّ كان يقال له حباب فسمّاه ﷺ عبدالله. وإبراهيم بن الحكم ضعّف لوصله مراسيل أبيه، وليس هٰذا منها، فأرجو أنّ السند صالح.

* وروى: معمر في «الجامع» (١٩٨٤٩) وابن وهب في «الجامع» (٥٨) عن الزهريّ، وابن وهب في «الجامع» (٧٤) من وجه واه عن محمّد بن المنكدر، وابن وهب في «الجامع» (٧٦) من وجه ضعيف عن محمّد بن حبّان، وابن وهب في «الجامع» (٧٧) من وجه لا بأس به عن عبدالله بن أبي بكر بن محمّد بن عمرو بن حزم، وابن أبي شيبة (٢٥٨٨٩) من طريق قويّة عن عروة، وابن منده في «الصحابة» (١/ ٤١٤ـ غاية) عن سعيد بن المسيّب؛ أنّ رجلاً كان أسمه الحباب، فسمّاه ﷺ عبدالله وقال: «الحباب أسم الشيطان».

فقد جاء هٰذا الحديث من ثمانية أوجه مرسلة منها ستّة من مراسيل كبار التابعين، فلا بدّ أن يكون له أصل قويّ أو أصول عدّة تقوم بأجتماعها الحجّة؛ لأنّه من المستبعد أن يكون كلّ منهم تلقّاه عن الآخر، أو يكونوا جميعًا تلقّوه من مصدر واحد ضعيف ومنهم الكوفيّ والمدنيّ والمكّي، وما كانوا يجالسون الضعفاء ولا السفهاء، بل جلّ مرويّات ابن المسيّب وعروة والشعبيّ عن الصحابة، بل أتّفقوا أنّ مرسلات ابن المسيّب أصحّ المرسلات وأنّ الشعبيّ لا يكاد يرسل إلاّ صحيحًا. فأرجو أنّ الحديث حسن بأجتماع هٰذه المرسلات، وأمّا الموصولات؛ فواهية منكرة لا يلتفت إليها ولا كرامة. والله أعلى وأعلم.

(٢) (ضعيف). قال العسقلاني في «الإصابة» (٤/ ٤٥): «ذكره الفاكهي في «كتاب مكّة» من طريق ابن جريج؛ قال: جاء مولى العبّاس إلى النبيّ ﷺ فقال: أنا أبو مرّة مولى العبّاس. فقال: بل أنت أبو حلوة». قلت: وهٰذا مرسل أو معضل.

ورواه ابن وهب في «الجامع» (٦٤): أني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن ابن شهاب، عن النبيّ ﷺ. وهٰذا مرسل.

ولا يقوّي أحد الوجهين الآخر؛ لأنّ ابن جريج من أصحاب الزهري، فلا يبعد أن يكون تلقّاه منه، =

مُطيع[١]. وغَيَّرَ عاصِيَةَ بجَميلَةَ[٢]. وغَيَّرَ ٱسمَ بني الشَّيطانِ إلى بني عبدِاللهِ[٣]. وغَيَّرَ ٱسمَ أَصْرَمَ إلى ٱسمِ زُرْعَةَ[٤]. وغَيَّرَ ٱسمَ حَزْنٍ جدِّ سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ إلى سَهْلٍ فأبى قبولَ ذٰلكَ فلَزِمَهُ مسمًّى ٱسمِهِ مِن الحزونةِ لهُ ولذرِّيَّتِهِ[٥].

وقالَ أبو داوودَ: وغَيَّرَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ٱسمَ العاصِ[٦] وعَزِيزٍ[٧]

= فيعود الوجهان وجهًا واحدًا معلولاً.

(١) قطعة من حديث رواه مسلم (٣٢ـ الجهاد، ٣٣ـ لا يقتل قرشيّ صبرًا، ٣/ ١٤٠٩/ ١٧٨٢) من حديث مطيع؛ قال: «كان ٱسمه العاصي، فسمّاه ﷺ مطيعًا». فهو العاصي وليس بأبي العاصي. ولا يبعد عندي أن يكون في الكلام تحريف صوابه: «وغيّر أيضًا العاصي إلى مطيع». والله أعلم.

(٢) رواه مسلم (٣٨ـ الآداب، ٣ـ تغيير الاسم القبيح، ٣/ ١٦٨٦/ ٢١٣٩) من حديث ابن عمر.

(٣) (ضعيف جدًّا، لٰكن تغييره ﷺ ٱسم شيطان إلى عبدالله صحيح).

رواه ابن وهب في «الجامع» (٨٧): أني ابن لهيعة . . . فذكره عنه ﷺ. وهٰذا معضل.

لٰكن روى أحمد (٤/ ٣٥٠) من طريق إسماعيل بن عيّاش، عن بكر بن زرعة الخولانيّ، عن مسلم بن عبدالله الأزديّ؛ قال: جاء عبدالله بن قرط إلى النبيّ ﷺ. فقال ﷺ: «ما ٱسمك؟». قال: شيطان بن قرط. فقال له ﷺ: «أنت عبدالله بن قرط». قال الهيثمي (٨/ ٥٤): «رجاله ثقات». قلت: إسماعيل حسن الحديث في الشاميّين وهٰذا منه، وبكو صدوق، ومسلم صحابيّ، فالسند حسن.

ورواه الطبراني (٨/ ٥٤ـ مجمع) من حديث عبدالله بن قرط نفسه، قال الهيثمي: «ورجاله ثقات».

وقال العسقلاني في «التهذيب» (ترجمة عبدالله بن قرط): «قصّة تغيير ٱسمه رواها أبو نعيم في «الصحابة» بإسناد لا بأس به». قلت: يريد أحد الإسنادين المتقدّمين، والحديث صحيح بمجموعهما.

(٤) (حسن). رواه: ابن سعد (٧/ ٣٩)، وأبو داوود (٣٢ـ الأدب، ٧٠ـ تغيير الاسم القبيح، ٢/ ٧٠٦/ ٤٩٥٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (١٢٢٠)، والروياني (١٤٩٠)، وابن قانع في «المعجم» (٨)، وابن السكن (١/ ٣١ـ إصابة)، والطبراني (١/ ١٩٦/ ٥٢٣ و٨٧٤)، والحاكم (٤/ ٢٧٦)، وأبو نعيم في «المعرفة»، وابن الأثير في «الغابة» (١/ ١١٨)، والضياء في «المختارة» (٤/ ٨٩/ ١٣٠٥ و١٣٠٦ و١٤٩٤)؛ من طريق قويّة، عن بشير بن ميمون، عن عمّه أسامة بن أخدري، [عن أصرم]؛ أنّ النبيّ ﷺ قال له: «ما ٱسمك؟». قال: أصرم. قال: «بل أنت زرعة».

وهٰذا حسن من أجل ابن ميمون؛ فإنّه صدوق لا يرقى حديثه إلى الصحّة. وقد جعله بعضهم من مسند أسامة وبعضهم من مسند أصرم كما ترى: فإمّا أنّ أسامة سمعه من النبيّ ﷺ ثمّ ثبّته فيه أصرم. أو أنّه سمعه من أصرم فرواه موصولاً ومرسلاً، ولا يضرّ؛ فإنّ مراسيل الصحابة حجّة عند أهل العلم، ولذٰلك قوّاه الحاكم والنووي والذهبي وابن القيّم والهيثمي والألباني.

(٥) رواه البخاري. وقد تقدّم نصّه وتخريجه (٢/ ١٣٨).

(٦) تقدّم قبل قليل.

(٧) (صحيح). روى: ابن سعد (٦/ ٥٠٣)، وابن أبي شيبة (٢٥٨٨٦)، وأحمد (٤/ ١٧٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٢٤٧٩ و٢٤٨٠)، والبزّار (١٩٩٣ـ كشف)، وابن قانع في «المعجم» (٦٣٦ و٦٣٧)، =

وعَتَلَة(١) ....

= وابن حبّان (٥٨٢٨)، والطبراني (٨/ ٥٢ـ مجمع)، وابن منده (٢/ ٣٩٩ـ إصابة)، والحاكم (٤/ ٢٧٦)، وعبدالغني بن سعيد الأزدي في «المؤتلف» (ص١٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥)، وابن الأثير في «الغابة» (٣/ ١٢١)؛ من طرق، عن خيثمة بن عبدالرحمٰن بن أبي سبرة يزيد، [عن أبيه]؛ أنّه ذهب مع جدّه إلى رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ: «ما آسم آبنك؟». قال: عزيز. فقال النبيّ ﷺ: «لا تسمّه عزيزًا، ولٰكن سمّه عبدالرحمٰن». ثمّ قال: «إنّ خير الأسماء عبدالله وعبدالرحمٰن والحارث». ولم يسوقوه جميعًا هٰذه السياقة، بل أقتصر بعضهم على بعضه.

قال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح، لٰكن ظاهر [بعض رواياته] الإرسال». قلت: آختلف على أبي إسحاق السبيعي والعلاء بن المسيّب وإسماعيل السدّي وصلاً وإرسالاً، وروي عن الأعمش مرسلاً. والتفصيل في هٰذه المرويّات يطول بغير كبير فائدة، فالوصل راجح لأمور: أوّلها: أنّه جاء من أوجه قويّة، فله حكم زيادة الثقة. والثاني: أنّه من المستبعد أن لا يسمع خيثمة هٰذا الخبر المهمّ العظيم الشأن من أبيه. والثالث: أنّه توبع فرواه ابن أبي عاصم في «الآحاد» (٢٤٧٨) من طريق قويّة، عن شيخ من أهل الكوفة، عن الشعبيّ، عن عبدالرحمٰن بن أبي سبرة. وسنده ضعيف للشيخ المبهم. والرابع: وتوبع عبدالرحمٰن أيضًا فرواه: أحمد (٤/ ١٧٨)، والبخاري في «الكنى» (ص٤٠)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٢٤٧٧ و٢٧٦٩)، والدولابي في «الكنى» (٢١٣)، وابن قانع في «المعجم» (١٠٦١)، والطبراني (٧/ ١١٨/ ٦٥٥٩ و٦٥٦٠، ٢٢/ ٢٩٥/ ٧٥٣ و٧٥٤)، وأبو أحمد الحاكم في «الكنى» (٢/ ١٤ـ إصابة)، وابن منده (٢/ ٣٩٩ـ إصابة)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢/ ٣٥)؛ من طريق حجّاج بن أرطاة، عن عمير بن سعيد، عن سبرة بن أبي سبرة، [عن أبيه]... به وبنحوه وهٰذا ضعيف؛ فحجّاج شديد التدليس على لين فيه.

وجملة القول أنّ الوصل في حديث خيثمة راجح، وأنّه إن لم يكن صحيحًا لذاته؛ فهو صحيح بالمتابعات، وقد قوّاه ابن حبّان والحاكم والذهبي والهيثمي والألباني.

وروى: ابن منده وأبو موسى في «الصحابة» (٣/ ١٦٠ـ غابة)، والمستغفري (٢/ ٤٢٨ـ إصابة)؛ أنّ عبدالعزيز بن سيف بن ذي يزن قدم على النبيّ ﷺ وآسمه عزيز فقال له ﷺ: «بل أنت عبدالعزيز». قال العسقلاني: «رجال إسناده مجاهيل». قلت: جميعهم، والسند ساقط، والمعوّل على الحديث السابق وحده.

(١) (منكر. والصواب أنّه غير نشبة إلى عتبة).

رواه الطبراني (١٧/ ١٢٢/ ٣٠٠) من طريق عبدالوهّاب بن الضحّاك، ثنا إسماعيل بن عيّاش، عن ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن عتبة؛ أنّه ﷺ قال له: «ما آسمك؟». قال: عتلة بن عبد. قال ﷺ: «أنت عتبة بن عبد». وهٰذا ساقط عبدالوهّاب متّهم. نعم؛ توبع عند ابن منده ومن طريقه ابن عساكر (٣٨/ ٢٨٠ و٢٨١) لٰكن متابعته مجملة قاصرة لم يذكر فيها الاسم.

ورواه: ابن قانع (٢/ ٢٦٦/ ٧٨٧)، والطبراني (١٧/ ١٢٠/ ٢٩٦)، وابن منده في «الصحابة» (٣/ ٢٠٠ـ غابة)، وأبو نعيم في «الصحابة» (٣/ ٢٠٠ـ غابة)، وابن عساكر (٣٨/ ٢٨١ و٢٨٢، ٦٤/ ٣٢٣)؛ من طريق محمّد بن القاسم الطائي، ثنا يحيى بن عتبة بن عبد، عن عتبة بن عبد... به. قال الهيثمي (٨/ ٥٦): «رواه الطبراني من طرق، ورجال بعضها ثقات». قلت: يريد هٰذا، ولٰكنّ محمّدًا ويحيى فيهما جهالة.

ورواه: أحمد في «العلل» (٥٣٦١)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (١٣٦٣)، والطبراني في «الكبير»=

والشَّيطانِ(١) والحَكَمِ(٢) وغُرابٍ(٣) وحُبابٍ(٤)، وشِهابٍ فسَمَّاهُ هشامًا(٥)، وسَمَّى حَرْبًا

= (١٧/ ١٢٥/ ٣٠٨) و«الشاميّين» (١٠١١ و١٦٠٩)، وابن عبدالبرّ في «الاستيعاب» (٣/ ١١٨)، وابن عساكر (٣٨/ ٢٨٠)؛ من طريق صفوان بن عمرو، [عن عقيل بن مدرك]، [عن لقمان بن عامر]، [عن عتبة بن عبد]؛ أنّ النبيّ ﷺ سأله: «ما ٱسمك؟». قال: نشبة. قال: «أنت عتبة بن عبد». وهٰذا سند حسن، لولا أنّهم ٱختلفوا فيه وصلاً وإرسالاً، على أنّ الطريق الموصولة قويّة، فالمعوّل عليها.

وعليه؛ فقد ٱختلفوا في أصل ٱسمه رضي الله عنه، والراجح أنّه نشبة، ومن قال عتلة فقد جمع الضعف إلى المخالفة وهي حدّ النكارة.

(١) (صحيح). تقدّم تفصيل القول فيه قبل قليل.

(٢) (حسن). رواه: البخاري في «التاريخ» (٢/ ٣٣٠)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٥٣٩ و٥٤٠)، وابن قانع في «المعجم» (١/ ٢٠٦/ ٢٣٦)، والطبراني (٩/ ٤١٩/ ٣٩١ـ مختارة، ٨/ ٥٧ـ مجمع)، وابن عدي (٢/ ١٢٥) معلّقًا، والدارقطني في «الأفراد» (٢٩/ ٥٤ـ عساكر)، وابن شاهين (١/ ٣٤٤ـ إصابة)، وابن منده (٢٩/ ٥٣ـ عساكر)، وابن عبدالبرّ في «الاستيعاب» (١/ ٣١٤)، وابن عساكر (٢٩/ ٥٣ و٥٤)، والضياء في «المختارة» (٩/ ٤١٩/ ٣٩١)؛ من طريقين تقوّي إحداهما الأخرى، عن عمرو بن يحيى بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص، عن جدّه سعيد، سمعت الحكم بن سعيد، أنّه أتى النبيّ ﷺ فسلّم عليه، فقال: «ما ٱسمك؟». قال: الحكم. قال: «أنت عبدالله». قال: أنا عبدالله يا رسول الله. قال الهيثمي: «رجاله ثقات إن شاء الله». قلت: عمرو وسعيد ثقتان، وٱجتماع الطريقين يعطيهما قوّة، فالسند حسن.

وروى: الطبراني (٣/ ٢١٤/ ٣١٦٩)، وابن منده، ومن طريقه ابن عساكر (٢٩/ ٥٣)؛ عن أبي أميّة بن يعلى الطائفي، ثني جدّي، عن عمّه الحكم بن سعيد... فذكر نحوه. قال الهيثمي (٨/ ٥٦): «أبو أميّة بن يعلى متروك». قلت: وهي في كلّ الأحوال حادثة أخرى غير الحادثة السابقة، والحكم هٰذا غير المتقدّم قبله.

(٣) (ضعيف). رواه: ابن سعد (٦/ ١٤)، والبخاري في «الأدب» (٨٢٤) و«التاريخ» (٧/ ٢٥٢)، وابن قتيبة في «مختلف الحديث» (ص١٤٠)، وابن أبي خيثمة في «التاريخ» (١٣٤ـ ضعيف الأدب)، والبزّار (١٧٠٥ـ مختصر الزوائد)، وأبو يعلى (٦٨٤٠)، والروياني (١٤٩٣)، والبغوي في «المعجم» (٣/ ٤١٧ـ إصابة)، وابن السكن (٣/ ٤١٧ـ إصابة)، والطبراني (١٩/ ٤٣٣/ ١٠٥٠)، والحاكم (٤/ ٢٧٥)، والمزّي في «التهذيب» (١٤/ ٣٩٢)؛ من طرق، عن عبدالله بن الحارث بن أبزى، ثني أمّي رائطة بنت مسلم، عن أبيها؛ أنّه كان ٱسمه غرابًا فسمّاه مسلمًا. صحّحه الحاكم والذهبي! وقال الهيثمي (٨/ ٥٥): «رائطة لم يضعّفها أحد ولم يوثّقها، وبقيّة رجال أبي يعلى ثقات». قلت: عبدالله موثّق، ورائطة ذكرها ابن حبّان في «الثقات» ولم يرو عنها إلّا ٱبنها وعدّها الذهبي والعسقلاني في المجاهيل، فهي علّة السند، وبها ضعّفه الألباني.

(٤) (حسن). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٥) (صحيح). رواه: الطيالسي (١٥٠١)، والبخاري في «الأدب» (٨٢٥)، وابن حبّان (٥٨٢٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢٤٠٨)، والحاكم (٤/ ٢٧٦)، والبيهقي في «الشعب» (٥٢٢٧)، وابن بشكوال في «الغوامض» (٢/ ٦١٧)، وابن المديني في «ذيل معرفة الصحابة» (٤/ ٢٨٧ـ غابة)، والذهبي في «النبلاء» (١٣/ ٤٣٩)؛ من طريق عمران القطان، عن قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن سعد بن هشام، عن عائشة؛ أنّ النبيّ ﷺ قال لرجل: «ما ٱسمك؟». قال: شهاب. قال: «بل أنت هشام». وهٰذا سند حسن، ثقات رجال =

سَلْمًا[١]، وسَمَّى المُضْطَجعَ المُنْبَعِثَ[٢]، وأرضًا اسمُها عَفِرَةُ سَمَّاها خَضِرَةَ[٣]، وشعبَ الضَّلالةِ سَمَّاهُ شعبَ الهدى[٤]، وبنو الزِّنيةِ سَمَّاهُم بني الرِّشْدَةِ[٥]، وسَمَّى بني مُغْوِيَةَ بني

= الستّة؛ إلّا القطان؛ فصدوق حسن الحديث.

ورواه: ابن سعد (٧/ ١٦)، والطبراني (٢٢/ ١٧١/ ٤٤٢)، والحاكم (٤/ ٢٧٦)، وابن بشكوال في «الغوامض» (٢/ ٦١٧)؛ من طريق قويّة، عن علي بن زيد، عن الحسن، عن هشام بن عامر؛ قال: أتيت النبيّ ﷺ. فقال: «ما أسمك؟». قلت: شهاب. قال: «بل أنت هشام». قال الهيثمي (٨/ ٥٤): «فيه علي بن زيد، وهو حسن الحديث وفيه ضعف، وبقيّة رجاله رجال الصحيح». قلت: عليّ بن زيد بن جدعان لا يعدو أن يكون حسنًا في الشواهد، والحسن عنعن على تدليسه.

والحديث صحيح بمجموع طريقيه، وقد قوّاه ابن حبّان والحاكم والذهبي والألباني.

(١) (لا يصحّ). قال العسقلاني في «الإصابة» (٢/ ٦٢): «ذكر أبو داوود في «السنن» [٣٥ـ الأدب، ٦٢ـ تغيير الاسم القبيح، ٢/ ٧٠٧/ ٤٩٥٦] بغير إسناد أنّ النبيّ ﷺ غيّر أسم رجل كان أسمه حربًا فقال أنت سلم» اهـ. فهٰذا العسقلاني على شدّة تتبّعه وطول باعه لم يقف له على أصل مسند فأقتصر على ما تقدّم.

(٢) (صحيح). وقد جاء من أوجه:

* فرواه ابن إسحاق في «السيرة» (٤/ ١٩١ـ غابة، ٣/ ٤٥٧ـ إصابة)، ثنا رجل، عن ابن المنكدر، عن النبيّ ﷺ. وهٰذا ضعيف على إرساله من أجل الرجل المبهم.

* وقال العسقلاني في «الإصابة» (٣/ ٤٥٨): «وكذا جاء عن يحيى بن سعيد الأنصاريّ عن سعيد بن المسيّب». قلت: هٰذا مرسل صحيح.

* ورواه: ابن أبي شيبة (٢٥٨٨٩)، وأبو داوود في «الكنى» (٣/ ٤٥٨ـ إصابة)، وابن شاهين (٣/ ٤٥٨ـ إصابة)؛ من طرق، عن هشام بن عروة، عن أبيه، [عن عائشة]... رفعته. قال العسقلاني: «حديث صحيح». قلت: لٰكن أختلفوا فيه وصلاً وإرسالاً، والطريق الموصولة قويّة، فالحكم لها.

والحديث صحيح كما قال العسقلاني إن لم يكن بطريقه الموصولة وحدها فبمجموع طرقه.

(٣) (صحيح). رواه: أبو يعلى (٤٥٥٦)، والطحاوي في «المشكل» (٣/ ٣٤٤)، وابن حبّان (٥٨٢١)، والطبراني في «الأوسط» (٦٥٢ و٨٠٠٤) و«الصغير» (٣٥٠)، وابن عدي (٤/ ١٣٣٤)، والبيهقي في «الشعب» (٥٢٢٨)، والخطيب في «التاريخ» (٧/ ٣٦٨)؛ من طريقين، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، عن النبيّ ﷺ... به. قال الهيثمي (٨/ ٥٤) عن إحدى طريقيه: «رواه الطبراني في «الصغير» ورجاله رجال الصحيح». وقال عن الأخرى: «رواه أبو يعلى والطبراني في «الأوسط» ورجال أبي يعلى رجال الصحيح». قلت: لا ريب أنّ الحديث صحيح بمجموع طريقيه لٰكن أختلفوا في أصل الاسم، فروي غفرة وعقرة وغدرة وعزرة وعذرة، والأرجح عندي أنّها غدرة والروايات الأخرى تحريف أو تصحيف. والله أعلم.

(٤) (ضعيف). رواه معمر في «الجامع» (١٩٨٦٢) عن هشام بن عروة، عن أبيه؛ أنّ مكانًا كان يسمّى بقيّة الضلالة فسمّاه ﷺ بقيّة الهدى. وهٰذا سند رجاله ثقات، لٰكنّه مرسل.

(٥) (ضعيف). وقد جاء من أوجه:

* فرواه: ابن سعد (١/ ١٤١)، وابن عساكر (٢٥/ ١٥٣)؛ من طريق محمّد بن عمر، ثنا هشام بن سعد، عن محمّد بن كعب القرظي... فذكره. وهٰذا ساقط من أجل محمّد بن عمر الواقدي فإنّه متّهم.

رِشْدَةَ[١]. وقالَ أبو داوودَ: تَرَكْتُ أسانيدَها للاختصارِ.

وقالَ مسروقٌ: لَقِيتُ عُمَرَ. فقالَ: مَن أنتَ؟ فقُلْتُ: مَسْروقُ بنُ الأجدعِ. فقالَ عُمَرُ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «الأجْدَعُ شيطانٌ»[٢].

وأمَّا الثَّاني: ففي «صحيح مسلم»[٣] عن سَمُرَةَ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تُسَمِّيَنَّ غلامَكَ يَسارًا ولا رَباحًا ولا نَجيحًا ولا أفْلَحَ؛ فإنَّكَ تَقولُ: أثَمَّ هوَ؟ فيُقالُ: لا». وغَيَّرَ اسمَ بَرَّةَ بزَيْنَبَ[٤]. وكَرِهَ أنْ يُقالَ: خَرَجَ مِن عندِ بَرَّةَ[٥].

وأمَّا الثَّالثُ: فكتغييرِهِ أبا الحَكَمِ بأبي شُرَيْحٍ[٦]. وتغييرِهِ أيضًا بَرَّةَ بزَيْنَبَ وقالَ:

= * ورواه: ابن سعد (١/ ١٤١)، وابن عساكر (٢٥/ ١٥٣)؛ من طريق هشام بن محمّد الكلبي، عن أبيه... فذكره. وهٰذا ساقط أيضًا هشام وأبوه متّهمان.

* قال العسقلاني في «الإصابة» (١/ ٣٤١): «وروى عمر بن شبّة بإسناد صحيح إلى أبي وائل... [فذكره وزاد] لا ندع اسم أبينا». وهٰذا قويّ، ولٰكنّه مرسل.

(١) (ضعيف). رواه معمر في «الجامع» (١٩٨٦٢) عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن النبيّ ﷺ... به. وهٰذا سند رجاله ثقات، لٰكنّه مرسل.

وروى ابن سعد (١/ ١٦٠) عن هشام بن محمّد بن السائب، أنا أبو عبدالرحمٰن المدني، عن النبيّ ﷺ... بلفظ «بنو غيان» و«بنو رشدان». وهشام متّهم ساقط، والسند معضل.

(٢) (ضعيف). رواه: ابن أبي شيبة (٢٥٨٩٣)، وأحمد (١/ ٣١)، وابن ماجه (٣٣ـ الأدب، ٣١ـ ما يكره من الأسماء، ٢/ ١٢٢٩/ ٣٧٣١)، وأبو داوود (٣٥ـ الأدب، ٧٠ـ تغيير الاسم القبيح، ٢/ ٧٠٧/ ٤٩٥٧)، والبزّار (٣١٨ و٣١٩)، والحاكم (٤/ ٢٧٩)، والخطيب في «التاريخ» (١٣/ ٢٣٢)، والمزّي في «التهذيب» (١٥/ ٣١٦)؛ عن مجالد، عن الشعبيّ، عن مسروق، عن عمر... رفعه.

وهاهنا علل: **أولاها**: أنّ في مجالد بن سعيد ضعفًا، وحديثه لا يعدو أن يكون صالحًا في المتابعات. **الثانية**: أنّه تفرّد برفعه ورواه غيره موقوفًا. فرواه: ابن سعد (٦/ ٣٩٨ و٣٩٩)، وأحمد في «العلل» (٣٣)؛ من ثلاثة أوجه عن عمر موقوفًا. واثنان من هٰذه الأوجه ساقطان والثالث منقطع، فليست بأولى من طريق مجالد بن سعيد المتقدّمة، ولٰكنّها تزيدها ضعفًا.

وجملة القول أنّ الحديث لا يثبت موقوفًا ولا مرفوعًا، وقد مال إلى إعلاله أحمد والدارقطني والحاكم والمنذري والذهبي والألباني.

(٣) (٣٨ـ الآداب، ٢ـ كراهة التسمية بالأسماء القبيحة، ٣/ ١٦٨٥/ ٢١٣٧).

(٤) رواه: البخاري (٧٨ـ الأدب، ١٠٨ـ تحويل الاسم إلى أحسن منه، ١٠/ ٥٧٥/ ٦١٩٢)، ومسلم (الموضع السابق، ٣/ ١٦٨٧/ ٢١٤١)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه مسلم (الموضع السابق، ٢١٤٠) من حديث ابن عبّاس رضي الله عنه.

(٦) (صحيح). رواه: ابن سعد (٦/ ٣٨٥)، والبخاري في «الأدب» (٨١١) و«التاريخ» (٨/ ٢٢٧)، =

«لا تُزَكُّوا أنفسَكُم». فروى مسلمٌ في «صحيحه»[(١)]: عن مُحَمَّدِ بنِ عَمْرِو بنِ عَطاءٍ؛ أنَّ زَيْنَبَ بنتَ أبي سَلَمَةَ سَأَلَتْهُ: ما سَمَّيْتَ بنتَكَ؟ قالَ: سَمَّيْتُها بَرَّةَ. فقالَتْ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نَهى عن هٰذا الاسمِ، وسُمِّيتُ بَرَّةَ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «لا تُزَكُّوا أنفسَكُم، اللهُ أعلمُ بأهلِ البرِّ منكُم». فقالوا: ما نُسَمِّيها؟ قالَ: «سمُّوها زَيْنَبَ».

ومِن هٰذا ما في الصحيحين[(٢)]: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ أخنعَ اسمٍ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ رجلٌ تَسَمَّى ملكَ الأملاكِ، لا مالكَ إلاَّ اللهُ». وقالَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ: مثلَ شاهان شاه.

وذَكَرَ ابنُ وَهْبٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بغلامٍ، فقالَ: «ما سَمَّيْتُم هٰذا؟». قالوا: السَّائِبَ. فقالَ: «لا تُسَمُّوهُ السَّائبَ، ولٰكنْ سَمُّوهُ عَبْدَاللهِ». قالَ: فغُلِبوا على اسمِهِ، فلم يَمُتْ حتَّى ذَهَبَ عقلُهُ[(٣)].

فإنْ قيلَ: فقد كانَ لرسولِ اللهِ ﷺ غلامٌ اسمُهُ رَباحٌ[(٤)]، وكانَ لأبي أيُّوبَ غلامٌ اسمُهُ أَفْلَحُ، ولعَبْدِاللهِ بنِ عُمَرَ غلامٌ اسمُهُ رَباحٌ!

قيلَ: هٰذا النَّهيُ مِن النَّبيِّ ﷺ لمْ يَكُنْ على وجهِ العزيمةِ والحتمِ ولٰكنْ كانَ على

= وأبو داوود (الموضع السابق، ٤٩٥٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٢٨٧٣)، والنسائي (٤٩ـ القضاة، ٧ـ إذا حكّموا رجلاً، ٨/٢٢٦/٥٤٠٢)، والدولابي (٤٠٧)، وابن قانع في «المعجم» (١١٧٩)، وابن حبّان (٥٠٤)، والطبراني (٢٢/١٧٨/ ٤٦٤-٤٦٦)، والحاكم (١/ ٢٤، ٤/ ٢٧٩)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ١٤٥) و«الصفات» (١٣٤)، والخطيب في «التاريخ» (٨/ ٤٤٦)، وابن الأثير في «الغابة» (٤/ ٢٦١)؛ من ثلاث طرق، عن المقدام بن شريح بن هانئ، عن أبيه شريح، عن جدّه هانئ بن يزيد. . . به.

قال الحاكم في الموضع الثاني: «تفرّد به قيس [ابن الربيع] عن المقدام، وليس من شرط هٰذا الكتاب»، ووافقه الذهبي. قلت: قيس صدوق تغيّر بأخرة وأدخل عليه ولده ما ليس من حديثه، ولٰكن تابعه عليه: شريك القاضي ويزيد بن المقدام بن شريح، والأول لا بأس به في الشواهد والآخر حسن الحديث. وبقيّة السند ثقات رجال مسلم، إلاّ الصحابي، فهو صحيح، وقد صحّحه ابن حبّان وابن القيّم والألباني.

(١) (الموضع السابق، ٢١٤٢).

(٢) البخاري (٧٨ـ الأدب، ١٤ـ أبغض الأسماء إلى الله، ١٠/٥٨٨/ ٦٢٠٥ و٦٢٠٦)، ومسلم (٣٨ـ الآداب، ٤ـ التسمّي بملك الأملاك، ٣/ ١٦٨٨/ ٢١٤٣).

(٣) (حسن دون قوله فغلبوا على أسمه. . .). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٣٨).

(٤) كما جاء في سياق حديث عمر الطويل في إيلاء النبيّ ﷺ من نسائه عند مسلم (١٨ـ الطلاق، ٥ـ الإيلاء واعتزال النساء، ٢/ ١١٠٥/ ١٤٧٩). وأصل الحديث عند البخاري (٥١٩١) دون ذكره.

جهةِ الكراهةِ، والدَّليلُ عليه:

ما رَوى البخاريُّ في «صحيحه»: عن سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، عن أبيهِ، عن جدِّهِ حَزْنٍ؛ أنَّهُ أتى النَّبيَّ ﷺ، فقالَ لهُ: «ما آسمُكَ؟». قالَ: حَزْنٌ. فقالَ: «أنتَ سَهْلٌ». قالَ: لا أُغَيِّرُ آسمًا سَمَّانيهِ أبي[1]. فلمْ يُنْكِرْ عليهِ النَّبيُّ ﷺ ولا أخْبَرَهُ أنَّ ذٰلكَ معصيةٌ، بل سَكَتَ عنهُ.

وكذٰلكَ لمَّا غَيَّرَ آسمَ السَّائبِ فأبَوْا تغييرَهُ لمْ يُنْكِرْ عليهِم[2].

وأيضًا؛ فرَوى مسلمٌ في «صحيحه»[3] مِن حديثِ: أبي الزُّبَيْرِ، عن جابرٍ؛ قالَ: أرادَ النَّبيُّ ﷺ أنْ يَنْهى أنْ يُسَمَّى بيَعْلى وبَرَكَةَ وأفْلَحَ ويَسارٍ ونافعٍ ونحوِ ذٰلكَ، ثمَّ رَأيْتُهُ سَكَتَ بعدُ عنها فلمْ يَقُلْ شيئًا، ثمَّ قُبِضَ ولمْ يَنْهَ عن ذٰلكَ، ثمَّ أرادَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنهُ أنْ يَنْهى عن ذٰلكَ ثمَّ تَرَكَهُ[4].

● [فصلٌ آخرُ في الفرقانِ بينَ الفألِ والطِّيَرَةِ]:

ورَأيْتُ لبعضِهِم في الفرقِ بينَ الفألِ والطِّيَرَةِ كلامًا ما أذْكُرُهُ بلفظِهِ:

---

(١) رواه البخاري. وقد تقدّم تخريجه (٢/ ١٣٨).

(٢) (حسن). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٣٣٨).

(٣) (٣٨ـ الآداب، ٢ـ التسمية بالأسماء القبيحة، ٣/ ١٦٨٦/ ٢١٣٨). وقد صرّح فيه أبو الزبير بالسماع من جابر فأمنّا تدليسه.

(٤) السؤال المطروح هنا هو: لماذا منع النبيّ ﷺ حربًا ومرّة عن حلب الناقة؟ أليس هٰذا من التطيّر؟

وهاهنا أجوبة عدّة صرّح ابن القيّم ببعضها ولمّح لبعضها في تضاعيف الكلام:

فأوّلها: قول ابن عبدالبرّ: «ليس هٰذا عندي من باب الطيرة. . . وإنّما هو من طلب الفأل الحسن». وهٰذا حقّ، وهو مقتضى النصوص الصريحة في أنّه ﷺ كان لا يتطيّر لٰكن كان يُسرّ بالاسم الحسن، ولٰكنّه لا يبيّن الفرق بين منع حرب ومرّة عن الحلب وبين التطيّر بأسميهما.

والثاني: كلام عمر رضي الله عنه وجواب النبيّ ﷺ له فيما رواه ابن وهب. وهٰذا غير صحيح أوّلاً، وليس فيه بيان للفرق بين المنع والتطيّر ثانيًا.

والثالث: أنّ هٰذا جاء منه ﷺ على سبيل تأديب المسلمين بهجر الأسماء القبيحة وأستبدالها بالحسنة؛ تأليفًا بينهم وحماية لقلب صاحب الاسم القبيح وغيره من الناس من التطيّر والتشاؤم وحفظًا لجانب التوحيد.

والرابع: أنّه جاء منه ﷺ على سبيل النفرة الطبيعيّة المشروعة من القبائح والميل الطبيعي المشروع للمستحسنات، فكما أنّ العين تنفر من المناظر القبيحة وتميل للمستحسنة والأذن تنفر من الأصوات القبيحة وتميل للمستحسنة ـ وكذٰلك ـ اللسان والأنف، فكذٰلك القلب ينفر من الأسماء القبيحة ويميل للمستحسنة، وكما أنّ الإسلام لم يأت بالتسوية بين نهيق الحمير وتغريد البلابل فكذٰلك لم يأت بالتسوية بين مرّة ويعيش.

* قالَ: أمَّا ما رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَتَفاءَلُ ولا يَتَطَيَّرُ؛ فهما، وإنْ كانَ معناهُما واحدًا في الاستدلالِ، فبينَهُما ٱفتراقٌ؛ لأنَّ الفأْلَ إبانةٌ والتَّطيُّرَ ٱستدلالٌ، والإبانةُ أكثرُ وأشهرُ وأوضحُ وأفصحُ؛ لأنَّ مَن كانَ في قلبِهِ وضميرِهِ شيءٌ، فَسَمعَ قائلاً يَقولُ أقبلَ الخيرُ وٱمْضِ بسلامٍ أو أَبْشِرْ أو نحوَ ذٰلكَ؛ فقدِ ٱكْتَفى بما سَمعَ مِن الاستدلالِ، والذي يَرى طائرًا يَصيحُ أو يَنوحُ فليسَ معَهُ إلاَّ الاستدلالُ على اليمنِ بالسَّانحِ والشُّؤْمِ بالبارحِ، وهٰذا أمرٌ قد يَكونُ وقد لا يَكونُ، وذٰلكَ الفأْلُ في الأعمِّ يَكونُ[١].

* وقالَ آخرونَ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَتَطَيَّرُ؛ أي: لَمْ يَكُنْ يُسْنِدُ الأُمورَ الكائنةَ مِن الخيرِ والشَّرِّ إلى الطَّيرِ كما يَفْعَلُ الكهنةُ[٢].

* وقال آخرونَ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا جَلَسَ معَ أصحابِهِ فتكَلَّمَ أحدُهُم بخيرٍ أو سَمعَ مَن تَكَلَّمَ؛ حَضَّهُم عليهِ وعَرَّفَهُم بهِ، ومعلومٌ أنَّهُ لا بدَّ لطائرٍ أنْ يَمُرَّ سانحًا أو بارحًا أو قعيدًا أو ناطحًا فلا يُوقِفُهُم عليهِ ولا يُعَرِّفُهُم بهِ إذْ ذٰلكَ مِن فعلِ الكهَّانِ، وكانَ الحديثُ المرويُّ عنهُ ﷺ أنَّهُ كانَ يَتَفاءَلُ ولا يَتَطَيَّرُ مِن هٰذا المعنى، وقد أغْنى اللهُ رسولَهُ ﷺ بإخبارِهِ إيَّاهُ وبإرسالِ جبْريلَ إليهِ بما يُحْدِثُهُ سبحانَهُ مِن الاستدلالِ على أحداثِهِ بالأشياءِ التي يَنْظُرُ فيها غيرُهُ تفرقةً منهُ سبحانَهُ بينَ النُّبوَّةِ وغيرِها[٣].

● [فصلٌ في أثرِ الاسمِ في صاحبِهِ]:

فإنْ قيلَ: فهٰذا الذي نَزَلَ بهٰذينِ الرَّجلينِ ـ وهما السَّائِبُ وحَزْنٌ ـ هل كانَ مِن أجلِ ٱسميهِما أم مِن جهةِ غيرِ الاسمِ؟

قيلَ: قد يَظُنُّ مَن لا يُنْعِمُ النَّظَرَ أنَّ الذي نَزَلَ بهِما هوَ مِن جهةِ ٱسميهِما، ويُصَحِّحُ بذٰلكَ أمرَ الطِّيَرَةِ وتأْثيرَها، ولو كانَ ذٰلكَ كما ظَنُّوهُ؛ لَوَجَبَ أنْ يَنْزِلَ بجميعِ مَن تَسَمَّى بٱسميهِما مِن أوَّلِ الدَّهرِ، ولَكانَ ٱقتضاءُ الاسمِ لذٰلكَ كٱقتضاءِ النَّارِ الإحراقَ والماءِ

---

(١) غير بيّن.

(٢) فيه نظر؛ لأنّ مقتضاه أنّ من تطيّر بشيء دون نسبة الخير والشرّ إلى ذاته فلا بأس عليه!

(٣) فيه نظر كبير؛ لأنّ مقتضاه أنّ النبيّ ﷺ كان لا يتطيّر لأنّ الله أغناه بالوحي، وأمّا من لم يستغن بالوحي؛ فلا بأس عليه!

التَّبريدَ ونحوِهِ. ولٰكنْ يُحْمَلُ ذٰلكَ ـ واللهُ أعلمُ ـ على أنَّ الأمرينِ الجاريينِ عليهِما قد تَقَدَّما في أُمِّ الكتابِ كما تَقَدَّمَ لهُما أيضًا أنْ يَتَسَمَّيا بأسميهِما إلى أنْ يَخْتارَ لهُما رسولُ اللهِ ﷺ غيرَهُما فيَرْغَبانِ عنِ ٱختيارِهِ ويَتَخَلَّفانِ[1] عنِ ٱستجابتِهِ، فيُعاقَبانِ بما قد سَبَقَ لهُما عقوبةً تُطابِقُ ٱسميهِما، لِيَكونَ ذٰلكَ زاجرًا لمَن سواهُما.

وقد يَكونُ خوفُهُ ﷺ على أهلِ الأسماءِ المكروهةِ أيضًا مِن مثلِ هٰذهِ الحوادثِ؛ إذْ قد يَنْزِلُ بالإنسانِ بلاءٌ مشبَّهٌ بما في ٱسمِهِ، فيَظُنُّ هوَ أو جميعُ مَن بَلَغَهُ أنَّ ذٰلكَ كانَ مِن أجلِ ٱسمِهِ عادَ عليهِ بشؤْمِهِ، فيَعْصي اللهَ عَزَّ وجَلَّ.

وقد كَرِهَ قومٌ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ أنْ يُسَمُّوا عبيدَهُم عَبْدَاللهِ أو عَبْدَالرَّحْمٰنِ أو عَبْدَالمَلِكِ ونحوَ ذٰلكَ مخافةَ أنْ يَعْتِقَهُم ذٰلكَ: قالَ سَعيدُ بنُ جُبَيْرٍ: كُنْتُ عندَ ابنِ عَبَّاسٍ سنةً لا أُكَلِّمُهُ ولا أعْرِفُهُ ولا يَعْرِفُني، حتَّى أتاهُ يومًا كتابٌ مِن ٱمرأةٍ مِن أهلِ العراقِ، فدَعا غلمانَهُ، فجَعَلَ يَكْني عن عُبَيْدِاللهِ وعَبْدِاللهِ وأشباهِهِم ويَدْعو يا مخراقُ يا وثَّابُ! وروى أبو مُعاوِيَةَ، عنِ الأعمشِ، عن إبْراهيمَ؛ قالَ: كانوا يَكْرَهونَ أنْ يُسَمِّيَ الرَّجلُ غلامَهُ عَبْدَاللهِ مخافةَ أنَّ ذٰلكَ يَعْتِقُهُ. وروى مُغيرةُ، عن أبي مَعْشَرٍ، عن إبْراهيمَ؛ أنَّهُ كَرِهَ أنْ يُسَمِّيَ مملوكَهُ عَبْدَاللهِ وعَبْدَالمَلِكِ وعَبْدَالرَّحْمٰنِ وأشباهَهُ مخافةَ العتقِ.

قالَ بعضُ أهلِ العلمِ: كراهتُهُم لذٰلكَ نظيرُ ما كَرِهَ رسولُ اللهِ ﷺ مِن تسميةِ المماليكِ بِرباحٍ ونافعٍ وأفْلَحَ؛ لأنَّ ذٰلكَ كانَ منهُ ﷺ حذرًا مِن أنْ يُقالَ: أهاهُنا نافعٌ؟ فيُقالَ: لا، أو ثَمَّ أفْلَحُ؟ فيُقالَ: لا، أو بَرَكَةُ أو يَسارٌ أو رَباحٌ؟ فيُقالَ: لا. ومعلومٌ أنَّ السَّائلَ عن إنسانٍ ٱسمُهُ أفلحُ أو نافعٌ أو رباحٌ هل هوَ في مكانٍ كذا إنَّما مسألتُهُ تلكَ عن مسمًّى شخصٍ مِن أشخاصِ بني آدَمَ سُمِّيَ بٱسمٍ جُعِلَ عليهِ دليلاً يُعْرَفُ بهِ إذا ذُكِرَ؛ إذ كانَتِ الأسماءُ الفُرادى[2] المفرِّقةُ بينَ الأشخاصِ المتشابهةِ إنَّما هيَ أدلَّةٌ على المسمَّينَ بها لا مسألةٌ عن شخصٍ صفتُهُ النَّفعُ والفلاحُ والبركةُ. وذٰلكَ مِن كراهتِهِ ﷺ نظيرُ كراهتِهِ

(١) في ط: «فيرغبون عن ٱختياره ويتخلّفون»! بالجمع بين مثنّى قبله ومثنّى بعده! وما هو بالمستساغ أبدًا! والغالب أنّه من بلايا النسّاخ.

(٢) في ط: «إذا كانت الأسماء العوادي»! وهٰذان تحريفان بيّنان، أرجو أنّ صوابهما ما أثبتّه.

تسميةَ تلكَ المرأةِ بَرَّةَ فحَوَّلَ ٱسمَها جُوَيْرِيَةَ وتحويلِهِ ٱسمَ أرضٍ كانَ ٱسمُها عَفِرَةَ فرَدَّها خَضِرَةً ونحوُ ذٰلكَ كثيرٌ. ومعلومٌ أنَّ تحويلَهُ ما حَوَّلَ مِن هٰذهِ الأسماءِ عمَّا كانَ عليهِ لَمْ يَكُنْ لأنَّ التَّسميةَ بما كانَ المسمَّى بهِ منهُم مسمًّى قبلَ تحويلِهِ ذٰلكَ كانَ حرامَ التَّسميةِ، ولٰكنْ كانَ ذٰلكَ منهُ على وجهِ الاستحبابِ وٱختيارِ الأحسنِ على الذي هوَ دونَهُ في الحسنِ؛ إذْ كانَ لا شيءَ في القبيحِ مِن الأسماءِ إلَّا وفي الجميلِ الحسنِ منها مثلُهُ مِن الدّلالةِ على المسمَّى بهِ معَ تخيُّرِ الأحسنِ بفضلِ الحسنِ والجمالِ مِن غيرِ مؤنةٍ تَلْزَمُ صاحبَهُ بسببِ التَّسمِّي.

وكذٰلكَ كراهةُ مَن كَرِهَ تسميةَ مملوكِهِ عَبْدَاللهِ وعَبْدَالرَّحْمٰنِ ما كانَتْ[1] كراهةُ ذٰلكَ حذرًا أنْ يُوجِبَ ذٰلكَ لهُ العتقَ، ولا شكَّ أنَّ جميعَ بني آدمَ عبيدُ اللهِ أحرارَهُم وعبيدَهُم وَصَفَهُم بذٰلكَ واصفٌ أو لَمْ يَصِفْهُم، ولٰكنَّ الذينَ كَرِهوا التَّسميةَ بذٰلكَ صَرَفوا هٰذهِ الأسماءَ عن رقيقِهِم لئلاَّ يقَعَ اللبسُ على السَّامعِ بذٰلكَ مِن أسمائِهِم فيَظُنَّ أنَّهُم أحرارٌ؛ إذ كانَ ٱستعمالُ أكثرِ النَّاسِ التَّسميةَ بهٰذهِ الأسماءِ في الأحرارِ، فتَجَنَّبوا ذٰلكَ إلى ما يُزيلُ اللبسَ عنهُم مِن أسماءِ المماليكِ[2]. واللهُ أعلمُ.

● **فصلٌ [في أنَّ موافقةَ قولِ عُمَرَ للقدرِ ليستْ مِن الطِّيَرَةِ]:**

وأمَّا الأثرُ الذي ذَكَرَهُ مالكٌ: عن يَحْيى بنِ سَعيدٍ؛ أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ لرجلٍ: ما ٱسمُكَ؟ قالَ: جَمْرَةُ... الحديثَ إلى آخرِه[3]!

فالجوابُ عنهُ أنَّهُ ليسَ بحمدِ اللهِ فيهِ شيءٌ مِن الطِّيَرَةِ، وحاشا أميرَ المؤمنينَ رَضِيَ اللهُ عنهُ مِن ذٰلكَ، وكيفَ يَتَطَيَّرُ وهوَ يَعْلَمُ أنَّ الطِّيَرَةَ شركٌ مِن الجبتِ، وهوَ القائلُ في حديثِ اللَّقْحَةِ ما تَقَدَّمَ[4]؟!

ولٰكنَّ وجهَ ذٰلكَ ـ واللهُ أعلمُ ـ أنَّ هٰذا القولَ كانَ منهُ مبالغةً في الإنكارِ عليهِ

---

(١) في ط: «إنّما كانت»! وهٰذا تحريف بيّن دلّ عليه ما بعده.

(٢) وهٰذا أقرب وأولى من تأويل من توهّمه خشية العتق، فالعبد عبدٌ، ولا يعتقه أن يسمّى عبدالله وعبدالرحمٰن وملِكًا ومالكًا شرعًا ولا لغةً ولا عقلاً. والله أعلم.

(٣) تقدّم بطوله (٣/ ٢٣٨).

(٤) (ضعيف جدًّا). ٱنظره (٣/ ٢٣٧).

لاجتماعِ أسماءِ النَّارِ والحريقِ في ٱسمِهِ وٱسمِ أبيهِ وجدِّهِ وقبيلتِهِ ودارِهِ ومسكنِهِ، فوافَقَ قولُهُ «ٱذْهَبْ فقدِ ٱحْتَرَقَ منزلُكَ» قدرًا، ولَعَلَّ قولَهُ كانَ السَّببَ[١].

وكثيرًا ما يَجْري مثلُ هٰذا لمَن هوَ دونَ عُمَرَ بكثيرٍ، فكيفَ بالمحدَّثِ الملهَمِ الذي ما قالَ لشيءٍ إنِّي لأظُنُّهُ كذا إلاَّ كانَ كما قالَ، وكانَ يَقولُ الشَّيءَ ويُشيرُ بِهِ فيَنْزِلُ القرآنُ بموافقتِهِ[٢]، فإذا نَزَلَ الأمرُ الدِّينيُّ بموافقةِ قولِهِ؛ فكذٰلكَ وقوعُ الأمرِ الكونيِّ القدريِّ موافقًا لقولِهِ:

ففي الصَّحيحين[٣]: عن عائشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ أنَّهُ كانَ يَقولُ: «قد كانَ في الأُمم قبلَكُم محدَّثونَ، فإنْ يَكُنْ في أُمَّتي أحدٌ منهُم؛ فعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ» رَضِيَ اللهُ عنهُ. قالَ ابنُ وَهْبٍ: تفسيرُ «محدَّثونَ» ملهَمونَ.

وفي «صحيح البخاريِّ»[٤]: عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لقد كانَ فيمَن كانَ قبلَكُم مِن بني إسرائيلَ رجالٌ يُكَلَّمونَ[٥] مِن غيرِ أنْ يكونوا أنبياءَ، فإنْ يَكُنْ في أُمَّتي منهُم أحدٌ؛ فعُمَرُ».

وفي الصَّحيحين[٦]: عن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: «وافَقْتُ ربِّي في ثلاثٍ: في مقامِ إبراهيمَ، وفي الحجابِ، وفي أُسارى بدرٍ».

وفي «صحيح البخاريِّ»[٧]: عن أنسٍ؛ قالَ: قالَ عُمَرُ: وافَقَني اللهُ في ثلاثٍ

---

(١) يعني: على ما يقولون: البلاء موكل بالمنطق، وقد جاء هٰذا مرفوعًا، ولا يصحّ.

(٢) قال العسقلاني في «الفتح» (١/ ٥٠٥): «وأكثر ما وقفنا منها [يعني: موافقات عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما نزل من القرآن والأحكام الشرعيّة] بالتعيين على خمسة عشر، لٰكنّ ذٰلك بحسب المنقول»اهـ. قلت: يعني أنّه من الممكن أن يكون لعمر موافقات أخرى لم تنقل إلينا على وجه التفصيل. وأمّا ما سيأتي قريبًا من أنّ الموافقات ثلاث؛ فقال العسقلاني: «وليس في تخصيصه العدد بالثلاث ما ينفي الزيادة عليها لأنّه حصلت له الموافقة في أشياء غير هٰذه من مشهورها قصّة أسارى بدر وقصّة الصلاة على المنافقين وهما في الصحيح... وهٰذا دالّ على كثرة موافقته» اهـ.

(٣) بل تفرّد به مسلم عن عائشة (٤٤ـ الصحابة، ٢ـ من فضائل عمر، ٤/ ١٨٦٤/ ٢٣٩٨).

(٤) (٦٢ـ الصحابة، ٦ـ مناقب عمر، ٧/ ٤٢/ ٣٦٨٩).

(٥) في ط: «رجال يعلّمون»! وهٰذا تحريف لا معنى له، صوابه ما أثبتّه مستأنسًا بالصحيح.

(٦) رواه مسلم (الموضع السابق، ٤/ ١٨٦٥/ ٢٣٩٩) من حديث ابن عمر عن عمر. وٱنظر ما بعده.

(٧) (٨ـ الصلاة، ٣٢ـ ما جاء في القبلة، ١/ ٥٠٤/ ٤٠٢) من حديث أنس عن عمر. وٱنظر ما قبله.

(أو: وافقني ربي في ثلاث). قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ! لوِ اتَّخذْتَ مقامَ إبْراهيمَ مصلًّى. وقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ! يَدْخُلُ عليكَ البرُّ والفاجرُ، فلو أمَرْتَ أُمَّهاتِ المؤمنينَ بالحجابِ، فأنْزَلَ اللهُ آيةَ الحجابِ. وبَلَغَني معاتبةُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ بعضَ نسائِهِ، فدَخَلْتُ عليهِنَّ، فقُلْتُ: إنِ انْتَهَيْتُنَّ أو لَيُبَدِّلَنَّ اللهُ رسولَهُ خيرًا منكنَّ، حتَّى أتَيْتُ إحدى نسائِهِ، فقالَتْ: يا عُمَرُ! أما في رسولِ اللهِ ما يَعِظُ نساءَهُ حتَّى تَعِظَهُنَّ أنتَ؟! فأنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ [التحريم: ٥].

وفي الصَّحيحين[1]: أنَّهُ لمَّا قامَ ﷺ لِيُصَلِّيَ على عَبْدِاللهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلُولَ رأسِ المنافقينَ؛ قامَ عُمَرُ فأخَذَ ثوبَهُ وقالَ: يا رسولَ اللهِ! أتُصَلِّي عليهِ وقد نَهاكَ اللهُ أنْ تُصَلِّيَ عليهِ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّما خَيَّرَني اللهُ فقالَ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، وسأزيدُ عنِ السَّبعينَ». وصَلَّى رسولُ اللهِ ﷺ. فأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]. فترَكَ الصَّلاةَ عليهِم.

فإذا كانَتْ هٰذهِ موافقةَ عُمَرَ لربِّهِ في شرعِهِ ودينِهِ ويَنْطِقُ بالشَّيءِ فيكونُ هوَ المأمورَ المشروعَ؛ فكذٰلكَ لا يَبْعُدُ موافقتُهُ لهُ تعالى في قضائِهِ وقدرِهِ ويَنْطِقُ بالشَّيءِ فيكونُ هوَ المقضيَّ المقدورَ. فهٰذا لونٌ والطِّيَرَةُ لونٌ.

وكذٰلكَ جَرى لهُ تطيُّرٌ معَ رجلٍ آخرَ سَألَهُ عنِ اسمِهِ. فقالَ: ظالمٌ. فقالَ: ابنُ مَن؟ قالَ: ابنُ سارقٍ. قالَ: تَظْلِمُ ويَسْرِقُ أبوكَ!

وذَكَرَ المَدائِنيُّ عن أبي صُفْرَةَ ـ وهوَ أبو المُهَلَّبِ ـ أنَّهُ ابْتاعَ سلعةً بتأخيرٍ مِن رجلٍ مِن بني سَعْدٍ، فأرادَ أنْ يُشْهِدَ عليهِ، فقالَ لهُ: ما اسْمُكَ؟ قالَ: ظالمٌ. قالَ: ابنُ مَن؟ قالَ: ابنُ سَرَّاقٍ. قالَ: لا واللهِ؛ لا يكونُ عليكَ شيءٌ أبدًا[2].

---

(١) البخاري (٦٥ـ التفسير، ٩ـ سورة براءة، ١٢ـ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، ٨/ ٣٣٣/ ٤٦٧٠ و٤٦٧١) من حديث ابن عمر وابن عبّاس عن عمر، ومسلم (الموضع السابق، ٢٤٠٠) من حديث ابن عمر.

(٢) فلم يقبل أن يبقى له في ذمّته دين؛ لأنّ اسمه يدلّ على أنّه لن يؤدّي هٰذا الدين.

● فصلٌ [في أنَّ محبَّةَ التَّيمُّنِ ليستْ مِن التَّطيُّرِ بالشِّمالِ]:

وأمَّا محبَّةُ النَّبيِّ ﷺ التَّيمُّنَ في تنعُّلِه وترجُّلِه وطهورِه وشأْنِه كلِّه[١]؛ فليسَ هٰذا مِن بابِ الفأْلِ ولا التَّطيُّرِ بالشِّمالِ في شيءٍ؛ ولٰكنْ تفضيلُ اليمينِ على الشِّمالِ. فكانَ يُعْجِبُهُ أنْ يُباشِرَ الأفعالَ التي هيَ مِن بابِ الكرامةِ باليمينِ كالأكلِ والشُّربِ والأخذِ والعطاءِ، وضدَّها بالشِّمالِ كالاستنجاءِ وإمساكِ الذَّكرِ وإزالةِ النَّجاسةِ. فإنْ كانَ الفعلُ مشتركًا بينَ العضوينِ؛ بَدَأَ باليمينِ في أفعالِ التَّكريمِ وأماكنِه كالوضوءِ ودخولِ المسجدِ، وباليسارِ في ضدِّ ذٰلكَ كدخولِ الخلاءِ والخروجِ مِن المسجدِ ونحوِه.

واللهُ تَعالى فَضَّلَ بعضَ مخلوقاتِهِ على بعضٍ. وفَضَّلَ بعضَ جوارحِ الإنسانِ وأعضائِهِ على بعضٍ: ففَضَّلَ العينَ على الكعبِ، والوجهَ على الرِّجلِ. وكذٰلكَ فَضَّلَ اليدَ اليمينَ على اليسارِ.

وخَلَقَ خلقَهُ صنفينِ: سعداءَ وجَعَلَهُم أصحابَ اليمينِ، وأشقياءَ وجَعَلَهُم أصحابَ الشِّمالِ.

وقالَ النَّبيُّ ﷺ: «المقسطونَ عندَ اللهِ على منابرَ مِن نورٍ عن يمينِ الرَّحْمٰنِ، وكلتا يديهِ يمينٌ، الذينَ يَعْدِلونَ في حكمِهِم وأهليهِم وما وَلُوا»[٢].

وفي «الصَّحيح»[٣] عنهُ ﷺ: لمَّا أُسْرِيَ بهِ؛ رَأى آدَمَ في سماءِ الدُّنيا، وإذا عن يمينِهِ أسودةٌ وعن يسارِهِ أسودةٌ، فإذا نَظَرَ قِبَلَ يمينِهِ؛ ضَحِكَ[٤]، وإذا نَظَرَ قِبَلَ شمالِهِ بَكى. فقالَ: «ما هٰذا يا جِبْريلُ؟». فقالَ: هٰذا آدَمُ، وهٰذهِ الأسودةُ عن يمينِهِ ويسارِهِ بنوهُ، فأهلُ اليمينِ أهلُ السَّعادةِ مِن ذرِّيَّتِهِ، وأهلُ اليسارِ أهلُ الشَّقاوةِ.

وفي «المسند»: عن عائِشَةَ؛ قالَتْ: كانَتْ يدُ رسولِ اللهِ ﷺ اليمينُ لطهورِهِ وطعامِهِ، وكانَتْ يدُهُ اليسرى لخلائِهِ وما كانَ مِن أذًى[٥].

---

(١) كما سيأتي من حديث عائشة وحفصة رضي الله عنهما بعد سطور.

(٢) رواه مسلم (٣٣- الإمارة، ٥- فضيلة الإمام العادل، ٣/ ١٤٥٨/ ١٨٢٧) من حديث ابن عمرو.

(٣) قطعة من حديث الإسراء المتّفق عليه، وقد تقدم تخريجه (١/ ١٠٩).

(٤) في ط: «قبل يمينه عنه ضحك»! وهٰذه زيادة من الناسخ أو الطابع لا محلّ لها.

(٥) (صحيح). رواه: إسحاق (٣/ ٩٣٦/ ١٦٣٩)، وأحمد (٦/ ٢٦٥)، وأبو داوود (١ـ الطهارة، =

وفي «المسند» أيضًا و«سنن أبي داوود»: عن حَفْصَةَ بنتِ عُمَرَ زوجِ النَّبيِّ ﷺ: كانَ يَجْعَلُ يَمينَهُ لطعامِهِ، ويَجْعَلُ شمالَهُ لِما سوى ذٰلكَ[1].

وقالَ أحْمَدُ: كانَتْ يمينُهُ لطعامِهِ وطهورِهِ وصلاتِهِ وشأْنِهِ، وكانَتْ شمالُهُ لِما سوى ذٰلكَ[2].

● **فصلٌ [في وجهِ قولِهِ ﷺ: الشُّؤمُ في ثلاثةٍ]:**

وأمَّا قولُهُ ﷺ: «الشُّؤمُ في ثلاثٍ...» الحديثَ؛ فهوَ حديثٌ صحيحٌ مِن روايةِ

= ١٨ـ كراهة مسّ الذكر، ١/ ٥٥/ ٣٣ و٣٤)، وأبو الشيخ في «أخلاقه ﷺ» (٧٥٤ و٧٥٥)، والبيهقي (١/ ١١٣)، والبغوي في «السنّة» (٢١٧)؛ من طرق، عن سعيد بن أبي عروبة، عن أبي معشر، عن إبراهيم النخعي، [عن الأسود بن يزيد]، عن عائشة... به. وهٰذا سند قويّ رجاله ثقات، ولٰكنّهم اختلفوا في إثبات الأسود وإسقاطه، والحقّ أنّ ابن أبي عروبة تغيّر بأخرة، فالمعتمد سماع المتقدّمين كعبدالوهّاب بن عطاء، وهٰؤلاء أثبتوا الأسود، فصحّ السند واتّصل.

ورواه: ابن أبي شيبة (٢٥٤٦٠)، وأحمد (٦/ ١٦٥)؛ من طريق الأعمش، عن رجل، عن مسروق، عن عائشة... بنحوه. وهٰذا ضعيف للرجل المبهم.

فمن لم ترتح نفسه لتصحيح الحديث بالطريق الأولى وحدها؛ فليصحّحه بمجموع الطريقين، وقد صحّحه النووي والعسقلاني والألباني.

(١) (حسن). يرويه عاصم بن أبي النجود واختلف عليه فيه:

فرواه أوّلًا: أبو داوود (١ـ الطهارة، ١٨ـ كراهة مسّ الذكر باليمين، ١/ ٥٥/ ٣٢)، وأبو يعلى (٧٠٤٢ و٧٠٦٠)، وابن حبّان (٥٢٢٧)، والطبراني (٢٣/ ٢٠٣/ ٣٤٦)، والحاكم (٤/ ١٠٩)، والبيهقي (١/ ١١٣)؛ من طريق عبدالله بن علي أبي أيّوب الإفريقي، عنه، عن المسيّب بن رافع ومعبد بن خالد، عن حارثة بن وهب الخزاعي، عن حفصة... به. وهٰذا سند مقارب من أجل الإفريقي؛ فإنّه يخطئ.

ورواه ثانيًا: أحمد (٦/ ٢٨٧)، وعبد بن حميد (١٥٤٣)، والطبراني (٢٣/ ٢٠٣/ ٣٤٧)؛ من طريق زائدة بن قدامة، عنه، عن المسيّب بن رافع، عن حفصة... به. وزائدة ثبت، والمسيّب عن حفصة مرسل.

ورواه ثالثًا: إسحاق (١/ ١٩٠/ ٦)، وأحمد (٦/ ٢٨٨)، والبيهقي في «الشعب» (٢٧٨٦)؛ من طريق حمّاد بن سلمة، عنه، عن سواء الخزاعي، عن حفصة... به. وحمّاد ثقة، لٰكنّ سواء مجهول.

ورواه رابعًا أحمد (٦/ ٢٨٨) من طريق أبان بن يزيد العطّار، عنه، عن معبد بن خالد، عن سواء، عن حفصة... به. وأبان ثقة، لٰكن سواء مجهول.

فالراجح أنّ عاصمًا ـ وفيه كلام ـ اضطرب في هٰذا الحديث على أربعة أوجه أوّلها فيه ضعف والثلاثة التالية ضعيفة، ومثل هٰذا الاضطراب يجعل الحديث ضعيفًا، ولا سيّما أنّ أقوى هٰذه الأوجه إسنادًا ـ وهو الأوّل ـ هو أضعفها رجحانًا لضعف يسير في راويه بالنسبة للأوجه الثلاثة الأخيرة التي رواها الثقات، ولذٰلك ضعّفه الذهبي. لٰكن يشهد له حديث عائشة المتقدّم وغيره، فهو حسن بشواهده، ولعلّه لذٰلك صحّحه الألباني.

(٢) (حسن). هٰذه بعض ألفاظ حديث حفصة المتقدّم قبله، ولها حكمه.

ابنِ عُمَرَ[١] وسَهْلِ بنِ سَعْدٍ[٢] ومُعاوِيَةَ بنِ حَكيمٍ[٣].

وقد رُوِيَ أنَّ أُمَّ سَلَمَةَ كانَتْ تَزيدُ السَّيفَ؛ يَعْني: في حديثِ الزُّهْرِيِّ عن حَمْزَةَ وسالمٍ عن أبيهِما في الشُّؤمِ[٤].

---

(١) متّفق عليه. وقد تقدّم نصّه وتخريجه (٣/ ٢٣٩و٢٥٠).

(٢) متّفق عليه. وقد تقدّم نصّه وتخريجه (٢/ ٢٣٩ و٢٥٠).

(٣) (لم أقف عليه بهٰذا اللفظ، وهو منكر بغيره). رواه: سعيد (٢٩٩٦)، وابن ماجه (٩ـ النكاح، ٥٥ـ اليمن والشؤم، ١/ ٦٤٢/ ١٩٩٣)، والترمذي (٤٤ـ الأدب، ٥٨ـ ما جاء في الشؤم، ٥/ ١٢٧/ ٢٨٢٤)، والطحاوي في «المشكل» (٣/ ٣٤١)، والطبراني (٢٠/ ٣٣٦/ ٧٩٦)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٩/ ٢٧٩)، والعسقلاني في «التهذيب» (٢/ ٣٨٨) تعليقًا؛ من طريق سليمان بن سليم الكلبي، عن يحيى بن جابر، عن معاوية بن حكيم (وجاء مرّة: حكيم بن معاوية)، عن عمّه (ومرّة: عن أبيه) حكيم بن معاوية (ومرّة: مخمر بن معاوية، ومرّة: مخمر بن حيدة)، عن النبيّ ﷺ قال: «لا شؤم، وقد يكون اليمن في المرأة والدار والفرس».

قال البوصيري: «إسناده صحيح رجاله ثقات». وقال العسقلاني في «الفتح» (٦/ ٦٢): «في إسناده ضعف مع مخالفته للأحاديث الصحيحة». قلت: أمّا ضعف الإسناد؛ فلجهالة تابعيّه معاوية بن حكيم؛ فإنّه لم يرو عنه إلّا يحيى بن جابر ولم يوثّقه أحد. وأمّا مخالفة المتن لأحاديث الصحيحين؛ فبيّنة. وهٰذا حدّ النكارة. وصحّحه الألباني رحمة الله عليه فما أصاب.

وعليه؛ ففي المتن هنا إشكالان: **الأوّل**: أنّ صحابيّه هو حكيم بن معاوية لا معاوية بن حكيم، ولا يبعد أنّ في الكلام سقطًا صوابه «معاوية بن حكيم عن أبيه» أو «معاوية بن حكيم عن عمّه». **والثاني**: أنّه ليس بلفظ حديثي ابن عمر وسهل. والله أعلم.

(٤) (شاذّة). جاءت زيادة السيف في حديث الشؤم من وجهين:

فرواه النسائي (٩٢٨٠): أنا الحسين بن عيسى، نا ابن أبي فديك، عن ابن أبي ذئب، عن ابن شهاب، عن محمّد بن زيد بن قنفذ، عن سالم بن عبدالله، أنّ رسول الله... فذكر حديث الشؤم وزاد فيه السيف. قال العسقلاني في «النكت الظراف» (٥/ ٣٣٨): «مدرج، فقد رواه عبدالرزّاق عن معمر عن الزهريّ عن بعض أهل أمّ سلمة أنّها زادت فيه: والسيف». وقال في «الفتح» (٦/ ٦٣): «روى النسائي حديث الباب من طريق ابن أبي ذئب عن الزهريّ فأدرج فيه السيف وخالف فيه في الإسناد». فهاهنا إذًا علل: **أولاها**: أنّ ابن أبي ذئب تفرّد بزيادة السيف في حديث ابن عمر خلافًا لغيره من الرواة الذين خرّج صاحبا «الصحيح» روايتهم. **والثانية**: أنّه أيضًا خالف في الإسناد فزاد محمّد بن زيد بن قنفذ فيه خلافًا لغيره. **والثالثة**: أنّه أرسله خلافًا للآخرين الذين رووه موصولاً. ولذٰلك قال العسقلاني: «مدرج». وقال **الألباني**: «شاذّ».

ورواه: ابن وهب في «الجامع» (٦٤٦)، وابن ماجه (٩ـ النكاح، ٥٥ـ اليمن والشؤم، ١/ ٦٤٢/ ١٩٩٥)، والدارقطني في «غرائب مالك» (٦/ ٦٣ـ فتح)؛ من طريق الزهري، (قال الدارقطني: عن بعض أهل أمّ سلمة، وقال ابن ماجه: ثنا أبو عبيدة بن عبدالله بن زمعة عن جدّته زينب)، عن أمّ سلمة، عن النبيّ ﷺ... فذكرت حديث الشؤم وزادت فيه السيف. وهٰذا سند فيه ضعف من أجل أبي عبيدة بن عبدالله هٰذا؛ فإنّ فيه جهالة، ولذٰلك قال العسقلاني: «مقبول». قلت: يعني: في المتابعات، ومن كان هٰذا حاله؛ فلا يحتمل منه=

وقدِ ٱخْتَلَفَ النَّاسُ في هٰذا الحديثِ:

* وكانَتْ عائِشَةُ أمُّ المؤمنينَ رَضِيَ اللهُ عنها تُنكِرُ أنْ يَكونَ مِن كلامِ النَّبيِّ ﷺ وتَقولُ: إنَّما حَكاهُ رسولُ اللهِ ﷺ عن أهلِ الجاهليَّةِ وأقوالِهِم. فذَكَرَ أبو عُمَرَ بنُ عَبْدِالبَرِّ مِن حديثِ: هِشامِ بنِ عَمَّارٍ، حَدَّثَنا الوَليدُ بنُ مُسْلِمٍ، عن سَعيدٍ، عن قَتادَةَ، عن أبي حَسَّانَ؛ أنَّ رجلينِ دَخَلا على عائِشَةَ وقالا: إنَّ أبا هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «إنَّما الطِّيَرَةُ في المرأةِ والدَّارِ والدَّابَّةِ». فطارَتْ شِقَّةٌ منها في السَّماءِ وشِقَّةٌ منها في الأرضِ، ثمَّ قالَتْ: كَذَبَ والذي أَنْزَلَ الفرقانَ على أبي القاسِمِ مَن حَدَّثَ عنهُ بهٰذا، ولٰكنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَقولُ: «كانَ أهلُ الجاهليَّةِ يَقولونَ: إنَّ الطِّيَرَةَ في المرأةِ والدَّارِ والدَّابَّةِ»، ثمَّ قَرَأَتْ عائِشَةُ ﴿ما أصابَ مِنْ مُصيبَةٍ في الأرْضِ وَلا في أَنْفُسِكُمْ إلاَّ في كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أنْ نَبْرَأَها إنَّ ذٰلِكَ عَلى اللهِ يَسيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢][1].

قالَ أبو عُمَرَ: وكانَتْ عائِشَةُ تَنْفي الطِّيَرَةَ ولا تَعْتَقِدُ منها شيئًا، حتَّى قالَتْ لنِسوةٍ كُنَّ يَكْرَهْنَ البناءَ بأزواجِهِنَّ في شوَّالٍ: ما تَزَوَّجَني رسولُ اللهِ ﷺ إلاَّ في شوَّالٍ، وما دَخَلَ بي إلاَّ في شوَّالٍ، فمَن كانَ أحظى منِّي عندَهُ؟ وكانَتْ تَسْتَحِبُّ أنْ يَدْخُلْنَ على أزواجِهِنَّ في شوَّالٍ[2].

= مثل هٰذه الزيادة، بل هي متراوحة بين الشذوذ والنكارة.

ولا يفيد ٱجتماع الطريقين هٰذه الزيادة قوّة؛ لأنّها في الطريق الأولى مدرجة خطأً من الطريق الثانية كما جزم العسقلاني، ولضعف مخرجها في الطريق الثانية. والله أعلم.

(١) (لا بأس به). رواه: إسحاق في «مسنده» (١٣٦٥)، وأحمد (٦/ ١٥٠ و٢٤٠ و٢٤٦)، وابن قتيبة في «مختلف الحديث» (ص١٠٥)، وابن خزيمة (٦/ ٦١ـ فتح الباري)، والطحاوي في «المعاني» (٤/ ٣١٤) و«المشكل» (٣/ ٣٤١)، والحاكم (٢/ ٤٧٩)، والبيهقي (٨/ ١٤٠)، وابن عبدالبرّ (٩/ ٢٨٨)؛ من طريقين قويّين، عن قتادة... به فذكره. وصحّحه ابن خزيمة والحاكم والذهبي وإلى ذٰلك مال العسقلاني فيما يبدو، مع أنّ ظاهره الإرسال، وعلم التاريخ لا يدعم سماع أبي حسّان من عائشة بما يكفي للجزم بٱتّصاله.

لٰكن رواه الطيالسي (١٥٣٧): ثنا محمّد بن راشد، عن مكحول، عن عائشة رضي الله عنها... بنحوه. قال العسقلاني: «ومكحول لم يسمع من عائشة، فهو منقطع».

قلت: فالأوّل راجح الانقطاع، والثاني منقطع، لٰكنّ أحدهما بصري والآخر شاميّ، فأرجو أنّ أحدهما صالح لتقوية الآخر وتحسينه. والله أعلى وأعلم.

(٢) رواه مسلم (١٦ـ النكاح، ١١ـ التزوج والتزويج في شوّال، ٢/ ١٠٣٩/ ١٤٢٣).

قالَ أبو عُمَرَ: وقولُها في أبي هُرَيْرَةَ «كَذَبَ»؛ فإنَّ العربَ تَقولُ كَذَبْتَ بمعنى غَلِطْتَ فيما قَدَّرْتَ وأوْهَمْتَ فيما قُلْتَ ولمْ تَظُنَّ حقًّا ونحوِ هٰذا، وذٰلكَ معروفٌ مِن كلامِهِم موجودٌ في أشعارِهِم كثيرًا:

قالَ أبو طالِبٍ:

كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ نَتْرُكُ مَكَّةً ... وَنَظْعَنُ إلاَّ أَمْرُكُمْ في الأوائِلِ

كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ نَبْرا مُحَمَّدًا ... وَلَمَّا نُطاعِنْ دونَهُ ونُناضِلِ

وَنُسْلِمُهُ حَتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ ... وَنَذْهَلَ عَنْ أَبْنائِنا وَالحَلائِلِ

وقالَ شاعرٌ مِن هَمْدانَ:

كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ لا تَأْخُذونَهُ ... مُراغَمَةً ما دامَ لِلسَّيْفِ قائِمُ

وقالَ زُفَرُ بنُ الحارِثِ العَبْسِيُّ:

أفي الحَقِّ أمَّا بَحْدَلٌ وابْنُ بَحْدَلٍ ... فَيَحْيا وَأَمَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ فَيُقْتَلُ

كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ لا تَقْتُلونَهُ ... وَلَمَّا يَكُنْ أَمْرٌ أَغَرُّ مُحَجَّلُ

قالَ: ألا تَرى أنَّ هٰذا ليسَ مِن بابِ الكذبِ الذي هوَ ضدُّ الصِّدقِ وإنَّما هوَ مِن بابِ الغلطِ وظنٍّ ما ليسَ بصحيحٍ، وذٰلكَ أنَّ قريشًا زَعَموا أنَّهُم يُخرِجونَ بني هاشِمٍ مِن مكَّةَ إنْ لمْ يَتْرُكوا جوارَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فقالَ لهُم أبو طالِبٍ كَذَبْتُم؛ أي: غَلِطْتُم فيما قُلْتُم وظَنَنْتُم. وكذٰلكَ معنى قولِ الهَمْدانِيِّ والعَبْسِيِّ. وهٰذا مشهورٌ في كلامِ العربِ.

قُلْتُ: ومِن هٰذا قولُ سَعيدِ بنِ جُبَيْرٍ: كَذَبَ جابرُ بنُ زَيْدٍ؛ يَعْني: في قولِهِ الطَّلاقُ بيدِ السَّيِّدِ؛ أي: أخْطَأَ.

ومِن هٰذا قولُ عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ: كَذَبَ أبو مُحَمَّدٍ[1]. لمَّا قالَ: الوترُ واجبٌ؛ أي: أخْطَأَ.

وفي «الصَّحيح»: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «كَذَبَ أبو السَّنابِلِ»[2]. لمَّا أفْتى أنَّ الحاملَ

---

(١) الأنصاري، له صحبة.

(٢) (صحيح). رواه: الشافعيّ في «الأمّ» (٥/ ٢٢٤) و«الرسالة» (ص٥٧٥)، وسعيد بن منصور (١٥٠٦ و١٥٠٩)، وأحمد (١/ ٤٤٧)، والبيهقي (٧/ ٤٢٩، ١٠/ ٢٠٩)، والبغوي (٢٣٨٨)، وابن بشكوال=

المتوفَّى عنها زوجُها لا تَتَزَوَّجُ حتَّى تَتِمَّ لها أربعةُ أشهرٍ وعشرٌ[(١)] ولو وَضَعَتْ.

وهٰذا كثيرٌ.

والمقصود أنَّ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها رَدَّتْ هٰذا الحديثَ وأنْكَرَتْهُ وخَطَّأَتْ قائلَهُ.

ولٰكنَّ قولَ عائِشَةَ هٰذا مرجوحٌ، ولها رَضِيَ اللهُ عنها اجتهادٌ في ردِّ بعضِ الأحاديثِ الصَّحيحةِ خالَفَها فيهِ غيرُها مِن الصَّحابةِ. وهيَ رَضِيَ اللهُ عنها لمَّا ظَنَّتْ أنَّ هٰذا الحديثَ يَقْتَضي إثباتَ الطِّيَرَةِ التي هيَ مِن الشِّركِ؛ لمْ يَسَعْها غيرُ تكذيبِهِ وردِّهِ. ولٰكنَّ الذينَ رَوَوْهُ ممَّن لا يُمْكِنُ ردُّ رواياتِهِم، ولمْ يَنْفَرِدْ بهٰذا أبو هُرَيْرَةَ وحدَهُ ـ ولوِ انْفَرَدَ بهِ؛ فهوَ حافظُ الأُمَّةِ على الإطلاقِ وكلُّ ما رَواهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ فهوَ صحيحٌ ـ بل قد رَواهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ عَبْدُاللهِ بنُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنهُما وسَهْلُ بنُ سَعْدٍ السَّاعِدِيُّ وجابِرُ بنُ عَبْدِاللهِ الأنْصارِيُّ وأحاديثُهُم في «الصَّحيح»[(٢)]. فالحقُّ أنَّ الواجبَ بيانُ معنى الحديثِ ومباينتِهِ للطِّيَرَةِ الشِّركيَّةِ.

* فنَقولُ وباللهِ التَّوفيقُ: هٰذا الحديثُ قد رُوِيَ على وجهينِ: أحدُهُما بالجزمِ، والثَّاني بالشَّرطِ.

فأمَّا الأوَّلُ؛ فرَواهُ مالكٌ، عنِ ابنِ شِهابٍ، عن سالمٍ وحَمْزَةَ ابني عَبْدِاللهِ بنِ

= في «الغوامض» (١/ ١٦٨)؛ من طريق عبدالله بن عتبة بن مسعود، [عن ابن مسعود]... رفعه. قال الهيثمي (٥/ ٦): «رجاله رجال الصحيح». قلت: لٰكن اختلفوا فيه وصلاً وإرسالاً، إلاّ أنّ الطريق الموصولة صحيحة رجالها ثقات، فالوصل زيادة ثقة يتعيّن المصير إليها. على أنّ رواية الصحيح لأصل الحديث تفيد أنّ عبدالله بن عتبة تلقّاه من سبيعة الأسلميّة صاحبة الحادثة مكاتبة، فصار المرسل هنا موصولاً بالمكاتبة.

ورواه سعيد بن منصور (١٥٠٨ و١٥١٠ و١٥١١) بأسانيد قويّة عن ابن سيرين وأبي سلمة والشعبيّ مرسلاً. ورواه عبد بن حميد (٦/ ٣٦٠ ـ درّ) عن الحسن مرسلاً.

وهٰذا اللفظ صحيح بمجموع هٰذه الأوجه. وأصل الحديث عند: البخاري (٦٨ ـ الطلاق، ٣٩ ـ وأولات الأحمال، ٩/ ٤٦٩/ ٥٣١٨ - ٥٣٢٠)، ومسلم (١٨ ـ الطلاق، ٨ ـ انقضاء عدّة المتوفّى عنها، ٢/ ١١٢٢/ ١٤٨٤ و١٤٨٥)؛ من حديث سبيعة الأسلميّة وأمّ سلمة والمسور. لٰكن ليس فيه هٰذا اللفظ.

فكأنّ ابن القيّم أراد بقوله «في الصحيح» أصله، أو أنّه أراد الحديث الصحيح لا الصحيحين.

(١) في ط: «وعشرًا»! ولا يصحّ.

(٢) كما تقدّم (٣/ ٢٣٩ و٢٥٠). وقولها رضي الله عنها مرجوح أيضًا من جهة أخرى، وهي أنّ أهل الجاهليّة لم يقتصروا في تشاؤمهم على المرأة والمسكن والفرس، كما مرّ بك آنفًا.

عُمَرَ، عن أبيهما؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «الشُّؤْمُ في الدَّارِ والمرأةِ والفرسِ». متَّفقٌ عليهِ. وفي لفظٍ في الصَّحيحينِ عنهُ: «لا عدوى ولا صفرَ ولا طِيَرَةَ، وإنَّما الشُّؤْمُ في ثلاثةٍ المرأةِ والفرسِ والدَّارِ».

وأمَّا الثَّاني؛ ففي الصَّحيحينِ أيضًا عن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنْ كانَ؛ ففي المرأةِ والفرسِ والمسكنِ»؛ يَعْني: الشُّؤْمَ. وقالَ البخاريُّ: «إنْ كانَ في شيءٍ». وفي «صحيح مسلم» عن جابرٍ مرفوعًا: «إنْ كانَ في شيءٍ؛ ففي الرَّبعِ والخادمِ والفرسِ». وفي «الصَّحيحين» عنِ ابنِ عُمَرَ مرفوعًا: «إنْ يَكُنْ مِن الشُّؤْمِ شيءٌ حقًّا؛ ففي الفرسِ والمسكنِ والمرأةِ»[1]. ورَوى زُهَيْرُ بنُ مُعاويَةَ، عن عُتْبَةَ بنِ حُمَيْدٍ؛ قالَ: حَدَّثَني عُبَيْدُاللهِ بنُ أبي بَكْرٍ؛ أنَّهُ سَمِعَ أنسًا يقولُ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا طِيَرَةَ، والطِّيَرَةُ على مَن تَطَيَّرَ، وإنْ يَكُنْ في شيءٍ؛ ففي المرأةِ والدَّارِ والفرسِ»[2]. ذَكَرَهُ أبو عُمَرَ.

وقالَتْ طائفةٌ أُخرى[3]: لَمْ يَجْزِمِ النَّبيُّ ﷺ بالشُّؤْمِ في هٰذهِ الثَّلاثةِ، بل عَلَّقَهُ على الشَّرطِ فقالَ: «إنْ يَكُنِ الشُّؤْمُ في شيءٍ»، ولا يَلْزَمُ مِن صدقِ الشَّرطيَّةِ صدقُ كلِّ واحدٍ مِن مفردَيْها؛ فقد يَصْدُقُ التَّلازمُ بينَ المستحيلينِ.

قالوا: ولَعَلَّ الوهمَ وَقَعَ مِن ذٰلكَ، وهوَ أنَّ الرَّاويَ غَلِطَ وقالَ «الشُّؤْمُ في ثلاثةٍ»، وإنَّما الحديثُ «إنْ كانَ الشُّؤْمُ في شيءٍ ففي ثلاثةٍ».

قالوا: وقدِ اخْتُلِفَ على ابنِ عُمَرَ، والرِّوايتانِ صحيحتانِ عنهُ.

قالوا: وبهٰذا يَزولُ الإشكالُ ويَتَبَيَّنُ وجهُ الصَّوابِ[4].

---

(١) وهٰذه كلّها من ألفاظ الصحيحين لأحاديث ابن عمر وسهل وجابر المتقدّمة (٣/ ٢٣٩ و٢٥٠).

(٢) (ضعيف بهٰذا التمام). رواه: ابن حبّان (٦١٢٣)، والطحاوي في «المعاني» (٤/ ٣١٤)، وابن عبدالبرّ (٩/ ٢٨٤) تعليقًا، والضياء في «المختارة» (٦/ ٢٥١/ ٢٢٦٩)؛ من طريق زهير بن معاوية، عن عتبة بن حميد، ثني عبيدالله بن أبي بكر، سمع أنسًا... رفعه. قال الضياء والألباني: «حسن». وقال العسقلاني في «الفتح» (٦/ ٦٣): «في صحّته نظر؛ لأنّه من رواية عتبة بن حميد عن عبيدالله بن أبي بكر عن أنس». قلت: عتبة فيه ضعف، وقد تفرّد بزيادة في هٰذا الحديث دون غيره، وفي هٰذه الزيادة مخالفة لما قبلها، فلا يطمئنّ القلب لتقوية الحديث بهٰذا التمام. والله أعلم.

(٣) كذا! ولم يتقدّم قول لطائفة قبلها، فربّما وَهِل يرحمه الله وربّما كان هاهنا سقط.

(٤) ومقتضى هٰذا المذهب أنّ رواية الجزم وهم شاذّة أو منكرة والصواب رواية التعليق بالشرط لٰكنّ=

* وقالَتْ طائفةٌ أُخرى: إضافةُ رسولِ اللهِ ﷺ الشُّؤْمَ إلى هٰذهِ الثَّلاثةِ مجازٌ واتِّساعٌ؛ أي: قد يَحْصُلُ مقارنًا لها وعندَها، لا أنَّها هيَ أنفسُها ممَّا يُوجِبُ الشُّؤْمَ.

قالوا: وقد يكونُ الدَّارُ قد قَضى اللهُ عَزَّ وجَلَّ عليها أنْ يُميتَ فيها خلقًا مِن عبادِهِ كما يُقَدِّرُ ذٰلكَ في البلدِ الذي يَنْزِلُ الطَّاعونُ بِهِ وفي المكانِ الذي يَكْثُرُ الوباءُ بِهِ، فيُضافُ ذٰلكَ إلى المكانِ مجازًا، واللهُ خَلَقَهُ عندَهُ وقَدَّرَهُ فيهِ كما يَخْلُقُ الموتَ عندَ قتلِ القاتلِ والشِّبعَ والرِّيَّ عندَ أكلِ الآكلِ وشربِ الشَّاربِ، فالدَّارُ التي يَهْلِكُ بها أكثرُ ساكنيها توصَفُ بالشُّؤْمِ؛ لأنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قد خَصَّها بكثرةِ مَن قَبَضَ فيها، فمَن كَتَبَ اللهُ عليهِ الموتَ في تلكَ الدَّارِ حَسَّنَ إليهِ سكناها وحَرَّكَهُ إليها حتَّى يَقْبِضَ روحَهُ في المكانِ الذي كُتِبَ لهُ، كما ساقَ الرَّجلَ مِن بلدٍ إلى بلدٍ للأثرِ والبقعةِ التي قَضى أنَّهُ يَكونُ مدفنُهُ بها[1].

قالوا: وكذٰلكَ ما يُوصَفُ مِن طولِ أعمارِ بعضِ أهلِ البلدانِ، لَيْسَ ذٰلكَ مِن أجلِ صحَّةِ هواءٍ ولا طيبِ تربةٍ ولا طبعٍ يَزْدادُ بِهِ الأجلُ ويَنْقُصُ بفواتِهِ، ولٰكنَّ اللهَ سبحانَهُ قد

= هٰذا المذهب لا يخلو من إشكالات:

أوّلها: أنّ الذين رووا الحديث عن ابن عمر بالجزم جبال ثقات مالك عن الزهري عن سالم وحمزة، فتوهيمهم بغير بيّنة واضحة تسرّع ومجازفة.

الثاني: أنّ ابن عمر لم ينفرد بهٰذا الجزم، بل تابعه أبو هريرة كما تقدّم في ٱستدراك عائشة عليه، ومتن حديث أبي هريرة يحيل أن يكون الوهم فيه من غير أبي هريرة، وتوهيم أبي هريرة تسرّع ومجازفة.

الثالث: أنّ فتح باب توهيم الرواة بمجرّد الظنون والاحتمالات لا يخلو من خطورة وتطريق لأهل البدع لنسف السنن الصحيحة الثابتة.

الرابع: أنّ الأصل بعد صحّة الروايات أن يكون النبيّ ﷺ قد ذكرها جميعًا في مناسبات مختلفة فحفظ كلّ من الصحابة ما سمع وحفظه بعضهم على وجهين أو أكثر، على هٰذا قام علم الحديث وبنيت أصوله.

الخامس: فإن وجدنا فيما صحّ من النصوص تضاربًا؛ فالأصل أن نوفّق بينها ما ٱستطعنا، فإن عجزنا؛ ٱتّهمنا عقولنا، وسلّمنا للنصوص، ولم نتعرّض للرواة تخطئة وتوهيمًا.

السادس: أنّ تضعيف رواية الجزم بالشذوذ أو النكارة لا يحلّ المشكل، ويبقى قوله ﷺ «إن يكن الشؤم في شيء؛ ففي المرأة والمسكن والفرس» بحاجة إلى الفهم والتوجيه، وإلّا؛ فلماذا قاله ﷺ؟! ولماذا لم يقتصر على نفي التطيّر جملة؟!

(١) وفي هٰذا الكلام شيء من الصواب، وفيه رائحة نفي العلل والأسباب، وفي كلّ حال فأيّ علاقة له في توجيه الحديث ورفع إشكاله؟!

خَلَقَ ذٰلكَ المكانَ وقَضى أنْ يَسْكُنَهُ أطولُ خلقِهِ أعمارًا فيَسوقُهُم إليهِ ويَجْمَعُهُم فيهِ ويُحَبِّبُهُ إليهِم[١].

قالوا: وإذا كانَ هٰذا على ما وَصَفْنا في الدُّورِ والبقاعِ؛ جازَ مثلُهُ في النِّساءِ والخيلِ، فتكونُ المرأةُ قد قَدَّرَ اللهُ عليها أنْ تَتَزَوَّجَ عددًا مِن الرِّجالِ ويَموتونَ معَها، فلا بدَّ مِن إنفاذِ قضائِهِ وقدرِهِ، حتَّى إنَّ الرَّجلَ لَيُقْدِمُ عليها مِن بعدِ علمِهِ بكثرةِ مَن ماتَ عنها لوجهٍ مِن الطَّمعِ يَقودُهُ إليها حتَّى يَتِمَّ قضاؤُهُ وقدرُهُ، فتُوصَفُ المرأةُ بالشُّؤْمِ لذٰلكَ، وكذٰلكَ الفرسُ، وإنْ لمْ يَكُنْ لشيءٍ مِن ذٰلكَ فعلٌ ولا تأثيرٌ[٢].

وقالَ ابنُ القاسِمِ: سُئِلَ مالكٌ عنِ الشُّؤْمِ في الفرسِ والدَّارِ. فقالَ: إنَّ ذٰلكَ فيما نَرى[٣]: كم مِن دارٍ قد سَكَنَها ناسٌ فهَلَكوا ثمَّ سَكَنَها آخرونَ فهَلَكوا، قالَ: فهٰذا تفسيرُهُ فيما نَرى[٤]. واللهُ أعلمُ.

* وقالَتْ طائفةٌ أُخرى: شؤْمُ الدَّارِ مجاورةُ جارِ السُّوءِ، وشؤْمُ الفرسِ أنْ لا يُغْزى عليها في سبيلِ اللهِ، وشؤْمُ المرأةِ أنْ لا تَلِدَ وتكونَ سيِّئةَ الخلقِ[٥].

* وقالَتْ طائفةٌ أُخرى منهمُ الخَطَّابِيُّ: هٰذا مستثنًى مِن الطِّيَرَةِ؛ أي: الطِّيَرَةُ منهيٌّ عنها إلَّا أنْ يَكونَ لهُ دارٌ يَكْرَهُ سكناها أوِ امرأةٌ يَكْرَهُ صحبتَها أو فرسٌ أو خادمٌ، فلْيُفارِقِ الجميعَ بالبيعِ والطَّلاقِ ونحوِهِ ولا يُقيمَ على الكراهةِ والتَّأذِّي بهِ؛ فإنَّهُ شؤْمٌ.

وقد سَلَكَ هٰذا المسلكَ أبو مُحَمَّدِ بنُ قُتَيْبَةَ في كتابِ «مشكل الحديث» لهُ لَمَّا ذَكَرَ

---

(١) وهٰذا قول نفاة العلل والأسباب، وقد فرغ ابن القيّم قدّس الله روحه من بيان بطلان طريقتهم في هٰذا الكتاب وغيره، وقضاء الله سبحانه بطول عمر أهل بعض البلدان لا ينفي أن يكون بتوسّط الأسباب، فقضى الله سبحانه السبب والمسبّب معًا، كما تقدّم نحوه مرارًا.

(٢) لو كان الأمر على هٰذه الصورة؛ لنفى ﷺ هٰذا التشاؤم إطلاقًا ولم يستثنه من جملة التشاؤم المنفيّ!

(٣) في ط: «إنّ ذٰلك كذب فيما نرى»! وأشار المحقّق إلى أنّه في «البيان والتحصيل» (١٧/ ٢٧٥) لابن رشد دون ذكر «كذب». وهٰذا ما لا ينبغي سواه، ولا يعقل أن يروي مالك الحديث بأصحّ الأسانيد ويورده في «موطئه» ثمّ يقول: «إنّ ذٰلك كذب»، وآخر الكلام يؤيّد حذف هٰذه الكلمة.

(٤) لٰكن هٰذا المذهب لا يفسّر اختصاص المرأة والفرس والمسكن دون غيرها بالشؤم: فكم من طريق سلكها قوم فهلكوا ثمّ سلكها قوم فهلكوا، وكم من علاج، وكم من آلة، وكم من عمل... إلخ.

(٥) هٰذا حسن، ولٰكنّ قصر عموم الشؤم عليه يحتاج إلى دليل.

أنَّ بعضَ الملاحدةِ اْعتَرَضَ بحديثِ هٰذهِ الثَّلاثةِ.

* وقالَ طائفةٌ أُخرى: الشُّؤْمُ في هٰذهِ الثَّلاثةِ إنَّما يَلْحَقُ مَن تَشاءَمَ بها وتَطَيَّرَ بها فيَكونُ شؤْمُها عليهِ، ومَن تَوَكَّلَ على اللهِ ولمْ يَتَشاءَمْ ولمْ يَتَطَيَّرْ؛ لمْ تَكُنْ مشؤومةً عليه.

قالوا: ويَدُلُّ عليهِ حديثُ أنَسٍ: «الطِّيَرَةُ على مَن تَطَيَّرَ»[١]. وقد يَجْعَلُ اللهُ سبحانَهُ تطيُّرَ العبدِ وتشاؤُمَهُ سببًا لحلولِ المكروهِ بهِ كما يَجْعَلُ الثِّقةَ والتَّوكُّلَ عليهِ وإفرادَهُ بالخوفِ والرَّجاءِ مِن أعظمِ الأسبابِ التي يَدْفَعُ بها الشَّرَّ المتطيَّرَ بهِ.

وسرُّ هٰذا أنَّ الطِّيَرَةَ إنَّما تَتَضَمَّنُ الشِّركَ باللهِ تَعالى والخوفَ مِن غيرِهِ وعدمَ التَّوكُّلِ عليهِ والثِّقةِ بهِ، [ولذٰلكَ][٢] كانَ صاحبُها غرضًا لسهامِ الشَّرِّ والبلاءِ، فيُسْرِعُ نفوذُها فيهِ؛ لأنَّهُ لمْ يَتَدَرَّعْ مِن التَّوحيدِ والتَّوكُّلِ بجُنَّةٍ واقيةٍ، وكلُّ مَن خافَ شيئًا غيرَ اللهِ سُلِّطَ عليهِ، كما أنَّ مَن أَحَبَّ معَ اللهِ غيرَهُ عُذِّبَ بهِ ومَن رَجا معَ اللهِ غيرَهُ خُذِلَ مِن جهتِهِ، وهٰذهِ أُمورٌ تجربتُها تَكْفي عن أدلَّتِها.

والنَّفسُ لا بدَّ أنْ تَتَطَيَّرَ، ولٰكنَّ المؤمنَ القويَّ الإيمانِ يَدْفَعُ موجَبَ تطيُّرِهِ بالتَّوكُّلِ على اللهِ؛ فإنَّ مَن تَوَكَّلَ على اللهِ وحدَهُ كَفاهُ مِن غيرِهِ، قالَ تَعالى: ﴿فَإِذا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ. إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلى الَّذِينَ آمَنوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلونَ. إِنَّما سُلْطانُهُ عَلى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكونَ﴾ [النحل: ٩٨ -١٠٠].

ولهٰذا قالَ ابنُ مَسْعودٍ: «وما منَّا إلاَّ (يَعْني: مَن يُقارِبُ التَّطيُّرَ)، ولٰكنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بالتَّوكُّلِ»[٣].

ومِن هٰذا قولُ زَبَّانَ بنِ سَيَّارٍ:

أطـارَ الطَّيْـرَ إذْ سِـرْنـا زِيـادٌ[٤] لِتُخْبِـرَنـا وَمـا فيهـا خَبيـرُ

---

(١) (ضعيف). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٨٨).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) (صحيح مرفوعًا من قول النبيّ ﷺ). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٣٠ و٢٣١).

(٤) كذا جاء هنا! وقد تقدّم (٣/ ٢٢٤): «تطيّر طيرة فيها زياد».

أقَامَ كَأَنَّ لُقْمَانَ بنَ عَادٍ أشَارَ لَهُ بِحِكْمَتِهِ مُشِيرُ[(١)]
تَعَلَّمْ أَنَّهُ لا طَيْرَ إلَّا عَلَى مُتَطَيِّرٍ وَهُوَ الثُّبُورُ
بَلَى شَيْءٌ يُوافِقُ بَعْضَ شَيْءٍ أحَايِينًا وَبَاطِلُهُ كَثِيرُ

قالوا: فالشُّؤْمُ الذي في الدَّارِ والمرأةِ والفرسِ قد يكونُ مخصوصًا بمَن تَشاءَمَ بها وتَطَيَّرَ، وأمَّا مَن تَوَكَّلَ على اللهِ وخافَهُ وحدَهُ ولمْ يَتَطَيَّرْ ولمْ يَتَشاءَمْ؛ فإنَّ الفرسَ والمرأةَ والدَّارَ لا يَكونُ شؤمًا في حقِّهِ[(٢)].

* وقالَتْ طائفةٌ أُخرى: معنى الحديثِ إخبارُهُ ﷺ عنِ الأسبابِ المثيرةِ للطِّيَرَةِ الكامنةِ في الغرائزِ؛ يَعْني: أنَّ المثيرَ للطِّيرةِ في غرائزِ النَّاسِ هيَ هٰذهِ الثَّلاثةُ، فأخْبَرَنا بها لِنَأْخُذَ الحذرَ منها[(٣)]، فقالَ: «الشُّؤْمُ في الدَّارِ والمرأةِ والفرسِ»؛ أي: أنَّ الحوادثَ التي تَكْثُرُ معَ هٰذهِ الأشياءِ والمصائبَ التي تَتَوالى عندَها تَدْعو النَّاسَ إلى التَّشاؤُمِ بها، فقالَ الشُّؤْمُ فيها؛ أي: أنَّ اللهَ قد يُقَدِّرُهُ فيها على قومٍ دونَ قومٍ، فخاطَبَهُم ﷺ بذٰلكَ لِما اسْتَقَرَّ عندَهُم منهُ ﷺ مِن إبطالِ الطِّيَرَةِ وإنكارِ العدوى، ولذٰلكَ لمْ يَسْتَفْهِموا في ذٰلكَ عن معنى ما أرادَهُ ﷺ كما تَقَدَّمَ لهُم في قولِهِ «لا يُورِدُ الممرِضُ على المُصِحِّ» فقالوا عندَهُ وما ذاكَ يا رسولَ اللهِ فأخْبَرَهُم أنَّهُ خافَ في ذٰلكَ الأذى الذي يُدْخِلُهُ الممرِضُ على المصِحِّ[(٤)] لا العدوى؛ لأنَّهُ ﷺ أمَرَ بالتَّوادِدِ وإدخالِ السُّرورِ بينَ المؤمنينَ وحسنِ التَّجاوِرِ ونَهى عنِ التَّقاطعِ والتَّباغضِ والأذى.

فمَنِ اعْتَقَدَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نَسَبَ الطِّيَرَةَ والشُّؤْمَ إلى شيءٍ مِن الأشياءِ على سبيلِ أنَّهُ مؤثِّرٌ بذٰلكَ دونَ اللهِ؛ فقد أعْظَمَ الفريةَ على اللهِ وعلى رسولِهِ وضَلَّ ضلالًا بعيدًا.

---

(١) في ط: «بشير»! وقد تقدّمت على الجادّة (٣/ ٢٢٤).

(٢) وهٰذا أيضًا حسن، ولٰكنّه لا يفسّر اختصاص المرأة والمسكن والفرس بعودة التطيّر بها على صاحبها دون غيرها من الأمور التي يتطيّر بها الناس.

(٣) فصار المراد من قوله ﷺ «الشؤم في ثلاثة»: إنّ أكثر ما يتشاءم الخلق منه هو هٰذه الثلاثة، فاحذروها ولا تشاءموا بها! وهٰذه صيغة معدّلة لمذهب السيّدة عائشة، لٰكنّ السيّدة عائشة احتجّت على مذهبها بما سمعت كما تقدّم، بخلاف هٰؤلاء الذين فهموه من هٰذا النصّ، وهو مشكل جدًّا؛ لأنّ النصّ لا يفيده ولا يدلّ عليه، ولو كان هٰذا ما يفيده النصّ؛ لما اعترضت السيّدة عائشة عليه أبدًا. تأمّل.

(٤) كما تقدّم (٣/ ٢٥٠ و٢٥١) في جملة من الأحاديث الصحيحة.

والنَّبيُّ ﷺ ٱبْتَدَأَهُم بنفيِ الطِّيَرَةِ والعدوى، ثمَّ قالَ «الشُّؤْمُ في ثلاثٍ» قطعًا لتوهُّمِ الطِّيَرَةِ المنفيَّةِ في الثَّلاثةِ التي أَخْبَرَ أَنَّ الشُّؤْمَ يكونُ فيها، فقالَ: «لا عدوى ولا طِيَرَةَ والشُّؤْمُ في ثلاثةٍ»، فٱبْتَدَأَهُم بالمؤخَّرِ مِن الخبرِ تعجيلاً لهُم بالإخبارِ بفسادِ العدوى والطِّيَرَةِ المتوهَّمةِ مِن قولِه «الشُّؤْمُ في ثلاثةٍ».

* وبالجملةِ؛ فإخبارُهُ ﷺ بالشُّؤْمِ أَنَّهُ يكونُ في هٰذهِ الثَّلاثةِ ليسَ فيهِ إثباتُ الطِّيَرَةِ التي نَفاها، وإنَّما غايتُهُ أَنَّ اللهَ سبحانَهُ قد يَخْلُقُ منها أعيانًا مشؤومةً على مَن قارَبَها وسَكَنَها وأعيانًا مباركةً لا يَلْحَقُ مَن قارَبَها منها شؤمٌ ولا شرٌّ، وهٰذا كما يُعْطي سبحانَهُ الوالدينِ ولدًا مباركًا يَرَيانِ الخيرَ على وجهِهِ ويُعْطي غيرَهُما ولدًا شرًّا مشؤومًا نذلاً يَرَيانِ الشَّرَّ على وجهِهِ، وكذٰلكَ ما يُعْطاهُ العبدُ مِن ولايةٍ أو غيرِها، فكذٰلكَ الدَّارُ والمرأةُ والفرسُ.

واللهُ سبحانَهُ خالقُ الخيرِ والشَّرِّ والسُّعودِ والنُّحوسِ: فيَخْلُقُ بعضَ هٰذهِ الأعيانِ سعودًا مباركةً ويَقْضي بسعادةِ مَن قارَنَها وحصولِ اليمنِ لهُ والبركةِ، ويَخْلُقُ بعضَ ذٰلكَ نحوسًا يَتَنَحسُ[1] بها مَن قارَنَها، وكلُّ ذٰلكَ بقضائِهِ وقدرِهِ، كما خَلَقَ سائرَ الأسبابِ ورَبَطَها بمسبَّباتِها المتضادَّةِ والمختلفةِ، وكما خَلَقَ[2] المسكَ وغيرَهُ مِن حاملِ الأرواحِ الطَّيِّبةِ[3] ولَذَّذَ بها مَن قارَنَها مِن النَّاسِ وخَلَقَ ضدَّها وجَعَلَها سببًا لإيذاءِ مَن قارَنَها مِن النَّاسِ، والفرقُ بينَ هٰذينِ النَّوعينِ يُدْرَكُ بالحسِّ، فكذٰلكَ في الدِّيارِ والنِّساءِ والخيلِ. فهٰذا لونٌ والطِّيَرَةُ الشِّركيَّةُ لونٌ آخرُ[4].

---

(١) في ط: «يتنحّس»! وهو تصحيف بيّن لما أثبتّه.

(٢) في ط: «فكما خلق»! ولا يستقيم الكلام إلاّ بما أثبتّه.

(٣) الأرواح الطيّبة: الروائح الطيّبة.

(٤) أورد ٱبن القيّم هنا ثمانية أقوال لأهل العلم في توجيه هٰذا الحديث، ولا يخلو شيء منها من إشكال يحول دون ٱعتماده في فهم هٰذا النصّ الصحيح والتوفيق بين أوّله وآخره وبينه وبين غيره، وأولى ما ذكر بالصواب الوجه الثامن، ولٰكنّه جاء مختصرًا جدًّا لا بدّ لنا في فهمه من شيء من التفصيل والتحليل، فأقول:

* أوّلاً: أنت تعلم أنّ النبيّ ﷺ نهى عن الطيرة أصلاً لأنّها باب من أبواب الشرك كما جاء صحيحًا صريحًا في غيرما حديث ممّا تقدّم بك آنفًا.

* ثانيًا: ما هو وجه الشرك في الطيرة؟ من الواضح جدًّا أنّ الأصل الاشتقاقيّ للطيرة هو «الطير»، كانوا=

= يزجرون الطير ويتفاءلون بما طار منها إلى اليمين ويتشاءمون بما طار منها إلى الشمال. وأنت تعلم أنّه لم يأت في كتاب ولا سنّة ولا دليل علميّ أنّ الله تعالى نصب طيران الطيور إلى جهة ما سببًا لوقوع قدر من الأقدار أو دليلاً عليه، ومن زعم ذلك؛ فقد قال على الله بلا علم وقارف الشرك، تمامًا كما نصب الوثنيّون أوثانهم أسبابًا لقدر المغفرة والزلفى إلى الله وكما نصب أهل التّجوم نجومهم أسبابًا للسعود والنحس. فهٰذا أصل الطيرة الشركيّة وفقه نهي النبيّ ﷺ عنها، وهو رأس الباب، فمن أحكمه؛ فلن يخفى عليه أنّ الاستدلال على الأقدار بحركات الحيوان أو نعيب البوم والغربان أو نباح الكلاب أو مواضع الأيدي أو أوّل ما يُنطق به من الحروف أو الكلمات أو أوّل ما يرى منها عند فتح المصحف أو رؤية العوران والعرجان أو غير ذٰلك ممّا يبتدعه الناس كلّ يوم؛ كلّ ذٰلك لاحق بالباب نفسه؛ لأنّه تعليق لأقدار الله بأسباب أو أدلّة ما أنزل الله بها من سلطان.

* **ثالثًا: بين الشؤم والطيرة:** لا ريب أنّ الشؤم الذي أثبته النبيّ ﷺ لون والطيرة الشركيّة التي نفاها لون آخر، وذٰلك لأمرين: **أوّلهما:** أنّه ﷺ لم يقل «**لا طيرة، وإن كانت الطيرة في شيء**» بل غاير فقال «**وإن كان الشؤم في شيء**»، واختلاف المباني دليل على اختلاف المعاني. **والآخر:** أنّه من غير الممكن أن يرضى النبيّ ﷺ لأمّته بشيء من الشرك مهما كان صغيرًا، بل لا بدّ أن يخلو الشؤم الذي أثبته ﷺ من أدنى درجات الشرك.

* **رابعًا: فما هو الشؤم المأذون به إذًا؟** إذا كانت معادلة الطيرة المنهيّ عنها هي: الطيرة هي تعليق الأقدار بأسباب (أو الاستدلال عليها بأدلّة) ما أنزل الله بها من سلطان، ففيها مقارفة للشرك، ولذٰلك نهى النبيّ ﷺ عنها. فيجب أن تكون معادلة الشؤم المأذون فيه إذًا: الشؤم هو تعليق الأقدار بأسباب (أو الاستدلال عليها بأدلّة) يقرّها الشرع أو العلم أو العقل، فليس فيه مقارفة للشرك، ولذٰلك أذن النبيّ ﷺ به.

فلو أنّ رجلاً تزوّج امرأة، فرآها قليلة العقل والدين والخلق والحرص على نفسها كثيرة الدخول والخروج والاختلاط بالرجال وزيارة الجارات ليلاً ونهارًا، فأوجس خيفة ممّا ستجلبه عليه وعلى أولاده من المصائب في مستقبل الأيّام، فطلّقها، فهٰذا شؤم مشروع لا ضير فيه. ولو أنّه سكن دارًا فرأى في جيرانها فسادًا وأذًى أو رآها مكشوفة للجيران أو رأى سطوحها أو الشوارع حولها خطرة على أولاده فأوجس خيفة ممّا ستجلبه عليه وعلى أولاده من المصائب في المستقبل، فتركها، فهٰذا شؤم مشروع لا بأس فيه.

* **خامسًا: لماذا اختصّ النبيّ ﷺ الدار والمرأة والفرس بالشؤم دون غيرها؟** لم يختصّ النبيّ ﷺ هٰذه الثلاثة بالذكر لأنّها وحدها موضع الشؤم المأذون به، بل لأنّها أكثر ما يتشاءم به الناس قديمًا وحديثًا. فإن كانت هناك أسباب معقولة للتشاؤم بغيرها؛ فلا ضير في ذٰلك. كأن يرى الرجل ولده في صحبة شابّ أكبر منه وأضخم سيّئ الخلق بذيء اللسان عصبيّ المزاج عنيف، فلا ضير عليه إن أوجس خيفة ممّا قد ينزل بولده من جهة صاحبه هٰذا فمنعه من صحبته. وكذٰلك إن عرف مخاطر طريق من الطرق... إلخ.

* **سادسًا:** وليس كلّ تشاؤم بالمرأة أو الفرس أو الدار مشروعًا، فمن تشاءم بالدار لأنّ الغراب نعب عند شرائها أو تشاءم بالمرأة لأنّه فتح المصحف عند العقد فوقعت عينه على ﴿عبس وتولّى﴾ ونحو ذٰلك؛ فهٰذا لاحق بالطيرة الشركيّة التي نهى النبيّ ﷺ عنها.

* **واعلم أخيرًا أنّ الإسلام دين فطرة وعلم وعقل؛** لا يرضى لعقل المسلم أن ينحدر إلى الأخذ بالأسباب والأدلّة الخرافيّة التي ما أنزل الله بها من سلطان، ولا يحول بينه وبين الأخذ بالأسباب التي يقرّها الشرع أو العلم أو العقل أو التجربة. هٰذه خلاصة الباب فيما أرى، ولله الحمد والمنّة.

● **فصلٌ: [ليسَ الأمرُ بالتَّحوُّلِ عنِ الدَّارِ الذَّميمةِ مِن الطِّيَرَةِ]:**

وأمَّا الأثرُ الذي ذَكَرَهُ مالكٌ عن يَحْيى بنِ سَعيدٍ: جاءَتِ ٱمرأةٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَتْ: يا رسولَ اللهِ! دارٌ سَكَنَّاها والعددُ كثيرٌ والمالُ وافرٌ فقلَّ العددُ وذَهَبَ المالُ. فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «دَعوها، ذميمةٌ»[١]. وقد ذَكَرَ هٰذا الحديثَ غيرُ مالِكٍ مِن روايةِ أنسٍ؛ أنَّ رجلاً جاءَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ! إنَّا نَزَلْنا دارًا فكَثُرَ فيها عددُنا وكَثُرَتْ فيها أموالُنا، ثمَّ تَحَوَّلْنا إلى أُخرى فقَلَّتْ فيها أموالُنا وقَلَّ فيها عددُنا. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ. . . وذَكَرَهُ[٢]. فليسَ هٰذا مِن الطِّيَرَةِ المنهيِّ عنها. وإنَّما أمَرَهُم ﷺ بالتَّحوُّلِ عنها عندَما وَقَعَ في قلوبِهِم منها لمصلحتينِ ومنفعتينِ:

إحداهُما: مفارقتُهُم لمكانٍ هُم لهُ مستثقلونَ ومنهُ مستوحشونَ لِما لَحِقَهُم فيهِ ونالَهُم لِيَتَعَجَّلوا الرَّاحةَ ممَّا داخَلَهُم مِن الجزعِ في ذٰلكَ المكانِ والحزنِ والهلعِ؛ لأنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قد جَعَلَ في غرائزِ النَّاسِ وتركيبِهِمُ ٱستثقالَ ما نالَهُمُ الشَّرُّ فيهِ وإنْ كانَ لا سببَ لهُ[٣] في ذٰلكَ وحبَّ ما جَرى لَهُم على يديهِ الخيرُ وإنْ لمْ يُرِدْهُم بهِ، فأمَرَهُم بالتَّحوُّلِ ممَّا كَرِهوهُ لأنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ بَعَثَهُ رحمةً ولمْ يَبْعَثْهُ عذابًا وأرْسَلَهُ ميسِّرًا ولمْ يُرْسِلْهُ معسِّرًا، فكيفَ يَأْمُرُهُم بالمقامِ في مكانٍ قد أحْزَنَهُمُ المقامُ بهِ وٱسْتَوْحَشوا عندَهُ لكثرةِ مَن فَقَدوهُ فيهِ لغيرِ منفعةٍ ولا طاعةٍ ولا مزيدِ تقوى وهدى؟!

ولا سيَّما[٤] وطولُ مقامِهِم فيها ـ بعدَما وَصَلَ إلى قلوبِهِم منها ما وَصَلَ ـ قد يَبْعَثُهُم ويَدْعوهُم إلى التَّشاؤمِ والتَّطيُّرِ فيُوقِعُهُم ذٰلكَ في أمرينِ عظيمينِ: أحدُهُما: مقارفةُ الشِّركِ[٥]، والثَّاني: حلولُ مكروهٍ آخرَ بهِم بسببِ[٦] الطِّيَرَةِ التي إنَّما تَلْحَقُ

---

(١) (صحيح). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٣٩).

(٢) (صحيح). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٣٩).

(٣) ليس في النصّ دليل على أنّ الدار لا سبب لها في ذٰلك، بل ظاهر قوله ﷺ «ذميمة» يدلّ على خلافه. وٱنظر ما تقدّم آنفًا في التوفيق بين نفي الطيرة وإثبات الشؤم. والله أعلم.

(٤) بدأ هنا بذكر المصلحة الأخرى التي أمرهم بالتحوّل عن الدار لأجلها.

(٥) في ط: «مقاربة الشرك»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٦) في ط: «حلول مكروه أحزنهم بسبب»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

المتطيِّرَ؟! فحَماهُم ﷺ بكمالِ رأْفتِهِ ورحمتِهِ مِن هٰذينِ المكروهينِ بمفارقةِ تلكَ الدَّارِ والاستبدالِ بها مِن غيرِ ضررٍ يَلْحَقُهُم بذٰلكَ في دنيا ولا نقصٍ في دينٍ[(١)].

وهوَ ﷺ حينَ فَهِمَ عنهُم في سؤالِهِم ما أرادوهُ مِن التَّعرُّفِ عن حالِ رحلتِهِم عنها هل ذٰلكَ لهُم ضارٌّ مؤدٍّ إلى الطِّيَرَةِ؛ قالَ: «دَعوها، ذميمةٌ». وهٰذا بمنزلةِ الخارجِ مِن أرضٍ بها الطَّاعونُ غيرَ فارٍّ منهُ[(٢)].

ولو مُنِعَ النَّاسُ الرِّحلةَ مِن الدَّارِ التي تَتَوالى عليهِمُ المصائبُ والمحنُ فيها وتعذُّرُ الأرزاقِ معَ سلامةِ التَّوحيدِ في الرِّحلةِ؛ لَلَزِمَ [مِن][(٣)] ذٰلكَ أنَّ كلَّ مَن ضاقَ عليهِ رزقٌ في بلدٍ أنْ لا يَنْتَقِلَ منهُ إلى بلدٍ آخرَ ومَن قَلَّتْ فائدةُ صناعتِهِ أنْ لا يَنْتَقِلَ عنها إلى غيرِها[(٤)].

● **فصلٌ: [في بطلانِ احتجاجِهِم بقولِهِ ﷺ شِمْ سيفكَ]:**

وأمَّا قولُ النَّبيِّ ﷺ للذي سَلَّ سيفَهُ يومَ أُحُدٍ: «شِمْ سيفَكَ؛ فإنِّي أرى السُّيوفَ سَتَنْسَلُّ اليومَ»[(٥)]؛ فهٰذهِ القصَّةُ لمْ يكُنِ الرَّجلُ قد سَلَّ السَّيفَ، ولٰكنَّ الفرسَ لَوَّحَ بذنبِهِ

---

(١) وعليه؛ فالمنفعتان والمصلحتان اللتان أمرهم بالتحوّل عن الدار من أجلهما: تحقيق الراحة النفسيّة وطيب العيش، وحفظ جانب التوحيد بمنع تسرّب الطيرة الشركيّة إلى قلوبهم. وقد صرّح يرحمه الله بالأولى وأودع الثانية في تضاعيف الكلام دون تصريح.

(٢) فيه نظر؛ لأنَّ النبيّ ﷺ أمر هنا بترك الدار الذميمة وأمر هناك بالبقاء في بلد الطاعون وعدم الخروج منها، سواء أكان الخارج فارًّا من الطاعون أو لأمر آخر.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) لاحظ أنّ تشاؤم السائل لا يمكن أن يكون تشاؤمًا شركيًّا يعلّق به صاحبه الأقدار الجارية بأسباب أو أدلّة ما أنزل الله بها من سلطان، ولو كان الأمر كذٰلك؛ لنهاه النبيّ ﷺ عن ترك الدار كما نهى المتطيّر بغراب ونحوه عن الرجوع من سفره ولا فرق، وذٰلك لأنّ النبيّ ﷺ لا يقرّ مسلمًا على شيء من الشرك مهما صغر. فإذًا؛ لا بدّ أن يكون تشاؤم هٰذا السائل مبنيًّا على تعليق الأقدار بأسباب صحيحة شرعًا أو عقلاً، ولذٰلك أمره النبيّ ﷺ بالتحوّل عن داره. هٰذا ما ينبغي أن يحمل عليه الحديث. والله أعلى وأعلم.

فإن قلت: فما هي هٰذه الأسباب التي تبيح للمرء التشاؤم بداره وهجرها؟ فالجواب أنّها كثيرة، وقد ذكرت شيئًا منها آنفًا، وأزيد هنا على سبيل المثال: أن تكون الدار صغيرة ضيّقة المرافق فيتفرّق أهلها في دور عدّة بعد أن كانوا في دار واحدة، أو يكون طريقها وعرًا لا يخلو من مخاطر أو تكون بعيدة عن دور الأهل والإخوان فتقلّ زياراتهم إليها واجتماعاتهم فيها ونزولهم على صاحبها، أو تكون بعيدة عن السوق يشقّ على أصحاب المصالح أن يصلوا إلى صاحبها ويجالسوه ويبايعوه... وغيره وغيره.

(٥) (لا يصحّ). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٤٠).

فسَلَّ السَّيفَ ولمْ يُرِدْ صاحبُهُ سَلَّهُ. هٰكذا في القصَّةِ. ولا ريبَ أنَّ الحربَ تَقومُ بالخيلِ والسُّيوفِ، ولمَّا لَوَّحَ الفرسُ بذنبِهِ فأسْتَلَّ السَّيفَ؛ قالَ النَّبيُّ ﷺ: «إنِّي أرى السُّيوفَ سَتَنْسَلُّ اليومَ».

فهٰذا لهُ محملٌ مِن ثلاثةِ محاملَ:

أحدُها: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخْبَرَ عن ظنٍّ ظنَّهُ في ذٰلكَ ولمْ يَجْعَلْ هٰذا دليلاً عامًّا في كلِّ واقعةٍ تُشْبِهُ هٰذهِ. وإذا كانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنهُ، وهوَ أحدُ أتباعِ رسولِ اللهِ ﷺ ورجلٌ مِن أُمَّتِهِ، كانَ إذا قالَ أظُنُّ كذا أو أرى كذا؛ خَرَجَ الأمرُ كما ظَنَّهُ وحَسِبَهُ؛ فكيفَ الظَّنُّ برسولِ اللهِ ﷺ؟!

الثَّاني: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ قد عَلِمَ قبلَ مخرجِهِ أنَّ السُّيوفَ سَتَنْسَلُّ ويَقَعُ القتالُ، ولهٰذا أخْبَرَهُم أنَّهُ رَأى في منامِهِ بقرًا تُنْحَرُ وعَلِمَ أنَّ ذٰلكَ شهادةُ مَن قُتِلَ مِن أصحابِهِ[1].

الثَّالثُ: أنَّ الوحيَ الذي كانَ يَعْرِفُ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ الحوادثَ والنَّوازلَ كانَ مغنيًا لهُ عنِ الإشاراتِ والعلاماتِ والأماراتِ وما في معناها ممَّا يَحْتاجُ إليهِ غيرُهُ، وأمَّا مَن يأْتيهِ خبرُ السَّماءِ صباحًا ومساءً؛ فإخبارُهُ بقولِهِ «أرى السُّيوفَ سَتَنْسَلُّ» لمْ يَكُنْ عن تلكَ الأمارةِ وإنَّما وَقَعَ الإخبارُ بهِ عَقيبَها، والشَّيءُ بالشَّيءِ يُذْكَرُ[2].

● **فصلٌ: [في بطلانِ أحتجاجِهِم بقولِهِ ﷺ وَقَدَتِ الحربُ وحَضَرَتْ وعَمَرَتْ]**:

وأمَّا ما أحْتَجَّ بهِ ونَسَبَهُ إلى قولِهِ ﷺ «وَقَدَتِ الحربُ» لمَّا رَأى واقِدَ بنَ عَبْدِاللهِ «والحَضْرَمِيُّ حَضَرَتِ الحربُ»[3]؛ فكذبٌ عليهِ ﷺ، وإنَّما قالَ ذٰلكَ أعداؤُهُ مِن اليهودِ فتَطَيَّروا بذٰلكَ وتَفاءَلوا بهِ فكانَتِ الطِّيَرَةُ عليهِم ووَقَدَتِ الحربُ عليهِم[4].

● **فصلٌ: [التَّناسبُ بينَ الاسمِ والمسمَّى ليسَ مِن الطِّيَرَةِ]**:

وأمَّا أستقبالُهُ ﷺ الجبلينِ في طريقِهِ وهما مسلحٌ ومُخْزٍ وتركُ المرورِ بينَهُما

---

(١) رواه: البخاري (٦١ـ المناقب، ٢٥ـ علامات النبوّة، ٦/ ٦٢٧/ ٣٦٢٢)، ومسلم (٤٢ـ الرؤيا، ٤ـ رؤيا النبيّ ﷺ، ٤/ ١٧٧٩/ ٢٢٧٢)؛ من حديث أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه.

(٢) وهاهنا محمل رابع إن صحّ التعبير، وهو أنّ الحديث لا يصحّ، فلا نتكلّف له تفسيرًا ولا تأويلاً.

(٣) (لا أصل له من كلام النبيّ ﷺ). تقدّم تفصيل هٰذا (٣/ ٢٤٠).

(٤) (لا يصحّ). تقدّم (٣/ ٢٤٠) أنّ القصّة كلّها غير صحيحة ولا مسندة.

وعدلُهُ ذاتَ اليمينِ[(١)]؛ فليسَ هٰذا أيضًا مِن الطِّيَرَةِ:

وإنَّما هوَ مِن العدولِ عمَّا يُؤْذي النُّفوسَ ويُشَوِّشُ القلوبَ إلى ما هوَ بخلافِهِ، كالعدولِ عنِ الاسمِ القبيحِ وتغييرِهِ بأحسنَ منهُ، وقد تَقَدَّمَ تقريرُ ذٰلكَ بما فيهِ كفايةٌ.

وأيضًا؛ فإنَّ الأماكنَ فيها الميمونُ المباركُ والمشؤومُ المذمومُ، فٱطَّلَعَ رسولُ اللهِ ﷺ على شؤْمِ ذٰلكَ المكانِ وأنَّهُ مكانُ سوءٍ فجاوَزَهُ إلى غيرِهِ كما جاوَزَ الواديَ الذي ناموا فيهِ عنِ الصُّبحِ إلى غيرِهِ وقالَ: «هٰذا مكانٌ حَضَرَنا فيهِ الشَّيطانُ»[(٢)]، والشَّيطانُ يُحِبُّ الأمكنةَ المذمومةَ ويَنْتابُها.

وأيضًا؛ فلِما كانَ المرورُ بينَ ذينِكَ الجبلينِ قد يُشَوِّشُ القلبَ[(٣)].

على أنَّا نَقولُ في ذٰلكَ قولاً كلِّيًا نُبَيِّنُ بهِ سرَّ هٰذا البابِ بحولِ اللهِ وعونِهِ وتوفيقِهِ:

ٱعْلَمْ أنَّ بينَ الأسماءِ ومسمَّياتِها ٱرتباطًا قَدَّرَهُ العزيزُ العليمُ وأَلْهَمَهُ نفوسَ العبادِ وجَعَلَهُ في قلوبِهِم بحيثُ لا تَنْصَرِفُ عنهُ، وليسَ هٰذا الارتباطُ هوَ ٱرتباطَ العلَّةِ بمعلولِها ولا ٱرتباطَ المقتضي الموجِبِ لمقتضاهُ وموجَبِهِ بل ٱرتباطُ تناسبٍ وتشاكلٍ ٱقْتَضَتْهُ حكمةُ الحكيمِ[(٤)]. فقَلَّ أنْ تَرى ٱسمًا قبيحًا إلاَّ وبينَ مسمَّاهُ وبينَهُ رابطٌ مِن القبحِ، وكذٰلكَ إذا تَأَمَّلْتَ الاسمَ الثَّقيلَ الذي تَنْفُرُ عنهُ الأسماعُ وتَنْبو عنهُ الطِّباعُ؛ فإنَّكَ تَجِدُ مسمَّاهُ يُقارِبُ أو يُلِمُّ أنْ يُطابِقَ. ولهٰذا؛ مِن المشهورِ على ألسنةِ النَّاسِ أنَّ الألقابَ تَتَنَزَّلُ مِن السَّماءِ، فلا تكادُ تَجِدُ الاسمَ الشَّنيعَ القبيحَ إلاَّ على مسمًّى يُناسِبُهُ، وفي ذٰلكَ قولُ القائلِ:

وَقَلَّ أنْ أَبْصَرَتْ عَيْناكَ ذا لَقَبٍ ... إلاَّ وَمَعْناهُ إنْ فَكَّرْتَ في لَقَبِهْ

ولهٰذا؛ كثيرًا ما تَجِدُ أيضًا في أسماءِ الأجناسِ [مطابقةً لمسمَّياتِها وتَجِدُ][(٥)] الواضعَ لهُ عنايةٌ بمطابقةِ الألفاظِ للمعاني ومناسبتِها لها: فيَجْعَلُ الحروفَ الهوائيَّةَ

---

(١) (لا يصحّ). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٤١).

(٢) رواه مسلم (٥- المساجد، ٥٥- قضاء الفائتة، ١/ ٤٧١/ ٦٨٠) من حديث أبي هريرة.

(٣) ووجه رابع، وهو أنّ الحادثة لا تصحّ، فلا نتكلّف توجيهها ولا نتابع من احتجّ بها.

(٤) تأمّل هٰذه العبارة وأعد النظر فيها وٱجعلها نصب عينيك؛ فإنّها رأس الباب.

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

الخفيفةَ لمسمًّى مشاكلٍ لها كالهواءِ، والحروفَ الشَّديدةَ للمسمَّى المناسبِ لها كالصَّخرِ والحجرِ، وإذا تَتابَعَتْ حركةُ المسمَّى تابَعوا حركةَ[1] اللفظِ كالدَّورانِ والغليانِ والنَّزَوانِ[2]، وإذا تَكَرَّرَتِ الحركةُ كَرَّروا اللفظَ كقَلْقَلَ وزَلْزَلَ ودَكْدَكَ وصَرْصَرَ[3]، وإذا ٱكْتَنَزَ المسمَّى وتَجَمَّعَتْ أجزاؤُهُ جَعَلوا في ٱسمِهِ مِن الضَّمِّ الدَّالِّ على الجمعِ والاكتنازِ ما يُناسِبُ المسمَّى كالبُحْتُرِ للقصيرِ المجتمعِ الخلقِ، وإذا طالَ جَعَلوا في المسمَّى مِن الفتحِ الدَّالِّ على الامتدادِ نظيرَ ما في المعنى كالعَشَنَّقِ للطَّويلِ. . . ونظائرُ ذٰلكَ أكثرُ مِن أنْ تُسْتَوْعَبَ وإنَّما أشَرْنا إليها أدنى إشارةٍ[4].

وهٰذا هوَ الذي أرادَهُ مَن قالَ: بينَ الاسمِ والمسمَّى مناسبةٌ، فلمْ يَفْهَمْ عنهُ بعضُ المتأخِّرينَ مرادَهُ، فأخَذَ يُشَنِّعُ عليهِ بأنَّهُ لا تناسبَ طبعيًّا بينَهُما، وٱسْتَدَلَّ على إنكارِ ذٰلكَ بما لا طائلَ تحتَهُ! فإنَّ عاقلاً لا يَقولُ: إنَّ التَّناسبَ الذي بينَ الاسمِ والمسمَّى كالتَّناسبِ الذي بينَ العلَّةِ والمعلولِ، وإنَّما هوَ ترجيحٌ وأولويَّةٌ تَقْتَضي ٱختصاصَ الاسمِ بمسمَّاهُ، وقد يَتَخَلَّفُ عنهُ[5] ٱقتضاؤُها كثيرًا.

والمقصودُ أنَّ هٰذهِ المناسبةَ تَنْضَمُّ إلى ما جَعَلَ اللهُ في طبائعِ النَّاسِ وغرائزِهِم مِن النَّفرةِ مِن الاسمِ[6] القبيحِ المكروهِ وكراهتِهِ وتطيُّرِ أكثرِهِم بهِ، وذٰلكَ يُوجِبُ عدمَ ملابستِهِ ومجاوزتَهُ[7] إلى غيرِهِ. فهٰذا أصلُ هٰذا البابِ.

● **فصلٌ: [ليستْ كراهيةُ السَّلفِ لإتباعِ الجنازةِ بالنَّارِ مِن الطِّيَرَةِ]:**

وأمَّا كراهيةُ السَّلفِ أنْ يُتْبَعَ الميِّتُ بشيءٍ مِن النَّارِ أو أنْ يُدْخَلَ القبرَ شيءٌ مَسَّتْهُ النَّارُ وقولُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: لا يَكونُ آخرَ زادِهِ أنْ تُتْبِعوهُ بالنَّارِ؛ فيَجوزُ أنْ يَكونَ

---

(١) في ط: «تابعوا بين حركة»! فإمّا أنّ الصواب ما أثبتّه، أو أنّه «تابعوا بين حركات اللفظ».

(٢) النزوان: التفلّت والوثوب.

(٣) صرصر: صوّت بأستمرار وتكرار.

(٤) وقد عُني اللغويّون قديمًا وحديثًا بهٰذه الظاهرة وأشاروا إلى لمحات بديعة فيها تؤكّد صحّة ما تقدّم من كلام ابن القيّم رحمة الله عليه.

(٥) في ط: «وقد يختلف عنه»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٦) في ط: «النفرة بين الاسم»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٧) في ط: «ومجاورته»! وهٰذا تصحيف ظاهر صوابه ما أثبتّه.

كراهتُهُم لذٰلكَ مخافةَ الإحداثِ لِما لَمْ يَكُنْ في عصرِ الرَّسولِ ﷺ[(١)].

فكيفَ وذٰلكَ ممَّا يُبيحُ الطِّيَرَةَ بهِ والظُّنونَ الرَّديَّةَ بالميِّتِ؟! وقد قالَ غيرُ واحدٍ مِن السَّلفِ - منهُم عَبْدُالمَلِكِ بنُ حَبيبٍ وغيرُهُ -: وإنَّما كَرِهوا ذٰلكَ تفاؤلاً بالنَّارِ في هٰذا المقامِ أنْ تَتْبَعَهُ. وذَكَرَ ابنُ حَبيبٍ وغيرُهُ؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أرادَ أنْ يُصَلِّيَ على جنازةٍ، فجاءَتِ امرأةٌ ومعَها مِجْمَرٌ، فما زالَ يَصيحُ بها حتَّى تَوارَتْ بآجامِ المدينةِ[(٢)].

قالَ بعضُ أهلِ العلمِ: وليسَ خوفُهُم مِن ذٰلكَ على الميِّتِ، لٰكنْ على الأحياءِ المجبولينَ على الطِّيَرَةِ، لئلاَّ تُحَدِّثَهُم أنفسُهُم بالميِّتِ أنَّهُ مِن أهلِ النَّارِ لِما رَأَوْهُ مِن النَّارِ التي تَتْبَعُهُ في أوَّلِ أيَّامِهِ مِن الآخرةِ، ولا سيَّما في مكانٍ يُرادُ منهُم فيهِ كثرةُ الاجتهادِ للميِّتِ بالدُّعاءِ، فإذا لَمْ يَبْقَ لهُ زادٌ غيرُهُ؛ فَيَظُنُّونَ أنَّ تلكَ النَّارَ مِن بقايا زادِهِ إلى الآخرةِ، فتَسوءُ ظنونُهُم بهِ وتَنْفُرُ عن رحمتِهِ قلوبُهُم في مكانٍ هُم فيهِ شهداءُ اللهِ، كما جاء في الحديثِ الصَّحيحِ لمَّا مُرَّ على النَّبيِّ ﷺ بجنازةٍ، فأثْنَوْا عليها خيرًا، فقالَ: «وَجَبَتْ». فقالوا: وما وَجَبَتْ؟ قالَ: «وَجَبَتْ لهُ الجنَّةُ، أنتُم شهداءُ اللهِ في الأرضِ، مَن أثْنَيْتُم عليهِ خيرًا؛ وَجَبَتْ لهُ الجنَّةُ، ومَن أثْنَيْتُم عليهِ شرًّا؛ وَجَبَتْ لهُ النَّارُ»[(٣)]. وفي أثرٍ آخرَ: «إذا أرَدْتُم أنْ تَعْلَموا ما للميِّتِ عندَ اللهِ؛ فانْظُروا ما يَتْبَعُهُ مِن حسنِ الثَّناءِ»[(٤)].

---

(١) فهٰذه واحدة. وأيضًا؛ فهو من فعل النصارى، كما جاء مصرّحًا به عند عبدالرزّاق (٦١٥٩) بسند فيه ضعف يسير عن ابن عبّاس، وكانوا يحبّون مخالفتهم.

(٢) (ضعيف). رواه: عبدالرزّاق (٦١٦٢)، وابن أبي شيبة (١١١٨١)، وابن منده في «الصحابة» (١/ ٣٩٦ـ إصابة)؛ من طريقين قويّتين، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن حنش بن المعتمر، عن النبيّ ﷺ.

وهٰذا ضعيف له علّتان: حنش ليّن في أحسن أحواله كما تفيده ترجمته في «التهذيب»، وروايته عن النبيّ ﷺ مرسلة، ولذٰلك ضعّفها العسقلاني.

(٣) رواه: البخاري (٢٣ـ الجنائز، ٨٥ـ ثناء الناس على الميّت، ٣/ ٢٣٨/ ١٣٦٧)، ومسلم (١١ـ الجنائز، ٢٠ـ من يثنى عليه خير أو شرّ، ٢/ ٦٥٥/ ٩٤٩)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) (ضعيف جدًّا). رواه: مالك في «الموطّأ» (٢/ ٩٠٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٥)، والبيهقي في «الزهد» (٨١٠)؛ عن أبي سهيل بن مالك، عن أبيه، عن كعب الأحبار... موقوفًا. وهٰذا سند قويّ.

ورواه ابن عساكر (١٣/ ٣٧٤) من طريق عبدالله بن سلمة، عن أسلم، عن أبيه، عن حسن بن محمّد بن عليّ، عن محمّد بن عليّ، عن عليّ... رفعه. قال الزرقاني: «بسند ضعيف». وقال المناوي: «فيه عبدالله بن سلمة متروك». قلت: ومتّهم وأسلم وأبوه لم أعرفهما. فالحديث ساقط.

فقالَتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها: لا يَكونُ آخرَ زادِهِ مِن الثَّناءِ والدُّعاءِ أنْ تُتْبِعوهُ بالنَّارِ، فتَهيجوا بها خواطرَ النَّاسِ وتَبْعَثوا ظنونَهُم بالتَّطيُّرِ والنَّارِ والعذابِ. واللهُ أعلمُ.

● فصلٌ: [لا تُفيدُ موافقةُ القدرِ لمَن تَطَيَّرَ صحَّةَ الطِّيَرَةِ]:

وأمَّا تلكَ الوقائعُ التي ذَكَروها ممَّا يَدُلُّ على وقوعِ ما تَطَيَّرَ بهِ مَن تَطَيَّرَ؛ فنعم، وهاهُنا أضعافُها وأضعافُ أضعافِها.

ولَسْنا نُنْكِرُ موافقةَ القضاءِ والقدرِ لهٰذهِ الأسبابِ وغيرِها كثيرًا، [و]موافقةُ حزرِ الحازرينَ وظنونِ الظَّانِّينَ وزجرِ الزَّاجرينَ للقدرِ أحيانًا ممَّا لا يُنْكِرُهُ أحدٌ.

ومِن الأسبابِ التي تُوجِبُ وقوعَ المكروهِ الطِّيَرَةُ، كما تَقَدَّمَ أنَّ(١) الطِّيَرَةَ على مَن تَطَيَّرَ(٢)، ولٰكنْ نَصَبَ اللهُ سبحانَهُ لها أسبابًا يُدْفَعُ بها موجَبُها وضررُها مِن التَّوكُّلِ عليهِ وحسنِ الظَّنِّ بهِ وإعراضِ قلبِهِ عنِ الطِّيَرَةِ وعدمِ ٱلتفاتِهِ إليها وخوفِهِ منها وثقتِهِ باللهِ عَزَّ وجَلَّ.

ولَسْنا نُنْكِرُ أنَّ هٰذهِ الأُمورَ ظنونٌ وتخمينٌ وحدسٌ وخرصٌ، وما كانَ هٰذا سبيلَهُ فيُصيبُ تارةً ويُخْطِئُ تاراتٍ.

وليسَ كلُّ ما تَطَيَّرَ بهِ المتطيِّرونَ وتَشاءَموا بهِ وَقَعَ جميعُهُ وصَدَقَ، بل أكثرُهُ كاذبٌ وصادقُهُ نادرٌ، والنَّاسُ في هٰذا المقامِ إنَّما يُعَوِّلونَ ويَنْقُلونَ ما صَحَّ ووَقَعَ ويَعْتَنونَ بهِ فيُرى كثيرًا، والكاذبُ منهُ أكثرُ مِن أنْ يُنْقَلَ.

قالَ ابنُ قُتَيْبَةَ: مِن شأنِ النُّفوسِ حفظُ الصَّوابِ للعجبِ بهِ والاستغرابِ وتناسي الخطإِ. قالَ: ومَن ذا الذي يَتَحَدَّثُ أنَّهُ سَأَلَ منجِّمًا فأخْطأ، وإنَّما الذي يُتَحَدَّثُ بهِ ويُنْقَلُ أنَّهُ سَأَلَهُ فأصابَ! قالَ: والصَّوابُ في مسألةٍ إذا كانَ بينَ أمرينِ قد يَقَعُ للمعتوهِ والطِّفلِ فضلاً عن أُولي العقلِ.

وقد تَقَدَّمَ مِن بطلانِ الطِّيَرَةِ وكذبِها ما فيهِ كفايةٌ.

---

(١) في ط: «تقدّم وأنّ»! والأولى حذف الواو.

(٢) وهٰذا المعنى صحيح وإن كان الحديث فيه لا يصحّ كما تقدّم (٣/ ٢٨٨)، وذٰلك أنّ الطيرة توجب لصاحبها من القعود والعجز وعدم السعي في مصالحه ما يفتح الأبواب للمكروه على مصراعيها.

وقد كانَتْ عائِشَةُ أُمُّ المؤمنينَ رَضِيَ اللهُ عنها تَسْتَحِبُّ أَنْ تَتَزَوَّجَ المرأةُ أو يُبْنى بها في شوَّالٍ وتَقولُ: ما تَزَوَّجَني رسولُ اللهِ ﷺ إلاَّ في شوَّالٍ؛ فأيُّ نسائِهِ كانَ أحظى عندَهُ منِّي[١]؟! معَ تطيُّرِ النَّاسِ بالنِّكاحِ في شوَّالٍ.

وهٰذا فعلُ أُولي العزمِ والقوَّةِ مِن المؤمنينَ الذينَ: صَحَّ توكُّلُهُم على اللهِ، واطْمَأَنَّتْ قلوبُهُم إلى ربِّهِم ووَثِقوا بهِ، وعَلِموا أنَّ ما شاءَ اللهُ كانَ وما لمْ يَشَأْ لمْ يَكُنْ، وأنَّهُم لنْ يُصيبَهُم إلاَّ ما كَتَبَ اللهُ لهُم، وأنَّهُم ما أصابَهُم مِن مصيبةٍ إلاَّ وهيَ في كتابٍ مِن قبلِ أنْ يَخْلُقَهُم ويُوجِدَهُم، وعَلِموا أنَّهُ لا بدَّ وأنْ يَصيروا إلى ما كَتَبَهُ وقَدَّرَهُ ولا بدَّ أنْ يَجْرِيَ عليهِم، وأنَّ تطيُّرَهُم لا يَرُدُّ قضاءَهُ وقدرَهُ عنهُم، بل قد يَكونُ تطيُّرُهم مِن أعظمِ الأسبابِ التي يَجْري عليهِم بها القضاءُ والقدرُ فيُعينونَ على أنفسِهِم، وقد جَرى لهُمُ القضاءُ والقدرُ بأنَّ نفوسَهُم هيَ سببُ إصابةِ المكروهِ لهُم فطائرُهُم معَهُم، وأمَّا المتوكِّلونَ على اللهِ المفوِّضونَ إليهِ العالمونَ بهِ وبأمرِهِ؛ فنفوسُهُم أشرفُ مِن ذٰلكَ وهممُهُم أعلى وثقتُهُم باللهِ وحسنُ ظنِّهِم بهِ عدَّةٌ لهُم وقوَّةٌ وجُنَّةٌ مما يَتَطَيَّرُ بهِ المتطيِّرونَ ويَتَشاءَمُ بهِ المتشائمونَ، عالمونَ أنَّهُ لا طيرَ إلاَّ طيرُهُ ولا خيرَ إلاَّ خيرُهُ ولا إلٰهَ غيرُهُ، ألاَ لهُ الخلقُ والأمرُ تَبارَكَ اللهُ ربُّ العالمينَ.

● **فصلٌ [في تشاؤمِ أهلِ الجاهليَّةِ بالعطاسِ]:**

وممَّا كانَ أهلُ الجاهليَّةِ يَتَطَيَّرونَ بهِ ويَتَشاءَمونَ منهُ العطاسُ كما يَتَشاءَمونَ بالبوارحِ والسَّوانحِ:

قالَ رُؤْبَةُ بنُ العَجَّاجِ يَصِفُ فلاةً: قَطَعْتُها ولا أهابُ العُطاسا.

وقالَ امْرُؤُ القَيْسِ:

وَقَدْ أغْتَدي قَبْلَ العُطاسِ بِهَيْكَلٍ ... شَديدِ مِشَكِّ الجَنْبِ فَعْمِ المُنَطَّقِ[٢]

أرادَ أنَّهُ كانَ يَنْتَبِهُ للصَّيدِ قبلَ أنْ يَنْتَبِهَ النَّاسُ مِن نومِهِم؛ لئلاَّ يَسْمَعَ عطاسًا فيَتَشاءَمَ بعطاسِهِ.

---

(١) رواه مسلم. وقد تقدّم نصّه وتخريجه (٣/ ٢٨٥).

(٢) هيكل: فرس. شديد مشكّ الجنب: قد وضعت الأسلحة الكثيرة وآلات الصيد في جنبه. فعم: مليء. المنطّق: الحزام.

وكانوا إذا عَطَسَ مَن يُحِبُّونَهُ؛ قالوا لهُ: عَمْرًا وشبابًا، وإذا عَطَسَ مَن يُبْغِضونَهُ؛ قالوا لهُ: وَرْيًا وقُحابًا. الوريُ كالرَّمي داءٌ يُصيبُ الكبدَ فيُفْسِدُها، والقحاب كالسُّعالِ وزنًا ومعنًى.

فكانَ الرَّجلُ إذا سَمعَ عطاسًا يَتَشاءَمُ بهِ يَقولُ: بكَ لا بي؛ [أي] إنِّي أسْأَلُ اللهَ أنْ يَجْعَلَ شؤْمَ عطاسِكَ بكَ لا بي.

وكانَ تشاؤُمُهُم بالعطسةِ الشَّديدةِ أشدَّ، كما حُكِيَ عن بعضِ الملوكِ: أنَّ سامرًا لهُ عَطَسَ عطسةً شديدةً راعَتْهُ، فغَضِبَ الملكُ. فقالَ سميرُهُ: واللهِ؛ ما تَعَمَّدْتُ ذٰلكَ ولٰكنَّ هٰذا عطاسي. فقالَ: واللهِ؛ لئنْ لمْ تَأْتِني بمَن يَشْهَدُ لكَ بذٰلكَ؛ لأقْتُلَنَّكَ. فقالَ: أخْرِجْني إلى النَّاسِ لعلِّي أجدُ مَن يَشْهَدُ لي. فأخْرَجَهُ وقد وَكَلَ بهِ الأعوانَ، فوَجَدَ رجلاً، فقالَ: يا سيِّدي! نَشَدْتُكَ باللهِ؛ إنْ كُنْتَ سَمِعْتَ عطاسي يومًا؛ فلَعَلَّكَ تَشْهَدُ لي بهِ عندَ الملكِ. فقالَ: نعمْ، أنا أشْهَدُ لكَ. فنَهَضَ معَهُ وقالَ: يا أيُّها الملكُ! أنا أشْهَدُ أنَّ هٰذا الرَّجلَ عَطَسَ يومًا فطارَ ضرسٌ مِن أضراسِهِ. فقالَ لهُ الملكُ: عُدْ إلى حديثِكَ ومجلسِكَ.

فلمَّا جاءَ اللهُ سبحانَهُ بالإسلامِ وأبْطَلَ برسولِهِ ﷺ ما كانَ عليهِ الجاهليَّةُ مِن الضَّلالةِ؛ نَهى أُمَّتَهُ عنِ التَّشاؤُمِ والتَّطيُّرِ، وشَرَعَ لهُم أنْ يَجْعَلوا مكانَ الدُّعاءِ على العاطسِ بالمكروهِ الدُّعاءَ لهُ بالرَّحمةِ كما أمَرَ العائنَ أنْ يَدْعُوَ بالتَّبريكِ للمَعينِ[1].

---

(١) (صحيح). رواه: مالك في «الموطّإ» (٢/ ٩٣٨ و٩٣٩)، وعبدالرزّاق (١٩٧٦٦)، وابن أبي شيبة (٢٣٥٨٥)، وأحمد (٣/ ٤٨٦)، وابن ماجه (٣١ـ الطب، ٣٢ـ الغين، ٢/ ١١٦٠/ ٣٥٠٩)، والنسائي في «اليوم والليلة» (٢٠٨ و٢٠٩)، وابن حبّان (٦١٠٥ و٦١٠٦)، وابن قانع في «المعجم» (١/ ٢٦٦/ ٣٠٩)، والطبراني (٦/ ٧٨/ ٥٥٧٣ و٥٥٧٤ و٥٥٧٥ و٥٥٧٨ و٥٥٨٠ و٥٥٨١ و٥٥٨٢)، وابن السنّي (٢٠٥)، والحاكم (٣/ ٤١٠ و٤١١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٣٧)، والبيهقي (٩/ ٣٥١ و٣٥٢)، والبغوي (٣٢٤٥)؛ من طرق، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، [عن أبيه]. . . فذكره مرفوعًا بهٰذا اللفظ وبنحوه.

وللحديث أكثر من سند صحيح، وبعض أسانيده على شرط الشيخين، لٰكن له علّة، وهي ٱختلافهم في وصله وإرساله، ولٰكنّ مثل هٰذا لا يقدح كما قدّمت في غير موضع؛ فإن الحكم للوصل طالما صحّ به السند، وهو كذٰلك هنا. وكذٰلك؛ فأبو أمامة صحابي ولد في حياة النبيّ ﷺ وسمّاه وحنّكه فمرسله في حكم الموصول. ولذٰلك صحّح الحديث ابن حبّان وأقره العسقلاني والألباني.

ولمَّا كانَ الدُّعاءُ على العاطسِ نوعًا مِن الظُّلمِ والبغيِ؛ جُعِلَ الدُّعاءُ لهُ بلفظِ الرَّحمةِ المنافي للظُّلمِ، وأُمِرَ العاطسُ أنْ يَدْعُوَ لسامعِهِ ويُشَمِّتَهُ بالمغفرةِ والهدايةِ وإصلاحِ البالِ فيقولَ: يَغْفِرُ اللهُ لنا ولكُم[1]، أو: يَهْديكُمُ اللهُ ويُصْلِحُ بالَكُم[2].

فأمَّا الدُّعاءُ بالهدايةِ؛ فلِما أنَّهُ اهْتَدى إلى طاعةِ الرَّسولِ ورَغِبَ عمَّا كانَ عليهِ أهلُ الجاهليَّةِ، فدَعا لهُ أنْ يُثَبِّتَهُ اللهُ عليها ويَهْدِيَهُ إليها.

وكذٰلكَ الدُّعاءُ بإصلاحِ البالِ، وهيَ حكمةٌ جامعةٌ لصلاحِ شأْنِهِ كلِّهِ، وهيَ مِن بابِ الجزاءِ على دعائِهِ لأخيهِ بالرَّحمةِ، فناسَبَ أنْ يُجازِيَهُ بالدُّعاءِ لهُ بإصلاحِ البالِ.

وأمَّا الدُّعاءُ بالمغفرةِ؛ فجاءَ بلفظٍ يَشْمَلُ العاطسَ والمشمِّتَ، كقولِهِ: يَغْفِرُ اللهُ لنا ولكُم، لِيَتَحَصَّلَ مِن مجموعِ دعوى العاطسِ والمشمِّتِ لهُ المغفرةُ والرَّحمةُ لهُما معًا. فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ على المبعوثِ بصلاحِ الدُّنيا والآخرةِ.

ولأجلِ هٰذا ـ واللهُ أعلمُ ـ لمْ يُؤْمَرْ بتشميتِ مَن لمْ يَحْمَدِ اللهَ[3]؛ فإنَّ الدُّعاءَ لهُ بالرَّحمةِ نعمةٌ، فلا يَسْتَحِقُّها مَن لمْ يَحْمَدِ اللهَ ويَشْكُرْهُ على هٰذهِ النِّعمةِ ويَتَأَسَّى بأبيهِ آدَمَ؛ فإنَّهُ لمَّا نُفِخَتْ فيهِ الرُّوحُ إلى الخياشيمِ؛ عَطَسَ، فألْهَمَهُ ربُّهُ تَبارَكَ وتَعالى أنْ نَطَقَ بحمدِهِ فقالَ: الحمدُ للهِ، فقالَ اللهُ سبحانَهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ يا آدَمُ[4]، فصارَتْ تلكَ سنَّةَ العطاسِ. فمَن لمْ يَحْمَدِ اللهَ؛ لمْ يَسْتَحِقَّ هٰذهِ الدَّعوةَ. ولمَّا سَبَقَتْ هٰذهِ الكلمةُ لآدَمَ قبلَ أنْ يُصيبَهُ ما أصابَهُ؛ كانَ مآلُهُ إلى الرَّحمةِ وكانَ ما جَرى عارضًا وزالَ؛ فإنَّ الرَّحمةَ

---

(١) (صحيح). رواه: مالك في «الموطإ» (٢/ ٩٦٥)، والبيهقي في «الشعب» (٩٣٥٠)؛ من طريق نافع، عن ابن عمر. . . موقوفًا. وسنده صحيح غاية، وله حكم المرفوع، لما عُرف عن ابن عمر من شدّة اتّباعه في هٰذا وتشنيعه على من خالف السنّة. على أنّ له شاهدين مرفوعين ضعيفين من حديث ابن مسعود وسالم بن عبيد يرجّحان أنّ له حكم المرفوع.

(٢) رواه: البخاري (٧٨ـ الأدب، ١٢٦ـ إذا عطس كيف يشمّت، ١٠/ ٦٠٨/ ٦٢٢٣ و٦٢٢٤)، ومسلم (٥٣ـ الزهد، ٩ـ تشميت العاطس، ٤/ ٢٢٩٣/ ٢٩٩٤)؛ من حديث أبي هريرة.

(٣) رواه: البخاري (٧٨ـ الأدب، ١٢٣ـ الحمد للعاطس، ١٠/ ٥٩٩/ ٦٢٢١)، ومسلم (٥٣ـ الزهد والرقائق، ٩ـ تشميت العاطس، ٤/ ٢٢٩٢/ ٢٩٩١)؛ من حديث أنس. ومسلم (الموضع السابق، ٢٩٩٢) من حديث أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنهما.

(٤) (صحيح). تقدّم بطوله وتفصيل القول فيه (١/ ١٢٧).

سَبَقَتِ العقوبةَ وغَلَبَتِ الغضبَ.

وأيضًا؛ فإنَّما أُمِرَ العاطسُ بالتَّحميدِ عندَ العطاسِ؛ لأنَّ الجاهليَّةَ كانوا يَعْتَقِدونَ فيهِ أنَّهُ داءٌ ويكْرَهُ أحدُهُم أنْ يَعْطِسَ ويوَدُّ أنَّهُ لمْ يَصْدُرْ منهُ؛ لِما في ذٰلكَ مِن الشُّؤْمِ، وكانَ العاطسُ يَحْبِسُ نفسَهُ عنِ العطاسِ ويَمْتَنِعُ مِن ذٰلكَ جهدَهُ مِن سوءِ اعتقادِ جهَّالِهِم فيهِ. ولِذٰلكَ - واللهُ أعلمُ - بَنَوْا لفظَهُ على بناءِ الأدواءِ كالزُّكامِ والسُّعالِ والدُّوارِ والسُّهامِ[1] وغيرِها. فأُعْلِموا أنَّهُ ليسَ بداءٍ ولٰكنَّهُ أمرٌ يُحِبُّهُ اللهُ، وهوَ نعمةٌ منهُ يَسْتَوْجِبُ عليها مِن عبدِهِ أنْ يَحْمَدَهُ عليها[2].

وفي الحديثِ المرفوعِ: «إنَّ اللهَ يُحِبُّ العطاسَ ويَكْرَهُ التَّثاؤُبَ»[3].

والعطاسُ ريحٌ مختنقةٌ تَخْرُجُ وتَفْتَحُ السَّددَ مِن الكبدِ[4]، وهوَ دليلٌ جيِّدٌ للمريضِ مؤذنٌ بانفراجِ بعضِ علَّتِهِ[5]. وفي بعضِ الأمراضِ يُسْتَعْمَلُ ما يُعَطِّسُ العليلَ ويُجْعَلُ نوعًا مِن العلاجِ ومعينًا عليهِ[6]، [و]هٰذا قدرٌ زائدٌ على ما أحَبَّهُ الشَّارعُ مِن ذٰلكَ وأمَرَ بحمدِ اللهِ عليهِ وبالدُّعاءِ لمَن صَدَرَ منهُ وحَمَدَ اللهَ عليهِ.

ولهٰذا - واللهُ أعلمُ - يُقالُ شَمَّتَهُ - إذا قالَ لهُ يَرْحَمُكَ اللهُ - وسَمَّتَهُ بالمعجمةِ

---

(١) السهام: الضمور والتغيّر.

(٢) لا ريب أنّ العطاس نعمة من الله تعالى تستوجب الحمد فالعطاس في المفهوم الطبّيّ المعاصر فعلٌ منعكسٌ دفاعيٌّ قويّ ومفاجئ يستثيره وجود مخرّش ما على بطانة الأنف أو البلعوم الأنفي، يتنبّه الجسم بوساطته إلى وجود شيء غريب دخل تجويف الأنف مارًّا إلى الطرق التنفسيّة، ويتخلّص منه بالعطاس نفسه أو بما يتلوه من تنظيف مجرى الأنف.

(٣) رواه البخاري (٧٨ـ الأدب، ١٢٥ـ ما يستحبّ من العطاس، ١٠/ ٦٠٧/ ٦٢٢٣)، وأصله عند مسلم (٥٣ـ الزهد، ٩ـ تشميت العاطس، ٤/ ٢٢٩٣/ ٢٩٩٤).

(٤) لا يقرّ الأطبّاء المعاصرون بأنّ العطاس ريح مختنقة، ولا يرون صلة بينه وبين نشاط الكبد، وقد تقدّمت لك حقيقته قبل قليل.

(٥) هٰذا حسن ودقيق؛ لأنّ العطاس يخفّف عادة من احتقان بطانة الأنف ويفتح سددها، فله أثر مفيد يخفّف من أعراض الزكام.

(٦) وما زال بعض الناس يستعملون المساحيق التي تستثير العطاس «النشوق» فتخفّف أعراض الزكام واحتقان الأنف إلى اليوم، وأثرها في ذٰلك لا ينكر، لٰكنّ الاستكثار من هٰذه الموادّ يورث إدمانًا وينقص قابليّة بطانة الأنف للاستثارة فيحرمها من العطاس الطبيعيّ الذي يتمتّع به أكثر الخلق. وكلام ابن القيّم التالي يفيد أنّه لا يستحبّ هٰذا الفعل، وله كلّ الحقّ في ذٰلك.

وبالمهملةِ، وبهما رُوِيَ الحديثُ:

فأمَّا التَّسميتُ بالمهملةِ؛ فهو تفعيلٌ مِن السَّمتِ الذي يُرادُ بهِ حسنُ الهيئةِ والوقارُ، فيُقالُ: لفلانٍ سمتٌ حسنٌ، فمعنى سَمَّتُّ العاطسَ: وَقَّرْتُهُ وأكْرَمْتُهُ وتَأدَّبْتُ معَهُ بأدبِ اللهِ ورسولِهِ في الدُّعاءِ لهُ لا بأخلاقِ أهلِ الجاهليَّةِ مِن الدُّعاءِ عليهِ والتَّطيُّرِ بهِ والتَّشاؤُمِ منهُ. وقيلَ: سَمَّتَهُ: دَعا لهُ أنْ يُعيدَهُ اللهُ إلى سمتِهِ قبلَ العطاسِ مِن السُّكونِ والوقارِ وطمأْنينةِ الأعضاءِ؛ فإنَّ في العطاسِ مِن انزعاجِ الأعضاءِ واضطرابِها ما يُخْرِجُ العاطسَ عن سمتِهِ، فإذا قالَ لهُ السَّامعُ يَرْحَمُكَ اللهُ؛ فقد دَعا لهُ أنْ يُعيدَهُ إلى سمتِهِ وهيئتِهِ.

وأمَّا التَّشميتُ بالمعجمةِ:

فقالَتْ طائفةٌ منهُمُ ابنُ السِّكِّيتِ وغيرُهُ: إنَّهُ بمعنى التَّسميتِ، وإنَّهما لغتانِ. ذَكَرَ ذٰلكَ في كتابِ «القلب والإبدال»، ولمْ يَذْكُرْ أيُّهُما الأصلُ ولا أيُّهُما البدلُ.

وقالَ أبو عَلِيٍّ الفارسِيُّ: المهملةُ هيَ الأصلُ في الكلمةِ والمعجمةُ بدلٌ. واحْتَجَّ بأنَّ العاطسَ إذا عَطَسَ انْتَفَشَ وتَغَيَّرَ شكلُ وجهِهِ، فإذا دَعا؛ فكأنَّهُ أعادَهُ إلى سمتِهِ وهيئتِهِ.

وقالَ تلميذُهُ ابنُ جِنِّي: لو جَعَلَ جاعلٌ الشِّينَ المعجمةَ أصلاً وأخَذَهُ مِن الشَّوامتِ ـ وهيَ القوائمُ ـ؛ لكانَ وجهًا صحيحًا، وذٰلكَ أنَّ القوائمَ هيَ التي تَحْمِلُ الفرسَ ونحوَهُ وبها عصمتُهُ وهيَ قوامُهُ، فكأنَّهُ إذا دَعا لهُ؛ فقد أنْهَضَهُ وثَبَّتَ أمرَهُ وأحْكَمَ دعائمَهُ. وأنْشَدَ النَّابغَةُ: طَوْعَ الشَّوامِتِ مِنْ خَوْفٍ ومِنْ صَرَدِ[1].

وقالَتْ طائفةٌ منهُمُ ابنُ الأعْرابِيِّ: يُقالُ: مَرَّضْتُ العليلَ؛ أي: قُمْتُ عليهِ لِيَزولَ مرضُهُ، ومثلُهُ: قَذَّيْتُ عينَهُ: أزَلْتُ قذاها، فكأنَّهُ لمَّا دَعا لهُ بالرَّحمةِ قد قَصَدَ إزالةَ الشَّماتةِ عنهُ. ويُنْشَدُ في ذٰلكَ:

مـا كـانَ ضَـرَّ المُمْـرِضـي بِجَفـائِـهِ ... لَوْ كانَ مَرَّضَ مُنْعِمًا مَنْ أمْرَضا[2]

---

(١) هٰذا عجز بيت صدره: فارتاع من صوت كلّاب فبات له. طوع الشوامت: واقفًا على قوائمه. الصرد: القروح. والمعنى: فبات الثور واقفًا على قوائمه لخوفه وألمه من قروح ظهره.

(٢) يعني: ماذا يضرّ الحبيب الذي أمرضني ببعده عنّي، لو أنّه أنعم عليّ بقربه وأزال مرضي.

وإلى هٰذا ذَهَبَ ثَعْلَبٌ.

والمقصودُ أنَّ التَّطيُّرَ مِن العطاسِ مِن فعلِ الجاهليَّةِ الذي أبْطَلَهُ الإسلامُ.

وأخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ يُحِبُّ العطاسَ كما في «صحيح البخاريِّ» مِن حديثِ: أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «إنَّ اللهَ يُحِبُّ العطاسَ ويَكْرَهُ التَّثاؤُبَ، فإذا تَثاءَبَ أحدُكُم؛ فَلْيَسْتُرْهُ ما ٱسْتَطاعَ؛ فإنَّهُ إذا فَتَحَ فاهُ فقالَ: آه آه؛ ضَحِكَ منهُ الشَّيطانُ»[1].

● **فصلٌ [لا تناقضَ بينَ نفيِ العدوى والنَّهيِ عن إيرادِ الممرضِ على المصحِّ]:**

وأمَّا قولُهُ ﷺ: «لا يُورِدُ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ»[2]: فالمُمْرِضُ الذي إبلُهُ مراضٌ، والمُصِحُّ الذي إبلُهُ صحاحٌ.

* وقد ظَنَّ بعضُ النَّاسِ أنَّ هٰذا معارضٌ لقولِهِ: «لا عدوى ولا طِيَرَةَ»[3]، وقالَ: لَعَلَّ أحدَ الحديثينِ نَسَخَ الآخرَ!

وأوْرَدَ الحارثُ بنُ أبي ذُبابٍ ـ وهوَ ابنُ عمِّ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ ـ عليهِ جمعَهُ بينَ الرِّوايتينِ وظَنَّهُما متعارضتينِ[4]. فرَوى: الزُّهْرِيُّ، عن أبي سَلَمَةَ بنِ عَبْدِالرَّحْمٰنِ؛ قالَ: كانَ أبو هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُنا عن رسولِ اللهِ ﷺ: «لا عدوى». ثمَّ حَدَّثَنا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا يُورِدُ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ». قالَ: فقالَ الحارثُ بنُ أبي ذُبابٍ ـ وهوَ ابنُ عمِّ أبي هُرَيْرَةَ ـ: قد كُنْتُ أسْمَعُكَ يا أبا هُرَيْرَةَ تُحَدِّثُنا حديثًا آخرَ قد سَكَتَّ عنه، كُنْتَ تَقولُ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا عدوى». فأبى أبو هُرَيْرَةَ أنْ يُحَدِّثَ بذٰلكَ وقالَ: «لا يُورِدُ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ». فماراهُ الحارثُ في ذٰلكَ حتَّى غَضِبَ أبو هُرَيْرَةَ ورَطَنَ بالحبشيَّةِ، ثمَّ قالَ للحارثِ: أتَدْري ما قُلْتُ؟ قالَ: لا. قالَ: إنِّي أقولُ: أبَيْتُ أبَيْتُ.

---

(١) متفق عليه. تقدّم تخريجه (٣/ ٣٠٥).

(٢) متّفق عليه. تقدّم (٣/ ٢٥٠ و٢٥١) وسيأتي قريبًا أيضًا.

(٣) متّفق عليه. تقدّم (٣/ ٢٥١)، وسيأتي قريبًا أيضًا.

(٤) لا يفيد النصّ هنا ولا الذي تقدّم (٣/ ٢٥١) أنّ الحارث ظنّ التعارض بين النصّين وٱحتجّ على الجمع بينهما! بل ظاهره العكس تمامًا! فالحارث سمع أبا هريرة يجمع النصّين معًا، ثمّ رآه سكت عن أحدهما فلم يعد يذكره، فسأله عن سرّ ذٰلك ونبّهه إلى أنّه كان يجمع بين النصّين فيما مضى، فأبى أبو هريرة أن يقرّ بذٰلك! فأيّ تعارض وأيّ إنكار هنا؟!

فلا أدري أنَسِيَ أبو هُرَيْرَةَ أو نَسَخَ أحدُ القولينِ الآخرَ[(١)]؟

قُلْتُ: قدِ اتَّفَقَ معَ أبي هُرَيْرَةَ سَعْدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ[(٢)] وجابِرُ بنُ عَبْدِاللهِ[(٣)] وعَبْدُاللهِ بنُ عَبَّاسٍ[(٤)] وأنَسُ بنُ مالِكٍ[(٥)] وعُمَيْرُ بنُ سَلَمَةَ[(٦)] على روايتِهِم عنِ النَّبيِّ ﷺ قولَهُ: «لا عدوى».

وحديثُ أبي هُرَيْرَةَ محفوظٌ عنهُ بلا شكٍّ مِن روايةِ أوثقِ أصحابِهِ وأحفظِهِم؛ أبي سَلَمَةَ بنِ عَبْدِالرَّحْمٰنِ، ومُحَمَّدِ بنِ سِيرينَ، وعُبَيْدِاللهِ بنِ عَبْدِاللهِ بنِ عُتْبَةَ، والحارِثِ بنِ

---

(١) متّفق عليه. تقدّم نصّه وتخريجه (٣/ ٢٥١).

(٢) (صحيح). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٥١).

(٣) رواه مسلم (٣٩ـ السلام، ٣٣ـ لا عدوى ولا طيرة، ٤/ ١٧٤٤/ ٢٢٢٢).

(٤) (حسن صحيح). رواه: ابن أبي شيبة (٢٦٣٨٥)، وأحمد (١/ ٢٦٩ و٣٢٨)، وابن ماجه (٣١ـ الطبّ، ٤٣ـ كان يعجبه الفأل، ٢/ ١١٧١/ ٣٥٣٩)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (٢٨٠)، وأبو يعلى (٢٣٣٣ و٢٥٨٢)، والطبريّ في «مسند علي» (٢٩ و٣٠)، والطحاوي (٤/ ٣٠٧ و٣٠٨)، وابن حبّان (٦١١٧)، والطبراني (١١/ ٢٣٠/ ١١٧٦٤)؛ من طرق، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عبّاس. . . رفعه.

قال البوصيري: «صحيح، رجاله ثقات». وقال الهيثمي (٥/ ١٠٥): «رجال الصحيح». وقال الألباني: «على شرط مسلم». قلت: رواية سماك عن عكرمة مضطربة، وليست على شرط مسلم.

نعم؛ رواه: الطبري في «مسند علي» (٣١ و٣٢)، والطبراني (١١/ ١٩٠/ ١١٦٠٥)؛ من طريقين أخريين ضعيفتين، عن عكرمة. . . به. فهو بهما قويّ.

وله شواهد قبله وبعده، وبعضها في الصحيحين، فهو بها صحيح.

(٥) رواه: البخاري (٧٦ـ الطبّ، ٤٤ـ الفأل، ١٠/ ٢١٤/ ٥٧٥٦)، ومسلم (٣٩ـ السلام، ٣٤ـ الطيرة والفأل، ٤/ ١٧٤٦/ ٢٢٢٤).

(٦) (صحيح بشواهده). رواه: البخاري في «التاريخ» (٦/ ٥٣١)، وأبو يعلى (١٥٨٠)، وابن قانع في «المعجم» (٢/ ٢٣٠)، وابن حبّان في «الثقات» (٣/ ٣٠١)، والطبراني (١٧/ ٥٤/ ١١١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥٠)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٢٤/ ١٩٦)، وابن عساكر (٤٦/ ٤٧٩ و٤٨٠)، والذهبي في «النبلاء» (٢/ ١٠٤ و٥٥٧) تعليقًا؛ من طرق، عن حمّاد بن سلمة، عن أبي سنان، عن أبي طلحة الخولاني، عن عمير بن سعد (وقال ابن عبدالبر: عمير بن سلمة). . . رفعه.

قال الهيثمي (٥/ ١٠٥): «فيه عيسى بن سنان الحنفي وثّقه ابن حبّان وغيره وضعّفه أحمد وغيره، وبقيّة رجاله ثقات». قلت: أبو سنان عيسى بن سنان ليّن، والخولاني لا يعدو أن يكون مقبولاً في المتابعات، والسند ضعيف. لٰكنّ الشواهد المتقدّمة والتالية كفيلة بتقويته وتصحيحه.

* تنبيه: وقع في ط هنا: «عمير بن سلمة»، وكذٰلك وقع في «التمهيد» لابن عبدالبرّ، ولٰكنّه جاء على الجادّة في «الاستيعاب» له وفي سائر مصادر التخريج، فكأنّ ابن عبدالبرّ وهم في «التمهيد» أو تحرّف الاسم في نسخة قديمة للكتاب وتابعه ابن القيّم على ذٰلك. والله أعلم.

أبي ذُبابٍ[١]. ولمْ يَتَفَرَّدْ أبو هُرَيْرَةَ بروايتِهِ عنِ النَّبيِّ ﷺ، بل رَواهُ معَهُ مِن الصَّحابةِ مَن ذَكَرْناهُ.

وقولُهُ «لا يُورِدُ مُمْرِضٌ على مُصحٍّ» صحيحٌ أيضًا ثابتٌ عنهُ ﷺ.

فالحديثانِ صحيحانِ، ولا نسخَ ولا تعارضَ بينَهُما بحمدِ اللهِ، بل كلٌّ منهُما لهُ وجهٌ.

وقد طَعَنَ أعداءُ السُّنَّةِ في أهلِ الحديثِ وقالوا: يَرْوونَ الأحاديثَ التي يَنْقُضُ بعضُها بعضًا ثمَّ يَصَحِّحونَها والأحاديثَ التي تُخالِفُ العقلَ! فانْتَدَبَ أنصارُ السُّنَّةِ للرَّدِّ عليهِم ونفيِ التَّعارضِ عنِ الأحاديثِ الصَّحيحةِ وبيانِ موافقتِها للعقلِ.

* قالَ أبو مُحَمَّدِ بنُ قُتَيْبَةَ في كتابِ «مختلف الحديث» لهُ: قالوا: حديثانِ متناقضانِ! قالوا: رَوَيْتُم عن رسولِ اللهِ ﷺ: أنَّهُ قالَ: «لا عدوى ولا طيرةَ»، وأنَّهُ قيلَ لهُ: إنَّ النُّقْبَةَ تَقَعُ بِمِشْفَرِ البعيرِ فيَجْرَبُ لذٰلكَ الإبلُ، فقالَ: «فما أعدى الأوَّلَ؟»[٢]. هٰذا أو معناهُ. ثمَّ رَوَيْتُم في خلافِ ذٰلكَ: «لا يُورِدُ ذو عاهةٍ على مُصِحٍّ»[٣]، و«فِرَّ مِن المجذومِ فرارَكَ مِن الأسدِ»[٤]، وأتاهُ رجلٌ مجذومٌ لِيُبايِعَهُ بيعةَ الإسلامِ فأرْسَلَ إليهِ البيعةَ وأَمَرَهُ بالانصرافِ ولمْ يَأْذَنْ لهُ[٥]، وقالَ: «الشُّؤْمُ في المرأةِ والدَّارِ والدَّابَّةِ»[٦]. قالوا: وهٰذا كلُّهُ مختلفٌ لا يُشْبِهُ بعضُهُ بعضًا.

---

(١) وكلّها من مخرّجات الصحيحين أو أحدهما فلا أطيل بتتبّعها.

(٢) رواه بنحوه: البخاري (٧٦ـ الطبّ، ٢٥ـ لا صفر، ١٠/ ١٧١/ ٥٧١٧)، ومسلم (٣٩ـ السلام، ٣٣ـ لا عدوى، ٤/ ١٧٤٢/ ٢٢٢٠)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهٰذا اللفظ عند: أحمد (٢/ ٣٢٧)، وأبي يعلى (٥١٨٢ و٦١١٢)، والطحاوي في «المعاني» (٤/ ٣٠٨ و٣١٢)، وابن حبّان (٦١١٩)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٧٦٢)، وأبي الشيخ في «الطبقات» (٤/ ٤٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/ ١٦٨)، والبغويّ في «شرح السنّة» (٣٢٤٩)؛ من أوجه عدّة، عن أبي هريرة... رفعه. وبعض هٰذه الأسانيد صحيح.

(٣) متّفق عليه بلفظ «لا يورد ممرض على مصح». وقد تقدّم تخريجه (٣/ ٢٥٠-٢٥١).

(٤) (صحيح). علّقه البخاري وقد تقدّم تخريجه (٣/ ٢٥١).

(٥) رواه مسلم. وقد تقدّم تخريجه (٣/ ٢٥٢).

(٦) تقدّم تخريجه.

قالَ أبو مُحَمَّدٍ: ونحنُ نَقولُ: إنَّهُ ليسَ في هٰذا ٱختلافٌ، ولكلٍّ واحدٍ معنًى في وقتٍ وموضعٍ، فإذا وُضِعَ موضعَهُ زالَ الاختلافُ.

والعدوى جنسانِ:

أحدُهُما: عدوى الجذامِ؛ فإنَّ الجذامَ تَشْتَدُّ رائحتُهُ حتَّى يُسْقِمَ مَن أطالَ مجالستَهُ ومؤاكلتَهُ، وكذا المرأةُ تكونُ تحتَ المجذومِ فتُضاجِعُهُ في شعارٍ[١] واحدٍ فيُوصِلُ إليها الأذى وربَّما جُذِمَتْ، وكذٰلكَ ولدُهُ يَنْزِعونَ في الكبرِ إليهِ، وكذٰلكَ مَن بهِ سلٌّ ودقٌّ ونَقْبٌ[٢]. والأطبَّاءُ تأمُرُ أنْ لا يُجالَسَ المجذومُ ولا المسلولُ، ولا يُريدونَ بذٰلكَ معنى العدوى، وإنَّما يُريدونَ بهِ معنى تغيُّرِ الرَّائحةِ وأنَّها قد تُسْقِمُ مَن أطالَ ٱشتمامَها[٣]. والأطبَّاءُ أبعدُ النَّاسِ مِن الإيمانِ بيمنٍ وشؤمٍ. وكذٰلكَ النُّقْبَةُ تكونُ بالبعيرِ، وهوَ جَرَبٌ رطبٌ، فإذا خالَطَ الإبلَ أو حاكَّها وآوى في مباركِها؛ أوْصَلَ إليها بالماءِ الذي يَسيلُ منهُ والنَّطْفِ[٤] نحوًا ممَّا بهِ[٥]. فهٰذا هوَ المعنى الذي قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يُوردُ ذو عاهةٍ على مُصِحٍّ»، كَرِهَ أنْ يُخالِطَ المصابُ الصَّحيحَ فيَنالَهُ مِن نَطْفِهِ وحِكَّتِهِ نحوٌ ممَّا بهِ.

قالَ: وقد ذَهَبَ قومٌ إلى أنَّهُ أرادَ بذٰلكَ أنْ لا يَظُنَّ أنَّ الذي نالَ إبلَهُ مِن ذواتِ العاهةِ فيَأْثَمَ[٦]، وليسَ لهٰذا عندي وجهٌ إلَّا الذي خَبَّرْتُكَ بهِ عيانًا.

وأمَّا الجنسُ الآخرُ مِن العدوى؛ فهوَ الطَّاعونُ يَنْزِلُ ببلدٍ فيُخْرَجُ منهُ خوفَ العدوى.

حَدَّثَني سَهْلُ بنُ مُحَمَّدٍ؛ قالَ: حَدَّثَني الأصْمَعِيُّ، عن بعضِ البصريِّينَ؛ أنَّهُ هَرَبَ مِن الطَّاعونِ، فرَكِبَ حمارًا ومَضى بأهلِهِ نحوَ سَفَوانَ[٧]، فسَمِعَ حاديًا يَحْدو خلفَهُ وهوَ يَقولُ:

---

(١) شعار: ثوب.

(٢) السلّ: داء معروف، والدقّ: الحمّى، والنّقب: الجرب.

(٣) تغيّر الرائحة وإسقام من أطال ٱشتمامها هو العدوى بعينها! وما الفرق؟!

(٤) النطف: سيلان الماء.

(٥) وهٰذه هي العدوى بعينها، ولا فرق! يثبتونها معنًى وينكرونها لفظًا.

(٦) وهٰذا أقرب وأولى بالمعطيات الطبّيّة المعاصرة ممّا قبله، وسوف يأتي تفصيل ذٰلك قريبًا.

(٧) سفوان: موضع بالبصرة.

لَـــنْ يُسْبَـــقَ اللـــهُ عَلـــى حِمـــارِ وَلا علـــى ذي مَيْعَـــةٍ مُطـــارِ[١]

أَوْ يَـــأْتِـــيَ الحَتْـــفُ علـــى مِقْـــدارِ قـــد يُصْبِـــحُ اللـــهُ أمـــامَ السَّـــاري

وقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا كانَ بالبلدِ الذي أنتُم فيهِ؛ فلا تَخْرُجوا منهُ»[٢]، وقالَ: «إنْ كانَ ببلدٍ؛ فلا تَدْخُلوهُ»[٢]. يُريدُ بقولِهِ «لا تَخْرُجوا مِن البلدِ إذا كانَ فيهِ»: كأنَّكُم تَظُنُّونَ أنَّ الفرارَ مِن قدرِ اللهِ يُنْجيكُم مِن اللهِ، ويُريدُ [بقولِهِ] «إنْ كانَ ببلدٍ فلا تَدْخُلوهُ»: فإنَّ مقامَكُم في الموضعِ الذي لا طاعونَ فيهِ أسكنُ لأنفسِكُم وأطيبُ لمعيشتِكُم[٣].

ومِن ذٰلكَ المرأةُ تُعْرَفُ بالشُّؤْمِ أو الدَّارُ، فيَنالُ الرَّجلَ مكروهٌ أو جائحةٌ، فيَقولُ: أَعْدَتْني بشؤمِها! فهٰذا هوَ العدوى الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا عدوى».

فأمَّا الحديثُ الذي رَواهُ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ؛ أنَّهُ قالَ: «الشُّؤْمُ في المرأةِ والدَّارِ والدَّابَّةِ»؛ فإنَّ هٰذا الحديثَ يُتَوَهَّمُ فيهِ الغلطُ على أبي هُرَيْرَةَ، وأنَّهُ سَمعَ فيهِ شيئًا مِن رسولِ اللهِ ﷺ فلمْ يَعِه[٤].

حَدَّثَني مُحَمَّدُ بنُ يَحْيى القُطَعِيُّ، حَدَّثَنا عَبْدُالأعْلى، عن سَعيدٍ، عن قَتادَةَ، عن أبي حَسَّانَ الأعرجِ؛ أنَّ رجلينِ دَخَلا على عائِشَةَ فقالا: إنَّ أبا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهِ عنهُ يُحَدِّثُ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ: «إنَّما الطِّيَرَةُ في المرأةِ والدَّارِ والدَّابَّةِ». فطارَتْ شفقًا، ثمَّ قالَتْ: كَذَبَ ـ والذي أنْزَلَ الفرقانَ على أبي القاسِمِ ـ مَن حَدَّثَ بهٰذا عن رسولِ اللهِ ﷺ، إنَّما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «كانَ أهلُ الجاهليَّةِ يَقولونَ: إنَّ الطِّيَرَةَ في الدَّابَّةِ والمرأةِ والدَّارِ». ثمَّ قَرَأَتْ: ﴿ما أصابَ مِنْ مُصيبةٍ في الأرْضِ وَلا في أَنْفُسِكُمْ إلَّا في كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أنْ نَبْرَأَها﴾ [الحديد: ٢٢][٥].

---

(١) ذي ميعة: فرس، والميعة ناصية الفرس. مطار: طار صاحبه به طيرانًا.

(٢) رواه: البخاري (٧٦ـ الطب، ٣٠ـ ما يذكر في الطاعون، ١٠/ ١٧٨/ ٥٧٢٨-٥٧٣٠)، ومسلم (٣٩ـ السلام، ٣٢ـ الطاعون والطيرة، ٤/ ١٧٣٧/ ٢٢١٨-٢٢١٩)؛ من حديث أسامة وعبدالرحمٰن بن عوف.

(٣) فيه نظر كبير، وسيأتي تفصيل القول فيه قريبًا.

(٤) تقدّم ردّ هٰذا، وأنّ أبا هريرة لم ينفرد به بل تابعه جماعة. أنظر (٣/ ٢٨٥-٢٨٧).

(٥) (لا بأس به). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٨٥).

حَدَّثَني أبي؛ قالَ: حَدَّثَني أَحْمَدُ بنُ الخَليلِ، حَدَّثَنا موسى بنُ مَسْعودٍ النَّهْدِيُّ، عن عِكْرِمَةَ بنِ عَمَّارٍ، عن إسْحاقَ بنِ عَبْدِاللهِ بنِ أبي طَلْحَةَ، عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: جاءَ رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ! إنَّا نَزَلْنا دارًا فكَثُرَ فيها عَدَدُنا وكَثُرَتْ فيها أموالُنا، ثمَّ تَحَوَّلْنا عنها إلى أُخرى فقَلَّتْ فيها أموالُنا وقَلَّ فيها عددُنا. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ذَروها، وهيَ ذميمةٌ»[١].

قالَ أبو مُحَمَّدٍ: وهٰذا ليسَ يَنْقُضُ الحديثَ الأوَّلَ[٢] ولا الحديثُ الأوَّلُ يَنْقُضُ هٰذا. وإنَّما أمَرَهُم بالتَّحوُّلِ منها لأنَّهُم كانوا مقيمينَ فيها على ٱستثقالٍ لظلِّها وٱستيحاشٍ لِما نالَهُم فيها فأمَرَهُم بالتَّحوُّلِ، وقد جعَلَ اللهُ في غرائزِ النَّاسِ وتركيبِهِمُ ٱستثقالَ ما نالَهُمُ السُّوءُ فيهِ وإنْ كانَ لا سببَ لهُ في ذٰلكَ، وحُبَّ مَن جَرى على يدِهِ الخيرُ لهُم وإنْ لمْ يُرِدْهُم بهِ، وبغضَ مَن جَرى على يدِهِ الشَّرُّ لهُم وإنْ لمْ يُرِدْهُم بهِ. وكيفَ يَتَطَيَّرُ ﷺ والطِّيَرَةُ مِن الجبتِ؟! وكانَ كثيرٌ مِن [أهلِ] الجاهليَّةِ لا يَرَوْنَها شيئًا ويَمْدَحونَ مَن كَذَّبَ بها... ثمَّ أنْشَدَ ما ذَكَرْنا مِن الأبياتِ سالفًا.

ثمَّ قالَ: حَدَّثَنا إسْحاقُ بنُ راهَوَيْهِ، أخْبَرَنا عَبْدُالرَّزَّاقِ، عن مَعْمَرٍ، عن إسْماعيلَ بنِ أبي أُمَيَّةَ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ثلاثٌ لا يَسْلَمُ منهنَّ أحدٌ: الطِّيَرَةُ والظَّنُّ والحسدُ». قيلَ: فما المخرجُ منهنَّ؟ قالَ: «إذا تَطَيَّرْتَ؛ فلا تَرْجِعْ، وإذا ظَنَنْتَ؛ فلا تُحَقِّقْ، وإذا حَسَدْتَ؛ فلا تَبْغِ»[٣]. هٰذهِ الألفاظَ أو نحوَها.

حَدَّثَني أبو حاتِمٍ؛ قالَ: حَدَّثَنا الأصْمَعِيُّ، عن سَعيدِ بنِ سالمٍ[٤]، عن أبيهِ؛ أنَّهُ كانَ يَعْجَبُ ممَّن يُصَدِّقُ بالطِّيَرَةِ ويَعيبُها أشدَّ العيبِ، وقالَ: فَرَقَتْ لنا ناقةٌ[٥] وأنا بالطَّائفِ، فرَكِبْتُ في أثرِها، فلَقِيَني هانئُ بنُ عُبَيْدٍ مِن بني وائلٍ وهوَ مسرعٌ، وهوَ يَقولُ: والشَّرُّ[٦] يُلْفى مطالعَ الأكمِ، ثمَّ لَقِيَني آخرُ مِن الحيِّ وهوَ يَقولُ: ولَئِنْ بَغَيْتَ لَهُمْ

(١) (صحيح). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٣٩).

(٢) يعني حديث «لا طيرة».

(٣) (حسن). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٢١).

(٤) في «مختلف الحديث» (ص١٠٧): «عن سعيد بن مسلم».

(٥) فرقت الناقة: أخذها المخاض فهامت في الأرض وأبتعدت عن أصحابها.

(٦) في الأصل المخطوط: «والشرع»، وصوّبت في ط من «مختلف الحديث» (ص١٠٧).

بُغاةً ما البُغاةُ بواجِدينا. ثمَّ دَفَعْنا إلى غلامٍ قد وَقَعَ في صغرِهِ في نارٍ فأحْرَقَتْهُ فقَبُحَ وجهُهُ وفَسَدَ، فقُلْتُ لهُ: هل ذَكَرْتَ مِن ناقةٍ فارِقٍ؟ قالَ: هاهُنا أهلُ بيتٍ مِن الأعرابِ فانْظُرْ. فنَظَرْتُ، فإذا هيَ عندَهُم وقد نُتِجَتْ[1]، فأخَذْناها وولدَها[2]. قالَ أبو مُحَمَّدٍ: الفارِقُ: التي ضَلَّتْ ففارَقَتْ صواحبَها.

وقالَ عِكْرِمَةُ: كُنَّا جلوسًا عندَ ابنِ عَبَّاسٍ، فمَرَّ طائرٌ يَصيحُ، فقالَ رجلٌ: خيرٌ خيرٌ، فقالَ ابنُ عَبَّاسٍ: لا خيرٌ ولا شرٌّ.

وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَسْتَحِبُّ الاسمَ الحسنَ والفأْلَ الصَّالحَ[3].

حَدَّثَني الرِّياشِيُّ، حَدَّثَنا الأصْمَعِيُّ؛ قالَ: سَأَلْتُ ابنَ عَوْنٍ عنِ الفأْلِ. فقالَ: هوَ أنْ يَكونَ مريضًا فيَسْمَعُ يا سالمُ، أو يَكونَ باغيًا[4] فيَسْمَعُ: يا واجِدُ.

وهٰذا أيضًا ممَّا جُعِلَ في غرائزِ النَّاسِ وتركيبِهِمُ اْستحبابُهُ والأُنسُ بهِ كما جُعِلَ على الألسنةِ مِن التَّحيَّةِ بالسَّلامِ والمدِّ في الأُمنيةِ والتَّبشيرِ بالخيرِ، وكما يُقالُ أنْعِمْ وأسْلِمْ وأنْعِمْ صباحًا، وكما تَقولُ الفرسُ عِشْ ألفَ نُوروز[5]، والسَّامعُ لها يَعْلَمُ أنَّهُ لا يُقَدِّمُ ولا يُؤَخِّرُ ولا يَزيدُ ولا يَنْقُصُ، ولٰكنْ جُعِلَ في الطِّباعِ محبَّةُ الخيرِ والارتياحُ للبشرى والمنظرِ الأنيقِ والوجهِ الحسنِ والاسمِ الخفيفِ، وقد يَمُرُّ الرَّجلُ بالرَّوضةِ المنوِّرةِ[6] فتَسُرُّهُ وهيَ لا تَنْفَعُهُ وبالماءِ الصَّافي فيُعْجَبُ بهِ وهوَ لا يَشْرَبُهُ ولا يَرِدُهُ.

وفي بعضِ الحديثِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُعْجَبُ بالأُتْرُجِّ ويُعْجِبُهُ الحَمامُ الأحمرُ[7]

---

(١) نتجت: ولدت.

(٢) يعني أنّ ما سمعه في المرّة الأولى والثانية ووجه الولد ممّا يوجب الطيرة ثمّ وجد ضالّته بعد هٰذا ولم يتحقّق مقتضى ما سمعه.

(٣) محبته للاسم الحسن صحيحة ومحبته للفأل الصالح متّفق عليها كما تقدّم (٢/ ٢٣٧، ٣/ ٢٣٠).

(٤) باغيًا: يطلب شيئًا فقده ويبحث عنه.

(٥) عش ألف نوروز: عش ألف عام، ونوروز عيد فارسي يحتفلون به أوّل الربيع.

(٦) المنوّرة: المزهرة.

(٧) (موضوع). جاء من حديث جماعة من الصحابة وغيرهم:

* فرواه: الفسوي في «المعرفة» (٢/ ٣٥٧)، وأبو عبدالله الأصم في «حديثه» (٧/ ٥٦ـ لسان)، وابن قانع في «المعجم» (٢/ ٢٢١)، وابن حبان في «المجروحين» (٣/ ١٤٨)، والطبراني (٢٢/ ٣٣٩/ ٨٥٠)، وابن=

وتُعْجِبُهُ الفاغِيَةُ[1] وهوَ نَوْرُ الحنَّاءِ. وهٰذا مثلُ إعجابِهِ بالاسمِ الحسنِ والفألِ الحسنِ. وعلى حسبِ هٰذا كانَتْ كراهيةُ الاسمِ القبيحِ كبني النَّارِ وبني حرَّاقٍ وأشباهِ هٰذا. انْتَهى كلامُهُ.

* وقد سَلَكَ أبو عُمَرَ بنُ عَبْدِالبَرِّ في هٰذا الحديثِ نحوًا مِن مسلكِ أبي مُحَمَّدِ بنِ قُتَيْبَةَ فقالَ: أمَّا قولُهُ ﷺ «لا عدوى»؛ فهو نهيٌ أنْ يَقولَ أحدٌ إنَّ شيئًا يُعْدي شيئًا وإخبارٌ أنَّ شيئًا لا يُعدي شيئًا، فكأنَّهُ [قالَ][2] لا يُعْدي شيءٌ شيئًا، يَقولُ: لا يُصيبُ أحدٌ مِن

= السنّي في «الطب» (٥/ ٢٣٢ـ فيض)، وأبو نعيم في «الطب» (٥/ ٢٣٢ـ فيض)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ٩)، وابن عساكر في «التاريخ»، والعسقلاني في «اللسان» (٧/ ٥٦)؛ من طريق أبي سفيان الأنماري، عن حبيب بن عبدالله بن أبي كبشة، عن أبيه، عن جده. . . رفعه. قال الهيثمي (٤/ ٧٠): «فيه أبو سفيان الأنماري، وهو ضعيف». قلت: بل متّهم صاحب بلايا وطامّات. وحبيب: مجهول لا يعرف. والسند ساقط كما جزم ابن الجوزي والذهبي والعسقلاني والألباني.

ورواه الدولابي في «الكنى» (٢٩٨) من طريق المسعودي، عن إسماعيل بن أوسط البجلي، عن محمّد بن أبي كبشة، عن أبيه، عن جدّه. . . رفعه بذكر الحمام فقط. والمسعودي مخلّط، وزيادة «عن جدّه» الظاهر أنّها من تخليطه، وإسماعيل ومحمّد فيهما جهالة.

* ورواه الخطيب في «الجمع والتفريق» (٢/ ٤٧٦) من طريق عثمان بن عبدالله، عن غنيم بن سالم، عن أنس. . . رفعه. وعثمان وغنيم دجّالان متّهمان.

* ورواه: ابن حبّان في «المجروحين» (٢/ ١٢٢)، وأبو نعيم في «الطبّ»، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ٨)؛ من طريق عيسى بن عبدالله بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه، عن عليّ. . . رفعه. وهٰذا ساقط: عيسى متّهم متروك، ومحمّد بن عمر عن عليّ منقطع.

* ورواه: أبو نعيم في «الطب»، وابن الجوزي (٣/ ٩)؛ من طريق عمرو بن شمّر، عن يحيى بن سعيد، عن محمّد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، عن عائشة. . . رفعته. وابن شمّر كذاب خبيث.

ورواه العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٤١٣) من طريق يحيى بن عبدالحميد الحمّاني، عن شريك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة. . . رفعته. ويحيى يسرق الحديث، وهٰذا من مسروقاته عن الكذّابين.

* وعلّقه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٣٣٨) من طريق عمران بن عبدالرحيم، ثنا عبدالرحمٰن بن بحر، ثنا حازم بن جبلة بن أبي نضرة، ثني سالم الأصبهاني، عن طاووس. . . مرسلاً. وهٰذا معلّق ومرسل، وعمران متّهم، وحازم وسالم مجهولان!

وجملة القول أنّ أسانيد هٰذا الحديث ساقطة، ولذٰلك كذّبه أحمد وابن حبّان وابن الجوزي والذهبي والعسقلاني والسيوطي والمناوي والألباني.

(١) (ضعيف). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٥٦).

(٢) زيادة مستفادة من «التمهيد» (٢٤/ ١٩٦).

أحدٍ شيئًا مِن خلقٍ أو فعلٍ أو داءٍ أو مرضٍ، وكانَتِ العربُ تَقولُ في جاهليَّتِها في مثلِ هٰذا: إنَّهُ إذا ٱتَّصَلَ شيءٌ مِن ذٰلكَ بشيءٍ أعْداهُ، فأخْبَرَهُم رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ قولَهُم وٱعتقادَهُم في ذٰلكَ ليسَ كذٰلكَ، ونَهى عن ذٰلكَ القولِ إعلامًا منهُ بأنَّ ما ٱعْتَقَدَ مِن ذٰلكَ مَنِ ٱعْتَقَدَ منهُم كانَ باطلاً.

قالَ: وأمَّا الممرِضُ؛ فالذي إبلُهُ مِراضٌ، والمُصِحُّ الذي إبلُهُ صحاحٌ.

ورَوى: ابنُ وَهْبٍ، عنِ ابنِ لَهيعَةَ، عن أبي الزُّبَيْرِ، عن جابرٍ؛ قالَ: يُكْرَهُ أنْ يَدْخُلَ المريضُ على الصَّحيحِ منها. وليسَ بهِ إلاَّ قولُ النَّاسِ وحمايةٌ للقلبِ ممَّا يَسْتَبِقُ إليهِ مِنَ الأفهامِ ويَقَعُ فيهِ مِنَ التَّطيُّرِ والتَّشاؤُمِ بذٰلكَ.

* وقد قالَ أبو عُبَيْدٍ قولاً قريبًا مِن ذٰلكَ، فقالَ في قولِهِ في هٰذا الحديثِ «إنَّهُ أذًى إيرادُ[1] المُمْرِضِ على المصحِّ»، فقالَ: معنى الأذى عندي المأْثَمُ؛ يَعْني: أنَّ الموردَ يَأْثَمُ بأذاهُ مَن أوْرَدَ عليهِ وتعريضِهِ للتَّشاؤُمِ والتَّطيُّرِ.

* وقد سَلَكَ بعضُهُم مسلكًا آخرَ فقالَ: ما يُخْبِرُ بهِ النَّبيُّ ﷺ نوعانِ: أحدُهُما: يُخْبِرُ بهِ عنِ الوحيِ، فهٰذا خبرٌ مطابقٌ لمخبَرِهِ مِن جميعِ الوجوهِ ذهنًا وخارجًا، وهوَ الخبرُ المعصومُ. والثَّاني: ما يُخْبِرُ بهِ عن ظنِّهِ مِن أُمورِ الدُّنيا التي هُم أعلمُ بها منهُ، فهٰذا ليسَ في رتبةِ النَّوعِ الأوَّلِ ولا تَثْبُتُ لهُ أحكامُهُ.

وقد أخْبَرَ ﷺ عن نفسِهِ الكريمةِ بذٰلكَ تفريقًا بينَ النَّوعينِ؛ فإنَّهُ لمَّا سَمِعَ أصواتَهُم في النَّخلِ يُؤَبِّرونَها ـ وهوَ التَّلقيحُ ـ؛ قالَ: «ما هٰذا؟». فأخْبَروهُ بأنَّهُم يُلَقِّحونَها. فقالَ: «ما أرى لو تَرَكْتُموهُ يَضُرُّ شيئًا». فتَركوهُ، فجاءَ شِيصًا[2]. فقالَ: «إنَّما أخْبَرْتُكُم عن ظنِّي، وأنتُم أعلمُ بأمرِ دنياكُم، ولٰكنْ ما أخْبَرْتُكُم عنِ اللهِ»[3].

والحديثُ صحيحٌ مشهورٌ، وهوَ مِن أدلَّةِ نبوَّتِهِ وأعلامِها؛ فإنَّ مَن خَفِيَ عليهِ مثلُ

---

(١) في ط: «إنّه إذا أبى إيراد»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٢) الشيص: البسر الرديء الذي إذا جفّ صار أسوأ أنواع التمر.

(٣) رواه مسلم (٤٢ـ الفضائل، ٣٨ـ أمتثال ما قاله شرعًا، ٤/ ١٨٣٥/ ٢٣٦١-٢٣٦٣) من حديث طلحة ورافع وعائشة وأنس رضي الله عنهم.

هٰذا مِن أمرِ الدُّنيا وما أجرى اللهُ بهِ عادتَهُ فيها، ثمَّ جاءَ مِن العلومِ التي لا يُمْكِنُ للبشرِ أنْ يَطَّلِعَ عليها ٱلبتَّةَ إلَّا بوحيٍ مِن اللهِ فأخْبَرَ عمَّا يكونُ وما هوَ كائنٌ مَن لَدُنْ خلقِ العالمِ إلى أنِ ٱسْتَقَرَّ أهلُ الجنَّةِ في الجنَّةِ وأهلُ النَّارِ في النَّارِ وعن غيبِ السَّماواتِ والأرضِ وعن كلِّ سببٍ دقيقٍ أو جليلٍ تُنالُ بهِ سعادةُ الدَّارينِ وكلِّ سببٍ دقيقٍ أو جليلٍ تُنالُ بهِ شقاوةُ الدَّارينِ وعن مصالحِ الدُّنيا والآخرةِ وأسبابِهِما، معَ كونِ معرفتِهِم بالدُّنيا وأُمورِها وأسبابِ حصولِها ووجوهِ تمامِها أكثرَ مِن معرفتِهِ كما أنَّهُم أعرفُ بالحسابِ والهندسةِ والصِّناعاتِ والفلاحةِ وعمارةِ الأرضِ والكتابةِ، فلو كانَ ما جاءَ بهِ ممَّا يُنالُ بالتَّعلُّمِ والتَّفكُّرِ والنَّظرِ[1] والطُّرقِ التي يَسْلُكُها النَّاسُ؛ لَكانوا أولى بهِ منهُ وأَسْبَقَ إليهِ؛ لأنَّ أسبابَ ما يُنالُ بالفكرةِ والكتابةِ والحسابِ والنَّظرِ والصِّناعاتِ بأيديهِم. فهٰذا مِن أقوى براهينِ نبوَّتِهِ وآياتِ صدقِهِ وأنَّ هٰذا الذي جاءَ بهِ لا صنعَ للبشرِ فيهِ ٱلبتَّةَ ولا هوَ ممَّا يُنالُ بسعيٍ وكسبٍ وفكرٍ ونظرٍ، إنْ هوَ إلَّا وحيٌ يُوحى، عَلَّمَهُ شديدُ القوى، [وأنْزَلَهُ][2] الذي يَعْلَمُ السِّرَّ في السَّماواتِ والأرضِ، أنْزَلَهُ عالمُ الغيبِ فلا يُظْهِرُ على غيبِهِ أحدًا إلَّا مَنِ ٱرْتَضى مِن رسولٍ.

قالوا: فهٰكذا إخبارُهُ عن عدمِ العدوى إخبارٌ عن ظنِّهِ كإخبارِهِ عن عدمِ تأثيرِ التَّلقيحِ، لا سيَّما وأحدُ البابينِ قريبٌ مِن الآخرِ، بل هوَ في النَّوعِ واحدٌ؛ فإنَّ ٱتِّصالَ الذَّكرِ بالأُنثى وتأثُّرَهُ بهِ كٱتِّصالِ المعدى بالمعدي وتأثُّرِهِ بهِ، ولا ريبَ أنَّ كليهِما مِن أُمورِ الدُّنيا لا ممَّا يَتَعَلَّقُ بهِ حكمٌ مِن الشَّرعِ، فليسَ الإخبارُ بهِ كالإخبارِ عنِ اللهِ سبحانَهُ وصفاتِهِ وأسمائِهِ وأحكامِهِ.

قالوا: فلمَّا تبيَّنَ لهُ ﷺ مِن أمرِ الدُّنيا الذي أجرى اللهُ سبحانَهُ عادتَهُ بهِ ٱرتباطُ هٰذهِ الأسبابِ بعضِها ببعضٍ وتأثيرُ التَّلقيحِ في صلاحِ الثِّمارِ وتأثيرُ إيرادِ المُمْرِضِ على المُصِحِّ؛ أقَرَّهُم على تأبيرِ النَّخلِ ونَهاهُم أنْ يُورِدَ مُمْرِضٌ على مصحٍّ.

قالوا: وإنْ سُمِّيَ هٰذا نسخًا بهٰذا الاعتبارِ؛ فلا مشاحَّةَ في التَّسميةِ إذا ظَهَرَ

---

(١) في ط: «والتفكّر والتطيّر»! وهٰذا تحريف بيّن صوابه ما أثبتّه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق؛ لأنّ شديد القوى هو جبريل، والذي يعلم السرّ هو الله سبحانه.

المعنى. ولهٰذا قالَ أبو سَلَمَةَ بنُ عَبْدِالرَّحْمٰنِ: فلا أدْري أنَسِيَ أبو هُرَيْرَةَ أو نُسِخَ أحدُ القولينِ بالآخرِ؟ يَعْني: حديثَهُ بالحديثينِ[١]. فجَوَّزَ أبو سَلَمَةَ النَّسخَ في ذٰلكَ معَ أنَّهُ خبرٌ، وهوَ بما ذَكَرْنا مِن الاعتبارِ.

وهٰذا المسلكُ حسنٌ[٢] لولا أنَّهُ قدِ اجْتَمَعَ الفصلانِ في حديثٍ واحدٍ، كما في «موطَّإِ مالك»؛ أنَّهُ بَلَغَهُ: عن بُكَيْرِ بنِ عَبْدِاللهِ بنِ الأشَجِّ، عنِ ابنِ عَطِيَّةَ؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا عدوى ولا صفرَ، ولا يَحُلِّ المُمْرِضُ على المُصِحِّ، ولْيَحْلُلِ المصحُّ حيثُ شاءَ». قالوا: وما ذاكَ يا رسولَ اللهِ! فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّهُ أذًى»[٣].

وقد يُجابُ عن هٰذا بجوابينِ:

أحدُهُما: أنَّ الحديثَ لا يَثْبُتُ؛ لوجهينِ: أحدُهُما: إرسالُهُ. الثَّاني: أنَّ ابنَ عَطِيَّةَ هٰذا ـ ويُقالُ أبو عَطِيَّةَ ـ مجهولٌ لا يُعْرَفُ إلَّا في هٰذا الحديثِ[٤].

الجوابُ الثَّاني: قولُهُ فيهِ «لا عدوى» نهيٌ لا نفيٌ؛ أيْ: لا يُعْدِ المُمْرِضُ[٥] المُصِحَّ بحلولِهِ عليهِ.

ويَدُلُّ على ذٰلكَ ما رواهُ أبو عُمَرَ النَّمَرِيُّ: حدَّثَنا خَلَفُ بنُ القاسمِ، حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللهِ، حَدَّثَنا يَحْيى بنُ مُحَمَّدِ بنِ صاعِدٍ، حَدَّثَنا أبو هِشامٍ الرِّفاعِيُّ، حَدَّثَنا بِشْرُ بنُ عُمَرَ الزَّهْرانِيُّ؛ قالَ: قالَ مالِكٌ: إنَّهُ بَلَغَهُ عن بُكَيْرِ بنِ عَبْدِاللهِ الأشَجِّ، عن أبي عَطِيَّةَ أو ابنِ عَطِيَّةَ (شَكَّ بِشْرٌ)، عن أبي هُرَيْرَةَ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا طيرةَ، ولا هامةَ، ولا يُعْدي سقيمٌ صحيحًا، ولْيَحِلَّ المُصِحُّ حيثُ شاءَ»[٦]. ففي هٰذا النَّفيِ كالإثباتِ للعدوى والنَّهيِ عن أسبابِها، ولعلَّ بعضَ الرُّواةِ رواهُ بالمعنى فقالَ: لا عدوى ولا طيرةَ

---

(١) لأنّ أبا هريرة كان يروي الحديثين معًا كما تقدّم ثمّ كفّ عن قوله «لا عدوى» وبقي على «لا يورد ممرض على مصحّ».

(٢) راجع ما تقدّم في هٰذا (١/ ٥٩-٦١).

(٣) (**صحيح**). تقدم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٥١).

(٤) قلت: تقدّم (٣/ ٢٥١) أنّ الحديث قويّ بشواهده. وتضعيفه في كلّ حال لا يحلّ المشكلة للحديث الآخر: «لا عدوى ولا طيرة، وفرّ من المجذوم فرارك من الأسد»، فهٰذا كذاك.

(٥) في ط: «لا يعدي الممرض»! والنهي بلا يستلزم الجزم، والجزم يستلزم حذف حرف العلّة.

(٦) (**صحيح**). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٥٠-٢٥١).

ولا هامةَ، وإنَّما مخرجُ الحديثِ النَّهيُ عنِ العدوى لا نفيُها[(١)].

وهٰذا أيضًا حسنٌ لولا حديثُ: ابنِ شِهابٍ، عن أبي سَلَمَةَ بنِ عَبْدِالرَّحْمٰنِ، عن أبي هُرَيْرَةَ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فمَن أعدى الأوَّلَ؟»[(٢)]. فهٰذا الحديثُ قد فَهِمَ منهُ السَّامعُ النَّفيَ وأقرَّهُ عليهِ ﷺ، ولهٰذا ٱستَشْكَلَ نفيَهُ وأوْرَدَ ما أوْرَدَهُ، فأجابَهُ ﷺ بما يَتَضَمَّنُ إبطالَ الدَّعوى، وهوَ قولُهُ: «فمَن أعدى الأوَّلَ؟». وهٰذا أصحُّ مِن حديثِ أبي عَطِيَّةَ المتقدِّمِ.

وحينئذٍ؛ فيُرْجَعُ إلى مسلكِ التَّلقيحِ المذكورِ آنفًا أو ما قبلَهُ مِن المسالكِ.

* وعندي في الحديثينِ مسلكٌ آخرُ يَتَضَمَّنُ إثباتَ الأسبابِ والحكمِ ونفيَ ما كانوا عليهِ مِن الشِّركِ وٱعتقادِ الباطلِ ووقوعَ النَّفيِ والإثباتِ على وجهِهِ؛ فإنَّ العوامَّ كانوا يُثْبِتونَ العدوى على مذهبِهِم مِن الشِّركِ الباطلِ كما يقولُهُ المنجِّمونَ مِن تأثيرِ الكواكبِ في هٰذا العالمِ وسعودِها ونحوسِها كما تَقَدَّمَ الكلامُ عليهِم! ولو قالوا: إنَّها أسبابٌ أو أجزاءُ أسبابٍ إذا شاءَ اللهُ صَرَفَ مقتضياتِها بمشيئتِهِ وإرادتِهِ وحكمتِهِ، وإنَّها مسخَّرةٌ بأمرِهِ لِما خُلِقَتْ لهُ، وإنَّها في ذٰلكَ بمنزلةِ سائرِ الأسبابِ التي رَبَطَ بها مسبَّباتِها وجَعَلَ لها أسبابًا أُخرَ تُعارِضُها وتُمانِعُها وتَمْنَعُ ٱقتضاءَها لِما جُعِلَتْ أسبابًا لهُ، وإنَّها لا تَقْتَضي[(٣)] مسبَّباتِها إلَّا بإذنِهِ ومشيئتِهِ وإرادتِهِ ليسَ لها مِن ذاتِها ضرٌّ ولا نفعٌ ولا تأثيرٌ ٱلبتَّةَ، إنْ هيَ إلَّا خلقٌ مسخَّرٌ مصرَّفٌ مربوبٌ لا تَتَحَرَّكُ إلَّا بإذنِ خالقِها ومشيئتِهِ، وغايتُها أنَّها جزءُ سببٍ لَيْسَتْ سببًا تامًّا، فسببيَّتُها مِن جنسِ سببيَّةِ وطءِ الوالدِ في حصولِ الولدِ؛ فإنَّهُ جزءٌ واحدٌ مِن أجزاءٍ كثيرةٍ مِن الأسبابِ التي خَلَقَ اللهُ بها الجنينَ، وكسببيَّةِ شقِّ الأرضِ وإلقاءِ البذرِ؛ فإنَّهُ جزءٌ يسيرٌ مِن جملةِ الأسبابِ التي يُكَوِّنُ اللهُ بها النَّباتَ، وهٰكذا جملةُ أسبابِ العالمِ مِن الغذاءِ والدَّواءِ والعافيةِ والسَّقمِ وغيرِ ذٰلكَ، وأنَّ اللهَ

---

(١) المشكل أنّ «بعض الرواة» هنا ليس واحدًا بل جماعة من الصحابة! أفكلّهم أخطأ وروى الحديث بغير معناه؟! أفكلّهم لم يفهم مقصد النبيّ من الحديث؟! والله إنّها لإحدى الكبر.

(٢) متّفق عليه. تقدّم نصّه وتخريجه (٣/ ٣٠٩).

(٣) في ط: «وإنّها لا تقضي»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

سبحانَهُ جَعَلَ مِن ذٰلكَ سببًا لِما يَشاءُ[١] ويُبْطِلُ السَّببيَّةَ عمَّا يَشاءُ ويَخْلُقُ مِن الأسبابِ المعارضةِ لهُ ما يَحولُ بينَهُ وبينَ مقتضاهُ.

فهُم لو أَثْبَتوا العدوى على هٰذا الوجهِ؛ لَما أُنْكِرَ عليهِم، كما أنَّ ذٰلكَ ثابتٌ في الدَّاءِ والدَّواءِ، وقد تَداوى النَّبيُّ ﷺ وأمَرَ بالتَّداوي وأَخْبَرَ أنَّهُ: «ما أَنْزَلَ اللهُ داءً إلاَّ أنْزَلَ لهُ دواءً؛ إلاَّ الهَرَمَ»[٢]، فأعْلَمَنا أنَّهُ خالقُ أسبابِ الدَّاءِ وأسبابِ الدَّواءِ المعارضةِ المقاومةِ لها، وأمَرَنا بدفعِ تلكَ الأسبابِ المكروهةِ بهٰذهِ الأسبابِ.

وعلى هٰذا قيامُ مصالحِ الدَّارينِ، بلِ الخلقُ والأمرُ مبنيٌّ على هٰذهِ القاعدةِ: فإنَّ تعطيلَ الأسبابِ وإخراجَها عن أنْ تكونَ أسبابًا تعطيلٌ للشَّرعِ ومصالحِ الدُّنيا، والاعتمادُ عليها والرُّكونُ إليها واْعتقادُ أنَّ المسبَّباتِ بها وحدَها وأنَّها أسبابٌ تامَّةٌ شركٌ بالخالقِ عَزَّ وجَلَّ وجهلٌ بهِ وخروجٌ عن حقيقةِ التَّوحيدِ، وإثباتُ مسبَّباتِها على الوجهِ الذي خَلَقَها اللهُ عليهِ وجَعَلَها لهُ إثباتٌ للخلقِ والأمرِ للشَّرعِ والقدرِ للسَّببِ والمشيئةِ للتَّوحيدِ والحكمةِ. فالشَّارعُ يُثْبِتُ هٰذا ولا يَنْفيهِ، ويَنْفي ما عليهِ المشركونَ مِن اْعتقادِهِم في ذٰلكَ[٣].

---

(١) في ط: «سببًا ما يشاء»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

(٢) (صحيح). رواه: الطيالسي (١٢٣٢)، والحميدي (٨٢٤)، وابن أبي شيبة (٢٣٤٠٧)، وأحمد (٤/ ٢٧٨)، والبخاري في «الأدب» (٢٩١)، وابن ماجه (٣١ـ الطبّ، ١ـ ما أنزل الله داء إلاّ له شفاء، ١/ ١١٣٧/ ٣٤٣٦)، وأبو داوود (٢٢ـ الطبّ، ١ـ الرجل يتداوى، ٢/ ٣٩٦/ ٣٨٥٥)، والترمذي (٢٩ـ الطبّ، ٢ـ الدواء والحثّ عليه، ٥/ ٣٨٣/ ٢٠٣٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (١٤٦٧ و٢٦٦٨)، والبغوي في «الجعديّات» (٢٦٨٠)، والطحاوي (٤/ ٣٢٣)، وابن حبّان (٤٨٦ و٦٠٦١ و٦٠٦٤)، والطبراني في «الكبير» (١/ ١٧٩/ ٤٦٣-٤٦٧ و٤٦٩ و٤٧١ و٤٧٧ و٤٧٩ و٤٨٠ و٤٨٢-٤٨٤) و«الأوسط» (٦٣٧٦) و«الصغير» (٥٦٠)، والحاكم (١/ ١٢١، ٤/ ١٩٨ و٣٩٩ و٤٠٠)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ٣٤٣) و«الشعب» (١٥٢٨ و١٥٢٩)، والخطيب في «التاريخ» (٩/ ١٩٧)، وابن عبدالبرّ في «التمهيد» (٥/ ٢٨١)، والبغوي في «السنّة» (٣٢٢٦)، والضياء في «المختارة» (١٣٨١ و١٣٨٢ و١٣٨٤ و١٣٨٥ و١٣٨٩ و١٣٩٠)؛ من طرق، عن زياد بن علاقة، عن أسامة بن شريك. . . رفعه.

قال الترمذي: «حسن صحيح». وقال الحاكم مرّة: «أسانيده صحيحة كلّها على شرط الشيخين»، وقال في الموضع الآخر: «رواه عشرة من أئمّة المسلمين وثقاتهم عن زياد بن علاقة»، ووافقه الذهبي عليهما، وصحّحه المنذري والبوصيري والألباني.

(٣) مسألة العدوى بين السنّة النبويّة والطبّ الحديث باب واسع جدًّا لا تصلح حواشي هٰذا الكتاب=

[١- فصلٌ] ويُشْبِهُ هٰذا نفيُهُ سبحانَهُ وتَعالى الشَّفاعةَ: في قولِهِ: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، وفي الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وفي قولِهِ: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وإثباتُها: في قولِهِ: ﴿وَلا يَشْفَعونَ إلَّا لِمَنِ ٱرْتَضى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقولِهِ: ﴿مَنْ ذا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بِإذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقولِهِ: ﴿لا يَمْلِكونَ الشَّفاعَةَ إلَّا مَنِ[1] ٱتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧].

فإنَّهُ سبحانَهُ نَفى الشَّفاعةَ الشِّركيَّةَ التي كانوا يَعْتَقِدونَها وأمثالُهُم مِن المشركينَ،

= للتفصيل فيه، ولٰكنّي لن أخليها من فكرة مختصرة عنه:

* أوّلًا: يرى الأطبّاء المعاصرون: ١) أنّ العدوى أمر صحيح ثابت في بعض الأمراض لا فيها جميعًا. ٢) أنّ انتقال العامل الممرض من زيد إلى عمرو لا يعني أنّ عمرًا سيصاب بالمرض يقينًا، بل هاهنا عوامل عدّة داخليّة وخارجيّة تساعد في ظهور المرض أو تقاومه، وحصول المرض يعتمد على محصّلة هٰذه العوامل. ٣) أنّ إصابة زيد بالمرض ثمّ إصابة عمرو بعد ملابسته لزيد واتّصاله به لا يعني بالضرورة أنّ زيدًا أعدى عمرًا، بل من الممكن جدًّا أن يكون العكس هو الصحيح. فهٰذه قضايا صحيحة وثابتة لا يختلف فيها طبيبان.

* ثانيًا: أرسى النبيّ ﷺ مسألة العدوى الطبّيّة والحجر الصحّيّ في قوله: «لا يورد ممرض على مصحّ»، وقوله: «فرّ من المجذوم فرارك من الأسد»، وقوله: «إذا وقع الطاعون بأرض فلا تفرّوا...». فهٰذه نصوص ثلاثة غاية في الوضوح لا ينبغي أن نتغافل عن مدلولاتها إطلاقًا.

* ثالثًا: وكذٰلك فقد صحّ عنه ﷺ من أوجه قوله: «لا عدوى»، جاء هٰذا عن جماعة من الصحابة بأصحّ الأسانيد.

* رابعًا: وقد تقدّم لك في هٰذا الفصل جملة من أقوال أهل العلم في التوفيق بين هٰذه النصوص التي ظاهرها التناقض، ولا يخلو أغلب هذه الأقوال من نظر يحول دون الأخذ به، وأولاها بالصواب فيما أرى: ١) أن يكون إثباته ﷺ للعدوى على أنّها جزء سبب ونفيها على أنّها سبب تامّ، وهٰذا أحسن الأقوال، وهو الذي شرح الله صدر ابن القيّم رحمه الله له، فجاء قوله فيه متطابقًا مع معطيات الطبّ المعاصر توفيقًا وإلهامًا. ٢) أن يكون محلّ نفي العدوى القلب ومحلّ إثباتها البدن، ففي ذٰلك نهي المريض عن اعتقاد أنّ فلانًا هو الذي نقل إليه العدوى، وهٰذا أيضًا يتطابق مع معطيات الطبّ المعاصر؛ لأنّ جزم المريض بأنّ فلانًا بالذات هو الذي أعداه غير مقبول علميًّا في كثير من الأحوال. ٣) أن يكون محلّ نفي العدوى في العلاقات بين المسلمين، فلا ينبغي لأحد أن يتّهم فلانًا من الناس بأنّه سبب مرضه وأصل عدواه؛ لأنّه اتّهام لا يستند إلى أصل علميّ. ٤) أن يكون محلّ نفي العدوى أن يطالب فلانًا من الناس بالتعويض على ما أصابه أو أصاب دوابّه من المرض للسبب السابق نفسه. ٥) ولا يبعد أن تكون هٰذه الأمور جميعًا صحيحة ومقصودة بنفي العدوى، والله أعلى وأعلم.

(١) في ط: «إلّا لمن»! والصواب ما أثبتّه.

وهيَ شفاعةُ الوسائطِ لهُم عندَ اللهِ في جلبِ ما يَنْفَعُهُم ودفعِ ما يَضُرُّهُم بذواتِها وأنفسِها بدونِ توقُّفِ ذٰلكَ على إذنِ اللهِ ومرضاتِهِ لِمَن شاءَ أنْ يَشْفَعَ فيهِ الشَّافعُ، فهٰذهِ الشَّفاعةُ التي أبْطَلَها اللهُ سبحانَهُ ونَفاها، وهيَ أصلُ الشِّركِ كلِّهِ وقاعدتُهُ التي عليها بناؤُهُ وأخيتُهُ التي يَرْجِعُ إليها.

وأثْبَتَ سبحانَهُ الشَّفاعةَ التي لا تكونُ إلَّا بإذنِ اللهِ للشَّافعِ ورضاهُ عنِ المشفوعِ قولِهِ وعملِهِ، وهيَ الشَّفاعةُ التي تُنالُ بتجريدِ التَّوحيدِ، كما قالَ ﷺ: «أسعدُ النَّاسِ بشفاعتي مَن قالَ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ خالصًا مِن قلبِهِ»[1]. والشَّفاعةُ الأُولى هيَ الشَّفاعةُ التي ظَنَّها المشركونَ وجَعَلوا الشِّركَ وسيلةً إليها.

فالمقاماتُ ثلاثةٌ:

أحدُها: تجريدُ التَّوحيدِ وإثباتُ الأسبابِ، وهٰذا هوَ الذي جاءَتْ بهِ الشَّرائعُ، وهوَ مطابقٌ للواقعِ في نفسِ الأمرِ.

الثَّاني: الشِّركُ في الأسبابِ بالمعبودِ، كما هوَ حالُ المشركينَ على اختلافِ أصنافِهِم.

الثَّالثُ: إنكارُ الأسبابِ بالكلِّيَّةِ محافظةً مِن منكرِها على التَّوحيدِ[2].

فالمنحرفونَ: طرفانِ مذمومانِ: إمَّا قادحٌ في التَّوحيدِ بالأسبابِ، وإمَّا منكرٌ للأسبابِ بالتَّوحيدِ.

والحقُّ غيرُ ذٰلكَ، وهوَ إثباتُ التَّوحيدِ والأسبابِ وربطُ أحدِهِما بالآخرِ: فالأسبابُ محلُّ حكمِهِ الدِّينيِّ والكونيِّ والحكمانِ عليها يَجْرِيانِ، بل عليها يَتَرَتَّبُ الأمرُ والنَّهيُ والثَّوابُ والعقابُ ورضى الرَّبِّ وسخطُهُ ولعنتُهُ وكرامتُهُ. والتَّوحيدُ تجريدُ الرُّبوبيَّةِ والإلٰهيَّةِ عن كلِّ شركٍ.

فإنكارُ الأسبابِ إنكارٌ لحكمتِهِ[3]، والشِّركُ بها قدحٌ في توحيدِهِ، وإثباتُها والتَّعلُّقُ

---

(١) رواه البخاري (٣ـ العلم، ٣٣ـ الحرص على الحديث، ١/ ١٩٣/ ٩٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) في زعمه، كما يجعل الأشاعرة وأشباههم إنكار الصفات تنزيهًا.

(٣) في ط: «إنكار الحكمة»! وهٰذا تحريف صوابه ما أثبتّه.

بـ[ـخالقِ] السَّببِ(١) والتَّوكُّلُ عليهِ والثِّقةُ بهِ والخوفُ منهُ والرَّجاءُ لهُ وحدَهُ هوَ محضُ التَّوحيدِ والمعرفةِ.

ففرقٌ بينَ(٢) ما أثْبَتَهُ الرَّسولُ وبينَ ما نَفاهُ، وبينَ ما أَبْطَلَهُ وبينَ ما اَعْتَبَرَهُ، فهٰذا لونٌ وهٰذا لونٌ. واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ.

[٢] **فصلٌ**: ويُشْبِهُ هٰذا: ما رُوِيَ عنهُ ﷺ مِن نهيِهِ عن وطءِ الغَيْلِ، وهوَ وطءُ المرأةِ إذا كانَتْ تُرْضِعُ، وأنَّهُ يُشْبِهُ قتلَ الولدِ سرًّا، وأنَّهُ يُدْرِكُ الفارسَ فيُدَعْثِرُهُ(٣). وقولُهُ في حديثٍ آخرَ: «لقد هَمَمْتُ أنْ أنْهى عنهُ، ثمَّ رَأيْتُ فارسَ والرُّومَ يَفْعَلونَهُ ولا يَضُرُّ

---

(١) في ط: «والتعلّق بالسبب»! وهاهنا سقط بيّن، والتوحيد هو إثبات الأسباب والتعلّق بخالقها. وأمّا من تعلّق بها فقد قارب الشرك أو قارفه بحسب التعلّق.

(٢) في ط: «والمعرفة تفرّق بين»! وهٰذا تحريف بيّن لا معنى له صوابه ما أثبتّه.

(٣) **(هٰذا اللفظ حسن، والنهي عن الغيلة صحيح)**. رواه: ابن سعد (٧/ ٢١٧)، وإسحاق (١/ ١٧٧/ ١٩)، وأحمد (٦/ ٤٥٣ و٤٥٧ و٤٥٨)، وابن ماجه (٩ـ النكاح، ٦١ـ الغيل، ١/ ٦٤٨/ ٢٠١٢)، وأبو داوود (٢٢ـ الطبّ، ١٦ـ الغيل، ٢/ ٤٠٢/ ٣٨٨١)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٤٤٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (٣٣٥٠-٣٣٥٢)، والطحاوي (٣/ ٤٦ و٤٧)، وابن السكن (١١/ ٢٦٧ـ نكت ظراف)، وابن حبّان (٥٩٨٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ١٨٣/ ٤٦٣) و«الشاميّين» (١٤٢٥ و١٤٣٠)، وابن عساكر (٦١/ ٢٦٦-٢٦٧)؛ من طرق ثلاث قويّة، عن المهاجر مولى أسماء، عن أسماء، عن النبيّ ﷺ قال: «لا تقتلوا أولادكم سرًّا؛ فإنّ قتل الغيلة يدرك الفارس فيدعثره عن فرسه».

قال ابن السكن: «غريب». وقال محقّق «المسند»: «إسناده ضعيف، مهاجر وإن روى عنه جمع وذكره ابن حبّان في «ثقاته» قد انفرد به، ومثله لا يحتمل تفرّده، ثمّ إنّه معارض بحديث صحيح». قلت: أمّا دعوى التفرّد بالنهي عن الغيلة؛ فيردّها شاهدا أبي هريرة وابن عبّاس التاليان. وأمّا التفرّد بصيغة النهي الحرفيّة؛ فلا ضير في الأخذ به بعد أن ثبت المعنى؛ لأنّه لا يعدو أن يكون تفصيلَ صدوقٍ لما أجمله الثقة. وأمّا ترجيح الأقوى بدعوى التعارض؛ فلا يُلجأ إليه إلّا بعد العجز عن الجمع بين النصّين، والجمع هنا يسير كما سيأتيك من كلام ابن القيّم يرحمه الله والتعليق عليه.

ويشهد له ما رواه: ابن أبي حاتم في «العلل» (١٢٠١)، والبزّار (١٠٣٣ـ مختصر الزوائد)، والطحاوي (٣/ ٤٧)، والطبراني (١١/ ١٣٥/ ١١٣٨٩)؛ من طريقين قويّين، عن عطاء، عن ابن عبّاس؛ أنّ النبيّ ﷺ نهى عن الغيل، ثمّ رخّص فيه وقال: «لو كان ضارًّا أحدًا؛ لضارّ فارس والروم». قال أبو حاتم: «الصحيح مرسل». قلت: لم أقف عليه مرسلاً، والطرق الموصولة صحيحة. وقال الهيثمي (٤/ ٣٠١): «رجاله رجال الصحيح».

ويشهد له أيضًا ما رواه الطبراني في «الأوسط» (٥١٣٠) عن أبي هريرة؛ قال: نهى عن الغيل، ثمّ قال: «ما ضرّ فارس والروم». قال الهيثمي: «فيه ليث بن حمّاد، وهو ضعيف».

وبالجملة؛ فالنهي عن الغيلة صحيح بهٰذه الطرق، ولفظ المتن حسن. والله أعلم.

ذٰلكَ أولادَهُم شيئًا»[١].

وقد قيلَ: إنَّ أحدَ الحديثينِ منسوخٌ بالآخرِ وإنْ لمْ نَعْلَمْ عينَ النَّاسخِ منها مِن المنسوخِ لعدمِ علمِنا بالتَّاريخِ.

وقيلَ ـ وهوَ أحسنُ ـ: إنَّ النَّفيَ والإثباتَ لمْ يَتَوارَدا على محلٍّ واحدٍ؛ فإنَّهُ ﷺ أخْبَرَ في أحدِ الجانبينِ أنَّهُ يَفْعَلُ في الوليدِ مثلَ ما يَفْعَلُ مَن يَصْرَعُ الفارسَ عن فرسِهِ كأنَّهُ يُدَعْثِرُهُ ويَصْرَعُهُ، وذٰلكَ يُوجِبُ نوعَ أذًى، ولٰكنَّهُ ليسَ بقتلٍ للولدِ وإهلاكٍ لهُ وإنْ كانَ قد يَتَرَتَّبُ عليهِ نوعُ أذًى للطِّفلِ، فأرْشَدَهُم إلى تركِهِ ولمْ يَنْهَ عنهُ، بل قالَ: «عَلامَ يَفْعَلُ أحدُكُم ذٰلكَ؟»[٢]، ولمْ يَقُلْ: لا تَفْعَلوه[٣]، فلمْ يَجِئْ عنهُ ﷺ لفظٌ واحدٌ بالنَّهيِ عنهُ[٤]، ثمَّ عَزَمَ على النَّهيِ سدًّا لذريعةِ الأذى الذي يَنالُ الرَّضيعَ، فرَأى أنَّ سدَّ هٰذهِ الذَّريعةِ لا يُقاوِمُ المفسدةَ التي تَتَرَتَّبُ على الإمساكِ عن وطءِ النِّساءِ مدَّةَ الرِّضاعِ، ولا سيَّما مِن الشَّبابِ وأربابِ الشَّهوةِ التي لا يَكْسِرُها إلَّا مواقعةُ نسائِهِم، فرَأى أنَّ هٰذهِ المصلحةَ أرجحُ مِن مفسدةِ سدِّ الذَّريعةِ، فنَظَرَ ورَأى الأُمَّتينِ اللتينِ هُما مِن أكثرِ الأُممِ وأشدِّها بأْسًا يَفْعَلونَهُ ولا يَتَّقونَهُ معَ قوَّتِهِم وشدَّتِهِم، فأمْسَكَ عنِ النَّهيِ عنهُ[٥].

فلا تعارضَ إذًا بينَ الحديثينِ ولا ناسخَ منهُما ولا منسوخَ، واللهُ أعلمُ بمرادِ رسولِهِ.

---

(١) رواه مسلم (١٦ـ النكاح، ٣٤ـ جواز الغيلة، ٢/ ١٠٦٦/ ١٤٤٢) من حديث جدامة بنت وهب.

(٢) لم يأتِ هٰذا اللفظ في شيء من أحاديث الغيلة، وإنّما جاء في أحاديث العزل، فكأنّه دخل عليه يرحمه الله أحد البابين بالآخر.

(٣) تقدّم لك عند تخريج الحديث لفظه ﷺ في حديث أسماء: «لا تقتلوا أولادكم سرًّا...» إلخ، فهٰذا في قوّة «لا تفعلوه».

(٤) تقدّم لك قبل قليل حديثا ابن عبّاس وأبي هريرة اللذين صرّحا أنّ النبيّ ﷺ نهى عن الغيل.

(٥) هٰذا حسن جدًّا، ولٰكنّه مبنيّ على أنّه لم يصحّ عنه ﷺ النهي عن الغيلة، وقد تبيّن لك ما فيه.

وعليه؛ فلا بدّ لتمام الكلام من التوفيق بين نهيه ﷺ عن الغيلة وقوله: «لقد هممت أن أنهى عنها»: فإمّا أن يقال: نهي النبيّ ﷺ عن الغيلة أوّلاً كان على سبيل النصيحة والإرشاد لبعض أصحابه، ثمّ أراد ﷺ أن يبتّ النهي ويعمّمه، فنظر في أحوال فارس والروم، فلم يجد ما يستدعيه، فبقي النهي على سبيل النصيحة. أو يقال: كان النهي أوّلاً على سبيل الكراهة، فلمّا أراد ﷺ أن يجعله تحريمًا نظر فلم يجد لذٰلك مصلحة راجحة، فتركه على ما كان أوّلاً. ولو تأمّلت؛ لوجدت هٰذا القول خارجًا من مشكاة قول ابن القيّم نفسها، ليس فيه زيادة إلّا من جهة ثبوت الحديث. والله أعلم.

[٣] **فصلٌ**: ويُشْبِهُ هٰذا قولُهُ ﷺ للذي قالَ لهُ: إنَّ لي أَمَةً وأنا أَكْرَهُ أَنْ تَحْبَلَ وإنِّي أَعْزِلُ عنها، فقالَ: «سَيَأْتِيها ما قُدِّرَ لها»[١].

فليسَ بينَ هٰذهِ الأحاديثِ تعارضٌ؛ فإنَّهُ ﷺ لمْ يَقُلْ: إنَّ الولدَ يُخْلَقُ مِن غيرِ ماءِ الواطئِ، بل أَخْبَرَ أنَّهُ سَيَأْتِيها ما قُدِّرَ لها ولو عَزَلَ؛ فإنَّهُ إذا قُدِّرَ خلقُ الولدِ؛ قُدِّرَ سبقُ الماءِ والواطئُ لا يَشْعُرُ، بل يَخْرُجُ منهُ ماءٌ يُمازِجُ ماءَ المرأةِ لا يَشْعُرُ بهِ يكونُ سببًا في خلقِ الولدِ، ولهٰذا قالَ: «ليسَ مِن كلِّ الماءِ يكونُ الولدُ»[٢]، فلو خَرَجَ منهُ نطفةٌ لا يُحِسُّ بها؛ لَجَعَلَها اللهُ مادَّةً للولدِ[٣].

قُلْتُ: مادَّةُ الولدِ لَيْسَتْ مقصورةً على وقوعِ الماءِ بجملتِهِ في الرَّحِمِ، بل إذا قَدَّرَ اللهُ خلقَ الولدِ مِن الماءِ؛ فلو وُضِعَ على صخرةٍ؛ لَخُلِقَ منهُ الولدُ، كيفَ والذي يَعْزِلُ في الغالبِ إنَّما يُلْقي ماءَهُ قريبًا مِن الفرجِ، وذٰلكَ إنَّما يكونُ غالبًا عندَما يُحِسُّ بالإنزالِ، وكثيرًا ما يُنْزِلُ بعضَ الماءِ ولا يَشْعُرُ بهِ، فيُنْزِلُ خارجَ الفرجِ ولا شُعورَ لهُ بما أَنْزَلَ في الفرجِ ولا بما خالَطَ ماءَ المرأةِ منهُ[٤]. وبالجملةِ؛ فليسَ سببُ خلقِ الولدِ مقصورًا على الإنزالِ التَّامِّ في الفرجِ.

ولقد حَدَّثَني غيرُ واحدٍ ممَّن أَثِقُ بهِ أنَّ امرأتَهُ حَمَلَتْ معَ عزلِهِ عنها لرضاعٍ وغيرِهِ[٥]، ورَأَيْتُ بعضَ أولادِهِم ضعيفًا ضئيلاً.

فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ على مَن يُصَدِّقُ كلامُهُ بعضُهُ بعضًا، ويَشْهَدُ بعضُهُ لبعضٍ، فالاختلافُ والإشكالُ والاشتباهُ إنَّما هوَ في الأفهامِ لا فيما خَرَجَ مِن بينِ شفتيهِ مِن الكلامِ.

---

(١) رواه مسلم (١٦ـ النكاح، ٢٢ـ حكم العزل، ٢/ ١٠٦٤/ ١٤٣٩) من حديث جابر.

(٢) رواه مسلم (الموضع السابق، ٢/ ١٠٦٤/ ١٤٣٨) من حديث أبي سعيد.

(٣) هٰذا كلام متين يقرّه الطبّ الحديث، ومن المستقرّ عندهم اليوم أنّ بعض النطف تسبق وتتسرّب إلى المرأة قبل إلقاء الماء بحادثة القذف، ولذٰلك لا يثق الأطبّاء المعاصرون بالعزل كوسيلة فعّالة لمنع الحمل.

(٤) وكذٰلك؛ فربّما تمكّنت بعض النطف من السباحة من موضعها قرب الفرج إلى الداخل وكانت سببًا للحمل، وهٰذا ممكن وإن كان نادرًا، والأوّل أكثر.

(٥) لم تصل وسائل منع الحمل الحديثة بمختلف أشكالها إلى منع الحمل بنسبة ١٠٠٪.

والواجبُ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يَكِلَ ما أشْكَلَ عليهِ إلى أصدقِ قائلٍ ويَعْلَمَ أنَّ فوقَ كلِّ ذي علمٍ عليمًا[1]، وأنَّهُ لوِ ٱعْتَرَضَ على ذي صناعةٍ أو علمٍ مِن العلومِ التي ٱسْتَنْبَطَتْها معاولُ الأفكارِ ولمْ يُحِطْ علمًا بتلكَ الصِّناعةِ والعلمِ؛ لأزرى على نفسِهِ وأضْحَكَ صاحبَ تلكَ الصِّناعةِ والعلمِ على عقلِهِ.

والنَّبيُّ ﷺ يَذْكُرُ المقتضيَ في موضعٍ والمانعَ في موضعٍ آخرَ ويُثْبِتُ الشَّيءَ ويَنْفي مثلَهُ في الصُّورةِ وعكسَهُ في الحقيقةِ، ولا يُحيطُ أكثرُ النَّاسِ بمجموعِ نصوصِهِ علمًا، ويَسْمَعُ النَّصَّ ولا يَسْمَعُ شرطَهُ ولا موانعَ مقتضاهُ ولا تخصيصَهُ ولا يَنْتَبِهُ للفرقِ بينَ ما أثْبَتَهُ ونَفاهُ، فيَنْشَأُ مِن ذٰلكَ في حقِّهِ مِنَ الإشكالاتِ ما يَنْشَأُ. ويَنْضافُ هٰذا إلى عدمِ معرفةِ الخاصِّ بخطابِهِ ومجاري كلامِهِ، ويَنْضافُ إلى ذٰلكَ تنزيلُ كلامِهِ على الاصطلاحاتِ التي أحْدَثَها أربابُ العلومِ مِنَ الأُصوليِّينَ والفقهاءِ وعلمِ أحوالِ القلوبِ وغيرِهِم؛ فإنَّ لكلٍّ مِن هٰؤلاءِ ٱصطلاحاتٍ حادثةً في مخاطباتِهِم وتصانيفِهِم، فيَجيءُ مَن قد ألِفَ تلكَ الاصطلاحاتِ الحادثةَ وسَبَقَتْ معانيها إلى قلبِهِ فلمْ يَعْرِفْ سواها فيَسْمَعُ كلامَ الشَّارعِ[2] فيَحْمِلُهُ على ما ألِفَهُ مِنَ الاصطلاحِ، فيَقَعُ بسببِ ذٰلكَ في الفهمِ عنِ الشَّارعِ[2] ما لمْ يُرِدْهُ بكلامِهِ ويَقَعُ مِنَ الخللِ في نظرِهِ ومناظرتِهِ ما يَقَعُ. وهٰذا مِن أعظمِ أسبابِ الغلطِ عليهِ معَ قلَّةِ البضاعةِ مِن معرفةِ نصوصِهِ. فإذا ٱجْتَمَعَتْ هٰذهِ الأُمورُ معَ نوعِ فسادٍ في التَّصوُّرِ أو القصدِ؛ أوْهَما ما شِئْتَ مِن خَبْطٍ وغلطٍ وإشكالاتٍ وٱحتمالاتٍ وضربِ كلامِهِ بعضِهِ ببعضٍ وإثباتِ ما نَفاهُ ونفيِ ما أثْبَتَهُ. واللهُ المستعانُ.

● **فصلٌ: [لا تناقضَ بينَ نفيِ العدوى والفرارِ مِنَ المجذومِ]:**

وأمَّا قضيَّةُ المجذومِ؛ فلا ريبَ أنَّهُ رُويَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: أنَّهُ قالَ: «فِرَّ مِنَ المجذومِ فرارَكَ مِنَ الأسدِ»[3]. وأرْسَلَ إلى ذٰلكَ المجذومِ: «إنَّا قد بايَعْناكَ فٱرْجِعْ»[4]. وأخَذَ بيدِ

---

(١) في ط: «عليم»! ولا بدّ من نصبه لأنّه ٱسم «أنّ».

(٢) راجع ما قدّمته (٢/ ٣٧٩) في هٰذه اللفظة.

(٣) (صحيح). علّقه البخاري، وقد تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٥٢).

(٤) رواه مسلم. وقد تقدّم تخريجه (٣/ ٢٥٢).

مجذومٍ فوَضَعَها في القصعةِ وقالَ: «كُلْ ثقةً باللهِ وتوكُّلاً عليهِ»[١].

ولا تنافيَ بينَ هٰذهِ الآثارِ، ومَن أحاطَ علمًا بما قَدَّمْنا؛ تَبَيَّنَ لهُ وجهُها[٢]، وأنَّ غايةَ ذٰلكَ أنَّ مخالطةَ المجذومِ مِن أسبابِ العدوى، وهٰذا السَّببُ يُعارِضُهُ أسبابٌ أُخرُ تَمْنَعُ اقتضاءَهُ، فمِن أقواها التَّوكُّلُ على اللهِ والثِّقةُ بهِ؛ فإنَّهُ يَمْنَعُ تأثيرَ ذٰلكَ السَّببِ المكروهِ. ولٰكنْ لا يَقْدِرُ كلُّ واحدٍ مِن الأُمَّةِ على هٰذا، فأرْشَدَهُم إلى مجانبةِ سببِ المكروهِ والفرارِ والبعدِ منهُ، ولذٰلكَ أرْسَلَ إلى ذٰلكَ المجذومِ الآخرِ بالبيعةِ تشريعًا منهُ للفرارِ مِن أسبابِ الأذى والمكروهِ وأنْ لا يَتَعَرَّضَ العبدُ لأسبابِ البلاءِ، ثمَّ وَضَعَ يدَهُ معَهُ[٣] في القصعةِ قيامًا بموجَبِ التَّوكُّلِ[٤] على اللهِ والثِّقةِ بهِ الذي هوَ مِن أعظمِ

---

(١) (ضعيف). رواه: ابن أبي شيبة (٢٤٥٢٦)، وعبد بن حميد (١٠٩٢)، وابن ماجه (٣١ـ الطبّ، ٤٤ـ الجذام، ٢/ ١١٧٢/ ٣٥٤٢)، وأبو داوود (٢٢ـ الطبّ، ٢٤ـ الطيرة، ٢/ ٤١٣/ ٣٩٢٥)، والترمذي (٢٦ـ الأطعمة، ١٩ـ الأكل مع المجذوم، ٤/٢٦٦/١٨١٧)، وأبو يعلى (١٨٢٢)، والطحاوي في «المعاني» (٤/ ٣٠٩)، والعقيلي (٤/ ٢٤٢)، وابن حبّان (٦١٢٠)، وابن عديّ (٦/ ٢٤٠٤) معلّقًا، وابن السنّي في «اليوم والليلة» (٤٦٣)، وابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ» (٥٤٢)، والحاكم (٤/ ١٣٦)، والبيهقي في «السنن» (٧/ ٢١٩) و«الشعب» (١٣٥٦)، وابن الجوزي في «العلل» (١٤٥٦)، والرافعي في «التدوين» (٢/ ٤٠٤)؛ من طريق يونس بن محمّد، عن المفضّل بن فضالة، عن حبيب بن الشهيد، عن محمّد بن المنكدر، عن جابر. . . رفعه. وهٰذا سند ضعيف له علّتان: **أولاهما**: ضعف المفضّل هٰذا. **والأخرى**: أنّه خولف، قال الترمذي: «وقد روى شعبة هٰذا الحديث عن حبيب بن الشهيد عن ابن بريدة أنّ ابن عمر أخذ بيد مجذوم، وحديث شعبة أثبت عندي وأصحّ». قلت: فقد جمع هٰذا الضعف إلى المخالفة، وهو حدّ النكارة.

على أنّ المفضّل توبع فرواه: الطحاوي في «المعاني» (٤/ ٣١٠)، وابن عديّ في «الكامل» (١/ ٢٨١، ٤/ ١٦٣٧)، وابن الجوزي في «الواهيات» (١٤٥٧)؛ من طريق إسماعيل بن مسلم المكّي، عن محمّد بن المنكدر، (وعند الطحاوي: عن أبي الزبير)، عن جابر. . . رفعه. وهٰذا سند واهٍ من أجل إسماعيل؛ فإنّه واهٍ منكر الحديث، وقد اضطرب فيه أيضًا.

وبالجملة؛ فالطريق الأولى منكرة الصواب فيها الوقف والثانية واهية فاجتماعهما لا يزحزح الحديث عن ضعفه، ولذٰلك ضعّفه الترمذي والعقيلي وابن عدي وابن الجوزي والمنذري والذهبي في «الميزان» والعسقلاني في «الفتح» والألباني.

(٢) التأويل فرع التصحيح، فإذا كان الحديث ضعيفًا؛ أغنى ضعفُه عن تأويله والتماس وجهه والتوفيق بينه وبين الأحاديث الصحيحة.

(٣) يعني مع المجذوم الأوّل.

(٤) في ط: «في القصعة فإنّما هو سبب التوكّل»! وفيه تحريف بيّن فرّغ الكلام من معناه، وأرجو أنّ ما أثبتّه يفي بالمقصود.

الأسبابِ التي يُدْفَعُ بها المكروهُ والمحذورُ؛ تعليمًا منهُ للأُمَّةِ دفعَ الأسبابِ المكروهةِ بما هوَ أقوى منها، وإعلامًا بأنَّ الضَّررَ والنَّفعَ بيدِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فإنْ شاءَ أنْ يَضُرَّ عبدَهُ ضَرَّهُ وإنْ شاءَ أنْ يَصْرِفَ عنهُ الضُّرَّ صَرَفَهُ، بل إنْ شاءَ أنْ يَنْفَعَهُ بما هوَ مِن أسبابِ الضَّررِ ويَضُرَّهُ بما هوَ مِن أسبابِ النَّفعِ فَعَلَ؛ لِيَتَبَيَّنَ العبادُ أنَّهُ وحدَهُ الضَّارُّ النَّافعُ، وأنَّ أسبابَ الضُّرِّ والنَّفعِ بيديهِ وهوَ الذي جَعَلَها أسبابًا وإنْ شاءَ خَلَعَ منها سببيَّتَها وإنْ شاءَ جَعَلَ ما تَقْتَضيهِ بخلافِ المعهودِ منها؛ لِيُعْلَمَ أنَّهُ الفاعلُ المختارُ، وأنَّهُ لا يَضُرُّ شيءٌ ولا يَنْفَعُ إلاَّ بإذنِهِ، وأنَّ التَّوكُّلَ عليهِ والثِّقةَ بهِ تُحيلُ الأسبابَ المكروهةَ إلى خلافِ موجَباتِها وتُبَيِّنُ مرتبتَها وأنَّها محالٌّ لمجاري مشيئةِ اللهِ وحكمتِهِ، وأنَّهُ سبحانَهُ هوَ الذي يَضُرُّ بها ويَنْفَعُ ليسَ إليها ولا لها مِن الأمرِ شيءٌ، وأنَّ الأمرَ كلَّهُ للهِ، وأنَّها إنَّما يَنالُ ضررُها مَن عَلَّقَ قلبَهُ بها ووَقَفَ عندَها وتَطَيَّرَ بما يُتَطَيَّرُ بهِ منها، فذٰلكَ الذي يُصيبُهُ مكروهُ الطِّيَرَةِ.

والطِّيَرَةُ سببٌ للمكروهِ على المتطيِّرِ، فإذا تَوَكَّلَ على اللهِ ووَثِقَ بهِ وٱسْتَعانَ بهِ، [و]لَمْ يَصُدَّهُ التَّطيُّرُ عن حاجتِهِ، وقالَ: اللهمَّ! لا طيرَ إلاَّ طيرُكَ ولا خيرَ إلاَّ خيرُكَ ولا إلٰهَ غيرُكَ، اللهمَّ! لا يأْتي بالحسناتِ إلاَّ أنتَ ولا يَذْهَبُ بالسَّيِّئاتِ إلاَّ أنتَ ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بكَ[1]؛ فإنَّهُ لا يَضُرُّ[هُ] ما يَتَطَيَّرُ منهُ شيئًا. قالَ ابنُ مَسْعودٍ: ما منَّا إلاَّ مَن (يَعْني: يَتَطَيَّرُ) ولٰكنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بالتَّوكُّلِ. وقد رُوِيَ مرفوعًا والصَّوابُ عنِ ابنِ مَسْعودٍ قولُهُ[2].

فالطِّيَرَةُ إنَّما تُصيبُ المتطيِّرَ لشركِهِ، والخوفُ دائمًا معَ الشِّركِ والأمنُ دائمًا معَ التَّوحيدِ. قالَ تعالى حكايةً عن خليلِهِ إبْراهيمَ أنَّهُ قالَ في محاجَّتِهِ لقومِهِ: ﴿وَكَيْفَ أخافُ ما أشْرَكْتُمْ وَلا تَخافونَ[3] أنَّكُمْ أشْرَكْتُمْ بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطانًا فَأيُّ الفَريقَيْنِ أحَقُّ بِالأمْنِ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمونَ﴾ [الأنعام: ٨١]: فحَكَمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بينَ الفريقينِ بحكمٍ، فقالَ: ﴿الَّذينَ آمَنوا وَلَمْ يَلْبِسوا إيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وقد صَحَّ عن رسولِ اللهِ ﷺ تفسيرُ الظُّلمِ فيها بالشِّركِ وقالَ:

---

(١) تقدّم (٣/ ٢٢٢ و٢٣١-٢٣٢) أنّ الصحيح من هٰذا الدعاء هو القطعة الأولى فقط.

(٢) (صحيح مرفوعًا). تقدّم تفصيل القول فيه (٣/ ٢٣١-٢٣٢).

(٣) في ط: «ما أشركتم به ولا تخافون»! وأثبت لفظ الآية.

«ألَمْ تَسْمَعوا قولَ العبدِ الصَّالحِ: ﴿إِنَّ الشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[(١)].

فالتَّوحيدُ مِن أقوى أسبابِ الأمنِ مِن المخاوفِ والشِّركُ مِن أعظمِ أسبابِ حصولِ المخاوفِ: ولذلكَ مَن خافَ شيئًا غيرَ اللهِ؛ سُلِّطَ عليهِ وكانَ خوفُهُ منهُ هوَ سببَ تسليطِهِ عليهِ، ولو خافَ اللهَ دونَهُ ولمْ يَخَفْهُ؛ لَكانَ عدمُ خوفِهِ منهُ وتوكُّلُهُ على اللهِ مِن أعظمِ أسبابِ نجاتِهِ منهُ، وكذلكَ مَن رَجا شيئًا غيرَ اللهِ حُرِمَ ما رَجاهُ منهُ وكانَ رجاؤُهُ غيرَ اللهِ مِن أقوى أسبابِ حرمانِهِ، فإذا رَجا اللهَ وحدَهُ؛ كانَ توحيدُ رجائِهِ أقوى أسبابِ الفوزِ بهِ أو بنظيرِهِ أو بما هوَ أنفعُ لهُ منهُ. واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ.

* * * * *

(١) رواه: البخاري (٦٠- الأنبياء، ٨- واتّخذ الله إبراهيم خليلاً، ٦/ ٣٨٩/ ٣٣٦٠)، ومسلم (١- الإيمان، ٥٦- صدق الإيمان، ١/ ١١٤/ ١٢٤)؛ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

[خاتمة]

ولْيَكُنْ هٰذا آخرَ الكتابِ.

وقد جَلَبْتُ إليكَ فيهِ نفائسَ في مثلِها يَتنافَسُ المتنافسونَ، وجَلَّيْتُ عليكَ فيهِ عرائسَ إلى مثلِهنَّ بادَرَ الخاطبونَ:

فإنْ شِئْتَ؛ ٱقْتَبَسْتَ منهُ معرفةَ العلمِ وفضلِهِ وشدَّةِ الحاجةِ إليهِ وشرفِهِ وشرفِ أهلِهِ وعظمِ موقعِهِ في الدَّارينِ.

وإنْ شِئْتَ؛ ٱقْتَبَسْتَ منهُ معرفةَ إثباتِ الصَّانعِ بطرقٍ واضحاتٍ جليَّاتٍ تَلِجُ القلوبَ بغيرِ ٱستئذانٍ ومعرفةَ حكمتِهِ في خلقِهِ وأمرِهِ.

وإنْ شِئْتَ؛ ٱقْتَبَسْتَ منهُ معرفةَ قدرِ الشَّريعةِ وشدَّةِ الحاجةِ إليها ومعرفةَ جلالتِها وحكمتِها.

وإنْ شِئْتَ؛ ٱقْتَبَسْتَ منهُ معرفةَ النُّبوَّةِ وشدَّةِ الحاجةِ إليها بل وضرورةِ الوجودِ إليها، وأنَّهُ يَسْتَحيلُ مِن أحكمِ الحاكمينَ أنْ يُخْلِيَ العالمَ عنها.

وإنْ شِئْتَ؛ ٱقْتَبَسْتَ منهُ معرفةَ ما فَطَرَ اللهُ عليهِ العقولَ مِن تحسينِ الحسنِ وتقبيحِ القبيحِ وأنَّ ذٰلكَ أمرٌ عقليٌّ فطريٌّ بالأدلَّةِ والبراهينِ التي ٱشْتَمَلَ عليها هٰذا الكتابُ ولا توجَدُ في غيرِهِ.

وإنْ شِئْتَ؛ ٱقْتَبَسْتَ منهُ معرفةَ الرَّدِّ على المنجِّمينَ القائلينَ بالأحكامِ بأبلغِ طرقِ الرَّدِّ مِن نفسِ صناعتِهِم وعلمِهِم، وإلزامَهُم بالإلزاماتِ المفحمةِ التي لا جوابَ لهُم عنها، وإبداءَ تناقضِهِم في صناعتِهِم وفضائحِهِم وكذبِهِم على الخلقِ والأمرِ.

وإنْ شِئْتَ؛ ٱقْتَبَسْتَ منهُ معرفةَ الطِّيَرَةِ والفألِ والزَّجرِ والفرقِ بينَ صحيحِ ذٰلكَ وباطلِهِ، ومعرفةَ مراتبِ هٰذهِ في الشَّريعةِ والقدرِ.

وإنْ شِئْتَ؛ ٱقْتَبَسْتَ منهُ أُصولاً نافعةً جامعةً ممَّا تَكْمُلُ بهِ النَّفسُ البشريَّةُ وتَنالُ بها سعادتَها في معاشِها ومعادِها.

. . . إلى غيرِ ذٰلكَ مِن الفوائدِ التي: ما كانَ منها صوابًا فمِن اللهِ وحدَهُ هوَ المانُّ بهِ، وما كانَ منها مِن خطإٍ فمِن مؤلِّفِهِ ومِن الشَّيطانِ واللهُ بريءٌ منهُ ورسولُهُ.

واللهُ سبحانَهُ المسؤولُ والمرغوبُ إليهِ المأْمولُ: أنْ يَجْعَلَهُ خالصًا لوجهِهِ، وأنْ يُعيذَنا مِن شرورِ أنفسِنا ومِن سيِّئاتِ أعمالِنا، وأنْ يُوَفِّقَنا لِما يُحِبُّهُ ويَرْضاهُ؛ إنَّهُ قريبٌ مجيبٌ.

والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وصَلَّى اللهُ على سيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ، وسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

فهرس الآيات القرآنية

* * * * *

فهرس الأحاديث

الألف

الباء والتاء والثاء

الجيم والحاء والخاء

الدال والذال والراء والزاي

السين والشين والصاد والضاد

الطاء والعين والغين

الفاء والقاف

الكاف

اللام

الميم

النون

الهاء والواو والياء

* * * * *

فهرس الآثار الموقوفة

* * * * *

فهرس الأعلام

الألف

الباء

التاء والثاء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال والذال

الراء والزاي

السين والشين

الصاد والضاد والطاء

العين

الغين والفاء والقاف

الكاف واللام

الميم

النون

الهاء والواو

الياء

* * * * *

فهرس الأشعار

الهمزة

الباء والتاء

الجيم والحاء

الدال

الراء

السين والضاد والطاء

العين

الفاء والقاف والكاف

اللام

الميم

النون

الهاء والياء

* * * * *

فهرس الفوائد

أوّلاً التوحيد

الحكمة والتعليل والتحسين والتقبيح

الملائكة والأنبياء والصحابة

اليوم الآخر والغيبيّات

ثانيًا القرآن وعلومه

أصول التلاوة

أصول التفسير

التفسير

إعجاز القرآن

ثالثًا الحديث

رابعًا أصول الفقه

مصطلحات

محاسن الشريعة

خامسًا الفقه والأدب

سادسًا اللغة

النحو والصرف

معان وحقائق

المقترنات والمفترقات

البلاغة

ثامنًا العلم

علوم الشريعة

الفلسفة والمنطق وعلم الكلام

الطبّ وجسم الإنسان

العلوم التطبيقيّة

الحيوان والنبات

الفيزياء والكيمياء

الجغرافية الطبيعيّة والفلك أو علم الهيئة

التنجيم أو علم الأحكام

تاسعًا الفرق والطوائف

عاشرًا الخلاف والمقالات

* * * * *



